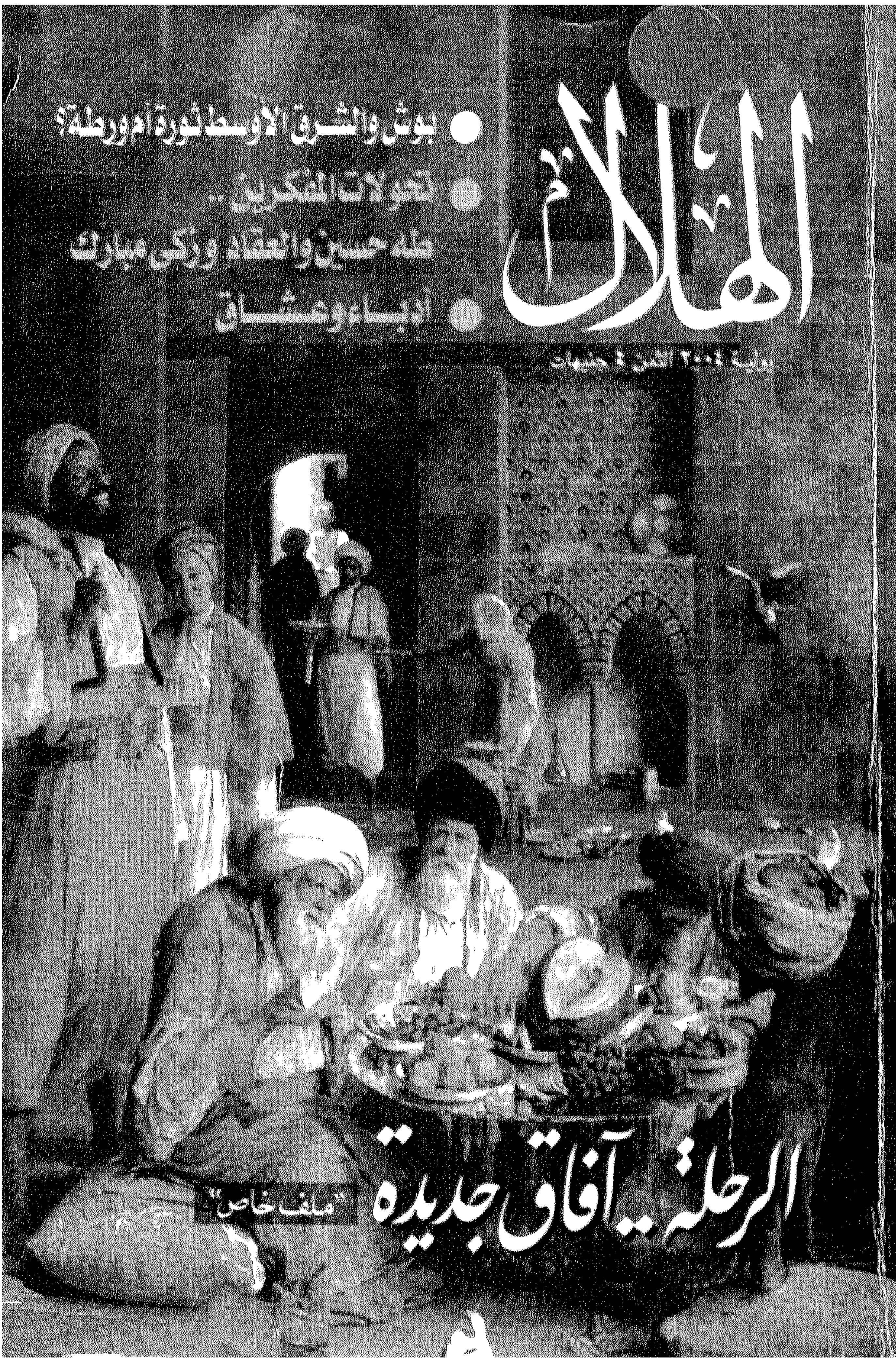
الهلال
يوليو ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات
بوش والشرق الأوسط ثورة أم ورطة؟
تحولات المفكرين ..
طه حسين والعقاد وزكي مبارك
أدباء وعشاق
الرحلة .. آفاق جديدة
"ملف خاص"

لوحة وفنان

لوحة في إطار الاستشراق

للفنان الفرنسي : مـاتيـس

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة جماد أول ١٤٢٥ هـ - يوليو ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير
محمد أبو طالب المستشار الفنى
عاطف مصطفى مدير التحرير
محمود الشيخ المدير الفنى
مؤمن حسين سكرتير التحرير

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الفهرس

٨ – بوش والشرق الأوسط :ثورة أم ورطة؟!.......... جميل مطر

١٨ – المحمول وتداعياته الاجتماعية .... د. أحمد محمد صالح

٢٨ – أطفال الشوارع ... أطفال فى خطر .... د. أحمد شوقى العقباوى

٣٢ – السودان وآفاق المستقبل .. مصطفى نبيل

دائرة حوار

٤٢ – صفحة من تاريخنا الأدبى المعاصر .... د. محمد رجب البيومى

٥٢ – طه حسين : مواقف إنسانية فى حياته .... د. محمد الدسوقى

٥٨ – جسر بين الأجيال : رواية عين القط لحسن عبد الموجود .... بهاء طاهر

٦٢ – الرقابة والمرقوبون .... محمد مستجاب

٧٤ – كنت فى جنوب افريقيا.......... صنع الله إبراهيم

الرحلة آفاق جديدة «جزء خاص»

٨٦ – ذاتنا فى عيون غيرنا : مصر فى عيون الرحالة .... د. ماهر شفيق فريد

٩٨ – إسلام الرحالة الغربيين .. قناع أم اقتناع ؟ .... يوسف عبد الرحمن الذكير

١٠٨ كارستن نيبور .. أول رحالة أوربى فى بلاد اليمن .... عرفه عبده على

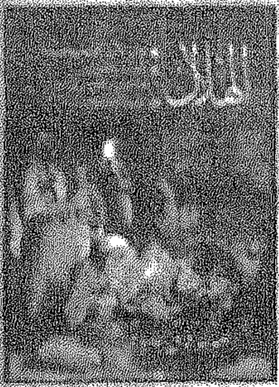

تصميم الغلاف الفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

١٢٤ – الذئاب لا تحتاج ذريعة للانقضاض .... صافي نازكاظم
١٢٨ – الشاعر أبو شادى وشعره فى الملك فاروق والثورة .... وديع فلسطين

أدباء وعشاق :

١٣٨ – زكريا الحجاوى ومطربته الشعبية خضرة محمد خضر .... يوسف الشريف
١٤٦ – مصنع الأحلام ضد بوش .... مصطفى درويش
١٥٢ – المسرح الأمريكى فى الهناجر .. «بلدتنا وبلدتهم» .... مهدى الحسينى
١٥٨ – المتفرجة : قراءة الوجوه والأفعال . مرفت رجب
١٦٢– ساعات فرجينيا الأخيرة : قصة...................... سعيد الكفراوي

كاريكاتير :

١٦٨ – نبيل السلمى .. انعطافة مبهجة ومهمة .... محيى الدين اللباد
١٨٠ – قطر الندي «شعر» .... أحمد خميس

جولة المعارض :

١٨٢ – هل مازالت بلادنا تمتلك السحر الفنى ؟ ... . د. محمد عرابى
١٩٠ – أشعار لها أنغام.......... فرج العنترى
١٩٨ – أم كلثوم أكبر من الحب ... محمدالتهامي

الأبواب الثابتة

– عزيزى القارئ.........٦
– أقوال معاصرة . ٥٧
– لغويات د. الطاهر أحمد المكى.......... ٦٥
– شخصية العدد : هيكل مؤرخا د. رءوف عباس ٦٦
من ذخائر الكتب العربية: – رسالة ابن فضلان : د.أحمد درويش ... ١١٩
– التكوين : ليست الحياة إلا تكويننا متصلا .. د.هدى وصفى ٢٠٦
– أنت والهلال عاطف مصطفى ٢١٨
الكلمة الأخيرة : د. أحمد بسام ساعى٢٢٦

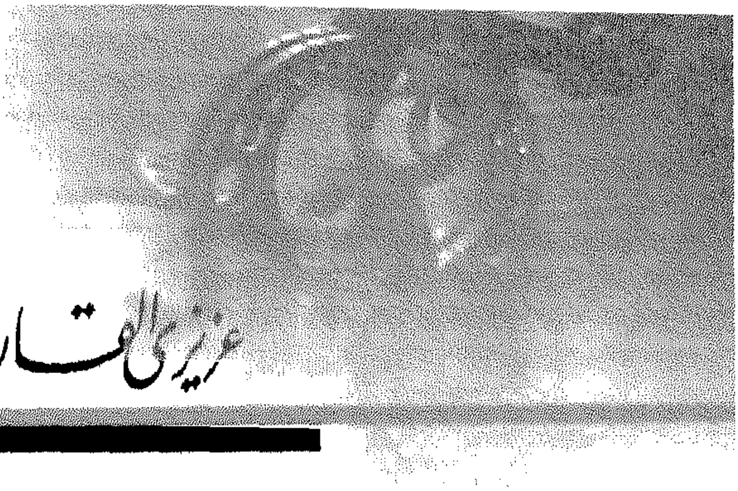

عزيزي القارئ

وديع فلسطين ورسالة نبيلة متواصلة

فى شهر أكتوبر ١٩٩٧احتفلنا على صفحات الهلال ببلوغ الأستاذ وديع فلسطين الرابعة والسبعين، إذ كان مولده فى اليوم الأول من ذلك الشهر عام ١٩٢٣، اعترافا بنبوغه وتقديرا لمشواره المخلص فى خدمة الأدب والثقافة العربية، على طول مسيرته الصحفية والنقدية التى بدأها فور تخرجه من الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٢، وحين دعوناه لينضم إلى أسرة كتاب الهلال، بعد اغترابه الطويل - إن جاز لنا هذا التعبير - فى النشر خارج مصر، أرض ميلاده فى مدينة أخميم بصعيد مصر، ابتسم فى رفق منوها إلى أنه سيكون بتلبيته - مسرورا - هذه الدعوة قد خطا خطوته الأولى للنشر فى الهلال على الرغم من صداقاته لعدد كبير من كتاب ورؤساء تحرير سابقين لهذه المجلة العريقة، ومنهم على سبيل المثال، الأساتذة حبيب جماتى، وفكرى أباظة ، وسلامة موسى، وطاهر الطناحى، وصالح جودت.. الخ، بالإضافة إلى صاحب الدار إميل زيدان، وحين سألناه عن السبب، قال: لم أعرض نفسى ولم يطلب منى، وهكذا فزنا بأسبقية الكسب الثقافى والأدبى حين نشرنا للأستاذ وديع فلسطين «مقالته الأولى» فى الهلال، عدد فبراير ١٩٩٨، وكسبنا انتظامه الثرى معنا على مدى ست سنوات حتى الآن. والهلال تعتز بباقة كتابها كلهم ، وفى صدارة هذا الاعتزاز لابد أن يأتى اسم وديع فلسطين، إننا فى الهلال، ومع القراء، نسعد بحكاياته وذكرياته وطرائفه التى ترسم لنا ملامح عصر ثقافى وأدبى ، لم نكن فيه ، بشخوصه وحوادثه وساحاته فيعطينا مع المتعة والتشوق والتلذذ الكثير من الحكمة والعبرة والعزاء !

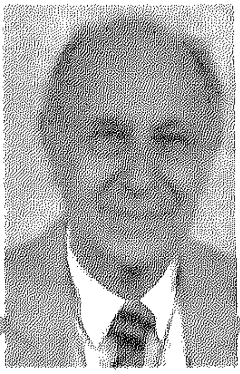

هو بلاشك فنان شهادة أدبية على زمن أدبى وصحفى وثقافى يأبى إلا أن ينقل إلينا أنفاسه التى لاتزال لديه ساخنة، فهو لايكتب إلا عما عرفه ولمسه سمعا وكلاما ومصاحبة، فلا عجب أن تحس منه النبض الحى فكأنك صرت بدورك صديقا ومشاهدا لما عرفه ولمسه وصاحبه . فى موسوعته، «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره»، التى صدرت العام الماضى فى مجلدين فاخرين عن دار القلم بدمشق، والتى تضم فى مجملها ٩٣ شخصية بين شاعر وقاص وناقد من كل أنحاء الوطن العربى، بل من كل أركان العالم أينما كان بها كاتب باللغة العربية، أعاد لنا وديع فلسطين زهوة «فن التراجم» الذى كاد يختفى من ساحتنا الأدبية.

يعقد وديع فلسطين بيننا وبين الشخصية التى يكتب عنها علاقة إنسانية حميمة تجعلنا نبدو وكأننا قد سكنا وعشنا معها ردحا كافيا من الزمن.

ومهما كانت الشخصية محسوبة على نسق فى التفكير أو موقف فى السياسة، نختلف معها أو نعاديها، نجد أننا نتقبلها على الرغم من الخلاف أو العداء، فهو قادر فى كل الأحوال أن يجذبنا إليها بحنين إنسانى يروض، بظرفه ولطفه وأناقته، نفورنا الفكرى أو السياسى فيكسر من حدته، ولانكون مغالين لو رأيناه، بسبب ذلك، «ملك» فن كتابة رسم الملامح الشخصية للأعلام الذين قد نعرفهم أو الذين نتعلم منه معرفتهم وندرك كم كان ضروريا أن نتبين إنجازاتهم ومعاناتهم.

تحية لأستاذنا، وزميلنا، وصديقنا وديع فلسطين وهو يواصل رسالته النبيلة قاطعا إثنين وستين عاما وراءه فى بلاط الصحافة منذ طرق أبوابها وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة.

المحـــــرر

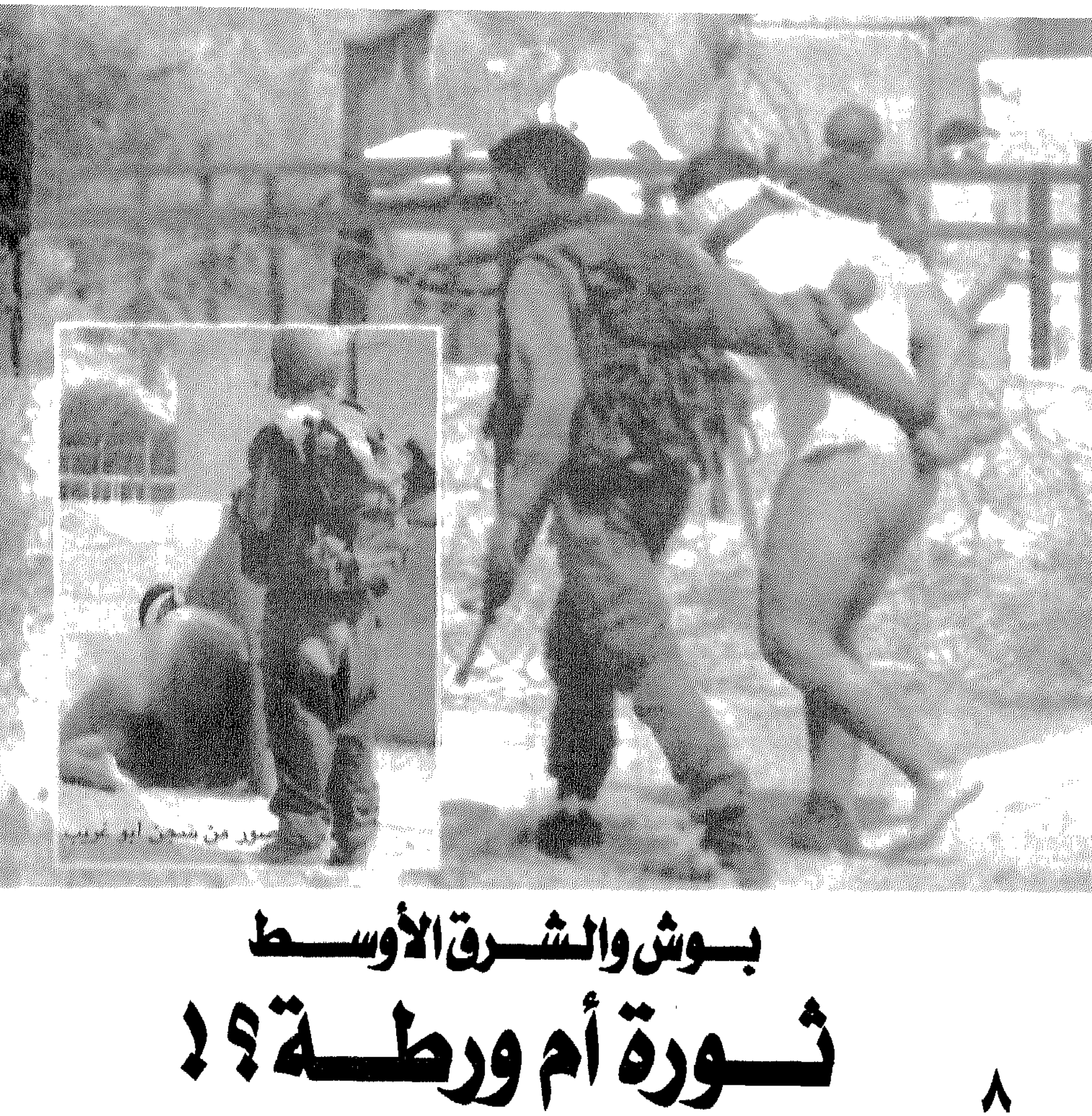

بــوش والشــرق الأوســـط

ثـــورة أم ورطـــة؟!

بقلم

جميل مطر

جماد أول ١٤٢٥هـ - يوليو٢٠٠٤م

فى أمــريكا ورطة بدأت بورطة حــرب وتحــولت إلى ورطة حكومــــة، ومن ورطة حكومـــــة إلى ورطة دولة هى الأعظم والأقوى فى عالمنا المعاصر.

أمـا عن مظاهر الورطة فـيقـول الجنرال زينى القـائد الســابق للقـوات الأمـريكيـة فى الشرق الأوسط فى حـديث أدلى به إلى مــحطة CBS ،أهل الشــرق الأوسط لا ينظرون الآن للولايات المتحدة على أنها تعد بتغيير ديمقراطى إيجابى لكن ينظرون إليها كغزاة صليبيين جدد.. وكقوة احتلال.

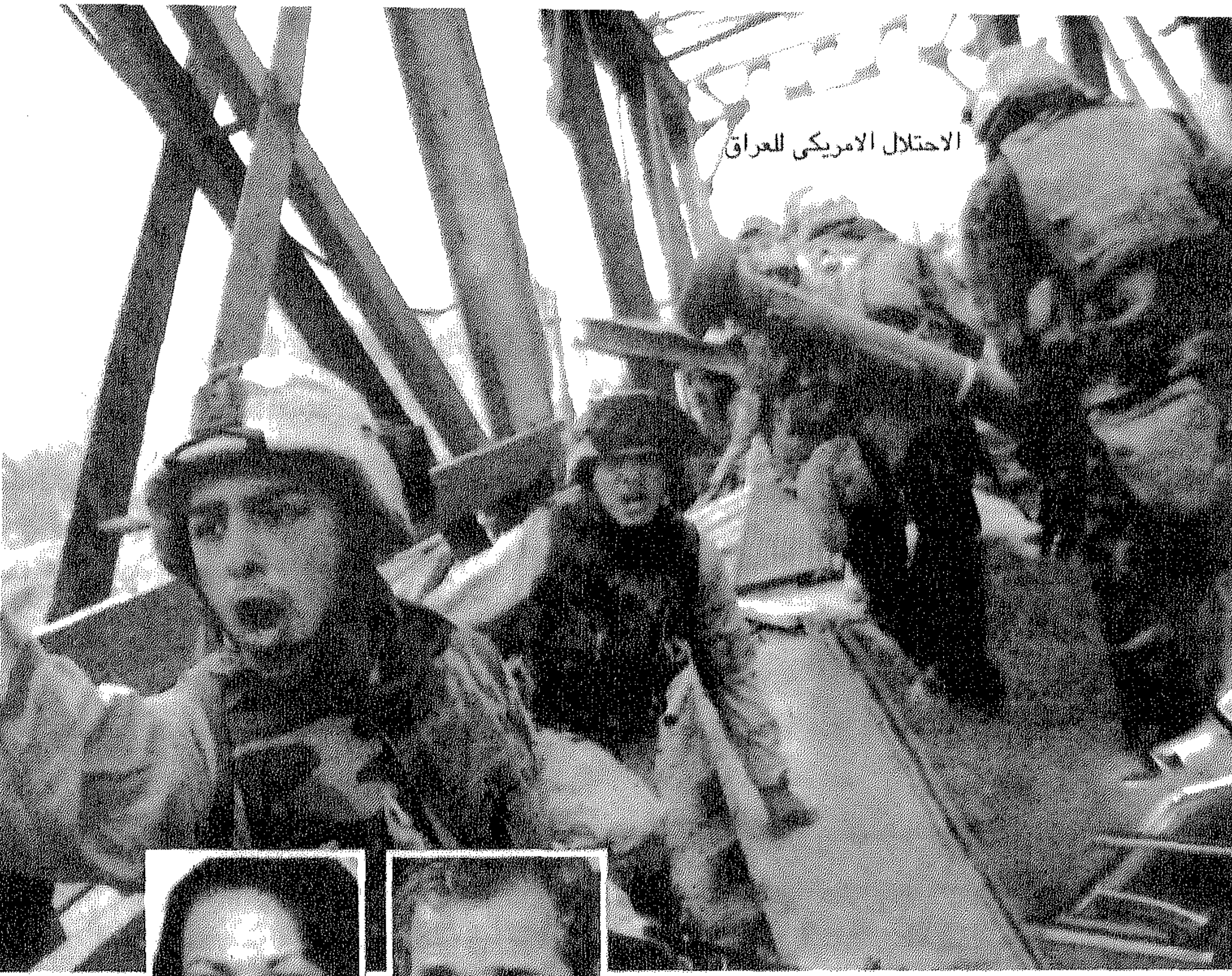

وقبل أن يصرح زينى بهذه التصريحات كانت استقصاءات الرأى تعلن عن تجدد الكراهية فى كل أنحا . العالم لأمريكا وخاصة بعد حادثة تفجير محطة القطارات فى مدريد وانسحاب إسبانيا من قوات التحالف. أحد المسئولين البولنديين عبر عن شعور أبناء شعبه جميعاً فى كلمة واحدة، قال «خدعونا»، وفى إسبانيا تساءلوا «هل يساوى هذا التحالف حياة ٢٠ جنديا إسبانيا»، ويقول تقرير مركز بيو فى

جورج بوش

كونداليزا رايس

الاستقصاء المشترك الذى قام به مع صحيفة الهيرالد ترابيون أن أغلبية فى الأردن وباكستان وفى المغرب وفى أنحاء أخرى من العالم الإسلامى وبينهم ٣١٪ من الأتراك صارت تجد مبرراً للعمليات الانتحارية ضد الأمريكيين وتوضح هذه الاستقصاءات أن نسبة تراجع وانحسار

التأييد للحرب على العراق كان فى بريطانيا ثم فى فرنسا وفى ألمانيا وعندما سئل الناس فى ألمانيا عن ثقتهم فى أمريكا أبدى الشعور بعدم الثقة فيها ٨٢٪ من الألمان و٧٨٪ من الفرنسيين و ٥٨٪ من الإنجليز.

لقد فقدت الولايات المتحدة بعد عام من الحرب على العراق عديداً من الأرصدة جمعتها فى سنوات التسعينيات وبلغت ذروتها فى أعقاب حادث تفجير برجى نيويورك . فقدت الولايات المتحدة رصيدها من الهيبة والاحترام، وفقدت مصداقيتها كدولة هى الأقوى عسكرياً ترشح نفسها لقيادة العالم، وفقدت مصداقيتها كمبشر للديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وتغيير الشرق الأوسط ليصير على شاكلتها.

ويعلق فرانك ريش الكاتب فى صحيفة نيويورك تايمز على أعمال التعذيب الأمريكية فى معتقلات العراق فيروى قصة تبدو غير حقيقية عن شاب عراقى سأل جندياً أمريكياً فى بداية الحرب على العراق عما سيحصل عليه العراقيون من الأمريكيين فى ظل الاحتلال . يقول ريش إن الجندى الأمريكى أجاب بأن العراقيين سيحصلون على الديمقراطية. عاد الشاب العراقى يسأل عن صحة ما يقال من أن الديمقراطية تأتى عادة مع «خمر وجنس» تجاهل الجندى السؤال ، وتولت قيادة الاحتلال الأمريكى الإجابة . يقول ريش، إن الشاب كان على حق فى سؤاله . فقد كان الخمر والجنس يفرضان على المعتقلين الذين يجرى تعذيبهم فى سجن أبو غريب، فى نفس الوقت الذى كان الرئيس بوش يتحدث فيه، ويفخر، عن قواته المسلحة التى ذهبت إلى العراق لتغرس الديمقراطية والقيم المتحضرة ثم تنشرها فى كل أنحاء الشرق الأوسط .

الغضب الشعبى !

لم يعد فرانك ريش ووليام فاف وتوماس فريدمان ومادلين أولبرايت وزبنيو برجنسكى يمثلون أقلية تحملت تهمة الخيانة للوطن لأنها تجاسرت وانتقدت السياسة الخارجية الأمريكية فى زمن الحرب. ما كان يمكن حتى فى ظل خيالات غير مسبوقة وتعتيم بلا نظير وكذب بلا حدود أن يستمر أطول مما استمر سكوت الأمريكيين وامتناعهم عن انتقاد إدارة بوش . لقد تجاوزت هذه الإدارة كل المسموح به، ومازالت شخصيات فيها تكذب وتناور وتهدد. مازال الرئيس بوش يقول إن حربه على العراق لاتختلف عن حرب أمريكا على النازية والفاشية فاشتاط الأوروبيون غضباً . لم يغضبوا لأن الرئيس بوش قارن بين الحربين فى مناسبة عظيمة

بالنسبة لهم ولضحاياهم وضحايا أمريكا، وهى يوم التحرير والإنزال، ولكنهم غضبوا لأن القائد الأعلى للحضارة الغربية سمح لنفسه بأن يقرأ خطاباً حرره ولاشك عون من أعوانه الأغبياء لم يقرأ عن حساسيات الحلفاء فى أوروبا، وعن حال الغضب الشعبى الهائل على الرئيس بوش وحكومته.

« إن المسألة الأمريكية»، أعقد مما يتصور الكثيرون. والأخطاء التى ارتكبتها الجماعة المسيطرة فى واشنطن لن يغفرها المؤرخون حتى وإن غفر الناخبون. لقد نتج عن الحرب على العراق عمليات متعاقبة من «استنساخ» تنظيم القاعدة. صارت القاعدة كالفطر على أطراف الصحراء لم تعد التنظيم الهرمى الذى أعلن بوش الحرب عليه بعد ٩/١١، فالخلايا صارت تنظيمات وتفرعت التنظيمات خلايا جديدة. وكلها قديمها وحديثها، يتغذى على غضب شعبى عارم على السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، ويتغذى أيضا على عجز دول المنطقة عن الدفاع عن شعوبها وأراضيها وعقائدها وثقافتها أمام قوى الغزو الأمريكى، فتجاسرت منظمات العنف وأصبحت تطرح نفسها كخيار أوحد فى غياب أى دور للحكومات، وليس سراً أن كل حكومات المنطقة وبخاصة الحكومات العربية، صار يقلقها الغضب الشعبى على أمريكا تماما كما يقلقها التعاطف مع تنظيمات العنف. وكانت نتيجة هذا القلق أن أصابت الجرأة أو الانفعال حكومات المنطقة فانتقدت مشاريع الإصلاح القادمة من الخارج مستبدلة بها بسرعة هائلة مشاريع « نابعة من الداخل »، وبعد فضيحة أبوغريب ازدادت جرأة فبدأت تتراجع عن وعود الديمقراطية وأعلن بعضها أن ديمقراطيته أحسن من ديمقراطية أمريكا التى تنفذها فى العراق.

أمريكا تفقد مصداقيتها

لقد فقدت أمريكا مصداقية القائد الأعظم الذى أراد أن يقود بمفرده وضد رغبة حلفائه، فقدتها عندما عادت بطرق ملتوية تطلب مساعدة الحلفاء فى تخليصها من ورطتها فى العراق، وفقدت مصداقيتها كقوة أعظم تستطيع فى أى لحظة أن تشن حربا استباقية ضد إيران أو كوريا الشمالية أو سوريا وتكسبها. وفقدت مصداقية القدرة على كسب حربها على الإرهاب، بعد أن تسببت بأخطائها المتعددة والمتفاقمة فى كوارث ارتكبها الإرهابيون فى تركيا وإسبانيا وهم الآن يهددون دولاً أخرى فى أوروبا، وبخاصة دولة برلسكونى.

وتوقفت أمريكا عن كسب أصدقاء جدد، على مستوى الدول ومستوى الأفراد. لا تخفى الصين، كما كشفت روسيا مؤخراً، عن أن إدارة الرئيس

بوش تعمل بكافة الطرق لإثارة الفوضى فى الحياة السياسية الاقتصادية لكل منهما.. أقل القليل من الحكومات العربية مازال مطمئنا إلى تحالفه مع أمريكا ، فالخطر على الاستقرار الداخلى يتضاعف مع كل خطأ يرتكبه الحليف الأعظم. انسحب كثيرون من رواد الليبرالية الجديدة فى العالم العربى بسبب فقدانهم ثقة الشعوب، ومن لم ينسحب عاد «يوطن» ليبراليته عن طريق ممارسات وتنازلات مشينة. وكثير من حلفاء أمريكا فى حلف الأطلسى مترددون فى الاستمرار تحت قيادتها، وبعضهم من الحلفاء الجدد من شرق أوروبا، وفى الفناء الخلفى لأمريكا، أى فى أمريكا اللاتينية، انعقد أول مؤتمر قمة يضم زعماء أوروبا وزعماء أمريكا اللاتينية قالوا هناك إن ما حدث فى السجون العراقية على أيدى القوات الأمريكية ليس أقل وحشية مما حدث ويحدث فى هندوراس وجوانتانامو ونيكاراجوا وشيلى وكولومبيا وغيرها على أيدى القوات الخاصة الأمريكية وخريجى مدرسة الأمريكتين العسكرية، واستمعوا جميعا إلى شكاوى تعبر عن انهيار الثقة فى الجار الأعظم. أين كل هذا من ثقة جماعة الرئيس بوش فى نفسها عندما تولت شئون واشنطن فى العالم؟!

أظن أن أمريكا فقدت السلطة الأخلاقية اللازمة لفرض إرادتها على العراق أو أى بلد عربى آخر، أو أى بلد على الإطلاق، بل وحتى القوى والمؤسسات داخل الولايات المتحدة ذاتها. هناك فى واشنطن حاليا حرب تصفيات مشتعلة بين أجهزة وأفراد ومؤسسات فى النخبة الحاكمة، وقد توقع أحد المحللين الأمريكيين بأنها ستشهد قبل الانتخابات سقوط رموز كثيرة، وتحققت توقعاته فسقط جورج تينيت رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA وسيعقبه آخرون.

لماذا هذه الورطة؟

لماذا فشلت إدارة الرئيس بوش فى مغامراتها الشرق أوسطية وبخاصة حربها على العراق؟ لماذا هذه الورطة؟.. الاجتهادات كثيرة وأعتقد أن بعضا منها يستحق الاهتمام. اشترك مع الذين يقولون إن هناك هوسا فى قمة السلطة فى الولايات المتحدة بالهندسة الاجتماعية. وأقصد بالهندسة الاجتماعية، هذا الفرع من علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد السياسى الذى يهتم بفكرة قدرة الولايات المتحدة أو واجبها إقامة بنية عالمية سياسية وأخلاقية جديدة وابتكار أيديولوجية تتماشى مع التحولات الدولية التى أعقبت انهيار نظام القطبين وإنجازات وتعقيدات العولمة، مثلا هناك

هوس في واشنطن بفكرة صنع نظام إقليمي جديد في الشرق الأوسط يبتلع الجامعة العربية أو يضعفها إلى حالة اللافاعلية أو العدم ، إن أمكن. الهندسة الاجتماعية هي فرض التغيير، بإصرار وتعمد وضمن خطة موضوعة سلفاً.

وأشترك أيضا مع المجتهدين الذين يلقون بمسئولية الفشل الأمريكي على الخوف «المرضي» من الإرهاب. فقد استطاعت النخبة المسيطرة في واشنطن سحب الإرادة ثم الروح من الجسد الأمريكي، ليصبح المواطن أكثر طاعة في الاستجابة لتوجيهاتهم وأكثر مرونة الأمر الذي يسهل عملية إعادة تشكيل فكره، هذا الخوف الجماعي أدى إلى قمع أصوات الانتقاد والمعارضة للحرب وكل بادرة هدفت لتغيير المسار وتخليص البلاد قبل وقوع أزمة محققة، واستطاعت هذه الإدارة بفضل انعدام الإرادة الجماهيرية، بسبب الخوف من الإرهاب، أن تسن ترسانة كاملة من القوانين تحد من حرية الفرد الأمريكي وتخرق خصوصياته وتجعله في النهاية كقطعة شطرنج تلعب بها أقلية حاكمة ميولها في الواقع، غير ديمقراطية ، إن لم تكن أقرب إلى الفاشية.

وأخطأت أجهزة الإعلام. أخطأت حين سمحت للقيادات العسكرية والمدنية أن تفرض عليها التعتيم على الأخبار السيئة التي كانت تخرج كل يوم من العراق ومن دهاليز واشنطن، ويفرض الرقيب العسكري عدم إذاعتها. كانت الميديا الأمريكية تعرف الكثير عن الأخطاء في العراق وعن سوء تصرف الضباط والجنود وعن عدم كفاءة القوات الأمريكية بشكل عام وعن إهدار الأموال والفساد والرشوة والتعذيب في السجون والمعتقلات ولكنها استجابت لنداء «الوطنية» والزعم بأن نشر ما يسيء للرئيس بوش أو للقيادة السياسية سيعرض حياة الجنود الأمريكيين في الخارج للخطر، لذلك كنت أحد الذين ثمنوا غاليا الاعتراف الذي نشرته صحيفة النيويورك تايمز منذ أيام قليلة بتقصيرها المتعمد في تغطية أخبار العراق خلال السنة الماضية واعتذارها عنه، ولا شك في أن إخفاء الحقائق عن الرأي العام الأمريكي كان سببا مباشراً في تضخيم الصدمة الهائلة التي تلقاها، ثم عبر عنها الرأي العام، نتيجة نشر صور التعذيب في سجن أبوغريب وغيره.

وعلى الجانب الآخر من الخوف من الإرهاب نجحت إدارة بوش في زرع شوفينية مخيفة حتى بالمعايير الأمريكية، لقد شاركت أنا شخصيا في أكثر من مؤتمر ولقاء حضره أمريكيون من النواب والشيوخ ودبلوماسيون من وزارة الخارجية وصحفيون وأساتذة جامعات، وكانت مفاجأة أن أسمع نغمة واحدة

يرددها كل هؤلاء عندما يناقشون السياسة الخارجية الأمريكية فى ظل حكومة بوش، لم يكن الأمريكيون فى أى يوم هكذا نمطيين ولم أعرفهم هكذا منساقين ومسحوبي الإرادة والرأى الشخصى، هذه الشوفينية دفعت المسئول الأمريكى، ديمقراطيا كان أو جمهورياً، إلى تأييد السياسة الخارجية لحكومته دون التوقف لحظة واحدة للتفكير فى مدى ما يمكن أن يتسبب فيه هذا التأييد «الأعمى» من كوارث لأمريكا وشعبها.

الإمبراطوريون والمتدينون

تلك كانت أهم أسباب الورطة الأمريكية الراهنة حسب الاجتهادات السائدة. ومع ذلك، أتصور أن هذه الأسباب وحدها ما كانت حققت هذه النتائج الكارثية لو لم يوجد أشخاص فى السلطة يمثلون مصالح معينة وأفكارا متطرفة ومستعدون لاستغلالها، ولتسهيل التعريف بهم قمت بتصنيفهم على النحو التالى: أولاً الامبراطوريون، أى هؤلاء الذين يحلمون منذ زمن بإقامة دعائم إمبراطورية طويلة الأجل تحكم العالم وتعمل على ألا يقوم فيه طرف منافس. ولاشك أن فى مقدمة المنتمين لهذا «الصنف» الرئيس جورج دبليو بوش ودونالد رامسفيلد وكوندوليسا رايس وإلى حد ما ريتشارد تشيني. فى الصنف الثانى يجتمع المهووسون دينيا. وهؤلاء يعتقدون أن لأمريكا رسالة يتصور بعضهم أنها رسالة صليبية ويتصور البعض الآخر أنها رسالة أخلاقية نابعة من تقاليد حضارة الغرب. هنا أيضاً يوجد الرئيس بوش ومعه وزير العدل أشكروفت وآخرون من الذين يزينون للرئيس أنه ظل الله على الأرض. وأعتقد أنه حين نتحدث عن مسئولية المهووسين دينياً يجب أن نشير إلى هؤلاء الذين يعتقدون أن الله سيرفعهم إلى السماء ويترك بقية الناس يقتلون بعضهم بعضاً. ويقول الجنرال بويكين أحد قادة الهوس الدينى «لقد اختار الله الرئيس بوش وجنوده ليحاربوا الأشرار باسم المسيح». ومن المهووسين أيضاً السناتور ديلاى الذى يشبه بوش بالمسيح، «فكلاهما قوقازى أبيض»، وبما أن الشرق أوسطى صار فى عرف هؤلاء مرادفاً للإرهابى، فلن يعترف هؤلاء المهووسون بأن المسيح كانت ملامحه شرق أوسطية. إن أعضاء هذا التيار، تيار الهوس الدينى، مسئولون عن زيادة التوتر بين الحضارات فى العالم وبخاصة بين دول العالم الإسلامى والولايات المتحدة. هنا لا يجوز نسيان الدور التخريبى الذى لعبه الأكاديميون الأمريكيون الذين دأبوا فى العقدين الأخيرين على الكتابة فى الأصول الثقافية فى العلاقات الدولية وصولاً إلى أطروحتي

نظام الحضارات ونهاية التاريخ، ثم سيل الكتابات الشريرة المتدفق حتى الآن.

الأصدقاء

ثم يأتى صنف أصدقاء الولايات المتحدة، أو أصدقاء الرئيس بوش الوالد أو الإبن، الذين لأسبابهم الخاصة شجعوا حكومة الرئيس بوش الابن على الدخول فى هذه الحرب دون أن يحذروه من تعقيدات الشرق الأوسط وغموضه ورماله المتحركة. أقول هذا وفى ذهنى أصدقاء معينون للولايات المتحدة أعرف أنهم الأدرى بكل هذه التعقيدات والرمال والغموض. على رأس هؤلاد قادة سياسيون فى المنطقة العربية ومن دول إسلامية وكذلك طونى بلير رئيس وزراء بريطانيا. بالدرجة نفسها يتحمل المستشارون من العرب الأمريكيين المسئولية. هؤلاء ادعوا أنهم متبحرون فى دقائق السياسة العربية وحقائقها وبخاصة فى شئون العراق واستعدوا لتوجيه النصح والرأى والخطط القصيرة والطويلة الأمد. من هؤلاء أكاديميون تسببوا فى إلحاق ضرر جسيم ليس فقط بالسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط، ولكن بإدارة الرئيس بوش وسمعة الولايات المتحدة الخارجية، وأشعلوا نيراناً حقيقية فى ساحة العلاقات الأمريكية العربية. أذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر عجمى ومكية وفندى. وإن ننسى فلا يجب أن ننسى الدور الهائل، والمستمر حتى هذه اللحظة، للنفطيين الأمريكيين الذين قضوا أعواماً طويلة يحثون فيها إدارات متلاحقة فى الولايات المتحدة على احتلال مناطق إنتاج النفط أو للاستفادة من حروب تنشب فى هذه المنطقة لصالح شركات معينة وأفراد بعينهم فى الحزب الجمهورى. اشتغل هؤلاء ومهدوا لوصول الرئيس بوش إلى الحكم بداية، ثم ركزوا بشكل خاص على الحرب على العراق من أجل تحقيق مصالح لشركات نفطية سواء فى عملية إمدادات القوات الأمريكية أو فى التلاعب فى أسعار النفط فى السوق الأمريكية. كثيرون من هذا الصنف يحيطون بالرئيس بوش، وكلهم، فيما يبدو، خاضعون إلى سلطات نائب الرئيس ريتشارد تشينى وتوجيهاته الدقيقة.

المغامرون والأفاقون

ثم هناك المغامرون والأفاقون العراقيون. وقد انكشف أخيراً الدور الذى لعبه هؤلاد الأفاقون وأدى فى النهاية إلى أن وليم سافاير المعلق الأشهر فى نيويورك تايمز وأشد الأمريكيين اليهود كراهية للعرب ديانات وثقافة وشعوبا وقيادات وتاريخا أطلق عليها «حرب القبائل الأمريكية». اشتغل المغامرون والأفاقون لسنوات طويلة لغرس صورة معينة عن الوضع فى العراق وتسريب معلومات مزيفة أو صحيحة ووضع تصورات مختلفة أغلبها وردى وعلى غير

أسس عن مستقبل الحرب إن نشبت، بهدف تشجيع الولايات المتحدة على اتخاذ قرار الحرب. ويتضح الآن أنهم كانوا يلعبون لصالح طرف أمريكي ضد أطراف أمريكية أخرى، ولصالح أكثر من طرف من أطراف المعادلة الشرق أوسطية وأحياناً بعلم هذه الأطراف، وكانت النتيجة كما نراها، انكشاف عمليات تجسس أو خيانة.

المدنيون اليهود

يبقى الصنف الأخير وهو الذى كان يشير إليه الجنرال زينى حين قال «المسئولون عن الفشل فى الشرق الأوسط وفى العراق مدنيون فى البنتاجون وخصوصاً اليهود منهم، وعلى رأسهم نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتش ومساعد الوزير للشئون السياسية وكلاهما من المحافظين الجدد». ويستطرد زينى موجهاً حديثه إلى المشاهدين الأمريكيين «هذه الشخصيات رأت فى غزو العراق وسيلة للاستقرار فى الشرق الأوسط ولمساعدة إسرائيل. لقد شجعوا وساعدوا على ذلك حتى أنهم زوروا معلومات استخباراتية تخدم أهدافهم ومصالحهم».

فى هذا الصنف يقع بول ولفوفيتش ودوجلاس فيث وسكوتر ليبى. ويختلف المحللون الأمريكان وبعضهم من غلاة المحافظين الجدد الذين أفاقوا أخيراً عندما شعروا أن مواقفهم منذ عام قد يدفع ثمنها الحزب الجمهورى فيخسر انتخابات التجديد النصفى فى نوفمبر القادم وقد يخسر أيضاً رئاسة الجمهورية. أحدهم وهو مارك هلبرين كتب فى افتتاحية فى جريدة وول ستريت جورنال وهي الجريدة التى يشبهها الأمريكيون بجريدة برافدا السوفيتية بمعنى أنها الناطقة بلسان النخبة الحاكمة فى واشنطن، «يشكو من الحقيقة التى لا مفر منها وهى أن الحرب قد أديرت بعدم كفاءة من جانب هذه المجموعة فى البنتاجون، وهى مجموعة احتقرت بشكل متعمد التاريخ والاستراتيجية والفكر، ولم تضع اعتباراً كافياً للجندى الأمريكى» ويضيف قائلاً «يبدو أن خسائرنا البشرية المتفاقمة لم تؤثر حتى الآن لتهدئة غرور هذه القيادة المدنية».

ويختلف البعض حول ترتيب أعضاء هذه القيادة المدنية من حيث مدى الضرر الذى تسببوا فيه للولايات المتحدة الأمريكية. يقول الجنرال تومى فرانكس قائد حملة العراق إن دوجلاس فيث مساعد نائب وزير الخارجية الأمريكى «هو أغبى رجل على سطح الأرض» كما جاء فى كتاب بوب وود وورد «خطة الهجوم». يقول فرانكس إن هذا الرجل شكل مجموعتى عمل بعد ٩/١١ لتقرأ كل التقارير المخابراتية والدبلوماسية

والصحف العربية على امتداد اثنى عشر عاماً ليثبت أن هناك صلة بين صدام حسين وتنظيم القاعدة، وقام بتزييف نتائج الدراسة وأرسلها إلى مكتب ريتشارد تشينى الذى استغلها ليدفع الولايات المتحدة نحو الحرب. «إن مكتب فيث هو الذى كان يحصل من أحمد الجلبى وزملائه فى المؤتمر الوطنى العراقى أولا بأول على معلومات زائفة عن أسلحة الدمار الشامل فى العراق».

والمعروف أن كولن باول وزير الخارجية كان يطلق على مكتب فيث فى البنتاجون «مكتب الجستابو». ويقال إنه قبل الحرب على العراق طلب فيث تشكيل فريق من القانونيين لإعادة تفسير اتفاقيات جينيف لصالح استخدام أساليب عنيفة مع المعتقلين. والمعروف أيضاً أن والد فيث واسمه دالك فيث كان عضواً فى منظمة «بيتار» الصهيونية الإرهابية فى بولندا والتى قام على أساسها حزب الليكود. ويتردد أن جريدة وول ستريت جورنال طلبت من كولن باول تقديم اعتذار عن عبارة «مكتب الجستابو» بحجة أن أبوى فيث ماتا فى غرف الغاز النازية، وأن العرف جرى بعدم المساس بالأشخاص المولودين لضحايا هتلر. ما لا يعرفه الكثيرون أن فيث تلميذ ريتشارد بيرل الملقب بأمير الظلام بسبب كراهيته للعرب والمسلمين ومعظم شعوب العالم، وأنهما اشتركا معاً فى إقامة التحالف التركى الإسرائيلى. وفى سنة ١٩٩٦ اشترك فيث فى فريق عصف فكرى فى إسرائيل ودعا فى هذا الاجتماع إلى الإطاحة بصدام حسين بهدف «تغيير الشرق الأوسط وبناء شرق أوسط جديد». وفى عام ١٩٩٧ دعا فى مقال له فى مجلة كومنترى اليهودية الأمريكية، إسرائيل إلى إعادة احتلال الأراضى الفلسطينية وإلغاء اتفاقية أوسلو. وفى مايو عام ٢٠٠٠ وخلال الحملة الانتخابية للرئاسة الأمريكية دعا إلى الاستعداد لغزو سوريا.

اختم بفقرة من تصريحات الجنرال زينى. قال متحدثاً عن القيادة المدنية والعسكرية الراهنة فى واشنطن، «لقد فرضوا علينا استراتيجية فيها ثغرات وعليهم أن يرحلوا. لو كنت قائداً للمؤسسة العسكرية وكان هذا أدائى لقدمت استقالتى. حان الوقت لتغيير الخطة فى العراق ومساءلة المسئولين عن وضع هذه الخطة لأن ما حدث حتى الآن فشل كبير».

ومازال فى الولايات المتحدة من يقول إن الرئيس بوش يقود ثورة فى السياسة الخارجية الأمريكية، سوف تفرز آثارها فى المستقبل القريب. ■

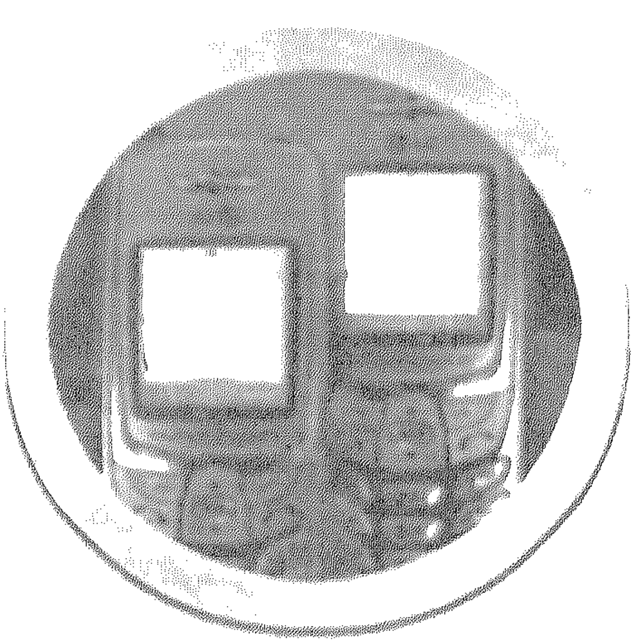

المحمول وتداعياته الاجتماعية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

فى الهاتف المحمول اندمجت تقنيات عصر الفضاء مع تكنولوجيات ثورة الاتصالات ، وسمح لنا بالعودة إلي أنماط الاتصال الطبيعية والأكثر إنسانية قبل المجتمع الصناعى ، عندما عشنا فى مجتمعات محلية صغيرة ومستقرة ، وتمتعنا ببهرجة الكلام والثرثرة داخل شبكة اجتماعية متكاملة ومحكمة . وتعيد الثرثرة بالمحمول إحساسنا بالمجتمعية والعلاقات الحميمة ، وتساعدنا فى تخفيف الضغوط والعزلة التى تتميز بها الحياة الحديثة السريعة جدا ، والتى أصبحنا فيها مقيدين فى كمية ونوعية الاتصال بشبكتنا الاجتماعية. فالهواتف المحمولة هى حبل نجاة اجتماعى فى عالم ممزق، تسود فيه القطيعة .

وموضوع الثرثرة عموما جذب انتباه الباحثين فى علم النفس الاجتماعى ، والانثربولوجيا ، والسيكولوجى ، والسيسولوجى ، حتى الفلاسفة تورطوا فى النقاش ، وأغلب الدراسات أبرزت الوظائف الاجتماعية والنفسية الإيجابية للثرثرة منها مثلا : تسهيل بناء العلاقات الاجتماعية ، تكوين المجموعات الاجتماعية الملتصقة (العلاقات الوطيدة) ، توضيح المركز والمكانة الاجتماعية ، تعزيز القيم المشتركة ، حل النزاعات والصراعات . ويذهب فيلسوف أخلاقى إلى حد الادعاء بأن الثرثرة تحسن معرفتنا وفهمنا للطبيعة البشرية ، وتكتسب صلاحية الفضيلة المقدسة ! ومهما كانت المنزلة الأخلاقية للثرثرة ،

أثبت بعض علماء النفس أن الثرثرة غريزة إنسانية راسخة ، تؤدى وظيفة حيوية وعلاجية اجتماعية ، وحاولت الدراسات استكشاف الدور الذى تلعبه الهواتف المحمولة فى هذا السياق، وهل الهاتف النقال أصبح المكافىء المعاصر لسياج الحديقة الذى يمنع الغرباء والمتطفلين؟! وهل جعل الناس تعيش حياة أكثر سرعة ومزق وفتت وجزأ المجتمعات المحلية المتماسكة أم العكس ؟ وكيف أثرت الهواتف المحمولة على طريقة ثرثرتنا ؟! سنحاول فى هذه العجالة التمهيد للاجابة عن تلك الأسئلة على أمل استكمالها فى المستقبل .

التحرر من البيئة المحلية

منذ زمن طويل قبل اختراع الهواتف المحمولة ، والكتب ، وأجهزة الراديو ، والتليفزيون ، والفيديو ، والكومبيوترات والأدوات الأخرى ، فتح الطريق للأفراد لتحرير أنفسهم (عمليا وأيضا نفسيا) من بيئتهم الاجتماعية الفورية بتفويضهم وتمكينهم أن يحققوا الكثير من الحاجات السيكولوجية والمادية بدون الارتباط والاعتماد على الآخرين فى الجوار . فقراءة كتاب، على سبيل المثال ، تدل على أن هناك واحدا جلس يمتص الأفكار والمشاعر الموجودة فى الكتاب ، وعادة لا يتقاسم ويتشارك مع الأفراد الآخرين الحاضرين معه فى نفس المكان ، أو المبنى أو المجتمع تلك الأفكار والمشاعر ، وهكذا تناقصت قدرة الفرد على الاتصال والتعلق بالآخرين الذين يحملون نفس التجارب المشتركة . بطريقة مماثلة ، الناس فى الأماكن الحضرية يمكن أن يتهربوا من أى تفاعل مع الأغراب المحيطين بسهولة أكثر من خلال قراءة جريدة ، أو استخدام مسجل بسماعة وأيضا الانشغال بالمكالمات فى الهاتف المحمول، وهى كلها أنشطة مرئية يمكن أن تستخدم للاتصال بالآخرين الذين لانجد مدخلاً لمحادثتهم ، وساهمت الهواتف المحمولة فى توفير استراتيجية للأفراد للدفاع عن فضائهم الضئيل الخاص ، وسهلت لهم التمتع بحق الخلوة فى المناطق المزدحمة بالسكان ، والتى تفيض عادة بالإزعاج ، والمتطفلين والأغراب المجهولين . وإذا كانت النساء بصفة عامة لايحببن إظهار أنفسهن وحيدات فى الأماكن العامة ، لأن هذا قد يبين أنهن وحيدات بدون علاقات اجتماعية ، أو يأخذ عنهن انطباعا سيئا حول مكانتهن الاجتماعية ، أو يتركن فى وضع مكشوف يستغل من الذكور الأجنبية ، فإن الهاتف المحمول يخفف هذه النتائج ، ويصبح مفيدا إلى حد ما، لأنه يمكن أن يحمل الرسالة للأغراب تقول : أنا امرأة وحيدة فعلا ، لكن لست بمعزل ، فأنا مازلت فى محيطى الاجتماعى ، وأستطيع الاتصال به . وعندما نقارن قراءة الجرائد أو الاستماع لموسيقى المسجل ، مع استخدام الهواتف المحمولة نجد أن استخدام الأخيرة طريقة أكثر عدوانية للتحرر والانفصال عن الآخرين ، لأن

مكالمات الهاتف المحمول محتمل أن تزعج خصوصية الآخرين بالجوار ، خاصة تحت الظروف التى لايكونوا فيها غير قادرين أن ينسحبوا (على سبيل المثال فى المطاعم أو الحفلات والقطارات) .

اللعب بالمحمول !

ونشأ عن اتصالات المحمول ظاهرة رفقاء الرنات ، وهى دائرة تفاعلية ضيقة يتبادل الفرد معهم الرنات ذات المعنى ، والمفهومه بينهم ، وبينت الدراسات عدم أهمية الموضوعات التى يتم تبادل الرنات أو المكالمات حولها ، وأنها لاتستحق الاهتمام الخاص بها ، واتضح من دراسات أخرى أن العديد من رجال الأعمال يستخدمون هواتفهم المحمولة كوسيلة للغياب المتعمد عن الجو المحيط بهم وإبقاء الناس الآخرين فى مأزق ! ويقول أحدهم : إذا وصلت وحضرت اجتماعا لا أعرف أى شخص فيه ، أماطل بهدوء باللعب فى هاتفى المحمول! واجعل الآخرين فى الخارج يرسلون لى أى رسالة ، أعلن فيها للحاضرين أنى مشغول ولازم أغادر المكان ! من ناحية أخرى ، أصبح إغلاق الهاتف المحمول طريقة جديدة لإظهار الاحترام للرفاق أو للافصاح عن احترام المناسبة . ومن مضامين المحمول أن الناس قد يكونوا أكثر ميلا إلى تجاوز التجاور الفيزيقى مع الأشخاص الذين ليس معهم أى علاقة أو لديهم علاقة سلبية بهم ، وهذه الوظيفة حاسمة خاصة للأفراد الميالين إلى تنمية شبكات كثيفة من التفاعلات الاجتماعية بشكل منتظم بعيدا عن مواقعهم المكانية الحالية . على سبيل المثال ، المراهقون فى كل الثقافات الإنسانية ميالون لاستخدام الهاتف ، لتوليد شبكات كبيرة من المعارف ، ويتجاوزن حدود العائلة والأماكن التى ولدوا فيها ، حيث تكتسب جماعات الأقران فى المجتمع المعاصر مركزية ومصداقية وأهمية أثناء فترة المراهقة .

على المستوى المنهجى ، نستنتج أن الهاتف المحمول يخفض الدرجة التى يمكن من خلالها أن نتوقع أى علاقات سببية بين الموقع المكانى والعلاقات الاجتماعية . على سبيل المثال : رؤية ٣٠٠٠ مثقف يشاركون فى مؤتمر كبير قد لايخبرنا أى شىء عن احتمال انتشار التفاعل المتبادل بينهم ، لأن معظمهم مستغرقا تماما ، معظم الوقت بالمكالمات التليفونية ، أو ملايين الريفيين الذين يهاجرون إلى مدينة كبيرة ولا يملكون عقلية وثقافية المدينة ، لوحظ أن معظم هذه الملايين تبقى مفروزة بإحكام فى مكانها الأصلى ، ومرتبطة بمجتمعاتها المحلية باتصال هاتفى يومى مع أقاربها المتروكين فى المناطق الريفية .

الانغلاق بدلا من الانفتاح

الوظيفة الرئيسية من التجمعات المباشرة القائمة على الاتصال وجها لوجه هو التعرض لصداقات جديدة ، وإقامة تفاعلات اجتماعية غير متوقعة . والهواتف المحمولة تستطيع بسهولة أن تحمى الفرد

فى التجمعات المباشرة من مثل هذه العلاقات الطارئة المتقلبة : بالهروب إلى عالمة الضيق القائم على علاقات اجتماعية ذاتية ومسيطر عليها ومتوقعة ومألوفه جدا (بأقرباء مقربين أو أصدقاء) ، وتنخفض فرص تكوين صداقات جديدة . ويؤكد علماء الاجتماع أن الفرد يملك فى اليوم الواحد طيفا واسعا من الأشخاص فى تفاعلات تلقائية وعشوائية ، لكن يبدو أن الفرد يتحرك فى المجتمع من خلال شبكة اجتماعية من الأفراد المتشابهين معه . وهكذا فالهواتف المحمولة تدعم الميول نحو الانغلاق بدلا من ميول الانفتاح : وذلك من خلال تقليل فرص تكوين أصدقاء جدد . وإمكانية اختيار العلاقات الاجتماعية التى نرغبها ، والتى توصلنا لخلق مسافات أكبر مع الغرباء أو شبه الغرباء . بعبارة أخرى الهاتف المحمول يفتح الطريق لادامة العلاقات التقليدية جدا بمجموعة معينة تحت الشروط الجديدة من القابلية المرتفعة للحركة والتشتت الجغرافى . والهواتف المحمولة تتيح نوعا من الاتصال التخيلى الافتراضى ، وفى الوقت نفسه تتفاعل مع خصائص ما قبل الحداثة حيث كان الناس لايتحركون بعيدا ، ويعيشون فى بلدات وقرى صغيرة قرب بعضهم البعض ، ويعرف كل شخص الآخر .. الخ، لكن هذا الاتصال التخيلى بالمحمول أصبح لايرتبط بموقع معين كما كان فى الماضى . وبينما يتناقص تدخل وتطفل الغرباء باستعمال المحمول ، نجد دوائر الصداقة القائمة تزداد عمقا من خلال كثافة أعلى من الاتصالات بصرف النظر عن الوقت والمكان فتتم صيانة وإدامة تلك الدائرة . فالهاتف النقال يعنى أن دائرة الأصدقاء متوافرة دائما، برسالة قصيرة يمكن أن ترسل. مثل هذه الميول للانغلاق الاجتماعى مدعمة بحقيقة مهمة عند مقارنة أرقام الهواتف الثابتة المعلنة والمنشورة دائما فى دفاتر الهاتف للعامة ، مع أرقام الهاتف المحمول التى يعرفها عادة دائرة ضيقة فقط من الأصدقاء والمعارف المختارين ذاتيا ، ولذلك لا نتوقع فى الهاتف المحمول ما يحدث فى الهاتف الثابت من مكالمات إعلانية وتسويقية من الفنادق والتأمينات والمؤسسات المختلفة لترويج بضاعتهم حيث يستطيعون الوصول لك من دليل الهاتف العام . ومستعملو المحمول هم الذين يستطيعون التقرير بأنفسهم من هم الذين يعلنون لهم عن أرقام هواتفهم ، فهم يمتلكون وسائل جديدة للسيطرة على حرية الوصول إلى دائرتهم الداخلية «أقرب الأصدقاء» من خلال الاتفاق على رموز معينة (رنات) بين المعارف . ووصفت شابة الطريقة التى تستعمل بها هاتفها لكى تتوسط العائلة فى ترتيب الزواج المحتمل ، بأنها إذا كانت تحب خطيبها ستعطيه رقم هاتفها المحمول ؛ أما رقم الهاتف الثابت سيستعمل فى الاتصالات التقليدية والعائلية بين الخطيب وعائلتها! فالمحمول أعطى القدرة للاحتفاظ بالعلاقات

الاجتماعية الأساسية عبر المسافات ، ويستطيع مسايرة الميول النفسية الارتدادية ، مثل الوقاية من التجارب المؤلمة في البيئات الأجنبية بالقدرة على الاتصال باحكام إلى الأحياء في البيت : وهكذا، فالمحمول يوظف كمهدىء للبالغين ويخفض مشاعر الوحدة في الأماكن المكشوفة في أي وقت . والهاتف المحمول يجعل عملية التحرير الاجتماعي تدريجية وأقل إيلاما ، ويسمح للأباء والأطفال للاحتفاظ بقنوات اتصال تعبر الوقت والمسافة والمكان ، وهكذا عندما يزيد الأطفال من التحرك المستقل ، وتزداد أوقات غيابهم من البيت ، يستطيع الهاتف المحمول التخفيف من عملية التحرير ويجعلها عملية تدريجية أقل ألما ويسهل أكثر بقاء الأطفال على اتصال بأبائهم برابطة صريحة . ونتيجة لكل ما سبق ربما يصبح الأشخاص أقل ميلا لتطوير دائرة تفاعلاتهم وبالتالي كفاءاتهم الاجتماعية في التكييف مع اللقاءات غير المتوقعة ، أو المشاركة في محادثات بعناوين موضوعات طارئة ، أو في تشكيل انطباع وحكم سريع حول ناس نلتقي بهم حديثا ، أو التعلم بسرعة كيفية التصرف في التجمعات والمجموعات الجديدة . في الواقع نحن في حالة مأزق صريح ! لأننا مستمرون في فقد القدرة على المفاوضات الاجتماعية . والهاتف المحمول ساعد أيضا على الارتداد إلى الحالة الدائمة للتبعية الطفولية من نفس الدائرة الضيقة .

وجعل الأشخاص قد ينسون بسهولة الاعتماد على حكمهم وذاكرتهم وتفكيرهم ، لأن المحمول وفر لهم بسهولة شركاء اتصال آخرين كمصادر للرأي والنصيحة ، وعادة من دائرتهم الاجتماعية الضيقة . لدرجة أن بعض الباحثين ابدوا القلق الشديد على مثل هذا الربط بين المحمول وبين اضعاف قدرة الناس في الاعتماد على ذواتهم ، وجعلهم غير قادرين على العمل لوحدهم ، ويتركونهم معتمدين عليه كمصدر للمساعدة والنصيحة، فالشخص بهاتفه المحمول محاصر وأقل انكشافا أمام الفرص الطارئة والمغامرات والمفاجآت أو الحوادث العرضية . نفس الشيء تأثيرات الهواتف المحمولة على المحيط الاجتماعي أصبحت مرئية كأداة تقنية جديدة لأشغال أوقات الفراغ . في اليابان ، يستعمل العديد من الناس هواتفهم المحمولة لإمضاء وقت الانتظار لأنهم في أغلب الأحيان يكونون مبكرين في مواعيدهم ويتجنبون التأخير . ولكنهم مازالوا يستعملون الطرق القديمة لشغل وقت الانتظار مثل قراءة المجلات الهزلية والصحف . وأوضحت دراسات أخرى أن هناك احتمالاً في تناقص حصول ووصول الشخص حامل المحمول إلى المعلومات من العالم الأوسع (أخبار سياسية أو إعلانات تجارية) ، لأن فرصته زادت في الحصول على تلك المعلومات بالاتصال مع الأصدقاء الأقرب من خلال المحمول . وإذا كانت الهواتف المحمولة تدعم العزلة بتعزيز

الشبكات الاجتماعية الذاتية السيطرة ، يجب ألا يدهش أحد ، أن المحمول يحفز أيضا ظهور الفروق فى الثقافات الفرعية ، ومثل هذه الفروق مرئية بشكل رئيسى بين مجموعات الأعمال : حيث يركز البالغون على النداءات الصوتية (الرنات) ، بينما اعتنق الشباب إرسال الرسائل النصية القصيرة بأكواد ورموز لغوية معينة لاتنفتح للدخلاء ، وأصبح للصغار فولكلورهم الخاص ، وثقافتهم المخفية أو المخفية جزئيا عن البالغين فى استعمالات المحمول ، على نقيض من ذلك الهاتف الثابت الذى روج وأنشأ الكثير من الأشكال اللغوية والتعبيرات العامة جدا (ومثال على ذلك : الاجابة بصيغ مثل «هالوا» ، «حالا» بسرعة الخ) ، فالهاتف المحمول سهل ظهور العادات اللغوية الخاصة والمميزة لدوائر القرابة والصداقة ، ومن المحتمل أن يبقى على الثقافة التقليدية ويميزها بالمعانى المدعومة برموز لغوية . والاتفاق على الرموز والأكواد فى رسائل المحمول النصية SMS يكون بين ١ - الشركاء القريبين جدا الذين يشتركون فى نفس الثقافة الضيقة لاستعمالات اللغة ومعانيها الرمزية ، لأنهم على معرفة بها منذ وقت طويل (مثل الرجال والنساء والمسنين) ٢ - بين الأشخاص الذين يشتركون فى نفس الثقافة الفرعية اللغوية (ومثال على ذلك : الشباب الذى يتكلم نفس المفردات) ٣ - الأشخاص الذين ينشغلون فى الأشكال القياسية أو الروتينية من التعاون أو الصفقات والعمليات التجارية ، حيث بضعة كلمات ضرورية فقط تكفى لإرسال رسائل واضحة والتوصل إلى اتفاق .

وظائف الأدوار الاجتماعية التكاملية

تساعد الهواتف المحمولة على تخفيض الاجهاد الناشىء عن متاعب الأدوار الاجتماعية بطريقتين مختلفتين تماما ، الأولى تجزئة وتفكيك الدور الاجتماعى ، والثانية بزيادة قدرة تجميع وتخزين وتنسيق الأدوار المتنوعة العفوية ، فالمجتمعات الحديثة تتميز ، بأن أفرادها يدمجون عددا من الأدوار المختلفة ، بحيث تنمو خاصية الفردية إلى الدرجة التى يدرك كل شخص خصوصية مجموعة أدواره الاجتماعية التى تميزه ، والمسارات الخاصة بها عبر الزمن ، وما يتطلبه كل دور من تواجد طبيعى فى مكان معين (موقع عمل ، شقة خاصة ، مسجد ، كنيسة ، مدرسة الخ) والهاتف المحمول يعطى الفرصة للتغيير السريع للدور الاجتماعى بدون تغيير الموقع المكانى ، ويسهل التوافق والتناغم بين واجبات الأدوار المختلفة ، ويوفر التكاليف الاحتكاكية المرتبطة بنشاطات التحرك والانتقال والسفر وتضييع للوقت . هكذا ، تستطيع النساء مثلا الاشتغال فى «التربية من على بعد» أو بمعنى أدق القيام بدور الأم من على بعد ، أو تمارس عملها الوظيفى من على بعد ، أثناء قيامها

بالعمل المنزلي في البيت : حيث يسمح الهاتف المحمول لهن بالتواجد في منازلهن وتأدية العمل الوظيفي في نفس الوقت ، بمعنى أن النساء من خلال المحمول يعملن في «نوبات متوازية» بدلا من النوبات المضاعفة . والمفارقة أن الهاتف المحمول يمكن أن يسهل الإدامة والتأكيد (بدلا من الإزالة) على الأشكال التقليدية من تقسيم العمل بين الجنسين ، لأن أزواج الأمهات الناجحات واللاتي يمارسن الأمومة من على بعد ، قد يجدون المنطق والحجة لتجنب الواجبات العائلية . وعلى النقيض من السينما وأجهزة الإعلام الأخرى التي تجبر الأشخاص لتضمين أنفسهم أثناء الوقت المحدد للتعرض الذي يمتد وقد يستغرق ويمتص وقت الفراغ ، العكس فإن النقص في وجود وقت الفراغ هو الذي يجعل الناس ميالين لاستخدام المحمول بتركيز ، ومن ناحية أخرى يجب ملاحظة أن القدرة على أداء أدوار اجتماعية مختلفة ومتزامنة ، تزيد أو تنقص وفقا للإمكانيات التقنية للهاتف المحمول ، فالفيصل الدقيق بين لعب الأدوار المحلية والأدوار من على بعد ، متوقف أولا على إمكانية المستقبل للرسالة سماع صوت الشخص المتصل ، وثانيا ، القدرة على إدامة الأدوار المحلية ستعاق بجدية إذا أصبحت نداءات الهاتف المحمول معتمدة على تقنيات الميلتميديا التي تتضمن قنوات اتصال بصرية أيضا . والهاتف المحمول ، من نواح عديدة ، يمثل نقيض هواتف الفيديو التي يرى فيها المستقبل المتصل، حيث تتطلب هواتف الفيديو التثبيت في موقع معين ، بينما نستطيع التجول بالهاتف المحمول ، وفي الهاتف الفيديو المستخدم مجبر على الانتباه إلى الشريك الآخر في المحادثة ، بعكس المحمول المستخدم أكثر حرية لتنفيذ النشاطات المتوازية أثناء الاتصال ، المكالمة في الهاتف الفيديو حدث محدود المعالم بشكل واضح ، بينما في الهاتف المحمول معالمها أقل وضوحا ، وتستطيع أن تقتحمنا وتتطفل علينا في الحافلة ، أو في المطعم، أو في المسجد والكنيسة . هكذا ، تأثيرات المحمول على وظائف الأدوار الاجتماعية هي السبب الجوهري الرئيسي لتبني الهاتف المحمول ، حيث تزيد قدرة المحمول على إدامة وصيانة الأدوار الاجتماعية الواسعة الانتشار والتي تتطلب مشاركة وانغماسا غير محدود ، وهي أيضا مفيدة لحفظ الأدوار الواسعة الانتشار المستفيضة التي تتطلب بأن صاحب المنصب تقريبا يجب تواجده طوال الوقت ، لأن مثل هذا التوفر والتواجد ييسر حرية الحركة والتنقل مع الانغماس في النشاطات الاجتماعية أو الخاصة الأخرى . وهكذا، أمهات يستطعن استعمال الهواتف المحمولة لرعاية أطفالهن ، فهن على اتصال معهم طوال اليوم ، حتى عندما يتواجدن في العمل أو على السفر ، وأطباء العائلة يمكن أن يكونوا متوفرين إلى مرضاهم حينما

يحتاجوا لهم ، حتى إذا كان الطبيب فى حفلة عشاء أو موقع خاص آخر ، بنفس الطريقة، المدراء يستطيعون حفظ دورهم القيادى الذى يتطلب تواجدهم على مدار الساعة ، ويمنعون عمليات التفضيل والتحيز التنظيمى عندما يوفدوا ممثليهم إلى موظفيهم .

السيطرة على إمكانية الوصول

من غير المحتمل أن يعرض الناس أنفسهم لكل نداءات المحمول طوال الوقت ، فهم يمارسون كنترولاً وسيطرة على إمكانية الوصول بدرجة أعلى بالمقارنة بالهواتف الثابتة فى المنازل ، ومثال على ذلك : تقرير متى يفتح ويقفل الهاتف المحمول ، معالجة درجة صوت الجهاز ، تحديد الدائرة الاجتماعية التى تعرف رقم الهاتف ، أو المعالجة الانتقائية لترشيح النداءات المرحب بها ، أو النداءات غير المرغوبة، فيسمع الأشخاص غير المرغوب فيهم «إشارة مشغول» حتى لو كان الهاتف مفتوحاً . هذا الخيار الأخير يعتمد على وظيفة تعريف هوية المتصل، على سبيل المثال ، المراهقون يتجنبون اتصالات الآباء عندما تكون هناك صعوبات اجتماعية ولا يلبون نداءات آبائهم ، وإذا واجهوهم ، يقولون ببساطة بأن بطاريتهم كانت ميتة أو بأنهم ما سمعوا المحمول يدق ! ويتوفر فى المحمول أيضا استراتيجية مساومة وتسوية مفيدة ومجهزة بقدرة الهواتف الرقمية لخزن أرقام النداءات القادمة ، وترتيب المكالمات التى لم يرد عليها وفقا لوقت استقبالها ، لكى يختار المستخدم فيما بعد الوقت الملائم للرد عليها . وهناك طريقة هروب أخرى ، وهى استخدام الرسائل النصية (SMS) وتترك إلى المستلمين متى يستجيبون لها ، وهذا يعطيهم وقتا لتصميم ردهم بعناية ، لكى يعكس مواقفهم الأصيلة واتجاهاتهم الحقيقية ، بدلا من تأثير العوامل الخاطفة المتقلبة ! وفى المستقبل ربما ترى هواتف محمولة تعطى الامكانية لمستخدمها على ترتيب الرسائل القادمة وفقا لمعامل الوصول حيث تعطى درجة بين صفر إلى ١٠٠ للرسائل القادمة وفقا للرغبة المستخدم للرد عليها ، ويستطيع المتصل التعرف على الدرجة التى اعطاها المستلم للرسالة ، التى تبين مدى رغبته فى الإجابة ، ورغبته فى أن تكون المكالمة قصيرة أو أكثر تطويلا ! فالهواتف المحمولة فى المستقبل ستصمم لإعطاء رد فعل دقيق للشخص المتصل وتبين له مدى الترحيب به !

المسئولية الشخصية والسيطرة الاجتماعية

العديد من التقنيات الصاعدة أخيراً «تشجع» وتزيد البدائل المتوفرة أمام الأشخاص أو المجموعات الاجتماعية ، لكن فى كل الحالات ، مثل هذه المكاسب فى الحرية والاستقلال يوازيها زيادة ملحوظة فى المسئولية الشخصية والسيطرة الاجتماعية ، لأنهم يواجهون

توقعات اجتماعية خلال تفعيل هذه الخيارات الجديدة، ومطالبين فى الوقت نفسه بتشريعها وتبريرها أو حذفها، ومن الجوانب السلبية للهواتف المحمولة زيادة المسئولية الشخصية، حيث تنخفض الاستفادة من أعذار مثل: «أردت بالتأكيد أن أدعوك، لكنى ما كنت قادراً على ذلك لأنى لم أجد هاتفاً عاماً»، فمن النتائج الاجتماعية الأكثر وضوحا للاتصال اللاسلكى، أنها تجعلنا أكثر مسئولية نحو أفعالنا، ونحو الناس المسئولين أمامهم، وأصبحنا أكثر خضوعا إلى الضبط الاجتماعى. وهكذا فالحريات التى اكتسبناها بأن نكون قادرين على الاتصال بأي شخص من أى مكان وفى أى وقت، على الأقل عطلت جزئيا بالمسئوليات المتزايدة لتلبية النداءات القادمة، والإبقاء على الاتصال بالأقارب والأصدقاء الذين يتوقعون أن نتصل بهم.

تبديد فرحة اللقاء

تتجلى العلاقات الاجتماعية المثالية فى تناوب واضح بين التفاعل والكمون، حيث الشركاء المنفصلين قد يستظهرون ببساطة التفاعلات السابقة مع الشركاء الغائبين، ويتخيلونهم فيما يفعلونه حاليا ويفكرون، ويعدوا أنفسهم للقاءات مستقبلية. مثل هذه التوقفات والانقطاعات التفاعلية قد تكون ضرورية جدا للتفكير وإعادة النظر أو للتهدئة بعيدا عن العواطف الحرجة، أو ردود الأفعال التلقائية أكثر من اللازم، والتى قد توصلنا إلى نتائج غير قابلة للنقض، ويمكن أن نتجنبها والوجود الإنسانى غنى بالتأكيد بمشاعر الشوق أو الحنين إلى الوطن، وبتجارب عدم الأمان والقلق حول ما قد يفعله الآخرون، وبالحزن عند مفارقة الأحبة والبهجة عند رجوع الأحباء الغائبين، والهواتف المحمولة تميل إلى تسطيح مثل هذه التذبذبات والموجات العاطفية: ومثال على ذلك: المحمول يجعل الوداع أقل إثارة لأننا نستطيع «البقاء على اتصال» دائما، والمحمول يبدد الإثارة والشوق والغبطة المقترنة برؤية عودة الغائب مرة ثانية، لأن الفراغ الذى خلق بالغياب الطويل ملأ بالرسائل البريدية الالكترونية، ونداءات هاتف المحمول، ورسائله النصية SMS، وجميع الاتصالات الأخرى. واستعمال المحمول جعلنا نفقد السمات الإيجابية لأوقات البعد والفراق، والتى ملأها المحمول بالثرثرة حول الأفكار، والمغامرات الممكنة، وملاحظة الأحداث ونظم ورتب التدفق الصريح داخل العلاقات الاجتماعية، وأصبحت لحظات عدم الاتصال بالمحمول فى الفراق ثمينة جدا، لأنها تنظم شبكة من العلاقات الداخلية إيقاعها الوجود أو الغياب.

توسيع العلاقات الخارجية والروابط الاجتماعية الضعيفة

أوضحت نتائج الأبحاث أن الهاتف عموما، يوسع الشبكات الاجتماعية بشكل واقعى بين الأشخاص بإضافة الاتصالات التى لم تحدث فى الواقع. على سبيل المثال، يساعد الهاتف الفرد أن يكون على اتصال بأقرباء لايحب رؤيتهم، أو إلى الأصدقاء والمعارف الثانويين الذين لم

يتزاور معهم ، وهكذا الهاتف المحمول يستطيع المساعدة لتوسيع الدوائر الخارجية للعلاقات الاجتماعية : حيث ينشط «الروابط الضعيفة» التى تنشط فقط تحت ظروف معينة جدا مثال على ذلك البحث عن شغل أو شقة . وهذه القدرة تجعل الهواتف المحمولة مفيدة خصوصا للأشخاص الذين يعيشون فى عالم متعدد الارتباطات والعلاقات المتعددة والعابرة غير الثابتة أكثر من كونها علاقات قوية ، وطيدة بأشخاص الدائرة الداخلية أو التقليدية . ويسهل الهاتف المحمول الاتصالات بالأشخاص فى أوقات لايحبون فيها أن يظهروا ويقدموا أنفسهم بشكل بصرى، مثل صباح أيام الاجازات التى يتحرر فيها الناس من الرسميات ولايحبون الغرباء رؤيتهم فى هذا التحرر !

كلية الوجود

وأخيرا بعد هذه العجالة المختصرة لبعض التداعيات الاجتماعية للمحمول، نستطيع القول أن الهواتف المحمولة ظاهرة غريبة جدا ، كلية الوجود ، موجودة فى كل مكان ، حيث ورد فى تقرير نشرته رويتر فى ٢٥/٢/عام ٢٠٠٤ ، تبين فيه أن نصف سكان العالم سيستخدمون المحمول عام ٢٠١٥ (أربعة مليارات شخص) ، ارتفاعا من نحو ١.٣ مليار عام ٢٠٠٤ . وإنه بحلول عام ٢٠٠٨ سيصبح عدد مستخدمى الهواتف المحمولة مليارى شخص . وتبين احصاءات مركز المعلومات بمجلس الوزراء فى مصر أن هناك حوالى ٥ ملايين مستخدم للمحمول حتى عام ٢٠٠٣ .

هذا ورغم تساوى كل الناس فى استخدام الهاتف المحمول ، إلا أن الدراسات الحديثة أثبتت أن استعماله مازال يصادف بعض المقاومة ، خصوصا بين أصحاب الثقافة العليا ، وكبار السن ، والنساء ، وتتفاوت الأسباب من الخوف التكنولوجى «التكنوفوبيا» إلى الخوف من السيطرة على الاشعاعات الصادرة من المحمول. لكن من الناحية الأخرى انتشر المحمول بسرعة بين الصغار ، ووصل للمجموعات العمرية الصغيرة جدا ، وأيضا بين الناس العاديين الذين ليس لهم أسباب خاصة لرفض أداة مفيدة . ومن ناحية أخرى استعمال الهواتف المحمولة لها تكاليفها المتزايدة أيضا ، هذه التكاليف فى بعض الحالات أصبحت عبئا اقتصاديا ، يؤدى إلى ديون مرهقة ، خاصة ارتفاع تكاليف هاتف الأطفال . وهذا ليس بالضرورة شئ سيئ لكن ما زال للهواتف المحمولة نفقة ثقيلة ، قد تؤثر عكسيا على اقتصاديات الأسرة ، وازعم أننى من القلة التى لاتستعمل المحمول ، ليس بسبب ثقافى أو عمرى أو اقتصادى ، ولكن لسبب جديد تماما ، لم تطرحه الدراسات الاجتماعية ، وهو كلما احضر تليفونا جديدا لاستعماله ، يتم الاستيلاء عليه من قبل أولادى ، كرمز لاقتحام دور الأب وتجاوز سلطته، وكان الحل هو مقاطعة المحمول نهائيا! ■

أطفال الشوارع

أطفال فى خطر!

بقلم
د. أحمد شوقى العقباوى

مازال الاهتمام باحتياجات الطفولة، رغم دخوله دائرة الرعاية الدولية، بعيداً عن أن يكون مكوناً أساسيا في خطط التنمية الوطنية. وفى ظل وعى بأن تنمية الطفولة ليست مجرد مشروعات اجتماعية واقتصادية على المستويين الحكومى والأهلى، فإن هذه التنمية تتطلب صياغة سياسية شاملة متعددة الأهداف ومتكاملة مع غيرها من السياسات التنموية، حتى نضع أساسا لمجتمع سليم، تتقلص فيه الآفات الاجتماعية.

والحقيقة أن الاهتمام بالطفل قد بلغ حده الأقصى بعقد القمة العالمية للطفولة فى عام ١٩٩٠، تلك القمة التى صدرت عنها الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، والتى صدق عليها معظم دول العالم. غير أنه من سوء الطالع أن يكون نفس التاريخ هو بداية استفحال ما سمى بالنظام العالمى الجديد، الذى رفع شعار العولمة، واعتمد مجموعة من القيم الاقتصادية، التى من شأنها، ليس فقط توسيع الفجوة بين الفقراء والأغنياء، وإنما ضم الطبقة الوسطى، صاحبة الأغلبية، إلى عالم الفقراء المعوزين.

لقد أدت زيادة معدلات الفقر وانتشار البطالة وتضخم أسعار متطلبات المعيشة والخدمات الاجتماعية إلى التآكل التدريجى لهذه الطبقة وهو ما انعكس على العلاقات الأسرية، ومن ثم ظهرت السلبيات الاجتماعية التى أصابت فى الأساس أطفال الأسر الفقيرة والمعدمة. وتتابعت الدراسات التى اهتمت بالأطفال، وكان من نتائج ذلك ظهور مفهوم «الأطفال فى ظروف صعبة» الذى تبنته الأمم المتحدة من خلال منظمة اليونيسيف، التى تبنت أيضا فى السنوات الأخيرة مصطلح «الأطفال المحتاجون لحماية خاصة».

وإذا كان المصطلحان يشيران إلى الظروف التى ينشأ فيها الأطفال، فمن المهم التأكيد على أن هذه الظروف الصعبة هى دائما خارجة عن إرادة الأطفال أنفسهم، فى الوقت الذى يعتبر الفقر من أهم العوامل المشكلة لتلك الظروف، دون إسقاط عوامل أخرى مثل المأوى الملائم والرعاية الأسرية.. ومن المهم أيضا أن نقول إن الطفل المشرد هو إفراز طبيعى لتلك الظروف.

طفل الشوارع

وليس هناك أدنى شك فى أن الإنسان السوي هو نتاج أسرة سوية سليمة تنعم بالدفء العائلى واستقرار الوضع المادى، والعكس أيضا صحيح، فالطفل المشرد الملقى فى الشارع، هو ظاهرة ترتبط بالظروف الاقتصادية والاجتماعية المتردية، لذلك فإن التصدى لظاهرة «طفل الشوارع» لا يمكن أن يكون ناجعا إلا إذا كان على أساس نظرة كلية تحلل الظاهرة وتعالج أسبابها الجذرية فى نفس الوقت. كما يجب أيضا النظر إلى الظواهر الاجتماعية على أساس طبيعتها من حيث إنها مترابطة فى شبكة من علاقات السببية المتداخلة، فعمالة الأطفال، وتعاطى المخدرات والاتجار فيها، والتسرب الدراسى، وارتباط كل هذا بالفقر وأزمة الإسكان والتفكك الأسرى يغذى كل منها الآخر.

وظاهرة أطفال الشوارع ظاهرة حديثة نسبيا فى مصر، ارتبط ظهورها وانتشارها بتزايد معدلات الفقر والاستبعاد الاجتماعى كأحد النتائج السلبية لسياسات الإصلاح الاقتصادى التى تعتمد، كما تقدم، الاقتصاد الحر فلسفة بالاضافة إلى التنمية غير المتوازنة بين الريف والحضر، والتى زادت من معدلات الهجرة الداخلية إلى التجمعات الحضرية.

وعلى الرغم من شيوع مصطلح

الأطفال المشردون فى الشوارع ظاهرة ترتبط بالظروف الاقتصادية والاجتماعية المتردية

«أطفال الشوارع» فإنه لا يعنى معنى محددا لدى المهتمين، ولذلك نجد الظاهرة تحت مسميات مختلفة مثل «التسول»، «التشرد»، ولكن فى الأغلب الأعم كان التركيز من حيث المدلول على علاقة قوية للطفل بالشارع. وفى هذا الاطار أعتبر طفل الشارع هو ذلك الطفل الذى عجزت أسرته عن إشباع حاجاته الأساسية الجسمية والنفسية والثقافية كنتاج لواقع اجتماعى اقتصادى تعيشه الأسرة، في اطار ظروف اجتماعية دفعت بالطفل، دون اختيار منه، إلى الشارع كمأوى بديل معظم أو كل الوقت بعيدا عن رعاية وحماية أسرته، يمارس فيه أنواعا من الأنشطة لإشباع حاجاته، معرضا طوال الوقت للخطر والاستغلال والحرمان.

ولقد أدى الاضطراب فى تحديد تعريف للظاهرة إلى عدم معرفة الحجم الحقيقى لها بشكل دقيق، حيث تشير الإحصاءات المتوافرة إلى عدد الأطفال الذين تم القبض عليهم وتسجيلهم فى أقسام الشرطة، على أن المراقبين لهذه الظاهرة يؤكدون على تزايدها وانتشارها فى مراكز حضرية أخرى بالاضافة إلى المدن الرئيسية الكبرى التى تشهد كثافة أطفال الشوارع. ولقد أوضحت الدراسات حول هذا الموضوع أن كل أو الغالبية العظمى من أطفال الشوارع قد أتوا من عائلات تقع تحت حد الفقر المدقع وأن معظمهم أتوا من الريف أو من المناطق الهامشية الحضرية الفقيرة التى هاجرت إليها العائلات الريفية للبحث عن فرص أفضل للعيش.

أسباب الظاهرة

وظاهرة أطفال الشوارع ظاهرة ذات جذر عميق، ترفدها وتتسبب فى وجودها

عناصر مغذية منها الأزمات الاقتصادية والمشكلات الاجتماعية ولهذا فإن محاولة الاقتراب منها وتحليلها لابد لها من البحث عن هذه الأسباب وعلاجها. هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية مثل التعليم والعلاج والإسكان والبطالة ومحدودية الدخل هى أوعية مستطرقة يغذي كل منها الآخر ويرفده.

وفى كثير من الدراسات التى تناولت ظاهرة أطفال الشوارع كان التركيز على التفكك الأسرى والفقر كأهم سببين من الأسباب الملازمة للظاهرة. والحقيقة أن هذين السببين غالبا ما يأتى أولهما نتيجة للأخير، فأغلب حالات التفكك الأسرى تأتى نتيجة عجز الأب عن الوفاء باحتياجات الأسرة، فيلجأ إلى الطلاق. ولعدم كفاية مظلة الضمان الاجتماعى، فإن المرأة تضطر للزواج، ويضطر الأطفال بسبب إحساسهم بالرفض وسوء المعاملة من الشريك الجديد إلى الهروب إلى الشارع فى أغلب الأحيان.

ولا يمكن إهمال عامل الفقر فى تسرب الأطفال من التعليم، فارتفاع تكاليف الدراسة، وانتشار الدروس الخصوصية وضعف القدرة الاستيعابية للمدارس وازدحام الفصول، والعلاقة المتوترة بين الطالب والمعلم كلها أشياء تؤدى إلى هروب الطفل من التعليم ليتلقاه الشارع بالترحاب.

ظاهرة عالمية

وأطفال الشوارع فى أوروبا، وخاصة فى ألمانيا، يشكلون أزمة فى المجتمع يسعي المسئولون هناك إلى معالجتها بوسائل تربوية واجتماعية واقتصادية، بينما تمثل الاقطار النامية مشكلة معقدة جدا، فأطفال الشوارع فى هذه البلدان يمثلون «شعبا داخل الشعب» إذ أن كل طفل من اثنين فى أمريكا اللاتينية هو من أطفال الشوارع، وهم أطفال وأحداث معظمهم من غير مأوى أو رعاية عائلية، يتجمعون فى الشوارع والأزقة والعقارات المهملة، بعد انفصالهم عن أسرهم تماما، ويمارس بعضهم الأعمال البسيطة، بينما يغرق معظمهم فى مستنقع الفراغ مما يؤدى إلى الوقوع فى براثن الجريمة وتعاطى المخدرات.

وفى النهاية نقول إن طفل الشوارع جدير بإعادة النظر فى أمره من أجل الخروج بتشريعات تهتم به من منظور حقوق الطفل، وأن الظاهرة جزء من الآثار السلبية المعاصرة لنهج التنمية عن طريق الاقتصاد الحر. كذلك فإن غياب الدراسات الميدانية المسحية لتحديد حجم الظاهرة هو أهم سلبية تعترض التدخلات الرشيدة التى يجب أن تأخذ فى الحسبان ظروف الأسرات التى تعتبر - كما تقدم - منبع الظاهرة، وظروف مجتمع الشارع الذى يتفاعل مع هؤلاء الأطفال، وهى ظروف خطيرة تجعل هؤلاء الأطفال دائما.. أطفالا فى خطر. ■

السودان
وآفاق المستقبل

بين آمال الوحدة والتنوع وتداعيات الانفصال

بقلم
مصطفى نبيل

اتفاقية السلام بين حكومة السودان والحركة الشعبية، ليست - كما يتصور البعض - نهاية الصراع الطويل الدامى الذى أنهك السودان، واستنزف موارده، وراح ضحيته مايزيد على مليونى نسمة من أبناء جنوب وشمال السودان، إنما هى بداية نوع آخر من العمل لايقل أهمية وخطورة .. إنها بداية بناء سودان حديث.

فمضى زمن الصراعات المسلحة، التى لم تتوقف فى السودان منذ الاستقلال سنة ١٩٥٦، وحتى اليوم، سوى نحو عشر سنوات عقب اتفاقية أديس أبابا، وأخذ السودان خلال هذه الفترة الطويلة، «يأكل بعضه بعضا»، على حد تعبير أحد الإنجليز!!

وبدأت المعركة ضد التخلف والقبلية والأمية، وضد التمييز، معركة الفكر الجديد فى مواجهة ذلك الفكر الذى لايحلو له سوى النظر إلى الخلف.

كان السودان - ولا يزال - غنيا بثرواته الزراعية وموارده المعدنية فهل يمكن استثمار ذلك لتنمية وتطوير السودان الموحد

حقا .. إن د. جون قرانج قائد الحركة الشعبية ينادي بوحدة السودان، ويصر في ذات الوقت علي النص علي حق تقرير المصير، وهو بذلك عكس سلفه جوزيف لاجو، الذي طالب بالانفصال ثم عقد اتفاقية الوحدة في أديس أبابا.

وتصور البعض أن قرانج فى مطالبته بوحدة أراضى السودان، إنما يمارس ألاعيبه السياسية التي أتقنها، ولكنه نجح بخلفيته الماركسية فى ضم عدد من الشخصيات السياسية فى الشمال، وعلى رأسهم د.منصور خالد، وهو السياسى السودانى الذى كان سكرتيرا لعبدالله خليل رئيس وزراء السودان الذى سلم الحكم للفريق عبود، ووزير الشباب ثم الخارجية فى حكومة نميرى، وبعدها أصبح جزءا من التجمع الوطنى الذى يضم حزب الأمة والحزب الوطنى الديمقراطى، ورغم الهجوم الذى شنه على حسن الترابى وحزب المؤتمر الشعبى، عاد واتفق معه فى مواجهة حكومة البشير، ونجح فى إقامة جبهة واسعة من أحزاب الشمال والجنوب فى مواجهة حكومة الخرطوم، وعلاوة على ما قام به فى براعة سياسية إلا أنه يدل على الاعتراف بالآخر رغم التباين فى المواقف السياسية.

ومما يزيد الأمل فى أن يصبح الاتفاق الجديد مدخلا للتحول الديمقراطى، وإقامة نظام ديمقراطى تعددى.

وصحيح أن اتفاقية السلام هى اتفاقية بين «جنرالين» أنهكهما القتال، وتأكد لكل منهما، أنه لن يستطيع تحقيق أهدافه بالسلاح، جنرال الخرطوم وجنرال الجنوب وأخذ كل منهما يفقد تميزه كحامل للسلاح!

وصحيح أيضا .. أن قرانج يعتبر اتفاقية السلام التى أمهرها بتوقيعه، خطوة تكتيكية نحو تحقيق برنامجه، والخفى من هذا البرنامج أكثر من المعلن!.

ولكن يكفى الاتفاق على رفض استخدام العنف، والعمل على قيام عقد اجتماعى جديد يضم فى رحابه كل أبناء السودان.

وصحيح مرة أخرى .. أن الحركة الشعبية التى يقودها الجنرال الدكتور قرانج هى حركة تحمل السلاح ضد الحكومة المركزية، ومع ذلك تعترف بها الولايات المتحدة الأمريكية، والدول الأفريقية المتاخمة لجنوب السودان، أما ياسر عرفات قائد حركة التحرير الفلسطينية، فتعتبر المقاومة الفلسطينية التى يقودها «إرهابا»!

فالضعف من جانب العرب يؤدى إلى القبول بازدواجية المعايير. وصحيح .. أن هناك سلبيات حول مدى تمثيل قرانج للجنوب، وحكومة الخرطوم لتمثيل القوى السياسية المختلفة فى الشمال، ففى الشمال اتخذت حكومة الخرطوم الكثير من الخطوات نحو الديمقراطية والتعدد، ولكنها خطوات لم تكتمل، واتخذت خطوة إيجابية نحو الترحيب بعودة القيادات السياسية من الخارج، ولكنها لم تشترك فى المسئولية والقرار أو حتى فى حضور توقيع الاتفاق فى كينيا.

وفى الجنوب، هناك قوى سياسية

وقبلية لم تمثل فى الحركة الشعبية، فمثلا يوجد مايزيد على ٢ر٥ مليون سودانى من الجنوب، غادروا الجنوب هربا من الجوع والموت، ويعيشون فى معسكرات وحول العاصمة وموزعين على مدن الشمال، علما بأن الجنوب - حسب إحصاءات عام ١٩٩٠ - مليون مسلم و٨٠٠ ألف مسيحى والباقى ديانات أفريقية متعددة، ومعروف صعوبة إجراء إحصاءات صحيحة خلال الحرب الأهلية..

وتقول هذه الاحصاءات إن سكان السودان ٢٤ر٩ مليون نسمة، مسلمون ٧٢٪ ومسيحيون ٤٪ وأديان أفريقية ٢٤٪، وتصل تقديرات تعداد السكان اليوم إلى ٣٠ مليون نسمة، وهناك من يعتقد أن عدد سكان الجنوب يفوق عدد سكان الشمال، واللغة المشتركة هى العربية بلهجة محلية والوصول إلى الأرقام الصحيحة أمر بالغ الصعوبة، فالحركة بين الحدود وإلى دول الجوار لاتنقطع.

كما وقعت انقسامات داخل الحركة الشعبية، منها خروج لام أكول وزياك مشار من الحركة الشعبية وانضمامهما إلى حكومة الخرطوم، ومن ناحية أخرى ينتمى جون قرانج إلى قبائل الدنكا رعاة البقر وأكبر قبائل الخرطوم، وهناك اتهام لها بأنها لاتتيح فرصة أمام القبائل الأخرى للمشاركة فى الثروة والسلطة.

وربما كان عقد مؤتمر دستورى يضم كل القوى السياسية فى الشمال والجنوب، يعيد التوازن ويدفع الدماء فى شرايين اتفاق السلام، ويعيد التوازن بين الأقاليم المختلفة وبالتالى إلى الخريطة السياسية السودانية.

وبقدر العمل الذى يغير الواقع السودانى الحالى بقدر إبعاد شبح انفصال الجنوب، والذى يشكل خطرا على السودان وعلى المنطقة بأسرها، والتى تنتقل عدواه إلى الغرب والشرق وغيرهما، كما تنتقل ذات العدوى إلى كينيا وأوغندا والدول الأفريقية المجاورة.

والذين يخافون انفصال الجنوب فى السودان، يؤمنون بعجز القوى السياسية المختلفة عن الاتفاق على إقامة الدولة العصرية التى تساوى بين المواطنين، مهما اختلفت ثقافاتهم أو دياناتهم أو أعراقهم، ويدركون أنه فى الماضى كانت الدول الأفريقية تركن إلى قرار منظمة الوحدة الأفريقية التى وضعت قاعدة الحفاظ على الحدود كما رسمها الاستعمار، وعدم المساس بها، حتى تتجنب تلك الدول المنازعات، وتوارت القاعدة بعد استقلال اريتريا وقيام دولة جديدة فى القرن الأفريقى..

ولانتوقف كثيرا أمام بنود وتفاصيل الاتفاق، فالمهم وقف نزيف الدم ووقف إهدار موارد السودان، وعودة التوازن بين أقاليم السودان.

العصا والجزرة!

ولعب التدخل الخارجى وبالتحديد الأمريكى دورا بارزا فى الوصول إلى هذا الاتفاق، واستخدمت الولايات المتحدة سياسة العصا والجزرة باقتدار، وعينت مبعوثا خاصا للسلام هو جون دانفورث فى سبتمبر ٢٠٠١، وحددت مواقيت لوضع حد للنزاع، وعقب نجاح دانفورث أصبح المندوب الدائم للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة.

وقام السفير الأمريكي تشارلز سفايدر بدور مماثل .. وطالما كان هذا الدور يسعى إلى وقف القتال، فعليه أن يكمل الطريق في الحفاظ على وحدة السودان التي تساهم في الاستقرار في القرن الأفريقي.

يقول مركز الدراسات الأمريكي، إن السودان يعتبر بلدا مهما لتطبيق دعوة الرئيس بوش، لإدخال الديمقراطية والانفتاح، وما تردد عن العراق يتردد عن السودان، في تأثير مايجرى على أرضه فيما حوله ..

ويضيف مركز الدراسات الأمريكي في أحد تقاريره .. «إن سياسة الإدارة الأمريكية قامت على أساس «دولة واحدة ونظامان»! أي مع وحدة السودان، وبقيت هويته، وهي القضية التي لايملكها الآخرون مهما أوتوا من القوة والجلبة.

ابحث عن النفط!

ومن أسباب التحرك الأمريكي النشيط، ما ظهر من أن السودان ترقد على بحيرة من النفط تمتد من الجنوب إلى غرب السودان.

وتوصلت أمريكا إلى معلومات حول الاحتمالات الواعدة في الجنوب والجنوب الغربي، ففي السابق كان التنقيب يقتصر على منطقة البحر الأحمر..

وقبل قيام حكومة الإنقاذ تم توقيع أهم اتفاق للنفط مع شركة شيفرون الأمريكية، ولعب بوش الأب دورا أساسيا في الوصول إليه.

وينتج السودان اليوم ٣٠٠ ألف برميل يوميا، تصل إلى ٥٠٠ ألف برميل في نهاية العام، والأهم من ذلك اكتشاف احتياطي كبير، تقدره الدراسات بأنه يفوق الاحتياطي في السعودية، وأكبر من احتياطي إيران.. إذن فلابد للصراعات المسلحة أن تتوقف.

وأصبح على قوى الضغط وشركات النفط أن تتحرك، وخاصة بعد أن حصلت كل من الهند والصين وماليزيا على بعض الامتيازات، وخاصة أن شركة شيفرون الأمريكية قد أنفقت مايربو على بليون دولار في التنقيب وفي تمويل مشروع مد خط الأنابيب. ونتيجة الاقتتال بدأت «شيفرون» في تقليص أعمالها منذ فبراير ١٩٨٤.

وتتوق الشركات الأمريكية لاستئناف العمل في حقول النفط، وتنفيذ الاتفاقات القديمة والحصول على اتفاقات جديدة.. ويساهم النفط بذلك في وحدة السودان.

ذكريات سودانية

زرت السودان الكثير من المرات، ولي فيه الكثير من الذكريات، وربطني بأهله الكثير من الصداقات، وكأي مصري للسودان لديه مكانة خاصة، وآمنت بضرورة التواصل والتبادل بين القاهرة والخرطوم، فالروابط التاريخية بعيدة الجذور، وتاريخ مصر والسودان متصل وممتد.

وأول فكرة راودتني في تأليف كتاب كان حول السودان. وأول رحلة نويت القيام بها كانت إلى السودان.

وتابعت خلال عملي الصحفي أحداثه، وكثيرا، ما انتقلت أتابع تطوراته، وانتقلت في العديد من مدنه، ومازلت أذكر أن جوبا كانت أكثر المدن التي زرتها فقرا، وارتبطت بعلاقة وثيقة بالكثير من سياسييه، إسماعيل الأزهري، ومحمد أحمد محجوب، والشيخ على عبدالرحمن،

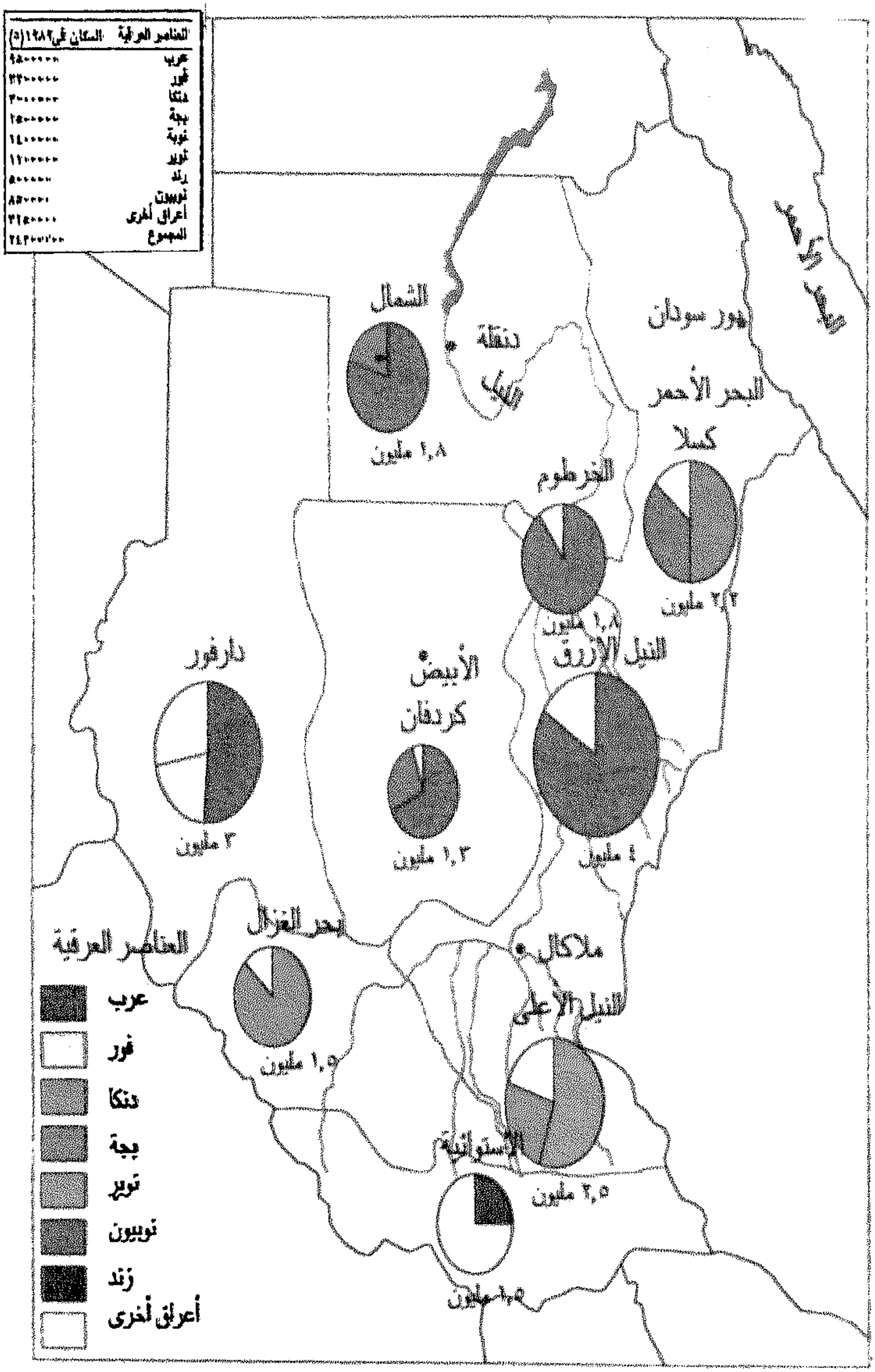

خريطة توضح التوزيع العرقي في أقاليم السودان

والتقيت أكثر من مرة بالرئيس الأسبق جعفر نميرى، كما التقيت بجوزيف لاجو بعد توقيع اتفاقية أديس أبابا، ونشرت فى المصور لقاءاتي بكل هؤلاء.

وكم أثار إعجابى وتقديرى بساطة وكرم الشعب فى السودان، أقول ذلك، لأسجل الخبرة المتراكمة من متابعة هذه الأحداث.

المثلث الشرير!

أقول .. لم تعد المسألة هى وحدة السودان، ولا انفصال الجنوب، بل هى ضرورة الخروج من المثلث الشرير الذى حجز داخله التاريخ السودانى منذ الاستقلال.

وأطراف هذا المثلث، القوى الحديثة الناشئة والتى نجحت فى القيام بانتفاضتين شعبيتين، إحداهما سنة ١٩٦٤ والثانية سنة ١٩٨٥، ضد الحكم العسكرى لكل من عبود وبعده نميرى، يعقب الانتفاضة انتخابات وتتولى الأحزاب التقليدية الطائفية الانصار والختمية الحكم، يعقب ذلك انقلاب عسكرى وهكذا.

وهذه الصراعات تدخل ضمن الصراع بين القديم والجديد، وقيام سبع عشرة محاولة انقلابية فاشلة، وتكاد تكون القوات المسلحة السودانية هى المؤسسة الوحيدة التى تجمع بين صفوفها مواطنين من كل أنحاء السودان.

ولم تعمل الأحزاب التقليدية التى تداولت الحكم فى الخرطوم، أن يكون لها امتداد فى الجنوب، كما أن معالجة الفجوة الواسعة بين الخرطوم وبقية الأقاليم خطوة ضرورية فى طريق إقامة السودان الجديد.

وأدت معادلة الحكم القديمة إلي أن يراوح السودان مكانه، وبقيت الطرق الصوفية مركز الثقل السياسى فى السودان.

ومن جانب آخر اقتصرت أحزاب الجنوب على المنطقة الجنوبية وربما تتغير هذه الصورة فى المستقبل، وفى المسرح الجديد الذى أقامته اتفاقية السلام، فتنتشر وتتواصل قوى الحداثة فى كل أرجاء السودان.

وينعكس ذلك على البنية الاقتصادية.

فلم تعد القضية بعد ما يقرب من نصف قرن على الاستقلال، هى الوحدة أم انفصال الجنوب، بل خطوات تطوير وتحديث السودان والتى تأخرت طويلا، فالسودان أكبر الدول الأفريقية على الإطلاق والذى تزيد مساحته على دول غرب أوربا مجتمعة، لايوجد لديه شبكة مواصلات برية تجمع شتاته.

على أية حال .. تصاعدت الآمال يوما فى أن يتحول السودان إلى سلة غذاء العالم، المال العربى، والعمالة المصرية السودانية، والأرض السودانية فى منطقة تشمل جنود دارفور وجنوب كردفان وشمال بحر الغزال واستغلال مليون فدان لإنتاج الحبوب، ففى السودان تنوع ليس له نظير، ولم تر هذه المشاريع النور!

ويواجه السودان الأوسط والشمالى مشكلة الجفاف والعطش فهو بعيد عن نهر النيل، بينما الماء بوفرة فى جوف الأرض، وكثيرا مايتعرض البشر لأخطار الموت ظمأ.

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

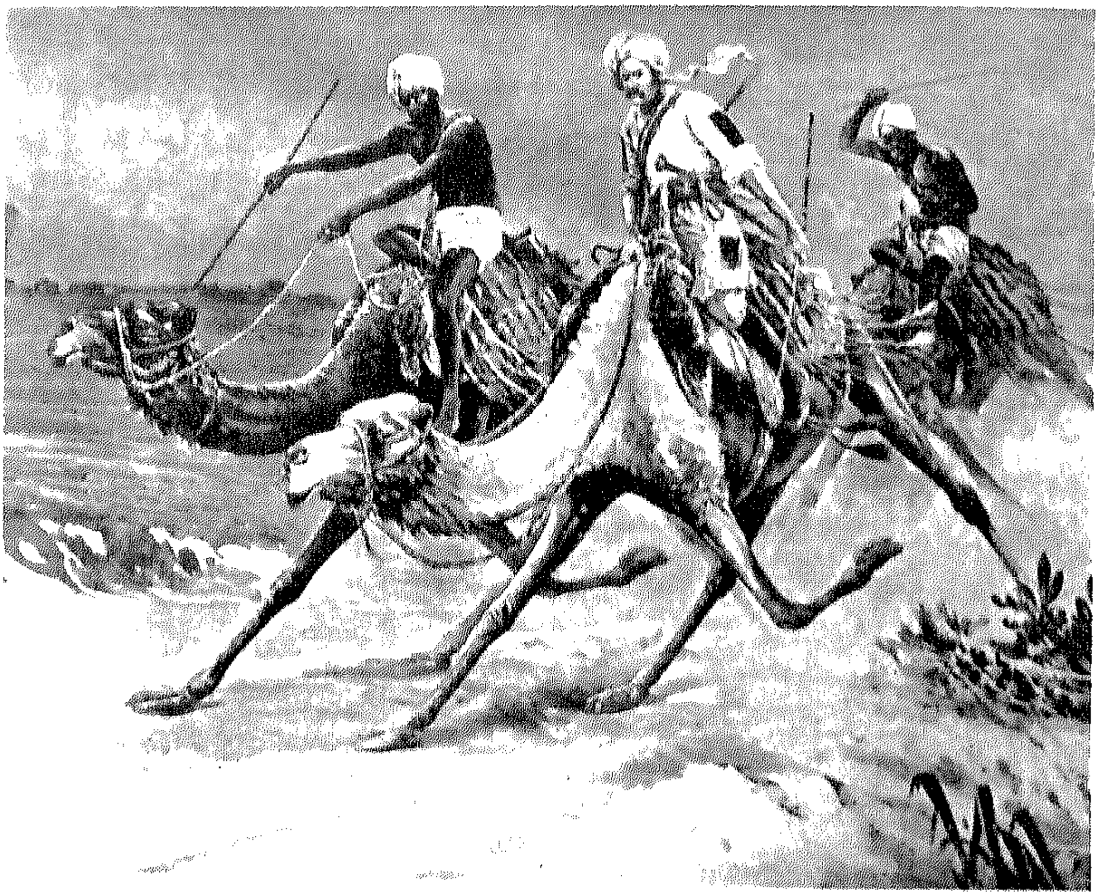

لوحة من السودان تصور معارك الكر والفر فى عصر الاستعمار بريشة فرانك فيلر

والسودان غنى بثرواته وموارده ومعادنه مثل النحاس والذهب والفضة واليورانيوم ولكن غياب القدرة وكفاءة الأداء السياسى يعطل ذلك الاستخدام.

وأهم تحد واجه حكوماته بعد الاستقلال، هو إنشاء شبكة طرق تربط أطرافه المترامية، ومازالت الطرق المعبدة لاتتجاوز٨٪ من ٢٠ ألف كيلومتر، والسكك الحديدية ٥٥٠ كيلومترا فقط، ومساحة السودان نحو إثنين ونصف مليون كيلومتر، وساحل السودان على البحر الأحمر يبلغ طوله ٧٢٥ كيلومترا.

والسودان قلب القارة الأفريقية، ورمزها فما يعانيه من مصاعب هى ذاتها التى تعانى منها دول القارة السمراء بقدر أو آخر، ويطمح السودان أن يكون الجسر بين العرب وأفريقيا، ويحوله التخلف والتعصب إلى جدار عازل، حان موعد سقوطه.

وتقف التنمية والتطوير على رأس مهمات السودان الجديد، فهناك قصور واضح فى القيام بمشروعات تستهدف لم أطراف السودان، وعندما يقوم الحكم المحلى ببعض هذه المشروعات تجدها إقليمية ضيقة، لا ترتبط بين موطن المشروع وبقية أنحاء الوطن.

وحان الوقت لتنتقل الكثير من السلطات من المركز إلى المحليات ومن المركزية إلى اللا مركزية، وحدود السودان الجنوبية تصل إلى ٢٠٠٠ كيلومتر،

ويمثل الجنوب ٢٨٪ من المساحة الكلية للسودان، أى ٧٠٠ ألف كيلومتر مربع، ٤٠٪ منه مراع و٣٠٪ أرض زراعية، و٢٣٪ غابات و٧٪ مسطحات مائية، والحدود مع الدول الأخرى بلا معالم طبيعية، تقسم القبائل ويسهل عبورها.

ومما يساعد على استمرار وعزلة بعض مناطق السودان، قصور وسائل النقل، والانتقال إما عن طريق البواخر النيلية البدائية أو الطيران، وحتى مواصفات قضبان السكك الحديدية فهى تختلف عن المواصفات العالمية، وتختلف قضبان السكك الحديدية فى مصر عن مثيلاتها فى السودان، حتى يحول الاستعمار البريطانى من تواصل البلدين..

وبسبب صعوبة المواصلات، نشأت أجيال فى بعض المناطق التى لاتفرق بين الوحدة والانفصال، وظلت مناطق فى الجنوب وفى الشمال وفى شرق وغرب السودان تعانى من تخلف ملحوظ، وبعضها أصبح وكأنه متحف بشرى على ما كانت عليه الحياة فى فجر التاريخ.

والغريب أن الفروق العنصرية بين سكان الشمال والجنوب أقل بكثير من تلك الفروق بين قبائل الجنوب المختلفة، كما أن السودان امتصت العناصر المهاجرة إليها، ولم يعد بها خلافات عنصرية وإنما خلافات ثقافية.

وليس غريبا أن تسعى القوى الاستعمارية والصهيونية إلى إضعاف السودان ونشر الفرقة بين أبنائه، وترجيح الملامح الانفصالية فى أقاليمه، وتجاهل العوامل التى تجمع شتاته، وهو تحد يحفز أبناء السودان على الدفاع عن وحدته.

وحان الوقت لترصد الميزانيات التى كانت تنفق فى الحروب، من أجل مشروعات ربط مدن السودان وأقاليمه بعضه ببعض، وتقدر المحافل الدولية احتياجات السودان خلال السنوات الخمس المقبلة، بـ ١٦ مليار دولار.

قناة جونجلى

إذا عدنا قليلا إلى الوراء نجد أن بداية التمرد فى الجنوب، كانت الهجوم على معدات مشروع إقامة قناة جونجلى، وأعقب ذلك الإعلان أن من أهدافها إسقاط اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر، والبروتوكول العسكرى مع ليبيا، وطالبت الحركة بإلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة دولة مدنية.

وسنرى فى الأيام المقبلة، هل يلتزم د.جون قرانج بتعهداته التى أطلقها فى القاهرة، بإعادة العمل فى القناة، وقد كانت قناة جونجلى هى موضوع أطروحة الدكتوراه التى حصل عليها من إحدى جامعات الولايات المتحدة، وذكر فى القاهرة «أن القناة لها منافع شتى تعود على أهالى المنطقة بالنفع، فضلا عن مصر».

وهى القناة التى تساهم فيها مصر، وتقوم فى منطقة أعالى النيل، وتنقل المياه إلى مجرى جديد يقضى على المستنقعات بين جونجلى وملكال والتى ستقلل الفاقد والنحر وتوفر خمسة ملايين متر مكعب من المياه سنويا.

وبدأ المشروع بعد اتصالات ومفاوضات طويلة بين القاهرة والخرطوم، وبناء على طلب الحكومة السودانية، وبناء على اتفاقية مياه سنة ١٩٥٩ التى تقدم طريقة مواجهة زيادة الحاجة لمياه النيل،

فتاتان من قبيلة « الدنكا » أكبر قبائل السودان والتى ينتمى اليها جون قرانج

وتنص المادتان ١و٢ فى الفقرة الثالثة على أنه فى حالة احتياج أى من البلدين إلى المزيد من المياه لمقابلة المتطلبات الزراعية، أن يقوم بتنفيذ مشروعات أعالى النيل لاسترداد المياه الضائعة بفعل البخر فى منطقة السدود ومستنقعات بحر الجبل وبحر الغزال ونهر سوباط.

وطالب السودان بتطبيق هذا الجانب من الاتفاق، وطالب مشاركة مصر بنصف تكلفة المشروع، وبدأ المشروع بناء على ذلك. وبعد اتفاق السلام تتزايد فرصة إعادة العمل فى المشروع، باعتباره أحد مشروعات المستقبل، والذى يظهر نوايا الأطراف المختلفة.

وأخيرا..

إن التحدى الذى يواجه الحركة الوطنية السودانية بجميع طوائفها، هو تحد كبير وفى فترة زمنية محدودة بست سنوات، لايجوز أن يضيع منها شيء. يعمل خلاله السودانيون على مايوحدهم، لا مايفرقهم.

وبناء السلام بعد هذا الماضى الدموى، يحتاج إلى الكثير من الحنكة والاعتراف بأن السودان دفع غاليا نتيجة مثلث الجهل والتعصب والتطرف، وأن يعترف أيضا بأن الحركة العربية فشلت فى وضع حد لبعض مشكلات الأقليات فى بعض البلدان العربية.

نعم .. إنهم يريدون السودان أفريقيا، ولكنه سيظل أفريقيا وعربيا.. ■

صفحة من تاريخنا الأدبى المعاصر

تحولات: العقاد وزكى مبارك وطه حسين ومنصور فهمى

بقلم
د. محمد رجب البيومى

هذا المقال رد علي مقال د. ماهر شفيق فريد الذي نشر في العدد الماضي والذي اتهم فيه عددا من المثقفين أمثال طه حسين والعقاد وزكي مبارك ومنصور فهمي بالتحول عن منطلقاتهم الفكرية..

يقول الدكتور ماهر شفيق فريد فى ختام مقاله بعدد الهلال (يونيه ٢٠٠٤) ما نصه:

«وأرصد محزونا ابتعاد حنفى المتزايد عن المنظور الهيومانى العلمانى واقترابه من منظور سلفى أصولى وهو مثل المنحى المحزن الذى أجده بدرجات متفاوتة فى التطور الفكرى لطه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى، وإسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وغيرهم.

إن تراجع هؤلاء المفكرين عن منطلقاتهم الثورية الباكرة أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث، وفاتحة النزعات الانفلاتية الراهنة».

وقبل أن أناقش هذه الكارثة التى توهمها الكاتب ، أريد أن أسأله أما فكر ساعة واحدة فى إجماع هؤلاء الكبار حقا على العودة إلي الطريق الصحيح، وفيهم بالنسبة إليه أساتذة أساتذته، أيكونون جميعا مع قاماتهم العالية الرفيعة مخطئين، ويكون وحده المصيب الذى اكتشف الكارثة الأليمة فى الرجوع إلى الحق، مع أن الرجوع إلى الحق من أمهات الفضائل التى اشتهرت بين الباحثين ! أيكون وحده المصيب ؟!

ثم لا أدرى كيف جاء اسم المازنى بين هؤلاء ؟!.. والرجل لم ينحرف لحظة واحدة فيما كتبه من مقالات ملأت أمهات الصحف فى عصره! بل كان أحد الذين عارضوا هذا الاتجاه!! لقد كان عليه أن يرجع إلى أقوال هؤلاء يناقشهم فيما يراه سبب هذه الكارثة، ليوضح مبلغ ابتعادهم عن الصواب، أما أن يدينهم جميعا فى عدة أسطر ليترك الغافل من القراء فى حيرة من أمرهم وأمره فهذا موضع العجب الشديد وسأقوم أنا بإيضاح بعض الحقائق التى يجب أن تعلن فى هذا المقام أو أقول بعض الحقائق لأن جميعها تخرج عن نطاق مقال محدود فى مجلة الهلال.

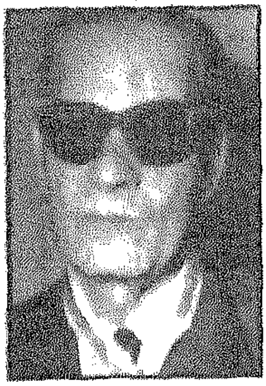

طه حسين

منصور فهمي

وسأبدا بالأستاذ العقاد، لأنه غير هؤلاء جميعا، فهو لم يكتب كلمة واحدة تسىء إلى ما سماه الدكتور ماهر المنظور السلفى بل دافع عنه فى بعض آثاره المشهودة، ولكن الذى آخذ عليه بغيا وعدوانا أنه اتجه إلى الدراسات الإسلامية بعد أن كان بعيدا عنها فى بارح شبابه! وهذا الاتجاه وحده هو الذى جعل الدكتور ماهر ومن تبعهم بغير إحسان، يعدون العقاد منحرفا! إذ كان عليه فى رأيهم أن يكتب عن بيكون وشيكسبير وتوماس هارد أما أن يكتب عن محمد بن عبدالله! فتلك هى الكارثة حقا!

وقد دافع العقاد عن هؤلاء بمنطقه الصارم الذى لا يُفل، وأذكر أنه رد عليهم بمقال لم يقع تحت يدى الآن، فقد طال العهد به حتى جاوز الستين من الأعوام، ولكنى أذكر منه أنه أكد أن فرويد اليهودى حين كتب عن موسى، وأن رينان المسيحى حين كتب عن المسيح لم يوصفا بالرجعية والجمود، بل ظل كتاباهما موضعا للمناقشة العلمية الهادفة ايجابا ورفضا ولكنه حين كتب عن عبقرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاق به من يضمرون للإسلام الكراهية باطناً حين لا يجرؤون على إعلانها ظاهرا، وإذا كان كتاب أوربا مثلهم المرموق فلماذا لا ينكفئون فى جحورهم، وهم يرون أنبياء الله مجال الاهتمام عند سادتهم موضع الاحتفاء والتنويه! هذا بعض ما بقى فى ذهنى من حديث العقاد، أما ما عثرت عليه من قوله فى هذا المجال، فهو ما أنقله عن مجلة الرسالة بالعدد ٥٧٩، ١٩٤٤/٨/٧ :

الدعاة المغرضون للمذاهب الهدامة:

«إن الدعاة المغرضين للمذاهب الهدامة يكرهون الكتابة فى بعض الأمور ثم لا يجسرون على الجهر بعلة الكراهة، لأنها تصرف عنهم الأسماع والعقول، فيحاولون

الوصول إلى أغراضهم من طريق غير طريق العقول، يكرهون الكتابة عن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، وعن الأدب واللغة والدين، يكرهون الكتابة عن كل ما يحيى فى الأمم نخوة وطنية، أو نخوة روحية لأنهم لا يريدون إلا أن يشعروا بطبقة واحدة لا تجمعها بالآخرين جامعة دين ولا وطن يكرهون ذلك لكنهم يخرسون دون الجهر بما يكرهون.

ويقول العقاد فى موضع آخر (الرسالة عدد ٥٧٧، ١٩٤٤/٧/٢٤).

«إن الروح العربى لازم جدا فى هذا العصر لأن المذاهب الهدامة التى تهدد مستقبل الأمة كلها تأبى أن تكون للأمم نخوة قومية أو نخوة دينية، ولهذا نحن نكتب عن خالد بن الوليد، وعلى بن أبى طالب، وعمرو بن العاص، وكل بطل من أبطال التاريخ والأصرح من هذا كله والأكثر كشفا للنقاب عما يكن، هو ما صرح به الدكتور زكى مبارك رداً على الدكتور محمد مندور إذ كان قريب العهد ببعثته إلى باريس، وقد رجع ليحمل معولا يهدم به ما يراه موضعا للهدم فى منطقه الخاص، فكتب يقول فى مجلة الثقافة:

«ما بال معظم كتابنا قد انتهوا بالكتابة عن محمد؟ أهو إيمان من يشعر باقترابه من اليوم الآخر ذلك ما نرجوه، وإنما هناك أمر لا شك فيه وهو أنا وصلنا من التزمت حدا تبرأ منه كل الأديان على السواء» .

هذا ما نقله الدكتور زكى مبارك عن صاحبه، وقد فنده بقوله ببعض التصرف نقلا عن العدد ٤٧١ من الرسالة «معنى هذا أن الكتابة عن الرسول ضرب من المتاعب، وأنها دليل على ابتلاء الجمهور المصرى بالتزمت والجمهود، والحق أن عصر النبوة يحتاج إلى دراسات تاريخية، وأن ما كتب فيه لهذا العهد ليس إلا تباشير لدراسات تستغرق مئات المجلدات لأن ذلك العصر كان مطلع نهضة إسلامية إنسانية تركت أعظم الآثار الروحية في المشرق والمغرب.. ولو نظرنا فيما كتب الأوربيون فى مدى عشرين سنة عن شاعر من شعراء الأساطير مثل هوميروس لوجدنا عنايتهم به تفوق عناية العرب بتاريخ حياة الرسول فى مدى أجيال مع العلم الوثيق بأن الرسول العربى ترك فى الوجود آثاراً تفوق من سبقه من الأنبياء بَلْهَ الشعراء.

وواجه الدكتور زكى مبارك الموقف المشبوه بصراحة حازمة حين قال:

«لم يقل أحد أن هيكل كان رجعياً حين ترجم لجان جاك روسو، ولا قال قائل إن العقاد كان رجعياً حين ترجم لابن الرومى، ولا قال قائل برجعية طه حسين حين ترجم لأبى العلاء المعرى ولكن الرجعية أصابت هؤلاء الأساتذة حين شغلوا أنفسهم بتاريخ عصر النبوة لأنه مصدر من المصادر الدينية.. إن تاريخ عصر النبوة لم يأخذ من عنايتنا كل ما يستحق لأنه ليس مصدر ثروة روحية فحسب، وإنما هو مصدر ثروات

أدبية واجتماعية وتشريعية، وصدور هذه المباحث من غير رجال الدين الرسميين معناه أن كل مسلم مسئول عن شرح أغراض الدين الحنيف».

زكى نجيب محمود

وننتقل من الحديث عن العقاد إلى الحديث عن اتجاه الدكتور هيكل، وشغفه بالحديث عن عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة، فقد كفانا أن نجهد أنفسنا فى البحث عن تعليل ذلك حين اعترف بتطوره الفكرى فى وضوح سافر لا يحتمل اللجاج! وحديثه مسجل فى كتاب (فى منزل الوحى)، ولكننا سنشير إليه بما يبرز مدلوله دون انتقاص.

مقالات تمجد الحضارة الحديثة

عباس محمود العقاد

لقد رحل الدكتور هيكل إلى باريس بعد أن أتم دراسة الحقوق فى مصر ليجد الأقلام هناك تمجد الحضارة الأوربية، وتنحى باللائمة على تأخر الأمم الإسلامية، وتدعو إلى نهضات شرقية عن طريق الاحتذاء الأوربى وبخاصة وطن الحرية والعدالة والمساواة فرنسا صاحبة الثورة الشهيرة، فتأثر الشاب الطموح بما قرأ، وأخذ يرسل مقالات تمجد الحضارة الحديثة، كما خص جان جاك روسو برسالة تقدر ريادته الاجتماعية والسياسية، وتعد العقد الاجتماعى الأساس الأول للديمقراطية المنشودة، وحين رجع إلى مصر ، وإلى الحديث فى اندفاع مع نفر من زملائه وجدوا فى جريدة السفور متنفسا لأحلامهم المرغوبة، ثم قامت الحرب العالمية الأولى تعلن دمار الحضارة الأوربية، وإفلاسها الشائه، كما أن إصرار المنتصرين على تقسيم الشرق إلى مستعمرات تخضع للاحتلال الظالم لم يبق أملاً فى أدعياء الحرية والمساواة، وهنا اتجه هيكل بتفكيره وجهة ثانية هى الاهتمام بالحضارة الفرعونية، والدعوة إلى إحياء تاريخ الأجداد ليكونوا رادة البعث الجديد، وجعل هيكل يزور المعابد والآثار القديمة فى أطراف الصعيد والجيزة والفيوم والشرقية ممجدا هذه الآثار ومحررا فصوله المسهبة عن ارتقائها الزاهر، وكان الرجل فى حقيقة أمره باحثا عن الحقيقة ينشدها، تلك الحقيقة التى تأخذ بساعد أمته وتنقلها من التخلف إلى النهوض، ولكنه بعد سبح طويل فى هذا الماء المتلاطم، وجد أن دعوته إلى الفرعونية لا تمت إلى روح الشعب المعاصر بعد أن تغيرت لغته ودينه وتقاليده عن حالها الأول، وفكر مرة ثالثة، فوجد أن مصر الإسلامية لا يمكن أن تصعد إلى أوج العزة والسعادة إلا ببعث عربى يعيد المجد السالف، وهذا ما عبر عنه الكاتب الكبير حين قال فى (منزل الوحى) ص ٢٤:

«لقد حاولت أن أنقل إلى أبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعها هدى ونبراسا، لكننى أدركت بعد لأى أنى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض لا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة فيه، فانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هذا العصر، ينشىء فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العلمى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة ورويت فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس، وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة، تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين».

وإذن فقد اهتدى الدكتور هيكل إلى الغاية السعيدة بعد خطوات تعثرت فى مبدئها، ثم واصل السير حتى بلغ الشاطىء فى اطمئنان، وهو فى هذا العناء المتصل بحثاً عن الحقيقة، وتطلعا إلى أفق يشرق بالضياء، له من أعلام التاريخ فى القديم والحديث، زملاء تطلعوا إلى الأفق البعيد، وما راعهم عناء السير، ولا وعثاء الطريق حتى انجلى الصباح لعيونهم المتطلعة، فحمدوا الله على غب السرى، فرحين . أيقال بعد ذلك إن الاهتداء للحق أكبر كارثة حاقت بالفكر الحديث؟!

الشبه قريب بين دكتور هيكل ومنصور فهمي

والأمر فى الدكتور منصور فهمى قريب الشبه بالدكتور هيكل، بل كاد يقاربه تماما! لأن منصور فهمى رحل إلى باريس كما رحل الدكتور هيكل، وكان شابا حدثا لم يكمل تعليمه العالى فى مصر، وقد تلقفه المستشرق اليهودى (ليفى بريل) فاختار له أن يكتب رسالة الدكتوراه عن المرأة فى الإسلام، وهو موضوع لا يمكن أن تكون بحوث المستشرقين وحدها كافية لإنضاجه على الوجه الصحيح، بل إنها العامل الأول لنشوزه عن سواء السبيل، وكأن المستشرق المغرض أراد برسالة منصور أن تكون بنشوزها السافر المرجع الأول لمن يريد البحث عن منزلة المرأة ، فأوحى له من الأراجيف حول رسول الإسلام ، وتعدد زوجاته، ما أثار زملاء منصور فى باريس، فأرجفوا به فى مصر بعد نوال الدكتوراه، فعاد ليجد عاصفة حادة حالت دون انتمائه السريع إلى هيئة التدريس بالجامعة، وقد اعترف الدكتور الشجاع بتورطه فى البحث دون استعداد، وأنقل هنا بعض ما ذكره فى مجلة (حياتك) الصادرة فى ديسمبر ١٩٥٨ «كانت رسالتى فى الدكتوراه عن المرأة فى الإسلام، فاندفعت أكتب بحرارة الشاب المندفع ويظهر أنى انحرفت قليلا حيث كانت معلوماتى عن الإسلام طفيفة، وحين قوبلت فى مصر بضجة كبرى ازددت عنادا، ثم كتب الله لى أن أجلس طويلا مع بعض مشايخ العلماء، من ذوى الأفق الواسع والصدر الرحيب من أمثال الشيخ حسونة النووى والشيخ مصطفى عبدالرازق، والشيخ على سرور الزنكلونى، وهم

الذين يمثلون رجل الدين الحقيقى فى عقولهم وعلومهم فبدأت أخلص من الزيغ لأعود إلى حظيرة الدين والحمد لله».

محمد حسين هيكل

وقد زاد على ذلك فى موضع آخر، نشر بمجلة لواء الإسلام شوال سنة ١٣٧٨ هـ إذ تحدث بإعجاب عن لقائه بالشيخ حسونة النووى شيخ الأزهر الأسبق فقال «إنه أرشدنى إلى قراءة القرآن وصحيح البخارى باهتمام وجدية فوعدته بذلك، واستحييت ألا أفى بعهدى فعكفت على قراءة البخارى، وعجبت لغفلتى الأولى إذ وجدت حكما ونظما، وأخذت أقارن ذلك بما درست من فلسفة، فوجدت ما جاء به (محمد) أعلى من كل فلسفة، وأن الإلهام الصادق يبدو من كل حديث فشهدت أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله».

زكى مبارك

كان اطمئنان منصور لما وصل إليه من حقائق الإسلام، دافعا له أن يهدى الشباب الغافل إلى تعاليمه. فانضم إلى جمعيات كثيرة منها جمعية الشبان المسلمين، وجمعية مكارم الأخلاق، وجمعية نشر الفضائل والآداب الإسلامية، ليكون الخطيب البارز فى ندواتها المتوالية، وكان يمتاز بين خطباء هذه الجمعيات وأكثرهم من علماء الأزهر باتجاه غير معهود لأن دراسته الفلسفية قد أمدته بمقارنات كانت جديدة على الجمهور فى إبانها فجعلت لقوله مذاقا خاصا، فهو مثلا يقول فى الاحتفال بذكرى المولد النبوى بجمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠ هـ.

«إذا صح لأهل الفلسفة والتاريخ عند ذكر سقراط أن يقولوا إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض يعنون بذلك أن وجهة العلم قد غيرها هذا الفيلسوف إذ كانت مقصورة على البحث فى حقائق الهيئة والنجوم والأفلاك فحولها سقراط إلى البحث عن حقائق الإنسان ونفسيته ومسلكه، كذلك يصح لمؤرخى الديانات أن يذكروا ذلك الحدث العظيم حين حول محمد بن عبدالله، معاملات الناس فى الدنيا ومعايشهم الجارية فيها فرفعها من خفضها الأرضى، ووجه مسامها الدنيوى وجهة عالية، فجعل فى شتى معاملات الناس بعضهم بعضا، صلة بالتعبد والتقوى، وجعل فى شتى مساعيهم، ومكاسبهم جوانب ترتبط بأمر الله، حين يحبب لعباده ابتغاء الأحسن فيما يعملون، وبذلك رفع محمد صلى الله عليه وسلم أديم الأرض إلى وجه السماء».

وقد جعل من منابر قاعة يورت التذكارية، والجمعية الجغرافية، والمجمع العلمى المصرى مجالا للحديث عن الإصلاح الاجتماعى، وموضعاً لتصحيح ما أخطأ فيه من قبل فى رسالته عن المرأة، وأنا بالجزء الخامس من موسوعة النهضة الإسلامية،

سجلت بعض ما قاله في هذه الندوات، فليت شعرى أيكون رجوع منصور فهمى إلى الحق إحدى الكوارث الكبار التى حاقت بالفكر العربى الحديث؟!

ويأتى الحديث عن طه حسين، وأنا أتحدث عنه مكرها، وبودى لو تجاوزته، ولكن الدكتور ماهر قد ذكره، لذلك سأحاول الإيجاز المبتسر عن شطحاته الأولى ، لأطيل بعض الشيء في ما أذكره من اطمئنانه لدينه بعد أن جاوز عهد التوثب والجموح.

طه حسين وكتاب فى الشعر الجاهلى

تحدث الدكتور فى كتاب الشعر الجاهلى عن أمور تتعلق بالقرآن وإبراهيم عليه السلام كانت موضع الاستنكار والثورة، لأن البحث لم يكن يتطلبها أصلا، بل أقحمت إقحاما لتحدث الضجيج الذى ينشده، ثم عاود الحديث فى محاضرات ألقاها على الطلاب تصف القرآن بما ليس فيه مما نتخطاه دون تعقيب، حتى إذا فات زمن الطموح البراق، ثاب الدكتور إلى التؤده فأصدر كتابه (فى مرآة الإسلام) ليعصف بكل ما قذفه من الشبهات الواهية، فاليهود في هذا الكتاب أميون لا يعرفون القراءة كالعرب تماما، والأحبار منهم كالعامة أميون، وهم بذلك لا يملكون أدنى تأثير ثقافى، ويعجزون كل العجز أن يدلوا لرسول الله بما يؤيد دعوته ، وقد قال الدكتور فيما قبل إن اليهود كان لهم تأثيرهم فى القسم المدنى من القرآن، فجاء اعترافه بأميتهم الشديدة ماحيا لكل ما قال، وإذا كان القصص القرآنى فى رأيه السابق يميل إلى الاقتضاب وعدم استيفاء الغرض فإن الدكتور فى مرآة الإسلام قد خطأ ذلك كله، وقال عن القصص القرآنى إنه يمضى فى هدوء ومهل لأنه يتجه إلى إثارة التفكير والاعتبار والتروية تارة، وتارة أخرى يميل الأسلوب إلى التأثير الوجدانى فتقصر الآيات وتسرع، وتتسق الآيات وتتجسم وتتكرر عبارات بعينها فى آخر كل قصة، ولا يفرغ القارئ من قصة، حتى تعاجله قصة أخرى تجرى على هذا النسق الآخذ، يقول الدكتور «وإنك ترى من جمال اللفظ، وروعة الأسلوب واتساق النظام ما يسحرك ويبهرك، ويملك عليك أمرك كله فإذا أنت خاشع لما تسمع أو تقرأ، معجب به مستزيد منه حتى حين يستأثر بك العناد».

وقد بلغ الدكتور موضع الإصابة البلاغية الدقيقة حين قال عن إعجاز القرآن «إن اختلاف مذاهب القول فى القرآن دليل قوى من دلائل الإعجاز، فللقرآن وحدته من حيث إنه يدعو دائما إلى أصول معينة.. وهذا التنوع فى مذاهب القول هو الذى يسميه أصحاب البيان فى اللغة العربية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولو ذهبت أصف فنون الإعجاز فى القرآن، وملاءمته لكل مذهب من مذاهب القول لما فرغت من الحديث».

هذا هو طه حسين حين فاء إلى الصواب فمحا بضوء الصباح ظلام الليل!

أفيكون بذلك قد أسهم فى أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث؟!

عبد القادر المازني

أما الأستاذان على عبدالرازق وخالد محمد خالد فأحب أن أتحدث عنهما معا لأنهما عالمان فاضلان من نابهى علماء الأزهر، وقد سبق الأستاذ على عبدالرازق بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) ثم قفى على أثره الأستاذ خالد بكتابه (من هنا نبدأ) والكتابان ينزعان عن قوس واحدة ترمى إلى فصل الدين عن الدولة، وتعد الخلافة والحكم أمرين مدنيين لا يتصلان بالإسلام، إذ هو علاقة روحية بين العبد وربه، وقد صدرت كتب قيمة ترد على الأستاذ على عبدالرازق بأقلام الكبار من شيوخ الدين، مؤيدة بالمنطق معتصمة بالدليل، وكان للسياسة الداخلية فى مصر اتهام كبير فى اشتداد الجدل، فعرف الأستاذ مما كتبه ناقدوه كثيرا مما لم يكن يعلم، وأيقن أنه حاد عن الصواب، وأحمد الله أن وفقني للقاء الأستاذ، فناقشته بأدب بالغ فى وجهة نظره مناقشة الطالب الصغير للأستاذ الضليع، ففاجأنى بأنه لم يقل إن الإسلام صلة روحية، وأنه أعلن ذلك فى مجلة رسالة الإسلام الصادرة فى رمضان سنة ١٣٨٠ هـ يوليه سنة ١٩٥١، وكان الأمر غريبا جدا علىّ، فأخذت أبحث عن العدد المشار إليه حتى وقع فى يدى، وقرأت منه هذه الفقرات

علي عبد الرازق

«فقد زعم الطاعنون أنى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت عليهم بأنى لم أقل ذلك مطلقا، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره، ولا قلت شيئا يشبه هذا الرأى أو يدانيه، أقول ذلك ليذكر الأستاذ الكبير - يريد أحمد أمين - أن فكرة روحانية الإسلام لم تكن لى رأيا يوم نشرت هذا البحث المشار إليه».

وإذن فقد تراجع الأستاذ عن رأيه المدون فى كتابه ص ٦٩ وما بعدها، ولعله نسى ما كتب، وهو أمر يحدث كثيرا، والعجيب أن نفرا من القائمين على نشر ما يسمونه كتب المواجهة فى وزارة الثقافة، أعادوا نشر كتاب الأستاذ، وهم يعلمون أن صاحبه تراجع عن مضمونه، يعلمون ذلك لأنى أشرت لهذا التراجع فى مجلة الثقافة وغيرها، كما أن صديقى الدكتور محمد عمارة قد طلب منى أن أصور له نسخة من مقال الأستاذ فى مجلة رسالة الإسلام ففعلت، ونشر التراجع فى أكثر من مقال، وأكثر من كتاب!

وتراجع الأستاذ خالد لا يحتاج إلى دليل لأنه نشر كتابا تحت عنوان (دين ودولة) أعلن فيه ما جاء من الخطأ فى كتاب (من هنا نبدأ) كما أراد أن يكون إعلان الخطأ على أوسع نطاق فنشر فى جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ ١٩٧٧/٨/٢٣ مقالا قال فيه بعد أن أشار إلى ما دونه فى كتاب (من هنا نبدأ).

(وإنى لأرجو أن يكون كلامى هذا تصحيحا لرأى أبديته من قبل فى كتابى (من هنا نبدأ) إذ قلت يومها إن الدين لا يعنيه أن يكون دولة، ولا يعنيه أن يتدخل فى بناء الدولة وكنت يومها متأثرا بتصور مسيحى عن الحكومات الدينية، لاسيما تلك التى قامت فى ظله الكنيسة بأوربا فى عهود الظلام ناسيا يومها أن الإسلام مختلف جدا، وأن الدولة بشكلها ومضمونها كانت تعنيه إلى أبعد مدى، وأنه خاطبها بمسئولياتها كما خاطب الفرد والجماعة بمسئوليتهما، وفى الإسلام بالذات لا يمكن عزل الدين عن الدولة إلا إذا أمكن عزل الدين عن الدين).

فهل تصحيح الخطأ كارثة أو أن السكوت عن التصحيح كارثة؟ هو كارثة طبعا عند من أعادوا نشر كتاب (من هنا نبدأ) فى بيروت بعد وفاة الراحل الكريم، إذ يصرون على تثبيت خطئه لحاجة فى نفس يعقوب!

وكما جمعت بين الأستاذين على عبدالرازق وخالد محمد خالد، أجمع بين الدكتورين عبدالرحمن بدوى وزكى نجيب محمود لتشابه واضح بينهما، مبدأ وخاتمة، فالدكتور عبدالرحمن بدوى لم يدرس الثقافة الإسلامية فى مطلع حياته فى كتب التراث العربى، بل اتجه إلى مؤلفات الاستشراق فكانت وحدها طريق معرفته أو خطئه فى فهم الثقافة الإسلامية، وإذا كنا نعرف أن الاستشراق يذهب إلى خلو الفكر العربى من التفسير الفلسفى، وأن الثقافة اليونانية هى التى احتلت عقول من ينتسبون إلى الفلسفة من المسلمين، حتى إن علم الكلام فى رأيهم مستمد من فلسفة اليونان، فإذا تحدثوا عن التصوف الإسلامى نسبوه إلى الفرس أو الهند، إذا كنا نعرف ذلك فقد ظهرت مؤلفات الدكتور بدوى الأولى تدور حول هذا المدار، وخاصة فيما كتبه عن التصوف والصوفيين، ثم سافر إلى فرنسا، وناقش تلاميذ الكبار من المستشرقين الذين رحلوا عن الحياة، وقرأ أصول كثير من المخطوطات العربية، فعرف مقدار الخطأ البالغ الذى وقع فيه، حين اعتمد على الدراسات الاستشراقية وحدها، ووجد أخطاء كثيرة تتطلب التصحيح، فقام برد الأخطاء الاستشراقية بالمنطق، وتطلع إلى تصحيح ما كتب القوم عن رسول الله من أخطاء متعمدة ولم تجىء عفوا فكان بذلك مثالا للباحث عن الحقيقة! فعل ذلك وهو فى فرنسا وكتبه بلغة القوم مهاجماً افتراءاتهم بسيوف لا تفل، أفيكون بعد ذلك سببا فى كارثة علمية لحقت بالفكر العربى الحديث؟! أما الدكتور زكى نجيب محمود فقد اعترف اعترافا صريحا أنه فى عهده الأول لم يقرأ كتابا واحدا لعلم من أعلام المسلمين، وكل ما قرأه عن الفكر الإسلامى

خالد محمد خالد

جاء عن الاستشراق، ثم هداه الله إلى قراءة كتب الغزالى وابن رشد وأبى حيان التوحيدى وأبى سليمان المنطقى وابن حزم الأندلسى فوقف على نماذج رائعة من ثمار الفكر الإسلامى، وعرف أنه كان بعيدا عن منهل دافق يتدفق بالنفع العلمى الجزيل، وقال إن تأخر اطلاعه على هذا التراث الحفيل دفع به إلى تسجيل أخطاء تتطلب التصحيح! هذا الاعتراف الصادر عن نظرة متأمل، لن يعجب الذين يحاولون تجريد الفكر الإسلامى من كل تفوق علمى ساهم فى الرقى العلمى، وعده القوم كارثة علمية لحقت بالعالم العربى وأدت إلى إرهاب المتطرفين.

مصطفى محمود

ولن أسهب في موقف الدكتور مصطفى محمود، لأن الواقع الراهن قد أيد صوابه حين خرج عن الماركسية، وعدها وباء اكتسح الناس، لأن الماركسيين أنفسهم قد عرفوا ذلك، وأعلنوه فى ثورة عارمة هدمت المقررات والثوابت التى شوهت الحقائق، وخدعت الأفهام ردحا من الزمان، فليت شعرى أنكون ملكيين أكثر من الملك حين نأخذ على الدكتور مصطفى محمود رجوعه إلى الصراط القويم!

لم يبق غير الأستاذ إسماعيل مظهر، وقد كان الرجل صادقا بينه وبين نفسه حين تحمس لنظرية أصل الأنواع وأصدر مجلة العصور لتأييدها، فكان الثانى فى هذا المجال بعد الدكتور شبلى شميل، وباع عقاره الذى ورثه عن أبيه لينفق على مجلته ومؤلفاته الخاصة بهذه النظرية، ثم جرت بحوثه فى جامعات أوربا وأمريكا تنقد هذه النظرية، وتجتث أصولها بالبراهين، فقرأها الأستاذ مظهر لأنه طالب حق، وليس مبشراً مستأجراً لترويج مذهب، ووقعت فى يده كتب إسلامية لم يكن ألم بها من قبل، فأشاد بها، فكان ممن أسلم وجهه لله وهو مُحسن!

بعد هذه الحقائق التى حاولت إيجازها قدر المستطاع، وقد تركت الكثير مما جاش فى صدرى منعاً لإملال القارىء، بعد هذه الحقائق أقول، كان الدكتور ماهر شفيق فريد فى غنى عن هذه السطور البعيدة عن الصواب التى ختم بها مقاله، إذ لم يكن السياق فى حاجة إليها، ولعله يتأمل فيما بعد معانى الكلمات تأملاً دقيقاً! فلا يقذف بمثل قوله (أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى الحديث) لأن أمثال العقاد وهيكل وطه حسين ومنصور فهمى وزكى نجيب محمود والمازنى إذا كانوا سببا لأكبر كارثة! وهم أعلام العصر دون نزاع فإن الإجماع الراسخ على زعامتهم العلمية لم يجىء من فراغ أو زيف بل جاء عن رسوخ ويقين! والكارثة كل الكارثة أن نجهل مكانهم الرفيع. ■

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

طه حسين

ومعاصروه

مواقف إنسانية في حياته

بقلم
د. محمد الدسوقي

يأخذ البعض على عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين أنه كان شديد الخصومة مع من يخالفه في الرأى، وقد يتخذ هذه المخالفة ذريعة للنيل منه أو الإساءة إليه، ويضربون مثلا لذلك بما كان بين العميد والدكاترة زكى مبارك، أو بين العميد ومصطفى صادق الرافعى، ولكن الحقيقة أن العميد لم يكن يرى في الخصومة الفكرية وسيلة للعداوة التى تحمل على الكيد، أو التآمر، فقد كان إنسانا رقيق الشعور طيب القلب، يستجيب لكل طارق، ويسمع لكل شكوى، ويصدق بكل ما يسمعه، وكان يتألم أبلغ الألم إذا قرأ خبرا عن كارثة أو حادثة، ومن ثم كانت أخبار الحروب تزعجه كل الإزعاج، وكذلك أخبار المجاعات والأوبئة.

وقد حدثني العميد كثيرا عن علاقته بطائفة من اعلام عصره، وكيف أحسن إلى بعضهم، بيد أنهم لم يدفعوا بالتي هي أحسن وتآمروا عليه، ومن هؤلاء الدكتور أحمد أمين والدكتور عبدالرازق السنهوري، فقد كان الأول يعمل بالقضاء الشرعي، وكان يضطر إلى الذهاب إلى بعض المناطق النائية: «وقد سعيت لنقله إلى كلية الآداب، وكان يلجأ إليّ في علاج مشكلات أبنائه في التعليم، وكنت أعاونه ما استطعت ، وأذكر أني يسرت لبعض هؤلاء الأبناء فرصة السفر إلى الخارج للدراسة على حساب الدولة».

«أما الثاني فقد ساعدته في الترقية إلى درجة أستاذ، ثم في تعيينه قاضيا بمحكمة المنصورة المختلطة، وبعد مدة طلب مني أن يعمل في قضايا الحكومة، وتبين لي بعد ذلك ان الدكتور أحمد أمين تنكر لي وانضم إلى الدكتور السنهوري في التآمر ضدي، فقد كان النقراشي مع النحاس ثم انشق عليه وانضم السنهوري إلى النقراشي، وخاصة في السياسة، وحين عين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشي أخذ يكيد لي ويتآمر وأنا لا أدري.

لقد أحسنت إلى كليهما وكنت أعمل على تحقيق ما يطلبان مني، ولكنهما انقلبا عليّ ومكرا بي ولست أدري سببا لهذا».

سلوك زكي مبارك

وأما ما يقال من أن الدكتور طه كان من وراء خروج زكي مبارك من الجامعة فإن هذا غير صحيح فقد قال لي العميد: إن خروج زكي مبارك من الجامعة يرجع إلى سلوكه الشخصي، فمثلا ذكر لي فؤاد سراج الدين أنه كان ينجح في الامتحان حين كان يدرس بكلية الآداب قبل ان يتلقى دروس كلية الحقوق – فقد كان النظام في ذلك الحين يفرض أن يدرس طلبة كلية الحقوق في كلية الآداب بعض المناهج في اللغة والأدب قبل دراسة علوم الحقوق – ذكر لي فؤاد أنه كان لا يذاكر علوم الآداب، وكان ينجح بفضل مجاملة زكي مبارك له.

وقلت للعميد: وما رأيكم فيما يذهب إليه البعض من أنكم عملتم على إقصاء الدكتور أحمد ضيف من الجامعة، وشغلتم أنتم مكانه ، وأنكم وقفتم من الدكتور علي العناني موقفا مماثلاً ؟ ورد العميد في حماس وانفعال وأقسم أن هذا كذب، وأني ما سعيت للإضرار بأحد في سبيل منفعة خاصة ، والحقيقة أن الجامعة بعد أن أشرفت عليها الدولة وأصبحت رسمية عينت فيها أستاذا ، فغضب الدكتور ضيف والدكتور عناني لعدم تعيينهما كما عينت وأنا لم أسع

للتعيين في درجة أستاذ، والملك فؤاد هو الذي اقترح تعييني في هذه الدرجة فما يقال من أنني سعيت للإضرار بأحد في سبيل مصلحة خاصة غير صحيح.

الهروب من طه حسين

وفي لقاء في منزل العالم الجليل، والباحث الضليع والمفكر الثبت الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة، وعلى مائدة العشاء الفاخرة التي تعبر عن الكرم الحاتمي دار حديث فكري بين الحاضرين وفيهم المغربي والتونسي والسوري والمصري، وتناول هذا الحديث فيما تناول طرفا من المواقف الإنسانية للعميد، فقد قال الدكتور الشكعة: لقد التحقت بكلية الآداب طالبا بقسم اللغة العربية، ودرس لنا الدكتور طه حسين الأدب العربي في سنوات الدراسة الأربع، وكنت أناقشه معترضا على بعض ما يثيره من قضايا وآراء، ومنها نسب المتنبي، فالعميد كان يذهب إلى أن هذا الشاعر مجهول النسب، فهو لقيط ولكني عارضت في هذا وقلت إن المتنبي ليس مجهول النسب فهو ابن شرعي لأبيه، وما كان العميد يرد على اعتراضي أو يفند رأيي، وفي السنة الثانية حذرني زملائي .. مما قد أتعرض له بسبب مناقشة العميد فيما يبديه من آراء، ومنهم من قال لي : إنه سيخرب بيتي، وفكرت مليا في الأمر، فقررت ترك قسم اللغة العربية والألتحاق بقسم التاريخ ورحب بي رئيس هذا القسم، وهو الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم الذي كان عميداً للكلية، ومكثت نحو شهر ونصف أدرس في قسم التاريخ.

وفي يوم أخبرني عميد الكلية أنه يريد الحديث معي في أمر مهم، وكانت المفاجأة أن هذا الأمر يتعلق برغبة الدكتور طه حسين في لقائي، ولم يذكر لي الدكتور إبراهيم سببا لهذا، فقلت: لعله يريد أن يعيدني إلى قسم اللغة العربية فأرجو منك أن تحميني، فقال عميد الكلية: لا أحد يستطيع أن يحميك من طه حسين!

ويستطرد الدكتور الشكعة قائلاً: وشعرت بشيء من القلق والخوف ولم أجد بدا من الذهاب إلى الدكتور طه في مكتبه بالكلية، فقال لي بعد تحيته:

من أذن لك بترك قسم اللغة العربية، فقلت: أنت يا أستاذي ، وكنت قد قدمت طلب التحويل إلى سكرتير الدكتور طه ، فريد شحاته، فوقع عليه بخاتمة دون أن يأخذ رأيه فيه – فقال: لم آذن لك، عد إلى قسمك، وانتهى اللقاء، وتركت قسم التاريخ، وواصلت الدراسة بقسم اللغة العربية، وعرفت من زملائي أن الدكتور طه سأل عني، لأنه لم يعد يسمع صوتي معترضا أو مناقشا، فلما قيل له بأني انتقلت إلى قسم التاريخ أصر على

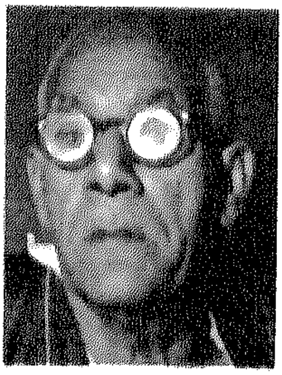
أحمد أمين

عبد الرزاق السنهوري

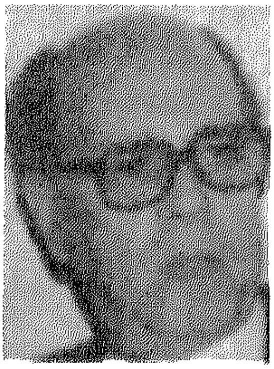
مصطفى الشكعة

أن يعيدنى إلى قسم اللغة العربية، ثم قال الدكتور الشكعة، ومرت الأيام بعد تخرجى فى كلية الآداب، وأهديت إلى أستاذى عميد الأدب العربى أول كتاب ألفته وكان بعنوان «قطوف من الأدب والفن» وجلست معه نحو ساعتين فى بيته، غمرنى فيهما بمشاعر الأستاذية الواعية والأبوة الحانية والعطف الكريم.

ويذكر الدكتور الشكعة أن العميد سئل يوما عن أفضل ما كتب عنه فقال: ما كتبه مصطفى الشكعة، وذلك لأنى كتبت عنه نحو ثلاثين صفحة دون أن أذكر فيما كتبت كلمة صريحة عن فقد بصره، وإنما كنت أقول: يقرأ له، لأن طه حسين كان يضيق بالحديث بأسلوب مباشر عما تعرض له فى طفولته الباكرة، فعاش طول عمره كفيفا.

الدكتور طه والرافعي

وتطرق الدكتور الشكعة بعد هذا إلى ما كان من طلبة قسم اللغة العربية من استياء مما قاله الدكتور طه عن مصطفى صادق الرافعى، وقد تجمهروا أمام مكتبه، وتحدث بلسانهم الطالب مصطفى الشكعة، وقال لهم العميد: لقد تعجلتم فى الحكم. وكان عليكم أن تنتظروا حتى أفرغ من الحديث عن الرافعى فى المحاضرة القادمة، وفى هذه المحاضرة أثنى طه حسين على الرافعى ثناء طيبا، وأفاض فى الحديث عن الحرية وأهم خصائصه ومنزلته فى الأدب الحديث مما أذهب من نفوسنا ما ألم بها من قبل من ضيق وانفعال، وحمل ابنة الرافعى، وكانت طالبة بالكلية على أن تذهب إلى العميد لتشكره على ما قاله عن والدها، وقد قال لها أنت يا زينب فى مرتبة ابنتى أمينة، فأنا فى حكم والدك، ولعلك لا تشعرين بحرج، إن احتجت من أبيك شيئاً.

وقد قال لى العميد: إنه سعى لمنح ابنة الرافعى مجانية التعليم بالجامعة.

ولم يكد الدكتور الشكعة ينتهى مما قصة على الحاضرين من موقف الدكتور

طه منه ومن الرافعي، حتى تحدث الأستاذ الدكتور محمد على مكى أستاذ الأدب الأندلسى ، فقال: بعد تخرجى فى كلية الآداب أعلن عن عدة بعثات كان بعضها فى صميم تخصصى، وقدمت الأوراق المطلوبة ، ثم ظهرت نتيجة الترشيح دون أن يكون أسمى ضمن الذين رشحوا، فكتبت رسالة مطولة إلى الدكتور طه حسين، وكان وزيراً للمعارف ، وأشرت فى رسالتى إلى أنى أحق من سواى، ولكن يبدو أن الترشيح يخضع لمعايير غير علمية، وأن علاقة معرفة أو قرابة لمن يتقدم لبعثة بشخصية مسئولة من أهم مسوغات الترشيح، ونشرت الرسالة صحيفة أخبار اليوم، فقد كان لها موقف مناوىء من حزب الوفد، وبعد نحو أسبوعين تلقيت برقية لمقابلة وزير المعارف، وقال لى الدكتور طه بعد لقائه:

لقد أخطأت فيما كتبت، وما كان لك أن تتهم الوزارة بالمجاملة فى الترشيح، وكان يمكن أن تقدم للمساءلة القانونية بسبب ما جاء فى رسالتك، وكان ردى على الوزير أنى على استعداد لتحمل مسئولية ما جاء فى رسالتى ، كما أنى سأرفع قضية على الوزارة لأخذ حقى، وعقب طه حسين على ما قلته بقوله: لا تغضب، فهناك اعلان جديد لبعثة وأننى مرشح لها، وكانت هذه البعثة إلى أسبانيا لدراسة الأدب الأندلسى.

وسافرت إلى أسبانيا دون أن أعرف حرفا واحدا فى اللغة الأسبانية ، وعكفت على دراسة هذه اللغة حتى أتقنها، ثم حصلت على الدكتوراة فى فترة زمنية لم تتجاوز أربع سنوات .

وقال الدكتور مكى عن كتاب مستقبل الثقافة.. إن الحملة الظالمة على هذا الكتاب حالت دون الإفادة مما اشتمل عليه أفكار وآراء إيجابية وما أكثرها، ولم نصل حتى الآن إلى تحقيق بعضها.

وجاءت تعليقات بعض الحاضرين على ما قصه كل من الدكتور الشكعة والدكتور مكى، لتؤكد أن طه حسين كان إنسانا سمح النفس واسع الصدر، محبا للخير، فكان لا يبخل على من يسعى إليه طالبا عونه ومساعدته ببذل ما يستطيع بذله لبلوغ مايريد، وما كان الاختلاف بينه وبين غيره فى الرأى باعثا على المكر السيىء والحقد الأرعن والكيد الخبيث، وما كان يؤلمه أشد الألم إلا إساءة من أحسن إليهم، وانصراف بعض أصدقائه ومن كانوا يلوذون به فى العقد الأخير من عمره، ويعده نكرانا للجميل وعقوقا وهو شيء فظيع على حد قوله رحمه الله . ■

أقـــوال معاصرة

د. كمال أبو المجد

● «الوزير فى مصـر يأتى إلى وزارته، وهو لا يعـرف لماذا أتى، ثم يخرج منها، بالمنطق نفسه، فلا يعرف لماذا خرج!!»

د. كمال أبو المجد
وزير الإعلام الأسبق

● «الفقر أسوأ أسلحة الدمار الشامل على الإطلاق»

الرئيس البرازيلى
لويس سيلفا

● «فى أى حرب تخوضـها، ومهما كانت الخطة التى وضعتها لها، ستجد أن الأمور لا تجرى حسب الخطة»

تونى بلير
رئيس وزراء المملكة المتحدة

● «أتخيل مجتمعا يقوم على الاعتراف بالرغبات، وليس إنكارها»

الروائى الفرنسى الكسندر جاردان

● «لا يوجد فى القانون ما يعرف بالجرائم الدينية سوى عدد قليل من النصوص التى تجرم ازدراء الأديان، وهذه لا تحتاج إلى شرطة خاصة من أصحاب العمائم»

د. محمد نور الدين فرحات

د. محمد نور فرحات

● «الأوزان الشعرية العربية ثروة ايقاعية فريدة ، تميز الشعر العربى عن سواه فى العالم، إنها أجنحة حرية لا قيود تقليد»

الشاعر الفلسطينى
سميح القاسم

● «العرب يتصرفون وكأنه ليست هناك فائدة من أية محاولة لاقناع الناس بأفضلية الشعب العربى والمجتمع العربى والقيم العربية والاسلامية»

المستعرب والمترجم الألمانى روجرآلان

● «أنا سعيدة بفن الشعر الذى أتاح لى أن أقول الكثير، بأقل عدد من الكلمات»

الشاعرة الرومانية
كارولينا اليكا

الشاعر سميح القاسم

● «الإنترنت أصبح مركزا من مراكز المعرفة غير المسبوقة، فهو يدون التاريخ، ويطور العلم، ويفتح أبواب الحوار دون قيد، إنه بحق أخطر منجزات العصر الحديث.

العالم الأمريكى سيرف فينتون
المعروف فى الأوساط المعلوماتية بـ «أبو الإنترنت»

جســـربين الأجيـال

الروائى الكبير بهاء طاهر يقدم :

رواية عين القط لحسن عبد الموجود

بقلم

بهاء طاهر

أود أولا أن أشكر أسـرة مـجلة الهـلال لاحـتـفـائـهـا بالجيل الجديد من كـتـاب القـصـة والرواية. ذلك دور يليق بهذه المجلة الثـقـافـيـة الرائدة والمتجددة باستمرار، يعطى للمـرء الأمل وسط الكثير مما يدعو للإحباط فى حـيـاتنا الثـقـافـيـة الراهنة، الأمل فى أنه مـازال هناك من يهتم بصوت المثـقـفين والإصـغـاء إلى رسـائلهم ومحاولة إيصال هذه الرسائل إلى جمهور أعرض لا يجد فى وسـائل الإعـلام إلا مـا يغـيـب الـوعى ويصـرف الانتباه عن أى شىء جاد أو حقيقى فى حياتنا .

ومـجلة الهـلال العـريقـة تواصل أيضا بعملها هذا تقليداً استنته منذ زمن بعيد . فإنى لأذكر مثلا أنها قد خصصت فى عام ١٩٧٠ عدداً خاصاً لكتابات جيلنا الذى كان وقتـها فى أول الطريق، وكانت تلك دفعة حقيقية لنا وأتمنى أن يكون هذا العـدد (وأعـداد أخرى مماثلة) دفـعـة لجيل من المواهب التى تضـيف بالفـعل جديدا رائعـاً إلى الإبداع الروائى دون أن تلقى مـا هـى جديرة به من الاهتمام. ولقد أتيح لى قبل

هذا المقال أن أكتب أو أن أتحدث فى ندوات عن بعض هذه المواهب الجديدة مثل مىّ التلمسانى وشحاتة العريان ود . علاء الأسوانى وياسر عبداللطيف، وأعرف أن هناك أسماء كثيرة أخرى لكتاب وكاتبات من الجيل الجديد يسعدنى دائما أن أتعرف عليها وأن أتحدث عنها، فهؤلاء هم **مستقبل الأدب القادم** الذى يبشر بإضافات بالغة الثراء للإبداع الروائى، وهو شئ يفرح له كل محب للأدب .

* * *

هذا وبعض الروايات علامات. علامات فى مسيرة كتابها تشير إلى تحول كبير، وإذا ما تصادف أن كانت هذه الرواية هى الأولى لكاتبها فهى بشارة بمولد روائى يرجى منه الكثير فى مقبل الأيام، ولا أتردد فى القول بأن رواية «عين القط» لحسن عبدالموجود رواية علامة بهذا المعنى، وأدعو من قلبى أن تتحول البشرى إلى واقع نكسب بفضله روائيا ممتازاً فى مستقبل قريب .

تخلص الكاتب أولا فى هذه الرواية من عيب يشوب الكتابات الأولى للشباب وهو الرثاء للذات. فإذا كانت مجموعته القصصية الأولى «ساق وحيدة» تكشف عن حساسية مؤكدة، بل مفرطة، إزاء الألم الإنسانى، وتقع فى فخ الإدانة المباشرة للقيم وللشخصيات التى يكرهها الكاتب، فهو فى هذه الرواية الجميلة يتجاوز ذلك ليطل على العالم بعين الفنان الحقيقى التى ترى كل جوانب الصورة وتترك للقارئ مهمة الإدانة أو التبرئة أو التعاطف أو تعليق الحكم . و«عين القط» أنسب عنوان وأنسب وسيلة لهذه الرؤية.

فعين القط لماحة، جوالة، سريعة الحركة، ترى وترصد تجاور الأشياء وتناقضها دون أن تتطوع أو تبالى بالتفسير أو الحكم على ما ترى . ولكن نتيجة هذا الرصد المدهش والمتتابع للجزئيات وللشخصيات كما يسجله الروائى يفجر فى وقت واحد الفكاهة والأسى والمفاجأة والتعاطف والغضب ويجعل القارئ شريكا للقط وللروائى فى لملمة مئات أو آلاف الصور المبعثرة ليكون بنفسه فى النهاية لوحة جدارية لتلك القرية التى نعرف عنها فقط أنها فى الصعيد وأنها تجاور نجع السناوى .

وربما كان أول عنصر أحب التوقف عنده هنا هو عنصر الحس الفكاهى أو المفارقة النابعة من تتابع الأحداث. ليس فقط للإشادة بقدرة الكاتب على خلق هذه المواقف بدرجة عالية من التلقائية والنجاح دون أى تصنع وإنما لأن رصد المفارقة والجانب الفكه فى الحياة فى اطار وقائع مؤلمة فى حد ذاتها هى شهادة للكاتب، أى كاتب، على المقدرة على تجاوز ذاته لرؤية الحياة فى تكاملها حتى ولو كان هو نفسه مصدر الضحك . ولنأخذ مثالا من مقطع صغير فى الرواية بلغة الكاتب نفسه :

« فى كل مرة يقابلنى سعفان يسألنى واد مين إنت؟ وحينما أجيبه يبدى تهللا ويقول إبقى تعال بيت عمك. وبعد أن اعتبرته عمى وذهبت بالفعل إلى بيته سأل زوجته «واد مين؟» أخبرته، فنظر إلىّ قائلا عيال إيه ولاد الكلب دول.. مالكمش بيوت تقعدوا فيها؟!» .

هذا المقطع هو من رواية تتضمن أحداثا من بينها القتل والمعارك التى يدوى فيها الرصاص ويسقط الجرحى وهموم أخرى لا حصر لها ولكن انبثاق الفكاهة المفاجئة والعفوية وسط تلك الأحداث دليل على قدرة الكاتب على رؤية الحياة من جوانبها المختلفة، وهى من ثم دليل على النضج . والفكاهة بطبيعة الحال ليست هى الوسيلة الوحيدة لتقديم هذه الرؤية المتكاملة، فلكل كاتب طريقة فى رصد مفارقات الحياة، ولكنى أشير فقط إلى أن حسن عبدالموجود قد اختار هذا المنهج فى روايته الأولى وأنه حقق فيه نجاحاً باهراً

وتحضرنى بهذه المناسبة عبارة أذكرها كثيراً للمسرحى الفرنسى الشهير «جان لوى بارو» يقول فيها إن الملهاة أشد حزنا من المأساة. قول صادق تماما . فقد ابتسمت كثيراً وضحكت أحياناً وأنا أقرأ هذه الرواية ولكن الانطباع النهائى الذى تركته فى نفسى هو نوع من الأسى على أبطال أو شخصيات تلك القرية المنسية وعلى القرية ذاتها وتلك كما قلت هى شهادة للكاتب .

* * *

بطل هذه الرواية إذن وراويها هو قط اسمه قط وهو يتحول فى بعض الأحيان إلى قط حقيقى أو يتقمص قطا حقيقيا يرى العالم بعينه . وفى المشاهد التى يروى فيها كشخص حقيقى أو كطفل فهو يسرد لنا الأحداث بشكل مباشر ومحايد ويقدم لنا الشخصيات الأخرى بلمسات سريعة كما يراها بعين طفل فى حدود العاشرة من عمره. هناك أسرته - والده الصارم القاسى فى أكثر الأحيان، وأمه التى تحنو عليه وتصدق (على عكس أبيه) أنه يتحول بالفعل إلى قط حقيقى عندما يحل الليل، وهناك أيضا جده، وزوجة جده لأبيه ، وعمه - وهم يسكنون جميعا فى بيت واحد. أما جدته لأبيه فتسكن مع عمته فى بيت مستقل . وهذه الشخصيات القريبة هى محور الأحداث فى الرواية، وإلى جانبها حشد من الشخصيات الأخرى تكمل صورة القرية والأحداث، أبرزها «حناوى» الخفير بطل النميمة وإثارة الفتن. ولن ألخص الرواية أو أحداثها لأترك للقارئ متعة اكتشافها ولكنى أريد الإشارة فقط إلى الاختلاف فى منهج السرد بين ما يحكيه الراوى عن الأحداث التى يراها مباشرة وتلك التى يراها حين يتقمص القط. قد لا يكون الاختلاف فى الرؤية كبيرا - فعين الطفل الراوى **هى أيضا عن لاقطة** كعين القط. ولكن الاختلاف فى الإيقاع ملحوظ تماما، حيث تتتابع المشاهد والجزئيات بسرعة دون فاصل أو تمهيد ، ويمكن أن نقارن مثلا بين مشهد لقاء الراوى بحناوى فى أول الرواية حيث يجسد فى مشهد متكامل وطويل نسبيا (بالمقارنة مع بقية الرواية) شخصية ذلك «الخباص» الذى يحاول أن يستدرج الأطفال لمعرفة أسرار البيوت ، كما يجسد احتقار أطفال القرية له . وفى مقابل ذلك مشهد آخر يستغرق نفس الحجم تقريبا فى الرواية ولكنه من منظور القط ويحفل

بجزئيات ومواقف متعددة غير مرتبطة يراها القط الذى ينتقل من «عشة الفراخ» التى يرصد الحركة داخلها، إلى وصف تفصيلى للسلم وللفرن، إلى مشهد بين عباس السائق وعشيقته، إلى جلسة فى محل سعد حلاق القرية وشاعرها... إلخ. (ص ٦٤ من طبعة دار ميريت للرواية) .

تفجير اللغة الشاعرية

ولا أريد أن أترك مسألة اللغة والإيقاع قبل الإشارة إلى أن حسن عبدالموجود يحقق من خلال البساطة المتناهية فى الأسلوب جواً شاعرياً حقيقياً يغلف العمل بأكمله، تحاول روايات حديثة أخرى تحقيقه عن طريق ما يوصف بتفجير اللغة أو المقاطع شبه الشاعرية أو الغنائية التى تتخلل النثر الروائى وكثيراً ما تفسده .

ومسألة أخرى كان يحبها أستاذنا يحيى حقى ، وهو على حق، أى استخدام كلمات عامية ذات جرس خاص لا يتحقق من خلال الفصحى مثل جسمه «مسهوج» أى (محموم)، أو (الرصاصة «زوّت» جنب ودنى) وتأتى مثل هذه الألفاظ فى مواضعها دون إسراف أو رغبة مفتعلة فى الإدهاش فتنقل للقارئ جوّ القرية ولغتها المميزة وتكسب الأسلوب تفرداً خاصاً .

وفى سياق هذه الملاحظات السريعة عن رواية عين القط أود الإشارة إلى أنى قد توقفت عند نقطتين محددتين أثناء قراءتى لها :

أولاهما هى شخصية حناوى الذى يبدو منذ اللحظة الأولى أو المشهد الأول فى الرواية شرا مطلقاً - فهو يؤلب الأهالى على بطرس الحلاق ثم يكون بعد ذلك سبباً فى قتل ابنته ، وهو يؤلب نصف القرية من الفلاحين على نصفها الآخر من «الحلب أو المساليب» . ويبدا لى ذلك دون دافع محدد غير حقد دفين فى النفس ضد الضعفاء بالذات . وقد سألت نفسى إن كان ذلك مبررا فى الإبداع الروائى ثم تذكرت أن هذا الشر الطليق هو جزء من حقائق الحياة حتى وإن لم نجد له التبرير داخل الرواية ذاتها. ألا يتساءل القراء والنقاد حتى الآن مثلا عن سر حقد (ياجو) على عطيل فى مسرحية شيكسبير الشهيرة دون أن يتوصلوا إلى دافع مقنع غير أنه هو ذلك الحقد الطليق ؟

أما الملاحظة الثانية فهى أننى لم أكن مرتاحا فى أول قراءة للرواية إلى نهايتها التى بدت لى مفاجئة ومبتورة، لكننى فى القراءة الثانية وجدتها نهاية مفتوحة قد تكون منطقية، فإذا جاز استخدام كلمة الصراع لوصف علاقات الشخصيات فى هذا العمل، فإن الصراع يظل مفتوحا فى واقع الحياة وفى الرواية على حد سواء .

على أن هاتين الملاحظتين لم تؤثرا أبدا على استمتاعى بهذه الرواية الفاتنة التى أتمنى كما قلت منذ البدء أن تكون فاتحة لإبداع جديد ومستمر يسعدنا به حسن عبدالموجود . ■

الرقابة والمرقوبون

بقلم
محمد مستجاب

فى بدايات عصر السادات - لا أذكر تاريخها بالتحديد، سعدنا سعادة لا مثيل لها حينما صدر الأمر الديموقراطى بإلغاء الرقابة على الكتب والمجلات، ومع نشوة السعادة الممتدة اتضح لى أن الرقيب - فى موقعه الإدارى - كان قد أفرخ عدداً مذهلاً ممن يراقبون دون احتلال موقع رقابى، وأن مواجهة أمر الرقيب - مع كل صلابته العسكرية التى لا تحاور ولا تناقش - أسهل ألف مرة من مناقشة - إن استطعت الوصول إليه - ذلك الذى يجمع صفحات المطبوعة فلا يرتاح إلى بعض الفقرات المنتزعة من سيولة النص: (ليلة الفرح صمم البطل أن يصلى فى وقت لا يتوقع منه الرب ذلك) مع أن مسرى القصة يبرز أن بطلها مضطرب عقليا من أول سطر (كم أذنا للحمار؟ الإجابة : اثنتان، وللبقرة؟!) .

وهى أسئلة ساذجة يحاول طارحها معرفة لماذا قتل - وفتك - بطلها بعروسه بعد الصلاة - بل والتهم جزءاً من صدرها ورقبتها فى حنان بالغ الرقة، وهذا ما جعلنى أواجه رقابة غامضة وراء رئيس التحرير، تثير جدلاً رافضاً لمثل هذه النصوص: الوصية الحادية عشرة - إعلانا لانتهاء عصور الوصايا العشر، خمسة مالهم الجنة : مستجاب الأول لأن جهنم لم تكن اكتشفت بعد، وأم آل مستجاب لأنها أم آل مستجاب، وبعد ضوضاء خافتة مثيرة للتوتر: أجد القصة منشورة كما كتبتها تماماً... بعد قلق واختناق، قال لى المرحوم يحيى حقى - أستاذنا المعلمى الأعظم - أو سن المحراث الذى فتح لنا

تربة الكتابة المستعصية لينجب أشجار يوسف إدريس - قال لى حينما كان رئيساً لتحرير مجلة المجلة فى آخر أيامه - وأيامها أيضا - (أنا لن أنشر لك هذه القصة.. لكنك أنت اكتب بانطلاق) وظل ممعناً فى وجهى كى لا أستفسره عما يقصد من انطلاق، وهذه اللحظة التى لن تتجاوز الدقائق كانت ذات تأثير ساخن وأساسى فى كتاباتى حتى الآن.

المراقب المفتعل

إلا أننا نحن المرقوبين لم نستغل إلغاء الرقابة بالمعنى الراقى على أعمالنا، ففى الوقت الذى انتشرت أسراب الرقباء فى خلايا النشر - دون أن يكونوا رقباء - قام بعضنا باستخدام فرصة هذه الحرية فى الوصف المثير الوضيع للممارسات الجنسية ، أو استعمال ألفاظ باللغة الانحطاط، أو السلوك الذى يوقع جهاز استقبالنا فى دائرة الاشمئزاز، مع أن الفن الحقيقى - أى التعبير المتسامى الراقى - يتيح لمن يدرك ذلك: أن يعبر عما يريد من مواقف ومواقع باللغة الحساسية: بطريقة متفاعلة تعلو على الاسفاف، والبحث الرخيص عن الشهرة الأرخص.

وبينما كنت أضع هذا المقطع، تذكرت حينئذ أن الرقباء الغامضين يمكنهم أن يدفعوك أن تكون مراقباً مرقوباً مضطرباً، فمنذ سنوات قليلة - ربما أربع سنوات - بدأ الاهتمام الدافق بفن كتابة الرواية فى المجلس الأعلى للثقافة، فكتبت فى أحد مقالاتى: أن ذلك راجع إلى أن الشعر يجد مؤسسة عربية فى الاحتفاء به: شعراً وشعراء، وفى الوقت نفسه هناك مؤسسات عربية أيضاً - بعضها فى مصر - اهتمت بفن الابداع على كافة مستويات الشعر والقصة والرواية والمسرحية، إلا أنها المرة الأولى التى تقوم فيها هيئة مصرية بالاحتفاء والاحتفال بفن الرواية فقط، فإذ بنا جميعاً نحن كتاب القصة القصيرة بالذات نقوم بتوجيه سجادة الصلاة إلى مذبح الرواية، فإذ بالقائم بالمراجعة فى المجلة يرفع هذا المقطع دون أن يدرى أن المقال قد انهار لعدم صياغة مقطع بديل، فطلبت من الله أن يساعدنى ويقف معى ضد هؤلاء الرقباء المنتشرين بين المكاتب والمطابع فى دور النشر، فإذ بى - بعد أسبوعين أعرف أن هذا المراقب المفتعل تم نقله بسرعة للعلاج بالخارج.

ليس عودة للرقابة

ولذا فإن أمر الرقابة قد يكون أفسح مجال التعبير بإلغاء الرقيب المعلن، أو الذى يؤدى واجب وظيفته خالصاً بمفهومه السياسى والأخلاقى والدينى - والعنصرى أيضا، لكنه تركنا فى موقف حرج، ليس فقط إزاء ما كنا نأمله فى جو الحرية، ولا ما ترتب عن ذلك من قراءتنا كتاب (لعبة الأمم) للأمريكى

كوبلاند (والذى أرجو أن يعاد نشره لتكتشفوا طريقة فك الأنظمة المعادية للغرب مثل الاتحاد السوفييتى ويوغوسلافيا وغيرهما - قبل أن تتفكك هذه الأنظمة وتنحل وتتحلل وتتساقط بفعل هؤلاء الذين يعملون فى الخطوط الخلفية لأى نظام - وبالطبع فإن الكتاب ترجم إلى العربية عام ١٩٦٨)، ولكن الأخطر من أى رقابة فى بلادنا هو ما نقوم به نحن الكتاب الذين قام بعضهم بأنواع من الكتابة تثبت أننا - بالفعل - فى حاجة إلى رقيب، هؤلاء الذين نجح أن يكون بعضهم عضوا فى اتحاد الكتّاب دون قدرات فنية، وأخلاقية، ووعى بمعنى ومسئولية الفن الراقى، حتى أن بعضهم يطبع بطاقة - أى كارت - التعريف بنفسه: عضو اتحاد الكتاب، ويقوم بتذييل مقالاته وقصصه وأشعاره بصفته عضواً فى اتحاد الكتاب، ثم تتوالى هذه (التعريفة) الهابطة فى كل ما يرد وينشر حولهم فى صحف ومجلات معلومة أو مجهولة أو هابطة، وفى الأفراح والعزاء، وعلى واجهة الشقة التى يسكنها: فلان الفلانى - عضو اتحاد الكتاب، فهل يمكن لعضو اتحاد الكتاب هذا أن يدرك أن الطبيب لا يستخدم عضو نقابة الأطباء تعريفاً بنفسه، ومثله المحامى والصيدلى والمهندس، إلا فى ظروف تخص الاقرار المباشر بمسئولية النشاط المهنى، ومسئوليته فى التحقيقات وحيثيات التحكيم واستصدار وجهات النظر فى قضايا لها خصوصية تدفع بالانتماء إلى النقابة أو التنظيم أو الاتحاد إلى قانونية المواجهة؟

وليس هذا دغوة لعودة الرقابة، لكنه الاحساس المرير مما أقرأ للبعض فى ذاك النشر المتناثر مثل ريش ذيول الديوك فى المشاجرات داخل العاصمة والأقاليم، ولا أقصد ما قد يكون وضيعاً - فى النشر ، وغير أخلاقى ، بل ما قد يكون هابط الذوق أيضا، وهابط المستوى الفنى.

وهذا أمر لا يدركه كلاهما: الرقيب السرى المشار إليه دون أن يمتلك صفة رقابية ناجمة عن مفاهيم اجتماعية وعواطف دينية متخلفة، ولا هؤلاء أصحاب القلم والورق دون ابداع حقيقى.. حتى فى أدنى حدود الابداع.

وبدلاً من أن أسعى بحثاً عن حل: بدأت أفكر أن أكون أكثر تخلفاً كى أصبح رقيبا، أو ضابط شرطة نقطة مترو الأنفاق، أو عاملاً فى معمل يقع أسر لقطة فى فيلم دون إدراك للمعنى الشامل لكل اللقطات، أو مراقباً - وليس رقيباً - فى فندق يهيمن على الأدوار العليا الفاخرة، لكنه يمارس رقابته برقبة منحنية إلى الأدوار السفلى التى يقع فيها ويتصارع: المراقبون والمرقوبون .. آمين. ■

كافة

لغويات

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

معناها جميعا، ولا تجئ إلا مفردة منصوبة على الحال لمن يعقل، فى نهاية الجملة. فى القرآن الكريم: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة» (سورة البقرة، الآية ٢٠٨).

وفى سورة التوبة، الآية ٣٦ «وقاتلوا المشركين كافة».

وفى السورة نفسها الآية ١٢٢: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة».

وجمهرة النحاة لا يجيزون استخدامها مضافة ، فلا يقال :كافة الناس ، ولا تلحق بها الألف واللام ، فلا يقال الكافة.

وهذه الأحكام غالبة، وليست مطلقة، فهى لم تجئ آخرا فى الآية القرآنية: «وما أرسلناك إلا كافة للناس» (سورة سبأ، الآية ٢٨).

وجاءت مضافة فيما روى عن عمر بن الخطاب فى كتاب له: «وجعلت لآل «بنى كاكلة» على كافة بيت المسلمين لكل عام مئتى مثقال ذهبا إبريزا.

ويروى عن القاضى أبو بكر بن قريعة حين استثبت عن شئ حكاه قوله: «هذا ترويه الكافة عن الكافة».

حاول النحاة تخريج الآية القرآنية التى جاءت على غير القاعدة بتأويلات لا مبرر لها، وتوقفوا عند قول عمر وخطأوا القاضى وهم فى كل الحالات يسقطون الاعتبارات البلاغية أحيانا والملامح الايقاعية التى تتطلب صوغ الجملة على نحو معين أحيانا أخرى.

نعم نحن نرى معهم أن كافة تجئ منصوبة مفردة حالا آخر الجملة، ولكن لا يخطئ المرء إذا ما جاء بها على نحو ما صنع السابقون، واستخدمها مضافة أو معرفة بالألف واللام أو لم تكن آخر جملتها إذا تطلبت ذلك صياغة جملة مغنية، أو لنكتة بلاغية كما يقول القدامى. ■

هيكل مؤرخاً

مطلوب مؤسسة تحمي الوثائق التاريخية

بقلم
د. رءوف عباس

لعل أهم مايميز محمد حسنين هيكل - إلى جانب قدراته المتنوعة - حسه التاريخي، وحرصه على أن يقدم رؤيته لتاريخ الفترة التي عاصرها في الصحافة والسياسة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وما ترتب عليها من نزوع نحو تصفية القضية الفلسطينية لصالح المشروع الصهيوني. وجاءت رؤيته للتاريخ (كما عاصره) في سلسلة من الكتب التي نشر معظمها بالإنجليزية، وحرص على أن يصوغ بقلمه طبعتها العربية، مضيفا الكثير من المعلومات والملاحق الوثائقية التي لاتحتملها الطبعة الإنجليزية، والتي تتخذ أساسا لطبعات أخرى تصدر باللغات الأوروبية الأخرى، وبعض اللغات الآسيوية.

فهو عند صياغته للطبعة العربية لكتاب نشر أصلا للقارىء الأجنبي، قدم للقارىء العربي خطابا يتناسب مع الرسالة التي يريدها أن تصل إلى أصحاب العلاقة الذين يخصهم ما يكتبه، ويسعى من وراء ذلك إلى تنمية الوعي بالتاريخ عندهم.

● المؤرخ يستقى مادته من مختلف المصادر ويقوم بتحليلها واستقرائها، واستخلاص النتائج منها

والرجل حريص تمام الحرص على أن يؤكد في مقدمات كتبه أنه ليس مؤرخا، ولم يقصد بما كتب أن يقدم بحوثا تاريخية تلتزم الأصول المنهجية التى تقيد عمل المؤرخ، ولكنه يقدم رؤيته الذاتية لأحداث عاصرها، وشهادته لحوادث أتاح له قربه من صانع القرار (جمال عبدالناصر ثم السادات) أن يراها تتشكل أمام ناظريه، وأن يشارك -أحيانا - بنصيب ما فى صنعها.

وهذا التحفظ الذى يؤكده هيكل لقرائه فى مقدمات كتبه، يعبر عن فهم عميق لصناعة المؤرخ الذى عليه أن يستقى مادته من مختلف المصادر ويقوم بتحليلها واستقرائها، واستخلاص النتائج منها، فهيكل يريد بذلك ألا يلزم نفسه أمام القارئ بما يلتزم به المؤرخ . كما يتم هذا التحفظ عن إدراك عميق - من جانبه - للفارق الكبير بين التأريخ، وتسجيل الشهادة التاريخية التى تعبر عن الرؤية الذاتية لصاحبها، والتى تعطى له الحق فى تناول وقائع لامصدر لها سواه، ولا تلزمه بإقامة الأدلة المادية على دقتها، أو حتى صحتها.

ولايعنى ذلك أن تلك الشهادات التى تطغى على الكثير من كتابات هيكل تجعل مما يكتبه نوعا من المذكرات الشخصية، فالمذكرات لاتلتزم موضوعا محددا إلا فى حالات نادرة مثل مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية مثلا، أو مذكرات الجنرال ديجول عن الحرب ذاتها، أو مذكرات هنرى كيسنجر عن فترة خدمته فى البيت الأبيض. أما كتابات هكيل فتغطى موضوعات شتى تبدو قائمة بذاتها ولكنها ترتبط ارتباطا وثيقا ببعضها البعض، وتتصل حلقاتها اتصالا وثيقا، من حرب فلسطين ١٩٤٨ إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ومن سياسات الهيمنة على الشرق الأوسط كما مارستها القوى الاستعمارية التقليدية إلى مخططات الهيمنة كما وضعتها الولايات المتحدة فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وتتقاطع مع هذا كله سياسات القوى الكبرى فى عصر الحرب الباردة، وحركة التحرر الوطنى فى العالم العربى وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

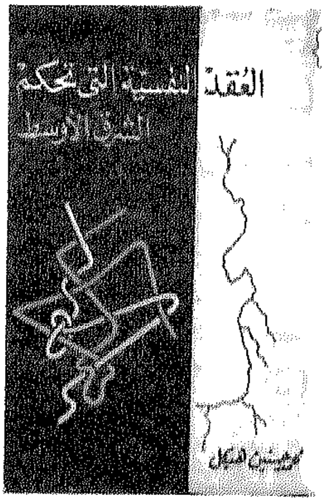

وتتعدد تبعا لذلك الميادين والمسارح التى شهدت تلك الوقائع والأحداث: مصر، والوطن العربى، وإفريقيا، والساحة العالمية.

رؤية الكاتب الذاتية

وكل كتاب من كتب هيكل يدور حول حدث معين محوره تاريخنا القومى المعاصر. وإطاره صراع القوى الإقليمية والدولية، يتضمن رؤية الكاتب الذاتية لذلك الحدث، ويسجل شهادته لما يراه من بعض مكوناته، ويتضمن عرضا مستفيضا لوجهات نظر ومواقف مختلف الأطراف التى شاركت فى صنعه، ولايقتصر على تسجيل المواقف التي شهدها الكاتب أو اطلع على أخبارها .. وهنا يكمن الفرق الكبير بين كتابات هيكل التاريخية والمذكرات الشخصية التى لايكاد يخرج صاحبها عن إطار الأحداث التى شارك فى صنعها، وتغلب عليها الذاتية، والطابع الدفاعى التبريرى على نحو لانجده فى كتابات هيكل.

ولايعنى هذ أن هيكل قد أفرغ كل مافى جعبته فى تلك الكتب، ثم «استأذن فى الانصراف»، فرغم القيمة الكبيرة لهذه الكتب تظل هناك مساحة عريضة لمذكرات شخصية (لعلها عنده فعلا ويحجم عن نشرها) يقدم فيها -للتاريخ- خلاصة تجربته الشخصية فى عالمى الصحافة والسياسة، فمثل هذه المذكرات (لو رأت النور) تعين المؤرخ فى وصل ما انقطع، وتجسير الفجوات فى رواية تاريخنا المعاصر.

الوان من الكتابة التاريخية

ورغم أن هيكل تبرأ فى مقدمات كتبه - كما أشرنا - من أن يحسب على زمرة المؤرخين، ونفيه أن يكون قصده من وراء ما كتب «كتابة التاريخ»، فما فعله - فى حقيقة الأمر - لايبعد كثيرا عن عمل «المؤرخ»، وما كتبه يمثل لونا على درجة كبيرة من القيمة من ألوان الكتابة التاريخية. قد تكون هناك بعض الهيئات هنا وهناك، قد تتفاوت نظرة المشتغلين بالبحث التاريخى إزاءها، فيرقى بها البعض إلى درجة الأخطاء، وقد يغلو البعض الآحر فينزل بها منزلة الخطايا، ولكن تظل لها قيمتها، وتظل مصدرا لا غنى عنه لكل من يهتم بدراسة تاريخنا المعاصر.

ولا ريب فى أن نفى هيكل لتقمص دور المؤرخ يعكس إدراكه الدقيق

والعميق لخصائص الكتابة التاريخية التى يجب أن تستمد مادتها من المصادر الأساسية، وهنا نجد هيكل لايكتفى بما بين يديه من مادة محلية تمثلت فى وثائق رئاسة الجمهورية وأجهزة الأمن القومى التى لازالت «محرمة» على المشتغلين بالبحث التاريخى، لايكتفى بذلك، بل يعمل على استخدام وثائق الأطراف الأخرى التى كانت لها علاقة بالحدث، فجمع عددا هائلا من الوثائق البريطانية والأمريكية، سواء ما كان منها رسميا أو خاصا، مستفيدا - بذلك - من نظم الأرشيف الوطنى، واتاحة الإطلاع على الوثائق بعد مرور ٢٥ عاما على الأحداث التى تتناولها والقوانين الخاصة بحق الحصول على المعلومات، وهى كلها أمور يفتقر إليها أرشيفنا القومى الذى يعانى فقرا شديدا فى وثائق العصر الملكى، ويخلو تماما من وثائق الثورة.

وهكذا، نجد هيكل يمارس مهمة «المؤرخ» من هذه الناحية، فيقارن المادة «الثمينة» المصرية التى بين يديه، بما جاء بالوثائق البريطانية والأمريكية، ليصوغ رواية «تاريخية» يضفى عليها قدرا كبيرا من الحيوية بما يستخدمه من مصادر - أخرى - لم تتح لأحد سواه - مثل اللقاءات الشخصية، والأحاديث الشفهية مع صناع القرار، وكذلك الرجوع إلى المذكرات الشخصية والتصريحات الصحفية، فهو يقدم فى نهاية المطاف صياغة للواقعة لاتختلف عما يفعله المؤرخ المحترف الذى يملك ناصية منهج البحث التاريخى من حيث المصادر والأدوات، وأسلوب إعادة بناء الحدث.

مارس هيكل مهمة «المؤرخ» فقارن المادة «الثمينة» المصرية التى بين يديه، بما جاء بالوثائق البريطانية والأمريكية، ليصوغ رواية «تاريخية»

فما يفعله «المؤرخ» المحترف لايختلف عن ذلك كثيرا، إذ يجمع مادته من مصادرها الأساسية، ويقوم بترتيبها وفق نسق منهجى معين يعكس - إلى حد كبير - ثقافته ورؤيته الذاتية، ثم يقدم صورة قلمية للحدث الذى يتصدى لكتابته، تعبر عن تصوره له، استنادا إلى فهمه الخاص لما بين يديه من مادة، فالكتابة التاريخية هنا ليست عملا ماديا آليا، ولكنها تتضمن الكثير من الإدراك والتمثل، والتعبير عن فكر صاحبها، ولا أظن أن هيكل كان بريئا من ذلك كله، بل أراه لايختلف عن «المؤرخ» من حيث طريقة العمل والأدوات اللازمة له. وإن كان هيكل قد

تخلص من الكثير من القيود التى تحكم حركة المؤرخ.

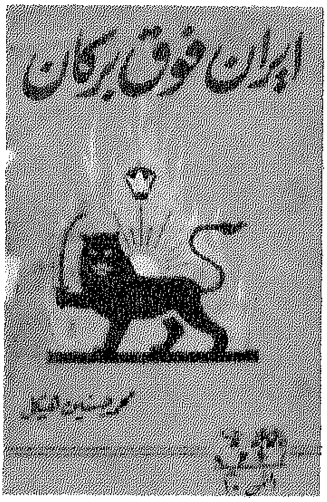

من هذه القيود إبراز الدور الشخصى ليهكل، وطغيانه - أحيانا - على رواية الوقائع، فالمؤرخ يتعامل مع حدث لم يكن طرفا فيه، أما هيكل فوضعه مختلف، ولانستطيع أن نطالبه بالتخلص من ذاتيته، بل - على العكس - نجد فى هذا اللون من الكتابة ما يضىء الكثير من بقع الظل الكثيفة التى تغطى الحدث، فهو لايروى الأحداث كما يرويها من شهدها على الورق ورآها من الخارج ولكنها يرويها رواية «الشاهد» الذى كان فى قلب الحدث.

ومن هذه القيود التى تخلص منها هيكل الاعتماد على مصدر واحد - أحيانا - فى واقعة بعينها، وخاصة إذا كان المصدر شفهيا، فلا يملك «المؤرخ» أن يفعل ذلك دون أن يعرض نفسه لسيل جارف من النقد، وغالبا ما يستخدم المؤرخ عبارات تنم عن الحذر الشديد، وتتضمن الكثير من التساؤلات إذا اضطر أن يستخدم رواية لاسند لها إلا مصدر واحد، أما بالنسبة لهيكل فتسجيل الرواية أحادية المصدر يعد «شهادة» لاتخلو من قيمة. عندما تتاح الفرصة لمقارنتها بما قد يتم التوصل إليه من مصادر أخرى.

أستار من الظلال

وأخيرا تخلص هيكل من قيد التخلص من أسلوب الانتقاء عند بناء روايته للحدث، فيغفل أشياء أو يسدل عليهاأستارا من الظلال، بينما يلقى أضواء ساطعة على غيرها من الأشياء. فمثل هذا الأسلوب الانتقائى للوقائع أو مكوناتها لا يُقبل من المؤرخ، ولكنه من السمات المتواترة فى كتابات أصحاب الشهادات التاريخية وكذلك أصحاب المذكرات.

على ضوء ذلك نستطيع أن نفهم الدوافع التى جعلت هيكل يحرص على أن ينأى بنفسه عن الانتماء إلى «المؤرخين»، وينفى عن كتاباته صفة «التأريخ»، ولكن ما قدمه من أعمال تعد - فى رأيى - مصدرا مهما لا يستطيع أى مؤرخ جاد يعنى بتاريخ مصر المعاصر أن يتجاهله أو يهون من شأنه. فلا مناص للمؤرخ من أن يستخدم هذه الأعمال، ويتعامل معها بهذه الصفة، ويخضعها - كما يشاء - للنقد والتحليل المنهجى، تماما كما لايمكنه إهمال أعمال عبدالرحمن الرافعى التى تتناول تاريخنا القومى فى النصف الأول من القرن العشرين، مع اختلاف المستوى والقيمة بين عمل الرجلين، فلم يتح لعبدالرحمن الرافعى الفرص التى

● تكمن قيمة هيكل فى الوثائق المحلية التى أتيح له الحصول على نسخ مصورة منها، وكذلك فى الشهادات التى أوردها للأحداث التى شارك فى صنعها

اتيحت لهيكل، واقتصر عمله على رصد الوقائع اعتمادا على المادة المحلية وحدها فى أغلب الأحوال، ولم تكن له معرفة هيكل بالسياسة الإقليمية والدولية، وكان - فى أغلب الأحوال - «مراقبا» خارجيا، وليس مشاركا فى صنع الحدث.

ورغم أن عبدالرحمن الرافعى لم يسلم من النقد المر الذى وجهه إليه «المؤرخون» إلا أنهم - بلا استثناء - لم يسقطوا أعماله من اعتبارهم، بل لايستطيع المنصف منهم أن ينقص من قيمتها رغم ماقد يكون له عليها من ماخذ.

جهد يفوق طاقة المؤرخ

وكتابات هيكل التاريخية ملأت - دون شك - فراغا كبيرا فى المكتبة العربية، وتمثل جهدا يفوق طاقة وجهد المؤرخ الفرد، ولابد أن يكون الرجل قد استعان بعدد من المعاونين فى جمع الوثائق الأجنبية وترتيبها، وتجهيزها للعمل عليها، وكذلك ترتيب المادة الوثائقية المصرية، أما الكتابات بهذا الأسلوب المميز فهى من عمله وحده، ويدخل فى ذلك اختيار المادة وتنظيم الاستفادة منها.

وتكمن قيمة هيكل فى الوثائق المحلية التى أتيح له الحصول على نسخ مصورة منها، وكذلك فى الشهادات التى أوردها للأحداث التى شارك فى صنعها أو كان شاهدا لها أو مراقبا عن قرب، هذا فضلا عن اللقاءات والأحاديث الشفوية التى كان طرفا أساسيا فيها وخاصة مايرويه عن عبدالناصر والسادات وبعض الشخصيات الأمريكية والأوروبية، فهذه كلها مادة مهمة يستطيع «المؤرخ» أن يستخرج منها الكثير والكثير من الدلالات والاستنتاجات التى قد تختلف عما توصل إليه صاحبها من نتائج.

وإذا كان المقام يضيق هنا عن تحليل مضمون كتابات هيكل التاريخية، فلا مناص من أن نثير - بهذه المناسبة قضية مهمة سبق أن تناولناها فى مناسبات أخرى فى مقالات وأحاديث صحفية، كما تناولناها فى لقاء مع هيكل جاء بدعوة كريمة منه فى صيف ٢٠٠١، بعدما تم افتتاح مقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية الذى شيده الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى من ماله الخاص، ووهبه للجمعية، عندئذ طلب الأستاذ

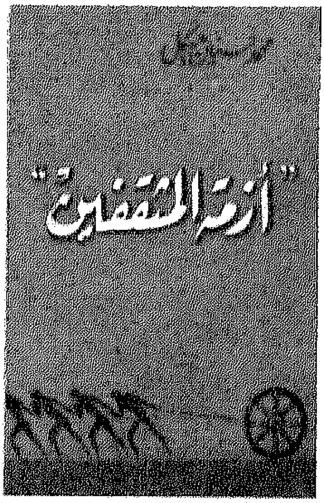

محمد حسنين هيكل أن يلتقى ببعض أعضاء مجلس الإدارة، ورتب اللقاء الصديق الكاتب الصحفى أحمد الجمال عضو الجمعية.

وفى ذلك اللقاء أثرنا مع هيكل موضوع الوثائق التاريخية التى يحتفظ بنسخ منها لديه، وهى - دون شك -تفوق من حيث الكم ما استخدمه فى كتبه، وطلبنا منه أن يودع هذه النسخ المصورة دار الوثائق التاريخية القومية، وقلنا له: إن ذلك العمل يوفر خدمة جليلة لتاريخ هذا الوطن تتوج مابذله من جهد فى تسجيل هذا التاريخ فى كتبه.

حديث حول الوثائق

ودار بيننا وبينه حديث شيق حول أهمية تاريخ مصر المعاصر وخاصة فترة الأربعينات والخمسينات وكذلك تاريخ المنطقة وفهمنا أنه لايريد التحدث «بصراحة» حول موضوع الوثائق، فحاولنا توجيه الحديث إليها، وكانت حجته أن ما لديه ليس وثائق رسمية بل صور منها، وأنه يخشى أن يكون مصيرها التلف والإهمال والضياع إذا سلمها لهيئة حكومية، ولمح إلى إمكانية ايداعها هيئة خاصة إذا ضمن أن تكون موضع الرعاية.

فأبدينا استعدادنا أن نخصص لها المكان اللائق بها فى مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وانتهى اللقاء دون أن نحصل منه على موقف محدد من الاقتراح، وحاولنا التواصل معه، وقدمنا له دعوة لزيارة الجمعية والقاء محاضرة بها، وتركنا له تحديد الموعد الذى يلائمه، ولازلنا عند موقفنا بعد ثلاث سنوات من هذا اللقاء.

★★★

إن الجهد الجليل المهم الذى بذله هيكل فى تسجيل رؤيته وشهادته لتاريخنا المعاصر، لايكتمل إلا باتاحة ما لديه من وثائق للباحثين عن طريق إيداعها إحدى الهيئات العلمية التى يطمئن إليها، فقد حصلت دار الوثائق التاريخية القومية على مجموعة كبيرة من الوثائق الأمريكية والبريطانية، ومازالت الوثائق المصرية لتلك الفترة قابعة عند الأستاذ هيكل يتطلع الباحثون إلى اليوم الذى يتاح لهم استخدامها، وستظل يد الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ممدوة إذا شاء الأستاذ اختيارها مقرا لمجموعته الوثائقية. ■

كنت في جنوب أفريقيا

بقلم
صنع الله ابراهيم

كان من حظي أن زرت جنوب أفريقيا عشية ثلاثة أحداث من أهم أحداث تاريخها الحديث : أولها هوالاحتفال بمرور عشر سنوات على الاستقلال أو الديموقراطية كما يسمونه، ويعنون بها نهاية عصر التفرقة العنصرية وسيادة الرجل الأبيض، والثانى هو انتخاب رئيس جمهورية جديد من بين عدة مرشحين ، بينهم واحد يهودى (أبيض بالطبع) ، أسفر عن اعادة انتخاب الرئيس مويبكى، والثالث هوالاستعداد لتقديم ملف الموندیال.

وقبل السفر بأيام تنبهت إلى أنى لاأعرف إلا القليل عن هذا البلد الأفريقى. وتذكرت أنى قرأت منذ عدة سنوات عن رحلة قام بها الدكتور صبرى حافظ الأستاذ بجامعة لندن إلى جنوب أفريقيا فى ١٩٩٥، بعد عام واحد من إستقلالها، وسجل تفاصيلها فى واحد من أمتع كتب الرحلات التى قرأتها وصدر سنة ١٩٩٩ بعنوان مرايا الذات الأخرى فى سلسلة أصوات أدبية التى كان يرأسها الكاتب الصديق محمد البساطى.

بحثت عن الكتاب فى مكتبتى فلم أجده وتفضل الكاتب الصديق جرجس شكرى بإعارتى نسخته وعدت أقرأ عن البلاد التى سأزورها بعد أيام.

طوال ٨٠ سنة لم يكن الرجل الأسود قادرا علي الانتقال من مكان إلي آخر دون تصريح المرور الكريه

تركة الرجل الأبيض

عرفت أن مساحتها خمسة أضعاف مساحة "بريطانيا" أوقدر مساحة "هولندا" و"بلجيكا" و"ايطاليا" و"فرنسا" و"ألمانيا" مجتمعة. ليست صحراء وانما خضراء عامرة بالثروات الطبيعية ويعيش عليها أربعون مليونا منهم ثلاثون من السود ، وخمسة ملايين من البيض ومليون من الأسيويين الهنود، وثلاثة ملايين ونصف من الملونين.

ولا تتمتع هذه المناطق بالكهرباء أو المياه النقية أو الصرف الصحي. وتنبعث منها رائحة كريهة يمتزج فيها عرق الانسان برائحة الصنان وعفونة الأشياء العطنة وفضلات البشر والحيوانات بالإضافة إلي رائحة الخمارات التي تبيع أغلي الخمور المستوردة بأسعاررخيصة، وهي سياسة متعمدة تهدف إلي تحطيم شخصية الانسان الأفريقي.

هذه هي التركة الثقيلة التي خلفتها سياسة العزل العنصري الشائنة. وقد لفت "صبري حافظ"النظر إلي التطابق بين هذه السياسة والتخطيط الاسرائيلي الذي يعتمد علي الطرق الالتفافية التي تخدم المستوطنات وتحاصر القوي الفلسطينية في الوقت نفسه وهي السياسة التي بلغت أوجها الآن ببناء الحائط العازل الشائن. وكما هو الحال في "فلسطين" لم يكن مسموحا للسود بمغادرة مناطقهم أو الاتصال بمناطق سوداء أخري إلا بموافقة الرجل الأبيض. ولهذا أقيمت المناطق الخالية الجرداء بين المناطق المخصصة لكل جنس علي حدة وفقا لقانون التسكين العرقي الذي لا يسمح لأي جنس بالسكن بجوار الجنس الآخر.

دوربان ، مارس ٢٠٠٣

بعد رحلة شاقة عبر عدة عواصم أفريقية ("نيروبي" و"الخرطوم" ثم "جوهانسبرج") ،هبطت بي طائرة خطوط "جنوب أفريقيا" في مدينة "دوربان" . وألفيت نفسي في مطار

يضارع في الفخامة وجودة التنظيم أهم مطارات أوروبا ، وتتردد فيه التعليمات بثلاث لغات: الأفريكانية القريبة من الهولندية و الانجليزية ثم لغة "الزولو" الأفريقية. ومع ذلك تعطل الكمبيوتر الذي يعمل عليه موظف أسود وانتظر عشرات المسافرين اصلاحه وهم يوجهون إليه نظرات الاتهام . فالكاونتر القريب الذي تجلس خلفه بيضاء ذات عيون زرقاء كان يعمل في كفاءة تامة. وقد سبق أن سجل "صبري حافظ " في كتابه ما لاحظه من محاولات التخريب التي يقوم بها البيض عن عمد للتشكيك في قدرات السود. وسجل أيضا أن المدينة تضم أكبر تجمع هندي خارج "الهند". وأن الهنود امتنعوا عن مساندة السود في معركتهم ضد الحكم العنصري الأبيض، واهتموا بالتجارة وصنع الثروة، ولهذا فهمت موقف المرافقة/ السائقة ذات الأصل الهندي التي أقلتني من المطارعبر طرق ممهدة تحكمها القوانين الانجليزية الصارمة. فلم تخف عدم رضاها عن الأوضاع وشكها في قدرة السود علي ادارة البلاد.

وتقع " دوربان" -التي اشتهراسمها عندما احتضنت منذ سنوات قليلة مؤتمرا عالميا ضد العولمة الرأسمالية - علي الشاطئ الأفريقي الجنوبي . وهي مدينة نظيفة حديثة تتناثر فوق ساحلها الفنادق الحديثة الأمريكية الطرازالتي تطل مباشرة علي المحيط الهندي. ويكثر بها البيض ذوو الأصول الانجليزية الذين يقيمون في فيلات وقصوروسط طبيعة ساحرة بينما يقيم أغلب السود في عشش من الصفيح . ولم يكن يحق لهم أيام العزل العنصري المشي علي الرصيف الذي خصص للبيض وحدهم.

أقمت في فندق "هوليداي إن" ، وهو نفس الفندق الذي أقام به "صبري حافظ" منذ سنوات، وتلقيت مثله التحذير من الابتعاد عن كورنيش الشاطئ الرئيسي خوفا من عنف السود. وكان الفندق مزدحما علي غير العادة بسبب اقتراب موعد دوري كأس العالم في رياضة الرجبي . وامتلأت مصاعده وردهاته بمئات من رياضيي "جنوب أفريقيا" الشبان البيض الذين يتحدثون اللغة الأفريكانية ويتميزون بأجسام شديدة الضخامة تذكرك علي الفور بالأبقار الهولندية. بينما أحاطت بالفندق "قطعان العاهرات "، علي حد وصف الصحف التي حذرت الرياضيين منهن.

المكاشفة والصراحة

ومنذ اللحظة الأولي, تلحظ درجة عالية من الصراحة الفريدة في تناول القضايا لعامة دون التقيد ب له لمورات الغبية التي تنبع من تقاليد متعفنة وأوهام دينية. وتتجسد هذه الظاهرة في التليفزيون (الذي حرم البيض البلاد منه حتي عام ١٩٧٦) والصحافة ومثالها صحيفة "الديلي نيوز" الواسعة الانتشار والتي نشرت علي صفحتها الأولي يوم ٢٣ مارس نبأ اغتيال الشيخ "ياسين" وتصريح "عرفات ":" أنا التالي" . لكن المانشيت الرئيسي لها كان : " بيع الزوجات من أجل الطعام!" وجاء تحته أن الرئيس "موبيكي" صدم أثناء زيارته لاحدي ضواحي "دوربان" الفقيرة في غمار حملته الانتخابيةعندما أخبره السكان بأن الرجال العاطلين يعرضون زوجاتهم في الشوارع من أجل البقاء علي قيد الحياة. و"صدم "مرة ثانية عندما عرف أن المنطقة محاصرة بواسطة المجرمين الذين يرهبون السكان وأن المخدرات منتشرة بين الأطفال.

والواقع أن البطالة تقع علي رأس المشكلات التي تواجهها "جنوب أفريقيا" الآن. وكان حزب المؤتمر قد وضع عشية الاستقلال خطة طموحة لبناء مليون منزل جديد

كاريكاتير انجليزي من عام ١٨٩٠ يصور أحلام "سيسيل رودس"الاستعمارية . فها هو يخطو فوق أفريقيا بينما يشق القطار طريقه من "كيب تاون" إلي "القاهرة" عبر أراض يسيطر عليها الانجليز.

وتحقيق التعليم المجاني للجميع ومد الكهرباء والمياه. وأمل "مانديلا" زعيم الحزب ورئيس أول حكومة ديموقراطية(ولد سنة ١٩١٨) أن يتلقي العون من العالم الرأسمالي الغربي في تنفيذ هذه الخطة. لكن آمله لم يتحقق فغير"موبوكي" الخطة في ١٩٩٧ إلي إعادة الهيكلة والتركيز علي تشجيع الاستثمارات الدولية والاستثمارات الخاصة دون القطاع العام. وهي خطة انتقدها الكثيرون داخل الحزب وخارجه وخاصة النقابات التي دعت إلي مزيد من الانفاق العام والحد من تشجيع القطاع الخاص.

وتتصل بقضية البطالة قضية الجريمة. فمانشيتات الصحف اليوميةتعلن عن جرائم قتل واغتصاب وسرقات بنوك وسيارات .أما الشرطة فهي عاجزة عن فرض الأمن لأن خبرتها الأساسية لا تتجاوز مكافحة النشاط السياسي. وفي صدر الصفحة الأولي من الصحيفة المذكورة نبأ عن صبي في الخامسة عشرة سرق رغيفا من الخبز يساوي أربع "راندات" ونصف أي حوالي نصف دولار، فاعتدي عليه صاحب الحانوت بمقبض جاروف ثم ضرب رأسه في الحائط مما أدي إلي وفاته بعد عدة ساعات. وفي حادث آخرينفس اليوم هاجم ستة لصوص منزلاوأغرقوه في وابل من الرصاص فقتلوا رب الأسرة (٦٢ سنة) واستولوا علي ما قيمته ٢٠٠ دولار.

ويمثل " الايدز" واحدة من أهم مشاكل البلاد. فمنذ خمس سنوات أعلنت ادارة الصحة أن قرابة أربعة ملايين أي ١٠ بالمئة من السكان مصابون به. ويتزايد انتشار

الوباء بسرعة وخصوصا بين النساء،مما يؤثر علي الاقتصاد لأن المصابين من الشريحة الشابةأساسا. وقد تردد أن "موبوكي" لم يوافق علي برنامج الدواء الذي يمكن أن يبطئ نمو الوباء.احفزني كتاب "صبري حافظ" و مشاهداتي الشخصية علي أن أسعي وراء تاريخ البلد. وهو تاريخ مأساوي بكل المعاني وتتقاطع مفاصل مهمة منه مع التطورات في كل من "مصر" و"فلسطين". فقد عرف الجنوب الأفريقي حضارة مزدهرة منذ عشرات القرون قبل أن يصل إليها الرجل الأبيض لاستغلال الماشية والمناجم ، في صورةشركة "الهند الشرقية الهولندية"عام ١٦٥٢ وكما زعم الصهاينة بأن "فلسطين" أرض بلا سكان زعم الهولنديون الذين قرروا الاستقرار في "جنوب أفريقيا" أنها هي الأخري منطقة خالية من السكان.

وكان من سوء حظ الأفريقيين أن مناجم الماس والذهب الغنية اكتشفت بعد قرنين، واعتمدت علي العمال السود الذين هاجروا من قراهم الفقيرة. وفضلا عن إعطائهم أجورا تافهة، وضعهم البيض في عنابر داخل المناجم كي لا يسرقوا الماس. هكذا وضعت اللبنة الأساسية لتخريب الانسان الإفريقي عن طريق تدمير بنية القبيلة ثم بنية الأسرة الأفريقية بعزل الرجال في أماكن عمل بعيدة عن أسرهم وقراهم. وفي نهاية القرن التاسع عشر أقامت الشركات الانجليزية مزارع السكر وجلبت لها ١٥٠٠٠ هندي نشأت علي أكتافهم الجماعة الأسيوية.

قانون العيب .. لديهم أيضا!!

وفي بداية الخمسينيات أصدر البيض قانون المعتزلات الذي قسم السكان إلي أربع مجموعات عرقية هي البيض والهنود والملونون والسود وحكم علي كل مجموعة بالسكني في منطقة محددة.وتبعه قانون العيب الذي حرم العلاقات الجنسية بين الأعراق المختلفة تحريما باتا.

وقد تحدث "فرانك شيكانا" أحد القسس السود بعد ذلك بثلاثين عاما عن تجربته في ظل الأخوة المسيحية البيضاء، وذلك في كتاب بعنوان "لا حياة لي" صدر عام ١٩٨٨. وكان يتدرب ليكون قسيسا مع بعض المسيحيين البيض. قال إن زملائه البيض احتفظوا له بكوب من الصفيح بينما كان يستعملون أكوابا من الخزف. "ثم طلبوا مني ألا أستخدم المرحاض المجاور لمكتبي وأن أصعد إلي الطابق الأعلي . وعندما واصلت استخدامه جاءني وفد خاص أخبرني بأن إخواني المسيحيين منزعجون لأني أواصل استخدام المرحاض". وانتهي الأمر بأن وضعوا قفلا علي بابه ووزعوا علي أنفسهم مفاتيحه.

أدرك الثوار أن العمل السلمي لم يعد بذي جدوي. واستخدم "مانديلا" المثل الأفريقي القائل "لا يمكن مقاومة هجمات الوحش الهائج بالأيدي العارية وحدها". وانتقل الي العمل السري مشكلا منظمة "رمح الشعب" التي ركزت علي العمل المسلح وشنت هجماتها الأولي في ١٩٦١ ضد محطات القوي الكهربائية والمكاتب الحكومية. واشتهر"مانديلا" بنجاحه في الافلات من الشرطة إلي أن قبض عليه في كمين سنة ١٩٦٢وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. وبعد عامين حكم عليه مرة أخري بالسجن مدي الحياة وذاع الدفاع السياسي الذي ألقاه في المحاكمة.

البيض يتجاهلون العالم

رغم قرارات الأمم المتحدة وموقف الرأي العام العالمي تمكن البيض من تجاهل

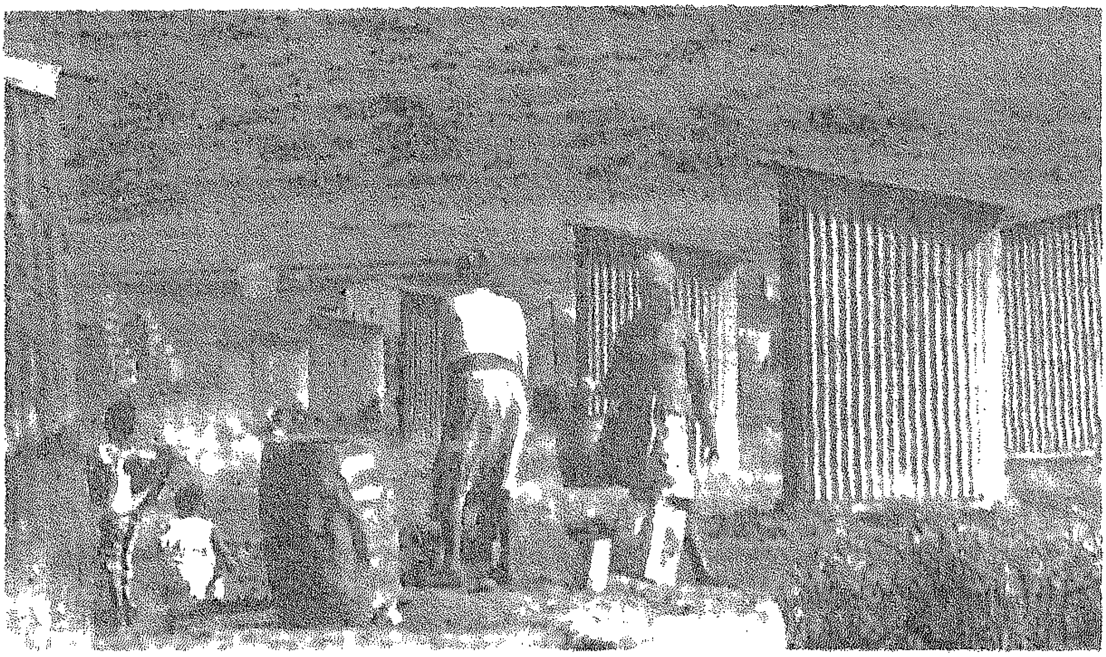

مراحيض من الحديد في المعسكرات التي خصصها البيض لسكنى السود

العالم لأنهم كانوا أقوياء عسكريا (بخبراء من "إسرائيل" ومساعدة فرنسية نووية) واقتصاديا إذ كانوا أغنياء في "الأربعة الكبار" وهم الكروميوم والكوبالت والمنجنير والبلاتين التي لا يمكن بدونها بناء محرك نفاث أو سيارة أو قطار أو مصفاة بترول أو محطة كهرباء أو صناعة طعام أو كومبيوتر أو غرفة جراحة. وتلقي البيض مساندة خاصة من "بريطانيا" و"الولايات المتحدة" و"اليابان" و"ألمانيا الغربية" التي حالت دون إتخاذ الأمم المتحدة قرارات حاسمة ضدهم. كما استفادوا من الحرب الباردة ومن أزمة ١٩٧٣ النفطية التي رفعت أسعار الذهب مما عاد على مناجمه بأرباح طائلة.

الانتفاضة الثانية بالحجارة

لكن الوضع ما لبث أن تبدل إذ تباطأ النمو الاقتصادي في الثمانينيات نتيجة المقاطعة التجارية والتهديد بالعقوبات الدولية والاضطرابات السياسية والاجتماعية الداخلية ثم آثار التفرقة العنصرية نفسها. ولعب الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية والأحزاب الشيوعية العالمية والحركات الثورية المجاورة (التي أسقطت حكم البيض في "أنجولا" و"موزمبيق" ثم في "زيمبابوي") دورا هامافي ذلك.

البحث عن مخرج

وفي ١٩٨٦ اعلنت الحكومة الطواريء وشكلت عصابات من السود العاطلين تسببت في تشريد ٧٠ ألفا من السكان وقتل المئات. وبلغ عدد المعتقلين في ١٩٨٦ حوالي ٣٤٠٠٠ لكن كل هذا لم يأت بنتيجة وبدأت الحكومة العنصرية تبحث عن مخرج جديد. فوجدته - أو تصورت أنها وجدته- في "مانديلا".

كان "مانديلا" قد صار في تلك الأثناء قائداغير منازع للسجناء السياسيين في جزيرة "روبن"، وممثلا لهم لدي الإدارة وذلك بفضل جهوده من أجل تحسين ظروف السجن وتشجيع السجناء علي الدراسة. وذاعت شهرته في الخارج حيث نظمت حملات المطالبة بالافراج عنه وصاراستمرار وجوده في السجن مصدر حرج للحكومة البيضاء.

نقلت السلطة "مانديلا" - بعد أكثر من عشرين سنة في السجن وقد أصبح الآن يقترب من السبعين-من جزيرة "روبن" إلي سجن قريب من العاصمة وبدأت تتحدث إليه بصورة غير رسمية عن المستقبل ، وأمرت مدير السجن أن يأخذه في جولات بالسيارة حول "كيب تاون" بل وتركوه مرة في السيارة دون حراسة. وقال "مانديلا" في مذكراته: "استمتعت بهذه الرحلات وأدركت أنهم يريدون تعريفي بالحياةالعادية وتعويدي علي الاستمتاع بالحريات الصغيرة حتي أصبح راغبا في المساومة من أجل الحصول علي الحرية الكاملة".

وفي ١٩٨٩ سعي الرئيس الأبيض "بوثا" ونائبه" ديكليرك" إلي الالتقاء به سرا وعرضا عليه الحرية بشرط أن يعتزل العمل السياسي لكنه رفض.

سياسة جديدة

أصيب الرئيس "بوثا" بجلطة في نفس العام وأجبره وزراؤه علي الاستقالة وحل "ديكليرك" محله وهو من سلالة "البوير" وابن لأحد مهندسي سياسة "الأبارتيد". وكان يعتبر من المحافظين المؤمنين بالفصل العنصري. لكنه فاجأ بلاده والعالم في أول خطبة له في فبراير ١٩٩٠باعلان الحاجة إلي سياسة جديدة واعلان شرعية الأحزاب السوداءوالافراج عن مئات السجناء السياسيين بما فيهم "مانديلا" و"سيسولو"،استعداده للعمل مع كافة الجماعات السياسية لوضع دستور جديد يعطي حقوقا متساوية لكل جنوب أفريقي.

كانت حساباته أنه يستطيع إنقاذ السلطة البيضاء من مأزقها بمشروع ماكريسمح للسود بالمشاركة في السلطة تحت سيطرة البيض. وظن أن انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفييتي سيكون عاملا مساعدا.

وجري الافراج عن "مانديلا "فتجمعت حشود هائلة أمام بوابات السجن في قلب "كيب تاون" لتسمعه يتحدث لأول مرة منذ قرابة ٣٠ سنة. أعلن أنه لن يخفف من جهوده لاسقاط سياسة الفصل العنصري كما طمأن رفاقه في المنفي (كي لا يظنوا أنه يجري اتفاقيات خاصة مع ديكليرك) بأنه سيواصل الكفاح تحت قيادة حزب المؤتمر. لكنه في الشهر التالي حضر اجتماع قيادة الحزب التي انتخبته نائبا للرئيس ثم صار الزعيم الفعلي.

شبح الحرب الأهلية

في نهاية ١٩٩١وافقت الحكومة البيضاء علي الإجتماع بالأحزاب السوداء لمناقشة وضع دستور جديد يعطي حقوقا متساوية لكل المواطنين.وواجه كل من "مانديلا" و"ديكليرك" صعوبات هائلة في السيطرة علي مؤيديهم.

كان بين مؤيدي "مانديلا" المتعجلون الذين أرادو ديموقراطية كاملة علي الفور بينما طالب كثير من أتباع "ديكليرك" بتأجيل التغييرات أطول مدة ممكنة. وطالب أتباع "انكاثا" باتفاق خاص يعطيهم السلطة في منطقة "الزولو" وشنوا حملة ترويع ضد أتباع حزب المؤتمربمساعدة الشرطة البيضاء. وفي نفس الوقت هددت جماعة بيضاء متعصبة باغتيال "مانديلا "والكفاح من أجل وطن للبيض. و في ١٩٩٢ اضطر وفد حزب "المؤتمر الأفريقي" للانسحاب من الإجتماع وظهر شبح الحرب الأهلية علي الأبواب.

بادر"مانديلا" بالاتصال ب"ديكليرك" ووقعا وثيقة تفاهم لخفض العنف واستئناف

المناقشات الدستورية وتم الإتفاق في ديسمبر ١٩٩٣بعد أن أبدي قادة حزب المؤتمر استعدادهم لاعطاء البيض نصيبا في "جنوب أفريقيا" الجديدة مقابل إ جراء انتخابات حرة علي أساس صوت واحد للشخص الواحد.

أبريل ١٩٩٤

خفف حزب المؤتمرمن شعاراته الاشتراكية وأبدي استعداده للعمل مع الرأسمال الكبير. وانتظم ملايين السود في صفوف ليدلوا بأول تصويت ديموقراطي في حياتهم في أبريل ١٩٩٤. وأسفرت النتائج عن انتخاب "مانديلا" (٧٦سنة)رئيسا و"ديكليرك" نائبا له. وفي حفل تنصيبه أعلن "مانديلا" : "اننا نتعهد ببناء مجتمع يتمتع فيه كافة الجنوب أفريقيين ، السود والبيض ،بالحرية بلا أدني حوف ... أمة من ألوان الطيف في سلام مع نفسها والعالم".

وبالفعل وجه "مانديلا" همه الأساسي إلي شعار"التصالح" ونجح في قمع محاولات تخريب الاتفاق من جانب "انكاثا" والبيض. واستمرت حكومته حتي عام ١٩٩٦ عندما أعلن 'غضبه من رفض نائبه الأبيض "ديكليرك" اعلان الحقيقة بشأن علاقة حكومته بالتنظيم السري المسؤول عن أعمال العنف في بداية التسعينيات. وترك "ديكليرك" وزملاؤه البيض الحكومة. وحل مكانه "مبيكي" ، زميل مانديلا في السجن لبعض الوقت وقائد الكفاح في المنفي.

الحقيقة والمصالحة

كان علي حزب المؤتمر أن يجد طريقا "للعفو دون النسيان". ووجد "مانديلا" الحل في اقامة "لجنة الحقيقة والمصالحة". لم تكن لجنة قضائية أو عقابية فقد سبق منح العفو لكثيرين من المشاركين في أعمال

الشاطئ والبحر للبيض فقط" باللغتين الأفريكانية والانجليزية

العنف والاضطهاد العنصري. لكن "مانديلا" امن بأهمية الكشف عن الحقيقة وكيف أن اعتراف المذنبين علانية بما فعلوه يمكن أن يؤدي إلي مصالحة حقيقية. رأس اللجنة شخص معتدل (سبق أن استنكر العمل المسلح) هوكبير الأساقفة الأسود "توتو". وأذيعت اعترافات كثيرة عن جرائم التعذيب والقتل البشعة التي ارتكبها البيض والسود علي السواء. ونشرت اللجنة نتائج عملها كاملة في عام ١٩٩٨رغم محاولات ازالة بعض فقراته.

الاعتزال

احتفل "مانديلا" بعيده الثمانيني في يوليو ١٩٩٨ مع زوجته الجديدة "مارا سا ماشيل" أرملة رئيس "موزمبيق". وكان قد طلق زوجته الثانية "ويني" في ١٩٩٦ بعد أن ساهمت في عدد من الفضائح الشخصية والسياسية. وفي ١٩٩٩أعلن اعتزاله مشيرا إلي أنه أصبح في الفترة الأخيرة دون سلطات حقيقية ملمحا إلي نائبه الطموح "مبيكي" الذي ترشح مكانه في انتخابات ذلك العام وصار رئيسا للجمهورية.

لكن "مانديلا " مازال حاضرا وسيظل بفضل شخصيته الفذة التي نجحت في قراءة الواقع المتغير وجمعت بين الصلابة والمرونة في مزيج نادر. لقد امن بأن هناك فرصة ذهبية لتحقيق الأماني السوداء دون خسائر كبيرة وتتمثل لا في استعادة البلاد كاملة وإنما في التصالح مع البيض وقبول واقع وجودهم في البلاد وانتمائهم إليها وسيطرتهم علي إقتصادها. ولا شك في أن عوامل كثيرة قد ساهمت في نجاح هذه الثورة السلمية وعلي رأسها قوة الجانب الأسود والاجماع العالمي والمساندة التي تلقاها الكفاح الأفريقي من المعسكر الاشتراكي السابق.

لقد انخدع كثيرون بالسطح الأبوي العطوف لشخصيته وعلي رأسهم الرئيس الأمريكي السابق "كلينتون". ففي عام ١٩٩٨ أعرب رئيس أقوي دولة في العالم عن استيائه للعلاقة بين "جنوب أمريكا "و"ليبيا" ورد عليه "مانديلا" قائلا إن من لا تعجبه هذه العلاقة يستطيع أن يقفز في حمام سباحة. وهو رد يذكرنا بتصريح "عبد الناصر" الشهير سنة ١٩٦٥ الذي قال فيه إن من لا تعجبه سياسة "الجمهورية العربية المتحدة" يمكنه أن يشرب من البحر.

مستقبل مهدد

ومع ذلك فان الحكم علي سياسة التصالح بالنجاح أو الفشل رهين بحل المشاكل المعقدة التي يواجهها الشعب الأسود من بطالة واغتراب وضياع . فمنذ بداية التسعينيات عندما بدا شبح هزيمة البيض في الأفق ، عملت حكومة "ديكليرك" علي بيع ملكيات الدولة من مصانع ومؤسسات وأراضي - وهي التي تكونت علي مدي سنوات الاستغلال الإقتصادي الطويلة - إلي أثرياء البيض وبأرخص الأثمان. وأصبح هؤلاء يتحكمون في شركات الغاز والكهرباء والتليفونات وغيرها. كما هرب الكثيرون منهم ثرواتهم إلي الخارج. والمضحك أن بعضهم اشتري- بأثمان بخسة - قصورا وأراضي زراعية في المجر والبلدان الاشتراكية السابقة التي طالما ساندت كفاح السود.

وأتاحت تلك الفترة أيضا الفرصة لظهور بيروقراطية سوداء انفصلت عن الشعب الأمر الذي يتضح من الصدمة التي شعر بها رئيس الجمهورية عندما حدثوه عن مأساة البطالة كأنما يسكن كوكبا أخر. وظهرت طبقة سوداء تملك السيارات الفارهة

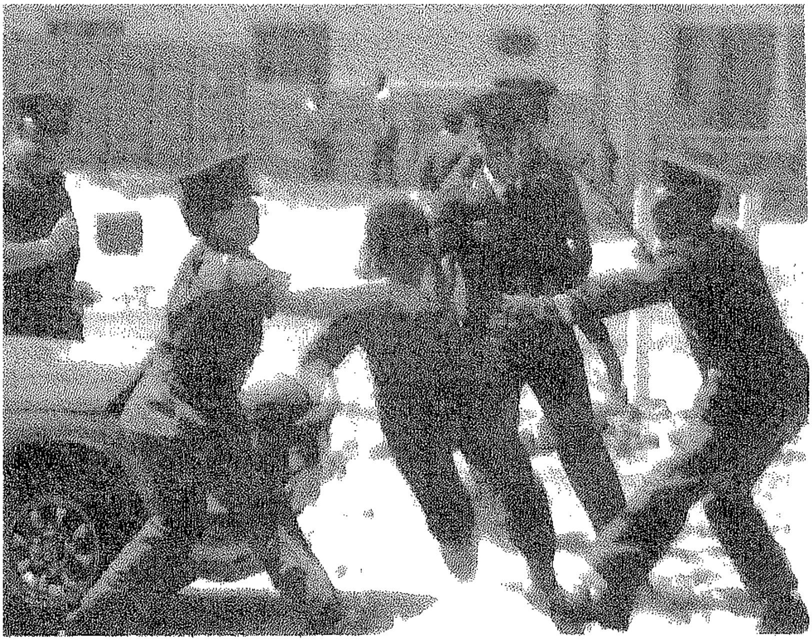

التقطت هذه الصورة في "كيب تاون" سنة ١٩٨٥ وتمثل رجال الشرطة البيض يعتقلون أحد المتظاهرين السود

وتسكن في أحياء البيض القديمة ويذهب أولادها إلي مدارس الأغنياء. وقد تضمن برنامجي زيارة متعمدة لإحدي هذه المدارس في حي القصور والفيلات تضم ملاعب شاسعة وحمامات سباحة وهي مدارس مشتركة للبيض والسود. وقد اشتركوا جميعا في مظاهر النعمة التي بدت علي أجسامهم الممتلئة وبشراتهم الناعمة.

الديموقراطية كما يراها الكتاب

وقد عكس "مهرجان الكتّاب العالمي" السابع الذي دعيت إليه في مدينة "دوربان" كل هذه الأمور. والمؤتمر من تنظيم مركز الابداع في جامعة "كوازولو-ناتال" وهو الاسم الأفريقي لها. ويشارك فيه عدد من البيض التقدميين وعلي رأسهم مدير المهرجان "بيتر روفيك" (من أصول انجليزية). وقد اشترك في دوراته السابقة عدد من كتاب العالم المعروفين مثل "ادوار سعيد" و"وول سوينكا" و"أشيبي" و"بريتنباخ" و"نور الدين فرح" و"نادين جورديمر"، فضلا عن "شريف حتاتة" الذي شارك في دورة سنة ٢٠٠٠.

تحدد لدورة هذا العام موضوع "الديموقراطية كما يراها الكتّاب". واقتصر التمثيل بها علي البلدان الأفريقية. وشارك من "جنوب أفريقيا" عدد متقارب من السود والبيض .لكن الأخيرين كانوا من المعروفين بمساندتهم لقضية السود وبما تعرضوا له من أذي في هذا السبيل مثل "ألبي زاكس" السبعيني وهو رجل قانون من أصول انجليزية فقد إحدي ذراعيه في انفجار سيارة مفخخة دبرته أجهزة الأمن البيضاء سنة ١٩٨٨.

وكان هناك تمثيل متساو للرجال والنساء بين الكتاب المشتركين. وبلغ عدد المشتركات من "جنوب أفريقيا" وحدها تسع كاتبات. ومن أبرزهن "سينديوي ماجونا" وهي ستينية سوداء خفيفة الظل حصلت علي شهادة الدراسة الثانوية بالمراسلة في الوقت الذي كانت تعمل فيه في الخدمة بالمنازل لتعول ثلاثة أطفال. وأخيرا حصلت علي الدكتوراه من جامعة "جنوب أفريقيا" وعلي درجة أخري من جامعة "كولومبيا" الأمريكية حول العمل التنظيمي الاجتماعي. وعاشت سنوات طويلة في "نيويورك "أثناء عملها في إدارة المعلومات العامة بالأمم المتحدة إلي أن تقاعدت أخيرا وعادت إلي وطنها.

هل يعفو الله عما سلف؟

ومنذ اللحظة الأولي بدا أن النسيان الكامل للماضي " عفا الله عما سلف" لا يحظي

بتأييد الغالبية. فقد تساءل أكثر من متحدث عما يحول دون "المجرمين" وتكرار جرائمهم طالما لم يتم عقابهم. ولم يقتصر التساؤل علي أبناء "جنوب أفريقيا" فقد رددته "يولاندة موجاكاسانا" (٥٠سنة)من "رواندا " التي فقدت كل أفراد عائلتها وبينهم أطفالها الثلاثة في مذابح ١٩٩٤العرقية، بين قبيلتي "التوتسي" و"الهوتو".

تحدثت هذه الكاتبة باللغة الفرنسية وتولي أحد المترجمين نقل حديثها إلي الانجليزية، اللغة السائدة. وتكرر نفس الأمر مع الكاتب الكونجولي "يوكا". وبدا الأمر غريبا: ممثلو بلدان أفريقية مختلفة يتحاورون بلغة المستعمر. العرض الرائع الذي قدمته الشاعرة والممثلة والمخرجة المسرحية وراوية الحكايات المعروفة في "جنوب أفريقيا" "جسينا ميلوفي" هي الحالة الوحيدة -- فضلا عن فقرة الرقص الشعبي عند الافتتاح – التي ترددت بها عبارات من اللغات المحلية.

سرطان المنظمات غير الحكومية

وقد كرست "يولاندة" الرواندية حياتها بعد المذبحة للكتابة ولرعاية أطفال الضحاياالذين تبنت منهم ثلاثة أطفال. وشكلت مؤسسة "تذكر الإبادة العنصرية ومساعدة تعمير البلاد"ومركزها الرئيسي في "بروكسل" أما فرعها المحلي فهو من المنظمات غير الحكومية.

أما الروائية "يونيتي دو"من "بتسوانا" فقد عينت أول قاضية في المحكمة العليا في ١٩٩٨. وهي في مقتبل الأربعينيات وأم لثلاثة أطفال (من طليقها الأبيض)كبراهن تجاوزت العشرين. وتديرمركزا نسويا في قريتها فضلا عن عضويتها في جماعة "هيومان رايتس واتش" الدولية لحقوق المرأة.

وكان واضحا أن سرطان المنظمات غير الحكومية -التي تتلقي الدعم من مؤسسات غربية غير بريئة مثل "فورد" الأمريكية و"نوفيك "الهولندية وتمتص طاقة المناضلين السياسيين وتنقلهم من الشارع إلي المكاتب المكيفة- متغلغل في بنية البلدان الأفريقية.

الأقنعة المتعددة

اشتركت في منصة واحدة مع الدكتور"علي مزروعي" الكيني(٧١سنة)خريج "أكسفورد" الذي يوصف بأنه أكاديمي عالمي. فهو الآن مدير لمعهد الدراسات الثقافية العالمية في جامعة "برمنجهام" ب"نيويورك" وأستاذ بجامعة "جوس" في "نيجيريا" وبجامعة "كورنيل" الأمريكية ورئيس جامعة "كينياتا" للزراعة والتكنولوجيا في "كينيا" ومستشار للأمم المتحدة والبنك الدولي ومنظمة الوحدة الأفريقية واليونسكو وفضائيات واذاعات "بي بي سي" و" بي بي إس" و "إي بي سي" و "إن بي سي" و"صوت أمريكا".

لم يكن هناك ما يجمع بيننا علي الإطلاق ويبرر المنصة المشتركة. وبينما قرأت بعض المقتطفات من رواياتي عرض هو أفكاره عن مستقبل "أفريقيا "التي بسطها في أشهر كتبه "الأفريقيون تركة ثلاثية: الأوروبي ، الأفريقي ، الإسلامي" وهي أفكار أثارت بعض التندر من الحضور.

أكمل لي "كوفي أونو"الغاني السبعيني صورة المثقف الأفريقي بأقنعته المتعددة. فهو شاعر وروائي وناقد ،عمل إلي جانب "نيكروما" أول رئيس ل"غانا بعد

رسم يرجع إلي عام ١٨٢٠ يصور المزارعين الهولنديين (البوير) وهم يطاردون أفراد القبائل الافريقية، وأراد الرسام الهولندي الايحاء بأن الأفريقيين سرقوا ماشية البيض، ليبرر سلوك هؤلاء

الاستقلال"حتي إسقاطه بانقلاب ١٩٦٦فانتقل إلي المنفي وحصل علي الدكتوراه في الأدب من جامعة "نيويورك". وفي ١٩٧٥ قبض عليه بتهمة الاشتراك في انقلاب عسكري ثم عين سفيرا ل"غانا" في "البرازيل" في ١٩٨٥ ثم "كوبا" في ١٩٨٩وصار ممثلا دائما لبلاده في الأمم المتحدة من ١٩٩٠ إلي ١٩٩٤.

وجدته شخصا دمثا رقيق الحاشية خفيف الظل إلي أن وصفت مواطنه الأمين العام للأمم المتحدة بخادم الأمريكان، فثار ثورة عارمة، ولم يهدأ إلا عندما أبديت رأيا مشابها بشأن سلفه المصري. هنا تلاشت النعرة القومية ووافقني الرأي في الاثنين، وصرنا أصدقاء. فاعترف لي بأن أزهي فترات حياته كانت عندما خدم إلي جوار "نكروما". كما استنكر دفاع المناضل السبعيني "زاكس " في كلمته عن النك الدولي. وعندما علقت علي قامته المنتصبة وأسنانه البيضاء السليمة وخفة حركته في الحذاء الرياضي قال إنه يلعب الجولف يوميا وتزوج أخيرامن فتاة صغيرةالسن. وتمكنت أخيرا من الربط بين حلقات حياته وأدواره المتعددة.

صرخة ويني مانديلا

الكاتب الآخر الذي أثار اهتمامي هو "نيابولو نيبيلي" نائب رئيس جامعة "كيب تاون" والأستاذ المقيم بمقرمؤسسة "فورد" في "نيويورك" من سنة ١٩٩٨. وقد تخرج من " كامبردج " وحصل علي الدكتوراه في الفلسفة والأدبين الانجليزي والأمريكي من جامعة "دنفر"الأمريكية. وهو روائي معروف صدرت أحدث رواياته "صرخة ويني مانديلا" في العام الماضي ٢٠٠٣ وأعيد طبعها في مطلع هذا العام. وتصور تجارب أربع نساء سود من "جنوب أفريقيا" ، قضين حياتهن في انتظار عودة أزواجهن، ثم التقين ب "ويني مانديلا" أشهر المنتظرات.

وفي رد علي سؤال من أحد الحضور أكد "نيبيلي" أنه لم يلتق ب"ويني مانديلا" مطلقا نافيا أن يكون كتابه دفاعا عنها بصورة ما. وابتسمت لنفسي في سخرية العارف الخبير. لكن الحوار أثار اهتمامي بالرواية إذ تبينت منه أن أسلوبه الفني يموه الحدود القائمة بين التخييل والواقع ، وبين أشكال الابداع المختلفة من قص وسيرة ومقال. كما إنه يستخدم الوثائق. اشتريت نسخة من منصة البيع وقرأت. وكانت مفاجأة. ■

ذاتنا في مرآة غيرنا

مصر

في عيون الرحالة

مشاهد مصر من ٤٥٠ ق.م حتى القرن العشرين

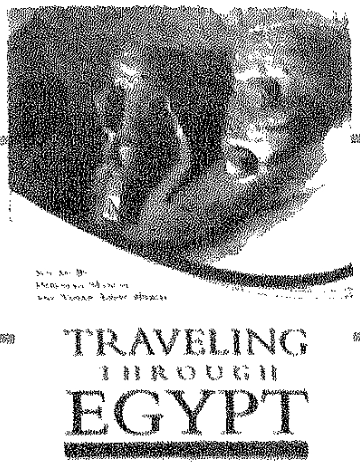

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

ظلت مصر دائما - باعتبارها الشرق والغرب ونقطة لقاء ثقافات متراكمة الطبقات عبر العصور - تستأثر باهتمام أجيال من الرحالة الأجانب الذين كتبوا عن مصر الفرعونية، وعن الحقبة الإغريقية الرومانية «خاصة كليوباترا» وعن مدرسة الإسكندرية والثقافة الهلنستية، وعن مصر في العصر الحديث «للشاعر الفيكتوري ألفرد تنسون قصيدة يتغنى فيها بهزيمة عرابي في التل الكبير» وصولا إلى يومنا هذا.

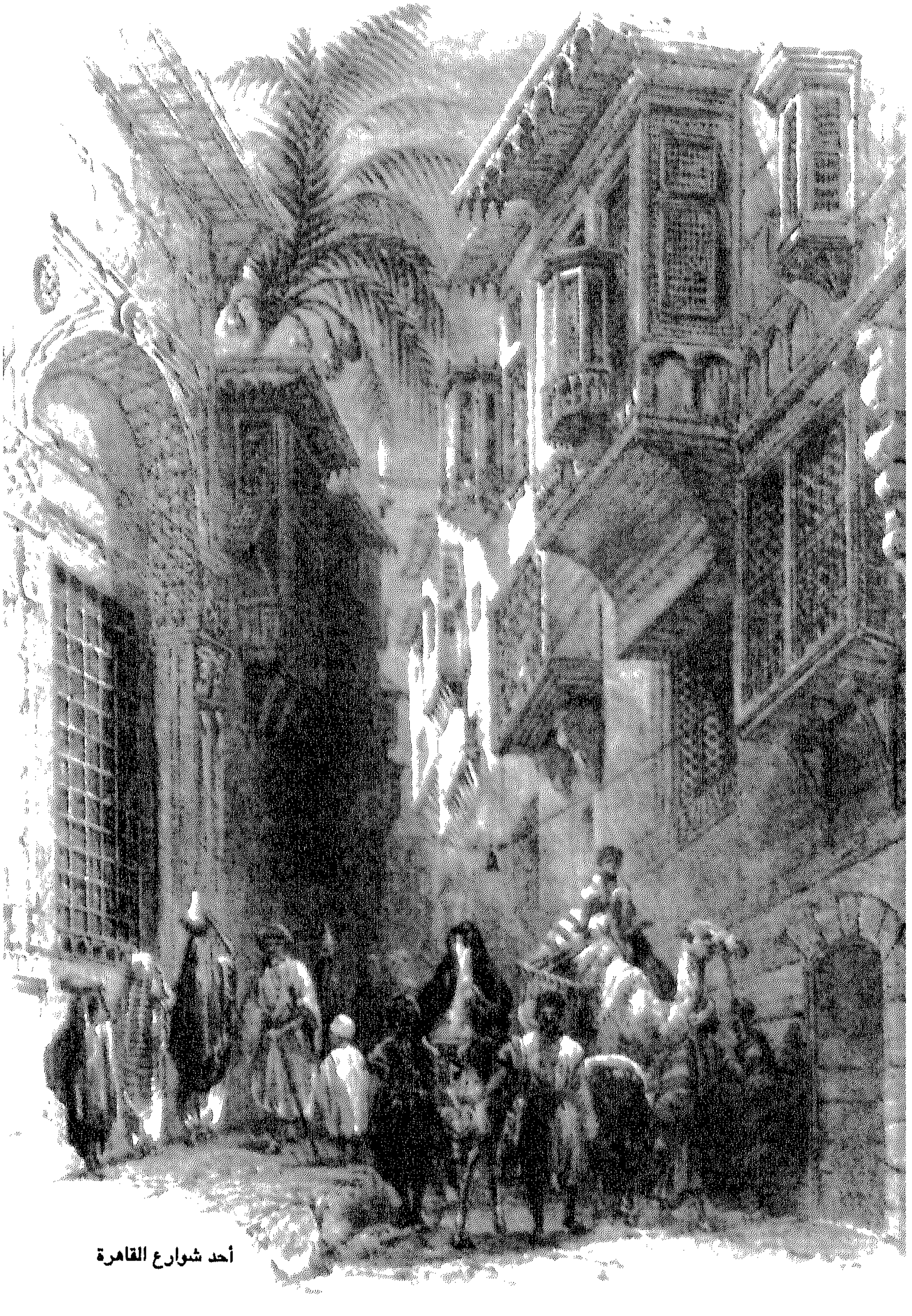

أحد شوارع القاهرة

والوقوف على هذه الكتابات أمر شائق لا لأنه يرضى غرورنا القومى أو يجعلنا نشعر بأننا ملء الدنيا وشغل الناس، وإنما لأنه يرينا ذاتنا فى مرآة غيرنا، ومن ثم يتيح لنا الفرصة كى نرى أنفسنا فى ضوء جديد، متولين عيوبنا بالتقويم ومناقبنا بالرعاية، وقد كثر الأجانب الذين زاروا مصر منذ أقدم العصور «هيرودوت ومن تلوه» وكتبوا عنها آلاف الصفحات. ولاشك فى أن من أهم الأسباب التى أدت إلى ذلك موقع مصر الجغرافى الذى ما كان ليمكنها ، حتى لو أرادت، من أن تعيش فى عزلة عن العالمين، وحضارتها العريقة التى استرعت أنظار العلماء والأدباء «أنظر كتاب روبير سوليبيه: «مصر: ولع فرنسى»، وثرواتها الطبيعية التى أثارت جشع المغامرين والطامعين والمستعمرين. ومن ثم كثر وفود الأجانب عليها، الصالح منهم والطالح، ممن غادروها بانطباعات تتراوح بين السخط والرضى، وخيبة الأمل والأشباع.

وتشويق القراءة عن مصر فى كتابات الرحالة الأجانب راجع قبل ذلك إلى ما لموضوع أدب الرحلات من قيمة باطنة متجددة، فهذا الأدب هو «جماع الأجناس الأدبية المختلفة، ففيه من الدراما والقصة والشعر والخيال، ويصبح بجاذبيته أداة تشويق القراء إلى جوانب المعرفة المتعددة»، «مصطفى نبيل، أدب الرحلات ، مجلة الهلال ، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٦٣ - ٦٤».

واليوم تصدر مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة سفرا جديدا فى أكثر من مائتين وخمسين صفحة يحمل عنوان «السياحة عبر مصر: من ٤٥٠ ق.م. إلى القرن العشرين». من تحرير كاتبة إنجليزية هى دبورا مانلى التى تعد حجة فى أدب الرحلات البريطانى إلى مصر، وقد عاشت زمنا فى الهند وكندا ونيجيريا ، ومؤلفة كتاب عن هنرى سولت، القنصل البريطانى العام فى القاهرة فى مطلع القرن التاسع عشر، وكتاب «سكة حديد عبر سيبيريا: منتجعات للسائح» ، وأستاذة جامعية مصرية شابة هى الدكتورة سحر صبحى عبدالحكيم، أستاذ مساعد الأدب الإنجليزى بكلية الآداب ، جامعة القاهرة، وهى متخصصة فى أدب الرحلات . وقد التقت الكاتبتان لأول مرة فى عام ١٩٩٧ عند إنشاء «رابطة دراسة السياحة فى مصر والشرق الأدنى» وهى جمعية تتخذ من المملكة المتحدة مقرا لها وكانتا ، كلتاهما، من أعضائها المؤسسين ، والكتاب محلى بعدد من الرسوم التخطيطية والصور من ريشة و.هـ بارتلت صاحب كتاب «مركب على النيل أو لمحات من أرض مصر» «لندن ١٨٤٩».

يضم الكتاب مختارات وفيرة مما كتبه عن مصر رحالة من بلدان مختلفة: هيرودوت وسترابو «اليونان» بلينى الأكبر «روما» جيوفانى فيناتى وجيوفانى بلزونى «إيطاليا» شامبليون وشاتوبريان وبييرلوتى وجاستون ماسبيرو وكلود شافارى «فرنسا» رتشارد لبيوس «ألمانيا»، بايارد تيلور ومارك توين «الولايات المتحدة الأمريكية» أميتاف جوش «الهند» ناصر خسرو «فارس» عبداللطيف البغدادى والمقدمى وابن حوقل وابن بطوطة وابن جبير وأحمد حسنين «من مختلف أنحاء العالم العربى والإسلامى من المحيط إلى الخليج». على أن نصيب الأسد فى هذه المختارات إنما هو لرحالة وكتاب بريطانيين «فلورنس نايتنجيل مؤسسة التمريض الحديث، كبلنج شاعر الإمبراطورية البريطانية، إدوارد لين، لوسى دف جوردون، آرثر كونان دويل مبتدع شخصية شرلوك هولمز، توماس كوك مؤسس شركة السياحة المعروفة ، ليونارد كوتريل، روبرت

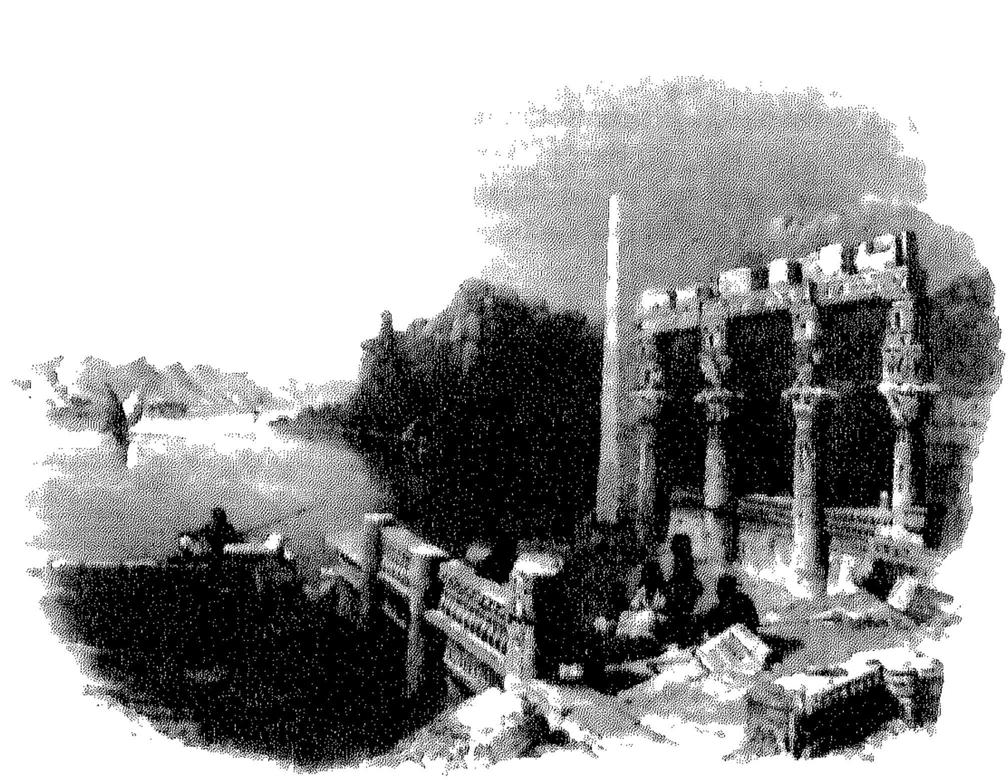

منظر لجزيرة « فيلة »

كيرزون ، وليم جولدنج ، وغيرهم»، وهذا أمر طبيعي بالنظر إلى وثاقة الصلة بين مصر - بوابة الهند، من طريق البحر الأحمر - والإمبراطورية البريطانية التى انتزعت أرض النيل من بين أنياب نابليون واستبدلت احتلالا باحتلال لأكثر من سبعين عاما.

مصر هبة النيل

يبدأ الكتاب بنظرة عامة إلى مصر، هبة النيل كما وصفها هيرودوت. يقول أبو التاريخ فى ثانى كتبه التسعة: «إن مصر التى يبحر إليها اليونانيون أرض مكتسبة، وأنها هبة من النيل، والإقليم الواقع على مسافة رحلة مداها ثلاثة أيام جنوبى البحيرة «بحيرة موريس» يشبه هذه الأرض فى تكوينه «ربما يقصد المكان الذى يفصل فيه بحر يوسف من أصله عند ديروط»، وإن كان هؤلاء الكهنة «كهنة هليوبوليس وممفيس وطيبة» لم يقولوا عنه حتى ذلك الحين شيئا من هذا القبيل. وهذه طبيعة أرض مصر، عندما تبحر إليها لأول مرة - ومازلت على مسيرة يوم من اليابسة - فإنك ستخرج طميا إذا ألقيت بالمسبار على عمق أحد عشر باعا «الباع حوالى ٦٦ قدما»، وهذا يشير بجلاء إلى أن الطبقة الطمية تمتد إلى هذا الحد. ثم تمتد مصر على ساحل البحر ستين «اسخنيوس» «مقياس إغريقى للمسافات يساوى فرسخين» وفقا لتحديدنا إياها من خليج «بلينثوس» «خليج مريوط» حتى بحيرة «سربونيس» سنجة البردويل» التى يمتد بجانبها تل «كاسيوس» «كثيب القلس» والستون «إسخينوس» تحسب - على ذلك - ابتداء من هذه البحيرة.

إن الذين يملكون الشىء القليل من الأراضى يمسحونها بالباع (الباع : ٦٦ قدما) ومن يملكون أكثر - بالاستاد «مقياس إغريقى للمسافات» وأصحاب الأراضى الواسعة بالفرسخ، وأصحاب الضياع المترامية الأطراف بالأسخينوس. ولما كان الفرسخ يساوى ثلاثين استادا ، والأسخينوس - وهو مقياس مصرى

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

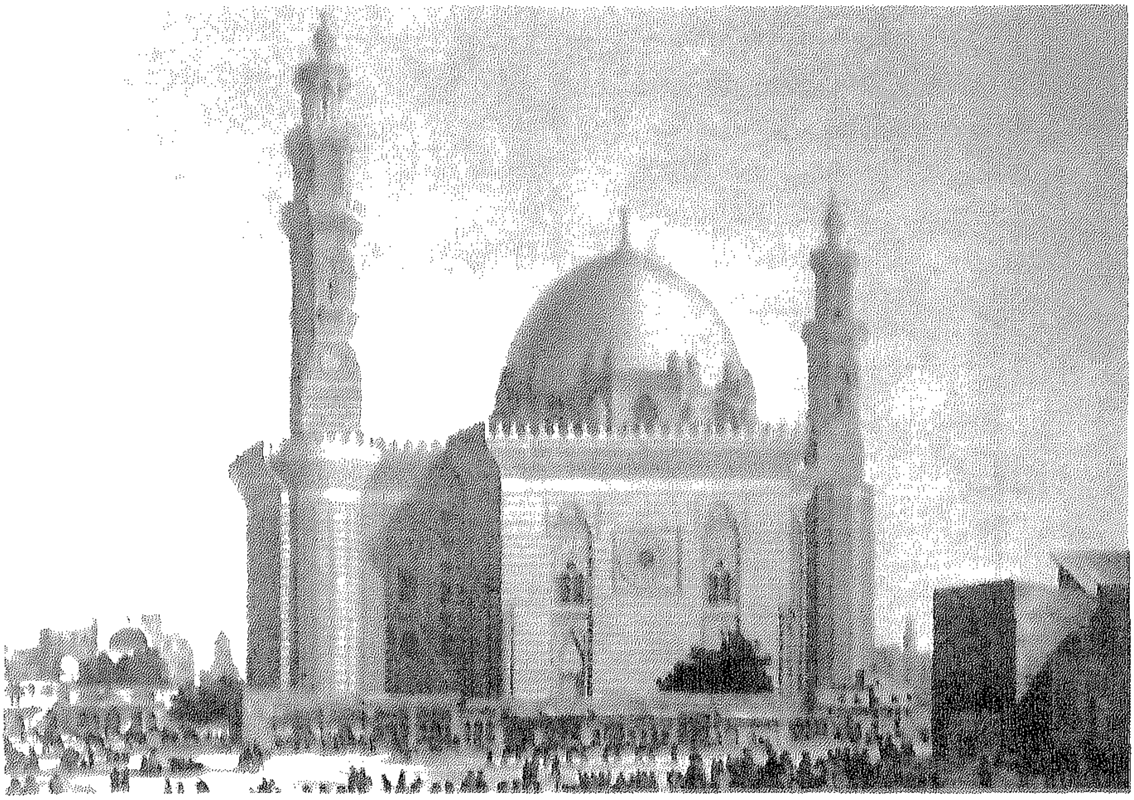

صحن جامع ومدرسة السلطان حسن - باسكال كوست

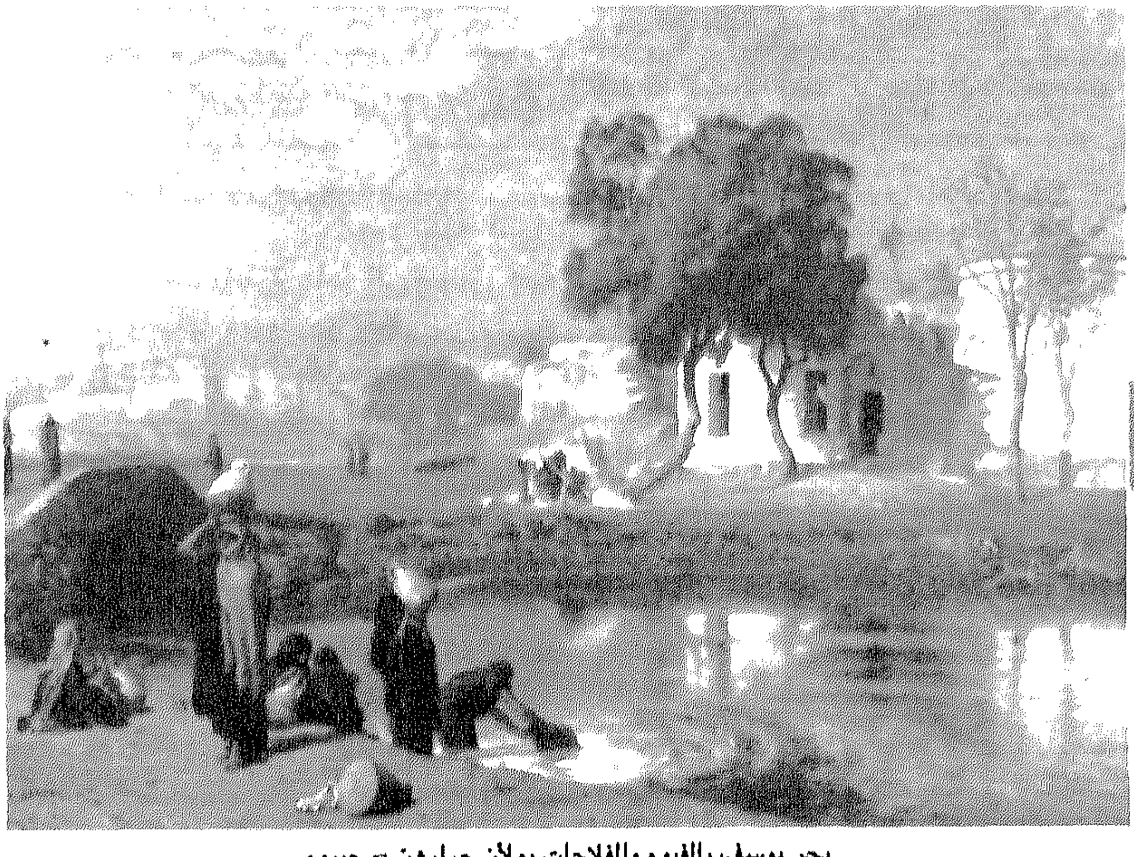

بحر يوسف بالفيوم والفلاحات يملأن جرارهن - جيروم

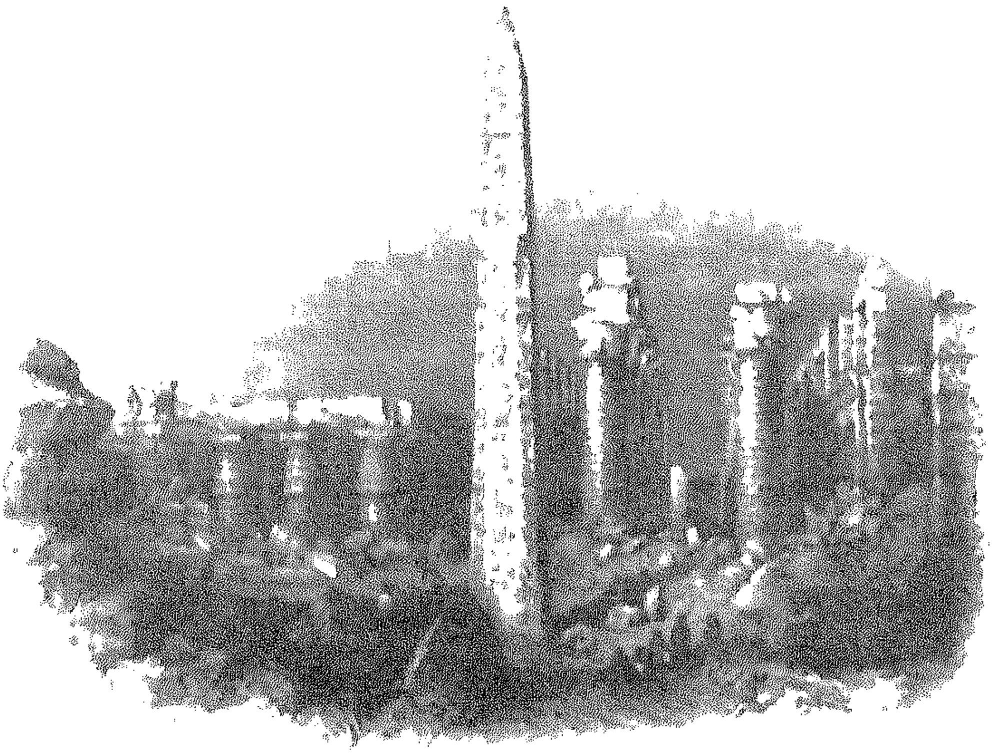

معبد الكرنك

«يقصد أنه كان مستعملا فى مصر»- يعادل ستين استادا ، فلذلك يبلغ طول الجزء الممتد من مصر على ساحل البحر ٣٦٠٠ «إستاد».

ومن الشاطىء إلى مدينة «هليوبوليس» «نرى» مصر واسعة فى الداخل، كلها منبسطة، ماؤها وفير، وطميها غزير ، والسبيل التى قطعها الذاهب من البحر إلى مدينة «هيليوبوليس» تبلغ فى طولها «قدر» المدى. بين هيكل الآلهة الأثنى عشر فى أثينا، ومبعد «زيوس» الأولبى فى «بيزا»، ولو حسبنا طول الطريقين، لوجدنا أن الفرق بينهما طفيف، بل إنهما يكادان يتساويان، لأن الفرق لايزيد على خمسة عشر «إستاداً» . فالطريق من «أثينا» إلى «بيزا» تقل بمقدار خمسة عشر «استادا» عن الخمسمائة وألف «إستادا» بينما المسافة من البحر إلى مدينة «هيليوبوليس» تبلغ ذلك القدر بأكمله «هنا يخطىء هيرودوت، ذلك لأن البعد المضبوط بحساب اليوم لا يجاوز ١٦٥ كيلو مترا».

وتضيق مصر ابتداء من مدينة «هيليوبوليس» جنوبا، فعلى أحد جانبيها تمتد سلسلة الجبال العربية من الشمال إلى الجنوب والجنوب الغربى «يعنى ابتداء من «الجبل الأحمر» فجبل «المقطم» وامتداده إلى الجنوب مع انحراف إلى الجنوب الغربى»، ويستمر امتدادها فى اضطراد حتى البحر المسمى ببحر «إروترى» «أى البحر الأحمر، والمقصود هنا بالضبط الخليج العربى» . وهنا توجد مقالع الأحجار «يقصد المحاجر الجرانيتية عند أسوان» التى استخدمت فى بناء أهرام «ممفيس» «يقصد بتلك الأهرام كافة أهرام الدولة القديمة المنتشرة فى الصحراء الغربية بين «دهشور» و«أبى رواش»، وعلى طول امتداد «ممفيس» من جنوبى «البدرشين» إلى شمالى «المناوات» وصولا إلى «الفسطاط» على الشاطىء الشرقى للنيل» وفى هذا المكان يقف امتداد الجبال وتنحنى هذه نحو الجهات التى ذكرت «يقصد بذلك البحر الأحمر».

وأقصى اتساع لهذه الجبال من الشرق إلى الغرب يبلغ - كما علمت - مسيرة شهرين. وحدودها الشرقية تنتج البخور. هذه إذن هى الجبال الغربية، وعلى جانب مصر من جهة ليبيا تمتد سلسلة أخرى من الجبال الصخرية ، مغطاة بالرمال، توجد بها الأهرام، وهذه السلسلة تأخذ نفس اتجاه ذلك الجزء من سلسلة الجبال العربية الذى يمتد نحو الجنوب.

وإذن فالبلاد من بعد «هيليوبوليس» - باعتبارها جزءا من مصر - لم تعد عظيمة الاتساع. بل إن مصر تضيق لمرحلة أربعة أيام تصعيدا فى النهر. والأرض الواقعة بين سلسلتى الجبال التى سبق الكلام عنهما عبارة عن سهل لا يزيد اتساعه فى أضيق أجزائه - كما يبدو لي - على مائتى «إستاد» «أى حوالى خمسة أميال» فيما بين الجبال العربية والجبال التى تسمى بالجبال الليبية، وبعدئذ تعود مصر إلى الاتساع مرة ثانية.

هذه إذن هى طبيعة البلاد. ومن «هيليوبوليس» إلى «طيبة» يستغرق الإبحار تسعة أيام تصعيدا فى النهر. وهى مسافة ٤٨٦٠ «إستادا» «هنا يخطىء هيرودوت إذ أبلغ البعد بين «هيليوبوليس و«طيبة» ما يساوى بالحساب الحديث ٩٦٢ كم على حين أنه لا يعدو فى الواقع ٧٢٢ كم». والآن سأبين المسافة - وسط الأرض ، ومن البحر حتى مدينة «طيبة» فهى ٦١٢٠ «إستادا» «خطا». والمسافة من «طيبة» حتى المدينة المسماة «اليفانتينا» ١٨٠٠ ستاد، « خطأ.. والبعد بين مدينة «طيبة» وجزيرة «الفيلة» لا يجاوز ٢٢٠ كم». «انظر هيرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة د. محمد صقر خفاجة ، تقديم وشرح د. أحمد بدوى، دار القلم ١٩٦٦».

ما سبق نظرة عامة إلى جغرافيا مصر يصحبنا الكتاب بعدها من الشمال إلى الجنوب مبحرين عكس مجرى النيل، ابتداء بالإسكندرية التى سحرت الرحالة الأجانب بمبانيها القديمة وتاريخها وتنوعها السكانى.

من هؤلاء الرحالة ابن جبير الأندلسى الذى كتب عن عجائب الإسكندرية «١١٨٣ م»:

«ومما أعجبنا به «حسن وضع البلد، واتساع أزقته ومبانيه، حتى إننا ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه، ولا أعلى. مبنى ولا أحسن منظرا، ولا أحفل منه أسواقا.

ومن العجب فى وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها، وأعتق وأمتن، كما أن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض - ويمد بعضها بعضا.

وعاينا فيها أيضا من سوارى الرخام وألواحه - كثرة وعلوا واتساعا وحسنا - ما لا يتخيل بالوهم.

من عجائب مصر

ومن أعظم ما شاهدنا من عجائبها «المنار» وهو آية للمتوكلين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بحر الإسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا. ومبناه فى غاية العتاقة، والوثاقة - طولا وعرضا - يزاحم الجو سموا وارتفاعا. ويقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف. ذرعنا أحد جوانبه الأربع، فألفينا فيه خمسين باعا ونيفا ويذكر أن فى طوله أكثر من مائة وخمسين قامة، وأما داخله فمرأى هائل اتساعه: معارج ومداخل، وكثرة مساكن.

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره - العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه - المدارس التى أنشأها السلطان لأهل الطلب والتعبد الذين يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه، ومدرسا يعلمه

الفن الذى يريد تعلمه، وأجرا يكفيه فى جميع أحواله، ومحارس لحراسته وتأمينه.

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب - ايضا - فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يأنفون من دخول ذلك المارستان «المستشفى» - من الغرباء خاصة - وينهون إلى الأطباء، أحوالهم، ليتكفلوا بمعالجتهم وهم فى بيوتهم» «أنظر كامل كيلانى، ابن جبير فى مصر والحجاز، دار المعارف، الطبعة الثامنة ١٩٨٧».

وينحدر السائح من الإسكندرية إلى دلتا نهر النيل التى ظل سكانها محتفظين بأنماط حياتهم وأساليب عيشهم دون تغيير تقريبا، عبر القرون، رغم ما طرأ على الإقليم من تغيرات جيولوجية مستمرة. وكما يلتقى ماء البحر المتوسط المالح بماء النيل العذب فى هذه المنطقة، كانت الحياة فى الدلتا اشبه بأمواج متتابعة متدافعة.

من هنا وجدنا المقدسى وناصر خسرو يرتدان زمنيا إلى الوراء لكى يصفا مدينة تنيس المزدهرة كما كانت تقوم يوما. ويروى رحاله آخرون - مثل جون فولر الإنجليزى - تاريخ رشيد ودمياط وجغرافيتهما، بينما يصف إدوارد لين المراكب وبحارتها بينما يصعد البرت فارمان - وكان قنصلا لأمريكا فى القاهرة ١٨٦٨ - ١٨٧٥ - إلى سطح إحدى هذه المراكب فعلا مبحرا عبر بحيرة المنزلة، ويتحدث أ. سميث «وهو قس أنجليكانى» عن حياة الطيور، بينما يشكو هيرودوت من لذع الحشرات!

ومن بين هؤلاء الرحالة نختار ناصر خسرو «١٠٠٣ - ١٠٨٨» الذى يبدأ فى سن الأربعين رحلة دامت سبعة عشر عاما فى أرجاء العالم الإسلامى، وزار مصر مرتين: الأولى لمدة ثمانية أشهر، والثانية لمدة عامين، وكان من المقربين إلى الخليفة الفاطمى المستنصر. يقول فى كتابه «سفرنامه» «حوالى ١٠٥٠ م» عن النيل وشئون المال:

«حينما يزيد ماء النيل يبعد الماء الملح من حول تنيس، بحيث يصبح ماء البحر عذبا حتى عشرة فراسخ حولها، وقد بنوا بمدينة تنيس وجزيرتها صهاريج عظيمة تحت الأرض، وهى قوية البنيان وتسمى بالمصانع، فحين يزيد ماء النيل ويطرد الماء الملح من هناك، تملأ هذه المصانع من ماء النيل الذى يجرى إليها، وبتنيس مصانع كثيرة موقومة، يعطى ماؤها للغرباء، وسكانها خمسون ألفا، ويرابط حولها دائما، ألف سفينة، منها ما هو للتجار، وكثير منها للسلطان، ويجلب لهذه الجزيرة كل ما يحتّاج إليه إذ ليس بها من خيرات الأرض شيء، وتجرى المعاملات فيها بالسفن لأنها جزيرة. ويقيم بتنيس جيش كامل السلاح، احتياطا. حتى لا يستطيع احد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها. وسمعت من الثقات أنه يصل منها لخزينة سلطان مصر، يوميا، ألف دينار مغربى. ويصل ذلك المقدار مرة واحدة، يحصله شخص واحد. يسلمه أهل المدينة إليه فى وقت معين، وهو يسلم بعد ذلك للخزانة فلا يتأخر منه شىء.ولا يجبى شيء بالعنف من أى شخص. وما ينسج للسلطان من القصب والبوقلمون يدفع ثمنه كاملا، بحيث يعمل الصناع برضاهم للسلطان، لا كما فى البلاد الأخرى حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على الصناع»، «انظر د. يحيى الخشاب، سفر نامه لناصر خسرو. مجله تراث الإنسانية، المجلد الأول (٨) ٥ أغسطس ١٩٦٣».

وتحظى القاهرة - كما هو طبيعى - بالنصيب الأكبر من كتابات الرحالة، وجاذبيتها ترجع جزئيا إلى أنها تتغير فى كل يوم. ومع ذلك تظل كما هى عبر القرون، إن المدينة التى زارها المقدسى قرب نهاية الألفية الأولى، وزارها ابن بطوطة فى ١٣٢٦ م، هى عين القاهرة التى يعرفها زائروها وسكانها فى يومنا هذا، وما على المرء إلا أن يحيد عن الشوارع المزدحمة إلى طراوة مسجد جانبى، أو إحدى الحارات الضيقة التى تفصل بين المبانى، أو يدخل سوق العطارين ، لكى يجد نفسه فى قاهرة لازمنية لم تتغير كثيرا عما كانت عليه قديما.

هذا ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧ م) وهو سليل أسرة من طنجة، خرج للحج فى ١٣٢٥ آملا أن يلتقى بكبار العلماء . ولكن حب السفر غلبه فقرر أن يسافر حول العالم. وبدأ أسفاره فى ١٣٢٥ فزار مكة مرتين ، كما زار مصر وشرقى افريقيا وآسيا الصغرى والقرم والقسطنطينية والهند والصين وعاد إلى مكة فى ١٣٤٨ ثم زار إسبانيا وساح فى غرب أفريقيا وأخيرا ألقى رحالة فى مراكش، يقول عن القاهرة فى كتاب رحلاته:

«ثم وصلت إلى مدينة مصر، هى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الإقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل، وحليم وسفيه ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها.

ويقال لمن بمصر من السقائين إثنى عشر ألف سقاء وإن بها ثلاثين الف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا للسلطان، والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنارة إلى الإسكندرية، ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو» ، «انظر : المختار من رحلات ابن بطوطة - زيارة مصر أم البلدان، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب».

وقد ظلت أهرام الجيزة وأبو الهول - كما لا حاجة بنا إلى أن نقول - دائما مثار عجب الرحالة الأجانب والأدباء الذين زاروها «ثاكرى، إبسن، فلوبير، الخ» ومن هؤلاء الرحالة عبداللطيف البغدادى «١١٦٢ - ١٢٣١» الذى كان عليما بالشعر والكيمياء والطب. وقد ساح فى دمشق والقدس وحلب، وزار مصر مرتين حيث اشتغل بالتدريس فى الجامع الأزهر، يقول فى الفصل الرابع فى كتابه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» «حوالى ١٢٠٠ م»:

«من الآثار القديمة الأهرام، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها ، وهى كثيرة العدد جدا ، وكلها ببر الجيزة، وعلى سمت مصر القديمة، وتمتد فى نحو مسافة يومين، وفى بوصير منها شىء كثير، وبعضها كبار وبعضها صغار.. وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس.. وأما الأهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، وبينها مسافات يسيرة، زواياها متقابلة نحو المشرق، واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد، وبهما أولع الشعراء وشبهوهما بنهدين، قد نهدا فى صدر الديار المصرية، وهما متقاربان جدا.. وأما الثالث فينقص عنهما بنحو

الربع.. وتجده صغيرا بالقياس الى الآخرين ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه، وحسر الطرف عند تأمله. وقد سلك فى بنايه الأهرام طريق عجيب من الشكل والإتقان، ولذلك صبرت على ممر الزمان، بل على ممرها صبر الزمان. فإنك اذا تبصرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها إلى الفعل مثلا هو غاية إمكانها»، «أنظر د. شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٧».

وثمة وصف آخر للأهرام قدمه شمس الدين المقدسى «حوالى ٩٤٦ - ١٠٠٠ م» وهومن مواليد القدس، تعلم فى العراق، وطاف بأرجاء العالم العربى مسجلا ملاحظاته فى كتابه المسمى «احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، «حوالي ١٠٠٠ م»، الذى يعد أصل مؤلفات الجغرافيين العرب. يقول عن عجائب إقليم مصر:

«فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة، شبه عماريتين «هودجين» ارتفاع كل وحدة اربعمائه ذراع فى عرض مثله، قد ملئت بكتابة يونانية «كذا» وفى داخلها طريقان الى أعلاها ، وطريق تحت الأرض.. وسمعت فيهما أشياء مختلفة، فمنهم من قال هما طلسمان، ومنهم من قال كانتا أهراء «مخازن» يوسف، وقبل بل كانت قبورهم.. ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما فمن كان يدعى قوة فى ملكة فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما . فتركهما، وهما أملسان يريان من مسيرة يومين وثلث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر، وحولهما امثالهما عدة صغار. وهذا يدل على أنها مقابر» «أنظر د. شوقي ضيف، المرجع السابق».

أبو الهول - الأثر الرائع

ومن الأدباء الإنجليز الذين سجلوا وقفتهم أمام أبى الهول - هذا الأثر الرائع المروع - «الكزندر كينجليك (١٨٠٩ - ١٨٩١) فى كتابه «إيوثين أو آثار عدت بها من رحلة إلى الشرق» (١٨٤٤). يقول:

«قرب الأهرام، أكثر إدهاشا وأبعث على الرهبة من أى شىء آخر فى أرض مصر، يجثم أبو الهول وحيدا. حسن هذا المخلوق، ولكن حسنه لا ينتمى إلى هذا العالم. إن الوحش الذى كان يعبد يوما مسخ وهولة عند هذا الجيل. ومع ذلك يسعك أن ترى أن هاتين الشفتين بكل غلظهما وثقلهما . قد صيغتا على نسق نوذج للجمال القديم - نموذج للجمال اندرج الآن فى مدرجة النسيان. طواه النسيان لأن بلاد اليونان قبست عن ثيسيريا وعن رغوة بحر إيجة اللامعة وعلى صورتها خلقت أشكالا من الجمال جديدة ، وجعلت بمثابة القانون بين البشر أن تكون الشفة القصيرة المضمومة فى كبرياء رمزا لعلامة الجمال وشرطه الأساسى عبر كل الأجيال القادمة. ومع ذلك فمازال باقيا جنس أولئك الذين كان جمالهم على نسق العالم الأقدم. وإن الفتيات المسيحيات ذوات الدم القبطى لخليقات أن يرمقنك بتلك النظرة الحزينة الجادة، وأن يقبلن يدك المحسنة بشفاه كبيرة ناتئة هى صورة طبق الأصل من شفتى ابى الهول» «ترجمة ماهر شفيق فريد».

يتقدم بنا الكتاب بعد ذلك إلى الفيوم، فالإبحار نيلا. فالأقصر فأسوان . فما وراء الشلال وبلاد النوبة، فالسويس وسيناء ، فصحارى مصر. وينتهى الكتاب بتعريفات وجيزة بحياة الرحالة والكتاب الذين أدرج مقتطفات من أعمالهم . وببليوجرافيا.

لوحة تصور الخدم يساعدون سيدهم فى امتطاء حماره لجيروم

لوحة تخيلية لجيروم .. يتصور فيها رقصة السيف فى يوم من حياة مصر الفرعونية ..

وعلى غنى الكتاب وتنوع – وما ينم عليه من درس علمي دقيق من جانب دبورا مانلي وسحر عبدالحكيم – قد يكون للمرء أن يأخذ عليه أمرين أو ثلاثة.

فالمقتطفات – فيما يلوح لي –أكبر عددا مما ينبغي (قرابة ٢٧٠ مقتطفا) وأقصر مما ينبغي (بعض المقتطفات لا يجاوز أربعة أسطر). وربما كان من الأوفق أن يضم الكتاب مقتطفات أقل عددا وأكثر طولا بما يتيح للقارىء أن يراها في سياقها من أن تبدو هكذا منتزعة من مظانها ومقشورة كأوراق خرشوفة.

ومدينة الإسكندرية لا تحظى بمساحة تتناسب وأهميتها التاريخية والحضارية «لا أثر هنا لفورستر، ولا كافافي، ولا لورنس دريل، إلخ» على أننا نلتمس العذر للمحررتين فإن هذه المدينة الكوزموبوليتانية «وقد خلدها في أدبنا القصصي الحديث: إدوار الخراط ومحمد جبريل ومحمود عوض عبدالعال ومحمد حافظ رجب وابراهيم عبدالمجيد وغيرهم» بحاجة إلى كتاب مستقل، بل كتب.

وكما هو الشأن في كل كتب المقتطفات، يفتقد المرء نصوصا ود لو رآها ولكن قيود المساحة – وربما تكاليف حقوق الطبع – تحول دون إيرادها. إننا لا نجد ، على سبيل المثال ، شيئا من «رحلة الى الشرق» لجيرار دي نرفال، أو «راسلاس أمير الحبشة» لصمويل جونسون. او «رحلة إلى الهند» لفورستر أو «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز» ، أو «مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر» لجوزيف ماري مواريه، أو «مذاكرت رحالة عن المصريين» لجون انتيس. أو «القاهرة حالمة لا تنام» لهانز ابندورفر. او «مصر أرض الوادي» لروبين فيدين. أو «القاهرة» لدزموند ستيوارت أو «حريم محمد علي باشا» لصوفيا لين بول. «وكلها منقوله إلى العربية».

ولا أحسبني بحاجة إلى أن أقول إن كثيرا من هذه الكتابات يضم السم في الدسم، ويشتمل على نبرات مكتومة أو صريحة، من الاستعلاء العنصري أو المصالح الاستعمارية أو التوجه الأيديولوجي أو المنظور الغربي المنحاز ضد الشرق عقائديا، أو فكريا أو عرقيا. وهو ما أماط عنه اللثام إدوارد سعيد في كتابه «البذري»، «الاستشراق» (١٩٧٨) ومن تلوه من دارسي أدب ما بعد الكولونيالية، ولكن الحديث في هذا يطول، ومن واجبنا – وهو ما يحمد للمحررتين – أن نتعرف على كل ما قيل عنا، خيرا أو شرا.

***

والكتاب– في النهاية – إضافة قيمة إلى جهود علمية سابقة منها «باللغة الإنجليزية» كتابا إ. م. فورستر «الإسكندرية: تاريخ ودليل» و«فاروس وفاريلون» وكتاب جين لاجوديس بنشين» الإسكندرية ماتزال: فورستر ودريل وكافافا في » (١٩٧٧) وكتاب الدكتور رشاد رشدي «سحر مصر للكتاب الإنجليز في القرن التاسع عشر »القاهرة ١٩٥١، وستصدر له ترجمة عربية.. بقلم جمال الجزيري من المجلس الأعلى للثقافة في المشروع.القومي للترجمة» وكتاب «تحت سحر مصر: أثر مصر في الكتاب في اللغة الإنجليزية منذ القرن الثامن عشر»، لمرسي سعد الدين وجون كردمر «١٩٩١». فضلا عن كتابات عربية من أهمها سلسلة مقالات «من أحبوا مصر» لرشاد رشدي في كتاب «صوت مصر» «كتاب الجديد، مايو ١٩٧٥» وكان رشاد رشدي قد حصل على دكتوراه الفلسفة من جامعة ليدز سنة ١٩٥٠ بأطروحة موضوعها الرحالة، الإنجليز في مصر في عصر محمد علي. ■

إسلام الرحالة الغربيين ...قناع أم اقتناع؟!

بقلم
يوسف عبد الرحمن الذكير

توخياً للحذر من زلل الوقوع في منزلق الحكم علي الأمر من منطلق موقف مسبق . يقود إلي انتقائية أحادية النظرة، تبدي كل ما من شأنه إسناد الحكم، وتغفل بل وتخفي كل ما قد يفند أو يدحض ذلك الرأي وتحاشياً لشمولية تعميم ذلك الحكم علي الكل، فتأخذ البريء بجريرة المدان دونما بينة أو برهان، فلعل السبيل الأسلم يكمن في استعراض ظروف زمان ومكان سلوك أهم وأشهر الرحالة المستشرقين ممن أسلم

ولكن قبل السير فى ذلك السبيل، قد يحسن تجهيز ركائب الذهن بمؤنة ملاحظتين تيسران السير وتمهدان السبيل.

أولاهما : أن الدين بالنسبة لأغلب الأوروبيين، اضمحل دوره منذ ما سمى بعصر التنوير، فتتالت موجات من الإلحاد والهزوء بالدين بلغت أوجها فى الثورة الشيوعية الروسية، بعدما بدأت، حسبما ذكره المؤرخون بالثورة الفرنسة وما تلاها .ولعل فى إسلام نابليون إبان احتلاله لمصر وارتداده عنه حال عودته إلى بلاده خير مثال ودليل على مدى اضمحلال أهمية الدين والإيمان فى عقول الأوروبيين.

الملاحظة الثانية الجديرة بالاهتمام: تكمن فى أن جميع من أسلم من الرحالة المستشرقين رام دخول المدينتين المكرمتين مكة والمدينة المنورة، المحرم دخولهما على غير المسلمين، أما من سبقهم من الرحالة النصارى إلى دخولهما فقد تخفى وتسمى بأزياء وأسماء المسلمين، ولا شك أن العديد منهم قد تظاهر بأداء ما على المسلم من شعائر، خشية افتضاح أمرهم، مما كان له تأثير كبير على من ادعى الإسلام أو أعلن وأشهر إسلامه من بعدهم ، إلى درجة لم تقف عند حدود الطرد بل وأدت إلى هلاك أحدهم!..

«أولريخ جاسبار سيتزن» رحالة ألماني مغامر، زار بلاد الشام عام (١٨٠٦)م، منقباً عن الآثار ومؤلفاً كتاباً عن رحلته وصف فيه مشاهداته وتجاربه مع قبائل البدو الرحل فى بادية الشام والبتراء، تأثر به من قدم من بعده من الرحالة الأوروبيين. أشهر إسلامه عام ١٨٠٩م ليرافق بعثة الحج المصرية إلى الديار المقدسة فدخل مكة

المكرمة فى العشرين من شهر أكتوبر من تلك السنة ثم زار المدينة المنورة، ليكتب وصفاً عن الأولى ويرسم مخططاً مفصلاً عن الثانية!..

رحل بعدها إلى اليمن فعثر على العديد من الكتابات الأثرية ، لكنه دفع ثمناً غالياً لرحلته تلك وهل أغلى من الحياة ثمناً لرحلة؟ .. فقد ألقى القبض عليه هناك وأودع السجن ليقضى فيه نحبه، مسموماً حسبما قيل!..

فهل كان افتضاح زيف إسلامه ، أم أن الشك فى نواياه، وخاصة لما عرف عنه من رسم ووصف للأماكن التى زارها ، قد اتخذ برهاناً على اتهامه بالتجسس للغرب، وهو السبب فى نهاية حياته بتلك الطريقة المأساوية؟! إن كان فى شحة المعلومات وغموض الملابسات مالا يتيح الحكم فى سبب سجنه وموته على وجه الدقة واليقين ، فقد يكون الإتيان على ذكر سيرة حياته ونهايته، وإن كان بشكل خاطف، توطئة وتمهيدا لاستشراف صحة إسلام أربعة من أشهر الرحالة المستشرقين، أولهم كان معاصراً له، وحظى بشهرة واهتمام لا فى زمانه فحسب، بل وانكب على ترجمة أعماله نخبة من أبرز المؤرخين الأكاديميين السعوديين رغم مرور ما يزيد عن (١٥٠) عاما على صدورها. فهو لم يكن موضوعياً يلتزم بالدقة والحيادية فى أعماله فحسب، بل نال الصيت والشهرة رغم أنه توفى وهو فى ريعان شبابه ، إذ لم يزد عمره حين مات فى القاهرة بالحمى التى أصيب بها أثناء رحلته الوحيدة إلى الأراضى المقدسة ، عن (٣١) عاماً!... ذلك هو الرحالة المستشرق المتعدد الأسماء والانتماء **«يوهان لودفيك بيركهارت» Johann Ludwig Burckhart**.

ولد «يوهان بيركهارت» عام (١٧٨٤)م فى مدينة لوزان السويسرية المحاطة بالخضرة والجبال المرصعة الذرى بالثلوج. سافر إلى ألمانيا ليتلقى تعليمه الأكاديمى فى «لايبزج» أولاً، ويكمله فى جامعة «توبنجن» لينتقل إلى بريطانيا مدرساً فى جامعات لندن وكيمبردج مغيراً انتماءه بحصوله على الجنسية البريطانية، ومعدلا اسمه إلى (جون لويس بريكهارت)، الذى لم يكن سوى التغير الأول من سلسلة تبديل وتعديل لأسمائه الخمسة!..

موضوعيته وحياده، فى كتاباته عن دعوة وأنصار الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رغم أن زيارته للحجاز كانت برعاية وحماية أعدائها، لم يحظ بإعجاب واهتمام من قام بترجمة أعماله من المؤرخين السعوديين فحسب، بل ربما كانت السبب فى التعاطف معه وترجيح صحة إسلامه، من قبل علامة الجزيرة الراحل «حمد الجاسر» «رحمه الله»، حينما قال عنه فى كتابه (رحالة غربيون فى بلادنا) مانصه.

«والغريب فى أمر هذا المستشرق – أو أمر الناس حوله – أنه رغم أدائه فريضة الحج وإكمال شعائره واختيار اسم يدل على إسلامه ... فقد كان ينظر إلى هذا الجانب من حياته نظرة شك وارتياب» ... إلا أن ذلك القول لايجب أن يحجب حقائق أخرى من ذلك المستشرق تثير الارتياب والشك، ورد ذكرها فى الكتاب ذاته!..

فمما ذكره علامتنا الجليل الراحل (حمد الجاسر) عنه فى كتابه ، أن (بيركهارت) قد حصل على مساعدة من (الجمعية الإفريقية) البريطانية ، بعدما وطد صلاته بأمثالها من الجمعيات، للقيام برحلة إلى (تمبكتو) لمرافقة حجاج تلك البلاد عند عودتهم من مكة، فغادر بريطانيا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره إلى جزيرة (مالطة) بمظهر طبيب هندى يدعى (إبراهيم) ومن مالطة قدم إلى الشام!..

بداية مريبة تثير الشكوك، بلاشك، أكثر مما تدعو إلى الاطمئنان ، وتطرح تساؤلات منطقية مشروعة حول ما أعلن من أهداف ومن قام بتمويل رحلته!.. فإن كان الهدف هو مرافقة الحجاج إلى (تمبكتو) مثلما قيل ، فما الداعى للتخفى بمظهر طبيب هندى، وما الحاجة للتسمى باسم عربى هو (إبراهيم)، فتلك المدينة، لاتحرم زيارة غير المسلمين ولا

تمنع الأجانب من القدوم إليها، فلقد سبق أن زارها أوروبيون من جهات أخرى غير مرافقة الحجاج؟!.. ثم أن الشام لاتقع على طريق عودة حجاج تلك المدينة، بل وخارج إفريقيا التى هى محل اهتمام (الجمعية الإفريقية) التى قيل إنها مولت رحلته، ولا يخفى على أحد تغطية تمويل الرحلات من جهات لايرغب بالتصريح عنها تحت مسميات جمعيات جغرافية أو تاريخية!.. النقطة الثالثة الأكثر إثارة للريبة والشك، أنه لم يحاول الوصول إلى أفريقيا بعد قدومه إلى الشام بل أقام فى مدينة (حلب) وتجول مع القبائل العربية فى بادية الشام طوال سنتين، منتحلا اسمه الرابع (الشيخ حاج إبراهيم بن عبد الله اللوزانى) فأتقن اللغة العربية واللهجات البدوية وتعلم مبادىء الدين الإسلامى، فأين (تمكبتو) من كل ذلك؟.. بل وأين أهداف استكشاف أفريقيا، إن كانت (الجمعية الإفريقية) هى حقاً الممول الحقيقى لتلك الرحلة؟!.. التفسير الأقرب إلى المنطق يكمن فيما أورده العلامة الراحل (حمد الجاسر) فى ذات الكتاب من أن (بيركهارت) قد اطلع على رحلة الألمانى (سيتزن) ، فسار على خطاه!.. مايرجح ذلك الاحتمال أنه سافر بعد ذلك إلى القاهرة ، فتعرف على أرمنى يدعى (بوصرى) كما سماه المعربون الأكاديميون د. عبدالعزيز بن صالح الهلابى ود. عبدالرحمن عبد الله الشيخ، أو (بوسارى) كما ذكره الدكتور عبدالله صالح العثيمين فى ترجمتهم لمؤلفاته، فحروف اسمه الإنجليزية (Basari) تقبل الاحتمالين. كان ذلك الرجل الأرمنى هو الطبيب الخاص لحاكم مصر آنذاك محمد على باشا، فتمكن عن طريقه ، بعدما أعلن إسلامه ، من الحصول على إذن للسفر، وخطاب توصية من محمد على باسمه الخامس (الشيخ إبراهيم الشامى)، إلى ولاته وحكامه فى الحجاز آنذاك، بتسهيل أمره، وذلك بعد أن توطدت صلاته وحظى بمقابلات عدة مع حاكم مصر.

إلا أن من أشد مايثير الشك ويبعث الريبة، مما جاء فى ذات الكتاب، كان ماذكره من أن محمد على باشا استدعاه إلى الطائف بعد وصوله إليها، ولم يكن قد مر على إقامة (بيركهارت) فى مكة سوى (٤٠ يوماً)، لما كان يراه فى (بيركهارت) من أنه جاسوس إنجليزى يذهب إلى الهند ليقدم تقريراً عما شاهده فى الجزيرة العربية، ومحمد على كما يعترف به أعداؤه قبل اتباعه، رجل لاينقصه الذكاء ولا يخلو من حنكة ودهاء وخبرة ومعرفة بالرجال، وقد قابله وتحدث إليه أكثر من مرة فلابد وأن يكون قد لمس منه ما أثار ظنونه وأوقد ريبته وشكه!..

: : :

ثانى أولئك المستشرقين هو الهولندى (كرستيان سنوك هورخرونيه C.Snouk Horgronje الذى ربما كان إسلامه وسلوكه وطرده من مكة المكرمة كان مثار جدال واختلاف حاد، منذ مايزيد على قرن من الزمان ومازال، لا يدانيه فيه إسلام مستشرق آخر!..

فلكل من قضية إسلامه ومسلكه وطرده قصة مثيرة تستحق السرد، لا لتبيان مدى الخلاف حول كل منها فحسب، بل لإبراز ما كان من تلهف وتنافس وتكالب ما بين قمم المستشرقين الأوروبيين وبولهم للاستئثار بنوادر الآثار وريادة الجديد من الأبحاث وما يبذلون فى سبيل ذلك من جهد ومكابدة، وتفان وتضحية، لا يدانيها أول الشأن من أهل البلاد أنفسهم ، يشهد بذلك من لايضارعه آخر فيما سخر من حياته وماله فى شد الرحال إلى أمهات المكتبات، علامة الجزيرة الراحل حمد الجاسر (رحمة الله عليه) فى قوله:

«لقد كان لنا وللغربيين نمطان فى حياتنا، عشنا عيشة شظف وشدة وفقر ومن لازم ذلك أن نكون أقوى صبراً وأشد جلداً على تحمل المشاق من أولئك الذين عاشوا عيشة ترف ورخاء ونعمة ، ولكن الأمر بعكس ذلك .. فالعالم منهم يفطم نفسه .. متحملاً جميع مايعترضه من مشاق وما هكذا حالة

الباحث منا!..».

كان حمد الجاسر من أشد منتقدي ذلك المستشرق ، ومن أبرز المشككين في إسلامه دون أن ينكر فضله ومدى إعجابه بكتاباته، من خلال وصفه لما اطلع عليه من مؤلفه الشهير (صفحات في تاريخ مكة المكرمة) بأنه من أمتع ماقرأه إن لم يكن أمتعها . بل وأفاض وأسهب في عرضه وثنائه على ذلك الكتاب. فإن كان للحق أن يقال ففي ما بذله المعربون لذلك الكتاب المهم من جهد واهتمام مايستحق كل تقدير وفي مابذلته إدارة الملك عبد العزيز من إخراج للكتاب مايوجب الثناء والإعجاب ، وخاصة لما جاء في توطئة مقدمة الكتاب توطئة بلغت عشرات الصفحات. زانتها موضوعية وحيادية في عرض ما للمؤلف (هورخرونيه) من فضل وما عليه من مآخذ، وملابسات كل من القضايا الثلاث محل الخلاف من تفاصيل ضافية ومعلومات وافية، ما يشكل خير مرجع ومدخل لاستعراض القضايا المثيرة الثلاث، بدءاً بعرض سريع موجز عن سيرة حياته وسلوكياته!..

ولد (هورخرونيه) في هولندا عام ١٨٥٧م، وكرس نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، وعلى وجه الخصوص الإسلامية منها فكانت أطروحته في نيل شهادة الدكتوراه، بحثا بعنوان (الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي). سافر بعدها إلى ألمانيا ليعمل تحت إشراف أحد أشهر أقطاب الاستشراق، البروفيسور الألماني (نولدكه) والذي لم يكن له منافس في عصره سوى الفرنسي الذي لايقل عنه أهمية وشهرة (أرنست رينان) .. منافسة ملامحها ستبرز من خلال ملابسات قصة طرد (هورخرونيه) من مكة المكرمة ، بتلك الصورة المفاجئة والطريقة الحازمة الحاسمة!.. كان قد دخل مكة تحت اسم مستعار هو (عبدالغفار)، ليؤلف عن تاريخها وأحوالها ، خلال الستة أشهر ونصف التي قضاها فيها ماعده المختصون قمة كتابات قمم الكتاب المستشرقين الأربعة (باديا وبيركهارت وبيرتون وهورخرونيه) عن مكة المكرمة..

ما أن صدر كتابه في مجلدين بعد طرده من مكة حتى ذاع صيته واشتهر، فعرضت عليه جامعة (كيمبردج) الإنجليزية الشهرية ، كرسي أستاذ اللغة العربية ، كما عرضت عليه مناصب مماثلة من جامعات ألمانيا وهولندا، إلا أنه رفضها جميعاً، مفضلا العمل كمستشار للحكومة الهولندية للشئون الإسلامية في مستعمراتها الإندونيسية!.. في ذلك أول مايثير الدهشة والاستغراب بل والشك والارتياب!.. إذ كيف يفضل عالم باحث وظيفة مستشار في جزر مستعمرات نائية، على أبرز المناصب العلمية في أعرق الجامعات الأوروبية والتي تتيح له فرصة الاستمرار في أبحاثه بما توفر من مناهل ومراجع ومصادر، إن كان هدفه حقاً البحث العلمي المجرد؟!.. ومما يزيد من حدة الشك والارتياب، أنه خصص فصلا كاملا من (٩٠) صفحة من كتابه الشهير في تفصيل وتحليل أوضاع ونشاط الجالية الإندونيسية في مكة فيما لم يخصص مايماثلها أو يدانيها منها عن أي جالية أخرى، بل وفصل فيه وحلل علاقة الحجاج الإندونيسيين لابعلمائهم في مكة وحسب ، ولا مدى تأثرهم بما يجري في العالم الإسلامي من مقاومة للمستعمرين ، بل وعلاقة الحجاج بتشجيع الثورة ضد المستعمرين الهولنديين في إندونيسيا . ومما زاد في التشكيك في أهدافه الحقيقية الخفية ورسخ الارتياب في سلامة ما ادعاه من إسلام، هو تجسسه على المسلمين طوال السبعة عشر عاماً التي قضاها كمستشار للحكومة الهولندية في إندونيسيا وتحريضه لحكومته بالفتك بالمسلمين والقضاء على ثورتهم ضدهم بقتل علمائهم وقادتهم، مما كان السبب الأساسي للاعتقاد بزيف ادعائه

الإسلام. فلو كان إسلامه أصيلاً لا غبار عليه، لما تم طرده من مكة المكرمة أصلاً، والذى كانت مسبباته بحد ذاته ، محل خلاف بين المهتمين،

عام (١٨٧٨)م اتفقت الحكومة الفرنسية مع عالم من منطقة الألزاس المتنازع عليها مع ألمانيا، يدعى (شارل هوبر) على السفر إلى الجزيرة العربية والتجوال فيها وتقديم تقرير عن منطقة نجد . وصل هوبر إلى تيماء فعثر أثناء تجواله على حجر أثرى أثار انتباهه، اشتهر فيما بعد بحجر تيماء (Tiema Stone).

عاد هوبر بعد خمس سنوات (عام ١٨٨٣) إلى تيماء بصحبة مستشرق ألمانى يدعى يوليوس أويتنج Julius Euting الذى كثيراً ماشتكى فى كتابه (رحلة داخل الجزيزة العربية) المعرب والصادر عن دائرة الملك عبدالعزيز، عن رحلته تلك من تهرب (رفيقه هوبر) من التعاون معه والتملص من إرشاده إلى مكامن الآثار فى تلك المنطقة!..

تمكن هوبر فى رحلته تلك من الحصول على ذلك الحجر بعد إرضاء صاحب المنزل الموجود الحجر على سوره، وإقناع أمير تيماء «عبد العزيز بن رمان» ، وافترق الرفيقان المتنافسان بعد ذلك .

اصطحب هوبر الحجر معه إلى حائل التى يحمل إلى أميرها آنذاك «محمد بن رشيد» هدايا من سيوف وأسلحة، يقول عنها العلامة الراحل (حمد الجاسر) إن أهل حائل مازالوا يذكرون منها (السيوف الهوبرية). أودع (هوبر) الحجر أمانة لدى أمير حائل وأسرع بعدما أوجس خيفة من رفيقه الألمانى (أويتنج) بالذهاب إلى جدة ليرسل صورة الحجر وملاحظاته عنه عن طريق القنصل الفرنسى، إلى قطب الاستشراق الفرنسى (أرنست رينان) عازماً العودة إلى حائل، لاسترداد الحجر ومحاولة حمله وإرساله إلى باريس.

كان توجسه فى محله، إذ ما أن وصل الألمانى (يوليوس أويتنج) إلى القدس، حتى أرسل بدوره ملحوظاته عن ذلك الحجر إلى قطب الاستشراق الألمانى (نولدكه) يضمنها رسالة تقول إنه سيحاول الحصول عليه وإرساله لألمانيا!.. ما زاد أحداث القصة وتيرة وتوتراً وإثارة، كان مقتل (شارل هوبر) الفرنسى على يد مرافقيه وأدلائه، بعد خروجه من جدة!..

نفخ مقتل «هوبر» ضرام صراع الحصول على الحجر، فاستعان القنصل الفرنسى ، بمنفى جزائرى يدعى «سى عزيز» الذى أخبره أثناء المساومة للاتفاق على أتعابه التى بلغت (٥٠٠٠) فرنك مقابل إحضار الحجر من حائل ، بأن شخصاً آخر دفع له ضعف ذلك المبلغ ليحضره له. حامت الشكوك حول (هورخرونيه) الذى كان فى جدة آنذاك، لإتقان اللغة العربية وتوطيد علاقاته ، وإقامة اتصالاته لتمهيد دخوله إلى مكة ، فنفى علاقته بمقتله إلا أنه اعترف بإرساله خطاباً لأستاذه «أويتنج» مؤكداً له إمكانية وصول الحجر إلى جدة سالماً!.. فما كان من القنصل الفرنسى إلا أن زود الصحف الفرنسية بتلك الأخبار والشكوك، لتصدر مقالة فى جريدة الزمان (Le Temps) الفرنسية تناولت فيها مقتل هوبر ومحاولة سرقة الحجر من قبل الهولندى (هورخزونيه) فنقلت عنها الخبر جريدة إسطنبول العثمانية لتقول إن هناك هولندياً يتخفى تحت اسم (عبد الغفار) يحاول سرقة نقوش أثرية. أوعزت السلطات العثمانية إلى واليها فى مكة المكرمة بطرد ذلك الهولندى فوراً دون إبداء الأسباب، فما كان من القائم مقام العثمانى النائب عن الوالى الغائب إلا أن طلب منه المغادرة خلال ساعات مخفوراً بجنديين إلى جدة!..

تباينت ردود أفعال المؤرخين العرب تجاه تلك القصة ، ففيما أيدها الدكتور قاسم السامرائى والذى تربطه علاقات ويتقن لغة المستشرقين الهولنديين، فيما لمح لها خير الدين الزركلى فى «الأعلام» حين كتب مانصه:

أما علامتنا الجليل الراحل (حمد

الجاسر) فقد رفض أن يكون حجر تيماء ومقتل الفرنسي «هوبر» سبباً في إخراج (هورخرونيه) من مكة ، فقال عنها إنها قصة مختلقة، هدفها تغطية افتضاح أمره، لتمكينه من إكمال مهمته في السفر إلى إندونيسيا والتجسس على المسلمين بادعائه الإسلام. وقد أورد في ذلك حججاً لتنفيذ القصة ، إلا أنها للأسف لاتصمد أمام التمحيص والتدقيق!..

فقد ذكر عن مقتل (هوبر) ما حدثه به الأستاذ «فهد المارك» أن الأمير محمد بن رشيد أوعز إلى رجل من قومه يدعى «ابن شميلان» حين أوجس ريبة من تصرفات هوبر ، القيام بقتله إذا بلغ بلدة (العلا) خارج حدود بلاد ابن رشيد!.. ضعف تلك القصة لايكمن في صعوبة تصديق ان الأمير محمد ابن رشيد بكل ماعرف عنه من حكمة وحنكة سياسية مكنته من التربع على سدة الحكم طوال مايزيد على (٢٦) عاما شهدت فيها البلاد أطول فترة من الاستقرار والازدهار، لا يعقل أن يغدر بضيف أهداه من ثمين الهدايا مابات حديث الناس فحسب، بل إن تسلسل الأحداث لو صحت تلك الرواية، لكان مقتل «هوبر» قبل دخوله إلى جدة التي إن وصلها تمكن من إبلاغ المعلومات للقنصل الفرنسي والإبحار منها هارباً، ولكن مقتله كان بعد خروجه مما يرجح بقوة أن السبب كان الطمع فيما حمل من أموال من القنصل الفرنسي لتغطية تكاليف نقل ذلك الحجر، والذي لم يمنعه من إحضاره معه إلى جدة إلا ربما قلة ما كان معه من أموال لتغطية تلك التكاليف والتي قد تكون السبب الأساسي في حضوره إلى جدة ونيته بالعودة إلى حائل . أما القول بأن الحجر كان ثقيلاً يصل وزنه إلى (١٥٠) كيلوجراما مما حتم نقله إلى (العلا) لا جدة كما ورد في القصة حيث نقل عن طريق السكة الحديد إلى دمشق ثم باريس ، فأول ضعف في ذلك الفرض أن من يقدر على حمل الحجر على ظهور الجمال من (تيماء) إلى (حائل) ثم من (حائل) إلى (العلا) يستطيع إيصاله بنفس الوسيلة إلى جدة!.. أما ما ينقصه تماماً، فهو ما ورد في هامش صفحة تلك القصة من تعقيب يقول : (في ذلك التاريخ لم يكن خط سكة الحديد قد أنشىء بعد)..!

لكن تأييد أو تفنيد السبب في طرده من مكة لايضعف مطلقاً رؤية شيخنا الراحل الجليل حمد الجاسر من زيف ادعاء (هورخرونيه) بالإسلام، فهناك دلائل قوية أنه لم يسلم أصلاً!!..

* * *

البولندي ليوبولد Leopold ، يمكن وصفه دون تردد بأنه الاستثناء!.. لا لكونه الرحالة الأوروبي الوحيد الذى كان يهودياً قبل أن يسلم ، ولا لأنه الوحيد من بين كل المستشرقين على الإطلاق الذى تسنم منصب مندوب دولة إسلامية في الأمم المتحدة، وليس لأنه أسلم بعدما جرب العديد من المعتقدات والاتجاهات، بل لأنه الوحيد الذي يمكن القول عنه وبكل ثقة واطمئنان أن إسلامه لم يكن قناعا لتحقيق مآرب أو أهداف، بل نجم عن إيمان واقتناع!..

ولد «ليوبولد» في مدينة (لوو Lwow) البولندية، والتي عرفت أيضاً باسم (لمبرج Lemberg) عام (١٩٠٠)م وكانت تلك المدينة آنذاك، تابعة للإمبراطورية النمساوية. عائلته لم تكن عائلة يهودية عادية، إذ كان لها تاريخ ارتباط عريق بالمؤسسة الدينية اليهودية، فقد ارتقى العديد من أسلافه سلالم المراتب الكهنوتية ، بل إن جده لأبيه كان حاخام مقاطعة «بوكوفينا» النمساوية آنذاك.

في صباه وضح ميله لقراءة التاريخ والشعر والفلسفة وكان عليه حسب تقاليد عائلته اليهودية، تلقى العلوم الدينية العبرانية على يد مدرسين خصوصيين، فأتقن اللغة

العبرية وشيئاً من الآرامية، وتعلم العهد القديم، وعرف الفرق مابين تلمود بابل وتلمود أورشليم وهو ما زال في الثالثة عشرة من عمره، إلا أن ذلك التعليم غرس في نفسه بذرة الشك والارتياب!.. إذ بدا له الخالق حسب نص تعبيره، وكأنه إله مشغول البال بصورة غريبة، بمصائر أمة واحدة، لا كخالق الناس أجمعين!.. شكل ذلك الشعور المبكر بداية رحلة بحث مضن، طال سنين، حتى هداه الله إلى الدين اليقين.. حسب وصفه الأدبي البليغ في كتابه الشيق (الطريق إلى الإسلام) وإن لم يسلم من مبالغات تصل إلى حد الخيال في كثير من صفحاته .. كتاب تفرغ لكتابته عام ١٩٥٢ م بعدما استقال من منصب رفيع مهم يطمح ويطمع فيه الكثيرون!.. منصب الوزير المفوض لدولة باكستان الإسلامية لدى الأمم المتحدة، لكن جهده لم يخب، فقد ترجم الكتاب إلى أربع لغات أوروبية إضافة إلى الأوردية وأخيراً إلى العربية التي أعيد طبعه بها لرواجه، تسع مرات حتى عام ١٩٩٧م!..

نقطة التحول من حياة الضياع التي عاشها بل وقاساها في برلين، جاءت حينما استلم رسالة من خاله «دوريان» الذي كان طبيباً نفسياً يرأس مستشفى للأمراض العقلية بالقدس، إبان الهجرة المتزايدة لليهود إلى فلسطين .. شعوره بالغربة والعزلة، دفع خاله للبحث عن رفيق من أهله يؤنس وحدته، فبعث برسالته تلك إلى ابن أخته يعرض عليه السفر إلى القدس متكفلا بكل مصاريف الرحلة بما فيها تذاكر السفر ذهاباً وإياباً!.. ولكن ما أن وطئت قدماه أراضي البلدان العربية الإسلامية، حتى تملكته الدهشة مما رأى!..

طيبة، وسكينة، واطمئنان، لم يرها إبان كل مراحل حياته خلال كل ما عايشه في مختلف حواضر وعواصم مازار من بلدان!.. بدوي شاركه مقصورة القطار مابين الإسكندرية والقدس ما أن حان إفطار الصباح، حتى ابتاع من إحدى المحطات فطيرة شطرها نصفين ليتقاسمها معه دون معرفة سابقة، بعفوية وطيبة فطرية لم يعهدها من قبل!.. مشاهد ما رأى من نافذة غرفته في بيت خاله المطلة على باحة خلفية تتجمع فيها الأنعام الحاملة لخيرات أرياف فلسطين من فواكه وخضراوات، يديرها شيخ يترأس مجموعة من العمال .. ثيابهم رثة .. وطعامهم لايتعدى الخبز والجبن والزيتون .. يكدحون طوال اليوم.. لكن ما أن يرتفع صوت الأذان حتى يصطفون خلف شيخهم يؤدون الصلاة وعلى وجوههم ترتسم سعادة وسكينة وطمأنينة لم يرها من قبل ، تجربة فريدة كانت بمثابة إطلالة جديدة قلبت رأسا على عقب كل مفاهيمه القديمة المستقاه من مؤلفات أوروبية وإعلام ، يشوه الإسلام!.. ولكن كان عليه أن يمضي عدة سنوات قبل الاقتناع باعتناق الإسلام!!.. مضت أربع سنين وهو يعاني حيرة جذب وشد بين ما يسمعه من أصحابه ومعارفه في مقاهي برلين ، وما يقرؤه ويراه أثناء تجواله في البلدان الإسلامية، في زياراته المتكررة، قبل أن يهديه الله إلى دينه القويم، إثر حادثة مؤثرة ، رواها للشيخ عبدالله بن بليهد في فناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، حسبما كتب في كتابه..! كان مع زوجته في إحدى عربات قطار الأنفاق في برلين ، يجلس قبالته رجل وزوجته تبدو عليهما آثار النعمة والثراء، ما لفت انتباهه كان العبوس والتجهم المرتسم على وجهيهما، لفت انتباه زوجته وتلفت فيما حوله، ليرى علامات القلق والشقاء لاتكاد تفارق وجهاً من الوجهين رغم مايبدو عليهما من مظاهر الغنى واليسر والثراء، فأخذته الحيرة كل مأخذ، شعب لايكاد ينقصه شيء من الماديات.. ينعم بأرقى مستويات المعيشة في العالم .. ويتمتع بكل ما يخطر ولا يخطر على البال من ملذات.. ومع ذلك يرتسم العبوس والقلق والشقاء على الوجوه!.. ما أن عاد إلى بيته وألقى نظرة على مكتبه، حتى رأى نسخة مفتوحة من القرآن الكريم .. هم بإغلاقه

فوقعت عيناه على الآية الكريمة: «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم». فاعتراه صمت عميق، ثم التفت إلى زوجته قائلاً: (اصغي إلى هذا .. أليس هذا جواباً لما لفت انتباهك به في القطار؟) ..زال كل شك وتردد فجأة وغمرته سكينة وطمأنينة :. فسأله الشيخ البليهد عما فعله بعد ذلك فقال إنه ذهب إلى رئيس الجالية الإسلامية في برلين ليعلن إسلامه على يديه .. فما أن أتم الله نعمته عليه حتى غير اسمه إلى محمد أسد .. تعريباً لمقطع (ليو Leo) من اسمه السابق الذي معناه أسد.

فهل يتسرب أدنى شك لمؤرخ أو باحث محايد ، إن كان إسلام محمد أسد كان قناعاً أم كان بعد تفكير وتأمل ومقارنة واقتناع ؟!.

* * *

وأخيراً نصل إلى آخر أشهر وأغزر من كتب وأطول من أقام في البلاد العربية من الرحالة الغربيين (**هاري سانت جون فيلبي** H.St.Jphn Philby) . شهرته كانت أحد أهداف حياته التي حققها ، لا من خلال صلاته واتصالاته بأعظم رجال عصره ممن كان لهم دور حاسم في التأثير على أحداث ومجرى التاريخ كالملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل والسير بيرس كوكس وعشرات كانت لهم أدوار محورية فيما جرى من أحداث ، ولا من خلال عشرات المقالات التي نشرتها كبريات الصحف الغربية، أدى ما اكتنفها من جرأة وصراحة في معارضته السياسية الخارجية لحكومة بلاده إلى اعتقاله في الهند أثناء الحرب العالمية الأخيرة وإرساله إلى بريطانيا ليحتجز فيها لعدة شهور، بل قد لا يدانيه أحد فيما كتب عنه من أبحاث ومقالات وكتب!..

غزارة إنتاج قد يكفي لإبرازها الاستشهاد بما أورده الدكتور عبدالله الصالح العثيمين في مقدمة ترجمته لكتابه (بعثة إلى نجد) من أنها بلغت أكثر من ثلاثين كتاباً منشوراً وغير منشور وما ذكره العلامة الراحل (حمد الجاسر) من أنه رأى أثناء زيارته له بمنزله، غرفة مستطيلة مليئة بالأضابير، وصلت بعد وفاته (بطريقة أو أخرى!..) إلى مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني (St. Anthony) بجامعة أكسفورد فبلغت ما ملأ (٥٠) صندوقاً كما جاء نصا في كتاب (رحالة غربيون في بلادنا)، لاشك بأنها تمثل كنزاً من المعلومات والوثائق لمؤرخي وبحاثة المستقبل!.. أما مدة إقامته وعدد رحلاته الاستكشافية فلا يضارعه أو يدانيه فيها أحد من الرحالة الغربيين قبله. فقد قضى عشرات السنين مابين العراق والأردن ومصر ولبنان والجزيرة العربية، إلا أن غالبيتها الأعظم والأهم، كانت برفقة ورعاية الملك عبدالعزيز آل سعود (رحمه الله)، التي هي أساس شهرته، فقد امتدت زياراته وإقامته على مدى (٤٦) عاماً منذ دخل العراق عام (١٩١٤م) وحتى وفاته في بيروت عام (١٩٦٠م)، قضى معظمها في الجزيرة العربية .

إن كان اعتداده برأيه وجرأته وصلابته قد تسببت في إبعاده عن العراق والأردن واعتقاله في الهند واحتجازه في بريطانيا من قبل الحكومة البريطانية، فقد كان لها أثر معاكس لدى الملك عبدالعزيز وإن كانت تصل إلى الحدة في النقاش والجدال، فقد كان رحمه الله من الحكمة وبعد الرؤية وسعة الصدر والأفق ما يثمن معه من يختلف معه، اتباعاً لصدق المأثور القائل (صديقك من صَدَقَكَ لا من صدّقك). إلا أن تلك الصراحة والجرأة، ربما تجاوزت حدودها إلى التكبر والعجرفة .. فالأستاذ محمد المانع يروي عن عجرفته أنه حينما حاول أخذ رأيه بكتاب

أرسله له أخوه عن الفضاء والكون باللغة الإنجليزية، رد قائلاً : (لاتهتم به فإنك بالتأكيد لن تفهمه!..) ، أما تكبره فيكفي الاستشهاد بما ذكره الشيخ حمد الجاسر من أنه حينما زاره مع أحد موظفي الديوان الملكي (الأستاذ إبراهيم بن معمر)، قابلهما بجفاء، حتى أنه تركهما جالسين صامتين فيما انشغل عنهما بكتاباته، رغم تحديده لموعد مسبق لمقابلتهما!.. ربما كان في ذلك الجانب من شخصيته السبب الأساسي في التشكيك بمقاصده وأهدافه لا في علاقاته وتشعب صداقاته واتصالاته فحسب، بل وفي اعتناقه للإسلام!..

كانت أول إطلالة لفيلبي على الإسلام من شرفة اللغة العربية حين تعلمها في الهند التي قضى بها سبع سنوات، إلى جانب تعلمه اللغتين البنجابية والأوردية، بعدما أتقن اللغتين الفارسية والهندوستانية. بجامعة كيمبردج التي التحق بها بعد تخرجه من كلية ترينتي بدرجة امتياز باللغات الحية الحديثة عام (١٩٠٧)م ، فأتاح له تعلم اللغة العربية الاطلاع على القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، إلا أنه لم يعلن إسلامه حتى عام (١٩٣٠)م، فأثار ضجة واستغرابا، بل وشبه عدم تصديق، كما عبر عنها الأستاذ خير الدين الزركلي في الجزء الرابع من كتابه (شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز حينما قال:

«كنت أول من نشر خبر إسلامه، سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م وقد وصلت إليّ رسالة من الطائف إلى القاهرة من يوسف ياسين يقول فيها «قبل ساعة من كتابة هذه الرسالة أعلن فيلبي بجدة اعتناقه الإسلام.. اتصلت هاتفياً برئيس تحرير جريدة المقطم (خليل ثابت) وحدثته ويظهر أنه خشي الخطأ فنشره هكذا: أخبرنا الأستاذ خير الدين الزركلي أن المستر فيلبي أعلن اعتناقه الإسلام في جدة»..

ويضيف أنه من ذلك اليوم أصبح فيلبي يرافق الركب الملكي في الحج وأكثر الأسفار، وهو ما أكده الدكتور عبدالله الصالح العثيمين نقلاً عن أوثق المؤرخين العرب والغربيين، ممن استشهد بهم في مقدمته الوافية عن حياة وكتابات فيلبي ضمن ترجمته لكتاب (رحلة إلى نجد).

أما تفاصيل وخلفيات اعتناق فيلبي الإسلام، فربما كان الأستاذ (محمد المانع) الذي أفرد فصلاً كاملاً عن فيلبي في كتابه باللغة الإنجليزية (توحيد المملكة العربية السعودية) والذي ترجمه ببعض التصرف المتفق عليه مع المؤلف، إلى اللغة العربية الدكتور عبدالله العثيمين، هو أكثر من أفاض وفصل تلك الخلفيات، حين قال:

«كنت حاضراً حين نوقش هذا الموضع (المقصود إسلام فيلبي) مع جلالته، فقال له الملك بأنه إن أصبح مسلماً، فسيجد ترحيباً وسيصحبه في أسفاره، بما فيها الحج إلى مكة المكرمة.. لكن فيلبي أبدى نوعاً من التردد.. ثم أخبر الملك أن زوجته لم تكن مرتاحة للفكرة!.. فعرض الملك عليه أن يدفع لها أربعين ألف جنيه إسترليني مقابل طلاقها، لكن فيلبي أجاب أنه لا يعتقد بأن زوجته مستعدة لبيعه مقابل ذلك الثمن، مع أني (والكلام للأستاذ محمد المانع) لا أعلم إن كان قد حاول ذلك معها على الإطلاق. ولاشك أن الملك كان جاداً في عرضه الذي يوضح أن جلالته قد أصبح يقدر مشورة فيلبي ونصائحه تقديراً كبيراً».

ويمضي (المانع) في السرد فيقول إن نور الإسلام قد طلع أخيراً على فيلبي عام (١٩٣٠)م فأعلن إسلامه وتسمى بعبيد الله بناء على اقتراح الملك، ليحدث له أصعب امتحان لإيمانه، وهو الختان، الذي كان عملية بالغة الإيلام لرجل بالغ (وهي التي لم يذكر أحد أنها أجريت لرحالة قبله أشهر أو ادعى إسلامه). وكيف أنه أخذ فوراً إلى الطائف ليقضي بين ربوع جباله وطقسه المنعش فترة نقاهة دامت شهرين، وتعلم أصول العقيدة الإسلامية على يد أحد أشهر علماء المملكة آنذاك الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ

(رحمه الله) الذى عينه الملك عبدالعزيز لتلك المهمة.

أما فيلبى نفسه، فنراه يلمح إلى خلفيات مناقشاته مع الملك عبدالعزيز حول إسلامه، وإن لم يأت على مـــا أورده (المانع) من تفاصيل، فهو يؤكد أن الملك عبدالعزيز هو من سماه (عبدالله) بعد اعتناقه الإسلام ، إلا أنه يضفى مسحة درامية على وصوله إلى قراره النهائى باعتناق الإسلام، تحمل إيحاءات ما يشبه المعجزة الإلهية!!..

ويبدو أنه كان مهموما مشغول البال بما سيثيره إسلامه من شكوك وأقاويل تتمحور حول ما سيستفيد بعد إسلامه من مناصب ورواتب، فنراه يورد بشىء من التفصيل والتركيز رفضه لما اقترحه الملك عبدالعزيز فى مجلسه الخاص من منصب . وامتناعه بإصرار عن تسلم ما جاء به وزير المالية بتوجيه من الملك من راتب شهرى يبلغ خمسين جنيها استرلينيا وهو أمر يؤكده (المانع) فى نقله عن الملك عبدالعزيز قوله إن هناك رجلين فقط لم يطلبا منه شيئا على الإطلاق.. أحدهما فيلبى.

ومن الجدير بالملاحظة أن جميع من شككوا فى إسلامه أو ارتابوا فى إيمانه ، لم يأتوا بحجة دامغة أو بينة ظاهرة، سوى ترديد استفادته من استمرارية ملازمة الملك عبدالعزيز فى حله وترحاله وخاصة إلى مكة المكرمة أيام الحج التى كان يحرص عليها أشد الحرص. فيما لم يأت أحد منهم بقرينة واحدة أو برهان على عدم التزامه بأداء شعائر الإسلام. ومن يقرأ ما كتب سواء فى ذلك الكتاب عن سيرة حياته بما شعر به من طمأنينة وسكينة بعد أداء طواف العمرة، أو جاء فى كتابه (حاج فى الجزيرة العربية) من تعلق بالإسلام من خلال وصفه بأنه الدين الذى انتشر ليكون نورا يهدى الملايين والملايين لا فى آسيا وأفريقيا بل وحتى فى أوروبا. وتصديه لتشويه من سبقه من الرحالة الغربيين فى دفاعه عن بئر زمزم بقوله (فهو بلا شك أقدس مياه الأرض وأطهرها. إنى لا أفهم تشويهاته لدى (بيرتون ووافيل وإلدون ورتر) وغيرهم، فإنه يطيب لى أن أضيف أن البئر محمية من أى تلوث ببناء يغطيها تماما)

أما بعض ما يؤخذ عليه من كتابات عن الإسلام من أنه يدعو إلى الديمقراطية من خلال الآية الكريمة من أن أمر المسلمين شورى بينهم وينادى بالاشتراكية من خلال الدعوة الى العدل والمساواة ، فما ذلك المأخذ فى حقيقته سوى دليل وبرهان على أن ما يطرح من مسميات معاصرة. ما هى فى حقيقتها سوى قيم أصيلة نادى بها الإسلام منذ مئات السنين!.

* * *

ويستخلص من ذلك العرض السريع أن علاقة الرحالة الغربيين بالدين الإسلامى الحنيف، مرت بمراحل ثلاث. أولاها التخفى بأزياء واسماء إسلامية بهدف دخول المدينتين المكرمتين المحرم دخولهما على غير المسلمين، من أمثال (بيرتون الإنجليزى وباديا الإسبانى) . والثانية الإعلان أو التظاهر باعتناق الإسلام قبيل السفر إلى مكة مثل (بيركهارت السويسرى الأصل، وهورخرونيه الهولندى)، مما أثار الشك والريبة فى صحة إسلامهما. أما المرحلة الثالثة التى يمثلها محمد أسد (ليوبولد البولندى) وعبدالله فيلبى (هارى سانت جون فيلبى الإنجليزى) فإسلامهما لم يأت ارتجالا فجائيا، بل تبلور عبر سنين من التفكير والدراسة والمقارنة، مما لا يكاد يترك أدنى الهوامش للشك فى إسلامهما، وهو ما قد يفضى إلى استنتاج مهما قد يحمل بعض التفسير لما يمر به الإسلام من حملات تشويه وربط بالإرهاب دون غيره من الأديان فى حاضرنا المعاصر!.. ■

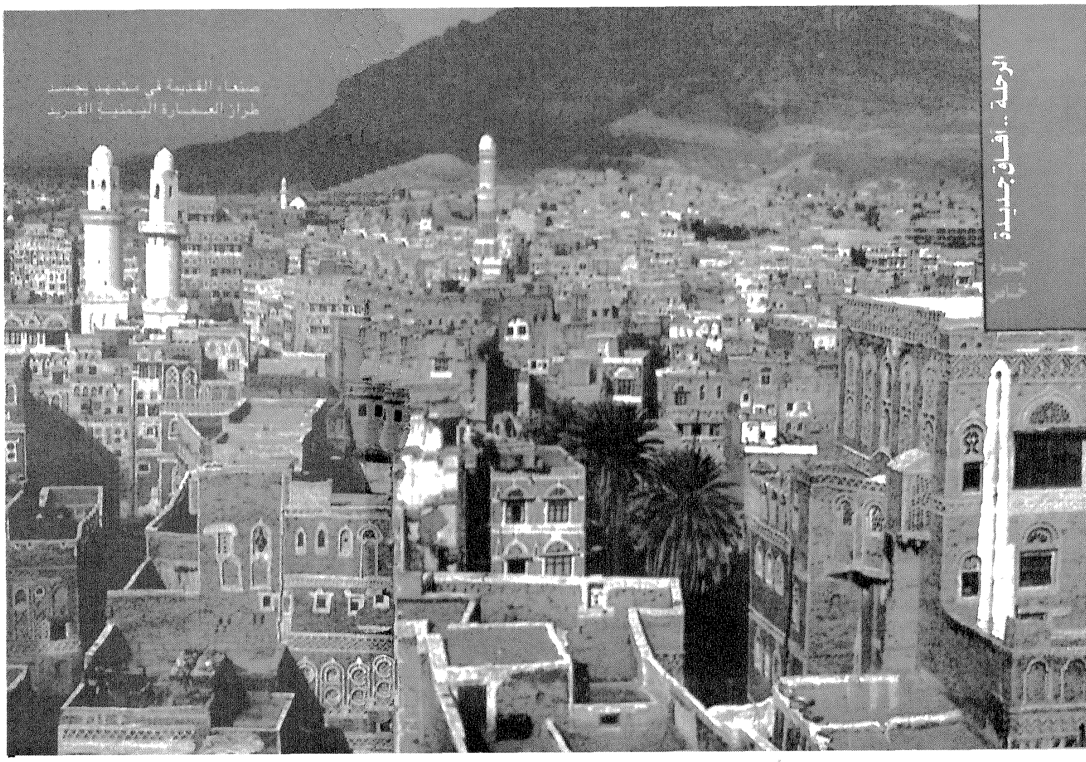

صنعاء القديمة في مشهد يجسد طراز العمارة اليمنية الفريد

كارستن نيبور

أول رحالة أوروبي في بلاد اليمن السعيد

بقلم
عرفه عبده على

منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والغرب يتطلع إلى إكتشاف «الآخر» والوقوف على أسرار الحضارات» الأجنبية الغامضة .. وبدأ الحديث عن «نهضة شرقية» حاملة لـ «إنسانية جديدة جديرة أن تثرى الميراث اليونانى - الرومانى ..

ومما لا شك فيه أن كتابات الرحالة الأوروبيين ومشاهدات الحجيج وتقارير الباحثين المغامرين والإرساليات والقناصل وضغوط المصالح السياسية - خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - قد أسهمت وبشكل فعال فى إزدياد كثافة الوعى العام بالشرق !

ومن أهم هذه الرحلات تلك التى تعارف الدانمركيون على تسميتها آنذاك بـ «الرحلة العربية» . وهم يعنون بها رحلة نظمت إلى بلاد اليمن خلال الفترة الفاصلة ما بين ١٧٦١ و١٧٦٧ والتى قام بتمويلها البيت المالك .

إن الخلفية لهذه الرحلة التاريخية هى فلسفة التنوير واجتهاداتها فى جمع وحصر المعارف الإنسانية بشكل منهجى منظم . وكانت هذه البعثة هى ثانى محاولة دانمركية بهذا الصدد . إذ أن الأولى كانت الرحلة التى قام بها الضابط البحرى فريدريك لودفيك نوردن (١٧٠٨ - ١٧٤٣) عام ١٧٣٧ بهدف التخطيط لعلاقات تجارية واسعة النطاق مع إمبراطورية الحبشة . وكانت نتيجتها الأساسية العديد من الخرائط والمعلومات عن بلاد مصر .

الرحلة إلى مصر

ظهر كتاب «نوردن» حول «الرحلة إلى مصر وبلاد أثيوبا» فى عام ١٧٥٥ أى بعد وفاته بسنوات عديدة . وقد تميز بخرائطه الدقيقة لوادى النيل ، وهو ما ساعد على التخطيط للرحلة العربية بشرط أن تكون هذه الرحلة الثانية تكملة لرحلة «نوردن» . وبعد ذلك قرر المخططون أن تكون هذه الرحلة الثانية مستقلة تماما عن الأولى وأن يكون هدفها الرئيسى والوحيد البحث العلمى ، ويعود الفضل فى ذلك إلى شخصيتين من أبرز شخصيات ذلك هما البروفسور «يوهان دافيد ميشائيلس» من جامعة جوتنجن والآخر «يوهان هارتفيغ برنستورف» ممثل المانيا فى كوبنهاجن والمسئول عن سياسة الدانمرك الخارجية .

كان «ميشائيلس» مستشرقا ومن أبرز علماء دراسة الإنجيل فى عصره ، ومن المرجح أنه كان قد قرأ كتاب «نوردن» وأنه كان عارفا باهتمام ملك الدانمارك «فريدريك» الخامس» ومستشاريه بالعلوم والفنون . ولهذا عرض على «برنستورف» فكرة تنظيم رحلة علمية إلى اليمن أو «اليمن السعيد» وهى التسمية المتعارف عليها فى أدبيات العصر العلمية والمأخوذة عن التراث الرومانى .

وسرعان ما استجاب «برنستورف» لهذا الاقتراح وظل متمسكا به حتى بعد أن تغير شكله تماما بناء على استشارة العلماء الآخرين . وقد تقرر أن تنطلق البعثة من القاهرة وليس من مركز التبشير الدانمركى فى «ترانكيبار» على الساحل الجنوبى للهند، الشيء الذى ربط بينها وبين رحلة «نوردن» ربطا مباشرا . وقد كلف المشتركون فيها بجمع المعلومات لا بهدف دراسة الإنجيل فقط وإنما التركيز على احتياجات العلوم الطبيعية والجغرافية ، وقام «ميشائيلس» بوضع قائمة من الأسئلة العلمية طالبا من أعضاء البعثة توفير الإجابات الوافية عنها . وقد ظهرت هذه الأسئلة فى كتيب بعنوان «أسئلة موجهة إلى مجموعة من رجال العلم الذاهبين فى رحلة إلى بلاد العرب بأمر من صاحب الجلالة ملك الدانمرك» .

وشملت القائمة أسئلة مفصلة عن مجالات العلوم المختلفة منها التاريخ والتاريخ الطبيعى وعلوم اللغة . ومصدر الأمر الملكى إيذاناً ببدء الرحلة فى ١٥, ١٢, ١٧٦٠ على قاعدة أسئلة ميشائيلس والاقتراحات المقدمة من طرف العلماء الآخرين . وقد نصت

الفقرة العاشرة من القرار الملكى على ما يلى : «على أعضاء البعثة أن يكونوا فى غاية الأدب مع سكان بلاد العرب وعليهم ألا يناقضوا تعاليم دينهم أو يقللوا من شأنه حتى فيما بينهم وبين أنفسهم» . ولم يكن السبب فى اتخاذ هذه الاحتياطات هو المشاكل الدبلوماسية التى يمكن أن تنتج عن مثل هذا السلوك وإنما كان التسامح الذى كان الشعور المهيمن فى ذلك الوقت والقاعدة المتبعة فى كل المعاملات وخاصة مع الشعوب والأمم الأخرى .

ويتحدث «نيبور» عن مناقشة دارت بين أعضاء البعثة وبين أحد العاملين فى السفينة التى نقلتهم من القسطنطينية إلى الإسكندرية فيقول : «تبين لنا من خلال النقاش أنه مسلم مؤمن بدينه إيماناً قويا . وعندما حاول أحد أعضاء بعثتنا إقناعه بصحة الديانة المسيحية نهض واقفاً وقال : «الذين يؤمنون بغير الله ليسوا إلا ثيراناً وحميراً» ثم خرج وقد ذكرنا هذا الرجل البسيط بأنه علينا ألا نخوض فى مثل تلك النقاشات وأن نترك كل واحد يعتقد أن دينه هو الأفضل» !

بدأت البعثة رحلتها على ظهر الباخرة العسكرية «جرونلند» من ميناء كوبنهاغن . وفى ٢٠ نوفمبر / تشرين الثانى ١٧٦٧ ، لم يعد سوى كارستن نيبور ، وهو الوحيد الذى تبقى على قيد الحياة من بين كل أعضاء البعثة .

من القسطنطينية إلى القاهرة

استغرقت الرحلة من كوبنهاجن إلى القسطنطينية حوالى سبعة أشهر (أى من ١/٧ إلى ١٧٦٠/٦/٣٠) وذلك بسبب قوة الرياح المضادة مما اضطر السفينة إلى العودة إلى ميناء هلسنجور مرة أخرى . ويقول نيبور فى مذاكراته : (عانى بحارتنا من الأحوال الجوية السيئة معاناة شديدة حتى أن بعضهم لاقى حتفه ، ومرض منهم حوالى ٣٠ شخصا) ولم تبدأ الرحلة فعلا إلا فى ١٠ مارس ، لتسير فى البداية فى الاتجاه الخاطىء بسبب الرياح . وفى القسطنطينية استقل أفراد البعثة سفينة إيطالية طاقمها تركى وصلت الإسكندرية فى ٢٦ سبتمبر عن طريق رودس ، وكانت السفينة تحمل معها جواز مرور وخطاب توصية من السلطان . كان أفرادها قد غيروا ثيابهم الغربية واستبدلوها باللباس الشرقى لأن الثياب الأوروبية «ستكون موضع تساؤلات كثيرة ، بل من المحتمل أنها كانت ستثير علينا تهكمات العامة من الناس» ، كما يقول نيبور .

وقام نيبور فى الإسكندرية بالعديد من عمليات المسح لاقى خلالها بعضا من المصاعب وهو يقول (لاحظ أحد التجار الأتراك أننى أوجه الإسطرلاب باتجاه المدينة ، فدفعه فضوله الشديد إلى النظر من خلاله . وقلق جدا عندما رأى برجا يقف رأسا على عقب . وقد نتج عن ذلك ظهور شائعات تقول بأننى أتيت إلى الإسكندرية لاقلبها رأسا على عقب . وكان هذا موضع حديث الناس فى كل مكان وحتى فى بيت الحاكم) .

لوحة تصور «كارستن نيبور» بالزى الشرقى

اضطر نيبور إلى التوقف عن المسح لهذا السبب معوضا برحلات متعددة إلى الدلتا . وفى الطريق إلى القاهرة قام بمسح لأحد فرعى النيل ورسم له خارطة . كذلك شرع فورسكال فى تدوين ملاحظاته العلمية وفى جمع عينات مختلفة من الحيوانات والنباتات وقد أقامت البعثة عامين فى القاهرة وذلك بعد وصولها إليها فى ١٠ نوفمبر . وكان السبب فى هذه الإقامة الطويلة ، الصراعات الداخلية بين أعضاء البعثة أنفسهم ، والتى أدت إلى استفحال الخلافات بينهم وإلى بروز الكثير من المشاكل التى عرقلت أعمالا كثيرة .

ورغم ذلك استمر العمل طبقا لمواد القرار الملكى . وقد واصل نيبور عمليات المسح ، ودرس فى القاهرة فرع النيل الثانى المؤدى إلى رشيد ، ووضع خريطة دقيقة للمدينة ، وقاس ارتفاع الأهرامات ، محصلا نتائج لا تختلف إلا بنسبة ٠,٥٪ عن النتائج الحديثة . كما نسخ بعضا من النقوش الهيروغليفية كانت هى أول من أمكن قراءتها . أما فورسكال فقد أضاف إلى مجموعته حوالى ١٢٠ نوعا جديدا، وجمع المئات من الحبوب ، واشترى فون هافن ٧٢ مخطوطا ورسم «باور نفايند» صورا معبرة عن الحياة اليومية من خلال الأدوات المستخدمة والماكينات والملابس الشعبية والآلات الموسيقية .

من القاهرة إلى جدة

رحلت البعثة فى ٢٨ أغسطس ١٧٦٢ بصحبة قافلة الحج السنوية من القاهرة إلى السويس لتبحر منها إلى جدة المرفأ الوحيد المؤدى إلى مكة .

وكان أفراد البعثة قد تطبعوا أكثر فأكثر بأسلوب الحياة الشرقية خلال إقامتهم فى القاهرة ، وقبل الإقلاع من السويس حاولت البعثة البحث عما كان يسمى فى أوروبا بجبل (المكاتب) والمنصوص عليه فى القرار الملكى ، وهو جبل كان العلماء يتوقعون العثور فيه على معلومات جديدة بخصوص رحلة بنى اسرائيل فى صحراء سيناء، غير أن بحثهم باء بالفشل ، وتمكن نيبور من نسخ بعض النقوش النبطية من القرن الأول

الميلادى .

أبحرت البعثة فى ١٠ أكتوبر على ظهر سفينة من سفن الحجاج تاركة السويس إلى جدة ، وواصل نيبور دراساته الفلكية سرا فى الطابق العلوى من السفينة . وشكلت هذه الدراسات مع ما لاحظه حول الشعب المرجانية القاعدة الأساسية لأول خريطة علمية للبحر الأحمر . وقد كان الجزء الشمالى منه مجهولا لدى الرحالة الأوروبيين ، ولذا فإنهم لم يكونوا يتجاسرون على السير فيه أبعد من جدة شمالا . وكانت هذه الخريطة هى الهدية التى قدمها «نيبور» إلى قبطان انكليزى فى فترة لاحقة ، وهى التى اعتمدها البريطانيون فى إقامة طريقهم البريدى من أوروبا إلى الهند ، مجنبا إياهم الإبحار ومرورا بإفريقيا الجنوبية .

وطيلة الرحلة فى البحر الأحمر ، كان «فورسكال يصيد الحيوانات المائية ويعطيها لزميله» باورنفايند ليرسمها ، كما أنه أرسل من جدة مجموعة من النباتات والحبوب وأشياء أخرى من بينها أسماك وأصداف .

من جدة إلى اليمن

أبحرت البعثة من جدة فى مركب صغير إلى ميناء لحية فى اليمن . ثم سارت فى طريق البر على بلدة بيت الفقيه التى وصلتها يوم ٢٥ فبراير / شباط ١٧٦٣ . وفيها أقامت ما يقرب من الشهرين . وقد توطدت الصداقة بين «نيبور» و«فورسكال» . وهذا ما سهل عليهما القيام برحلات عديدة معا ،

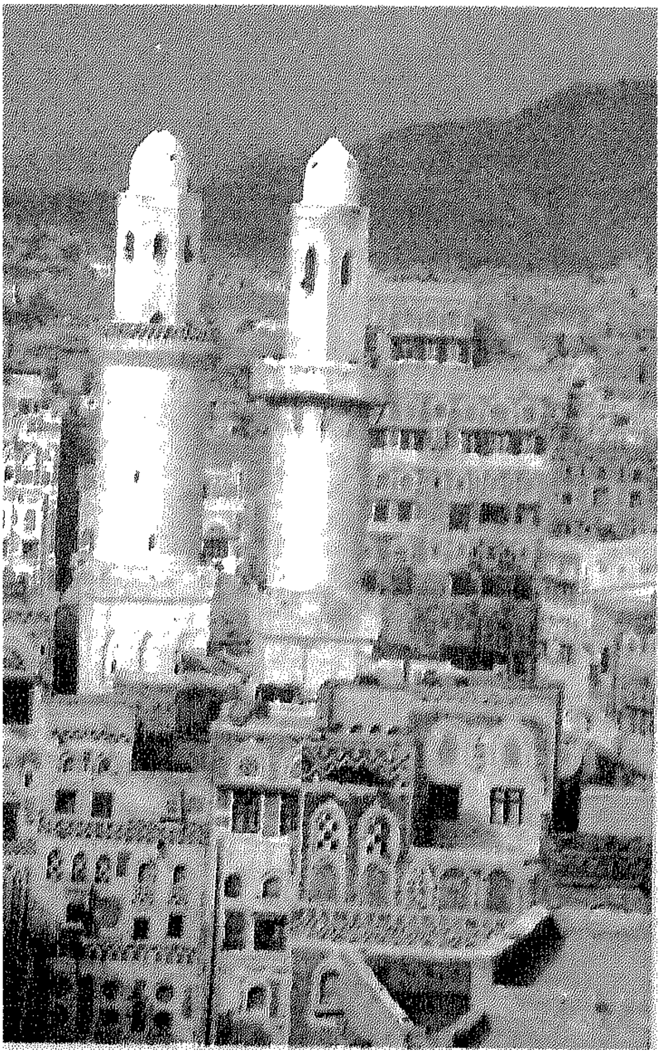

الجامع الكبير .. فى قلب صنعاء القديمة

رحلات إلى سهول تهامة وإلى الجبال المحيطة بها . وقد كتب نيبور قائلا : «كنا نستأجر حمارين نركبهما بينما يظل صاحبهما سائرا على الأقدام وراءنا فهو مرشدنا وخادمنا بل وفى كثير من الأحيان مترجم لنا وكنا نحن قد أصبحنا من ذوى اللحى العربية المهيبة ونرتدى ثيابا طويلة بحيث كان شكلنا شرقيا إلى حد كبير . وحتى لا يشك أحد فى أننا أوروبيون ، أطلق كل منا اسما عربيا على نفسه ، وجعلت احتياطاتنا هذه صاحب الحمار يوقن

بأننا لسنا أوروبيين وإنما مسيحيون من الشرق) .

وقد واصل نيبور عمليات المسح خلال رحلاته إلى مخا وتعز وصنعاء راسيا بذلك القاعدة لإنجاز عمله الكبير الثاني : خريطة اليمن ، أساس كل الأبحاث الجغرافية عن المنطقة لفترة المائة سنة اللاحقة . كذلك استمر فورسكال في جمع النباتات . من بينها أصناف متعددة تجهلها العلوم الأوروبية جهلا تاما ، كما استطاع أن يجد شجيرة البلسم العربي التي يستخرج منها بلسم مكة ، الشهير في أرض كنعان وفي الشرق كله . ولم تكن أوروبا تعرف إلى أي نوع من النباتات ينتمي حتى ذلك الحين .

ويبدو من خلال مذكرات «نيبور» أن أعضاء البعثة كانوا على ما يرام على الأقل في بداية إقامتهم في اليمن السعيد . كما كانوا يتمتعون بحرية الحركة وبالإحساس بالأمان . ولم يلاقوا من السكان نفورا مثلما حدث لهم في تركيا أو في مصر . وقد كتب «نيبور» يقول: إن على الرحالة أن يعلم بأن الرحلة متعبة . غير أنها ليست أكثر إرهاقا من تسلق الجبال .

وقد بدأت المتاعب بعد ترك بيت الفقيه . ومنها حادثة «مخا» المضحكة والمبكية في الوقت نفسه، والتي وصفها «نيبور» في مذكراته بالتفصيل : بعد وصول البعثة مساء ٢٤ نيسان / ابريل إلى مخا ، كان من الضروري تفتيش المتاع الذي وصل من لحية مباشرة ويحضور حاكم المدينة . ورغم أن أعضاء البعثة طلبوا البدء في التفتيش بأدوات المطبخ وبالأغطية حتى يتمكنوا من أن يناموا بعد ذلك ، فإن التفتيش بدأ بأدوات العمل . وكان من بينها برميل صغير به أسماك من الخليج العربي . وقد رجا السيد «فورسكال» المفتشين بألا يفتحوا البرميل لأنه كان ممتلئاً بالكحول ولأن رائحة الأسماك التي به ربما تكون غير محتملة على الإطلاق . غير أن المفتش أصر على فتحه وبعد ذلك أخرج منه الأسماك وقلب فيه بواسطة عصاه الحديدية كما لو أنه كان يتصور العثور على أشياء ثمينة بداخله. وبرغم توسلات أعضاء البعثة ، فإن المفتش قلب البرميل رأساً على عقب . وهكذا امتلأ المكان برائحة الكحول والأسماك العفنة . أما القواقع التي كانوا قد لفوها بحرص شديد ، فقد نزعت لفائفها ، ومزق البعض منها بواسطة العصا الحديدية المدببة . وربما لم يكن العرب يتصورون أن بإمكان إنسان عاقل جمع مثل تلك الأشياء ولذا فإنهم تصوروا أن أعضاء البعثة أحضروها بهدف السخرية من الموظفين بل ومن الحاكم نفسه . واعتقد آخرون أن هناك أشياء ثمينة مخبأة بينها وأن أعضاء البعثة قد سحروهم بحيث أنهم لم يعودوا قادرين على رؤيتها . وبدا الحاكم غير مبال تماماً بما يحدث . وفي نهاية التفتيش أحضر صندوقا مخصصا لنقل القناني كان فورسكال يحتفظ فيه بنماذج من الثعابين المختلفة والتي كان قد قام بتحنيطها . وأثار هذا أيضا استغراب المفتشين ودهشتهم . وعندئذ قال أحد خدم الحاكم أن الفرنج قد جاءوا إلى اليمن لتسميم المسلمين . وحتى تلك اللحظة لم

يصدر عن الحاكم أى غضب أو أى سخط . كان يبدو مشفقا إلى حد ما على أعضاء البعثة ، غير أنه لما سمع أن الناس قد يكونون فى خطر حتى ثارت ثائرته وهاج وماج وقال : «والله لن يبق هؤلاء الناس ليلة واحدة فى مدينتنا» . ويضيف فورسكال فى تقريره إلى لينيه : لكنه - أى الحاكم - غير رأيه فى النهاية بعد أن أقنعه أصدقاؤنا بواسطة الهدايا الثمينة بحسن نوايانا . وهكذا انجلى عنه الإعصار الذى اجتاح نفسه ، أن الجهل هو بالفعل أساس لحماقات كثيرة» .

وراحت المصاعب تشتد أمام أعضاء البعثة . وسرعان ما واجهتهم الملاريا التى راحت تحصدهم الواحد بعد الآخر

أمراض .. وموت .. وعراقيل !

توفى اثنان من أعضاء البعثة أثر عودتهما فى نهاية نيسان / ابريل ١٧٦٣ إلى منطقة الساحل . وهما فون هافن (٢٥ مايو / أيار ١٧٦٣) فى مخا وفورسكال (١١ يوليو ١٧٦٣) فى جريم . وقد ذهبا ضحية نوع خاص من الملاريا اشتهر فى اليمن بشراسته. وكان فورسكال فى طريقه من جريم إلى صنعاء عندما باغته المرض .

ويحاول نيبور أن يخفى حزنه على صديقه فورسكال بالذات وراء تقريره الموضوعى عن الحادثة : «لقد حزنا حزنا شديدا على فقدانه ذلك أنه كان أكثرنا إجادة للغة العربية بل وللهجاتها المختلفة بسبب اختلاطه بعامة الناس أثناء جمعه للنباتات . وفى بعض الأحيان كان يقوم بدور المترجم لنا ، وكان مهتماً شديد الاهتمام بتسهيل أمور الرحلة علينا ، الشيء الذى أقنعنى بأنه كان أكثرنا صلاحية للسفر إلى بلاد العرب . وقد تعود على أسلوب حياة السكان الأصليين بسرعة مدهشة . وهذا شيء ضرورى للغاية بالنسبة لمن يريد قطع بلاد العرب مستفيدا ومستمتعاً فى آن واحد .

وقد قرر أعضاء البعثة الآخرين بعد زيارة العاصمة صنعاء أن يغادروها إلى مخا ليستقلوا بعد ذلك المركب إلى بومباى ، محاولين تجنب الساحل اليمنى الموبوء بالملاريا ، قاطعين بذلك رحلتهم التى كان من المتوقع أن تمتد عامين أو ثلاثة . ويسرد لنا نيبور أسباب قرارهم ذاك قائلا : «استقبلنا فى صنعاء استقبالاً طيباً للغاية بل إن كثيرين من أهل البلد الخيرين حاولا إقناعنا بالبقاء بينهم وذلك بترك المراكب البريطانية تقلع بدوننا . وكان بودنا أن نستجيب إلى دعوتهم تلك . غير أن وفاة زميلينا جعلتنا عاجزين عن مواصلة دراستنا الطبيعية واللغوية.

أما أنا فقد كنت زرت من قبل العدد الأكبر من مدن المملكة الصغيرة كما أنى وضعت خريطة أساسية لليمن. وخوفاً من تكرار المصاعب والعراقيل والمضايقات ، ومن الأمراض التى يمكن أن تصيبنا من جراء تغير الجو والهواء والماء وبسبب الفروق بين السهول والجبال قررنا الإقلاع إلى الهند بهدف تأمين حياتنا ومذكراتنا وأوراقنا» .

أقلعت السفينة من «مخا» فى ٢١

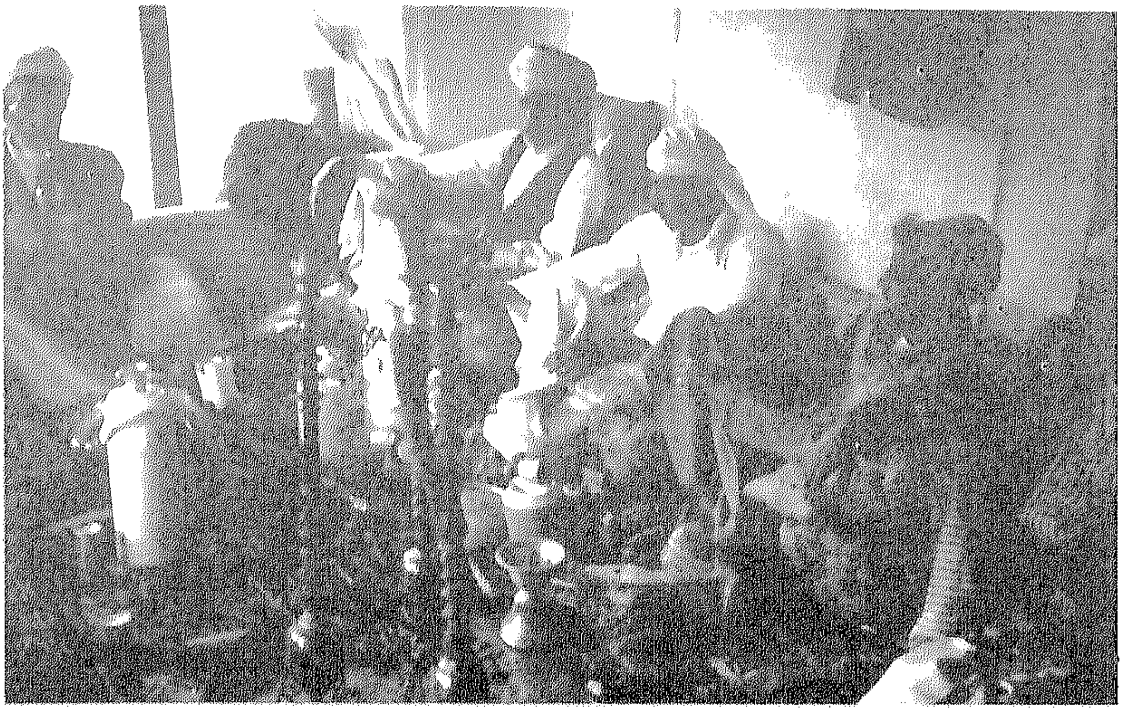

«المقيل» جلسات تخزين القات!!

أغسطس ، لكنها كانت قد تأخرت : ففى خلال السفر أودت الملاريا بكل من باورنفايند وبرججرين ، وتبعهما كرامر فى فبراير ١٧٦٤ فى بومباى ، ولم يبق إلا نيبور ، مرهقا ومريضا واستغرق وقتا طويلا للشفاء من المرض ، ونراه يفسر ذلك على أنه إنذار وتحذير إلهى فيقول : «أكاد أيأس من رؤية أوروبا مرة أخرى . لقد قررت أن التزم البقاء على قيد الحياة . وإذا ما أنا مت أيضا ، فمن يوصل الأوراق والوثائق إلى أوروبا . إنى أخاف من أنها لن تصل على الإطلاق ، ومخاوفى هذه هى التى جعلتنى أقرر السفر فى إحدى السفن المبحرة من بومباى إلى لندن» . ويستغل نيبور فرصة وجوده فى الهند ليزور فى مارس ١٧٦٤ مرفأ صرات التجارى فى شمال الهند . ويكتب فى مذكراته : «كنت مريضا جدا إلى درجة إنى لم أتمكن من الشروع فى رحلة العودة . وهكذا اضطررت للبقاء فى بومباى طيلة موسم الأمطار . وقد قررت أن أعود عبر الطريق المرسوم لى والذى يمر من البصرة وذلك حالما أتعافى . لقد أرسلت الآن كل العينات وكل الوثائق التى جمعناها خلال رحلتنا . وأنا الآن أشعر بالاطمئنان» .

رحلة العودة :

غادر نيبور بومباى بعد أن أقام بها أكثر من عام بأكمله وكان ذلك فى ديسمبر ١٧٦٤ ، ورحل شمالا عن طريق عمان والخليج العربى ، وفى ميناء بوشهر الفارسى شاهد الاستعدادات قائمة على وثاق لتسيير قافلة إلى شيراز ، فانتهز الفرصة ليحقق حلما قديما من أحلامه وهو يقول : (بالرغم من رغبتى الجامحة بالعودة إلى أوروبا إلا أننى لم

أرغب فى أن تفوتنى فرصة السفر إلى شيراز ومشاهدة إطلال برسيوليس على مسيرة يومين منها وهكذا قررت الرحيل مع القافلة فى ١٥ فبراير إلى داخل البلاد ، وبقيت مرتديا ثيابى الأوروبية التى كنت قد أتيت بها من الهند فى طريقى إلى برسيوليس ، لكنى قاسيت الأمرين من السفر مع القافلة بتلك الثياب القصيرة الضيقة) .

أمضى نيبور ثلاثة أسابيع فى أطلال ذلك القصر الملكى ، وكان الاسكندر الأكبر قد أشعل فيه النيران انتقاما من غريمته إمبراطورية فارس القديمة ، وهنا يقوم نيبور بثالث إنجازاته العظيمة ، فينسخ كل النقوش المكتوبة بالخط المسمارى بدقة فائقة جعلت من نسخته قاعدة لفك رموز هذا الخط بعد سنوات قليلة . غير أن هذا الإنجاز كان على حساب صحته ذلك أنه لم يراع انعكاس الشمس على المرمر الذى أتعب عينيه وتسبب فى إصابته بالعمى فى الشيخوخة . ويقول ابنه بهذا الصدد : (إن صورة هذه الأطلال انطبعت فى ذهنه طيلة العمر ، فكانت هى الجوهرة بين كل الحجارة الثمينة التى شاهدها فى رحلته) .

وصل نيبور فى أغسطس ١٧٦٥ إلى البصرة وتابع رحلته منها برا عبر العراق حتى بغداد التى وصلها فى يناير ١٧٦٦ وانضم هناك إلى عدة قوافل نقلته إلى الموصل ومنها إلى حلب التى غادرها إلى قبرص بناء على تعليمات القنصل برنستورف لكى ينسخ نقوشا كان يعتقد أنها فينيقية الأصل . وانتهز فرصة وجوده فى المنطقة ليزور الأماكن المقدسة ، فقاده طريقه مرة أخرى إلى حلب مارا بدمشق فى أغسطس ١٧٦٦ ، وقد أقام فيها حتى نوفمبر ليغادرها بصحبة قافلة إلى القسطنطينية ، التى وصلها بعد شتاء قارس فى فبراير ١٧٦٧ ، وهناك رسم خارطة للمدينة كان المرض قد منعه من رسمها خلال زيارته الأولى لها قبل أكثر من خمس سنوات . وبعدها أدار ظهره للقارة الآسيوية عائدا إلى أوروبا عن طريق البر ، عبر بولندا وشمال ألمانيا ، وقد توقف فى مدينة جونتجن وزار بعضا من أسرته فى قرية التنبورج وهى القرية المجاورة للقرية التى ولد فيها ، وصل كوبنهاجن فى ٢٠ فبراير ١٧٦٧ ، وبادر إلى تنقيح ملاحظاته ونتائج تأملاته خلال الرحلة ليعدها للنشر فى كتاب .

وتقلد فى عام ١٧٧٨ منصب سكرتير الإقليم المسئول عن جمع الضرائب واستقر فى بلده ميلدروف حيث توفى فى عام ١٨١٥م .

وعندما عرض عليه أن يرفع مصاف النبلاء رفض العرض قائلا : (من يقبل مثل هذا العرض لابد وأنه يحس بأن أصله ليس بالنبل الكافى) .

نتائج الرحلة :

بإمكاننا تصنيف نتائج الرحلة إلى مجموعتين : هناك الأشياء العينية التى جمعت خلالها وأرسلت إلى كوبنهاجن ، أصناف مختلفة من الحيوانات والنبات ، مع عدد من المخطوطات العبرية والعربية وهناك المشاهدات المدونة كتابة والرسومات والخرائط ، والكتب التى طبعت على أساسها .

نرى أن البعثة قد تمكنت من الإجابة عن العديد من الأسئلة المطروحة عليها قبل مغادرتها الدانمرك . تطالعنا الإجابة على الاستفسارات اللغوية فى مقدمة كتاب نيبور (وصف بلاد العرب) بينما نجد الإجابات عن الأسئلة فى المجالات العلمية المختلفة متناثرة فى نفس الكتاب . وظهر فيما بعد أن بعض نتائج الرحلة لها أبعاد تاريخية ، مثال الخرائط التي رسمها نيبور ونسخه للخط المسمارى ، وأيضا إنجازات فورسكال فى علمى النبات والحيوان، أما المخطوطات الشرقية فى المكتبة الملكية ، حيث أن هذه المجموعة لم تكن تحتوى سوى على عدد بسيط من المخطوطات قدمت كهدايا للمكتبة ومازال جزء كبير من مخطوطات فون هافن موجودا بها ويستخدم لأغراض البحث العلمى . ■

كارستن نيبور Carsten Niebuhr فى سطور

ولد نيبور بمدينة «لودينجفورت» بإقليم هانوفر فى ١٧ مارس سنة ١٧٣٣ ، كان والده مزارعا ، درس الرياضة التطبيقية بجامعة «جوتجن» كما درس علم الفلك على العالم الشهير «يوهان ماير» ودرس اللغة العربية بجامعة هامبورج، رحل إلى الدانمرك حيث صار ضابطا مهندسا فى كوبنهاجن عام ١٧٦٠م .

أختير نيبور ضمن أعضاء البعثة العلمية التى أرسلها «فريدريك الخامس» ملك الدانمارك إلى مصر وشبه الجزيرة العربية وسوريا .. ولولا أنه قرر مواصلة الرحلة والقيام بعمل جميع أعضائها الراحلين ، لما تحققت الأغراض العلمية من هذه البعثة .

عاد نيبور عام ١٧٦٧ ومعه مادة علمية وفيرة ، عاش أولا فى كوبنهاجن ثم فى ألمانيا . وترك الخدمة بالجيش عام ١٧٧٨ ، وأصبح مستشارا ، ثم أميرا فى دانيبروج عام ١٨٠٢ . واختاره المعهد الوطنى الفرنسى عام ١٨٠٩ عضوا به .

وكان نيبور رحالة يتصف بالملاحظة الدقيقة ، وظهر ذلك فى تدوينه لكل تجاربه ومشاهداته التى أودعها مؤلفاته :

- «وصف بلاد العرب» (كوبنهاجن ١٧٧٢) .
- «وصف الرحلة إلى بلاد العرب والبلدان المجاورة» وظهر فى جزأين فى كوبنهاجن (١٧٧٤ - ١٧٧٨) وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الدانماركية والفرنسية والانجليزية والهولندية . ثم صدر الجزء الثالث منه عام ١٨٣٨ (أى بعد وفاة نيبور) .

وقد ظهر الجزء الأول من الرحلة فى كتاب بعنوان «رحلة إلى مصر» ونقله إلى العربية وقدم له الدكتور مصطفى ماهر (القاهرة عام ١٩٧٧) ، بالمقدمة تفصيلات مفيدة عن حياة نيبور ونبذة عن أعضاء البعثة الآخرين وعن مهمتها ونتائجها .

وكان نيبور قد نشر أعمال زميله عالم النبات «فورسكال» وأهمها «نباتات مصر وبلاد العرب» (١٧٧٦) . كما أمد مجلة المتحف الألمانى بسلسلة من المقالات عن مشاهداته فى الرحلة .. وتوفى فى ١٦ إبريل عام ١٨١٥م .

من نفائس الكتب العربية

رسالة ابن فضلان

والدور الحضارى لبغداد في شمال أوروبا قبل ألف عام

بقلم
د. أحمد درويش

يحتفظ تراث أدب الرحلات ووصف المسالك والممالك فى الحضارة الإسلامية بكتاب صغير يحمل عنوان «رسالة ابن فضلان - أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة عام ٣٠٩هـ - ٩٢١م».

وهى رسالة تعد من أهم الوثائق التاريخية العالمية التى تقف شاهداً على الدور الذى لعبته بغداد، عاصمة الخلافة الإسلامية، فى نشر الحضارة والمدنية، قبل أكثر من ألف عام، فى أرجاء أوربا التى كانت تغرق فى ظلام التخلف والفوضى، ويسيطر على أجزائها الشمالية جماعة من اليهود من قبائل «الخزر» يسومون جيرانهم الصقالبة سوء العذاب، يذبحون أبناءهم، ويغتصبون نساءهم، ويهجمون عليهم من وراء جبال الثلوج متنكرين في فراء الدببة المتوحشة، ولم ينقذهم منهم إلا خبراء الدفاع من المسلمين وعلى رأسهم أحمد بن فضلان كاتب الرحلة الفريدة التى حظيت باهتمام العلماء والفنانين في الغرب قبل الشرق، وتجاوز الاهتمام بها دائرة المستشرقين المألوفة فى اهتمامها بتراث الشرق إلى دائرة الفنانين والسينمائيين، فصور الفنان الروسى هنري سميرادسكى وقائع رحلة ابن فضلان فى مجموعة من اللوحات ماتزال تزين جدران متحف لينينجراد أو سان بطرسبرج حتى اليوم.

والتفت صناع السينما العالمية إلى مشاهد البطولة والشجاعة والذكاء لدى رواد الحضارة الإسلامية، فأخرجت السينما الأمريكية منذ عدة سنوات، فيلماً بعنوان «الفارس الثالث عشر» ولم يكن هذا الفارس إلا «أحمد بن فضلان» الذى احتفظ له مخرج الفيلم بأسمه، وصور بطولته فى إنقاذ الصقالبة من جيرانهم «الخزر» ولكنه لم يذكر بالطبع أنهم كانوا «يهودا»! خوفاً من تهمة معاداة السامية!

فى الوقت الذى لم يلتفت فيه صناع السينما ولا مخرجو المسلسلات التاريخية عندنا إلى هذه البطولات والقيم، ومن قبلهم لم يلتفت واضعوا المناهج التاريخية والأدبية إلى مثل رسالة ابن فضلان لتبسيطها ووضعها بين أيدى تلاميذنا فى مرحلة التكون العلمى والعاطفى، لتكون عونا هم على فهم بعض جوانب حضارتهم وحافزا لهم على الاعتزاز بماضيهم ومحاولة تجديد حاضرهم.

استغاثة الصقالبة

وتبدأ قصة الرحلة التى أصلت الرسالة بكتاب ورد إلى الخليفة العباسى المقتدر بالله من قبائل الصقالبة، وهم من سكان الشمال فى أوربا على أطراف نهر الفولجا وعاصمتهم قريبة من مدينة موسكو، وفى هذا الكتاب، يطلب ملك الصقالبة من أمير المؤمنين المقتدر بالله أن يرسل اليه بعثة من قبله تفقهه فى الدين، وتعرفه شرائع الإسلام، وتبنى له مسجداً، وتنصب له منبراً يقيم عليه الدعوة للخليفة فى جميع مملكته، وتبنى له حصناً يتحصن فيه من أعدائه ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه، ويفرضون عليهم الضرائب يؤدونها عن كل بيت فى المملكة «جلد سمور» وابن ملك الخزر يخطب من يريد من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصباً.

ويتشكل الوفد الرسمى إلى بلاد الصقالبة من أربعة أشخاص، هم سوسن الروسى موى نذير الخرمى، وتكين التركى، وبارس الصقلابى، وأحمد بن فضلان ومعهم دليل هو رسول الصقالبة وثلاثة من أعضاء الوفد من أصول غير عربية، كما تدل على ذلك ألقابهم، ويعرفون لغات البلاد التى سيمرون بها حتى يصلوا هدفهم، أما رابعهم وهو رئيس الوفد وبطله، أحمد بن فضلان فهو عالم باللغة والشريعة وفنون القتال وهو المتحدث باسم الوفد والمدبر لأموره، وقد حمل الوفد فيما حمل معه من الهدايا، كثيراً من «الأدوية» التى طلبها الصقالبة من بغداد عاصمة العلم والصناعات والحضارة آنذاك.

ورحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ٣٠٩هـ الموافق ٢١ يونيو عام ٩٢١م منذ نحو ألف وثمانين عاماً، وظل مسافراً أحد عشر شهراً متصلاً – وصفها ابن فضلان وصفاً دقيقاً محكماً – حتى وصل إلى هدفه فى صيف عام ٩٢٢م (٣١٠هـ).

ويعد وصف رحلة الوصول، مجموعة من اللوحات الجميلة فى أدب الرحلات التى يتقلب فيها ابن فضلان فى سهول أسيا وأوربا الواسعة بين زمهرير الشتاء وزمهرير الصيف، ويصف لنا كيف أن شدة البرودة فى بعض المناطق كانت تجعل شعر لحيته الطويلة يتجمد فيصبح قطعة واحدة من الثلج يمكن أن تنكسر إذا اصطدمت بشىء، وأنه برغم كثرة الأغطية والأكسية والفراء، كان يلتصق خده حين ينام بالمخدة من شدة البرد، فيجد صعوبة فى فصلهما.

عادات وتقاليد

ويقف ابن فضلان كثيراً عند وصف العادات الاجتماعية والتقاليد للبلاد الأسيوية والأوربية التى يمر بها، وهو وصف يدل على مدى البدائية والتخلف، بالقياس إلى حضارة بغداد الزاهية فى تلك الحقب، فالمريض عندهم بدلاً من أن يعالج، يعزل فى خيمة، حتى يموت أو يبرأ، وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفرة كبيرة ثم ألبسوه ملابسه الحربية، وأجلسوه وأسندوا ظهره للحائط وجعلوا فى يده كوبا من الخشب مملوءاً بالنبيذ، وجمعوا أمواله فدفنوها معه ثم يجمعون دوابه فيذبحونها ويأكلونها جميعاً، ولكنهم يحافظون على جلدها ورأسها وأرجلها وذيلها، ويصنعون منها تماثيل على هيئة الدواب، ويجعلونها بجوار قبر الميت، حتى إذا ما نهض من موته، شرب النبيذ وركب هذه الدواب إلى الجنة، وابن فضلان لا يكف عن تنبيه القوم إلى سذاجة ما يصنعون، ويدعوهم بالحسنى إلى الإسلام ونبى الحضارة والمدنية والتقدم.

ويتحدث ابن فضلان عن خرافة المعتقدات لديهم، فمنهم من يتخذ لنفسه اثنى عشر رباً، وطائفة تعبد الحيات، وأخرى تعبد السمك، وأخرى تعبد الأوز، لأنه تصادف أن صاح فى احدى المعارك على فريق فاهتزوا وفزعوا وانهزموا فأسندوا إليه قوة الألوهية.

أما العادات الاجتماعية فى روسيا فى ذلك الزمان، فقد وصفتها رسالة ابن فضلان، وصفاً مفصلاً، جعلت علماء الروس المعاصرين يعتبرونها «المرجع الأول» لتاريخهم فى هذه الفترة السحيقة، ووصف هذه العادات يدل على مدي التخلف الذى كانت تعيشه هذه البلاد، فى الوقت الذى كانت تعيش بغداد فيه أوج حضارتها ومدنيتها، فهو يصف التحلل والعرى عندهم، وأنهم ينزلون إلى النهر

فيغتسلون رجالاً ونساء وهم عراه وأنهم يجتمعون على السكنى فى بيت واحد، عشرة أو عشرون ولكل منهم سرير يجلس عليه، وحياتهم الزوجية عجيبة مكشوفة لا حياء فيها ولا عار مع قذارة فى الثياب والأبدان، فهم يغسلون وجوههم فى طست واحد يطاف عليهم به يرسلون فيه كل ما يخرج من أفواههم وأنوفهم، وأنهم يسجدون لخشب ركزوه فى الأرض، وقد صنع على شكل صور يستشفعون إليه ويتضرعون وله يتصدقون ، وهذه المشاهد كلها أخذها مخرج الفيلم الأمريكى، الفارس الثالث عشر، عن رسالة أبن فضلان.

مشاهد الموت الروسى

أما مشاهد دفن الموتى عند الروس، فقد فصلها ابن فضلان تفصيلاً مثيراً، فقد قص علينا ماراه بنفسه من مراسم دفن أحد عظماء الروس، وكيف أنهم عقب موته - يجعلونه فى قبره ويقفون عليه عشرة أيام حتى يفرغوا من اعداد ملابسه اللائقة برحلة الدار الآخرة، ثم يتم اختيار أحدى جواريه لكى تؤنسه فى رحلة الموت، ويتم الاحتفال بالتى تم اختيارها سبعة أيام، يتم فيها الغناء والرقص والشراب ووداع الجارية بطريقة بدائية متخلفة من خلال معاشرتها جنسياً من كل زعماء القبيلة لكى تحمل تحيتهم إلى الميت الراحل، فإذا كان يوم الاحتفال يحرق جثمان الميت وجاريته معه، شربت الجارية وغنت واحضرت إلى سفينة معدة لذلك الأمر، وأخرجوا الميت من قبره وجعلوا معه نبيذاً وفاكهة وعوداً للعزف، وألبسوه أجمل الثياب الفاخرة، وأدخلوه القبة، وجعلوا بين يديه المآكل والمشارب، ثم دفعوا الجارية بعد أن تودع صواحبها فخنقوها وقطعوا أضلاعها، ثم أحرقوا الخشب تحت السفينة، حتى تصبح رماداً تذروه الرياح وغرسوا فى موضعها خشبة عليها اسم الميت واسم ملك الروس. وهذا الوصف التفصيلى هو الذى استوحى منه الرسام الروسى هنرى سميرادسكى، لوحة الحريق، وهى إحدى لوحاته المعلقة فى متحف بطرسبرج.

لقد كانت رسالة ابن فضلان موضع اهتمام الجغرافيين العرب القدماء، من أمثال ياقوت الحموى، الذى نقل بعض فقرات منها، وعلق عليها، مستحسناً حيناً وناقداً حيناً آخر، ولكنه كان سبب شهرته الحقيقية، لأن الجغرافيين قبله، كانوا ينقلون عن الرسالة دون الإشارة إلى اسم صاحبها.

أما فى العصر الحديث، فقد كان المستشرقون هم أول من تنبه إلى أهمية هذه الرسالة انطلاقاً من المقتطفات التى

قرأوها عنها فى كتاب ياقوت الحموى «معجم البلدان» وفى عام ١٨١٤ جمع المستشرق راسموسن مقاطع من هذه الفصول وترجمها إلى الروسية ونقلها عنه إلى الانجليزية نيكلسون ، ثم كتب المستشرق الألمانى فرهن دراسة مطولة عن مشاهدات ابن فضلان فى بلاد الروس وأثبت أن بعض النقود العربية التى حملتها بعثة ابن فضلان، ماتزال موجودة فى متحف سان بطرسبرج وعليها إشارة عصر المقتدر، ثم ظهرت مخطوطة لرسالة ابن فضلان نفسها فى مدينة مشهد بإيران فعكف عليها المستشرقون بالبحث والتحقيق فى دراسات متتابعة، أشهرها دراسة وتحقيق، المستشرق الروسى كراتشوفسكى عام ١٩٣٩، ثم كانت الطبعة العربية فى سوريا بتحقيق الدكتور سامى الدهان فى أوائل الخمسينات من القرن العشرين، لتضع بين يدى القارىء العربى النص المحقق لرسالة تلقى الضوء على الجهد الحضارى الرائع للعرب فى تمدين أوربا، ومساعدة أبنائها على مقاومة عسف طائفة من اليهود بهم منذ أكثر من ألف عام، لكى تمتد جذور الصراع الحضارى، الذي تتعرض الأمة العربية والإسلامية، لواحدة من أقسى موجاته ضراوة وظمأ هذه الأيام. ■

تعريفات لاذعة

الضمير: صوت داخلي يحذرك من فعل الشيء بعد فعله !

الأفكار: فترات استراحة بين فصول العواطف في مسرحية الحياة

الزواج: وسيلة ناجحة « لتقصير » عمر الرجل !

المديح: تجارة رابحة للمادح ، ومدعاة لسرور الممدوح وعطاياه !

البداوة والحضارة

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البدا وة حسن غير مجلوب

المتنبى

سئل لقمان يوما : « ممن تعلمت الحكمة » ؟

أجاب : «من الجهلاء ، فكلما رأيت عيبا فيهم ، تجنبته ، » !

موشى ديان

بوش الابن

الذئاب لا تحتاج ذريعة للانقضاض !

بقلم
صافى ناز كاظم

أكثر من ستين عاما من الوعى، هى مشوارى فى هذه الحياة، من عمر الرابعة حتى أبواب السابعة والستين. بدأ وعيى على يد أمى تخطفنى، وأنا بين النوم والاستيقاظ المتسائل، لأستقر على حجرها فى المخبأ هرباً من غارات الحرب العالمية الثانية التى كانت تقصف الإسكندرية. ثم قرار والدى أن نحتمى بالقاهرة الأهدأ قليلا. ما أن تنتهى الحرب المدمرة عام ١٩٤٥ حتى تشتعل القضايا وتمور الشوارع بالمظاهرات، «الجلاء بالدماء»، هتافات الصغار قبل الكبار ضد المحتل الإنجليزى. نتعلم على وقود الغضب قصائد الشعر من إمرئ القيس «ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى، بصبح...» حتى أبو القاسم الشابى «إذا الشعب يوماً أراد الحياة، فلابد.. ولابد.. ولابد». والقضايا: الجلاء، فلسطين، وحدة مصر والسودان!. نردد وراء أم كلثوم قصيدة شوقى: «وفى الأرض شرّ مقاديره، لطيف السماء ورحمانها» حتى نصل إلى الحكمة: «ودعوى القوىّ كدعوى السباع، من الناب والظفر برهانها».

مارجريت تاتشر

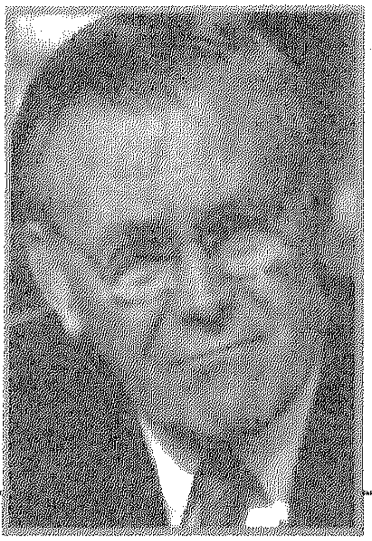
دونالد رامسفيلد

وتمر حرب ١٩٤٨، التى كنا نسميها «حرب فلسطين»، وأنا أقوى وعياً. تضربنا عصابات الصهاينة بمساعدة المحتل الإنجليزى، وجيراننا اليهود آمنين، لا نمس لهم شعرة لأن نبينا أوصى على سابع جار، حتى وإن لم يختش أبناء هذا الجار على دمهم فيكتبون أمام كل «فلسطين للعرب» رداً وقحا على الجدران «فلسطين لليهود». لم نخمشهم ولم نضربهم ولم نلعن حتى أبو خاشهم، ناهيك عن قتلهم ودك بيوتهم فوق رءوسهم. نظن الفرج والتغيير مع ١٩٥٢/٧/٢٣ فنفرح، ونتحد فى عدوان ١٩٥٦ هاتفين: «مش خايفين م الجايين، كل الناس ح نحارب»، عدوان ثلاثى: انجلترا وفرنسا وإسرائيل، فهل كان العدوان بسبب أبراج لديهم دمّرناها؟ أم هو التلمظ الوغد الدائم من الذئاب للعض ثم الالتهام؟ وتحل بنا هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ فيفرحون ويرقصون ويغنون شماتة علنية فى كل مكان ويقول موشى ديان: كنت أستطيع الدخول حتى القاهرة لكننى لم أشأ أن أكون مسئولا عن إطعام عشرين مليون خنزير. وترسل لى صديقتى الإنجليزية من نيويورك تعبر عن مشاعر الألم التى انتابتها من مشاهد الفرح المقزز التى ملأت شوارع نيويورك مع الهياج ضد العرب والمسلمين.

وما نكاد نفرح بالعبور والنصر فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣، حتى نوقع فى فخ السلام الخادع والاتفاقيات المهددة بالنقض. وعلى طول مشوار حياتى الواعية، تعودنا أن نسمع، مع أصوات الحق ومنطق العدل، أصواتا تلوم الزعيم أحمد عرابى وتتهمه بأنه السبب فى الاحتلال الإنجليزى لمصر ١٨٨٢، فلولاه لما .. كأن تربص الذئب الإنجليزى كان يحتاج إلى ذريعة. كأنه كان من المفروض أن يكتم أحمد عرابى صرخة الاحتجاج والكرامة

ويتحمل الصفعات والركلات صامتا خاشعا ساكنا. ولم نعدم بعد ذلك قضاة من لحمنا ودمنا يحكمون على فلاحي دنشواى بالإعدام شنقاً ثأراً لجنود المحتل الذين ماتوا بضربة الشمس بعد أن استباحوا بيوت القرية وأعشاش الحمام. ولم نعدم فى مقتل السردار لى ستاك عام ١٩٢٤ من يتهم الشباب المقاوم للاحتلال بأنه السبب فى غضب انجلترا وإنزالها العقوبات الجائرة على مصر والسودان. ولم نعدم عام ١٩٥١، مع المقاومة الفدائية ضد معسكرات الإنجليز فى القنال، مدرساً يدرس لنا التاريخ فى المدرسة الثانوية، يرد على حماسنا بقوله «إتلهى على عينك منك لها، إنجليز إيه اللى انتوا عاوزين تطردوهم، إنتوا تعرفوا تعيشوا من غيرهم؟.. ده حتى الإبرة بتستوردوها منهم». أكثر من ستين عاماً من الوعى، شالتنى وحطتنى عرفت فيها الكثير، لكن أهم ما عرفت كان معرفة أن الذئاب لا تحتاج ذريعة للانقضاض والفتك، حتى وهى تحاور الحمل وتعلنه بتهمة تعكير مياهها، تفعل ذلك للملاعبة والتسلية لا أكثر. وأمام الذئاب لا يجوز أن نكون حملانا ساذجة تصدق إلى حد الغباء، جدية الحوار ومنطقية الاتهام، ومن ثمّ نتعب أنفسنا بتكوين لجان تثبت للذئاب أن الإسلام دين حضارة وتسامح وأن للعرب الأفضال التى لا تنسى على حضارة الغرب. لقد أوصلنا الخنوع إلى الحد الذى جعل أهطل جاهلا مثل چورچ دابليو بوش يتجرأ ليأول لنا ديننا ويعرفنا به وفقا لما يتفق مع مصالحه وإلا...

أما السيدة «البارونة» مارجريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية السابقة فكانت قد انتقدت بشدة المسئولين المسلمين الذين لم يدينوا اعتداءات ٢٠٠١/٩/١١ بشكل كاف، على حد تعبيرها، وقالت إنها لم تسمع مايكفى من الإدانات من قبل رجال الدين المسلمين مؤكدة – ولا نعرف من أين جاءها التأكيد – أن الناس الذين دمروا البرجين كانوا مسلمين. وأكد لها زكى بدوى عميد الكلية الإسلامية بلندن ورئيس مجلس الأئمة والمساجد ببريطانيا أن البارونة لم تطلع على رد فعل المسلمين بشكل جيد، لأنهم صلوا للضحايا وأدانوا وقاموا بالواجب على أتم ما يعجب «البارونة» تاتشر. ولم أدر لماذا لم يقل لها أحد، ونحن كذلك لم نسمع منك جيداً إدانتك لسجل جرائم الإمبراطورية البريطانية، ومذابحها فى الهند عام ١٨٥٧ – للقضاء على الحكم الإسلامى بها الذى استمر ثمانية قرون – التى وصفها أحد الكتاب الإنجليز قائلا: «إن ضباط جيوشنا كانوا يقتلون المسلمين المجرمين من غير رحمة أو ألم كأنهم كلاب أو بنات آوى أو حشرات

خسيسة...» وكتب قائد القوات روبرتس رسالة إلى أمه فى ٢١ يونيو ١٨٥٧ يقول لها: «إن أهول طريقة للإعدام هى أن نرمى المجرم بالمدفعية، إنه حقا منظر هائل ولكننا لا نستطيع أن نتروى فى وقتنا هذا، إن هدفنا هو أن نثبت للمسلمين الأشرار أن الإنجليز هم سادة الهند!».

★★★

وزير الحرب الأمريكى رامسفيلد - الذى يشبه فى السحنة تماماً ماكنامارا مجرم فيتنام - ليس لديه أى مبرر يجعله يصدق غير شارون، فهل لدينا نحن أى مبرر يجعلنا نصدق الأمريكان؟ تصرخ الشابة الفلسطينية الحلوة: «هدموا الدار، واليوم أخدوا إبنى .. بدّى إبنى.. بدى إياه»، وتبكى، فهل سمعنا إدانة من البارونة تاتشر، ولو طفيفة؟. الأمريكى يرى فى ضرب المقاومة: «أخبار جميلة ممتازة.. هايل!» وتقف أم وأب يتحدثان عن ابنتهما المحتجزة فى البلاد المطحونة-بالقصف الأمريكى، والمذيع لا يسألهما: وما الذى ذهب بها إلى مناطق القصف، متأثراً يعلن أن من بين الضحايا أمريكيين، أما أطفال العرب المقتولون على أرضهم فلا بواكى لهم. ونحن لا ننتظر من أعدائنا شفقة أو مواساة، كما قال أسخيلوس اليونانى من بُعد أكثر من ٢٥ قرنا: «كيف نرجو العدل من أيدى الجُناة» لكننا نرجو الخانعين - رهبان التثبيط - من أهلنا أن ينقطونا بسكاتهم! ■

حكم وأمثال الفراعنة

- احلام القط اقتناص الفأر.
- الغبى كالتيس الذى يطمع فى أكل الأسد فيذهب لاقتناصة ليكون فريسته
- في الثورات يجلس الباطل مكان الحق في قاعة العدالة .
- لا تجعل المعرفة والثقافة تؤدي بك الي الغرور فترى نفسك أكبر من حجمك
- أعرف نفسك ، يعرف الناس قدرك
- الغرور هو أن ترى ظلك أكبر من قامتك.
- الغني البخيل حارس كنز لا يمتلكه

الشاعر أبوشادي

وشعره في الملك فاروق والثورة

بقلم
وديع فلسطين

ليس الشاعر الدكتور أحمد زكي أبوشادي في حاجة إلي تعريف، وحسبه أنه هو الذي جمع شعراء عصره في جماعة أبولو برياسة الشاعر أحمد شوقي ثم الشاعر خليل مطران، وأنه علي مدي ثلاث سنين أصدر مجلة خالصة للشعر ودراساته ونقده هي مجلة أبولو، هذا فضلا عن عشرات من الدواوين والكتب التي أصدرها في حياته أو التي نشرت بعد وفاته في عام ١٩٥٥، وفي العام المقبل تمر خمسون سنة علي وفاته.

ولئن كانت الحياة العامة لأبى شادى قد انصرفت إلى الشعر ومشاغل الأدب، فإن حياته العملية كانت مشدودة إلى وظائف حكومية بوصفه طبيبا متخصصا فى التحاليل مضطرا بحكم وظيفته الحكومية إلى تقبل أوضاع بيروقراطية وحزازات وظيفية لم يلبث أن ضاق بها بعدما تغالظت عليه، فقرر التحرر من هذه الأوضاع بالهجرة النهائية، ولما انتهت الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ وانتظمت الملاحة المدنية التجارية التى توقفت طوال فترة الحرب بسبب إخلاء البحار والمحيطات للسفن الحربية وحدها، مع خطورة تعرضها للإغراق بفعل طوربيدات ألمانيا النازية، حزم أبو شادى أمتعته وسافر مع أسرته فى عام ١٩٤٦ إلى الولايات المتحدة ليبدأ حياة جديدة فى الدنيا الجديدة - كما كانوا يسمونها.

ولكن ابتعاد أبى شادى جنسديا عن مصر لم يصرفه عن متابعة أخبارها وأوضاعها

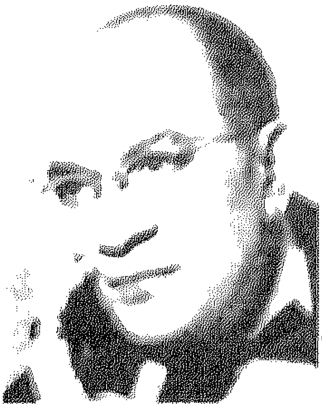

أحمد زكى
أبـو شادى

الملك فاروق

من واقع ما كانت الصحف العالمية تنشره عنها، فى حين كانت الصحف المصرية تحجب الأخبار تسترا منها على المباذل التى كان الملك فاروق غارقا فيها فى مغانى أوربا، بل كانت الصحف المصرية تصفه بالملك الصالح الورع، وتتجاهل سلوكه المشين فى الخارج

وما كان فى وسع أبى شادى - الذى استعين به كواحد من أساتذة فاروق عندما كان وليا للعهد - أن يلجم لسانه ويتخذ موقف المتفرج من تلميذه السابق الجالس على عرش مصر. فنظم عدة قصائد وصفها بأنها قصائد رمزية نعى فيها على الملك هذا السلوك المعيب. ونصحه بترك الغى ، وحذره من أن عرشه سيبيد إذا لم ينزل على حكم الرعية ويصلح من أمر نفسه. وقد وافانى وقتها بهذه القصائد راجيا تدبير أمر نشرها، ولكن الرمز فيها كان أوضح من أن يخفى فتعذر نشرها فى مصر، ولكننى بعثت بها إلى صديقى ألبير أديب صاحب مجلة «الأديب» اللبنانية الذى تورع بدوره عن نشرها مخافة أن تمنع مجلته من دخول مصر.

تحديات وهموم المهجر

الهلال
جماد أول ١٤٢٥هـ - يوليو ٢٠٠٤م

ومن الإنصاف لصديقى الدكتور أحمد زكى أبى شادى أن أورد نماذج من هذه القصائد التى إن نمت على شىء فعلى الوطنية المتأججة فى صدر هذا الشاعر حتى بعدما هجر الديار، وبتر الحبل السرى الذى كان يصله بمصر واستغرقته الحياة الجديدة بكل تحدياتها وهمومها فى مهجره.

والقصيدة الأولى اختار لها أبو شادى عنوان «الكركدن» وهو الحيوان الضخم الذى يحاكى فى ضخامة جثمانه الملك فارق، ويعرف فى حدائق الحيوان باسم «وحيد القرن» وفيها يقول:

من دمعة الشعب ومن كده

ومن دم الأمة فى نرده

مملك الحد على صفوها
يا ليتها تملك من حده
كم يجعل الدين حبالاته
ليخنق المصلح فى مهده
قد عضه النحس وما عضه
إلا فم يرسف فى وجده
يمرغ الأمة فى رجســـه
ويسرق الأمة فى رفده
عانت به وبأوشابه
فى قربه الجانى وفى بعده
منتفخا يمزح مستغرقا
فى اللهو، كالصائد فى صيده
كالكركدن الذى يزدهى
فى قبحه ، يسخر من قده
لم تعطه غانية قبلة
إلا كمن تهزأ من رشده
أو بادلته نكتة حلوة
إلا ومغزاها مدى نقده!

أحمد شوقى

***

حتام يا قوم ضلالاتكم
تمكن الفاجر من قصده؟
كنا نرجيه مثال الهدى
فأصبح الغاشم فى حقده
كنا نغنيه أغانى العلى
فأصبح المبدل من حمده
كنا نفديه بأرواحنا
فى روحه العالى وفى زهده
ما باله أضحى فتى ماجنا
الشارد الخادع فى وعده؟
حتام يستهزىء من مجدكم؟
حتام ، والخسة من مجده؟
حتام يسترسل فى غيه؟

حتام، والسوقه من جنده؟
حتام أعلاكم له صاغر؟
حتام، بل أهون من عبده؟
أعقلكم دون دفين الثرى
لو يعقل الميت فى لحده

أما القصيدة الثانية التى وصفها الشاعر بأنها رمزية فكان عنوانها «جنون البستانى» ومنها نجتزىء بهذه الأبيات:

ماذا أصابك أيها البستانى
وذويك؟ وماهذا الجموح الجانى؟
ضيعت غرسا صوحت أفنانه
وشغلت بين مهازل وغوانى
الليل ينفق فى القمار وفى الزنى
رجسان مأثوران للشيطان
كنانرى ذاك الشباب ملاذنا
مذ خاننا الجبناء ، لا الحدثان
كنا نشيد به ونزجى حبنا
سمحا إليه، فشال فى الميزان
كنا نرى الوجه الصبيح كأنه
رمز لكل تطلع روحانى
كنا حواليه نطوف بفرحة
مترنمين بأعذب الإيمان
ماذا دهى هذى الغوالى كلها
وشخوصها مازلن فى وجدانى؟
كنا نزف اليك أحلام العلى
والآن ليس سوى الرثاء يدانى
ما بالكم صرتم زبانية، وقد
كنتم ملائكة ورسل حنان؟
هذا انتحار. لو دريت ، فهل ترى
تدرى؟ أم استسلمت للبهتان؟
هيهات يفلح فاسق مستهتر
أو يستقل بعزة ومكان
مازلت أخلصك النصيحة ، فاتعظ

وتحاشى من خروا الى الأذقان

فإذا أبيت، فأنت آخر هائم

ويظل ذكرك عبرة الأزمان

مهلا ومهلا أيها البستانى

ارجع لغرسك أيها البستانى

وثمة قصيدة ثالثة نظمها أبوشادى فى فاروق واصفا أياه بكافور الأبيض ومنها قوله:

أرجال؟ لا، ولا شبه رجال
من أحبوا لثم هاتيك النعال
بل صغار، كلهم محتقر
خبزه الذل وجدواه الضلال
كلما هانوا وزادوا صغرا
زاد كافور خبالا فى خبال
اسألوا أهل الدعارات، فكم
بادلوه الرجس فى غير ملال
تخذ الشعب له سخرية
واستحل الحط من قدر الرجال
فإذا الأحداث تبدى سره
نكبة جازت مهاوى الاحتمال

خليل مطران

وقرأ أبو شادى مديحا طويلا لأديب مصرى وصف فيه الملك فاروق بالفنان، فنظم قصيدة عنوانها «كافور الفنان» كان مما جاء فيها قوله:

تبارك الله، هل كافور فنان؟
وذلك العهر والإجرام إحسان؟
لقد خدعنا، وإلا فهو ذا مرض
والفجر كالسقم ألوان وألوان
من ذا أحدث تنبيها وموعظة
والقائدون لنا صم وعميان
ماذا دهى الشعب فى أقلام قادته
كأنما هى للغربان عبدان
من ذا أحدث والأيام شاهدة
مهازلا مالها وصف وتبيان؟
من ذا أحدث والأحرار قد خرسوا

وليس بين جميع الناس إنسان؟
من ذا أحدث والظُّلاَّم قد فرضوا
دين الطغاة كأن الظلم بهتان؟
من ذا أحدث والحكام أجمعهم
قد استقل بهم زور وبهتان؟
من ذا أحدث والمرجو متهم
ومن أنادى وخير الناس قد خانوا
استغفر الله . لا نور ولا أمل
ولا حياة . كأن الناس ما كانوا
الا فريق ضئيل لا يُحس به
وهل تمس هباء الأرض أوثان؟

مصطفى أمين

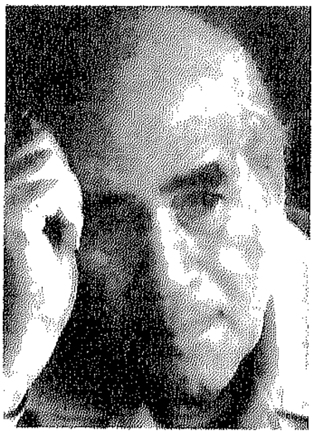

ونادى أبو شادى الملك فاروق أن يتخذ من حياة الخليفة العباسى المتوكل على الله عبرة، فهو قد اعتمد على بطانته وانتهى حكمه باغتياله بأيديهم . ومما جاء فى هذه القصيدة قوله:

يا من يوكل للأجانب ملكه
أترى نسيت نهاية المتوكل؟
ستضيع أنت وليس غيرك ضائعا
فجميعهم فى الخبث جد مؤصل
والشعب سوف يجىء يوم حسابه
ويثور ضد نهاية المستغفل
إنى نصحتك ، غير راج ان أرى
أملا يحقق لى وحلما يعتلى
لكنه داعى الوفاء لموطنى
مادمت رمز علاه وهو مؤملى
فإذا كفرت بنا فعدل اننا
نمضى بغير التاج للمستقبل
الآن فرصتك الوحيدة قبلما
نصغى إلى الداعى الملح المقبل
ولو اننى حاسبت نفسى بعدما
روعت فى يأسى الطويل المبتلى
فرأيت سقمك لا علاج لمثله

الا زوالك فى الظلام المسبل
وزوال عرشك بعدما دنسته
ومحوت سؤدده بعهد أول!

هذا الشعر الصادق الذى أطلقه أبو شادى من مهجره ناصحا تلميذه السابق فاروق بأن يرعوى ويثوب الى رشده لم يصادف ترحيبا من جانب سدنة النظام، واتفق ان كان الصحفى مصطفى أمين يزور الولايات المتحدة وهاله ان يجرؤ مصرى هو أبو شادى على مقام الملك المفدى ، فأبرق إلى جريدة أخبار اليوم برسالة قال فيها إن الشاعر أحمد زكى أبا شادى تنكر لمصر وأخذ يهاجم رموز النظام فيها ويدعو إلى إقامة نظام جمهورى بدلا من النظام الملكى. فتلقف عباس خضر هذه البرقية، وحمل على أبى شادى حملة شعواء بل مسفة فى مقاله الأسبوعى الذى كان ينشره فى مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات.

ولا تسل عن فرحة أبى شادى بخلع فارورق. فنظم قصيدة كان مما جاء فيها قوله:

الشعب أزمع فارعوى الحدثان
وهوى الجناة مع العتى الجانى
ضاعت كرامتنا بهم ، بل ضيعوا
رمزا وعيناه لخير زمان
جعلوا من الملك المرجى دمية
واستعبدوا الشعب الشقى العانى

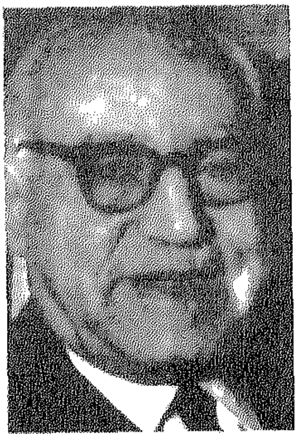
أحمد حسن الزيات

* * *

فاروق ، يا من كنت أهتف باسمه
وأخصه بمحبتى وحنانى
يامن تألق فى الطفولة والصبا
بخلاله وجماله الفتان
يامن حسبناه مجدد شعبه
متوثبا بشعوره الإنسانى
يامن تيمنا ببسمة ثغره
وكأنها قبس من الفرقان
يا من تنافسنا لعزة ملكه
وكأن مصر وشخصه سيان
من بدل الوجه الوسيم عبوسة
والعدل ألوانا من الطغيان

كم قد أتيتك ناصحا ومحذرا
فنبذت تحذيرى وضاع بيانى
كم قد بذلت الجهد فى دفع الأذى
بوفاء مطبوع على الإحسان
متفانيا فى دعوتى، ومحاميا
عن أمتى، ومضحيا بكيانى
هموا بنى وطنى اذا ما شئتمو
تطهير دولتكم من الأدران
لا ترهبوا فى الحق لومة لائم
وتكلموا بصواعق النيران

وكان طبيعيا أن يوجه أبو شادى تحية الى الذين قاموا بالثورة لم تخل من «زفرة واجفة» بحسب تعبيره قال فيها:

يا أيها الأبطال هذا يومكم
لا تتركوه يسف للأوغاد
بل قدموا التاريخ قرنا كاملا
ركضا على الأغوار والأطواد
ودعوا التردد والتمهل بينما
زمر العدو تظل بالمرصاد
أيفوتكم عبر الزمان، وكم له
عبر، وصرخة طارق بن زياد؟
ستفوز مصر اذا ضربتم ضربة
تقضى على الأوثان والأصفاد
أو لا، فهذا العرس طلعة مأتم
دان، ويوم البشر يوم حداد.

أما صيحة طارق بن زياد المشار إليها فى هذه القصيدة، فقد وردت فى خطبة له قال فيها: «وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها عنكم إلى الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم».

كما وجه أبو شادى تحية عند قيام الجمهورية فى مصر، جاء فيها:

إذن مصر عادت تقتفى مجدها الأسمى
فياقبلى طيرى لها واشبعى لثما
ويافرحتى لا تكتفى بفريدة

من الشعر، بل كونى لها الأمل الجما
إذا الحكم للجمهور أصبح رائدا
أبى الحق أن يلقى به العار والظلما
وما العدل إلا للمساواة وحدها
فإن هى ضاعت ، صار ما دونها إثما
فيامصر عضى بالنواجذ حرة
على ما كسبت اليوم واغتنمى اليوما
إخاء وتنظيما وعلما وهمة
وفنا تهز الغافلين أو الصما
تبارك ربى حين ينصف أمة
تعاف ذليل العيش واليأس والنوما

ووجه تحية إلي قائد الثورة اللواء محمد نجيب جاء فيها:

أبا البلاد الذى تسمو البلاد به
جاها وحلما وتصريفا وأحكاما
إن التقشف لمابت تؤثره
أضحى غنى. وغدا نورا وإلهاما
أنت الذى لا الرئاسات التى ازدهرت
خانته يوما ، ولا أضغاث من ناما
أنت الذى أينما قد حل موكبه
حل التقى والهدى برا وإسلاما
فخر لمصر على الأدهار سيرته
ان الوداعة أسمت كل من سامى
أزجى إليك تحايا الشعر أنغاما
ووصفه الحر مثالا ورساما

كانت قصائد أبى شادى فى الثورة عامرة بأسباب التوجيه والإرشاد ، لا مجرد تملق وزلفى ، ولم يكد يسمع أن الثورة انقضت بعد ثلاثة أشهر من قيامها على بعض الأحرار واعتقلتهم ومنهم كاتب هذه السطور حتى نظم قصيدة وصفها فيها بالاخطبوط كان مما جاء فيها:

الأخطبوط أراه بدل شكله
كمحيطه، ولقد يظن صخورا
يالازعامة حين تحسب انها
تلهو به وتظنه مقهورا

يا أيها الزعماء ليس بنافع
إخلاصكم ، إن لم يكن مبرورا
هل تنكرون الظلم. ثم بعهدكم
يبقى الذى عانى لكم منكورا
إن الإساءة من عتى فاجر
ملأ البلاد مقابحا وشرورا
ند الإساءة من زعيم صالح
قتل المواهب جاحدا مغرورا

محمد نجيب

وانضم إلى أبى شادى الشاعر المهجرى زكى قنصل المقيم فى الارجنتين الذى نظم بدوره قصيدة وجهها إلىّ بعنوان «ياهزار الوادى»، ولم أكن قد عرفته بعد، جاء فيها قوله:

ارفق بنفسك يا أديب الضاد
كم ذا تعانى فى الهوى وتعادى
ما أنت الا فرحة فى مأتم
أو مأتم فى فرحة الميلاد
هذا زمان الراكبين رؤوسهم
فى ملعب الشهوات والاحقاد
مالى اليهم حاجة ، فليحبسوا
أمطارهم عنى وعن أولادى
مادمت لا أغرى بسياراتهم
هيهات، لن تطأ الهموم وسادى
ان السعادة فكرة فإذا انتفت
لم تستطع ثرواتهم إسعادى
النار والفردوس فى نفسى فلا
تتعب يد الجلاد والجواد!

ولو انتصحت الثورة بنصائح الشعراء، لما عرفنا النكسات والأزمات التى مازلنا نعانى منها إلى اليوم.

■ ■ ■

زكريا الحجاوى ومطربته الشعبية

خضرة محمد خضر

بقلم
يوسف الشريف

لا أكاد أعرف فى أوساط الأدباء والفنانين أو الصحفيين مثيلا لصديقنا وأستاذنا الراحل الفنان زكريا الحجاوى، لا فى عشقه للجنس اللطيف ولا فى مواصفات محبوباته، إذ كانت لديه حواس لاتخيب كما الرادار فى إنتقائهن بدقة، واستشعار كوامنهن الأنثوية المخبوءة وراء مظاهر الفقر أو خشونة الطباع، وأشهد من طول عشرتى له أنه كان ذا خبرة عفوية صادقة بأساليب البث العاطفى المتبادل مع هذه الأنماط الإنسانية العجيبة، وكن وياللعجب يستسلمن طوعاً لحديثه المنغم بالوداد وآيات ظرفه، وبالحكايات والأساطير وألوان الفنون الشعبية التى نذر حياته للتنقيب عنها وجمعها من ربوع الريف والصحراء والبرارى و..لعلى أحسب أن اشتباكه فى غرام المطربة خضره محمد خضر إلى حد خوض معمعة الزواج بها، إنما كان بمثابة قمة جبل الجليد الظاهر فحسب لكم وألوان عنترياته العاطفية المثيرة، والأكثر مدعاة للدهشة أنه لم يكن يخلف وراءه فى نفس المحبوبة نفسها إذا مادعى الداعي للفراق والوداع سوى متعة إجترار الذكريات السعيدة!

الحجاوى وفرقته فى معهد السينما.

كنا نتحلق دوما بزكريا الحجاوى منذ منتصف الخمسينيات كما لو أنه شيخ طريق ونحن الأتباع، أو صاحب رسالة أو فيلسوف ونحن الحواريين، وأنا لم أشهد سوى الفصل الختامى الذى انتهى بهدم مقهى محمد عبد الله الشهير الذى كان يطل على ميدان الساعة بالجيزة، ونهوض عمارة شاهقة على أنقاضه تشغلها الآن عيادات للأطباء ومكاتب للمحامين، لكنى استوعبت مافاتنى من السيرة العطرة للمقهى ونجومها وصعاليكها من الأدباء عبر مارواه صديقنا الكاتب الساخر محمود السعدني - شفاه الله - فى كتابه الممتع «مسافر على الرصيف» وكيف كان زكريا الحجاوى يدير فى أحد أركان المقهى ندوته المعرفية المسائية شبه اليومية، ولم تكن مقصورة على الحوار فى شئون الأدب فحسب، بل ، كانت أيضاً مدرسة للثقافة والفن والصحافة، واستكشاف المواهب الجديدة فى هذه المجالات وتعميرها .. وأسماء المبرزين من خريجى تلك المدرسة بلا حصر .. وبينهم الدكتور يوسف إدريس ومحمود السعدنى ورجاء النقاش والدكتور سمير سرحان ورسامى الكاريكاتير أحمد طوغان وصلاح چاهين والأديب الأردنى غالب هلسا والشاعر

السودانى محمد الفيتورى وغيرهم كُثر ، وكلهم بدأوا مشوارهم بعد قدومهم من كل فج عميق للتعرف على الحجاوى والاستمتاع بسحر حديثه وحكاياته واكتشافاته المبهرة فى أضابير التاريخ ودروب الأدب والفن الشعبى!

بعدها انتقل زكريا الحجاوى بندوته وروادها إلى مقهى «سان سوسيه» ملتقى كبار الموظفين والأعيان وتجار القطن والخواجات «الأجاريج» بالجيزة، وأحياناً فى كازينو «شهريار» المجاور لسينما شهرزاد على كورنيش النيل فى مواجهة كوبرى عباس، وكثيرا ما كان يصحبنا إلى ندوة صديقه الأثير والناقد الشهير أنور المعداوى للاستمتاع بأجوائها الأدبية والإبداعية الزاخرة، وكانت تتخذ من مقهى «إنديانا» المطلة على ميدان الدقى مقرا لها، وتتميز عن قهوة محمد عبد الله بروادها من اللاجئين السياسيين وأساتذة كلية الآداب، اذكر من بينهم أبو الأحرار اليمنيين القاضى والشاعر المناضل محمد الزبيرى والدكتور عبد القادر القط!

على أننى أدركت مبكراً إثر انجذابى إلى الدائرة المغناطيسية للشخصية الكاريزمية التى كانت للحجاوى والولوج إلى عوالمه المثيرة، مدى مصداقية المثل القائل «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب»، فما أن كان يمسك بطرف الحديث حتى يتدفق ويفيض ويبدع ، ونحن من حوله وكأن على رؤوسنا الطير إلى حين يستكمل الحبكة الدرامية لقصة ما أو تجربة شخصية .. وعندئذ يبدأ الحوار والتعليق، والتواصل من حيث انتهى!

أذكر ذات ليلة أن زكريا الحجاوى روى على مسامعنا تفاصيل واقعة لها العجب حدثت له بالأمس .. وقال إنه كان يمشى الهوينا جيئة وذهابا فوق كوبرى عباس، وتلك كانت عادته عندما يحلو له التفكير فى شاغل من شواغله الشخصية أو الأدبية .

كان الطقس شتاء، والوقت فى الهزيع الأخير من الليل، وأنوار المصابيح الخافتة وكانت تضاء عهدئذ بالغاز تضفى على الطبيعة الساحرة مسحة من الرومانسية.

فجأة اقتربت منه سيارة، فلما توقفت إلى جانبه تبين له أنها ماركة «بنتللى» الفاخرة التى كان يقتنيها الأثرياء، ونجوم السينما عهدئذ، حتى سمع صوتا أنثويا رقيقا يناديه .. يازكريا .. يازكريا.. فلما اقترب يستطلع الأمر كانت دهشته بلا حدود.. إذ كانت كوكب الشرق أم كلثوم!

سلمت عليها بحرارة - يقول زكريا إذ كانت تربطنى بها صداقة قديمة وحميمة و..سألتنى : إنت فين يابو الزيك.. والله لك

وحشه ومشتاقة أشوفك وأسمعك .. ولما عرفت إنك بتمشى الأيام دى لوحدك بالليل على كوبرى عباس جيت أعملك مفاجأة .وقلت لها: والله ياست القلوب عند بعضها .. وقالت أم كلثوم : طيب ماتركب ياأبو الزيك .. مستنى إيه؟

لكنى أبيت .. إذ كانت ترتدى فستان سواريه وتتدثر ببالطو من الفرو الثمين و.. وقلت لها أنا مقدرش أركب وإنتى لابسة أفرنجي!

عندئذ قالت لسائق سيارتها فى حزم : على الزمالك ياأسطى: ومن ثم عدت إلى المشى والتفكير جيئة وذهابا فوق كوبرى عباس، ومضى على ماأعتقد زهاء الساعة أو أكثر، حتى عادت السيارة «البنتللى» تقترب منى وتتوقف إلى جوارى والسيدة أم كلثوم تنادى على فى رقة: إركب ياأبو الزيك .. وكانت قد غيرت ملابسها «الألفرنكة» وارتدت ثوباً من الملس الفلاحى الفضفاض، وقد تدلى من أذنيها حلق «مخرطة» وبينما طوق جيدها «بنطنطيف» من الذهب البندقى المصقول.. فلما تأكدت أن أم كلثوم تهيأت فى المظهر والمخبر الشعبى الذى يستهوينى .. عندئذ فقط ركبت!

دهشنا بالطبع لتلك الواقعة العجيبة، وتفاصيلها المثيرة، وباعه العاطفى العريض إلى حد اقتحام قلب أم كلثوم الحصين، ورحنا نتخيل ماجرى فى سهرته الباهرة معها .. لكنه قطع علينا الاسترسال فى الخيال وقال : والله العظيم ماحصل أى شيء مما رويتــه الآن و.. أدركنا وهو القاص والروائى العتيد، أنه كان يمارس علينا تدريب عضلاته الذهنية فى فنون الخيال والإبداع ، ومدى تأثيره كحكاء بارع على مستمعيه .. لكنه كشف من حيث لايقصد عن النموذج الذى يشتهيه فى أى من محبوباته؛ إذ كانت دائماً أو غالباً فيما بعد أربعينيات العمر، ممتلئة الجسم، ترتدى الملابس الشعبية، وفى حاجة إليه حتى يرعاها ويصون عرضها ويروى عطشها الأنثوى الخجول!

محشى البازنجان فى شبرا

كنت قريباً منه فى كثير من صولاته وجولاته، وكم سافرت معه وفرقته للفنون الشعبية إلى العديد من مدن وقرى الدلتا والصعيد، ورغم أننى كنت مشاغباً وفضوليا فى مقتبل شبابى، إلا أنه لم يفرغ معى صبرا عبر الاسهام فى صياغتى نفسياً وإجتماعياً وثقافياً، واشهد أنه كان حانياً فى توجيهاته ونصحه لى وكثير من تلاميذه بشكل غير مباشر، كأن يروى قصة من التاريخ أو من تأليفه تشى بخطأ ارتكبته أو نزوة استبدت بى، إذ كان معياره للحرية موصول بحرية الأخرين، وكان يقول دائماً عامل الناس بمثل ماتحب أن يعاملوك به، والحقيقة إنه كان أكثر الذين جبلوا بين

ظرفاء المثقفين فى ذلك الزمان بالسماحة والمحبة الخالصة للناس والولع بخدمة الموهوبين الضائعين على نحو خاص.

وكان قد اطمأن إلى جانبى فلم أعد أشى بمغامراته العاطفية لمحمود السعدنى توأم روحه، حتى وقع عليه إختيار منطقة الجيزة التعليمية عام ١٩٦٤ لتأليف وإخراج أوبريت غنائى راقص احتفالاً بالعيد السنوى للمحافظة.

خلال البروفات رأيت زكريا الحجاوى وقد خلع الجاكتة وراح يدرب الطالبات على الرقصات الشعبية ، وكيف تميل النخيل مع هبات النسيم بجذعها كاملا من أسفل، وليس كفروع الأشجار من أعلى، وبين حين وآخر يفرغ للراحة من العمل، حيث كان بانتظاره مدرسة شابة غاية فى الرشاقة والبشاشة وهى تقدم له كوباً من العصير المثلج. أو تجفف عرقه المتصبب بالفوطة!

كان واضحاً أن هذه المدرسة تحاول أن تنسج أو نسجت شباك الغرام بالفعل حول زكريا رغم أنه ظل يتجنب فى حضورى الالتفات لها أو الاهتمام بها عامداً متعمداً. فلما سألته عن «موقفه من التجنيد» وهى كانت العبارة المتداولة بيننا للإستفسار عن الأحوال العاطفية قال: دى ياأبو حجاج «مسلوعة» ولابسة بلوزة «شبونيز» وبنطلون «هيلنكا» وقصة شعرها «الاجارسون»، وأنا كما لعلك تعرف، لايستهوينى سوى المرأة الخام اللى على الفطرة!

وقد كان صادقاً بالفعل، حين وقع فى غرام أرملة تدعى «أنيسة»، وكانت الخياطة التى تحيك ملابس فرقة الفنون الشعبية التى كان تتبع الثقافة الجماهيرية إبان رئاسة الكاتب سعد كامل لها، وكان زكريا قد جمع عناصرها من المطربين الشعبيين والمداحين والعازفين والراقصين، وهو الذى وضع لها نصوص الأوبريتات والأغانى والرقصات، ثم طاف بها مختلف المحافظات، فلما استوى عودها ورسخت أقدامها غامر ونجح كما لم يتوقع أحد حين قدم عروضها على خشبة مسرح الأوبرا.

وكنت قد سمعت عن بعد بقصة غرامه المشبوبة بأنيسة، حتى صحبنى وصديقنا المشترك الظريف عباس الاسوانى المحامى إلى منزلها فى شبرا، وهناك تأكدنا أنها كاملة الأوصاف الانثوية والمواصفات الشعبية التى تستهويه، وعرفنا أنها استنجدت به، ثم استنجد بنا حتى أتدخل باعتبارى صحفيا والأسوانى باعتباره محاميا لإتخاذ مايلزم لإنقاذها من ورطة توصيل التيار الكهربائى إلى شقتها بطريقة غير مشروعة!

ولم تكن هذه المشكلة بيت القصيد بالنسبة لنا، إذ كان شاغلنا أن نرى

ونسمع زكريا الحجاوى وهو متلبس بحالة من حالات غرامه الخفى، حيث خرجت علينا السيدة أنيسه تتثنى ببدانتها فى جلباب من الكستور المشجر، وقد زججت حاجبيها وكحلت عينيها، ثم فوجئنا بها تدعونا لتناول الغذاء، وكان محشى من البازنجان وملوخية وفرخة محمرة!

وعندئذ راحت أنيسة تناول زكريا بأصابع يدها البضه الواحدة تلو الأخرى من حبات أصابع محشى البازنجان، بل وتقربها من فمه ، وكلما قال لها : كفاية يأنيسة، كانت تلح عليه فى دلال: تعدمنى ياسى زكريا!

على أنه لم تمض أسابيع حتى أدركت أن زكريا قد سئم أنيسة، فلم يجد فيها إشراقة الإلهام والإبداع على حد قوله بمعنى أنها كانت تفتقر إلى الذكاء وخفة الظل حتى يواصل معها الحديث، وتلك كانت التجربة العاطفية الوحيدة على حد علمى التى ينخدع فيها بالمظهر عن المخبر.

الطلاق من جزار الجمال

والشاهد ان قصة زواج زكريا الحجاوى بالمطربة الشعبية خضرة محمد خضر تحتاج لإستعادة تفاصيلها العجيبة إلى استعارة الاسلوب السينمائى المعروف بـ «الفلاش باك»!

لقد كانت خضرة درة إكتشافاته للأصوات الشعبية الأصيلة المخبوءة، إذ كانت تنتمى لأسرة عريقة من غوازى ريف بلدة سنباط، مديدة القامة، متينة البنيان، صوتها جهورى، ونفسها طويل، وقدراتها عجيبة فى الإنتقال لمهارة وحذق وسهولة من الجواب إلى القرار والعكس، فضلاً عن حفظها لكم هائل من تراث المواويل والملاحم الشعبية، مما جعل زكريا يطير بها فرحاً وإعجاباً، وراح يتعهدها برعايته وتوجيهه وتليين طبعها العشوائى الخشن، حتى أصبحت بطلة فرقته وزينتها وجوهرتها الثمينة، وكما قدمها لأول مرة فى حفلات سرادقه الشهير بحى الحسين خلال ليالى شهر رمضان المبارك، تحققت شهرتها الواسعة عبر العديد من الأغانى الشعبية التى تضمنتها المسلسلات الإذاعية العديدة التى كتبها .. وكان لها موال شهير تبدأ به الغناء فى الحفلات بناء على طلب الجمهور ومطلعه «لا.. لا.. للا.. لاه».

من إعجاب زكريا بفن خضرة وصفاتها الجمالية الآسرة التى راق لها مزاجه الشعبى، كان طريقها سالكا إلى قلبه حتى تربعت فيه وتمطعت ولم تبرحه إلا بعد ضبطه متلبسا بزواجها، حيث إحتكم الأمر بالفراق البائن الذى لا رجعة فيه، عبر تقاليد الطلاق فى أوساط الغجر والغوازى، حين جرح كل منهما ساعده والتصق الساعد بالساعد وامتزج الدم بالدم، فلم تعد تجوز له زوجة ولا عشيقة!

ورغم كل ماشتملته قصة زواج زكريا

الحجاوى من وقائع وتفاصيل، الا أنها ظلت غائبة عن علم أسرته وعن أصدقائه المقربين، حيث أكمل حبكتها الدرامية بإختفائه فجأة دون سابق إنذار ولا سبب معروف أو عنوان معلوم زهاء شهر كامل، بل إن صديقه القديم أنور السادات - وكان رئيساً آنذاك لمجلس الأمة - كلف الجهات الأمنية بالبحث عنه دون جدوى!

لكن تشاء تصاريف القدر أن أعثر شخصياً على زكريا الحجاوى الهارب، وأن اكتشف سبب غيابه بالصدفة البحتة، حين ذهبت كالعادة لزيارة صديق العمر الجميل الأستاذ مصطفى نبيل فى منزل أسرته، وكنا وقتئذ قد التقحنا منذ سنوات بمهنة الصحافة ولم نتزوج بعد.

كانت لمصطفى غرفة خاصة تطل على الحديقة، حين شهدت لقاءاته الحوارية مع أصدقائه فى السياسة والأدب والفن وسماع الموسيقى الكلاسيك أذكر من بينهم الأديب وحيد النقاش والقاص نجيب الكيلانى والمهندس محمد محمود شرابى والكاتب الصحفى صلاح المراكبى والدكتور محمود عبد الفضيل أستاذ الاقتصاد.

عبر باب الغرفة الذى يفضى إلى الحديقة، لمحت الدكتور ياسين عبدالغفار أستاذ أمراض الكبد وهو كان يرحمه الله زوج شقيقة مصطفى نبيل - يدخل إلى الفيلا وبصحبته زكريا الحجاوى بينما المطربة خضرة تتأبط ذراعه و..

لم أكن فى حاجة إلى من يفسر لى الموقف بكل تفاصيله وخفاياه، فمن جهة ادركت أن زكريا قد وقع فى شباك غرامه بخضرة إلى حد الولوج معا إلى ساحة الزواج، ومن جهة ثانية تأكدت أن سبب الزيارة إنما للاحتفال على العشاء بهذا الزواج، إذ كان زكريا والدكتور ياسين تربطهما صداقة حميمة منذ الأربعينات عبر الإسهام المشترك فى الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال البريطانى والقصر الملكى، ومن هذه الصلة لعب زكريا الحجاوى دور همزة وصل التعارف بين مصطفى نبيل والأستاذ أحمد بهاء الدين.

وتذكرت واقعة مهمة لاتزال فى حاجة إلى التنوير بها وتسجيلها فى صفحات التاريخ، فعندما جرى إعتقال أنور السادات فى سجن الاستئناف إثر إتهامه فى حادث إغتيال أمين عثمان، بادر أربعة من أصدقائه إلى حبك وتنفيذ خطة لتهريبه، وهم زكريا الحجاوى والدكتور ياسين عبدالغفار وكان نائباً انذاك بمستشفى قصر العينى، ومعاون المستشفى الأديب محمد على ماهر، والضابط المغامر حسن عزت الذى حمل أنور السادات فى السيارة اللورى التى

قادها بنفسه حتى منزل أسرة الحجاوى بالمطرية دقهلية حيث اختفى شهورا تحت إسم مستعار، اشتغل خلالها سائقاً ومورداً للطوب والرمال والزلط!

والقصة انتهت كما نعلم بجزاء سنمار، حيث كان فصل زكريا الحجاوى أول قرار يتخذه أنور السادات بعد تكليفه بالاشراف على صحيفة الجمهورية، وهو الذى لعب الدور الأساسى فى اختيار الكتاب والمحررين وتنظيم العمل الصحفى واجراء بروفات الطبعة الأولى على غرار تجربته السابقة عندما كان سكرتيراً لتحرير صحيفة المصرى و.. وتلك قصة أخرى تروى.

وكان للسادات قد روى جانبا من القصة بعد وقوعها بنحو ثلاثين عاماً عندما ذهب خصيصاً إلى المطرية لافتتاح متحف زكريا الحجاوى فى نفس المنزل الذى استضافه فترة هروبه، ثم شهوده أوبريت «عاشق المداحين» على الذى يروى السيرة الذاتية لزكريا الحجاوى ومشواره الفنى على مسرح السامر الذى حمل إسمه منذ تلك الليلة .

لكن السادات تحاشى فى حياة زكريا أى ذكر لفضله وهو الذى أخذ عنه الكثير من العبارات والحكم والأمثال التى كان يزين بها أحاديثه وخطبه، وهكذا عندما صور كتابه «البحث عن الذات» إنبرى محمد على ماهر ساخراً وقال: كان أولى بالسادات أن يختار للكتاب عنوانا آخر هو البحث عن الملذات!

ويبقى فى السياق شهادة الفنان التشكيلى صلاح العنانى، وكنت قد التقيته لأول مرة بعد رحيل زكريا الحجاوى بنحو عشرين عاماً، وبادرنى قائلاً : أعرف علاقتك الحميمة بالعم زكريا عبر كتاباتك عنه، ولعلى أضيف إلى معلوماتك أننى كنت شاهداً على زواجه بالمطربة خضرة، إذ كنت انداك من سكان حى إمبابة ولم ازل فتى يافعاً، عندما سمعت هيصة وزمبليطة، وعندما خرجت من منزلى استطلع الأمر، رأيت العم زكريا فى جلباب داكن من الصوف المقلم، وشال مزركش من الحرير يتدلى من عنقه، وقد غطى رأسه بطاقية من الصوف يلتف حولها كذلك شال أبيض من الحرير، بينما خضرة تتأبط زراعه وهى فى فستان الفرح والطرحة الريفية، ويحف بهما موكب كبير يضم أعضاء فرقته وهم يمسكون بالورود والشموع ويعزفون ويطلقون حناجرهم بأغنيات الزفاف السعيد .. و.. تابعت الموكب حتى دخولهما منزل الزوجية فى إمبابة! ■

مايكل مور .. منتصراً في كان

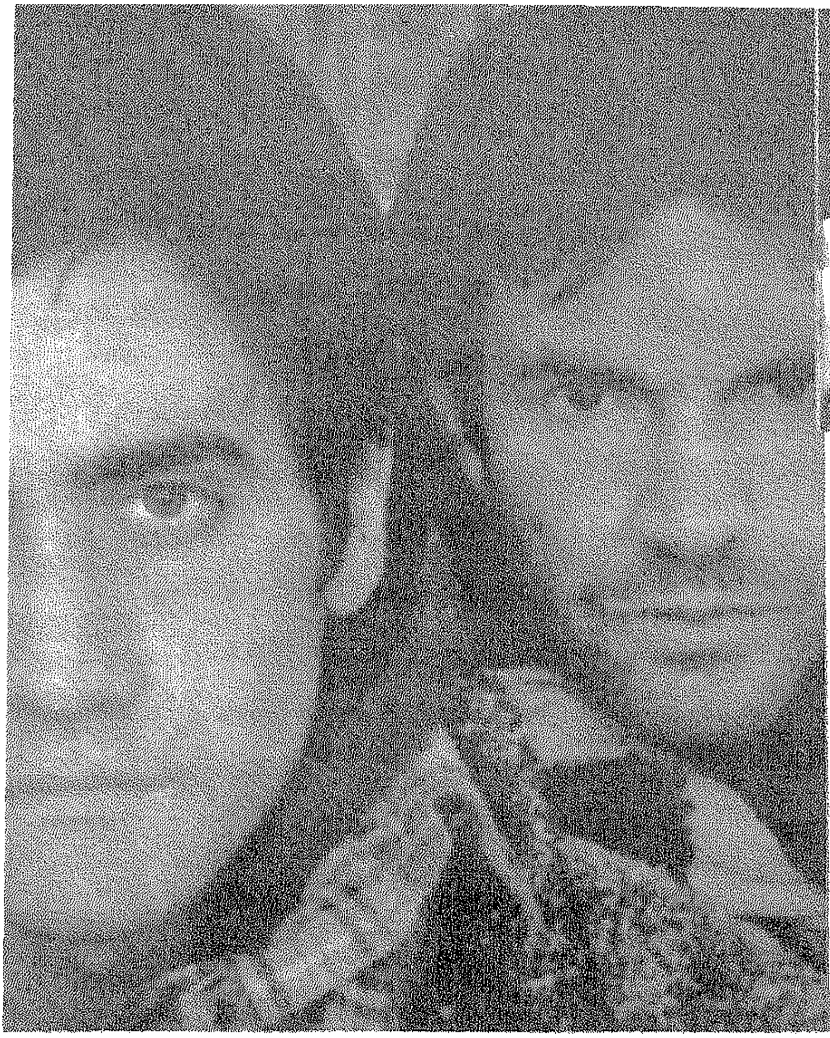

نهاية العالم فى بعد الغد

مصنع الأحلام ضد بوش

والرقابة ضد الجميع !

بقلم
مصطفى درويش

أغرب غرائب مصنع الأحلام فى هوليوود، وما أكثر غرائبه، هجمته المبكرة على الرئيس الأمريكى الثالث والأربعين، بمناسبة اقتراب مجىء يوم الحساب، وأعنى به ذلك اليوم الذى يدلى فيه الناخب فى الولايات المتحدة بصوته، إما مؤيدا لسياسته، أو معارضا لها .

وفيما يبدو ، فتلك الهجمة قد وصلت إلى ذرى غير مسبوقة فى تاريخ الانتخابات الرئاسية، التى لابد من اجرائها، بحكم الدستور الأمريكى، كل أربعة أعوام .

ليلى علوى مع ابنها الشقى (يوسف شعبان) فى « بحب السينما »

فقبل بضعة أسابيع، شارك مصنع الأحلام، ولأول مرة، بفيلم تسجيلى فى المسابقة الرسمية بمهرجان كان .

المفاجأة الكبرى

ويوم اعلان الأسماء الفائزة فى تلك المسابقة، ولدهشة الكثير، كانت جائزة المهرجان الكبرى (السعفة الذهبية) ، من نصيب الفيلم التسجيلى الأمريكى .

وأن يفوز فيلم تسجيلى بسعفة المهرجان، أمر لم يحدث منذ ثمانية وأربعين عاما، بالتمام .

فذلك المهرجان لم يعتد منح سعفته لمثل هذا النوع من الأفلام .

الاستثناء الوحيد فى تاريخه الطويل حدث عام ١٩٥٦ ، حيث فاز بالسعفة الفيلم التسجيلى «عالم الصمت » لصاحبيه المخرج «لويس مال» والقائد «جاك ايف كوستو» المتخصص فى علم أعماق البحار والمحيطات .

وفيلمهما بعالمه الغريب، منبت الصلة بالسياسة، لم يعرض لها لا من قريب، ولا من بعيد .

وعكس ذلك تماما كان حال الفيلم الفائز بالسعفة، قبل بضعة أسابيع، فكل لقطة من لقطاته تشع سياسة معادية للرئيسين بوش، الأب والابن .

ولا غرابة فى هذا، فمما يعرف عن «مايكيل مور» مخرج الفيلم الفائز، أنه

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

يناصب آل بوش العداء.

البيض الأغبياء

ولقد سبق له أن أفصح عن عدائه هذا بمؤلفين لقيا نجاحا كبيرا فى سوق الكتب، هما «رجال بيض أغبياء» و«دود.. أين وطنى»، فيهما - كما فى «فهرنهايت ٩/١١»، فيلمه المتوج بالسعفة الذهبية - سخر من بوش وآله، وحاول جاهدا فضح سياسته الخارجية لا سيما ما كان منها متصلا بعلاقة آل بوش الحميمة بآل بن لادن الواسعى الثراء.

والأهم ما كان منها متصلا بعلاقة الرئيسين الأب والابن باحتكارات النفط الكبرى، وتأثير ذلك على سياسة الولايات المتحدة الخارجية، التى اتسمت فى عهدهما بالجنوح إلى المزيد من العدوان، وآية ذلك احتلال العراق، وقبله، أفغانستان .

عصر الجليد

ولم تكد تمر سوى بضعة أيام على مفاجأة «كان»، حيث جرى تتويج فيلم «مور» بواسطة لجنة تحكيم تحت رئاسة «كوينتين تارانتينو»، ذلك المخرج الأمريكى الذائع الصيت، بفضل دموية أفلامه، وآخرها «اقتل بيل» الذى كان جزؤه الثانى معروضا خارج مسابقة المهرجان.

حتى كان يعرض بعد تلك المفاجأة، بمشارق الأرض ومغاربها، وفى وقت واحد، فيلم روائى طويل، من ذلك النوع الضخم الذى ينفق مصنع الأحلام على انتاجه ببذخ، يصل إلى عشرات الملايين من عزيز الدولارات .

حتى انه يقال من بين ما يقال إن تكاليف انتاجه ارتفعت إلى رقم فلكى، يقدر بمائة وخمسين مليون دولار .

وذلك الفيلم هو «بعد الغد» لصاحبه «رولاند ايميريش»، ذلك المخرج المنحدر من أصل ألمانى .

وقبل بضعة أعوام، عملت هوليوود على اجتذابه لها وكعهدنا بها، نجحت فى ذلك .

فكان أن صنع لحسابها ثلاثة أفلام، «يوم الاستقلال»، «جودزيلا» و«الوطنى» بطولة «ميل جيبسون» الممثل والمخرج الفائز بأوسكار عن إخراجه «قلب شجاع» .

الكارثة القادمة

وفى فيلمه الرابع «بعد الغد» ينتقد «ايميريش» بطريقة غير مباشرة سياسة «بوش» الابن الخاصة باستغلال الطاقة، دون ضابط أو رابط، لا سيما ما كان منها متصلا بالنفط .

وهى سياسة انتهت بالولايات

المتحدة منسحبة في مستهل عهده، من اتفاقية دولية، استهدفت حماية البيئة من ارتفاع حراري، قد يؤدي إلى اختفاء الحياة من على سطح كوكبنا، الا وهي اتفاقية «كيوتو»، عاصمة اليابان القديمة في سالف الزمان .

ولن أعرض بالتفصيل للكارثة التي حلت بكوكبنا نتيجة الارتفاع الحراري في الفيلم، فذلك شئ يطول.

عناد البقال

وإنما أكتفي بأن أقول، بأن الحكومة الأمريكية في واشنطن، وفقا للسيناريو الذي كتبه المخرج مع «چيريمي ناخمانوف»، قد فوجئت بالكارثة، رغم نذر كثيرة، أذكر من بينها سقوط الثلوج في نيودلهي عاصمة الهند، غرق اسكتلندا، وظواهر أخرى تشير إلى عودة عصر الجليد .

ولأنها فوجئت بكارثة لم تكن تنتظرها، ومن ثم لم تكن قد استعدت لها، فهي بلسان نائب رئيس الجمهورية تنكرها مخلصة، ثم متكلفة، ثم مكابرة، ثم تضطر إلى الاعتراف بما ليس هناك بد من الاعتراف به، ثم تتخبط في مواجهة الكارثة، فيكثر خطؤها، ويقل صوابها .

وفي نهاية المطاف تلتجئ إلى جارتها الفقيرة المكسيك، طالبة منها السماح للأمريكيين الفارين من زحف الجليد، باللجوء إليها. بعد عبور نهر ريوجراند، طلبا للنجاة من موت أكيد .

وهنا، قد يكون من المفيد أن أذكر أن المخرج قد اختار لأداء دور نائب رئيس الجمهورية المنكر، المكابر: والذي أدى بإنكاره، ومكابرته إلى موت الرئيس قد اختار لأدائه ممثلا يشبهه إلى حد كبير «ديك شيني» نائب الرئيس الأمريكي الحالي .

وأنه في أحد لقاءاته مع الصحفيين في أوروبا، عبّر «ايميريش» بصراحة عن أمله في ألا يمر شهر نوفمبر القادم، الا ويكون «بوش» منهزما في الانتخابات الرئاسية، مغادرا البيت الأبيض، مفسحا الطريق لرئيس جديد .

الفرعون الصغير

كما لا يفوتني أن أذكر أنه – أي «ايميريش» – يعد العدة لاخراج فيلم عن «توت» الفرعون الصغير .

وأرجح الظن ، أنه لن يصوره في ربوع مصر، موطن توت عنخ آمون .

فلابد أنه وصل إلى علمه، وما أسرع الوصول في زمن ثورتي المعلومات والاتصالات ، أن صانعي الأطياف على ضفاف النيل يعانون من رقابة معادية

للتنوير، وحرية التعبير .

وأن موزعى الأفلام الأجنبية لا تقل معاناتهم من هذا العداء.

ولعله لا يزال مندهشا مما سمع عن أفلام تعرضت للاضطهاد، آخرها «٧ ورقات كوتشينة» ، بمقولة أنه خال من الفكرة والمضمون ، وقبله «باحب السيما» ، وعند هذا الفيلم أقف قليلا، لأقول إنه بسبب موقف متشدد من الرقابة المعادية لكل ما هو جديد ، اضطر أصحابه إلى عرضه على نفر من المتذوقين لفن السينما والنقاد، لأخذ رأيهم ، بأمل إذا كان إيجابيا ، أن يكون ذا تأثير على الرقابة، فترخص له بالعرض العام .

جرىء وفريد

والحق أن الفيلم ، وهو عن سيناريو «لهانى فوزى» ، ترجمه «أسامة فوزى» إلى لغة السينما ، قد امتعنا، نحن جمهور العرض الخاص، بساعتين من الفن السابع، أزالتا صدأ النفس، ونقلتنا إلى أفق عال من التذوق لعمل سينمائى مدهش، فيه من الجدة والصدق الشئ الكثير .

وليس غريبا أن يكون له علينا كل هذا التأثير فمما يعرف عن صاحبيه «هانى» و«أسامة» أنهما مقلان، ربما لأنهما جادان ، يريدان أن يقولا شيئا جديدا، بعيدا عن التكرار والاستسهال «فهانى» رصيده من السيناريوهات التى تحولت إلى أفلام، خلال أحد عشر عاما، لم يزد على أربعة أفلام روائية طويلة، أولها «أرض الأحلام» .

أما أسامة فلم يخرج ، خلال ثمانية أعوام ، سوى ثلاثة أفلام هى «عفاريت الأسفلت ١٩٩٦» «جنة الشياطين ٢٠٠٠» و«باحب السيما».

ولعلى لست مغاليا إذا ما جنحت إلى القول بأن كل واحد من أفلامهما السبعة ، سواء رضينا عنه، أم سخطنا عليه، سيعتبر من علامات السينما المصرية فى مستقبل الأيام .

وفيلمهما الأخير «باحب السينما» ينفرد بجرأة قل أن يكون لها مثيل، فيما ينتج من أفلام، فى ظل رقابة لا تقيم وزنا لحرية التعبير .

فأحداثه تدور وجودا وعدما حول أسرة قبطية تعيش فى حى شبرا .

الاستبداد والعناد

الأب (محمود حميدة) رجل متزمت، يكره السينما كراهة التحريم، يعتبر كل شئ متصل بالفن رجسا من عمل الشيطان .

والأم (ليلى علوى) ناظرة حائرة، تشقى فى المدرسة نهارا، وتكد وتكدح

على آلة الحياكة ليلا، محرومة من إشباع رغباتها المشروعة بسبب جنوح شريك حياتها إلى اعتبار المضاجعة لغرض، غير الخلفة، من المحرمات.

ليس فى حياتها المقبضة ما تهتم به ، سوى ذلك الزوج المتخلف، المناهض لكل ما هو جميل .

وابن صغير (يوسف عثمان) متعلق بالسينما، وابنة فى عمر الزهور متعلقة بابن الجيران .

والصغير هو الشاهد على العصر، بذكرياته عن الصراعات داخل الأسرة، تروى بلسان الممثل «شريف منير»، وصراعه مع أبيه الذى يحظر عليه الذهاب إلى السينما ، محور من محاور الفيلم ، إن لم يكن محوره الرئيسى .

وذلك الصراع ينتهى بالصغير منتصرا ، بموت الأب بالسكتة القلبية، وتسلل التليفزيون إلى البيت، حيث كان ممنوعا، من منطلق رجعى، قوامه العناد والاستبداد.

طيور الظلام

وأعود إلى «ايميريش» صاحب مشروع فيلم «توت» لأقول إن دهشته ربما تضاعفت عندما جاءه خبر تخريب الرقابة لمهرجان الفيلم الكندى الثانى الذى بدأ يوم التاسع من يونيه (حزيران) فى مركز الابداع بعرض «الغزوات البربرية» فيلم المخرج دينى أركان، الفائز بأوسكار أفضل فيلم أجنبى وسيزار أفضل فيلم أجنبى جرى عرضه فى فرنسا، وجوائز أخرى لا عد لها ولا حصر .

أما كيف خربت الرقابة المهرجان، فذلك بقيامها بمنع عرض انحدار الامبراطورية الأمريكية الذى أخرجه صاحب «الغزوات البربرية» قبل ثمانية عشر عاما .

وبتهديدها بمنع عرض فيلم لنفس المخرج، سبق عرضه فى مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، قبل بضعة أعوام، وهو «يسوع مونتريال» .

وفى الحق ، أن هذا التخريب انتهى بصاحب الفيلمين إلى امتناعه عن الحضور إلى القاهرة، احتجاجا على بربرية حالت بين فيلمه «انحدار الامبراطورية الأمريكية» وبين أن يشاهده جمهور خاص لا يزيد عدده عن بضع مئات .

والأخطر أن تلك البربرية قد سارت بالتبادل الثقافى مع بلد صديق القهقرى، رجعت به إلى وراء بدلا من أن تمضى به إلى أمام. ■

المسرح الأمريكي في الهناجر

بلدتنا.. «بلدتهم»

بقلم
مهدي الحسيني

إنها لمسافة طويلة يقطعها المرء بفكره بين مدينة «جروفر كورنرز» في ولاية «نيوها مبشاير» الأمريكية وبين أي مدينة مصرية صغيرة، ليس عبر المكان وطبيعته وسماته فحسب وإنما عبر جوهر الزمن ومكوناته من بشر ونظم وفكر وثقافة وإرث وتاريخ وسلوك وإيقاع وعمل وإنتاج وحياة إجتماعية وطبيعية سواء عقدنا المقارنة بين الحالين سنة ١٩٠١ وحتى ١٩١٣ أي قبل الحرب العالمية الأولى مباشرة، أو عقدناها اليوم في مطلع الألفية الثالثة.

هنا لا يصح أن تسقط عقولنا ضحية لفكرة ماكرة مؤداها أن العالم أصبح عبارة عن قرية كونية واحدة بفعل التقدم المذهل في سبل الاتصال ونظم المعلومات متجاهلين أن هذا التقدم مازال تحت سيطرة القوى المهيمنة على مقدرات العالم فتحرم منه الأطراف لحساب المركز.

ولذا قامت ثورات وحروب تحريرية في مناطق شتى من العالم (مصر السودان - الصين - المكسيك - أمريكا

اللاتينية - الهند - فييتنام..).

قلت ما سبق ردا على نظرية الأدب والفن العالمي التي تعبر عن فكرة الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، بينما الصحيح هو أن يحيى حقي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ويوسف الشاروني ونجيب سرور والفريد فرج ونعمان عاشور وغيرهم هم أبناء لتاريخهم وثقافة أمتهم في أزمنة محددة وأمكنة بعينها وبقدر عمق تعبيرهم عن شعبهم وبيئتهم وظرفهم الانساني والتاريخي يعيش أدبهم وفنهم وينتشر ويبقى ويخلد وكذا الأمر بالنسبة لكل من شكسبير وسيرفانتس وبلزاك وتولستوي وتشيكوف وطاغور ولوشين وسونيكا وماركيز وغيرهم.

مسرحية إنسانية

لهذا ومن الناحية النظرية على الأقل لا يمكن المضاهاة بين شخوص وأحداث وحياة أي قرية أو مدينة أمريكية وبين حياة أي قرية أو مدينة مصرية أو هندية أوبلقانية أو إفريقية أو لاتينية، فالبشر غير البشر والحياة غير الحياة.. والأحلام غير الأحلام، ولهذا أيضا فإن تلك الفكرة التي روجها البعض أن مسرحية بلدتنا هي مسرحية إنسانية تتمتع بروح شمولية تخاطب كل البشر في كل زمان وكل مكان، هي فكرة زائفة، بل هي فقط مسرحية أمريكية ذات هوى وهوية أمريكية صرف، وإن زعمت التأمل الفلسفي الميتافيزيقي في الحياة والموت بعبارات غائمة وفضفاضة ففي حين يحلق النص المسرحي في معاني أن الحياة جميلة، وأن الموت جميل أيضا، وأن علينا أن ننظر إلى الحياة من وجهة نظر الموتى، يتجاهل المؤلف عمدا معاناة البشر من الظلم والحرب والاستغلال ومصادرة الأفكار والحريات والأماني المشروعة ويغضي البصر عن ذهاب الألوف بل والملايين إلى المقابر من جراء الحروب والفقر فهو يقدم صورة وردية رقيقة للحياة وللموت، مع أن الحياة ليست جميلة كلها وليس الموت نهاية محتمة على إطلاقها فهناك من يموتون قهرا قبل الأوان وبفعل فاعل، والحقيقة نحن ضد فكرة الموت أيا كان، وكفاح العلم والبشر سوى كفاح ضد الموت أيا كانت أسبابه.

تتجاهل المسرحية التي كتبها: «ثورنتون وايلدر» سنة ١٩٣٨(بينما يدفع الصراع الأمبريالي العالمي البشرية نحو الحرب العالمية الثانية) أربعة عقود من الاضطهاد العنصري والتفرقة العرقية والدينية والظلم الاجتماعي الذي جرى في أمريكا بعد تراجع الموجة الديمقراطية التي أعقبت الحرب الأهلية ١٨٦١/٦٥ وحيث عربدت جماعات الطلوكلاكس كلان في جميع أنحاء أمريكا فتشنق الزنوج على الأشجار وتدفنهم أحياء وتحرقهم بالقار ثم ظلت ظلال هذه الأفعال المشينة تتردد بعد ذلك حتى هزيمة فييتنام والانتصار النسبي لحركة الحقوق المدنية وأيضا لم يكن الزنوج هم الضحايا الوحيدون للبنية الاجتماعية العنصرية الرأسمالية البيضاء المتعصبة بل كانت هناك فئات أخرى كالعرب واليهود والآسيويون واللاتين والكاثوليك القادمين من جنوب أوروبا فضلا عن الأعداء القدامى أعني الهنود الحمر.

قدم المؤلف الأميركي صورة لمدينة أمريكية مسالمة رتيبة منتظمة متوازنة سيمترية وهي صورة زائفة ولا شك، ولا يشفع لها الحديث عن الحياة والموت المثاليين أن تسمها بالروح الانسانية ولكن يبدو أن المسرحية قد أعدت للتصدير فكما يقول الناقد الأميركي فاسيل حين تم عرض المسرحية ألمانيا في أعقاب الحرب الثانية: «لقد ارتبط مستقبل ألمانيا سياسيا وعسكريا ارتباطا يكاد يكون دائما بأمريكا وكان مما يبعث الطمأنينة في قلوب الألمان أن يتوهموا أن حلفاءهم الأمريكان من أمثال أهل مدينة «جروفز كورنرز» مواطنون طيبون بسطاء أرق من أن يطلقوا صاروخا من صواريخ الحرب المدمرة وحتى ولو انطلقت مثل تلك الصواريخ فإن ذلك لن يغير من الموقف كثيرا ولن يفقدهم الأمل وهكذا يكاد الناقد فاسيل يتهم أدب وايلدر بأنه مؤامرة سيكلوجية واسعة النطاق لاحتلال عقول الألمان كما احتلت بلادهم وأنه برسمه هذه الصورة الزائفة يتغفل الأوروبيين ويصرفهم عن الاطلاع على أعمال فوكنر وتنيسي وليامز وغيرهما هؤلاء الذين يواجهون واقع الحياة الأمريكية بها ينطوي عليه من فزع وحقد وكراهية.

القهر الأمريكي

إذن يكون عرض مسرحية بلدتنا في بلد - أو بلاد - تعاني من القهر الأمريكي شأن ذو وجهين أحدهما سياسي والآخر فني، وهنا لا يمكن أن نتجاهل الظرف الخاص جدا الذي تمر به مصر والبلاد العربية مع التأكيد على فلسطين والعراق!! فنحن الآن في وضع أشبه من ناحية ما بوضع ألمانيا المهزومة بسبب الحرب الثانية. لذا فإن تقديم هذه المسرحية هنا أي القاهرة وثلاث عواصم إقليمية مصرية والآن أي في ظل تلك الظروف السياسية والاجتماعية القاسية أمر يجب النظر إليه بحذر وعناية شديدين.

والأمر هنا موكول للحركة الفنية المسرحية المصرية والعربية خاصة النقاد الذين ألقى عليهم مسئولية كبيرة وليس الأمر مصادرة أو مقاطعة أو تهجم أو تجريح وإنما هو أمر رأي وحوار ونقد خاصة إذا تعلق باتفاقيات تبادل ثقافي وبعلاقات دولية تربط مصر بجميع دول العالم بما فيها الولايات المتحدة فإذا فرض أن سافرت مسرحية «سليمان الحلبي» لألفريد فرج والتي تدين الحملة الفرنسية إلى باريس فماذا يكون موقف الحكومة هناك؟ وإذا سافرت مسرحية «هوليود البلد» أو مسرحية «ليلة مصرع جيفارا» لميخائيل رومان إلى هوليود فماذا يكون موقف الحكومة الأمريكية؟ وهكذا فإنني هنا أعني المعاملة بالمثل إذ نسلم الأمر للنقد والنقاد والمفترض فيهم إذا كانوا نقادا حقا أنهم الضمير الوطني الواعي لأي حركة مسرحية، وللأسف فقد اطلعت على أغلب ما كتب في الصحافة المصرية فوجدته لم يتجاوز سوى الشجب أو التأييد.. كالعادة بينما يكون عليهم تحليل النص وتاريخه وتحليل العرض وعناصره الفنية وتحليل ردود الفعل عند المشاهدين وادراك الوعي لديهم من عدمه.

منظومة التبرير اللغوية

والعجيب أن بعض ممن هاجم

العرض، وقام بترديد بعض الشعارات (النضالية)!! يتعامل فى أداء عمليات الدوبلاج لمسلسلات «والت ديزنى» وأعلم أن آخرين كانوا يتمنون أن تقع العملية كلها بين براثنهم وما عليهم إلا تشغيل منظومة التبرير اللغوية والتنظير الفكرية الكفيلة بأن تقلب الأسود أبيض والمر حلوا ولكن هؤلاء الآن يتقولون على العنب فيصفونه بأنه حصرم، وآخرون هاجموا العرض لمجرد المزايدة السياسية مع شكى الكبير فى أنهم حضروه أو أكملوا مشاهدته فكلامهم لا ينتمى للنقد المسرحى، وأما الذين نادوا بمقاطعة العرض لمجرد أنه أمريكى فقط رد عليهم «سيث جوردون» متسائلا: لماذا لا ينادون بمقاطعة الأفلام الأمريكية التى تحتل دور السينما فى القاهرة والبضائع الأمريكية التى تهيمن على السوق المصرى؟ وقال لهم بالحرف الواحد: «إذا كنتم تهاجمون سياسة الرئيس بوش الخارجية فأنا ضد سياسته الخارجية والداخلية أيضا»، إذن فالأمر ليس أمر كلام وشعارات وحماس وإنما الشأن شأن منهج يجيب عن سؤال كبير هو كيف تتعامل مع الآخر.. خاصة ثقافته؟

أما القول بأن عرض بلدتنا الذى يجمل وجه أمريكا القبيح جاء ردا على عرض «اللعب فى الدماغ» الثورى الوطنى الاشتراكى.. إلخ.. إلخ، فكما بينت فى هلال مارس الماضى أن هذا العرض المزعوم عبارة عن تحصيل حاصل تجاوزته التليفزيونات والصحف العربية كاشفة عما هو أعمق وأخطر منه فما بالكم بمظاهرات أنصار الشعوب فى قلب أمريكا وأوروبا ومختلف أنحاء العالم؟ وليس الأمر هو الهجوم على أمريكا فكثير منا يعلمون أن زعماء ونظما بأكملها أعطتهم المخابرات الأمريكية الميكروفونات والكاميرات وورق الصحف ومحطات البث والمطابع كى يهاجموا الولايات المتحدة جنبا إلى جنب الأسلحة والمعونات والحسابات السرية فى البنوك، إن النقد لم يكن فى الصميم ولم يعكس وعيا عميقا ولا جديدا وإنما كان تصفية وتفريجا للعواطف المكبوتة تجاه أمريكا لذا فهذه المسرحية هى الوجه الآخر لمسرحية بلدتنا.

أما هؤلاء الذين اكتفوا بالصمت فليس من المؤكد أن لهم رأيا وموقفا إيجابيا ضد الهيمنة الثقافية الأمريكية بل أظن أن كل همهم هو الحفاظ على مصالحهم وعلائقهم وما يمكن أن يعود عليهم.

إذن فالسؤال الآن: هل نقاطع؟ هل نتصل؟ فى أعقاب هزيمتنا سنة ١٩٦٧ نادى أحد أساتذة الأدب الانجليزى بإلغاء مقرر الأدب الأمريكى على طلبة كليات الآداب ولعله قرر ذلك بالفعل وأظنه لم يكن يدرى أنه بذلك قدم خدمة كبرى للأجنحة الرجعية فى الولايات المتحدة، فالأدب الأمريكى عامة والمسرح خاصة هو أكبر وثيقة إدانة للبنية الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع الأمريكى منذ يوجين أونيل وحتى ادوارد أولبى وأكبر منفعة تمنحها الحركة الثقافية والمسرحية المصرية لنفسها هو قراءة هذه الأعمال وتقديمها بأمانة ووعى على المسرح، وإننى لأحيل القارئ إلى النصوص ذاتها دون حاجة إلى ضرب الأمثلة.

أما مسرحية بلدتنا فأظنها خارج السياق الفكرى للنصوص المسرحية الأمريكية، حقا نحن فى حاجة لأن نتعرف على الثقافة الأمريكية الحقيقية من وجهها الثورى والانسانى وليس الذى تصدره لنا هوليود والمؤسسات اليمينية الصهيونية المضللة الأمريكية.

العرض المصري الأمريكي

لا يصح عند مشاهدة العرض أن نبدأ بالإدانة وروح التشكك فالمخرج كما بينا ذو روح ليبرالية معارضة والممثلون من أبناء حركتنا المسرحية المصرية الساعية للفن وللحرية والمنتج هو مسرح الهناجر الذى يمارس مهامه فى حدود اتفاقيات التبادل الثقافى مع جميع الدول والهيئات الابداعية فى جميع بلاد العالم بلا تمييز وليس له فرقة ثابتة ولا ميزانية كبيرة إذ يتحرك فى حدود شباب المحترفين وأنصاف المحترفين والهواة.

أما الاختلاف فيتركز حول اختيار النص فى مثل هذا التوقيت الحرج (قدمه العصفورى لفرقة المسرح العالمى على مسرح الجمهورية سنة ١٩٦٤ دون أن يثير مثل هذه الضجة) وكان كما نعلم من المقرر تقديم هذا العرض قبل عامين أى قبل الغزو الاستعمارى الأمريكى للعراق ولكن د. هدى وصفى طلبت تأجيله مراعاة للظرف ولكن يبدو أن الظرف أصبح حالة مستمرة بتمادى الصهاينة فى فلسطين وجرائم الحرب الأمريكية فى العراق وكان الأمر يحتاج إلى دقة فى الحساب.

من ناحية أخرى لم يكن متصورا أن عرضا أمريكيا صغيرا يقدم لمدة ٦ أيام فى الهناجر وثلاثة أيام بالأقاليم يمكن أن يثير كل هذا اللغط لولا زحمة المزايدين ورياء المداهنين وجهل اللا مبالين وسكوت العارفين ولو أن النقد المسرحى قام بواجبه ولكنه لم يفعل بكل أسف.

قدم المخرج «سيث جوردون» العرض وفقا لما ورد فى النص تماما والنص محاط بأوصاف وتعليمات بين الأقواس قد راعاها المخرج بدقة ولم يلجأ إلى أى تفسيرات أو إضافات من عنده وكان من القدرة أنه قام خلال خمسة أسابيع أو أقل باختيار ٢٠ ممثلا من بين ٧٠ تقدموا للعمل معه، بعضهم محترفون وبعضهم أشباه محترفين وأما الباقين فهم هواة، وبالتعاون مع مساعدة عفت يحيى أنشأ ورشة لتحويل النص ترجمة د. محمد السعيد القن بالفصحى إلى العامية بمشاركة من جميع الممثلين ولم تكن الصياغة العامية موفقة فى تراكيبها واختيارات ألفاظها تماما ثم انفرد بتدريبهم على الأسلوب الأنسب للأداء الذى يراه غير مغرق فى العاطفية غير جانح للعقلانية فكان النتاج أداء حميما واضحا وبسيطا سهل الوصول إلى المشاهد ربما فاته بعض المؤثرات الكوميدية الخفيفة إلا أن الأمر راجع إلى الترجمة والنص العامى، وقد ساعده كثيرا امتثال الممثلين ومواظبتهم على غير عادتهم مع مخرج مصرى مع شئ من عدم الدقة فى المواعيد، ولما كان المؤلف يعتمد على التمثيل الصامت أو شبه الصامت عوضا عن غياب أغلب الديكور والاكسسوار وذلك كلغة أساسية فى فنون العرض، فقد برع الفنان الدؤوب فى دورية البروفيسير والمايسترو

وكذا كل من عزة الحسينى فى دور مسز ويب وسلوى محمد على فى دور مسز جيبز وبالطبع الممثل والمخرج المخضرم محسن حلمى فى دور دكتور جيبز وكذا الممثل المتمكن أحمد مختار فى دور مستر ويب.

أما الوجه الجديد فقد كان أداؤه دور «جورج» بمثابة تقديم مناسب لقدراته فى أداء أدوار الفتى وغيره من الأدوار وكذا الممثلة الشابة داليا الجندى لولا ضعف أدائها الصوتى وميلها للسمنة اللذين عوقا إظهار وعيها العميق للشخصية التى تمثلها إميلى بالإضافة إلى الممثل اللافت جلال العشرى والأداء الواعى عند طارق سعيد.

أما الممثل سيد رجب فقد أدار العرض المسرحى كما أراد المؤلف والمخرج لدور الراوى باقتدار وتمكن جديرين بالثناء وكذا كان مجموعة الشباب البادئين والكورال على مستوى العرض أن بصمة الشكل المسرحى هنا سوف تبقى ماثلة فى العين والذاكرة لزمن طويل.

وحيث أصر المؤلف على عدم وجود ديكورات عبرت بعض المقاعد وقطع الأثاث والبوابات والستائر البسيطة عن تغير الزمان والمكان على نحو خال من أى لبس أو خلل وكذا كانت كفاءة الإضاءة والمؤثرات الصوتية والموسيقى المسجلة ولعبت الملابس من تصميم «جنيفر فرجسون» دورا أساسيا فى تجسيد شخصية العرض وتصوير اختلاف الزمن دون الوقوع فى أسر الطرز والتاريخ.

وأهم ما يلفت الأنظار هو مضى فصول العرض الثلاثة فى أقل من الساعتين بما فى ذلك استراحتان فى إيقاع متماسك مشدود رغم الطابع اللا درامى واللا ملحمى للنص أى رغم الطابع القصصى الخالى من السرد ذو الطبيعة المسرحية مع خلو النص من أى عقبات أو صراعات أو تحولات أو منحنيات أو أحداث درامية أو حتى حوادث ربما يكون الفصل الثالث هو وحده الذى يوجد به شئ كهذا حين حاول التعرض لفكرة الكوت وعلاقته بالحياة حين تصر اميلى البطلة بعد موتها على استرجاع تفاصيل يوم كامل من حياتها السابقة.

وفى النهاية تعود إلى مكانها فى مقبرة القرية بين الذين سبقوها إلى الموت هكذا صاغ المخرج مشهد المقبرة ببساطة واقتدار حين جعل الموتى يجلسون فى تصلب وسكون على صفوف الكراسى وهم فى زى الحداد، ينطقون كلماتهم الباقية فى المطلق بلا حياة بينما يسير المشيعون تحت شمسياتهم السوداء فى حزن ووقار فى الجانب الآخرن من الخشبة.

أظننى فيما سبق قد أصبت قدرا ما من النجاح فى طرح أغلب ما أثير حول هذه المسرحية وعالجت نقديا جوانب من العرض ولكننى أؤكد أن تاريخ الثقافة المصرية على الأقل منذ رفاعة الطهطاوى لم يعرف الانغلاق والقطيعة مع الآخر فليست بلدتنا هى أول مسرحية أمريكية يقدمها المسرح المصرى وليست آخر مسرحية. ■

المتفرجة

قراءة الوجوه... والأفعال

بقلم
مرفت رجب

ظهر الرئيس بكامل أناقته المعتادة.. محتفظا بربطة العنق، على عكس ما فعل بقية رؤساء الدول أعضاء مجموعة الثمانية الكبار الذين بدأوا اجتماعاتهم فى التاسع من يونيو ٢٠٠٤ وسط ترقب سكان الأرض كافة.. وقد تباينت بساطة المظهر، حسب الرسالة التى يريد كل رئيس دولة أن يؤكدها.. سواء في أذهان زملائه فى نادى حكام العالم.. أو فى أذهان بنى وطنه.. أو أذهان عموم الناس فى كافة أنحاء الأرض..

لكن أحدا لايمكن أن يفوّت هذه الرسالة التي حرص عليها الرئيس الفرنسى جاك شيراك حين توجه إلي أولى الجلسات، وعلى طول الخط.. محتفظاً بملابسه الكاملة.. ومعها موقف فرنسا المتماسك من القضايا المطروحة على بساط البحث.. وعلى رأسها بالطبع الموقف فى كل من العراق وفلسطين، ولابد أن هناك من انشغل بالبحث عن إجابة للسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح.. من الذي يعطى التوجيه بشكل الملابس ودرجة «البحبحة» أو التجاوز عن التقاليد المتبعة فى اجتماعات على هذا المستوى من الرفعة؟ أو السؤال الآخر الأهم. ما هى الرسالة التى يُفترض أن نفهمها من مثل هذا السلوك؟ هل المطلوب مثلاً أن نفهم أن الرئيس الأمريكى يريد أن يعمم على زملائه -أعضاء نادى حكام العالم- جواً من الارتياح لعله يخفى التوتر الظاهر من ملامح وجهه فى معاندة صارخة لمحاولة الابتسام الفاشلة على طول الخط.. أم أنه -خلافا لآراء المحللين السياسيين الأمريكيين والأوروبيين - يريد أن يوهم بأن الامبراطورية الأمريكية مازالت متماسكة، قادرة على فرض إرادتها على العالم بالرغم من مضاعفات الفشل والأكاذيب التى تواترت على شاشات العالم صورها الدافعة لتثبت فى الأذهان وقائع الانهيار المخزى للامبراطورية الأمريكية..

وكما خابت فكرة التظاهر بالمرح فى تأكيد آخر لخيبة المستشارين الذين أوحوا بها، فقد جاءت صور الأمريكيين المودعين للرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان لتؤكد حزن الشعب الأمريكى وبكاءه الحار على مجد غابر، وحاضر مكثف لصدمات لا يمكن مواجهتها إلا بالبكاء.. ومن سوء حظ المتظاهرين بالمرح أن نشرات الأخبار فى كل أنحاء العالم ظلت على مدى ثمانية وأربعين ساعة تجمع بين الحدثين، قمة الثمانية الكبار، وبكاء الأمريكيين المودعين لريجان إلى مثواه الأخير، ولم يكن صعباً على أحد أن يتبين سر حرارة بكاء الأمريكيين!!

بين الواقعية.. والخيبة

يتكرر إدراك حجم وفداحة الخيبة فى كل يوم تحاول أن تتابع فيه ما يعرض على الشاشات العربية.. فما لم يكن المعروض نشرة أخبار أو برنامجا إخباريا، فهناك غياب تام لأى إشارة أو إدراك لما يجرى من أحداث دامية بفعل الغزو الأمريكى للعراق والتصفية الإسرائيلية للفلسطينيين وتسأل نفسك ما

المتفرجة

هو المقصود بالضبط من هذا التغييب؟! هل المقصود هو الايحاء بأن كل شئ تمام ؟!.. أم بأن ما يحدث لإخوتنا فى العراق وفلسطين خارج حدود اهتماماتنا.. أو أنه لا يؤثر فينا من قريب أو بعيد؟.. ما معنى هذه البرامج السطحية التافهة والمسلسلات الرديئة الأكثر تفاهة.. كيف يمكن أن نبتلع هذا الانفصال الكامل عن مشاعر الناس وأفكارهم؟ كيف يمكن أن نستسلم لهذا التناقض الأليم حين نقارن بين ما يعرض على شاشاتنا وبين ما تعرضه الشاشات الأوروبية.. إذا أخذنا الشاشات الفرنسية على سبيل المثال نجد خطين رئيسيين يحكمان كل ما يعرض من برامج ومواد درامية.. فأما عن البرامج.. فالثابت أن كل البرامج تحرص على الإشارة إلى ما يحدث فى العراق وفلسطين بصرف النظر عن موضوع البرنامج.. حتى برامج المنوعات فما دام هناك ضيوف من الفنانين والشخصيات العامة أو الصحفيين والمفكرين وعلماء الاجتماع أو أساتذة التاريخ فلابد أن ترد الإشارة..

ولابد أن يوجد مجال للتعليق والتصريح بإدانة ما يحدث على أيدى الأمريكيين فى العراق، والإسرائيليين فى فلسطين.. هذا قاسم مشترك لا يغيب عن أى برنامج، وفى المقابل نجد الخط الثانى هو الحرص على التأكيد على أن الاعتراض على السياسة الأمريكية شئ والاحتفاظ بأواصر الصداقة مع الشعب الأمريكى شئ آخر.. ولذلك فلقد لاحظت زيادة واضحة فى الحضور الأمريكى فى برامج التليفزيون الفرنسى فبرامج المنوعات تحرص على أن يكون الفنانون الأمريكيون حاضرين سواء كانوا من المغنين أو الممثلين أو المخرجين، مع الحرص على الحفاوة اللائقة وأوضح مثال بالطبع هو احتفاء البرامج الفرنسية بالمخرج الأمريكى مايكل مور قبل وبعد فوزه بالسعفة الذهبية لمهرجان «كان ٢٠٠٤» وكذلك تفعل برامج الندوات وعلى رأسها برنامج «Riposte» الذى استضاف نائباً أمريكياً من أعضاء الكونجرس ليتوسط حلقة نقاش وسط سبعة من الخبراء والمفكرين الفرنسيين، والمعنى من كل ذلك واضح بالطبع، ألا وهو الحرص على مناقشة ما يدور بأذهان الناس من أفكار ومخاوف، وكذلك الحرص على عناصر القوة فى العلاقات بين الشعوب، عسى أن ينجح

الفن والثقافة فيما خابت فيه السياسة والسياسيون.

والآن..

وخلاصة القول فإذا كان البرامجيون فى التليفزيون غير قادرين على القيام بهذا الدور فإننى أدعوهم للاستفادة من القنوات الفضائية الفرنسية المتاحة لهم ليتعلموا الواقعية فى غير مبالغة ودون أى صراخ.

أما عن الأعمال الدرامية.. فإن الأفلام الروائية وكذلك التسجيلية التى يعرضها التليفزيون الفرنسى هذه الأيام لم تنتج خصيصاً لتليق بالتكيف مع الجو العام السائد فى الدنيا.. ولكنها من إنتاج جيد يتناول ألوانا من كفاح الأفراد والشعوب فى مواجهة مصاعب خاصة أو عامة.. لكن المهم أن مشاهدتها تشد من أزر الإنسان وتجعله أكثر قدرة على مواجهة واقعه الشخصى وواقع بلاده المحكوم بالمآزق..

ولذلك فإننى أطالب التليفزيونات العربية بأن تكف عن إذاعة الموضوعات التافهة وأن تبحث فى الدفاتر القديمة.. ففيها من الأعمال الدرامية مستويات جادة فى الموضوعات والتمثيل والإخراج، هى بالتأكيد أكثر ملاءمة لواقعنا.. هذا بالطبع إن توافرت الرغبة فى تضييق الهوة التى تفصل بين الناس والشاشات، ذلك أنها إن لم تفعل فإن الصورة الواردة فى بداية هذا المقال تكفى للتأكيد على أن الحقيقة مكشوفة للدنيا كلها رغم كل ألاعيب التتويه والتعتيم!! ■

كلمات عاشت

● السوس الذي ينخر في الفن هو النفاق والفنان لا يمكن أن يصل الي أعلي مراحل الإبداع الا إذا احتفظ بكبريائه واعتزازه بنفسه وكرامته.

أحسان عبد القدوس

● عقل الرجل فى رأسه أما عقل المرأة ففى قلبها.

شكسبير

● الكلمة والفكرة ووجهة النظر هي التي تؤلف رأيا عاما

كامل الشناوي

قصة قصيرة

قصة : سعيد الكفراوى

بريشة : ولاء وهبى

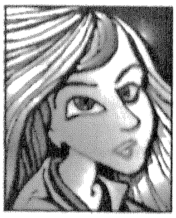

كانت تخرج من الباب الضيق إلى الحديقة المزهرة، مصارعة وجودها المكثف فى ريتشموند، كانت ترتدى معطفها الرمادى، على فستان من القطيفة الزرقاء، وتلم شعرها فى حزمة خلف ظهرها، وتشرد عينها إلى بعيد بنظرة زائغة مثل باحث عن شىء ضاع منه، ثم تضغط على شفتها فى ألم.

هى متأكدة أنها ستجن، لذلك عندما نظرت إلى زهرات المانجوليا الحمراء همست لنفسها: أن عليها أن تقتل شخصا آخر.

صرخت مثل حيوان حبيس حين رأت زوجها المحب يرجوها باستعطاف ذليل أن يعود بها.

كان القطار يغادر المحطة، وصلصة الجرس تروع الهدوء الذى يحاصر المكان، ثمة عائدون من لندن يغادرون المحطة، متواجدون فى ملابسهم التى تشبه ملابس الحداد.

حين صرخت فرجينيا «إننى اموت هنا» إن هذا المكان يقتلنى، لم يجد الزوج من فعل يمارسه إلا أن يربت على ظهرها، آخذا بيدها نحو كابوسها المروع «سوف تتحسن الأمور، وهنا أفضل من لندن لاشخاص يعانون من

الألم».. كان حزينا من أجل فرجينيا، وكان لا يعرف ما هو الشيء الذى يؤلمها؟.

عادت الأصوات إليها حين جلست تحت ظل الشجرة.. كانت تلك الأصوات تخصها وحدها، تنبع من دمها هى، ذلك لأنها ومن قديم تمارس جحيمها الذى منحته روحها كل عاطفة. قالت: إنه لابديل من قتل شخص آخر». بدت فى صمتها وهى جالسة على المقعد الخشبى فى حديقة المنزل، وحيدة الروح إلى الحد الذى جلعها تتشبث بأحلامها القديمة وممعنة الإصغاء لتلك الأصوات التى تنبثق مع الضوء فيتردد بداخلها ذلك الرنين الذى يأتى من عند قوس الباب الذى يطل على الهاوية. تود فرجينيا النفاذ من أفق الرصاص المحاصر لتهرب من أبديتها التى تستدعيها فى كل يوم.. ضربات البيانو الصاعدة بعزف «فيليب جلاس» وسطوة نغم الكونشرتو الحزين الذى يحلل مشهدها اليومى بتلك الشفافية التى تعكس فى روحها جريان النهر نحو ابديته.

لم تستطع أبدا، وعبر سنوات من وحدتها أن تدفع

عن نفسها إحساسها الدائم بأنها جنت، وتعيش الآن اختلاط حياتها. تلك الطفولة على عشب لندن، والمكوث على البحر مع اختها. وتجلى شمس المغيب على الموج. لم تعد قادرة على مقاومة صوت داخلها الذى تجيبه كل يوم «لقد منحتنى كل السعادة الممكنة»، وعادت تضغط شفتها بقسوة ناظرة لشلال الضوء الذى ينير الزهرات.

حين كانت تهبط سلم البيت الداخلى متأملة الكتب المبعثرة، والكراسى المنزوية فى الأركان، وتصغى بإمعان لصوت الموسيقى المنبعث من الجرافون الموضوع بالقرب من النافذة، وترى خادمات البيت يقطعن اللحم بضربات السكاكين الحادة، وتسمعهن يهمسن عن جنونها.. قالت لهن إن البلد التى تبيع التوابل بعيدة كأنها آخر بلاد الحلم.. صمتن، ولم يجبن عليها. ونظرن ناحيتها بنظرة المحبين.. ابتسمت من أن فزعها الدائم شىء طبيعى لمثل من فى حالتها، وربما كان جزءا من القانون الأزلى للطبيعة، وأنه وعلى نحو لا تستطيع التحكم فيه. ينبع من وعيها بأن الحياة والموت شىء واحد.. صمتت، وفكرت: لقد خانتها الظروف، وتلك الصور التى دائما ما تجسدها الكلمات، وسحبتها من حياتها التى كانت تتسم بالألفة إلى ذلك العالم المحتشد بالجنون.

عادت تكرر بين نفسها «على أن أنجز يوم هذه السيدة التى تود إقامة حفلها المريع». نفرت فيزيقيا، واضطربت رأسها، الا انها عادت تحادث نفسها بصوتها الهامس «إنها الساعات التى عشتها، ومضت حاملة الحنين، وكلمات ذلك الكتاب الغامض».

فردت رجلها على الأرض المعشبة، وبدت كأنها فى غفوة، وهى تستند برأسها على جذع الشجرة. رفعت رأسها وألقت به على

حاجز المقعد الخشبي. تذكرت أنها كانت قد قالت لزوجها: إنها عثرت على الجملة الأولى لكتابها الملتبس»، وسمعت نفسها تهمس: انها لا تعرف أين تذهب بها الكتابة؟ لحظتها اعطاها الزوج ريشة الكتابة، واخبرها: أن عليها أن تكتب مادام الأمر يخلصها من قلقها.

كانت وحيدة فرجينيا المعذبة، جالسة تتأمل آخر نهارها ، الأشجار في حديقة المنزل. تجلس مسالمة مدركة بعمق قلبها معنى: انك لكي تعيش مع الآخرين، عليك أن تتخلص من إحساسك بأن من مهامك أن تغير العالم.

فكرت في اختها التي عذبتها كثيرا.. الحجرات المقبضة.. والنزهات على شاطيء البحر.. والرغبات المحرمة! «أنت تؤذينني». الحفلات المسائية بحشد النساء الجميلات. وهي منزوية هناك في لندن، تتأمل لوحة على الجدار، وتراكم الثلج على النافذة، وتسمع صوت الريح. كانت تنفصل عن العالم وتتعاطى عقاقيرها لتقاوم اكتئابها المزمن. همست: لن يتركني أحد. عليّ أن أكف عن أحلامي، وأن أذعن آخر الأمر لتلك الأصوات التي تأتي من حيث لا أعرف.

اختها في البيت تجهز حقائب السفر.. وتقف أمام المرآة متأملة نفسها في زهو، وتعدل قبعتها الإنجليزية، وتسمع من الخارج صوت صغارها: خالتي فرجينيا.. خالتي فرجينيا تعالي معنا إلى لندن.. لاتزال الأخت تتأمل نفسها، واثقة من إحكام سيطرتها على تلك المسكينة بالخارج التي تعرف أنها تعيش اسيرة لأصواتها الداخلية، وتعيش بذهن مشوش يضنيها طوال ما تعيشه من عمر.

صوت جرس الكنيسة في الظهيرة الأبدية، «أي صوت هذا؟».. همست فرجينيا. لم تعد تبكي طفولتها القديمة لكنها لا تكف عن التفتيش في عمق روحها، تلامس جسد أخيها المحرم الذي كرهته كثيرا، وحرّم عليها الرجال ، مغادرة متعهم، نافرة منهم، كل هذا الألم جعل روحها تعيش المها الدائم فيما بقي لها من سنوات.

نظرت اولاد الأخت قادمين.. الولدان الخنزيران والبنت الصغيرة الملاك نادت بصوت نحيل واهن:

«انجليكا».

خيل لها كأن البنت تحلق فوق أشجار الحديقة.. هي ترتدي ثوبا أبيض من الدانتيلا مثل عروس صغيرة، وتركب على ظهرها جناحين مثل الملائكة. الأخ المحشو باللحم مثل جسد متخم يحمل على كفيه طائرا ميتا، وكانوا قادمين نحو فرجينيا وهي تذعن لمشهدهم، وتغادر شرودها وتتأملهم.

صرخت انجليكا الملاك:

«خالة فرجينيا الطائر مات».

لا أحد يستطيع أن يحرر روحها عندما سطع الموت على الحديقة.. موت طائر هو موت لكل كائن.. نهضت من على المقعد تم خطت مسلوبة الإرادة حيث الطائر الميت.. كان طائرا صغيرا مثل لعبة، يستقر على جنبه ومستسلما لقدره، رافعا رجليه ناحية السماء.. أخذت فرجينيا الطائر ثم تهاوت على العشب عندما داهمها الموت المفاجيء.. كأنني اقبض على مصيري.. غاصت بكل جفونها في لحظة قداسها الجنائزي، وعادت اجراس

الكنيسة تقرع من فوق، من هناك بالقرب من القبة ذات المعمار البولوڤينى التى تشرف على الحى القديم بالمدينة البعيدة على النهر، والتى كثيرا ما تقرع أجراسها فى السكون فجأة فتضرب القلب بالخوف والمواجع.

وضعت الطائر على الأرض المعشبة، وظلت تتأمله بشغف الفراق، وكأنها تود دفع الموت الفاجع الذى فاجأها.

قالت: إنها لم تنتبه إلى الوقت جيدا، وأنها لم تحترس من الموت أبدا. قالت دعونا نصنع قبرا للطائر، ثم اكملت، هناك وقت للموت. فى الخلف تمثال لامرأة عارية تقف بين أشجار الحديقة المزهرة، كمن يطوح الريح بشعرها.. التمثال فى النهار الرصاصى مشبع برائحة الموت.

قالت البنت ذات الجناحين:

«مات الطائر ليصنع قبره.. هيا لنساعده على أن يصنع قبره». دخلت فرجينيا إلى داخل البيت عندما سمعت رنين الهاتف يتواصل فى الصمت، وشعرت بصوت هادر

لخطيئة متوقعة، بعد قليل سوف تضرب اليد المدربة أصابع البيانو بألحان جنائزية لفيليب جلاس. أنكأت على ألمها وقالت.. إنها قضت عمرها كله لا تعرف سوى الكتابة. وكانت تدرك أنها من وقت بعيد انها قد جُنت، وأنها كانت تستر هذا الجنون بذلك الصمت، وذلك الهدوء الغامض، الذى يتجلى فى مظهرها، حين تضع يدها فى جيب معطفها الرمادى الذى سوف تموت بداخله. ظلت تفتش عن عناوين فى دفترها، وعن أرقام الهواتف بعيدة لكل هؤلاء الذين تود أن تهاتفهم. راجعت كل الأسماء ، وحين لم تجد أحدا يستحق المجازفة أغلقت الدفتر ومضت تصعد إلى الدور الثانى كانت تتسمع لخطواتها مثل لحن رتيب فوق الدرج الخشبى.. حجرات مقبضة، وجدران بيضاء شاحبة، كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما. همست لنفسها «ابكى قليلا.. البكاء يغسل الروح».. وعادت تتأمل السجادة المفروشة على الأرض برسومها الأسطورية. وعادت ، وبكت وسط الحجرة، وتذكرت أنه بعد سنين من لحظتها سوف ينهض من كتابها ذلك الشاعر الذى نخره المرض. والذى تحدثه السيدة ذات الاسم المشهور. والتى أقامت على شرفه حفلة لم يحضرها

والتى تنصت الآن لإحدى أغنيات شتراوس الحزينة عبر هؤلاء المحتفين، الذين يرتدون البذلات السوداء، وينظرون من خلال نظاراتهم الى الأضواء الخفيفة المنبعثة من الجدران. خطت ناحية حجرة نومها وتأملت فراشها التى لم تنم عليه من سنوات بجوار زوجها الطيب. تفكر الآن فى ذلك الشاعر، وتتأمل مصيره، وتعرف أنه سوف ينهض من فراشه ويتجرد من ملابسه ليلقى بنفسه من النافذة. تندهش فرجينيا من تقاطع المصائر، وتدرج على نحو حزين مدركة أن طرائق الموت متعددة ، لكنها تفضى إلى فعل واحد. عادت تهمس لنفسها كان على ألا أكتب هذا. فتحت خزانة بالحائط. تأملت كل أشياءها بحنين غامر، وسمعت المطر يهطل فوق أشجار الحديقة. شغلت الفونوجراف فصدحت موسيقى باخ بحزنها الجليل. التمع أمام عينيها وميض من ضوء خفى. همست لنفسها: لابد أنه هناك، وطاف بخيالها شبح اختها المغادرة والتى دائما ما تترك رماد سجائرها فى الأركان . هبطت ثانية الى الحديقة ورأت البنت ذات الجناحين وكأنها تتهيأ للطيران ، وعادت تتأملها بحزنها الذى يليق بما هى فيه.

هطل المطر بغزارة، وأرعدت السحب فيما برقت السماء من ناحية الشمال. سماء سوداء تحلق فى جنباتها طيور متخبطة تقترب من الأرض وسرعان ما تعلو مروعة بصوت الرعد والتماعات البرق.

سألت البنت فرجينيا:

«ماذا يحدث عندما نموت؟».

أجابتها:

«نعود للمكان الذى جئنا منه».

قطعت فرجينيا ثلاث وردات من الحديقة ووضعتها بجوار الطائر، ثم اسندت رأسها على الأرض تتأمل عين الطائر المحدقة على الفراغ، واستسلمت للحظتها وبدت كأنها غافية، أو كأنها تحلم بتلك السيدة التى ترتدى معطفها الرمادى على فستانها ذى الزهور الملونة وهى تحث خطاها، حاملة على ظهرها تاريخا من العزلة، والنوبات، وفقدان الوعى، وموهبة الخيال التى لا يباريها موهبة.. سمعت نفسها تهمس.. دائما السنين بيننا.. القوقع.. الساعات.. صفير القطار.. السيدة دالاواى تتجه الآن ناحية النهر – بمعطفها الرمادى وفستانها المزهر – لتلاقى مصيرها ، وحين تكون على الشاطىء تجمع الأحجار الصغيرة وتدسها فى جيب معطفها حتى يقاوم طفو جسدها ويكون أثقل على الماء ويهزمه، ويخترق الطحالب وأسماك القاع الضالة، والنباتات الهائمة، وصوت قرع اجراس الكنيسة، وعزف موسيقى.. «فيليب جلاس» فى مشهد الموت الأخير:

سمعت نفسها تهمس لنفسها:

«الم اقل إننى علىّ أن أقتل أحدا». ■

نبيل السلمى

انعطافة مبهجة ومهمة!

محيى الدين اللباد

عندما نشر «نبيل السلمى» (١٩٤١- ١٩٨٧) أول كاريكاتور له -فى جريدة «الشعب» القاهرية- كان عمره ١٩ عاماً، وكان ما يزال طالباً بكلية التربية الفنية بالقاهرة، وعاشقاً لعمله الذى تملكته هوايته منذ الصبا. كان نبيل ابناً مهذباً لمعلّم من محافظة سوهاج بصعيد مصر، ولذا ربما كان يبحث فى الكاريكاتور عن فرصة للتعبير عما لا يستطيع الإفصاح عنه مباشرة وعينه فى عين غيره: الإفصاح عن الحلم بالشقاوة والمشاغبة وتجاوز حدود التعقل والانضباط والحياء. ولابد أن اختيار الكاريكاتور كان يلبى -أيضاً- لنبيل الشاب مطالب موهبته كرسام يملك القدرة على التواصل مع الناس بالرسائل التى تحملها رسومه.

كان جيلنا محظوظاً مرتين: الأولى بوجود أساتذتنا الكبار فى فلك النجومية العالى تسطع علينا أنوارهم البهية، والثانية:

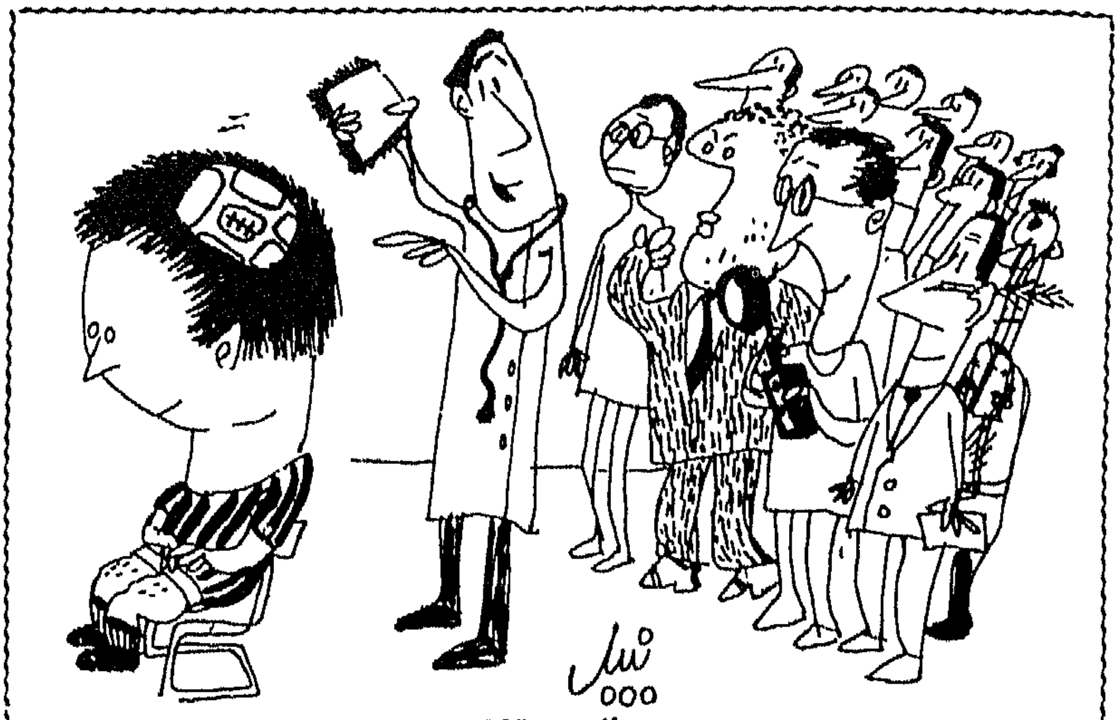

« لاعب ١٩٦٠ »

الدكتور للجنة الاختيـــار : لازم تختاروا اللعيب ده .. ((ده مخه كله كورة)) !

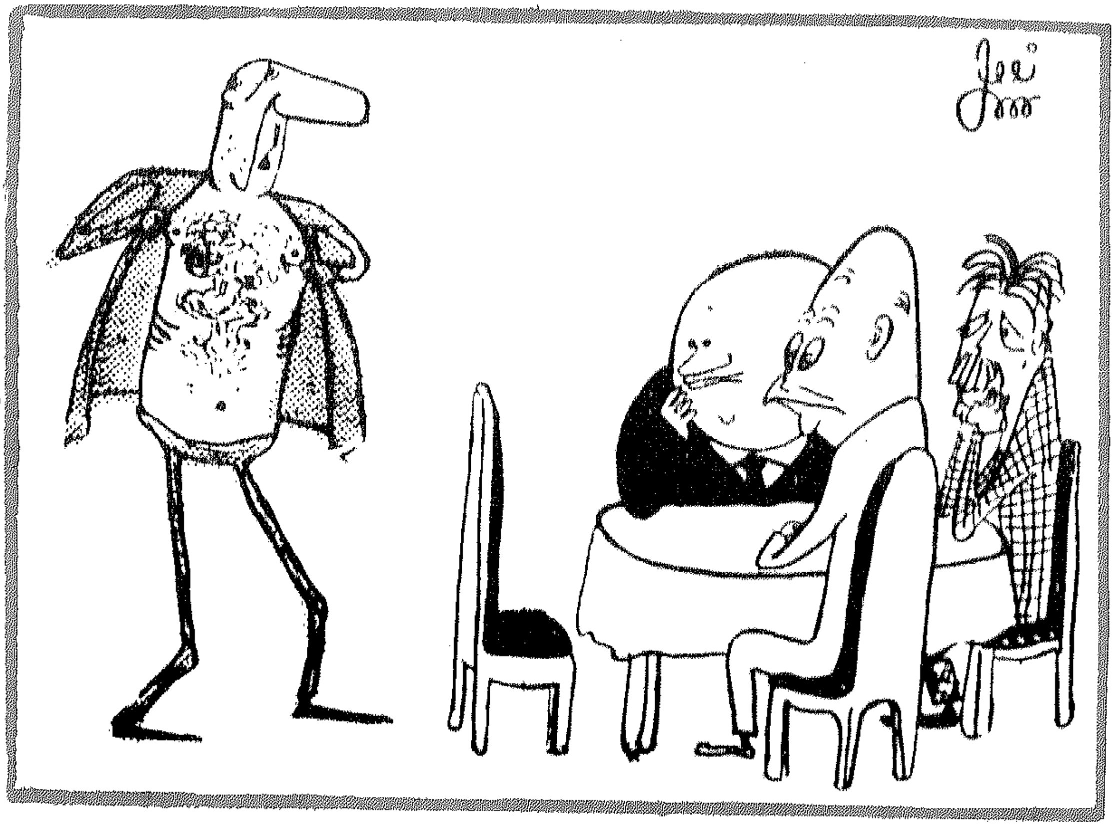

((بعد تفجير فرنسا للقنبلة الذرية))

ديجــول ـ دلوقت اقدر اقابلكم

جريدة «الجمهورية» ١٩٦١

رسم ملون لعبد السميع رسمه خصيصاً هدية لنبيل السلمى فى قياس بطاقة بريد، يمثل الرسم عبد السميع يصب فى عقل نبيل خبرة سنوات عمره التى عتقت لستين عاماً.

بإمكان أن نذهب إلى هؤلاء الأساتذة فى صحفهم، وندق أبوابهم، ونسألهم المشورة وتقييم أعمالنا الساذجة الكتعاء. وكان أغلبهم يتكرمون علينا بالمشورة، والنصيحة، والتوجيه، وأحيانًا -إضافة إلى كل ما تقدم- بكوب شاى.

فى عام ١٩٦٠، ذهب «نبيل السلمى» إلى «عبد السميع» (١٩١٦-١٩٨٥)، وأطلعه على بضع وريقات رسم عليها كاريكاتورا. كان الرسام الشاب فخورًا بأنه قد طبّق فيها الشرط الأساسي الذى كانت تتنافس فى تكرار نشره أركان هواة الرسم بالصحف: «ارسم رسومك بالحبر الشينى».

وكان «عبد السميع» قد انتقل إلى جريدة «الشعب» من «أخبار اليوم» التى كانت قد اختطفته من «روزاليوسف» عام ١٩٥٤، بعد أن خسر (هو وكثير من الناس فى مصر) المعركة مع نظام الضباط «الأحرار» حول الديمقراطية التى اشتعلت ثم خمدت فى ربيع ذلك العام. وكان الرسام المخضرم قد خاض تلك المعركة امتدادا لمعركته الكاريكاتورية البطولية على غلاف «روزاليوسف» ضد النظام الملكى وحزب الأغلبية الوفد، وهى المعارك التى جعلت من «عبد السميع» زعيمًا شعبيًا، وأحد من مهدوا لحركة الجيش التى قامت فى يوليو ١٩٥٢.

وعندما أغلقت جريدة «الشعب» عام ١٩٦٠، انتقل «عبد السميع» مع رئيس الجريدة «صلاح سالم» إلى جريدة «الجمهورية» ليصبح رسامها السياسى الأول، وأخذ معه «نبيل السلمى» إلى هناك.

فى ذلك الوقت، كانت مدرسة «روزاليوسف» و «صباح الخير» الكاريكاتورية فى عز لياقتها وتألقها ولفتها للأنظار. وكان فرسانها شبانًا صغارًا، بعضهم لم يتخرج بعد من كلية الفنون الجميلة (مثل رجائى ونيس). وقدم هؤلاء نغمات جديدة حديثة فى الكاريكاتور، ولم يعُد أبطال رسومهم شخصيات رمزية كتبت أسماؤهم على ملابسهم بخط كبير. ولم يكن فيها نبرة زاعقة ولا صراخ هادر، بل كان أبرز ما فيها العبث الجديد الذى كان يلطم أنظمة التوقع الذهنى فجأةً وبقسوةٍ تفضى إلى صدمات وضحكات عالية الجودة. ولم تكن رسوم هؤلاء الفرسان الشبان تحكى مباشرة فى السياسة، ولكن رساميها كانوا هم السياسيون.

ولم تعد تلك الكاريكاتورات الشابة تُرسم بالفرشاة العريضة المثقلة بالحبر الأسود، بل أصبحت تؤدّى بأقلام تحبير ذات سنون شعرية رفيعة حسب موضات مدارس التشكيل الحديثة، وبتصميمات جرافيكية على أحدث مدارس الاتصال البصرى آنذاك. لذا تخلى «عبد السميع» عن فرشاته العنيفة، وعن شخصياته القديمة، واشترى قلمًا شعريا للتحبير وأوراقًا ناعمة الملمس، وبدّل توقيعه بأخر

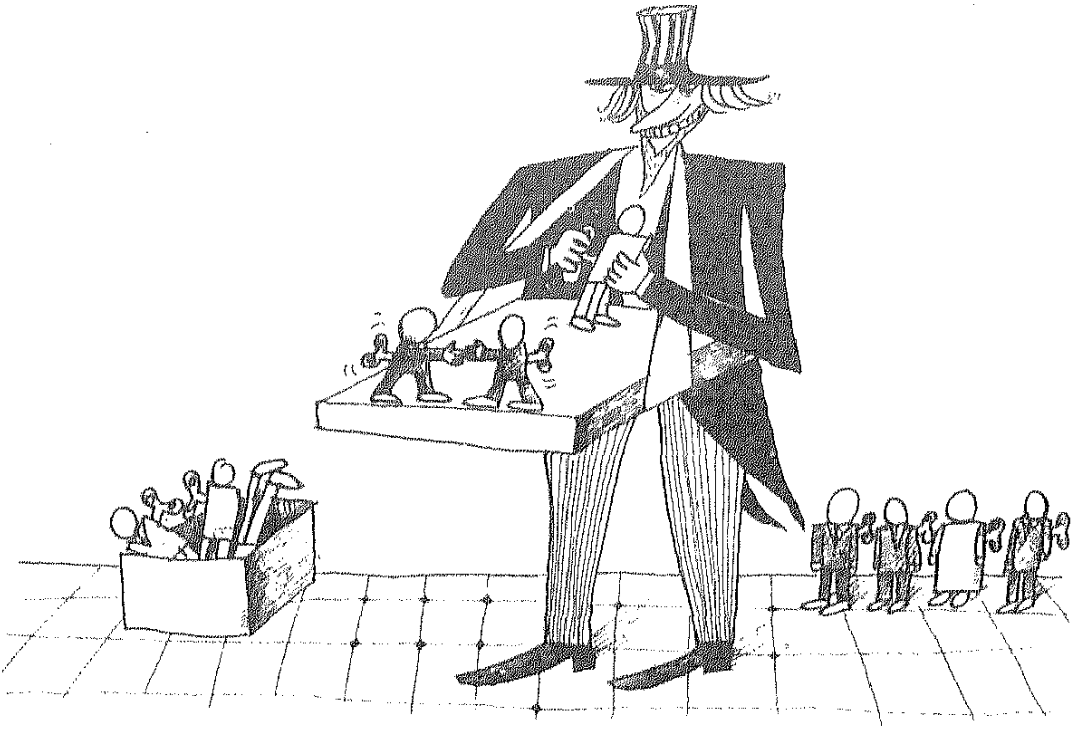

جريدة «الوطن»، الكويت.

من كتاب «تحت ظلال الأهرامات»، ألمانيا.

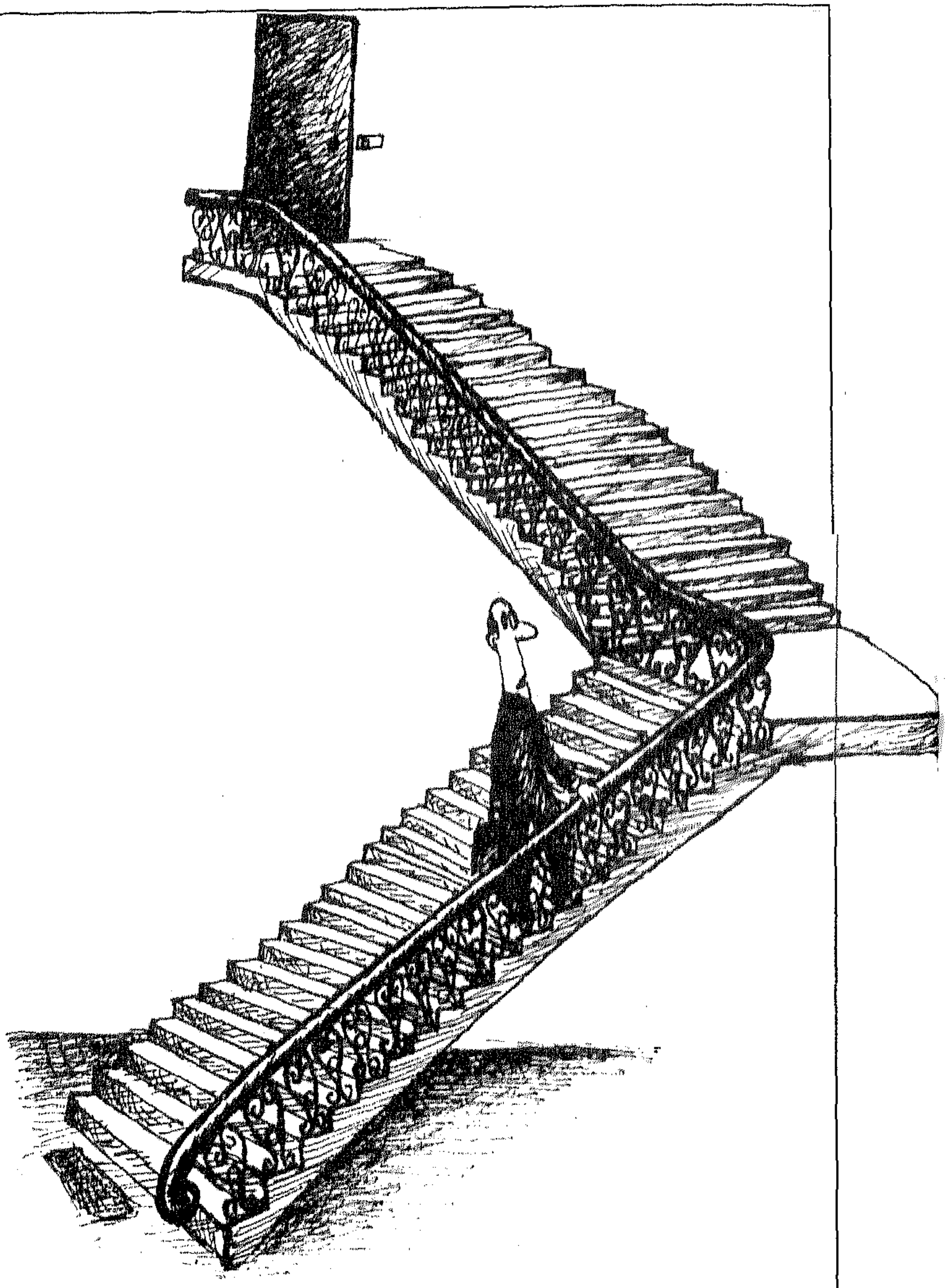

من مجلة NBI ، ألمانيا، ١٩٨٥ ..

من كتاب «فكاهات الدخان»، نبيل السلمى، ألمانيا، ١٩٨٤.

كتبه بأسلوب حديث واضح، وترك التوقيع الانفعالى للثائر القديم.
كان الأستاذ -حينذاك- فى حاجة إلى تلاميذ من الرسامين اليافعين الذين درسوا المدارس الحديثة فى فن الرسم والتصوير، يعطيهم خبرته السياسية والمهنية، ويشاركونه البحث والتجريب والتحديث. وكان «نبيل» و «ماهر» على رأس تلك المجموعة التى تقاسمت مع «عبد السميع» مرسمًا مشتركًا يزاولون فيه التصوير الزيتى والرسم الملون.
وبالفعل استفاد «نبيل السلمى» من أستاذه «العجوز»، وتشرب قدرًا معتبرًا من خبرته السياسية والفنية، وطرائق البحث عن الفكرة الكاريكاتورية وتطويرها. وأضاف الرسام الشاب إلى هذه الخبرات خبرات أخرى حصلها من إطلاعه على المدارس الحديثة -آنذاك- فى الكاريكاتور والرسوم المتحركة والتصميم الجرافيكى، وبدأ «نبيل» كاريكاتورًا حديثًا جديدًا.
أعطى «عبد السميع» المساحات لتلميذه «نبيل» بقدر واقتصاد وحكمة حماية له من الانزلاق فى الاستسهال والاعتياد على الثياب الواسعة: عمود واحد للكاريكاتور الاجتماعى وعمودين -كحد أقصى- للكاريكاتور السياسى.

أحسن كاريكاتور فى ألمانيا ١٩٨٤، نبيل السلمى.

كانت بصمة «عبد السميع» واضحة على الرسوم التى طلعت بها جريدة «الجمهورية» للرسامين الشابين «نبيل السلمى» و «ماهر داود». وكان الشابان -بحكم شبابهما وانتمائهما إلى سنوات الستينيات المحملة بالتغير والتبدل- مشغولان بجدول أعمال مختلف، واهتمامات مغايرة، وكانا متحرران ومعفيان من تاريخ مجيد ثقيل يحمله أستاذهما: ميراثه عن أستاذه العظيم «صاروخان»، وتجربته الطويلة والمركبة -بالأسود والأحمر- على غلاف «روزاليوسف» وصفحاتها.
وبموازاة السياسة، اتجه الشابان إلى صفحات الرياضة، حيث شكلا فيها ثنائيًا ناجحًا يرسم فى فيها مساحة عريضة مهمة، بتوقيع مشترك: «ماهر-نبيل». وشكل هذا الثنائى نجاحًا جماهيريا صاخبًا، لا سابق له سوى ثنائى «حاكم-مصطفى حسين» فى جريدة «المساء» فى أواخر الخمسينيات.

وبعد جولة دار فيها الرسامان الشابان فى باريس وبعض عواصم الدول «الاشتراكية» معًا بعد حرب ١٩٦٧، بدأ استقلال كل منهما عن الآخر. ونجحت جراحة فصل التوأم الكاريكاتورى السيامى بيسر وصحة.

رسم «نبيل» كتابًا نشر فى ألمانيا عام ١٩٧١ بعنوان «تحت ظلال الأهرام»، أنجز فيه ميوله الجديدة فى الكاريكاتور الجرافيكى الذى يبحث القارئ عن الفكرة فى ثنايا الرسم وليس فى تعليق أو حوار يصاحبه. وسيعجب الألمان بذلك الكتاب الذى دارت رسومه حول آثار الفن المصرى القديم، حتى أنهم شجعوه على الاستقرار فى عاصمتهم برلين للعمل هناك.

وبدءًا من ١٩٧٤ يقيم «نبيل» فى برلين، حيث تزوج من أستاذته التى درّست له اللغة الألمانية فى القاهرة، واستقر معها ١٠ سنوات أنجبا خلالهما ابنتهما «ريم». وكان «نبيل» -خلال تلك السنوات- قد تحول إلى نجم كاريكاتورى، يعرف أغلب الألمان اسمه وأعماله. وقد اختير رسم «نبيل» على أحد أغلفة مجلة «أويلين شبيجل» كأحسن رسم كاريكاتور فى ألمانيا لعام ١٩٨٤.

وفى العام نفسه، أصدر «نبيل» كتابه الكاريكاتورى الثانى فى ألمانيا «فكاهات الدخان»، وفى العام ذاته أيضًا، انتقل «نبيل» إلى الكويت ليعمل رسامًا ومصممًا فى مشروع الكمبيوتر العربى «صخر». وفى الكويت أصدر كتابه

من كتاب «جمليوتر»، الكويت، ١٩٨٦.

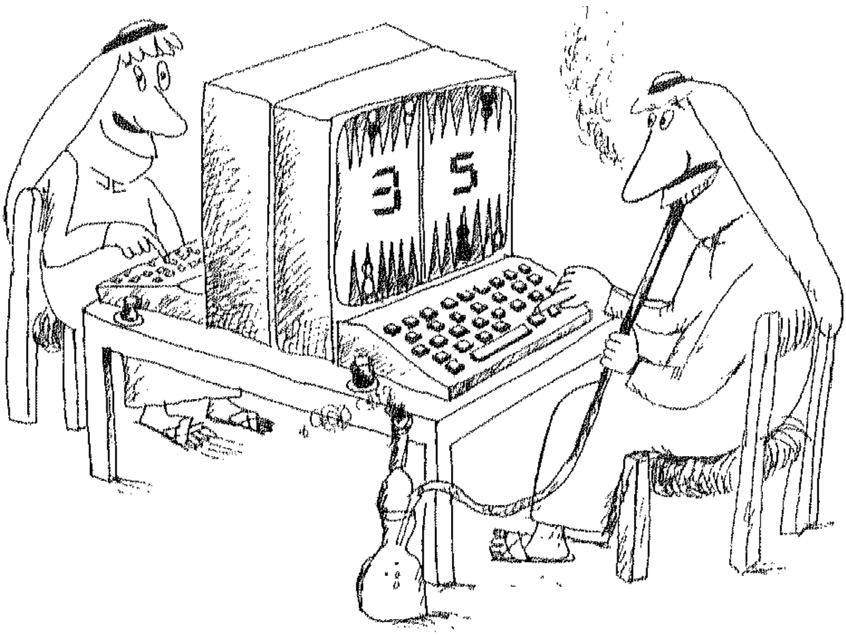

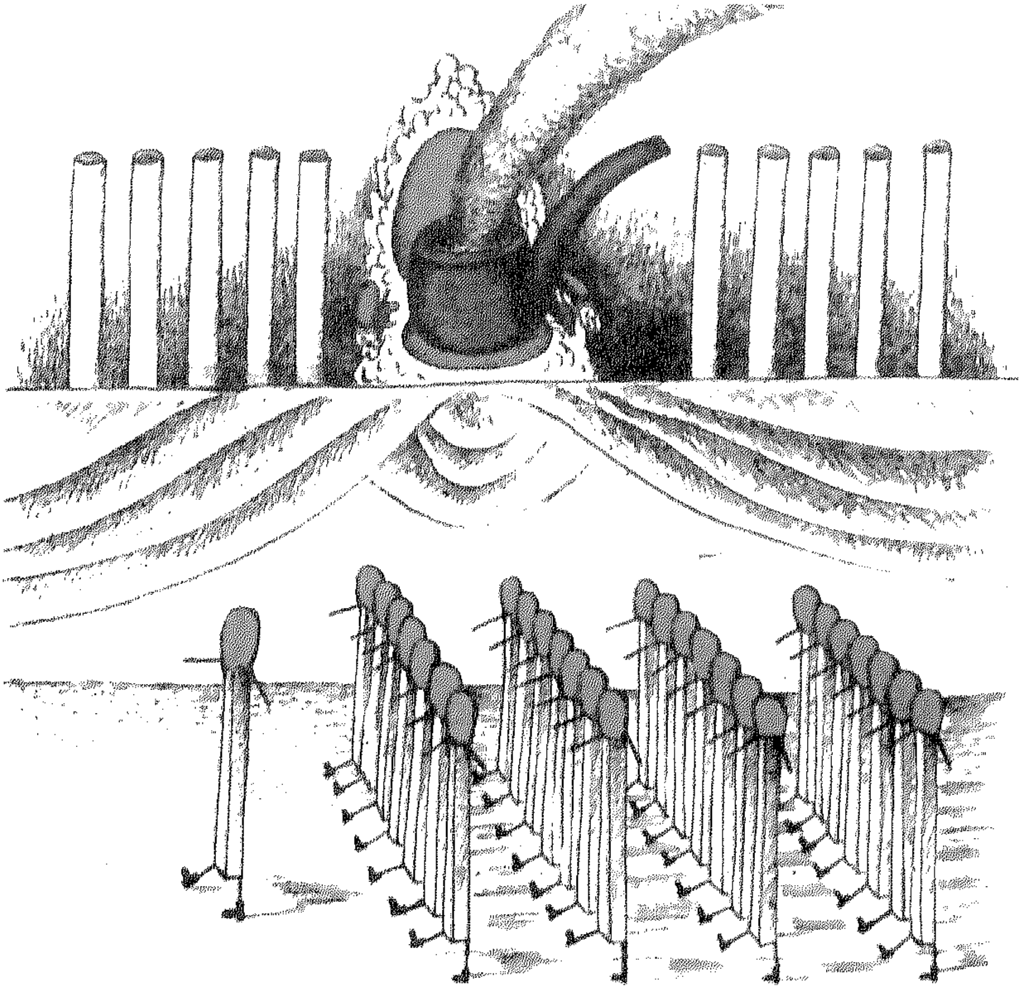

من كتاب «فكاهات الدخان»، نبيل السلمى، ألمانيا، ١٩٨٤.

من مجلة NBI، ألمانيا، ١٩٨٦.

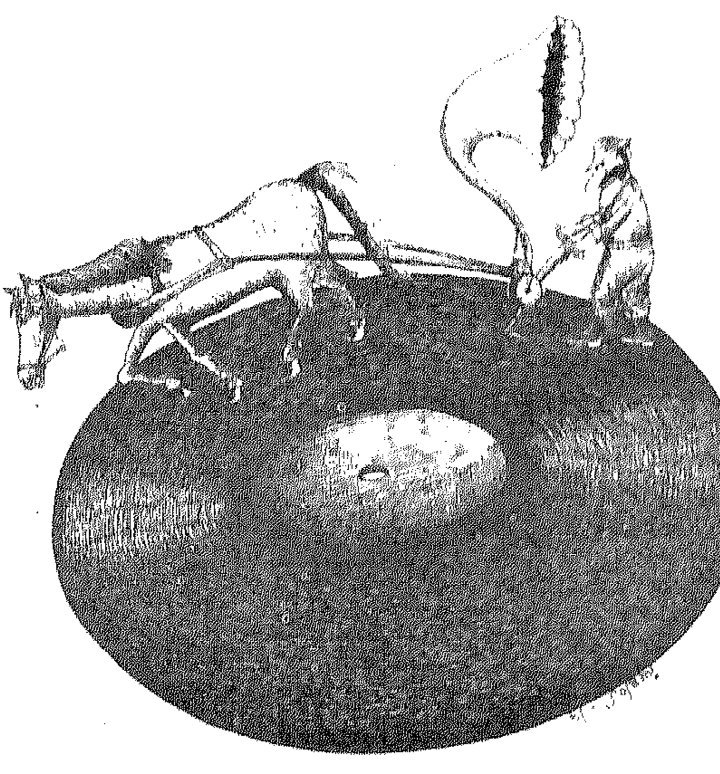

الكاريكاتورى الثالث «جمليوتر».

وأقام «نبيل» فى الكويت ثلاث سنوات، رسم خلالها الكاريكاتور السياسى فى جريدة «الوطن» هناك، كما رسم الكاريكاتور فى جريدة «الجماهير» الصادرة لجمهور الرياضة.

كانت ألمانيا فرصة واسعة انفتحت أمام «نبيل السلمى» ليجرب ويلعب على حريته، وليتحرر من إسار وظيفة رسام الكاريكاتور فى جريدة يومية شبه حكومية، فى عصر لم يكن أزهى عصور الصحافة فى الجانبين السياسى والمهنى على السواء. ووجد أن باستطاعته الرسم كما يهوى، وحسب أشواقه وأهوائه ونزواته التى احتفظ بها طويلا فى درج مغلق، لكنها جميعًا ظلت حية تتردد فيها الروح.

وتشكل رسومه فى الفترة الألمانية علامة هامة تختلف عما تعودنا الاطلاع عليه فى الكاريكاتور العربى والمصرى؛ فهى رسوم يجوز أن نخلع عليها ألقابًا من شاكلة: الكاريكاتور «المثقف» – «الذهنى» – «الجرافيكى» – أو «الهادئ». وتعنى كل هذه الألقاب أنها رسوم مغايرة لإنتاجنا المحلى ولعقلية منتجيه ومستهلكيه. وتتميز بتفوق العنصر التشكيلى فى العمل، وبالأداء الذكى والبليغ. ويمكن للقارئ اللبيب أن يلتقط فى كاريكاتور «نبيل» فى الفترة الألمانية نزوعًا متشائمًا، وانشغالاً ملحًا بلغز الموت، وتناولاً مكررًا للجانب العبثى فى الحياة.

أما رسوم «نبيل» فى جريدة «الوطن» الكويتية، فقد كانت أنضج أعماله فى الكاريكاتور السياسى، وأقربها إلى ما كان يريد. إذ اتسمت كاريكاتوراته «الكويتية» بالمرح والعاطفية والحرارة، ويسر الأداء، وطريقة التفكير المناسبة للتواصل مع جمهور عربى عريض بدا أن الرسام يعرفه جيدًا ويعرف لغته ورح فكاهته. كانت رسوم الكويت أنضج وأحدث من رسوم «نبيل السلمى» فى جريدة «الجمهورية» فى الستينيات وبداية السبعينيات، كما كانت أكثر حرارة وتفهمًا للقارئ المحلى، ومثلت انعطافة مبهجة ومهمة فى الكاريكاتور العربى.

وفى صيف ١٩٨٧، زار «نبيل» أسرته فى برلين. وفى طريق العودة إلى الكويت، مر على القاهرة ليوم واحد قضاه بين إخوته وأخواته وأصحابه، وعاد إلى الكويت. وفى فجر الرابع من يوليو ١٩٨٧، توفى «نبيل» إثر نوبة قلبية بينما كان يستعد للنوم، واضعًا ذراعيه تحت رأسه، ومبتسمًا.

وعلى الرغم من مرور ١٧ عامًا على رحيل «نبيل السلمى» عنا، نجد رسومه ما زالت حاضرة مشرقة، إذ لا زالت الصحف والمجلات (خاصة المجلات الثقافية والأدبية) تكرر نشرها. كما نجدها أحيانًا على أغلفة كتب حديثة صدرت فى ألمانيا، أو أغلفة بعض الرسائل الجامعية الألمانية التى تتناول شأنًا مصريًا أو عربيًا ■

كتاب الهلال

عن الكاريكاتير
و
الأغانى والإذاعة

بقلم
د. على الراعى

يصدر ٥ يوليو ٢٠٠٤م

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال

أيام القبوطى
(الرؤية والمتاهة)

بقلم
سهام بيومى

تصدر ١٥ يوليو ٢٠٠٤م

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

قطر الندى

شعــــر
أحمد خميس

أَحْضانُ هذا الفجرِ ضمّتْ فى الرُّبى قَطْرَ النّدى
وتأنّق الصّبحُ الهَنىُّ على المجـالى .. والمدى
لمّا بدتْ فى حسنها شمسُ البها (قطر النّدى)
ألحسنُ كبّر للجمالِ .. وأَوْرَقَتْ ألوانه
دفْئاً .. يــديرُ عـــلى القلــوبِ نســـائمَه
والسّحرُ .. كلُّ السّحرِ أقبـل طيّعاً سلطانُه
يهـــدى إلى هـــذى العيـــونِ تمائمَه
فإذا المقاديرُ تمدُّ إلى خطـــاويها اليـــدا
لمّا بدتْ فى حسنها شمسُ البها (قطرُ النّدى)

★ ★ ★

دورى بأعطافِ الصّباحِ الشّاعرىّ .. المُجْتلي
وتمايلى .. ميلَ الضّياءِ على انسكاب المخْمل
وتــدلّلى .. يا قبْلَةَ النّــورِ الطّرىّ .. تــدلّلى
فاليوم .. يصدح بالبشائر شاعرٌ متفرّد
يصغى له قـــلبُ الزّمانِ ويخفـــقُ
واليومَ .. يزهو منعماً هذا الصّباح الواعد
وتفيـــض بالحـــبِّ العيـــونُ .. وتُغْدقُ
وصحائفُ التّاريخِ حرّاس .. وعهدٌ .. وفدا
لمّا بدتْ فى حسنها شمسُ البَها (قطرُ النّدى)

★ ★ ★

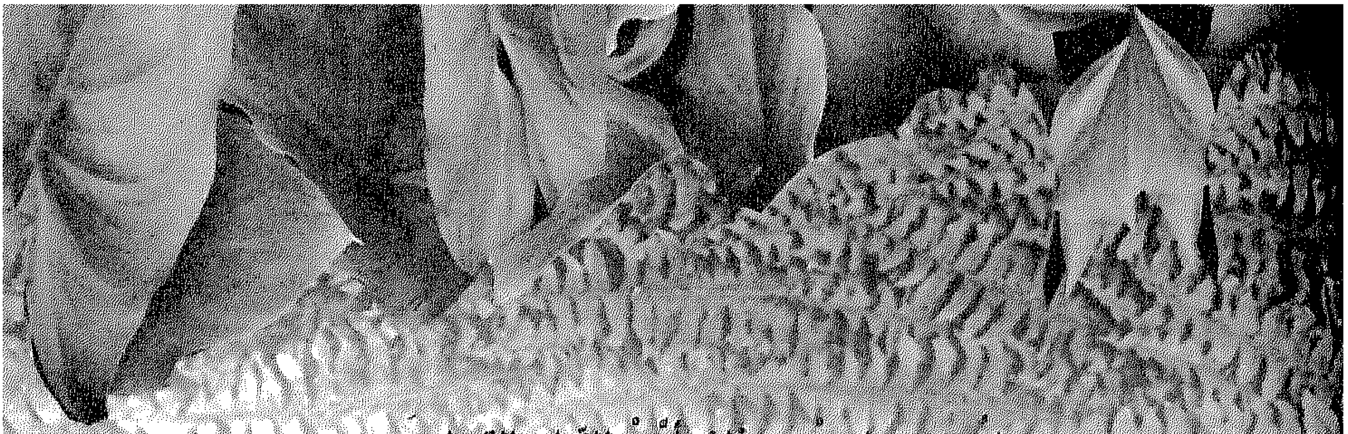

بغدادُ نـــــادتْ .. فاشرأبّتْ للنّداء القـــاهره
أثْرى منابرهـــا البشيرُ على القُرى والحاضِره
فى موكبٍ لم يدْرِ أوّله الزّمـــــــانِ واخره
وكأنّما أغْرى بوادِى النّيلِ لحنٍ .. وصدى
رقص الوجـــود لـــه وغـــنّى وارتوَى
وشدَت عذارى الضّفتين «الحنّه يا قطر النّدى
شبّاك حـــبيبى ياعـينى جلاّب الهوى»
وتســـابقَ النّبأُ الحبيبُ يزفُّ هـــذا الموعدا
لمّا بدت فى حسنها شمسُ البها (قطرُ النّدى)
طافَتْ بأرض الرّافدَيْن كمـــا يطوفُ المرسلُ
فى صمـــتها حكمُ المشيبِ وقـــوْله المتفضّلُ
فتواكبتْ همم المعـــالى .. تســتزيد وتنهل
ضمّتْ إلى شرَفَ الأصالةِ والعصورِ الباهِره
قلبـــاً يميلُ إلى النُّهـــى قبْلَ الهـــوَى
من سلْسَلِ النّيل العظيم.. من الرّوابى الطّاهره
شـــبَّ العطــاء عــلى يديهـــا واستوَى
وغَدَتْ قلوبُ العارفين بما أفاضـــتْ سجّدا
لمّا بدتْ فى حسنها شمسُ البها (قطرُ النّدى)
حوريّةَ الالهامِ.. يا شُغْلَ الأمانى الدّافئه
يا موجةً .. عرفَ الجمالُ بشاطئيها مرْفَأه
وسما إلى عرشِ الفتونِ .. يضمُّ أحلى لؤلؤة
قسَماً بطيفكِ يستثير بنا الخيالَ المتْرفا
ويهـــدهد الأشــــواقَ فى ليـــلاتنا
ما غابَ ذكركِ عن أهازيجِ الرُّواة.. وما غفا
عـــن رقصـــة النَّشــوةِ فى أعمـاقنا
وحكايةٍ .. طارتْ بها الأيامُ فنّاً خالداً
لمّا بدتْ فى حسنِها شمسُ البها (قطرُ النّدى)

هل مازالت بلادنا تمتلك السحر الفنى؟

بقلم
د.محمد عرابى

هذه المرة من جولة المعارض سنركز على بعض الحالات، التى تتخذ من البيئة المصرية مصدراً للإبداع والاستلهام، وذلك فى إطار مفهوم وتقنيات تبدو فى ظاهرها تقليدية، حيث تتخذ من فن التصوير فى سياق مفهوم تمثلى أو تناظرى يرى الطبيعة بأبعادها الثلاثية مجالاً للتعبير الفنى وتجسيد الأفكار المعنوية أو الحالات الشعورية، أو تجسيد موضوعات فنية تقليدية تكتسب أصالتها فقط من ذات الفنان بما يضيفه إليها من سياقات معرفية جديدة.

وفى ظل حالة الفن اليوم فى بلادنا وما يشوبها من أفكار مغلوطة، يتسم من يرتاد هذه الموضوعات بجرأة وشجاعة لأنه إذا رأى فى فن المنظر ضالته أو رسم بعض الموضوعات الطبيعية الأخرى فربما يبدو تقليدياً، وإن كان محظوظاً فسيسار حوله جدل طويل عقيم بين معارض يرى أنه رجعى متخلف أو خائن ويسحب منه رخصة الإبداع وربما رخصة الحياة، وبين مؤيد يرى فى مهارته وجديته أصالة وانتماء لمصريته، وبين هذا وذلك وجهة نظر أخرى تحتكم للعمل الفنى ذاته وما يحمله من مضمون.

ولم يكن اختيارنا للنماذج أو التجارب التى سنعرضها مدحاً لها أو ذماً، وإنما لكونها علامات مهمة لامتداد ظاهرة فنية عمرها يقترب من مائتى عام أو أكثر من عمر التجربة البشرية الحديثة، أو ربما تمتد فى عمق التاريخ إلى العصور القديمة، وهى مازالت مستمرة فى حياتنا المعاصرة رغم ما

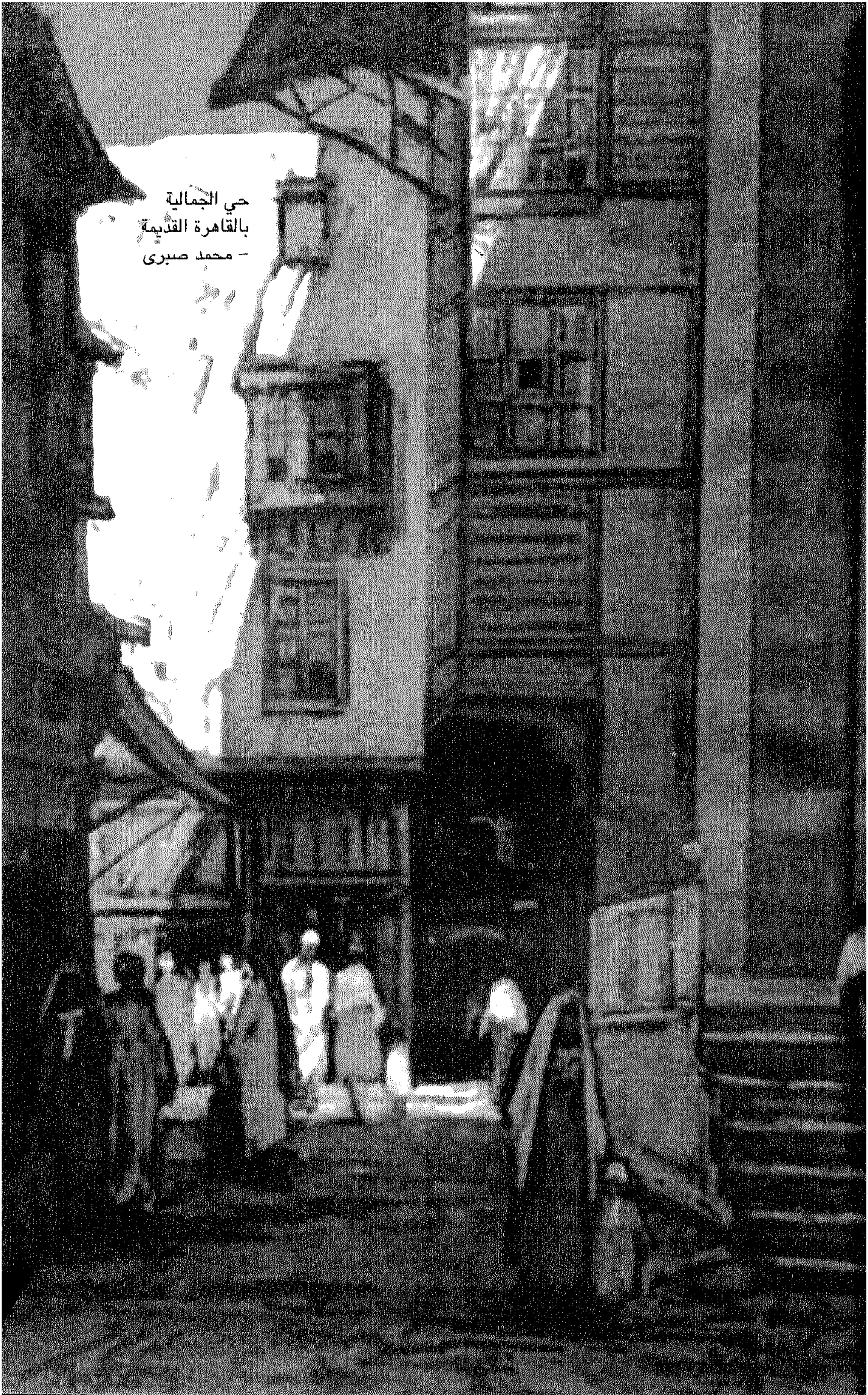

حي الجمالية
بالقاهرة القديمة
- محمد صبري

يعترضها من اتجاهات فنية ترفض كل ما له صلة بظاهر الحياة.

فن المنظر بين الحرفة والإبداع

لقد لفت المستشرقون فى القرن التاسع عشر الانتباه إلى أهمية طبيعة الشرق العربى بمعطياتها المرئية والثقافية كمثير إبداعي يجدد الحياة فى فقرات التجربة الغربية المتيبسة، وكانت مناظر الحياة فى مصر وشمال أفريقيا وفلسطين والشام هى المدخل الذى جذب فيما بعد «دلاكروا» ومن بعده سيروزييه وإميل برنارد وماتيس وغيرهم من الذين استلهموا روح المكان بالشرق العربى وما أفرزه من قيم ثقافية وأشكال فنية، وعلى إثر ذلك أصبح المنظر الخلوى العمود الفقرى لحركة التصوير المصرى منذ بداياتها الأولى، وارتبطت غايته بتصوير الحياة المصرية ظناً فى أن ذلك سيقود إلى تأصيل الفن المصرى، فأصبحت مشاهد الحياة الشعبية فى القاهرة أو غيرها، أو مشاهد النيل والحياة الريفية هى الموضوعات التى أسست ملامح مدرسة المنظر فى الفن المصرى الحديث، الذى استمر متفاعلاً مع حركة الفن العالمية يأخذ عنها الكثير ولا يعطيها سوى النذر اليسير متمثلا فىّ مجهودات فردية ممن تمسكوا بهويتهم وصدقوا مع أنفسهم.

ورغم ما تموج به حركة الفن اليوم من أفكار فنية – تصيب وتخطىء – ترى أن الحداثة والتجدد يتعارضان مع ما هو تقليدى من حيث الموضوع أو الأسلوب أو الشكل الذى يرتبط بصور تناظرية، وتضع المنظر ضمن هذه الموضوعات التى تم تجاوزها فتنكر شرعية وجوده فى هذا الزمان جملة وتفصيلاً، إلا أنه مازال يجذب العديد من الفنانين على مستوى الأجيال المتعاقبة لدرجة أن يصبح ظاهرة فنية، ربما تعود لأسباب متعددة يمكن حصرها فى محورين: أولهما يكمن فى ثراء البيئة المصرية بمعطياتها المرئية وما تثيره من قيم استاطيقية عبر ما تكنه فى ذاكرتها الزمانية من خبرات ثقافية متنوعة تكسبها ما يؤهلها من حيوية تأسر الفنان وتفجر طاقاته الابتكارية، وأما الثانى فيتلخص فى وجود شريحة من مستهلكى الفن فى مصر ترتبط اللذة الجمالية بفعل دوافع سيكولوجية ثقافية – بالبعد التناظرى أو التمثيلى الذى يحمله المنظر الخلوى وما يشير إليه – عندها من ارتباط القيمة الفنية بمعايير الدقة والمهارة ووضوح الشكل، وربما يكون للحياة المدنية أثر خفى فى هذا الشأن، وذلك لما تضغط به على النفس بعزلها عن

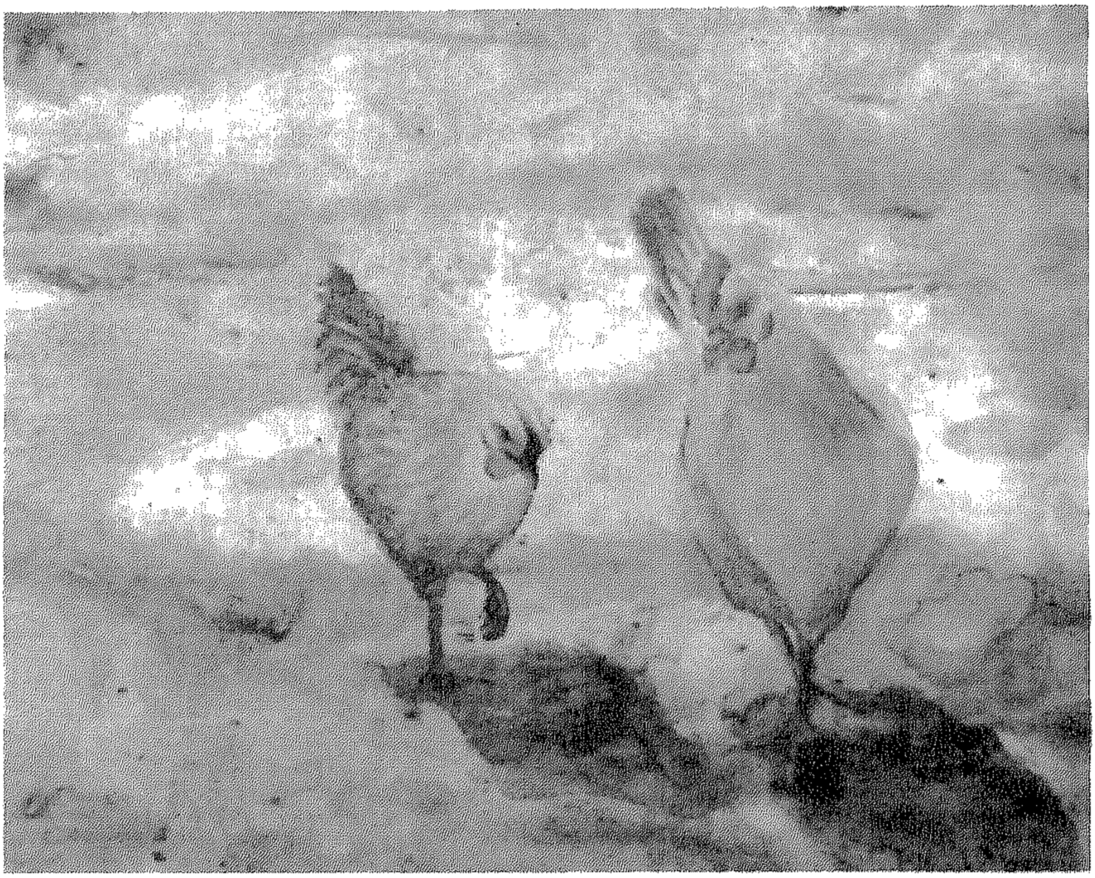

فراخ الفيوم للفنانة الهولندية برونيللا هوك

الطبيعة الأم، نظراً لقولبة الإنسان فى أنماط صناعية ميكانيكية مادية تزيد مساحات الانفصال بينهما فتشتد جذوة الحنين فيجد فى مثل هذه الأعمال ملاذه ليسعد بلحظات لقاء واندماج مع بيئة معينة فى زمن معين يفتقدها فيستحضرها عبر الفن، ولعل هذا ودوافع أخرى يفسر وجود تفضيلات جمالية طويلة الأمد معينة من الموضوعات أو الأساليب الفنية أو الفنانين أو أنماط معينة من البيئات الريفية أو المدنية، ويضع فن المنظر الخلوى ضمن هذه التفضيلات طويلة الأمد.

وفى سياق استمرارية أو استدامة فن المنظر فى حركة الفن المصرى وفى ظل الفن الحديث بمفهومه الواسع يجتمع ثلاثة من محترفيه يمثلون ثلاثة أجيال متعاقبة وهم محمد صبرى مواليد ١٩٣٠، وحسن عبدالفتاح مواليد ١٩٤٠، وإبراهيم غزالة ١٩٦٠، ويقدم كل منهم تجربته الخاصة التى لا شك فى أنها تبلورت فى ظل سياقات معرفية تشترك وتختلف وفقاً للمكونات الثقافية

العامة والخاصة لكل منهم.

ويظهر محمد صبرى فى ثوبه التقليدى المألوف ويقدم مناظره من القاهرة القديمة والمغرب وإسبانيا.. ثلاثة أماكن مختلفة لكل منها ملامحها الواقعية المحددة لهويتها المكانية والثقافية، التى تذوب فى إطار أسلوب فنى لا يقيم للتوترات الداخلية وزناً، إذ يبدو عالمه الداخلى رائقاً نظيفاً معزولاً تماماً عن الأجواء الخارجية وصراعاتها، أو مجرداً من معظم الأبعاد الحياتية وسياقاتها المعرفية ما عدا خبراته الفنية فى إطارها الأكاديمى بجمالياتها التقليدية التى يمتلك ناصيتها مع تقنية ألوان الباستيل إلى حد ربما لا يبارى، ويطبع أعماله بجمال زخرفى خالٍ من المتغيرات الزمنية وتفاعلاتها مع المكان بعناصره مجتمعة، فهو يصور أماكن مختلفة فى زمن واحد يخلو من توترات الحياة العصرية، إذ تظهر أشخاصه فى أزياء تقليدية قديمة كما تتأنق عمائره بمسطحات وخطوط نظيفة جديدة لا يعتريها أى مما أصاب وجه القاهرة القديمة حديثاً من آثار الشيخوخة أو تشوهات معطيات زماننا المعاصر، وهو بذلك يكون كلاسيكياً بما تظهره أعماله من نزعة مثالية تجميلية، فلا شك فى أنه متفرد بأسلوبه وخبراته مع تقنية الباستيل التى أسرته برقتها فى موضوعات محددة منذ بداياته حتى الآن.

«برونيللا هوك» ومغامرات فراخ الفيوم

نستغرب أحيانا نحن الشرقيين حينما نرى الإنسان يأنس للطير أو الحيوان ويحنو عليهما ويأمن لهما، وعلى النقيض من هذا نراه حذراً متوجساً عدوانياً فى علاقاته مع بنى جنسه، إذ يمشى فى الأرض فساداً يقتل الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، ويدمر العمران ويشعل نيران الشر لتأكل الأخضر واليابس، هذه التداعيات طفت على سطح الوعى فور تعرفى على تجربة الفنانة «برونيللا هوك» التى تقدمها فى خان المغربى تحت عنوان «مغامرات فراخ الفيوم»، إذ تعيد إلى الأذهان تلك العلاقة الأزلية بين الإنسان والطير والحيوان، التى كان لها - فى العصور القديمة - مبرراتها الفكرية والعقائدية، ولها أيضا مبرراتها النفعية المستديمة، وفى عصرنا الحاضر تكتسب مبررات نفسية تختلف من ثقافة إلى أخرى وفقاً لأنماط الحياة، وتشير إلى درجة عالية من التناقض إلى حد الاستغراب والارتباك وربما الارتياب، إذ يقف العقل البشرى رغم ما وصل إليه من علم فى عجز أمام تلك الحالات

لوحة أخرى من معرض مغامرات فراخ الفيوم - برونيللا هوك

بما تتسم به من غموض ولا معقولية، وخاصة فى تلك المجتمعات التى سيطرت عليها التكنولوجيا، حيث يعيش إنسانها فى حالة من الاغتراب والقلق الروحى لافتقاده للتواصل الإنسانى المباشر مع بنى جنسه والعالم الطبيعى الذى أصبح معزولاً عنه فى قوالب صناعية سياسية اقتصادية.

وتقدم لنا الفنانة «برونيللا هوك» عبر الفن فصلاً درامياً من هذه العلاقة يحمل أبعاداً إنسانية جديرة بالاهتمام والتأمل، لعلنا ندرك ما وراءها من أبعاد غائبة، فهى تتسم بالعصرية بدوافعها النفسية والفكرية، التى تجعل من الفراخ موضوعاً فنياً خالصاً يطرح العديد من الأسئلة تحتمل إجاباتها الكثير من التأويل، ففى أعمالها ترتقى الفراخ من دورها الهامشى فى المناظر

الريفية، وتأخذ أهمية كبرى تتوازى وأهمية الإنسان فى العمل الفنى، الذى كان محور العملية الإبداعية وقانونها الجمالى فى التجربة الغربية، إذ تكتسب صفاتها الإنسانية من المستوى الواقعى فى التجربة حينما نعلم أنها تقوم بدور الونيس ورفيق الرحلة لصاحبتها «برونيللا» - مواليد ١٩٥١ - وهى وحيدة مغتربة بوادى الفيوم بعيداً عن وطنها وأسرتها منذ ٢٠٠٢، وتفتقد أخواتها اللاتى كن معها فى منزل العائلة بلندن كما أنها فقدت أمها حديثاً، فتجد نفسها وحيدة فى عالم مختلف بجغرافيته ومعطياته المرئية والثقافية وتحمل بداخلها مشاعر الغربة، الأمر الذى دعاها إلى ابتكار حل لمشكلاتها باقتناء سبع «فروجات» من أحد مزارع الفيوم، وأعطت لكل منها اسم إحدى أخواتها، وتمضى معظم أوقاتها فى محادثتهن ومراقبتهن، وهذا الحل الابتكارى لأزمتها يبدو لنا غريباً وربما لا يأتى إلا من روح مبدعة خلاقة، ولكن إذا أمعنا النظر نجده بدائيا بسيطا تمارسه فتيات مصر فى الريف أو المدينة وخاصة جليسات المنزل أو المتهنات لمهنة الزراعة، فرغم اختلاف الهدف والغاية إلا أنه يشير إلى احتياج نفسى ربما ينبع من مشاعر الوحدة أو الاحتياج لونيس آمن يصون الأسرار، فربما ينعم الإنسان الحديث من علاقاته بالكائنات الأخرى بنوع من السعادة ينبع من الإحساس بأمان وحرية يفتقدهما فى حياته اليومية فى سياق المنظومة الاجتماعية ومعاييرها القيمية، وقد يتشابه هذا مع ما يتم من علاقات إنسانية وهمية عبر شبكة «الإنترنت» وبصورة أخرى يتشابه مع فكرة التخفى فى حفلات التنكر حيث التحرر من الأقنعة الاجتماعية المحددة لهوية الفرد بارتداء قناع يكسبه هوية مجهولة ينعم من خلالها بقدر من الحرية، فمثل هذه الأفكار تنبع من دوافع نفسية اجتماعية، وفى حالة «برونيللا» يأتى الفن متمثلاً فى التصوير ليجمع بين عالمين مختلفين غير متكافئين وربما يتكاملان فى سلام وتآخ رغم أن أحدهما يمتلك أسباب التفوق الذهنى والعضلى، فهل يدوم هذا السلام المؤقت؟.. ففى حقيقة الأمر أن ظهور هذه العلاقة عبر الفن الآن يعد أمراً مدهشاً يحتمل الكثير من التأويل فى ظل سياق عالمى يفتقر إلى السلام والأمان ويستثير غرائز التوحش والافتراس الخامدة أو التى هذبتها حكمة الحضارة، وهنا تأخذ تجربة الفنانة الإنجليزية أهميتها فى كونها تشير إلى أزمة الإنسان المعاصر من

كل أبعادها، فتمثل احتجاجاً بليغاً على ما آلت إليه حالة الإنسانية من ترد على أيدى الساسة ومن وجهة نظر أخرى حينما نحصر التجربة فى طبيعة العلاقة النفعية المادية بين طرفيها، وذلك فى ضوء نظرية البقاء للأقوى، التى تحكم عالم اليوم بنظريات استعمارية جديدة ، فسنجد أنفسنا أمام تساؤلات أهمها: هل هى محاولة خادعة من الإنسان الأقوى صاحب العقل والذاكرة التاريخية لفريسته الفراخ المدفوعة بغرائزها؟.. أم أنها لعبة استعمارية خادعة تتوازى وثقافة التمويه والتخفى تحت ستار السلام وحقوق الإنسان والحيوان وغيرها.

وبعد هذا الطرح الذى يبدو مدفوعاً بسياقاتنا المعاصرة التى لا تخل من الجذر والشك والارتياب، نعود ونتجرد من كل هذا وننظر لأعمال «برونيللا» على أنها نابعة من رؤية خالصة مدفوعة بخبرة إنسانية حياتية بريئة، تنتقل فيها القيمة النفعية للفراخ إلى أخرى معنوية نفسية جمالية فى إطار لغة فنية لها دلالاتها الرمزية بفعل معالجات الخط واللون وتوظيف طاقاتها التعبيرية وإمكاناتهما الوصفية لتجسيد أجواء لها ملامح مكانية زمانية خاصة تقترب من الطبيعة مجردة من واقعها المألوف، إذ نرى «برونيللا» متمثلة فى فروجها بين رمال صفراء أو فى وسط العواصف ورياح الخماسين بين الأرض والسماء، أو تحت أمواج بحر زرقاء، أو في قلب حمم بركانية حمراء، فهى فى جميع الأحوال تحيا فى طبيعة تتدفق صياغاتها الفنية بدلالاتها الطبيعية والرمزية من مشاعرها مباشرة، متأثرة بالمعطيات المرئية لبيئة جديدة عنها تخضع لشمس قوية يسطع ضوؤها فيجعلها متباينة مع تلك الأجواء الباستيلية التى نجدها فى أوروبا الغربية، فأصبحت الفراخ وما تحيا فيه من أجواء تجسيداً للتجربة الشعورية للفنانة «برونيللا» مع الحياة المصرية عبر رحلاتها وجولاتها فى ربوعها المختلفة، فتتدفق إيقاعاتها اللونية من طاقة روحية غامضة، فتقترب من هؤلاء الرمزيين أمثال «أديلون ريدون» فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذين خاضوا تجربة مقاومة الثقافة المادية التى سيطرت على الحياة الأوروبية فى ذلك الوقت، ويبقى المكان هو المثير الإبداعى لتجربة «برونيللا» التى من أحد جوانبها تذكرنا بتجربة المستشرقين مع مصر ومعطياتها البصرية مع اختلاف الهدف أو الغاية.

وهكذا بين برونيللا الإنجليزية والمصرى محمد صبر تتجلى الموضوعات التقليدية للطبيعة فى سياقات معرفية متمايزة وتكتسب كل منها خصوصيتها من ذاتية صاحبها. ■

أشعار لها أنغام

بقلم
فــرج العنتـــــرى

ثابت أن ارتبـاط الشعـر بالموسيـقى له تاريخ طويل يمتد من أحقاب البداوة الأولى للمجتمعات حتى الآن وقطعاً لما بعد الآن، وفى حال من العمومية التى سادت وتسود كل الشعوب الناهضة بدون استثناء. وبذلك فلا ولن تأخذنا الدهشة إذا ما وجدنا أن نفس كلمة «شاعر» العربية ثابتة فى كلمة «شارو» Sharu الدالة علي «رئيس جوقة الإنشاد» فى اللغة الآشورية»، وأن كلمة «شيــرو» Shiru التى كانت تدل على «الترتيلة» فى اللغة الآشورية، أيضاً لها نفس الدلالة فى كلمة «شعر» العربية، وأن كلمة «زمارو» Zamaru الآشورية تتناظر كذلك مع مفهوم كلمة «زمــراه» Zimrah الدالة على كل من صيغتى «الأغنية» و«المزمور» فى اللغة العبرانية، كما تتناظر مع نفس كلمة «زمر» العربية.

ونفس هذا التلازم نجده متحققاً كذلك فى اللغات الأوروبية إذ أن الكلمة الانجليزية القديمة Glee التى كانت تدل فى حينها على شخصية «الموسيقار» Musician، إنما صدرت أصلاً عن كلمة Gelo التى كانت تدل على «الشاعر المنشد»، وأن تسمية «التروبادور» الإسبانية Trobadors قد استولدت لدلالتها مسميات مختلفة التهجي فى كل من جهات شمالى وجنوبى فرنسا وإيطاليا وفى ألمانيا هى على التوالى: تروفير Trouveres، مينسترال Minstrels –، مينيسنجر Minesingers، ماسترنجر Mastersinger، ولنا نحن العرب أن نتباهى هنا بأن الأصل فى نشأة وظهور المصطلح الإسبانى «ترو بادور» إنما هو راجع بشهادة التاريخ إلى المصطلح «العربى»، «طرب دور» الذى كان يشير إلى «دور الطرب»!!

وأما عن قيمة وفاعلية ذلك «الشاعر المنشد» بين ذويه، فإن نشاطه لم يكن يقتصر وحسب على تمديح الرؤساء والحكام، وإنما كان عليه أن يولى أكبر اهتماماته الإنشادية إلى صوغ فن «التأريخ المنغوم» لتخليد بطولات الصناديد، وعلى بثه فى وجدانات وذاكرة الجماهير بأسلوب حماسى يعتمد على مؤثرات تعبيرية من قوة التلفظ والتفخيم، وعلى المبالغات فى التصوير، وبمراعاة دقة التحرى فى سرد

تفاصيل الوقائع من مبتدئها إلى منتهاها ، ومع ذكر أدوات القتال ومصادر صناعتها؛ وبالعمل أساساً على ذم الأعداء بأقبح وأوجع معايبهم ... ...، وبكل ذلك سنجد هذا الدور بحسب مفهومنا العصرى أشبه شيء بمحطة إرسال إذاعية توجه مواد برامجها المنتقاة إلى متسع الجبهة الداخلية فى مناسبات السراء والضراء وحين البأس وهى مدعومة بنوع من صدح التنغيم الملائم والباعث على الانتفاضة فى أوقات التعبئة العامة لسبب أو لآخر.

وبهذا المفهوم حاز «الشاعر المنشد» فى مجتمعه التاريخى أعلى مستويات التجلة والتقدير، وإلى الحد الذى كان يستحيل فى كثير من المجتمعات الأوروبية القديمة أن توكل مهمته لغير طبقة «الأحرار»، ويكفى شاهداً على مراعاة هذا الامتياز أن البريطانيين المشهورين منذ القدم بوجوب التزامهم بمراعاة الفروق الطبقية، كانوا يضعون مرتبة «شاعرهم الموسيقار» Gleeman تاليا فى المراسم على طبقتى النبلاء Scop والحاشية، وهذا مع ماثبت من أن شاعرهم الغنائى هذا كان محترفا يؤدى فنه نظير الأجر، بل وكان يمارس إلى جانب إنشاده ضروبا من حركات التقافز الاكروباتى، ومن ألاعيب الحواة الذين يضعهم مفهومنا العصرى فى زمرة «المحبظين» أو فى مستوى «الأديب الأدباتى»!!

وفيما يتعلق بأقدم نماذجنا العربية للحقبة البدوية يمكننا أن نستشهد بالدور المشهور لشاعر نجد وفارسها عنترة العبسى المتوفى حوالى سنة ٦٠٠م إذ أنه فى بطولاته القتالية وحسبما جاء فى نص أشعاره كان:

فتى يخوض غمار الحرب مبتسما
وينثنى وسنان الرمح مختضب
إن سل صارمه سالت مضاربه
وأشرق الجو وانشقت به الحجب

وبأنه أثناء معاركه كانت صورة معشوقة قلبه تراوده فى معمعان قتاله الدامى فيناجيها والسيوف تنوشه من كل جانب فى قوله :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم!!

وكذلك نجد فى أشعار عمرو بن كلثوم - سيد بنى تغلب وشاعرها - آيات تعبيرية لا ضريب لها قط فى منتهى الشموخ بذويه بنى تغلب إباء وبطشاً وكرما وزهوا ورجولة بل وحتى لطفولتهم فيما يلى من معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
وقد علم القبائل من معد

إذا قبــب بأبطحــها بنينــا
بأنــا المطعمــون إذا قــدرنا
وأنــا المهلكــون إذا ابتلينــا
وأنــا المانعــون لمــا أردنــا
وأنــا النــازلون بحيــث شــينا
وأنــا التــاركون إذا سخطنــا
وأنــا الآخــذون إذا رضــينا
ونشــرب إن وردنــا المــاء صــفوا
ويشــرب غيــرنا كــدرا وطيــنا
وان بلــغ الفطــام لنــا وليــد
تخــر لــه الجــبابر ساجديــنا

وحسب الدلالة لصورة هذا الشموخ التغلبى أن تشير إلى أن طفلهم الرضيع لايكاد يبلغ سن الفطام حتى تمنحه القصيدة مراسم انحناء كل رؤوس الأكابر فى زمانهم!!

فإذا انتقلنا إلى نماذج من النظم الانشادى فى فجر الإسلام لأمكننا أن نجد ضمن التجهيزات الميدانية فى جيش المشركين لغزوة أحد طاقما كوراليا من نساء قريش بقيادة « المايسترو » هند بنت عتبة التى تولت مهمة ضبط وربط التوقيع لإنشاديات التحريض والتحميس بدقاتها على طبل الدف فى عبارات واعدة بمتعة الثواب النسائى الشهى مكافأة لحيازة النصر، وإلا فبالعقاب الفاضح والطلاق القاطع إن حدثت الهزيمة فى النص المشهور:

نحن بنــات طــارق — نمشــى على النمــارق
مشى الخطا البوارق — والمســك فى المفــارق
إن تقبلــوا ، نعانــق — ونفــرش النمــارق
أو تدبــروا نفــارق — فــراق غيــر وامــق
زوج المــولى طالــق — والعــار منــه لاحــق

وما أن كادت بوادر النصر تميل فى البداية لصالح الجيش الإسلامى حتى ضاعفت هند بنت عتبة من وخز لذعات التحميس بكورالها الزاعق:

ويهــا ، بنى عبــد الدار — ويهــا ، حمــاة الأديــار
ضربا بكل بتار

فكان أن انعكست النتيجة بأن دارت الدائرة على المسلمين فعلا كما هو معروف!!

وكذلك تحدثنا السيرة الحلبية عن فاعلية القدوة المثلى فى نموذجية الصمود بغزوة «حنين» عندما أعجب المسلمين كثرتهم «فلم تغن عنهم من الله شيئاً وضاقت عليهم الأرض بما رحبت» فولوا مدبرين أمام المشركين من هوازن، وتركوا رسول الله وحده يجالد منفرداً وهو يصيح بدوى نشيده:

أنــا النبــى لا كــذب — أنــا بن عبــد المطلــب

ففعلت صيحاته الأفاعيل فى النفوس الأبية من آل بيته ومن الانصار فرجعوا جميعاً ، ونازلوا فجالدوا حتى أنزلوا بالعدو أوجع هزيمة تاريخية ساحقة.

وإذا انتقلنا إلى محصول حياتنا المعاصرة من أشعار وأنغام المقاومة فى الإباء، ولتحقيق الحياة الانسانية الحرة والكريمة بعد أن ضاقت بلادنا ذرعا من وطأة معاناة الكبت والظلم الاجتماعى، ومن وجود المحتل الانجليزى فى قاعدة قنالنا، سنجد سعير السخط الجماهيرى مدويا فى سنة ١٩٥١ بآيات النشيد الذى ابتعثته أحداث الفدائيين فى منطقة قنال السويس قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، والذى كان قد انحبس إرساله إذاعيا فما تم الإفراج عنه إلا فى يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢، وتعدلت فى مطلع أبياته صيغة ضمير المخاطب من «كنت» إلى «أنت» بالصراحة المباشرة، وبالعنوان الصريح بأنه «نشيد الحرية» لمصر، فى نظم كامل الشناوى وميلوديا وغناء محمد عبد الوهاب، وبالتوزيع الأوركسترالى والهارمونى للفنان الايطالى چوليو لاپاتى، وبالمقدمة الحيوية المشهورة التى ظلت حتى الآن شعاراً لنشرة الأخبار فى إذاعتنا، وبما يلى من ضدع الشعر وصدح التنغيم فى هذه الأبيات:

كنت فى صمتك مرغم
كنت فى حبك مكره
فتكلم ، وتألم، وتعلم كيف تكره
عرضك الغالى على الظالم هان
ومشى العار إليه وإليك
أرضك الحرة غطاها الهوان
وطغى الظلم عليها وعليك
قدم الآجال قربانا لعرضك
واجعل العمر سياجاً حول أرضك
وإذا ما هتف الهول بنا
فليقل كل فتى إنى هنا
أنا يا مصر فتاك، بدمى أحمى حماك، ودمى ملء ثراك

***

بلدى، لاعشت إن لم أفتد
يومك الحر بيومى وغدى
نازفا من أعدائك ما
نزفوه من أبى وولدى
آخذاً حريتى من غاصبيها
سالبيها ، وبروحى أفتديها
هات أذنيك معى ، واسمع معى
صيحة اليقظة تجتاح الجموع
صيحة شدت ظهور الركع
ومحت اصداؤها عار الخضوع
أنا يا مصر فتاك ، بدمى أحمى حماك ، ودمى ملء ثراك

***

أنت إن لـــم تتحـــرر بيـــدى يا بلـــدى
فسأمضـــى أتحـــرر من قيـــود الجسد
لا أبالـــــى الهـــــول ، بـــل أعشـــقه
لا أبـــــاليـــــه وإن مت صـــريعـــــاً
إنـــــه لـــــو لـــم أكـــن أخلقــــه
لأرى فيـــــه ضـــحايانـــا جميعـــاً
فاحتـــــرم بالذكـــر ذكـــرى شـــهدائك
بذلـــــوا أرواحهـــــم بـــــذل السخـــى
وانتقـــم إن هـــــنا أزكـــــى دمائـــك
وهنـــــــا أمـــــــى واختـــــى وأخـــى
فى دماهــــــم أمــــل النـــيل توحـــد
فى دماهــــــم دم عيســـــى ومحمـــــد
أنا يا مصر فتاك ، بدمى أحمى حماك ، ودمى ملء ثراك

***

ومع حدوث المعجزة الكبرى بتأميم قناة السويس - قناتنا! - فى سنة ١٩٥٦، قامت قيامة العدوان الثلاثى بضم شمل الاستعمارى التعس على خائب الرجاء الصهيونى لاستردادها، فهب الشعب كل الشعب بالسلاح وبنضال بذل الأرواح على مارش أبيات نشيدنا الوطنى التاريخى من نظم شاعرنا صلاح جاهين وموسيقارنا كمال الطويل ، وبحنجرة أم كلثوم العرب ، وترديد كورالات شعبنا:

والله زمان ياسلاحى   اشتقت لك فى كفاحى
انطلق وقل أنا صاحى   ياحرب ، والله زمان
والله زمان ع الجنود   زاحفة بترعد رعود
حالفه تروح لم تعود   إلا بنصر الزمان

***

هموا وضموا الصفوف   شالوا الحياة ع الكفوف
ياما العدو راح يشوف   منهم فى نار الميدان

***

يامجد ، يا مجدنا   يااللى انبنيت عندنا
بشقانا وكدنا   • عمرك ماتبقى هوان

وهو النشيد الذى قررته حكومة الثورة شعاراً رسمياً لمصرنا ، وظل كذلك إلى أن ألح الصهيونى الليكودى مناحم بيجين على تغييره فى عهد الرئيس أنور السادات، فتم استبداله بنشيد بلادى بلادى الذى جهزه وقاده اللواء الموسيقار محمد عبد الوهاب لأول مرة فى مراسم استقبال الرئيس السادات من كامب ديفيد سنة ١٩٧٨، فظل معنا النشيد الجماهيرى الذى كانت قد استولدته قيامة العدوان الثلاثى بمقذوفاته التعبيرية من نظم عبد الله شمس الدين ولحن محمود الشريف لأداء المجموعات الكورالية، وبالتالى اتخذته الشقيقة ليبيا نشيدها الرسمى بنفس نصه ولحنه:

الله أكبـــر فـــوق كيــد المعتـــدى
والله للمظـــلوم خيــــر مـــؤيــــد
أنـــا باليقـــين وبالســــلاح سأفتـــدى
بلــــدى ونــور الحـق يسـطع فى يدى
قــولـــوا معـــــى ، قــولـــوا معـــى
اللـــــه اللـــــه أكبـــــــر
الله فوق المعتدى
يا هـــذه الدنيــــا أطلـــى واســمعـى
جيش الأعــادى جــاء يبغـى مصرعى
بالحـــــق ســــوف أرده ويمدفعـــى
وإذا فنيــت فســــوف أفنيـــه معـــى
قــولـــوا معـــــى ، قــولـــوا معـــى
اللـــــه اللـــــه أكبـــــــر
الله فوق المعتدى
قــولـــوا معـــى الويــل للمســـتعمــر
والله فــــوق الغـــــادر المتكبــــر
الله أكبـــــر يابـــــلادى كبــــرى
وخـــذى بناصـــية المغيــر ودمـــرى
قــولـــوا معـــــى ، قــولـــوا معـــى
اللـــــه اللـــــه أكبـــــــر
الله فوق المعتدى

ولدينا أيضاً تعابير النشيد الرسمى الخاص بثورة المليون شهيد الذين رووا بدمائهم تراب الوطن الجزائرى الشقيق وهو نشيد مفعم بتوكيدات القسم الثلاثى على حيازة النصر أو الشهادة فى أشعار أبو عبد الله صالح، وموسيقى محمد فوزى الحو وللأداء الجماهيرى بما يلى:

قســـمـا بالنــــازلات المــاحقـــات
والدمــــاء الزاكيـــات الطاهـــــرات
والبنـــــود اللامعـــات الخافقـــات
فى الجبــــال الشامخــات الشاهقــات
نحن ثرنـــا فى حيـــاة أو ممـــات
وعقــدنا العــزم ان تحــيا الجــزائر

***

نحن جنــد فى ســبيل الحـق ثرنـــا
وإلى اســـتقلالنا بالحـــرب قمنــــا
لم نكن يصـــغى لنـــا لمـــا نطقنـــا
فاتخـــذنا رنـــة البـــارود وزنـــا
وعزفنـــا نغمـــة الرشـــاش لحـــنا

وعقـــدنا العـــزم أن تحـيا الجـــزائر

***

نحـن من أطفـــالنا نصـــنع جنـــداً
وعلـــى أشلائنـــا نصـــنع مجـــدا
وعلـى أرواحنـــا نصـــنع خـــلـــدا
وعلى هـاماتـــنـــا نرفـــع بنـــدا
جبهـــة التحـــرير، اعطينـــاك عهدا
وعقدنـــا العـــزم أن تحـــيا الجـــزائر

***

صـــرخة الأوطـــان فى ســـاح الفـــدا
إســـمعوهـــا واســـتجيبـــوا للنـــدا
واذكروهـــــا بدمـــــاء الشـــــهدا
واقرأوهـــــا لبنـــى الجيـــل غـــدا
قـــد مددنـــا لـك يامجـــد يـــدا
وعقـــدنا العـــزم أن تحـــيا الجـــزائر

***

وعن أوجاع فلسطين التى تتداعى لهـا بالروح وبالدم والسـهر كافة شعوب القومية العربية حتى تنهض موفورة العافية والكرامة على أرضها، وبكامل حقها كدولة عاصمتها القدس، نستعرض فيما يلى نفثات حارة عنها ولها من المختارات فى نظم الابنودى، ولحن بليغ حـمدى، وتوزيع على إسماعيل، وأداء عبد الحليم حافظ والمجموعة، وفى «كلمة لكل الدنيا»:

ياكلمتى لفى ولفى الدنيا طولها وعرضها
وفتحى عيون البشر ع اللى حصل على أرضها
على أرضها، طبع المسيح قدمه
على أرضها، نزف المسيح ألمه
فى القدس، فى طريق الآلام، وفى الخليل
رنت تراتيل الكنايس فى الخلا، صبح الوجود إنجيل
نفضل نضيع فيك لأمتى ياطريق الآلام
ولأمتى فيك يمشى جريح
ولأمتى فيك يفضل يصيح
مسيح وراه مسيح على أرضها
تاج الشوك فوق جبينه
وفوق كتفه الصليب !

***

دلوقت ياقدس ، ابنك زى المسيح غريب
تاج الشوك فوق جبينه وفوق كتفه الصليب
خانوه نفس اليهود!!

ابنك ياقدس، زى المسيح لازم يعود
على أرضها لازم يعود، على أرضها لازم يعود.

***

وعن «دق أجراس العودة» فى نظم ولحن وأداء الرحابنة العظام عاصى ومنصور وفيروز التنغيم فى سمع شرقنا الأوسط، سينطلق استهلال النشيد فى أسلوبه العسكرى بصياح من نفير الاحتشاد، فتحدو فيروز فى تعجل آمر ينفعل له الرجال بردود من تحمس الاستجابة:

المجموعة :

سيف فليشهر فى الدنيا ، وتصدح أبواق تصدح
» » » » ، » » »
» » » » ، » » »
الآن الآن وليس غدا ، أجراس العودة فلتقرع
» » » » ، » » »

فيروز :

أنا لا أنساك فلسطين ويشد يشد بى البعد
أنا فى أفيائك نسرين أنا زهر الشوق أنا الورد

المجموعة :

سندك ندك الأسوار نستلهم ذاك الغار
ونعيد إلى الدار الدار نمحو بالنار النار
فلتصدح أبواق تقرع قد جن دم الاحرار

فيروز :

الآن الآن وليس غداً : ....

المجموعة:

.... أجراس العودة فلتقرع

فيروز :

الآن الآن وليس غداً : ....

المجموعة:

.... أجراس العودة فلتقرع

وقد لايتبقى من عرض النماذج إلا توصية عامة وهامة فى شكل أنشودة ختامية من نظم أحمد شفيق كامل وموسيقى كمال الطويل وإنما لأداء جموعنا من المحيط إلى الخليج بفهم، وإدراك ثورى قومى مبين:

خللى السلاح صاحى صاحى
لو نامت الدنيا، صاحى مع سلاحى
سلاحى فى إيديه ، نهار وليل صاحى
بينادى ياثوار ، عدونا جبار
خللوا السلاح صاحى ... صاحى ... صاحى!! ■

أم كلثوم أكبر من الحب

بقلم
محمد التهامى

تناول الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن بفنه واستاذيته ومقدرته الفائقة على التناول ما سماه خفايا قصة الحب بين رامى وأم كلثوم وذلك فى مجلة الهلال عدد شهر مارس ٢٠٠٤

وقد كتب الأستاذ محفوظ قصة وسيناريو مسلسل أم كلثوم وهو تلك التحفة الفنية التى أعادت إلى الأذهان صورة جميلة حية نابضة من تاريخ مصر الحديث بما حفلت به من تحركات وسكنات عظماء ذلك العهد الجميل فى مجال الغناء والموسيقى والأدب والاجتماع وحتى السياسة .

ولذلك فهو أجدر وأقدر من يكتب عن هذه القصة وخاصة وهو بما جبل عليه من شغف بالإتقان ومقدرة عليه تابع كل المراجع المتاحة وعايشها ثم صاغ المقال عن قصة الحب وهو يضع فى ثناياها الخطوط واللمسات التى تحدد معالم شخصية أم كلثوم وهو فى هذا المجال يقول : «أم كلثوم هى أشهر امرأة عربية بعد شجرة الدر» .

ويقول : إن أحمد رامى هو البطل الثانى للقصة ، أى أن أم كلثوم هى الشخصية الأولى .. ويقول : إن أم كلثوم كانت أقل استعدادا لقصة الحب فقد شغلها ولا شك أنها تتحول من مطربة ريفية تائهة بين القرى إلى مطربة مهمة فى العاصمة .. ويقول عن أم كلثوم فى أول عهدها بالقاهرة إنها كانت تلبس ملابس الرجال .. ويقول : تقول أم كلثوم فى شهادتها : ووعد رامى أن يزورنى بعد أيام فى منزلى بعابدين ليقدم لى القصيدة بعد إتمامها .. ويضيف وهى صيغة لا نعرف منها إذا كان هو الذى اقترح أم هى التى دعته ونميل إلى الثانية لحياء رامى .. ويقول : وقدم العاشق تضحيته الكبرى بالتحول إلى ثقافة الشعر بالعامية ولا نعرف هل تجاوبت أم كلثوم أم توقفت عند استثمار هذا الحب وخاصة وأنه بغير زواج ليظل مصدر إبداع كبير .

وهكذا استطاع الكاتب الكبير أن يضع يده على أقدس أسرار أم كلثوم هذه الظاهرة البشرية الغريبة التى تفاعلت فيها معطيات بيئة مصرنا مع قدرات الموهبة الفطرية النادرة فصاغت حياة عبقرية قدمت فناً رفيعاً وسخرت كل طاقات الإنسان لتحقيق الهدف النبيل ، إذ كانت أم كلثوم لا تعرف شيئا ولا تأبه لشىء إلا للفن الذى اعطته كل مشاعرها واحاسيسها وقلبها وفكرها وعقلها وطاقتها بكل جهدها وأعطاها هو حتى أرضاها وأسعدها وكانت كثيرا ما تقول : «إنى أحسدكم لأنكم تسمعون أم كلثوم وليتنى استطيع أن اكون معكم لأسمعها» .

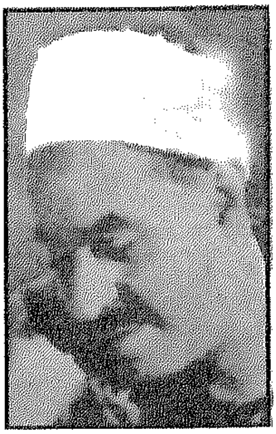
الشيخ محمد رفعت

وأم كلثوم كقامة مصرية عربية عالية وثروة فنية غالية ومعلم من معالم نهضتنا الحديثة فى مجال الفن حين يكون الفن عاملا مؤثرا فى جميع نواحى الحياة تستحق منا الكثير من الدراسة والتأمل واستخلاص العبرة الكبرى فى أن الإنسان إذا أخلص وتفانى وبذل كل طاقته سيصل حتما إلى مبتغاه .

وليتنا نستطيع أن نعطى لفن أم كلثوم .. وقد أصبحت فى ذمة الله .. من متابعة ودرس وتمحيص وتكريم وترويج وتمكين تجعله يشع ثقافة فنية تسبغ على جديدنا أصاله وتعطيه بريقا يتخطى الزمن ويؤكد الهوية فى مجال الحداثة ففى غناء أم كلثوم ثروة فنية لا تقل عما فى دراميات شكسبير التى غذا بها الانجليز ثقافة العالم وقالوا إنها إحدى دعائم الامبراطورية التى كانت لا تغيب عنها الشمس .

ولا يقتصر الأمر على إقامة التماثيل والمتاحف ولا على ترديد الأغانى كما هى بل يتعدى ذلك إلى دراسة جميع جوانب الإبداع الفنى ومحاولة تطويره لأن وثبات تطوير الغناء المعاصر عندنا الآن أصبحت وثبات عشوائية إلى المجهول فهى تنقل المتعة بالغناء من حاسة السمع إلى حاسة البصر وتجور على دور الكلمة وتجعل الموسيقى لا معنى لها وتخول الأغنية إلى رقصة «استربتيز» تكاد تفضى إلى إلغاء الغناء وتحويله إلى مجرد رقص .

وقد فتنت بأغانى أم كلثوم منذ نعومة أظفارى وتابعتها فى كل حفلاتها وقد تسنى لى فى أوائل الستينات أن اشارك فى حفل تكريم لها أقامه معهد الموسيقى العربية ابتهاجا بشفائها وعودتها من أمريكا وقد شارك فيها شعرا العقاد ورامى وكامل الشناوى وبيرم التونسى وغيرهم ، واذكر مطلع قصيدة العقاد وكان :

هلل الشرق بالدعاء

كوكب الشرق فى السماء

لو بقدر السرور نشدو

سبقناك فى الغناء

وكانت قصيدتى :

حدثونا يا صفوة الفن منا

ما الذى أطرب الوجود فغنى ؟

ولماذا تنغمت خطوات

لركاب الزمان فانساب لحنا ؟

ولماذا تزينت هذه الأرض

وأبدت من سحرها ما رأينا ؟

إن عرفتم وقد رأيتم أجيبوا

أو أجيبى يا أم كلثوم عنا

فيك سر من خالق الكون أدرى

بخفايا سرائر الكون منا

وقد أعجبت أم كلثوم بالقصيدة وأتيح لى من الاتصال بها ما عرفت به من بعض جوانب شخصيتها ومنطلقات أفكارها ودوافع تصرفاتها الكثير وقد طال الأخذ والرد بيننا طويلا حول أن تغنى شعرا لى آثرت أنا أن يكون وطنيا وأصرت على أن يكون عاطفيا وطال الأخذ والرد حتى اختارت أبياتا من قصيدتى عن فلسطين ومطلعها :

إن الذى زيفوه كله كذب

ما لليهود بدار أهلها عرب ؟

وقد اختارت بيتا من أخريات القصيدة لتبدأها به هو :

قد أذن الفجر فارتاح الألى صبروا

كم جن بالفجر سهران ومرتقب

وقد غيرت العبارة الأخيرة من البيت فجعلتها كم حن للفجر سهران ومرتقب

ولم تسعفها الأيام حتى تغنيها مع أنها كانت متحمسة لها وقد كررت أكثر من مرة – والله شاهد – قائلة : «إن حلمى الكبير أن أغنى للعرب فى تل أبيب»

ومن شدة افتتانى بغناء أم كلثوم كنت أحلم بأن تكون لها مدرسة تتبنى فيها

المواهب وتنميها على طريقتها وتشجعها وكتبت ذلك فى جريدة الزمان التى كنت أعمل بها فلم يعجب ذلك أم كلثوم وقالت لى أن أصحاب بوادر المواهب يستعجلون المكاسب ولا يتحملون المعاناة الواجبة ويظنون أن الطريق مفروش بالورد وضربت مثلا - وقد نشر رأيها هذا فى الصحف فى حينه بوالد نجاة الصغيرة - وقد لقبت بالصغيرة حينذاك لتمييزها عن المطربة نجاة على .. الذى يقدمها إلى الجمهور على صغر سنها وعدم تفرغها للدراسة فى المعاهد الموسيقية ولو تفرغت للدرسة لحققت نجاحا اكبر .

كانت أم كلثوم تعرف مدى ما بذلته فى سبيل التكوين وتذكره جيدا وتقدره وتعتز به وقد ذكرت أنها فى جلسة عائلية مع أحد رؤساء وزراء مصر (مصطفى النحاس) وحرمه (زينب الوكيل) وأحد أصدقاء الأسرة (فكرى أباظة) قالت لها حرم الرئيس :

- يا بختك يا أم كلثوم فقد أصبحت غنية جدا .

- لا يا سيدتى أنت أغنى منى .

- أغنى منك !! هل تبادليننى ؟

- نعم أبادلك ولكن بشرط أن استبعد من ثروتى (هرش العدة)

- ما هو هرش العدة ؟

- أى أن استبعد ما كسبته بعرق جبينى .

ابرهيم ناجي

إن أم كلثوم كانت تعشق الغناء إلى حد الهوس والفناء فيه والترهب فى محرابه وجعله المحور الذى تدور حوله كل عناصر حياتها كانت تقول بفرح شديد إنه من الغريب جدا أن بعض الأطباء فى مصر كانوا ينصحون بالتوقف عن الغناء للعلاج بينما الأطباء فى أمريكا كانوا يرون أن الغناء علاج لى ، وكانت تغنى وتستغرق فى الغناء وتتفنن فيه حتى وإن لم يدرك الجمهور أبعاد هذا التفنن فهى تغنى لنفسها.. قلت لها يوما وأنا أحاول إثارة غيرتها من منافسها الأكبر : إنى سمعت فنانا يعيد ويكرر عبارة واحدة فى الأغنية ١٥ مرة قالت : عرفته ولكن هل فهمت من التكرار اختلافا فى المعنى ؟ إنه يقول فى إحدى المرات «آه لو كنت معى» ويطيل فى التاء كأنه يضيف إليها ألفا وكأنه يخاطب المثنى فهل هذا ما يقصده ؟ أم أنه تكرار عشوائى .. فقلت لها وأنت أيضا تكررين طربا وانسجاما فقالت نعم أنا أكرر ولكن لا أكرر إلا بتغيير المعنى وأنا فى هذه الليلة - وكانت ليلة الحفلة الشهرية - سأغنى أغنية فيها عبارة «واسلم الروح إليك» وسأكررها ثلاث مرات وأريدك أن

تتابع ثم تقول لى ماذا فهمت .

وبعد الحفلة وسماعى الأغنية سألتنى عما فهمت من تكرارها لعبارة «واسلم الروح إليك» ثلاث مرات .. وفى الحقيقة لم استطيع الإجابة بأكثر من إعجابى الشديد بما سمعت فقالت : يا سيدى وأنت من متابعى غناء أم كلثوم ومثلك الكثيرون لا تدركون أبعاد التصرف فى أداء معانى الكلمات وايحاءاتها ودلالاتها ومعانيها مما يجعل أم كلثوم تغنى لنفسها وحدها بالرغم من كثرة المعجبين المتحمسين لما يسمعون .. إنى انطق كلمة «واسلم» فى المرة الأولى فاضغط على جميع الحروف بدرجة واحدة سريعة مما يفيد معنى السلام والتحية وفى المرة الثانية أضغط على حرف اللام بشدة مما يفيد تسليم الأمانة وفى المرة الثالثة أمد حرف الواو بما يفيد الإستسلام .

وفى أغنية أخرى شرحت أداء عبارة «صبرت سنين على بعدك» فقالت: إنها تغنى كلمة سنين فى المرة الأولى بطريقة عادية لا تضغط على أى حرف فيها بما يفيد المرور العادى للزمن مع أمل اللقاء وفى المرة الثانية تطيل حرف الياء مع الضغط على حرف النون بما يفيد طول زمن الانتظار مع مرارة الاحساس بالبعد وفى الثالثة تطيل حرف الياء ولا تضغطه على النون بما يفيد طول الإنتظار مع اليأس من اللقاء .

وهذه الأغانى وغيرها مسجلة وموجودة وتسهل مراجعتها للتأكد من صدق هذا الشرح مما يوضح جمال وعبقرية الفن فى غناء أم كلثوم التى يجب أن نلفت الأجيال إلى عظمتها ونبوغها .

أما ما ذكره الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن من استثمار أم كلثوم للقدرة الفنية عند الشاعر أحمد رامى وتوجيهه إلى الإبداع باللغة العامية التى كانت تريدها ثم عدم زواجها منه بالرغم من حبهما الكبير لضمان استمرار توهج الحب فى الإبداع فهذه حقيقة أدركها الكاتب بحدسه ولو كان جالس أم كلثوم واستمع إلى خفايا أسرارها لأدرك أنه أصاب كبد الحقيقة بحذافيرها .. فقد كانت أم كلثوم تكرر كثيرا : أن أهم ثمرات الحب هى ما يبدعه المحبون من فن .. فالحب زائل أما الفن فهو الباقى .

وقد كان الشاعر ابراهيم ناجى يحلم ويحاول أن تغنى أم كلثوم من شعره فى حياته وكان كثير التردد عليها وقراءة شعره لها ولكنها لم تستجب له ويشاء القدر أن تغنى له بعد وفاته أشهر أغانيها «قصيدة الأطلال» وقد جمعتنى جلسة فى معهد الموسيقى العربية مع الشعراء صالح جودت وابراهيم ناجى ومصطفى عبدالرحمن ودار الحديث عن إصرار أم كلثوم حينذاك على غناء شعر أحمد رامى فقط رغم وجود الكثيرين من الشعراء

المعاصرين المجيدين واقترح صالح جودت وأصر الحاضرون على أن أحمل تساؤلهم هذا إلى أم كلثوم وقد كان فقالت أم كلثوم بعد فترة صمت : سأقول لك ما لم أقله لأحد : إني أغني شعر رامي لأني اعتقد أني ملهمة هذا الشعر وأن لي يدا في إبداعه وإني أعرف كل وجه اليقين كل خفايا دوافعه .. وقد تأثرت كثيرا عند سماعي هذا الكلام حتى قلت شعرا مرتجلا اسمعتها إياه فور سماعي لقولها مع إني عادة لا أرتجل الشعر وهذا الشعر هو :

يا مبدع اللحن توحيه وتعلمه
وأعذب الشعر ما غناه ملهمه
قد صغته مرة في قلب قائله
وصغته مرة فيما ترنمه
فأنت تعرف ما لم يبد قائله
وأنت تكشف ما يخفي ويكتمه
فكم سمعنا من الأنغام ما عجزت
عنه القوافي وحارت كيف تنظمه
إن قصر اللفظ عن معنى يراد به
فلحنك الحلو للمعنى يتممه
إن دق معنى وحدنا في تصوره
فأنت تفهم ما فيه وتفهمه

وهكذا امتدت شخصية أم كلثوم في تجلياتها الفنية حتى أنها تكاد تشارك في التأليف وتتفنن في الأداء وتطوع حروف الكلمات للمعاني المختلفة وتجعل من الغناء عالما فنيا يجمل الحياة ويشيع المتعة بها وببث السعادة فيها وتلك أقصى غايات الفن.

محمد عبد الوهاب

وأم كلثوم فضلا عن النعمة الربانية في طبيعة صوتها وأدواته وفضلا عن اجتهادها المستميت في سبيل تطوير الموهبة وفضلا عن تجاربها التي لا تحصى في لقاءاتها مع مختلف الشخصيات من جميع الأوساط وتأثرها بهم وتأثيرها فيهم إلا أنها كانت تدير هذه العلاقات مع الناس بحكمة ومقدرة بالغة وحسن تصرف .. فهي التي غنت أمام الملك فاروق في حفلة النادي الأهلي : «واحنا معانا بدر طالع في ليلة قدر» وحصلت على وسام (صاحبة العصمة) إلا أنها - حسب قولها - رفضت الغناء للملك في التليفون بينما غنت في التليفون لطفلة غريبة عنها مريضة في المستشفى حتى تنام .

وكانت تتخير لصداقتها ، وإذا صادقت أحبت فقد كانت صديقة لأسرة محمود فهمي النقراشي باشا وكانت ترى فيه الرجل الوطني الصادق النزيه ولما اغتيل تأثرت تأثراً كبيرا وبكت طويلا وطلبت مني أن اكتب شعرا فيه أنفاس الرثاء حتى تغنيه وألحت عليّ فكتبت مطلعا

لقصيدة يقول :

عهدتك لا تضن ولا تغيب

رويدك أيها الأمل الحبيب

ولكنى كنت أعرف أنها مغالية فى أحزانها وأنه انفعال وقتى فلم استرسل فى الكتابة وقد غضبت منى غضبا شديدا واتهمتنى - على حد قولها - بالخوف من الإخوان .

كانت أم كلثوم مغرمة جدا بشعر التراث تحبه وتتخير منه وتتعمق معناه وتسأل عن خفاياه وكانت تحفظ قصيدة ابن الرومى فى المغنية (وحيد) .

خليلى تيمتنى «وحيد»

ففؤادى بها معنى عميد

غادة زانها من الغصن قد

ومن الظبى مقلتان وجيد

وكان يعجبها جدا قوله :«وتغنى كأنها لا تغنى» وكانت تنتقد من يرهقون أنفسهم فى الغناء وتقول إنهم يرهقون المستمعين معهم .

وكانت تتعمق معانى الكلمات وتعيش فيها معايشة صادقة عميقة جدا وكانت تقول إنها وهى تغنى .وإذا رحمت فأنت أم أو أب .. هذان فى الدنيا هما الرحماء .. تتذكر أمها وتهطل دموعها ولكنها مع كل هذا العمق كانت قادرة على أن تنتقل من حال إلى حال فى لحظة ، ففى غنائها من قصيدة أبى فراس «وأذرفت دمعاً من خلائقه «الكبر» تخفض رأسها والدموع فى عينيها ثم ترفعها فى شموخ عند كلمة «الكبر» وفى رباعيات الخيام «يا عالم الأسرار علم اليقين» ترتفع فى رقة كلمة الأسرار حتى تصير خيطا رفيعا جدا من النور ثم تهبط فجأة بقوة شديدة فى كلمة «علم اليقين» .

كانت أم كلثوم تضحك كثيرا عندما كانت ترى بعض المغنيات يحاولن تقليدها فى الإمساك بمنديل عند الغناء وتقول إنى لا أمسك المنديل اعتباطا أو كنوع من أنواع (الديكور) ، ولكن حقيقة الأمر أنى استغرق فى الأداء بكل أعصابى ومشاعرى وأحاسيسى وأبذل غاية الجهد إلى أن يتفصد العرق من كفى وكنت وأنا صغيرة أغنى وأنا ارتدى ثوبا من القطيفة كان أبى يشتريه بأغلى الأثمان فى وقتها وكنت أجفف عرق يدى اثناء الغناء فى ثوبى مما يؤثر فيه وكان أبى يؤنبنى على ذلك حتى تصادف وجود أحد الأصدقاء فاقترح أن أمسك منديلا اثناء الغناء أجفف به عرق كفى ، وقد كان وأصبح ذلك ملازما لى وكنت اتخير المناديل فأصبح ذلك مظهرا من مظاهر الأناقة.

كانت أم كلثوم معجبة بقراءة الشيخ محمد رفعت للقرآن وتحب سماعة لقدرة الصوت وبراعة الأداء وحسن استثمار الموهوبة فى تقصى المعانى ، وقد حدث مرة أن كان الشيخ رفعت يقرأ فى سرادق بجوار منزلها فى الأربعينيات وكان الوقت

شتاء وكانت تعانى من البرد ولكنها فتحت النافذة ووقفت بها طيلة القراءة حتى أصيبت بنزله برد عانت منها مدة طويلة .

اعتقد أننا بالرغم من كل ما قيل وما كتب عن أم كلثوم ومسيرتها الفنية وعطائها الكبير ستظل فى حاجة ماسة لكثير من الدراسات لغنائها كظاهرة بارزة ومميزة من الظواهر الفنية فى تراثنا الغالى الذى يلمع فى تاريخنا المعاصر ويصبغ ثقافتنا ويثرى هويتنا ويميزنا عن غيرنا بما فيه من رومانسية طاغية الجمال والتأثير وما به من إرساء لقواعد فن رفيع له أثره البالغ فى أذواق الناس وسلوكياتهم .

وخاصة وأنه كما قدمنا فإن الوثبات الحديثة خرجت بالغناء عن المألوف خروجا شديدا كاد يقضى عليه ولابد من التشبث بالغناء الحقيقى حتى تعود السيطرة إلى غناء أم كلثوم التى لا تزال أغانيها حتى الآن مسيطرة على السوق بالرغم مما يبذل اعلاميا فى الترويج للحداثة الرعناء .

وفى الفترة الذهبية التى تسيد فيها الغناء عندنا فى أوج سلطانه الرفيع بأغانى أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش واسمهان وعبد الحليم حافظ وغيرهم ، بدأت ملامح التغيير العشوائى على استحياء فى ملامح الخروج فى بعض أغانى مطربة لبنانية شهيرة ، وقالت أم كلثوم فى حينها إن هذا تستطيعه كل انثى مغنية أو غير مغنية وتقول إنها فى غنائها بيت أحمد شوقى - كما سبقت الاشارة ..

محفوظ عبد الرحمن

وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء

كانت تتذكر أمها وتنسى نفسها فتطيل فى همزة الرحماء دون أن تشعر ولكنها سرعان ما كانت تعود إلى نفسها وتشعر بالخجل - على حد قولها - وتسرع فى الأداء بإحساس الفنان الملتزم المسئول أمام الجماهير ولما لمعت تحت الأضواء مطربة جزائرية كبيرة وكانت ترتدى ثوبا له (ديكولتيه) واسع كانت أم كلثوم تسخر من ذلك قائلة : إن هذه المطربة تغنى باكتافها .. وبديهى أن فى كلام أم كلثوم هذا بعض دوافع الغيرة وخشية المزاحمة لأنها بشر .. ولكنها كانت بهذا تحاول الوقوف أمام التيار الجارف للانحدار فى مجال الغناء الذى اكتسحنا هذه الأيام .

ولا يسعنى أخيرا إلا أن اشكر الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن الذى فتح لنا باب الحديث عن أم كلثوم فى مجلة الهلال رائدة الثقافة والعلم والمعرفة . ■

ليست الحياة إلا تكوينًا متصلًا على مدار الأيام والتجارب

د. هدى وصفى

ثمة صعوبة ما فى مسألة الكلام عن الذات ، فإن تتخذ من نفسك موضوعا هو أمر ينطوى على تجربة شاقة ، ولذلك كنت أتردد دائما فى الإقدام عليها ، وهذا قد يرجع - ربما - لتكوينى الأكاديمى ، وعادات البحث العلمى التى نشأت عليها ، والتى تجعل «الموضوع» شيئا خاضعا لأشكال من التأمل الصارم تتقصى خطوطه السلبية والإيجابية والتطورية ، تأمل مشروط بالقدرة (المدربة) على اتخاذ مسافة فاصلة بين الذات والموضوع ، أما أن تصبح الذات هى نفسها موضوع التأمل فهذا بالتأكيد أمر صعب .

ولذلك حينما طلبت منى مجلة «الهلال» أن أكتب عن تكوينى الفكرى والمهنى ، لا أخفى أننى ترددت قليلا ، وذلك لأن التقاط نقاط منفصلة على مسار زمنى متصل يمكن أن يكون بالنسبة لى عملا صعبا ومراوغا ، فهو يفترض مسافة وهمية بين حياة متكونة عشتها قبلا ، وذات تراها فى لحظة مفارقة ، هى أنا ، الآن .

ولكنى غالبت ترددى ، وقد استهوتنى الفكرة وأغرتنى على الكتابة، ليس استرجاعا لزمن أو استدعاء لوقائع بل تأملا متسائلا عن الأيام التى عشتها ، والتجارب التى مررت بها ، والخطوات التى سرتها فى طريق لم تكن محددة ولا واضحة ، ولكنها تدريجيا تحددت واتضحت ، أو هكذا آمل أو أظن .

وانتبهت إلى جمال الاقتراح ودقته اللغوية المتمثلة فى تلك المفردة الموحية : التكوين وفكرت أن تكون البداية مستوحاة منها، فليست الحياة إلا تكوينا متصلا ودائما على مدار الأيام والتجارب ، الوجوه والوقائع والتفاصيل والذكريات ، بهذا المعنى ، فإن التكوين يظل بالنسبة لى مشروعا دائما ، يكاد يكون يوميا ، ويظل احتمالا لا خبرة منقضية ، ويظل رهانا لا فعلا متحققا .

ولعلنا نذكر التسمية التى وضعها الدكتور شكرى عياد لتكون دالة على حياته ومشروعه الفكرى : العيش على الحافة . إلا أننى نقيضا لذلك – وليس هذا اجتراء على مقام الدكتور شكرى – عشت فى وسط الطريق ، فى قلب التزاحم والناس والعمل اليومى والإصرار المثابر ، البحث العلمى عندى

د. هدى بعد أن منحها جمال عبد الناصر وسام عيد العلم الثامن

ليس مراجع وافتراضات وإجراءات منهجية فقط ، ولكنه سؤال اجتماعى ، والعمل الثقافى ليس استهواء نخبويا ولكنه مشروع أطرحه واختبره فى الشارع والمسرح والجامعة .

وهكذا ، أكتب الآن مركزة على فواصل أو نقاط أراها دالة على تكوينى ، بالمعنى الذى أشرت إليه ، أى باعتباره فعلا متجددا وممارسة متصلة ويومية ، وليس فعلا منقضيا أو خبرة مكتملة .

ولكن طالما أن الحديث هنا يدور حول التكوين فليس ثمة ما يمنع محاولات التذكر عبر طرح السؤال المرة تلو الأخرى : ما الذى أثر فى تكوينى ؟ وإلى أين يفضى بنا هذا السؤال لو جعلناه موضوعا للتأمل ؟ كيف تشكلت ما سمى فيما بعد بشخصية «هدى وصفى» ؟

وهل تختلف الصورة التى يرانى بها الآخرون عما أعتقد فى داخلى أنها صورتى ؟ ولكن إذا كان أمر كهذا يفصح عن نفسه بوصفه طبيعيا تماما من ناحية المبدأ ، فإلى أى مدى يظهر هذا الاختلاف ؟ .. لا أدرى .

أول تجربة نهاية

أتذكر – بجلاء – أن المواجهة المبكرة مع الموت كان لها أثر شديد العمق فى نفسى ، لقد حصدت هذه المواجهة أكثر من مرة ، ففى طفولتى فقدت الأب والجدة ، ثم الخال الذى كان بمثابة بديل للأب ، وكان هذا قاسيا على نحو خلف أثرا دائما ، بحيث أصبح أى «فعل» يرتبط لدى بسؤال معلق حول نهايته ، فكما أن هناك تراكما لا يمكن إنكاره ، فإن كل «فعل» يمضى بلا توقف نحو نهاية ما تخصه، ولا أستطيع القول أن مسألة النهاية هذه كانت أمرا معطلا فى حياتى ، بل بالعكس ، فقد بدت وكأنها تفجر منابع لا تنضب للتأمل ، وتحفز على محاولة مستمرة ، ولا تكل ، تجاه المزيد من الأمانة والصدق فى «الفعل» ، سواء مع الذات ، أو مع العالم ، أو مع الناس . ففى قرارة النفس هناك إيمان عميق ، لا ينحصر فى الانتماء الدينى فحسب ، إيمان بأن ثمة تكلفة لكل فعل ، ثمة ثمن أو مقابل سواء للخير أو للشر ، وبالتالى ، فأيا كانت النهايات التى تمضى نحوها الأفعال ، فهى لا تتساوى قط ، وقديما كانوا يرمزون لهذا النوع من الإيمان بالآلهة نمسيس، ولكن بغض النظر عن ذلك ، فهذا الأمر مستقر تماما فى قناعاتى ، وبالطبع فمثل هذه الأفكار قد تبدو الآن بوصفها مثالية أكثر مما ينبغى ، أو قد تبدو كأمور تم تجاوزها فى أذهان الشباب والأجيال الجديدة ، ولكننى انتمى لهذه المنظومة من القيم على أية حال .

الصدق مع النفس ، الاعتقاد بأن

أثناء حفل تيسلمها وسام «فارس» للفنون والآداب من الحكومة الفرنسية - ١٩٩٧

الأشياء لا مفر من أن يكون لها نهاية ، وأنه يوجد دائما ثمن للخير ، وثمن للشر ، كل هذه الأفكار تعمقت لدى عبر العلاقة بالأب الذى كان رجل قضاء ، ففى الفترة القصيرة التى عايشته خلالها ، كان حريصا على تعليمى أشياء مرتبطة بالجدية والتواضع والنزاهة ، بالإضافة إلى ما ترسب فى ذهنى عبر ما كان يحكى عن مواقفه ، فعندما قرر الارتباط بالوالدة التى كانت تنتمى إلى أسرة من الصعيد ، علم أن للأسرة بعض المشاكل القضائية ، فتنحى عن الدائرة القضائية لمدة عام كامل لكى يتقدم لطلب يدها .

كان للحكايات دائما دور ما ، ووجود بارز فى مرحلة الطفولة ، حكايات عن أفراد العائلة ، أو حكايات مأخودة عن القصص الدينى ، حكايات عن البشر وأحيانا عن الحيوانات ، ولكنها جميعا كانت ترسم ملامح عالم ما من جهة ، وتشكل منظومة القيم التى حكمت سلوكى فيما بعد من جهة أخرى .

شواهد جمع

كانت والدتى تنتمى لأسرة صعيدية من النوع الذى علمت فيما بعد أنه يسمى

الإقطاعى ، ولكن هذا لا ينفى أن أباها كان مثالا للجد ، والعمل ، فقد ترك والده وذهب إلى منطقة فى الصعيد اشترى فيها ما كان يسمى وقتها بالتفتيش ، ثم قام باستصلاح مساحات كبيرة من الأرض مطبقا فكرة دق الآبار الارتوازية ، كما كان فى الوقت نفسه رجل صناعة ، واجه الإنجليز فى مرحلة بنائه مصنعا لصناعة السكر فى القصب فى الصعيد، كما واجه الرئيس «محمد نجيب» عندما تردد الحديث عن بناء مصنع للحديد والصلب فى القاهرة ، مناديا بضرورة بنائه فى أسوان ، حيث الخامة متوافرة وسهلة الاستخراج ، وكانت له الكثير من المواقف الشجاعة والتى أثرت فىَّ تماما ، خاصة وأنه قد ظل على قيد الحياة إلى أن تمت خطبتى ، أى أننى قد عاصرته أكثر من أبى .

وهناك موقف لن أنساه قط فعندما كان ابنى فى الصف الأول بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رأيت معه كتابا عن موارد مصر الطبيعية ، وكان اسم جدى مذكورا بهذا الكتاب بوصفه أحد الذين أضافوا لرقعة مصر الزراعية ، وبالطبع كان هذا مبعث افتخارى وسعادتى بهذا الجد ، ولكنه أيضا رسخ اعتقادى بأن الأفعال تنتهى ، ولكنها لا تنسى .

تعلمت ولعبت بالفرنسية

كانت والدتى قد تلقت دراستها بالإنجليزية ثم بالفرنسية ، ولكنها كانت تفضل التعليم الفرنسى ، وبالتالى التحقت بمدرسة فرنسية حيث تعلمت - إلى جانب مواد الدراسة التقليدية - عزف البيانو ، والباليه ، ولعب التنس ، كما مارست اهتمامى بالمسرح لأول مرة ، كانت لدينا راهبة من أصل أيرلندى شغوفة بالمسرح ، وخاصة المسرح الشكسبيرى وأذكر أنها جعلتنا نقدم عرضا لنص من نصوصه على مسرح المدرسة (وبالمناسبة فقد حصلت فيه على دور صغير) ، ولم نقدم العرض بإنجليزية اليوم ، بل قدمناه بلغة شكسبير القديمة الأصلية .

وفى البكالوريا الفرنسية كان لدينا العديد من المواد الإضافية التى ندرسها بالعربية ، مثل الفلسفة الإسلامية ، والجغرافيا ، والتاريخ ، وذلك إلى جانب مواد مثل الجبر وحساب المثلثات ، والعلوم الطبيعية ، وكتب مثل «مدخل إلى العلم التجريبى» «لكلود برنارد» ، ولكننى أحببت كثيرا دراسة المنطق والأخلاق .

منذ البداية كان لدى نهم شديد للقراءة ، وأتذكر أن إحدى الراهبات قالت لى « لا يوجد الآن كتاب فى المكتبة لم تقرئيه ،

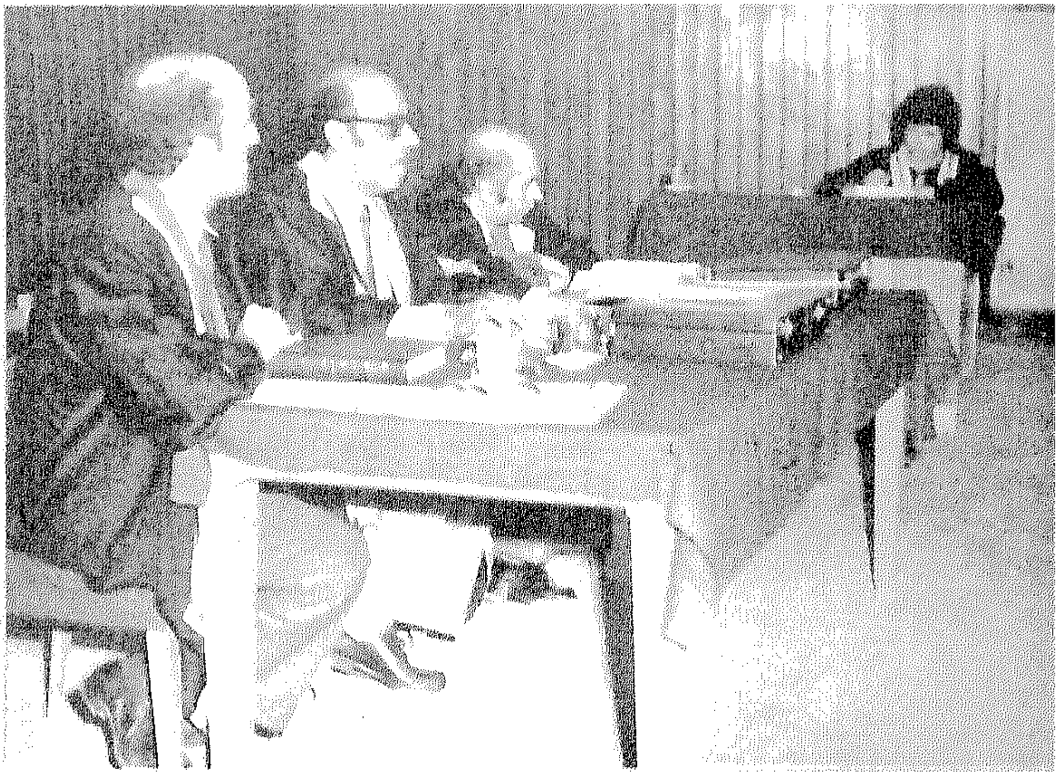

مناقشة رسالة الدكتوراه التى قدمتها بعنوان «تيارات النقد الفرنسى بين حربين »

ولذلك لم يعد لدى شيء أعطيه لك اليوم» تدرجت في القراءة بالعربية والفرنسية حسب المراحل السنية ، كانت هناك حكايات الأطفال ، ثم القصص والمجلات المصورة ، والكتب التى تقدم السلوكيات الإجتماعية ، ثم مرحلة قراءة الروايات العاطفية التى تأثرت فيها بخالة لى كانت شغوفة بهذا النوع من القراءة ، كانت تلك القصص تعلى من شأن الكرامة فى العلاقة الإنسانية بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك بدأت أهتم أكثر بقراءة الكتب الدينية على نحو يبحث فى بلاغة اللغة نفسها ، وربما بدا هذا غريبا ولكنه يعود إلى تأثرى بالوالد .

العاطفة أم الزواج

كان ثمة قدر من المعاناة والصراع فى مسألة التحاقى بالدراسة الجامعية، فبسبب عدم وجود الوالد إلى جانب الانتماء الصعيدى كانت والدتى ترى موضوع الجامعة أمرا ثانويا ، كنا شقيقتين فقط وبالتالي فقد كانت مسألة زواجنا بالنسبة لها هى الموضوع الأكثر أهمية ، كانت والدتى قد رفضت أن تعيش مع الجد ، وأصرت على البقاء وحدها ، وكرست حياتها لتربيتنا، ولكنها كانت

تحمل عبئا كبيرا، فهي امرأة ، وتعيش مع إبنتين ، وتعتقد أن الكل يتوقع عدم نجاحها فى تربيتهما بسبب عدم وجود رجل . ولذلك كانت دائما تحاول أن تكون أكثر صرامة ، ولن أنسى أبدا أن إحدى صديقاتها بعد أن شاهدت فيلم «أين عمرى» (وكانت أمينة رزق تؤدى دور أم وحيدة وصارمة تعيش مع إبنتها) قالت لها «اذهبى إلى السينما لترى نفسك» ، ولكن تلك المشاكل لم تمنعنى فى النهاية من الذهاب إلى الجامعة ، وهذا يعود لتدخل د. لويس مرقص صديق الأسرة الذى كان يشغل منصب وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس ، والذى وقف إلى جانبى وأقنع والدتى بأننى سأكون تحت رعايته .

وبعد انتهاء الدراسة الجامعية كان هناك صراع آخر بشأن مسألة العمل ، فقد تخرجت من الجامعة بتفوق ، وصدر قرار بتكليفى كمعيدة بقسم اللغة الفرنسية ، وكنت فى هذه الفترة قد تزوجت ، ورفض زوجي أن أعمل ، فليس لديهم فى أسرتهم إمرأة تعمل ، ولكن والد زوجي وقف إلى جانبي وكان له فضل أن يقنع زوجى بقبول فكرة عملى .

أحببت عبد الناصر

كنت دائما شديدة الإعجاب بجمال عبد الناصر ، وقد كان هذا موقفا مضادا للأسرة التى كانت قد أضيرت خلال الفترة الناصرية ، وقد زاد ارتباطى بالرئيس عبد الناصر لأننى حصلت على الليسانس بتقدير امتياز وكان لى الشرف أن أمثل كلية الآداب فى عيد العلم حيث قلدنى عبد الناصر وساما ، ولكن فيما بعد تراجع هذا الإعجاب ، فقد علمت أشياء كثيرة لم أكن أعلمها وقتها ، وأصبحت أدرك أن هناك أخطاء عديدة فى التجربة الناصرية ، وأهمها على الإطلاق هو افتقاد الديمقراطية ، وبالتالى فقد بدأت أتفهم موقف أسرتى إلى حد ما ، كان لدينا تجمع عائلى دائم كل يوم أحد ، ومع تناول الغداء يجرى دائما الحديث عن الأرض التى أخذها الإصلاح الزراعي ، حديث متكرر إلى درجة مملة حول من كانوا يعملون لدى الجد وأصبحوا يمتلكون الأرض ، وكان لدى يقين بأنه من حق الذى يزرع الأرض أن يمتلكها ، ولكن مع الأيام بدأ يتضح أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة ، خاصة بعدما شاهدت ما حدث لوالد زوجي الذى كان أحد رجال الصناعة العصاميين ، بنى مصانع خضعت للتأميم ثم أصيب بمرض خطير ، وبدأ يذهب إلى لندن للعلاج ، ولم يكن يستطيع أن يأخذ معه نقودا ، فكانت الفواتير تصل ، ثم ترسل إلى الحراسات ، وتستغرق وقتا طويلا حتى يتم صرفها ، مما جعل أسرة زوجى تمر بظروف شديدة

القسوة أفضت إلى موت والده .

بعد حصولى على الليسانس بدأت أجهز للماجستير فى المسرح المقارن ، واخترت «محمد عثمان جلال وموليير» كموضوع لبحثى ، وبعد ذلك بدأت بالتدريس فى معهد النقد الفنى بأكاديمية الفنون بناء على طلب من الفنان عبد السلام الشريف الذى كان عميداً للمعهد ، وكانت لدىَّ رغبة قوية فى أن لا أقصر نشاطى أو علاقتى بالثقافة على العمل باللغة الفرنسية ، فقد كنت أعرف ما هى القدرة على امتلاك لغتين ، ولذلك سعدت عندما قمت بالتدريس بالعربية فى أكاديمية الفنون ، ثم فى معهد الفنون المسرحية بعد حصولى على الدكتوراه .

وهناك تواريخ أخرى مهمة فى حياتى خاصة رئاستى لقسم اللغة الفرنسية لآداب عين شمس ، وحصولى على وسام فارس فى الفنون والآداب من الحكومة الفرنسية ، وأيضا حصولى مؤخرا على وسام ضابط فى الفنون والآداب من نفس الحكومة .

ولكن مسألة الموت ظلت بالنسبة لى بمثابة أمر يومى وأساسى ، بمعنى أنها تصاحبنى منذ أن أستيقظ إلى أن أنام ، على نحو يجعلها مبطنة لسلوكى وتأملاتى على مدار اليوم بأكمله ، وربما لو لم أكن أتمتع بشخصية تفاؤلية ، أو على الأقل ديناميكية ، لكانت قد أصابتنى بالإكتئاب ، أو عدم القدرة على العمل أو الفعل ، ولكن هذا جعلنى أيضا شديدة الحرص على تحقيق الاتساق مع النفس ، والارتباط بالروحانيات ، فمازلت أحرص إلى الآن على الصلاة بصفة يومية ، ربما ليس بالشكل التقليدى ، ولكن هذا يحدث بشكل أساسى .

التراث والشعور بالندية

ومنذ البداية كنت شديدة الاهتمام بموضوع «صورة الذات والآخر» ، وقد تأثرت منذ أن كنت صغيرة بتلك الأحكام التى نطلقها بوعى أحيانا وبدون وعى أحيانا أخرى عن الآخر بوصفه الأفضل والمتفوق ، وعن الذات بوصفها تحتوى على أغلب المساوىء، وقد أفضى هذا التأثر إلى تنمية الشعور بمسألة الندية تجاه الآخر ، بحيث أصبح لدىَّ توجه جذرى سواء فى أبحاثى أو سفرياتى لعدم قبول ما يقال دون نقاش وتمحيص ، ولابد من أن تطرح الأمور على نحو يحتفى بالندية ويكرس لها ، وبالطبع فهناك أمور كثيرة كانت بلادنا ضحية فيها على أكثر من مستوى ، ولكن هذا لا يبرر أى إحساس بالضآلة أو قلة الشأن ، فلا شك أن لدينا ثروة بشرية هائلة وعمقا تاريخيا بلا نظير ، وكثيرا ما شعرت أثناء حواراتى مع بعض الأصدقاء والصديقات من فرنسا أننا موضع إعجاب

على نحو ما ، وقد يبدو الامر وكأنني اتكلم بشكل عاطفي ، ولكن الحقيقة أنه بالرغم من التدهور الحادث حاليا ، فلدينا منظومة من القيم الحضارية والثقافية التي لا يجب أن نتغاضى عنها أو نتجاهلها .

أعود إلى مسألة امتلاك لغتين والدور الذي تفرضه على صاحبها بأن يسعى لبناء جسر من التواصل المعرفي بين ثقافتي هاتين اللغتين ، فعندما سافرت في إحدى السنوات للتدريس بجامعة أكس آن بروفانس الفرنسية ، حرصت على تدريس المسرح المصري ، وقدمت بانوراما واسعة حول مسرح الستينات كان لنجيب سرور فيها نصيب الأسد ، وبالإضافة للترجمات التي قمت بها ، فقد جعلني هذا أشعر بأنني كما ساهمت في تقديم المسرح الفرنسي والثقافة الفرنسية في مصر ، فقد قدمت أيضا المسرح المصري والثقافة المصرية في فرنسا .

فصول وتغيير المناخ النقدي

ومن التواريخ التي تعتبر مهمة للغاية في تكويني الثقافي ارتباطي بمجلة فصول ، والتي بدأت مع نشأتها في عام ١٩٨٠ ، حيث حفزت هذه المجلة مجموعة من الأكاديميين للكتابة بالعربية لأول مرة على نحو منتظم ، وأنا أقصد هنا تلك المجموعة التي تشملني مع فريال غزول ، وأمينة رشيد، وسيزا قاسم ، وغيرهن، فقد كنا نكتب بالإنجليزية أو الفرنسية ، ولكن ارتباطنا بهذه المجلة التي ولدت عملاقة جعلنا نبدأ في مرحلة جديدة من استلهام المناهج النقدية الحديثة ، وأتاح لنا أن نقوم بدور في استخدام معرفتنا لتنمية ثقافتنا ، وتنمية عطائنا النقدي والفكري .

وربما كان هناك الكثير من النقد الذي تم توجيهه لمجلة فصول ، مثل الاتهام بالعجمة وما إلى ذلك ، ولكن لا أحد يستطيع إنكار دورها في تغيير المناخ النقدي ، وتغيير آليات التفكير في العلاقة بالنص ، والعلاقة بالنقد على نحو أفضل وأكثر جدية وعلمية ، ليس في مصر فقط ، بل في الثقافة العربية بصفة عامة ، ويسعدني ويشرفني أنني كنت ضمن الكتيبة التي اشتركت في هذا العمل ، ثم أصبحت نائبا لرئيس التحرير أثناء مرحلة د. جابر عصفور ، والذي عندما اعتذر عن رئاستها أصر د.سمير سرحان (شفاه الله ومتعه بالصحة والعافية) على أن أخلفه في رئاسة تحرير المجلة .

أيضا كان لقائي مع الفنان الوزير «فاروق حسني» بمثابة لحظة فارقة في نشاطي بالعمل الثقافي ، فأصبحت منذ عام ١٩٩٠ ممثلة لوزارة الثقافة (كخبيرة من الخارج) لدى اليونسكو ، ثم عملت بمهرجان القاهرة للمسرح التجريبي

كرئيس للجنة الترجمة الفرنسية ، ومديرا للمهرجان ، ثم توليت رئاسة مركز الهناجر للفنون (والذى افتتحه رئيس الدولة) ثم مديرا للمسرح القومى على مدى ست سنوات قدمت فيها ٤٣ عرضا ، وأصبحت عضوا بالمجلس الأعلى للثقافة ، والمجلس الأعلى للجامعات ، وسكرتير عام نادى القلم الدولى .

وبصفة عامة أعتقد أن دورى الحقيقى هو أن أكون مع الناس ، مع المواطن ، وليس مع السلطة ، حتى وإن كنت أعمل بها ، ففى رأيى أنه ينبغى دائما أن نعرف ونهتم بما يريده الناس وما يشتكون منه ، وقد حاولت دائما أن أطبق هذا على قدر معرفتى التى قد تصيب ، وقد تخطىء ، وأشهد أن الفنان الوزير فاروق حسنى كان يبدى دائما سعة صدر تجاه أى خلاف ، ولم أشعر يوما أنه ينزعج حتى وإن تجاوزت فى بعض ملاحظاتى ، فهو فى قرارة نفسه يتمتع بسماحة فى استقبال الرأى المخالف أو المعارض .

أنا على يقين كامل بأن مصر تحتوى على عناصر إبداع شديدة القوة ، ولا تحتاج سوى إلى مناخ مناسب لكى تبرز وتمنحنا عطاءها ، وهذا ما أسعى قدر استطاعتى لتحقيقه فى مجلة فصول ، ففى العددين الأول والثانى قدمت خمسة أصوات شابة بعضها من القاهرة ، وبعضها من الجامعات الإقليمية ، وقد حدث شىء رائع عندما قدمنا فى فصول عددا عن «ثقافة الصورة» ، فطلبت إحدى البلاد العربية استضافة كل المجموعة التى اشتركت فى الندوة، وأعادوا تنظيمها بنفس المحاور ، وهو أمر أسعدنا كثيرا ، فعبر هذا الحديث المتواتر عن فقدنا لدورنا الريادى فى الثقافة العربية يأتى هذا الحدث ليثبت أنه لازال لدينا ما نقدمه .

صورة فى اليونسكو أثناء تمثيل مصر فى ملف التنمية الثقافية

أحيانا أشعر أننى أخطأت بعدم جمع إنتاجى النقدى والعلمى فى كتب، بالرغم من أن لدى إنتاجا بالفرنسية صدر عن

منشورات «لافيت» في مرسيليا ، ومنشورات «آكت سود» في باريس ، ولي ترجمات من وإلى العربية والفرنسية ومقالات وأبحاث تشمل مسرحيات ودراسات عن كل من يوسف إدريس ، وسعد وهبة ، وتوفيق الحكيم ، ونجيب سرور ، وطه حسين ، إلى جانب دراسات عن سارتر ، ورولان بارت ، وجان ريكاردو ، وترجمات لمسرحيات من يونسكو ، وسالاكرو ، وكانتور ، إلى جانب كتاب «النقد الأدبي» والذي أخذ مسارا جيدا ، فقد أعيدت طباعته أكثر من مرة كما سمعت أنه يستخدم جيدا في بعض البلاد العربية . هذا فضلا عن العديد من الملفات والأبحاث التي قدمتها إلى اليونسكو ونشرت تحت توقيع «مندوبة مصر» .

العمل ضمن منظومة

ولا أنكر أنني في بعض اللحظات عانيت من اختلاف الرأي في العمل الثقافي والناتج عن سوء الفهم في أحيان كثيرة ، وخاصة عندما بدأت فعاليات عام مصر فرنسا آفاق مشتركة ، فقد تعرضت لهجوم ظالم ، ولكن هاهي الأيام تثبت أن ترسيخ العلاقات الثقافية مع فرنسا قد وطد من مواقفها النزيهة تجاه قضايانا ، خاصة في العراق وفلسطين .

ولكنني أخلص في النهاية أن الدرس المستفاد من العمل في الحياة الثقافية أنه لابد للمرء أن يعمل ضمن منظومة قيم يؤمن بها ، وأهمها الصراحة ، والصدق مع النفس قبل الصدق مع الآخر ، فأنا مؤمنة بمقولة «ماذا يفيد الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه» .

يشكل مركز الهناجر بالنسبة لي تجربة أساسية ، ابتداء من فكرته الأولى ثم التأسيس وحتى المواسم والتجارب المتعاقبة . كانت رؤيتي ولازالت هي إنشاء مركز ثقافي قائم على وحدة الفنون وتداخلها ، وعلي تعدد الأنشطة واختلاف الاجتهادات . ولذلك حرصت على وجود الندوة مع العرض التشكيلي مع العرض المسرحي مع الأمسيات الشعرية ، بحيث يصبح المركز مكانا للحوار وليس فقط

د. هدى وصفي .. البدايات الأولى

مكانا للعرض ، مكانا للتساؤل بالمعنى الثقافى والإجتماعى وليس مكانا للمشاهدة العابرة . ومن هنا ، كان اهتمامى بالورش المسرحية والتجارب المعملية تأكيدا لضرورة التجريب والبحث عن صياغات مغايرة ، لأن الثقافة فى تصورى قائمة فى جوهرها على نقد القوالب والأنماط الثابتة وتجاوزها اتصالا مع حركة الأجيال وتدافع الأفكار والاتجاهات المختلفة . وهكذا – أصبح مركز الهناجر الآن جزءا فاعلا من المشهد الثقافى الراهن ، يموج بعمل يومى وحوارات دائمة .

وبتلك المنهجية والرؤية ، كانت تجربتى فى المسرح القومى الذى توليت إدارته لمدة ست سنوات ، مع إدراكى طبعا للاختلاف النوعى بين المسرح القومى والهناجر ، فالأول مؤسسة ثقافية ذات تاريخ ورسوخ ومكانة . ولكن فكرة المسرح المتحاور مع واقعه ظلت شاغلى الدائم ، وكذلك إعطاء الفرص لمبدعى الأجيال الجديدة دون هيمنة أبوية أو وصاية زائفة ، بهذا التصور ، قمت بإدارة القومى وقدمت مجموعة من العروض المختلفة حرصت دائما فى اختيارها أن لا تكون منفصلة عن محيطها الاجتماعى ، وكان امتلاء المسرح يوميا أثناء العروض شاهدا ، ودالا على اجتذاب المشاهدين مرة أخرى للمسرح ، ليس فقط من أجل المشاهدة ثم الانصراف دون أثر ، ولكن من أجل تعميق العلاقة بين المسرح والواقع ، والتحاور بين المبدع والمشاهد .

ربما أعبر الآن عن طموح أكثر مما أعبر عن تجربة متحققة ، ولكنى سعيت لأن يكون الطموح واقعا والرغبة فى الإضافة والتجاوز إمكانا قائما : وفى كل ذلك ، لم تكن الجامعة غائبة ، فقد يكون العمل الثقافى تجربة وطموحا ورهانا ، ولكن الجامعة حياة بالنسبة لى : طالبة وباحثة وأستاذة . فى قاعاتها تعلمت وعلمت ، عشت وسعيت لا لنقل الخبرة فقط ولكن لإثارة التساؤل والرغبة فى البحث لدى الطلبة . وكنت أشعر دائما أن البحث موصول بالحياة حتى ولو بدا جافا ، علميا، وكنت أشعر كذلك أن الحياة متصلة بالمعرفة ، وإلا كانت مجرد تراكم أوقات واختلاف أماكن .

وما بين تجربتى فى العمل الثقافى وحياتى فى الجامعة ، تكونت لا عبر فواصل أو مراحل منفصلة ، ولكن عبر العمل اليومى ، والمسرح وقاعة المحاضرات والمؤتمرات العلمية ، ولذلك لم أكتب عن تكوين منته وإنما كتبت عن تكوين متصل مع دوام الأيام. ■

أنت والهلال

• عاطف مصطفى

الدكتور محمد رجب البيومى

فى افتتاحية العدد الماضى طالعتنا كلمة المحرر التى تتناول أستاذنا الفاضل الدكتور محمد رجب البيومى، الذى اعتبر البعض مقالاته لونا من أقاصيص السمر، وهذه رواية آحاد وسط الكم الغفير الذى ينتشى بمتعة مقالاته، التى تريك الماضى موصولا بالحاضر، متطلعا الى الآتى من الزمان.

فها هو فى هذا العدد يتحدث عن على مبارك يصف الأزهر، وفى المقال يرينا كيف كان التعليم فى الأزهر فى نهاية القرن التاسع عشر: الالتحاق به، التعليم ، الامتحان، ونيل اجازة التدريس. وليس المقال أقصوصة سحر، فهى ترينا لونا من الحياة العلمية لتأخذ منه سلبا أو إيجابا.

محمد السيد نمير

وعن نفس الموضوع يكتب الأستاذ عمرو عبدالمنعم حمودة الصديق الدائم للهلال فيقول «الدكتور محمد رجب البيومى، من المقاليين العظام الذين أبدعوا فن المقالة الأدبية، بما فيها من المتعة والتسلية، ولا تخلو من الحكمة والموعظة ، وسمو العرض ووضوح الفكرة ، فضلا عن ارتباطه بالماضى والحاضر والمستقبل فى لحظة زمنية واحدة، ترتفع بالقارىء إلى آفاق إنسانية رحبة.

أنظر ما كتبه الدكتور البيومى فى عدد سبتمبر ١٩٦٠ من الهلال عن شخصية لا تنسى، المقرىء محمد رفعت بلبل الفردوس، وكيف أبرز عبقرية الشيخ وأسرار حنجرته الذهبية.

وانظر إلى مقالاته الأخيرة فى الهلال وكيف يتخير المقالات التى تناقش قضايانا الراهنة، يلقى الضوء ويبين الخطأ ، بكل حماس الشباب وغيرة المحبين للوطن

ووصلتنا رسالة أيضا من تونس خطها محمد جويرو - منزل جرب ولاية المنستير - تونس، يتعجب ويتألم لما ورد فى مجلة الهلال - عدد مايو - الماضى وقال بالحرف الواحد من قول يعادى الحقيقة.. نطق به السيد مصطفى الحسينى بأنه لا يستسيغ مقالات كل من الأستاذين الجليلين محمد رجب البيومى ووديع فلسطين، لأنهما فى نظره متشبثان بالماضى، ولا يتحدثان إلا على ما فات.

وقال محمد جويرو إننى أقرأ للسيد الجليل محمد رجب البيومى منذ أكثر من ثلاثين حولا فلم أجد فيما كتب ويكتب إلا الحث على الجد والاجتهاد والمضى قدما إلى الأمام ، كما أنه فتح نوافذ وشرفات نطل منها على ماض نأخذ فيه الصالح لنستفيد منه وننميه . ونطرح الطالح الذى نبت سقمه وبان عواره.

سيدى البيومى فصاحة وبلاغة، ونصاعة بيان.. انه من مدرسة المغفور له

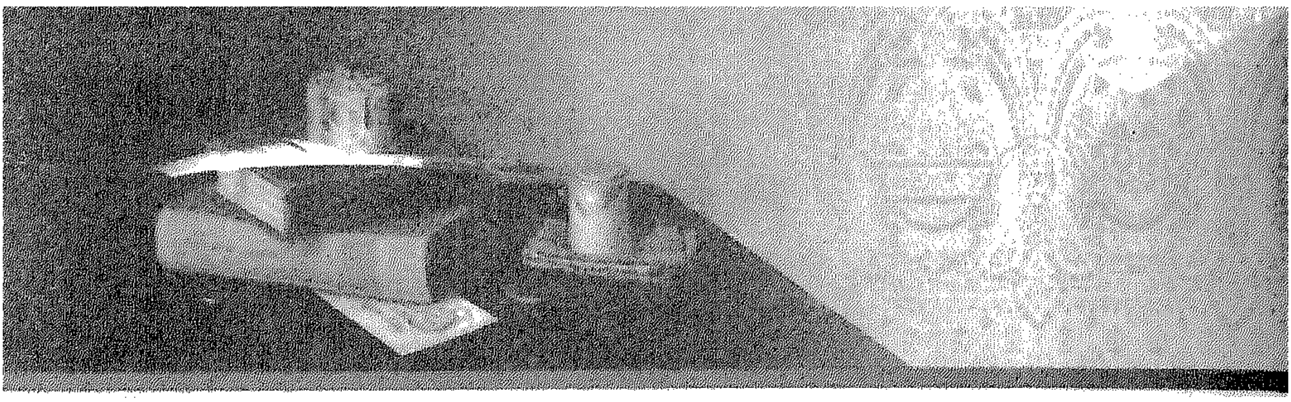

احمدحسن الزيات.. انه زينة الهلال وتاج من النضار الخالص الوهاج على مفرقها.

فنحن فى مغربنا العربى نتهافت على «الهلال» يجذبنا إليها كتابها الأخيار وعلى رأسهم الشيخ الوقور محمد رجب البيومى، الذى أرجو ألا ينفعل بما سطر مصطفى الحسينى من رأى يعادى الحقيقة والواقع.

يتمخض قلمى غضبا

(١)
أضحك من شدة خوفى
أكره وطن الخوف
ليس لأنى أدفن صرخات الغربة
فى عتمة جوفى
ليس لأنى أخشى سطوة مجلسنا العرفى
ليس لأنى
أخشى المبنى للمجهول.. ولا جزم الحرفْ
ليس لأنى أخشى أى فواصل
ليس لأنى أخشى.
أى جدار فاصل
لكن من أجل الطير الصادح.
أشتاق نبوءة حتفى
من أجل النخل السامق .. يا وطنى
كيف أعيش بخوفى؟!
(٢)
ألهذا لا تكتب اسمى؟!
اسمى عبدالناصر
ألهذا تستبعدنى؟!
من أوج جبال الأطلس جئت أناصر
– أين أبوك العربى
أنا لست بقاصر
– ولماذا لا ترتجف أمامى؟!
أنا لا أخشى جيشا
لا يعرف ماذا يحاصر
(٣)
كلب ينبح خلف قطيع الأغنام
ينبح
ينبح
حتى ضجت أوردة الليل
وضجت كل الأجرام
يهرع كل رعاة الغنم المنفى
وتهرع حتى الأيام
سألوا الكلب المذعور
لماذا تنبح خلف الأغنام
ردد فى غيظ
أنبح
أنبح من كثرة غرف الإعدام!!

عبدالناصر أحمد الجوهري
عضو اتحاد كتاب مصر

ملاحظات حول كتاب رفاعة الطهطاوى

أشكركم لاختيار كتاب رفاعة الطهطاوى «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» لاعادة نشره، كما اشكر رئيس التحرير على كتابته لهذه المقدمة القيمة التى تناولت بإيجاز شديد، سيرة أحد الرواد الأوائل لنهضة مصر الحديثة فى عصر محمدعلى، وكيف مزج الشرق بالغرب، واحتفى بالغرب دون ان يفقد ذاته

وما أحوجنا فى هذه الظروف الدقيقة التى نمر بها الى أكثر من نموذج لذلك المثقف المستنير، المهموم بقضايا امته. والقادر على الانفتاح على الآخر للحاق بالعصر الذى نعيشه

لكن هناك ملاحظات سلبية على بعض ما كتبه رفاعة الطهطاوى أرجو ان يتم تفسيرها فى السياق التاريخى فى الطبعات القادمة

د. حسام مصطفي فهمي

شوك

من جنى؟!!
أنت
أم أنا؟!!
من جنى؟!!
ربما ينبت الشوك بين الورود
وينبت ورد على المنحنى
من جنى؟
سال دمى هنا
ربما زرت فى الليل نورك الملهما
فانحنيت على العشب
أقطف السوسنا
من جنى لست أدرى
أنت أم أنا؟!
ربما
يرجع الحب فجأة
كما جاء فجأة
وانمحى
ربما

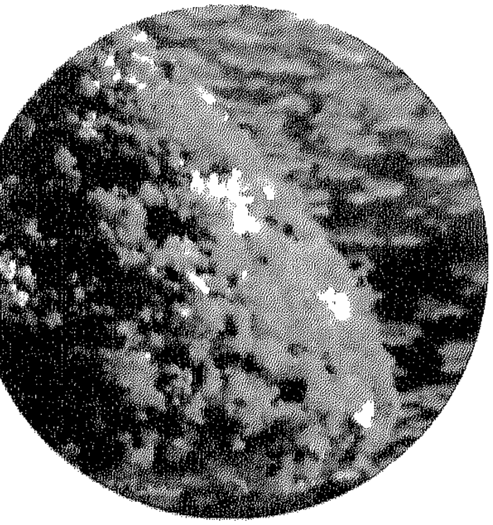

شريف الدمناوي

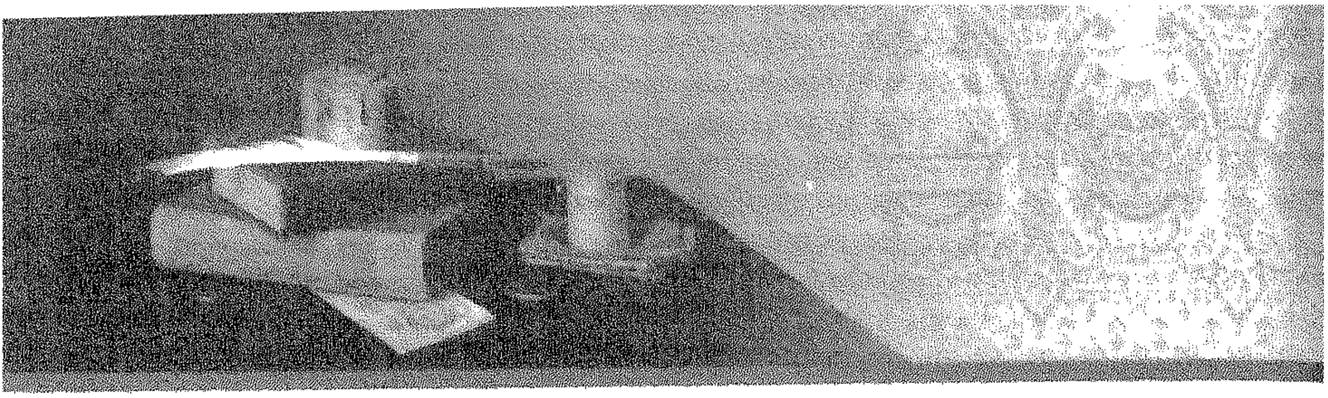

المحكمة الدستورية ونقد معاهدة السلام!

المحكمة الدستورية والتى نراها بناء ضخما على نيل مصر فى الطريق الى المعادى ، يظن الإنسان العابر انه بناء من احجار ضخمة فقط. ولكن من يتأمل أصحاب الحقوق او المهتمين بالانسان وحقوقه وما يصدر عن هذا البناء من أحكام تحمى الانسان فى أهم قيمة ألا وهى الحق ، من يتأمل هذه الاحكام . يعلم انها لا تقل ضخامة وروعة عن البناء الضخم الفخم

نتناول واحدا من احكامها : نقلا عن كتاب د. فاروق عبدالبر عن دور المحكمة الدستورية المصرية فى حماية الحقوق والحريات، فى حكم حول المعاهدة المصرية الاسرائيلية وعدم دستورية بعض المواد التى اشترطت عند تأسيس الاحزاب، ان لا يكون من ضمن مؤسسيها او قادتها من يقوم بالدعوة الى التحبيذ او الترويج باية طريقة من طرق العلانية. لمبادىء او اتجاهات او اعمال تتعارض مع معاهدة السلام تقول: وحيث انه وان كان من المقرّر طبقا لقواعد القانون الدولى العام، ان المعاهدات الدولية التى يتم ابرامها والتصديق عليها. واستيفاء الاجراءات المقررة لنفاذها. لها قوتها الملزمة لأطرافها.. الا ان ذلك لا يضفى على المعاهدة حصانة تمنع المواطنين من مناقشتها، ونقدها وابداء رأيهم فيها.. وهكذا يقف القضاء المصرى شامخا.

هاني اللوباني – عمان – الأردن

لم يعد حبا!

ليس فى القلب مكان لجراح ... غسق الليل .. وقد أفل الصباح
ما رعاه الأمس حلما أسرا ... فى غدوهم، وقبض للرياح
طائر يشدو ليشكو راقصا ... ألما، حتى لقد هيض الجناح
مولع يذكر أيام الرضا ... قبل أيام سلو ورواح...

ما عسى عيش شريد فى الحياة ... يشفق الصبح له كالأمسيات
حبنا – سكن يسرى ما بنا ... لم تزل ترنو اليه ذكرياتى
آه من لوعته.. لكنه ... مطلع الفجر.. هو الخلد. لذاتى
هو ينبوع فان جف فما ... يفتن الشوق سوى عبراتى

حبنا كالطفل نرعاة وليدا ... حين أفضى للصبا راح بعيدا
مشرق الشمس له حرية ... كيف فى مغربها تضحى قيودا
كم تداوى الناس بالصبر فما ... هز عرش الحسن. او رقق غيدا
فقد الكون سنا نضرته ... وذبول الأرض لا ينبت عودا.

د. أحمد بديع

قصة قصيرة ازدواجية

نصحه بكتابة المقالة.. تردد، كتب القصة وأحس أنها مجاله الأثير.. يمكن أن يعبر عن آرائه من خلالها، ويقول ما يريد.. تردده دفع الأستاذ إلى القيام ودخول الحجرة القريبة.. غاب قليلا، إنها حجرة المكتبة.. عاد إليه حاملا بعض الكتب فى يده.. على وجهه افترشت الثقة وهو يقول:

– ها هى المراجع التى ستحتاجها فى كتابة مقالاتك المطلوبة.. غاص فى بحر الحيرة.. بالأمس كان ينصحه بكتابة القصة قائلا: إن الإبداع هو الباقى.. هو الخلود.. الآن ماذا حدث؟.. لماذا التغير.. هل هو المال.. المقال الصحفى مكافأته أكبر .. ربما.

عاد إلى البيت يحمل الكتب .. وضعها على المكتب.. راح ينظر إليها.. أخرج أوراقه وأمسك القلم وبدأ فى كتابة قصته الجديدة

فرج مجاهد عبدالوهاب – شربين – دقهلية

أحمد عبدالحليم ممثلا فى إذاعة الإسكندرية

حرصت الهلال على أن يكتب أعلام من عصرنا فى شتى مناحى الثقافة عن عوامل «التكوين» التى أسهمت فى بناء شخصياتهم بدءا من د.عبدالقادر القط ومرورا بالدكتور أحمد أبوزيد وغيرهما الكثير .

ولا غرو أن سار الفنان أحمد عبدالحليم فى عدد يونيه الماضى على نفس المنهج فى حديثه عن أحد المعالم فى علوم الاخراج المسرحى فى مصر والعالم العربى المرحوم نبيل الألفى.

وأرى لزاما على زميلا للفنان أحمد عبدالحليم – إن سمح – فى فن التمثيل أن أذكره بتلكم السنوات التى قضاها بيننا فى مدينة الإسكندرية (منذ أواخر الخمسينيات حتى أوائل الستينيات) ممثلا إذاعيا بأول إذاعة محلية فى مصر – إذاعة الإسكندرية، وقد أنشأ فيها الإذاعى الكبير حافظ عبدالوهاب قسما للتمثيليات الإذاعية، وكان أحمد عبدالحليم واحدا من هذه المجموعة.

ومن قبل أحمد عبدالحليم كان ضمن هذه الجماعة الفنان المخرج المسرحى حسن عبدالسلام والممثلان البارعان جمال إسماعيل وعثمان محمد على.

وبذلك يكون التكوين لزميلى الفنان أحمد عبدالحليم قد اكتملت صورته فيما يمكن أن يكون قد سقط سهوا عن قلمة

د. سامى منير عامر – كلية التربية – جامعة الإسكندرية

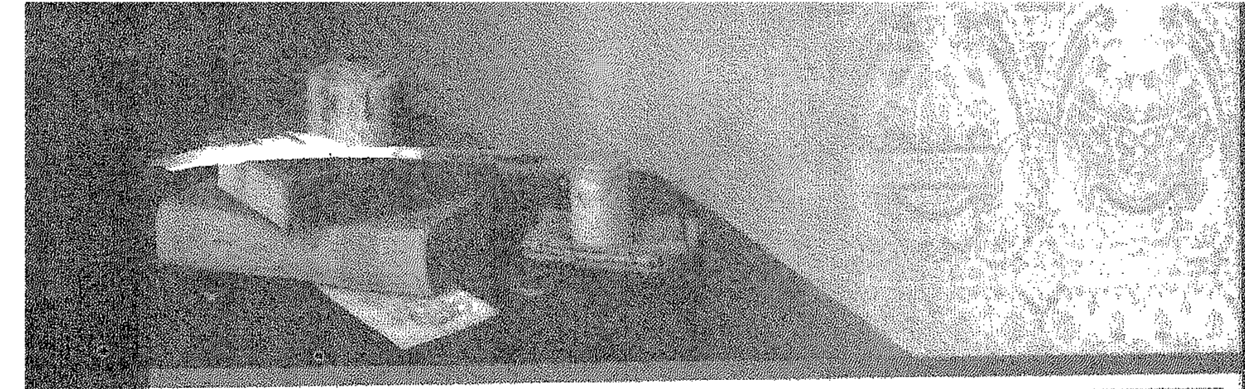

مسرح

يعقوب صنوع
١٨٣٩ ـ ١٩١٢

ولد يعقوب صنوع فى ١٨٣٩/٤/١٥ فى حى باب الشعرية بالقاهرة.. أمه مصرية ووالده من أسرة إيطالية هاجرت إلى مصر، وكان والده يعمل مستشارا للأمير أحمد يكن باشا.

وبالرغم من أنه كان يدين باليهودية، فقد حفظ القرآن والإنجيل والتوراة، وكتب الشعر والزجل في سن مبكرة.

أرسله الأمير أحمد يكن ابن أخت محمد على فى بعثة إلى إيطاليا لمدة ٣ سنوات ١٨٥٢ - ١٨٥٥ وكانت سنه وقتها ١٣ سنة درس خلالها اتجاهات المسرح الإيطالى والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة.

بعد عودته من إيطاليا وجد التربة مهيأة لغرس بذور الفن المسرحى فى مصر.

ولد مسرح يعقوب صنوع عام ١٨٦٩ عام الاحتفالات بافتتاح قناة السويس، وولد هذا المسرح على منصة مقهى موسيقى كبير فى الهواء الطلق بحديقة الأزبكية بالقاهرة حيث قدمت مسرحية من فصل واحد، كتبها يعقوب صنوع واستقبلت بحفاوة كبيرة شجعته على الاستمرار فى النجاح.

قدم خلال عامين متتاليين ٣٢ مسرحية، عالج فيها قضايا البسطاء من عامة الشعب بأسلوب نقدى اجتماعى هادف.

من أشهر تلك المسرحيات : «الضرتين»، «غندور مصر»، «أنيسة على الموضة» لم يكتف بالنقد الاجتماعى، بل بث انتقاداته ضد القصر، فأغلق الخديو مسرحه، مما جعله يترك الكتابة المسرحية، واتجه إلى الكتابة فى الصحف الوطنية، ولكثرة انتقاداته للخديو تجاهلته الصحف، فأصدر صحفا خاصة به تكتب بأسلوب ساخر لاذع، تتخلله النكتة والكاريكاتير للوصول إلى وجدان الشعب المصرى.

عين عام ١٨٦٣ مدرسا للغات الأجنبية فى مدرسة المهندسخانة، لكنه فقد هذه الوظيفة بعد غلق مسرحه عام ١٨٧٢م وشجعه جمال الدين الأفغانى على إصدار صحيفة حققت نجاحا غير عادى، فقد وصل عدد نسخها إلى ١٥ ألف نسخة وهو رقم كبير بمقاييس ذلك العصر.

ندد بالتدخل الأجنبى الذى ترتب على الديون التى اقترضها الخديو إسماعيل ولهذا نفى من مصر، فاستقر فى باريس، حيث واصل نشاطه الصحفى والدعاية للقضية المصرية فى فرنسا وكان معروفا بأسماء متعددة: أبو نضارة، وأبو زماره، والحاوى، كما أطلق عليه موليير مصر الذى ساند ثورة عرابى.

أنت والهلال

البسمة الحانية

دعيني أراقص فيك الهوى ... وأجمع ألحانك الغافيه
فإني رأيتك مثل النجوم ... ومثل الطيور مع الساقية
ومثل النسيم هفا وانتحى ... يضل مع الخصلة الحانية
فلا تسألوا الشمس ماذا جرى ... لقلبي، لن تفهموا ما بيه
ولكن سلوا القلب عن خفقة ... إذا ما استقرت به «داليه»
يتمتم أذكارها كل صبح ... وعند الظهيرة والأمسية
أغازل طيفاً يراقص قلبي ... طروباً بلون السما الصافية
وقال المتيم في حبها ... جمال، وطهر، عفاف هيه
أعذال قلبي لا تحسدوني ... على نعمة من عطا ربية
ودعواتكم فليبارك هوانا ... نقياً، طهوراً، وأن يحميه
وينعم علينا بذرية ... تعيد صلاحاً وقدساً ليه

أحمد محمد الدماطي
الشهداء - المنوفية

شاعر عذري

جميل بن معمر شاعر عذري، نشأ في البادية، وأحب ابنة عمه بثينة وعرف بها، وقال فيها شعرا كثيرا، صادق عفيف، ولما شكاه أهلها إلى الوالي أهدر دمه، فلجأ إلى مصر في ولاية عبدالعزيز بن مروان، وتوفي بها سنة ٨٢ هجرية، ومن أشعاره التي قالها في بثينة.

ألا ليت أيام الصفاء
ودهر تولى يابثين تعود
وإن قلت ردى بعض عقلي
أعش به قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت
طالبا ولا حبها فيم يبيد يبيد

محمد أمين عيسوى - الإسماعيلية

في الوطن العربي.. التركيز على الدين والسياسة والرياضة!

إذا كان لدينا هدف هو معرفة تنمية وتطور رأى مجتمع، فإن المعيار الذى يتم الرجوع إليه هو عقل الفرد، وما أنتجه من فنون واداب وفكر وعلوم وتقنية، وما قام به من أبحاث ودراسات، وما أثبته من جودة صناعات، وغير ذلك من متغيرات الحضارة.

وهناك وضعان ويمكن اعتبارهما شرطين، لابد من وجودهما لوصول إبدا ع الفرد للمؤشر الحضارى، الذي يحتوى هذه المجالات: الأول امتلاك الفرد للوعى والثقافة، والثانى وجود بيئة اجتماعية تتفاعل مع هذه المتغيرات الحضارية.

فى المجتمعات العربية المعاصرة نجد ازدياد نسبة الاهتمام بالتركيز على مجالات بعينها مثل الدين أو السياسة، أو حتى مجالات هامشية مثل الرياضة، حيث طغت هذه المجالات على عناصر الثقافة والإبداع والحضارة، وأدت إلى تكون بيئة اجتماعية مغلقة بدائرة مفرغة من المفاهيم العميقة.

حمد الراشد - الرياض - السعودية

الشعر ومكانته المتميزة

تعلمنا -- أيام الطلب - أن الشعر ديوان العرب لأنه يسجل شتى أخبارهم وحروبهم ، باختصار يسجل حياتهم العامة والخاصة على السواء . وتتجلى مصداقية الشاعر حينما يستطيع أن ينسج على منوال هذه الحياة قصيدة تتسم بالتفرد فى البناء والصدق فى محاكاة هذا الواقع الذى تحياه قبيلته على نطاق خاص .. وقبائل أخرى على نطاق أعم .

وحالة العموم المشار إليها أعلاه قلما كان يلتفت إليها الشاعر ، وذلك لشيوع النزعة القبلية التى كانت ترغم الشاعر بحكم الولاء للقبيلة أن يراها فى أعلى المراتب ، ويرى غيرها دونها أو أسفل منها .

ألم يقل « عمرو بن كلثوم التغلبى » فى معلقته الشهيرة :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا   ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

هذا عن القديم .. وإذا نظرنا -- جادين - إلى الشعر فى عصرنا الحديث .. فرغم تقدم الإنسان ومدنيته إلا أن الشعر مازال باقياً .. يتمتع بمكانة مرموقة .. كفن أول من فنون العربية .. وإن نافسته الرواية قليلا .. وادعى البعض أنها سجل الحياة اليومية .. وادعى آخرون أن زمن الرواية قد أزف   وزمن الشعر قد توارى إلى الخلف مفسحاً المجال لهذا الفن الذى يكثر من البوح .. والذى يعتمد على (تفاصيل التفاصيل) وهذه ثمة أساسية من سمات الحكى التى يتسم بها البناء الروائى

وليعتبرنى أولئك النفر رجعيا فى نظرتى وليرمونى بما يحلو لهم أو يروقهم من النعوت . فأنا وبصريح العبارة .. بحكم حبى الجنونى للشعر .. أقول : إن بيتاً واحدا من الشعر يعبر عن هموم الإنسان المعاصر لهو خير ألف مرة من رواية ملحمية

الكلمة الأخيرة

بقلم: د. أحمد بسام ساعي

في آخر استفتاء أجرته القناة الثانية البريطانية BBC2 وبثته مساء ٢٠٠٤/٢/٢٦ خلال برنامج مطول بعنوان: كيف يفكر العالم حول الله؟، تبين أن ٤٦٪ فقط من البريطانيين يؤمنون بالله، مقابل ٤٢٪ من الروس، و٩٨٪ من الإندونيسيين، و٩٦٪ من اللبنانيين . والأطرف من كل ذلك، بل الأكثر إثارة للحزن والشفقة، أن ٣٧٪ من البريطانيين صوتوا بأنهم يؤمنون بلاعب كرة القدم (بيكام) أكثر من إيمانهم بالله ..

إن هذه الحقيقة تدعونا هنا في الوطن العربي إلى المزيد من التقارب بين المسلم والمسيحي. أقول (المزيد) لأن التعايش الأخوي بين أبناء الديانتين ما فتىء حيا على مدى أربعة عشر قرنا، وبنوعية يكاد يتفوق بها حتى على التعايش الديني في الغرب، في ظل ديمقراطيته المتفوقة وتعدديته الثقافية والعرقية، ولكن مستوى هذا التعايش كان باستمرار في ارتفاع وانخفاض تبعا للتقدم الفكري والحضاري في هذا الوطن، وكذلك تبعا للأحداث والظروف السياسية المحيطة، داخل البلد ، وغالبا خارجه، ومعظمها طارىء وسريع، إن هذا ينطبق أيضا على الغرب، فالتعايش بين الأديان بعد ١١ أيلول/سبتمبر لم يعد عنده كما كان قبل هذا التاريخ.

لقد شهد العقدان الخامس والسادس من القرن الماضي، بشكل خاص ، تقاربا واضحا بين المسجد والكنيسة، مع بعض الاستثناءات هنا أو هناك، ولاسيما مع تقدم المدّ الشيوعي الزاحف، حتى بات المسلم المؤمن حريصا على مساعدة الكنيسة لاجتلاب المزيد من الشباب إليها، وبات المسيحي المؤمن حريصا على مساعدة المؤسسة الإسلامية لاجتذاب المزيد من الشباب إلي الله، وكان هذا التعاون يبرز أشد مايكون في الأزمات الإنسانية التي تمر على البلاد.

وأذكر خلال حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل، وكنت أؤدي آنذاك واجب خدمتي العسكرية في القوات السورية، أنني كنت أذكر زميلي في المهجع، الضابط المسيحي، لأداء صلاته الصباحية، كما كان يوقظني في الصباح لأداء صلاة الفجر في وقتها، وكان كل منا يشعر بأن صلاة الآخر ستساعده حقا في مواجهة الأزمة مادمنا نتوجه في صلاتنا إلى الإله الواحد نفسه.

وتذكرني هذه الواقعة بقصة أحدث عهدا، فقد حدث أن بعض الأخوات من المسلمات الملتزمات في بريطانيا مررن بأزمة شعرن خلالها بالحاجة إلى من يرعاهنّ روحيا في مغتربهن، وحين لم يجدن رجل دين مسلما في البلدة ذهبن إلى الكنيسة لبث همومهن هناك لأحد القساوسة الطيبين الذي ظل على اتصال بهن بعد ذلك لمدة طويلة.

إن من المهم اليوم، ونحن نرى انهيار العلاقة بين الإنسان الغربي وكنيسته، أن نعمل هنا في الشرق، مسلمين ومسيحيين، على إصلاح تلك العلاقة وترميمها، لأن تدهورها هناك كان ينعكس باستمرار سلبا على تعامل الغرب معنا، وبقدر ما يقترب الغرب من كنيسته ، ويزداد فهما لمسيحيته، يزداد اقترابا وتفهما للإسلام ولشعوب العالمين العربي والإسلامي.

وانظر إلى عمر بن الخطاب –رضي الله عنه –كيف كان يوصي اليهود في خلافته بالتزام قواعد دينهم، ولاسيما بشروط يوم السبت:

يروي الترمذي عن صفوان بن عسّال– رضي الله عنه –أن يهوديين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال: لاتشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولاتأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود ألا تعتدوا في السبت.

أحدث إصدارات دار الهلال

د. رشدى سعيد

الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى

د. زكى مبارك

ليلى المريضة فى العراق

د. رمسيس عوض

محاكم التفتيش

اسامه بن منقذ

الاعتبار

دار الهلال

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

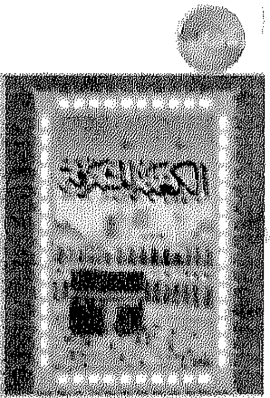

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع: ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع: ١٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت: ٦٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس: ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع ـ
٤ شارع بدوي محرم بك ـ الاسكندرية.

الهلال
مستقبل علاقة الرجل بالمرأة العربية
العراق وثورة العشرين
.. ما أشبه الليلة بالبارحة
العالِمْ والسلطان!
أغسطس ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات
ناسك النحت .. ملحمة مصرية

لوحة وفنان

اللوحة : النحاس - القاهرة ١٨٨٤

الفنان : شارلز ويلدا

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة جماد ثاني ١٤٢٥ هـ - أغسطس ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

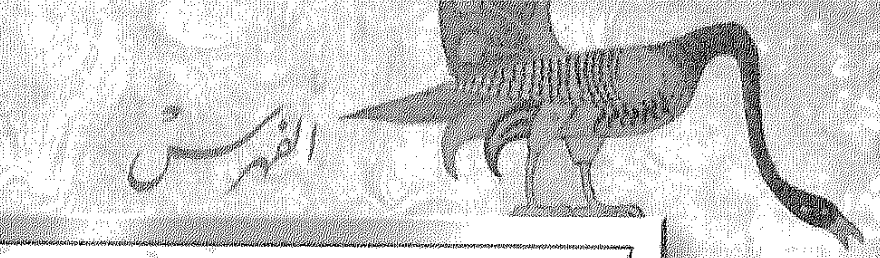

٨ – سوينكا : الأديب والسياسة فى أزمنة القمع...... **جميل مطر**

١٨ – مفارقة السجن والحرية.............. **د. ماهر شفيق فريد**

٢٨ – صرخة وينى مانديلا ...... **صنع الله إبراهيم**

٤٠ – من جحيم الواقع: غناء الجسد عودة إلى عهد الغوازى والعوالم.......... **د. محمد رجب البيومي**

٤٨ – مستقبل المرأة العربية فى ظل النظرة الغربية .... **د. نيڤين مسعد**

دائرة حوار :

٥٦ – هوامش حول تاريخنا الأدبى المعاصر......... **د. أحمد السيد عوض**

٦٤ – التحول والجمود بين المفكرين ...... **حلمى النمنم**

٧٨ – من وحى مذكرات أشرف غربال .. صعود وانهيار علاقات مصر وأمريكا ......**د. عاصم الدسوقي**

٨٥ – فى أصول السياسة الخارجية الأمريكية نشأة الامبراطورية .... **مصطفى الحسينى**

٩٢ – العراق وثورة العشرين : ما أشبه الليلة بالبارحة.................. **ا سيد أبو زيد عمر**

١٠٢ – رتق ثقب العولمة وبناء الامبراطورية الأمريكية .... **د. رءوف عباس**

١٠٨ – ناسك النحت : عبد البديع عبد الحى ملحمة مصرية.................. **د. محمد عرابى**

١١٨ – النقد العربى بين القومية والعالمية .... **د. عبدالعزيز حمودة**

١٢٦ – المواجهة .... قصة قصيرة **فؤاد قنديل**

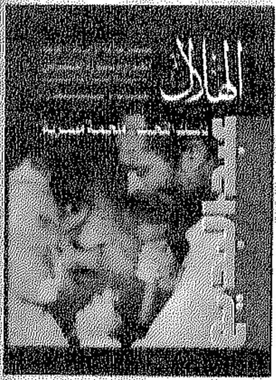

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

شهادات الجيل الجديد من الأدباء ـ جزء خاص ـ

١٣٤ – فى مديح اللعب .... **عزت القمحاوى**
١٣٦ – كتابة تحت الحصار .... **سحر الموجى**
١٣٨– تجليات الزمان والمكان لمدينة دمياط فى روايتى «الغر» «نوة الكرم» .... **نجوى شعبان**
١٤٢ – ذلك الشيطان الذى بداخلى .... **محمد إبراهيم طه**
١٤٦ – تأمــلات فى الفن المصــرى الحــديث .... **د. صبرى منصور**
١٥٦ – جناية حــسين على أبيــة أحــمــد أمين .... **صافى ناز كاظم**
١٦٦ – محـاولات لرأب الصـدع بين الوطن والمهجـر .... **وديع فلسطين**
١٧٠ – وقفة ضد الزيف فى مسرح جديد .... **د. أحمد شمس الدين الحجاجى**
١٧٦ – بعد السقـوط .. من الأب الروحى إلي تيتـو وخالتى فرنسا .... **مصطفى درويش**
١٨٤ – رخـا : إثبـات خطأ نظرية مـأمـون أفندي .... **محيى الدين اللباد**
١٩٤ – حكاية أسـمـهـان :أمـيـرة الغناء العـربى .... **د. نبيل حنفى محمود**
٢٠٢ – المتـفـرجـة :الفـضح! . ... **مرفت رجب**
٢٠٦ – هـوامش ثقـافـيـة ....

الأبواب الثابتة

شخصية العدد.. د. حمدى السيد : رحلة التفوق من الطب إلى السياسة... ربيع أبو الخير.... ٧٠
أقوال معاصرة ٧٧
لغويات د. الطاهر أحمد مكى ١٧٥
التكوين: كل الأبواب مفتوحة للخيال.... ابراهيم عبد المجيد ٢٠٨
أنت والهلال.... عاطف مصطفى.. ٢١٨
– الكلمة الأخيرة.... حول التفيير.. ...د. أحمد مرسى ٢٢٦

ثقافة المستقبل

نطالب الوزارة الجديدة في مجال الثقافة بالتالي.. لا نود أن تكون الوزارة الجديدة استمراراً لسياسة الوزارة السابقة، ولكن بروح الشباب والنظرة إلى المستقبل ينبغي أن تكون أهدافها، حتى نحقق للوطن النهضة التي تدفعه قدما إلى الامام، ولنضع للأجيال القادمة حضارة على أسس راسخة نستمدها من الجهد والعمل والإخلاص.

وهذه السياسة لكي تكون فيها روح الشباب، والذي يؤهلها لتحقيق النجاح اللازم، لابد لها من مجالات ثلاثة.. التعليم والثقافة والإعلام وفي التعليم.. نحن في عصر المعلومات، وثورة المعلومات والاتصالات، وينبغي أن يراعي ذلك في التدريس للنشء من البداية، ويكون للكمبيوتر دور أساسي، بحيث نواكب العصر الذي نعيشه الآن، لأن طرق التعليم ووسائله مختلفة تماما، بطريقة جذرية عما كنا نشاهده في القرن الماضي، فلابد أن نضع في الاعتبار التركيز على الوسائل الحديثة في التعليم، حتى ننطلق إلى آفاق المستقبل في العلم والمعرفة بروح شابة وثابة.

ولا ننسى أبدا تلك المشكلة المستعصية التي لا نجد لها حلا حتى الآن، وهي مشكلة الأمية، التي فشلت وزارات متتابعة في القضاء عليها، وفي مرات كثيرة سمعنا وعودا وقرأنا عن برامج لمحو أمية نصف المجتمع - تقريبا - وأكثرهم من النساء!

أما في مجال الثقافة، فهناك إيجابيات تحققت في السنوات الأخيرة، من بينها مشروع القراءة للجميع وإصدارات مكتبة الأسرة، وكذلك مشروع الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الذي شهدنا ثماره، ومن بينها ترجمة الإلياذة باللغة العربية من لغتها الأصلية، ولأول مرة ، فضلا عن العديد من الكتب التي صدرت.

ولابد في ظل هذا التغيير أن نلمس الجهود التي تقوم بها الثقافة الجماهيرية، وقصور الثقافة على مستوى مصر كلها، ونرى أجيالا من المبدعين الشباب وهم يحملون مشاعل الثقافة، لتستعيد مصر دورها الريادي والذي بدأت انطلاقته في ثلاثينيات القرن العشرين، وقبل أن ينقضي هذا القرن بسنوات بدأ مؤشر الثقافة

ينحسر ويتراجع، ولم نعد نرى الأديب المصرى الواعد الذى يشار إليه بالبنان، كما كان يحدث أيام طه حسين والعقاد وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم، ومحمد مندور وزكى نجيب محمود، وأخيرا نجيب محفوظ ويوسف إدريس ويبقى أن هناك قصورا فى مجالات مهمة، مثل السينما التى تراجعت للوراء بشكل يحتاج إلي تدخل سريع، خاصة أن مصر كانت رائدة فى هذا الميدان الحيوى، وحققت على مدى ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن نهضة مهمة، ويكفى أن صناعة السينما فى مصر كانت تجىء فى نفس مرتبة محصول حيوى هو القطن الذى كان يصدر إلى كل بلاد العالم.

الآن لم تعد هناك سينما جادة تعكس حياة ومعاناة المواطن بصدق، ولكنها لا تقدم إلا التافه من الموضوعات، بحجة أن الجمهور يريد ذلك النوع من الأفلام، لكن من المفروض أن السينما لها رسالة، خصوصا أنها الفن المحبب للجماهير.

وهذا ينسحب على المسرح وعلى الفن التشكيلى، وكذلك فن الغناء والموسيقى ... مع التغيير الذى تشهده مصر الآن يصبح المثلث الذهبى التعليم والثقافة والإعلام وينضم إليها ضلع رابع وهو المساجد والكنائس وكلها تؤدى دورا مهما فى رفع ذوق الناس وطريقة سلوكياتهم والإعلام الصادق يؤدى بلا شك الدور المهم فى حياة أمتنا، وهو الذى يكشف الحقائق وصدقها، ولابد فى هذه المرحلة المهمة فى حياة مصر أن يلعب دورا أمينا وبناء، ويبرز سلبيات كل من يخون أمانة الوطن، ويكون النقد بناء، وتعود للكلمة قدسيتها، لكى نلمس أن التغيير قد حقق شيئا مفيدا، وأن هذه الوجوه الشابة من وزرائنا، لديها الحماس للعطاء للوطن خاصة أن العالم من حولنا يسير بخطوات متسارعة، ولا ينبغى أبدا أن نظل «محلك سر» وتعدادنا السنوى يزيد أكثر من مليون، ولا نعرف كيف نسيطر على هذا المأزق التاريخى الخطير!

والسؤال الذى يطرح نفسه.. هل هذه الوزارة الجديدة، سوف تستطيع فعلا أن تقدم جديدا فى ميدان الثقافة؟ وهل تستطيع أن تقدم لطموحات الوطن والمواطن ما ينشده من إصلاح ورقى؟!

وأقول .. لابد أن ندرك أن التكنولوجيا هى أداة للمشروع الوطنى، وأنها وسيلة لتحقيق هذا المشروع وليست غاية..

وهذا يحتاج إلى تطوير كل أدوات العمل الحكومى فى كل مرافقه وإداراته

المحرر

سوينكا

الأديب والسياسة فى أزمنة القمع

بقلم
جميل مطر

عاد من المنفى وبعد أيام من وصوله إلى لاجوس اشترك فى مظاهرة احتجاجا على الأوضاع المتدهورة فى نيجيريا . أثارت عودته ثم اعتقاله لبعض الوقت فى أحد أقسام شرطة لاجوس ، أثارت من جديد بين المثقفين الأفارقة عموما والنيجيريين خاصة قضية علاقة الأديب بالسياسة . السياسة جعلت سوينكا أحد أبرز الأدلة الحية على تعقد العلاقة بين الأديب والسياسة . وأعتقد أن السياسة ، هى التى حصلت لسوينكا على جائزة نوبل ، وليس فقط وفرة وعظمة إنتاجه الأدبى . يعتقد سوينكا أنه فى أجزاء كثيرة من العالم لايختار المثقف أو الأديب بإرادته الحرة الكتابة فى السياسة أو يسمح بأن تتسرب السياسة إلى ضميره ومنه إلى ما يكتبه . يقول إن الاختيار الحر هو خاصية من خصائص المثقفين المرفهين الذين يعيشون فى مجتمعات مستقرة ومسالمة . أما الأدباء فى هذا الجانب من العالم فالسياسة مفروضة عليهم فرضا منذ اللحظة التى يقرر عندها الأديب التفكير فى طباعة ما كتب من أجل نشره .

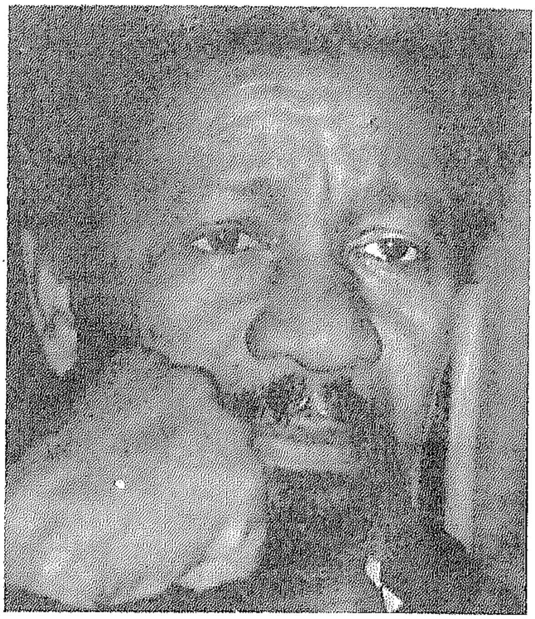

الأديب النيجيرى وول سوينكا

أرى فى سيرة سوينكا ومسرحياته ومقالاته ما يستحق منا التأمل . فكثير من أدبائنا العرب يتعاملون مع السياسة بشكل يوحى بأنهم يطلبون وظيفة فى الحكومة ولا يوحى بأنهم يعملون للتغيير أو الإصلاح أو زرع أفكار مختلفة عن الأفكار السائدة فى المجتمعات التى يعيشون فيها . كتب هنرى لويس غيتس يصف سلوكيات المثقفين فى دول كثيرة بأنها أشبه ما تكون بألعاب يؤديها فنانون على مسرح عرائس السياسة . فى هذا المسرح يتحول الأديب إلى دمية تحركها وتتلاعب بها أياد لاتظهر للناس ، يوجد بيننا من يردد أن الدولة استطاعت أن تؤمم كل شىء . بمعنى أن كل شىء فى المجتمع صار جزءا من عالم السياسة «سيسوا» العلاقات الاجتماعية ووضع المرأة والعلاقة الزوجية وعلاقات العمل، ولكنهم قبل أى شىء آخر «سيسوا» الكلمة فى مشوارها بين كاتبها وقارئها ويعتقد سوينكا أن هذا صحيح ولكن فقط بمعناه التافه السطحى ، وينقل عن جورج أورويل عبارته الذكية «إذا كان كل شىء سياسيا فهناك بعض الأشياء أكثر سياسية عن غيرها» .

ويختلف سوينكا عن كثيرين من معاصريه الذين أعلنوا انشقاقهم وانتقدوا سياسات حكوماتهم وأفكارها ومبادئها . يختلف مثلا عن سولشنتسين . فقد كان هذا الأخير مشاكسا ومهاجما وشديد الانتقاد . سوينكا ليس بهذه الأوصاف ، ولكنه أيضا لم يكن مثل بوريس باسترناك الذى ناضل ضد الطغيان بأسلوبه الخاص . تجاهل الطغيان وأشاح بوجهه عن الفساد وقام بتحصين نفسه، أى بتحصين فضائه الشخصى، ضد ما كان يسميه «مذوبات السياسة» على شاكلة تلك الأحماض التى يستخدمونها فى تذويب المواد الصلبة .

دخل سوينكا السياسة ، أو تعامل معها ، حين شعر بأنه مطالب بالرد والتفاعل مع واقع انهيار بلاده . عندها تغيرت حياته ، مثله فى هذا مثل بعض الأدباء فى عالمنا العربى والإسلامى الذين تعرضوا لنفس الموقف حين شعروا أن الموقف فى بلادهم بلغ حدا خطيرا من التردى والانكسار فأصبحت المواجهة واردة إن لم تكن واجبة . تجدهم يتحولون

بالتدريج من الطباع الهادئة أو الشاردة أو الرقيقة إلى نوع من طباع التوتر والانفعال السريع وأحيانا الغضب الشديد . كثيرون تغيرت طباعهم عند لحظة الانتقال من الأدب النقى إلى الأدب «المسيس» ، قليلون هم الذين أفلحوا فى العودة إلى نقاء عالمهم الخاص ، وأقل من هؤلاء استمروا فى المواجهة مع عالم ينهار أمام عيونهم ، وكثيرون جرفهم التيار فصاروا كالأحجار التى يعريها الفساد ويحدث فيها أفعاله فتتساقط نحو عمق سحيق أقرب شبها إلى الصورة التى تخيلها دانتى لجهنم.

* * *

ينتمى وول سوينكا إلى شعب اليوروبا . ولهذا الشعب حضارة فريدة . هم كالمصريين القدماء جدا برعوا في فن النحت إلى حد أنه يقال أن قدماء اليوروبا نحتوا منظومات راقية من الأساطير المتكاملة فى شكل تماثيل كما فى أشكال من الأساطير والقصص المتناسقة . هذه الحضارة المتصلة لم يؤثر فيها بشكل حاسم اختطاف عشرات الآلاف من أبناء اليوروبا إلى الأمريكتين لاستخدامهم عبيدا للمستعمرين البرتغاليين والأسبان والفرنسيين . فقد استطاع هؤلاء العبيد، بالنظر إلى عمق التقاليد وشموليتها وتناسقها ، التأقلم بسرعة مع الديانة الكاثوليكية حتى صنعوا منها مسيحية خاصة بهم . أخذوا من الكاثوليكية أسماء القديسين فأطلقوها على آلهتهم التى تركوها خلفهم فى أفريقيا . أعادوا بعث الالهة القديمة فى شكل قديسين . وفعل شعب يوروبا فى افريقيا الشيء نفسه عندما وصلت إليه الكاثوليكية . كذلك استخدموا تراث الطب الافريقى فى هاييتى واستمروا يمارسون بعض مظاهره . صنعوا عالما سريا وأطلقوا عليه الفودو ، وما دمية الطين التى يستخدمونها لحرق الروح الشريرة التى تسكن المريض سوى إحدى الممارسات الطبية الموروثة ، وهى ممارسة ليست بعيدة كثيرا عما يمارسه المصريون حتى يومنا هذا . وقد نجح سوينكا فى نقل هذه الصورة إلى مسرحيته «السلالة القوية» عام ١٩٥٩ .

وقد اهتم سوينكا فى كثر من كتاباته بالأصول الأسطورية للأديان ونقاط التقائها ، والعلاقة بين الدين والحضارة ، ويشهد علي ذلك كتابه بعنوان «سكان المستنقع» الصادر عام ١٩٥٨ وكذلك كتابه حول «السلالة القوية» وكتابه «الأسطورة والأدب والعالم الأفريقى» الصادر عام ١٩٥٦ . يقول إن الأساطير تنشأ من محاولة الإنسان إخراج مشاعره من أعماقه وتوصيلها إلى الآخر ويعتقد اعتقادا جازما ، واستمر عليه حتى الآن ، أن إرادة الإنسان بعيدة كل البعد عن

مفهوم الاستسلام ، وأن إنسان اليوروبا الذى تربى فى أحضان ديانته القديمة بعد مزجها بالكاثوليكية يعتبر أن المصير توجه ذاتى وليس مسألة موضوعية أو من صنع قوى خارجية . عندما يتحدث سوينكا عن الدين وتأثيره فى الدراما الافريقية يقول إنه لايمكن فصل الدين عن غيره من الأشكال الحضارية والثقافية فى أى مجتمع إنسانى ويضرب المثل بكل أفريقيا وليس فقط بيوروبا . لابد أن يكون لأى جانب من جوانب الثقافة أصول مغروسة فى الدين من أوله إلى آخره . أما الاختلافات التى استعارها الإنسان من خارج هذا المجتمع فليست أكثر من اختلافات فى الشكل . هناك اختلافات فى الصلوات بين هذا الشعب الأفريقى وأى شعب آخر ، أو فى الاحتفالات والمهرجانات أو فى طرق وأساليب العلاج ، إلا أنه لاخلاف فى النهاية على أن الدين هو المكون الثقافى والحضارى الأعظم لكافة المجتمعات .

* * *

الدين فى أفريقيا ليس ظاهرة منفصلة عن بقية الظواهر الأفريقية ولم يكن فى أى يوم ، ولن يكون ، مؤسسة قائمة بذاتها . الدين ممارسة بأذرع متعددة تمتد إلى العلاج ، والتعليم ، والعائلة ، والسياسة ، والتجارة . تمتد فى طريقين . طريق ينقل من الدين قواعد وقيم وأساليب تعامل إلى تلك الجوانب المتعددة فى المجتمع ويعود حاملا قوة جديدة وفكراً جديداً من المجتمع إلى الدين . وفقا لهذا التصور يصبح منطقيا القول إنه إن صح المجتمع صح الدين ، وإن تدهور المجتمع تكلس الدين وتوقف عن العطاء وعن التجدد . ويعتبر البعض أن الأديان الافريقية كاليهودية الأولى حيث لم يكن الدين ينفصل عن الثقافة والحياة والتاريخ وحيث لايمكن فصل الفرد الإسرائيلى القديم عن العلاقة الأزلية التى تربطه بـ «يهوه» . عند اليوروبا كما أنه فى الإسرائيلية المبكرة وربما عند بعض المذاهب الإسلامية ينظر إلى الحضارة باعتبارها حضارة شاملة Total Culture ، كالمظلة تنشر ظلها على كافة أطراف المجتمع وتفاصيله .

ولا يخفى سوينكا اشمئزازه من مفهوم الصدام الحضارى حتى قبل أن يصبح هذا المفهوم عنوانا لحرب ضروس بين الغرب من ناحية والعرب والمسلمين من ناحية أخرى . ففى عام ١٩٧٣ كتب سوينكا فى مقدمة أروع مسرحياته «الموت وفارس الملك» يقول «أن خطورة عبارة صدام الحضارات أنها بمجرد استخدامها ولو أكاديميا أو نظريا تصبح هى نفسها رخصة لممارسة الصدام الحقيقى والفعلى . تفترض عبارة صدام الحضارات وجود مساواة فى أى موقف تقف فيه الثقافة الغربية وثقافة الآخر على أرضية هذه الأخيرة . هذا الرأى جدير بأن نعرف معناه ونقدره خصوصا بعد أن تحولت احتكاكات قديمة بقدرة قادر

لتصبح صداما حضاريا بين الغرب من ناحية والعرب والمسلمين من ناحية أخرى

حدث هذا مجددا عندما اجتمع الغرب على خطة إدخال إصلاحات فى الشرق الأوسط ، أى فى العالم العربى والإسلامى ، وهو الإصلاح الذى يعنى، طبقا لشكل المواجهة المطروح بها ، ووفقا لأساليب العمل المقترحة في البرامج التى اتخذت فى قمة الثمانية فى ولاية جورجيا الأمريكية ثم فى قمة استنبول ، أن ساحة هذه المواجهة الجديدة هى الشرق الأوسط ، وأن أدوات هذه المواجهة واردة من الغرب . صدام حضارى يجرى على أرض العرب والمسلمين وليس على أراضى الغرب أو أراضى طرف ثالث . ينطبق الشىء نفسه على ما فعله الاستعمار الغربى فى أفريقيا ، فقد خاض صداما وفى تسمية أخرى كانت شائعة وتعود ذائعة «خاض إصلاحا» أسلحته القوة والعنف والدين الغربى ضد تقاليد وممارسات وديانات أفريقية على الأرض الأفريقية ، وانتهى «بالمأساة الافريقية الراهنة» .

* * *

نعود إلى الأديب والسياسة والعلاقة بينهما . هذه العلاقة ليست علاقة مجردة وليست نمطية . إنما تختلف العلاقة من أديب إلى آخر حسب طبيعة الدولة التى يعيش فيها هذا الأديب . ففى حالة وول سوينكا عاش وتربى فى نيجيريا وانتمى إلى شعب يختلف عن بقية شعوبها ، وكأى شخص آخر من أبناء نيجيريا تعرض للقمع وإلى تدخل العسكر من حين إلى حين فى حياته الأدبية والشخصية . وتشهد هذه التجربة على أنه يوجد ما يشبه القانون العام فى السياسة وبخاصة فى الدول النامية أو حديثة الاستقلال ، ينص القانون على أن العسكر يتدخلون فى الحكم فى حالتين : إذا أحسوا بقرب وقوع فوضى شاملة فى الدولة ، وإذا أحسوا بقرب قيام نظام سيمارس الديمقراطية الحقة . الملفت للنظر أن الحالتين لاتختلفان كثيرا عن بعضهما عند معظم المؤسسات العسكرية فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، بل وهناك ما يقال فى هذا الصدد حتى بالنسبة للمجتمعات الغربية المتقدمة . ولدينا المثال فى ثورة اليمين الأمريكى الجديد «والمتعسكر» فكرا وممارسة.

أكاد أردد مع آخرين الرأى الذائع بأن الأديب أمريكيا كان أم أفريقيا أم عربيا مشدود ، أراد أم لم يرد ، إلى السياسة ، يشتد جذبه أو انجذابه إليها كلما تأزمت أمور الدولة وتدهورت أحوال الحكم .

لمن يستجيب الأديب فى عالمنا ، هل يستجيب لنداء الشعوب أم لأوامر السياسيين وكيف أجاب وول سوينكا ؟

* * *

كيف يمكن لأديب أو مثقف فى وزن

وول سوينكا الحائز على جائزة نوبل للسلام أن يتفادى طريق السياسة أو الاصطدام بها أو التعامل معها في ظل وجود أنواع متفاوتة من الرقابة على الإنتاج الأدبي والثقافي ؟ في افريقيا ، كما في العالمين العربي والإسرائيلي ، يولد الأديب وقد حاصرت قلمه أجهزة الرقابة وعيونها . وفي افريقيا أكثر من غيرها بتسييس الأدباء ليس فقط لاكتساب قدرة أكبر على التعامل مع رقابة الدولة ، ولكن أيضا لأن للمثقف الافريقي مكانة كبيرة عند عامة الشعوب الافريقية ، الأمر الذي يزيد من قابلية المثقفين للاستجابة إلى نداءات الشعوب التي تتطلع إليهم لتخليصها من الاستبداد أو على الأقل من تدخل السياسة في حياتها اليومية . إن هذه المكانة التي يحظى بها الأديب الافريقي لها علاقة بأديان افريقيا التلقيدية والمكانة التي يحظى بها من يعلم أكثر عن الأجداد والأساطير وخبايا الكون وطبيعته ، هؤلاء كانت لهم دائما مكانة القداسة بشكل أو بآخر .

في عام ١٩٩٤ أبلغت الشرطة النيجيرية وول سوينكا أنها لن تتمكن في المستقبل من حمايته من الاغتيال دون أن تحدد مصدر التهديد ، فسافر إلى الخارج ، ومن هناك هاجم سوني أباشا الحاكم العسكري لنيجيريا ونظامه الفاسد . وتحت وقع غضب سوينكا الشديد على هذا النظام العسكري صدر كتابه «جرح القارة المفتوح» وعندما جاء بابا جندا إلى الحكم على رأس نظام ديمقراطي استبشر سوينكا خيرا . ولم تمض شهور قليلة إلا وتبين أن بابا جندا جسد في شخصه الدولة النيجيرية . اعتبر مواردها الأخاذة وموقعها بين الأمم وقوتها انعكاسا لقوته الشخصية ومكانته بين رؤساء افريقيا . بمعنى آخر تأكد لسوينكا أن السلطة مفسدة وأن باباجندا الذي جاء إلى الحكم ليقضي على الفساد فسد هو نفسه بسبب ضخامة السلطة وهولها . توحدت نيجيريا بمواردها ومساحتها وقوتها مع شخصه وثروته الشخصية . ويختلف باباجندا عن الرئيس أباشا في أن هذا الأخير كان مستعدا أن يجعل نيجيريا خرابا ليبقى في السلطة. أباشا كان يفتقر إلى أي رؤية للدولة والمجتمع ، بل وكان يسخر من مساعديه الذين ينصحونه بتشكيل رؤية. في عهده تدهورت نيجيريا وتفسخت العلاقات بين شعوبها وانهارت القيم التقليدية وتوقفت عملية التلاقح بين التقليدي والحديث مخلفه تصدعا هائلا في منظومة الأخلاق العامة للنيجيريين .

كان الجنرال أباشا ، حسب تعبير سوينكا ، «فارا محاصرا في جحر من الأنفاق المتصلة» كان مثل سائق سيارة على طريق سريع إذا أتى إلى مخرج من

الطريق أعمته الأضواء المنبعثة من أى سيارة قادمة فى وجهه فيتجمد ويصيب الشلل تفكيره ، عندئذ يفقد المقدرة على تقدير قوة هذا الضوء القادم ومعرفة مصدره وكيفية التعامل معه ، ويعجز عن التفكير فى احتمال أن يساعده هذا الضوء على التفلت من الضياع والظلام اللذين يشلان حركته ، ويجمدان التطور فى البلد التى يتولى مسئولية حكمها . همدت نيجيريا فى ظل أباشا وامتد الفساد ليلحق بالجسد الثقافى فيها ويجر أدباءها ومثقفيها وفنانيها عامة وسياسيها خاصة إلى حضيض العفن والأنانية والاستغلال والانتهازية ، وتراجعت مكانتها بين الدول الافريقية ودول العالم النامى وفى العالم كله .

* * *

ويصب سوينكا جام غضبه على هؤلاء الذين أطلق عليهم تعبير «قطعان الاستعمار» ، هؤلاء السائرون فى فلك أوروبا وأمريكا أوّ فى فلك الدول العربية والإسلامية . يرى فيهم غباء ونفاقا وعدم كفاءة وفسادا بل وأيضا ميولا سادية . هؤلاء أفارقة ولكن فقدوا البراءة الافريقية حين هرولوا وراء منفعة مادية عاجلة أو منصب سياسى . وينعى سوينكا سمعة أدباء ومثقفين لم يكونوا راغبين فى السياسة ولكن فرضت عليهم السياسة فرضا عندما سلمتهم الشعوب مسئولية إنقاذها من السياسيين ففسدوا وفقدوا ثقة الناس بهم . وقد تكررت الظاهرة فى مجتمعات كثيرة بحثت عن فنانين ومثقفين لارشادها وقيادتها وتخليصها من فساد السياسيين وسطوتهم واستبدادهم . حدث هذا مع فكلاف هافيل فى تشيكوسلوفاكيا وماريو فرجاس يوسا فى بيرو وجوموكينياتا فى كينيا ، وهو فى الأصل عالم انثروبولوجى ، وليوبولد سنغور وهو فى الأصل شاعر ومثقف . لا أحد من هؤلاء كان راغبا فى السياسة ولكن لا أحد منهم استطاع رفضها . بعضهم فسد وفقد براءته ، وأقلهم صمد .

ورطة الأديب مع السياسة خصص لها سوينكا رائعته «الموت وفارس الملك» التى صدرت فى عام ١٩٧٣ والتى سبقت الإشارة إليها ، وإن لم تكن المسرحية الوحيدة التى تعرض فيها سوينكا إلى فكرة أن السلطة ، حتى فى القرية ، مفسدة لأخيار الناس وأفاضلهم ، وتدور قصة فارس الملك حول قرية مات ملكها . واستعد فارسه المخلص ليلحق به فدعا أهل القرية إلى الاجتماع فى السوق وقال لهم ، لقد مات كلب الملك ومات حصان الملك وجاء دورى لالحق بمليكى . ثم نادى على ضاربى الطبول ليدقوا طبولهم ، بينما يتهيأ لقتل نفسه . هنا تدخل سيمون بلكنجس الحاكم البريطانى للقرية ليمنع الانتحار. فالانتحار عمل يخالف القانون البريطانى الذى يعتبره عملا همجيا ،

وتردد فارس الملك ، وبعد التردد بدأ يتعاون مع الحاكم . فحق عليه وعلى شعب القرية المهانة والذل ، أظن أن سوينكا أراد أن يقول أشياء كثيرة بعضها قد يفيد فى فهم المرحلة الراهنة التى يمر فيها عالمنا العربى والإسلامى . أكاد أسمعه يقول مثلا إن الاستعمار حين جاء إلى افريقيا حرك المياه فى كل اتجاه . ومع ذلك وبعد قرن أو أكثر، يبدو أنه لم يفلح فى أن يصبح سدا يمنع تدفق نهر التقاليد ، وإن كان قد ترك آثاره داخل النهر وعلى جانبيه وعند مصبه، لم يتوقف حنين الأديب أو المثقف إلى الوفاء والطبول والانتحار ، وفى الوقت نفسه لم يرتو عطشه إلى ارضاء الغرب والحياة فى كنفه مستمتعا إن أمكن أو متذمرا إن عجز .

أراد سوينكا أن يقول إن الانتحار الذى يحرمه الاستعمار وترفضه الحداثة يعنى فى التقاليد الافريقية ما لا يعنيه عند الغرب ، الانتحار هو حلقة الوصل بين عالم الاحياء وعالم الأموات، وعالم يتجاهله الناس ، وهو عالم الذين لم يولدوا بعد . الانتحار خلاص من القمع والظلم والفساد. يسعى سوينكا إلى إبراز مغزى الحياة فى افريقيا التقليدية التى اصطدمت بالاستعمار الغربى . فمن خلال المواجهة التى نشبت بين فارس الملك الذى أراد الانتحار ليلحق بمليكه فى عالم الأموات ، والحاكم البريطانى الذى يريد أن يفرض عليه عالم المستقبل الذى أتى به ، أى عالم الحضارة الغربية ، يريد سوينكا أن ينقل إلى القارىء الافريقى أولا والغربى أخيرا فكرة أن كل مواجهة من هذا القبيل هى فى حقيقة الأمر لحظة انتقالية وإن كانت طويلة وممتدة يتعذب فيها الأفارقة لأن مؤسساتهم التقليدية أصابها الوهن تحت ضربات الاستعمار الغربى وألعاب السياسيين والحكام الجدد ، أما المؤسسات الغربية التى جاءت لتحل محل المؤسسات التقليدية فقد تأكد عجزها عن ملء الفراغ وإشباع حاجة الافريقيين إلى استعادة الأمن والسلام والراحة .

* * *

تجرأ سوينكا ، أو تهور فى وقت من الأوقات ، ودعا إلى نزع جذور الديانتين الوافدتين إلى افريقيا وهما الإسلام والمسيحية والعودة إلى الديانات التقليدية . أكد كثيرا على فكرة أن الحضارة الشاملة النقية هى حضارة الديانة التقليدية التى عرفت التسامح والتعددية وسلام الروح . ويبدو لكثير من النقاد أن سوينكا وقع فى الفخ الذى يحذر منه . فهو يدعو إلى التسامح ويبشر به ولكن عن طريق اللجوء إلى عدم التسامح عندما يقرر ضرورة نزع جذور الديانات الوافدة من خارج افريقيا ، علما بأنه يعرف أكثر من غيره أن الديانتين الوافدتين إلى افريقيا تجذرتا بالفعل فى القارة وأصبحتا أقوى وأوسع وأكثر انتشارا من الديانات التقليدية . ولكن هناك من يرد

على هذا بالقول إن قوة الديانات التقليدية الافريقية تظهر بوضوح فى ممارسات الشعوب الافريقية لعباداتها الحديثة . فقد نجحت شعوب افريقيا فى أن تسرب التقاليد وممارسات من الديانات القديمة إلى الديانتين الوافدتين ، ثم أن هذا النقاء الذى يدعو إليه سوينكا هل هو حلم يمكن تحقيقه؟ وهل وجد هذا النقاء فعلا فى أى وقت من التاريخ فى حضارة شاملة أو حضارة غير شاملة ؟ ألا يجد الإنسان متعته الحقيقية عندما يختار العيش على حدود الثقافات واللغات والأديان وليس فى قلبها . فعند هذه الحدود يوجد التسامح والهدوء والنقاء ، وعند هذه الحدود قامت الحضارات المتوقدة نشاطا ؟ ألم تكن حضارات الحدود أقدر من غيرها على فهم الحضارات الأخرى المتاخمة ، أى على فهم الآخر والتعامل معه ؟

يختلف سوينكا عن أقرانه عربا ومسلمين ، لم يستسلم للسياسة خوفا أو شهوة وإنما تعامل معها من موقع قوته كأديب ، أى كمثقف تحترمه الجماهير أكثر مما تحترم رجل السياسة . جائزة نوبل لم تغيره أو تجمده . رفض سوينكا أن يجعلها سقفه الأعلى ، لا بعده سقف ولا مجد. ولم تخفه نوبل أو من وراءها وأمامها من دول ودور نشر ونقاد أدب وسياسيين وعمالقة فى امبراطورية الإعلام . أذكر له مواقف ضد تقاليد جائزة نوبل غير المنطوقة ، أذكر له ذهابه إلى الأراضى الفلسطينية المحتلة بل ووقوفه ساعات مع الواقفين من تلاميذ المدارس والمرضى والفلاحين والحوامل عند نقاط التفتيش . قال بعدها إذا كنت قد عدت شخصيا بشىء من هذه الرحلة فهى أنه قد ازداد الرعب عندى من أن التدخل فى شئون البشر والعالم سببه أن بعض القادة السياسيين من أمثال شارون يتمتعون بسلطات عسكرية غير محدودة . لقد كتبت منذ شهور فى مجلة افريقية عما شاهدته . كتبت أن حكومة إسرائيل تمزق اربا قلب عرفات وكبده وتطعمهما لأطفاله . وتعجبت كيف يمكن أن يفشل إنسان فى أى مكان فى العالم من التنبؤ بعواقب هذه العملية الوحشية . تذكرت وأنا عند نقاط التفتيش علامات الغضب وغليانه لدى شعب بيافرا أيام الثورة ، وكيف أن شعور المهانة لدى الفلسطينيين والاذلال ، كشعور شعب بيافرا حينذاك. كلاهما نستطيع لمسه وقياسه وتقدير وزنه . هذه المساكن فى غزة وغيرها تحولت تحت القصف والاحتلال والاذلال إلى مواقع لتربية سلالات جديدة من بشر فاقدى الإنسانية . إنه إرهاب الدولة الذى تعترف به دول ، ويسكت عنه المثقفون الجدد .

* * *

هؤلاء المثقفون الجدد من عرب ومسلمين أراهم شديدى الشبه بمفكرين وأدباء وردت سيرتهم فى رائعة سوينكا

«رقصة الغابات» تتحدث المسرحية عن الدورة المتكررة للغباءات مركزة على غباء الطبقة الافريقية الحاكمة وغباء بعض المثقفين ، هؤلاء الذين رباهم الاستعمار الغربى وانطلق بعضهم يدعو إلى «الزنجوية» كأيديولوجية خاصة بافريقيا . وكان رد الفعل للمسرحية صاخبا . فقد غضبت الطبقات الافريقية الحاكمة وغضب أدباء افريقيا ومثقفوها وقاطعوا سوينكا. لم يغضبوا لأن سوينكا اتهمهم بالافتقار إلى الأمانة وسوء استخدام السلطة والفساد والزحف وراء السياسة والحكام ، ولكن لأنه أطلق عليهم لقب «الطرزانات الجدد» أظن أن سوينكا كان يقصد أن بعض أدباء هذه الأيام ومثقفيها يريد فى آن واحد الراحتين : راحة التقاليد وراحة الغرب وحداثته ، فينتهى بأن يعيش منبوذا من عالم التقاليد وعالم الغرب معا ، مثل فارس الملك الذى يريد أن ينتحر فينضم بطلا إلى عالم التقاليد أو يتعاون فينضم تابعا إلى عالم الحداثة فينتهى مهانا ذليلا ومعه مجتمعه وأهله. أم أن سوينكا كان يقصد تجسيد عجز المثقف الافريقى عن العيش فى مجتمع تقليدى وعجزه بالقدر نفسه عن العيش فى مجتمع عصرى .

حديث سوينكا عن الفلسطينيين والاسرائيليين أثار فضولى من جديد حول موقف المثقفين الجدد ، وبخاصة الطامحين إلى نوبل أو الحاصلين عليها، من مسألة المدنيين الأبرياء . مرة أخرى أسأل نفسى وأتردد فى الاجابة، إذا اختار الشعب الفلسطينى الحرية والاستقلال وطرد الاحتلال واستعد لدفع ثمن هذا الاختيار ، فمن هذا الذى يحق له فى تلك الحالة الحديث عن فلسطينيين أبرياء وفلسطينيين غير أبرياء ؟ هل يعنى هذا التمييز أن الفلسطينى الذى اختار الحرية والاستقلال وطرد الاحتلال غير برىء ؟ وفى هذه الحالة أى صفة سنصف بها الفلسطينى الذى رفض هذا الاختيار ، الفلسطينى الذى يريد بقاء الاحتلال ؟ هل نصنفه فى خانة الأبرياء ؟ ثم أين هم الأبرياء فى شعب اختار بإرادته الحرة أن يفرض الاحتلال على شعب آخر ويستولى على أراضيه ويهينه ويذله ويحرمه من كل الحقوق الإنسانية؟ لقد أوقع السعى لإرضاء الغرب المثقفين الجدد ، فى افريقيا كما فى عالمنا العربى والإسلامى ، فى ورطة أخلاقية وسلوكية جعلتهم بالفعل يبدون أكثر شبها بشخصية «طرزان» صاحب النداء المدوى والسلوكيات المتناقضة.

بلغ وول سوينكا السبعين منذ أيام، وأعلن أنه لن يسكت عن الكلام المباح وسيواصل حربه مع السياسة والسياسيين . ■

مفارقة السجن والحرية!

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

فى مسرحية أنطون تشيكوف «الشقيقات الثلاث» يقول الضابط فيرشينين :

«من أيام قليلة كنت أقرأ مذكرات وزير فرنسي سجين حكم عليه بسبب فضيحة قناة بناما يا للفرحة ، يا للجذل ، اللذين يتحدث بهما عن طيور كان يراها خلال قضبان نافذة السجن ولم يكن ، وهو وزير . يلحظ الطيور قط . أما الآن وقد أطلق سراحه فقد عاد إلى سابق إهماله للطيور» (ترجمة د. على الراعى) .

هذه الأمثولة الرمزية الصغيرة تحفل على وجازتها بالدلالات : وهى تسجل حقيقة هامة عن الطبيعة البشرية ، كما ترصد طرازين من الناس : طراز لا يتعلم شيئا من تجربة السجن ، وهى من أمر تجارب الحياة وأكثرها إيلاما ، بمجرد انتهائها ، وطراز آخر ، لا تذكره الأمثولة ، ولكنه مضمر فيها - يتعلم منها الكثير .

وفى ظل غيبة التقاليد الديمقراطية - بدرجات متفاوتة - عن أجزاء كثيرة من عالمنا العربى حظيت تجارب السجن والاعتقال والتعذيب بنصيب وافر من اهتمام أدبائنا الذين عرف كثير منهم هذه التجارب معرفة مباشرة ، واكتوى بنارها ، ودفع ثمن تمسكه بمبادئه من حريته وقوته وصحته ومصير أسرته ، بل دفع أحيانا حياته ذاتها ثمنا لها .

إمـا بموت ناجـز سـريع ، أو وهو الأشق - بموت بطيء من جراء ما اجتمع عليه من أمراض فى فترة الاعتقال ، وهى أمراض ظلت بلا علاج أو كان علاجها صوريا سطحيا ، تفاقمت من جراء سوء الأحوال المعيشية ، وعمل السخرة الشاق ، والإهانة البدنية والمعنوية ، وهزال الغذاء ، والتكدس فى زنزانات ضيقة تعوزها التهوية وتنتشر فيها الروائح الكريهة وتمتد العدوى من سجين إلى سجين وتمرح الحشرات والهوام فى جنباتها، وبدء حملات التفتيش المفاجئ ، والحرمان العاطفى والجنسى ، والامتهان المستمر لآدمية السجين وإنكار حقه فى شيء من الخصوصية كى يمارس عملياته البيولوجية الطبيعية ، من قضاء حاجة أو غيرها .

إن السجن هو عالم السدود والقيود كما يقول العقاد الذى ظل نزيل سجن مصر العمومى (قره ميدان) تسعة أشهر من ١٣ أكتوبر ١٩٣٠ إلى ٨ يوليه ١٩٣١ . وإذا كانت تجربة السجن مؤلمة لأى إنسان ، بصرف النظر عن فداحة ذنبه ، فإنها أشد إيلاما بالنسبة للأديب المفكر الذى هو أكثر المخلوقات حاجة إلى ممارسة حريات التنقل والتفكير والكتابة والكلام والاختلاط بكافة الشرائح الاجتماعية .

ومن الأدباء والمفكرين والمناضلين السياسيين المصريين الذين كتبوا عن هذه التجربة : د. عبد العظيم أنيس ، وطاهر عبد الحكيم ، ود. لطيفة الزيات، ومحمود السعدنى ، وفتحي فضل ، وعلي الشوباشى ، وسعد زهران . وعن هؤلاء السبعة أتحدث هنا متوخيا غاية الإيجاز

عبد العظيم أنيس

يهدى عالم الرياضيات النابغ والناقد الأدبى الدكتور عبد العظيم أنيس كتابه «رسائل الحب والحزن والثورة» (مكتبة روز اليوسف ١٩٧٦) إلى ذكرى زوجته الراحلة السيدة عايدة ثابت المحررة بجريدة «المساء» وقد ماتت موتا مأسويا ، عبثيا فى آن فى أكتوبر ١٩٧٥ إذ عقرها كلب ضال وهى فى مطار القاهرة تنظر عودة زوجها من سفر إلى الخارج . ويضم الكتاب واحدا وثلاثين خطابا من الكاتب ، وتسعة عشر خطابا من الزوجة إلى جانب خطاب منها تلقاه وهو فى الدانمارك فى اغسطس ١٩٦٥، وكانت ابنتهما حنان على وشك أن تولد . كانت رسائله موقعة باسم «كامل» - وهو اسم الشهرة الذى عرف به فى محيط الأسرة - أما رسائلها فكانت - على سبيل التقية - تتخذ صورة رسائل من أخت إلى أخيها ، وتحمل توقيع «عنايات» . ورسائله مكتوبة من معتقل القلعة ، وسجن الواحات الخارجة ، وسجن مصر ، وسجن الإسكندرية ، وأوردى أبو زعبل (الأوردى كلمة تركية معناها : معسكر،

وفى رواية أخرى : ملحق) .

تغطى الرسائل الفترة من أول يناير ١٩٥٩ إلى ٤ ابريل ١٩٦٤ وتضم بعض قصائد للمؤلف مثل قصيدة «الطائر الحزين» وقصيدتين بالعامية هما «العودة» و«السندباد» . كما تضم رسالة من المؤلف إلى لطفى الخولى . ولا يغيب البعد الثقافى والإبداعى والنقدى ، بطبيعة الحال ، عن خطابات الزوجين : فهما يذكران شعر ناظم حكمت (الذى توفى أثناء فترة الاعتقال) . كما أن أنيس يكتب فى مجلة الحائط التى كانت تصدر بالمعتقل مقالات ترد على آراء للويس عوض ويوسف إدريس ، ويستمع إلى شروح الدكتور حسين فوزى للموسيقى الكلاسيكية في البرنامج الثانى«البرنامج الثقافى الآن» بالإذاعة وإلى موسيقى موزار . وحين تصله بعض أعداد مهربة من مجلتى «المسرح» و«الكاتب» يكتب : «إن مقالات رشاد رشدى فى مجلة المسرح هى من أسوأ ما قرأ الإنسان فى السنين الأخيرة عن مشكلة الفن ، وهذا الدفاع البشع عن مسرح وأدب اللامعقول أمر محزن تماما . فالغريب أن المجلة تحوى عددا من الأبحاث الممتازة الجديرة بالتقدير باستثناء مقالات رئيس التحرير التى هى دعوة صريحة إلى عزل الفن عن المجتمع والعالم وإنكار كامل للرسالة الاجتماعية للفن والجانب التعليمى فى المسرح ، ومحاولة دؤوبة لهدم موقفنا وموقف برخت من الفن والمسرح .. على أن الأسوأ من مقالات رشاد رشدى فى مجلة المسرح هو مقالات أحمد عباس صالح فى مجلة الكاتب . إن هذا الإلحاح فى الهجوم على الماركسية كنظرية وعلى الماركسيين المصريين يدعونا إلى التساؤل : لمصلحة من يتم هذا الهجوم ؟ وماذا يستطيع أن يقدم الكاتبان بدلا من الماركسية ؟» (ص ١٤٦) .

أما الهجوم على فكر رشاد رشدى فهو وأمر مفهوم ، إذ أنه يقف مع عبد العظيم أنيس (ومحمود أمين العالم) على طرفى نقيض ، وأما الشجار مع محمد عودة وأحمد عباس صالح فخلافات عائلية ليس لمثلى (وأنا تلميذ لإليوت ورشاد رشدى قديم) أن يتدخل فيها .

طاهر عبد الحكيم

صدرت الطبعة الثانية من كتاب طاهر عبد الحكيم «الأقدام العارية» عن دار ابن خلدون (بيروت) فى ١٩٧٨ . وفى الكتاب قدر كبير من الرطانة الماركسية التقليدية ، ولكنه ذو قيمة تاريخية باعتباره تسجيلا للعلاقة بين النظام الناصرى والشيوعيين المصريين فى فترة محددة هى ما بين يناير ١٩٥٨ ومايو ١٩٦٤ . وفيها اشتدت وطأة

أجهزة عبد الناصر على الحزب الشيوعى المصرى ، كما اشتدت على الإخوان المسلمين وسائر الفئات المعارضة .

والكتاب - إذا كان لى أن أستعير عبارة من الشاعر الدكتور حسن فتح الباب - يسمى الوجوه بأسمائها ، فهو يشير إلى أشخاص أحياء وراحلين بأسمائهم ، ويقدم شهادته للأجيال المقبلة . لقد قضى المؤلف فترة اعتقاله فى أوردى ليمان أبو زعبل ، ثم رحل إلى سجن الواحات الخارجة . وهو يروى قصصا كثيرة عن زملائه فى الاعتقال وكان منهم الشاعر الفلسطينى معين بسيسو الذى يورد له المؤلف قصيدة عنوانها «المرتد» عمن يرتدون عن مبادئهم تحت وطأة التعذيب ، أو الإغراء المادى أو الضغوط النفسية ، أو الضعف البشرى العادى ، أو غير ذلك من الأسباب (لا أشارك طاهر عبدالحكيم ومعين بسيسو إدانتهما لمن يضعفون - وإن شاركتهما إعجابهما بالصامدين - فإن للحم والدم البشريين طاقة لا يستطيعان تجاوزها ، وما أنا من المفرغين فى قوالب الأبطال ! . ويشوب الكتاب مرارة عميقة - ومبررة - من تجاوزات العهد الناصرى ، كما تشوبه هفوات معرفية من مثل قول المؤلف إن سيزيف عذب «لأنه حمل نار المعرفة للبشر» (ص ٢٧٨) . والصواب، طبعا ، بروميثيوس . أما سيزيف فكان عذابه ، بدحرجة الصخرة إلى أعلى ثم سقوطها إلى أسفل باستمرار - راجعا إلى أنه أفشى أسرار زيوس الإلهية ، وخدع الموت مؤقتا فأفلت من النزول إلى العالم السفلى لحين من الوقت ، وكان يسرق المسافرين ويقتلهم .

لطيفة الزيات

كتاب لطيفة الزيات المسمى «حملة تفتيش : «أوراق شخصية» (كتاب الهلال أكتوبر ١٩٩٢) آية من ايات السيرة الذاتية التى تزيل الحواجز بين الماضى والحاضر ، الزمان والمكان ، الذكرى والرغبة . فالجزء الأول منه مؤرخ فى مارس ١٩٧٣ ، والجزء الثانى مؤرخ فى ١٩٨١ ، وفيما بين هذين الجزءين فصول مؤرخة فى ١٩٦٧ و١٩٦٣ و١٩٥٠ و١٩٦٢ و١٩٧٣ بهذا الترتيب . وثمة لمحات عن طفولة الكاتبة ، وزواجها الأول وزواجها الثانى ، وكفاحها السياسى .

وعنوان الكتاب «حملة تفتيش» - كما تلاحظ زينب العسال فى أطروحتها الجامعية القيمة «تفاعل الأنواع فى أدب لطيفة الزيات» - يومئ إلى مستويين : «مستوى مادى : يشير إلى حملة تفتيش واقعية (فى السجن) ومستوى معنوى : يشير إلى غوص الراوية فى أعماق ماضيها ، واستدعاء فترات متباينة من

فترات عمرها» . لقد دخلت الكاتبة السجن مرتين : مرة فى العهد الملكى فى مارس ١٩٤٩ بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، ومرة فى سبتمبر ١٩٨١ بتهمة التخابر مع دولة أجنبية .

أما المرة الأولى فقد عرفت فيها الحبس الانفرادى شهورا على ذمة التحقيق فى سجن الحضرة بالاسكندرية إلى أن أفرج عنها فى يوليه ١٩٤٩ ، بحكم مع إيقاف التنفيذ، بتهمة الانضمام وآخرين إلى تنظيم شيوعى .

وأما المرة الثانية فكانت فى سجن القناطر وكان من زميلاتها فى السجن، إلى جانب عضوات التيار الإسلامى ، الدكاترة أمينة رشيد وعواطف عبدالرحمن ونوال السعداوى . وقد راهنت سلطة السجن على حدوث صراع بين «الإسلاميات» و«التقدميات» ولكن خاب الظن فقد جمع الشعور المشترك بالظلم بين النزيلات وكون جبهة متحدة فى مواجهة القمع الساداتى .

وتفرد لطيفة صفحات لتجربة زواجها من الدكتور رشاد رشدى (دون أن تسميه) وكذلك تجربة زواجها الأول . وتستحيل تجربة السجن - بين يديها المبدعتين : يدى الفنانة - إلى بورة لاهية حارقة تنصهر فيها الأبعاد الشخصية والقومية والإنسانية ، وتتعلم كيف تكون شرسة وعنيفة فى مواجهة الشراسة والعنف . وتوجز الدرس الذى تعلمته فى هذه الكلمات المضمخة بعبق الشعر وعبير الفن :

«يحيل السجن القفازات البيضاء الحريرية الناعمة إلى قفازات ملاكمة تصيب الهدف إصابة مباشرة ، يختزل السجن الإنسان إلى المقومات الأساسية للوجود ، والمقومات حبلى بكل الإمكانيات ، وتصبح أرضا صخرية ، وخضراء يانعة الخضرة ، نارا وماء ، طينا تدوسه الأقدام ، وخرفا يحكى قدرة الإنسان على خلق الجمال وإعادة خلق ذاته . فى السجن تصبح شرسا وجميلا» (ص ١٦٣ - ١٩٦٤) .

محمود السعدنى

ربما كان «الطريق إلى زمش» (كتاب

اليوم ١٩٩٣) لمحمود السعدنى هو الكتاب الوحيد فى قائمتى المختارة الذى تعلو فيه نبرة الفكاهة ، وإن تكن فكاهة أسيانة مشربة بالدمع لقد فصل الكاتب من جريدة «الجمهورية» لأنه حمل رسالة من الحزب الشيوعي العراقي الذى كان مقيما فى دمشق آنذاك - عام ١٩٥٧ - لتوصيلها إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، ثم عمل سكرتيراً لتحرير مجلة «روز اليوسف». حملته المباحث إلى سجن القلعة حيث وجد نخبة من أبرز الكتاب والفنانين المصريين : أحمد رشدى صالح ولويس عوض ولطفى الخولى وفتحى خليل وزهدى وجمال كامل وألفريد فرج وغيرهم ومن القلعة نقلوا إلى معتقل الفيوم وكان فى الأصل معسكرا للجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية . ثم نقلوا إلى سجن الواحات حيث ألف بعض زملائه تنظيما باسم زمش وتولى منصب سكرتيره العام . وفى النهاية أعيد إلى معتقل الفيوم إلى أن أفرج عنه وعاد إلى عمله بروز اليوسف .وفى السنوات التى أعقبت ذلك سافر إلى لندن بابنته المريضة هالة حيث أجريت لها عدة جراحات .

وفى الكتاب نوادر كثيرة تمتزج فيها الفاجعة والفكاهة مثل قصة «هابيوس كوربوس» التى غدت الآن مشهورة ومالها من دلالة على شخصية لويس عوض : ذلك المفكر العظيم الذى كان - من بعض النواحى - أقرب إلى غرارة الطفولة ومثاليا ساذجا يعيش مع صحفات الكتب أكثر مما يعيش على أرض الواقع . ويخيل إليه أن القانون الرومانى القديم (معناه فيما يقول السعدنى : «أبرز الجثة» والأدق : هات السجين ، بشحمه ولحمه ، إلى المحكمة كى ينظر القاضى فى مدى مشروعية احتجازه) لابد سار هنا ، وأنه سيكفل لهم الخروج إلى عالم النور بعد يوم أو يومين على الأكثر» . وقد صدق السعدنى - بحس ابن البلد المصرى الشعبى حين رد عليه قائلا : «تصدق بالله ، لو هابيوس كوربوس جه هنا ، هيحبسوه معانا .. وهياكل ضرب ماكلوش حرامى فى مولد ، هابيوس كوربوس مين يا عمنا ، إن كان اعتمادك على هابيوس كوربوس دا ، يبقى مش هنخرج من هنا غير يوم القيامة» (ص ٣٣) .

فتحى فضل

فى كتابه «الزنزانة» (مكتب النيل للطبع والنشر ١٩٩٣) يروى فتحى فضل تجربته فى السجن بتهمة طبع كتاب «مسافة فى عقل رجل» لمؤلف (لا يسميه فضل صراحة ويقتاد إلى مباحث التهرب من الضرائب ، قسم المصنفات الفنية ، حيث يجرى تحقيق مع مؤلف الكتاب ومعه . ويمثل أمام النيابة فتقرر حبسه

والمؤلف على ذمة التحقيق أربعة أيام واستدعاء موزع الكتاب محمد مدبولى للتحقيق . ويمثل مع المؤلف أمام المحكمة فيصدر الحكم بمد حبسهم خمسة عشر يوما ، وفى الحجز ينضم إليهما محمد مدبولى .

وتختلف تجربة فتحى فضل عن سائر التجارب الواردة هنا فى أنه لم يكن رهين سجن سياسى ، وإنما فى حبس احتياطى عام تعامل فيه مباشرة مع «عكارة المجتمع فى قاع المدينة» (ص ٦) من المتهمين بجرائم الرشوة والاختلاس والتزوير والتزييف والتدليس والنصب والاحتيال . أما تهمته .. ومؤلف الكتاب - فكانت «الاشتراك مع آخرين فى الترويج لهدم السلام الإجتماعى للدولة وازدراء الأديان» . وقد صدر الحكم العسكرى من محكمة أمن الدولة العليا طوارىء بالسجن ثمانى سنوات مع الشغل وغرامة ألف وخمسمائة جنيه لكل من الثلاثة : المؤلف والطابع والموزع . وفى البداية حكم عليه بالافراج مع دفع كفالة خمسة آلاف جنيه ولكنه رفض أن يدفعها أهله محدودو الموارد ، وعاد بإرادته إلى ليمان طره . وفيما بعد حكم عليه بكفالة ألف جنيه مع استمرار حبس مؤلف الكتاب . ويعود إلى بيته فيجد أجزاء كتاب «وصف مصر» - لعلماء الحملة الفرنسية ، وكان يقرأ فيه حين ألقى القبض عليه - مازالت فى مكانها كما كانت حين تركها وانظر إلى دلالة العنوان فى ضوء التجربة بأكملها : «وصف مصر»!

ومن الأمور الأخرى التى تميز فتحى فضل عن سائر الكتاب الذين أتناولهم هنا أنه أقلهم انخراطا فى التجربة ، وأقربهم إلى الوقوف منها موقف المراقب أو المشاهد أو المتفرج . إنه دائما متباعد خطوة أو خطوتين ، لقد شاقته النماذج البشرية الغريبة التى التقى بها فى الحبس (نشالون ، لصوص ، قتله ، قوادون ، مزيفو نقود، تجار مخدرات ، مومسات ، إلخ) إلى الحد الذى يقول معه : «كانت عندى رغبة خفية ولهفة على استمرار حبسى حتى أستكمل غربلة النماذج البشرية الفريدة المدهشة والجرائم النادرة التى لم استمع إليها بعد» .

على الشوباشى

تضم رواية الأديب الراحل على الشوباشى المسماة «قبض الريح» (سلسلة روايات الهلال ، مارس ٢٠٠٢) قسما مسمى «ذكريات فى سجن الواحات» . والمؤلف هو ابن الأديب الكاتب محمد مفيد الشوباشى (أما من أحد يتذكره اليوم ؟) ، وقد عرف الابن تجربة الاعتقال أكثر من مرة أطولها الفترة من أول يناير ١٩٥٩ إلى ٩ مايو

١٩٦٤ . وهو يبدأ هذا القسم ويختمه ، فالذكريات ذات بناء دائرى - بمقولة لينين : «السجن مدرسة الثوار» واختار أن يركز فى كتابه على جانب أهمله غيره، أو لم يمسوه إلا مسا هينا ، هو «ألوان النشاط التعليمى والثقافى والإعلامى والرياضى والترويحى ، ونشاط تنظيم الأحوال المعيشية التى كان المسجونون يقومون بها فى ظروف كثيرا ما كانت صعبة» (ص ١٧٠) .

قضى الشوباشى عام ١٩٦٢ فى سجن الواحات الخارجة حيث أقام المعتقلون «جامعة» تدرس مبادىء الإنجليزية والفرنسية ، والرياضة البحتة ، وأطلقوا عليها اسم الشهيد شعبان حافظ ، أحد قادة أول حزب شيوعى مصرى فى أوائل العشرينيات . كان الدكتور عبد العظيم أنيس يدرس الرياضات المتقدمة لاثنين اختارا دراسة هذه المادة : الدكتور فائق فريد والأستاذ محمد سيد أحمد أما محاضرات الاقتصاد فكان يلقيها الدكاترة فؤاد مرسى واسماعيل صبرى عبد الله وفوزى منصور . ومارس محمد مستجير عملية الترجمة . وكان من المعتقلين أيضا من الصحفيين والفنانين والأدباء : عبد الستار الطويلة وحسن فؤاد وصبحى الشارونى وألفريد فرج وصلاح حافظ (رئيس تحرير «روز اليوسف» الأسبق) وعبد الحكيم قاسم وحمزة البسيونى وداود عزيز ومجدى نجيب وفؤاد حداد وابراهيم فتحى وفيليب جلاب . أما سجن القناطر فضم إنجى أفلاطون ومحسنة توفيق وغيرهن .

ويذكر الشوباشى أن ألفريد فرج ألف فى السجن مسرحية «حلاق بغداد» وعددا من القصص القصيرة ، وأن رجال الأمن صادروا - عند إلقاء القبض على المهندس فوزى حبشى عام ١٩٧٥ - مخطوط كتاب مهم كان الدكتور لويس عوض قد كتبه فى السجن وتم تهريبه بعنوان «حول قانون الذاتية أو الرد على فردريك إنجلز» ، ويضيف الشوباشى قائلا : كان هذا المخطوط الذى لم يكن قد نشر بعد هو النسخة الوحيدة من كتاب الدكتور لويس عوض ، ونرجو أن يعثر عليه رجال المباحث العامة فى أضابيرهم ، خاصة وأنه كتاب ينقد جانبا مهما من أفكار أحد كبار منظرى الشيوعية ، وهو بذلك يمكن أن يكون مساعدا لهم فى «مكافحتهم» للشيوعية ، وبصرف النظر عن ذلك فأفكار الدكتور لويس عوض ، سواء اتفقنا أو اختلفنا معها ، جديرة بأن يقرأها المثقفون» (ص ٢٠٩) .

سعد زهران

ويحتل كتاب سعد زهران المسمى «الأوردى : مذكرات سجين» الصادر

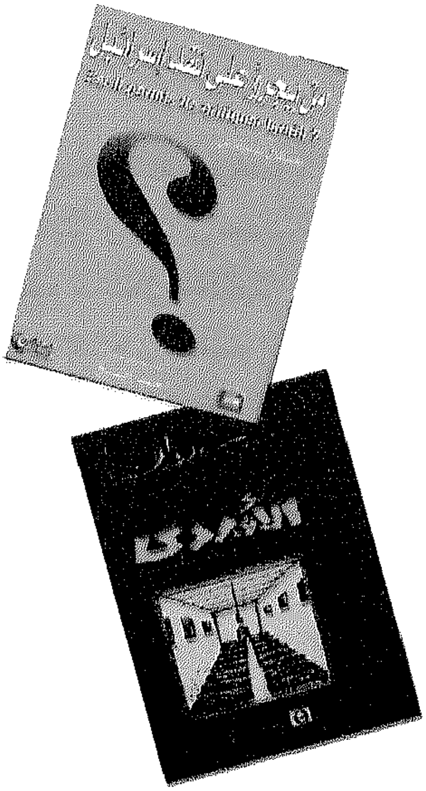

حديثا عن المركز الثقافى العربى (بيروت الدار البيضاء ٢٠٠٤) مكانا مهما بين هذه الأعمال لما يتميز به من توثيق دقيق وتحليلات عميقة وأسلوب أدبى رفيع . ويصدره بقوله «الحرية كالحب والمعرفة نفقدها حين نغفل لحظة عن النضال من أجلها» .. أودع فى البداية معتقل القلعة ثم ذهب إلى الأوردى (ليمان أبى زعبل) فى منتصف يونيو ١٩٦٠ . وكان من زملائه فى الاعتقال : فؤاد مرسى واسماعيل صبرى عبد الله وإلهامى سيف النصر ومحمود العالم وعبد العظيم أنيس ولويس عوض .

ويحفل الكتاب بصور مروعة لامتهان آدمية المساجين ، أهونها الذباب فى الحساء ، والسوس فى حبات الفول ، والتقاط كسرات الخبز من صناديق القمامة . ويسجل المؤلف كيف كان الجلادون يأمرون ضحاياهم دائما بأن ينظروا إلى الأرض ويحرمون عليهم رفع أعينهم مفسرا ذلك بأن الجلاد - لفرط شعوره بالذنب فى أعماقه يخشى مواجهة عينى السجين ورؤية ما تجمع فيهما - والعين مرآة النفس لا تكذب - من غضب وحقد ورغبة فى الانتقام . كما يروى قصة تكاد تكون سريالية لشدة غرابتها وطابعها السحرى الشائه (الجروتسكى) بطلها الشاويش أمين تومرجى الأوردى . كان الشاويش يعمل فى أحد السجون العمومية ، وذات ليلة اشتد المرض بأحد المسجونين فحضر الطبيب ووجده قد فارق الحياة فكتب محضرا بذلك وترك للشاويش أن يقوم بتشريح الجثة فى اليوم التالى . وأدع سعد زهران يكمل القصة :

«وصل الشاويش أمين إلى السجن فى الصباح ليجد جثة السجين المتوفى تنتظر التشريح .

ولكن ، ياللعجب ، حين ضرب الشاويش أمين المشرط فى بطن المتوفى، بدأت الجثة تتحرك !! أدرك الشاويش بسرعة أن طبيب السجن أخطأ فى تشخيص الحالة . لم يكن السجين قد توفى وإنما كان فى حالة غيبوبة بسبب شدة المرض ، فلما ضرب المشرط

أحشائه ، حركة الألم .

لم يتردد الشاويش أمين لحظة . اتجهت يداه المهولتان بسرعة نحو عنق السجين وكتم أنفاسه حتى أجهز عليه !! وهو يصيح بانفعال شديد : ارقد يا ابن الكلب ! ارقد : الدكتور كتب فى الأوراق الرسمية أنك مت . موت يا ابن الكلب . حاتعمل مشكلة للدكتور . موت .. موت .

حدث هذا على مرأى ومشهد من اثنين من المسجونين العاديين ممن يعملون نوبتجية فى مرافق السجن» (ص ١٦١) .

مفارقة السجن والحرية

كتب جان بول سارتر عن سنوات المقاومة ضد الاحتلال النازى لفرنسا ، وقد كان من المشاركين الفاعلين فيها : «لم نكن فى يوم من الأيام أحرارا قدر ما كنا فى تلك الأيام» .

وأحب أن قوله هذا - الذى يبدو لأول وهلة مفارقة غير معقولة - ينطوى على حكمة عميقة ، ويمكن أن ينسحب على الأدباء الذين تحدثت عنهم ، وذلك على نحو شبيه بما نجده فى مفارقة الناقد التفكيكى الأمريكى بول دى مان الذاهب فى كتابه «العمى والبصيرة» إلى أن ناقد الأدب إنما يتوصل إلى أعمق استبصاراته من خلال نوع من العمى النقدى عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب العمل الذى ينقده .

فالسجن بما يضعه على حركة السجين وتصرفاته من قيود - يحرره من انشغالات الحياة اليومية ، ويوفر له وقتا كافيا للتنقيب فى أعماق ذاته وتقليب موقفه على شتى جوانبه ومواجهة النفس بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، أنانية وإيثار ، وإيمان وشك . إن الحبس - والانفرادى منه بخاصة - من أعون الأمور على الانكفاء على الذات ، واستبطان الدخائل ، واستعراض تجربة المرء بكل أبعادها . وهى - إذا اقترنت بنزاهة عقلية من جانب السجين ، كما يفترض فى سجين الرأى - قمينة أن تضع الذات فى الميزان ، وتقييم تصرفاتها بقسطاس عادل مستقيم لا يميل إلى هذا الجانب أو ذاك ، وتيتح للمرء أن يرى ذاته تحت شمس الحقيقة الحارقة، بلا أقنعة ولا أصباغ.

هذه - إذن - هى مفارقة السجن والحرية : إننا بالسجن نتوصل إلى نوع من التحرر - التحرر من أفكارنا المسبقة ، وتحيزاتنا الوجدانية ، وموروثاتنا الثقافية التى لم نخضعها من قبل لفحص أو تمحيص . ومن خلال كوة الزنزانة الضيقة قد نرى رقعة زرقاء من السماء ، أو منديل سحابة كالعهن المندوف ، أو طيور محلقة توقظنا على معنى الحرية والانعتاق . ■

صرخة

ويني مانديلا

بقلم

صنع الله إبراهيم

اقتصرت إحدي جلسات مهرجان الكتّاب العالمي السابع الذي عقد في دوربان بجنوب أفريقيا في الأسبوع الأخير من شهر مارس الماضي علي مناقشة أحدث روايات الكاتب الجنوب أفريقي الأسود نيابولو نيبيلي التي تحمل إسم «صرخة ويني مانديلا». والكاتب نائب رئيس جامعة كيب تاون وأستاذ مقيم بمؤسسة فورد في نيويورك منذ سنة ١٩٩٨. وقد حصل علي الدكتوراه في الفلسفة والأدبين الانجليزي والأمريكي من جامعة دنفر الأمريكية. وصدرت الرواية في العام الماضي ٢٠٠٣ ولاقت نجاحا كبيرا فأعيد طبعها في مطلع هذا العام. وتصور تجارب أربع نساء سود من جنوب أفريقيا، قضين حياتهن في انتظار عودة أزواجهن، ثم التقين بـ «ويني مانديلا» أشهر المنتظرات.

وينى مع مانديلا لحظة خروجه من السجن فى ١٩٩٠ بعد ٢٨ سنة به

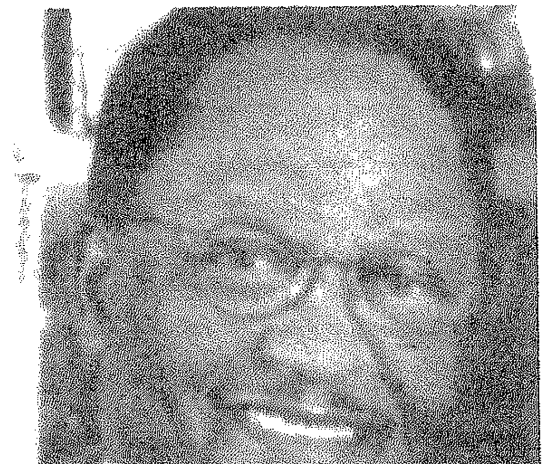

الكاتب الجنوب إفريقى نيابولو نيبيلى

مانديلا مع زوجته الجديدة

الرواية قصيرة في ١٢٠ صفحة تتميز بلغة شاعرية وعمق سيكولوجي وتروى قصة الدمار الذى أحدثه الرجل الأبيض فى بنية المجتمع الأفريقى والذى يفسر ظواهر العنف والمخدرات والضياع ويمثل قنبلة على أهبة الانفجار. لكنها في الوقت نفسه تقدم تجربة كونية عرفناها فى مصر والعراق وفلسطين وليبيا والأردن والسعودية والمغرب وتونس والجزائر وكل مكان تعرض فيه الإنسان للضغوط التى دفعته إلى الهجرة وتعرض فيه أصحاب القضايا للقهر والموت والتعذيب وتعرضت فيه النساء لدراما الانتظار وآلامه.

ومن الناحية التقنية تقدم الرواية تجربة هامة فى توسيع حدود فن القص، إذ تموه الحدود القائمة بين التخييل والواقع بالجمع بين أشكال الابداع المختلفة من قص وسيرة ومقال، كما أنها لا تعبأ بالمحظورات المعهودة فى أدبنا العربى لأنها صادرة عن ثقافة مختلفة، لها بالتأكيد قيم انسانية أسمى من قيمنا.

يقول الكاتب فى مدخل الرواية: «هذا عمل من أعمال الخيال يستشهد بمقتطفات غير تخيلية من نصوص مذكورة فى نهاية الكتاب» وتضم هذه النصوص عدة مؤلفات عن «مانديلا» وزوجته فضلا عن «الأوديسة» وكتاب «مانديلا» الشهير «المسيرة الطويلة إلى الحرية» الصادر فى ١٩٩٤ وكتاب زوجته «ويني» الصادر عام ١٩٨٤ بعنوان «جزء من روحى ذهب معه». وحرص المؤلف على أن يضع هذه المقتطفات فى النص بين علامات تنصيص. كما استخدم الخط المائل للوثائق التى أوردها وعلى رأسها رسالة «ويني» إلى عشيقها وكلمة «مانديلا» فى قضية الطلاق التى رفعها ضد زوجته.

سجل حافل

و «ويني مانديلا» واحدة من النساء الأفريقيات اللاتى سجلن تاريخا حافلا من الكفاح ضد قوانين التفرقة العنصرية. ففى عام ١٩٥٦قادت النساء تظاهرة من ٢٠ ألف امرأة فى «بريتوريا» قلب السلطة البيضاء طالبن بأن يتاح لهن الحياة مع أزواجهن وأطفالهن المعزولين فى مناطق العمل.

أما «ويني» فقد بدأت رحلتها الكفاحية بعد سجن زوجها. وطوال فترة السجن التى استمرت ٢٧ عاما تعرضت للسجن عدة مرات لكن سنوات حياتها الأخيرة شابتها الفضائح وشهدت انفصالها عن زوجها بعد الافراج عنه.

فخلال فترة غياب زوجها فى السجن شيدت فى مدنية «سويتو» السوداء الفقيرة قصرا فاخرا أشبه بالقلعة، و استولت لنفسها على مئات الألوف من التبرعات التى قدمتها «بناظير بوتو» و «دوس سانتوس» رئيس أنجولا للحركة النضالية كما شاركت فى أعمال

استثمارية مريبة (بعضها مع «عمر الشريف») وتعرضت لمحاكمات عديدة آخرها قبل شهور من زيارتى فى قضية نصب.

بنات « بينلوب »

ويستهل المؤلف روايته واصفا إياها بأنها كتاب تخييلى عن حياة المرأة الأفريقية يروى قصص أربع من النساء المجهولات وأشهر امرأة من «جنوب أفريقيا»، كن ينتظرن .

ثم يروى قصة «بينلوب» بطلة «الأوديسة» الشهيرة التى انتظرت زوجها ١٩ سنة تحملتها بفضل الإيمان ، رفضت خلالها الاستجابة لطلاب يدها فاحتلت مكانها فى الأدب العالمى رمزا مطلقا للزوجة «المخلصة والصادقة». ذلك أن القاعدة السائدة عن دور المرأة فى الزواج هى الإخلاص الأبدى للزوج..

وطوال قرن تعرضت ملايين من سلالة «بينلوب» الجنوب أفريقيات للاختبار بسبب غياب الرجال لفترات طويلة من الزمن بتأثير القوانين الاستعمارية التى خلقها الجوع الامبريالى إلى عمال للمناجم والمصانع أو مدرسين وموظفين للمكاتب الحكومية أو التى أودعتهم السجون والمنافى.

دعونا نتأمل الحياة المتخيلة لأربع من سليلات «بينلوب» : «الجلوس على حافة الفراش بعد حمام المساء ، وحيدة فى غرفة النوم. تنتظر. تترك يدها تنزلق فوق الدهان الذى تبسطه فى رقة فوق الجسد. متلكئة فوق النهدين تحتضنهما. تنزلق فوق الصدر وفوق الفخذين حتى الركبة. ثم بين الركبتين خلال الفخذين، تفرجهما حتى يستسلمان من تلقاء نفسيهما. وأخيراتستقر السبابة ظهرا لظهرفوق الفرج بينما ينضغط الفخذان من جديد».

أهناك لحظة تصبح فيها عودة الزوج المرجوة مبعث رهبة؟ عندما يصبح التحمل هدفا فى ذاته؟ بلا شئ يعقبه. عندما لا تعود المرأة التى وقعت فى شباك الانتظار فى حاجة إلى عودة رفيق رجل منذ زمن بعيد وأصبح ذكرى لم تعد تستدر عاطفة؟.. عندما يخلق تيار الحياة فى ظل الانتظار مغريات عديدة؟ .. لماذا يجب أن يعود الآن الرجل الذى ذهب من زمن بعيد؟ لماذا لا تبدأ المرأة المنتظرة فى وضع مشاريع دائمة دون زوجها؟

.. هذا هو ما يعطي «بينلوب» جنوب أفريقيا هذه النظرة المتميزة. تلك النظرة المتفرسة ! إنها حملقة عين تتسلل بنعومة صارمة وثابتة. نظرة كرم نابع من الإصرار . وفى لحظة يأس، عندما يحرك الزلزال داخلها الرغبة فى تواصل عميق.. يبدو عليها الضعف وتسقط التحصينات.. وينفسح المجال لنظرة عدم مبالاة.لكنها لا مبالاة تربطك. بل أنها تثير الروع. إنها تنضح بجوهر الجمال .. ليست فقط فى تلك العينين البنيتين . إنها التجعيدة الطيعة فى الجبهة ، التحفظ الناطق بالثقة فى النفس، الشفاه المزمومة: كل ذلك يؤلف التحديقة التى تمسك بالظرف

الحياتى خلال زمن يقاس بحالة الانتظار.

طقس الشاى

يروى المؤلف القصص المتخيلة لأربع نساء ثم يجمعهن سويا فى لقاء أسبوعى لشرب الشاى. وفيما بعد تنضم إليهن «وينى مانديلا». وتقترح إحداهن - «ديللى»- أن يتحدثن عن «وينى» وتبرز قصاصة صحيفة أحضرتها من مخدعها تضم نص الرسالة التى بعثت بها «وينى مانديلا» الحقيقية إلى عشيقها ونشرتها الصحف، وهى بتوقيع صلف ألفت أن تستخدمه فى أمثال هذه الرسائل كى تتجنب ذكر اسمها:

« .. عندما أفكر فيما حدث ، أستفظع خيانتك. لقد كنت على استعداد للتصديق على تصريح «تيريزا» فى «سيتى بريس» بأنك انفصلت عنها بسببى بينما من الواضح تماما أنها تخلت عنك تماما فى فبراير ١٩٩١ عندما وجدتك راقدا مع «نوكسوليزى» صباح ذلك السبت. هل تذكر كيف كنا عاشقين ؟ كان بوسعك ياحبيبى أن تأتى إلى بوجه لا ينم عن شئ كأن شيئا لم يحدث بل وفى أحيان كثيرة كنت أنا السبب فى شجاراتك مع «تيريزا» حتى عندما تلفنت هى لـ «بيوملا» وقالت لها ذلك الهراء وكيف أنك لم تتزوجها بسببى، لقد قمت بحمايتها ووقفت فى صفها.إنها تيريزا هذه بتاعتك، التى أدخلت «بيوملا» فى الأمر كله، وأنت اليوم تهيننى وتقول إننى التى فعلت؟.. عندما أنتهى من أمرك سوف تتعلم بعض الأمانة والإخلاص وتعرف ماذا يعنى خيانة الثقة بالنسبة لامرأة .

تكذب على وتقترح أن تكون لك علاقة بأخرى للتغطية على علاقتنا.. أفهم وأعرف كيف كان من الصعب على تقبل هذا الواقع لكن سرعان ما أدركت أن حبى الشديد لك اضطرنى للموافقة معك رغم أنى مازلت أرتعد من كونك تكذب ...

لقد أرغمتنى معاملتك الخسيسة فى الليلة الماضية أن أريك مرة أخرى كيف أن بوسعى أن أفعل المثل تماما. دالى ، أنا لا أرجوك شيئا ولن تجعل منى «تيريزا» أخرى ، وأنت فى حاجة لأن تقرأ الفقرة الأخيرة من خطابها إلى «نوكسوليزى» لتعرف كيف أنك مهووس بالكذب. ما يجب أن تعلمه هو أننى لن أتيح لك أبدا أن تحط من شأنى إلى هذه الدرجة مرة أخرى..إنها أنا..»

ديللى تتكلم

ثم تواصل «ديللى» : «هاهو الأمر كله فى الصحف . كل شئ ! ياإلهى . رغم أنها حاولت التعبير عن رغبة محبطة... لقد تدرب زوجك على أن يعيش بدونك وحافظ على جلال منزلته الفائق. لقد حماه السجن وحوله إلى قديس. لم تكن لديه نساء يعرضن أنفسهن أمامه. أما أنت فقد كان لديك مالا يحصى من المعجبين: رجال على استعداد لأن يخاطروا بحياتهم فى الهاوية الفاصلة بين الشهرة

والخيانة. الاختيار الأخلاقى لديهم حفزتها متعة تحويل رجل مشهورإلى ديوث وفى نفس الوقت نفسه الرغبة فى الحصول على الشهرة من جراء ذلك ..دفعوك لأن تنتهبى فرصتك. ولكى تحدى من المخاطر كان عليك أن تجمعى سطوة سياسية كبيرة تكفى لأن تضعك خارج الانتقاد عندما يحل الخوف منك محل الحكم الأخلاقى.

...«أوبيفيبا»، أى الجماع(باللغة الدارجة) . «بوتيكاتسى». يالها من كلمة موجودة فى كل لغة. وتبعث إلى الذهن معنى العلاقة الجنسية الصرفة بين رجل وامرأة. علاقة ليلة واحدة. جولة سريعة. «تسا- تسا». اغتصاب . جنس بلا التزام. .. رغبة جسدية حارقة لدى رجل فى أن يضخ المنى .. وبعد أن يقذفه ينهض ويمضى بعيدا وهو يربط أزراره ، آلة لم يعد لها فجأة أية فائدة.

إنه إذ ينهض ويمضى بعيدا يترك عادة شخصا يشعر بالهجران، شخصا يتشوق إلى إيماءات ولمسات تضفى الشرعية على الأمر ، وتبث طمأنينة الرفقة ..الابتعاد يعلن التخلص من شئ تم استخدامه وإلقاؤه أرضا.. هذه هى اللحظة التى يتحول فيها الاغتصاب إلى فعل دائم . بمجرد انتهاء الغزو الجسدى ، يصبح احتلالا طويل الأمد..

(...) هذا هو معنى الكلمة. ممارسة عشوائية وعنيفة للجنس دون عبء المسئولية.. تستخدم الكلمة كسباب وإهانة. يقولها لك شخص فى غضب . ومعناها: «لينكحك شخص بعنف وازدراء ويضخ منيه ثم يمضى بعيدا» ..

بالطبع أحيانا ما ترغب امرأة فى مثل هذا النوع من الممارسة. وقد شعرت أحيانا أنى أستخدم فانتازيا الوقوع فى الحب لتبرير رغبة حقيقية فى الجنس البحت.. وينبع ذلك من شعور عنيف بعد الاتصال . وربما نساء كثيرات من المنتظرات يعرفن هذا الشعور. طبقات وطبقات من مفهوم عن احترام الذات والانتماء للكنيسة والمشاركة فى طقس الشاى ، يسقط عنك تدريجيا مع الزمن. ويصبح الانتظار معركة بين رغبتك فى الإبقاء على هذه الطبقات وميلك المتزايد لأن تمتنعى عن مقاومة تحللها مع الزمن.

قصة حب

.. هل كنت تعرفين المقدر لك عندما وقعت وأنت فتاة صاعقة الجمال فى الثالثة والعشرين - فى حب الملاكم والسياسى الشهير الوسيم، «نيلسون»؟ أنت فتاة القرية التى كانت فى طفولتها -كما يقال- دائما فى رفقة الصبية ، تلعبين ألعابهم ، تقاتلين بالعصى ، ..تلكمين الوجوه بقبضة اليد .. تركبين الظهور العارية للجياد والماشية . صلبة العود ولا مبالية.

قيل لنا إنك تأثرت بموت أمك. عندئذ توثقت علاقتك بأبيك الذى كان متحفظا فى علاقته بأطفاله. لم يحتضن أيا منهم أبدا أو يوجه إليهم كلمة حب. لكنك صرت قريبة منه بالرغم من ذلك

عندمـا توليت مسـئولية المسـاعـدة فى تنشئة أشقائك الصغار.

أردت أن تصبحى ناشطة اجتماعية فـذهبت إلى «جـوهـانسـبـرج»، مـدينة الذهب.

هناك التـقـيت بالرجل الذى هز كيانك .. فتح خيالك وعقلك وجسدك أمام مستقبل من الزواج والشهرة والسطوة.

أجل !دخل عـشـيـقك وصـديقك ومعلمك وأبوك إلى حيـاتك وأقـام منزلا على أعمدة الحب والسلطة.. كان منزلك سلسلة من مـواعيـد وسـيـارات تظهـر فجأة لتقلك إلى مختلف الأماكن.. تتذكر «سـالى مـوتلانا» ذات مـسـاء: «تلقـيت مكالمة تليـفـونيـة بأن أتوقع زائرا. دق الجرس فى الثامنة مسـاء، وكدت أقع ميتة عندما رأيته هو، يقف فى الخارج» .

قـال: «أريد منك مـعـروفـا.. أن تحضرى لى وينى».اندفعت إلى منزلها وقلت لها تجملى بأقصى ما تستطيعين فهناك شخصية هامة تريد رؤيتك. ركبنا السيارة وقدتها إلى غرفة فى نهاية المنزل. سألته هى مازحة : هل تريد أن تقتلنى؟. ثم سمعت ضحكات السعادة من الاثنين. تركناهمـا منفـردين ثم أخـذنا «نيلسـون» إلى البلدة قـرب منتـصف الليل». حيـاة من التـخطيط والفرار إثارة التدبير والتحايل الاختفاء التنكر.

«وينى» أيمكنك الحـديث عن تلك الليلة؟.. هل تبادلتما الحب؟.. بينى وبينك كامرأة من المستحيل ألا تكونا قد فعلتما.. سـمـعتك «سـالى» تضحكين كيف كان أمـره؟ أتمنى لو كنت أمـامى الآن لأرى عـينيك الواسـعـتـين اللامـعـتـين عندمـا تعكسان الشقاوة والممانعة للكشف بينما تنمـان فى الوقت نفسـه عن الاقـرار، ضـحكتك التى هى طريقـتك الوحـيـدة فى الإفصاح عن سنواتك.

سنواتك ليست فى نظراتك والمحملة بالعاطفة لكن لا تنم عن شئ. سنواتك فى ضحكتك. ضحكتك يمكن أن تكون هازئة، حسية ، موحية بالاغراء، ساحرة. ويمكنها أن تكون باردة وخـبـيـثـة..وأيا كـانت الرسالة التى تبعث بها ضحكتك ، تظلين جميلة..فجمالك يمكن أن يوحى بالرصانة والرعب فى آن واحد.

أجل ، طالما فكرت أنك تحتاجين إلى لافـتـة فـوق جـبـهـتك .. تقـول: «احـذروا جمالى» !

وهـاهـو «نيلسـون» قـد رحل . «نيلسون» بتاعك و«نيلسون» بتاعنا! وبدأت تنتظرين. وانتظرنا معك.

وتهـدد السـحـر بالتـبـخـر لكنك تمسكت به. وقـفت إلى جـانبـه.. وبدأت عناصـر بلاغـتك تتـشكل.. الاعـتـقـالات المتكررة ، الاتهـامـات ، المحـاكم ، الاستجوابات والتعذيب، السجن ، القيود ، المحظورات ، الإبعاد ، والغياب المستمر لزوجك. المصل الواقى لمعـاناتك كـان شعورك بأنك تثيرين الإعجاب والخشية وازدياد إحساسك واستمتاعك بسطوتك.

وسرعان ما ذاب خوفك من النتائج .

تمسكت بالوقوف إلى جوار زوجك بامتصاص صورته السياسية داخلك. صار تبجحك طقسا يرمز إلى الانتماء المتفانى لقضية عامة...

هل تذكرين الميجور «ثوينيس سوانيبويل»؟ الذى كان مصدر رعب كل المعتقلين؟ أعتقد أنه كان نقطة التحول فى حياتك. معاملة الميجور «سوانيبويل» المتوحشة لك. يقال إنك صرت فاقدة للإحساس بالزمان والمكان بعد أسابيع وأسابيع من التعذيب... أنت الماسة التى شكلها «سوانيبويل» من نيران غرفة التعذيب. هكذا ولدت الشخصية التى تعرف كيف تتألق على الخوف والرعب، وتفوقت فى فن التبرير بلا حدود.

.. يقولون إن كلماتك تحولت فى لحظة معينة إلى بيانات سياسية.«حب بلادى» ، «البلاد التى أكافح من أجلها». تعبيرات قوية ورغم ذلك تنتابنى الشكوك عندما أسمعها..

نسبوا إليك الكثير من القبح : خطف الأطفال وتعذيبهم ،الاحتفاءات والموتى ، الاغتيالات، الإرهاب والتهديدات . كل هذا كان له فى ذهنك تبرير واحد: «البلد الذى تحبينه»، «الملايين من أبناء شعبى »، كل هذا باسم زوجك. هكذا احتفظت به فى غيابه بالقرب منك رغم أنك ربما تكونين قد عبرت الخط الفاصل وبدأت تتمنين غيابه الدائم. لا يجب أن يعود فأنا ملكة العش!

..هناك أيضا بالطبع كل هؤلاء الشبان فى حياتك. عشاق؟ سائقون؟ حراس ؟ فيما عدا من أكدت الرسالة المنشورة وجوده ، يعيش الآخرون فى عالم من الشائعات غير المؤكدة.

..لقد حاولت لجنة «الحقيقة والمصالحة» تجسير الهوة بين البراءة القانونية والمسئولية المعنوية فى تقرير بعنوان: «تحقيق خاص فى نادى «مانديلا» لكرة القدم» ..ألقى نظرة على بعض ماجاء به:

« تبينت اللجنة أن «لولو سونو» قد اختطف بواسطة أعضاء النادى يوم ١٣ نوفمبر ١٩٨٨ وأخذ إلى منزل السيدة «مانديلا» حيث تعرض لاعتداءات جسيمة. تبينت اللجنة أن السيدة «مانديلا» كانت تعرف بأمر الاعتداءات. تبينت اللجنة أن السيدة «مانديلا» – فى صحبة السادة . .و أعضاء آخرين من النادى– أخذوا «لولو سونو» إلى منزل والديه ، حيث رفضت السيدة «مانديلا» أن تعيد «لولو» إلى والده .. وأنها قالت له إن إبنه سيؤخذ إلى حيث يمكن للحركة أن تتعامل معه. وتبينت اللجنة أن «لولو سونو» قد قتل بواسطة «جيرى ريتشاردسون» ، أحد المقربين من السيدة «مانديلا» . وكان «ريتشاردسون» أيضا صديقا وجارا لـ«لولو سونو» ومدربا لنادى كرة القدم..

لقد حدث كثير من القتل بعد عودة «نيلسون» إلى البيت. البيت؟.. أكان هو «البيت» الذى عاد إليه «نيلسون

ماندیلا»؟..

أين كنت فى تلك الليلة التى بدأت فيها الوحدة الثانية لـ «نيلسون» والتى تحولت فيما بعد إلى قرينة إثبات فى قضية طلاق مؤلمة؟

« منذ لحظة عودتى من السجن ، لم تدخل المدعى عليها غرفة النوم أثناء يقظتى. ظللت أقول لها: «انظرى ، الرجال والنساء يناقشون عادة أكثر المشاكل حميمية فى غرفة النوم . لقد قضيت وقتا طويلا فى السجن . هناك قضايا كثيرة وأغلبها بالغ الحساسية. أحب أن تتاح لى فرصة المناقشة معك». لكنها لم تستجب مرة واحدة .. وكنت أكثر الناس وحدة خلال إقامتى معها (من نص شهادة «نيلسون ماندیلا» أمام المحكمة فى قضية الطلاق التى رفعها).

«وينى ماندیلا» تتحدث:

... الرحيل ، الانتظار ، العودة. كم أنتن مصيبات! الأعمدة الثلاثة لحياة امرأة جنوب أفريقيا. أنا أيضا رأيت نيلسون بتاعى يذهب. ثم انتظرته. ثم عاد .. هل تتذكرون عودته؟ كنت معه على شاشة كل تليفزيون فى العالم عندما خطا خارجا من السجن فى زهو.

.. عندما خرجت معه من بوابات السجن واصلت انتظاره !

الانتظار!.. حياتك الداخلية يتم اعتصارها بواسطة اهتمام جماهيرى باسمه أو بالنيابة عنه. وبدأالتفريغ حتى قبل اعتقاله. بدأ بالغزو المنظم لما كان لدينا من أحلام عن الحياة العائلية. أردت أن أهيئ بيتا له. وينى ربة منزل! بالطبع . غريب أن أقول أنى كنت أسعى لأن أكون كذلك فى ذلك الحين. من هى المرأة التى لاتفعل ..

لكن ملاذنا لم يتحقق. فقد كانوا يأتون عند الفجر ويدقون على بابنا ، ثم يبدأون ما أسموه البحث عن محظورات. ويتركون منزلنا دائما وكأن الفيلة تقاتلت به. رجال الشرطة «البوير» (الأفريكانر أو البيض من السلالة الهولندية) الأجلاف ...أبناء الميجور «ثوينيس سوانيبويل» أستاذ التعذيب. علمهم كيف يعتمدون على تأثير إحداث الفوضى على ذهن تعود النظام. الفوضى المتعمدة يمكن أن تستخدم كوسيلة تجعلك ترغب فى مزيد من النظام. إنها تضمن الإذعان المستمر لقانون من السيطرة المهيمنة. يجردونك من النظام لترغب فى المزيد منه.

.. من التفريغ التدريجى لحياتى بزغ قانون مقاومتى..السخط على النظام بدلا من الحنين إليه....صرت تجسيدا للفوضى.

أوه ، «نيلسون» !

..سأشارك الآن فى لعبتكن بأن أتحدث إلى نفسى..

«وينى» تتحدث.

« وينى » ؟ أين أنت ؟

أعرف أنك أينما كنت فتليفونك

الخلوى فى يدك. . . . .

أتذكرين ؟ ما كتبته أنت عن تلك المرة. عندما طلبوا منك أن تعدى له حقيبة لأنه مسافر فى رحلة طويلة :« كانت هذه هى المرة الأخيرة التى رأيته فيها كزوج.. لم تكن هناك فرصة للجلوس ومناقشة قراره بالالتزام الكامل للثورة».

وبعد سنوات كثيرة قال إنه لم يجدك عندما احتاج إلى الحديث معك فى غرفة النوم .أخذته منك حياة مشحونة . فبماذا كنت أنت مشغولة عندما تركته عند عودته وحيدا فى غرفة النوم؟

.. عندما حكموا عليه أصبحوا حلفاءك. أصبح الفضاء فسيحا أمامك لتلمعى من خلال فرصة لتلمعى بنفسك. ..شعرت بمزيج من الغضب والقلق وتوازع الانتقام..زوجة الزعيم المسجون غاضبة!

انظرى إلى النصب التذكارى لسطوة الغضب، وغضب السلطة. مدن السود القذرة فى مواجهة ضواحى البيض الغنية... أفران الغاز فى «داتشو» ، مقابر وكالة المخابرات الأمريكية فى أرجاء العالم، «الكلوكلوس كلان»، وطقوسها المرعبة، المتحف الكنسى من الجماجم فى «رواندا» ، الأطراف المقطوعة لشعب «سيراليون» ، القنبلة النووية على «هيروشيما»،نقاط التفتيش الإسرائيلية. النصب التذكارى الضخم الذى أقامه البيض تذكرة للسود بعبوديتهم ..انظرى إليها فى كل أنحاء العالم : الإرهاب تحت ستار الدوافع الأخلاقية.

وقد أقمت نصبك التذكارى الخاص بك..«نادى نيلسون مانديلا المتحد لكرة القدم». غضبك كان وسيلتك للتغلب على الوحدة. كنت غاضبة من الجماهير التى لم تقدر حكمة السير فى ركابك. وكنت مصممة على أن يتبعوك، أيا كانت النتائج. ولسوف يتبعونك بواسطة الاختطافات والرشاشات والتعذيب الذى تعلمته جيدا من الميجور «سوانيبويل».

... كل أعمال الاضطهاد والقمع تخلف تركة. فى ظل «نادى كرة القدم» انتشرت أعمال اختطاف الفتيات والاغتصاب الجماعي ثم سارقو السيارات الذين يقتلون دون تفكير ويبيعون سرقاتهم من أجل شراء الملابس والأحذية ذات الماركات الشهيرة. يتجمع مناضلو الحرية السابقون فى جماعات من لصوص ناقلات الأموال .. وجماعات تجمع أموالا باسم النضال لتشترى لنفسها السيارات الفارهة والمنازل لأنفسها .

والآن إلى غرفة التعذيب الميجور «ثوينيس سوانيبويل».. قولى لنا ماذا ترين؟

« أوكى ، إليكم ما أراه. أنا خارجة من أول احتجاز لى وراء القضبان. قضيت هناك وقتا طويلا حتى فكرت أنى لن أخرج أبدا .. الاستجوابات الطويلة بلا نهاية .. وأسمع صراخ النساء الأخريات فى الزنازين الأخرى . ماذا يفعلون لهن ؟ هل يغتصبونهن؟ هل

أوصلوا القضبان الكهربائية إلى فروجهن؟

لقد نجوت من هذا النوع من التعذيب . لكنى أنزف دما. ماذا أحدثت لكماتهم فى جسدى ...هل سيمكننى انجاب طفل آخر؟

ميجور «ثوينيس سوانيبويل». أفكر فيك دائما..هل أصبحت ابنتك؟.. نكحت العنف لتنتجنى.. وعندما تعب أخيرا من القسوة وتركنا نغادر قلعته، حملت داخل جسدى، كالحامل، الثقل المرعب للوحدة والغضب المحتدم.

.. وفى «براندفورت» (المقاطعة البيضاء التى تم نفى «وينى» إليها) ذقت السلطة لأول مرة ..أدركت أنى أملك القدرة على تغيير الأشياء ..أدخل الحوانيت المحرمة على السود وأرقب أمارات الذعر على وجوه الزبائن البيض المذهولين فى بعض الحالات يغادرون جميعا بمجرد دخولى وينتظرون فى الخارج حتى أنتهى . أصبح ملكة المتجر إلى ما شئت.

أجل ، كان حضورى مهيبا.
تعدى الأمر أكثر من الذعر الذى رأيته على وجوه البيض . فقد رأيت أيضا الخوف والعجز . والغباء.

وأعترف لكم الآن ..بأنى استمتعت بمتعة أن يخافنى الآخرون... أغرمت بدخول متاجر البيض : سوداء طويلة جميلة شهيرة و مرهوبة الجانب.

لكن كانت هناك أيضا لحظات من الوحدة العميقة.. أكون بمفردى فى المنزل..ويدهمنى الإحساس بأنى تقاعدت دون رغبة منى . فى تلك اللحظات لم يكن هناك من أبرز له سلطتى ، سوى نفسى وكنت بلا قوة أمام وحدتى . تلك هى اللحظة التى صرت فيها فريسة لرغبة مجنونة. جسد أنثوى يغذيه حب فوق الوصف دون أن يكون له موضع. عذاب لا يمكن سبر غوره .. تلك هى اللحظات التى رغبت فيها فى شخص أحبه بعمق ويأخذنى بقوة ويحملنى إلى العدم ...لماذا يعذبنى أحد بأسئلة عن الرجال فى حياتى؟..

انتهت دراما «براندفورت» فى «سويتو» حيث أتقنتها. أنا طفلة الميجور «ثوينيس سوانيبويل» التى ولدت فى غرف تعذيبه، ونموت فى «براندفورت» ثم نضجت فى «سويتو»، تحديت العالم وحدى. نأيت بنفسى عن المنتظرات الأخريات.ومن حين لآخر أخلق المزيد منهن بانتزاع أزواجهن. كنت أنا قانون النضال، أنا التعريف للبطولة المنتظرة.. وسيطرت على الرجال : السائقين ، الحراس الشخصيين، المختطفين ، القائمين بالتعذيب، القتلة، اللاجئين، مشعلى الحرائق ، الجواسيس ، العشاق، الرفاق، العبيد، الانتهازيين...سيطرت عليهم جميعا، أنا ملكة براندفورت» . جاءوا إلى راغبين ..انتهازيون. كلاب هائجة . رجال ! احتقرتهم جميعا. عدا «نيلسون» .

كنا فى حاجة لأن نحب من جديد:
أصعب فترة من الانتظار ، بداية النهاية للانتظار، جاءت عند اقتراب موعد

الافراج عنه.

ذكرى جسدى أبقت على حياته لأنها أبقت على رغبته. تشبثه بى أبقى على الأمل، وقد ظل يحبنى ويرغبنى بنفس النقاء المخزون فى الذاكرة.

وماذا عنى ؟ هل أتذكر جسده؟ ترعبنى الإجابة. ترعبنى لأنى ، مع مرور السنوات، فقدته. أصبحت زياراتى له فى السجن بيانا سياسيا أكثر من كونها تواصلا حميميا. وأعتقد أنه أدرك الأمر. ضاع الكثير.

..ومع اقتراب يوم الافراج عنه

... أصبح الأمر يبدو لى كما لو أن عودته كى يقود الشعب إلى الحرية ستعنى نهاية حريتى ..

«نيلسون»، الحقيقة هى أن بوسعى أن أمسك بيدك أمام الناس وأغادر السجن فى صحبتك ، لكن ما كان بوسعى أن أواجه القرب من جسدك فى انفراد غرفة نومنا.. فأنا وأنت لم نعد نحيا فى نفس الفضاء من المشاعر والخيال والرغبة...

.. بينما كنت تغيب جسديا عنى باطراد، لم يكن جسدى هو الذى كنت تحلم به ، لكن فكرتك عنه.

«نيلسون»، كنا فى حاجة إلى أن نقع فى الحب من جديد.

بينلوب تظهر من جديد

يختم الرواية فصل صغير ، يجتمع فيه الجميع مع «وينى»، فى رحلة بالسيارة إلى مدينة «دوربان». وتستوقفهم فى الطريق امرأة بيضاء تبحث عن تاكسى يأخذها إلى المدينة فيأخذونها معهم تقول لهم إنها سافرت كثيرا وكانت دائما على الطريق منذ أكثر من ألفى عام.

قررت السفر بعد عودة زوجى من غيبته التى دامت ثمانية عشر عاما، ليثنى على «إخلاصى وصدقى» .. وفى الصباح التالى لليلتنا الأولى معا بعد ١٨ سنة ، قرر «أوديسيوس» أن يتركنى من جديد ليقوم بطقوس التطهير فى أعقاب ذبحه الوحشى لطلاب يدى. حسنا، لقد ذهب. لكن لم يذكر أحد أبدا أنى عند عودته كنت قد ذهبت. ذهبت فى رحلة تطهيرى. لم يكن يحق له أن يمضى هكذا فى ذلك الصباح المخصوص الذى كنت فيه لا أزال أتعلم مذاق عودته. كان يجدر به أن يبدى حساسية أكبر. كان يجب أن تكون عودته ليس فقط لليونان وإنما إلى أنا أيضا... وقررت أن أقوم برحلتى الخاصة.

إن رحلتى تمضى فى عالم يتزايد فيه الوعى، يتعلم فيه العالم أن يصبح أكثر ادراكا بوجودى لا كحلية يضعها «أوديسيوس » فوق المدفأة وإنما كقوام جوهرى فى تحديد وتعريف الحرية الإنسانية. أسافر حول العالم وإلى أماكن سمعت فيها النساء عنى ، لأحاول تحريرهن من عبء الإخلاص غير المشروط الذى وضعته أناعلى أكتافهن» .

ومع آخر كلمة لها تغادرهن وتختفى فى رحلتها السرمدية: رحلة الوعى. ■

من جحيم الواقع

غناء الجسد

عودة إلى عهد الغوازى والعوالم

بقلم

د. محمد رجب البيومى

كاد عصر الغوازى أن ينقرض، وقد كان لهن شأن فى أوائل القرن الماضى إلى أوسطه، فهن مصدر بهجة العامة من القرويين فى الأفراح، وكانت ظاهرة التحلل والاندفاع إلى المجون والخلاعة من أبرز صفاتهن، وكن لا يلمن على ذلك، لأن الواحدة منهن تكاد تكون مقطوعة من جذرها، فلا يعترف بها أب أو أم، وقد تركت بين أيدى المتكسبين باللهو فى الأفراح والموالد لتقوم بدورها، ولن تأخذ من الأجر أكثر ما يكفى مؤونة الطعام والملبس، وهى راضية بذلك.

الذين يقرأون تاريخ مصر الحديث من مبدئه فى عصر محمد على يعرفون أن هؤلاء كن ترفيه المباهج والأعراس، وقد ذكر المستر ادور وليم لين فى كتابه الذائع «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم» أنهن يرقصن سافرات فى الطرق العامة لتسلية أخلاط الناس، وعندما يحتفل فى الحريم بعرس أو ميلاد طفل كن يرقصن أمام المنازل، ولا يسمح لهن بالولوج إليها، وقد يدعون لتسلية الرجال فى بعض محافل الأنس مع نفر من الخلعاء، فتظهر ملامح الفجور فيما يأتين من الحركات، وبعضهن لا يلبسن عند الرقص أمام الرجال غير «السنتيان» وثوب شفاف شق صدره إلى منتصفه، وقد تسلسل بهن الزمن حتى رأيناهن فى القرن الماضى فى الحفلات الموسمية،

ثم جاءت السينما بمشاهد راقية للممثلات فى الرقص والغناء ضاءلت من منزلة الغوازى فأخذن يجدن أدوارهن فى القرى الفقيرة لمناسبات تدعو إلى البهجة كما عرفت مقاه خاصة فى روض الفرج وكلوت بك بإحياء ليال لهن يردها الحشود الهمل من الصناع والعمال، وتقدم الزمن فأخذن فى الانقراض النسبى، وأغنى الراديو والتليفزيون فى محافل العامة عن الكثيرات فكدن يودعن فى غير أسف واشتياق.

غوازي الفضائيات

ولم نكن ندرى أن عصر

«غوازى» زمان كن يرقصن فى الطرق العامة وأمام المنازل ولا يسمح لهن بدخولها

الغوازى سيرجع ثانية فى عصر القنوات الفضائية الآن فيما يسمى بغناء الجسد ، إذ أصبح الجسد وحده بتبذله الشائن ، وتسفله المنحدر هو كل شئ لدى هؤلاء ومن تسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة، ألاّ نطلق على فتيات القنوات لفظ المطربات بل نردهن إلى طبيعة أفعالهن الشائهة فيطلق عليهن غوازى القنوات، إذ أن الجامع بين أولئك وهؤلاء هو الإغراء الجنسى فحسب، وإذا كان غوازى الأمس فقيرات يكتفين بالكفاف مظهرا ومخبرا ، فموضع الخلاف الوحيد بينهن أن غوازى القنوات مترفات مدللات يظهرن بمظهر الثراء الفاحش، فى أحاديثهن وصورهن فى الصحف والمجلات، لأن الشاشة تكاد تجردهن من الملبس تماما ليتحدث الجسد عن كل شئ، وقد كنت أسائل نفسى حين أرى فتاة تتجرد من الضرورى الألزم من الملبس، ثم تحتضن فتى على شاكلتها ، ويهويان معا إلى حمام سباحة لا يظهر غير رأسيهما وهما ينطقان بما يحيانه غناء وهو هذر مقيت ، أقول كنت أسائل نفسى، أليس لهذه الغزية الجديدة أب غيور يرى ابنته فى أسوأ موضع يستقبح فتعصف برأسه نخوة، أليس لهذه الغزية أخ شاب يخشى أن يعيره زملاؤه بما تبديه أخته من الانحراف فيثور فى المنزل طالبا رد شقيقته إلى الصواب؟! هل ماتت النخوة فى النفوس إلى حد لا تستقبح القبيح بل تباركه وتصطفيه؟... ثم ماذا سيكون من أمرها فى المستقبل؟ أيوجد شاب حر يسمح لنفسه بالاقتران بها فى عقد شرعى صحيح وهو يرى ما سقطت فيه من الابتذال؟ إن الواقع المشاهد أن الذى سيقع فى شركها زوج من فصيلتها المنحرفة، ولن تستمر حياتهما الزوجية دون عواصف تهب فتعجل بالانفصال، وقد رأينا شواهد من ذلك تتكرر كل حين! لقد كانت «الغزية» القديمة لا ترضى عن نفسها فى أكثر أحوالها ، وتتمنى الخلاص السريع على يد رجل يرثى لبلواها فينقذها من الضياع ، أما «الغزية الجديدة» فتتباهى بهذه المخجلات، وتتقرب للصحافة وأدوات الإعلام كى تكون ذات حظوة فى الدعاية والإعلان ، وكأنها أصبحت من نجوم الفن الرفيع بحيث تقاس بمطربة عظيمة كأم كلثوم! أينكر القارئ أن أذكر أم كلثوم فى هذا المجال؟ إنى أذكره لأن أحد الأغرار من المتملقين كتب موازنة بين إحداهن وأم كلثوم ، ولم يند وجهه خجلا وهو يكتب هراءه الماجن! وكيف يخجل من قوله والأفعال الشائنة القبيحة لم تعد موضع خجل ، بل تؤدى على رءوس الأشهاد! فهل نعيب الأقوال؟

اقتحام المنازل

إن خطورة هذا السقوط لا تقف عن حد! لأن القنوات الفضائية قد اقتحمت

المنازل وأصبحت مصدر البهجة والاستـرواح! وبأثرها المريع ضاع كل توجيه خلقى أو إرشاد دينى! فبالله ما يكون سلوك الطالب الناشئ إذا رأى مظاهر الدعارة أمامه تدعوه إلى اقتراف الإثم، والبحث عنه، أيجديه أن يأمره والده بالبعد عن الانحراف، أيجديه أن يسمع فى دروس التربية الدينية بالمدرسة آيات الاستقامة والعفاف، وهى مع ذلك لا تشرح، ولا تترك تأثيرها الصحيح! دع الشاب المراهق ، وانظر إلى الطفل الذى تفتح عينه على مظاهر القبلات والأحضان، وما ينقضى موقف حتى يليه ما هو أخطر وأفدح! لقد كان الطفل من قبل يسمع قصص الجدة والأم، الداعية إلى حسن السلوك فيستجيب، أفيستجيب الآن وقد أفتن القائمون على هذا العبث فى محو كل ما يوحى بالانضباط ، وما تركوا الأطفال وشأنهم، بل كان من برامج هؤلاء تمثيليات خليعة يمثلها الأطفال على الشاشة فيحتضن الطفل طفلة، ويبادلها القبلات لقد وصل الهوان بالنشء إلى هوة لا يرجى منها النجاة! أذكر أن بعض الإعلانات الاذاعية أرادت أن تروج لنوع من الجبن ، فأتت بعلبة تضم سبع قطع، وأحضرت طفلا يأكلها. وكلما أكل قطعة زاد نموه حتى أصبح على الشاشة رجلا بعد التهام القطع جميعها، وشاهد ذلك بعض الأطفال فأحضر علبة الجبن وجعل يأكل فلم يقدر على غير أربع قطع، ثم ذهب إلى أمه يقول لها إنه لم يكبر ولم تطل قامته كما طالت قامة آكل الجبن فى القناة! وذعرت الأم وجعلت تحدثه بأنه يرى أكاذيب تخالف الحقيقة! فإذا كان هذا تأثير علبة الجبن فى نفس الطفل البرئ فأى تأثير تحدثه قبلات وأحضان وارتماء على الأرض فى أوضاع تنكرها الأخلاق .. ! إننا إذا استمر الوضع المنكر فى اتجاهه الشائن فسنهوى إلى الانحلال!

استهجان عام

وألفت القارئ إلى ظاهرة غريبة لا أجد لها مثيلا بين الظواهر الاجتماعية، ذلك أنك تصادف إجماعا يكاد يكون كليا على استهجان هذا السقوط الفنى الكريه، فما تحدث صديقا عن ألمك مما تشاهد من هذا الانحلال الوضيع حتى تراه قد انفجر كالبركان لاعنا هذا التيار الجارف الميد، فتحس أنه لا يشاركك شعورك فحسب، بل يحمل فى نفسه أضعاف ما تحمل من الغضب والحفيظة ، وإذا قلت إنى لم أجد مع طول الوقت إنسانا يرحب بهذا المروق، وأنا صادق صادق تماما ، مما يدل على أن هناك رأيا عاما يقف أمام هذا البلاء الساحق كما فى صفحات الجرائد على اختلاف اتجاهاتها تنفيس مريح عن هذه المشاعر

إذ توالى النقد عاصفا بكل هذه المخزيات، أقول إذا كان الاجماع هكذا على فساد هذا الاتجاه، فلماذا لا نجد صدا عمليا يقف فى وجه هذا الخزى السفيه ؛ لدينا نقابات فنية متعددة يتحدث القائمون عليها بنفورهم القوى مما يرون ويسمعون، ولدينا جمعيات دينية واجتماعية تصم هذا العمل الشائن وتدعو بالثبور والويال على من أذاعوه وروجوه . ولدينا مجلسا شعب وشورى لا نجد من أعضائهما من يستريح لهذا المنكر الصريح، فلماذا لا يتحرك هؤلاء فى منظومة واحدة أمام وباء يعصف بكيان المجتمع دون أن يسلم من شره صغير أو كبير، قد يقال إن فى استطاعة الأب أن يغلق هذه القنوات ويحرم بلاءها، ولكن ذلك إن استمر وقتا فلن يدوم، لأن المراهقين يتطلعون ، وكل ممنوع مرغوب، ومن السهل إذا صدق العزم أن يقدم ذوو الأمر والنهى طلبا إلى القائمين على القنوات العربية، يبصرونهم بما إخالهم لا يجهلونه، فإذا استجابوا فقد حوصر البلاء، وإذا لم يستجيبوا فلابد من التشهير بهم فى الصحف والإذاعات الحكومية حتى يهيج عليهم الرأى العام، فيقاطع ما يبغونه من الإعلانات التى لم تنشأ هذه القنوات إلا ابتغاء الكسب السريع عن طريقها، وهو كسب حرام إذا جلب التفكك والانحلال.

ولأول مرة على مدى عمرى الطويل أرى ما يسميه بعض الكاتبين الأفاضل بالرقص الأفقى وهو ألا تغنى الراقصة واقفة بل تنام على الأرض وتتلوى وتتماجن شبه عارية، ثم يأتى من يداعبها وقد ارتمى فوقها، يعرض هذا الآن كثيرا كثيرا وحين رأيته لأول مرة كدت أفقد شعورى وجعلت أتساءل أهذا غناء راقص أم دعارة صريحة وقد سجل ذلك فى أشرطة وأخذ ينتشر فى الأسواق على نحو يدعو صريحا إلى الفاحشة! أما الكلمات التى تتألف منها الأغنية فقد فقدت تماما أى معنى، إذ المهم هو المنظر الإباحى وحده ، وتخيل إلى أن هذا التطور الفنى القاتل أصبح هدفا مقصودا لذاته، فقد اختفت من الساحة تماما كل أغنية تدعو إلى غير الحب الماجن، وكأن العلاقة الجنسية قد أصبحت كل شئ فى الغناء، وكانت لدينا أغنيات وطنية واجتماعية ودينية وأناشيد حماسية فانمحى ذلك كله فيما نراه فى هذه الفضائيات العابثة حتى فى المواسم الاجتماعية كعيد الأم لم نعد نسمع أو نرى ما كنا نسمع ونرى من قبل، مما يؤكد أن هناك هدفا مرسوما لتسويغ الإباحية باسم الفن ، وأعود للغوازى فأذكر أن فى بعض أغانى هؤلاء ما كان يترك الحب إلى المسائل الاجتماعية كمحاربة المخدرات، وزواج الصغيرات

الفقيرات بالشيوخ الكبار مثل «ماخدش العجوز أنا» فإذا كانت أغانى العوالم قد تخطت مسائل الجنس فى أحيان متوالية إلى مشكلات المجتمع ، أفيجوز أن نهمل هذه اللمحات الواعية، ونقصر الغناء على الأحضان والقبلات والنوم على الأرض فى مواضع قد يأنف منها الحيوان، إن بعض خطباء المساجد قد أعلنوا فى صراحة أن هناك مخططا أجنبيا يدعو إلى تدمير قواعد الدين تحت ستار العولمة باصطفاء هذه الفضائح المندية، وتقديمها على أنها نموذج من الفن البديع المتجاوب مع العصر، وأنا مع هؤلاء مهما وصفوا لدى المتحللين بالتزمت والرجعية لقد كنا ننكر هز البطون والأرداف والخصور ونعد ذلك انحدارا سوقيا لا صلة له بالفن فماذا نقول عن الارتماء على الأرض وقبلات من يحوط المرتمية بذراعه ، وكأنه فى مخدع الزوجية أليس ذلك هو العهر الصريح؟! إن العالمة أو الغازية الجاهلة ، التى لم تتخرج فى كلية أو معهد عال لم تبلغ من الوقاحة أن تنام ويرتمى فوقها صديقها المنحل ، ولو بعث أجدادنا من القبور ورأوا هذه المخزيات لآثروا أن يرجعوا إلى الأجداث بعد أن انحدرت المثل إلى ما تحت الحضيض!

تحولت أغانى العوالم من مشكلات المجتمع إلى الأحضان والقبلات

رسالة الفن

لقد احتفلت القناة المصرية هذا العام بليلة عيد الميلاد فأقامت حفلة ساهرة، كانت مطربتها إحدى هؤلاء الجريئات، والمناسبة الدينية الجليلة

كانت تدعو إلى احترام الذكرى العاطرة شكلا وموضوعا فى وقت حزين مؤلم سالت فيه دماء الغدر الشنيع بفلسطين والعراق ، ويلغ التأزم ببعض النفوس أن امتنع أصحابها عن سماع نشرات الأنباء كيلا تتضاعف أشجانهم بما يرون ويسمعون ، أفما كان من المنتظر أن يختار القائمون على الحفلة الساهرة من يبرعون ومن يبرعن فى محاكاة القصائد القديمة المناسبة، فتأتى من تحاكى فيروز فى قصيدة «القدس لنا» ويأتى من يحاكى محمد عبدالوهاب فى قصيدة «أخى جاوز الظالمون المدى» يختار من الشباب من يغنى قصيدة على محمود طه «عيد الميلاد» التى تصور رسالة المسيح فى المحبة والسلام! لو تم ذلك لكان الفن ذا رسالة فى تهدئة النفوس واستراحة الخواطر ولأعادت الشاشة ذكرى الحفلات العاطرة التى أحيتها أم كلثوم حين كانت تغنى روائع الشعر العربى لأمثال شوقى وحافظ وأبى فراس الحمدانى وإقبال ممن لاتزال قصائدهم ترن فى الآذان على جناح الحمامة الصادحة أم كلثوم ، ولكن مفاجأة الجمهور بهذا العبث كان مدعاة لسخر هازئ، ونقد صارم قامت به الصحف الملتزمة فى اليوم التالى استنكارا لهذا العبث وكأن القائمين على الحفلة قدتناسوا رسالة الإعلام والفن معا وانصرفوا مع الشباب العابث فى استثارة الأهواء وإشاعة مظاهر الهبوط والإسفاف فى أكرم المناسبات!

لقد أشرت إلى حفلات أم كلثوم لأسجل هذه النهضة الفنية الملتزمة التى نترحم عليها الآن، تلك التى جعلت الأميين من العامة يرددون أشعار شوقى معجبين، وأذكر أنى فى تلك الأيام رأيت من يحضر إلى منزلى ممن لايقرأون ولا يكتبون ، هو نشوان طرب لما سمعه من تغريد أم كلثوم فى قصيدة «ولد الهدى»، وذهلت حين أخذ يسألنى عن معنى قول الشاعر «والوحى يقطر سلسلا من سلسل» فأخذت أذكر له ما يقرب الصورة على نحو يستسيغه إدراكه المحدود ، وحين قال لى إنه تأثر بالقصيدة لدرجة باعدت بينه وبين القوم طيلة الليل «وأنا أعلم حقيقة إدراكه» حين ذلك تذكرت أبا تمام الشاعر العباسى وقد سمع مغنية فارسية تشدو بلغة لا يفهمها فأدركه من الحنين ما عبر عنه بقوله:

ولم أفهم معانيها ولكن
شجت كبدى فلم أجهل شجاها

وأحب أن أقول للواتى يتخالعن ويتمايلن أثناء الغناء، إن المطربة الأصيلة لا تجعل من الحركات العابثة عونا للإجادة والاستحسان ، فالصوت الجميل وحده سيد الموقف تماما، وما كانت هذه

الخلاعات الماجنة إلا انتقاصا مزريا لما تؤديه من غناء له احترامه الأصيل، ونحن نقرأ عن شهيرات المطربات فى العصر العباسى أنهن لم يكن من هذا الطراز الملول، فالشاعر الكبير ابن الرومى يصف مطربة عصره «وحيد» فى قصيدة تكاد تكون من أحسن ما قال فيقول عنها:

تتغنى كأنها لا تغنى
من سكون الأوصال وهى تجيد

فهذه التى تؤدى بارع النغمات ، ورائق المعانى تعتمد على صوتها وحده، وهى فى سكونها الملتزم تتغنى وكأنها لا تغنى ومع ذلك هام بها الجمهور هياما عبر عنه ابن الرومى فى قوله:

عيبها أنها إذا غنت الأحرا
ر ظلوا وهم لديها عبيد

وبعد ، فلا ينكر أحد على أن أصف هؤلاء بما ينطبق عليهن دون إجحاف، لأنى فى الجهة المقابلة ، رأيت من أدعياء القلم من يفرد لهن الصفحات فى المجلات الفنية إطراء وتمجيدا حتى ليرتفع بهن إلى مستوى المجيدات النابغات ممن اشتهرن بالجودة والإبداع ، وفى هؤلاء من يتحدث عن النجمة «اللامعة» التى لم تمض عاما أو عامين فى مسيرتها الفنية، حديث المبهور ويقدم للقارئ حوارا يتضمن تاريخها الفنى! الذى لا حقيقة له ، ثم تظهر الصورة على الغلاف مبهرة مشيدة بالنجمة المتألقة! وإطلاق وصف النجمة أو النجم على المطرب المبتدئ إسفاف يحتاج إلى تصحيح لأن النبوغ لا يأتى بين يوم وليلة بل يحتاج إلى عناء طويل، حتى يؤتى أكله المستطاب وكذلك أصبح لدينا نجوم فى الغناء ونجوم فى الكرة أيضا، تمتلئ الصحف بأنبائهم فتشوه الحقائق وتجعل منهم قدوة سيئة للشباب ولا أدرى كيف يكون لدينا نجوم فى الكرة ونحن لم نحرز انتصارا واحدا فى ميدان التسابق العالمى كما لا أدرى كيف تصبح المستهترة العابثة نجمة ساطعة لأنها ابتذلت ملبسها وأسفت فى غنائها! فإذا كنت قسوت فى هذا المقال فلن أعدو الواقع فى شئ! ولعل الذين يتملقون هؤلاء المراهقات الهابطات يدركون أنهم يفقدون تقدير المنصفين ويصمون أنفسهم بما ينبغى أن يتنزهوا عنه من الانحدار والهبوط ، إن صاحب القلم ذو رسالة أمينة فى التوجيه والتنويه فإذا لجأ إلى التملق الرخيص ، فقد أساء إلى نفسه عن يقين وقد اسمعت لو ناديت حيا! ■

هل تعمل مؤسسات المجتمع المدنى فيما بينها لتعديل وضع المرأة في العالم العربى ؟

مستقبل المرأة العربية

فى ظل النظرة الغربية

بقلم

د. نيفين عبد المنعم مسعد *

كان انعقاد ورشة عمل «جمعية ملتقى تنمية المرأة» يومى ٣٠/٦ و ١/٧/٢٠٠٤ بعضا من رجع صدى ، لما أثير حول وضع المرأة العربية فى فكر الإصلاح الغربى عامة والأمريكى خاصة ، الذى اعتمد مبدأ «احترام النساء» ضمن المبادئ الاستراتيجية فى مفهوم الأمن القومى الأمريكى ، بعد أحداث ١١ سبتمبر ، وهو ما أكد عليه ريتشارد هاس وزير التخطيط السياسى السابق بوزارة الخارجية ، حين قال إنه لا ديمقراطية فى بلدان تحرم نصف سكانها من هذه الديمقراطية ، وإنه فى البلدان التى تتبع فيها النساء الرجال، يكون هؤلاء الرجال أنفسهم تابعين لغيرهم.

---

* أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

فات على المؤتمرين من دول الثمانية أن ما يصلح لمجتمع لا يصلح بالضرورة لغيره من المجتمعات !!

في هذا الإطار نعرض لوضع المرأة العربية في مبادرات الإصلاح الغربية المختلفة، وصولاً لخطة مجموعة الثماني لدعم الإصلاح في الشرق الأوسط الكبير وشمال أفريقيا والتي نشر نصها في صحيفة الحياة اللندنية في ١١ / ٦/ ٢٠٠٤ وهذا من خلال ثلاث مجموعات من الملاحظات: المجموعة الأولى ملاحظات إطارية أي تخص البيئة التي تطرح فيها أفكار الإصلاح والمجموعة الثانية ملاحظات مضمونية أي تتصل بجوهر الإصلاحات المطلوبة لوضع المرأة والمجموعة الثالثة ملاحظات تنفيذية أي تنصب على الوسائل المطروحة لإنجاز هذه الإصلاحات .

وقبل الشروع في استعراض المجموعات الثلاث من الملاحظات ، تجدر الإشارة إلى نقطتين توضيحيتين، نقطة ترتبط باستخدام الأطروحات الغربية - وللأمانة أيضاً الوثائق العربية - لمفهوم الإصلاح بالتبادل مع مفهوم الديمقراطية. والديمقراطية شكل لنظام الحكم، بينما الإصلاح هو وسيلة من وسائل تعديل الوضع الراهن وكما هو واضح فإن المعنيين غير مترادفين، خصوصاً أن من حق كل من يعدل الوضع الراهن أن يدعى أنه يقوم بالإصلاح سواء كان ذلك في اتجاه نظام ديمقراطي أو حتى في اتجاه نظام غير

ديمقراطي .

ونقطة أخرى تتعلق بغموض مصطلح الشرق الأوسط وهو غموض مزمن لازم المصطلح منذ استخدم لأول مرة في مطلع القرن الماضي، وساعد على استمراره خضوعه للمصالح السياسية التي يخضع لها تضمين هذا القطر أو ذاك في المصطلح أو إخراجه منه . وهكذا وجدنا أن تعريف الشرق الأوسط الكبير في مبادرة بوش قد شمل جميع البلدان العربية بالإضافة إلى كل من باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا وإسرائيل. بينما ضاق تعريف الشرق الأوسط الكبير في مبادرة الدول الثماني عن شمال أفريقيا ، كما يستفاد من الوثيقة ذات الصلة والتي حملت عنوان: «شراكة من أجل التقدم ومستقبل مشترك مع منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا»، وحرف الواو يعني أن شمال أفريقيا لا يمثل مكوناً من مكونات الشرق الأوسط وإن ألحق به .

الملاحظات الإطارية : جدل الداخل والخارج الاحتلال / السيادة

١- أكدت المبادرات الغربية على أهمية أن تنبع رؤية الإصلاح من الداخل ضمانا لنجاحها . ورد هذا التأكيد بوضوح في نص المشروع الفرنسي - الألماني عندما حذر من تجاهل الخصوصيات الوطنية للدول والأخذ بمقاربات شديدة العمومية لقضية الإصلاح . كما جاء التأكيد نفسه بشكل قاطع في نص وثيقة الشراكة الصادرة عن مجموعة الثماني والتي ذكرت أن التغيير لايمكن فرضه من الخارج ولا ينبغي ذلك، وأن كل بلد له تفرده الذي يجب احترامه بشرط ألا يستغل التذرع بالخصوصيات القطرية لمنع الإصلاح ولقد استخدم مصطلح «الشراكة» الذي حمله عنوان الوثيقة، والذي تناثر في العديد من أوراق المبادرات الغربية وأفكارها، ليوحي بأن دور الخارج يقف عند حدود مشاركة الداخل في الأخذ بالبرامج الإصلاحية التي يرتضيها لنفسه .

ومع ذلك فإن الانتقال من مفردات مشروعات الإصلاح إلى مضامينها يظهر أن الرؤية الإصلاحية المطروحة على المرأة العربية هي رؤية غربية. يتضح هذا المعنى من تبني مدخل الخصخصة في إصلاح الوضع الاقتصادي العربي بشكل عام، وفي إطاره وضع المرأة بشكل خاص، وذلك على الرغم من أن المرأة العربية هي الطرف الرئيسي الذي يدفع فاتورة الخصخصة، فالنساء هن أول من يتم تسريحه من العمل عندما يتم تحويل إدارة الهيئة أو المؤسسة من القطاع العام إلى القطاع الخاص. وهن اللائي يضطررن إلى العمل في ظل ظروف غير آمنة كتوظيفهن بعقود تجدد سنوياً ولا ترتب لهن تأمينات اجتماعية، أو كإجبارهن على العمل دون توفير دور حضانة لأطفالهن وبعدد أكبر من عدد ساعات العمل ... إلخ. وبالرغم من تلك الحقيقة فإن مختلف وثائق الإصلاح

تشدد على دور القطاع الخاص فى دفع عجلة النمو الاقتصادى . فلقد اعتبر المشروع الامريكى للشرق الأوسط الكبير أن تجسير الهوة الاقتصادية بين دول الشرق الأوسط والعالم المتقدم يتوقف على «إطلاق قدرات القطاع الخاص» . كما أن خطة مجموعة الثمانى لدعم الإصلاح تنص على أن الدول صاحبة الخطة «تلتزم بدعم جهود الإصلاح فى المنطقة »، «خصوصاً فى اتجاه تعزيز الديمقراطية والمشاركة المدنية وحكم القانون وحقوق الإنسان واقتصاد السوق المفتوح».

كما أن معنى طرح رؤية غربية لعملية الإصلاح يتضح من مراجعة آليات تمكين المرأة التى وردت فى بيان الحقائق الصادر عن مكتب شئون الشرق الأدنى بالخارجية الأمريكية فى ١٨ / ٦/ ٢٠٠٣ فلقد كان فى مقدمة تلك الآليات دعوة خمسين سيدة عربية إلى الولايات المتحدة لمشاهدة الانتخابات الأمريكية التشريعية والمحلية النصفية عن كثب وبغض النظر عن مدى تمثيل تلك النخبة النسائية، التى سبق أن وصفها كولن باول فى مبادرته بأنها تضم «٥٥ زعيمة سياسية عربية»، فعلاً للمرأة فى المجتمعات العربية، فإن الرسالة التى يحملها استقدام هؤلاء النسوة، هى تعرفهن على أبعاد التجربة الديمقراطية الأمريكية، تمهيداً لنقلها إلى بلدانهن . كذلك فى إطار شراكة باول يلفت النظر تعهد المبادرة بدعم مشروع الملاحقة القضائية لمرتكبى جرائم الشرف فى الأردن. وأتصور أن المعنى الذى يتبادر إلى ذهن المواطن البسيط المتدين سواء داخل الأردن أو خارجه، هو أن الإجراء الأمريكى لا يعدو كونه تشجيعاً لانتشار الرذيلة فى المجتمع، أو فى القليل إخضاع معنى الحرية الشخصية لمنظومة القيم الغربية. هنا أيضاً كانت وثيقة الإصلاح تقرأ المنطقة العربية من خارجها وليس من داخلها، لأنها لم تتبين معنى الشرف فى المجتمعات العربية، ولم تتصور أن تدخلها لمعاقبة مرتكب جريمة الشرف يزيد من التعاطف الشعبى معه، ولا يمثل رادعاً بالضرورة، تماماً كما هو الحال فى قضايا الثأر .

٢- أشارت المبادرة الفرنسية الألمانية إلى ضرورة تحقيق تسوية سلمية للنزاع العربى الإسرائيلى واعتبرت هذه التسوية بمثابة «أولوية استراتيجية لأوروبا» وبدونها «لن تكون هناك أى فرصة لتسوية المشاكل الأخرى فى الشرق الأوسط». وقد عادت وثيقة الشراكة من أجل التقدم لتردد الفكرة نفسها بشئ من التفصيل أساسه الالتزام بقرارى الأمم المتحدة ٢٤٢و ٣٣٨ وبيان اللجنة الرباعية الداعى إلى دولتين إسرائيلية وفلسطينية . لكن فى الحالتين كان هناك تصميم على عدم التذرع بالسعى نحو التسوية لتعطيل مسيرة الإصلاح والتطور الديمقراطى . ومن هنا استبقت وثيقة الشراكة تسوية النزاع العربى - الإسرائيلى بالإعلان عن أن فرنسا تدعم تطوير حقوق المرأة

فى الأراضى الفلسطينية (والمغرب والجزائر وتونس... الخ) وأن اليابان تساند تحسين الدور القيادى للمرأة الفلسطينية (والأردنية والمصرية) ومثل هذا الإعلان يثير إشكالية حقيقية ، وذلك أن المرأة الفلسطينية التى يهدم بيتها وتشرد أسرتها وتجرف أرضها، وتحرم هى وزوجها من التردد على عملهما فى ظل سياسة غلق المعابر، لاينتظر منها أن تكون مهيأة للمشاركة السياسية، ناهيك عن ممارسة دور قيادى فى مجتمعها،هل ثمة من يمارس دوراً قيادياً فى المجتمع الفلسطيني إلا حركات المقاومة برجالها ونسائها؟ عندما يسلب الحق فى الحياة الذى هو مظلة لسائر الحقوق بتفريعاتها المختلفة ، يتعذر الحديث عن مشاركة أو قيادة .

الملاحظات المضمونية : الإصلاح السياسى يأتى أولاً

١- منذ تحدث أول تقرير للتنمية الإنسانية العربية فى عام ٢٠٠٣ عن ثلاث فجوات تعانى منها البلدان العربية مقارنة بالدول المتقدمة صار الاستشهاد بالنواقص العربية الثلاث لاستكمالها ملازما لمعظم الوثائق والتصريحات الغربية المنادية بالإصلاح . ومعلوم أن التقرير المشار إليه قد رصد نقصاً عاماً فى الحرية السياسية وبشكل خاص حرية المرأة حيث لايتجاوز تمثيلها النيابى ٣,٥ ٪ من مجموع الأعضاء، ومحدودية فى معدل النمو الاقتصادى حتى ليقل الناتج المحلى الإجمالى لعموم الدول العربية عن نظيره الإسبانى، وشمول الأمية نحو ٤٣٪ من أبناء تلك الدول، فضلاً عن التدنى الشديد فى نسبة الإنفاق على البحث العلمى (١٤,٠ ٪) فيما تنفق إسرائيل (٢,٥٣٪) .

لم يكن فى المعلومات المتضمنة فى التقرير جديد يصدم المطلع على أحوال الوطن العربى فتقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان، والتقرير الاقتصادى العربى، والتقرير الاستراتيجى العربى الخ تنطق بمثل ما نطق به تقرير التنمية. لكن مشاركة الأمم المتحدة في إصدار هذا الأخير، وترجمته إلى اللغة الإنجليزية كفلتا له ذيوعاً واسعا .

والتزاما بتجسير الفجوة ثلاثية الأبعاد بين الشرق الأوسط والعالم المتقدم، رصدت شراكة باول دفعة أولى قيمتها ٢٩ مليون دولار لتمويل النمو الاقتصادى بواقع ٨ ملايين دولار، وتحسين المعرفة بواقع ٧,٤ مليون دولار، وتوسيع آفاق الفرص السياسية بواقع ١٣,٦ مليون دولار. وكما يتضح من توزيع بنود الميزانية السابقة فإن تعزيز المشاركة السياسية يكاد يكون قد استقطع حوالى نصفها ، والإنفاق المالى يعكس ترتيب الأولويات، أى أولوية المتغير السياسى على المتغيرين الاقتصادى والمعرفى . بطبيعة الحال يمكن الاتفاق بل لا يمكن الاختلاف مع الطرح الذى تتبناه الأفكار والمبادرات الإصلاحية ومؤداه أن الإصلاح عملية شاملة متكاملة . لكن يمكن المحاجاة فى أن الإصلاح السياسى هو الرافعة التى ترفع عالياً مختلف أبعاد التنمية أو ما

عبر عنه بوش الابن فى مبادرة الشرق الأوسط الكبير من أن «الديمقراطية والحكم الصالح يشكلان الإطار الذى تتحقق داخله التنمية».

وفيما يخص المرأة على وجه التحديد يمكن القول أولاً إن إنجاز الإصلاح السياسى فى الدولة (أ) أو الدولة (ب) لا يؤدى بالضرورة إلى تحسين وضع المرأة سياسياً ، والدليل على ذلك أن إجراء بعض الإصلاحات السياسية فى عدد من بلدان الخليج لم يترتب عليه انتخاب أى امرأة فى الانتخابات القطرية والبحرينية، بحيث إن المرأة الوحيدة التى دخلت المجلس البلدى فى قطر فازت بالتزكية، كما لجأت القيادة فى البحرين لأسلوب تعيين المرأة فى مجلس الشورى لمواجهة عدم انتخابها . وكانت سلطنة عمان استثناء فى هذا الخصوص حيث فازت المرأة بالانتخاب، بل إن النموذج الكويتى الذى كان هو الأسبق فى إجراء الإصلاح السياسى من كافة بلدان الخليج، تعثرت فيه محاولتان لمنح المرأة حقوقها الانتخابية، ومازالت المحاولة الثالثة (الحالية) لم تتبلور نتائجها بعد ثم إنه يمكن القول ثانياً إن الإصلاح السياسى حتى إن هو أتى بنتائج إيجابية لوضع المرأة سياسياً، وهذا وارد بطبيعة الحال، فإنه ليس من المؤكد بالضرورة أن يقود إلى إصلاح وضعها الاقتصادى، فمن الممكن أن تصل المرأة إلى المراكز الوزارية، وتتمتع بعضوية المجلس التشريعى والمجالس المحلية أو البلدية، لكن يتأثر وضعها الاقتصادى والاجتماعى سلباً نتيجة خصخصة خدمات التعليم والصحة والمواصلات مما يزيد من أعبائها المادية والمعنوية كزوجة وأم . أكثر منذ ذلك فإن المرأة قد تُمكّن من حقوقها الانتخابية والحزبية،لكن تكاثر واجباتها لايترك لها الحيز المطلوب من الوقت لممارسة هذه وتلك . وقد سبق لإحدى الدراسات عن أسباب عدم المشاركة النسائية فى الانتخابات التشريعية المصرية، أن وضعت بينها السبب الخاص بصعوبة الظروف الاقتصادية للمرأة .

٢ - مثلما انحاز الفكر الإصلاحى ووثائقه للسياسى على حساب الاقتصادى والمعرفى، فإنه انحاز في إطار الإصلاح السياسى للآلية الانتخابية. يتضح ذلك بالنظر إلى البند الخاص بتعميق الديمقراطية وتوسيع المشاركة العامة فى الحياة السياسية والحياة العامة فى خطة مجموعة الثمانى لدعم الإصلاح، فمع أن هذا البند يتضمن الدعوة لإجراءات من قبيل إصلاح النظامين الإدارى والقضائى، والحرية الإعلامية إلا أن التدريب (النسائى خصوصاً) على خوض الانتخابات يحتل أهمية محورية بين سائر آليات إقامة النظام الديمقراطى وتفعيل المشاركة السياسية للمرأة. وبافتراض أن هناك نية حقيقية لاحترام نتائج صناديق الاقتراع، حتى وإن جاءت لصالح ممثل أو ممثلة تيار سياسى لاترتاح إليه، وربما تعاديه، الولايات المتحدة، وبافتراض الالتزام بأقصى قدر

ممكن من الموضوعية فى احترام إرادة الشعوب العربية فى اختيار من يمثلها، فإن الانتخابات لا تصنع الديمقراطية، وهى عبارة سبق أن رددها ريتشارد هاس . فالانتخابات قد تكون نزيهة لكن لاتعكس الإرادة الشعبية كما تعبر عنها مختلف القوى السياسية التى يحتمل أن تقاطع الانتخابات، كما يحتمل أن تشارك فيها بإرادة مشوهة وليست مزيفة بالضرورة. وهذا يعنى أن الانتخابات الديمقراطية التي تجرى فى ظل ثقافة غير ديمقراطية لايعول عليها فى الإصلاح. والانتخابات الديمقراطية التى لاتفضى إلى تداول حقيقى للسلطة تسهم فى تكريس حكم الأقلية .

الملاحظات التنفيذية : المجتمع المدنى هدف الإصلاح وأداته

١- فى مبادرته عن الشرق الأوسط الكبير ذكر بوش الابن أن الداخل هو القوة الحقيقية الدافعة للإصلاح، وأن المنظمات التمثيلية هى أفضل وسيلة لتمكين الإصلاح من الداخل، ومن هنا اقترح أن تسعى مجموعة الثمانى لتطوير منظمات المجتمع المدنى فى المنطقة مع تركيز خاص على المنظمات المعنية بحقوق الإنسان والإعلام والمرأة والواقع أن مثل هذا التصور يعكس أحد أبعاد السؤال الذى واجهه دعاة الإصلاح - الحقيقيون والمغرضون - بمناسبة فتح ملفه ، والسؤال هو التالى: هل يمكن للأنظمة العربية أن تقوم بالإصلاح؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن للإصلاح أن يأتى بقرار فوقى؟ والسؤال على النحو السابق إثارته ليست من نوع الأسئلة ذات الإجابة الواحدة، فالإجابة قد تكون بنعم على أساس أن النظم العربية لم يعد أمامها اختيار، وأنها تتجه إلى الإصلاح وظهورها إلى الحائط خاصة بعد انتقال المطالبة بهذا الإصلاح من الداخل إلى الخارج، الخارج الإقليمى وأهم منه الدولى . والإجابة قد تكون بلا على أساس أن مقتضى الإصلاح توزيع السلطة وليس تركيزها، وسيادة القانون وليس الاستثناء منه، وحرية الإعلام وليس احتكارها، والتعددية السياسية وليس الاتجاه الواحد، ومثل هذه القرارات يتعذر على الممسكين بزمام القوة اتخاذها لأنها تتضمن عصفاً بمكتسباتهم بدرجات تضيق أو تتسع بحسب طبيعة النظام ودرجة انفتاحه السياسى . كما أن الإجابة قد تحمل شيئاً من سابقتيها، على أساس أن شراكة «ما» بين النظم ومجتمعاتها المدنية يمكن أن تحقق الإصلاح المطلوب . يعزز ذلك أن المنظمات غير الحكومية تكتل المصالح وتعبئها وتعبر عنها، لكن السلطة هى التى تتخذ القرار فى النهاية .

وفى كل الأحوال يظل من مفارقات فكر الإصلاح ومبادراته، أن الوثائق تتحدث عن شراكة، وفى الوقت نفسه تنحاز للمجتمع المدنى، ومن جهة ثانية فإنها تدلل على نماذج الإصلاح السياسى فى المنطقة العربية وتستشهد

بحالات قطر والبحرين والأردن والمغرب، لكن الحالات الثلاث الأولى وقع فيها الإصلاح أساساً بواسطة النظم الحاكمة، فيما أفسحت الحالة المغربية مساحة أكبر لتأثير المجتمع المدنى رغم الانتكاسة التى منيت بها تجربة تداول السلطة فيها .

٢ - إذا تجاوزنا علاقة السلطة بالمجتمع المدنى إلى ماهية مؤسسات المجتمع المدنى نفسها ، ومنها العاملة فى مجال تنمية المرأة، يصبح السؤال المثار هو : ما هى قدرة هذه المؤسسات على الوصول إلى الفئات المهمشة والمرأة فى عدادها؟ وإلى أى حد تعكس برامج عملها أولويات هذه المرأة؟ وهل تنسق فيما بينها بحيث تمثل مخرجاتها تراكماً تفيد منه المرأة أم تمثل قضية المرأة ساحة للتنافس والتضارب فيما بينها ؟.. إن المتابع لنشاط بعض المنظمات غير الحكومية المهتمة بالمرأة، وخصوصاً بمشاركتها السياسية، يلحظ أن لهذه المنظمات جمهورها النسائي الذى تختلف مكوناته اختلافاً طفيفاً من نشاط إلي آخر، الأمر الذى يعنى إعادة تدوير ناتج تلك المنظمات فى نطاق قلة محدودة من النساء كما يمكنه أن يلحظ أن بعض تلك المنظمات ليست أقل نخبوية من نظمها ولا أكثر توافقا فى اتجاهاتها بالضرورة منها مع تلك النظم .

***

الخلاصة أن قضية الإصلاح السياسى وفى إطارها إصلاح وضع المرأة أكثر تعقيداً وتشابكاً من كل ما انطوت عليه مبادرات الإصلاح الغربية . فالإصلاح يختلف مضمونه باختلاف السياق المحيط به، فما يصلح لمجتمع لايصلح لغيره بالضرورة . أعلم أن هناك حساسية شديدة لدى البعض من استخدام مصطلح «الخصوصية» فى تبرير الاختلاف فى هذا التفصيل أوذاك عن تفاصيل النموذج الغربى والنموذج الأمريكي بشكل محدد . لكن الحقيقة أن هناك بالفعل خصوصية لانملك إنكارها، وإلا فما القول فى التجاء الولايات المتحدة إلى أحد أبناء أكبر القبائل العراقية لرئاسة العراق الديمقراطى الحديث الذى يراد تصدير نموذجه إلى الخارج؟ وما القول فى احتفاظ المرأة الأفغانية بشادورها على الرغم من الإطاحة بنظام طالبان الذى سامها سوء العذاب؟.. إن لكل مجتمع منطقه فى الحركة الذى لايخضع لمصالح الخارج وحساباته الدقيقة، ومن هنا تنبع أهمية التدرج فى الإصلاح خصوصاً فى قضية المرأة إذ ليس من مصلحة أحد من دعاة الإصلاح أن ينظر المجتمع إلى النساء اللائى يستفدن من المبادرات الغربية نظرة شك وربما رفض، تماماً كما كان ينظر هذا المجتمع إلى حاكمه الذى لا هو اختاره ولا قبل التجديد له سنين عدداً ■

دائرة حوار

هوامش حول تاريخنا الأدبى المعاصر

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

تحدث الدكتور : محمد رجب البيومى - في عدد الهلال الماضى - عن التحولات التى جدت فى فكر أدبائنا الكبار الذين ازدهى بهم النصف الأول من القرن الماضى، وكيف أنهم مع تعمقهم فى الفكر، وتقدمهم فى العمر، وتمرسهم بالدراسة الأصيلة عرفوا وجه الحق فيما يتصل بحضارة الإسلام، وأصالة الدين،وسلامة العقيدة، فعادوا إلى تلك الحضارة يغترفون من نبعها الصافى، وإلى أصالة الدين يجلّون جوانبها ، ويتخذونها مادة لدراساتهم ، وموضوعاً لأبحاثهم، ومجالاً لفنهم وإبداعهم - وقد اكتفى الدكتور رجب فى هذا الصدد بالإشارات التى تؤيد نظرته ، وتؤكد أن أولئك الرواد إذ سلكوا هذا المنهج لايمكن اعتبارهم مرتدين إلى الوراء، وإنما كانوا يبحثون عن الحقيقة، دون أن تبهرهم حضارة الغرب، أو تخدعهم أبحاث المستشرقين !

وقد وقف الدكتور رجب عند هذا الحد من القول : رصداً لحقائق وتسجيلا لواقع ، وتحليلاً دقيقا لدوافع وآثار ذلك الاتجاه منهم الذى خالفوا فيه - من بعض النواحى - ما كانوا قد اتجهوا إليه فى بادئ الأمر.. وما كان يشوب فكرهم مع مطالع الشباب من خلط واختلاط وزيغ عن الحق من بعض الوجوه

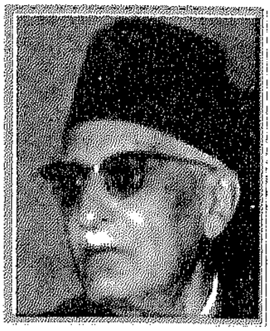
عباس محمود العقاد

طه حسين

توفيق الحكيم

زكي نجيب محمود

في بعض الأحيان .

ولنا أن نضيف إلى ذلك حقيقتين أخريين نرى أنهما على قدر كبير من الأهمية، وما نحسب أنهما غابتا عن الدكتور رجب، ولكن ضيق المساحة هو الذى حال - ولاشك - بينه وبين الاسترسال فى القول حتى يبلغ غايته!!

أولى هاتين الحقيقتين تؤكد أن اهتمام تلك الكوكبة من أدباء مصر فى تلك الفترة بحضارة الإسلام وأصالة العقيدة الإسلامية ، وسمو الشريعة الإسلامية أصولاً ومناهج وأحكاماً واتساعها لشئون الدين جنباً إلى جنب مع شئون الحياة، واهتمامها بأمور الروح بقدر اهتمامها بمطالب الجسد، وأحوال المادة .. هذا الاهتمام الكبير منهم لم ينسهم للحظة واحدة أمور العالم الذى نعيش فيه ، ولا أحوال الحضارات الأخرى التى تخالطنا، فكانت دراساتهم وأبحاثهم تمتد فى نفس الوقت إلى فلسفات الغرب ، وما يجدُّ فيها من اتجاهات، وما يسودها من تيارات، حتى أننا فى عالمنا العربى- كنا بفضل أولئك الرواد - نتابع الحياة الفكرية فى الشرق والغرب - على حد سواء - متابعة متصلة لانتخلف فيها - لفترة ما - عن مسار الفكر العالمى، فهو مطروح فى مقالات وأبحاث سهلة ميسرة أمام القارئ العربى، الذى كان بوسعه أن يتابعه، بل ويلاحقه، ثم يجرى ما يجرى من مقارنات بين حاضر وماض، وشرق وغرب، وأفكار سبقنا إليها من نعتز بهم، وأفكار وردت إلينا - من هنا ومن هناك!!

***

هذه الموسوعية التى ميزت روادنا والتى لم تقف بهم عند استعادة الماضى، بل امتدت لتساير العصر، وتواكب أحداثه وتطوراته، كانت هى الحقيقة الأولى التى

رأينا أن نوجه النظر إليها .. فكما تحدث العقاد عن (حقائق الإسلام) تحدث عن (أباطيل خصومه) وكما تناول بالدراسة عباقرة الإسلام، فإنه تناول بالدراسة والتحليل كثيرين من أدباء وفلاسفة الفكر الأوروبى، وكما تناول بالدراسة (الديمقراطية فى الإسلام) فإنه عرض لفلاسفة الحكم فى القرن العشرين، وكما كانت عبقرية محمد موضوعا لواحد من أهم مصنفاته - فقد كانت عبقرية المسيح مجالا للعرض والدراسة والتحليل وكما تناول بالبحث والدراسة الأدب العربى، فقد كان (القصص الأمريكى) أحد اهتماماته .. وكما عرض لشعر وسيرة ابن الرومى وأبى العلاء وعمر بن أبى ربيعة، فإنه لم يهمل دراسة شكسبير وبرناردو شو وغيرهما من عباقرة الأدب الإنجليزى، وإذ عرض لابن سينا، فقد عرض لكثيرين من فلاسفة الغرب وناهيك عن دراساته عن الشيوعية والصهيونية والنازية .. وغيرها !!

وقد نكتفى بهذا المثال دون أن نعرض لسواه من المفكرين الموسوعيين ممن لا يتسع المجال لتعدادهم وعلى رأسهم طه حسين وزكى نجيب محمود وزكى مبارك، ومحمد حسين هيكل ..!

***

ولا أدرى لم جرى اغفال توفيق الحكيم فى هذا المجال ! هل اعتبره الدكتور رجب - مسايراً فى ذلك بعض من سبقوه - غير داخل فى زمرة الرواد المفكرين فهو روائى - مجاله الفن بصفة عامة، والأدب المسرحى بصفة خاصة .. ؟ ذلك ظن أستبعده، وأرى أن اغفاله كان راجعا إلى أن المقال كان يكتفى بالإشارة ولم يتسع ليتناول الجميع بالحصر والإحصاء .. وإلا فمساهمات الحكيم فى الفكر أكبر من أن يمكن إغفالها ..حتى أدبه المسرحى فقد حرص على أن يرتاد فيه عوالم عديدة ومتباينة من الفكر والفن فكما عايش أهل الكهف وشهرزاد وسليمان الحكيم فإنه قد عاش مع «أوديب» و«عصفور من الشرق» و«أيزيس» .. وكما صور (الورطة) ورسم صورة (اللص)، وقدم المسرح المنوع ومسرح المجتمع فقد تحدث عن (الطعام لكل فم) و(ياطالع الشجرة) و(بنك القلق) و(الدنيا رواية هزلية)، وكما قدم «الرواية» و«القصة القصيرة» و«المسرحية ذات الفصول العديدة أو ذات الفصل الواحد»، قدم (المسرواية) وكذلك قدم المقالات النقدية والبحوث الاجتماعية بل لقد عرض لتفسير

القرطبى فاقتبس منه قطوفاً قدمها فى مجلد كبير يضم بين دفتيه ما قاله القرطبى فى موضوعات محددة .. ! وكان فى كل ذلك لايفرق بين ماض وحاضر بين شرق وغرب بين دين ودنيا فقد ارتاد تلك المجالات جميعها مبدعا، ومفكرا، وباحثاً مما لاينبغى أن تفوتنا الإشارة إليه ونحن نشير إلى الرواد الكبار الذين كانوا كواكب الفكر فى القرن الماضى، وبصفة خاصة فى نصفه الأول .. وماتزال إبداعاتهم حية بيننا، نقطف ثمارها ونروى منها أشواقنا إلى الفن والعلم والمعرفة ..!

* * *

هذه واحدة أما الأخرى التى يهمنا أن نشير إليها، فهى منهاج أولئك الرواد فى تناول موضوعاتهم، وعرضها على قرائهم : فقد كان لكل منهم خياره المتميز، وأسلوبه المنفرد، الذى وإن امتاز بالأصالة، فإنه كان علامة صادقة على صاحبه، وعلى ذاتيته .. حتى وإن كان التناول لذات الموضوع ..

فسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت من الموضوعات الأثيرة، التى عمد كل من أولئك الرواد إلى تناولها وعرضها، وتصويرها فى أعمال متميزة، وإبداعات متفردة، ومصنفات مبهرة ما تزال رغم مرور ما يقارب ثلاثة أرباع القرن يعاد طبعها فتلقى من قراء الأجيال الحاضرة مالقيته من آبائهم - وأجدادهم - من إكبار وحب وإعجاب، فضلا عن التقدير!!وربما كان مما يجب ملاحظته أنها جميعا تلقى نفس التقدير والإقبال مع اليقين بأن أيا منها لا يغنى عن سائر المصنفات، بل ربما كانت قراءة أحدها هى التى تغرى بالبحث عن كل ما كتبه الرواد الآخرون عن ذات الموضوع ..!

فالدكتور هيكل وإن كان رجل قانون وسياسة ، إلا أن اهتماماته الفكرية والتاريخية جعلته يحتل مكانا متميزا بين رواد الفكر وأرباب القلم، ومن ثم كانت كتاباته عن جان جاك روسو، وكانت ترجماته للعديد من الشخصيات من الشرق والغرب، كما كانت محاولاته الأدبية فى عالم الرواية والقصص القصيرة حتى لقد شرع يصوغ التاريخ الفرعونى فى صور قصصية هذا القلم الدارس والمتمرس والذى احتل مكانه فى عالم الفكر والإبداع ، كما احتله من قبل فى عالمى القانون والسياسة، جذب اهتمامه تناول السيرة النبوية - ثم من بعدها سيرة الخلفاء الراشدين بالدراسة والعرض، فكان أن أقدم عليها منتهجا أسلوبا غير مسبوق هو أسلوب البحث

العلمى الدقيق، فهو وإن رجع فى تناوله للسيرة النبوية إلى مصادرها المعروفة من القرآن الكريم والسنة الشريفة وكتب السيرة - والمغازى - المعروفة فإنه حرص فى نفس الوقت على مراجعة ما كتبه كتاب الغرب، وما عرض له بعضهم من دراسات وأبحاث كان بعضها منصفا وبعضها الآخر كان مغرضا ثم استخلص من ذلك كله أحداث السيرة، ووقائعها مع حرصه الكامل على التحليل العلمى والدراسة المقارنة، مع التجاوز عن كل ما يحتمل الشك أو رآه موضع ريبة، أو يتنافى مع العقل والمنطق ثم كان فى صياغته لما خلص إليه سلس العبارة ، جميل التعبير، يقدم لكل قول دليله، ولكل حادثة أسانيدها، مع الحرص على التسلسل الدقيق، والعرض الواضح، وفى أسلوب جميل وبليغ مع البعد عن الألفاظ المهجورة ، والتعبيرات الغامضة ثم عمد فى ختام كتابه إلى تقديم خاتمة فى مبحثين تناول فيها الحديث عن الإسلام حديثا يرسى أصوله، ويتناول أسسه، ويرسم صورة كاملة شاملة لملاحمه ومنهاجه كدين وحياة .. وهى دراسة يقرؤها المتخصص فيجد فيها الجديد، ويقرؤها غير المتخصص فتوسع من أفقه وتزيد من معارفه - وعلى ذلك فقد تميز منهاج هيكل فى كتابه «حياة محمد» بالدقة والشمول، وباليسر والسلاسة ، ويربط سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بما جاء به من دين كان أساس حضارة عمرت وسوف تعمر طويلا..

***

وكان طه حسين حريصا على أن يتناول هو الأخر السيرة النبوية . وقد تناولها مرتين - وليس مرة واحدة - كانت الثانية هى تلك التى أشار إليها الدكتور رجب فى مقاله الأخير، عندما أصدر الدكتور طه حسين - فى المرحلة الأخيرة من مراحل إنتاجه - كتابه الذى ينبئ عن تعمق فى السيرة النبوية ودرس مؤصل للإسلام دينا وشريعة وعقيدة ومنهاج حياة ونعنى به كتابه مرآة الإسلام الذى ضم كتابين أولهما: عرض فيه للسيرة النبوية وللدعوة وتاريخها عرضا مباشرا على نحو مجمل وإن اكتفى بالملامح الرئيسية إلا أنه كان صادقا فى تصويره، جميلا فى تعبيره شاملاً فى إلمامه - وكان الثانى من الكتابين هوالتعبير الصادق عن عنوان الكتاب : مرآة الإسلام .. ففيه كان الدرس، وكان التحليل والبيان والتأصيل للإسلام عقيدة وشريعة ..

أما المرة الأولى التى تناول فيها طه حسين السيرة النبوية، فكانت فى وقت مبكر، وقد جاءت على نسق غير مسبوق، لفت الية النظر ، واستحوذ على الإعجاب حتى لقد أثنى على ذلك العمل كبار قرنائه – وعلى رأسهم العقاد – وإذ كان هذا العمل لايتناول السيرة النبوية على نحو مباشر وإنما يتناول ما سبقها من إرهاصات، ثم ما أشاعته فى الجزيرة العربية من أصداء، ولما ابتعثته فى النفوس من أفكار وأحاسيس – فلذلك اختار لها عنواناً لافتاً ومعبراً فى نفس الوقت على هامش السيرة وقد ضم الكتاب بأجزائه الثلاثة العديد من الصور التى تنوعت مادة وموضوعا فكما صورت جانبا من سيرة جد الرسول عليه الصلاة والسلام – فقد ضمت صورا عن العديد من النساك والكهنة وغيرهم ممن نذروا أنفسهم لرصد ظهور الرسالة ومقدم الرسول، بل ولم يقف ذلك التصوير عند عالم البشر، بل تخطاه إلى عالم الجن، حيث صور حياة وقصص البعض منهم وجاءت تلك الصور فى دقة ملامحها وتسلسل أحداثها وفنية أسلوب عرضها، وسلاسة عباراتها وجمال تعبيراتها وروعة تصويرها لما تضمنت من أحداث، وما اشتملت عليه من حوارات – على نحو فيه من البراعة والفن والقدر الكبير ومن هنا يحق لنا أن نقرر أنها وإن كانت عملا إدبيا إبداعيا إلا أنها لتعلقها بالسيرة النبوية على نحو أو آخر اكتسبت تميزا وسموا جعلها متميزة – بين سائر إبداعات طه حسين الأدبية بسمات خاصة ومكانة رفيعة .

***

وهكذا وقد تفرد طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) أسلوبا ومنهاجا وإبداعا ، فقد كان ما قدمه العقاد فى هذا المجال مختلفا تماما عن كل ما سبقه من تصوير أو حديث عن السيرة النبوية، ومن ثم فقد جاء العقاد متفرداً، إذا اختص أحد جوانب الرسول بدراسته وبحثه، وهو جانب (العبقرية) حيث اختار من مواقفه – عليه الصلاة والسلام – ومن تصرفاته وسلوكه ومنهاجه – ما يكشف عن هذا الجانب، ويثبت كم كان محمد إنسانا عبقريا يحسن التصرف، موهوبا يبدع القول – ويؤدى الرسالة ، وينهض بالأمر على خير وجه .. وكيف كان فى كل موقف سامى الفكر، واسع الأفق ، بعيد النظر، عميق الفهم والتقدير للأمور – وفى نفس الوقت كان رقيق الشعور، رحيم القلب، يقدر الحسن، ويؤثر الجمال فى كل مناحى الحياة – ولم يكن العقاد فيما أطلقه من

صفات وسمات إلا مقدما لكل من ذلك بما هو ثابت فى صحيح السيرة من وقائع وأحداث وأحاديث، يوردها، ويقدم بها لما يخلص إليه من ملامح لعبقرية صاحب السيرة الذكية.. وكان ذلك كله فى عرض شيق، وأسلوب دقيق، وعبارات مركزة، ومنطق مؤصل صحيح .. حتى إذا ما اتصل الأمر بالمشاعر والأحاسيس رقت العبارة، ودقت الألفاظ،وجاءت التعبيرات شاعرية موحية .. وهكذا جاء ت هذه الدراسة لعبقرية محمد مبرزة لجوانب مهمة، وكاشفة لقرائها عن نواح جديدة بالإحاطة .. حقيقة بالاهتمام، تسمو بالرسالة وبالرسول إلى ما يليق بهما من إكبار ومحبة وتقدير ..

***

وخير ما نختم به هذا العرض الوجيز هو ذلك العمل الفنى البديع، ونعني به كتاب توفيق الحكيم عن (محمد) عليه الصلاة والسلام - قدمه فى أسلوب تمثيلى يضم العشرات من المناظر المتتالية يرسم فى كل منظر منها إحدى الصور أو المواقف صورة من حياة الرسول، أو مما هو متصل بها، وقد صيغت فى أسلوب حوارى ينطق فيه الأشخاص بما يعبر عن الأحداث، ويحكى الوقائع فيما يتبادلون من أحاديث أو ما يعبرون عنه من انفعالات.. تتفق مع الموقف .. وتروى الحدث وتربط ما بين الأحداث ..!! .

وهكذا تتوالى المناظر وتتابع الحوارات فى صورة معبرة وناطقة فى نفس الوقت .. ومن جملة هذه المناظر المتتابعة تتكامل ملامح صورة حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ناطقة، معبرة، تروى الأحداث، والأحاديث، وتصور كل ما مر بهذه الحياة الحافلة الخصبة من خطوب، ومحن وما تحقق فيها من انتصارات، دون أن تنسى أن تصور مجالس التشريع أو القضاء، أو سواها من المجالس التى كانت هى المدرسة التى لقنت الصحابة أسس الرسالة ومبادئ الإسلام على نحو حفظ التاريخ تفاصيله، وحرص المسلمون على تسجيل دقائقه كاملة .. ومن هنا فقد جاء هذا العمل القائم على الإبداع الفنى، والأسلوب التمثيلى، والحوار الروائى عملا غير مسبوق - متميزا - فى الواقع - بسمتين أساسيتين : أولاهما : دقة رواية وقائعه، وتوثيق ما ورد على لسان الرسول - عليه الصلاة والسلام - وصحابته من أحاديث - واكتمال تفاصيل السيرة على النحو المتفق عليه مما يبعد عن مواضع

الخلاف، وبما لايخرج عما هو ثابت فى صحيح الأحاديث وصادق الروايات والسمة الثانية هى التوافق مع النسق الفنى، بما يكون فى الامكان إخراجه على المسرح فيما لو توافرت الإمكانيات، وأمكن الوصول إلى حلول مرضية للتغلب على ظهور شخصيات الرسول عليه الصلاة والسلام، والصحابة لما هو مجمع عليه من عدم جواز ظهور تلك الشخصيات على المسرح .. بما يقتضى التفكير جديا فى إيجاد البديل ..

***

على أننا لم نتعرض لما أبدعه الشعراء فى السيرة النبوية، وكم تنوعت وتعددت روائعهم، التى مازلنا - وسنظل - نرددها مأخوذين مسحورين مكتفين بما أوردناه من إشارات عما أبدع بعض الكتاب والمفكرين من ثمار تؤكد ثبوت أقدامهم، وعمق تفكيرهم، وصدق إيمانهم وكيف عرفوا الحق فنصروه، وكانوا هم القادة والرواد الذين لايكذبون الأهل بل يقودونهم إلى الخير، وسلاحهم فى ذلك عقول مبصرة، ومواهب أصيلة زودت بمعارف موسوعية لاتعرف حدا تقف عنده، ولانهاية لما تبذل من جهد، أو لما تقدم من فن وإن كان هؤلاء قد مضوا عنا فقد خلدوا بيننا - بمازلنا نقطف من ثمار فكرهم وجهدهم وفنهم . ومن ثم فإنه ليبدو بعيدا عن الحق ومخالفا للحقيقة أن يقال أن هذه النهضة الفكرية التى أحيت الماضى وقدمته نابضا ناطقا وفى ذات الوقت ربطت بينه وبين حاضر الفكر وما يسود العالم من تيارات - هى ردة إلى الوراء، أو نكسة عن التقدم !! فذلك قول يقوم على التسرع فى الحكم والحيدة عن الصواب وإنكار ما هو حق من القول، وإهدار ما كان صادقا من الجهد وعميقا من الفكر، ورائعا من آيات الفن والإبداع .. وهو ما لانرضاه ولايرتضيه المنصفون !!

***

على أن ما ذكرناه فيما سلف لا يعنى بحال أن أولئك الرواد قد بلغوا الغاية فيما قدموا وأن أعمالهم ليس فيها ما هو موضع نقص أو قصور، أو أنهم لم يخطئوا فى بعض ماقالوا، ولم يجانبوا الصواب أبداً .. فهم فيما قدموا وأبدعوا كانوا شأنهم شأن سائر البشر يصيبون ويخطئون، يجدّون ويهزلون، ولكننا نأخذ بالغالب من أمرهم فنقول أنهم كانوا قادة مبدعين فى معظم ما قدموا ■

دائرة حوار

التحول والجمود بين المفكرين

بقلم
حلمي النمنم

جمع د. ماهر شفيق فريد فى جملة واحدة بين طه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى وإسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود وغيرهم وقطع بأنهم جميعا تحولوا من المنظور «الهيومانى العلمانى» الى المنظور «السلفي الأصولى».

واعتبر تراجع هؤلاء عن «منطلقاتهم الثورية الباكرة» هو «أكبر كارثة شهدها الفكر العربى الحديث وفاتحة النزعات الانفلاتية الراهنة»، الهلال، عدد يونيه ٢٠٠٤.

ويبدو أن د. محمد رجب البيومى، اتفق مع د. ماهر فى معظم قراراته السابقة إلا فى نقطة واحدة حيث رأى أن تلك التحولات كانت بمثابة عودة إلى «الطريق الصحيح» وأنها تمثل «الرجوع الى الحق» ، الهلال عدد يوليو ٢٠٠٤.

ولا يملك القارىء إلا أن يقدر الجهد الذى بذله د. رجب البيومى فى البحث وجمع النصوص للتدليل على أفكاره، غير أنه انساق مع د. فريد فى عدة أمور تحتاج التوقف والمساءلة، فقد رادف بين الهيومانية والعلمانية ، رغم أن الفارق بينهما ليس هينا، دع عنك الآن أنه استعمل المصطلح الأجنبى «الهيومانية» دون أن يحاول استعمال مقابله العربى «النزعة الانسانية» أو مقابل آخر يراه هو، ورادف أيضا بين السلفية والأصولية، والفارق شاسع بينهما وحالة العداء على الأرض، بين هذين التيارين واضحة. ولا أعرف كيف جزم بأن هؤلاء جميعا تحولوا إلى ما أسماه «السلفية الأصولية» وأنهم كانوا على «الهيومانية العلمانية»؟

من جانبى أقطع بأن مفكرا مثل د. زكى نجيب محمود لم يتحول نهائيا، وقد

سـألتـه فى ذلك قـبل عـام من وفـاتـه فنفى بشـدة، ذلك أن زكى نجيب قدم «الوضـعـية المنطقـية» وهى تمثل منهجـا للتفكير ولا تحمل فكرة بذاتها، والذى حـدث أن د. زكي أعمل منـهجـه هذا منذ السبعينيات الأولى فى التراث العربى الإسـلامى، خاصة فى كتابيه عن المعقول واللامعقول فى تراثنا وتجديد الفكر العربى، ولو أنه تحول بالمعنى الذى يراه د. فريد فبماذا نفسر مقاله الذى نشـر قـبل سنوات قليلة من وفـاته بعنوان «ردة فى عـالم المرأة» وأثار عليه التيار الإسلامى فى مصر والعالم العربى؟

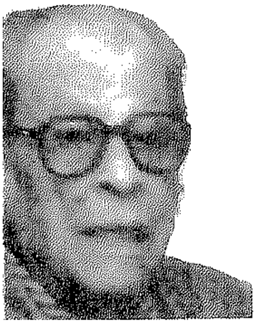
نجيب محفوظ

طارق البشـري

ومن يقرأ كتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل يجد أن الرجل لم يترك نزعته العقلانية فى تناوله لحياة النبى، راجع مثلا فهمه لحادث الإسـراء والمعراج بل إن د. هيكل أكد فى مـقدمة حـياة محـمد أن الكتاب «دراسة علمية على الطريقة الغربية الحديثة، خالصة لوجه الحق..» ولا يمكن لمن يقرأ «الفتنة الكبرى» للدكتور طه حـسين أو حـتى «مـرآة الإسـلام» أن يتـصـور للحظـة أن تلك كـتـابات «سلفـى أصـولى» ولو أن البـاحث راجع مـقـال، د. طه حسين الذى نشر بجريدة «الجـمـهـورية» فى صـيف عـام ١٩٥٥ بعنوان «حق الخطأ» لأدرك أن الرجل لم يتـراجـع خطوة واحـدة عن أفكاره الأولى، كان المقال في الدفاع عن الشيخ عبدالحميد بخيت الأستاذ بجامعة الأزهر، وكان قد تعرض لعنت شديد من إدارة الأزهر وتم فـصله من الجـامـعـة بسـبب رأى أبداه حـول فريضـة الصـيـام. ونفس الأمر لمن يقرأ كـتـاب العقـاد «التفكير فريضة إسلامـيـة» أو العـبقـريات وتناوله لعدد من شـخـصـيـات الإسلام فضلا عن كتابيه حول الإنسان فى القرآن والديمقراطية فى الإسلام.

والواقـع أن مـعظم هؤلاء المفكرين تأثروا بالمناهج والأفكار الغربيـة سواء منها العقلانى أو الإنسـانى أو العلمى وأعجـبـهم فيها التركيز على الإنسان كقيمة والمجتمع ككيان مستقل عن السلطة السـيـاسـيـة ، ولا يحق للأخيـرة أن تتـسلط علـى الناس وتستبد بهم، ثم راحوا يتأملون مجتمعهم وثقافتهم على ضوء تلك

المناهج والأفكار ومن ثم فإن هذا لا يعد تحولا بل هو أقرب الى التطور أو النضج، كان ذلك في سلوكهم العام أيضا وليس في أفكارهم فقط، لنتأمل مفكرا مثل د. هيكل حين شغل فترة من الوقت مقعد وزير المعارف العمومية، مطلع الأربعينيات. فإنه قرر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» على طلاب المدارس الثانوية ككتاب مطالعة .. وأظن أن الذى قام به د. طه حسين وهو وزير المعارف يقترب من الحالة الثورية وليس السلفية الأصولية، وقد راجعت في «الوقائع المصرية» جميع القرارات التي أصدرها د. طه حسين وهو وزير للمعارف في حكومة الوفد الأخيرة فوجدت ان ما سعى إليه هو نفسه ما نسعى إليه اليوم من محاولة محو الأمية ومجانية التعليم فضلا عن انه استصدر مرسوما ملكيا بتأسيس جامعة في الصعيد باسم محمدعلى، جامعة أسيوط فيما بعد، فهل يمكن القول ان هذا الرجل كان آنذاك «سلفيا اصوليا»!!

الأخذ بالشبهات

والواقع أن الحكم على الكتاب والمفكرين بهذه الطريقة هو نوع من أخذ الناس بالشبهات وتناولهم بما هو رائج عنهم وليس تناول الباحث المدقق، مثل الزج باسم د. مصطفى محمود بين هؤلاء المفكرين واعتبار أنه تحول إلى السلفية الأصولية - أصدر أحد السلفيين كتابا يكفر فية د. مصطفى محمود - بل إن د. رجب يقول إن الواقع الراهن أيد صواب د. مصطفى محمود حين خرج عن الماركسية والمؤكد أن د. مصطفى لم ينخرط يوما في أى تنظيم ماركسى وتثبت كتاباته أنه لم يكن متأثرا في أى مرحلة من حياته بأفكار ماركس. وكتابه الذى أثار ضجة وصودر ليس فيه إلحاد كما قيل، ومن يقرأ كتاب «الله والإنسان» سوف يكتشف أنه خليط بين بعض جهالات عوام المسلمين ورذاذ من بعض الأفكار والكلمات الوجودية التى تطايرت على المقاهى بين أشباه المثقفين في الخمسينيات من القرن الماضي، ولا يجب أن تكون تقارير الرقباء والبصاصين هى المعيار الفكرى الذى نحتكم اليه ونحاسب الكاتب على أساسها وإلا لانتهينا إلى ان د. طه حسين شيوعى لأنه أصدر كتاب «المعذبون في الأرض» وهو ما قال به ضباط القلم السياسى في العهد الملكى، بل إن الملك فاروق نفسه اعترض في بداية الأمر على اختياره وزيرا للمعارف معتبرا أنه «شيوعى»!!

قضية التحول

على أن الأهم من ذلك هو قضية التحول أو تطور الكاتب والمفكر من موقف إلى موقف ومن فكرة إلى أخرى، وانقسم الرأى العام الثقافى إلى جانب عبر عنه د.ماهر بأن ذلك التحول يعد كارثة فكرية وجانب يمثله د. رجب البيومى ارتآه خيرا

وفضيلة!!

الوضع الصحيح أن يكون الكاتب والمبدع فى حالة جدل دائم مع واقعه وثقافته بل مع أفكاره هو الخاصة، وهنا يصير التحول والتطور واردا ويعد علامة ايجابية ولعل الذى يستحق النظر اليه باستهجان هو جمود المفكر وليس تحوله أو تطوره، الجمود يتحول إلى أصولية مع الوقت، وهناك أصولية فى معظم التيارات الفكرية وليست وقفا على تيار بعينه ، وتاريخ الفكر الإنسانى عرف الكثير من التحولات والتطورات التى طرأت على كبار الفلاسفة والمفكرين والمبدعين فى مختلف الثقافات الإنسانية وعبر مختلف مراحل التاريخ، والفترات التاريخية التى غلبها الجمود والثبات، تعد عصور الظلام والتأخر.

الذين يدرسون فلسفة أفلاطون يعرفون جيدا أن محاورته، «القوانين» هى تطوير وتحول عن بعض آرائه ومواقفه السياسية التى دونها فى محاورة «الجمهورية» والذين تخصصوا فى «هيجل» يدركون أن فلسفته شهدت عدة مراحل وتطورات، بل إن فيلسوفا وأديبا غربيا حقق شهرة فى عالمنا العربى هو «جان بول سارتر» شهدت حياته تحولات وانقلابات فكرية بلغت حد التضارب، هو واحد من رموز الوجودية بكتابه الذى ترجمه إلى العربية د. عبدالرحمن بدوي «الوجود والعدم» ثم انقلب الى الفكر الماركسى بكتابه «نقد العقل الجدلى» ولم يعتبر الوجوديون تحوله كارثة ولا رآه الماركسيون فتحا عظيما، بل هو امر متوقع بالنسبة لمفكر بالمعنى الحقيقى للكلمة، ولماذا نذهب بعيدا فنحن جميعا نعرف الفيلسوف الفرنسى «روجيه جارودى» وتحولاته العديدة فقد كان ماركسيا ثم حاول تطوير هذا الفكر بكتابه «الواقعية الاشتراكية» وأخيرا انقلب على هذا كله واعتنق الإسلام.

على مستوى الفكر العربى الإسلامى فإن التحولات بين الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية عديدة، وكانت الطرق مفتوحة للمتكلمين والفقهاء بين المدارس والمذاهب يروحون ويجيئون بلا حرج ولا لائمة، هل نذكر هنا أن الامام الشافعى عدل فى مذهبه الفقهى حين جاء الى مصر والتصق بأهلها وواقعها..؟

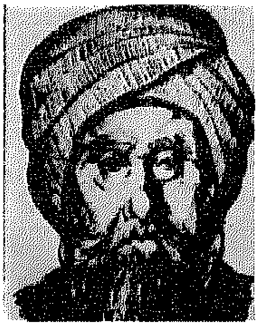

أبو حامد الغزالي

محمد عبده

● القول بأن طه حسين وهيكل والعقاد وزكي نجيب تحولوا إلى أصولية سلفية إجحاف وأخذ بالشبهات

جان بول سارتر

روجيه جارودي

وهل نذكر – أيضا واصل بن عطاء الذي تحول عن مدرسته وامامه الأشعرى ليؤسس مذهبا جديدا هو المعتزلة؟!!

وفى الفكر العربى وثيقة مهمة لجملة من التحولات مر بها مفكر واحد هو أبو حامد الغزالى الملقب حجة الإسلام تتمثل فى كتابه، صغير الحجم عظيم القيمة «المنقذ من الضلال» حيث أثبت فيه شكوكه العميقة وحيرته بإزاء العديد من المذاهب والمدارس الكلامية والفلسفية التي عرفتها الثقافة الاسلامية، حتى استقرت فى نهاية الامر على مرفأ التصوف والزهد. وفى فكرنا الحديث مر الاستاذ الامام محمد عبده بتجربة شبيهة تعرض بسببها الى العديد من الانتقادات والمآخذ بين علماء الأزهر ورجال الحركة الوطنية.

التحول بحد ذاته ليس مدانا ولا هو خطيئة وكما ورد من قبل فى هذا المقال فإن الجمود هو المعيب، وللأستاذ العقاد كلمة مهمة فى هذا السياق، رغم أنه أوردها فى سياق آخر بروايته سارة يقول «ذو الوجه الواحد ميت، وذو الوجهين منافق»..

التحول لا يعني خطأ الفكرة

وتحول الكاتب عن فكرة ما، لا يعنى بالضرورة خطأ تلك الفكرة ولا يلغيها، ذلك ان الفكرة بعد ان تظهر تستقل عن مبدعها، ولا تبقى ملكا له، إلا بالمعنى المادى، لقد اجبر جاليليو على التراجع عن فكرته حول دوران الأرض، ولم يمنع ذلك التراجع الإنسانية من ان تستفيد علميا وعمليا من تلك الفكرة، ولنأخذ هنا نموذج نجيب محفوظ فقد تحول من كتابة المقال الفلسفى الى فن الرواية وتقلب بين المذاهب الروائية، بدأ بالرواية التاريخية ثم اتجه الى الواقعية والحقها بالفلسفية والنفسية ويكتب حاليا ما يمكن أن نعتبره أقصوصة الرمز والإشارة. ولم يكن التحول معناه إلغاء ما قدمه من روايات سابقة، مازالت الرواية التاريخية تكتب وكذلك الواقعية حتى وإن تركهما هو..

وقيمة بعض الأفكار فى الأثر الذى تحدثه، والأمر المؤكد أن

● التحول عن فكرة لا يلغيها ولا يعني أنها خاطئة

كتاب الشيخ على عبدالرازق «الاسلام واصول الحكم» قد أجهض نهائيا احلام الملك فؤاد فى أن يكون خليفة المسلمين وان يرث ذلك الطاغية الدولة العثمانية واليوم ليس هناك من يقول - إلا قلة - بأن الامة الاسلامية لا تصلح بدون الخلافة، بل هناك شبه اتفاق على أن الإسلام لم يحدد نظاما معينا للحكم، ملكيا أو جمهوريا أو خلافة ، بل ترك هذا الأمر لاختيار عموم المسلمين، وهذا هو لب ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق، وان صح أنه تراجع عن فكرته فإن هذا لا يلغيها وليس معناه انها - حتما - فكرة خاطئه!

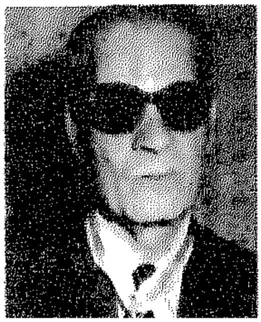

طه حسين

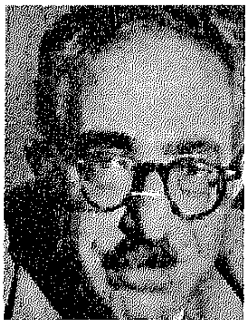

محمد حسين هيكل

وتشهد حياتنا الفكرية الراهنة بعض التحولات الناتجة عن تطور ومعاناة فكرية، لعل أبرزها نموذج المستشار طارق البشرى الذى حرص على أن يدون تحوله ودوافعه إلى ذلك فى مقدمة خاصة بالطبعة الثانية من كتابه عن الحركة السياسية فى مصر بين ١٩٤٥ و ١٩٥٢ ، وكان شجاعا مع ذاته وأمينا مع قرائه وجمهوره. لم يدلس عليهم وشريفا مع مجتمعه وثقافته، لم يتاجر بمسألة التحول ولم يحولها الى بوتيك او بيزنس فاستحق الاحترام والتقدير من الذين يختلفون معه قبل الذين يوافقونه.

فى المقابل هناك موجات من الانقلابات لأولئك الذين اعتلوا كل منبر وركبوا كل موجة، فإن سادت الماركسية كانوا الرفاق العظام والمدافعين عن البروليتاريا.. المنددين بالبرجوازية الصغيرة والكبيرة فإذا انهار الاتحاد السوفييتى اندفعوا الى الإسلاميين بجوار الامراء الجدد، منظرين وموجهين، واذا ارتفع صوت القومية العربية واشتد المد الناصرى كانوا الثوريين المنادين بألا حرية لأعداء الشعب فاذا تراجع ذلك المد عاد إليهم وعيهم ليكونوا فى مقدمة الانفتاحيين والمنظرين لدعوة مصر اولا واخيرا.. اما اذا جاءت الرياح الأمريكية العاتية فإنهم، بقدرة قادر، يصيرون ليبراليين جددا أو دعاة الإصلاح والمنادين بالعولمة، والشرق الأوسط الكبير.!!

وهولاء يستحقون الرثاء وربما الاذدراء! ■

● التحولات الجادة في حياتنا الفكرية محدودة وما نراه انقلاب ومجاراة للموضات السائدة

دكتـــور
حمدى السيد

رحلـة التفوق من الطب إلى السياســة

بقلم
ربيـــع أبـــو الخيــر

فى مستشفى «همر سميث» أكبر مركز لجراحة القلب فى بريطانيا ، وأول مستشفى يستخدم القلب الصناعى كان الطبيب المصرى الشاب يتابع حالة مرضاه ، يدخل إلى المرضى حجرة بعد حجرة ، يزرع الأمل فى قلوبهم .. ويطمئن على سلامة شرايينهم بعد أن أجرى لهم أخطر العمليات الجراحية.

فى كل حجرة كان يدخلها يلتف حوله مجموعة من الأطباء الإنجليز ، يستمعون باهتمام بالغ لكل كلمة يقولها.. كان يشرح ويفسر ويشخص لهم حالة كل مريض يقف بجوار سريره وحتى فى داخل غرف العمليات ، كان جراحو مستشفى «همرسميث» يتابعون بعقولهم وأعينهم يد هذا الجراح البارع وهو يمسك مشرط الجراحة ليجرب عمليات القلب .. يصلح العيوب الخلقية .. ويوسع الشرايين .. ويعالج الأزمات القلبية المفاجئة لينقذ حياة عشرات بل ومئات المرضى.

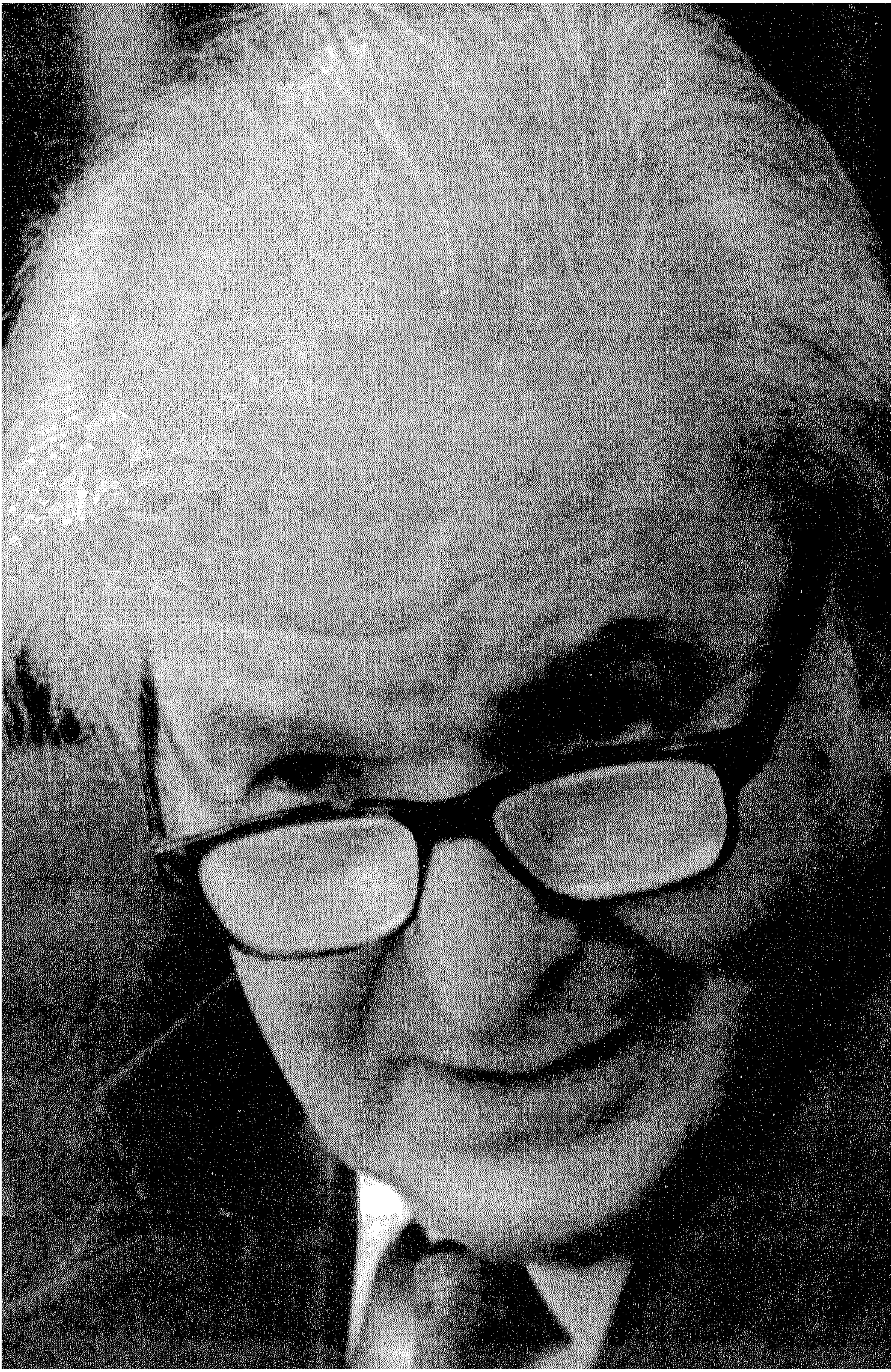

○ عمل في أكبر مركز لجراحة القلب في لندن عام ١٩٥٨ بناء على توصية من أستاذ بريطاني شهير.

كان ذلك فى بداية الستينيات .. وكان الطبيب الشاب هو الدكتور حمدى السيد استاذ جراحة القلب ونقيب الأطباء والبرلمانى القدير الذى يترأس لجنة الصحة بمجلس الشعب.

منذ أن انضم الدكتور حمدى السيد لفريق الجراحين في مستشفي «همرسميث» الشهير كان يواصل عمله ليل نهار متنقلاً ما بين غرف الجراحة وأسرة المرضى ومعامل التحاليل وأقسام الأشعة .. يتابع كل حالة أجرى لها جراحة فى القلب حتى يخرج مريضة معافاً من المستشفى .. انتقل حمدى السيد لهمرسميث بناء على توصية من استاذ بريطانى شهير اكتشف موهبته وبراعته فى الجراحة .

• ولم تمض سوى شهور قليلة حتى تولى هذا الطبيب المصرى الشاب الاشراف وحده على قسم كامل داخل هذا المستشفى الكبير .. كما كان يتولى تدريب الأطباء الإنجليز .. وبعد انقضاء السنة الأولى من عمله بالمستشفى كان يعمل معه مساعدان أحدهما بريطانى والآخر هندى ، وبعد ذلك بستة أشهر حصل د. حمدى السيد على أكبر شهادة فى انجلترا فى جراحة القلب والأمراض الباطنة وهى شهادة لم يحصل عليها سوى ثلاثة أطباء فى بريطانيا فى ذلك الوقت.

***

حياة هذا الطبيب المصرى كانت تحفل بمواقف عديدة من الألم والأمل ، وتؤكد أن الإرادة البشرية تمكن صاحبها من اجتياز كل العقبات وتقفز به فوق الصعوبات كى يصل إلى هدفه وإذا كانت عبقرية الدكتور حمدى السيد فى جراحة القلب تستحوذ على إعجاب الناس وخصوصاً الذين كانوا على صلة بعمله وإنجازاته ، فإن قصة حياته تعد تجربة فريدة وثرية ومثل يحتذى به فى الإصرار والعزيمة للوصول إلى الهدف المنشود.

لقد ولد حمدى السيد من أبوين فقيرين فى قرية ميت الخولى ، وهى قرية صغيرة من قرى الدقهلية .. انتقل من قريته ليعيش فى المنصورة حتى حصل على الابتدائية ثم التحق بمدرسة المنصورة الثانوية.

وطوال سنوات إقامته فى المنصورة كان ما يصله من نقود من والده يكاد يفى الاحتياجات الضرورية .. وكان على الطالب

النابغة أن يعيش فى حدود هذه الإعانة الشهرية من والده لمدة خمس سنوات كاملة .

***

وعلى الرغم من تلك الظروف التى كان يعيشها هذا الطالب بالمدرسة الثانوية فقد عكف على دراسته بجد واجتهاد حتى حصل علي الشهادة التوجيهية شعبة العلوم . ولم يكن دخوله الجامعة أمراً هيناً ولا متاحاً فى ذلك الوقت .. فمن أين له بمصاريف الدراسة علاوة على تكاليف المعيشة فى القاهرة.

ولذا صمم حمدى السيد على استكمال دراسته الجامعية ووضع هدفاً وحيداً نصب عينيه ، وهو أن يفوز بمجانية التعليم الجامعى ، ولم يكن يكفى الحصول على تلك المجانية تفوق الطالب فى التوجيهية ، بل كان عليه أن يجتاز بتفوق امتحان المسابقة التى تنعقد للناجحين فى التوجيهية.

وخلال عدة شهور قليلة كان الطالب الحاصل على التوجيهية من المنصورة قد انكب على دراسة الكتب الأدبية والتاريخية .. درس كتاب تاريخ الأدب العربى للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وراح يجمع أعداد مجلة السياسة الإسبوعية التى كان يصدرها الدكتور هيكل ، ويدرس المقارنات التى انعقدت بين شوقى وحافظ وتقدم حمدى السيد إلى امتحان المسابقة ، ونجح بتفوق باهر ، وكان ترتيبه الثانى بين الناجحين وبذلك ضمن أن يتعلم بالمجان فى كلية الطب التى يعشقها.

وكانت مفاجأة سارة أن يحصل بعد نجاحه فى امتحان المسابقة على المكافأة المقررة بالنسبة له وكان قدرها عشرون جنيها .. لقد كان هذا هو أكبر مبلغ من المال يصل إلى يده دفعة واحدة.

ويذكر د. حمدى السيد أنه اشترى من هذا المبلغ أول ساعة فى حياته .. وانفق ما تبقى فى شراء ملابس جديدة له .

***

ويمر عام بعد عام ويزداد الطالب النابغة علماً ويبهر اساتذته بتفوقه ونبوغه وفى عام ١٩٥٢ تخرج فى كلية طب قصر العينى ثم حصل بعد ذلك على دبلوم الجراحة وعين معيداً بالكلية، وظل يشتغل بالجراحة لمدة خمسة أعوام ثم سافر عام ١٩٥٧ فى بعثة إلى ادنبره ثم اسكتلندا .. وهناك حصل على شهادتى الزمالة والتخصص فى الجراحة .. وفى منتصف عام ١٩٥٨ انتقل إلى لندن وبدأ يتجه للجراحة ، واجتهد حتى حصل على شهادة تخصص ثانية فى الجراحة وبدأ يجرى أخطر العمليات الجراحية مثل جراحات إصلاح التشوهات الخلقية فى القلب وتوسيع الشرايين.

***

لم تشغل جراحات القلب وأوجاعه د. حمدى السيد عن الاهتمام بقضايا الوطن السياسية والاقتصادية ، فقد انخرط فى العمل السياسى مروراً بالاتحاد الاشتراكى حتى الحزب الوطنى ، علاوة على عضويته بمجلس الشعب منذ سنوات طويلة، علاوة على رئاسته للجنة الصحة بالمجلس.

وتحت قبة البرلمان لم تهدأ صولات وجولات هذا البرلمانى البارع الذى خاض معارك كثيرة داخل المجلس ودافع بقوة من أجل خروج قانون ينظم زراعة الأعضاء ولم تهدأ محاولاته ومناقشاته حتى خرج قانون زراعة القرنية الذى فتح باب الأمل أمام آلاف المصريين الذين يتهددهم شبح العمى وفقدان البصر.

دافع حمدى السيد بحرارة من أجل قانون التدخين .. وناقش بموضوعية قضية الجامعات الخاصة وغيرها من القضايا السياسية والاجتماعية.

ومن موقعه كنقيب للأطباء استطاع أن يفصل بين كونه قيادى بالحزب الوطنى وتعامله مع المنتمين للإخوان المسلمين داخل النقابة ولعل أبلغ رد له عندما سئل كيف تتعامل مع المنتمين للإخوان المسلمين وأنت عضو بالحزب الوطنى الذى يتعامل بقسوة معهم !! «إننى أتعامل معهم كما أتعامل مع جميع التيارات فى النقابة .. النقابة ليست حزباً ولكنها مؤسسة نقابية لها مهام واضحة هى الارتفاع بشأن المهنة ورعاية أفرادها علمياً ومادياً واجتماعياً .. لكن نرفض أن يكون العمل النقابى لحساب تيار أو حزب معين فالنقابات ليست وسيلة للوصول إلى الحكم وهذا لا يمنع كوننا جزءاً من القضايا القومية وليست الحزبية ... وعندما يكون أحد أعضاء النقابة من الإخوان المسلمين فى مشكلة فأنا أول من يدافع عنه وسوف أفعل ذلك مع الطبيب الشيوعى والطبيب المنتمى للحزب الوطنى.. النقابة جزء من تيار قومى وليست جزءاً من فى تيار معين بعينه.

***

خاض نقيب الأطباء معارك شرسة ضد تجاوزات كليات الطب الخاصة لأنها لم تستكمل مواصفات التعليم الطبى .. وكان صريحاً وشجاعاً لم ترهبه سطوة رجال الأعمال عندما أعلن على الملأ أن المجتمع سوف يدفع ضريبة تجاوزات كليات الطب الخاصة وذلك باضافة أطباء جدد لم يتم تدريبهم التدريب الكافى

○ نجاحه في مسابقة مجانية التعليم فتح الباب أمامه للالتحاق بكلية الطب.

○ رفض أن يكون العمل النقابي لحساب تيار أو حزب معين.

وهذا سيزيد من مشكلة أخطاء الأطباء التى نعانى منها.

لم يدافع حمدى السيد عن أخطاء الأطباء بل أكد مراراً أن الأطباء ليسوا ملائكة وليسوا معصومين من الخطأ ولكن هناك تجاوزات .. وفى مقابل ذلك توجد لجنة آداب المهنة مهمتها التصدى لهذه الأخطاء وتوقيع العقوبات على المخطئ .. كما لدينا قضاء يتصدى للأخطاء الطبية الجسيمة إضافة إلى رقابة وزارة الصحة.

ولأنه يحمل هموم المهنة فوق رأسه .. فإنه يحذر فى كل مكان أن ثمة تحديات تواجه مهنة الطب وينبغى التصدى لها .. أولها ضرورة تطوير التعليم الطبى لأكثر من ٦٠ ألف طالب فى ١٨كلية طب، أعداد كثيفة أكثر من قدرة الكليات من معامل ومدرجات وأسرة وتعليم.

وثانى هذه التحديات هو استكمال منظومة التعليم الطبى وتطبيق برامج التدريب الجيد أثناء السنة التدريبية المكملة للتعليم الطبى ما قبل الترخيص بمزاولة المهنة وثالث هذه التحديات إعداد الطبيب للممارسة المستقلة للمهنة بحيث ينخرط فى برنامج تدريبى يمتد إلى خمس سنوات على الأقل قبل السماح له بالممارسة المستقلة للمهنة .. ورابعاً إعداد الطبيب للمنافسة على المستوى القومى والعالمى .

***

وبشجاعة الجراح كان للدكتور حمدى السيد نقيب الأطباء مواقف حاسمة مع معارضى قانون نقل وزراعة الأعضاء .. بح صوت الرجل فى مناقشات المؤتمرات العلمية وتحت قبة البرلمان لدرجة أنه وصف معارضى صدور هذا القانون بأنهم يريدون العودة بمصر قروناً إلى الخلف وأنهم يقتلون الحق فى الحياة دفاعاً عن أوهام كاذبة عن حقوق الموتى.

مواقف الرجل لم تهتز ولم يتراجع عن مبادئه عندما أعلن أن مئات الألوف من المصريين المصابين بالبلهارسيا وبفيروسات «بى» و «سى» وغالبيتهم من الفقراء والمعدمين لن يكون بمقدورهم مواصلة الحياة بدون إجراء عمليات نقل كبد .. العملية مكلفة وتصل تكلفتها إلى حوالى نصف مليون جنيه .. وفى غياب قانون ينظم نقل وزراعة الأعضاء فهؤلاء المرضى الغلابة محكوم عليهم بالموت .. أما الأغنياء فهم يسافرون للخارج يزرعون الكبد ويعودون لممارسة حياتهم العادية.

ولكونه جراح قلب كان موقفه حاسماً أمام جماعة أخلاقيات المهنة التى ترفض خروج قانون نقل الأعضاء.. وكانت حجته القوية أن عمليات نقل صمامات وشرايين القلب من المتوفين حديثاً وبعد اثنتى عشرة ساعة من الوفاة تنقذ آلاف من مرضى التشوهات الخلقية وصمامات القلب وإنها تجرى فى مصر بكفاءة عالية وعالمية .

***

كان أمل رئيس لجنة الصحة بمجلس الشعب أن يخرج قانون التأمين الصحى إلى النور فى أقرب وقت وقبل انتهاء الدورة الأخيرة لمجلس الشعب .. لأن القضية تهم أكثر من ٣٨ مليون مصرى تشملهم خدمات التأمين الصحى بشكل ما من الأشكال .. القانون القديم للتأمين الصحى كما يراه د. حمدى السيد عفا عليه الزمن لأنه ليس قانوناً واحداً ولكنه أكثر من قانون . هذه القوانين متضاربة بل ومتناقضة فى نقاط كثيرة.

فمنذ صدور قانون التأمين الصحى عام ١٩٦٤ لم تتحرك آلياته بشكل فعال لصدور أكثر من قانون بعد ذلك .. فهناك قانون للعاملين بالدولة ، وقانون لعمال القطاع العام .. وقانون لأصحاب المعاشات .. ناهيك عن قانون التأمين الصحى لتلاميذ المدارس وقانون المواليد وحتى قبل سن المدرسة ما دعا إليه البرلمانى الطبيب أن يتم توحيد كل هذه القوانين فى قانون واحد ينظم ويرتب خدمات التأمين الصحى ليشعر المواطن المصرى أنه يحصل على خدمة طبية متميزة.

وكان أهم ما دعا إليه د. حمدى السيد أن يتم الفصل بين مؤدى الخدمة أى هيئة التأمين الصحى ودورها فى تحصيل الرسوم والاشتراكات وكانت وجهة نظره أن تتحول هيئة التأمين الصحى إلى جهة مشرفة ضامنة لأداء خدمة طبية متميزة وأن تقوم بتأجير هذه الخدمة من خلال المستشفيات الحكومية والجامعية والقوات المسلحة والخاصة والاستثمارية ويقتصر دور الهيئة فى ضمان معدلات الجودة .. وأن يتم تحريك اشتراكات التأمين الصحى الذى لم يطرأ عليها أى تغيير منذ سنوات طويلة مما يمكن الهيئة من القيام بدورها ليصبح التأمين الصحى مكاناً أكثر أماناً وفعالية فيما يتعلق بخدماته فى التشخيص والعلاج طبقاً لمواصفات الجودة العالمية.

مواقف د. حمدى السيد فى القضايا القومية الصحية والسياسية والاجتماعية كثيرة ومتعددة ولعل أبرز ما تتصف به هذه المواقف هو الثبات والانحياز الدائم للفقراء ومحدودى الدخل وقوة الإصرار على مناصرة الحق والوقوف فى صف التنوير والتقدم .. ولهذا فلن تهدأ معارك هذا الرجل ولن تثبط عزيمته أمام قوى التخلف والرجعية. ■

○ معاركه مستمرة حتي يصدر قانون نقل وزراعة الأعضاء لإنقاذ حياة المرضي الفقراء.

أقوال معاصرة

● «الحاكم المطلق لا يجد حرجا فى الاستجابة للمطالب الأجنبية، حتى إذا لم تحقق لبلاده مصالح وطنية».

الصادق المهدى
رئيس وزراء السودان الأسبق

● «لواستعملوا جهاز كشف الكذب عند مدخل قاعة البرلمان، لبقيت خالية طول الوقت »

بول سايكس
رجل الأعمال البريطانى

● «الديمقراطية ليست بضاعة غربية، بل عملية عالمية لتنظيم الاحتياجات السياسية على أساس من المساواة» .

د . عبدالعزيز سعيد
الأستاذ بالجامعة الأمريكية بواشنطن

● «الديموقراطية مطلب عاجل تقنيا ، وليس فقط أخلاقيا».

الفيلسوف ألفن توفلر

● «العلمانيون العرب لا يزنون وزن ذبابة بالمقارنة مع وزن الفيل الذى يزنه الأصوليون فى المجتمعات العربية المعاصرة» .

المفكر السورى جورج طرابيشي

● «الدولة فى القلب ومرض مجتمعنا فى الرأس، والرأس هو الدولة» .

المفكر اللبنانى كريم مروة

● « الترجمة تخون النص الأصلى، وتفقده الشئ الكثير من جوهره بسبب اختلاف اللغات والثقافات فيما بينها» .

د . أحمد عتمان
أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية
بجامعة القاهرة والمشرف على الفريق الذى قام
بترجمة «الإلياذة»

● «أعمال العقل لا يزال ممكنا ، بشرط ألا يغلق المرء عقله وينفتح على باقى العقول» .

الفيلسوف الألمانى يورجين هبرماس

● «أنا مجرد لعبة فى يد الريح تدفعنى نحو المجهول الذى دائما ما يحمل جديدا» .

الأديب الفرنسى ميشيل بوتور

● «النقد هو الحل الوحيد لمواجهة تجاوزات الفن» .

الأديب ادوار الخراط

● «كل الذين يحاصروننا صباحا، ومساء فى واجهات الصحف والفضائيات أراذل ، لا يتمتعون بخفة دم، ولا روح» .

حجازى رسام الكاريكاتور

الصادق المهدي

ادوار الخراط

مذكرات أشرف غربال

صعود وانهيار علاقات مصر وأمريكا

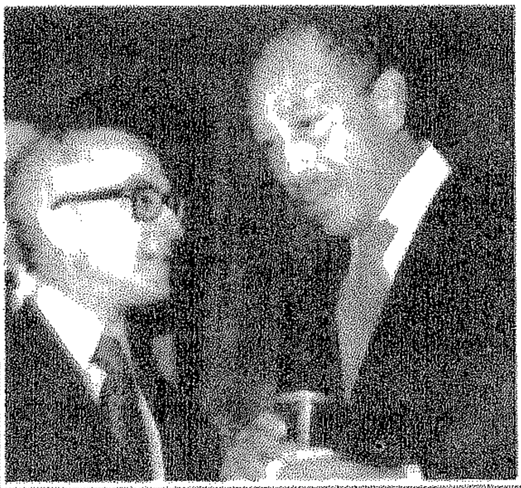

أشرف غربال مع السادات

مصر وأمريكا بين ناصر والسادات من المعاندة إلى المسالمة !!

بقلم
د.عاصم الدسوقى

تظل علاقات مصر بأمريكا زمن عبدالناصر وزمن السادات ضمن الملفات الغامضة فى تاريخ مصر السياسى منذ صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. فكثيرا ما كتب خصوم عبدالناصر ورددوا أنه قام بانقلاب لحساب الولايات المتحدة الأمريكية !!.. واستندوا فى هذا إلى أنه كلف كلاً من قائد الجناح

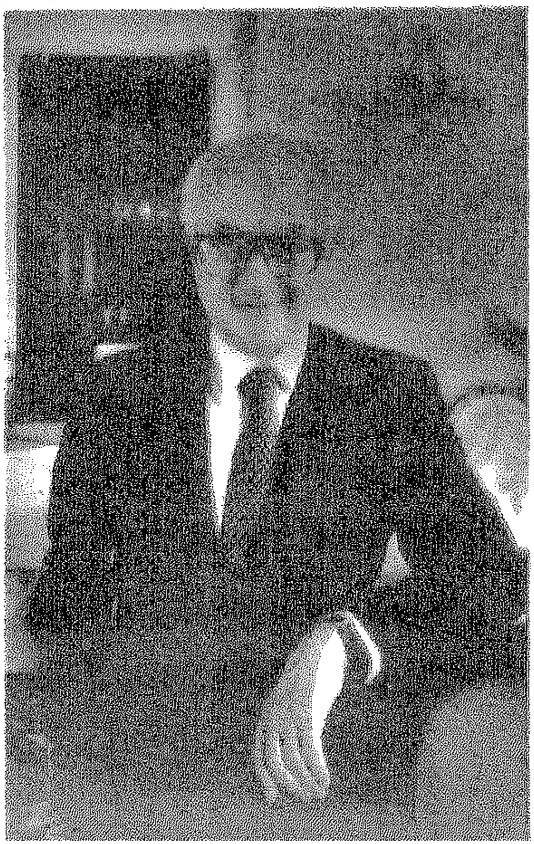

أشرف غربال

عبد الناصر

غلاف مذكرات
أشرف غربال

ربيع كيسنجر

على صبري والقائمقام عبدالمنعم أمين بإبلاغ السفارة الأمريكية بأن حركة الضباط أمر داخلى وأن التزامات مصر الدولية محل احترامهم، وما كان من قيام السكرتير الأول بالسفارة الأمريكية «جوزيف سباركس» بإبلاغ اللواء محمد نجيب تقدير وزير خارجية أمريكا لحركة الجيش، ثم إعلان الرئيس ترومان اعتراف حكومته بحركة الجيش. فلما بدأت أزمة العلاقات بسبب موقف الحكومة الأمريكية من تسليح مصر وبناء السد العالى وتأميم القناة وقضية فلسطين، والصراع مع إسرائيل وتصدى عبدالناصر للسياسة الأمريكية وفضح موالاتها لإسرائيل علنا، تراجع هؤلاء الخصوم عن هذا الاتهام ولكنهم أبوا أن يمتدحوا الرجل حتى لمجرد شجاعة المواجهة.

ومع هذا تبقى أسرار انهيار علاقات عبدالناصر بأمريكا وتحسنها أيام السادات حبيسة الوثائق التى لم يكشف عنها بعد، أو تلك التى لاتزال حبيسة صدور شهودها حسب موقع كل منهم فى دائرة المسئولية. ومن الذين أباحوا بمكنون صدورهم أخيرا أشرف غربال، الذى قدر له أن يرأس بعثة رعاية المصالح المصرية فى واشنطون بعد قطع العلاقات بين البلدين بسبب حرب يونيه، حيث أمضى هناك سبعة عشر عاما «من ٦ يناير ١٩٦٨ تاريخ وصوله واشنطون حتى ديسمبر ١٩٧١ ثم من ٦ ديسمبر ١٩٧٣ بعد حرب أكتوبر وحتى نوفمبر ١٩٨٤»، أى أنه كان شاهدا على تطور العلاقات المصرية الأمريكية بكل تداعياتها من أزمات وانفراجات، وعاصر خلالها خمسة رؤساء لأمريكا «جونسون، ونكسون، وجيرالد فورد، وكارتر، وريجان»، وهذا هو موضوع المذكرات التى نشرت فى مطلع هذا العام «٢٠٠٤».

ولكن قبل أن نمضى مع أشرف غربال فى أجواء الاتصالات السرية وخفايا العلاقات كما شاهدها، لابد من إطلالة سريعة على أبعاد تلك العلاقات منذ قيام الثورة حتى يمكن متابعة أسباب الأزمة مع عبدالناصر ، وعوامل تحسن العلاقات أيام السادات، إذ لا شىء ينشأ من فراغ..!!

فور قيام الثورة أعربت الخارجية الأمريكية عن أملها فى أن يقبل محمد نجيب إقامة صلة ما بمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط التى كانت محل ترتيب أمريكى - بريطانى منذ منتصف عام ١٩٥١، وفى هذه الحالة يحصل الجيش المصرى على أسلحة وعتاد وذخيرة أفضل. ولأن بريطانيا كانت قد أوقفت شحن السلاح مع الأمريكان فى مشروع هذه المنظمة مقابل الحصول على معونات اقتصادية وعسكرية. وفى أواخر أكتوبر ١٩٥٢ حضر كيرمت روزفلت رجل المخابرات الأمريكية إلى القاهرة وعرض على عبدالناصر مشروع المنظمة وكذا الاعتراف بإسرائيل مقابل السلاح، لكن عبدالناصر طلب فصل بعضها عن بعض مع تأجيل مسألة إسرائيل.

معارضة مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط

وكرر عبدالناصر طلب السلاح دون ربط شحنه بموضوع الدفاع عن الشرق الأوسط والاعتراف بإسرائيل، لكن بريطانيا بضغط من إسرائيل نجحت فى إقناع أمريكا بأن جلاءها عن مصر ينبغى أن يتوقف على انضمام مصر لمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط. ومن هنا جاء وزير خارجية أمريكا «جون فوستر دالاس» إلى القاهرة فى ١١ مايو ١٩٥٣ ومعه مشروع المنظمة وكذا تحقيق مصالحة بين مصر وإسرائيل، وربط تقديم السلاح والمعونات الاقتصادية بهذين الشرطين. لكن عبدالناصر ظل يعارض هذا المشروع بعناد ملحوظ بل لقد صرح فى ١٩ ابريل ١٩٥٤ بأن رفض أمريكا امداد مصر بالأسلحة قد يضطره إلى الاتصال بالسوفييت، كما أعلن فى ٥

سبتمبر ١٩٥٤ «أن مصر ضد الاستعمار الغربى وضد السيطرة الشيوعية ولن تحكم من لندن ولا من موسكو بل من القاهرة وبأيدى أبنائها».

غير أن أمريكا مضت فى طريق إنشاء منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط باسم حلف بغداد «٢٤ فبراير ١٩٥٥»، وبعد اعلانه بأربعة أيام هاجمت إسرائيل قطاع غزة برغم هدنة رودس «فبراير ١٩٤٩»، وبدا أن الغرض من الهجوم اكراه مصر على الانضواء تحت لواء الحلف.

وعلى هذا بدأت سحب الأزمة تتجمع فى أفق العلاقات إذ كرر ناصر طلب توريد السلاح وتقديم المساعدات الاقتصادية وتمويل بناء السد العالى دون شروط سياسية، وأصرت الحكومة الأمريكية على شروطها. وزاد من الأزمة انتقاد ناصر لمشروع أيزنهاور «يناير ١٩٥٧» المعروف بالفراغ فى الشرق الأوسط، وإعلان الوحدة بين مصر وسوريا، ثم مساندة مصر لثورة اليمن «سبتمبر ١٩٦٢»، وقرر الرئيس جونسون أن تكون اليمن مصيدة لعبدالناصر. وعلى هذا بدأت الحكومة الأمريكية فى ممارسة كل أنواع العقاب على مصر حتى يتخلى عبدالناصر عن مشروعاته، ومن البدايات فى ذلك المنهج عدم تجديد اتفاقيات شراء المواد الغذائية التى كانت سارية المفعول حتى ٣٠ يونيو ١٩٦٦، وتحريض الشركات الأمريكية على عدم تمويل مشروعات التنمية فى مصر وكانت شركة آلكو Alco تفكر فى تمويل إنشاء مصنعين للأسمدة فى مصر «مايو ١٩٦٦». ثم يقع عدوان يونيه ١٩٦٧ وتقطع مصر علاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية لمساندتها إسرائيل.

أمريكا والتدخل فى شئون العرب

كان عدوان يونيه فرصة للحكومة الأمريكية للتدخل فى شئون العالم العربى حسب موازين الحرب الباردة وفى ضوء التحالف الأمريكى - الإسرائيلى فى ١٩٥١. ورغم قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين إلا أن الاتصالات السياسية ظلت قائمة عن طريق قنوات سرية، فقد كان عبدالناصر يرى أن الولايات المتحدة دولة عظمى لا يمكن الاستغناء عنها وفى الوقت نفسه لم يكن يريد التضحية بالسوفييت بعد الخدمات الأساسية التى قدموها. وقد استخدم عبدالناصر فى قناة الاتصال السرية كل من علوى حافظ وحسن صبرى الخولى، واستخدم الأمريكان عدة شخصيات منها يوجين بلاك وجون ماكلوى «البنك الدولى للإنشاء والتعمير»، ورووبرت آندرسون «وزير الزراعة»، وديفيد روكفلر «رئيس بنك تشيز منهاتن»، ومايلز كوبلاند وكيرمت روزفلت رجلا المخابرات السابقين، ورجل الأعمال جيمس بيرتزول الذى لم يحسن نقل الكلام بحذافيره فتم الاستغناء عن خدماته.

وكانت خلاصة هذه الاتصالات السرية أن الحكومة الأمريكية «رئاسة جونسون ونكسون» كانت تتمسك بإقامة سلام كامل بين مصر وإسرائيل عن طريق مفاوضات مباشرة، وإنهاء حالة الحرب رسميا، وانسحاب إسرائيل من أراضى مصر فقط مع وجود دولى فى شرم الشيخ، وتفهم متبادل حول مستوى

التسليح فى منطقة الحدود، وإيجاد حل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين على أساس اختيار كل لاجىء بشكل شخصى وسرى المكان الذى يفضل أن يعيش فيه وتكون العودة لإسرائيل «عرب ١٩٤٨» أحد الاختيارات المحتملة.

إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل

أما عبدالناصر فكان يوافق على إنهاء حالة الحرب وليس إقامة سلام، وأنه لا يمكن أن تبدأ مباحثات إلا بعد أن تلتزم إسرائيل سلفا بالانسحاب الكامل من الأراضى التى احتلتها، كما ربط مرور إسرائيل بقناة السويس بحل مشكلة اللاجئين. وبالنسبة لحجم السلاح على الحدود فلم يوافق على تجريد كل سيناء من السلاح، وأن أبدى استعداده لنزع سلاح منطقة الحدود المشتركة على الجانبين بدرجة واحدة من حيث الطول والعمق الداخلى.

ومع ثبات موقف الطرفين من المشكلات القائمة وتناقض كل منهما بطبيعة الحال اقتنع عبدالناصر بعبثية انتظار الحل السياسى للوضع وأنه لابديل عن الحرب. ومن ثم بدأت حرب الاستنزاف بأول طلقة فى الثامن من سبتمبر ١٩٦٨ عبر قناة السويس. وفى اليوم نفسه قررت أمريكا تزويد إسرائيل بطائرات F4، ولم تعد تعترض على احتلال إسرائيل للأراضى العربية. وكان ما يزعج أمريكا فى هذا الخصوص قيام الاتحاد السوفييتى بتسليح مصر حتى لقد قال جونسون للرئيس السوفييتى كاسجين: دع العرب يقاتلون إسرائيل بقبضة يدهم. وبعده كان نكسون يقول إنه لولا إعادة تسليح السوفييت للعرب ما كانت هناك مشكلة تستدعى قلق أمريكا.

بين كيسنجر وروجرز

ولقد أكدت مثل هذه الأقوال أن الإدارة الأمريكية تنظر إلى مشكلة الصراع العربى - الإسرائيلى من زاوية العلاقات الأمريكية - السوفييتية، وتجاهل قضايا الأرض المحتلة واللاجئين المشردين، واختزال المسألة فى تسليح السوفييت للعرب الذين يكرهون إسرائيل، بل لقد استقر ذهن الإدارة الأمريكية أن قرار مصر أصبح فى يد السوفييت!! .. وكان كيسنجر مستشار الأمن القومى فى عهد نكسون يعبر عن هذا الاتجاه على حين كان وليم روجرز وزير الخارجية يعمل على الإبقاء على العلاقات الودية قدر الإمكان مع العالم العربى. ومن هنا كان كيسنجر على غير وفاق مع روجرز، وكان يدفع بالسياسة الأمريكية لصالح إسرائيل حتى أنه عندما تقدم روجرز بمشروعه (١٩٦٩) الخاص بوقف إطلاق النار وقبله ناصر ورفضته إسرائيل لم يفكر نكسون فى تأييد وزير خارجيته وتركه نهبا لهجوم الدوائر الصهيونية.

وفى النهاية انتصر خط كيسنجر خاصة بعد أن أصبح وزير الخارجية، وكان ذلك يعنى نجاح الدوائر الصهيونية التى ينتمى لها بشكل أو بآخر فى توجيه السياسة الأمريكية، وهو أمر لفت نظر أشرف غربال حيث اهتم بإبراز تغلغل العناصر الصهيونية فى كافة الإدارات الأمريكية.. فمستشار جونسون للأمن القومى والتر روستو وأخوه يوجين مساعد وزير الخارجية من أعتى العناصر

الصهيونية، وكذا آرثر جولدبرج المندوب الدائم فى مجلس الأمن، وريتشارد هولز مدير عام وكالة المخابرات الأمريكية. وكانت هذه العناصر تعمل على التخلص من أى مسئول يبدى تقديره لوجهة نظر العرب، ومن ذلك إقصاء روبرت برنجر مساعد وزير الدفاع لشئون الشرق الأوسط الذى اعترض على اشتراك ضابطين إسرائيليين فى اجتماعات تعقد فى البنتاجون، ووليام سكرانتون حاكم بنسلفانيا الذى اختاره نكسون مبعوثا خاصا للشرق الأوسط، لمجرد أنه صرح بأن الإدارة الأمريكية ستكون أكثر توازنا عما مضى بالنسبة للشرق الأوسط، وأيضا ويليام فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ بسبب تصريحه عن خطر اللوبى الصهيونى، حيث أسقطوه فى الانتخابات، وكذلك فعلوا مع السيناتور تشارلز بيرس وبول فندلى عضو الكونجرس عن ولاية اللينوى. ولما صرح جيرالد فورد الذى خلف نكسون بأن أمريكا ستعيد تقييم سياستها فى المنطقة، تصدى له اللوبى الصهيونى فتراجع عن تصريحه. وفى هذا الخصوص تذكر أشرف غربال أن صديقه ريتشارد باركر رئيس قسم مصر بالخارجية قال له يوما إن استمرار السياسة وليس تغييرها فلسفة أمريكية صعب التراجع عنها. وهذا يعنى فى التحليل الأخير أن الحكومة الأمريكية تتمسك بسياساتها، وتعمل على تنفيذها بمختلف الطرق والوسائل مهما طال الزمن، ولا يمكن أن تتراجع مهما بدا للآخرين أنها تتراجع.

المفاوضات للحل الشامل

وهكذا.. لما تولى السادات الحكم خلفا لعبدالناصر لم تغير الحكومة الأمريكية توجهاتها بل لقد كان رأيها حتى أغسطس ١٩٧٣ الذى أبلغته للسادات عن طريق إيران أن الحل الجزئى مع انسحاب أيا كان مداه أفضل من بقاء الوضع على ما هو عليه. كما أبلغته عن طريق رومانيا أن الحل الشامل يكمن فى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل على أن تحرر مصر نفسها من قيود المشكلة الفلسطينية.

وفى تلك الأثناء كان أشرف غربال قد ترك واشنطون فى ديسمبر ١٩٧١ وأصبح مساعدا لمستشار الأمن القومى «حافظ إسماعيل» ثم اختاره السادات مستشارا صحفيا وأصبح ضمن الدائرة القريبة التى شهدت الإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣. ويبدو من سياق الحوادث كما يسوقها غربال فى مذكراته أنه قام بدور مهم فى صياغة موقف السادات تجاه الحرب وتجاه التسوية السياسية للصراع مع إسرائيل. فقبل بدء عمليات أكتوبر بأسبوع وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ دعا السادات لاجتماع فى بيته بالجيزة حضره خمسة عشر واحدا من كبار المسئولين بينهم أشرف غربال فيما يعتبر مجلس الأمن القومى الموسع.

وفى هذا الاجتماع قال السادات إن القيام بعمليات عسكرية من شأنه أن يحرك القضية وتكون بمثابة دقات إنذار تشعر إسرائيل وأمريكا بأن موقفنا جدى فى تحرير الأرض. وفى هذا الاجتماع قال أشرف غربال العائد من واشنطون بعد خمس سنوات هناك «إن الحرب ستكون قصيرة المدى، إذ أن الدولتين

العظميين لن تتركا الوضع يتفاقم بين الطرفين وستعملان على حصرها فى حدود (ص ٩١).. وأنه فى حالة قيام الحرب ستكون لتحرير أراض محتلة وليس الأراضى المحتلة لأن الخط الذى ستصل إليه القوات المصرية سيكون هو الخط الذى تبدأ عنده المفاوضات سواء كان على حسابنا أم على حساب العدو (ص ٩٢).

ويلاحظ أن أشرف غربال هو الوحيد الذى تكلم فى هذا الخط الاستراتيجى على حين كانت مشاركة الآخرين مشاركة مقتضبة تأكيدا على ما يقوله السادات. كما يلاحظ أن خمسة أعضاء من بين الخمسة عشر لم يتكلموا على الإطلاق وهم: حسين الشافعى، وعبدالعزيز حجازى، وسيد مرعى، وحافظ إسماعيل، وعبد القادر حاتم. وأكثر من هذا فإن أشرف غربال قبل أن يعود إلى مصر فى نهاية ١٩٧١ كان قد بلور فكرته بشأن الصراع العربى - الإسرائيلى بضرورة القيام بإجراء عسكرى يجعل إسرائيل تفيق من غطرستها ويجعل الولايات المتحدة تفيق إلى مسئولياتها غن سلام المنطقة (ص ٧١).

الحرب لتحريك القضية

وعبرت القوات المصرية قناة السويس واقتحمت خط بارليف وتحقق ما اقترحه غربال من تحريك القضية، إذ اندفع كيسنجر للتدخل فى إطار فلسفة التوازن وانتهى الأمر كما هو معروف بمباحثات كامب ديفيد وعقد اتفاقية مارس ١٩٧٩. ولقد رأى غربال فى مسار التسوية السياسية للصراع نجاحا للسادات، وبدا سعيدا فى نهاية مذكراته لأن «مصر المسالمة نجحت فى جذب العرب نحو صداقة أوسع مع الولايات المتحدة، وبدء عملية التطبيع حتى قبل أن تلتزم إسرائيل بإقامة سلام مع الفلسطينيين فى مدريد، ثم يعرب عن أمله فى نهاية المذكرات بأن يسرى على الجولان ما حدث فى سيناء.

والحق أن تحليل أشرف غربال للعلاقات المصرية الأمريكية والنتائج التى انتهت إليها وإدارة الحرب والتسوية السياسية يختلف فى نقاط جوهرية عما أورده آخرون من معلومات ووجهات نظر على سبيل المثال ما ذكره محمد إبراهيم كامل فى كتابه «السلام الضائع»، وعبدالمنعم واصل قائد الجيش الثالث فى مذكراته، ووالتر بوين فى كتابه «حرب الساعة الثانية»، وكتابات هيكل من قبل وأبرزها كتابه «أكتوبر السلاح والسياسة». وكان غربال قد لاحظ بعد عودته من أمريكا فى المرة الأولى أن هيكل قريب من تفكير السادات، وأن الخلاف الذى حدث بين الرجلين يرجع فى تقدير غربال إلى أن هيكل شعر بأن السادات أبدى استعداده للمضى فى طريق كيسنجر بعكس أفكار هيكل (ص ١٨٧).

وتبقى الحقيقة الكاملة ضالة الباحث الذى يسعى إليها وإن كان البحث عن الحقيقة فى كثير من القضايا كمن يبحث عن القط الأسود فى الحجرة الظلماء!!.■

نشأة الإمبراطورية

بقلم
مصطفى الحسينى

لا تعدو السياسة الخارجية الأمريكية الجارية، التى تتصف بعدوانية استفزازية، أن تكون تطبيقا للمبادئ التى قامت عليها تلك السياسة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

لا يعنى هذا أنه «ليس تحت الشمس جديد». القصد هو التنبيه إلى أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تنفرد بسمة لم تتوافر لدولة أخرى فى التاريخ، تلك السمة هى أن أسسها، أى المبادئ التى توجهها، كانت موضوعاً لصياغة واضحة واعية منذ أن فرض التطور الداخلي لتلك الدولة أن تكون لها سياسة خارجية، بما تعنيه من نظرة إلى الذات تنبنى عليها مواقف حيال العالم خارجها : حقائقه ووقائعه وقواه، وتتميز بأنها تنظر إلى عناصر العالم الذى تراه من موقعها فيه وموضعها من تاريخه، باعتبارها ثوابت - تعرض لها أو تعتريها التغيرات بل قد تجتاح بعض مظاهرها - لكنها تبقى فى نهاية المطاف: ثوابت.

لم تعرف قوة كبيرة أخرى فى التاريخ المدون سمة مثل تلك السمة، لا الإمبراطورية الرومانية ولا إمبراطوريه الإسكندر المقدونى، فى العصور القديمة، ولا الإمبراطورية البريطانية ولا الإمبراطورية الفرنسية ولا الإمبراطورية الروسية، فى طوريها - القيصرى والشيوعى، فى العصور الحديثة.

قامت تلك الإمبراطوريات السابقة فى التاريخ على الإمبراطورية الأمريكية على ما يمكن وصفه بأنه «تفاعل القوة والفرصة» دون تصميم يسبق ظهور الفرصة، ناهيك عن خلقها، ودون مبدئ مرشد أو موجه .

لعل مرجع تلك السمة التى انفردت بها الإمبراطورية الأمريكية هو النشأة الفريدة لتلك الدولة، فهى الدولة الوحيدة فيما نعرف من تاريخ التى جرى تصميمها باعتبارها «مشروعا»، جرت مناقشة أسسه ووجهة تطوره ونموه مناقشة مصممة بين أطراف «نخبة» تعتبر نفسها «صاحبة المشروع»، أطراف لكل منها منطلقاته وتصوره لمصالحه ضمنه، تختلف المنطلقات والمصالح وتصوراتها، لكنها تتبادل الاعتراف بحق كل منها فى أن يؤثر فى بنائه وآليات حركته حسب وزن مصالحه وكفاءته فى التعبير عنها، ما يوصف عادة بأنه قوة الحجة أو ضعفها .

غنى عن الذكر أنه كانت هناك أطراف مستبعدة من تلك النخبة التى دار بينها جدل حول تصميم «المشروع الأمريكى»، رغم أنهم كانوا موجودين على الأرض، ولهم مصالح جديرة برعاية المشروع، بحكم كونهم بالضرورة قوة يعتمد عليها فى بنائه، أبرز تلك الأطراف هم «العبيد» الذين جلبوا من أفريقيا، وكانت قوتهم البدنية - وكما سيرى التاريخ فى ما بعد - وقواهم الإبداعة أيضا من قبل تحررهم والاعتراف لهم بأى حقوق - من أهم مصادر الطاقة التى اعتمد عليها «المشروع» .

إن القارئ للتاريخ الأمريكى، سيلفت نظره، دون ريب، ذلك الجدل الذى دار فى أوساط تلك النخبة التى أقامت «المشروع الأمريكى»، والذى اتخذ أشكالا متعددة، بعضها لايخلو من جدة وطرافة، لم يقتصر الجدل على الخطابة التى ترمى إلى تحريك «العامة» فى تجمعات ومظاهرات توجه للقيام بأعمال يحرضهم عليها الخطباء، ولم تكن هناك، بعد انتصار الثورة محاكمات تنتهى بالإعدام تحت حد المقصلة، كما حدث فى الثورة الفرنسية. ولم تكن هناك مذابح تشهدها الكنائس وملوك يقتلون

روزفلت

كيندي

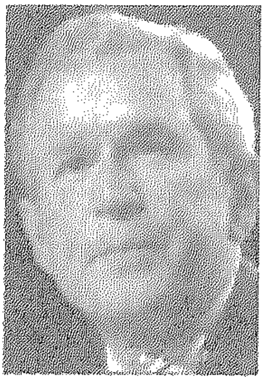

بوش

داخل قصورهم كما جرى فى الثورة «الديمقراطية» الإنجليزية .

على خلاف هذه وتلك، كان ما دار حول صياغة المشروع الأمريكى من جدل، «جدلا» لا يتجاوز قواعد الجدل وحدوده، لأن أطرافه كانوا يدركون مصلحتهم كشركاء، وأن لا مصلحة لأى منهم أن يفيض الجدل إلى الهوامش، أي الجماعات التى استبعدت عن وعى وعن قصد، ناهيك أن يخرج عن مقتضيات صفته باعتباره جدلا بين شركاء .

لذلك أدى ذلك الجدل إلى تسوية كبرى بين أطرافه مازالت قائمة ومرعية وفعالة:

رؤى المثاليين توفر غلافا لمصالح الواقعيين الطموحين الطماعين.

تلك التسوية هى ما أنتج «المشروع الأمريكى» كما نشهده اليوم، هى ما أنتج الدستور الأمريكى الفريد فى المبدأ الذى يسترشد به، حيث يختلف المبدأ الديمقراطى الأمريكى عن نظيره الأوروبى الذى صاغته الثورتان الإنجليزية والفرنسية : فبينما يقوم المبدآن على التمايز بين الأغلبية والأقلية، يركز المبدأ الأوروبى على حقوق الأغلبية ويركز نظيره الأمريكى على مسئولية الأغلبية عن حقوق الأقلية . مع التسليم بأن مرجع القياس لكل منهما هو الشركاء فى «المشروع» دون المستبعدين منه ، فى الحال والاستقبال.

ذلك الجدل هو أيضا ما أنتج الأسس التى قام عليها بناء القوة الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية، رغم أنها صيغت وأعلنت فى العام

١٧٩١، عندما توجه أول وزير للخزانة في تاريخها إلى البرلمان (الكونجرس) بـ «تقرير عن الصناعات» قال فى مقدمته إنه «وجه اهتمامه إلى موضوع الصناعات، وعلى وجه الخصوص إلى وسائل تطويرها على نحو يجعل الولايات المتحدة غير معتمدة على الدول الأجنبية فى الإمدادات العسكرية وغيرها (وأن) كل دولة تتطلع إلى تلك الأغراض العظمى عليها أن تسعى أن تمتلك فى داخلها أساسيات الإمداد الوطنى جميعا والتى تشمل مواد الإعاشة والسكن والكساء والدفاع».

ومازالت تلك الأسس قائمة ومرعية حتى اليوم، رغم أن الولايات المتحدة أضحت على قدر من القوة غير مسبوق فى تاريخ الأمم، يجعلها قادرة على الحصول على ما تريد أو تشاء من خارجها دون عناء. ورغم ما تكرره واشنطن كل يوم عن «حرية التجارة» ودفاعها المستميت عنها.

★★★

يمكن القول إن السياسة الخارجية الأمريكية التى تستحق هذا التعريف قد تأسست فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

قبل ذلك التاريخ كانت السياسة الخارجية الأمريكية، إن جاز أن توصف على هذا النحو تكاد تكون محصورة فى أمور ثلاثة :

١ - «اتقاء شر» بريطانيا التى كانت القوة الدولية الأولى وصاحبة السيادة السابقة على المستعمرات الأمريكية التى استقلت عنها وشكلت نواة الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ - تجنب الانغماس فى الصراعات الأوروبية طالما بقيت أوروبا بمنجاة عن الوقوع تحت السيطرة المنفردة لواحدة من دولها .

يرجع هذان العنصران إلى ما استخلصه «الآباء المؤسسون» من دروس» حرب الاستقلال «عن بريطانيا، إذ لولا الصراع البريطانى الفرنسى ما انتصرت «قوات الاتحاد» على القوات البريطانية، حيث فرضت فرنسا حصارا على بحر الشمال أدى إلى انقطاع الإمدادات عن القوات البريطانية غرب الأطلسى .

٣ - التعاون مع القوى البحرية الأخرى فى مقاومة القرصنة لحماية طرق التجارة وهو ما قادها إلى عقد معاهدات مع بلاد بعيدة مثل المملكة المغربية وسلطنة عمان.

فى أواخر القرن التاسع عشر تفتحت عيون الولايات المتحدة على أن اقتصادها بلغ حدا من التخمة يهدد عجلاته بالتوقف عن الدوران، إذ

أصبحت المنتجات الاقتصادية مهددة بالكساد وانهيار القيمة مالم تتوسع السوق. كانت السوق الداخلية قد بلغت حد التشبع. ولم يكن واردا عند النخبة التى وضعت أسس الدولة وتوارثت إدارتها توسيع تلك السوق داخليا بإدخال فئات اجتماعية أخرى دائرة مستوى أعلى من الاستهلاك، لأن من شأن ذلك تغيير التوازن الاجتماعى وإدخال شركاء جدد غير مرغوب فيهم إلى «المشروع».

لم يكن من حل لأزمة تخمة الإنتاج فى الاقتصاد الأمريكى سوى التوسع الخارجى. فى ذلك يبدو واضحا الفرق بين الدافع إلى التوسع فى الحالة الاستعمارية الأوروبية وبين نظيرتها الأمريكية .

فى الحالة الأوروبية كان الافتقار إلى ما يحتاجه الاقتصاد من المواد الخام والحاجة إلى تخفيف ضغط التزايد السكانى بتصدير «الفائض» إلى المستعمرات، هما الدافع إلى التوسع الخارجى . بينما فى الحالة الأمريكية، كان الدافع الأساسى هو الحاجة إلى تصدير المنتجات إلى أسواق «مضمونة حصريا»، من بلد غنى بالمواد الأولية مازال «يستورد» سكانه .

لكن كان من شأن حل أزمة تخمة الإنتاج بالتوسع الخارجى أن يواجه عقبة وأن يقع فى مفارقة .

العقبة هى مدى استعداد القوى الدولية المستقرة والمسيطرة لقبول شريك جديد فى الغنائم الاستعمارية، فى وقت لم تكن الإمبراطوريتان القويتان: البريطانية والفرنسية تقران للولايات المتحدة بصفة القوة الدولية .

أما المفارقة فكانت فى ما أشاعته النخبة - الآباء المؤسسون - من مثل عليا تتميز بها «أول ديمقراطية فى التاريخ» فى صدارة تلك المثل أن ليس من أخلاقها أن تستولى على بلاد أخرى وتحكم شعوبا أخرى .

(فى ذلك الزمن لم يكن أحد يلتفت إلى التناقض بين تلك الادعاءات وبين واقع الاعتماد على الرقيق كوقود للاقتصاد، مثلما لم تجد الجمهورية التى أقامتها الثورة الفرنسية تناقضا بين «الحرية والإخاء والمساواة» فى الداخل والاستعمار فى الخارج) .

فى الحالة الأمريكية فى ختام القرن التاسع عشر، وفرت التسوية الكبرى التى توصل إليها «الآباء المؤسسون» قبل قرن من الزمان سبيلا للتغلب على العقبة وحل المفارقة معا، ستكون المثاليات غلافا للمطامع .

★★★

فى ١٨٩٨ كانت فى كوبا ثورة

للاستقلال عن الإمبراطورية الإسبانية، وكانت كوبا على درجة من القرب من الأراضى أمريكية لاتستطيع ضمائر المثاليين الأمريكيين معها السكوت عن معاناة الكوبيين .

هكذا بدأت مؤسسات أهلية أمريكية تقديم «المعونات الإنسانية» للكوبيين، تحملها سفن إلى شواطئ الجزيرة .

فى سياق تلك العملية الإنسانية، احترقت فى ميناء كوبى سفينة من تلك السفن، وسرعان ما اتهمت دوائر أمريكية إسبانيا بتدبير الحريق لتنطلق الأصوات الداعية إلى الرد على «العدوان الإسبانى» لم يطل الوقت بالحكومة الأمريكية برئاسة ويليام ماكنلى (الذى استخار الرب قبل أن يتخذ قراره) حتى أرسلت أسطولها لتأديب إسبانيا وطردها من كوبا وتحرير شعبها من ربقة استعمارها. وما أسرع ما احتلت القوات الأمريكية الجزيرة التى ذهبت لتحريرها. وكان أول أعمالها تصفية قيادة الثورة التى تدخلت لمناصرتها .

ومن كوبا انطلق الأسطول الأمريكى يطارد الأساطيل الإسبانية عبر المحيط الهادئ من أقصى غربه على مشارف البحر الكاريبى إلى أقصى شرقه، حيث تتداخل مياهه مع مياه بحر الصين الجنوبى، وفى طريقه يستولى على الجزر التى كانت تحتلها إسبانيا .

انتهت تلك المطاردة إلى الفلبين التى كانت - مثل كوبا - فى خضم ثورة ضد الاستعمار الإسبانى. ومثل ما حدث فى كوبا، حدث فى الفلبين: التدخل العسكرى لنصرة الثورة ومساعدة شعب الفلبين على تحقيق استقلاله، ثم محاكمة قيادة الثورة بتهمة «التمرد» على القيادة العسكرية الأمريكية واحتلال الفلبين .

ويشير عدد غير قليل من أكثر المؤرخين الأمريكيين رصانة إلى الاشتباه فى أن إحراق سفينة المعونات الإنسانية فى الميناء الكوبى، كان من تدبير بين مؤسس الصحافة الشعبية الأمريكية ويليام راندولف هيرست - الذى كان يروج أن صحفه ليست مجرد وسيلة لنشر الأخبار، بل إنها تصنعها - وبين تيودور روزفلت الذى كان آنذاك نائبا لوزير الأسطول والذى مالبث أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة فى ١٩٠١ بعد اغتيال الرئيس ما كنلى بعد شهور من بدء ولايته الرئاسية الثانية.

هكذا وضع حجر الأساس للإمبراطورية الأمريكية التى لم تصف نفسها بهذا الوصف أبدا وبقيت تتباهى بأنها لم تشارك أبدا فى التاريخ الاستعمارى.

لكن الاستيلاء على الفلبين وضع

الولايات المتحدة الأمريكية على أبواب الصين، حيث سيولد المبدأ الذى تقوم عليه السياسة الخارجية الأمريكية حتى الآن.

وقد عرف ذلك المبدأ باسم «الباب المفتوح» ليبقى أساسا للسياسة الخارجية الأمريكية منذ ذلك التاريخ.

ولعل من مفارقات تطور ذلك المبدأ، أنه عند صياغته كان يرمى إلى تسوية قائمة على المساواة بين الأطراف الدولية «صاحبة المصلحة» فى موقع من المواقع أو فى ظل وضع من الأوضاع. ثم وصل - مع نمو القوة الأمريكية - إلى تفسير مؤداه أن يكون «الباب مفتوحا» أمام الولايات المتحدة وحدها، على نحو ما تحاول الولايات المتحدة الآن تحقيقه فى العراق، عن طريق الادعاء بأن الدول التى عارضت شن الحرب هناك، ليس لها الحق فى المشاركة فى المغانم الاقتصادية المنتظرة من العملية التى تسمى «إعادة إعمار» ذلك البلد .

وستعتبر حصيلة الجدل الدولى الدائر حول هذه المسألة - على نحو ما يجرى حول قرارات الأمم المتحدة الخاصة بمستقبل العراق - إعادة تفسير متفق عليه لذلك المبدأ : «الباب المفتوح». كما ستعتبر مقياسا لمدى نسبية القوة الأمريكية غيرالمسبوقة أو إطلاقها، كما تصورت الولايات المتحدة وهى فى طريقها إلى تلك الحرب .. ■

كلمات عاشت

• لا أدب إلا أدب اللغة الفصحى ، والذين يستخدمون العامية والتعابير العامية ليسوا واقعيين ، وإنما هم عاجزون .

• ليس من الضروري أن ينحط الأدب ليصبح شعبيا ، وليس من الضروري أن يبقى الشعب حيث هو جاهلا غافلا يشقى بالخمول والجمود.

طه حسين

• كل مذهب جديد إنما هو تعبير عن حركة تعم عالم الفكر وتطلب الانطلاق ، فلا تقتصر على فن دون فن .

يحيى حقى

لأن الناس لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الموت والبؤس والجهل ، قرروا ألا يفكروا فيه ، ليعيشوا سعداء.

باسكال

العراق وثورة العشرين

ما أشبه الليلة بالبارحة !

بقلم
سيد أبو زيد عمر

يجمع المؤرخون علي أن ثورة العشرين كانت الأساس الذى بنى على دعائمه كيان العراق الحديث، فهي التى أرست وحدته الوطنية واستقلاله السياسى،وبعثت فى أوصاله فكرة الوحدة العربية، وأيقظت فى حسه الشعبى مشاعر النفور من الاحتلال، ورفض الهيمنة والضيم.

لقد كان العراق منذ أزمنة بعيدة صاحب حضارة زاهرة، ومسرحا لحياة الأنبياء.. يونس ونوح وإبراهيم عليهم السلام، ولم يكن شعبه فى أى وقت إلا شريكا لشعب مصر فى وضع الحروف الأولى لكل العلوم والفنون والقواعد والقوانين، فلم يكن هناك غيرهما يرسيان كتفاً لكتف معالم الإنسانية منذ فجر التاريخ .

لقد وقع الاحتلال البريطاني للعراق، حين غزاه عام ١٩١٤ في نفس الأخطاء التي تكررت من الغزاة والمحتلين لبلادنا عبر العصور، فقد تصوروا أن استخدام أساليب الكذب والخديعة سوف تمكنهم من الالتفاف حول شعوبنا وتخديرها والسيطرة عليها، ولقد وضح من عبر التاريخ أن العنجهية والعنصرية وضحالة المخبر قد أوقعتهم فى شر أعمالهم، واعترف بعض قادتهم بأنهم قد ضللوا أنفسهم لنقص فى معلوماتهم عن السكان وطبائعهم وأمزجتهم وتقاليدهم، فسرعان ما كشفت الشعوب أباطيلهم وخدعهم، وبدلاً من أن يعودوا إلى طريق الصواب، فإنهم يقعون عادة فى الخطأ الأكبر بأن يتصوروا أن الإفراط فى استخدام القوة يمكن أن يكسر إرادة الشعوب وأن ينهى مقاومتها، ولم يدرك الغزاة إلا فى وقت متأخر أن الظلم والعنف والجور إنما تزيد من تماسك هذه الشعوب وصلابتها واندفاعها إلى التضحية والفداء، تصوروا أنهم بمقدورهم استخدام سلاح التفرقة والوقيعة واتباع أساليب الرشوة وشراء الذمم، الا أنه فى النهاية ينقلب السحر على الساحر .

احتلت بريطانيا العراق بقصد إزاحة العثمانيين عن الخليج العربى وحماية منشآت النفط فى المنطقة فقد انزلت قواتها فى الفاو فى سبتمبر ١٩١٤، غير أن هذه القوات لم يتسن لها الاستيلاء على بغداد إلا بعد مرور ثلاث سنوات ونصف حيث واجهت مقاومة عنيفة من القوات التركية والأهالى .

الشريف حسين بن علي

بيانات كاذبة !!

وعلى أثر سقوط بغداد يوم ١١ مارس ١٩١٧، أصدر قائد القوات البريطانية الجنرال ستانلى مود بياناً إلى الأهالى فى بغداد ابتدأه بأن «جيوشنا لم تدخل مدنكم وأرضكم بمنزلة قاهرين أو اعداء بل بمنزلة محررين»، وأن الهدف من ذلك «تأمينهم من الظلم وأن أمنية الحكومة البريطانية هى أن تحقق ما تطمح اليه نفوس فلاسفتهم وكتابهم، ولسوف يسعد أهالى بغداد حالهم ويتمتعون بالغنى المادى

والمالى بفضل أنظمة توافق قوانينهم المقدسة ومطامحهم القومية والفكرية.. ودعوة الأشراف والمتقدمين فى السن وممثليهم إلى الاشتراك فى ادارة مصالحهم».

لقد كان هذا البيان جزءا من السياسات التى اتبعتها بريطانيا فى تعاملها مع العرب عامة والعراق بوجه خاص، والتى أدت بطبيعتها إلى الثورة ضد الاحتلال فى العراق إلى أن تحققت أمانى الثوار فى ذلك الوقت. ويمكن لنا أن نوجز أسباب قيام هذه الثورة فيما يلى :

أولا :

تغلغل الشعور القومى فى نفوس العرب، وتزايد ايمانهم بمبدأ التحرر من الهيمنة الأجنبية، ومن أجل ذلك نشأت «جمعية العهد» عام ١٩١٣، والتى شرع فى تكوينها عزيز على المصرى فى الأستانة كجمعية سياسية سرية تستهدف توحيد صفوف العرب وجميع كلمتهم، وانضم اليها لفيف من العراقيين والسوريين، وتكونت لها فروع فى بغداد والموصل والبصرة والشام وبيروت .

وعندما شعر الوطنيون فى بغداد بضرورة تأليف جمعية سياسية سرية تأخذ على عاتقها انقاذ البلاد من براثن الاحتلال البريطانى قاموا بإنشاء «جمعية حرس الاستقلال» فى نهاية فبراير ١٩١٩، وكانت هذه الجمعية تعقد جلساتها فى أغلب الأحيان برئاسة السيد محمد الصدر، وكان من أهدافها أن تسعى وراء استقلال البلاد العراقية استقلالاً مطلقا وأن يكون أحد أنجال الشريف حسين ملكاً دستورياً ديمقراطيا على العراق، وأن تبذل قصارى جهدها فى سبيل ضم المملكة العراقية إلى البلدان العربية الأخرى الراغبة فى الوحدة، «وأن تبدأ قبل كل شئ بتوحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم، وان تبذل أقصى ما يمكن من الجهود للقضاء على كل بواعث الافتراق فى الدين والمذهب».

ثانيا :

ضرب الحلفاء بوعودهم للشريف حسين عرض الحائط، تلك الوعود التى وردت فى رسائله المتبادلة مع مكماهون، غير أن بريطانيا من جهتها لم تنفذ ما وعدت به الشريف حسين من السماح بإقامة الدولة العربية الكبرى التى تشمل الحجاز وفلسطين والعراق وسوريا، مكافأة له على قيامة بالثورة ضد الدولة التركية، بما سمى بالثورة العربية الكبرى، وعلى العكس من ذلك فقد

تكشف أن وزير الخارجية البريطاني بلفور أصدر وعداً لليهود لإقامة وطنهم القومي عام ١٩١٧، كما أن بريطانيا وفرنسا قد عقدتا اتفاق سيكس / بيكو الذى اقتسمتا فيه مناطق النفوذ فى بلدان كانتا قد وعدتاها بمنحها الاستقلال، واذا بهما يقرران فى ابريل ١٩٢٠ وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ووضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

ثالثاً:

عدم وفاء بريطانيا بما وعدت به، وأكدته فى البلاغ البريطانى الفرنسى فى ٧ نوفمبر ١٩١٨ والذى ينص على : «أن الغاية التى ترمى إليها كل من بريطانيا وفرنسا .. تحرير الشعوب تحريراً تاماً ونهائياً وتأسيس حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من رغبة نفس السكان المحليين ومحض اختيارهم » .

فقد اقتصر ما قدمته للعراقيين فى يناير ١٩١٩ على صيغة المجلس البلدى تحت رعاية بريطانية ويكون من مهامه «التنظيف / الصحة العامة/ اسعاف الفقراء / الطرق / المتنزهات / الأسواق/ الحرف / تخطيط الدور / والتجارة النهرية.

بمعنى ألا يكون للعراقيين أى صلة بشئونهم الدفاعية والخارجية والأمنية والمالية. ومن الطريف أن ترد قوات الاحتلال على اعتراض القوى الوطنية على هذه الصيغة بأن تدريبهم على مبادئ الادارة الحديثة الصحيحة يستغرق وقتاً، ويجب أن يتم بتؤدة، «وأن التسرع يؤدى إلى ارتباك الأمور وتشتت الآراء وفقدان الاتحاد وهو الذى جلب المصائب والرزايا على الممالك الأخرى، كإيران، ولا غرو فى ذلك فإن فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة» (من خطاب الحاكم الملكى العام يوم ٢٩ / ٥ / ١٩١٩)

رابعا :

تزييف إرادة الشعب العراقى، فقد وجدت سلطات الاحتلال انه لا مناص من أن تبدى تجاوباً شكلياً أمام التحرك الشعبى فى مختلف أرجاء العراق الذى اتخذ سبل تقديم الالتماسات والعرائض ووضح آنذاك ميل الأغلبية إلى استقلال العراق فى نطاقه الجغرافى الكامل، وأن تكون حكومته عربية لايشوب توجهاتها أية شائبة، وأن يتولى أحد أنجال الشريف حسين إمارة العراق، على أن يكون مقيداً بمجلس تشريعى وطنى كسائر الأمم المتمدينة، غير أن الكولونيل ولسن قد أبرق إلى حكومته مدعياً بأن الأكثرية فى العراق لاترغب فى تبديل

الحكم القائم وأن الأقلية ترغب فى أمير عربى، بمعنى أنه قد زيف إرادة الشعب العراقى ولم يقدم الصورة الصحيحة لرغباته ومطالبه .

خامساً :

تناقض الأقوال مع الأفعال، إذ أنه رغم اعلان سلطات الاحتلال مراراً أن القوات البريطانية قد جاءت لمحاربة تركيا «ولاتضمر للأهالى سوى كل خير وفلاح»، فقد كانت الممارسات البريطانية من جهة أخرى شديدة الوطأة على السكان من حيث اللجوء إلى العنف، وجمع الطعام عنوة واشغال العقارات دون رغبة مالكيها، واستخدام وسائل النقل، وتقييد حق السفر والتجول، وعدم السماح بنقل المتوفين إلى المراقد المقدسة، وتعالى الموظفين على الأهالى واتباع السياسة الاستعمارية المألوفة من حيث معاملة الناس بخشونة، وإذلال المترددين على مكاتب الادارة وامتهان الكرامات، واحتكار التجارة، حيث يشترون السلع بالبخس ويبيعونها للأهالى بأعلى الأثمان واستعانوا بأسوأ العناصر التى شاركتهم هتك الأعراض والحرمات، «وازعاج العقائل فى خدورهن». «فضلاً عن ارتكاب المنكرات وابتزاز الأموال، وعمت الفوضى بحيث لا يأمن أحد على نفسه مما قد يحدث فى أى وقت من رجال الاحتلال ومعاونيهم .

سادسا :

انتهاء المداولات التى جرت بين رجال الدين فى كربلاء والنجف والكاظمية وسامرا إلى تغليب الرأى الذى يعتقد بأن الإسلام لا يجتمع مع السيطرة الأجنبية تحت صعيد واحد مهما كانت الأحوال، وأنه على كل مسلم أن يستميت فى الدفاع عن نفسه وبلده، فقد نحت أغلبية المجتهدين من العلماء والطلاب، ولاسيما العرب منهم، إلى ضرورة اللجوء إلى الحرب للدفاع عن النفس والعرض .

سابعاً:

فشل سلطات الاحتلال فى كسر النظام القبلى، إذ جاءت محاولات تقليص نفوذ شيوخ العشائر وتعمد إهانتهم والحط من قدرهم بنتائج عكسية ذلك أن أفراد تلك العشائر يعتقدون أن سلطة الشيوخ تكاد تكون سلطة مقدسة، ولذلك ينصاعون إلى أوامرهم دون نقاش ويتفانون فى خدمتهم .

ثامنا :

فرض الضرائب والرسوم التى أثقلت كاهل الجميع، وشروع سلطات الاحتلال فى جمع تبرعات لم تكن اختيارية بأى حال، ولأغراض لا تهم الأهالى كثيرا كبناء الملاجئ للجنود فى بريطانيا، أو

إقامة تمثال للجنرال مود فاتح بغداد (ذلك التمثال الذى حطمته الجماهير العراقية يوم ثورة يوليو ١٩٥٨) .

غبن شديد

إذن لم تكن ثورة العشرين وثبة من فراغ دون أية اسباب أو مقدمات أو انها جاءت بمثابة اندفاع عشوائى دون وعى أو إدراك فقد كانت لها - كما سبق أن أوضحنا - دوافعها المباشرة وغير المباشرة، كما أن المناخ العربى العام كان ملهما وموحياً، فقد ألهبت الثورة العربية فى الحجاز المشاعر القومية، ورفعت الثورة المصرية عام ١٩١٩ لواء الاستقلال والحرية وشعر الوطنيون فى العراق بحجم الغبن الذى ألحق ببلادهم إزاء احتلاله المباشر من قبل القوات البريطانية، فى الوقت الذى أقيمت فيه الحكومة الفيصلية فى الشام .

حاول قادة الثورة فى العراق فى البداية أن تصل مطالبهم إلى سلطات الاحتلال عبر المظاهرات السلمية والاجتماعات المسالمة، وتقديم العرائض وإرسال الرسائل إلى الحكام البريطانيين فى العراق، مؤكدين رغبتهم فى الاستقلال، والمطالبة بعقد مؤتمر يجتمع أعضاؤه فى عاصمة البلاد بغداد، وتكون مهمته تأليف حكومة عربية يرأسها ملك عربى مسلم.

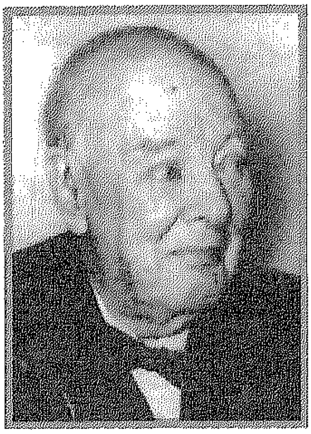

ونستون تشرشل

إن هذا المسلك السلمى والحضارى قد انتهى على يد قادة الاحتلال البريطانى، دعاة الحرية والديمقراطية، إلى اعتقال ونفى قادة الثورة وكان من بينهم الشيخ محمد رضا الحائرى نجل الإمام الحائرى الشيرازى.

كانت الشرارة الأولى للثورة عصر السبت ٣٠ يونيو ١٩٢٠ حين دخل مدينة «الرميثة» عشرة من أبطال الثورة لإنقاذ الشيخ شعلان أبو الجون، الذى كان قد وقع رهن الاعتقال بعد أن رفض تعنيفاً قاسيا من الحاكم البريطاني للواء الديوانية، بل وكان قد رد على ذلك التعنيف بالقول «إن السياسة التى تتمشى أنت وحكومتك عليها ستجر الدولة البريطانية إلى الهاوية حتماً، لا سيما والبلاد تغلى غليان المرجل». فقد قام العشرة المذكورون بإخراج البطل من

سجنه وقتلوا اثنين من الشرطة بسراى الحاكم .

حكومات محلية

واشتعلت الثورة فى أنحاء العراق ، والتى استمرت أكثر من ستة شهور، سيطر الثوار خلالها على أغلب المدن والقرى فيما بين الفرات الأوسط وامتدت جنوباً حتى الناصرية وشمالاً حتى لواءى كركوك وأربيل، وأسس الثوار حكومات محلية فى بعض هذه المدن، كما قطعوا خطوط المواصلات وحاصروا الحاميات البريطانية .

لم يكن لدى العراقيين غير الأسلحة البدائية على حين أن الجيوش البريطانية كانت مجهزة بأحدث الأسلحة والمدافع، ورغم ذلك اضطر البريطانيون إلى الاستعانة بالمزيد من القوات التى جلبت على عجل من الهند، واستخدمت الطائرات والمدرعات لقصف الثوار الذين لم يكن فى أيديهم غير البنادق والسيوف وبعض المدافع الرشاشة التى غنموها من جبهات القتال .

وبلغت خسائر القوات البريطانية والتابعة لها ٢٢٦٩ بين قتيل وأسير وجريح، طبقاً لتقديرات قائد الجيوش البريطانية فى العراق (ايلمرهالدن). وقدرت خسائر العراقيين بحوالى ٨٤٥٠ بين قتيل وجريح .

ويعيد التاريخ نفسه حين يذكر تفاصيل بسالة الرجال فى الفالوجة وبعقوبة وغيرهما من مدن العراق وتضحياتهم بالنفس والنفيس.. وحين يذكر قيام الطائرات البريطانية بقصف مسجد الكوفة وهو غاص بالعباد والنساك من رجال ونساء، ويصدر بلاغ عسكرى بريطانى فى أعقابه يدعى أن «العصاة» الذين يحتمون بالمسجد قد أطلقوا النار على الطائرات البريطانية.. وحين يقف الإمام محمد تقى الحائرى الشيرازى متحفظا فى البداية داعيا إلى النضال السلمى لاقتضاء الحقوق، إلى أن فاض الكيل فأصدر فتواه فى يونيو ١٩٢٠ «بأنه يجوز للعراقيين التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانجليز عن قبول مطالبهم» ، ونأمل أن يقترب اليوم الذى يفيض فيه كيل الأئمة الحاليين.. وحين يشير برسى كوكس المعتمد السامى البريطانى آنذاك إلى الصداقة الراسخة بين بريطانيا والبارزين من الأمراء كشيخ الكويت وأمير نجد وأهميتها لدعم الوجود البريطانى فى العراق ..

ويعيد التاريخ نفسه من جانب آخر حين يستعين الحاكم البريطانى فى كركوك بلفيف من الطالبانيين برئاسة الشيخ حميد لمهاجمة الثوار فى كفرى وتعيينه قائم مقام عليها .

لقد حققت الثورة أهدافها بكل المقاييس، إذا ما وضع فى الاعتبار درجة التطور الاجتماعى فى بلد عربى كالعراق الذى لم يكد يخرج من خيمة الدولة العثمانية، والظروف الدولية المحيطة، فقد كانت بريطانيا فى أوج جبروتها وسيطرتها على أراض تمتد حيث لا تغرب عنها الشمس. رغم ذلك يأبى الشعب العراقى إلا أن يفرض إرادته ويضطر الاحتلال البريطانى إلى أن يبحث عن سبل لاحتواء الموقف .

تصور السيد برسى كوكس أنه يمكن أن يشغل الشعب عن قضية الاستقلال بإقامة حكومة عراقية مؤقتة يرأسها السيد/ عبدالرحمن النقيب ويعاونها مجلس استشارى من شخصيات تمثل العائلات العراقية المعروفة وذلك إلى أن يتم انتخاب مؤتمر عام يقرر شكل الحكومة الدائمة. إلا أن هذا الاجراء وإن طوى صفحة الحكم البريطانى المباشر فقد فتح صفحة الحكم البريطانى المستتر، فقد كانت هذه الحكومة تعمل تحت رئاسة المعتمد البريطانى وتمتثل لأوامره، كما أن سلطاتها اقتصرت على الشئون المدنية تاركة الأمور السيادية كالخارجية والدفاع للسلطات البريطانية. وكانت هذه الحكومة فى النهاية جسرا هزيلا بين الاحتلال والشعب العراقى الثائر، ولم يكن بمقدورها أن تهدئ من ثورته. ولم تجد الحكومة البريطانية فى نهاية المطاف سوى أن ترضخ لمطالب الشعب، ووقع الاختيار على الأمير فصيل لتولى عرش العراق، واصفة الحكومة التى تشكل فى هذا الإطار بأنها دستورية، نيابية، ديمقراطية، مقيدة بالقانون.

وأقيم حفل تتويج الأمير الهاشمى يوم ٢٣ أغسطس ١٩٢١، وهو يحيط به السيد برسى كوكس المعتمد السامى، والجنرال هولدن قائد القوات البريطانية فى العراق وكولونيل كرنواليس المستشار الخاص للأمير، وتضمن خطاب الملك فيصل بمناسبة توليه «ترتيل آيات الشكر للأمة البريطانية.. ولفخامة المندوب السامى .. وللحكومة البريطانية لاعترافها به ملكا للدولة العراقية المستقلة.. وقد صرحت مراراً بأن ما نحتاج إليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها، وبما أن الأمة البريطانية أقرب الأمم لنا وأكثرها غيرة على مصالحنا، فإننا نستمد منها ونستعين بها وحدها...» .

لقد وجد ونستون تشرشل بعد تعيينه وزيراً للمستعمرات فى فبراير ١٩٢١ أن تنصيب حاكم عربى يدين بالولاء ويرتبط

بمعاهدة توضح أوجه التعاون مع بريطانيا، والمساعدة على إقامة جيش وطني ينفق عليه من الخزينة العراقية، أوفر نفقة من الاحتلال المباشر الذى يثير عادة مشاعر السكان. لقد توهم تشرشل أنه قد وجد الصيغة السحرية التي تظل بها العراق تحت الهيمنة البريطانية من خلال الصنائع والأتباع .

ولا غرو إذن أن يواصل هذا الشعب الأبى فى نضاله الدائم نحو الحرية الإستقلال، وأن يثب وثبته الكبرى عام ١٩٤١ ، وأن يقوم فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ بالإطاحة بكل البنيان الملكي والذى كانت بريطانيا قد وضعت أسسه وأركانه. ولا غرو أيضا أن يرفض الشعب العراقى الاحتلال الأمريكى البريطانى فى وقتنا الحاضر مهما كانت الأسباب والدوافع وأن يقف شامخاً كعادته لا يقبل ظلماً أو ضيماً، مباهياً الأمم بحجم ما يمكن أن يقدمه من تضحيات ، وأن يرغم هذه القوى العاتية إلى التراجع بحثاً عن شتى الصيغ والتحايل للخروج من الورطة التي وضعوا أنفسهم فيها .

ولعل هذه مناسبة لكى نترحم على شهداء ثورة العشرين، وشهدائنا فى كل مكان الذين روت دماؤهم الطاهرة أرضنا العربية، وأن نقول لهم فى مثواهم الطيب، إن لهم أن تستقر أرواحهم، ذلك أن أولادهم وأحفادهم مازالوا على العهد يسيرون على نفس الدرب ولن تسقط راية الكرامة والحرية والاستقلال. ■

كلمات عاشت

• أمور من كانت فيه لم يستقم له أمر منها ؛ التواني في العمل ، والتضييع للفرص ، والتصديق لكل مخبر.

من كتاب كليلة ودمنة

• العقل هو نسيج الوجود وجوهر التاريخ ومضمون الواقع.

هيجل

• إن ما يسميه الإنسان فى هذه الدنيا عبقرية ، هو الحاجة إلى الحب ، وكل ما عدا ذلك لا جدوى منه .

ألفريد دي موسيه

كتاب الهلال

سعد زغلول في الأدب المصري

بقلم
مصطفى بيومي

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

يصدر ٥ أغسطس ٢٠٠٤م

روايات الهلال

ربيع حار (رحلة الصبر والصبار)

تأليف
سحر خليفة

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ أغسطس ٢٠٠٤م

رتق ثقب العولمة

وبناء الإمبراطورية الأمريكية

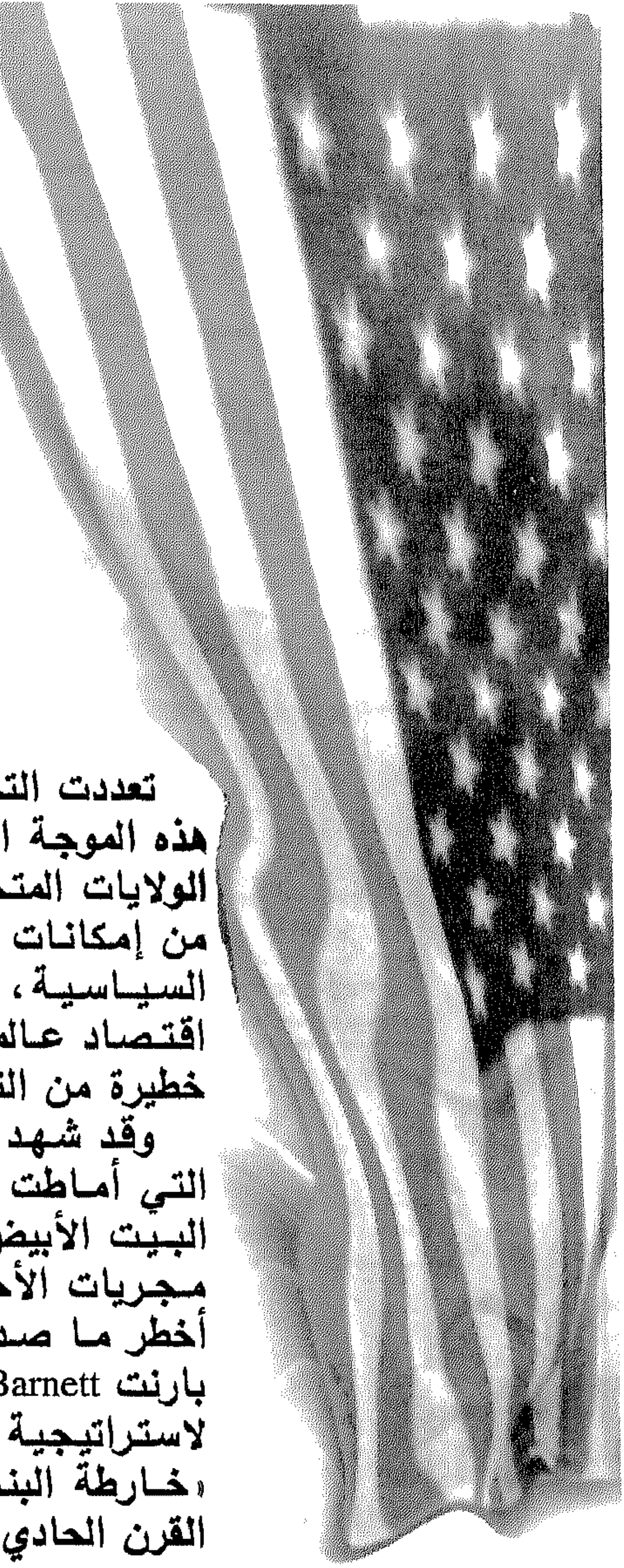

بقلم

د. رءوف عباس

تعددت التحليلات، وتنوعت الاجتهادات في تفسير هذه الموجة العاتية من سياسة الهيمنة التي تتبعها الولايات المتحدة الأمريكية، مستخدمة كل مالديها من إمكانات من القوة العسكرية، إلي الضغوط السياسية، إلي اللعب بورقة الاقتصاد في إطار اقتصاد عالمي يعطيها وضعا مركزيا علي درجة خطيرة من التأثير.

وقد شهد شهر أبريل ٢٠٠٤ صدور بعض الكتب التي أماطت اللثام عن بعض تفاصيل مادار في البيت الأبيض ووزارة الدفاع (البنتاجون) حول مجريات الأحداث بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولكن أخطر ما صدر في ذلك الشهر ذاته كتاب توماس بارنت Thomas Barnett الذي قدم فيه إطارا شاملا لاستراتيجية الامبراطورية الأمريكية حمل عنوان: «خارطة البنتاجون الجديدة: الحرب والسلام في القرن الحادي والعشرين».

وترجع أهمية الكتاب إلى الموقع الخطير الذى يحتله صاحبه فى صناعة القرار الاستراتيچى بوزارة الدفاع الأمريكية، فهو كبير الباحثين فى الاستراتيجية بمركز دراسات الحرب البحرية بكلية البحرية الحربية الأمريكية، واختير منذ نوفمبر ٢٠٠١ حتى الآن للعمل مستشارا للاستراتيچيات المستقبلية بمكتب «تطوير القوات» الملحق بمكتب وزير الدفاع، فهو العقل المفكر

المعاون للأدميرال آرثر سيروفسكى مدير المكتب فيما يتصل بالرابطة بين التغيير فى مجالات الأمن الدولى ومشروع تطوير القوات الأمريكية، كما يعمل توماس بارنت مستشاراً استراتيجيا لبعض الوكالات الفيدرالية المهمة وبعض المؤسسات المالية الكبرى وغيرها من قلاع قطاع الأعمال، بما فى ذلك بورصة الأوراق المالية بوول ستريت.

ونشر عدداً من المقالات عن موضوعات تتصل برؤيته الاستراتيجية فى الأعوام ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٤ بصحف ومجلات مهمة مثل النيويورك تايمز، والواشنطون بوست، والكريستيان سايتس مونيتور، والبروفيداتس جورنال، واسكواير، وجميعها صحف تعبر عن اليمين المحافظ، وتعد منابر للتعبير عن طموحاته وسياساته، كذلك نشر توماس بارنت عشرة أبحاث علمية فى السنوات الأربع الأخيرة بعدد من المجلات المتخصصة فى الدراسات الاستراتيجية تتناول أطرافا من القضايا التى ضمنها كتابه الجديد «خارطة البنتاجون الجديدة: الحرب والسلام فى القرن الحادى والعشرين»، وألقى العديد من المحاضرات منذ العام ٢٠٠٣ على عدد محدود من كبار الموظفين بالإدارة الأمريكية، وكبار ضباط الجيش والبحرية والطيران، ورجال المال والصناعة، وبعض عناصر المفكرين، وقادة الرأى العام من رجال الإعلام، وهى محاضرات عرض فيها الاستراتيجية الجديدة، وتناقش حولها مع الحضور، ولاريب فى أن ترتيب هذه اللقاءات تم عن طريق مكتب وزير الدفاع، لإقناع مختلف دوائر القوة بأهمية الاستراتيجية الجديدة لهم ولبلادهم، واختارته مجلة سكواير ليحتل المركز الثالث بين ٢٥ شخصية اعتبرتهم من «بناة المستقبل» (نوفمبر ٢٠٠٣).

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية تلعب دورا فى صياغة الاستراتيجية الأمريكية الجديدة، وتعبر عنها فليس توماس بارنت مجرد باحث أكاديمى فى مجال الاستراتيجيات المستقبلية، ولكنه مشارك أساسى فى صناعة هذه الاستراتيجية من خلال وضعه بمكتب وزير الدفاع الأمريكى.

القدرة على خوض الحروب

فإذا انتقلنا إلى الكتاب نجده يبدأ بانتقاد مدرسة الاستراتيجية الأمريكية التى ترى العالم من زاوية الدول الكبرى وقوتها العسكرية، وعلاقاتها ببعضها البعض من خلال تلك الزاوية الضيقة، على زعم أن ضبط الأمور من هذه الناحية يضع أوضاع العالم فى نصابها الصحيح، وغلبة هذا الاتجاه على النظرة إلى القوة العسكرية الأمريكية من حيث قدرتها على خوض غمار حروب كبيرة ضد «القوى الكبرى»، والتعامل على هذا الأساس فى القضايا الأمنية على الساحة الدولية فتجمع بين القوة ذات القدرات التكنولوجية العالية، مع توفر القدرة على خوض غمار «حروب صغيرة» أو القيام بعدد من «العمليات العسكرية» فى أى بقعة من العالم، حدث هذا قبل أن تطوى صفحة الحرب الباردة، وظل كذلك بعد سقوط الاتحاد السوفييتى وانفراط عقد حلف وارسو تحسبا لصعود قوة الصين، حتى وقع حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ليدفع

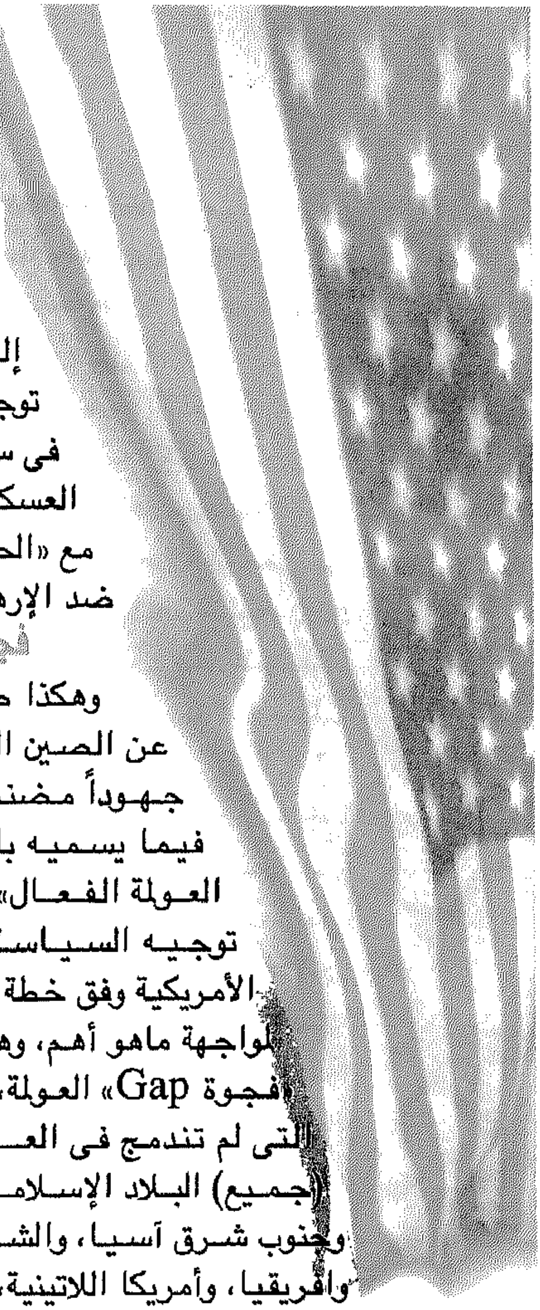

وزارة الدفاع الأمريكية إلى إعادة توجيه «التحول» فى سياستها العسكرية لتتناسب مع «الحرب الكونية» ضد الإرهاب.

فجوة العولمة

وهكذا صرف النظر عن الصين التى تبذل جهوداً مضنية للاندماج فيما يسميه بارنت «مركز العولمة الفعال» وبدأ إعادة توجيه السياسة الدفاعية الأمريكية وفق خطة بعيدة المدى لمواجهة ماهو أهم، وهو ما أسماه «فجوة Gap» العولمة، وهى البلاد التى لم تندمج فى العولمة، وتضم (جميع) البلاد الإسلامية فى وسط وجنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ويشبّه هذه «الفجوة» التى استعصت على العولمة بثقب الأوزون، فهى تمثل «ثقبا كبيرا» فى عصر العولمة، وتعد مراكز للتهديد والإرهاب الدولى، ومن هنا تأتى أهمية «تحول» السياسة الأمنية الأمريكية لخدمة أستراتيجية «رتق» هذا الثقب بتحويل هذه البلاد «المبعثرة» للحاق «بمركز العولمة الفعال»، وعلى أمريكا أن توجه جهودها العسكرية لتضييق هذه «الفجوة» وتصفية الصراعات الإقليمية، وإدماج تلك البلاد فى «العولمة» فإذا تقاعست أمريكا عن القيام بذلك، وانكفأت على شئونها الخاصة، فسوف يتآكل بسرعة وضعها الدولى، وتلقى العولمة مصيرا مؤسفا على يد نحو ثلث سكان العالم فمن يعانون التخلف ويصدرون العنف مما ينعكس سلبيا على الولايات المتحدة ذاتها، ويؤثر على «نمط» حياة الأمريكان، وغيرهم ممن يحتلون «مركز» العولمة، والعمل على تضييق الفجوة بكل السبل لايعنى عنده مواجهة العالم الإسلامى أو غير المسيحى بدوافع دينية «صليبية» أو دوافع «خيرية» إنسانية، ولكن «العمل المباشر» لمعالجة الفجوة ضرورة «أمنية» للولايات المتحدة وللعالم الذى ينشد حياة أفضل يسودها الأمن والسلام.

تضييق فجوة العولمة

ولكنه يرى أن القوة العسكرية لاتكفى وحدها لرتق «ثقب» العولمة أو تضييق «الفجوة» لأن عدو الغرب اليوم ليس «دولا» أو «حكومات» أو «جيوش» بعينها، ولكن الغرب يواجه اليوم منظمات عسكرية كالقاعدة يقودها أفراد يهيمون على وجوههم فى مختلف أرجاء العالم، مستفيدين من الظروف السياسية والاقتصادية المتدنية فى بلاد «الفجوة» وبذلك أصبح لزاما على أمريكا بعد سقوط الاتحاد السوفييتى (امبراطورية الشر) أن تعمل على إسقاط «أنظمة الشر»، وأن تطارد وتصفى «الزعماء الأشرار»، ولابد أن تقترن الاستراتيجية (الدفاعية) الجديدة بعيدة المدى باستراتيچيات أخرى مثل التجارة الدولية، واتجاهات الهجرة والتحكم فى أسواق الطاقة الدولية، وحركة الأموال المتجهة إلى بلاد «الفجوة» على

شكل استثمارات مباشرة أو معونات.

وعلى حين يشيد بارنت بإدارة بوش التى وضعت استراتيجية «التحول العسكرى» لمواكبة المتغيرات الدولية بعد حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فإنه يأخذ عليها عدم التحرك بطريقة فعالة لشرح هذه الاستراتيجية للشعب الأمريكى والحلفاء الأوروبيين لإقناعهم بحقيقة الأوضاع الدولية وخطورة إهمال «فجوة» العولمة على أمن العالم وتهديده لهم من النواحى الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تصاعد الإرهاب، وتدفق المهاجرين إلى بلادهم، مما يؤثر سلبيا على مستوى معيشة شعوب «مركز» العولمة.

الاعتقال لمجرد الشبهة

ويرى المؤلف أن إهمال شرح الاستراتيجية الجديدة للشعب الأمريكى مسئول عن المعارضة التى تلقاها سياسة إدارة بوش، فيما يتعلق بقانون «الوطنية» وماترتب عليه من تضييق على الحريات الشخصية للمواطنين، وتعرضهم للاعتقال بمجرد الشبهة، وما تواجهه سياسة «الضربات الاستباقية» من نقد، وعنده أن هذه الاجراءات الاستثنائية ضرورية لضمان تنفيذ الاستراتيجية الدفاعية الجديدة، وأن قيام أمريكا بالضربات الاستباقية لمصادر الخطر فى الحرب ضد الإرهاب، يتم الآن نيابة عن «مركز العولمة» كله، وأن على بلاد المركز الأخرى أن تدرك أهمية هذا العمل وتقدم له الدعم، وأن أحد أغراض تأليفه هذا الكتاب توعية مواطنيه (الأمريكان)، وشعوب «المركز» بأهمية الاستراتيجية الجديدة وضرورة تبنيها.

ويقتضى تنفيذ هذه الاستراتيجية بعيدة المدى ـ فى رأيه ـ استيعاب درس التدخل فى العراق لإسقاط نظام صدام، فالقوات التى قامت بهذه المهمة أثبتت عدم قدرتها على إرساء دعائم السلام، ولذلك لابد من إعادة تنظيم وزارة الدفاع على «قواعد جديدة» تلائم متطلبات العصر الجديد، متطلبات القرن الحادى والعشرين، بحيث تنقسم القوات الأمريكية إلى قسمين كبيرين «القوة الساحقة المرعبة التى تعتمد على البحرية والسلاح الجوى، ومهمتها التحرك الدائم فى مناطق «الفجوة» وتوجيه الضربات الساحقة، والقوة الأخرى «قوة إدارة النظام» تختص بتصدير الأمن إلى مختلف أرجاء «الفجوة» بصفة دائمة، وأن يتم وضع قواعد جديدة لعمل كل من القسمين الكبيرين، يتوافق مع متطلبات العصر، وبفضل هذه الاستراتيجية «الدفاعية» بعيدة المدى، يتم «رتق» فجوة العولمة ويتحقق السلام فى أرجاء الأرض، ويرى أن التهاون فى تطبيق هذه الاستراتيجية سوف يؤدى إلى تقسيم «مركز العولمة الفعال» إلى عدة مراكز: أوروبا، وآسيا، وأمريكا مما قد يؤدى إلى الصراع بين هذه المراكز والإضرار بالجميع.

قوة الردع لتحقيق السلام

ويتضمن القسم الثانى فى الاستراتيجية الجديدة، ما أسماه «قوة إدارة النظام» حسن إعداد وتدريب العناصر «الموالية» فى بلاد «الفجوة» حتى تكون على درجة من الكفاية لتوجيه بلادها نحو «مركز العولمة الفعال»، كما تتضمن شقا خاصا بآليات التحكم فى

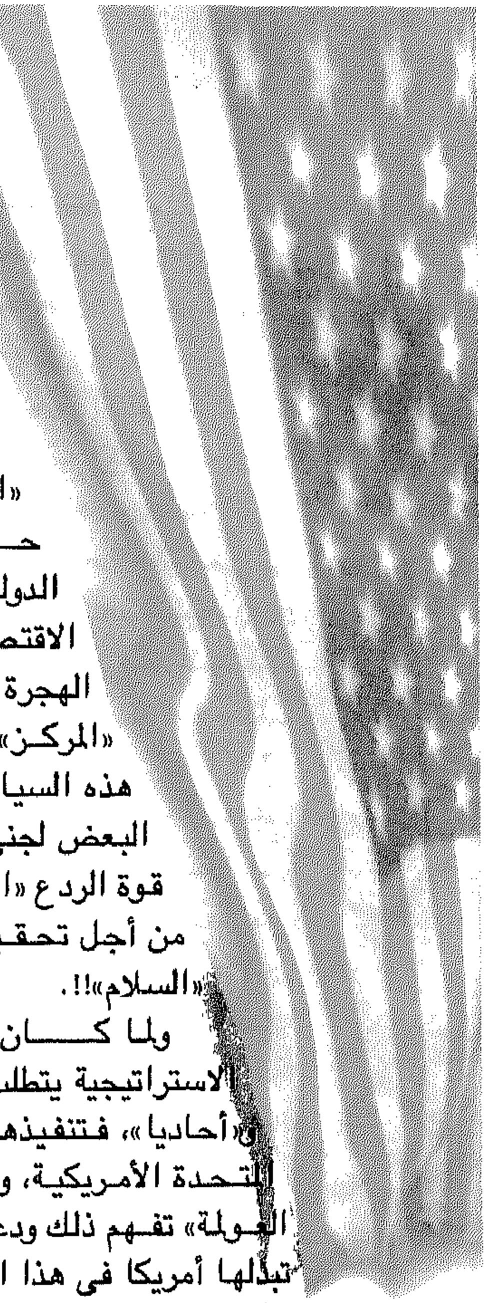

مصادر الطاقة، وفي حركة رؤوس الأموال المتجهة إلي أسواق دول «الفجوة»، وفى حركة التجارة الدولية، والمعونات الاقتصادية، وسياسات الهجرة من «الفجوة» إلى «المركز»، بحيث تتكامل هذه السياسات مع بعضها البعض لجنى ثمار استخدام قوة الردع «الساحقة المخيفة» من أجل تحقيق عالم يسوده «السلام»!!.

ولما كان نجاح هذه الاستراتيجية يتطلب عملا «مباشرا» و«أحاديا»، فتنفيذها «قدر» الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى دول «مركز العولمة» تفهم ذلك ودعم الجهود التى تبذلها أمريكا فى هذا الصدد «لتصدير» الأمن إلى العالم!.

ويحرص المؤلف على إبداء روح التفاؤل حول هذه «الوصفة» العجيبة التى يرى فيها «علاج» مشكلات العالم، وإيجاد صيغة جديدة اجتماعية ـ سياسية ـ ثقافية تصنع فى أمريكا وتفرض على الدنيا كلها فى القرن الحادى والعشرين فى عالم لا فكاك فيه من «العولمة»، وهى تعنى «الهيمنة الأمريكية» على شئون الدنيا كلها، وصبغها بالصبغة الأمريكية، فهو لايحدد لأوروبا دورا فى هذه الاستراتيجية سوى دور الاقتناع بأهميتها ومساندتها، ولايرد أى ذكر للأمم المتحدة فى استراتيجية، ولا حتى فكرة استخدامها كأداة لدعم وتغطية بناء الامبراطورية الأمريكية، ولعله كان فى ذلك «براجماتيا» صريحا، فلا يجد أن ثمة حاجة إلي الأمم المتحدة بعد التحول فى الدور «الدفاعى» الأمريكى، وأمام «القوة الساحقة المرعبة» والقوة الأخرى «إدارة النظام» التى تتحكم فى الاقتصاد العالمى ومصادر الطاقة، والأطر القانونية المنظمة لذلك كله.

ولايعنى إقلال المؤلف من شأن الصين كمصدر للخطر على مشروع الهيمنة الأمريكى، واعتبار الهند أيضا ضمن «مركز العولمة»، أن استراتيجية الهيمنة الأمبراطورية الأمريكية لن تطالهما وغيرهما من البلاد التى تقف حجر عثرة فى طريق هذه الاستراتيجية، ففى استراتيجيات التحكم فى مصادر الطاقة، والاقتصاد العالمى ما يضمن بسط الهيمنة الأمريكية على الجميع.

ونموذج «العولمة المركزى» المثالى عند بارنت هو الولايات المتحدة بالطبع، وهو النموذج الذى يهدف ـ فى نهاية الأمر ـ إلى تعميم نظامه الاجتماعى- السياسى ـ الثقافى فى هذا الكوكب. وهو نموذج يعانى أزمة «اندماج» فى «العولمة» بقدر لايقل عما تعانيه منطقة «الفجوة» أو «ثقب العولمة» (على حد تعبيره) سواء على الصعيد الاجتماعى (الفقر وتدهور الخدمات الاجتماعية والتمييز العنصرى) أو على الصعيد الثقافى (ضعف التعليم العام، والجهل الشديد بأمور العالم، وشيوع القيم المرتبطة بثقافة العنف)، كما أن آليات تنفيذ استراتيجية القرن الحادى

والعشرين عصفت بإرث الليبرالية فى أمريكا المتمثل فى الحريات الشخصية فى إطار تطبيق «قانون الوطنية» الذى جعل النظم الأونقراطية الاستبدادية فى عالم «الفجوة» تتنفس الصعداء، وتجد تبريرا مناسبا لطغيانها طالما كان «النموذج» الأمريكى يتيح استخدام نفس الممارسات المقيدة للحريات «الرقابة والاعتقال بالشبهة» والتعذيب وامتهان كرامة المواطن باسم حماية الوطن.

خطة بناء الامبراطورية

ترى ماذا يكون الموقف من تلك «الفجوة» فى أمريكا ذاتها، وما آليات إدماج الطبقات الاجتماعية الأمريكية التي تعيش حياة العالم الثالث، «فى مركز العولمة» هل ستستخدم القوة الساحقة المرعبة؟ أم سيكتفى بقوة «إدارة النظام»؟! بل ما مدى صبر المواطن الأمريكى على تمويل خطة بناء الامبراطورية من كده، طالما أن عائدها يصب فى خزائن أقطاب المحافظين الجدد الذين يملكون الجانب الأكبر من أسهم شركات السلاح والبترول والمصالح المالية الكبرى؟!.

من الغريب أن الكتاب صدر فى ابريل ٢٠٠٤ الذى شهد مأزق الولايات المتحدة فى العراق، وفضح حقيقة إدعاءات «التحرير» و«حماية حقوق الإنسان» بعد كل ماتسرب عن معاملة السجناء فى العراق، وما اتضح من علم الرئيس الأمريكى بوجود «لوائح» للتعذيب مستخدمة منذ حرب ڤيتنام، وما كشف عن صدور تعليمات وزير الدفاع الأمريكى تطبيقها فى سجن أبوغريب، لقد شهد ابريل فضيحة المشروع الأمريكى الامبراطورى أمام العالم كله، فضلا عن المعارضين للحرب فى أمريكا ذاتها الذين كتبوا «فى ابريل» مقالات فى صحف مختلفة يكشفون فيها التزام إدارة بوش التى يديرها المحافظون الجدد بالأجندة الاسرائيلية فى الشرق الأوسط، وتوجيههم للعمل العسكرية نيابة عن إسرائيل وبالرجوع إلى مستشارين من ضباطها، ويعلنون ـ صراحة ـ اعتراضهم على ذلك، الربط بين مصالح الولايات المتحدة ومصالح إسرائيل، ويرون فى ذلك ضررا بالغا ببلادهم، ناهيك عن نتيجة الاستفتاء التى أعلنها الاتحاد الأوروبى (فى فبراير) والذى رأى غالبية المشاركين فيه أن أمريكا وإسرائيل هما مصدر التهديد للسلام العالمى.

ولاشك فى أن صدور هذا الكتاب ـ فى هذا الوقت ـ بالذات وما صاحبها من تصريحات المدعى العام الأمريكى فى وسائل الإعلام من احتمال توجيه القاعدة لضربة جديدة داخل أمريكا، إنما تهدف إلى إثارة مخاوف المواطن الأمريكى حتى يعطى تأييده لسياسات المحافظين الجدد، ويجدد لبوش الدورة الرئاسية الثانية.

بقى أن نعى نحن الذين وقعوا فى «ثقب» العولمة حقيقة مايدبر لنا، وأن نسعى جاهدين للفكاك من مخالب الهيمنة الأمريكية، ووضع الاستراتيجيات البديلة لتحقيق هذه الغاية والخروج من المأزق الذى وضعتنا فيه أمريكا، فلا تكفى عبارات الشجب والاستنكار والرفض، بل يجب تنمية حركة المناهضة للامبراطورية الأمريكية، وإصلاح نظمنا السياسية بالقدر الذى يحقق تماسك جبهاتنا الداخلية، ودعم المنظمات الإقليمية والدولية لتحقيق هذه الغاية. ■

عبدالبديع عبدالحى

ملحمة مصرية

بقلم
د. محمد عرابى

لم أبالغ إذا قلت ان عبدالبديع عبدالحى يعد ملحمة مصرية بكل المقاييس، فهو فلاح مصرى عاش فى جلباب جرانيتى لا يفله إلا ازميله وروحه المبدعة الخلاقة، رغم ما مر عليه من متغيرات كلها تصب فى زعزعة حضارة عمرها سبعة آلاف عام، فتجربته بكل ما فيها من آلام وأحزان وأفراح تعد نموذجا لكفاح الانسان المصرى من أجل التمسك بحريته وهويته وبقائه وكبريائه.

ويأبى فى آخر أيامه معنا أن يرحل

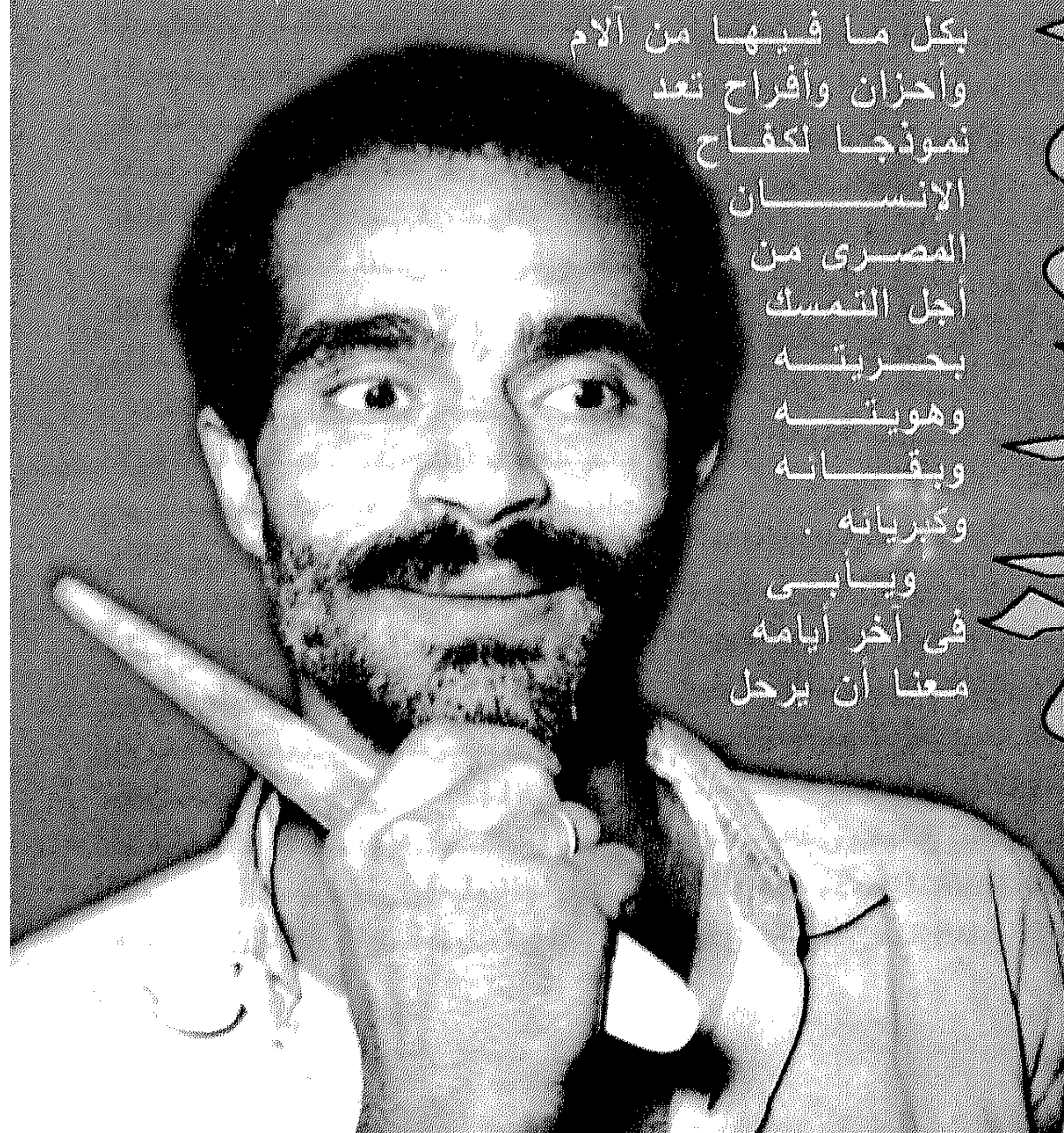

في صمت دون أن يترك وراءه علامات استفهام عديدة حول حياته المتخمة بالعمل والمثابرة والعزيمة والإصرار والشقاء، أو حول رحيله المفاجيء المثير للدهشة والمفزع، ففى كلتا الحالتين تعد رحلته إدانة لضمير أمة فقدت صوابها واتزانها وقدرتها على تقدير الأمور ووضعها فى نصابها.. فماذا كان يفعل الشيخ أكثر من أن يهب حياته بطولها فى سبيل الوفاء لفنه وبلده لكى يجد يدا عادلة عطوفة مقدرة تمتد إليه وتنتشله من اليأس والعجز وتضعه فى منزلة تعينه على استكمال عطائه، وتحفظ لنا تراثه الزاخر بالإبداع ليكون شاهدا على الروح المصرية الخلاقة المبدعة التى لم يخفت بريقها رغم ما يعترضها عبر تاريخها من فترات مظلمة أو تيارات معاكسة.

عبد البديع في جلسة حميمية عند قاعدة تمثاله لعبة السيجة يتناول طعامه

عبدالبديع عبدالحى

خبر غريب فى زمن فاتر

بورتريه رأس فتاة بمنديل

منذ أن افترقت عن رفقاء رحلة العمر التى شهدت ميلادها بتزاملنا فى تدريس الفنون الجميلة بالمنيا بالانتقال للعمل بفنون الأقصر منذ عام ٢٠٠٠م وحبانى الله بلقاء سنوى معهم فى يوم من أيام شهر يوليو احتمى بهم وأسعد معهم باستعادة زمن براءتنا الجميل، تلك القيمة التى كادت تفارقنا تماما، أو ربما ليس لها معنى فى هذا الزمن، ففى مساء يوم الثلاثاء الموعود ٧ يوليو ٢٠٠٤، وفى غمرة احتفالنا باللقاء تسرب إلينا خبر رحيل عمنا عبدالبديع عبدالحى المثال المصرى المعروف ولغرابة الخبر اعتبرته مزحة أتى بها أحد الخبثاء محبى ومثيرى «المقالب» ، ولكن أثره غاص فى أعماق النفس دون إبداء ما يوازيه من تعليق، ويبدو أن هذا كان إحساس الجميع ما عدا مصدر الخبر، الذى علمت فيما بعد أنه قد عرفه عن صحيفة المساء، وربما كانت المهمة التى اجتمعنا من أجلها قد ساهمت مع حالة السفر التى كنا عليها فى إضفاء حالة من الفتور تجاه هذا الخبر، وبعد الانتهاء من عملنا المقصود ، وتفرق كل منا إلى حيث سبيله خلت النفس من نشوة «اللمة» أو «الونس»، وصرت بمحطة أسيوط لا أملك سوى الغربة وانتظار قطار العودة إلى الأقصر، وفى غمرة هذا ينتفض الحدث وتتضخم بشاعته بصورة مفزعة باستدعاء مايقترن به من تلك البشاعات التى قبحت وجه هذا الزمن وامتصت بريقه فأجد الصورة أمامى قاتمة خانقة، فلا مناص من انتظار الغد لمعرفة حقيقة الحدث لعلى أجد ما

الفنان الراحل فى آخر أيامه

فتاة من البازلت

يريح النفس، وكنت على يقين أن وسائل الإعلام لن تتجاهل مثل هذا الحدث بالتأكيد أو النفى، خاصة وأن مساحات الإعلام المرئية وأجناسها الأخرى قد اتسعت كماً فى هذه الأيام وأن الشيخ فنان كبير معروف، وأنه مجنى عليه رحل جراء جريمة اقترفها المجتمع فى حقه، وأخذت أبحث عن حقيقة الحدث وتأكدت صحته بما جاء بصفحة الحوادث بالأهرام، وتوالت بعض المقالات من المهتمين بالفن بحكم التعاطف المهنى الذى كفل لهم الوعى بقيمته، وكنت ومازلت انتظر اهتمام الدولة ممثلة فى أجهزتها المعنية بصورة تتكافأ مع القيمة الثقافية والفنية التى ابتكرها لنا الشيخ عبدالبديع الراحل الباقى، وأما مايثير الاستغراب فهو عدم تدارك الأجهزة الإعلامية الأخرى لقيمة الشيخ، الأمر الذى يفصح عن خلل بائن فى المعيار القيمى للمجتمع بصفة عامة والنخبة المسئولة بصفة خاصة، ويتأكد هذا الخلل حينما نقارن الموقف الإعلامى الفاتر دائما تجاه الفنون التشكيلية ممثلة فى هذه اللحظة فى رحيل الفنان الكبير بمواقفه الأخرى حينما يقيم الدنيا ويقعدها لرحيل مطربة أو راقصة أو إحياء ذكرى سينمائى أو مرض فنان ممثل أو غير هذا من تلك المهن، التى ترتبط بعالم الفرجة، وهذه قضية مهمة تحتاج إلى لفت الانتباه لعلنا نراجع أنفسنا، المشكلة الأخرى واجهتنى فى كتابة هذا المقال

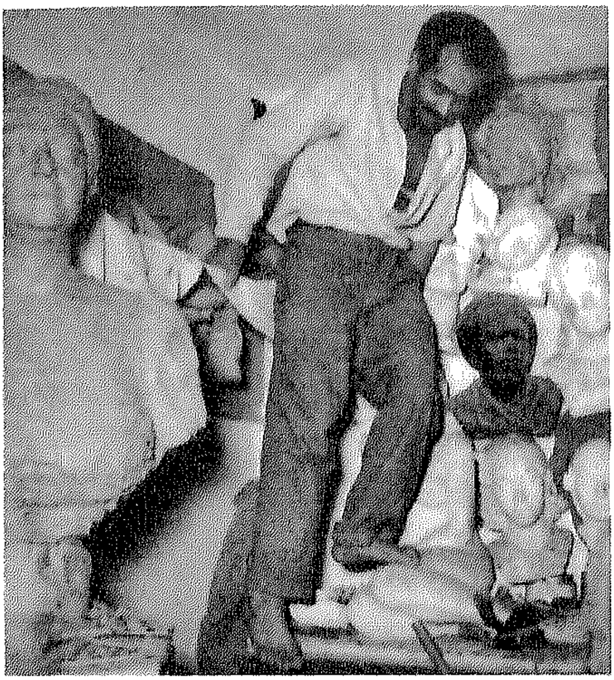

في صومعته وبين أحضان منحوتاته وتماثيله صنع على «الرف» فراشا له

وهـــي نـــدرة المـــادة العلمـية أو الوثائقية سـواء كانت مصـورة أو مكتـوبة عن فنان معروف عمره يقرب من التسعين عاما؟!!!

تعـــرفت عليـــه حينما وطئت قدماي أحـد دور السـينمـا التى تعد رمز المدنية الحـيوى فى وجـدان مـعظم الريفـيين، فبينمـا كنت أجلس أحملق فى محيطها المظلم أترقب ظهور الفيلم المقصود ظهر وجه الشيخ بشعره النافر الأبيض الذى يغطى رأسه ويكاد يغطى معظم وجهه الأسمر، عيناه كانتا تنظران للحجر الغشيم الذى يرفعه على العربة الصغيرة كما العاشق الذى يصغى لما تسره إليه معشوقته متأملا مترقبا لملامحها التى تلمع فى ذهنه وخياله، ولم يكن وجهه غريبا بل مألوفا وكأنى أعرفه منذ سنين، وتكمن دلالة هذه اللحظة فى إشارتها إلى نهاية زمن كانت السينما تؤدى فيه دورا مهما فى انتقاء القيمة الفنية والثقافية وتأصيلها فى وعى المجتمع الناهض آنذاك، زمن كانت تؤمن فيه النهضة بالفن وأهميته فى حركة المجتمع وتطوره، زمن كانت لديه معايير انتقائية واضحة يحرص دائما على سلامتها ويدرك أهميتها فى تأكيد وترسيخ القيم الرفيعة الأصيلة بوضعها فى منازلها الصحيحة .

يتمتع شيخنا بنفس راقية وحس صادق فى انتمائه لبلده ومهنته وعشيرته من الفنانين ، فحينما كنا نطلب منه أن نأخذ أعماله، التى يرشحها للعرض فى احتفاليات ومؤتمرات فنون المنيا، كان يقول «يا بنى كتر خيركم .. متحملوش همى أنا هجيبها بنفسي.. محبش أتعب حد.. المنيا دى بلدى» ونراه، يأتى فى ميعاده بصحبة أعماله يحمل على وجهه

عــلامــات الرضــا والحب والاعــتــزاز بنفسه وهويته .

مشواره مع الفن

كـان منذ البـداية يعشق الجـهـاد والعمل الشاق، أصيب بالضيق وخيبة الأمل حـينمـا تحطم حلمـه الكبـيـر فى نيل شــرف العــسكرية برســوبـه فى كشف الهـيئـة «النظر» فـعـاش حلمـه بصياغة تماثيل صغيرة يتخيل فيها نفــســـه فى زى جندى فى ســـلاح المدفـعـيـة أو المشـاة أو الفـرسـان أو الحـدود، وصـــاغ أول تمثـــال فى هذه المجــمــوعـة من قــرن بقــرة بمطواة صـغـيـرة، وفـى عـام ١٩٤٢ قـرأ فى الأهرام عن وجـود المتــحف الحــربى بالقلعة فـتـوجـه بتـمـاثيله إليـه والتـقى بالدكـتـور عـبـدالرحـمن زكى أسـتـاذ العـمـارة الإسلامية وعـالم فى العـمـارة الحربية بالتحديد ، الذى رحب بهذه التماثيل الصغيرة وكانت هذه الواقعة بداية مشواره الفنى، هذا كما يروى الشيخ فى حوارات موثقة أجراها معه بعض السادة النقاد أو المشتغلين بالصحافة الفنية.

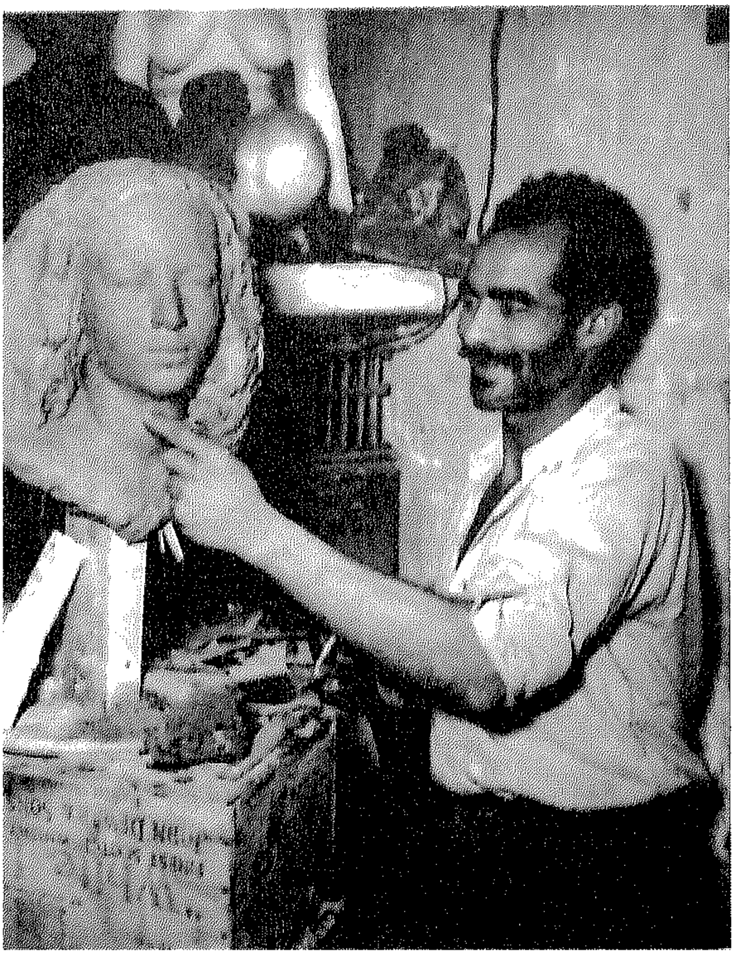

لمسات أخيرة يضعها عبد البديع بحنان وحب على وجه «ملكة »

في رعاية هدي شعراوي

ولد عبدالبديع عبدالحى فى زمن كانت تمر فيه مصر بحالة ثورية تبلورت معالمها فى ثورة ١٩ التى لا شك فى أنها كانت تأكيدا لحالة المد القومى والبحث عن الشخصية المصرية، فهو من مواليد مدينة ملوى بالمنيا ٢٠ يونيو ١٩١٦ وينتمى إلى مجتمع الأسر المصرية فقيرة الحال وغنية النفس والروح، وفى السابعة من عمره بدأ العمل طباخا لدى أحد وجهاء ملوى ثم انتقل للعمل فى بيت سيدة يذكر لها ما تتمتع به من ثقافة رفيعة وحب ورعاية للفنون الجميلة، كما أنها قادت الحركة النسائية فى ثورة ١٩١٩، السيدة هى

عبد البديع عبد الحى

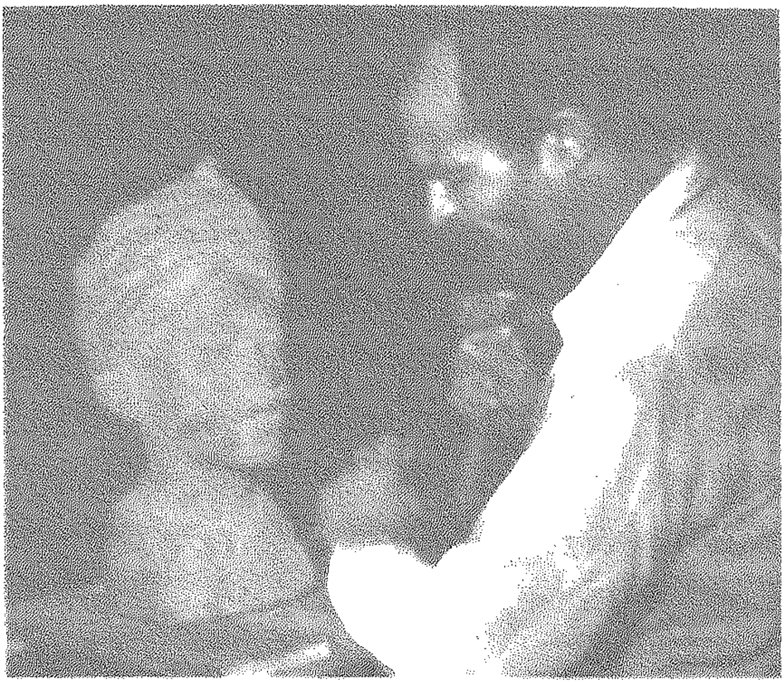

انهماك تام فى النحت على البازلت لينتج جوهرة من جواهره

هدى هانم شعراوى، التى التقطت برهافة حسها الموهبة الفنية المتميزة التى تنطوى عليها أعماق عبدالبديع، وكفلت له رعاية أدت إلى إبراز هذه الموهبة فى حيز الفعل الإبداعى، ومنذ أن عرف طريقه إلى الفن وبدأ رحلة كفاح طويلة شاقة تتوازى مع مسيرة كفاح المجتمع المصرى، ومثل أجداده القدماء اختار التعامل مع أحجارهم الصلبة والعصية التى تتطلب خبرات تقنية عالية وجهدا خارقا لا يقدر عليه سوى الفرسان أو الفلاحين ،الذين يهبون أنفسهم للتحدى ويقدسون بذل الجهد والعطاء ولا يحسبون حسابا إلا لشرف المهنة والأمانة، فهو الذى رفض أن يبيع تمثاله «ست الحسن» الذى حصل به على جائزة مختار عام ١٩٤٤ لوالد الملكة فريدة وأهداه للسيدة هدى شعراوى التى ألحقته بقسم الدراسات الحرة فى مدرسة الفنون الجميلة حينما كان عمره ٢٧ عاما، فهو من الذين ينسبون الفضل لأهله، وشملته السيدة برعاية حميمة لدرجة أنها عرضت عليه السفر للدراسة بإيطاليا على نفقتها الخاصة أكثر من مرة ولكنه فضل البقاء فى مصر والاستمرار فى عمله كمثال مصرى بإصرار منقطع النظير فيحصل على جائزة مختار للمرة الثانية ١٩٤٥ والثالثة ١٩٤٨ وفى عامى ١٩٤٩م، ١٩٥٠م حصل على منحة مراسم الأقصر، وعقب المنحة انتقل للعمل فى نفس المراسم لعدة

سنوات، فلا شك فى أن فترة إقامته بالأقصر كان لها أثر عظيم فى تجربته الفنية إذ أتاحت له فرصة دراسة النحت المصرى القديم، والتى تظهر آثارها بوضوح فى تجربته الفنية ابتداء من تعميق إحساسه وحبه واحترامه لنحت أعماله فى الخامات الصلدة والأحجار العصية بصفة خاصة وتطويعها لتجسيد أفكاره الفنية ومنها الجرانيت والديوريت والبازلت والصوان والكوارتز وما يشابه هذه الأحجار العتيدة التى بلا شك تتطلب خبرات تقنية عالية خاصة عندما تنحصر أفكاره فى إطار أسلوب تشخيصى يهدف للتأكيد على القيم العضوية لموضوعاته الطبيعية سواء كان العمل يجسد إنسانا أو حيوانا أو طائرا أو كان يضم تكوينه عنصرين أو أكثر.

الحجر ومعنى الخلود

وقد كان عبدالبديع يكن احتراما جليلا للخامة ويستفيد من إمكانياتها الذاتية أقصى استفادة ممكنة إلى حد أن تصبح لديه ليست مجرد مادة جامدة بل معنى للخلود والبقاء والعناد والانتصار وتحقيق الذات وفى هذا المقام يقول عبدالبديع:

«اخترت الحجر لأنه يعيش، وصعوبة الحجر علمتنى الكثير علمتنى الاحتراس والحذر والصبر وقوة الاحتمال وعدم التسرع فمثلا لو شلت حتة من الحجر مش هاقدر أرجعها تانى شوفوا أعمال الفراعنة، النحت الحقيقى هو النحت فى الحجر» وتتميز أعماله برشاقة وصرحية ربما نعهدهما فى تكوينات النحت المصرى القديم.

فمع احترامه لخصوصية الخامة نراه يعالج أسطح أعماله وعلاقاتها العضوية برؤية تمتلك القدرة على التبسيط والاختزال والمحاكاة بصورة يبدو أنه اكتسبها من معايشته للفن المصرى القديم، التى لا تخلو من إغراءات جماليات الرؤية الطبيعية التى تعرف عليها من خلال مخالطته لتلاميذ المدرسة الغربية من الفنانين المصريين، التى تأصلت بدايتها عند التحاقه بقسم الدراسات الحرة وعمله كصانع نماذج بكلية الفنون الجميلة بالزمالك، حيث كان لهذه الفترة أثرها البالغ فى بلورة مفهومه ورؤيته لفن النحت، الذى أصبح عنده ليس مجرد حرفة أو صناعة تماثيل جامدة ساكنة وإنما هو براعة تجسيد الحياة وطاقاتها النابضة عبر مادة صلبة قوية بمقاومتها للفناء، وهنا تكمن القيم الجمالية للعمل النحتى، فعبر دراسته بالقسم الحر تزاوجت موهبته الفطرية مع معارفه الجديدة عن المدرسة الغربية وما تتسم

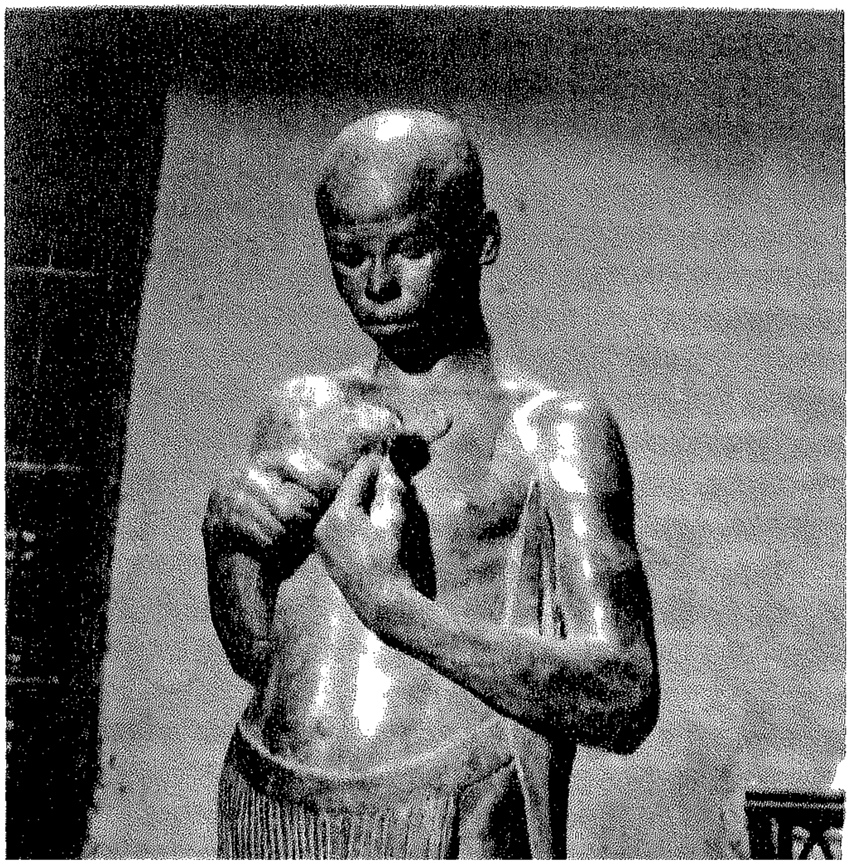

ملامح متناهية الدقة رغم قسوة الحجر

به من أبعاد واقعية طبيعية، التى تركت آثارها على أسلوبه الفنى حيث الاهتمام بالتفاصيل التى تؤكد واقعية الشكل وتعطى له هويته ومعطياته الحسية وملامسه الطبيعية، مثل ليونة الجسد وانسياب الشعر وثنيات القماش وتفاصيل القسمات والنسب الطبيعية، الأمر الذى جعل منحوتاته تنبض بكينونة الحياة وحسيتها، وكان للفنان الكبير جمال السجينى رأى فى هذه المسألة يؤكد قوة وأصالة موهبته الفطرية التى أضفت على أسلوبه مذاقا مصريا رغم أنه كان يعارض دراسته فى إطار المدرسة الإغريقية الرومانية، إذ كان يرغب فى «أن يكون لعبدالبديع برنامج آخر يختلف عن الباقين، ويجب إبعاده عن دراسة التماثيل الرومانية والإغريقية لأن مصريته فى فطرته» وذلك على حد قول الفنان ناجى كامل نقلا عن مقال للأستاذ مكرم حنين. وبسؤاله عن استفادته من دراساته بالفنون الجميلة روى للأستاذ مكرم حنين: «طبعا فرق كبير كنت الأول أنحت بالبركة، ولكن بعد دخولى الفنون قسم النحت أصبحت أنفذ التمثال

بالطين ، وإن لم يعجبنى أهدمه وأبنيه من تانى، وبعدين أعمل قالب وأصبه جبس ، ثم أنفذه بعد ذلك فى أى خامة خالدة، جرانيت، رخام، خشب، فن النحت له مراحل لازم نحترمها، علشان كده عملوا الفنون الجميلة، وعلى كده لازم الفنان يتأمل فى كل التفاصيل ويعمل عدته بنفسه وكل خامة ولها اللى يناسبها».

كان عبدالبديع يمتلك حسا انتقائيا يتمتع بحساسية فنية عالية فجاءت موضوعاته معبرة بقوة عن خصوصية الحياة المصرية كما تحمل من جانب آخر خبراته الحياتية التى تحمل بين طياتها معايشة حقيقية لزمانه فأضفت على أعماله مضمونا معاصرا لا يخلو من الوعى بالخطر والألم، ففى عام ١٩٥٠ نحت تمثال لعبة السيجة، وهى لعبة منتشرة بين الفلاحين فى القرى المصرية تنحدر من أصل فرعونى كما يرى البعض، ونحت تمثال الصبى والسلم والثعبان فى عام ١٩٥١م، ونال به الميدالية الذهبية فى معرض انعقاد أول مؤتمر إفريقى آسيوى.

أثرى عبدالبديع عبدالحى الحياة الفنية المصرية والعربية والعالمية، ولاقت أعماله الإعجاب والتقدير من جمهور النخبة والعامة فى مصر وخارجها، وأخيرا يعطى لنا درسا مهما حينما يرى أنه: «يجب أن يدرس الطلبة فى قسم النحت فى الفنون الجميلة الإيقاع بتاع النحت، لأن دراسة النحت زى دراسة النوتة الموسيقية والإيقاع، وبعدين ياخدو طابور عتالة يعنى يتعلموا إزاى يتعاملوا مع الحجر ونقله من مكان لآخر.. الطالب زى المراية يلقط ويتعلم».. جاء هذا الدرس فى حوار أجرته معه الناقدة فاطمة على. شكرا لكل من لم يدخر جهدا فى الحفاظ على ذاكرة مصر. ■

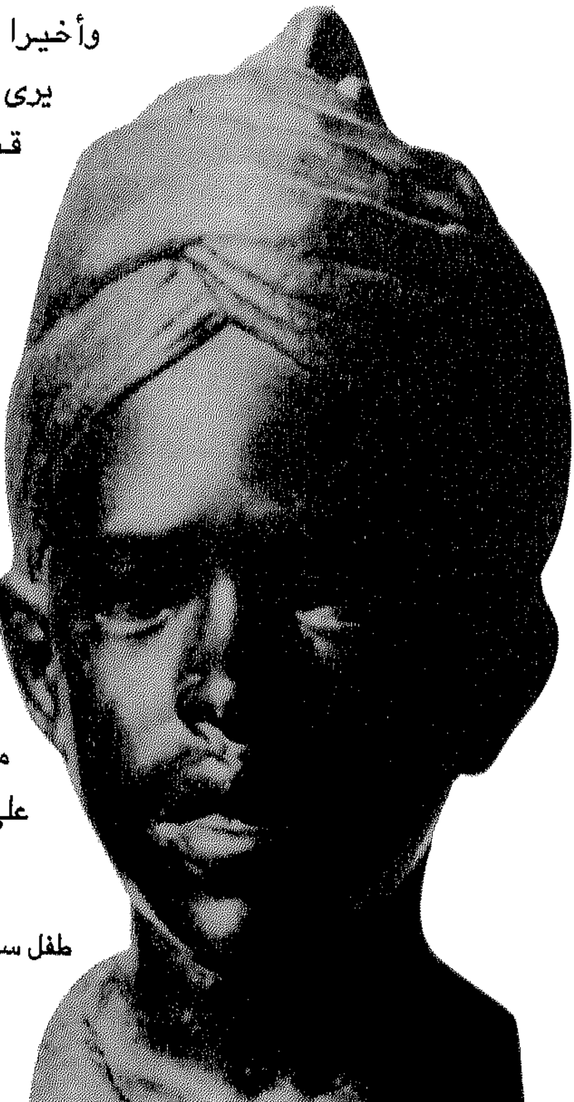

طفل سودانى من الحجر البازلت

النقد العربى
بين القومية والعالمية

بقلم
د. عبدالعزيز حمودة

الأزمة :

بداية اعترف أن مصطلح «أزمة» أصبح ممجوجا مثيرا للملالة بعد أن فرغ من معناه ، وفقد قدرته بالتالى على إثارة أية رغبة حقيقية عند الكثيرين للخروج من الأزمة وإيجاد حلول لها . ويرجع ذلك إلى أسباب عدة فى مقدمتها، بالطبع ، كثرة تردد المصطلح فيما يجب وما لايجب ، من ناحية ، ثم لأن الموقف العربى فى بداية القرن الحادى والعشرين يزخر بالأزمات التى تحاصرنا فى كل اتجاه : أزمة الهوية العربية فى مواجهة الثقافة المهينة، أزمة الكينونة ذاتها بعد أن أصبح الكثير من ثوابت الثقافة العربية عرضة للتشكيك فى صلاحيتها لمواكبة روح العصر ، بل أزمة بقاء الأمة العربية فى مواجهة ضغوط مستمرة وصلت إلى حد استخدام القوة العسكرية لفرض النموذج الثقافى والحضارى الغربى باعتباره ، كما يقولون لنا كل يوم ، النموذج الأمثل والنهائى.

ورغم ذلك لا أملك إلا أن استخدم مصطلح «الأزمة» في توصيف واقع النقد العربي اليوم بعد أن وصلنا ، بعد ما يقرب من قرن من التأثر بالاتجاهات النقدية الوافدة ، إلى طريق مسدود . لقد حققنا قطيعة معرفية مع تراث البلاغة العربية - أي انفصلنا عن جذورنا النقدية بعد أن أوصلنا الآخر الثقافي إلى قناعة بدونية العقل العربي - دون أن ننجح في إنتاج نقد عربي حداثي أو ما بعد حداثي يسهم في تيار النقد العالمي، واكتفى البعض منا بأن يقتات على فتات المشاريع والاستراتيجيات النقدية الغربية رافعين شعارا براقا يقول بعالمية الفكر وسموه فوق النعرات القومية . تلك هي معطيات الأزمة كما أراها ، وكما تفرغت لرصدها ودراستها لما يقرب من عشر سنوات اليوم . وليس من قبيل التباهي أن أسجل هنا أن كتابي «المرايا المحدبة» (١٩٩٨) و«المرايا المقعرة» (٢٠٠١) صدرا قبل أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ والتي كشفت عن النوايا الحقيقية للنظام الدولي الجديد بقيادة الولايات المتحدة تجاه الثقافة العربية ، وقد صدر الكتاب الثاني على وجه التحديد قبل تلك الأحداث ببضعة أيام فقط . لقد أطلقت في الكتابين الكثير من صرخات التحذير مما هو قادم .

العلمية والعالمية

من الواضح أن المشهد النقدي العربي يشهد تمحورا محددا حول الهوية القومية والعالمية . كان المشهد النقدي قد عاش لما يقرب من عقدين ، منذ منتصف السبعينيات عامة وبداية الثمانينيات خاصة - ولن أعود هنا إلى خمسينيات مجلة «شعر» البيروتية التي ثارت حولها الكثير من الشبهات - حالة احتكار صال فيها البنيويون العرب وجالوا . وقد أدى ذلك الاحتكار إلى تبني المشروع البنيوي الغربي - بكل تنويعاته بل تناقضاته أحيانا - باعتباره المنقذ من الضلال للنقد العربي . وبصرف النظر عن مصير المشروع البنيوي وما آل إليه من فشل سريع داخل الثقافة التي أفرزته ، فإن ما يهمنا هنا هو ارتباط ذلك المشروع النقدي في أذهان أصحابه الأصليين ثم في أذهان الحداثيين العرب الذين نقلوا عنهم بعلمية النقد وعالمية الفكر الإنساني وارتفاعه فوق الاختلافات الفردية والقومية .

ومن جانب الإنصاف العلمي للحداثيين العرب الذين احتضنوا البنيوية باعتبارها وسيلة انقاذ للعقل العربي من هوه التخلف فإن علمية

النقد كانت بالفعل نقطة انطلاق المشروع البنيوى برمته ، ودون الدخول فى تفصيلات يعرفها المتابعون لاتجاهات النقد الأدبى ، فإن البنيوية الأدبية - أى تحليل النص الأدبى لغويا - كانت تطمح منذ البداية إلى تحقيق درجة من العلمية تحاكى علمية البنيوية اللغوية فى تعاملها مع النص اللغوى ، وأحيل القارىء هنا ، إذا شاء الاستزادة، إلى الكثير فى «المرايا المحدبة» و«المرايا المقعرة» . وقد كانت «علمية النقد» هى التفسير الحقيقى لما أسماه الناقد العربى الكبير جابر عصفور بـ «فتنة البنيوية» ، وهى «فتنة» كان لها الكثير من المبررات فى الظرف التاريخى الذى حدث فيه ذلك الانبهار بالحداثة الغربية عامة ، وبالمشروع البنيوى خاصة .

و«الظرف التاريخى» فى حد ذاته يبرىء الحداثيين العرب من أية شكوك قد يراها البعض قرينة التحول البنيوى، فقد تصرف البنيويون العرب من منطلق الرغبة الصادقة فى «تحديث» العقل العربى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، ففى أعقاب تلك الهزيمة حاسب المثقف العربى نفسه فى قسوة وتوصل إلى نتيجة منطقية وهى أن الهزيمة العسكرية كانت هزيمة للعقل العربى بالدرجة الأولى . وهكذا اجتاحت العالم العربى « حمى» مشروعة للتحديث . وهنا حدث الخلط المؤسف بين مصطلحى «التحديث» و«الحداثة» ، فالتحديث كمصطلح modernization يعنى كسر القوالب الجامدة التى تعوق حركة المجتمع إلى الأمام ، يعنى نبذ الفكر الخرافى ، وتبنى المنهج العلمى ، والاستفادة الكاملة من الإنجازات العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية والتطبيقية . وبدلا من تبرير التخلف وترسيخه عن طريق الترويج فى المنابر الدينية لفكرة أن الإنسان الغربى مقدر عليه أن يكدح ويشقى داخل المناجم والمصانع لينتج السيارة الفارهة والطائرة السريعة والقطار الفاخر بينما الإنسان العربى مقدر له أن يتمتع بما ينتجه العقل الغربى ، فإن التحديث يعنى ، بدلا من ذلك ، أن ينتج العقل العربى نفسه أدوات تحضره وازدهاره .

ومن هنا ، كان من المنطقى فى ضوء ذلك الخلط الواضح بين مصطلحى «التحديث» و «الحداثة» أن يقول بعض الحداثيين العرب فى ردهم على رفضى لنقل نسخة الحداثة الغربية إلى الثقافة العربية إن هذا الرفض يعتبر دعوة إلى التخلف والعودة إلى الوراء لأننى ، كما قالوا ، أصبح كمن يدعو لركوب الجمال فى عصر السيارات والقطارات والطائرات !! إلى هذا الحد وصل الخلط بين المصطلحين، فأصبحت الحداثة الغربية تحديثا والتحديث حداثة .

والواقع أن الحداثة أمر آخر مختلف، ومثلثها الغربي معروف: الحداثة الحضارية والحداثة الثقافية والاجتماعية ثم الحداثة الأدبية والنقدية. وبدون إطالة، فإن الحداثة الحضارية تتمثل فى التحولات الكبرى التى طرأت على المجتمعات الغربية فى القرن الثامن عشر وفى مقدمتها الثورة الصناعية التى هزت الكثير من الثوابت وأحدثت الكثير من التحولات. وربما تكون هذه الحداثة الحضارية هى نقطة الالتقاء الوحيدة بين «التحديث» و«الحداثة» على أساس أن تلك المرحلة كانت بداية نبذ الفكر الخرافى والغيبى وتبنى المنهج العلمى والاستفادة الكاملة من إنجازات العلوم الطبيعية والتطبيقية. باختصار ارتبطت الحداثة الحضارية بسيادة العلم. ما يهمنا هنا هو تأكيد العلاقة العضوية بين الحداثة الحضارية، باعتبارها الضلع الأول أو قاعدة المثلث وبين الضلع الثانى وهو الحداثة الاجتماعية والثقافية والسياسية. لقد أدت الثورة الصناعية الكبرى إلى خلق علاقات وتكوينات اجتماعية جديدة وهجرة من الريف إلى المدن ومراكز الصناعة، وبالتالى إلى خلق علاقات ومفاهيم سياسية جديدة مثل سقوط مفهوم الحق الالهى للملوك. وسوف تصل التحولات الجديدة على محور ضرب السلطة الغيبية غير المبرهنة تجريبيا وعلميا إلى مرحلة رفض وجود الله ذاته مع بداية القرن العشرين. هذه التحولات الجوهرية أدت بدورها إلى ظهور حساسية فنية وأدبية جديدة تمثلت فى صعود نجم الرجل البسيط واحتلاله بؤرة الأحداث فى الرواية والمسرح الواقعيين، وهذا هو الضلع الثالث والأخير والذى يؤكد ذلك الارتباط العضوى بين أضلاع مثلث الحداثة الغربية.

الهوية القومية

إن الجزئيات الموجزة السابقة تؤكد الهوية الواضحة للحداثة الغربية، بأضلاعها الثلاثة، فهى حداثة أفرزتها تحولات جذرية فى المجتمعات الغربية بدءا بالثورة الصناعية ومرورا بالعلاقات والتكوينات الاجتماعية والسياسية وانتهاء بالحساسية الجديدة التى فرضت قيما ومعايير تقييم خاصة إبداعا ونقدا. وقد كان تطور الحداثة الغربية، على مستوى أضلاعها الثلاثة وفى كل مرحلة من مراحل تطورها، يتم عبر سلسلة مترابطة الحلقات يصعب فصل حلقة منها عن الأخريات، والأمثلة على ذلك كثيرة أبرزها ارتفاع نجم «العلم» والعلمية ثم سقوطه، فقد أدت الثورة الصناعية إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة مؤثرة هى طبقة العمال التى ارتبط ظهورها، من جانب آخر،

بصعود نجم العلم والتفكير العلمى . وتكفل المتغيران الجديدان بتوجيه ضربة قاتلة إلى الفكر الغيبى القائل بالحق الإلهى للملوك وإلى سلطة الكنيسة . وكان من الطبيعى أن تنتهى تلك التغيرات إلى ظهور أنظمة سياسية جديدة تهدف إلى تحقيق سعادة الفرد والإنسان البسيط ، وهكذا جاءت إلى الوجود الأنظمة الديمقراطية الحديثة والاشتراكية . أما على المستوى الاقتصادى فقد جاءت إلى الوجود أيضا أنظمة حديثة مقابلة مثل الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية .

وقد صاحب ذلك كله انهيار «الطابو» التقليدى الذى حجر على حرية العقل الإنسانى ووضع دوائر حول قدرته على التفكير . فأدى الفصل النهائى بين سلطة الكنيسة والدولة وتراجع الفكر الغيبى إلى تطورات سريعة متلاحقة فى الدراسات الفلسفية انتهت فى بداية القرن العشرين ، على يد نيتشه على وجه التحديد، إلى القول بموت الله . وكان من الطبيعى أن يصعد نجم العلم ليشغل الفراغ الجديد ويصبح الاله البديل ، وحينما تكفلت حربان عالميتان بتبديد الأوهام القائلة بقدرة العلم الجديد على تحقيق السعادة للإنسان سقط إله العلم هو الآخر ليحل محله «الفراغ» ، الفراغ اللانهائى القائم على الشك فى جميع السلطات الموثوق بها والإحالات المرجعية الثابتة التى يمكن الارتكان إليها . وساد العالم ، ويسوده حتى اليوم، جو من الشك العام والشامل فى كل شىء . والفراغ والشك كانا ، فى جزء كبير منهما ، موضوع كتابى الأخير: « الخروج من التيه » «دراسة فى سلطة النص » (٢٠٠٣) .

هل يمكن القول حقيقة بأن المدارس النقدية التى أفرزتها تلك الحداثات الغربية والتحولات الفلسفية عبر قرنين من الزمان، مدارس لاتعرف الهوية؟ ولابد أن نأخذ بعين الاعتبار ، قبل أية محاولة لإجابة متسرعة ، أنه يصعب الفصل - إن لم يكن من المستحيل - بين الفلسفة الألمانية مثلا ، وبين الكثير من القيم والمفاهيم والمصطلحات النقدية التى سادت الساحة الغربية لما يقرب من نصف قرن حتى اليوم ؟ وهل يمكن القول بأن المقولة الفلسفية القائلة بافتقار الكون إلى محور أو نقطة ارتكاز مرجعية يمكن على أساسها تفسير الكثير من الفكر المعاصر تتساوى مع حقيقة علمية مثل «حديد + أكسجين = أكسد حديد » فى موضوعيتها وتجردها وسموها على حقائق واختلاف الهويات القومية ؟

المشهد النقدى العربى والفراغ

من حق الحداثيين العرب أن نعترف لهم بأنهم «أنقذوا شرف النقد العربى»، كما قال بذلك الراحل الكبير لويس

عوض فى أواخر الثمانينيات فى سياق حديثه عن النقاد الأكاديميين . نعم استطاع النقاد الأكاديميون ، وهم حداثيون فى غالبيتهم ، إنقاذ شرف العقل العربى فى السنوات التالية لهزيمة يونيو ١٩٦٧ حينما بعثوا الحياة فى المشهد الثقافى العربى الحزين فى أعقاب تلك الهزيمة . ولكن ، وبعد ما يقرب من ربع قرن من «أحادية الصوت» التى وصلت إلى حد قهر الأصوات المعارضة واتهامها بالسلفية أحيانا والرجعية والجهل أحيانا أخرى، من حقنا أن نختلف معهم ، ولا أبالغ إذا قلت إن التطورات الأخيرة على الساحة العربية وبعد تكشف أطراف المؤامرة الغربية ضد الثقافة العربية تدعونا إلى أكثر من الاختلاف ، وتحديدا إلى التحذير المتكرر من خطورة ما حدث داخل المشهد النقدى العربى لما يقرب من ربع قرن . وشرعية التحذير المتكرر تؤسسها عملية محاسبة بسيطة للحداثيين العرب ومراجعة لنتائج مشروعهم النقدى .

إن أبسط قواعد المحاسبة والمراجعة اللتين اتحدث عنهما تفرض سؤالا لا مفر منه : هل نجح الحداثيون العرب فى «تحديث» العقل العربى بعد ربع قرن من الانفراد بالصوت النقدى؟ وحتى نكون أكثر تحديدا : لقد تحول الأكاديميون العرب ، وبكل حسن النية الذى لا ننكره على أحد منهم ، إلى الحداثة الغربية أو تحديدا إلى المدارس النقدية التى أفرزتها الحداثة الغربية ، بهدف تحديث العقل العربى . فهل كان العقل العربى الذى تعامل مع سقوط بغداد أكثر تقدما وعصرنة من العقل العربى الذى تعامل مع هزيمة يونيو ١٩٦٧ ؟ ولا أظن أننا بحاجة إلى تأكيد ما هو واضح عيان : إن العقل العربى - والمثقف العربى على وجه التحديد - الذى تعامل مع سقوط بغداد فى أبريل ٢٠٠٣ كان أكثر تخلفا وتشرذما وعجزا عنه فى يونيو ١٩٦٧ ، بل عنه فى أى يوم مضى فى تاريخنا الحديث. وقد وصل إحساس الكثيرين منا ، ونحن نعيش حالة العجز الكامل فى مواجهة الغول القائم ، إلى حالة اليأس المطبق .

لنرجع إلى الوراء قليلا لنتعرف على حقيقة ما حدث وما أوصلنا إليه :

١ - لقد تبنينا النتائج دون أن نعيش المقدمات التى أدت إلى تلك النتائج داخل الثقافة الغربية ، متعللين فى ذلك ، بالطبع ، بعالمية الفكر وإنسانيته وسموه فوق فوارق واختلافات الهويات القومية . وقد توقفنا من قبل ، وفى إيجاز كاف ، عند الاضلاع الثلاثة للحداثة الغربية ، وقلنا إن قاعدة المثلث هى الثورة الصناعية

الكبرى ، وما أدت إليه من تحولات جذرية ، اجتماعية واقتصادية وسياسية وفلسفية ، أفرزت في نهاية الأمر المشاريع والاستراتيجيات النقدية التي ارتبطت بالحداثة وما بعد الحداثة الغربيتين . فأين بدأنا نحن ؟

لقد بدأنا بالضلع الثالث والأخير للمثلث الحداثي وهو المشاريع والاستراتيجيات النقدية التي أفرزتها الحداثة وما بعد الحداثة الغربيتين ، متناسين أن التحولات الكبرى ، على مستوى الضلعين الآخرين للمثلث الحداثي الغربي ، هي المقدمات التي أدت بصورة حتمية إلى تلك النتائج الأخيرة على الساحة النقدية . وهذا منطق لاتستطيع دعاوى عالمية الفكر وإنسانيته أن ترده أو تدحضه . أي أن الحداثة الأدبية والنقدية التي تبنيناها حداثة أفرزتها تغيرات في العلاقات الاجتماعية التي أفرزتها الثورة الصناعية في مجتمعات غير المجتمعات العربية . وهكذا حينما ننقل المفاهيم والمصطلحات الحداثية عن ذلك الآخر المختلف فإننا ننقلها بعوالقها المعرفية ، وهي عوالق فلسفية في جزء كبير منها، فتجيء تلك المفاهيم والمصطلحات غريبة عن الثقافة العربية ، من ناحية ، وتزيد من عزلة الحداثيين العرب وتحولهم إلى نخبة ثقافية يخاطب بعضهم بعضا في ابتعاد واضح عن ثقافة الشارع العربي ، من ناحية ثانية..

هل ينكر أحد مثلا أننا لم نمر بثورة صناعية عربية ، وأننا لحقنا بالثورة الصناعية الغربية من ذيلها ؟ ذلك في الوقت الذي استطاعت قوميات أخرى أن تلحق بتلك الثورة وتتحول إلى قوة مؤثرة في تيار تلك الثورة المستمرة . أليس غريبا أن العالم العربي بكامله ، بإمكانياته المادية الهائل ، لم يستطع ، بعد نصف قرن من الدعوة إلى إنشاء صناعات عربية ، لم ينجح في إنتاج سيارة عربية ، على سبيل المثال لا الحصر ؟ ذلك في الوقت الذي استطاعت دولة مثل كوريا الجنوبية - ولا نقول اليابان - والتي لم يكن لها وجود تقريبا في منتصف القرن الماضي ، التحول من «التجميع» إلى التصنيع وإغراق السوق الآسيوية والأفريقية والأوربية والأمريكية بسيارات كورية الصنع . أما نحن فقد توقفنا تماما عند مرحلة «تجميع» أجزاء المنتجات الأجنبية من كل شكل ولون . إننا في حقيقة الأمر نعيش «ثقافة التجميع» صناعيا وفكريا. لقد اكتفينا عربيا بتجميع المنتجات الصناعية ورضينا لأنفسنا أن نقتات على فتات فكر الآخر ثقافيا .

٢ - مع التسليم الكامل بحسن النية من جانب الحداثيين العرب وبصدق رغبتهم في «تحديث» العقل العربي إلا

أن النتائج جاءت على عكس النوايا بالكامل . إذ أن كل الشواهد ، والدراسات التى ظهرت فى السنوات الأخيرة عن أنشطة أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية فى العالم الثالث منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية خير مثال لذلك ، هذه الشواهد تؤكد أن الاستراتيجية الثقافية كانت تقوم أولا على خلق إحساس لدى الشعوب المختلفة بتدنى ثقافاتها وتخلفها ، ثم تحسين صورة الولايات المتحدة ثانيا ، وأخيرا إقناع تلك الشعوب بتبنى النموذج الحضارى الغربى ، والأمريكى على وجه التحديد ، باعتباره النموذج الأمثل والنهائى . وقد تأكدت أبعاد المرحلة الأخيرة ، أو ما يمكن أن نسميه بالمؤامرة على الثقافات القومية ، فى السنوات القليلة الماضية ، ومنذ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على وجه الدقة . معنى ذلك أن تبنى المشاريع النقدية الحداثية وما بعد الحداثية الغربية كان فى مرحلة مبكرة تمهيدا للتبعية الثقافية للغرب ، وترسيخا لهذه التبعية فى السنوات الأخيرة ، أما الحديث عن عالمية الفكر فقد تأكد للجميع أن هذا على وجه التحديد ما كانت المخابرات الغربية تسعى إلى اقناعنا به طوال الوقت، ولسنا بحاجة إلى ترديد المقولة الاستخبارية الأساسية التى ترى أن مقياس العمل المخابراتى يتمثل فى اقناع «الآخر» بأنه توصل من تلقاء نفسه إلى ما يريدون اقناعنا به .

٣ - منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وما تبع ذلك من غزو العراق فى بداية محاولات فرض النموذج الثقافى والحضارى الغربى الأمريكى على العالم العربى بالقوة ، وتكشف أبعاد ما كان يحدث حسب تخطيط محدد منذ سنوات ، أصبح النقد العربى فى موقف لايحسد عليه . لقد أصبح يعيش حالة الفراغ الكامل . فالحداثيون العرب بدأوا يمارسون - أو بعضهم على الأقل - حالة من الشك فى جدوى النقل عن ذلك الآخر المهيمن . والمتمردون على الحداثة يتعرضون لحملات الاتهام بالرجعية والسلفية من ناحية ، ويعيشون حالة «فراغ» الساحة الثقافية من أية نظرية نقدية عربية ، من ناحية ثانية .

فى نهاية هذه السطور أود أن أؤكد اننى لست ضد الحداثة فى حد ذاتها ، لكننى أرفض نقل الحداثة الغربية إلى التربة العربية دون إدراك لاختلاف الثوابت والمتغيرات بين الثقافات المختلفة . ما أدعو إليه على وجه التحديد هو تطوير حداثة عربية لاترفض الآخر ولا تنفصل عن الجذور ، والحداثة العربية هى «الهوية الواقية» فى عصر أصبحت فيه الثقافة هى خندق المقاومة الأخير ضد الابتلاع . ■

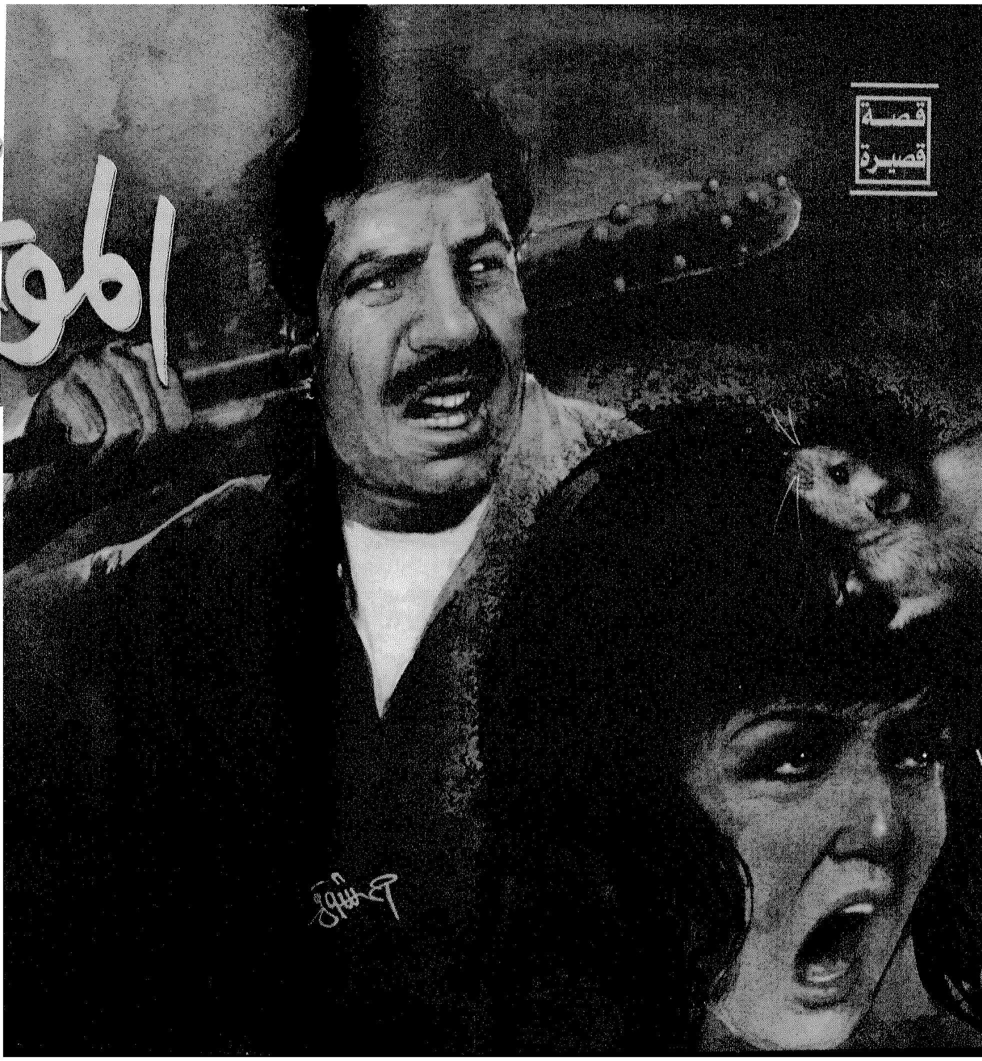

المواجهة

بقلم
فؤاد قنديل

قصة قصيرة

لم أكن أعلم أنه تغلغل فى كيانها إلى هذه الدرجة، وأنه استولى على وعيها ولا وعيها بصورة بلغت هذا الحد من الفزع.

فى عز الليل صرخت:

- ماما..ماما

قفزت من الفراش بعد أن دارت فيه دورتين بحثاً عن سبيل.. لحقت بها قبل أن تقع. لكنى لم أستطع وأنا مفزع ومندهش أن أحول بينها وبين الوقوع على ركبتيها وذراعيها، ورأسها يرتطم بالدولاب ولا أكف عن قولي:

- ماذا بك؟.. ماذا جرى؟

والحقيقة أننى كنت أبذل جهداً جهيداً لأمنع نفسى من الضحك، وأنا لم أتعود أن أمنع نفسي.

ظلت تصرخ:

- ماما.. آه يا ماما.

.. تذكرت أنى حذرتها عدة مرات أن

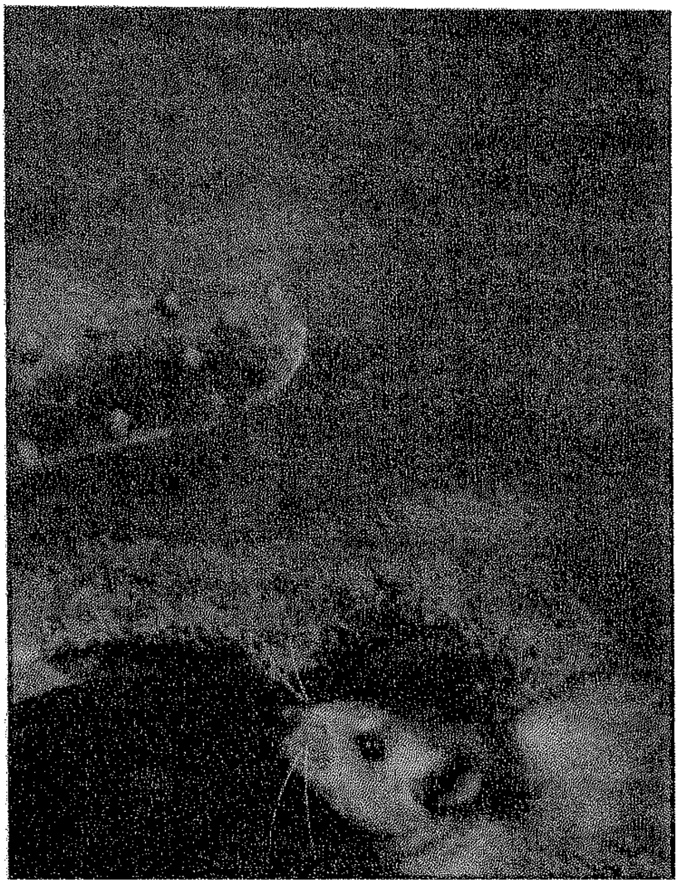

تقـول: يا مـامـا وهـي في الخامسة والثلاثين.. زوجة ولها أولاد وعلى ذمة رجل.

على نور السهراية الشاحب الذى يصلنا منهكا من الصالة عاونتها على العودة إلى السرير، وهى تشعر كأن سيارة مرت عليها.. لاتزال تضع يدها على وجهها فى محاولة لطرد آثار الحلم، وأنا أقول:- خير إن شاء الله.. بماذا حلمت؟

- به.

- من هو؟

- ألا تعرفه؟

- من هو الذى أعرفه وهل كنت معك فى الحلم؟

.. عادت تولول وتقول:

- آه يا ماما.

- ياستى قولى.. ما الذى حدث؟

- كان يجرى ورائى ويصعد على قدمى، وحاولت إبعاده عنى، لكنه صعد إلى صدرى ووجهى، فصرخت..

فهمت وأحسست بالخزى، جلست على السرير لأجمع أمرى.. ألهذه الدرجة أنا عاجز عن قتل فأر يعيش فى الشقة من عشرين يوما وأتركه يتحرك متى يشاء وكيف يشاء.

طعنة بالغة فى رجولتى أن تصل خطورة بقائه وأثره التعس إلى درجة أن تحلم به زوجتى، ثم تصرخ وتحاول الفرار منه وتسقط من الفراش وأنا إلي جوارها أنعم بالغطيط العالى.. كما قالت هى بعد ذلك.

سمعنا به لأول مرة فى المطبخ، فأخرجنا كل محتويات المطبخ قطعة قطعة وقضينا فى ذلك نحو الساعة ورأينا فقط ذيله فتأكدنا أنه فأر، ولكننا لم نستطع الإمساك به أو طرده، فاكتشفنا بعد ذلك أنه انتقل إلي حجرة الأولاد المجاورة، الحجرة مملوءة بالأثاث المكدس، ولا نريد التفريط فيه.. إلى جوار السرير وتحته توجد حلة السمن «وطشتين» غسيل

وفوق الدولاب وضعنا حقائب بها ملابس الشتاء، وطقم صينى جهزته زوجتى للبنت، وبعض الصور الكبيرة والأحذية التى لا يهون علينا أن نرمى بها مع القمامة، ونخجل أن نعطيها لأحد المحتاجين.

فى يوم آخر عكفنا جميعاً للبحث عنه فى حجرتهم، نصف نهار دون جدوى، لأن الفرصة كانت أمامه كبيرة للتحرك والنفاذ إلى أماكن لا يدخل إليها أى طفل ولا أية أداة من أدوات الطرد.

بقى الحال على ما هو عليه.. يقضى نهاره فى حجرة الأولاد حتى منتصف الليل ثم يتحرك إلى المطبخ فيسهر فيه حتى السادسة والنصف بالضبط.. لم يخلف موعده يوما.

كان فى البداية يتنقل متخفيا، فأصبح يمر سريعاً أمامنا ونحن فى الصالة جلوس، وبعد أيام قلت سرعته فى العبور، إلى أن غدا يمضى متسكعا كأنه يتمشى على النيل أو فى بيت أبيه.

فرح الأولاد برؤيته وسموه: فرفر.

أخذ يتصنت ليسمع اسمه وهم ينادونه به، ويتبادلون التوقعات، ولابد أنه سمع الصغير كريم وهو يطلب منى أن أربط له فرفر بحبل ليصحبه معه إلى المدرسة أو مركز الشباب.

لابد أنه سمعهم يتحدثون عن أوصافه. فمنهم من قال:

- لقد رأيت بطنه البيضاء..

وآخر يقول عن عينيه:

صغيرتان كحبتى خرز

أما زوجتى فقد قالت:

- لم أر فى حياتى ذيلا بهذا الطول.

وقال واحد منهم وأظنه الأصغر:

- لقد رأيت أصابعه الصغيرة.. إن يده كيد النونو.

.. منذ عدة أيام حدثتنى قائلة أنها اضطرت لإعادة صلاة الصبح مرتين عندما مر من أمامها عائدا فى موعده من المطبخ.

كانت قد انتهت من الركوع واستعدت للسجود، وكان هو بالضبط يمر فلم تستطع أن تهبط برأسها إلى الأرض، سلمت وخرجت من الصلاة واستغفرت ربها.

لما دخل إلى مقره النهارى.. عادت للصلاة، لكنها فوجئت بطيفه يعود إليها، وتراه من جديد وهو يمر مترنحا ثقيل الخطو، هل كان يعب من زجاجة «السبرتو» الموضوعة تحت الحوض!

لاحظت ذبوله وهزاله وتساءلت:

- ربما لم يجد ما يأكله فى المطبخ؟

قلت:

- على أية حال أنا لا أقدر فى هذه الأيام أن أنفق عليه لدى الأطباء.

صاحت:

- أنا لم أفكر فى هذا.. إنك لا تأخذ الموضوع مأخذ الجد.

فاندفعت قائلا:

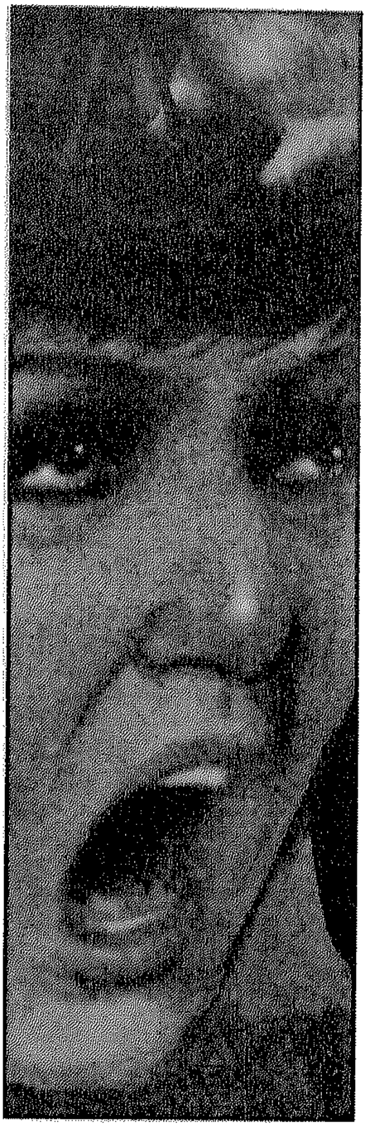

– ولماذا لم تتركى الصلاة على الفور وتضربينه مادام هذا حاله!

تراجعت قائلة:

– أضربه!

– كانت فرصتك للحصول على المجد.

– كيف أقترب منه وهو حى وأنا لو رأيته ميتا لمت رعباً.

تزايد التعاطف الأسرى معه يوماً بعد يوم، ودفع إلى الظلام والتلاشى رغبتى فى التخلص منه سواء بالعنف أو باللين.

الأولاد يتحدثون عنه ويسخرون منه أحيانا أو يعجبون بمهارته ورشاقته، خاصة بعد أن أحضرت مصيدة ووضعت فيها الجبن والطماطم وهو يراها دون أن يعبأ وأحياناً يدخل إليها ويلتهم ما بها ثم يخرج دون أن تفلح فى القبض عليه، الأمر الذى يعد تواطؤاً خطيراً من المصيدة.

كنت قد عزمت إذا قبضت عليه المصيدة أن أشعل النار فيه، ويراه الأولاد ليشهدوا مصير كل من يهدد حياتنا، لكن ذلك لم يحدث..

وضعنا له سم الفئران فى كل مكان.. ودسسنا له التوكسافين فى الأركان ونثرناه على الأطعمة الجذابة، وهو يمر بكل ذلك مرور المتعفف، وقد يتذوق منها ما لا يؤذى المعدة أو يعكر المزاج أو يلوث الشفاه القرمزية، وما لايؤثر على الجسد المشوق والحركة الرشيقة.

كل الحيوانات حتى أحقرها يعلو ويعلو.. يتعلم ويتثقف ويعتبر. إلا المسكين الإنسان.. لم يكن ينقص هذا الفأر إلا أن يلبس بدلى ويتعطر بعطر زوجتى..

أتذكر حركاته وهو يمشى فى هدوء وثقة خاصة فى الأيام الأخيرة قبل الحلم مباشرة.. كانت لحركاته لغة الاعتزاز ومشيته مشية الجنود.. وكان كمونه كمون الواثق لا المتوجس أو المهدد ولا المستنفر..

وكان قعوده قعود المطمئن الذى لا يبالى، وكان– والحق يقال– ذا نظام مستتب كالليل والنهار.

من منا يا ترى تحت الحصار.. هو أم أنا؟

رأيته فى حجرة الأولاد على الجدار هائلا وعظيما..

يلبس تاجا ويرفل فى ثياب تبرق وتنبسط حواليه، وشواربه تطول حتى لايحدها الإطار، تتعلق بصدره النياشين والأوسمة ويده الصغيرة ترتفع نصف ارتفاعة لتحيى فى كبرياء الجماهير التى لابد محتشدة أمامه خارج الصورة.. دائماً خارج الصورة وهى تتلوى من السعادة بطلعته وبهائه.

أحسست أنه سيعيش معنا إلى نهاية العمر وربما يتبعنى وأنا ذاهب إلى الجنة.

هل تراه ضل طريقه ولا يعرف بابا للخروج من المستنقع النظيف، أم أرسله الله خصيصاً إلينا ليبدأ من بيتنا مشروعاً لتوحيد كل مخلوقاته، ودمجها، جميعاً فى مخلوق واحد. الغزالة والفأر وفرس النهر والعصفور.. الحمار مع البرص والإنسان.. الفيل والنمر والذبابة مع البلبل والسلحفاة.. الكل يعيش ويندمج ويتشكل تشكيلا جديداً واحداً متفرداً، ثم تمر الأيام فيصبح أعزل ويائساً وضامرا وتغدو الطريق معبدة للتلاشى والفناء.. ما هذا الهراء، ما هذه العبقرية!!. لعنة الله عليه وعلىّ..

جاء بعض الأولاد من أصدقاء أبنائى بدعوة منهم طبعاً لمشاهدة فأرهم.. فوجدوا صورة لفأر علقتها دينا على الحائط وقالت لهم:

- إن أبى يفكر فى أن يزوجه ليملأ علينا البيت.

وقالت نهى:

- لا أمل إلا بإحضار قطة.

نهى تحب القطط وقد أحست أن القدر يستجيب لرغبتها ويسهل لها الحصول على قطة، إذ بعث إلينا بهذا الفأر البارد الذى لا يحن إلى المناطق الخربة ولا إلى أهله، ويبدو أن له طموحات حضارية ساذجة.

نقل كريم هذه الصورة عن زيارة أصدقائهم إلى أمه، فترسب فى كيانها الموضوع كله كشئ استقر ببشاعته فى حياتها، فكان حلمها الذى هزنى بعنف وأدهشنى أيضاً لأنى تصورت أنه أصبح واحداً من العائلة أو على الأقل هناك رأى عام يوافق على وجوده.

وضعنى الحلم مباشرة فى مواجهة مع الفأر إما أنا وإما هو.. أنا لا أخشاه أبدا، بل إننى أستطيع التقاطه كما تلتقط الحرباء الذبابة.. لكن المطلوب فقط هو أن أراه، فإما أتضاءل تماما إلى أن أصبح فى حجمه وأبحث عنه فى حجرة الأولاد، أو أسهر طيلة الليل فى المطبخ أنتظره لنعقد الحوار اللازم.

الغريب أنه لم يفكر فى تغيير مقره الليلى أو النهارى ولا زيادتها وظل بعيداً عن حجرة نومنا.. حريصاً على عدم استفزازى وبذلك ضمن البقاء.

بعد حلمها المستفز وتأملى مرآة رجولتى قررت

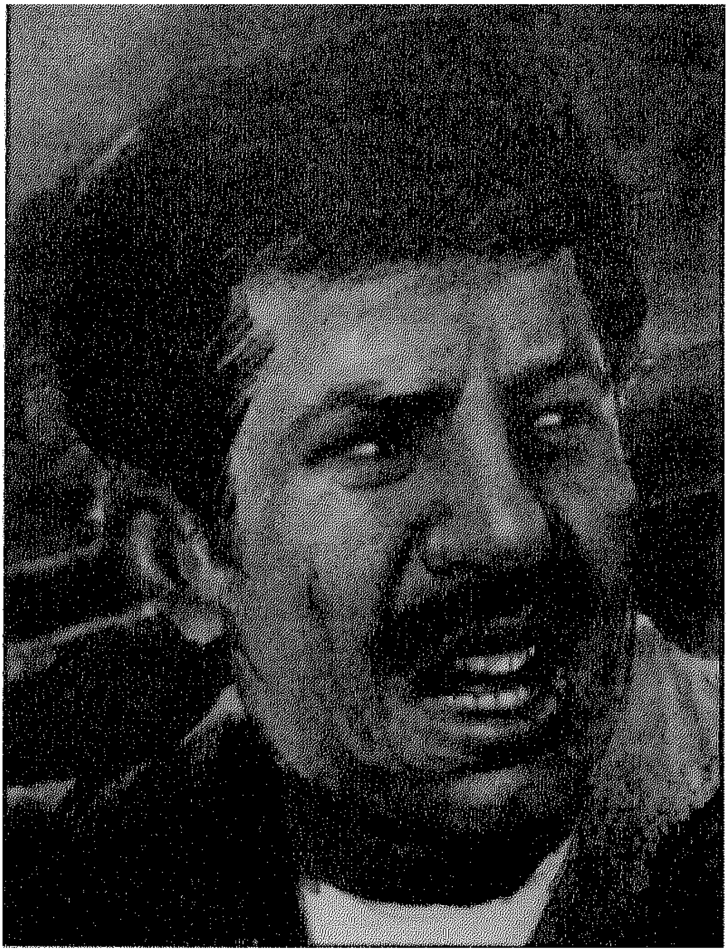

عمل أى شئ لبعث الطمأنينة فى السيدة حرمنا ذات القلب الخفيف، والتى رفضت أن تشاركنى المهمة ولو بصفة مراقب.

الساعة تجاوزت الواحدة.. إذن هو الآن فى المطبخ.. أضأت النور وجلست على الأرض أمام بابه وفى يدى الشبشب وفى يدى الأخرى كوز ماء لإلقائه عليه حال خروجه لإعاقته عن الاندفاع فى الجرى، ثم الانقضاض عليه بالشبشب.. هذه هى الأفكار الحربية وإلا فلا..

أصخت وتسمعت وبعد نحو نصف ساعة من الصمت والصبر والتحدى وصلتنى أول إشارة إنه داخل البوتاجاز، بسيطة أشعلت الفرن وجلست أنتظر وقد رفعت إلى أقصاها درجات الاستعداد.

سمعت ما يشبه حك الأقدام.. مضت الدقائق والحرارة ترتفع ولا يوجد إلا طقطقة واهنة.. ومرت نحو نصف ساعة دون خروجه.. الحرارة اشتدت.. أمعنت التصنت ساعدنى صمت الليل على جلاء سمعى كل شعره فى جسمى وكل عصب يشاركنى الاستماع.

اكتشفت أن ما أتصوره حركة ما هو إلا تأوهات البوتاجاز تحت تأثير النار، أطفأته وانتظرت، ثم فتحت الفرن لعلى أجده مشويا أو حتى مقليا.. لكن مع الأسف.

ذهبت إلى حجرة الأولاد فوجدتها مغلقة بإحكام على غير العادة، إذن هو لم يستطع الذهاب إلى مقره الليلى، ولن أستطيع تحقيق الخلاص بالمأمول هذه الليلة.

دخلت حجرتى أفكر.. لماذا أغلق الأولاد الباب.. تواطؤاً وحرصاً على حياته أم إحساسا بالبرد، أم

سهوا.. هو بالطبع ليس تواطؤاً لأنهم إذا كانوا يحرصون على حياته فسوف يتركونه يذهب إلى المطبخ، حظه.

ألفيت زوجتي منكمشة ومنطوية على نفسها مفتوحة العينين في انتظار الخبر، لكنها لم تسألني لأنها لم تسمع طلقة واحدة ضد العدو.. استدارت وأعطتني ظهرها.. تمددت إلى جوارها أفكر في خطة جديدة لم يكتمل تفكيري فيها.. لأني نمت.

في الليلة التالية وحتى لا تروح على نومة ضبطت المنبة على الساعة الثانية وتأكدت أن الأولاد تركوا الباب مواربا ولو لبضع سنتيمترات.

انشق الوجود كله فجأة ومزقتني صرخة زوجتي، فقفزت مرة واحدة في خفة أسطورية إلى وسط الحجرة وتأملت الموقف.. شهقت زوجتي شهقة الموت، وأشارت بحاجبيها لابيدها كانت قد أضاءت المصباح.

وجدت أمامي الفأر واقفا على قدميه وذيله، كانت له عيون خرزية أراها بوضوح حمراء لامعة وشوارب فضية وفم أحمر مدبب وصغير.. بطن بيضاء وظهر رمادي معتم.

تلفت نحوي ونحوها.. يا نهار أسود، فوق السرير بيني وبين زوجتي، ولابد أن مر عليها وعلي، وإلا لماذا استيقظت.

حاولت أن أتأكد أنه ليس حلما.. وتذكرت سريعاً حلم الليلة الماضية لأزنه فقط.. تيقنت أننا نعيش في الحقيقة.. الحقيقة البشعة بكل تفاصيلها وثقلها ووحشيتها.

تجمدت في مكاني، ووقف هو يحدق فينا، ويتلفت ويعبث بيديه في شواربه، ويفتح فمه الصغير الأحمر كأنه يتثاءب، فأرى أسنانه الصغيرة، ليزداد فزعي من هذا الصغر الغريب في كل شئ وأنا أقبض يدي بشدة فتصرخ عضلاتي تحت لحم ذراعي وأرى يديه مربعة الأصابع بالغة الضآلة فيتعاظم رعبي من هذه الضآلة الشرسة.

كانت زوجتي قد تكورت، وجلست كلها فوق جزء صغير من الوسادة، ويدها على فمها تمنع نفسها من أن تغضبه بأنفاسها، وهو هناك في طرف السرير. وأنا في وسط الحجرة متحفزا كما المارد لكنني أنحني قليلاً لأستعد للخطوة التالية التي لا أعرف بالضبط ما هي.. كنت لا أزال أفتش عن عقلي وأعصابي، وقدمي لا أحس بهما وهما في الأرض مغروستان.

هل كان يا ترى يدرك كثافة المصير؟

أم أنه يراه ويطمئن.

.. كانت ظلاله المهيبة تنتصب وراءه على الحائط، بينما كان يعبث في شواربه ويمصمص شفتيه ولا يعبأ. ■

فى مديح اللعب

بقلم
عزت القمحاوى

الكتابة كالحب ، سر غامض . وبينما يستطيع العشاق أن ينخرطوا فى تجاربهم دون الحاجة إلى تأمل إن كانوا يكررون ماسبق أن عاشه غيرهم أم لا ، يجد الكاتب نفسه مطالبا بإيجاد إجابته الخاصة للغز : ما الكتابة ؟

سؤال صعب ، ولو استطاعت البشرية الإجابة عليه بشكل حاسم لأنقذت عددا من الضحايا على مر التاريخ يفوق ضحايا الحروب .

القراء لايقدمون هذا العون . فعبر تاريخ الكتابة عرفت كل الآداب تقريباً كيف تتشكك فى أصالة الكتب الأكثر مبيعا التى لا تلبث أن تخلد مع كتابها إلى النسيان .. تاريخ الكتابة العربية ليس استثناء فى هذا الأمر ، لكن الوضع اختلف اليوم ، حيث تشترك الكتب الجيدة مع الرديئة فى قلة التوزيع . ولا أعرف إن كان هذا بالأمر السيىء أم الحسن ، فقد جعلت ظاهرة «موت القارىء» الكاتب أكثر حرية ولكنه أصبح أكثر مسئولية أيضا ، لأن عليه أن يجد طريقه فى الظلام التام ، ليس هذا فقط ، بل عليه أن يتفادى العمى الذى يمكن أن تسببه أضواء النقد القادمة من الاتجاه المعاكس .

لايمكن للكاتب إلا أن يستشعر نوعا من الريبة تجاه كثرة من الكتابات النقدية تحاول أن تشد الكتابة بعيدا عن الكتابة ؛ إذ تقفز على جماليات الإبداع وتصنع منه بديلا لنشرة الأخبار ، عندما تتخذ من حجم المعلومات التى تتضمنها رواية أو مجموعة قصصية عن مكان معين أو جماعة بشرية معينة معيارا للجودة .

حتما الكتابة فى مكان آخر ، لأن إلقاء الضوء على حياة مجموعة بشرية او كشف ممارسات اجتماعية أو سياسية أمر يقوم به التحقيق الصحفى بشكل أفضل مما تستطيع رواية ، بينما يستطيع التحقيق التليفزيونى أن يقدم ذلك موثقا بالصوت والصورة . ولا يمكننا أن نتهم بسهولة النقد بمعاداة الكتابة ، ولكن «النقد الصديق» مثل النيران الصديقة فى الحروب ، بوسعه أن يوقع القتلى فى صفوف الحلفاء .

هل يمكن أن نتلمس العون لدى الكتاب المجيدين ؟ ربما يهتدى الكاتب إلى نوع من الحدس الخاص ، من خلال محاولة البحث عن أسباب البقاء فى المبدعات الإنسانية الكبرى : ألف ليلة وليلة، دون كيشوت ، البحث عن الزمن المفقود ، الأخوة كرامازوف ، مائة عام من العزلة ، الطبل الصفيح وغيرها . مع ذلك يبقى الكاتب محكوما بقدره الخاص ؛ لا تضمن مراقبة كل الكتابات الجيدة مولد كاتب مجيد ، مثلما لايمنع وجود أعداد كبيرة من الأولياء القديسين ميلاد مذنبين جدد .

ما الكتابة ؟!

يؤرقنى السؤال كلما تذكرت بإشفاق – مثل دكتاتور طيب – سجنائى ؛ أنصاف روايات وقصص قصيرة مكتملة لا أعرف سر التحول الذى أفسد علاقتى بكل منها ، وأوصلنا إلى هذا الشقاق .

ودون التوصل إلى إجابة ستبقى أبواب زنازينى مفتوحة ، لا للإفراج عن المسجونين السابقين ، بل لاستقبال نزلاء جدد ، فكثيرا ما أجد نفسى فى مرحلة ما من الكتابة مدفوعا إلى التوقف والانصراف عن عمل بدأته ، دون أن أدعى قدرة على القتل تمزيقا وحذفا ، فألجأ إلى الحل الوسط : أتركه سجينا فى ذاكرة الكمبيوتر ، على أمل إما أن يتهذب وينصلح فأستكمله ، وإما أن تتدمر ذاكرة الكمبيوتر فتموت الكتابة فى حادث عارض دون مسئولية منى .

محاولات سرية

هكذا صار عندى عدد كبير من المحاولات السرية وأربعة علنية ، لماذا أفلتت هذه الأربعة ؟ هل كانت هذه المحاولات الناجية محظوظة لأنها وجدت من عطف الأصدقاء الذين قرأوا مخطوطاتها ما جعلها تنجو من مصير التجارب الأخرى ؟ لكن عطف الأصدقاء – رغم أننى أعول عليه كثيرا – لا يأتى إلا عندما أستنفد كل جهودى وأسير باتجاههم بمخطوط كامل بقليل من كثير من الخوف ليقرأوا ويضعوا بأنفسهم حداً لمخاوفى فيصدر الكتاب .

مع ذلك ، ما من ضمانة على أن المنشور هو الأكمل ، مثلما لايضمن أى دكتاتور أن يكون بعضا من أقرب ندمائه أشد عداء له من أخطر مسجونيه .

ما الكتابة ؟

يوما بعد يوم يزداد اللغز صعوبة ويتضاعف شكى فى جدوى ما أفعل ، ولكننى وجدت أخيرا طريقة للتوازن : إن معرفة أوديب لحل اللغز لم تنقذه من المصير المحتوم !

لتبق الكتابة سرا ، ولكن بوسعى أن أتلمس خيطها الهش والرفيع ، كما فى الحب ، من سعادتى الشخصية .. أتأمل محاولاتى فى الكتابة ، واكتشف أن سعادتى تتجلى فى روح اللعب . وأن هذه الروح كانت منذ البداية – ودون أن أدرك – القيمة العليا والشرط الوحيد الذى يحدد نوع ما أكتبه رواية أو قصة أو نصا ، وهى أيضا مايحدد إذا كنت سأصل بهذه المحاولة أو تلك إلى النهاية أم أتخلى عنها فى منتصف الطريق وأحتفظ بها سرا من أسرارى الشخصية . ■

كتابة تحت الحصار

بقلم

سحر الموجي

سمعني صديقي الشاعر وأنا أحدثه عن انغماسي في كتابة جديدة منذ فترة ليست بالطويلة . وكان مندهشا «كيف تكتبين في خضم كل هذه الانشغالات!» . أعرف أنه يعرف جيدا أنني أعمل في أكثر من وظيفة ولكل منها متطلباتها وضغوطها . ولكنني رددت «علي أن أصبح أكثر واقعية وألا أنتظر مساحة من الوقت المتصل كي أكتب» .

ربما لا أستطيع أن أعمم حالتي على زملاء وزميلات في طريق الكتابة الصعب ، ولكنني أعرف أن الكثيرين منهم يعملون كثيرا وطويلا كي يلبوا متطلبات الحياة واحتياجات الكتابة أيضا . متطلبات الحياة هذه نفهمها . أما احتياجات الكتابة فربما تحتاج هذه النقطة لشرح لهؤلاء البعيدين عن المجال

إن معظم كتاب هذا الجيل ينشرون على نفقتهم الخاصة وحتى إن لم يفعلوا فهم لايتلقون منها أى عائد مادى . لماذا يكتبون إذن ! الحقيقة أننا نكتب لأننا نرى الكتابة طريقا للفهم . فهم للذات وفهم للآخر وتعبيرا عن موقف من الحياة . ولأن الكتابة لاتوفر العائد المادى يدعم الكاتب ويجعله يعلن أنه يعمل بالكتابة وتوفر له ساعات من البحث والتأمل يحتاجها كل من يعمل. بالفكر لايصبح هناك العديد من الاختيارات إلا أن تعمل فى وظيفة أو اثنتين حتى تعيش وتكتب .

والحقيقة أننى لا أتعامل مع الأمر بأى قدر من المأساوية أو العويل . على العكس أنا متوائمة مع الواقع الذى أعيش . متوائمة لدرجة أننى أحاول أن أفسح وسط الانشغالات بعضا من الوقت والمساحة النفسة للكتابة . وهذه

الرواية التى بدأتها ولا أعرف إلى أين تذهب بى قد ولدت فكرتها داخلى منذ أكثر من أربع سنوات . أرجأتها حينا حتى أنتهى من رسالة الدكتوراه وحينا آخر لأننى أود الاحتفال بأول وقت أعيه بلا مذاكرة (فلقد وعيت على الحياة وأنا أذاكر حتى تلك اللحظة) وحينا للقراءة للرواية أو لانشغالى فى مشاريع عمل هامة . وكنت مع بدايات هذا العام أشعر أن هذا هو عام كتابة هذا النص . ولكن هل تواتى الظروف «سأجعلها تواتى» . هذا ما قلته لنفسى وأنا متوجسة منى ومن الحياة .

وبدأت أواجه نفسى ببعض المناطق الجوانية لدى التى أحتاج التصالح معها . عددت هذه النقاط وبدأت أواجهها واحدة تلو الأخرى . ربما يتساءل أحد القراء عن العلاقة بين الذات والكتابة . ليس لدى إجابة حاسمة إلا يقينى أننى لن أستطيع كتابة هذا النص إلا بعد أن أخطو إلى منطقة نفسية أنضج وأكثر توازناً مما كنت عليه، كان علي أن انظر إلي السنوات القليلة الماضية وأقيمها وددت أن أري المناطق التى تخليت عنها طواعية والأخرى التى سمحت لها بالتحكم فى ولم أكن واعية بها وربما أستطيع استشراف مسالك أطرقها . وقطعت شوطا فى هذا الاتجاه لدرجة أننى أحيانا كنت أضبط نفسى فجأة أتحدث إلى بصوت عال . صوتى يطمئننى أننى أتصالح أكثر وأفهم أكثر .. وحدثت اللحظة السحرية يوما عندما انتصرت الرغبة فى الكتابة على الخوف من عجزى . وكانت تلك اللحظة فى منتصف إبريل «أقسى الشهور» كما يقول ت.س. إليوت إذ أنه شهر تفتح حيوات جديدة من موات سابق . وجدتنى أكتب .

وجدت شخصيات الرواية تظهر لى فى أوقات العمل وأثناء قيادة السيارة فى حر القاهرة وزحمتها . تصاحبنى حتى مع الانشغال . وتأخذ موقع الصدارة وأنا أعيش بعض الصراعات الإنسانية وسوء الفهم بينى وبعض القريبين منى . وبعد أن يأتى الليل أوقد شمعتين وأعلو مع موسيقاى إلى زمن وشخوص تأتى من داخلى وإن كانت تأخذ وقتها فى التشكل . العتمة المطبقة تنزاح رويدا وتفسح مجالا لملامح ما أن أتبينها حتى أسارع فى تدوينها قبل الزوال . وقبل أن أنام أكون قد خططت لليوم التالى . عمل ومهام لابد من إنجازها ولكن عندما يأتى اليوم التالى وأجد شخوصا وأزمنة تلاحق تفاصيل اليوم العادية أو التى كانت عادية قبل بدء الكتابة يبزغ داخلى يقين أننى بالفعل فى حالة كتابة حتى لو كانت تحت الحصار. ■

تجليات الزمان والمكان لمدينة دمياط في روايتي (الغرق) و (نوة الكرم)

بقلم
نجوى شعبان

في شهر مسري/ أغسطس بينما تميل شمس العصاري كانت النسائم القوية تذرو الرمال الناعمة وتفتت الأصداف لتلقيها علي مصد أنشأته إنشاء وهي الكثبان الرملية الهلالية في مصيف الجربي بدمياط حيث ستبدأ جدتي دفن جسمها في حمام الرمل لعلاج الروماتيزم، استأنفت الجدة حكايتها وهي تنضو بعض ثيابها في حجرة حفرت في بطن الكثيب..

تجتر ذكرى مواسم الفيضان العفية الزاخرة بأسراب سمك السردين السمينة، مع مؤانستى لها تلتمع عيناها حنينا، يتصبب وجهها وجسدها عرقا فى الدفن.. تقول كطفلة فرحة أنها رأت «الدرافيل» فى موسم السردين الذى يعكس أضواء خافتة على سطح كل من البحر والنهر على حدة وأيضا بعد اختلاط مياههما فى لسان رأس البر، وتحكى عن طيور النورس التى تظهر فى سماء دمياط فقط فى هذا الموسم .

أينما وليت وجهك تجد المياة تضمك فأنت فى دمياط، التى نحت أسمها من «الماء باللغة الهيروغلوفية» تم آتى «أى مدينة المياه أو مدينة مجرى المياه» وقبل قرون كانت ذات ثغرين : نهرى وبحرى كشبه جزيرة يحدها شمالا بحر الروم/ البحر المتوسط، نهر النيل، بحيرة المنزلة، ويا لثرائهم جميعا، فالصيادون القدامى كانوا يرتجفون فرقا لدى انبثاق نافورة من النيران على فترات متباعدة فى بحيرة المنزلة ويرون هذا من أعمال الجن والشياطين، غير منتبهين إلى أن رائحة النيران تشير إلى النفط المخبوء فى قاع البحيرة، وفى الملتقى الثقافى الأول الذى عقد بمحافظة دمياط فى شهر سبتمبر الماضى يؤكد نيافة الأنبا بيشوى مطران دمياط مكتنز بالآثار القبطية.. أما البحر فهو انفتاح على العالم ومكمن التعرض للغزو والغارات.

لما كبرت قليلا، حدث أن صعدت سلالم حجرية مرهقة لبيت حجرى عتيق وعال يعود إلى قرون مضت دلفت إلى شرفة فى الدور الأعلى، فشعرت بشئ غريب: تتغللنى بهجة ساكنة وإحساس لم أسمه يومها - الحرية- وبأنى أعرف أشياء لم يسبق لى أن سعيت لمعرفتها حقا، .... و .... وأن هذه اللحظة لن تتكرر كثيرا ولأنى أفكر بمنطقية اعتبرت أن المشهد البانورامى لمدينة دمياط الذى يبدو

واضحا من الشرفة هو السبب، غير أنى بدأت السؤال والاستفسار والقراءة، ولم يكذب حبورى أنذاك فخلفى فى هذا المشهد كانت تقع قصبة الثغر فى القرن السادس عشر ومسجد البحر والوكالات والقيساريات التجارية والخانات ومكاتب القناصل الأوروبية بدمياط وبحذاء النيل البيوتات الثرية لأعيان دمياط: كبير التجار، القاضى، كبير الصاغة، يهودى الجمرك أرمنى الصرافة قبودان ثغر دمياط، وعلى مدى الشوف «سوق اللبن» القديم وبه كنيسة «مارجرجس» التى بنيت فى القرن ١٧ تضم عظام القديس مارجرجس مزاحم، عن يسارى يقع سوق الحسبة الذى لايزال يحمل اسمه حتى الآن حيث كان المحتسب وشيوخ الطوائف كافة، هذه الطوائف التى اقتضتها الحاجة من قبل الحرفيين فى مصر والتى كانت تعد شكلاً أوليا لممارسة ديمقراطية من بئتنا، وفى البعيد تربض أوقاف السلطان قنصوه الغورى فوق جزيرة القصبى التى طمرتها الفيضانات... وثمة خليج يخاصر المدينة ويصب قرب قرية شطا.. البيت الحجرى فى طفولتى أعاد لذهنى الأحجار الضخمة التى ألقاها الظاهر بيبرس لإغلاق مدخل مصب دمياط أمام السفن التجارية الكبيرة تحسبا من أية هجمات حربية بعد الصليبيين فدمياط هى مفتاح النيل الموصل لقلب مصر .. فى هذا كله أحب دمياط التاريخ، إذ كانت مدينة كوزموبوليتانية وبها ثغرين تجاريين وتضارع مدينة البندقية آنذاك تعرف بنسيجها الدقيق كالحرير والقباطى وكسوة الكعبة المشرفة وقلعة عسكرية حصينة صدت الكثير من هجمات الصليبيين التى أرخ لها، وغارات القراصنة التى لم تسجل بوضوح فهى فى حكم المهمل والمهمش، ولأن الأهالى من البحارة هم من يتصدون منذ ما قبل الميلاد وحتى عصر الحكم العثمانى للقراصنة.. فليس من المستبعد أيضا أن يكون من بين سكان المدينة قراصنة، وبخاصة أن حركة القرصنة فى بحر الروم كانت تعكس بدقة مدى توازن أو اختلال القوى لدول فى حوض البحر المتوسط، ولا ننسى الأصول الشامية (الفينيقية) والقبرصية واليونانية لأهل دمياط .

لما تراجعت قيمة دمياط بعد حفر ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ على أيام محمد علي، تكاثفت الخسارة بحفر قناة السويس وقيام مدن بورسعيد والإسماعيلية.. لكن تاريخ دمياط وجغرافيتها يرشحانها كمكان لايتطلب الضعف واليأس والاستسلام فأبدعت عقول أهل دمياط صناعات جديدة كصناعة الحلوى والأحذية وتحول كل بيت إلى مصنع صغير لغزل الحرير، وحتى التربة استفادوا من عيوبها بزراعات غير نمطية... إنها مصر مصغرة... ولننظر تحايل البطلة «ليل» كي تكسب عيشها فى ظل ظروف اقتصادية ضاغطة... وإذا طفح الكيل تتمرد شخصيات الرواية وناس دمياط عبر النقش بالأنامل وبالروح، بالنقش سواء على المخبوزات على الخزف، على أقدام الناس وعظامهم، الكتابة وصناعة الأحبار، كبعد وجودى وإن لم يؤتيا أثرهما الفورى أو القريب تمردوا عبر النزق كما فى ليلة يوم القيامة فى الخرابة التى حاوطتها المياه فيما بعد لتندثر، فى هذه الليلة سخر الدمايطة بخيالهم الطافى من السلطان والوالى وكبار العسكر العثمانية بتقليد لبسهم الخلع السلطانية من فرو السمور، وأبرز المشوهون عيوبهم الجسمانية بفخر لا يدانية سوى عشق نرسيس لجسده

وجماله ولم ينسوا الرقصات المعربدة فى ضوء القمر الفضى.. ثملوا وانسلطوا عاشوا لحظة خارج زمان الوعى والمنطق، لحظة في بؤرة منطقة الظل والعتمة فى الجماعة: لاشعورهم ميتافيزيقا البحر تغمرني بتجلياتها اللانهائية فى شعابه وفى أعماقه، فى طيات تياراته، فى صخب وسكون أمواجه، رياحه، وأنوائه، فهل دخلت عرض البحر بعبور مياهه المعتمة أحيانا، أم كررت لفظة البحر ٦٥ مرة عبر صفحات الرواية علنى أتوحد مع موسيقاه الآداجو والكريشندو فى حركة الأمواج أصف أنواء الكرم (موجة واحدة كالجبل داهمت سفن القافلة فردمتها، بعثرتها، أهاجتها ففقدت الاتجاه والتوازن، انفتح كهف داخل الأمواج، فظلت تدور حول بعضها، حتى توقفت الرياح والأمطار واصطخاب الأمواج مخلفة البرد القارص، أحدث ارتطام سفن القافلة ببعضها البعض خسائر أفدح من أنواء الكرم نفسها، تتطوح سفينة لتأخذ اتجاه العرض فتأتى أخرى مندفعة تضربها فى منتصفها لتتحطم وتغرق فى حين تتهشم مقدمة الثانية وتتسرب المياه إلى جوف السفينة.. كانت سفينتنا الأحسن حظا، إذ لفظت إلى البحر كل مئونتها والبضائع فى الخن وبعض البحارة والتجار ثم استوت متوازنة ثم مالت يمينا فانزلقت اندفاعات الأمواج إلى البحر من جديد.

وفى الحلم الرئيسى فى الرواية يعن للبحر أن ترسم خطوط القدر عبره (آمال رأسه فى إغفاءة مباغتة، فزع منها غيث وقد ظنها أعواما، رأى نفسه يطفو على سطح البحر وحيدا، والطريق إلى رودس لايزال طويلا .. طويلا هل سيقطع هذه المسافة سباحة فى هذا الشتاء القارس، يرتجف من صقيع المياه .. هاهو الآن فى رودس يبحث عن نور الدين، النار تلتهم الجزيرة، ما إن تقع عيناه على مبنى حتى تدكه النيران، يترك الحى المحترق مخلفاً وراءه أسواره وبوابته وقد ضربتها الصواعق، يتجه إلى جبال قريبة : إنه الطريق، البيوت مخفية وسط تدرجات الجبل، حتى هذه تشتعل ورأى دار صغيرة ذات قبة باقية على حالها يقف على بابها صبى، أشاح بوجهه إلى جهة أخرى، ثم صرخ : كيف لم أعرفه، إنه نور الدين، عاد ولم يجد الدار ولا الصبى).

وفى هدوء قبل الكارثة (على صفحة ماء ساكن بلا زبد، ضربت مجاديف سفينتنا على غير هدى فى الظلام السمع الرهيف للمجدفين أيقظهم من سبات الاطمئنان، فأبلغوا الربان .. أمر بدوره بإيقاظ الأعور الذى صعد إلى سطح السفينة، رغم أن له عينا واحدة، كان ذا قدرة لاتوصف على الإبصار فى الظلام، إذ ينظر إلى الشئ من جانب عينه مما يعطيه صورة أوضح من توجيه النظر المباشر للشئ ينظر الأعور فى اتجاه الظلمة البعيد، وحرك عينه المبصرة الوحيدة ذات اليمين وذات اليسار وإلى أعلى وإلى أسفل، ثم توجه إلى القائد) .

وكما نصح جدى حفيده ذات يوم بعيد فى طفولتى، استدعى غياث فى نوبة إغماءة الترجمان مع أصداء التراتيل، شأنه شأن معلم يقول ياولدى الموج أنواع ثلاثة مثل مواقف الحياة الصعبة، موجة عالية، عالية كجبل تظنها غادرة، تتراجع إلى الوراء فتضربك بعنف، فقط لو وقفت مكانك، فإنها ستتجاوزك، ويتلاشى هياجها وتصبح ساجية حال مرورها بك .

حاول غياث الوقوف فى الماء، شعر كأن دوامة تسحبه إلى أسفل، ففزع وجدف بطاقة الهلوع ياولدى، ثمة موجة عالية، إذا تراجعت للوراء أكلتك، ولو قذفت بنفسك داخلها، وتركت نفسك للتيار ستنجو حتما، اقتحمها واسبح مع التيار، ليس ضده .

فعل غياث ما أوصاه به الترجمان فوجد نفسه مبتعدا كثيرا عن سفينة

القراصنة والتى تراءت كمنقذ وحيد ودونا حتف محتوم .

يا ولدى الموجة الأخيرة صاخبة عنيفة كالقدر الذى لامفر منه، فارم صيدك من السمك وأدوات صيدك ركز اهتمامك على الحفاظ بيديك على دماغك ورقبتك ستقصد الموجة العنيفة دمك، ستصدمك بالصخر ويمتلئ جسمك بالجروح والرضوض لكنها لو تعرف : أقل الخسائر .

ياولدى، لاترفس فى البحر الرفس انهاك للطاقة واهدار لها، وثمن فعل هذا جد باهظ .

وإذا كانت جدتى تنتظر النوارس فى موسم الفيضان والسردين، فكان طائرى الذى تعلقت به هو «الغر» طائر مهاجر ألوانه بين الأبيض والأسود يأتى من شمال أوروبا إلى سواحل مصر الشمالية سعيا للدفء ، ومع توقى لمشاهدة أسرابه كنت أخشى أن يقع ضحية إرهاق طيرانه آلاف الأميال فيجرى صيده بسهولة ببنادق الرش أو شباك الصيد بنبات المخيط الذى يفرز مادة صمغية يلتصق بها الغر الذى اتخذته عنوانا لروايتى الأولى كرمز إلى الارتحال والاستقرار معا، وكل شخصيات الرواية كذلك: مهاجرة، مرتحلة ومقيمة فى «الغر» اهتممت بشخصيات لم تنتزع فقط من أوطانها، بل وليس ثمة أمل فى العودة إليها، مثل الصديقة الأرمينية لصافيا الجدة التى كانت تعمل بالتطريز الذى يمنحها مأثرة معرفة الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمرأة من درجة تطريز ملابسها .

لهذه الأسباب كتبت الروايتين عن مدينة دمياط/ التاريخ، ليس لأنها مدينة طفولتى التى تختلف كثيرا عما قلته آنفا، فتاريخ على هذا النحو يأتى بحمولته من الغواية بالحرية وارتياد المنطقة خصيبة غير مجرفة فى فن الرواية .. وأهدانى مولد الست دميانة/ سانت دميانة وبعض ممارسات الورع أو الهوس الدينى الذى يصل حد الإغماء، أهدانى بعض مفاتيح لشخصية المتطهرة آمونيت .. وإذا كان التاريخ لا يعيد نفسه إلا لمن لم يقرأه جيدا، من هنا أرادت هذه الشخصية أن تبتعث الأجل والأجمل والأجدى، حتى لا نعانى مجددا من القطيعة المعرفية عن ماضينا التى أرهقتنا ولاتزال، لنتساءل كل يوم عن هويتنا!!! أصرت آمونيت على أن يدون الترجمان العامية القبطية وفق ما تنطقةهامرأة عجوز فى الصعيد ونقل هذه إلى العامية العربية، أو بشكل أدق العامية المصرية .

وهنا استعير وصف د. ثناء أنس الوجود فى وصفها لدمياط فى الرواية بأنها «واسطة عقد» من حيث المكان ففى لحظة تاريخية فى القرن السادس عشر يمتد فضاء الحكى من دمياط إلى المشرق وتمتد إلى الصحراء فى الغرب وإلى القسطنطينية وإلى البحر المتوسط (بحر الروم) وتنزل ناحية الجنوب فى الصحراء حيث القبائل الذاهبة للتجارة شمالا وجنوبا، وحيث قبائل الحجيج.. فى مسعى لفتح نوافذ الحكاية على أكثر من هواء لكى يدخل لاقتناص اللحظة ومحاولة الاحتفاظ بها.. هل اللحظة مهددة حتى أستطيع أن أقتنصها؟ إن الوجود مهدد، ومهدد فى العمق، والحضارة موجودة ولكن عملية النقش تعمقها .

أخيرا أقول لو سألونى عما كنت أبغيه فى مستقبلى المهنى كبديل للصحافة والكتابة، لرددت من فورى :

– العمل بالبحر .. بحار/ بحارة ؟

– ممكن

– قرصان/ قرصانة ؟

– جائز .

– دولفين ؟

– عز الطلب . ■

ذلك الشيطان الذى بداخلى

بقلم
محمد إبراهيم طه

(١)

لايمكننى بشكل محدد أن أرصد متى دخلت عالم الأدب، فإن ثمة إرهاصات وعلامات لايمكن التغاضى عنها، كالذهاب إلى الكتَّاب مبكراً، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وإجادة بعض قواعد اللغة العربية، والنشأة فى عالم قروى لامحدود، خصب وثرى ينهض أساساً على الحكى: من السمر وحواديت الجدات الخرافية إلى السير الشعبية والليالى الدينية.

وليس من قبيل التباهى أيضاً أننى لا أعرف إن كانت بواعث الكتابة هى الشغف بأطباء دخلوا عالم الأدب، أم هى أحلام اليقظة التى كنت أسرح فيها طويلا متخيلا نفسى كاتباً، أم هى المفارقة، لأن ولدا ولد وتربى فى قرية، ونزل ترعها وأنهارها وجرى على مدقاتها وامتهن مرغما جميع الأعمال الحقيرة ثم تطلع ذات يوم لأن يتم تعليمه ويدخل كلية مرموقة ويتزوج امرأة بيضاء وينجب أطفالاً ويبنى بيتاً، لتكون المفارقة بين الواقع والطموح هى الباعث على الكتابة، غير أننى لم أعد أميل إلى هذه النظرة فقد فتر - منذ وقت طويل - شغفى بالأطباء الأدباء، وتخطيت أحلام اليقظة، وزالت أسباب المفارقة، ومازال الكائن الذى بداخلى - والذى لا أنتبه لعبثه كثيراً - يفاجئنى بنسجه الدءوب لحكايات لا أملك إلا أن أنظر إليها وابتسم.

(٢)

(أغنية للنهر) قصتى القصيرة الأولى المكتملة الأركان والتى كتبتها منبهراً بهذا الاكتشاف: إن البساطة فى اللغة والتناول ليست بالضرورة مرادفاً لبساطة العالم الذى تحكى عنه. فبإمكانك تناول أعقد العوالم والقضايا بذلك التناول البسيط. كان ذلك فى منتصف الثمانينات، وكانت تحكى عن طفل قروى فى كتَّاب الشيخ يعشق النزول إلى النهر، بينما يحظر سيدنا - ضمن مئات المحظورات - النهر على صبية الكُتَّاب. ولأن الأمر جد لا هزل، والكتَّاب ليس سويقة، فإنه يرسم نجمة على ظهر الولد، فإذا نزل النهر انمحت، عندئذ يأمر فيوضع الولد فى الفلكة، والفلكة لمن لايعرف هى أقسى أداة للعقوبة عند سيدنا، وهى عبارة عن خشبة بها حبل توضع قدما الولد فيها ويبرم الخشبة ولدان قويان ويرفعان حتى يحكم الحبل

الخناق على قدميه اللتين تصيران فى مواجهة سيدنا فينهال بعصاه الطويلة بشراسة. انضرب الولد ورسم سيدنا النجمة، لكنه حاول عصر ذات اليوم النزول إلى النهر كى يبرد قدميه الملتهبتين فى مائه الأخضر حيث لاثعابين ولاجنيات، إنما فقط عشب أخضر. تنمحى النجمة فتمتد يده التى صارت مدربة إلى آخرها ليرسم بنفسه النجمة على ظهره، غير أنه لايلبث أن ينتهى حتى يأخذ أنفار الشيخ العائدون هدومه، لتوصيلها إلى زوجة أبيه ويمشون به إلى سيدنا، وحين يعود عارياً تهدده زوجة أبيه بأنها سترسله من باكر إلى حقول الشيخ، وأنها ستقول لأبيه، فيدخل عاريا أسفل الحرام الصوفى لتنتابه الكوابيس فيضربه الخولى بالعصا حين يتباطأ فى جنى الشيخ، يهرب فيطارده سيدنا بشكله القبيح وزوجة أبيه فلا يجد مفراً سوى القفز فى النهر، ليصحو على الدماء تملأ وجهه وهو مكوم أمام الفرن.

أغنية للنهر كما يبدو لأول وهلة من عنوانها توق إلى التخلص من قهر سيدنا وسلطة زوجة الأب وسلطة الخولى، ورغبة ملحة فى ممارسة الحياة بحرية تامة حتى ولو كان ضربه أو غرقه ثمناً لهذه الحرية. لكننى كنت معنيا بتقديم مفردات عالم القرية كما هى مستكشفاً الجمال الخفى فيها.

التقنية بسيطة : سرد بضمير المتكلم من خلال خمسة مقاطع على لسان طفل، ولغة بالغة العذوبة والصفاء والبساطة، فصحى فى السرد وعامية ريفية فى الحوار.

(٣)

فى منتصف التسعينات تجمعت لدىّ مجموعة قصصية أسميتها : (توتة مائلة على نهر)، وكنت سعيداً أيضاً بهذا الاكتشاف : إن عذوبة التناول هى الأفضل فى مقابل قسوة الواقع، فحرصت أن يسيطر عالم الريف لأننى أقف منذ فترة طويلة فى منطقة بالغة العذوبة والثراء وهى عالم القرية، الريف بموروثه الشعبى وشوارعه الضيقة وحاراته ومقابره ومدقاته وترعه، وكنت أحاول أن أثبت مقولة مفادها أن عالم الريف مازال قادراً على إثارة الدهشة، ويصلح منفرداً لأن يكون بناء لأعمال درامية وروائية دون الاحتياج إلى عالم المدينة.

وكنت مهتماً فى هذه المجموعة بإدارة الصراع بين العلم من جهة والأسطورة والخرافة والموروث الشعبى من جهة ثانية، فاكتشفت فى قصة « عقد عقيق » وأنا أدير الصراع بين الطب الحديث والطب الشعبى الريفى، من خلال طبيب أمراض نساء وقابلة، تلك الخاصية الفريدة للقرية المصرية التى لايتعايش فيها العلمى بجوار الأسطورى والخرافى فقط بل يتداخلان ويتضافران بشكل لاينبىء فى القريب عن إزاحة أحدهما للآخر.

(٤)

كشف الشيطان الذى بداخلى نفسه حين لفت نظرى إلى أن (توتة مائلة على نهر)، المجموعة الأولى لم تتسع لما أردت قوله عن الريف، لطبيعة القصة القصيرة التى لاتسمح للكاتب بالغوص داخل مساحة عريضة وإعطاء صورة كلية، فجاءت (سقوط النوار) التى اتبعت فى تقنيتها بناء يطلق عليه سمير درويش بنية نقطة الارتكاز، وهى قصة صغيرة تدور أحداثها فى الزمن الحاضر، ينطلق منها السرد إلى الماضى ويرتد إليها كلما تطلب الأمر، وهى بنية أتاحت لى تناول فترة طويلة جداً ، أغوص من خلالها فى ردهات الماضى البعيد والقريب وانتقل

بانسيابية ونعومة عبر الأزمنة والشخصيات والأحداث دونما تقيد بتتابع أو سببية، خاصة إذا كان الارتداد للخلف في الرواية هو الهدف ، واستيعاب هذا الكم من الأساطير والطقوس والموروثات الغرائبية، عندما يلتقى طالب فى كلية الطب بزميلة له ويعيش معها علاقة حب، تتكشف أثناء تنامى هذه العلاقة أشياء مبهرة حين يحكي عن قريته وعن جدته بغداد وأبيه عبدالفتاح يونس وخاله عز الرجال، عن الكتّاب وعن سيدنا وعن المقابر والقراءات والرواتب ، وعن مقامات الأولياء وعن أمه رحمة، ويتضح من خلال السرد أن مريم الحرايرى سورية من أب سورى وأم مصرية، ولدت أيام الوحدة، وبعد الانفصال عاد أبوها إلى سوريا، وطلقت أمها لتتزوج بآخر فتعيش مريمْ وحدها بعيدة عن الأم والأب وتتعرض مريم لأزمة صحية إذ تصاب بسرطان الدم ولا يكون ثمة أحد بجوارها سوى الراوى، ولا يكون ثمة ملجأ سوى الهروب إلى الماضى بحلاوته، حيث خاله عز الرجال ذلك الولد الأسطورى الذى يفعل أشياء خارقة، فيعوم عكس التيار، ويتسلق الشجر كأنه يتسلق السلم، ويبنى أفراناً، ويجلب الحناء لأول مرة إلى القرية، ويختن الجمين، ويخرج فى أول سابقة من الكتّاب وحده دون أن يكون باستطاعة أحد إعادته إليه، حتى أنه يتماهى مع شخصية جمال عبدالناصر فيحتفى يوم موته. لا يتوقف عند ذلك، بل يهيأ للراوى حين يتمشى أمام جامع جمال عبدالناصر فى شارع الخليفة المأمون أنه لو حدق بداخله سيجد خاله واقفاً عارى الصدر مكللا بالصفصاف يتقاطر الماء منه كأنه صعد لتوه من النهر يبتسم. كما تجتر مريم الحرايرى ذكرياتها عن أبيها المحبط لانتهاء الوحدة، مقارنة بين ماض جميل وحاضر قبيح يطالبونها فيه بدفع مصاريف الدراسة بالدولار لأنها ضمن الأغراب، وتتزوج أمها من رجل يبالغ فى كراهيته لها حتى أنه يسمى مولودته من نفس الأم مريم، وكأنه يريد مريم أخرى خالية من العقد والمشاكل. يزداد المرض وتتفاقم الحالة حتى أنها تقرر الذهاب مع الراوى إلى قريته لتسقط كنوارة بين الحقول رافضة العلاج من مرض نهايته محتومة، سعيدة بعلاقاتها الجيدة مع أناس يحبونها وقرى تكتشفها.

(٥)

كلاهما كالفريك لايحب الشريك الروائى الذى بداخلى والطبيب، وأيهما – على انفراد – بإمكانه ابتلاعى طول الوقت، سواء بالقراءة والدراسة والتدريب الطبى المستمر، أو متابعة الإنتاج الأدبى فى مصر والعالم العربى والعالم ثم اقتناص الوقت للكتابة، وكم هو شاق وأنا بينهما أتنقل، طبيب نصف الوقت وأديب نصف الوقت، متعتى فى عذابى، وعذابى فى عشقى الجامح لضدين يتنازعاننى طول الوقت .

(٦)

يعيش الروائى داخلى فى عالم معتم، غائم وغامض يستعصى على الوصف والشرح والتفسير، يفتقر إلى السببية أو المنطق، عالم كبير لكنه مغلق كصندوق بدائى مفعم بالهواجس والخيالات والأساطير والخرافات والأفكار الشاردة، يحاول أن يتوصل إلى القوانين الخفية التى تحكمه والوصول إلى المنابع الحقيقية للحكمة والروح والعقيدة، فينطلق إلى المستقبل بنفس السهولة التى ينطلق بها إلى الماضى، ويطوف فى أرجاء هذا العالم دون اعتبار لحواجز أو حدود حين يغافلنى كشيطان ويمتطى أياً من

الأساطير أو الخرافات التى تجابهنى كل يوم ولا أنتبه إليها، بدءاً من إغلاق زوجتى باب الحمام جيداً حتى لاتخرج إلينا العفاريت. إلى تمتمة أمى بالرقية وتلاوة التعاويذ خشية الحسد، التطير من بعض الألفاظ والكلمات العابرة، وزلات اللسان، مروراً باعتقاد الباعة فى أول بيعة حتى ولو كانت بسعر زهيد وسعيهم الحثيث إلى إتمامها وعدم رفضها الذى قد يعنى نذير شؤم للبائع ، إلى المشاهرة التى لاتؤدى إلى جفاف اللبن فقط، بل جفاف الجسم كله، والإصابة بالعقم، ويتتبع قوة المعتقد الذى لايخالطه الشك بدءاً من ختان الإناث والصد وإمكان الأذى والربط والسحر إلى تنبيهى حين أتوجه إلى النوم أن لايكون اتجاه رأسى إلى القبلة التى لايدار المرء إليها إلا فى الموت.

كمهتد فى ليل صحراوى بالنجوم، يقتفى الروائى الذى بداخلى هذه الخيوط المراوغة ، ومعتبرا أن أى عمل روائى يخلو من الجاذبية والإدهاش لايعد عملاً ذا أهمية ، فيتجنب الاستطراد ويجعل السرد مكثفا ويضفر بلا اصطناع الموروث الشعبى والتاريخى والدينى بأجواء الرواية، ويقدم الإنسانى على الأيديولوجى، ويقدم الواقعى الذى لايتاخم الأسطورى فقط بل ينافسه، فلا يشعر المتلقى أين ينتهى الواقع ولا أين تبدأ الأسطورة .

لم تكن الرؤية واضحة منذ البداية كما هى الآن، لكنها مرت بمحطات ومراحل، فبعدما كان الروائى بداخلى شغوفا وسعيداً باكتشافه أن البساطة فى التناول ليست دائماً مرادفاً لبساطة العالم الذى يحكى عنه فى «توتة مائلة على نهر»، أو أن عذوبة التناول هى الأمثل فى مواجهة قسوة الواقع فى «سقوط النوار»، انتقل فى «الركض فى مساحة خضراء» انتقالا مشروعا تحت وطأة الملل وخشية التكرار إلى محطة أخرى، عندما اكتشف أن الأخذ عن الواقع وحده مهما كانت عذوبة التناول وبساطته لاتكفى، وأنه وهو المهموم بمتعة القراءة والإدهاش رأى أنه يجب أن ينتقل الآن إلى محطة أخرى، كانت لها إرهاصاتها فى أعمالى الأولى، ألا وهى إفساح المجال أكثر للخيالى والأسطورى، فجاءت «الركض فى مساحة خضراء» جامعة بين قصص واقعية تنتمى إلى المرحلة الأولى، وقصص أخرى بها تلك المسحة فوق الواقعية، إلى أن وصلت الذروة فى روايتى «العابرون» تلك التى اختلفت تماماً عن سقوط النوار، فى العالم والأشخاص واللغة والرؤية، حيث خيم ذلك العالم الروحى والخيالى والصوفى والسحرى والخرافى غير المحدود، فاختلط السحر والشعوذة بالكرامات والمشاهدات، والحلم بالواقع ، والمعراج الروحى بعوالم من الجنون والتشوش.

باختصار، يرى الروائى الذى بداخلى - والذى بإمكانكم الاتفاق معه أو الاختلاف - أنه لاتوجد رواية جديدة، ، منقطعة الصلة بالمنجز الروائى، بل إنه يرد ببساطة أشد الروايات تجريبياً وأكثرها قطيعة مع الماضى إلى كتابات أخرى سابقة مصرية، أو عربية أو عالمية. لاتوجد رواية جديدة تماماً، إنما رواية تتسم بسمات خاصة ومميزة، خاصمت الترهل، واعتنت بالبناء واللغة، واستفادت من جميع الأساليب الروائية السابقة، بنفس القدر الذى استفادت من السينما والفنون التشكيلية والمسرح والصحافة، أكرر، لاتوجد رواية جديدة وإن وجدت أصوات جديدة ومميزة . ■

تأملات فى الفن

المصرى الحديث

بقلم
د. صبرى منصور

ستظل هناك حاجة دائمة إلى مراجعة الإبداعين الفنى والثقافى للأجيال السابقة، والبحث عن عناصر التميز والأصالة فيهما، ولن يتكون لمصر بنيان ثقافى متصل الحلقات إلاّ بتراكم العوامل الإيجابية لهذا الإبداع جيلا بعد جيل. وأشدّ ما يدعو للقلق فى مسيرة مصر الثقافية - منذ بدأت صحوتها فى مطالع القرن العشرين - علامات الانفصال عن ماضينا الثقافى القريب وما تم فيه من خطوات بناءة، ناهيك عن ماضينا البعيد الذى لا يكترث به المصريون ، فلا يمثل لهم قيمة ولا يحتل أدنى مكانة فى وعيهم الثقافى، وذلك الانفصال فى رأينا كان سببا فيما تعانيه الحياة الثقافية فى مصر اليوم من انكسار وتدهور تفصح عنه ظواهر عديدة ليس فى مجال الفنون التشكيلية فقط وإنما امتد إلى حياتنا الفكرية والثقافية .

«منظر» للفنان حسني البناني - عام ١٩٦٤

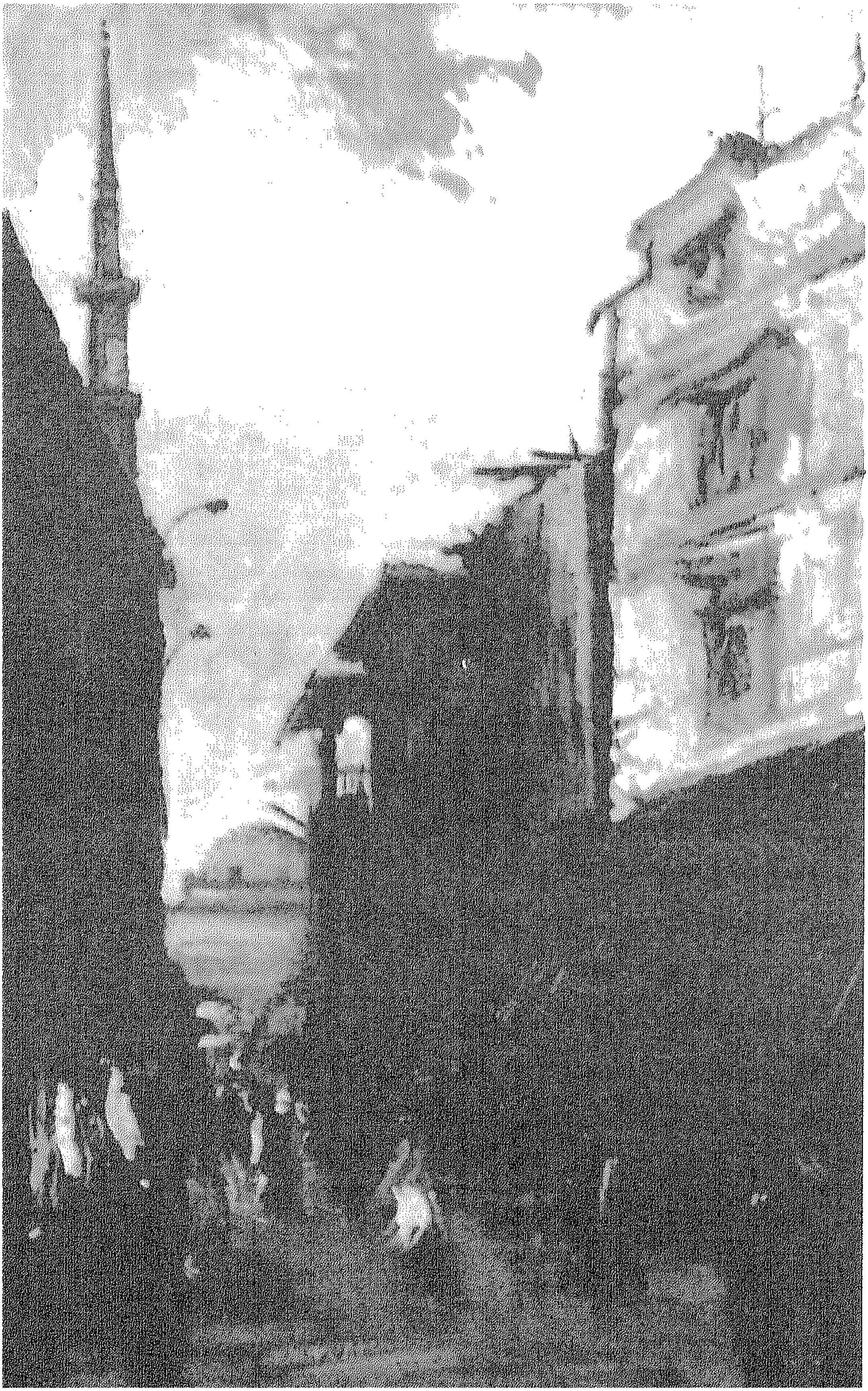

والتنقيب والبحث عن عناصر التميز فى الإرث الثقافى الفنى القريب لا يعنى تقليده أو السير على هداه، وإنما الامتداد بخيوطه وإثرائه والإضافة إليه، فمثلما يحتاج الأفراد الموهوبون إلى بناء خبراتهم الذاتية بما يكفل وضوح واستقلال شخصياتهم الإبداعية ونضوجها واكتمالها، فكذلك يحتاج الإبداع الفنى لأمة من الأمم، لكى يأتى إبداعها فى مجمله ذا قيمة متفردة وحضور يضيف إلى الحضارة الإنسانية ويثرى أبعادها.

ما بعد جيل الرواد

لقد قام ثلاثة من جيل الروّاد هم محمود سعيد وراغب عياد ومحمود مختار بوضع أساس متين للفن المصرى الحديث، وعلى الرغم من أنهم بدأوا من فراغ ثقافى وفنى، وأن دراستهم للفن كانت على أصول أكاديمية أوربية، إلا أنهم استطاعوا أن يبلغوا فى إبداعهم الفنى درجة عالية من القيمة الفنية الرفيعة، حين أدركوا أهمية أن يأتى إبداعهم متسقا بشكل أو بآخر مع الكيان الثقافى المصرى الذى يمثل روح الأمة ووجدانها، وكانت لديهم القوة الذاتية التى تحميهم من التقليد وتجعلهم فى منأى عن مسايرة اتجاهات الفن الأوربى بتنويعاته المتعددة. وهكذا كانت لوحات محمود سعيد ذات الأسلوب الفنى الفريد فى صياغته وتركيبه والذى لا تخطئه العين، ويفرض حضوره بين مختلف الرؤى الفنية شرقا وغربا، وكذلك كانت لوحات راغب عياد ذات الطابع الشعبى ومحاولة اتصاله بالفن المصرى القديم، كما اتخذت أعمال محمود مختار الأخيرة نفس الاتجاه فى تمثاليه الخماسين ونهضة مصر وتمثالى سعد زغلول.

وبعد جيل الرواد بدأت حلقة الفنانين المصريين فى الاتساع، وأثمرت صحوة الثلاثينات السياسية والفكرية أجيالا جديدة تؤمن بلغة الفن وتدرك قيمته كنشاط إنسانى ذى قيمة حضارية راقية، وازداد الاتصال بالغرب الذى كان يغلى بآثار الحرب العالمية الثانية وما أسفرت عنه من تحولات فكرية تجسدت فى اتجاهات فنية متمردة وثائرة على كل ما هو قديم. وتتابعت أفكار التجديد بسرعة تتلاءم مع إيقاع التغيير فى البنية الثقافية والاجتماعية لهذه المجتمعات الأوربية، كما بدأت فى نفس الوقت تطل مظاهر الثقافة الأمريكية الجديدة التى تحاول أن تفرض وجودها على الساحة الثقافية والفنية فى ظل تنامى مظاهر القوة والتفوق للأمة الجديدة.

«جني البرتقال» للفنان بيكار - ١٩٩٢

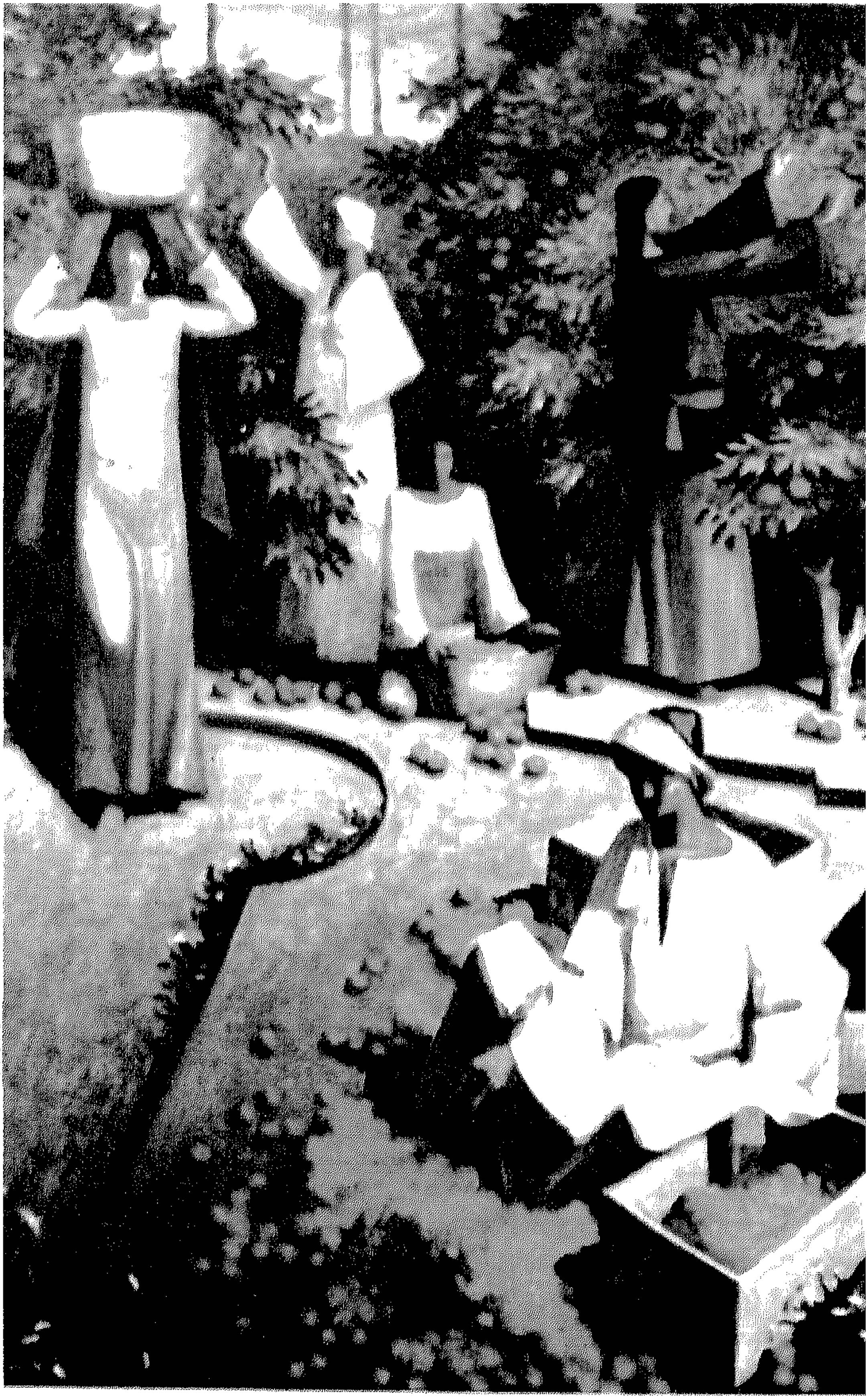

وفى ظل الثقافة الغربية التى أولت الفن التشكيلى - فى سياق تطورها الحضارى المتصل منذ عصر النهضة - أهمية كبرى ، مما أتاح له تكوين قاعدة راسخة وحصيلة زاخرة بشتى مظاهر التفوق تجلت فى إبداعات فنية متوالية تكشف عن قدرة إنسانية لا تقل فى عظمة انجازها وروعته عما قدمه العلم من اكتشافات، فى ظل ذلك كله كان طبيعيا أن تتجه انظار الفنانين المصريين نحو الغرب، حيث إنهم يفتقدون فى بلدهم مثل هذا المناخ الزاخر بالأفكار والتصورات، وهكذا فرضت القوة الثقافية الغربية نفوذها - دون احتلال فعلى - وغزت العقول الأفئدة ، وأضحى الغرب وما يصدر عنه من أفكار هو قبلة المثقفين والفنانين المصريين على اختلاف توجهاتهم الفكرية والفنية، فتبنوا الاتجاهات والأساليب الجديدة رغم اختلاف ظروف نشأتها وأسباب ظهورها، واتبعوا مناهجها الفكرية والنظرية، بل أصبح العديد من الفنانين المصريين ملكيين أكثر من الملك حين استمرت مظاهر تبعيتهم لأى اتجاه فنى غربى حتى بعد أن يهجره أصحابه إلى اتجاهات أكثر جدة. وهكذا سوف نجد أن جميع المدارس الفنية الغربية كان لها ممثلوها بين الفنانين المصريين، وقد حظيت الاتجاهات التى تلتزم بالشكل الواقعى بأكبر قدر من التقليد والمسايرة، كالكلاسيكية والواقعية والتأثيرية حيث كان لها جمهور أوسع يستطيع تقديرها والإعجاب بها، فى الوقت الذى تبنى فيه الفنانون المتمردون من أصحاب الفكر الثورى الاتجاه السيريالى الذى اختلط الأمر فى فهمه عند عامة المتذوقين فأصبحوا يطلقون صفة السيريالية على أى عمل غير مفهوم أو يصعب تذوقه وفهم أبعاده، وتبنى فنانون آخرون الاتجاه التجريدى بدعوى أنه كان آخر صيحة فنية فى الغرب وعللوا انتماءهم لهذا الاتجاه بأن الفن الإسلامى هو فن تجريدى فى أساسه، وكان هناك بدرجة أو بأخرى إشباع للفن المصرى والفن الشعبى، وفى السنوات الأخيرة استطاع الفن التجميعى أو التركيبى أن يجتذب إليه عددا لا بأس به من شباب الفنانين.

ولكن إلى جانب ذلك التوجه نحو الغرب كان هناك توجه آخر حاول أن يجد طريقه وسط هذا الزخم الفنى ووسط الضجيج الذى يحدثه المقلدون، فلقد ساعدت الموهبة الفردية الذاتية لبعض الفنانين على مقاومة الذوبان فى محيط الآخرين، فالموهبة الفردية تحاول

«ثورة الألوان» للفنان كنعان - ١٩٨١

دائما أن تحقق نفسها وأن تثبت وجودها المستقل، ولا تقبل التشبه بأحد أو تقتدى نموذجا، وصاحب هذه الموهبة يدرك أن الفن الذى يبدعه هو فى النهاية رسالة نابعة من ذاته تحمل رؤيته الشخصية وحلمه الخاص، وهى رسالة يوجهها - فى المقام الأول - لمجموعة الناس الذى ينتمى إليهم ويشاركهم حياتهم الوجدانية ويتكلم بلغتهم الثقافية، وأنه فى الوقت الذى يعبر فيه عن نفسه فإنه يعبر أيضا عنهم وعن أحلامهم ووجدانهم. ولم تعدم الحركة الفنية فى مسيرتها القصيرة وجود هؤلاء الفنانين الذين يعدون فى رأينا من أضافوا إضافة حقيقية، ليس لفن بلدهم على المستوى المحلى فقط، وإنما تمتد قيمة إضافتهم الى المستوى العالمى أيضا بتلك الصور والتخيلات المبتكرة التى لا تشبه أحدا، وإنما تقدم نموذجا جديدا وفريدا لخيال إنسانى وذلك هو عصب أى عمل فنى ذى قيمة فنية رفعية.

مواهب متفاوتة القيمة

وتتداخل عوامل عديدة ومتشابكة فى تكوين الفنان القادر على تقديم نموذج متميز للإبداع الفنى، فبالإضافة إلى تلك المنحة الإلهية التى يهبها الله لبعض البشر وتخلق لديهم قدرة طبيعية خاصة على الإحساس الفنى، فإن هناك الدراسة الجادة والمتعمقة لمجال إبداع الفنان وقدرته على السيطرة التقنية والحرفية فيه، وكذلك مقدار ثقافته وإلمامه بشتى نواحى الإبداع الفنى الأخرى، وتجربته الدائمة حتى ينضج أسلوبه وتتضح شخصيته ، إلى جانب ملاحظته الدقيقة والمتفحصة لإبداع الآخرين وإدراك ما يميزه أو ينتقص من قيمته. وفى النهاية مدى ذكائه ولماحيته. وإذا اختل جانب من هذه الجوانب فإنه يؤثر بالسلب على ما يبدعه الفنان ويجعله ناقص القيمة غير مكتمل الأركان، وإذا كان من الطبيعى ألا توفر الحياة نفس الإمكانيات لكل البشر بنفس القدر، فسوف يجد المتأمل للإنتاج الفنى لجيل ما بعد الرواد درجات متفاوتة من القيمة الفنية، فعلى سبيل المثال نجد أن هناك فنانين قد بلغوا مستوى عاليا من مهارة الأداء، وهم يستعرضون فى أعمالهم إمكانيات حرفية لكنها لا تقدم جديدا ، وإنما هى تنويعات على أعمال سبق رؤيتها بشكل أو بآخر، ولا تقتصر الامكانيات الحرفية العالية هنا على الاتجاهات الواقعية أو الأكاديمية فحسب وإنما تشمل أيضا اتجاهات فنية أكثر حداثة، ، ومن هنا يمكن لنا أن نجمع العديد من ذوى الأساليب المختلفة لكنهم

صورة شخصية للفنان صبري راغب بريشته - ١٩٦١

«تكوين خرافي» للفنان حامد ندا - ١٩٨٤

ظلوا يدورون فى فلك الصنعة أمثال كامل مصطفى وحسنى البنانى وعبدالعزيز درويش وصبرى راغب إلى جانب كنعان وفؤاد كامل ومصطفى الأرناؤوطى وسيف وأدهم وانلى. وهناك مجموعة أخرى كانت لها إضافة محدودة لما هو موجود بالفعل على ساحة الإبداع العالمى وأتاحت لهم موهبتهم القدرة على إظهار بصمتهم الذاتية، ومن بين هؤلاء نجد سمير رافع وكمال خليفة والسجينى وصلاح عبدالكريم وعز الدين حمودة ومصطفى أحمد وسيد عبدالرسول ورمسيس يونان.

وتظل المجموعة الأقل عددا هى التى رفضت الانسياق إلى التيار العام المندفع نحو مسايرة اتجاهات معروفة، ونأت بنفسها عن تقليد أساليب الآخرين، ومن أهم ممثليها تحية حليم والجزار وندا. وعلى الرغم من أن الأخيرين فى بعض مراحل تجربتهما الفنية وبتأثير من الجلبة والضجيج الذى أحدثه مروجو التقليد والمسايرة قد حاولا إبداع أعمال تتمشى مع أساليب الحداثة الأوربية - كما فعل الجزار فى أعماله التجريدية التى لم تستمر طويلا - إلا أن مجمل تجربتهما تعكس شخصية فنية مكتملة الأركان والأبعاد، وعن موهبة فردية تكشف عن خصوصية عناصرها وأشكالها، وتقدم نموذجا مثاليا لفن مصرى مستقل الطابع رفيع القيمة.

معيار القيمة

ومن أكثر الأمور مدعاة للحيرة لدى الكثيرين من نقاد الفن ومتذوقيه، هو المعيار الذى يستند إليه ويمكن على ضوئه أن تتحدد قيمة العمل الفنى، وتتداخل عوامل عديدة فى اللبس والخلط مما يؤدى إلى فقدان القدرة على التقدير السليم، ومن بين هذه العوامل شهرة الفنان وذيوعه فى وسائل الإعلام، ووجاهة منصبه، أو قدرته على التقليد المتقن لنماذج وأساليب معروفة سلفا وتم تقييمها وأصبحت راسخة، وتلك كلها عوامل لا تصمد فى وجه الزمن الذى يعد من أهم عوامل اختبار القيمة للعمل الفنى، فبعد مرور السنوات يبقى العمل عاريا من أية اعتبارات جانبية ولن يفيده إلا ما يحتوى عليه من قيمة فنية أصيلة، وهكذا يظل المعيار الذى ينأى عن سوء التقدير فى مجال الفنون هو ما يتحقق فى العمل الفنى من قيم فنية وجمالية تبلور رؤيا ذاتية لا شبيه لها فى صياغة فريدة شديدة الخصوصية والتميز، فهى بهذا تكشف عن خبرة إنسانية جديدة تغذى الروح وتشبع الوجدان. ■

حسين أحمد أمين

أحمد أمين

جنــايــة (حســين) علـى أبيــه (أحمــد أميــن)

بقلم
صافى ناز كاظــم

فى الذكـرى الخـمـسين لرحـيل الأديب والمثـقف الرائد أحـمـد أمين، كـتب ابنه «حسين أحمد أمين» مقالا رآه حسنا ورأيته جناية على واحـد من كـبـار رواد الأدب والنقد والثقافة العربية فى النصف الأول من القرن الماضى.

ولد أحـمـد أمين فى الأول من أكتوبر سنة ١٨٨٦ وتوفاه الله ١٩٥٤/٥/٣٠، قـبل أن يكمل عـامـه الثامن والستين بخمسة أشهر. وعلى طول مشوار عمره، القصير نسبيا فى هذه الحياة، لم يتوقف أحمد أمين لحظة عن حـمل همـوم الوطن والتـفكير والتخطيط والسعى لتحقيق ما رآه، من وجهة نظره، سبيلا للنهضة من أبواب التربية والمعارف والتثقيف والتأمل فى

سابق التاريخ من «زعماء الإصلاح» للاسترشاد بتجاربهم لعلاج أزمات الحاضر. أصاب أو أخطأ، قليلا أو كثيراً، لا عتب ولا ملام، فالإخلاص مؤكد، والحماس متوقد، والنية صافية، والالتزام دقيق ، والتفانى ظل حتى النهاية، تشهد بذلك قائمة مؤلفاته الـ ١٦٠، التى تتصدرها مجلدات : «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام و«يوم الإسلام»، و«حى بن يقظان»، و«قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية»، و«الأخلاق»، و«حياتى» ، و«فيض الخاطر»، و«زعماء الإصلاح فى العصر الحديث»، و«النقد الأدبى»، و«الصعلكة والفتوة فى الإسلام»، وغيرها، مع ما أصدره من كتب مدرسية، رفيعة المستوى مازال جيلى يفخر بمعارفها منذ مرحلة الثانوية : «المنتخب من الأدب العربى»، و«المفصل فى الأدب العربى»، و«المطالعة التوجيهية»، و«تاريخ الأدب العربى»، بالإضافة إلى ما اشترك فى نشره من كتب مثل: «الإمتاع والمؤانسة»، و«ديوان الحماسة»، و«العقد الفريد»، و«الهوامل والشوامل»، و«خريدة القصر وجريدة العصر».

قال عنه الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فى مقال له تحت عنوان: «أحمد أمين ... المربِّى» : «إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبة المتعددة الألوان، فكان أديبا ولغويا، فقيها ومحدثا، مؤرخا ومحققا، أخلاقيا واجتماعيا، فيلسوفا ومتصوفا...»

ووصفه الأستاذ أحمد حسن الزيات، وقد صادقه أربعين سنة : «... كان إذا ألف كتابا أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقيا وراء كلماته وخلال سطوره، يعرض عليك الصور، ويقرر لك الآراء، بطلعته الباسمة فى غير افترار ، ولهجته الحازمة فى غير أمر، وعقله القوى فى غير صلف، وطبعه الحيى فى غير ضعف، وأسلوبه الهادئ فى غير فتور، فلا تدرى أتقرأ أم تسمع ، وكتاب فى يدك أم رجل معك». ويتابع الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى: «... لم يظفر كتاب من الذيوع والانتشار والتأثير بمثل ما ظفرت به مجموعة الكتب التى أصدرها أحمد أمين حين أصدر (فجر الإسلام) عام ١٩٢٩، وتبعها بضحى الإسلام فى ثلاثة أجزاء، ثم الظهر فى أربعة أجزاء. فقد طبعت أجزاؤه الأولى ست مرات ، كل طبعة منها بضعة آلاف. وأصبح الفجر والضحى والظهر مرجع كل طالب، ومرشد كل باحث ، والمنارة التى يهتدى بها الناظر فى التاريخ الإسلامى وحضارته» .

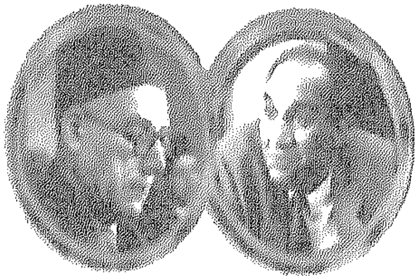

يشهد الدكتور طه حسين لأحمد أمين : «كانت حياته كلها مغالبة، لم تستقم له الأمور على ما أحب فى يوم من الأيام منذ كان صبياً يختلف إلى الكتاب حتى أصبح شيخا يختلف إلى مجالس الزملاء والأصدقاء فى المجمع اللغوى ، وفى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكانت أحكامه على أموره كأحكام غيره من الناس تخطئ وتصيب، ولكنها كانت تتفق دائما على شئ واحد وهو أنها كانت تصور له الأمور على غير ما يحب أن تكون وتدفعه إلى الجهاد والمقاومة والمغالبة... كان يريد أن يغير الدنيا من حوله ... فكنت تراه دائما قليل الرضا كثير السخط، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن يكون متصلا ... وربما تندر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه فى شئ كثير من الحب والرفق فسموه (العدل) ونادوه بهذا الاسم وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث، حتى كاد العدل يصبح له اسما ثانيا ....

وحياة أحمد أمين قصة من أعظم القصص الحية روعة وأعمقها تأثيرا ومن أعظمها حظا من البراعة. وانظر إلى هذا الصبى الذى نشأ فى أسرة متواضعة من الأسر المصرية وفى حى متواضع من أحياء القاهرة، وينشأ نشأة كأشد ما يكون تنشئ الشباب تواضعا فيدرس فى المدرسة المدنية ثم يتحول عنها إلى الأزهر ثم يتحول إلى مدرسة القضاء ثم يصبح قاضيا تتقاذفه المحاكم الشرعية فى أرجاء مصر ثم يعود مدرساً فى مدرسة القضاء ثم يرد بعد ذلك إلى القضاء الشرعى، وهو فى أثناء هذا كله قلق لا يعرف اطمئنانا ولا استقرارا ، لأنه يجهل نفسه ويحاول أن يعرفها فلا تتهيأ له هذه المعرفة كما يريد، هو يلتمس نفسه فى كتب الفقه وفى علوم الدين كلها فلا يجدها، ويلتمس نفسه فى الأدب العربى وفى اللغة العربية فلا يجدها... هو يبحث عن نفسه، ويعلم أنها قريبة منه يوشك أن يلمسها أن يمد إليها يده، ولكنه يمد إليها يده مرة ومرة فلا يجدها ولا يلمسها إنما يحس أنها بعيدة عنه أشد البعد. وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التى أضل فيها نفسه فيتصل ببيئات المطربشين وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر. ويأخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية... وألقاه فى يوم من أيام

حيرته تلك ... وإذا هو ضيق بعمله فى القضاء أشد الضيق، وإذا هو طامح إلى شئ مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد... ونفترق فى ذلك اليوم وقد أزمعت فى نفسى أمراً، فإذا كان الغد تحدثت بما فى نفسى إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد، فإذا كان المساء دعوت أحمد إلى لقائى، وعرضت عليه التعليم فى الجامعة فيشك غير طويل ثم يستجيب. ولا يكاد يستقر فى كلية الآداب شهراً وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التى طال البحث عنها وشقى بالتماسها أعواما طوالا. وانظر إلى آثاره العلمية التى دفعته الجامعة إلى إنشائها فسترى نفس أحمد أمين واضحة كأقوى ما يكون الوضوح، وسترى شخصيته ماثلة قوية تفرض نفسها فرضا.....»

وإذا كان طه حسين قد زاد وأعاد فى ميل أحمد أمين إلى الحزن والتبرم، فإن الدكتور عبدالرزاق السنهورى لا يتردد فى أن يعلن عن «جانب المرح» الذى استقطبه فى شخصية أحمد أمين حين التقاه أول مرة فى مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩٢٠: «.... كان إذ ذاك شابا معمما، يبدو على وجهه من أمارات الجد والرزانة ما يجعل مظهره يزيد على سنه، لولا دعابة عرفت عنه، وفكاهات ظريفة يتحدث بها إلى سامعيه من وقت إلى آخر، فكانوا يضحكون لها ويكون هو أول الضاحكين. ولعل هذا القليل من المرح هو الذى كان يلطف من حدة الجد فى حياته، وكان إخوانه وزملاؤه من أجل ذلك يستلطفون عشرته، ويستطيبون صحبته...»، ويؤكد الدكتور عبدالوهاب عزام على هذا الجانب المرح الباش فى شخصية أحمد أمين فيسرد فى ذكريات رحلات معه: «... وأتيح لى أن أسافر مع الأستاذ أسفاراً ندبتنا لها الجامعة ... سافرنا فى أول بعثة من الجامعة إلى البلاد العربية، زرنا سنة ١٩٣٠ فلسطين وسوريا، وسنة ١٩٣١ العراق، وكان الأستاذ رئيس السفرتين . وكان لنا فى السفرة الأولى فكاهات، منها أنى والصديق الأستاذ العبادى نظمنا أبياتا نصف فيها الأستاذ وأحد الأصحاب، وسمينا الأبيات القصيدة المكتّمة، ولما بلغنا حلب أخبرناه بها ولم نطلعه عليها، فقال ضاحكا: سأشرحها قبل أن أسمعها»!

يرسم الرائد الروائى الأستاذ محمد فريد أبو حديد ملامح شخصية أحمد أمين بادئا: «عرفت الأستاذ أحمد أمين أول شبابى، وتعودت منذ أربعين عاما أن أراه جانبا هاما من عالمى الذى أعيش فيه، فمنذ خلا مكانه فى الحياة شعرت

بأننى قد فقدت بعض عالمى.

....

ولكن أحمد أمين خلف لنا صورة باقية خالدة نتأملها كما نتأمل المعانى الأبدية، وهى صورة لا يعتريها الفساد الذى يعترى الأجساد ولا تساورها الدوافع الدنيا التى تساور مادة الأرض، صورة هادئة يحيط بها السلام الشامل، وتحتل مكانها بين الحقائق، منزهة عن العواطف البشرية متجردة من الغايات والتحيز. ونحن إذ نتحدث... عن أحمد أمين، إنما نتحدث عن هذه الصورة الخالدة المقيمة إلى الأبد فى عالم الصور المجردة التى تتكون منها معالم الطريق الإنسانى نحو الكمال، والتى تتكون من مجموعها عقائدنا ومثلنا العليا ومقاييسنا الخلقية والاجتماعية والفلسفية. وسوف يتحدث الكثيرون عن أحمد أمين .... لأنه منذ رحل عن دنيانا صار صديقا للجميع، زميلا لأجيال جديدة لم تخلق بعد....

....

....

أجد فى الكتابة عن أحمد أمين لونا من الغبطة التى طالما نعمت بها فى مصاحبته ومحادثته ومناقشته ومعاطاته المودة، ولأنى أستمتع فى أثناء الكتابة بتأمل صورته واستعادة ذكريات مجالسه السمحة ومواقفه الكريمة .... عاش أحمد أمين حياة مليئة خصبة، لأنه أراد أن تكون حياته مليئة خصبة. وقد كان من أحب كلماته إليه عند ذكر أفذاذ العظماء الذين وهبوا حياتهم لخير الإنسانية، أن يقول عنهم إنهم عاشوا حياة عريضة ، وكثيراً ما سمعته يتمنى تلك الأمنية لنفسه فى صوت خافت كأنه يحدث بها الأقدار فى ضراعة وخشوع، وكان أكثر ما يخشاه فى آخر أيامه أن تمتد به الحياة طولا بغير أن تحتفظ بعرضها وخصبها، فلم يرض أن يستمع إلى نصح المشفقين عليه من الجهد وكان يجيبهم قائلا إنه لا يريد الحياة إلا من أجل ذلك الجهد. وقد رأيته قبيل وفاته بأيام قلائل، وكان عند ذلك يستعد للسفر إلى الإسكندرية، وهو ظاهر البشر تشتمله هزّة قوية تشبه هزات الشباب إلى التمتع بالحياة. وما كانت هذه الهزة القوية إلا من أجل تحفزه للعمل فى أيام الصيف المقبلة ليضيف فيها إضافة جديدة إلى تراثه الأدبى الجليل. وقد رأيته مراراً كما رآه كثير من الأصدقاء فى أيام مرضه عندما كنا نخشى عليه فقد البصر وهو طريح الفراش، وكان من أشد آلام المرض عليه أنه قضى أيامه ولياليه ساكنا لا يمتع نفسه بمواصلة العمل وبذل الجهد. وأغلب ظنى أنه كان

فى ساعاته الأخيرة يشعر بسعادة كبرى إذ تبين له آخر الأمر أن أمنيته قد تحققت وأن خواتيم حياته كانت مثل أوائلها عريضة عظيمة الخصب كما كان يريد.......................................

وقد خيل إلى عندما بدأت الحديث عن أحمد أمين أننى لن أجد مشقة فى تعرف أسرار تلك الشخصية الفذة وتحديدها، إذ أننى عرفت الرجل وخبرته وامتدت صداقتنا عشرات من السنين وقفنا خلالها فى مواقف شتى تكشف عن الطبائع الكامنة وتمتحن خفاياها، ولكنى عندما بدأت أجمع شوارد الذكريات لأستخلص منها الوصف الذى أطمئن إلى صدقه تجلت لى الحقيقة العجيبة التى تتجلى لنا دائما إذا ما حاولنا أن نحدد أقرب الأشياء إلى أذهاننا وأوضح المشاعر فى نفوسنا ، فمن أصعب الأشياء أن نوضح الواضح فى أذهاننا وأن نعبر عن المشاعر القوية الماثلة فى نفوسنا

....

ولقد كان لأحمد أمين فى نفسى مكانة كريمة منذ عرفته ، وكان له فى قلبى من المودة ما يجعلنى أرى شخصيته دائما من خلال مودتى، فهل أستطيع هنا أن أقرر أن من أبرز مميزات شخصيته مقدرته على إثارة الثقة والمودة فى قلوب الأصدقاء؟............................ .

....

كان أحمد أمين يتوسط أصدقاءه وكأنه يجرد من نفسه لكل منهم شخصا يناسبه ويلائمه ، وإن كان الأصدقاء أنفسهم يختلفون فيما بينهم فى الطباع والميول. وقد كان لهذه المقدرة على الألفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر فى قوته الدافعة، التى كانت دائما تؤثر فيما حوله. كان دائما يتعاون ويثير فيمن حوله روح التعاون ، وكان دائما صادقا مخلصا ويثير فيما حوله روح الصدق والإخلاص، وكان صريحا عادلاً ويوسع صدره دائما للصراحة والعدالة...............................

....

....

كان عظيم البشر مرح النفس ولكنه مع هذا كان شديد الجد ولم يخل من بعض التشاؤم، وكان زاهدا فى مظاهر الحياة.... يحب التمتع بالحياة... متواضعا إلى أقصى حدود التواضع، ولكنه كان أحيانا يتعالى إلى حد الكبرياء.... ينعى على الأسد سطوته ولكنه يرثى للأسد الجريح..... ولست أذكر أنى رأيته يوما يختار لونا من الألوان الزاهية، التى كانت تميز زى

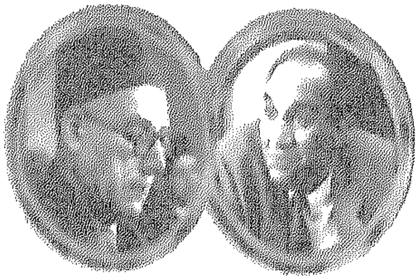

الشيوخ فى تلك الأيام، ولكنه مع هذا كان يبدو أنيقا من أثر الانسجام بين هدوء طبيعته وهدوء ظاهره...... لم يعتمد فى حياته على شئ سوى أصالته، وقت أن كان الكثيرون يعتمدون على مناصرة الأقوياء أو معاونة الأولياء، فقد شق أحمد أمين طريقه وحيداً فرداً..» .

لم يرتح أحمد أمين لمهنة القضاء الشرعى، وكانت حيثيات رفضه، كما كتبها هى: «ظللت فى القضاء أربع سنين .... سنة فى قويسنا، وسنة فى طوخ، وسنتين فى محكمة الأزبكية، ومع ذلك فلم أستمرئ القضاء ولم أسعد به، كل ما أراه أسر قد خربت، أما الأسرة السعيدة فلا أراها، زوجة تطلب نفقة من زوجها، وزوج يطلب الطاعة من زوجته، فيحكم بالنفقة على الزوج فإن لم يدفع فيحكم عليه بالحبس.... ويحكم بالطاعة على الزوجة، فإن لم تستسلم نقلت بقوة البوليس إلى بيت زوجها، وظللت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها ... كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع فى بيت الزوج بالبوليس كذلك؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية؟ إنى أفهم قوة البوليس فى تنفيذ الأمور المادية كرد قطعة أرض إلى صاحبها، ووضع المحكوم عليه فى السجن، وتنفيذ حكم الإعدام، ونحو ذلك من الأمور المالية أو الجنائية، أما تنفيذ المعيشة الزوجية بالبوليس فم أفهمه مطلقا، إلا إذا فهمت حبا بالإكراه أو مودة بالسيف، ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لا بالضمير، وبما فى الكتب والقوانين واللوائح لا بالقلب، وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصى أو يتجرع الدواء المرير....» .

يسترجع الدكتور أحمد زكى علاقته مع «أحمد أمين : الصديق»، فتبدو عائدة نحو خمسين سنة إلى الخلف عندما كان أحمد زكى صبيا يأخذه والده لزيارة منزل الشيخ إبراهيم فى القلعة: «... وأحمد أمين، لو كمل اسمه، لكان أحمد أمين إبراهيم. وذهبت معه، ورأيت القلعة ، وأحسب أن تلك كانت أول رؤية لها . ومن القلعة دلفنا إلى مسجد الشيخ الرمّاح. ومن المسجد دلفنا إلى حارة من حارات مصر، التى كانت فى تلك الأيام مأوى الناس حين يسكنون ويريحون . والحارة طويلة ظليلة، ساكنة هادئة، يغلب عليها الظلام أكثر ما يغلب النور لضيق فى مسلكها، وطول فى مساكنها. ثم نقف، أنا ووالدى، عند نهاية الحارة

المسدودة، أو ما كاد أن يكون نهايتها، عند بيت ارتش الماء أمامه. ودخل والدى ودخلت وراءه، فوجدنا الشيخ فى حجرة إلى اليمين وقد جلس يقرأ، ووجدنا أولاده، قد تفرقوا فى حجرات الدار السفلى، كذلك يقرأون . والقراءة منها المسموع، ومنها الخفيض الذى لا يسمع . وهى لا شك كانت قرآنا، أو كانت فيما اتصل بالقرآن من حديث أو فقه، فالكتب كانت صفراء. وكذلك الجو وسكونه فى الدار، مع شدة الظل فيها ، كان يوحى بأن الدراسة كانت من الجد بحيث أنها لم تسمح بدخول الكثير من النور. وخيل إلىّ أن هذا الشيخ الجالس، فى تلك الحجرة اليمينية، لا يفتأ يرقب ما يجرى فى ردهة الدار وحجراتها من دراسة، وأن طاعة أبنائه له لم تكن طاعة بنوة فحسب، بل كانت فوق ذلك ، وأكثر من ذلك، طاعة تلمذة لمعلم، على الرغم من هدوئه وتوقره، صارم . وانتهت الزيارة وما أحسب أنى فى هذه المرة عرفت من أحمد أمين شيئاً، إلا أنه أحد إخوة ثلاثة ، يكبروننى، أنا الصبى، بنحو عشر من السنوات فما فوقها، وأنهم طلبة أزهريون ، لأب أزهرى عالم تقى نابه.... صارم». وتأتى الزيارة الثانية من جانب الشاب أحمد أمين إلى بيت الفتى أحمد زكى، فى طرف من أطراف بولاق يطل على النيل: « .... ودق الباب، ودخل علينا الشيخ أحمد أمين، جاء يزور والدى، وكانت توثقت بينهما علاقة فكر. كان والدى ثائر الفكر، شيخا، وكان أحمد أمين ثائر الفكر ، شابا، والتقى المزاجان. واطلع أحمد أمين فى تلك الزيارة على ما كنت أصنع، ودخل فيما كان بين يدى من مسائل فى الهندسة عرفت منها أنى أمام شيخ غير من عرفت من أطرزة المشايخ، وحسبت أن أحمد أمين كان فى حديثه فى الهندسة.... به بعض التيه، بأنه، وهو الشيخ المعمم، يستطيع أن يجادل ولو صبيا مطربشا فى علم من العلوم الحديثة.... والذى تعلمه أحمد أمين..... فى مدرسة القضاء الشرعى، وعاطف بركات ناظرها.......................

....

وأذكر أنى أسير والشيخ أحمد أمين ، على كوبرى بولاق، نتنسم ما كان يهب من الشمال من ريح فى الصيف باردة، وكان معنا نفر هم الأعضاء الأولون الذين منهم تكونت لجنة التأليف والترجمة والنشر، وعلى رأسهم أحمد أمين، وكانت الحرب العالمية الأولى قائمة، وكان أعضاء اللجنة مطربشين، إلا عمامة واحدة، علوا بها فوق الطرابيش، للذى كان تحتها من رأس ناضج، ومن قلب وقور حساس. وتأثر صاحب العمامة فيما تلا من السنين

بأصحاب الطرابيش، وتأثر أصحاب الطرابيش بصاحب العمامة، واتصل هذا الأثر أربعين عاما كاملة، فقد ظل أحمد أمين رئيسا للجنة التأليف، وينتخب بالإجماع عاما بعد عام ، أربعة عقود من السنين انتهت بوفاته. وتحولت الصداقة التى بيننا، من صداقة أسرة ، إلى صداقة أسرة ممزوجة بصداقة عمل، وصداقة أمل، وصداقة جهاد. وتنتهى الحرب العالمية الأولى، وتقوم الثورة المصرية – (عام ١٩١٩) – فنرتب فيما بيننا .... المظاهرات، ونرتب الهتافات. وأرانى، أنا وهو على رأس فئة للمعلمين فى مظاهرة، تحمل علما ضخما ثقيلا . أحمله فأتعب، فيحمله عنى، وهو الشيخ، حتى يتعب، وتركنا الهتاف لغيرنا..........................

....

وكان يحب فى شبابه التوت الإفرنكى، المعروف بالفراولة أو الشليك، وكنت أحبه، وإذا به يوما يشترى فى الجزيرة، فيما يلى كوبرى قصر النيل، بمبلغ كبير، مقداراً من الشليك عظيما، لا يكفى واحداً، بل يكفى عشرين. قال: إذا اشتاقت نفسك إلى شئ، وكرهت منها أن تشتاق كل هذا الاشتياق، فلا تمنعها تأديبا لها، ولكن أغرقها به إغراقا. اجعلها تأكل حتى تعاف، فقد يكون فى ذلك إبراء لها مما تشتهى، من الحلال.

....

وفى اشتداد علته الأخيرة زرته.... وكان الوقت صباحاً . وصعدت إلى حجرته، وكان وحده، فراعنى منظره، كان منظر من يئس من الحياة فترك تقليم الحياة وتهذيبها . قال: كيف تزورنى فى هذه الساعة وروما تحترق. قلت: إن البلد الذى يحرقه أهله،...... بلد حل به غضب الله . وتذاكرنا الخيبة، وتذاكرنا أمور الأجيال، وقمت إلى روما، أشق لنفسى طريقا فى لهبها.

وجاء آخر لقاء .

كان هذا فى أمسية ، بدار لجنة التأليف. وانصرف الناس وبقيت معه وحده وإذا بنفسه تغيم فجأة كما تغيم السماء، وكنت أعرف ذلك من وجهه وقبل أن يتكلم. وأخذ يتكلم، ويذكر الحياة وقلة جدواها له بعد الذى كان .... وتتأخر سيارته فأحمله فى سيارتى، وأسرع لأقوده فى الظلام عند باب بيته وهو يهبط من السيارة فإذا به ينادى الخادم حتى يرفع عنى كلفة إسناده ناحية الباب، وبعد ٣٦ ساعة يدق التليفون فى مكتبى: إن أحمد أمين قد مات تواً. وأسرع إلى بيته، فلا أجد أحداً. لقد تفرق أولاده فى تجهيز الجهاز فلم يتخلف منهم فى البيت أحد . وأصفق وليس من يرد. والبيت هادئ ساكن، فقر

لولا الحديقة. وأحضرت لنفسى كرسياً كان فى الحديقة وجلست . وأنظر إلى تلك الغرفة العليا ، وأنا أعلم أن أحمد أمين مسجى فيها، ولكن لا سبيل إليه ....

....

ظن أحمد أمين أن الحياة عافته وأنها هجرته، والحق أنه هو الذى عافها، وهو الذى احتقرها فى أيامه الأخيرة واحتقر ناسها. حضرنا حفلا فى سفارة العراق، عصر يوم، وازدحمت السفارة بضيوفها، وهناك التقيت بأحمد أمين . ظهر فى هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه فى الحفلات: الذقن لم تحلق من أيام، والقميص مفتوح الصدر، وليس بياقته رباط، والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين. ودلف إلىّ فى الحفل صديقى إميل زيدان، قال لى: ماذا جرى لأحمد أمين؟ قلت: ذهب عنه احترام الدنيا. فقال إميل قولة من أحلى ما يقال فى هذا الموقف، ومن أصدق ما يقال، قال: بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع، فلم يأبه فيه بما يصنع.....» .

* * *

مقتطفات اخترتها بعناية من شهادات أصدقاء أحمد أمين، كتبوها عقب رحيله، وكلهم من النخبة الأدبية والفكرية والثقافية لعصر النصف الأول من القرن الماضى .

شهادات مفعمة بصدق المحبة والمودة والتقدير والإجلال لواحد من رعيلهم الفذ، يكبرهم فى سنوات العمر، بعامين أو ثلاثة أو عشرة، أجمعوا على إخلاصه وعدله ودماثته ولطف معشره وظرف حديثه، ولمسنا أنهم كانوا معه إلى اللحظات الأخيرة، لم يهجروه ولم يتنكروا له، كما زعم ابنه حسين أحمد أمين فى مقاله الذى نشره بجريدة القاهرة ٢٠٠٤/٦/١ بمناسبة ذكرى والده الخمسين. ولقد تعمدت أن أهرع إلى كتابات هؤلاء الأصدقاء، خاصة الأستاذ محمد فريد أبو حديد، والدكتور أحمد زكى ، والدكتور عبدالرزاق السنهورى ، والدكتور عبدالوهاب عزام، لأدفع عن أحمد أمين «جناية» ما كتبه عنه ولده المغرم بالوقوع فى الأخطاء ، ولو كان أحمد أمين على قيد الحياة وقرأ ما كتبه سيادة ابنه السفير حسين، لفعل به كما فعل حين سمعه يفشل فى القراءة السليمة: ضربه بالجريدة ثلاث ضربات على فمه، وهو يكرر فى حزن: «كسفتنى يا ولد .... كسفتنى.....» .

* * *

رحم الله أحمد أمين ورحم أصدقاءه المخلصين، وأبقى ذكرهم وذكراهم فى الخالدين . ■

إيليا أبو ماضي

جبران خليل جبران

محاولات لرأب الصدع بين الوطن والمهجر

بقلم
وديع فلسطين

بعد غياب كبار الشعراء والأدباء الذين قامت على أكتافهم النهضة المهجرية فى أمريكا الشمالية والجنوبية بوفاة إيليا أبى ماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧) وميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) وجبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) ونعمة الحاج (١٨٨٩ - ١٩٨٨) وندرة حداد (١٨٨١ - ١٩٥٠) وعبدالمسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣) ورشيد أيوب (١٨٧١ - ١٩٤١) وكلهم فى أمريكا الشمالية وشفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦) وفوزى معلوف (١٨٩٩ - ١٩٣٠) والشاعر القروى رشيد سليم الخورى (١٨٨٧ - ١٩٨٤) والشاعر المدنى قيصر سليم الخورى (١٨٩١ - ١٩٧٧) وإلياس فرحات (١٨٩٣ - ١٩٧٦) وجورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) وزكى قنصل (١٩١٦ - ١٩٩١) وإلياس قنصل (١٩١٤ - ١٩٨١) ونظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) ونبيه سلامة (١٩٠٨ - ١٩٩٤) وميشال مغربى (١٩٠١ - ١٩٧٧) وشكر الله الجرّ (١٩٠٧ - ١٩٧٥) وعقل الجر (١٨٨٥ - ١٩٤٥) وكلهم فى أمريكا الجنوبية.

بعد غياب هؤلاء مرّ الأدب المهجرى فى مرحلة المحاق، ولاسيما لأن الأجيال الجديدة من المهاجرين انصرفت فى غالبيتها إلى ممارسة المهن التى تخصصت فيها من هندسة إلى طب إلى الكترونيات إلى صناعة إلى بحوث علمية، وهلم جرا وتضاءلت الأنشطة الصحفية والأدبية فى المهجر بل أكاد أقول إنها انعدمت. ومما ساعد على ذلك أن الهيئات العربية الرسمية تجاهلت المهجريين تماما بل بادرت بإلغاء تجربة إنشاء وزارة للهجرة لانتفاء الغرض منها. وهى إن أبدت أحيانا اهتماما بالمهجريين، فهو اهتمام لا ينصرف إلى الأدب أو الفكر بل

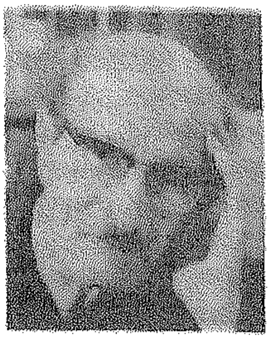
ميخائيل نعمة

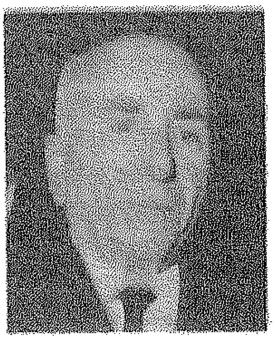
إلياس فرحات

إلى جانب الاستثمار، لأن كثيرين من العرب المهاجرين نجحوا فى تكوين ثروات وفى اكتساب خبرات متطورة تتوق البلدان العربية إلى الاستفادة منها. حتى الجامعة العربية، ولديها منظمة متخصصة فى الثقافة والعلوم والتربية منظمة (الألكسو) فهى غير معنية بالمهجر أو بالمهجريين، ولم تحاول إنشاء أى صلات بهم على أصعدة الثقافة والعلوم والتربية.

وفى الحين بعد الحين يدور حديث حول ضرورة إنشاء «لوبى» عربى فى الولايات المتحدة يضطلع بدور نشط أسوة باللوبى اليهودى، ولكن لم تتخذ أى خطوات جادة فى هذا الاتجاه، ربما لأن كثيرين من المهجرين صاروا يتبرأون من أصولهم العربية بعد ١١ سبتمبر حتى لا تبطش بهم إجراءات الأمن الغاشمة فى «العالم الجديد» ناهيك عن أن كثيرين منهم خرجوا من بلادهم إما مطرودين أو فارين من أنظمة انكشارية، فباتوا ينفرون من كل محاولة لتذكيرهم بعروبتهم أو بأن عليهم دورا يضطلعون به فى مهاجرهم للدفاع عن قضايا أمتهم والتعريف بحقائق أوضاعها.

وعلى الرغم من هذه الصورة الكئيبة للعلاقة بين الوطن والمهجر، فإن هناك محاولات لرأب الصدع - وهى محاولات فردية لا تحظى بأى تشجيع أو حتى مباركة رسمية - تسعى إلى مد جسور بين المهاجرين وأوطانهم الأصلية. واجتهد فى هذا المقام فى رصد ثلاث من هذه المحاولات الفردية التى وقفت عليها، عسى أن يكون فى التعريف بها ما يستنفر همة الجهات المسئولة فتسدى لها شيئا من المؤازرة تمكينا لها من آداء رسالتها دون انتظار أى جزاء.

مجلة «السنونو» لنهاد شبوع

والمحاوله الأولى هى التى تقوم بها سيدة سورية تقيم فى حمص أنشأت منذ عام ١٩٧٣ رابطة لأصدقاء المغتربين وأصدرت مجلة غير دورية أطلقت عليها اسم «السنونو» وهو الطائر الذى لا يكف عن النزوح من مكان إلى مكان أنأى منه. وبفضل هذه المجلة تسعى «نهاد شبّوع» إلى الربط بين هؤلاء المغتربين والوطن واستطاعت أن تتواصل مع عرب يقيمون فى كندا والبرازيل وشيلى واستراليا وفرنسا والولايات المتحدة ونيجيريا، فلكل مغترب أيا كان الوطن الجديد الذى اختاره لإقامته، اهتمام ترعاه هذه السيدة المجاهدة نهاد شبّوع، فتخاطبه فى مجلتها لا باللغة العربية وحدها بل كذلك باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

والمجلة كتاب حافل يصدر فى نحو ١٥٠ صفحة ويضم مقالات ودراسات تهم المهجرين لكى يبقوا على - صلة ولو روحية بالوطن الأم مخافة أن تستولى

عليهم العجمة فى ديار هجرتهم وتنفصم عراهم تماما مع منابتهم الأولى.

وترفع «نهاد شبوع» فى مجلتها وفى رابطة أصدقاء المغتربين شعارا موحيا هو «وطن مقيم مشوق، ووطن مغترب عائد أكثر شوقا» وهى تخاطب قراءها بعبارة بليغة فتقول «هل تستأهل رابطة أصدقاء المغتربين فى حمص - بما نسجت وبما أنجزت - خلال الثلاثين أو ما قبل الثلاثين من الأعوام أن تظل حضورا مشعا ينفذ إلى ذاكرة أجيال المستقبل وإيمانهم؟ وهل من الهدى والحكمة أن نظل وإياهم على هذا الجسر عابرين»؟

وبمناسبة مرور ثلاثين سنة على إنشاء رابطة المغتربين تنادى الغيّورون عليها إلى إقامة احتفال حاشد تحدثت فيه «نهاد شبّوع» فقالت: «أنا وطن وغربة يفصلهما ساعات فقط فى زمنكم الذى يحتفل بعيدى الثلاثين، أنا بيت حلم يتسع لبدايات ولا يعترف بنهايات، أنا جمالية اللقاء بعد قطيعة العشاق وترف الحزن الباذخ بعد كل وداع «منعطفا بعد آخر، أتسلق حبكم المدهش فى كل حضور والمندهش فى كل غياب. شكرا لكم شكرا لحضوركم عيدى عيدكم فمن أنا سواكم»؟

أفلا تستحق نهاد شبّوع راعية هذا النشاط الأممى الموصول تشجيعا من ذوى الشأن حتى تتمكن من مواصلة أداء رسالتها دون توقف أو تعثر؟ إن ثلاثين عاما من البذل والعطاء والتضحيات ينبغى أن تحظى ولو بمباركة من المجتمع.

مجلة «كلمات» للدكتور رغيد النحاس

أما المحاولة الثانية لربط المغتربين بالوطن، فقد صدرت من استراليا التى هاجرت إليها وإلى نيوزيلندا بل إلى جزر المحيط الهادى أعداد كبيرة من المغتربين العرب. ويتصدى لهذه المحاولة الأديب الدكتور رغيد النحاس المقيم فى مدينة «شرى بروك» فى ولاية نيوسوث ويلز فى استراليا. وقد اكتشفت أن الدكتور النحاس هو حفيد الشيخ أحمد عارف المزين صاحب مجلة «العرفان» المشهورة التى كانت تصدر فى صيدا بلبنان والتى واصل إصدارها بعد وفاته نجله نزار المزين وكان صديقا لى. وبوفاته تعثرت هذه المجلة بعدما عمرت طويلا.

وبدوره ارتأى رغيد النحاس أن التواصل مع المغتربين لا يتحقق بصورة منتظمة إلاّ من خلال مجلة دورية تصدر بالتناوب بين اللغتين الإنكليزية والعربية لكى تؤدى رسالتها حتى لدى المغتربين الذين أنستهم الغربة لسانهم العربى.

وخلال أربع سنين، أصدر النحاس ١٨ عددا من مجلة «كلمات» مطبوعة طباعة فاخرة وتكاد تخلو من الأغاليط على الرغم من أنها تطبع فى استراليا وليس فى أى بلد عربى.

ويقول الدكتور رغيد النحاس «أؤكد إيماننا بأهمية الدور الذى تلعبه مجلة «كلمات» مع تواضعه على الصعيد الفكرى والجمالى، ونسعى في نفس الوقت لجعل هذا الدور مهمة أساسية من مهمات التواصل البشرى فى هذا الزمن الذى انتهك فيه الفكر والعدالة ومقومات الحرية والديمقراطية من قبل فئة قليلة تتحكم

بالعالم متسترة بنفس هذه القيم وداخل ثوب شرعية الدولة... ما أصعب موقف من اتخذ الفكر وسيلة للوجود وسلاحا للبقاء وذلك عندما يبدو صامتا ساكتا، لكننا نؤمن أن الغلبة ستكون للعقل فى آخر المطاف مهما طال الزمن، وأن الصرخة الصامتة فى الأعماق ستسحق يوما جبروت التافهين .إن العالم الحر بحاجة إلى وسائل اختراق ثقافى مثل مجلة «كلمات» بالإضافة إلى كل الوسائل العلمية والتقنية والدبلوماسية. بالفكر وحده نستطيع شحن الرأى العام العالمى بحقيقة الأمور لأن الخطوة الأولى هى أن نجعله يصغى إلينا ثم أن يكون فعلنا فيه طويل الأمد ناتجا عن قناعته بمصداقيتنا».

ولئن كانت مطامح مجلة «كلمات» ومحررها الدكتور رغيد النحاس على هذا القدر من الانطلاق - ولا أقول الشطط - فإن المؤكد أن أحلامنا تتفق مع أحلام النحاس وأن أمانينا لا تختلف عن أمانيه.

هذا وتمثل مجلة «كلمات» فى مصر الأديبة السورية منى الدروبى.

أقباس من الأدب المهجرى

أما المحاولة الثالثة فيضطلع بها فى البرازيل الأديب نعمان حرب الذى أخذ على عاتقه أن يحيى الأدب المهجرى لا فى أمريكا اللاتينية وحدها بل كذلك فى القارة الاسترالية.

فقد انبرى نعمان حرب لنشر سلسلة من الكتب اختار لها عنوان «أقباس من الأدب المهجرى» للتعريف بأدباء وشعراء من جيل تال لجيل العمالقة الذين أوردنا أسماء بعض منهم فى صدر هذه المقالة.

واستطاع نعمان حرب حتى الآن أن يصدر أحد عشر كتابا فى هذه السلسلة لشعراء فى البرازيل منهم فارس بطرس وشفيق عبدالخالق ونبيه سلامة ونواف حردان وأنجال عون وشكيب تقى الدين، وفى فنزويلا ومنهم جورج يوسف شدياق، وفى الأرجنتين ومنهم الشاعر حنا الجاسر والدكتور عبداللطيف الخشن، كما نشر «السجل الذهبى لأدبائنا المعاصرين فى البرازيل وفنزويلا» وفى مشروعه - ولعله تحقق - أن ينشر أقباسا لشاعرين فى استراليا هما شويل بعينى ونعيم خورى وفى البرازيل للشاعر إبراهيم سلمان.

وقد تهيأ لى أن أطلع على أقباس الشاعر جورج يوسف شدياق المقيم فى فنزويلا فألقيته شاعرا مجيدا، وصفه الشاعر السورى عبدالله يوركى حلاق (١٩١١ - ١٩٩٦) بأنه شاعر الشوق والحنين. وفى رأيى المنصف أن هذا الشاعر الموهوب قادر - ولو بمفرده - أن يحيى دولة الشعر فى المهجر بعدما أخنى عليها تعاقب الأيام. ففى شعره سحر الكلمة ونشوة العاطفة وخصب الروح ودفق الوطنية.

***

اجتهدت فى هذه العجالة فى التعريف بهذه المحاولات الفردية الثلاث التى ينبرى للاضطلاع بها ثلاثة من أصحاب الرسالات بجهد أكاد أصفه بأنه جهد انتحارى لأنه يفتقر إلى مؤازرة المجتمع وهل استطاع المجتمع أن يكفل لمجلاته الأدبية البقاء والاستمرار ونحن نراها تتساقط واحدة بعد الأخرى؟. ■

وقفة ضد الزيف

فى مسرح جديد

بقلم
د. أحمد شمس الدين الحجاجى

قرأت المسرحيات الثلاث «شمبانيا.. شمبانيا» و«الجدار الثاني» ، و«مواطن عالمى» ذات الفصل الواحد وهى تمثل حلقة واحدة أقرب إلى أن تكون مسرحية واحدة، صحيح أن الشخصيات مختلفة والموضوع مختلف غير أنها تعبر عن أزمة الإنسان المعاصر بعمق وحدة، فالفنانة كاتبة المسرحية هدى شعراوى عشقت فن المسرح منذ صغرها وتوجهت نحو دراسته وممارسته دون توقف، مثلت فى أكثر من عمل كما قامت بالإخراج والنقد، وكان لها دور مميز وواضح فى كتابة المسرحية.

وأهم ما يميز كتابتها المسرحية أنها فضلا عن إدراكها للحركة المسرحية الحديثة وتطورها فإنها تميزت بحس إنسانى عال، فهى مهمومة بأزمة الإنسان المعاصر وتحكم الآلة فى حياته، والقوى الرأسمالية التى تحاول أن تجعل منه عاجزا، مسلوب الإرادة، فاقد الحرية.

وقد اتجهت فى كتابة مسرحياتها الثلاث إلى الرمز فلم يكن الرسم الواقعى للشخصية، أو بناء الحدث المسرحى بشكل تقليدى قادر على أن يحمل المضمون الذى تريد أن توصله إلى جمهورها، لذا كان اللجوء إلى الرمز ضرورة، فنقلت عالم مسرحها إلى عالم ما وراء الواقع ليمثل الواقع، فالمكان فى المسرحيات الثلاث يعبر عن تهويمه تقدم غربة الإنسان، ففى مسرحية الجدار الثانى تدور أحداث المسرحية فى مدينة الموتى، وهى جزيرة ثلجية معزولة.

المستويات التى تشكل منها الجزيرة الثلجية عبارة عن مجموعة من الأشجار الضخمة، وقد قطع الجزء المورق منها بشكل حاد وواضح فبدت الأجزاء المقطوعة شبه دوائر متناثرة عبر الجزيرة الثلجية تتحول فى لحظات إلى بقع حمراء، فتبدو الجزيرة كثوب زفاف ناصع

البياض، وقد تناثرت بقع الدماء فى عالم الموتى.

عالم ما وراء الطبيعة

وفى مسرحية «شبمانيا.. شمبانيا» يتحدد المكان بجناح للجميلات المهذبات، يبدو هذا الجناح نقلة مختلفة عن عالم الموتى ولكنه متحد معها، فهنا حركة مرتبطة بالمواجهة بين الطبيعى والمصنوع، بين الإنسان والقوى الآلية المتحكمة، فمازالت أرضية المسرح تقع فى عالم ما وراء الطبيعة داخل العالم نفسه.

وتعود مسرحية «مواطن عالمى» بالإنسان إلى الأرض فى منزل المواطن.. جدرانه شديدة البياض.. نافذة بطول الخلفية، تظهر خلفها الحديقة، يشع ضوء النافذة مباشرة نحو المكتب، ومع هذا الاختلاف لم يبتعد المكان كثيرا عن الأماكن الأخرى، فمازال العالم مرتبطا بتهويمة كونية تحدد سلوك شخصياته.

ويكمل الزمان الجو الذى تدور فيه الأحداث، فالزمان فى مسرحية «الجدار الثانى» لحظة فى الزمان لا تدرك ليست فى الحاضر ولا فى الماضى ولكنها صباح الغد حيث حفل تطهير حقيقى وكاذب، وفى مسرحية «شمبانيا.. شمبانيا» يتحدد الزمن بلحظة «من شوية صغيرة» ويتحدد الزمان فى مسرحية «مواطن عالمى» بالفجر، وذلك ليجعل لحظة الحدث عامة مرتبطة بحركة الضوء المختلطة بين الليل والنهار. وعلى هذا فالزمان فى المسرحيات الثلاث زمن واحد ومكان متفاوت، الهدف منه هو أن تدور الأحداث فى دائرة واحدة تجعل الرموز قائمة فى عالم الإنسان فى عقله وفى حياته ومن هنا كانت الشخصيات

هدي شعروای

داخلة إطار الفانتازيا، ففى مسرحية «شمبانيا.. شمبانيا».. العالم الإنسانى يتصارع.. الأخ يصارع أخاه، والإنسان لا يتوقف عن الصراع للحصول على مكاسب من الآخر بينما القوى الخارجية متربصة به. تحول كل شىء حوله إلى جمال صناعى يفقد فيه الإنسان الروحية. يبهر الإنسان بهذا الجمال وهو غير متبين أن الجمال الحقيقى بجانبه «فنصر بيه» يقاوم أخاه ويغتصب حقه. والفتاة حُسن تقوم بدور الخادمة له. وفى محاولته استلاب حقوق من حوله يأتى شوكت. ومع نيللى وهما يلعبان دورا فى تمزيق البناء الأخلاقى والاجتماعى للمجتمع وهما لا يدركان أن هناك قوة أكبر قادمة من الخارج فرضت وجودها على «نصر بيه» وعلى الجماعة حاملة معها نماذج جمالية خارجية لصور بلا روح من صور «جينالولوبريجيتا» و«إيرين باباس» و«إليزابيث تيلور». الجمال الذى حدد شكل الجمال فى العالم المصنوع وينبهر

نصر بيه بهذا الجمال ويأخذ فى التطلع لامتلاكه ويقبل أن تزيف صورته، وشكله ويستنسخ منه عدداً غير قليل من الرجال حتى يستطيع أن يتمتع بكل الجميلات غير أن هذا الاستنساخ ينتهى به إلى أن يكون استنساخه لكلاب تعوى.

وهو غير مدرك أن الجمال الحقيقى موجود فى الفتاة الطيبة حُسن. حتى إنه لم يصدق أنها بهذا الجمال حينما تغير ملابسها وتهتم بشكلها وحين يدرك أن الفتاة الجميلة التى تقف أمامه هى حُسن لا يعود إلى صوابه فإن العالم الغربى بكل ما فيه من زيف يقف بينه وبين الحقيقة.

وهذا ما يحدث ولكن ببناء مخالف وأحداث مغايرة فى مسرحية «الجدار الثانى» فالحدث فيها يتم فى عالم الموتى الذى تسيطر عليه شخصيتان الغندورة والسيد غازى، فالغندورة ذات القلب الحاصل على الميداليات البلاتينية.

وغازى صاحب المنظومة الخاصة بالحريات تلك المنظومة التى يريد أن يطوق بها عنق العالم.

آلام الإنسان

فهو الوحيد فى عالم الموتى الذى يملك حرية العمل فى هذا العالم. موتى متعددون وتحت الاختيار جديرون بدرجة الصفر الشرفية ليقدم الموتى المبتدئون. ويأخذ الموتى فى الحركة بلا حياة يدخلون المسرح الذى يزداد جمالا مع فقده للحيوية من خلال الشرائح المعدنية الرفيعة جدا... المعقدة.. ذات الأشكال المختلفة والألوان والأشكال كأنها ترمز إلى خفايا النفس البشرية. فالموتى مازالوا يعيشون فى عالمهم الماضى يذكرون بعض آلامهم الصغيرة وهى آلام الإنسان العادى. العلاقة بين الفرد والآخر، والشكوى تزداد ولا أحد يسمع، بينما الحدث الأساسى يستمر وهو تحكم غازى فى عالم الموتى فهو يراقص من يريد وجولييت تتصارع معه وهى تحت رحمته بينما الحديث عن الهجرة واللجوء إلى جزيرة الحريات. وتجارة السلاح والجنس.. العالم الآخر هو عالم الإنسان الذى يعيش فيه الإنسان وحيدا فهناك جدار بينه وبين الحقيقة، فالحياة موت والموت حياة، وسيطرة المتحكمين قائمة فى عالم الموت وعالم الأحياء.

وفى مسرحية مواطن عالمى يقع الاختيار على أحد المواطنين ليكون هو الشخصية الممثلة للمواطن العالمى وتبدأ القوى تحدد لهذه الشخصية مكانتها بالدخول إلى عالمه. وعالم اسراره، وأجهزة الدعاية تحاصره وتكشف له عن هذا العالم بكل القوى الممكنة ليعرف هذا العالم، فتستخدم قارئة الفنجان والكف والودع حتى تتكامل رؤيتها له، وإذا به يبدو مقززا مكروها من كل البشر من ابن عمه وابنة عمه، وتكشف فتاة الدعاية للمواطن الذى يفترض أن يحصل على جائزة المواطن العالمى، كم هو كئيب ومتعب ومقزز..؟ وقد أحيط ويحاط بقوى من العفاريت والقطط المزعجة، عالم من الحساد، فتاة الدعاية تحركه نحو الهجرة.

فقد كتب عليه فى نظرها أن يهاجر إلى بلاد لا تعرفه ولا يعرفها وأن يكون آخر

السلالة، فهو المواطن العالمى ولكن فى النهاية يرفض، فقد سمع صوت صديقه ليعود به إلى الوطن، صديقه الذى استشهد، إن يذكره أن أحلامهم لم تمت وأن خطواتهما المنتظمة فى الحياة تؤنس المسيرة، ولقد كان الجسد الذى لم تر سواه فتاة الدعاية محقا فى دهشته حين ظل غير مصدق أن الرأس قد تم بتره عنه.. بل كان صمود الجسد وشموخه يؤكد أن بمقدورنا أن نكون.. الجسد الذى يخيل لى أنه قد تهاوى هشاً.. كان فى الحقيقة بصمة تلون وجه التاريخ.. بعبارة شديدة الوضوح أن بمقدوره أن يكتب اسمه على حدود الوجود وعلى هامش حدود الوجود وعلى هامش حدود حدود الوجود.

مواطن العولمة الجديد

وهنا تتراجع القوى المعادية للمواطن والتى تريد أن تجعل منه مواطنا عالميا رافضا لعالمه.. مواطن العولمة الجديد.. بلا طعم ولا روح ولا حياة وقد أعلن أنه مواطن ابن أرضه وبلده تتراجع القوة الموجهة لسلب الإنسان روحه ووطنه ويظهر ظلهم بين أشجار الحديقة لا يجرؤون على الاقتراب من النافذة ولكنهم مازالوا يفكرون بطريقة أخرى لدخول بيت المواطن.

وعند الحديث عن الشخصيات فى المسرحيات الثلاث يلعب الكورس دورا واضحا واتخذ اسم الأجهزة: وقد كان لها فى مسرحية الجدار الثانى حق البحث وعقد الصفقات والتحليل وحق إصدار القرارات والمراقبة وقد بدأت المسرحية بظهور الجوقة «الأجهزة» لتطلب الهدوء بينما يفتح الستار ببطء ثم توضح لنا طبيعة الشخصيات وهى تعلن:

«على الموتى الحاصلين على درجة الصفر الشرفية الذين يتمتعون بالإقامة فى جزيرة الحريات حضور جلسات التطهير عبر صمتهم الأبدى».

وتختم الجوقة «الأجهزة» المسرحية وينسدل الستار ببطء:

بقولها نفس الكلمة التى بدأت بها المسرحية.

الرجاء الهدوء.. فتكررها أربع مرات.

وتبدأ مسرحية شمبانيا.. شمبانيا بنفس الكورس «الأجهزة» لتنطق بنفس الكلمات الرجاء الهدوء وتختمها أيضا بنفس الكلمات.

ولا تختلف مسرحية مواطن عالمى فى بدايتها ونهايتها عن وقفة الكورس ليبدأ المسرحية وينهيها بنفس الكلمات.

إيقاع الغربة

وشخصيات المسرحية الأساسية فى «الجدار الثانى» شخصيات محددة «الغندورة» وغازى ثم الموتى والغندورة وحدها التى تملك فى هذا المجتمع حق الحلم وحق تحقيق الحلم ولكن «غازى» هو السيد التى تحاول أن تحصل منه «الغندورة» على حقوقها فهى تتحول معه إلى «جولييت» وتغار حين يراقص واحدة من الموتى أو يهتم بها ولعل أهم شخصية من شخصيات الموتى هو المريض وخياله فهما اللذان يصنعان روحاً حية تقاوم الموت فى المسرحية فهما الشخصيتان اللتان غيرتا إيقاع الغربة فى المسرحية فهما القادران على أن يسحبا نفسيهما من عالم الموت ومن «الجدار الثانى

الحاجز للحياة».

أما مسرحية «شمبانيا.. شمبانيا» فتنقسم إلى عالمين عالم بيونك صناعى، وعالم إنسانى والشخصيات الصناعية مسيطرة أما الشخصيات الإنسانية فهى منقسمة قسمين: احدهما تابع للشخصيات الصناعية والآخر منقسم عليها وإن لم تكن لديه القدرة على المواجهة.

وقد فرض «نصر بيه» سيطرته على جميع الشخصيات الإنسانية، على أخيه إبراهيم وبجواره شخصية شوكت ونيللى اللذان يريدان أن يحصلا على مكاسب من كل الأطراف. أما شخصية حُسن فهى شخصية الفتاة الساذجة الطيبة المغلوبة على أمرها ولكنها تقف فى مواجهة القوى الصناعية والمزيفة لتنافس بجمالها الشخصيات الصناعية وتقوم بعملية المواجهة فهى تحاول أخيراً مع «نصر بيه» وإبراهيم التخلص من الزوائد التى تحد من قدرتهم.

أما فى مواطن عالمى فتتعدد الشخصيات التى تحاول أن تجذب شخصية المواطن إليها. فتاة الدعاية وأسلوبها المسيطر على المواطن لتجذبه نحو العالمية - وتخطى حدود مكانه وتقبل فرديته وشعوره بأنه مخلوق محسود عليه أن يعيش مواطناً عالميا فى مكان آخر. وتشارك شخصيات لها مواصفات محددة تعرف باسمها. قارئة الفنجان وقارئة الودع وقارئة الكف والقط الأنثوى الذى يمثل الغواية السريعة فى مجتمع متطور صناعى.

والشخصية الأساسية التى تدور حولها المسرحية لاتظهر على المسرح وهى شخصية الصديق الذى يقوى تذكره موقف الإنسان المواطن للثبات أمام قوى التغيير.

إحباط المؤامرة!

فما إن تحاول قوى الدعاية أن تجعله وحيدا مبعداً عن أهله وناسه حتى يتذكر صديقه الذى تتحدد شخصيته فهو قد كان متزوجاً وأنجب طفلين إلا أنه كان مشغولاً طوال الوقت بحمله الأبدى أن ينضم إلى كتيبة الدفاع عن شرف انتمائها إلى مسيرة البشرية، تذكره هذا وتذكره لخطيبته ابنة خالته التى أجل زواجها من أجل وقفته مع هذه الكتيبة، صحيح أنه فقد الحبيبة. لكن القوة الجديدة التى تريد أن تسلبه حق المواطنة فى وطنه ليصبح مواطناً عالمياً تتهمه فتاة الدعاية فى موقفه ومع كل المواجهات التى قامت بها وأتباعها كانت وقفة الإنسان المواطن بفضل موقف صديقه محبطة مؤامرة تحويله عن أرضه وأهله ووطنه.

وعلى هذا فإن المسرحيات الثلاث تمثل وقفة التزام ضد العولمة وضد تردى الإنسان.

فالكاتبة صاحبة موقف إنسانى نبيل وموقف وطنى مخلص أرادت أن تستخدم الرمز لتقول الكثير إلى الإنسان المصرى والعربى ما لا يستطيعه التعبير المباشر ولا الكتابة المسرحية التقليدية أن تقوله. إن الإنسان فى حاجة إلى أن يعيد النظر فى كل القيم التى قدمها لنا الغرب لنعود أسياداً لوطننا حكاماً على مقدرتنا فلا تخدعنا البهرجة ولا الزيف المقدم لنا. ■

لغويات

بقلم : د. الطاهر أحمد مكي

يلتقي كل خميس مساء في نادى جماعة دار العلوم كوكبة من محبى الثقافة عامة، والعربية خاصة، شباب وكهول، رجال ونساء، عاشقين ومحترفين، يتحاورون حول قضايا بلا شطئان، وكان مما ألقى به شاب أنه حائر فى ضبط لفظى قبل وبعد، على كثرة تدوالهما في الأحاديث اليومية، والكتابات الصحفية، والمقالات الأدبية، فكل الحركات الإعرابية تتعاور آخرهما: الضمة والفتحة والكسرة دون أن يعرف لذلك قاعدة.

وتأملت السؤال فوجدت الشاب على درجة كبيرة من الصواب، لأن الأمر نفسة عرض لى، ولكن مع الدربة والممارسة يستطيع المرء أن يستخدمهما دون أن يخطئ، أما التعليل، ومعرفة الصواب عند الشك، وهو يعرض للكثيرين، فيحتاج إلى شئ من الدرس والمراجعة ومعرفة القاعدة اللغوية التى تحكمهما:

قبل وبعد من حيث ضبط آخرهما لهما - إجمالا - حالتان :

أن يكونا مضافين فيضبطان بالفتح نصبا على الظرفية، أو يجران بالكسرة إذا سبقهما حرف جر. فى القرآن الكريم :«كذبت قبلهم قوم نوح ... فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون» .

●●

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

وياوطنى لقيتك بعد يأس
كأنى قد لقيت بك الشبابا
أدير إليك قبل البيت وجهى
إذا فهت الشهادة والمتابا

الحالة الثانية ألا يكونا مضافين ولا منونين فيبنيان على الضم. فى القرآن الكريم:«لله الأمر من قبل ومن بعد».

وقد وقف النحاة أمام حالتين خرجتا عن القاعدة النحوية المقررة، فى قراءتين من غير القراءات السبع، الأولى قرئ فيها: «لله الأمر من قبل ومن بعد» بالخفض من غير تنوين، ويعللون ذلك بأن المضاف إليه محذوف، ولكن وجوده ثابت ومقدر، ومعنى الآية : من قبل الغلب ومن بعده. والقراءة الثانية «لله الأمر من قبل ومن بعد»، بالخفض والتنوين، وذلك يعنى أن الإضافة غير مقدرة لأنها لاتجتمع والتنوين .

وفى مواجهة مثل هاتين الحالتين أنا أفضل قاعدة نحاة البصرة التى ترى الالتزام بالقاعدة دائماً، وما خرج عنها من كلام العرب يحفظ ولا يقاس عليه. ونوجز قاعدة الكلمتين فى : إما مضافة فتنصب بالفتحة ظرفا، وتجر إذا سبقها حرف جر، وإما غير مضافة فتبنى على الضم.

وهذه القاعدة تطبق أيضا على أسماء الجهات الست : شرق وغرب، وشمال وجنوب، فوق وتحت، ولفظا أول ودون، من غير تفرقة أو تمييز . ■

بعد السقوط من الأب الروحى إلى تيتو وخالتى فرنسا

بقلم
مصطفى درويش

كانت نيويورك أول مدينة تضاء بنور الكهرباء، ومع ذلك فليست هى، وإنما باريس التى أطلقوا عليها مدينة النور. والآن، وبالتحديد هوليوود، باستديوهاتها الكبرى، هى مركز انتاج أكثر الأفلام تأثيرا فى مسار السينما .

ومع ذلك ، فباريس، لا هوليوود، هى عاصمة السينما، لا تنافسها فى هذا اللقب مدينة أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها .

فهى الوحيدة بين جميع مدن كرتنا الأرضية التى يعرض على شاشات دور السينما فيها، خلال الأسبوع الواحد، ثلاثمائة فيلم أو يزيد.

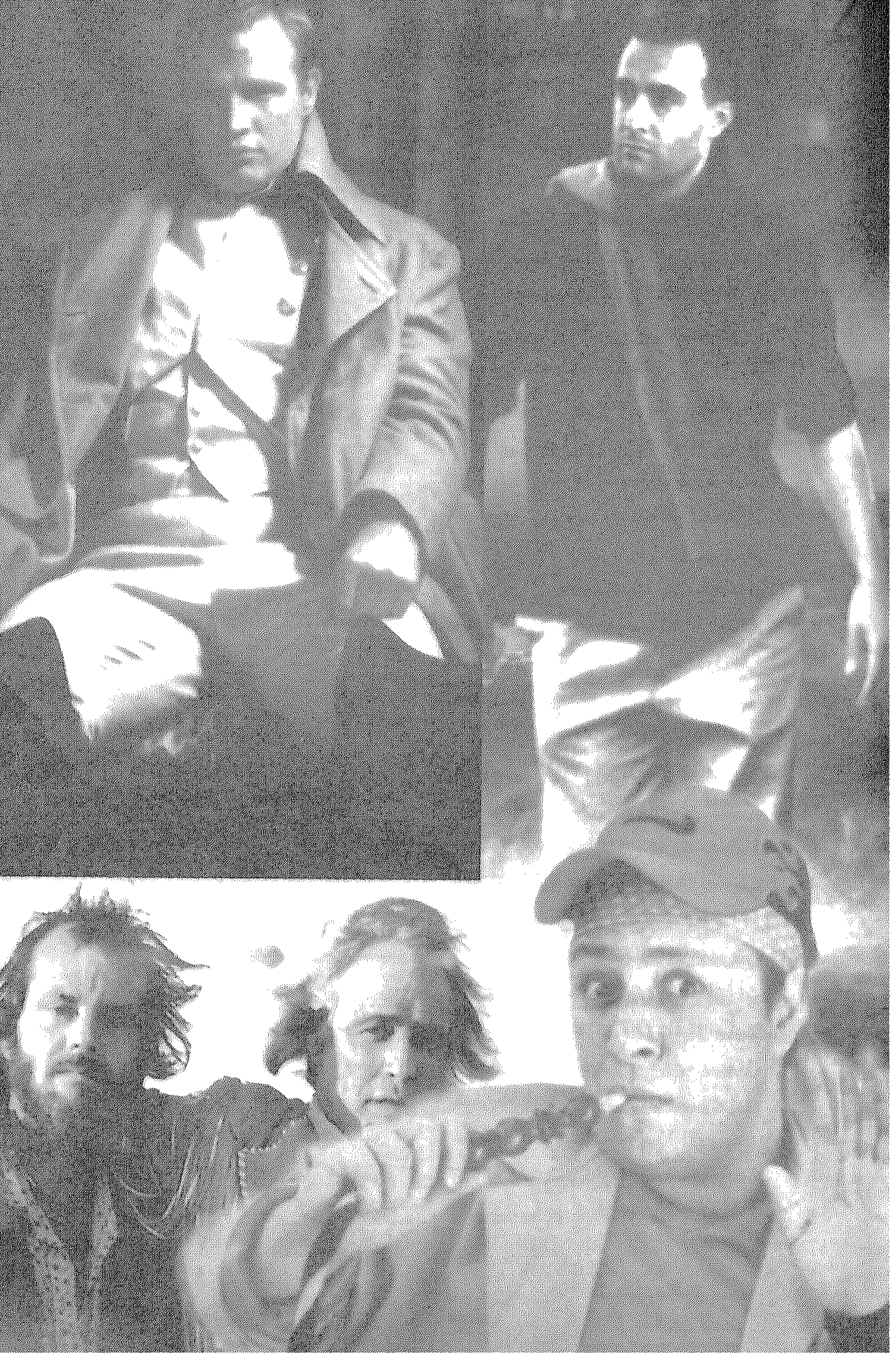

كما أنها، والى عهد قريب ، كانت تنفرد بوجود دارى عرض للأفلام المصورة بطريقة الايماكس، وست عشرة مكتبة متخصصة فى بيع كل ما يتصل بالثقافة السينمائية، وبفضلها تنتشر المعرفة بلغة العصر الحديث.

شارع المتعة

ولست مغاليا، إذا ما جنحت إلى القول بأنه لا يوجد شارع يضارع الشانزليزيه فى عدد دور السينما .

فهذا الشارع الذى يبدأ شرقا من متحف اللوفر، ويعتبر فى نظر البعض، أعظم محور مدائنى فى العالم، لامتداده فى خط مستقيم من قوس النصر (الكاروسيل) المشيد تكريما لانتصارات نابوليون بونابرت (١٨٠٨) مرورا بحدائق التوليرى، حتى ميدان الكونكورد، حيث مسلة الفراعين، فميدان شارل ديجول (الأتوال)، حيث قوس النصر.

ومنه ، ولعدة أميال، تحت مسميين آخرين «لاجراندارمى» أى الجيش العظيم، وشارل ديجول، يمتد الشانزليزيه حتى قوس الدفاع.

هذا الشارع الفريد يزدان بواحدة وستين دار سينما، وهو عدد يفوق عددها فى القاهرة، بكثير .

ومن هنا اختيارى مدينة النور وشارعها الفريد ليكونا قبلتى، أزورهما من حين لآخر، كى استزيد من فن لم نؤت من العلم به الا قليلا.

ومن عجب أن آخر زيارة لهذه المدينة وشارعها ذى الواحد وستين دار سينما كانت قبل ثلاثة أعوام، وبالتحديد قبل الحادى عشر من سبتمبر ، ذلك اليوم البغيض الذى جرى فيه تدمير برجى مانهاتان، بوحشية منقطعة النظير.

صيف المحاكاة والتهريج

فى هذه الأثناء وقعت أحداث كثيرة، آخرها بدء موسم الصيف السينمائى بأفلام قوامها إما محاكاة الأفلام الأمريكية دون حياء، أو التهريج الرخيص، وبخبر فاجع طيرته وكالات الأنباء مفاده أن النجم «مارلون براندو» قد جاءه الموت فى الأول من يوليه، أى قبل شهر بالتمام.

ولقد شاءت لى الأقدار أن أجدنى فى مدينة النور، وشارعها الفريد، بعد ستة أيام من إعلان وفاة النجم الكبير، وبعد بضع ساعات من معاناة مشاهدة فيلمين من هجمة الصيف «تيتو» و«خالتى فرنسا» .

ونظراً لضيق المجال، فلن أعرض للأفلام الثلاثة التى أتيح لى أن أشاهدها فى باريس وهى (فهرنهايت ١١/٩) الفيلم الفائز بسعفة مهرجان كان (٢٠٠٤) «والتعليم السئ» أول فيلم أسبانى يفتتح به هذا المهرجان و«لا تقولى شيئا»، رائعة المخرجة الاسبانية «إيكيار بولان»، والفائزة

بست جوائز جويا، وهى المقابل الأسبانى لجوائز أوسكار .

مكتفيا بالعرض لسيرة «براندو» باختصار وبالعرض «لتيتو» ، و«خالتى فرنسا» بأقل الكلام .

إفساد المواهب

وابدأ «ببراندو» لأقول أن أداء الممثل على خشبة المسرح، وأمام عين الكاميرا قبل تقمص براندو لشخصية ستانلى كوفالسكى فى عربة اسمها الرغبة على خشبة المسرح وشاشة السينما غيره بعد تقمصه لها . فلقد أحدث براندو، والحق يقال، ثورة فى الأداء، بطريقة تقمصه لشخصية «ستانلى» وشخصيات أخرى، اذكر من بينها على سبيل التمثيل شخصية الأب الروحى «كورليونى» فى الجزء الأول من ثلاثية «الأب الروحى» ، وشخصية الأمريكى الضائع فى «التانجو الأخير فى باريس» وشخصية الجنرال الأمريكى «كورتز» المصاب بلوثة العظمة فى «نهاية العالم الآن» .

وكالمعتاد ، فى كل ما يتصل بنجوم هوليوود المتعددى المواهب، لم تؤت هذه الثورة ثمارها بالكامل.

فسرعان ما بددت مواهب «براندو» فيما لا ينفع من الأفلام، بالإغراء بالمال .

ولعل خير مثال على ذلك، أن يعرض عليه الظهور فى فيلم

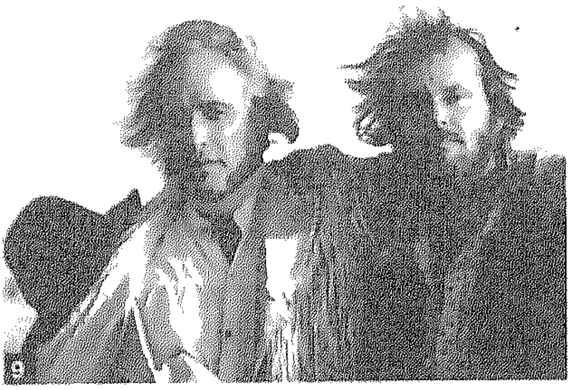

«كريستوفر كولومبس – الاكتشاف»، قبل ثلاثة عشر عاما، وأن يكون ظهوره لمدة عشر دقائق لا تزيد، ومقابل هذه الدقائق القليلة، يحصل على خمسة ملايين من عزيز الدولارات، أى بواقع خمسمائة ألف دولار عن الدقيقة الواحدة .

ومقابل هذه الملايين الخمسة يرتضى أن يتقمص شخصية «كوركيمادا» رئيس محاكم التفتيش فى أسبانيا ، ويرتضى أن يلبسه مخرج الفيلم فى سبيل تقمص هذه الشخصية البغيضة ثوبا فضفاضا، جعل من جسمه البدين، وهو يقترب من السبعين ، مسخا منفوخا، بحيث بدا ، وكأن المخرج أراد أن يتخذه هزؤا .

والآن إلى الفيلمين المصريين تيتو وخالتى فرنسا، لأقول أن أولهما لايعدو أن يكون محاكاة لأفلام الحركة الأمريكية فى أسوأ حالاتها.

سينما الاستسهال

ولا غرابة فى هذا، فمما يعرف عن صاحب «تيتو» المخرج «طارق

العريان» أنه يفضل الطريق الأسهل، ألا وهو اقتباس القصة والسيناريو والحوار ومشاهد التصوير .

وتصبح المسألة عنده مجرد عملية تفكيك لبعض الأفلام الأمريكية، الزاعقة فى تجاريتها، ثم إعادة تركيبها ، مع قدر لا يستهان به من التلفيق .

وخير مثل على هذا النوع من الاقتباس ، الأقرب إلى المحاكاة، «الإمبراطور» فيلمه الروائى الأول، المأخوذ عن «الوجه ذو الندبة»، لصاحبه المخرج الأمريكى «برايان دى بالما» .

فهو فى حقيقة الأمر صورة طبق الأصل من الفيلم الأمريكى «مع استبدال أحمد زكى» ، بالنجم «آل باشينو» وإضافة بعض التوابل التى تجعل «للامبراطور» مذاقا مصريا، من بينها أذكر على سبيل المثال المطرب الشعبى «كتكوت الأمير» .

وفيلمه الرابع والأخير «تيتو» فيه من داء المحاكاة الشئ الكثير فهو كما قال عنه الناقد طارق الشناوى فيلم أمريكانى، تجميع مصرى، وذلك رغم أن المخرج يزعم فى العناوين أن فيلمه مأخوذ عن قصة من تأليفه .

انعدام الخيال

والحق أنه ليس فى القصة خيال، فهى قصة ملفقة، والسيناريو الذى حولت إليه ، مفرط فى السذاجة .

وكل ذلك حال بين المخرج وبين أن يحدد لفيلمه طابعا واضحا .

فأحداث «تيتو» تدور ، وجودا وعدما، حول أولاد الشوارع، وكيف يجعلهم عدم مبالاة المجتمع مجرمين.

فتيتو لص منذ أن كان صغيرا، وداخل إصلاحية الأحداث تحول إلى مجرم لا يشق له غبار (أحمد السقا) وخارجها واصل حياة الإجرام.

والمعنى الذى يتمحور حوله الفيلم، هو التوبة فبعد حياة مليئة بجرائم يشيب من هولها الرضع فى حجور الأمهات، يلتقى صدفة بشاب واسع الثراء (عمرو واكد) .

ولأمر ما ، غير مفهوم، يثق فيه هذا الشاب من أول لقاء، ثقة عمياء.

وعن طريق هذا الشاب، يلتقى بفتاة الأحلام (حنان ترك) فيقع فى غرامها من أول نظرة عين .

وهى الأخرى تبادله غرام بغرام.

وها هو ذا، وقد أصبح صاحب مطعم مشاركة مع الشاب الواسع الثراء . وعلى وشك الزواج من فتاة الأحلام . يستيقظ ضميره، يحاول أن يقطع كل صلة بينه وبين عالم الاجرام

فشل التوبة

باختصار يحاول ألا يكون من الضالين ولكن يحول دون ذلك ماضيه المشين . والعريان وإن حاول أن يجعل فيلمه يدور حول معنى النجاة بالتوبة، الا أنه فشل أن يقدمه لنا بجلاء ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه . عجز أن يبث فينا الإحساس بمأساة أولاد الشوارع، متمثلة فى «تيتو» ونهايته الفاجعة .

فتيتو هذا كما رسم شخصيته السيناريو منذ أن كان صغيراً، ضائعا، محروما من الحنان، ولا تطهره التوبة من هذه العيوب .

فالمطعم الفخم الذى يمتلكه مشاركة مع الصديق المفاجئ الواسع الثراء، ممول بفلوس جاءته عن طريق الإجرام وهو يستعمل هذا الاستغلال للمال الحرام، ولا يدخله فى عداد الآثام .

وعند اقترابه من النهاية، حيث يموت مقتولا بمئات الطلقات، يوصى حبيبة قلبه (حنان)، بأن تأخذ ما عنده من مال حرام، وتنفقه فى أوجه الخير، خاصة على الأولاد المعذبين فى بر مصر!!

وبدلا من ذلك، فلقد كان واجب «العريان» حين يترجم قصته إلى لغة السينما، أن يعيد تركيبها، فيجعل منها قصة صراع داخل «تيتو» بين ماضيه وحاضره، وحتمية الانتهاء الفاجع لهذا الصراع .

دكان بقالة

ولكن شيئا من هذا لم يحدث وتحول الفيلم إلى دكان بقالة، فيه من كل صنف... إثارة وحب وتشويق ومطاردات، وانفجارات وطلقات نارية عمال على بطال .

ولم يحاول المخرج أن يستغل أى عنصر من هذه العناصر التى ازدحمت بها قصته، استغلالا معقولا يرفع من شأن فيلمه، ولو قليلا ، وكانت بعض المشاهد فاشلة تماما، مثل مشهد مطاردة «تيتو»، حتى كوبرى إمبابة، حيث قفز إلى النهر

كطرزان فى سالف الزمان، لينجو من مطاردة الشرطة إلى حيث يلتقى بزعيم العصابة (خالد صالح)، ويسلمه ما تم سرقته من أموال .

كلمة أخيرة عن «تيتو» وممثليه، قبل الانتقال إلى «خالتى فرنسا» .

(السقا) و(حنان) ، كلاهما يدور حول نفسه كممثل، لا يتقدم إلى أمام

اكتشاف نجم

أما (خالد صالح) فى دور ضابط الشرطة زعيم العصابة، كان لامعا، ارتفع إلى مستوى فى التمثيل ليس له ما فوقه .

ومثلما يدور (السقا) و(حنان) حول نفسيهما تدور (عبلة كامل) حول نفسها، ويتراجع تمثيلها فى «خالتى فرنسا» بنسبة متوالية هندسية.

والفيلم الذى تراجع فيه تمثيل (عبلة) على هذا النحو يبدأ بصوت رواية «بطة» (منى زكى) يحكى تاريخ عائلتها غير المشرف فى عالم الردح والنشل، وذلك من خلال عرض مصور سريع، لاهث ينتهى مع اختفاء العناوين وهى، أى «بطة» تستهل حكيها المثير بليلة تكوينها فى رحم أمها .

وكيف عكرت خالتها فرنسا صفو ليلة دخلة أختها، عندما سمعت تأوهاتها، فظنتها تأوهات ألم، فى حين أنها كانت تأوهات من فرط لذة الاستمتاع بفحولة العريس .

وفجأة تنتقل «بطة» بحكيها إلى أوتوبيس ، حيث جاء أمها المخاض، فولدتها بعد حمل تقلصت مدته إلى سبعة شهور .

ثم إلى أوتوبيس آخر، حيث ضبط والداها، وهما يحاولان نشل أحد الركاب .

فكان أن زج بهما فى أحد السجون ، حيث مكثا زهاء عشر سنوات .

سوء التربية

وأثناء وجودهما ، وراء القضبان، تكفلت بأمر تربية، أو بمعنى أصح إساءة تربية «بطة» خالتها فرنسا وما أن تم الإفراج عنهما، حتى حملت أم «بطة» ومرة أخرى جاءها المخاض فى الأوتوبيس ، حيث ولدت بنتا ثانية، أسمتها «وزة» .

وبحثا عن أبواب الرزق الحرام ، شدا الرحال إلى مكة المكرمة ، حيث أديا فريضة الحج، ومعها قاما بنشل العديد من حجاج بيت الله .

وكالمعتاد ، تركا ، أثناء غيابهما فى بلاد الغربة، فلذتى كبدهما «بطة» و«وزة» فى رعاية خالتهما فرنسا وفيما هى منهمكة فى النشل مع «بطة» ، وتنشئة «وزة» جاءها خبر وفاة والديهما فى حادث على الطريق ، أثناء عودتهما إلى أرض الوطن ، بعد أداء مناسك الحج والنشل فى مملكة

الصحراء.

ومع انتهاء «بطة» من حكيها لتاريخ عائلتها، حتى اختفاء والديهما بالموت أثر حادث أليم، وهو تاريخ مشين بكل المعايير .

حاول صاحبا الفيلم كاتب السيناريو «بلال فضل» والمخرج «على رجب» جاهدين أن يدغدغا حواسنا بحدوتة تافهة ، فيها الشئ الكثير من ألوان الردح والسباب، وما إلى ذلك من مستلزمات أفلام هذه الأيام .

وحتى يشدا أعصابنا، ويعلقا عيوننا ببياض الشاشة وسوادها ، افتعلا صراعا بين «بطة» وخالتها فرنسا.

عناد البغال

«فبطة» تريد لإختها الصغيرة «وزة» أن تتعلم لأن العلم نور، ويبتعد بها عن طريق الفساد وتريد لنفسها حياة بمنأى عن الضالين، قوامها العمل وكسب العيش الشريف، بعرق الجبين ولكن الخالة فرنسا تأبى ذلك باصرار وعناد كعناد البغال تريد لهما أن يستمرا معها فى طريق الضلال .

كما افتعل كاتب السيناريو والمخرج صراعا آخر بين قوتين .

إحداهما شريرة متمثلة فى عصابة تقوم بتهريب السموم البيضاء إلى بر مصر المحروسة، ويرأسها رجل أعمال . واسع الثراء (سامى العدل) والأخرى خيرة متمثلة فى ضابط شرطة همام، لا هدف له سوى انقاذ البلاد والعباد من شر مستطير يهدد الشباب ببلاء كبير .

فتى الأحلام

ولأمر ما، وقع اختيار الضابط الهمام على «بطة» لتكون شغالة وفى نفس الوقت جاسوسة مدسوسة فى القصر المنيف، حيث يقيم رئيس العصابة ، وكما فى حكاية سندريللا تلتقى «بطة» فى القصر بفتى الأحلام (عمرو واكد) الذى يقع فى حبها، وينقذها من البؤس والشقاء.

ولن أحكي ما حدث بعد هذا اللقاء السعيد، فذلك شئ يطول . وإنما أكتفى بأن أقول بأن صاحبى الفيلم كعهدنا معهما فى سابقة فيلمية لهما ، هى «صايع بحر» قد انتقلا بنا من شئ سخيف إلى شئ أشد منه سخفا

وختاما، يبقى لى أن أقول أنه ما أن ينتهى ونخرج من ظلام القاعة إلى ازدحام الشارع ، حتى يختفى تماما من شاشة ذاكرتنا، فلا يبقى منه شئ، لا فكرة ، ولا تأمل ، ولا أثر يمس القلب .

ومعروف أن الفن الحقيقى هو ما بقى منه شئ جميل فى نفس المتفرج، يزداد جمالا كلما بعد عنه ، وفصلت بينهما أيام النسيان، التى تطمس التفاصيل ، ولا تبقى إلا الجوهر الجميل . ■

رخا

إثبات خطأ نظرية مأمون أفندى!

بقلم
محيى الدين اللباد

عرفت مصر الكاريكاتور بمعناه الحديث (منشوراً فى مجلات وصحف مطبوعة) مع مجلة «**أبو نظارة**» التى أصدرها **يعقوب صنوع** عام ١٨٧٨، وكان ذلك الكاريكاتور بدائياً، رسومه ساذجة، وتناوله للموضوعات فج، لكنه كان الأول من نوعه فى تاريخ الصحافة المصرية. ومرت عدة عقود قبل أن تستقبل مصر -بعد ثورة ١٩١٩ بقليل- ثلاثة من الرسامين الأجانب الأكاديميين المحترفين ستتأسس على أيديهم -وعلى الأصول- مهنة الكاريكاتور فى الصحافة المصرية: الإسبانى **خوان سانتيز** الذى أتى ليعمل أستاذاً فى مدرسة الفنون الجميلة المصرية، ثم ظفر به الصحفى **سليمان فوزى** ليجعل منه الرسام الأول لمجلة «**الكشكول**» عام ١٩٢١. بعده جاء إلى مصر التركى **رفقى** رسام المساحة العسكرية المتمكن لتختطفه «**دار الهلال**» لمجلتيها «**المصور**» و«**الفكاهة**». وأخيراً جاء الثالث الأرمينى **ألكسندر صاروخان** عام ١٩٢٤، وقدمه صاحب ورشة زنكوغراف إلى **محمد التابعى** الذى التقطه ليرسم غلاف «**روزاليوسف**». وهكذا أسس الرسامون الخواجات العظام فن الكاريكاتور فى مصر على مستوى مهنى رفيع لم يتوفر لدولة عربية أخرى.

فى نفس العام الذى صدرت فيه «**الكشكول**» بمستواها الفنى والمهنى المتميز (١٩٢١)، كان فصل السنة الرابعة (ب) فى مدرسة باب الشعرية الابتدائية يشهد موقفاً تاريخياً آخر: **مأمون أفندى** مدرس الرسم والحساب وضابط الكشافة بالمدرسة يقف إلى جوار «قمطر» يتجاور عليه تلميذان يجيد أحدهما الرسم بدرجة لافتة للنظر، ويحمل اسماً غير مألوف هو «**فريدون**» (رسام

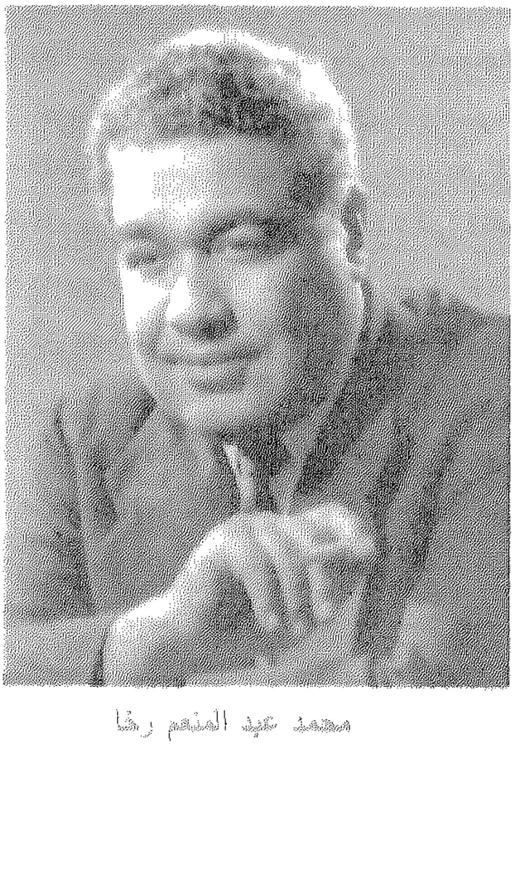

محمد عبد المنعم رخا

الإعلانات النابغة فيما بعد). ويسأل المدرس النابغة الصغير: «انت اسمك غريب شوية، إنت من أى بلد يا شاطر؟»، ويجيب التلميذ: «عيلتنا جات من إيران يا افندى!»، ويهتف المدرس مهللاً: «أهو كده! أنا دايما أقول ما فيش مصرى فنان بطبعه أبداً»، وينقبض التلميذ الآخر وينكمش فى «القمطر»، وقد ذبحته نظرية ذلك المدرس التافه، تفور داخله رغبة حارة فى مقاومة تلك النظرية المهينة لكرامته وكرامة وطنه.

لم يكن **مأمون أفندى** التافه والغبى يدرك أن هذا التلميذ المصرى الذى جرح مشاعره الوطنية والشخصية سيكون رسام الكاريكاتور المصرى الأول الذى سيمصر هذا الفن وينقل ريشته إلى أيدى الرسامين المصريين، مفتتحاً طريق مهنة سوف يتعلق بها القراء، ويتابعون أعمال رساميها مفتونين. بل إن هذا التلميذ سيصبدر على نفقته -فى سن التاسعة عشرة- مجلة الكاريكاتور «**اشمعنى**» فى مطلع عام ١٩٣٠. ولم يكن يعرف أن هذا الفتى سيكون نجماً ساطعاً فى سماء الصحافة المصرية قبل أن تمر ١٥ عاماً على ذلك الدرس المخزى الذى هتف به **مأمون أفندى** التافه الغبى والسخيف. وكان التلميذ الذى لم ير معلّمه فيه أى قدر من النجابة، هو الرسام «**رخا**»!.

ولد **محمد عبد المنعم رخا** فى نوفمبر ١٩١٠ فى سنديون (محافظة القليوبية)، ابناً للشيخ **السيد أحمد رخا** القاضى الشرعى فى المدينة. ولم يكد الصغير يبلغ العام والنصف حتى رحل أبوه عن الحياة، فانتقلت الأسرة إلى حى باب الشعرية القاهرى حيث جرت فى مدرسته الابتدائية واقعة **مأمون أفندى** التافه الغبى السخيف والمنسحق.

مجلة «اشمعنى»، عام ١٩٣٠

وقع **رخا** منذ صباه فى غرام الرسم والكاريكاتور تحديداً، وغرق فى هواه منصرفاً عن الدروس وعن كتب المدرسة، محولاً اهتمامه وإعجابه إلى المجلات والكتب المصورة، مثل: مجلة «الأولاد» وكتاب «القراءة الرشيدة»، اللذين خلبا لبّه وألباب كثيرين من مجايليه (ابحث عما قاله كل من الرسام **بيكار** والروائى **نجيب محفوظ** عن تلك المجلة وذلك الكتاب وما فعلاه بوجدان كل منهما!).

وانتقل التلميذ الواقع فى هوى الرسم إلى المدرسة الخديوية الثانوية، حيث دلله بعض أساتذتها اهتماماً ببراعته فى الرسم، لكن لم تفلح تلك المعاملة الخاصة فى تدفئة علاقته الفاترة بالدروس، فغادر المدرسة غير آسف

مولياً وجهه شطر سوق الكاريكاتور ليدخله من أوسع أبوابه.

في الطريق إلى سوق الكاريكاتور، مر **رخا** بسوق الخضار في باب اللوق، الذي كان الطابق الثاني من مبناه مقسماً إلى غرف صغيرة تشغلها ورش ومشاغل ومحترفات ومكاتب للإيجار، فاستأجر رسامنا إحداها، لتكون مقره الذي ينجز فيه عمله، ويأتي إليه من يطلب منه الرسوم للصحف والمجلات ولغير ذلك من أعمال.

ذهب **رخا** إلى **يونس القاضي** (كاتب الأغاني المعروف ومؤلف نشيد «بلادي بلادي»)، وعرض عليه رسومه، فاختار أحدها ونشره في مجلته «**الفنان**». وكانت تلك هي التجربة الأولى للرسام في نشر رسومه في الصحافة الحقيقية. وفي واحدة من مطابع الصحف، التقى رخا برئيس تحرير «**روزاليوسف**» **محمد التابعي**، الذي أخذ منه رسمين ونشرهما في «**روزاليوسف**» على غلافها الأخير.

كان رسامو الكاريكاتور المصريون -حينذاك- أحراراً يعملون في الصحف والمجلات دون ارتباط وظيفي أبدي كما هو واقع اليوم. بل كانوا عصافيراً تزقزق متقافزة من غصن إلى غصن، ومن شجرة إلى أخرى. كانت المساحات التي تطلب الكاريكاتور في صفحات الصحف شاسعة، وكان الرسامون المجيدون المعروضون قلائل، ولذا كان من المقبول أن يرسم الرسام في أكثر من مجلة وجريدة. وكثيراً ما حدث أن رسم أحد الرسامين كاريكاتوراً على مقاس الخط السياسي لإحدى المجلات، ثم يذهب بعد ساعة إلى مجلة أخرى من اتجاه سياسي معاكس، حيث يرسم كاريكاتوراً ضد الكاريكاتور الآخر الذي رسمه في صباح اليوم ذاته. وقد حكى **رخا** أن هذا الأمر كان رائجاً وشائعاً في المهنة، وأنه كثيراً ما عاش هذا التناقض. لكنه حكى في أكثر من مناسبة ولقاء أن هذا الأمر كان متسقاً مع طبيعة الأحزاب السياسية الكبرى في تلك الفترة. تلك الأحزاب التي لم تكن الخلافات بينها حقيقية أو مبدئية، بل كان الخلاف الأساسي بين كل الأحزاب: «من منهم أجدر بتولي الحكم الآن». ولذا كان الكثيرون يرون مهنة الكاريكاتور -رغم صعوباتها وشروطها القاسية- أشبه باللعبة المربحة المسلية التي لا خطر من ورائها.

إلا أن **رخا** لم يسلم من مخاطر تلك «اللعبة المسلية»، حين وقع في مطب كبير كلّفه -وهو في الثانية والعشرين- أربع سنوات من عمره قضاها في السجن محكوماً بتهمة «العيب في الذات الملكية».

كانت مجلة «**المشهور**» قد صدرت (١٩٣٣) وعلى غلافها كاريكاتور رسمه **رخا** ويسخر فيه من رئيس الوزراء. وبين ثنايا الرسم المطبوع كانت هناك عبارة كتبت بخط دقيق جداً ومصغر لا تلحظه العين العابرة: «فليسقط الملك ابن الـ.....»!. كان الملك هو **فؤاد الأول**، وكان رئيس الوزراء ووزير الداخلية هو **إسماعيل صدقي** ولي القمع والإرهاب وعدو الحريات وربيب

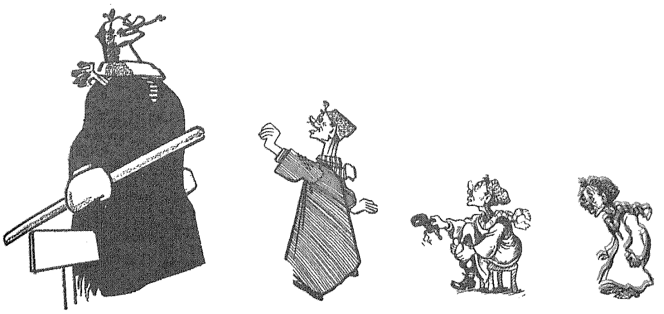

بدأ ابن البلد ضعيفًا حافيًا ... وظلت أحواله فى تحسن، حتى صار عملاقًا يلبس الصوف!

الاحتلال. وكان البوليس السياسى هو الذى دس تلك العبارة فى الرسم بيد بعض عملائه، بينما كان **رخا** رهن التحقيق حول الرسوم التى نشرها فى العدد السابق من نفس المجلة.

قضى **رخا** فى السجن سنوات الحكم الأربعة كاملة، وخرج بعدها ليعمل فى «**روزاليوسف**» عام ١٩٣٧، كما عمل عام ١٩٣٩ فى جريدة «**الوفد**» التى نشرت رسومه على الصفحة الأولى فى سابقة لم تحدث فى الصحافة المصرية من قبل. وتكرر الأمر نفسه، ونُشر رسم **رخا** على الصفحة الأولى لجريدة «**البلاغ**» المسائية. ورسم **رخا** فى مجلة «**الاثنين**» بين عامى ١٩٤١ و ١٩٤٤ تحت رئاسة **على أمين**، وتركاها معا عند تأسيس جريدة «**أخبار اليوم**». ويقول **مصطفى أمين** فى بابه «فكرة»

حين كتب ينعى **رخا**: «ما من مجلة أو جريدة ظهرت فى الثلاثينيات أو الأربعينيات أو الخمسينيات ولم يكن فيها صور **رخا** الضاحكة الساخرة».

ظل **رخا** فى دار «**أخبار اليوم**» ٤٥ عامًا متصلة: منذ عام ١٩٤٤ حتى وفاته ١٩٨٩، فرسم فى «**أخبار اليوم**» الأسبوعية، و«**الأخبار**» اليومية، والأسبوعيات «**آخر ساعة**»، و«**آخر لحظة**»، و«**الجيل**». وعلى صفحات هذه الصحف والمجلات اختلق **رخا** شخصياته الكاريكاتوريه التى شغف بها القراء حبًا، فصارت أيقونات شعبية ذائعة الصيت، حتى أن تلك الشخصيات جرى اقتباسها فى عدد من الأفلام والمسرحيات والأعمال الإذاعية والاسكتشات الفكاهية فى حفلات الزفاف وفى الموالد الشعبية.

ابتدع رخا شخصيات: ^ **ابن البلد** ^ **رفيعة هانم** ^ **السبع أفندى** ^ **حمار أفندى** ^ **الوفدى أفندى** ^ **قرفان أفندى** ^ **ثرى الحرب** ^ **سكران باشا طينة** ^ **بنت البلد** ^ **ميمى بيه** ^ **كروان الإذاعة** ^ **الفانية** ^ **اللصوص**.

ظهر **ابن البلد** للمرة الأولى عام ١٩٤١ على صفحات مجلة «**الاثنين**»، وكا

البدء شخصًا ضئيل الجسم، ضعيف البنية، وسيء التغذية، يلبس جلابية ويضع كوفية رخيصة حول رقبته. بدأ ظهوره وعلى رأسه زعبوطًا قُمعيًا مخططًا بالعرض مثل ذلك الذى رأيناه على رأس **محمود شكوكو**، ثم تحول إلى طاقية بحائط مزركشة تبرز من تحتها نؤابة من شعره. لم يكن مظهر **ابن البلد** ينبئ بأنه فلاح أو صاحب صنعة، بل مجرد فهلوى صغير. ظهر حافيًا لمرات قليلة ارتدى بعدها حذاءًا برقبة. ويمكن أن يجمل لك اسمه المبكر شخصيته وصورته، إذ كان اسمه فى البداية: «**نقنق**»، وتمضى السنين، نجد **ابن البلد** بعد ثلاثة عقود وقد غيرته الصعاب والأحداث والأزمات والانكسارات التى ألمت بالأمة، وبالذات بعد ١٩٦٧. نجده وقد رسمه **رخا** عملاقًا أشما، وجبلاً غاضبًا، تنفر عروق رقبته التى صارت شديدة الغلظة، يحمل وجهه تعبيرات غاضبة ساخطة، ويمسك بعصا طويلة وغليظة هى الأخرى، مندفعًا فى وضع ينذر بالثبور وعظائم الأمور!.

كم اضطر الكاريكاتور المصرى -مرغمًا وطوال نصف قرن- إلى حمل رسائل دعائية تخلو من أى انتقاد أو سخرية حقيقية أو خفة دم، بل تسخّر مواهب الرسامين لمواكب تهليل وهتافات لا تحمل من الكاريكاتور شيئًا!.

●●●

كان ثنائى **رفيعة هانم** و**السبع أفندى** واسع الانتشار، إلى حد أن أطلق الناس على كل بدينة **رفيعة هانم**، وعلى كل ضئيل منكسر أمام زوجته **السبع أفندى**. وكان **حمار أفندى** هو الغبى الذى لا يفهم فى السياسة، ويكون رضاه عن أمر ما دليلاً على فساد ذلك الأمر. كذلك كان الحال مع **سكران باشا طينة**. أما **ميمى بيه** الرقيع المتخنث، فقد كان رمزًا للطبقات العليا المرفهة التى لا تعمل. وكان **كروان الإذاعة** هو كنية **محمد بك فتحى** مدير الإذاعة المصرية فى

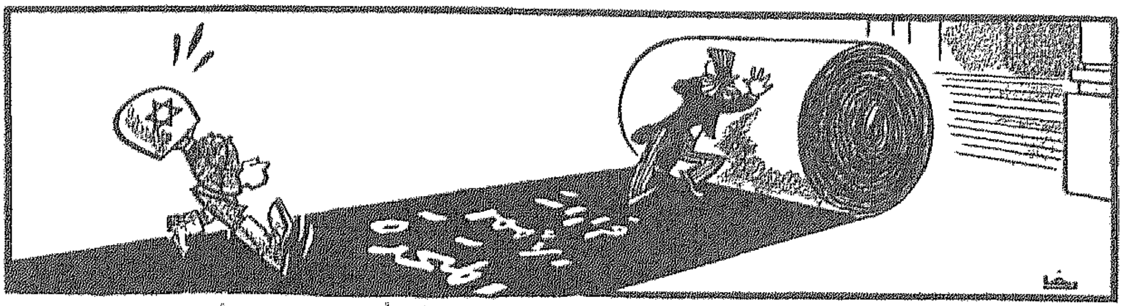

رخا على مساحة الكاريكاتور العريضة فى صفحة «أخبار اليوم» الأخيرة

ذلك الوقت.

أما **بنت البلد**، فقد كانت ست كل تلك الشخصيات: هيفاء فارعة، ونموذجًا للست المصرية ذات الجاذبية الخاصة والأنوثة المتفردة. قدم **رخا** هذه الأنثى الشهية فى لوحات ملونة عملاقة تشهد بحساسية الرسام وبراعته النادرة. واستطاع بعض من تابع **بنت البلد** التى رسمها **رخا** على صفحات «**آخر ساعة**» فى الخمسينيات، أن يلمح فيها منافسة قوية وتسابقًا دؤوبًا يدوران بين **رخا** وبين اثنين من الرسامين الأجانب كانت «**آخر ساعة**» قد نشرت لوحاتهما الملونة لهيفاوات أوروبيات على صفحاتها من قبل: الأمريكى **دافيد رايت** والإسبانى **فارجاس**. منافسة وتسابق: أينا الأبرع والأقوى، وأى نسائنا هى الأشهى والأمضى أنوثة. وربح **رخا** السباق!

تحولت **بنت البلد** على يد **رخا** –فى فترة المنافسة الضارية تلك– إلى فتاة ذات قدّ رشيق مبالغ فى استطالته حسب مقاييس النموذج الأنثوى الغربى حينذاك، الذى اعتبر طول الساقين والفخذين دليلاً على حسن حظ المرأة، وقدرتها على جلب السعد. ومع الساقين

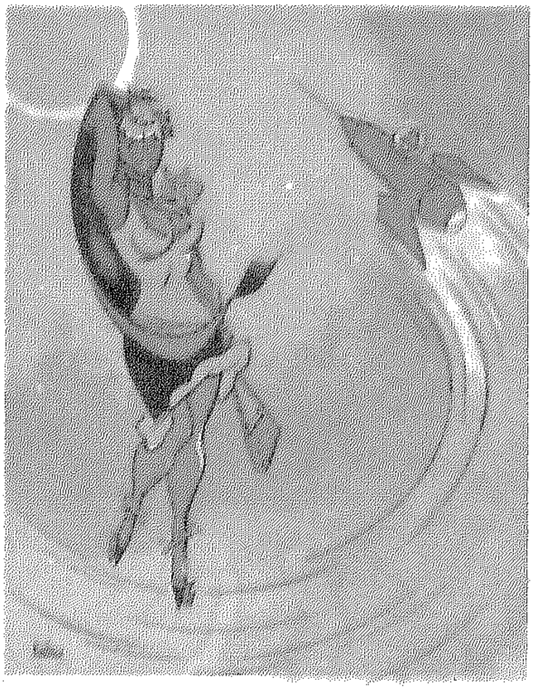

رائد القمر: انتم اللى غلط .. أنا متأكد إن القمر هو اللى على إيدى الشمال!

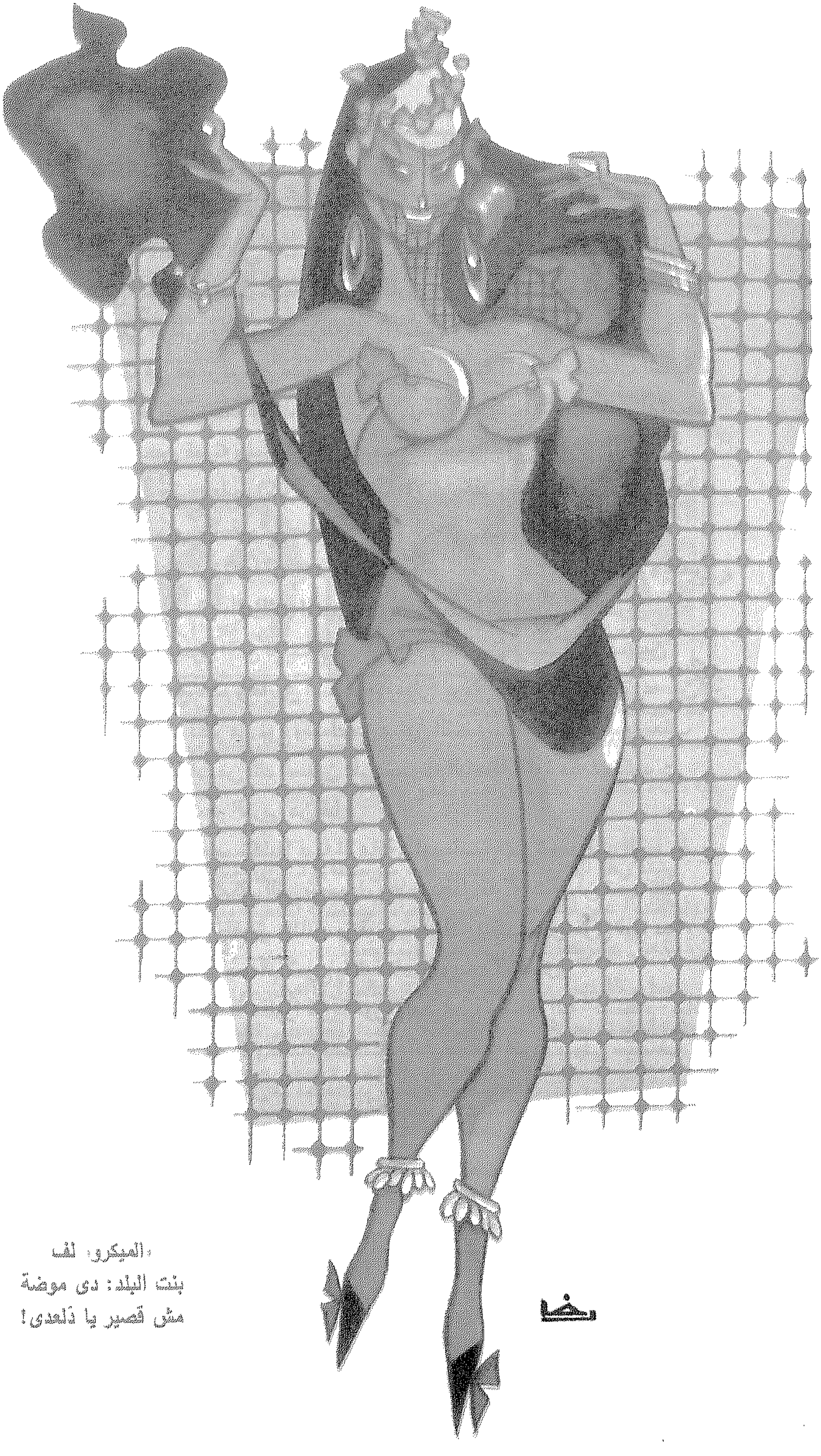

• الميكرو لف
بنت البلد: دى موضة
مش قصير يا دلعدى!

والفخذين الطوال، كان هناك الخصر النحيل والحوض الخصيب والصدر الناهد المتماسك، الذى تنعكس على كرويته التماعات الضوء الساقط وأيضًا على حدود الفخذين والحوض. **صوفيات لورينات** يحطن أجسامهن بالملاية اللف السوداء التى اختصر **رخا** طولها فى أحد رسومه، وجعلها -فقط- تغطى النصف الأعلى لبنت البلد اللعوب! وتضع هؤلاء **الصوفيات اللورينات** «البرقع» المخرم على النصف الأسفل للوجه المليح، و«العروسة» الذهب الفالصو فوق الأنف، والمنديل «أبو أوية» على الرأس، والحلق «المخرطة» فى الأذنين، والخلخال فى «خُنّاقة» القدم. أيقونة إيروسية ناجحة فى عصر لم تكن صور النساء الملونة الرقمية المعالجة بالتقنيات العالية قد أصبحت متاحة بالوفرة الغامرة كما هو الحال الآن. كان **رخا** يقدم **بنت البلد** كما تمنيناها، بعد الحرب العالمية الثانية، حين غمرته وغمرتنا نوبة الإعجاب الكونية بالنموذج الغربى (والأمريكى بالذات)، والتى اجتاحت حتى معايير ذكورنا فى اشتهاء الإناث. لقد رسم **رخا** كل هذا ببراعة وحساسية أسطى كبير: وأى براعة! وأى حساسية!

وتعكس رسوم **رخا** المبكرة تأثرًا بالسائد من الكاريكاتور الغربى الذى كانت تنشره بعض الصحف والمجلات المصرية مثل «**اللطائف المصورة**» وبالرسامين الأوروبيين المتمصرين، وبالذات منهم **رفقى وصاروخان** الذى لم يسلم من التأثر به واحد من الرسامين المصريين العاملين فى سنوات التماعه. تعلم **رخا** من أستاذه الأرمينى حركة الخط وحيويته، وتنوعه بين الغلاظة والنحافة باستخدام أكثر من نوع وسُمك من سنون التحبير، التى ضغط عليها بعنف ودراية كبيرة، ولعله كسَّر المئات من تلك السنون على خطوطه الباهظة القوة مثلما «تكسرت النصال على النصال» فى الشعر العربى من قبل.

وتتبع **رخا** أعمال أستاذه مستكشفًا فيها الرهافة والحساسية التى تجعل ذلك الخط يضج بالحركة والارتجاف ويجسم الأشكال التى يرسمها، والذى يجعل قارئه يشعر أن تحت تلك الملابس المتموجة جسم بشرى تطقطق عظامه، وتنقبض عضلاته وتنبسط، وتسرى فيها دماء جارية نشطة، وتمتد فيها شبكة أعصاب تموج بالشحنات وموجات الانفعال.

وسيظل **رخا** يعمل بجد وبهمة مطورًا كاريكاتوره العصامى، مضيفًا إليه -بانتظام- نتائج تجاربه الممتدة واكتشافاته المستمرة وحصاد حساسيته الشخصية المتجددة. وفى منتصف الأربعينيات، كانت تأثيرات **صاروخان** قد اختفت من رسومه، وأصبح الأستاذ وتلميذه زميلان يعملان سويًا فى دار «**أخبار اليوم**»، ويتشاركان فى واحدة من حجراتها.

وستبدأ رسوم **رخا** فى ذلك الوقت، تنحو نحو الاهتمام بالتصميم وبالقيمة الجرافيكية والتيبوغرافية، وأصبحت رسومه تكوينات محكمة وأنيقة، تتكون من أشكال مقصوصة (باترونات) من الأسود تتصارع مع مساحات بيضاء، ويحيط بالحلبة إطار أسود سميك. أما الشخوص، فقد كانوا دمًى بديعة التصميم، وعبقرية التلخيص، وتضج بالحيوية والحركة، فى

حين تنعم بالتوازن!.

ويتجلى اهتمام **رخا** بالقيمة الجرافيكية والتصميم فى رسومه، كما يتجلى فى خطه الذى كتب به الكلمات المكتوبة ضمن رسومه، والذى تميز بأسلوب شخصى مميز فى كتابة خط حديث مبتكر سهل القراءة، امتد تأثيره إلى بعض مصممى المجلات المهمين من الأجيال الأحدث.

وتكفى متابعة توقيع الرسام على أعماله لنتعرف على نوقه الجرافيكى الأنيق. وقد أبدع **رخا** -فى أواخر الثلاثينيات- تصميمات جميلة لاسم «**روزاليوسف**» على غلافها. وكان أحدها ما اعتمد عليه **أبو العينين** فى الخمسين ليجعل منه شعاراً ثابتاً على غلاف المجلة.

وبعدها، صمم **رخا** اسم مجلة «**آخر ساعة**» الراقص الذكى الذى جعل من التاء المربوطة

(ضــحكات رخــا)

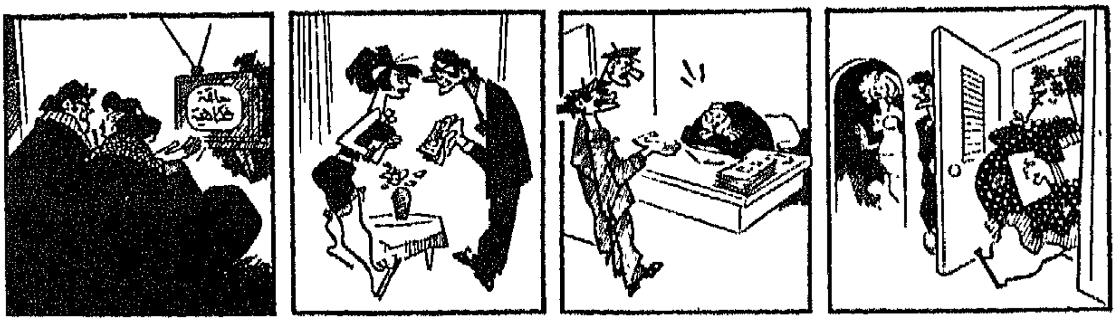

الوجبة الباردة
الزوج ـ الوجبة الباردة رجعت بالشوكو . . !

السابق لزميله ـ لو كانوا اهالينا صرفوا علينا وعلمونا ... كان زماننا مستريحين على مكاتب . . !!

الزوج ـ انا قبضت الماهية يا ميمي ... شوفى بقى ... نجيب السفرة ولا نروح للحكيم ولا نشترى جزمة ؟!

شيء بارد
الزوجة ـ الدنيا بردت قوى يا حماد ... قوم اقفل التليفزيون . !!

فيه ميناء ساعة. وكذلك كان اسم «**آخر لحظة**».

...

رسم **رخا** الكاريكاتور لستين عاماً متواصلة، ولا تزال رسومه تجعلك -بمجرد النظر إليها- قادراً على استحضار صور الحياة السياسية المصرية وروائحها ومذاقها وضجيجها في فترة ما بين عشرينيات القرن الماضى وثمانينياته.

عمل **رخا** بهمة عالية وبغزارة، وعاش بالطول والعرض، وأنفق ما كسبه بأريحية، وضحك كثيراً، واستمتع بعمله ونجاحه وببساطة كثيراً. وظل حتى اليوم الأخير محتفظاً بهيئة مصارع ضخم معتزل، أو رباع أثقال تحول إلى التدريب. واحتفظ بشعر رأسه سليماً لم ينقص شعرة. وظل شعراً كثيفاً طويلاً يستطيع أن يمشطه إلى الخلف حتى نهاياته، وإن كان قد استحال تاجاً أبيض تاماً بلا استثناءات.

عاش سعيداً، راضياً، مسالماً، محبوباً، ومحبا لغيره. لم يخض معارك ولم يتمترس فى عداوات، ولم يكرهه أحد ولم يكره أحداً. فى حين أنه ربما كان عليه -فى الحياة وفى الكاريكاتور- أن «يتعلم كيف يكره»، لمواجهة العنف والمظالم التى يعج بها واقعنا الخشن والصعب ■

حكاية
أسمهان
أميرة الغناء العربى

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

إن جاز أن تكون للغناء العربى ملكة متوجة فى القرن العشرين ، فإنها أم كلثوم بلا جدال ، وإن أمكن أن تكون هناك أميرة لذلك الغناء فى القرن المنصرم الذى شهد أزهى وآخر عصور تألقه ، فإنها كانت بلا مراء وبرأى كل نقاد الغناء ومتذوقيه : آمال الأطرش التى عرفت باسم أسمهان ، والتى تمر فى الرابع عشر من شهر يوليو الماضى الذكرى الستين لرحيلها .

أذنت الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٧م بحلول شتاء تلك السنة وبغروب شمس الدولة العثمانية، تلك الدولة التي أظلت قبل هذا التاريخ بسنوات طوال معظم المعروف من معمور الارض، كانت الدولة العثمانية تتلقى في تلك الأيام من شهر نوفمبر - مع شركائها من الألمان والنمساويين والمجريين - الهزيمة تلو الأخرى من جيوش الحلفاء على كل الجبهات في الحرب العالمية الأولى ، كان فرار القوات التركية أمام تقدم الحلفاء يحدث على كل جبهات القتال ، ويتم ذلك الفرار عبر كل وسائل النقل المتاحة ، ومن بين هؤلاء الفارين من تركيا .. الأمير فهد الأطرش (١٨٧٥ - ١٩٤٤م) وأسرته ، عمل فهد الأطرش من لدن السلطان العثماني - حاكما لمنطقة ديمرجي من أعمال أزمير في أقصى الغرب من تركيا ، وعندما تهاوت دفاعات الأتراك أمام تقدم القوات اليونانية ، هرب الأمير فهد بأسرته .. حيث تمكنت الأسرة من الصعود إلى باخرة أقلعت بالهاربين تجاه السواحل اللبنانية في يوم السبت ١٩١٧/١١/٢٤م ، وعندما لاحت في الأفق ملامح الشاطئ اللبناني ، وكان ذلك في صباح الأحد الخامس والعشرين من نوفمبر ، هاجمت الام الوضع زوجة فهد الأطرش : السيدة عالية حسين المنذر (١٨٩٥ - ١٩٦٧م) ، وقبل أن تلقى الباخرة مرساتها عند الساحل اللبناني ، كانت السيدة عالية قد وضعت بمساعدة بعض المسافرات طفلة جميلة ذات عينين خضراوين في زرقة ، ونظرا لملابسات ميلاد الطفلة .. رغب والدها في أن تسمى «تجربة» ، ولكن والدتها أصرت ومن منطلق ما عايشته الأسرة من أحداث أن تسمى «آمال» ، وقد أنفذت الأم ما أردات .

مواصلة الهرب

تولى الأمير فهد الأطرش عدة مناصب قضائية بسوريا في عهد الاحتلال الفرنسي للشام بعد هزيمة الدولة العثمانية في عام ١٩١٨م ، حيث عمل رئيسا لمحكمة الاستئناف في السويداء ثم في درعا ، وعندما إختار الدروز فهد الأطرش ليكون مندوبا لعشيرته لدى سلطات الاحتلال الفرنسي ، رحل فهد بعائلته إلى بيروت - مقر الحاكم الفرنسي لكل الشام - حيث أقاموا في حي السراسقة عند بعض أقاربهم ، وعندما صدر قرار سلطة الاحتلال الفرنسي في عام ١٩٢١م بتعيين فهد الأطرش معتمدا للدروز لدى الفرنسيين ، عاشت أسرة فهد الأطرش ببيروت في بحبوحة تصل إلى حد الترف .

عندما استعرت نيران الثورة ضد الاحتلال الفرنسي في جبل العرب أو جبل الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش - الشقيق الأكبر لفهد الأطرش - في عام ١٩٢٢م ، إنضم فهد إلى الثوار من أهله في قتال الفرنسيين ، بينما هربت عالية حسين بأبنائها فؤاد وفريد وآمال من السويداء إلى دمشق ثم إلى بيروت ، ولما نمى لعلمها سعى الفرنسيون وراء أطفالها لاتخاذهم رهائن كوسيلة لاخضاع آل الأطرش الذين يقودون الثورة في الجبل، فإنها حملت أولادها وغادرت بيروت في أحد أيام شتاء سنة ١٩٢٣م ميممة شطر مصر ، لتبلغ القاهرة في صباح يوم شتائي من الأيام الأخيرة لسنة ١٩٢٣م ، وبعد تدخل شخصي من الزعيم سعد باشا زغلول ، لضمان عالية وأبنائها الذين

لم تكن بحوزتهم وثائق هوية أو جوازات سفر .

سنوات الشقاء

فى القاهرة .. وبعد أن نفذ ما حملته عالية معها من نقود ومصوغات، لم تجد زوجة فهد الأطرش بدا من أن تعمل ببعض الأعمال الصغيرة مثل صناعة مناديل الرأس للسيدات ، ولما كانت عالية جميلة الصوت وتجيد العزف على العود، فإن الحاجة أسلمتها للغناء فى أفراح وسهرات الأسر الشامية أولا ، ثم إنتهى بها الأمر بالغناء فى ملاهى روض الفرج (فوميل لبيب : فريد الأطرش ... لحن الخلود ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص١٦ - ١٨) ، بل إن هناك بعض المصادر تقول بأن عالية حسين قد غنت أيضا فى الإذاعات الأهلية ، وهو ما ذكرته فرجينيا دانيلسون بقولها: «ومن بين الفنانين الذين قدموا أعمالهم على موجات هذه الإذاعات (والتى يقال إن عددها قد زاد على المائة) : علية حسين وأولادها فريد وآمال الأطرش» (فرجينيا دانيلسون : صوت مصر أم كلثوم ، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ٢٠٠٢م - ص١٣٧) ، ولكن الأمر المؤكد فى إحتراف عالية حسين للغناء بالقاهرة ، هو ما تحدثت به إبنتها آمال إلى محمد التابعى من أن أمها قد سجلت بعض الأسطوانات فقالت : «وكانت أمى قد عبأت بعض إسطوانات بأغانيها» (محمد التابعى : أسمهان تروى قصتها ، الكتاب الذهبى ، دار روز اليوسف ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص٤٥).

لذلك ... تحول منزل عالية حسين - التى طلقها زوجها غيابيا بعد هربها إلى مصر - إلى ملتقى لكبار أهل الغناء بالقاهرة من أمثال داود حسنى ومحمد القصبجى وزكريا أحمد ومحمود صبح وفريد غصن ويوسف بدروس ، ممن جذبتهم مواهب الأسرة الموسيقية والغنائية ، وفى سهرات تلك الأيام بهرت آمال - التى كانت تلميذة آنذاك بمدرسة الراهبات فى حى شبرا - أسماع الجميع ، حتى أن داود حسنى فاضت عيناه بالدموع عندما استمع إلى الصغيرة آمال وهى تؤدى بالسماع أحدث أغنيات أم كلثوم فى ذلك العهد ، منذ تلك الليلة ... تبنى داود حسنى آمال الأطرش فنيا بعد أن أطلق عليها إسم «أسمهان» تيمنا بمطربة العجم الشهيرة ، وعن داود حسنى ... أخذت أسمهان أصول الموسيقى وطرائق الغناء (فوميل لبيب : المصدر السابق ، ص٥٠) .

بدأت أسمهان إحتراف الغناء وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، حيث يذكر الكاتب الراحل محمد التابعى أنه استمع إليها فى عام ١٩٣١م بصالة مارى منصور فى شارع عماد الدين (محمد التابعى : المصدر السابق ، ص١٤) ، وخلال عامين أو أكثر قليلا تغنت أسمهان فى مرحلتها الأولى مع الغناء بأغنيتين لداود حسنى وبعدة أغنيات لمحمد القصبجى ، وقد تميزت تلك الأغنيات جميعها بطابعها التقليدى وبعدم نضج صوت أسمهان ، التى لم تتجاوز وقتها بعد السادسة عشر من عمرها ، ومن الأغنيات التى لحنها لها محمد القصبجى نذكر : «كنت الأمانى» و«فى يوم ما أشوفك راضية عنى» وهما من تأليف يوسف بدروس و«أين الليالى التى سببت سقمى» من شعر إسماعيل باشا صبرى (محمود كامل : محمد القصبجى ... حياته وأعماله ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص١٤٨ - ١٥٦) ، وجاء ختام هذه المرحلة فى عام ١٩٣٣م - بزواج أسمهان من ابن عمها الأمير حسن

الأطرش . زعيم الدروز وحاكم جبل العرب من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي . حيث رحلت أسمهان إلى السويداء لتقيم مع زوجها وتنجب ابنتها الوحيدة : كاميليا .

سنوات الإنطلاق

بحلول عام ١٩٣٨م .. كانت أسمهان قد استنفدت كل رصيدها من الصبر على قيود الزواج ، فتحينت فرصة لزيارة والدتها وإخوتها بالقاهرة، لتعود إلى عالم الغناء والأضواء من جديد وتفر من قيود الزواج وأسره ، وبعد أن تحررت من زواجها الأول بطلاقها في القاهرة من زوجها الأمير حسن الأطرش في مطلع عام ١٩٣٩م ، مضت أسمهان في مرحلتها الثانية مع الغناء والتي شهدت أجمل ما غنت على الإطلاق ، ففي الأول من شهر نوفمبر من عام ١٩٣٨م ... أطلقت أسمهان من إذاعة القاهرة أغنيتها الخالدة «يا طيور» وهي من نظم يوسف بدروس وألحان محمد القصبجي (الراديو المصري : العدد ١٨٩ - ١٩٣٨/١٠/٣٠م) ، وقد حملت أعداد مجلة «الصباح» الصادرة في شهر يناير من عام ١٩٣٩م إعلانات عن أغنية أسمهان الجديدة : «المحمل» وهي من إصدارات إسطوانات بيضافون ، وأغنية «المحمل» هي نفسها أغنية «عليك صلاة الله وسلامه» بعد أن تغير اسمها فيما بعد ، والأغنية من تأليف بديع خيري وألحان فريد الأطرش ، وقد تغنى بها فريد للمرة الأولى في الإذاعة - وقبل أن تسجلها أسمهان على إسطوانة - مساء السبت ٢٠ رمضان ١٣٥٧هـ الموافق ١٩٣٨/١١/١٢م (الراديو المصري : العدد ١٩٠ -- ١٩٣٨/١١/٥م) ، وبانتهاء عام ١٩٣٩م كانت أسمهان قد بلغت ذروة شهرتها بما قدمت في هذا العام من

أسمهان «آمال الأطرش» في طفولتها

أغنيات ، ومن هذه الأغنيات ما قدمته الإذاعة للمرة الأولى ونوهت عنه بخبر في مجلة «الراديو المصري» ، كان عنوان الخبر «أسمهان تطربكم بأغنيتين جديدتين» وجاء فيه : «تذاع إسطوانتان جديدتان للفنانة أسمهان ، الأولى مونولوج (نويت أداري آلامي) من نظم الأستاذ يوسف بدروس وتلحين الأستاذ فريد الأطرش ، والثانية مونولوج (دخلت مرة في جنينة) من نظم الأستاذ عبدالعزيز سلام وتلحين الأستاذ مدحت عاصم ، استمع لهاتين الأغنيتين في مساء الثلاثاء ١٩ الجاري (أي ديسمبر ١٩٣٩م) في تمام الساعة السادسة والنصف» (الراديو المصري : العدد ٢٤٨ - ١٩٣٩/١٢/١٦م - ص٢٠) ، وقبل أن يستمع جمهور إذاعة القاهرة إلى هاتين الأغنيتين الجديدتين من أسمهان ، كان شدوها الساحر في فيلم محمد عبدالوهاب الأخير - في تلك السنة - «يوم سعيد» مازال عالقا في آذانهم وعقولهم ، حيث غنت وبدون أن تظهر صورتها بالفيلم أغنية

«محلاها عيشة الفلاح» ، وشاركت عبدالوهاب فى غناء أوبريت «قيس وليلى»

كان عام ١٩٤٠م عاما حاسما فى مسيرة أسمهان الفنية ، فقد واصلت فى هذا العام تقديم المزيد من الأغنيات، فقدمت من ألحان شقيقها فريد أغنيات مثل : «كفاية أشوفك» والتى قدمت من إذاعة القاهرة مساء الأحد ١٩٤٠/١١/١٧م ، و«حبيت وكان فى حبك أمل» وكانت إذاعتها الأولى بصوت أسمهان مساء الأربعاء ١٩٤٠/١٢/١٨م ، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن أغنياتها لذلك العام لم تكن مقصورة على ما قدمه لها شقيقها فريد ، وإنما شهد ذلك العام تقديمها لروائع أخرى لكبار ملحنى عصرها ، ومن ذلك قصيدة الأخطل الصغير (بشارة الخورى) الشهيرة : «اسقنيها بأبى أنت وأمى» وهى من ألحان المبدع الكبير محمد القصبجي ، على أن عام ١٩٤٠م شهد أيضا من الأحداث الفنية المهمة فى حياة أسمهان .. عودتها إلى ألحان رياض السنباطى بعد فترة إنقطاع .

على أن نشاط أسمهان الفنى فى عام ١٩٤٠م لم يكن وقفا على تسجيل الأغنيات فقط ، وإنما إمتد ليشمل تمثيل فيلمها الأول : «إنتصار الشباب» مع شقيقها فريد ، ويعد «إنتصار الشباب» فى رأى كل نقاد السينما العربية إحدى العلامات المهمة فى تاريخ الفيلم الغنائى العربى .

اللعب بالنار

لم يقف تأثير ما حملته أيام عام ١٩٤٠م من أحداث فى حياة أسمهان عند تسجيل الأغانى والتمثيل للسينما ، وإنما أثمر ذلك أيضا وقوعها فى شرك السياسة والسياسيين ، ففى مطلع ذلك العام التقت أثناء إقامتها فى فندق ميناهاوس بأحمد حسانين باشا : الأمين الأول للملك فاروق ثم رئيس الديوان الملكى ، وقد تمخض هذا اللقاء عن إعجاب متبادل بين أسمهان ورجل البلاط الملكى القوى ، وعندما نمى إلى علم القصر الملكى أمر ذلك الإعجاب ، فإن أسمهان لم تجن منه سوى المتاعب ، حيث كان من المعروف للعامة قبل الخاصة آنذاك ما يربط بين حسنين باشا والملكة نازلى – والدة الملك فاروق – من علاقة عاطفية توجت بالزواج العرفى (محمد التابعى : من أسرار الساسة والسياسة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٨م، ص ١٦٦ ، ١٦٧) ، لذلك لم يكن غريبا أن يستدعى الأمير الاى مصطفى ثابت (مدير قلم الجوازات) أسمهان إلى مكتبه بوزارة الداخلية فى صباح الأربعاء ١٩٤٠/١٢/٢٥م ليخبرها أن تصريح إقامتها بمصر قد إنتهى ، وأنها يجب أن تغادر البلاد فى خلال أسبوع من تاريخ إستدعائه لها (محمد التابعى : أسمهان تروى قصتها ، ص١٠٣) ، ولكن سعى محمد التابعى لدى رئيس الوزراء : حسين باشا سرى أثمر إلغاء قرار وزارة الداخلية طرد أسمهان من مصر .

توثقت عرى التفاهم والمودة بين أسمهان ومخرج فيلمها الأول : أحمد بدرخان أثناء تصوير الفيلم ، وهو ما انتهى بزواجهما عرفيا فى ١٩٤١/٣/١٠م ، ولكن الزواج لم يدم كثيرا ... حيث انتهى بالطلاق فى ١٩٤١/٤/٣٠م بعد مشاجرة بين الزوجين إثر عودة بدرخان إلى المنزل ثملا (محمد التابعى : المصدر السابق ، ص١١٧) ، كانت أسمهان خلال الشهور الأولى من عام ١٩٤١م مهددة بالطرد من مصر ، ولعل زواجها من أحمد بدرخان

كان فرصتها الأخيرة - آنذاك - للبقاء بمصر والمضى فى طريق الغناء والتمثيل ، فلما ضاعت تلك الفرصة بالطلاق ، ضاقت بها الدنيا حتى جاءتها فرصة أخرى لم تكن تخطر لها ببال ، آنذاك - فى مطلع صيف ١٩٤١م - كانت بريطانيا تعانى وحلفاءها فى الحرب العالمية الثانية من فداحة الخسائر فى الشام على يد قوات حكومة فيشى المتحالفة مع دول المحور ، لذلك لجأ بعض رجال السفارة البريطانية بالقاهرة ومعهم الجنرال كلايتون : رئيس المخابرات السرية البريطانية فى الشرق الأوسط وبتعليمات من لندن ، إلى أسمهان - لكونها درزية ومطلقة زعيم الدروز - كى تقنع زوجها وعشيرتهما بمناصرة الحلفاء ومعاونتهم فى طرد عملاء الألمان من الشام (محمد التابعى : المصدر السابق ، ص١٢٦) ، لأجل ذلك وضع الإنجليز تحت تصرف أسمهان أربعين ألفا من جنيهات ذلك الزمان (!) لتوزيعها على زعماء العشائر فى جبل العرب ، وعندما وصلت أسمهان إلى الجبل فى مطلع يونيو ١٩٤١ حاملة معها عرض البريطانيين للدروز بمناصرة الحلفاء فى الحرب ، فإن زوجها السابق : حسن الأطرش ربط موافقته على العرض البريطانى بموافقتها على العودة إليه ، فلما وافقت أسمهان على العودة لزوجها .. طيرت الصحف النبأ فى مصر وكل المنطقة ، ومن ذلك ما نشرته صحيفة «المصرى» فى عدد الأربعاء ١٩٤١/٧/١٦ . نقلا عن المراسل الحربى لوكالة الأنباء الفرنسية المرافق لقوات فرنسا فى الشام ، قالت الصحيفة عن عودة أسمهان لزوجها الأول : «احتفل فى ٣ يوليه فى دمشق بزواج الأميرة آمال الأطرش المعروفة فى عالم السينما المصرية باسم أسمهان بابن عمها الأمير حسن الأطرش من رؤساء القبائل فى جبل الدروز » ، وعندما دخل الحلفاء لبنان بعد أسابيع من ذلك الزواج ، احتفل بزواج أسمهان - للمرة الثانية - من الأمير حسن الأطرش احتفالا تاريخيا حضره الجنرال كاترو (المندوب السامى الفرنسى بالشام) والجنرال سبيرس (سفير بريطانيا فى سوريا ولبنان) وأقيمت المهرجانات والاحتفالات (الصباح : العدد ٩٣١ ، ١٩٤١/٧/٢٧م ، ص١٥) .

مضت أسمهان تعب من الحياة عبأ، فقد أتاح لها عملها مع الحلفاء وزواجها من الأمير حسن الأطرش الذى أصبح وزيرا للدفاع السورى بعد دخول الحلفاء إلى سوريا ، أتاح لها ذلك مصادر للانفاق على حياة إتسمت بالترف والسرف وتوزعت بين السويداء ودمشق وبيروت والقدس ، وحينما يأس حسن الأطرش من صلاح حالها وخضوعها لقيود الزواج ، فإنه طلقها للمرة الثانية .

النهاية

واصلت أسمهان فى القاهرة وأثناء تصوير فيلمها الثانى والأخير : «غرام وانتقام» ما اعتادته من حياة الانطلاق والسهر ، وهو ما تعارض مع ما عرف به أحمد سالم من حدة فى الطباع وغيرة شديدة ، وفى إحدى مشاجرات الزوجين فى الأيام الأولى من شهر يوليو ١٩٤٤ ، أشرع أحمد سالم مسدسه فى وجه أسمهان ، فاستغاثت أسمهان بالأميرالاى سليم زكى : مدير أمن القاهرة ، فأوفد مدير الأمن البكباشى محمد إبراهيم إمام لإصلاح ذات البين بين الزوجين ، وفى محاولته انتزاع المسدس من يد أحمد سالم .. أصيب البكباشى إمام وأحمد سالم .. كل برصاصة ، وعندما استقرت حالة الجريحين الصحية ، وانتهت أسمهان من

تصوير معظم مشاهد فيلمها الأخير ، تاقت نفسها إلى أجازة تستعيد فيها هدوء نفسها ، فطلبت من إدارة ستوديو مصر بعد إنتهاء العمل في يوم الخميس ١٩٤٤/٧/١٣م أجـازة لمدة ثلاثة أيام تذهب فيها إلى مصيف رأس البر ، وحاول البعض من الممثلين (مثل يوسف وهبى) إثناءها عن الذهاب إلى رأس البر وأن تستبدل بها الاسكندرية ، إلا أنها أصرت على ما إنتوته .

فى الثامنة والنصف من صباح الجمعة ١٩٤٤/٧/١٤م ومن أمام (الفيلا) التى تملكها وتقيم بها فى شارع الهرم ، استقلت أسمهان وبرفقتها صديقتها وسكرتيرتها مارى قلادة سيارتها الخاصة ، وهى سيارة من طراز (الكورد) .. تحمل رقم (٧٦٥٤) ويقودها السائق فضل محمد نصر ، وهو يعمل سائقا منذ فترة طويلة فى ستوديو مصر ، وكان سائقا خاصا لأحمد سالم : زوج أسمهان عندما كان مديرا لستوديو مصر (!) ، وقبل الحادية عشرة بدقائق وعند قرية (سرنقاش) من أعمال مركز طلخا بمديرية (محافظة) الغربية (آنذاك)، اصطدمت السيارة بحفرة كبيرة نتجت بعد أعمال حفر تمت بعرض الطريق ، لإمرار ماسورة تحمل الماء من ترعة الساحل إلى أرض أحد كبار الوزراء المطلة على الطريق (!) ، كان اصطدام السيارة بالحفرة من القوة بدرجة أطاحت بالسيارة إلى أعماق الترعة ، وبينما تمكن السائق فضل من القفز من باب السيارة الأمامى ، وقبل أن تهوى إلى الماء ، لقيت أسمهان ومارى قلادة مصرعهما غرقا فى الجزء الخلفى من السيارة ، عندما فشلت جهودهما فى فتح أبواب السيارة المغلقة عليهما .

بينما كانت التحقيقات الأولية وردود الفعل الأولى للحادث تتوالى فيما تبقى من نهار الجمعة ١٩٤٤/٧/١٤ من ساعات ، كان مدحت عاصم يستحث العمال بالعمل معهم فى حفر قبر لاسمهان فى قطعة أرض إبتاعها شقيقها فريد فى مدافن الأمام الشافعى بعد الحادث مباشرة ، وفى الحادية عشرة من صباح السبت ١٩٤٤/٧/١٥م توقف المرور تماما بوسط القاهرة ، عندما تحرك موكب جنازة أسمهان فى شارع فؤاد الأول (٢٦ يوليو حاليا) متوجها إلى مسجد أبى العلا للصلاة عليها ، غص موكب الجنازة الشعبية بآلاف المشيعين يتقدمهم شقيقها فريد والموسيقار محمد عبدالوهاب وجمع من الموسيقيين، كان الحزن يومها على أسمهان ومازال حتى اليوم كبيرا ، فليس فى كل يوم ترحل عنا أميرة كهذه !

من قتل أسمهان ؟

انطلقت الشائعات والأقاويل فى المجالس وعلى صفحات الصحف بعد رحيل أسمهان ، ودارت كلها حول موضوع واحد ، هو الإجابة عن سؤال واحد : من قتل أسمهان ؟ ، وبداية .. فإن الشائعات والأقاويل أسقطت تماما بصياغة السؤال إحتمال القضاء والقدر فى حادث السيارة ، وقد أحصى الكاتب سعيد الجزائرى – وبعد قرابة نصف قرن من رحيل أسمهان – ستة من الأفراد والشخصيات المعنوية ممن تحركهم دوافع مقبولة ومنطقية للتخلص من أسمهان ، ضمت قائمة الستة التى توصل إليها سعيد الجزائرى كلا من : شقيق أسمهان : فؤاد الأطرش – القصر الملكى – الملكة نازلى – أم كلثوم – أحمد سالم والمخابرات البريطانية (سعيد الجزائرى : أسمهان ضحية الاستخبارات ، دار رياض الريس ، لندن ، ١٩٩٠م ، ص٢٢٣ – ٢٢٤) ، كانت لكل واحد من الشخصيات الستة أسبابه المعقولة والقوية

من جـهـة المصلحـة المؤكـدة فى إزاحـة أسـمـهـان ، ولكن أيا من الوثائق الدافـعـة لم يكشف عنهـا خـلال مـا مـضى من سنوات بعد رحيل أسمهان لتأكيد الاتهام بحق أى من الشـخـصيات التى ضـمـتـهـا قائمة سـعيد الجزائرى ، لقد اتفقت كل الشـائعـات والأقـاويل - التى دارت حـول من قتل أسمهان - على أن السائق فضل محمد نصر كان أداة التنفيذ الذى اعتمد عليـهـا من قـام بذلك من الشـخـصـيـات الستـة ، ولقـد أدانت مـحكمة طلخـا فى حكمـهـا الصـادر فى الأيام الأولى من شهر أغسطس سنة ١٩٤٤م هذا السائق بتـهـمة الإهمـال المقترن بوفـاة أسـمـهـان وصديقتها ، وقضى حكم المحكمة بحبس السـائق شـهـرين مع النفـاذ (الصـبـاح : العدد ٩٣٣ ، ١٩٤٤/٨/١٠م ، ص٢٢) ، كانت حيثيات هذا الحكم هو ما ثبت فى التحقيقات من أن السائق قاد السيارة بسرعة جاوزت المائة من الكيلو مترات فى الساعة ، أما أسباب تلك الحيثيات فقد تمثلت فى قوة إرتطام السيارة بالحفرة وفى توقف ساعة السيارة عند الحادية عشرة إلا عشر دقائق ! (الصباح : العدد ٩٣٠ ، ١٩٤٤/٧/٢٠م ، ص٢٤) ، وأيـا مـا كـان الأمـر .. فـقـد إنطوى سـر وفـاة أسمهان بوفاة السائق الذى أطبق صدره على مـا يعـرف عن الحـادث ، ولم يتـبـق أمام المهتمين بوفاة أسـمـهـان ... سـوى انتظار مـا قـد تبـوح به أقـبـيـة الوثائق السـرية للمـخـابرات الأجنبـيـة فى قـابل الأيام من أسرار حان وقت فضح سترها

فى ميزان النقد

لم يخـتـلف إثنان - فى حـالة من الاتفاق نادرة - من نقاد الغناء العربى أو مـتـذوقيـه حـول جـمـال صـوت أسـمـهـان وقيمته ، فأما جمال الصوت .. فإنه منحة

.. فى ريعان الشباب - ١٩٤٢

ربانية عملت فيه قوانين الوراثة عملها ، حيث ورثت أسـمـهـان وشقيقها فريد جمال الصـوت عن أمـهـمـا ، التى كـانت جـمـيلة الصـوت ومارست الغناء كـمـا جـاء فى أول المقـال ، علمـا بأن أسـرة الأم قدمت صـوتا آخـر يـتـصـف بالجـمـال هو صـوت خليل حسين : شقيق الأم الذى توفى فى مقتبل عمره ، وأما قيمة صوت أسمهان العالية ... فـانهـا تجـيئ من امـتـزاج أسلوبى الغنائين العربى والغربى فى هذا الصـوت النادر ، فقد تمرس صوت أسمهان بأصول الغناء العـربى على يد أمـهـا وكـوكـبـة الموسيقيين الكبار من أصدقاء أسرتها من أمـثـال داود حـسنى ومـحـمـد القـصـبـجى ومحمود صبح وفريد غصن ، إضافة إلى مـا تميزت به الصـغيرة آمال من حافظة مذهلة استوعبت كل ما غنته كوكبة مطربى ومطربات ذلك الزمـان من ألحـان تتـسم بالأصـالة والعـروبة ، بينمـا عـمل إتقـانهـا لفنون الغناء الغـربى التى تلقـتـهـا عن راهبـات مدرسـة الراهـبـات بشـبـرا ، على إسـتكمـال هذا المزيج النادر من إسـلوبى الغنـائين العـربى والغـربى فى صـوت قل أن يجـود الزمان بمـثيل له . ■

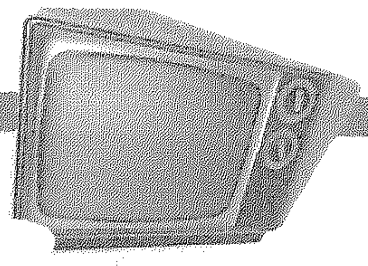

بقلم
مرفت رجب

الفضح!

لم يخطر ببالى أن توجيه تهمة الخيانة إليها سيؤدى إلى هذه السلسلة المعقدة من التحولات فى حياة فكرية. كما لم يخطر ببالى أننى سأصبح أسيرة لها، لا أقوى على تركها لحظة، فهى توالى إحكام سيطرتها على ذهنى ومشاعرى، بينما هى تصارع ما يفاجئها من ضغوط.

لم أكد أطمئن بموافقتها على الزواج من عادل، وهو الذى يحبها ويقدر تفردها، كإنسانة تكرس نفسها لرعاية أبيها وأخيها بعد فقد الأم، ككاتبة مبدعة، تأبى أن يتطاول أحد على ما كتبت فيعدل أو يضيف، حتى وإن كان ذلك هو الطريق الوحيد إلى «الشاشة» وبنفس القوة ترفض أن تدفع ثمنا لا يليق بكرامتها، وإن كلفها الأمر أن توصد «الإذاعة» أبوابها فى وجهها بالكلية.

ظللت أتابعها، وهى ترشف من كأس الحب بعد زواجها من عادل، وبالرغم من

الألم الشديد الذى أصابنى وأنا أتتبع التحول المرير الذى زحف على علاقتهما، إلا أننى لم أصدم حين ترك لها البيت، بحجة أن أمه المريضة فى حاجة إليه أشد. كما أننى لم أدهش من انصراف أبيها عن القراءة فى الشأن الثقافى، ليستغرق فى التعبد وقراءة القرآن الكريم، يلوذ به من هم مراقبة ما يطرأ على «فكرية» من تغيرات يعجز عن صد تداعياتها المدمرة لحياة ابنته الغالية.

ورغم كل ما أصابنى من أسى ، إلا أن شعورا متناميا بالسرور بدأ يغمرنى، ومع حلول الغبطة أدركت الأسباب:

أولا: أن فكرية، ومن حولها من شخوص رواية «امرأة بين الرجال» يفوزون جميعا بثمار خبرة مبدعتهم فيما سبق لها من كتابة للشاشة . فلقد كتبت لنا «وفيه خيرى» «امراة بين الرجال» بتقنية كتابة «المشهد» للشاشة. ولنا أن نظل نعجب من قدرتها على تحجيم اللقطة لتأتى بها غاية فى الدقة والقصر، أما عن تتابع اللقطات وأساليب الوصل والفصل بينها، ففى ذلك تكمن موهبة الأستاذة فى إحكام بناء شخوص وأحداث روايتها فى أقل من مائتين وخمسين صفحة، مختزلة من الأفكار والمشاعر ما يغرى بكتابة مئات أخرى من الصفحات.

ثانيا: أن اختيار « فكرية » بطلة لـ «امرأة بين الرجال» وكونها واحدة من عموم بنات مصر المكافحات الموهوبات، جاء على يد كاتبتنا المبدعة ليأخذ بألباب قارئها، وهو يكتشف قدرتها على النفاذ إلى أعماقنا جميعا، والإحاطة بملابسات الإحباط الذى أصابها، ونحن نصارع مع «فكرية» أصابع الأجانب وهى تتسلل إلى مؤسساتنا فى بدايات التحول إلى اقتصاد السوق خاصة أنه معلوم للكافة أن ذلك التحول لم يقتصر على بلادنا وحدها، وإنما تشعبت غوائله وهى تصيب معظم بلدان العالم، سواء فى الفترة التى شملتها الرواية – من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٠ – أو بعد ذلك بقليل أو كثير، وهكذا نتبين أن «فكرية» أصبحت على يد وفيه خيرى بطلة على المستوى الإنسانى، عالمية بمعنى الكلمة، بالرغم من كونها مصرية صرف، أو ربما من أجل ذلك.

ثالثا: لا يقتصر حذق المؤلفة على شخصية البطلة، ذلك أننا نجد «الرجال» أطراف الصراع فى الرواية وقد ظهرت ملامح شخصياتهم فى مواقف تعمق فهمنا لكل منهم فيسود التعاطف ويمتنع الشعور بالغيظ أو العداء، وبنفس البراعة جاءت كل شخصية مكتملة الملامح

بوضوح يجعلك قادرا على التعرف عليهم بين أهلك وجيرانك وزملاء العمل، وما ينطبق على البطلة ينطبق على زوجها «عادل» الذى تدهمه الأحداث وتلقى بظلالها الكثيفة على نفسه السمحة الطيبة، وتجعله ينسحب ويتقوقع، وكما تأثرت البطلة بالتغيرات السياسية والاجتماعية التى شملت المجتمع بعد ١٩٧٦، كذلك تأثر عادل، وإن تباينت أشكال التأثر والتحول.. وفى تصورى أن شخصية «عادل» ستظل لسنين طويلة مقبلة موضوعا للدراسة والتحليل الأدبى الكاشف للتحولات النفسية بفعل الأحداث السياسية والقرارات الاقتصادية.

رابعا : عرفت الكاتبة كيف تجعلنا نتفهم ونتعاطف مع كل شخوص الرواية بفضل قدرتها على حسن اختيار ما تلتقطه من أفكار ومواقف كاشفة لأبعاد الشخصية وكأن رسالتها مركزة فى الدعوة للفهم والتحذير من التصنيف والإدانة، والمثال الأوضح هنا فيما نقلته لنا من معاناة فكرية من القطيعة التى أصابت علاقتها بأعز أصدقائها بعد أن أدانوها بالخيانة وغلقوا فى وجهها الأبواب، لكن فكرية لم تكف عن معاودة الطرق، وكأنما هى بذلك تعاود السعى إلى منابع قوة أفلتت من بين أصابعها. واذ يصيبنا الجزع نواجه أنفسنا بالسؤا: كيف كان يمكن لمصير فكرية أن يتغير؟

الخصام

ومع أن الأوساط الثقافية عبرت عن احتفائها بثانى روايات وفيه خيرى وعقدت لذلك ندوات عديدة علت فيها نبرة الحفاوة، وتعددت أصوات المحللين المهتمين، إلا أن الكاميرات كانت غائبة. وبالتالى لم نر أثرا لهذه الإضافة الثقافية على أى من شاشاتنا .. لا الشاشات الأرضية ولا الفضائية ولا المتخصصة وهو ما يجعل السؤال مطروحا.. إلى متى هذا الخصام بين الشاشة والإنتاج الثقافى المتميز من إنتاج أدبى وموسيقى وغناء وفن تشكيلى وفنون الأداء الدرامى المختلفة، بل إننى أجد السؤال يجر أخا له لصيقا يستفسر عن أسباب استمرار عملية السقوط التى تعيشها التمثيليات المعروضة على الشاشات المصرية.. ومتى يبدأ الإجراء الذى يستجيب لصراخ المصريين «كفاية بقى.. قرفتونا» متى

توقف مهزلة الإنتاج الدرامى وكوارثه المتعاقبة.. ومتى يوقف نزيف المال الضائع فى الصرف على إخراج نصوص هزيلة معيبة تدين كل الأطراف المشاركة فى عملية إنتاجها وإخراجها على الشاشة ومتى يفيق فنانو مصر وممثلوها الذين كانوا مبدعين، ولكن ، وبكل أسف وصل بهم الحال الآن لأن أصبحوا بالجملة وجوها مملة لا تستحق حتى نظرة شفقة، فلقد كان المتوقع أن يترفعوا عن المشاركة فى هذا الإنتاج الهزيل الهابط المترهل، كما كان من المتوقع أن ينتبهوا إلى أنهم تحولوا إلى شلة يتكرر ظهورها فى تتابع خال من أى مبرر ولقد أصبحوا بذلك أطرافا فيما يشبه المؤامرة على الدراما التليفزيونية المصرية التى كانت متميزة .. كانت .. زمان.

أما الآن فلا أحد يلتفت إلى ساعات العمل التى تهدر فيها مئات الألوف من الجنيهات لأن ممثلا «تافها» أو ممثلة صايعة تأخرت وتعطل التصوير.. والآن تتم كتابة النصوص تفصيلا على ما يسمونهم بالنجوم وهم لا يدركون أن هذا التفصيل حرقهم بالجملة!

والآن يجلس ألوف الممثلين المصريين فى بيوتهم بلا عمل ومع عشرات المخرجين المجيدين من أجيال متعاقبة تربت على الإجادة والتميز وهم بذلك أطراف غير مقبولة وغير مؤهلة لسوق «الخيانة».

والآن أيضا تحفل الساحة الأدبية بعشرات الأعمال الجيدة الجديرة بأن يلتفت إليها المخرجون وكتاب السيناريو.. وبالمناسبة ألا يمكن أن نطرح على أنفسنا السؤال :

لماذا كتبت وفية خيرى «امرأة بين الرجال» فى شكل رواية ولم تكتبها فى شكل السيناريو وهى صاحبة ما يزيد على الثلاثين سيناريو لمسلسلات وسهرات درامية وأفلام ، يكفى أن نذكر منها للتليفزيون «وسط الزحام» إخراج علية ياسين حلقات متصلة منفصلة، و«زوجات صغيرات » إخراج مجيدة نجم و«هي في عينيه» و«هو في عينيها» إخراج نور الدمرداش وغير ذلك كثير.

ومن الأفلام «القاهرة ٣٠»، «القضية ٦٨ » و« سقطت في بحر العسل » والثلاثة من إخراج صلاح ابو سيف.

وإلى أن تجدوا الإجابة ستبقى رواية «امرأة بين الرجال» لسنين طويلة قادمة «مدرسة» فى الكتابة تشهد لمبدعتها وتؤهلها لأرفع الأوسمة. ■

● في غيبة «وجود تنظيمات شعبية» تستطيع تنظيم الناس وتوحيد مواقفهم إزاء قضايا بعينها نترك المسألة للمبادرات الفردية وكل شخص له مبرراته الخاصة سواء للمشاركة أو المقاطعة.

بهاء طاهر - أخبار الأدب

● المسرح الأمريكي شيء وسياسة أمريكا الخارجية شيء آخر، واعتقد أن الشعب العربي أدرك منذ فترة طويلة أن آداب وفنون الشعوب شيء وأن سياسة الدول شيء آخر فكون بريطانيا أعرق الدول الاستعمارية، وأنها استعمرت الهند ومصر ودولا أخرى كثيرة في أفريقيا وآسيا لم يمنع الشعوب المستعمرة من دراسة شكسبير وتقديم رواياته.

لويس جريس - صباح الخير

● أمنية ليست مستحيلة ونحن في فترة الإصلاح من الداخل أن تصبح لعائلة الإعلام المرئي والمسموع نقابة مهنية قوية مستقلة تدافع عن العاملين فيها كما دافعوا عنها حتى في أحلك الأوقات وليت النقابة تظهر في العيد السبعين.

كامل زهيري - القاهرة

● كل جماعة ثقافية وهي تتعامل مع ما جدّ في حاضرها من مواجهات، إنما تتعاطى من مخزون ثقافتها وتسحب من رصيدها الفكري العام المتراكم عبر العصور والذي يتكون منه التشكيل العقلي والنفسي لهذه الجماعة، عقائد ومواريث وخبرات تاريخية.

طارق البشري - وجهات نظر

● من المحزن حقا ألا يستقي الإنسان أخبار العالم من مصادر إعلامه الوطني ولكن تلك هي الحقيقة المفجعة الآن، لقد كان الأمر قسريا قبل عصر الفضائيات، عندما كان الأمر حكراً على وسائل الإعلام المحلية، وكان التشويش يتم أحيانا على بعض الإذاعات، ولكن الأمر تغير الآن تماما مع ظهور الفضائيات، فإذا لم أجد ما يلبي معرفتي فالأمر لا يكلف إلا ضغطة زر في جهاز التحكم، النوافذ متجاورة والانتقال من نافذة إلى أخرى يتم في أقل من ثانية.

جمال الغيطاني - أخبار الأدب

● على المثقف أن ينزل من برجه العاجي إلى الشارع والواقع ويحتك بالجماهير ليعيش قضاياها ويبحث عن العلاج ولا يكتفي بتوصيف المشاكل والرجوع إلى أصولها التاريخية فهو مطالب بأن يقترح حلا.. والتاريخ لا يحل المشاكل فحلها اليوم في الجغرافيا والديموجرافيا.

أمين هويدي - العربي

● إن تجديد قانون الضبطية القضائية الذي يمنح عددا من شيوخ الأزهر الضبطية القضائية الصادر في بداية الستينات من القرن الماضي يعد محاولة لبعث الروح في قوانين صدرت خلال حقبة تاريخية كان هدفها عسكرة كل قطاعات المجتمع بما فيها الأزهر وشيوخه وحنين لماض أليم كتم على أنفاس الفكر ووضع المفكرين والمثقفين خلف أسوار السجون، ولكن المدهش في الأمر أن يتم تجديد هذا القانون ونحن في القرن الحادي والعشرين.

د. عبدالمنعم تليمة - الأخبار

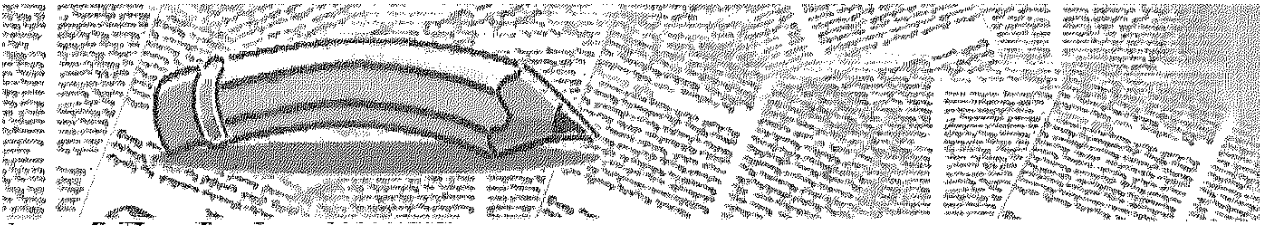

● سرقة الأفكار دليل على الكسل العقلى ويتفشى ذلك فى أنصاف الموهبين وعديمى الموهبة لأنهم عاجزون عن خلق إبداع جديد ويصبحون مثل الطفيليات التي تعيش على جهد الآخرين وكل مواهبهم تقليد من سبقهم وللأسف معظمهم مقلدون بلا مقدرة وتكون النتيجة أعمالا شديدة الضعف وللأسف سوق الدراما اتسعت لكل من هب ودب يكتب دراما وكل من فك الخط يصبح مؤلفا بعد أن يقلد الكبار دون تمييز أو خصوصية.

أسامة أنور عكاشة - الجمهورية

● التعبير الفنى أشمل من الفكر، لأنه يعبر عن التجربة الإنسانية بجوانبها الفكرية والعاطفية والغريزية، ودائرة التعامل معه أوسع بكثير من المتعاملين مع الفكر، لذلك كثيراً ما يعرف سبيله إلى وسائل التعبير الجماهيرية، فيصل تأثيره إلى الأميين أنفسهم ومن أجل ذلك يجب أن يراعى الحياء والأدب والذوق ولن يضيره أن يراعى ذلك.

نجيب محفوظ- أخبار الأدب

● إن حرية «التفكير والإبداع» حق طبيعى لكل مفكر ومبدع.. لكن هذه الحرية لا يمكن أن تكون مطلقة، بل يجب أن تكون مشروطة بشرطين الأول امتلاك الصنعة والآخر حضور الضمير فحرية الفكر ليست حقا إلا لمفكر يستطيع أن يكتب فيقدم لنا أفكاراً واضحة كاشفة مبنية على أساس منطقى سليم.

الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى - أخبار الأدب

● يكفى المبدع مراقبة ضميره ومعرفته بمسئوليته تجاه المجتمع وتجاه نفسه واسمه ولا حاجة له للرقباء من الخارج فلا أعتقد أن هناك مبدعا يرضى لنفسه أن يدخل فى صراع مع المجتمع بسبب مخالفته لعاداته وتقاليده، لذلك يجب فى الأصل ألا توجد رقابة على أى أعمال فنية.

يوسف القعيد - الأهرام العربى

● لا يوجد فاصل حقيقى بين المبدع والناقد وكلما تقارب الإثنان كلما كان ذلك فى مصلحتهما معا والكتابة الإبداعية تصبح معضلة عندما تدخلنا إلى مناطق جديدة لسنا معتادين عليها وذلك ما يحير النقاد. لذلك لابد من الاعتماد على العمل ككل دون تجزئته.

د. شريف حتاته - أخبار الأدب

● اللغة تقوم فى أساسها على حاسة السمع وتزيد من قدرتها بحاستى البصر والحركة «الكتابة» ومن هنا يكون مدخلنا الأساسى لحماية اللغة العربية وتأصيلها هو محو أمية الأم وتعليمها خاصة فى مرحلة الطفولة والإنجاب.

د. محمود محفوظ وزير الصحة الأسبق - الأهرام

● السرقات الأدبية جرائم مخلة بالشرف، عندما تمتد ظاهرة السرقة إلى الطائفة التى اصطفاها الضمير الإنسانى لمهمة أساسية، هى تسخير مواهب الإبداع لما يمجد الجميل والخير ويحقر الشر والقبح، فإن هذا يمثل طامة كبرى تستحق وقفة حاسمة تحتاج إلى عقاب رادع.

عبدالعال الحمامصى - القاهرة

التكوين

كل الأبواب مفتوحة للخيال

إبراهيم عبد المجيد

١ - البيت

لم يكن أبى يدرك أنه وهو يحكى لنا، أنا وأختى الكبرى وأمى، حكاياته الخرافية عن الأبطال الشعبيين، أنه يفتح لى بابا أبديا للخيال.. كان حكاء ماهرا يعرف أين يسرع بإيقاع القص، وأين تتجمع الخيوط لتصبح عقدة مثيرة ننتظر حلها ثم كيف يحلها في اللحظة التي تكاد فيها أنفاسي أن تنقطع، وكان ينتقل من الحكايات الشعبية العربية إلى الحكايات فى الريف، القرية التى خرج منها على مشارف الحرب العالمية الثانية للقرن الماضى، وهنا كانت أمى تشترك معه وتكتشف، بعد أكثر من خمس عشرة سنة على خروجها من القرية، أن معلوماتها كانت ناقصة عن الأحداث، فتسأله مثلا وكأن فلانا فعل ذلك لأنه كان يهدف إلى كذا وكيت، ياسلام، ويقدم لها الأدلة وتنتهى الدهشة، ولكن بعد أن يقوم كل الناس الذين حكى عنهم أمامى شخصيات حقيقية تكاد تمشى حولى، وتكاد تذهب معى إلى النوم، كانت تأتى معى إلى النوم حقا.

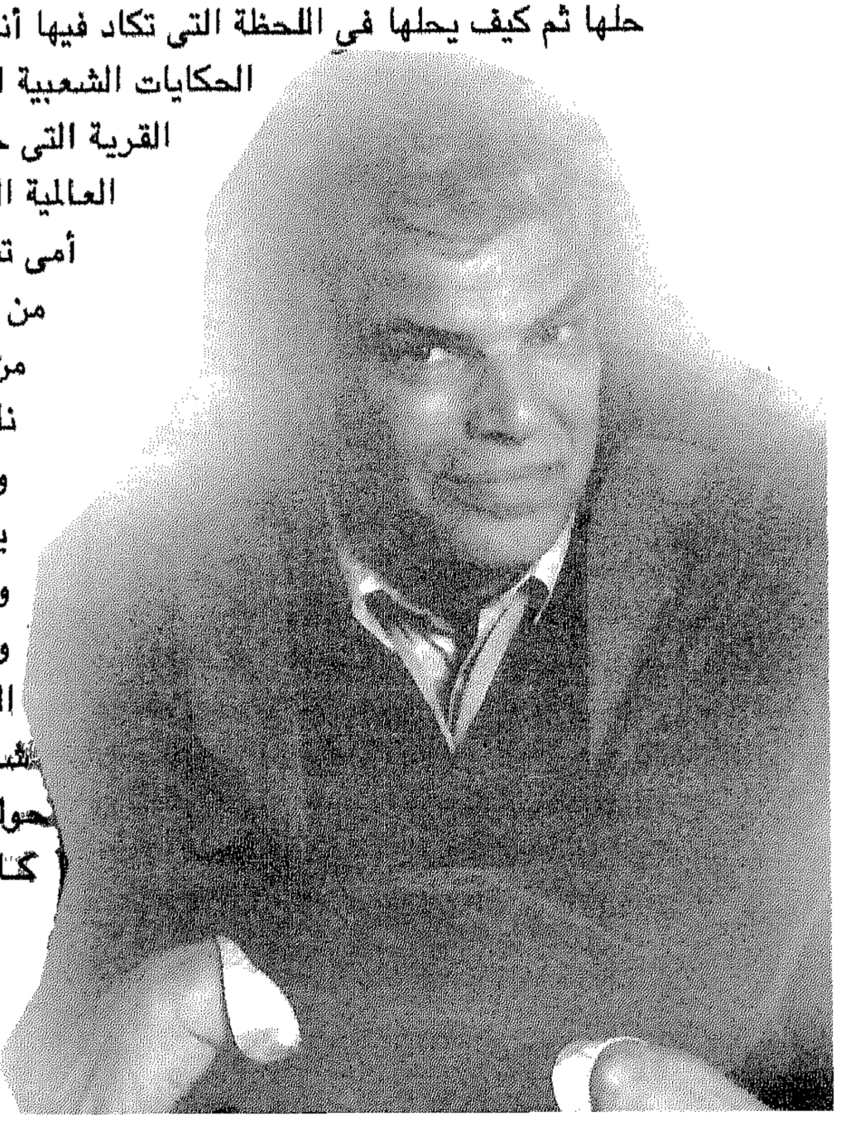

إبراهيم عبد المجيد مع وزير الثقافة فاروق حسني ود. هدى وصفي لدى تسلمه جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية

لم أكن قد بلغت السادسة من العمر بعد، أذكر ذلك جيدا، وقد أدركت بقوة من خلال هذه الحكايات أن هناك عالمين، عالم الحقيقة وعالم الخيال، أما الحقائق فهي حولي، لكن الخيال هو الأكثر امتاعا، شخوص تتمتع بالقوة والذكاء والطيبة ويحبها كل الناس.

كان بيتنا أحد البيوت في مساكن عمال السكة الحديد بكرموز بالإسكندرية، وهي مساكن تقع على ترعة المحمودية، بين كوبرى كرموز وكوبرى كفر عشرى، أمامها ترعة المحمودية حيث كانت طريقا للنقل النهرى وللتنزه في العصارى، كان النقل النهرى ينقل معه نوتية من الصعيد يجلسون بيننا نحن الأطفال يحكون لنا حكايات النيل والصعيد وعرائس النيل والريح المواتى والريح المعاكس، وخلف البيوت تقع منطقة واسعة من خطوط السكك الحديدية تأتى إليها القطارات من الدلتا كلها إلى الميناء، والقطارات تأتى وتذهب في عالم واسع مثير، القطارات تقول إن العالم كبير فسيح الأرجاء، وخلف القطارات تقع بحيرة مريوط، وكان جوار المساكن قبو يؤدى إلى البحيرة يعبر منه الصيادون وباعة السمك والمشترون، وكل هؤلاء بالنسبة لنا عالم آخر من الخيال ما لبثنا نحن الأطفال بعد أن تجاوزنا السادسة أن دخلناه في الصيف ونحن نذهب نصطاد السمك في البحيرة، أو في الشتاء ونحن في طريقنا إلى مدارسنا بالقبارى حيث يتوجب علينا أن نمشى بين قضبان السكك الحديدية وبين أرصفة البضائع التى تأتى إليها القطارات من الدلتا أو من الميناء.

كانت ترعة المحمودية تحمل الينا ثلاث

رسائل، حكايات النوتية، ومشاهد العشاق في المساء على الزوارق للفسحة، وجثث القتلى القادمة مع التيار من الريف، وكانت في الأغلب جثث لسيدات أو بنات ولم يكن يمر عام دون أن تصل فوق المياه جثة داخل جوال تستقر في الإسكندرية بعد أن رفضت كل القرى التي مرت عليها أن تستقبلها. كنا نعرف مبكرا جدا أن وراء هذه الجثث أحداث تتعلق بالشرف، لقد كتبت كثيرا عن ترعة المحمودية، بل أن رواية كاملة مثل «ليلة العشق والدم» تدور أحداثها على شاطىء الترعة، ومعظم أحداث رواية «طيور العنبر» ومشاهد هامة وحميمة من رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية»، لقد صارت الترعة أحد المعالم المهمة في أدبي إذا جاز لي القول بذلك، وكأنني كنت أخشى عليها من الزوال، لذلك أنا سعيد جدا اليوم وقد قام محافظ الإسكندرية النشيط اللواء المحجوب بإعادة إحياء للترعة وإعادة الحياة لشاطئيها بحيث تصبح مكانا للراحة والنزهة كما كانت قديما وأفضل مما كانت، ويبقي بعد إصلاح الشاطىء تنظيف الترعة وعودة فلائك النزهة والفسحة إليها، ياله من مكان.

شغلت السكك الحديدية بعد ذلك كثيرا من رواياتي، وخاصة روايات «الصياد واليمام» التي تدور معظم أحداثها في منطقة السكك الحديدية خلف المساكن ومنطقة الأرصفة، وكذلك رواية «المسافات» التي شغلت منطقة بعيدة على تخوم المدينة تقع بين الصحراء وبحيرة مريوط، وشغلت المساكن نفسها مركز الأحداث في رواية «طيور العنبر»، كما احتلت السكك الحديدية وعمالها مساحة كبيرة من رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية»، وفي كل هذه الروايات وعشرات من القصص القصيرة لم يكن المكان كما هو، بل صار شيئا آخر مسكونا بالسحر والخيال. منذ البداية انفتحت الأبواب على الخيال كما قلت من قبل.

٢ - الشارع والسينما

كان الشارع آمنا، لا سيارات تمر. لا زحام، واليوم الذي تمر فيه سيارة يصبح يوما تاريخيا في الحي، وإذا تصادف أننا رأينا السيارة نصفق لها سعداء، وكان جوار المساكن ثلاث محلات للبقالة والخضر، تجدها حية في رواية «طيور العنبر» ورواية «ليلة العشق والدم» جوار هذه المحلات يجلس عمال شركات الملح والصودا والزيوت الممتدة على المحمودية، وبعض الصيادين، وعدد من عمال السكك الحديدية، ولا عمل للجميع إلا الحكايات. حكايات حكايات حكايات ونقاش حول الأحداث الجارية بعد ثورة يوليو.. يضحك المتناقشون ويحتدون ويختلفون ويتشاجرون ثم يتركون المكان سعداء. فيما بعد أدركت أن كل معلوماتهم السياسية والاقتصادية كانت خطأ كاملاً، واندهشت من ثقتهم الجميلة من أفهامهم وفيما يفهمونه. كان خلف الجميع روح من الطيبة والتسامح.

أخذتني أمي التي كانت أكثر اهتماما من أبي بتعليمي في المدارس، كان أبي يعتمد عليها في ذلك، ويكتفي بالقصص التي يحكيها لنا، من التراث أو من القرآن الكريم، أخذتني أمي إلى مدرسة في حي

كرموز كانت «روضة» باسم تلك الأيام ، أو حضانة بأسماء هذه الأيام، كانت هذه الروضة تسمى «مدرسة الشيخ عبدالله» ملحق بها عدد من الفصول الابتدائية، وصاحبها هو الشيخ عبدالله نفسه، رجل دين، وكانت الروضة لاتزيد عن حديقة نمضى فيها معظم اليوم، نحن الأطفال الذين لم نصل إلى سن السادسة بعد، كان باب الروضة مفتوحا على شارع كرموز، الذى لا يمر فيه إلا الترام، أما السيارات فهى شبه معدومة. وذات يوم خرجت من الباب المفتوح ومشيت إلى الأمام، طفلا صغيرا لن يذهب بعيدا، كان أمام الروضة تقريبا، متعامدا مع شارع كرموز، شارع باب الملوك، عرفت اسمه فيما بعد، مشيت فيه أتفرج على المحلات، بعد مسافة قصيرة وجدت أمامى سينما، لم أكن أعرف أنها سينما، وجدت زحاما من الناس، الصبية والشباب، بملابس شعبية، بيجامات وجلابيب فى أكثرها، وعلى الحائط أفيشات صور الأفلام، ولم أكن أعرف أنها أفلام، وقفت مع الناس الذين بدأوا يدخلون من الباب، وسمعت الحديث حولى عن الفيلم، فعرفت أنها سينما، مشيت معهم إلى الباب لم يقل لى أحد إن الدخول بتذاكر، ولصغر سنى لم يلحظنى الرجل الذى يقف بالباب، دخلت مع الداخلين ، وجدت مقاعد طويلة، دكك ورائحة أرض مغسولة والناس تجلس فجلست، بعد قليل اطفئت الأنوار الهادئة، وبدأ الفيلم، ياله من سحر شعرت به ذلك الوقت، أذكر أنه كان فيلما لشادية وكمال الشناوى، أو شادية وفريد شوقى، لا أذكر بشكل مؤكد إلا شادية التى أحببتها جدا،

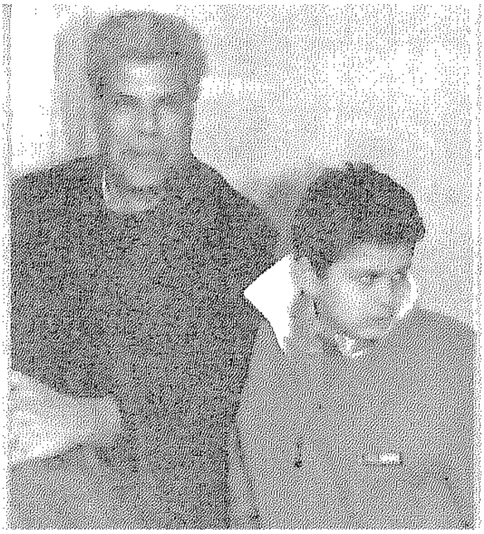

مع ابنه إياد فى إحدى ندوات معرض الكتاب بالقاهرة

ولازلت أحبها حتى اليوم، من منا لم يحب شادية، من جيلى على الأقل؟

صار الأمر عاديا كل يوم ، تصل بى أمى إلى الروضة ثم تتركنى عند الباب، بعد قليل أخرج أنا إلى السينما ، أعود من السينما إلى الروضة قبل الساعة الواحدة، تأتى أمى لاستلامى تجدنى ألعب فى الحديقة، لا أنا شعرت بخطأ ما ولا الروضة وطبعا لم تعرف أمى شيئاً حتى جاء يوم أرادت أن تأخذنى من الروضة قبل الموعد فلم تجدنى. قامت القيامة وأخذت أمى صاحب الروضة إلى قسم بوليس كرموز الذى يقع أمام السينما، سينما مصر، أو سينما النيل، كما نسميها لأنها تقع فى شارع النيل، وهناك رأونى خارجا من السينما، حكيت لهم القصة كأنها شىء عادى، لم أتصور أن ذلك قد يسبب ألما لأى أحد، واندهشت من الذعر الذى على وجه أمى، كان خوفها علىّ عظيما ، حيث مات لها من قبل ولدان ثم ولد

ابراهيم عبد المجيد فى أوكرانيا مع الشاعر محمد أبو دومة
والمستشرقة إليجا فلاسوفا ، وبجواره أحد المترجمين

بعد مولدى. كان بالابتدائى ولد اسمه سيد صقر، لا أنساه رحمه الله، كان من الساكن نفسها فعهدت أمى بى إليه لا يتركنى أذهب إلى السينما، لكن سيد اكتشف أننى آخذ مصروفا قرش تعريفة، أى خمسة مليمات، وهو كذلك يأخذ المصروف نفسه، إذن هو يستطيع أن يدخل السينما إذا أخذ مصروفى وأضافه إلى مصروفه، وهكذا كان يأخذ مصروفى كل يوم وندخل السينما، هو بقرش صاغ وأنا مجانا من بين الناس، وأصبح الخيال العجيب للسينما هو زادى اليومى الذى لم ينقطع أبداً.

فتحت لى السينما آفاقا جديدة جبارة من الخيال مشت معى فى كل حياتى . أمضيت ربع حياتى تقريبا أيام الصبا والشباب فى السينما، حفظت كل سينمات إسكندرية الشعبية وسينما الدرجة الثانية، وفيما بعد صرت ضيفا على سينمات الدرجة الأولى، كانت السينما هى عاملى الفنى الأول، وكنت أرى الفيلم ثم أبحث عن الرواية التى أخذ عنها، خصوصا الأفلام الأجنبية، بعد أن دخلت المدرسة الاعدادية وعرفت اللغة الإنجليزية وصرت أقرأ مقدمة الأفلام الإنجليزية، وأعرف أسماء الممثلين والمخرجين والأدباء، من السينما عرفت ديستويفسكى بعد أن شاهدت فيلم «الإخوة كارامازوف» الأجنبى، و«الجريمة والعقاب» العربى الذى مثله شكرى سرحان وأخرجه إبراهيم عمارة، من السينما عرفت جوجول بعد أن شاهدت فيلم تاراس بولبا، لاحظ أن بطل الإخوة كارامازوف هو الممثل يول برينر وبطل «تاراس بولبا » هو أيضا يول برينر، والحقيقة أن يول برينر كان من الممثلين الذين خطفوا قلوبنا فى الخمسينات والستينات هو وبيرت لانكستر وكيرك دوجلاس ومارلون براندو وروبرت تايلور

وجريجوري بيك وانتوني كوين وآلان لاد وتوني كيرتس وجاك ليمون وجاك بالانس وجيف شاند، وقائمة لا تنتهي انضم إليها فيما بعد ستيف ماكوين ووارن بيتي وجيمس كوبرن وجان بول بولمندو وآلان ديلون. كما خطفت قلوبنا مارلين مونرو وأفا جاردنر وأودري هيبورن وكيم نوفاك وجين مانسفيلد وبريجيت باردو وجين مورو وناتالي وود بطلة «روعة على العشب»، يا إلهي يكاد ينفطر قلبي من أجلها حتى الآن وقد تم الفصل بينها وبين حبيبها وارت بيتي في فيلم من أعظم أفلام إيليا كازان، كذلك كانت ناتالي وود بطلة الفيلم الرائع «قصة الحي الغربي» الذي كنا نطارده في السينمات أينما حل.

تحتل السينما مساحة كبيرة من رواياتي، بيت الياسمين، ولا أحد ينام في الإسكندرية وطيور العنبر.. لقد كان حزني شديدا ولايزال على السينمات التي هدمت في الإسكندرية ابتداء من السبعينات، حيث بدأ المد الغشيم للرأسمالية الطفيلية الجاهلة التي أبادت السينمات لتحويلها إلى عمارات ثم المد الجاهلي الرجعي الذي اعتبر السينما حرام وحول السينمات إلى مسارح أفراح.. لقد تم هدم أكثر من ثلاثين سينما بالإسكندرية، ابتداء من سينما النصر بالدخيلة والهلال بالقباري حتى سينما المنتزه الصيفي مرورا بسينما النصر والجمهورية بكرموز وراغب وسينما الشرق وكونكورديا وكوزمو وماجيستيك والهمبرا وبارك وريتس وريكس بالمنشية ومحطة الرمل وكذلك سينمات باكوس، قيس وليلى، والأنفوشي، التتويج، وكامب شيزار، أوديون ولاجيتيه وغيرها وغيرها.

كانت السينما هي بيت المتعة السهلة بالنسبة لأبناء الطبقات الشعبية، وبالنسبة لي كانت بيت الخيال المفتوحة نوافذه على الأدب، على الروايات بالذات التي أخذت عنها كل هذه الأفلام الجميلة.

هكذا انفتح القلب على الخيال إلى الأبد.

٣ - المدرسة

كانت المدرسة الحقيقية لي هي مدرسة القباري الابتدائية، وهي مدرسة أميرية، قبلها كانت أمي قد ألحقتني بمدرستين غير حكوميتين، الأولى مدرسة الشيخ عبدالله، أيضا الابتدائية بشارع التجارة بحي كفر عشري، والشيخ عبدالله هنا هو عبدالله النديم الأديب الثائر إبان الثورة العرابية، والمدفون في تركيا للأسف، كانت المدرسة تحمل اسمه وكانت في الحقيقة هي بيته السابق، لقد تم هدمها فيما بعد في عملية مشبوهة.. من يحافظ على بيوت الثوار في بلادنا؟ بعد هذه المدرسة ألحقتني أمي بمدرسة ابتدائية جديدة تحمل اسم صاحبها هي مدرسة الغندور الابتدائية بالقباري، أمضيت في مدرسة الشيخ عبدالله السنة الأولى وفي مدرسة الغندور الثانية والثالثة، ثم انتقلت ابتداء من السنة الرابعة إلى مدرسة القباري الحكومية. في مدرسة القباري الابتدائية أحببت اللغة العربية. كان يدرسها لنا مدرس عجوز اسمه الأستاذ زعفراني، كان أنيقا في ملبسه ولا أعرف لماذا كان اهتمامه كبيرا بي.. لقد توسم في النجابة في اللغة العربية وقد كنت أفضل تلميذ في

اللغة العربية، وتشجعت واشتريت بمصروفى صحيفة كل يوم صرت أقرأ منها على زملائى فى الفسحة أو فى الحصة الخالية وهكذا عرفت أسماء كتابنا الكبار . طه حسين والعقاد وسلامة موسى ومصطفى أمين وان لم أفهم شيئا مما يكتبون ذلك الوقت، لكننى أحببت اللغة العربية، وحين انتقلت إلى المرحلة الاعدادية بمدرسة طاهر بك الاعدادية بالورديان تحول هذا الحب إلى قراءة ممتعة لفن الرواية، فى ذلك الوقت كان لدينا حصتان فى الأسبوع للقراءة الحرة فى المكتبة، فى هاتين الحصتين قرأت أعمال كامل كيلانى ومحمد سعيد العريان ومحمد فريد أبو حديد ومحمود تيمور ثم أول رواية لنجيب محفوظ، رواية كفاح طيبة، كان التلاميذ المتفوقون يحصلون فى عيد العلم على هدايا هى مجموعة من الكتب أو المجلات الهامة، وكنت دائما من بين هؤلاء التلاميذ فحصلت على مجموعات من أعداد مجلة المقتطف ، يا إلهى، وأعداد من كتاب المنتخب من أدب العرب، يا إلهى مرة أخرى، يالها من ثروات فكرية فى عمر مبكر، كانت الأحداث السياسية فى ذلك الوقت على أشدها كل يوم فى بداية الستينات، وكان المدرسون يتبارون فى نقل روح الثورة الينا فى خطبهم السياسية الصباحية فى طابور المدرسة، وكانت بالمدرسة جماعات للخطابة وللشعر وللكشافة والجوالة والرحلات، وعلى أبواب المدرسة باعة المجلات، والكتب القديمة، كانت المدرسة الابتدائية من قبل حريصة على أن تصحبنا كل شهر فى رحلة إلى إحدى دور السينما الكبيرة بالإسكندرية، غالبا كانت سينما فريال التى رأيت فيها مع المدرسة الابتدائية أفلام مثل الوسادة الخالية وأبوحديد وطريق السلام «هل تعرفونه؟ لعمر الشريف وفاتن حمامة عن قضية فلسطين» وفى المدرسة الاعدادية استمرت هذه الرحلات، وأكثر منها، كانت المدرسة تحضر لنا الفيلم لنشاهده فى المدرسة، فى المدرسة شاهدت فيلم موعد مع الحياة وفيلم موعد مع السعادة وغيرهما.. يا للمدارس الجميلة زمان.

٤ - أول رواية !

شيء لا يصدق. فجأة وأنا جالس على شاطيء ترعة المحمودية أقرأ فى رواية رومانسية فكرت أن أترك المكان بسرعة إلى البيت ، وجدت نفسى فى الحقيقة أغلق الرواية التى انتهيت من صفحاتها الأخيرة وأنهض مأخوذا شبه ذاهل من المكان إلى البيت لابدأ فى كتابة رواية جديدة ، فى البداية كانت بى رغبة أن أعيد كتابة الرواية الرومانسية التى قرأتها، وما أن بدأت حتى وجدت نفسى أكتب رواية جديدة، لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة بعد، وكنت حصلت على الاعدادية، وكنا فى إجازة الصيف، واكتشفت نوعا جديدا من الفرح والبهجة ينسكب فى روحى وأنا أكتب، أؤلف كتابا جديدا، أغلقت على نفسى باب حجرتى ورحت أكتب بشراهة وجزل عميق، صرت أفعل ذلك كل يوم لعدة ساعات أخرج بعدها كأنى خارج من كهف مسحور، لقد صرت مؤلف.. ياإلهى، أى نوع من البهجة هذا الذى اكتشفته؟ انتهت الإجازة

الصيفية وقد انتهيت من روايتين ساذجتين طبعا، لكن فيهما اكتشاف رائع لعظمة الابداع.. اندفعت أكثر فى القراءة والكتابة ورحت أقلد الكتب التى أقرأها، اكتشفت محمد عبدالحليم عبدالله ويوسف السباعى، وقلدت رواية الجنة العذراء، ورواية سلوى فى مهب الريح لمحمود تيمور، ورواية أنا الشعب لمحمد فريد أبوحديد، ومجموعة هذه النفوس ليوسف السباعى.. لم أكن قد اكتشفت العالم الروائى الكبير لنجيب محفوظ بعد، والذى حين سأكتشفه ستتحول حياتى تماما.

فى ذلك الوقت لم تكن الجامعات بالمجان، وكان والدى على وشك الخروج إلى المعاش، وفكرت أنه لن يستطيع أن يواصل معى التعليم إلى الجامعة، فأخذت طريقا آخر للتعليم ودخلت مدرسة إسكندرية الثانوية الصناعية، وكانت مدرسة جديدة وكنا نحن أول دفعة ندخلها، كان الجو كله حزن فى البيت على هذا الاختيار من طالب نجيب، لكنى أدركت جسامة التعليم وقررت أن أختصر الطريق ثم أذاكر من جديد والتحق بالجامعة، وقد كان، التحقت بالمدرسة الصناعية قسم الكهرباء، وكان القسم الذى يختار الطلبة المتفوقين، وكان مجموعى فى الاعدادية يزيد على الثمانين فى المائة، وهذا كان يعتبر شيئا عظيما جدا ذلك الوقت، بعد أن دخلت المدرسة الصناعية، قسم الكهرباء، الذى لم أحبه أبدا ولم أفهم فيه شيئا إلا توصيل مصباح فى المنزل، قام جمال عبدالناصر بإلغاء المصروفات فى جميع مراحل التعليم، لكن فات الأوان، كنت التحقت بالمدرسة الصناعية، وكانت سنوات الدراسة الصناعية هذه من أخصب فترات القراءة فى حياتى، كنت أذاكر أسبوعا واحدا أو أسبوعين آخر العام وأنجح لما أتمتع به ذلك الوقت من قدرات عقلية جبارة على استيعاب المواد النظرية، الرياضية بالذات، كنت أذاكر أسبوعا أو أسبوعين وأمضى العام كله فى القراءة والاستعارة من أربع مكتبات بالإسكندرية ، مكتبة المدرسة ومكتبة البلدية ومكتبة قصر ثقافة الحرية، ومكتبة بائع الكتب «عم سيد» فى محطة الرمل حيث كنت أستعير منه الكتب أقرأها وأعيدها نظير مبلغ زهيد.

فى ذلك الوقت أسعدنى الحظ بحضور ندوات بقصر ثقافة الحرية، كانت أهمها ندوة للمرحوم محمد مندور تحدث فيها عن المذاهب الأدبية، التى عرفتها لأول مرة، وعن ثقافة الكاتب. توقفت عن الكتابة بعد ذلك لسنوات ورحت أقرأ فى المذاهب الأدبية وتاريخ الأدب والنقد الأدبى وفى الفلسفة والتاريخ وعلم النفس، وهنا اكتشفت طه حسين، ومنه اكتشفت البير كامى وكافكا ونجيب محفوظ وأندريه جيد وغيرهم، اكتشفت نجيب محفوظ بعد أن قرأت عنه فى كتب طه حسين النقدية فدخلت عالم محفوظ السحرى ولم أخرج منه حتى الآن.. أغنانى عن كثير من الكتاب المصريين، وحببنى فى القاهرة التى سافرت إليها قبل أن أنهى دراستى الثانوية وأحاول الحياة فى الجمالية ثم سأفشل وأعود بعد أسبوعين لأواصل تعليمى بالإسكندرية حتى إذا ما انتهيت من الجامعة بعد ذلك بسنوات أتيت إلى القاهرة منذ عام ١٩٧٤ وحتى الآن

والسبب محفوظ وليس أحد آخر.

٥ - الجامعة

حصلت على دبلوم الصنايع عام ١٩٦٤، وكان على أن أنتظر ستة أشهر حتى أتم الثامنة عشرة وهى السن القانونية للعمل الثابت فى الدولة، بعد ذلك التحقت بالعمل بمشروع الثورة الكبير فى الإسكندرية، أعنى شركة الترسانة البحرية بالورديان، كان رقم تعيينى خمسمائة واثنان وثلاثون ثم تركتها بعد ذلك عام ١٩٧٤ وعدد العاملين فيها اثنا عشر ألفا.. كنا نقوم ببناء الشركة وتركيب معداتها، الآلات وغيره، ثم انتقلت للعمل مدربا للكهرباء بمركز التدريب الملحق بالشركة ومدرسا فى الوقت نفسه لمادة الرياضيات، التفاضل والتكامل وحساب المثلثات والميكانيكا، وهى المواد التى كنت أحبها جدا، والتقيت بالصدفة بأحد الماركسيين القدماء الذين خرجوا من السجون والمعتقلات وكان يعمل مع مقاول يونانى فى التركيبات الكهربائية بالمشروع، كان هذا الرجل يرى معى دائما كتبا أقرأها فى فترة الراحة بعد الغداء، فاقترب منى وعرف أننى قارىء ممتاز للآداب والفلسفة فارشدنى إلى الفلسفة الماركسية، وهكذا فتح بابا جديدا كبيرا وجبارا لمعرفة أوسع بالعالم، ودفعنى دفعا للانضمام إلى تنظيمات الدولة السياسية، منظمة الشباب بالتحديد، حيث كان بها عدد من الماركسيين الذين رغم عملهم فى تنظيم الدولة لم يتخلوا عن ماركسيتهم، على الأقل فى أوقات الصفاء.

تذكرت حلمى القديم، دخول الجامعة، وكان على أن أذاكر الثانوية العامة لكن وقعت هزيمة سبعة وستين فاخرت دراستى عاما ولونت حياتى بطعم المر.. ابتعدت عن تنظيمات الدولة، وعدت إلى الدراسة والتحقت بكلية الآداب عام ١٩٦٩، قسم الفلسفة وكانت الحصة الاولى فى مادة فلسفة السياسة أهم حصة فى حياتى، حيث هتف الأستاذ الدكتور عبدالمعز نصر، عميد الكلية، ومترجم هارولد لاسكى أثناء المحاضرة، وبالإنجليزية، قائلا ما معناه إذا أردت أن تكون مفكرا فعليك بالعودة إلى الأصول، أى لا تقرأ عن أفلاطون فقط ولكن إقرأ أفلاطون نفسه، ولا تقرأ عن سارتر فقط ولكن اقرأ سارتر نفسه، واستقرت النصيحة فى روحى فرحت جوار قراءة الأدب والإبداع أقرأ النصوص الفلسفية الأصلية والكثير منها كان مترجما للعربية، رغم قدرتى على القراءة بالإنجليزية، لكنى كنت أقرأ عن المذاهب بالإنجليزية أسهل مما أقرأ الأعمال الأصلية نفسها، فساعدتنى الكتب المترجمة كثيرا بدءا من محاورات أفلاطون حتى الوجود والعدم لجان بول سارتر.. كنت قبل دخولى الجامعة أعرف كل هؤلاء الفلاسفة وقرأت عنهم كتبا، خاصة كتب الدكتور عبدالرحمن بدوى، لكن أن تقرأ كتب الفلاسفة شىء آخر.

وكان طه حسين قد لفت نظرى بشدة إلى التراجيديا اليونانية فانكببت عليها بقوة، وكنت نشرت أول قصة قصيرة لى بالملحق الأدبى لجريدة أخبار اليوم بمقدمة للأستاذ محمود تيمور وكانت القصة الفائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة

بالإسكندرية، كان ذلك عام ١٩٦٩ ورغم ذلك كان الوقت أكثر في القراءة، وانضممت إلى جماعة الأدباء بقصر ثقافة الحرية ومن هناك عرفت كبار الأدباء الذين كانوا يأتون إلينا كضيوف مثل الدكتور عبدالقادر القط الذي نشر لي في مجلة المجلة ومثل علي شلش وبهاء طاهر الذي كان يذيع قصصنا ببرنامج بريد المستمعين بالبرنامج الثاني أيام مجده، لقد كان لهذا البرنامج أبلغ الأثر، برنامج بهاء طاهر، والبرنامج الثاني نفسه حيث كنا نستمع فيه كل أسبوع إلى مسرحية كلاسيكية بإخراج الشريف خاطر وإلى حديث الدكتور حسين فوزي في الموسيقى كل خميس أو جمعة فيما أذكر، كان البرنامج الثاني أكثر من جامعة بالنسبة إلى جيلي.

كانت أيام الجامعة ذات طعم خاص، فرغم أنني أكبر من الطلاب العاديين، لكن لم يكن الفارق يزيد عن أربع سنوات لا تظهر خصوصا أن كثيرا من الطلاب كانوا راسبين في الثانوية العامة، لم يكن هناك فارق ملحوظ بيني وبين الطلاب إلا في الثقافة، كنت أسبقهم بكثير جدا جدا، وكان الأساتذة لا يتصورون أنه يمكن أن يوجد طالب على هذه الدراية بالفلسفة والآداب، وهكذا كان مهيأ لي أن أكون معيداً أو أستاذاً، لكني لم أحصل على تقدير بسبب رداءة خطي وعدم قراءة الأساتذة للإجابات، إلا فيما ندر، في حالات مثل الدكتور أحمد أبوزيد مثلا الذي أخذت امتيازاً في مادته، وقليل من الأساتذة الآخرين، وكان الدكتور عثمان أمين يزورنا من القاهرة يوما في الأسبوع يدرس في الفلسفة الحديثة، ديكارت بالتحديد، فكنا نصحبه بالليل إلى شقة أحد زملائنا ويسهر معنا سهرة ممتعة وكم كان حديثه يفيدنا عن حاضر وماضي الثقافة المصرية ذلك الوقت.

سنوات الجامعة فتحت النوافذ على الإسكندرية الكوزموبوليتين، التي لم تعد كذلك، أي على البحر والأحياء الراقية في الرمل والملاهي الليلية وغيرها مما بقي من الإسكندرية الأجنبية فأضيفت خبرة جديدة إلى حياتي عميقة لم أنسها حتى اليوم، لكني كنت أتوق للانتهاء من الجامعة لأشد الرحال إلى القاهرة . كنت قد كتبت رواية «في الصيف السابع والستين» ولم أنشرها بعد، نشرتها في القاهرة بعد ذلك، وانتهيت من الجامعة وأنا أشعر أن حياتي في الإسكندرية قد وصلت إلى غايتها، ولم يعد ينقصني شيء إلا الوجود وسط المثقفين والأدباء بالقاهرة، وأتيت عام ١٩٧٤، بعد أن انتهيت من الجامعة بعام، هربت من الدراسات العليا على غير رغبة أساتذتي وحضرت إلى القاهرة التي جريت وراء سحرها المحفوظي من زمان، لكن القاهرة كانت قد تغيرت، كانت حرب أكتوبر قد جرت، والسادات يغير في الاتجاهات كل يوم، والحرب بينه وبين الكتاب. ولم تكن القاهرة مدينة أدب ذلك الوقت، بل مدينة سياسة واجتماع كل يوم، لكن تلك حكاية أخرى، المهم أنني أتيت هنا تسبقني قصص نشرتها في أهم المجلات ذلك الوقت، الطليعة والهلال والمجلة وبعض المجلات العربية، أتيت القاهرة كاتبا يعرف ماذا يريد. ■

أم كلثوم والأداء الصوتى

تحرك مقالات الهلال أمواج الثقافات المتلاحقة، بين قديم يتجدَّد من خلال معاصر يتنامى بين أقلام كتّاب الهلال وقارئيه.

ولعل ذلك - إنْ لم يكن هو بالفعل - مرده إلى تعدد مناهل المعرفة لدى المُسْهمين بكتاباتهم الثَّرة فى استمرار ترسيخ وإعلاء صرح الهلال أقول ذلك بعد قراءتى للمَقال النقدى للشاعر محمد التهامى.

(أم كلثوم أكبر من الحب) فى هلال يوليو سنة ٢٠٠٤.

موضحا - من وجهة نظرى قارئا معترفا بالفضل - أن السر فى مكانة أم كلثوم هذه عند التهامى هو ما جاء فى ثنايا مقاله: - (أن أهم ثمرات الحب هو ما يبدعه المحبون من فن، فالحب زائل أما الفن فهو الباقى) ص ٢٠٢.

ولعل ما دعانى إلى اقتناص هذه المقولة (التى اعتبرها مفتاحا لهذا السر) هو ما كشفت به أم كلثوم عن منافذ الإبداع فى أدائها الصوتى، والذى ضمن لها الخلود الذى هو (أكبر من الحب) حين قالت للأستاذ التهامى: -

«.. يا سيدى، وأنت من متابعى غناء أم كلثوم، ومثلك الكثيرون، لا تدركون أبعاد التصرف فى أداء معانى الكلمات، وإيحاءاتها ودلالاتها ومعانيها، مما يجعلُ أمُّ كُلثوم، تغنىّ لنفسها وحدَها، بالرغم من كثرة المعجبين المتحمسين لما يسمعون.. إنى كلمة «واسلم» فى المرة الأولى، فأضغط على جميع الحروف بدرجة واحدة سريعة مما يفيد معنى السلام والتحية.

وفى المرة الثانية اضغط على حرف اللام بشدة، مما يفيد تسليم الأمانة وفى المرة الثالثة، آمد حرف الواو، بما يفيد الاستسلام .

حين تحدثت أم كلثوم فى كلامها حديثا علميا صوتيا لغويا أعاد إلى أذهاننا ما سبق أن قال به ابن جنى (عالم اللغة الصوتى) فى كتابه الخصائص جـ٣ صـ ١٢٠، صـ ١٢١ متحدثا محللا للأداء الصوتى حين قال:-

«.. وذلك أن تكون فى مدح إنسان، والثناء عليه، فتقول:-

«.. كان والله رَجلاً فتزيد فى قوة اللفظ به «الله» هذه الكلمة، وتتمكن فى تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها.

وكذلك تقول: «.. سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكَّن الصوت بإنسان، وتفخمه، فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جواداً أو نحو ذلك.

وكذلك إن وصفته بالضيق، فقلت: - «سألناه وكان إنسانا!»

وتَزْوِى وجْهَك وتقطبِّه، فيغنى ذلك عن قولك: «.. إنساناً لئيماً أو لحِزاً أو مُبْخِلاً، أو

نحو ذلك».

وهذا التحليل فى ثقافات القدامى يمتزج بمثله فى ثقافة المحدثين محللين لما وراء الأداء الصوتى تحت عنوان (أسرار المواهب) فى كتاب «دفاع عن الأدب» لچورچ ديهامل وترجمة د. محمد مندور ص ١٩٦، ص ١٩٧.

أقول إن هذا المزج - كما يخيل إلى - لم يكن خافيا عن كوكب الشرق أم كلثوم التى تعرض علينا ثقافة أصلائنا من المغنين الأكْفَاء لنكتشف ما نعانيه الآن من أصداء الأكفاءٍ.

سامي منير عامر
كلية التربية جامعة الاسكندرية

قلت الـــوداع

ماذا دهاكْ؟
إن رحتَ تبحثُ..
فى ثنايا عشقنا
عن دفقة
قد أرقتْ قلباً هواكْ
وظللتَ ترتجفُ اشتياقاً..
فى جوارى صامتاً
وتلملمُ الأحزانَ في كنفٍ
سدى، كى لا أراكْ
ماذا دهاكْ؟
إن جفَّ عودكَ بالهوى
وارتدَّ وجدكَ تائهً
واحْتجّ تيهكَ
عندما قَبَّلْتُ فاكْ
وكأن وجهكَ غاضبٌ منى..
ترى هل كان وجهكَ..
أم صدى الأيامَ..
شابةَ ذا بذاكْ؟
أثقلتَ قولاً..
عندما قلتَ «الوداعُ»..
فإننى لا أرتجى من عالمى
شيئاً سواكْ
إن عاف قلبى دنيتى
بجمالها ووعودها
فانشقَ عنها واصطفاكْ
كيف السبيل إلى الخلاص..
وكلما أبصرتُ من حولى..
رأيتكَ تعتلى..
عرشَ الجمال..
وتسكن الأشجارَ..
والأمطارَ والأقمارَ والأفلاكْ

صابر صبري معوض
المنصورة

الرحلة وكتاب ادوارد لين

كانت «الرحلة.. آفاق جديدة» فى هلال يوليو الماضى اطلالة واسعة على عالم الرحالة والاستشراق فى دنيا العرب والشرق، جهد متميز يحسب للهلال، وكم كنا نود أن يعرض هذا الملف للمستشرق الإنجليزى الكبير ادوارد وليم لين (١٨٠١-١٨٧٦) عميد حركة الاستشراق فى القرن التاسع عشر، وكتابه «المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم، قام «الين» بأولى رحلاته الثلاث لمصر عام ١٨٢٥، وظل فيها سائحا متنقلا دارسا وباحثا ثلاث سنوات كاملة، وضع خلالها مخطوطته فى «وصف مصر» ضمنه مائة لوحة ولوحة، واعتبرها كل من اطلع عليها من الثقاة كتابا فريداً فى نوعه لو قدر له الإخراج وفى عام ١٨٣٣ قام لين بزيارة مصر مرة ثانية، وظل فيها حتى عام ١٨٣٥ فى سبيل إخراج كتابه عن المصريين المحدثين لجمعية نشر المعارف المفيدة، وقد لقى هذا رواجا قل إن عرف نظيره، وترجم إلى الألمانية، وتجاوزت شهرته أوروبا فطبع فى أمريكا مرارا نظرا لما انطوى عليه من دقة التصوير وامانة الوصف وسلاسة الأسلوب.

وكتاب ادوارد وليم لين «المصريون المحدثون، شمائلهم وعاداتهم» يقدم رؤية فى أشمل وصف للحياة المصرية فى القرن التاسع عشر فى عصر محمد على، وهو تسجيل حى وتفصيلى دقيق للحياة اليومية للمصريين القاهريين من الطبقة الوسطى على وجه الخصوص.

عمرو عبدالمنعم حمودة - برما - غربية

أخبار سارة لقراء الهلال

متي يظهر للنور المشروع المهم الذي ننتظره بشوق ..صدور مجلة الهلال على اسطوانة ضوئية CD وهو كما تفضلتم بالكتابة عنه بالتعاون بين دار الهلال ومكتبة الاسكندرية .

متي تكون أعدادا الهلال الأولي بين أيدينا ؟

مازن يوسف

الهلال : ترقب أيها الصديق مازن أخبارا طيبة حول هذا المشروع الثقافى المهم مع بداية أكتوبر القادم

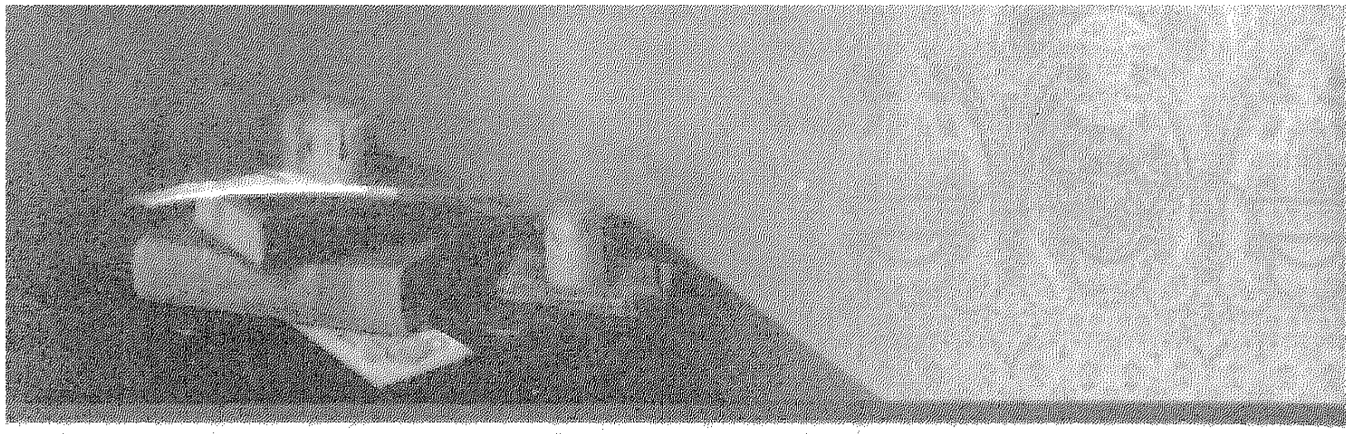

لغة واحدة لا تكفى!!!

لغةٌ واحدةٌ لا تكفى
كى تشرب صفو مواجيدى
أو تنضج صيف صباباتى
تحتلّ كيانى
وتطرِّز ليل قصيدى بالألحان..
تستجلب ماء كرامتنا!
لغةٌ واحدةٌ لا تكفى
حتى تسكن طمى كتاباتى
أو تفتحَ نافذةَ الحرف
لكى تدخلَ كلُّ عصافيرى
وتبيت على شجر اللغة الخائنة..
لغةٌ واحدةٌ لا تكفى
هذا وجعى،
يشتهى..
طَيْفَكِ إنْ مَرّ
فاخرجى من نخيل إشارات
واشهرى فى وجه الغيم،
سيوف معاناتى!!

محمود أحمد المُصلّي
شربين دقهلية

شروط الاستفادة من أعمال الآخرين!

لفت نظرى فى العدد الماضى ما جاء فى مقال «أطفال الشوارع» بقلم د. شوقى العقباوى.

ولما كنت قد شرفت بإعداد «الاستراتيجية القومية لحماية وتأهيل الأطفال بلا مأوى (أطفال الشوارع) بتكليف من المجلس القومى للأمومة والطفولة، فقد اهتممت بقراءة المقال، ولدهشتي الشديدة وجدت أنه مأخوذ من الصفحات الأولى لبحثى الذى أعددته للمجلس وبنفس الأسلوب، مع تغيير مكان بعض الفقرات.

ورغم أننى أومن بأنه طالما خرج العمل العلمى إلى النور، فقد أصبح ملكية عامة لمن يريد الاستفادة منه، إلا أن هذه الاستفادة لها شروطها وأقلها الاشارة إلى المصدر المأخوذ منه، ولا يعتبر ذلك عيبا، بل إن قراءة المصادر واستعمالها والإشارة إليها يعتبر من قبيل النشاط العلمى، خاصة إذا كان كاتب المقال أستاذاً أكاديميا يعرف هذه القواعد جيدا.

من هنا فإنى لا أجد أى سبب لهذا الخطأ العلمى غير المغتفر، حيث كان يمكن له الإشارة إلى البحث كمرجع اعتمد عليه كليا مع الإشارة إلى اسمى كمؤلف.

شهيدة الباز

مستشارة في الاقتصاد السياسي للتنمية

قصة قصيرة

ما سيحدث

سأودّعُ المدينة إلى قرية أو أى مكان موحش خلاء، أختلى فيه بنفسى، إذاً، سأمشى على الطريق وحدى ولن تزعجني العربات بضجيجها المتعب، سيتسع المدى لعينى لترى نهاية الطريق ولن يعترض الشوف ناطحةٌ من ناطحات السحاب أو يحجب نور الشمس عن عينى نظارة شمس واحدة اللون، ستختفى سنبلة الضوء التى كنت أقطفها من مصابيح أعمدة الكبارى العلوية، ذات اللون الأصفر الضبابى الخلاب فى حلكة المساء.

سأمضى إلى حجرتى أودّعُ صندوقها الخالى من أى شىء يبعث الدفء، ألملم أشلائى وحيداً، أيضا لن أجد من يلملمها معى أو يضمها إلى صدره بحنو وأمومة، حتى وأنا فى حجرتى سأجد الطريق مازال ومازلت أسيره، فأنا فى حجرتى وحيداً أغذ الخطى في مربعها ذهاباً وإياباً، متخطياً الأميال وغير عابىء بالزمن، هكذا لن أجد من يسلم علىّ أو يربت على كتفى أو يعاتبنى أو حتى يدوس علىّ قلبى، فى الطريق وحدى سأنزع من صدرى سواداً خلّفته أدخنة العربات فى المدينة، وسأسد أنفى عنها، بل سيمنعها عنى الطريق الطويل والفارغ من أى شىء، ولن أختنق بعد اليوم... لن أختنق... ولكن، ولكنى وقتها - ياللهول - سأكون قتيلاً، ستقتلنى الوحدة!

إسلام عوض حامد - بلقاس دقهلية

خ

الخليل بن أحمد الفراهيدى
مكتشف قواعد النحو والموسيقى
١٠٠هـ ١٧٥هـ

لغوى ولد بعمان ومات بالبصرة، ودرس اللغة والقرآن والحديث على أبى عمرو بن العلاء، عاش زاهدا يدرس اللغة، وقد بدأت حياته فى سنة «١٠٠ هجرية» أثناء خلافة عمر بن عبدالعزيز الذى أقام دولته على العدل وانتهت فى خلافة الرشيد، وقد عاصر خلال حياته التى امتدت ٧٥ عاما خلافة يزيد بن عبدالملك وهشام بن عبدالملك، حتى نهاية خلافة بنى أمية وقيام خلافة دولة بنى العباس.

أشهر تلاميذه سيبويه والأصمعى والنضر بن شميل.

ويعد الخليل إمام نحاة البصرة فى القياس والتعليل النحوى، وعليه كان اعتماد سيبويه فى كتابه الذى سماه «الكتاب» والذى يعد دستورا للنحو استنبط على العروض الذى استخرج منه خمسة عشر بحراً وزاد عليها الأخفش بحرا سماه الخبب، وعلى أثر ذلك استطاع ضبط أوزان هذه البحور، ووزنها على المقاطع والحركات، مستعينا بالموسيقى الذى ألف كتابا فيها على غير معرفة بلغة أجنبية، ومن أطرف ما روى عنه أنه كان يقضى الساعات الطوال ذاهلا عن نفسه، يرفع أصابعه ويحركها لضبط هذه الأوزان وتنسيقها.

افتتح الخليل عصر المعاجم فى القرن الثانى الهجرى بوضعه «كتاب العين»، فكان أول معجم عربى ظهر إلى حيز الوجود، ليحصر فيه المستعمل والمهمل من الألفاظ التى يمكن للعربية، أن تؤلفها من الحروف العربية، وقد رتب الحروف فيه وفق مخارجها بادئاً بالحلقية ومنتهيا بالشفوية، ونظم الكلمات تتبعا لحروفها الأصلية، وأهمل الحروف الزائدة، فاحتذاه جميع أصحاب المعاجم، وبوب الكلمات حسب صيغها إلى: الثنائى والثلاثى الصحيح والثلاثى المعتل والرباعى والخماسى فكان رأس مدرسة اتبعته فيها المعاجم، ونسج على منواله أكبر أساطين اللغة وأشهر الموسوعيين .

ويقع معجم «العين» فى نحو ٢٥٠٠ صفحة وله كتب أخرى هى : «معانى الحروف» و«جملة آلات العرب» و«تفسير حروف اللغة» و«كتاب العروض» و«النقط والشكل».

وقد ألف كتابا فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية كما أشرت سماه «النغم».

وقد عكف فى أواخر أيامه عام ١٧٥هـ على وضع قواعد الحساب والرياضة، وشغل بها واستغرقه التفكير، وهو فى المسجد فاصطدم على غير وعى بعمود، فشج رأسه وكانت نهايته.

أكتوبة الربيع

مصابون بالزكام
غائبون فى الزحام
أريج الغبار
شذا الاندثار
والعيدان فى شتات
والحقل يمتص الرجاء
بعد الرجاء

****

الخبز سوط فى يد الجلاد
وعنان يتوارثه الملوك
ولأن الزهور لا تحيا فى النار
ولأن الخبز لا ينضج إلا بالنار
فمن قال أتى زمن الربيع

****

الربيع أخضر لا بلون الدم ورائحة الدمار
ينبلج الربيع شابا غير قابل للتصنيع
الربيع فى كف الرحمن
من بكى لله
كى يهبه الربيع أو لا يضيع
من قال أتى زمن الربيع
الربيع حلم لا يحلمه النائمون
وحكمة لا يلقاها البائسون
ويد تؤوب فتقيم
الشتل كالجسد المجبور
يجلو عين الشمس
لينهض النهار
الربيع حقيقة
هل أبصرتم؟ من أين يأتى الصقيع
من قال أتى زمن الربيع؟
الربيع تماوج رؤوس الورود
على أوتار نسائم الحرية
وأوبة الفروع
ولوحة فنان لا يرسم بريشة التقليد
بل ينبض الانعتاق
انعتاق النفس من ربقة السبات
من قال أتى زمن الربيع؟
وقمرى الشادى مضغة بأنياب العقبان
والغربان تلهو بنتف زغب العصافير
يجوب الموت العتبات من كل حدب وصوب
أتى الجدب يركل وجه الجميع
فمن قال أتى زمن الربيع؟

السيد حسن عبد ربه - هولند

جوائز الدولة.. لمن؟!

* أثارت جوائز الدولة التى أعلنت هذا العام جدلاً واسعا بين المثقفين حيث تعجب البعض من منح الجوائز لبعض من الذين لا يستحقونها وأثاروا قضية المعايير الخاصة بمنحها، فبعض تلك الجوائز تمنح بمعايير بعيدة كل البعد عن الموضوعية والجدارة.

فإذا كانت هذه الجوائز تثير كل هذا الضجيج والاختلاف كل عام، فلماذا لا نضع

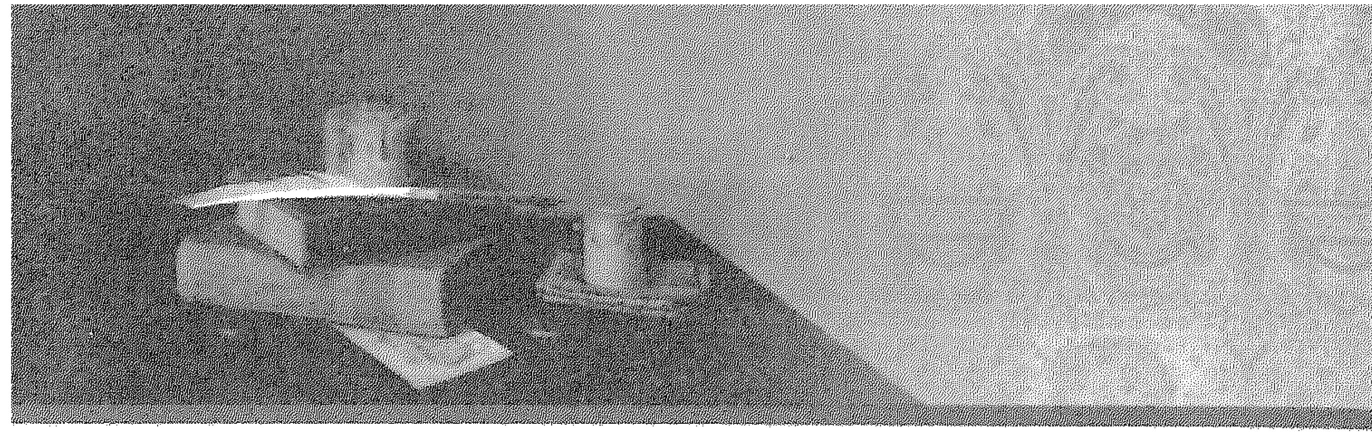

معايير محددة حتى يمكن تلافى ماتثيره من حساسيات واختلافات.

فالبعض يقول : إن هناك ما يسمى «بالتربيطات والضغط على المسئولين» فى منح الجوائز والمحاباة والمجاملة والمصالح وأن مسألة الأحقية لم تعد واردة، فكيف نستطيع أن نحدد ذلك ونفرق بين المجاملة والنزاهة وبين الجدارة من عدمها.

إنها قضية يجب حسمها ويجب أن تصبح الشفافية هى شعار تلك الجوائز وجوهرها لأن الابداع يجب ألا يخضع لمعايير أخرى غير الجودة والجدارة والقيمة.

أحمد فتحي - القاهرة

البخل والبخلاء في الأدب العربي

رأى العرب فى البخل خصلة مذمومة فاستنكروها فيم أبدعوه من أدب وشنوا حملة شعواء على المسكين البخلاء فأوسعوهم ذما وقدحا وسخرية وهجاء.. قال ابن الرومى في بخيل يدعى عيسى:

يقتر عيسى على نفسه ۞ وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ۞ تنفس من منخر واحد

وكان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور الذى سيد مدينة بغداد أكثر المدن بذخا وثراء بخيلا شحيحا فأطلق عليه أبى الدوانق والدانق هو سدس الدرهم وذلك لأنه كان يمر على الصناع والعمال ويحاسبهم فيقول لهذا: أنت أتيت العمل بعد موعده فيخصم من أجره دانقا ويقول لذاك أنت انصرفت قبل انتهاء موعد العمل فيخصم من أجره دانقاً وبذلك لا يعطى لأى من العمال أجره كاملا ولما وصفه الناس بالبخل دفع عن نفسه هذه الصفة وقال: يزعمون إنى بخيل وما أنا ببخيل لكنى رأيت الناس عبيدا للمال فمنعته عنهم ليكونوا عبيدا لى.

روى عن محمد بن الحسن العلوى أنه كان يريد القضاء على العباسيين وعلى رأسهم أبو جعفر المنصور وإقامة دولة للعلويين وقد أيده ووقف إلى جواره سديف الشاعر الذى قال:

إننا نأمل أن ترتد ألفتنا ۞ بعد التباعد والشحناء والمحن
وتنقضى دولة أحكام قادتها ۞ فينا كأحكام قوم عابدى الوثن
فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنا ۞ إن الخلافة لكم يا بنى الحسن

ولما بلغ المنصور ما قاله سديف غضب عليه وأمر بدفنه حيا..

محمد أمين عيسوى

الكلمة الأخيرة

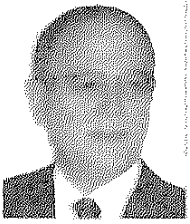

حول التغيير

بقلم :د. أحمد مرسى

ربما تصبح هذه الكلمات غير ذات موضوع فربما سبقت الأحداث لكلمات عندما يصبح هذا العدد من الهلال بين يدى قرائه المتميزين، ذلك أنها تتناول موضوعاً يتداوله المصريون منذ وقت غير قصير، وأعنى بذلك التغيير .. التغيير. لقد أصبحت الكلمة وكأنها التعويذة السحرية التى تحل بها مشكلات المجتمع المصرى بين يوم وليلة .. والأمر ليس على هذه الدرجة من البساطة أو التبسيط بأى حال من الأحوال .. على أية حال أشعر باعتبارى مصرياً أن هناك حالة إنسانية يعيشها المصريون تضغط على فكرهم وسلوكهم وتجعل الكلمة بما تدل عليه من شكل ومضمون تمثل حاجة ملحة معنوية ومادية، بالنسبة لهم، كما تمثل أيضاً نوعاً من الأمل فى غد أفضل يتحقق فيه قدر من التوازن بين حاضر يعانون منه ومن سلبياته التى تمسك بخناقهم، وبين ما يطمحون إليه من رفاه وعدل، وتكافؤ وتكامل، وإتاحة الفرص أمامهم للاختيار والعمل، والتمتع بحياة تتوجها الصحة، ويقودها تعليم متقدم، وبحث علمى يرتاد أبعاداً تتجاوز القدرة على الحلم. وهكذا لا يصبح التغيير مجرد كلمة أو أمنية أو قفزاً إلى المجهول أو نوعاً من الخلاص لمجرد الخلاص والضجر واليأس من حالة مستعصية أو نكوصاً على الأعقاب لأن القدرة على التقدم إلى الأمام قد تم وأدها أو تكبيلها. وإنما يصبح التغيير تعديلاً ضرورياً فى علاقات القوى المؤثرة داخل المجتمع لصالح الأغلبية الصامته فيه، وهى القوى المنتجة الحقيقية، بحيث تسمع كلمتها وتحترم إرادتها .. وبحيث تكون مشاركة حقيقية فى صياغة حياتها. ولعله لم يعد من المقبول التعلل – فى إطار ثورة الاتصالات المعاصرة والتى تتنامى يوماً بعد يوم، وتسير بعجلة متسارعة السرعة – بأن هذه المشاركة صعبة أو التعرف على حقائق ما يدور فى أى مكان أمر عسير.

إن التغيير الذى يطمح إليه الناس يعنى أن تكون المشاركة فى الفرص المتاحة حقيقة واقعة لا يجوز الانتقاص منها أو تأجيلها .. ويعنى أيضاً أن يكون للناس تنظيماتهم الديمقراطية القوية التى يستطيعون من خلالها مناقشة أمورهم، وتشكيل حكوماتهم التى تخضع للمساءلة أمامهم، وتكتسب وجودها واستمرارها من قدرتها على تحقيق آمالهم وطموحاتهم.

وإذا سرنا خطوة أخرى فى محاولة شرح ما يعنيه التغيير فى هذا السياق، فإنه يعنى فيما يعنى الخروج من حالة العوز والفقر إلى حالة الاكتفاء ثم الرفاه، ومن حالة العزلة والسلبية إلى حالة المشاركة الفعالة، ومن حالة العجز والخوف إزاء ما يواجهه المجتمع من نقص فى الغذاء والمسكن وخلل فى التعليم، وتصاعد فى نفقات الخدمات الصحية .. الخ إلى حالة من الإحساس بالأمان والسلام والاطمئنان للمستقبل خاصة بالنسبة لأبنائه، وتجاوز الإقصاء والتهميش إلى تعميق الانتماء، وامتلاك أسباب القوة فى إطار استراتيجية واضحة المعالم محددة الخطوات تقوده على طول القرن الحادى والعشرين .. وإلا ....

عرض جديد لمصر للطيران بمناسبة موسم الصيف
بشرائك تذكرتين سفر على درجة رجال الأعمال
تحصل على الثالثة مجاناً
إستمتع معنا بمزايا الخدمة الجديدة المتميزة
العرض سارى حتى ٣١/٨/٢٠٠٤
لمزيد من المعلومات، برجاء الاتصال بوكيلك السياحى
او باقرب مكتب مبيعات لمصر للطيران.
العرض ساري على الخطوط الدولية فيما عدا:
دمشق - حلب - عمان - بيروت - الكويت - جدة
الدمام - الرياض - الخرطوم - تونس - كالو - لاجوس
لارناكا - أسمرة - طرابلس - بنى غازى
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

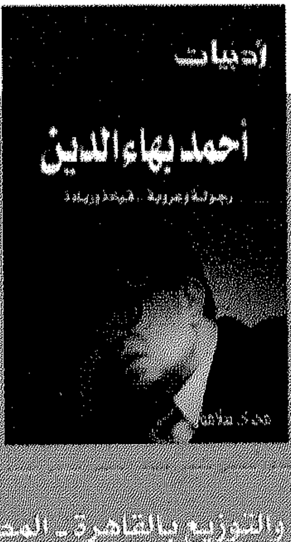

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة ـ المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية ـ منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ ـ ٥٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع ـ ٤ شارع بدوى محرم بك ـ الاسكندرية .

الهلال

- ١١ سبتمبر واللعب بالعقول
- الفضائيات العربية .. إلى أين؟!
- السجن والحرية

جزء خاص

سبتمبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

غرام الخديو والإمبراطورة

لوحة وفنان

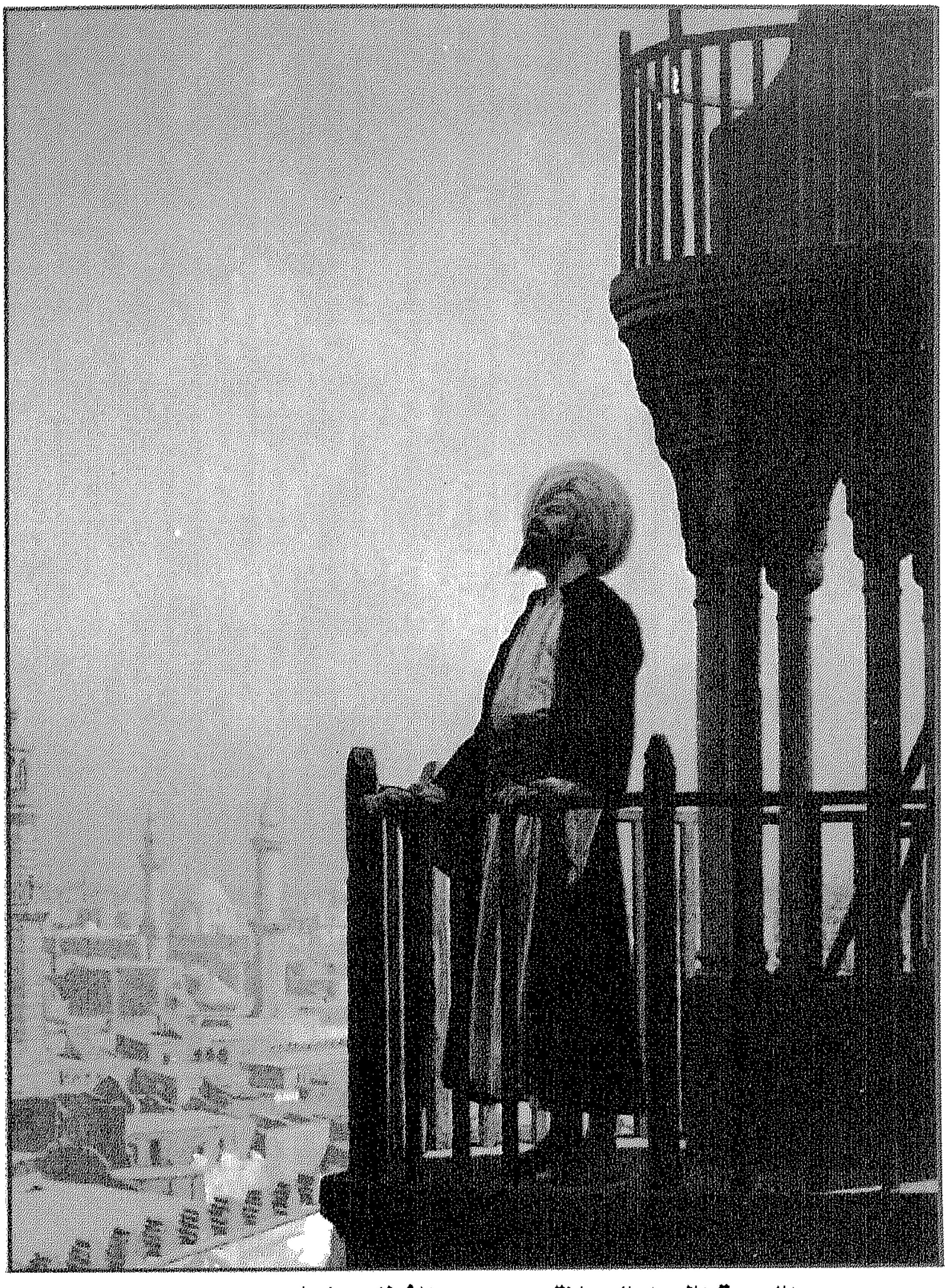

اللوحـة: النـداء للصلاة

الفـنان: جان ليون جيروم

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة رجب ١٤٢٥ هـ - سبتمبر ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

سوريا ١٢٥ ليرة ـ لبنان ٤٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١,٥ دينار ـ الكويت ١ دينار ـ السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار ـ قطر ١٠ ريالات ـ دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم ـ سلطنة عمان ١
ريال- تونس ٣ دينارات ـ المغرب ٣٠ درهما ـ الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال ـ غزة/ الضفة/ القدس
٢ دولار- إيطاليا ٤ يورو ـ سويسرا ٥ فرنكات ـ المملكة المتحدة ٢,٥ جك ـ امريكا ٨ دولارات

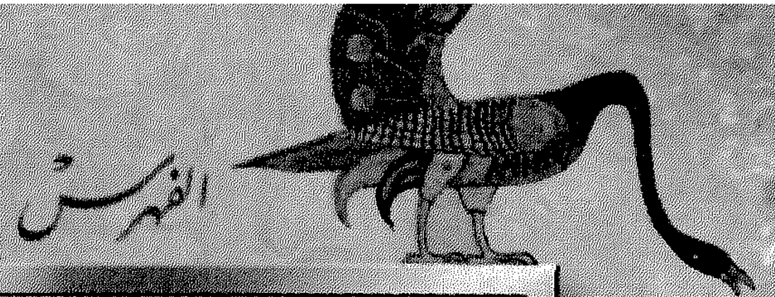

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

٨ – اللعب بالعقول.. وعالم ما بعد ١١ سبتمبر .... **د. جلال أمين**

١٨ – شمولية ديمقراطية .. مزيج خطير........ **جميل مطر**

٢٦– الفضائيات العربية .. إلى أين ؟........ **د. نسمة البطريق**

٣٤– الانقسام الرقمى والديمقراطية........ **د. أحمد محمد صالح**

٤٤ – على عزت بيجوفيتش حكيم البوسنة........ **محمد يوسف عدس**

٥٠ – رؤية جديدة للشاعر محمود سامى البارودى........ **د. محمد رجب البيومي**

٥٨ – صورة صلاح الدين الأيوبى فى الأدب الإيطالى الوسيط........ **د. الطاهر أحمد مكي**

دائرة حوار :

٧٠– قبل فوات الأوان: علومنا الطبيعية الغائبة عن فرانكفورت........ **د. مجدي يوسف**

٧٦ – فى زمن حضارة المتاحف «ثقافة عالمية أم ثقافة محلية»........ **د. محمد المهدي**

٨٤ – متحف محمود خليل وحرمه.. **أماني عبدالحميد**

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

٩٢ – الخديو إسماعيل والإمبراطورة أوجيني .. قصة حب عاصفة.............. **د. عبدالمنعم الجميعي**

السجن والحرية – جزء خاص:

١٠٦ – الإبداع مسطولا.. من سجن الضرورة إلى أفق الحرية.............. **د. ماهر شفيق فريد**

١١٤ – السجن والسجان في روايات نجيب الكيلاني.............. **د. حلمي محمد القاعود**

١٢٤ – عن السجن والحرية .... **صافي ناز كاظم**

١٤٢ – الانسحاب من الحياة الفكرية... **وديع فلسطين**

١٤٧ – دارفور.. التمرد فى أرض السلطان.............. **حمدي رزق**

١٦٢ – الاسكندرية فى عصرها الذهبى.............. **عرفه عبده علي**

١٧٩ – أراك كلما تنفست «شعر» **هيثم الحويج العمر**

١٨٢ – السينما بين عوكل ولينين.............. **مصطفي درويش**

١٩٠ – فتح ملف المسرح:

المسرح المصرى وأجهزته.............. **مهدي الحسيني**

٢٠١ – المتفرجة : الحرمان.............. **مرفت رجب**

٢٠٤ – مسائل عائلية «قصة»......... **مصطفي نصر**

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ.......٦

أقوال معاصرة ٥٧

من ذخائر الكتب العربية «تاج العروس» د. عوض الغبارى .. ٩٨

شخصية العدد..... د. يونان لبيب رزق : د. لطيفة محمد سالم. ١٣٢

أدباء وعشاق : أحمد حسين الطماوى ..١٧٢

لغويات ١٦١

هوامش ثقافية ١٨٠

التكوين .... د. محمد الجوادى. ٢٠٨

أنت والهلال عاطف مصطفى. ٢١٨

الصفحة الأخيرة محمود أحمد ... ٢٢٦

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

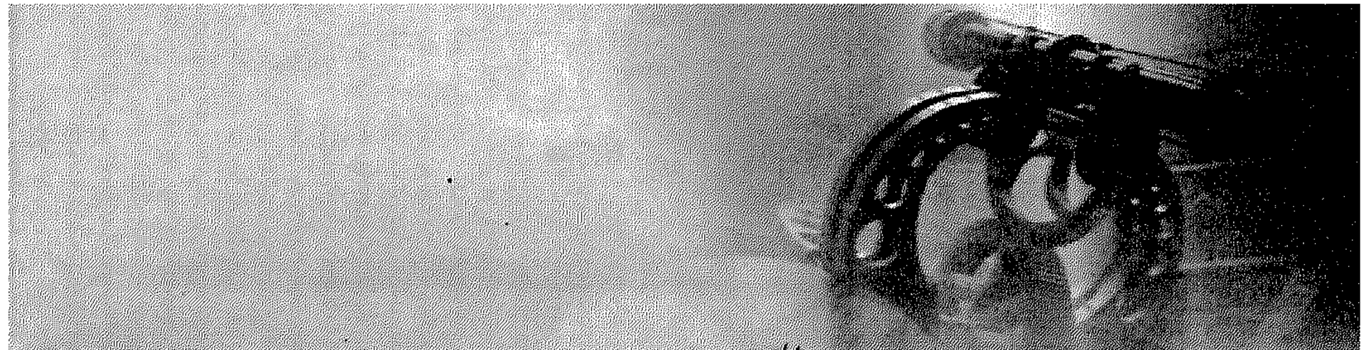

عزيزى القارىء

ميلاد جديد للهلال على C.D

تبدأ الهلال عامها الثالث عشر بعد المائة، وقد أعطت للفكر العربى وللثقافة عصارة مفكرين وأدباء مصريين وعرب فى كل مجالات العلم والمعرفة، وكانت ومازالت منبرا للآراء البناءة والأفكار التى تحمل أمل أمتنا العربية فى النهضة والرقى وتحقيق الطموحات التى ننشدها فى ظل ثورة علمية يشهدها عالمنا المعاصر.

نبدأ هذا العام الثالث عشر بعد المائة ونحن نتطلع لإنجاز أهم مشروع ثقافى عربى يتم بين دار الهلال ومكتبة الإسكندرية من خلال الاتفاق الذى وقع فى دار الهلال يوم ١٧ ديسمبر ٢٠٠٢ بين الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة والأستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير وبين الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية لتسجيل مجلة الهلال منذ صدورها عام ١٨٩٢ وحتى الآن على أسطوانات مدمجة «C.D».

وقدمت دار الهلال نسخة الميكروفيلم الخاصة بالمجلة، ومنذ ذلك الوقت وبعد أن تسلمه الدكتور يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات يبذل جهد كبير بدءا من توفير كافة المعدات الحديثة والتى وصل ثمنها إلى ثلاثة ملايين جنيه، ومع العمل الدءوب من خيرة العاملين ومن بينهم الدكتور محمد سليمان رئيس قسم النشر التراثى بمركز المخطوطات والأستاذان شريف المصرى رئيس قسم الميكروفيلم بالمركز وأحمد زامل فنى الكمبيوتر بالمركز نقترب من جنى ثمار هذا العمل الرائع، والتعاون الثقافى البناء بين دار الهلال ومكتبة الإسكندرية ولتكون هذه هى أول مرة يصدر فيها لمجلة عربية، نسخة رقمية مع قاعدة بيانات ولكى يتم هذا الأمر قام مركز المخطوطات بإنجاز المشروع على ثلاثة مراحل:

* إعداد كشاف تفصيلى لأعداد الهلال منذ صدورها.
* عمل نسخة رقمية لكل أعداد الهلال منذ بداية صدورها عام ١٨٩٢ حتى الآن.
* هذه النسخة الرقمية قابلة للتوظيف بعدة أشكال فمن الممكن أن تتاح على الانترنت، ومن الممكن أن تخزن على أجهزة كمبيوتر بشكل Net Work، ومن الممكن إصدارها على C.D وهذه هى الخطوة التى تم الانتهاء منها بالفعل.

وأيضاً الخبر السار الذى نعلنه بكل الفرح أنه خلال هذا الشهر، سوف ينتهى مركز المعلومات من طرح نموذج للمشروع كاملا، على اسطوانة ليزر، فضلا عن ندوة

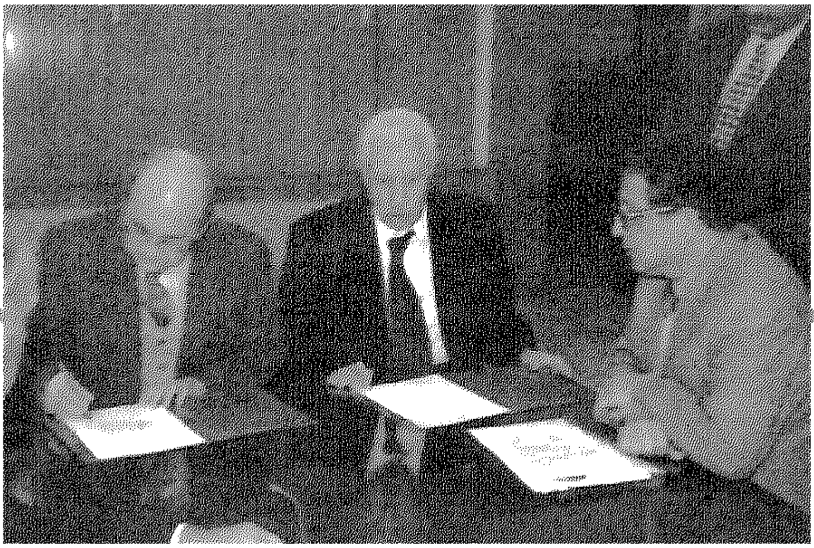

مكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل أثناء توقيع العقد مع د.إسماعيل سراج الدين

تعقد بمكتبة الاسكندرية يحضرها الأستاذ مكرم محمد أحمد والأستاذ مصطفى نبيل والدكتور إسماعيل سراج الدين والدكتور يوسف زيدان ويدعى إليها الصحفيون والمهتمون بشئون الثقافة، احتفالا بهذه المناسبة والتى تشهد ميلاد أبرز مشروع ثقافى منذ افتتاح مكتبة الاسكندرية.

ثم يتوالى صدور المجلة فى نسختها الالكترونية كل عشر سنوات على أسطوانة.

عزيزي القارىء

إن هذا المشروع ليس الهدف منه الربح، ولكنه يهدف بالدرجة الأولى إلى توثيق الذاكرة الثقافية العربية، متمثلة فى مجلة الهلال أولى هذه المجلات وأهمها، والتى تصدر بشكل مستمر حتى وصل عمرها إلى مائة وثلاث عشرة عاما مع الإبداع والتنوير .

الشكر والتقدير واجب لمكتبة الإسكندرية ولمديرها الدءوب النشط الدكتور إسماعيل سراج الدين، لهذا الجهد الكبير الذى بذل لكى يرى هذا المشروع النور، وما تم انجازه لهو دليل واضح على أن أحد سمات هذه المكتبة العملاقة، هو الاهتمام بتوثيق الذاكرة الثقافية العربية فى عديد من المشروعات الثقافية التى يقوم بها مركز المخطوطات فى الخرائط والمخطوطات والكتب النادرة.

لم يكن الهدف من وراء هذا المشروع المهم الربح، بقدر الحرص من الهلال على أن تكون بين يدى الباحثين والمراكز البحثية فى كل أنحاء العالم، خاصة وأنها ظلت منذ بداية صدورها فى حالة تجديد مستمر فى كل مجالات الثقافة وفنونها، ومضت طوال مسيرتها حاملة مشعل العدل والحرية، تتواصل مع الأجيال التى حرصت على قراءتها والاستفادة من نبع فياض لا يتوقف عن الثقافة والمعرفة.

إن الهلال سوف تظل مواكبة للتحديث، بل وسوف تظل فى طليعة هذا التحديث والمعاصرة التى تحقق لقارئها العزيز ما ينشده من كل فنون الآداب والمعرفة.

المحــــــرر

اللعب بالعقول

وعالم ما بعد ١١ سبتمبر

بقلم
د. جلال أمين

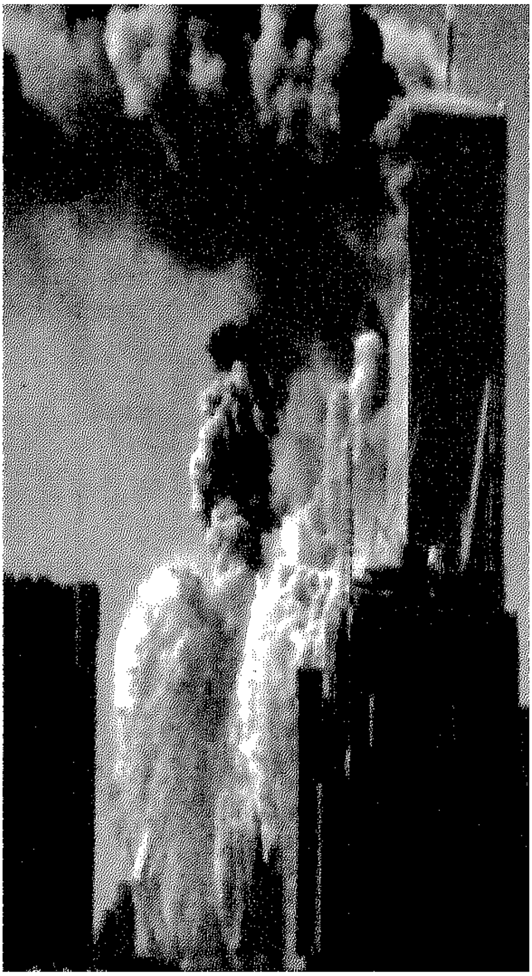

فى منتصف الثلاثينات من القرن الماضى ختم على المثقفين الأوربيين شعور ثقيل بالكآبة والتشاؤم من مستقبل أوربا والعالم كانت السحب تتجمع منذرة بقرب نشوب الحرب من جديد ولم تكن الذكريات البشعة للحرب العالمية الأولى والملايين من ضحاياها قد فارقت الأذهان بعد وكانت أخبار الحماقات وانتهاك أبسط حقوق الانسان على يد الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا تزداد سوءا يوما بعد يوم فضلا عن تواتر الأخبار البشعة أيضا عن الحكم الستالينى فى روسيا وعن الحرب الأهلية فى أسبانيا واستمرار الأزمة الاقتصادية وازدياد حدة الكساد والبطالة فى العالم الغربى بأسره.

كان من الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تثـور في أذهان المثقفين الأوربيين شكوك قوية حول صلاحية النظام الرأسمالي لتحقيق الرخاء والسلام وأن تفارقهم تلك الثقة المبالغ فيها والتي سادت القرن التاسع عشر في أفضليته الرأسمالية على أي نظام آخر بل وأن تعتريهم شكوك قوية في فكرة التقدم نفسها التي سادت أوربا منذ منتصف القرن الثامن عشر نتيجة لما شهدت أوربا منذ ذلك الوقت من تقدم باهر في مختلف العلوم وقيام الثورة الصناعية وانتشارها من بلد أوربي إلى آخر.

شكوك هكسلي وتنبؤات أورويل

كان من أوائل من عبروا عن شكوك قوية في فكرة التقدم الكاتب الانجليزي الشهير الدوس هكسلي (Aldous Huxley) إذ نشر كتابا مدهشا في ١٩٣٢، حتى من قبل أن تتبلد سماء أوربا بغيوم الحرب، وقبل أن ترسخ الفاشية والنازية وتتفاقم فظائع الستالينية.

أعطى هكسلي كتابه اسما سافرا هو عالم جديد رائع أو ياله من عالم جديد رائع! (Brave New world) وحظى الكتاب بانتشار واسع بمجرد ظهوره ثم توالت طبعاته عاما بعد عام.

في سنة ١٩٤٨ نشرت لكاتب انجليزي شهير آخر هو جورج أورويل (G.Orwell) رواية أطلق عليها اسما غير مألوف وهو ١٩٨٤ ولها شبه كبير برواية هكسلي وذاع أيضا صيتها وتكررت طباعتها عاما بعد عام. ومنذ ذلك الحين اقترن الكتابان في الأذهان إذ لا يكاد يرد بالذهن كتاب أورويل حتى يتذكر المرء أيضا كتاب هكسلي والعكس بالعكس ورغم مرور أكثر من نصف قرن على كتاب أورويل وأكثر من سبعين عاما على كتاب هكسلي نجد أن ذكر هذين الكتابين يتكرر بمعدل متزايد والاهتمام بهما يشتد ويزداد تكرار السؤال: هل العالم تقترب من صورة التي رسمها هكسلي للمستقبل أو تلك التي رسمها أورويل؟ هل كان الاثنان محقين في تنبؤهما بهذه الصورة المخيفة للعالم؟

ثم وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فإذا الاهتمام بهذين الكتابين يزداد وعندما حل عام ٢٠٠٤ الذي يكتمل به مرور قرن كامل على ميلاد جورج أورويل ضاعف من الاهتمام بذكراه ما كان لايزال سائدا من قلق بسبب ما وقع في سبتمبر ٢٠٠١ وما تلاه من تطورات خطيرة في السياسة الأمريكية وفي العالم بوجه عام فإذا بالمقالات الصحفية تتردد فيها تعبيرات كان قد صكها أورويل لأول مرة في روايته لوصف ما يمكن أن يكون عليه العالم في المستقبل والكتب الجديدة تصدر للإشادة بنفاذ بصيرة أورويل وصدق تنبؤاته ولكن يكتب البعض أيضا أن العالم الذي صوره هكسلي قبل أورويل بعشرين عاما هو الأقرب إلى ما يحدث في العالم اليوم وأن تنبؤات هكسلي هي الأقرب إلى الصدق وبصيرته هي الأكثر نفاذا.

الأمر إذن جدير بالتوقف والتفكير فلا هكسلي أو أورويل كاتبان قليلا

الشأن ولا الذى يحدث فى العالم منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ سهل نسيانه وإذا كان أورويل قد اختار ١٩٨٤ عنوانا لروايته فلا يمكن أن نظن أنه كان يعلن أهميته كبيرة على تلك السنة بالذات أو أنه كان يمانع فى أن يكون عنوان روايته ٢٠٠١ أو ٢٠٠٤ بدلا من ١٩٨٤ وأما هكسلى فصحيح أن روايته تدور أحداثها بعد مرور ستة قرون على ظهور هنرى فورد ذلك الأمريكى الذى اشتهر بادخال تكنولوجيا الانتاج الكبير باستخدام ما يسمى بخط التجميع وعلى هذا يكون أمامنا نحو خمسة قرون أخرى قبل أن يحل موعد قدوم هذا العالم الجديد الرائع ولكن هذا التاريخ الذى اختاره هكسلى لا يجب أيضا أن نعلق عليه أهمية كبيرة وقد كتب هكسلى نفسه فى مقدمة طبعة ١٩٤٦ للكتاب، أنه لم يكن يتصور بالمرة أن يتسارع تطور العالم على النحو الذى حدث بالفعل خلال الأربعة عشر عاما التى مرت على ظهور الكتاب الأول مرة وأنه يجد العالم الآن أى فى ١٩٤٦ أقرب بكثير مما كان يظن إلى ما كان يتوقع حدوثه بعد عدة قرون.

فلنعد إذن التفكير من جديد فى الكتابين وفى العلاقة بينهما وبين ما بدأ يحدث فى العالم فى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على أمل أن يزداد فهمنا عمقا للكتابين ولما يحدث فى العالم على السواء.

خوف وتشاؤم

إن هكسلى لم يكتب روايته عالم جديد رائع ولا أورويل كتب روايته ١٩٨٤ كمجرد تمرين للقدرة على التخيل والتنبؤ أو لمجرد التسلية بل كان كل منهما يقصد شيئا أخطر من هذا بكثير، كان هكسلى وأورويل كاتبين شديدى الجدية وعلى مستوى عال جدا من الالتزام الخلقى والاهتمام بقضايا المجتمع والإنسان بوجه عام كان كل منهما فى المقام الأول كاتب مقال وأهميتهما ككاتبى مقال أكبر بكثير من أهميتهما كروائيين وكان كل منهما يعرف هذا جيدا بل ويعرف أنه ليس روائيا عظيما ولا بالمستوى الذى كان يتمناه، فألدوس هكسلى يقول بتواضع محبب إلى النفس إنه ليس جوته أو دستيوفسكى وأنه يعرف جيدا أنه لم يولد روائيا وإن كانت آماله واسعة فى هذا الصدد وأورويل قال عن نفسه بعد أن أتم كتابة ١٩٨٤ أنه للأسف أفسد فكرة جيدة أى أنه لم يستطع أن يوفى فكرة الرواية حقها ومع ذلك لم يكف أيهما عن كتابة الروايات إلى جانب ما كانا يكتبان طوال حياتهما من مقالات فى شتى شئون السياسة والأدب والفكر ذلك أنهما رأيا لسبب أو اخر أن الرسالة الأخلاقية التى يريد كل منهما توصيلها للناس تصبح أقرب منالا عن طريق الرواية منها عن طريق المقال وقد كتب كل منهما روايته مدفوعا بشعور قوى جدا بالخوف والتشاؤم من المستقبل الذى يهدد العالم إذا لم نفعل شيئا لتجنب هذا المستقبل المظلم فما الذى كان يخيف هكسلى وأورويل إلى هذا الحد، وهل هناك أوجه للشبه بين هذا الذى كان يخيفهما إلى هذا الحد وما

يحدث فى العالم منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟ فلنحاول الإجابة على هذا السؤال مبتدئين بألدوس هكسلى.

* * *

كان هكسلى يكتب روايته فى ١٩٣١ ومن ثم كان قد شهد بداية الأزمة الاقتصادية العالمية وعاصر بوعى كامل مآسى الحرب العالمية الأولى التى فقد بسببها الكثير من أصدقائه وزملائه فى الجامعة ولم يمنعه من الاشتراك فيها إلا ضعف بصره الشديد ربما كان الأهم من هذا وذاك ما كان هكسلى قد توصل إليه من يقين بفكره الثاقب واتساع قراءاته فى مختلف فروع المعرفة مع قدرة مدهشة على الربط بين معارفه الواسعة فى مختلف هذه الفروع بأن يحرزه الإنسان من تقدم علمى وتكنولوجى واقتران هذا التقدم بزيادة غير معهودة فى عدد السكان لابد أن يؤدى لا إلى تقدم الديمقراطية وزيادة مساحة الحرية التى يتمتع بها الناس بل لابد أن يؤدى إلى عكس هذا بالضبط: إلى أفول الديمقراطية وتقلص ما يتمتع به الناس من حرية. ذلك أن التقدم العلمى والتكنولوجى لابد فى نظر هكسلى أن يؤدى إلى المزيد ثم المزيد من تركز السلطة فى أيدى عدد قليل من الناس إما بسبب استعداد طبيعى لديهم للاستبداد أو شغف زائد لديهم بفرض إرادتهم على الآخرين أو بسبب مزايا اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية حصلوا عليها بحق أو بغير وجه حق، المهم أن التقدم العلمى والتكنولوجى

جورج أورويل

يسمح بطبيعته بتركز السلطة والقوة فى أيدى قلة تقوم بفرض إرادتها على الآخرين والأدوات التى تستخدم فى فرض هذه الإرادة لا تقتصر على أدوات القهر المادى المعروفة فى مختلف عصور التاريخ من أسلحة وسجون وأدوات التعذيب الجسمانى بمختلف صورها بل أصبحت تشمل فى العصر الحديث صورا جديدة للقهر المعنوى عن طريق ما أصبحت تسمح به وسائل الإعلام والاتصال الحديثة من تأثير فى عقول الناس وميولهم وغسيل أدمغتهم وبث ما يريد المسكون بالسلطة نشره من أفكار ومعتقدات ومعلومات، كلا النوعين من القهر يجدهما قارئ رواية هكسلى ورواية أورويل على السواء ولكن بينما يركز أورويل تركيزا شديدا على وسائل القهر المادى والتعذيب كان اهتمام هكسلى الأكبر بوسائل القهر المعنوى وغسيل المخ.

السيطرة الإعلامية

نحن الآن نتكلم بسهولة ويسر عن سطوة وسائل الإعلام على عقول الناس

ونعتبر الكلام عنها من قبيل تحصيل الحاصل والمعروف للجميع وما أكثر الكتب التى ظهرت منذ خمسينات القرن العشرين لتلفت نظرنا إلى هذه الحقيقة ولكن كم كان الدوس هكسلى ثاقب الرؤية وبعيد النظر عندما أدرك هذه الحقيقة بهذه الدرجة من الوضوح وكتب عنها فى مطلع الثلاثينات كان يقام القلة المسيطرة على مقاليد الحكم بما أسماه تشكيل عقول الناس منذ الطفولة (infant conditioing) يبدو له نتيجة حتمية للتقدم العلمى، بما فى ذلك تقدم علوم البيولوجيا وعلم النفس وهذا التحكم فى عقول الناس لا يبدأ مع بداية قراءة الصحف أو الاستماع إلى الراديو أو مشاهدة التليفزيون بل يبدأ منذ الميلاد بل وربما قبل ذلك أيضا ذلك أن هذا التقدم العلمى الذى أحرزناه والذى لابد أن نحرز أكثر منه فى المستقبل يسمح لنا بالتحكم فى جينات الإنسان على نحو يسمح بالتحكم فى جسم الانسان وعقله بما يتفق مع رغبات وخطط المسيطرين على وسائل هذا التحكم.

كان لدى هكسلى إذن أسباب قوية للتشاؤم بمستقبل الديمقراطية والحرية وللتخوف من الانسحاق التدريجى للفرد تحت وطأة نمو مجتمع نمطى تطبعه الآلة الأتوماتيكية بطابعها فيسوده تماثل رهيب فى السلوك والتفكير وتزول الفردية ويصعب فيه التمييز بين شخص وآخر.

فى ظل هذا التقدم العلمى والتكنولوجى لا يحتل هدف أو مبدأ مكانة اسمى مما تحتله الكفاءة (effi- ciency) والكفاءة تقاس فى نهاية الأمر بحجم السعادة أو بالأحرى بالمقياس الذى قال به جريمى بنثام (Bentham) منذ أكثر من قرنين وهو أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس وأكبر جريمة يمكن أن يرتكبها شخص هو ألا يكون سعيدا وفى الحالات الشاذة والنادرة التى يشعر فيها شخص بأنه غير سعيد أو غير راض عن نفسه أو يشعر فيها بالملل أو يتطلع إلى الحصول على شئ ليس من المتاح الحصول عليه هناك علاج حاسم وسريع ومضمون الأثر يطبق فى هذا العالم الجديد الرائع وهو تناول بضع جرامات من حبة اسمها سوما (Soma) تدخل من يتناولها فى غيبوبة لذيذة تمتد بضع ساعات أو حتى بضعة أيام يزول خلالها هذا الشعور بعدم الرضا ويعود بعدها الشخص إلى ممارسة حياته الطبيعية مثلما يمارسها سائر الناس.

سيادة قيم جديد

من الطبيعى أن تسود فى مجتمع كهذا عادات ومواقف جديدة فيما يتعلق بالجنس والحب والزواج وكذلك إزاء الأدب والفن والدين. ممارسة الجنس متاحة دائما وبلا أى قيد، المكروه فقط فى هذا المجتمع والباعث على الدهشة والاستغراب هو الاقتصار على ممارسة الجنس مع شريك واحد أو تركيز العاطفة الجنسية على شخص واحد أى الحب.

فالشخصية النسائية الأساسية فى الرواية تتخذ هذا الموقف الشاذ وغير المألوف وهو نفورها من التنقل فى

علاقاتها العاطفية بين رجل وآخر وكذلك موقف أحد أبطال القصة الذى يميل بكل قلبه إلى امرأة بعينها ولا يرغب فى غيرها. مشكلتهما إذن هى الوقوع فيما يشبه الحب ذلك الشعور غير المفهوم وغير المقبول فى مثل هذا المجتمع التكنولوجى المتقدم.

يترتب على ذلك أن الزواج أيضا شئ غير معروف ولا وجود للأسرة بل إن كلمتى الأب والأم قد نسيتا مع مرور زمن طويل على بدء انتاج الأطفال فى أنابيب أو زجاجات طبقا لمواصفات معروفة ومحددة مقدما واستخدام كلمة الأب أو الأم فى الكلام يثير فى هذا المجتمع مشاعر الخجل والحياء وتحمر لدى سماعهما الوجوه كالذى تثيره بعض العبارات الجنسية المكشوفة فى مجتمعاتنا التقليدية.

فى مثل هذا المجتمع يمكن أن نخمن أى نوع من الأدب أو الفنون يمكن أن يسود وموقف الناس من الدين فعندما يزور هذا المجتمع شخص متخلف وبدائى يسميه هكسلى المتوحش (sav-age) سبق أن قرأ فى وقت ما فى حياته بعض مسرحيات شكسبير وأغرم بها لا تثير تصرفات هذا الشخص وميوله واقتطافه لبعض مقطوعات من شكسبير إلا الاستغراب والسخرية فليس هناك فى هذا المجتمع مكان لمثل هذه العواطف التى يصفها شكسبير المهم هو السعادة أو اللذة وتجنب كل ما يعكر صفو المزاج، وهذا قد يتطلب الاستماع إلى موسيقى راقصة وصاخبة أو رؤية أفلام خيالية ولكنها ممتعة مما يعرض فى أماكن لها شبه بدور السينما الحالية ولكن هكسلى يسميها بدور إثارة المشاعر والانفعالات (feelies) والدين أيضا لم يعد له وجود فالناس هنا لا يذكرون كلمة الله فى حديثهم بل يستخدمون بدلا منها اسم رب العمل الأمريكى الشهير فورد الذى ابتدع أسلوب الانتاج الكبير والمتجانس تجانسا تاما وقد استفاد هكسلى هنا من الشبه بين اسم فورد وأحد التعبيرات المستخدمة فى الانجليزية للإشارة إلى الله (لورد Lord) فإذا بالناس فى مجتمع هكسلى الجديد يقولون يا لفورد! بدلا من قولهم يا لله! عندما يعبرون عن دهشتهم من شئ ما ويرصدون الأحداث بحساب السنوات التى تفصل بين وقوع الحدث وظهور فورد فيقولون إن حدثا ما وقع فى السنة العاشرة أو العشرين بعد فور كما يقال الآن أن حدثا ما وقع بعد كذا سنة من ميلاد المسيح!

التقدم إلى الوراء

هكسلى يسخر فى روايته من كل هذا والرواية، مأخوذة ككل، تعبر عن سخطه وعدم رضاه عن هذا المجتمع التكنولوجى المتقدم بل إنه يسخر سخرية واضحة فى بعض سطور الرواية من فكرة التقدم بأسرها وفى كتاب آخر له يصف التقدم التكنولوجى بأنه لا يزيد عن أنه مؤد بالمجتمع إلى السير إلى الوراء بكفاءة أكبر!.

فما الذى يغضب الدوس هكسلى بالضبط من هذا المجتمع التكنولوجى

المتقدم وما الذى يشعره بالسخط إلى هذا الحد؟ كان هكسلى يرى أن كل فرد من الناس يختلف عن كل الأفراد الآخرين فكما أنك لا يمكن أن تجد شخصا له نفس الوجه أو الملامح الجسدية بالضبط التى تجدها فى شخص آخر، فإن التكوين النفسى والخلقى لا يتكرر أبدا بحذافيره من شخص وآخر إذا كان الأمر كذلك فإن معاملة مجموعة من الناس وكأنهم وحدات متماثلة يجوز معها ما يجوز فى معاملة الأجسام المادية البحتة والمجردة من الحياة تنطوى على اعتداء على صفة الانسانية. الكفاءة التى يحققها ويطمح إليها المجتمع التكنولوجى الحديث هى إذن فى نظر هكسلى كفاءة ميكانيكية بحتة تزيد من حجم السلع وتضاعف من حجم الثروة ولكنها تصيب الانسان فى مقتل وتفقده ما يستحيل تعويضه. المبدأ النفعى (utilitarianism) هو إذن مبدأ شرير فى نظر هكسلى على الأقل فى صورته المجردة من أى غاية أو مبدأ أخلاقى فاعتبار الأشياء التى تجلب درجة معينة من الرضا أو السعادة متساوية بصرف النظر عن أى اعتبار أخلاقى أو قيمى هو موقف سيئ فى نظر هكسلى لأنه يتعارض مع خصائص أساسية فى الانسان.

هذا الموقف الأخلاقى من قضية التقدم الاجتماعى الذى اتخذه الدوس هكسلى منذ أواخر العشرينات من القرن العشرين وهو فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر وعبر عنه بقوة فى ١٩٣٢ فى روايته المشهورة ويبقى معه حتى وفاته فى ١٩٦٣ أدى إليه اجتماع بعض الصفات العقلية والنفسية النادرة فألدوس هكسلى ينتمى إلى أسرة فريدة بدورها اشتهرت ببعض الرجال العظام الذين جمعوا بين الذكاء النادر والشغف بالمعرفة وملكة تذوق الأدب والفن إلى جانب دقة البحث العلمى وصرامة المنطق.

وقد أدى به هذا الجمع بين الحاسة الأدبية والفنية الراقية وبين المعرفة العلمية الواسعة إلى فهم عميق لطبيعة المجتمع الحديث واتجاه سيره وفى نفس الوقت إلى كراهية عميقة للجوانب غير الانسانية فى هذا المسار.

أمريكا نموذج هكسلى

كان من الطبيعى أيضا أن يدرك هكسلى أن هذا المجتمع التكنولوجى الحديث يجد أوضح مثال له فى المجتمع الأمريكى كما رآه وقرأ عنه فى العقدين الأولين من القرن العشرين كان قد قرأ بالطبع عن التطورات التكنولوجية المذهلة التى حققها الأمريكيون لاستغلال ثرواتهم الطبيعية الهائلة ولابد أنه رأى أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العشرينات من مظاهر انتشار الآلية وآثار المصنع الحديث المدمرة لنفسية العامل من ناحية والمثيرة لرغبات غير محدودة لدى المستهلك من ناحية أخرى، مثلما أثار انفعال شارلى شابلن الذى عبر عن سخط مماثل كسخط هكسلى، وفى الوقت نفسه تقريبا الذى كتب فيه هكسلى روايته الشهيرة، فى فيلم شابلن الشهير أيضا «العصور الحديثة» (Modern Times).

لا عجب أن أصبح الاثنان، هكسلى وشابلن ، صديقين حميمين عندما انتقل هكسلى للاقامة فى لوس انجلوس فى سنوات الحرب.

كان من السهل أيضا على هكسلى أن يرى أن العالم كله يسير فى نفس الاتجاه الذى يسير فيه المجتمع الأمريكى، وأن مستقبل العالم هو مستقبل أمريكا، ولكنه كان يشعر دائما بأن هناك شيئا يمكن عمله، بل ويجب عمله، من أجل صنع مستقبل أفضل من هذا .

* * *

فى ١٩٤٦، عندما جلس هكسلى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ليكتب مقدمة لطبعة جديدة من الرواية، كان من الواضح تماما له، (ولابد أيضا لكثيرين غيره) أن العالم يسير نحو هذا المستقبل المخيف بخطى أسرع بكثير مما كان يظن. كانت الآلية قد انتشرت بسرعة تفوق ما توقع، وسيطرت على مجالات لانتاج السلع والخدمات، ووسائل الاعلام ونشر الثقافة على نحو فاق كل التوقعات . ناهيك عما كانت الحرب العالمية الثانية قد فعلته من تخريب وتدمير للأنفس والأموال. كانت صورة مستقبل العالم التى بدت لمثقفى ما بعد الحرب العالمية الثانية وللمثقفين الأوربيين على الأخص، أكثر كآبة وتدعو لتشاؤم أكبر بكثير مما بدت لهكسلى عندما كتب روايته فى أوائل الثلاثينات. لا عجب إذن أن أقبل الناس على قراءة الرواية بشغف أكبر بعد الحرب مما أبدوه قبلها، ولا تزال الطبعات الجديدة تظهر حتى الآن بعد مرور أكثر من سبعين عاما على الطبعة الأولى، وهى الوحيدة بين روايات وكتب هكسلى التى تحظى برواج فى الوقت الحاضر.

أدى هذا النجاح بهكسلى إلى أن يكتب كتابا آخر فى ١٩٥٧ بعنوان «عالم جديد رائع: نظرة أخرى» (Brave New World Revisited) أكد فيه تمسكه بالنبوءات التى وصفها فى ١٩٣٢ وتوسع فى شرحها، بالتحليل العلمى والمنطقى هذه المرة، وليس بالتحليل والأسلوب القصصى كما فعل من قبل، ولكنه لم يبد هذه المرة أقل تشاؤما مما كان. شرح أثر الزيادة الكبيرة فى سكان العالم بالمقارنة بالموارد، وأثر التقدم التكنولوجى فى زيادة درجة التدخل فى حياة الناس بالتنظيم والضبط والربط، وأثر نمو وسائل الاعلام والاتصالات فى زيادة القدرة على تشكيل أفكار الناس وتوجيههم فى الاتجاهات المطلوبة. وعندما توفى ألدوس هكسلى فى ١٩٦٣ كان اسمه قد اقترن اقترانا لا ينفصم باسم روايته (عالم جديد رائع) وأصبح يتكرر ذكر الاسمين، كلما حدث ما يثير الخوف مما يمكن أن يأتى به المستقبل.

* * *

وقد حدث مثل هذا فى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ رأى الناس أولا صور طائرتين مصطدمتان ببرجين عظيمين هما من أشهر وأعلى مبانى العالم، فتحيلهما خلال لحظات قصيرة إلى رماد وتراب. كان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى جعل هذا العمل ممكنا، تقدما مذهلا حقا مما لم يكن متاحا عندما كان

هكسلي يكتب روايته، ولكن حجم الدمار المادي والنفسي الذي ترتب على هذا العمل كان مذهلا أيضا. التقدم العلمي والتكنولوجي يمكن إذن ، كما توقع هكسلي ، أن يكون سببا لمزيد من الخراب. ولكن انظر أيضا إلى دور وسائل الاعلام وتقدم وسائل الاتصال في التحكم في مشاعر الناس وتوجيهها في الوجهة التي تحددها السلطة المركزية. الأخبار والتعليقات المتشابهة تصب في آذان المستمعين ويتكرر ظهور صورها أمام أعينهم لتوصيل نفس الرسالة وتثبيت نفس الاعتقاد الذي يرغب الجالسون على قمة السلطة في ترسيخه في أذهان الناس. والنجاح الذي تحققه السلطة في هذا الصدد نجاح باهر. فالجميع الآن يعتقدون في وجود شئ اسمه «الارهاب»، وإن كان غامض المعالم مجهول الهوية والعنوان، ومع ذلك «فالارهابي» يستطيع أن يرتكب أي عمل في أي لحظة في أي مكان. والشباب والشابات الأمريكيون يظهرون على شاشة التليفزيون ليعبروا في براءة منقطعة النظير عن ثقتهم المطلقة فيما يقوله رئيسهم، مع أن هذا الرئيس نفسه، عندما يخطب أو يجيب على أسئلة الصحفيين، يبدو وكأنه يردد كلاما أعده له شخص آخر غير معروف الهوية بدوره

ووسائل الاعلام لا تخدع الناس فقط بنشرها أخبارا مختلقة وترديد تفسيرات واحدة لا تتغير ومعدة سلفا، بل تخدعهم أكثر، كما قال هكسلي في مقدمة سنة ١٩٤٦، بتجنب الحديث في أمور معنية وحظر تناول موضوعات حساسة قد يؤدي الكلام فيها إلى فضح الروايات الرسمية، أو على حد تعبيره «قول الحق شئ عظيم فعلا ولكن الأعظم منه، من وجهة النظر العملية، السكوت عنه» . والمهمة كلها يجري تسهيلها بإغراق الناس في عالم من المتع والملذات والتشويق، لامتلاك السلع تارة، ولممارسة الجنس تارة، ولمتابعة المسابقات الرياضية أو أفلام الجريمة تارة.. الخ. والتخويف الذي يمارس أثناء ذلك يدور ليس فقط حول خطر التعرض للموت بسبب الأعمال الارهابية التي يمكن أن تحدث في أي لحظة، بل وأيضا حول خطر فقدان هذا النمط الرائع للحياة (من استهلاك السلع وممارسة الجنس ومتابعة المسابقات الرياضية وأفلام الجريمة.. الخ)، إذ أن من أهداف الارهابيين الرئيسية القضاء على «النمط الأمريكي للحياة» الذي يشعرون بالغيرة الشديدة منه ويحسدون الأمريكيين عليه، وهو ما دفعهم إلى تفجير الأبراج ووزارة الدفاع الأمريكية، ولو وصل هذا إلى حد تضحية الارهابيين بأنفسهم .

العيش في عالم خيالي

الناس في عالم ما بعد ١١ سبتمبر ، وعلى الأخص في الولايات المتحدة الأمريكية، يبدون إذن ، كما تصور هكسلي في ١٩٣٢، وكأنهم يعيشون في عالم خيالي لا يمت للحقيقة بصلة: يستغرقون في عمل ميكانيكي وروتيني في الصباح، ولكنه بالغ الكفاءة، لكي

يلقوا بأنفسهم فى المساء، مرهقين وفاقدى القوى، أمام تليفزيون لا يكف عن تكرار أخبار ملفقة وتعليقات كاذبة ولكنها مدروسة بعناية، ومقترنة بصور جذابة تجعل تصديق الأخبار والتعليقات أمرا حتميا والشك فى صحتها مستحيلا، وترسخ فى هذه الأذهان المرهقة أفكارا بعينها عن الارهاب والارهابيين، وعن الاسلام والمسلمين، وعن روعة الحياة الأمريكية وجمالها، وأنه لا شئ فى الامكان أبدع مما هو كائن لولا ما يمكن للإرهابيين عمله لإفساد هذه الحياة. ولكن الحكومة وأجهزة الأمن متيقظة، ولا داعى فى الحقيقة للشعور بالخوف، أو بالأحرى، لا بأس فى الحقيقة من الشعور بالخوف والطمأنينة فى نفس الوقت . وإذا اشتد الخوف بالمرء فهناك على كل حال عقاقير ومشروبات تشبه فى تأثيرها حبوب (Soma) فى رواية هكسلى .

* * *

لا يمكن للقائمين بالسلطة، على الرغم من كل هذا ، الاطمئنان الكامل إلى أن أحدا من الناس، وعلى الأخص من المثقفين ، لن يتمرد على كل هذا ويدور بذهنه الشك فى أن ما يسمعه لا يطابق الحقيقة بالضبط، وأن هناك أمورا تخفيها عنه السلطة ووسائل إعلامها. هؤلاء الشكاكون لابد من التعامل معهم بطريقة أخرى غير مجرد التسلية وحبوب التخدير.

كان الحل الذى اقترحه هكسلى فى روايته هو النفى، أى عزل هؤلاء الشكاكين الخارجين عن صفوف هذه القطعان المسالمة من الناس ووضعهم فى جزيرة منعزلة. قد يكلم فيها بعضهم البعض، ولكنهم لا يتصلون فيها ببقية الناس ومن ثم يزول خطرهم. قد تبدو هذه الطريقة التى اقترحها هكسلى للتعامل مع المتمردين والمعارضين طريقة رحيمة أكثر من اللازم، ولكن يجب ألا ننسى أن رواية هكسلى كانت تكتب فى ١٩٣١ و١٩٣٢ ، قبل اتضاح خطر النازية والفاشية والستالينية كان الكاتب المؤهل لوصف هذا الخطر والوسائل العنيفة الأخرى للتعامل مع معارضى السلطة والخارجين عن طاعتها، هو جورج أورويل الذى كتب روايته بعد رواية هكسلى بنحو عشرين عاما وقد وصف أورويل، مثلما وصف هكسلى، استخدام السلطة لوسائل الاعلام ومختلف وسائل الترغيب وغسيل المخ وتزوير الحقائق أو اخفائها ومسايرة عامة الناس لرغبات السلطة واستغراقهم فيما يعطى لهم من وسائل التسلية والمتع الحسية وإثارة الخيال، ولكن أورويل خصص مالا يقل عن ثلث روايته لوصف أعمال التعذيب ومختلف صور القسوة التى يمكن للسلطة ممارستها مع الخارجين على طاعتها ، مما اتضح لنا أيضا إمكان حدوثه مما شهدناه فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولكن هذا يحتاج بلا شك إلى مقال آخر. ■

شمولية ديمقراطية:

مزيج خطير

بقلم
جميل مطر

◆ عندما شاهدنا لأول مرة مشهد دورة المياه في فيلم العصور الحديثة الذي أخرجه ومثل فيه دور البطولة الفنان تشارلي شابلن، لم يخطر في بالنا أن هذا الاختراع المذهل الذي تخيله هذا الفنان المبدع سوف يكون حقيقة واقعة نعيشها ونمارسها. في هذا المشهد كان تشارلي شابلن يحاول أن يدخن سيجارة في مواعيد العمل خلافا للقواعد فظهرت له على الحائط صورة مدير المصنع يزجره ويأمره بالعودة فورا إلى موقعه في عمله . كان المشهد «خياليا» ومحفزا على التفكير في المستقبل كنا في ذلك الوقت نقرأ لـ هـ . د . وينز وجول فيرن ونحلم بأشكال المستقبل ، ونتساءل إن كنا سنعيش لنرى تحقيق هذه الخيالات والأحلام وتحولها إلى واقع معاش .

تذكرت فيلم العصور الحديثة وأنا اقرأ محادثة طريقة يتداولها الأمريكيون كرد فعل للقوانين المتعددة التي شرعتها إدارة الرئيس بوش لحماية الولايات المتحدة من تهديدات إرهابية محتملة، كلها بدون استثناء قلصت مساحة حرية الفرد العادي وكلها – بدون استثناء أيضا – سمحت لأجهزة متعددة في الحكومة بالتدخل في شئون المواطنين ومعرفة أدق أمورهم خصوصية وحساسية. كانت المحادثة بين عامل تليفون في محل لصنع البتزا وأحد الزبائن . ودارت كالآتي:

عامل تليفون محل بيتزا : شكرا على اتصالكم بنا ، هل لي أن أعرف **رقمك القومي**؟.

الزبون : مـرحـبــا ، أريد أن أطلب بيتزا .

عـامل التليفون : يجب أن أعرف أولا رقكم القومى يا سيدى.

الزبون : رقمى القومى ؟ نعم. انتظر لحـــظـــة هـــو ٥٤٦١٠٢ - ٤٥ - ٦١٠٢٠٤٩٩٨ .

عـامل التليـفـون : شكرا لك ياسـيـد شيـهـان. أرى أنك تعيش فى المنزل رقم ١٩٤٢ طـــريـــق ٢٣٠٢ - ٧٤٥، ورقـــم هاتفك النقال هو ٢٥٦٦ - ٢٦٦ وعنوانك الاليكترونى....

الزبون : لحظة من فـضلك. كـيف حصلت على كل هذه المعلومات .

عـامل التليـفون : أجـهـزتنا مـربوطة بالشـبكة القـوميـة الأمريكيـة للمعلومـات ياسيدى .

الزبون : وما هـى هذه الشبكة .

عـامل التليـفون : هـى شـبكة متـصلة بوزارة الأمن الداخلى. سيد أسئلتك هذه ســـوف تضـــيف ١٥ ثانيــة إلى الوقت المسموح لك لتتقدم بطلبك .

الـزبون : نـعم نـعم. أريـد أن أطلـب زوجا من فطيرة البيـتزا المضـاف إليـها كمية كبيرة من اللحم .

عامل التليفون : لا أظن يا سيدى أن هذه فكرة طبية .

الزبون : ماذاتعنى ؟.

عـامل التليفون : سيدى أن سجلاتك الطبية تشير إلى أنك تعانى من ارتفاع فى ضغط الدم، وارتفاع شديد فى نسبة الكوليسـترول . وتقول الأوامر الصـادرة لنا من هيئة الرعاية الصـحيـة أنه غير مسموح أن نلبى طلبا يضر بصـحتك .

الزبون : بماذا تنصح إذن ؟.

عـامل التليـفـون : يمكنك أن تجـرب البـيـتزا المصنوعـة بفـول الصـويا وهـى منخـفـضـة الدهون . أنا مـتـأكـد أنهـا ستعجبك .

الزبون : مـا الذى يجـعلك تقـول أنه سيعجبنى شئ كهذا؟

عـامل التليـفـون : حـسنا يا سـيـدى. سأقول لك . أمامى معلومـات عنك تقول أنك كنت فى الأسبوع الماضى فى مكتبة الحى الذى تسكن فيه، وطلبت اسـتـعارة كتـاب عن الوجبات التى تسـتـخـدم فـول الصويا. سيدى هذا هو ما جعلنى اقترح عليك بيتزا من فول الصويا .

الزبون : حـسنا حـسنا .. ابعث لى إذن باثنين من الحجم العائلى .

عـامـل التليـفون : ولكن هذا سيكون فائضا عن حاجتك يا سيدى أنت وزوجك وأربعـة أطفـال وكلبين. ولكن كـمـا ترغب ياسيدى . سيكون الحساب مبلغ ٤٩,٩٩

الزبون : دعنى اقرأ عليك رقم بطاقة الائتمان .

عـامل التليفون : أنا آسـف يا سيدى ولكنى أخشى أنه سيتعين عليك أن تدفع نقـدا . تقول المعلومـات التى أمـامى أنك تجــاوزت المبلغ المســـمـــوح لك فى كل بطاقاتك الائتمانية .

الزبـون : ســـوف أذهـب الآن إلـى شبـاك صـرف النقود فى البنك المجـاور لأسـحـب مـبلغـاً نقـديا قـبل أن يصل سائقكم إلينا .

عامل التليفون : لا يا سيدى حتى هذا لا ينفع فإن حسابك فى البنك مكشوف .

الزبون : لا بأس . أرسل البيتزا وسيكون النقد جاهزا كم ستأخذ من الوقت ؟.

عامل التليفون : حوالى ٤٥ دقيقة .

الزبون : سآتى بنفسى لأخذها.

عامل التليفون : يا سيدى كيف ستأتى وسيارتك سحبت منك لأنك لم تسدد أقساطها وحتى لو كانت معك فلا يوجد فى حوزتك ما تدفع لتملأ خزانها .

الزبون : إنك (عبارات غير مهذبة).

عامل التليفون : أنصحك أن تحتاط إلى ما تقوله ياسيدى، فأنت لم يمض عليك أيام قليلة منذ خروجك من السجن المحلى بسبب إساءتك إلى ضابط شرطة وإهانتك للمحكمة سيدى هل هذه أول بيتزا لك منذ عودتك إلى المجتمع ؟.

الزبون : (لا يرد) .

عامل التليفون : هل من طلبات أخرى يا سيدى .

الزبون : معى كوبون للتر مجانى من الكوكاكولا .

عامل التليفون : آسف ياسيدى . لا أستطيع أن أقدم لك أى مشروب غازى بسبب أنك تشكو من ارتفاع نسبة السكر فى الدم . وتعلم ياسيدى أن الدستور الجديد للولايات المتحدة يحرم ذلك. شكرا ياسيدى على اتصالك بنا .

* * *

انتهت المحادثة المزعومة . ولكنى، وبعد تجاربى السابقة مع مشهد صورة مدير المصنع يراقب دورة المياه وموظفيه، وكتب ويلز وفيرن وجورج أورويل وغيرهم، أصبحت أكثر حرصا واحتراما فى التعامل مع كل رواية أو طرفه أو محادثة تزعم أنها ترى المستقبل . كلنا نعرف أن احترام الدولة لأسرار وكوامن وخصوصيات المواطن الأمريكى - وكان مضرب الأمثال ومنتهى الآمال فى عوالمنا الديمقراطية وغير القانونية - يتدهور. فإذا كان المواطن الأمريكى الذى يستخدم البريد الالكترونى يعرف أن ما يقرأه ويشاهده ويرسله ويستلمه تراقبه وتنقل مضمون الرسائل المتبادلة أو نصوصها إلى جهات تعمل بالأمن والتجسس وصحافة التشهير والفضائح والشركات الكبرى . هذا المواطن الأمريكى نفسه قد يركب سيارة تحمل بطاقة الكترونية تنقل كل المعلومات عن موقع السيارة فى أى لحظة وسرعتها وحمولتها وحالتها الميكانيكية. فى الأصل كانت وظيفة هذه البطاقة إنذار الراكب بخطر أو بخلل ، وابلاغ جهات الإنقاذ بالمعلومات الضرورية. وفى الوقت نفسه وهذا ما يعرفه المواطن الأمريكى أو لا يعرفه ، إبلاغ أجهزة تهتم بتتبع تحركات المواطنين الأمريكيين أو تحديدا من تريد تتبعهم . ثم أنه فى الولايات المتحدة، كما فى غيرها ، لم يعد الفرد منا يعرف إن كان الجار فى المسكن أو فى المكتب أو فى الطريق يتحدث فى هاتفه النقال أم يقوم بتصويره بدون استئذانه، وأن هذه الصور يمكن أن تذهب فى اللحظة نفسها التى تلتقط فيها إلى جهات

مصلحة فى معرفة مكان الفرد ومن فى صحبته وماذا يفعل أو يفعلون .

كنا ونحن نتلقى دراستنا العليا فى أمريكا الشمالية، كان هذا منذ سنوات غير قليلة ، نطمئن إلى أن التقارير الطبية التى يكتبها عنا الأطباء ويضعونها فى ملفات ستبقى دائما وأبدا ويحكم القانون تقارير سرية، وليس لأحد حق الإطلاع عليها إلا بقرار صادر من قاضى محكمة وبرضاء المريض. والمعروف أن التقارير الطبية، إلى جانب نتائج الكشف والتشخيص ، تحتوى أيضا على معلومات أخرى أكثر من المعلومات عن المرض وتوصيفه وأدويته، فهى تحوى معلومات عن أقارب المريض لمعرفة مدى انتشار المرض فى العائلة والأدوية التى تعاطاها المريض على امتداد حياته ومختلف الأمراض . ثم صدرت قوانين جديدة قبل وبعد ٩/١١، لم تعد بفضلها هذه التقارير تحظى بالسرية التى كانت تتمتع بها فى السابق . وقد أثير الموضوع حديثا عندما طلبت وزارة العدل الأمريكية من بعض المستشفيات ملفات عن مئات السيدت اللائى أجرين عمليات إجهاض فى المنطقة التى تقع فيها هذه المستشفيات . حدث أيضا أن طلبت وكالة التحقيقات الفيدرالية «بالمباحث العامة» من مستشفيات مدينة بتسبرج وأطبائها الإبلاغ فورا عن أى حادث أو أى إصابة «مشبوهة»، مثل مريض على جسمه طفح جلدى أو جريح فقد إصبعه أو عضوا فى جسمه. وتدافع أجهزة الأمن عن هذا الطلب بالقول إن هناك احتمالات قائمة بأن يكون هذا الطفح أو هذا العضو الناقص نتيجة تعرض المريض إلى عناصر كيماوية أو بيولوجية بينما كان يستعد للقيام بعمل إرهابى مستخدما الكيماويات أو الأسلحة الجرثومية أو البلاستيكية. كما طولب الأطباء فى الولايات المتحدة وفقا لقواعد «قانون الوطنية» الذى صدر فى أعقاب ٩/١١ أن يقوموا بإبلاغ المباحث العامة الفيدرالية بنتيجة الفحص قبل أن يبلغوا المريض صاحب الشأن . ومعنى هذا الطلب أن يترك الطبيب مريضه فى قاعة الكشف ويخرج ليتصل بالمباحث العامة ويبلغها بحالة المريض ثم يعود للمريض لإبلاغه. لم نعرف بعد إن كان الهدف إفساح الفرصة أمام أجهزة الأمن لاتخاذ إجراء ما، مثل اعتقال المريض أو فرض الرقابة عليه وقت خروجه من العيادة، أم أن هناك إهدافا أخرى .

وحدث بعد ٩/١١ أن طلبت وزارة العدل من الجامعات تقديم كافة المعلومات التى فى حوزتها عن الطلاب الأجانب دون أن يعلم الطلاب بهذا الأمر . وقد قاومت بعض الجامعات، وقاومت أيضا وزارة التعليم الأمريكية تنفيذ هذا الأمر ، مؤكدة ضرورة صدور قرار من قاضى محكمة فى كل حالة على حدة. فى الوقت نفسه كانت إدارة الهجرة تطلب من جميع الجامعات الأمريكية معلومات عن ٢٠٠ ألف طالب أجنبى. واستجابت وقتها مائتا جامعة فى أسابيع قليلة. أذكر ويذكر الكثيرون من الأجانب ممن درسوا

فى الولايات المتحدة أن الطالب الأجنبى كان فخورا بانتمائه إلى جامعة تستأذنه قبل أن تنقل معلومات عنه إلى أجهزة حكومية تختص بالأمن وبالهجرة والصحة ، أو إلى شركات خاصة تطلب هذه المعلومات للتعرف على إمكانات الطالب العلمية والذهنية لتوظيفه عندما يتخرج. ولم تتوقف عند هذا الحد حملة اليمين الحاكم فى أمريكا لتقييد حريات المواطن الأمريكى وانتهاك «عالمه» الشخصى والسماح بتداول المعلومات عنه ، أى تعريته أمام «الدولة» .

* * *

الجديد فى حملة اليمين الأمريكى لتقييد حرية الأشخاص وحقوقهم وخصوصياتهم هو هذا العقد الذى تكلف ١٥ مليار دولار لبناء شبكة من مصارف وقواعد معلومات مهمتها تتبع الزوار والسائحين الذين يصلون إلى أمريكا. تبدأ عملية التتبع قبل سفر هؤلاء الزوار من بلادهم ، وتستمر خلال سفرهم ، وتتواصل خلال إقامتهم فى الولايات المتحدة، وتبقى معهم لفترة غير قصيرة بعد عودتهم من الولايات المتحدة. يغطى هذا النظام الأمنى ثلاثمائة نقطة حدود جوية وبحرية وبرية تتقصى من أين جاء هؤلاء الزوار وإلى أين هم ذاهبون فى الولايات المتحدة الأمريكية؟ وأى تهديد يمثلون وماذا ينوون عمله بعد الزيارة؟ وقد اهتم الكونجرس وجماعات الحقوق الأمريكية بهذا النظام منذ بدأ مشروعا فى مكاتب وزارة الدفاع فى أعقاب ٩/١١ وأطلقوا عليه «زيارة الولايات المتحدة» "Visit USA" وكان السؤال الحساس وقتها إن كانت هذه الشبكة ستمس خصوصيات الزوار القادمين من الخارج كان الهدف من هذا البرنامج تحقيق قفزة هائلة فى مهمة «حماية الوطن» عن طريق استبدال الحدود الفعلية المادية بحدود خائلية «Virtual» باستخدام شبكة كبيرة من الحواسيب وأدوات الاستشعار وخصوصا البيولوجية . وتقرر أن تنتشر هذه الشبكة بحيث تغطى مواقع القنصليات الأمريكية فى الخارج وأى أماكن أخرى للحصول على التأشيرات، وتغطى بعد ذلك كافة المواقع التى سيذهب إليها أو يعيش فيها الزائر.

الحدود والزائر حيثما يكون

فى السابق كان حارس الحدود هو أول خط دفاع لحماية الولايات المتحدة والأمة الأمريكية من زائر معاد الآن اصبح هذا الحارس هو آخر خط فى حماية الولايات المتحدة من الزائرين المشبوه فيهم. إذ يكون الزائر قد مر بعشرات الحراس «الخائلين» «Virtual» فى القنصليات والبعثات الدبلوماسية والمراكز الاستخباراتية ومكاتب ووكالة التحقيقات الأمريكية فى الخارج، وكذلك الحراس فى داخل الولايات المتحدة . وبذلك، وبفضل هذه الحراسة المتقدمة لن تتجاوز مهمة حارس الحدود فى أمريكا مجرد التأكد من أن هذا الشخص هو نفسه الذى يدعى أن يكون وفور مغادرته هذا المخفر من مخافر حرس الحدود حتى تتم

ملاحقته بوسائل خائلية «Virtual» لتتبعه فلا يخطو خطوة فى الولايات المتحدة الأمريكية إلا وهى محسوبة ومحسوسة فى مكان آخر قد يبعد عنه آلاف الكيلومترات. أذكر أنهم فعلوا شيئا مازال رهن التحقيق، إذ سمحوا له أن يتجول فى نيويورك بشرط أن يضع فى معصمه إسورة مصنوعة من معدن مخلوط بمواد مشعة تبعث بإشارات إلى جهة مركزية تتتبع تحركاته. أصبح كل ما يفعله الزائر، بفضل هذه الوسائل وغيرها من الوسائل الأحدث، فى متناول اجهزة الأمن الداخلى التى تعمل من خلال شبكة تغذيها عشرون قاعدة معلومات مرتبطة ببعضها وتتتبع ٣٠٠ مليون زائرا سنويا . هذا البرنامج يعنى بشكل آخر ان النظام الأمنى فى الولايات المتحدة استطاع فى ظل نظام ديمقراطى أن «يؤمم ويؤمن» الزائر الأجنبى فالحدود الأمريكية توسعت بفضل هذا البرنامج حتى وصلت «خائليا» إلى حيث انطلق هذا الزائر فى رحلته إلى الولايات المتحدة. الحدود الأمريكية حسب النظام الجديد، تبدأ فى المكان الذى يطلب الزائر فيه تأشيرة دخول الولايات المتحدة. ويظل داخل هذه الحدود طالما كان على سفر. ولا يفترق عن هذه الحدود إلا بعد وصوله عائدا من رحلته إلى بلده بفترة قد تطول أو تقصر. الحدود الزائر، حيثما يكون، لا يفترقان.

هذه الصورة أشبه ما تكون بشبكة أبراج مراقبة الطائرات. إذ تبدأ علاقة الطائرة ببرج المراقبة وهى مازالت على أرض المطار، أى قبل إقلاعها. لا تتحرك إلا بإذن من البرج وبعلمه. يتتبع حركتها على الأرض ثم فى الجو، إلى أن يسلمها إلى البرج التالى. فهى إذن لا تختفى عن شاشات هذه الشبكة من الأبراج. كل برج يسلمها لبرج آخر. ولا يجوز أن تخرج الطائرة عن نطاق الشبكة، أما إن حدث وخرجت فالمؤكد أن تعلن الشبكة حالة طوارىء ويبدأ البحث عن الطائرة التى انقطعت اتصالاتها بالشبكة. صار المواطن، والزائر لأمريكا خاصة، مثل الطائرة غير مسموح له بالخروج عن نطاق الشبكة المخصصة لتتبعه. وإذا خرج أو خرجت انطلقت اجهزة الإنذار تحذر من كارثة محتملة.

يتجمع لدى شركات المعلومات الأمريكية كم هائل من المعلومات عن المواطن كنتيجة منطقية لاستخدام بطاقات الائتمان البلاستيك. هذا الكم الهائل يمكن أن تستفيد منه شركات التسويق والإعلان وكافة من لهم مصلحة فى معرفة أدق التفاصيل عن كل مستهلك. يبدو هذا المشروع مفيدا فى مجتمع تسود فيه السوق وتهيمن على كل شىء وتخضع فيه منظومة الأخلاق إلى منظومة السوق. إلا أن الإحساس بخطورة امتلاك هذا الكم الهائل من معلومات شخصية وخاصة جدا عن افراد المجتمع، يشغل بال قطاعات متعددة فى الولايات المتحدة. كان يشغله قبل ٩/١١ ثم تفاقم الأمر حين ظهرت مؤسسات بأغراض ومصالح ليست تجارية مثل الحكومة وأجهزة الأمن

ووكالات الجاسوسية التى تصورت بعد ٩/١١ أن لها الحق فى الحصول على أى معلومة عن أى إنسان واستخدامها دون العودة إلى صاحبها. قيل وقتها إنه تطور خطير يخرق حقوق الإنسان الأمريكى الذى يكفلها له الدستور ثم ازدات الخطورة عندما احكمت سيطرتها وهيمنتها على مقاليد الحياة فى أمريكا جهات شديدة التطرف اليميني والديني.. ومعروفة شكوكها في جدوى الأساليب الديمقراطية خصوصا فى أوقات الخطر وعدم الاستقرار.. بل إن هذه القوى الحاكمة المتطرفة لم تتردد عندما لاحظت حجم المواطن الأمريكى لإجراءات تقييد حرياته والتعدى على خصوصياته فلجأت إلى سياسة ترهيب المجتمع بادعاء، عن حق أو غير حق، أن خطر الإرهاب دائم وداهم وأن المواطن الأمريكى إن أراد السلامة فعليه أن يأتمن هذه القوى الحاكمة اليمينية على خصوصياته ويتنازل لها عن كثير من حرياته.. تأخذها لتفعل بها ما تريد لتحقيق أهداف أخرى خططت لها منذ زمن غير قصير، وبعضها أهداف لا علاقة لها بالأمن أو الإرهاب، مقابل وعد منها بأن تحمى أمريكا من بن لادن ومن القاعدة ومن محور الشر ومن هجوم نووى وكيماوى ومن صدام حسين، ومن أخطار أخرى تستجد دائما.

هى الآن تستعين بهذا الكم الهائل من المعلومات الشخصية الموجودة لدى الشركات. وتعد قانونا سيعرض على الكونجوس ومجلس الشيوخ يجيز لأجهزة الحكومة الارتباط بشبكات معلومات أجهزة الأمن فى الحكومة الدخول مباشرة على شبكات معلومات هذه الشركات والحصول منها على ما تريد.. حدث منذ أسابيع قليلة أن طلبت أجهزة الأمن من نقابة معلمى الغوص معلومات عن كل متدرب تلقى تدريبا على الغوص فى الولايات المتحدة . وبالفعل قدمت النقابة ملفات بمعلومات عن ٢ مليون متدرب. ومازال الكونجرس يعارض إنشاء جهاز فيدرالى تابع لوزارة الدفاع يتتبع كافة الاتصالات التى يقوم بها المواطن الأمريكى والإطلاع على نوعية ما يبحث عنه فى الشبكة الإلكترونية وبريده الإلكترونى وحساباته المصرفية وزياراته للطبيب ورحلاته الداخلية والخارجية وطلبات التأشيرات واستخراج الجوازات. هذه المقاومة من جانب الكونجرس هى التى دفعت الحكومة لإعداد تشريع جديد يسمح لها بالدخول مباشرة على قواعد معلومات الشركات والجامعات والمستشفيات. حيث توجد بالفعل معظم المعلومات الشخصية جدا عن المواطن، فالمواطن لا يتردد فى إعطاء الشركات معلومات شخصية عنه ولكنه يتردد فى إعطائها للحكومة. هنا يمكن لهذا اليمين المتطرف أن يستغل هذه المعلومات ضد الذين يمارسون الإجهاض أو الشذوذ الجنسى أو انتقاد إسرائيل أو خصوم اليمين الأمريكى أو أعضاء الكنائس المتبرمة من هيمنة المسيحيين والصهيونيين ، وضد السياسيين والنواب

والشيوخ والإعلاميين وضد المهاجرين إلى أمريكا والزوار المقيمين فيها. وضد أى احتمالات مستقبلية لا يمكن التنبؤ بها الآن. ولكن يمكن بسهولة تصور ماذا يمكن أن يستفيد المتحكم فى هذا القدر غير المسبوق من المعلومات عن المواطنين لخدمة أغراضه سواء كانت هذه الأغراض تخدم سلامة الإمبراطورية الأمريكية أو تخدم أهداف جماعة متطرفة تستولى بالتدريج على واشنطن لتنفذ مهاما تخريبية فيها وفى أنحاء متفرقة من العالم.

* * *

لماذا اهتمامنا بما يحدث للديمقراطية وحريات المواطن وخصوصياتهم وأسرارهم فى أمريكا؟ نهتم لأسباب أربعة على الأقل: أولها أن كثيرا من القرارات والسياسات الأمريكية صارت تمسنا مباشرة، مثلنا مثل عشرات من المجتمعات، وربما أكثر لأننا فى رأى جماعة الحكم فى أمريكا نمثل خطرا مباشرا، ولأن لمنطقتنا مكانة خاصة عند القائمين على قطاع السياسة الخارجية الأمريكية، وخصوصا لدى جماعات المحافظين الجدد وغيرهم من أنصار اليمين المتشدد.. لذلك نهتم. ونهتم الآن أكثر لأن أمريكا على أبواب انتخابات رئاسية. ستفرز قيادة تحاول ترشيد السلوك الإمبراطورى أى بغطرسة أقل وتفهم أكثر أو قيادة تواصل ثورة الثور الهائج فى هذا العالم الزاخر بالخزف.

ثانيا : نهتم لأن النخب السياسة الحاكمة فى عالمنا العربى وكذلك الإسلامى متخوفة من النموذج الديمقراطى الأمريكى. وفى الوقت نفسه متطلعة إليه، وتزداد تطلعا كلما أصاب مكروها مؤسسات الديمقراطية وممارساتها فى أمريكا. يتجدد الأمل عند هذه النخبة أن حملة الإصلاح ضدها ستخف وطأة مع كل تقييد لحريات المواطن الأمريكى وخصوصياته . أظن أنها لا تعرف أن لا صلة مباشرة بين حملة الإصلاح فى الشرق الأوسط وأصول الديمقراطية أو ممارساتها فى أمريكا.

ونهتم ثالثا : لأن أكثر المتفائلين بمستقبل تسود فيه درجة أكبر من التحرر السياسى فى العالم العربى يخشون عواقب استحكام دائرة الخوف المتبادل بين العرب والمسلمين من ناحية والأمريكيين من ناحية أخرى. فالخوف يدفعنا ويدفعهم إلى مزيد من تقييد الحريات. وفى الناحيتين، هنا وهناك توجد قوى سياسية تعتقد أن الشعوب الخائفة تطمئن إلى الاستبداد وعدم التغيير وترفض تداول السلطة. والشعب الأمريكى خائف هذه الأيام.

ونهتم رابعا، لأن التجربة الأمريكية الراهنة رائدة بكل المعانى، وسيكون لتطوراتها ونتائجها آثار بالغة العمق والاتساع على العالم بأسره. إذ لم يحدث من قبل أن اجتمعت الشمولية والديمقراطية فى نظام واحد. وإن اجتمعتا فسيكون أيضا لهما شأن عظيم فى التاريخ السياسى العالمى. ■

الفضائيات العربية .. إلى أين؟!

بقلم
د. نسمة البطريق*

لا يمكن التسليم بأن القنوات الفضائية العربية بقنواتها المتعددة التى تجاوت المائتى قناة بما تقدمه من مضمون ثقافى ومعرفى تدخل فى اطار أدوات المعرفة العربية أو اعتبارها وسيلة من وسائل توحيد الكلمة والفكر وتأكيد الهوية والذاتية العربية ونشر الوعى الاجتماعى والثقافى، أو يمكن اعتبارها واجهة ثقافية فكرية تعلن عن كوامن الفكر والثقافة والعلوم للأمة العربية وتاريخها وحضارتها، أو تعلن عن كوامن القضايا الثقافية الحالية والمثارة خاصة فى تلك الأيام الصعبة التى يواجهها الفكر الإسلامى والعربى من تحديات، فتقدم برامج تعزز الكيان العربى وتصبح واجهة تقف فى وجه الادعاءات الكاذبة والأقاويل التى تروج لها وسائل المعرفة التكنولوجية المتعددة الغربية والأجنبية منذ وقت طويل، أى منذ نشأة هذا النظام الفضائى الدولى فى بداية الستينيات، والذى مهد له التقدم العلمى الصناعى فى مجالات الأقمار الصناعية وفى مجالات التسلح والاتصالات.

فأصبحت القنوات الفضائية الدولية فى ظل النظام العالمى الجديد أحد أهم الآليات الهامة خاصة منذ بدايات القرن الحادى والعشرين لتدعيم رأى عام دولى يساند استراتيجيات الدول الكبرى وسياستها الاستعمارية، فالمعلومات وتكنولوجيا المعرفة الحديثة أدوات هامة في يد القوى الكبرى لتغيير مسارات فكرية لقوميات وثقافات لها تاريخها المستقر وهويتها الراسخة.

* أستاذة الإعلام - جامعة القاهرة

ومن هذا المنطلق أصبحت القنوات الفضائية للتليفزيون أحد الأنظمة فى يد الدول المتقدمة لإحكام السيطرة الفكرية والمعرفية عن طريق إنتاج المعلومات لتدعيم استراتيجيات ومخططات عسكرية وثقافية وفكرية واقتصادية. فأصبح التقدم العلمى والصناعى واستحداث وسائل متعددة فى مجالات التسلح والمعلومات والاتصال الجماهيرى منذ الستينات من القرن الماضى مظهراً هاماً من مظاهر القوة والتسلط ليس فقط فى مجالات الصراع السياسى والاستراتيجية العسكرية بل وأيضا فى مجالات التحكم الأيديولوجى والثقافى والاقتصادى.

ولعل من أسباب إلحاح دول العالم النامى والعربى على وجه الخصوص منذ منتصف سبعينات القرن العشرين بالمطالبة بإدخال تكنولوجيا المعلومات والاتصال عن طريق مشروع القمر الصناعى العربى كان بهدف الدفاع عن القضايا المصيرية العربية وبصفة رئيسية القضية الفلسطينية، وللتصدى بصفة عامة لسيطرة الدول المنتجة للتكنولوجيا واحتكارها للمعلومات والأخبار.

غياب الاستراتيجية

ولكن ولعدة أسباب سياسية أخفق هذا المشروع العربى الكبير لغياب استراتيجية عربية متكاملة، فأصبحت الخدمات التى تؤديها نظم الأقمار الصناعية التليفزيونية فى ظل سياسات الانفتاح الاقتصادى والتجارى، وتعدد القنوات الخاصة العربية بشكل ملحوظ منذ التسعينات تدعم وتعزز وجهات نظر فردية تجارية هدفها الأول والأخير الربح المادى على حساب الكثير من الأهداف لتنمية الوعى الجماعى للقضايا المتعددة العربية الاجتماعية منها والثقافية والسياسية، فبدلاً من أن تقدم برامج تعمل على تعزيز الكيان العربى وتقف فى وجه الادعاءات الكاذبة التى تروج لها القنوات الفضائية الدولية فى الغرب الصناعى المتقدم لتغيير مسارات فكرية لقوميات وثقافات لها تاريخها المستقر وهويتها الراسخة، تعمل القنوات الناطقة بالعربية من جانبها على تفتيت الإرادة القومية وشرذمة الفكر، دون مبادرة جادة تهدف إلى وضع استراتيجية للمواجهة والتصدى لتلك المخططات الهادفة والمغرضة على المستوى المعرفى من خلال تلك

الفضائيات المتعددة.

والخطورة هنا أن الدول الكبرى المتقدمة تطوع بإتقان شديد ودراسة متعمقة هذه الوسائل التكنولوجية المتقدمة، تستغل الفكر والفن والثقافة الناعمة والآداب والألوان والأشكال لنسج مخططات طويلة المدى لتنفيذ استراتيجيتها التى قد تفوق الاستراتيجيات العسكرية فى كثير من الأحيان عن طريق قوالب وبرامج تليفزيونية موجهة للدول النامية والعربية. وفى المقابل تقف الدول النامية والعربية تستقبل تلك البرامج، دون مبادرة جادة بوضع استراتيجية للمواجهة والتصدى لتلك المخططات، خاصة وأن القنوات الفضائية العربية المتعددة لم تعد أحد كماليات الحياة اليومية بل أصبحت ضرورة من الضرورات الاجتماعية التى يسعى إليها الفرد والجماعة فى العالم العربى كوسيلة من وسائل الترفيه والتسلية وليس كوسيلة من وسائل التثقيف والتوعية. والذى يزيد من خطورة الموقف أن البيئة الاجتماعية فى الدول العربية أصبحت بيئة طاردة للتجويد والإتقان والتفوق والإبداع العلمى والثقافى فى مجالات صناعة الفكر والعلوم والثقافة.

وحتى ندرك خطورة هذا الوضع على ثقافة الأمة فى عصر العولمة نؤكد على النقاط التالية:

تصور وغياب الخصائص البنيوية والهيكلية اللازمة لبناء شخصية الفرد والجماعة فى مجتمعات الدول العربية وبصفة خاصة من حيث القدرات الإدراكية والمعرفية المؤثرة بشكل قطعى على قدرة الفرد على اختيار ما هو نافع ورفض ما هو ضار. فالشعوب العربية ينقصها الكثير من حيث التعليم والصحة والدخل المعقول القادر على مواجهة أعباء الحياة... ولن نتطرق إلى خصائص المدينة وهياكلها الأساسية من حيث المرافق والمواصلات والخصائص المتصلة بالتخطيط العمرانى وتوزيع السكان والالتزام بقرارات وقوانين تحافظ على الشكل العام للمدن والأحياء.. وكلها عوامل تعرقل قدرات الإنسان الخلاقة ومهاراته الدفينة.

سطحية المادة التليفزيونية

ولعل هناك نقاط أكثر خطورة، وترتبط بما خلفه العدوان العسكرى على العراق، والممارسات المهدرة لحقوق الإنسان والمدمرة لكرامة وسلامة الشعب الفلسطينى، وكلها عوامل تفرض أوضاعاً غير مواتية للتنمية والتطوير، بل تضاعف من مزيد من الإحباط والاستسلام لتلك الثقافات الناعمة الخالية من كل ما هو هادف إلى التنمية الفكرية والتطوير. ولقد أثبتت الدراسات الاجتماعية المتعددة أن هناك علاقة بين هذه العوامل مجتمعة وعملية التعرض من قبل الأفراد للمواد التليفزيونية الترفيهية الأكثر سطحية واستخفاف بعقلية المشاهد. فالأفراد والجماعات تنجذب إلى تلك المواد السهلة المسطحة والأكثر ضحالة

بهدف تعويض النفس والتنفيس فى أوقات الكوارث والضغوط الاقتصادية والاجتماعية وعلى العكس تكون أكثر انجذاباً للمضمون التليفزيونى الراقى فى فترات الرخاء والازدهار الاجتماعى والثقافى والفكرى.

هذه النقاط مجتمعة لها عواقب وخيمة على الديمقراطية الثقافية إذ أن المعلومات والبرامج التجارية ودخولها ساحة الفكر والثقافة ستساعد على مزيد من ابتعاد الفرد والجماعة عن الواقع وتفقده السيطرة وعدم القدرة على مواجهته، مما يؤدى إلى انعدام المشاركة الايجابية للفرد إزاء مشكلات مجتمعه، وبالتالى تساهم تلك الثقافة الاستهلاكية وبطريقة غير مباشرة مساهمة فعالة فى تدهور المجتمع عن طريق تحطيم الإرادة الفردية وتتلاشى أهم أركان الديموقراطية الاجتماعية والثقافية والفكرية وهى المساهمة والمشاركة الايجابية والفعالة تجاه قضايا المجتمع والإنسان .

تعرقل وظائف وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرى القومية ولعل هناك عوامل عديدة إضافية وأدوارها فى تعزيز التنمية الفكرية والاجتماعية. فبالإضافة إلى ما ذكرناه فى النقاط السابقة حول خطورة عدم القدرة على السيطرة والتحكم فى وضع سياسة واستراتيجية ثقافية وإعلامية قادرة على إتاحة وجود رأى عام قومى متجانس حول القضايا المحورية والأكثر إلحاحاً فى مجالات الاتصال الجماهيرى الثقافية منها بصفة خاصة، هناك عناصر أخرى قد تهدد كيان شعوب ومجتمعات العالم العربى، ولعل أهمها التعدد.الملحوظ والمتنامى لأعداد القنوات الفضائية التى تعمل على مزيد من التغريب الفكرى والثقافى فى كثير من الأحيان وتؤيد اتجاهات وآراء متضاربة حول الأحداث والقضايا فدعائم الديمقراطية الفكرية والثقافية والاقتصادية غير مواتية وغير متاحة فى مجتمعات الدول العربية إلا بالكاد فى أضيق الحدود، ونقصد هنا فى إطار الفئات العليا والمتميزة فى السلم الاجتماعى .

فالديمقراطية الثقافية والفكرية كأهم دعائم وأركان التعبير والحرية الفكرية، والمؤكدة لعنصر المشاركة غير متاح، وكما أكدت مدارس الفكر الاجتماعى والسياسى الحديثة على أن تواجد هذا العنصر ليس فقط من أهم أدوات الديموقراطية ، بل هو شرط أساسى من شروط تطور عملية الإعلام والثقافة، فلن يرتقى ويتطور الإعلام والثقافة العربية فى غياب هذا العنصر المحورى فالمشاركة شرط أساسى لتطور الإعلام والثقافة العربية .

فوسائل الاتصال والمعرفة التكنولوجية الحديثة لا يمكن أن تؤدى وظائفها بطريقة فعالة إلا بتوافر عنصر المشاركة والتفاعل حول القضايا المحورية التى يعانى منها المجتمع بجميع فئاته، حتى يحقق التأثير الاجتماعى وتأكيد القيم والمفاهيم المختلفة، وتثبيت الهوية القومية، وتفسير القضايا الاجتماعية الحقيقية

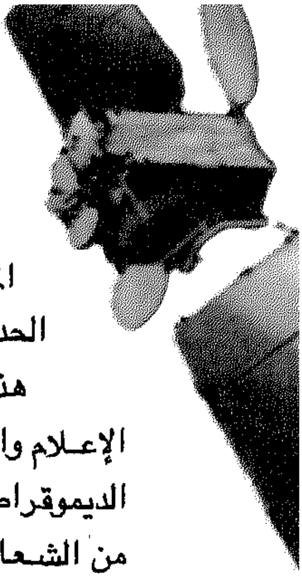

وشرحها للرأى العام القومى واقتراح أنسب الحلول لمواجهتها. وكلها محددات لفاعلية عملية الإعلام، خاصة فيما يتعلق بتلك القضايا المتصلة بالهوية القومية العربية والتنمية الفكرية والاجتماعية والثقافة الحديثة.

هذه الوظائف والأهداف إذا شابها بعض الشوائب المعرقلة أصبح الإعلام والثقافة ووسائلها المتعددة عديمة النفع وتنافت مع أهم مبادئ الديموقراطية الإعلامية والفكرية فى المجتمع، وأصبحت تبعاً لذلك مجرد شعار من الشعارات، وأصبح الفرد فى المجتمع منعزلا عن قضايا عصره وفريسة لمعلومات الدعاية المغلوطة التى قد تروجها بعض القوى المعادية للديموقراطية الفكرية والحرية السياسية داخل الحدود القطرية والإقليمية وخارجها وذلك بالتسلل إلى عقول الجماهير من خلال وسائل الإعلام والثقافة القطرية والإقليمية منها والدولية العالمية خاصة فى العصر الحديث، عصر التفوق والتطور فى تكنولوجيا الإعلام والثقافة والمعلومات.

انعكاس الاخفاق

لقد أخفق نظامنا الإعلامى العربى فى تأكيد الديموقراطية الثقافية والفكرية على المستوى القومى فانعكس كل ذلك على القدرة فى تحليل الواقع القومى بوضوح وشفافية فلقد عمل على مضاعفة الكم فى اقتناء أعداد القنوات الفضائية المتراكمة دون وضع أى استراتيجية متكاملة لتنمية الشعوب العربية الاجتماعية والثقافية على الأقل. فأخفق فى نشر وتأكيد هويتنا الثقافية والفكرية لإخفاق سياستنا التعليمية والعلمية فى دفع عجلة البحث عن مسار فكرى قومى واضح تلتف حوله جميع الاتجاهات السياسية والثقافية. ولعدم نجاح قنواتنا الفضائية العربية وأيضا القومية فى تأكيد الذات الثقافية والفكرية بين أفراد الأمة العربية بالرغم من وجود العديد من العناصر الفعالة التى كان فى الإمكان الاستعانة بها.

فالقنوات الفضائية العربية التى جاوزت المائتى قناة والتى يتنافس ذوو الثروات الكبيرة على اقتنائها بهدف الربح السريع، عن طريق جذب الشباب بالدرجة الأولى من خلال الأغنية العربية التى لا يمكن أن نطلق عليها أغنية عربية تحمل فكر وواقع المجتمع العربى، ولكنها تجمع شتات وبقايا مجتمعات دخيلة بسلوكيات وممارسات وإيحاءات تزيد من القضايا العربية الأصيلة وتقضى تماما على أهم أركان الديموقراطية الثقافية والفكرية هذا من جانب والجانب الآخر الأكثر خطورة على المجتمع العربى هو أننا نصمم على

الاستمرار فى التنازل عن تراث الأمة وثقافتها الأصيلة. والأغرب من ذلك أن اللقاءات المتعددة للخبراء والعاملين العرب فى مجالات الإعلام والاتصال الجماهيرى عندما يجتمعون فى مناسبات عديدة تشجع القطاع الخاص على مزيد من التدخل والهيمنة على الإعلام والثقافة بحجة أن سمة العصر هى الانفتاح الاقتصادى، غير مدركين أن العصر هو عصر الهيمنة والسيطرة والتفوق بل وفرض الثقافات المتعددة ومن بينها الثقافات المغرضة والدخيلة التى لا تخلو من نوايا لها أهداف أصبحت واضحة للجميع. فالانفتاح الاقتصادى وتطبيق النظام الاقتصادى الحر فى مجالات الإعلام والثقافة والمعرفة يمكن تحقيقه فى دول عظمى وكبرى، أى يكون ذلك صحيحا فى دول صناعية كبرى تتحكم فى اقتصادياتها وسياساتها المكتملة البناء الاجتماعى والثقافى، ومن هذا المنطلق فمن حقنا أن ندافع عن ثقافة الأمة وأمنها الاجتماعى والفكرى، خاصة فى عصر ضعف فيه إنتاجنا الثقافى والفكرى والعلمى للعديد من الاعتبارات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، عصر أصبحت ثقافة الإعلان فيه هى المسيطرة والمهيمنة على مستقبل وعقول الشباب والأفراد .

من نلوم؟

ومن الغريب فى الموقف الإعلامى الراهن أننا نلقى اللوم على الخطاب الإعلامى الغربى الذى يتآمر على هويتنا الثقافية دون أن نلوم فى المقام الأول أنفسنا فنحن نتآمر على ثقافتنا وهويتنا وتراثنا المعرفى، بالعمل على تشجيع تمييع الإرادة العربية الواحدة وتفتيتها فى شكل برامج تبث فى قنوات متشابهة ومتضاربة تفرق الكلمة والصف الواحد، غير مدركين لخطورة عدم السيطرة على النظم التكنولوجية للمعلومات وعدم العمل على إيجاد آليات لتنظيم وترشيد نظم المعرفة التكنولوجية . فالتقدم التكنولوجى والصناعى خاصة فى عصر أصبحت فيه تكنولوجيا الثقافة والمعرفة وتطويرها وتجديدها هى القادرة على تأكيد السيادة بالعمل الدءوب المتقن والمنظم لفرضها على دول خاملة ساكنة خاضعة لم تعد قادرة على إنتاج معلومات نافعة لشعوبها لتهالك هياكلها التعليمية والثقافية والمعرفية والبحثية والصحية والاقتصادية. وتفتيت الجمهور العربى حول آراء متضاربة وأفكار مسطحة خاصة البرامج الترفيهية والثقافية بعيدة عن الواقع فتبث ثقافات دخيلة بفعل ما تقدمه بعض قنوات الأفلام بل وحتى القنوات العامة من أفلام أجنبية دون اختيار لمضمونها ودون تخطيط زمنى محكم يتواءم مع فئات الجمهور المستهدف، كل هذا يزيد من أزمة المشاركة الفعالة بل ويخلق نوعاً من التمرد على الواقع الذى تعيشه الأمة العربية من مآس وإحباطات لايمكن غض الطرف عنها فتتضاعف قضايا العولمة - كلما طغى المضمون التليفزيونى

المسطح – ذات الصبغة الاستهلاكية الإعلانية هدفها الأول والأخير مزيد من الربح المادى على حساب ثقافة العقل والمنطق وفكر يأخذ بيد الشعوب الضعيفة ويضاعف من وعيها البناء بالقضايا والمشكلات حتى تشارك فى عملية البناء والنهضة .

أصبحت الهوة التى تفصل بين الدول المتقدمة فى مجالات العلوم وصناعة التكنولوجيا والأقمار الصناعية لأهداف التسلح وتطوير عملية الاتصالات وجمع المعلومات وبين الدول الوسيطة والنامية والتى مازالت تسعى لإيجاد بعض المخارج والحلول للإصلاح فى مجالات البحث العلمى والتعليم والاقتصاد والقضايا الاجتماعية .. من اتساع وعمق هذه الفجوة فى مجالات العلوم والتكنولوجيا والصناعية امتدت إلى فجوة فى العلوم والمعرفة والمعلومات وأصبحت الدول النامية والعربية تعيش الآن فى عمق عصر جديد تتحكم فيه آليات كثيرة ومتداخلة، مزيج من الاقتصاد والسياسة والإعلام والثقافة لإحكام السيطرة والتحكم .

الإطار الفكرى

إن عدم التوازن فى عناصر تلك المنظومة سيؤدى إلى خلل فى التوازن القائم للنظام المعرفى داخل المجتمع المحدد، وتنقلب المعرفة التكنولوجية الحديثة القائمة على معلومات فى أغلبها لاتعبر عن فكر وثقافة الأمة إلى معلومات تهدد الإطار الفكرى والثقافى للمجتمع، خاصة إذا أضفنا عوامل أخرى على هذا النموذج، وتتمحور حول الدور الموجه الذى تقوم به القوى الاقتصادية والتجارية فى مجالات الفيلم السينمائى وتسويقة وفرضه من خلال سياسة محكمة فى الأسواق الداخلية فى العالم النامى والعربى على وجه التحديد، وفى مجالات إنتاج البرامج الدرامية والإخبارية والتسجيلية الخاصة الموجهة صوب الدول الإسلامية والعربية والنامية بصفة عامة والتى تأتى فى أغلبها من إنتاج وكالات الأنباء العالمية الأمريكية والشركات العملاقة لصناعة الفيلم الأمريكى وتسويقة فى الأسواق العالمية، هذا بخلاف الغزو الثقافى عن طريق فيلم الفيديو الذى يتلاءم مع وسائل التكنولوجيا الحديثة خاصة عبر الإنترنت وطرق المواصلات الإلكترونية الحديثة والمتعددة .. وكلها صيغ وأنواع للتسلط الفكرى والثقافى فى العصر الحديث، عصر التطور العلمى والصناعى والتكنولوجى، وعصر الهيمنة السياسية والاقتصادية والغزو المسلح . وعدم وضوح الرؤية فى تفسير مفهوم الأمن الثقافى والاجتماعى لعدم القدرة على تحديد عناصره الهامة والرئيسية لمواجهة التحديات المفروضة من النظام العالمى الجديد، والتحديات الدولية المستجدة .

خاصة على مستوى المنطقة العربية، ونحن نؤكد - كما أشرنا من قبل - أن أهم عناصر الأمن الثقافى والاجتماعى والإعلامى تنطلق من أهمية تكامل نظام للإعلام والثقافة المكتوبة منها والمرئية المسموعة قوامه التحديث فى مجالات الفكر والثقافة والإنتاج الغزير القائم على الديموقراطية الفكرية، فالأمن من خلال الثقافى والفكرى والأجتماعى هو منظومة يمكن تحقيقها فى العصر الحديث، عصر المعلومات الغزيرة ،إنتاج متوازن فى المعلومات الموضوعية المتدفقة، القائمة على البحث والتحليل العلمى المكتوبة منها والمرئية المسموعة .

وهذا يؤكد على أهمية المعرفة والثقافة والفكر القائم على العمل الجاد والانفتاح الفكرى للتعبير عن فكر الأمة وقضاياها الحقيقية فى ظل المتغيرات الحديثة كأساس تنطلق منها المعلومات والمعرفة تطويعها فى مجالات وسائل الإعلامْ والثقافة بأشكالها الحديثة التآمر على مقومات الشخصية العربية من الداخل، ولعل أخطر ما فى هذا المحور، هو التمادى والانقياد فى الاقتباس لمضمون غربى كالأغنية المصورة، وما تؤكده من سلوكيات هى فى الأساس إفراز طبيعى لتطورات فكرية غربية لاتشكل تحديات حقيقية بالنسبة للمجتمع العربى وشعوب الدول العربية فحسب، بل هى فى الواقع أهم وأخطر تحد يواجه ثقافة الدول العربية عامة فلم تعد تقليعة من التقليعات العابرة بل أصبحت أساسا يبنى عليها منظومة ثقافية وسلوكية وبصفة خاصة إعلانية للدعاية عن سلع استهلاكية كالملابس والسيارات وأسلوب الحياة الغربية متكامل، فيكفى أن نتابع فقرات الإعلان فى العديد من الفضائيات العربية، وفقرات العديد من البرامج، حتى وفى الإذاعات العزبية التجارية، ليس فى الأغنية فقط بل فى بعض البرامج، لنؤكد على أن هذا النوع من التقليد السطحى والأسلوب الركيك وما يتخلله من استخفاف بحروف اللغة العربية الصحيحة والأسلوب الأمثل للنطق بالكلمات والاستهانة بأصول الحوار المتقن القائم على الجهد والاتقان والإعداد الجيد خاصة فى البرامج الثقافية والتسجيلية، ويؤكد كل ذلك على أن هناك نظرة غير مدققة لمتطلبات المرحلة والتعبير الصحيح الرصين الذى يتعامل معها.

فإذا لم نسارع فى تغيير وتطوير سياستنا الإعلامية خاصة فى مجالات القنوات الفضائية العربية سيكون لذلك عواقب وخيمة على مستقبل ثقافة الأمة، قد تعصف بالشخصية العربية، وعناصرها الثقافية المستنيرة والأصيلة فنحن فى أمس الحاجة إلى العمل الجاد لتحليل وتفسير جوانب الشخصية العربية وتقديمها فى شكل يتلاءم مع متطلبات العصر الحديث، وإعادة إنتاجها من خلال تلك الوسائل التكنولوجية حتى يكون لنا اسهاماتنا الثقافية والفكرية الخلاقة ■

الانقسام الرقمي والديمقراطية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

انتهت فعاليات الاجتماع التحضيرى فى تونس للمرحلة الثانية من القمة العالمية لمجتمع المعلومات التى ستحتضنها تونس فى نوفمبر ٢٠٠٥.

صدر عن الاجتماع التحضيرى إعلان صحفى أكد توصل الاجتماع إلى اتفاق عام على المسائل التى ينبغى أن تشكل محور اهتمام قمة تونس نوفمبر ٢٠٠٥ وموافقتها على هيكلة العملية التحضيرية للمرحلة الثانية. وجدير بالإشارة أن هذا الاجتماع التحضيرى قد شهد مشاركة ٤٢٥ مندوبا يمثلون ١٢٧ حكومة والاتحاد الأوروبى و٢٧٢ مراقبا من ١١٣ منظمة تمثل المجتمع المدنى «القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية» اضافة إلى ٧١ مراقبا من ٣٣ منظمة دولية. وجاء فى الإعلان الصحفى تحت عنوان «الطريق إلى تونس»، أن «شعورا قويا ساد المناقشات بأن وقت العمل قد حان وأن قمة تونس لابد أن تتوجه نحو العمل» فقد تم التوصل إلي «المبادئ فى جينيف ٢٠٠٣ وحظيت بالموافقة واعتمدت خطة عمل تحدد الأهداف العليا من أجل إنشاء مجتمع للمعلومات يتسم بالشمول والعدالة». وكانت قضية الفجوة الرقمية من أهم القضايا التى ناقشها المؤتمر فى جينيف، ووضع لها الأهداف التى يسعى مؤتمر تونس فى ٢٠٠٥ إلى الاتفاق على صورتها التنفيذية، ونحاول هنا فى عجالة هذا العدد أن نلقى نظرة أكثر عمقا على الفجوة الرقمية التى تسود العالم.

• عــدم المســاواة فى تــوافــر المعلومــات!
• أيــن الريــف من ثــورة المعلــومــات؟!
• رؤيــة أخــرى لظــاهــرة الانقســام الرقمى
• عــدم المســاواة فى الحصول على المعلومــات

في بداية القرن الماضي، في ١٢ ديسمبر عام ١٩٠١، كشف جوجليلمو ماركوني **Guglielmo Marconi**، عن إمكانية الاتصال من خلال تقنية الراديو، وأرسل ثلاث نقاط، مرمزة بكود مورس للحرف «إس»، من مدينة كورنوال بانجلترا إلى نيوفندلند وهي ما تعرف الآن بكندا. وإرسال ماركوني عام ١٩٠١ يستحق الملاحظة هنا لسببين: أولا: المبتكرات الإبداعية التي رافقت هذا الإرسال الإذاعي المبكر كانت هي نفسها التي مكنت الإذاعة الحديثة، فالتقنية تقدمت وانطلقت في خطوات سريعة معتادة في تلك الفترة من القرن العشرين، وبعد خمس سنوات فقط، عبر البث الإذاعي التاريخي لماركوني المحيط الأطلسي .

وفوجئ مشغلو الراديو على السفن في المحيط الأطلسي بسماع بث للصوت الإنساني من أجهزة ماركوني المبنية بدلا من النقاط ووثبات رموز مورس. بعدها بثلاث سنوات، انتظمت أول محطة إذاعة كانت ترسل برامج الأخبار والموسيقى المسجلة في ليل كل أربعاء إلى حفنة من سكان سيليكون فالي في سان خوزيه، بكاليفورنيا، والذين اشتروا أجهزة للاستقبال الإذاعي من قبل للاستماع إلى محطات كانت هناك ، وثانيا : الاتصال اللاسلكي الذي أتاحته تجربة ماركوني كان أكثر من مجرد تقدم تقني فقط! فهو أيضا علامة فارقة مهمة للعولمة السريعة التي كانت إحدى أكثر الظواهر المهمة في القرن الأخير، وكانت لها نتائج اجتماعية واقتصادية واسعة النطاق. وبمعايير اليوم ، تعتبر تجربة ماركوني في ارسال حرف «إس» برموز مورس من أحد جوانب المحيط الأطلسي إلى الجانب الآخر إنجازا بسيطا للغاية! لكن إرسال ماركوني الفوري الأول كان أول اتصال عالمي، وكان يعني لدول المركز بداية مجتمع معلومات، في حين أعطى إشارة لدول الأطراف ببوادر الانقسام الرقمي :

حول مفهوم الانقسام الرقمي

بالرغم من أن ظاهرة تفاوت المعلومات أو عدم المساواة في المعلومات Information Inequality تناقش في أغلب الأحيان تحت مصطلح فاقة المعلومات Information Poverty أو الانقسام الرقمي أو التقسيم الرقمي Digital Divide ، أو أثرياء وفقراء المعلومات haves and have - nots أو الفجوة الرقمية digital gap، أجادل بأن هذه الشروط تستعمل أيضا في أغلب الأحيان بشكل غير ناقد . وعندما يناقش الانقسام

المتزايد بين أثرياء وفقراء المعلومات، نجد بضعة مؤلفين نسبيا حاولوا الكفاح لتعريف المعنى الحقيقى لهذا المفهوم بغض النظر عن المصطلح. وربط أغلب المؤلفين مفهوم عدم مساواة المعلومات، بالحالة السيئة للمعلوماتية وملازمتها مجازيا إلى الفاقة الاقتصادية.

وبداية نوضح أن الهوة أو الفجوة الرقمية أو الانقسام الرقمى على صلة وطيدة بالفجوات والانقسامات التقليدية المعروفة منذ عقود، فى الحضارة، والتنمية والاقتصاد والصناعة والتكنولوجيا، والعلم، والاعلام... إلخ، وهى على علاقة وطيدة بالعولمة وأشكالها: التكنولوجية، والمعلوماتية والاتصالية، وبمفهوم القرية العولمية ومستويات الشبكات: الدولية والإقليمية والمحلية والوطنية والقومية. وهذا كله امتداد لأطروحات السبعينيات والثمانينيات حول النظام الدولى (العالمى) الجديد. وفى المناقشات الأخيرة فى مؤتمر جنيف حول الانقسام الرقمى، ارتفع العديد من الأصوات لتذكيرنا بأن انقسام التنمية هو أكثر رعبا فى العالم، ويهدد فرص تحسين حياة ملايين البشر على هذه الأرض.

وبعد مرور قرن كامل على إرسال ماركونى ، احتلت ظاهرة ما يسمى الانقسام الرقمى مكانا مهما على جدول أعمال الحكومات ، والوكالات الدولية ، ومنظمات المجتمع المدنى حول العالم . وطوال السنوات القليلة الماضية كان هناك حلقات دراسية غير معدودة ودراسات وتقارير حول قضايا مختلفة ذات علاقة بتلك الظاهرة، ووضعت تكنولوجيات المعلومات والاتصالات على أجندة العديد من وكالات

الأمم المتحدة والعديد من الوكالات الإقليمية، وكانت الذروة فى القمة العالمية للمعلومات التى عقدت مرحلتها الأولى فى جنيف فى ديسمبر ٢٠٠٣، والمرحلة الثانية فى تونس ٢٠٠٥ مستضافة من قبل الاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية نيابة عن الأمم المتحدة . وتركيز الجهود الدولية على ظاهرة الانقسام الرقمى لا يدعو للاستغراب، فإذا بحثت فى محرك البحث جووجل google على الإنترنت عن ظاهرة الانقسام الرقمى Digital Divide هذه الأيام يعطيك أكثر من ٧٩٣,٠٠٠ إشارة لمواقع تتناول بالنقاش والبحث تلك الظاهرة .

وبغية تعريف الفجوة الرقمية على نحو أكمل، تشدد الدراسات على الإنترنت بأنه لا ينبغى أن يقتصر التعريف على عامل البلدان وعامل الثراء والفقر، وأن تؤخذ فى الاعتبار عوامل أخرى منها الفروق القائمة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية، واختلاف الأعمار، واختلاف مستويات التعليم، ومن ناحية العمر نجد أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى شهده القرن العشرون ، لا سيما فى علوم الأحياء والكيمياء والطب، كانت من نتائجه زيادة متوسط عمر الإنسان فى جميع أنحاء العالم. إذ يسكن العالم اليوم أناس تختلف أعمارهم اختلافا كبيرا، وتشكل فئة المسنين ، (فوق سن الستين) فى هرم الأعمار حيزا كبيرا ، بل ويزيد باستمرار . وكان هؤلاء السكان من الطبقات العاملة بالأمس، وكانوا يستخدمون فى حياتهم الاجتماعية والانتاجية تكنولوجيات توصلوا إلى تصميمها وإجادة استعمالها واعتبروها عصرية فى ذلك الوقت. ثم مضى الوقت، وتقدم العمر بهؤلاء السكان، فهرموا كما هرمت التكنولوجيا التى

يستعملونها والتى انتهى بها المطاف بأن جرفها تيار التنمية . وبدأت الأجيال الأكبر سنا تشعر بالحنين إلى الماضى وبالغربة وسط التكنولوجيات الجديدة. وبدأ فى الظهور انقسام رقمى بين جيلين: جيل أصغر سنا من المولعين بالتكنولوجيا الجديدة والخدمات المصاحبة لها، يستوعبونها جيدا ويستعملونها بحماس، وجيل أكبر سنا من الذين يشعرون بالحنين إلى الماضى ويشاهدون بفتور العالم الرقمى يدور من حولهم . وهذه الفجوة الرقمية بين الأجيال هى واقع ملموس فى البلدان المتقدمة والبلدان النامية على حد سواء. وأدى عاملان أساسيان إلى ظهور الفجوة الرقمية داخل الأسرة: المستوى الدراسى والأمية

ويلاحظ فى أسر كثيرة وجود فرق كبير فى المستوى الدراسى بين الآباء والأبناء. ففى حالات كثيرة لم يحصل الآباء إلا على قدر محدود من الدراسة يسمح لهم بمزاولة حرف بسيطة لا تستلزم معارف تقنية رفيعة المستوى ، ويسعون لتوفير الإمكانيات التى تتيح للأبناء الحصول على مستويات أعلى من الدراسة لم تتوافر للآباء من قبلهم . ويستعمل الأبناء فى دراستهم الأكاديمية تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة باعتبارها من أدوات البحث والعمل . وطالما يجمعهم بيت واحد مع آبائهم، تفصل بين الآباء والأبناء الفجوة الرقمية سابقة الذكر . أما الأمية فهى من العوامل التى تزيد من حدة الفجوة الرقمية فى الأسرة وتعانى منها البلدان الصناعية والبلدان الفقيرة على حد سواء فالأغلبية العظمى من الآباء فى أقل البلدان نموا من الأميين الذين ليس بمقدورهم استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على عكس أبنائهم الذين يطلبون منهم ما يلزمهم من مصروف لإجراء اتصالات هاتفية أو لإرسال واستقبال رسائل بالبريد الإلكترونى فى مقاهى الإنترنت وإجراء مراسلات دولية. وهكذا، فإن الثغرة الرقمية تزداد عمقا . ومن ناحية الريف والحضر، يوجد دائما توزيع غير متكافئ فى البنى التحتية للاتصالات بين المدينة والريف. فيلاحظ أن وفرة وسائل الاتصالات فى المناطق الحضرية (مثل توافر الخطوط الهاتفية الثابتة والمتنقلة، ومقاهى الإنترنت، وأجهزة الحاسوب، وكبائن الهاتف العمومى، وآلات التصوير، إلخ) بالمقارنة مع الحرمان شبه الكامل الذى تعانيه المناطق الريفية، لذلك يمكن إعادة تعريف تعبير «الفجوة الرقمية» أو ظاهرة الانقسام الرقمى بحيث تؤخذ فى الاعتبار عوامل الفروق بين المدينة والريف واختلاف الأجيال والمستوى التعليمى، بحيث يفهم من تعبير الفجوة الرقمية عدم التساوى فى إمكانيات الحصول على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة بين البلدان المتقدمة الثرية والبلدان الفقيرة، وبين الجيل الأصغر سنا والجيل الأكبر سنا ، وبين الحضر والريف ، وهو موضوع عجالة هذا الشهر .

الفجوة الرقمية الريفية

منذ عام ١٩٩٥، يوجد حتى الآن حوالى ٦٠٦ ملايين شخص على الانترنت فى العالم - يمثلون حوالى ١٠ بالمائة من سكان العالم . منهم ٦٢ بالمائة فى أمريكا الشمالية أو أوروبا الغربية، و٣١٪ فى دول إقليم آسيا والباسفيك، ٧٠٪ منهم متركز غالبا فى بضعة بلدان حوالى ٣ دول اليابان ، الصين ، كوريا الجنوبية (٥٦، ٥٠ ، ٢٦ مليون مستخدم على الترتيب). وبالكاد خمسة بالمائة فى أمريكا اللاتينية. وواحد فى المائة فقط فى أفريقيا جنوب

الصحراء الكبرى، مع أنهم تقريبا نفس تعداد سكان أمريكا الشمالية وأوروبا، وستون بالمائة من البالغين الأمريكيين له اتصال بالإنترنت، بينما في أفريقيا، حوالي واحد بالمائة من السكان على الإنترنت – نصفهم في جنوب أفريقيا وعمليا لا شئ في المناطق الريفية البعيدة. ودعنا لا ننسى بأن ثلث سكان العالم لا تصله الكهرباء، وبلايين من سكان العالم لم يجروا أبدا مكالمة هاتفية واحدة، وهناك تقريبا ٩٨ بالمائة من الأميين البالغين على مستوى العالم في الدول غير الصناعية. وأن عدد الأميين البالغين في العالم تقريبا ضعف أعداد المتصلين بالإنترنت حول العالم، وهم ٦٠٦ ملايين مستخدم وهو ما يساوى تقريبا عدد الأفارقة الذين لا يجدون مياه شرب نظيفة ويعيشون على أقل من دولار واحد للفرد في اليوم، ويساوى أيضا ٣ أضعاف المائتي مليون جائع في أفريقيا، التي لا تصل الكهرباء لـ٨٠٪ من سكانها الذين مازالوا يعيشون في الظلام بصورة بدائية.

وفي يوم افتتاح أول قمة عالمية للمعلومات ١٠ ديسمبر عام ٢٠٠٣ حذرت منظمة الأغذية والزراعة «فاو» من أن ثورة المعلومات قد أهملت تماما نحو مليار شخص لم يستفيدوا من التحول في نظم المعلومات العالمية وهم على الأكثر من سكان الريف الفقراء، الذين يعيش أغلبهم على أقل من دولار يوميا. الأمر الذى أدى إلى خلق فجوة رقمية ريفية تعوق عملية التنمية. واستنادا إلى مدير المكتبة والنظم التوثيقية لدى منظمة «الفاو» «أنطون مانفستل»، فهنالك فجوة رقمية ريفية ينبغي معالجتها. وقد أكد على ضرورة تركيز القمة العالمية المعنية بمجتمع المعلومات على فقراء العالم من سكان الريف، لا سيما وأن ما يزيد على ثلاثة أرباع السكان الأشد فقرا على ظهر الكوكب ممن تخلفوا عن اللحاق بركب التحولات المعلوماتية، هم معنيون بشكل مباشر أو غير مباشر بقطاع الزراعة.

ويذكر أن هناك أكثر من ٨٥٠ مليون شخص يعيشون في دول نامية بعيدا عن كم كبير من المعلومات والمعرفة ولا سيما فقراء الريف الذين يعيشون في عزلة عن كل وسائل الإعلام التقليدية وتكنولوجيا المعلومات والاتصال الحديثة التي بإمكانها تحسين سبل رزقهم ومعيشتهم. وإذا كانت المعلومات والمعرفة أساسيتان بالنسبة للديمقراطية، فهما شرطان للتنمية الريفية. إن سد فجوة المعلومات الريفية هو أمر لا يتعلق بالتقنيات فحسب، بل هو قرار سياسي بتسهيل الوصول إلى المعلومات. ويقول «فرانثيسكو تريخو» مدير المركز العالمي للمعلومات الزراعية لدى المنظمة: «إن هناك فجوة رقمية ريفية لا يتعلق سدها بتوفير المزيد من الحواسب، وأجهزة الراديو، والهواتف الجوالة فحسب». ويضيف قوله: «إن تيسير الوصول إلى المعلومات هو مسألة سياسية، وهذا يعني أنها تتطلب توافر الإرادة السياسية، والتعليم، والأموال».

الإنترنت للتنمية الريفية

وتركيز النقاش حول الانقسام الرقمي الريفي كشف عن مناطق جديدة من عدم المساواة العالمي ووضعت تصورات عن الفرص الجديدة للتنمية الريفية. على أية حال، الحماس في مناقشة تلك الظاهرة الجديدة لا يجب أن ينسينا الدروس التي تعلمناها في العقود السابقة حول الانقسامات الاجتماعية والاقتصادية الأخرى بين البلدان النامية والبلدان

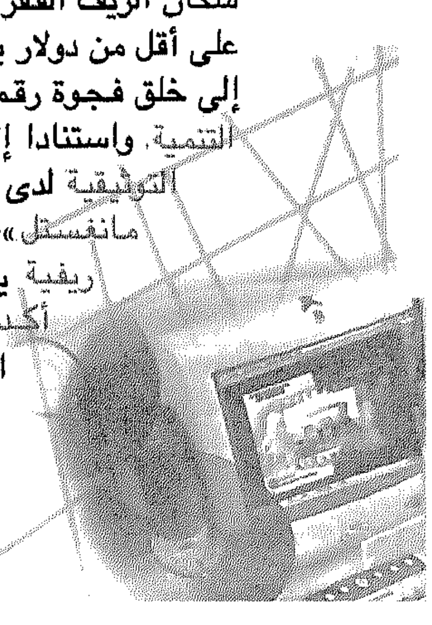

الغنية. وإذا كان الفقر المنتشر بين الناس في دول الأطراف هو السبب الرئيسي لعدم وصول الناس إلى الإنترنت، فهو أيضا نفس السبب لنقص المياه الصالحة للشرب، ونقص التعليم والرعاية الصحية والكهرباء والنقل. وإذا كان الاستثمار في الإنترنت يمكن أن يساعدهم على تحسين حياتهم، فإن الاستثمار في مياه الشرب والتعليم والرعاية الصحية يحسن حياتهم أيضا. والتشابه الثاني بين الإنترنت وقضايا التنمية الريفية مثل التعليم والرعاية الصحية هو أهمية وضرورة المشاركة المحلية خاصة إذا كانت المشاريع ستعالج مشاكل محلية أو تكون ملائمة للقدرات المحلية، فتاريخ التنمية الريفية يبين فشل كمية هائلة من مشروعات التنمية الريفية لعدم المشاركة والاستشارة المحلية بشكل كاف. ومشروعات الاتصالات ليست محصنة ضد الفشل لنفس السبب، وقد سمعنا عن قصص المجتمعات غير القادرة على الدخول في أسلاك الاتصالات التي تمر فوق رؤوسهم بسبب نقص الإشراف التنظيمي أو التقني البسيط، أو قلة مهارات الصيانة.

وفي العقد الماضي. بذل المجتمع الدولي جهدا كبيرا وأنفق الكثير في تطوير الاتصالات. وظهرت مبادرات رئيسية أخذت تشجع خصخصة احتكارات الهواتف الحكومية، ودعت للاستثمار الأجنبي المباشر في ذلك القطاع وتفعيل المنافسة. والنتائج كانت مؤثرة في بعض المناطق، خصوصا في الخدمة الهاتفية النقالة المدفوعة الأجر مسبقا، والتي انتشرت بسرعة وأصبحت متوافرة - أولا في المراكز الحضرية. ولم تنجح فعليا الجهود في نشر الإنترنت وتقديمها في الدول الأقل نموا، خصوصا في المناطق الريفية البعيدة. وبينما تتفاوت الأعداد طبقا للطريقة التي تحسب بها، وبنظرة سريعة في الإحصاءات نجد تقدما ضئيلا أحرز في انتشار الإنترنت، وتبين الاتجاهات زيادة عدم المساواة بين أغنياء المعلومات وفقراء المعلومات وبسرعة متزايدة. وإذا كان الطريق الوحيد لتسخير وتوظيف طاقات الإنترنت هو عبور الانقسام الرقمي بتزويد السكان الريفيين من بلدان الدول غير الصناعية بالخدمات التي تتمتع بها الدول المتقدمة، يجب ألا نتوقع النجاح في ذلك خلال الفترة العمرية من حياتنا. لأن هناك الكثير من الأكاذيب المعسولة التي تكمن تحت جبل الثلج فهناك الكثير من العوامل المركّبة التي تعرقل انتشار الإنترنت بين أغلبية سكان العالم. فاليونسكو تقدر عدد الأميين البالغين في العالم بنحو بليون! تقريبا حوالي ٢٥٪ من سكان العالم! ومعظم محتويات صفحات الويب (٦٨,٤٪) خاصة العلمية والمهنية مكتوبة بالإنجليزية، وتتطلب مهارة القراءة بالإنجليزية! بينما هناك أكثر من ٦٠٠٠ لغة في العالم منتشرة بتواضع شديد على الإنترنت، فالإنجليزية هي المسيطرة حتى الآن، مع ١٢ لغة أخرى لها تمثيل له معنى، فالانجليزية في الأول تليها اليابانية ثم الألمانية وبعدها الصينية ثم الفرنسية في المركز الخامس بنسبة ٣٪، ثم الاسبانية في المركز السادس ٢,٥٪! وعلى الأقل ٢٠٪ من سكان العالم يتكلمون لغات غير موجودة على الإنترنت بالمرة أو موجودة بالكاد! ونتفق بداية على أهمية التكنولوجيا، لكن الخروج من مأزق الفقر، يتطلب المعرفة، والمعرفة لا تأتي من تقنيات التكنولوجيا، لكن تأتي من التجربة، ومن مضمون المحتويات المرتبطة وذات المعنى! سواء كان هذا المحتوى رقميا أو غير رقمي! فالمحتوى الذي يوضح أساليب زراعية مفيدة أو طرق عمل مبتكرة في

الأسواق المحلية، يمكن أن تتحول إلى معرفة تسهم فى زيادة الإنتاج والحصول على أسعار أفضل، والمحتوى حول الطب التقليدى المتوافر محليا أو طرق التغذية يستطيع أن يساعد على حياة أطول وأفضل. ومحتوى حول الحقوق والواجبات والمسئوليات والاختيارات يعتبر شرطا أساسيا وضرورة ومحفزا للديمقراطية. من الواضح أن أنظمة توزيع المعرفة تصبح أكثر فاعلية عندما تبنى على أنظمة معلومات محلية مستعملة فعلا. هذه الأنظمة المحليّة لم تصنع من الأسلاك أو الليف الزجاجى، لكنّها أنظمة الاتصالات البشرية. هذا يعنى أنه بالإضافة إلى بنية تحتية اتصالية، واستعمالات ناجحة للإنترنت سيندمج وسطاء المجتمع المحلى الريفى ومؤسساته والأشخاص الذين يستعملون الإنترنت ويعملون كجسر بينه وأعضاء المجتمع المحلى الريفى. ووسطاء المجتمع المحلى الريفى يجيئون من المجتمع نفسه. هم يمكن أن يكونوا قابلات، أو معلمين، أو مرشدين زراعيين، أصحاب الخبرة وكبار السن من القيادات الرسمية وغير الرسمية الذين يملكون مفاتيح الاتصال والقوة فى نظام المعلومات للمجتمع المحلىّ. والخصائص التى تجعل وسطاء المجتمع جيّدين تتضمّن التلاصق والقرب من أفراد المجتمع، والثقة والمعرفة، وما يتضمن ذلك من القدرة على دمج تقنيات المعرفة حول تكنولوجيات المعلومات والاتصالات مع معارف السياق المحلى البيئة التى ستوظف فيها. وهكذا، بينما الإنترنت هى واحدة من طرق الوصول المعرفة، نجد الوصول المباشر إلى بنيتها التحتية ليس هو الطريق الوحيد لذلك فى أكثر الحالات، ولا هو أفضل طريق للتنمية الريفية، فالاذاعة الريفية المحلية، ووسطاء المجتمع الريفى المحلى كالمدرسين والمرشدين والأطباء أظهروا قوة فى الماضى وبالاستراتيجيات والسياسات الصحيحة، ويستطيعون لعب دور ضرورى فى المستقبل.

الإذاعة الريفية

تسعون سنة مرت على إنشاء أول محطة للإذاعة فى العالم، ومازال الراديو هو وسيلة الإعلام الجماهيرية الأكثر مرونة وسهولة، والأرخص والأسهل وصولا، والأوسع انتشارا بالمقارنة ببقية الوسائل الاتصالية الجماهيرية المتوافرة بما فيها الإنترنت! والراديو فى المناطق الريفية البعيدة يعتبر فى أغلب الأحيان وسيلة الإعلام الجماهيرية الوحيدة المتوافرة. وانخفاض تكاليف الإنتاج والتوزيع الإذاعى جعل الراديو يملك القدرة على ترجمة العالم من المنظور المحلىّ، ويشبع الحاجات المحليّة للمعلومات. والراديو يتكلم لغة ولهجة المجتمع المحلى الريفى أكثر من أى وسيط اتصالى جماهيرى آخر. والبرامج الإذاعية عادة ما تعكس المصالح والاهتمامات والاحتياجات المحليّة وهى تستطيع تقديم مساهمات مهمة إلى كل من التراث والتنمية الريفية وتطوير الثقافات واقتصاديات المجتمعات المحلية المحيطة. والراديو أكثر وسائل الاتصال محلية . فى أمريكا اللاتينية، على سبيل المثال، بينما أكثر برامج الراديو تنتج محليا أو قوميا، نجد فقط ٣٠ بالمائة من البرامج تليفزيونية تجئ من المنطقة! و٦٢ بالمائة من تلك البرامج منتجة فى الولايات المتحدة الأمريكية، لغة الكويتشرا، يتكلم بها حوالى ١٠ ملايين شخص فى بوليفيا وإكوادور وبيرو، لكنها غائبة عن شاشات تليفزيون المنطقة، لكن فى بيرو لوحدها ١٨٠ محطة إذاعة برامجها تستعمل لغة

الكويتشرا بانتظام. نفس الموقف صحيح في أفريقيا، حيث تنتج محطّات الإذاعة المحليّة برامجها وتتكلّم بمئات اللغات المحلية. والراديو أيضا متوافر جدا مع الجميع. بينما هناك فقط خطا تليفون لكل مائة شخص في أفريقيا بينما يوجد عشرون مستقبلا للبرامج الإذاعية بين كل مائة ، حتى في المناطق الريفية البعيدة معظم العوائل تستقبل الخدمة الإذاعية ومحطات الإذاعة أيضا تتصف بالعمومية والانتشار فهي للجميع ، وقبل خمس عشرة سنة كان هناك فقط عشر محطات إذاعة مستقلة (غير حكومية) في كلّ جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا؛ الآن هناك الآلاف، والعديد منها واقع في البلدان الصغيرة وتخدم المجتمعات الريفية المحلية. والسكّان الريفيون، نساء، وشباب، وأقليات عرقية ولغوية وحتى الأطفال استفادوا من الانفجار الإذاعي في أفريقيا، ويستطيعون رؤية أنفسهم المنعكسة في أجهزة الإعلام للمرة الأولى. أمريكا اللاتينية ما كان عندها نفس الهيمنة الحكومية على الراديو، لكنّها جربت ازدهار محطات الراديو المحلية والمستقلة في الثمانينات والتسعينات. ومنذ فترة طويلة قبل انفجار وإشهار الإنترنت، شاعت فكرة التقارب والدمج بين أجهزة الاعلام والاتصالات، مثل محطات الإذاعة المحلية التي كانت تقوم بدور هاتف المجتمع المحلي الريفي، وخصصت ساعات عديدة يومية لإذاعة وإرسال رسائل شخصية، وإعلانات الوفاة والولادة، والدعوة إلى الحفلات، وطلب الغذاء والتجهيزات من القرى القريبة، وطلب المعونة الطبية المستعجلة والطارئة، حتى طلب النصيحة الطبية من الطبيب المحلي بصفة شخصية.

والعديد من محطّات الإذاعة المحلية في المناطق الريفية كانت تعمل من خلال الملتيميديا (الصوت والصورة) قبل أن ينتشر ذلك التعبير وأصبح له شعبية، وفي أغلب الأحيان كانت مركز الاتصالات بالمجتمع المحلي الريفي، من خلال نشاطات الاتصال العديدة بما فيها نشر المطبوعات، وإنتاج فيديو، وحتى تشغيل السينما. وفي المناطق الريفية البعيدة يعتبر الراديو هو المصدر الوحيد للمعلومات حول أسعار سوق المحاصيل، وهو الدفاع الحاسم ضد المضاربين، ويوظف الراديو في برامج الإرشاد الزراعي، ويعتبر آلية للتعليم الرسمي والتعليم غير الرسمي، ويلعب دورا مهما في حفظ اللغة والثقافة المحلية. والراديو في بعض أجزاء من العالم يعتبر هبة، وأمرا مفروغا منه، وفي أجزاء أخرى لا يرى أكثر من كونه ملحقا ترفيهيا في السيارات، وفي بعض مناطق من العالم يقوم بعدة أدوار: فهو وسيلة الإعلام الجماهيرية الوحيدة التي يستطيع غالبية الناس الوصول لها، وهو وسيط اتصال شخصي يقوم بوظيفة هاتف المجتمع المحلي الريفي، وهو أيضا مدرسة، ومركز اتصالات، وهو نقطة بداية اتصال المجتمع المحلي الريفي بالبنيان المعرفي العالمي، والراديو يمتلك طاقات وإمكانيات هائلة، قابلة للتوظيف من أجل التنمية الريفية. والراديو بآلياته المثيرة والتفاعلية والمتصلة بالواقع قادر على توصيل صوت المجتمعات المحلية المهملة، وتوسيع قاعدة المشاركة تفعيلا للعمليات الديمقراطية. ويتيح الفرصة لسكان المجتمع المحلي الريفي، للمشاركة في عمليات اتخاذ القرارت المؤثرة على حياتهم. ويحسن مستويات معيشتهم في النهاية.

بين الراديو والإنترنت

والخصائص الأربع الأكثر أهمية والتي ساهمت في جعل الراديو أنجح وسائط

الاتصال في مجال التنمية الريفية: (١) انتشاره وتغلغله، (٢) طبيعته المحلية، (٣) طبيعته كوسيط شفوي و(٤) قدرته على تضمين المجتمعات المحلية والأشخاص في عملية اتصال تحقق تفاعلا اجتماعيا. والخصائص الثلاثة الأولى واضحة جدا، لكن من المفيد توضيح مفهوم إتصال يحقق تفاعلا اجتماعيا، لكي نميزه عن التفاعلية، التي تتميز بها عادة الإنترنت وتشير إلى قدرة الأفراد المستعملين للإنترنت للتفاعل بطريقة مباشرة وفورية مع موقع ويب معين أو مع شخص آخر أو شركة أو مؤسسة من خلال البريد الإلكتروني مثلا. والراديو أيضا يمكن أن يحقق خاصية التفاعلية، عن طريق استعمال المكالمة الهاتفية في البرامج، أو برامج الميكروفون المفتوح على الهواء مباشرة، أو تبادل الرسائل، إلخ. على أية حال، برع الراديو في تحفيز الاتصال الاجتماعي التفاعلي داخل المجتمع المحلي الريفي، على سبيل المثال البرامج الإذاعية التي تتناول القضايا المحلية، وإعلام المستمعين عن أبعادها يحفز الاتصال التفاعلي بين أعضاء المجتمع المحلي الريفي، وبينما يستمرون في ممارسة حياتهم اليومية من المحتمل أن يؤدي هذا التفاعل إلى تطوير فهم مشترك عن مشاكل المجتمع المحلي الريفي والاقتراحات المناسبة لحلولها. ومع مرور الوقت تستمر هذه الاقتراحات، ويمكن أن تعقد لها حلقة مناقشة على شكل برنامج إذاعي آخر، وتناقش أكثر وتنقد وفقا لظروف المجتمع المحلي الريفي.

إن الإنترنت مميزة بالتفاعلية، والتقنية، إمكانيتها في هذا المجال أعظم جدا من الراديو. وهي أيضا مخزن للمعارف المفيدة، وبين ملايين من صفحات الويب هناك كمية كبيرة من المعلومات ذات العلاقة بقضايا التنمية الريفية. على أية حال، فإن موانع الوصول إلى الإنترنت هي معرفة القراءة والكتابة، سيادة لغات دول المركز، مدى ملاءمة المحتوى - فهي عقبات ساحقة حالية، ويجب أن نتغلب عليها حتى يستطيع أغلب سكان العالم أن يملكوا القدرة على تصفح الإنترنت لإيجاد الحلول المناسبة لمواجهة مشاكل الفقر. والنماذج البديلة لمواجهة تلك العقبات، هي مراكز الاتصال ومقاهي الإنترنت، وتقديم الاستشارات للمشاريع، وبرامج الترجمة والكتابة والكلام، بعض من هذه البدائل الآن يجعل الإنترنت أكثر سهولة للوصول إليها.

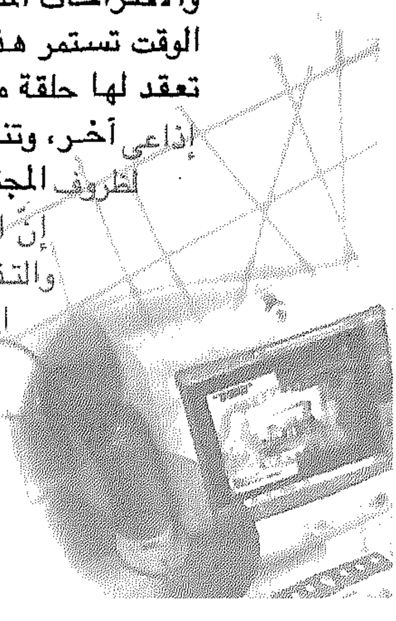

دمج الراديو على الانترنت لعبور الفجوة الرقمية

الإذاعة لا تزال وسيلة الاتصالات الأسهل، والأوفر، والأكثر شعبية بالنسبة للمليارات من أبناء المناطق الريفية، حيث ترتفع معدلات الأمية وتنعدم مرافق الكهرباء، والهاتف، والإنترنت، وعملت منظمة الفاو في ميدان الإذاعة الريفية لمدة تزيد على ثلاثين عاماً، وساعدت على إنشاء المحطات الإذاعية وتدريب المذيعين. وبالإضافة إلى ذلك فإن المنظمة تزود المذيعين بصحائف الحقائق عن قضايا الأمن الغذائي وتوفر المعلومات عن الأحوال الجوية، وعمليات مرحلة ما بعد الحصاد، ونظم الإنذار المبكر، وسلامة الأغذية، والتغذية. وبمقدور المذيعين استخدام هذه المواد في برامجهم الموجهة إلى المزارعين المحليين وتساعد المنظمة كذلك في ربط المحطات الإذاعية المجتمعية المحلية بشبكة الإنترنت وتدريب المذيعين على جمع المعلومات ومواءمتها

لاستخدامها فى البرامج الإذاعية. وفى السنوات القليلة الماضية نفذت عددا من التجارب خلطت ومزجت ودمجت بين محطات الراديو المحلىّ المستقل مع الإنترنت وخلقت نماذج جديدة تجمع مزايا الوسيطين، ففي أمريكا الشمالية وأوروبا العديد من محطّات الإذاعة الريفية قدمت برامجها على الإنترنت، باستعمال برامج مشهورة ومتاحة ولها شعبية مثل برامج Windows Media Player,Real Audio . ويوجد موقع ويب يسمى Radio-Locator يدرج عددا من محطّات الإذاعة المرتبطة بالإنترنت ولها صلات حاليا إلى أكثر من ٢٥٠٠ محطة إذاعة من المحطات العالمية. والعديد من هذه المحطات وسعت قدرتها فى الوصول إلى المستمعين من خلال استعمال الإنترنت لتقديم برامجها إلى مستمعين بعيدين جغرافيا، لكن البعض يستعملون ويوظفون الخصائص التفاعلية للإنترنت لتقديم خدمة مضافة إلى المستمعين المحليين مثل مناقشة المستحدثات الزراعية الجديدة.

ورغم أن هذا النمط من الإذاعة المحملة على الإنترنت يناسب ظروف الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، إلا أن هناك ٧ تجارب مشابهة أقيمت فى أفريقيا، والعديد من هذه التجارب قدّمت فى آسيا وأمريكا اللاتينية ودول الكاريبى فى برامج التنمية الريفية مستغلة الإمكانيات الإبداعية التفاعلية للإنترنت لتحسين الاتصال الاجتماعى التفاعلى بالراديو، مثل محطة إذاعة كوستاريكا على شبكة الانترنت «فاير» إذاعة مجتمع محلى إلى المجتمع الدولى عن طريق بث صوت السيدات المحليات إلى المستمعين الدوليين من خلال محطات إذاعات الانترنت. وظهرت مشروعات التنمية الريفية التجريبية التى توظف الراديو المحمل على الإنترنت فى بيئات متميّزة جداً أو تبحث عن عنوان مختلف لطبيعة التجربة والمشاكل التى تواجهها. والانترنت وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة الأخرى غيرت الإذاعة فى العالم النامى، ولكنها لم تجعلها أقل أهمية وإنما فتحت لها إمكانيات لم يتصورها أحد حتى الآن. فالمذيعون الذين كانوا يسافرون لساعات بل أيام للوصول إلى مكتبة عامة لإعداد برنامج، لديهم الآن اتصال فورى بالانترنت. وكالات الأخبار الإذاعية القطرية والإقليمية والعالمية جعلت الأخبار العالمية ووجهات النظر المختلفة متوافرة حتى بالنسبة للمجتمعات النائية. وساعد مزج الإذاعة والاتصالات التكنولوجية على تلاحم المجتمعات ببعضها برغم المسافات التى تفرضها الهجرة. وهذا التقارب بين الراديو والانترنت. يبشر باتخاذ أهمية وقيمة أكبر للإذاعة.. وهنا نذكر أن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ليس لها فعل السحر فى مقاومة التخلف ومحاربة الفقر - وإحداث التنمية فى الريف، بل هى عامل محفز، ولها قدرة على تسهيل التكامل السريع للمناطق الريفية، وقادرة على المساعدة فى تحسين وتطوير قطاعات التعليم والرعاية الصحية والزراعية والمشروعات الصغيرة، وأخيرا نكرر مرة أخرى أن عبور الفجوة الرقمية الريفية ليس بتوفير المزيد من الحواسب وأجهزة الراديو، وخطوط التليفون الأرضى والهواتف الجوّالة فحسب، بل هو مسألة سياسية، وهذا يعنى أنها تتطلب توافر الإرادة السياسية، والتعليم، والأموال ■

علي عزت بيجوفيتش

حكيم البوسنة الذى رحل..

بقلم
محمد يوسف عدس

رحل عن عالمنا على عزت بيجوفيتش الرئيس السابق لجمهورية البوسنة والهرسك فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ٢٠٠٣، عن عمر يناهز الثمانية والسبعين، ولكن حياته الحقيقية كانت أطول وأعمق من ذلك بكثير، فالعمر الحقيقى لايقاس بعدد السنين وإنما يحسب بإنجازات الإنسان ونشاطه وفاعليته، وبتأثير فكره ومواقفه على مجتمعه وعصره، وفي هذه المجالات كلها كانت شخصية عزت بيجوفيتش نموذجا حيا وطرازا فريدا من البشر القادرين على التأثير والتغيير والقيادة.

حفلت حياته بالفكر والعمل والنشاط حتى السنوات التى قضاها فى السجن - بتهم ملفقة - لم تضع هباء، وإنما استثمرها فى كتابة واحد من أبدع أعماله الفكرية « فرار إلى الحرية» سطّره فى بضعة آلاف من الصفحات أودع فيها أعمق تأملاته فى الحياة والدين والفن والسياسة والفلسفة والأخلاق، وأعاد النظر فى بعض قراءاته السابقة وتقييمه للشخصيات والمواقف، لم يملأه السجن مرارة تجاه الحياة والناس، ولم يستسلم لليأس أو الاكتئاب بل زاده إيمانا بقيمة الحرية الإنسانية وجعله أكثر يقينا بأن الحرية هى أعظم

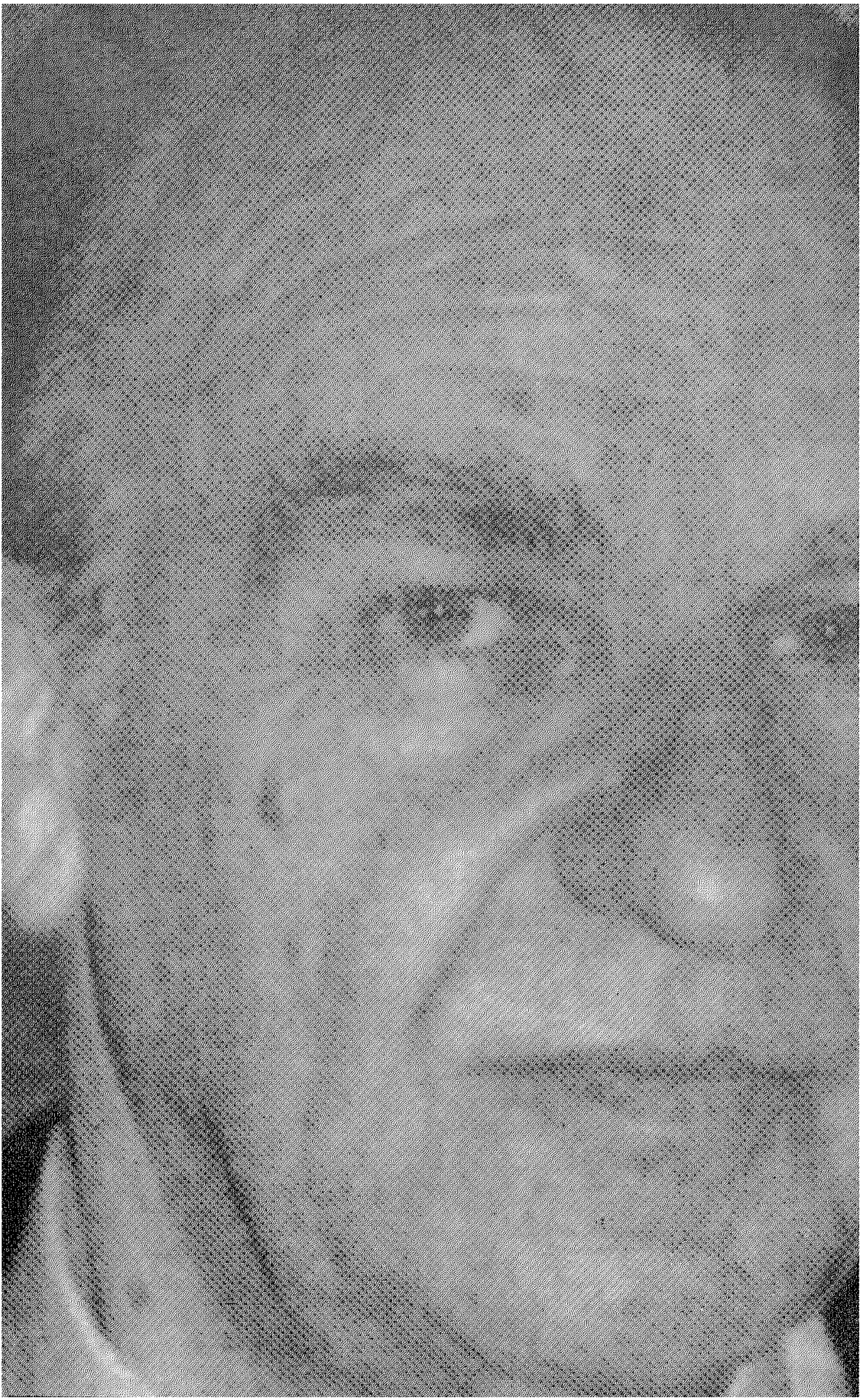

هبة منحها الله للإنسان، وأن الدفاع عنها أنبل مهمة تكفّل بها الإنسان وهو مسئول عنها أمام واهبها الأعظم (الله سبحانه وتعالى).

لن أنتقم!

وعندما خرج من السجن وتم انتخابه في السنة التالية رئيسا لجمهورية البوسنة سنة ١٩٩٠ ظن البعض أن الفرصة قد واتته لينتقم من أعدائه الذين لفّقوا له التهم وزوّروا شهادة الشهود وحكموا عليه بعقوبة غليظة في السجن، ولكنه لم يفعل، فلما سأله بعض الصحفيين: ألا تنتقم ممن ظلموك الآن وقد تمكنت منهم؟ فأجاب بقوله: «لا أنتقم الآن ولا بعد ذلك. نعم إنني مازلت أشعر بالظلم ولا أستطيع أن أحمل نفسي على نسيان تجربة السجن المريرة، ولكني لا أنتقم أبدا.. فقد أصبحت الآن مسئولاً عن حياة الجميع وحرياتهم».

وبالفعل ظل خصوم عزت بيجوفيتش في وظائفهم لم ينتقم منهم ولم يمسسهم بسوء طوال رئاسته للدولة، لقد آثر كظم الغيظ والعفو وهو في ذروة السلطة.

أدرك عزت بيجوفيتش في وقت مبكر من حياته حقيقة الظلم والاضطهاد الذي يتعرض له شعبه المسلم سواء في عهد يوغسلافيا الملكية أو يوغسلافيا الشيوعية فدفعه هذا الإدراك إلى التنقيب عن جذور هذا الظلم في الفكر الغربي حتى أنه استطاع أن يستوعب أهم الأعمال الفلسفية لكبار الفلاسفة الأوربيين وهو لم يتجاوز بعد سن التاسعة عشرة من عمره، وربما كان هذا الإدراك أيضا وراء اتجاهه إلى دراسة القانون في مرحلته الجامعية كأداة للدفاع عن حقوق شعبه

الشيوعيون في البوسنة

بدأ النظام الشيوعي في عهده في البوسنة بهجوم شرس على الإسلام وتبين له أنه هجوم ظالم قائم على الافتراءات والأكاذيب والجهل فتصدى للدفاع عن الإسلام في خطاب علني أمام حشد من الجماهير في سراييفو، فاستقبله الناس بالاستحسان والتأييد والهتاف، وكان رد فعل السلطات الشيوعية فوريا، حيث ألقت القبض عليه وهو لا يزال على منصة الخطابة وأودعته السجن لمدة ثلاثة أعوام.

نُشر له كتاب بعنوان «الإعلان الإسلامي» سنة ١٩٨٣ جمع فيه عددا من المقالات سبق نشرها في عقد سابق، تتناول مشكلات العالم الإسلامي بصفة عامة وليس فيه ذكر ليوغسلافيا أو البوسنة، ومع ذلك اعتبرته السلطات تحريضا على الثورة، ومن ثم ألقت القبض عليه مع عدد من المثقفين المسلمين الآخرين ولفقت لهم تهمة الإعداد لانقلاب وإنشاء دولة إسلامية مقصورة على المسلمين، وكان نصيب عزت بيجوفيتش في هذه المحاكمة ١٤ سنة سجنا مع الأشغال الشاقة، لكنه قضى منها ستة أعوام فقط، واضطرت السلطات إلى الإفراج عنه تحت ضغوط الأوضاع التي أحدثت الانهيار المفاجيء للأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية سنة ١٩٨٩.

زعيم الجماهير

خرج عزت بيجوفيتش من المعتقل ليجد نفسه في قلب معركة من نوع

جديد، فقد كان دور الزعيم السياسى فى البوسنة شاغرا، فدفعته الجماهير إليه دفعا لأنها رأت فيه أنسب الشخصيات لقيادة الشعب فى مرحلة ما بعد النظام الشيوعى المتداعى أصبح عزت بيجوفيتش زعيما لحزب جديد هو حزب العمل الديمقراطى، كما أصبح فى عام واحد بعد خروجه من المعتقل أول رئيس مسلم لجمهورية البوسنة (الديمقراطية)، اختاره الشعب فى انتخابات تعددية حرّة.

كان المناخ السياسى فى يوغسلافيا قد تغيرّ تغييرا شاملا حيث تراجعت الشيوعية لتنطلق القومية الصربية من عقالها، وهى أيديولوجية عنصرية قديمة تهدف إلى إقامة صربيا الكبرى الخالية عرقيا من المسلمين والكاثوليك.

لم يكن عزت بيجوفيتش راغبا فى الانفصال عن الاتحاد اليوغسلافى رغبة كرواتيا وسلوفينيا فى الانفصال، بل كان حريصاً على الإبقاء على يوغسلافيا موحدة فى إطار ديمقراطى جديد يضمن الحرية والحقوق والخصوصيات الثقافية للجمهوريات والشعوب التى تشكل يوغسلافيا، وقدم فى هذا مشروعا حاز قبول المجتمع الأوروبى، ولكن رفضته صربيا فانسحبت كرواتيا وسلوفينيا، وهنا خشى عزت بيجوفيتش أن تبقى البوسنة وحدها تحت رحمة صربيا، فأجرى استفتاء عاما صوّت فيه شعب البوسنة لصالح الاستقلال، وقد اعترفت أوروبا كما اعترفت الأمم المتحدة بالدولة البسنوية المستقلة. ولكن فى عشية إعلان الاستقلال هاجمت القوات الصربية البوسنة وبدأت حرب التطهير العرقى التى عرفها العالم فى حينها (أبريل ١٩٩٢).

كاريزما بيجوفيتش

استطاعت البوسنة بقيادة عزت بيجوفيتش أن تكسب قلوب شعوب العالم بأسره بفضل جهاده وحكمته ونفاذ بصيرته، كان يعمل عشرين ساعة فى اليوم فما اشتكى من مشقة العمل ولا أجهده كثرة السفر ولا طول السهر وكأنما قُدّت أعصابه من فولاذ. وهبه الله قلبا مؤمنا جسورا كان يقتحم به المخاطر والشدائد بيقين فى النصر الذى لا سبيل إلى ردّه مهما بلغت قوة العدو وجبروته.

أقام عزت بيجوفيتش جيشا من لا شىء فإذا به يبلغ فى نهاية الحرب مائتى ألف مقاتل، استطاع رغم سلاحه المتواضع أن يجمد خطوط المواجهة، وأن يُحيّد مئات الدبابات الصربية، ثم تحول إلى الهجوم فأحرز انتصارات باهرة وقام بتحرير مساحات واسعة من الأراضى المحتلة وتمكن فى النهاية من حصار مدينة بنيالوكا مقر قيادة العدو العسكرية. وعندئذ فقط تدخلت القوى الدولية بالقوة لوقف القتال ودعوة أطراف النزاع إلى المفاوضات حيث انحل الصراع باتفاقية دايتون للسلام.

أنشأ عزت بيجوفيتش - لأول مرة فى تاريخ يوغسلافيا - نظاما ديمقراطيا، فى الوقت الذى كان خصومه فى صربيا وكرواتيا يمارسون حكما دكتاتوريا مستبدا، وقد انتخبه شعب البوسنة مرتين لرئاسة الجمهورية، ولكنه اختصر فترته الثانية فى الحكم بالاستقالة من منصبه ومن زعامة الحزب، عندما أدرك أن القوى الغربية التى

تشرف على تنفيذ اتفاقية دايتون في البوسنة تماطل في تنفيذ الجانب المدني من الاتفاقية خصوصا ما يتصل بإعادة إعمارها، وملاحقة كبار مجرمي الحرب الذين لا يزالون إلى اليوم طلقاء، وإعادة اللاجئين المسلمين إلى ديارهم التي طردوا منها في المناطق التي يهيمن عليها الصرب والكروات.

وعندما حاول عزت بيجوفيتش حث دول الغرب على تنفيذ التزامها تجاه البوسنة، وردت إليه إشارات واضحة أن هذا لن يتحقق طالما هو موجود في السلطة وفي زعامة حزب العمل الديمقراطي فاستقال مضحيا بمركزه مؤثرا مصلحة بلاده.

بلغ عزت بيجوفيتش من تقديره لقيمة الحرية الإنسانية واحترامه لحرية التعبير أنه رفض أن يفرض أي نوع من الرقابة على الاعلام والصحافة حتى أثناء الحرب، وكان هذا موقفا مثيرا لدهشة المراقبين سجلته المنظمات الدولية لحقوق الإنسان وأصدرت في هذا كتابا مشهورا قارنت فيه بين هذه الحالة في البوسنة وبين حالة القمع الاعلامي في صربيا وكرواتيا المجاورتين.

وعي ودراية

وقد تنبأ عزت بيجوفيتش بأمور تحققت بالفعل مما يدل على نفاذ بصيرته وقدرته المذهلة على تحليل الأوضاع النفسية والتاريخية والاجتماعية للشعوب والمجتمعات: تنبأ بانهيار النظم الشيوعية تأسيسا على تناقضها مع الطبيعة الإنسانية فانهارت خلال ثلاثة عقود. وتنبأ باستمرارية الاضطراب السياسي في صربيا إلى أجل غير مسمى، وهو ما يحدث حتى هذه اللحظة. وتنبأ بانتهاء الدكتاتورية بعد زوال نظام فرانيو توچمان من كرواتيا، وقيام نظام ديمقراطي متقدم وقابل للنمو والقوة وهو ما نراه الآن يتحقق في كرواتيا. وتنبأ بأن النظام الديمقراطي في البوسنة والهرسك سوف «يظل شعلة مضيئة في ليل البلقان المظلم» وهذا ما نراه اليوم ماثلا أمامنا - ومن مذكراته التي نشرت سنة ٢٠٠٣م تحدث عن توقعاته لصورة العالم سنة ٢٠٣٠م فقال: ستكون أوروبا كيانا سياسيا واحدا، وسيكون الشرق الأقصى هو مركز العالم، وستفقد أمريكا سيطرتها في العالم بسبب سقوطها الأخلاقي»، والإشارات على هذا المصير تتأكد في مجرى الأحداث.

لم يدخل عزت بيجوفيتش عالم السياسة من باب الاحتراف أو الرغبة في الشهرة والزعامة، فقد كان زاهدا في هذا كله، وقد بقي في قيادة الأمة مؤديا واجبه في مقاومة العدوان ورده حتى أبلغ أمّته مأمنها وحقق لها السلام، ثم تخلى عن القيادة والسياسة لأجيال أخرى جديدة لمواصلة عملية البناء وكان طوال الوقت يتمنى - كما عبر هو بنفسه - أن يظل في موقع المفكر المصلح ليدفع عجلة الإصلاح والتقدم بعيدا عن السلطة وعن المناصب.

عاد عزت بيجوفيتش بعد تخلّيه عن مناصبه الرسمية ليكتب سيرته الذاتية التي صدرت سنة ٢٠٠٣م فجاءت مزاجا من الأدب الرفيع والدقة الموضوعية، وقد أشرنا آنفا إلى كتابه الذي سطره في المعتقل بعنوان «فرار إلى الحرية»، وله إلى جانب كتبه العديدة مئات المقالات

والمحاضرات والأحاديث الصحفية والخطب السياسية فى بلاده وخارجها، وكان فى كل ما كتب أو تحدث أو حاضر يعبر أصدق تعبير وأخلصه عن فكر حر وشعور بالمسئولية تجاه شعبه وتجاه الإنسانية، وبالتأكيد تجاه عقيدته الإسلامية التى يكن لها أعظم احترام ومحبة.

بين كتابين

تأثرت مسيرة حياة عزت بيجوفيتش بكتابين له: دخل المعتقل بسبب أحدهما كما أشرنا من قبل وهو «الإعلان الإسلامى»، وأما كتابه الثانى «الإسلام بين الشرق والغرب» فقد نال عنه جائزة الملك فيصل الدولية، وتُرجم إلى معظم لغات العالم الحية، واكتسب بذلك شهرة كبيرة، وأحدث دويا هائلاً فى الأوساط الفلسفية والفكرية واحتفل به المثقفون فى الشرق والغرب على السواء، ولم ينج بطبيعة الحال من هجوم الكارهين للإسلام والمفترين عليه من أمثال «هنرى كيسنجر». العجيب فى أمر هذا الكتاب أنه ظل حبيسا طوال عقدين من الزمن فلم يُنشر فى وطنه الأم، ومنعت حكومة «ميتران» دخوله إلى فرنسا (بلد الحرية الفكرية) استنادا إلى قانون قديم يرجع إلى عشرينات القرن الماضى.

ولعل هذه الواقعة كانت حاضرة فى ذهنه ضمن مواقف أوروبية أخرى تجاه الحرب فى البوسنة عندما أجاب على أسئلة مندوب صحيفة شْيترن «الألمانية فى نوفمبر ١٩٩٤ حيث قال: «أود أن أصحح فى نقطة واحدة وهى أن تسامحى الذى تشيد به فى سؤالك ليس مردّه إلى كونى أوروبى كما تقول، وإنما مصدره الأصلى وقبل كل شىء هو أننى مسلم ثم بعد ذلك لأننى أوروبى» ثم يستطرد فى السياق فيقول:

«لقد لاحظت من تجربتى فى حرب البوسنة أن أوروبا لديها أوهام تعجز عن التحرر منها رغم الحقائق الدامغة، فقد دمّرت أثناء هذه الحرب مئات المساجد والكنائس الكاثوليكية.. كلها بلا استثناء دمرها مسيحيون.. ولم يدمر المسلمون كنيسة واحدة، وقبل ذلك حكم الأتراك العثمانيون (وهم مسلمون) البلقان خمسمائة سنة فلم يهدموا كنيسة ولا أبادوا شعبا من الشعوب، وقد حافظوا على الآثار المعمارية وعلى الأديرة الشهيرة فى جبال «فروشكاجورا» قريبا من بلجراد، ولكنها لم تصمد ثلاثة أعوام فقط تحت الحكم الأوروبى، حيث قام الشيوعيون والفاشيون بتدميرها خلال الحرب العالمية الثانية، ولم يكن هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجريمة من آسيا بل من قلب أوروبا... وحتى هذه اللحظة لم تُبد أوروبا حساسية كافية ضد الفاشية المتصاعدة فى البلقان، بل وقفت تتفرج على الدمار الذى ألحقه الصرب فى البوسنة!.. إننى أعتز بأوروبا وأحمل لها كل تقدير.. فأنا أوروبى ولا يمكن أن أتخلص من جلدى.. ولكننى أقرر لك أن أوروبا تحمل عن نفسها فكرة أعلى بكثير من حقيقتها».

كان عزت بيجوفيتش نموذجا حيا للقيم الإنسانية الرفيعة فى أعماله ومواقفه، وكان مثلا أعلى للسياسى المخلص الصادق ورجل الدولة الحكيم الملتزم بمبادىء الأخلاق، كما كان مفكرا عبقريا ملهما، وفيلسوفا إسلاميا من طراز فريد. ■

رؤيـــــة جديـدة للشـــاعـــر

محمود سامي البارودي

بقلم

د. محمد رجب البيومي

لم يأخذ محمود سامى البارودى حظه من الدراسة المنصفة ، مع ما كتبه عنه كبار الباحثين من أساتذة الجيل ، لأن محاكاته للسابقين فى نسج قصائده قد جعلته فى رأى أكثرهم صدى لغيره فحسب ، مع أنه فى نسجه العباسى قد رسم صورة حياته رسماً يصور مواقفه السياسية ، ومنزعه الخلقى، ومأساة مغتربه ، وخلائق من اتصلوا به ، ومواضع لهوه فى صباه ، ووحشة روحه فى منفاه ، بحيث صار ديوانه المرجع الأول لترجمة حياته ! فهل تكون مجاراته للفحول السابقين ، داعية لوصفه بالتقليد فقط والقول بأنه رد علي الشعر ديباجته البيانية ، فهو قنطرة عبر بها الشعر من وضع إلي وضع فحسب ، مع أن هذه القنطرة جعلت للشعر نوافذ فنية فتحت المجال تصويراً وأغراضاً واتجاها، مع احتذائها المعترف به ، ولست فى هذا المقال متحدثاً عن فنه الأدبى ، ولكنى أتجه إلى جلاء صورة من مروءته النفسية . لا يتم الحديث عن شمائله دون الإشارة إليها ، وهى شمائل تجدها بارزة فى حيوات ذوى البيوتات العريقة من أمثال الشريف الرضى، وأبى فراس الحمدانى ، وأسامة بن منقذ إذ ينطق أشعارهم المباهية بها ، نطقاً صادقاً يؤكده ما سجل عنهم من مواقف أبية فى معترك الحياة .

وقد فاقهم البارودى فيما روى عنه من المآثر ، ولن أتعرض إلى ما اشتهر منها ، ولكنى أشير إلى غير ما اشتهر، فأقدم أمثلة للأريحية النادرة، والهمة الشماء ، رواها عنه عارفوه غير متزيدين ! كما أذكر عن زوجته النبيلة ما ندر مثله فى المحصنات ! والذى ينظر إلى صورة محمود سامى البارودى فى شبابه ومجده يرى من دلائل الهمة ، ومشاهد الفتوة وشارات الإباء والعزة ما يشع بارزا فى ملامحه ، وقد زاده صدره المضئ بالأوسمة والنياشين مهابة وإجلالا ، أما مشهده فى شيخوخته بعد أن رجع من منفاه ، وأصابه القدر فى عينه فلا أرى وصفاً دقيقاً له أبلغ وأروع مما قاله الشاعر الكبير خليل مطران عنه، وقد زاره ذات يوم فتطارحا الشعر، واقترح عليه الزائر أن ينظم معنى طريفاً يخلده فى بيتين من شعره فماذا رأى مطران من شأنه وهو يفكر مستجيباً لاقتراح مريده ؟

يقول مطران «استوى ساكناً ساجيا، مسنداً ظهره إلى الحائط ، وفكر غير منقبض المحيا ولا معنت الملامح ، متهللة سماحة وجهه بأنوار الزوال بين بلج لحيته البيضاء المستديرة وقتم الناظرتين السوداوين اللتين تحجبان عينيه .

مرت به وبى دقيقة ، وهو متمكن فى تأمله ، وأنا مسترسل مع خاطر أخطرته فى قلبى رؤية الرجل على هذه الحال ، فخيل إلى أننى لدى تمثال من تلك التماثيل التى أقامها صناع اليونان لبعض المتقدمين من حكمائهم ، وتبدلت فى ذهنى الناظرتان السوداوان بالظلين اللذين يحيطان بالعيون المطبقة فى تلك التماثيل.

وعاد إلى وهمى استطراقا قوة ما أبدعوه فى تلك الأنصاب ، حتى أعانوا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية ، وبينما أنا مستغرق الحواس بتلك الذكرى إذ تحرك الرجل تحرك من يعالج معنى مستعصيا فتنبهت تنبه دهشة كأنى بالتمثال وقد تحرك».

هذا الوصف النثرى الموجز الذى يفوق الشعر فى قوة تصويره ، يرسم جلال الشيب ووقار الشيخوخة بما لا

يغني عنه مقال طويل .

يقصده السائلون

وإذا كان هذا المقال خاصا بناحية من نواحي المروءة لدى البارودي ، فإني أذكر من دلائلها اللامعة أن منزله بعد عودته من منفاه ، كان مراد السائلين من ذوي الحاجة ، فقد علموا عن أريحيته قبل المنفى ما تردد صداه بين الناس ، فظنوا الرجل لا يزال يملك من الثراء ما كان يحوزه من قبل ، مع أن الدولة لم ترد له من عقاره غير اليسير ، ولكن الذي تعود البذل يراه فرضا محتوما مهما شح النبع ، وضاقت اليد ، والبارودي في ذلك مثله مثل المعتمد بن عباد الملك الأندلسي الذي فقد عرشه ، وغدا أسيرا في مملكة غير مملكته ، فلم يمنع ذلك المتسولين من الشعراء أن يقصدوه سائلين ، والملك الأريحي يجود من لباسه وطعامه وحليه ما يليق بهمته ، وقد ضاق بما يكابد بعد أن فرغ الوطاب، فقال من أبيات موجعة عن هؤلاء :

طلبوا الكثير من الأسير وإنه
لأحق منهم بالدراهم فاعجب !

كما يذكر من حساسية الشاعر البارودي المفرطة ، أن شاعراً شاباً قصده ، وأسمعه بعض شعره ثم سأله العون فأعطاه ، وسأله عن مسكنه فعرفه، فصمم على رد الزيارة له ، مجددا العطاء ، وكان الشاعر يسكن قريبا من السطح في منزل متآكل السلالم ، فجعل الشاعر الكبير – وهو ضرير لا يبصر – يصعد حذرا متلمسا الحائط بيده ، حتى بلغ مأربه بعد جهد، وهي مجازفة تحملها هذا الأريحي النبيل ، ليرفع من مستوى صاحبه ، فيشعره أنه زميل رفيق ! وهذه النادرة لها من نظائرها طرائف ، قد تفوقها مغزى ، وإن شئت أمثلة منها فاسمع :

إن ما سأقوله منقول عن الوزير السياسي محمود فهمي النقراشي – نقله الدكتور زكي مبارك في مجلة الرسالة بالعدد (٤٣٨) ١٩٤١/١١/٢٤، وكان النقراشي حينئذ وزيراً للمعارف والدكتور زكي مفتشاً للغة العربية بها ، فليس من المعقول أن يتزيد عليه في روايته ، أو أن ينسب إليه ما لم يقل ! وملخص ما نشره الدكتور مبارك ، أن الشاعر الكبير قد تأكد من مصيره بعد إخفاق الثورة العرابية التي كان أحد زعمائها البارزين ، وقد استدعى أحد أصدقائه من أعيان الغربية ، ممن يعتقد فيهم الأمانة والوفاء ، فأودعه ذخيرة من الذهب كان يمتلكها مخافة أن يفتش رجال الاحتلال منزله، وينهبوها مغتصبين، فلا تفوز أسرته بطائل ، وقال له هذه الذخيرة وديعتي عندك ، فإن نفاني الإنجليز كما أتوقع ، ومت في منفاي فهي لك ، وإن أرادت الأقدار أن أرجع إلى مصر حياً ، فالنصف منها لك جزاء حفظها ، والنصف لي ، ثم رجع الشاعر بعد سبعة عشر عاماً ، وكان عزاؤه أن يعيش في بسطة من العيش بعد أن يأخذ النصف المدخر ، فيؤدي واجب الأريحية لمريديه ، ومن كان يكفل عيشهم قبل المنفى ،

وكانت الصدمة أليمة حين أنكر صديقه أن تسلم شيئاً من البارودى صغيراً أو كبيراً ، وقال له ، لو كنت تملك مالا ، لأودعته لدى أسرتك ، جاهلاً أن المال سيصادر لو فتش المنزل ، وكظلم الشاعر غيظه ، ولم يستطع أن يحصل على شئ!

أكرم المنابت لأحرار الرجال

ثم مرض هذا الخائن مرضه الأخير وكان الإمام محمد عبده على علم بخيانته التى لم يملك الدليل على إثباتها ، فسافر إلى طنطا ، ورآه على شفا جرف من الموت ، فقال له إنك ستلقى الله بوزرك ، وأن عليك أن تؤدى بعض ما ائتمنت عليه إن كنت قد أنفقت منه شيئاً ، والدنيا لن تغنى عن الآخرة ، وقد اقتنع المحتضر بكلام الإمام ، فطلب صرة ذهبية تحمل عشرة آلاف من الجنيهات ، وقدمها للإمام كى تصل إلى صاحب الحق ، وظن الشيخ أن شيئاً أحسن من لا شئ وأن البارودى سينفرج ضيقه المادى بما حمل إليه من ماله ، وفى ما أخذ عزاء عما حرم ، يقول الدكتور زكى مبارك:

«فماذا وقع ؟ لقد نظر البارودى إلى الصرة نظرة الليث الشبعان إلى الثمر المعطوب وصاح ، لن آخذ درهما من هذه الألوف ، ويجب أن ترد حالاً لسارقها قبل أن يموت لتكوى بها جنوبه وهو مرموس ، وله الويل إن وقع بصرى عليه يوم الحساب أمام الواحد الديان».

ثم قال الدكتور مبارك تعليقا على هذا الموقف:

«من المؤكد أن الشيخ محمد عبده . قد طرب لإيمان البارودى ، وعظمة البارودى ، ومن المؤكد أن هذه الواقعة أقنعته بأن مصر لا تزال بعافية ، وأنها ستكون إلى الأبد أكرم المنابت لأحرار الرجال .

ورأيى الخاص ، وأنا لست أحمل كبرياء البارودى ، وارتفاع أوجه عن مستوى العامة ، أنه كان فى حل من أن يأخذ بعض ماله! وأن الخائن لن ينجو من عقاب الله ، وقد استحل ما ليس له ، فجزاؤه واقع واقع ، أخذ الشاعر الصرة أم لم يأخذ ، ولكن نفس الشاعر الأبى الشموخ من طراز نادر عزيز ، وقد صدق حين قال .

ومن تكن العلياء همة نفسه
فكل الذي يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها
فلا عزني خال ، ولا ضمني أب
أسير علي نهج يري الناس غيره
لكل امرئ فيما يحاول مذهب

أنتقل إلى نادرة أخرى ذات دلالة صادقة على مروءة هذا الأريحى فقد كانت داره أثناء تولية الوزارات المختلفة محط أنظار السائلين من ذوى الحاجة ، وما عرف وزير فى عهده يفتح بابه لكل طارق غير اثنين هما البارودى ، وعلى مبارك . إذ كانا يستقبلان بعد العشاء كل زائر كبيرا أو صغيراً وقد كانت زيارة على مبارك فى أكثرها وقفا على رجال الأدب والتعليم ، فهو يناقشهم ويجادلهم حتى يمتد السهر حينما إلى منتصف

الليل ، أما زائرو البارودى فمن كل طبقة . وقد عرفوا سماحته فصاروا يمدون أيديهم إليه ، وهو يستمع إلى نداء الفتوة فى أعماقه فيلبى ما استطاع تلبيته من حوائج القوم ، وقد لاحظ فى ثلاثة أيام متوالية إنساناً يقف أمام منزله ثم لا يهرع للقائه ، بل يكتفى بالنظر المتوسل ، وكأنه يهاب المشافهة ، فأمر البواب فى المرة الثالثة أن يأتى به ، وتلجلج السائل بدءا ، ثم قال إنه فصل من وظيفته تعسفاً ، وليس لديه ما يقتات به ، وكان أبوه من خدم الدائرة البارودية فى إيتاى البارود ، وقد حظى بعطف والد الشاعر الكبير، وهو يريد من الوزير العمل على إعادته لعمله ، أو لعمل آخر ، فاسترجع الرجل ذكرى أبيه ، ومد يده إلى جيبه فنفحه بقبضة من الذهب يصلح بها حاله ، ثم يأتيه بعد أسبوع، وتشاء الأقدار أن يرتبك الجو السياسى ، ويعتقد البارودى أن الوزارة مستقيلة لا محالة ! فكلف رجال الأمن فى الداخلية أن يبحثوا فى كل مكان عن السائل ، وأن يحضروه فى أقرب وقت ، وانطلق القوم فى كل مكان يبحثوت ويفتشون حتى عثروا عليه فى بعض المقاهى، وفزع المسكين فزعاً أرعش يده ورجله فقد توقع شراً وراء هذا البحث إذ لم يخبروه عمن طلبه ، ثم وجد نفسه أمام البارودى ، فهدأ روعه قليلاً ، وقد فاجأه الأمير الأريحى بأنه أمر بالبحث عنه قبل أن تستقيل الوزارة بعد يوم أو أقل ، كى يفى له بما وعده. حيث هيأ له عملاً مناسبا بأجر موفور ، فبكى الرجل متأثراً ولم تمض ساعات حتى استقالت الوزارة ، فجعل زملاؤه يقولون لقد كنت شؤما على الوزير ، وهو ساذج يصدق الأراجيف ، فضاق ذرعا بما سمع ثم اتجه إلى منزل الوزير يتأسف لما نزل به، ويسأله الغفران ، فابتسم البارودى وقال له مطمئنا ، لقد كانت الاستقالة متوقعة منذ أسبوع ، وليس لك شأن بما كان ! وما دعوتك قبل انتهاء الموعد إلا لتتسلم العمل قبل ألا أستطيع شيئا! فخرج الرجل دهشا من مروءتين لا مروءة واحدة، إذ صدق الوزير وعده ، ثم عمل على ملاطفته ، وكأنه حميم قريب !

لقد وردت هذه الطرفة مبسوطة فى كتاب (مفاخر الأجيال ، فى سير عظماء الرجال) وهى تغنى عن كل تعليق ! لقد فكر الرجل النبيل فى وعد التزم به ، ولابد أن ينجز حر ما وعد!

ثم أعرض بعد هاتين النادرتين موقف محمود سامى من الشاعر الشاب حافظ ابراهيم فقد رجع إلى مصر من السودان محالا للاستيداع، وليس بيديه مليم واحد ، وقد ظن أن الجرائد التى كانت تنشر ما يبعث إليها من قصائده سترحب به فتختاره محررا بها له من أجره ما يكفيه ، ولكن الظن قد خاب ، ولم يجد ما يتبلغ به من العيش غير هبات شهرية من الاستاذ الإمام محمد عبده والإمام لا يملك غير راتبه ، وأكثره موزع على ذوى الحاجات من أسر الفقراء الذين لا يجدون ملجأ سواه ! فلم يجد شاعر النيل من ينقذه من بؤسه ،

وأرسل قصائده الشاكية فى الصحف دون أن تعطف عليه قلباً رحيما ، وكان مما قاله فى ذلك قصيدته الشهيرة التى جاء فيها...

سعيت إلي أن كدت أنتعل الدما
وعدت وما أعقبت إلا التندما
سلام على الدنيا سلام مودع
رأي في ظلام القبر أنسا ومغنما
فهبي رياح الموت نكبا واطفئي
سراج حياتي قبل أن يتحطما
ويا قبر لا تبخل برد تحية
على صاحب أوفي علينا وسلما

ثم لم يجد بدا من لقاء البارودى ليفصح له عن مأساته ، وهو يعلم مروءته، كما يعلم أنه يقدر شاعريته ، فامتدحه بقصيدة جيدة جاء فى افتتاحها الغزلى .

تعمدت قتلي في الهوي وتعمدا
فما أثمت عيني ولا لحظه اعتدي

والقصيدة من مبدعات حافظ ، لأنه عرف منزلة أستاذه فى الشعر، فحاول الارتقاء بفنه إلى أبلغ ما يستطيع حتى بلغ قوله.

أتيت ولي نفس أطلت جدالها
سيقضى عليها كربها اليوم أو غدا
فإن لم تداركها بفضل فقد أتت
تودع مولاها وتنتظر الردى

يقول الأستاذ طاهر الطناحى راوى هذه القصة فى كتابه عن خليل مطران (فلما سمع البارودى هذين البيتين بكى بكاء حاراً ، وناشد حافظاً أن يحذفهما من القصيدة ، ثم نهض من مكانه ، وعاد وبيده ظرف به أربعون جنيها ، هى قيمة راتبه الشهرى المقرر له بالمعاش ، وقال لحافظ : إننى أبكى لأنى عشت إلى زمن يقدم فيه مثلى إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل ! وقد أجاب حافظ رجاء البارودى فحذف البيتين !

استجابة لهاتف المروءة

لقد بكى البارودى لأنه تذكر زمنه الأول حين كان ينفح مستجديه جنيهات الذهب ثم هو يضطر إلى أن يتنازل عن معاشه الشهرى الذى هو كل ما لديه ، استجابة لهاتف المروءة الذى يصرخ فى أعماقه ! وهو هاتف أشد لذعا من الجمر لدى من يعدون مداواة الجراح النفسية من أقدس الواجبات ! وهم من الندرة بمكان !

ولا أترك الحديث عن البارودى دون أن أشير إلى وفاء زوجته الأميرة عديلة يكن ذات الخلق المثالى فقد كانت تماثله أريحية ومروءة وإخلاصاً ، وقد وقع الطير على شكله حين وفقهما الله تعالى لبناء بيت سعيد ، فقد جزعت أشد الجزع حين قدم زوجها الباسل إلى المحاكمة بعد إخفاق الثورة العرابية ، ورأت أن المحكمة قد اختارت للدفاع عنه محامياً مصرياً لا يرتفع إلى المستوى المنشود ، فباعت ما بالمنزل من حلى نادر ، ورياش فاخر ، ولبست السواد يغمرها من الرأس إلى القدم ، وأخذت بعض معارفها من كبار المسئولين إلى المحامى الإنجليزى المستر برودلى وهو ذو الصيت البالغ فى الدفاع عن المفكرين ، وكان مختارا للدفاع عن عرابى ، فلما رأى شدة إخلاصها وبالغ

أساها الذى يرتسم فى وجهها وحركاتها ناقشـهـا فى الأمـر الصـعب، وبعـده عن إمكانه فقـالت إنهـا سـتـذهب إلى عـقـيلة المعتمد البريطانى لترجوها التوسط لدى زوجـهـا فى هذا الأمـر ، وسـارعت إلى زيارة المعتمد فى منزله ، وقابلت زوجته التى تعـاطفت مـعـهـا ، فـاسـتطاعت أن تظفـر بموافـقـة اللورد ، وتم التـغـيـيـر الفورى بحجة مـرض المحامى المصرى المفـاجئ ، ومـا كـان لهـذا الأمـر أن يتم دون تدخل اللورد نفـسـه ، إذ كـان هو الحاكم الفعلى للبلاد.

يقـول المسـتـر برودلى الذى لابس الموقف وعمل على نجاح مسـعى الأميرة (لقد استنتجت مدى نفوذ زوجة محمود سـامى البـارودى ، تلك الزوجـة المخلصـة التى باعت متـاعـهـا الثـمين عقب القـبض على زوجـهـا ، وارتـدت الملابس السـوداء الخشنة حزنا عليه ، وكـانت تعـيش على أمل أن تـراه مـرة أخـرى عـائداً إليـهـا ، وحين علم مـحمـود سـامى فى سـجنه بما صنعت، طلب منى أن أحـمل خطاباً لهـا يعلن مزيد امتنانه لمسعاها الحرج الدقيق ، وحدد مـيعاد السفـر إلى المنفى ، فكانت جمهرة من النسـاء الفضليات يقفن لوداع الزعـمـاء باكـيـات مـتـحـسـرات ، وفى مـقـدمـتـهن الزوجـة التى فـقـدت ثبـاتهـا فـولولت صـارخـة ووقـعـت علـى الأرض مـغـشـيـاً عليها عند قـيام البـاخرة حتى رحـمـهـا النـاس وقـد هدهـا الحـزن بعـد رحـيله ، فـمـاتت حـزينة ملتـاعـة ، فـوقـع منـعـاهـا على المنفى المظلوم مـوقـع الصاعقة ورثاها بقصيدة حارة من فرائد شـعـره قـد اشـتـهـرت بين أدباء العـصـر أقوى اشتهار ، وختمها بقوله:

هي مهجة ودعت يوم زيـانها
نفسي وعـشـت بحسرة وبعاد
قد كدت أقضي حسرة لو لم أكن
متوقعا لقيـاك يـوم معادى

هـذا هـو البـارودى ، وهـذه بعـض مـروءاته وتلك هى زوجـه الأمـيـرة حـقـاً، الأميرة بوفائها ونبلها لا بأمها وأبيها! ■

كلمـات عاشت

● «كمـا أن الأمـواج تتكسـر فى نهـاية الأمـر على الشـاطئ كذلك تتـحطم العواطف ، حين تبلغ آخر حدودها على صخرة الشعر»

دون جوان بايرون

● «غريب أن يكره الإنسان نفسه ، كأنما هو إنسان آخر»

جان بول سارتر

● «أن ينكر الإنسـان نفسـه ويرضى بالسير فى الحياة وراء نقـاب يسـتـر به وجهه الحقيقى ، هذا هو الجحيم»

برنارد شو

• «استيلاء الأغنياء على الجامعات، ونقص تعليم الفقراء يعنى أن الحراك الاجتماعى فى الولايات المتحدة قد انهار»

الصحفى البريطانى «ويل هاتون»

• «القوانين المناهضة للعنصرية فى الولايات المتحدة لم تأت بجديد، إننا أحرار قبل أن يكون البيض أحرارا»

الأديبة الأمريكية السوداء «ماى هولاند»

• «حين يتعلق الأمر بالقضايا العربية، الفرق بين بوش وكيرى لا يتعدى الفرق بين الكوكا كولا والبيبسى كولا»

ناخب أمريكى من أصول عربية

• «مهمة المثقف مقاومة تأصيل الوهم وضلال الفهم»

الدكتور راشد المبارك
صاحب كتاب فلسفة الكراهية

• «الوطن يفلت منا، ونحن غافلون»

الموسيقار اللبنانى منصور الرحبانى

• «الكسوف الاجتماعى يتم عندما تكف إرادة الفرد عن التشكل فيبهت كل شعاع وتنضب كل طاقة، ويدخل المجتمع فى ليل التاريخ»

المفكر العربى خالص جلبى

• «نحن المثقفين من يصنع الطاغية، لا ينشأ من فراغ»

الأديب السكندرى محمد جبريل

• «أعتقد أن أهم شئ بالنسبة للمرأة هو أن تتذكر أن مكانها فى البيت»

النجمة الأمريكية كيت هدسن

• «مجتمع المعلومات ربما يعلمنا أكثر من أى وقت مضى، ولكنه مجتمع قاتل للأساطير»

الصحفية الأمريكية كاترين فيلد

منصور الرحباني

محمد جبريل

صورة صلاح الدين الأيوبى في الأدب الإيطالى الوسيط

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

تقدم لنا الآداب الأوروبية، الإيطالية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية، وربما غيرها أيضا، فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، شخصية صلاح الدين نموذجا عاليا للبطولة والمروءة والتسامح، سواء أكان هذا الإبداع خلقا جمعيا، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالأدب الشعبى، أم حرره أدباء معروفون ، حقق الكثير منهم شهرة، وخلودا، وكلاهما التقط مادته من الحكايات الشعبية التى رواها الجنود الصليبيون العائدون من المشرق إلى بلادهم بعد أن انتهت الحروب الصليبية ، سمعوها من الجنود المسلمين أو من عامة الناس، أو قرأوها فى بعض الكتب دون أن تكون مادة تاريخية موثقة، وشاعت بين الشعوب الأوروبية، وكل شعب منها وقف عند الجوانب والقيم التى تعنيه أو التى يحبها أكثر من غيرها، ورفض أو صمت عما رآه غير مناسب له، أو لا يتفق مع طموحاته السياسية والروحية.

ومن ثم ارتدى صلاح الدين الأيوبي في كل أدب ثوبا، واتخذت الحكايات المتصلة به في كل أمة شكلا. تصرف فيها كل شعب على النحو الذى يرضى ذوقه، ويحقق غايته ، دون منطق يربط بين أجزاء الحكاية، أو يحكم بنياتها، أو يأخذ في الحسبان إمكان حدوثها واقعا، وبداهة الصدق التاريخي ليس واردا هنا، لا سلبا ولا إيجابا.

بطل موقعة حطين

لقد بلغت عبقرية الإسلام السياسية والحربية قمة توهجها فى العصور الوسطى فى شخص صلاح الدين الأيوبى (١١٣٨ - ١١٩٣ م) فى صورة Saladin، سلطان مصر، أو بابل، وخليفة بغداد، ومحرر القدس من الصليبيين ، وبطل موقعة حطين، القائد الذى انتصر على ريتشارد الأول ملك إنجلترا، وفيليب الثانى ملك فرنسا، وأعاد الأراضى المقدسة عربية إسلامية كما كانت . وبعث الحمية فى نفوس المسلمين . ووحد الشرق الإسلامى، وجعله قوة فاعلة فى مواجهة الغرب المسيحى.

فيما بعد تغيرت الصورة والاتجاه ونسى الغربيون عداوتهم لصلاح الدين وما ألصقوه به، وبدأوا يركزون على أشياء فى حياته أكثر نبلا، ويبدو فيها النموذج الأكثر روعة، ويعكس من الفضائل الإنسانية العليا أجملها. ويرى النقاد الأوروبيون أن اتخاذ شخصية صلاح الدين نموذجا مثاليا فى مجتمعات مسيحية لا يعنى - بالنسبة لهم على الأقل - أن ذلك انعكاس لحياته وعظمته واقعا، لأن أمجاده قامت كلها على تدمير حياة الصليبيين، وإخراجهم من الشرق الإسلامى عامة، وفلسطين خاصة ، وإنما اتخذه المبدعون وسيلة للتعبير عن مواقف كانت موجودة فى أذهانهم من قبل، وأمانى ما أكثر ما داعبت خواطرهم، واستدعت اللحظة أو المصلحة أن تظهر بين شعوبهم وحكامهم فى لحظة ما، وليكون لها هيبتها وتقديرها بين الجمهور، وأن تجد منه قبولا ، تطلب الأمر أن يجىء التعبير عنها من خلال شخصية نموذجية، ولا بأس أن تحمل ملامح أسطورية.

وربما. فيما يرى المفكر الإسبانى الكبير أمركو كاسترو، ترتبط بموقف ناقد من الكنيسة نفسها، فهى تلمح إلى أن روح الله يمكن أن تعبر عن نفسها من خلال عقائد ليست مسيحية بالضرورة، وهى فكرة التعبير عنها صراحة يوقع صاحبها فى قبضة محاكم التفتيش القاسية ، وكانت سائدة إذ ذاك فى معظم البلاد الأوروبية.

ظاهرة تمجيد صلاح الدين

لا يكفى لتفسير ظاهرة تمجيد صلاح الدين فى هذه الكتابات أن نقول إنه كان بطلا، وأن روح التسامح كانت

قــد بدأت تهب على البــلاد الأوروبيــة حينئذ، في مستويات متفاوتة، ومساحات تخــتلف من بلد أوروبي إلى آخـــر ، لأن الأمـر أكثر من تسامح فيمـا يبدو، ولا يكفي أن يكون المرء بطلا مـحـــاربا، أو عظيمـا، لكي يصبح نموذجا للفضـائل ، فجنكيز خان مثلا لم يستطع على الرغم من كل الفتوحات التي حققها، والحروب التي انتـصـر فيهـا أن يتسـرب إلى روح التعبير الأدبي عند الشعوب المسيحية.

العلاقات بين مصر وإيطاليا

في الأدب الإيطـالي كــــانت بداية الحديث عن صلاح الدين!

وأكثر من سبب يجعل الأمر طبيعيا ومنطقيا، فالعلاقات التجارية بين مصر مـا بعـد الحـروب الصليـبيـة والموانيء الإيطالية الشـهـيـرة تواصلت وازدهرت، وصقلية، وهي جزيرة على مرأى البصر من إيطاليـا، أصبـحت منذ عـام ٨٢٧ م جـزيرة عـربيـة إسـلامـيـة، واتـخـذ منهـا المسلمـون قاعدة لهم لتهديد مدن جنوب إيطاليا، فـخـضـعت لهم بارة على البـحـر الإدرياتيكي ، وظلت قــاعـدة للأسطول الإسلامي بعد فتحـها عام ٨٤١ م، على امتداد ثلاثين عامـا، وخـضـعت لهم مدن ترنتــو وقلورية ونايلي ، وظـهــروا أمـــام مـدينة البندقية ، وهددوا رومـا نفسـهـا، وظلت قبضـتهم على إيطاليا قوية، حتى أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢ م) رأى من الحكمـــة أن يدفع الجـــزية للمسلمين على امتداد عامين، وأصبحت صقلية في أواخر عهدها الإسلامي ولاية مـصـرية تتـبع الخليـفـة الفـاطمي في القـاهرة، واتخذ منها الأسطول المصري قاعدة لسفنه الحربية في البحـر الأبيض المتوسط، وفي العـهـد الفـاطمي ازدهرت الثـقـافـة العـربيـة في صـقليـة ، وحـين استـولى عليـهـا النورمـانديون في عـام ١٠٩١م واصلت الثقافة العربية عطاءها إلى جانب ثقافات أخرى سالفة، يونانية ورومانية وعربية ، وكانت بالرمو العاصمة تتكلم ثلاث لغات، بين الطبقة المثقفة على الأقل: اليـونـانيـة واللاتينيـة والعـربيــة، وملوكها أنصاف مشارقة يرتدون ملابس عـربية فضـفـاضـة ، ويحـيطون أنفسـهـم بعلمـاء مـشـارقــة، فـلاسـفــة، وأطبــاء ومنجمين، وظل كبار الموظفين المسلمين في وظائفهم ، والنساء المسيحيات يرتدين مـلابس شـرقيـة، ويخـرجن إلى الشـوارع محجبات.

كان فيدريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠ م) يحكم صـقليـة وألمانيـا ويحـمل لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وبعد عــام ١٢٢٠ م أصـبح ملك بيت المقـدس بزواجه عام ١٢٢٥ م من وريثة عـرشـهـا إيزابيل أف برين، ومن ثم كـان يتـمـتع بأعلى نفوذ مدني في العـالم المسيحي، وبعـد زواجـه بثـلاث سنوات قـام بحـملة صليـبيـة رابعـة كـان لهـا أبلغ الأثر في

تعميق معرفته بالثقافة الإسلامية، فكان في حياته الرسمية وعاداته الشخصية «رجل» في المشرق والأخرى في روما ، وازدهر في بلاطه كوكبة من الفلاسفة والعلماء، جاءوا من مصر وبغداد والشام، لحاهم طويلة، ويرتدون ملابس فضفاضة وكان اهتمامه بالعالم الإسلامى كبيرا، وتربطه بمصر خاصة علاقات سياسية واقتصادية قوية ويتبادل مع ملوكها الهدايا، ويتراسل مع عدد من الحكام المسلمين وعلمائهم حول قضايا علمية رياضية وفلسفية وهندسية وفلكية وعقيدية تحديا أو يطلب المعرفة. ولكن أعظم خطوة علمية أضافها فيدريك تأسيسه جامعة نابلى عام ١٢٢٤ م، وهى أول جامعة فى أوروبا أسست بقرار خاص، وأودع مكتبتها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية.

كانت صقلية نقطة التقاء بين ثقافتين: العربية الإسلامية والغربية المسيحية، ومهيأة بحكم مركزها لتكون مركز نقل علم العصور القديمة والعصور الوسطى إلى أوروبا، بحكم العناصر التى تسكنها، الإغريقية واللاتينية والعربية، واللغات التى تتكلمها، وفيها من يعرف اللغات الثلاث الأساسية، اليونانية واللاتينية والعربية، وجميعها تستعمل فى السجلات الرسمية والأوامر الملكية. وكان ملوك صقلية يحكمون جنوب إيطاليا إلى جوار صقلية فأصبحت هذه جسرا عبرت عليه مختلف عناصر الثقافة العربية إلى إيطاليا ووسط أوروبا، وكان التقدم العلمى فى صقلية يمثل بداية فجر النهضة فى إيطاليا.

بدأ الأدب الإيطالى يزدهر بتأثير من الأدب العربى ومن الأدب البروفنسى، الذى ولد بدوره فى أحضان الأدب العربى وجاء على شاكلته بناء ومحتوى ، فاحتذى الشعراء الإيطاليون فى نظمهم الزجل الأندلسى . فتركوا اللاتينية ونظموا فى الإيطالية العامية، وجاء بناء شعرهم وأوزانه تشبه الموشحات والأزجال الأندلسية إلى حد بعيد.

الأدب الإيطالي .. وصلاح الدين

ومن ثم ليس بدعا أن يكون الأدب الإيطالى أقدم أدب أوروبى تحدث عن صلاح الدين.

رأى الإيطاليون ، أو مبدعوهم إذا شئت. فى صلاح الدين سيدا عظيما لا يقل جلالا ونبلا عن الإسكندر الأكبر، وفى كتاب «مائة حكاية قديمة» Le Cent novele ontiche ويعرف أيضا باسم «حكايا Novelleno» فحسب ، وهو مجموعة من الحكايات جمعها مؤلف إيطالى مجهول، فى نهايات القرن الثالث عشر الميلادى لغايات خلقية، والتقطها مما رواه فرسان الحروب الصليبية من كل الأعراق، من أساطير وحكايات. ما يلقى الضوء على

خصلتين رأت أنهما أوضح ما اتصف به صلاح الدين : الفطنة والحيلة، إلى جانب أنه سلطان عظيم، وكريم نبيل، سيد سخي، وتورد حكاية تدلل بها على ما ترى ، تقول:

أمر صلاح الدين ذات مرة بإعطاء صاحب حاجة مئتي درهم من بيت المال، فأخطأ الكاتب وخطها ثلاث مئة، وأراد الكاتب أن يصلح الخطأ. ولكن صلاح الدين أمر بأن تكتب أربع مئة، حتى لا يكون قلم خازنه أسخى منه.

وعن الحيلة تروى المجموعتان أيضا أن صلاح الدين التقى في النزال مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا .وفي المبارزة فقد قلب الأسد جواده وأخذ يقاتل راجلا، فما كان من صلاح الدين إلا أن قدم له جوادا فليس صوابا أن يقاتل نبيل مثله راجلا، ولكن الملك شك في الأمر فترك الحصان لتابعه، فما إن صعد على ظهره حتى أسرع به هاربا إلى إلى معسكر صلاح الدين ، فقد كان الحصان مروضا على هذا.

المثل الإسلامي الأعلى

وفي الكوميديا الإلهية ذكر دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١م) كوكبة من حكماء العالم القديم وعظمائه وأبطاله وشخوص ملاحمه وأساطيره ، ممن تمنى أن يحشر في زمرتهم في الدار الآخرة، ولم يذكر في هذه الفقرة غير ثلاثة مسلمين: صلاح الدين الأيوبي وابن رشد وابن

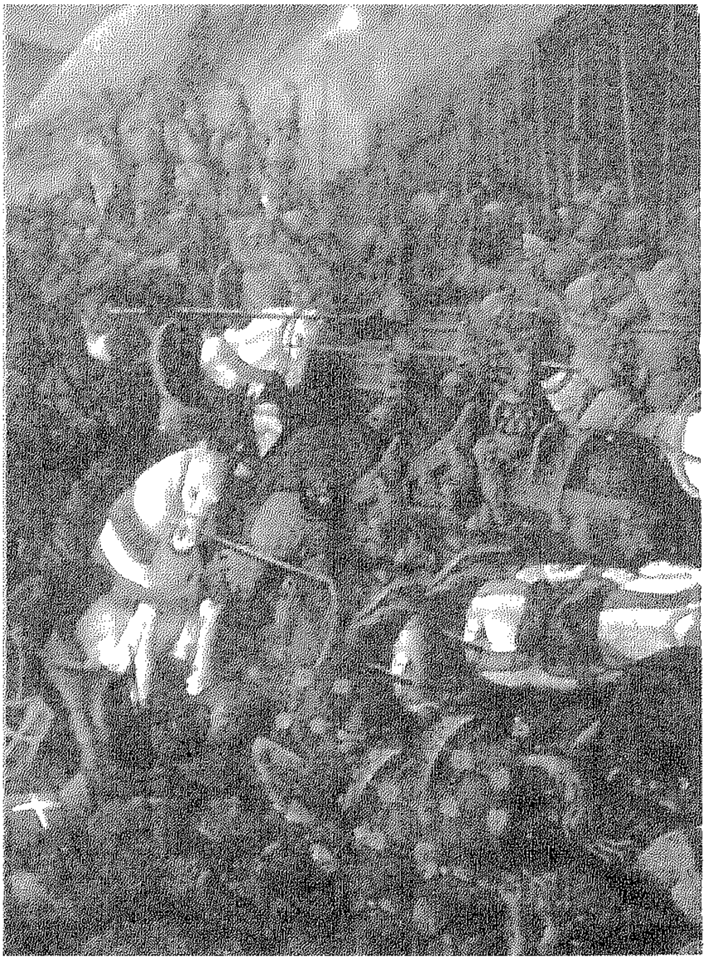

الحروب الصليبية أثبتت أن صلاح الدين كان صاحب فطنة وحيلة، إلى جانب أنه سلطان عظيم

سينا.

جاء باسم هذا الأخير مجرداً من أي صفة ووصف ابن رشد بأنه الذي صنع الشرح الكبير (لأرسطو)، ووصف صلاح الدين بأنه كان يقف بمفرده.. تراه أراد أن يقول إنه ليس مثل بقية الآخرين ، ليس وثنيا ولا مسيحيا ولا رومانيا ، وربما أراد أن يصوره بطلا أسطوريا ، فقد كان يراه المثل الإسلامي الأعلى.

يرى الإبداع الإيطالي أيضا أن صلاح الدين شخصية كثيرة الشك، لا تهتم بالمسائل الدينية، وتراه بعض الحكايات على حافة اعتناق الكاثوليكية، ويرى بعضها الآخر أنه اعتنق الكاثوليكية

فعلا، وأن المقام استقر به في إيطاليا واتخذها موطنا، وكلها حكايات تعبر عن الرغبات الكامنة في وجدان أصحابها، ولا تعتمد على أساس تاريخي

وقدم لنا الإبداع الإيطالى أجمل حكاية رمزية مرتبطة بصلاح الدين، وهى قصة «الخواتم الثلاثة» ، جاءت فى شكل بدائى أولا فى مجموعات القرن الثالث عشر، «تتفق» فى الهيكل العام، ولكنها تتفاوت طولا وقصرا، وتختلف أحداثا وشخوصا، وفى شيء من تفصيلاتها، إلى أن جاء أديب إيطاليا الكبير بوكاشيو (١٣١٣ - ١٣٧٥م) فحررها فى صورة بالغة الروعة، بناء وتركيبا وأسلوبا ، وشغلت هذه الحكاية الفكر الأوروبى زمنا، وساحت عبر الآداب المختلفة، الفرنسية والانجليزية والألمانية ، وخلت منها تماما فى أية صورة آداب شبه جزيرة إيبريا، الإسبانية والبرتغالية والقطلونية والجليقية، مما يشى بأننا أمام حكايات صيغت لغايات عملية، وجاءت وليدة انفعال حى أو خيال جامح، ولابد أن استعداداً خاصا توفر لإبداعها فى المكان الذى تشكلت فيه.

شغلت قصة «الخواتم الثلاثة» الحكاية الثالثة من حكايات كتاب بوكاشيو "الصباحات العشر «Decameron» ، وجاءت تحت عنوان، «اليهودى» ملكى صادق وحكاية الخواتم الثلاثة التى تخلص بها من مأزق حرج أوقعه فيه السلطان صلاح الدين:

«بلغ السلطان صلاح الدين الأيوبى قدرا من الشجاعة والجسارة ارتفع به من طبقة العامة إلى عرش سلطنة بابل، وبفضل جرأته وشجاعته حقق انتصارات كثيرة على أمراء المسلمين والنصارى ، وقد استنفدت كثرة الحروب ورفاهية عيشه، كل ما كان يدخره فى بيت المال، وفجأة احتاج إلى مبلغ ضخم من المال لم يدر من أين، وكيف، يحصل عليه بسرعة، ثم خطر بباله أن يهوديا غنيا يدعى «ملكى صادق» يعيش فى مدينة الاسكندرية ، وأنه يقرض الناس من أمواله بالربا، فرأى السلطان أن من الممكن أن يجد العون عنده، ورغم أنه على ثقة من بخل اليهودى، وأن ذلك البخل سوف يمنعه من التطوع لمساعدته، رفض أن يلجأ إلى استخدام العنف معه.

صلاح الدين واليهودي

ولكن أزمته المالية اشتدت ، ولم يعد أمامه إلا أن يدفع اليهودى لمساعدته مهما كلفه الأمر من مجاملة أو مخاشنة، وأجهد فكره فى البحث عن ذريعة تسوغ له إرغام اليهودى على إقراضه المبلغ المطلوب، مع المحافظة فى الوقت نفسه على الحق والعدل ظاهراً.

استدعى صلاح الدين اليهودى، وأكرمه غاية الإكرام ، أجلسه إلى جانبه،

وقال له:

يا صديقى العزيز، أكد لى كثيرون من معارفى أنك حكيم متخصص فى علم الإلهيات، وأود أن تبين لى أى دين من الأديان الثلاثة: الإسلام ، أو المسيحية، أو اليهودية هو الدين الحق؟

لم يكن اليهودى فى الحقيقة عبيطا، وأدرك فى الحال أن السلطان إنما يطرح عليه هذا السؤال رغبة فى إذلاله، مهما كانت إجابته ، وأيا كان الدين الذى سوف يفضله من بين الديانات الثلاثة فإنما يعاون السلطان على نيل مأربه ، فقدح ذهنه، واستجمع فكره ليصل إلى جواب فيه البراءة التى يبتغيها ، قال:

مولاى، السؤال الذى طرحته علىّ سؤال جيد جعلنى أفكر بعمق، ومادمت قد طلبت منى الإجابة ، فأرجو أن تسمح لى برواية هذه الحكاية القصيرة.

«لا أزال أتذكر الروايات الشائعة التى تروى عن غنى نبيل عاش فى قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان، وكان قد ادخر فى خزائنه جواهر كثيرة وأحجارا كريمة نادرة، وكان عنده خاتم نفيس عجيب ، يفضله على سائر كنوزه، وأراد أن ينال هذا الخاتم ما يليق به من تقدير قيمته، وأن يبقى إلى الأبد ملك سلالته، وأوصى أن وراثه الوحيد من أبنائه من يستطيع أن يقدم الخاتم لأخوته مثبتا أنه ناله من والده، فيشرفونه ويكرمونه ويقدمونه عليهم، ويتركون له الميراث كله، وأوصى وارث الخاتم الأول أبناءه بمثل ما أوصاه به أبوه من قبل.. باختصار كان الخاتم ينتقل من وارث إلى وارث حتى انتهى إلى رجل كان له ثلاثة أولاد متساوون، فى قوة الجسم وحميد السيرة، يطيعون والدهم دون أدنى معارضة، ولذا كان.. يحب كلا منهم حبه للآخر، وعرف الشبان الوصية الخاصة بالخاتم، وطمع كل واحد منهم فى أن يفضل الآخرين وأن يكون الخاتم له.

وكلما خلا أحدهم بأبيه الطاعن فى السن توسل إليه طالبا منه أن يعطيه الخاتم، ولما كان الرجل الطيب يحب أولاده دون تفرقة ، احتار فيمن يختاره منهم ويجعله وارث الخاتم، فكان يعد به كل من يتحدث إليه منهم، وبحث عن وسيلة تمكنه من إرضائهم جميعا، وليبلغ هدفه بدأ ينفذ الخطة التالية فى سرية تامة: أمر صائغا ماهرا أن يصنع خاتمين .يشبهان الخاتم الأصلى تمام الشبه، حتى أن الأب نفسه كاد ييأس من تمييز الخاتم الأصلى عن الآخرين.. وعندما أشرف على الموت أعطى كل واحد من بنيه خاتما منها ، خفية عن أخويه.

بعد وفاة الوالد ادعى كل واحد من الأبناء أنه وارث الخاتم، ومن ثم فهو المفضل على الأسرة ، وتنازع الأخوة الأفضلية، وتعلل كل واحد منهم بتقديم

الخاتم الذى أعطاه والده إياه، وأخيرا انتهوا إلى أن تشابه الخواتم يحول بينهم وبين تمييز الخاتم الأصلى عن الخاتمين الآخرين، وأصبح تحديد الوارث الحقيقى قضية معلقة لا يمكن البت فيها.

ولايزال الأمر كذلك حتى يومنا!

وهذا هو رأيى بعينه يا مولاى فى الأديان الثلاثة، التى أنعم بها الله على أهل هذه الملل، وتلك الأديان التى سألتنى عنها، يعتقد أهل كل ملة بأن الأب خولهم امتلاك ميراثه، وأنه أنعم عليهم بالدين الحق، ومن عليهم بوصاياه الإلهية ليسيروا عليها، أما أن الميراث الإلهى من حق من، فمسألة ستبقى معلقة، كما بقيت قضية الخواتم الثلاثة دون أن يبت فيها.

براعة فى مواجهة صلاح الدين

«أدرك صلاح الدين براعة اليهودى الذى عرف كيف يتخلص مما وضعه فى طريقه من الشراك والحيل، وعزم على ترك التحايل ومصارحته بما كان يحتاج إليه، معترفا بما كان يعتزم أن يفعل به لو لم تنجده سرعة خاطره.. وما أظهره من ذكاء فى إجابته عن السؤال المطروح عليه، ولم يتوان التاجر اليهودى عن مساعدة السلطان فى كل ما طلب منه، ولم يكتف صلاح الدين بأن يرد لليهودى المال الذى أقرضه إياه فحسب، وإنما أغدق عليه أيضا الهدايا والعطايا، وشرفه وكرمه بأن جعله من حاشيته المقربين إليه وظل يعتبره صديقا من أصدقائه.

شغلت هذه الحكاية الفكر الأوروبى زمنا، وتعاورتها تفسيرات مختلفة، رأى فيها بعضهم دفاعا من اليهود عن دينهم، ورأى فيها آخرون تبشيرا من النصارى بعقيدتهم، وعدها كثيرون لونا من محاولة التآخى بين الأديان بعيدا عن سطوة محاكم التفتيش، وكانت قائمة على أشدها فى إيطاليا وغيرها من بقية بلاد أوروبا.

ونلتقى بصدى هذه الحكاية، فى هذا العصر، أو قريب منه، فى كتاب ألفه يهودى أندلسى، «سلمون بن فرجة»، من القرن الخامس عشر الميلادى، بعنوان: صولجان يهودا La Vara de Juda»

وجاء فى تحريره على نحو ما كانت عليه المؤلفات الإسلامية، والمؤلفات اليهودية التى احتذت منهجا «مجموعة من الحكايات ضاربة فى القدم، تعود إلى القرن الثانى عشر الميلادى، وموجزها:

سأل الملك بدرو الأول (١٠٩٤ - ١١٤٠م) ملك أرغون، وكانت أكثر ممالك النصارى تقدما وتحررا فى الأندلس، لتأثرها قبل غيرها، وأكثر من الجميع، بالحضارة الإسلامية، سأل يهوديا: أى الديانتين حق، المسيحية أم اليهودية؟

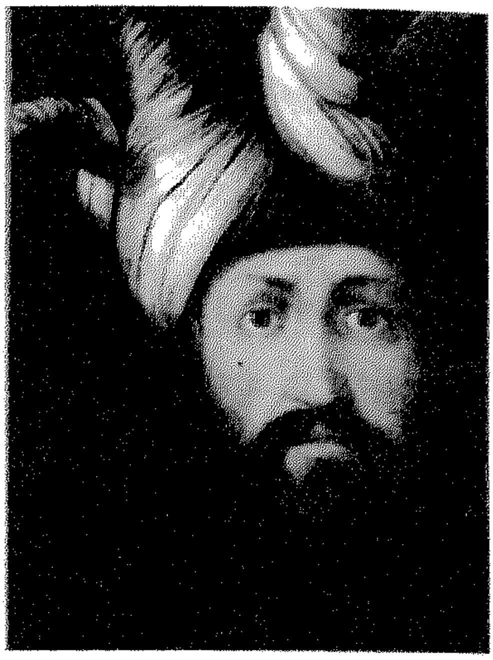

صـــــــلاح الديـن الأيـوبـى

فـرد اليـهـودى بأن قص عليـه الحكاية التالية:

«منذ شـهـر تقريبا خـرج جار لى فى رحلة، ولمواسـاة أولاده ترك جـوهرة لكل واحد منهم، ثم جاء الولدان لرؤيتى وطلبا منى أن أوضح لهما طبيعة الجوهرتين وقيمتـهما والاختلاف بينهما، فرددت عليهما : لا أحد يستطيع أن يشرح لكما ذلك خـيـرا من والدكـمـا، إنه جـوهرى حاذق، اسألاه وهو يقول لكما الحقيقة، ولأنى قلت لهما هذا سبّاني وضرباني.

فـهم الملك ما ترمى إليه الحكاية، ولم يغضب، وأثنى على ذكاء اليهودى، فقد كان التعايش بين الجماعات والأديان فى الأندلس بجانبيه، الإسلامى والمسيحى، سائدا ومقرراً.

القصتين ، مثل صور أخرى كثيرة وبسيطة ، تعبر عن روح التسامح، رغم أنهما جاءت بصدد الحديث عن بطل الحروب الصليبية تضيع ملاحظتها والإمساك بها، وفيهما حلت المشكلة الدينية بوصفها فضولا عقليا مستنيرا ببرود مثير، وبموضوعية وحياد، وعبرت عن قلق المسلمين القوى، وتململ اليهود الحذر فى بيان وإيجاز..

وانفصلت عن شخصية الذى حكاها، فلم تعد مرتبطة به، وكانت على التأكيد طريقا إلى السببية الملحدة مع أنه لا بوكاشيو ولا مؤلف الحكايا Novelli-no كان ملحدا أوزنديقا علانية وإن كان يؤمنان بأن الله لا يتدخل فى سير الموضوعات الإنسانية.

فى وهج عصر التنوير تخفى عدد من الأدباء الكبار وراء قصة «الخواتم الثلاثة» اتخذوها وسيلة للتعبير عن رأيهم فى المشكلة نفسها، دون أن يتعرضوا للملاحقة أو المآخذة، وكان أشهر هذه الأعمال مسرحية «ناتان الحكيم Na-than der weise للشاعر والناقد الألمانى جوتهولد إفرائيم ليسينج Gott-hold Ephraim Lesing (١٧٢٩ - ١٧٨١م).

فى البدء وقع الكاتب الألمانى على الفكرة فى كتاب «دقائق الأمور» للمفكر الإيطالى جيرولامو كاردانو Girola-

Cardano mo (١٥٠٥ - ١٥٧١)، وكان عالما رياضيا كبيرا، وطبيبا فيلسوفا، وباحثا متعمقا فى مشكلات الطبيعة والإنسان فقد جعل محور الباب الحادى عشر من كتابه حوارا بين وثنى ويهودى ومسيحى ومسلم، وكل واحد منهم يدافع عن معتقده الدينى، الوثنى يجادل اليهودى، وهذا يناقش المسيحى وينازع المسيحى المسلم، الذى يرد على المسيحى ردودا مقنعة بأدلة قاطعة مما دفع بعدد من المسيحيين إلى اتهام مؤلف كتاب دقائق الأمور بالكفر والزندقة ولكن ليسينج لم يشاركهم الرأى، ورأى أن الاتهام ظالم وأن الذين يكرهون الكتاب ويكفرون المؤلف لم يقرأوه وألف رسالة دافع فيها عن المؤلف الإيطالى وحاج الذين طعنوه فى دينه وأوحت إليه هذه المناسبة أن يعالج القضية مسرحيا وأن يتخذ من حكاية «الخواتم الثلاثة» التى أوردها الكاتب الإيطالى بوكاشيو أساسا لها ، وأن يتخذها وسيلة للرد على منتقدى كاردانو فى مقارنته بين الأديان، ويلحظ النقاد أن أفكار ليسينج فى المسرحية وكتبها عام ١٧٧٩، تختلف عنها فى المقالات التى نشرها من قبل شابا، وإن شئت فإن نظرته إلى الأديان فى شيخوخته اختلفت عنها فى شبابه، فهو فى المسرحية يدعو أتباع الديانات الثلاث إلى التقارب فيما بينهم عن طريق العمل المشترك، لتحقيق وصايا ربهم الذى يؤمنون به جميعا وأن هذا التفاهم لا يتحقق عن طريق الحوار والمناقشات والجدل، ودفاع كل منهم عما يؤمن به وإنما يتم عن طريق إنجاز الأعمال الصالحات التى أمر الله بها أتباع الديانات الثلاث، طبقا لما هو فى القرآن والتوراة والإنجيل، وهو عمل لما يتحقق عبر التاريخ إلا نادرا وكان التعصب وهو الغالب طريقا إلى ارتكاب جرائم بشعة، تغص بها المدونات التاريخية غذاها التعصب والابتعاد عن استخدام العقل الذى منحنا الله لنستخدمه قدر استطاعتنا لصالحنا، مع مراعاة صالح غيرنا من البشر، واستخدام العقل هو جوهر التنوير كما يرى الفيلسوف الألمانى عما نوئيل كانت.

ظل ليسينج متفائلا بمستقبل الإنسانية، رغم قطائع الحروب التى شهدها، مؤمنا بأن العالم يتطور نحو الأفضل لنمو القدرات العقلية عند الناس أجمعين والتخلص من قيود التقليد الأعمى وتغلب التربية العقلية المناسبة، وهو تفاؤل لم يصدق مع الأسف الشديد لا فى أيامه ولا ما فى بعدها، ولا أظنه الآن أقرب منالا وهناك قوة طاغية، مستبدة اسمها الولايات المتحدة الأمريكية، ترتكب أشد الجرائم هولا وفظاعة، من أشد القنابل فتكا، إلى أقسى الأسلحة النووية تدميرا، ومع ذلك

لا بأس أن تكذب وتغالط وتخدع، وهى تسوق العالم كله إلى الخراب والدمار.

أمير مسلم نموذجى

اتخذ ليسينج من حكاية «الخواتم الثلاثة» أصلا لمسرحيته، لكن المسرحية تختلف بداهة عن الحكاية فقد اتسع المؤلف بحبكتها عما هى عليه فى الحكاية ولم يكتف بإظهار صلاح الدين فى مواجهة التاجر اليهودى فوق المسرح وإنما ملأه بشخوص من الأديان الثلاثة واحتفظ من الحكاية بأمرين أساسيين مما ورد فيها: صلاح الدين بأخلاقه التى وردت فيها فهو أمير مسلم نموذجى بطل شجاع، تقى عالى الهمة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتسم بالتسامح ورحابة الصدر، وهى صفات أتاحت للتاجر اليهودى أن ينعم بالأمن والأمان فى مجلس صلاح الدين وفى مملكته.

والأمر الآخر: التاجر اليهودى ويتصف بالفطنة والحكمة حكمة لم يتعلمها من الكتب أو فى المدرسة وإنما صقلته بها صروف الدهر التى ابتلاه بها ربه القدير.

ومع أن الشخصية المسيحية غابت فى الحكاية تماما، فلتقى بها فى المسرحية فى مستويات مختلفة: البطريرك ولم يتعاطف معه المؤلف ووصمه بالتعصب الدينى وقسوة القلب وفارس صليبى أسره صلاح الدين ثم عفا عنه لأنه يشبه أخاه، واكتشف ناتان التاجر اليهودى أن هذا الفارس تربطه فعلا صلة قرابة بصلاح الدين، وجعل منه المؤلف جماع صفات فاضلة وأخرى قبيحة فهو يتصف بالشجاعة والكرم ولكنه يتصف أيضا بالتكبر والغرور وضيق الأفق.

وثمة شخصية مسيحية أخرى أعلى المؤلف من شأنها، ومن واقع تجربتى الذاتية اتفق معه تماما، وهى شخصية الراهب البسيط المتواضع المتسامح يتقرب إلى الله صدقا وبرا وقياما بأعمال الخير.

ولكن ليسينج متأثرا بروايات أخرى للحكاية، وتتصل بالسحر والقوى الخفية أضاف إلى الخاتم الأصلى قوة سرية خاصة، يصبح بها حامل الخاتم مقبولا عند الله، محبوبا من الناس، واثقا من قوته طالما كان يحمله.

* * *

أظنها إحدى المرات القليلة التى يعجب فيها شعب بأخلاق المنتصر عليه ومن ألحق به الهزائم.

إن الجبن تحت أى اسم أو صنفة أو راية، لا يخلق مجدا، ولا يصنع قوة، ولا يصد عدوانا، ولا يدخل صاحبه التاريخ

طبت حيا وميتا يا صلاح الدين! ■

قبل فوات الأوان

علومنا الطبيعية الغائبة عن فرانكفورت

بقلم
د. مجدى يوسف *

أخيرا هلت علينا الجامعة العربية ببرنامج مشاركتها فى معرض فرانكفورت للكتاب فى أكتوبر القادم. وقد نشر على الإنترنت ، فإذا به يحتفى كل الاحتفاء بإسهامات أجدادنا الأوائل فى علوم الطبيعة، وذلك من خلال محور أعلنته فى يناير الماضى اللجنة المكلفة من الجامعة نفسها بتنسيق هذا البرنامج، وهو محور «عندما كان العلم يتحدث العربية» ، الذى أخذ عن سلسلة من الندوات سبق أن قدمها المركز الفرنسى فى القاهرة ليعرفنا بآيات تراثنا العلمى، الأمر الذى يجعلنا لا نعجب، بل لا نطمئن لأن يقدم لنا غيرنا تراثنا فى عقر دارنا، بينما نقف نحن من هذا الحدث موقف المتفرج، وكان الأجدر بنا أن نقوم نحن بهذا العمل .

* رئيس الرابطة الدولية لدراسات التداخل الحضارى - جامعة بريمن (ألمانيا)

عمــرو موســى

أما الدلالة الأخرى والأهم لهذا المحـــور، فـــهى أننا كنا فى الماضى أصــحــاب إســهــامــات جليلة فى العلوم الطبيعية، أما نحن معشر العرب فى لحظتنا الراهنة فليس لنا إســـهـــام يذكر فى هذا المجال، بينما صــار العلم يتحدث اليوم اللغات الأوربية والانجليزية الأمريكية بعد أن كان يتحدث العربية فى مــاضــى الزمـــان! وهو قـــول بحـــاجـــة للمراجـعـة، خـاصـة وأن اللجنة المنسـقـة للمشاركة العربية في معرض فرانكفورت قد باتت ضـحـيـة له حـتى أنهـا لم تورد مـثـالا واحـدا فى برنـامـجـهـا للإنتـاج المعرفى، بل الإضـافـات العربية المعاصرة فى مجـال العلوم الطبيعية الحديثة. فلو حاولت اللجنة المذكورة أن تطلع - مجرد الاطلاع - على عناوين رسائل الدكتوراه فى مـــجـــالات العلوم الطـبـــيـــعـــيـــة فى الجـامـعـات ومـراكـز الأبـحـاث العلمـيـة المنـتـشـرة عـبـر كل الأقطار العـربيـة لما استطاعت أن تتجاهلها مثلمـا فعلت فى برنامجها الذى اقتصـر على تقديم الأدب والفنون العـربيـة المعاصـرة، بينمـا تنكب تمامـا عن إيراد نموذج واحـد للإضـافـات العـربيـة فى مـجـالات العلوم الطـبـيـعـيـة الراهنة. وكـأننا نقـول للألمان، ولعـامـة الغربيين ، إن التصور الشائع عندهم عنا صـــحـــيح بأننا نحن مـــعـــشـــر العـرب المعـاصـرين - على العكس من أجـدادنا الذين أثروا العلم بمكتشفاتهم - لا نملك إلا الأدب والشـــعـــــر وبعض الفنون التشكيلية التى يحاول معظمها أن يحاكى الفنون الغـربيـة.. أمـا فـى مـجـال العلوم الطبيـعـيـة التى تمثل العـصب الفـاعل فى صنع التـاريخ الراهن للبـشـريـة، فليس لدينا مـانقـدمـه، بدليل أننا نذهب بأيد خاوية فى هذا المجال الخطير الأهمية إلى فرانكفورت . بل إننا نقدم على هذا النحو بأنفـسـنـا أفـضـل الأسـانيـد للذرائـع الإسـرائيليـة والأمـريكيـة التى تبـرر بهـا محاولات تدخلها فى حياة شعوبنا العربية لتنقض على ثرواتهـا الطـبـيـعـيـة من مـاء ونفط ومـعـادن إلخ، مـصـورة للشـعـوب الغربية أننا نحن العرب المحدثين، لا نملك من أدوات العلوم الحـديثـة مـا ندير به شـئون دنيـانا بأنفسنا. فمـا نحن سـوى معيدين لإنتاج المعارف الغربية الحديثة فى مجال علوم الطبيعة التى هى الأساس الفـاعل فى عـصـرنا الراهن. ولعل من المؤسى حـقـا أن هذا التـصـور ليس فـقـط سـائدا لدى الشـعـوب الغربية عنا، وإنما

تشاركهم فيه نخبة بائسة مستسلمة للهيمنة الغربية من المثقفين العرب أنفسهم، بل أن من بينهم علماء طبيعيين عربا هم أنفسهم – وهنا مصدر الطرافة المحزنة – منتجون لحلول غير تقليدية لإشكالات الحياة الطبيعية لشعوبهم، ولا داعي لذكر الأسماء.. ولعل هذا التصور السائد هنا وهناك هو الذى حدا بأعضاء اللجنة المنسقة للمشاركة العربية فى معرض فرانكفورت أن تتجاهل الإسهامات العربية المعاصرة فى مجالات العلوم الطبيعية . وهو أمر يتعلق على أية حال بصورة للذات تعانى من الإحساس بالدونية والخضوع للآخر «المتفوق» ما أشد حاجتها لعلاج سريع...

فبقدر ما تصبح صورة الآخر مبهرة عن حق أو عن باطل، بقدر ما تكون صورة الذات سلبية ولعل هذه الحالة الأخيرة هى التى تميز الخطاب الغربى المعاصر بإزائنا نحن العرب المحدثين، وهى التى يعيد إنتاجها لشديد الأسف كثرة من «مثقفينا» الأفاضل الذين صار كل ما هو غربى قبلة لهم بلا أى تمييز أو حس ناقد مغربل، وكل ما هو عربى عار من القيمة ولو كان مبدعا وجديدا فى مساراته غير المألوفة. وليس الفريق الذى كلفته الجامعة العربية بوضع وتنسيق برنامج المشاركة العربية الذى سيقدمنا فى فرانكفورت أفضل حالا (أنظر على سبيل المثال الحديث الذى أدلى به «رئيس اتحاد الناشرين العرب»، الأستاذ إبراهيم المعلم لـ «أخبار الأدب» فى عددها الصادر بتاريخ ٢٣ مايو الماضى، والذى يقول فيه: إن الثقافة العربية «ضعيفة» ولكنهم – أى الفريق المنسق لبرنامج المشاركة العربية فى فرانكفورت – سيقدمونها على نحو «مشرف» ، الأمر الذى اضطرنى للرد على سيادته فى عددين متتاليين من الصحيفة نفسها (٣٠ مايو و٦ يونيو ٢٠٠٤) ليس دفاعا عاطفيا عن أنفسنا، وإنما توضيحا لأوهام تعشش فى أذهان مثقفينا حول واقعهم وواقع شعوب بلادهم. فعلى الرغم من كل التشوهات التى يعانى منها الواقع العربى المعاصر، إلا أنها تشوهات بادية للعيان ، أما تشوهات المجتمعات الغربية الراهنة فأكثرها ليس ظاهرا، وإنما يحتاج إظهاره إلى عين باحثة فاحصة وخبرة بالحياة فى المجتمعات الغربية تزيد على سياحة عابرة لشهر أو لبضع سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة! ومع ذلك فمن منا يريد أن يغمط حق الغربيين فى الاعتراف بمنجزاتهم فى مختلف مناحى الحياة وجدهم فى الإنتاج كافة، وهو جد أثمر ما صار يغرق البشرية كلها ببضائعه، التى هى معظمها لا تزيد على حزم من الأفكار والحلول المبتكرة. ولكن هل الابتكار حكر

على الشعوب الغربية وحدها؟ وهل شعوبنا العربية على اختلاف مسارات وخصوصية تطور كل منها خاوية من أى إبداع فى إشباع حاجاتها؟ إنى لا أقصد بالإبداع بيتا من الشعر، أو لوحة من الفن، وأنما أقصد الإبداع فى كل مناحى الحياة، المادى منها والمعنوى على حد سواء . بل إذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقال، ألا يكرس الكثير من إنتاجنا فى العلوم الطبيعية لسد احتياجاتنا؟ ألا يعمل فريق البحث الذى يقوده صديقنا الدكتور أحمد مستجير لتوفير رغيف الخبز من خلال استخدام هندسة الوراثة فى معالجة النباتات الاستراتيجية الرئيسية، حتى يمكن ريها بمياه البحر بعد معالجتها؟ أليس هذا ابتكارا؟! أو ليس إبداعا أن يكتشف الدكتور محمد رءوف حامد منذ أكثر من عشرين عاما فى ليبيا أن عادة استهلاك الهريسة، وهى نوع من الشطة الحارة التى يتناولها الليبيون مع كل وجبة تؤدى إلى امتصاص مختلف للدواء عن تلك المعايير التى وضعتها وعولمتها إدارة الغذاء والدواء الأمريكية، بل تخالف وتختلف مع ما اصطلح عليه فى علم الدواء الغربى من أن تناول الشطة يؤدى إلى قرحة الأمعاء، إذ اكتشف الدكتور رءوف حامد أنها على العكس من ذلك تساعد على الوقاية من قرحة الأمعاء من خلال تناولها بانتظام مع كل وجبة حسب عادة استهلاك الطعام لدى الشعب الليبى، حتى أن هذا الاكتشاف قد غير من معالم علم الدواء الغربى بعد مناقشته فى مؤتمرات الفارماكولوجيا فى النمسا، وسويسرا، واليابان (طوكيو)؟ أليس هذا إبداعا تعدى المجتمع العربى إلى كل أنحاء البشرية، حتى أن شركة تركية سطت على هذا الاكتشاف وصنعت بناء عليه دواء لعلاج قرحة المعدة والأمعاء ؟!!

أيستحق منا مثل هذا الإبداع أن نوليه ظهورنا حين نقدم أنفسنا للآخرين فى فرانكفورت، مقتصرين على عرض منجزات أجدادنا الأوائل فى مجالات العلوم الطبيعية تطبيقا لمقولة وضعها لنا بمكر ودهاء من أراد أن يوحى إلينا أننا «كنا» فى الماضى البعيد منتجين ومبتكرين فى مجال علوم الطبيعة، بينما نحن اليوم مجرد متلقين لما ينتجه الغربيون فى هذه المجالات الفاعلة فى التاريخ؟

اللهم قد بلغت

الحق أنى ما ادخرت وسعا منذ أن اطلعت على المحاور الرئيسية لمشاركة جامعة الدول العربية فى معرض فرانكفورت للكتاب عندما عرضت فى شهر يناير الماضى فى معرض القاهرة للكتاب ، ما ادخرت وسعا لتحذير أعضاء اللجنة الرباعية من مغبة الوقوع فى براثن ذلك المحور الذى يؤكد على إنجازات السلف فى مجالات علوم الطبيعة دونما إشارة لإسهامات العرب المحدثين، بل إنى خاطبتهم كتابة المرة تلو المرة ولكن أحدا

منهم لم يول ما قلت شيئا من الاهتمام .. حدثت الأخ الدكتور المنجي بوسنينة منذ عدة شهور مضت، وكتبت إلى السيد محمد غنيم، المدير التنفيذي للمشروع - بناء على طلبه - في التاسع عشر من مايو الماضى، ولم يصلنى منه حتى تاريخه رد على ما حذرت منه، ثم عدت وكتبت مرتين متتاليتين فى العشرين من يونيو الماضى، ثم بعدها بشهر، فى العشرين من يوليو للسيد عمرو موسى، أمين عام الجامعة العربية، باعتباره المسئول الأول عن تلك التظاهرة العربية فى معرض فرانكفورت، ولكنى لم أتسلم ردا على خطاباتى حتى تاريخه .

علماؤنا وإنتاجنا المعرفى

إن مجرد إلقاء نظرة عابرة على قوائم عناوين الرسائل التى نوقشت فى مجالات العلوم الطبيعية فى مختلف أرجاء العالم العربى لتكذب هذه الأسطورة القائلة بأنه ليس لدينا إنتاج معرفى وإضافات حقيقية فى مجال العلوم الطبيعية. فما على المرء إلا أن يذهب إلى أقسام العلوم الطبيعية فى مختلف الجامعات العربية ليتبين العكس تماما من ذاك التصور المعادى للذات. بل أكثر من ذلك أن المتفوقين من العرب فى مجالات يحتكر فيها الغرب المعرفة التخصصية - كالذرة مثلا - صاروا يغتالون من جانب أجهزة المخابرات الإسرائيلية والغربية حتى لا يحققوا لشعبهم ما يمكن أن يرفع عنه الابتزاز الحربى لتلك القوى الطامعة فى ثرواته الطبيعية، وفى مقدمتها الماء والنفط. وإلا فقل لى لم اغتالوا سميرة موسى، باحثة الذرة فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولم اغتيل يحيى المشد فى باريس .. حتى يتحقق لإسرائيل ولأمريكا الهيمنة التكنولوجية على الشعوب العربية؟ أم أن المشد وسميرة موسى قد اغتيلا لأنهما لم يكونا منتجين معرفيا فى مجال علم الذرة؟!! أليس من الواجب علينا أن نفرد لهما ولأعمالهما مكانا مميزا فى تقديم عرب اليوم فى معرض فرانكفورت ، بدلا من أن يتجاهلا تماما على هذا النجو المعيب؟! أوليس من حق مصطفى مشرفة أن يقدم بالمثل فى لوحة الشرف - شرف الإنتاج العربى فى مجال علوم الطبيعة - فى معرض فرانكفورت؟!! وهل يجوز إغفال عالم منتج فى علم الأدوية كالأستاذ الدكتور محمد رءوف حامد؟ وهل من الإنصاف أن يتجاهل عالم جليل كالأستاذ الدكتور حامد الموصلى، أستاذ هندسة الإنتاج فى كلية الهندسة، جامعة عين شمس، وهو الذى احتفى به الألمان أنفسهم لما يقوم به من مشروعات يشرف بنفسه على تنفيذها لتدوير الفضلات الزراعية فى الريف المصرى من خلال إقامة صناعات منزلية صغيرة تقوم بها سيدة الدار وهى فى بيتها، بحيث تدر دخلا محترما عليها وأسرتها من خلال

تحويل فضلات جريد النخل من عبء على البيئة إلى منتجات نافعة للمجتمع ومحققة لاعتزاز سيدة الدار فى الريف المصرى بنفسها وإنتاجها! إن الدكتور الموصلى عائد لتوه الآن من ألمانيا حيث دعته مراكز أبحاث هناك معنية بحلوله الإبداعية، كما سبق أن كرم فى هولندا عام ١٩٩٧ على بحثه «منتج مثيل للأخشاب من جريد النخل» الذى حاز على الجائزة الأولى على أربعمائة وخمسين بحثا قدموا فى المؤتمر الدولى للمواد فى «ماسترخت»، ولكن السادة القائمين على تقديمنا نحن العرب المحدثين فى فرانكفورت لا يعيرون أمثاله وأمثال الدكتور رءوف حامد أى اهتمام ، إنما هم منهمكون فى «مطالبة » الدول العربية بـ «دفع» حصصها فى المشاركة العربية فى فرانكفورت، نعم أن يدفعوا حصصهم كى نقول للغربيين إننا لا نزيد عن كوننا أهل شعر ونثر، وأننا قد خرجنا من التاريخ كأهل علم وبحث جاد فيما يدير شئون حياتنا فى عالم اليوم .. بل إنهم حتى عندما تفتقت أذهانهم عن ذلك الزخم أو بالأحرى الشتات الواسع من الندوات الأدبية العربية لم يفكروا فى أن يقدموا محاضرة منهجية واحدة تكون بمثابة البوصلة الهادية للمتلقى الألمانى فى استيعاب النماذج المطروحة عليه من الأدب والفنون العربية الحديثة فى سياقاتها الخاصة ، وعلاقتها بمختلف الآداب القومية الأخرى، بما فيها الأدب والفن الألمانى المعاصر حتى لا يساء فهم ما يقدم بأن يسقط عليه ما هو نابع من سياقات ونظم قيمية ثقافية واجتماعية جد مختلفة. ولتوضيح ذلك أضرب على ذلك مثالا بـ «روالد دال»، المؤلف الروائى البريطانى من أصل اسكنديناڤى (توفى منذ بضعة أعوام)، فقد كان يصور الرجال العرب فى رواياته من خلال زياراته القصيرة للبلاد العربية، بأنهم جميعا مصابون بالمثلية الجنسية لأنهم فى أحاديثهم يلمسون بعضهم البعض فى عفوية واضحة ، بينما لا يفعل ذلك فى مجتمعه سوى المثليين . ولعل محاضرة أو حديثا يوضح اختلاف شفرات التواصل الاجتماعى فى سياقاتها الثقافية يمكن أن يوقى من الوقوع فى مثل هذه «الترجمات» الخاطئة جملة وتفصيلا لا سيما وأن هنالك الكثير من الأفلام العربية التى ستقدم صورا من حياتنا فى فرانكفورت «كتعويض» مستسهل، عن تقاعس الساحة هناك عن تقديم الإنتاج العربى المعاصر فى علوم العصر: علوم الطبيعة.. فكأننا نقول للأمريكيين والغربيين ولإسرائيل: نحن أهل خيال وفن فى أحسن الأحوال، أما أنتم فأهل علم فاعل فى التاريخ، فتعالوا لتديروا لنا شئون حياتنا لأننا قاصرون عن أن نقدم لها الحلول الناجعة...!!!! فإذا كان هذا هو رأينا فى أنفسنا فهل نعيب بعد ذلك على الآخرين أن يقفوا منا موقف المتفرج عندما يطمع فينا الطامعون؟!! ■

ثقافة عالمية أم ثقافة محلية ؟

بقلم
د. محمد المهدى

- كيف يمكن الحفاظ على تراث الإنسانية من تدمير الحروب ؟!
- كبسولة اليابان الحضارية حجر رشيد المستقبل . تحفظ التراث لأبناء عام ٦٩٧٠م
- مسلات مصرية سرقت أو أهديت لعديد من عواصم العالم فهل تعود ؟
- نواة متحف اللوفر كونها فرنسوا الأول بالنهب أو الشراء من فنون إيطاليا المضطربة فى القرن ١٦ م

فى المؤتمر العالمى الثانى للثقافة والذى عقد فى عام ١٩٨٣ م بالمكسيك تحت اشراف اليونسكو العالمى أثارت وزيرة الثقافة اليونانية الراحلة ملينا ميركورى قضية مهمة، هى المطالبة بإرجاع بعض القطع الفنية والأثرية الموزعة فى متاحف العالم إلى أصحابها . وطالبت على وجه التحديد المتحف البريطانى بإرجاع الوحدات الزخرفية «الإفريز» الذى كان يزين الـ «بارتينون» اليونانى حتى يستكمل البناء شكله الجمالى وتكامله .. وجاء وزير الثقافة الراحل عبد الحميد رضوان فطالب بدوره المتحف البريطانى بإرجاع لحية تمثال أبو الهول فهى كما قرر رجال الآثار والترميم لها دور مهم فى توازن عمارة التمثال بعد أن تهدد جزء من جسده بالإنهيار. مطالبة ميركورى والوزير رضوان أعادت إلى الأذهان قضية حضارية كبيرة أو أثارت التساؤل الآتى .. هل الأفضل للقطع الفنية أو النحتية أو الأثرية أن تبقى موزعة فى متاحف العالم الكبيرة كرسول حضارة، أو إعادتها إلى موطنها لتستكمل نفسها، وتستكمل وحدات غيرها فى الوطن الأم ؟ ويمكن أن يطرح التساؤل بتجريد آخر يتردد كثيراً الآن بخبث .. هل نسعى إلى ثقافة عالمية أم ثقافة محلية ؟

«إعداد اللوفر» عام ١٧٩٦

يثير هذا التساؤل مشاكل حضارية بل سياسية عديدة .. فما هو مفهوم الثقافة العالمية . من يحدد معالمها أو يشرف على تطبيقها ؟ إننا فى عالم يتنمر فيه الكبار بالصغار . وربما كان الصغار كبارا بحضارتهم القديمة ولكنهم باتوا صغاراً بسطوة السلاح ، ولعبة السيطرة الدولية من جانب من صاروا كبارا . فرصة الاستغلال السياسى قائمة من خلال هذا النداء ، الأخطر فرصة التجاهل والحصار للحضارات التي تريد أن تتنفس أو تتبلور أو تعيد مجداً قديماً.

ثقافة عالمية أو محلية ؟

وكتب الشاعر والكاتب اللبنانى صلاح ستيتيه - «يكتب الفرنسية ويعيش فى باريس» حول هذه القضية فعرض لثلاث حجج يطرحها المؤيدون لفكرة إبقاء الآثار فى متاحف العالم الكبيرة.

- أولها: ما يتعلق بالجانب الفني وهو توفر المناخ العالمى المناسب لحفظ هذا الآثار فى المتاحف الكبيرة. حيث يتوفر فيها الإمكانات وأحدث الدراسات وأحدث الطرق للعناية بوسائل تقنية متطورة.

- ثانيها: ما يتعلق بالجانب الحضارى العالمى ، فهذه القطع بعرضها فى المتاحف الكبيرة مثل اللوفر أو المتروبوليتان ، أو البريطاني، أو الأرميتاج .. تأخذ فرصة أكبر فى تعريف العالم على حضارات مناطق بعيدة وربما منسية ، كما أنها تأخذ فرصة أخرى من دراسة الدارسين فى أنحاء العالم .. من الغرب إلى الشرق.

- ثالثها: يتعلق بالجانب القانونى . فحق التصرف فى الآثار أو القطع الفنية فى متاحف العالم الكبير أو حتى غيرها ليس متروكاً للعلماء أو أمناء هذه المتاحف الأمر يتعلق هنا بملكية الدولة لهذه

القطع وبالتالى لا يحق التصرف فيها إلا بحكم قضائى صريح.

تدمير الحضارة

الفنون والآثار رمز الحضارات السابقة ، أو ممثل حيوية ونشاط السابقين . الخيط الخفى السرى الملموس والظاهر فى آن . تعرضت للتدمير المقصود أحياناً وغير المقصود أحياناً أخرى . الجاهل أحياناً أو المتجاهل فى أحيان أخرى . مدن كاملة ذهبت بما حوت من تراث وآثار.. طروادة على ساحل أسيا الصغرى ، قرطاجة على ساحل أفريقيا «تونس» المغول خربوا بغداد ودمشق واقتربوا من القاهرة ، آثار الإسكندرية ومكتبتها وما نهبه الرومان . مدن الأندلس بعد خروج العرب .. مدن أوروبا فى حروب عديدة مريرة.

وفى عام ١٩٣٨ صنعت شركة «وستنجهاوس» الأمريكية كبسولة تحوى نماذج متعددة من حضارة القرن العشرين تم دفنها فى أرض معرض نيويورك الدولى آنذاك . فكرتها تعريف الأجيال القادمة بالحياة فى النصف الأول من القرن العشرين. حجر رشيد للمستقبل فلا ندرى ما هو مصير البشرية بعد مائة أو ألف عام من جنون التسابق بالتسلح أو التسابق بالقفزات العلمية ، أو التسابق للتعرف على كائنات أو حياة أخرى على كواكب بعيدة أو قريبة.

وفى عام ١٩٧٠ فكرت صحيفة يابانية اسمها «الماينشى» فى اعادة فكرة الكبسولة بصورة متطورة موسعة مدروسة خاصة بالنسبة لأرض اليابان المعرضة فى إنتاجها وحضارتها لكوارث الطبيعة التى تبتلع من البشر بالربع مليون . فى معرض «إكسبو ٧٠» اليابانى عرضت عدة كبسولات بعضها أعد للدفن وتركت تعليمات لإعادتها إلى سطح الأرض فى عام ٢٠٠٠ والهدف من ذلك تزويدها بكل ما جد خلال هذه الثلاثين عام ، على أن يعاد فتحها وتزويدها بالجديد كل قرن ، وقد تم ذلك منذ ثلاث سنوات ونصف . ولكن الأهم كانت كبسولة الخمس آلاف عام . لقد أعدت للدفن على أن تترك إلى عام ٦٩٧٠ . كيف ستكون الحياة آنذاك ؟ كيف سيكون تصورهم للماضى ؟ هل سيعتبرونها محاولة ساذجة من الأجداد فإن ما لديهم من معلومات وخبرات وإمكانات سيفوق التصور؟ هل سيعتبرونها حجر رشيد جديد يساعد على حل لغة القدامى وقراءة أفكارهم وحياتهم ؟ هل ستتعرض للتدمير والتخريب قبل الأوان ؟

قبل دفن كبسولة معرض أكسبو ٧٠ فى حديقة «أوساى التاريخية اليابانية جرت دراسات عديدة من لجنتين الأولى تتكون من ٢٣ عالماً يابانياً لبحث الجوانب التقنية والأخرى من ٢٧ خبيراً وعالماً لانتقاء محتويات الكبسولة . أجرى استفتاء آنذاك لإشراك عامة اليابانيين فيما يوضع داخل الكبسولة ، من مواد ونماذج لحضارة القرن العشرين بكاملها ، وفى أفضل الأماكن لدفن الكبسولة ، داخل اليابان أو خارجها.

كبسولة الخمسة آلاف عام كروية الشكل فى داخلها ٢٩ حجرة محيطها الداخلى يبلغ متراً واحدا وسعتها ٥٠٠ ألف سنتميتر مكعب . فى داخلها وضعت ٢٠٩٨ مادة من تراث الإنسانية ، وفى ميدان العلوم الطبيعية ٧٤٢ مادة ، وفى العلوم الإنسانية ٦٨٦ مادة ، وفى الفنون ٥٩٢ مادة ، إلى جوار مواد أخرى متنوعة

تبلغ ٠٨٧ ووضعت اسطوانة فولاذية تحت التمثال المدفون تحت الكبسولة بها تعليمات خاصة بفتحها .. وتكلف المشروع ثلاثة أرباع مليون دولار !!

ما الذى يريد إنسان القرن العشرين أن يبلغه لإنسان القرن الألف السادسة؟ .. تراوحت المقترحات بين الطموحات الثقافية الراقية ... نماذج من الإبداع الفنى والأدبى ، والموسيقى ، إبداع الإنسان الباقى فى الفن ، وبين نماذج بسيطة أو ساذجة ... طابع بريد ، أسنان بشرية .. ورقة إمتحان مدرسية ، قطعة نقد. رسوم أطفال . بعض الأطعمة المجففة ، ملابس ، حلى ، قراءات ، رسائل ، أدعية دينية .... هل عاد الإنسان إلى فكرة المقبرة ومنها عودة الحياة والبعث ؟ رمز جلجميش ورغبته المحمومة فى إطالة الحياة !!

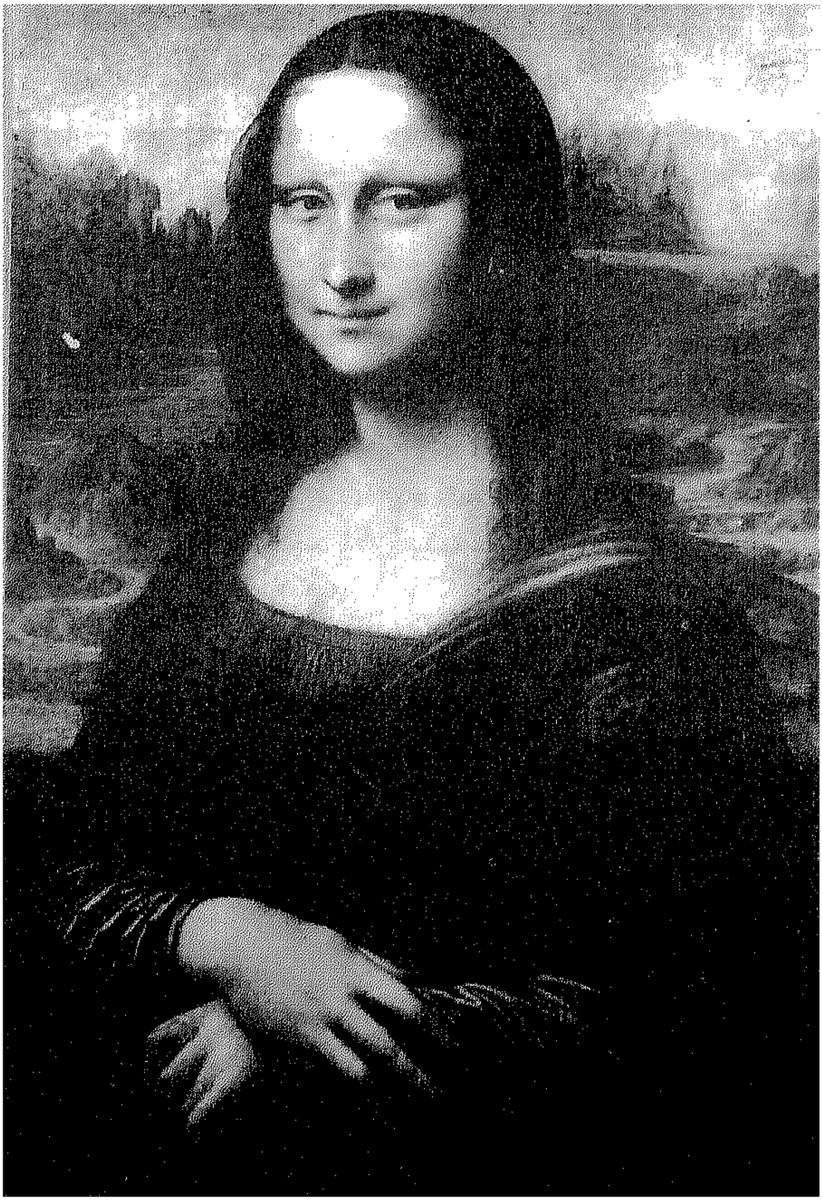

الجوكندا (موناليزا)

سرقة الحضارة

فى فترة السيطرة الاستعمارية نصب الغرب نفسه حامياً للحضارات. حضارات الآخرين اعتبرها مقدمة أولية لحضارته ، جعل حضارة الغرب هى الذروة ، وحينما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر.عام ١٨٩٧ تفرغ عدد من علمائها للبحث عن حضارات الشرق القديم . كشفوا جوانب من الحضارة الفرعونية . كشف حجر رشيد . وصل خبره إلى الإنجليز وأدرك علمائهم أهميته العلمية لذلك كان من شروط الصلح بين الفرنسيين والإنجليز تسليم حجر رشيد للإنجليز ، وما يزال إلى الآن يتصدر قاعة المصريات فى المتحف البريطانى .

ومن الطرائف أن العالم الفرنسى شامبليون الذى فك رموز لغة هذا الحجر لم يطلع على الأصل فقد حالت العلاقات المتوترة بين الإنجليز والفرنسيين دون ذلك ، إطلع شامبليون على نسخة من الحجر نقلها أحد العلماء.

وكل ما تركته الحملة الفرنسية من كشوف أو آثار لم تنقل مع الحملة، ورثها الانجليز فيما بعد ، لقد استعان محمد

على بالفرنسيين فى العديد من مشاريعه وسمح لهم بإعمال التنقيب ، نقل العديد إلى فرنسا ، ونهب العديد وكان قنصل فرنسا ينافس قنصل إيطاليا فى سرقة الآثار وبيعها .. كان لكل منهما عصابته ، وأسرة محمد على غافلة وأحيانا سعيدة لسعادة الأجانب بسرقة الآثار وتسريبها إلى خارج البلاد.

ولا تجد الآن متحفاً من متاحف العالم إلا وبه قسم للمصريات وإن كان اللوفر والبريطانى قد ابتلعا ما لا يحصى.

ولكن الأعجب هو سرقة معابد بكاملها أو مسلات ضخمة . والمسلات لها قصص عجيبة فقد أثارت اهتمام ودهشة رجال الفن والأدب وارتبطت عند الملوك بنوازع العظمة ، ووجدت معنى دينياً ملائماً عند رجال الدين والباباوات.

وتعرف روما أحياناً بمدينة المسلات بعضها حقيقى نقل من مصر، وبعضها مقلد ، فقد كان البابا (سستو) الخامس من المعجبين بتكوين المسلة المصرية فملأ روما بها .. ثلاث عشر مسلة منها سبع منقولة من مصر.

وفى فرنسا أربع مسلات أهمها وأشهرها الموجودة فى ميدان الكونكورد بباريس وتوجد واحدة فى ضاحية (فونتين بلو) وواحدة فى غابة)(فتسين) والرابعة فى مدينة (أرل).

وفى لندن توجد مسلة معروفة باسم مسلة كليوباترا عند جسر وترلو على نهر التايمز. وفى نيويورك مسلة فى مواجهة نصب لينكولن داخل سنترال بارك وفى مواجهة متحف المتروبوليتان ، وخارج روما توجد مسلة فى فلتربى ، واثنتان فى فلورنسا واثنتان فى استنبول.

مسلة لندن تعود لتحتمس الثالث نقلت إلى الإسكندرية ولذلك عرفت باسم مسلة كليوباترا ومنها نقلت إلى لندن ، أهداها اسماعيل باشا للإنجليز وقدرت تكاليف نقلها بسبعة آلاف جنيه تكفل أحد أثرياء الإنجليز بنقلها ، وضعت فى اسطوانة حديدية محكمة وقطرتها الباخرة (أولجا) ولكن عند خليج (بسكاى) بالقرب من أسبانيا انفصلت الإسطوانة وضاعت المسلة . شاء الحظ أن تعثر عليها سفينة أسبانية فنقلتها إلى لندن حيث أقيمت إلى الآن.

ومسلة نيويورك هى المسلة الثانية لتحتمس الثالث نقلت إلى الإسكندرية وعرفت بالتالى باسم مسلة كليوباترا كرفيقتها ، فى عام ١٨٦٩ وعند افتتاح قناة السويس وفى غمرة الحماس الجاهل أهداها اسماعيل باشا لمدينة نيويورك .. وكانت مشكلة . فكيف يمكنها عبور الأطلسى . رسى العطاء على (هنرى جورنج) فتعهد بنقلها . اشترى سفينة (دسوق) وأعدها خصيصاً لحمل المسلة وعبرت المحيط الاطلسى ونصبت فى يونيو ١٨٨٠ فى سنترال بارك . ومسلة مدان الكونكورد فى باريس تعود لأيام رمسيس الثانى الذى قام بتوسيع معبد الأقصر وأقام فى مدخله مسلتين أهدى محمد على إحداها للك فرنسا لويس فيليب ونقلت فى رحلة هائلة من الأقصر إلى باريس ، وكان المقابل لهذه الهدية الحافلة ساعة ما تزال موجودة إلى الآن فى مسجد محمد على بالقلعة .

ومسلة الفاتيكان المقامة إلى الآن فى ميدان القديس بطرس نقلت إلى روما أيام الإمبراطور كاليجولا ، طمرت مع الزمن إلى أن اكتشفها البابا (سستو الخامس) الذى ميز روما بالمسلات ، وأقامها عام ١٥٨٩ . قام بالعملية ٩٠٠ عامل و ١٥٠

مسلة الكونكورد فى باريس

حصاناً ، و٤٠ آلة من آلات الرفع . قام المهندس المكلف بنقلها باثنتين وخمسين محاولة إلى أن أوصلها سالمة وسط الميدان واستغرق الأمر أربعة أشهر كاملة.

ولم يتبق لمصر بعد ذلك إلا أربع مسلات فقط . اثنتان فى معبد الكرنك وواحدة فى معبد الأقصر والرابعة مسلة عين شمس بالمطرية ، وبعض مسلات قليلة الشأن ...

هل تعود المسلات من الشتات ؟

ملوك يسرقون !

وإفريز البارتينون الذى تحدثت ملينا ميركورى عن ضرورة عودته إلى اليونان ترجع قصته إلى أيام اشتباك الأتراك مع اليونانيين فى أوائل القرن التاسع عشر انتهز الفرصة لورد انجليزى اسمه (توماس بريك اليجان) وقام بتكليف عدد من العمال والفنيين بفك الإفريز عن واجهة البارتينون ، ونقله إلى انجلترا بحجة استفادة الفنانين والمعماريين بدراسة تكوينه الجمالى ، وحمايته من التدمير.

أثار هذا العمل بعض الأدباء والفنانين أنفسهم وكان على رأسهم اللورد بايرون وكان متحمساً للحضارة اليونانية ومتحمساً لاستقلال اليونان عن تركيا ، كما كتب يدين هذا العمل فى أواخر القرن التاسع عشر الشاعر اليونانى قسطنطين كافافيس.

ولكن الأعجب من قصة اللورد توماس قصة الملك فرنسوا الأول ، لقد سبق قصة اللورد بقرون ، كان نهماً فى اقتناء أعمال الفنانين من لوحات أو منحوتات أيام نهضة إيطاليا . وما يزال متحف اللوفر يحتفظ إلى الآن بلوحة دافنشى الشهيرة -(الجوكندا) كجزء من ميراث فنى ضخم تركه الملك فرنسوا الأول بل تعتبر مجموعته التى تركها من التماثيل واللوحات نواة اللوفر نفسه.

وحينما جاء ليوناردو دافنشى إلى باريس ١٥١٦ ليعيش فى حماية ورعاية فرنسوا الأول بعيداً عن الاضطرابات التى شملت ولايات إيطاليا كان متاعه

يحوى «الجوكندا» وغيرها من أعماله الفنية المميزة (العذراء والطفل والقديسة آن) ولوحة (القديس جان بابتيست) وأيضاً لوحة (باخوس).

مات دافنشي عام ١٥١٩ وورث فرنسوا الأول أعماله . صارت جزءاً من مجموعته والتى تحولت بعد ذلك إلى اللوفر.

شملت مجموعة فرنسوا الأول أعمالاً عظيمة أخرى لفنانين كبار من عصر النهضة . أعمالاً لأندريا دلا سارتو ولاسم أخر معروف لدينا هو (رفائيل) جند فرنسوا الأول سفيرة فى روما لشراء أعمال الفنانين بطريق أو بآخر وكان له عميل اسمه (باتيستا دلا بالا) فى فلورنسا انتهز فرصة حصار المدينة فى عام ١٥٣٠ ونزل إلى طرقات المدينة يطرق الأبواب ويغرى سكان المدينة الذين يعانون من الحصار لبيع ما لديهم من أعمال فنية .. وأحياناً يهدد أو يتوعد بطرق غير شريفة ليصل إلى هدفه ويرسل لسيده فى باريس مجموعة جديدة . ظل يمارس نشاطه إلى أن طمع فى مقتنيات أحد سادة فلورنسا واسمه (بورجينى) دخل قصره بعد أن علم بهربه من المدينة ، وجد لسوء حظه الزوجة التى استعانت بأهل المدينة فقبضوا عليه وأودعوه السجن.

والعجيب فى أمر هذا العميل أن بعض الأعمال التى جمعها لسيده فرنسوا الأول كانت تختفى بعد وصولها لباريس منها تمثال (هرقل) لميشيل انجلو وتمثال (هرمس والفلوت) لباندينلى وبعضها ظهر بعد ذلك فى انجلترا ونراه اليوم فى (الناشيونال جاليرى) بلندن .

فرنسوا الأول كان له عميل آخر من البندقية اسمه (بيترو ارتينيو) عرف باسم (ارتيان) أهداه الملك سلسلة ذهبية تزن أربعة كيلو جرامات كان حريصا على حملها دائماً ليثبت بها صلته بفرنسوا . استطاع فى عام ١٥٣٨ أن يحصل على لوحتين للفنان (تيتيان) الأولى اسمها شرف الإنسان موجودة إلى الآن فى اللوفر والثانية باسم التسبيح بعظمة الله.

وحينما بدأ فرنسوا يهتم بالنحت القديم علم باكتشاف منزل (نيرون) القديم فى حفائر روما والذى احترق عام ٦٢م ، منزل حوائطه ذهبية مرسومة ، ملئ بالمنحوتات النادرة صعب على عملاء الملك تهريبها فأرسل الفنان باندينيلى لصب نماذج منها.

وفى باريس قام فنان آخر بإعادة صبها من البرونز وعرضت فى قصر (فونتين بلو) وظلت تزينه إلى أن نقلت أيام الثورة الفرنسية إلى اللوفر وأعيدت الآن إلى مكانها القديم . أعمال فنية عديدة اشتراها أو نقلها أو نهبها فرنسوا الأول من إيطاليا المضطربة فى القرن السادس عشر . من إنتاج عصر نهضتها الفكرية والفنية والأدبية واضطرابها وتفككها السياسى .. والآن هل يحق لإيطاليا المطالبة بإعادتها ؟ .. ربما نسمع بين الحين والآخر من يطالب بإعادة الجوكندا إلى إيطاليا ، ولكنها ليست إلا واحدة من آلاف فهل يحق عودة الجوكندا ؟ ... ما يزال السؤال مطروحاً .

اتفاقيات وتداخل بين الحضارات

ونعود لبعض ما جاء فى مقال الشاعر صلاح ستيتية .. نراه يذكر اتفاقيات إعادة بعض القطع النادرة من آثار أو فنون .. اتفاقية بين فرنسا ولاوس عام ١٩٥٠ لإعادة بعض القطع للاوس ، واتفاقية أخرى مع الجزائر عام ١٩٦٨

لإعادة ٣٠٠ لوحة إلى الجزائر كانت معروضة فى معرض بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٦٢. اتفاقية بين استراليا وحكومة غيانا الجديدة لإعادة بعض القطع الأثرية الى غيانا ، وبين هولندا وأندونيسيا لاعادة قطع أندونيسية ، وبين المكسيك وجامعة هارفارد لإعادة قطع من الحلى والجات إلى المكسيك ، وإعادة قطع أخرى إلى بنما ، وغواتيمالا ، وبيرو ، والكاميرون ، وسوريا ، واتفاقية بين فرنسا والعراق عام ١٩٨٠ لإعادة قطع كتبت عليها نصوص قانونية لها صلة بقانون حامورابى . وفى عام ١٩٨١ إعادة فرنسا إلى مصر تمثالاً لـ آمون . وفى صيف عام ١٩٨١ وبمعونة اليونسكو أعاد معهد لندن إلى اليمن بعض النصوص الحميرية ، فى نهاية عام ١٩٨١ أعادة انجلترا لكينيا جمجمة يتوغل عمقها التاريخى إلى مليونين من السنوات . وفى عام ١٩٧٥ قام أحد التجار الايطاليين بنهب كما هائلاً من آثار الاكوادور وبدد غالبيتها وفى عام ١٩٨٢ تم الاتفاق على إعادة ما بقى منها .

وبعد اتفاقية اليونسكو مع مصر عام ١٩٧٢ أصبح من حقنا المطالبة بالتحف التى أخذت منا بعد هذا العام ، وبالفعل عادت بعض التحف ولكن ماذا عن الكم الهائل خارج مصر ؟

اتفاقيات إرجاع الآثار أو الفنون إلى أصحابها رغم أنها تدخل فى قائمة أضعف الإيمان ، إلا أنها أثارت قضية سياسية مغلفة بحجج حضارية، فالحدود القومية لم ترسم فى أوروبا بصورة شبه متفق عليها إلا منذ قرنين تقريباً ثم بعد ذلك فى أنحاء العالم ، ومع ذلك إذا قلت مثلاً أن هناك قطعة أثرية من كورية فأى الكوريتين يحق لها استرجاعها ؟ وقس على ذلك تداخل الحدود فى عدد كبير من دول العالم المتنازعة ... وإذا كانت هناك قطعة أثرية من بخارى فهل تحق للمدينة أم تحق لمتحف سان بطرسبرج (لينينجراد) ؟ وإذا كانت هناك مخطوطة أموية انتقلت من دمشق للأندلس فهل تحق لسوريا أم للاسكوريال ؟ اتفاقيات إرجاع الآثار أو الفنون مهما تعددت ستظل محدودة أمام هذا الكم الهائل الذى توزع فى أنحاء متفرقة وأزمنة بعيدة . وربما لو عقدت اتفاقيات تكامل بين متاحف العالم لكان الأمر أكثر ايجابية فمجموعة هذا المتحف أو ذاك لا تكتمل ربما إلا بقطعة أو أكثر من متحف آخر ، وهذا أمره صعب الآن أمام الحدود السياسية الجديدة . فما بالنا بالطموح الخبيث الجديد الساعى للاندماج فى شرايين السلطة المفردة المنفردة باسم العولمة الامريكية.

وقد نحلم فنقول أن الأمم المتحدة يمكنها أن تحول فكرة كبسولة الحضارة إلى قاعدة حية على سطح الأرض ، أن تختار جزيرة من جزر المحيط الأطلسى ، تتنازل عنها انجلترا أو فرنسا أو امريكا تتحول بكاملها إلى متحف عالمى ، يحوى تراث الانسانية من أيام الكهوف الباقية فى ركن صغير من الأرض ، إلى أيام الكوكب التائه فى سديم هائل ، تشارك فيه دول العالم ، يعدها علماؤهم بعيدا عن المنازعات السياسية ، أو التساؤلات عن العالمية أو المحلية .. بعيدة عن سرقة الحضارة أو تدمير الحضارة .. حلم ربما يتحقق فى قرننا الجديد قرن حضارة المتاحف. ■

متحف
محمد محمود خليل وحرمه

أماني عبد الحميد

تصوير: إبراهيم بشير

● ٨ مليارات دولار قيمة مقتنياته الفنية لأهم رموز المدرسة التأثيرية في القرن ١٩

● أهدى قصره للحكومة المصرية على الرغم من عشقه للفن وحبه للاقتناء

أحمد سامي مدير المتحف:
كان المحرك الأساسي لنشأة الحركة الفنية في مصر

محسن شعلان:
مقتنيات لا تقدر بثمن تخلد اسم صاحبها

يستوقف العابرين جمالُ القصر الفخيم بحديقته الرحبة، منهم من لا يملك الجرأة الكافية ليخترق السور الحديدى ويجوب الحديقة، لكن المشهد من الخارج يدفع الكثيرين إلى دخول بوابة الزمن، يترك خلفه عالما قبيحا ويتجاوزه إلى عالم آخر، أجمل ما فيه الصمت والإعجاب بجلال خلق الإنسان المبدع

المكان هو متحف محمد محمود خليل وحرمه، أحد أهم المتاحف الفنية في مصر والشرق الأوسط. تفوق قيمة ممتلكاته والأعمال المقتناة داخله الثمانية مليارات دولار.. أما الزمان، يتوقف دوماً داخل ردهات القصر المتحفى، حيث يتجاوز عصرنا وعصر صاحب القصر، فالصمت والسكون هما أبلغ تعبير عن عظمة وجمال المكان ومقتنياته، وفى الوقت الذى نُعجب باللوحات والتحف النادرة التى يضمها، يستحوذ علينا الإكبار لذلك الرجل الذى

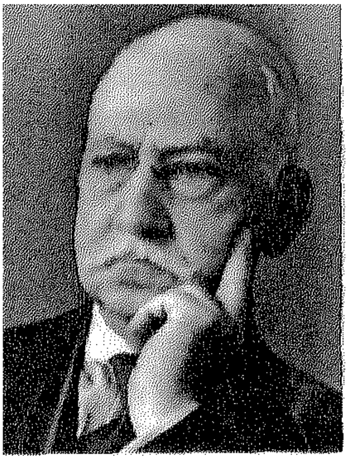

محمد محمود خليل

زوجته الفرنسية ايميلين هكتور

محمود خليل مع رئيس الوزراء على ماهر

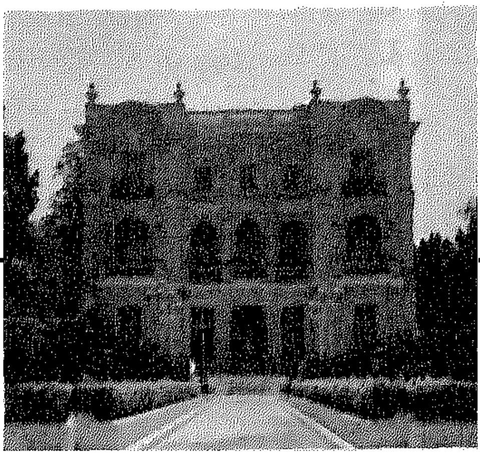

القصر الفخم المبنى على الطراز الفرنسي

عشق الفن وأنفق عليه بسخاء يفوق الخيال، ثم قدمه هدية لشعب مصر لقيمته الفنية التى لا تقدر بثمن.

داخل القصر المطل على أجمل البقاع النيلية اختمرت الفكرة داخله، وهو الرجل المحب للفنون والعاشق لاقتنائها، بل هو الجامع لكل ما هو قيم ونفيس ومع البدء فى بناء قصره فى عام ١٩١٥ اختمرت الفكرة داخله، وقرر أن يهب الحكومة المصرية ممتلكاته وثروته بالكامل المكونة من أهم وأثمن لوحات الفن التشكيلى فى العصر الحديث ، وظلت روحه طليقة بين عظمة لوحات ديلاكروا، رينوار، فان جوخ وتماثيل رودان .

رينوار.. صفقة رابحة..

وبرغم وضوح مراحل وتفاصيل حياته وحتى مماته إلا أن الغموض لايزال يغلف ذلك الشخص ذا الملامح القاسية – كما يبدو عليه تمثاله البورتريه بملامحه الصارمة وشاربه التركى – وبرغم مرور أكثر من نصف قرن على وفاته (ديسمبر ١٩٥٣) إلا أن الاندهاش هو الحالة التى تصيب الزائرين والعابرين لمتحف محمد محمود خليل، فمن ذلك الشخص؟ هو رجل سياسى بالدرجة الأولى ولد فى عام ١٨٧٧ لعائلة ارستقراطية ثرية سافر إلى

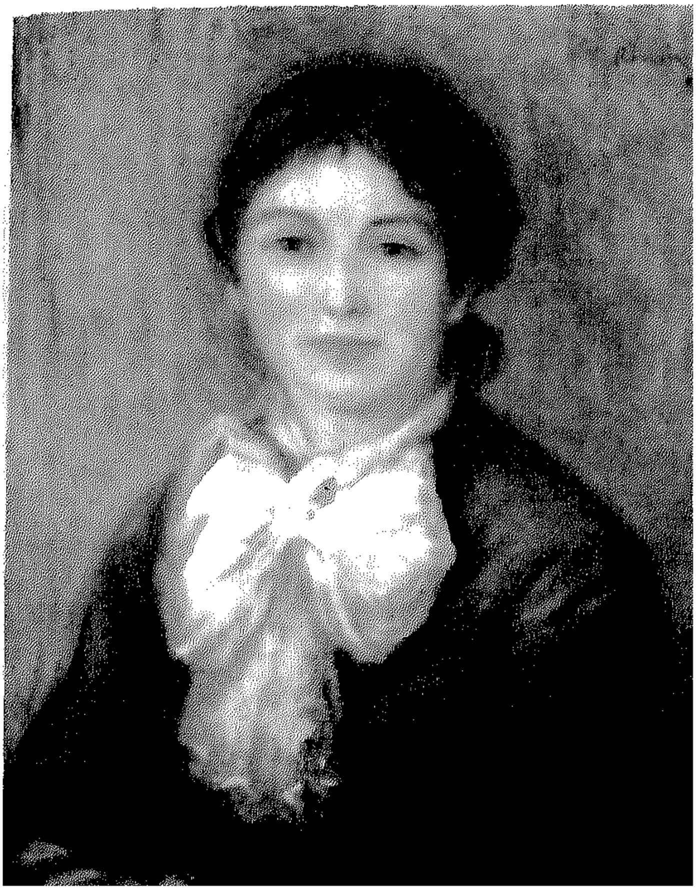
لوحة رينوار « الفتاة ذات رباط العنق » ، أولى لوحـات المتـحف وأشـهـرها

فرنسا ليدرس القانون بجامعة السوربون (١٨٩٧) وهناك تعرف على الفرنسية ايميلين هكتور الراقصة المغمورة التى كانت تدرس الموسيقى بمعهد الكونسرفتوار باريس.. أحبها وجمعهما حب الفنون والولع باقتنائها. فتزوجا فى عام ١٩٠٣ ، ليقوما بشراء أولى لوحاتهما.. حيث نجد «خليل بك» يكتب فى مذكراته «باريس ١٩٠٣ أربعمائة جنيه كاملة دفعتها ايميلين ثمناً للوحة امرأة رسمها رينوار، إنه مبلغ كبير لا أتصور أن يدفع كل هذا المبلغ فى لوحه واحدة، لكن «ايميلين» تقول إننا رابحون فى هذه الصفقة.. من يدرى فقد نكون كذلك؟!» السنوات أثبتت أنهما كانا من الرابحين ، فلوحة أوجست رينوار وصل ثمنها اليوم إلى ٤٠ مليون دولار!!

وهو أيضا رجل سياسى مقتدر شغل منصب وزير الزراعة وشرف برئاسة مجلس الشيوخ المصرى إلا أنه كان أحد اثنين تدين لهما الحركة الفنية فى مصر الحديثة، الأول هو الأمير يوسف كمال منشىء مدرسة الفنون الجميلة، ،محمود خليل الذى وهب نفسه وقصره وثروته للفن، فى وقت لم تكن فيه وزارة للثقافة ترعى الفن والفنانين.

ومن أهم أعمالهما معاً إنشاء أول جمعية محبى الفنون الجميلة فى عام ١٩٢٣ التى ساهمت فى تكوين جيل جديد من الفنانين كان لهم دور فى خلق ذوق مختلف يواكب القيم العصرية وقتها، وأصبح خليل بك رئيسا للجمعية فى عام ١٩٢٤ وحتى عام ١٩٥٢، وإن كان من أهم أدواره هو إقامة جسر بين الثقافتين المصرية - والفرنسية ، وهنا يحدثنا عن شخص «محمود خليل» الفنان أحمد سامى مدير المتحف ويقول إن الرجل كان راعياً للفنون عندما لم تكن هناك وزارة للثقافة، كان المحرك الأساسى وراء نشأة الحركة الفنية نظراً لصفته الارستقراطية ولتواجده السياسى القوى، وعندما كانت فرنسا قبلة الفن والفنانين نجح فى بناء جسر قوى بين مصر وفرنسا، خاصة وأن ولع المصريين واتجاهاتهم كانت فرنسية النزعة نظراً لابتعادهم عن كل ما يتعلق بالثقافة الإنجليزية (ثقافة المحتل).

ويستطرد «أحمد سامى» بأن محمود

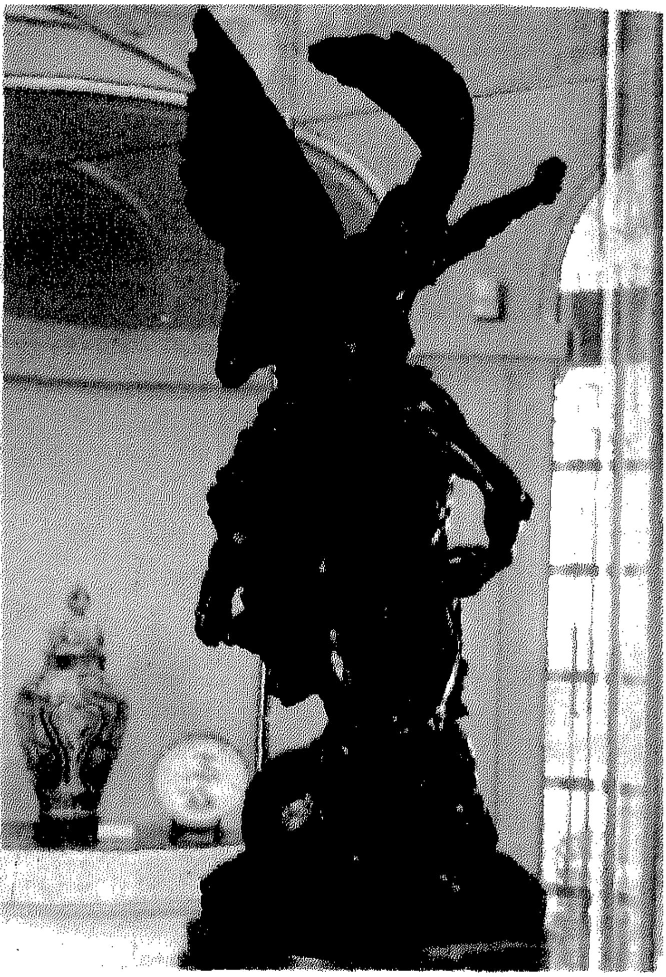

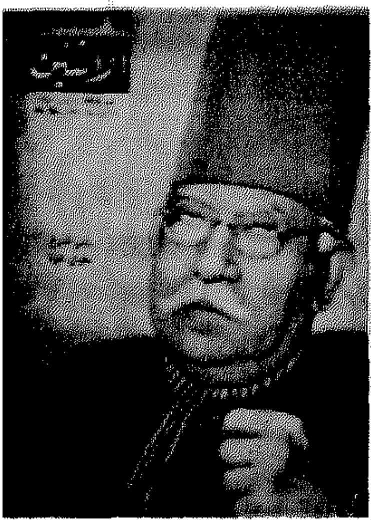

تمثال رودان الشهير « نداء السلاح » ، وعلى اليسار نموذجان من الرسوم الكاريكاتورية التى كانت تنشر على أغلفة المجلات المصرية

خليل هو أحد أبناء الطبقة الارستقراطية التى كان أبناؤها يحرصون على اقتناء اللوحات الفنية العالمية، حتى أن عدداً منهم كان لهم مجموعاتهم الفنية الخاصة، وكان أشهرهم التاجر اليهودى بنزيون صاحب سلسلة المحال التجارية، وكانوا يتبادلون اللوحات فيما بينهم ليستكملوا مجموعاتهم ومثال ذلك عندما قام محمود خليل باستبدال لوحة لـ كوربيه من بنزيون ليستكمل مجموعته التى تنتمى للمدرسة التأثيرية، ويضيف أنه للأسف لم تصل إلينا أى من تلك المجموعات الفنية التى كانت تمتلىء بها جدران القصور المصرية، خاصة وأن يهود مصر عندما هاجروا أخذو ممتلكاتهم ومقتنياتهم معهم، ولم تتبق داخل مصر سوى مجموعة خليل فقط!! وإذا علمنا أن كل من أبناء الطبقة الثرية كان مختصاً فى مدرسة فنية بعينها فكما كان خليل بك مختصاً بأعمال المدرسة التأثيرية كان هناك من يهتم بالمدرسة الكلاسيكية وآخر بالمدرسة الكلاسيكية الجديدة أو بأعمال المستشرقين، وهنا يشير أحمد سامى أن حوالى ٧٠٪ من مجموعة خليل بك كانت تنتمى لمدرسة المستشرقين الذين زاروا مصر وقاموا برسمها، لكنه تخلص منها عن طريق إهدائها لكل من نادى محمد على (ولا تزال معروضة على جدرانه حتى

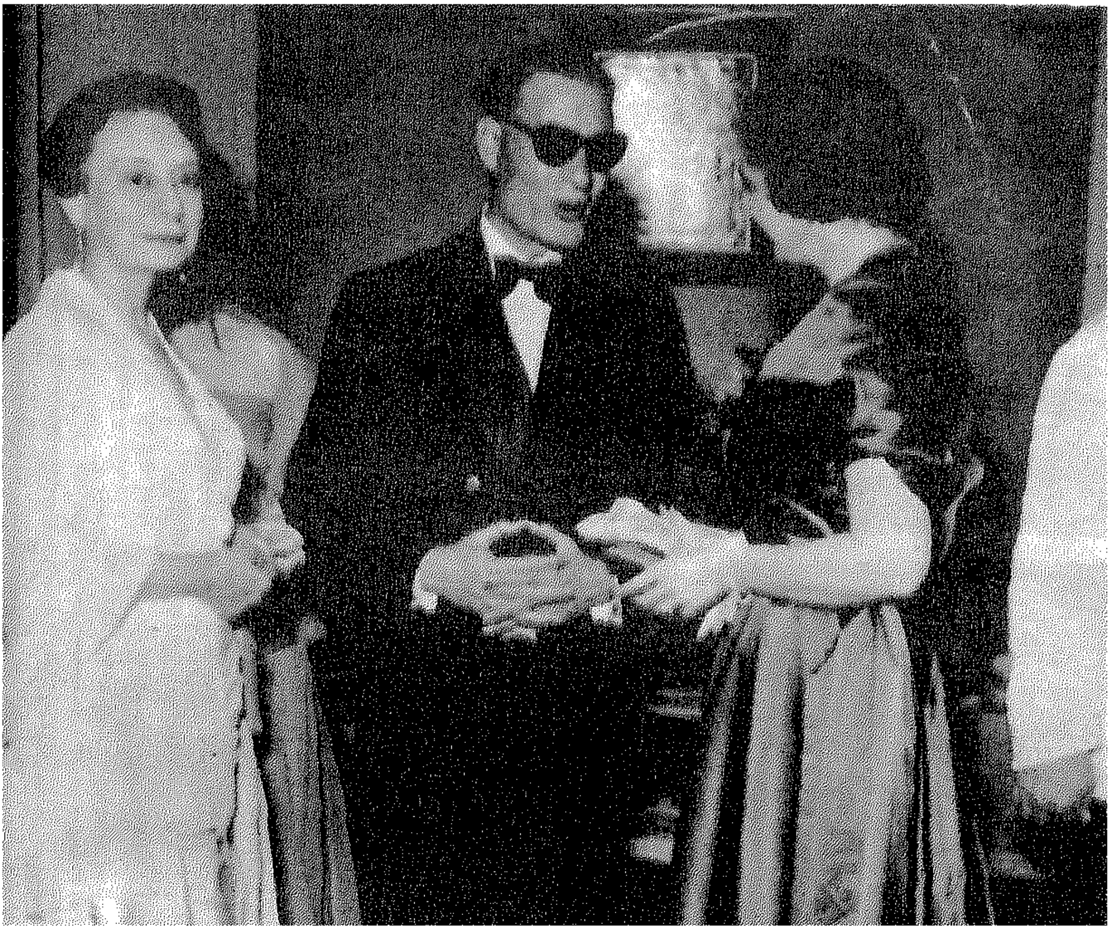

طه حسين كان أهم زواره وأصدقائه

اليوم) ومتحف كلية الفنون الجميلة جامعة الإسكندرية، وذلك حتى يظل قصره المتحفى يحوى أعمال المدرسة التأثيرية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر على يد عدد من الفنانين أمثال جوجان رينوار، فان جوخ، كورو، مونيه، فانتان لاتور، ديلاكروا، ريكاردو جوستاف، وتولوز لوتريك، ديجا.

وفى تفسير ولع محمود خليل بالفن كان المقربون منه وأصدقائه ، يرون أنه وجد مثله الأعلى فى عشق الفن الجميل، لا رغبة منه فى الفخر أو الزهو، ولكن أملاً فى وجود حياة سعيدة ومنارة للعقل، ومصباحاً للنفس، والدليل على ذلك تلبيته لرغبات زوجته ايميلين فى شراء أية لوحة عالمية حتى ولو كانت غالية الثمن، واعتماده على ريشار موصيرى سكرتيره وسمساره الذى يقوم بمتابعة المزادات العالمية ويشترى له اللوحات التى يرغب فى اقتنائها.

ويحكى لنا أحمد سامى بأن محمود خليل حرص على اقتناء الأعمال الفنية التى أبدعها فنانون هم رواد اقترنت أسماؤهم بميلاد الاتجاهات والتحولات الفنية المتلاحقة التى شهدتها الحركة التشكيلية فى أوروبا وخاصة فرنسا خلال القرن التاسع عشر، فلوحات المتحف البالغ عددها ٢٠٨ لوحات تعبر عن تلك الاتجاهات الفنية المختلفة إلا أن أكثرها ينتمى للمدرسة التأثيرية التى مهدت لظهور فنون القرن العشرين. كما حرص

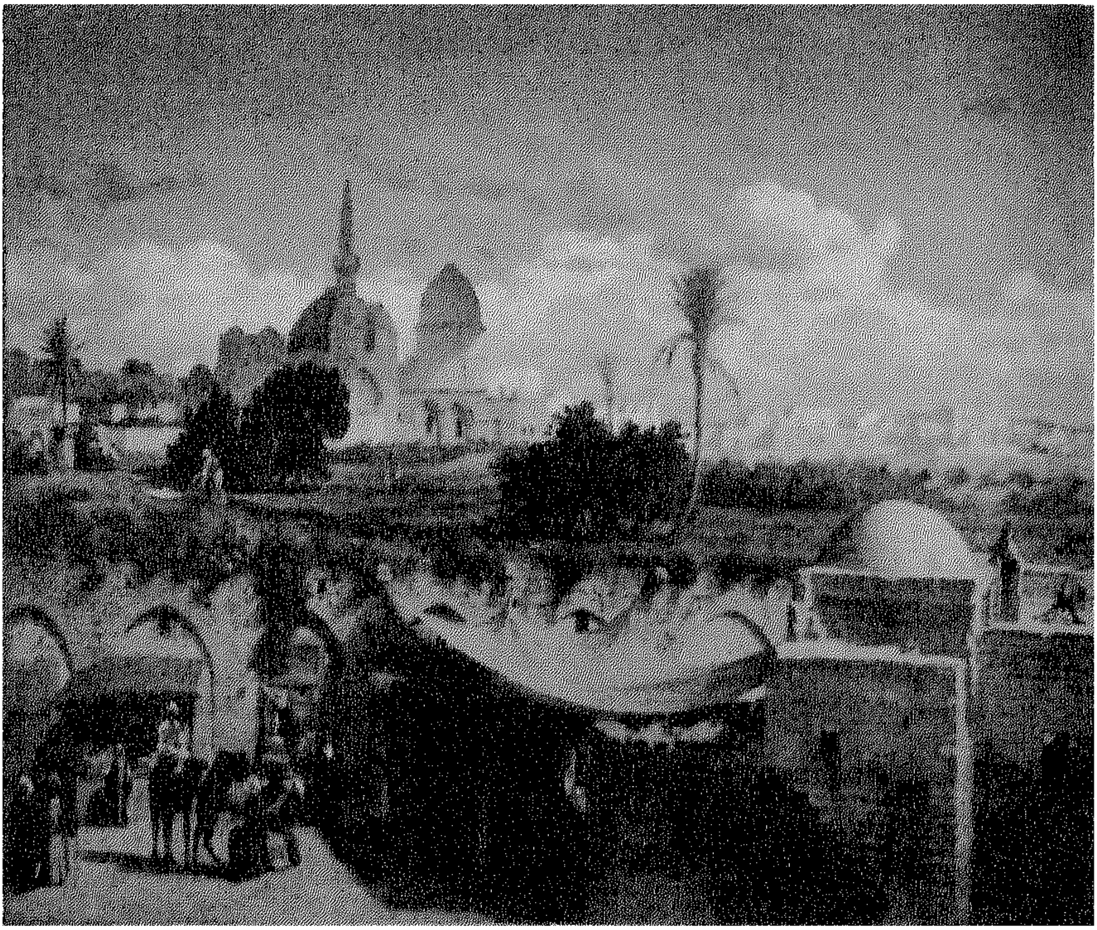

لوحة تصور جامع عمرو على امتداد الأفق

محمود خليل على اقتناء مجموعة من الأعمال النحتية سواء تماثيل برونزية أو رخامية أو جصية لكبار مثالى القرن التاسع عشر ٤٠ تمثالاً أمثال رودان، كاربو وبارى وهودون وكوردييه، وإلى جانب ذلك يضم المتحف مجموعة قيمة من الفازات النادرة من فرنسا والصين واليابان وإيران، ومجموعة من المشغولات الفنية صغيرة الحجم التى اتقن الفنان الصينى صنعها من الأحجار الكريمة مثل الكريستال دى روش، الزمرد، المرجان، الجاد.

أعمال نابضة بالحياة

وإن كانت مشاهدة الأعمال الفنية تكفى لكى تصفو النفس أمامها، إلا أن الحكايات المروية عنها تزيدها بريقاً وروعة، ففى الدور الأرضى ترى تمثال «نداء السلاح» للفنان رودان أحد رواد المدرسة التأثيرية فى النحت، كانت أعماله من شدة تميزها تبدو للرائى كأنها نابضة بالحيوية، لدرجة أنه اتهم بقيامه بصب البرونز على موديل حى لرجل عار وذلك لعدم تصديق الناس وقتها بأنه قادر على أن ينحت أعماله بتلك الدرجة العالية من الشفافية والدقة والحيوية، ونظرة واحدة تكفى لتمثاليه «لفيكتور هوجو» و«بلزاك» لنشعر بذلك، أما اللوحة البيضاوية التى تمثل الأميرة دى فاجرام (مارى لويز) التى رسمها الفنان فينتر هالتر والذى رسم معظم الشخصيات الملكية فى أوروبا وكان الرسام المفضل لدى الملكة فيكتوريا لما تتميز به أعماله من لمحة رومانسية

ساحرة، وهذا ما ظهر فى لوحة الأميرة الزوجة الثانية لنابليون بونابرت وهى ابنة ملك النمسا فرانسيس الأول والتى كانت زيجتها زيجة سياسية بحتة.

وفى الدور الأول وداخل غرفة ذات طلاء داكن اللون توجد لوحة أزهار الخشخاش للفنان فان جوخ وهى أهم لوحة داخل المتحف وذات صيت عالمى، وبرغم جمالها إلا أن أحمد سامى مدير المتحف يؤكد لنا أن «جوخ» عندما رسمها كان لايزال فى مراحل التعليم الأولى فى مدرسة الفنون!!

وفى الغرفة المقابلة لها نجد لوحة جوجان «الحياة أو الموت» أغلى لوحة فى المتحف حيث يقدرها البعض بـ ٨٥ مليون دولار والبعض الآخر يقدرها بـ ٦٠ مليون دولار فقط!! وهى تجسد رؤية جوجان فى الألم والاحباط الذى كان يعانى منه فى حياته وتبدى ذلك من خلال علامات الأسى البادية على وجه حبيبته «مارى» ويعتبرها النقاد على مستوى العالم بأنها لوحة بلا أخطاء وجمالها يصل إلى حد الكمال الفنى.

ولوحة درس فى الغناء للفنان تولوز لوتريك هى قطعة فنية تجمع بين التأثيرية والتعبيرية، رسمها لوتريك عندما أقام فى باريس وكان يتردد على ملهى «المولان روج» الطاحونة الحمراء، وبها تحدى أستاذه إدجار ديجا الذى كان قد رسم نفس الفتاتين خلال درس الغناء والعزف على البيانو، ومنها تفوق التلميذ على أستاذه فى الاهتمام

لوحة جوجان - « الحياة و الموت » أهم وأغلى وأشهر لوحات المتحف

بالتفاصيل ونقل الاحساس الدافىء بالظل والضوء.

خصوصية ساحرة

الكثير من الحكايات لاتزال لوحات متحف محمود خليل تحتفظ بها، لا تبوح بها خلال زيارة واحدة، فهو متحف يزداد سحراً كلما مرت عليه السنوات، وعنه يحدثنا محسن شعلان رئيس الإدارة المركزية لقطاع المتاحف والقاعات الفنية، ويقول إن المتحف قيمته أصبحت من الصعب تقدير قيمتها بثمن، فكثير من لوحاته لا نستطيع أن نوافق على سفرها إلا فى حالة استيفاء شروط التأمين عليها، مع العلم أن التأمين قد يصل إلى ملايين الدولارات، ويضرب لنا مثلا بلوحة جوجان «الحياة والموت» من اللوحات المطلوبة على

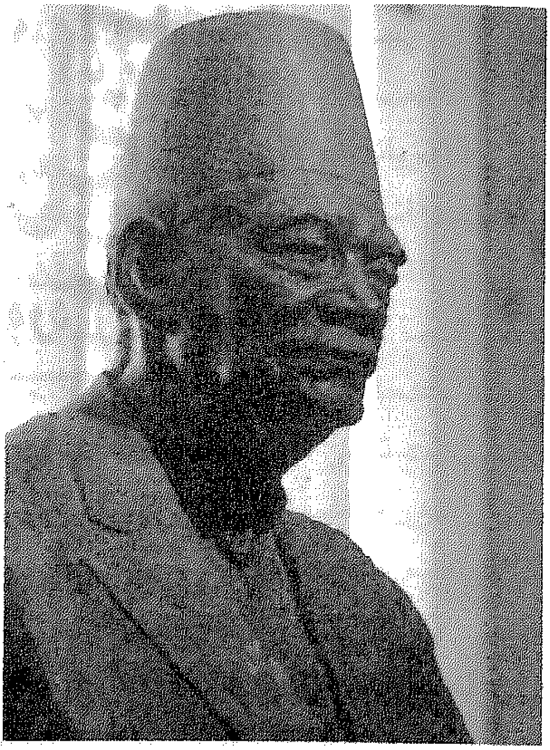

تمثال بورتريه لسعد زغلول للفنان اليوغسلافي يورفيتش

لوحة لماري لويز أميرة دى فاجرام ، للفنان الالماني فينتر هانز

مستوى العالم لكن ثمنها يصل إلى ٨٥ مليون دولار وبالتالي القيمة التأمينية باهظة جداً، لا يستطيع أي من المتاحف تحملها، لذا لم تسافر أو يتم عرضها في أي من متاحف العالم، لكنها ستسافر هذا العام إلى أسبانيا عندما تمكنوا من دفع قيمة التأمين عليها .

ويضيف شعلان أن متحف محمود خليل وحرمه أتاح الفرصة أمام محبي الفنون الجميلة في جميع أنحاء العالم لإعادة اكتشاف بلادنا بوجهة نظر أخرى مختلفة، فلم نعد نمثل لهم بلاد الأهرامات وأبو الهول فقط. بل أصبحنا شعباً متحضراً والدليل أن أحد أهم الرموز السياسية في بدايات القرن العشرين يهب كل مقتنياته وثروته المكونة من لوحات فنية للدولة ويطالب بتحويل قصره إلى متحف. ويشير إلى أن المتحف يضم مكتبة تحوى أهم الإصدارات والكتب القديمة في جميع فروع الثقافة والفن أغلبها باللغة الفرنسية كانت ضمن ما أهداه محود خليل للحكومة المصرية.

وفي ختام جولتنا داخل متحف محمود خليل وحرمه يودعنا تمثاله الصامت وسط أشجار حديقته الوارفة.. ويتركنا والتساؤلات تشاغب عقولنا.. هل أيقن محمود خليل أن صفقته الأولى بشراء لوحة رينوار بـ أربعمائة جنيه لم تكن خاسرة بل رابحة جداً، وكانت فاتحة خير عليه، وهل بذل عمره وماله لمجرد الولع والهواية الغريبة الباهظة التكلفة؟ هل هو مجرد حب تملك؟ أم رغبة في الخلود؟ يبدو جلياً داخل قصره المتحفي الفخم أن حلمه الأول كان تخليد اسمه على اعتبار أنه أهم راع للفنون في مصر تناقلت اسمه الأجيال المتعاقبة من بعده.. وقد تحقق حلمه برغم وفاته في باريس ديسمبر عام ١٩٥٣. ■

الخديو إسماعيل
والإمبراطورة أوجينى

قصة حب عاصفة

بقلم

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى *

اختلف المؤرخون والباحثون فى تفسير علاقة خديو مصر إسماعيل بإمبراطورة فرنسا «أوجينى»، فذكر البعض أنها كانت علاقة حب وغرام بين الإمبراطورة الفاتنة الغرناطية المولد [1] التى تحمل قسماتها أصولا شرقية، والتى استطاعت أن تضع على رأسها تاج الإمبراطورية الفرنسية بعد زواجها من «نابليون الثالث» إمبراطور فرنسا، وكانت ملتقى أنظار المعجبين، وموضوع تفنن الرسامين. وقال بعض آخر إنها كانت علاقة تبادل مصالح وعلاقات عامة من أجل جذب فرنسا إلى صف الخديو الذى كان يسعى للحصول على استقلال مصر عن الدولة العثمانية، وعلى إنشاء المحاكم المختلطة.

وفى هذه الدراسة سنحاول تلمس الحقيقة قدر الإمكان خاصة أن أسرار القلوب يصعب على أى قلم تناولها بدقة لحظة بلحظة.

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة القاهرة - فرع الفيوم

«أوجينى» تلك الإمبراطورة الحسناء ابنة الكونت الإسبانى «دون كابريانو قزمان» سليل الحسب والنسب والتى اقترن بها الإمبراطور نابليون الثالث فى عام ١٨٥٣ بعد أن جذبه إليها جمالها المتألق وملامحها الفاتنة عندما رآها فى إحدى الحفلات حيث كانت تتلقى تربيتها وتعليمها فى باريس بدير «القلب المقدس» وإسماعيل بن إبراهيم سليل أسرة محمد على الكبير الذى تولى أريكة الحكم فى مصر عام ١٨٦٣ وكان يسعى لانفتاح مصر على الغرب، ونقل قاهرة العصور الوسطى إلى قاهرة جديدة تساير الحديث دون أن تتخلى عن تلابيب الماضى، والذى كان إذا أحب لم يترك لحب بعده مجالا.

جرأة أوجينى

لقد تعرف خديو مصر على الإمبراطورة «أوجينى» أول مرة خلال زيارته للمعرض الدولى فى فرنسا عام ١٨٦٧، وكان لدى فرنسا جميع الأسباب التى تدعوها إلى استقبال الباشا بأبهة وفخامة فهو ناطق بالفرنسية، ومحب لفرنسا، وخريج مدرسة «سان سير العسكرية» الفرنسية .

ونتيجة لأن امبراطور فرنسا كان يعانى من آلام روماتيزمية فى ذلك الوقت ولم يحضر حفل استقبال الخديو، فقد استقبلت «أوجينى» إسماعيل الذى وقع فى حيرة أمام جرأة هذه الامبراطورة الفاتنة فقد طلبت منه أن يمنحها مجوهرات (آح حوتب) وبما أنه لا يستطيع الرفض الصريح أحال طلبها إلى ماربيت «عالم المصريات الفرنسى الذى عمل فى خدمة الخديو إسماعيل» الذى اعتذر عن تلبية طلبها، وخشية من غضب الامبراطورة فقد منح الخديو أسرتها «دهبية» فاخرة ذات أشرعة مثلثة الشكل كان قد أحضرها خصيصا من مصر، وذلك لاستجلاب رضاها ومن هنا بدأ التعارف بينهما.

لقد كان إسماعيل يسعى لموافقة الدول الأوربية على إنشاء المحاكم

(١) الامبراطورة أوجينى ولدت فى مدينة غرناطة بإسبانيا فى عام ١٨٢٦

المختلطة كما كان يسعى إلى أن تتفق كلمة الدول الأوربية على إعلان استقلال مصر ولما كانت فرنسا تبدى بعض التحفظات على ذلك فقد حاول إسماعيل عن طريق وزيره نوبار التقرب من رجال الحكم في فرنسا عن طريق تملق الإمبراطورة الحسناء باعتبارها صاحبة الكلمة والسيطرة في السياسة الخارجية الفرنسية حتى تساعده في الوصول إلى مبتغاه. وقد نجح نوبار في مسعاه فبعد مقابلته للامبراطورة أخبرها أن الخديو كلفه بالسؤال عما إذا كانت جلالتها سوف تتكرم بزيارة مصر بمناسبة افتتاح القناة «حيث يعتزم الخديو أن ينتهز فرصة تشريفها ليجعل حفل الاستقبال من الفخامة والروعة بحيث يتناسب مع مقام جلالتها » . وقد رحبت الامبراطورة بالفكرة وارتاحت لما أشار به نوبار من فخامة حفلات استقبالها مما جعلها تساعد نوبار في انتزاع موافقة الحكومة الفرنسية على إصلاح القضاء في مصر الذى يرمى إلى إنشاء نظام المحاكم المختلطة.

ضيافة الإمبراطورة

ولما سافر إسماعيل إلى أوربا لدعوة ملوكها وأمرائها لحضور حفل افتتاح القناة دعاها للحضور فقدمت إليه قبل موعد الاحتفال بثلاثة أسابيع ومعها حاشية تضم عشرين كونتا ودوقا غير زوجاتهم وبناتهم فأنزلها إسماعيل في قصر الجزيرة الوسطى على النيل في الزمالك، والذى بناه على عجل خصيصا لها ليكون لها مقاما خلال زيارتها لمصر، والذى روعى فيه أن يكون على الطراز الأندلسى كى تتذكر الإمبراطورة أصولها الإسبانية وتتذكر غرناطة تلك المدينة التى ولدت ونشأت وترعرعت بين جنباتها.

وقد اهتم الخديو بضيافة الامبراطورة بشكل يفوق الوصف فاختار لها بنفسه مائة من الوزراء وأعضاء الأكاديمية الفرنسية والأدباء والرسامين والمصورين والموسيقيين ليكونوا في خدمتها كما طلب الخديو من مارييت عالم المصريات أن يقوم بدور المرشد لها، وأن يعد كتيبا لتتعرف منه على سمات الحضارة الفرعونية.

ولما رغبت أوجينى في زيارة الأهرام أمر الخديو بتمهيد الطريق إلى ذلك الأثر الفرعونى، وجعله مسلوكا للعربات، وغرسه بأظل أنواع الشجر.

وعندما أعربت أوجينى عن رغبتها في حضور عرس مصرى، صاح إسماعيل «يا لها من مصادفة سعيدة يا صاحبة الجلالة.. يقام الليلة بالتحديد عرس في القصر» وسرعان ما استأذن الإمبراطورة في انصرافه واستدعى موظفا شابا وقال له «أنت ستتزوج هذا المساء » وأقام لعرسه حفلا كبيرا فخما

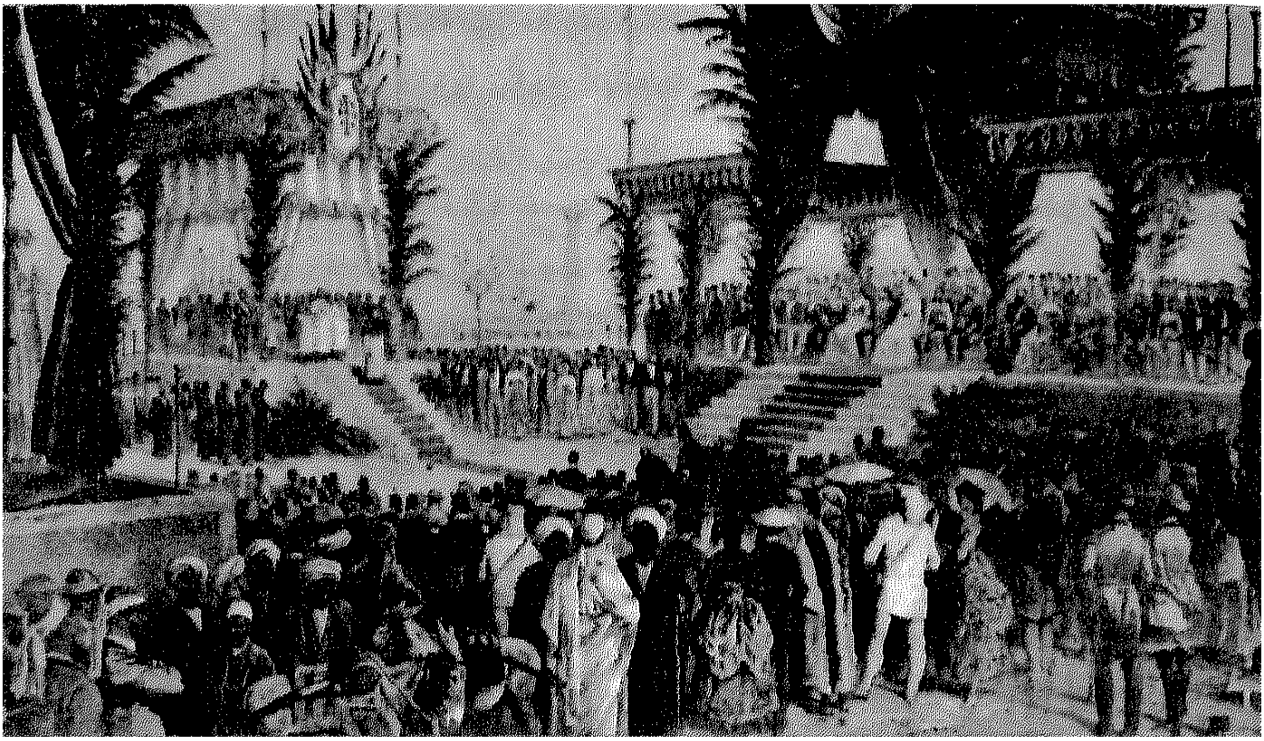

حفل افتتاح قناة السويس الذى حضرته أوجينى وملوك ورؤساء الدول الغربية - ١٨٦٩

لأجل إرضاء الامبراطورة.

وتوالت الاحتفالات من أجل الامبراطورة آخذة بالألباب، ثم سافر الخديو معها بشخصه إلى الصعيد فى رحلة شبيهة بليالى ألف ليلة وليلة حيث امتلأت بصنوف من الأبهة والترف والفخفخة، وقد صاحب عالم الآثار الفرنسى «مارييت» الامبراطورة فى هذه الرحلة ليشرح لها تاريخ الحضارة المصرية، وبعد انتهاء الرحلة عادت «أوجينى» مع الخديو إلى القاهرة حيث أقامت فى قصر الجزيرة يومين زارت خلالهما متحف الآثار القديم فى بولاق، كما ذهبت إلى خان الخليلى والموسكى والقلعة، وزارت مسجد السلطان حسن .

اهتمام خاص

وخلال احتفالات قناة السويس التى استمرت أربعين يوما استجاب الخديو لرغبة الامبراطورة بأن تتقدم سفينتها المسماة «الايجل»، أى النسر، سفن باقى المدعوين، ففى الثامنة من صباح يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ تقدمت سفينة الامبراطورة موكب السفن الست والأربعين التى تحمل ملوك وملكات وأباطرة وأمراء أوربا من بور سعيد على البحر المتوسط فى اتجاه السويس على البحر الأحمر، وكانت الامبراطورة واقفة على ظهر السفينة يحف بها كبار نبلاء فرنسا، ولما رست بها سفينتها فى المرفأ قصدها إسماعيل أولا؛ وهنأها بسلامة الوصول،

وأكد لها أن وجودها خير ما يتفاءل به، وأعرب لها عن شكره وارتياحه، لتفضلها بقبول دعوته .

وإلى جانب ذلك فقد خص الخديو الإمبراطورة «أوجينى» باهتمام خاص، فأجلسها بجانبه فى المنصة الكبرى المخصصة للضيوف أصحاب التيجان، وما أن استقرت فى مقعدها إلا وصدحت الموسيقات كلها بالنشيد الفرنساوى، كما تصدرت أوجينى وليمة العشاء التى أقامها إسماعيل لضيوفه فى قصره بمدينة الإسماعيلية ليلة ١٨ نوفمبر ١٨٦٩ وكانت تقام الزينات لها فى أى جهة تحط بها، كما أمر الخديو بإغداد وتجهيز ديوان محافظة القناة لأجل إقامة الامبراطورة خلال فترة الافتتاح وأشرف بنفسه على تأثيث وفرش مكان إقامتها بأفخر الأثاث كما أقام الخديو مرقصا لجميع مدعويه تحت رئاسة الامبراطورة، بذل فيه العديد من صنوف البذخ والملذات ورقصت فيه الامبراطورة كما رقص الخديو وباقى المدعوين، وامتزجت الموسيقات بطرب الرقص والزينات المتألقة أنوارا، والبشر مرتسم على جميع الوجوه. وبعد حفلات افتتاح قناة السويس حضرت «أوجينى» حفلا بدار الأوبرا بعد أن ألف «مارييت» أوبرا عايدة ، وصمم الملابس والديكور ووضع الخطوط العريضة للإخراج مستوحيا كل ذلك من عصر الأسرة الثامنة عشرة أيام عز الفراعنة، وكلف الموسيقار الإيطالى «فردى» بتلحينها حتى يعرضها الخديو أمام ضيوفه ولكن «فردى» لم يستطع تلحينها بنفس السرعة واستبدل ذلك بأوبرا أخرى هى «ريجولوتو».

وزادت حفاوة الخديو بالإمبراطورة الحسناء لدرجة أنها عندما أبدت رغبتها فى الطواف بالقاهرة على ظهر حمار رافقها الخديو فى هذا الطواف .

لقد هام الخديو إسماعيل عشقا بامبراطورة فرنسا لدرجة أن أطلق اسمها على شوارع مدن القناة فكان فى مدينة بور سعيد شارع يحمل اسم «أوجينى» ، وكان فى الإسماعيلية شارع وكنيسة يحملان اسمها .

قلب أوجيني

وبعد هذا العرض فالسؤال المطروح هو هل نجح إسماعيل فى الحصول على مبتغاه السياسى بالحصول على استقلال مصر أم نجح فى الحصول على قلب الامبراطورة؟

الواقع أن الدول الأوربية التى استضاف إسماعيل حكامها بشكل فاق كل حد فى الاعتدال والاعتياد، لا سيما وأن استقلال مصر السياسى التام كان غرضه المنشود، كانت لها حسابات سياسية غير ما كان يبتغيه الخديو، فرغم مجاملتها له وحضور ممثليها

لافتتاح القناة، فقد كانت هذه الدول لا تريد اغضاب الباب العالى بالآستانة بتأييدها استقلال مصر، مما أفقد الخديو لخطته، وإن كان قد نجح فى الحصول على قلب الامبراطورة التى أهدته علبة ذهبية عليها صورة إله الحب «مونجرام»، كما أنها بعد ذلك كانت شديدة الحزن عليه عندما فقد عرش مصر بعد حوالى عشر سنوات تقريبا من احتفالات افتتاح القناة.

وعلى الرغم من تقلب الأيام فى غير صالح الامبراطورة خاصة بعد أن فقدت عرشها وزوجها فى أعقاب الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا، ومع أنها باتت وحيدة تواجه قسوة الحياة فإنها لم تنس ذكرياتها مع الخديو بل ظلت وفيه له حتى بعد مماته فتذكر الأميرة جويدان زوجة الخديو عباس الثانى أنه فى أثناء حكم زوجها كانت أوجينى تزور مصر سنويا وتبدأ مقامها فى القاهرة بزيارة أرامل إسماعيل، ولكن شتان ما بين زيارتها لمصر خلال عصر إسماعيل وزيارتها فى أيام حفيده عباس الثانى حيث نزلت فى أحد فنادق القاهرة ضيفة مجهولة بعد أن كانت تسير فى طليعة ملوك أوربا وامرائها يوم افتتاح قناة السويس .

لقد عاشت أوجينى طويلا حيث أبطأ عليها الموت حتى قضت نحبها فى عام ١٩٢٠ عن عمر يناهز ٩٤ عاما. ■

كلمات عاشت

* «أنا لا أحس بعمرى فى أحيان كثيرة ، وحتى عندما أكتب لا يجول في ذهنى أن أوجه كلامى إلى جيل معين ، سواء كان جيلى أنا أم جيلكم أنتم الشباب»

يحيى حقي

* «من أجل أن تتحرر من نفسك ، أن تنظر إلى نفسك أن تحكم على نفسك»

جان بول سارتر

* «فقدان الحياة شيء بسيط،لكن أن نرى معنى هذه الحياة يتبدد ، فهذا ما لايمكن احتماله ، لابد من مبرر للوجود ، كى نستطيع أن نعيش»

ألبير كامى

* «إن كل ما يبدو أخلاقيا ، ليس بكل بساطة ، إلا إحساسا جماليا»

جان انوى - بيكيت

* «أغرب الغرباء من صار غريبا فى وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيدا فى محل قربه»

أبو حيان التوحيدي

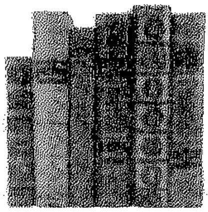

من ذخائر الكتب العربية

تاج العروس

لمحمد مرتضى الزبيدى

بقلم

د. عوض الغبارى *

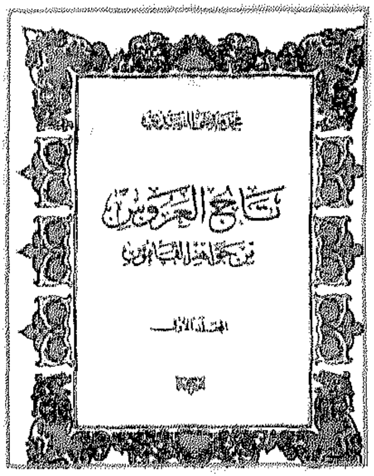

كان التأليف الموسوعي فى مصر دليلاً علي تمكن المؤلفين من العلوم والمعارف التى ثقفوها، وكان للمؤلفات الموسوعية فيها دور عظيم فى الحفاظ على التراث العربى من الضياع بعد أن أحرق التتار المكتبة العربية فى بغداد، عاصمة الدولة العربية الإسلامية، ودمروا مظاهر عمرانها وحضاراتها. واتسق الطابع الموسوعى للتأليف مع الطابع الأدبى والثقافى والحضارى العربى فى مصر فى عصورها الإسلامية.

ولم يخل هذا الهدف النبيل من تأليف الموسوعات من إبداع أصيل، إذ لم يكن كله تقليداً لما سبق من تراث، وإنما صدر فيه الكاتب الموسوعى عن ذاته الأصيلة المعبرة عن ثقافة عصره. لقد كان لظاهرة التأليف الموسوعى جذورها فى الثقافة العربية ممثلة فى العصر العباسى خاصة، وامتدت إلى «مصر» فى عصورها الإسلامية، وأصبحت مركز الثقافة والحضارة العربية، فزخرت بالحركات العلمية، وقامت بدور أصيل فى الإسهام فى بناء الثقافة العربية الإسلامية فى تفاعل مستمر ومثمر مع منظومة العلوم والمعارف التى أسهمت بنصيب وافر فى تطور الحضارة الإسلامية والثقافة الإنسانية.

وقد فصل «محمود رزق سليم» فى موسوعته عن نتاج العصر المملوكى العلمى والأدبى (٨ مجلدات) العوامل التى أدت

*استاذ بكلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم اللغة العربية

إلى نشاط الحركة العلمية والأدبية في العصر المملوكي، وذكر أن مصر استطاعت فيه أن تكون لنفسها ثقافة تحمل طابعها، وتؤثر في الثقافات الأخرى (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ، القاهرة، ١٩٤٩، المجلد الثالث، ص ١٦) وكان من نتيجة هذا تأليف موسوعات ضخمة في تاريخ مصر «كخطط المقريزي»، وكتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»، و«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» «لابن تغري بردي»، و«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» «للسيوطي»، و«بدائع الزهور في وقائع الدهور» «لابن إياس»، وغيرها مما أسهم في اتساع مجال الدراسة التاريخية الموسوعية، وفي هذا السياق الحضاري الثقافي العلمي لمصر العربية الإسلامية على مر عصورها ألفت الموسوعات الكبيرة مثل «نهاية الأرب في فنون الأدب» «للنويري»، ويعد مصدراً مهماً لكثير من المعارف التي ينفرد بها.

و«مسالك الأبصار» «لابن فضل الله العمري» موسوعة أخرى، وهو دائرة معارف في جغرافية العالم العربي والإسلامي. أما «خطط المقريزي» فموسوعة شاملة ودائرة معارف لتاريخ مصر وعمرانها وحضاراتها ومنشآتها، وكانت مثل هذه الموسوعات تتويجاً للحركة العلمية في مصر، وقد أمدت المكتبة العربية بكتب قيمة في مختلف ألوان العلوم والمعارف كالعلوم اللغوية التي توجت بتأليف «ابن منظور» لأكبر معجم لغوي عربي مثل معاجم اللغة في العصر المملوكي، وهو معجم «لسان العرب» الذي كان موسوعة لها قيمة كبيرة في جمع اللغة العربية، وتوثيق مصادرها الأصيلة الكثيرة امتداداً لنتائج ابن هشام وهو أكبر نحوي مثل نهضة الدراسات النحوية واللغوية في مصر في كتبه المشهورة «كمغني اللبيب» و«شذور الذهب».

ويعد «جلال الدين السيوطي»، بغزارة إنتاجه، وقيمة مؤلفاته العظيمة عالما موسوعياً جليلاً، وظاهرة فريدة في الثقافة الإسلامية، وقد ألف كتبا كثيرة في النحو واللغة. ويعد كتابه «المزهر في علوم اللغة» من أهم كتب اللغة في التراث العربي، فضلاً عن أهم كتبه في النحو «همع الهوامع»، و«الاقتراح في أصول النحو»، و«الأشباه والنظائر»، وغيرها مما اعتمد فيه على المصادر الأصيلة المتنوعة التي توضح ما كان للمكتبة العربية من دور مهم في بناء الثقافة بمعناها الواسع.

الزبيدي

في هذا السياق العظيم لمغزى التأليف الموسوعي توجت الدراسات اللغوية بالمعجم الأكبر في أواخر القرن الثاني عشر، إذا أبرز الإمام اللغوي «محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسني الواسطي الزبيدي المصري واليمني الأصل» (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ) كتابه المسمى «تاج العروس من جواهر القاموس» شرحاً «للقاموس المحيط للفيروز آبادي». (حسين نصار، المعجم العربي ، مكتبة مصر ، القاهرة، ط ثانية، ١٩٦٨، المجلد الثاني، ص ٦٣٩).

وقد نزل «الزبيدي» القاهرة في سنة ١١٦٧ هـ بعد رحلة علم حافلة من منشئه «بزبيد» إلى رحلته في طلب العلم وحجه مراراً، وأخذه عن علماء مكة، فحضر دروس شيوخ الأزهر في ذلك الوقت، وتلقى عنهم، وأجازوه وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه . (محمد سيد كيلاني، الأدب

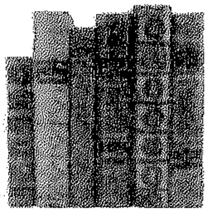

المصرى فى ظل الحكم العثمانى، دار الفرجانى، القاهرة طرابلس لندن، ١٩٨٤، ص ٢٨٦).

لقى «الزبيدى» كل الإكرام والإجلال فى جنوب مصر وشمالها، وحسنت حاله، ورغد عيشه، واشتهر ذكره عند الخاص والعام، ثم تزوج وسكن بعطفة الغسال مع لقاء مسكنه بوكالة الصاغة، وشرح القاموس فى كتابه «تاج العروس» ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم، واشترى «محمد بك أبو الدهب» نسخة من تاج العروس بمائة ألف درهم عندما أنشأ جامعه المعروف بالقرب من الأزهر، وأودعه خزانة كتبه.

وقد شرع فى إملاء الحديث واشتهر فيه، وقرأ عليه علماء الأزهر «صحيح البخارى» مما جعل «الجبرتى» يشيد بدروسه ومكانته الرفيعة بين علماء مصر وجمهورها، وعلى رأسهم الأمراء الكبار الذين انجذبوا إلى مجالس دروسه، وواصلوه بالهدايا الجزيلة، والولائم الفاخرة. ثم كرمته الدولة بعد أن عظم أمره، واشتهر صيته فعينت له راتبا يومياً، ودعته الحكومة العثمانية لزيارة الآستانة سنة ١١٩٤ هـ.

وكاتبه «ملوك الترك» و«أمراء الحجاز» و«اليمن» و«الهند» و«الشام» و«العراق» و«شمال أفريقية» و«السودان»، وكثرت عليه الوفود والهدايا العظيمة من كل ناحية، وصارت له عند أهل المغرب شهرة واسعة ومنزلة رفيعة حتى كان أحدهم إذا ورد حاجا ولم يزر الزبيدي ولم يصله بشيء لا يعتبر حجه كاملاً (المرجع السابق، من ص ٢٨٧ إلى ص ٢٩٢).

تاج العروس

طبع «تاج العروس» فى طبعته الأولى بالمطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمية سنة ١٣٠٦ هـ فى عشرة مجلدات ضخمة من القطع الكبير، وقد أشاد «الزبيدى» فى مقدمته «بالفيروز آبادى» وبقاموسه، وبين أخذه عن علماء مصر، وأشار إلى ثقافته الواسعة إذ برع «فى الفنون العلمية ولا سيما اللغة فقد برز فيها، وفاق الأقران، وجمع النظائر، واطلع على النوادر، وجود الخط، وتوسع فى الحديث والتفسير.. وكان واسع الرواية وله التصانيف الكثيرة النافعة الفائقة منها هذا الكتاب المسمى بالقاموس المحيط». (محمد مرتضى الزبيدى، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦ هـ/ المجلد الأول، ص ١٣).

يوضح الزبيدى مقصده من تأليف تاج العروس فيذكر أنه ولج طريق التصنيف من بابه الأعظم وهو اللغة العربية قائلاً: «فقد برت فنون العلم.. فصادفت أصلها الأعظم الذى هو اللغة العربية خليقة بالميل فى صغو الاعتناء بها، والكدح فى تقويم عنادها» (المصدر السابق، ص ٢).

ويصف القاموس المحيط الذى قام بشرحه فى معجمه بقوله: «أجل ما ألف فى هذا الفن لاشتماله على كل مستحسن من قصارى فصاحة العرب العرباء حيث أوجز لفظه وأشبع معناه.. ولعمرى هذا الكتاب إذ حوضر به فى المحافل فهو بهاء .. قد اخترق الآفاق مشرقاً ومغرباً» (المصدر السابق، ٢ - ٣).

ويشير الزبيدى إلى الهدف من تأليف (تاج العروس) إكمالاً لمسيرة العلماء الذين قاموا بشرح القاموس المحيط للفيروز آبادى بقوله: «فلما آنست من تناهى فاقة

الأفاضل إلى استكشاف غوامضه والغوص على مشكلاته، ولا سيما من انتدب منهم لتدريس علم غريب الحديث، وإقراء الكتب الكبار من قوانين العربية فى القديم والحديث استسعيت . فى وضع شرح عليه، ممزوج العبارة ، جامع لمواده بالتصريح فى بعض، وفى بعض بالإشارة، وافٍ ببيان ما اختلف من نسخه، والتصويب لما صح منه من صحيح الأصول، حاو لذكر نكته ونوادره، والكشف عن معانيه، والإنباه عن مضاربه ومآخذه بصريح النقول، والتقاط أبيات الشواهد له مستمدا ذلك من الكتب التى يسر الله تعالى بفضله وقوفى عليها، وحصل الاستمداد عليه منه» (المصدر السابق، ص ٣).

ويتضح من هذا أن هدف الزبيدى من تأليف تاج العروس كان إيراد جميع ما فى القاموس المحيط وتحقيقه تحقيقاً علمياً، وشرحه والتنبيه على مراجعه والاستشهاد عليه. (حسين نصار، المعجم العربى، الجزء الثانى، ص ٦٤٠، وانظر المصادر التى ذكر الزبيدى أنه رجع إليها فى تأليف تاج العروس، المجلد الأول، ص ٣، ٤).

منهج الزبيدى

ويوضح «الزبيدى منهجه فى تأليف (تاج العروس) بقوله : ولم آل جهدا فى تحرى الاختصار، سلوك سبيل التنقية والاختيار.. فجاء بحمد الله تعالى هذا الشرح واضح المنهج كثير الفائدة سهل السلوك موصول العائدة.. وجمع من الشواهد والأدلة ما لم يجمع مثله لأن كل واحد من العلماء انفرد بقول رواه أو سماع أداه، فصارت الفوائد فى كتبهم مفرقة، وسارت أنجم الفضائل فى أفلاكها هذه مغربة وهذه مشرقة فجمعت منها فى هذا الشرح ما تفرقه، وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق، فانتظم شمل تلك الأصول والمواد كلها فى هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولئك بمنزلة الفروع.. وأنا مع ذلك لا أدعى فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت أو شددت أو رحلت.. وليس لى فى هذا الشرح.. سوى أننى جمعت فيه ما تفرق فى تلك الكتب من منطوق ومفهوم، وبسطت القول فيه ولم أشبع باليسير وطالب العلم منهوم، فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول وحمده وذمه لأصله الذى عليه المعول لأنى عن كل كتاب نقلت مضمونه فلم أبدل شيئاً فيقال «إنما إثمه على الذين يبدلونه»، بل أديت الأمانة فى شرح العبارة بالفص، وأوردت ما زدت على المؤلف بالنص، (تاج العروس، المجلد الأول، ص ٤ - ٥).

وأبرز معالم منهج الزبيدى فى «تاج العروس» جمعه واختياره وتبويبه لما ورد عن اللغويين، وقد مكنته من تحقيق ذلك ثقافته اللغوية الواسعة التى انعكست فى ذكره للمصادر القيمة المتنوعة التى اعتمد عليها فى مقدمته للتاج، تلك المصادر التى اتسعت وتعددت أبوابها وصارت أقرب إلى دوائر المعارف منها إلى مراجع معجم لغوى (حسين نصار، المعجم العربى، الجزء الثانى، ص ٦٤٢).

وفى مقدمته «للتاج» ذكر «الزبيدى» سبب تأليفه له قائلاً: «فإننى لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة الشريفة إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية.. وقد جمعته فى زمن أهله بغير لغة يفخرون، وصنعته كما صنع نوح عليه السلام الفلك وقومه منه يسخرون، وسميته «تاج العروس من جواهر القاموس» وكأنى بالعالم المصنف قد أطلع عليه فارتضاه.. ولم

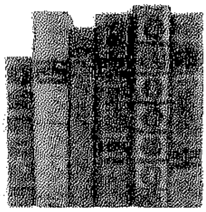

يلتفت إلى حدوث عهده وقرب ميلاده). (تاج العروس، ص ٥).

فهو إلى جانب الهدف السامى من هدفه وهو حفظه للغة القرآن والحديث يضيف بعداً آخر إلى هدف تأليفه لمعجمه وهو دوره فى النهوض باللغة العربية التى تدنت منزلتها بين أهلها خاصة فى العصر العثمانى، عصر الزبيدى الذى يشعر فى أعماقه بأن دوره هذا عظيم يرضى العلماء وإن كان يسخط الجهلاء، إذا حاكموه بمعيار الحداثة فانتقصوا من شأنه لذلك (راجع المصدر السابق، الصفحة نفسها).

عشرة مقاصد

وفى مقدمة طويلة مشتملة على عشرة مقاصد تناول فى المقصد الأول منها قضية اللغة:

وهل هى توقيفية أو اصطلاحية؟ كما تناول بدايات اللغة العربية وأول من تكلم بها.

وفى المقالة الثانية تناول فى المقصد الثانى سعة لغة العرب موضحا أن الذى جاء عن العرب قليل من كثير.

أما المقصد الثالث ففى عدة أبنية الكلام المستعمل والمهمل والصحيح والمعتل، والرابع فى المتواتر من اللغة والآحاد، ويتناول، كذلك المنقطع والضعيف، والفصيح وأكثر الحروف استعمالاً عند العرب وهى الواو والياء والهمزة وأقلها استعمالاً لثقلها على ألسنتهم وهى الظاء ثم الذل ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم العين ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم، ثم تناول ترتيب الفصاحة فى الألفاظ والأبنية.

وتتعلق المقالة الخامسة بمقصد فى بيان الأفصح، وأفصح الخلق على الإطلاق «سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم» وقد قال أنا أفصح العرب، وأنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش، ذلك أن الله تعالى «لما وضع رسوله صلى الله عليه وسلم موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها ثم أمده بجوامع الكلم».. (تاج العروس، ص٨).

وأفصح العرب «قريش» وذلك لأن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم «محمداً صلى الله عليه وسلم»، فجعل «قريشا» سكان حرمه وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى «مكة» للحج، ويتحاكمون إلى «قريش»، وكانت «قريش» مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب.. (المصدر السابق، الصفحة نفسها)، ويتناول المقصد السادس المطرد والشاذ والحقيقة والمجاز والمشترك والأضداد والمترادف والمعرب والمولد.

ومثاله فيما يتعلق بالمجاز أنه أثنا عشر نوعا أحدها التجوز بلفظ السبب عن المسبب، ثم الأسباب أربعة القابل كقولهم سال الوادى، والصورى كقولهم لليد إنها قدرة، والفاعل كقولهم نزل السحاب أى المطر، والغائى كتسميتهم العنب الخمر، الثانى بلفظ المسبب عن السبب كتسميتهم المرض الشديد بالموت، الثالث المشابهة كالأسد للشجاع، والرابع المضادة كالسيئة للجزاء الخامس والسادس بلفظ الكل

للجزء كالعام الخاص، واسم الجزء للكل كالأسود للزنجي، والسابع اسم الفعل على القوة كقولنا للخمرة في الدن إنها مسكرة، والثامن المشتق بعد زوال المصدر، والتاسع المجاورة كالرواية للقربى ، والعاشر المجاز العرفي وهو إطلاق الحقيقة على ما هجر عرفا كالدابة للحمار، والحادى عشر الزيادة كقوله «ليس كمثله شيء»، و«أسأل القرية»، والثانى عشر المتعلق على المتعلق به كالمخلوق بالخلق). (المصدر السابق، الصفحة نفسها).

أما المقصد السابع ففى معرفة آداب اللغوى وأولها الإخلاص وتصحيح النية ثم التحرى فى الأخذ عن الثقات وكذلك العناية بحفظ أشعار العرب مع تفهم ما فيها من المعاني واللطائف «فإن فيها حكما ومواعظ وآدابا يستعان بها على تفسير القرآن والحديث» كما بين الزبيدى طوق أخذ اللغة وروايتها.. (المصدر السابق، ص ١٠).

ويتناول المقصد الثامن مراتب اللغويين ويعرض لأئمة اللغة من البصريين والكوفيين، ويبين أسانيدهم ووفياتهم وكناهم.

كما يتناول أول من صنف فى اللغة، ويأتي فى مقدمة أئمة اللغة «أبو الأسود الدؤلى» أول من رسم للناس النحو واللغة، وكان أخذ ذلك عن «أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه» وكان أعلم الناس بكلام العرب (المصدر السابق، الصفحة نفسها)، أما أول من صنف فى جمع اللغة فهو «الخليل بن أحمد» الذى ألف كتاب «العين» المشهور.

وقد تتبع الزبيدى المؤلفات اللغوية إلى عصره، واقفا على أهم المؤلفين، ودورهم فى مجال التأليف اللغوى، خاصة «الجوهرى» ومعجمه «الصحاح»، وابن منظور ومعجمه (لسان العرب) و«الفيروز آبادى ومعجمه القاموس المحيط «وقد خص الأخير بترجمة ضافية فى المقصد التاسع من مقدمته «للتاج»، عرض فيها لحياته ولمؤلفاته ، ثم أتبعه بالمقصد العاشر الذى تناول فيه أسانيده المتصلة إلى المؤلف، أى الطرق التى يروى عنها «كتاب القاموس» (حسين نصار، المعجم العربى، الجزء الثانى ، ص ٦٤٧) ثم يختتم الزبيدى مقصده العاشر الأخير فى مقدمته «للتاج» بشرح لمقدمة «القاموس المحيط للفيروز آبادى»، وقد وردت عبارة «الفيروز آبادى» بين أقواس تمييزا لها عن عبارة «الزبيدى» الذى قام بشرحها (وكان يدخل فى شرحه كل ما عن له من معنى إجمالي، ومسائل نحوية وصرفية ولغوية ودينية، والخلاف بين النسخ). (المرجع السابق، الصفحة نفسها).

ثمانية وعشرون بابا

وتأتى أبواب (تاج العروس) على غرار «القاموس المحيط» الذى بوبه «الفيروز آبادى» (فأورد فى كل باب من الحروف ما فى أوله الهمز ثم قفى على أثره بما فى أوله الباء وهلم جرا إلى منتهى أبواب الكتاب فقدم فى باب الهمزة إياها مع الألف عليها مع الباء وفى كل باب إياها مع الألف على الباءين وهلم جرا إلى منتهى فصول الأبواب، وكذلك راع النمط فى أوساط الكلم وأواخرها وقدم اللاحق فاللاحق) (تاج العروس، ص ٢ / ٣)

وهكذا اشتمل التاج على ٢٨ بابا على ترتيب أب ت .. إلخ، واشتمل كل باب على ٢٨ فصلا على ترتيب أ ب ت .. إلخ أيضاً ففصل الهمزة باب الهمزة يبدأ بمادة (أباءة) كعباءة أى أجمة الحلفاء، والقصب خاصة، وينتهى بمادة (الأيئة) كالهيئة لفظاً

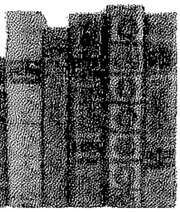

ومعني وفصل الباء – باب الهمزة – يبدأ بمادة (بأبأ)، وبأبأ (به) إذا(قال له بأبي أنت)، وينتهي بمادة (بهأ)، وبهأ (به) أنس به وألف وأحب قربه، مروراً بمادة (بدأ) مثلاً، وهكذا وعليه يتضح مفتاح التاج لكشف اللغة من الفصول والأبواب إذ ورد في بدايته: كل من أراد أن يعرف المراجعة في القاموس فليحفظ هذين البيتين :

إذا رمت في القاموس كشفا للفظه .
فأخرها للباب والبدء للفصل
ولاتعتبر في بدئها وأخيرها
مزيداً ولكن أعتبارك للأصل

وذلك أن القاموس أشتمل على ٢٨ باباً على ترتيب أ ب ت إلخ غير أنه قدم باب الهاء على باب الواو والياء، وأما في الفصول فقدم فصل الواو على فصل الهاء، ثم إن كل باب من الأبواب المذكورة اشتمل على ٢٨ فصلاً على ترتيب أ ب ت إلخ أيضاً إلا بعض أبوابه فإنه سقط منها فصول فإذا أردت أن تراجع كلمة فانظر إلى آخرها فإن كان همزة تكون في باب الهمز، وإن كان باء تكون مذكورة في باب الباء، وإن كان تاء تكون مذكورة في باب التاء وهكذا وإذا أردت أن تعرفها من أى فصل من فصول ذلك الباب نظرت إلى أولها فإن كان همزة تكون مذكورة في فصل الهمزة من ذلك الباب، وإن كان أولها باء تكون مذكورة في فصل الباء من ذلك الباب، وهكذا، ولكن آخر الكلمة الذى تنظر إليه لتعرف منه الباب، وأولها الذى تنظر إليه لتعرف منه الفصل لا يعتبران إلا إذا كان من الحروف الأصول لتلك الكلمة، وإن أبدلت بغيرها دون الزوائد فإذا أردت أن تراجع على لفظة «أوقب» بمعني جاع مثلاً لا تراجعها في فصل الهمزة لأن الهمزة زائدة فلا تعتد بها وراجعها في فصل الواو من باب الباء. وإذا أردت أن تراجع على لفظة «موهب» لاتراجعها في فصل الميم لأنها زائدة وراجعها في فصل الواو. وإذا أردت أن تراجع على لفظ «سكران» لاتراجع في باب النون لأنها زائدة مع الألف فراجعها في باب الراء ولفظة «التقوى» لاتراجع عليها في فصل التاء لأنها مبدلة من واو فتراجع في وقي وكذلك التوراة أصل التاء فيها واو فتراجع في «ورى»، وعلى هذا فقس والأسم الأعجمي والجامد تعتبر حروفه كلها أصول «كسمرقند» فهي من باب الدال وفصل السين، و«إبراهيم» من باب الميم وفصل الهمزة، ثم إذا رأيت فيه رسم «م» فهو رمز لمعروف، ورسم ع رمز للموضع ، ورسم ج رمز للجمع ، ورسم جج لجمع جمع الجمع، ورسم ججج لجمع الجمع، الجمع، ورسم ة رمز للقرية، ورمز د رمز للبلد». (تاج العروس، ص ٢)

مادة التاج

وقد نهج مؤلف التاج على أن يصدر كل باب بكلمة قصيرة عن الحرف المعقود له هذا الباب فيبين مخرجه وصفته وإبدالاته وما إلى ذلك. (حسين نصار، المعجم العربي، الجزء الثاني، ص ٦٤٧) مثاله في باب الهمزة قوله :(الباب لغة الفرجة التى يدخل منها إلى الدار، ويطلق على مايسد به ويغلق من خشب ونحوه، واصطلاحاً اسم الطائفة من المسائل مشتركة في حكم، وقد يعبر عنها بالكتاب وبالفصل وقد يجمع بين هذه الثلاثة (فصل الهمزة ويعبر عنها بالألف المهموزة لأنها لا تقوم بنفسها ولا صورة لها فلذا تكتب مع الضمة واوا، ومع الكسرة ياء،

ومع الفتحة ألفا) (تاج العروس، ص ٣٩)
وتتضح شخصية الزبيدى اللغوية من تحليل مواد تاج العروس حيث يموج هذا المعجم بالزيادات والمستدركات من المواد والصيغ والمعاني، كما يعنى بإبانة المراجع التي استقى منها المؤلف مواده، وخلافات اللغويين فى الروايات اللغوية، وإيراد الشواهد على اختلاف أنواعها، خاصة الشعر العربى والحديث الشريف، وجهد دءوب لضبط الألفاظ، ونقد بعض المواضع التى وردت فى القاموس المحيط للفيروز آبادى سواء فيما يتعلق بالمنهج أو بالمواد وتفسيرها (للتفصيل راجع حسين نصار، المعجم العربى، الجزء الثانى، من ص ٦٦٤ إلى ص ٦٧٣).

وللدلالة على ذلك اختار للقارئ العزيز مادة من تاج العروس من عنوانه، أعنى مادة (تاج) (والتاج الإكليل والفضة والعمامة والأخير على التشبيه (ج - رمز الجمع - تيجان وهو ما يصاغ للملوك من الذهب والجوهر والإكليل تيجان ملوك العجم (وتوجه) أى سوده وملك متوج (و) التاج (دار المعتضد بالله ببغداد .. وقصر بمصر للفاطميين يعرف بالتاج وتاجة اسم امرأة قال :

ياويح تاجة ما هذا الذى زعمت
أشمها سبع أم مسها لم

والتاجية مقبرة ببغداد نسبت إلى مدرسة تاج الملك أبى الغنائم والتاجية نهر بالكوفة وذو التاج لقب جماعة منهم أبو أحيحة سعيد ابن العاص وإمام تائج أى ذو تاج على النسب لأنا لم نسمع له بفعل غير متعد قال هميان بن قحافة !

تقدم الناس الإمام التائجا أراد تقدم
الإمام التائج الناس

فقلب، وهذا كما يقال رجل دارع ذو درع .. ومما يستدرك عليه التاج للفضة، ويقال للصليجة من القصة تاجة وأصلها تازة بالفارسية للدرهم المضروب حديثاً وبنو تاج قبيلة من عدوان مصروف قال:

أبعد بنى تاج وسعيك بينهم
فلا تتبعن عينيك ما كان هالكا

وتاج وتويج ومتوج أسماء، وتاج موضع معروف بمصر وهو المراد فى قول القائل:

رياض كالعرائس حين تجلى
يزين وجهها تاج وقرط

(تاج العروس، المجلد الثانى، ص ١٢ / ١٣)

ومن الظواهر البارزة فى التاج احتواؤه على ما كان فى أصله القاموس المحيط أو أكثر، والاستقصاء والعناية بالأعلام، والتوسع فى إيراد أسماء الأماكن والفوائد الطبية والمصطلحات العلمية والدقة فى الضبط والألتفات إلى الغريب والمولد والأعجمى من الألفاظ .

ومن الظواهر الجديدة فيه العناية بالمعانى المجازية عناية لامثيل لها فى معجم عام آخر، والألتفات إلى العامية تصور نواحى من اللهجة المصرية، ومن ظواهره الجديدة، أيضاً الالتفات إلى دلالة التراكيب (حسين نصار، المعجم العربى، الجزء الثانى، ص ٦٧٤ - ٦٧٧).

ويعد تاج العروس تاجا للمعاجم فهو أصح وأكبر وأشمل معجم احتوى على مالم يأت به أكبر المعاجم العربية من فوائد مختلفة استقاها من مراجعه الكثيرة مما ميزه خصوصاً فيما يتعلق بتصويره للروح المصرى (المرجع السابق، ص ٦٧٨ - ٦٧٩).

وهذا هو أثر مصر العظيمة فى نتاج نزيلها اليمنى العظيم . ■

الإبداع مغلولا!

من سجن الضرورة إلى أفق الحرية

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

قد تسحق تجربة السجن روح الكاتب وبدنه، فلا يعمد إلى تسجيلها بل ربما عمد إلى تجاهلها كأنها لم تكن. وقد تكون - على العكس - حافزا على الإبداع ودافعا إلى الكتابة. والمعول - في الحالين - على مزاج الكاتب الفنى، وتوجهه الفكرى، وموقفه الأيديولوجى، والمناخ الخاص والعام الذى يعيش فى ظله ويتنفس هواءه، وقدرته على تحويل الخبرة الخاصة إلى رمز عام.

إن السجن قد يولد عملا إبداعيا عظيما، وقد لا يولد إلا عملا متوسط الجودة. والفيصل هنا هو موهبة الكاتب الفنية، فالسجن لايصنع من أديب محدود القدرات أديباً عظيماً، ولكنه قادر على أن يطلق طاقات كامنة فيمن يملك أصلا هذه الطاقات.

ولأضرب مثلين من أدبنا الحديث: العقاد صاحب «عالم السدود والقيود» وإدوار الخراط صاحب «طريق النسر»، للوهلة الأولى تبدو الموازنة بينهما مستغربة بل عصية على التبرير: فليس أبعد من هذين الإثنين مزاجاً وفكرا وتقنية، لكن كتابيهما ثمرة خبرة شخصية بالاعتقال السياسى، ومن ثم فهما - من هذه الزاوية على الأقل - قابلان لأن يوضعا فى كفتى الميزان.

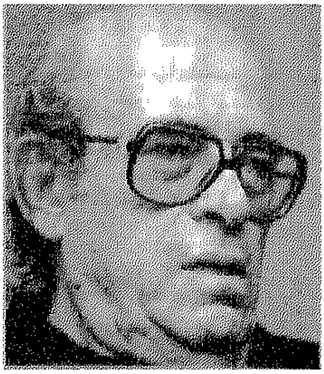

إدوار الخراط

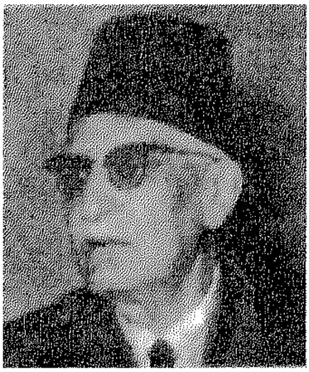

عباس محمود العقاد

مصطفي لطفى المنفلوطي

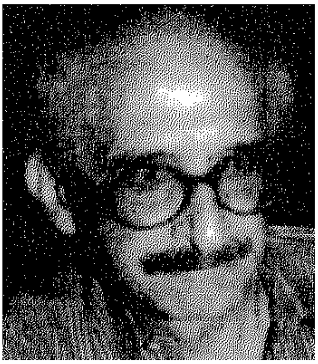

صنع الله إبراهيم

محمد البساطي

إبراهيم فتحي

العقاد (وهو مفكر كبير كنت فى شبابى، ربما بنوع من عبادة الأبطال الكارلايلية، أنظر إليه بعين التقديس والآن، فى شيخوختى، لا أكاد أجد فيه - باستثناء مرحلته الثورية الباكرة - ما يستحق عناء الرجوع إليه) لا يعدو أن يخرج سجلا باهتا لخبراته فى سجن قرة ميدان مع بعض ملاحظات عن حياة السجن بعامة تتغيا غرض الإصلاح الاجتماعى والأخلاقى (عبر رجاء النقاش - فى بعض كتاباته - عن خيبة أمله فى الكتاب)، أما إدوار الخراط (وهو عندى - إلى جانب أدونيس - أعظم أديب عربى فى النصف الثانى من القرن العشرين والعقد الأول من هذا القرن الجديد) فيحيل تجربة السجن إلى خبرة غنية، متعددة الطبقات، حافلة بدلالات نفسية واجتماعية وفلسفية، وقد ظلت تختمر فى وجدانه أكثر من أربعين عاما قبل أن يضعها على الورق.

الخبرة، هنا، واحدة أو تكاد: لكن الفارق هو أن العقاد (باستثناء لحظات قليلة أبرزها رائعته المسماة «نفثة»: «ظمآن ظمآن..») لم يكن فنانا بالجوهر وإنما بالعرض.

أما الخراط - وقدراته العقلية لا تقل عن قدرات العقاد، وإن سلكت دروبا مغايرة - فقد أخرج رواية هى عندى درة أدب المعتقلات فى اللغة العربية، كل النماذج الأخرى تقصر عنها درجة أو درجتين أو

درجات.

إن قائمة أدب السجون، فى أدبنا العربى قديما وحديثا، طويلة بالغة الطول، فالمعتقلات قد ظلت دائماً، فى كل أنحاء العالم العربى، مضيافة فاغرة الفاه لا تشبع وإنما هى على استعداد دائما - كذلك الإله الشرقى القديم مولوخ - لابتلاع الضحايا من القرابين البشرية فى جوفها المستعر لهباً. هكذا تراكم حصاد غزير من ممثليه: الحطيئة، المتنبى، أبو فراس الحمدانى، أبو نواس، أبو دلامة، ابن زيدون، المعتمد بن عباد، ابن عمار، ثم - فى زمن أحدث - البارودى، وأحمد الصافى النجفى، والمنفلوطى وغيرهم (أنظر ملف **«أدباء وراء القضبان» فى «هلال» يناير ١٩٧٣**، وانظر كتاب «شعر الأسر والسجن فى الأندلس» لمؤلفه الدكتور بسيم عبد العظيم).

وفى يومنا هذا يحصى الدكتور جابر عصفور فى مقالته «جدار بين ظلمتين» (مجلة «العربى» أغسطس ٢٠٠٤) من الأدباء العرب المعاصرين الذين سجلوا تجربة السجن: عبد الرحمن منيف، إسماعيل فهد إسماعيل، ياسين رفاعية، نبيل سليمان، شاكر خصباك، فاضل العزاوى، فيصل حورانى، ملاحظا أن كتاباتهم تلجأ إلى «التفاصيل الواقعية المؤلمة مهما كانت قسوتها أو بشاعتها وتتأنى سرديا ووصفيا إزاء مشاهد التعذيب والتنكيل والقتل»، ولنا أن نضيف إلى قائمته قائمة لا تقل عنها طولا أذكر منها - روايات ومذكرات - بدون ترتيب: «أنا الشعب» لمحمد فريد أبو حديد، «العين ذات الجفن المعدنى» للدكتور شريف حتاتة، «القطار» لصلاح حافظ، «البصقة» للدكتور رفعت السعيد، «الأسوار» لمحمد جبريل، «نقوش على جدران زنزانة» لويد رياح (فلسطينى)، «مذكراتى فى سجن النساء» للدكتورة نوال السعداوى، «سجناء لكل العصور» لفؤاد حجازى، «فى معتقل أبو زعبل» لإلهام سيف النصر، «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته» لمصطفى طيبة، «سنة أولى سجن» لمصطفى أمين، مسرحية «القاتل خارج السجن» لمحمد سلماوى، مذكرات فريدة النقاش، إلى غير ذلك مما لا تعيه الذاكرة الآن.

وثمة أعمال يتخايل فيها شبح السجن أو المعتقل فى المؤخرة، باعتباره المآل، ولكنه لا يلعب دورا أساسيا فى القصة، وإنما موضع التركيز هو الحادثة التى سبقت السجن، أو مشاعر السجين فى الطريق إليه لأول مرة. من أمثلة هذه الأعمال «قصة فى سجن» ليحيى حقى و«الطريق إلى المعتقل» ليوسف الشارونى. وهناك أعمال لا يعدو السجن أن يكون فيها مجرد حيز مكانى، كالبيت أو المكتب أو الشارع، وإن يكن أكثر انغلاقا، يراد به نقل رسالة إلى المتلقى. مثال هذا النوع الأخير رواية توفيق الحكيم «عودة الروح» وهى رواية ساذجة التصور والتنفيذ معاً، ليس لها، اليوم، أكثر من أهمية تاريخية. قرب ختام الرواية نجد محسن وعبده يوزعان منشورات وطنية فيقبض الإنجليز عليهما وعلى سائر أهل البيت: حنفى وسليم والخادم مبروك. ويساقون إلى سجن القلعة حيث نجد مشاهد لا تخلو من فكاهة (لا يستطيع أحد أن ينكر على الحكيم خفة ظله). ويرفض محسن الصغير - تضامنا مع أهله وقومه - أن يفُرج عنه بمفرده، ثم يتسنى - بوساطة من مفتش الرى الإنجليزى الذى كان صديقا لوالد محسن - نقل الجميع من الزنزانة إلى مستشفى السجن حيث الأوضاع أفضل كثيرا. ويدخل الطبيب العنبر فيقع نظره على الشعب (كلمة الحكيم) راقدين الواحد تلو الآخر. ويتبين السحن والوجوه فإذا هو يذكرهم ويذكر منزلهم الذى عادهم فيه يوما فوجده أشبه بعنبر مستشفى، حين أصيبوا جميعا بالحمى الإسبانيولية. فيقف دهشاً لحظة ثم يصيح مبتسما: «هو أنتم؟؟ ويرده هنا كمان جنب بعضكم؟! الواحد جنب أخوه؟!»، وهذه هى الرسالة التى تريد الرواية أن تنقلها: تضامن الشعب المصرى وتلاحمه، الكل فى واحد، فى زمن ثورة

١٩١٩.

على غير هذا المستوى يعالج كبار كتاب الغرب تجربة السجن: الشاعر الفرنسي ڤيون (وقد قارف أغلب الموبقات قبل أن يتم عامه الثلاثين) يجعل منه تجربة دينية عن الخطيئة والتكفير، دوستويفسكي وسولجونتسين يجعلان منه دراما روحية موصولة الوشائج بأعمق نوازع النفس وخفايا الضمير، وكنز يصور عذابات المسجونين أعواما طوالا، بلا أمل في الخروج إلى النور، في زنزانات سجن الباستيل، عشية قيام الثورة الفرنسية، وذلك في مخطوط الدكتور مان من رواية «قصة مدينتين» وإن شابتها شروخ في البناء والحبكة لا تجعلها من أفضل رواياته، أوسكار وايلد صاحب «من الأعماق» و«موال سجن ريدنج» يتعلم من تجربة سجنه كيف تكون النقلة من المستوى الجمالي إلى المستوى الأخلاقي والديني، وتخلى نزعته الهيدونية (اللذّية) الباكرة (كان من أكبر أعمدة مذهب الفن للفن في أواخر القرن التاسع عشر) السبيل لإدراك أعمق لمأساة الحياة ومعاناة المسحوقين والفقراء والمهمشين، الروائي الفرنسي المعاصر كلود إقلين يحيل الخبرة في روايته «السجين» (نقلها إلى العربية مصطفى كامل فودة) إلى استعارة مجازية مكتنزة بالدلالات ولكنها خالية من السرف العاطفي، وذلك من خلال تحكم دقيق في النغمة ونبرة الحكي.

لكن فلنعد إلى أدبنا العربي، إذ عسير بلوغ هاتيك جدا، تلك عليا مراتب الأدباء، إذا حورنا بيتا لابن الرومي. ثمة، لحسن الحظ، عدد من الأعمال الروائية والقصصية (والشعرية أيضا) تخترق قشرة السطح وتنفذ إلى أعماق غائرة من كيان الفرد وبنيان المجتمع. سأتحدث هنا عن ستة جوانب من هذه الأعمال: مناخ القهر العام؛ استشراء الفساد؛ التوثيق الدقيق لحياة السجن؛ إسقاط التاريخ على الحاضر؛ سيكولوجية التعذيب البدني والمعنوي، الفانتازيات الجنسية التي يخلقها حرمان السجين من إشباع غرائزه بالطرق السوية.

مناخ القهر العام

في أقصوصة محمد البساطي «حديث من الطابق الثالث» (جريدة المساء، ١٤ أغسطس ١٩٦٦) امرأة حاملة طفلها تأتي لزيارة زوجها السجين الذي يطل عليها من نافذة زنزانته بالطابق الثالث من مبنى السجن الضخم المستطيل. وثمة شرطي جامد يرمقها من فوق حصانه صامتا، وكأنه رمز للسلطة المطلة على المواطن من عل. وينادي الزوج، عاشور، على زوجته عزيزة ويخبرها أنه سينقل من السجن إلى سجن آخر بعد أربعة أيام، لكنه لا يتمكن من أن يراها جيدا إذ ثمة في الزنزانة وجوه أخرى تزاحمه على النظر. وحين يختفي للحظة يظل وجهان بالنافذة، يمد أحدهما ذراعه ويصنع بيده حركة بذيئة في الهواء. وتخفض عزيزة بصرها، وتتراجع إلى كومة حجارة إلى أن يعود زوجها.

ثمة ما يشبه الاجماع بين النقاد على غنى هذه القصة القصيرة ونجاحها - من خلال لغة محايدة مقتصدة خالية من الزوائد كلغة همنجواي أو شتاينبك - في أن تنقل أحاسيس المعاناة المستمرة الضاغطة، وجمود الإحساس وتبلده لفرط ما تعود على الإهانة والإذلال، وتشيؤ الوجدان الإنساني تحت وطأة ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية قاهرة.

يقول غالب هلسا - ذلك الروائي الأردني العظيم - إن القصة «تمثل خير ما في البساطي» («الأدب الجديد: ملامح واتجاهات»، جاليري ٦٨، أبريل ١٩٦٩، ص ١٢٣).

ويبرز إبراهيم فتحي سيادة منطق القهر في الموقف على كل المستويات: «يتحدث السجين مع زوجته عن الحياة والطفل والزرع وبناء البيت.. ويلعب زملاؤه معه دور الجلاد فيعابثون زوجته في بذاءة.. فالسجناء يضطهدون السجناء.. ولايزال راكب الحصان يحرس زملاءه وهم يسرقون بسجائر

المساجين بعيونه المغمضة وحصانه النائم داخل البرج» («ملامح مشتركة في الإنتاج القصصي الجديد»، نفس العدد المذكور من جاليري، ص ١١٤). وعند خليل كلفت - القاص والمترجم واللغوي - أن القصة تصور «اغتراب المضطهدين المستغلين (بفتح الهاء والغين) الذين بنيت هذه السجون من أجلهم» («ملاحظات حول كتاب ٦٨»، جاليري ٦٨، أكتوبر ١٩٦٩، ص ٧٥).

استشراء الفساد

يتمثل هذا البعد على أجلى الأنحاء في رواية خيري شلبي «بغلة العرش» (دار ومطابع المستقبل ١٩٩٥). إن خيري شلبي المتخصص في سبر أغوار العالم السفلي لقاع المدينة (عبارة يوسف إدريس) يصور هنا عقابيل الانفتاح السداح مداح (عبارة أحمد بهاء الدين) في الحقبة الساداتية، وكيف صُنعت ثروات طائلة - على حساب الأغلبية الفقيرة - من العمولات والاستيراد والتصدير والدعارة والمخدرات والتهريب والعقود مدفوعة الثمن. والنتيجة التي تنتهي إليها إحدى شخصيات الرواية - فهي مجموعة مونولوجات تقوم على تعدد وجهات النظر واختلاف زوايا الرؤية باختلاف مواقع الرواة - هي أنه «لا توجد في الدنيا كلها ثروة بريئة. الثروة المنزهة عن الإثم لم توجد بعد ولن توجد» (ص ٧٧). وتستوحي الرواية الفولكلور الديني إذ تحلم كل الشخصيات - وكل منها تستأثر بفصل - بمجيء بغلة العرش: تلك التي تتوجه في ليلة القدر من كل عام، حاملة رأس قتيل، إلى دار الموعود لتجعله ثريا، ومن ثم يرغب الكل ليلتها في لزوم بيوتهم أملاً في أن تتوقف البغلة ببابهم. الكل: رجالا ونساء، شبابا وشيوخا، يرون أنفسهم جديرين بهذا الشرف السماوي، رغم أن كلاً منهم يعرف جيدا مدى ذنوبه وبعده عن أن يكون مستحقاً.

ولا يلبث أهل البلدة أن يبصروا البغلة قادمة عقب صلاة الفجر ثم تختفي فلا يدرون أين حطت ركائبها. وتروح تتمسح بعبد الرءوف العصرة - وهو فراش في مدرسة البلدة العتيقة - فيوصد عليها باب داره وتجيء الشرطة لتلقي القبض على العصرة والبغلة معا. وتنتهي الرواية بانقشاع هذا الوهم الجماعي: فيتبين أن البغلة ليست موفدة من السماء وإنما هي بغلة الحاج علي داوود، ورأس القتيل التي تحملها هي رأسه شخصيا وقد سطا عليه أبناء الليل للاستيلاء على ما كان يحمله من سبائك الذهب. هذا إذن هو خيط (لا أحب كلمة «موضوعة» التي شاعت ترجمةً لكلمة «تيمة») الرواية: صراع الوهم والحقيقة إزاء خلفية غنية بالتفاصيل السوسيولوجية من حياة بلدة ريفية مصرية في عقد السبعينيات أو نحو ذلك.

يواكب هذا الخيط ويزيده غنى تعليقات على تجربة السجن تنتشر في تضاعيف الرواية : الشيخ عبدالمقصود أبو غلاب يقول: «واعظ جاهل في نظري خير من سجان: وخطيب ساذج أفضل في النهاية من جلاد» (ص ٤٨) . ويبرر وجهة نظره هذه رغم إدراكه خطورة تعاليم الواعظ الجاهل والخطيب الساذج وتخريبهما للعقول، بأن «السجان والجلاد كلاهما أداة لتدمير الكرامة الإنسانية، وهذه في نظري جريمة لا تغتفر (ص٤٩). وثمة إشارات إلى تعذيب الشيوعيين في المعتقلات (ص١٥٠) ووصف لإلقاء القبض على شاعر شاب بتهمة «تنظيم حزب للبعث العراقي وأنني عميل لصدام حسين!!» ولكن السجن والتعذيب لا يكسران إرادته: «أحببت تعذيبي وسجني لسببين عظيمين كانا اكتشافين خطيرين بالنسبة لي: اكتشفت قدرتي على الصمود وحماية الكبرياء الجريح من السقوط في الوحل! واكتشفت حب الناس لي ذلك الحب الكبير! فلقد قامت الدنيا كلها تطالب بالإفراج عني، تندد بتعذيبي، تهز الأرض تحت أقدام الجلاد!» (ص٢٠٠).

التوثيق الدقيق لحياة السجن

تمثل هذا التوثيق رواية صنع الله إبراهيم «شرف» (سلسلة روايات الهلال، مارس ١٩٩٧) وهي عندي ثاني أعظم

روايات السجون فى أدبنا بعد رواية الخراط، وإن ثار لغط حول مدى استفادتها من «زنزانة» فتحى فضل. إن أشرف سليمان (شرف كما ألفت أمه أن تنادى حبة عينها) شاب ينتمى إلى الشريحة الدنيا من الطبقة المتوسطة، تعذبه - كما تعذب الملايين من أبناء جيله شبانا وفتيات - مظاهر الترف الاستهلاكى وأدوات المتعة التى جاء بها عصر الانفتاح واقتصاد السوق، ولكنه لا يملك - لمحدودية موارده - أن يستمتع بها، ومن ثم يكتفى بالفرجة عليها فى الفاترينات وعلى شاشة التليفزيون وفى الأحياء الراقية. ويشاء سوء حظه أن يتعرف أمام إحدى دور السينما على رجل أجنبى أشقر (يدعى أنه استرالى ثم تبين فيما بعد أنه إنجليزى) يقدم له تذكرة سينما زائدة عن حاجته ثم يصحبه إلى شقته فى الزمالك حيث يقدم له الطعام والشراب، ويتبين أن الإنجليزى جنسى مثلى يحاول الاعتداء على شرف (لاحظ دلالة الاسم الساخر!) فيقاومه هذا - تحت وقع المفاجأة - ويهوى بزجاجة خمر على صدغ مغتصبه فيقتله دون قصد منه.

يحدث هذا كله فى الفصل الأول (فصنع الله ابراهيم لا يضيع وقتا). وفى الفصل الثانى نجد شرف فى الحجز، وقد ألقى القبض عليه، وبدأت محنته المتطاولة التى سوف تستغرق أربعمائة وسبعين صفحة من القطع المتوسط . لقد وجهت إليه ظلما، تهمة محاولة سرقة الإنجليزى ثم قتله حين قاومه هذا الأخير. ويراوح الكاتب بين استخدام ضمير المتكلم وضمير الغائب. ويعمد - مستغلا موهبته الفائقة فى المحاكاة الساخرة وعنصر التهكم والتورية اللفظية والمعنوية - إلى تقديم صورة مفصلة دقيقة لحياة السجون، والنماذج البشرية المختلفة فيها (كم تبدو موهبة العقاد الفنية شاحبة بالمقارنة بما نجده هنا!) . وفى منتصف الرواية نجد جزءا توثيقيا طويلا يستمد مادته من الصحف والمجلات والإذاعة والتليفزيون ويضم أوراق الدكتور رمزى بطرس نصيف - أحد نزلاء السجن - مع مسرحية عرائسية أعدها الدكتور وأخرجها بتمثيل سائر النزلاء، وحضور مأمور السجن وسائر الضباط والعساكر، وذلك بمناسبة «ذكرى الانتصار العظيم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣» وهذه المسرحية العرائسية التى تعرض صورا أليمة - مضحكة فى آن لتطورات المجتمع المصرى فى أعقاب الحرب، والتقارب مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومعاهدة السلام مع إسرائيل، وسياسة الباب المفتوح اقتصاديا، وموجات التطرف الدينى، آية من آيات الكوميديا السوداء، وهى تذكرنا ببعض مشاهد من «يوليسيز» جيمز جويس، وهو روائى نم صنع الله إبراهيم على معرفة بعمله منذ أخرج رائعته الأولى «تلك الرائحة» فى ١٩٦٦ وهى عمل كان نصيبه المصادرة فور ظهوره، وحس الفكاهة المرير يتخلل المشاهد من أول الكتاب إلى آخره (هاك نموذجا منه: «آخر دفعة من الشيوعيين - الذين تتيح لهم أفكارهم استشراف المستقبل - زودت المراحيض، على نفقتها، بسخانات كهربائية للمياه، أتيح استخدامها لجميع المساجين دون مقابل. وعندما أفرج عن أفراد الدفعة تركوها كما هى، لا عن أريحية وإنما لأنهم كانوا واثقين من عودتهم» (ص ١١٤)

أما قصة «الاثنين هونجا حتى القتلى» فضربة عبقرية من ضربات الفكاهة، لا تقل عما نجده لدى بترونيوس أو رابليه، ولن أرويها هنا حتى يعود إليها القارئ بنفسه: ص٣٧٧ ثم ص٣٩١).

ويحشد الكاتب كل طاقات حواسه من بصر وسمع وذوق وشم ولمس لكى يرسم صورا تحفر ذاتها، بعمق، فى ذاكرة القارئ غير مغفل شيئا. حتى «الفساء والضراط» (ذلكما الموضوعان اللذان لا يفتآن يترددان فى هزليات سمير غانم الرخيصة بإلحاح) يغدوان هنا جزءا من تكوين فنى جميل، إذ تحيلهما كيمياء الفنان الصاهرة إلى شئ مغاير: «استسلم لغفو متقطع تسلى خلاله بالإنصات إلى النشرة الأخيرة ذات البناء الأوبرالى المؤلف من شخير (تمسك بطشة بقيادته وهو نائم) يتردد بين العويل

والحشرجة (حسب نوع الصور المصاحبة) تعترضه إيقاعات من زرطات متباينة الشدة (حسب نوع الطعام الذى أنتجها) ممتزجة بنداءات حراس السور الخارجيين فى أبراجهم المشيدة، معلنين عن وجودهم كل ساعة بصوت جهورى (يغالبون به خوفهم): واحد تمام. اتنين تمام. تلاتة تمام حتى ستة» (ص٦٠).

لئن كانت عبارة «الكاتب ضمير المجتمع» - وهى عبارة ابتذلت لفرط ما أسرف النقاد فى استخدامها - مازالت تعنى شيئا، وشيئا حقيقيا، لقد انطبقت على صنع الله إبراهيم، ومعه كوكبة من مجايليه أو الجيل التالى له كانوا - بدرجات متفاوتة - قرون استشعار الوطن وأجهزة إنذاره المبكر ضد الكوارث القادمة: جمال الغيطانى، يحيى الطاهر عبدالله، يوسف القعيد، خيرى شلبى، سليمان فياض، بهاء طاهر، ابراهيم عبدالمجيد، أحمد الشيخ، المنسى قنديل، علاء الأسوانى، محمود الوردانى، سلوى بكر، محمد مستجاب، جميل عطية إبراهيم، عبدالسلام العمرى (هل لى أن أضيف أيضا ذلك الروائى فريد المذاق، وإن يكن من جيل أسبق قليلا: الدكتور على أبو المكارم؟).

وصف الدكتور صلاح فضل عالم صنع الله إبراهيم فى هذه الرواية بأنه «هذا الجحيم البشرى الذى يوازى عقاب الحشر ويرهص به» (الرواية الجديدة، ص٦٩) وذهب عبدالرحمن أبو عوف إلى أن الرواية لديه «أصبحت شهادة ووثيقة، ودليل عمل، وقانون إنقاذ.. إنها تقدم وتجسد وتصور حضور وتدنى وتآكل واقعنا وحياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى حاصرتها مخططات وسياسات تدميرية خارجية وداخلية أدت إلى مأساة مازالت تتابع أحداثها حتى اليوم» (قراءة فى الرواية العربية المعاصرة، ص١١).

إسقاط التاريخ على الحاضر

بطل هذه التقنية - كما لا حاجة بى إلى أن أقول - هو جمال الغيطانى، واحد من أكبر روائيى العالم العربى فى جيل ما بعد محفوظ، وصاحب الرائعة الباقية على الزمن «الزينى بركات». وقد سبقه إلى هذه التقنية، وعاصره فيها أو تلاه، روائيون من طراز محمد سعيد العريان صاحب «على باب زويلة» وسعد مكاوى صاحب «السائرون نياما» ومحمد جبريل صاحب «قلعة الجبل». اختار هؤلاء الروائيون جميعا فترة أواخر العصر المملوكى، وفتح مصر على يد العثمانيين، وهى فترة تدهور شامل لمرافق البلاد واضمحلال على كل المستويات، إذ رأوا فيها بعض مشابه من حقبة هزيمة ١٩٦٧ بما سبقها من مقدمات وما أعقبها من نتائج وفى مجموعته القصصية المسماة «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» (لاحظ قوله «عاش» لا «مات» التى كان القارئ خليقا أن يتوقعها) نجد عنوانا مسجوعا على طريقة الكتاب القدامى «هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة» ويبدأ النص بالحيلة المألوفة لدى كتاب الرواية منذ خط ثربنطه السطور الأولى من رائعته «دون كيخوته»: ادعاء الكاتب أن هذا مخطوط عثر عليه فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة بحى الجمالية. إننا نجد هنا ذكريات آمر (مأمور بالمصطلح الحديث) سجن المعصرة مع تحديد زمنى للفترة المعالجة يرجح أنها زمن السلطان الأشرف قايتباى، أو الأشرف قانصوه الغورى، آخر سلاطين المماليك. ونعلم أن السجن الذى يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله سمى بالمقشرة: «لأنه أقيم فى موضع كان يقشر فيه القمح . والعامة والسوقة والمشايخ وجميع أهل مصر يقولون إنه من أبشع السجون وأشدها هولا. يقاسى المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف. والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم إذا دخلوه. ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سرا أو علانية وهم من بنائه يبتعدون: اللهم عافنا شره وبلاءه. وأسمعهم يقولون هذا فأسخر منهم لا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة. ربما اليوم وسط

عيالك وإلى جوار امرأتك، وفى الصباح فى أسفل طباق المقشرة» .

هكذا لا يعفى جو القهر الشامل أحدا، ولا ينجو منه شاب ولا شيخ. ويفد على السجن وارد جديد قوامه أربعون فلاحا، يقعون فى قبضة الرعب المخيم: «هاهم بقية الذعر مصغين كأن على رؤوسهم الطير، قلت هذا إذا لم تمت مطعونا «بالطاعون» أو لم يمص الوطواط دمك.. وأعلم أن الوطواط فى المقشرة كالرجل والعقرب كالبغل» ويعاتب الشيخ مسعود الآمر على إذاقته المساجين صنوفا من العذاب فيدافع هذا الأخير عن نفسه بأنه، وهو الآمر، لا يعدو أن يكون عبدالمأمور، سلطان البلاد الذى نسج شبكة أمنية محكمة حول عرشه تصد عنه أى تهديد أو نقد .وسيزعم الآمر أن هؤلاء الفلاحين البائسين عربان مفسدون فى الأرض يحق إقامة حد الحرابة عليهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وفى غمرة هذه المظالم يتسلل الكاتب إلى الخوف الكامن فى أعماق الأمر ذاته (ذلك أن التعذيب يحط ،أخلاقيا، بمن يمارسه أكثر مما يحط بمن يمارس عليه) : «الأمر لابد أن يدبر فى هدوء.. لو شاع وافتضح لاهتزت رأسى.. أى أيام سوداء فى انتظارى؟ كل سيوز السلطان علىّ بكلمة . أما أتابك العسكر نفسه فسوف يركبنى فوق بغل بالمقلوب ويجرسنى فى القاهرة كلها.. ارجموه، اضربوه، عذب ولدى، قتل رجلى قطع ذراعى، خوزقنى، أدخل خنجره المحمى فى رمانى ثلاثين عاما كاملة لأنه طمع فى امرأتى فحبسنى ليخلو له الجو ويناله‍ا.. الفاسق.. الزانى.. يارب الطف، يارب أعن» لا أمان لأحد فى هذا المناخ المريض، وإنما الأيام دول، والسلاطين والأمراء والآمرون والشرطيون كلهم - بتعبير أبى العلاء - كلاب تعاوت أو تغاوت لجيفة، ولواء الظفر معقود لمن هو أكثرها كلابا .

كان هذا الأسلوب الذى اعتمده الغيطانى، مستعينا بلغة المؤرخين من أمثال ابن إياس والمقريزى والجبرتى وغيرهم، اختراقة جديدة فى فن القص، مضت به إلى آماد أبعد مما صنعه أى روائى عربى سابق. من هنا كان إجماع النقاد على الاحتفاء بهذه التقنية، وفطنتهم إلى التوازيات التى يسعى الروائى إلى إقامتها بين الماضى والحاضر. كتب الدكتور عبدالحميد إبراهيم: «إن حكاية «المقشرة» لما تنته ، وهى ليست خبرا تاريخيا يروى للطرافة، ولكنها شئ متكرر فى تاريخنا له ظواهره وله أجزاؤه المكملة له « (القصة القصيرة من الإقليمية والتاريخية»، مجلة «المجلة» أغسطس ١٩٧١ ص٨١) ووصف جلال العشرى الأقصوصة «بأنها نوع من النثر الفنى الجميل الذى يتخذ من أحداث التاريخ شكلا، ومن وقائع الحياة مضمونا، ويصهر الاثنين معا فى لوحة قلمية، تذكرنا ببعض المقامات الأدبية، أو ببعض الفصول التى نطالعها فى كتب التاريخ (جيل وراء جيل، ص١٤٨) ووصف خليل كلفت القصة بأنها «ميلو دراما الرعب» وتساءل : «ما حاجة أبطال الغيطانى إلى السجون؟ إنهم دائما لا يعصون ولا..» وهم دائما أقزام أذلاء فاقدو أدنى كرامة آدمية أمام جلاديهم ورعب الشخصيات المضطهدة لا يلبث أن ينتقل إلى الكاتب نفسه، ويملأ عينيه وحواسه وعقله فيتحول إلى متعهد للشخصيات المرتعبة» (ملاحظات حول كتاب ٦٨) جاليرى ٦٨، أكتوبر ١٩٦٩، ص٨٠) أما شفيق مقار- فيصف أقصوصة الغيطانى بأنها «قصة أخرى من قصص الاحتجاج والنذير الاجتماعى وهو ما يقتضيه شرف الفنان الذى ينفذ، برفضه للزيف، إلى واقع العصر ويطالع وجهه الحقيقى» ويقارن مقار بين أقصوصة الغيطانى وقصة كافكا «المستعمرة العقابية » عن «الجديد والقديم والذى بين بين»، جاليرى ٦٨، أكتوبر ١٩٦٩، ص١٠٦، ١٠٧). ■

البقية العدد القادم

السجن والسجّان
فى روايات نجيب الكيلانى

بقلم
د. حلمى محمد القاعود

تحظى مادة السجن والسجّان فى روايات نجيب الكيلاني بمساحة كبيرة كمًا وكيفا ، لعدة أسباب ، منها : تجربته الشخصية ، فقد دخل إلى المعتقل ثم السجن أكثر من مرة بسبب انتمائه إلى التيار الإسلامى ، ومن المفارقات أنه كان معتقلاً فى صدر شبابه ، وخرج من السجن ليتسلم جائزة الرواية من الرئيس الأسبق «جمال عبدالناصر» ، ويعود إلى السجن مرة أخرى . ومنها غزارة إنتاجه الروائى (٤٠ رواية طويلة) والقصصى بصفة خاصة ، وهو ما منحه فرصة التناول المتعدد الجوانب لتجربة الاعتقال والسجن فى أكثر من رواية وقصة .

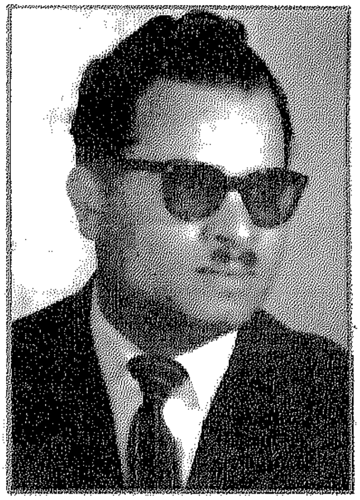

نجيب الكيلانى

تمنيت أن تكون مادة السجن والسجّان موضوع رسالة أكاديمية تستقصى جوانبها ومفرداتها وصياغاتها ، وسأكتفى فى هذا المقال بعرض أهم الملامح البارزة لهذه التجربة ، ولعل ذلك يكون دافعا لبعض طلاب الدراسات العليا كى تتحقق أمنيتى .

ويعد نجيب الكيلانى (١٩٣١ - ١٩٩٥م) من أغزر وأنضج كتَّاب الرواية العربية المعاصرة ، وقدم العديد من أنواع الرواية : التاريخية ، الرومانسية / الواقعية ، الواقعية الإسلامية ، فضلاً عن الرواية الاستشرافية ، التى تناولت حياة المسلمين خارج البلاد العربية ، تحت الاحتلال الشيوعى لبلادهم، أو الاستبداد غير الإسلامى فى أوطانهم .

ونجيب الكيلانى ، كاتب ملتزم ، والتزامه لم يؤثر على قضية الفن لديه ، فقد استطاع بموهبته الفائقة التى شهد لها «نجيب محفوظ» وأشاد بها ، أن يحقق المعادلة الصعبة بين الإلتزام والفن ، وأن يرقى بمستوى التعبير إلى مايمكن تسميته «السهل الممتنع» ، ووظف لذلك أسلوبه الجميل ، وشاعريته المرهفة ، وثقافته الإسلامية والأجنبية ، فضلاً عن تخصصه العلمى فى مجال الطب .

وإذا كانت الأجيال الجديدة لم تطلع على معظم إنتاج نجيب الكيلانى بسبب غربته الطويلة خارج مصر منذ بداية السبعينيات حتى رحيله فى أواسط التسعينيات ، فقد أخذ بعض الناشرين فى تقديم كتبه ومؤلفاته ، واهتمت بعض الجامعات بتدريس عطائه ، ومناقشة بعض الرسائل العلمية حول نثره وشعره جميعاً .

ليل وقضبان

ويمثل السجن والسجَّان فى روايات نجيب الكيلانى خطراً كبيراً وكرباً عظيماً على النفس الإنسانية التى تتوق إلى الحرية والأمل ومعانقة الحياة ، ليس لدى السجناء أو المعتقلين السياسيين فحسب ، ولكن لدى السجناء الجنائيين الذين يقضون عقوبة الحبس جراء ما اقترفوه من جرائم القتل أو السرقة أو الإختلاس أو الرشوة أو غيرها من الجرائم ، ويتمنى السجين فى كل الأحوال أن يدفع كل مايملك لقاء لحظة حرية يستمتع بها بعيداً عن الزنزانة الرطبة والحياة الصعبة والمعاملة المهينة والتعذيب الصارخ الذى يفضى إلى الموت فى بعض الأحيان ، لذا تنوعت صورة السجن وأحواله ، والسجان ونماذجه فى روايات نجيب الكيلانى ، فهناك السجن الجنائى والسجن السياسى (المعتقل) والسجن الحربى ، والسجَّان العادى الذى يتعامل مع السجناء الجنائيين ، والسجَّان المباحثى والسجان المخابراتى ، وهذه الصور وغيرها يقدمها نجيب الكيلانى من خلال منظور يرى عمق النفس البشرية فى تقلباتها المختلفة وأحوال مدها وجزرها المتنوعة ، مع ربط ذلك بمهارة بالعالم الخارجى وما يجرى فيه من وقائع تبكى الحجر !

فى مهرجان طشقند السينمائى - على زمن الاتحاد السوفياتى - فاز فيلم «ليل وقضبان» المأخوذ عن قصة نجيب الكيلانى التى تحمل هذا الاسم ، وقام ببطولته محمود ياسين ، وسميرة أحمد ، ومحمود مرسى ، ومع أن أسباب الفوز تركز عادة على الصورة السينمائية المتحركة وما يرتبط بها من تقنيات وأداء ، فإن السبب الحقيقى -

من وجهة نظرى – للفوز يعود إلى البناء الفنى فى رواية الكيلانى ، حيث تقدم صورة إنسانية شفافة لسجين من أبناء الصعيد (فارس) دفع وفقا للأخذ بالثأر فعوقب ودخل السجن ، وعاش حياة بائسة، حاول فيها أن يحافظ على كرامته وكيانه فى مواجهة سجان طاغية ، ومدير سجن شرس أمام السجناء ، ضعيف إلى حد الإنهيار فى بيته وأمام زوجه الشابة ، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على كرامته وكيانه ، فقد سقط فى أحضان الزوجة الشابة ، وارتكب الإثم ، وشعر بالهوان أمام نفسه قبل الآخرين ، واندفع فى الخطأ والخطيئة بتحريض امرأة مدير السجن ، حتى أعلن عن مقارفة الخطيئة وهو سكران ثمل أمام المدير ، الذى دبر له نهاية دامية داخل زنزانته حيث لقى مصرعه !

وذات صباح حزين قالوا إن فارس مات .

وزعموا أن السجّان ذهب ليفتح زنزانة التأديب فى الثامنة صباحاً ، فوجده ملقى على الأرض الباردة ، وقد فارق الحياة ، بعد أن تقيأ دما .

وترصد الرواية رد الفعل على وجوه ضباط السجن والمساجين الذين يقرّون أن «فارس» ليس أول سجين يموت ! كما أن طبيب السجن يمتنع عن تشريح الجثة ويترك الأمر للطبيب الشرعى الذى يقرر أن «فارس» مات مسموماً ، وسرى النبأ كالنار فى الهشيم داخل السجن ، وخرجت زوج المدير عن صمتها ودهشتها وذهولها وقالت :

– زوجى قاتل .. وأنا أعترف أننى أسلمت نفسى لفارس .

نزل الإعتراف كالصاعقة وتردد صداه فى أروقة السجن وأمسك المحققون بأطراف القصة كاملة ، وخاصة عندما انهار «الشلقامى» (السجّان المباشر) ، وقال من بين دموعه المتقاطرة :

– ماذنبى ؟ أنا عبد المأمور !!..

لقد حجز المدير والشلقامى فى أحد سجون القاهرة رهن التحقيق . ولكن الكيلانى يختم روايته ملخصا المأساة فى سطور :

«وعادت الحياة إلى السجن من جديد، الذاهبون إلى المحاجر السوداء ييممون وجوههم شطرها كل صباح ، ثم يعودون فى المساء منهوكى ، ضائعى الأحلام .. ومدير جديد يدخل السجن منتفخ الأوداج ، رافعاً رأسه فى كبرياء ، وفى الليالى السوداء ، يجلس السجناء القرفصاء ، يتحدثون عن ذكرياتهم وعن زوجة أحد المديرين ، الحسناء ، تلك التى عشقت سجيناً ، فدفع حياته ثمناً للحظات الغرام القصار .. وعن الباشسجّان عبد المأمور وعن عالم العبيد ... والضياع الرهيب ...» .

تركز الرواية على تحليل الدوافع والأسباب لما يجرى داخل السجن وخارجه، وتستبطن أعماق السجين والسجّان، وتقدم لنا نفس البشرية، وهى تتوق إلى الخير والطهر والفضيلة ، مع أنها وقعت فى حياة الإثم والجريمة والرذيلة .. وهذا التحليل وذلك الاستبطان يتمان تحت رصد دقيق ممتع

لما يجرى على ساحة السجن من قسوة تصل إلى حد البشاعة والقتل . إن هذه الساحة لاتعرف الرحمة ولا الشفقة ، ولا تعترف بما يسمى كرامة الإنسان . ومن خلال الرصد الدقيق الممتع نلتقى فى هذه الرواية وغيرها من روايات نجيب الكيلانى التى تناولت صورة السجن بعالم مواز لهذا السجن - قد يكون قائماً فى بيت السجّان نفسه (عبدالهادى بك) مدير السجن حيث صار سجنا لزوجه الشابة المحرومة ، وسجناً له نفسه حيث يرى فيه هوان نفسه وذلها بسبب عجزه الجنسى، واستسلامه المهين أمام المرأة التى خانته ومرغت شرفه فى التراب ، وقد يكون العالم الموازى للسجن أو الزنزانة هو الوطن بأكمله حين يحرم الناس من الحرية والكرامة والأمل جميعاً ، كما نرى على سبيل المثال فى هذه الرواية التى جرت أحداثها قبل عام ١٩٥٢ ، أو فى رواية «مواكب الأحرار» التى تعالج قسوة الاحتلال الفرنسى بقيادة نابليون على مصر والمصريين ، أو فى رواية «قضية أبوالفتوح الشرقاوى» التى جرت فى العهد الملكى ، أو فى روايات «رحلة إلى الله» و«حكاية جادالله» و«اعترافات عبدالمتجلى» و«ملكة العنب» وغيرها ، من الروايات التى جرت أحداثها عقب يوليه ١٩٥٢ .

مواكب الأحرار

فى «مواكب الأحرار» تبدو سلطة الاحتلال الفرنسى حريصة على إذلال الشعب المصرى وتمريغ كرامة المصريين فى التراب ، ولا يخفى «برتلمى» أحد شخصيات الغزاة الرئيسية فى الرواية كراهيته للشيخ السادات الذى يطيعه الناس ، ويمتثلون لكلامه وآراءه ، ويتمنى أن يمسك به ، ويمرغ جبينه «الطاهر فى التراب ، حتى يفقد المصريون قيادتهم المقاومة ، كما يتسنى «برتلمى» أن يقطع بعض الرءوس ويطوف بها فى الشوارع من آن لآخر ، ليقضى على كل أثر لمقاومة الغزاة .. ويترجم «برتلمى» وأتباعه هذا التمنى إلى واقع ، حين يشتبكون مع الثوار ، فيقتلونهم أو يمسكون بهم ويدخلونهم إلى السجون . وما جرى للحاج مصطفى البولاقى فى سجنه نموذج بشع لسحق كرامة الإنسان والزراية به من جانب معتد لايعرف معنى الأخلاق أو الرحمة أو الكرامة . كل مايعرفه هو القوة .. القوة الغشوم بكل قسوتها وبشاعتها وشناعتها.

كانت الزنزانة التى أدخلوه فيها شبه مظلمة . تفوح منها رائحة منفرة ، يسكنها تسعة من الرجال ، على الرغم من أنها لاتتسع لغير ثلاثة . إنهم فى أواخر شهر أكتوبر ، ومع ذلك فالحر شديد ، والأنفاس تكاد تختنق ، والظمأ يكاد يقتلهم ، هنا لا شىء اسمه الإنسان ، كل القيم العريقة تذبل وتحتضر ، والناس لاينظر إليهم فى هذا المكان إلا بوصفهم حيوانات لا قيمة لها ، ولا فائدة منها .. ولا ينادى على أحد باسمه إلا فى الأوقات العصيبة ، وقال أحد التعساء :

- أيها الرجال .. إننا هنا لانستطيع أن ننام أو نقضى حاجتنا .. لم أكن أتصور أن هناك شيئاً ألعن من الموت ، وها أنا أراه .. أيمكن أن نبقى هكذا طويلا ؟..» .

هذه صورة السجن أو الأسر تحت قبضة الفرنسيين الغزاة ، لا تقتصر فحسب على ضيق المكان وضياع الكرامة وانسحاق الإنسان ، بل تمتد لتشمل الطعام والشراب وحصة العذاب الرهيب التى تنتظر السجناء للحصول على الاعترافات ، وليس لدى الغزاة المحتلين سوى السياط وانتزاع الأظفار ، وحرق الأبدان بأسياخ من الحديد المحمى . إن برتلمي يتفنن في اختيار أبشع أنواع العذاب .

تتضمن هذه الصورة القاسية نوعاً من المشاعر الحميمة ، بل مشاركة السجناء المعذبين آلامهم من جانب إخوانهم فى الزنزانة ، مع إدراك أن السجن والتعذيب ثمن الحرية فى الأيام العصيبة ، كما تتضمن نماذج لمن يقتلهم التعذيب ويقضى عليهم بلا رحمة .

والمفارقة أن «برتلمى» الجلاد الفرنسى الذى يقود عملية الإذلال والتعذيب فى السجون المصرية ، يتأفف من رائحة المعتقل ومنظره بسبب المخلفات الأدمية الناتجة عن التعذيب ، ولا يجد حلا لتنظيف المعتقل غير إرغام السجناء بوصفهم خدماً ، ليقوموا بعملية التنظيف عن طريق المكانس والخيش والدلاء ، ومن يشمئذ منهم أو يتوان عن النظافة فالسياط كفيلة بتنشيطه .

ويتسامى «نجيب الكيلانى» فى صياغته لمشاعر السجناء الوطنيين وأحاسيسهم تجاه السجن ، وإدراكهم أن لا حياة بدون حرية ولا كرامة بغير ثورة ، فنطالع صياغات شعرية رقيقة علي لسان الحاج مصطفى بعد أن إفتداه قومه ودفعوا مبلغاً باهظاً ليخرج من السجن ، وتصور «برتلمى» أن الرجل يمكن تجنيده للعمل لحسابهم :

قال كالحالم وقد شحب وجهه :

السياط على ظهرى تصرخ بالثأر .. وضحايا الظلام فى القلعة لهم نداء من نوع غريب أسمعه فيهز كيانى ، ويحرق مشاعرى .. كنا بالنسبة لبرتلمى غير آدميين بالمرة ، مجرد حيوانات . .لا .. لا .. أقل من الحيوانات .. أنتم هنا تتنفسون وتنامون وتمارسون حياة نظيفة .. إننى أدور بنظراتى فى أنحاء بيتى الرحب النظيف .. وأشم رائحة الشواى وأفعل مايحلو لى .. وهناك فى ذلك الوادى الرهيب .. القلعة .. مجموعة من الأبرياء يحيون أحط حياة .. سلم على الحبايب يا حاج مصطفى .. هكذا كانوا يودعوننى .. كانت العيون الدامعة ترمقنى فى أسى .. المصير المجهول المعذب يرتسم على الجباه الشاخبة التى هدها الظلام والرعب والتعذيب .. ماذا تقولين يا امرأة ؟؟! أتريدين أن ألزم بيتى وأتناول طعامى وشرابى .. ثم أنام مرتاح الضمير، يا ليت !! صدى الأنين يدق ويتخلل روحى ودمى ..»

قضية أبوالفتوح

ويسفر السجن عن نفسه فى رواية «قضية أبوالفتوح الشرقاوى» من خلال صورة طريفة لفلاح بسيط زعم أنه يعلم حقيقة ماجرى فى حادثة سقوط سيارة فى البحر العباسى . امرأة البك الكبير أخذت عشيقها وهربت معه . وصلا إلى منطقة مقطوعة على البحر العباسى . جلسا تحت مظلة القمر يشربان الخمر

ويمارسان الرذيلة . كانت بيضاء جميلة مثل الأميرات الفاتنات .. عبثا ماشاء لهما العبث .. نزلا النهر ليستحما .. «إن ربك لبالمرصاد» صدق الله العظيم .. سحبتها جنية البحر إلى الأعماق .. هرب العشيق ، ووقف على الشاطىء يلطم خديه نادى العاشق : «البر ياطالب الدفن» كما نقول نحن لكل غريق . أقبلت جثتها نحو الشاطىء بعد منتصف الليل ، أقبل الناس من كل مكان . استولى اللصوص على المجوهرات والملابس ، وساقوا العشيق عاريا إلى دوار العمدة .. ومن إلى المركز .. وانقلبت الدنيا رأساً على عقب : بوليس، نيابة ، خيول ، عربات باشوات ..

دخل أبوالفتوح إلى المعمة بمزاعمه ، التى تضمنت معرفته بتفاصيل الحادث الحقيقى ، ووقع تحت الاستجواب والتعذيب ، وجره الخفراء مربوطا بالحبال، وقد ركب ضابط وإثنان من الشرطة على الخيول وفى أيديهم السياط ، والمتفرجون يجرون هنا وهناك ليفسحوا الطريق أمام الخيول ، والكلاب تنبح ، والثيران تخور ، والحمير تنهق ، وأبوالفتوح يمضى كالنائم مغناطيسيا ولايدرى ماذا جرى فى الدنيا «ياناس أنا برىء» لم أرتكب إثما .. لم أر شيئاً .. كله كذب فى كذب .. أقسم بالطلاق أنى لم أشاهد سوى السيارة والرجلين لابسى الطرابيش .. هذا كل مافى الأمر .. لكن الجمهور لايصدق مقولته ، ولا الحكومة أيضاً .

تفاعلت الحادثة ، واستغلتها الأحزاب السياسية القائمة ضد الحكومة التى تصر على أن هناك جثة ، والمباحث تستجوب أبوالفتوح الذى كان يتصور أن كذبته ستمضى بسلام ، ولكن التعذيب جعله لايستطيع التعرف علي الجهات الأربع الأصلية ، وفقد من شدة الضرب القدرة علي التركيز بل مجرد التفكير ،، مما دفعه إلى الاعتراف بمشاهدة الجثة وهو لم يرها .!

وفى الرواية نجد سجناء سياسيين وآخرين جنائيين ، كما نتعرف على الفروق بين سجن «أ »الذى يخص السياسيين وسجن «ب» الذى يدخله الجنائيون أو السجناء العاديون ، ولكل منهم معاملة خاصة . وهؤلاء وأولاء كانوا مادة خصبة للمحامين للحملة على الحكومة من أجل اطلاق الحريات العامة ، وإنهاء الأوضاع الاستثنائية التى استغلتها بسبب الحرب العالمية الثانية .

ويلاحظ أن كذب أبوالفتوح الشرقاوى الذى أدخله السجن ، كان له عالم مواز آخر من الكذب قدمه الكاتب فى سياق عرض مواقف الأحزاب والسياسيين الذين لايكفون عن الكذب وخداع الناس .

رحلة إلى الله

لعل أهم رواية عرضت للسجن والاعتقال بين روايات نجيب الكيلانى الكثيرة هى رواية «رحلة إلى الله» ، فقد كان شخصية أساسية فيها يحكى عن ظروف الأسر ومايجرى للأسرى من تحقيق وتعذيب ومفارقات تثير الضحك فى عز المحنة والآلام . وللمرء أن يتخيل كل عذابات العالم مركزة فى هذا السجن الذى يقوده الجلاد «عطوة الملوانى» . إنه يصنع «أروع مجازر القرن العشرين» بالضرب ونهش الكلاب الضارية وحرق

السجاير المشتعلة والتجريد من الملابس والتعليق على العروسة ونزع الأظفار ، فضلاً عن الشتائم والألفاظ النابية والصفع على الوجه والقفا والركل بالأقدام ، والرعب هو الحالة التى تسيطر على جميع المعتقلين منذ جرهم حفاة ساعة القبض عليهم من بيوتهم ، حتى دخولهم السجن فى المنطقة المركزية .

يبدو أن أهم ما يلفت النظر فى صورة السجن فى هذه الرواية ، هو حضور المفارقة المضحكة المبكية ، ففى وسط الجو البائس الحزين ، الوحشى الضارى ، تثير شهوة التسلط على السجناء أو المعتقلين بعض الابتسامات المؤلمة إن صح التعبير .

منها مثلاً أن «عطوة الملوانى» الجلاد وقائد السجن ، بعد أن أمر بخمسين كرباجاً لأحد المتعقلين ، يتم تكرارها إذا لم يصبح مهذباً فى كلامه ، أى يتحدث كما يريد المحققون ، إنصرف إلى مكتبه، بينما انطلق صوت الميكروفون يردد أغنية «ياجمال يامثال الوطنية ..» صاح عطوة بأعلى صوته :

«كل السجن يغنى مع أم كلثوم ..» .

وجرى حاملوا السياط هنا وهناك بين جموع المتهمين يلهبون ظهورهم بالسياط ، ويحثونهم على ترديد الأغنية الشهيرة ، وامتزجت الآهات بالدموع وبالغناء ، وبعد دقائق أغلق الميكرفون ، وصاح عطوة مرة ثانية» .

- استمروا فى الغناء ياحيوانات ..»

وانطلق صوت السجناء مرددا الأغنية الوطنية . كان غناؤهم كالعويل أو الندب ، وكانت صورة الرئيس وهو يبتسم ويلوح بيده فى شموخ تطل على الجميع من فوق الحيطان .. وقال عطوة وهو يقهقه :

- «تعلموا الفن يابهايم ..» .

ومن هذه المفارقات أيضاً أن «عطوة الملوانى» كان يربى قطيعاً من الكلاب يحظى بحقوق تفوق حقوق المعتقلين بكثير، فطلب من أحدهم وكان شاعرا أن ينظم قصيدة فى الكلبة «توسكا» وطلب من أسراه أن يهتفوا لها «توسكا توسكا عاشت توسكا» .. ونتيجة الشعر والهتاف أمر عطوة بالسماح لجميع المعتقلين فى الحوش ، وفى دورة المياه لمدة ساعتين ، ولا مانع أن يستحموا ويغسلوا ملابسهم ، ويوزع على كل منهم قطعة صابون .

واختتم عطوة الحفل بفرقة الغناء ، وكانوا من السجناء ، كانوا حليقى الرءوس كالعادة ، يكلل الشحوب هاماتهم، وعيونهم تبتسم إبتسامات ذات معنى عميق . ألاتهم الموسيقية عبارة عن «سلطانية» أو «قروانة» تستخدم للطعام وأكواب زجاجية داخلها حصوات أو ملاعق لإصدار أصوات واستخدمت القروانات بديلاً للطبلة ، بالإضافة إلى الأصوات التى تصدر عن الفم والتصفيق، وأخذ قائد الفريق يغنى للكلبة «توسكا» :

توسكا يا توسكا ياحبة عيني
يا للى سرقت النوم من عيني
خير إن شاء الله
دا بعدك والله
والله دا بعدك
دا بعدك والله
كان علي عيني

كان على عيني !!

وأخذ الحماس عطوة بك ، فنحى توسكا جانبا ، وكانت تجلس بين يديه ، وأخذ يرقص على الأنغام فى متعة وإزداد التصفيق وترديد الغناء .. وفجأة سمعوا عطوة بك يقول :

- أنتم أوباش . .قليلوا الأدب .. كل كلب إلى زنزانته ..

وفى لحظات كانت السياط تلهب الظهور ، بما فيهم الشاعر ، وجوقة الغناء والموسيقى ، وفى لحظات أقفرت الساحة إلا من عطوة بك ورجاله وكلابه ، وأغلقت أبواب الزنانين .

لاشك أن هذه المفارقات قد أعطت صورة كريهة للسجن الحربي فى إهدار آدمية المعتقلين السياسيين الذين وصفهم عطوة الملوانى بالكلاب «كل كلب إلي زنزانته» بل وتفضيله الكلاب الحقيقية على هؤلاء الذين يضمون علماء ومدرسين ومهندسين وأساتذة جامعات ومحامين وغيرهم من أبناء الشعب المظلوم ، كما تكشف هذه الصورة عن منهج فى السياسة ، لايعترف بالتعددية ولا يؤمن بالآخر ، ويرى فى نفسه وحده الحقيقة المطلقة والخير المطلق ، وهو ماكذبته أحداث الواقع ومازالت تكذبه .

لقد صار التعذيب فى السجن الحربى فنا قائما بذاته له خبراؤه وفلاسفته ، وله أصوله المدروسة التى استخدمت فيها التكنولوجيا وعلم النفس!

السجن مصنع التطرف

تتعدد صور السجّان وتتنوع ، ولكن القاسم المشترك بين هذه الصور جميعاً هو القسوة والإنتهازية والوحشية التى لاتعرف معنى الرحمة أو الإنسانية .

وهذه الصفات الكريهة هى التى تحول السجناء أو بعضهم إلى طالبى ثأر ، وراغبى انتقام مالم يردهم دينهم وضميرهم وتسليمهم الأمر لله ، إنهم «مصنع التطرف» كما أطلق عليه «عبدالمتجلى» بطل رواية «اعترافات عبدالمتجلى» بعد أن عذبوه وجردوه من كرامته الإنسانية ، مع إنه كان رجلاً بسيطاً دفعته مثاليته إلى البحث عن الونش المسروق من ميدان التحرير بالقاهرة ، أواخر السبعينيات ، فكان نصيبه الاعتقال والتعذيب «هنا المدرسة التى يمكن أن يتعلم فيها الإنسان التطرف على أصوله إذا كان للتطرف أصول .. أنا شخصيا أعترف أنه تراودنى خيالات رهيبة مجنونة .. يا إلهى !!! ما عرفت ذلك الحقد الذى يعتمل فى نفسى قبل ذلك .. أتمنى لو أن معى مثقاباً كهربائيا «شنيور» لأغرزه فى عيونهم وآذانهم وأمخاخهم ، ثم أجلس لأراهم يتعذبون .. بل ليتنى أستطيع أيضاً أن أجدع أنوفهم، وأصلم آذانهم ، وأقتطع شفاههم بالمقاريض ، وأقص ألسنتهم وأرمى بها للكلاب الضالة .. مستحيل أن يحدث ذلك: لقد وضعوا عصاة فى دبرى .. لماذا لاتنقض صاعقة من السماء تحرقرهم أو تداهمهم طير من أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ؟ أنا لا أعترف بالضبط حتى الآن لماذا يفعلون ذلك .. ولمصلحة من ؟؟ والكارثة أنهم يضحكون ولا يخالجهم أدنى ندم أو أسف ...» .

عباد المأمور

بالتأكيد هم يعلمون لماذا يفعلون

ولمصلحة من ؟ وهم يضحكون دون أسف أو ندم ، فالأسباب غالباً تعود إلى شخصياتهم أو إلى الأوامر التي يتلقونها ، وحين يحاسبون يقولون : «نحن عبدالمأمور» ..

فشخصية «الشلقامي» الباشسجان في «ليل وقضبان» يقول :

أنا عبدالمأمور ، فهو يعذب ويقتل بالأمر ويدبر مصرع «فارس» بمعرفة سعادة «عبدالهادي بك» مدير السجن ، وكلاهما كان يتفنن في إيذاء السجناء انطلاقاً من دوافع التعالي والكبرياء والرغبة في إثبات الوجود المفقود ، ضد هؤلاء الذين لايملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً لقد فقد مدير السجن وجوده في بيته وأزرت به زوجته التي خانته لعجزه ، وعدم حبها إياه ، فصب جام وحشيته على المساجين عن طريق زراعه اليمني «الشلقامي» الذي يبدو شيطاناً مريداً تجمعت فيه كل خصال الشر والأذى ، لدرجة أنه لم يتورع عن الاعتداء على سجين عجوز ، ولم يفكر يوماً في أخذ إجازة ولو ليوم واحد ، ويعد السجن عالمه الأوحد الذي يثبت فيه وجوده المفقود خارج السجن . إنه جبان ولكنه مجرم بالفطرة .

والأمر نفسه بالنسبة «لبرتلمي» السفاح الفرنسي ، الذي كان يتلذذ بقطع رءوس السجناء وإلقائها في النيل ليخيف المصريين وخاصة رجال المقاومة للحملة الاستعمارية الفرنسية لقد كان ضعيفا وجباناً أمام حبيبته وأمام آخرين ، ولكن تربيته الاستعمارية العنصرية جعلته يغلو في تعذيب السجناء وقتلهم .

أما «عطوة الملواني» وهو الاسم الروائي لشخصية حقيقية - فقد كان مثالاً للوحشية والضعف في آن واحد ، كان مستبداً ومستكبراً ، لايقبل أن يرفض له طلب ، وتعلم من الحياة العسكرية أن يصدر الأمر فينفذ على الفور ، والأمر عنده لايحتاج إلى تكرار ، خطب الفتاة «نبيلة» واعتقد أنه ربح معركة كبرى كما يربح في لعب الورق الذي منه ولكن «نبيلة» تذل كبرياءه ، وتظهر ضعفه وتكشف جبنه ، حين تتأبى عليه بسبب الفارق الفكري والسلوكي بينهما .

لقد كان «فرعونا» بلا قلب داخل السجن الحربي ، وكان يكره أن يسمع كلمة الشرع أو الشريعة أو السنة ، مع أنه مسلم وأبوه عالم من علماء الدين .

كان يرى أن كلمات الشرع والشريعة والسنة لها مدلول واحد عنده فقط هو : العصيان والثورة المضادة و«زمن الدولة فوق كل اعتبار» كما يقول .

وكان يرى أن العالم فيه كثير من الأغبياء ، لأنهم يعيشون بين صفحات الكتب أكثر مما يعيشون في الواقع . إنهم أغنام في منظوره يسوقهم بالسياط في السجن الحربي ، ويمزق في أجسادهم سبب نكبتهم الكبرى ، وهي القراءة !!

لقد كان على حق - كما يزعم - حين منع عنهم ، الكتب نهائيا ، ولكنه لم يستطع أن يفعل ذلك مع خطيبته «نبيلة» التي تدمن القراءة .

لقد استعصت على «عطوة الملواني» الذي يركع تحت أقدامه أساتذة الجامعات ، وكبار الأثرياء ، وقدامى الباشوات والبكوات والوزراء في السجن

الحربى ، ويضرعون إليه طالبين العفو ، زارفين دموع الندم ! هل يعرفون من يكون بالنسبة للسلطات العليا خاصة ، وبالنسبة لأمن البلاد عامة ؟؟

«عطوة» لديه نزعة للقتل والسحق والتدمير ، لا يأبه بشىء ، حين يضغط سائق سيارته على الفرامل بسبب فتاة تعبر الطريق ينهره ويسبه ويأمره أن يدوسها بدلاً من التوقف ، ويهوى بيده على قفاه ، ولكنه يظل عاجزاً أمام «نبيلة» الفتاة التى لاتملك شيئا من قوته وسلطانه ، ولكنها تملك شيئا آخر يشعره بالعجز والغيظ فقط ، ومع أنه يستطيع أن يلصق بها تهما عديدة تضعها فى السجن ، مثل القيام بنشاط معاد لأمن الدولة ، أو الاتصال بجهات أجنبية ، أو العمالة للصهيونية ، ولكنه لايستطيع ، فقد كشفت نبيلة أعماقه الخربة وتاريخه المشين الملىء بالغش وقد كان تلميذاً بليداً يحاول الغش فى الإمتحان ففصلوه عاماً دراسياً .

لقد تحدته «نبيلة» وبصقت فى وجهه عندما يئست من إصلاحه وإقناعه بالاستقامة ، وقد حاول أن ينتقم منها بإدخالها السجن ومطاردتها واغتيالها ، ولكنها كانت المرأة التى هزمت عطوة الملوانى ، الجلاد الذى لايقهر ، قبل أن تقهره الأحداث السياسية والعسكرية فى البلاد .

إن «عطوة الملوانى» صورة حية لشخصية الجلاد ، الذى تهرأت نفسيته من الداخل ، وماتت روحه ، فارتكب كل الموبقات والشرور ، وخص بمعظمها هؤلاء المعتقلين الأسرى ، فكانت هزيمته أمام «نبيلة» ساحقة وفادحة !

وإذا كان «عطوة» يمثل السجّان المخابراتى ، فإن «جادالله» يمثل السجّان المباحثى ، الذى يعيش حياة التمزق الداخلى والروحى ، ونال اللقب الأعظم «وحش السجون الحربية» الذى أدب المارقين ، وسفك دماء أعداء الحكومة من الشيوعيين والإخوان والوفديين والباشوات وغيرهم .

كان في مقتبل حياته لصا منحرفاً ، يشك دائماً فى قيم الحياة النبيلة كالخير والشرف والحب .

ضبطوه يوماً يقبل طفلة (حفيدة الباشا) فتسابق خدم القصر وناظر العزبة كى يذبحوه ، لولا أن سيدة القصر رأت أن يكوى بالنار فى وسط رأسه ، ثم يجلد (١٠) منذ ذلك اليوم ترسبت فى أعماقه مئات المشاعر السجينة التى أهلته ليحمل الكرباج ويحظى بلقب «وحش السجون الحربية» .

لقد أذل المعتقلين وعمل بتهريب المخدرات وأعتقل للتزييف وتزوير العملة ، وتحولت حياته الاجتماعية ، حتى ألقى القبض عليه ودخل إلى السجن وأصبح سجينا يعوى كذئب جريح داهمه داء الكلب ، وانتهى به المطاف إلى إلقاء نفسه من فوق سياج السجن لتنتهى حياة وحش السجون نهاية مأساوية فاجعة !

لقد نجح «نجيب الكيلانى» فى استبطان حياة الجلادين من خلال تتبع تاريخهم الإنسانى ، وأعماقهم الداخلية وسجل صورتهم الأمامية والخلفية فى إطار من البناء الفنى المتوازن ، فكانت شخصياتهم حية موارة بالقسوة والأسى فى آن واحد ! . ■

عن السجن والحرية

بقلم
صافى ناز كاظم

أشد نفسى شدا لأقوم أدون هذا الإرهاق الذهنى الذى نشأ من دوران ودوار ذكريات سمجة خطوت عليها وأغلقت ملفها حتى أنساها، وهى لاتنسى، لأرتاح فى المستقر، وإن كان دون الراحة ودون العدل.

لاتأتى محنة السجن، الاعتقال بسبب مايسمونه «جرائم» الرأى، من غير مقدمات. أولاً : لايقع فى الاعتقال بسبب الرأى إلا الإنسان «الحر»، والإنسان «الحر» هو غالباً، الإنسان «المثالى»، الذى يتصور أن ممارسته لحقه فى التعبير، وحقه فى التمسك بحقه، واجب مقدس وأمانة وطنية، ومصداقية أخلاقية. ثانياً : ليس كل «سجن»، سجنا، ففى أحوال كثيرة يكون ابتعادا عن سجن أشد مرارة وأكثر ظلماً: «قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه»، سجلها القرآن الكريم مقولة باترة فى الموقف الحاسم أمام غواية الطغاة. هذا لا يعنى أن السجن محبوب، لكنه يعنى أنه، على بشاعته، هناك ماهو أبشع منه ، ألا وهو، الخضوع للقهر والاستكانة للظلم، وتقبل الإذلال والانتهاك.

واجهني، فارس الرومانسية، يوسف السباعي ٨/١٩٧١ بمقولته الزاعقة: «مناخيرك ح أجيبها الأرض، واسم صافي ناز كاظم ده مش عاوزين نشوفه منشور أبداً»، ولا يسألني أحد لماذا قال ذلك، لأنني حتى الآن لا أعرف على وجه اليقين، وإن كانت هناك تخمينات منها أنني لم أشد بعبقريته المسرحية، ومنها أنه كان يتملق الرئيس الراحل أنور السادات ويسارع بإثبات ولائه بضرب كل من يتخيله من المعارضين المحتملين لعهده الجديد، خاصة أنه لوح لي في واحدة من مجادلاتي معه، بأنه يأخذ عليّ مساندتي لقضية الفلاحين في قرية كمشيش وغيرها، وسؤالي للرئيس السادات، في مؤتمر صحفي عقده في قصر عابدين مارس ١٩٧١، عن المحاولات التي كانت قد بدأت لنزع الأراضي من المعدمين، والتي كانت قد وزعت عليهم من قبل في مهرجانات صاخبة صفق لها الجميع وكان على رأسهم السادات والسباعي، ولكن ذلك التأييد السابق الذي قدمه السباعي لقضايا الفلاحين والفقراء والمساكين، (أنظر رد قلبي وأرض النفاق والسقا مات)، لم يمنعه من التشويح بوجهي وهو يؤنبني: «تقولي للريس الفلاحين؟ إنت مالك إنت ومال الفلاحين»!، ثم محاولته تلفيق علاقة سياسية بيني وبين السيد ضياء الدين داوود، الذي لم ألتق به في حياتي وكنت ومازلت من أشد خصومه، يهز رأسه: «وتكتبي بالضبط

زى كلام ضياء الدين داوود»، وأضحك: «أنا؟ عاوز تلبسنى صاحبك الذى كنت تتغدى وتتعشى معه وتصاحبه رائحاً وغاديا مع ابتسامة عريضة؟» فيعود بتلفيق جديد : «أنا أرفض تكوين خلايا فى دار الهلال ... إنت فى المصور وفيليب جلاب فى الأخبار هاجمتما عبد الحليم حافظ وشادية فى أسبوع واحد ... ده يبقى إيه؟»، سألته : «يبقى إيه؟»، قال صائحاً : «يبقى تنظيم شيوعي بينسق مع أعضائه!» أسقط فى يدى: «أنا ياأستاذ يوسف أهز طولى وأخش تنظيم وأعمل خلايا لمهاجمة شادية وعبد الحليم؟». كان الجدل عبثيا مؤلماً مضحكاً أهبل مع يوسف السباعى منذ حل بدار الهلال رئيساً لمجلس الإدارة ورئيساً لتحرير مجلة المصور فى ١٩٧١/٨، وكان واضحاً أن الذئب قد قرر أكل الحمل من دون سبب وانتهى الأمر.

تم نقل مكتبى من موقعه العزيز لأشارك الزميلة مارى غضبان فى مكتب أصغر. رحبت بى مارى غضبان وتعاطفت معى فى معركة الصمود بوجه طغيان فارس الرومانسية، يوسف السباعى ، إلى أن جاءتنى تسأل ببراءة: «صافى ... هى بنت كلب شتيمة؟»، قلت باسمة: «على حسب موقعها من الجملة». قالت «أصل يوسف السباعى قال لى إنت ليه واقفة تدافعى عن بنت الكلب دى؟». قلت : «هنا يامارى موقعها يدل على أنها شتيمة».. واحترت بين الضحك والتألم من الإسفاف. قرر فارس الرومانسية أن يجد غطاء قانونيا لمنعى من النشر حتى يتماشى مع شعار السادات «لانكسر قلما ولا .. الخ». رفع السماعة وخاطب إبراهيم عبد الحليم الماركسى الشيوعى ورئيس تحرير مجلة «دراسات اشتراكية»

جمال عبد الناصر

قائلاً : «ياأستاذ إبراهيم أنا ح أنقل الست دى عندك.» قال إبراهيم عبدالحليم: «على شرط ألا تكتب عندى فى المجلة». قال فارس الرومانسية : «إنت حر». تضاءل مكتبى ليصبح فى مدخل غرفة مكتب إبراهيم عبد الحليم، قلت له : «السباعى عاوز يضربنا ببعض، رغم اختلافنا أنا مستعدة أتعاون فى العمل ولو بالترجمة». قال بوجه صارم : «لأ .. أنا كان شرطى ألا تطالبينى بالعمل». لم أفهم، أو فهمت بسرعة : «يعنى حضرتك تآمرت معه لكى يكون حرمانى من الكتابة والنشر بالمصور قانونياً؟» قال : «وطى صوتك»! خرجت وبدأت مجلتى، علقتها على الحائط خلف مقعدى، ووضعتها تحت زجاج مكتبى وكان منها كلمة للإمام الغزالى : «لقد خلقك الله إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة». جاءنى إبراهيم عبد الحليم وطلب منى رفع الأوراق من على الحائط ومن تحت البلورة. هذا الرجل كان قد سجن سنوات بسبب فكر يعتقده، صواباً أو خطأ، يقف أمامى رقيباً وسجانا. قلت له : «لايصح كلامك هذا ..

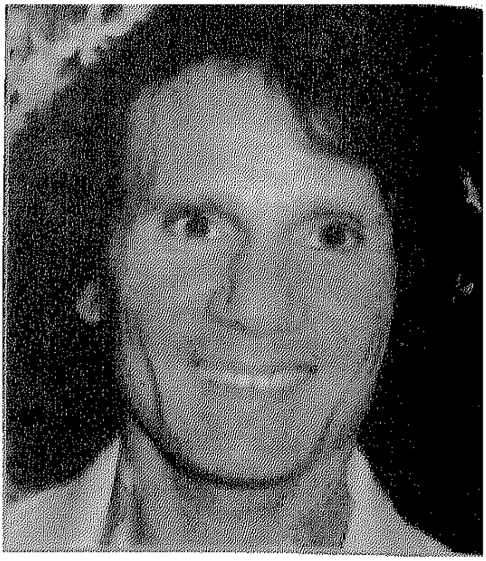

عبد الحليم حافظ

أنت تعلم أننى مظلومة ومعتدى علىّ...»، تجهم وبدأت كلماته تشتد غلاظتها، استبدت بى العصبية من تراكم الإهانات وتضييق دائرة الحصار فأطحت بما كان أمامى ليتناثر على وجهه مع كلمات تنديد محقرة لدوره فى مساندة بغى يوسف السباعى.

فى تلك اللحظة صدر الأمر بتخزين مكتبى ومنعى من دخول دار الهلال . كان ذلك التمهيد لشيئين أختار بينهما: أن أذهب لفارس الرومانسية وأستجديه العفو والسماح وأستغفر عن ذنوب لا أعلمها، حتى إذا تم الانسحاق الكامل أعود، كما قال أحدهم، «وأنا اسمى المسحوق رابسو»، وأنفى مرغم، يشمشم الأرض والتراب والوحل ممنونة لفارس الرومانسية لأنه عفا عنى وقبل منى المذلة، أما الشىء الآخر فهو أن أقف ، وحيدة، بضعفى، أدافع عن حقى فى ألا أقبل الظلم. لم يكن اختيارى «الدفاع عن حقى» يعطينى إحساساً بالبطولة، كنت أراه بدهيا ولا بديل له. يأتينى مجيد طوبيا يستدرجنى بالهجوم على تصرفات يوسف السباعى، فأنطلق، متصورة أننى اتحدث مع كاتب مؤيد للحق، ولا تمر أيام حتى أجد قصة له منشورة مفرودة على صفحات المصور، جائزة له من السباعى لشطارته فى تسديد الطعنات الخفية، يعين ويصعد السباعى من يتوسم فيهم الصلاحية المطلوبة لترويج أكاذيبه وتلفيقاته من شهود الزور، وقد دخل، بعد التمهيد، إلى المقدمات التى تؤلف التهم الكافية لتضع خصومه فى القوائم المرشحة للاعتقال حين تأتى ضرورته، و«يجيب مناخيرهم الأرض» على حد تعبيره، وهو يهدد ويتوعد.

ترانى والدتى مجروحة بآلام المنع من النشر والكتابة، فتقترح رحلة لأداء فريضة الحج، وأذهب بتأشيرة: «فى صحبة والدتها المسنة»، أطوف حول البيت الحرام منتحبة بالدعاء: «يارب على الحاكم الظالم، يارب على الجائر المفتون...»، بهرنى منسك رمى الجمرات، إنه العهد أمام الله سبحانه وتعالى أن نرجم الشياطين أينما ظهرت وكيفما بدت وتبدت وتلونت وتشكلت . أعود من الحج فبراير ١٩٧٢ مغسولة الفؤاد قريرة العين، صاحية لواجباتى، مصححة لظهرى ليتطابق مع باطنى. مسلمة ملتزمة. يطلبنى الشاعر للزواج، فأتزوجه تصديقاً لتقييمى النقدى له : «شاعر النبض الشعبى»، الذى يكتب الشعر الجميل وأجره الدائم الاعتقال والتشريد. فى نهاية عام ١٩٧٢، يتم القبض عليه وعلى مجموعة من الشعراء والكتاب والمحامين والطلبة، تصخب الجامعات بالمظاهرات والاحتجاجات ضد الإجراءات التى تتناقض مع شعارات مرفوعة عن الحرية والديمقراطية بديلاً عن طغيان مراكز القوى والقهر الناصرى. نقابة

الصحفيين تشهد مزايدات وألاعيب تضيع فيها أصوات معادية لمراكز القوى ومعادية في الوقت نفسه للأكاذيب تحت شعار الديمقراطية. لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، وجدت نفسي مع اعتصام طلبة جامعة عين شمس ٣ يناير ١٩٧٣، أقول: «جئت أؤيدكم بنفسي في اعتصامكم المعبر عن احتجاجكم السلمي على إجراءات الاعتقالات المنافية لحقوق الشعب في التعبير التي يكفلها له الدستور...»، لم أكن أعرف أحداً منهم، طلبة وطالبات من كليات الطب والآداب والحقوق والتجارة وغيرها ... شباب يتراوح عمره بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين. نظرت إليهم نماذج طيبة من جيل مصر الصاعد الواعد، لم أسأل عن معتقداتهم أو انتماءاتهم التنظيمية وغير التنظيمية، لم أعرف ولم أكن أريد أن أعرف. وضعت نفسي راصدة للتاريخ، وصحفية متابعة لما تمور به البلاد. مؤيدة على هامش الاعتصام، الذي لم أشارك في التخطيط له وليس لي يد به سوى مساندة الحق في الاحتجاج على ضرب الحريات. عن هذه الواقعة ينقل الأستاذ عادل أمين المحامي، في كتابه «انتفاضة الطلبة المصريين، ١٩٧٢ - ١٩٧٣»، التحقيق معي، بعد اقتحام الأمن المركزي للاعتصام صباح ١٩٧٣ /١/١١، صفحات ٥٩٢ إلى ٥٩٦، ويأتي نص بيان، أصدرته وهربته من خلال أسوار جامعة عين شمس ١٩٧٣ /١/٧، أقول: «في اليوم الخامس لاعتصامي، تضامنا مع الاعتصام الطلابي لجامعة عين شمس، الذي مضى عليه الآن سبعة أيام، والذي يشكل باستمراريته وصموده الإرادة الرائعة والإصرار الجميل على المطلب الشعبي في تحقيق الديمقراطية

يوسف السباعي

وترسيخ مبدأ الممارسة الصادقة الفعلية لحرية الفكر والتعبير عن الرأي، أعلن تضامني مرة أخرى مع الحركة الطلابية النزيهة، أولا: بإدانة التشويه المتعمد لهذه الحركة الطلابية واحتجاجي، الخارج من صميم الوجدان الشعبي. هذا التشويه الذي تشارك فيه بالدرجة الأولى الصحف المصرية كجزء من حملة إعلامية المقصود بها ضرب الحركة الطلابية لغير مصلحة الشعب. ثانياً : أعلن إضرابي عن الطعام من يوم الإثنين الموافق ١٩٧٣/١/٨ تضامنا وتدعيما لقرار الإضراب عن الطعام الذي اتخذته المجموعة التي تمثل قوة الاعتصام الطلابي بجامعة عين شمس بقصر الزعفران، حتى يتم الإفراج عن جميع المعتقلين الوطنيين، الذين بدأت سلسلة اعتقالاتهم يوم الجمعة ١٩٧٢/١٢/٢٩، ولاتزال جارية ومستمرة حتى الآن». وقع هذا البيان في يد ضباط مباحث أمن الدولة الذين كانوا يطوقون، مع الأمن المركزي أسوار الجامعة ويحاصروننا ونحن معتصمون بقصر الزعفران. عند اقتحام الاعتصام ألقى

ابراهيم عبد الحليم

القبض على جميع الطلبة والطالبات، وألقى القبض علىّ بأسلوب أبدو فيه وكأننى كنت «الزعيمة» لحركة «التمرد» الطلابى. أخذونى إلى السيد فهمى، رئيس المباحث، فى مبنى لاظوغلى، وإذا بى أكتشف، لدهشتى، إلصاق تهمة «الشيوعية» بى أشار السيد فهمى إلى طرحتى التى كنت أغطى بها شعرى: «لابساها ليه بيضاء، إلبسيها حمراء!» قلت: «ألبسها اللون الذى يعجبنى.» قال مستهزئاً: «عاملة بتدافعى عن الكادحين؟ مش إحنا اللى اسمنا صافى ناز، ومش إحنا اللى اسمنا كاظم»، قلت له : «بس إنتم اللى اسمكم جيهان صفوت رءوف!» – إشارة إلى زوجة أنور السادات – وتم إرسالى إلى سجن القناطر للنساء بتوصية خاصة بحبس انفرادى و«تكدير» مستمر فى المعاملة ومع ٥٦ متهماً، من بين تهمهم «...إلقاء كلمات وأشعار فى اجتماعات عامة وترديد هتافات تضمنت .... التحريض علانية على قلب نظام الحكم وعلى كراهته والازدراء به بأن وصفوه بمصادرة الحريات والعجز عن تحرير الأرض وقبول الحلول الاستسلامية ....»، تمت إحالتنا جميعاً إلى «محكمة أمن الدولة العليا فى الجناية رقم ١ سنة ٧٣ أمن دولة الوايلى، كلى، ١٣١، سنة ٧٣ عليا».

مع هذا الاعتقال الأول تم تصنيفى أمنيا: «شيوعية»، وألصقت بى الصفة بتأكيد وتزكية من الأستاذ يوسف السباعى، الذى كان قد تعمد نقلى إلى جوار السيد إبراهيم عبد الحليم الماركسى، وكلاهما يعلم حق العلم براءتى التامة من هذا الانتماء . استمر اعتقالى ثمانية أشهر، وأنا أرى أننى لم أرتكب مايستوجب اعتقالى، فالاحتجاج السلمى من الحقوق الدستورية القانونية، وأنا لم أخرق القانون بأى شكل من الأشكال.

بعد الإفراج عنى وبقية المتهمين، كان من الطبيعى حفظ القضية الملفقة، لكن من سبق اعتقاله يظل مهدداً بالاعتقال إلى ماشاء الله فى ظل العهد الذى اعتقله أول مرة. وهكذا تم اعتقالى مرة أخرى ٢ يناير ١٩٧٥ وثالثة فى ١٩٨١/٩/٢، وتهمتى فى المرتين كانت، تكوين تنظيم ماركسى، الأولى تحت اسم «اليسار الجديد»، اتهمت بأننى المؤسسة له ومعى صلاح عيسى وشاهندة مقلد! ونسيت اسم التنظيم الآخر الذى اتهمت بتأسيسه فى هجمة ١٩٨١/٩/٢. كانت التهم أسخف من أن أفندها، فالماركسيون واليساريون الذين يتم اعتقالى معهم يعرفون قبل الجميع أننى لست منهم ، وكأن المقصود هو أن أسجن سجناً مضاعفاً، داخل قضبان الزنزانة وداخل مجموعة أنكرها وتنكرنى.

***

فى مايو ١٩٨٦ صدر لى كتاب «عن السجن والحرية» ، وبه فصل يحمل عنوان

الكتاب ومؤرخ ١٩٨٢/١٢/١ أقول فى بعض مقاطعه: «السجن عندى لم يعد عنبر المتسولين المليء بالجرب والقمل والمميت صيفا وشتاء، ولم يعد زنزانة التأديب المهينة لحبس كلب، ولا زنزانة الحبس الانفرادى: التى هى فى الأصل زنزانة لحجز المرضى بالجرب من الجنائيات. السجن عندى هو كل أشكال القهر والتعدى على حقوق المواطن التى كفلها له الدستور - أى دستور إن شا الله كان دستور صدقى باشا - سيظل بالدستور حد أدنى لحماية كرامة المواطن ولو بما يحفظ ماء وجه حكام الجور أمام الملأ العالمى . السجن عندى أن أكون مهددة فى كل لحظة بمن ينتهك بيتى ويدخله رغماً عن أنفى ويعبث بأوراقى وكتبى وخصوصياتى وحرماتى ومن دون تصاريح أو أمر قبض أو أمر تفتيش أو حتى بطاقة هوية تؤكد أن هؤلاء الساقطين على رأسى هم فعلاً من مباحث أمن الدولة . السجن عندى هو الأحكام العرفية وقانون الطوارىء والقوانين الاستثنائية التى تبيح لوزير الداخلية اعتقال وسجن المواطن من دون إبداء الأسباب. عندما تم مد العمل بقانون الطوارىء أعددت شنطة لوازم السجن ووضعتها تحت مكتبى، ففى ظل قانون الطوارىء يكاد البرىء يقول خذونى . لقد سجنت ٣ مرات بلا ذنب - بمعنى أننى لم أتجاوز حقوقى الدستورية - وبتهم باطلة وتحت أسماء قضايا وهمية: فما الذى يمنع أن أسجن بعد ذلك ألف مرة ظلماً؟ ليس هناك ضمان يمنع اعتداء السلطة على حقوقى الدستورية، إن السلطة لاتتعامل معنا كمواطنين ولكن كرهائن أو أسرى تحت يدها وهى حرة تفعل بنا ماتشاء .... إننى أقرأ القرآن كل ليلة قبل أن أنام وأنا أحكم إغلاق باب شقتى وأدعو الله أن يملأ بيتى حرساً من عنده يدافعون عنى ضد شرطة الجور والظلم والافتراء ..... وعندما يتم اعتقالى يسكن قلبى سلام وأشعر أن السجن مكان يحفظنى فيه ربى من شياطين الإنس والجن ومن الفتنة، وأعرف أن الله يريد أن يقيم الحجة على حاكم الجور حتى يأخذه بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر. كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول على من ظلمها بالخوض في حديث الإفك : هلك فىّ فلان وهلكت فىّ فلانة، كذلك دائماً يكون الأمر عندما يريد الله أن يهلك حاكماً أو غيره، يوقعه فى فتنة الظلم، فيبغى ويفترى الكذب على الأبرياء ويفتك بهم حتى يحق عليه القول فيدمره الله تدميرا، أما المظلوم فتشرق عليه الشمس دائماً، حتى فى الليل والسجن والقبر .... عندما اعتقلونى فى ١٩٨١/٩/٢ لم أندهش ولم أحزن وقلت لابد أن الله يريد لى الخير ..... وحولت سجنى واعتقالى إلى عبادة خالصة: ختمت فيها قراءة المصحف الشريف سبع مرات، وصمت أغلب الأيام، وصليت ليلاً ونهاراً ماشاء الله لى من الصلاة كما أحب، وكرست دعاء السجود، ودعاء لحظة الإفطار بعد الصيام ، ودعاء الليل ضد حكام الجور والظلم فى مصر والوطن الإسلامى والكرة الأرضية. وتحول سجنى إلى فرار إلى الله وهجعة فى كنفه وخلوة للعبادة. وعندما ضاقت الزميلات العلمانيات بالضوء الذى أشعله ليلاً - لقراءة القرآن - فى عنبر المتسولين، الذى ضمنى معهن شهرا، جاءتنى عقوبة من ضابط المباحث، بسبب وشاية إليه من نوال السعداوى،

صدام حسين

لتحويلى إلى زنزانة انفرادية. كانت عقوبة مريحة، فاصطنعت الغضب وأخفيت فرحتى فى قلبى حتى لايتراجع عن القرار الذى قصد به تعذيبى فإذا به نعمة تنزل علىّ من عند الله. وكما قال الله سبحانه وتعالى : (يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)، كانت عقوبة الحبس الانفرادى برداً وسلاماً على صافى ناز، فقد التقت مع رغبتى فى أن أكون بغرفة وحدى لا أطفىء فيها النور ليلاً أبداً. وكنت أردد : أليس الله بكاف عبده؟ بلى والله العظيم، فكما توقعت انتهى سجنى بالخير لى ولمصر كلها، ولو لفترة شفى الله بها صدور المؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم ....

....

لقد مللت حديث الإفك الذى أشاعوه عنى بأننى شيوعية. هذا افتراء ألفه ولحنه وغناه كل من أراد إيذائى، وإننى لا أسامح من يخوض فيه وأدعو عليه وأسأل الله أن يقتص لى منهم جميعاً قصاصه العادل . ولقد قلت للمحققين فى المرات الثلاث التى تم فيها اعتقالى بسبب هذه الكذبة السوداء: إنكم تروجون للشيوعية وتحترمونها وتدعون إليها حين تلصقون تهمة الشيوعية بكل إنسان ترونه فاضلاً يغضب للحق والخير والجمال ويتحدث عن الثورة والإنسان وحق المستضعفين وهلاك المستكبرين والمفسدين فى الأرض . إننى لم أكن ماركسية أو شيوعية فى يوم من الأيام ، وأعتبر الفكر الماركسى فكراً رجعياً لأنه يرجع بنا إلى ماقبل الإسلام، وأعتبر الشيوعيين متجمدين وضد التطور وسلفيين، لأنهم يتبعون أسلافهم الذين كذبوا الرسل وكفروا بآيات الله. نعم لقد كنت قومية متحمسة للقومية العربية والاشتراكية العربية كصيغة خلاص لجماهيرنا، ذلك وأنا متصورة أن الأساس فى كل هذا الفكر هو الإسلام ومنطلقات الإسلام، ولكنى تبت إلى الله بعد أن أثبتت لى تجربة عبد الناصر وصدام حسين وأمثالهما أن حركة القومية العربية تهادن الإسلام لمصلحتها لكنها كلما واتتها الفرصة، لاتضرب إلا الإسلام ولا تذبح إلا المسلمين . ولقد خرجت من هذا الفكر كما خرج يونس من بطن الحوت وهو مليم لأنه كان من المسبحين .... إننى بصراحتى وشجاعتى وثورتى على الظلم والجور والباطل لايمكن أن أكون إلا : مسلمة........»

وهذه هى «حريتى» الحقة. ■

دكتور يونان لبيب رزق والطريق إلى الجائزة

بقلم
د. لطيفة محمد سالم

لم يكن من المستغرب أن تأتى نتيجة إعلان جائزة مبارك يوم الاثنين ٢١ يونية ٢٠٠٤ بفوز المؤرخ الكبير الأستاذ يونان لبيب رزق بها فى العلوم الاجتماعية، وبالرغم من التخصصات المتعددة لهذه العلوم، فإن الجائزة واحدة فقط، ومن هنا يكون الحاصل عليها يستحقها، وخاصة أنها هذا العام حسمت مع الجولة الأولى التى حصد فيها الدكتور يونان أصوات الأغلبية الساحقة للمثقفين ، وهو أمر يشهد له من ناحية، ويسجل نزاهة الذين اختاروا من ناحية أخرى.

والسؤال الذى يطرح نفسه: لماذا التوحد فى الرأى، والاجماع على اختيار تلك الشخصية؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه عبر الصفحات القادمة.

لما كان من المسلم به أن الباحث فى التاريخ ينظر إلى الخلف، ليتنقل بين الأحداث، ويضع يده على الأسباب، ويسبر غور المكونات، ويغوص مع المؤثرات، مستخدما أدواته فى التحليل والنقد، ليصل بنا إلى النتائج ، فإنه يصبح لزاما علينا أن نهتدى بهذا المنهج عندما نتعرض للكتابة عن الدكتور يونان، وعندئذ لابد من العودة إلى الوراء، حيث البداية.

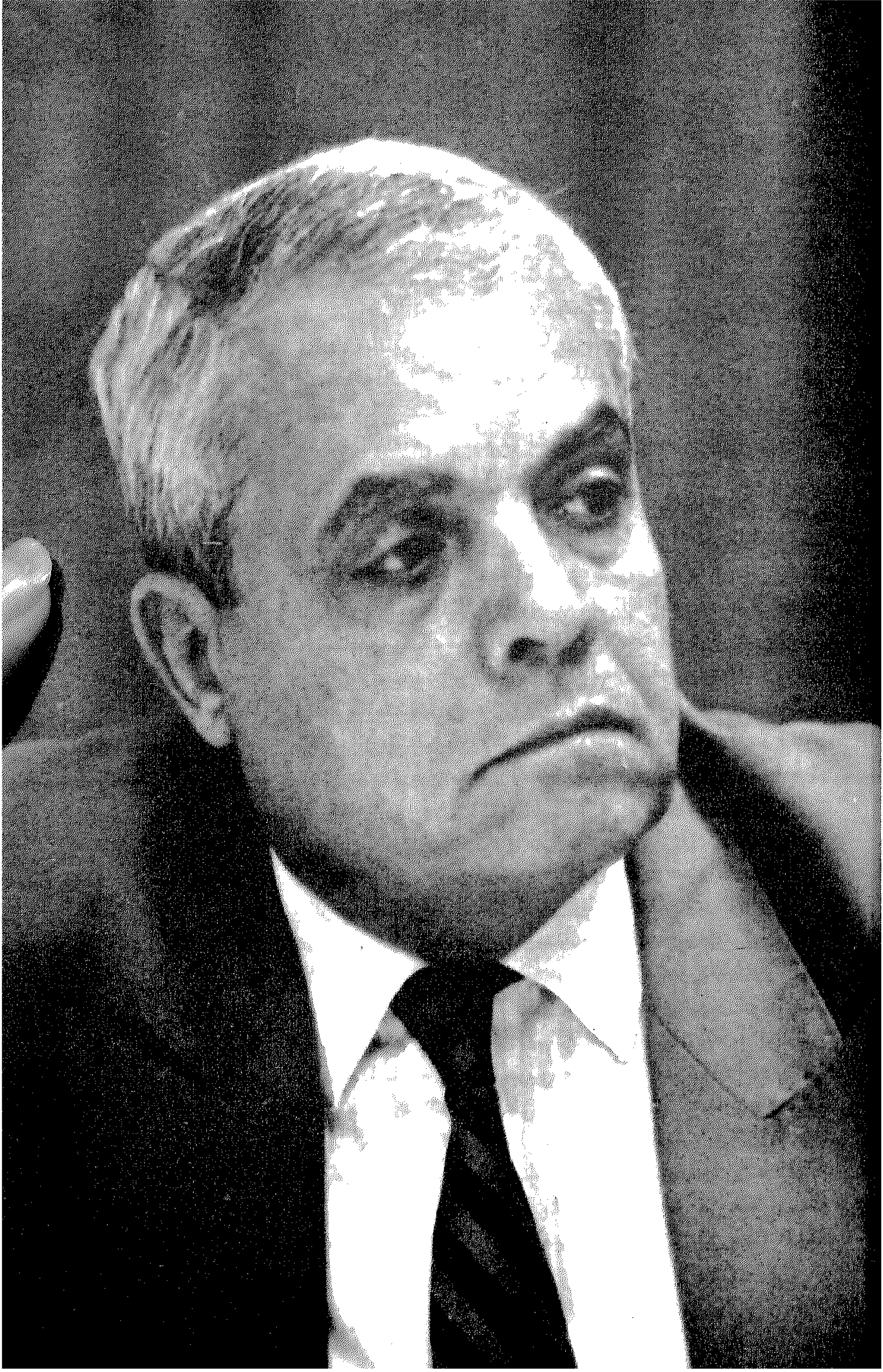

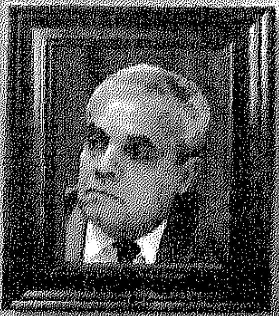

مع بزوغ شمس يوم الجمعة ٢٧ أكتوبر ١٩٣٣ ولد الطفل يونان فى مناخ أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى المثقفة، ولم ينشأ طفلا مدللا، إذ تركه أبوه ورحل عن الدنيا فى مرحلة مبكرة من عمره، وكان هذا الابن هو الذكر الوحيد بين أختيه، ولقى الحنان من أمه مع الشدة والحزم، مما عمق فى نفسه مدى أهمية المسئولية. وتدرج فى تعليمه الابتدائى والثانوى بمدارس حى شبرا بالقاهرة. ولما كانت مكتبة الأسرة تضم رفوفها كتبا مختلفة النوعية، ودوريات لها وزنها، فقد اطلع على ما شد انتباهه، وذلك لشغفه منذ صغره بالمعرفة، وبالتالى وجد فى هذه المكتبة ما يثريه ذهنيا، فقضى الأوقات معها، ومن ثم ترسخ حب القراءة داخله، مما أسهم فى تشكيل شخصيته الثقافية.

وجاءت رغبته فى الالتحاق بالجامعة، وتصميم أمه على ذلك، ليمثل نقلة فى حياته .، فاختار كلية الآداب جامعة عين شمس، رغم تفوقه إبان المرحلة الثانوية فى التخصص العلمى، ولكنه وجد مشاعره توجهه إلى هذه الكلية . ومعروف عنها أن من يتفوق فيها هو صاحب المثابرة والمواصلة على القراءة وتحصيل الثقافة من منابعها. كذلك فضل قسم التاريخ، حيث التحرك عبر الزمان والمكان، واستدعاء الماضى. وربطه ليس فقط بالحاضر، ولكن أيضا بالمستقبل، بمعنى الرؤية الشاملة للتفاعل بين البشر والأحداث ونتائجها. ومضت سنوات الدراسة ، وتخرج عام ١٩٥٥، وعمل مدرسا فى التعليم الثانوى بمدينة الإسماعيلية ثم نقل للقاهرة.

○ فضل قسم التاريخ حيث التحرك عبر الزمان والمكان، واستدعاء الماضى. وربطه ليس فقط بالحاضر، ولكن بالمستقبل أيضا

التطلع

تشاء الظروف أن يؤسس الدكتور عزت عبدالكريم سمنار التاريخ الحديث بآداب عين شمس ويكون الباحث يونان أحد أبناء هذا السمنار، بل وأحد أبناء أستاذه فعرف على يديه كيف يكون الأستاذ صاحب المدرسة مع تلاميذه فيما يختص بالأخلاق والعلم والعطاء، وعليه أصبح يمثل له المثل الأعلى، ومن ثم اقتاد بمسيرته فيما بعد، وتمكن الأستاذ من أن يجند أبناءه الباحثين فى دراسة تاريخ الوطن العربى، وذلك أثناء فترة المد القومى فى الستينيات ووقع اختياره على تلميذه يونان ليتخصص فى تاريخ السودان الحديث لأهمية هذا البلد بالنسبة لمصر، وبالفعل حصل على درجة الماجستير عام ١٩٦٣ فى موضوع «العلاقات الخارجية للدولة المهدية (١٨٨٥ – ١٨٩٨)»، وعلى درجة الدكتوراه عام ١٩٦٧ فى موضوع «السودان فى عهد الحكم

الثنائى الأول (١٨٩٩ ١٩٢٤)». وفى إبان فترة دراسته للدكتوراه ألحقه أستاذه بالبعثة التعليمية فى السودان ليطلع على وثائق دراسته وينهل منها.

وبعد حصول الدكتور يونان على الدكتوراه، انتدب انتدابا كاملا من وزارة التربية والتعليم إلى كليته التى تخرج فيها للتدريس بها. ثم ما لبث أن التحق بسلك أعضاء هيئة التدريس بكلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٦٩ ، وتدرج فى الوظائف ، فحصل على أستاذ مساعد عام ١٩٧٤، وأستاذ عام ١٩٧٩، وأستاذ متفرغ عام ١٩٩٤، وأستاذ غير متفرغ عام ٢٠٠٣.

أما عن المناصب ذات الصفة الأكاديمية والإدارية، فتمثلت فى رئاسته للقسم بكلية البنات بين عامى ١٩٩٠ - ١٩٩٤ ، ورئاسته لقسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - إحدى منظمات جامعة الدول العربية - منذ عام ١٩٩٣ وإلى الآن. كما أسس «مركز تاريخ الأهرام» عام ١٩٩٣، وتولى من خلاله تحرير صفحة الخميس الأسبوعية التى تنشرها صحيفة الأهرام تحت عنوان «الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة، والتى لازالت توالى صدورها. أيضا فقد تمكن بعد أن أصبح مقررا للجنة العلمية لمركز تاريخ مصر المعاصر التابع لدار الكتب منذ عام ١٩٩٧ وحتى الآن، من تفعيل دور المركز، مما أسفر عن حركة علمية متقدة.

ويسهم الدكتور يونان بدور بارز فى أنشطة علمية متعددة مثل الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، واتحاد المؤرخين العرب، ولجنة الترقية لأساتذة التاريخ، ولجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضوية كل من المجلس الأخير، والمجلس الأعلى للصحافة، والمجلس القومى للثقافة، والمجلس القومى للتعليم، واللجنة العليا فى المجالس القومية المتخصصة. وقد وضحت بصماته فى مختلف تلك المؤسسات ، حيث له الرأى المستنير والمسموع.

أسلوب الكتابة

لم يشغل الدكتور يونان تعدد الأنشطة ، وتشعب الاتجاهات من أن يولى وجهه شطر الاشتغال بالكتابة التاريخية التى تشهد له بأنه أعطاها مذاقا خاصا وطابعا متميزا. والواقع الذى علينا أن نسجله أنه لم يعتمد فحسب على الالتزام بالمنهج العلمى للبحث التاريخى، وإنما كذلك بتوأم آخر، اختلطت فيه عدة مؤثرات: موهبته المتألقة، وفكره المتيقظ، وحضوره الذكى، وحنكته الطويلة. ذلك جميعه انصهر فى بوتقة ذهبية ، وأعطانا قسمات الشخصية المتناغمة التى ندركها سواء من خلال ما نقرأه عبر سطوره المنظومة، أم بأحاديثه الرصينة ذات التحليلات المبهرة.

وإنه لمن الصعب تصنيف الدكتور يونان أو نسبته إلى إحدى مدارس التاريخ المعروفة، لأنه أراد أن يكّون منهجا متفردا وحققه، إذ نجح وباقتدار وفطنة من أن يرسم لنفسه صورة استخدم فيها الألوان ذات الطبيعة المتآلفة

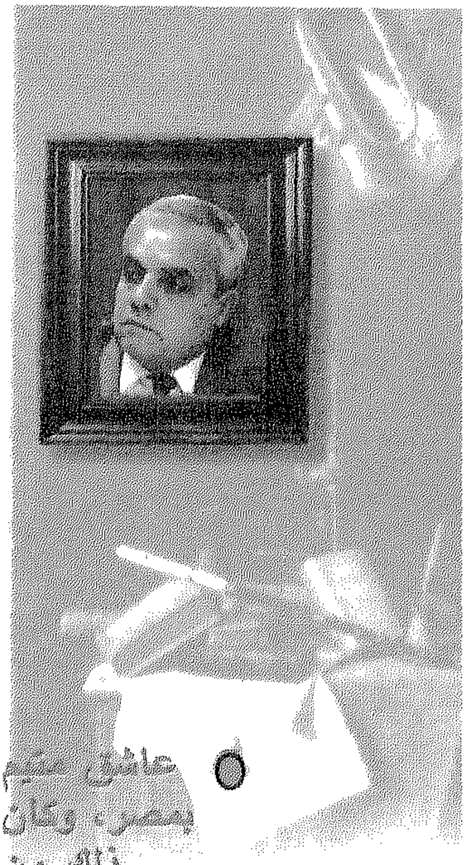

○ عاشق متيم بمصر، وكان ذلك من الأسباب الجوهرية التي جعلته يوجه كل اهتمامه وعنايته بتاريخها

والهادئة التى ارتكزت على خطين ، يكمل أحدهما الآخر، الأول ما اكتسبه من قراءاته ودراساته، والثانى ما يكمن داخله وفى أعماقه.، وهذا الخط كان معطاء معه . وأغدق عليه بسخاء، وحمل مكوناته الخاصة التي تفوق في تنظيمها ، نرصد منها:

– العقلية التي يتغلغل في كنهها الجانب العلمي، بمعنى أنه يعتمد دائما على الحسابات والنظريات، وبالتالى المقدمات التي تؤدى إلى النتائج.

– الميول الفلسفية، فهو يضع أمام الأحداث علامات الاستفهام، ويلجأ إلى القياس النفسى، ويحدد الأبعاد، محاولا – بقدر الإمكان – الخروج بإجابة تكون هي الأقرب للإقناع.

– الثروة الكبيرة التي يمتلكها من الأدوات ، ولها من الأهمية البالغة من حيث تعددطرق المعالجة والتناول ، وبالطبع يدخل تحتها الأسلوب الذى يتسم بالعمق والقوة، وفى الوقت ذاته يبتعد عن التعقيدات والغموض، ويتوخى السهولة والسلاسة.

التذوق الفنى، إذ تغمره اللمسات الجمالية التى تغدق عليه حسا عاليا، فتقصى الجمود جانبا.

– وأخيرا الحب والإخلاص والوفاء والتضحية التى يدخرها لوطنه مصر، فهو عاشق ومتيم بها، وكان ذلك من الأسباب الجوهرية التى جعلته يوجه كل اهتمامه وعنايته بتاريخها، فأمضى السنوات الكثيرة، يستحضر الوقائع المصرية، ويعيش داخلها، وتلتقط عيناه مختلف جوانبها. و«بحرفنة» بالغة، يضع يده على غير المعروف، وذلك بناء على يقين كامل بمنهجه، وشوق ولهفة على الكشف عن الجديد، وإيمان صادق بأن القدر قد اختاره لهذه المهمة الصعبة، فوهب نفسه لها على حساب أشياء أخرى. ولكن على جانب آخر، فإن مصر هى الأخرى حنت عليه، وأعطته المركز والشهرة، وأحاطته بالإجلال والاحترام. ومما لاشك فيه أن هذه المؤهلات قد بلورت شخصيته العلمية، فأصبحت له الملامح الخاصة التى جعلته رائدا فى الكتابة التاريخية.

طبيعة إنتاجه العلمي

عنى الدكتور يونان بتاريخ المؤسسات المصرية على مستوييها . الشعبى والدستورى، وكان وراء تلك العناية شعور بأن التاريخ السياسى قد جار على تاريخ المؤسسات التى تصنع السياسات. وبالنسبة للمستوى الأول «الشعبى» فإنه وضع فيه أربعة مؤلفات عن تاريخ الأحزاب المصرية، بدأها من وقت مبكر

عام ١٩٧٠ بكتاب «الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ – ١٩١٤)» ، وصدر له بعد ست سنوات كتاب «الأحزاب المصرية قبل ثورة يوليه ١٩٥٢» . وبعد ثماني سنوات صدر كتاب ثالث «الأحزاب المصرية (١٩٠٧ – ١٩٨٤)» وأخيرا كتاب «تاريخ الأحزاب المصرية» . وأهمية مثل تلك الأعمال، أنها بدأت في وقت كان يتسم بحظر الأحزاب، وكل ما يتصل بها حتى المتعلق بتاريخها، ومن ثم جاء عملاه الأول والثاني في ظروف تحيطها العقبات، وبالتالي أصبحت من المراجع الفريدة نتيجة لهذا المناخ.

أما عن المستوى الثاني «الدستوري» ، فقد كتب كتابا يعد من الكتب المرجعية في تاريخ المؤسسات . وهو تاريخ الوزارات المصرية (١٨٧٨ – ١٩٥٣)»، وكتابا آخر عن تاريخ «الخارجية المصرية (١٨٢٦ – ١٩٣٧)»، وفي السياق نفسه ، كتب مؤلفا تحت عنوان «قصة البرلمان المصري». ومثل هذا النوع من الدراسات يتطلب إلماما واسعا ليس فقط بالتاريخ السياسي، وإنما أيضا بالتاريخ الاجتماعي والتاريخ الإداري ، بحكم أن كل ذلك يصب في نهر المؤسسة، الأمر الذي تطلب الرجوع إلى الدوريات على نطاق واسع ، هذا من ناحية، وتطلب في الوقت ذاته الرجوع إلى الوثائق البريطانية التي نجح في الحصول عليها من دار المحفوظات البريطانية من ناحية أخرى.

وفيما يتعلق بالانتماء الوطني، فإن الدكتور يونان بذل مجهودا واضحا في الكتابة في شتى الشئون المصرية، فاشترك مع آخرين في وضع كتاب تحت عنوان «حرية الصحافة في مصر (١٧٩٨ – ١٩٢٤)»، وكتاب ثان بعنوان «مصر والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥)» ، وألف كتابا ثالثا يحمل عنوان «الوفد والكتاب الأسود».

وكانت عنايته بقضايا الحدود المصرية ظاهرة في عدد من مؤلفاته ، بدأت في فترة مبكرة ببحثه المنشور في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦٧ عن «أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابا»، ثم أصدر مؤلفه «الأصول التاريخية لمسألة طابا (دراسة وثائقية)» ، وتبعه بعد اشتراكه ضمن هيئة الدفاع المصرية في قضية طابا وصدور الحكم لصالح الجانب المصري ، بعمل يروي تجربته فيها بعنوان «طابا – قضية العصر»، ويكاد يكون هو الكاتب الوحيد الذي أرخ لهذه القضية الوطنية، كما شارك في وضع «الكتاب الأبيض» الصادر عن وزارة الخارجية المصرية حول تلك القضية، ثم جاء عنوان الكتاب الأخير «مصر المدنية» ليسهم في هذا الخط.

ولم تنقطع علاقة د. يونان بتاريخ السودان بعد انتهائه من رسالتيه للماجستير والدكتوراه، فاستكمل الطريق، وكتب العديد من المؤلفات منها «السودان في المفاوضات المصرية – البريطانية ١٩٣٠ – ١٩٣٦)»، «قضية وحدة وادي النيل بين المعاهدة وتغيير الواقع الاستعماري (١٩٣٦ – ١٩٤٦)»، كما

وضع كتاب «مشكلة جنوب السودان» الذى ألفه مع آخرين، وكانت آخر أعماله فى ذلك الميدان كتاب «الثوابت والمتغيرات فى العلاقات المصرية السودانية» . هذا فضلا عن بحوث فى التاريخ السودانى نشرت فى مجلة السياسة الدولية، منها «الثورة والصراع الحزبى فى السودان (أكتوبر ١٩٦٩)» ، «قيام وسقوط المهدية فى السودان المعاصر (يونيه ١٩٧٠)»، «إيديولوجية الوحدة بين مصر والسودان (أبريل ١٩٧١)».

وأصبح التوجه العربى له المكانة لدى كتابات الدكتور يونان منذ عام ١٩٧٧ حين ألف مع الدكتور مفيد شهاب والأستاذ السيد ياسين كتابا بعنوان «الصهيونية والعنصرية»، أيضا شارك فى أكثر من عمل فى هذا المضمار، فكتب عن العلاقات العربية الأفريقية، والعلاقات العربية التركية.

وانتهز فرصة إعارته لجامعة محمد بن عبدالله بفاس بالمملكة المغربية (١٩٧٧ - ١٩٨١)، ووفقا للتوجه ذاته، ترجم كتابا ضخما عن تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠، ووضع كتابا عن تاريخ العلاقات المصرية المغربية حتى عام ١٩١٢. وخلال التسعينيات، شارك فى تأليف كتاب «الكويت - وجودا وحدودا» ، كما وضع كتابا تحت عنوان «قراءات تاريخية على هامش حرب الخليج» ، وكانت آخر مؤلفاته فى ذلك الصدد «موقف بريطانيا من الوحدة العربية (١٩١٩ - ١٩٤٥)».

ومن هنا يتضح أنه لم يقتصر فى دراساته على أحد جناحى الوطن العربى دون الآخر، إذ تناول الجانبين . بعد أن رأى أن المكتبة تفتقر إلى مؤلفات عن العلاقات العربية - العربية، بينما هناك أعمال كثيرة عن العلاقات العربية الأوروبية، خاصة مع الدول التى استعمرت البلاد العربية.

الهلال .. المحطة الأولي

وكتب الدكتور يونان فى الصحافة منذ فترة مبكرة . فقد نشر فى مجلة الهلال أولى مقالاته عام ١٩٦٥ ، ثم تتابعت كتاباته فى السياسة الدولية والمصور والأهرام، مما أسهم فى معرفة القارئ به وإعجابه بأسلوب معالجته للموضوعات التى تناولها.

وتأتى رحلة الدكتور يونان مع الديوان ، تلك التى بدأت أولى خطواتها يوم الخميس ١٥ يولية ١٩٩٣، حين نشرت الأهرام أول حلقة من السلسلة التاريخية المعروفة «الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة».

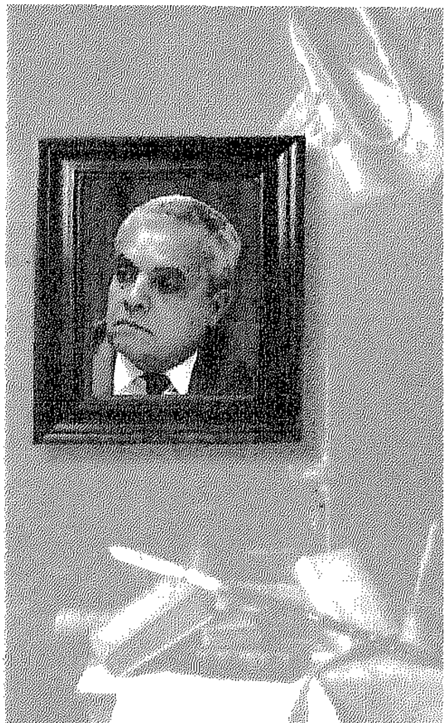

من الصعب حصر الإنتاج العلمي للدكتور يونان الذي هو متنوع ومتميز، وأيضا غزير. ورفوف المكتبات تشهد بذلك

وتجاوز الديوان الآن خمسمائة وخمسا وخمسين حلقة، وكل منها يعد دراسة مستقلة ذات طبيعة علمية تتحلى بالتبسيط، وذلك لكى تمكن القارىء من فهمها ومتابعتها، وهى تسعى لنشر الوعى التاريخى بين جموع قراء الصحيفة العريقة من المصريين والعرب، ثم إنها من الكتابات القليلة التى تنشر بالأهرام . وفى الوقت ذاته تنشر مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى الأهرام ويكلى، هذا فضلا عن الأهرام الدولى والأهرام العربى، مما يتيح الفرصة للمصريين غير المقيمين فى مصر والعرب لتتبعها ، بالإضافة إلى الأجانب الذين يرغبون فى معرفة التاريخ المصرى للاطلاع على بعض فصوله.

وقد صنف الدكتور يونان ما نشر من حلقات فى موسوعة ضمت حتى الآن عشرة كتب، وامتدت بين عامى ١٨٧٦ - عام صدور الصحيفة العتيدة - وعام ١٩٢٤. وجاءت بالترتيب: الكتاب الأول (١٨٧٦ - ١٨٨٢)، والكتاب الثانى والثالث (١٨٨٢ - ١٨٩٢)، والرابع والخامس (١٨٩٢ - ١٩٠٠) ، والسادس والسابع (من مطلع القرن العشرين إلى قيام الحرب العظمى عام ١٩١٤) ، والكتاب الثامن «١٩١٤ - ١٩١٨) ، والكتابان التاسع والعاشر (١٩١٩ - ١٩٢٤).

ومن الموقع نفسه ، وفى إطار الديوان ، وضع عملين ، أولهما بمناسبة مرور ١٢٥ عاما على صدور الأهرام تحت عنوان «الأهرام - سنوات التكوين» والآخر بالمشاركة مع المجلس القومى للمرأة يحمل عنوان «المرأة المصرية بين التطور والتحرر (١٨٧٣ - ١٩٢٣)»، وقد حصل الكتاب الأخير على جائزة أحسن كتاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب لعام ٢٠٠٢.

ويجمع الكثيرون على تفرد هذا العمل، حقيقة أن الاستعانة بالدوريات كأحد مصادر البحث التاريخى أمر قديم، ولكن أن تستخدم دورية بعينها كمصدر لكتابة تاريخ مصر والعالم، وعلى المستويات المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والصحافية، فإنه الأمر الذى اختص به الدكتور يونان، كاتب ديوان الحياة المعاصرة.

والواقع أنه من الصعب هنا حصر الإنتاج العلمى للدكتور يونان الذى هو متنوع ومتميز، وأيضا غزير . ورفوف المكتبات تشهد بذلك الكم من المراجع التى ربت على الأربعين كتابا، والأبحاث المنشورة فى المجلات العلمية المتخصصة والمحكمة والتى اقتربت من المائة والخمسين بحثا.

ولما كان من المعروف ان كيان الأستاذ الجامعى يرتكز على شقين، الأول إنتاجه العلمى المتميز، أما الآخر فهو المدرسة التى يضع أساسها ويقيم قواعدها ويضم بين صفوفها التلاميذ الشغوفين بالانتماء لها، لينهلوا من معارفها، وبالتالى عندما يشتد عودهم، يوكل إليهم الدور ليستكملوا المسيرة على الدرب نفسه، فقد نجح الدكتور يونان فى إعداد هذه المدرسة التى أصبحت لها من

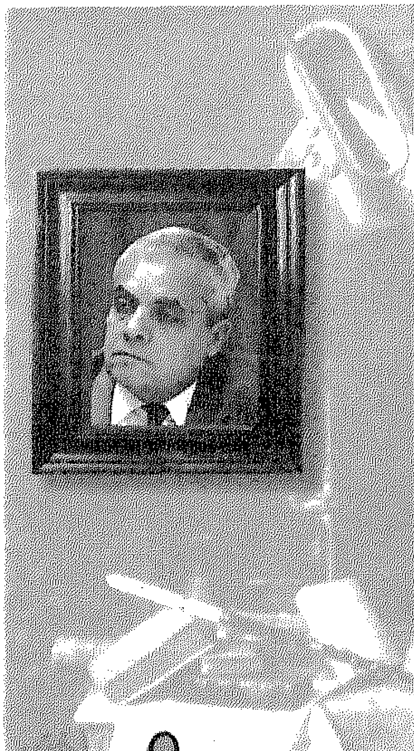

لعضوية الدفاع عن قضية طابا فتولى جمع الوثائق وكتابة الفصول التاريخية من المذكرات القانونية

الدعامات ما يمكنها من البقاء، وحرص على تغذيتها ، وضخ الدم الجديد لها من خلال سمنار الثلاثاء الأسبوعي الذى يعقده فى كلية بنات عين شمس، ودائما ما يتسم ذلك اللقاء بالديمقراطية فى الحوار، حيث تدور المناقشات فى مناخ هادئ وفعال وإيجابى، فهناك الرأى والرأى الآخر، بالإضافة إلى ما يلمسه المنتمون إلى السمنار من صفات تتمتع بها شخصية الأستاذ، فهو الإنسان الذى يمتلك الصدر الرحب، ويفيض قلبه بالحنان، وفى الوقت ذاته فإنه الحازم والحاسم والملتزم ، مما يثرى المكان بالألفة، والدفء والاحترام والتقدير الذى يسود بين الجميع.

ومن هذا المكان، خرجت الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه التى أنجزت على يديه. لتحمل بصماته، وتكون الدليل على إشرافه الصادق وعطائه المتفرد، والذى أمتد إلى مؤسسات علمية أخرى. وبطبيعة الحال فقد أدلى بدلوه فى اللجان الخاصة بالمناقشة والحكم على رسائل كثيرة. وعلى صعيد آخر، فإنه شارك فى تقييم الإنتاج العلمى للمتقدمين إلى لجان الترقية الخاصة بأعضاء هيئة التدريس فى الجامعات العربية.

الدور القومي

إذا انعطفنا على الجانب القومى، نجد للدكتور يونان موقعه المتميز على الخريطة القومية، حيث اختارته وزارة الخارجية المصرية بصفته مؤرخا لعضوية الدفاع عن قضية طابا، فألقيت على عاتقه مسئولية جمع الوثائق وكتابة الفصول التاريخية من المذكرات القانونية التى كان يقدمها الجانب المصرى لهيئة المحكمة الدولية بين عامى ١٩٨٦ - ١٩٨٨. وتنقل أثناء تلك الفترة بين دور الوثائق العالمية فى كل من إنجلترا وتركيا والسودان، وكذلك تردد على دار الوثائق القومية بالقاهرة. ونجح تماما فى الحصول على ما فى بطونها من أسرار. وقد اعتمدت عليه هيئة الدفاع المصرية فى القضية بشأن دعم الجانب التاريخى الذى كان له دور حاسم فى كسب القضية، وذلك إبان جميع مراحلها، من إعداد المذكرات الثلاث التى ألحق بكل منها ثبت بالوثائق كلف بوضعه، إلى مرحلة المرافعات الشفوية التى انعقدت فى جنيف خلال شهر أبريل عام ١٩٨٨.

وأدى هذا النجاح الذى أحرزه فى طابا إلى أن تستفيد منه وزارة الخارجية المصرية، وأن يكون ضمن الوفد المصرى فى مؤتمر مدريد عام ١٩٩٠، إذ رأت الوزارة الاستعانة به خبيرا فى

الشئون الخاصة بالتاريخ فى أعمال المؤتمر.

وعلى الدرب نفسه، اختير عضوا فى وفد المفاوضات المصرى حول قضية حلايب، وهى المفاوضات التى جرت مع الجانب السودانى على ثلاث جولات أثناء عامى ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ ونظرا للعلاقات التاريخية بين مصر والسودان ، كان دوره أساسيا فى هذه الجولات، وأرسلته وزارة الخارجية المصرية فى تلك الفترة إلى لندن للحصول على الوثائق المتعلقة بالحدود بين البلدين الشقيقين ، وكتابة المذكرات عنها والتى تحتفظ بها إدارة السودان بالوزارة ، لتعتمد عليها فى أى طرح مقبل للقضية.

وبناء على هذا الدور القومى المشّرف، جاءت عضوية الدكتور يونان فى مجلس الشورى لفترتين متتاليتين بقرار جمهورى أول عام ١٩٩٥، وقرار جمهورى آخر عام ٢٠٠١. وقد استطاع من خلال موقعه أن يثرى المناقشات ، ومما يذكر أنه لم يكن ذا حزبية متعصبة، وإنما - وكما يردد دائما - هو مصرى حتى النخاع، ووفقا لهذه الهوية، مضى فى خدمة وطنه الغالى.

وأخيرا إذا ما أظهرت لنا المرآة الجانب السيكلوجى للدكتور يونان، نجد أنه صاحب شخصية متوازنة ورحبة، يتحلى بالأخلاق الرفيعة، والنقاء النفسى، والشفافية المرهفة، والتسامح، وحب الخير والسعى إليه مهما كانت مسالكه صعبة. وبفضل هذه الإمكانات، توثقت علاقاته بالآخرين، الذين ارتبطو به ، حافظوا على تلك الصلة ذات الخيوط الحريرية التى ستبقى دائما وأبدا ، طالما أن هناك قلوبا تنبض.

ونتيجة لنشاطه العلمى، ودوره فى العمل العام، حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٥، وكان من أول أبناء جيله الذين فازوا بها. وفى أكتوبر عام ٢٠٠٢، وعندما قررت مؤسسة الفكر العربى - وهى مؤسسة عربية - أن تمنح عددا من الجوائز لأهم المبدعين فى الأمة العربية ، كان هو المصرى الوحيد الحائز على جائزتها.

وفى الحقيقة ، فإنه عبر رحلة الدكتور يونان الطويلة والتى مازال يمخر عبابها ، لم يكن الطريق مفروشا بالزهور والرياحين فقط، وإنما أيضا هناك الصخور التى تغلب عليها بفضل توفيق الله وجده واجتهاده وصبره وكفاحه، من أجل أن يحقق رسالته، ويجعل التاريخ، وخاصة تاريخ مصر محببا إلى النفوس التى أصبحت متشوقة لتعرف المزيد على يديه. ولعلى بعد هذه الصفحات أجبت عن السؤال الذى طرحته فى البداية، وأكرره فى النهاية، لماذا التوحد فى رأى المثقفين وإجماعهم على اختيار شخصية الدكتور يونان لبيب رزق ليفوز بجائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٤؟ إنه يستحقها وبجدارة، وبذلك أصبح أول مؤرخ يحصل على أرفع جائزة تقدمها مصر لأبنائها المخلصين الأوفياء. ■

الانسحاب

من الحياة الفكرية

بقلم
وديع فلسطين

لا تنطبق المواصفات الوظيفية على كل مشتغل بالفكر والثقافة والأدب، ولئن جاز للموظف فى سلك البيروقراط أن يحال إلى التقاعد فى السن المحددة قانونا، فإن هذه القاعدة لاتسرى على كل من يحمل قلما ويطالع الجماعة بآثاره المنشورة، فالحياة الفكرية لاتعرف الإحالة إلى المعاش، ولايقدم الكاتب أو الأديب على إغماد قلمه لأن عمره الافتراضى قد انتهى ببلوغه هذه السن الحاكمة، ولكن مادام صاحب القلم هو السيد الآمر فى مصيره الأدبى - فى مجتمع حر يتيح له حرية التعبير عن رأيه - فله إن شاء أن يعتبر أن رسالته قد اكتملت وأنه أدى واجبه على خير ما يشتهى وآن له أن يستريح فى سنى العمر المقدر له أن يعيشها، وله من ناحية أخرى أن يواصل العطاء مادامت أوضاعه كلها تيسّر له ذلك.

على أن عامل السن ليس هو العامل الوحيد الذى يملى على الأديب أن ينسحب من الحياة الأدبية، فهناك عوامل أخرى، منها ماهو شخصي، ومنها ماهو مجتمعي، تدفعه دفعا إلى الانسحاب من دنيا تضطرب فيها المقاييس الأدبية، وتحتدم فيها المعارك التى تدور حتى حول البديهيات، وتختلف فيها مذاهب الفكر واتجاهاته.

فمن الأدباء من أحرق كتبه مثل أبى حيان التوحيدى، ومنهم من أنهى حياته بنفسه مثل الشاعر فخرى أبو السعود (١٩١٠ - ١٩٤٠) الذى دمرته الوحدة بعد الانفصال عن زوجته الإنجليزية وغرق ابنه الوحيد بطوربيد صوبته غواصات النازى على سفينة كانت تنقل الأطفال الإنجليز إلى كندا هربا من الإغارات الألمانية على المدن البريطانية، ومنهم الأديب إسماعيل أحمد أدهم (١٩١١ - ١٩٤٠) الذي عثر على جثته على شاطئ الإسكندرية، وقيل إنه انتحر وقيل إنه قتل بسبب رسالته المطبوعة بعنوان «لماذا أنا ملحد»، ومنهم الأديب الشاعر اللبنانى خليل حاوى (١٩٢٥ - ١٩٨٢) الذي انتحر احتجاجا على الحرب الأهلية فى لبنان، ومنهم الأديب الأمريكى إرنست همنجواى (١٨٩٨ - ١٩٦١) الذي لم يعلل أحد سبب انتحاره، ومن الأدباء من انتهت حياته بفاجعة لا إرادية مثل الشاعر صالح شرنوبى (١٩٢٤ - ١٩٥١) الذى افترسته عجلات قطار الدلتا، ومثل الباحث جاك تاجر الذى صرعته عجلات مترو مصر الجديدة.

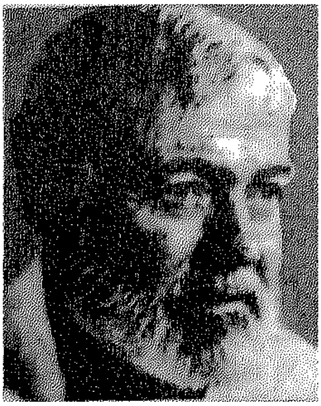

ايرنست همنجواى

بل إن هناك من راودته فى فترة من حياته فكرة الانتحار، ومنهم طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) وعباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤).

الانسحاب وأسبابه

على أن هناك أدباء آثروا الانسحاب من الحياة الأدبية لاعتبارات تتعلق بكل منهم، فالعلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) لم يستكمل دراسته فى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بسبب اختلافه مع طه حسين، وهجر مصر إلى السعودية، ولدى عودته آثر الاعتكاف فى داره علي كتبه وأوراقه نائيا بنفسه عن الوظائف الحكومية وغير الحكومية، باستثناء قبوله العمل مديراً لتحرير الطبعة العربية من مجلة «الريدرز دايجست» على مدى ست سنين بناء على إلحاح محررها صديقه فؤاد صروف (١٩٠٠ - ١٩٨٥) كما أن الشاعر عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) انسحب بهدوء من الحياة الأدبية عندما هاجمه تلميذاه عباس محمود العقاد وإبراهيم عبدالقادر المازنى (١٨٩٠ - ١٩٤٩) هجوما شرسا فى كتابهما

«الديوان» ووصفاه بأنه «صنم الألاعيب» بل شككا فى قواه العقلية، وعندما عاوده الحنين إلى القلم، نشر طائفة من الفصول فى مجلة «المقتطف» بعنوان «نظرات فى النفس والحياة» وكان يوقعها بالحرفين الأولين من اسمه «ع.ش» وكنت وقتها من المسئولين عن تحرير مجلة «المقتطف وكان شكرى ينهانا عن الإعلان عن اسمه الصريح ككاتب لهذه الفصول، ولشكرى مقالات أخرى كثيرة نشرت فى مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) وكان يوقعها بإمضاء «قارىء» فى حين كان الزيات يعلن أن المقالات «لأحد أساطين الأدب الحديث» وله مقالات فى مجلات أخرى جمعها أستاذنا الكبير الدكتور محمد رجب البيومى فى كتاب عنوانه «دراسات فى الشعر العربى» بتكليف وموافقة من الشاعر شكرى.

ومن الذين انسحبوا من الحياة الأدبية الروائى عادل كامل الذى زامل نجيب محفوظ وعبدالحميد جودة السحار (١٩١٣ - ١٩٧٤) وعلى أحمد باكثير (١٩١٠ - ١٩٦٩) فى إنشاء «لجنة النشر للجامعيين» وعندما أدرك هذا الروائى - الذي بات شبه مجهول - أن الأدب لايطعم خبزا، انصرف إلى مهنة المحاماة يحقق من خلالها طموحه المادى وكنت أزوره فى مكتبه فى الحين بعد الحين إلى أن صفى أعماله وأغلقه ليلحق بزوجته وابنتيه بعدما هاجرن إلى الولايات المتحدة، وانقطعت بعد ذلك أخباره تماما.

وليس من الحقائق المجهولة أن

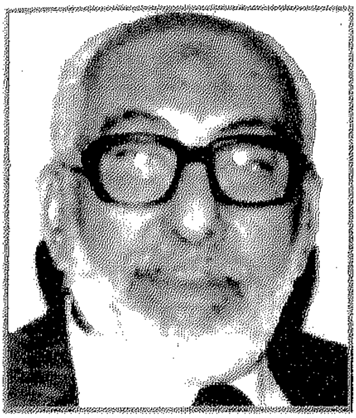

محمود شاكر

الشاعر إبراهيم ناجى (١٨٩٨ - ١٩٥٣) كان قد قرر الانصراف نهائيا عن الشعر والأدب، بل سافر بقصد الهجرة إلى إنجلترا كاحتجاج صامت على الحملة الشعواء التى جردها عليه طه حسين والعقاد عند صدور ديوانه الأول «وراء الغمام»، ولكنه ارتأى بعدما هدأت نفسه الثائرة أن يواجه أزمة النقد لا بالاستسلام ولكن بالتحدى، فعاد من هجرته يتابع أداء رسالته ويفرض على الحياة الأدبية احترام صنيعه الأدبى.

زوال عصر الشموع

وكنت فى فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضى أعانى من الانكشاريات المتغالطة، فقررت بدورى الانسحاب من الحياة الأدبية ، وكتبت رسائل إلى الأصدقاء الذين كانوا يواصلوننى برسائلهم الأدبية مودعا إياهم قائلا لهم إن الأمية أسلم، وها قد عدت أميا! وأشفق علىّ وقتها الأديب الشاعر السورى الدكتور زكى المحاسنى (١٩١١ - ١٩٧٢) فوجه إلىّ قصيدة على صفحات مجلة «الأديب» اللبنانية كان مما جاء فيها قوله:

حكم أقدارنا بأنا شمع
ما ملكنا إطفاءها نحن قسرا

فمازحته قائلا إن عصر الشموع قد أخلى مكانه «للكلوبات» والغاز الطبيعي ثم الكهرباء والفلورسنت واقتصرت مهمة الشموع على حفلات العرس تحملها الوصيفات حول العروس فى ليلة جلوتها!.

وهناك من آثر الهجرة النهائية إلى الخارج مثل الأديب العراقى الدكتور صفاء خلوصى (١٩١٧ - ١٩٩٥) الذى اختار اكسفورد للإقامة فيها، ومثل الأديب الشاعر الدكتور أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢) - ١٩٥٥) الذى اختار أمريكا للإقامة الدائمة فيها، وهناك عدد لايحصى من الذين ركبوا مراكب الهجرة إلى كل أنحاء العالم لاعتبارات تتفاوت من حالة إلى أخرى. وكان الدكتور محمد صبرى السوربونى (١٨٩٠ - ١٩٧٨) يفكر بدوره فى الهجرة النهائية إلى فرنسا ليحقق هناك مشروعات علمية تعذر عليه تحقيقها فى الوطن.

رسالة المخضرمين

ولكن عندما يجيء الانسحاب من الحياة الأدبية بعد تكريم من أرفع مستوى ، فهو مايدعو إلى العجب. فالأديب التونسى الكبير أبو القاسم محمد كرو الذى استكمل عامه الثمانين فى أول يوليو المنصرم، فاجأ المجتمع الأدبي فى بلاده ببيان نشره بعنوان «وداعاً أيها القلم وآخر الكلمات» استهله بقوله «مهداة إلى جميع الذين يحملون عنى أمراضاً فى نفوسهم، داعياً التاريخ أن يحاسب الجميع بالأفعال لا بالأقوال».

عبد الرحمن شكري

عادل كامل

وختم بيانه بقوله: «أما أنا وقد بلغت الثمانين سنة وزهاء الثمانين كتاباً، فأعلن بأننى لن أكتب حرفاً بعد الآن ولن أرد على أحد مهما كان . أما حقوقى كافة فأنا متمسك بها، تأتى لى أو للورثة طوعاً أو عن طريق المحاكم. واللهم أشهد بأنى، قد بلغت وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

ولقد جاء انسحاب أبى القاسم محمد كرو من الحياة الأدبية بعد منحه الجائزة المغاربية الثقافية الكبرى التى تمنحها حكومة تونس لأديب فرد تميز بإنتاجه الغزير وبخدمة الثقافة على مدى سنوات عمره تتويجاً لكفاحه الأدبى والفكرى

واعترافاً بأياديه على الثقافة عامة.

وأثار انسحاب العلامة كرو من الحياة الأدبية عاصفة من الاحتجاجات نشرتها الصحف التونسية داعية إياه إلى العدول عن قراره لأن الرسالة الأدبية ليست لها نهاية يتم الوقوف عندها. ومن ناحيتي راجعت أخانا كرو قائلاً : إن دور المخضرمين من أمثالنا في المرحلة الحالية هو التذكير في المقام الأول بفضل الذاهبين الذين تجهلهم الأجيال الطالعة وتصويب الأغاليط الفاحشة التي يتورط فيها الكتاب والوقوف في وجه التيارات الهابطة التي تحاول هدم قواعد الضاد. وكان تعليقه هو أن الأغاليط قد فشت حتى في الدراسات الجامعية، ولن يسعفه العمر مهما امتد في الاستدراك على هذه الأغاليط. أما محاولات هدم حصون الضاد فقد تأخر أوان التصدي لها.

إفساح الطريق للشباب

ومن ناحية أخرى، أعلن الصحفي الأديب المغربي عبد الكريم غلاب الاستقاله من رئاسة تحرير جريدة «العلم» المغربية والانسحاب من الحياة الفكرية تماماً. والغريب أيضاً أن هذا الانسحاب جاء بعد تكريمين ظفر بهما غلاب في الفترة الأخيرة، إذ منح بدوره الجائزة المغاربية الثقافية الكبرى من حكومة تونس، كما أصدرت الدكتوره سعاد الصباح كتاباً تذكارياً عنه قدم إليه في حفل كبير . ولأنني مبتوت الصلة بعبد الكريم غلاب، مع أنني أتابع نشاطه عندما كان يدرس في مصر، وقرأت كتبه «القاهرة تبوح بأسرارها» و«الماهدون الخالدون» و«الشيخوخة الظالمة» فلست أعرف على وجه التحديد أسباب انسحابه من الحياة العامة، اللهم إلا إن كان مراده إفساح الطريق أمام الشباب خشية اتهامه بأنه يقف عقبة في سبيل أجيال جديدة تطمع في أن تتوافر لها فرص التقدم والارتقاء . ولا أحسب أن عنصر الشيخوخة هو الذي أملى على غلاب الاستقالة من الحياة العامة، فهو يعترف عند تسجيل سيرته بأنه مازال شاباً يرفض الشيخوخة التي نعتها بالظلم.

أما الطبيب الروائي السوري الدكتور عبد السلام العجيلي، فقد أزمع هو أيضاً الانسحاب لامن الحياة الأدبية التي يعشقها كهواية ولكن من ممارسة الطب في عيادته الخاصة في مدينة الرقة البدوية في شمال سوريا. وهو بذلك تفرغ للأدب، فرحبت بذلك دوائره في سوريا. وإن لم يجد مثل هذا الترحيب من مرضاه الذين كانوا يجدون في طبه نزعة إنسانية ، وهي نزعة كادت تختفي بعدما تحول الطب إلى «بزنس» وتجارة ومشروعات استثمارية.

وإن كنت شخصياً سأفتقد طبه لأنني كنت أقول دائماً : إنني جربت أدبك ولم أجرب طبك! ولكن شاءت الظروف أن أصاب بتسمم غذائي أثناء زيارتي لدمشق من بضع سنوات فأسعفني العجيلي بطبه، وابتاع من جيبه الخاص ثمن الأدوية التي قدمها إلي ولولا طبه الذي ودعه الآن لودعت الدنيا في دمشق الفيحاء ولانضممت بدوري إلى المنسحبين بلا عودة! ■

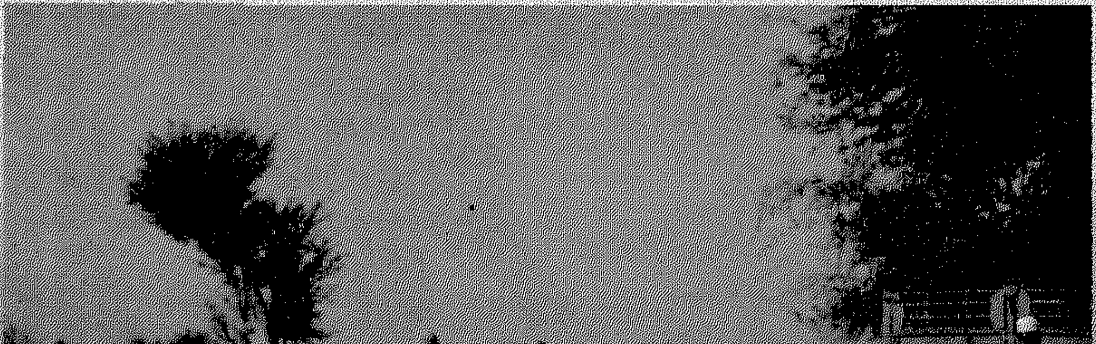

دارفور..

بقلم
حمدى رزق

- ثلاث حركات للتمرد تطلب العدل والمساواة بقوة السلاح
- مليون نازح ينتظرون الغوث قبل أمطار الخريف
- دور الترابي وقرنق ومنظمات الإغاثة فى إشعال الحريق

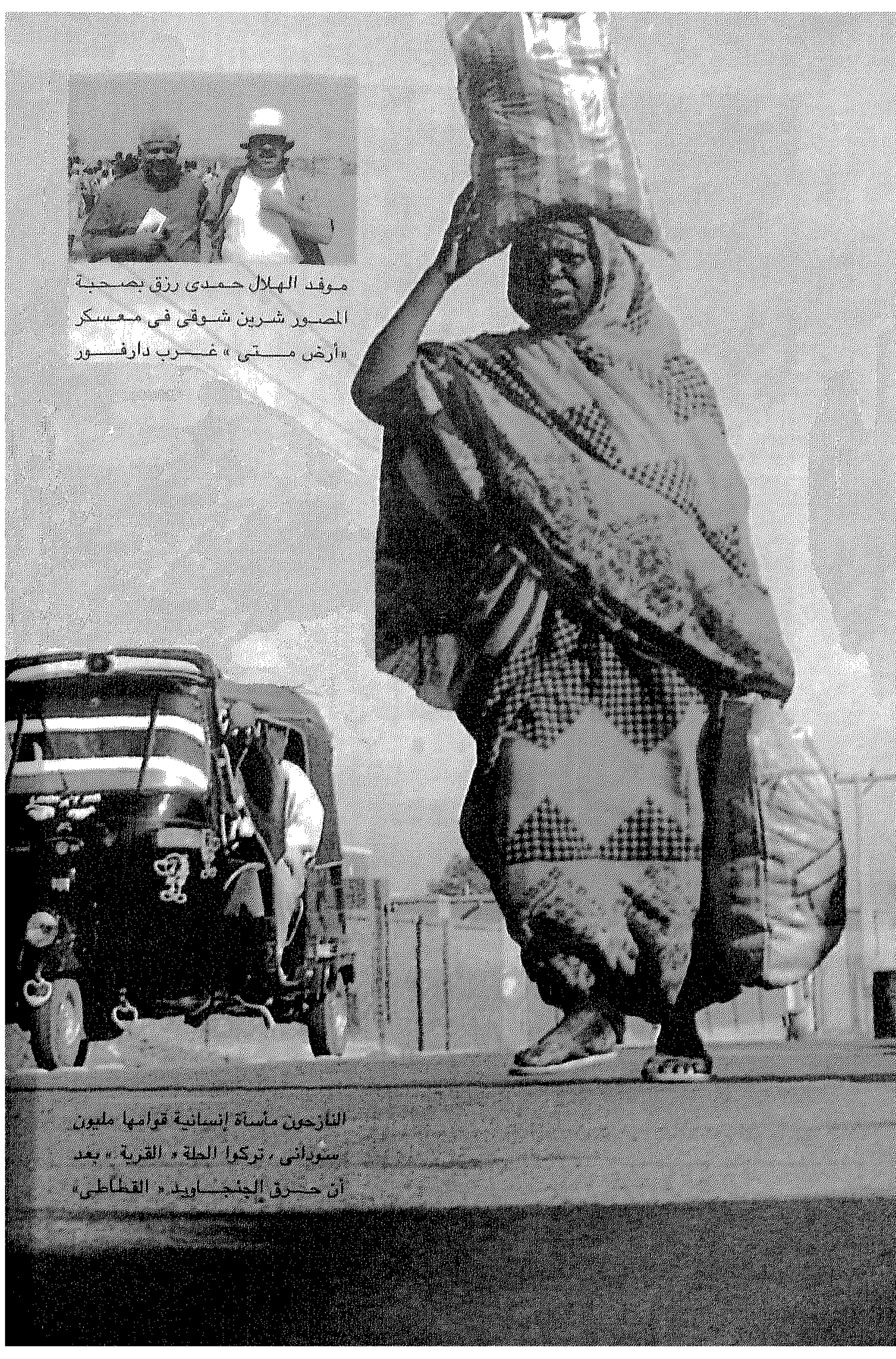

موفد الهلال حمدى رزق بصحبة المصور شرين شوقى فى معسكر «أرض متى» غرب دارفور

النازحون مأساة إنسانية قوامها مليون سودانى ، تركوا الحلة « القرية » بعد أن حرق الجنجاويد « القطاطى »

بفعل فاعل تم تدويل قضية دارفور، وتحولت « جنينة الغرب » إلى جهنم يكتوى بها السودان، ومرورا بنيالا والفاشر اندلع التمرد من « جبل مرة » صاخبا يقتلع الحرث والنسل، وفى الظهر «جنجويد» مثل الجن والعفاريت يحرقون ويقتلون .

جنة السودان أصبحت رهينة تطاولها «لاندكروزر» التمرد، وخيول الجنجويد، ومروحيات الجيش وتحولت لساحة قتال ولا تزال .

أزمة دارفور لم تنته، وأمامها شوط طويل بين كر وفر، وسلام دارفور يبدو بعيداً يتوه بين اتفاقيات لا تحترم، وتوقيعات بالحبر البارد يمحوها البارود الساخن .

ومأساة دارفور شاخصة فى عينى طفل صغير يطل من عدسة الكاميرا يعلن للعالم أنه جائع، محروم، خائف، مذعور يطلب العفو والرحمة والغذاء والدواء .

«الهلال» تفتح ملف دارفور بالكلمة والصورة عبر موفدها إلى غرب السودان حمدى رزق الذى قضى ١٣ يوما - بصحبة المصور شرين شوقى - متنقلا بطائرة انتينوف صغيرة ما بين مطارات نيالا، وجنينة والفاشر والخرطوم، زار معسكرات النازحين في أرض متى «غربا»، وقلما « جنوبا» وأبو شوك «شمالا» ، التقى وزراء الأزمة وسلاطين وولاة دارفور الكبرى فى ولاياتها الثلاث «غرب وشمال وجنوب» استقصى أحوال التمرد، وتحسس آثار الجنجويد، استشرف مستقبل مفاوضات «أبوجا» بالعاصمة النيجيرية بين الحكومة والمتمردين و «بحث أسباب انهيار مفاوضات «ابشى» و انجمينا» فى تشاد، « واديس ابابا » فى اثيوبيا وما هى مؤشرات نجاح مفاوضات «أبوجا» الحالية ؟

ويجيب موفد «الهلال» على أسئلة دارفور الكبرى :

• من حرك المتمردين إلى الثورة طالبين العدل والمساواة ؟

• وما دور الحركة الشعبية لتحرير السودان «حركة د.جون قرنق» فى تمرد الغرب ؟

• وما علاقة التمرد باعتقال الدكتور حسن الترابى رئيس المؤتمر الشعبى «المعارض» فى الخرطوم ؟ وهل تآمر الترابى على الحكومة فى الغرب ؟

• لماذا تأخر الجيش السودانى هذه المرة فى حسم المعركة ؟

• وماذا عن التورط الدولى فى أحداث دارفور ودور فرنسا والولايات المتحدة والنرويج فى إشعال الأزمة ؟

• وأخيرا كيف تحل إشكالية عدم الثقة بين الحكومة والأمم المتحدة فى هذا الملف الذى بدأ قبليا وانتهى دوليا بشكل رشح دارفور لأن تكون القضية الساخنة الأولى فى أفريقيا طوال العام الماضى وامتدت لتأكل أيام العام الجديد ؟!!

أسفر شبرا، تتطرش الميه متراً.. يقول أبناء «جنينة» إحدى حواضر دارفور الكبرى . جنينة عاصمة ولاية غرب دارفور، وهى بالفعل اسم على مسمى، وكما قال مرافقى لو بقيت معنا حتى تهطل أمطار الخريف لشاهدت سندسا أخضر منبسطا بطول وعرض الصحراء الرطبة، هنا كل شىء وفير، ماء وخضرة ووجه حسن .

يراهنون هنا على هطول الأمطار لتغسل ذنوب المتمردين، ودماء الضحايا، ويطلبون الخير من السماء بعد أن ضاقت بهم الأرض بما رحبت، يدعون الله بكل اللهجات المحلية -نحو ١٠٠ لهجة- أن يمنحهم السلام والمحبة اللذين حرما منهما طويلاً .

لا يعرفون ماذا جرى لهم، وماذا يجرى هناك فى الريف، قرى أُحرقت، ورجال خُطفوا، ونساء أُغتصبن . هكذا يرددون فى وجه كل من يقابلهم لا يملون تكرار ذلك، تعوزهم التفاصيل ولكنهم يعرفون جيداً كلمات تشى بالحالة التى أصبحت عليها دارفور ، المتمردون لا يظهرون والجنجويد أيضاً لا يظهرون ، دارفور تعيش كابوسا لا يراه أحد، كابوسا ثقيلا يعشش فى معسكرات النازحين، أكثر من مليون نازح تركوا منازلهم وقراهم حذر الموت ولديهم قصة واحدة «الجنجويد» وهى قصة على ما يبدو طويلة طول جبل مرة الذى يمتد ١٠٠ كيلو متر رابطا شمال دارفور بجنوبها مادا قدميه فى غربها، يحتله التمرد ويجلس فوق قمته .

جنجويد

جنجويد هى كلمة السر هنا، مكونة من ثلاثة مقاطع، «جن» ومعناها «رجل» ، يحمل مدفعاً «جيم ٣» ويركب جواد «ويد»، مجرد سماع هذه الكلمة تحيلك مباشرة لذكريات قطاع الطرق الأليمة ، وفى كل قرى دارفور يطل شبح «الجنجويد» الذى يهاجم بلا رحمة .

«بتول على» فتاة سودانية خريجة جامعة الخرطوم وتعمل موظفة فى الإذاعة، تركت عملها وعادت إلى قريتها ووجدتها حطاماً وركاماً بعد حريق الجنجويد ونزحت بتول مع النازحين حتى وصلت إلى معسكر «أرض متى»، وتقول: نحن نخاف الجنجويد، إنهم يضربون كالبرق ليل نهار، يسلبون كل شىء، أعرف أنهم سرقوا أبقارنا، ٤٠٠ بقرة أحصيناها، إنهم يغتصبون النساء ويقتلونهن!!

رفضت بتول ذكر أسماء المغتصبات لأنه عيب (شينة) الأمر الذى دعا مرافقى للتشكيك فى الرواية كلها وقال هذه هى المعلومات التى تستند إليها منظمات حقوق الإنسان ولا تستقيم على قدمين!!

سكان القطاطى

بتول تعيش ضمن ٤١ ألف نازح يضمهم المعسكر الذى يشبه قرية أفريقية صغيرة وكل أسرة تعيش فى «قطية» مفرد قطاطى، وهى بيوت طينية بأسقف من «البوص» مائلة ودائرية لمنع تراكم المطر فوق سطوحها التى أحال الطقس لونها إلى الأسود لون ليل المعسكر الدامس.

وما تقوله بتول يتردد صداه فى كل مكان نتحرك إليه، وفى معسكر «قلما» بمنطقة «بليل» بولاية جنوب دارفور تسمع عجبا وقصصا يشيب لها الولدان من النازحين الذين شردهم الجنجويد عن قراهم، ورغم محاولات الحكومة الحثيثة لإعادتهم إلى قراهم قبل حلول الخريف «موسم الأمطار» للحاق بزراعتهم التى

بارت إلا أنهم يرفضون العودة - وكما تقول أسماء حسن من «شوبوكي» محلية جنينة لن نعود حتى نأمن شر الجنجويد، إنهم يحرقون كل شيء حتى المساجد!!

بين خوف بتول، وخوف «أسماء» تقع ولايات دارفور الثلاث، بين فكي الكماشة «جنجويد ومتمردين»، وتحت وطأة قصف إعلامي مركز من جانب وكالات الأنباء الغربية التي تستقي معلوماتها من منظمات الإغاثة التي تعمل في كل اتجاه، من إغاثة النازحين حتى التشهير بالحكومة في كل المحافل، ومن صميم العقل (عين العقل) أن الحكومة لم تطرد تلك المنظمات بل فتحت الباب أمامها خوفاً من العقوبات الدولية التي أصبحت قاب قوسين أو أدنى وطمعاً في المساعدات التي يجلبونها.

ثورة بولاد

التمرد في دارفور ليس جديداً، وتمرد داؤود يحي بولاد «ثورة بولاد» في مطلع التسعينيات ضد ثورة الإنقاذ الإسلامية - ولايزال ماثلا في الأذهان. أيضا تمرد الإسلاميين في الغرب - على جبهة الانقاذ - ليس أوله ولا آخره بولاد، فعديد من قادة التمرد الحاليين محسوبون على ثورة الانقاذ وأبرزهم الدكتور خليل إبراهيم رئيس حركة العدالة والمساواه الذي كان وزيرا ولائيا في حكومة الانقاذ قبل استقالته وانشقاقه على النظام ، وإذا كان مصير بولاد الإعدام بعد تحالفه مع حركة قرنق في الجنوب، فإن قادة التمرد «حاليا» حظوا بالعفو العام من الرئيس عمر البشير وأطلق سراحهم لتهدئة الخواطر وتهيئة المناخ لمفاوضات ابوجا أيضا النهب المسلح ليس دخيلا على دارفور، وسجلات الشرطة ترصد ٦٩٥٨ بلاغا بالنهب المسلح بين عامي ١٩٧٨- ٢٠٠٠ كان نصيب إقليم دارفور منها ٥٣٢٥ بلاغا أي بنسبة ٧٧ في المائة من مجمل البلاغات!

والقبلية في دارفور ليست خافية فحوادث الاحتراب القبلي تزيد بمعدل ١,٥ في المائة سنوياً، وهي ظاهرة لم تقلق أحداً خاصة أن هناك أكثر من ٥٠٠ قبيلة تسكن دارفور، ما بين رعاة ومزارعين، وما بين الرعاة والمزارعين كثير من التعديات على الأرض والزرع وهذا ما كان يتكرر دون مخاطر تهدد

حكايات التطهير العرقي والإبادة الجماعية والاغتصاب الجماعي لا تجد سندا في أرض الواقع وإن تداولتها الأفواه

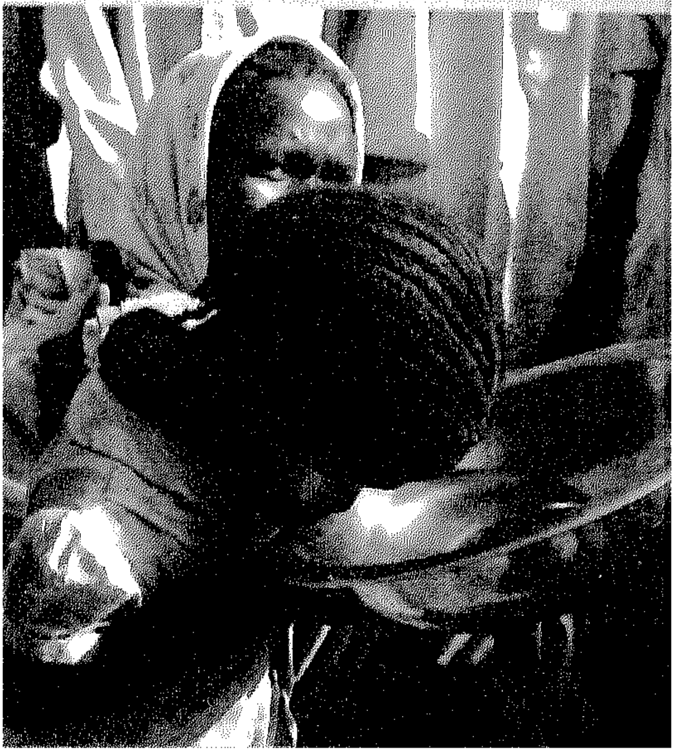

أطفال النزوح وجع فى قلب السودان

بانفصال دارفور كما جرى أخيراً، الأمر الذى يشى بأن للعبة وجها آخر قبيحاً هذه المرة!

والانفلات الأمنى أيضا ليس بجديد على الأسماع كما يقولون، ومحاولات إعادة الأمن والنظام متمثلة فى محاولة جمع السلاح من رجال القبائل وفى إعلان حالة الطوارئ بالإقليم فى أعقاب مؤتمر بسط الأمن الشامل فى «نيالا» عاصمة «حاضرة» جنوب دارفور فى ديسمبر ١٩٩٧ وفى استخدام القوات المسلحة حتى الطائرات فى تعقب الجناة وردعهم كما يجرى الآن .

كل هذا معروف وأشبه بعلكة - بلبانة - فى أفواه الجميع هنا ولكن ما يستلفت الانتباه هو انتشار الأسلحة الحديثة والإقبال الشديد على اقتناء أشدها فتكاً سواء فى أيدى الجنجويد، أو قوات التمرد، حتى القبائل المسالمة قررت تسليح شبابها حماية لعرض القبيلة الذى دأب التمرد والجنجويد على اغتصابه، والبندقية الآلية سجلت ٢٠٠ ألف جنيه سودانى نحو ٨٠ دولارا أميريكيا وهو سعر رخيص يشجع على اقتناء السلاح .

أيضا يلفت النظر دخول المثقفين ساحة المعركة القبلية وتطوير القضية من حالة احتراب قبلى إلى حالة مظالم، ومطالب لإعادة توزيع الثروة، بل ودعوة لاستقلال الاقليم كما حدث فى مؤتمر «أبشى» بتشاد الأمر الذى شكل تحولاً فى القضية، وحفز الحكومة على إنهاء التمرد بالقوة قبل أن يتمثل بالجنوب خاصة أن أصداء اتفاق نيفاشا تصم الآذان .

عرب وزرقة

فى دارفور أكثر من ٥٠٠ قبيلة منها القبائل العربية مثل الرزيقات والتعايشة والحبانية، والأفريقية (الزرقة) مثل المساليت والبرتى والداجو والفور والزغاوة والأخيرة متهمة باحتضان التمرد كما أن الحكومة متهمة باحتضان الجنجويد .

الزغاوة هى بيت القصيد الآن، والحاج عطا المنان والى ولاية جنوب دارفور يؤكد أن التمرد الأخير بدأ بين

قبيلة الزغاوة «الأفريقية» وقبيلة أولاد زيد «العربية» ورغم أنه تمت معالجة الوضع قبليا عبر «الأجاويد» -الحكم العرفي- ودفع الديات «الجوديات» فإن تدخل قطاع الطرق وأهل النهب والسلب واستغلالهم الأجواء القبلية المتوترة أدى لحدوث استقطاب حاد بين العرب والزغاوة - الأفارقة مما حدا بمقاتلي الزغاوة متحالفين مع المساليت والفور (مثلث مفز) للتمرد وطوروا أساليبهم وأشعلوها ناراً في المنطقة، وامتدت نيران التمرد إلى قبائل دار قمر وبني مرة، ولم تنفع المؤتمرات المحلية ولا تدخلات الإدارة الأهلية «السلاطين والولاة » في إجهاض حركة التمرد التي كانت انفلتت من عقالها.

ما لم يقله الحاج عطا أن اقتحام المتمردين مطار الفاشر في شمال دارفور وتخريب ٤ طائرات« انتنوف» ومثلها «أبابيل» على أرض المطار وذبح نحو ٧٥ من القوة المرابطة لحماية المطار، واختطاف اللواء إبراهيم البشرى من الجيش السوداني «ثم إطلاقه بعد دفع فدية كبيرة وتدخل السلاطين والولاة في المنطقة»، كان ايذانا بدخول الجيش المعركة ويؤكد اللواء عبد الرحيم حسين وزير الداخلية ومسئول الملف الأمني المفوض من الرئيس البشير في دارفور أن الجيش أجلى التمرد عن مناطقه، وحوله إلى عصابات في الهواء ليس لها مكان على أرض دارفور!!

حلم الزغاوة

والسؤال: لماذا الزغاوة؟ ولماذا التمرد؟

يطلقون على قبيلة الزغاوة لقب «اليهود السمر» فهم معروفون بين أهل السودان مثلما يعرف أهل دمياط في مصر بقدرتهم على جمع المال واستثماره وتكوين المؤسسات الاقتصادية وينظر السودانيون بكثير من الشك تجاه مسلك تلك القبيلة التي تشكل ١٧ في المائة من جملة سكان شمال دارفور «نحو المليون نسمة» ويقولون إن هدفهم الوصول للسلطة ويحركهم حلم «دولة الزغاوة الكبرى» التي تلم شتات الزغاوة من تشاد وليبيا وأفريقية الوسطى، وفروعها في نيجيريا والكاميرون ومالي والنيجر ويساهم الزغاوة في رواج تلك الصورة برفضهم الزواج من خارجهم، وأن كان ولابد فمن زوجة بيضاء« من مصر أو ليبيا» للوجاهة الاجتماعية بعد جمع المال الكثير ويوجدون بكثرة في شمال وغرب دارفور ويقل وجودهم في الجنوب، وظلوا يعملون في ركاب الحركة الإسلامية «جبهة الإنقاذ» وبرزوا في مواقع السلطة لحدود تولى أحد أبرز رموزهم -الشفيع أحمد محمد- أمانة حزب المؤتمر الوطني الحاكم في الخرطوم قبل تولى الدكتور حسن الترابي الأمانة «كان ذلك قبل انشقاق الترابي» ومن رموزهم في الخرطوم اللواء التيجاني أدم الطاهر وزير البيئة الاتحادية، وأحمد بابكر وزير التربية والتعليم فضلا عن وزير السياحة

ويقول مراقب من أهل المنطقة أن الزغاوة ظلوا يتحالفون مع حكم الإنقاذ حتى حدث الانشطار بين الترابي والبشير - في ٩ ديسمبر ٢٠٠٠ - فانفلتوا وانضموا لحزب الترابي -المؤتمر الشعبي- الذي استغلهم في حربه ضد حزب البشير «المؤتمر الوطني»، ويقال إن الترابي بإشارة من إصبعه يستطيع إشعال ثورة في الغرب، وأنه بمجرد الانشقاق حاول الترابي السفر بعد أيام إلى الفاشر «عاصمة شمال دارفور» إلا أنه منع من الوصول للطائرة في مطار الخرطوم وبعدها تم اعتقاله كما اعتقل

الطيارون من أبناء الغرب لعدم تنفيذ الأوامر بقصف دارفور لإنهاء التمرد!

الدكتور مصطفى عثمان وزير الخارجية السوداني يقول: صحيح إن الزغاوة قبيلة كبيرة وتاريخهم معروف، وكل انقلابات تشاد انطلقت من دار الزغاوة، حتى الرئيس التشادى إدريس ديبى من الزغاوة لكن موقف ديبى إيجابى، ورفض مطالب استقلال دارفور التى قال بها المتمردون فى مؤتمر « أبشى» للوساطة وإيقاف إطلاق النار فى سبتمبر ٢٠٠٣.

ويعلم ديبى أن الزغاوة قادرة على زلزلة الحدود التشادية -السودانية كما أن رفع مطلب تقرير المصير مزعج فى منطقة مضطربة مثل تلك المنطقة، وما يجرى فى غرب السودان يؤثر على شرق تشاد فالحدود مفتوحة والدليل أن العطور الفرنسية «بماركاتها الشهيرة» تباع فى أسواق «نيالا» بجنوب دارفور مهربة من تشاد فما بالك بالأسلحة الخفيفة والثقيلة .

الزغاوة رشحت نفسها لقيادة القبائل الأفريقية وأطلقت تمرداً يرفع شعارات التهميش والإقصاء، وأطاحت فى أولى جولات الصراع بنحو ٧٢ ضحية فى صراعها مع قبيلة أولاد زيد، وعدد ضحايا الصراع كلية من الحكومة والتمرد والمدنيين يحدده الدكتور مصطفى عثمان بحوالى ٥ آلاف بينهم ٤٨٦ من قوات الشرطة!

سؤال لماذا التمرد تجيب عليه حالة مطارات المنطقة، فمطار الجنينة «غرب دارفور» ذو مهابط ترابية وتحتار فى تفسير كيفية الهبوط والإقلاع منه بسلام، ولكن الطيارين الروس مهرة فى قيادة طائرات «الانتنوف» على تلك المهابط الرملية، وإلا لكانت رحلتنا للآخرة وليست لجنة الغرب .

لا أحد ينكر أن دارفور بعيدة، تبعد حوالى ١٥٠٠ كيلو متر عن العاصمة، وأن تذكرة الطائرة إلى الجنينة -غرب- تصل إلى ٨٠ دولارا، مقابل ٤٠ دولارا للأتوبيس و٢٠ دولارا للقطار الذى يتحرك مرتين فى الأسبوع والسيارة تحتاج ليومين لتصل إلى هناك، ربما هذا أدى لعزلة الإقليم الذى ربما كان يتصل بأسوان فى مصر أكثر مما يتصل بالخرطوم عبر درب الأربعين الذى تسير فيه قوافل الجمال أربعين يوماً وليلة من دارفور حتى دراو فى أسوان .

تلقى دارفور تحية الصباح على دراو وليس على الخرطوم!!

رعاة ومزارعون

فى دارفور الكبرى حسب - آخر تعداد - تعداد ١٩٩٣ م يعيش حوالى ٤,٧٤٦,٤٥٦ نسمة ينتمون لقبائل شتى كالفور ، البنى هلبة ، التنجر ، البرتى ، الهبانية، الزغاوة، الزيادية ، الرزيقات ، المساليت ، المعالية، التعايشة ، الميدوب ، البرقد ، المسيرية، العريقات، العطيفات ، الفلاتة ، القمر، بنى منصور ، التعالبة ، الدروق ، الصليحاب، الميما ، الترجم ، المراريت ، الهوارة والجوامعة ..

ويحترف معظم أهل دارفور الزراعة والرعى كحرفتين أساسيتين ، ويتحرك معظم المواطنين بحيواناتهم فى أراض واسعة يتراوح مناخها من السافنا الغنية إلى المناخ الصحراوى ، وتبعاً لذلك تختلف درجات الغطاء النباتى ، وتتوافر المياه باختلاف فصول السنة مما يتحتم معه حركة الرعاة فى المنطقة طلباً للكلأ والماء الأمر الذى يسبب احتكاكات ونزاعات بين القبائل التى تعتمد فى معيشتها على الزراعة وتلك التى ترعى الماشية والأغنام والجمال ، لكن سرعان ما يتم احتواء هذه

الاحتكاكات أو الاشتباكات بواسطة أعيان القبائل المختلفة .

وكنتاج طبيعي للظروف الطبيعية التى اجتاحت المنطقة فى الأعوام السابقة مثل الجفاف والتصحر فقد ظهرت خلافات ونزاعات بين القبائل التى تمارس الزراعة وتلك التى تحترف الرعى .. وقد كان من الإفرازات السلبية لهذه الظاهرة أن لجأ بعض الأفراد إلى تكوين عصابات النهب المسلح التى روعت دارفور بولاياتها الثلاث.

معظم قبائل المنطقة لها امتدادات طبيعية فى الدول المجاورة لإقليم دارفور الكبرى ، وتكاد تكون الحدود الجغرافية السياسية بين هذا الأقليم ودولة تشاد وكذلك أفريقيا الوسطى شبه منعدمة ، وذلك بسبب التواصل الاجتماعى والتجارى ، والاختلاط الأسرى للقبيلة الواحدة فى دارفور ومثيلتها فى تشاد أو أفريقيا الوسطى . ومن المؤكد أن هناك حراكاً سكانيا مستمراً فى هذه المنطقة عبر مختلف الحقب التاريخية امتد من غرب افريقيا وإلى الشرق حتى الهضبة الأثيوبية.

أدت الانفلاتات الأمنية ، والاضطرابات السياسية فى الدول المجاورة لإقليم دارفور عبر التاريخ إلى نزوح عدد كبير من قبائل تلك البلدان ، خاصة تشاد وأفريقيا الوسطى إلى إقليم دارفور ، وقد استقرت أغلب تلك القبائل بأرض الإقليم ، ساعد فى ذلك التداخل الأسرى واللغوى والتاريخ المشترك للمنطقة التى كانت مملكة واحدة فيما يسمى بالسودان القديم والذى يمتد من السنغال وغامبيا على المحيط الأطلسى إلى أثيوبيا فى أقصى شرق القارة الأفريقية.

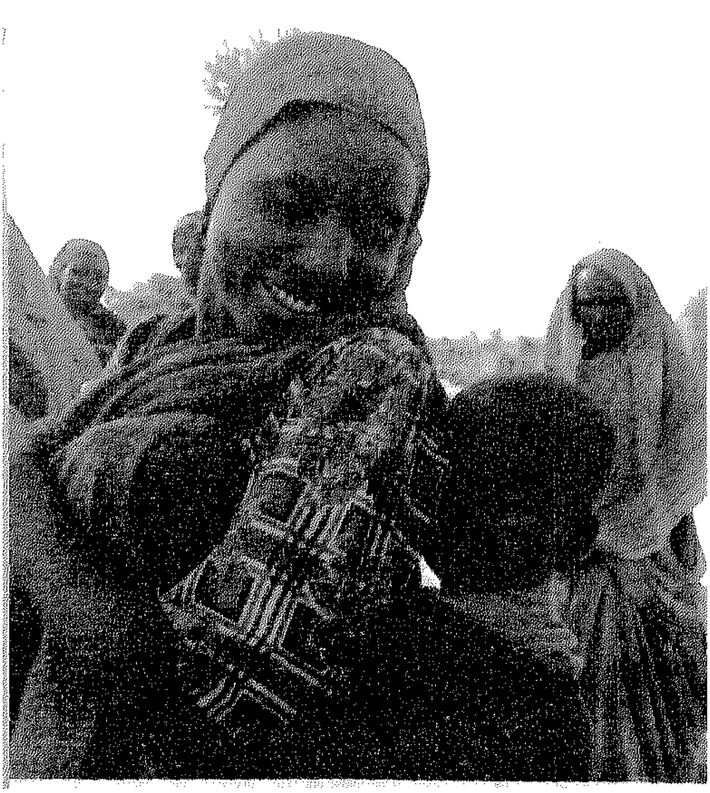

فى رحلة البحث عن الأمان.. الجنجاويد أمامهم والتمرد من خلفهم والأمل فى البقاء يدفعهم للابتسام رغم المحنة

ومن إفرازات النزاعات التشادية الداخلية منذ أوائل السبعينات ، وكذلك الحرب التشادية الليبية، فضلاً عن القتال الذى استمر فى جنوب السودان لعقدين من الزمان انتشار الأسلحة بمختلف أنواعها وتكديسها لدى المواطنين فى بيئة يصعب على الدولة والوجود الحكومى تعقبها ، وقد تفاقمت هذه المشكلة فى الفترة الأخيرة عندما برز استخدام الأسلحة المتطورة بواسطة عصابات النهب المسلح التى أضحت تقلق مضاجع المواطنين .

وفى الحقب الماضية جرى عقد الكثير من مؤتمرات الصلح بين العديد من قبائل دارفور مثال ذلك :

قمر وزغاوة ، البرتى والميدوب، أولاد منصور وأولاد قايد (من قبيلة المهرية) ، الهرية وبنى هلبة ، الرزيقات والمعاليا ، القمر والفلاتة، الزغاوة والميما.

غير أن هذه المؤتمرات لم تحقق الغايات المرجوة منها ، وتعود أسباب

ذلك لعدم إيصال التوصيات والقرارات إلى القواعد ، كما أن للطرف الثالث في بعض الأحيان أهدافاً خفية (مثل دعم عصابات النهب المسلح ، وتجار السلاح) ، فضلاً عن أن الكثير من تلك التوصيات والقرارات تعثر أمر تنفيذها عبر مختلف العقود لأسباب مختلفة.

حركة قرنق

على صعيد آخر شهد إقليم دارفور الكبرى استقطاباً حاداً فى مختلف عهود الأنظمة الديمقراطية حيث مارست مختلف الأحزاب السياسية ، وبخاصة الحزبان الكبيران (الأمة والاتحادى)، استقطابا لأغراض حزبية اتسم بالطابع القبلى ، ومساندة قبيلة على حساب قبيلة أخرى ، الأمر الذى عرض تماسك النسيج الاجتماعى فى الإقليم إلى الضعف ، وأوجد مناخاً من عدم الثقة فيما بين قبائل الإقليم.

ومنذ بداية نشاط الحركة الشعبية في جنوب السودان ، سعت الحركة إلى إيجاد موطئ قدم لها فى الإقليم عن طريق تجنيد بعض أفراد القبائل ، وتسليحهم ، خاصة قدامى المحاربين الذين كانوا يتبعون للفصائل التشادية وقد انقطعت بهم السبل مستفيدة من التداخل السياسى فى المنطقة ، وموقف النظام السياسى التشادى السابق «نظام حسين حبرى» الذى أراد أيضاً أن يخلق حاجزاً أمنياً لمنع المقاومة المعارضة لحكمه والتى أيضاً وجدت لها بعض المساحة فى مناطق دارفور بحكم التداخل القبلى والأمنى . وكانت أولى التدخلات الفعلية للحركة الشعبية قد بدأت فى أوائل التسعينات من القرن الماضى فيما سمى بحملة داؤود يحى بولاد فى مناطق دارفور التى تم وأدها فى مهدها .

ولقد واصلت الحركة الشعبية هذا الاستقطاب مع تطور الحرب فى جنوب البلاد ، وشمل ذلك الفترة الأخيرة التى تزامنت فيها تطورات الأوضاع فى دارفور مع مفاوضات السلام الجارية بكينيا وذلك بهدف ممارسة الضغط على الحكومة خاصة ما يتصل بشأن المناطق الثلاث المتنازع عليها .

على صعيد آخر ، تعرضت دارفور الكبرى ، وشمال الأقليم بوجه خاص إلى موجة الجفاف

المشهورة فى سبعينات وثمانينات القرن الماضى والتى امتدت لأكثر من عقد من الزمان، ونجم عنها مجاعة فى أكثر من موقع فى الإقليم ، وأدت إلى حراك سكانى هائل من شمال الإقليم إلى جنوبه الذى يتمتع بموارد طبيعية أفضل بكثير من تلك التى تتوافر فى إقليم الشمال . وكان من الافرازات السالبة لهذا الحراك السكانى قيام تنظيمات مسلحة متباينة الأهداف ، منها ما هدف للدفاع عن القبيلة ومصالحها والحفاظ على ممتلكاتها رعياً كان أم زراعة ، ومنها من وجد فى عدم الاستقرار مناخاً ملائماً لتأسيس تنظميات للنهب المسلح خدمة لمصالح ذاتية وفردية . ولقد وجدت هذه التنظيمات دعماً من بعض مثقفى الإقليم بالداخل والخارج الذين استغلوا هذه المتغيرات التى شهدها الإقليم مما أدى إلى نشأة عدد من التنظيمات ، وخدمة لأجندة وأطماع شخصية أو سياسية أو كليهما معاً .

العدالة والمساواة

المعارضة المسلحة فى دارفور تتمثل فى ثالوث من الحركات تشكل مثلثا غير متساوى الاضلاع يطبق على دارفور من كل الاتجاهات ، الأولى حركة تحرير السودان « قطاع دارفور» وهى حركة ينتمى معظم أعضائها لفرع تورا من قبيلة الزغاوة ، وينحصر نشاط هذا التنظيم فى مناطق دار زغاوة (أمبرو – كرنوى – أبو قمرة – الطينة) ، ويتزعمها المحامى عبدالواحد محمد نور من «الفور» وأمينها العام منى أركو مناوى من «الزغاوة» ، وهذه المجموعة بدأت بمطالب ذات طابع محلى دون أن تقترن ذلك بأية أبعاد أو مطالب سياسية ، غير أن هذا الوضع تغير بشكل فجائى فى اتجاه معاكس تماماً فى الآونة الأخيرة بسبب تدخل عناصر من حزب المؤتمر الشعبى (حزب الترابى) من بينها سليمان جاموس ، وأبو بكر حامد ووضعت قائمة شروط أبرزها قسمة السلطة والثروة على نسق مطالب حركة قرنق .

الثانية حركة العدالة والمساواة وهى فرع آخر من قبيلة الزغاوة ، وتسمى (زغاوة كوبى) ، وتوجد فى مناطق كلبس، وجرجيرة وطندباية على الشريط الحدودى مع تشاد ، ويتزعمها د. خليل إبراهيم أحد رجال الترابى ويقال إن تلك الحركة هى الجناح العسكرى لحزب المؤتمر الشعبى . ورغم أن هذه المجموعة بدأت كفئة تسعى لتحقيق التنمية المتوازنة لإقليم دارفور فإنها جنحت لأغراض وغايات سياسية فى الآونة الأخيرة بتبنيها الواضح لأطروحات المؤتمر الشعبى ، كما نجحت هذه المجموعة فى تحقيق تنسيق عسكرى وسياسى مع المجموعة الأولى (حركة تحرير السودان) ودفعت بها لتأجيج القتال ، وترويع المواطنين ، وتعريض حياتهم وممتلكاتهم للخطر . كما تسببت هذه المجموعة فى إفشال مفاوضات أنجمينا ومن بعدها مفاوضات اديس ابابا بطرحها لقضايا ومطالب لم تكن واردة أصلاً فى اتفاق «أبشى» الإطارى الموقع بتاريخ ٣ سبتمبر ٢٠٠٣ م بين الحكومة وحركة تحرير السودان.

ثالثها الاتحادى الفيدرالى الديمقراطى وهو أحد الأحزاب السياسية فى فترة الديمقراطية الثالثة ، وأسسه المهندس أحمد إبراهيم دريج الذى تقلد العديد من المناصب كان آخرها حاكم إقليم دارفور فى أواخر عهد الرئيس الأسبق جعفر نميرى . والمهندس أحمد إبراهيم دريج من أبناء قبيلة الفور ، وقد انضم بحزبه إلى التجمع الوطنى الديمقراطى المعارض برئاسة مولانا محمد عثمان الميرغنى غير أن تياراً من هذا الحزب قاده نائبه د.شريف حرير سلك نهجاً مغايراً وتبنى

حركة تحرير السودان وأصبح متحدثا باسمها فى كل المحافل الدولية .

أبو شوك

ربما لايعلم الكثيرون من نازحى معسكر «السلام» فى محلية « أبو شوك» بالفاشر عاصمة ولاية شمال دارفور ما يجرى من فوق رؤوسهم ، أو يعلمون من هم قادة التمرد، كما أن نفراً قليلاً منهم الذى يعى الأزمة الحالية ، كما أن أحدا من ٤٢ ألف نازح يضمهم المعسكر لايعرف أن مجلس الأمن فى حالة إنعقاد مستمر ليناقش قضيتهم وانتهى لمنح حكومة الخرطوم ثلاثين يوما (مهلة أولى) لتفكيك أزمة دارفور، مؤكدا أنهم لايعرفون من تفاصيل أزمتهم التى أصبحت دولية سوى الخوف والرعب من شبح الجنجويد الذى سكن قلوب هؤلاء قبل أن يسكن قراهم التى يرفضون العودة إليها لأن الجنجويد هناك، يفضلون العيش هنا فى معسكرات النزوح لأنهم فى أمان .. ويشيرون دائما بالدعاء لبيض البشرة « الخواجات» الذين يعملون فى صفوف المنظمات الطوعية والإغاثية التى تستحث الخطى لتأمين المعونات الإنسانية والغذائية والطبية قبل الهطول الكثيف لأمطار الخريف .

ورغم أنهم فى أمان الحكومة ومعسكراتها التى نظمتها وتشرف على ادارتها «قواتها النظامية» فإنهم يعطونها ظهرهم ولا يتحدثون عنها أبدا بخير بل يكيلون لها الاتهامات باعتبارها راعية الجنجويد الذين حرقوا «الحلة» وسرقوا «الذهب» وقتلوا «الشباب» واغتصبوا «النساء» فى عرف هؤلاء الحكومة والجنجويد واحد ، ويطالبون بقوات دولية للحماية والمطلب الأخير على لسان النازح زكريا هارون عوض من «جبل سى» والذى ينتمى إلى قبيلة «ميماوى» إحدى القبائل الافريقية والذى فقد ثمانية من أفراد أسرته ، وجاء إلى المعسكر باكيا ليجلس تحت سقيفة – خيمة – مع عشرات من الرجال النازحين ، خرجوا عصر هذا اليوم إلى العراء للونسة فى الظل الذى ترطبه رياح الشمال هربا من جحيم الخيام التى احتوت فى قعورها الساخنة النساء اللاتي تفرغن لطبخ «الدخن» لسد جوع الأطفال.

هطول أمطار الخريف وحده مشكلة ومنظمات الإغاثة تستنجد بالمجتمع الدولى لإغاثة الموقف قبل أن تتقطع طرق المواصلات وتمتلىء الوديان ويصبح من العسير الحركة بين المعسكرات التى تحوى نحو المليون نازح منهم 231 ألفا فى ولاية شمال دارفور وحدها فى 7 معسكرات منها إثنان فى الفاشر ومثلها فى كتم ، وثلاثة فى محلية كبكابيه ، جميع من فيها من النازحين يرفضون العودة وإن عاد منهم حسب التقديرات الولائية فقط 7 آلاف وهو رقم ضئيل يؤكد أن العودة متعثرة بسبب رعب الجنجويد الذى يخشى منه هؤلاء .

فى الأسبوع الأول من مايو الماضى زرت معسكرات النزوح ثم عدت اليها فى الأسبوع الأول من أغسطس ، بفارق ثلاثة شهور كاملة مرت على دارفور وكأن شيئا لم يتغير ، نفس الخوف يسكن القرى التى خوت ونفس الشكوى ونفس القصص التى تبدو خيالية بعض الشىء ، وشفاهية دائما فعندما يتحدث زكريا هارون الميماوى عن الطائرات التى تطارد الافارقة من أعلى يبدو الأمر مثيرا للخيال، فأين هو هذا الطيار الذى يفرق بين العربى والافريقى فى دارفور من على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، وعندما يتحدث ابراهيم موسى عن إلقاء الأطفال فى آبار المياه دون ذنب أو جريرة ، تبدو الأمور فى حاجة للجان تقصى حقائق مثل التى تحركت من

الاتحاد الاوروبي في الأسبوع الأول من أغسطس ويصبح من المستحسن موافقة الحكومة السودانية على السماح لمثل هذه اللجان بالخوض في أدغال دارفور لأن ما يقال حسب والي ولاية شمال دارفور لايمت لدارفور بصلة ، ويضيف الوالي عثمان كبر في حزن بالغ أن الذي اسمعه في وسائل الإعلام الامريكية والاوروبية وحتى بعض الفضائيات العربية يؤكد أنني لا أعيش في دارفور .. وهم الذين يقيمون هنا، إنهم يتكلمون عن دارفور أخرى غير التي أعرفها، ما يسردونه من فظائع وكوارث ومصائب تؤكد أنها ليست دارفور، يرسمون صورة قاتمة وموغلة في القتامة، نعم هناك مشكلة في دارفور وهناك نزوح ولكن ليس بالصورة التي يرسمونها.

الوالي يقول: إنهم يرفعون «قميص دارفور» ليغطوا على اخفاقهم في مناطق أخرى ، وللتغطية على أهداف سياسية غير مرئية ، في ظنهم أن عودة بوش إلى البيت الأبيض ستكون على حصان من دارفور ورائحة النفط الذي ينبعث من أرض دارفور تزكم الأنوف وبريق اليورانيوم يزغلل العيون ويتحد لن نكون كبش فداء لفضائحهم في أبو غريب ولفشلهم في الصومال والعراق !!

فور وتنجر

فاطمة وحليمة ، وكل النساء والاطفال يعيشون في معسكر السلام بابي شوك ، ويبدو أنهن جميعا من حسني الحظ فالمعسكر مازال بعيدا عن الأوبئة والأمراض ، ويؤكد مديره الفاتح عبد العزيز عبد النبي أن ٨٠ في المائة من نازحي المعسكر البالغ عددهم ٤٢ ألف من النساء والأطفال جاءوا من مناطق كتم وكبكابية وكورنوي واويله . وجبل سي وينتمون لقبائل الفور والتنجر والبرتي وقليل من قبيلة الزغاوة ويقول: إن في المعسكرات تمازجا وانسجاما كاملين وليس صحيحا أن القبيلة التي تعاني منها دارفور انتقلت إلى المعسكر.

النازحون في المعسكر حسب ورقة أعدتها لجنة تشجيع العودة الطوعية للنازحين بولاية شمال دارفور جرى حصرهم وتصنيفهم وقدرت أعدادهم في الولاية بحوالي ٣٠٠ الف نازح منهم ٦٩ ألفا

بمعسكر «ابو شوك» بمدينة الفاشر وحوالى ٦٢ ألفا بمعسكر «كساب» بمدينة كتم وحوالي ٢٥ ألفا بطويلة ومثلهم بمعسكر «زمزم» بالقرب من مدينة الفاشر وتتوزع البقية على معسكرات أخرى مثل كبكابية وسرف عمره ، ويتلقى هؤلاء خدمات جيدة وغوثا مباشرا بما فى ذلك الرعاية الصحية والتعليم فى ظروف الطوارئ.

خلاف هؤلاء هناك نازحون - على الطريقة السودانية - داخل المدن مع أقربائهم وهؤلاء تحركوا من مواقعهم والتحقوا بأهلهم فى المدن والقرى الأخرى الآمنة وتقاسموا معهم المكان والغذاء وهؤلاء لا يمكن حصرهم إلا ببذل جهد مضاعف من جانب الحكومة وعددهم قد يفوق - فى تقدير اللجنة - أعداد النازحين في المعسكرات كثيرا.

أما اكثرية المتأثرين بالنزاع المسلح فقد ظلوا محاصرين فى مواقعهم وهذه الفئة الأخيرة تشمل القطاع الأكبر من المتأثرين بالحرب فى دارفور وهم فئة بقيت فى مواقعها فى ظروف إنسانية سيئة بسبب الحرب وانقطاع الطرق وانعدام الأمن وفوات خريف العام الماضى عليهم . وبقى هؤلاء فى مواقعهم دون مؤونة ودون أمن ودون غوث من أحد

••

رواية شائعة يرويها أهل دارفور عن آخر ملوك الداجو الذى ركب «التيتل»، تقول الرواية: إن آخر ملوك «الداجو» كان ظالما باطشا غير رفيق بالرعية ، وأنه أمر شعبه بنقل جبل وضمه إلى بقية جبال الداجو وأن الناس قد ماتوا كثيرا جراء سقوط وانهيار الجبل عليهم ، ومن ظلمه أيضا أنه كان يخصى الرجال ويستأصل ذكورهم ، وبلغ به الغرور والعجب أن طلب من والدته أن تريه المخرج الذى أتى منه إلى الدنيا فهو شخص غير عادى ولابد أن يكون مخرجه الذى أتى منه إلى الدنيا كذلك غير عادى ومختلف عن مخارج الرجال الذين قهرهم .

غضبت الأم لذلك وتدبرت الحيلة مع الرعية وكبر عليها أن تكون هى سبب شقاء أمتها لإنجابها لذلك الطاغوت المستبد وجعلت أمر الخلاص منه كفارة لها من ميلاده ! ، ولما سألها للمرة الثانية وأعاد عليها طلبه ردت عليه أنه مازال كالعامة ولا يميزه عنهم شىء كثير، ذلك أنه مازال يمتطى ما يركبه العامة فطلب من أمه سبيل ذلك التماين، فاقترحت عليه أن يلزم الرعية باحضار حيوان (التيتل) ليكون مركبه أبدا . فجىء بالتيتل سليما ملجما مسرجا واركبوه عليه بعد أن حزموه بسيور الجلد واوثقوا ربطه عليه ، فلكزوا الوحش وفكوا لجامه ، فانطلق لايلوى على شىء بين الأشجار والأدغال، والملك الأحمق يتمزق ويصيح فيزيد من جفول الوحش ، والداجو يتبعون الأثر تغمرهم الفرحة والابتهاج ، وكلما وجدوا قطعة من لباسه وجزءا من أشلائه وضعوا قرية واستقر جزء منهم هناك ، فتفرقوا هم أيضا لحمقهم ومحوا دولتهم بالتشتت .

رواية سمعتها فى سوق نيالا الرئيسى حيث تفوح من الحوانيت البدائية أرق العطور الفرنسية التى تهرب عبر الحدود التشادية إلى أسواق حاضرة ولاية جنوب دارفور ، رواها لى مرافقى العجوز وهو يصف تمرد دارفور بالحمق الذى يوازى حمق الملك راكب التيتل ، وحمق الحكومة فى معالجة الأزمة بالشكل الذى يجعلها مثل شعب التاجو مشتتة مبعثرة الجهد والصف فى مواجهة أزمة ستعصف بكل السودان من غربه حتى شرقه وإن سكن الجنوب مؤقتا . ■

لغويات

روى النضر بن شُميل المازني: دخلت يوما على المأمون في سمره، وعليّ إزار مرقّع فقال لي: يا نضر، ما هذا التقشف؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ، وحر مدينة مرو كما ترى، فأحببت أن أتبرد بهذه الخلقان (أي الملابس القديمة).

ثم جرى الحديث في ذكر النساء فقال المأمون: حدثنا هُشَيم بن بشير، عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان في ذلك سَداد (بفتح السين) من عوز».

قلت: يا أمير المؤمنين، صدق هشيم. حدثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن الحسن بن علي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما رجل تزوج امرأة لدينها وجمالها كان في ذلك سِداد (بكسر السين) من عوز».

وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا ثم قال: يا نضر كيف قال هُشيم سَداد (بفتح السين)، ولم يقل سِداد (بكسرها) وما الفرق بينهما؟

قلت: يا أمير المؤمنين: السَّداد بفتح السين: القصد في الدين والسبيل، والسِّداد بالكسر من الثغر والثُلمة، وكل ما سددت به شيئا فهو سداد.

قال المأمون: وتعرف العرب ذلك؟

قلت: نعم، قال الشاعر:

أضاعوني، وأيّ فتي أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

قال المأمون: قبّح الله اللحن. قلت: يا أمير المؤمنين، إنه لحن هشيم، وكان هشيم لحّانة، فاتبع الأمير لفظه، وقد تُتبع أخبار العلماء.

●●●

ولكن المادة اللغوية أوسع مما ورد في الحكاية، يقال: سَدّ (بفتح السين) الشيء: استقام وأصاب، فهو سديد.

وسَدّ عليه باب الكلام: منعه منه وسدّد السهم إلى الصيد وجهه إليه. وسدّد صاحبه: علّمه وهداه. وسدّد ماله: أحسن العمل به. وسدّد عليه القول: نقضه.

والسَّداد: الاستقامة والقصد والصواب من القول والفعل.

والسِّد: الحاجز بين الشيئين، والبناء في مجرى الماء ليحجزه.

والسِّداد (بكسر السين): ما سددت به خللا، يقال سِداد القارورة لما يسد فمها. وسداد من عوز، ومن عيش لما يسد الحاجة.

وأقر مجمعَ اللغة العربية ما ارتأته لجنة المصطلحات الطبية من:

السداد: جلطة دموية، أو كتلة من البكتريا أو جسم غريب آخر، يسد وعاء دمويا.

والسُّداد (بضم السين) داء يسد الأنف فيمنع دخول الهواء، وكل ما يسد مجرى في البدن.

والانسداد التاجي: انغلاق الشريان التاجي بجلطة دموية.

د. الطاهر أحمد مكي

اختفى الممشى المحاذى لأسوار «قلعة قايتباى» بكل ما يحمله من ذكريات الشباب

الإسكندرية في عصرها الذهبي ١٨٣٠-١٩٣٠م

بقلم
عرفه عبده على

◆ مدينة ساحرة أجنبية ومصرية !

◆ رسمها كفافى وداريل ونجيب محفوظ

لكل مدينة شخصيتها وزمانها ... ولمدينتنا «الإسكندرية» أزمنة وشخصيات، إنها مدينة ذات هوية خاصة .. صنعت أزمنة، وصنعت حضارة، وفيها انصهرت ثقافات، وبداخلها تفاعلت حضارات ،، وبقيت الإسكندرية !

الإسكندرية .. مدينة تختلف .. لأنها خلبت ألباب كل من أتى إليها سواء لقضاء بضعة ليال أو الذين لم يغادروها قط!

وكل من سعى للكتابة عنها، حاولوا أن تكون كتاباتهم شامخة .. تماماً مثل الإسكندرية وشواهد عزها القديم .

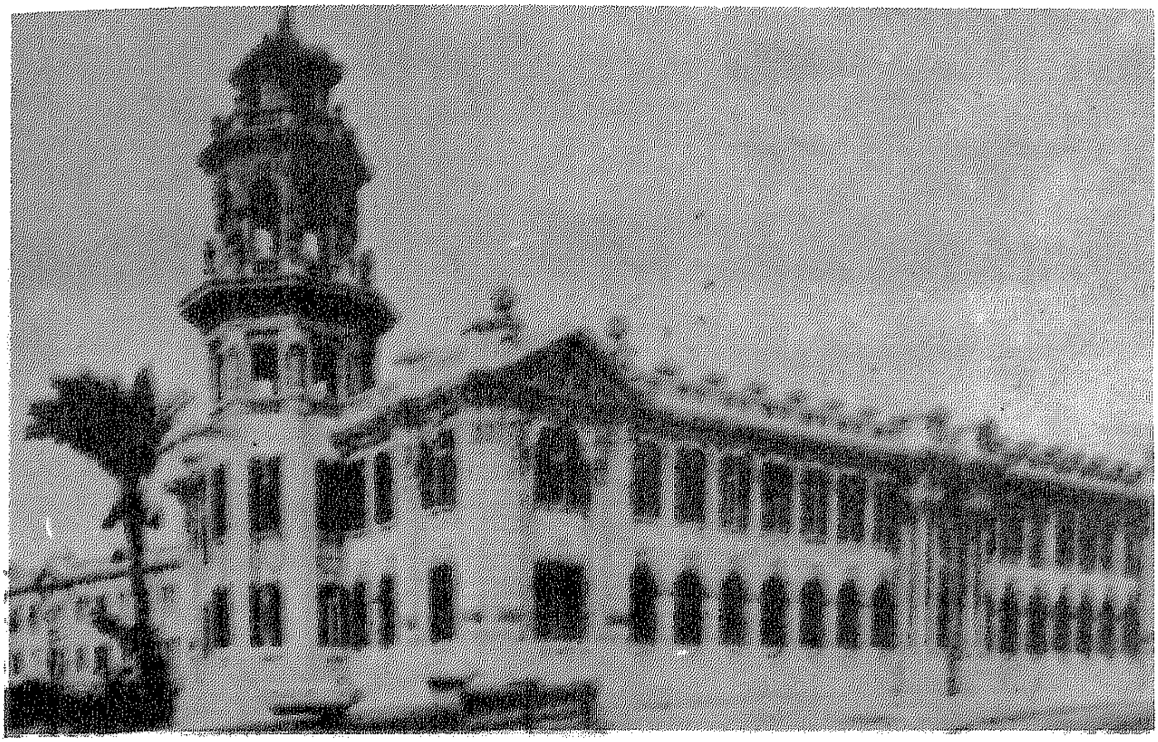

سراى رأس التين فى ١٨٩٨ م

ومن بين هؤلاء البروفيسور «روبير البير - Robert il-berta رئيس قسم التاريخ المعاصر للبحر المتوسط بجامعة بروفنس بفرنسا ومدير مركز الدراسات التاريخية المتوسطية المعاصر (CEHMC) يقدم لنا فى دراسته هذه «الإسكندرية ١٨٣٠ - ١٩٣٠ أسطورة المدينة المتوسطية» * صوراً من التفاعلات الحضارية لمجتمع الإسكندرية .

- فى تلك الفترة الذهبية - ولم يجنح للخيال، بالرغم من جاذبيته فى حديثه عن موطن الذكريات .. وما أعمق الشجن الذى ينبض فى كلماته الصادقة المعبرة عن نشوة ذكرياته .. وماض ساحر نسجته خيوط حلم رائع !..

يقول رنبير

هى كذلك الإسكندرية مثل بعض مدن العالم النادرة، فلا يمكن أن نذهب إليها اليوم دون أن نتزود ببعض الذكريات

ودون أن تتفاعل بداخلنا أحلام العظمة القديمة .. التى تتولد من ذكر اسمها - وصور لميناء عالمى زاخر منذ عصر الشاعر اليونانى قنسطنطين كافافى (توفى ١٩٣٣) وحتى الكاتب المعاصر «نجيب محفوظ» دون أن تنسى ديريل DURRELL أو تسيركاس TSIRKAS (مؤلف قصة مدينة يجرفها التيار) الإسكندرية ، اسكندريتنا الحديثة، إنها المدينة ، توليفة لحظة ، مفارقات تلتقى فى تعبير واحد : مدينة متوسطية ...!

ولكن ماذا يعنى ذلك بالضبط؟ أغنية الحنين إلى الماضى .. الإسكندرية، فى نفس الوقت مدينة ساحرة ومناضلة، تاريخية وجديدة أجنبية ومصرية، حدودية ومدخل ..

وبتتبعها على مدار المائة عام من عظمتها ، من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٩٣٠، ربما نستطيع ، أو نحاول أن نلقى الضوء

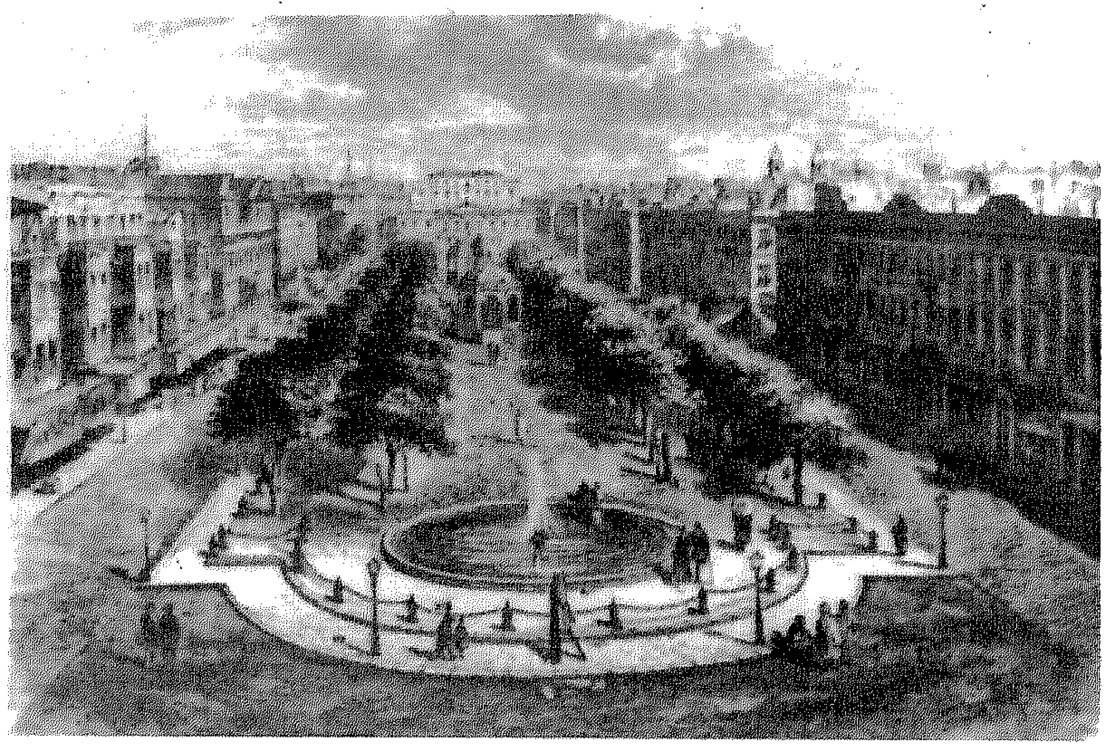

ميدان المنشية (القناصل - محمد على باشا) فى ١٨٨٠ م

على هذه الفكرة المتوسطية، وربما نحاول أن نحاصر حدود الأحلام !

موطن التخيلات :

ولأن الأمر يتعلق بحلم ، أو بتخيلات، وأن المدينة تستسلم لنا ، أولاً من خلال صورها أو على الأقل، تلك الصور التي نقلها إلينا آخرون عن هذه المدينة ... بدءاً بالرحالة مروراً بالسائح حيث لايوجد ما يراه، إلا بعض الآثار المعزولة، ومتحف جميل، ولكن أيضا مدينة حيث يجب التوقف والتذوق ، تشعر فيها بشىء يذكرنا بمارسيليا أو بجنيس (Genes)بمينائها ولكن أيضا بهندستها المعمارية التي توحى بأن الإنسان قد قام بجولة فى حوض البحر الأبيض المتوسط

وفى نفس الوقت، توجد الأسواق، والشوارع القديمة المقسمة إلى طرق غير نافذة .. تعلن عن الشرق، هذه إذن مدينة ذات أصول عديدة، وشعبها ملون، وهى باب أغلق على الغرب وانفتح على الشرق .. ولكنها أيضا «لقاء»!

الإسكندرية الفريدة .. الزاخرة بالتاريخ .. مدينة المائة عام ١٨٣٠ - ١٩٣٠ التى استوعبت فى غضونها وأبدعت كل ما أنتجته عالمية المواطن وطريقة تفكيره العالمية الثقافية للإسكندرية كانت البوتقة التى تنصهر فيها أفكار وتوجهات التجمعات الأجنبية..

تتحدث فيها أربعة أو خمسة لغات وتصدر فيها صحف بالفرنسية أو بالإنجليزية وبالعربية وبالروسية وأيضا باليونانية، وبالإيطالية وتقريباً بالأرمنية وحتى باللادينو!

وتتم اللقاءات خاصة على أرصفة المقاهى، وفى محلات الحلوى، وأيضاً فى الكازينوهات أو على الشاطىء .. بلاج الرمل الأنيق .. هناك أيضا البلاجات الشعبية حيث تتساوى الطبقات، وحيث تستطيع أن تتخيل الألعاب «كاموس»

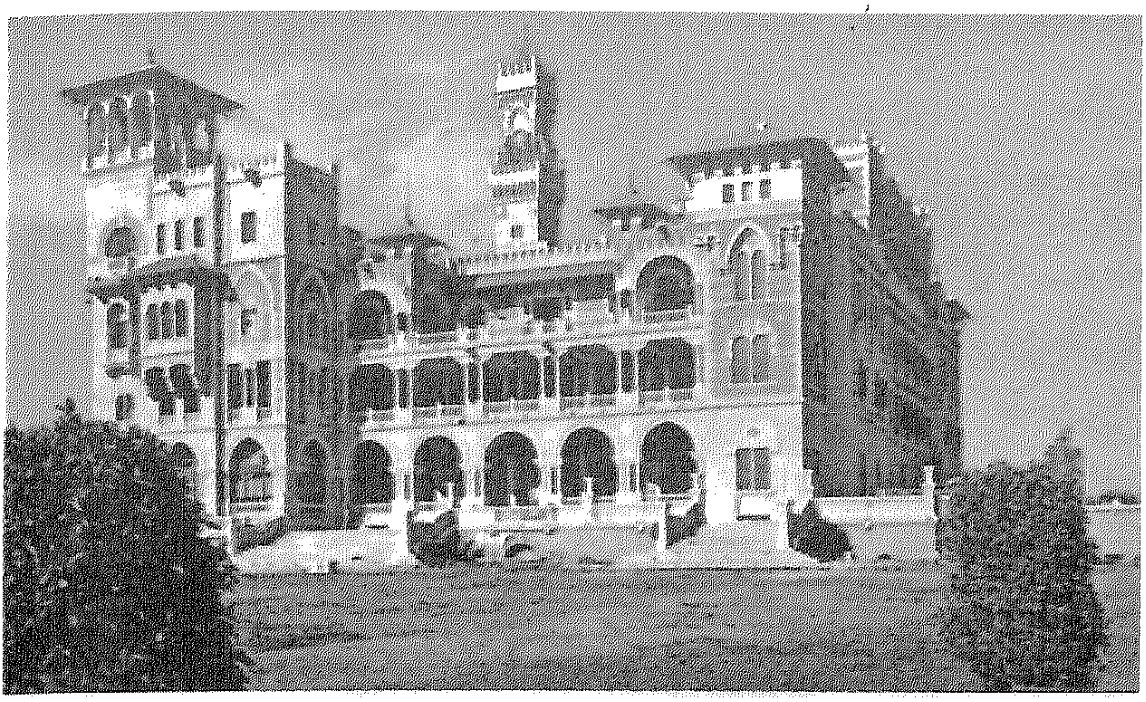
قصر المنتزه شيده الخديو عباس حلمى الثانى فى ١٩٠٠ م، وكان مقرا صيفيا للملك فاروق

الشباب المتمصر، على الشاطئ الأنفوشي.

وهذه اللقاءات تتولد عنها لقاءات أخرى، وهذه الصورة تعكس ثقافة هؤلاء الذين يقومون بعملية مسح للمدينة، دليل، أو قصائد شعرية فى متناول اليد، وقراء دليل «فورستر Forsterå†أصبحوا وسيظلون كثيرين.

نجد فيها المدينة اليونانية تحت المدينة الحديثة والطريق الكانوبى، تحت شارع رشيد، والفنار تحت قلعة «قايتباى» ونعرف أن قبر الإسكندر تحت كنيسة النبى دانيال ونعرف منها الأسوار العظيمة التى ترجع إلى العصر العربى .. وفى العصور الوسطى كان الرحالة الذين يتوقفون بالإسكندرية لايفوتهم الاستمتاع برؤية عمود بومبى .

صورة الماضى

وصورة هذا الماضى قد اختفت، ونتناولها اليوم بحكايات نصفها حقيقى، ونصفها خيالى ..!

أنفاق المدينة ذات الخزانات الضخمة .. سراديب الموتى المتعددة .. إذا كانت من الماضى اليونانى، فلم يبق شئ يذكر، فموطن الخيال لم يزل موجوداً فبأى شئ يزدهر ..؟!

كل ذلك خلق كوكبة من النجوم المتألقة أو العابسة، حيث يسود الضوء تماماً .. لكن ذلك لم يكن اللون الأزرق ولا عرائس البحر المتوسط، لكنها سماء خانقة تتسم بالحنين إلى الوطن، موقع هاجمته الرياح، رياح رواية نجيب محفوظ «ميرامار» أو السطحية المتوغلة فى قصيدة كافافى – Cavafy††المدينة والتى يمكن أن تحدثنا ببساطة عن الإسكندرية : ولن تجد بلاداً جديدة، ولن تكتشف شواطئ جديدة . المدينة سوف تتبعك وسوف تزحف فى نفس الشوارع وسيتقدم بك السن وأنت فى نفس الأحياء، وسيشتعل رأسك شيباً وأنت فى نفس المنازل!

اللون الأزرق فى ذاكرة هؤلاء الذين

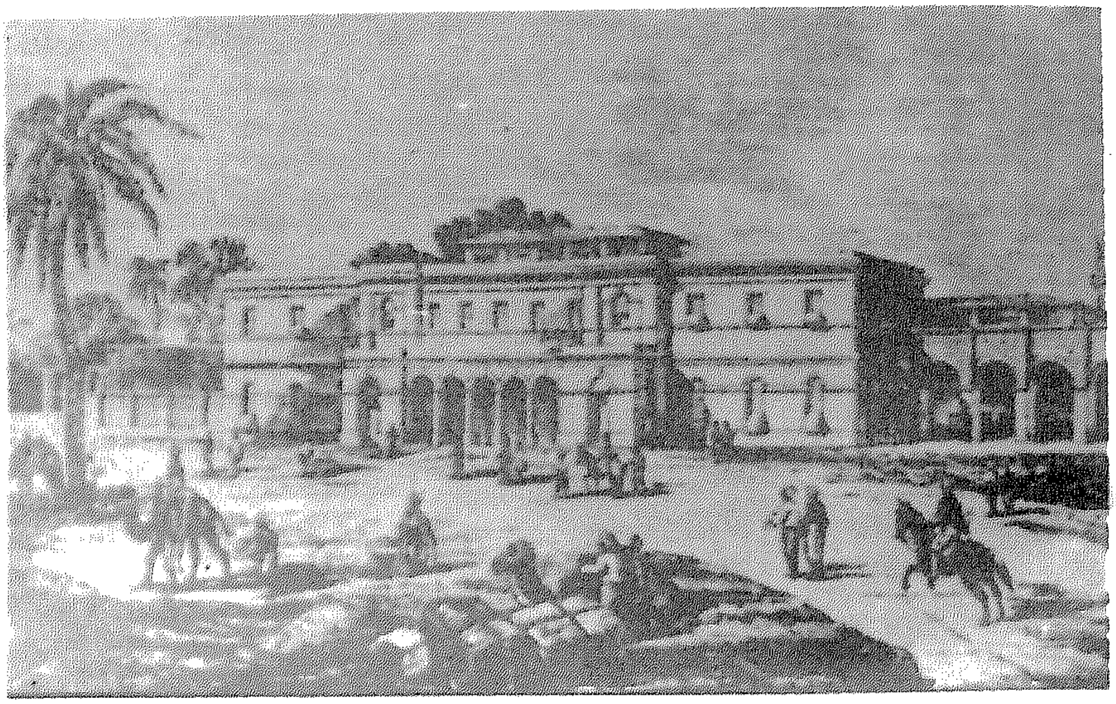

محطة الإسكندرية القديمة فى ١٨٥٦ م

رحلوا ولم يزل فى كل مكان، الصيف في العجمى أو فى سيدى بشر يظل مشبعاً بالحنين إلى الماضى .. استخدمه «نجيب محفوظ» كلوحة ديكور، تلاعب فيها بكلمات وطنية !

ينطلق هنا الفجور على القصور الخادع وتنزلق الرغبة من البحر تجاه المنازل المغلقة وتجاه الحارات، حيث يصحب الشاعر اليونانى الفتيان Ephabes الذين يؤنسون لياليه .!

هذه الكوكبة المتألقة من الصور تنسج خيوط حلم رائع .. ولكنها أيضا على شئ أخر، مهما يكن ما يشعر به ساكن المدينة الحالى، فهى تدل على وجود المدينة التى تفرض عليه بلا اكتراث .. المهم أننا نجد فيها كل ما يعمق التفاعلات الحضارية والاتجاه نحو المدينة الحديثة إذن هذا هو ما يجب أن نفهمه .. !

كيف تسنى لهذه المدينة أن تصبح رمزاً هكذا؟

كيف لهذه المدينة، والتى خلفت من حوالى قرن من الزمان تقريباً استطاعت أن تتزود بقلب يخفق بأجيال من الرجال والنساء، واستمرت فى إحياء مركز ظل صامداً بكل إصرار وعزم ؟

المدينة الحديثة :

هذه المدينة، لأنها جديدة، لم يكتب عنها تاريخ حقيقى .. فلنذكر على الأقل أنه فى عام ١٧٩٨ .. فى نفس اللحظة التى استقرت فيها الفرق الفرنسية أمام الميناء، لم يكن المشهد العام يتجاوز ضيعات تكمن بين جزيرة فاروس (pharos)والتى أصبحا شبه جزيرة وأطلال الأسوار العربية، حيث لم يتبق سوى قرى معزولة فى كوم الشقافة أو فى باب رشيد .

ومع السبعة آلاف نسمة سكانها تركت ذكرى مريرة لجنود بونابرت: ضحايا الأسطورة الإغريقية وبعد مضى عدة سنوات، أعاد شمبليون الكرة فكتب قائلاً : «جميع الأوصاف التى يمكن أن تقرآها .. قد لاتعطى أى فكرة عنها، إنه

وجود حقيقى للنقائض ونجد أنفسنا فجأة فى عالم جديد .. ممرات ضيقة تحدها حوانيت صغيرة مزدحمة بالناس من كل لون ، وكلاب ضالة ، وإبل مربوطة ببعضها كالمسبحة وصيحات مبحوحة مختلطة بأصوات النساء، وأطفال نصف عرايا، وأتربة خانقة، ومن هنا، ومن هناك سيد أنيق هذا ما نسميه شارع من شوارع الإسكندرية !

الفضل لإسماعيل باشا ..

استطاعت المدينة الحديثة أن تشكل نفسها كتب «اكزافيه مارميه - xavierMarmier» أن كل ما يأخذ بالألباب فى الحياة الأوروبية نجده هنا..

بينما «ايبرس - Ebersa» أصابته الدهشة عندما شاهد بعض الإبل فى الإسكندرية !! وعند بلوغ حركة الإصلاح والتجميل ذروتها احتدم النقاش حول هوية المدينة وانتمائها؟ جدل قديم .. يذكر «لاتور - Latoura» أن الإسكندرية بالتأكيد ليست مدينة أوروبية، غير أن أهل القاهرة يأبون أن يروا فيها مدينة مصرية ..!

ويشهد جمال الإسكندرية وسحرها الخاص على أنها تضم مجتمعاً، ليس كمجتمع مصر الإسلامية، الذى تعد القاهرة «زهرة مدائنه»..

وإلى عهد إسماعيل «رجل قناة السويس والقروض التى أعطت للاحتلال الإنجليزى شرعيته» يعود الفضل فى البناء الحالى للمدينة وتحديثها حيث تم ترميم الأسوار القديمة وانتقل وسط المدينة على أطلال المدينة اليونانية البائدة، التى شيدت فى المنطقة المعروفة باسم «بيلوبونيز- pelopo-neseate»

الغرب، نحو القبارى والمكس، أنشئ ميناء كبير وفى الشرق، بدأ العمل فى إثنين من الأحياء الراقية: أولاً الرملة، ثم الإبراهيمية .

والسنوات التالية، لن تشهد إلا تخصيص مساحات للبناء ، خاصة فى كوم الشقافة، وغزو للشاطىء ، وتصنيع القبارى والمكس، حيث حل حجر صحى جديد محل القديم الذى أنشأه «كوست» فى الشرق.

هذه الحركة، كان لها آثرها بسرعة انجازها القصوى، وحجمها الكبير، ولامجال لشرحها هنا، ولكن من الواضح أن التطور لم يغير وجه المدينة فقط، لكنه أوجد مجالات جديدة للعمل، فى الواقع كانت الإسكندرية بالنسبة لمحمد على الواجهة البحرية لقوة غازية ومقراً لترسانته فوضع نصب عينيه ثلاث متطلبات :

- الميناء وتجديد وتقوية الحصون القديمة.
- الأجانب الذين استقبلوا كمحركات لعملية التحديث ومعهم حى الجنوب الشرقى .
- السلطة السياسية، ومعها رأس التين وقصر سعيد باشا فى القبارى .

ابان عملية التغيير الحضارى الشامل، وعلى وجه التحديد بداية من عام ١٨٦٠ انتقل تشييد القصور والفيلات نحو «سان ستيفانو» فى الشرق ثم «المنتزة» واتسع الميناء وسحب معه كل غرب المدينة .

وأصبح الحى العربى، أحد أحياء الميناء القديمة كميناء مرسيليا قبل الحرب العالمية الثانية!

أما بالنسبة للحى للأوروبى، فقد احتوى المظاهر المدنية الحديثة، مع بورصة القطن والكنائس وأيضاً المقاهى، ومحلات الحلوى، والمطاعم والفنادق والمسارح فى المقدمة مسرح «زيزينيا» ثم

شـاطىء ستانلى باى فى ١٩٣٠ م

بعد ذلك دور السينما .

إذن فالأمر يتعلق بمدينة ذات طراز أوروبى، مع حلول بداية عام ١٩١٥، مدينة مصرية جعلت المصريين مجرد «ديكور» فحسب .. ! على الأقل ذلك الانفجار الذى حدث عام ١٨٨٢ عندما انهمرت قذائف القصف البريطانى وغضبة شعب حطم المحلات، وأحرق الفيلات !..

مدينة مستعمرة لاتريد أن ترى نفسها على ماهى عليه، ولكن الوضع العام يحدثنا عنها من حيث توزيع الكثافات مع ثلاثين إلى أربعين مالك فى الهكتار فى حى الميناء واثنين إلى ستة من الملاك نحو الجنوب الشرقى، فى الأحياء الراقية .

ولا غرو أن كان هناك تباين فى الطرز المعمارية المختلفة للمساكن، من المنازل التركية بالأنفوشى إلى العمارات الأوروبية التابعة الشركة «لوبون» وشارع رشيد، أو المساحات الصغيرة التى خصصت لصغار الموظفين والعمال الأرمن بكوم الشقافة ويوجد أيضا تعارضات فى تخطيط المدينة، خاصة بالنسبة للحارات، والطرقات الواسعة التى حددتها لجنة الأراضى بالمجلس البلدى مع ما تم تخطيطه وتحديده من الأوقاف !..

العصر الذهبى :

نشأ تضاد بين المدينة، والمساجد والمقاهى كالتضاد بين الجلبات والجاكت!وهذا التباين أو التضاد كان واضحاً بين الطوائف العرقية : حى عربى «ثيجرو» كما كتب ديريل، وحى أرمنى، وحى يونانى، الخ .. فضلا عن ذلك وبالرغم من هذه الأمور المتضادة يمكننا أن نحدد «العصر الذهبى» للمدينة الحديثة أو أوج عظمتها ما بين عام ١٨٣٠ - ١٩٣٠ أكثر تحديداً ما بين طموحات محمد على والسنوات ستة وثلاثون وسبعة وثلاثون (المعاهدة الإنجليزية - المصرية واتفاقية مونترو) أى ما بين الانفتاح الأول على أوروبا ونهاية الامتيازات الأجنبية !

الأجانب اسهموا فى تطور المدينة وجعلوا منها مدينة متوسطية . ومع التسليم بأنهم أجانب، لاتربطهم بأوطانهم إلا روابط شكلية، فهم أيضاً، قد شيدوا بمصر صناعات حقيقية، لم تتوقف انشطتهم سواء في مجال تجارة الميناء، أو فى بورصة القطن، فمن جهة، قد أقاموا مجتمعات صناعية مهمة، مثل صناعة الدباغة والمطابع، وشركات البناء، ومن جهة أخرى فقد استثمروا جزءاً كبيراً من ثرواتهم فى هذا المجال، حيث قامت حركة أعمال غاية فى النشاط فى مجال البناء أكثر منها فى مجال التجارة

المؤكد أن الإسكندرية قدمت الخدمات الأساسية بشبكة من التجار الذين يعملون فى مختلف القرى المصرية، ولكن السوق الذى كانت تقدمه المدينة كان فى حد ذاته كبير الأهمية.

إذن مدينة مستعمرة بكل تأكيد ولكن لا نستطيع بصورة كاريكاتورية أن نقول ذلك فالمصائر الفردية ترتكز على المصير الجماعى !

المجلس البلدى المدهش !

لكنها أيضا مدينة ، بالمعنى الحقيقى للكلمة، بمجلسها البلدى «المدهش» حيث لا تستطيع أى جنسية أن تحصل على أكثر من ثلاثة مقاعد يمثلونها والذى يؤكد سلطة حقيقية منتخبة تسوس المدينة فى أدق التفصيلات، وتلك هي الظاهرة التي – بدون شك – تفرد بها والتى تسمح بأن تجعل الإسكندرية مختلفة عن أى مجتمع مصرى – بشخصيتها المتميزة. وأكثر من ذلك أنه فى هذه البوتقة تم تحضير ثقافة صنعت من إلتقاء اللغات والأديان .

هنا تكمن أصالة الإسكندرية وعراقتها وذلك بكل بساطة لم يكن نتيجة لعالمية الفكر والمواطن بل أعمق من ذلك بكثير !

ومن شارع فرنسا، حتى سوق العطارين ومن الغرب إلى الشرق ومن المكس إلى الرملة أشكال للاتصالات .. حتى لو لم يستطع الجلباب أن يتجاوز مكانه المفضل!

إذن فهو التحضر، دون أن نبلغ تحقيق التوفيق بين المذاهب هذا المبدأ المثالى الذى طالما كان حلم القرن الثانى : «الانتقائية Ecigctismeâ†بكل ما تحتويه الكلمة من معان هذا ما تحدثنا عنه فنون العمارة المتألقة حتى أنك لتجد فيها ذوق رفيع .. شاليهات الرمل ذات الأسقف المنحدرة وبنك دى روما، الذى بناه الإيطالى «جورا» على طراز قصر «فارنيز» وحتى قصر «موريسك» للأمير إبراهيم أو الكنيسة «الرومانية» التى تخص الطائفة الكاثوليكية الرومانية، وكانت من طراز فوضوى إلا أنها تعطي للنظرة الإيطالية أو الفرنسية شعوراً بالوحدة.

إذن فهي وحدة تتجاوز المتناقضات، فنحن أبعد ما يكون عن المدينة الاستعمارية و«التمييزية» حسب فكر «ليوتى» أو «بروست» مبتعدين أيضاً عن بورجوازية البورصة والقطن بعداً تاماً عما أرادوا أن يصفوه !

هؤلاء اليونانيون والإيطاليون والمشرقيون(باستثناء الفرنسيين والنمساويين ونادراً جداً الإنجليز) قد إنصهروا فى طائفة واحدة بالإضافة إلى السوريين واللبنانيين، واليهود من الرعايا المحليين، الذين إجبروا على الهجرة فيما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦١م.

وقد أدى ذلك أيضا إلى تشكيل القوى فى مصر الحديثة ، فالحزب الشيوعى المصرى لم يتسن له الميلاد إلا هنا . ومصيره الممزق والمحطم، هو صورة مما آل إليه كثير من جوانب هذا

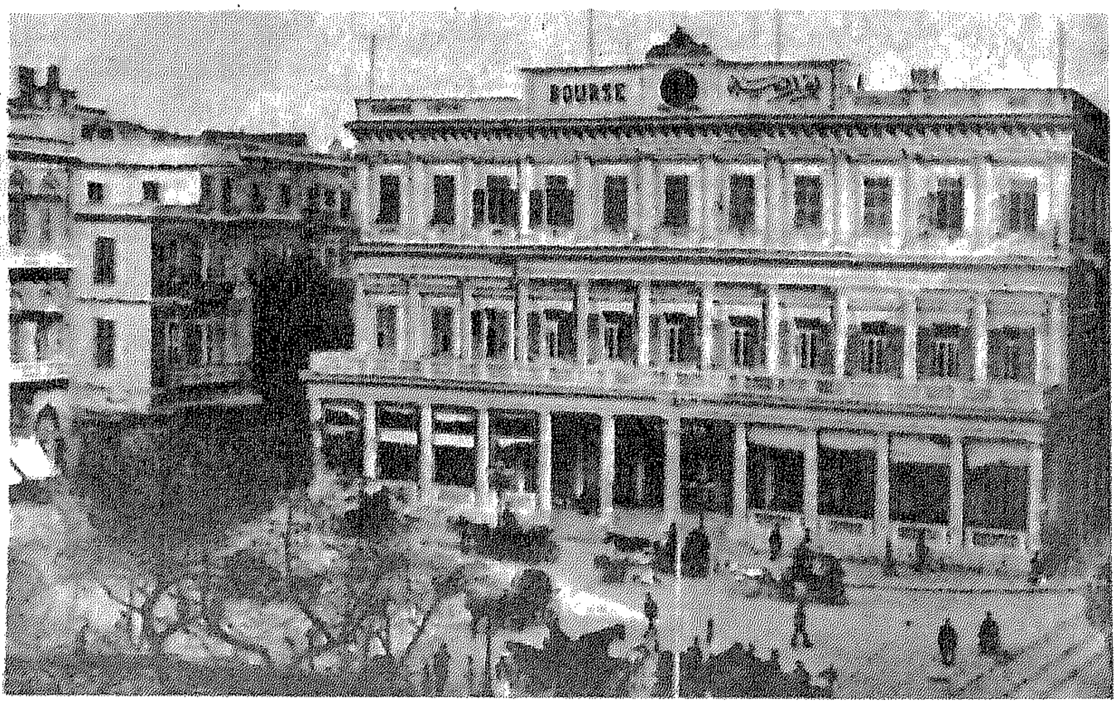

مبنى «البورصة»، أشهر معالم الإسكندرية والذى هدم بعد مائة عام على إنشائه فى ١٨٧٧ !! وهو الذى أعلن منه عبد الناصر تأميم قناة السويس في ١٩٥٦ م

المجتمع !

من عبد الله النديم إلي جمال عبد الناصر :

من الإسكندرية خرج عبد الله النديم، خطيب الثورة العرابية، ومنها أيضا خرج جمال عبد الناصر وسيد درويش وسيف أدهم وانلى والعشرات من أعلام الفكر والفن .. ويرى البعض أنها لم تتواءم مع مصر .. لكنها فقط تواءمت مع البحر ..!

فى السنوات التى أعقبت عام ١٩٣٠ اتجهت المدينة نحو الانغلاق على نفسها وهى التى تأثرت كثيراً بالعادات والتقاليد الأوروبية كانت تجهل تصاعد المخاطر، وتخفى حذرها فى مواجهة انتهاء الامتيازات الأجنبية التى أعلنت إلغاء المحاكم المختلطة عام ١٩٤٠ م.

حينئذ رفضت الطائفة اليهودية - وهى أيضاً كان لها أثر فى تشكيل الإسكندرية - أن تضع فى حسابها أن مصيرها قد انتهى !

من الإسكندرية، أعلن عبد الناصر تامين، قناة السويس، قد يكون «سخرية من التاريخ» ..! ومن الإسكندرية أيضاً تابع وضع «الأموال الأوروبية» تحت الحراسة وأصبح الأمر يتعلق بإغلاق الباب وإعادة الميناء إلى البلد، وقطعه عن البحر!!

وإذا كان جمالها يحدثنا عن مرسيليا أو عن جينيس - †Genesفذلك بدون شك - لأن المدينة المتوسطية لم تكن تماماً مسألة فن بناء، إنها مسألة اجتماعية، واقتصادية وسياسية .. إنها زمن انقضى من التاريخ ..!

*Le Miroir Egyptien "L' imagineire Createur D'Histoire L'Egypte de pharaon au Saint Simonisme "Marseille,Robert ilbert:" Alexandrie1830-1930 Le Mythe de la ville Mediterraneenne." ■

الصداقة العاشقة

بين لطفى جمعة.. وأوجستا دامانسكى

بقلم
أحمد حسين الطماوى

بين الصداقة والعشق تعادل أو شبه تعادل، فإذا كان العشق انفعالا غلابا، فإن الصداقة توازن نفسى، والصداقة بين الرجل والمرأة ودادة مشرقة وديعة، فإذا قويت واتسعت، وحفلت بالمغريات مع طول الصداقة وكثيرا مايحدث هذا، صارت هوى مستعرا. والشاب بطبعه لا يطيق العيش فى الهدوء الدائم، والجو الساكن البارد، وإنما تدفعه أهواؤه إلى السباحة فى البحر الهادر الموّاج، وإن تاق يوما إلى جدول هادىء الخرير.

و«الصداقة العاشقة» التى عرّف بها جمعة علاقته بأوجستا تعنى الجمع بين الهوى المشبوب المستعر، والوداد الهادىء، وأعتقد أن هذا ما كان بين الصديقين العاشقين أوجستا وجمعة، فساعة للقلب وساعة للعقل.

وقد عالج الكتّاب قصص الحب العربية قديما وحديثا، ولكنهم لم يولوا نفس العناية لقصص الحب العربية الأجنبية، التى أحب فيها عربى أجنبية.

والواقع أن أدباء كبارا خالطوا أجنبيات، ونشأت بينهم وبينهن قصص حب بعضها كلل بالنجاح والزواج، وبعضها الآخر من نوع الحب الحر الذى دام فترة وتوقف

يرد على خاطرى فى هذا المقام حب جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) لمارى هاسكل التى كان يصفها بأنها «خارقة البنيان» إلى جانب ميشلين، وغرام ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨) بروسية أو بالأحرى أوكرانية تدعى «فاريا»، وبأمريكيتين هما «بيلا» و«نونيا»، وعلى بك كامل فهمى الذى عشق فرنسية «مرجريت» وتزوجها ثم أطلقت عليه الرصاص، وحوكمت، وحصلت على البراءة مما أثار الصحافة المصرية، ود. صبرى السربونى (١٨٩٤ - ١٩٧٨) الذى تصبى سوزان جيرار واقترن بها، وانجب منها، ثم انفصل عنها، والشاعر عبدالرحمن صدقى (١٨٩٦ - ١٩٧٣) الذى استمال إيطالية وتزوجها، ولما فارقت الحياة رثاها بديوان شعر «من وحى المرأة»، ثم استمالته «إلتى» الايطالية وتزوجته ومات فى حياتها.. وغير ذلك كثير. ونضيف إلى هؤلاء محمد لطفى جمعة (١٨٨٦ - ١٩٥٣) الكاتب الموسوعى الذى تبادل الحب أو ما سماه «الصداقة العاشقة» مع الأديبة الروسية «أوجستادامانسكى فيليبوفنا» والتى ساهمت مساهمة فعالة

لطفى جمعة

أوجستا دامانسكى

في تكوينه الثقافي عندما كان يتلقى العلم في فرنسا .

بين الأديب المصري والكاتبة الروسية

كان لطفي جمعة منضما إلى الحركة الوطنية، ومن شبيبة مصطفى كامل . ومن أعوان محمد فريد في أوروبا، ومن تلاميذ الشيخ محمد عبده، وكان قد التحق بمدرسة الحقوق الخديوية في العام الدراسي ١٩٠٨ وهو العام الذي فارق فيه مصطفى كامل الحياة، وبهذه المناسبة أقيم في مدرسة الحقوق حفل تأبين للزعيم، ألقى فيه لطفي جمعة خطبة أشاد فيها بمصطفى كامل وحمل على المحتلين، فرفته المستر «هيل» ناظر مدرسة الحقوق، فشد الرحال إلى فرنسا حيث التحق بكلية حقوق جامعة «ليون» .

لم يكن «جمعة»، عندما سافر إلى فرنسا، تلميذا فحسب ، وإنما كان صحفيا يكتب في «اللواء» وفي مجلة «القبس» التي كان يصدرها : محمد كرد علي وإلى جانب ذلك كان قاصا أصدر مجموعة قصصية هي «في بيوت الناس» سنة ١٩٠٤، وروائيا أصدر رواية «في وادي الهموم» ١٩٠٥ ومازالا موضع اهتمام الدارسين لفني القصة والرواية، عدا جهوده في مجال الترجمة إذ ترجم «تحرير مصر» عام ١٩٠٦ وعدة روايات في سلسلة «روايات الشعب» . مما يبين أنه كانت لديه حصيلة ثقافية قبل الذهاب إلى أوروبا، وهذه الحصيلة مهدت له سبل الثقافة الرفيعة في الفنون والآداب والعلوم النظرية .

وانتظم جمعة في دراسة القانون بليون، واستطاع أن يحيط بالفرنسية، ونظراً لقرب سويسرا من ليون فقد سافر إلى مدينة لوزان السويسرية للراحة والسياحة في صيف عام ١٩٠٨، ونزل في أحد بنسيوناتها ، وشاءت الأقدار أن يتعرف على السيدة أوجستا والتي دعته إلى زيارتها في الفندق الذي تحل فيه، ولبى الدعوة، وأحسنت استقباله، وحدثته في التاريخ والأدب والسياسة وتولستوي والفن، وقد بهرته ثقافتها المتنوعة والعميقة. وتفتحت عواطفه لجمالها، ويبدو أن كلا منهما تأثر بالآخر يقول إنها «تبطن الحب والولع، وأخذت تتلوى في وحدة الليل وضوء القمر..» إلى أن قال إن «شعور المرأة كان فيها قويا مبادرا ملبيا، وكفاها أن تراني فترة قصيرة.. حتى شغلت بي وتلمستني وتسأل عني..» أما شعوره هو نحوها فلم يكن أقل من ذلك يقول: «حصل لي من الانفعال ما يحصل لكل شاب يخلو بإمرأة شابة جميلة ذكية محروما من مثل تلك الخلوة..» . ويفهم من هذا الكلام أن نظر كل منهما إنسرح في الآخر، وصبا إليه، فلا جرم أن تداخلت مشاعرهما، وتراكبت أحاسيسهما، وكان يمكن أن تتنامى هذه المشاعر، ويدوم الوصال، ويتحقق النوال، لولا أنه التبس على أوجستا كلمة فاه بها جمعة، وردت عليه بما أغضبه، فأنهى اللقاء، وبارح المكان دون أن يبرم معها اتفاقا على لقاء قريب أو بعيد، وافترقا وكأنه لم يسمر أحدهما للآخر .

كانت أوجستا سيدة روسية من مدينة «مويلف» منفصلة عن زوجها، وتقيم مع طفلها في بنسيونات سويسرا، وتعمل بالترجمة نظراً لأنها تجيد عدة لغات منها البولونية والألمانية والفرنسية والايطالية، وتراسل بعض الصحف في روسيا مثل البرافدا وجازيت البورصة، وكانت تكبر جمعة بنحو ثماني سنوات،

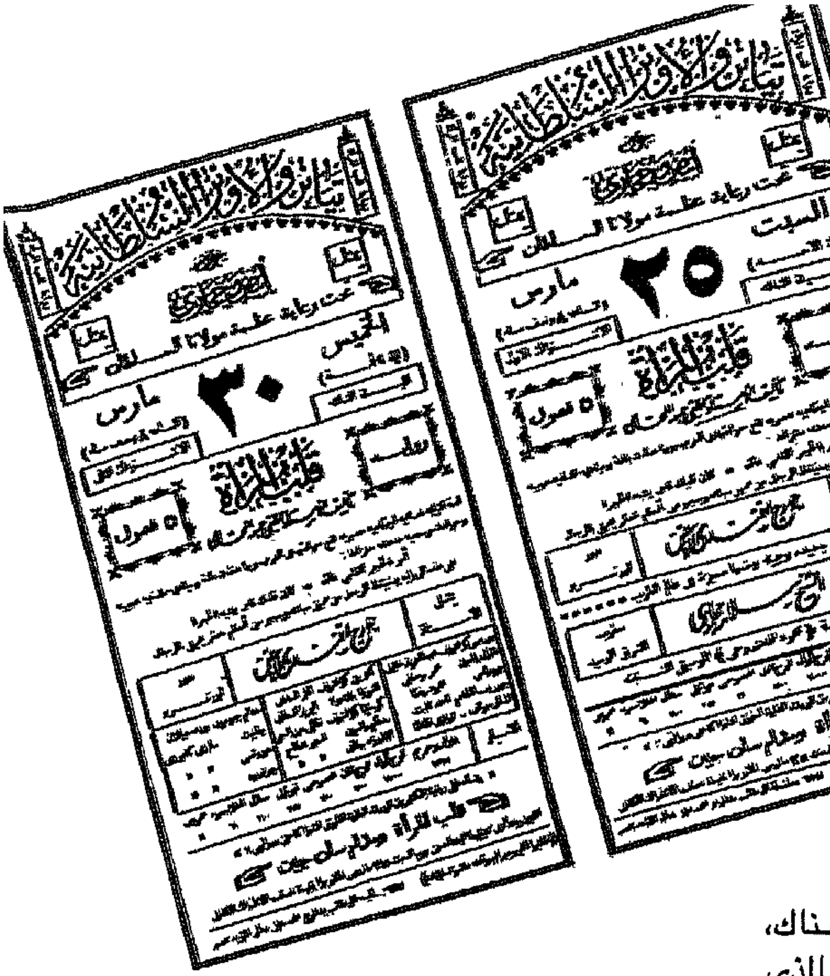

إعلان عن بدء عرض رواية « قلب امرأة» لجورج أبيض وسلامة حجازى

وقد وصفها جمعة بقوله: «كانت بيضاء البشرة، جميلة العينين، وأجمل ما فى عينيها لونهما فقد كانتا كالمخمل الأزرق الضارب إلى الخضرة، ولها جلسة خاصة ورغبة في الفتنة».

عطاء ثقافى

فارق جمعة السيدة، واتجه إلى باريس، وتنقل فى مدن أخرى، وجد فى القراءة، وأخذ يعد لكتابه الذى ظهر فيما بعد «فلاسفة الاسلام» وكتب مقالات هنا وهناك، وشارك فى مؤتمر الحزب الوطنى الذى عقد فى جنيف عام ١٩٠٩، وغابت صاحبته عن ذهنه، ولكن الله «يجمع بين الشتيتين» بعد أقل من عامين ففى مارس ١٩١٠ ذهب إلى جنيف للنزهة، ونزل فى بنسيون راسين فى ضاحية بيتى لانسى الذى كانت تنزل به أوجستا، وهى مصادفة، فالتقيا وتعاتبا، واعتذرت له، وزكت مشاعرهما، وجادت شفاههما بما فى نفسيهما من حب، ونهضت بعد استقباله لتعزف له على البيانو قطعا موسيقية لتشايكوفسكى وديبوسى، وهلّ السرور عليهما، وتواصلت منذ ١٩ مارس ١٩١٠ اللقاءات بينهما.

وقد عثر فيها جمعة على الكنز الثقافى الذى يشتمل على جواهر الفنون والعلوم والآداب وأفاد من مواهبها ومعارفها وخبراتها. ومن هذا ما كانت تقرؤه له من مؤلفات رامبو والفونس دوديه وفلوبير وهرفيو وأميل فاجيه وريـنان، وتحثه على قراءة مسرحيات فولتير وقصصه، ومؤلفات جان جاك روسو، وفيما بعد كتب عن «رامبو» و«رسو». وعرفته بالأدب الروسى وتاريخه وبالأدباء الروس مثل تشيكوف وأندرييف، وتطيل معه الحديث عن تولستوى، وتحضر الكتب إليه وتشوقه قبل القراءة بتلخيصها ليكون على بينة منها فقد «كانت راسخة القدم فى الآداب الأوروبية عامة، وتتعقب النقد الأدبى فى الكتب والمجلات» على حد قوله.

بل كانت تهديه الكتب مثل كتاب «مرجكوفسكى» فى تاريخ النهضة الايطالية(رينسنس)، وتصحبه إلى المتاحف ومعارض الرسم، والمكتبات الكبيرة، وإلى بيت الشعب فى سويسرا

ليستمع إلى خطب ومحاضرات جان درويس أستاذ الأدب في السربون، وسباستيان الذى يشبه خطباء اليونان والرومان القدامى، وأرشدته إلى قراءة مجلة «مركوردى فرانس» يقول: «لم أكن سمعت بها ولا قرأتها فكان اهتدائي إليها ظفرا لى ومصدر معرفة واسعة بالأدب والفنون الجميلة» وفيما بعد استطاع أن ينشر مقالا فيها.

ويتواصل عطاء السيدة فتنبهه إلي أهمية علم الفلكلور، وفيما بعد كتب عدداً من المقالات عن النكت والخرافة والسحر والتمائم... وجد حتي وضع معجما فى لغة الطوائف السرية، أو ما يعرف بيننا باسم «السيم» أو «اللحن». وقد جمعت هذه الكتابات فيما بعد، وصدرت فى كتاب عنوانه «مباحث فى الفلكلور» ١٩٩٨ ولم تقتصر جهودها على ذلك فحسب، وإنما حملته إلى كازينو الكورسال ليشهد رقص ايزيدورا دنكان التي يمثل رقصها «شعر الحركة الانسانية» على حد قول أوجستا وقد دون جمعة دراسة عن راقصة البالية دنكان. وكانت تحثه على الذهاب إلى بايروت بألمانيا ليشهد ويسمع أوبرات فاجنر.

وكانت السيدة تترك إبنها فى سويسرا لمربيته، وتذهب إلى جمعة فى ليون وتقيم معه فترة الامتحان لتلخص له الكتب القانونية حتى يسهل عليه استيعابها.

الأمير لمكيافيللى

ولا يمكن أن استعرض كل ما أعطته أوجستا لجمعة من فكر وفن وعلم، ولكن أقف عند ترجمته لكتاب «الأمير» لمكيافيللى، فقد ذهب جمعة إلى أنه نقله عن الايطالية، بمساعدة من أوجستا، وقد كان جمعة ملما بالايطالية، ولكن لا أعتقد أنه يتقنها إلى درجة أن يترجم عنها كتابا مثل «الأمير» وأدلتي كثيرة، منها أن إشاراته فى كتاباته إلى الأدب الايطالى نادرة، وليست مثل إشاراته إلى الأدبين الفرنسى والانجليزى اللذين كان يعرف لغتيهما حق المعرفة، وليس من المعقول أن يتعلم جمعة الايطالية ليطلع فيها على كتاب واحد أو كتابين ، ومنها أنه يقول فى «تذكار الصبا ص ٢٨٨ وذهبنا (أى جمعة وأوجستا) إلى المكتبة العامة بفلورنسا فاعانتنى على قراءة القوائم كتالوج، وأخرجنا منها الكتب الخاصة ببحوثنا وأهمها عن النهضة» فلو كان يعرف الايطالية حقا لما عاونته فى قراءة قائمة أو كتالوج ، وهناك أدلة أخرى. والراجح أن السيدة أوجستا قامت بالجهد الأكبر فى ترجمة الأمير وتقريب معانيه إلى الفرنسية، وعن فرنسيتها نقله إلى العربية، أو قابلت النص الايطالى على الترجمة الفرنسية، ولم ينكر جمعة جهودها، وإنما أهدى ترجمته لكتاب الأمير إليها اعترافا بفضلها .

وفى صيف سنة ١٩١٠ حصل جمعة على شهادة الليسانس، ورأى أن يصطحب بهذه المناسبة أوجستا إلى شمال ايطاليا للاستمتاع بروائع الفن، وقد أمضيا شهرا شاهدا خلاله ما أبدعه الراسم والنحات فى الشوارع والكنائس والمتاحف والمعارض وزارا القصور العتيقة، وبيت مكيافيللى، وبينما هما فى هذه النشوة وصلت إلى جمعة برقية تفيد ضرورة قدومه إلي باريس للإعداد لمؤتمر الحزب الوطني، ولم يجد بدا من تلبية نداء الوطنية، أما أوجستا فقد غضبت وفهمت أن البرقية مفتعلة ومدبرة

ليتخلص منها، وأثناء العودة ألقت بنفسها بين فوارق عربات القطار لتنتحر، فأمسك بها ، وكاد يسقط معها لولا لطف من الله، وانتهى الأمر بأن أوصلها إلى لوزان بسويسرا . واستأنف هو سفره إلى باريس .

القطيعة

وعند هذه النقطة يمسك جمعة عن الكلام في «تذكار الصبا» دون أن يتم قصته مع صاحبته، وقد بحثت في الدوريات القديمة لأقف علي شئ يكون جمعة كتبه لإتمام حكايته، وأخيرا وقفت على نحو أربعين رسالة نشرها جمعة في «البلاغ الأسبوعي» ١٩٣٠ و«مجلة الرابطة العربية» ١٩٣٩، ولم يكن ابنه رابح يعلم عنها شيئا باستثناء واحدة، ويزعم جمعة أن هذه الرسائل من أديبة روسية تدعى أوجستا بعثت بها إلى عشيقها لدوفسكي أولدفيج، ولدفيج هو أقرب الأسماء الأوروبية إلى لطفي. وتحكي هذه الرسائل قصة الحب كاملة بين جمعة وصاحبته، وكنت أعتقد أنها خطابات حقيقية مترجمة، والراجح أنها مستوحاة من رسائلها ومن علاقته بها، والحاصل أن جمعة جاء إلى مصر في نهاية سنة ١٩١٠، وتبادل الود مع أوجستا عبر رسائل، وأن المعشوقة حضرت إلى مصر في مطالع سنة ١٩١١ وأقامت مع صاحبها في «منشية الصدر» خمسة أشهر، ثم غادرت مصر وهي محنقة غاضبة، لأن خالة جمعة جاءت إليه من طنطا ووبخته على تمسكه بهذه المرأة، ولا ندري شيئا عن طبيعة العلاقة بين الحبيبين، ففي مسرحية «قلب المرأة» يقول لورنزو (جمعة) لويلف (أوجستا) : أنك قرينتي مدى الدهر.. واجعلي أمره سرا » والزواج إشهار ومراسيم وليس كلاما فضفاضا، ولا توجد أوراق تفيد الزواج أو الطلاق، وفي «تذكار الصبا» يقول لها ص ١٩٠ «نحن لسنا مرتبطين بالرباط المقدس» .

ويبدو أن أوجستا كانت تزمع الزواج من صاحبها وهو ما لم توفق إليه في مصر، وأرسلت إليه تعاتبه، وتخبره أنها كسرت في مصر، وبأنه ضحى بها ليرضي خالته، وكان من الصعب البناء على هذه النتيجة المخيبة لأمالها، ومما أضعف العلاقة بينهما انصراف جمعة إلى التدريب على المحاماة، وإعداد كتبه المؤلفة، والمترجمة للنشر، ففي سنة ١٩١٢ صدرت له كتب «حكم نابليون» «ليالي الروح الحائر» «الحكمة الشرقية» «الأمير» والكتابة في مجلات مثل «البيان» و«الزهور» . ولا شك أن المجد الأدبي شغله عن الحبيبة، فأرسلت إليه تشكو الوحدة والبرودة والألم، وتستحثه على الذهاب إليها، وطال الزمن دون لقاء يجدد العواطف، فجاءت رسائلها تقول له في صراحة: «إن ما كان في نفسي فيما مضى نحوك ذهب، فاتق ألم الاجتماع بي، وقني حسدة اللقاء بعد فوات الحب.. إنسني بغير ضغن ولا حقد ، ولا تسع في مقابلتي فلا نفع من اللقاء بعد السلوان» بل تخبره بأنها عرفت غيره ولا خير له فيها، وويل للرجل من امرأة سلت حبه .

وكان على جمعة أن يعمل بنصحها، ويطوي صفحتها، ولكن العاشق في حالة الحب العارم، والغيرة الشديدة لا يستمع إلى نصيحة أو مشورة، فغافل نفسه في صيف ١٩١٢ وذهب إلى زيارتها في «فيفي» بسويسرا، ولقيته في بهو المنزل متذمرة ساخطة مؤنبة له على مجيئه، واستفزه نفورها منه، وتمالك نفسه

وحاول أن يسترضيها فلم ترض، وأعطته ظهرها، ودلفت إلى حجرتها، فغامت نفسه في غياهب يأسه وترك المكان وهو شارد النظرة، ولم يرها بعد ذلك أبداً .

قلب المرأة

وقد ترك فيه هذا الموقف كدرا، وملأه حقداً عليها ، ولم يستطع أن يميز بين ماله ومالها، أو يحد من كراهيته لها، وجاهد نفسه وهو في غمرة الألم والغضب لعله يطبب قلبه، وأخيرا وجد في الفن متنفسا لتفريج أزمته النفسية، فكتب عنها مسرحية «قلب المرأة» وصورها في صورة بشعة، وجعلها ! امرأة عاهرة ماكرة متلونة، يتقلب قلبها، ويتحول إحساسها من عشيق إلى آخر لأتفه الأسباب، وفي كل هذا يردد شجو قلبه، وجلال إحساسه بكرب اجتاحه. والمسرحية نفسية تحلل العواطف، وتستبطن المشاعر، وتتناول الشك والغيرة، والمؤلف ينظر فيها إلى المرأة ببغض ، ويصور عيوبها الأخلاقية ونقائصها، ويطلعنا على نواحي ضعفها، وينتقدها بكلمات مباشرة، وهو لا يعمل على إمتاعنا بمشاهد روايته وإنما يحذرنا من قلب المرأة .

وقد مثلت فرقة الشيخ سلامة حجازي وجورج هذه المسرحية في شتاء ١٩١٦ على مسرح دار الأوبرا، وكانت موضع تعليق وانتقادات من كتاب مثل د . محمد حسين هيكل وابراهيم رمزي ومحمد تيمور، وقد طبع المجلس الأعلى للثقافة المسرحية ضمن مسرحيات أخرى عام ٢٠٠١ وقدم لها د . سيد علي اسماعيل .

وإذا كانت صورة أوجستا في «قلب المرأة» شائهة، فإن صورتها في «تذكار الصبا» الذي كتب عام ١٩٤٧ وطبع عام ١٩٩٩ زينها الإنصاف، وللزمن دوره في الأحكام على الشخوص بعد فترة طويلة من انتهاء أدوارهم في حياتنا، فقد اعترف الرجل في هذا الكتاب بأنه حصل معارفه من معارفها، وأنه ثمرة ما غرسته فيه، بل يعترف بأنه أساء إليها في «قلب المرأة» يقول: «تفتحت في ظلها كل مواهبي ورغائبي ، وتجسدت كل حقائق الحياة في نظري بفعلها وقوة إيمانها، وأرشدتني إلى مطالعات ودراسات لم أكن أنالها بدونها، وأعانتني في قراءات وتحصيل علوم وسهرت على سهر الشقيقة والزوجة والأم الرؤوم، ولكنها حيال هذه النعم كلها أدنتني بفعلة واحدة من الموت المحقق لولا عناية الله ورحمته.. وأخرجتني من حلم الأديب إلى غيظ المنتقم فكتبت «قلب المرأة» وبالغت في تسويد صحيفتها وما كان ينبغي لي أن أفعل «وفي موضع آخر يقول : لقد صنع الله مني رجلا جديدا على يديها وبفضلها » هذا ما أفاده عربي من أجنبية، فماذا أفاده غيره من حب عربية، غير ما سطره عن جمالها ودلالها وإقبالها وهجرها.

ويخيل لي أن جمعة ظل فترات طويلة. مشتغلا بأوجستا ، ولم يمض عليه يوم لم تمر بخاطره، فقد كتب عنها مقالات ، ونسب إليها قصصا، وذكرها كثيرا في مذكراته المطبوعة، عدا كتابة قصة حبه لها ثلاث مرات، الأولى في قلب المرأة والثانية في تذكر الصبا والثالثة في الرسائل الغرامية التي نشرها ونسبها إليها، وما دونه عنها في ساعات الصفاء ليس إلا مناجاة لروحها. ■

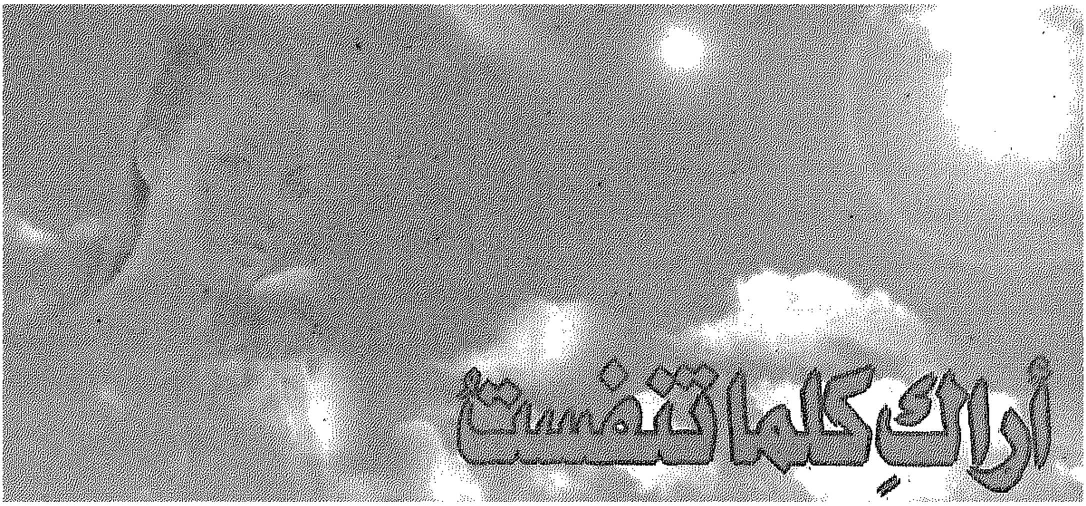

شعر: د. هيثم الحويج العمر - سوريا

أراك فى البحيرة السارحةْ ... تجففين دمعةً جارحة
أراك فى شقائق المنحنى ... تفرقها السحابة الجامحةْ
أراك فى رواق نجم الدجى ... إلهةً والهةً صادحةْ
فى كل شاطئٍ لنا قصة ... حروفها زوارق سابحة
فى الشرق بسمة تضئ الضحى ... فى الغرب منك دمعة ذابحة
كالماس إسمك الشجىّ الندا ... يحيط بى فيروزةً سائحة
وصوتك الملائكىّ الصدى ... منبعث من نِجمة سارحة
من البحار والريا قادم ... ومن غدير خلق البارحة
ماذا أقول إن قطفت المنى؟ ... مشاعرى مثل الضحى واضحة
كتبتها على النجوم التى ... تصافح الكواكب النازحة
وكيف لا أكتبها وهى فى ... شغاف قلبى دائماً صائحة؟
أنت أنا .. قصيدةٌ بوركتْ ... لتجرح الزنابق الجارحة
وتسكب العبيرَ فوق المسا ... جداولاً .. ما أجمل الرائحة
أراك فى قصائد البحترى ... وفى رؤى الفرزدق الكاسحة
وفى حقول الشام صفصافة ... تهدى الصفاء خضرةً صادحة
أراك فى دمى إذا سرتُ فى ... دربي رأى أشواقك السابحة
أراك فى البنفسج المشتهى ... شهية براقة صالحة
أراك كلما على جذعها ... رتلت العصفورةُ الفاتحةْ .

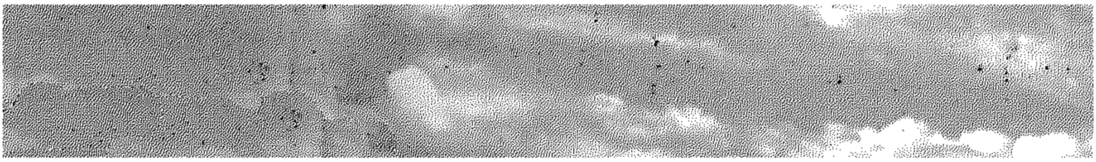

هوامش ثقافية

●مصطلحات النقد أشبه ما تكون بأزياء ملابس السيدات ، فهي تظهر فجأة ثم تستمر فترة ثم تختفي ثم تظهر نظريات أخرى جديدة ، ونحن بكل أسف حينما نأخذ بنظرية نقدية من هذه النظريات نأخذ بها بعد أن يكون قد هجرها أصحابها وماتت في أرضها .

د. ناصر الدين الأسد
الأهرام

●اللغة العربية تعاني بالفعل من مشكلة قائمة ألا وهي الهوة الثقافية القائمة بين لغة التواصل المستخدم في الحياة اليومية واللغة الفصحى فكثير من الناس يخطئون في قواعد استخدامها ، بما يؤكد على ضرورة تطويرها وإعادة صياغتها على أيدي خبراء متخصصين لتمكن العرب وغير العرب من فهم قواعد اللغة العربية واستخدامها بسهولة .

د. جابر عصفور
الأخبار

●نحن في حاجة لأن نعيد للغة العربية مكانتها اللائقة من خلال إعادة النظر في العملية التربوية برمتها ، وتأهيل المعلمين لأن اللغة العربية في حد ذاتها مرنة ترفض الجمود ، وقالت مالاتستطيع أي لغة في الأرض أن تقوله فهي بالفعل طورت نفسها من عشرات السنين على امتداد المدن من البصرة والكوفة حتى الأندلس ، بينما كان ذروة التطور والأزدهار في مصر .

خيري شلبي
أخبار اليوم

●لاشك في أن إهمال اللغة العربية انعكس بصورة واضحة على مستوى الإبداع في الشعر والقصة والرواية والأغنية .. لقد صارت اللغة الفصحى غريبة في كل هذه المجالات .. ومنذ سنوات مضت كان استخدام بعض الكلمات العامية في قصة أو رواية مثار قلق بين المبدعين الكبار ، ولكننا الآن نقرأ روايات كاملة ليست فيها جملة واحدة باللغة العربية الفصحى .. وهذا يحتاج إلى مراجعة من كبار مبدعينا ونقادنا ، حتى لايأتي يوم لا نرى فيه عملا إبداعياً باللغة الفصحى .

فاروق جويدة
الأهرام

●اللغة العربية من أقوى اللغات بنية وقدرة على التطور واستيعابا للمصطلحات المستجدة بأسس لغوية معتمدة ، ويتكلم بها مئات الملايين يعيشون على أرض شاسعة تمتلك ثروات هائلة .

د. عبدالحي عباس
مجلة العربي

●الثقافة في العالم العربي تأخذ بعداً غريبا نظراً للضغوط التي وقعت على المثقف والمثقفين ، وأدت بالتالي إلى عدم فهم «الثقافة المستنيرة» بشكل يسمح لهذه الفئة في قيادة المجتمع لخلع التخلف من رأسه أولا ، وأن يكون المثقف نتاج لثقافة مستنيرة بعيدة عن سلطان الحكم .

د. صالح رضا
أخبار الأدب

●الحضارة البشرية في جوهرها حضارة واحدة تتقدم فيها العناصر المشتركة يوما بعد يوم ، وعصراً بعد

آخر لأنها أكثر إنسانية وقدرة على التواؤم والتطور وتتراجع الخصوصيات الضيقة وتذبل وتموت. أو تثبت إنسانيتها فتجاوز حدودها المحلية والإقليمية وتفرض نفسها على البشرية وتصبح ملكا للجميع .

أحمد عبدالمعطي حجازي
الأهرام

● المجتمعات العربية مهددة ، إن لم تكن تعيش بالفعل فى ظل انشقاق ثقافى ومعرفى عميق يقسم المجتمعات إلى نصفين ، إلى لغتين رغم أنها لغة عربية واحدة وعقلية رغم وجود عقل جمعى وفكرى واحد ، وثقافتين رغم عباءة ثقافية وحضارية وقيمية واحدة .

سلامة أحمد سلامة
وجهات نظر

●ليس هناك شك فى أن الأوضاع السياسية فى العالم عامة - وفى منطقة الشرق الأوسط خاصة - قد حالت دون الوصول إلى مانبتغيه من تقدم وازدهار لأن هذه الأوضاع قد عرقلت صرف الأموال العامة فى الميادين التى تدعم النمو الاقتصادى والمشاركة فى بناء الحضارة الحديثة بما فى ذلك التعليم والبحث العلمى.

د. فاروق الباز
العربي

● إن دور المجتمع المدنى أصبح ملحا، خاصة أن القاعدة العريضة من المواطنين مازالوا يؤمنون بالوحدة ويقيمون الإنسان على أسس خلقه وعمله وسلوكه ومبادئه وليس على دار العبادة التى يمارس فيها شعائره ، وهذه الأغلبية لايجوز أن تظل الأغلبية الصامتة .

د. ليلى تكلا
الأهرام

●مفهوم الحرية هو أمر مختلف لدى كتاب الصحف ، فإرادة القلم التى يستخدمونها لاتصبح طيعة إلا عندما تعبر عن كل مكنونات النفس من رضا وغضب ، والكاتب الصادق غاضب دائما ، لأنه ينظر إلى الواقع بعين انتقادية لاتهدأ ، وهو لذلك فى حاجة إلى حجم أكبر من الحرية حتى يمارس فيها غضبه علي كل مظاهر السلبية .

أحمد الجارالله
رئيس تحرير السياسة الكويتية
العربي

● المثقفين الحقيقيين المؤهلين للنقد عددهم قليل ومحدود ، فالغالبية أميل إلى الغوغائية والسطحية ، ولكن أجد عددا من النقاد (من جيل الوسط والشباب) يملك مؤهلات الانخراط فى معارك نقدية جادة لو أتيحت له أدوات النشر والإعلام .

د. ماهر شفيق فريد
الأهرام العربي

●المناداة بأن نحيى اللغة العربية أمر واجب ومشروع ومرحب به ، بل هو شعار يجب أن يرفعه كل متكلم بهذه اللغة من أجل المحافظة عليها والعمل على تطويرها ، وجعلها قادرة على الوفاء بإحتياجات الحاضر ومطالب العصر .

فاروق شوشة
الأهرام العربي

السينما
بين عوكل ولينين

بقلم
مصطفى درويش

«وداعاً .. لينين» كان آخر فيلم أجنبى أشاهده ، فبعده ، لم أشاهد سوى أفلام مصرية ، أذكر من بينها «عوكل» لصاحبه المخرج «محمد النجار» ، و «غبى منه فيه» لصاحبه المخرج الشاب «رامى إمام» .

والأفلام الثلاثة ، بما فيها «وداعاً .. لينين» لا يجمع بينها سوى أنها من نوع الملهاة.

وفيما عدا ذلك ، فالفيلمان المصريان و «وداعا لينين» على طرفى نقيض.

فكلاهما انحدر إلى «الفارس» ، وهو بالعربى التهريج .

فى حين أن الفيلم الأجنبى ، وهو ألمانى ، صاحبه المخرج «وولف جانج بيكر» . من ذلك النوع الساخر الذى يقطر مرارة مع الضحك ، وينقد اسلوب الحياة فيما كان يسمى ، قبل خمسة عشر عاما ، بالمانيا الشرقية ، أو الديموقراطية ، نقدا لاذعا ورقيقا معا .

محمد سعد أو عوكل ونور

هانى رمزى غبى منه فيه

وأبدأ «بوداعا .. لينين» لأقول عنه باختصار شديد . إنه قد اكتسح مهرجان جوائز الفيلم الأوروبى ، فى دورته السادسة عشر ، حيث حصد ستا من أهم جوائزه ، أذكر من بينها جوائز أفضل فيلم وممثل وسيناريو .

إلا .. مصر

واحتل رأس قائمة ايرادات سوق السينما فى ألمانيا ، حيث شاهده ، خلال عام ٢٠٠٣ ، ستة ملايين ونصف المليون متفرج ، وهو رقم مذهل بكل المعايير .

كما أن حقوق توزيعه فى مشارق الأرض ومغاربها قد بيعت ، لتشمل ثمانى وستين دولة ، ليس بينها مصر ، لسوء حظنا.

وعلاوة على ذلك ، كان بين الأفلام غير المتكلمة باللغة الإنجليزية التى جرى ترشيحها لجائزة الأكاديمية البريطانية (بافتا) المخصصة لهذا النوع من الأفلام ، وهى جائزة معادلة لأوسكار.

جدة عوكل ، يؤدى دورها محمد سعد

أما لماذا الاختصار ، فذلك لأنه لم يكتب «لوداعا .. لينين» أن يعرض لا فى أرض مصر ، ولا انطلاقا من الفضائيات العربية المنتشرة انتشار أشد الأوبئة فتكا ، أثناء عصور الظلام....

أما لماذا حرماننا من مشاهدته ، فذلك لأنه فى أقل الكلام ، فيلم جاد ، أراد صاحبه أن يقول من خلاله شيئاً ، ينفع الناس ، وتحقق له ما أراد وبطبيعة الحال ، فليس ثمة جدوى من الحديث بالتفصيل عن عمل سينمائى ، لن يشاهده أحد فى بر مصر ، أو مع التفاؤل الشديد ، لن يشاهده ، رغم أنه جاد ومفيد ، سوى نفر قليل .

انهيار الجدار

ومهما يكن من أمر الحقيقة فى هذا التقدير ، فالفيلم يتمحور حول فتى يعيش فى برلين الشرقية ، تدخل أمه الوفية للاشتراكية كما كانت تبنى فى المانيا الديموقراطية ، فى حالة غيبوبة ، وذلك قبل بضعة أيام من سقوط سور برلين .

فإذا ما بدأت تفيق شيئاً فشيئاً ، بعد ثمانية شهور من انيهار السور ، حذر أطباء المستشفى الفتى من خطر إخطار أمه ، بواقعة الانهيار ، لأنها ، من هول الصدمة ، قد تنتكس فتموت .

وانقاذا لأمة ، تفتق ذهنه عن فكرة بارعة ، أن يعمل على إزالة كل ما يرمز للرأسمالية الغربية التى كتب لها الانتصار ، من المسكن ، حيث تقيم ، فيحول بهذه الحيلة ، بينها وبين العلم بالخبر الفاجع ، اختفاء المانيا الديموقراطية من الوجود ، دون أن تترك أثرا ، وكأنها ما كانت دولة ذات كيان ، فى يوم من الأيام.

الوهم الكبير

وطبعا ، لم يكن أمراُ سهلا ايهام الأم بدوام الحال ، وكل شئ فيما كان يسمى بالمانيا الديموقراطية ، قد تغير تغيرا جذريا ، بدءا بالمعلبات والمشروبات وانتهاء بالسيارات ووسائل الإعلام.

أما كيف نجح الفتى فى ايهام الأم بأن شيئاً لم يتغير ، ويبقيها مخدوعة ، حتى يجيئها الموت ، وهى راضية مرضية ؛ فذلك أمر ما كان فى وسع صاحب الفيلم أن يقنعنا به ، لولا سيناريو محكم البناء ، زاخر بألوان من خفة الروح ، وبصور شديدة الحيوية والتألق لذلك الجزء من المانيا الذى طواه النسيان .. ومتى ؟ فى فترة ما قبل انهيار سور برلين، وما بعد ذلك الانهيار.

هذه هى الخطوط العامة لفيلم فريد، أراد صاحبه أن يبين بأسلوب سهل ، منساب ، كيف تحجب الحقائق، وكيف تمنع الرؤية الصحيحة للأشياء بحيث لا يبقى أمامنا إلا اتجاه واحد ، وصورة واحدة ، هى ما ترسمه لنا سلطات محفوفة بدوى الطبول ، تسكرنا بخمرة الأوهام.

أهلا .. بالتفاهة

والفيلمان المصريان عكس ذلك تماما

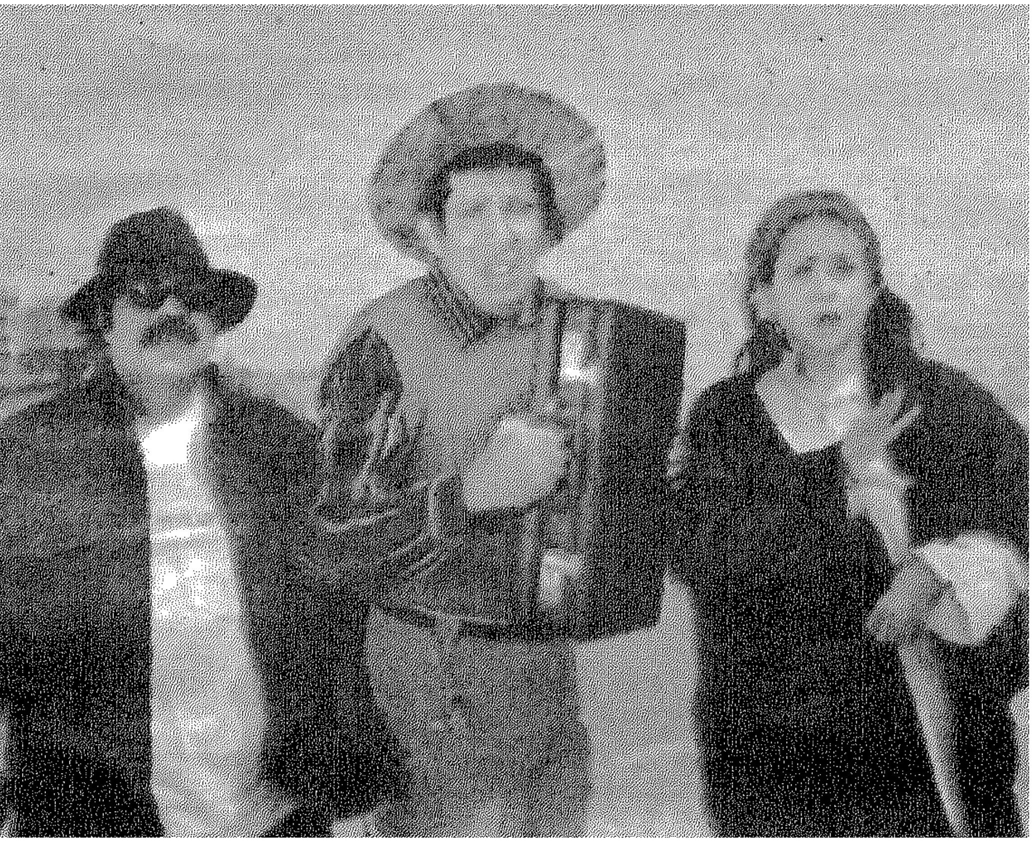

، كـلاهمـا لا يعـدو أن يكون لغـوا أشـبـه بالهذيان.

«فـعـوكل» يقوم بناؤه على قـصـة ملفـقـة وسـيناريو ساذج .

ومـن أولـى لقطات الفيلم ، وكأن صـاحبه «النجـار » يدعـونا إلى عدم الاهتمام بالقصـة ، فلا نـفـكـر فـى ضعفها أو قوتـهـا ، لأن الغـاية الحقيقية من الفيلم عرض نجمـه محمد سعـد ، بوصفه مهرجـا ، ولا شئ آخر ، سوى مـا فى وسعـه أن يقدمـه من بهلوانيات تندرج ، حسب ظنه ، فى باب التمثيل .

والواقع ، أن قصة «عوكل» من ذلك النوع من القـصص الذى لا يقطر إلا تفاهة.

موضوعه سبق للسينما عندنا ، وعند غيرنا أن تناولته فى العديد من الأفلام.

فـهى عـبارة عن صـراع عـادى بين الخـيـر والشـر الأول مـتـمـثل فى الشخصيتين اللتين تقمصهما «محمد سعد» فى الفيلم ، شخصية «عوكل»

هانى رمزى غبى منه فيه

سمكرى السيارات وشخصية جدته العجوز التى يحلو لها من حين لآخر أن تقـول عنه مـفـاخـرة أنه ابن بنت بنت بنتها.

وكذلك متمثلا فى شخصية كل من نور التى تقـع فى غرامه ، رغم صعلكته ، وربما لبـراعته الأقـرب إلى الهبل فى أغلب الأحيان .

تركيا والإسلام

و «حسن حسنى» عمدة المصريين فى تركيـا ، وابو «نور» اليتيمة من الأم، التى جاءها الموت أثر حادث أليم.

أمـا الشـر فيمـثله «طلعت زكريا»

شقيق خطيبته المقامر بعرق جبين «عوكل»، والمتاجر بأخته، يبيعها لأكثر من خطيب .

كما يمثله «سامى العدل» ، بوصفه زعيم عصابة من عتاولة الإجرام..

«كالمعتاد ، ينتهى هذا الصراع ، بتغلب الأخيار على الأشرار ، بعد مفاجآت وأحداث كثيرة ، مثيرة ، لجمهور مروض ، يؤثر أن يضحك ويكركر ، وأبدا لا يفكر.

ولن أعرض لقصة الفيلم بالتفصيل ، فذلك شئ يطول ، وإنما اكتفى بأن أقول.

أولا: أن كاتبى السيناريو «سامح سر الختم» و«محمد نبوى» افتعلا ، والفيلم يقترب من منتصفه حادثا على الطريق ، أتاح لهما أن ينتقلا «بعوكل» ، دون أن يدرى ، من القاهرة إلى تركيا ، وبالتحديد «استنبول» عاصمة خلافة آل عثمان.

وكعهدنا بالأفلام التى ينتقل صانعوها بأحداثها من مصر المحروسة إلى ربوع أوروبا ، أو غيرها من القارات، لم يستطع صانعو «عوكل» أن يصوروا من معالم هذه المدينة الأسطورية ، ومفاتنها ، إلا أقل القليل .

فبدت بعض المشاهد ، وكأنه قد جرى تصويرها عندنا ، على أرض مصر.

والأغرب ، والمثير للعجب العجاب أن أكثر من مشهد فى الفيلم يوحى بأن تركيا بلد ليس دين شعبه الاسلام....

فأول مشهد على أرضها ، عبارة عن لقطات لحشد من المعزيين ، يستمع لموعظة يلقيها أحد القساوسة ، وأمامه تابوت داخله «عوكل» يغط فى نوم عميق..

وفى مشهد آخر ، لأحد الأفراح باستنبول ، يفاجأ «عوكل» ببطن العروس ، منتفخا ، وكأنها حامل فى شهرها الأخير .

وعندما يستفسر من «نور» عن هذا الأمر الشديد الغرابة .

تجيب فى هدوء تام ، أن ما رآه أمر طبيعى ، فالعادات والتقاليد هنا ، أى فى تركيا ، تبيح للفتاة أن تحمل ، قبل عقد القران !!

ثانيا : أن محمد سعد يدور حول نفسه، وشيئاً فشيئاً ، تعود به الخطى إلى وراء.

خيبة الأمل

توقعت له أن يتقدم إلى أمام ، كما تقدم «جيم كاري» ، ذلك النجم الأمريكى الذى بدأ مشواره مع الأطياف مهرجا.

غير أنه سرعان ما تحول إلى ممثل قدير ، تسند إليه بطولة استعراض ترومان، أحد أهم أفلام تسعينات القرن العشرين.

وكم خاب توقعى ، فهو ليس له شغل أو مشغلة فى «عوكل» إلا امتحان صبرنا، بمزيد من الإلحاح والمبالغة فى

الأداء ، بقصد أوحد هو التهريج والكاريكاتور الرخيص .

أما الصدق والاقتراب من الواقع ، ولو قليلا ، أما الذوق المهذب ، فلا مكان له فى قاموسه السينمائى ، غير الملتزم بأى قواعد أو أى أصول من أى نوع كان.

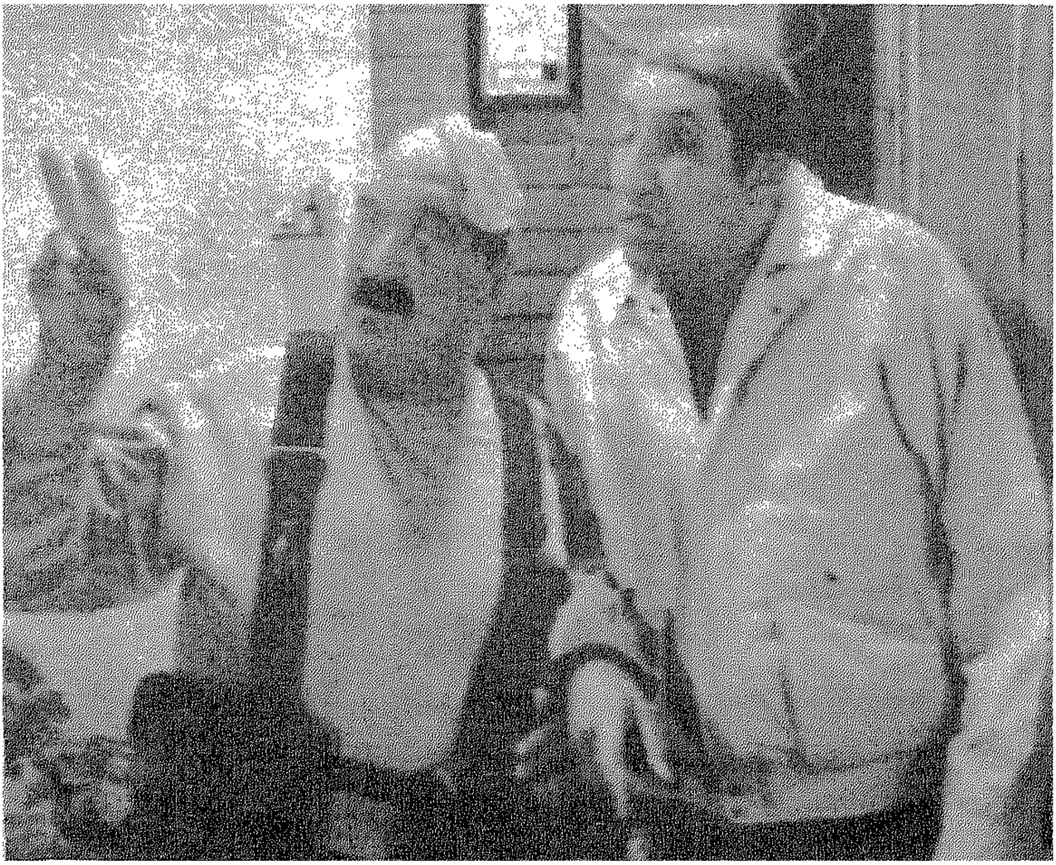

هانى رمزي وحسن حسنى فى غبى منه فيه

ولعل خير مثل على التهريج وسخفه فى «عوكل» تلك المشاجرة التى استعرض فيها محمد سعد عضلاته ، بوصفه عجوزا حيزبون ، فنراه أو نراها تتبادل الكلمات مع خطيبة عوكل وشقيقها الشرير ، حتى تنتصر عليهما فى نهاية الأمر.

وعلينا ، نحن المتفرجين المعذبين بالفيلم ، أن نصدق هذا الهراء المحطم للأعصاب .

نكات أم سخافات

وهنا ، لا يفوتنى أن أذكر مثلا آخر، تلك الكلمات التى تنقصها البراعة الرائعة اللماحة فى استخراج النكات ، والمتخم بها أكثر من مشهد فى الفيلم.

ومن بين هذه الكلمات ، أذكر ما جاء على لسان الجدة «أطاطا» «محمد سعد»، وهى تندب حظ حفيدها ، المختفى ، دون أن يترك أثرا ، ودون سابق انذار .

«يا ترى يا عوكل أنت جعان ، ولا شبعان ، رجب ولا شعبان»!!

ومن هراء «عوكل» أنتقل إلى هراء أشد وطأة ، هراء «غبى منه فيه» .

زحف الغباء

فمن أولى لقطاته ، يقول لنا صاحبه «رامى إمام» أن «هانى رمزى» بطل الفيلم من ذلك النوع الذى يضرب به

المثل فى الغباء.

ومادام هو كذلك ، أى متفوقا فى كم وكيف الغباء بحيث يضرب به المثل ، فتصرفاته ، من ثم ، تدخل فى باب اللا معقول .

ولا غرابة ، والحالة هذه ، إذا ما دعانا صاحب الفيلم إلى عدم الاهتمام بالقصة ، لا نفكر فى ضعفها أو قوتها، لأن الغاية الحقيقية من «غبى منه فيه» ، أن نعطى عقولنا اجازة لفترة قصيرة ، تتيح لنا أن نضحك ، ونقهقه ، بمناسبة وغير مناسبة ، كالبلهاء.

وفيما لو أن المراد من أفلام «رامى إمام» قد تحقق على النحو الأمثل ، أى استبد بالجمهور الضحك دون أى تفكير، فذلك النجاح مؤداه ، بحكم اللزوم ، فتح جميع أبواب الصعود والارتقاء أمام المخرج الشاب ، وإتاحة الفرصة لنجم الفيلم ، كى يسترد جمهوره الذى كسب ثقته بعد طول عناء.

وسرعان ما فقده ، لا لسبب سوى سوء الاختيار .

سر الصعود

فمما يعرف عن «هانى» أنه لم يصعد إلى مصاف نجوم الملهاة ، إلا بفضل نجاح فيلمين ، سقطا فنيا .

أولهما «فرقة بنات وبس» لصاحبه «شريف شعبان» ، ذلك المخرج المتخصص فى صنع أفلام منقولة ، دون أى تصرف أو اجتهاد ، من أعمال سينمائية أمريكية ، تحقق لها من النجاح الشئ الكثير فهذا الفيلم يعد خير مثل على ذلك النوع من النقل الأعمى ، فلقطاته لا تعدو أن تكون محاكاة للقطات «البعض يحبونها ساخنة» ، تلك الرائعة التى أبدعها المخرج الأمريكى الذائع الصيت «بيلى ويلدر»، وذلك قبل نصف قرن إلا خمسة أعوام .

واسند الأدوار الرئيسية الثلاثة فيها إلى كل من «مارلين مونرو» ، «جاك ليمون» و «تونى كورتس» .

وقد حل محل هؤلاء النجوم الثلاثة، عند عملية استبدال الفيلم المصرى بالفيلم الأمريكى كل من «أميرة فتحى»، «هانى رمزى» و «ماجد المصرى».

أما الفيلم الثانى الذى جاء «لهانى» بالنجومية ، فهو «صعيدى رايح .. جاى» لصاحبه المخرج محمد النجار.

وارجح الظن أن نجاح هذين الفيلمين نجاحاً فاق كل التوقعات ، رغم سقوطهما فنيا ، كان له أثره الكبير على اختيارات «هانى» فيما بعد ، للأفلام.

ومن هنا ، حماسه لتقمص شخصية تعانى من غباء شديد ، متبعا فى ذلك خطى كل من «جيم كارى» و «جيف دانييلز» فى «غبى وأغبى منه» ، ذلك الفيلم الذى أخرجه «بيتر فاريللى» قبل عشرة أعوام ، وفيه تقمص النجمان الأمريكيان شخصيتى صديقين ، القاسم

المشترك بينهما هو الغباء.

التشوية والتقبيح

ولأمر ما ، لعله تصور «هانى» ومعه «رامى» المخرج الشاب ، ويا ليتهما ما تصورا ، أن أحد أهم توافر شروط الغباء فى الشخص ، هو ألا يكون وسيما .

فعندهما ، فيما يبدو ، كلما كان الغبى مشوها ، قبيحا ، كان ذلك دليلا ، ما بعده دليل ، على أنه فى الغباء لا يشق له غبار.

ومجرد توافر التشوه والقبح ، يغنى عن ادعاء الغباء ، عن طريق الأداء المقنع.

فوفقا لقول جاء على لسان «هانى» فى أحد أحاديثه الصحفية ، أنه يكفى أن يغير شكله عن طريق وضع طقم أسنان ، وانقاص وزنه أكثر من عشرين كيلو جراما ، ووضع دعامات خلف أذنيه، حتى تظهر شخصية الغبى طبيعية، دون عناء .

وفاته أن أحدا من ملوك الملهاة لا فى سالف الزمان ، ولا فى أيامنا هذه ، قد قبح شكله ، كى يبدو غبيا .

الحق ، أن هانى بتقبيح وجهه ، قد هفا هفوة جسيمة.

فاعتماده على تقبيح خلقته ، قد انحدر بأدائه إلى مجرد تشويح منفر بالذراعين ، وتلعيب مقزز للحاجبين ، وتحريك شئ للرأس إلى الجهتين كل ذلك مصحوبا بصوت عال ، خال فى أكثر من حين من الذوق المهذب وليد الحياء .

مشاهد مقززة

وهنا ، أجد من اللازم أن أشير باختصار إلى مشهدين مثيرين للاشمئزاز.

أولهما مشهد تجشئه مراراً ، أثناء قيامه بالشرب من قارورة مياه غازية ، فى حضور حبيبة قلبه «نيللى كريم» ، التى من أجل الحصول على موافقة أبيها الموسيقار على زواجها به ، تحول من إنسان شريف إلى لص غير شريف ، مرة يشارك «حسن حسنى» فى عمليات السرقة ، ومرة أخرى يشاركه فيها «طلعت زكريا».

وثانيهما مشهد إصابته فى الجزء الحساس من جسمه ، بعد الانتهاء من التبول ، وما أكثره فى الفيلم ، وتوجعه من الألم الناجم عن الجرح ، بشكل مثير للتقزز ، ثم ظهوره دون سروال ، وقد جرى تغطية الجزء المجروح بضمادات بيضاء .

كل ذلك ، لا لغرض سوى انتزاع الضحك من أفواه متفرجين ، جرى ترويضهم على الاستمتاع بالإسفاف .

كلمة أخيرة

استثناء غريب

أدى «طلعت زكريا» دوره كغبى ، يفوق غباؤه غباء «مهنى» دون أن يشوه خلقته ، أداه على خير وجه .

كان، والحق يقال ، آلة جميلة ، طيعة، فى فيلم شديد الافتعال ، خال من أى وجه من أوجه الجمال !! ■

المسرح المصرى وأجهـزتـه

بقلم
مهدى الحسينى

هذا العنوان أخذناه عن أستاذ علامة هو الدكتور محمد مندور حين كتب عن «الثقافة وأجهزتها» شارحا طبيعة عمل هذه الأجهزة والمسئوليات الملقاة على عاتقها وواجباتها تجاه تنوير الأمة وإمتاعها متعة رفيعة باقية . وها نحن هنا نبغى اتباع خطاه فى محاولة للنظر إلى أجهزتنا المسرحية ومدى ملاءمتها للقيام بالمهمة النبيلة المرجوة.

فرقة رضا فى إحدى رقصاتها

ليسمح لنا القارئ أن نقص عليه جانبا مضيئا من تجربة فريدة فى تاريخ الإدارة الفنية فى مصر لم يمض عليها نصف قرن ، أعنى تجربة واحد من أبرز أساتذة الجيل الواعين الأطهار ، ففى عام ١٩٥٦ كان الأستاذ يحيى حقى مديرا لمصلحة الفنون (نواة وزارة الثقافة) ، حين صادف الأستاذ توفيق حنا المثقف المصرى المعروف أحد الحلاقين فى مدينة الأسكندرية الذى سرد عليه - ضمن ثرثراته التقليدية - حكاية عن بحيرة وصيادين وفتى وفتاة ، ولما أعجب الأستاذ بحكاية الحلاق فإنه سارع إلى تدوينها ونشط إلى القاهرة ليعرضها على مدير مصلحة الفنون الذى تلقفها ، حيث كان يبحث حينها عن «تيمة» شعبية مصرية صميمة يتوفر لها من الخيال والجمال ما يجعلها صالحة كأساس لعمل غنائى استعراضى ذى نكهة شعبية نفاذة ، فى حين كان زكريا الحجاوى وحاشيته وعلى أحمد باكثير بثقافته الواسعة وقدراته المتعددة ورغبته العميقة فى الارتباط بالوجدان المصرى ، ونجيب محفوظ بموهبته الفذة ومصريته الأصيلة ، هؤلاء كانوا من أبرز المترددين على «مصلحة الفنون» كأمل فى قيام كيان إدارى يرعى الثقافة والمثقفين ، فطلب منهم صاحب القنديل معالجة مسرحية لهذه الحكاية الشعبية الصغيرة ، وكذا كان الأمر مع الموسيقارين

الكبيرين أحمد صدقى وعبدالحليم نويرة ، والشاعر الغنائى عبدالفتاح مصطفى ، ثم الموزع قائد الأوركسترا إبراهيم حجاج ، ثم نجمة أخاذة متعددة المهارات شاملة القدرات والمواهب هى نعيمة عاكف التى لم يطل بريقها حتى اختطفها الموت فى عز شبابها وجمالها وعطائها ، وعلى ما أظن كان تصميم الديكورات لصلاح عبدالكريم والأزياء لعبد الغنى أبو العينين .. هذا إذا لم تخنى الذاكرة . ومن جانب آخر كانت هناك جماعة أو أسرة فنية على رأسها المهندس حسن فهمى أستاذ الهندسة والباحث اللغوى وعميد معهد السينما المفكر والفنان والد كل من نديدة وفريدة فهمى فنانتى الرقص والاستعراض اللتين ارتبطتا بشابين موهوبين من أسرة محملة بالمواهب، هما الفنانان على ومحمود رضا ، التحقت هذه الأسرة شريكا بنصيب وافر من الثقافة والخبرة والتفرد بالعمل الجديد «يا ليل يا عين» هذا الاستعراض المسرحى الفولكلورى المصرى الشهير الذى لم يأخذ حقه من ليالى العرض حتى سافر لتشارك به مصر فى مهرجان الشباب بموسكو سنة ١٩٥٧ ، بقيت لنا منه بضع مقطوعات موسيقية لازالت فى مكتبة الإذاعة تصادف أن سمعت إحداها لعبدالحليم نويرة بعنوان (المنزلة) ولم أكن أعلم حينها أنها إحدى مقطوعات «يا ليل يا عين» فسحرتنى حتى أنى رأيت لون الماء وحركة الموج وانعكاسات النجوم

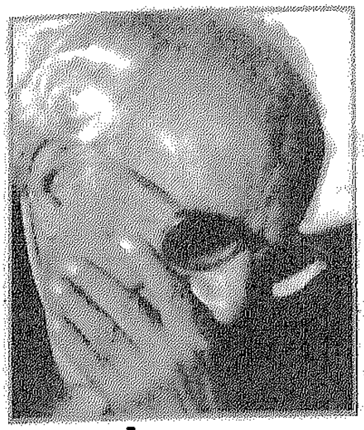
يحيى حقى

والكواكب والصيادين والمراكب والبحارة ونسيم البحيرة وتغيرات الريح!! كل هذا فى مقطوعة واحدة ؟!!

قالت لى سوزان الحجاوى إن والدها استضاف الموسيقار الكبير فى بلدتهم وطاف به أرجاء البحيرة وناسها حتى عادا فائزين بتلك المقطوعة الرائعة، ولكننا – ويا للأسف – لا نحفظ لهذا التاريخ المقدس قدسيته وجماله فقد قدم الأوبريت فى الشتاء الماضى بصورة غاية فى السوء، وأيضا بقت لنا فرقة رضا التى خرجت لنا من رحم يا ليل يا عين .. وهكذا بدأ فن الشعب يأخذ مسارا جديدا بين فنوننا .

إذن هذا هو المنتج المسرحى ، لا يضع اسمه على تذكرة أو إعلان أو كتيب ، بل يتوارى بكل تواضع خلف العمل الفنى ، يلقى الضوء على المبدعين وأصحاب المواهب ويساندهم لا يرجو شيئا إلا العمل الفنى ونجاحه. هكذا كان يحيى حقى .

توسعات فى الحركة المسرحية

كم خسرنا حين تم دمج فرقتى/ شعبتى : الفرقة المصرية للتمثيل

والموسيقى (الفرقة التقليدية القديمة) مع فرقة المسرح الحديث (الشباب الجدد والعائدون من البعثات) فى فرقة واحدة هى فرقة المسرح القومى بقيادة أحمد حمروش وبمعاونة لجنة رفيعة لاختيار النصوص مكونة من د. محمد مندور ، ود. محمد القصاص ، د. عبدالقادر القط ، أ. فتوح نشاطى ، أ. نبيل الألفى ، نعم خسرنا المنافسة الشريفة بين جيلين وذوقين وثقافتين ، حبذا لو جربت الدولة فى إدارتهما أسلوبين فى التمويل وحساب الإيراد ، أحدهما يقوم على التمويل الكامل ونظام المرتبات والدرجات الحكومية والثانى يقوم على الإعانة لتغطية تكاليف العروض مع توزيع العائدات وفقا لنظام الحصص وللائحة داخلية تضعها الجمعية العمومية للفرقة ، غير أن حسن النوايا والظنون هنا لم تقدر هنا أننا كنا مقبلين على مرحلة صارمة تم الإعداد لها جيدا ، ألا وهى مرحلة تأميم الفكر والثقافة والفن وهيمنة الرقابة والقرارات الجمهورية والأحكام العرفية على العقول والسلوكيات دون مهاودة فضلا عن تراكم جبال من البيروقراطيين الصغار والكبار وعمالة القوى العاملة (فنان بالتعيين أو النفوذ أو الواسطة .. لا الموهبة) هؤلاء سوف يجثمون على صدر الحركة الفنية وكاهلها فلا تستطيع حراكا إلا وهى تحمل ثقلهم على كاهلها حيث تذهب نسبة كبيرة من ميزانيات العروض كمرتبات وحوافز لهؤلاء الطفيليين الذين توحش بعض منهم ولا يحمل إلا مؤهلا متوسطا - خاصة حين أصبحوا أعضاء فى التنظيمات السياسية الحكومية - فأخذوا يعبثون بالمال العام مكونين الثروات والنفوذ وبؤر الفساد .

كما تم تضييق الخناق على الفرق المستقلة وأهمها فرقة المسرح الحر ، وفرقة جمعية أنصار التمثيل ، فلم تعد تمنحهما إعانات كافية ، ولم تؤجر لهما المسارح بإيجار رمزى كما كان فى الماضى ، ولم تدعمهما ببعض المهمات المسرحية من دار الأوبرا أو مسرح الأزبكية ، بل ورفعت سعر الضريبة على التذكرة والإيراد العام ، وأجبرت فرقة رضا على بيع نفسهما للدولة التى لم تعد تطيق صوتا ولا مؤسسة مستقلة فى الإنتاج الفنى أو الثقافى ، أما فرقة الريحانى فلم تعد ذات قيمة تذكر - إلا موهبة أبطالها الذين بقوا بعد وفاة الريحانى وتوقف بديع خيرى عن الكتابة - ولم يساعدها على الاستمرار إلا ملكيتها للدار الفنية الوحيدة التى بقيت بعد مجد عماد الدين وهى سينما ريتز أى مسرح الريحانى .

ثم أنشأت الدولة مسرح التليفزيون من أربع شعب (عشر فرق) هى المسرح الحديث والمسرح الكوميدى والمسرح العالمى ومسرح الحكيم ، كل ذلك لتأكيد هيمنة الدولة على الحركة المسرحية ، وأيضا تثبيت سياسة الكم ، وسحب الأرضية من تحت أقدام الفرق المستقلة ،

وربط الفن بالإعلام ، حيث زعموا أن مسرحيات فرق التليفزيون كلها سوف تسجل وتبث على شاشات التليفزيون الذى ولد عملاقا !! غير أن الواقع العملى يقول إن عددا متميزا من المسرحيات (غير المرضى عنها) لم يتم نقلها تليفزيونيا ، كما أن بعض المنقول قد محيت أشرطته ، ونفس الأمر كان يتم مع المسرح القومى .. ومازال . ضمت هذه الفرق العشر عددا من الفنانين الموهوبين وكثرة من غير الموهوبين ، كما تكاكأت اللجان الرقابية وغير الرقابية وكتبة التقارير وراصدوا النكت والقفشات ذات المعانى المزدوجة والنمامين المتطوعين ، وكل طامع فى مسلاليم السلطان (لم يعد هناك ذهب) خنق كل هؤلاء المبدعين الحقيقيين .. إلا قليلا . واستقطبت الأجهزة ومراكز القرار وأصحاب حق التوقيع على الشيكات والمكافآت .. قطاعا كبيرا من العاملين فى المجال ، خاصة وأنهم ليسوا فنانين حقيقيين أصحاب فكر ورسالة وخبرة وتاريخ ، وهم – بحكم أنهم نكرات فنية وإنسانية – يحلمون بسطوعهم فى كادرات الشاشة الفضية، حيث تلمع شخوصهم البائسة وأعمالهم التافهة ، كما أصبحت التقارير الأمنية أحد شروط التعيين المعروفة بغض النظر عن الكفاءة ، وشرط غير معلن لمن يتم التعامل معهم من خارج الجهاز الحكومى أو على نحو مؤقت ، فى ظل الهيمنة التامة للدولة على الإذاعة والسينما والتليفزيون .. والمسرح

الفريد فرج

، وكثيرا ما أصبحت المصائر والأفكار والأعمال فى يد هذا الفرد أو ذاك . غير أننى استثنى فردا مثل يحيى حقى الذى لا يتكرر إلا نادرا ، من حيث التجرد والطهارة والتمكن والوعى ووضوح الهدف ، فى زمن أصبح فيه التعامل مع هذه الدولة والرضوخ التام لمشيئتها قدرا يرضخ له الجميع ، فكان أن لعب نفس دوره حين وضعوه رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» لعب دور الاكتشاف والتوجيه والرعاية .

رغم كل هذه الظروف الاستثنائية من حيث سيطرة الدولة الشمولية علي كل مقدرات العملية الإنتاجية المسرحية: الإدارة – المال – دور العرض – المهمات المسرحية – لجان القراءة – مؤسسة النقد – الرقابة – التعليم الأدبى والفنى – النقابة – الدعاية – الشخصيات المؤثرة – الإعلام ، رغم هذا فقد لعب مسرحيون مخلصون وشرفاء دورهم الإبداعى ، ولو بدافع فردى أو شخصى ، وفى حدود الممكن والمسموح ، فخرج

علينا ومن حصيلة كل ما سبق ما يطلق عليه اسم مسرح السيتنات ، وهو ليس خيرا كله ولا شرا كله أيضا ، بينما لم تكف الدولة عن إظهار عيونها الحمراء من حين لآخر كي يرعوى فنان أو آخر، فى ظل سلطات مطلقة معلنة أو خفية تتدخل في اختيار الأعمال والأشخاص وتحدد آليات التشغيل وتوجهات الإنتاج وأبعاده ، مدعومة بقرارات المنع والاستبعاد والتجاهل وأحيانا الفصل .. هذا بينما يقبع فى السجن والمعتقل عدد لا بأس به من المبدعين المسرحيين وغير المسرحيين .

***

أما عن السبعينيات فيبدو أن أيد غريبة سمح لها بالتدخل ، مع انفضاض الجمهور عن أغلب عروض مسرح الدولة (فى أسبوع واحد من يناير سنة ١٩٧٣ صدر قرار بإيقاف ثلاث عروض ناجحة هى «ماراصاد» لبيتر ڤايس إخراج أحمد زكى بمسرح الطليعة ، و«قولوا لعين الشمس» لنجيب سرور إخراج توفيق عبداللطيف بالمسرح القومى ، و«جواز على ورقة طلاق» لألفريد فرج إخراج عبدالرحيم الزرقانى بالمسرح الحديث بحجة أنها لم تحقق النصاب المطلوب) فبعد تجميد الأجور بما لا يتناسب مع الارتفاع الفادح فى الأسعار وبالتناقض التام مع ما تتطلبه حياة الفنان العصرى من مصروفات ضرورية مثل شراء الكتب وأجهزة استماع ومشاهدة وصحف ومجلات ومتابعة العروض الأجنبية والعروض السينمائية بالإضافة إلى مصروفات أخرى تتعلق بضرورات حسن المظهر وسهولة التنقل والانتقال، بعد هذا الشظف فى العيش ظهرت اغراءات مسلسلات البترو دولار تحملهم جماعات إلى ستوديوهات بدأت من الخليج ووصلت إلى لندن ، يعودون بعدها وقد تقاضوا أجورا لم يكونوا يحلمون بالحصول عليها سواء من مسرح الدولة أو من التليفزيون والإذاعة المصرية ، وفى حين انتشر المقاولون (المنتجون المزعومون) وكأنهم أرسلوا من جهات نجهلها خصيصا لافساد الحياة المسرحية والفنية المصرية بل وأرواح الفنانين وعقولهم الأمر الذى أدى إلى اختلال فى القيم الشائعة فى الوسط الفنى ، فى حين بدا رائد عظيم مثل توفيق الحكيم كاتبا غير مرغوب فيه ! فما الحال مع نعمان وألفريد وسرور وغيرهم من صناع الفكر فى مسرحنا المصرى !!؟

ثم ظهرت بوادر التشجيع الخفى لما يسمى بمسرح القطاع الخاص (كبديل للمسرح المستقل الذى صنع الفن المسرحى قبل ثورة ١٩١٩ وما بعدها حتى الخمسينيات)، وكأن الدولة التى أممت المسرح والفن والثقافة ترغب فى تسليم جزء من (العهدة) لمقاولى القطاع الخاص من المضحكين والمهرجين والسفهاء ، وأخذت وسائل الإعلام – خاصة التليفزيون – فى التسامح مع

إنتاج هذا القطاع بعد أن كانت تكشر في وجوههم !! . وقد يندهش البعض .. وقد لا يندهش البعض الآخر ، إذا كان يعتقد أن الانغلاق «أ» والانفتاح «ب» وكلاهما وجهان لعملة واحدة ومرحلتان متعاقبتان بالضرورة ، كما أن الذين صنعوا الأول هم أنفسهم الذين صنعوا الثانى .

لكن لم تخل السبعينيات من ايجابيات حيث تمكن فنانون وكتاب من إثبات حضورهم الابداعى فى حياتنا المصرية مثل صلاح عبدالصبور ونجيب سرور وسمير العصفورى وعبدالرحمن الشافعي وغيرهم ، غير أننا نؤجل الحديث عن مسرح الثقافة الجماهيرية مسرح الشعب فى الأقاليم لمقال قادم .

الأجهزة المسرحية اليوم

بديهى أن اليوم ابن الأمس القريب أو البعيد ، ومعاناة المسرح المصرى والمسرحيين اليوم ناجمة من واقعنا المباشر والآنى كما أنها راجعة لسباق تاريخى تبدت ملامحه المكشرة عن أنيابها بمجرد عبور الحكم أزمة العدوان الثلاثى : «لا صوت يعلو فوق صوت السلطة وأجهزتها ورجالها» ، فبعد أن أممنا الصحافة ودور لنشر والمطابع ودور العرض وشركات السينما والفرق المسرحية وتمت سيطرتنا على المسرح والمسرحيين ، لا يوجد أحد يمكنه أن يعمل خارج هذه المنظومة الصارمة التى يدبرها أهل الثقة لا أهل الخبرة» .

واليوم يهيمن على الحركة المسرحية

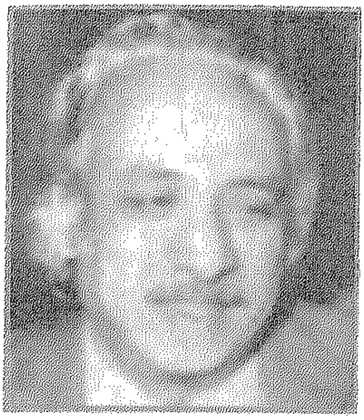

صلاح عبد الصبور

قطاعان : عام وخاص (هذه اللفظة الرديئة تستخدم كبديل للفظة المستقل أو الأهلى أو الوطنى) ورغم أننا لا ننوى فى هذا المقال الخوض فيما يتعلق بهذا القطاع الخاص تفصيلا ، إلا أننا نستسمح القارئ فى أننا سوف نشخصه مؤقتا وسريعا برأينا أنه مسرح رخيص وسياحى ، لا يستطيع أن يقدم عملا رائدا مثل «الناس اللى تحت» التى قدمتها فرقة المسرح الحر سنة ١٩٥٦ ولا زقاق المدق سنة ١٩٥٨ ولا أن يقدم الأعمال الرائعة التى قدمتها فرقة أنصار التمثيل مثل : «ثم غاب القمر» للأمريكى جون شتاينبك فى إطار الحملة ضد النازية أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، ولا حتى كوميديات الريحانى المحملة بالنقد الاجتماعى ، ولن أحدثهم عن روائع محمد تيمور وسيد درويش والريحانى وعزيز عيد حين قدموا أوبريت «العشرة الطيبة» الذى أمر المندوب السامى باغلاقها ثم أشاع بواسطة الطابور الخامس أن الريحانى (المنتج)

قام بإغلاقها غيرة من نجاح سيد درويش الذى فاق مسرحية الريحانى المجاورة «ولو» !!! إن هؤلاء الجدد يديرون الظهر تماما لحياة الشعب وقضاياه ولتاريخ الأمة ونضالها ، بينما لا يستطيعون الزعم أنهم يقدمون فنا ولا حرفة . إن الأغلبية الساحقة من منتجى هذا القطاع الخاص يتحسسون جيوبهم حينما يتعاملون مع ثقافة مسرحية جادة ، ورغم زعم البعض منهم أنه يقدم عروضا محترمة، إلا أننا نتمنى أن يقوم فى مصر مسرح مستقل وحر ووطنى ، لهذا نكتفى هذه المرة بمناقشة أجهزتنا المسرحية التابعة للدولة أى ما يسمى مسرح القطاع العام وتوابعه .

قطاع المسرح (العام)

وينقسم الآن إلى المسرح القومى (ومقره مسرح الأزبكية) المسرح الحديث (ومقره مسرح السلام) ومسرح الطليعة (ومقره مبنى عشوائى قرب العتبة خلف مسرح الأزبكية) مسرح الشباب (ويقال إن مقره مسرح ميامى أو أن ليس له مقر أصلا لأن مسرح ميامى تحت الإصلاح إلى ما شاء الله) ومسرح الطفل (ليس له مقر بعد سقوط مبنى مسرح متروبول منذ حوالى عشرين سنة ولكنه يستخدم مسرحاً صيفياً صغيراً على شاطئ النيل بالمنيل) ومسرح العرائس (ومقره مسرح العرائس بالعتبة) والمسرح الكوميدى (ولا ندرى له مقرا ولا عنوانا) ومسرح الغد (ومقره تابوت معمارى طفيلى تكفل بسد المدخل الطبيعى والباب الرئيسى لمسرح البالون لذا يجب هدمه وإزالته وإزالة كل المبانى الطفيلية فى هذه المساحة ككل) .. هذه هى حصيلة القاهرة ذات الـ ١٥ مليون مواطن الذين يقطنون مدينة متضخمة متورمة متمددة من الصف والتبين وحلوان جنوبا إلى شبرا الخيمة فقليوب وطوخ شمالا ، ومن المطرية وعين شمس والمرج والزيتون فى المشرق مع ميل قليل إلى الشمال إلى مطار القاهرة ومدينة نصر والقاهرة الجديدة .. إلخ .. إلخ .. ثم شرقا مع ميل قليل إلى الجنوب ، ناهيك عن مدن طفيلية مثل العاشر من رمضان والسلام والنهضة وغيرها فيما بين الشرق والشمال ، ثم ننزلق إلى المعادى والمعادى الجديدة حتى نصل مرة أخرى إلى ١٥ مايو ، وبالطبع تدخل القاهرة التقليدية والقاهرة العشوائية داخل هذا الإطار الرخو ، حتى ننتقل غرب النيل إلى إمبابة وملحقاتها الكثيرة من طناش إلى كفر حكيم ، ثم العجوزة والدقى وميت عقبة وبين السرايات وبولاق الدكرور وما خلفها إلى الصحراء فالجيزة وجنوبها حتى منيل شيحة لنمضى غربا حتى مدينة ٦ أكتوبر وما قبلها من شوارع الهرم وفيصل إلى مدينة الأهرام .. وكل ما نهبته الطرق والمبانى والفنادق من ثروة زراعية وقرى ! فلاحين وأرض وحقول وحدائق وترع ومصارف . تلك هى القاهرة التى لم تعد معزية ولا فاطمية ولا مملوكية أو عثمانية .. ولا حتى خديوية ، مدينة مشوهة بلا مركز ولا قوام ولا طابع

، بل مدينة الفوضى وفقدان الملامح واضطراب الجدوى وقلة الفائدة . غير أن امتاع السكان المساكين الضحايا والمجرمين معا وإيقاظهم وإعادة الوعى إليهم مسئولية كبرى يختص المسرح والمسرحيون جانبا هاما منه ، وبث الجمال والحياة الصحية والصحيحة فى قاطنى هذه المساحة غير الفارغة (عذرا للمخرج الإنجليزى بيتر بروك) يقع على عاتق حركتنا المسرحية ككل ، وهذا قدرنا شئنا أم أبينا مادمنا نعمل باسم أبى الفنون جميعا .

ولأننى أخصُّ هنا ما يسمي بقطاع المسرح فإنني أتساءل : كيف إذن لهذه الدور المسرحية القليلة عددا وعدة ، الضيقة سعة الفقيرة جمالا أن تقدم هذه الخدمة الجليلة ؟ وكيف إذن لهذه الفرق صورية التكوين أن تقوم برسالتها تجاه الفن والجمهور ؟ إن مسافة شاسعة تقع بين مهامها المكلفة بها فى حيثيات قرارات إنشائها ، وبين الواقع الفعلى والامكانية العملية المتاحة عند التنفيذ ، وثمة مسافة أخرى بين هاتين .. وبين القدرة الحرفية والوعى الابداعى .

ولكى لا نبحر فى الأمانى ونتصور يوتوبيا إدارية وفنية لهذا القطاع نقترح - عمليا - ما يلى :

١ - بالنسبة للعمالة يتم ما يلى :

أ - لا يلتحق إنسان فى عمل فنى بالقطاع أو أحد فرقه إلا بعد اختبار حتى ولو كان متخرجا من أكاديمية الفنون أو أقسام المسرح والأدب بكليات الآداب أو كليات التربية الفنية أو النوعية والفنون الجميلة .

ب - حصر العمالة الزائدة وإبعادها عن الفرق والمسارح إلى وزارة القوى العاملة (هناك اقتراح بإنشاء وزارة لمحو الأمية والخدمة العامة من الزائدين عن حاجة الوزارات والأجهزة والهيئات) .

جـ - إعادة النظر فى الأسس المالية التى يتم التعامل بها حاليا ، حيث يتم تحويل الحوافز والمكافآت والعقود إلى شباك التذاكر ليأخذ حصته منه وفقا لكفاءته وعمله وحضوره الجماهيرى وطبقا للائحة توضع خصيصا لذلك .

د - وضع الموهبة - لا المؤهل - فى المقام الأول وإلغاء شرط الحصول على شهادة مسرحية للحصول على عضوية الفرق أو النقابة .

٢ - بالنسبة لعمق المجال الجماهيرى :

أ - أن تتجول العروض فى مسارح الأقاليم - بخلاف المصايف - ويوضع ذلك فى صميم الميزانية ، خاصة وأن لدى الثقافة الجماهيرية ١٦ دارا للعرض يتراوح مستواها بين الجيد والممتاز قياسا على دور عرض العاصمة ، فضلا عن دور أخرى صالحة فى الجامعات

والجمعيات الأهلية .

ب - أن تبنى الدولة دور عرض جديدة فى المناطق المحرومة مترامية الأطراف من العاصمة والمدن الكبرى

جـ - أن تشجع الحكومة القطاع الأهلى (الخاص) على بناء دور عرض، بإعفاءات ضريبية عن تكاليف الإنشاء، وخفض ضريبة الملاهى .

د - صرف إعانات ومكافآت ومساعدات فى صورة جوائز تمنح فى مسابقات سنوية بين الفرق .

هـ - يتم تزويد وتطوير دور العرض بأحدث أجهزة الصوت والإضاءة والمقاعد وتلافى عيوبها الهندسية .

٣ - بالنسبة للبنية الإدارية والإشراف البرامجى والرقابة المالية :

أ - يقوم بإدارة القطاع مجلس إدارة يتكون من مديرى الفرق الذين يعينهم وزير الثقافة ومثلهم فى العدد من كبار الشخصيات الثقافية المعنية بالمسرح ويرأس هذا المجلس علم من أبرز الشخصيات المسرحية المرموقة، شرط أن تكون قرارات مجلس الإدارة الذى ينعقد شهريا - بالتصويت وملزمة لرئيسه دون أى انفراد منه بالقرار، هذا ويتبع المجلس إدارات مالية وإدارية وخدمية ذات طابع عمومى لا ينتقص من استقلالية الفرق .

ب - أن يكون لكل فرقة مدير بعينه وزير الثقافة أو مجلس إدارة القطاع إذا ما فوض فى ذلك .

جـ - أن تنعقد الجمعية العمومية للفرقة سنويا لتضع البرنامج السنوى للفرقة فى موسميين أحدهما سنوى والآخر صيفى مع خطة التجول فى الأقاليم وفقا لحيثيات قرار هذه الفرقة أو تلك ولطابعها المميز ومهامها ووظيفتها العضوية فى الكيان المسرحى ككل .

د - أن تنتخب الجمعية العمومية للفرقة مكتبا فنيا من خمسة أعضاء برئاسة مديرها يمثل كافة أطراف الفرقة (رجالاً ، نساء، فنانين، مخرجين، اخصائيين ، فنيين) .

هـ - أن يقوم المكتب الفنى بتكوين مكتب استشارى للدراماتورج مهمته قراءة النصوص ومتابعة العروض وفنون الدعاية وخدمة العروض التدريبية والاستعداد للمشاركة فى المسابقات والمهرجانات .

وأخيرا ، لم يزل أمامنا الكثير كى نتناوله بالفحص والتحليل والرأى ، فهنا فقط قمنا بالتعامل مع قطاع المسرح ■

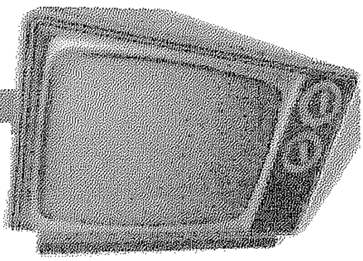

الحرمان

بقلم
مرفت رجب

أحكمت الفتاة سيطرتها على أذهاننا ونسجت بكلامها ضفائر بهجة وألم ، ولما انهمرت منى الدموع أفزعتنى .. لم يكن الموقف يسمح بالاستسلام فقد تشتت تركيزا بلغ ذروته مع أول عبارة نطق بها أول الأساتذة إذ بدا كحامل كشاف يتنقل به فى منجم حافل بالجواهر. ومع كل توجيه للكشاف ، تتلألأ أمام أعيننا جوهرة من فيض ما جمعت الفتاة فى رحلة البحث والتحليل التى استغرقت منها ما يزيد على أربع سنوات ..

فمن هو الأستاذ ومن هى الفتاة وما علاقة الجواهر بانهمار الدموع ؟!!

حين يفقد المرء رغبتة فى الكلام فيتحول إلى حالة من الخرس يقال إن ذلك من أعراض العصاب ، ومن أعراضه الإصابة بالشلل الهستيرى أو القلق أو الاكتئاب أو اضطرابات النوم أو الأرق أو اضطرابات الكلام أو الهذر أو التقلص اللاإرادى فى عضلات الوجه أو الكوابيس أو الهلوسة أو ما شابه ذلك من الاضطرابات المضاعفة للشخصية .. ولذلك يحلل العلماء العصاب بأنه مرض شعورى يؤدى إلى انقطاع جزئى للصلة بالواقع ، أما سببه فيحدده هنرى لوفلين Henry Laughlin بأنه «صراع داخلى لايجد حلا فيؤدى إلى اضطراب فى التكيف الشعورى» .

وحين يسمع المرء كلاما من هذا النوع ، لايملك قدرة على حبس ما يتبادر إلى ذهنه من حالات رآها رأى العين وقد يكون السبب فى كل منها واضحا وقد لايكون، المهم ، إن كان هذا يسرى على البشر وهم يصارعون تقلب الأزمنة ، فماذا عن حالهم فى مواجهة الحروب ، وبالأخص ، ماذا عن الجنود الذين يخوضون الحرب .

أتصور أن أول ما يتبادر إلى ذهن القارىء الكريم ، هو حال المقاتلين فى العراق أو فى فلسطين ، ومعهم ما يحدث لنا جميعا ، ومن الواضح أن ذلك كله فعل فعله فى دفع الباحثة المصرية «منى رضوان» لاختيار موضوع بحثها لنيل درجة الدكتوراه من قسم اللغة الانجليزية وآدابها بجامعة القاهرة : فقد جاء عنوان رسالتها «ملامح من العصاب فى ثلاثية الحرب لبات باركر Aspects & Neuroses in Pat Barker's War trilogy.

الإضافة

لم تفاجئنى الدموع وأنا أسمع كلام الدكتور مصطفى رياض فى تقييم البحث وتأكيده على أن الباحثة قدمت جهدا علميا فيه إجابات لكل ما يطرأ على الذهن من أسئلة وتنويهه بأنها لم تدع حجرا إلا قلبته مفتشة عن المعانى ولآلئها وشهادته بأن استمتاعه بقراءة رسالة منى رضوان لم يكن أبدا ليقل عن متعة قراءة ثلاثية بات باركر .. لم تكن الدموع مفاجأة ، فقد كانت كل عبارة تصدر عن الدكتور مصطفى رياض تعلى من قيمة البحث وفى نفس الوقت تعمق تقديرنا لجهد الباحثة .. وكان كلامه وهو المستضاف من جامعة عين شمس ليشارك فى مناقشة الرسالة بجامعة القاهرة خير استهلال لساعتين متصلتين نعم فيهما الحضور بالقاعة رقم «١٣» الشهيرة بقسم اللغة الانجليزية بآداب القاهرة بدفقة فخر واعتزاز بشبابنا وجامعاتنا وأساتذتنا..

ولقد ظللت على مدى الأسابيع الثلاثة التى فصلت بين حضورى لتلك المناقشة وكتابة هذه السطور أفكر ، كيف يمكن لى أن أنقل لكم هذه الدفقة المنعشة للروح . كيف يمكن لى أن أنقلها لكم بالكامل .. علىّ هنا أن أعترف أن الفكرة طرأت مع أول عبارة جاءت فى مناقشة

الباحثة .. وأعترف أيضا بأن السبب المباشر وراء تلك الدموع هو يقينى أننى مهما اجتهدت فسيكون ما أكتبه قاصرا عن الوفاء بالغرض ، أين الكاميرا ؟ ولماذا تغيب مثل تلك المناقشة عن شاشاتنا ؟ هذا هو ما حفز الدموع فانهمرت وإن أردت حبسها خاصة عندما أكدت الدكتورة عايدة محمد الشعراوى الاستاذة المتفرغة بقسم اللغة الانجليزية بآداب القاهرة وجاء تأكيدها بأوضح عبارة قاطعة بأن بحث منى رضوات هو بحث جديد غير مسبوق فى تاريخ القسم، وأنه إضافة فعلية يعتد بها .. أما الأستاذ الدكتور فيصل عبدالقادر يونس رئيس قسم علم النفس بجامعة القاهرة والمشارك فى لجنة المناقشة فقد بين لنا نوع الجهد الذى بذلته الباحثة لتتمكن من تحليل وتقييم ما ورد فى ثلاثية باركر من أنواع العصاب . وكان من حق الدكتورة جليلة راغب أن ينالها حظ وافر من الغبطة التى شملتنا ونحن نتابع المناقشة فهى الأستاذة المتفرغة بالقسم، وهى المشرفة على رسالة منى رضوان ومن حقها أن تعتز وتفخر بتلميذتها التى عرفت كيف تختار موضوعا لبحثها يميزها ويحفزنا لقراءة الرسالة التى أتمنى أن تترجم إلى العربية ليجدها القارىء بين دفتى كتاب يكون إضافة للمكتبة العربية كما جاءت الرسالة إضافة لمكتبات الجامعات التى ستتبادلها وفقا لقرار لجنة المناقشة التى منحت الباحثة درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى ..

الأفلام الأجنبية على الفضائية المصرية

وهى طبعا من المضحكات المبكيات.. فأنا لاأفهم سببا واحدا يجعل قناة فضائية مصرية تخصص من أوقات بثها ما يتيح إذاعة الأفلام الأجنبية .. هل يحتاج المصريون أو غيرهم من أبناء العروبة المقيمين خارج الأوطان إلى هذه النافذة على الأفلام الأجنبية ؟!! ألم يفكر أحد فى هذه الكنوز من تسجيلات مناقشات الرسائل الجامعية لتكون نافذة للعالم يطل منها على الإضافات الفكرية والعلمية لشبابنا وأساتذتنا وجامعاتنا .. صحيح أن القناة الثالثة كان لها برنامج يغطى الرسائل الجامعية .. ولكنه من فرط تكرار تغيير موعد إذاعته قتل .. أتصور أن فى الرسائل الجامعية من الوفرة وتنوع المضمون ما يكفى لتخصيص قناة فضائية تضطلع بهذه المهمة ، وبإمكان مثل هذه القناة أن تنتقى ثلاث رسائل فقط كل يوم تلحق بكل منها ثلاثة برامج تسجيلية واحد حول الباحث والثانى حول موضوع البحث والثالث حول لجنة المناقشة ، على أن تتكرر إذاعة كل مجموعة ثلاث أو أربع مرات على مدار الأسبوع بما يكفل وصولها للمشاهدين فى أوقات مختلفة من الصباح والمساء وفترة السهرة ، كما هو متبع فى القنوات الفضائية الدولية

المتخصصة فى كل أنحاء العالم (وليس فى بلادنا بعد) ولست من التهور بأن أدعو إلى فتح هذه القناة غدا ولكن الحكمة تقتضى البدء بتخصيص وقت لإذاعة رسالة جامعة كل يوم على أن يكون البث على واحدة من القنوات الأرضية التى تصل إلى عموم البلاد ويتكرر البث على الفضائية المصرية مصحوبا بترجمة حسب جهة التلقى (حين يتيسر ذلك وأرجو ألا يكون أملا بعيد المنال) .

المثال

إننى مدينة للباحثة المصرية الشابة «منى رضوان» إذ جاء حضورى لمناقشة رسالتها لنيل الدكتوراه حافزا للتعجيل بكتابة الاقتراح السابق بيانه ، وهو أمر طال انشغالى به ، وجاءت رسالتها مثلا نموذجيا لما يكمن فى الفكرة من إمكانات .. فهذه واحدة من عموم بنات مصر .. حركتها هموم الأوطان فضبطت بوصلتها على رسالة الكاتبة «بات باركر» فى إدانة الحروب فعكفت على تحليل أنواع العصاب التى فصلتها صاحبة الثلاثية .. فقد رأت الباحثة المصرية أن إنجاز الكاتبة الانجليزية يكمن فى أنها ركزت على ما تحدثه الحروب من دمار فى نفوس الجنود وبالأخص فى أن الروائية البريطانية اختارت زاوية جديدة فى كتابة الثلاثية، هى زاوية نقل الأحداث من وجهة نظر د. ريفرز Dr. Rivers وهو طبيب نفسانى فى عالم الواقع - يحكى عن حالات اضطراب نفسى لبعض من مرضاه وهو بذلك يكشف عن أغلب ما هو سائد من إصابات بالعصاب نتيجة الحرب ولقد حكت الروائية الانجليزية للباحثة فى حوار تكبدت منى رضوان مشقة السفر إلى لندن لإجرائه وشرحت لها فيه لماذا اختارت هذا المنهج فى الكتابة عن الحرب العظمى ، قالت إنها تعرف أن هناك كتبا كثيرة كتبت عن هذه الحرب حكي فيها الكتاب عن أحداث الحرب كما لو كانوا هناك ولكنها أرادت أن تقدم شيئا مختلفا .. وهو من وجهة نظر من يعرف الكثير عن الخنادق .. مع أنه لم يكن أبدا هناك .. إنه د. ريفرز .

ومع أن الكاتبة الانجليزية بات باركر كروائية بريطانية حصدت عديدا من الجوائز عن كل من الروايات الثلاث المكونة لثلاثيتها الشهيرة عن الحرب العظمى .. إلا أن باحثتنا المصرية هى أول من قام بدراسة شاملة عن العصاب فى تلك الثلاثية واعتمدت فى بحثها على آراء عديد من أطباء النفس الممارسين فترة الحرب وبعدها وضمت إليهم عددا من المؤرخين والنقاد لنجد قائمة من اعتمدت على آرائهم تضم د. ويليام ريفرز وسيجموند فرويد وارنست سيمل وبن شيبرد ووندى هولدين وايرك ليد وغيرهم كثير .

ألا ترون معى أن فى مثل ذلك من المتعة والاضافات المعرفية ما يجدر بأن يكون له مكان على شاشاتنا يحرك مع المتعة دوائر فكر فيه من الايجابية ما يدرأ عن نفوسنا غوائل الحرمان النفسى والروحى الجاثمة . ■

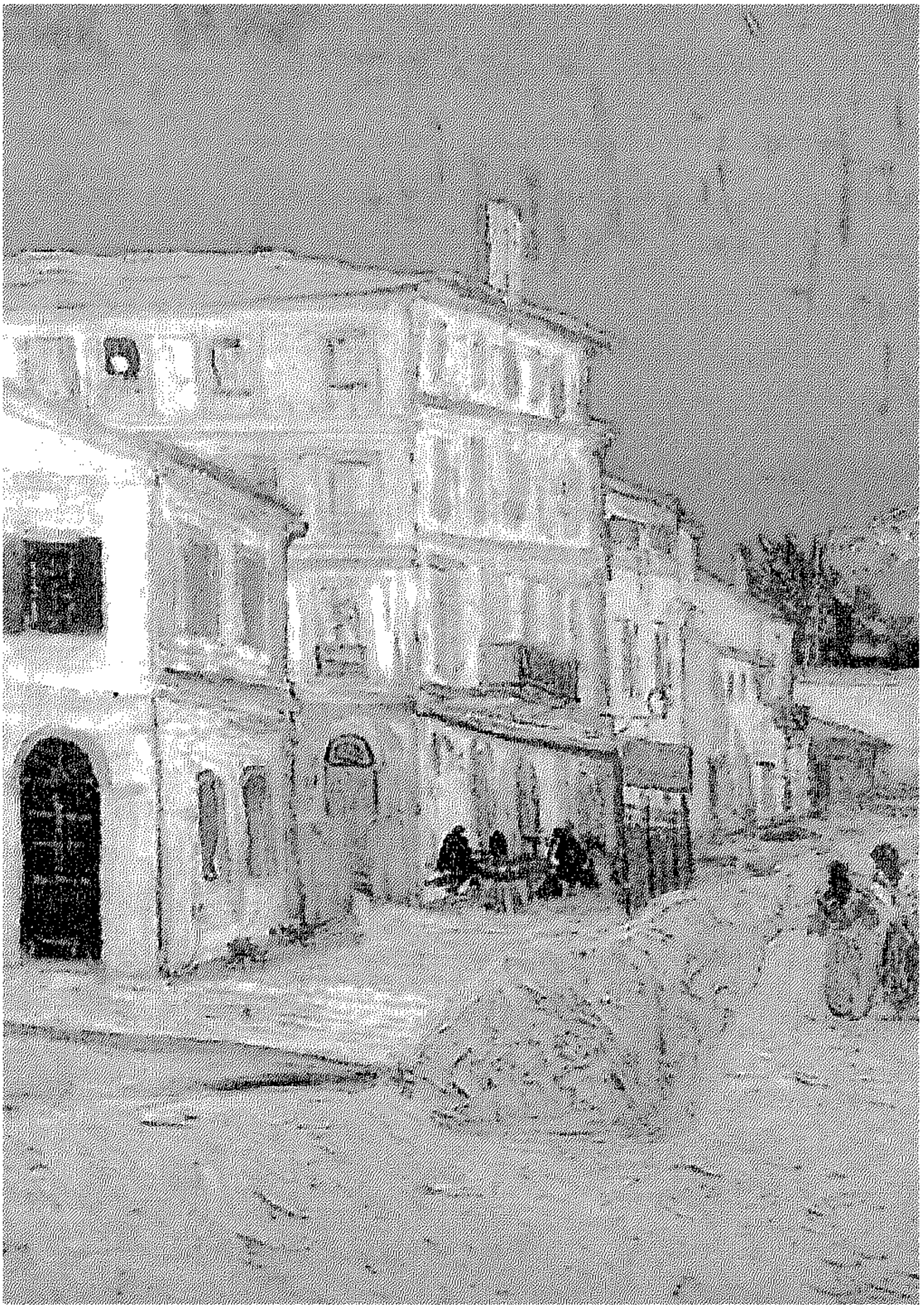

204

رجب ١٤٢٥هـ - سبتمبر ٢٠٠٤م

قصة قصيرة

مسائل عائلية

بقلم
مصطفى نصر

أعد حقيبة سفره في المساء، وضع بها الهدية التي سيقدمها إلى أخته بمناسبة زفافها مساء الغد في دمنهور، أمسك بالهدية:

- ما رأيك ؟

قالت زوجته في جفاء :

- حلوة .

- ستعجب بها أختي كثيراً .

لم تجبه. قامت في تكاسل. هكذا هي منذ أن تزوجته . سنوات يحايلها ويراضيها على أمل أن تصفى وتقنع بحياتها معه، لكن دون فائدة .

تزوجها بعد موت أختها الكبرى التي تركت له ولدا صغيراً في حاجة إلى رعاية وإلى أم يثق في أنها لن تعذبه أو تنال منه، وأين سيجدها، وهو يعلم أنها كانت تحنو على الولد وترعاه طوال مرض أختها وبعد أن ماتت.

أنجبت منه ولداً آخر. حاولت كثيرا أن تتخلص منه لكنها لم تقدر. جاء

الولد رغم كل ما فعلته، تحملها زوجها ولم يظهر لها ضيقه بها رغم ما تفعله. كل يوم مطالب جديدة لكى تثير مشاكل معه الشقة فى حاجة إلى بياض، تريد أن تغير بلاط دورة المياه.. الخ وهو رغم ظروفه الصعبة يوافقها يقترض من أخيه وأمه وأصدقائه: ماذا سيفعل؟ المشكلة فى الولدين أين سيذهب بهما؟ لقد كان يخاف على الولد الأكبر، فإذا بولد آخر يأتى فيسبب له مشكلة ثانية.

ابتسم لها عندما عادت. قال :

- أول مرة سأفارقك منذ أن تزوجنا.

لوت رقبتها بعيدا عنه ولم تجب. عندما أعلن عن رغبته فى حضور حفل زفاف أخته فى دمنهور وضرورة بياته خارج البيت، كان يود لو ناقشته أو اعترضت على سفره، لكنها - كعادتها - لم تعلق. أحس بأنها فرحة لأنه سيتركها وحدها، قال:

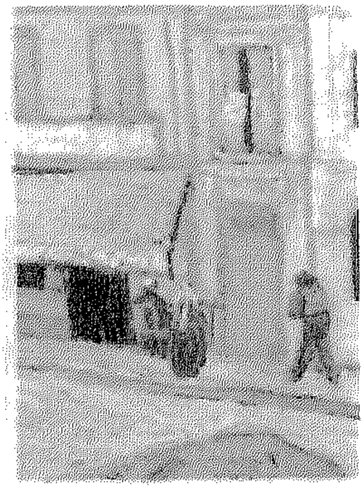

- ما رأيك لو أتيت معى أنت والولدان؟

قالت فى ضجر :

لا .. سأبقى فى شقتى.

رغم مشاكلها معه، تعامل الولد - ابن أختها - معاملة حسنة وكأنه ابنها. والولد يحبها ويرتاح لها كثيرا. وهذا الذى يهمه. المهم أن يأمن على الولدين معها .

فى الصباح الباكر أيقظ الولدين رغم اعتراضها وضيقها من ذلك. قبلهما، الولد الأكبر ابتسم له وتعلق فى رقبته وقبله. لكن الأصغر بكى ثم أكمل نومه بعد ذلك .

ابتسم لها وداعبها:

- ستوحشنى ياجميل.

لم تجبه قال :

لن أتأخر، ليلة واحدة لا أكثر .

سارت خلفه تريده أن يسرع بالخروج لكى تغلق الباب خلفه وتعود إلى نومها .

★★★

مر الوقت ككل يوم، انشغلت بعمل البيت وبالولدين، لكن قلقا - لا تدرى سببه - ظل يصاحبها وهى جالسة فى مدخل الحمام لتغسل الأوانى كعادتها.

اقترب موعد عودته من عمله. هى قبل الثالثة بقليل تسمع صوت احتكاك حذائه على درجات السلم . ثم صوت جرس الباب. تعرف دقته، تقول لابنها ساخرة :

البك شرف .

تقف متكاسلة، تفتح له الباب. يحمل دائما أكياس الفاكهة. وبيده الأخرى كيس الخبز.. عمله قريب جدا من البيت، لكنه يذهب إلى سوق الخضار ليشترى ما يلزم البيت. لايريد أن يتعبها هذه المرة لم تسمع

صوت الجرس، وتذكرت أنها لم تسمع صوته ولا مرة واحدة طوال اليوم، لم تأت أمها ولا أحد من إخوتها.. حتى الجارات اللائى كن يطلبنها للحديث، أو لأى شىء آخر، لم تأت منهن واحدة. أحست بالخوف. هل حدث شىء فى الخارج وهى مع الولدين لم تحس به؟

أسرعت إلى الراديو، أدارته، كل شىء فيه كما هو. أغانى عادية فى إذاعة الشرق الأوسط، ونشرة الأخبار كادت تنتهى فى البرنامج العام.

سيأتى هو بعد قليل ليخبرها بما حدث، سيقول لها عما لاقاه فى السوق وعن عمله: الزوجة التى تأتى بالخضار لتعده هناك، وعن زميله عبدالحميد أفندى ونوادره مع المديرين فهو يشترى لهم ما يلزمهم و«يسمسر» فى الأسعار. تسمع - هى - دون أن تتجاوب معه. لكنها تحس الآن بأنها كانت تهتم بما يقول. وتريد أن تعرف آخر أخبار عبدالحميد أفندى، ولا تظهر هذا له.

دقت ساعة الحائط ثلاث دقات، وهو لم يأت. قالت للولد الكبير:

- لقد نسيت. أبوك فى دمنهور اليوم، فى فرح عمتك.

عرض عليها أن تحضر الحفل، تأتى بالولدين وتبات ليلتها لدى أمه، لكنها عارضت بشدة، فهى

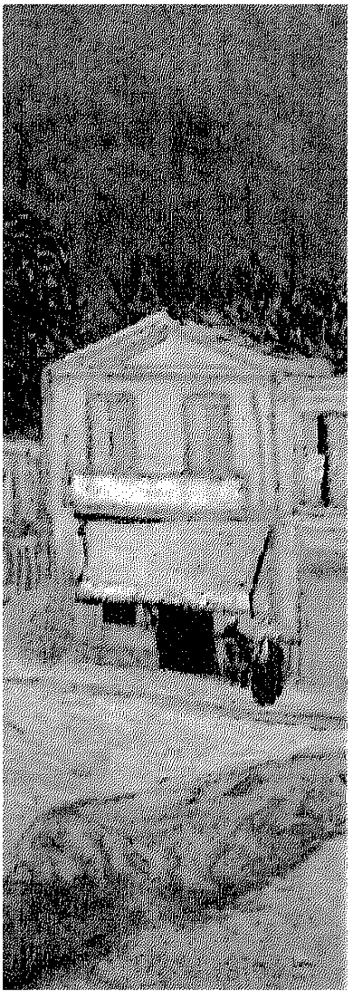

لا تحب أهله وتقاطعهم، (إذا كانت لا تحبه هو، أستحب أهله؟!

عندما يدخل الشقة، يغسل الطماطم والجرجير بنفسه، يتحدث عن فوائدهما وأنهما يساعدان على الهضم، ولولاهما لتعب وأحس بالامساك. كانت تمل حديثه وتضيق به.

بعد ذلك تضع الأشياء فوق مائدة السفرة، ويقف هو لشى اللحم أو تحمير السجق أو الكبدة، لابد أن يفعل شيئا فى المطبخ. يتحدث مبتسما - رغم عبوسها الدائم - يذكر عبدالحميد أفندى وهم جلوس أمام المائدة. طلب منه المدير أن يشترى له سمكا من «حلقة السمك» فسمسر جنيهين كاملين هذا غير أجرته من المدير. تريد أن تقول له «لكن دى سرقة» .. تحاول أن تقولها، لكنها لا تستطيع، فيكمل هو وكأنها سألته وسمعها: عبدالحميد غلبان،

لديه أولاد كثيرون فى مراحل التعليم المختلفة وراتبه ليس كبيراً.

قال الولد الكبير: أريد أن آكل.

مر الوقت دون أن تحس. تقترب الساعة من الرابعة ولم تأكل لا هى ولا الولدان، هى لا تحس برغبة فى الأكل.. فما ذنب الولدين ، قامت لتعد الطعام لهما.

كان زوجها بعد أن يتناول طعامه يصلى، ويرتاح قليلا.. ثم يخرج إلى عمله الآخر، لكى يسدد الديون التى كانت هى سببا فى توريطه فيها بطلباتها التى لا تنتهى.

تنام - هى - قبل أن يعود، تضم الولدين إليها وتنام، لكن هذه الليلة النوم يعاندها.

وحدها فى الشقة الكبيرة، تسكن الدور الأول العلوى، طوال الوقت تسمع صوت احتكاك الأحذية والشباشب بدرجات السلم القريبة من باب شقتها، لكنها الليلة لا تسمع شيئا.

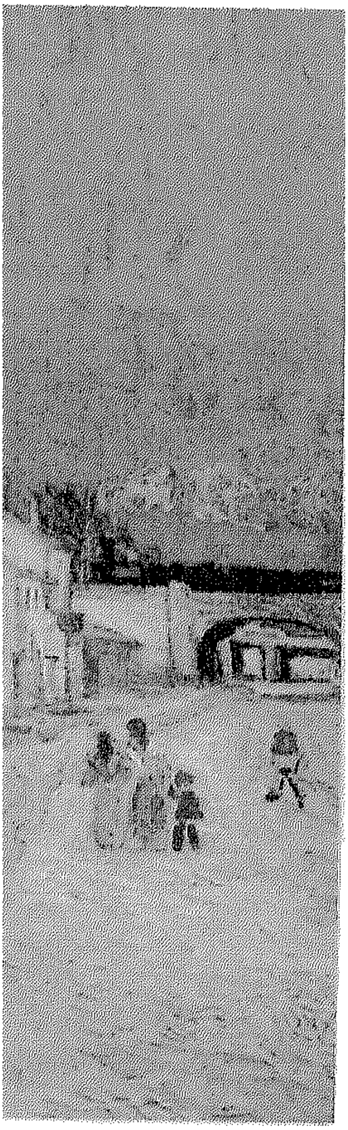

أرادت أن تقف وتفتح الباب لترى ما يحدث فى الخارج، لكنها خافت، حدثت حالات سرقة كثيرة فى الحى، آه لو علم اللصوص أنها وحدها فى الشقة مع الولدين الصغيرين.

يعود هو من عمله الآخر قبل الحادية عشرة بقليل، يفتح الباب بمفتاحه ويصيح على الولد الأكبر.. تتثاءب متظاهرة بالرغبة فى النوم، يقدم الحلوى للولدين ولها.. ثم يسرع إلى المطبخ ليغلى اللبن وبعد العشاء الخفيف قبل أن يخلع ملابسه، أحيانا.. يتناولون العشاء وأكواب اللبن الساخن فوق السرير. خاصة فى الشتاء. آه.. لقد نسيت أن تشترى لبنا للولدين ، ظنت انها ستجد من يشتريه لها منذ أن تزوجت، وزوجها هو الذى يأتى به من البائع.

تابعت باب الشقة، رأته يدخل ممسكا بكيس اللبن ووجهه متسع بابتسامة، غطت وجهها بالغطاء من الخوف. بكت. قال الولد الأكبر: ما الذى يبكيك؟

- والدك لن يأتى الليلة.

- لكنه قال لك هذا قبل أن يسافر.

بكت طويلاً وهى تراه يتحرك أمامها فى كل أجزاء الشقة يحدثها مبتسما وهى لا ترد عليه. ■

التكوين

نشأت قادراً على التسامح ... وتقبل الآخر وفهم تعدد وجهات النظر

محمد الجوادى

كنت دائما أسأل نفسى ماذا عساى أكتب أو أقول لو أن مجلة الهلال سألتنى أن أكتب هذا الفصل العظيم الذى عنوانه «التكوين» وهل حقا يأتى علىّ مثل هذا اليوم ؟!

ولأن حياتى تمضى أسرع منى ومن تصورى فقد جاء هذا اليوم بينما أنا أفكر فيه ولم أصل إلى قرار. غير أنى حينما نظرت فى بعض ماكتبت من قبل لاختار بداية للحديث عن التكوين (على نحو ما يفعل السينمائيون) وقع اختيارى على يوم الأربعاء الذى يسبق بدء العام الدراسى الثالث الإعدادى بيومين حين عين لمدرستى الإعدادية ناظر جديد لم يكن قد تولى الأعمال الإدارية قبل هذا.

الجوادي يتسلم جائزة التفوق في الثانوية من محمد عبد السلام الزيات نائب رئيس الوزراء - ١٩٧١

جاء الناظر الجديد إلى اجتماع المدرسين المنعقد يوم الأربعاء السابق على بدء الدراسة وفي يده دليل لأعمال الإدارة المدرسية يتضمن العناصر التي لابد أن تستوفى في بداية الدراسة، وأخذ يجرى ما نسميه في العسكرية «التتميم» على هذه الوظائف التي تشمل طابور الصباح والخطابة ورفع العلم وتنظيم دورة الطلاب من أرض الفناء إلى الفصول .. إلخ .

لم يكن الناظر قد تولى عمله إلا قبل أربعة أيام فقط .. وبعد ثلاث أو أربعة بنود من البنود التي كان حضرة الناظر يراجعها مع المدرسين، لم يكن أمامه إلا أن يثور ثورة عارمة ويقول: وما لزوم حضراتكم جميعا إذا كان هذا الطالب هو الذي يتولى أمر كل شيء في المدرسة؟ وبعد أن هدأت ثورة الناظر، قال له الوكيل: أظن أن سيادتك قد سمعت عن هذا الطالب وعن نشاطه ، ثار الناظر مرة أخرى وقال إن هذا ليس هو الموضوع، وإنه يهمه أن يكون هناك أستاذ مسئول عن كل شيء، ورد أحد الأساتذة المخضرمين على الناظر مقترحا أن يعود إلى مابدأ فيه ويسجل أمام كل مهمة اسم الاستاذ المسئول عنها .. وبعد فترة أقصر عاد الناظر إلى ثورته لأنه وجد الأساتذة المسئولين عن المهمات الجديدة وهم يذكرون اسم الطالب نفسه كعامل حاسم في نجاح مهماتهم.

عاد الناظر يكرر ثورته، وعاد الوكيل يتحدث عن أهمية أن يقدر الناظر مواهب هذا الطالب، فما كان من الناظر إلا أن فتح محفظته وأخرج منها ظرف خطاب صغيرا وبداخله كارت شخصي وقال للمدرسين: هل تعرفون ما هذا؟ إنه التهنئة

الوحيدة التى تلقيتها بتعييني في هذا المكان، وإنها من هذا الطالب الذي تتحدثون عنه، وله كروت مطبوعة باسمه .. وانفرجت أسارير أساتذتي لكن الناظر كان لايزال في ثورته على هؤلاء الذين تركوا مهامهم جميعا لطالب واحد وما يمثله هذا من خطورة إذا ما غاب هذا الطالب.

أقفز من هذه الواقعة الى ثلاثة أسابيع تالية حين فوجىء حضرة الناظر عندما عرف أنني الذي أعدل جدول المدرسة مع كل تغيير يحدث بانتقال المدرسين من المدرسة وإليها ، وكان المدرس الأول المسئول عن الجدول قد عبر عن كامل ثقته في وفوضني في أن أفعل ما أشاء وقتما أشاء وأن أغير ما أريد وقتما أريد وأن أخبره فقط بما أريد إذا عجزت عن تحقيقه، و ذلك من خلال الجدول الأساسي الموضوع في حجرة وكيل المدرسة وذات مرة فوجىء الناظر بأن احد الاساتذة يستدعيني لاتمام التعديل(!!) وعجب حضرة الناظر، وإذا بالمدرس الأول المسئول عن الجدول ينهى إلى الناظر أنني فقط من له الحق في تغيير وتبديل جدول المدرسة وأنني المسئول عن الجدول في حالة انشغاله .. والناظر يضرب كفا بكف ولكنه مع هذا يأمر لي بزجاجة من المياه الغازية حين كانت تمثل مكافأة.

في العام التالي كنت قد انتقلت إلى المدرسة الثانوية، محققا أغلى أحلامي المبكرة وهي أن أصبح طالبا بمدرسة المتفوقين الثانوية النموذجية في عين شمس، وكان هذا حلما قديما وعزيزا على نفسي، وبدأت تلقائيا أبذل جهدا متصلا لأستحوذ على كل الصلاحيات التى كانت لي في المدرسة الإعدادية، واضعا في اعتباري أن المسئوليات في مدرسة «الدولة» المخصصة للمتفوقين تفوق تلك التي في مدرسة «المدينة» بنفس القدر من النسبة والتناسب بين «المدينة» و«الدولة»، وبالفعل وفي خلال ستة أشهر كنت مفوضا بصلاحيات المدير والناظر والمدير والوكيل وغيرهم بعد انتهاء اليوم الدرسي للقسم الداخلي.

●●●

ظللت طوال رحلة تفوقي العلمي أحلم بأن أكون مهندسا معماريا يبدع وينسق ويخطط وينظم ويجمل، ويشارك في صياغة المعايير القومية للجمال .. وقد كان تفوقي البارز في قراءة وفهم العلوم الرياضية مضرب الأمثال فمع أنني كنت لا أزال في أوائل المرحلة الثانوية فقد كنت أجد نفسي في قراءة الكتب الجامعية المرجعية من تلك المراجع المكتوبة باللغة الانجليزية في علوم الرياضيات وأنا في هذه السن، وكم كانت سعادتي وأنا أقرأ وأفهم الرياضة واللغة الإنجليزية في الوقت نفسه، وأدركت أن تعلم العلم - أي علم بأيه لغة - ليس مشكلة إذا ما كان الإنسان قادرا على الفهم.

نشأت في بيت ومكتبة عالم دين هو والدي المغفور له الشيخ محمد الجوادي الذي ينتمي إلى المذهب الشافعي بحكم تعليمه الذي توجه بحصوله على أعلى الشهادات وهي شهادة العالمية، وكان على أن أعرف منذ مرحلة مبكرة أن هناك

مذاهب أخرى، وأن هذه المذاهب تختلف مع مذهب والدى فى كثير من التفصيلات الشرعية المتعلقة بالدين نفسه، الذى هو أول الثوابت، وإنى أذكر بكثير من الفخر أيضا أن والدى كان واسع الأفق جدا فيما يتعلق بالاختلافات الفقهية، على الرغم من أن مكتبته لم تكن تحوى بالطبع إلا على مراجع الفقه الشافعى، ومن ثم فقد عرفت منذ مرحلة مبكرة أهمية بل ميزة بل عبقرية المشى فى طريق واحد مع التنبيه فى كل خطوة إلى الاتجاهات والتفريعات، وعلى هذا النحو مضيت فى تربيتى متمتعا بقدرة فائقة وعميقة على التسامح وتقبل الآخر وفهم تعدد وجهات النظر، على الرغم من أنى كنت على الدوام بحكم تفوقى والتزامى واستحواذى على ثقة أساتذتى أتمتع بسلطات دكتاتورية غير محدودة.

على أننى استطيع أن أذكر الآن مالم أدركه إلا فى مرحلة متأخرة من فضل والدى علىّ فى تربية حاستى الفنية وما يتصل بها من قدرات نقدية وجمالية، والحقيقة أن والدى كان مولعا بالموسيقار محمد عبدالوهاب ولع الأولين والآخرين، وكان حتى فى صورته وبروفيله وملابسه شبيها تماما بعبد الوهاب .. بل إن الأكثر مدعاة للعجب أنهما كان يشتركان فى نفس الاسم، ولا أظن أن جدى عبدالوهاب قد سمى ابنه على اسم الموسيقار، أما والدتى فقد كانت توزع إعجابها بين فايزة أحمد وأم كلثوم، وكان إعجابها بأداء الممثلين يتأثر بالقيم التى يتبنونها بحيث إن نقدها وتذوقها كان قيميا فى المقام الأول والأخير، ولعل هذا قد أثر فى آرائى الأدبية والفنية من حيث لا أدرى، ولازلت أتذكر أنها اصطحبتنى لحضور آخر مسرحية قامت السيدة أمينة رزق ببطولتها، وظلت لأيام كثيرة تعبر عن إعجابها باستيعاب الفنانة العظيمة الدور والنص على الرغم من تخطيها التسعين!.

لم أعرف فى صباى الفراغ ولا أوقات الفراغ، وأحيانا ما أسأل نفسى هل أستطيع أن أجد من الأساليب التربوية ما يتيح لغيرى من أبناء الأجيال القادمة ما من الله به علىّ فى سالف أيامى؟!.

كنت دائما من أنصار أن عمل الغد لابد أن ينتهى اليوم، ولم يكن عندى أدنى استعداد فى أى وقت من الأوقات لتأخير أى عمل إلى اليوم التالى، وكنت على الدوام أحب أن أكون فى أول الصفوف. وقد عادت إلى شريط الذاكرة صورتى وأنا جالس فى مقدمة زملائى فى المركز الثقافى الفرنسى فى اوائل التسعينيات وكنت حينئذ مدرسا فى كلية الطب، ولكن هذا لم يكن يمنعنى من الاجتهاد إلى أقصى حد كالتلميذ الصغير، فكنت فى كثير من الأحيان أنتهز فرصة الفسحة فيما بين أوئل الدرس وآخره للانتهاء من الواجب المنزلى الذى سنقدمه فى الحصة التالية لأنى كنت أخشى ألا أجد له الوقت المناسب فى خضم مشاغلى وكان زملائى من الكبار والصغار على حد سواء يبتسمون.

ظل الدأب والاجتهاد ملازمين لى حتى عندما كنت أقوم بتأليف كتبى، فمع أنى كنت أجهد نفسى أشد الإجهاد فى الرجوع إلى المراجع والمصادر، وفى إعادة كتابة كل الفصول تقريبا مرة ومرتين، وفى تعديل

كثير من الألفاظ لتكون أكثر دقة فى التعبير عما أريد، إلا أنى فى الحقيقة كنت أحاول أن أسرع فى شىء مهم وهو صدور الكتاب نفسه، وأذكر أنى كثيرا ما كنت أذهب للمطبعة سواء الحكومية أو الخاصة بصفة شبه يومية حتى أؤدى ما على من واجب تصحيح البروفات أو مراقبة الإخراج والترتيب أو حتى إعداد الفهرس أو نبذة الغلاف.

وحين كنت أتولى سكرتارية مجلس القسم لم أكن أبرح مقر الاجتماع حتى أكون قد سجلت المحضر وأعددته للاعتماد، وحين كنت أشارك فى تقدير الدرجات لم أكن أبرح المكان المخصص للامتحانات حتى انتهى من واجبى تماما ولم أسمح لنفسى فى أية امتحانات شاركت فيها فى كلية الطب أو غيرها بأن اصطحب أوراق الاجابة الى بيتي بل كنت أنتهى منها فى المعهد العلمى نفسه فى اليوم نفسه ..

الصدق

بدأت مع الزمن اعتقد تدريجيا أنه ليس هناك من سبيل إلى الراحة فى هذه الدنيا سوى الصدق، وأن الصدق هو خير الأخلاق على الإطلاق، وأن الصدق كذلك هو أكثر الصفات الذكية فائدة للناس فى حياتهم اليومية، وزاد هذا الاعتقاد يوما بعد يوم حتى أصبحت أحرص على أن أكون نموذجا للصدق المطلق، وأذكر أن واحدا من أصدقائى النوابغ كان يقارن بين ثلاثة من الزملاء يؤدون عملا طبيا واحدا يقتضى بعض التمويه من أجل النجاح، وكان يقارن بين طريقة كل من الأساتذة الثلاثة فى التمويه والإنكار، فلما سئل عن وضعى إذا ما قورن بالثلاثة قال ما معناه : إنه يموه بزيادة جرعة الصدق حتى يصل إلى الصدق المطلق، الذى لايصدق أحد وجوده حتى لو كان أمامه.

البيئة الفكرية

أتيحت لى منذ منتصف السبعينات فرصة رائعة للاتصال بالمجتمع المصرى فى مستوياته العليا وقد تدعم هذا الاتصال عندما بدأت وضع كتابى الأول عن الدكتور محمد كامل حسين وقد اقتضانى تأليف هذا الكتاب اتصالا مباشرا بعدد من العلماء الكبار الذين زاملوا كامل حسين فى مراحل حياته المختلفة وكان فى مقدمة هؤلاء الدكتور حسين فوزى المعروف بلقب السندباد وكان السندباد زميل دفعة محمد كامل حسين فى الطب، وقد ظلت علاقتى به طيلة أكثر من عشر سنوات وحتى وفاته، وأذكر أنى لما زرته فى باريس عام ١٩٨٣ دعانى إلى قضاء وقتى فى بيته فلما كنا نخرج فى المساء كان يتوقف عند بعض البيوت ليقول لى هنا سكن العالم المصرى فلان وهنا سكن الفيلسوف المصرى فلان، وأذكر أنه روى له قصة طلاق فيلسوف مصرى شهير من زوجته الأولى وكانت فرنسية، وقد روت السيدة الفرنسية بنفسها القصة من وجهة نظرها بالطبع للدكتور حسين فوزى كرجل مثالى فى تحضره وفهمه للعلاقات الانسانية وهو الذى ظل على وفائه وحسن معاملته لزوجته الفرنسية التى توفيت على الإسلام.

وقد قادتنى معرفتى بالدكتور حسين فوزى إلى معرفة لاتقل عنها أهمية فى

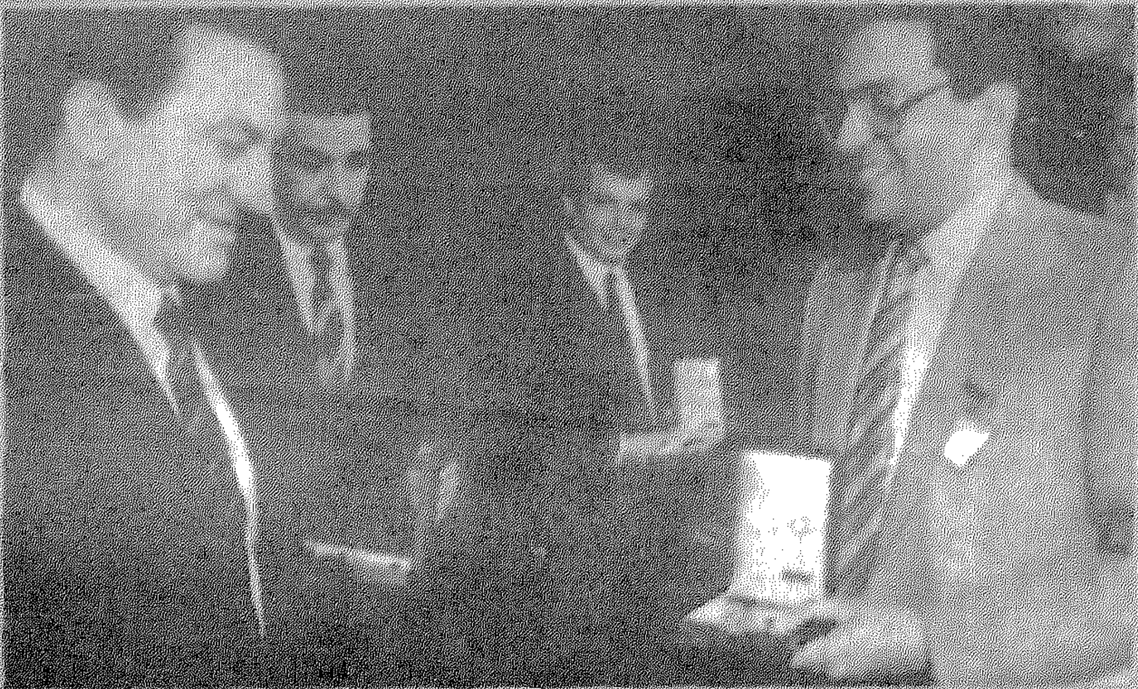

الرئيس مبارك يسلم الجوادى جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب - ١٩٨٣

حياتى وهى معرفتى بالاستاذ توفيق الحكيم الذى كان زميل عمر حسين فوزى، واذكر من لمحات ذكاء توفيق الحكيم كيف أنه اكتشف وفاة شريكة حياة الدكتور حسين فوزى من أحد الخطابات التى أرسلها الدكتور فوزى له، حين ختم الخطاب بسلامه دون أن يذكر سلام زوجته (ديان) كما هى العادة المعتادة بين الرجلين، وقد أفادتنى معرفتى بالأستاذ توفيق الكيم كثيرا جدا، وبالاضافة الى هذا الكثير فقد نلت من مكتبته عددا لايستهان به من الكتب التى لم أجدها فى مكتبة غيره، ولا فى أى مكتبة أخرى، ومن هذه الكتب مذكرات المستشار حسن عبدالغفار التى قدمت دراسة لها فى كتابى «مذكرات رجال القانون والقضاء»، ومن الكتب التى وجدتها فى مكتبة الحكيم كتاب طبع فى عدد محدود من النسخ للمهندس أمين محمود العقاد، وهو رجل مثقف من مدينة الزقازيق كان يراسل الصحف العربية بموضوعات قيمة، وفى هذا المخطوط دراسة قيمة لبعض النقاط الخلافية فى ترجمة بعض مسرحيات شكسبير وهى تنم عن ذوق أدبى رفيع ومعرفة ثرية باللغة الإنجليزية وفيما بعد سنوات قليلة شاء حظى أن يرسل لى هذا المهندس العظيم خطاب تقدير لفكرة كتبتها، وقد وصلنى الخطاب أثناء حضورى اجتماع مجلس القسم فى الزقازيق فعرضته على استاذى الدكتور لطفى وسألته بعض مايعرف عن هذا الرجل المثقف فأجاب بتقدير عميق لمستواه، وسألته هل يعرفه وهل يعرف عمره؟ فقال لى إنه الشقيق الأكبر لزميله الدكتور صلاح العقاد وكان أحد ألمع الأسماء فى علم الاشعة على مستوى العالم العربى، وأنهم كانوا ينادونه «بأبيه أمين» وكنت قد عرفت الدكتور صلاح هذا

من صديق ثالث في فترة مرضه.. وقد عرفت الثالث عن طريق استاذ صديق رابع وهكذا كانت شبكة علاقاتي بالمثقفين والأساتذة يقود بعضها إلى بعض.

المجتمع العلمي المصري

يجدر بي أني أعرف أنني صادفت من المجتمع العلمي المصري ترحيبا وتشجيعا لايقل عما صادفته في المجتمع الأدبي والثقافي ولازلت أذكر على سبيل المثال أنني حصلت على عضوية المجمع المصري للثقافة العلمية بأسرع من حصولي على عضوية اتحاد الكتاب وكان من حظي أن أكون أصغر الأعضاء في تاريخ هذا المجمع كما كنت أصغر الأعضاء في تاريخ اتحاد الكتاب.

كانت علاقاتي العلمية ولاتزال بمثابة البديل الأول والأيسر أمامي وأذكر في هذا الصدد أنني كنت ألتقي بالدكتور «بول غليونجي» حين يذهب لعيادته في الصباح الباكر قبل أن ينطلق الموظفون والعمال إلى مواقع عملهم كنت اسأل نفسي هل يأتي على الوقت الذي أمارس فيه العمل في عيادتي في مثل هذا الوقت المبكر، وأظن أنني سأفعل هذا عن قريب أن شاء الله.

ومما ينبغي لي أن أذكره بكل امتنان أن علاقاتي بأساتذتي في كلية العلوم ظلت تحظى بأهمية لاتقل عن علاقاتي باساتذة الطب ذلك أن الأولين في مجموعهم يتمتعون بحب حقيقي للعلم لم يفسده التعامل المادي الذي يضطر إليه الأطباء بحكم احتكاكهم المستمر بكثير من عوامل الحياة، ولازلت أذكر بكل اعتزاز علاقتي بمجموعة من أساتذة وعمداء كليات العلوم في مقدمتهم د. عبدالحافظ حلمي الذي كان عميدا لكلية علوم عين شمس حين كنت طالبا في علوم القاهرة ود. محمد فوزي حسين عميد كلية علوم القاهرة وقد كان رئيسا للجنة التي منحتني لقب الطالب المثالي على مستوى الجامعة وكنت قد فزت به على مستوى كلية العلوم، وكان لفوزي هذا قصة غريبة أدين بالفضل فيها للدكتور «عبدالقادر منصور» استاذ الكيمياء ووكيل كلية علوم القاهرة لشئون التعليم والطلاب فقد صمم مندوب اتحاد الطلاب على أن يعرقل فوزي باعتباري من طلبة كلية الطب البشري وليس من طلاب كلية العلوم نفسها ولهذا أعطاني أقل درجة في الشريحة المخصصة للاتحاد، ولكن وكيل الكلية الشريف الهمام لم يسمح لمثل هذه الخطوة أن تعرقل الفوز الذي كان شبه محسوم من واقع تقديرات الآخرين وصمم على أن يعطي مندوب الاتحاد درسا في خطورة التعسف في استعمال الحق وهو مالايزال يسم سلوك كثيرين من أصحاب القرارات في وطننا العزيز، ومن العجيب أنني بنوال لقب الطالب المثالي على مستوى الجامعة أحرزت نقطة مهمة في صالح نقاط كلية العلوم التي فازت في ذلك العام بالكأس العام لأنشطة الكليات على مستوى الجامعة كلها.

والحقيقة أن فترة الجامعة كانت بالنسبة لي فترة حافلة بالأنشطة الرياضية إلى جانب الأنشطة الثقافية والفنية والاجتماعية التي لا أزال على عهدي بها لكن أكبر نقطة مهمة في هذا النشاط هي أنني كنت في المرحلة الثانوية ثم في الجامعة أحرص على ألا أتولى نفس اللجنة

فى اتحاد الطلاب فإذا كنت فى هذا العام مرشحا للجنة الثقافية والفنية فإننى فى العام الثانى أحرص على الترشيح للجنة الاجتماعية وهكذا ... ولم يحدث أن رسبت فى أية انتخابات لاتحاد الطلاب بل كنت على الدوام صاحب أكثر الأصوات أو ثانى أكثر الأصوات، وكنت اكتفى فى فوزى باتحاد الطلاب بالفوز على مستوى القاعدة ولم أكن رغم حداثة سنى مقتنعا بأهمية التصعيد على مستوى لجان الكلية والجامعة فقد كنت أعتقد أن المسألة فى هذا المستوى مسألة حرفة أو صناعة انتخابات ولم يكن عندى من الوقت مايمكن أن أضحى به فى هذا النطاق الضيق من التربطيات والعلاقات الحزبية .. وإذا قيل لى اليوم أو أمس إن هذا «قصر ذيل» فأنا فخور بهذا الذيل القصير الطاهر، ويكفينى بعض السمعة العالية التى كنت أتمتع بها.

فى جامعة القاهرة كان أساتذة الآداب والعلوم الإنسانية يعرفوننى جيدا كما كان اساتذة الأنشطة من كل الكليات يعرفوننى ويبشروننى بمستقبل واعد وكان فى مقدمة هؤلاء صنديد الأنشطة الطلابية ورجل الجوالة العظيم د. على المرسى الذى ظل مسئولا عن الأنشطة الطلاب لفترة طويلة ولايزال يواصل عطاءه من خلال كثير من الجمعيات العلمية.

ولازلت أذكر من شباب أعضاء هيئة التدريس الذين أشرفوا علينا فى الأنشطة مجموعة كان بعضها قريبا منا فى السن وفى الحياة ومن هؤلاء د. أحمد مرسى رئيس دار الكتب الحالى و د. عبدالحليم نور الدين الذى أصبح عميدا للآثار ورئيسا لهيئة الآثار ود. اسماعيل منصور استاذ الطب البيطرى الذى تعمق فى دراسة علوم الشريعة والفلسفة إلى حد كبير ود. مصطفى الشريف.

كما أذكر أن بعض هؤلاء وصلوا إلى مناصب الوزارة مبكرا لكننا كنا نعرف أنهم يمارسون الإشراف على الأنشطة الطلابية من قبيل الطريق إلى الوزارة وإلى دست الحكم وهكذا كنا نعاملهم بذكاء المصرى الذى يدرك رغبة هؤلاء ويذكرهم بحقوقنا. ومن العجيب أن كل هذه الطائفة قد وصلت بالفعل إلى الوزارة وبأسرع مما كانوا هم يتصورون، ولا أريد أن أذكر الاسماء.

بطولة الجامعة فى السلة

لا أريد أن أنسى جزئية مهمة فى نشاطى فى الجامعة وهى أنى كنت أحد أعضاء الفريق الذى فاز ببطولة جامعة القاهرة فى كرة السلة، وكثيراً مايروق لى أن أقص هذه القصة لما تمثله من أهمية خاصة ذلك أننى أنا وزملائى من المصريين لم نكن لنستطيع أن نحصل على هذه الكأس بسهولة لكن طبيعة الدراسة فى كلية الطب كانت تتيح لنا وجود عدد لابأس به من زملاء أفارقة من طوال القامة وكان فى فريق كرة السلة أثنان من هؤلاء، وهكذا فإننا كنا نضمن الفوز مبكرا لكن ظروف الدراسة فى كلية الطب وحرص الزملاء جميعا على تفوقهم كان يحول دائما وأبدا دون وجود الفريق بأكمله وبالاحتياطى، وهكذا كانت (صديقتنا) مشرفة التربية الرياضية. (ولم تكن تكبرنا بكثير من السنوات لأنها قد عينت لتوها بعد تخرجها بينما بعضنا يكبرها فى السن بحكم وجود سنة خامسة طب

وسادسة طب والمؤجلين في سنة سادسة طب..) كانت هذه المشرفة تبحث عنا بإبرة حتى يكتمل الفريق، وفى المباراة النهائية كان عددنا هو الحد الأدنى الذى يسمح للفريق فيه باللعب، وهكذا فلو أنى، أو واحداً من زملائى الذين لعبوا هذه المباراة النهائية كان قد تخلف لاعتبر فريق الطب منسحباً، ولو أننى أو لو أن الواحد الحرج هذا قد حضر لفزنا بالمباراة.. وهكذا يمكن أن نقول إن العبد لله الذى هو أقل الفريق شأنا كان السبب في الحفاظ على الكأس لكلية الطب بدلا من أن تكون الكلية منسحبة .. وبهذه الواقعة اضرب المثل علي الأهمية الكبرى التى يمكن أن ترتبط بالوجود أو الحضور فى حد ذاته ...

دوري نوابغ الطلاب

على أنى أكون مقصراً فى حق نفسى إذا أنا تغاضيت عن الدور الذى كنت ألعبه فيما كان يسمى بدورى نوابغ الطلاب الذى كان يقوم فى جوهره على معلومات ثقافية، أذكر أن هذا الدورى الذى حققت فيه مع فريقى العلوم والطب الفوز عاما بعد عام هو الذى أعطانى السمة التى لا أزال أجنى ثمارها فى مجتمع كلية الطب ومن حسن حظى أن زملائى وهم من كريمة المجتمع على جميع مستوياته كانوا أكثر منى بمراحل فى وعيهم بقيمتى، واعترف انى لم أكن أصدقهم تماما على الرغم مما جبلت عليه من الغرور والادعاء ،وكان هؤلاء الزملاء الافاضل لا يبخلون علىّ بكثير من النصح فى كثير من الأوقات وأذكر بكل اعتزاز أنى مدين لكثير من هؤلاء بمعظم ما وصلت إليه، فقد علمونى الاعتزاز بشخصى وبما أعمل مهما كان، والحرص على مكانتى مهما كلفنى ذلك من خسائر مباشرة على المستوى الوقتى والعاجل، وهكذا يمكننى القول إننى بفضل خسائر مبكرة تقبلتها راضياً حققت كثيراً من النجاحات أو بالأحرى حافظت على قيمة كثير من النجاح الذى حققته فيما بعد والذى كانت إماراته منبئة عن حدوثه عاجلاً أو آجلاً كما كان زملائى يقولون لي.

علاقتي بأساتذتي

على أن علاقتى بأساتذتى الكبار فى تخصصات عديدة كانت تتسع بأكثر مما أتصور كلما بحثت أو ألفت أو شاركت فى نشاط علمى ويكفى أن أذكر أن كتابى عن «مجلة الثقافة» قد أتاح لى الفرصة للمعرفة المباشرة والحوار المباشر مع ما لايقل عن سبعين من الشخصيات المصرية، كما أذكر بكل فخر أننى تلقيت التهنئة على فوزى بجائزة الدولة التقديرية من أكثر من أربعمائة أستاذ فى الطب وفى غير الطب، وقد أحصيتهم بالفعل، وكانت سعادتى بإحصائهم متعة لاتقل عن متعة الفوز، وقد أفادتنى هذه العلاقات المتجددة والمتصلة على المستوى الشخصى والفكرى والاجتماعى .. لكن الفائدة الكبرى التى تعلمتها من أساتذتى المتعددين كانت هى أن أعنى بالقيمة ، وليس هذا بالانجاز السهل وقد تعلمت هذا الدرس مبكرا جدا وكنت فيه محظوظا إلى أبعد حدود الحظ لأنى لم أنشغل على الإطلاق بأى أمر تافه ولم أسمح لنفسى أن أعبث، وإن كنت

مداخلة الدكتور الجوادى فى أحد مؤتمرات الجمعية المصرية لأمراض القلب -١٩٩٦

أسمح لها باللعب، والفرق بين اللعب والعبث كبير جدا.

كنت ولازلت أعتقد ان أكبر إنجازاتى فى الحياة هو الحفاظ علي محبة وصداقة كل زملائى وقد أنعم الله على بهذه النعمة.. التى استمرت على مدى كل سنوات دراستى منذ الابتدائية وحتى الجامعة وعلى الرغم من أننى لم أكن على الدوام الأول على أول دفعتى إلا أن دفعتى فى كل مراحل تعليمى تعرف باسمى، بل إن زملائى من أوائلى هم الذين كانوا يفعلون هذا بكل الحب والتقدير، وأذكر من هؤلاء كثيرين لا أريد أن أنسى واحدا منهم فأكون مذنبا أو منكرا لفضله وفضلهم على كثير.

وربما كان شقيقى الدكتور أحمد مدير مستشفى القدس للعيون فى مقدمة هؤلاء بروحه الفلسفية وبقراءاته العميقة وبلغته الانجليزية الراقية التى تفوق لغتى، وبإدراكه الإنسانى لكثير من الحقائق، كانت مساعدته لى فوق الوصف، وكانت نصائحه تفوق مساعداته، وكانت فوائد نقده تفوق فوائد نصائحه، وإذا كان هناك شخص عظيم وراء كل مدع للعظمة فإن شقيقى أحمد استشارى العيون هو الشخص العظيم وراء مدعى العظمة الذى هو أنا.

كذلك أذكر بكل الخير شقيقتى الصغرى د.زينب مدرسة علم الاقتصاد فى جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا وقد عملت مديراً لمكتبى طيلة سبع سنوات متواصلة كانت فيها بمثابة الملاك الحارس والقلب النابض والعين اليقظة، ولا تزال علاقتى بكثير من أساتذة الطب رجالاً وسيدات قائمة على المودة والتقدير اللذين يكنهما هؤلاء لهذه الشقيقة، وأذكر أن بعض أساتذة الجامعة وموظفيها فى الزقازيق كانوا يتصورونها بمثابة شقيقتى الكبرى التى احتضنتنى وتولت تربيتى!! بينما البعض من الذين قابلوها وجها لوجه يتصورونها ابنتى التى ربيتها.. وكانت الحقيقة بين التصورين أو فى المتوسط الحسابى لهما. ■

المطلوب من نقادنا التحديث وليس الحداثة!

هاهو الدكتور عبدالعزيز حمودة يحاول أن يزيد من تبصرتنا من خلال مقالة المنشور فى الهلال الماضى (النقد الغربى بين القومية والعالمية) وهو خلاصة لجهد متصل بدأه بـ (المرايا المحدبة) التى ضخمنا فيها من قيمة النقد الحداثى، وثناه بـ «المرايا المقعرة» التى أعادت إلى النقد العربى اعتباره، وانتهى إلى الخروج من هذا التيه الذى أراده لنا النقد الحداثى (حيث سجنت البنوية اللغة). وجعل د. حمودة السلطة للنص ، وموضحا خطأ الحداثيين العرب حيث بدأوا بالضلع الثالث والأخير للمثلث الحداثى، وهو المشاريع والاستراتيجيات النقدية، التى أفرزتها الحداثة، وما بعد الحداثة الغربيتين للمثلث الحداثى العربى، متناسين المقدمات التى ولدتها العلاقات الاجتماعية للثورة الصناعية، فكان من نتيجتها الحداثة الغربية التى بهرت نقاد الحداثة العرب ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ من هلال أغسطس ٢٠٠٤ وكذلك المرايا المقعرة من ص ٣٨٢ إلى ص ٤٨٦.

والحقيقة النهائية - فى رأى الناقد الدكتور عبدالعزيز حمودة - هو أن نقدنا العربى المتجسم فى البحث عما وراء لغة البلاغة، يحثنا على أن نعترف بالسلطة للنص (الخروج من التيه ص ٢٨٠) وبما قيل حوله عند القدماء، خاصة البلاغى العربى الفذ عبدالقاهر الجرجانى (ص ٣١٠) حتى يمكننا أن نهتدى إلى طريق متجددة تعيننا على التحديث وليس الحداثة (كما يقول حموده بمقاله بالهلال ص ١٢٠) لأن تلك الحداثة تفرض على تابعيها الانبتات عن أصولهم، متناسين هويتهم الواقية التى قال بها العقاد (الخروج من التية ص ٣١٥ / الهلال أغسطس سنة ٢٠٠٤ ص ١٢٥) ليساوقوا ما تريده لنا العولمة التى جعلت من الحداثيين العرب رسلا إلى خلق إحساس لدى شعوبهم المختلفة بتدنى ثقافاتهم وتخلفها وأن على تلك الشعوب أن تتبنى النموذج الحضارى الغربى الأمريكى على وجه التحديد (الهلال ص ١٢٥).

وأضيف إلى كلام حمودة - نتيجة لهذا التآمر العولمى الثقافى - ما أصبح شائعا فى مصطلحاتنا المفروضة علينا يوميا فى أحاديثنا مما يندرج تحت مقولة (هات من الآخر) التى تعمل على تغييبنا عن التفكير فى أصول ما يقال لنا، وبذلك نخوض مع الخائضين. ويحق علينا أن نجيب عن قوله تعالى: «ما سلككم فى سقر»؟!

د. سامي منير عامر - كلية التربية - جامعة الاسكندرية

هيا استعدوا

كفوا عن الجدل الطويل	وعن انتظار المستحيل
لن تأخذوا حقا لكم	منهم بلا ركض الخيول
لن تستعيدوا ما لكم	الا بعود للأصول
لن تستطيعوا دونما	عمل بصف لا يميل
تتصورون تصورا	وتحلون بلا حلول
وتحاولون تطورا	من غير ما عمل جليل

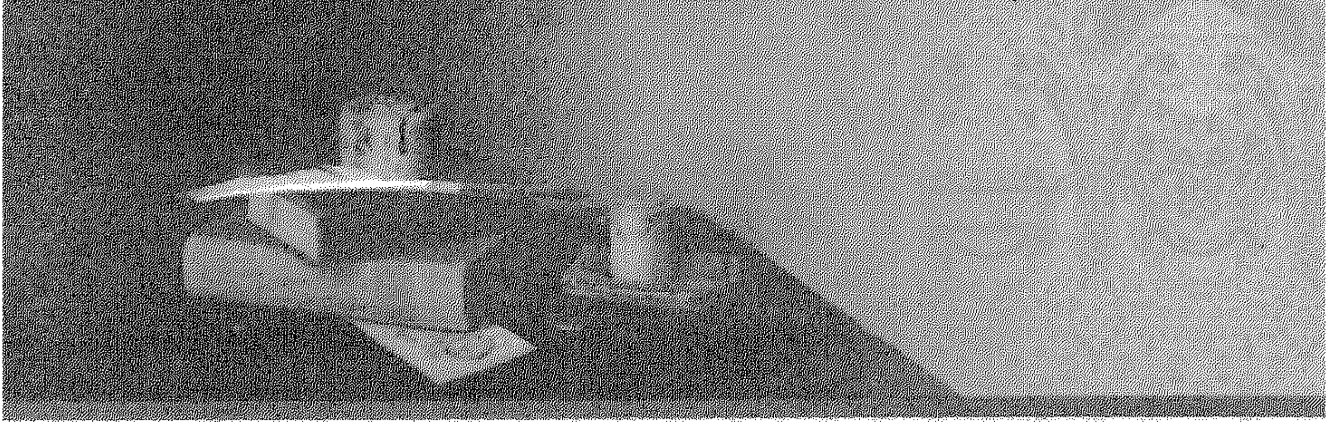

هل تحسبون عدوكم ... برضاه يعطي؟ يستحيل
فلتجبروه على الذى ... ترضون انتم.. ذا السبيل
هيا استعدوا كلكم ... من بعدما دقوا الطبول
دقوا فدقوا مثلهم ... متوكلين على الوكيل
لابد من حرب هنا ... سترونها عما قليل
كفوا وعن كل المنى ... الا وانتم بالخيول
ماذا تخافون انطقوا ... بالحرب ذا صمت ذليل
ان كان غول الحرب يخشى ... فالبديل اشد غول
لكن غول الحرب يحدو ... لانتصار او وصول
والنصر يحلو والشهادة ... فلنكن عزا يصول

شعر : حسن أبو الغيط

من واقع الحياة

حضرت أربع ندوات على التوالى بنادى أدب دمنهور.. والذى يعقد تحديدا فى الثامنة مساء الأربعاء من كل أسبوع.

واكتفيت فى الندوتين الأوليين بشرف الاستماع إلا أننى بحكم موهبتي وجدت فى نفسى رغبة عارمة فى الندوة الثالثة فى إلقاء إحدى قصائدى «بنت جميلة» فلم يعلق عليها أحد.

اللهم إلا بعض التعليقات الجانبية القريبة من الاستظراف.. والبعيدة تماما عن روح النص.

وفى الأسبوع الأخير جئت متأخرا قليلا عن الميعاد، لأجد عددا محدودا من الشعراء يرأسهم شاعر ناشىء وكل إليه رئيس النادى تقديم الندوة نيابة عنه، فقدمني.. أخيرا.. وألقيت قصيدتى «وجهان» وعلق الزميل الشاعر على بعض القصائد وتجاهل تماما قصيدتى بحجة أنه نسينى.. وبحجة أننى أجمع بين العامية والفصحى.. وبالتالى حدثت لهم «لخبطة».

– معقول هذا، أنسى مرتين على التوالى؟ يا للمصيبة أن يحدث معى أنا بالذات هذا!!!

رغم أننى أحل ضيفا عليهم كل أسبوع.. ورغم تحملى لتبعات السفر، والشاعر الزميل الذى قدم الندوة يعانى نفس ظروفي، وكان واجبا عليه ان يقدر ذلك.

أضف إلى هذا أن الزميل رمانى بهذا السؤال الداهية: هل هذه قصيدتك؟!!!

فقلت له وأنا أبتسم ابتسامة صفراء لا معنى لها: نعم هى قصيدتى.

وأدرت له ظهرى العريض.. وتوجهت شطر باب الخروج دون أن أسلم عليه.. حتى (سلام الشفايف) العارض!!

السيد التحفة
شبراخيت – شارع احمدعرابي

مواسم

يطعم الليل رافرحا .. فمن ابر ... فى عشق صفوى أتت لليل افراح
كل الليالى تعافت حينما حضنت ... صفوى الحبيبة ابدان وارواح
فكيف لا تحضن الأرض السماء وفى ... اعراس صفوى الثرى بالعشق فواح
عطر النكاح مسرات يحفزها ... الى التألق والابداع الحاح
صفى التقارب ارواحا فغسلها ... عطرا فسمدها بالحب فلاح
هذى القلوب على اصداء بهجتها ... بالود والحضن والتقبيل ترتاح
غنى السرور اذا لم تبق فى دمه ... احقاد نفس وظلماء واتراح
لم يفشل الموقف الأسمى وفى يده ... من مهرجان الصفا نور وانجاح
بنك التزاوج لم يخسر بضاعته ... وعنده من زواج السهم ارباح
قد صحح الوضع حب هائل وله ... تخضر من مرة الأشواق الواح
هنا بصفوى فؤاد بين اوردة ... فى أبحر العشق غطاس وسباح
على جباه شعاع العشق قد بقيت ... صفوى فيقصدها ليل واصباح
من طاقة النبض فى اسلاك قافية ... يضىء منها إلى العشاق. مصباح
مواسم ها هنا فتح لكوكبة ... ما بين قوسين تزويج وإصلاح
روح السماوات ما فاضت حلاوتها ... الا وفيها من الاعراس افرح

عبدالله علي الاقزم
السعودية - القطيف

هدم الشوامخ

كنت أشاهد أحد البرامج التليفزيونية فى إحدى القنوات الخاصة المنطلقة من القاهرة ولاحظت أن مقدم البرنامج ومعه ضيف شبه دائم ممن كانوا يشتغلون بالغناء لاحظت أنهما يتناوبان الهجوم على موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب ويحاولان هدم هذا الهرم الشامخ فى موسيقانا العربية بصورة مستفزة. وزعم هذا الموسيقار السابق الجهبذ أن اليونسكو قد رصدت أكثر من ٦٠ عملا فنيا سرقها محمد عبدالوهاب وصدقه الحاضرون ، وانبرى احد الشباب المندفعين ليؤكد أن هؤلاء الشوامخ الذين كانوا بمثابة الرموز والقدوة قد اكتشفنا أنهم لصوص!

لقد استفزنى هذا الموقف الرخيص واستفز معى ملايين من عشاق موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب صحيح أن محمد عبدالوهاب فى بداية حياته الفنية قد طعم موسيقاه ببعض المعزوفات العالمية فى لحنين او ثلاثة على الاكثر وكانت تلك ظاهرة ذلك العصر سواء فى الموسيقى أو الأدب او الفن التشكيلى أو فى السينما فى لحظة بزوغ النهضة الفنية والثقافية فى مصر خاصة فى مطلع القرن العشرين لكن أعمال عبدالوهاب التالية كانت أعمالا شامخة يكتب لها الخلود.

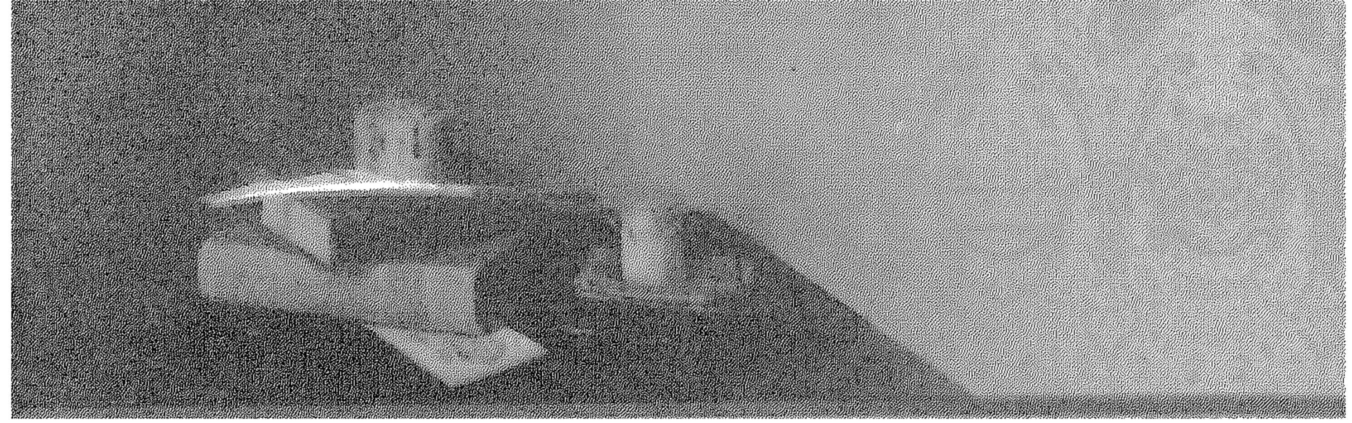

إن مثل هذه السموم التى تحاول تشويه رموزنا الشامخة لن يكتب لها البقاء وستذهب مع الريح وتبقى رموزنا ثابتة شامخة لا ينالها عواء يشمل هؤلاء الأدعياء الموتورين .

إبراهيم سالم - القاهرة

قصة قصيرة

أقدام نحيلة شائهة

هاهى الأقدام الجميلة لصغار بنى الإنسان، تغوص - حتي الركب - وسط أقراص الطين العملاقة، توقف الاعتماد - منذ فترة - على الخيول، ليس من سبب واضح لذلك، سوى التكلفة ربما.

ومن غيره بديلا يكون؟

ذلك الموضوعة كفه اسفل خده فى انتظار الفرصة؟ فرصة احتلاله لمحل الحيوان في بعض الأعمال ، يظنه يغتنمها - الفرصة - لا تتنبه حواسه لاغتنامها هى له الا بعد انتهاء الجدوى!

تنتهى عادة خدمة الحصان برصاصة فى الرأس، ترى بأى رصاصة تتعلق تلك المصائر الصغيرة؟

ملتصق وجهى بزجاج السيارة، من قريتى - التى تحتل بقعة من شاطىء النيل - إلى المدينة - محل العمل - أدمنت عيناى الحملقة، تعيد قراءة كل ما يقع فى برواز النظر:

البرسيم اليابس الهزيل، القنوات الظمأى للماء، أشجار الكافور المصفوفة العجوز، راكبى الدراجات، والسيارات النصف نقل، والحمير، والمترجلين إلى الحقول أو المدارس أو..

يبدو كل شىء مفهوما - أول الأمر - كما لو كان كتابا اقرأه للمرة الألف.

عند اللوحة الأثيرة - لأطفال الطين - تعيد حواسى القراءة ، تبدو (شخابيطها) كلوحة (سريالية) عويصة الفهم، إلا لذوى الأفهام - الذين لست منهم على ما يبدو تتراص أبدانهم الصغيرة كعربات قطار بطىء، عليل ينتقل خطوهم كليلا فوق دوائر كبيرة من الوحل، أسمالهم الباليه مشمرة . ترتبك فوقها الخطوط الباهتة والورود الذابلة ناشعة العرق، تدور بهم ارجلهم كما تدور الرحى. وصرخة الملاحظ المحذرة سيف على الرقاب، ترتفع عيونهم المغرورقة عن الطين، تصطدم بشاربه الغليظ ، وسحنته المرعبة، والسوط الطويل فى يده.

تتسحب نظراتي - عبر زجاج السيارة - تحط عند سيقانهم النحيلة العارية، الا من طبقة الوحل. يمس صدرى مسا كهربيا، تمتد ايديهم بأطراف أكمامهم تمسح جباهم وأنوفهم.

فاجأنى صوت جارى الذى ادهشتنى متابعته - قال:

هذه اول خطوة فى صناعة الطوب. ،

قلت -لا إراديا :

ولكن الصغار.

قاطعنى تساؤله :

ما بهم؟

فى الفراغات الكائنة بين أقراص الطين، على طول الطريق، تبقى أعداد كبيرة رهن الانتظار ، مسلطة عيونهم على الحركة فوق الأقراص.

انكفأ احد الدائرين على وجهه، اطلقت حناجر المنتظرين تهليلة صاخبة، احتلت رأسى الدهشة لذلك التهليل.

قال الجار:

سيحل احدهم محله.

قلت:

أليس الأجر لكل الـ..

قاطعنى:

استحضرت آذانى صوت جدى، وهو يحذرنى – ذات يوم – من لمس اصابعى لبراعم اللبلاب النابت ، صاح:

اللمس يوقف النمو يا ولد.

اوشكت الخواطر ان تتداعى.

نبهتنى حلقة المنتظرين التى انضربت حول الملاحظ سريعا، تفقدت يده ابدانهم، ثم دفعت بأعلاهم كتفا داخل الوحل.

كرر لسانى – لا اراديا – كلمات الجد:

– اللمس يوقف النمو.

رمت عيناى نظرة عميقة احاطت بتلك القطعان الموحلة من الصغار، وتردد بداخلى تساؤل غامض:

ترى هل يدركهم النمو؟!

فكرى داود – دمياط

أقصوصة

مقاومة

نظر في يده.. كان الشحم يلوثها.. تثاءب.. وضع ظهر يده على فمه.. نظر حوله .. الغبار يملأ المكان.. خرج إلى شرفة العنبر.. خفت ضوضاء الماكينات التى تزعق ليل نهار.. نظر إلى أعلى.. وجده بدرا يتوسط السماء.. لست وحدك السهران. لولا برودة ديسمبر لخلع ملابسه واستحم فى أشعته الفضية السخية. نظر فى ساعة يده .. ولم يتبق على طلوع الصباح الا ساعات قليلة وتنتهى وردية الليل.. تحسس قدميه..قاوم الروماتيزم الذى استقر بهما اخيرا.. دعك عينيه.. ادار وجهه ورمى بنفسه وسط موجات الزعيق الهادر .

فرج مجاهد عبدالوهاب – شربين – دقهلية

س

سيبويه ٧٥٦-٧٩٦

هو ابو بسر عمرو بن عثمان بن قنبر.. وسيبويه هو لقبه الذى اشتهر به، إمام نحاة البصرة، وقيل إن ولادته كانت بالبيضاء من مدن شيراز، واختلف في موضع وفاته وتاريخها، والأرجح أنه مات بشيراز.

تتلمذ سيبويه على يد عديد من الشيوخ والعلماء أولهم عبقرى العربية وإمامها الخليل بن أحمد الفراهيدى وهو أكثرهم تأثيرا فيه، فقد روى عنه سيبوية في الكتاب ٥٢٢ مرة، وهو قدر لم يرو مثله، ولا قريبا منه عن أحد من أساتذته، وهو ما يجسد خصوصية الأستاذية التى تفرد بها الخليل بن أحمد دون سائر أساتذة سيبويه.

عاش فى البصرة منذ أن دخلها إلى أن صار فيها الإمام المقدم، وقد ذاع صيته واشتهر ثم دعى إلى بغداد وحاضرة الخلافة، وفيها أعدت مناظرة بين كبار النحاة، سيبويه ممثلا لمذهب البصريحين والكسائى عن الكوفيين وأعلن نبأ المناظرة، وكانت مؤامرة قد دبرت ضد سيبويه وأتت بثمارها، حيث انتصر عليه الكسائى، فى قضية لغوية بعد أن ساعده على ذلك جماعة من الأعراب.

كان سيبويه لا يتصور بفطرته النقية أن يمتد الشر مدنسا محراب العلم والعلماء، فحزن حزنا شديدا، وقرر وقتها أن يرحل عن هذا المكان، إلى مكان آخر ليس فيه حقد ولا أضغان ورحل الى خراسان ، حيث أصابة المرض، ولقى ربه وهو مازال فى ريعان الشباب، لم يتجاوز عمره الأربعين.

ويعد «الكتاب» الأثر الوحيد له. وإذا ذكر «الكتاب» مجردا من أى وصف فإنما يقصد به كتاب سيبويه.

و«الكتاب» بمثابة خزانة للكتب، احتواها بالقوة فى ضميره، وتمخض عنها الزمن بالفعل، من بعد وفاة سيبويه ، فإذا الأئمة.. كلهم تلاميذ فى مدرسته، وإذا المؤلفون جميعا لا يجدون إلا أن يناقشوه، ويفسروه ويعلقوا عليه ويصوبوه ويخطئوه، ولكنهم مع ذلك يدورون فى فلكه ، حتى أصبح هو المصدر الفريد لعلمى النحو والصرف بالإضافة الى علم الأصوات.

والكتاب يقدم مادة النحو الأولى موفورة العناصر، كاملة الشخصيات لايكاد يعوزها الا استخلاص الضوابط. وتصنيع الأصول على ما تقتضى الفلسفة المدروسة والمنطق الموضوع.

وكان فى تصنيف الكتاب يتجه الى فكرة الباب كما تتمثل له، فيستحضرهما ويضع المعالم لها . ثم يعرضها جملة أو احادا، وينظر فيها تصعيدا وتصويبا، يحلل التراكيب ويستخلص المعنى المراد، وفى خلال ذلك يوازن ويقيس، ويذكر ويعد، ويستفتى الذوق، ويستشهد ويلتمس العلل، ويروى القراءات، واقوال العلماء، إما لمجرد النص والاستيعاب وإما للمناقشة وإعلان الرأى.

النصف الأقوى

الزوجة الأم، الحبيبة ... أيامها شجن وطيبه
في حجرها كبر الهوي ... وترعرعت فيه الخصوبه
فهي الحياة بدونها ... اعمارنا سنه جديبه
اوطاننا في بعدنا ... عنها الشذي ريح غريبه
وصباحنا شمس ابتسا ... متها علي نهر العذوبه
يحكون ان حقوقها ... ما بيننا اصبحت سليبه
فالحق مختنق علي ... احداقها والصبر غيبه
عجبا فما للام في ... ابنهائها تلك المصيبة
ولها عطاء وارف ... لاقت مياسمه هبويه
فتكوكبت اقمارها ... فهى السماء المستجيبه

عبدالرحيم الماسخ
نجع الماسخ - المراغة - سوهاج

جرجى زيدان وتحية الشعر

يقول الشاعر الزجال:

صاحب مطبعة التأليف ... من يومك قارىء حريف
بحار فى بحور الأفكار ... ولا غير دراعاتك مجاديف
فى ثقافتك فقت المعقول ... ويكتبك عايش على طول
واللى بيقرالك بيقول ... اسلوبك شيق وظريف
وكلامنا عن صحفى شهير ... متمكن وتاريخه كبير
ومؤرخ إنتاجه غزير ... وروائى وإبداعه كثيف
موهوب ومثقف فنان ... ومكافح جى من لبنان
وهلاله منور للآن ... ومغطى البندر والريف

وجرجى زيدان كاتب وصحفى ولد فى بيروت سنة ١٨٦١ فى اسره رقيقة الحال فعمل وهو فى سن صغيرة فى محل يصنع الاحذية ثم فى مطعم والده. شغف بالقراءه والاطلاع فى سائر مجالات العلم والمعروفة ، جاء إلى مصر فى أعقاب الثورة العرابية

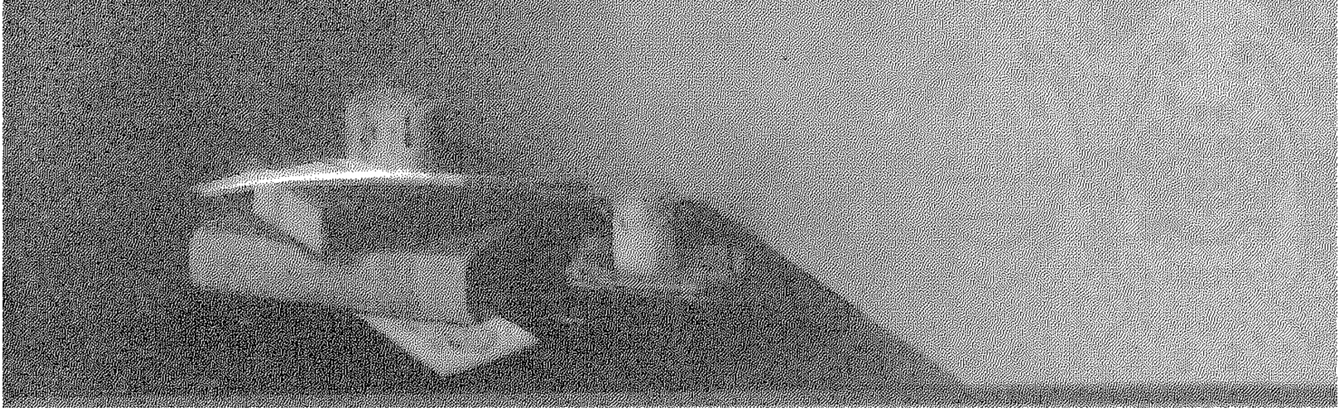

ليستكمل دراسته للطب، لكنه لم يفعل، بل اتجه الى الادب فعمل محررا بجريدة الزمان ثم اسس دار الهلال التى أصدر من خلالها مجلة الهلال وبعد وفاته سنة ١٩١٤ واصل ولداه اميل وشكرى إصدار العديد من المجلات منها المصور والاثنين والكواكب.. اصدر جرجى زيدان عدد من الكتب منها المملوك الشارد، الحجاج بن يوسف، العباسة، اخت الرشيد، شجرة الدر ورحل فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤.

محمد أمين عيسوي – الإسماعيلية

مع الأصدقاء

• عفاف عثمان – الكويت : قصيدتك «عدالة السماء» جيدة وهى بالطبع المحاولة الأولى .. واصلى قراءة الشعر، فكما تعلمين هناك شروط لاكتمال القصيدة فنيا وحتى يمكن نشرها.

• ابراهيم حسن منصور – البحيرة: وصلت الينا مساهمتك المتمثلة فى عدد من القصص القصيرة، وسوف تنشر واحدة منها فى عدد قادم.

• فتحى ابراهيم السيد – طنطا غربية : فكرتك عن تغيير الخطاب إلى أوروبا ، حتى يمكن ان يفهموا قضايانا. بدلا من احساسهم الدائم بأننا نصدر الارهاب اليهم جيدة. ولكن اهم أصموا آذانهم وقرروا ان يكيلوا لنا التهم ليل نهار، حتى يحققوا مآربهم وأهدافهم المكشوفة!

• محمد الشريف – الاسكندرية – الشاعران محمود درويش وسميح القاسم يعدان من ابرز شعراء المقاومة، وكان شعرهما منذ اكثر من ثلاثين عاما وهو وقود الثورة الفلسطينية.. وانا معك اتساءل اين شعرهما؟.. ولماذا اختفى هذا الشعر الذى كان يحرك الحجر؟ على الرغم من أن المقاومة لم تتوقف بعد ومثل هذا النوع من الشعر ضرورى الان.

• هيثم المعاودة – الأردن : وصلتنا رسالتك التى تطلب فيها بعض اعداد الهلال . سوف نحرص على ارسالها بالبريد، اما عن روايات الهلال وكتاب الهلال فيصدران يومى ٥، ١٥ من كل شهر ميلادى .

ونشكر الأصدقاء: على محمد منصور – دمياط ، إسلام حامد محمود المنصورة – والى مأمون نور – قنا – سماحة أحمد السيد –رشيد – سامى الملا – قطر – سمير خالد على – الاقصر – مهرة ابراهيم داود – السويس.

الكلمة الأخيرة

مشاغبات صافي ناز وحسين أمين !!

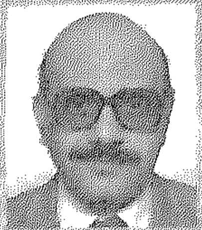

بقلم : محمود أحمد

كان يمكن لـ «صافي ناز كاظم» أن تكتب مقالا بديعا عن مفكرنا العظيم الراحل أحمد أمين، وأن تسجل فيه شهادات زملائه ومعاصريه وتلامذته من أعلام زمانه، ومن أعقبهم من عارفي فضله، بدءا من طه حسين .. وانتهاء بعبد الرزاق السنهوري ومحمد فريد أبو حديد .

وقد فعلت ! فقدمت لنا مقالها ذلك الممتاز الذي طالعنا في «هلال» أغسطس الماضي، ولكن «صافي ناز» لم تكتف بذلك ! وإنما هي استغلت الفرصة لكي تجعل من المقال مناسبة «لمشاغبة» حسين أمين السفير السابق، والكاتب الموهوب، ونجل أحمد أمين نفسه !

و«المشاغبات» بين صافي ناز وحسين أمين متبادلة منذ فترة، وإن كانا لا يلجآن إليها إلا في أوقات متباعدة.

في مقالها الأخير في «هلال» أغسطس حصرت صافي ناز مشاغبتها لحسين أمين في نقطتين إثنتين أولاهما، العنوان الذي بدا مستفزا : جناية (حسين) على أبيه (أحمد أمين) . أما الثانية فتمثلت فيما جاء بالفقرة الأخيرة من المقال والتي تضمنت الإشارة إلى أن الجناية مقصود بها بعض ما كتبه الابن عن أبيه . وفيما عدا هاتين الإشارتين لن يعثر القارئ على أثر آخر من مظاهر المشاغبة التي يوحي بها، على نحو خاص، العنوان المستفز.

●●●

على أن «مشاغبات» الدبلوماسي العتيد والكاتب الموهوب حسين أمين لـ «صديقته» اللدود تبدو مختلفة على نحو ما ، خاصة عندما يروق له أن يتناول «في العمق» بعض ما يختلفان فيه من موضوعات . ولعل المقال الضافي الذي نشرته له صحيفة «الحياة» اللندنية قبل عدة أشهر يصلح مثالا جيدا في هذا السياق. ففي هذا المقال الذي تجلت فيه روح «المشاغبة» نجد حسين أمين يتوجه إلى صافي ناز بنصيحة أن تكتفي بالكتابة في «النقد» الذي تميزت فيه وتفوقت، وأن تبتعد بصورة خاصة عن الكتابة في «الإسلاميات» التي تطرقها بين الحين والآخر. فالموضوع الأول – النقد الأدبي والفني – هي تمتلك ناصيته على نحو قل أن يتوافر لغيرها : دراسة، ومتابعة، واهتماماً، وتعبيرا.. أما الموضوع الآخر – الإسلاميات – فإن صافي ناز تطرقه، حين تطرقه، بعاطفة دينية قد تكون جياشة متدفقة لكن تناولها لما تكتب فيه لا يكون بالضرورة هو تناول المتمكن الذي يمتلك الأدوات اللازمة لمعالجة مثل هذه الموضوعات المهمة.

●●●

يمكننا أن نلاحظ، مع ذلك ، قدراً من «الود» في ثنايا هذه المشاغبات المتبادلة بين كاتبينا البارزين . على سبيل المثال، نجد حسين أمين – في مقاله ذلك المشار إليه – ينتهز فرصة ليروي واقعة تشي بما تكنه صافي ناز له من ود، من الواضح أنه يبادلها إياه. يقول إنهما التقيا في إحدى المناسبات وفجأة اقترب منهما شخص ثالث هو الدكتور سعد الدين إبراهيم، فإذا بصافي ناز تبادر القادم قائلة بصراحتها المشهورة ما معناه– وفقا لما جاء في مقال السفير – إنها تختلف مع حسين أمين ولكنها لا تكرهه «أما أنت فإنني لا أطيقك»!! ويكاد القارئ يلمس ما تنطوي عليه روايته لهذه الواقعة من رضا وارتياح .

في المقابل، يطالعنا هذا التعبير أو الصياغة «المخففة» من لوم له بأنه «جني» على أبيه كما جاء، صراحة، في عنوان المقال ولكنها صراحة لا تجرح. ربما تخدش، ولكنها لا تدمي وهو ما سيجعل القارئ يرحب بهذه «المشاغبات» الحميمة، ويستمتع بها أيضا !! ■

كتاب الهلال

رحلة جرجى زيدان إلى الآستانة عام ١٩٠٩م

د. محمد حرب

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

يصدر ٥ سبتمبر ٢٠٠٤

روايات الهلال

الخالدية

تأليف
محمد البساطى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ سبتمبر ٢٠٠٤

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

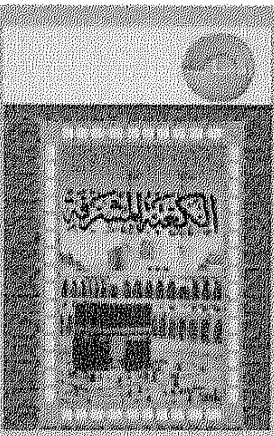

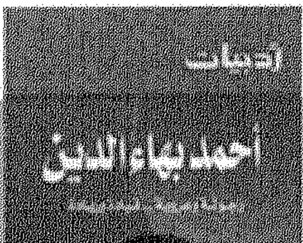

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت: [illegible] فاكس: [illegible]
٤ شارع بدوي محرم بك - الإسكندرية

الهلال

- الإرهاب هذا الاختراع العجيب
- متى يتوقف «الاهدار»؟!
- من يكسب الرأى العام!

اكتوبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

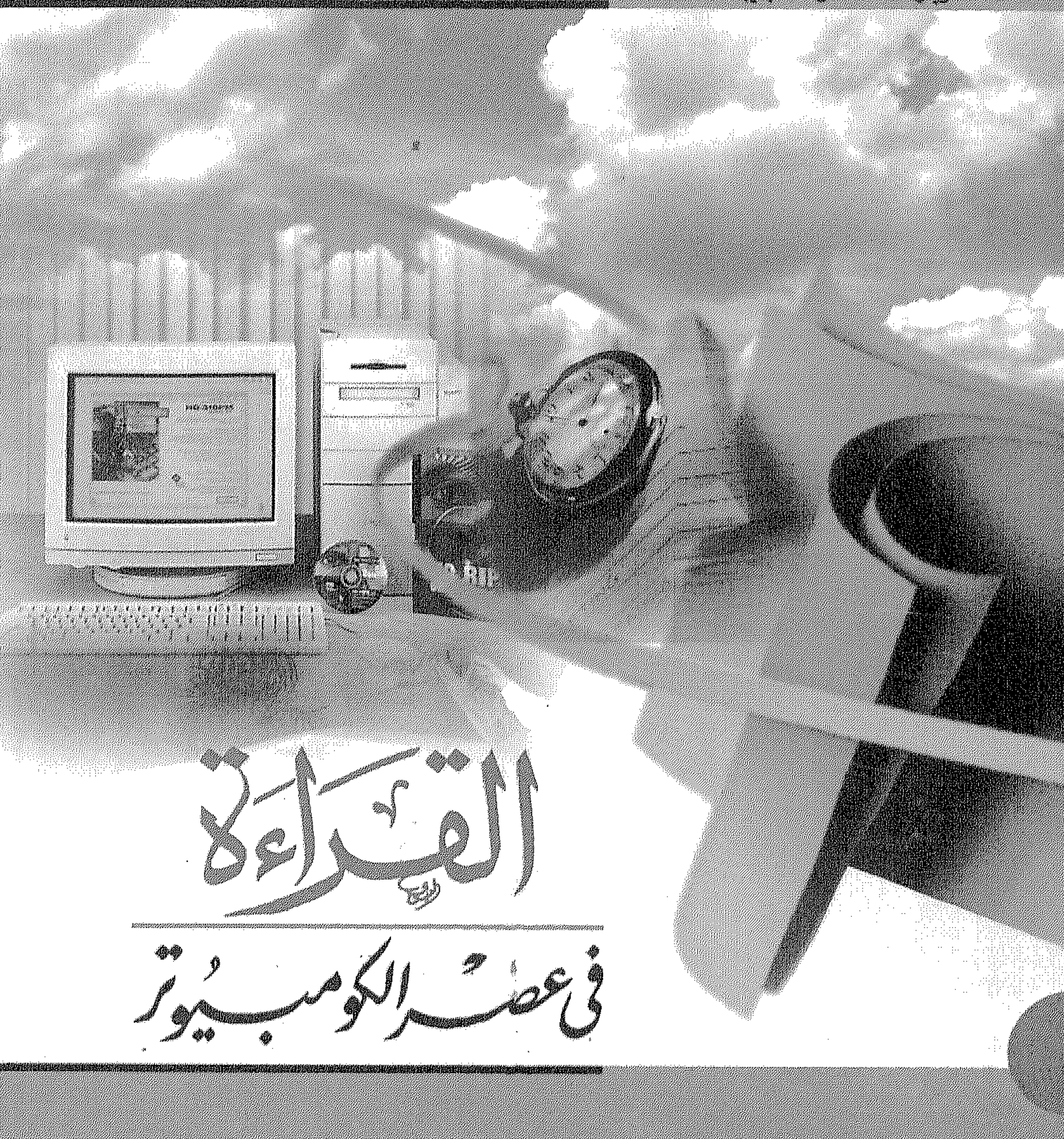

القراءة
فى عصر الكومبيوتر

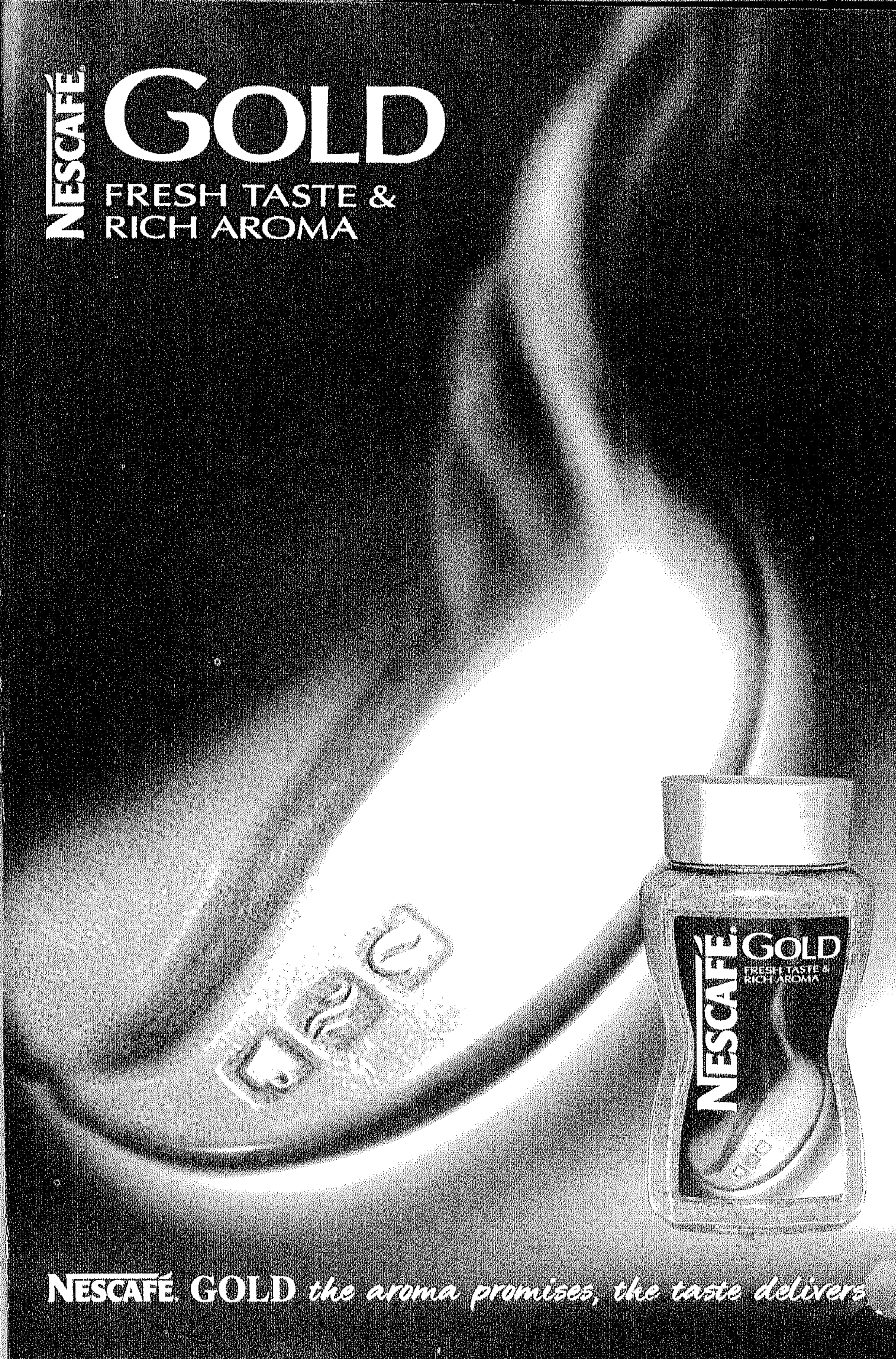
NESCAFÉ GOLD
FRESH TASTE & RICH AROMA
NESCAFÉ GOLD
FRESH TASTE & RICH AROMA
NESCAFÉ. GOLD the aroma promises, the taste delivers.

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة شعبان ١٤٢٥ هـ - اكتوبر ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

---

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبوطالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

مؤمن حسين سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥,١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

٨ - هل آن الأوان لعلاج الإهدار ....
..........د. مصطفى سويف
١٦ - المثقف العربي والمستقبل .... جميل مطر
٢٤ - الإرهاب.. هذا الاختراع المدهش..........
.... د. جلال أمين
٣٤ - من يكسب الرأى العام؟...... مصطفي نبيل
دائرة حوار:
[illegible] - النهوض باللغة العربية ... د. محمد فتحي فرج
[illegible] - الواقع والموروث في الفن التشكيلي..........
.... عدلي رزق الله
[illegible] - نقد الأدب العربي بين أحمد أمين وزكي مبارك
.... د. أحمد السيد عوضين
٦٣ - أكثر الرسائل الجامعية.. هيكل عظمي ....
.... د. محمد رجب البيومى
٧٠ - القراءة فى العصر الإلكترونى ....
.... د. أحمد محمد صالح
٨٣ - محمود عبدالمنعم مراد..... صافى ناز كاظم
٨٨ - حقوق التأليف المغتصبة ...... وديع فلسطين
٩٤ - القيود والقضبان فى عالم نجيب محفوظ ....
....مصطفى بيومى
١٠٠ - الإبداع يستشرف الحرية ....
..........................د. ماهر شفيق فريد
١١٢ - يوسف شاهين يجد ولدا ....
..........................مصطفى درويش

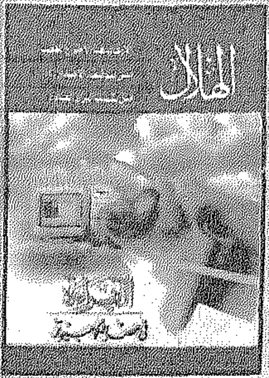

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوروبا وأفريقيا ٣٠ دولاراً. باقى دول العالم ٤٠ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

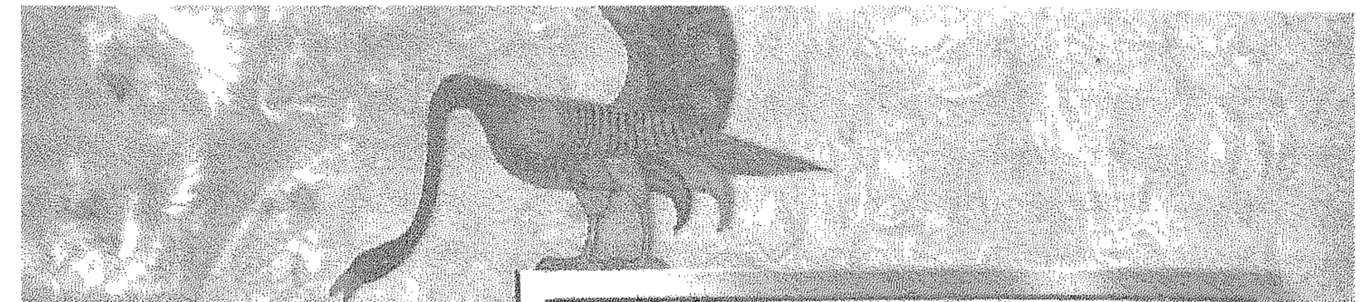

١٢٠ – المتفرجة: أحزان شاهين فى عيون السينما
.... مرفت رجب
١٢٦ – ملف المسرح: فنون الفرجة .. مهدى الحسينى
١٣٤ – «جولة المعارض» .. واقعنا الفنى بين التفاعل والسلبية .... د. محمد عرابى
١٤٣ – الصلح بين أم كلثوم وزكريا أحمد
.... د. نبيل حنفى محمود
١٥٢ – الكسندرا أفرينوه . . أحمد حسين الطماوى
١٦٠ – الفرص تتجدد دائماً «قصة» .
.... إبراهيم عبدالمجيد
١٦٤ – الشرطة .. بين القانون والمعايير الإنسانية
.... عبد الوهاب عبد الرزاق
١٦٧ – أين الحرية الأكاديمية للجامعة؟ د.محسن خضر
١٧٠ – يوسف الصديق فى مصر ....
.... سمير عطا
١٧٨ – مدام «هانو» .. صفحة صهيونية غامضة
.... د. محمد المهدى
١٨٤ – توشكى «شعر» .... أحمد خميس
١٨٦ – الفكاهة فى المسرح الشعرى عند شوقى
.... د. مصطفى رجب
١٩٠ – تطور الحدائق فى مصر ....
.... د. نوال المسيرى
١٩٨ – هل التنسيق الحضارى بلا قانون؟ ....
.... أمانى عبدالحميد

الأبواب الثابتة

عزيزى القارىء.........٦
– أقوال معاصرة ... ١٥
شخصية العدد «رجاء النقاش».. فريدة النقاش
.... ٧٨
من ذخائر الكتب العربية «الصداقة والصديق» لأبى حيان التوحيدى...
د. أحمد درويش ... ١٠٨
لغـويات ....
د. الطاهر أحمد مكى
.... ١١٩
التكوين: إنعام محمد علـى.......... ٢٠٨
أنت والهلال..........
عاطف مصطفى.. ٢١٨
– الكلمة الأخيرة....
محمد ناجى ٢٢٦

الهروب إلى الأمام!

لا أحد يعترض على «التجريب» بأى صورة من صوره ، أو معنى من معانيه ومصطلحاته ، فى الفن والأدب ، فضلا عن العلم ، فإن التجربة الناجحة تفتح بابا واسعاً للتقدم . ومن جرب شيئاً فانتفع الناس بتجربته قدم خيراً كثيراً ، وهناك شعار مشهور اسمه «التجربة والخطأ ».. ومن الخطأ يتعلم الناس وتنجح التجارب ..

ولكن التجربة الجديدة ينبغى على الأقل أن تكون قائمة على استيعاب التجارب العظيمة التى مرت بالإنسانية ، والتى تراكمت على مر التاريخ ، فإن التغير والتطور والتقدم لا يوجد معلقا فى الفضاء بلا جذور فى الأرض ، ولا يمكن لمن يجهل تجارب الأولين أن ينجح فى التجريب بلا علم ولا هدى..

أقول ذلك بمناسبة المهرجان السادس عشر للمسرح التجريبى الذى أقامته وزارة الثقافة ، فما جدوى التجربة والخطأ فى المسرح أو فى غيره إذا لم نستفد بها ، وما معنى التجربة إذا دأبنا على تكرارها؟!

لم يتح لجمهور المسرح التجريبى أن يستفيد شيئاً ، لسبب بسيط هو أن هذا الجمهور نأى عن عروض هذا المسرح التجريبى ، الذى أقيم للمرة السادسة عشرة هذا العام ، وكان له فى الأعوام الماضية دورات متتاليات انصرف عنها المشاهد أيضاً ، وربما عدم توافر المترجمين وتقديم معظم العروض باللغات الأجنبية هو ما أدى إلى انصراف الجمهور .

وحضر جمهور قليل العدد لمشاهدة مسرحيات التجريب العجيبة التى توافد أصحابها من كل أرجاء الأرض ونزلوا ضيوفاً على وزارة الثقافة . هذا فى الوقت الذى اقتطعت من ميزانية الثقافة الجماهيرية ستة ملايين جنيه.

وانصراف الجمهور من حوله ، يدعو للأسف وليس الشماتة.. فلا يكاد يوجد ناقد للمسرح له وزن إلا وتناول سلبيات هذا المهرجان وأبدى اعتراضه عليه ، ولم يتغير !! ،

وزخر المهرجان بتجاوزات فنية وثقافية ، كما زخر بعروض هزيلة من مختلف قارات العالم مع غياب الفرق التجريبية الأكبر والأفضل ، وظهر كأنه مهرجان لكل من «هب ودب» أو تجمع دولي للهواة مع رحلة مجانية لزيارة الأهرامات.

ولا تمل وزارة الثقافة من التجريب في المسرح ، وتتحدث عن حل أزمة السينما وأزمة المسرح ، وبدلاً من حل الأزمة تهرب إلى الأمام..

والمسرح التجريبي ، كما هو معروف ، خطوة متقدمة بعد رسوخ المسرح ، ونجاح عروضه ، وعودة الحياة إلى أعماله .

وأين نحن من هذا الذي يجري ؟، يرأس لجنة التحكيم مخرج أمريكي ، وأعضاء اللجنة هولندي وهندي وياباني وفرنسي وصيني وبرازيلي وكندية وإيطالية ومخرج جزائري ومصري فنان تشكيلي وليس مسرحياً! وتجري عروضه على أرضنا.

ويكرم المهرجان ناقدا بريطانيا ومخرجا بولنديا ومخرجا إيطاليا وممثلة فرنسية وفنانا نمساويا وكاتبا بلچيكيا وممثلة أمريكية .

وهل وصلنا إلى «المسرح .. عابر القارات» ، مثل الشركات متعددة الجنسيات ؟ وقفزنا إلى محطة «المسرح في زمن ما بعد الحداثة» ، ولم نتوقف لا عند قبل الحداثة ولا حتى الحداثة !!

ومن حقنا أن نسأل : ألم يكن الأجدى أن تجرب الوزارة نشاطها حول حل أزمة المسرح ، والبحث عن أسباب انصراف الجمهور عن المسرح الجاد ؟!

ويبدو أن البعض يرى أن «الدنيا مسرح كبير» كما كان يهتف يوسف وهبي ، ومادامت الدنيا مسرحا ، فكل شئ قابل للتجريب فوق خشبة المسرح، ، أهو تجريب أم تحديث للجمود ، وكل تجريب قابل للفشل ، وكل فشل يمكن تجرعه مثل الدواء .

وكل تجربة وأنتم بخير !

■

المحـــــرر

هل آن الأوان
لعلاج الإهدار؟!

بقلم
د. مصطفى سويف

منذ أكثر من عشر سنوات (فى مارس سنة ١٩٩٣ على وجه التحديد) نشرت فى هذه المجلة الغرّاء مقالا عن أبعاد التخلف الاجتماعى ، تحدثت فيه عن الإهدار باعتباره واحداً من أخطر هذه الأبعاد. وقلت فى هذا الصدد ما يأتى: «يقصد بالإهدار هنا إضاعة ما يمكن أن ينّمى فيتعاظم نفعه. يصدق هذا القول على كل ما يمتلكه المجتمع من ثروة مادية وبشرية. وفى هذا الصدد لا تعوزنا الأمثلة، بل تنتابنا الحيرة إذ نحاول الاختيار من بين المعروض أمامنا مما لا يكاد يقع تحت حصر». هذا ما قلته منذ أكثر من عشر سنوات .

وأسأل نفسى الآن : أين نحن من الشهادة التى ينطوى عليها هذا القول؟ وتأتينى الإجابات من خلال شهادات متعددة لا شهادة واحدة.

شهادات فى أمر الإهدار :

من هذا الموقع أدعو القارئ إلى صحبتى فى الطريق إلى الإجابة عن السؤال المطروح: وستكون رحلتنا سلسلة من الوقفات نستمع فيها إلى شهادات من عدد من مواطنينا ممن يعنيهم الشأن العام .

١ - شهادة أولى : (أحدث الشهادات)

فى شهر أغسطس سنة ٢٠٠٤ نشر الأستاذ نبيل على مقالا فى مجلة «وجهات نظر» بعنوان: «نزيف العقول العربية... رؤية معلوماتية» . يدور المقال حول الثورة المعاصرة فى تكنولوجيا المعلومات وما يصحبها من هجرة أصحاب العقول المؤهلة، وخاصة من أبناء الدول النامية حيث يشح توظيف طاقاتهم التقنية، إلى الدول المتقدمة حيث العناية بتوظيف هذه الطاقات . ويختم الكاتب حديثه بقوله: «كل ما قيل حتى الآن من حديث نزيف العقول فى العالم النامى ينطبق ... على وطننا العربى... وسنركز فى هذه الفقرة على بعض الملامح الخاصة بالمشهد العربى...» . ويشير الكاتب هنا إلى ملمح رئيسى واحد تحيط به مجموعة من الشروط تزيد من صعوبة التحدى الذى تواجهه البلاد العربية، فأما عن الملمح فيتلخص فى أن هجرة الأدمغة العربية تتسم بأن هذه الأدمغة ترحل عنا كما يقول الكاتب بلا تذكرة عودة. ثم يضيف أن الإحصائيات تؤكد مدى تدنى نسبة العائدين من بين هؤلاء الراحلين «مقارنة بالصين والهند وماليزيا ... وتركيا» . هذا عن الملمح. وأما عن الشروط التى تزيد من التحدى كما تواجهه البلاد العربية فتتلخص فى شرطين لابد لنا من مواجهتهما: الشرط الأول . «أنه لا أمل فى إحداث تنمية عربية مستدامة دون توافر أهم عناصر بنيتها التحتية، ألا وهى العنصر البشرى، خاصة عمالة المهارات العليا» . والشرط الثانى، أن «التحدى المعلوماتى الإسرائيلى والفجوة الرقمية بينها وبين البلاد العربية (يفرض) مزيداً من الاهتمام بقضية نزيف العقول» . جدير بالذكر أيضا أن هذين الشرطين ينطبقان على حالتنا فى مصر، هما والملمح الذى تحدث عنه الكاتب .

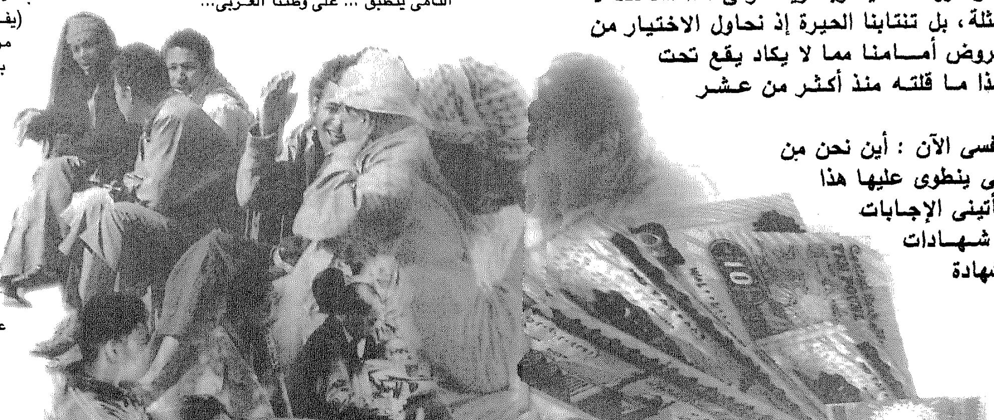

٢ - شهادة ثانية :

جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٦ مايو الماضى ما نصه :

«سادت حالة من الغضب أمس جلستى مجلس الشعب الصباحية والمسائية. واستنكر النواب عدم حصول الملف المصرى على أى صوت فى تصويت الفيفا. وطالب الدكتور زكريا عزمى عضو المجلس بالتحقيق فى أسباب ذلك. ودعا إلى تقديم كشف حساب إلى المجلس. وقال إن ما حدث يُعد إهداراً للمال العام يستوجب المساءلة» .

٣ - شهادة ثالثة :

وفى الأهرام أيضا بتاريخ ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٣ نشر المعلّق الإعلامى المعروف الأستاذ محمد صالح مقالا متوسط الحجم بعنوان: «ملايين مهدرة على دراما فاقدة القيمة» تناول فيه المسلسلات التليفزيونية التى عرضت فى شهر رمضان السابق على هذا التاريخ. وجاء فى ختام المقال ما نصه : «إن ما أصبح عليه حال الدراما التليفزونية هذا العام والإنفاق المجنون بسبب ما يتقاضاه بعض العاملين بها ، والشللية فى اختيار الممثلين، مع تجاهل الكثيرين، فى حاجة إلى تدخل وزير الإعلام .... ليعيد إليها انضباطا وقيما غابت إلى حد كبير فى العديد من مسلسلات هذا العام».

٤ - شهادة رابعة :

وفى الأهرام كذلك بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠٠٣ نشر الأستاذ إسماعيل الفخرانى مقالا بعنوان: « اقتصادنا وثقافة الهدر» استهلّه بقوله: «من المستحيل لأى اقتصاد مهما كان قويا أن يستقر أو ينمو فى ظل ثقافة الهدر. ومن منطلق الشفافية فإن اقتصادنا القومى يمر بأزمة، ولا أرى لها سببا أكبر من التبديد والهدر لمقوماته...»، وعلى امتداد المقال أخذ الكاتب يضرب الأمثلة لنماذج الهدر فى حياتنا، فبدأ بموضوع المخدرات ، ثم انتقل إلى إهمال رصف الطرق وترميمها وهو ما يؤثر فى سرعة استهلاك مركبات النقل الخاص والعام وتعويق حركة المرور، ثم انتقل إلى موضوع السحابة السوداء، وختم المقال بقوله: «إن ثقافة الهدر باتت تهددنا فى كل شئ حتى فى لقمة العيش» .

٥ - شهادة خامسة :

فى سنة ٢٠٠١ نشر الأستاذ الدكتور محمد أبو الغار كتابا بعنوان «إهدار استقلال الجامعات» عرض فيه بقدر معقول من التفصيل الخطوات التى خطتها السلطة الحكومية فى عملية إهدار استقلال الجامعات (قبل وبعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢) . وأوضح المؤلف كيف أن هذا الإهدار جاء مقترنا بالتدهور الملحوظ فى الأداء الجامعى بشقيّه البحث والتعليم .

٦ - شهادة سادسة :

فى فبراير سنة ١٩٨٩ نشر الكاتب الكبير الأستاذ السيد ياسين مقالا فى مجلة الأهرام الاقتصادى بعنوان: «إعارة إلى الأبد» تحدث فيها عن موضوع إعارات أعضاء هيئات التدريس فى الجامعات المصرية إلى البلاد النفطية (العربية)، فقدم فى هذا المقال لوحة أدبية (أو ما يمكن أن يسمى دراسة حالة) تعبّر تعبيرا بليغا عن موضوع الإعارات وما ينطوى عليه من إهدار اجتماعى متكامل. وقد استند الأستاذ

ياسين في رسم هذه اللوحة إلى رواية نشرها الأديب المبدع الأستاذ علاء الديب، تثير عديدا من القضايا الاجتماعية الخاصة بهجرة العقول المصرية إلى الخارج من خلال قناة الإعارة .

الدلالة الرئيسية لهذه الشهادات :

هذه ست شهادات مختلفة، قدمها ستة كتّاب أفاضل في تواريخ متفرقة تقع على امتداد الخمس عشرة سنة الماضية (أي منذ ما قبل شهادتي بأربع سنوات) بدءاً من سنة ١٩٨٩ وحتى أغسطس من عامنا الراهن ٢٠٠٤، وتشهد كل منها (على غير اتفاق سابق بين أصحابها) بحقيقة الإهدار كما يقع في مجالات حياتنا الاجتماعية المختلفة، من الشباب والرياضة، إلى الإعلام، إلى عالم المخدرات، إلى إدارة الطرق والمرور، إلى الجامعات، وكما يكشف عن نفسه (أي الإهدار) في مظاهر مختلفة، منها نزيف العقول (من خلال الهجرة الصريحة والإعارات)، وإهدار المال العام (نقداً وعينا)، وإهدار استقلال الجامعات ، جدير بالذكر أن هذا الإهدار كما ورد ذكره في مجموع الشهادات التي عرضنا لها يتناول ثروتنا القومية بشقيها المادي والبشري. وأظن أنه من الواضح للقارئ أن البنود التي أوردناها ليست سوى أمثلة لبنود أشمل من ذلك كثيرا ، حتى لقد تكلم أحد السادة الشهود عما أسماه «ثقافة الهدر» ، وقال «إن ثقافة الهدر باتت تهددنا في كل شئ حتى في لقمة العيش». ومن الواضح أيضا أن هذه الشهادات الست التي أوردتُها يمكن زيادتها أضعافا مضاعفة، ولكن ربما كان الأفضل في هذا المقام العمل بالقاعدة القائلة «خير الكلام ما قل ودل»

أسئلة وتعليقات :

تثير هذه الشهادات عدداً كبيراً من الأسئلة والتعليقات. ولست أدّعي أنني قادر على أن أقدم في هذا المقال الإجابات الشافية أو التعليقات الوافية. ولكن كل ما أرجوه أن تحرك أسئلتي وتعليقاتي مزيدا من علامات الاستفهام والتعقيبات في نفوس القراء وعقولهم عسى أن يتحقق من ذلك مزيد من الوعي الفعال الذي يجد طريقه بصورة أو بأخرى إلى قدر من الفعل المؤثر أو الخلاق .

والسؤال الذي يفرض نفسه مباشرة في هذا الموضوع من المقال هو: إلى متى يظل الحال على ما هو عليه؟ الشهادات التي أوردتُها تغطي الخمس عشرة سنة الماضية، وتشير جميعها إلى أحداث وقعت قبل صدور هذه الشهادة أو تلك، كما أن هذه الأحداث امتدت إلى ما بعدها . ومعنى ذلك أن شواهد الإهدار تتوالى وتتراكم آثارها منذ عقود، خذ مثلا موضوع استقلال الجامعات ، فقد بدأت معاول الإهدار تفعل فعلها فيه منذ أوائل القرن الماضي (منذ معركة «الشعر الجاهلي» حول طه حسين) ، ولا نزال نرصد كل يوم ضربة معول جديد . وخذ موضوع إعارات أعضاء هيئات التدريس في الجامعات ، وهذا بدوره يجرنا إلى موضوع هجرة العقول... إلخ هذه الموضوعات كلها يصدق عليها (بأشكال وبدرجات مختلفة) ما قلناه عن إهدار استقلال الجامعات . ظاهرة الهدر بصورتها العامة إذن مستمرة منذ عقود ، رغم الأضرار المباشرة

وغير المباشرة التى تنجم عنها، ورغم الشكاوى التى لاتفتأ تصدر بشأنها من بعض الكتّاب أحيانا، ومن بعض أعضاء مجلس الشعب أحيانا، ومن المواطن العادى أحيانا ثالثة، لذلك يحق لنا جميعا أن نتساءل: إلى متى يظل الحال على ما هو عليه؟ أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج أولا إلى الإجابة عن سؤال آخر: من أين يستمد الإهدار عندنا طاقة الاستمرار هذه؟ أو ما هى الآليات والعمليات الفاعلة فى هذا الهدر؟

الآليات الفاعلة فى الهدر:

فى هذا المقام يحسن بنا ألا نقف عند مثال محدد بعينه، بل يلزمنا أن نقف عند ما يمكن اعتباره الآليات والعمليات الأساسية التى قامت وتقوم وراء نماذج الإهدار التى أشرنا إليها جميعا، وقد أوردنا (من خلال الشهادات الست التى ذكرناها) ثلاثة أنواع من الإهدار: إهدار المال العام، وإهدار العقول (أو ما يعرف بنزيف الأدمغة)، وإهدار استقلال الجامعات.

فأما فى موضوع المال العام فهناك آليتان أساسيتان، هما:

الشِّللية، وإدراك المال العام على أنه المال السايب، وهو ما يغرى بسوء التصرف.

وأما فى موضوع إهدار العقول فالآلية الأساسية تتمثل فى التلاقى بين مصلحتين انتهازيتين، هما: مصلحة الطالب، أعنى طالب السفر الذى يحلم بتغيير وضعه المالى/الاقتصادى تغييراً جذرياً سريعا بغض النظر عن أشياء أخرى كثيرة (مثل مصلحة الأسرة ومصلحة العمل.. إلخ)، والمصلحة الثانية هى مصلحة السلطة التى اكتشفت فى موضوع الإعارات (أو الهجرة الكاملة، أو تصدير العمالة.. إلخ) صيغة ممتازة لضرب عدة عصافير بحجر واحد، من هذا القبيل الإقلال المصطنع من حجم البطالة، وتقليل الأصوات الساخطة على سوء الأحوال المعيشية فى الداخل، والتشتيت أولا بأول لبعض ذوى العقول الواعية/النافذة وإلهاؤهم ببعض المكاسب الأنانية، بالإضافة إلى فتح الباب أمام مجىء الدولارات من تحويلات المعارين والمهاجرين إلى ذويهم والمتعلقين بمصالحهم فى الداخل.

وأما فيما يتعلق بإهدار استقلال الجامعات فالآلية الأساسية هى البطش باسم السلطة، سلطة الحكومة هكذا صريحة فى معظم الأحوال. وقد اختلفت التبريرات من عهد إلى عهد، ولكن تعددت العهود والبطش واحد.

الآليات الفاعلة فى الإهدار بأنواعه الثلاثة التى أوردناها إذن هى: الشللية، وإدراك المال العام على أنه مال لا صاحب له، والتقاء مصلحتين انتهازيتين (مصلحة الحاكم ومصلحة المحكوم)، والبطش باسم السلطة. ولاشك فى أن هذه الآليات تتداخل أحيانا فيما بين بعضها بعضا، ولكن مع ذلك تظل لكل منها هويتها.

عود على بدء

وأعود الآن إلى السؤال الذى بدأت به هذا المقال: أين نحن من الشهادة التى قلتها منذ أكثر من عشر سنوات عن الإهدار كواحد من أسوأ أبعاد التخلف فى حياتنا؟ الشهادات الست التى أوردتُها تقدّم الإجابة واضحة لا لَبس فيها: لايزال الإهدار مستشريا فى كثير من جنبات حياتنا. ويترتب على هذه

الإجابة مباشرة سؤال جديد:

هل نحن نتحرك «محلّك سر»؟ (ومن يدرى ربما نتحرك أحيانا إلى الخلف!).

فإذا كان الأمر كذلك فلابد من إثارة سؤال يبدو شديد الجذرية، لكنه سؤال مناسب تماما لهذا الموضع فى تسلسل عناصر المقال: لماذا نكتب؟ أعنى أنا وأمثالى من السادة أصحاب الشهادات التى أوردتها والشهادات المماثلة التى أوردها. نعم، لماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟

الكتابة العامة: الأهداف والوسائل:

يأتى فى مقدمة أهداف الكتابة العامة، وخاصة فى مجال النقد الاجتماعى، إسهام الكاتب بجهده الفكرى فى تغيير بعض الأوضاع الاجتماعية إلى ما يعتقد أنه الأفضل. وفى السبيل إلى ذلك يستعين الكاتب بعدد من الوسائل، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ثلاث وسائل هى:

(أ) تحديد التغيير المطلوب، موضوعه، واتجاهه، ودواعيه.

(ب) اقتراح الحل، واقتراح الصورة التى يؤمل فى حلولها بعد التغيير.

(جـ) بيان الأضرار فى الحاضر والمستقبل الناجمة عن بقاء الحال على ما هو عليه.

هذه هى الذرائع الرئيسية التى يتقدم بها الكاتب لبيان حقيقة التغيير الذى يطالب به وأهميته، وأسلوب الكاتب فى ذلك هو الخطاب المكتوب، وهو أسلوب متحضر ما فى ذلك شك. وهذا بالضبط مانلمسه فى مجموعة الشهادات التى أوردتُها. وقد أصدر أصحاب هذه الشهادات شهاداتهم كخطابات موجهة إلى من بيده سلطة اتخاذ القرار، بالتصريح أحيانا وبالتلميح أحيانا أخرى، ومع ذلك فقد ذهبت خطاباتهم ولاتزال تذهب أدراج الرياح، فلا من استجاب، ولا من وعى، ولا من سمع. فكأننا إذن بكتاباتنا العامة نلهو، ونشرك القراء معنا فى نوع من اللهو العبثى!

فى هذا الموضع المفصلى من المقال أجد من واجبى أن أوضّح نقطة بالغة الأهمية، وهى تتعلق بالمنطلق الذى أكتب وأتكلم انطلاقا منه، فى موضوع الإهدار هذا، وأعتقد أن غيرى من الكتّاب يكتبون ويتكلمون انطلاقا منه كذلك (وهو ما أستشفهُ من الشهادات التى أوردتها).

نحن نكتب من منطلق المشاركة الإيجابية فى الحياة الاجتماعية. ولمزيد من الإيضاح: نحن ندرك الحياة الاجتماعية على أنها فى جوهرها مشروع كبير، يتعاون أعضاؤه بأدوارهم الاجتماعية فى تسيير الحياة فى نطاقه بأفضل قدر من من السلاسة، سواء أكان هذا التسيير على سبيل النمطية، أو على سبيل التغيير أو التطوير. وللتعاون فى هذين السبيلين أساليب ووسائل يختار كل منا من بينها ما يتناسب والدور الموكول إليه. من منطلق هذا المنظور نتكلم نحن الكتّاب (الملتزمون). وهذا يعنى أننا لا نتكلم من منطلق النقد العدوانى، ولا من منطلق الإملاء، ولا من منطلق ادّعاء الوصاية، ومرة أخرى نقول: نحن نكتب من منطلق المشاركة فى تسيير دفة الحياة فى المجتمع بالقدر الأمثل من السلاسة. ذلك لأننا نعى المعنى الإيجابى للانتماء. ونعى ما يترتب على هذا المعنى من التزام،

ونعى كذلك عواقب الاحتقان، الذى هو عكس السلاسة.

الرسالة المرجوّة من هذا المقال:

على أى حال أعتقد أنه آن الأوان لكى أضع النقاط على الحروف فى الموضوع:

فالرسالة التى يحملها المقال الراهن إلى كل من بيده سلطة اتخاذ القرار فى موقع ما يمكن تلخيصها فى النقاط الآتية:

أولا: أن الإهدار حقيقة واقعة فى حياتنا الاجتماعية/ السياسية/ الاقتصادية.

ثانيا: أن هذه الحقيقة تقع على مشهد منا جميعا، نحن الذين نتكلم ونكتب، وغيرنا كذلك ممن يقفون فى صفوف الأغلبية الصامتة.

ثالثاً: أن هذه الحقيقة تطال معظم مجالات حياتنا الاجتماعية.

رابعا: أن هذه الحقيقة تمتد لتشمل ثروتنا القومية، المادية والبشرية والمعنوية.

خامسا: أن هذه الحقيقة تناولها ولايزال يتناولها بالشكوى المكتوبة والمنطوقة عدد من رموز الفكر لدينا من ذوى التوجهات التوجهات الاجتماعية/ السياسية المتباينة.

سادسا: أن الهدر بأبعاده الحالية، وبتراكماته التى وصل إليها فى جميع المجالات التى ينخر فيها لا يمكن أن يستمر هكذا إلى مدى طويل قادم، لأن الدلائل تشير إلى أن كثيرا من المؤسسات أصابها خراب شديد من جراء ذلك بحيث باتت عاجزة عن أداء وظائفها وهو ما يدخل بنا على غير وعى منا فى مزيد من التخلف.

سابعا: لمعالجة ظاهرة الهدر بأبعادها الحالية يجب أن نتعلم كيف ننظر إلى الظاهرة فى كيانها الكلى المتكامل، وأن نتخلى عن النظر إليها فى هذه الجزئية وحدها أو تلك، لأن هذه النظرة الجزئية من شأنها أن تشتت وتبدد الجهود التى ينبغى أن تتجه إلى اقتلاع الجذور الفاسدة الكامنة وراء المظاهر.

ثامنا: أن الامتناع عن الاستجابة بالصورة الواجبة (من حيث التوجه والتوقيت) لأصحاب الشهادات المخلصة محبط لهم وللتيار العقلانى فى الإصلاح كما يمثلونه. وهو فى الوقت نفسه إهدار لفرصة الاستفادة ممن لا يطلبون جزاء ولا شكورا.

تاسعا: أن الحكم الرشيد (فى أى مستوى من مستوياته) يجب ألا يضيق بالنقد الاجتماعي/ السياسي، بل أحرى به أن يعتبره مكملا لمهامه الأصلية التى تستهلك عادةً معظم وقته وجهده، ويضيق مجال رؤيته شاء أم أبى، فإذا بالنقد الاجتماعى/ السياسى يفتح أمامه نافذة لرؤية جانبية يشهد من خلالها مشهداً لم يكن يحسب له حسابا.

عاشرا: يجب التنبه إلى طبيعة المرحلة التاريخية التى نمر بها الآن، نحن فى مصر فى الوطن العربى، فى الشرق الأوسط. وهى فترة تتسم أساساً بانفتاح شهية قوى عالمية متعددة إلى عودة الاستعمار، كما تتسم بالاستماتة فى السعى العملى لإشباع هذه الشهية. ولها فى هذا السبيل أساليب تستغل بها نقاط الضعف استغلالا ماهراً فى الدولة التى يتقرر افتراسها.

ولا أظن أن الإهدار بالصورة التى يمارس بها لدينا يمكن أن يكون رصيداً إيجابيا لنا فى مواجهة الأمواج العاتية. ■

أقوال معاصرة

« تخلفنا ثقافى، نحن نريد أن نجيب عن أسئلة الأبناء والأحفاد بأجوبة الأجداد » !!

المفكر السورى جورج طرابيش

« الحرية كشفت عن عمق التدهور الروحى الذى قادنا إليه الاستبداد »

ڤاتسلاف هافيل الأديب التشيكى
ورئيس الجمهورية السابق .

« التهديد بالفوضى يأتى من داخل مجتمعات فقيرة تعرف كيف تتناسل وتتكاثر، ولاتعرف كيف تؤمن وجبة الغداء أو العشاء»

المفكر غسان الإمام

« علينا أن نعمل بجد ودأب، حتى يفهم الناس ضرورة الاحتفاء بالاختلافات بين بنى بشر، وليس إدانتها »

المخرج الأمريكى ستيڤن سبيلبرج

« إذا كنا نعرف جيدا أننا، كعرب، مستهدفون فلماذا نفعل ما يغرى الآخرين بنا ؟ »

الأديب نجيب محفوظ

« من الطبيعى أن تظهر السلبيات فى حركة الحياة الدائمة، لأنه لايمكن أن تكون الحياة مثالية، ودائما هناك هنات وهنوات »

فنان الملهاة السورى ياسر العظمة

« أعتقد أنه لايوجد أحد مؤهلا حقا لرئاسة الولايات المتحدة »

تيريزا هاينز
زوجة ،جون كيرى، مرشح الحزب الديمقراطى لرئاسة الولايات المتحدة

« عدم نشر وبث انجازات الإرهابيين، يخنقهم، فيموتون بالسكتة التعتيمية.»

مارجريت تاتشر
رئيسة الوزراء الأسبق

« المشاركة السياسية أصبحت رفاهية لايقدر عليها الباحثون عن رغيف العيش »

السفير مخلص قطب
أمين عام مجلس حقوق الإنسان فى مصر

فاتسلاف هافيل

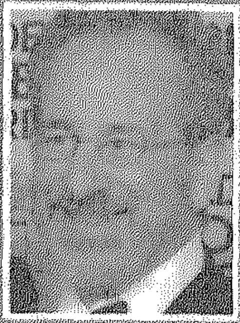

ستيفن سبيلبرج

مارجريت تاتشر

المثقف العربى والمستقبل

بقلم
جميل مطر

تحديات كثيرة تواجه الإنسان العربى فى حاضره. وإن استمرت محاولات التغيير فى المجتمع وفى الدولة وفى الموارد وعلى مستوى الفرد بالمعدلات الراهنة فالأغلب أن هذه التحديات لن تتخلى عنا وستواصل معنا المسيرة نحو المستقبل، وستنضم إليها مشكلات وتحديات أخرى جديدة لا نستطيع التنبؤ بها من الآن فأكثرها من صنع متغيرات لا نراها.

غير جائز إهمال تحديات المستقبل لأن بعض متغيرات المستقبل لم تظهر بعد علي شاشة الحاضر، فمهمتنا كباحثين أو مجتهدين أن نكشف عن الظروف الملائمة للاستعداد للتعامل مع المستقبل ونعمل علي تشكيل وعي بأهمية هذا الاستعداد رغم كل الأجواء المناوئة. نعرف أن الفرد الساكن كالمجتمع الساكن، كالفرد البائس والمجتمع البائس، يكره المستقبل، ولا يثق به ولا يتمناه. مشكلات هذا الساكن أو البائس أو اليائس لن يحلها – من وجهة نظره – إلا قوة من وراء الطبيعة، أي من وراء الحاضر ومن وراء المستقبل، ولذلك يحاول باستمرار تأجيل مواجهتها. ويزداد إقباله علي التأجيل كلما تكالبت مشكلات الحاضر وتراكمت السلبيات وشلت أدوات وقوي التغيير وكلما ازداد المجتمع بؤساً وازداد الفرد يأساً تعمق الشعور بالكراهية للمستقبل، وكثيراً ما يتجاهله الفرد كلية، ويستعيض عنه بأحلام عن حياة أخري في عالم آخر

كله سعادة ووفرة، أو متناسخاً في مكان آخر وزمن وجسد آخر. «حياتي حاضري»، هذا الشعار يؤمن به البائس والظالم معاً، البائس ليأسه وتشاؤمه والظالم لخشيته أن يفقد في المستقبل مميزات الحاضر وامتيازاته ونعمه ووجاهته.

عند التفكير فى التحديات التى تواجه الإنسان العربى تبرز عشرات المسائل التى تتسبب فى تعقيد المسالك نحو المستقبل. ووجدت نفسى أعبر عن هذه المسائل فى صيغة ثنائيات ما لم نحل تناقضاتها أو تداخلاتها سنبقى فى حاضرنا ساكنين لا نتحرك، أو نزداد تدهوراً نحو أعماق أشد انحطاطاً.

أبدأ بثنائية «العصر الذهبى والحاضر البائس»، أقصد بالعصر الذهبى هذه الإشارات المحمومة أحياناً والتى تتخلل معظم خطاباتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية وحتى الاقتصادية عن أيام مضت، يدعى الفرد أنه كان فيها أحسن حالاً مما هو عليه الآن. الإنسان فى مجتمعاتنا العربية الذى يعيش ظروفاً قاسية يتحدث غالباً عن «عصره الذهبى». هذا العصر الذهبى ليس واحداً فى كل الأحوال ولا عند كل الناس. هناك الحنين إلى الماضى. وأمره مقبول ومفهوم. وأحياناً قد يكون من المفيد تشجيع الناس على هذا الحنين إلى الماضى. فالحنين وسادة يضع الإنسان رأسه عليها من أجل لحظات تخفف معاناته أو تجدد طاقته. وهو مفيد لأنه يرطب جفاف الحاضر ويهدىء من جفائه وقسوته. والإنسان خصوصاً الكادح أو المظلوم لا يتذكر عادة إلا الجانب الطيب فى هذا الماضى، وتختفى من ذاكرته الجوانب المظلمة أو القاسية.

العصر الذهبي

ولكن ليس كل خطابات العصر الذهبى حنيناً إلى الماضى. فهناك بين المشيعين للعصر الذهبى من يمكن تسميتهم بالأيديولوجيين. هؤلاء يمثل العصر الذهبى قاعدة معتقدهم السياسى أو الدينى أو القومى أو الوطنى. يضفون على هذا الزمن مسحة قداسة تجعل الاقتراب منه بالنقد خروجاً غير لائق عن هذه العقيدة أو مساً بها، ويعتبرون الأيام أو العهود التى لا تنقل حرفياً عن العصر الذهبى أياماً وعهوداً خارجة عن التاريخ، إن لم تكن خارجة عن العقيدة. هنا تكمن خطورة تقديس العصر الذهبى، فالحاضر إن لم يندرج فى إطار العصر الذهبى فكراً وممارسة مرفوض. وهكذا المستقبل. ويرى هؤلاء المتشيعون أن المخططين والمبدعين والمفكرين الذى يتصورون مستقبلاً لا يعتمد منظومات العصر الذهبى إنما يقودون شعوبهم إلى التيه والضياع.

على الجانب الآخر من الثنائية يوجد الحاضر. هنا أيضا يوجد نوعان من التفكير. نوع يقدس الحاضر ونوع يراه مرحلة نحو شيء آخر، أو يراه قابلا للتطوير. الحاضر بالنسبة لمتطرفيه أمر واقع، لا بديل له. وبالتالي يجب تقديس الحاضر تحت عنوان الواقعية. ومن يخرج عن هذا الإطار فقد مس الاستقرار والتقدم بالسوء مسا خطيرا. هؤلاء المتزمتون في فهم الحاضر، كالمتزمتين أيديولوجيا في فهم الماضي تحت عنوان العصر الذهبي، لا يؤمنون بالتغيير. وبالتالي يندر أن يوجد شخص يقدس الحاضر وتنطبق عليه الصفة أنه إنسان تقدمي أو متحرر أو عصري. أما الإنسان العربي الذي نحلم بتكاثره حاضراً ومستقبلاً، فهو إنسان يعيش في الحاضر بولع وحب ولكن بدون تقديس، ويحن إلى الماضي في لحظات سعادته أو بؤسه بدون أن يقدس هذا الماضي أو يستدعيه ملازماً لحاضره. يؤمن بالتغيير أي بالبحث المستمر عن أهم متغيرات المستقبل الراقدة في حاضره، فبإيمانه بالتغيير يضع لبنات المستقبل ويساهم في صنعه. إن التطلع إلى المستقبل ووضع رؤية مستقبلية شرطان لا غنى عنهما لحاضر يبشر بالتحسن والارتقاء، ويسعى لانفتاح حقيقي وليبرالية رشيدة.

وكما أن بعض أنصار العصر الذهبي متزمت أيديولوجياً وبعض أنصار الحاضر متزمت أيديولوجياً أيضاً (كالواقعيين المفرطين في واقعيتهم)، فهناك أيضاً المستقبليون المتزمتون، وإن كانوا غير أيديولوجيين. هؤلاء يطلق عليهم أحياناً اليوتوبيون الذين يبنون مستقبلاً خيالياً ويحلمون بأوضاع لا جذور أو أساس لها في الحاضر. العلماء الذين يتحدثون اليوم عن مستقبل تجرى فيه محاولة صنع كائن بشرى، ليسوا يوتوبيين لأنهم يستعدون بالفعل لاختراق حاجز الممنوعات «المستقبلية»، هؤلاء يضعون هدفاً معيناً ومعه في الوقت نفسه برنامج أو خطة للوصول إلى هذا الهدف. اليوتوبيون، على العكس، هم الذين يؤمنون بتحقيق المستحيل ولم يعدوا له. يحلمون فقط. بمدينة فاضلة أو عالم مثالي.

الحنين إلى الماضي

نعيش في وقت معاناة من تعقيدات قضايا تتعلق بالمجتمع وبالفرد في آن واحد. مجتمعاتنا ليست في أفضل أحوالها والفرد العربي في أسوأ أحواله. وفي مثل هذه المراحل من تطور المجتمعات يصبح الإنسان أشد ميلاً إلى الحنين إلى الماضي أو العودة إلى العصر الذهبي. عندئذ يبدع الإنسان في تصوير هذا الماضي، ويتفنن في طرق إعادة بعثه. فجأة يصير هذا الماضي

أكثر بهجة وأوفر رخاءً وأعم عدالة وأزهى أياماً، إمبراطورية تمتد من أقاصى الشرق إلى أقاصى الغرب، وفى ظلها يسود العدل المطلق والسلام الكامل. وتزداد الدعوة إلى الماضى الذهبى مع ازدياد عجز الفرد والقيادات عن إحداث التغيير. أما الفرد غير العادى «وهو المتميز سلطة أو ثروة» فمصلحته فى استمرار الحاضر، أى الوضع القائم. وفى سعيه لحماية سلطاته ومصالحه سيقاوم التغيير وسيكره الدعوة للاستعداد للمستقبل، ولكنه مستعد لدعم بعض تيارات الماضى الذهبى لمواجهة تيارات التغيير ثم ينقلب عليها، ومستعد لدعم بعض التيارات الناطقة باسم المستقبل لمواجهة أيديولوجيات العصر الذهبى ولكنه لن يتأخر فى الانقلاب عليها ومحاربتها حين يتحقق له النصر على تيارات الماضى الذهبى. وأحياناً يلجأ إلى تشجيع جماعات «الهوس» لإلهاء الناس وتشتيت الطاقات الفكرية بعيداً عن ساحة أزمات الحاضر وتعقيداته.

٭٭٭

أحد أهم التحديات، القائمة والمستمرة معنا، هو التخلص من تأثير هذا التراوح بين الماضى والحاضر. لقد توقف تقدم التعليم وربما تدهور بسبب هذا الخلاف. يقال إن الجامعات كانت فى وقت من الأوقات مجانية والأساتذة كانوا على مستوى غربى راق، وأن التعليم كان للنخبة فقط. ويقال إن الكتب كانت تصدر بدون رقابة، ووجدت حرية أوفر للتعبير والبحث العلمى. كان المجتمع يثور ويتمرد ويقف إلى جانب حرية التعبير وحرية النقد وحرية الكلمة. وفى عصور أزهى كانت حركة التأليف والترجمة على أعلى مستوى، وتبادلنا مع أوروبا أفكار الحضارتين الإغريقية والإسلامية. ولا يضير الحكومات العربية نزوع البعض إلى «استحلاب» هذا النوع من الحديث عن «العصر الذهبى» أو الحنين إلى الماضى، وهى غير معنية إن كان هذا النزوع يعطل مسيرة التقدم ويعرقل تحديث الأفكار والعقائد.

نعرف أن الحنين إلى الماضى يفيد قضية التغيير أو الإصلاح عندما تجرى مقارنة الماضى بالحاضر أو عند استخدامه كمجموعة دروس يؤخذ منها ما ينفع لتفادى تكرار تجارب سابقة تسببت فى مشكلات أو أدت إلى كوارث. بمعنى آخر يمكن استخدام الماضى كمعمل تجارب عن المستقبل، ولكن يجب تفادى استخدامه كجهاز لقياس جدوى مانقوم به لتطوير الحاضر واستعجال المستقبل، أو لنعيد إنتاجه فى حاضر «ماضوى» أو فى ماض مبعوث.

عندما نتحدث عن العصر الذهبى

والحاضر والمستقبل وعندما نتحدث عن المثقف والسياسة وعن الأمن والحرية فإننا فى الواقع نتحدث عن تحديات الفرد المشارك فى المجتمع أو الفرد المثقف بالمعنى الواسع. فالمثقف يرتبط فى مجتمعاتنا بالسياسة منذ اللحظة التى تفرض الظروف عليه الارتزاق من «ثقافته» أو عندما يتولد لديه الطموح لبث افكاره ومعتقداته على عدد أكبر من الناس أو حين تقرر السلطة السياسية والمجتمع، معا أو كل على حدة، منحه صفة «مثقف». ومع ذلك أظن أن المواطن العادى فى مصر على سبيل المثال استطاع أن يحرر نفسه من عدد من قيود السلطة السياسية على عكس المثقف الذى فشل فى معظم محاولاته تحرير نفسه. تحرر الإنسان العادى لأن السلطة السياسية نجحت خلال العقود الأخيرة فى تحرير نفسها من كثير من مطالب الفرد العادى وواجباتها تجاهه. نلاحظ أن ملايين غفيرة من المصريين لم تعد لها علاقة وثيقة بالسلطة كالعلاقات التى قامت على امتداد عقود كثيرة، وربما قرون. اللافت للنظر أن المواطن المصرى العادى، الفلاح والعامل والموظف وابن الطبقة الوسطى الكادحة، وهى طبقة جديدة فى مصر، صارت تفصله عن السلطة السياسية مسافة واسعة إلى حد غير مسبوق فى التاريخ السياسى والاجتماعى المصرى. اما المثقفون فمازالت علاقاتهم بالسلطة قوية. قليل من المثقفين هم الذين يحاولون الابتعاد عن السلطة ومسالكها واغراءاتها، واقل منهم المثقفون الذين نجحوا فى قطع علاقاتهم بها. وزاد حرص السلطة السياسية على توثيق روابطها بالمثقف عن طريقين: الاختراق الأوسع لمساحته الشخصية، وزيادة درجة اعتماده عليها وخوفه منها.

شكوى متبادلة!

فى أوقات سابقة، كانت علاقات المواطن المصرى بالسلطة متعددة ووثيقة ومتصلة بحياته اليومية. كانت هناك التسعيرة التى تفرضها الحكومة حماية للفرد العادى من جشع التجار وتقلبات السوق العالمية والمحلية، وألغيت واقعيا. كانت هناك حماية ضد الفصل التسعفى للعمال فرفعت الحماية أو قلت. كانت هناك رعاية صحية مجانية، ولم يبق منها إلا العنوان. وكانت هناك تشريعات تحمى المستأجرين الزراعيين والملاك الصغار، وهم الأغلبية الساحقة من الفلاحين، فتغيرت القوانين لصالح فئة قليلة العدد من كبار الملاك. كانت الحكومة مسئولة عن توظيف خريجى الجامعات والشباب فتنازلت عن هذه المسئولية وألقت بعينها على القطاع الخاص، الذى عجز عن تحمل المسئولية

فـفـقـد ثقـة الفـرد العـادى. الخـلاصـة أن المواطن العـادى ضـعـفت علاقتـه بالدولة، وأصبح نظريا أكثر اعتمادا على نفسه. الوجـه الآخـر لهـذا التطور المهم هو أن الدولة اسـتـغنت عن دورهـا تجـاه الفـرد، وفى أحـيـان مـتـعـددة صـارت تقف منه موقف مخاصـمـة ، أو على الأقل صارت تتـأفف منه وتشكو. ولا تـخـفى أدبيـات الدولة فى مصر ومنها الخطاب الرسمى، كمـا فى غيرهـا من الدول «المتوقـفة» أن هذا الفرد العـادى يشكل عبئـا عليـهـا . تزدحم به المرافق العامة. ويستهلك المياه والكهرباء بأكثر مما يسـتـحق ويحتـاج. وهو دائم الشكوى والإلحـاح على تلبـيـة حـاجاته، ولا يكف عن الإنجاب والتكاثر. وعاد يمارس هواية قديمة، هواية التمرد الصامت.

فى مـقـابل هذه العـلاقـة المتنامـيـة الضـعف بين السلطة والفرد تقوم الآن عـلاقـة قـوية وتزداد قـوة مع الزمن بين المثقف والسلطة السياسية. المفارقة هنا أنه فى ظل علاقة قوية بين الدولة والفرد العـادى كـانت الأغلبيـة السـاحـقـة من الشعب مستفيدة، فالتسعيرة والقوانين ضد فصل العمال وحمـاية المسـتـأجرين وصـغـار الملاك لم يقـتـصـر عـائدهـا على الفرد، بل كانت لكل النـاس أو أغلبيـتـهم السـاحقة ، بينما فى العـلاقة القوية بين المثـقف والسلطة تعود الفـائدة إلى فـرد بعينه وفى أحسن الأحوال جماعة بعينها داخل طبقة . أمامنا - إذن - تحدٍ غير بسيط. ففى وقت يتطلع فيه الفرد العادى الى المثـقف واضـعـا فـيه أمل الإصـلاح والتغيير، نجد المثقف وقد اشتدت حاجته إلى الدولة. وبالتـالى فـقـد بعض رصـيـد قـوته كـعنصـر تغـيـيـر. وسـبق أن طرح مثقفون موقفا من هذا التحدى يقوم على ضـرورة اندمـاجـهم فى الدولة وتكثـيـف دورهم السياسى مراهنين على أنهم أكثر قدرة على إحداث التغيير لو كانوا داخل السلطة ودائرين فى فلكها.

مـرة أخـرى يلح السـؤال كـيـف سيـتمكن المثقف فى مـجـتـمـعـاتنا من التأثير على عملية التغيير والإصلاح إذا لم يستقل عن السلطة صاحبة المصلحة فى عـدم التـغـيـيـر أو فى إبطائه أو فى انتـقـاء مـا يناسـبـهـا. وإذا سلمنا بأن الاستقلال عن السلطة طلب غير واقعى، فهل يجوز الطلب إلى هذا المثقف ليواجه التـحـدى أن يضع مـسـافـة تقلل قـدر الإمكان من هيمنة السلطة على سلوكياته وتصـرفـاته وإرادته. وأظن أن تجـربة الشهور الأخيرة ترجح أن المثقف العربى يواجـه صـعـوبات أكثر مما توقـعنا فى محاولته قيادة عمليتى التغيير والإصلاح. والسـبب يعـود إلى هذه الشـبكة من العـلاقـات التى يقـيـمـهـا مع السلطة السـيـاسـيـة. ربما يبدو أن الدعـوة التى

تصدى لنشرها عدد من المثقفين لإقناع زملاء لهم بتجسير الفجوة بين المثقف والسلطة. تتراجع لصالح نداء بالعودة عن هذه الدعوة والسعى لتوسيع المسافة الفاصلة بين السلطة والمثقف، إذا صدقت النوايا فى الإصلاح.

***

على امتداد نصف القرن الثانى كانت الحرية طرفا فى ثنائية ثالثة: ثنائية الحرية مقابل الغذاء والملبس والتعليم والتوظيف. لقد عقد أكثر من نظام سياسى عربى مع مواطنيه ما يشبه العقد الذى يسمح له «باستعارة» الجانب الأعظم من حرية المواطن مقابل أن تضمن له الحكومة حدا أدنى من ضرورات الحياة يسمح له بأن يحافظ على حد أدنى من الكرامة. والقوة القاهرة بأدوات القمع والإقناع معا. ولكن يبدو أن بعض معالم عقد جديد تلوح بالتدريج. وبناء على التجربة الأمريكية وتجارب أخرى فى الغرب نستطيع أن نتصور أن العقد الجديد سوف يسمح للدولة العربية بأن تعود لتستعير نفس الجانب الأعظم من الحرية الذى كانت تستعيره من المواطن فى عقدى الخمسينيات والستينيات وبعض السبعينيات مقابل غذائه وملبسه وتعليمه وتوظيفه. ولكن هذه المرة فى مقابل أمنه وأمن الدولة.

أصبح لدى معظم الأنظمة الحاكمة العربية والإسلامية المبرر الدولى لتستمر فى تكبيل حريات المواطنين، أو الزيادة فيه. فالدولة الأعظم حاملة رسالة نشر الديمقراطية وحرية الإنسان والحقوق الإنسانية تعلن بصوتها، وهو الأعلى فى العالم، أن ظروفا استثنائية جعلتها تتراجع عن بعض مبادئ هذه الديمقراطية وهذه الحقوق الأساسية من أجل هدف لا يقل سموا ورفعة وهو أمن المواطن الأمريكى. لقد وجدت أمريكا نفسها فى تناقض يتعين عليها حله. كانت قد قررت قبل شن الحرب على الإرهاب إحداث تغيير جذرى فى الشرق الأوسط. قررت أن يتم التغيير عن طريق إجبار حكومات العالمين العربى والإسلامى على تقليص نفوذها داخل مجتمعاتها . والسماح بمساحة واسعة من حرية المجتمع والمواطن. ودمج القوى الهامشية والعرقية والطائفية فى العمل السياسى. وتغيير القوانين لصالح دولة أقل قوة ومواطن ومجتمع اقل ضعفا. ثم وقعت احداث ٩/١١. لم تتغير نية تغيير الشرق الأوسط، بل على العكس تعمقت. ولكن تغيرت الأولويات. لم تعد حرية المواطن وتقليص سلطة الدولة تتصدر قائمة التغيير فى دول الشرق الأوسط. إلا أن هذا التغيير فى الأولويات لم يصل الى وعى الفرد إلا بعد ان كان قد رسخ

فى وعيه حقه فى الحرية الفردية والسياسية فى مواجهة السلطة السياسية. هذا الفرد لم تصل اليه بعد تفاصيل الانباء عن القوانين والتشريعات التى صدرت فى الولايات المتحدة لتقييد حرية المواطن وزيادة قوة الدولة، وخصوصا سلطات الأمن. ولكن وصل وبالسرعة الواجبة الى علم المسئولين فى العالم العربى والإسلامى أن أمريكا غيرت الاتجاه وها هى تقدم نموذجا للعلاقة بين السلطة والمواطن فى ظل حالة حرب طويلة مع الإرهاب، ولما كانت معظم دول الشرق الأوسط تعيش او تزعم انها تعيش حال إرهاب ممتد فقد وجدت الخلاص فى هذا النموذج وشجعتها اسباب منها اولا، عودة مفهوم اولوية الأمن فى ثنائية جديدة من اجل ضمان استمرار تسلط الدولة. ثانيا ان الامن صار مطلبا دوليا وليس فقط هدفا للسلطة او هدفا للمواطن. بمعنى اخر اصبحت مبادلة الامن بالحرية مطلوبة ومقبولة دوليا ايا كانت الإجراءات التى ستتخذها الدولة لتقييد حرية المواطن فى سبيل تحقيق الأمن. ثالثا وهو الأهم ان الأمن قدرة وكفاءة وامكانية يسهل توفيرها بآليات وتقنيات منها الامكانات البشرية والاتصالات الحديثة وقوانين الطوارىء والتشريعات على عكس الغذاء والمسكن والتعليم والصحة وغيرها من المطالب الشعبية التى عجزت دول العالم الثالث عن توفيرها بشكل مرض للمواطنين.

تحديات كثيرة تنتظر الإنسان العربى عامة والمثقف خصوصا، اخترنا ثلاثا منها تلخص بشكل ما الخيارات المطروحة عليه والضاغطة بشدة فى انتظار مواقف بشأنها، فى حال استمر المثقف على التزامه العمل لإحداث التغيير نحو مستقبل افضل من الحاضر. يتعين عليه اولا ان يتخذ موقفا من التطرف فى استدعاء الماضى وتقديس الحاضر والانغماس فى الهروب نحو المستقبل. ويتعين عليه ثانيا ان يتخذ موقفا من سعى المثقف الى الاندماج فى السلطة ومن النضال من اجل استعادة الفجوة الضرورية التى كانت تفصل بين السلطة والمثقف. وان يجيب على السؤال، هل كان تجسير الفجوة لصالح الوطن والتغيير والمستقبل، ام لصالح اقلية من المثقفين واهل السلطة؟

ويتعين عليه ثالثا ان يحدد لنفسه موقفا من آخر محاولة لإرجاء الحرية، متذكرا أنه كان طرفا مشاركا فى صنع العقد السابق حين سحبت الدولة منه جانبا عظيما من حريته وقدمت له فى المقابل غذاء وكساء ووظيفة. ■

الإرهاب

هذا الاختراع المدهش!

بقلم
د. جلال أمين

ياله من اختراع عظيم. إنه ليس جهازاً جديداً للاتصالات، كالراديو أو التليفزيون، ولا وسيلة سريعة من وسائل الانتقال، كالقطار أو الطائرة، ولا نوعاً جديداً من الأسلحة. بل هو فكرة، بل الأدق أنه مجرد «كلمة». ولكن هذه الكلمة يمكن عن طريقها تعبئة الجيوش، وترويج السلع، وتخفيض البطالة، وتوحيد فئات الأمة المتفرقة، وانجاح حزب أو مرشح معين دون غيره في الانتخابات، وتبرير حملات استعمارية جديدة.. الخ.

لا يمكن أن يكون صاحب الاختراع شخصاً واحداً، ولا هيئة بعينها، لأن هذا الاختراع يحتاج إلي تعاون أشخاص من تخصصات مختلفة وذوى مواهب متعددة. يحتاج إلى متخصصين ومتبحرين فى علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد واللغويات وعلم النفس، وعلى الأخص فى كيفية عمل العقل البشرى، وهذا عالم غريب ملىء بالأسرار والمتناقضات.

لابد أن الفكرة بدأت باكتشاف أن هناك حاجة ماسة لتخويف الناس. كان هذا الاكتشاف وحده اكتشافاً عبقرياً، إذ ليس من السهل أن نتبين لأول وهلة الفوائد العظيمة التى يمكن تحقيقها من وراء ذلك. الخوف يوحد بين الناس، ويلهيهم عن المعارضة، ويجعلهم أسهل قياداً، ويضعف من قدرتهم على استيعاب البديهيات أو إدراك التناقض بين الأقوال والشعارات، ويجعلهم أكثر استعداداً لقبول الأوامر والتنازل عن الكثير من حرياتهم.

وليس هناك شىء أقوى أثراً وأشد فعالية فى تحقيق كل هذه الأمور من الخوف من الموت.. فعندما تكون حياتنا أو حياة أولادنا معرضة للخطر يمكن أن نفعل كل ما يطلب منا وأن نتغاضى عن أشياء لم يكن يخطر ببالنا من قبل التغاضى عنها. راقب مثلا تصرف ركاب قطار إذا صاح أحدهم بأنه وجد قنبلة تحت أحد المقاعد. لن يخطر ببال أحد أن يفكر فى درجة احتمال الصدق أو الكذب فى هذه المقولة، أو فيما إذا كان قائلها جديراً بالثقة أو غير جدير بها، أو أن يتساءل عن النفع الذى يمكن أن يعود على أى شخص من وضع قنبلة فى هذا القطار.. الخ. المهم هو النجاة، ومن الممكن فى هذه الظروف أن يتحول أى راكب فى القطار إلى زعيم يصدر الأوامر إلى بقية الركاب بما يجب عليهم أن يصنعوه.

سياسة التخويف

ان إدراك الزعماء السياسيين للفوائد التى يمكن أن يجنوها من تخويف رعاياهم، قديم بالطبع، ولابد أنه استخدم من قديم الزمان من جانب الزعماء الديكتاتوريين والديمقراطيين على السواء، وزاد استخدامه فى القرن العشرين فى الاتحاد السوفييتى، وعلى الأخص فى عهد ستالين، وفى ألمانيا وإيطاليا على

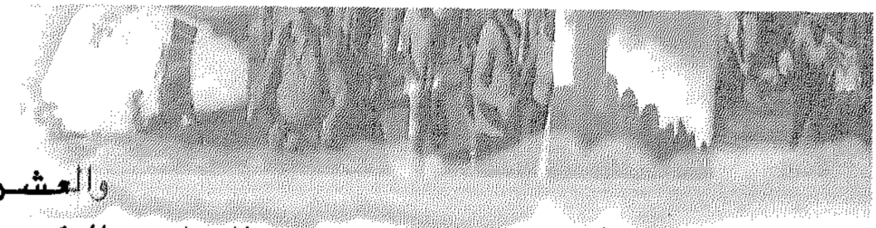

يد هتلر وموسوليني، وفي بريطانيا على يد تشرشل، وفي الولايات المتحدة على يد روزفلت، فخوف ستالين شعبه من الرأسمالية، وخوف تشرشل وروزفلت شعبيهما من الشيوعية، وخوف هتلر وموسوليني شعبيهما من الشيوعية والرأسمالية على السواء. وقد استمر هذا التخويف المتبادل بين الرأسمالية والشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية، لفترة كادت تقرب من نصف قرن، خلال ما سمي بالحرب الباردة، ولكن بسقوط النظام الشيوعي في دولة بعد أخرى منذ أواخر الثمانينات، كان لابد من العثور على مصدر جديد لتخويف الناس. بل لابد أن البحث عن هذا المصدر الجديد قد بدأ حتى قبل سقوط الشيوعية، إذ أن الأمر يحتاج إلى وقت، وقد يفقد مصداقيته ويصبح مفضوحاً إذا استبدل سبب التخويف بآخر بين يوم وليلة. كان لابد من بدء العمل على تنمية مصدر جديد لتخويف الناس منذ بدأ عصر الوفاق بين المعسكرين في أواخر الستينات، وقد أخذ الترويج لهذا المصدر الجديد، شيئا فشيئا، خلال السبعينات والثمانينات، وأعلن رسميا أنه هو مصدر الخوف الرئيسي خلال التسعينات، ولم يبدأ القرن الواحد والعشرون حتى أصبح هو المصدر الرئيسي للخوف لدى الجميع، والمحور الجديد للسياسة الخارجية والداخلية على السواء. وهذا هو «الإرهاب».

***

لابد أن نلاحظ كم كان اختيار الاسم موفقاً. فكلمة «الإرهاب»، بعكس كلمة الشيوعية مثلاً أو الرأسمالية، أو النازية أو الفاشية، لا تشير إلى مصدر الخطر، ولا تصف طبيعته أو مكوناته، بل تشير فقط إلى نتيجته وهي التخويف. إنها لا تشير إلى سبب الخوف بل إلى أثر من آثاره. ويتضح هذا من مقارنة هاتين العبارتين: «الشيوعية مخيفة» و«الإرهاب مخيف». فالعبارة الأولى عبارة ذات معنى ولها مبتدأ وخبر يصف مبتدأها، أما العبارة الثانية فلا تقول شيئاً على الإطلاق، إذ أن الخبر (مخيف) لا يضيف شيئاً إلى المبتدأ (الإرهاب)، فكلاهما لهما معنى واحد، وكأنك تقول «الشيء المخيف مخيف».

كذلك فإنك إذ تشير إلى شخص بأنه «إرهابي» لا تخبرنا بشيء عن سبب الخوف منه أو عن عقيدته أو مصدر أفكاره أو عن صفاته الشخصية، أو نوع الأعمال التي يقوم بها، إنك فقط تشير إلى أثر هذه الأعمال وهو إثارة الخوف والرعب. وكأنك بدلاً من أن تقول إن تحت

المقعد قنبلة أو بندقية أو سكين حاد، تقول إن تحت المقعد شيء «مميت».

كلمة عبقرية

أقول إن اختيار هذا الاسم الجديد (الإرهاب) للتخويف، كان موفقاً، لهذا السبب بالضبط، أى عموميته وخلوه من المضمون، ومن ثم إمكانية استعماله فى ظروف متباينة جداً ولوصف حالات لا يجمع بينها شيء إلا الرغبة فى إثارة الخوف منها. وكأن الفرق بين هذا الاختراع الجديد (الإرهاب) والمصادر القديمة لإثارة الرعب (الشيوعية، الفاشية، النازية.. الخ). هو كالفرق بين التليفون المحمول والتليفون الثابت فى مكانه بلا حراك. «الإرهاب»، كالتليفون المحمول، يمكن استخدامه للوصول إلى أى شخص فى أى مكان، وتغيير طريقة استخدامه لمواجهة أى احتياجات جديدة. «فالإرهابى» يمكن أن يكون فى أفغانستان أو العراق أو لبنان، طبقاً للحاجة، ويمكن أن يكون عربياً أو روسياً أو إسبانياً، حسب الدولة المراد إخافتها، ويمكن أن يستخدم قنبلة لتفجير طائرة، أو سكيناً (أو حتى مقصا) لتهديد ركابها، أو بودرة قاتلة فى خطاب لتخويف الأمريكيين.. الخ. والإرهابى يمكن أن يكون شخصاً واحداً يعمل بوحى من نفسه وحدها، ويمكن أن يكون تنظيماً سياسياً أو دينياً، كما يمكن أن يكون دولة بأكملها تعمل بالاتفاق مع شخص أو تنظيم إرهابى. وفى هذه الحالة تسمى دولة «مارقة» وهو وصف لا يختلف كثيراً عن وصف «الإرهابى»، إذ لا يعنى المروق أكثر من أنها دولة غير مرضى عنها، أيا كان سبب عدم الرضا.

والإرهابى قد يكون فقيراً معدماً أو ثرياً ثراء فاحشاً، مجرماً بطبعه أو متديناً ورعا أو وطنياً متعصباً، فالمهم ليس طبيعة الدافع الذى أدى به إلى العمل الإرهابى، بل فقط أثر هذا العمل فى الناس. والفقير المعدم قد يكون مخيفاً مثل الثرى واسع الثراء، والمتدين قد يتحول إلى مجرم والعكس صحيح أيضاً. أنظر إلى أسامة بن لادن مثلاً، لقد بدأ حياته شاباً لاهياً يتعقب النساء الجميلات فى ملاهى بيروت، ثم انتهى إلى كهف فى أحد جبال أفغانستان أو باكستان أو إيران. وبدأ حياته بالعمل لصالح الأمريكان ضد الروس، ثم تحول إلى العمل لصالح الفلسطينيين ضد الأمريكان. هو وأسرته واسعو الثراء لدرجة الدخول فى علاقات مالية وثيقة مع أسرة الرئيس الأمريكى بوش، ولكنه قانع الآن بكسرة خبز وكمية من البلح فى مخبئه المجهول. وقل مثل هذا عن صدام حسين الذى بدأ حياته صديقاً مقرباً إلى الأمريكيين،

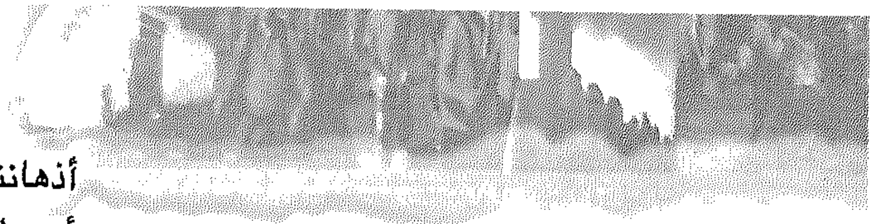

يعاملونه باحترام بالغ ويشيدون بفضله ويغرقونه بالمعونات والأسلحة، ثم تحول فجأة إلى عدو لدود لهم يصفونه بالوحشية ويمطرونه بالقنابل.

قد تبدو هذه المتناقضات مستعصية على التصديق مما ينفر منه عقل أى شخص بالغ رشيد، ولكن الحقيقة أننا نبالغ بشدة فى درجة العقلانية التى يتمتع بها حتى أكثر الناس ذكاء والمعية، ونقلل بشدة من قدرتنا على الجمع فى الوقت نفسه بين المتناقضات. نحن نظن أن الأطفال فقط أو المعتوهين هم الذين يمكن أن يجمعوا فى عقولهم الصغيرة بين الأشياء المتناقضة، كتصور عملاق ضخم يطير فى الهواء، أو يدخل فى قمقم صغير ثم يخرج منه، أو ساحر شرير يقوم بتحويل فتيات جميلات إلى بجع، أو ساحرة طيبة تقوم بتحويل مكنسة إلى عربة وحصانين.. الخ. ولكن الحقيقة التى لابد أن نعترف بها أننا جميعاً، حتى الكبار والعقلاء منا، يصدقون مثل هذه الأشياء طول الوقت. إنى لا أقصد فقط استعداد الكبار والعقلاء منا إلى الاستماع إلى هذه القصص باستمتاع حقيقى والاستغراق فى أحداثها، بل أقصد استعدادنا المستمر لاستبقاء المتناقضات فى أذهاننا ولتصديق ما لا يستقيم مع أبسط قواعد المنطق. خذ مثلاً استعدادنا لتصديق أن الرئيس بوش قد اتخذ قراراً خطيراً مثل قرار غزو العراق، مع اعتقادنا فى الوقت نفسه بأنه رجل محدود القدرات العقلية لدرجة تدعو إلى الرثاء أحياناً أو السخرية أحياناً أخرى، أو استعدادنا لتصديق أن رئيس وزراء بريطانيا قرر التدخل إلى جانب الولايات المتحدة بإرسال قوات بريطانية إلى العراق من أجل «انقاذ العراقيين من حكم ديكتاتورى» ، مع أن التاريخ السياسى كله يدل على أن تدخل دولة فى شئون دولة أخرى أو شن حرب عليها لا يتم أبداً بناء على دوافع التعاطف الإنسانى أو المحبة بل بناء على دوافع من نوع مختلف تماماً. كذلك قبل الأمريكيون وغيرهم تلك المقولة التى كان يظن أن من المستحيل تصديقها وهى أن العقيد القذافى، رئيس ليبيا، يشكل خطراً على أقوى دولة فى العالم، حتى تبين فيما بعد أن من أسهل الأمور إخضاعه أو دفعه دفعاً إلى أن يشيد بفضل أمريكا على العالم، أو تصديق أن صدام حسين كان بدوره يشكل خطراً على العالم، لامتلاكه أسلحة مخيفة لتدمير العالم تدميراً شاملاً، قبل أن يعلن أن هناك خطأ صغيرا

ارتكبته إحدى هيئات المخابرات أدى إلى تصديق هذا الأمر الفظيع.

الإقناع بالفكرة

لابد إذن أن العقل الإنساني يعمل بشكل مختلف جدا عما نظن، أو على الأقل عما يظن أكثرنا، وأن الحقيقة أن من أسهل الأمور إقناع الناس بكذبة كبيرة، من نوع تهديد «الإرهاب» لأمن وسلامة أقوى الدول، ولأمن وسلامة الناس في كل مكان في العالم، متى اتخذت بالطبع الخطوات والإجراءات اللازمة لذلك. فماهى هذه الخطوات والإجراءات اللازمة؟

أبسط هذه الإجراءات بالطبع هى «التكرار» . ولكننا يجب ألا نستهين بأهمية هذا التكرار، أى الإلحاح المستمر وبلا انقطاع على وجود شيء اسمه «الإرهاب». ذلك أن هناك ، فيما يبدو، ميلا غريبا لدى العقل الإنساني للاعتقاد بوجود شيء ما، وجودا حقيقيا، طالما أنه توجد كلمة تدل عليه. فاذا قلت مثلا إن «الإرهاب شيء فظيع»، فأنت لا تصف فقط الإرهاب بالفظاعة، بل تقول أيضا إن الإرهاب شيء موجود، وتنفى أنه مجرد اختراع يراد به تضليل الناس. واذا قلت إن معظم الإرهابيين مسلمون» فأنت لا تقول فقط شيئا سيئا عن المسلمين بل تقرر أيضا أن «الإرهاب» شيء واقع ولاشك فى وجوده. فإذا تكرر مرور مثل هذه العبارات بالأسماع أصبح من الصعب إنكار وجود الإرهاب، وانتقل عبء الاثبات من القائل بوجود الإرهاب إلى من يزعم بأنه غير موجود وأنه مجرد اختراع.

فما بالك إذا كان هذا التكرار يأتى عن طريق مختلف وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية؟ إن هذه الوسائل تكتسب مصداقية إضافية من طبيعة الجهاز الذى تستخدمه.. ذلك أن للتكنولوجيا الحديثة سحرا وجاذبية مستمرين على الأرجح من جهل معظمنا بالطريقة التى تعمل بها، ويضيفيان على ما تحمله من أخبار وتقاير مصداقية قد تفوق بكثير ما لها فى الحقيقة. هكذا ظلت للكتب المطبوعة بوسائل الطباعة الميكانيكية ، فترة طويلة بعد حلولها محل الكتب المنسوخة باليد، ومازالت لها حتى الآن، مصداقية تفوق مصداقية ما كتب باليد، لمجرد أنها مرت من خلال آلات الطباعة.

وقل مثل هذا على ما ينقل عن طريق الإذاعة والتليفزيون، وكأن الأجهزة المستخدمة فى هذه الوسائل من وسائل الإعلام، لمجرد كونها تعمل «أوتوماتيكيا» ، قد أصبحت «محايدة» لا تخضع لأهواء الإنسان وتحيزاته ومن ثم أكثر «موضوعية».

أضف إلى ذلك ما للجماهيرية من أثر فى إضفاء المزيد من المصداقية

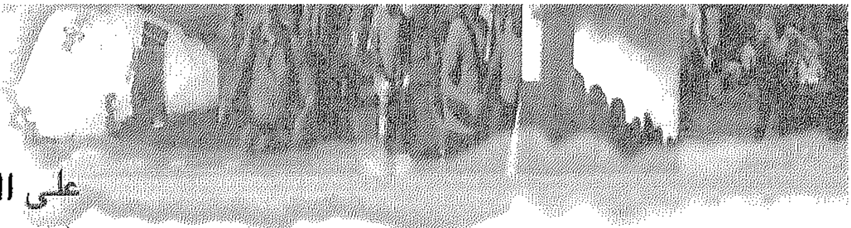

على ما تحمله الكتب أو الصحف أو الراديو أو التليفزيون من أخبار وتقارير فهذه كلها تصل إلى أنظار وأسماع الملايين من الناس فى الوقت نفسه، ومن مختلف الأجناس والألوان وفى مختلف الدول ، فهل يعقل أن يكون ذلك الخبر الذى يلقى على هذه الأعداد الغفيرة من الناس خبرا مخترعا ومغشوشا؟ ولنفرض أنه كذلك ، فهل يعقل أن كل هذه الأعداد الغفيرة من الناس التى صدقت الخبر وآمنت بصحته، مخطئة ومخدوعة، وأنا وحدى الذى على صواب؟

مجرد تكرار الخبر وانتشاره كافيان إذن لإضفاء المصداقية عليه. ولكن هناك أشياء كثيرة أخرى تضمن لمثل هذه الاختراعات والأكاذيب قبولا عاما. فيبدو مثلا أن الإنسان على استعداد لتصديق كذبة تتعلق بشىء يرغب فيه بشدة أو يخاف منه بشدة أكثر من استعداده لتصديق كذبة لا تتعلق بهذا أو بذاك . لهذا السبب ، فيما يبدو ، نحن على استعداد لأن نصدق بسهولة عبارات النفاق الكاذبة التى يوجهها إلينا البعض حتى ولو كانت غير معقولة او شديدة البعد عن الواقع، كأن يصف شخص صديقا له بأنه أعظم رجل صادفه فى حياته أو أن يصف ناقد كتابا بأنه أفضل كتاب من نوعه. فما اسهل على الصديق أو على الكاتب الممدوح أن يصدق ما يقال له وما أقل استعداد أى منهما لتمحيص هذا القول أو ذاك للتحقق من مدى مصداقيته . كذلك يبدو استعدادنا كبيرا لتصديق ما يتفق مع خوفنا المستطير من أى شىء يهدد حياتنا أو حياة أولادنا. وفى الأمثلة الشعبية «من يخف العفريت يطلع له»، وهو قريب من القول بأن من يخف العفريت يصدق بسهولة وجود العفريت بالقرب منه، وأننا جميعا. من حيث إننا نخاف الموت. يسهل علينا تصديق وجود «الإرهاب».

هذا هو ، على الأرجح، أهم سبب لهذا التغير الفظيع الذى طرأ على سلوك شعب كالشعب الانجليزى، إزاء ما يمنحونه من حرية لأطفالهم فى الخروج بمفردهم إلى الشارع وفى مخاطبة الغرباء والتعامل معهم. فالإحصاءات تدل على أن الحوادث التى يتعرض لها الأطفال الانجليز . كالخطف والاعتداء الجنسى، لم تزد نسبتها فى العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة عما كانت قبل ذلك، ومع ذلك تغير سلوك الانجليز إزاء أطفالهم من هذه الناحية تغيرا ملحوظا، ففرضوا عليهم سياجا أشد من الحماية وأصبحوا دائمى التحذير لهم من الثقة فى الغرباء بل وأحيانا فى الأقرباء، وذلك استجابة لما تكرر على أسماعهم من أخبار الخطف والاعتداء

التي أصبحت وسائل الإعلام لا تكف عن ترديدها ووصف تفاصيلها.

هناك أيضا شخصية صاحب الاختراع أو الأكذوبة. فمن السهل علينا أن نهمل ما يقوله لنا رجل عليه كل سمات الهوس أو الجنون أو رجل اشتهر بالنصب والاحتيال، ولكن ما بالك برئيس للجمهورية أو رئيس للوزراء، أو زعيم سياسى ذى شعبية كبيرة أو رجل شهير من رجال الدين، أو صحفى فذ أو كاتب موهوب؟ ما بالك لو قال أحد من هؤلاء شيئا، ودأب على تكراره، مما قد يصعب تصديقه عادة ولا يتفق مع ابسط قواعد المنطق أو دروس التاريخ؟ ثم ما بالك لو صدر الخبر نفسه من هؤلاء جميعا فى الوقت نفسه؟ تذكره أولا صحيفة عادية ثم صحيفة محترمة، ثم يؤكد صحته رئيس للجمهورية ورئيس للوزراء، ثم يكرره رجل دين شهير ويوافق عليه كاتب موهوب، ويستمر التأكيد والتكرار يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر. من الذى يمكنه بعد هذا أن يثير أى شك فى صحة الخبر؟

الكذب الكبير

وقديما قيل لنا إن من الأسهل على الكاذب أن يخدع الناس بكذبة كبيرة من أن يخدعهم بكذبة صغيرة. وسبب ذلك أن الكذبة الكبيرة تحتاج من صاحبها إلى جرأة أكبر وخيال أوسع، وكلا الأمرين أكثر ندرة بالطبع ومن ثم فإننا أكثر استعدادا لافتراض الصدق فى حالة الكذبة الكبيرة. ذكرنى هذا بما كان يقوله لى بعض تلاميذى المحتالين، لمحاولة التخلص من الجلوس للامتحان فى موعده وطمعا فى تأجيله، بأن يزعم أحدهم بأن أحد أقربائه قد توفى فجأة وأن عليه التغيب عن الامتحان. كنت أشك على الفور إذا كان المتوفى المزعوم عما أو خالا أو جدا أو جدة، ولكنى كنت أكثر استعدادا لتصديق التلميذ إذا زعم أن المتوفى أبوه أو أمه، إذ أقول لنفسى: «هل يعقل أن يتجرأ على اختراع هذه الكذبة الكبيرة جدا؟».

فإذا كانت الكذبة الكبيرة تتضمن إضرارا بشخص قائلها فالاستعداد لتصديقها يكون بالضرورة أكبر، لأن احتمال قيام شخص بإيذاء نفسه عمدا هو بالضرورة أقل. لابد أن هذا كان سبب قيام بعض الفلاحين المصريين أيام حروب محمد على وإسماعيل خلال القرن التاسع عشر، عندما كانت نسبة القتلى والمفقودين فى الحرب عالية جدا، بإحداث عاهة مستديمة بأولادهم، كقطع إصبع اليد أو القدم، أملا فى إعفائهم من الخدمة العسكرية. ولكن تاريخ الاستعمار ملىء بالأمثلة على فظائع مماثلة،

كتضحية دولة بحياة قائد عظيم من قوادها أو عدد كبير من جنودها فى سبيل ضمان استتباب الأمر لها فى البلد المستعمر، وهناك أمثلة كثيرة أيضا على تضحية دولة كبيرة بعدد من الأبرياء من أفراد شعبها وإلقاء التهمة على عدو يراد تبرير شن الحرب عليه أو اتخاذ إجراءات قاسية ضد رعاياه. الكذبة فى هذه الحالة كبيرة جدا ولكنها لهذا السبب نفسه تجد عددا أكبر من المصدقين. كان هذا، فيما اعتقد، هو سبب استعداد معظم الناس لتصديق الروايات والتصريحات الرسمية التى قيلت عما وقع فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكان هذا هو السبب فى رأيى فى موقف صديق لى، هو أيضا كاتب شهير ويتصف بقدر كبير من الحكمة واستقلال الرأى، إذ استغرب بشدة ما قلته له عن رأيى فى حقيقة أحداث ١١ سبتمبر كان رده «وهل هذا معقول؟» أن تصل بهم الجرأة والاستعداد للتضحية بحياة هذه الآلاف المؤلفة من الأبرياء ، لتحقيق أغراض بهذه الدرجة من الحقارة؟» قلت فى نفسى: «ها هو ذا رجل آخر، كان من المفروض ألا يصدق هذه الكذبة الكبيرة ولكنه صدقها».

***

ولكن بصرف النظر عن العوامل الدافعة إلى تصديق ما لا يستحق التصديق، هناك طبعا الفوائد الأكيدة التى يجلبها تصديق ما يقوله كبار الناس وعظماؤهم، ومناصرتهم وتأييدهم، فضلا عن فوائد السير مع التيار وعدم مخالفة ما أجمع الناس عليه. بهذا يمكن تفسير جزء كبير مما يكتبه الصحفيون والمعلقون على الإرهاب والإرهابيين . فعندما يكون الإرهاب والإرهابيون موضوع الساعة والشغل الشاغل للناس، لا يوجد شىء أكثر ضمانا لنشر ما تكتب ولتلقى الدعوات المستمرة للحديث فى الندوات والمؤتمرات واللقاءات التليفزيونية من أن تأتى فى كلامك بشىء عن أخطار الإرهاب وفظائعه، أو عن أسبابه النفسية والاجتماعية وجذوره التاريخية.

وكما أن هناك فوائد جمة من ترديد ما يقوله الجميع، فهناك أضرار محققة من مخالفتهم ، خاصة أن هناك أساليب معينة ثبتت فعاليتها فى تخويف الكتاب والمعلقين من عدم الاستسلام للخوف. فى مقدمة هذه الأساليب وصف كل من يقاوم هذا التيار العام بأنه ينتمى إلى المؤمنين بـ «نظرية المؤامرة» ومن المفيد ان تلاحظ الشبه بين استخدامات فكرة «الإرهاب» واستخدامات نظرية المؤامرة. فكل منهما تعبير غامض غير محدد ، يستخدم لوصف حالات

متباينة أشد التباين لتحقيق غرض واحد وهو التخويف، وإن كان التخويف فى الحالة الأولى (الإرهاب) من الموت والدمار، والتخويف فى الحالة الثانية (نظرية المؤامرة) من استهزاء الناس واحتقارهم. فأى شك فيما يقدم من تفسيرات رسمية لما يحدث يصنف على أنه ينتمى إلى «نظرية المؤامرة» ، مع أن قراءة التاريخ السياسى ، خاصة التاريخ الحديث، وبالذات التاريخ الحديث جدا، يقدم لنا أمثلة لا نهائية على تعارض ما تقوله التصريحات الرسمية ووسائل الإعلام مع أبسط قواعد المنطق، وعلى عادة السياسيين فى أن يقولوا شيئا اليوم ليقولوا عكسه غدا. فإذا عبر أحد عن شكه فى صحة ما يقوله السياسى اليوم أو غدا قيل باستهزاء هذه نظرية المؤامرة وهو وصف ثبتت فعاليته فى إسكات اكثر الناس شجاعة وتسخيف أقوى الناس حجة، إذ إنه يحمل معنى يتجاوز بكثير مجرد الاتهام بالخطأ فى التحليل أو التسرع فى الحكم وينطوى على اتهام بالهلوسة والاستسلام للخيالات والأوهام. وقد وصل تخويف الكتاب والمعلقين من أن يتهموا بالايمان بنظرية المؤامرة إلى حد إحجام الكثيرين من أفضل الكتاب وأكثرهم جرأة عن البوح بكل ما يدور فى أذهانهم من شكوك. كالاكتفاء مثلا فى تعليقهم على أحداث ١١ سبتمبر بالقول بأن هذه الأحداث كانت «فرصة ذهبية» اقتنصتها الإدارة الأمريكية لتنفيذ مخطط شيطانى كان قد وضع قبل ١١ سبتمبر بسنوات، لتحقيق أغراض بعيدة المدى تتعلق بالنفط والسيطرة على مناطق مختلفة من العالم. المخطط إذن شيطانى، ولكن الشيطان كان عليه، ويا للغرابة، الانتظار حتى تتاح له فرصة ذهبية لتنفيذه، ذلك أن الزعم بأكثر من ذلك من شأنه أن يعرض المرء لذلك الاتهام الخطير وهو الايمان بنظرية المؤامرة!

لم يجد بعض الكتاب طريقة أخرى للتعبير عن شكوكهم من دون التعرض لاتهام «نظرية المؤامرة» الا الاستعاضة عن كتابة التحليلات والتعليقات السياسية بكتابة قصة او رواية خيالية يضع فيها الكاتب كل ما يعتقد فى وجوده بالفعل، من مخططات شيطانية ومؤامرات. ولكنه يستطيع عند اللزوم ان يقول «هذه مجرد قصة خيالية» او ان يكتب فى مقدمة الرواية ان كل شخصيات الرواية من صنع الخيال وأى شبه بينها وبين السياسيين القائمين بالحكم فى الوقت الحاضر هو مجرد مصادفة بحتة.

من يكسب [illegible]؟

بقلم
مصطفى نبيل

نجح التطور المذهل، الذى حدث فى ثورة الاتصالات والمعلومات، فى إلغاء فواصل المسافات، وظلت الأزمان كما هى، نجح فى تخطى المسافات، وتوقف الزمن، وكأنه لايمضى إلى الأمام، وعدنا إلى شريعة الغاب.

فمازال الصراع الدموى والوحشي قائما، وأضيف إليه صراع آخر لغزو العقول، واحتلال الأدمغة!..

وفشل الإنسان فى حل خلافاته بالحوار .

• إلغاء المسافات وعودة الزمن إلى الوراء!

• ثورة المعلومات صاحبتها ثورة فنون الخداع!

صاحب ثورة الاتصالات والمعلومات، تطور مواز لفنون الخداع والتضليل فى وسائل الإعلام الأمريكية.

ويصاحب الإنفاق الضخم على الجيوش الجرارة، إنفاق آخر من أجل السيطرة على العقول، والتأثير على الرأى العام، من أجل ضمان سيطرة السلطة الأمريكية فى الداخل، وفرض الهيمنة الإمبراطورية فى الخارج.

هذا بعد تزايد تأثير الرأى العام فى مسار الأحداث والسياسات المحلية والدولية، وفى تصورهم أن هذا الجهد الضخم يمكن أن يؤدى إلى نجاح الخداع والتضليل وقبول ما لا يقبل.

لذا لم يكن أمام وسائل الإعلام الأمريكية والإسرائيلية ومن يدور فى فلكهما، سوى أن توغل فى خلط الأوراق وخداع الرأى العام وتطوير فنون غسيل المخ!

ولم تتوقف «الميديا الأمريكية» لحظة عن التحريف والتلفيق ووضع السم فى العسل، فالسيطرة على البشر لا تكون بالقوة المادية وحدها، بل بالسيطرة على العقول والتلاعب بها، فمهما بلغ جبروت القوة المادية التى يمكن استخدامها ضد شعب ما، فلا يمكن أن تحقق أهدافها إلا إذا نجحت فى الوصول إلى أعماق ووجدان الناس، وأصبحت أهداف هذه القوة المادية تبدو مقبولة على الأقل لأولئك الذين يُرمى إلى خضوعهم، ومن هنا تصبح وسائل الاتصال أهم أدوات أصحاب القرار الجالسين على قمة السلطة، وأكثرها أهمية.

وهذا ما يفسر الأموال التى تنفق، والندوات التى تعقد ، والفضائيات التى تقام والحيرة بين تلك التى تعمل بالوكالة وغير المباشرة، وتلك التى تعمل مباشرة مثل «سوا» و«الحرة» وغيرهما.

فللرأى العام دور ملموس فى تحديد مواقفها وسلوكها، ويتصور الذين يخططون من أجل الخداع وتغيير المعتقدات والآراء، أن ذلك قابل للتحقيق بالإعلام الذى يمارس بمهارة ومراوغة كبيرة.

ويأتى تطور فنون الخداع والتضليل فى الولايات المتحدة، لأنه لا توجد بها قيود على حرية التعبير، فكان من الضرورى أن يتطور فن الخداع وأن يصل إلى مستوى عال من الكفاءة وفعالية الوسائل التى يمكن أن تستخدمها لتقييد حرية التفكير، وفى

هذه الفنون تتركز أداة الحكم والسيطرة.

وتهدف وسائل الإعلام إلى التأثير وبقاء سيطرة الأقلية التى تلعب دوراً فى اتخاذ القرارات، الذين يشكلون نسبة قليلة لاتتجاوز فى المجتمع الأمريكى خمس السكان أما بقيةالأهالى، فيصفهم والتر ليبمان ساخراً.. «قطيع الدهماء المشغول والمذهول».. وعلى هؤلاء الاقتناع والالتزام بالنظام، وهؤلاء هم الهدف لوسائل الإعلام الجماهيرية، التى عليها الإبقاء على القطيع من العامة فى انشغاله وذهوله!».

وليس غريبا إدراك عدد من الباحثين خطورة التلاعب بالعقول، وتأثيره المدمر على السياسات القائمة وعلى مستقبل الديمقراطية، خاصة أن النظام الإعلامى الدولى القائم اليوم، والذى تشكلت بالفعل ملامحه، يبعد عن الإعلام المتوازى والعادل، فهو يعكس سيطرة وهيمنة القطب الواحد الأمريكى.

وقد دفع مختار أمبو مدير منظمة اليونسكو الأسبق منصبه عند محاولة مجابهة هذه الهيمنة، وعندما طالب بنظام إعلامى منصف.

وصحيح وجود مراكز دولية إعلامية أخرى، ولكنها تدور داخل السياق الغربى بدرجة أو أخرى.

السم فى العسل

وزادت سطوة وسائل الإعلام على العقول والتحكم فى مشاعر البشر، وبرعت فى وضع السم فى العسل.

والملاحظ مساهمة التقدم العلمى والتكنولوجى فى إحكام هذه السيطرة على عقل ووجدان المتلقى، وإلى استمرار تطوير أدوات فرض السيطرة، فقد قامت ثورة الاتصالات والمعلومات على الأرض الأمريكية، وكلما تقدمت البشرية خطوة زاحمها نقيضها، فقد اتقنت الإدارة الأمريكية استخدامها لأهدافها، وزادت السيطرة على المعلومات والصور بواسطة الأدوات التقنية الحديثة ذاتها، وكلما تقدمت هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة، ظهرت أشكال أكثر تعقيداً، فى فنون الخداع والتضليل، وهى تمثل وسيلة ناجعة للسيطرة، وخاصة عندما يكون التضليل الإعلامى هو الأداة الأساسية للهيمنة وغزو العقول، تغدو الأولوية لتنسيق وتنقيح الوسائل الفنية للتلفيق، ويجتذب هذا النوع من أنشطة التضليل أذكى المواهب.

حتى تكاد تكون مهمة «الميديا» هى تحريف وتلفيق المعلومات، بل وإخفاء بعضها «فافة الأخبار رواتها».

وكما تحركت الجيوش الأمريكية لغزو العراق، انطلقت «الميديا»، موجهة

طلقاتها، من الصور والكلمات، إلى عقول أبناء البلدان العربية والإسلامية.

ويبدو أن دور وسائل الإعلام أصبح مسلما به، عقب تدابير مختلفة وإجراءات متراكمة وطويلة، وفى منأى عن الحوار، مما أضفى الاعتياد على هذه الممارسات، سواء عن طريق التخطيط المحكم أو عن طريق العقل الجمعى الخفى الذى يهدف إلى السيطرة على الداخل والهيمنة على العالم.

ويدرك الكثير من الأمريكيين خطورة الميديا فى الداخل والخارج وأثرها على الديمقراطية وهذا رأى أحد نواب الرئيس الأمريكي السابقين.. يقول آجينو:

«الأنباء التى يتلقاها ٤٠ مليون مواطن أمريكى كل ليلة، يتحكم فيها حفنة من المسئولين فى المؤسسة التى يعملون بها، ويتم تصنيفها على يد حفنة من المعلقين، لا يأخذون إلا بما يتفق مع تحيزاتهم، وهناك اتجاه إلى احتكار وسائط الاتصال وتركيز السلطة أكثر فأكثر فى أيدى أقل فأقل، ولم يعد هناك مجال للتصديق الساذج بحياد صحفهم ومحطاتهم».

كما يقول أحد تقارير الكونجرس الأمريكي:

«إن الولايات المتحدة يمكنها أن تحقق أهدافها السياسية ومصالحها الدولية من خلال التعامل المباشر مع شعوب الدول الأجنبية بدلاً من التعامل مع الحكومات، فمن خلال وسائط الاتصال الحديثة يمكن أن نصل إلى قطاعات مؤثرة من الرأى العام، وأن نقوم بالتأثير فيهم، وتغيير اتجاهاتهم، بل يمكن فى بعض الأحيان أن ندفعهم للسير فى طريق عمل معين، بممارسة الرأى العام لدوره فى الضغط على هذه الحكومات، وقيامه بدور ملحوظ وحاسم».

وأصبحت شبكات التليفزيون والراديو والصحف والمجلات والسينما مملوكة لمجموعة من المؤسسات المشتركة والتكتلات الإعلامية، وتضطلع بدور فعال فى عملية الخداع والتضليل، حتى لقد تضخمت الإمبراطورية الإعلامية، وأخذت تواصل الاستيلاء على شركات أصغر حتى صار الأمر فى أيدى عدد محدود من إمبراطورية ضخمة. كما اعترف آجينو.

ومازال الهدف هو أن يحتكر الإعلام الأمريكى الصورة والخبر والرأى، من أجل القضاء على روح التحدى عند الشعوب وبات من الضرورى العمل على كشف بعض الوسائل التى يتمكنون خلالها من إخفاء وجودهم وحجب تأثيرهم.

زمن الخداع

يستحق رصد وكشف أساليب الخداع، الكثير من الجهد ومن الدراسات، على أمل زيادة المناعة لدى المواطن ولدى الرأى العام، وحتى تتمكن

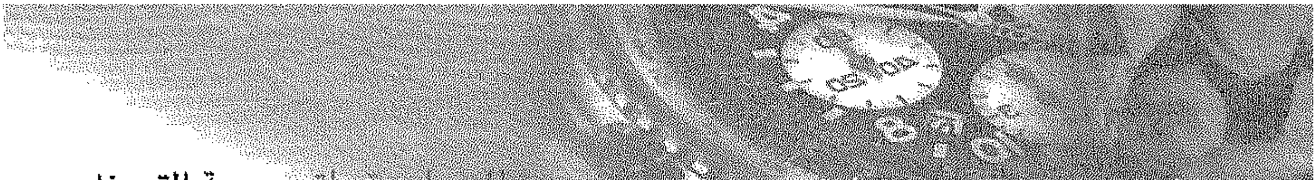

وسائل الإعلام الوطنية من مواجهة وكشف أساليب هذا التضليل.

وأورد كتاب «المتلاعبون بالعقول» لشيلر، ما لاحظه الكاتب الأمريكي جورج جيربند ونشره في مجلة «ساينتفك أميركان» أن السؤال لا يتمثل فيما إذا كانت أدوات الاتصال «الميديا» حرة، وإنما يتمثل في كيف، ولأى هدف، وعن أى طريق، وبأى نتائج تتم ممارسة عمليات التوجيه والسيطرة التى لا مندوحة منها..» وهو ما يهم من يريد أن ينقب عن الخداع وأساليبه.

ولا يطمح هذا المقال سوى إلي رصد بعض جوانب هذا الفن المراوغ، ومتابعة بعض جوانبه، وهو دعوة إلي مزيد من الجهد فى هذا المجال.

أول ما يلفت النظر هو مدى التلاعب باللغة، واصطناع مصطلحات لا تعبر عن الحقيقة، وتخفى أكثر مما تظهر، وكما يذكر أستاذ اللغويات نعوم تشومسكى.. أن مصطلحات السياسة لها معنيان، أحدهما تجده فى القاموس، والآخر هو المعنى الذى يخدم سياسة وأيدلوجية الأقوى..».

ويمضى الأستاذ الأمريكى فى جامعة إم. آى. تى.. قائلا :

استراتيجية التدخل الأمريكية، ابتكار أقنعة تخفى حقيقة أهدافها، مما اقتضى ابتكار شكل ملائم من المصطلحات ، والسعى إلى تجريد مفردات اللغة من معناها الأصلى، حتى تضع أقنعة كثيفة تخفى ما وراءها».

ويتناول تشومسكى «الإرهاب» أكثر المصطلحات خداعاً، ويروى الحكاية التالية.. «تحكى رواية القديس أوغسطين عن الإمبراطور الإسكندر الأكبر وحواره مع القرصان، يقول القرصان.. إن القتل والنهب بالجملة يسمى حربا مشروعة، ويسمى من يمارسها إمبراطوراً ، أما القتل والنهب بالتجزئة فيسمى إرهابا، ويسمى من يرتكبها قرصاناً»، أى أن ما تمارسه الولايات المتحدة فى العراق وما تمارسه إسرائيل فى فلسطين يسمى حرباً، أما ما يمارس ضد كليهما فهو «إرهاب».

وهذه إحدى صور الانحراف بالرأى العام عن طريق التلاعب باللغة من أجل تحقيق أغراض خاصة.

وإذا كانت «الميديا» الأمريكية تطلق اليوم لفظ «الإرهاب» على المقاومة، فقد سبق وسمى الاحتلال فى العصر الاستعمارى السابق «حماية»، والنهب الاستعمارى «عبء الرجل الأبيض»، وأطلق لفظ الشرق الأوسط بدلاً من البلدان العربية، والقوات متعددة الجنسيات بدلاً من القوات الغازية الأمريكية والبريطانية، على أمل إضفاء

غطاء شرعى على الغزو والاحتلال.

ومهما اختلف المنظور التقنى لوسائط الاتصال، فتظل تلعب دوراً فى إخفاء الحقيقة عندما تصاحب براءة الصياغة لؤم القصد.

وقد سبق وتناول كل من د.عبدالوهاب المسيرى والراحل د. أحمد صدقى الدجانى فى العديد من الدراسات مسألة ضبط المصطلح هذه.

وحتى يؤدى التضليل تأثيره، لابد من إضفاء مسحة من الحياد، فيكون الخداع ناجحاً عندما يلمس المتلقى هذا الحياد، فمثلا لا مانع خلال الدفاع عن سياسة الاستيطان الإسرائيلية أن تنتقد «الميديا» شخصية رئيس الوزراء الإسرائيلى، أو أن تعرض وجهة نظر أخرى تنادى بضرورة تقييد الاستيطان، حتى تعطى هذه الآراء شبهة الموضوعية، أما فيما يتعلق بالعرب، فلم ننتقد إسرائيل يوماً على أعمالها الوحشية، وتصل المسألة بالنسبة لهم إلى الحياد بين الصواب والخطأ، وبين الحقيقة والضلال.

ويقتضى الخداع أيضا إدعاء تعددية الآراء فى إطار واحد، فحرية الاختيار لا توجد دون التنوع، فإذا لم توجد اختيارات واقعية يصبح اصطناعها ضروريا حتى لا تقدم رؤية أحادية الجانب للواقع!

والملاحظ أيضا نشر الأخبار بأسلوب يؤدى إلى شق وانقسام الشعوب، ويثير الفتنة بين الطوائف والأعراق داخل الوطن الواحد، وقد دأبت بعض الفضائيات على تصدير الأفكار الداعية إلى الانقسام والتى تهدد الاستقرار فى بعض هذه المجتمعات كأحد وسائل الضغط والسيطرة!

ومن حيل «الميديا» الأمريكية ومن يدور فى فلكها، التكرار الذى يصل بالمتلقى إلى الاعتياد، وعند الاعتياد لا يدقق المتلقى فى أهداف ما يقال، ولا تكتفى بنشر أخبار ملفقة، وبترديد تفسيرات واحدة لا تتغير، وإنما لا تتوانى عن إغفال وتجاهل المسكوت عنه!

كما تتوخى وسائط الاتصال الأمريكية إشاعة روح الهزيمة وضياع الأمل، والتى تترك لدى المتلقى الإحساس بالعجز، وتقرأ عددا من مقالات المعلقين الأمريكيين، فتلمح أن الهدف من وراء هذه التعليقات خلق الشعور بالدونية وتسريب حالة اليأس وفقدان الأمل لدى العرب والمسلمين!

ومن الحيل الأخرى نزع الواقعة أو الحدث من سياقه الطبيعى، وتشتيت البؤرة إلى أشتات متفرقة، بدلاً من تقديمه فى مجمله، والخلط المخل بين المقدمات والنتائج، وإخفاء المؤثر التلقائى والإلحاح على التبعى من مجريات الأحداث، والجنوح إلى النظرة الجزئية.

وأتقن الأمريكيون ذلك، ووضعوا له القواعد، ونما وترعرع لديهم فى ظل

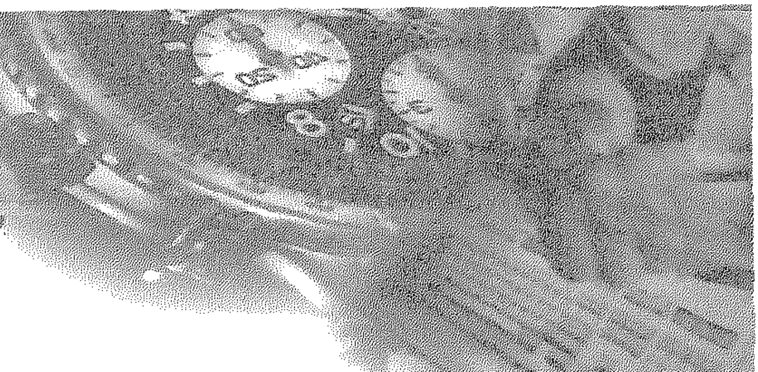

شركات العلاقات العامة.

موجة السرعة!

وأيضا الاحتجاج بضرورة السرعه فى تغطية الخبر، وفورية تقديم الحدث، على اعتبار أن المادة الإخبارية سريعة الزوال، وتقدم «اللحظة» وتسجل وقائعها والتعليق عليها فور وقوعها، هى فى الواقع أداة طيعة تساعد على إخفاء بعض أبعاد الموقف، ولتذهب بعد ذلك الحقيقة إلى الجحيم!

فعندما يقع حدث أو تقع أزمة، يفتعل جو هستيرى محموم يبرر الخداع والتشويش، ويندفع بقوة القصور الذاتى الذى يعطل التأمل والعقل، ويؤدى إلى السلبية والتسليم بما يرى أو يسمع أو يقرأ.

ولعل ماوقع مؤخرا عند احتجاز أطفال إحدى المدارس الروسية فى شمال أوسنيا أكبر شاهد على ذلك، ففى ظل جو مجموم أعلن اشتراك عشرة من العرب فى تلك المذبحة المروعة، وتحول القول إلى حقيقة علق عليها من علق، وتبين بعد ذلك زيف هذا الادعاء.

ومن اهتم بالترويج لم يهتم بالنفى!

وكذلك ما أعلن عن قتل ٨٠ مواطنا عراقيا خلال عمليات القبض على عزة الدورى نائب الرئيس العراقى السابق، وظهر بعد ذلك زيف هذا الخبر.

وهذه حيلة معروفة؛ لصرف الانتباه عن المطلوب إخفاؤه، بتوجيه الاهتمام إلى قضية ما والعمل على أن تشد الأنظار ويتجه تركيز الرأى العام عليها، وهذا ما شهدناه من أجل صرف النظر عن ما يجرى فى العراق وعلى أرض فلسطين، وأثيرت قضية دارفور، وجاءت قضيتها الإنسانية لإخفاء ما يجرى هناك.

ودهشت دوائر عديدة فى الرأى العام من هؤلاء الذين يتحدثون بحماس عن قضية أهل دارفور، ولا يتحدثون بذات الحماس عن ضحايا الشعب العراقى والشعب الفلسطينى من المدنيين!

ومن الحيل المعروفة أيضا، التحيز لنوع خاص من الأخبار، وإعطاؤه الأولوية، فمثلا التركيز على الضحايا المدنيين للمقاومة، والسكوت عن الضحايا المدنيين الذين يسقطون تحت القصف والغارات الأمريكية والإسرائيلية.

وكما يتم حجب المعلومات أحيانا يتم أيضا تدفق المعلومات، التى يوفرها الكمبيوتر والإنترنت، لا فرق بين الغث والسمين، مع غياب الإطار الفكرى لهذه المعلومات، والذى بدونه تصبح بلا مغزى!

فالمعلومات تمثل سلطة لمن يستخدمها، وهى تقوم بالترويج لأفكار العولمة، والزعم أن هذه العولمة أدت إلى انصهار مختلف أنواع الاقتصاد فى سوق واحدة، سواء فى الريف أو البادية، الوطنى أو الإقليمى فى اقتصاد عالمى موحد، ويتجاهلون أن العالم يتحول إلى

جزر منفصلة، وإلى عالم تنتشر فيه الفاقة ويعم البؤس، ويكتظ بالمدن الفقيرة، مما يساهم في الاضطراب فى العديد من أرجاء المعمورة، ومما ينذر بأخطار كبيرة.

فمع قيام فكرة العولمة، أو الإمبراطورية، يزداد تركز الثروة، وتتسع الفروق بين البشر، وتصبح الدعوة للانفتاح على السوق النقدية العالمية، عقيدة صارمة يجب أن يخضع لها الجميع، وإلا فقانون الغاب سيتولى العقاب وإعادة الانضباط.

ويملأ الإعلام الفراغ عن طريق الترويج لأسطورة أن الشر من طبائع البشر، وعلى الكل التكيف معه، فالعنف «أمريكى مثل فطيرة التفاح»!!

ولا يفوتنى أن أذكر، أن أكبر أعوان «الميديا» المعادية، هو الكذب والتحيز والدعاية الفجة التى كثيراً ما تشيع فى «الميديا» العربية.

وتظهر الكارثة الحقيقية عندما يواجه الإعلام الذى ينطق باسم العولمة، إعلام الدولة التسلطية التى تنشغل وسائل إعلامها بتكبير ما تراه أو تفعله أو يصدر عن الدولة، وتصبح وسائط الاتصال مجرد أجهزة دعاية، لا صوت يعلو صوت الحكومة، ولا صورة إلا صورة الزعيم، ولا رأى إلا رأيه.

وحتى عندما تنطق هذه «الميديا» بالحقيقة لا يصدقها أحد!! هنا تدخل الحكومة بشكل فج فتفقد تأثيرها، وهناك تأثير من نوع مختلف، يظهر الفارق بين البسيط والمركب، بين السذاجة والمراوغة!

وهناك أمثلة واضحة، عن مدى تمتع «الميديا» بالشفافية، فتابع الجميع تجربة حرب تحرير الكويت، ورأينا كيف غابت الشفافية وفرضت الرقابة فى زمن الحرب التى أطلق عليها «الأمن الإعلامى فى زمن الحرب»، وما جرى فى حرب احتلال العراق، ولا مجال للتصديق الساذج بحياد صحفهم ومحطاتهم الفضائية.

وهناك عدد من الدراسات المهمة، حول الترتيبات التى أتخذت للحيلولة دون وصول المعلومات الصحيحة للرأى العام، ومن هذه الترتيبات مصاحبة المراسلين للقوات، وتقييد حركتهم، وإبعادهم عن المناطق الساخنة، وأحيانا بطريقة فظة لا تستبعد إطلاق النار عليهم، والملاحظ أنه حتى اليوم لم تظهر صور الدمار والقتل الذى وقع خلال الغزو الأمريكى للعراق!

وكما رأينا فشلت الإنسانية فى استخدام ثورة الاتصالات والمعلومات لتبادل المعارف، ومن أجل التعاون والسلام، وتحولت إلي أداة لصراع الحضارات.

واليوم أصبحت معظم الدول العربية مستقلة، لها جيوش وثقافة، ولديها ثروات، ووسائل اتصال متعددة، علينا أن نحسن استخدامها. حتى نبذر الحب وننشر الكلمة الطيبة، بذوراً تحملها رياح المستقبل.

فذلك هو الأفضل والأبقى. ■

دائرة حوار

النهوض باللغة العربية

بقلم
د. محمد فتحى فرج *

اللغة هى مستودع التراث ووعاء الفكر، وهى ظاهرة إنسانية اجتماعية، تعرف بها الملامح المميزة لكل مجتمع فى كل عصر من عصور التاريخ، فهى كما يقول ابن جنّى فى كتابه «الخصائص»: أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. على أن اللغة العربية لها خصوصية تتمتع بها دون سائر اللغات الأخرى تستمدها من كونها لغة القرآن الكريم، الذى لايزال عاملاً فى ضمير المسلمين على تأكيد أن العربية جزء من الحقيقة الإسلامية، وهى أيضاً إحدى دعائم عروبتنا الأساسية إن لم تكن أهمها على الإطلاق. وهذا الارتباط بين اللغة والعقيدة والهوية سمة تفردت بها اللغة العربية، مما جعلها محل استهداف أعداء الإسلام الذين يرمون إلى تقويض العقيدة فى النفوس بإعمال معاولهم لهدم اللغة العربية؛ لكونها سياج هوية الأمة، الذى يوجد بين عواطف العرب ومشاعرهم، فى الأفراح، والأتراح، فتؤلف بين أسلوب تفكيرهم وآدابهم وسلوكهم.

* أستاذ بجامعة المنوفية، شبين الكوم، مصر.

واللغة العربية، دون غيرها من سائر اللغات تتعرض بين الحين والحين - للأسباب التى أشرنا إليها آنفاً - إلى حملات التشويه والتدمير، سواء من غير العرب من المستشرقين الأوروبيين أو ممن يسيرون فى فلكهم من الناطقين بلغة الضاد، مثلما تعرضت قديماً لمن يعرفون بالشعوبيين. فهى إذن حملة قديمة جديدة تستهدف فى الأساس معتقداتنا وتراثنا وماضينا بل ومستقبلنا؛ لما لهذه اللغة - على وجه الخصوص - من الارتباط بالدين، ومن ثم هوية المسلم وتشكيل عقله ووجدانه وثقافته بوجه عام. فقد وقف الشعوبيون القدماء موقف العداء من لغة القرآن، وقد تصدى لهم علماء العربية، الواقفون على أسرارها فى ذلك الوقت ومنهم ابن قتيبة الدينورى (٢١٣-٢٧٦هـ) القائل: «وقد اعترض على كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدّلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة، فى اللحن، وفساد النظم والاختلاف وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه فى القلوب، وقدحت بالشكوك فى الصدور.. فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة، والبراهين البينة، وأكشف للناس ما يلبسون.

وقد منيت العربية الفصحى - كما يقول الدكتور رمضان عبد التواب - فى العصر الحديث بخصوم حاقدين، وأعداء ألداء من الشعوبيين الجدد من أمثال المستشرق الألمانى «تيودور نولدكه» وغيره، وليست تلك الهجمة الضارية إلا جزءاً من الهجوم على الدين الإسلامى الحنيف؛ لما فطن له أعداء هذا الدين من الارتباط الوثيق بينه وبين اللغة العربية الفصحى، ومن قبله كانت دعوة المستشرق الألمانى «ولهلم سبيتا» إلى التحول من الفصحى إلى العامية، وقد وضع كتاباً أسماه: «قواعد اللغة العربية فى مصر»، وكذلك المستشرق الإنجليزى «وليم ويلكوكس»، الذى كان يعمل مهندساً للرى فى مصر. أما المستشرق المشهور «ماسينيون» فكان يدعو إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، وكان يدعو أيضاً إلى اللهجات العامية. وفى يقينهم أنهم إن أزالوا الفصحى عن مكانتها الراسخة فى القلوب منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، فقد أزالوا الحصن الأكبر من حصون هذا الدين الحنيف، ويغيب عنهم أن الله تبارك وتعالى هو الذى تكفّل بحفظها حين تكفّل بحفظ القرآن فى قوله تعالى من سورة الحجر فى الآية التاسعة « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، ورغم ذلك لم تهدأ المحاولات الجادة الحاقدة، التى استهدفت اللغة العربية الفصحى، والعمل الحثيث نحو احلال اللهجات العامية محلها أملاً فى اقتراب اللغة العربية من نهايتها، فى المستقبل القريب، كغيرها من اللغات القديمة التى اندثرت،

أو بقيت آثارها البسيطة كاللاتينية والسنسكريتية، حتى أن «تشارلز فيرجسون»، العالم اللغوى الأمريكى المعروف، توقّع أن تكون النهاية فى العام ٢١٥٠م عندما تظهر لغات رسمية عربية ترث الفصحى أمثال المغربية والمصرية والسورية والسودانية، كما يسميها. ولكننا نقول لهم هيهات هيهات مهما مكروا وفكروا ودبروا، وصدق الله تعالى إذا يقول: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين} الأنفال: ٣٠. ولن يستطيعوا أن يطفئوا نور القرآن بإخماد العربية: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم والله متم نوره ولو كره الكافرون» الصف:٨.

وقد أوضح الدكتور حسين الهراوى منذ أوائل القرن الماضى أن الدعوة إلى العامية كانت إحدى الطرق التى تبناها المستشرقون ورواد الاستعمار منذ زمن قديم وكانت إحدى وسائلهم حتى لا يتفاهم المسلمون ولا يفهمون لغة قرآنهم.

الشعوبيون العرب

أما فى الوطن العربى فقد ظهر كثير من الكتاب فى العصر الحديث مما يدعون إلى العامية المحلية أو إلى كتابة العربية بحروف لاتينية ومنهم: سلامة موسى، وعبد العزيز فهمى، وأنيس فريحة، وسعيد عقل، وفائز جادو، ويوسف الخال، وشاكر خصباك، ويوسف العانى، وسعيد حوارنية وأخيراً بنْ زاغو فى الجزائر.

أما بن زاغو، وهو أحد الأساتذة الأكاديميين، الذين عهدت إليهم بوضع التصورات الخاصة بشأن إصلاح وتحديث التعليم، فوضع تقريرا يطالب فيه بتدريس اللغة الفرنسية اعتباراً من السنة الثانية من المرحلة الابتدائية، وإعطاء الأولوية المطلقة لتدريس جميع العلوم باللغة الفرنسية بدلاً من العربية. ومنذ شهور قليلة وردت أنباء من موريتانيا تفيد تراجع الدولة عن سياسة التعريب فى مراحل التعليم المختلفة والعودة إلى استخدام اللغة الفرنسية فى تدريس كل المواد العلمية، بعد أن كادت حركة التعريب، التى بدأت فى السبعينات من القرن الماضى، تُؤتى ثمارها الإيجابية بإقبال أعداد من السكان السود (الذين يتشيعون عموما للغة الفرنسية؛ لأنها تميزُهم عن أغلبية السكان العرب والبربر) على الفصول (المعرّبة) وعلى المعاهد العربية: وقد يؤدى كل ذلك إلى آثار وخيمة على الشعور بالانتماء القومى، ذلك أن اللغة ليست مجرد أصوات أو ألفاظ منطوقة، أو كلمات مكتوبة، وإنما هى كيان متكامل من الفكر والوجدان والتراث والتاريخ والقيم الدينية والأخلاقية، كما أنها أداة اتصال وتواصل؛ ولذا فإن استبدال لغة بأخرى فيه إهدار لكل هذه الأبعاد، وانسلاخ المجتمع نفسه عن تاريخه وعن ماضيه وعن هويته الثقافية، كما أن فيه إضعاف لعلاقته الثقافية والفكرية مع الأقطار الأخرى التى تشترك معه فى تلك

اللغة، وفارق كبير أن يتعلم المرء اللغات الأجنبية لتكون وسيلة للتبادل الفكرى مع الثقافات المختلفة وبين أن يتبنى هذه اللغة أو تلك لتكون هى أداته فى التفكير والتعبير على حساب لغته الأصلية.

وأخيراً سيبويه المفتري عليه!

ولقد أضاف الأستاذ شريف الشوباشى إلى همومنا هما جديدا بدعوته تلك التى طلع بها علينا من خلال كتابه الأخير: «لتحيا اللغة العربية: يسقط سيبويه»، وهو فى هذا الكتاب ينحو باللائمة على سيبويه ظنا منه أنه السبب المباشر فى تخلفنا اللغوى والتعبيرى ومن ثم الفكرى «والتقدمى»! فمن هو سيبويه الذى يريد أن يسقطه من عرشه؟ وهل يستحق ذلك؟ وهل هو حقا السبب فيما نحن فيه من التّردّى اللغوى، والتعبيرى والفكرى إلى غير ذلك من ألوان وأطياف التخلف؟

وقبل أن نجيب عن ذلك نقول: إن اللغة ليست نحوا فقط ولكنها نحو وصرف وبلاغة وبيان وبديع وألفاظ وأساليب وصياغة. واللغة لا تنهض بذاتها وإنما بجهود أبنائها والناطقين بها، فهى مرآة جيدة تعكس أحوال المجتمع المتحدث بها، تتقدم بتقدمه وتتدهور بتخلفه، ويوم أن قُدنا العالم وسُدنا أركان المعمورة كان الناس من كل الأجناس يتسابقون لتعلم العربية، حتى ينهلوا من العلم العربى، وما قامت النهضة الأوروبية الحديثة إلا على العلوم العربية التى نقلها الأوروبيون ترجمةً، بعد أن تعلّم أقطابُهم العربية وأجادوها.

ونعود إلى العظيم سيبويه، الذى ظلم «دون وزر اقترفه، أو ذنب جناه إلا غيرته على العربية، وقد سبقه فى ذلك بعض أئمة النحو ورواده ومنهم: عبدالله بن أبى إسحاق الحضرمى وأبو عمرو بن العلاء، ومنهم أيضا الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى، وهو من الأفذاذ وأصحاب الأوليات فقد وضع بحور الشعر العربى وطريقة تدوين معاجم اللغة، فضلا عن عبقريته فى النحو الذى استنبط أصوله وفروعه وعلله وأقيسته ما لم يسبقه إليه سابق. أما أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الذى أخذ عن أبى عمرو، فقد كان صاحب قياس فى النحو وله فيه مذاهب تفرد بها. ثم يأتى بعد ذلك «سيبويه» وهو عمر بن عثمان بن قنبر، أما «سيبويه» فهو لقبه الذى يعرف به، وقد ولد فى إحدى مدن فارس وهى «البيضاء» أما النشأة والإقامة فكانت بالبصرة. وقد تتلمذ على الخليل بن أحمد، وغيره من أئمة النحو، وقد ترك لنا كتابا فى النحو لم يضع له اسما ولا مقدمة ولا خاتمة. فأطلق عليه القدماء اسم «الكتاب»، على اعتبار أنه العَلَم الذى لا يحتاج إلى تمييزه عما سواه باسم خاص - كما يقول الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه «المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى» - فإذا ذُكر اسم «الكتاب»، فى معرض الحديث عن النحو، فإنما يقصد به «كتاب سيبويه» ذاك، وهذا يشير إلى أهميته وعلو منزلته، وبهذه المناسبة نقول للسيد «شريف الشوباشى»: إن الرجل لم يسجّل بكتابه قواعد، ولم يقرر أحكاما،

ولم يضع شروطا يكبّل بها «الشوباشي» أو غيره، وحتى لم يلتزم تعريف المصطلحات، ولم يردّدها على وتيرة واحدة، بألفاظ محدّدة. أما ما يحتويه «الكتاب» فلا يعدو أن يكون فيضا غزيراً من الأساليب والمفردات، بعضها مأثور، وبعضها الآخر مُحدث، يعرضها سيبويه ليحللها ويدرسها، ثم يحكم على صحتها أو خطئها، أو يحسّنها أو يقبّحها، عارضا آراء شيوخه ولا سيما الخليل بن أحمد، فينتقدها أو يعلق عليها، أو يجعل منها تماما للمسألة التي يدرسها أو يعرض لها، مع فيض من الشواهد المتنوعة، بعضها آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر من المأثور من شعر العرب، ومن الرجز، ولا يفوته أن يصحح نسبة الشواهد، التي يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها.

فما الذي صنعه سيبويه حتى نسقطه ونحمله أوزارنا وأخطاءنا وقد صدق فينا قول المتنبي:

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفتــه من الفهـــم السقيم

نعم العيب فينا ونلصقه بغيرنا ويُعوزُنا الفهم الصحيح لقضايانا، وما يحاك ضدنا.. فقد كانت مخاوفنا وجهودنا مركزة على التصدي للهجمة الشرسة على التنوع اللغوي العالمي، الذي يشمل ضمن ثرواته اللغة العربية، وذلك لصالح اللغة الإنجليزية، والغرب - خاصة الأمريكي - يجعل منه مدخلا للهجوم على التنوع العقائدي ذاته لاسيما وأن عقيدتنا ترتبط بلغتنا ارتباطا وثيقا، في وقت تزداد فيه الحملة الرعناء التي توجه ضد العرب والإسلام ولغة القرآن، في خطاب صراع الحضارات، ونهاية التاريخ، إلى غير ذلك مما يصطنعوه من آليات لضربنا جميعا من كل اتجاه.

وتأمّل معي إلى أي مدى يكون التناقض العجيب المريب.. ففي الوقت الذي يسعى فيه العدو الصهيوني لجمع شتاته اللغوي وإحياء موات موروثه اللفظي، يحاول البعض منا شرذمة اللغة العربية وتفتيتها إلى لغات محلية لا يفهمها إلا المجاميع المنعزلة، فهذه مغربية بربرية وتلك عامية مصرية وثالثة عربية خليجية دارجة... حتى تتقطع الأوصال بين أعضاء جسد الأمة، فيتفسخ ويتهاوى ويهلك، وتلك غاية أعدائنا وهدفهم المنشود.

العامية ليست لغة علم

أما بالنسبة لاستخدام اللغة العامية في مجال العلوم التقنية فسيؤدي إلى كارثة حقيقية من جرّاء الخلط والتشويش، وانحسار الدقة وتلاشي التحديد، الذي يتميز به الأسلوب العلمي، والتعبير عن الحقائق والنظريات والتجارب والبحوث العلمية، فضلا عن افتقار العامية إلى إمكانات الاشتقاق والتوليد الذي تتميز به الفصحى لمسايرة التطورات العلمية التي لا تتوقف. وفي

حالات التقديم والتأخير، الذى تتميز به الأساليب العربية، فلن يكون من السهل تعيين الفاعل وتمييزه من المفعول مع اختفاء الإعراب، مما قد يترتب عليه من مشاكل لا تحمد عقباها، لا سيما فى بعض المجالات العملية كالكهرباء والميكانيكا والكيمياء التطبيقية إلى غير ذلك من مجالات تتطلب التحديد الصارم والدقة المتناهية، حيث أن أى التباس قد يكون قاتلا!

أما اختفاء «نون النسوة» فسوف يزيد الطين بلة، فالمقارنات مثلا بين نتائج الاختبارات والفحوص لمجموعتين من المرضى أحداهما من الذكور والأخرى من الإناث، سيحدث بصددها الخلط والتشويش تماما مثلما يحدث فى حالة الأحكام الفقهية والضوابط الشرعية التى تخص الرجال من دون النساء أو عكس ذلك، فسوف يعتورها الخلط وعدم التحديد الذى قد يفضى إلى آثار خطيرة .

هذا، فضلا عن أن الثروة اللفظية للعامية جدٌ فقيرة بالمقارنة إلى الفصحى، فقد تبين فى بعض الإحصاءات أنها لا تتجاوز الخمسمائة كلمة، بينما تتطلب الحياة العلمية المتنامية عشرات الآلاف بل ومئاتها من الكلمات؛ لنستطيع التعبير عن المدركات الجديدة المتطورة والمسايرة لحركة الفكر العلمى والإنسانى بوجه عام. وهذا الثراء اللفظى ميزة تتميز بها العربية وليس عيبا كما يظن الأستاذ «الشوباشى» فى كتابه المعجزة!

نعم.. لغتنا فى خطر، ولكن ليس معنى ذلك أن نلعنها ونلغيها ونستبدل العامية بها، ولكن الأجدى من ذلك أن نبحث بالطرق العلمية المنهجية لحل مشاكلها وتيسيرها على ألسنة وأقلام الناطقين والكاتبين بها.

إن الدعوة إلى اللهجات العامية بهدف القضاء على الازدواج اللغوى، واتساق الفكر مع اللسان وتبسيط القواعد بحذف معظمها، دعوة مشبوهة تؤدى إلى الانسلاخ عن العقيدة ونقض عُرى الدين، من خلال الانقطاع عن أهم نصوصه: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتراث الفقهى والشرعى والأدبى والفكرى المكتوب باللغة العربية الفصيحة، ذلك الذى يضرب فى تاريخنا إلى نحو ألف وخمسمائة عام. إنها باختصار دعوة لطمس معالم الهوية العربية الإسلامية وإلغائها، وهى فى النهاية دعوة مذمومة مسمومة فاشلة لا يمكن تنفيذها، وستنتهى قبل أن تبدأ، شأنها فى ذلك شأن سوابقها بل ولواحقها، أما ما تعهّد الله به من حفظ قرآنه الكريم كما جاء فى قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر:٩. وحتى نستيقن من ذلك، فإنه مع كل تطور علمى، وتقدم تقنى، يتأكد ويترسخ هذا العهد القرآنى الناصع البيان، ليتحقق معه حفظ لغة القرآن، رغم أنف الحاقدين، وكيد الكائدين. ■

الوافد والموروث في الفن التشكيلى

بقلم
عدلى رزق الله

«الوافد والموروث» (*) مقولة شاعت فى الشارع المصرى الثقافى والسياسى منذ أن أطلقها فيما أعتقد صديق العمر المفكر الإسلامى طارق البشرى.

وثنائية «الوافد» من ناحية «والموروث» من ناحية أخرى توحى إلينا جميعا بالتناقض بين ضدين لن يلتقيا، فالوافد قادم من الخارج ، لا علاقة لنا به، يروج له التنويريون منذ نهايات القرن التاسع عشر أو بدايات القرن العشرين. أما حفظة التراث، الحريصون على ما فعله وقاله الأجداد، فيتمترسون وراء أبنية ثقافية وتراثية لم تمتد إليها يد الآخر الغربى.

هذا فيما أظن تلخيص أمين – فيما أعتقد – لمقولتى «الوافد» و«الموروث» التى تجرى فى دماء الخلاف المعلن، والذى يصل أحيانا إلى السلاح من بعض الأتباع، فمظاهرات رواية «وليمة أعشاب البحر» أو الموقف من فيلم «باحب السيما» ، أو الهجوم على رقبة كاتبنا الشيخ «نجيب محفوظ» والأمثلة كثيرة، والتوقف عندها قد لا يجدى السياق بل سيكون تكرارا مملا لا أرجوه لنفسى.

الوافد في الفن التشكيلي

منذ بدايات القرن ورحيل الرعيل الأول إلى أوروبا ممثلا فى محمود مختار أولا ثم راغب عياد ويوسف كامل، كان طابع الاستزادة من الغرب إحدى سمات

* سأتجنب الحديث عن أبناء جيلى، حتى أهرب من شبهة عدم الموضوعية لأن كل من تكلمت عنهم لا تنافس بيننا.

فرح زليخة - عبد الهادي الجزار

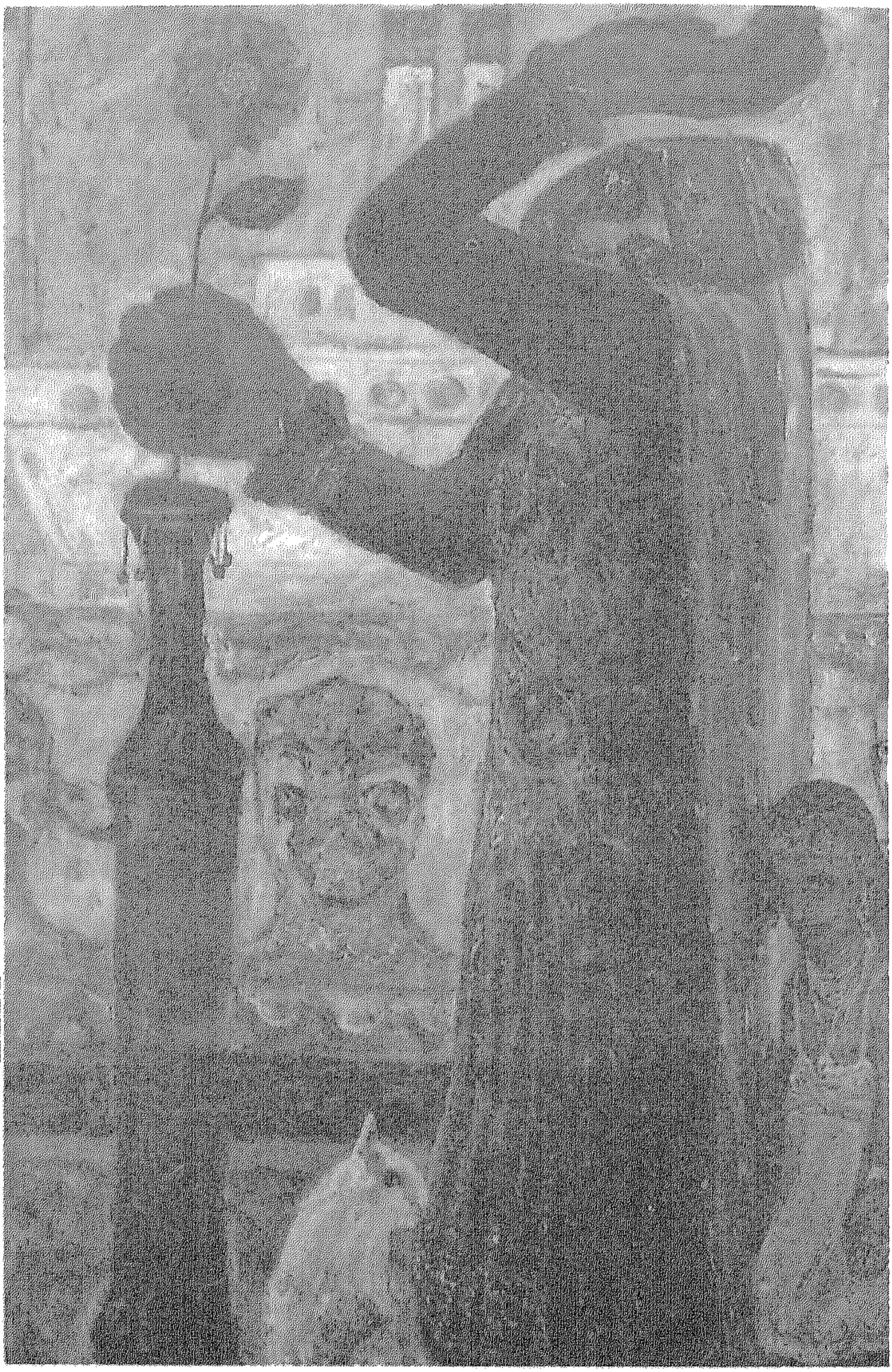

الحركة الفنية الوليدة آنذاك . وأصبح الالتحاق بالتدريس بكلية الفنون الجميلة بعد ذلك هو أمل الموهوبين من أبناء الأجيال اللاحقة حتى تتاح لهم فرصة السفر إلى الغرب للتعلم والاستزادة.

تلك كانت البداية. التي قد توحي بالاتساق وأحادية المنبع، لكن تعالوا نناقش معا ما فعله الرواد الثلاثة بنا، وبالفن أيضا.

١ – حاول محمود مختار صاحب الموهبة الفذة مزاوجة «الفن» و«الموضوع» المصرى الهوى بانجازات النحت اليونانى. تجربة مثيرة، كان تمثال الخماسين هو قمة إنتاج الفنان، والموت المبكر حرمنا من واحد من أهم المواهب فى فن النحت.

٢ – استورد لنا يوسف كامل التأثيرية، بل بالأحرى لمسات من أعمال كلود مونيه، ثم بعض تعاليم المدرسة الإيطالية، وبدأ يوسف كامل طريق ما أطلق عليه التأثيرية ، بعد أن كانت شمسها قد غربت تماما فى فرنسا بلد المولد، وجاء سيزان ليعيد للوحة تماسكها، ويفتح الباب للمدارس الحديثة فى الفن مع بداية القرن العشرين، فى الوقت الذى كان يفعل فيه يوسف كامل وتلاميذه فعلهم ، كانت المدارس الحديثة تتوالى فى الفن الغربى من تكعيبية إلى تجريدية إلى سوريالية إلى تعبيرية.. إلخ.

وهنا يثور أول سؤال:

هل لو رسم فنان تأثيرى غربى بقرة وكوخا فى الريف المصرى يكون قد قدم لنا لوحة «مصرية»؟

من هنا وجب علينا التفريق بين «الموضوع» و«المضمون» وهى المشكلة التى يجب إيضاحها حقا لكننى اكتفى هنا بمحاولة تبيان أن رسم الموضوع المصرى لا يلد لنا فنا مصرى الهوى والهوية.

٣ – ثم نأتى إلى مقولة أطلقها راحلنا الرائد الثالث «راغب عياد» الذى قال بالحرف الواحد أثناء مغادرته للباخرة التى أقلته من الغرب ماذا قال لنا «راغب عياد»؟

قال : سأرمى القبعة والقفاز إلى عرض البحر.

وهى جملة تدلنا على بداية الوعى الحق بأهمية معرفة نسيان الألف بيت شعر الذى نصحنا القدماء بحفظها. كما نصحونا أيضا بنسيانها كشرط واجب لكتابة الشعر.

كانت الحركة الفنية وليدة، وكانت الحركة الفنية فرحة بالجميع بنفس القدر، وبنفس ردود الفعل، وتساوى الجميع، ولم يبحث مؤرخو الفن أو نقاده عن التقييم ، وتبيان الاختلافات وقد آن الأوان لذلك.

هنا يجب التوقف لكى أصرح لكم بأننى لا أدعى القدرة على القيام بالتأريخ أو التقييم ، لكننى أطرح الأسئلة التى عاصرت تجربتى الفنية ، لعل كلمتى تكون «مساهمة فنان» يحاول أن يتسلح

زوراق الإبحار - كنعان

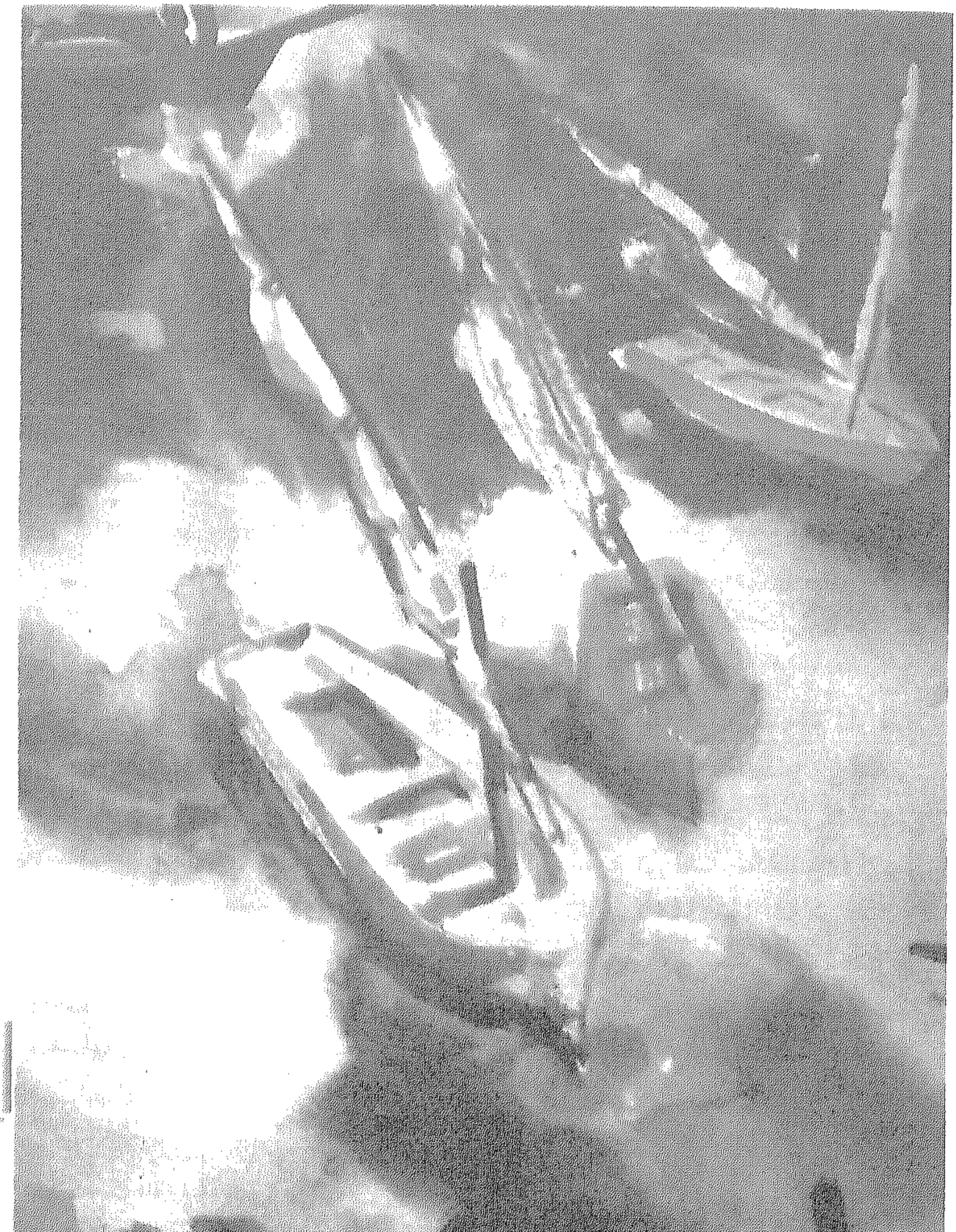

بالوعى. وقد يكون فى طرح الأسئلة وتلمس بعض الاجابات قدر – ولو يسير – من الفائدة.

وتتتالى ولادة الفنانين بعد الرعيل الأول . محمود سعيد . محمد ناجي، أحمد صبرى، حامد عبدالله، الجزار، تحية حليم، كنعان. صلاح طاهر، رمسيس يونان، فؤاد كامل – سمير رافع ، حسن سليمان، آدم حنين ، وآخرون كثر منهم ابو خليل لطفى، حامد ندا، ولا تسعفنى الذاكرة بأسماء كل من جاء إلى الحركة التشكيلية قبل جيل الستينيات والذى أنتمى إليه، والحصر ليس مسئوليتى بل هو مسئولية المؤرخ والذى لا أملك أدواته، كان همى من ذكر بعض هذه الأسماء اللجوء إلى بعضها لتلمس مشكلة «الوافد» و«الموروث».

ولنحاول قول جملة مختزلة تماما عن كل فنان ثم التوقف عند من يمثلون علامات على طريق الفن التشكيلى المصرى.

محمود سعيد ، التزم بالتكنيك الغربى مع سكندرية الموضوع ونصاعة الموهبة.

محمد ناجي: تأثيرى اضاف بموهبته. ولا تقارن أعماله بيوسف كامل وتلاميذه.

أحمد صبرى: الأكاديمية الإيطالية، ولوحة الراهبة خير ما يمثله.

صلاح طاهر: بدأ اكاديميا تشخيصيا حتى نهاية الخمسينيات، سافر إلى أمريكا وعاد لنا باللوحة التجريدية .وهناك من يختلفون على أسبقية لوحته التجريدية على لوحة كنعان والعكس أيضا.

كنعان: استورد لنا اللوحة التجريدية،وخاصة الكولاج، ولم يستطع الهروب من الحروف اللاتيينية المستخدمة فى الأصل المنقول عنه أو الذى يمثل الذاكرة البصرية. موهبة تجريبية كما يجب أن تكون التجريبية.

وسنتوقف أكثر من ذلك عند التلخيص المخل لدى حامد عبدالله وتلاميذه ومنهم تحية حليم التى تزوجها لفترة طويلة، ثم رمسيس يونان وبعد ذلك الجزار، وسيأتى ذكر البعض عرضا مع هذه الأسماء الثلاثة.

حامد عبدالله.. أحد أهم المواهب، التى جادت بها الحركة الفنية فى مصر. اقترب كثيرا من حس الفنان الشعبى دون الوقوع فى آفة التقليد أو النقل والتى سنرى لاحقا أنها آفة من يدعون «الأصالة» أو الانضواء تحت راية «الموروث» علم البعض ومنهم تلميذته تحية حليم. اقترب من أعماله مواهب كثيرة لجاذبية سرى مثلا. فى مجموعة شهادات الغضب لى شخصيا الكثير من الاستفادة بما أنجز.

نختلف جذريا مع مقلدى الفنان الشعبى، وناقلى التراث بتحريف ثقافى. وسنرى القانون أو المنهج المتبع لاحقا لمدعى الأصالة ومدمنى التراث السابق

إنتاجه.

رمسيس يونان .. أنسن التجريد، وأضاف إليه، هضم التراث بما في ذلك فن القرن العشرين، وأضاف ولم يقلد هو أيضا.

الجزار .. وهو يمثل الموهبة الحوشية فى الفن المصرى أبدع أجمل لوحاته قبل الرحيل إلى إيطاليا. «المجنون الأخضر» «الشيخة» إلى آخر تلك المجموعة العظيمة، ثم ذهب إلى طرق مسدودة حين حاول تحميل لوحته معنى سياسيا فى «الميثاق»، وحين حاول رسم لوحات تهتم بالعلم.

ونأتى هنا للب موضوعنا، هؤلاء الذين يرتدون رداء التراث والعودة إليه، ونقل بعض «موتيفاته» وأشكاله كنقوش المشربيات مثلا، أو نقل بعض رسوم الفن الشعبى وإعادة إنتاجها بخامة جديدة، أو بشكل منمق، ماهو القانون المتبع والنهج المستخدم.

«فصل الشكل عن المضمون، ووضع محتوى جديد به».

ثم ننتقل إلى من يستوردون لوحتهم من الغرب مدعين «المعاصرة» أو «الوافد» على حد تعبير صديقى طارق البشرى ماذا يفعلون:

«فصل الشكل عن المضمون، ووضع محتوى جديد به».

أين الاختلاف إذن؟

هذا هو السؤال الجذرى. وقد يفسر لنا هذا انتقال بعض الأسماء من معسكر

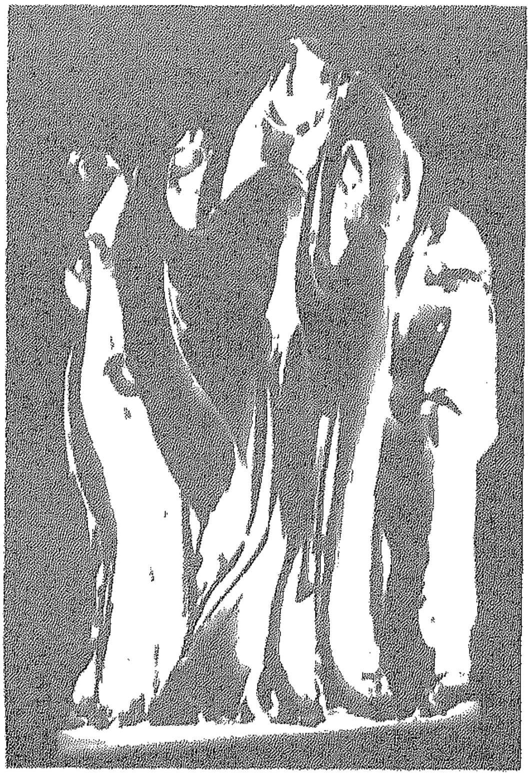

تكوين - صلاح طاهر

إلى الآخر، مما يثير التساؤل والدهشة عند البعض وأنا لست منهم.

ما المطلوب إذن.

ليس بثنائية «الوافد» و«الموروث» تحل القضية ولكن بهضم الموروث و«الوافد» معا، ثم خلق «لوحة جديدة» لم يسبق إنتاجها فى أى ماض. سواء كان هذا الماضى محليا أو عالميا. يحمل هذا الجديد فى دمائه كل «الموروث» بما فيه «الوافد» ثم إنتاج إجابات أو حتى طرح أسئلة وجودنا، وكفانا من هؤلاء الذين يحملون السلاح ضد بعضهم البعض وهم ابناء منهج واحد، حتى ولو بدا فى الظاهر تناقض سيسقط فور التنقيب والتمحيص. وهو ما جاءتنى به التجربة الفنية. ■

دائرة حوار

نقد الأدب العربي بين

أحمد أمين وزكي مبارك

بقلم
د.أحمد السيد عوضين

تتميز الكاتبة «صافى ناز كاظم» فى كتاباتها بالأمانة والصدق، وعفة اللسان، فضلاً عن عمق الأفكار، وسعة الأفق، وشمول النظرة، كل ذلك فى صياغة جميلة، وعرض شيق ولها فى عنقى أنا بالذات دين كبير، فقد كان لعونها الكبير الذى قدمته لى - نصرة للحق - فضل كبير فى توفيقى - بحمد الله - إلى النجاح .

وقد طالعتنا فى عدد سابق من الهلال بمقال متميز عن «أحمد أمين» روت فيه سيرته العطرة بكل ما فيها من بذل وعطاء فى سبيل الدين - والعلم - والأخلاق - وتحقيق النهضة للأمة العربية نهضة شاملة تدفعها لتحتل مكانها اللائق بها بين الأمم ذات الشأن - كما أشارت إلى إنتاجه العميق وفكره المتميز وآثاره التى لاتزال هي المرجع فيما تناولته من أمور .. كما روت ما قاله عنه قرناؤه من ذوى الفكر وأرباب القلم - كل ذلك فى مقال لا يخطه إلا قلم مخلص يعبر عن فكر مستقيم، ولايصدر إلا عن نفس تحفظ للأوفياء وفاءهم ولذوى المكانة مكانتهم ..

أحمد أمين

زكي مبارك

وقد علقت على ما قاله عنه قرناؤه - بقولها: إنها شهادات مفعمة بصدق المحبة والمودة والتقدير والإجلال لواحد من رعيلهم الفذ - أجمعوا على إخلاصه وعدله ودماثته ولطف معشره وظرف حديثه ولمسنا أنهم كانوا معه إلى اللحظات الأخيرة لم يهجروه، ولم يتنكروا له كما زعم ابنه «حسين» في مقاله الذي نشره بمناسبة ذكرى والده الخمسين ولقد تعمدت أن أهرع إلى كتابات هؤلاء الأصدقاء لأدفع عن أحمد أمين «جناية» ما كتبه عنه ولده المغرم بالوقوع في الأخطاء ..

وكل ذلك قرأته في رضا وإعجاب ولا يسعني إلا أن أثني عليه ثناء المقدر والمقر للكاتبة بالفضل والتميز، وإن كان ذلك لا يمنعني من أن أتناول في حديثي ما أوردته الكاتبة في صدر مقالها من حديث عن «جناية» حسين «على أبيه» أحمد أمين فما هي هذه الجناية ؟

وهل حسين حقاً هو الجاني ؟ وكيف يكون أبوه هو «المجني عليـــه» ؟ وإذ كنا بصدد جناية أفلا يحتاج الأمر إلى محام؟ بالطبع نحن في حاجة إلى هذا المحامي فبذلك يقضي الدستور إذ ينص على أن «كل متهم في جناية يجب أن يكون له محام يدافع عنه» فقد كان مطلع مقالها هذه الفقرة:

«في الذكرى الخمسين لرحيل الأديب والمثقف الرائد أحمد أمين، كتب ابنه «حسين أحمد أمين» مقالاً رآه حسناً ورأيته «جناية» على واحد من كبار رواد الأدب والنقد والثقافة العربية في النصف الأول من القرن الماضي».

فماذا كتب حسين الابن عن أبيه؟ وما هو وجه الحق فيما كتب؟ وما هي «الجناية» المنسوبة إليه ؟

الحق أن حسيناً كتب كثيراً عن والده. بل إن له كتاباً يحمل عنوان (في بيت أحمد أمين) والكاتبة طبعاً لاتعني هذا الكتاب إنما تعني المقال الذي نشرته جريدة القاهرة في عددها الصادر في أول يونيه الماضي وكان ذات المقال .. قد نشر من قبل في إحدى الصحف العربية التي تصدر في الخارج. وما أعتقد أن الكاتبة تأخذ على هذا المقال شيئاً مما تحدث به الكاتب عن أحمد أمين: رب الأسرة أو الإنسان أو الكاتب، أو الباحث، أو الصديق فما رواه الابن عن أبيه في هذه النواحي ليس فيه ما يؤخذ عليه - فيما اعتقد - وحتى ما ذكره حسين في مقاله من تنكر الأصدقاء لأحمد أمين في أيامه الأخيرة وإن لم يرض الكاتبة. وسارعت إلى شهادات أولئك الأصدقاء تروى عنهم ما يؤكد تقديرهم الكبير لأحمد أمين.. فما أعتقد أنه هو الذي أثارها على الابن لأن الابن إنما يتحدث عن واقع عاشه مع أبيه في أيامه الأخيرة وبخاصة لأن معظم هذه الشهادات إنما قيلت بعد وفاة أحمد أمين . وتلك عادة مصرية أن يكثر القول على الفقيد بعد انتقاله إلى العالم الآخر.

وإنما الذي أظنه - وليس كل الظن إثماً - أن الذي أثار الكاتبة وأغضبها هو الفقرة التالية التي وردت في مقال حسين

أحمد أمين.. فإن لم تكن هى هذه الفقرة بالذات، فقد كانت تلك الفقرة من أشد الفقرات إغضاباً لها إلى الحد الذى دعاها إلى وصف قول الابن بأنه «جناية» فى حق الأب. فما هى هذه الفقرة؟ هي الفقرة الآتية التى ننقلها بنصها عن مقال «حسين أحمد أمين» :

(وكنت أعجب لقلة نظره - نسبياً - فى الشعر العربى وضعف تعلقه به واحترامه له فهو يستنكر منه غلبة المديح، وبذاءة الهجاء، وجعجعة الفخر وتكلف المشاعر، وزيف الوصف، وأعتقد أن زكى مبارك كان محقاً حين اتهم والدى بالعجز عن استساغة الشعر العربى، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومى، وأبى العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً حقيقياً، وإنما جاء اتباعاً لرأى العقاد فى الأول وطه حسين فى الثانى، وتسليماً بحكميهما على الشاعرين).

حديث يتميز بالعمق

هذه هى الفقرة «المثيرة» إذ كيف يوصف أحمد أمين بأنه كان قليل النظر فى الشعر العربى، وهو من هو مكانة أدبية؟؟ فقد تحدث عن الأدب العربى حديثاً مستفيضاً وهو يتحدث عن فجر الإسلام ثم عن ضحاه فظهره .. وهو حديث يتميز بالعمق وسعة الأفق، وكان الشعر الحديث عن العربى يحتل العديد من صفحات تلك الموسوعة .. ثم إن أحمد أمين شارك بجهد كبير فى إعداد «المنتخب» الذى كان يدرس لطلبة المدارس الثانوية وكان يقوم على انتقاء أروع آيات الأدب العربى «شعراً ونثراً على مر عصوره.. ثم إنه قام بتحقيق الكثير من الكتب والآثار العربية وهى وإن لم تكن دواوين شعرية إلا أنها تحوى العديد من أشعار العرب ثم كيف ننسى أنه هو الذى قام على جمع وإحياء ديوان حافظ ابراهيم بعد وفاته، ولولا جهده لما وصل إلينا هذا الأثر النفيس لشاعر يعتز به أبناء العروبة جميعاً فكيف يتأتى بعد ذلك للابن أن يصف الأب بقلة نظره فى الشعر العربى؟ تلك ولاشك «جناية» اجتناها حسين على نفسه وليس على أحمد أمين !!

وخلاصة القصة أنه كان لأحمد أمين سلسلة مقالات نشرت فى مجلة الثقافة حملت أولاها عنوان (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) وقد نشرت بتاريخ ٩ / ٥/ ١٩٣٩ وكانت المقالة الثانية تحمل عنوان :(جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى أيضاً) وقد نشرت بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٩٣٩ ثم نشرت بعد ذلك ثلاث مقالات أخرى تحمل نفس العنوان : نشرت أخراها بتاريخ ١٢ / ٩ / ١٩٣٩ حيث ذيلها بعبارة «تم البحث» كما نشر أحمد أمين فى تلك الفترة مقالتين أخريين : أولاهما تحمل عنوان (الدين - الصناعى) نشرت بتاريخ ٣٠ / ٥/ ١٩٣٩ - أما الثانية فعنوانها (أدب الروح وأدب المعدة) ونشرت بتاريخ ٦ / ٦/ ١٩٣٩ .

الجناية !!

وعلى ذلك فنحن بصدد مقالات سبع يضمها تيار واحد، أو إطار فكرى متقارب نشرت جميعها فى مجلة الثقافة التى كان يصدرها أحمد أمين ويرأس تحريرها .. وهى - فى مجملها تحمل عنوان (الجناية) سواء كان الشعر الجاهلى هو الجانى أو سواه واللافت للنظر أن هذه المقالات قد أعيد نشرها فى كتاب (فيض الخاطر) فى جزئه الثاني وإن كان صاحب الكتاب قد أدخل تغييراً على عنوان مقالاته الخمس، إذ صار العنوان على هذا النحو (جناية الأدب الجاهلى أو نقد الأدب العربى)

فقد حرص على التخفيف من شدة العنوان الأول، ومن لهجته القاطعة. وكان من الطبيعى ألا ينتهى الأمر عند نشر تلك

حسين أحمد أمين

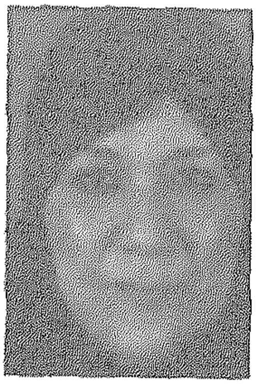
صافى ناز كاظم

المقالات، فقد أثارت – عند نشرها – تعليقات كثيرة نشر بعضها أحمد أمين نفسه في مجلته. لكن أهم ما أثارته تلك المقالات كان رد الفعل عند الأديب الكبير المعاصر لأحمد أمين، ونعني الدكاترة – كما كان يسمى نفسه – زكي مبارك، فقد كان رد الفعل عنده حاداً وقوياً بل ومندفعاً كأنه السيل، فأنت ترى أن لهجة أحمد أمين هادئة وطريقة عرضه مباشرة، ويعبر عن أفكاره في يسر وبساطة فلا تحس لديه بانفعال أو ثورة، وإنما تحس بأنك مع عالم يناقش الموضوع بمنطقه ويعرض فكره بأسانيده ويبسط رأيه بشواهده، وعلى العكس من ذلك جاءت كتابات زكي مبارك حادة، وقاسية وتضمنت الكثير من الحواشي والإضافات، ولكنها مع ذلك ضمت العديد من الآراء التي لا يمكن لمنصف أن يتغافلها.

وكما حملت مقالات أحمد أمين عنوان (الجناية) فكذلك كان حرص زكي مبارك على أن يستعمل التعبير نفسه :(الجناية) وهو يعنون مقالاته، ولكنه ينسب الجناية هذه المرة إلى أحمد أمين نفسه، ومن ثم جاء عنوان تلك المقالات :«جناية أحمد أمين على الأدب العربي» .. وكما جمعت مقالات أحمد أمين في كتاب إذ ضمها كتاب «فيض الخاطر» – في جزئه الثاني – فقد جمعت مقالات زكي مبارك – ولكن بعد فترة طويلة – في كتاب طبع مرتين يحمل نفس العنوان الذي ظهرت به تلك المقالات في الرسالة .

التعبير عن الرأي

وإذا كنا نرى أن تلك المعركة جديرة باستعادة تفاصيلها، وطرحها على الجيل المعاصر، فليس ذلك لإعادة إشعال نار الفتنة بعد أن خمدت، فما اعتقد أن ذلك أمر متصور بعد أن تغيرت الاهتمامات، ولم تعد مثل تلك الأمور تهم الكثيرين ولكننا نرى أن أهميتها إنما ترجع إلى دواع أخرى، منها أن نعرِّف أبناءنا بما كان عليه أسلافهم من اهتمام بأصولهم وتاريخهم وتطورهم وكيف كانوا يحرصون على التعبير عن آرائهم ويذودون عنها بكل قواهم- وكيف كانوا يعملون بكل قواهم لتزويد قرائهم بثمار جهودهم ويبذلون في هذا السبيل عظيم الجهد .وأيضا فإننا نعرِّف أبناءنا أن أسلافهم كان فيهم كسائر البشر اندفاع غير محمود في بعض الأحيان – كما كانت فيهم أوجه نقص وقصور أخرى فلم يكونوا ملائكة أو كالملائكة وإنما كانوا بشرا من البشر، وإن كان كثيرون منهم سبقوا عصرهم بمراحل عديدة .

على أن إعادة الحديث عن تلك المعرفة يقتضي أن نعرض لحديث طرفيها الأساسيين – وإذ كان أحمد أمين هو البادئ فإن علينا أن نعرض أولاً لأفكاره التي حرص على طرحها في المقالات التي أشرنا إليها. وقد تميزت تلك المقالات بما تتميز به كل كتابات أحمد أمين: بساطة في الأسلوب – سلاسة في العرض – وصول إلى الهدف المرجو من أقصر طريق والمقالات كان عنوان خمسة منها عند نشرها لأول مرة (جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي) فماذا تضمنته تلك المقالات؟ وماذا تضمنته المقالتان الأخريان

اللتـان أشرنا إليهما من قبل؟ ذلك ما نوجزه فيما يلي قبل أن نعرض لما قاله زكى مبارك تعليقاً على تلك المقالات – أو تشريحاً لها !! وقبل أن نعرض بعد ذلك ما قد نراه «وجه الحق » فى هذا الموضوع الشائك..

نقد الأدب العربى

عندما نشر أحمد أمين هذه المقالات فى كتابه «فيض الخاطر» أجرى تعديلاً فى عنوانها على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه، فجعله (جناية الأدب الجاهلى أو نقد الأدب العربى) وربما كان هذا العنوان أوفى فى دلالتـه من العنوان الأول، لأن تلك المقالات إنما تتناول فى الواقع : نقد الأدب العربى فى جميع عصوره، وتنتهى إلى أن أدبنا حتى المعاصر منه مازال متأثراً بالشعر الجاهلى، واقعاً فى إساره، ولايصل أحمد أمين إلى هذه النتيجة إلا بعد تحليل، وعرض مطولين، ودراسة شاملة للموضوع من جميع جوانبه.

ونقطة البداية تدور حول صورة الأدب الجاهلى حيث يذكر أنها كانت (صورة صادقة لحياة العرب فى جاهليتهم، فحياة الجاهلى – غالباً حياة ظعن ورحيل لذلك بدأ شعره بالوقوف على الأطلال، وبكاء الدّمن وكان يرحل على ناقته فهو يصف رحلته، ويصف ناقته موضوعات شعرهم هى موضوعات حياتهم من فخر وهجاء، وغزل ورثاء، ومن نزل منهم منزلاً ذكر اسمه وتغنى به .. ومن استمتع بالخزامى والعرار، تغنى بالخزامى والعرار (نوعان من نباتات الصحراء) ومن صاد الوعل وصف صيده للوعل (جنس من الماعز الجبلية) يلتزمون الحقائق ويصدقون التشبيه والوصف، يجيدون وصف الشئ أكثر مما يجيدون وصف الحالة.

ذلك هو حال الأدب الجاهلى مؤتلف مع ظروفه متوافق مع بيئته غير أنه عندما جاءت الدولة الأموية فإن الوضع لم يتغير كثيراً عما كان عليه الأدب الجاهلى ويعلل أحمد أمين ذلك بقوله: (إن كثيراً من شعرائها لم تكن حياتهم إلا امتداداً للحياة الجاهلية .. فموضوعات الحياة هى موضوعات الحياة الجاهلية إن كان ثمة خلاف فهو أن الهجاء القبلى تحول إلى هجاء سياسى، والحياة الخشنة تحولت عند كثير من العرب إلى حياة نعيم ونغمات الشعر الموسيقية التى كانت تلذ الأمويين هى التى تلذ الجاهلين وإن كان للإسلام أثر كبير فى حياة الناس.. كان له أكبر الأثر فى أوساط الشعب ورجال العلم ورجال الأعمال وأقله فى الشعراء فلا عجب أن يأتى الشعر الأموى مصبوغاً بالصبغة الجاهلية فى الأوزان والقوافى والموضوعات والروح)

ولكن الذى أثار الكاتب هو حال الشعر فى العصر العباسى إذ أنه يتعجب (أن يأتى الشعر العباسى على هذا النمط، وكثير من الشعراء فارسى، والحياة حياة فارسية فى أكثر ألوانها والحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مخالفة كل المخالفة للحياة الجاهلية والأموية. فقد كان مقتضى هذا التغير أن يأتى الشعر العباسى صورة صادقة لهذه الحياة الجديدة. ولكن لم يكن كبير شئ من ذلك.. إنما جوهر التغيير أن يعدّلوا أوزان الشعر بما يتفق ورقىّ آذانهم الموسيقية، وأن يصفوا أحوال عصرهم الاجتماعية والسياسية وصفاً صادقاً مستفيضاً، وأن يصفوا ترفهم وبؤسهم وصفاً تحليلياً صادقاً، وأن يتغنوا بأماكنهم وطبيعة بلادهم، وأن يصفوا مشاعرهم هم لامشاعر غيرهم.. وهذا الضرب لا نعثر عليه فى العصر العباسى إلا فى القليل النادر. أهم سبب فى هذا عندى – جناية الأدب الجاهلى عليهم) .. ثم يقول: «ومهما اختلفت الأسباب فقد كانت هذه النتيجة: غلبة الأدب الجاهلى وسطوته، وتعبير الأدب العربى بكل

القيود التي قيد بها الأدب الجاهلي.. حتى لقد قال ابن قتيبة: ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين – ومما يؤسف له أن هذه الدعوى السخيفة لقيت نجاحاً كبيراً، وشلت الأدب العربي شللاً فظيعاً في العصور كلها إلى اليوم».. ويضرب أمثلة لذلك من مهاجمة الجامدين لكل من حدثته نفسه بتجديد: هاجموا أبا نواس عندما دعا إلي عدم البكاء على البكاء والوقوف على الدمن، وهاجموا أبا تمام عندما انحرف عن المألوف قليلاً بابتكار بعض المعاني، والتعمق فيها، فقالوا: إنه خرج على عمود الشعر، وفضلوا عليه البحتري لأنه ألصق بهذا العمود – فكان من أثر دعوتهم تلك انعدام حركة التجديد في الشعر، وعدم ملاءمته لروح العصر، وانحباسه في قوالب تقليدية لا يتعداها.

وينتهي الكاتب إلى نتيجة مؤداها أنه كان لانتصار هذا الرأي الشديد المحافظة أسوأ الأثر في الشعر.. من حيث الشكل ومن حيث الموضوع:

★★★

ويختم مقالته الأولى.. والتي انطوت على كل الأفكار الأساسية – بقوله: «لقد آن لنا أن نفك هذه الأغلال كما نفك قيود الاستعمار سواء بسواء، لأن الأدب الجاهلي يستعمر عقلنا ونوقنا فيشلنا شلل الاستعمار. وآن لنا أن يكون شعر كل أمة عربية، وأدب كل أمة عربية، صدى لشعورها وسجلاً لأحداثها، وتغنياً بعواطفها، وتوقيعاً على موسيقاها، وآن لنا أن يكون موضوع الشعر خلجات نفوسنا، وتمجيد طبيعتنا، وتاريخ مايحدث بين أيدينا، وهذا لا يكون ألا بتغير نظرتنا إلى الأدب، وتغيير برنامجنا في الأدب، والتحرر من ربقة الشعر الجاهلي، وسيطرة الشعر الجاهلي».

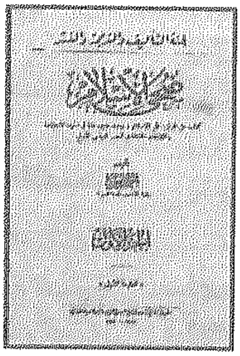

★★★

ذلك ما كان يدعو إليه أحمد أمين.. وهو بعد أن بسط دعوته، وحدد أسسها راح يعمق منها، وبخاصة لما كان يلحظه من ظهور جماعة من العلماء في أواخر الدولة الأموية وأول الدولة العباسية.. رفعوا من قيمة كل جاهل وغلوا في تقديره، بما انعكس أثره على الأدب العربي فطبعه بطابع الأدب الجاهلي في كثير من شئونه رغم اختلاف البيئات واختلاف العصور، فجاء الغزل العباسي وغير العباسي حزيناً بائساً لأن ذلك كان طابع الأدب الجاهلي وهو موضع العجب. فالغزل الجاهلي كان كذلك لأن أرض الجاهليين كانت بائسة فقيرة، فما بال الغزل العباسي وغير العباسي يأتي كذلك، والخير وفير، والحبيب قريب، وكذلك كان أدباء الجاهليين يفتتحون قصائدهم بالتشبيب إذا أرادوا مدحاً أو أرادوا هجاء أو أرادوا أي غرض، لأن هذا يتفق ونوقهم. فما بال الأدب الذي أتى بعد ذلك ينحو هذا المنحى وقد تغيرت الظرف.. وكان الشاعر الجاهلي يقطع الفيافي والقفار على ظهور الإبل فيصف عناءه ويصف طريقه الوعر ويصف هزال ناقته.. ولكن ما شأن مسلم بن الوليد وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والممدوح في بغداد والمادح في بغداد.. وكان الشاعر يرحل في صحبه فإذا وقف على دار محبوبته استوقف أصحابه يعينونه على البكاء.. فما بال «حافظ إبراهيم» في مصر ولا دار ولا أطلال ولا صحب يقول في مدح الشيخ محمد عبده منادياً صاحبيه بأن يقفا به في «عين شمس»، كما يشير أحمد أمين إلى أن تعبيرات العربي الجاهلي انتزع صورها كما انتزع تشبيهاته ومجازاته واستعاراته من بيئته

التي يعيش فيها.. ثم لما أتى - من بعدهم تأثر بهم ودرج على أثرهم.. واستعمل تعبيراتهم.. فما لأدبائنا وهم لا يعيشون عيشة الإبل يستعملون ذات التعبيرات الجاهلية مثل: «ألقى حبله على غاربه».. «دون ذلك خرط القتاد».. «الصيف ضيعت اللبن»؟ فكيف يسوغ لمصري أو عراقي أو شامي أن ينطق بهذه الأقوال التي قد لا يعرف شيئاً عنها.. إن ذلك التقليد كان له - في رأي أحمد أمين - أثران سيئان جداً..:

أما أولهما: فإن استعاراتنا وتشبيهاتنا وقفت عند الاستعارات والتشبيهات الجاهلية.. فافتقر الأدب العربي في باب التشبيهات والاستعارات التي تجاري الزمان.. وقفت جامدة كما تركها الأولون إلا في القليل النادر.

والضرر الثاني: أن الأدباء ينطقون بما لا يعلمون، ويشبهون بما لا يبصرون ويتحدثون بما لا يفقهون، وإلا فكيف يجيز الكاتب لنفسه أن ينطق بالضب «حيوان من جنس الزواحف» وهو لم يره ويتغنى بريح الخزامي، وهو لم يشمها، وكيف يطلق الحبل على الغارب وهذا ليس في حياته؟ وكيف يبكي الأطلال في مدينة القاهرة؟

حب الجاهلية

ويلتفت أحمد أمين التفاتة في غاية الذكاء وهو يقرر: «ومن غريب الأمر أن القرآن الكريم عاب الجاهلية وحقر من شأنها ورماها بفساد العقل وفساد الذوق، ثم كان من مزاياه الجليلة أنه عبَّر تعبيرات إنسانية عالمية لا تعبيرات بيئة جاهلية، ومع هذا كله أشربت النفوس حب الجاهلية، ومجدّ العلماء الأشياء الجاهلية، واستعبد الناس الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي وكان في ذلك البلاء العظيم.. ومن هنا حق له أن يختم حديثه بمناشدته للأدباء والشعراء أن يستمدوا تشبيهاتهم واستعاراتهم مما بين أيدينا من مخترعات وألا يستعملوا ما لا يحسون ولا يعلمون من تشبيه!..

وفي مقال تالٍ يلفت أحمد أمين النظر إلى ناحية أخرى يرى أن الأدب العربي قصر فيها لشدة تمسكه بتقليد الأدب الجاهلي وهي «أدب الطبيعة» فالأدب الجاهلي - في رأيه - لم يعن العناية الكافية بجمال الطبيعة.. لقد أكثر الشاعر الجاهلي من وصف ناقته أو وصف صيده أو وصف فرسه لكنه لم يكثر من وصف منظر طبيعي جميل أخذ بلبه، أو ملك عليه نفسه وإن كانت قد رويت بعض القصائد الجاهلة في وصف الرياض.. ولكن قائليها لم يقصدوا إلى جمال الروض قصداً ولم يقولوا ما قالوا فيها عمداً.. فقد ورد بعض الشعر الجاهلي من هذا القبيل في وصف جمال الروضة تبعاً لا استقلالاً.

ويعلل أحمد أمين ذلك بأن سبب هذا القصور أن الطبيعة في هذه البيئة طبيعة قاسية، لا طبيعة رحيمة، وطبيعة فقيرة لا طبيعة ثمينة: حرٌ مهلك، وبرد قارس: وصحراء مجدبة وأرض شحيحة. جبال جرداء، وأرض صماء أو رمال لا يستقر فيها ماء.. فكيف توحي هذه الطبيعة بالتغني بالجمال.. ورغم ما حدث بعد ذلك فقد فتح الله الدنيا على العرب وملكوا محاسنها على اختلاف أنواعها.. فهل وفي الأدب العربي هذه المحاسن حقها. وهل أدى للجمال الطبيعي واجبه..؟ حتى في الأندلس أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً.. فمن الحق أن شعراءها غنوا أكثر من غيرهم وتفننوا في ذكر محاسن الطبيعة إيما تفنن.. ومع ذلك يقول أحمد أمين:

«ولكني لا أكتم القارئ أني قرأت كثيراً من شعر الأندلسيين فكان شعوري أنهم أجادوا الصياغة ولم يوفقوا أن ينفخوا فيه

الروح..».

ولا يدع أحمد أمين حديث الشعر الجاهلى قبل أن يوفيه حقه بحثاً ودرساً فيذكر أن العرب فى جاهليتهم كانت نظرتهم الدينية نظرة وثنية وضيعة.. من أجل هذا نرى الأدب الجاهلى فى الكثير الأغلب مادياً لا معنوياً ولا روحياً.. وقد تمثل هذا فى تشبيهاته.. فهى مادية لاصقة بالأرض.. ومن مظاهر المادية الأرضية فى الأدب الجاهلى شعرهم فى المرأة.. فهم وإن أكثروا من الغزل والنسيب وافتتحوا به قصائدهم فى كل غرض من أغراض الحياة .. إلا أنهم لم ينظروا فى المرأة إلا إلى جسمها، لقد أدركوا تمام الإدراك جمالها الحسى، ولكنهم لم يدركوا جمالها الروحى..

ويختم أحمد أمين هذا العرض بقوله:

«.. كل قارئ كريم يلحظ ما أردت من معالجة هذا الموضوع.. أردت أن يتحرر الأدب من قيوده التى تثقله، وأن يكون الحكم فى أدبنا أذواقنا لا أذواق غيرنا، وأن يكون أدبنا معتمداً على شيئين: خير ما فى الماضى مما يتناسب مع حاضرنا ويبعث على تحقيق أملنا فى مستقبلنا. وعلى دراسة حاضرنا واستشقاق أدبنا منه لا أن نعيش فى أدبنا على الماضى وحده، على الماضى الذى لا يتناسب وحاضرنا» ثم يقول: «ولا يتم شئ من ذلك إذا نظرنا إلى الخلف دائماً، ولا يكون شئ من ذلك إلا إذا كسرنا عمود الشعر الذى وضعه الأدب الجاهلى، وجعلنا بدل العمود الحجرى، شجرة تنبض بالحياة، يكون أحد فروعها فقط الشعر الجاهلى، وأهم فروعها نتاج حياتنا الواقعية، وآمالنا المستقبلية.. إنما يكون ذلك كله يوم نزن الأدب العربى ككل أدب بموازينه الصحيحة من غير عصبية، ونصرح بالنقص فى غير خجل، ونبنى الجديد فى غير هوادة، ونكسر قيود القديم فى غير رفق..»..

التأثر بالأدب الجاهلى

ويختم تلك الأحاديث جميعها بقوله: إنه يرى أن أكثر الأدب الجاهلى أدب تركيبى لا تحليلى.. فلو استعرضنا الشعر الجاهلى وجدنا أكثره يعنى بتصوير الأشياء صوراً عامة ولا يعنى فيها بالتفصيل والتدقيق.. وقد تأثر الأدب العربى كله بالأدب الجاهلى فكان أكثره أدباً تركيبياً لا أدباً تحليلياً، ونستعرضه فنرى أن فيه كل مزايا الأدب التركيبى وكل العيوب الناشئة من قلة الأدب التحليلى.. نرى مظاهر ذلك فى ضعف القصة.. لأن القصة تحتاج بجانب الخيال الواسع إلى الإطناب فى الوصف وتحليل للموقف وإجادة للعرض المفصل، كما نرى ذلك أيضاً فى باب تراجم الرجال.. فإن الناظر إليها لا يعجب بهذه الثروة من حيث نظرها إلى المترجم كوحدة متماسكة ذات أجزاء مفصلة منسجمة، إنما هى حادثة هنا، وحادثة هناك، وشئ فى خلقه بجانب شئ فى شكله.. وحوادث جزئية جمعت حيثما اتفق..».. ولذلك فهو يرى أن الأدب العربى مسئول إلى حد كبير عن انحطاط المسلمين فى العصور الوسطى وما بعدها.. ويقول: تعال معى نستعرض الأدب العربى من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.. فهل ترى ثائراً ثار بأدبه على الظالم، وحلل موقف الناس فى بؤسهم تحليلاً دقيقاً؟ وهل ترى أديباً وصف مجتمعه وصفاً مستفيضاً يحرك النفوس؟ وهل ترى شاعراً رسم المثل الأعلى للحكام والمحكومين ودعا إليه؟ ويجيب على ذلك بقوله: إنى مع الأسف لا أجد شيئاً من ذلك .

★★★

ولا يكمل طرح وجهة نظر أحمد أمين إلا بعد عرض مقالاته عن «أدب الروح وأدب المعدة» فهو وثيق الصلة بنقده للشعر

الجاهلي – وهو يقر في مطلع مقالته أن هذا اصطلاح يضعه هو لنوعين من الأدب يتميزان كل التميز ويختلفان كل الاختلاف وهو يعنى بأدب الروح الأدب الذى يتصل بالعواطف السامية عند الإنسان فيهذبها ويرقيها ويغذيها، أما أدب المعدة فيريد به ذلك الأدب الذى يدور حول سد الرمق وملء المعدة واستدرار المال، وتحصيل القوت.. فبينما أن القرآن الكريم.. وباب الحماسة، وغزل كثير وجميل والعباس بن الأحنف، وأدب الطبيعة كلها آداب روح لأنها تنبعث عن عواطف نبيلة، وتبعث أيضاً على أعمال نبيلة ، فإن أدب المديح والغزل الفاجر، ومقالات الكاتب التى باعثها الأول ملء أعمدة من الصحف والمجلات والاستيلاء بعد على الأجرة.. كلها أدب معدة، بل وأنه يعد كثيراً من شعر الزهد أدب معدة لأنه يدور حول المعدة وإن كان سلبياً.. والفرق بين أدب الروح وأدب المعدة هو بعينه الفرق الذى أبانه فى مقال سابق بين الدين الحق والدين الصناعى، فأدب الروح ينبعث عن النفس، ويدل على صاحبه، لأن أديب الروح لابد أن يغنى بما فى نفسه.. سواء كوفئ أو عوقب.. وسواء قرب أم شرد وسواء أعجب أم لم يعجب.. وبينما نجد أن أدب الروح جاء على نسق واحد.. ونمط واحد.. أما أدب المعدة فله ألوان كألوان الطعام: مديح إن أعطى، وهجاء إن حرم.. لذلك ترى الشاعر يمدح الرجل ويذمه، ويطريه ويهجوه، والرجل هو هو فى قيمته، ولكن لم يكن هو هو فى مائدته.

ويخلص أحمد أمين من ذلك إلى قوله أنه مما يؤسف له إنا إذا نظرنا إلى تاريخ الأدب العربي وجدناه ينحدر مع التاريخ شيئاً فشيئاً ليكون أدب معدة، فنرى فى العصر العباسى طغيان أدب المعدة على أدب الروح.. ثم انظر بعد إلى الفن المبتكر فى العصر العباسي وهو فن المقامات، فقد ابتدعها بديع الزمان الهمذانى، فلم يجعل محورها حباً ولا غراماً.. ولم يجعل محورها شيئاً يتصل بأدب الروح، ولكنها كلها «أدب معدة» وجاء الحريرى فجعل مكان أبى الفتح الاسكندرى (بطل مقامات بديع الزمان) أبا زيد السروجي – وهو كصاحبه دناءة نفس، وخساسة حرفة.. ويتخذ الفصاحة والبلاغة وسيلة للتكدى والسؤال.. كما انتشر بجانب أدب المقامات نوع آخر من أدب المعدة – بمعناه الحقيقى – هو «أدب التطفيل» فقد انتشرت صناعة التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادرهم.. وبقدر ما كثر فى هذه العصور أدب المعدة – قل أدب الروح من غزل عفيف، أو وصف للطبيعة، أو ثورة نفس على سوء حال الشعوب!!

ويختم هذه المقالة بقوله:

«إن كان هذا مما يسوء، فقد كان مما يسر نهضة الأدب العربى الحديث، فقد بدأ يتحول من أدب معدة إلى أدب روح، تحول من أرستقراطية إلى ديموقرطية، ومن مديح إلى وصف، ومن مقامات إلى روايات تصف الحياة الاجتماعية للشعوب، ومن عواطف شخصية إلى عواطف شعبية أو عواطف عالمية.

★★★

تلك هي أفكار – أو آراء – أحمد أمين حول جناية الأدب الجاهلي – الذي هو معظمه أدب معدة – علي الأدب العربي بصفة عامة حتي وقت قريب، آثرنا أن ننقلها بنصها دون إضافة أو تعليق.. وهي الأفكار أو الآراء التي كانت موضوعاً لتعليقات موسعة ومطولة ومفصلة، وربما متجاوزة لحدودها في بعض المواضع للكاتب الكبير: زكي مبارك. ■

أكثر الرسائل الجامعية.. هيكل عظمى!!

بقلم
د. محمد رجب البيومى

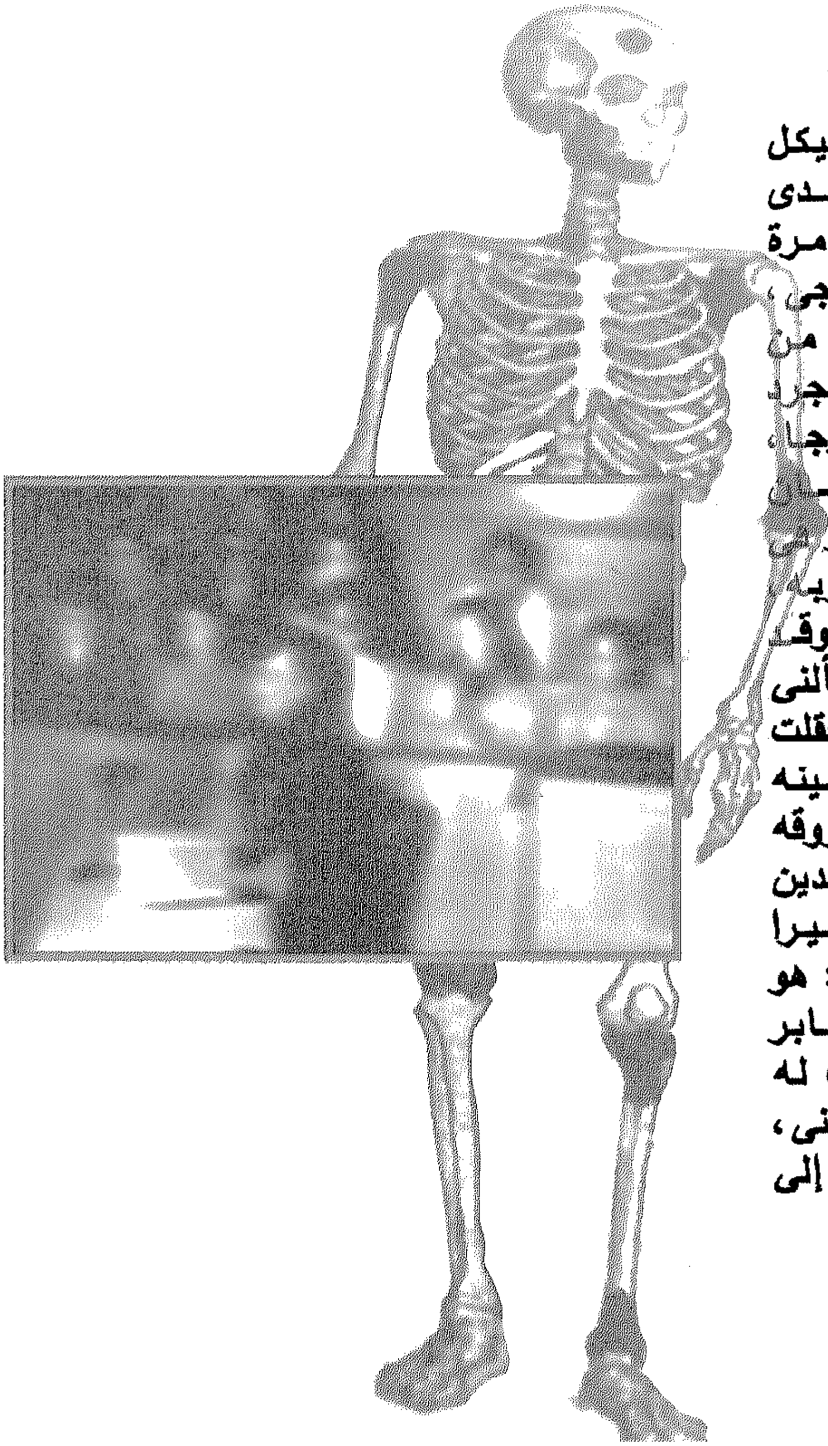

لا أزال أذكر أثر الهيكل العظمى حين رأيته فى إحدى عيادات طبيب قروى لأول مرة واقفا في صندوقه الزجاجى، وكنت لم أتجاوز العاشرة من العمر، ولكن المنظر الجهم المجرد من الدم واللحم، قد رجنى رجاء، وبان الألم على وجهى، وكان معي والدى رحمه الله وهو في كل أموره لا ينى يذكر ربه ويتحدث عن اليوم الآخر، وقد لاحظ انقباضى العابس فسألنى بماذا أحس؟ هل أشكو ألما، فقلت له: هذا الهيكل الواقف بعينه المنطفئة، ووجهه القاتم، وعروقه الخضراء الممتدة فى اليدين والرجلين يثير أعصابى كثيرا كثيرا، فقال لى بكل هدوء: هو أرحم من رؤية عظام المقابر المندثرة فى التراب، فقلت له كفى كفى: قال كلنا لله يا بنى، فاقرأ الفاتحة لتنتقل من حال إلى حال!

ولا أدرى لماذا تلوح لى صورة الهيكل العظمى كلما أقرأ بعض الرسائل الجامعية التى تهمى كالمطر هذه الأيام، فأنا أوازن بينها وبين ما كنا نعهد أيام الجد والغيرة العلمية، فأجدها كالهيكل العظمى تماما، قد جردت من ملامح الحياة تماما! فهى معلومات مرصوصة كيفما اتفق! وكما يخلو هيكل الصندوق الزجاجى من اللحم والدم والنبض خلت من الابتكار المتواضع فى تحليل الرأى ، ومن اطراد السياق فى تناول الموضوع، بحيث أصبحت «ملفا» يدون المعلومات من مصادرها، ولا يحاول أن يوجد الرباط بينها، وتضحك حين ترى الهوامش مليئة بالمراجع والمصادر، ومن بينها آيات كتاب الله، والأشعار المشتهرة فى دواوين الأعلام لا النكرات! وتقرأ ما تقرأ فتنتقل من غثاء إلى غثاء!

وكان الأولى بكاتب الرسالة أن يحمد الله على نوال الدرجة العلمية، ويحاول سترها عن أعين الناس ولكن الطالب قد اغتر بثناء لجنة المناقشة، وأكثرهم من طرازه فى عهد الطلب، فسارع بطبعها وذكر مباهيا أنها نالت مرتبة الشرف. ثم رأى أن ينتفع بها الطلاب فقرر جزءا منها فى مدرج، وجزءا فى مدرج آخر، وغالى فى الثمن مغالاة تدمى العيون، وقد أتاحت له أن يتحدث عنها لطلابه، عنها هى لا عن ما فيها فأمل وأفرط.

البحث بين الأصل والعرف

والأصل فى اختيار موضوع الرسالة الجامعية أن يكون نابعا من فكر الباحث، بحيث أتاحت له دراسة السنتين اللتين قضاهما فيما يسمى بالدراسات العليا أن يتشبع بموضوع معين بدأت عناصره تتجمع فى فكره، فجذبته جذبا قويا إلى معالجته، وألحت عليه إلحاحا كان مصدر دفع قوى لا يرد، هذا هو الأصل فى اختيار موضوع الرسالة، ولكن السائد المتعارف عليه أن يخرج الطالب من دراسته العليا، غافلا بعيدا عن كل تفكير فيما سيتناوله بالدراسة، وأساتذته مع ذلك حريصون على أن يتقدم للماجستير ليكون لهم أجر الإشراف فقط ! فالمسألة المادية لدى الكثيرين هى الهدف الأول فى سير الدراسات العليا لدى الجمهرة من أساتذة اليوم، وأقول الجمهرة لأنى أعرف نفرا قليلا يراقبون حق العلم فى مزاولة ما يعهد إليهم من الأعمال، فهم لا يقبلون الإشراف إلا على الطالب الجيد كما لا يقبلون أن يكون الموضوع مكررا لا يوحى بشئ جديد! فإذا تقدم الطالب المسكين لتسجيل موضوع الدراسة لجأ إلى أحد هؤلاء المتلهفين على الإشراف ليختار له موضوع البحث ، وصاحبنا كما هو شائع اليوم ليس له من الخبرة

العلمية ما يسمح باختيار موضوع موفق، وإذا كان لابد من الاختيار فهنا يأتى التحايل على اختيار موضوع يلوح فى مظهر الجديد الطريف، وهو مكرر معاد، ثم يسارع بتسجيله مع مباركة المنتفعين، أذكر أنى قرأت رسالة فى التاريخ الإسلامى عنوانها «الحالة الاجتماعية فى عهد الرشيد» وبعد أمد قريب، قرأت رسالة عنوانها «بغداد فى عهد الرشيد» والكلية واحدة فتاقت نفسى لمراجعة الرسالتين، فوجدت ما توقعت أن يكون، فالهيكل العلمى للأبواب والفصول متقارب والبدء بحياة الرشيد، وتسجيل مواقفه قد طغى طغيانا فاحشا على الرسالتين، وكأنه كل شئ فى الموضوع، وبعد ذلك لا تجد غير الحديث المعاد عن شخصية شهيرة تعددت فيها البحوث، وكثرت عنها المؤلفات أما البحثان فقد تما فى أقصر مدى يرتقب، وأما المناقشة فقد حفلت بالإشادة والتنويه، وأما الدرجة العلمية فكانت أعلى الدرجات وأرجو ألا يتهمنى أحد بالمبالغة ، فقد نشرت الجمهورية عن جامعة بالصعيد عنوانا ينبئ عن سرقة عشرين بحثا علميا فى جامعة واحدة تقدم بها المدرسون لنيل درجات الأستاذية والأستاذية المساعدة، فإذا كان هذا مذهب المشرفين على رسائل الطلاب، لا فى الاقتباس بل فى الاختلاس فكيف يرجى التدقيق منهم فى اختيار موضوع للطالب ثم فى مراجعة ما كتب، وتسديد ما تعثر فيه من الخطوات، ثم فى مناقشة البحث وإعطائه الدرجة المناسبة! هذا لن يكون ولعل القارئ الكريم على ذكر من مقالى الذى كتبته بالهلال منذ بضعة أعوام تحت عنوان «فيضان الدكتوراه إلى أين» فهو يغنى عن كل إسهاب!

مهارات الجمع والتحليل

وإذا أردت أن أفيض فى الإشارة إلى الموضوعات المكررة مضمونا والمختلفة اسما فقط فسأرهق القارئ بما لا مزيد عليه من الضيق والتبرم، فلأترك ذلك مع ذيوعه المخجل على مدى رحيب، كى أسأل عن وجه الجدية فى تسطير رسائل، لا تعطى أدنى إضافة، ولا تحفل بأى استنتاج علمى مفيد، وإنما هى معلومات متراكمة، يجمعها مؤلف غير متخصص إذا وجدت أمامه المراجع. إننا نعيش فى عصر المطبعة منذ عدة قرون، هذه المطبعة التى يسرت العسير وسهلت البعيد بحيث أصبحت المصادر قريبة التناول ، وقد تعددت المكتبات فى كل معهد وكلية بل فى كل عاصمة من عواصم الاقليم فإذا كان المراد هو الحشد والتبويب فما أسهل وما أهون، أما إذا كان المراد هو التحقيق والتفسير

والتحليل فقد أصبح في حكم المحالات!

أذكر أن أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد سمع عن كتاب أدبي ألفه مستشرق انجليزي يسمى «رفون جست» تحت عنوان «حياة ابن الرومي وأعماله» فلم يسترح حتى جد في العثور عليه، وبادر بقراءته قراءة واعية، فلم يجد به شيئا غير الجمع والاستقصاء لما هو مدون من الأخبار والأحداث فكان ذلك موضع ملاحظته الناقدة إذ كتب عنه نقدا هادفا بمجلة «الكتاب» ديسمبر ١٩٤٥م قال فيه «أحاط المؤلف إما بالنقل أوالإشارة إلى كل نص له علاقة بالتاريخ، فذكر البلاد التي رحل إليها الشاعر، والأمراء الذين قصدهم بالمديح أو أنحى عليهم بالهجاء، والوقائع التي اتصلت بسيرة حياته، والمؤرخين الذين ترجموا له وجمع من ذلك كله ملفا حاويا للمعلومات المستطاعة».

ثم قال العقاد:

«وخلاصة ما يقال في هذه الرسالة أنها ما شئت من نصوص وإشارات، ولكنها تتحرج عن بعد ذلك من كل تقدير أو تفسير، كأنه حوبة في الدراسة التاريخية لا يجوز أن تلم بها الأقلام.. وهي مثال صادق لما يلتزمه المستشرقون، فخذ ما شئت من نصوص وأرقام وفهارس وهوامش وإشارات، ودع كل ما وراء ذلك من تقدير وتفسير، أو من تخريج وتفكير ».

هذا النحو التأليفي المرفوض من العقاد هو مع استنكار العقاد له أوفى هدفا وأبلغ قصدا من كثير من رسائل الجامعيين اليوم لأنه على الأقل أحاط بكل نص له علاقة بالتاريخ، حاويا للمعلومات المستطاع وجودها، وذلك ما لا يتم على وجهه المنشود في هذه الرسائل إذ أنها شذور تجمع أشياء وتترك أشياء فليست بذلك ملفا كاملا.. والمؤلف بعد باحث حر، ليس وراءه مشرف، أو لجنة مناقشة، وقد وجد النقد من ناقد يرعى حرمة البحث ويقدر أبعاده ومراميه، وقد مات العقاد رحمه الله قبل أن تسيطر هذه التفاهات في المحيط الجامعي، ولو أدركها لصاح واستغاث!

وأشير إلى ناحية ذات مغزى، فقد ألف الأستاذ الجليل أحمد شلبي كتاباً تحت عنوان (كيف تكتب بحثا أو رسالة) صادف رواجا هائلا، إذ قاربت طبعاته العشرين! لأن طلبة الرسائل المساكين قد ظنوا أن مجرد قراءة الكتاب، ستجعلهم أصحاب دراية تامة فيما يحاولون مع أن الكتاب وأمثاله لا تفيد غير صاحب الدراية العلمية بأساليب البحث، فهو يستوثق بما فيه، في طريقه التأليفي على شريطة أن يكون قد قرأ من الرسائل

الجامعية الممتازة ما أعطاه انطباعا صادقا عن التأليف المنشود، فتكون هذه النماذج موضع المحاذاة الجادة فى المنهج وطريقة التناول، والذى يعتمد على كتاب الدكتور شلبى ونظائره التى انتشرت الآن على نحو مستفيض، دون أن يحمل فى أعماقه بذرة الباحث التى تتهيأ للنمو المتصل بتكرار القراءة الفاحصة، والنظر المستوعب يكون مثاله مثال المقعد الكسيح الذى يقرأ كتابا فى تعلم «السباحة» فمهما قرأ الكتاب وامتصه امتصاصا فهو لا يستطيع أن يجازف بإلقاء نفسه فى الماء، لأن الأداة الأولى للسباحة مفقودة، وسيغرق لا محالة بمجرد مباشرة الماء كذلك تكون حال الذين لم يأخذوا من هذه الكتب غير معلومات عن تنظيم البطاقات، ونقل النصوص كاملة أو مبتورة، وطرق التهميش وعلامات الترقيم، وفهرسة المصادر والأبواب ونحن أبناء الجيل الماضى قد كتبنا الرسائل دون أن نقرأ هذه الكتب لأن مزاولة القراءة المتئدة لآثار الكبار من الباحثين قد أغنت عن هذه الكماليات غناء تاما! وإذا كان الذى يعرف الوزن العروضى لا يستطيع أن يكون شاعرا دون موهبة أصيلة، فكذلك من يهتم بنصائح هذه الكتب، دون أن تتقد فى صدره جذوة البحث الدافعة إلى

الكمال بحرارتها المشتعلة، وبعض المشرفين - جزاهم الله - يريدون أن يريحوا أنفسهم من كل مسئولية علمية فينصحوا الدارس المبتدئ بشراء هذا الصنف من الكتب، وكأنهم بذلك وحده قد هدوه سواء السبيل!

فحص وتقييم البحوث

وكنت أسأل نفسى حين أقرأ رسالة من هذا الطراز المؤسف، ماذا كتب الفاحص فى تقريره الذى رفعه عنها إلى المسئولين، والذى قضى بصلاحية الرسالة للمناقشة، فوفقنى الله إلى العثور على بعض هذه التقريرات فى جامعات مختلفة لا فى جامعة واحدة إذ كلنا فى الهم شرق، فقرأت القليل مما أستحسن وأحبذ، ولكن الكثير - وأأسفاه - لم يزد على أن يكون فهرسا لموضوعات الرسالة، حيث ينص المقرر الجليل على أن الرسالة عدة أبواب وعدة فصول، ويذكر عناوين الفصول كما هى، ثم يقرر صلاحيتها للمناقشة، وهو بعمله هذا شبيه بمن يفهرس الكتب فى المكتبات، فيكتب عن كل كتاب موجزا مقتضباً لأبوابه، ولكنه لا يدّعى أنّه فاحص ناقد، فهو موظف يؤدى عملا نيط به، والمقارنة بين الحاضر المزعج والماضى المشرق، أليمة مفجعة، فقد وقع فى يدى أول تقرير عن أول رسالة فى

التاريخ قُدمت للجامعة المصرية سنة ١٩٢٠ منذ أكثر من ثمانين عاما، هذا التقرير لم يكتبه أكاديمي متخصص يُباهي بدرجته العلمية، ومكانته في هيئة التدريس بالجامعة. ولكن كتبه عالم جليل تخرج في مدرسة دار العلوم في أواخر القرن التاسع عشر، وزاول المحاماة الشرعية حيناً، فالتعليم بالمدارس الحكومية حينا آخرا ثم اختير بعد أن اشتهر بالفضل والعلم مدرسا للتاريخ بالجامعة المصرية خلفا للشيخ محمد الخضري، وكلاهما فرسا رهان في البحث والجدل، وألقى محاضرات ممتازة سجلتها صحيفة (الجامعة المصرية) في أوائل العشرينات! هذا العالم البحاثة المفضال هو شيخنا الأستاذ عبدالوهاب النجار الذي يقول الجارم فيه هذا البيت النادر

تذل له شموس القول طوعا
ويستخذي له المعني المدل

إذ كان من الذين ناقشوا الدكتور أحمد بيلي في رسالة عن صلاح الدين الأيوبي، وكتب عنها تقريراً علميا نشره المؤلف في صدر كتابه، فبهرني أن يكون التقرير في اثنتي عشرة صفحة مستفيضة بما يدل على أن الفاحص قد هضمها هضما، واستوعبها استيعاباً دقيقا لا شيء بعده، وقد قسم التقرير إلى عناصر هي:

١ - هل أحسن صاحب الرسالة الاختيار.

٢ - المصادر التي استقى منها كلامه.

٣ - لغة الرسالة.

٤ - المؤاخذات اللغوية . وقد قال في خاتمتها إن الكثير مما ذكر قد يكون له مساغ في اللغة ولكنه حريص على الأجود الأمثل.

٥ - الرسالة كبحث تاريخي. وقد أفاض في هذا العنصر بما لا مزيد عليه.

٦ - الأمور التي تحتاج إلى محاورة سيتناولها أثناء النقاش في الحفل العام! فبالله ثم بالله. ماذا يقول الناقد حين يوازن بين تقرير كتب منذ أكثر من ثمانين عاما في بدء الدراسة الجامعية، وتقارير يكتب الواحد منها في أقل من صفحة لملء الفراغ!

مناقشات انتخابية

هذا عن التقارير (المحترمة) التي يكتبها أساتذة الجامعة في القرن الحادي والعشرين.

أما المناقشة نفسها، فقد أتيح لي أن أسمع خلاصات لها في حلقات (البرنامج الثقافي) أسمعها مضطرا، لأن نظري الضعيف لم يعد يسمح لي بالقراءة أثناء الليل، ولأني مصاب بالأرق الذي لا حيلة

لى فـيـه، حـين يكون ليلى كليل إمـرىء القيس يتـمطى بصلبـه، ويردف أعـجـازا، وينوء بكلكل، وإذن فـالاسـتـمـاع للبـرنامج ضـرورة لا مـعدى عنها! وأكرر أن الجيد فى حلبـات النقاش موجـود فـعلا، إذ يتم على أيدى أسـاتذة أصـلاء لا أدرى مـاذا يكون الموقف لدينا حين يبرحـون الحيـاة ويتركون الحلبات لأكثرية تهتم بالقشور، ولا تصل إلى اللباب، وقد يكون فى هؤلاء من يخطىء الصـواب فـيقابل بالتصـفيق، ومن يعدل خطأ بخطأ أسـوأ منه فـيقـابل بالتصفيق، وكأننا فى حفل انتخابى يقوم به مهرج محترف مرشحـا جمع أنصاره والأقـربين للهـتـاف والضـجـيج، ولو أردت أن أضـرب الأمـثلة لسـقطات شـائنة مما سمعت لضاق شبر عن مسير!

وأسـأل نفـسى، مـا عـلاج هـذا الدّاء الوبيل الذى استشرى فى كل الجـامعات لا فى بعـضـهـا فـأجـدنى وقـد حـاولت تشـخـيصـه لا أسـتطيع تحـديد الدواء الناجع، ومن أنا حـتى أقـوم بـهـذا العبء الثـقـيل، ولدينا مـجـالس للجـامـعـات، ومـجلس أعلى فـوق هذه المجـالس، كمـا لدينا المجالس القومية المتخصصة، تضم من الفضلاء من يجب أن ينهضوا بالعمل الجاد للخروج من هذه الأوحال؟ على أنى أقترح أن تكون مدة الدراسة العالية أربع سنوات لا سنتـين وأن يكون للدراسـات العليا كلية خاصة تجمع الأكفاء ممن لهم شـهـود علمى ملحـوظ داخل الجـامـعـة وخارجـها ويستـحسن أن يكون أعـضـاء المناقشة خـمسـة لا ثلاثة، كمـا يجب أن ينال الطالب درجـة الامـتيـاز فى خـتـام السنوات الأربع ولا يكتـفى بما دونهـا، وهذه مسكنات فقط، أما العلاج الحاسم فأتركه لذوى التجربة من الممارسين.

وإذا اسـتـمـر الحـال على نحـو مـا وصفت، فستفقدُ الدراسات العليا كيانها الحقيقى الذي شُرعت من أجله، وستعود شـبـيـهـة بما دونهـا من الدراسـات فى الكليات والمدارس الثانوية، ومـا فى ذلك مغالاة، بل هو الواقع الأليم.

كـان أسـتـاذي الكبـير أحـمـد شـفـيع السيد رحـمه الله، يقول الشـعر لنفسـه لا للقراء، وكـان يكتب البيتين والثلاثة على الكتب التى يطالعـهـا دون أن يهـتـم بجمعها، وقد قرأت ذات مرة قوله الناقد مسطراً فى مجلد كبير، اهتم مؤلفه بالكم لا بالكيف، فأوحى للشاعر أن يقول:

أصبح التأليف قضما
والتهـــاماً للمراجع
فإذا رُمـت ابتكـــارا
تجـــد الدار بــلاقع!

وهكذا أكثر رسائل اليوم! فاعتبروا يا أولى الألباب! ■

القراءة

في العصر الإلكتروني

بقلم

د. أحمد محمد صالح

● هل أعلن العرب موت المؤلف والقارئ والناشر؟!

وقفت طويلا أمام النتائج التى أظهرتها الدراسات الحديثة حول التأثير السلبى للتكنولوجيا الجديدة على القراءة، حيث أثبتت الأرقام تناقص عدد القراء نتيجة انتشار التليفزيون والإنترنت وألعاب الفيديو. وأوضحت أن ٥٠ ٪ من الشعب الفرنسى المعروف بولعه للقراءة أحجم عن شراء الكتب فى عام ٢٠٠٣، هذا بالإضافة إلى تزايد أعداد الذين يقاطعون القراءة. واستفزت تلك النتائج فضولى حول تداعيات تكنولوجيات المعلومات على مستقبل القراءة والكتابة في العصر الرقمى، وحاولت استكشاف ذلك فى موضعين سابقين فى مجلة الهلال، تحت عنوان القراءة والكتابة فى خطر، وهل نعلن وفاة القراءة؟! وعجالة اليوم تستكمل استشراف مستقبل القراءة والقراء فى العصر الإليكترونى مع روجر تشارتير Roger chartier مدير قاعة إكولى Ecole des Hautes Etudes للموسيقى بباريس.

ومن أعمال تشارتير المبكرة التاريخ الحديث لأوروبا، وخاصة تاريخ التعليم، وتاريخ الكتب والقراءة. وحديثا هذه الأيام تركزت أعماله حول العلاقة بين الثقافة المكتوبة. وبين الآداب وخاصة المسرح فى فرنسا. ودراساته بصفة عامة تقع فى سياق المناطق البيئية بين علم الاجتماع والفلسفة والأنثربولوجيا. وله كتاب مشهور مع كافاللو جوغلايمو Gugliemo ca-vallo عنوانه تاريخ القراءة فى الغرب

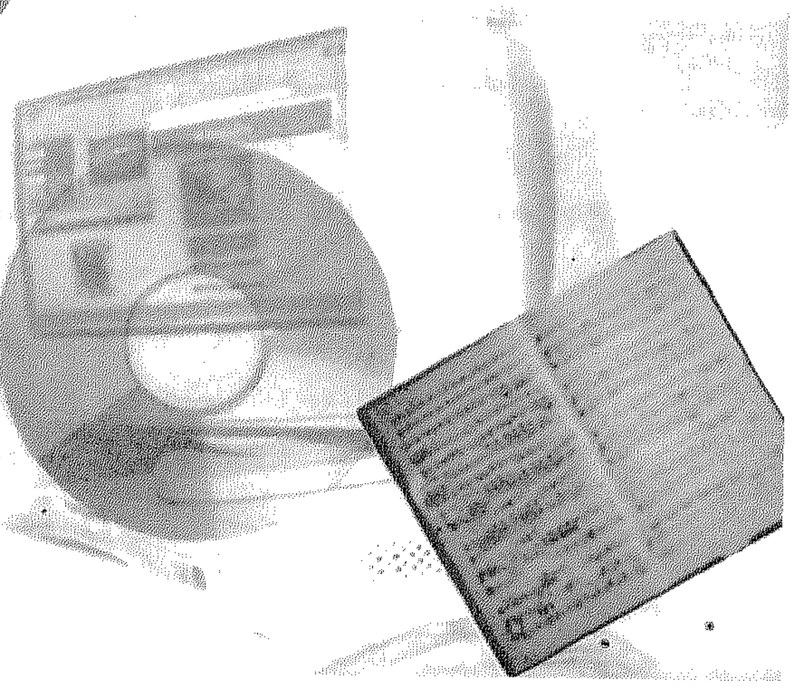

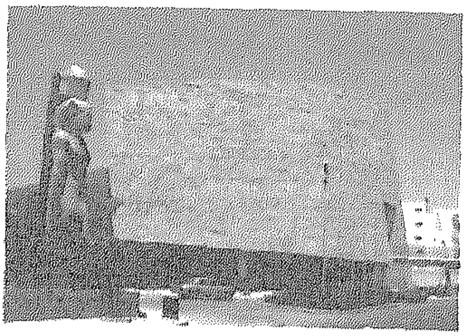

• مشروع رقمى متكامل تتبناه مكتبة الإسكندرية

نشر عام ١٩٩٩، وكتاب عن اللغة وتطبيقاتها عام ١٩٩٧، وعن الثقافات والثورة الفرنسية عام ١٩٩٣. وروجر تشارتير Roger Chartier له ايضا مقالة مهمة منشورة على الإنترنت عام ٢٠٠٢ باللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية. يتناول إشكاليه القراء والقراءة فى العصر الإليكترونى، ويذكرنا فى بداية مقالته بالمقولة المشهورة التى كتبها رولند بارنيس Roland Barthes عام ١٩٦٨ وأعلن فيها موت المؤلف! وخلع عنه سيادته السابقة على اللغة، حيث انتشرت كتابات متعددة فى العديد من الثقافات ، كلها فى حوار مع بعضها البعض بأسلوب احتجاجي وساخر، وأن المؤلف تنازل عن تفوقه وأوليته إلى القارىء، هذا الشخص الذى تتجمع عنده كل الآثار والنتائج المكتوبة، وأصبحت القراءة فى المكان أو القراءة المتنقلة أو الجمعية غير مستقرة وقلقة.

موت المؤلف ، والقارىء

وإذا كان رولند بارنيس أعلن وفاة المؤلف، فإن روجر تشارتير فى مقالته بعد أن أكد ولادة القارىء تبعه فورا تشخيصا بموته، معتمدا على التحويلات فى ممارسات القراءة، حيث تظهر المعلومات الإحصائية التى جمعت من مسوح مختلفة فى دول أوروبا حول السلوك الثقافى - بينت بشكل حاسم - أنه بالرغم من أنها لم تشر إلى انخفاض عام فى النسب المئوية العامة للقراء لكنها أكدت على الأقل تخفيضا فى نسبة القراء الجادين heavy readers فى كل فئة عمرية، وبشكل خاص بين القراء المراهقين. لكن السياسات التحريرية عززت ملاحظات الاعتقاد فى وجود أزمة قراءة. وبدون استعراض الإحصائيات ، يقرر روجر تشارتير، بأنهم فى فرنسا وأوروبا يشعرون بأزمة قراءة قاسية جدا فى مناطق العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة فى الفلسفة والآداب، وإذا كانت أزمة القراءة متشابهة على جانبى الأطلنطى، حتى لو كانت الأسباب الأساسية ليست تماما نفس الشيء، فالعامل الأول فى أزمة القراءة فى الولايات المتحدة، هو التخفيض الصارم فى استملاك الدراسات بمكتبات الجامعات التى تآكلت ميزانياتها بسبب الاشتراكات فى النشرات الدورية التى تصل أسعارها فى بعض الحالات بين ١٠ و ١٥ ألف دولار فى السنة، لذلك تحفظ ناشرى الجامعة عن نشر الأعمال التى تعتبر متخصصة جدا مثل: أطروحات الدكتوراه، والدراسات والبحوث التخصصية، والأعمال العلمية. وأوروبا كلها فيها تحفظ مشابه، يحدد عدد العناوين التى تنشر وعدد النسخ لكل عنوان، هو نتيجة مباشرة لتقلص الجمهور الذى يشترى ، والذى لا تهمه العناوين الأكاديمية فقط، فهى قطرة فى المبيعات وإذا كان روجر تشارتير. أعلن وفاة المؤلف والقارىء على جانبى الأطلنطى، فإن المنطقة العربية أعلنت من زمان موت المؤلف والقارىء والناشر. فمقولة «العرب لا يقرأون»، مقولة شهيرة، وتصدق اليوم أكثر من أى وقت مضى.

وأزمة القراءة والقراء فى المنطقة العربية لها أسبابها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ليس هنا مجالها، ولكننا نجملها تحت عنوان منظومة الاستبداد والتخلف، وهى تختلف تماما عن السبب الرئيسى الذى شخصه روجر تشارتير لأزمة القراءة، وموت القارىء، واختفاء القراءة على جانبى الأطلنطى، ويقرر أنها نتيجة حتمية لحضارة

الشاشات، وانتصار الصور والاتصال الإلكترونى. فالقرن الجديد حمل لنا جيلا جديدا من الشاشات، تختلف عن شاشات السينما أو التليفزيون ، شاشات تحمل النصوص، ليس النصوص فقط بالتأكيد، لكن أيضا الصور. ويمكن الآن استبدال المواجهة القديمة بين الكتاب، والكتابة والقراءة من ناحية، وبين الشاشة والصور، بمواجهة جديدة فيها وسطا جديدا للثقافة المكتوبة وشكلا جديدا للكتاب. ويزعم روجر بوجود رابطة متناقضة جدا بين كلية وجود الكتابة فى مجتمعات أوروبا، ووساوس اختفاء الكتاب وموت القارىء، ويطلب من القراء لفهم هذا التناقض، بالرجوع بالنظر إلى الوراء، وتقييم تأثيرات الثورات السابقة على وسائط الثقافة المكتوبة.

اللفائف والمخطوطة والإلكترون

ويرصد روجر شكلا جديدا من الكتاب فرض نفسه فى القرن الرابع من العصر المسيحى، على حساب الشكل الذى كان مألوفا إلى القراء اليونانيين والرومانيين وهو اللفائف . وكانت المخطوطة هى الشكل الجديد، عبارة عن كتاب مكون من صفحات طويت وتجمعت وربطت. وبعناد وصعوبة أخذت المخطوطة تدريجيا مكان اللفائف التى حملت الثقافة المكتوبة حتى ذلك الوقت. وهنا نذكر القارىء بأن اللفائف ليست كالمخطوطات، لأن الأخيرة كتبت باليد، وغالبا على الورق «الكاغد» العادىء أما اللفائف فقد كتبت على نوع معين من الورق يصنع من نبات البردى، كما أن المخطوطات متعددة الصفحات والأوراق، أما البرديات فهى لفافة قد تكون طويلة أو قصيرة حسب الموضوع. وهذه التحولات هى نفس الحالة التى تعيشها البشرية الآن، فنحن على حافة تحويل مشابه كما يقرر روجر وأن الكتاب الإلكترونى سيستبدل أو أستبدل مكان المخطوطة المطبوعة التى نعرفها فى مظاهرها المختلفة، كالكتاب، والمجلة ، أو الصحيفة؟. ويتوقع فى العقود القادمة احتمال تعايش – ليس بالضرورة أن يكون سليما – بين شكلى الكتاب (المطبوع والإليكترونى) وبين الأنماط الثلاثة للكتابة وإرسال النصوص: وهى الكتابة المخطوطة باليد، والنصوص المطبوعة، والنصوص الإلكترونية. وتبدو هذه الفرضية أكثر معقولية من الرثاء حول الخسارة العضالة للثقافة المكتوبة أو الحماس المنفلت الذى يعلن الوصول الوشيك لعصر جديد من الاتصال الإليكترونى. وهذا التعايش المحتمل يتطلب منا أن نفكر فى الطرق الجديدة التى ستبنى بها حقول المعرفة، ومعرفة قيود القراءة أو الشروط التى يجب توفيرها لقراءة الكتاب الإلكترونى. والنصوص الإليكترونية. وتطبيقا لمقولة «أن الشكل له تأثير على المعنى»، يؤكد روجر أن الكتب الإلكترونية ستعيد تنظيم الطريقة التى نعتمد بها على المصادر لعرض الحجج، وتستوجب الكتابة أو القراءة لهذا النوع الجديد من الكتب تغيير المعايير التى تستعمل لتقييم مصداقية أى معالجة كتابية أو خطابية معلولة، خاصة المعالجات المتعلمة. وفعلا بدأ المؤرخون الآن النظر إلى مختلف الأساليب التى تستعمل لمنح المصداقية إلى المعرفة وتداعياتها من خلال حالات الإقتباسات، والهوامش والاستشهادات أو الاحصاءات.وهذه الطرق القائمة لإثبات صلاحية تحليل معين عدلت بشكل كبير، وتحولت من أن تكون ملحقة إلى منطق خطى واستنتاجى ، وأصبحت مفتوحة وعلائقية (كما فى النصوص الإلكترونية) . بهذا المعنى، تكون الثورة فى قيود وشروط إنتاج وإرسال النصوص تغيرت، وتحديدا تغييرا معرفيا. ويسترسل روجر ويبين أن الأعمال المكتوبة بنيت مع قدوم المخطوطة على أساس شكلها المادى: على سبيل المثال ، فى زمن اللفائف كان العمل المكتوب تحمله عدة لفائف، الآن فى المخطوطة يقسم الكتاب الذى يحمل العمل المكتوب إلى أجزاء أو فصول تضم كل العمل، بنفس الطريقة، إمكانيات وشروط الكتاب الإلكترونى

تستدعي إعادة تنظيم التركيب الخطي والمتسلسل في الكتب المعاصرة ، التي مازالت تعتمد على شكل المخطوطة. ويبين روجر تشارتير في مقاله أن الصيغة أو الفورمات الإلكترونية للنص الإليكتروني hypertext ، والقراءة الإليكترونية hyper - reading غيرت وعدلت العلاقة بين الصور والأصوات والنصوص المرتبطة إليكترونيا ، بطريقة لا خطية، وجعلت من الممكن عمليا وجود عدد غير محدود من الارتباطات بين النصوص . واعتبر الروابط والصلات هي المفتاح في هذا العالم النصي الغير محدود، حيث تفتت الوحدات النصية يسهل القراءة ، ويمكن من ضمها سويا. وهكذا طرحت النصوص الإليكترونية مفهوم وفكرة الكتاب ذاته للمناقشة، لأن الفرد يميل في الثقافة المطبوعة إلى الربط بين نمط الكتابة ونمط النص واستعماله المستهدف، وكذلك ترتيب وتسلسل المعالجة المكتوبة تعتمد على الوسط المادي الذي يحملها سواء كانت تلك المعالجة رسالة أو صحيفة أو مجلة أو كتاب أو أرشيف. وهذا ليس الحال في العالم الرقمي حيث كل النصوص بغض النظر عن طبيعتها، تقرأ في نفس الوسط (شاشة الحاسوب) وفي نفس الأشكال. وهذه «الاستمرارية» خلقت عدم وجود اختلافات بين الأنماط والأدوار الفنية للأساليب النصية المختلفة.

خصائص ملكية النصوص

وطالب روجر تشارتير في محاضرته بإعادة تنظيم عالم الكتابة الرقمية كشرط ضروري وتمهيدي للوصول إلى الإنترنت المدفوع. حماية لحقوق المؤلف الأخلاقية والاقتصادية. هذه الشروط مستندة على ضرورة التحالف بين الناشرين والمؤلفين، وهذا التحالف من المحتمل سيؤدي إلى تحويل عميق في العالم الإلكتروني الذي نعرفه الآن، حيث ستتضاعف كفاءة الأنظمة الأمنية الإليكترونية التي تستهدف حماية الكتب الإليكترونية وقواعد البيانات . مثل هذا النظام مطلوب لمواجهة الطبيعة العشوائية المعلومات التي نحصل عليها بمحركات البحث. ومن ناحية أخرى يمكن في المدى البعيد، أن ينقلب عالم التقنية الرقمية على رأسه. وتنشأ إمكانية فصل إرسال النص الإلكتروني عن الحاسوب سواء كان كمبيوتر شخصي أو نقال، أو كتاب إلكتروني من خلال اختراع الحبر و«الورقة» الإلكترونية! لقد طور الباحثون تقنية تحويل أي جسم بما في ذلك الكتاب كما زلنا نعرفه ليصبح وسيطا لكتاب إلكتروني أو مكتبة إلكترونية، ومجهزا بمعالج دقيق أو يتم إنزاله من على الإنترنت،وتتقبل صفحاته الحبر الإلكتروني الذي يسمح لنصوص مختلفة بظهور بالتوالي على نفس السطح ، وهكذا يمكن للنصوص الإلكترونية أن تعتق من قيود حبسها المتأصل على الشاشات كما تعودنا. ويساعد هذا التقدم التقني كما يقول روجر على فصل الرابطة بين تجارة الآلات الإلكترونية والنشر على الإنترنت، والذي يعتبر مصدر ربح للبعض. حتى بدون تخيل هذه الفرضية للمستقبل. نسجل هنا اندهاشنا ونتساءل هل الكتاب الإلكتروني في شكله الحالي سيكون قادرا على جذب أو إنتاج القراءة؟! والإجابة نجدها في المقال الذي يبين أن التأريخ الطويل للقراءة يكشف بشكل أوضح بأن الثورات في تبني وممارسة المستحدثات تتخلف دائما، وأبطأ في أغلب الأحيان من الثورات في التقنية نفسها، فالطرق الجديدة للقراءة لم تتبع فورا اختراع الطباعة، بنفس الطريقة ، فئات المثقفون المختلفة التي ارتبطت بعالم النصوص الورقية، سوف تعاني وتبقى وتستمر مع الأشكال الجديدة للكتاب. وهنا من المفيد تذكير القارىء ، بعد اختراع المخطوطة واختفاء اللفائف ، استمر للكتاب نفس المعنى الذي كان مقصود وهو المعالجة الكتابية المطولة. علاوة على ذلك، فإن الثورة الإلكترونية، التي تبدو عالمية تعمق التباينات، بدلا من تخفيضها، فزادت فرص ظهور «أمية جديدة» ، والتي لم تعد تعرف بعدم القدرة على القراءة والكتابة،

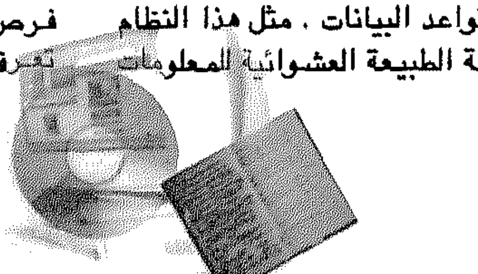

ولكن باستحالة التمكن من الدخول والوصول والنفاذ إلى الإشكال الجديدة لإرسال وتوصيل النصوص الإليكترونية، وعلى أقل تقدير يمكن القول، ونتفق هنا مع روجر أن تلك الإشكال الجديدة ليست مجانية بعد، والمراسلة الإلكترونية بين المؤلفين والقراء والتى تسمح بأن يصبح المؤلفين منفتحين باستمرار على تعليقات وتدخلات القراء، تسمح أيضا بإقامة علاقة بين المؤلف والقارئ، تلك العلاقة التى كان المؤلفون يطمحوا فى إنجازها مع الكتاب المطبوع وقبل العصر الإليكتروني، والآن أصبحت العلاقة بينهما أكثر حوارية، وأكثر مباشرة بين العمل وقراء العمل . وهى فرصة جذابة أيضا. لكن ذلك، يجب ألا يجعلنا ننسى بأن القراء والمؤلفين للكتب الإلكترونية مازالوا قليلوا العدد جدا، وتبقى الفجوة عظيمة بين الوجود الإستحواذى للثورة المعلوماتية وحقيقة الواقع لممارسات القراءة، التى مازالت مرتبطة بالأهداف المطبوعة والتى تسمح بالاستعمال الجزئى فقط للإمكانيات المتولدة بالتقنية الرقمية. ويحذر روجر ويقول: يجب أن نكون واضحين بما فيه الكفاية ولا نأخذ ما هو تخيلى كأنه حقيقة وواقع فعلى. إن الثورات المختلفة فى الثقافة المكتوبة كانت تحدث فى الماضى بطريقة مجزأة وغير واضحة، الآن أصبحت تلك الثورات آنية ومتزامنة، وإن ثورة النص الإلكترونى هى فى الحقيقة ثورة فى تقنية وإعادة إنتاج النصوص، وهى ثورة فى وسائط وأدوات الكتابة، وثورة فى ممارسات القراءة، وتتميز بثلاث ميزات رئيسية لها تأثيراتها العميقة على علاقتنا بالثقافة المكتوبة. أولا التمثيل الإليكترونى للكتابة عدل مفهوم سياق الكتابة بشكل جذرى، وكنتيجة لذلك تغيرت بنية المعنى. فالتلاصق المادى للنصوص المختلفة المجمعة فى كتاب واحد أو فى مجلة دورية تفسح المجال لتوزيعها النقّال، ولبرمجتها فى إرشيفات معمارية من قواعد البيانات وتحولها إلى تجمعات رقمية. ثانيا: التمثيل الإليكترونى للكتابة أعاد تعريف الخصائص المادية للأعمال، لأنها نوبت الرابطة المرئية بين النصّ والجسم الذى يحتوى النص، ولأنها أيضا أعطت القارئ، وليس المؤلف أو الناشر سيطرة أكبر على بنية النص فى إعادة ترتيبه وتبويبه وتنسيقه لظهور الوحدات النصّية التى ستقرأ. وهكذا تغير تماما النظام الكامل لفهم وإدراك ومعاجلة النصوص. ثالثا وأخيرا، عند القراءة على الشاشة، يعود القارئ المعاصر بعض الشّىء إلى موقف قارئ العصر القديم، والاختلاف بأنّه يقرأ لفيفة تجرى عموما بشكل عمودى وموهوبة بالخصائص المتأصلّة فى شكل الكتاب منذ القرون الأولى من العصر المسيحى: تقسيم الوثيقة وترقيمها، والفهرس، والجداول والقوائم، إلخ، وبذلك تكون الكتابة الإليكترونية دمجت بين نظامين سابقين وهما المخطوطة والكتاب المطبوع وأدت إلى علاقة كلية أصيلة مع النصوص. ويستمر روجر ويقول أن هذه التحويلات أعطت النصوص الإلكترونية أصالة القديم، لكنها أبدا لم تنجز خيال المعرفة الكاملة بتوفر كل النصوص التى كتبت وكل الكتب التى نشرت فى صورتها الإليكترونية، مثل ما يأملون فى مكتبة الإسكندرية، ويعدون بتوفير كل النصوص والكتب العالمية. وكما هو الحال مع ممارسة بلاغة الخطابة فى الأماكن العامة فى عصر النهضة حيث يتشارك الحضور مع الخطيب، يطلبون الآن تعاون القارئ، الذى يستطيع الآن أن يكتب فى الكتاب بنفسه، ويدخل على الأقل مكتبة من الكتابة الإلكترونية، يناقش ويجادل بحرية بدون قيود. وكما هو الحال فى عصر الطباعة، نجد أن عصر النصوص الإليكترونية مفعم ومشحون بالتوتّرات الرئيسية المستقبلية القابلة للتخيل بقوة أكثر: مثل انتشار المجتمعات المنفصلة، والتى تعرّف باستعمالها للتقنيات الجديدة؛ ظهور قوة قبضة الشركات المتعددة الجنسيات على قوانين قواعد البيانات الرقمية وإنتاج أو توزيع المعلومات؛ بروز مؤسسات عالمية عامة، تعرّف بإشتراك كلّ

أعضائها في تبادل وجهات النظر النقدية، فالاتصال المجاني والفورى من على بعد جعل من الممكن من خلال الويب أن تلد أى من هذه الحالات. لكن هناك أيضا آثار سلبية يمكن أن تؤدى إلى خسارة الخصوصيات، وبالتالي تسبب هيمنة نموذج ثقافى واحد، إلى تدمير التنويع الثقافي. ومن الناحية الأخرى، ربما أيضا تؤدى إلى نمو شكل جديد من بنية المعرفة، وتضيف إلى نقل العلوم القائمة، وبناء تجميعات للمعرفة من خلال تبادل الخبرة والحكمة، من خلال المراسلات أو المجلات الدورية الإليكترونية.

المكتبات في العصر الرقمي

ويتراجع روجر فى الجزء الأخير من مقاله ويقول: الوسيط الجديد للكتابة لا يعنى نهاية الكتاب أو موت القارىء. العكس ذاته قد يكون صحيحا!! بشرط إعادة توزيع الأدوار ضمن «اقتصاديات الكتابة» والمنافسة (أو التكامل) بين أجهزة الإعلام المختلفة، وضمن العلاقات الجديدة بين المواد الثقافية وأشكالها الجمالية فى عالم النصوص. ويتعجب روجر من أن النصوص الإلكترونية قد تكون قادرة على بناء بنية أساسية للتبادلات المكتوبة عبر فضاء عامّ تسمع فيه لكلّ شخص بالمشاركة.

والسؤال الذى تطرحه المقالة فى النهاية عن كيفية تحديد دور المكتبات ضمن هذه التحولات العميقة فى الثقافة المكتوبة؟! وتناقش الإجابة إمكانيات التقنية الجديدة فى القرن الحالي بالتغلّب على التناقضات التى طاردت دائماً علاقتنا بالكتاب، مثل حلم المكتبة العالمية تعبيرا عن الرغبة فى الامساك وتجميع واختزان كل تجميعات النصوص المكتوبة القديمة والحديثة، وعلى مستوى كلّ المعارف المبنية. لكن الإحباط والتوتر رافق هذه التوقعات العالميّة . وقد يفهم ذلك ضمن سياق المواقف نحو الكتابة طوال التاريخ، فقد بنى هذا التوتر على أساس الخوف من الخسارة والعجز، وحكم هذا التوتر والخوف كل الأعمال التى وظفت فى حماية تراث الإنسانية المكتوب مثل البحث عن النصوص القديمة، ونسخ الكتب النفيسة، وطباعة المخطوطات، وبناء المكتبات العظيمة، وتجميع دوائر المعارف والموسوعات، وفهارس وأدلة النصوص. وفسر روجر ذلك التوتر بأن النصوص معرضة دائماً للاختفاء، وتستلزم دائماً حفظها وصيانتها، وإن تلك المهمة لا تنتهى، لمواجهة الزيادات فى تلك النصوص، من خلال عمليات إعادة إنتاج المخطوطات، والتى عرفت فيما بعد بطباعة الكتب، وساعد ذلك على وجود فيض من النصوص أقرب إلى الفوضى، وانبثقت وفرة تستطيع إعاقة المعرفة، لكن الآلات والمكينات قادرة الآن على فرز وتبويب وتصنيف وترتيب النصوص وهو ما نحتاجه للسيطرة على الزيادات الدائمة فيها، حيث يشارك فى تلك العمليات: المؤلفون بأنفسهم الذين يحكمون على نظرائهم وأسلافهم، السلطات التى تقوم بدور الرقابة والدعم، والناشرون الذين ينشرون (أو يرفضون النشر)، والمؤسسات التى تخصص وتستثنى، والمكتبات التى تحفظ أو تهمل وتتجاهل. إن المكتبات اليوم أو غداً تستطيع لعب دور حاسم. وفى الحقيقة، بدت الثورة الإلكترونية كأنها إشارة لموت المكتبات، فثورة الاتصالات، والنصوص الإلكترونية وفرت التراث العالمى المكتوب؛ ولم نعد نحتاج المكتبات لتكون المراكز الوحيدة لحماية وتوصيل هذا التراث. فكلّ قارىء، حيثما هو يقرأ، يمكن أن يستلم النصوص ويخلق بها مكتبة بدون حيطان، حيث الكتب والوثائق فى شكلها الرقمي. يؤكد روجر أن هذا الحلم الجميل، يجب ألا يضللنا ويبهرنا. فهناك جهود ضخمة مطلوبة للتحويل الإليكترونى لكلّ النصوص الموجودة التى لم تنشأ بالحاسبات، حتى لا تتعرض للدمار، وربّما، أحد المهام الضرورية للمكتبات اليوم أن تجمّع وتحمى وتفهرس كل النصوص التى كتبت فى الماضى، وتجعلها أيضا سهل الوصول إليها. وعلى مكتبات المستقبل أيضا حفظ النصوص الثقافية السابقة، والتى

تمثل الماضى فى نفس الفورمات التى وجدت عليها، وإلا بعد مرور الوقت ستفقد قيمتها الثقافية والتراثية! والمكتبات يجب أيضا أن تكون الآلات والأدوات التى تساعد القرّاء الجدّد فى اكتشاف طريقهم فى العالم الرقمى، ويمكن أن تكون متعاطفة ويقظة مع حاجات وحيرة القرّاء وتستطيع لعب دور ضرورى فى تعليم الآلات والتقنية التى يحتاج لها القرّاء الأقل خبرة لكى يتقنوا الأشكال الجديدة للكتابة. وكما هو الحال مع وجود الإنترنت فى المدارس، حيث وجودها نفسه لا يبدد الصعوبات الإدراكية المتأصلّة فى تعلّم الكتابة، كذلك الاتصال الإلكترونى للنصوص، فى حد ذاته لا ينقل المعرفة المتطلبة للفهم والاستعمال. كذلك القارىء الذى يبحر فى التقنية الرقمية بحثا عن النصوص يواجه خطر تزاحم وتراطم أمواج المعلومات ويحتاج دائما إلى ميناء ترشده، والمكتبة الحديثة هى الفنار الذى يرشد الملاحين المبحرين فى بحور المعلومات الرقمية. والدور الآخر لمكتبات اليوم والغدّ كما يرصده روجر هو إعادة تكوين المؤانسة أو النزعة الاجتماعية حول الكتاب، والتى فقدناها! حيث يعلمنا التأريخ الطويل للقراءة عبر القرون، أن القراءة أصبحت ممارسة صامتة وانفرادية، وعزلت نفسها أكثر وأبعد عن الروح الاجتماعية المشتركة للكتابة التى ساعدت على توحيد العوائل، والصداقات، والجمعيات العلمية أو المجموعات المناضلة، في عالم تعرف فيه القراءة بأنها علاقة خاصة وعميقة وشخصية بالكتاب، والمفارقة هنا، ربّما، منذ عصور القرون الوسطى، أن المكتبات تطلب دائما من القرّاء أن يلتزموا الصمت. والخلاصة أن دور المكتبات فى العصر الإليكترونى هو حماية الميراث المكتوب والإبداع الثقافى والجمالى.

المكتبات الرقمية والتراث العربى

وتحفزنا مقالة روجر تشارتير على التساؤل حول دور المكتبات الرقمية فى حفظ التراث العربى، وبداية نذكر أن للمكتبات العامة دور حيوى ومهم فى نشر الثقافة وتوفير مصادر المعرفة لجميع أفراد المجتمع، بل أنها تعتبر إحدى المؤسسات الثقافية التى يقع عليهاعبء كبير فى عملية رفع وعى المجتمع من خلال توفير وإتاحة مصادر المعرفة لمجتمع المستفيدين. وقبل الاجابة على التساؤل السابق وقبل الحديث عن المكتبة الرقمية أو الالكترونية والدور الذى يمكن لها أن تقوم به فى حفظ التراث العربى، يجدر بنا تبيان وايضاح الفرق بينها وبين المكتبة التقليدية. ويمكن ايجاز ما يميز المكتبة الرقمية عن المكتبة التقليدية فى نقطتين اثنتين: أوعية ومصادر المعلومات، وسبل إتاحة هذه الأوعية والمصادر. تتوفر أوعية ومصادر المعلومات فى المكتبة الرقمية على وسائط رقمية مخزنة فى قواعد معلومات مرتبطة بشبكة الإنترنت بحيث تتيح للمستفيدين الاطلاع والحصول علي هذه الأوعية من خلال نهايات طرفية مرتبطة بقواعد المعلومات الخاصة بالمكتبة. هذه الطريقة تتيح للمستفيدين الاطلاع والحصول على أوعية ومصادر المعلومات فى أى وقت ومن أية مكان تتوفر فيه نهايات طرفية مرتبطة بتلك القواعد المعلوماتية. ومن أوراق الندوة الإقليمية حول توظيف تقنيات المعلومات والاتصالات فى التعليم برعاية الاتحاد الدولى للاتصالات، دمشق، يوليو ٢٠٠٣. نرصد منها مميزات المكتبات الرقمية، وهى: حفظ المعلومات من الكوارث وعوامل التلف الطبيعية والبشرية وبشكل أكثر فاعلية، وهى أقل تكلفة من المكتبة الورقية. وتسمح بتخزين كميات هائلة من المعلومات وإتاحتها للأفراد بتكلفة بسيطة فمثلاً أحدث طبعة لكتاب الأغانى صدرت عام ٢٠٠٢ تتكون من ٢٤ مجلدا، توفرها مكتبة الوراق الرقمية مع ٤٠٠ كتاب من نفس الأهمية على اسطوانة مدمجة CD ومع إمكانات البحث النصى. وتسهل المكتبة الرقمية الوصول إلى المعلومات بسرعة، بفضل التطور فى تخصصات الكمبيوتر ونظريات رياضية، وفيها برمجيات للتعرف

على الصور وتمييز الأصوات. وتسمح المكتبة الرقمية بتخزين أنماط مختلفة من المعلومات Multimedia بحيث نستطيع اليوم قراءة كتاب ما مع الاستماع إلى الشعر الموجود فيه ومشاهدة الصور كما هو الحال فى موقع كتاب صور الكواكب وهو من المواقع التعليمية المرافقة لموقع الوراق. وتضع المكتبة الرقمية بيد المستخدم أدوات للتعامل مع المعلومات أكثر فاعلية من الأدوات التقليدية اليومية: التخزين والحفظ السريع والأرشفة والبحث، مع إمكانات متطورة فى تحرير النصوص، ووضع العلامات والتعقيبات، وتوفر إمكانات متطورة فى الطباعة، وتبادل المعلومات بالبريد الإلكترونى أو بـ FTP . وفتحت المكتبة الرقمية آفاقاً جديدة فى التفاعل مع الآخرين بحيث يمكن للقارىء مشاهدة تعليقات القراء الآخرين لنفس الكتاب ومشاهدة تقييمهم له وأحياناً الدخول فى مناقشة حية معهم أو من خلال تبادل الرسائل. مما لا شك فيه أن تطور تكنولوجيا المعلومات قد انعكس بشكل إيجابى على التراث العربى ولكن تبقى استفادة العرب من تكنولوجيا المعلومات ومشاركتهم فى تطويرها محدودة . وفى مصر تبنت مكتبة الاسكندرية فى حدود علمى اتجاها نحو امتلاك الأدوات التى تكفل لها الريادة فى هذا المجال بدءا من تأسيس قسم لتكنولوجيا المعلومات إلى تبنى خطط رقمنة المعلومات سواء كانت تخدم التراث أو تشارك العالم فى التحدى الرقمى المعاصر. ومن تلك المشروعات التى قرأت عنها فى النشرات الإعلامية المتصفح التخيلى للمخطوطات الذى يتيح هذا تصفح المخطوطات، على شاشات الحاسب الآلى بصورة تطابق المخطوط الأصلى، والمكتبة الرقمية للمخطوطات والتى صدر منها أول مجموعة على أقراص مدمجة، مشروع الشراكة بين مكتبة الأسكندرية والمركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والبيئى: وهو مشروع يهدف إلى تقديم صورة متكاملة لمصر وتراثها. وأيضا المكتبة الرقمية العربية: هذه المكتبة تضم ٢٠ ألف كتاب فى مرحلتها الأولى. وبدأت المكتبة فى بحث توقيع اتفاقيات تعاون مع عدد من المؤسسات الثقافية العربية لتكوين هذه المكتبة. لعل أولها اتحاد الكتاب العرب ثم المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى دولة الكويت ونادى تراث الإمارات فى أبو ظبى. وفى هذا الإطار قرأت عن اتفاقية لنقل محتويات أعداد مجلة الهلال الصادرة على مدى ١١٣ سنة على أقراص مدمجة (سى ديهات) وذلك لتسهيل توفير مادتها الثقافية والأدبية والعلمية والتاريخية للكتاب والباحثين وللجامعات والمراكز العلمية، وهناك الكثير من المشروعات التى تبشر بها النشرات الاعلامية عن المكتبة مثل مشروع المليون كتاب، الخدمة المكتبية المتكاملة بالرقمنة على الانترنت للاستفادة من الخدمات المختلفة فى مكتبة الاسكندرية، مشروع التبادل المكتبى: وهو مشروع رقمى تتبناه مكتبة الاسكندرية يقال انه سوف يتيح لأى طفل فى قرية مثلا الاطلاع على الأعمال العظيمة التى قامت بها البشرية من خلال المكتبة حيث سيتمكن هذا الطفل من الاطلاع عبر الإنترنت على الكتاب أو الفيديو من خلال المكتبة أو الفيديو الذى يريده. هذا غير الشراكة فى أرشيف الانترنت، وهو مشروع طموح بدأ فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. كل هذه المشروعات الرقمية وغيرها لمكتبة الإسكندرية، لها قيمتها المعرفية الكبيرة بعد إكتمالها، لكنى شخصيا كمواطن عادى لم أشعر بها خاصة عندما دخلت موقع المكتبة على الإنترنت، والذى اتسم بالبطىء الشديد، ومعظم خدماته لم تكتمل أو تحت الإنشاء. ■

شخصية العدد

تعتز مجلة الهلال بالكاتب الكبير «رجاء النقاش»، الذى تولى رئاسة تحريرها فى فترة من عمرها المديد، فأضاف إليها الكثير..

الهلال

رجاء

المحب الغاضب

بقلم
فريدة النقاش

أن أكتب عن «رجاء النقاش» أخى وأستاذى فكأنما أكتب عن نفسى، وهل يكتب الانسان عن نفسه دون أن يكذب ؟

أذكر الآن جيدا الكلمات الأولى للرسالة التى كتبتها له حين سافر إلى القاهرة عام ١٩٥٢ ليلتحق بالجامعة، وكنا ما نزال فى قريتنا «منشية سمنود» دقهلية قبل أن نشد رحالنا إلى العاصمة حتى نكون إلى جواره وندخل إلى الجامعة تباعا، نحن الأشقاء الثمانية من الأسرة الريفية المستورة بالكاد، والتى وجدت من التعليم قارب نجاة سيّره أبى المدرس والشاعر «عبدالمؤمن النقاش» رحمه الله بمهارة وتفان، وكانت رفيقة عمره قد خذلته حين مرضت مرض الموت بعد وصولنا إلى القاهرة وكأنها لم تحتمل الغربة فى مدينة بلا قلب فقررت أن تعود إلى الريف.

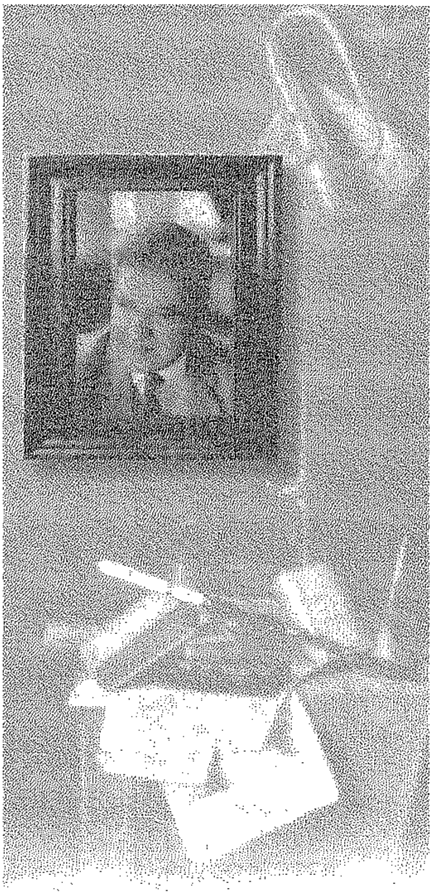

● حكاء من طراز فريد، يملك حسا ساخرا جميلا، ويسأل كثيرا عن معنى السعادة !!

«الأديب الفاضل أخي الحبيب» هكذا بدأت الرسالة الأولى في حياتي .

فكرت طويلا في هذه الكلمات التي خيل إلي حينها أنني أبدعتها وحدي حين كنت أنظف زجاج اللمبة الجاز نمرة عشرة التي حذرتني أمي من كسرها .. وكنا نستعد لدخول الليل الذي طالما أحسسته شديد الحلكة في القرية إذ تنطلق فيه العفاريت والأشباح والجوارح دون خوف من عيون النهار والبشر كما كانت تحكي جداتنا ونصدقهن .

حدثت «رجاء» في خطابي عن ما قرأته ، فقد كان هو بعد أبي رحمه الله أول من أعطاني كتابا أذكر أنه كان رواية مترجمة للأمريكي «جون شتاينبيك» .. قال لي خذي واقرئي فلم أكف عن القراءة أبدا بعدها .

كذلك هو الذي اختار لي قبل أن يسافر فستانا أصفر جميلا مزينا بوردة حمراء لم أستطع أن أخبئها في كراسي كما يفعل العشاق لأنها كانت من قماش .. كان فستانا للعيد ارتديته لأجربه قبل أن يحل الصباح فلم يرق له أنه ليس مكويا فحمله الى المكوجي وعاد به لكي يليق الفستان بالملكة «فريدة» .. تلك الملكة الطيبة التي أنا سميتها ، وقد أحبتها «أمي» كما أحبها المصريون وتعاطفوا معها لأنها كانت مظلومة فهي امرأة فاضلة وبسيطة تتحمل العيش مع الملك الفاسد «فاروق» ولا تنجب سوى البنات . وكان الملك متلهفا لإنجاب وريث لعرش أسرة «محمد علي» ودستور العائلة لا يعترف بولاية النساء فتزوج «ناريمان» التي أنجبت له ولي العهد.

لا أنسى الفستان الأصفر ولا الوردة الحمراء، وأفكر الآن فقط أن هذا هو سر حبي الغامر للون الأصفر والذي يحرك في سرورا غامضا وحنينا لماضي بلا هموم ملأته الطفولة بسعادة مجانية .

هل أحكي حين لدغتني عقربة ذات مساء وحملني هو بلهفة إلى حلاق الصحة لكي يخرج الدم الفاسد من ذراعي؟ أم حين حقنه الرجل نفسه بحقنة بنسلين - على ما أظن - فأغمي عليه، وكدت أموت خوفا وأخذت أصلي وأبكي إلى أن عاد إليه الوعي؟ أم حين تعرض للغرق ذات مرة وهو يصطاد في الترعة ومنعنا أبي جميعا من السباحة والصيد ولكن بعد أن كانت البلهارسيا قد لبدت في أجسادنا وأخذنا نعالجها حتى بعد أن نزحنا إلى العاصمة، وماتت «أمي بسببها»؟.

أخي رجاء محب للتأمل، وهو فضلا عن ذلك حكاء من طراز فريد، يملك حسا ساخرا جميلا، ويسأل كثيرا عن معنى السعادة، ويحتل الرضا من قاموس مفرداته مكانا مميزا، وإن كان هو ليس راضيا ، محبته غامرة وخصومته قاسية وشوقه للمعرفة بلا حد.

طالما سألت نفسي من أين يأتي «رجاء» بهذه العاطفة الجياشة

تجاه الفقراء والفلاحين على نحو خاص، هل هي تجربتنا نحن مع الفقر والأيام الصعبة التي عشناها والتي علمته الصبر والجلد والمثابرة، وملأته أيضا بالخوف على مستقبل من يحبهم ... أم أنها الثقافة الواسعة والمعرفة العميقة بتراث الأدب العالمي كنبع فياض لرهافة المشاعر .. وأقول لعله التفاعل الخلاق بين هذه العوامل مجتمعة .

وحين أسأل نفسي: ترى كيف نجونا بعد هذه الرحلة الطويلة الصعبة أجد أن «رجاء» هو بطل هذه النجاة.. إنها الصلابة التي تعلمناها منه حين عمل ليل نهار وهو طالب في الجامعة لنقف على أقدامنا ، وتحمل في صباه وشبابه الأول مسئوليات جسام ينوء بها الكبار، كنت أتأمله حين يعود ماشيا من جامعة القاهرة في الجيزة لبيتنا القاهري الأول في شبرا حتى يوفر قروش المواصلات ، ويعود مرة أخرى في المساء ماشيا أيضا إلى مقهى «عبدالله» في ميدان الجيزة ليلتقي «أنور المعداوي» الناقد الذي أنصفه هو بعد ذلك وكان صديقا حميما له ، وكان نفر من الأدباء الذين لمعت أسماؤهم في الحياة الثقافية بعد ذلك يلتقون كل مساء هناك .. وطالما راودتني نفسي أن أذهب لولا أن النساء لا يرتدن المقاهي الشعبية .

وكنت شاهدة على قصة حبه الأولى في بداية الخمسينات التي تألم بسببها كثيرا ، وكتب عنها «أحمد عبدالمعطي حجازي» قصيدته «الأميرة والفتى الذي يكلم المساء» ونشرها بعد ذلك في الديوان الأول «مدينة بلا قلب» الذي كتب له «رجاء» مقدمة ضافية تعد حتى الآن من أهم الدراسات النقدية عن شعر التفعيلة فضلا عن أنها قدمت «حجازي» تقديما يليق بموهبته الكبيرة .

كما أن «رجاء» هو أول من قدم للوطن العربي شعراء المقاومة الفلسطينية وعلى رأسهم «محمود درويش» في وقت لم يكن العرب يعرفون أي شئ عن فلسطينيي ١٩٤٨ الذين يعيشون في إسرائيل ويتعرضون للتمييز ويحتمون بثقافتهم ويقدمون ابداعا جميلا .. وقد تجاهلهم العرب الآخرون كأنما لينسوا النكبة التي حلت بهم .

* * *

ولولا أنني كتبت هذه الكلمات بعجلة وفي ظرف خاص جدا لكنت وضعت كتابا كاملا لا فحسب عن علاقتي الحميمة - بل والشائكة في بعض الأحيان - مع «رجاء» وإنما أيضا عن انتاجه الغني المتنوع والأصيل والذي جعله واحدا من أهم نقاد زماننا وهو يواصل مسيرة «طه حسين» و«العقاد» مضيفا تفرده الخاص. كنت سأكتب باستفاضة عن منهجه النقدي الانساني ، أو ما كانت «مي زيادة» قد أسمته بمنهج العطف النقدي الذي وإن كان يقرأ الأعمال الأدبية والفكرية بعين الناقد الذي يمتلك أدواته بما يمكنه من وضع النص والكاتب في المكان الصحيح ، فإنه يتسم أيضا بالمحبة الغامرة وهو يلتقط بمهارة مكامن القوة والموهبة ، ويظل يرعاها ويرعى صاحبها مهما كان مغمورا إلى أن يشتد عوده ، وينهض ، كما بحث في النص عن القيمة الانسانية العليا التي تنعكس من الشكل والأدوات .

يفرح «رجاء» أيما فرح لكل كشف جديد في عالم الأدب والفكر ويظل يفتش بدربة صياد اللآلئ الماهر الذي يعرف كيف يفرق بين الأصداف والمحار . وكم من كتاب لم يكن يعرفهم أحد وحين سلط عليهم رجاء ضوء محبته استطاعوا أن يشغلوا المكان اللائق في عالم قاس تقوده المصالح الكبيرة وحتى الصغيرة ، وتحكمه المجاملات والمقايضات . ساعدته على إنجاز هذه المهمة الجليلة الموضوعة دائما على جدول أعماله، قدرته الفائقة على الإحياء ، وكم من مؤسسات محصنة كانت قد ماتت وركدت وحين تولى قيادتها بث

فيها روحا وحياة، ودفع بها إلى متن الحياة الثقافية والفكرية فى مصر والوطن العربى ، إذ أنه يرى أن مهمة المثقف المصرى لا تكتمل إلا فى بعدها العربى وروحها القومية التقدمية الانسانية الخلاقة .

حين أعاد إدوارد سعيد قراءة كتابه العمدة الاستشراق بعد ربع قرن من صدوره مراجعا بعض الأحكام والفرضيات والتوجهات الفكرية فيه ، كتب يقول : لقد استقر بى المطاف على النزعة الانسانية فى شمولها وغناها. وأنا الآن حين أطل على عناوين كتب «رجاء» التى. قرأتها أكثر من مرة، وتعلمت منها شأنى شأن الكثيرين، أقول إنه «رجاء» .

وعلى العكس من إدوارد سعيد - قد بدأ بالنزعة الانسانية مبكرا جدا منذ كتابه الأول الذى صدر وهو فى الرابعة والعشرين من عمره حين رأى فى الإنسان أرفع القيم ، واعتبره جديرا باجتهاده كى يصبح إنسانا، ويخرج من طور الوحش ، ويدافع عن كرامته وحقه فى الحياة وحريته ، ووثق به وبقدرته - لو توفرت له الظروف المواتية - على أن يرتقى إلى ما لا نهاية ويسيطر على مصيره ، ويذهب إلى أقصى ما يمكن أن تحمله إليه مواهبه التى ستنفتح دونما قيود فى مملكة الحرية، هذا لو تخلص الإنسان إلى الأبد من ذل الخوف والحاجة وحينذاك سوف يقطع هذا الانسان كل صلة له مع الوحش ليغوص تاريخه الأول فى الأعماق الغائرة للاوعى الانسانى . ورغم أن نجيب محفوظ المتشائم يرى أن الوحش قديم والانسان جديد فإن ثقة «رجاء » فى انسانية الانسان هى بلا حد .. ذلك الانسان الذي بوسعه دائما ان يصنع نفسه .. الم يفعل هو ذلك بالضبط ؟

○ يمزج بين التراث العقلانى للثقافة العربية الإسلامية وتراث حركة التنوير الأوروبية والفكر الاشتراكى بمدارسه المتنوعة.

وفى نزعته الانسانية تلك يمزج «رجاء» بين التراث العقلانى المجيد للثقافة العربية الإسلامية وصولا إلى عصور الاحياء والنهضة، وبين تراث حركة التنوير الأوروبية والفكر الاشتراكى بمدارسه المتنوعة وكلها تضع الانسان فى أعلى مكان، ذلك الانسان الذى يستحق الرحمة وليس العقاب ، بصرف النظر عن دينه أو جنسه ، عن لونه أو طبقته ، ومن كل هذه المنابع راكم «رجاء» شحنة نفور إضافية من الاستغلال والظلم وانسحاق الفقراء وإذلالهم.. وطالما دافع بحرارة عن مبادئ العدالة والمساواة وضرورة اقتسام الثروات بشكل نزيه لا يجحف أحدا حقه. ومن هنا كان حبه العميق لجمال عبدالناصر وحلمه ، ذلك الحلم الذى كان مثل صاحبه قصير العمر . عبدالناصر الذى أطل من شباك قطار كان يحمله إلى بلد فى صعيد مصر ذات يوم والتفت الى محدثه قائلا :

- ها نحن قمنا بالثورة قبل سنوات ومازال الفلاح يعيش على البصل والمش .. فمتى سنغير كل ذلك .. متى ؟

متى حقا ؟

* * *

كل سنة وأنت طيب «يارجاء» يا أخى الحبيب وأستاذى■

محمود عبدالمنعم مراد

بقلم
صافى ناز كاظم

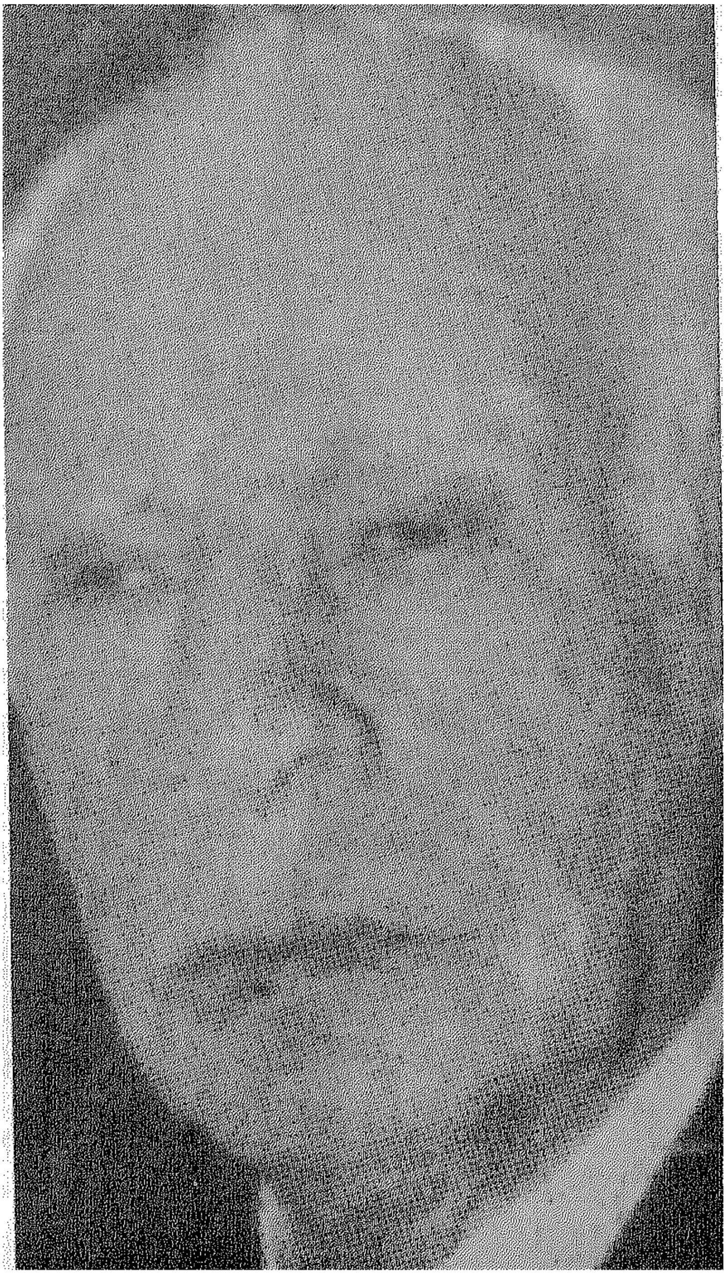

ولد فى ٢٦ يناير ١٩١٩، وتوفاه الله مساء الجمعة ٢٠٠٤/٩/٣ وبين التاريخين عاش أستاذى محمود عبدالمنعم مراد، الذى تعددت مهامه فى الحياة، فهو الصحفى، وهو الناقد، وهو الأديب، وهو الناشر، وهو المعتقل السياسى الذى دخل السجن وخرج منه، أكثر من مرة، دفاعاً عن حق الشعب المصرى فى «الحرية».

١٩٥٦، كان قد مضى عام على تدريبنا فى دار أخبار اليوم، أنا وزميلاتى فى قسم صحافة آداب القاهرة، حين عرفنا أن «محمود عبدالمنعم مراد» ، الشقيق الأكبر لزميلنا «على مراد»، قد انضم للكتابة فى جريدة الأخبار مؤسساً بابا جديداً بها عنوانه «أخبار الناس» . ننزل لنقابل الكاتب الكبير فى غرفته إلى جوار صالة التحرير بالدور الأول من مبنى الدار، نقول له: « أخوك على صاحبنا»! ، يشبه «صاحبنا» تماما ، ملامح التجهم نفسها وملامح أسد كوبرى قصر النيل، أقصر قليلا من «على» ، حزين، أسيف، قليل الكلام لكنه يعطينا قدرا من الترحيب الذى يمنع عنا الحرج . مرفوع عنه قرار المنع من النشر بشرط الكتابة بعيدا عن «السياسة». المطلوب الاستفادة منه ثقافيا فحسب! يتحول مكتبه تدريجيا إلى صالون أدبى وأجدها فرصة لأعرض عليه محاولاتى الناشئة فى كتابة الشعر، والقصة القصيرة، والخواطر. بالتدريج تنقشع السحب الرمادية التى كانت تبدو لنا معلقة فوق رأسه، ويظهر أن التفاف الشباب من حوله استطاع أن يبدد شيئا من حزنه وأصبح من الممكن أن نراه مبتسما. لم نكن قد بلغنا العشرين، وكان هذا ما نعنيه بكلمة «شباب» وكان هو بأعيننا من «كبار السن» قد بلغ الثامنة والثلاثين: يا ااه !

أقدم له دفاتر محاولاتى فى الكتابة: الأزرق، والأحمر، والأخضر. حين أنوه فى واحد منها : «٢٦ يناير ١٩٥٧، ذكرى حريق القاهرة» ، يعلق: «إنه يوم ميلادى» ، وهكذا عرفت منه يوم وسنة ميلاده .

- (يقول ابنه طارق إن تاريخ مولده هو ١٩١٩/٢/٥، ولكنى أكدت له أن لدى تسجيلا خطيا من والده يؤكد أن ١/٢٦ هو الأدق وليس ما تم تدوينه رسميا فى شهادة ميلاده!) .

فى الدفتر الأخضر، الذى كان عنوانه: «أحاديث إلى الرب ١٩٥٦ - ١٩٥٧»، أدون تاريخ ميلادى، ١٧ أغسطس ١٩٣٧، فيكتب فى صفحة كاملة: «حديث إلى ابنتى : يابنيتى، إنك تعودين بى إلى الوراء عندما كنت فى ليالى أغسطس ١٩٣٧، أكتب بنفس الطريقة التى تكتبين بها الآن! أواه! نحن الآن فى عام ١٩٥٧، أخشى ما أخشاه يابنيتى، أن تشغلك أشياء، ليست الآن فى حسبانك، عن هذه الثرثرة اللطيفة العميقة التى يحبك من أجلها ربك . كذلك أخشى أن تظلى تكتبين ثم ينتهى بك المطاف كما انتهى بى، كلام فارغ تافه، أكتبه كل يوم من طرف قلمى وما بداخلى يحرقنى ولا أستطيع الافصاح عنه ، لأن الناس لا يطيقون سماعه ... سأظل أرقبك من بعيد ويخيل إلى أنك ستفعلين يوما ما شيئا عظيما ، حقق أملى يارب »

. حين قرأت كلماته أدركت وقتها سر ابتسامته الساخرة التى كان يتلقى بها تعليقاتنا المعجبة بالباب الذى يحرره، ولم يكن يعرف أن وجوده بالدار كان قد أفاء علينا الفائدة والنفع والظل الظليل .

وفى الدفتر الأزرق كتبت ١٩٥٦/٥/١٩: « إذا جاء الخريف لا تطلب من الورد أن يبتسم » . فعلق ساخرا: «إذا جاء الخريف لن يكون هناك ورد على الإطلاق» !

ظلت غرفته مثل السقاة للشباب المتعطش إلى الرعاية والتوجيه والتشجيع، وبعد سفرى إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٠، كتبت لى صديقتى زينب صادق تخبرنى باعتقاله لأنه لم يستطع أن يصبر على محاولة «تجفيفه» ، ولم يستطع أن يسكت رأيه الصارخ بين جوانحه. عدت عام ١٩٦٦ وعرفت أنه قد خرج من المعتقل وامتلك، مع شركاء، «دار المعرفة» للنشر والتوزيع بشارع جامع الشيخ شركس، هرعت فرحة إليه فأهدانى قاموس المنجد ١٩٦٦/٩/٢٩ - (مازال هو قاموسى الوحيد الذى أرجع إليه) - وكتب الإهداء مازحا: «إلى أستاذتى وأستاذة الجميع...... رغم أنف الجميع ... بمناسبة عيد ميلادها ...» مع هذه البشاشة البادية لم يغب عنى حزنه الأسيف المكتوم، وجلسته الهادئة، يطل من شرفة «دار المعرفة» ساهماً لساعات طويلة. كنت عام ١٩٦٦ قد بدأت أفهم ما لم أكن أفهمه ١٩٥٦ و١٩٥٧، لكننى لم أستشعر آلامه المبرحة إلا حين كابدت ١٩٧١ حتى ١٩٨٣/٣/٢٥، ما كان يكابده فى الخمسينيات والستينيات ، من منع النشر وقصف القلم .

كتب فى جريدة «المصرى» ما وصفه بعد ذلك بأنه « ... أخطر ما كتبت فى حياتى الصحفية، حيث كنت أكتب عن الحرية والديمقراطية فى عهد الدكتاتورية العسكرية، حين رفعت فيها الرقابة بضعة أسابيع... فكتبنا أهم وأعز ما كتبناه ... فى مارس ١٩٥٤» .

وقد سرد فى يومياته بجريدة الوفد ٢٠٠١/٦/٢١ بعضا من ملابسات تلك الصفحات العزيزة عليه متذكرا : «... كانت قد وقعت أحداث فى منتهى الخطورة بين صفوف قادة حركة يوليو ١٩٥٢، إذ دب الخلاف السياسى ، فى رأى البعض ، أو نشب الصراع على السلطة بين اللواء محمد نجيب وجمال عبدالناصر ومؤيديه من ناحية أخرى، فشهدت البلاد فى تلك الفترة وشهد المصريون ما لم يشهدوا مثله فى أى يوم من الأيام . كان القليلون من ضباط الحركة يؤيدون محمد نجيب .... أما أغلبية الضباط فكانت تؤيد مجلس قيادة الثورة وعلى رأسه جمال عبدالناصر

..... هكذا كان الخلاف بين الأشخاص وبين المبادئ التى يمثلونها، أقلية الضباط وأغلبية المدنيين مع الحرية والديمقراطية والنظام النيابى والأحزاب والبرلمان، وأغلبية ضباط القيادة ومعهم أقلية ضئيلة جدا من المدنيين يريدون استمرار النظام الثورى بكل ماله وما عليه، وكنا نحن فى جريدة المصرى أول من أيد الثورة صراحة وعلانية وبدون تردد ..... وعندما تفجر الخلاف بين الاتجاهين وقفنا فى (المصرى) مع الحرية والديمقراطية، فكتب أحمد أبو الفتوح مقاله الشهير، (إلى أين؟)، ومقالات كثيرة أخرى، وظللت أكتب كل يوم ... العمود الذى كنت أكتبه بعنوان (كلمات) .... ونتيجة ما كتبت .. أعتقلت، ثم خرجت بعد عام ونصف العام لأكتب فى صحيفة الأخبار...» .

ويستطرد محمود عبدالمنعم مراد فى سرده : « فى ٥ مارس ١٩٥٤ أدى الخلاف بين ضباط مجلس القيادة إلى عودة محمد نجيب إلى رئاسة الجمهورية وجمال عبدالناصر إلى رئاسة الوزراء وإلغاء الرقابة على الصحف واتخاذ الإجراءات اللازمة لعودة الحياة البرلمانية والانتخابات الحرة، ولم تعلن هذه القرارت إلا بعد يومين، وفى اليوم السابع من مارس كتبت أول عمود أكتبه فى ظل القرارات الجديدة... فكتبت .... فى هذا اليوم الذى نشعر فيه برفع قيود الرقابة، لأول مرة نحس بضخامة المسئولية الملقاة على كواهلنا بعد أن توفرت لنا الحرية ..... ويشعر الكاتب وهو يمسك القلم بما يشعر به المحب ساعة اللقاء بعد قطيعة طويلة مضنية ....

....

وإذا كان الشعب يريد أن تكون الصحافة فى خدمته فليكن صاحيا لحريتها ذائدا عن حقها فى أن تعبر عن رأيه وتدافع عنه...» ، فى يوم ٨ مارس ١٩٥٤ واصل محمود عبد المنعم مراد كتابة أحلامه عن وسيلة الحاكم النزيه لتحقيق السعادة لأكبر عدد من المواطنين: « ..... لو كان الناس أحراراً أمنين يقولون ما يشاءون لعرف الحاكم .... كيف يحكم وكيف يحقق السعادة لأكبر عدد من الناس»، وفى ١٩٥٤/٣/٩ كتب يعبر عن سعادته وتأثره بسبب الإفراج عن بعض المعتقلين السياسيين وأمله فى أن يتم الإفراج عن البقية الباقية: « .... نحن الآن نتأهب لإجراء انتخابات عامة لنختار ممثلين للشعب يضعون دستوراً للوطن، فالانتخابات القادمة يتوقف عليها مستقبل الأمة كلها وتحديد أنظمتها لأجيال..... ..... ومن أجل ذلك نطالب بالإفراج عن المعتقلين فوراً ، إنهم مواطنون ومن حقهم أن يشتركوا فى رسم خطوط المستقبل

ومناقشة المسائل العامة ، ومن حقهم أن يخرجوا أحراراً ويمارسوا حقوقهم العامة...».

اتهمه مقال نشرته جريدة الجمهورية ٩ مارس ١٩٥٤ بمهاجمة «الثورة» لصالح ملك طائش ماجن ، فكتب رده المنشور ١٩٥٤/٣/١٠ بجريدة المصرى تحت عنوان : «دفاع عن الشعب» قائلا: « .... إن الشعب المصرى المفترى عليه فى حاجة إلى دفاع طويل وخاصة هذه الأيام ، ففى المقال الافتتاحى لصحيفة الجمهورية الصادرة أمس... عبارات تستوقف النظر ... (مثل) كان الشعب كله عبيداً لملك طائش ماجن،... وكان الشعب أكثره عبيداً لسادة الإقطاع وصناع المظالم ..... وكان الشعب مسخراً لخدمة حفنة من عبيدى الأطماع ... ... ذلك بعض ما كتبته الجمهورية ... وقد يكون بعض هذا الكلام صحيحا لا خلاف عليه، فالثورة طردت الملك وحددت الملكية وألغت الأحزاب ، ولكن هل كان الشعب كله عبيداً لملك طائش ماجن؟ أم كان هذا الشعب يكافح ضد طغيان الملك وطيشه ومجونه فيصوب الرصاص إلى صدره ويلقى بأفراده فى غياهب السجون؟ هل كان الشعب كله عبيدا وهو الذى هتف بسقوط الملك وهو جالس على عرشه يحميه الحرس والبنادق والمدافع سريعة الطلقات؟ هل نسى الناس معارك كوبرى عباس والطلبة الذين أحرقوا صور الملك فى حرم الجامعة، والكتاب الأحرار الذين هاجموا الملك بأقلامهم فكان مصيرهم السجن والاعتقال؟ إن هذا التاريخ القريب لا يمكن أن يُنسى، ودماء الضحايا من أبناء الشعب لا يمكن أن تجف ، ونضال الشعب فى سبيل التحرر لا يمكن أن ينكر، وأسماء القتلى والجرحى والمشردين والمعذبين لا يمكن أن تحذف من سجل التاريخ.... كان الشعب في كل أونة أبيا يكافح الظلم وهو أعزل، حراً يكافح الطغيان بالروح، كريما يهاجم الفساد بالقول والعمل ... . إن الشعب لا يريد وصاية أحد، ولا يريد ضمانا من الجهل أو الخطأ، ولكنه يريد حرية وبعد ذلك حاسبوه أى حساب تشاءون .... » .

* * *

كتب محمود عبدالمنعم مراد كل هذا وأكثر فى مارس ١٩٥٤، وكان الثمن باهظا، وكان يعرف ، لكنه لم يتردد فى العطاء، لأنه كان يعرف كذلك أن الجميع إلى رحيل ، ولا يبقى من الإنسان على الأرض إلا حقيقة سعيه ، وقد فاز من اختار السعى نحو الحق والعدل والخير وكرامة الإنسان ، وخاب من ارتضى أن ينصب نفسه، على خلق الله، جبارا مفتوناً . ولله الأمر من قبل ومن بعد . ■

حقوق التأليف المغتصبة

بقلم
وديع فلسطين

هذا عنوان مُخفف، ولعل الأصدق والأصرخ أن يكون العنوان «لصوص الكتب» أو «السرقات الأدبية» ولكننى تفاديت المعنى الجنائى المضمر فى عمليات سرقة الكتب وانتحالها.

ومع اتساع رقعة العالم العربى، وتقطع الأوصال بين مفرداته برغم وجود جامعة عربية منذ أكثر من نصف قرن ومنظمة عربية للتعليم والعلم والثقافة منذ أربعين عاماً، فإن التواصل الأدبى بين الدول العربية يعانى من التهرؤ بل الانعدام، مما يشجع طلاب الشهرة أو طلاب المال على انتحال صفات أدبية ليست لهم، وأيسر السبل إلى ذلك هو سرقة الأثر الأدبى على اعتبار أن السارق يقيم فى قطر، وأن صاحب الكتاب المسروق يقيم فى قطر آخر، اعتقاداً بأن هذه الفعلة لن تكتشف، ولا سيما لأن هناك أزمة فى القراءة لانشغال الناس بمآرب الحياة المادية المختلفة.

فإذا ما أُميط اللثام عن سرقة علنية فاجرة، أصبحت فضيحة مدوية - ولو فى نطاق ضيق بحكم أن المجتمع الأدبى قد صار - مع الأسف - شديد الضيق، وحسبك أن تواجه الحقيقة الصادقة وهى أن ما يطبع من أى كتاب عربى لا يزيد على بضعة آلاف، بينما العالم العربى من خليجه الثائر إلى محيطه الهادر يعيش فيه قرابة ثلاث مائة مليون نسمة .

وأحدث جريمة «سطو عريان» بتعبير أستاذنا العلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) هى التي كشف عنها الأديب السعودى حسين محمد بافقيه حيث قام زيد من الناس، سواء باسمه الصحيح أو باسم مستعار، بالسطو علي كتاب كبير ترجمه عادل زعيتر (١٨٩٧ - ١٩٥٧) عن سيديو عنوانه «تاريخ العرب العام» الصادر عام ١٩٤٨، فرفع اسم المترجم العظيم ووضع اسمه فى مكانه، ثم دفع بالكتاب بتمام نصه المسروق - حتى بالفصلات ونقاط الوقف - إلى ناشر أردنى، فقام بنشره عن علم أو جهل مادام المترجم عادل زعيتر قد لقى وجه ربه منذ نحو نصف قرن، ولعله لم يترك ورثة يذودون عن حقوقه، ولأن عملية السطو تمت بغباء شديد - إذ كان فى وسع المترجم المزيف أن يعيد صياغة الترجمة بأسلوبه الخاص بما ينفى عنه تهمة السرقة ولكنه اختار الطريق الأسهل، وهو الاكتفاء برفع اسم المترجم الأصلى ووضع اسمه فى محله - فقد وقف أمام الملأ عارياً ويداه متلبستان بالجريمة النكراء، لقد كان يظن أن جريمته لن تكتشف، ولكن المقادير أخرجت له من بطن الجزيرة ناقداً شاباً هو حسين محمد بافقيه ففضح فعلته.

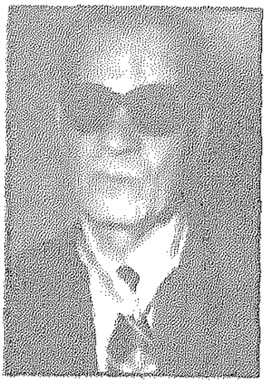

طه حسين

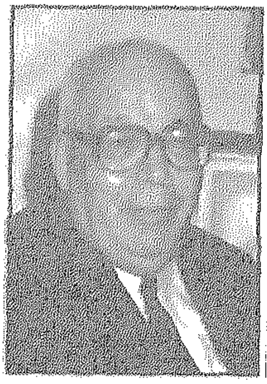

محمد حسن الزيات

ينفرد بالكتب بعد وفاة شريكه

وكان محمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) قد نشر سلسلة من الكتب مع شريك له، وكان كل كتاب يحمل اسمى المؤلفين الشريكين دون تحديد للدور الذى اضطلع به كل منهما فى التأليف، وبعد وفاة عبدالغنى حسن خلا الجو لشريكه، فقام باستبعاد اسم عبدالغنى والاقتصار على وضع اسمه على جميع كتب السلسلة باعتباره المؤلف الأوحد، ظناً منه بأن هذه الفعلة لن تكتشف، ولا سيما لأن أبناء عبدالغنى الخمسة هم بين طبيب ومهندس، فضلاً عن أنهم مهاجرون هجرة دائمة خارج البلاد، وأنىّ لهم أن يكتشفوا خدعة الانتحال أو أن يلاحقوا المنتحل أمام القضاء، ومع ذلك، فقد قام أولاد الحلال بتنبيه أرملة عبدالغنى إلى هذا التزييف الذى لم ينصب على

كتاب واحد بل على سلسلة من الكتب ومنها معجم «من أمثال العرب».

تزييف كتب التراث

وكنت في زمن البطالة القسرية بعد إغلاق الجريدة التي كنت أعمل بها وانسداد الأبواب الصحفية في وجهي بدعوى أنني مغضوب عليّ من الثورة، أحاول أن أرتق ما تهرأ من حياتي باحثاً عن أي كوة تخرجني من محنتي، عندما زارني مندوب لإحدى دور النشر اللبنانية وعرض عليّ أن أسهم في مشروع تضطلع به هذه الدار، يتمثل في نشر كتب التراث لقاء مكافأة مغرية قدرها مئتا جنيه عن كل كتاب، وكنت وقتها شديد الحاجة إلى هذا المبلغ بل إلى نصفه أو ربعه، فسألت المندوب عن المطلوب مني، فقال: إنه أمر جدّ يسير، ولا يكلفك إلا أقل جهد، فما عليك إلا أن تلتقط أي كتاب محقق من كتب التراث، بشرط أن يكون محققه قد انتقل إلى رحمة الله، وأن تجري فيه بعض التعديلات، كأن تضيف إليه هامشاً، أو تشرح معنى لفظة، أو تترجم للأسماء الواردة في تضاعيفه، أو أن تعلق على فقرة من فقرات الكتاب مُدعيا أنك عثرت على مخطوطات نادرة للكتاب موزعة في مكتبات أوروبا، وبهذا الصنيع يقتنع القارىء بأن التحقيق الذي قمت به يُعتد به! فقلت للمندوب: كيف للقارىء أن يثق في كتاب يحمل اسمي باعتباري محققاً له مع أنني لم أعمل بالتحقيق من قبل، وكل المحققين معروفون لطالبي كتب التراث؟ فقال: إن الناشر اللبناني على استعداد لإعفائك من هذا الحرج، وإصدار الكتاب غفلاً من اسم المحقق! وتوهم المندوب أنني اقتنعت بحججه ولاسيما لأن الإغراء المادي كان لا يقاوم، ولكنني قلت له إنني أعتقد أن هذا العمل يمثل جريمة أدبية وأخلاقية، وإنني لهذا أرفض المشاركة في هذا المشروع، ولكن إن رغب الناشر في الاستعانة بي كمترجم لبعض الكتب، فإنني على استعداد للقيام بهذا العمل مهما تواضعت مكافأته! فما كان من المندوب إلا أن انصرف متعجباً من رفضي لحبل الإنقاذ الذي رماه لي، ووعد بأن يهديني بعضاً من كتب التراث التي أصدرها الناشر، وتبينت عند تسلمها أنها لا تحمل اسم أي محقق!

الترجمة من الباطن

وزارني مرة زميلان صحفيان وقالا إنهما يقومان بدور «المترجم الشبح» لواحد من كبار الأدباء، فيترجمان له كتباً تنشر باسمه لقاء مكافأة هزيلة يدفعها لهما، وقالا إنهما ضاقا بهذه الترجمة من الباطن، وطلبا وساطتي لدى مستشار مؤسسة فرنكلن

للنشر التى كانت تتوفر على ترجمة مئات من الكتب فقلت لهما: وما حاجتكما إلى وساطتى، اذهبا إلى المستشار واعرضا عليه خدماتكما ومؤكد أنه سيرحب بكما لأن من مصلحة مؤسسته أن تستعين بأكبر عدد من المترجمين لترجمة أكبر عدد من الكتب، ومادامت تعين مراجعاً لكل ترجمة، فسيكون فى وسعها الحكم على قدرتكما فى هذا الميدان.

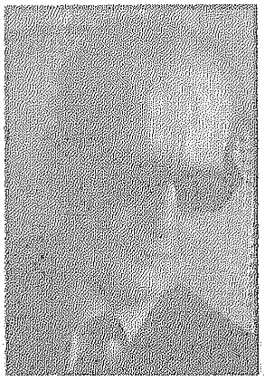
محمود تيمور

وهكذا كف هذان الصحفيان عن نشاط الترجمة من الباطن لحساب أديب كبير، وصارا يترجمان كتباً تحمل اسم كل منهما.

اتهامات مرسلة

عزيز أباظة

ولا يخلو الأمر من اتهامات مرسلة بالانتحال والسرقة تعرّض لها عدد من كبار الأدباء فقد اتهم الصحفى أبوطالب زيان (ت ١٩٨٦) القاص محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) بأن وراءه كاتباً شبحاً يؤلف له رواياته وأقاصيصه، أو - فى القليل - يقوم بضبط مؤلفاته ضبطاً لغوياً، وقيل وقتها: إن هذا الشبح هو محمد شوقى أمين (١٩١٠ - ١٩٩٢) الذى كان محرراً بمجمع اللغة العربية ثم انتخب، عضواً عاملاً فيه، كما اتهم الشاعر عزيز أباظة باشا (١٨٩٨ - ١٩٧٣) بأن شاعريته منتحلة، وأن وراء دواوينه ومسرحياته الشعرية «أباظيين» يجملون صورته ويرفعونه درجات فوق شعراء عصره.

وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه الاتهامات شديدة البطلان، ولاسيما لأن أبا طالب زيان كان وقتها قد انتقل من فئة المصححين الأزهريين فى الصحف إلى فئة الأدباء، وكان يعتقد أن مهاجمة كبار الأدباء من شأنها أن تكتب له منزلة رفيعة فى الحياة الأدبية، ولنفرض جدلاً أن دواوين عزيز أباظة ومسرحياته الشعرية هى من عمل أباظيين مثل العوضى الوكيل (١٩١٥ - ١٩٨٣) أو محمود غنيم (١٩٠٢ - ١٩٧٢)، فهل يعقل أن يكون ديوان «أنات حائرة» الذى رثى به عزيز أباظة زوجته الراحلة من نظم شاعر آخر تلبّس شخصيته وتشرب بعاطفته المكلومة ونظم هذا الشعر؟ ولا كان محمود تيمور فى حاجة إلى من يؤلف له رواياته وأقاصيصه وهو الذى خاض مع أخيه محمد تيمور (١٨٩٢ - ١٩٢١) هذا الميدان البكر فى حياة أبيهما [illegible] تيمور

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

باشا (١٨٧١ - ١٩٣٠)، ولو فرض أن الأديبين أرادا الاستعانة «بكاتب شبح» فلعل الاستعانة بأبيهما كانت هى الأقرب إلى الاحتمال، وهي ما لم يحدث لأن الأب لم يكن راضياً عن اتجاه نجليه إلى كتابة الحكايات والقصص كما روى العلامة عجاج نويهض (١٨٩٨ - ١٩٨٢) نقلاً عن محب الدين الخطيب (١٨٨٧ - ١٩٦٩).

طلاب يترجمون كتاباً لأستاذهم

وهناك واقعة انفضحت على صفحات مجلتى «الرسالة» و«الثقافة» مؤداها أن الدكتور على إبراهيم حسن أستاذ التاريخ فى الجامعة المصرية، رغب فى ترجمة كتاب عن تاريخ الشرق الأدنى، فعهد فى هذه المهمة إلى بعض طلابه الذين أنجزوا العمل فى حدود معرفتهم القاصرة، ودفع المؤرخ بالكتاب إلى المطبعة دون أن يراجعه للاستيثاق من كونه ترجمة سليمة، وعند صدوره، انبرى له النقاد وساقوا أمثلة على غفلة المترجم وجهله أسماء المدن العربية، فمدينة حلب أصبحت «اليو» ومدينة اللاذقية أصبحت لاتاكيا، ومدينة القامشلى أصبحت كمشلى، ومدينة الإسكندرونة أصبحت الكساندريتا، وهلم جرا، واضطر المؤرخ إلى إعادة طبع الكتاب بعد مراجعته وتدارك ما فيه من أوجه القصور.

هل سرق سعودى قصيدة للصيرفى؟

وقد صدر فى المملكة العربية السعودية أخيراً كتاب عنوانه «من جهاد قلم» للأديب المجمعى عبدالله بن خميس، وفيه اتهم الشيخ عبدالعزيز الربيعى بأنه انتحل لنفسه قصيدة للشاعر المصرى حسن كامل الصيرفى (١٩٠٨ - ١٩٨٤) هنأ بها الشاعر عزيز أباظة فى مناسبة ما. والغريب أن هذه السرقة المزعومة حدثت فى حياة الشاعرين الصيرفى وأباظة، فلا هذا ولا ذاك أشار إلى هذه الواقعة - إن صحت - ولا نشرها ابن خميس إلا بعد وفاتهما ودون أن تنكشف فى حينها، وكنت وقتها على صلة طيبة جدا بالصيرفى وأباظة فلم أسمع منهما شيئاً عن هذه السرقة التى حدثنا عنها ابن خميس، ثم ما حاجة الشيخ عبدالعزيز الربيعى - وهو متمكن من الأدب شعراً ونثراً - إلى انتحال قصيدة بالغة ما بلغت روعتها؟ وفى اعتقادى الصارم أن الخصومة الشخصية هى التى حدت بابن خميس إلى سوق هذا الاتهام - كجزء من

جهاد قلمه - بعد عشرات من السنين من وقوعها؟!

محمد سيد كيلانى وورثة طه حسين

كان الأديب محمد سيد كيلانى (١٩١٢ - ١٩٩٨) يتمترس فى دار الكتب منبشاً بين أوراق الصحف القديمة التى كادت تبلى بسبب القدم، وكان يقع فى تنبيشه على دفائن مجهولة يخرجها إلى الناس فى كتب موثقة، ووقع في أثناء بحثه على طائفة كبيرة من المقالات والقصائد المجهولة لطه حسين مما لم يقم طه حسين بجمعه فى كتبه المنشورة، فأخرج سيد كيلانى عدة كتب تضم هذه المقالات والقصائد معتقداً أنه حقق بذلك خدمة كبيرة للباحثين في تراث عميد الأدب العربى، وكان الناشر الذى يتعامل معه كيلانى يدفع له مائتى جنيه عن كل كتاب.

ولكن عزّ على الدكتور محمد حسن الزيات وكيل ورثة طه حسين وزوج ابنته أمينة (ت ١٩٨٨) أن يرى سيد كيلانى يتكسب من نشر كتب مورثة دون إذن من الورثة، وطبعاً دون دفع حقوق التأليف لهم! فرفع عليه وعلى ناشر كتبه دعوى يطالبهما بأرقام فلكية تمثل حقوق التأليف والتعويضات معتبراً أن فى نشر هذه الكتب اعتداء على حقوق المؤلف واستحلالاً لها دون وجه حق، وظلت الدعوى تتداول فى المحاكم إلى أن تدخل بعض أولاد الحلال وأقنعوا رافعها بأن كيلانى لم يسيء إلى طه حسين بل خدمه وخدم الأدب العربى خدمة جليلة بإخراجه هذه الكتب المجهولة، ولولا جهده فى البحث والتنقيب لبقيت هذه الآثار مطمورة فى أوراق الصحف المتهالكة بفعل الزمن، وأن مكافأة كيلانى عن هذا العمل تعتبر ملاليم، وأن مقاضاته تحوّل العمل الأدبى إلى جريمة جنائية مع أن كيلانى لم ينسب هذا التراث إلى نفسه بل نسبه إلى صاحبه الأصيل وهو طه حسين، ومن حسن التوفيق أن وكيل الورثة اقتنع بهذا المنطق وتنازل عن دعواه، وكان قراره هذا صائباً.

★★★

هذه بعض نماذج عن حقوق التأليف، ما انتحل منها وسرق وزيف وما وصل أمره إلى القضاء، فلعل فيها من الدروس والعبر ما يعزز الدعوة إلى حماية الحقوق الفكرية ■

القيود والقضبان
فى عالم نجيب محفوظ

بقلم
مصطفى بيومى

لايتورط نجيب محفوظ فى وصف مالا يعرفه، ومن هنا براعته الفائقة فى التجسيد الفنى الصادق للأماكن التى تعامل معها وعايشها وعاينها: البيوت بأنواعها، دواوين الحكومة، المدارس والجامعات، الفنادق والبنسيونات، المقاهى والعوامات. السجن لاينتمى إلى منظومة الأماكن التى يألفها نجيب ويدرك خباياها وأسرار طقوسها، فهو لم يخض تجربة السجن ولم يتعرض للاعتقال، ولذلك يمتلىء عالمه الروائى والقصصى بالسجناء، ويتوارى الاهتمام بالسجن - المكان.

غياب المكان لايعنى إغفال نجيب محفوظ لأهمية الموقع الذى يحتله السجن فى الحياة الإنسانية بشكل عام، وفى الحياة المصرية على وجه الخصوص، وفى روايتى «ليالى ألف ليلة» و«رحلة ابن فطومة» مايكشف عن طبيعة السجون فى التاريخين القديم والوسيط.

السجن الذى يلقى فيه «قنديل محمد العنابى» الشهير بـ «ابن فطومة» ظلما بلا جريرة، يقدم نموذجا متكاملا لما كان عليه حال السجون فى «دار الحيرة»، العصر الإقطاعى: وكان السجن عند مشارف المدينة فى منطقة صحراوية. وهو عبارة عن مكان متسع تحت الأرض، ذى منافذ ضيقة فى السقف، جدرانه من الأحجار الكبيرة، وأرض رملية، ولكل سجين سروال

لاغير وفروة، يكتنفه جو خانق ذو رائحة كدرة، نصف مظلم كأنه فجر لاتشرق فيه شمس. «رحلة - ٧٧».

فى جزيرة الشيطان

قد تختلف المعالم والتفاصيل من عصر إلى آخر، لكن السجن يبقى ملمحا راسخا فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وفى قصته القصيرة الطويلة: «صباح الورد» يمتد اهتمام نجيب محفوظ إلى السجون الأوروبية الحديثة فى النصف الأول من القرن العشرين.

فى الثلاثينات يسافر «عثمان جمال إسماعيل» إلى فرنسا، وهناك يضطر إلى إطلاق الرصاص ليسترد نقوده التى خسرها على مائدة القمار: ثم وردت الأخبار بأنه قضى عليه بالسجن عشر سنوات فى جزيرة الشيطان. ياللهول! عثمان جمال إسماعيل فى جزيرة الشيطان! .. إنها الجحيم كما رأيناها فى فيلم بسينما أوليمبيا فكيف يتحملها الفتى الهش الرقيق؟. «صباح - ٣٠».

سجون الدول الغربية المتحضرة لاتقل قسوة عن سجون العصور التاريخية المظلمة، والسجن الفرنسى الشهير مضرب المثل فى الشراسة التى لانظير لها ولامثيل، والسينما هى الأداة العصرية الوافدة التى يتعرف من خلالها جيل نجيب على ثقافات الآخرين وسجونهم!.

السجون القديمة موضوع للقراءة، والسجون الغربية المعاصرة مادة فيلمية مثيرة، أما السجن فى الحياة المصرية

نجيب محفوظ

الواقعية فذو خصوصية يرصدها نجيب محفوظ من خلال تجسيده الفنى الصادق لرؤية الطبقات الشعبية وأسلوبها فى التعامل مع فكرة السجن، مايعيب أو يشين، والسجن فى الثقافة الشعبية السائدة ليس عارا يستوجب الإدانة ويدعو إلى الاستنكار.

السجن فعل اعتيادى

فى قصة «نحن رجال» تحتفل «عطفة شنكل» بالإفراج عن ابنها المعلم «جعدة»: كان فى الحقيقة عائدا من السجن، وليس عليه فى ذلك من بأس. فما من فتى من فتيان عطفة شنكل إلا وقد زار السجن مرة أو أكثر «همس - ١٦٧».

السجن فعل اعتيادى فى حياة سكان العطفة الشعبية، بل إن «جعدة» يفخر ويباهى به بعد أن تلعب الخمر برأسه فى حمى الاحتفال بخروجه: نحن رجال .. هل توجد جسارة بغير ثمن؟ هل الزناتى سلم؟ هل عنتر سلم؟ زلت بنا القدم ومايقع إلا الشاطر، ودفعونا إلى السجن .. السجن للرجال .. مايعيب إلا العيب .. يعيش السجن

للرجال .. «نفسه – ١٧٠».

لابأس في السجن ، وليس «جعدة» بالحالة الاستثنائية، فالغالبية العظمى من أقرانه تعرف السجن وتتردد عليه وتتعامل معه كأنه مفردة من مفردات الحياة اليومية!. إذا كان المثل الشعبى المصرى الشهير يذهب إلى أن «السجن للجدعان»، فإن قصة نجيب محفوظ المبكرة محاولة لترجمة المثل فنيا والبرهنة على صدقه!.

السجن لايشين المرء!

فى «زقاق المدق» مايؤكد سيادة وهيمنة المفهوم المتسامح مع نزلاء السجون، فإذ تصر «سنية عفيفى» على إخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور «بوشى» قبل سجنه، مدانا بجريمة سرقة متعلقات الموتى، يتطوع عم «كامل» بنقل أثاث السجين ومعداته الطبية إلى شقته، حيث يقيم وحيدا بعد مصرع رفيقه عباس الحلو: ولم يعاتبه أحد فى ذلك، بل لعلهم عدوها من المكرمات، لأن السجن لم يكن مما يشين المرء فى المدق «زقاق – ٢٨٧».

ارتكب «جعدة» و«بوشى» من الجرائم الثابتة ما يستحق عقوبة السجن، فهما ليسا من الأبطال الشعبيين الذين يريدون عدالة اجتماعية ضائعة، لكن سكان «العطفة» و«الزقاق» لايجدون غضاضة فى سجنهما، ذلك أن العقوبة التى تعرضا لها لاتعنى عقوبة اجتماعية تقود إلى المقاطعة والاحتقار والأمر نفسه يتكرر مع «عاشور الناجى»، البطل الأسطورى الذى يحقق العدل المفقود – على طريقته – ويراود المدينة الفاضلة، فالسجن الذى ذاقه عاما كاملا لايؤثر على شموخه وتفرده. كان فى القفص مزهوا بحرارة القلوب من حوله، وتلقى زوجته «فلة» كل الرعاية والاحترام، ويأبى «عاشور» إلا أن يعلن أنه لايستحق ما ناله من العقاب. فى اليوم الموعود، خرج «عاشور» من السجن وسط احتفالات صاخبة: صفق الناس وهللوا ورقصوا، ومن شدة الزحام قطعت العربة المسافة بين مدخل الحارة والزاوية فى حوالى الساعة. «الحرافيش – ٨٤».

يخرج «عاشور الناجى» من قيود السجن إلى عرش الفتونة، ولايفكر أحد من خصومه وكارهيه فى النظر إلى فترة سجنه كمرحلة تستوجب المعايرة وتدعو إلى التهوين من شأنه.

الموقف السلبى من السلطة وقوانينها الجائرة هو المبرر الذى يدفع البسطاء والعوام من الشعبيين، سكان العطوف والأزقة والحارات، إلى التعامل مع السجن فى بساطة واعتيادية، والأمر عندهم أقرب إلى القدر الظالم المردود إلى حكومة بعيدة عن العدل والإنصاف.

تجربة السجن القاسية

وإذا كان عالم نجيب محفوظ يحفل بالعديد من السياسيين والمفكرين الذين عرفوا السجن والاعتقال، وينتمون إلى الاتجاهات والتيارات الوفدية والدينية والماركسية، فى روايات «السكرية»، و«الشحاذ»، و«الحب تحت المطر»، و«الكرنك»، و«عصر الحب»، و«الباقى من الزمن ساعة»، و«حديث الصباح

والمساء»، فإنه يزخر أيضا بكثير من السجناء الذين لاتربطهم علاقة بالعمل السياسى، فهم يرتكبون جرائم، أو يتهمون بارتكابها، ويخوض تجربة السجن القاسية قبل العودة إلى الحياة بإيقاعها المتغير المختلف.

لا نعرف الكثير عن تفاصيل حياة هؤلاء الشخوص داخل السجون، لكننا نستطيع استخلاص رؤية بالغة العمق والشمول عن التأثير الذى يمارسه السجن من ناحية، والفلسفة العامة التى تحكم المنظر إليه من ناحية أخرى.

لعل «سعيد مهران» هو أشهر لصوص وسجناء عالم نجيب محفوظ، وبخروجه من السجن بدأت رواية «اللص والكلاب»: هاهى الدنيا تعود، وها هو باب السجن الأصم يبتعد منطويا على الأسرار اليائسة. «اللص – ٧».

لم يكن «سعيد» فى حاجة إلى النصيحة المشفقة المزيفة التى يتطوع بها واحد من أنصار «عليش»: أنت قادم من السجن والعاقل من اتعظ!. «نفسه – ١٢».

ذلك أنه يعى الدرس جيدا، ويتمنى فى أعماقه ألا يعود إلى المكان الكئيب الموحش الذى غادره لتوه، وفى حوار دال مع الشيخ «على الجندى»، يقول الشيخ مماينم عن إيمانه بوجود أنواع شتى من السجون:

– أنت لم تخرج من السجن.

فابتسم سعيد. كلمات العهد القديم تتردد من جديد. حيث لكل لفظ معنى غير معناه. وقال:

– ياحولاى، كل سجن يهون إلا سجن الحكومة. «نفسه – ٢٦».

لايفكر «سعيد» فى سجن الذات وخلاص الروح، فما يشغله بحق هو السجن المادى التقليدى الذى عانى من ويلاته وقاسى من مآسيه، وعندما يتجاوز «سعيد» حدود اللياقة اللغوية فى حواره مع استاذه القديم الانتهازى رءوف علوان، يعتذر بسنوات السجن وما تركته من آثار: لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمنى وقت طويل حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك. «نفسه – ٤٤».

السجن والقهر

معاناة السجن وعذاباته لاتحتاج إلى براهين وأدلة واستدعاء الذكريات، فالجميع يعرفون معنى السجن وما فيه من قهر. يصطدم «سعيد مهران» بعد الإفراج عنه بحياة متجهمة قاسية: زوجة خائنة، ابنة تنكره، صديق غادر، استاذ يصعد بانتهازية إلى القمة ويتركه فى القاع، أليس أنه قد غادر السجن الصغير إلى سجن كبير؟! لم يعد «قلبه» من المفردات القابلة للتداول فى سوق الكراهية التى يخوض فى غمارها: حجزوه فى السجن كما تقضى التعليمات. «نفسه – ٧٤».

هكذا يقول «سعيد» سافرا للعاهرة «نور» الوحيدة التى تتعاطف معه وتضحى من أجله وتؤمن به!.

تبدأ رواية «اللص والكلاب» بخروج «سعيد مهران» من السجن، وتنتهى به مستسلما للموت والكلاب بلا مبالاة وتبدأ رواية «الطريق» بخروج «بسيمة

عمران» من السجن، وتنتهي بانتظار ابنها الوحيد «صابر سيد الرحيمي» لتنفيذ حكم الإعدام الذى لا مهرب منه.

خمس سنوات قضتها القوادة «بسيمة» في السجن، وتركت السنوات القاسية أثرا بالغا ملموسا على ملامحها وصحتها، تتسع الحياة داخل السجن لكل مافي خارجه، لكن التجربة المفزعة تدفع الأم إلى مراودة حياة جديدة مختلفة لابنها: أنت لم تخلق للسجون «الطريق -٩».

نهاية «صابر» تمثل امتدادا منطقيا أكثر مأساوية لنهاية أمه، ارتكب جريمتى قتل فى رحلته اليائسة، للبحث عن أبيه، الأب الجليل الغائب الذى يمثل رمزا ساميا غامضا لقيم الحرية والكرامة والسلام. السجن المؤبد، بديلا للإعدام، هو الأمل الذى يصعب تحقيقه، وتنتهي مغامرة «صابر» بالوحدة القاسية المفضية إلى الضياع الكامل: في السجن وحده، لا يزار من ليس له أهل. «نفسه ١٥٩».

الإعدام مصيره الحتمي، وغاية مايسعى إليه المحامى النشيط أن يصل بصابر إلى السجن المؤبد!.

دور السجن ومعناه

«اللص والكلاب» و«الطريق» هما الروايتان الأكثر أهمية فى التعبير عن دور السجن ومعناه فى الحياة الخواء التى يعيشها صغار المجرمين ممن يغادرون السجن إلى حياة بائسة، لاتختلف موضوعيا عن السجن الذي غادروه.

يعانى «بيومى» فى قصة «قاتل»، من أزمة طاحنة متعددة الوجوه، والأبعاد بعد خروجه من السجن: منذ خروجه من السجن وهو يعيش متسولا، قرش من هنا وقرش من هناك، بلا عمل، وبلا أمل، وهو ليس بأول سجن، ولا آخر سجن فيما يبدو. «دنيا - ٨٢».

«بيومى» مجرم صغير يرتكب جرائم صغيرة. ، وحياة الفقر تلازمه وتغلق أبواب الأمل فى وجهه، ليس السجن الأول، والقرائن كلها تشير إلى أنه سيعود إلى السجن من جديد: هذه ثالث مرة ينطلق فيها بعد سجن، لكن لم يجد الدنيا من قبل مغلقة الأبواب كما يجدها هذه المرة حتى لتحدثه هواتف نفسه البائسة أحيانا بأن يعود إلى السجن ليستقر فيه بقية العمر. وقبيل خروجه من السجن، أول مرة مات ابنه فى مستشفى الحميات، وحينما كان فى السجن آخر مرة اختفت زوجته، ولا يدرى أين ذهبت ولا مع من هربت، وقليل من النساء من يخلصن لزوج هوايته السجن. «نفسه - ٨٣».

بيومى لايهوى السجن بطبيعة الحال، لكنه المهرب الوحيدة من حياة بلا معنى يموت الابن، وتهرب الزوجة، ويفر العمل، ويتلاشى الأمل، ما أسهل أن يتورط «بيومى» فى جريمة قتل، مأجور بأبخس الأثمان، فلا بديل عن حياة الضياع بعد السجن، إلا الصعود والترقى فى عالم الجريمة!.

السجن .. مزيد من الانهيار

«سعيد مهران» و«بسيمة عمران» و«صابر سيد الرحيمى» و«بيومى» نماذج بشرية متنوعة، تجسد الضياع

الذى لا نجاة منه، حقيقة أنهم مجرمون مدانون لاتنفى أنهم بشر يكابدون ويتمزقون، دوافعهم إلى الجريمة مبررة وإن لم تكن مقنعة، وحياة الجريمة لاتنتهى بتجربة السجن الذى لايصلح ولايهذب، بقدر ما يدفع إلى مزيد من الانهيار.

فى «أفراح القبة» يتعرض «كرم يونس» وزوجته «مليحة الكبش» لتجربة السجن المؤلمة، فقد فتحا بيتهما للمقامرين المدنيين، وضبطا وأدينا، الجريمة لايمكن إنكارها بطبيعة الحال، لكن «كرم يونس» يتساءل متفلسفا ساخرا: لم نسجن فى بلد تستحق غالبيته السجن؟. قانون مجنون لايدرى كيف يحترم نفسه «أفراح - ٤٠».

القانون ليس مجنونا، ولايمكن أن يكون. «كرم يونس» لا يدافع عن نفسه ولاينكر جريمته.. فغاية مايقوم به هو الهجوم المضاد، وهدفه الحقيقى أن يدين الآخرين وليس أن يبرىء نفسه!.

ينفرد «جعفر الراوى» بخصوصية مثيرة فى منظومة سجناء نجيب محفوظ، فهو يأبى إلا أن يكون سجينا سياسيا على الرغم من إدانته بجريمة قتل: طالبت فى السجن باعتبارى مجرما سياسيا رغم أنه لاتوجد تفرقة فى المعاملة بين المجرم السياسى والمجرم العادى. تعرضت بسببه لعقوبة الجلد. «قلب - ١٤٢».

حفيد «الراوى» ينتهى به المطاف إلى القاع، وخاض عديدا من المغامرات التى تكشف عن جموح الإنسان وطموحه الذى يزال كل ثابت راسخ.

السجن لايعرف التمييز بين نزلائه، والمتأمل فى أحواله يعرف أن المكان الكئيب سيىء السمعة ليس إلا امتدادا للحياة بكل ما فيها من خير وشر وإنصاف وخلل.

فى بداية رحلة «صابر سيد الرحيمى» للبحث عن أبيه ، يقول له أحد المحامين:

- فى نيتى أن أكلف صديقا من ضباط البوليس ليتحرى عنه فى السجون.

وإذا يتساءل صابر مستنكرا:

- السجون؟

يرد المحامى كاشفا عن وعيه العميق بفلسفة السجن وطبيعة السجناء الذين يحيون بين جدرانه:

- السجن كالجامع مفتوح للجميع، وأحيانا يدخله إنسان لنبل فى أخلاقه لا لا لاعوجاج. «الطريق - ١٨».

كم فى السجن من شرفاء، وكم فى حياة الحرية خارجه من أوغاد، وقد يكون «سعيد مهران» لصا يستحق الإدانة والسجن، لكنه محق فى تساؤله المرير وهو يفكر فى عدوه اللدود «رءوف علوان»: أتدفع بى إلى السجن وتثب أنت إلى قصر الأنوار والمرايا؟.

«اللص - ٥٠».

تمام العدل أن يسجن «رءوف»، ومن حق «سعيد» أن يرى فى حرية غريمه ظلما وخللا، وأن يسعى إلى إقامة العدل على طريقته، مثله فى ذلك مثل الأبطال الشعبيين الخارقين الذين لايشينهم أن يدخلوا سجون السلطة الظالمة!. ■

الإبداع يستشرف الحرية

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

في الجزء الأول من هذا المقال - المنشور فى العدد الماضي - رصد د. ماهر شفيق فريد تجربة السجن لدي عدد من المبدعين، وقال فيما قدم، إن هذه التجربة قد لايعمد إلي تسجيلها عدد ممن خاضوها وانما يتجاهلونها كأنها لم تكن، وقد تكون، علي العكس، حافزا علي الإبداع ودافعا إلي الكتابة، والمعوّل في الحالين علي مزاج الكاتب وتوجهه الفكري وموقفه الأيديولوجي والمناخ الخاص والعام الذي يعيش في ظله ويتنفس هواءه، وقدرته علي تحويل الخبرة الخاصة إلي رمز عام .

تناول د. ماهر عددا من المبدعين، تناولوا تجربة السجن ومفرداته في أعمالهم، وفى هذا المقال يواصل متابعة الظاهرة مع عدد آخر من المبدعين .

وربما كان أعمق تشريح لسيكولوجية التعذيب فى القصة العربية الحديثة هو ذلك الذى نجده فى رائعة يوسف إدريس القصيرة «العسكرى الأسود».

تدور أحداث القصة فى ظل الأحكام العرفية وعهود الإرهاب فى أعوام ١٩٤٧، ١٩٤٨ . إنها قصة شوقى - طبيب شاب يعمل فى المكتب الطبى لمحافظة القاهرة - منظورا إليها بعينى راو كان زميلا له فى كلية الطب. لقد اعتقل الطالب الجامعى شوقى لممارسته نشاطا وطنيا وخرج من السجن وقد انطفأ البريق فى عينيه، ولم يعد الشخص الذى كانه. وندرك من عبارات متناثرة - أن التعذيب الذى خضع له هناك هو المسئول عن تدمير روحه وفقدانه الثقة فى كل شىء وكل إنسان. وهو يرفض أن يحدث الراوى عما جرى له وراء القضبان، ولكننا نعرف أن القائم بتعذيبه كان جنديا يدعى عباس الزنفلى، عرف باسم العسكرى الأسود، وكان مجرد ذكر اسمه كافيا لإيقاع الرعب فى قلوب السامعين. وتشاء الأقدار أن يرقد دوسيه العسكرى - بعد سنوات كثيرة - على مكتب شوقى، الذى تصادف أن كان يومها الطبيب النويتجى فى فترة بعد الظهر، وبذلك تثور فى ذاكرته كل ذكريات العذاب الأليم الذى لاقاه على يد جلاده، لقد تقدمت السن بالزنفلى، ولم يعد يرجى منه نفع لسادته. وتمكن منه المرض - بدنيا ونفسيا - فأصبح، ربما بتأثير ندم متأخر، «يعوى من كالذئاب ويهبهب كالكلاب»، وتدهورت أحواله الصحية، وصار فى سنواته

يوسف إدريس

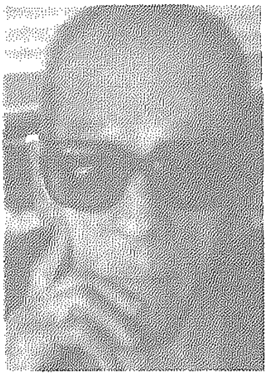

نجيب محفوظ

صنع الله إبراهيم

الأخيرة - كما تروى زوجته نور يعود من عمله «مضعضعا مطحونا كالمضروب علقة» وهو الضارب! وتطلب المحافظة توقيع الكشف الطبى عليه لإثبات عجزه الكامل تمهيدا لفصله من الخدمة ، ويقع على عاتق شوقى أن يذهب إليه فى بيته فى أعماق حوارى القاهرة، فيصحب معه الراوى وعبدالله التومرجى. وبلفتة فنية بارعة يصف إدريس حجرة الرجل المريض بأنها «لم يكن يضيئها غير نافذة صغيرة جدا قريبة من السقف كنوافذ الزنازين والسجون» . لقد انعكست الأدوار، وتبادل الجلاد والضحية المواقع. فأصبح الأول رهن زنزانة من صنع ماضيه المثقل بالذنوب والقسوة واللاإنسانية وتصدر عن العسكرى صيحات مذعورة، ككلب مسعور، يقطعها نسيج، ويتراجع بجسمه عن القادمين كأنما يريد أن يختفى فى الحائط.. بل إنه يغرس أسنانه فى لحمه ويعض نفسه فى حالة هياج لا يمكن التحكم فيه . حدث هذا بعد أن ذكره شوقى، دون رحمة، بنفسه: «ما تستعبطش ما تعملش إنك ناسى.. مش فاكر العنبر.. مش فاكر علق الساعة خمسة.. مش فاكر دور تسعة. مش فاكر النبابيت .. مش فاكر الكرباج.. مش فاكر الدم.. فين كرباجك وديته فين.. فين صراخك ياوحش فين. فين نعل جزمتك الحديد.. فين كفك.. فين صوابعك.. فين النار فين.. بص لى وانطق واتكلم وصرخ.. صرخ زى زمان.. سمعنى صوتك.. صرخ ياعسكرى يا أسود.. بص لى وانطق واتكلم وصرخ.. ما تعملش ناسى وإن عملت أفكرك.. حالا أفكرك..» وكأنما لم يكن فى هذا الكفاية فإن شوقى فى ومضة زمن خلع جاكتته وقميصه ورفع فانلته لتبدو آثار التعذيب فى بدنه: لم يكن فى ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره، كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع فى هضاب مندملة وتكشف عن مناطق غائرة. فى قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع، ومشهد بشع يجعل القشعريرة تسرى فى جسدك. لا لمجرد مرآه، وإنما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التى أحدثت كل ما تراه.. لكأن ذئبا مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره فى ظهر شوقى نهشا وتقطيعا وفتكا . هكذا تسنى لشوقى فى النهاية أن ينتقم ممن دمره ودمر نفسه، ومن ثم خرجت اللجنة الطبية من بيت المريض دون أن يكتب شوقى قراره ، وإنما عهد بهذه المهمة للحكيمباشى.

وقرب نهاية القصة يقول الراوى عن شوقى: «بدأ خلال الأيام القليلة التى تلت ذلك شغوفا بإثارة الموضوع بمناسبة وبلا مناسبة، دائب التفكير فيه، يفاجيئنى مرة بقوله: أتعرف أنك حين تأذى غيرك تأذى نفسك دون أن تدرى، ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول: دع الضارب يضرب، فيده التى تضرب تمتد أيضا إلى ذات نفسه. ولم

يقتصر الأمر على التفكير. دخلت عليه يوما فوجدته منهمكا فى الكتابة، وما أن رآنى حتى جمع الأوراق محاولا أن يخفيها، ولكنى من بين أصابعه استطعت أن أقرأ عناوين فقرات: فلسفة العلقة.. الإيلام سلاح ذو حدين.. وعناوين أخرى كثيرة. وسألته فقال إنه بحث قد يطلعنى عليه يوما ما».

وتنتهى القصة بهذه الكلمات التى تمثل يوسف إدريس فى ذروة عبقريته، وتظل تطارد خيال قارئها طويلا:

«ولا أعرف لماذا كلما راجعت ما حدث لا أستطيع أن أنسى رغم كل ما رأيته وشاهدته، كلمة خيل إلىّ أنها عادية جدا وطبيعية ساعة أن سمعتها تقال، ولكنى لا أعرف لماذا ظلت تلح علىّ ولا تتركنى، الكلمة قالتها امرأة من اللاتى حضرن على صراخ نور، امرأة لعلها أم على الحسادة، وقالت ونحن نتأهب لمغادرة الحجرة وقد أصبح البقاء فيها أمرا لا يتحمله العقل وقطعة لحم عباس بين أسنانه ودماؤه تكاد تصبغ كل ما تقع عليه العين. سمعت المرأة تمصمص بشفتيها وتهمس للواقفة بجوارها: لحم الناس يابنتى.. اللى يدوقه ما يسلاه.. يفضل يعض انشاالله ما يلقاش إلا لحمه.. ألطف يارب بعبيدك.

سمعتها ورنت فى أذنى رنين الكلام الفارغ الذى نسمعه من خالاتنا العجائز لنسخر منه، ولكن لا أعرف لماذا لاتزال تلح على..».

ومن عجب أن نجد ناقدا نافذ البصيرة - إلى جانب منجزاته المرموقة فى الترجمة - كالراحل محمد عبدالله الشفقى يخفق فى تذوق هذه القصة الفريدة فيكتب عنها بلهجة فاترة، بل تكاد تشى بالاستهانة: أما قصة «العسكرى الأسود» نفسها فتحكى كل شىء، وقد أراح الكاتب فيها نفسه من قيود كثيرة ، فلم يلتزم الإيقاع الزمنى، على سبيل المثال، أثناء جلسة الراوى مع الطبيب شوقى فى مبنى المحافظة، وإنما عاد الراوى إلى البيت يكتب كل شىء بحرية» «العسكرى الأسود»، مجلة «المجلة» ، أغسطس ١٩٦٣ ص ١٠٨)، كلا! إن كل كلمة فى القصة موظفة بدقة بالغة، وما يبدو على السطح من حرية متدفقة إنما هو حرية محكومة برؤية الكاتب للموقف، والنظر إلى الأحداث بعينى الراوى الذى يلعب دور الجوقة الإغريقية التى تراقب وتعلق وتحكم . أو هو صوت المؤلف كلىّ المعرفة المتوارى وراء شخوصه، أو هو القارىء الذى يتعرف على الموقف ويصفه محايدا تمهيدا لإصدار الأحكام.

حكاية تو

ثمة رواية أخرى يلعب فيها التعذيب دورا مهما هى «حكاية تو» سلسلة روايات الهلال. ديسمبر ١٩٨٧ للقاص سامق الموهبة فتحى غانم (انظر عنه كتاب «فتحى غانم قاصا» للدكتورة عفاف عبدالمعطى)، والمسرح هنا ناد خاص في الاسكندرية يلعب اعضاؤه البريدج، ومن رواده ضابط شرطة متقاعد يدعى اللواء زهدى، وشخصيات أخرى أقل أهمية، وإن تكن تشغل، أو كانت تشغل - مكانا مرموقا فى السلم الاجتماعى: رءوف على وهو أحد مديرى البنوك القدامى، شكرى منصور وهو سفير سابق، سعد مراقب النادى، سعفان رئيس مجلس إدارة النادى. هذا هو معسكر العجائز، ويقابله معسكر الشباب الذى يضم لطفى - وهو محام تحت التمرين - وتو وهو شاب لم يجاوز الخامسة والعشرين: متوسط القامة ، ممتلىء قليلا. رأسه ضخم، يرتدى القميص الملون والبنطلون الشارلستون. فى شكله بعض البهدلة وشعره الأسود الغزير منكوش فوق رأسه، شأن أغلب شبان النادى الذين يقلدون ما يرونه فى الأفلام وصور المجلات لشباب العالم فى هذه الأيام «ص ١١»

يسقط هذا الشاب على النادى وكأنه كائن قادم من الفضاء فلا أحد يعرف له أصلا ولا فصلا ويثير توجب استطلاع الراوى ويحار فى أمره: «توهمت أنه قد يكون نصابا، أو جاسوسا جاء ليتجسس علينا، أو لعله أحد رجال المخابرات أو

المباحث دخل النادى ليتتبع أخبار الأعضاء.. ومن بينهم كثيرون كانت لهم يوما علاقات بالسلطة ، واشتركوا فى صراعات قديمة حولها» «ص ٧» . أتراه يكون طالبا بكلية الزراعة - كما يدعى - أم أنه على صلة باللواء زهدى الذى يحتضنه ويوجد له. بموافقة مجلس إدارة النادى - وظيفة معاون لصالة البريدج يشرف على نظافتها وعلى أوراق اللعب وحجز الموائد وما إلى ذلك؟ ويسأل الراوى اللواء زهدى عن «تو» فيتهرب من الإجابة . ثم يتبين أن زهدى كان مديرا لأحد السجون فى أواخر الخمسينيات، وجاءته تعليمات من مصلحة السجون بالاستعداد لاستقبال دفعة من المساجين السياسيين كان من بينهم والد «تو» الذى كان عضو بارزا فى اللجنة المركزية لتنظيم شيوعى.. ويتولى شوكت - وهو خبير تعذيب تركى الأصل فى مصلحة السجون - عملية تعذيب المعتقلين،بمشاركة زهدى ومباركته . فيموت والد «تو» تحت ضربات هراواتهم ، وتقدم إلى النيابة بلاغا تتهم شوكت وزهدى بقتل السجين، وتجرى لهما محاكمة تأديبية تسفر عن فصل شوكت من الخدمة، وإحالة زهدى إلى المعاش. وفيما بعد يفرج عن المعتقلين فى إحدى نوبات التقارب بين الاتحاد السوفييتى ونظام عبدالناصر.

ومن شخصيات الرواية - خارج النادى - امرأة هوى تسكن فى عمارة اللواء زهدى، تعرف باسم منيرة بيجو، وقد غدت الآن - اذا تقدمت بها السن - قواده تدير عددا من الفتيات. وفى بيتها التقى اللواء زهدى لأول مرة «بتو» . وطلبت منه السيدة أن يساعده بالبحث عن عمل له. ويكتشف زهدى أن «تو» ابن ضحيته - وإن كان الإبن لا يعرف ذلك - فيقرر أن يساعده . بل يقوم منه مقام الأب، تكفيرا عن ذنبه، وأملا فى أن يكسب مثوبة فيه، وأن يكافئه الله بتيسير الأمور لابنه حسن الذى أصر على الهجرة إلى كندا رغم معارضة أبيه. هكذا تشتبك الخيوط، وينم فتحى غانم على بصيرة وسيكولوجية حاذقة وإدراك للمتناقضات التى قد تشتمل عليها الشخصية الإنسانية . إن اللواء زهدى - الجلاد القديم - أب حنون يمد مظلة حمايته إلى إبن ضحيته. ومنيرة القوادة تعامل «تو» معاملة الأم الرؤوم وتسعى إلى مافيه صالحه. وتو وهو شخصية بالغة التعقيد يصعب حل خيوطها المتشابكة - مزيج من البراءة والشر، يقول له الدكتور الحمزاوى وهو طبيب نفسى - إن لعثمته سببها صدمات شديدة أصابته فى فترة الطفولة. ويصاب اللواء زهدى بذبحة صدرية فيلازمه «تو» وبعض الممرضات ويتولى زهدى الخوف من أن يبقى بمفرده مع تو (كان قد باح له فى لحظة ضعف أعقبت أول ذبحة صدرية أصابته بأنه قاتل أبيه) . فهل تراه كان يخشى أن يقتله تو (باعطائه جرعة زائدة من الدواء مثلا) على سبيل الانتقام؟ وتصعد روح اللواء زهدى - بخيره وشره - إلى بارئها. فلا ندرى - على وجه اليقين - هل كان موته طبيعيا، أم أنه من عمل تو الذى كثيرا ما انفرد به فى مرضه.

وتضم الرواية تأملات ثاقبة فى الطبيعة البشرية ، وما تحفل به من نقائض ، وما تنطوى عليه نفوس البشر من نوازع الشر

يقول الراوى فى الفصل الخامس:

علمنى زهدى أنه إذا كان للإنسان تلك الآفاق السامية الرحيبة من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا، وهي مجالات لا يستطيع أن يصل إليها حيوان آخر غير الإنسان. فإن الإنسان أيضا عنده استعداد للهبوط إلى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة . يعجز الحيوان . بل تعجز الحشرة الدنيئة عن التردى فيها «ص ٤٦».

إن فتحى غانم - دارس الفلسفة وعلم النفس - قاص واقعى صارم، لا أوهام لديه عن الطبيعة البشرية، لا يطيق صبرا على رومانسية محمد عبدالحليم عبدالله وأشباهه (دعا فتحى غانم قصص هذا الأخير: قصص لمصمصة الشفاه وإنما يتوغل

بمشرطه الطبي عميقا في النسيج البدني والنفسي إلى أن يمس أخفى الأعصاب ويصل الى أبعد الأركان.

الفانتازيات الجنسية

السجن، بما يفرضه على السجين من عزلة عن الجنس الآخر، مرعى خصب تتوالد فيه جراثيم الجنسية المثلية، وممارسات الاستمناء، وأحلام اليقظة والنوم على السواء، وتزدهر نوازع السادية والمانوكية معا، في إحدى روايات إبراهيم عبدالمجيد أو أقاصيصه - إن لم تخنى الذاكرة - يقيم المسجونون حفل زفاف لمسجون جديد ضعيف إلى مجرم عتيد يلعب دور الذكر في الزواج المرتقب. سيقضي الجديد الليلة في زنزانة القديم: إنه حكم القوى على الضعيف.

وفي رواية صنع الله إبراهيم «شرف» نجد الجنس كما هو طبيعي، موضوعا أثيرا لدى السجناء يعبرون به عن ذكرياتهم ورغباتهم ومخاوفهم وإحباطاتهم وتحققاتهم، ويختلط فيه الواقع بالخيال، ويكون أحيانا سبيلا للانتقام من جلاديهم:

«قال إن زوجة سيادة المأمور، حسب كلام السجين، فتاة صغيرة ترتدى البنطلونات المحزقة وتقضي الوقت كله في تسريح شعرها ولا يوجد لديها أطفال وتعامل المساجين بقسوة.

أضاف: الظاهر إنها مراته التانية، وبيموت فيها.

حكى بلحة قصة زوجة ضابط كبير كانت زوجته تتصيد المجندين الذين أخذهم للعمل عنده في المنزل. كانت تنادي الواحد منهم وهي في قميص النوم وتطلب منه إصلاح حنفية الحمام وتقف خلفه وهو منحنى فوق الحنفية فيحتك جسمه بها عندما يتحرك ثم توجه إليه حديثا موحيا فتسأله مثلا إذا كان لابد من استبدال الماسورة بواحدة جديدة وكيف يمكن إدخالها في الحوض إلخ. وحكى آخر قصة ضابط وجد زوجته في حضن جندي مراسلة فقتلها.

عندما هجعنا أخذت معي زوجة المأمور وتصورتنى أمسح لها بلاط مسكنها وهي تروح وتجيىء أمامي ببنطلون محزق وبلوزة تكشف عن صدرها. ثم أبدلت لها ملابسها وجعلتها في قميص النوم وخارجة فجأة من مخدعها فتتعثر في طرف السجادة وتقع على الأرض وأهب لنجدتها فأرفعها بين ساعدى أدخل بها غرفتها وأمددها على الفراش وأدلك لها كاحلها الذى التوى ثم أزيح الرداء عن ساقيها وأتحسسهما حتى فخذيها». (ص١٠٨).

وفي ديوان محمود أمين العالم «قراءة لجدران زنزانة» تقول الأنا المتكلمة:

زنزانتي تحولت زنجية
في أمسية زنجية
عارية .. عالية.. ممشوقة
كحية تفح أنثوية
رجراجة، مهتاجة، غناجة
وهاجة محمومة نارية.
تذيبني عيونها، تمضغني أسنانها
أظفارها الوحشية

إن زنزانة العالم هنا أشبه بليلة أبى العلاء المعرى: عروس من الزنج عليها قلائد من جمان. ويعلق القاص الراحل شمس الدين موسى على هذه الأبيات بقوله: «إنه يرى نفسه في الزنزانة في مغامرة جنسية عنيفة، فهي امرأة زنجية شديدة الإثارة والفتنة، شبقة لا تشبع ويتوحد معها السجين في داخل التجربة، فهي المتعة الوحيدة له بين هذه الجدران الصامتة، ليس له غيرها، فهي في عينيه شديدة الإثارة وهاجة محمومة نارية، تلفحه بأنفاسها الحارة المحببة إليه فتأخذه من نفسه إلى عالم غريب غنى بالأسرار. فيكونان معا كتلة سديمية عديمة الملامح والتضاريس» (قراءة الجدران زنزانة»، مجلة «الآداب» «بيروت سبتمبر ١٩٧٤، ص ٦٥).

على أن أعظم تجليات هذا البعد الجنسي من أدب السجون إنما تتمثل - في رأيي - في أقصوصة يوسف إدريس «مسحوق الهمس» (من مجموعة «النداهة»).

ليس الجنس هنا مجرد حاجة بدنية - نفسية، أو ظاهرة بيولوجية، وإنما هو قوة كونية شاملة: قوة الليبيدو والفرويدى أو قانون الانجذاب الأبدى بين الذكر والأنثى، ذلك الذى يحكم عوالم الإنسان والحيوان والنبات جميعا. ليس إدريس هنا معنيا باللحظة الميكانيكية للجنس «التعبير لغالى شكرى» وإنما هو - مثل وتمانٍ ولورن وغيرهما من عظماء الكتاب- معنيٌ بالقوة الجبرية التى بها تنجذب الأقمار إلى كواكبها، ومدّ البحار إلى سلطان ربة القمر، والأرض إلى الشمس. لا يتوسل الكاتب إلى ذلك باستخدام كلمات طنانة أو مجردات كبيرة، وإنما بموقف عينيّ محدد قادر على توليد الدلالات وإرسال إشعاعاته فى شتى الاتجاهات.

إن الراوى - وهو سجين - يُنقل إلى زنزانة أخرى ملاصقة لعنابر سجن النساء. وثمة حائط سميك من الأسمنت يفصل بين زنزانته وزنزانات جاراته. ويرمم له الخيال - تحت وطأة الحرمان المتطاول - صورة امرأة يسميها فردوس تقع على الجانب الآخر فيحاول - برغبة حارقة لاعجة - أن يتصل بها وذلك بالدق على الحائط ليعلمها بوجوده. ويمر أسبوع على ذلك دون أن يتلقى ردا. ثم لا يلبث أن يسمع ردا لأول مرة فيتفزز فرحا، وبروح يتخيلها مستخدما طريقة المساجين فى التخاطب عبر الجدران: بوضع «كسرولة» الطعام الفارغة من ناحية فتحتها على الحائط وتقريب الفم من قاعها للتكلم، أو إلصاق الأذن به للاستماع. ويتعاظم تعلقه بها حتى يغار عليها من النساء الأخريات اللواتى يعشن معها فى نفس الزنزانة. ثم ينقطع الدق، ويخبره الأومباشى عبدالفتاح فى لحظة صفاء - - بعد أن رشاه الراوى بالمعلوم - أن كل السجينات رُحلن إلى سجن القناطر منذ أربعة أشهر، وأن الموجودين فى العنبر «دول تراحيل، مرة رجالة، مرة ستات، تراحيل، يومين، أسبوع، أسبوعين، وأنت وحظك..» أفقد كان الأمر إذن كله وهما؟ أكان على الجانب الآخر فردوس أم رجل لا يحمل شيئا من عبير الأنوثة؟ لا يجيب الكاتب عن هذه الأسئلة وإنما يدع النهاية مفتوحة، تاركا بذلك مضطربا واسعا للخيال، شأن الكاتب القديم الذى يعرف متى يتكلم ومتى يصمت.

ويكتب الراوى:

«كدت أقهقه قهقهة من فقد العقل، وفى ألف ناحية جرى عقلى يفكر: أليس من الجائز رغم آلام الحب المروعة ألا تكون هناك فردوس بالمرة، بل من يدرى، أليس من الجائز أن الهمس المسحوق كان همس رجل، ربما كان يعتقد أنه يخاطب به أنثى؟! أو ربما فعلها أو فعلتها للتسلية وكسر الملل فى وقت طويل طويل متشابه؟».

إن عبارة «كدت أقهقه قهقهة من فقد العقل» تشبه - مع اختلاف السياق - خاتمة قصة سارتر «الجدار» (ترجمها إلي العربية د. سهيل إدريس) .

لكن فلنعد إلى أقصوصة إدريس. إن السجن عند «راوية» (ليس إلا كلمة «ممنوع» كبيرة وشاملة.. ممنوع كل شىء إلا ما يبقى عليك الحد الأدنى اللازم كى لا تموت). وصورة فردوس تثير فيه هذه الخواطر:

«أحسست وكأنما أرى بعينى الحياة - لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة فى ذهنى - تتدفق غزيرة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد الذى آلت إليه بجسدى وأفكارى وأحلامى وانفعالاتى، مجرد وقع الكلمة على الأذن، النساء، ذلك التضاد القاهر المكهرب معك، المناقض تماما لك، الذى تحن إليه وترغبه تريده كما تريد الحياة نفسها، مجرد تصورك لأجسادهن المختلفة، لانبعاجاتها المثيرة، لملابسهن، حتى ملابس السجن الواسعة، روائحهن الخاصة، دائما خاصة كبصمات الأصابع، أصابع أقدامهن الصغيرة كالجرذان الوليدة المنكمشة على نفسها، أياديهن النحيفة زرقاء العروق،

العيون، عيونهن وإحساسك أنها عيون امرأة ورموش أنثى.. ترسل نظرات تدرك أنها نظرات أنثوية منتزعة من أعماق امرأة، ومرسلة إليك مضمخة بأنوثة تكون حتى شعاعات البصر - المرأة - الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة الرقيقة والأفخاذ التى يفقد بينها الرجل صوابه، بركان تفجر لا سبيل إلى إيقافه، قوى وافدة غريبة، ملايين من شحنات كهربية حية أحسست بها من منبع خفى فى جسدى تتفجر كالنهر الغاضب فى فيضانه يكتسح».

وتأتى لحظة التنوير (تعبير رشاد رشدى) فى النهاية عندما يقول الراوى، وبكلماته يكتمل معنى الخبرة ويكتسب كل ما سبقها مغزاة:

«ليلتها، قبل أن أنام، قلت لنفسى: أليس هذا أروع ختام لقصة ذلك الحب، إنه على الأقل سيعفينى من آلام النهاية ومرارتها».

غير أن الشيء المذهل الغريب، الشيء الذى لم أتوقعه أبدا ولا يمكن أن يصدقه إنسان، حتى أنا نفسى لا أكاد أصدقه، إن القصة ظلت تعترينى وظل الألم ممدودا طويلا يعكر طعم الحياة فى نفسى، وظلت «فردوس» حية فى خاطرى، أكثر حياة من كل من عرفت من النساء».

يقول أحمد نقاد إدريس - أنيس البياع فى مقالته «صراع الأضداد فى عالم يوسف إدريس»: «فردوس هى رغبة الخروج ورغبة الاتصال. ففى السجن تموت أشياء لكن تولد أشياء أخرى. البحث الدائم المتشنج أحيانا عن طوق النجاة حتى لو كان هذا البحث مجرد حلم لذيذ نصنعه لأنفسنا، وفردوس المرأة والجنس كانت طوق النجاة من الفزع والرتابة والانتظار» (انظر كتاب: د.يوسف إدريس بقلم هؤلاء، مكتبه مصر ١٩٨٦، ص ٣٠٨ - ٣٠٩).

حضور السجن المهيمن

فى هذه الأعمال كلها، باعتبارها مرآة للواقع، نجد أن للسجن حضورا كليا مهيمنا. إنه ماثل شاخص فى الخيال الشعبى والخيال الأدبى على السواء. والسجان - على اختلاف العصور - هو أداة السلطة التى تستخدمها فى البطش بالخصوم وقمع أصوات المعارضة. يقول الفيلسوف ابن سينا وهو يدخل سجنه:

دخولى باليقين بلا امتراء
وكل الشك فى أمر الخروج

ويقول الشاعر الشعبى المجهول:

أدحنا دخلنا السجن وبقينا فى إدين الحكام
فى الأصل مجنون ما تفهم ياللى تعاند الحكام
أنا اللى قعدت فى السجن شهرين عرفته باللى فيه
ياجاهل السجن اسألنى وأنا أقول لك ع اللى فيه
أنا أسأل الله يكفينا شر السجن واللى فيه

(انظر محمد قنديل البقلى، «السجون قديما فى الأدب الشعبى»، مجلة «المجلة»، أبريل ١٩٥٨، ص ٧٩).

وفى رواية نجيب محفوظ «السكرية» لا يفرق السجن بين الشيوعى والإخوانى: فكلاهما خطر على من يتربعون على دست الحكم. إن عبدالمنعم يتنهد ويهمس بصوت لا يسمعه إلا أحمد:

- أيزج بى إلى هذا المكان لا لسبب إلا أننى أعبد الله؟!

فيهمس أحمد فى أذنه باسما:

وما ذنبى أنا الذى لا أعبده؟

ويكتب أحمد عبدالمعطى حجازى فى قصيدته «السجن»:

لى ليلة فيه
وكل جيلنا الشهيد
عاش لياليه
فالسجن باب، ليس عنه من محيد!

هل من سبيل للخلاص؟

قد يكون دخول السجن - فى ظل غيبة التقاليد الديمقراطية شرقا وغربا - أمرا ليس عنه من محيد. ولكن استجابة السجين

لهذا الموقف تختلف من واحد إلى آخر. هناك من ينهار ومن يصمد. إن سلامة موسى - ذلك المفكر الوطنى الشجاع - لا يستطيع أن يغالب إحساسه بالمرارة فيقول فى الفصل المسمى «كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية» من سيرته الذاتية:

«ذات مساء، وكان ذلك فى ١٢ يوليه من هذا العام (١٩٤٦)، كنت نائما على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل وحيازة المخدرات وغير ذلك. وكانت تهمتى أنى أفكر وأدعو إلى الجمهورية أو الشيوعية. وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى، فأرقت، وأخذت ذاكرتى تعرض لى فلم حياتى الماضية. فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى «المستقبل» لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن. وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف، وعددت نحو عشرين كتابا ألفتها لأبناء وطنى، أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية. ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة. وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر. وأخذت أكفر وأجتر التفكير، وعقلى يتضور من الألم، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز، فناولنى رغيفا للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق. وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان» (تربية سلامة موسى، المستقبل بالفجالة والإسكندرية، د. ت.، ص ١٨٨ - ١٨٩).

والملك لير فى مأساة شكسبير العاتية (كلمة محمد مندور المفضلة)، حين توشك أن تنغلق عليه أبواب السجن مع ابنته المخلصة كورديليا، يعلو على مدمن النشوة إذ يرى فى جدران السجن حائلا بينهما وبين عالم الشر والقسوة والجحود خارجه، فيخاطب ابنته بهذه الكلمات:

كلا كلا فلنرحل فورا للسجن!
ولسوف نغرد فى وحدتنا مثل طيور الأقفاص
وإذا طلبت الوالد بالبركة
فسيحنى هامته بل يركع كى يطلب غفرانك
ولسوف نعيش كذلك فنصلى ونغنى
ونقص أقاصيص الماضى
نضحك من أهل القصر بأثواب البهرج
مثل فراشات وشاها ذهب زائف
وسنسمع من أهل القصر التعساء حكايات القصر وأخباره
سنحادثهم ونجادلهم فيمن يكسب أو من يخسر
فيمن نال رضاء الحاكم أو خسر رضاه
نتظاهر أنا نفهم ألغاز الكون الكبرى
كعيون بثتها الآلهة لتعرف ما يجرى
وسنبقى أحياء داخل جدران السجن
حتى بعد زوال العظماء.. تلك الزمر المجتمعة
من يعلون وينخفضون كمد البحر أمام القمر الدوار!

(ترجمة د. محمد عنانى)

ويظل الإبداع فى النهاية (إذا كان لى أن أستعير شيئا من رطانة جابر عصفور النقدية، بعد تحويرها لتلائم غرضى هنا) هو سبيل المبدع إلى الانطلاق من سجن الضرورة إلى أفق الحرية. إن المبدع، حتى وهو يرسف فى أغلاله، قادر بالخيال على مجاوزة واقعه، والتحرر من قيوده، واستشراف أفق مضيىء الجنبات، حر الأنسام ■

الصداقة والصديق

لأبي حيان التوحيدي

بقلم
د. أحمد درويش

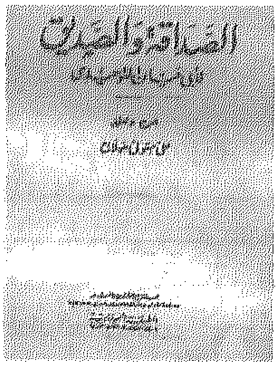

يمثل على بن محمد بن العباس ، المعروف بأبى حيان التوحيدى ظاهرة فريدة فى تاريخ الأدب العربى ، الذى كان واحدا من أبرز أعلامه فى القرن الرابع الهجرى (ت ٤١٤ هـ) واستحق أن ينفرد عند القدماء بلقب، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ، ويزيد ياقوت الحموى على هذين اللقبين عند حديثه عن أبى حيان ، ألقابا أخرى مثل .. شيخ الصوفية ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، فرد الدنيا ، لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل حفظه ، واسع الرواية والدراية .

ولا يقل إعجاب المحدثين به عن إعجاب القدماء ، وها هو ذا المستشرق الألمانى آدم متيز ، مؤرخ الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى فى القرن الرابع الهجرى ، يعتبر أبا حيان التوحيدى ، أعظم كتاب النثر العربى على الإطلاق ولايزال الجزء الذى حفظه التاريخ من مؤلفات أبى حيان

التوحيدى، بعد أن أحرق معظمها بيديه في سن الشيخوخة ، احتجاجا على عصره الظالم ، الذى لايعرف قدر العلم والعلماء ، مازال الجزء الباقى ، موضع عناية الدارسين والمحققين فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية الفكرية والأدبية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية ، وهم يجدون فى صفحاتها الباقية ، كثيرا من الدلالات على الدرجة الرفيعة التى بلغها الأدب والفكر العربى فى مرحلة تألقه الحضارى منذ أكثر من ألف عام .

تجربة حياتية

إن بعض مؤلفات أبى حيان مثل «الامتاع والمؤانسة» و«الهوامل والشوامل» و «المقابسات» و«رسائل أبى حيان التوحيدى» تحمل التفرد والثراء الفكرى وغزارة المعرفة وكثرة التجارب ، ولكن كتاب «الصداقة والصديق» يضيف إلى ذلك كله تجربة حياتية حافلة عاشها أبو حيان التوحيدى ، قرابة قرن من الزمان ، واتسمت فى كثير من جوانبها بقسوة العيش التى كانت تشكل طابعا للفترة التى حكم فيها البويهيون وسيطروا على الخلفاء والعباسيين منذ دخولهم بغداد ٣٣٤ هـ واعتقالهم للخليفة العباسى المستكفى بالله ، ومن بعده الخليفة المعتضد الذى أودع السجن حتى وفاته ٣٣٨ ، وقد ظلوا يعيثون فى الأرض فسادا ويصادرون الأموال ، ويضيقون على الناس فى أرزاقهم طيلة مائة وثلاثة عشر عاما ، وقد أشار التوحيدى إليهم فى رسائله ، ووصفهم بأنهم « أعجوبة الأعاجيب فى اقتسام الملك ، وانتشار الفوضى ، وذيوع الفتنة والاضطراب والعبث بسلطان الخلفاء ، والتحكم فى مصائرهم على ما يحلو للمهيمن المتسلط من الولاة والحكام» .

وشعرت طبقة الفقراء ، وكان منهم أبو حيان وشيوخه من العلماء الأجلاء بوطأة الفقر ، ولم يجدوا أمامهم ، سوى دكاكين الوراقين ، يعملون فيها فى نسخ الكتب طوال النهار ولايكاد ما يحصلون عليه يسد رمقهم ، وها هو أبو سعيد السيرافى ، أشهر علماء عصره «ينسخ فى اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش» ، وها هو أبو حيان نفسه يكتب لصديقه أبى الوفاء المهندس ، شاكيا حالة البؤس وقلة المأكل والملبس كما يقول فى الامتاع والمؤانسة « إلى متى الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع ، وإلى متى التأدم بالخبز والزيتون» .

ولقد بدت لأبى حيان التوحيدى بارقة أمل عندما وجد بعض كبار أدباء عصره، يتولون مناصب الوزارة فى بعض أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة، فطمح فى أن يرحل إليهم أملا فى أن يسند إليه منصب كتابى رفيع ، ينتشله من حياة الفقر ، وحرفة نسخ الكتب ، لكن تجاربه فى هذا المجال اتسم معظمها بالفشل والاحباط ورد الفعل المتمثل فى تسجيل التجربة بأسلوب أدبى رائع ، حدث له هذا مع الوزير الحسن المهلبى وزير معز الدولة عندما سمع عن احتفائه بالأدب

والأدباء ، فسافر إليه من بغداد إلى الرى في بلاد فارس ، ولكنه عاد خائبا ، وتجدد لديه الأمل مرة أخرى في الوزير ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي ، وكان من كتاب العصر المشهورين ، فلم يجد عنده بعد عناء الرحلة إليه ، ما يعوض متاعب السفر ، ويعطى الأمل في تخفيف مشاق الحياة ، وانتهى به المطاف عند الصاحب بن عباد وكان بدوره وزيرا وكاتبا مشهورا ، فشد إليه أبو حيان الرحال وعندما استقر في فناء القصر ، وهو ينتظر قرار تعيينه كاتبا ، جاءه غلام اسمه «نجاح » وهو خادم الصاحب بن عباد يجر خلفه عربة صغيرة ، تحمل ثلاثين مجلدا ، هي مجمل الرسائل الديوانية التي كتبها الصاحب بن عباد خلال عمله في الدولة وزيرا ، وطلب من أبي حيان ، أن ينسخها ، ويأخذ أجر الناسخين ، وأحبط أبو حيان من العودة إلى حرفة تفنى البصر والعمر دون طائل. ولم يكن أمامه ، سوى القبول على ضجر، لكنه جمع سخطه على الوزيرين الأديبين، وأصدرها في كتاب سماه «مثالب الوزيرين» حشد فيه مجموعة من المواقف الساخرة ، والنفثات الناقمة ، وقد ترددت أصداء كثير من تجارب أبي حيان في كتاب «الصداقة والصديق» إلى جانب رصده لتجارب الآخرين في عصره، وتأصيله لقيمة الصداقة ومسالكها الدقيقة وضروب الاخلاص أو التملق أو الزيف والتفاته إلى ناحية هامة في التراث الأخلاقي العربي ، هي ما يمكن أن يطلق عليه آداب الخصومة ، وما الذى ينبغي مراعاته عند وقوع الخصومة بين من كانا صديقين ، أو حتى من لم يكونا صديقين .

الامتزاج المثالي

ويرسم أبو حيان صورة للامتزاج المثالي في الصداقة ، بما كان بين ابن سياد القاضي وأبي سليمان السجستاني، حيث يقول لأحدهما : إني أرى بينكما ممازجة نفسية وصداقة عقلية ومساعدة طبيعية وموافقة خلقية فمن أين هذا ؟ وكيف هو ؟ ويستطرد الصديق في شرح أسباب الامتزاج فيرده إلي تبادل الثقة بلا حدود ، وإلى توافق الطباع وخلجات النفوس ، الذى يصل إلى حد الغرابة ، فهما قد يتزاوران ثم يحدث بعد انصرافهما لكل منهما أشياء شبيهة بما حدث للآخر ، حتى كأنهما شخص واحد في مكانين ، وقد يرى كل منهما حلما مشابها لما رآه الآخر في نفس الليلة ، وقد ترد على خاطريهما معا نفس الفكرة وهما متباعدان أو متقاربان ، ويبلغ الصفاء بينهما أن أحدهما قد يعرف ما يدور في صدر الآخر قبل أن يبوح به حتى لنفسه ويشير أبو حيان - كما أشار الجاحظ من قبل - إلى أن طائفة الكتاب والعلماء يسود بينهم التنافس ، فيحرمهم غالبا من صفاء الصداقة حين يقول : « وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد والتمارى والتماحك ، فربما صحت لهم الصداقة ، وظهر منهم

الوفاء ، وذلك قليل » .

ويتحدث عن عذوبة الصداقة على ألسنة بعض الشعراء حين يقول لأصدقائه :

أنتم سروري ، وأنتم مشتكي حزني
وأنتم - في سواد الليل - سماري
أنتم - وإن بعدت عنا منازلكم
نوازل بين أسراري وتذكاري
فإن تكلمت لم ألفظ بغيركم
وإن سكت ، فأنتم عقد إضماري
الله جاركم ، مما أحاذره
فيكم ، وحبى لكم ، من هجركم جارى

وهو يشير إلى أن الصديق المخلص من ألزم ضروريات الحياة ويذكر فى هذا الصدد قول الشاعر :

من لم يكن ذا صديق
يفضي إليه بسره
ويستريح إليه
في خير أمر وشره
فليس يعرف طعما
لحلو عيش ومره

وإذا كانت الصداقة تتطلب الثقة المتبادلة ، فإنها تتطلب كذلك أن يحفظ الصديق صديقه فى غيبته ، وأن يدفع عنه الأذى حتى دون أن يطلب منه . وأن يقبل منه الاعتذار فى الهفوات التى تصدر عنه ، وإذا ما اشتدت الجفوة بينهما فعلى الصديقين أن يراعيا آداب الخصومة ، وفى هذا الإطار يورد أبو حيان التوحيدى ، قصة علاقة بين اثنين من أعلام عصره، هما القاضى أبو حامد المروزى وابن حروية ، كانا صديقين ووقعت بينهما جفوة ، لكن لايشوبها الغدر والدسيسة وكان القاضى يقول عن صديقه القديم: « إنى بباطنه فى عداوته ، أوثق منى بظاهر صداقة غيره ، وذلك لعقله الذى هو أقوى زاجر له عن مساءتى ، إلا فيما يدخل فى باب المنافسة» وهذا كلام عظيم فى تقدير أخلاق الرجال ، فهو يثق - رغم الخصومة - بباطن خصمه، أكثر مما يثق بظاهر الصداقة التى يبديها له بعض الآخرين ، لأنه يعلم أن خلق خصمه وعقله ، يمنعانه من الاسفاف والتدنى وإلحاق الضرر به ، إلا ما يدخل فى باب المنافسة .

إن كتاب أبى حيان التوحيدى «الصداقة والصديق» يمتد على نحو خمسمائة صفحة ، ليقدم نماذج رائعة لمواقف الصداقة والعتاب ، والتقلب ، والرياء ، والاعتذاريات ، ولوعة فقدان الصداقة التى تفوق أحيانا لوعة فقدان الحياة ، وألوان المصارحة ، والإيثار ، ومعالجة الضغينة بالحلم ، والصبر على الهفوات ، وغيرها من ضروب العلاقات الاجتماعية الدقيقة ، التى لايتوقف أبو حيان التوحيدى فيها عند علاقات عصره، وإنما من خلال بصره الدقيق وحسه المرهف ، وأسلوبه الرائع ، ينفذ إلى جوهر العلاقات الإنسانية ، فى كل زمان ومكان . ■

يوسف شاهين.. يجد ولدا !!

بقلم
مصطفى درويش

والخريف يقترب مؤذنا برحيل الصيف بحره اللعين، يكاد يختفى الفيلم المصرى من دور السينما بطول وعرض البلاد، تاركا فراغا لا تملؤه إلا أفلام مصنع الأحلام في هوليوود، ذلك المصنع المهيمن على سوق السينما العالمية فى مشارق الأرض ومغاربها.

وعلى كل، فآخر فيلمين مصريين جرى طرحهما فى سوق الأفلام، قبل تباشير رحيل الصيف بقليل، كانا لقطبين من أقطاب السينما على ضفاف النيل، أحدهما بدأ مشواره فى صناعة الأطياف، قبل أربعة وخمسين عاما، وارتفع رصيده من الأعمال السينمائية سواء كانت روائية أم تسجيلية إلى أربعين فيلما وفوق هذا أضاف إلى رصيده الإبداعى إخراج مسرحية، بغير لغة الضاد، خارج مصر، وبالتحديد الأم الرءوم فرنسا.

يوسف شاهين مع أبطال « إسكندرية – نيويورك »

هذا القطب هو «يوسف شاهين» أو «چو» مختصر اسمه عند المعجبين، المقربين ، والوحيد نوعه بين المخرجين المصريين.

فهو أكثرهم شهرة وعالمية، بفضل المشاركة فى مهرجانات السينما، خاصة مهرجان «كان»، بدءا من فيلمه الثانى «ابن النيل» (١٩٥٢).

والأهم ، هو انفراده، دون سائر المخرجين المصريين بتناول سيرته الذاتية سينمائيا فى ثلاثية، استهلها «باسكندرية ليه» (١٩٧٩) الفائز بجائزة التحكيم الخاصة لأحسن فيلم فى مهرجان برلين، وختمها «باسكندرية كمان وكمان» (١٩٩٠). وفيما بين فاتحة الثلاثية وخاتمتها، استكمل سيرته الذاتية بفيلم «حدوتة مصرية» (١٩٨٢).

رباعية بعد ثلاثية

والآن وبعد أربعة عشر عاما، ارتأى شاهين أن يتحول بثلاثيته إلى رباعية، فكان «اسكندرية نيويورك» فيلمه الأخير.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أن الأفلام الثلاثة السابقة على «اسكندرية نيويورك»، جاءت خالية من أية إشارة، تفيد من قريب أو بعيد أنه انجب ولدا ذكرا.

وكنا على يقين أو ما يشبه اليقين أن السماء قد أغنته عن الحرمان من الأولاد والأحفاد، بالبديل الذى يفخر به فنان السينما، وهو ما ابدعه من أفلام.

هنيدى مع أمه العالمة

وكان من بين أسباب جنوحنا إلى اليقين أو ما يشبهه ما جاء على لسان «شاهين»، بمناسبة قيامه بإخراج الجزء الثانى من ثلاثيته أو رباعيته بمعنى أصح «حدوتة مصرية»، اذ قال.

«كان على أن اخضع لعملية جراحية فى القلب ولقد أحسست أن الموت يواجهنى، وهكذا وجدتنى أتساءل ما الذى فعلته فى حياتى حتى الآن؟

كان هذا هو السؤال المحورى ، وشعرت أن سينمائيا لا يمكنه أن يغادر هذا العالم دون أن يترك أمارة وراءه تدل على عبوره هذا الكون، مثل خوفو الذى ترك الأهرام، وجارنا الذى خلف أطفاله، والمثل العربى يقول "اللى خلف مامتش» .

أمـا أنا فلم انجب ذرية، ولم أبن اهراما فما الذى سوف أتركه ورائى؟ بضعة أفلام ، ولكن إذا كان للمرء أن يترك شيئا وراءه، فمن الأفضل له أن يترك الحقيقة حول حياته.

كنت فى السادسة والخمسين وشعرت أننى عشت بما فيه الكفاية، لكى لا أعود فى حاجة إلى اختراع الحكايات».

داء النسيان

وارجح الظن، ان «شاهين»، وهو يكتب سيناريو الجزء الأخير من رباعيته قد نسى او تناسى ما جاء على لسانه، قبل اثنى عشر عاما. فها هو ذا يفاجئنا فى «اسكندرية نيويورك» بما مفاده، أنه

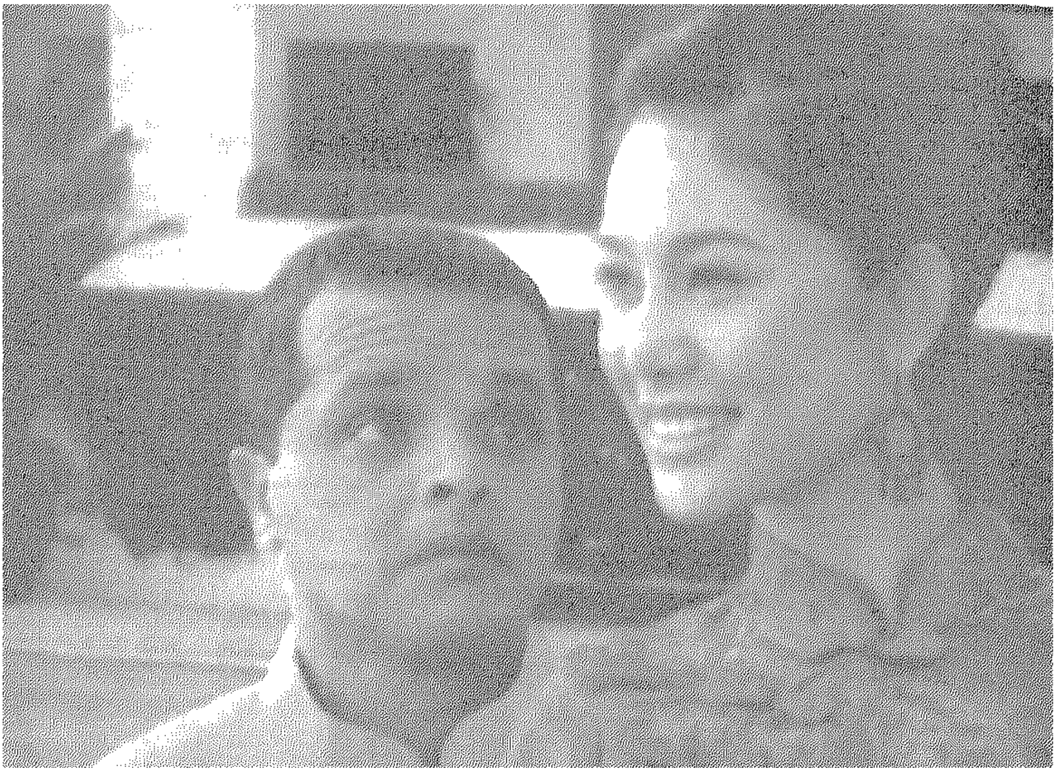

... ومع حبيبته الصينية

أثناء زيارة أخيرة قام بها لنيويورك بمناسبة تكريمه، بعرض بعض روائع أفلامه ، فوجىء هو الآخر بأن له ابنا. وان هذا الابن يكاد يكون صورة طبق الأصل منه، وقت ان كان شابا يدرس الدراما فى بلاد العم سام.

ابن طرزان

والمدهش ان هذا الابن الذى وجده المخرج، كما وجد طرزان إبنا فى احد أفلام عقد الثلاثينات من القرن العشرين، اسمه «اسكندر» ، وله من العمر عشرون عاما.

هذا، إلى أنه راقص ماهر لا يشق له غبار، مثله فى ذلك مثل المخرج أيام شبابه، وقت ان كان هو و«جنجر» (يسرا اللوزى) أم اسكندر يتبادلان الحب ألوانا.

أما لماذا اقتنع سريعا بأن «اسكندر» ابنه من لحمه ودمه، فذلك لأنه فضلا عن الشبه والموهبة الفذة، قد عاشر أمه النجمة «يسرا» معاشرة الأزواج أثناء إحدى زياراته للولايات المتحدة ، قبل عشرين عاما بالتمام، أى فى نفس العام الذى ولد فيه فلذة كبده«اسكندر»، الامر الذى يؤكد أنه ابن حلال.

حب مستحيل

وكم كانت دهشتى عندما ظهر المخرج «شاهين» واسمه «يحيى» فى الفيلم حيث يؤدى دوره كبيرا «محمود حميده» وشابا «أحمد يحيى» الـ...

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الجديد ، وهو في الوقت نفسه يؤدى دور الابن «اسكندر».

أمـا لماذا دهشت! فـذلك لأنه، أى المخرج قد ظهر على الشاشة فرحا، يكاد يطير من السعادة، هو وزوجته العاقر «لبلبة».

فـأعجب العجب أن تحب زوجة أب «لبلبة» «اسكندر» حبا يفوق الوصف، تتمسك به، وتتمنى لو تستصحبه معها إلى أرض مصر، وكأنه ابن عزيز، ولا تنقطع عن البكاء من الفرحة، لأن زوجها المحروم من الذرية، بسببها، قد وجد ابنا.

عبادة الفرد

ولا يكتفى السيناريو بكل هذا الهراء المخالف لطبائع الأشياء، بل يزيد عليه تمجيدا للمخرج «يحيى» ، أى «شاهين»، يذكرنا بعبادة الفرد أيام ستالين فهو الأول عندما يمثل، وعندما يرقص، وعندما يخرج.

بل هو الأول على كل الخريجين ، فى كل الدفعات، وفى كل السنين.

وإلى جانب تفوقه فى العلم والفن، فهو رجل فحل، او «وحش» حسب الحوار الصريح مع «جنجر» حبيبة أيام الشباب، والتى تحول بها المجتمع الأمريكى الذى لا يرحم، إلى بائعة هوى، يتغنى «يحيى» بقلبها النبيل.

ولا يفوت السيناريو أن يعلو به إلى أعلى عليين بلسان أستاذته فى معهد باسادينا بولاية كاليفورنيا «ماجدة الخطيب» فهو حسب اشادتها به يتكلم أربع لغات بطلاقة، ويجيد الكلام بالانجليزية أحسن منها، بل وأحسن من العميد.

الاستسهال والترهل

كما لا يفوته أن يضمِّن الفيلم مشهدا وثائقيا من حفل تكريم «شاهين» عن مجمل اعماله، والمناسبة الاحتفال باليوبيل الذهبى لذلك المهرجان وكذلك فمما يعاب على فيلم شاهين الأخير.

أولا أن السيناريو لا يقوم إلا على مصادفات، كان لابد من كثرتها ان تنحدر بالفيلم إلى مجرد ميلودراما فاقعة الألوان، تذكرنا بروائع وفواجع المخرج الراحل «حسن الإمام».

ثانيا أن الإخراج جاء مشوبا بعيبين رئيسيين.

احدهما الاستسهال ، ولعل خير مثال على ذلك تصوير المشهد الذى قام فيه «اسكندر» بالرقص على خشبة مسرح المترو بوليتان بنيويورك، تصويره فى أحد المسارح التابعة لمركز الأوبرا بالقاهرة والعيب الآخر هو الترهل، فبعض المشاهد يمكن حذفها من الفيلم دون أن يؤثر ذلك على السرد الدرامى للأحداث ، وأضرب مثلا بمشهد قتل كارمن فى باليه مستوحى من أوبرا كارمن «لچورج بيزيه». كم كان طويلا، ثقيلا، ولو كان الفيلم بدونه لما فقد شيئا، ولربما تحسن قليلا.

مخرج وأديب

أما القطب الثانى. فمشواره مع

الأطياف بدأ قبل سبعة عشر عاما.

وبفضل «فول الصين العظيم» ارتفع رصيده من الأعمال السينمائية بدءا من «الأقزام قادمون» «١٩٨٧» إلى خمسة عشر فيلما.

وباستثناء «مافيا» (٢٠٠٢) ، فجميع أفلامه من ذلك النوع المسمى بالملهاة.

وأثناء فترة من مشواره، قاربت الأعوام الأربعة لم يخرج فيلما أو مسرحية، إلا وكان بطلها الأوحد «عادل إمام».

وفى فترة لاحقة لفيلم «اضحك.. الصورة تطلع حلوة» (١٩٩٨)، انحصر ابداعه، طوال ثلاثة أعوام، فى إخراج أفلام . انفرد ببطولتها النجم الراحل «علاء ولى الدين».

ولأمر ما، لم يكن للنجم «محمد هنيدى» نصيب يذكر فى رصيد «عرفة» من الأفلام.

ففيما عدا دور صغير فى فيلم «المنسى» قبل أحد عشر عاما، لم يلعب دورا آخر فى أى من أفلام «عرفة».

لقاء السحاب

ولعل التقاء النجمين المخرج والممثل لأول مرة فى فيلم يلعب فيه الأخير دور البطولة، لعله لم يأت من فراغ. فذلك اللقاء جاء بعد حدثين أولهما فشل فيلمين «لهنيدى» احدهما «صاحب صحبه» ، والآخر «عسكر فى المعسكر» فكلاهما، كما هو معروف، لم يحقق ما كان مرجوا له من نجاح.

وثانى الحدثين، هو صعود «محمد سعد» إلى مصاف النجوم، بفضل «اللمبى» ، وما حققه من نجاح فاق كل التوقعات.

والسؤال هل تحقق المأمول من لقاء السحاب؟

أول ما يلاحظ والعناوين تظهر تباعا على الشاشة أن قصة الفيلم من تأليف «عرفة» والسيناريو المستوحى منها، هو والحوار، من تأليف «أحمد عبدالله»، صاحب سيناريو «غبى منه فيه»، ذلك الفيلم المفرط فى الابتذال.

سر التفاؤل

وفيما يبدو ، فإن نجاح فيلمى «عبود على الحدود» و«الناظر» ، وسيناريو كليهما من تأليفه، قد جعله محل ثقة «عرفة»، يأنس إليه، ويؤثره على غيره من اصحاب الأقلام. بل، ويتفاعل بقلمه ، حتى ولو جرى بالكتابة عن بلد ناء كالصين.

وأيا ما كان الرأى فى مؤلف السيناريو، فالأكيد أن «فول الصين العظيم» عكس «غبى منه فيه» جاء خاليا من اى ابتذال. فليس فيه ، والحق يقال، لقطة واحدة تخدش الحياء، وذلك رغم انتساب «هنيدى» فى الفيلمين إلى اسرتين، احداهما رجالها محترفو إجرام، والأخرى نساؤها عوالم مهنتهن الرقص والغناء.

ولا غرابة في ان يكون الفيلم فوق الشبهات.

القبلة حرام

فمما يعرف عن بطله «هنيدى» أن صعوده إلى سماء النجومية، بدأ بفيلم قيل عنه، وقتها. إن من بين أسباب نجاحه منقطع النظير أن شفاه أبطاله وبطلاته لم تتدنس بحرارة القبلات. ومن يومها، وهذا النوع من الأفلام ، يوصف بالنظافة.

اذن، فالقدر المتيقن ، ان فول الصين العظيم فيلم نظيف لم تتحدر الملهاة فيه إلى الاسفاف.

وهو يبدأ بمشهد طويل ، تتحرك فيه الكاميرا، دون قطع لترينا حجرة «هنيدى»، حيث ينام ، تطارده الكوابيس.

مجرمون وعوالم

وما أن ينتهي المشهد ، حتى نرى جد «هنيدى» ، وأعمامه الثلاثة، وكلهم عتاولة اجرام.

وسرعان ما نعرف أن الاعمام لم ينجبوا ذكورا، وان «هنيدى» ذكر العائلة الوحيد، الوارث لعرش الإجرام، والمعلقة عليه كل الآمال. ومن هنا اصرار جده «سامى سرحان» على تعليمه اصول الإجرام، وفنون القتال. وتدريبه على ذلك فى بعض العمليات الإجرامية الكبرى، حتى يستطيع رفع راية العائلة عالية.

ولكن «هنيدى» شاب وديع، لا تجرى فى عروقه دماء التجرمة، وانما دماء أخرى، ربما دماء امه العالمة «سهير البارونى».

الهروب الكبير

وطبعا تفشل تربية جده له، وينتهى به الأمر مطاردا من اعمامه، ومن افراد عصابة اخرى اشد إجراما، مما يضطره إلى طلب النجاة فى احضان أمه، ملاذه الأخير.

وحتى يتخلص منه زوج أمه، وهو طباخ شهير، يرسله ، بدلا منه، إلى الصين للاشتراك فى مسابقة عالمية للطهاة، ومعه رسالة توصية مكتوبة باللغة الصينية التى لا يفهم من رسومها شيئا.

وفيما بعد، نعرف عند وصوله إلى بر الصين سالما، ان هذه الرسالة ليست للتوصية، وإنما للإيذاء. فكاتبها، زوج الام، اراد بها ان ينبه السلطات الصينية إلى ان حاملها، اى هنيدى، مهرب مخدرات خطير.

قصة سخيفة

ولن احكى مغامرات الفتى هنيدى فى الصين بالتفصيل ، فذلك شيء يطول.

وإنما اكتفى بأن اقول ان قصة مغامراته تنتقل بنا من شيء سخيف إلى شيء أشد منه سخفا وذلك يرجع، ولاشك، إلى بعدها عن الواقع، بعد السماء عن الأرض، فتفاصيلها ليست مستمدة من بيئتنا، وليست قريبة إلى نفوسنا، وليست نابعة من تقاليدنا وعاداتنا، وتصرفاتنا.

وهذا بالضبط ما يجعل أفلامنا فاشلة، ويتهدد السينما المصرية فى مستقبل الأيام!! ■

إذاً .. وإذن

بقلم : د.الطاهر أحمد مكى

منذ وعيت الكتابة لحظت أن إذاً (بالتنوين) وإذن بالنون معناهما واحد، ونطقهما واحد، ولكنهما تختلفان كتابة، وكنت أكتبهما كيف ما اتفق، لا أعرف لذلك قاعدة أهتدى بها، ولم أدرس الأمر فى أىٍّ من مراحل تعليمى، فاخترت أخيرا أن أكتبها بالنون دائما اعتباطا، للتفرقة بينها وبين إذا الشرطية .

وأخيرا بدا لى أن أدرس الأمر، فوجدت أنها من حيث الإعراب تنصب الفعل المضارع بشروط ثلاثة:

* أن تكون صدرا فى الكلام، فإذا تأخرت أو جاءت حشوا أهملت.

* أن يكون الفعل الواقع بعدها مستقبلا ، فإذا كان فى معنى الحال بقى مرفوعا. تقول: إذن تصدقُ. جوابا لمن قال لك: إنى أحبُّك ، لأن أدوات النصب لا تعمل فى الأفعال الحالية الزمن .

* أن يكون الفعل متصلا بها ، فإن فصلت بينهما بغير الدعاء أو القسم أو النداء، بقى الفعل مرفوعا . تقول فى المثال السابق : إذن يا صديقى أحبُّك .

أما حيث كتابتها بالألف أو النون ففيها مذاهب ثلاثة:

* أن تكتب بالألف دائما .

* أن تكتب بالنون إذا نصبت الفعل بعدها، وبالألف إذا كانت ملغاة .

* أن تكتب بالنون على أى حال .

والرأى الأخير أحب إلىّ، وهو الذى استخدمه دائما، للتفرقة بينها وبين إذا الشرطية، ولأن الضبط بالشكل فى المطبعة الحديثة مجهد، وكتابة فتحتين فى آخرها للإشارة إلى تنوينها جهد زائد، فتأكد عندى أن فى كتابتها بالنون تيسرا ومزيدا من الدقة، ويا حبذا لو أخذ الجميع بهذا، ولهم فى تراث العربية مندوحة، تيسيرا على التلاميذ المبتدئين فى الإملاء.

وأتمنى على مجمعنا الموقر للغة العربية أن يتخذ فى هذا قرارا .■

بقلم
مرفت رجب

أحزان شاهين في عيون السينما

ولما كان نطقها لإسمه واضحاً لا تخطئه الأذن .. حسمت أمرى على الفور.. وفى ثوان كنت قد عدت إلى مقعدى المواجه لشاشة التليفزيون، غير عابئة بمشروع إعداد القهوة .. ولا بالألم المبرح ينبعث من قدمى صاعداً كالبرق إلى رأسى من أثر ارتطام القدم فى قائم المقعد.. المهم أننى وصلت إليه قبل أن تكتمل الجملة «سيرچى توبلانا» فى مستهل برنامجها Yeux dans l'ecan Les العيون فى الشاشة ولما كانت عادتها أن تبدأ البرنامج بكلام عن ضيف الحلقة يظهر فيه صوتها على مشاهد فى شكل تقرير مصور فى حوالى دقيقة، فقد جاءت فى كل ثانية من تقريرها عنه بإضافة إلى بواعث السرور فى نفسى.. وما أحلى هذا الشعور يغمرك وأنت تراه مقدراً مكرماً على الشاشة الفرنسية الدولية.. وهو فنان من بلادى ..

وما أن انتهت دقيقة التقدير حتى رأيناه جالساً قبالة مذيعة البرنامج.. على وجهه ابتسامة رضاء، وقد شملته حالة من وداعة وهدوء مغاير لما تعودناه من عصبية تغلب على كلامه، بصرف النظر عن الموضوع.. ومع تتابع

ردوده على أسئلة المذيعة علت نبرة الأسى، ومنه جاءت العبارات واضحة مرتبة بمنطق مقنع جعلنى أهتف بالعبارة «الله عليك وأنت حزين» والحمد لله أنه لا يسمعنى .. فأنا أشاهده فى القاهرة، والشاشة تنقل إلى حديثه من «كان» فى فرنسا ، حيث المهرجان الذى احتفى بأحدث أعماله «اسكندرية .. نيويورك» ومن أمارات الاحتفاء أن يكون يوسف شاهين ضيف الحلقة الخاصة من البرنامج موضوع الكلام . فما الذى جعلنى أرجئ الكتابة عن تلك الحلقة من البرنامج، وما الذى يميز البرنامج أصلا بما يجعلنى أصنف ظهور يوسف شاهين فيه على أنه من أمارات التكريم والاحتفاء ،، وهل يمكن – لا سمح الله – أن أجد على شاشاتنا برنامجا تصلح مقارنته ببرنامج «عيون فى السينما» Les yeux dans l'ecan من قريب أو بعيد..؟!!

منعا للإحراج

ربما يكون الأفضل أن أتجنب المقارنة – منعاً للإحراج – فمذيعة البرنامج تذكرك بمذيعات التليفزيون المصرى إبان الستينات .. لها شعر أسود، وعينان واسعتان، وهى بذلك بالطبع مختلفة عن مذيعات العقدين الفائتين عندنا وقد غلبتن آليات التصنع، فانصرفن إلى صبغ الشعر بالألوان الفاتحة، مع انحياز واضح للصفرة والحمرة، ولم تنج من ذلك العيون، بعد توافر الملون من العدسات اللاصقة ، والنتيجة أن فاتتهن العناية بموضوع النظر.. ومحتوى الرأس، فضاعت منهن زوايا الرؤية، ومعها كل ما يمت بصلة للمستساغ من الأفكار.. أما صاحبتنا الفرنسية فيبدو أنها تعلمت كيف تدرس موضوعها وتحتشد له، ثم ترتب ما برأسها من أفكار، وهى لذلك حين تنطق بالكلام ، يصدر عنها واضحا دون لبس أو مضغ لأى حرف قد يتوه معنى ، أما عيناها السوداوان الواسعتان فالنظرة فيهما رائقة فى ثقة، تزين المحيا ولا تغيب وجهة النظر ..

كذلك يبدو أن صاحبة هذا البرنامج خصت فن السينما باهتمامها.. فأنت لا تراها فى أى برنامج آخر.. لكنك تدرك بمتابعتها أنها تقضى الأسبوع كله فى البحث والدراسة والإعداد لما تقدمه فى هذا البرنامج الأسبوعى.. فطريقة طرحها للأسئلة وقدرتها على الصمت والإنصات وتأجيل الكلام إلى حينه ، تثبت أنها ليست مجرد بغبغان يعيد على الناس ما يلقنه له آخرون ..

وأما البرنامج ، والذى يقع فى ثلاثين دقيقة، فهو البرنامج الوحيد المختص

المتفرجة

بالسينما على الشاشة الفرنسية الدولية.. TV5 بمعنى أنه الوحيد الذى تنصرف كل حلقة منه بالكلية للحديث عن مخرج أو كاتب سينمائى واحد، والحديث هنا ليس كلاما مرسلاً غير محدد الملامح أو الاتجاه .. إنما هو كلام متخصص فى فن السينما يناقش تقنيات وأساليب الإخراج ويتناولها بالتحليل والمقارنة اعتمادا على الفيلم المعين أو الأفلام التى يستدعيها البرنامج للعرض فيه، تغذية للحوار مع المخرج الضيف، بما ينقل للمتابع للبرنامج صورة لثراء الإنتاج السينمائى الفرنسى، وهو ثراء لا يقتصر على عدد ما يتم إنتاجه من أفلام وإنما هو يشمل كذلك ألوانا وتقنيات فى السيناريو والإخراج تروى عطش عشاق السينما فى جميع الأنحاء .

وإذا تأملنا ضيوف البرنامج من كتاب أو كاتبات للسيناريو أو من مخرجين للأفلام أو مخرجات، نجدهم لا يظهرون على شاشة التليفزيون بهذه الصفة إلا فى هذا البرنامج ، ذلك أن الأمر عندهم مختلف عما استشرى على شاشاتنا بالكلية من حشوٍ للكلام بلا طائل، يجعلك ترى فى البرامجيين على الشاشات قطاع طرق، ينزلون على الفنانين نزول القناص يتعجل فعل الاقتناص بصرف النظر عن تكرار ظهور الفنان فى أكثر من برنامج يكرر - ربما - نفس الكلام ، فى أى موضوع أو بلا موضوع، المهم أن يكون من زمرة أهل الفن ، فالغرض الظاهر للكافة، هو ملء الوقت، بأى كلام، حتى لو كانت النتيجة الوحيدة هى الإيهام بالمبرر.. أى مبرر للوجود على الشاشة .. والنتيجة لا تكاد تجاوز ثالوث التغييب والتسطيح والتشويش والحق أن هذا يسرى على الرياضيين والمسئولين التنفيذيين بنفس شكل وقدر سريانه على الفنانين ، محققا نفس النتائج للثالوث الدامغ للمرحلة .

وقد يسأل سائل، هل هناك مثلا قرار يمنع ظهور المخرجين وكتاب السناريو فى برامج أخرى غير «عيون فى السينما» .. والإجابة هى طبعا بالنفى.. لكنهم إن ظهروا فى برامج أخرى فظهورهم ومشاركتهم محكومة بموضوع البرنامج .. يعنى لها معنى وهدف، وهم فى ذلك يعاملون كمواطنين فرنسيين على قدم المساواة مع مؤلفى الكتب والأطباء والفنانين التشكيليين والمهندسين وغيرهم من المهنيين .. والمثل عندى حين يكون موضوع البرنامج كتابا أو كتبا بعينها، وفى هذه الحالة تكون مشاركة الفنان

لأنه قرأ الكتاب وله فيه رأى يثرى الحوار فى الموضوع وهذا بالطبع فضلا عن البرامج التسجيلية أو المنوعات، وهى بدورها محكومة بنوع المنتج الفنى وأنواع الأداء فيه ..

إذن فبرنامج «عيون فى السينما» يعتبر نسيج وحده ، وتخصيص حلقة من البرنامج للكلام عن يوسف شاهين فى أحدث أفلامه «إسكندرية .. نيويورك» له من التفرد نصيب .. ومع أن يوسف شاهين بدا فى البرنامج مقنعا نافذ البصيرة، فالمؤكد أنك لا تصل إلى هذا الرأى بفعل عبارات الإطراء تضفيها عليه المذيعة «من جيبها» كما لو كانت مكلفة بحملة ترويج مدفوعة الأجر - كما هو الحال عندنا - إلا أنها مع ذلك صاحبة فضل، وفضل «المذيعة أنها حين خصت يوسف شاهين بهذه الحلقة من برنامجها «عيون فى السينما » كانت قد شاهدت فيلمه «إسكندرية .. نيويورك» يتضح ذلك من أسئلتها، وقدرتها على مناقشة آرائه بما أتاح لنا أن نستوعب حالة الفيلم وحالة يوسف شاهين كما تبدت من أول لقطة فى البرنامج الذى أظهره على هذا النحو من الحزن والأسى .. وهى بالمثل صاحبة فضل لأن برنامجها الذى أظهر هذا الوجه من وجوه يوسف شاهين، اختار من فيلمه لقطات حافلة بالبهجة ، تتفجر من سحر رؤياها ينابيع نشوة ومسرة، هى بالقطع كفيلة بتلطيف أى ألم، ومنه ألم قدمى التى أصبتها بفعل اللهفة على مشاهدة البرنامج .. ومنه تلقيت من متع المشاهدة ما أنسانى ما بى من وجع .. ومع ذلك كان قرارى ألا أكتب ..

الحالـــة

ظل كلام يوسف شاهين يتردد فى رأسى.. ومعه تلك المشاهد الرائعة التى عرضها برنامج القناة الفرنسية الدولية، ومعها يلح علىّ السؤال عن مكامن السحر فى موسيقى تلك الرقصة وألق مؤديها من راقصين وراقصات، وعن هذا النور المنبعث من الشاشة، وهم ينطلقون كالفراشات ، والبهجة تنتثر من حولهم، تشعر بها تغمرك وبالسكينة تغلبك.. وظللت أنتظر الفيلم لأتبين كيف أتى يوسف شاهين بهذه الصيغة لتكون أداته لينقل للمشاهد لفيلمه بواعث حزنه وأسفه على ما أصاب الأمريكيين من طيش وحماقة بدأت بهيروشيما لتصل إلى ما وصلت إليه فى العراق ومعها السكوت الداعم لما تقترفه إسرائيل فى فلسطين ، فقد كان هذا من بين ما قاله شاهين للمذيعة الفرنسية، ومنه أيضا ما نطق به من عبارات الحسرة على ضياع أمريكا التى عرفها وأحبها أيام ازدهار فنها الجميل فى عصر «فريد استير»

وانحسار الموجة أمام الزحف الطاغى للعنف والغلظة كما فى أفلام «ستالونى» فأمريكا اليوم غريبة على شاهين ، لا يعرفها ، ولا يستطيع أن يظل يحبها .. (كما أننا مثله لا نستطيع) .

كان على أن انتظر من الشهور ثلاثة، حتى يعرض الفيلم بالقاهرة، ويفضل برنامج «عيون فى السينما» فعلت ما لم أفعله من قبل، ذلك أننى حرصت على حضور العرض الخاص، غير قادرة على انتظار أسبوع آخر ، حين يعرض الفيلم بجميع صالات العرض لأتأكد مما قرأته فى عينى شاهين ومشاهد الفيلم ، وكذلك مما قرأته فى أسئلة المذيعة وما نطقت به عيناها الواسعتان. والآن أستطيع أن أكتب بعد أن أكدت لى مشاهدتى للفيلم أن البرنامج كان أفضل تقديم له ، وأن شاهين يخرج علينا فى فيلم «اسكندرية .. نيويورك» بنبرة هادئة مقنعة ، تجعلك تهتف له هتافى وأنا أشاهده يتحدث فى البرنامج الفرنسى «عيون فى السينما» الله عليك ياشاهين وأنت حزين ..

وأستطيع بكل الارتياح أن أقول إن فيلم «اسكندرية .. نيويورك» سيكون علامة فارقة، ليس فقط فى سينما يوسف شاهين ولكن ذلك يشمل كل المشاركين فى صياغة هذا الفيلم رفيع المستوى، خالد يوسف المشارك فى كتابة السيناريو مع شاهين – وعبدالمنعم كامل مصمم الرقصات والفرعون محمود حميدة ويسرا وهالة صدقى ولبلبة ونيللى كريم ويسرا اللوازى وأحمد يحيى .. الكل بلا استثناء شارك فى نسج ضفائر يمتزج فيها الحب بالأسى كما تمتزج البهجة بالأسف .

أحسست بعد مشاهدتى للفيلم فى العرض الخاص بإحباط شديد حين وصل الفيلم إلى نهايته .. وما أحلى هذا الشعور الذى افتقدناه من زمن .. الشعور بأنك فى صحبة لا تريد أن تفترق عنها وفى حالة من الارتواء الفنى لا تقوى بعده على ظمأ ولم تمض من الأيام خمسة، إلا وكنت أكرر الزيارة ، لعلى من صحبة الائتناس أشبع ..

وكيف لك أن تشبع من هذه الصيغة التى صورها الفيلم مستوحاة من عين خيال البطل الشاب يحيى، فيخرج علينا بصورة غير مسبوقة لكارمن الأوبرا ، يقتطف منها ما يستدعى إلى الفكر أصولها العربية فى غير مواربة .. لا تتمثل فقط فى ملامح الراقصين وملابسهم وإنما فى الصيغة الموسيقية

التى زاوجت بين موسيقى كمال الطويل (المصرى) وبيزيه (موسيقار فرنسا الذى عرفنا كارمن على ألحانه) . ولقد تعمد شاهين أن يستدعى فن وفكر كمال الطويل حين أهدى إليه الفيلم كما أهداه للمفكر العربى إدوار سعيد المولود لفلسطين والمتوفى مهاجراً إلى أمريكا .. ويأتى الفيلم كله تعبيراً عن سماحة وأصالة روحيهما فقد تركا لنا فى تراث الفن والفكر آيات هى من ثمار ثراء تعددت منابعه وامتزجت بعذوبة وسلاسة امتزاج موسيقى الطويل وبيزيه ..

وإذا كانت هذه الصيغة فى التفكير من أفضال نشأة الإسكندرية التى فيها ولد شاهين وتربى لينعم بخليط الثقافات التى أنعشت أجواءها على مر العصور ، فإنه يضع لنا الصيغة المقابلة لثمار العيش فى نيويورك .. فقد أعطى دور البطل فى شبابه لأحمد يحيى وترك نفس الممثل يقوم بدور الابن من حبيبة الصبا ، وقد أعطته اسم اسكندر، لكنه لم يأخذ من أبيه سوى ملامح الوجه والقد ، باختلاف وحيد هو زرقة العينين ، يرثها من الأم الأمريكية ومن أمريكا يشرب قساوة الروح وأحادية التفكير ورداءة الطبع، مع أنه مولود من أم كانت من جميلات أمريكا ، تحصل على عقد من استوديوهات كولومبيا من أول زيارة .. ولكن الحياة الأمريكية تطحنها وتحولها إلى مجرد كومبارس عاطلة معظم الوقت مما يضطرها لبيع جسدها للخمر والرجال ..

وحين ينتهى الفيلم على مشهد محمود حميدة يكاد يجر حمل جسده فى شوارع نيويورك المزدحمة، وقد فشلت آخر محاولاته لوصل حبال المودة بابنه اسكندر مع كلمات الأغنية «نيويورك بتقتل أى حنين ، والفرح بيخرج منها حزين » يكون شاهين قد بلّغ الرسالة .

لم يغادرنى سحر عينيها ، ومع كل مشهد من الفيلم كان إدراكى لمعانى نظرتها لشاهين يتعمق وبالمثل تتعمق معرفتى لمصادر أسئلتها إليه ودقة اختيار ما عرضه برنامجها «عيون فى السينما» من فيلم اسكندرية.. نيويوك .. كان من الواضح أنها اختيارات عين ثاقبة تقدر دور الموسيقى فى الفيلم وفى هذا لابد من التنويه بما خلقته موسيقى فاروق الشرنوبى ويحيى الموجى وهما يبعثان الألحان الأساسية فى أغانى «أهواك» لحليم وأنا قلبى دليلى لليلى مراد .. وزورونى كل سنة مرة لسيد درويش مضفرة بإبداعاتهما أما متى وكيف ولماذا فتلك أسئلة لاتجد إجابتها إلا فى عين خيال شاهين صاحب الرؤية «إسكندرية .. نيويورك» . ■

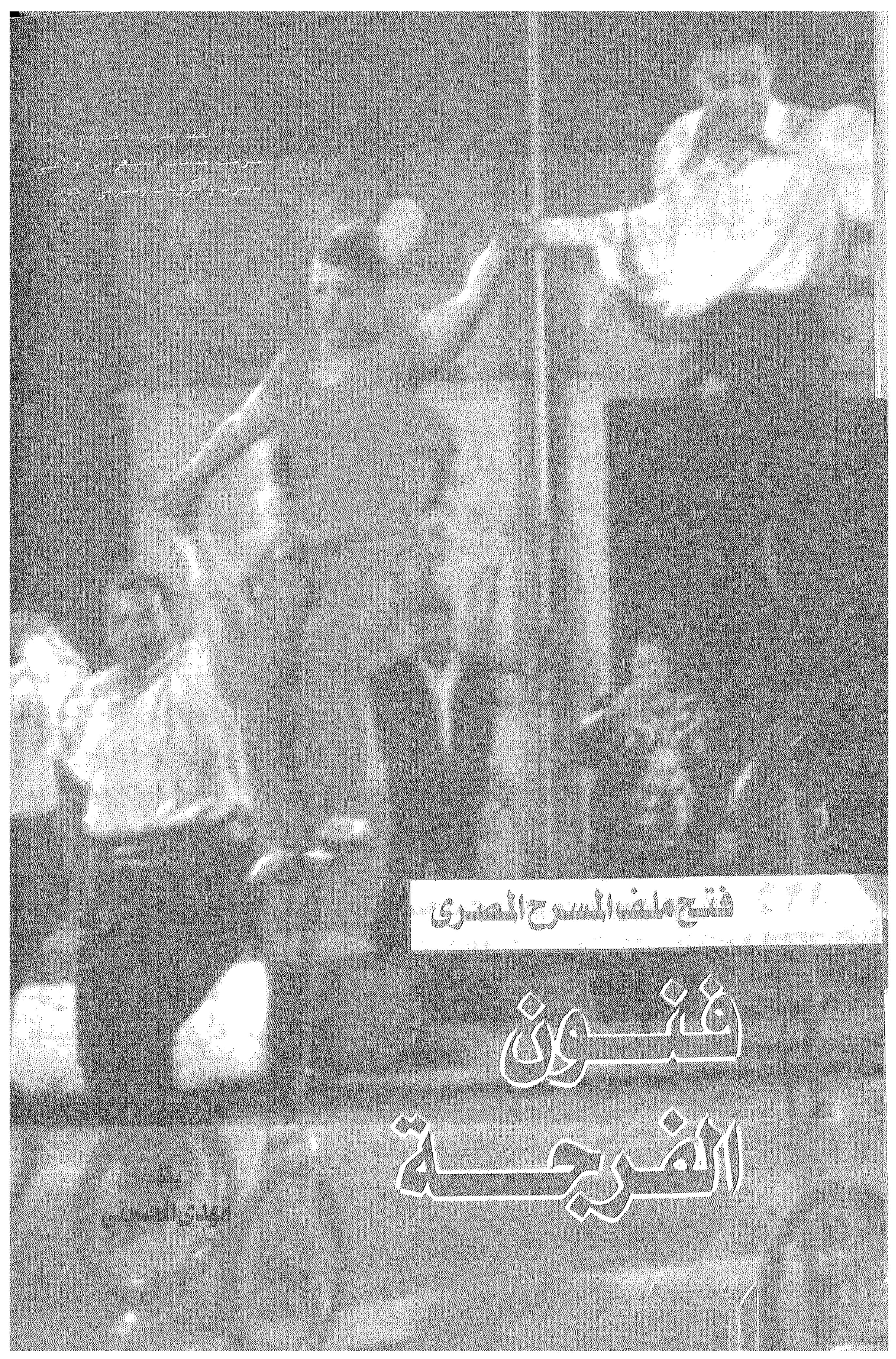
فتح ملف المسرح المصرى
فنون الفرجة
بقلم
مهدى الحسينى

«المصريون يحبون الفرجة» هكذا قال العلاَّمة إبن خلدون، حيث لا يوجد مصرى إلا وجاب المواكب الشعبية والمسيرات الاحتفالية والمداحين والحكائين وشعراء الربابة وحلقات الذكر وألعاب التحطيب والرقص الشعبى وفنون العوالم، وشغف بالأراجوز وخيال الظل والمهرجين والأكروبات ومهارات السيرك الجوال والنقرزان والمراجيح والبيانولا والفتاة الكهربائية.. وغير ذلك من فنون الفرجة.

وخلال القرنين الماضيين - وفى حدود علمى - نشطت عائلات بأكملها لممارسة هذه الفنون فى كل ما يطرأ من مناسبات عامة وخاصة، ومنهم أولاد على الأحمر وعاكف وبغدادى والحوّ (الحلو) وكوته وياسين وتوفيق ومازن، وقناوى وركابى، وعشرات أخر من الأسر الفنية الصغيرة التى شكلت ما يشبه الفرق الشعبية المتكاملة التى تقيم الأعراس وتحيى المناسبات كالطهور وأعياد الميلاد وليالى الذكر وطقوس الزار، كما تقدم فنونها فى الموالد والأسواق والسوامر والأحواش والأجران والمقاهى والساحات العامة.

ومع الرواج والانتعاش الاقتصادي الذى غمر البلاد بسلبياته وايجابياته - ورغم كل المآسي - ابتداء من عهد سعيد باشا والى مصر آنذاك، برز عدد من هؤلاء الفنانين الشعبيين وانتزعوا بفضل مواهبهم ومساهماتهم اعتراف المجتمع بهم كفنانين مرموقين يشاركون فى أفراح الأنجال والأكابر والعمد، وواكب هؤلاء حركة المجتمع مثلهم مثل صنوع ومحمد عبدالرحيم المسلوب وسلامة حجازى ومحمد عثمان وعبده الحامولى وكوكبة الشوام الزائرين منهم والمتمصرين، فظهروا فى عروض المسارح ثم فى أفلام السينما المصرية الناهضة، ومع الانتعاش النسبى لزراعة وتجارة القطن أصبح بعض الفنانين الشعبيين نجوما فى أقاليمهم والأقاليم المجاورة، بل وجابت فرقهم المسرحية والاستعراضية الجائلة والمداحين والصييتة واللاعبون والمحبظون والمشخصاتية والمهرجون والمخايلون أنحاء البلاد، وعلى سبيل المثال لم يترك سيرك حسن الحوّ (الحلو) مدينة إلا وزارها ولا مولدا إلا وأحيا لياليه التى لم تقتصر على ألعاب الحيوانات الضارية والأليفة بل وتقديم المونولوجات الانتقادية الساخرة والاسكتشات الغزلية والمقطوعات الموسيقية بآلات النحاس وألوان الرقص والغناء.

مدارس فنية

ويكاد يكون فى كل إقليم ومديرية (محافظة) معلمة أو عالمة لها دراية كبيرة بأسرار الفنون الموروثة والمستجدة، اشتهر منهن الفنانة «عايدة صابر» في طنطا وكانت تملك دوارا كبيرا بالقرب من جامع السيد أحمد البدوى تقوم فيه بأدوار عدة: تعليم مختلف ألوان الفنون من عزف وغناء ورقص، إلى جانب القيام بدور متعهدة الأفراح والحفلات مكتشفة المواهب ، ومنسقة البرامج الفنية فى مختلف المناسبات إذ كانت تدير فرقا فنية بأكملها، وهذا بخلاف دورها هى كفنانة عازفة لعدة آلات ومغنية وراقصة استعراضية، لهذا فقد تخرج من مدرستها فنانون لامعون مثل محمد فوزى وهدى سلطان، وعشرات من الموسيقيين والعازفين وفنانى الاستعراض والممثلين غيرهما . كذلك كانت هناك أيضا أخريات مثل

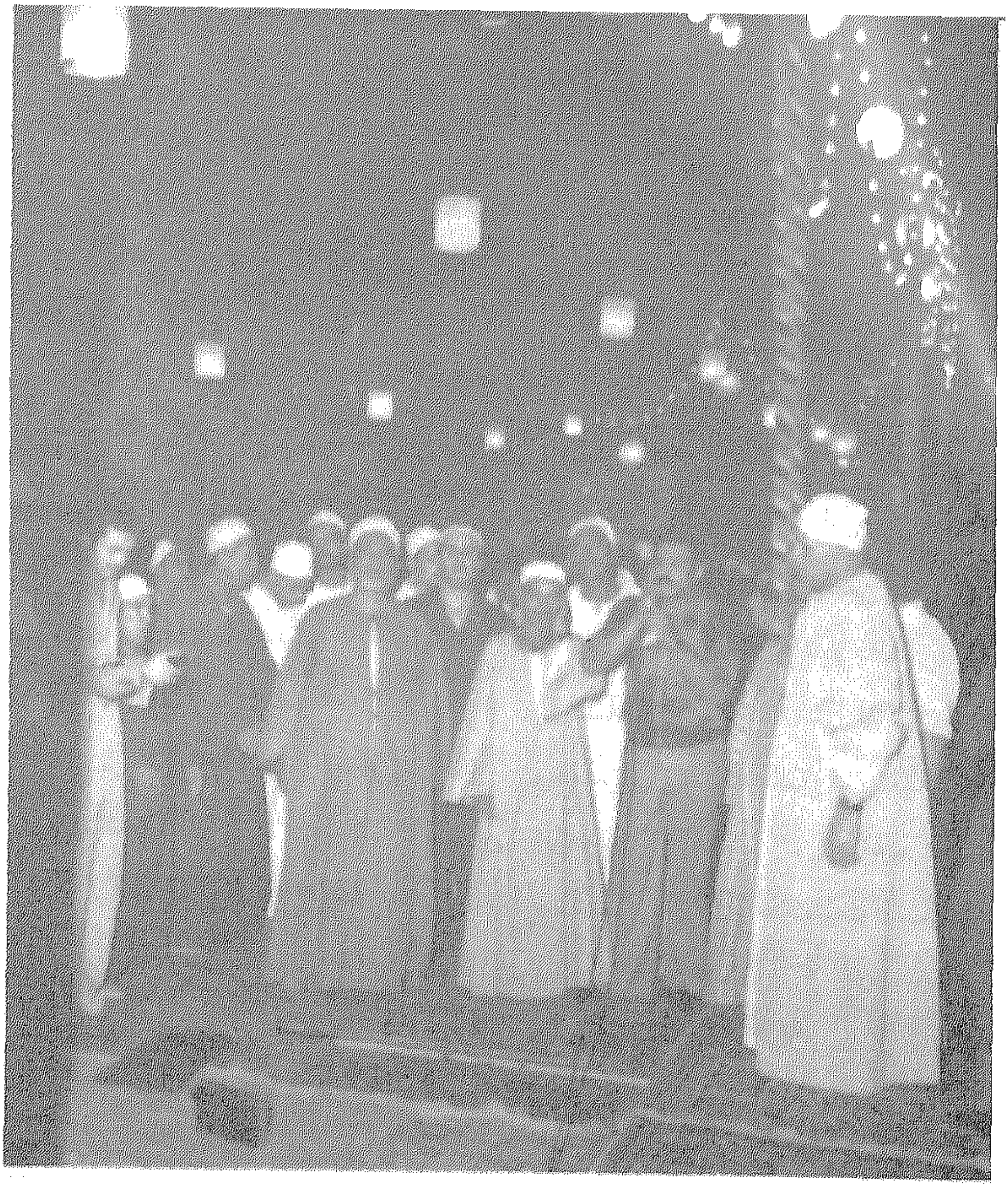

أغلب الفنانين الشعبيين لا يتمتعون بحماية نقابية

«الشيخة حجر» فى دمنهور التى قدمت لنا فنانا لامعا هو كارم محمود، وشاعرا غنائيا متميزا هو محمد ملوخية، وكذا كانت هنالك «أم زتون» فى شارع صيام بالمنصورة ، و«زينب عصفور» بالأسكندرية، و«بخيتة» فى نجع أبو شجرة بمدينة سوهاج، و«بنات مازن» فى الأقصر و«فريدة ركابى» فى قنا.. وغيرهن من كاهنات معبد الفن، جنبا إلى جنب مع أحياء الفن مثل شارع محمد على بالقاهرة، وقيسارية جرجا، والعتبة الزرقا بأسيوط والبياصة بالأسكندرية، وكلها تزخر بأنواع الفنون والفنانين وصناع الآلات الموسيقية وكلهم من بنات وأبناء الشعب، يقدمون فن الشعب ويمتعونه

ويضيئون أيامه ولياليه السعيدة والصعبة سواء.

موروث أسري

والدرس المستفاد من هذه الفرق وهؤلاء الفنانين وتلك التجارب، يسفر عن حقيقة مهمة: هي أن «الأسرة» .. أعني العائلة التي تحترف الفن هي مدرسة مصغرة متكاملة أو شبه متكاملة لتعليم هذه الفنون (راجع تفاصيل تكوين أسرة الفنان عازف العود والخطاط والرسام حسنى البابا والد الفنانة الكبيرة الراحلة سعاد حسنى والفنانة نجاة الصغيرة.. والجميع لم يلتحقوا بأي من معاهد الفن لهذا لم تصب مواهبم بأي أذى). فهناك محددات أربعة هي:

١ - الموروث ، ٢- المتغير الاجتماعي والثقافي ، ٣ - الموهبة الفردية والقدرات المتنوعة ، ٤ - السوق والعرض والطلب وفقا لمقومات الذوق وتغيراته. ولنأخذ من أسرة الحو (الحلو) مثالا: لقد خرجت لنا مطربين مثل محمد فوزى ومطربات مثل هدى سلطان ومطربا مثل محمد الحلو ومدربين للوحوش مثل حسن الحلو الكبير وأبنائه وأحفاده وأصهاره من فنانات وفنانين ولاعبي سيرك وأكروبات ومغنيات ومغنين وفنانات استعراض، وكذا آل كوته وأشهرهم الآن مروض الوحوش مدحت كوته، وآل بغدادى من مصممي الاستعراض والعازفين وراقصي الكلاكيت ومروضى الحيوانات الأليفة وأشهرهم إبراهيم بغدادى، أما آل عاكف فقد قدموا لنا نعيمة وصابرين وهند عاكف وهن غنيات عن التعريف بالاضافة إلى إبراهيم عاكف مصمم ومدرب الكلاكيت الشهير، وطارق عاكف الموزع الموسيقى المعروف، كما قدم لنا آل توفيق الطوخي وإبراهيم توفيق اللذين اشتهرا بألعاب الخطر ومهارات الدراجة البخارية «فيلم دائرة الانتقام» أما إبراهيم فكان يتقن العزف على خمسة آلات موسيقية وايقاعية ولا أحد ينسى شقيقتهما سميحة توفيق التى اشتهرت كإحدى ممثلات الإغراء البارزات في السينما المصرية.. وغيرهم.. وغيرهم من الأسر التى وهبت بناتها وأبناءها للفن كمتعة انسانية وكمورد رزق معا، فتملكوا روحه وتمكنوا من حرفته. كل

ذلك بدون معاهد أو أكاديمية.

الفرق الجائلة

أما عن الفرق لا الأسر الجائلة فأذكر عم فتحي والد الفنان إبراهيم فتحي (إبراهيم كولة) من أمهر وأشهر عازفي الصفارة اليوم، وكان الوالد عازف كمان ويعمل في مصانع كفر الدوار، ورغم أنه بوغت بآلة النسيج تبتر إصبعيه السبابة والوسطى إلا أنه لم يتوقف عن العزف قط بل بدل يدا بيد فأمسك القوس باليسرى المصابة بدلا من اليمنى السليمة!! وأما نجله فهو إبراهيم عازف (الكولة) الشهير، ولم يرحل الأب عن حياتنا إلا وقد اطمأن إلى أنه قد علم الفن لكل بناته وأبنائه كفن وكمورد رزق، كما أن هناك العديد من الأسر الفنية الصغيرة مثل أسرة «الشويكى» وهى أسرة متكاملة من حيث توفر المطربين والمطربات والعازفين والعازفات والراقصين والراقصات يحملون ميراثا فنيا يميز برامجهم عن باقى الفرق مما يجعلهم قادرين على إحياء ليلة عرس كاملة دونما تكرار أو ملل، وتوجد أسرة «هندى» التى تخصص أفرادها فى المزمار (الدلتا) والطبل (العلبة) وقد مثلوا الفن المصرى فى مهرجانات وبعثات شملت أطراف العالم الأربعة، وهناك أسرة «العصلوجى» الذين تخصصوا فى المزمار (التركى) أو (الشلبية) المصنوع من حفر أغصان المشمش أو شجر الليمون وغيره من الأشجار المعمرة ذات القطع الناعم المتين فقد يرث الآلة الواحدة خمسة أو ستة أجيال، وفى المقابل يوجد المزمار الصعيدى السبس، والأبا، ومنهم نجوم الفن الشعبى مثل خضرة وفاطمة وجمالات وهنايات شعبان وسيدة غريب وبدرية السيد وشفيقة وسعاد فريال وشادية وخيرية مازن، والششتاوى خاطر وأنور العسكرى وعبدالغفار رمضان وزاهر يونس ويوسف شتا والحاج مصطفى مرسى (بتاع المرج) الذى لم يؤرخ حتى الآن لدوره المؤثر فى تأصيل الفن الشعبى والحفاظ عليه، وأحمد سمسم وشمندى القناوى ومتقال القناوى، ومحمد مراد (عازف الربابة الذى لايبارى) ومصطفى عبدالعزيز (عازف الأرغول الذى عزف فى أهم مسارح العالم) وإسماعيل حجاج (عازف الايقاعات الشعبية بكل ألوانها وأنواعها) والمداحين الشقيقين

محمد ومحجوب صبرة اللذين صاحبا أمهر المؤدين والمؤديات في هذا اللون، أما عن شعراء السيرة والرواة والحكائين في صعيد مصر فهم أكثر من أن يحصوا (ومنهم شاعر السيرة النادي أحمد حسن الذي استقى منه د.عبدالحميد يونس رسالة الدكتوراه عن السيرة الهلالية) وكذا عازفي الرباب ولاعبي التورة (الصاجات بأحجامها وأشكالها ووظائفها الكثيرة) والغوازي والطبالين وعازفي الغاب الصعيدي والبدوي (المجرونة والجورمة ومختلف مقاسات الأرغول.. الخ).. فضلا عن أشهر المشخصين : أحمد العدل وحمام العطار وأحمد المسيري وجورج دخّول (كامل الأصلي) الذين استقى منهم الفنان علي الكسار جل فنونه. كل هؤلاء فنانين مجيدين - ومن بينهم أفذاذ - تعلموا وكبروا وعلموا وأثروا في العقل والوجدان، دون أن يلتحقوا بمعاهد فنية عليا أو إكاديميات (لاتعلم شيئا) هؤلاء لم يحصلوا على دكتوراهات (لا قيمة لها في الممارسة الفنيةالعملية نظرا لأن المنهج مقلوب)، بل إن المفارقة تكمن في أن بعضا من هؤلاء المتحذلقين يعتمدون في مصادر مادتهم على مخزون هؤلاء البسطاء من جواهر ثمينة حفظها الزمن وورثوها فأسهموا في صونها وأحيائها.

ظلم مجحف

ومن الظلم المجحف أن أغلب هؤلاء الفنانين الشعبيين لا يحظون بأي حماية نقابية أو تأمينية ضد المرض والعجز والشيخوخة.. والوفاة، وقد يمضي هؤلاء الفقراء إلى العالم الآخر حاملين معهم كنوزهم التي لم ننجح في الاستدلال على كنهها والافادة منها، فتختفي - باختفائهم - آداب وفنون لن نستطيع تعويضها أبدا، لأننا - ببساطة - لا نمتلك ملكات في نفس رقي ورفعة ما يملكون . أضف إلى ذلك معاملة البعض منهم - أحيانا - كخارجين على القانون أو متشردين أو متسولين أمر يعكس نوعا من العماء الثقافي أوالحضاري ، بل تمت ضدهم بالفعل حملات مطاردة واجتثاث خلال مرحلة سابقة .

في أواخر الخمسينيات ومطلع الستينيات فملأت بهم أقسام الشرطة وعنبر (حـ) في سجن مصر القديم وسجن الحضرة بالأسكندرية وبعض السجون المركزية الأخرى في الأقاليم،

فكم عانى (الأخنف) ساحر النقرزان وألعاب التوزان والحيلة من رطوبة الحجز. رغم أنه قدم ألوان مهاراته المعجزة فى الأفلام المصرية وفى السيركات المتجولة وعلى المقاهى ولم يشكل يوما ما أى خطر على الأمن والقانون، وبدلا من حمايتهم ورعايتهم ومحو أميتهم وتنويرهم والتفاعل معهم اضطهدوهم وحطوا من إنسانيتهم، إن يد القمع الثلمة الغليظة لن تستطيع ابدا أن تدرك قيمة ما كان يحمله هؤلاء الفقراء المعذبين، على أميتهم - من تراث ثمين موروث ربما من آلاف السنين، فأضافت الأمة الى خساراتها خسارات فادحة جديدة.

ورغم كل هذه المحن، كان كثير من هؤلاء يعملون حسابا للزمن، فكان والواحد منهم يحرص على إتقان مهن أخرى غير الفن (سبب نكبتهم) فمنهم من عمل بالحدادة والسباكة والزراعة والبيطرة والترزى البلدى والتجارة والعطارة والعلافة والصياغة والنجارة وغير ذلك ولكن المثل ينطبق رغم كل هذا: «سبع صنايع والبخت ضايع» إذن لابد من تدخل الدولة لحماية البقية الباقية منهم، ليس فقط لأنهم مواطنون. بل أساسا لأنهم محملون بأثمن ما تملكه من كنوز معنوية.. إنه التراث الشعبى.

وفى مصر الآن عدد من الإدارات والمؤسسات الحكومية تدخل هذه الفنون الشعبية والاستعراضية فى اختصصها :

١ - مركز الفنون الشعبية.

٢ - المركز القومى للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية.

٣ - الإدارة العامة للفنون الشعبية بالهيئة العامة لقصور الثقافة (الثقافة الجماهيرية).

٤ - إدارة الحرف والثقافة المادية الشعبية بالهيئة العامة للفنون.

٥ - جمعية أصالة (أهلية).

٦ - ما يسمى باطلس الفولكلور.

٧ - لجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة.

٨ - قطاع الفنون الشعبية والاستعراضية. وكلها جزر معزول بعضها عن البعض الآخر فلا اتصال ولا تنسيق ولا تجانس ولا حتى تخاطب رغم أنها كلها تتبع وزارة واحدة . ■

من أعمال الفنان « قرغلى عبد الحفيظ» فى مرحلته التعبيرية

واقعنا الفنى .. بين التفاعل والسلبية

بقلم
د. محمد عرابى

يبدو أن الصيف يترك آثاره على حركة الفن بدرجة تجعل مساحة المشاهدة محدودة نسبياً ، وعلى الرغم من ذلك هناك من المعارض التى تلفت الانتباه وتستحق الإشارة إليها لما تتضمنه من قيمة فنية رفيعة المستوي .. أو تشير إلي بعض المشكلات الراهنة التى تهدد الوجود الإنسانى وخاصة فى عالمنا العربى ، التى تتفاقم حلقاتها إلى حد أن تشعرنا باستدامتها ، إذ أدمنا أخبارها وآلامها وأحزانها إدماناً مخيفاً يصيب بالتبلد واللامبالاة أو فقدان الوعي .

وفى ظل هذا المناخ نجد أن الفن يعانى من أزمة الالتزام بالقضايا الحيوية التى تمس الكيان العربى بصفة عامة .

عمل للفنان «حامد عويس» يوضح أسلوبه المتميز الذى يحتفى بصلابة الشكل مع بساطة التكوين

ولهذا ولأسباب أخرى تتعلق بطبيعة الوعى الاجتماعى بالفن وتوجهاته المتأرجحة - التى يطول البحث فيها - قلما نجد من يقدم لنا رؤية فنية تمتع بصدق المضمون وأصالة الشكل الفنى وتفرده ، وخاصة حينما يكون موضوعها يتعلق بالقضايا الوطنية أو القومية ، هذه التداعيات أثارتها ماقدمته الفنانة إيمان البحيرى مدرس النحت البارز بفنون المنيا فى معرضها الأخير بقاعة قصر ثقافة المنيا ، الذى يعتبر بحق شهادة ميلاد لفنانة مهمة فى مجال النحت البارز الذى يعانى من انحسار خطير .

فهى تجيب عن السؤال الذى يشغل بال الكثير منا وهو «أين يقف فن الجماعة التى فرض عليها الكفاح والنضال المستمر من أجل استعادة حقوقها والحفاظ على بقائها ؟!! هل يتجاهل كل هذه الآلام والمعاناة ويقف محايدا خوفاً من الوقوع فى المباشرة بدعوى الحفاظ على عذرية الفن واستقلاليته ، ويسلك دروب السلبية التى تؤدى إلى التعمية ؟!! .

انحياز للواقع

بعيداً عن الأضواء والمزايدة تنحاز إيمان البحيرى بوضوح وصراحة وصدق للنضال العربى الواجب ، وتجسد صورة

بانورامية بليغة لانتفاضة الأقصى بما تنطوى عليه من معانى الصمود والتضحية ونبل الغاية ، ولاشك فى أن مسيرات الشهداء التى نشاهدها كل يوم عبر وسائل الإعلام كان لها عظيم الأثر فى صياغة هذه الصورة ، التى يمكن أن تلحظها فى العلاقات المكانية لعناصر مسيرة الشهيد والإيهام بأبعاد منظورية ، التى تتحقق أحيانا عبر مستويات الأسطح وما تحققه من إيقاعات ظلية ، وهذا على الرغم من تحوير الشكل وتجريده من التفاصيل الواقعية التي من شأنها أن تربط العمل الفنى بلحظة زمنية محددة ، فهى تقف فى مرحلة متوسطة بين التعبير الواقعى والرمزى ، الذى يميل إلى تكثيف المعنى واختصار الشكل برؤية واعية بدلالة الشكل ومكامنه التعبيرية .

فهى تجسد رؤيتها لانتفاضة الأقصى من منظور تأملى فلسفى هادىء يتجرد من أى احتمالات انفعالية من شأنها أن تؤدى إلى الخلط والالتباس ، أو الإفراط فى الغموض الذى يعكر جلاء التعبير ، إذ إنها تؤكد على نبل غاية الاستشهاد ، التى تعطى للمقاومة الفلسطينية مشروعيتها التى تعتمد بصورة أساسية على مبدأ الاستشهاد بمفهومه العميق الراسخ فى الوجدان العربى بمكوناته الثقافية الخاصة، التى تواجه اليوم حملات ضارية للقضاء عليها رغبة فى إخضاع هذه الأمة وتفتيت أوصالها ، وتؤكد الفنانة على دور المرأة فى هذه الصورة إذ تظهر قوية متآزرة مع الرجل فى نضاله وتضحياته .

وما قدمته إيمان البحيرى يعد من زاوية أخرى بانوراما واسعة تذكارية لصورة كفاح الإنسان العربى بصفة عامة والفلسطينى بصفة خاصة .

اللجوء إلى الترميز

وفى أتليه القاهرة يقدم رضا شحاتة أستاذ الأشغال بكلية التربية الفنية ، تجربة فنية عبر إطار تقنية الخيامية التى تعد تقليدية فى حد ذاتها ولكنها تكتسب صفة معاصرة عبر معالجاته الفنية ، التى تدور فى إطار الفن الحديث ، حيث التأكيد على القيمة الفنية والتعبيرية للون ، إذ تنتظم علاقاتها بلغة التجريد التى لاتخفى احتفاءها بالتعبير عن طريق الإيحاءات الرمزية التى تفصح عن نفسها بالتذرع ببعض العناصر التشخيصية ، حيث تتسرب المرأة بجسد يشوبه التحوير ، الذى يذكرنا ببعض الصياغات الجسدية ، التى أبدعها خيال بعض المصورين المصريين ، وتظهر بعض العناصر أو الموتيفات الشعبية متمثلة فى صورة حيوان أو نبات تتضافر مع الأجواء اللونية، التى تنتمى للغة التصوير لتضفى على أعماله مذاقاً مصرياً ، والدلالة الأخرى لهذه التجربة هى الإمكانيات الحديثة فى صياغة النسيج

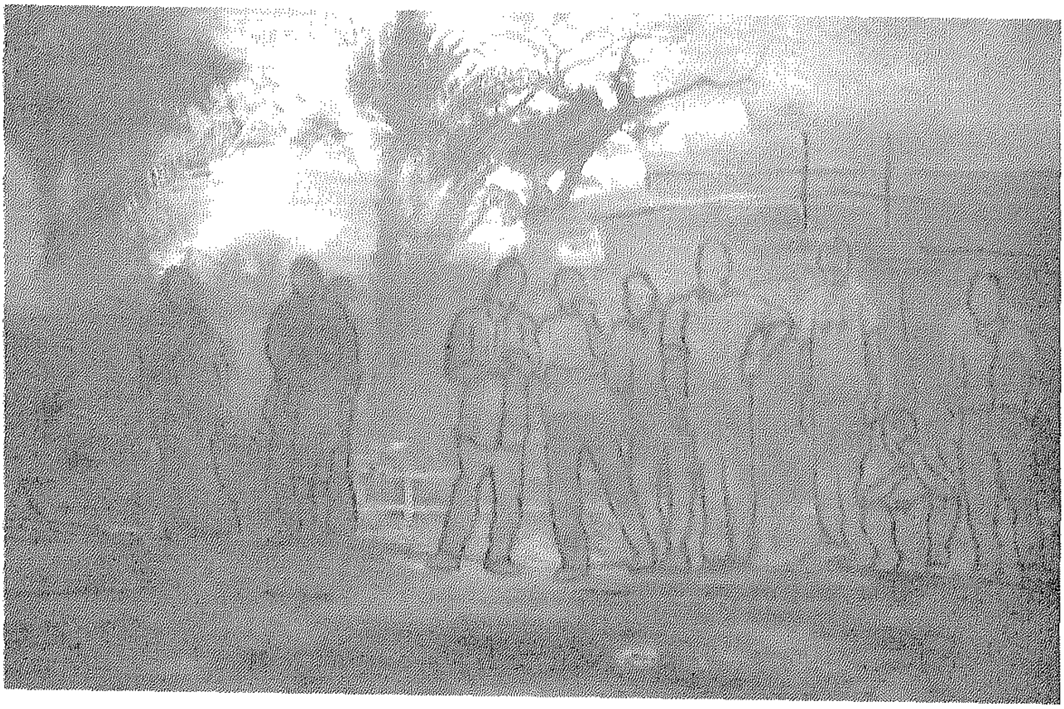

من أعمال الفنان « محمد عبلة» ، حيث يظهر الخط مجرداً عن عمد من جمالياته التقليدية

بتقنيات لونية عالية الدقة مكنت مصممي المنسوجات والأزياء من تحقيق طموحاتهم التصميمة التي ليس من شك في تأثرها بمعطيات فن التصوير الحديث، وخاصة تلك الاتجاهات التي أعطت أولوية للبحث في العلاقات اللونية ، وخاصة اتجاهات التجريد ، وتلك التي انفتحت على عوالم الشرق وأفريقيا بفنونها التقليدية وما تتميز به من إيقاعات لونية جذابة وساحرة بصراحتها وقوتها ، وهذا يضفي تأثيره على أعمال رضا شحاتة بصورة إيجابية .

ورغم ظهور بعض العناصر ذات الدلالات الرمزية التي يمكن باجتهاد بسيط قراءة مدلولها إلا أن أعماله تظل محتفظة بأسرارها ، الأمر الذي يشير إلى اهتمامه البالغ بالصياغة الفنية ، فهي لا تحمل موضوعاً محدداً أو واضحاً وإن كانت تؤكد على امتلائها بحالات شعورية أو انفعالية ، يشارك في تجسيدها اختياراته للأقمشة المستخدمة ودرجاتها اللونية وأسلوب معالجاتها الفنية في تكويناته .

وفي جانب آخر من الفنون التشكيلية وفي أتلييه القاهرة أيضاً يقدم المصمم أحمد شحاتة أستاذ مساعد بقسم الإعلان بالنفون التطبيقية ، تجربة في التصميم عبر فن الكولاج باستخدامه «ورقا ملونا» يؤكد على خبراته التصميمية في مجاله ، حيث يعتمد بصورة أساسية على العلاقات المساحية لبعض الأشكال الهندسية المتناقضة في الهيئة بما فيها العلاقات اللونية أو علاقات الغامق والفاتح ، وتعد تجربته

هذه بحثا تشكيليا فى جماليات التصميم تحت ضرورة التباين أو التناقض فى عمليات إدراك الشكل وما ينتج عن هذا من قيم جمالية تخضع لمعايير تطبيقية .

أعراض صيفية

وأما فى بعض القاعات الخاصة فتظهر بالصيف تحديداً فكرة المعارض الجماعية ، التى تتميز ببعد بانورامى يتيح الفرصة للتعرف على قطاعات عريضة من ذاكرة الفن المصرى ، ففى قاعة الزمالك للفن يأتى معرضها الصيفى تحت عنوان «Masterpieces» ، حيث تعرض أعمالا منتقاه لثمانية من الفنانين المصريين أصحاب تجارب فنية راسخة ويمثلون اتجاهات مختلفة ، فتلتقى زينب السجينى مع حامد عويس فى معالجة فنية تحتفى بالشكل تحت موضوعات يكون الإنسان المصرى قوامها ومحورها ، ويلتقى مصطفى عبدالمعطى مع النشار فى اتجاههما نحو التجريد ، وأما فرغلى عبدالحفيظ وجاذبية سرى فيلتقيان فى رؤية تعبيرية يمتلك كل منها خصائصها المميزة ، ويقدم هذا المعرض وجهاً آخر للفنانة رباب نمر - فقد تعودنا فى السنين الأخيرة على إبداعاتها فى فن الرسم بالأبيض والأسود ، حيث تميزت أعمالها بلغة رمزية تظهر فيها المرأة والطيور ، وغيرها من العناصر بملامح متخمة بالتعبير والإيحاء ، فنراها فى هذا المعرض تقدم بعض أعمال التصوير التى تحمل ملامح مراحلها المبكرة ، حيث يلعب الوجه بقيمه التعبيرية دوراً مهماً فى هذه المرحلة الممثلة فى معرض صيف قاعة الزمالك .

ويقدم الفنان محمد عبلة صاحب التجارب المتعددة أعمالاً تنتمى إلى لغة التشخيص بمعالجة فنية قوامها الخط ، إذ يعمد إلى التخلص من جماليات الرسم التقليدية فيظهر الخط سميكاً يتحرك ويحدد ملامح أشخاص متزاحمة تبدو عليها ملامح المدينة .

وعلى الرغم مما يتسم به صيف هذا العام من فتور فى حركة الفن إلا أن هناك ماينبض بروح الإبداع والالتزام ربما يشير إلى تفاؤل ما ، أو ينقلنا إلى مشكلات أخرى تتعلق بعلاقة الفن بالجمهور التى تعانى من فتور بصفة عامة ، رغم كل المحاولات التى تهدف إلى تضييق مساحة الهوة ، إلا أنها مازالت واسعة بصورة تجعلنا نعيد النظر ونبحث عن مشروعات يتوافر فيها مبدأ الدراسة المتأنية لتحقيق أغراضها المرجوة .

مسئولية صالون الشباب

ويأتى صالون الشباب للفنون التشكيلية هذا العام ٢٠٠٤ فى لحظات

من أعمال الفنانة «رباب نمر» مثال لملامح أسلوبها فى التصوير الذى يميل للتعبير الرمزى

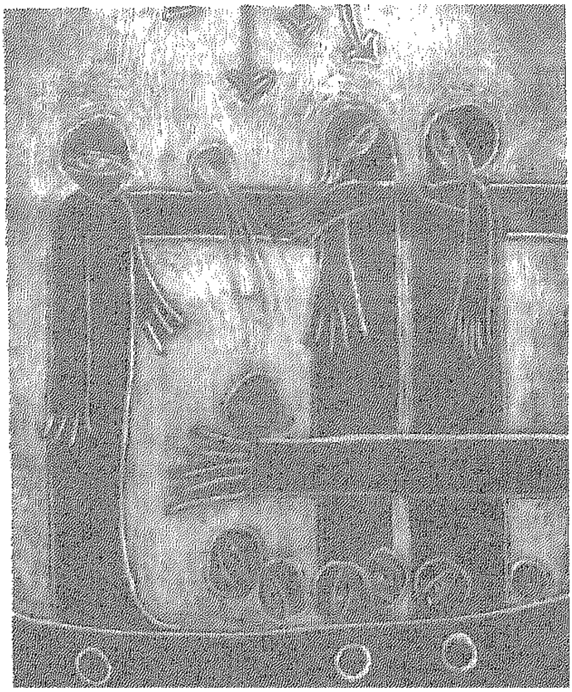

من أعمال الفنانة « زينب السجينى » تخفى بوضوح الشكل وتعطيه أبعادا عاطفية

تاريخية فاصلة تجعلنا نولى له اهتماماً خاصاً، وذلك باعتباره أحد أهم فعاليات الفنون التشكيلية، التى تتبناها المؤسسة الثقافية فى مصر، وأكثرها حساسية وتأثيراً فى تكوين حاضر ومستقبل أحد أهم مجالات الإبداع الفنى، التى تسهم فى خلق الهوية المستقبلية لشعوبها بصورة تؤكد لها وحدتها ووجودها الإيجابى والفاعل فى تحديد مستقبل البشرية، وفى ظل ما نمر به على المستوى المحلى والعالمى من تحولات كبرى يلتهب فيها الصراع من أجل البقاء وفرض النفوذ، وتتضح فيه النوايا الاستعمارية للدول الكبرى بجلاء لا يقبل الشك أو المراوغة ليس فقط على المستوى العسكرى وإنما على مستوى الفكر والفلسفة، حيث نرى الفيلسوف «بوبر» بوصفه آخر التنويريين العظام.. لا يبرأ من وصمة الفكر الاستعمارى ويناقش أحياناً حق الدول المتقدمة بل واجبها، فى فرض وصايتها على الدول المتخلفة، ولتفكر مليا: هل تعطيها الحرية أم ليس بعد!!.

ومن ثم فإن الظرف الراهن بأكمله يستوجب على كل من يتعامل مع صالون الشباب وخاصة فى الأماكن المؤثرة فى حركته أن يدرك خطورة دوره ومسئوليته في التنوير والتبصير بهوية الفن ومدى ضرورته فى اللحظة الراهنة على المستوى المحلى والعالمى، فليس هناك من

شك فى أن صالون الشباب منذ نشأته قد أعطى الكثير لحركة الفن المصرى المعاصر، الأمر الذى ربما يكون قد قاد المسئولين إلى وضع حركة الصالون منذ نشأته حتى الآن بين أيدينا، وذلك من خلال تنظيم عروض لأعمال نجوم الصالون أى الحاصلين على الجوائز الأولى فى دوراته السابقة، بجوار المسابقة الرسمية لهذا العام، التى تم افتتاحها الخميس٩ سبتمبر بقصر الفنون بالجزيرة، وبغض النظر عن تحفظاتنا على فكرة النجومية فى الفنون التشكيلية ومدى وكيفية تحققها، إلا أن الفكرة فى حد ذاتها تشير إلى محاولة رسمية وليست جماهيرية فى إطار صناعة النجم، ومن ناحية أخرى تتيح للمتخصصين من نقاد وباحثين وفنانين أن يتأملوا برؤية متأنية مسيرة صالون الشباب عبر رموزه المختارة عن طريق المعايير التقييمية. التى تبنتها لجان التحكيم عبر دوراته المتتابعة، والتى أدت بدورها إلى إفراز هذه النخبة من الفنانين، التى تمثل بلاشك اتجاهات فنية مختلفة تشكل جانبا مهما من جسم وكيان الحركة الفنية المعاصرة، وربما يكون من الخطأ أن نقصر حركة الفن المعاصر التى شارك صالون الشباب فى وضع ملامحها على تلك النخبة التى أفرزتها لجان التحكيم، فمهما كانت نزاهتها وحياديتها فإنها تخضع لاعتبارات أو توجهات وانحيازات فكرية أو فنية، وهذا فى حد ذاته موضوع لا يسعه مقالنا هذا.

هدوء نسبى

وأما هذه الدورة على مستوى المسابقة الرسمية فتتصف بدرجة من الهدوء النسبى الذى ندركه من أول وهلة، وربما يعود فى المقام الأول لغياب ذلك الصخب، الذى كانت تحتشد به قاعات العرض بفعل سيادة أعمال التجهيز فى الفراغ وعروض فن الفيديو وغيرها من نتاج تلك الرغبة العارمة التى تتملك فكر ونفس الشباب فى التجريب والبحث عن الجديد والإثارة بما يشبه الثورة على كل ما يحتوى على النظام والترتيب والمنطق حتى كنا نشعر أحيانا أننا فى فوضى تشبه فى كثير من الأحيان فوضى تراكم النفايات والبقايا.. فما هو معروض فى هذا المجال الآن يتسم بدرجة من العقلانية. التى تفضى إلي الترتيب والنظام والحبكة التصميمية.

فمنها ما يتحرى نظام وطبيعة العروض المسرحية فى توزيع العناصر وطريقة بنائها مثل ذلك العمل الذى نطلق عليه من عندنا «برلمان امبراطورية الفئران البيضاء»، حيث تقتصر عناصره على تجمعات من تماثيل الفئران تنتظم فى استعراض مسرحى يخلق حواراً ميلودرامياً بطريقة تتضمن إسقاطات اجتماعية سياسية معاصرة تحتمل

التأويل، وخاصة حينما يتضمن العمل طلاسم لغوية مكتوبة بلغات مختلفة تظل دلالتها الفنية والرمزية محصورة في فكرة اللغة مجردة من الدلالة اللفظية، ذلك الذي يضفي على الفئران البيضاء صفة إنسانية، والملاحظة الثانية تتلخص في تقلص مساحة التصوير أي الرسم والتلوين بمفهومه التقليدي وعلى اختلاف التوجهات الفنية سواء على مستوى اقتراب الرؤية الفنية من المرجعيات الطبيعية، أو على مستوى الولوج في عوالم الخيال والرمز والتجريد، فما هو معروض في معظمه يشير إلى درجات متفاوته من الموهبة، ومن ناحية أخرى يؤكد ضعف الخبرة بالدرجة التي تعوق التعبير وانحصار معظم الأعمال في موضوعات إنسانية بسيطة لا تتعدى رسم عنصر إنساني بدقة معينة أو اتخاذ الوجه الإنساني موضوعاً للتعبير، والبعض الآخر يذهب إلى التجريد فلا يتخطى العمل حدود علاقاته اللونية الظاهرة، وفي المقابل يأتي فن الرسم والقوالب الطباعية ليكون أكثر احتفاء بالتعبير، إذ يحمل مضمون اللحظة الراهنة، وذلك بصورة يكون فيها الإنسان الأبيض وما يحمله من واقع نفسي متخم بالهموم والانكسارات والاحباطات هو محور الكثير من الأعمال، التي يكون الأبيض والأسود مادتها الأولى في التعبير الفني، وهذا ما يمكن أن نراه في أعمال الزعيم أحمد محمود، وهيثم نوار، وإيمان إبراهيم، وهالة عبدالمنعم على سبيل المثال لا الحصر، حيث تسود النزعة التراجيدية بصورة تتسم بصدق التعبير في الكثير من الأحيان.

وأما إذا اقتربنا من الجوائز فنجد الانحياز يبدو واضحاً للتقنية ومهارة التشكيل بغض النظر عما يحمله العمل الفني من أبعاد تعبيرية وهي سمة لم يتخلص منها صالون الشباب حتى اليوم، فتذهب الجائزة الكبرى إلى أعمال وائل عبدالصبور في مجال فن الطباعة الذي لاشك في أنه يبرز مهارة فائقة وحساسية فنية عالية في استخدام أدواته الفنية في التشكيل وذلك بصورة تؤكد اهتمامه بالتقنية، وهناك من الأمثلة الكثيرة التي تؤكد وجهة نظرنا، أما مجال النحت فيتميز فيه أسامة مغوري الذي تؤكد أعماله المعروضة على موهبته الواعدة، وتمكنه من لغة فن النحت، التي يتجه بها إلى ما يمكن أن نطلق عليه بالتجريدية العضوية حيث بساطة السطح وثراؤه في نفس الوقت وذلك بصورة تسمح بالحضور الإنساني على المستوى الجسدي والعاطفي، فيدعوك إلى نوع من التأمل الصوفي في أعماله، وهكذا نفتح نافذة على صالون الشباب في دورته الحالية لتكون بمثابة دعوة إلى الحوار والدراسات الفنية لعلنا نضع أيدينا على الملامح المميزة للفن المصري المعاصر انطلاقاً من حركته الشبابية. ■

الصلح بين..

أم كلثوم وزكريا أحمد

بقلم
د.نبيل حنفى محمود

تميزت الكثرة الغالبة من معارك نجوم الغناء بكونها معارك كلامية، قد تكون أسرار المهنة محور البعض منها، بينما يغلب التنافس والتحاسد على ما تبقى من تلك الكثرة، ولم تخرج وقائع هذا الصنف من المعارك الفنية عن التراشق بالتصريحات والاتهامات عبر وسائل الإعلام، ولكن هناك صنفا آخر من تلك المعارك يبلغ الآحاد عددا، ويتميز هذا الصنف القليل العدد عن الكثرة المشار إليها بأن أحداثه قد جرت فى ساحات المحاكم، لأن ما كان بين نجوم الغناء فيها لم يكن ليجد الحل إلا فى رحاب القضاء، وإلى هذا الصنف الأخير

يتتمى ما حدث بين أم كلثوم: ملكة الغناء العربى فى القرن العشرين وفى كل عصوره وزكريا أحمد: شيخ ملحنى العصر الذهبى للغناء المصرى والعربى فى النصف الأول من القرن العشرين.

ترجع علاقة زكريا أحمد الإنسانية والفنية بأم كلثوم إلي سنوات البداية الفنية لأم كلثوم فى قريتها طماى الزهايرة بمركز السنبلاوين فى محافظة الدقهلية (الآن)، ويقول زكريا أحمد عن هذا اللقاء: «كان ذلك فى عام ١٩١٩م، كنت ذهبت إلى السنبلاوين بصحبة المرحوم الشيخ أبو العلا محمد المقرىء والمغنى الشهير، لإحياء ليلة من ليالى رمضان، وكان وجوه القوم يحتفلون بهذا الشهر المبارك إحتفالاً كبيراً»، فى تلك الليلة أسرّ عازف القانون محمد أفندى عمر إلى زكريا أحمد أن: «هناك فتاة صغيرة السن، جميلة الصوت تدعى أم كلثوم، ولو تعلمت أصول الغناء لأصبحت مطربة عظيمة»، وشاءت الأقدار أن يلتقى زكريا أحمد بالفتاة التى حدثه عنها عازف القانون فى حفلة أخرى أقيمت بنفس المدينة، ويصف زكريا ما حدث فى لقائه الأول بأم كلثوم قائلا: «وفى هذه الليلة قابلتها، وكانت بصحبة والدها وشقيقها، واستمعوا لى واستمعت إليها، ففرحت بها وتنبأت لها بالمستقبل الكبير، ونشأت بيننا صداقة وطيدة دفعتنى إلى أن أهدى إليها موشحاً وطقطوقة» (صبرى أبوالمجد: زكريا أحمد، ص ٢٣٤ – ٢٣٥)، ، ويصف زكريا أحمد فى موضع آخر من مذكراته مدى إعجابه بصوت أم كلثوم فيقول:

أم كلثوم

زكريا

«منذ ليلتها، وأنا كالأصم لا أسمع إلا صوتها ، كالابكم لا أتحدث إلا باسمها، فقد أصبحت مفتونا بها، أحببتها حب الفنان للحن خالد تمنى العثور عليه دهراً طويلاً» (د. رتيبة الحفني: أم كلثوم معجزة الغناء العربي، ص ٩٠)، كان الاعجاب متبادلا بين الشيخ والنجمة الجديدة وأسرتها، وهو إعجاب عبرت عنه دعوة الشيخ إبراهيم البلتاجي: والد أم كلثوم.. زكريا لزيارة الأسرة بمنزلها فى طماى الزهايرة، وعن تلك الدعوة يسجل زكريا أحمد من مذكراته ما يلى: لبيت الدعوة.. وتناولت الطعام على طبلية.. وجلسنا حولها على (كليم) لا أزال أذكر لونه الأحمر على أسود.. وابتلعنا أوزة كاملة.. ثم لعبنا (عشرة كوتشينة)، ومنذ هذا اليوم (الذى وافق العاشر من شهر يونيو سنة ١٩١٩م طبقا لمذكرات زكريا أحمد نفسه) وأم كلثوم ووالدها وشقيقها خالد يحضرون كل يوم لسماع غنائى في سراى أبى العينين «د.رتيبه الحفني : المرجع السابق»، ويعنى زكريا أحمد بسراى أبى العينين فى آخر حديثه سراى التاجر على أبوالعينين بمدينة السنبلاوين.

خطابات الصداقة

امتدت الصداقة التى بدأت بالإعجاب المتبادل بين زكريا أحمد وأم كلثوم إلى ما بعد انتهاء شهر رمضان لتلك السنة (١٣٣٧ هـ) وعودة الشيخ إلى القاهرة، حيث كفل البريد استمرار هذه الصداقة بين الريفية الصغيرة الموهوبة وأسرتها والفنان القاهرى المنشأ والمشرب والمقام ، ومن تلك الخطابات المتبادلة بين أم كلثوم وزكريا أحمد فى بدايات صداقتهما، ذلك الخطاب الذى بعثت به أم كلثوم لزكريا أحمد من طماى الزهايرة فى ١٦ يناير سنة ١٩٢٢، رداً على خطابه الذى أرسله إليها مع المدعو الشيخ محمد أبوزيد (كمال سعد: أم كلثوم وزكريا أحمد أمام القضاء، ص ٢٢٧)، كتب الخطاب على ورقة طبعت بأعلاها البيانات التالية: «العنوان التلغرافي: السنبلاوين - طماى - أم كلثوم» بأعلى يمين الورقة، وبعد ذلك يجىء سطر طبعت فيه كلمتان هما (طماى فى)، وقد كتب بخط اليد بجوار الكلمتين: ١٦ يناير، وبعد ذلك وفى السطر نفسه تجىء سنة ثم شرطة ومن بعدها الرقم ١٩ وكلها مطبوعة، وقد أضيف إليها الرقم ٢٢ بخط اليد للدلالة على السنة، وفى أعلى يسار الورقة طبع الآتى: «السيدة أم كلثوم إبراهيم - مقرئة السيرة النبوية الشريفة - بوستة السنبلاوين - طماى الزهايرة»، وفيما يلى نص الخطاب الذى تعبر بساطة صياغته المشوبة بالبعض من الأخطاء الإملائية عن حصيلة الموهبة الجديدة من التعليم، «حضرة المحترم الشيخ زكريا أحمد. دام. بعد (اهواكم) خالص السلام والسؤال عن صحتكم، ورد لى خطابكم مع الشيخ محمد أبوزيد، واتفقنا على الليلة حسب (خطبكم) والسلام. كاتبه. أم كلثوم».

ومن منطلق تلك الصداقة.. وجه زكريا أحمد الدعوة لأم كلثوم لزيارة القاهرة، فلما حضرت برفقة أسرتها وكان ذلك قرابة نهاية عام ١٩٢٢، أقام

لها حفلا حضرته مجموعة من أبناء الطبقة الراقية إضافة إلى مجموعة من أهل الغناء ضمت كلاً من الشيخ أبى العلا محمد والشيخ على محمود والملحنين محمد القصبجى ومحمد صبرى النجريدى، وكان نجاح أم كلثوم فى حفلها الأول حافزا لها ولزكريا أحمد على تكراره فى أماكن كثيرة، حتى أنها غنت بعد ذلك فى فترات الاستراحة بين فصول روايات على الكسار المسرحية (صبرى أبوالمجد: المرجع السابق، ص ٢٣٥)، لم يلحن زكريا أحمد أعمالا لأم كلثوم فى السنوات الأولى لإقامتها بالقاهرة، وربما يكون إنشغاله بالتلحين للفرق المسرحية خلال تلك الفترة سببا لذلك، ولكنه أحاط أم كلثوم بتشجيعه واهتمامه، بل وسافر وراء حفلاتها الأولى فى عديد من المدن المصرية، حتى حل عام ١٩٣١م وهو العام الذى قدم فيه زكريا أول ألحانه لأم كلثوم متمثلة فى طقطوقتىّ «اللى حبك ياهناه» من تأليف أحمد رامى «وهو ده يخلص من الله» من نظم بديع خيرى .مثلت طقطوقة «اللى حبك ياهناه أنذاك ثورة فى تلحين الطقطوقة التى كانت تبدأ وتنتهى بنفس النغمة أو المقام، حتى جاء زكريا أحمد وجعلها فى «اللى حبك ياهناه» تجمع بين نغمات عدة، أفرد إحداها - وهى نغمة الراست - للمذهب والختام ووزع باقيها على الأغصان (المقاطع)، ومضى زكريا أحمد بعد ذلك فى تجديده لفن الغناء العربى عبر ما أشجى به عشاق هذا الفن من أغنيات لأم كلثوم بلغت حتى نهاية عام ١٩٤٧م سبعة وستون أغنية، وذلك طبقا لإحصاء المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى بوزارة الاتصالات والمعلومات المصرية، كانت طبيعة الأمور فى نهاية عام ١٩٤٧م تقول بأن الصداقة بين أم كلثوم وزكريا أحمد - والتى قارب عمرها على الثلاثين عاما - ستتوثق عراها وتفيض على جماهير الغناء العربى بمزيد من الروائع التى باتت سمة أعمالهم المشتركة، ولكن الرياح جاءت فى عام ١٩٤٨م بما لا تشتهى سفن الجماهير المتعطشة لكل ما هو جديد وأصيل فى لقاء ألحان زكريا أحمد بصوت سيدة الغناء العربى فى ذلك العصر وكل عصوره، حيث تناثرت الأقاويل والهمسات بأن ثمة خلافا قد نشب بين زكريا أحمد وأم كلثوم.

الجذور

اعتنقت أم كلثوم منذ أن احترفت الغناء مبدأ فحواه أن حصولها على أعلى أجر فى سوق الغناء يعد معادلا لكونها المطربة الأولى، وقد طبقت ذلك المبدأ منذ أن خطت خطواتها الأولى فى عالم الغناء، حيث كان عقدها الأول الذى وقعته مع شركة جرامفون للاسطوانات فى عام ١٩٢٦م هو الأعلى فيما عرفه عالم الغناء آنذاك، حيث بلغ أجرها عن الاسطوانة الواحدة خمسين جنيها بالتمام والكمال، وهو ما يعادل ضعف أجر منيرة المهدية - المطربة الأولى عند ظهور أم كلثوم - عن الاسطوانة الواحدة!، وعندما أزاحت الإذاعة شركات الاسطوانات فى عام ١٩٣٤ لتصبح هى الناشر الأول للغناء، تحولت أم كلثوم بنشاطها الغنائى نحو الناشر الجديد الذى يتمتع بالحماية

الحكومية، ومنذ العام الأول في عمر الإذاعة.. طلبت أم كلثوم من مدحت عاصم - المسئول عن إنتاج الغناء والموسيقى الشرقية في الجهاز الإعلامي الوليد - الحصول على أعلى أجر بين المطربين والمطربات، فجاء عقدها الأول مع الإذاعة معادلا لعقد محمد عبدالوهاب الذي سبقها إلى ذلك، حيث نص العقدان على منحهما أجراً لكل منهما قدره خمسة وعشرون جنيها مقابلا لوصلة تتكون من أغنيتين جديدتين (فرجينيا دانيلسون: صوت مصر - أم كلثوم ، ص ١٣٨)، وعلى أن يقدما وصلتين في كل شهر (د. حلمي أحمد شلبي: تاريخ الإذاعة المصرية، ص ٤٦)، واصلت أم كلثوم بعد ذلك إملاء شروطها على الإذاعة لتحقق لنفسها أكبر عائد ممكن مقابل ما تقدمه من غناء، فتعاقدت مع الإذاعة في عام ١٩٣٧م على بث عدد من حفلاتها الشهرية بثا حياً إلى جمهور الإذاعة، وذلك مقابل حصول أم كلثوم على نصف ثمن تذاكر الحفل مضافا إليها مبلغ خمسين جنيها عن كل حفل تبثه الإذاعة (فرجينيا دانيلسون: المرجع السابق)، وبالرغم من أن تلك التفاصيل كانت تعني حصول أم كلثوم عمليا على كل إيراد الحفل، إلا أنها استمرت في سياستها التي تمحورت حول حقيقة واحدة هي إعتصار كل ناشر لغنائها حتى آخر جنيه يمكن الحصول عليه منه، ومما ساعد على ذلك ما حققته أم كلثوم عند منتصف أربعينيات القرن الماضي من مكاسب نقابية وسياسية عززت من مكانتها لدى الجمهور وأمام مؤسسات

الدولة، ففي عام ١٩٤٤.. أنتخبت أم كلثوم لمنصب أول نقيب للموسيقيين على رأس أول نقابة منتخبة للموسيقيين المصريين، وفي توقيت مقارب لفوزها برئاسة نقابة الموسيقيين.. تشرفت أم كلثوم بلثم يد الملك فاروق في حفل أحيته بالنادي الأهلي، فأنعم عليها ملك البلاد بنيشان (وسام) الكمال الذي تلقب حاملاته من الأميرات بصاحبات العصمة!، ثم اكتملت أسباب القوة عند أم كلثوم بحصولها - حوالي منتصف الأربعينات أيضا - على عضوية لجنة برامج الإذاعة، وهي اللجنة التي تتحكم فيما يقدم بالإذاعة من حيث توقيته وزمنه، فكان أن امستنعت عن الغناء بالإذاعة بعد ما حققته من انجازات نقابية وسياسية ، وطالبت برفع أجرها عن الحفلة الواحدة من ١٧٥ جنيهاً إلى ٣٦٠ جنيها كاملة! (الراديو والبعكوكة: العدد ٦٦٧، ١/٤/١٩٤٥، ص١)، ثم قفز أجر أم كلثوم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ليصل إلى ذراً فلكية، حدث ذلك عندما فاوضها محمد عبدالوهاب بالنيابة عن شركة كايروفون - التي كان عبدالوهاب شريكا فيها - لتسجيل أغنياتها السابقة لتاريخ التفاوض (١٩٤٦م) وذلك في مقابل ألف من الجنيهات للاسطونة الواحدة!. كذلك نص الاتفاق المقترح بين محمد عبدالوهاب وأم كلثوم على منح كل من محمد القصبجي ورياض السنباطي مائه جنيه عن كل اسطوانة، وعلى أن يكون نصيب زكريا أحمد مبلغا قدره مائتي جنيه عن الاسطوانة الواحدة (كمال سعد

: المرجع السابق، ص ٦٩) وبينما وافق كل من القصبجي والسنباطي على ذلك، فإن رفض زكريا لذلك كان قاطعا، فقد كان ما عرض عليه فتاتا إلى جانب ما تغترفه أم كلثوم من الإذاعة قبل الشركة الجديدة.

رياح الغضب

بلغت أم كلثوم فى السنوات الأخيرة من عقد الأربعينيات من القرن العشرين ذروة عطائها وتأثيرها ، فقد قدمت فى عام ١٩٤٨ م - على سبيل المثال - فيلمها الأخير «فاطمة» الذى تغنت فيه بتسع أغنيات لحنها كل من زكريا أحمد ومحمد القصبجى ورياض السنباطى بواقع ثلاث أغنيات لكل واحد منهم، أما عن تأثيرها .. فإنه بلغ فى تلك الفترة حدا جعلها تطاول الوزراء رأسا برأس فلا يستطيعون ردها. ولعل فيما أوردته مجلة «روزاليوسف» بعددها رقم (١٠٧٠) الصادر فى ١٩٤٨/١٢/١٥م، عما حدث بين أم كلثوم ووزير الشئون الاجتماعية حول حجز (بنوار شمال ممتاز) بمسرح الأزبكية ما يؤكد للقارئ مدى ما وصل إليه نفوذ أم كلثوم فى تلك الفترة، أما ما حدث فإنه يتلخص فى أن وزير الشئون الاجتماعية (جلال فهيم باشا) اتصل بموظف الحجز فى مسرح الأزبكية ليحجز لنفسه وأسرته ذلك «البنوار» المخصص للوزراء، فلما أخبره الموظف أن أم كلثوم قد حجزت «البنوار» فى وقت سابق لبعض أصدقائها، أمر الوزير الموظف بإلغاء حجز أم كلثوم وبأن يحجز «البنوار» كالعادة للوزير، وعندما اتصل موظف الحجز بالوزير فى وقت لاحق ليخبره بأن أم كلثوم علقت على حجزه «للبنوار» بقولها: «إذا حدث هذا فهى ستمتنع عن الغناء»، فإن جلال باشا لعق كرامة منصبه وتنازل عن حقه فى «البنوار شمال ممتاز» وإرتضى لنفسه وأسرته «بنوارا غير ممتاز» !، لذلك لم تعر أم كلثوم رفض زكريا لعرض عبدالوهاب كثير إهتمام.

لم يكن زكريا أحمد هو الرافض الوحيد فى ذلك العام لسياسة أم كلثوم فى تعاملاتها المادية مع ناشرى الغناء، وهاهم المطربون يهددون الإذاعة بالاضراب عن الغناء إن لم تستجب لمطالبهم، فقد تحدثت مجلة «روز اليوسف» فى الصفحة رقم (٣٣) من عددها رقم (١٠٣١) الذى صدر فى صباح الأربعاء ١٩٤٨/٣/١٧م عن اجتماع عقد يوم الثلاثاء ١٩٤٨/٣/٩م بنقابة الموسيقيين ، حيث رفع المجتمعون مذكرة بمطالبهم إلى كل من وزير الشئون الاجتماعية ومدير محطة الإذاعة، تلخصت تلك المطالب فيما يلى : أن تسترشد الإذاعة برأى نقابة الموسيقيين فى تحديد أجور المطربين -إعادة النظر فى نظام إذاعة الأشرطة الغنائية بالإذاعة ومعاملة كل مطرب بنفس نظام معاملة أم كلثوم - تحقيق العدالة فى نظام توزيع أوقات الغناء - تمثيل نقابة الموسيقيين فى لجنتى البرامج واختيار المطربين الجدد بالإذاعة - وأخيرا فصل أجر الغناء عن أجور التأليف والتلحين، ولم يغب عن مجلة «روز اليوسف» أن تذكر قارئ التحقيق المنشور بعددها رقم (١٠٣١) عن مذكرة المجتمعين بنقابة

الموسيقيين ، بأن أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب لم يكونا بين من اجتمعوا بالنقابة يوم الثلاثاء ١٩٤٨/٣/٩م من مطربين وموسيقيين.

وإزاء ما عم الوسط الغنائى من سخط تجاه ما تكشف عن الاتفاقات المميزة التى حبت بها الإذاعة كلا من أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب ، لم يجد محمد قاسم بك : مدير الإذاعة بدا من التحرك لمحاولة إمتصاص سخط المتعاملين مع الإذاعة من أهل الغناء، وكان من ذلك ما كتبت عنه مجلة «روز اليوسف» فى عددها رقم (١٠٣٢) الصادر فى ١٩٤٨/٣/٢٤م، تحدثت المجلة عن اجتماعين عقدا بين مدير الإذاعة وبين أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب - كل على حدة - لدراسة قرارات المجتمعين فى نقابة الموسيقيين من أهل الغناء، فلم يسفر أى من الاجتماعين عن حل للأزمة ، بل إن المجلة أشارت إلى أن عبدالوهاب غادر مكتب مدير الإذاعة بعد الاجتماع غاضبا (ص ٣٥).

أوشك النصف الأول من عام ١٩٤٨ م على الانصرام، ولم تبد فى الأجواء المصريةأية بوادر لحل الأزمة التى شغلت أهل الغناء . وعندما حاورت مجلة «روز اليوسف» مدير الإذاعة محمد قاسم بك حول تلك الأزمة، ونشرت المجلة ذلك الحوار فى عددها رقم (١٠٣٩) الصادر فى ١٩٤٨/٥/١٢م، فإن مضمون إجابات رئيس الإذاعة على ما طرحته المجلة من أسئلة حول الأزمة ، لم يخرج عن تكذيبه لما قال به البعض من أن الإذاعة قد أقرت مبدأ دفع مبلغ معين عن كل مرة يذاع فيها شريط لأغنيات أم كلثوم، وتهرب المدير خلال الحوار من إبداء رأيه فى فكرة أن تدفع الإذاعة مبلغا معينا مقابل إذاعة كل شريط غنائى، لأن ذلك - وعلى حد زعم السيد المدير - لن يرفع من قيمة ما يحصل عليه المطرب من الإذاعة . وهكذا.. بدت السبل وقد سدت فى وجوه الملحنين والمؤلفين وكل المطربين عدا أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب من أجل حصولهم على حقوقهم عندما حل النصف الثانى من عام ١٩٤٨م، فلم يعد هناك أمامهم من ملجأ على الأرض إزاء تحالف الإذاعة وشركة الاسطونات مع الاثنين الكبار فى عالم الغناء سوى اللجوء إلى القضاء.

اللجوء إلى القضاء

اختصم زكريا أحمد فى النصف الثانى من عام ١٩٤٨ كلا من الإذاعة وشركة كايروفون للقضاء، مطالبا بحقوقه المتأخرة فيما بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٤٧، عن إذاعة وتداول ألحانه لأم كلثوم وبعض المطربين والمطربات، وقد استند زكريا فى دعواه إلى عقد وقعه مع الإذاعة إبان بدئها، حيث نص العقد على حصول زكريا أحمد على ٥٪ من أجر أى مطرب أو مطربة فى مقابل تقديم ألحانه لهم بالإذاعة، وقد استثنى العقد أصوات أم كلثوم وصالح عبدالحى وطه الفشنى، جاعلا المقابل الذى يحصل عليه زكريا نظير إذاعة ألحانه لهم محلا للتفاوض بينه وبين الإذاعة (كمال سعد : المرجع السابق ، ص ٧٠).

عمقت القضية التى رفعها زكريا

أحمد فى عام ١٩٤٨م من هوة الخلاف بينه وبين أم كلثوم، حيث كان معنى صدور حكم إبتدائى من المحكمة بقبول دعوى زكريا ، ومن ثم تحويلها إلى خبير، كان ذلك يعنى أن علاقة أم كلثوم بالإذاعة ستتأثر بشكل أو بأخر، وبمعنى آخر. فإن نهر النقود المتدفق من الإذاعة إلى حساب أم كلثوم قد وجد من يعترض مجراه ويحاول الانتقاص منه، فكان من الطبيعى أن تغضب أم كلثوم من زكريا ويحل بينهما الجفاء والخصام، وهو حال لم يكن يرضى بحال أصدقاء الطرفين وعشاق ثمار لقاء ألحان الشيخ بصوت سيدة الغناء، فأثمرت مساعى الأصدقاء صلحا فنيا كتبت عنه مجلة «روز اليوسف» فى الصفحة العشرين من عددها رقم (١١٩٠) الصادر فى ١٩٥١/٤/٣ ما يلى: «وقع صلحان فنيان هذا الاسبوع كانت أم كلثوم طرفا فيهما، الصلح الأول بينها و بين الشيخ زكريا أحمد ، وقد تم على أساس أن تقف أم كلثوم إلى جانبه فى قضيتى محطة الإذاعة وشركة كايرو فون، أما الصلح الثانى فبينها وبين الأستاذ رياض السنباطى.. وكانت الجفوة التى استمرت قرابة العام بين أم كلثوم ورياض السنباطى بسبب ما تردد فى الوسط الفنى من هجومه على أم كلثوم وتأييده - سرا - لقضيتى الشيخ ضد المحطة والشركة، ولكن ذلك الصلح لم يكن من الشفافية بمكان حتى يجلو ما علق بقلبى زكريا وأم كلثوم، ويرسى أساسا قويا لعلاقة قد تمتد لسنوات وسنوات، ومن الواضح الآن أن ذلك الصلح لم يتطرق إلى أساس المشكلة، حيث استمرت أم كلثوم تقبض من الإذاعة مقابل ما تتغنى به من ألحان زكريا فى حفلات حية أو عبر أشرطة مسجلة، فى الوقت الذى لم يكن بيد زكريا من شيء سوى تسجيل بيان ما أذيع من ألحانه وما دخل حساب أم كلثوم مقابلا لذلك، ولم يكن أمام زكريا من حل سوى اللجوء من جديد إلى القضاء، ليضيف أم كلثوم إلى خصميه فى القضية الأولى.

أدخل زكريا أحمد أم كلثوم خصما ثانيا مع الإذاعة فى الدعوى رقم ٣٥٢٥ لسنة ١٩٥١ «كلى مصر» ، والتى قدم محاميه : عبدالرحيم غنيم العريضة الخاصة بها إلى الدائرة الخامسة عشرة فى محكمة القاهرة الإبتدائية بتاريخ ١٩٥١/١٠/١٥م، وقد اشتملت تلك العريضة على الطلبات التالية: الزام المدعى عليهما (الإذاعة وأم كلثوم) متضامنين بأن يدفعا للمدعى «زكريا أحمد» مبلغ ٤٣٤٤ جنيها و ٦٦٦ مليما - إلزام السيدة أم كلثوم إبراهيم بأن تدفع للمدعى مبلغ ٤٥٦ جنيها وإلزام هيئة الإذاعة المصرية وحدها بأن تدفع للمدعى مبلغ ٨٨٩ جنيها و ٣٠٠ مليم، وذلك نظير حقوق زكريا لدى الإذاعة وأم كلثوم خلال الفترة فيما بين سنتى ١٩٣٧ و١٩٤٧ م (كمال سعد : المرجع السابق . ص ١١٠)، وفى أثناء نظر القضية حدث ما يستوجب تعديل صحيفة الدعوى، كان ذلك بسبب قيام الإذاعة بالاتفاق مع أم كلثوم على إحياء حفل بمسرح حديقة الأزبكية من مساء ١٩٥٥/٢/٣، حيث

شـــدت أم كلثوم فى ذلك الحفل برائعة زكريا أحمد : «الآهات»، وفيما بعد أثبت خبير انتدبته هيئة المحكمة أن جملة ما حصلت عليه أم كلثوم مقابل إحياء ذلك الحفل قد بلغت ١٠٢١ جنيها و ٣٨١ مليما، بينما كان نصيب الملحن ومن قبله المؤلف : لا شيء، وبناء على تلك الواقعة التى تمس القضية المعروضة أمام القضاء، قام محامى زكريا أحمد بتعديل الدعوى الأولى التى قدمها للمحكمة بدعوى جديدة حملت رقم ١٢٧٦ لسنة ١٩٥٥ م «كلى مصر» وذلك بتاريخ ١٩٥٥/٢/٢٧ م (كمال سعد : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١١)، وقد قضت المحكمة فى جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٥٥/٢/٢٧م، برفض دفوع المدعى عليهما (الإذاعة وأم كلثوم) والخاصة بعدم قبول الدعوى وببطلان صحيفة الدعوى، وقد قضى حكم المحكمة أيضا بتأجيل الفصل فى طلبات المدعى «زكريا أحمد» لحين ورود تقرير الخبير الذى انتدبته هيئة المحكمة، وكانت المحكمة قد انتدبت الأستاذ محمد فتحى : مدير معهد الموسيقى الشرقى للإطلاع على برامج الإذاعة وحساباتها ، وتعد تلك القرارات للمحكمة بمثابة حكم إبتدائى لصالح زكريا أحمد.

جلسة تاريخية

استمر نظر القضية أمام المحكمة حتى مطلع عام ١٩٦٠م، انقضت تلك السنوات فى تبادل المذكرات بين محامى زكريا أحمد وكل من محامى الحكومة (دفاع الإذاعة) ومحامى أم كلثوم ، وانقضت تلك السنوات أيضا فى طلبات التأجيل وتغيير الخبراء.. بل وفى تنقل القضية بين أكثر من دائرة فى المحكمة ، حتى جاء ميعاد حسم القضية فى ١٩٦٠/١/٢٥م بعد أن تأجلت ولآخر مرة فى جلسة ١٩٦٠/١/١٧م، كانت الدائرة المدنية المنعقدة برئاسة الأستاذ عبدالغفار حسنى وسكرتارية السيد محمد الرشيدى قد حددت الجلسة المنعقدة ظهر ١٩٦٠/١/٢٥م لمناقشة كل من زكريا أحمد وأم كلثوم فى القضية ، وفى الميعاد المحدد، حضرت أم كلثوم إلى مقر المحكمة فى سيارة محاميها: مختار قطب، اخترقت أم كثوم بصعوبة حشود الجماهير لتدخل إلى المحكمة من الباب الخاص بدخول المستشارين والقضاة! وفى القاعة - حيث كان زكريا أحمد ينتظر مع محاميه : عبدالرحيم غنيم - تزاحم الجمهور المتطلع لحضور الجلسة، مما إضطر القاضى: عبدالغفار حسنى للاستعانة بحرس المحكمة لإخلاء القاعة من الجمهور، وقد وصف على الخواص فى موضوع كان عنوانه : «الصور تتكلم» وجاء بالصفحة العاشرة من عدد صحيفة «الأهرام» الصادر صباح ١٩٦٠/١/٢٦م ما حدث بالقاعة فقال : «استمرت المناقشة خمس ساعات . بذل القاضى جهدا كبيرا، انتهى بعقد اتفاق خاص بينهما تفاهما فيه على التعاون المشترك بين الاثنين لخدمة الفن.. يقوم الاستاذ زكريا بتلحين ثلاث أغنيات لأم كلثوم بمبلغ رصد فى الاتفاق أنه سبعمائه جنيه عن كل لحن بحيث يتم

تلحين ثلاث أغنيات خلال عام ١٩٦٠م، وعلى هذا تنازل زكريا عن دعواه قبل أم كلثوم وإبرائها من الحكم الذى صدر له فى عام ١٩٥٨م ضدها هى والإذاعة بدفع ٣٠٠ جنيه عن أغنيتى «فرحة الشرق» و«حبيبى يسعد أوقاته»، كما تنازل عن جميع طلباته ضد أم كلثوم فى قضايا الإذاعة وحفظ حقه فيما حكم له به ضد الإذاعة، أثبتت المحكمة هذا التنازل، وقررت تأجيل نظر القضية بالنسبة للإذاعة وللمطربين الآخرين لجلسة ١٣ مارس القادم، وهكذا أسدل الستار على واحدة من أشهر قضايا أهل الغناء، طالت مدة تداولها أمام القضاء لأكثر من تسع سنوات، وعندما انتهت بالصلح بين الشيخ وسيدة الغناء العربى.. كانت أسباب حدوثها قد انتفت بظهور جمعية المؤلفين والملحنين واستقرار الأسس القانونية لحق الأداء العلنى، ليعتدل ميزان الأمور.. فينال المؤلف والملحن حقوقهما المشروعة من استغلال المصنف، وينحصر حق المطرب فيما يتقاضاه عند تسجيل العمل وما يستحقه من عائد الطبع الميكانيكى.

من الخاسر؟

لم يمهل القدر زكريا أحمد كثيرا بعد جلسة الصلح التاريخية حتى ينفذ ما اتفق عليه من أعمال، حيث قدم لأم كلثوم بعد القضية لحنه الوحيد لطقطوقة «هو صحيح الهوى غلاب التى نظمها محمود بيرم التونسى، وتغنت أم كلثوم بهذه الطقطوقة التى صاغها زكريا أحمد من مقام «الصبا» فى الحفل الذى أقيم مساء ١٩٦٠/١٢/١م ، إن مقام «الصبا» الذى صاغ منه زكريا لحن هذه الطقطوقة الخالدة تعجز عن أدائه جميع الأصوات الناعبة من حولنا الآن، بل إن الناقد الراحل كمال النجمى يذكر فى كتابه : «الغناء المصرى - مطربون ومستمعون» أن غالبية الملحنين يتجنبون التلحين من هذا المقام (ص ٣٩٨) ويذكر النجمى أن موسيقار الأجيال: محمد عبدالوهاب والملحن الكبير محمد القصبجى وكثيرا من ملحنى العصر الذهبى للغناء المصرى فى القرن العشرين كانوا يتجنبون التلحين من هذا المقام ، وحده زكريا أحمد وقلة من ملحنى ذلك العصر مثل فريد الأطرش وأحمد صدقى من نجحوا فى صياغة أغنيات كاملة من ذلك المقام، ولم تكن أصداء تصفيق الجماهير لنجاح «هو صحيح الهوى غلاب» قد انمحت من أذن زكريا أحمد، حتى وافته المنية فى ١٩٦١/٢/١٤م، وقبل أن ينفذ ما إتفق عليه مع أم كلثوم فى قاعة المحكمة، وبرحيل زكريا أحمد ومن بعده أم كلثوم.. لم يعد الأساس خلافهما - النقود - من قيمة يعتد بها، ولكن الخسارة عند جمهور الغناء الأصيل، كانت أفدح، فمن يعوض الجمهور عن سنوات تسع كانت ستتلألأ بروائع مثل هو صحيح الهوى غلاب»؟، لا جواب!.

الكسندرا أفرينوه

بين إسماعيل باشا والخديو عباس

بقلم
أحمد حسين الطماوى

الباحث فى مجال الطبائع البشرية يهفو إلى استقراء سير العشاق ليتعرف على أنماط السلوك، أطوار النفوس، وأنواع الأمزجة، ويلم بالبواعث والأحوال، لأن الحب يكشف عن النزوع الطبيعى فى نفوسنا، وإرادة الحياة عندنا، ويؤثر فى السلائق، ويغير فى الطبائع، ولأنه عالم الأهواء الجامحة والنزوات الصاخبة، فإن الذات تنطلق فى رحابة من عقالها، وتعبر فيه على سجيتها، وفى هذا متسع للدرس والتأمل.

والباحث فى هذا المجال يجد صنوفا من الحب من بينها حب عاشق لمعشوق لا يبادله نفس الشعور مما يجعله منتكسا مرتدا إلى فراغ. والملاحظ أن العاشق الفاشل لا يروض نفسه على النسيان، وإنما يفضل أن يعيش محبطا خائرا ويطيب له أن يتحدث عن لوعاته، ويصرح بآلامه وأشجانه ظنا منه أن هذا قد يعطف المحبوب عليه، والحقيقة أن المعشوق الساهى لا تعنيه آلام العاشق المقهور، أسوق هذا الحديث لأننا نتناول هنا عدداً من العشاق يتبادلون مشاعر الحب بينهم، وهم إسماعيل صبرى باشا، والكسندرا أفرينوه والخديو عباس.

الكسندرا أفرينوه (١٨٧٢-١٩٢٧)

كانت الأميرة الكسندرا الخورى (نسبة إلى أسرتها) أو الكسندرا أفرينوه، (نسبة إلى زوجها) تقطن فى زيزنيا بالثغر السكندرى، وكانت أديبة شاعرة وكاتبة مسرحية ومترجمة لأنها تتقن الإيطالية والفرنسية، وصحفية أصدرت مجلة «أنيس الجليس» باللغة العربية، ما يقرب من تسعة أعوام (من يناير ١٨٩٨-١٩٠٧) ومجلة «اللوتس» بالفرنسية. وجريدة «الاقدام» التى أسندت تحريرها إلى الشاعر ولى الدين يكن ولم تعمر طويلا.

والكسندرا امرأة عصرية خفيفة الظل، تمارس الرياضة البدنية، وتركب الخيل، وتحتسى الخمرة وتدمنها، وتتغزل فيها قائلة: «رائدة السرور، ومنشئة اللهو، وجامعة الفرح إذا شربها الإنسان طابت نفسه، ولطفت أخلاقه، وحسنت محادثته، وأذهبت جفاءه وخشونته، وكثيرا ما تغير طباع المرء حتى ليصنع وهو شاربها فى يوم ما كان يعجز عنه

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

فى أيام...» (أنيس الجليس ١٩٠٠).

وفى أواخر القرن التاسع عشر ظهرت كوكبة من النسوة العربيات المستنيرات المتحررات اللاتى نفضن عن أنفسهن غبار الماضى، وأشرقت عليهن أنوار المعرفة، وتفجرت فى أفئدتهن ينابيع الرجاء، وتراءت لهن صور جديدة للمستقبل، وأقمن فى بيوتهن أو قصورهن صالونات أدب وثقافة من أمثال مريانا مراش الحلبية، ومريم نمر، وياقوت بركات أو ياقوت صروف، ونازلى فاضل، والكسندرا أفرينوه، والتف حولهن عدد من الأدباء والمصلحين وناقشوا جميعا قضايامهمة فى الأدب والعلم والاجتماع والسياسة. وكان هؤلاء النسوة السافرات زينة هذه الصالونات وبهجتها، تتأنق الواحدة منهن وتتألق وتخطر بين ضيوفها فى رشاقة وخفة ثم تجلس بينهم وهى تفيض أنوثة وفى كامل زينتها، وكل عضو فيها مطل على عيون النظارة، وكان هذا المنظر الخاص المؤثر فى العواطف غير مألوف فى المجتمع، فلا جرم أن تعلق الشعراء أو بعضهم بهؤلاء النسوة أو ببعضهن، وجاءت أغانيهم تحمل الهوى والجوى.

كان رواد نادى الكسندرا يطرونها ويثنون على حسنها، ولم تكن تستنكر منهم أن يتغزلوا فيها، ولا تحتج إذا ذكروا فى غزلهم قدها المثمر، وحسنها البديع، وخدها الوردى، وثغرها المرصع، ولحظها الفتاك، يقول أمين الحداد (سركيس ١٩٠٦) وهو أحد رواد ناديها.

أري لك وجها يجمع الحسن كله
بديعا ورأسا يجمع الحلم والهدى
وقدا لو الأطيار تدرى ثماره
لما عليه كل طير وغردا
وخدا كأن الورد أبصر حسنه
وقد خامرته غيرة فتوردا

إلى آخره، أما الشاعر المرهف إسماعيل صبرى فيقول وقد استشعر لطفها وحسنها واستعذب حديثها

واسفري تلك حلي ما خلقت
لتواري بلثام أو خباء
وابسمي من كان هذا ثغره
يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء
وانزعي عن جسمك الثوب يبن
للملأ تكوين سكان السماء

ولا يقف صبرى باشا عند هذا الحد وإنما يذكرها وهى تخطر فى مشيتها وترفع يدها وتخفضها

واخطري بين الندامي يحلفوا
أن روضا راح في النادي وجاء

ويعرب عن اعجابه بجسمها وانسياله فيقول من هذا الغزل المكشوف:

زيني الندي وسيلي في جوانبه
لطفا يعم رعايا اللطف رياه

وتأمل عبارته «سيلى فى جوانبه» التى تظهر أنه كان يطالع منحنياتها وأعطافها وحركاتها. والانسيال يعنى به انسيال لفظها ولحظها، واسترسال قدها فى سلاسة، وتمايله وتثنيه فى رشاقة وفى هذا ما فيه من التأثير والإثارة، وهى

بكل ما وصفه بها الشعراء تعرف كلمة السر التى تفتح القلوب.

إسماعيل صبري
(١٨٥٤ - ١٩٢٣)

كان إسماعيل صبرى باشا شيخ الشعراء إبان نشأة الكسندرا الأدبية محافظا للاسكندرية فى الفترة من فبراير ١٨٩٦ - نوفمبر ١٨٩٩. وفى خلال هذه الفترة عرف طريقه إلى حى زيزنيا حيث صالون الأميرة الكسندرا تسبقه شهرته الأدبية ومكانته الاجتماعية، وتكررت زياراته للصالون ولصاحبته، وراقته فصاحتها وشاعريتها فاستمع إليها، ونبه جمالها عينيه فحدق فيها، وشيئا فشيئا تفتح بها قلبه، وثوى حبه لها بين جنبيه، ولم يمض طويل وقت حتى استمكن منه هذا العشق «وصار شغلا شاغلا». ووجد نفسه يستلهمها، ويصوغ الشعر من وحيها ويقول:

هل النعيم سوي يوم أراك به
أو ساعة أقضيها بناديك
إن قابلتك الصبّا في مصر عاطرة
فا يقيني أنها عني تناجيك
وأنها حملت في طي بردتها
قلبا بعثت به كيما يحييك

لكن هذا الشعر الذى طهره العفاف، ولابد أنه أطلعها عليه، لم يجعل نفسها تشف وترق، ولم يترك فيها أثرا، ولما كان ضيوف ناديها من الشبان والكهول فإن نظرها كان يتجه إلى الشبان، وهذا دأب المرأة سواء أكانت صغيرة فى العمر أم كبيرة، ولما كان صبرى باشا يكبر الكسندرا بنحو عشرين عاما، فقد أولت اهتمامها لمن دونه سنا، مما أثار حفظيته، فعاتبها ونبهها إلى مراعاة العدالة حين توزع التفاتاتها وكلماتها فى النادى يقول:

إن هذا الحسن كالماء الذي
فيه للأنفس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده
دون بعض واعدلي بين الظماء

ولكن المحب لا يعرف العدل بين المعجين والمحبين، وإنما يميل إلى من استهواه وارتضاه، وكان شيخ الشعراء يرى فى مجاوبتها له عافية من مرض أحرق كبده، وراح ينشد الشعر لعله يطرب سمعها، ويرطّب قلبها: فتجازيه على حبه لها، بيد أنها أعرضت عنه، والمحب المقهور بطبيعته لا يمل من التماس الود، ومخاطبة معشوقه بالرفق، يقول صبرى:

يا راحة القلب يا شغل الفؤاد صلي
متيما أنت في الحالين دنياه

ومثل هذا القول يشفع عند محبوب يحب، ولكن إذا كان المحبوب تحلق روحه فى أجواء أخرى، فلا فائدة من النداءات وإن تكررت، وكان صبرى باشا ينشر فى بعض الدوريات مقطعات تتعلق بها، وأخيرا وقف على الحقيقة، فقد أخبرته بأنها لا تشاطره حبه لأن زمنه تولى.

ومعظم القصائد الغزلية المؤرخة قبل عام ١٩١٣ فى ديوان إسماعيل صبرى المطبوع عام ١٩٣٨ قيلت فى الكسندرا،

وتواريخ النشر لا تدل على تواريخ النظم، فقد ينظم الشاعر قصيدة أو مقطعة الآن، وتظهر في الدوريات فيما بعد. وأود أن أشير إلى أن ما قيل من أن مجلة «أنيس الجليس» توقفت عام ١٩٠٤ خطأ أو أنها تعطلت بعد مرور خمسة أعوام على صدورها خطأ أيضا. والقول بأن إسماعيل صبري كان ينشر فيها شعره خطأ فلم ينشر فيها شيئا. وهناك من يخلط بين ما قاله صبري باشا في الكسندرا وبين ما قاله في «مي زيادة». ويجب التنبيه إلى أن شيخ الشعراء لم يعرف «مي» إلا بعد أبريل ١٩١٣ أي بعد أن ألقت خطبتها في حفل تكريم خليل مطران وذيوع صيتها وانعقاد صالونها نتيجة لشهرتها. وقد ذهب أحد الكتّاب الأفاضل إلى أن قصيدة صبري

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة
ولا بشافعة في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذي شاطرته زمنا
حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

قيلت في «مي زيادة» والحقيقة أن هذا الشعر نشر عام ١٩١١ أي قبل أن يرى صبري باشا «مي» والصحيح أنها قيلت في الكسندرا التي نسيته. وأما «مي» فلم يكن بينها وبين صبري باشا جزر وهجر، نعم نظم فيها الشعر ولكن كغيره ممن نظموا وكتبوا عنها، وقد ظلت على علاقة طيبة معه إلى أن فارق الحياة، وبعد موته رثته بمقال نشرته مجلة «المرأة الجديدة» (سبتمبر ١٩٢٣) وجمعته في كتابها «الصحائف». وجو القصيدة يناسب الكسندرا التي لم تذكره في حياته ولا بعد مماته إلاّ مرة واحدة عندما أخبرته بأنها لا تحبه لكبر سنه. وهناك أشياء أخرى يجب تصحيحها عن الكسندرا ولكن ليس هنا مجاله.

الخديو عباس وأمانة الحب:

وإذا كان إسماعيل صبري من كبار رجال الدولة وشغل مناصب عليا مثل منصب النائب العام ومحافظ الاسكندرية ووكيل وزارة الحقانية (العدل)، فإنه ليس أعلى من عرفته الكسندرا، فقد كانت الأميرة الكسندرا على صلة وثيقة بكبار الشخصيات العالمية في السياسة والكتابة.

ويكفي أن نشير إلى أن «لوبه» رئيس جمهورية فرنسا دعاها إلى حفلة راقصة في قصر الاليزية، وأنعم عليها السلطان عبدالحميد بوسام الشفقة من الطبقة الأولى (غران كردون) وهو وسام لا تناله إلا نساء الملوك والوزراء بسبب خدمة أزواجهن، ومنحها مظفر الدين شاه إيران وسام «شرفت» وأنشأه خصيصا لها وأطلق عليها «نجمة الشرق» أو «كوكب الشرق» وبعث إليها صورته وعليها توقيعه، وأرسل إليها سلطان زنجبار بصورته وعليها توقيعه، وأعطاها البابا ليون الثالث عشر وسام القديس بطرس، عدا صلاتها بالملك إدوراد السابع ملك الانجليز وغيره من وزراء أوروبا والكرادلة والبطاركة ومن هذا كثير.. كثير.. وكانت على صلة بكبار كتاب فرنسا ومنهم شارل رو المؤرخ

والسفير ورئيس هيئة قناة السويس، وكان من كتاب مجلتها «اللوتس» الناقد الشهير جول ليمتر وجول كلارسى أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى.. إلى آخره. ويستطيع القارئ أن يتعرف على علاقات الأميرة الكسندرا بأعيان العالم والأوسمة التى حازتها .. فما كتبه عنها أحمد محرم وولى الدين يكن فى (فتاة الشرق ١٩١٥) وخليل زينبه فى «المصور» سنة ١٩٠٧، وكل هذا له دلالات كثيرة يعنينا منها أنها امرأة طموح، تتطلع إلى الشخصيات الكبيرة، فإذا تفتح قلبها فإنما يتفتح على شخصية لها وزن من ذكرناهم أو أقل قليلا. فلا يملأ عينيها محافظ مدينة يهديها القيل والقال.

وقد أخبرنى محمد سيد كيلانى أثناء صحبتى الطويلة له أنها كانت تحب الخديو عباس (١٨٧٤-١٩٤٤) وفاتنى أن أستفسر منه عن مصدره، وربماكان هذا صحيحا فهناك شواهد تؤيده. وقد ذكرالزركلى فى «الاعلام» أن الملك فؤاد أمر بتفتيش بيتها ومصادرة ما فيه من أوراق وأمر بطردها من البلاد لصلتها الوثيقة بالخديو عباس، وسواء أكان هذا هو سبب طردها من مصر أم كان هناك من الأسباب غيره، فإن هذا يفيد بأن علاقتها بالخديو كانت علاقة غير عادية.

ومن يتصفح أعداد مجلة أنيس الجليس طوال فترة صدورها يجد مادة شعرية وافرة فى مدح الخديو، وتهنئته بأعياد الجلوس، وسلامة الوصول من سفر، وحلول الأعياد، والشفاء من مرض، وإذا رزق بمولود إلى أخر هذه المناسبات. وكان الخديو يدعوها إلى حفلات رقص الباليه التى كان يقيمها فى قصر رأس التين كل عام فى هذا تقول:

أيا قصر رأس التين باكرك الصبا
وحييت ملهي للنفوس وملعبا
لنا فيك كل عام ليل كأنما
يرد علينا حسنه زمن الصبا

ويقول أحمد محرم وولى الدين يكن:

«.... وما قصدت الأمير السابق (الخديو عباس) بمطلب إلا أجيب بالقبول، وكانت تذهب إلى قصره وتحظى بمقابلته كما يقابل عظماء الرجال، وقد أهداها صورته وعليها خطه دلالة على إعجابه بها.. كذلك نالت الميدالية الفضية من لجنة عيد الجلوس الخديوى» ولم تنل امرأة فى زمن عباس الثانى ما نالته الكسندرا وكانت هناك هند نوفل وملك حفنى ناصف وزينب فواز ووردة اليازجى وسعدية سعد الدين ولبيبة هاشم وغيرهن من الكاتبات والصحفيات والشواعر، وقد يكون كل ما صدر عن الخديو رداً على مدائحها له، أما هى ربما كان لها تفسير آخر.

ولا ينتظر منا القارئ أن نأتى له بدليل مادى ملموس لنبرهن على حب الكسندرا للخديو فلم يكن ممكنا لها أن تتغزل فيه على صفحات الصحف وهو أمير البلاد، وإذا كان لابد من شواهد أخرى فليقف عند مسرحيتها «أمانة

الحب». وهى مسرحية مخطوطة ذكر أحمد محرم وولى الدين يكن أنها من تأليف الكسندرا، واستكشفها د. سيد على إسماعيل وتفضل مشكوراً باعطائى صورة منها، وهى قيد الطبع.

وقد دأبت الشواعر العربيات على المواربة عند التعبير عن الحب، فقد بينت «مى زيادة» أن الشاعرة وردة اليازجى تنظم شعرا فى صديقة والكلام فيه موجه إلى صديق لتكتم عواطفها، وأظهر سيد كيلانى فى «فصول ممتعة» أن عائشة التيمورية إذا تغزلت فى رجل ذكرت الحواجب والوجنات والخصر النحيل والأرداف المكتنزة، ويخلص إلى أنها «تقمصت شخصية الرجل وخلعت عنها أنوثتها» أى تتغزل فى أنثى وتخفى ذلك، والكسندرا اختارت هذه الطريقة المواربة، ففى مسرحيتها «أمانة الحب» تبين أن الدونا ايميليا الأسبانية ابنة الدوق تعشق أمير البلاد الأسبانى ولا تعرف إلى قلبه سبيلا، ويعشقها البارون ولا تكترث به. ويخيل إلىّ أن ايميليا هى الكسندرا، والأمير الأسبانى هو الخديو، والبارون هو محافظ الاسكندرية إسماعيل صبرى، غيرت الأسماء الحقيقية، ونقلت الأحداث إلى أسبانيا، ومما تقوله ايميليا إلى الأمير الأسبانى.

إذا كان الذي يهوي جميلا
بلا مال أما يكفي الجمال
وإن كان الحبيب جليل قدر
ايمنعه عن الحب الجلال
ألا يكفي الجمال لعقد حب
يكون به لقلبينا اتصال

فى هذا الشعر تشعر العاشقة بالنقص وتدرك الفرق الشاسع بينها وبين الأمير، وتود أن تصرف ذهنه عن مكانتها الاجتماعية التى هى دونه وعدم ثرائها، وترى أن جمال المرأة خير قرين لجلال الرجل، فالرجل جماله فى روعته وهيبته والمرأة جمالها فى رقتها وأنوثتها ومن هنا لماذا لا يكون بينهما حب واتصال، فايميليا أو الكسندرا تعانى من البون الكبير بينها وبين الأمير الحاكم وترى أنه العقبة التى تجعل الأمير لا يحبها وهى فى هذا الشعر ترى أن المرأة تعلو منزلتها بالجمال وليس بالمال وفاتها أن تذكر العلم.

وفى المسرحية يحب البارون ايميليا، أما هى فإنها جافية صادة له، ولما أتعبه الهوى قال لها:

بحق عينيك قفي واعطفي
وكلمي العاشق أو سلم
أولا فإني مائت حسرة
أقضي شهيدا في الهوي واسلم

وقول البارون هذا لايميليا قريب من قول إسماعيل صبرى لالكسندرا:

أهـاجرتي أطفئي
لواعـج لا تنتهي
إذا قيل مات الأديب
بفاتنة أنت هي

أما الأمير فله معشوقة أخرى ويقول عن ايميليا

رماها الهوي في حب من لا يحبها
كما في هوي من لا تحب رمي بي

وأعتقد أن هذا البيت الذى قالته الكسندرا على لسان الأمير يلخص حكايتها مع الخديو أو حكاية الخديو معها، فهى تحبه وهو يحب أخرى. وفى نهاية المسرحية وبعد حيل فنية يتزوج الأمير من ايميليا وهذا الختام من المقتضيات الفنية فى التأليف المسرحى إذ لابد للمسرحية من نهاية. وكان مقدرا لهذه المسرحية النثرية أن تمثلها فرقة اسكندر فرح لذلك تضمنت أشعارا كثيرة ليغنيها الشيخ سلامة حجازى مغنى الفرقة. وهذه الأشعار مفيدة لأنها تعطينا صورا من الشعر الوصفى والعاطفى الذى نفتقده فى شعر الكسندرا المنشور فى «أنيس الجليس».

الكونتيسة النمساوية

ومهما يكن أمر العلاقة العاطفية بين الكسندرا الطامحة وأمير مصر عباس الثانى، فإن الأخير كانت له صبواته مع كونتيسة نمساوية فى قصر «شيبوقلى» بتركيا، وقد حدثنا محمود زكى باشا، ويظهر أنه من المقربين إلى الخديو، عن هذه العلاقة فى مقال نشرته مجلة «مصر الحديثة المصورة» (فبراير ١٩٢٨) جاء فيه : «فى عام ١٨٩٣ ذهب الخديو عباس إلى الآستانة واستقبله السلطان عبد الحميد وبعد مضى أعوام كان الخديو فى قصره بـ «شيبوقلى» المشرف على البسفور وأنفق فى سبيل تجميله مبالغ كبيرة، وكانت إلى جانبه الكونتيسة النمساوية، ودار بينهما حديث طويل فى السياسة والخلافة وجمال قصر الخديو ثم قالت: لا جرم أن السعادة الحقيقية والهناء والصفاء إنما تكون فى المحبة وراحة البال لا فى مثل هذه القصور الجميلة، أو هذه المناظر الرائعة وجمع المال، وما كاد يسمع الجناب العالى هذه الكلمات حتى تنهد وأنّ قائلا: هكذا أنا أعتقد، وأن أعظم سلوى لى ليست هذه المناظر الجميلة فحسب بل صدق محبتك لى، فأنا أهنئك بهذه المنزلة العالية من اللطف والكياسة فضلا عن رقة الشعور والجمال الساحر الفتان والذكاء النادر وخفة الروح. وأشكر لك عنايتك بى».

ويضيف زكى باشا قائلا: «كانت الكونتيسة النمساوية آية فى الجمال، وكان شعرها الناعم الكستنائى النادر فى النمساويات، وعيناها النجلاوان تزيد سيماءها الجميلة جمالا ورشاقة...» ثم يقول: «ومضت على هذه الحوادث عدة أعوام وجلس الجناب العالى بعد الحرب العمومية الكبرى فى قصر شيبوقلى وجرت هذه الذكرى فى خاطره فأخذ يترحم على عبدالحميد وعلى أيام الكونتيسة.. وعلى ملك أضاعه، وصار يردد تلك الجملة التى كان سمعها من الكونتيسة وهى أن السعادة الحقيقية والهناء والصفاء إنما تكون فى المحبة..»

ومرت الأيام بكل هؤلاء العشاق، وطويت أسرار كثيرة وبقيت فى الطروس آلام إسماعيل صبرى، وآمال الكسندرا فى استمالة أمير البلاد، وترحم الخديو على أيام الهناء مع الكونتيسة. ■

قصة قصيرة

الفرص تتجدد دائماً

بقلم
ابرهيم عبدالمجيد

يد الطفل الصغيرة الهشة تعبث فى قلبه. شىء يريد أن يخرج من صدره. آهة. صرخة. دمعة. أى الرجال الضعفاء هو؟ أى الرجال الأقوياء!. يعرف أن الحياة لا تعطى أحداً الفرصة طول الوقت. يعرف معنى الخطأ التراچيدى وعواقبه، لكن من ذلك الشيطان الذى جعل حياته ضيقة إلى هذا الحد؟ لا يستطيع أن يبنى لنفسه حياة مرة أخرى، ولا يستطيع أن يهدم حياته، قصته الجديدة إذن ليست أكثر من نزوة.

فى البداية أعتقد ذلك. وجد نفسه قادراً على الابتعاد عنها هو الرجل الذى غادر الأربعين بخمس سنوات. لكنه دائماً يقابلها فى الطريق، فى أماكن لايتوقع فيها وجودها. بعد انقطاع طويل وجدها جالسة فى المطعم اليونانى الصغير مع صديقة لها جوار سينما أوديون. ما الذى جعله يقرر دخول هذه السينما التى انقطع عنها زمنا طويلا ويعود لعادته القديمة، الغداء فى المطعم اليونانى؟ لطالما فعل ذلك حينما كانت السينما تعرض الأفلام السوفيتية، سينما عجيبة حقا، اختارها السوڤييت مدركين موقعها الممتاز، لكن الذى حدث أنه لم يتردد عليها المناضلون، بل تردد عليها العشاق من كل الأعمار، طلبة مدارس وجامعات وموظفين وعمال وحرفيون مطرودون من الجنة من كل مكان. على الشاشة كانت تجرى وقائع الحرب العالمية الثانية دائماً، وانتصار السوڤييت دائماً، وعلى المقاعد تجرى وقائع الحب، أصوات الرصاص من الشاشة لا يسمعها أحد، وأصوات القبلات تدوى فى كل مكان. لقد تخلت السينما عن أفلام السوڤييت قبل البروستوريكا بزمان.

– هل تدخلين هذا الفيلم الأمريكى؟

– أجل. جئنا من أجله.

– انه فيلم كاراتيه.

– نوع من الجنون. خروج عن المألوف. سئمت الأفلام الجادة.

– وأنا أيضا.

تذكر أنه أخبرها يوما عن عادته القديمة فى الغداء بهذا المطعم.

هل تكون قد تذكرته؟

لابد. أحس ببعض الثقة. كانت هى قد حجزت مكانين لها ولصديقتها. وجد لنفسه مكانا بالكاد. حشد الصبية والشباب لا يصدق. وقفوا أمام السينما قليلا. رأها مسرورة كما يراها دائما. عيناها العسليتان لامعتان مزهوتان وشفتاها الصغيرتان المكتنزتان لا تكفان عن الابتسام المبهج. لقد عاد إلى حال الفتى المراهق يكاد ينكمش أمام جرأتها مع أنه لو وضعها فى صدره لاختفت تماما كيمامة صغيرة وادعة. هى حقا فى حجم اليمامة وهو يشتهيها بعمق. يكاد ينحنى يقبلها قبلة خاطفة فى الطريق وأمام حشد المنتظرين وتحت الشمس البيضاء. ليس هذا مناسبا لمن هم فى عمره وهى أيضا ليست صغيرة فى العمر، لكنها لا تبدو

أكبر من فتاة فى العشرين. هى رياضية من زمان وهو كسول من زمان. لقد أمضت نصف حياتها فى النادى، وهو أمضى كل حياته فى السرير يخلق القصص الوهمية ويهيم مع أغانى عبدالحليم حافظ. فى السينما لم يجد فرصة للجلوس جوارها. امتلأت السينما ووجد فكرة أن يطلب من الجالس جوارها أن يبدل مكانه معه فكرة سخيفة، تسلل بهدوء فى الظلام خارجا. سيراها بالتأكيد مرة أخرى. فرصة ثانية من اللحظة التى يبدأ فيها فى النسيان..

****

هذه المرة لا يريد أن ينسى. يختنق من عدم وجودها.

ما الذى يمنعه من البوح بالحب. لابد أنها تنتظر منه ذلك.

ذات الوجه الأسمر الصغير المستدير الطفولى، ذات الابتسامة العذبة البهيجة. ذات الجسد دقيق الخصر بديع التقسيم.

هذه امرأة خلقها الله فأحسن التكوين. قطعة نحت رومانية فوقها ثياب من تحتها تتسلل دعوات الحب. هى الإحساس القديم بأن العالم متسع أبيض ملىء بالزهر والفراشات الملونة. هى عذاب السهر وانقضاء الليل بعين مفتوحة تستقبل نسمات الفجر بوداعة، باختصار هى الرومانسية القديمة معجونة بالاشتهاء، هكذا كلما رآها أحس بأن كلا منهما قد حل فى الآخر، روحان فى جسد كما يقال.. انه يشتهيها إلى درجة الارتباك فى بيته. يكاد يخطىء أكثرمن مرة وينادى زوجته باسمها رغم أنه لا علاقة بين اسميهما من أى نوع . صار يبذل مجهودا جبارا حتى لا يقع فى هذا الخطأ، وتخلى، لا إراديا، عن عاداته الطيبة فى الجلوس مع زوجته وأولاده والاستماع إلى الأغانى أو رؤية الأفلام القديمة بالتليفزيون. كان يفعل ذلك ليدفع ببعض القوة فى ماكينة الزواج الهرمة، وكانت زوجته تعرف ذلك، ولكنها ترضى إذ تدرك انهما معا صارا ملكا للأولاد، أخذ ما لهم وانتهى الأمر. تقول هذه سنة الحياة فيسكت ويقول فى نفسه هذا من أثر الحكومات العسكرية فى العالم الثالث. ثم يبتسم ويقول، لابد أن هناك فرصة ثانية لتجديد الحياة.

****

يحتاج حقا أن يقول كلمة «أحبك». غامر وطلبها فى التليفون. أتاه من الناحية الأخرى صوت غليظ. بالأصوات الرجالي البائسة. ولم يرد. فى اليوم التالى ميز صوتا رجاليا آخر. الزوج والابن. لابد. وحين أتاه فى المرة الثالثة صوت نسائى جميل ميز أيضا أنه ليس الصوت الذى يريده. انه صوت ابنتها. لكنها كانت أكثر شجاعة منه. طلبته فى التليفون ووجدته.

- كنت أعرف أنك الذى تطلبنى كثيرا هذه

الأيام ولا تتكلم.
قالت ذلك
فقال بألم.
- وحشتينى.
- انت أيضا وحشتنى.
- أريد أن أراك.
- أنت تعرفى عملى. ساكون هناك بعد أسبوعين حيث سنسافر كلنا إلى الغردقة.
لم يتردد. بعد ساعة عادت زوجته من مشوار فى الخارج.
- ما رأيك أن نقضى أسبوعين فى الغردقة؟
اندهشت جدا. ابتسمت.
- من أين لنا بالنقود؟
- لدى مبلغ كنت أدخره لمفاجأة كهذه.
رقص أطفاله طربا، وبانت السعادة على وجه زوجته. هذا مكان حالم طالما سمعوا عن جماله. البحر والعوم والغطس والصيد.

فى الغردقة نزل بالفندق نفسه الذى تنزل فيه. فى صالة الطعام رآها مع زوجها وأولادها ورأته مع أولاده. ابتسمت ونهضت فنهض بعدها بدقيقة. جسده كله راح يختلج.
وأمام باب المصعد وجدها واقفة.
- وحشتينى كثيرا.
- وأنت أيضا.
فى المصعد لم يركب معها أحد.
- فى أى دور تسكنين؟
- فى الثالث غرفة ثلاثة أربعة أربعة.
- هذه هى المجاورة لنا تماما. نحن فى غرفة ثلاثة أربع خمسة.
- صدفة جميلة.
قالت بصوت رقيق.
توقف المصعد. أمام البابين المتجاورين للحجرتين توقفا. فى اللحظة التى مدت فيها يدها تضع المفتاح فى الباب مد هو يده فامسك بكفها الصغير الناعم، اختلجت يداها فانحنى وقبل اليد التى صارت باردة للغاية ثم تركها. أدارت المفتاح ودخلت غرفتها. فعل هو نفس الشيء. فى غرفته أدرك أنه قام خلفها بلا هدف محدد. هو لا يعرف لماذا قامت قبله ولا يذكر أى انفعالات كانت على وجهها حين قبل يدها لأنه ببساطة لم ينظر إلى وجهها. ركز كيانه فى هذه القبلة الصغيرة البسيطة.
سمع باب غرفتها يفتح من جديد ثم يغلق. سمع صوت قدميها تتجهان إلى المصعد. لم يخرج من الغرفة. سمع صوت توقف المصعد وتحركه. هل كانت تدعوه إليها وأخطأ الفهم؟. هكذا يكون قد ضيّع ما عاش ينتظره منذ ثلاثة أعوام أول لقائه بها. هو على كل حال غير نادم. لم يكن بقادر أن يفعل أكثر من قبلة على اليد. هى لم تشجعه أبدا. هل كان يريد شيئا غير ذلك حقا؟.
حين عاد إلى زوجته وولديه بالمطعم رآها تجلس مكانها بين زوجها وأولادها. كانت ترفع حينا عينيها نحوه وتبتسم. هى إذن لم تغلق النوافذ كلها وأمامه أسبوعان سيحاول فيهما من جديد. أجل. هناك فرصة دائما تتجدد بعد كل لقاء معها. ■

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الشرطة

بين القانون والمعايير الإنسانية

بقلم
عبدالوهاب عبدالرزاق - بغداد

تطفو على سطح العلاقة بين الشرطة والمواطنين- بين الحين والحين - أحداث، تبدو فيها الشرطة متجاوزة دورها المتضمن فى عبارة «حماية أمن وسلامة وممتلكات المواطنين»، وهى تجاوزات أقل ما توصف به فى الدوائر الإعلامية أنها تصرفات من قلة غير مسئولة تسئ لأداء وشكل هذا الجهاز، وهو من هذه التجاوزات براء .

غير أنه على ما يبدو قد تجاوزت هذه السقطات، فى كثير من الأحيان، الحدود المسكوت عنها، واتسع نطاقها لتتجاوز هذه القلة ولتقترب من الظاهرة العامة لطبيعية العلاقة بين الجهات الأمنية والشعوب .

بدأ الاهتمام بموضوع تجاوزات رجال الشرطة منذ فترة مبكرة، ولكنه تمثل أول ما تمثل في المؤتمر الخامس لمنع الجريمة برعاية الأمم المتحدة، والذى انعقد فى جنيف عام ١٩٧٥، وبحث موضوع «الدور البارز للشرطة والأجهزة الأخرى المختصة بتطبيق القانون مع إشارة خاصة إلى التغييرات المتوقعة ومعايير الحد الأدنى للأداء الشرطى»، وتناول المؤتمر فى ظل هذا العنوان مجموعة من الموضوعات أهمها علاقة الشرطة بالجمهور، والمعايير الأخلاقية فى العمل الشرطى .

الأخلاق فى العمل الشرطى

نال موضوع المعايير الأخلاقية في العمل الشرطى عناية متميزة بناء على طلب المجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة، الذى وجه (لجنة منع الجريمة وضبطها) إلى أن تبحث مسألة «إعادة تقنين دولى لأخلاقيات الشرطة»،

ثم أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم ٣٢١٨ ناشدت فيه المؤتمر الخامس للأمم المتحدة لمنع الجريمة ببذل اهتمام عاجل بموضوع «إنشاء قانون دولي لأخلاقيات الشرطة والأجهزة الأخرى المرتبطة بتطبيق القانون وبالفعل ناقش المؤتمر هذا الموضوع في إطار ثلاثة مشاريع أعدت حوله :

١- قانون للأخلاقيات تتبناه الرابطة الدولية لرؤساء الشرطة .

٢- المعايير الأخلاقية في تطبيق القانون المقترح من قبل رابطة تطبيق القانون في الولايات المتحدة الأمريكية.

٣ - مشروع قانون أخلاقيات معد من قبل جماعة عمل من خبراء الشرطة اجتمعوا تحت رعاية الأمم المتحدة في واشنطن .

وانتهى المشاركون في المؤتمر إلى أن تعد لجنة من الخبراء خلال عام وثيقة جديدة بهذا الخصوص، وفعلا أنجز الخبراء واجبهم، وأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا برقم ٣٤/١٦٩ بتاريخ ١٧ ديسمبر سنه ١٩٧٩ أعلنت فيه قواعد سلوك الموظفين المكلفين بتنفيذ القوانين، وهم رجال الشرطة وغيرهم من القائمين على أمر التنفيذ .

ضوابط عامة

أوصى المؤتمر السادس للأمم المتحدة لمنع الجريمة الذي انعقد في كراكاس عام ١٩٨٠ جميع المشاركين بتأييد إدراج بنود مذكرة قواعد السلوك في قوانينها المحلية، وجعلها في متناول جميع المعنيين، وتدرس أحكامها وغيرها من النصوص المتعلقة بحقوق الإنسان للعاملين على تنفيذ القوانين .

وقد أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بنود المذكرة التي جاءت تلزم العاملين بالشرطة وبتطبيق وتنفيذ القوانين بعدة أمور منها :

- احترام الكرامة الإنسانية أثناء تنفيذ القوانين والمحافظة على حقوق الإنسان .

- لايجوز لرجال الشرطة أو القائمين على تنفيذ الأحكام استعمال القوة إلا في حالة الضرورة القصوى .

- المحافظة على سرية ما في حوزتهم من أمور ذات طبيعة سرية .

- عدم القيام بأي عمل من أعمال التعذيب أو غيره من أشكال المعاملة القاسية .

- عدم القيام بأي فعل من أفعال إفساد الذمة .

استعمال القوة

والجدير بالذكر أن لجنة منع الجريمة ومكافحتها في هيئة الأمم المتحدة أعدت مبادئ أساسية بشأن استعمال القوة والأسلحة النارية من جانب رجال الشرطة والقائمين على تنفيذ القوانين،

ناقشها مؤتمر الأمم المتحدة الثامن لمنع الجريمة الذى انعقد فى هافانا عام ١٩٩٠، وأصدرت القرار رقم ٣٧ الذى اعتمد تلك المبادئ وأوصى باتباعها وتنفيذها على الأصعدة الوطنية والإقليمية مع مراعاة الظروف السياسية والاجتماعية لكل بلد وتقاليده، ودعا أيضا الدول الأعضاء إلى مراعاة واحترام تلك المبادى فى إطار تشريعاتها .

وفى الحالات التى لامناص فيها من الاستخدام المشروع للقوة أو الأسلحة النارية يتعين على رجال الشرطة والمكلفين بتنفيذ القوانين مراعاة الآتى :

- ممارسة ضبط النفس فى استخدام القوة ومراعاة خطورة الجرم والهدف المراد تحقيقه .
- تقليل الضرر والإصابة واحترام وصون حياة الإنسان .
- كفالة تقديم المساعدة والإسعافات الطبية .
- كفالة إشعار الأقارب والأصدقاء المقربين للشخص المصاب .

الشرطة العربية

هذه العناية الأممية بالضوابط الأخلاقية فى عمل الشرطة كانت محل اهتمام مبكر من قادة الشرطة والأمن العربى، ففي أول مؤتمر لهم فى أبو ظبى عام ١٩٧٢، اتفقوا على تكليف لجنة خبراء عرب لوضع قواعد نموذجية لأخلاقيات الشرطة العربية بالاستعانة بالتراث العربى الإسلامى بهذا الشأن وبالفعل انجز الخبراء وضع تلك القواعد، وجرت مناقشها فى المؤتمر الثانى لقادة الشرطة والأمن العربى الذى انعقد فى عمان بالملكة الأردنية الهاشمية فى أبريل ١٩٧٤، وصدر بشأنها قرار تضمن الموافقة على الصيغة المقترحة واعتبارها أساسا صالحا لما ينبغى أن يتحلى به رجل الشرطة من آداب ومثل، والدعوة إلى تعميمها على أجهزة الشرطة ومعاهدها فى الدول العربية .

إن دور الشرطة فى المجتمع المعاصر يتميز بأنه دور مهم وفعال لايمكن الاستغناء عنه فى توطيد النظام العام ومكافحة الإجرام، يتكامل مع أدوار الأجهزة الرسمية الحكومية الأخرى ولايعمل مستقلا عنها فى أهدافه وغاياته، على أن يكون فى ظل السياسة العامة للدولة حريصا على آداب المهنة وأخلاقياتها، راعيا لكرامة الإنسان وحمايته والحفاظ على حقوقه فى جميع الأحوال، بما فيها حقوق المتهم بارتكاب جريمة .. إنه دور لايمكن أن يحقق أهدافه بمعزل عن تعاون الشعب واحترامه ورضاه .. ■

أين الحرية الأكاديمية للجامعة؟

بقلم
د. محسن خضر

كان المضمون التحررى بارزا عند إنشاء الجامعة الأهلية فى مصر، والتى تحولت فى نهاية المطاف إلى جامعة القاهرة. ومن الطبيعى أن يتسع مفهوم هذه النزعة التحررية سواء تحرير الوطن «الاستعمار الانجليزى» أو تحرير المواطن من كافة المعيقات التى تحد من تحقق جوهره الإنسانى، وصفته الاجتماعية كعضو فى المجتمع.

ويلخص القانون التأسيسى للجامعة المصرية هذا المسعى بتأكيده على رسالة الجامعة فى «ترقية مدارك وأخلاق المصريين على اختلاف دياناتهم، وذلك بنشر الآداب والعلوم».

ومع غلبة الفسلفة التنويرية على رسالة الجامعة - متأثرة بالنموذج الفرنسى للجامعة - كما تبرزها الفقرة السابقة فإنها جمعت بعد ذلك إلى جانبه النزعة التايلورية والفوردية بالنظر إلى الجامعات على أنها مصانع إعداد القوى العاملة والكوادر الفنية اللازمة لسوق العمل.

تستدعي بعض الوقائع الأخيرة المدخل السابق للتأكيد على أن الحرية الأكاديمية مقوم أساسى لنجاح الجامعة فى أداء رسالتها، مستوعبين اللحمة بين قوة الجامعة وقوة الوطن، واستقلال الجامعة واستقلال الوطن، وهو ما تلخصه عبارة أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد في خطاب له سنة ١٩٤٠ مؤكدا على أن «قوة الأمة ومنعتها واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة، ليست آخر الأمر إلا نتيجة لتربيتها الجامعية.

شفافية الموقف

الوقائع الأخيرة التى أعنيها هو ترشيح جامعة الإسكندرية الدكتور عاطف عبيد والدكتور زكريا عزمى لجائزة مبارك، وهو ما اعتذر عنه الأخير فى موقف يتسم بالشفافية يحسب له، رافضا هذا الترشيح أو معتذرا عنه - طالما هو فى منصبه الرفيع مما ينفى شبهة الحياد فى الفوز بالجائزة المذكورة، وهى الجائزة الأرفع

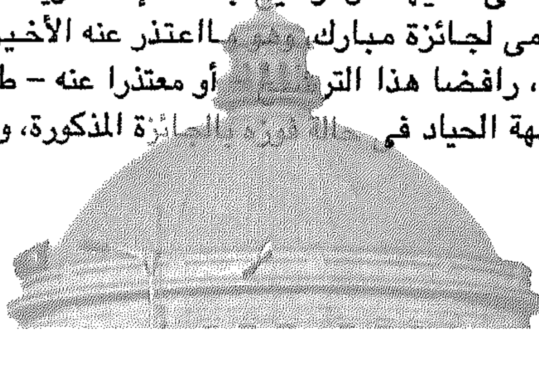

في الحياة الفكرية والعلمية في مصر نظرا لقيمتها المادية والأدبية.

وكان د. زكريا عزمي قد اعتذر كذلك لجامعة الزقازيق عن ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٥.

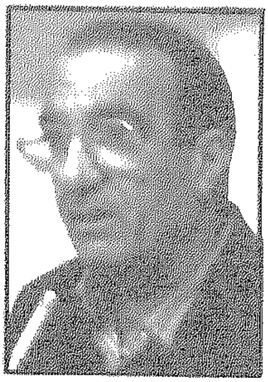

د. زكريا عزمي

وفي منتصف التسعينيات رشحت جامعة قاهرية كبيرة د. عاطف صدقي وكان رئيساً للوزراء، ود. أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب لجائزة الدولة التقديرية وأثناء وجودهما بالمنصب، وهو ما تصدينا له في حينه رافضين إياه بشدة لأنه يخل بقاعدة تكافؤ الفرص، ويضع لجان الجوائز في حرج وتحت ضغط أدبي نظرا لمناصب المرشحين ويصرف النظر عن جدارتهما في الفوز بالجائزة، وهو ما تمخض عنه عدم فوزهما بالجائزة لعام وقتها على أنها ذهبت إليهما فيما بعد.

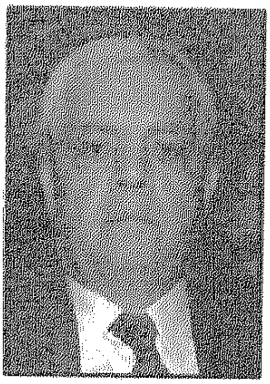

د.يونان لبيب رزق

وفي تطور مشابه استبعدت جامعة عين شمس ترشيح المؤرخ د. يونان لبيب رزق لجائزة مبارك في العلوم الاجتماعية مفضلة ترشيح الدكتور على لطفي، رئيس مجلس وزراء مصر الأسبق، هذا الترشيح انحاز إلى الاعتبار السياسي على أساس الاعتبار الفكري، ولن نقلل من جدارة د. على لطفي وأستاذيته، ولكننا ننحاز إلى قوة المثقف، واستقلاليته، في حالة د. يونان لبيب رزق الذي يقف بمفرده لا يمثل إلا سلطة الثقافة والتي تراجعت أما ثقافة السلطة في الترشيح المذكور، مع احتفالنا هذا العام ببلوغه السبعين ولا يزال عطاؤه مستمرا داخل وخارج الجامعة.

مجاملة أصحاب النفوذ

ومن المدهش أن جامعة عين شمس، والتي تمثل صرحا أكاديميا ومؤسسة علمية شامخة إلا أن ترشيحاتها لجوائز الدولة غالباً ما ضلت الطريق لأنها جاملت أصحاب النفوذ والسلطة على حساب أصحاب الاستحقاق، وفي الوقت الذي تصر فيه على ترشيح مسئول تنفيذي وقيادة حزبية لجائزة الدولة في العلوم الاجتماعية باستمرار منحازة إلى ثقافة السلطة فإنها استبعدت من ترشيحها - مثلا - شيخ التربويين الدكتور حامد عمار - والذي فاز بالجائزة رغما عن ذلك، بالرغم من هذا التعنت لأن جمعية علم النفس هي التي رشحته، وهو ما يحسب لهذه الجمعية التي صححت بترشيحها خللا جسيما وقعت فيه الجامعة، ولا تزال تكرر نفس الأمر هذا العام مع استبعاد المؤرخ الكبير، وأحد صناع العقل المصري، د.يونان لبيب رزق والذي آثر الابتعاد عن هذه الحسابات مواصلاً أداء دوره الأكاديمي والفكري والثقافي سواء من خلال الجامعة، أو صفحة «ديوان الحياة المعاصرة بالأهرام» أو في أنشطة المجلس الأعلى للثقافة، والجمعية التاريخية المصرية.

في الغرب يذهب المسئولون وتبقى المؤسسة، أما في الشرق العربي فالمؤسسة

ملك المسئولين وتنهار معهم.

وما أحسبنا أن موقف جامعة الإسكندرية وجامعة الزقازيق وجامعة عين شمس يهز الثقة فى صدقية العقل الجامعى، وفى رسالتها التنويرية فى المجتمع، ويترتب على موقفها اهتزاز الثقة فى مكانة هذه الجوائز. ربما كان موقف د. زكريا عزمى أكثر سموا وشفافية ونزاهة من موقف المؤسسات التى رشحته سواء فى جامعة الزقازيق حيث مسقط رأسه أو فى جامعة الاسكندرية، وقد أدرك أن ساحته الحقيقية فى مجال العمل التنفيذى والسياسى، أما هذه الجوائز فيجب أن تمنح لمستحقيها من الذين ينشغلون بالعمل الأكاديمى والفكرى، والذين يستحقون تكريما أو تقديرا من أى جهة ولكنهم يفتقدون النفوذ الذى يضمن لهم حقهم المشروع والضائع.

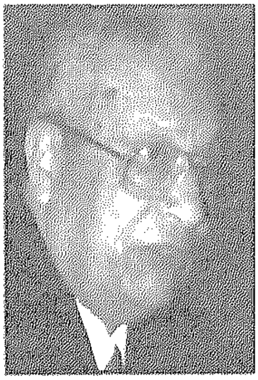
د.عاطف عبيد

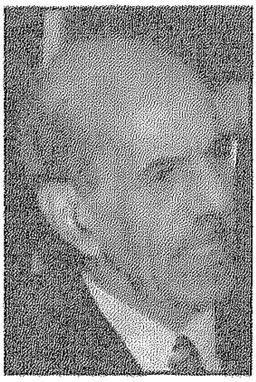
د. حامد عمار

فى كتابه الأخير «مستقبل الجامعة فى مصر» يبدى د. مصطفى عبدالغنى، الناقد والمفكر المعروف تشاؤما تجاه المسار الذى تتجه إليه الجامعة فى مصر المحروسة، ويرصد الكثير من جوانب الإنحراف ووقائع الفساد.

رسالة الجامعة

وهذا التشاؤم لا يمنعنا من أن نؤكد على إيماننا بالرسالة التى تؤديها الجامعة فى أى مجتمع، وتقوى هذه الرسالة كلما اتسعت مساحة الحرية الأكاديمية للجامعة، وتوفرت على استقلالها الأكاديمى فى حرية التفكير والبحث العلمى وفى القيام بمسئولياتها المجتمعية والإنسانية.

إن موقف النفاق والتزلف الذى تقدم عليه بعض القيادات الجامعية حين تقدم على ترشيح ذوى النفوذ لجوائز علمية صرفة أمر ينال من استقلالية الجامعة وقوتها ورسالتها، تلك الرسالة التى يوضحها مفكر مثل حامد عمار متمثلة فى قيم الجامعة القومية والإنسانية والمعرفية والأخلاقية، وتتجسد فى دعوتها للتجديد والتطوير، وللإنتاج المتميز والمبدع فى داخلها وفى خارجها، وإرساء قيم العقلانية والاستبصار واتساع الرؤية بحيث تشكل الجامعة بحق - فى رأينا - عقل المجتمع وضميره، وجهاز ترمومتره الحى، وعصبه النابض بالحرية والتقدم.

لهذا كله يلمؤنا الانزعاج من مستوى بعض القراءات والمواقف ومنها موقف الترشيح للجوائز - وما تمثله من انحراف المؤسسة عن جادة التفكير والطريق.

وربما تشير إلى واقعة ساخرة حينما أقدم أديب على الإضراب عن الطعام حينا، والتهديد بالانتحار من مبنى المجلس الأعلى للثقافة إن لم يمنح جائزة التفوق واضطر المسئولون لمنحها له اتقاء لكارثة وليس لجدارته. وكم ذا بمصر من المضحكات كما يقول شيخنا المتنبى.

نعم ما نريد أن تبقى المؤسسة الجامعية بعد أن يذهب المسئول، وليس العكس. ■

يوسف الصديق في مصر

بقلم
سمير عطا

جاء إبراهيم أبو الأنبياء إلى مصر، وقضى فيها عدة أشهر، ثم جاءها يوسف وعمره اثنا عشر عاما وظل بها حتى مات وعمره مائة وعشرة أعوام، وجاءها يعقوب على أثر ابنه يوسف ومات فيها عن مائة وسبعة وأربعين عاما، وفيها ولد ونشأ موسى حتى خرج مع قومه، وإليها هرب عيسى وأمه، ومنها مارية القبطية التى رزق منها محمد عليه الصلاة والسلام بابنه إبراهيم.

جاء يوسف إلى مصر من فلسطين منذ سبعة وثلاثين قرنا، وكانت فلسطين آنذاك أرضا كنعانية يسكنها العرب.. رحل إليها يعقوب من أرض العراق فعبر هو وبنوه نهر الأردن، وبالقرب من شيكيم (نابلس) عاش يعقوب وبنوه.. وولد يوسف .. وبالقرب من شيكيم كانت البئر التى ألقى فيه حسبما جاء فى التوراة.. إلى الجنوب من نابلس عند سفح جبل جرزيم، لكن بعض المؤرخين العرب يشيرون إلى موقع آخر.. فيقول أسامة بن جعفر فى كتابه «الخراج» إن البئر تقع على الطريق من كفر ليلى إلى طبرية.. ويشير المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم» إلى ما يشبه ذلك..

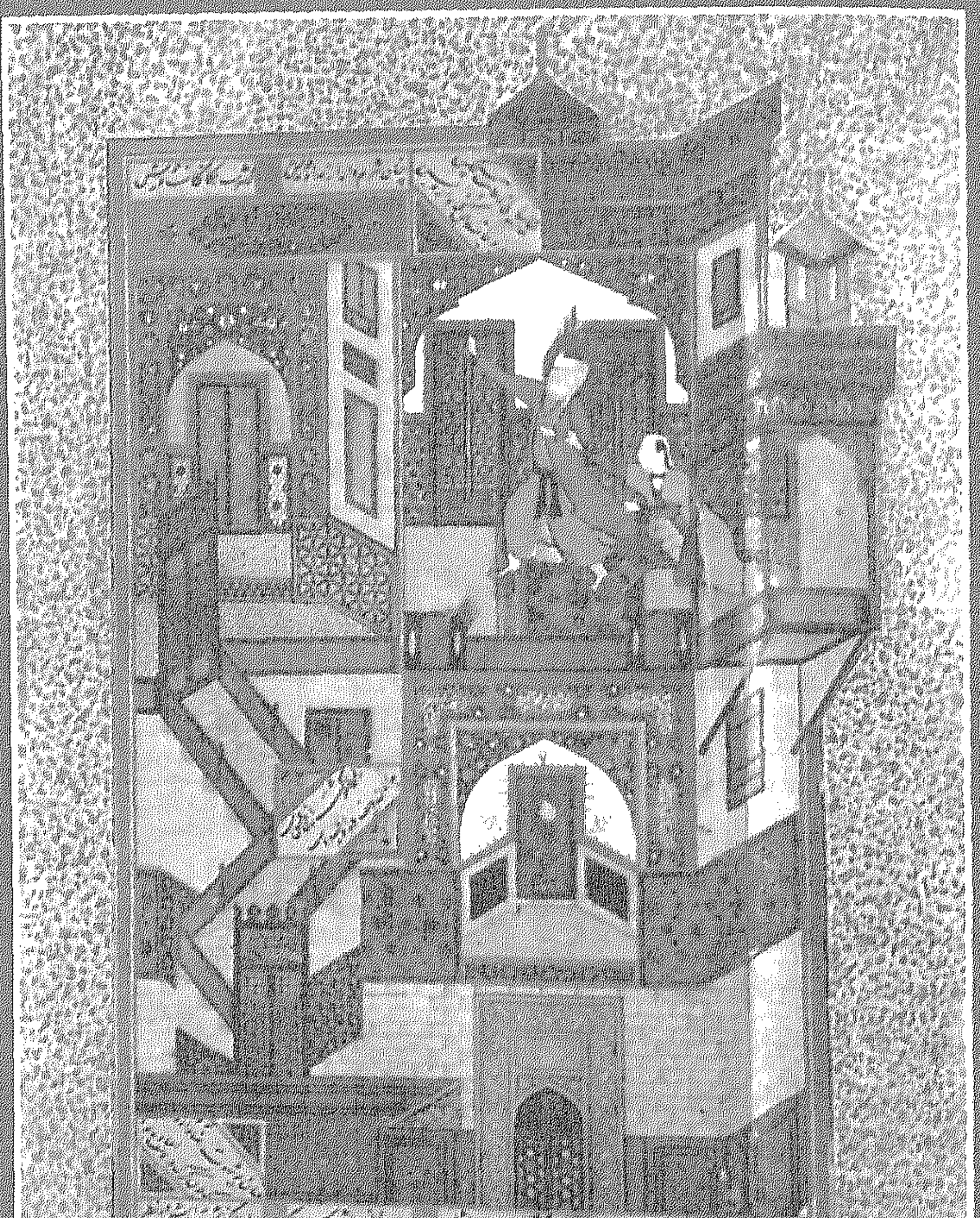

لقد احتمى [illegible] بيوسف وحاولت بكل جهدها استمالته اليها [illegible]
[illegible] يوسف [illegible]
يوسف [illegible] صورة من هذه الصور وكاد يوسف [illegible]
[illegible] الذي [illegible] في اللحظة الاخيرة [illegible] على نفسه [illegible]
الله [illegible]
[illegible] يوسف [illegible]

وذكر ابن بطوطة في رحلته أنهم قصدوا طبرية لزيارة الجب.. يقصد البئر.. وأنهم شربوا من مائها المتجمع من ماء المطر. وذكر القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات» أن البئر تقع على بعد أربعة فراسخ من طبرية مما يلي دمشق.

في قلعة صلاح الدين ، وداخل أسوارها، يتردد بعض المصريين على بئر هناك يقولون عنها إنها «بئر يوسف» وهم يعنون يوسف الصديق عليه السلام.. ويقولون إن هذه البئر هى التى ألقى فيها يوسف على يدى أخوته وهو صغير.. العامة دائما تستهويهم الخيالات فهذه البئر قد يصح نسبتها إلى يوسف صلاح الدين الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين وليس إلى يوسف الصديق، فيوسف الصديق لم يأت إلى هذا المكان.. كما أنه لم يأت إلى منطقة سقارة حيث يوجد هرم زوسر المدرج - أقدم هرم فى الدنيا - وحيث توجد بئر أخرى يقول الأهالى هناك إنها بئر سيدنا يوسف.

وإذا رجعنا إلى سفر التكوين نجده يحدد البئر بالقرب من دوثان التى لا تبعد كثيرا عن شيكيم والسامرة حيث كان يمر بها طريق القوافل على بعد ٦ أميال غربى جنين.

حقد الإخوة

حقد أخوة يوسف عليه لأنهم رأوا أباهم يعقوب يفضله عنهم فى المعاملة ويؤثره بحبه.. «لقد كان فى يوسف وأخوته آيات للسائلين. إذا قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا. ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين، اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين».. لكن واحدا منهم - لأمر أراده الله - اقترح على اخوته أن يتخلصوا من يوسف، بإلقائه فى قاع البئر وتركه لمصيره.. «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين».. ألقوه فى البئر، وعادوا يكذبون على أبيهم وقالوا قد أكله الذئب فلم يصدقهم «قال.. بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ..».

«وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدوات وكانوا فيه من الزاهدين».

كانت القافلة متجهة إلى مصر للتجارة فباعوه بثمن بخس كغيره من الأطفال الآسيويين الذين كانوا يباعون للخدمة فى البيوت المصرية فى ذلك الوقت.. وفى نيويورك .. فى متحف بروكلين.. بردية مصرية تشير إلى هذه الظاهرة حيث نجد عددا من الأطفال بيعوا فى مصر إبان حكم الأسرة الثالثة عشرة.. «وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا».. ونشأ يوسف فى بيت عزيز مصر الوزير قوطيفار نشأة طيبة ، وعرف بالحكمة وقدرته على تفسير الأحلام.

ثم أراد الله أن يمتحنه فجاءت امرأة العزيز تغريه بنفسها، لكنه رأى برهان ربه.فصرف السوء عن نفسه ولم يستجب إلى ما تدعوه إليه.. فاتهمته عند زوجها الذى ائتمنه على أهل بيته، وقالت لزوجها « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم».. فدافع يوسف عن نفسه، وتحقق العزيز من الأمر فظهر كذب امرأته قال: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم».. وتناقلت النسوة فضيحة امرأة العزيز لكنها استكبرت وظلت تراوده عن نفسها.. قالت: «لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين. قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه..» ونجحت امرأة العزيز فى الكيد له، فألقى فى غيابة السجن..

لم يكن عزيز مصر مصريا.. ولا امرأته.. كان حاكما أجنبيا من الهكسوس الذين اتسم عهدهم بالفساد والانحلال الذى لم يعهده المصرى ولا كان يرضى عنه أو يقبل فيه هوادة.. وفى متاحف العالم تتوزع برديات تشير إلى بشاعة أحاديث الإفك والخيانة فى نظر المصريين.. فى متحف برلين بردية تقول: «اسم الزوجة التى تتهم بالإفك يصبح مثلا على البشاعة».. وفى المتحف البريطانى بردية تشير إلى ولد يحكم بقتل أمه حين يشك فى أنه ابن غير شرعى فيأمر بإلقائها فى النهر ليأكلها التمساح وبردية أخرى تحكى عن فلاح يأمر بقتل زوجته وإلقاء جثتها للكلاب حتى يحرمها من الحياة حتى فى الآخرة عندما يكتشف أنها حاولت إغواء أخيه البرىء.. ويقول الحكيم آنى لابنه «إن البعيدة عن بعلها لتقول دائما لك أنى جميلة وفى غيبة الرقباء، تتصدى لك بشباكها.. ما أشدها من خطيئة تستحق الموت إذا المرء استجاب إليها».. نمط من السلوك الأخلاقى عرفه المصريون وعبر عنه السيد المسيح بقوله «بالكيل الذى تكيلون يكال لكم وزيادة» وشتان بين مجتمع يرضى بالسوء، ومجتمع يتعالى عنه ويعاقب عليه..

أمير أشنونى

ورأى الملك حلما.. سبع بقرات عجاف يأكلن سبع بقرات سمان.. وسبع سنابل خضر وأخرى يابسات.. فاستدعى يوسف من السجن ليفسر الحلم.. قال يوسف: سوف تشهد مصر سبع سنوات من الخصب . تعقبهن سبع سنوات مجدبات.. ثم يعم الخير بعد ذلك.

وأشار يوسف على الملك بأن يعينه أمينا لخزائنه فى الأرض ليوفر من سنوات الخصب ما يستعينون به على سنوات الجدب «فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا ما تأكلون» وامتلأت مخازن الغلال استعدادا لسنوات القحط، وعين يوسف «أمير أشنونى» أى أميرا لمخازن الغلال، ومن لفظة شنونى انحدرت الينا كلمة «الشونة» أى مخزن الغلال .. ثم جاءت سنوات القحط .. شهدت مصر على طول تاريخها سنوات من الجدب نتيجة انخفاض النيل فلا ينبت زرع ولا يسمن ضرع.. فى عهد الدولة الوسطى - الأسرة الحادية عشرة

- أرسل أحد كبار الملاك لأمه يقول: «كيف أنت؟.. لا تقلقي على فإني حي وان كان البلد يموت جوعا.. ألا يزال النيل شديد الانخفاض؟ لاتستائى لقلة ما أبعث به إليك فإن نصف الموت خير من الموت».. ويقف المرء متأملا هذا النقش الموجود على إحدى صخور جزيرة سهيل جنوبي أسوان.. اكتشف هذا النقش عام ١٨٨٨، وهو يصف مجاعة امتدت لسبع سنوات على عهد الملك زوسر سأل الملك وزيره الحكيم أمحوتب ماذا يفعل فأشار عليه بمثل ما أشار يوسف على ملك الهكسوس.. تقول اللوحة : «إنني حزين لأن النيل لم يفض في عهدى سبع سنوات فقلت الغلال وجفت الحقول وهلك كل ما يصلح أن يكون طعاما ، وصار الرجل إذا استنجد بجيرانه هربوا منه ولم يأت أحد منهم لنجدته وصار الطفل يبكي والشاب يذبل والشيخ يغمى عليه، وصارت سيقانهم جميعا لاتحملهم، فهم مطروحون على الأرض وقد ألقوا بأذرعتهم متعارضة على صدورهم».. دون هذا النقش في زمن البطالمة أى بعد عشرين قرنا من افتراض وقوعه. ولئن كان يحدد زمنا سابقا على عهد يوسف إلا أنه كان ترديدا لما وصل إلى سمع المصرى القديم من أصداء الماضى.

وامتد القحط فوصل كل أنحاء مصر وكثيرا من جاراتها حيث قلت الأمطار وجفت الآبار. كتبت «تاجة» ابنه «ذو شفار» من اليمن نقشا على قبرها تقول: «أنا تاجة ابنة ذو شفار.. أرسلت وكيلي إلى يوسف ولما تأخر في العودة إلي، أرسلت إليه وصيفتي ومعها مكيال من الفضة ليرده إلي مكيالا من دقيق.. ولما عجزت عن الحصول عليه أرسلتها بمكيال من الذهب..

في أرض جاسام

وجاء إخوة يوسف إلى مصر طلبا للحنطة والغلال بعد أن سادت المجاعة سوريا وفلسطين.. عرفهم يوسف وأعطاهم قميصه ليعودوا به إلى أبيهم فعرفه يعقوب وشد رحاله هو وبنوه إلى مصر.. «فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبواه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين» وفي أرض جسم وتقرأ في النصوص المصرية جاسام (بالميم)، كان مستقر يوسف وإخوته وأبيه يعقوب.. وجسم هى محافظة الشرقية وعاصمتها مدينة الزقازيق تمتد من جوار أبى زعبل إلى البحر ومن برية جعفر إلى وادى الطميلات. هنا عاش يوسف وإخوته وأبوه على عهد الهكسوس الذين يطلق عليهم بعض المؤرخين العرب اسم «العماليق» واستمر حكمهم من ١٧٢٠ قبل الميلاد إلى ١٥٨٠ قبل الميلاد حتى تمكن المصريون من طردهم ومطاردتهم والقضاء عليهم قضاء لم يعد لهم ذكر من بعده.

ومن آثار تلك الفترة وصل إلينا «جعران» عليه أسماء لطائفة من الساميين كان منهم اسم «يعقوب ايل».. وفي تل الضبعة من أرض جسم عثرت بعثة نمساوية عام ١٩٦٨ على أطلال مدينة أواريس عاصمة الهكسوس.. على

بعد خمسة كيلومترات من مدينة فاقوس قرب الزقازيق، وتل الضبعة تل مستدير يبلغ قطره حوالى ٥٠٠ متر ويعتقد أنه كان جزءا من مدينة تمتد كيلو متر إلى الغرب وكيلو مترين إلى الشمال.

كشوف البعثات

ولاحظت البعثة أن جثث الموتى فى المقابر التى تم الكشف عنها لم تدفن ممتدة كما كانت العادة السائدة فى مصر ولكنها دفنت فى وضع مقرفص كالمولود فى بطن أمه، وهى عادة كانت منتشرة شرقى البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت وليست من عادات المصريين.

كما لوحظ أن المقابر كانت تحفر تحت أرضية المنازل وهى عادة غريبة عن المجتمع المصرى.

كما لاحظت عادة أخرى هى دفن الأطفال بعد حرقهم مما لم نعهده فى الحضارة المصرية فى أى عصر من العصور.. كما كشف عن بعض هياكل الخيل فى مقابر أواريس والهكسوس الذين أتوا بالخيل إلى مصر.

وفى محافظة الشرقية أيضا تشرف قرية «غيتا» من أعمال بلبيس على تل أثرى معروف باسم تل يهوذا، ويقال إن يهوذا ابن يعقوب - شقيق يوسف - قد دفن به، وله ضريح هناك يحتفل بمولده كل عام ، ومن قلب التل يخرج جدار أسود ربما كان بقايا جدران مخازن الغلال التى ابتناها يوسف فى ذلك الزمن السحيق ومن الملاحظ أن مؤرخا مثل المقريزى - أشهر مؤرخى مصر - قد أشار إلى هذه القرية فقال: إن يوسف وإخوته قد مروا بها وهى فى أرض ماشان - يقصد جاسان - وعاصمتها بلبيس، وقال ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان» إنه كان بها مشهد يسمى «صاع العزيز» يقصد عزيز مصر أيام يوسف.. وصاع يعنى مكيال واتخذت غيتا لفترة طويلة محطة راحة للحجاج من مصر وهم فى طريقهم لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام بالحجاز.

وبالقرب من منيا القمح ، على بعد ٦٠ كيلومترا منها تقع «قرية» شلشلمون.. هنا تدور بين الأهالى أحاديث عن وجود كنز تخفيه الأرض تحت قريتهم.. اسم القرية فى المصرية القديمة «شنشلمون».. كانت مقرا لروح آمون فى اعتقاد المصريين ومركزاً لأرض جاسان مر بها عمرو بن العاص عند فتح مصر بعد مسيره من بلبيس ووجدها مدينة كبيرة أطلق عليه إسم «بنى حرام» وهو اسم يثير التساؤل.. وبها مسجد أثرى قديم اسمه الجامع العمرى نسبة إليه.. ولأن الاسم ذو دلالة غير مستحبة فقد غيره الأهالى إلى لفظة المصرى القديم وسموها من جديد شلشلمون.. فى هذه القرية يتحدث الناس عن سرداب طويل يعتقدون أنه يؤدى إلى كنز مدفون فى أغوار الأرض.

وعندما توغل البعض فيه لم يروا إلا حجارة عليها كتابات مجهولة، لم يعرفوا

قيمتها ثم جاء أجنبى وقال لهم: أعطونى هذه الحجارة فأعطوها له.

والقرية تقوم على تل .. أى ضربة فأس فيه قد تقود إلى كهف أثرى مهم.. أوان فخارية أو تماثيل قديمة يسميها الأهالى «المساخيط» يقول البعض : إنهم كانوا من البشر وغضب الله عليهم فسخطهم على هيئة التماثيل.. وفى أحد مساجد القرية عمودان عليهما نقوش قديمة ترجع إلى هذا العصر.

أسنات زوج يوسف

وفى المطرية – على أطراف القاهرة – توجد قرية «نزلة الحصن» وهنا كانت تقوم مدينة «أون» أقدم مدينة فى التاريخ أو من أقدمها حيث يرجع تاريخها إلى ستة آلاف عام وتم اكتشاف آثار لخمسين منزلا بها.. كان الهكسوس يسيطرون على كل الدلتا وجزء من مصر الوسطى، والمصريون فى طيبة بالصعيد يتحينون الفرصة للخلاص منهم.

جاء يوسف إلى أون وتزوج من «أسنات» ابنة كاهن أون الكبير والذى كان يعيش فى واحد من هذه المنازل الخمسين.. وفى منزل آخر انتقل يوسف بزوجته.. فهل استمر فى الحياة فى أون بعد زواجه من أسنات حتى مات ودفن بها، أم عاد إلى أواريس عاصمة الهكسوس بمحافظة الشرقية؟ وأين إذن كان قبر يوسف؟ يقول النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» إنه وراء الحرم.. ثم يقول فى موضع آخر إنه فى فلسطين.. وفى سفر التكوين أنه دفن فى شيكيم «نابلس» وكلها أقوال لا تتطابق مع استمرار بقاء يوسف فى مصر.

انتشرت قصة يوسف فى اللغات الشرقية وترجمت إلى بعض اللغات الغربية وتحولت قصته مع زليخة زوجة العزيز إلى أسطورة شاعرية.. وفى مكة.. نزلت قصة يوسف على النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة لتواسيه وتشجعه وتريه فضل الله على الصابرين حين اشتد أذى الكفار له ولأصحابه.

ومن سورة يوسف ، وهى أطول سور القصص فى القرآن الكريم، نرى دليلا من دلائل الإعجاز. لم يذكر الله عز وجل اسم فرعون فى آية من آيات السورة بل قال: «الملك» «وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف» .. «وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن».. «وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ...» فى حين أنه ذكر الحاكم المصرى بلقب فرعون فى قصة موسى.. وذلك يرجع تاريخيا حسب أدق ما توصلت إليه الكشوف الحديثة إلى أن لقب فرعون بما له من دلالة على ملوك مصر لم يكن ذائعا فى عهد يوسف، وأن حاكم مصر الذى دخل يوسف فى خدمته لم يكن مصريا وإنما أجنبى ومن ثم لم يكن ليلقب بما عرف به حاكم مصر فى عصورها القديمة.. وهو فرعون.

«ما فرطنا فى الكتاب من شىء».

صدق الله العظيم. ■

مدام هانو

صفحة صهيونية غامضة

بقلم
د.محمد المهدى

يتبادل المتهمون فى القضايا ذات الشأن العام الأقنعة فيما بينهم، ولذلك يتشابهون، وإن اختلفت قومياتهم وانتماءاتهم، فكلهم مخادعون، يصعدون على أكتاف ضحاياهم، مدعومين بقوى خفية، تجعلهم يفلتون دائما من الإدانة والعقاب ورد الحقوق لأصحابها.

وهذه ثلاث قضايا شغلت الرأى العام الفرنسى فى مطلع القرن الماضى، وعلى مشارف الحرب العالمية الأولى ومقدمات الثانية، والقضايا الثلاث اتصلت بالنشاط الصهيونى.

«لاجازيت» كانت الواجهة لجمع الأموال والصفقات المريبة والمشروعات الوهمية.

«هانو» خدعت العامة فدافعوا عنها رغم سرقتها لأموالهم بإغراء الفائدة المرتفعة.

ما مدى مشاركتها فى أنشطة المنظمة الصهيونية...؟ وما مدى ما حصلت عليه من مساندة؟!

بعض الشخصيات المشاركة في نشاط لاجاريت

(هانو) فى مكتبها وزوجها السابق

مؤسسة «لاجازيت».. كانت تشغل مبنى ضخما فخما فى حى راق بباريس يعطى الإحساس بقوة مشاريعه.. مشاريع مالية إلى جوار النشاط الصحفى

القضية الأولى والثانية معروفتان، وإن لم تكشف كل جوانبهما، والثالثة لا تزال خباياها كثيرة. الأولى تعرف بقضية «دريفوس»، ضابط فرنسى يهودى اتهم بالتجسس لحساب الألمان عام ١٨٩٨، يدان ويصدر عليه حكم بالنفى المؤبد. تقوم الدنيا وتقعد، وتنقسم بين مؤيد ومعارض، وترتفع راية الصهيونية التقليدية (معاداة السامية) أيام نشاط هرتزل والوكالة اليهودية. يكون من أشهر المدافعين عن «دريفوس» الكاتب الفرنسى المعروف «اميل زولا»، يكتب عدة مقالات تحت عنوان (إنى أتهم)، يتهم من أصدر الحكم، وينتهى الضغط الصهيونى بالعفو عن «دريفوس» عام ١٩٠٦.

يموت «زولا» ضحية قضية غامضة، فقد ظهرت وثائق تدين شخصا آخر بالتجسس... صهيونى أيضا، ومع ذلك ترتفع الرايات مهللة لـ «دريفوس» ولا تأتى بذكر لقصة الآخر.

القضية الثانية دارت عام ١٩١٤، عندما دخلت السيدة «كايو» إلى مكتب رئيس

تحرير جريدة «الفيجارو» الفرنسية وأطلقت عليه النار فقتلته لتشهيره بزوجها، «جوزيف كايو» رئيس الوزراء السابق ووزير المالية آنذاك. شهر به لنشاطه المالى المشبوه، خاصة مع مؤسسات صهيونية على حساب المصلحة القومية، منها نشاطه من خلال رئاسته للبنك العقارى المصرى وكان مقره الرئيسى فى باريس.

هذا البنك أقامته فى مصر أسر يهودية هى «رولو، وسوارس وقطاوى» بالتعاون مع البنوك الفرنسية. ينقسم الرأى العام بين مؤيد ومعارض، ثم تبدأ الخيوط فى الوضوح، فقد نجح الزوج فى الانتخابات بعد حملة الدعاية القوية بالمال والنفوذ. بل تنتهى محاكمة الزوجة ببراءتها. تبين الرأى العام بعض أبعاد اللعبة فشيع الزوجة بهتافات السخط على «كايو» ومسانديه. أدين بعد ذلك «كايو» أثناء الحرب الأولى لاتصاله بالألمان، ولكن صدر العفو عنه بعد الحرب.

مدام هانو

القضية الثالثة دارت عام ١٩٢٨ وبطلتها مدام «هانو» يهودية ملحدة نشاطها المالى صريح لا يعرف قومية ولا وطنية، وإن جاء باسم مؤسسة أصدرت صحيفة «لاجازيت دى فرانك ايه دى ناسيون» .

GAZETTE, DU FRANC, ET, DES, NATIONS

هى موضوع حديثنا.

مؤسسة «لاجازيت» كانت تشغل مبنى ضخما فخما فى حى راق بباريس يعطى الإحساس بقوة مشاريعه. مشاريع مالية إلى جوار نشاط صحفى، «هانو» كانت تسمى السيدة الرئيسة، مكتبها هو حصنها الخاص لا يدخله إلا المقربون وأصحاب النفوذ. الغرفة بسيطة خالية من الزخرف، أبوابها محصنة بعدة متاريس. كانت فى الأربعين ممتلئة تميل للسمرة، شعرها قصير، مشغولة دائما بالمكالمات التليفونية. ملابسها بسيطة فضفاضة قد تشبه فى مجملها ملابس الرجال. صوتها يتلون حسب الحاجة بين ناعم مع السلطة، وساخط مع المرءوسين. فى المساء تخرج من مكتبها يصحبها السائق إلى فيلتها، تبدل بملابسها ملابس السهرة الأنيقة. تخرج ثانية للعشاء فى أفخر المطاعم.. ثم سهرات وحفلات، ولقاءات خاصة صاخبة وقمار... تثير دهشة الجميع بجرأتها على مائدة اللعب حتى الفجر. تخرج تحث سائقها على الإسراع للعودة إلى فيلتها.

هكذا يوميا. نشاطها يثير قلق أصدقائها. يطالبونها بتخفيف الخطوات اللاهثة بين العمل والصفقات، واللهو واللعب.. تهز أكتافها وتقول هكذا يجب أن تكون المتعة بما يتناسب مع موقعى.

كانت تقولها بالانجليزية «ستاندنج» بطريقة ولهجة تكشف عن جذورها الاجتماعية.

«مارث هانو» تربت فى حضيض المجتمع، تفلت منها فى كثير من الأحيان كلمات دارجة سوقية خاصة عندما تستفز أو تثور. ولأنها يهودية فقد تزوجت صغيرة بأحد أبناء عقيدتها «لازار بلوش» يكبرها بكثير، تسلط عليها لفترة، ولكنها احتفظت بتوازنها فتخلصت منه كزوج بعد سنتين، وبدأت نشاطها المالى فاستعانت به لمهارته فى شئون المال ليتولى بعد ذلك وكالة مشروعاتها فى «لاجازيت»، ويظل تابعا مخلصا باسم الموظف الأعلى.

بفضل مهاراتها فى المضاربة زادت ثروتها، وبفضل قدرتها على انتهاز الفرص اشترت «لاجازيت» بسعر منخفض من رجل أعمال له اسمه فى السوق.. اشترت المؤسسة والاسم، وجعلت فى إدارتها الصحفية «بيير اديبرت». كاتب لامع ومناضل سابق. له نفوذه واتصالاته. بفضل جهوده صعدت الجريدة وأصبحت فى مقدمة صحف فرنسا آنذاك.

فى عام ١٩٢٨ بدأت بقايا أشباح الأزمة المالية فى أوروبا والعالم .دعا بحث الفرنسيين عن الأمان الاقتصادى إلى

LES
CAPITALISTES-ÉPARGNANTS!

الفضيحة فى صحف فرنسا والرأسمالية المساندة

المشاركة فى مشروعات «لاجازيت» المالية. أعطتهم الجريدة بأخبارها وعناوينها وهم الأمان والأمل. وحصلت على أموالهم لتصريف مشروعاتها ومضارباتها فى البورصة. ارتفع اسم «هانو» فى السوق، وزادت بركتها بين البسطاء. كانوا يدافعون عنها فى سذاجة كأنها قديسة لها «سر باتع» يرددون أنها فى رعاية إلهية واستثمرت «هانو» سرها الباتع بشكل واسع.

«الرعاية الإلهية» كانت تأتى من تكتل أصحاب رؤوس الأموال للقيام بلعبة نظرية مشتركة، يعرفون، بل متأكدون من نتيجة معركتها المصطنعة.

السر يكمن فى الايهام بقوة خفية وراء النشاط تضمن الفوز، الشراء وبصورة قانونية لحصص ضخمة تقود لارتفاع الأسعار. فى مؤسسة «هانو» يتم تجميع رأس المال أوتحصيل أموال المساهمين بإغراء الفائدة المرتفعة أو ما يسمى تخميرها فى الدنان دون ضمانات للمبالغ الصغيرة، ومع حق التعويض للمبالغ الكبيرة، وتبدأ المؤسسة فى توظيف الأموال فى مضاربات واسعة.

السجن والهروب

تضخمت عمليات «الجازيت» زادت الحصص، ارتفع الرقم الاحتياطى، ولم يكن الوقت كافيا لتغطية كل العمليات بصورة دقيقة مما أوجد ثغرة. أراد زوج «هانو» السابق وأحد المشاركين فى النشاط أن يجس نبض السوق فجند أحد المتخصصين فى تصيد الأخبار، والتقاط الأسرار، يدعى «جورج انكتيل» حمل تقريره إلى الرئيسة... أن الرأى العام بدأ يكشف اللعبة، ورجال الصحافة يعرفون الخبايا، يعتبرونك خطرا عاما يهدد مصلحة المجتمع.

«انكتيل» نفسه صاحب سمعة سيئة وسوابق. أدين فى عمليات مريبة، وكتابات فاضحة كان آخرها قصة خليعة طبع منها ٤٠٠,٠٠٠ نسخة عنوانها يكشف موضوعها «الشيطان يقود الحفلة». عندما بدأ التعامل مع «الجازيت» بدأت المساومة، طالب برفع أجره بصورة مبالغ فيها. رفضت الرئيسية فبدأت حملته المضادة خشى بعض زبائن «هانو» من أصحاب النفوذ على أموالهم فحركوا السلطات، وفتح باب التحقيق معها فى ديسمبر ١٩٢٨. ازداد انزعاج صغار العملاء، وخشى الناس على أموالهم بعد أن أغلقت «لاجازيت». أما «هانو» فكانت ثابتة فى التحقيق. أودعت سجن «سان لازار» وتفرغت لإعداد ملف الدفاع وملف اتهام الخصوم.

تمتعت فى غرفة اعتقالها بامتيازات خاصة. الغرفة نفسها لها تاريخ من عام ١٩١٤. اعتقلت فيها مدام «كايو» صاحبة القضية الثانية فى حديثنا والتى قتل فيها رئيس تحرير جريدة الفيجارو، وأخرجها النفوذ الصهيونى كالشعرة من العجين. غرفة أنيقة مزودة بالرفاهية لا ينقصها إلا التليفون. أدارت هانو نشاطها من السجن. كتابة مقالات ومقابلات، وزبائن، وأصدقاء، ومحامين. واستمرت فى الاعتقال ما يقرب

من عام.

نظرت قضية النزاع بين الرئيسة وخصومها في ١٤ يناير عام ١٩٣٠ «هانو» ضد «جورج انكتيل» و«ميمون عمار»، شخصية شرقية لم أستطع أن أعثر على أصله أو هويته أو دوره في القضية. كان يناصر «انكتيل» وأدخل في القضية. هانو في المحكمة بكامل زينتها. تتبادل الابتسامات مع رئيس المحكمة، أثار موقفها وكلماتها القارصة الخصم فانفجر «لست إلا وغدة استطعت أن أكشف قناعها. نصاب في ثوب امرأة» احتدت النقاشات تحولت الجلسة إلى مهزلة بين الخصوم والحضور. انفعل ميمون وتلفظ بألفاظ خارجة. أنهى رئيس المحكمة الجلسة، وصدر الحكم ببراءة «ميمون» وإدانة انكتيل وحبسه أربع سنوات لسوابقه.

خرجت الرئيسة منتصرة في جولتها ضد خصومها، وكان عليها أن تستعد بعد عودتها لسجنها لمعركتها الكبيرة.. اتهامها بالنصب والاحتيال العام. قضيتها إذن تتصل بالمصلحة العامة.. بالرأي العام. ولأنها تمرست بأعمال التلاعب بمشاعر الناس، وتحريكها حسب حاجتها، أعلنت «هانو» الاضراب عن الطعام في أول مارس عام ١٩٣٠. نقلت إلى المستشفى أخذوا في إطعامها بالقوة أو تغذيتها بالأنابيب. في مساء يوم ٢٤ مارس أحدثت ضجة مسرحية جديدة. توقفت سيارة أجرة أمام باب سجن «سان لازار»، وفجأة خرجت منه «هانو» متماسكة رغم ضعفها، تقدمت للباب وقرعت الجرس، وأصدرت أمرها لإحدى الحارسات.. «لقد سئمت عذاب المستشفى ارجعيني إلى زنزانتي».

ارتبك المشرفون على المستشفى الذى كانت تعالج فيه بعد خروجها المفاجئ. وفى الصباح انتقل الارتباك إلى سجن «لازار» الذى عادت إليه لقد وجدوا غرفتها خالية والنافذة مفتوحة وقد تدلى منها حبل صنعته من أغطية سريرها.. كانت هناك سيارة تنتظرها تحت النافذة أخذتها واختفت.

كيف أعدت خروجها من المستشفى وكيف عادت إلى السجن ولماذا؟ لماذا هربت من السجن بعد عودتها؟ كيف أعدت فصول المسرحية المتقنة الاخراج؟ لم تكتشف الأسرار، وظلت جزءا من غموض هذه المرأة .. وصلاتها مع السلطة وخارجها.

عودة النشاط

خروج «هانو» وهروبها بهذه السهولة أصبح مسار سخرية الرأى العام من رجال الدولة.. أثار أيضا الإعجاب بمهارة الرئيسة.. وصلت لهدفها، وعدل الرأى العام موقفه نسبيا،اضطرت الدولة تحت ضغوط خفية إلى تكوين لجنة قضائية قررت إطلاق سراح «هانو». مؤقتا. فقد ظلت قضيتها الكبرى ضدالمصلحة العامة تحت القيد، وحددت جلسة في ٣٠ أكتوبر عام ١٩٠٣.

بعد حصول «هانو» على العفو العام لم تفكر في إعادة «لاجازيت» بعد أن ساءت سمعتها، أصدرت جريدة أخرى باسم فورسFORCES وتعني القوى. سخر من الاسم بعض الفرنسيين على طريقتهم في تأويل المعنى فقالوا فورس FORC-ESوتعنى أيضا المقص الذى تجز به فروة الشاة.

بدأت جلسات المحاكمة. فتح ملف «هانو» المالى المعقد وأعمالها المريبة.. كثرت الجلسات ووصلت إلى ثلاثين على امتداد خمسة أشهر. سئم الجمهور من متابعة الأرقام والتعقيدات والمصطلحات ولكنهم لم يسأموا من تأمل انفعالات هذه المرأة أثناء الجلسات، تجمع بين الشجاعة والبجاحة.. المراوغة والتلاعب.. التلميح والغمز والتهديد.. سلطات خفية وراءها تعطيها هذا التلون العجيب، وتبدو مستمتعة بدورها، وبهذا الاستعراض لطاقتها العقلية والجسدية.. تقوم وتجلس. تضع ساقا على ساق. تسجل الملاحظات، تناقش في عدة اتجاهات. تخرج منديلها المعطر، تتأوه، تبدى الامتعاض، تعلن السخط على ارتفاع الحرارة في القاعة..

تتنهد في دلال تسترخي على المقعد.
وجاءت النتيجة أيضا مثيرة للدهشة. السجن سنتان بعد هذه المناقشات الطويلة وبعد إدانتها من قبل المحكمة بوضوح في تلاعب الحسابات، وغموض العمليات وإخفاء الأرباح، والأعمال غير المشروعة ومشروعات وهمية، ونصب واحتيال. وبرئ «اديبرت» رئيس التحرير وحكم على زوجها السابق بالسجن ثمانية عشر شهرا. صرخت «هانو» بعد الحكم فكشفت بعض الأبعاد الخفية.. «لا إنها البراءة هي التي أعلنها.. ستكون لنا جلسة أخرى».

في جلسة الاستئناف حصلت الرئيسة على ايقاف التنفيذ. استأنفت بالتالي نشاطها.. عملاء، شخصيات، تحركات مستمرة سريعة بسيارتها انتهت بها إلى حادث حطم ضلوعها وساقيها لم تتوقف استعملت عكازين وواصلت التحرك بين المكتب والبورصة والصحافة. عادت أيضا لنشاطها المريب ومشاريعها المشبوهة.. استدعيت من جديد أمام المحكمة في يوليو عام ١٩٣٤.

النهاية

الحالة في أوروبا تغيرت، القوى الخفية مشغولة، الرأي العام مشغول، هتلر يصعد نجمه في ألمانيا ويهدد. لم تثمر اتصالات هانو نتيجة ايجابية هذه المرة فصدر الحكم عليها بالسجن ثلاث سنوات اختفت لمدة ستة أشهر، وعندما قبض عليها أودعت هذه المرة في سجن مختلط لا تتمتع فيه بامتيازات طبقية صارت صديقة الوزراء، وأصحاب النفوذ مجرد رقم في السجن صودرت أموالها واختفت أخبارها من الصحف وأغلقت جريدة «فورس» كما أغلقت من قبل «لاجازيت» حاول محاميها أن يعطيها الأمل ولكنها بدت زاهدة يائسة.

في ١٣ يوليو عام ١٩٣٥ استطاعت جارتها في السرير.. عجوز لها سوابق في السرقة أن تسلمها خلسة لفافة صغيرة دستها بدورها في حاشية السرير سمح للسجينات بالسهر في هذه الليلة احتفالا بالعيد الوطني، طلبت هانو من جارتها أن تغني أغنيتها الحزينة نامت على صوتها وفي الصباح تأخرت في يقظتها. دفعوها لتقوم فاسترخت يدها خارج السرير وسقطت من كفها زجاجة سم فارغة من ثلاثة أرباعها وذهبت «هانو».

«هانو» كانت سيئة الحظ بالمقارنة مع أبطال قضية «دريفوس» عام ١٨٩٨ وقضية مدام «كايو» عام ١٩١٤. النشاط اليهودي والنفوذ الصهيوني كانا لهما فاعلية في القضية الأولى والثانية أما هانو كامرأة تعتمد هي الأخرى على المساندة الرأسمالية والنفوذ الصهيوني العالمي فقد جاءت نهايتها عام ١٩٣٥ في فترة تراخت فيها الرابطة الرسمية وهذه المؤسسات في فترة انشغل العالم بقضايا هتلر وتهديداته المباشرة في فترة انقسمت المنظمة الصهيونية على نفسها بين مؤيد لموقف انجلترا انتظارا لتنفيذ وعد بلفور بزعامة وايزمان وبين منشقين فيما يعرف بحركة التصحيحيين بزعامة جابوتنسكي الذي أعلن معاداته الواضحة لسياسة انجلترا المتراخية في وعودها وضرورة اعتماد اليهود على أنفسهم في تحقيق أطماعهم بعيدا عن الأنظمة السياسية.

ربما تكون هانو أدركت هذه الأبعاد أو على الأقل عرفت أن دورها قد انتهى ولم يعد هناك من يهتم بإعادة نشاطها أو على الأقل انقاذها، استسلمت لمصيرها وهربت من السجن الهروب الأخير.

رويت هنا طرفا من حياة «هانو» والأمر يحتاج إلى بحث عن وثائق تكشف امتداد نشاطها المالي إلى عالمنا العربي، فالاسم ليس غريبا علينا، تكشف أيضا صلاتها بالمنظمة اليهودية في باريس، وحركة الهجرة إلى فلسطين.

أما تشابه قصتها مع شركات توظيف الأموال لدينا فلا يحتاج لتصريح أو تلميح.

توشكى

شعر
أحمد خميس

يسألون اليوم عني .. «من أنا» ؟
من أطار النوم عن صحرائنا
وأضاء الفرحة الكبرى هنا ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

أنا هذا الشعب .. عشاق المعالي .. والنماء
وتباشر الأماني للغد .. المرتقب
وأيادينا على الفجر .. سلام .. وضياء
تنشر الحب ولاء فوق صدر الموكب

ولمن يسأل عني .. «من أنا» ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

عجباً يا نيل .. تأتى بالعطاء المغدق
وتبل الشوق فى صهد الرمال الظامئه
يا عناقا .. ضم أحضان الحبيب الشيق
فأحال الرمل وجدانا .. و روحا .. و رئه

تخبر العالم أنى .. «من أنا» ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

* * *

عزم أبنائى ما أبقى على الدرب محال
فنهضنا أمة ترقى إلى ما أنجزه
لم يكن وهما .. ولكن بعض أحلام الخيال
ثم أضحى فى فم الدنيا نشيد المعجزة

تشهد الأيام أنى .. «من أنا» ؟
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

* * *

أقبل الخير كبحر الشعر فى أحلى قصيدة
وهو يلقى فى فم التاريخ ألحاناً مجيدة
يتغنى بالروابى الخضر .. والدلتا الجديدة
واصلا ما بين أحلامى .. وأيامى السعيدة

حينما يسأل عنى .. من أنا
قل .. «أنا توشكى .. أنا عليا الدنا»

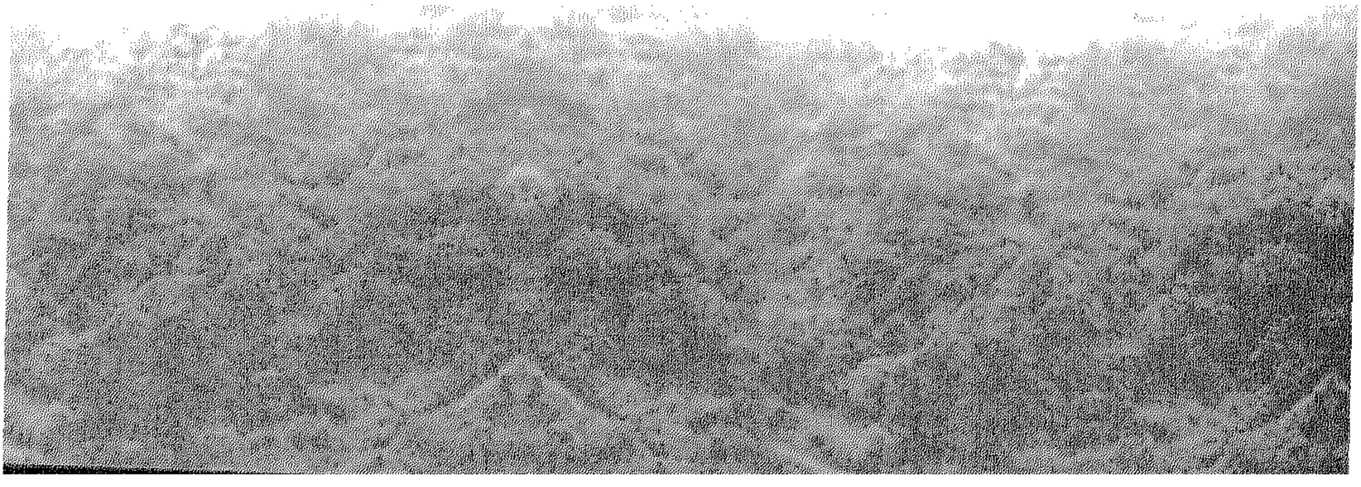

الفكاهة في المسرح الشعرى عند شوقى

بقلم
د. مصطفى رجب

على الرغم من كثرة الدراسات التى قدمت عن أحمد شوقى وأدبه وشعره فإننا لانجد دراسة واحدة من بين هذا الكم من الدراسات تخصصت فى دراسة الفكاهة فى شعره بصفة عامة، فضلا عن أن نجد دراسة تخصصت فى الفكاهة فى مسرحه الشعرى ذلك الفن العظيم الذى يدين بوجوده كجنس أدبى استمر فى أدبنا العربى المعاصر لمؤسسه أحمد شوقى .

وفى السطور التالية سوف نتلمس بعض مواقف الفكاهة فى اثنتين فقط من مسرحياته الشعرية المتعددة .

الفكاهة فى مسرحية الست هدى :

تدور أحداث هذه المسرحية فى بيت يقع فى حى الخليفة فى منطقة السيدة زينب بمدينة القاهرة وزمنها عام ١٨٩٠ . وقد اختار شوقى الزمان والمكان بعناية ليقدم لنا من خلالهما فكرة تتلخص فى وصف حياة نساء ذلك العصر وكيف كان الرجل اللعبة المفضلة لديهن فبطلة المسرحية هى الست هدى وهى امرأة مزواج لديها ثروة ضخمة من الأطيان الزراعية والأموال وليس لها حظ من الجمال أو الجاه ولكنها تستمد قوتها من ثروتها فهى تتزوج وتطلق حتى تنتهى المسرحية بموتها بعد أن وقفت كل أموالها لجارتها أو بنات جارتها وبنت زوجها الأول وهكذا يصطدم آخر أزواجها واسمه السيد العجيزى وكان قد منى نفسه بأن يرثها ويبدأ يتصرف مع أصدقائه النادمين والمسرحية من أولها لآخرها مسرحية فكاهية فمن الصعب أن نرصد ظواهر معينة للفكاهة فى تضاعيفها ، ولكننا سنختار لقطات فيها روح شوقى الشاعر الفكه .

شعبان ١٤٢٥هـ - أكتوبر ٢٠٠٤م

ففى بداية المسرحية تتحدث الست هدى لإحدى جاراتها عن سر اهتمام جاراتها

وجيرانها بأمور زواجهما فتقول :

يقولون فى أمرى الكثير وشغلهم ... حديث زواجى أو حديث طلاقى
يقولون إنى قد تزوجت تسعة ... وإنى واريت التراب رفاقى
وما أنا عزريل وليس بما لهم ... تزوجت ، لكن كان ذاك بمالى
وتلك فداديني الثلاثون كلما ... تولى رجال جئتنى برجال

وتستعرض الست هدى أزواجها واحدا واحدا فلا تثنى خيرا إلا على زوجها الأول - الذى ستوصى قبل وفاتها ببعض مالها لابنته - أما بقية أزواجها فكلهم تزوجوها طمعا فى مالها فهى تقول عن (على) زوجها الثانى :

وزوجى الثانى «على» ... لم يكن يصلح لى
ياليتنى لم أقبل
ذاك ، لمالى اختارنى ... واخترته لماله
ما كان إلا مفلسا ... وقعت فى حباله

وتذكر ما كان يتمتع به من صفات خلقية منفرة :

يرحمه الله ، وكان ذا بخر ... وكان إن يقعد وإن يقم نخر
وإن مشى تخرج أصوات آخر
يرحمه الله لقد عشنا معا ... من السنين الصاخبات أربعا
ثم مضى لربه لا رجعا
رحمة الله عليه ... جن بالنسل جنونا
ثم لما مات ، ما ... خلف لى إلا ديونا

وتقول عن زوجها الرابع وكان أدبيا :

ولست أنسى زوجى الرابعا ... لا نافعا كان ولا شافعا
قالوا : أديب لم يروا مثاله ... ولقبوه الكاتب البارعا
قد زينوه لى ، فاخترته ... ما اخترت إلا عاطلا ضائعا

ثم تزوجت الست هدى بنقيب (يوزباشى) اسمه «قمر» ولم يكن حظها معه بأسعد من حظها مع سابقيه فهى تذكره بكل شر وتدعو عليه بألا يرتقى إلى رتبة رائد (صاغ) فتقول عنه :

لا عفا الله عنه ، لا غفر الله له ... لا ارتقى لرتبة «صاغ» !
لا عفا الله عنه ، قد كان لصا ، ... لم يردنى لكن أراد مصاغى

وتحكى هدى لصديقتها عن سبب كراهيتها للنقيب قمر ، فقد أحبته من جانبها حبا حقيقيا ، ولكنه كان سكيرا مقامرا فلم يكن يهمه منها إلا أن يأخذ من مالها ليشبع نزواته :

لحاه الله كان منى فؤادى ... وفاكهتى وريحانى وراحى
وكنت أحبه ويحب طينى ... ويحلم بالقلادة والوشاح
وكان مقامرا شريب خمر ... يجىء البيت فى ضوء الصباح
يكاد إذا تورط فى قمار ... يقامر بالنجوم وبالسلاح

ثم تحكى الست هدى عن زواجها بأحد الموظفين وتصفه بأنه كان نظيف الجيب كناية عن فقره :

وعشت عامين دون زوج ... ثم تزوجت بالموظف

لم أنسه منذ مات يوما ما كان أبهى ! ما كان أظرف !
كان خفيفا وكان حلوا ومن نسيم الربيع ألطف !
ما كنت أدرى إذا تولى أجيبه أم قفاه أنظف ؟!

وقد كان إلى جانب فقره مغرورا ، يحلم بأن يكون يوما وزيرا كبيرا :

رحمة الله عليه كان جخاخا كبيرا
كل يوم يدع البيت رئيسا أو وزيرا
ثم لايرجع لى إلا مثلما كان صغيرا

(جخاخا = كذابا فشارا)

وتنتقل الست هدى إلى زوجها الآخر (الشيخ عبدالصمد) ثم إلى زوجها من بعده وكان مقاولا اسمه مهدى .. إلى أن تصل إلى زوجها الحالى وهو عبدالمنعم المحامى وهو رجل سكير لايكاد يفيق .

وفى نهاية حديثها عن كل زوج تختم قصتها عن كل منهم بهذين البيتين :

عشت مع الشيخ نصف عام وكان عمرى عشرين عاما
ومات واختارنى سواه من ذا يرى فعلتى حراما ؟

أو بمثل هذين البيتين :

عشنا ثلاثا ثم افترقنا وكان عمرى عشرين عاما
طلقنى فالتمست زوجا من ذا يرى فعلى حراما ؟

وهكذا كانت فى كل مرة من مرات فراقها لأحد الأزواج بالموت أو الطلاق بنت عشرين عاما لاتزيد وترد عليها جارتها زينب فى نهاية كل قصة .

أجل تعيشين وتدفنينا حتى تصيبى منهم البنينا

الفكاهة فى مسرحية البخيلة :

تتلخص هذه المسرحية فى أن امرأة عجوزا اسمها نظيفة - لاحظ دلالة الاسم - كانت تعيش مع خادمتها (حسنى) وحفيدها (جمال) فى بيت قديم ويعانيان معها أشد المعاناة مما هى عليه من تقتير وإمساك . ويحاول سمسار اسمه «رشاد» التغرير بجمال ليزوجه فتاة من أحد البيوتات التى أخنى عليها الزمن فيوافق جمال متجاهلا الحب الصامت الذى تكنه له الخادمة (حسنى) وعندما تموت السيدة البخيلة يتسامع الجيران بنبأ خطير مؤداه أن السيدة العجوز أوصت بكل ثروتها لخادمتها فيفاجأ جمال بأن خطيبته تفسخ خطبتها منه وفى اللحظة نفسها تصارحه (حسنى) بأنها تتنازل له طواعيه عما ورثته لأنه الأحق بهذا فيسعد بهذا الدليل القوى على حبها إياه ، ويرضى بها زوجا وتكتمل سعادته عندما تصارحه الفتاة بأنها اتفقت مع العجوز على هذا (المقلب) لكى تعيد للفتى الطائش عقله ليحافظ على ثروته .

وفى المسرحية شخصيات أخرى هامشية مثل الطبيب عبدالسلام مرتضى المعروف بجهله وعلاجه لمرضاه على النواصى والطرقات .

ومن مواقف الفكاهة فى المسرحية ذلك الحوار الذى يدور بين رشاد (السمسار) وعزيز (وهو أحد أبناء الذوات التافهين) وكانا يجلسان على المقهى وقد جاء جمال فدار بينهما هذا الحوار :

رشاد : هذا جمال وحيد جدة بخيلة يا عزيز ، جلدة
عزيز : وعمرها يا رشاد ؟ رشاد : يربو على الثمانين

عزيز : تلك مدة .

وبعد أن يغرى رشاد السمسار صديقه عزيزا ابن الذوات بتزويج أخته من جمال الذى سيرث أموال جدته البخيلة يستمر الحوار بينهما فيمارس السمسار أسلوب التزيين الزائف والكذب والغش ليصل إلى هدفه ومرة أخرى يدور الحوار بينهما بهذا الشكل الذى تبدو فيه براعة الفكاهة عند شوقي :

عزيز : لم تقل لى عن الفتى ما أبوه ؟
رشاد : كان فخر الرجال .. كان مديرا
(ثم لنفسه)
كان والله يسكع الصبح   والليل إلى كل حانة سكيرا
عزيز : والفتى كيف شغله ؟
رشاد : فى الدواوين .
عزيز : إذن قد نراه يوما وزيرا .
رشاد : لم لا ؟
(ثم لنفسه) :
إننى قلتها ومن أين أدرى ؟ ربما صار حاجبا أو غفيرا
ثم لعزيز :
لاتسلنى من أبوه يا أخى   أو من الأم وسل ما جدته ؟
لا ولا ما شغله ؟ ما جاهه ؟   فى الدواوين ولا ما رتبته
فجمال فى غد أو بعده   بوزيرين تساوى ثروته
بعد لحظة :
ولم لا وجدته نملة   إذا وقفت أو مشت حصلت
وتدخل فى بيتها ما تصيب   ولا يخرج الدهر ما أدخلت
لو انقلبت من جميع الجهات   على القرش فى فمها ما انفلت
ترى المال فى بيتها فى اللحاف   وتحت البلاط وحشو الشلت

وتقدم لنا المسرحية حوارا بين شخصين مجهولين كانا يجلسان على المقهى فيما كان الطبيب الجاهل عبدالسلام مرتضى يجلس بالقرب منهما منغمسا فى قراءة صحيفة وقد أعطاهما ظهره فدار بينهما هذا الحوار الفكه :

الأول : من ذلك المطل من لحيته   كالبغل من وراء مخلاة رنا
الثانى : تسأل عن ذاك الذى انحنى على   صحيفة يقرأ وولانا القفا ؟
الأول : أجل .. أجل هذا القفا
الثانى : هذا هو الدكتور
الأول : من ؟
الثانى : عبدالسلام مرتضى
يقرأ ما صادف من جريدة   من سطرها الأول حتى المنتهى
وتستوى صحف الصباح عنده   وصحف ظهرن من عام مضى
تذاكر الدفن التى يكتبها   فى الشهر أضعاف تذاكر الدوا ■

التطور الحضارى للحدائق والمتنزهات فى مصر

بقلم
د. نــوال المسيرى
ترجمـــة
ســـناء حنفى

ونحن نعـــانى من التكدس العمرانى، ونقص المسطحات الخضراء، تقدم هذه الدراسة مدى اهتمام أهالى مصر المحروسة بالحدائق والبساتين. وهى صيحة لكى تهتم المدن المصرية بانتشار الحدائق وعودتها خاصة وقد بذل الأقدمون رعاية واهتماما فى إقامة هذه الحدائق.

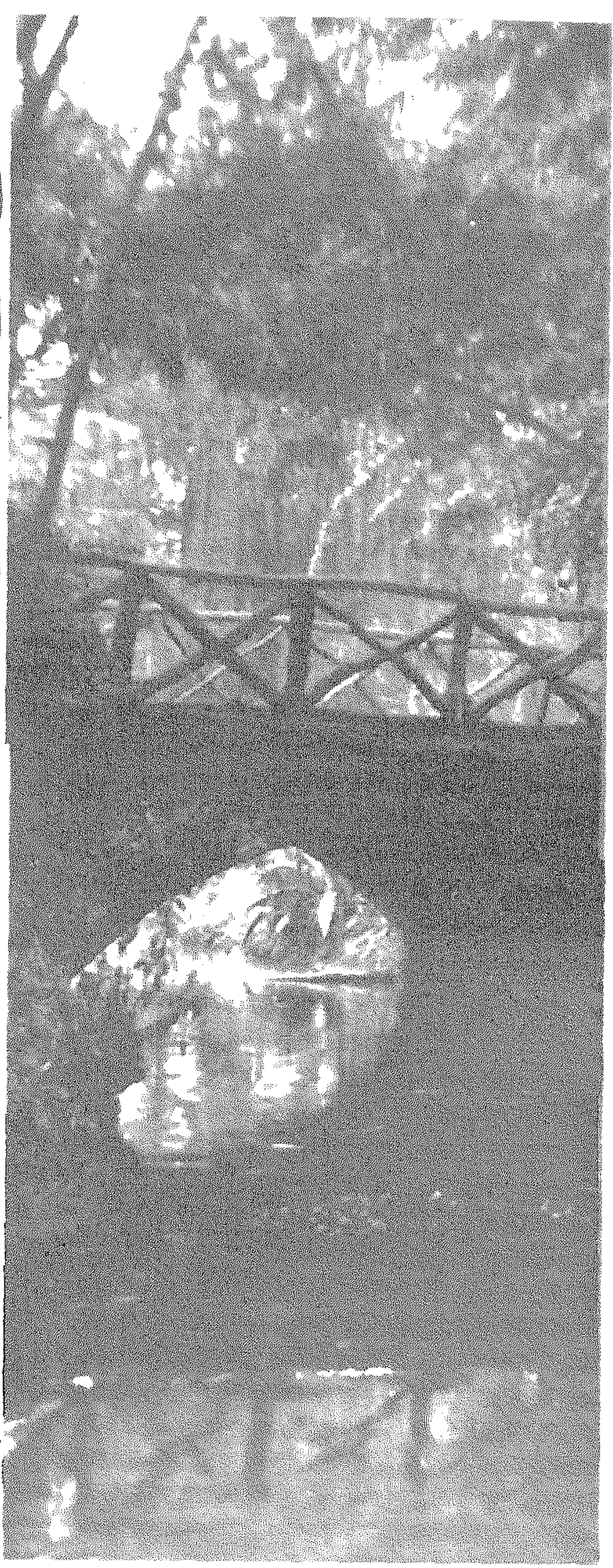

حديقة الأورمان

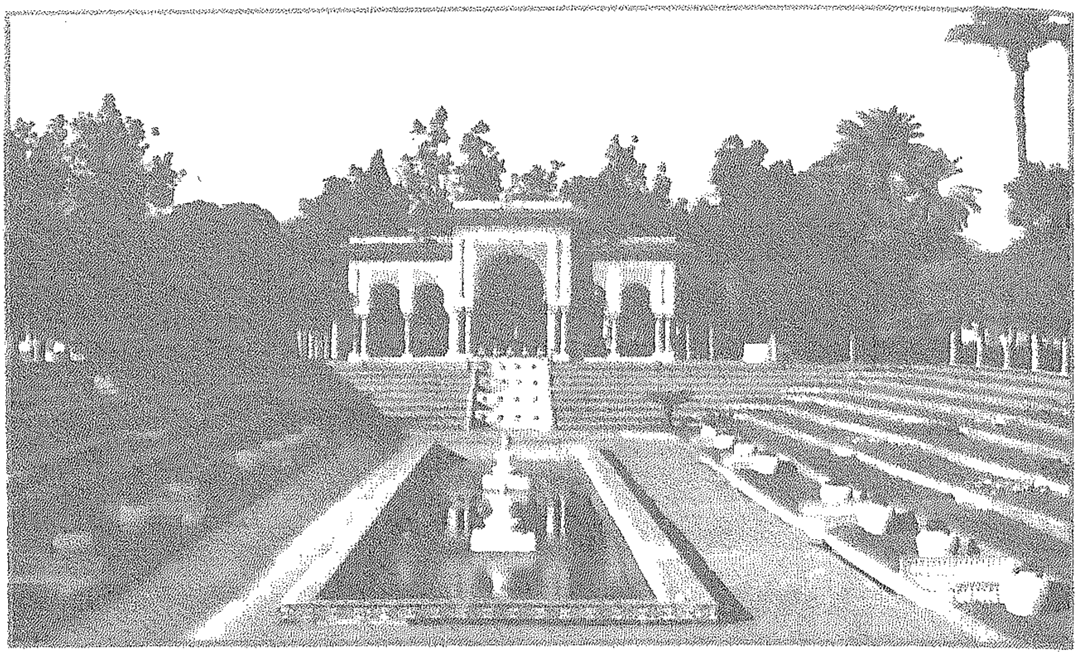

حديقة الأندلس

أبرزت إحصائية أن نصيب الفرد فى القاهرة من المساحة الخضراء ٧٠ سنتيمترا مربعا مقابل ٣٠ مترا فى لندن و ١٢٠ مترا مربعا فى فيينا.

وهناك علاقة واضحة بين ظهور مشاكل متزايدة وبين التقدم المدنى مثل الزحام ونقص الأماكن المفتوحة ، ورغم تشابه المشاكل مازال المصطلح المستخدم يتنوع من دولة لأخرى. لذلك فمن المهم مناقشة مفاهيم أساسية معينة مثل المنتزه والحديقة والحديقة العامة فى ضوء ما تعنيه هذه المصطلحات فى الثقافات المختلفة وفى هذا المقال حاولت توضيح مفهوم هذه المصطلحات فى العقلية المصرية وألقيت الضوء على الاختلافات المحتملة فى التوجه بين مخططى المدينة والعلماء المتخصصين فى دراسة تطور الإنسان وعاداته ومعتقداته وقد ركزت فى المقال على القاهرة واستعرضت تاريخ حدائقها وأهميتها وتأثيرها فى البيئة المحيطة بها.

النظرة التقليدية

القاهرة مدينة مليئة بالصعوبات اللانهائية والمشاكل غير المحدودة فهى تزدحم بالسكان الذين لهم خلفيات مختلفة بشكل كبير . ومن الصعب فهم الاختلافات فى أساليب الحياة المعاصرة فى القاهرة دون فهم أهمية التقاليد.. وبالنسبة لكل فرد يعيش فى تلك المدينة تتجسد حدود هذه التقاليد بدرجات متفاوتة وهذه هى الظاهرة الأساسية التى تمنح المدينة ذاتيتها.

والمفهوم الغربى للمتنزه كقطعة بكر من الطبيعة لا يوجد تقريبا فى مصر، فهناك اهتمام قليل بالحياة النباتية الطبيعية كما لا يوجد اهتمام كبير ايضا على المستوى المحلى سواء بالأصناف المحلية أو المستوردة. والثقافة الإسلامية لاتثبت الحب الشديد للبرية. فهى تصور الحدائق على أنها مسورة ومحمية من هذه الحياة البرية. كذلك فإن الزراعة فى المنطقة شبه الاستوائية مصدر رئيسى للأمراض التى تنتشر عبر قنوات الرى.

وفى مصر تمثل الصحراء نحو ٩٥٪ من مساحتها، لكن كل قطعة من أراضيها الصالحة للزراعة تمت زراعتها وريها وهكذا فإن كل النباتات تعطى انتاجا نافعا وتعد

كل منطقة خضراء تزرع وتروى مميزة عن الحدائق الطبيعية من حيث الحجم والحاجة للاهتمام.

ويعتبر مفهوم الحديقة العامة جديد نسبيا بالنسبة للعديد من المصريين فهي رفاهية وحلم يتطلع الفقراء إليه.. وهي رمز للجنة، وتصورها مطبوع في ذهن المسلمين، حيث أوضح القرآن الكثير من الوصف التفصيلي للجنة، ومن ثم فإن مفهوم الجنة يعتبر نموذجا للمبدعين ومخططي الحدائق في العالم الإسلامي.

وهناك شبه إجماع بين مؤرخي الفن أن الحدائق الإسلامية في الماضي كان يقصد بها أن تكون نموذجا لوصف القرآن لجنة الفردوس ولكن الحديقة كحقيقة مادية ليست الفردوس. وهي تمثل مساحة خاصة تنفصل عن الحياة العامة واقتحام الغرباء.. ومن ثم فإن مفهوم المتنزه له مضامين ثقافية في المدن المصرية. كذلك فإن مفهوم الحدائق العامة يختلف عن الخاصة وله مواصفات مميزة.

وكانت الحدائق في العصور المصرية القديمة ممتلكات خاصة للأسر الحاكمة وطبقة الصفوة والقصور الملكية لحتشبسوت وتحتمس الثالث واخناتون ضمت الحدائق، كما كان الرهبان المسيحيون يعيشون داخل أسوار، تضم خلفها حدائق واسعة وبساتين. والحكام المسلمون هم أيضا أنشأوا حدائقهم الملكية التي تتنوع في أنماطها وفقا لأصولهم. وبالتالي فإن هذه الحدائق كانت منتجعات ملكية وتأثيرها على العامة ليس له أهمية ويعتبر إنشاء الحدائق العامة في المدن الإسلامية ظاهرة حديثة.. وقد تم استخدام ١٪ من مجمل المسطحات في معظم المدن الإسلامية كحدائق عامة. وفي نفس الوقت تم التغلب على الحاجة للأماكن المفتوحة في الكثير من الحالات بسبب وجود حدائق خاصة في ساحات الديار.

وقد تم تفسير القرارات الإسلامية التي تتعلق بالتمييز بين الملكية العامة والخاصة في المدينة بشكل غير دقيق في القاهرة في العصور الوسطى، ونشأ عن ذلك عدد من الخلافات حول حقوق استخدام الحدائق العامة. وبصفة عامة كان حق الفرد أكثر أهمية من السياسات العامة. وأمدنا المؤرخون بالعديد من الأمثلة. فإذا قام الشخص بإقامة مبنى له بعض القيمة الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فيمكنه في هذه الحالة التعدي على المسطحات العامة بغض النظر عن القوانين الموجودة.

وعبر القرون تطور الشعور في مصر بأن الحدائق العامة التي تملكها الحكومة ليست ملكا لفرد . وعلى مدى قرون لم يتدخل عامة المصريين في صناعة القرار السياسي وبالتالي لم يتدخلوا بشكل فعال في تخطيط المدينة على الاطلاق. والسبب في ذلك قصور العلاقة بين دفع الضرائب والتطوير العام نتيجة سوء استخدام أموال دافعي الضرائب الموجهة للجهاز الحاكم وصعوبة توجيه انتقادات لذلك.

التعدي على الحدائق العامة

والمؤسسات الحكومية تسعى للاعتماد على المسطحات الخضراء العامة كمصدر سهل لإقامة مؤسسات الخدمات العامة. وتتنافس الوزارات المختلفة حول الأماكن العامة المفتوحة التي ليس لها فائدة، فتدعي كل منها حقها في استخدام المساحات الفارغة لأغراض خاصة بها. هذا الاتجاه التقليدي مسئول بدرجة كبيرة عن إزالة الحدائق العامة. ومن جهة أخرى يدعي كل من العامة والحكومة حقهم في التعدي على الحدائق العامة على أساس أن هناك المزيد من الاستخدام المفيد للمسطحات الخضراء العامة، والتي لا تنتج نباتات صالحة للأكل. وهكذا فإن المنافسة حول المسطحات

حدائق الأزبكية

الخضراء فى القاهرة تتعامل مع المشاكل حول المفهوم والاستخدام ، كما ان القضية الأساسية لمجرد وجود مسطح أخضر فى القاهرة مازال منطقة نزاع.

وتحتاج الحدائق فى مصر إلى كل من الخدمة البشرية والبنية التحتية، والعامل الأكثر أهمية هو إمدادات المياه. ونظرا لأن معظم الحدائق العامة التى أنشأها الإنسان ليست جزءا من الثقافة فإن معظم مناطق الحدائق محصورة خلف الأسوار فى ساحة المساكن التى لها ملكية خاصة. ومع ذلك فمع بداية القرن التاسع عشر ومع محاولات تحديث مصر ظهرت أفكار جديدة لإنشاء الحدائق العامة والمثال التالى يوضح تطور واحدة من أوائل الحدائق العامة في القاهرة.

حديقة الأزبكية

فى عام ١٨٣٧ شجع محمد على على إنشاء حديقة عامة وذلك فى إطار محاولاته لتحديث مصر. فقرر تحويل ميدان الأزبكية إلى حديقة خاصة كان هذا الميدان يمتلىء بالبرك التى تعد المصدر الرئيسى الحشرات التى تنشر الأمراض. وكان موقع هذه الحديقة يجاور الجاليات الأجنبية التى تفضل وجود الحدائق.. ولإكمال هذه المهمة صادر ٤٠ فدانا تمتلكها عائلات ثرية، وأمر المسئولين ببدء تحويلها إلى حديقة. وكان «مورتون بك» هو المهندس الذى أنشأها والذى سبق أن أرسله محمد على للدراسة فى أوربا وانتج فى تصميم الحديقة النموذج الأوربى. وحرص من بداية إنشاء هذه الحديقة أن تلبى احتياجات الاجانب وقد تأكد هذا الاتجاه الغربى عام ١٨٦٧ على يد إسماعيل حفيد محمد على والذى كان مفتونا بالثقافة الغربية وقد نظم إسماعيل حديقة الأزبكية وفقا للأسلوب الفرنسى وقلل مساحتها إلى ١٠ أفدنة وجعلها على شكل ثمانى على نمط حديقة «موسكو» فى باريس ووضع تصميمها المهندس الفرنسى باريليه بينما تولى عالم نبات ألمانى زراعة الأشجار وقد أحيطت الحديقة بسور حديدى له أربعة مداخل يحرسها رجل من النوبة ومدخل لبيع التذاكر.. وتحويل اسماعيل حديقة الأزبكية إلى نسخة من حديقة باريسية كان يعد جزءا من خطة اكبر لإقامة أحياء حديثة

تناسب إقامة الجاليات الأجنبية. فأمر بهدم المنازل المحيطة بالحديقة وتعويض سكانها الفقراء، كما عرض إسماعيل نفس هذه الأرض بدون مقابل لمن يستطيع إقامة مبانى تحمل نمط الحى الغربى.. وباختصار أنشأ الحديقة الغربية على يد مصمم غربى فى أحد الأحياء التى يقيم فيها الاجانب وقد استفاد منها أيضا طبقة الصفوة من المصريين الذين يتطلعون إلى النمط الغربى فى الحياة والقادرين على دفع ثمن تذكرة الدخول.

ومع توسع مدينة القاهرة وتقلص الجاليات الأجنبية وتطوير أحياء للصفوة فى مناطق أخرى بدأ العامة يأتون للتنزه بتلك الحديقة اقترنت حديقة الأزبكية بالنسبة للمواطن المصرى العادى بالحرية والحياة الغربية، حيث تعنى الحرية التفاعل بين الجنسين وحرية التعبير وعلانيته. وقد وصف أحمد أمين حديقة الأزبكية فى السنوات العشر الأولى من القرن العشرين بأنها مكان للرذيلة وأن إسماعيل عندما خطط لها كان يفكر فقط فى التأثير على ضيوفه الأجانب ويقدم لهم نسخة لمدنهم. ومع ذلك فمنذ انفصال الحديقة تماما عن الثقافة المحلية أصبحت رمزا للانحلال الغربى، حتى السور الذى يحيط بها أصبح مكانا شهيرا للكتب القديمة.

ومع قيام الثورة وتولى الرئيس جمال عبدالناصر الحكم أصبح دخول الحديقة بدون مقابل. وقد أزيل سورها الضخم وأقيم سور آخر أكثر بساطة . وأصبحت الحديقة مكانا للتغيير بالنسبة للعائلات الفقيرة. كما أصبحت مكانا للباعة الجائلين.. وقد حققت النشاطات الاقتصادية أكثر استفادة من المكان العام. ومع ذلك فإن الباحثين عن الرزق كانوا يواجهون منافسا أقوى. فقد شهدت الحديقة تنافسا شديدا بين الهيئات الحكومية المختلفة حيث حاولت كل منها

سور الأزبكية

استغلال المكان لممارسة نشاطاتها.. فوزارة الثقافة أقامت العديد من المسارح للتسلية والترفيه.. كما أقامت وزارة الداخلية مبنى لبعض مكاتبها إلى أن يتم الانتهاء من إقامة مبنى دائم لها. وأخيرا قرر المجلس المحلى تحقيق سيولة مرورية فى المنطقة وذلك بعمل شوارع وسط الحديقة.. وتوقف استخدام الحديقة كمكان عام.. وكانت الشكوى الوحيدة من أولئك الذين يستخدمونها كمكان للأغراض الاقتصادية وتم تعويضهم بمنحهم مواقع أقل جاذبية.

وتاريخ حديقة الأزبكية وتصميمها والهدف من إنشائها والاستخدام الفعلى لها يشير إلى أن الحديقة العامة ليست مستقرة وهى تتغير مع تغيير التطور المدنى وتمر بتعديلات مستمرة حتى تفى باحتياجات روادها.. والاتجاهات نحو الترفيه تتغير مع الوقت. وحتى تستمر الحديقة يجب أن تتناسب مع العادات الاجتماعية المتغيرة للمستفيدين منها.

وحديقة الأزبكية ليست الوحيدة فى مصر فمن خلال جهوده المستمرة لتجميل القاهرة أقام إسماعيل باشا حديقة الحرية وحديقة الأسماك فى الزمالك وحديقة الحيوان والأورمان فى الجيزة. واستمر هذا

الاتجاه لبعض الوقت بين الصفوه.. فقد أقام ذو الفقار على باشا الذى كان مهندسا يعيش فى حلوان - الحديقة اليابانية فى حلوان وحديقة الأندلس فى الزمالك وأثناء نفس الفترة أقامت العائلة المالكة حديقة الزهرية. ولم تنشأ أى حدائق لها أهمية حتى عام ١٩٨٠ عدا حديقة المسلة التى أنشئت فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر.

وبعد انتصار عام ١٩٧٣ تحول الاهتمام إلى الشئون الداخلية للدولة وأصبحت الأولوية للبنية التحتية للمدينة وأصبحت للمياه والكهرباء والنقل والصرف الصحى الأولوية عن الاهتمام بإنشاء الحدائق العامة وكان تأثير سياسة الانفتاح محسوسا فى الثمانينات ومفاهيم مثل التلوث والحاجة للمسطحات الخضراء لتخليص المدينة من الهواء الملوث، أصبحت قضايا هامة للمناقشة من جانب صناع القرار والإعلام. وأدت شدة هذه المشكلة إلى إنشاء وزارة البيئة . وخلال العشرين عاما الأخيرة من القرن العشرين والأعوام القليلة بعدها شهدت ازدهارا فى الوعى بأهمية الحدائق خاصة على المستوى الإدارى.

التدرج الحالي للحدائق في القاهرة

البناء التنظيمى لحدائق القاهرة متنوع ومعقد فهناك ثلاث محافظات ووزير الزراعة يتحملون مسئولية المسطحات الخضراء المتاحة للمواطنين فى القاهرة.. وكل منهم مسئول عن عدد من الحدائق على أساس طبيعتها وموقعها.

ورواد الحدائق العامة لا يدركون هذا الفصل الإدارى . ولا يتأثر رواد الحدائق خاصة من الأماكن الفقيرة ببعد الحديقة، ولكنهم يتأثرون بطبيعة النشاطات التى تقدمها والحدائق التى تشرف عليها وزارة الزراعة فى الأساس للحيوانات والنباتات والأسماك وقد أقيمت حديقة الحيوان عام ١٨٩١ فى محافظة الجيزة ويشير إليها عامة الشعب على أنها الحديقة أو الجنينة فى حين تحدد الحدائق الأخرى باسمها وهذه الحديقة تحتل أعلى مرتبة بين الحدائق على أساس شعبيتها وجاذبيتها التى تنتج ليس فقط من الحيوانات ولكن ايضا من نباتاتها.. وهى تضم أشجارا ذات ظلال ممتدة تسمح للكبار لسن فى العائلة بالجلوس تحتها والاستمتاع بوقتهم، فى الوقت الذى يلعب فيه الأطفال حولها او يراقبون الحيوانات وهى تعد حديقة العائلة وتستقبل حديقة الحيوان مجموعات من أطفال المدارس من جميع أنحاء مصر على مدى العام. وتشهد ازدحاما شديدا خاصة فى شم النسيم وفى الأعياد وذلك له تأثيره الكبير على النباتات والحيوانات!

وتوجد حديقة الأورمان بالجيزة أيضا وهى حديقة نباتية تضم أندر أنواع النباتات ونظرا لأنها تقع بالقرب من جامعة القاهرة فإن معظم روادها من طلبة الجامعة الذين يذهبون إليها إما للمذكرة أو للقاء أصدقائهم أو لعب الكرة ولاقترابها من حديقة الحيوان فإن عدد زوارها أقل كثيرا.

أما حديقة الأسماك فى الزمالك فقد أقيمت منذ ١٣٠ عاما وهى أكثر الحدائق شعبية بين طلبة المدارس الذين يستمتعون بمناظر الكهوف التى صنعها الإنسان وأنواع الأسماك المعروضة بداخلها.. وهى أيضا مكان مفضل بين طلبة الجامعات. ورغم جمال الحديقة وموقعها إلا أنها لا تجتذب صفوة المقيمين فى الزمالك ويفضلون مشاهدة المناظر الجميلة من نوافذهم، وهم يدركون أهمية المساحات الخضراء لكنهم يجدونها غير مناسبة لأسلوب حياتهم عندما يتعرض الأمر لقضاء وقت فيها.

ورغم أن حديقة الحيوان والأسماك تقعان فى أحياء مميزة إلا أن زوارهما من عامة الشعب.

وحتى ثلاث سنوات مضت كانت حدائق القاهرة تتبع هيئة التجميل والنظافة وهي الهيئة الموجودة في كل المحافظات وهذه الهيئة أصبحت مثقلة بمهام نظافة المدن. ومع تزايد الاهتمام بتخليص المدينة من التلوث بادرت محافظة القاهرة بخطة جديدة للحدائق العامة. بدأت عام ١٩٨٧ عندما أنشئت الحديقة الدولية في مدينة نصر. وميزانية هذه الحديقة الأساسية تأتى من تبرعات زعماء دول مختلفة الذين زاروا الموقع واختاروا المكان الذى يحمل اسم بلادهم.

ومع نجاح الحديقة الدولية وزيادة الوعى بأهمية الحاجة للمسطحات الخضراء في المدينة ومع تعيين محافظ كان أستاذا في مجال الزراعة قررت المحافظة عام ٢٠٠٠ إقامة كيان تنظيمي خاص وهو هيئة الحدائق الخاصة التى اصبحت مسئولة عن ٢٣ حديقة. هذه الحدائق الخاصة يمكن تحديدها كحدائق تراثية بسبب صفاتها التاريخية أو الثقافية أو الفنية ولها أهمية محلية أو قومية أو دولية والحدائق التابعة لهيئة الحدائق الخاصة تأتى على قمة المدرج الإدارى، وتتلقى أقصى رعاية ولديها ميزانية منفصلة ، وينفق دخلها على المرتبات والصيانة للحدائق. والمصدر الرئيسى للدخل يأتى من قيمة التذكرة التى تبلغ جنيها واحدا وهناك سبع حدائق من ٢٣ حديقة قيمة تذكرتها خمسون قرشا وذلك لوجودها في مناطق منخفضة الدخل وهناك مصدر آخر للدخل يأتى من تأجير المقاهى والمسارح والنشاطات الترفيهية الاخرى. التى تساهم فى بعض نفقاتها ويعمل فى هذه الهيئة ١,٣٢١ موظفا من بينهم ٥٢٥ عاملا زراعيا.. هؤلاء الموظفون مسئولون عن ٨٥١,٩٦١ مترا مربعا من الحدائق، وثلاث من هذه الحدائق لها قيمة تاريخية وأهمية فنية وهي: حديقة الحرية في شارع التحرير التى أنشأها إسماعيل باشا عام ١٨٧٦ م وفي ذلك الوقت كانت مساحتها ٢٩ فدانا . ولهذه الحديقة أهمية تاريخية بسبب مساحتها وموقعها المتوسط. والدخول لهذه الحديقة كان بلا مقابل كما كانت ألعاب الأطفال متوافرة.. ولكن على مر السنوات تعرضت أجزاء من الحديقة لتدخل العديد من الهيئات منها نادى القاهرة ومتحف مختار وفندق شيراتون.. وقد أصبحت مساحة الحديقة تزيد بنسبة قليلة على سبعة أفدنة. وأثناء مرحلة الإنشاء لمترو الأنفاق استخدمت الحديقة كمخزن لمعدات البناء ويضم التصميم الآن كل من المظهر الطبيعى والهندسى بالإضافة للخطوط المنحنية التى تتبع الأشجار التاريخية.

والهدف من إنشاء الحديقة تغير أيضا : فهو فني ومثير للإعجاب وليس به مكان للأطفال فهى مكان للشباب للاستمتاع بالصفاء والجمال المحيط بهم والاسترخاء فوق واحد من مئات المقاعد المتوافرة في المكان. وهناك عدد من القيود التى يجب تنفيذها مثل عدم الجلوس على الحشائش وعدم السماح بتناول طعام او ركوب الدراجات داخلها. وهى تستقبل مائتى زائر في كل مرة وهو العدد الذى يتناسب مع المقاعد المتاحة في الحديقة.

والحديقة التاريخية والفنية الثانية هى حديقة الاندلس وقد أنشأها ذو الفقار باشا عام ١٩٢٩ كهدية لزوجته. وتطل الحديقة على النيل وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: الفردوس وله تصميم الأرابيسك ، والثانى على الطراز الأندلسى. وبه قاعة ملكية، والثالث القطاع الفرعونى وهو نسخة من التماثيل المصرية القديمة. وتغطى الحديقة مساحة ٨٠,٤٠٠ متر مربع. وهى مثل حديقة الحرية لا تستقبل عددا كبيرا من الزوار وذلك من أجل الحفاظ على قيمتها الفنية ولتحقيق هذا الهدف فإن تذكرة

الخديو اسماعيل

الدخول للقطاع الفرعوني يصل ثمنها إلى جنيه مصرى بينما يضاف ٥ جنيهات فى حالة الرغبة فى زيارة قطاعات أخرى.

والحديقة اليابانية فى حلوان هى الحديقة الثالثة فى التصنيف. وقد أنشأها ذو الفقار باشا عام ١٩١٧ وهو من سكان حلوان كهدية للسلطان حسين حيث اعتاد قضاء بعض الوقت فى منتجعه فى حلوان بجوار منطقة تتجمع فيها النفايات حولها ذو الفقار باشا إلى منطقة جميلة على الطراز الآسيوى بما فى ذلك العديد من تماثيل بوذا. وقد زحف العمران حول هذه الحديقة ووصلت قيمة تذكرة الدخول الى خمسين قرشا فقط فضلا عن انها تجتذب مجموعات مدرسية على مدار العام وذلك بفضل تماثيلها الرائعة والاهتمام بها.

وما نشهده الآن من الحفاظ على الحدائق التراثية وصيانتها يدل على أنه خلال السنوات الماضية حدث تطور فى المفهوم من قبل الاجهزة الحكومية فيما يتعلق بأهمية المسطحات الخضراء العامة فى مدينة القاهرة حيث تستقبل هذه الحدائق الرحلات المدرسية وأبناء الطبقة المتوسطة وفى المقابل تجد ابناء الطبقة العليا يفضلون الالتحاق بالنوادى المميزة والشهيرة أو يكون لديهم حدائقهم الخاصة بهم داخل فيلات او قصور يملكونها.

وقد شجع نجاح هيئة الحدائق الخاصة هيئة تجميل ونظافة القاهرة على إنشاء مجموعة من الحدائق التى سميت حدائق مميزة. وتوجد نحو عشر من هذه الحدائق فى أحياء محدودة الدخل ومنها حديقة الفسطاط التى تديرها الهيئة وهى تعتبر واحدة من أهم حدائق القاهرة ولها أهمية خاصة لمتنزه الأزهر.. وتغطى حديقة الفسطاط مساحة ٢٥٠ فدانا لم يتم تطويرها كلها بعد. ومثل متنزه الأزهر كانت مكانا للنفايات يدعى ابو السعود. هذه المنطقة كانت تشتعل فيها الحرائق دائما وتنشر التلوث فى المدينة وكانت المحافظة ترغب فى بادئ الأمر فى تحويلها الى مساحات خضراء وقد استخدمت تسهيلات الهيئة فى إنشاء هذه الحديقة ويقول مدير هذه الحديقة ان دخلها خلال السنوات العشر الماضية زاد على ١٦ مليون جنيه كما تشير التوقعات المستقبلية لمتنزه الأزهر فى مساهمته فى رفع مستوى الأحياء المتاخمة له خاصة وان مشروع الدرب الأحمر لإعادة التأهيل يهدف إلى تحسين الوضع الاجتماعى للسكان، وسيؤدى الى تحقيق الرخاء الاقتصادى ورفع مستوى التعليم والصحة.

ولكن من الضرورى ان يصاحب هذا التطور وجود برامج خاصة تهدف لزيادة الوعى العام فيما يتعلق بحماية هذه المنطقة والمساحات الخضراء بها على أن يتم البدء بأطفال المدارس مما يمكن الأجيال القادمة بأن تجنى أفضل فائدة ممكنه من تلك الموارد الثقافية والطبيعية. ■

هل يتم التنسيق الحضاري بلا قانون؟!

تحقيق : أماني عبد الحميد   تصوير : ابراهيم بشير

سمير غريب: نحن فى انتظار إقرار قانون التنسيق الحضارى من مجلس الشعب

د. جليلة القاضى: مركزية شديدة وإلغاء لدور المحليات

هجمة شرسة تعرضت لها مصر ومعمارها لأكثر من ثلاثين عاما بلا رحمة أو حتى شعور بالذنب، وأصبح التعدى على المبانى وواجهتها وعلى الشوارع والميادين ومدن بأكملها هو السلوك السائد والطبيعى فى جميع أنحاء مصر. فهل الجهاز القومى للتنسيق الحضارى سينجح فى مواجهة سلوكيات خاطئة ترتكبها الدولة قبل مواطنيها أم الأمر لن يتعدى سوى مزيد من الأحلام الوردية والمشروعات العملاقة على الورق. والقوانين الصارمة سوف تظل حبيسة الأدراج؟!

على مدى الزمن تمتعت مصر بسحرها الخاص وشخصيتها الثرية كالفسيفساء، وكانت ركيزتها عبقرية المكان،. تنوعت ملامحها ما بين نهر النيل وصحاريها وواحاتها وحتى بين نجوعها وقراها ومدنها وأقاليمها وللأسف خلال الخمسين عاما الماضية بدأت هجمة شرسة لتشويه وجهها الجميل، وتحولت إلى الدولة الأكثر انتهاكا لقوانين البناء والتخطيط العمرانى، استبدل أهلها الجمال بالقبح بلا أدنى شعور بالخزى!!

ومع بداية حقبة الثمانينات من القرن الماضى، بدأت الأصوات تتعالى تطالب بوقف حملات التشوية والتعدى ولكن بلا استجابة! فالتغيير فى التركيبة السكانية داخل المدن أدى إلى ظهور طبقة «ريفى المدينة» الذين لاهم عاشوا فى قراهم وبيوتهم البسيطة، ولا هم استوعبوا قيمة المبنى المعمارى وطرازه، وأهمية احترامه، كذلك تبدلت الأنشطة التجارية

والاقتصادية مما جعل كثيرين من الأثرياء الجدد يتداخلون فى المجتمعات الأكثر رقيا وأصبحت أماكن تمركزهم منطقة وسط البلد، الزمالك ، جاردن سيتى، ليحولوا وجهها إلى يافطات وواجهات إعلانية بكل الألوان والأشكال بلا أدنى اهتمام بطبيعة المبنى وشكل بنائه الأصلى.

والأمر المحزن أن الجهات الحكومية والوزارات والمصالح والهيئات التابعة للدولة - والتى من المفترض أن تكون النموذج الذى يحتذى به المواطن وتكون الأولى فى احترام قدسية المكان- لم ترحم وجه بلادنا فكانت مبانيها والشوارع التى تطل عليها دائما الأقبح، تعج بالموظفين وتحتاج إلى توسعات وإضافة طوابق أو إغلاق لشرفات!! برغم أن معظم تلك الجهات التابعة للدولة تحتل أهم المبانى والقصور التاريخية والتى تحمل قيمة معمارية وللأسف تعدت على تلك القيمة ودمرت جمالها بلا رادع.

وبالتالى أصبح مركز المدينة داخل كل إقليم أو محافظة أشبه بمستعمرة قبيحة الوجه وعلى المواطن أن يعبرها بإذعان، ولا يملك حق التأمل أو مشاهدة مظهر جمالى يريح بصره، برغم أن دول العالم أجمعه تبذل قصارى جهدها من أجل الحفاظ على مبانيها القديمة والاهتمام بتراثها المعمارى والعمرانى.

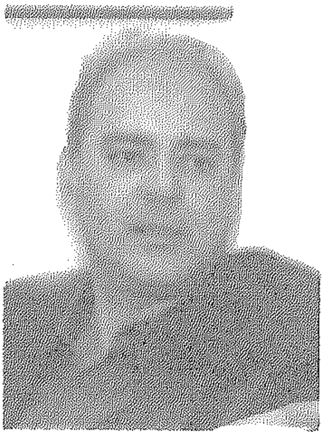
سمير غريب

وبالتأكيد حالات الإهمال الشديد وانعدام الذوق الجمالى المعمارى أصابت عدواها البشر أنفسهم. فانعدم الذوق العام خاصة مع تدنى التوعية الثقافية وانحدار القيم الأخلاقية والسلوكيات التى يمارسونها وسط شوارعهم وواجهات مبانيهم.

وأصبحنا نعانى من التلوث البيئى والسمعى والبصرى علاوة على انتهاك جميع القوانين المعنية.

والبشر لم يعد يعنيهم جمال منازلهم أو شوارعهم أو حتى مدنهم، وانحصر اهتمامهم بارتفاع أو انخفاض الرصيف إذا وجد وتحولت واجهات مبانينا إلى خريطة ألوان وأشكال تنم عن مدى انحدار الذوق العام والتدهور البصرى والجمالى لدى غالبية الشعب المصرى.

أحلام وردية

فى شهر أغسطس الماضى افتتحت السيدة سوزان مبارك الجهاز القومى للتنسيق الحضارى، ليقوم بالدور المفقود منذ خمسين عاما، وهو الحفاظ على الوجه الحضارى والبصرى والجمالى للمكان، وفى كل مكان داخل مصر. (نجوع، قرى، مدن، صحارى، محميات طبيعية، الحدائق، المناطق الأثرية، والمناطق ذات القيمة المعمارية المتميزة).

الأحلام عريضة وقد تكون وردية .. تحاول أن ترسم خريطة جديدة لوجه

جزء تم تنفيذه من مشروع تطوير المسار السياحي بمدينة الأقصر

مصر ... المفقود وسط زحام القبح، لكن التساؤلات كثيرة خاصة أن ذلك الصرح العملاق استغرق أكثر من أربعة سنوات ليتم افتتاحه.

وبالرغم من ذلك ولد كبير الرأس بلا أيدي أو أرجل تمكنه من تحقيق تلك الأحلام، أكتمل بنائه من الخارج دون أن ينضج من داخله، صرح كبير أهدافه تصل شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لكنه بلا قانون أو صلاحيات أو حتى ذراع رادعة لكل متعد ومشوه لوجه مصر، خاصة ونحن دولة أكثر مايقوم به أهلها هو انتهاك قوانين البناء والتخطيط العمراني.

أولا .. صدر القرار الجمهوري بإنشاء الجهاز القومي للتنسيق الحضاري في عام ٢٠٠١ وظل منذ ذلك جهازا حكوميا على الورق، برغم وجود دراسات مكثفة سبقت إعلان قيامه - أجرتها مجموعة متخصصة من المعماريين والمتخصصين في مجال التخطيط العمراني والهندسة المعمارية على مدى ثلاث سنوات برئاسة الدكتور فوزي فهمي دارت جميعها حول جدوى

إقامة ذلك الجهاز العملاق!!.

وعلى مدى أربع سنوات أخرى في أعقاب صدور القرار الجمهوري بإنشائه تم إعداد مقر الجهاز داخل أسوار قلعة صلاح الدين الأيوبي بالقرب من محكى القلعة، بالاضافة إلى رسم هيكل إدارى وتنظيمى له. دون أن يصدر قانون التنسيق الحضارى المحتجز داخل مجلس الشعب طوال تلك الفترة!! وبالفعل تم افتتاح المقر والجهاز نفسه في أغسطس الماضي، ليضم أربعة قطاعات رئيسية قطاع للدراسات والبحوث والسياسات وثانى للتخطيط والشئون الفنية وثالث للمشروعات والمتابعة وقطاع رابع للشئون الإدارية والمالية. دون أن يتضمن قطاعا للشئون القانونية على حسب قول رئيسه سمير غريب!!

قانون مع ايقاف التنفيذ

خلال سنوات الدراسة والإعداد لم يتمكن المتحمسين للجهاز وعلى رأسهم وزير الثقافة فاروق حسني من دفع عجلة الحكومة لإصدار قانونه، فخرج الجهاز القومي للتنسيق الحضارى بلا صلاحيات حقيقية وبلا أدوات أو قواعد مانحة أو أيدى رادعة تستطيع منع المعتدين على المباني أو الشوارع أو الأرصفة والميادين أو أيدى قادرة على إزالة التعديات التى يتعرض لها كل مكان في مصر بشكل فج ومستفز!! فلا أحد يعترض أو حتى يتعرض للمساءلة القانونية.

ونظرا لحالة الفوضى التى وصل إليها مظهر الشارع المصرى كان على كثير من المعماريين القيام بأبحاث ودراسات لرصد حالة المباني والطرز المعمارية خاصة المناطق ذات السمة المعمارية المميزة أو الطرز التاريخية مثل عمارة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مثل وسط المدينة أو القاهرة الخديوية التى بناها الخديو إسماعيل،، بدءها الدكتور محمد شرابى بكتابه الكبير «القاهرة» وتوالت من بعده الدراسات والكتب، ومنها ما قدمته الدكتورة سهير زكى حواس في كتابها القاهرة الخديوية ومشروع الدكتور جلال عبادة لتطوير شارع قصر النيل والدكتورة جليلة القاضى ودراستها حول القاهرة وخاصة التصور الذى وضعته لتطوير شارعى الألفى والبورصة بوسط البلد حيث قدمت مشروعا سبق أن استعرضناه بمجلة الهلال (سبتمبر ٢٠٠٣) حول اعادة استغلال الأماكن التراثية وذات القيمة المعمارية مع الأخذ في الاعتبار السلوكيات الاجتماعية للتعامل مع الأمكنة العامة والامكانيات الاقتصادية المتاحة وكيفية الحفاظ على النسيج الحضرى والمعمارى .

مركزية شديدة

وفى لقائنا مع الدكتورة جليلة القاضى أوضحت أن اسم الجهاز غير مفهوم على الإطلاق. فماذا يعنى بكلمة

مقترح شارع قصر النيل

الوضع القائم

الوضع المقترح

متى نرى شارع قصر النيل بوجه حضارى جديد ؟!

«الحضارى» أم أن المقصود هو الحضرى، وتقول «الجهاز الجديد ينحصر دوره فى إعادة تنسيق الفراغات والواجهات والشوارع والأرصفة والميادين وكل مايدخل فيما يسمى الفراغ . علاوة على التجميل»، وإن كانت تنتقد ذلك مؤكدة أن ماسيقوم به الجهاز هو فى الأساس الدور المفقود الذى يجب أن تلعبه المحليات أو البلديات داخل كل محافظة أو مدينة. وبالتالى فسيكون على الجهاز أن يكون له فرع داخل كل مدينة فى مصر حتى يتسنى له القيام بمهامه بنجاح. وتشير أن فكرة إقامة جهاز بمثل ذلك الحجم الضخم والممتد فى كل مكان هى فكرة قد تقضى على التنافس بين المدن وفى الوقت نفسه تؤدى إلى تشتيت الجهود، لأنه سيقوم بتوزيع مجهوداته على كافة المحافظات فيكون نصيب كل منها هزيل، فى حين لو أن الجهاز احتفظ بدوره كمنسق بين المحافظات وبين وزارة الثقافة أو حتى المراكز البحثية وأقسام الهندسة والعمارة فى جميع الجامعات لكانت مجهوداته أكثر كثافة فى سبيل الصالح العام، إلى جانب تفعيل دور المحليات داخل كل محافظة. وحتى لاتتكرر مفاهيم المركزية الشديدة التى تعانى منها كافة الوزارت فى الحكومة المصرية .

وتطالب الدكتورة «جليلة» أن يكون للجهاز مجلس إدارة قادر على توجيه الجهاز القومى الوجهة الصحيحة بحيث يهتم بالأماكن التراثية والتى تحمل طرز

معمارية والتى دائماً تقف حائرة بين كونها أثر أو مجرد مبنى ذو قيمة تاريخية، حتى لايتم التعدى عليها.

وفى المقابل يؤكد الدكتور صالح لمعى مدير مركز احياء تراث العمارة الإسلامية ومؤسس جمعية أصدقاء القاهرة التاريخية ضرورة الاهتمام بالمشاركة الشعبية كجزء أساسى من عملية التنمية الحضارية، مشيراً إلى أن الإعتماد على وضع المخططات والقوانين لن يصل بالجهاز إلى الهدف المنشود، إذا لم ينبع التحرك من داخل المواطن إيماناً منه بالحفاظ على الصورة الجميلة لبلاده . وإن كان يرى أهمية تعليم الأطفال منذ المراحل التعليمية المبكرة بالسلوك الأصح فى التعامل مع البيئة المحيطة بهم — وفى الوقت نفسه ضرورة فرض عقوبات رادعة يتم تطبيقها على كل من يتعدى على القواعد والنظم المعمارية.

مهمة قومية

وفى مقابلة مع سمير غريب رئيس الجهاز القومى للتنسيق الحضارى أكد أن حجم الجهد المبذول داخل الجهاز منذ إعلان قرار إنشائه وحتى يوم افتتاحه يفوق الوصف. وإن كان يرى أنه برغم الدراسات المكثفة التى استمرت على مدى ثلاث سنوات قبل صدور قرار الإنشاء إلا أن الهيكل الإدارى والتنفيذى صدر بلا إدارة قانونية أو مركز كبير للمعلومات الأمر الذى قد يعرقل عمل الجهاز لفترة.

وإن كان يؤكد أن مشروع القانون الذى لايزال قيد الدراسة بين جهاز التنسيق الحضارى ومجلس الدولة سيعطى القوة التنفيذية وصلاحيات ملزمة لجهاز التنسيق ، بل يتضمن بنود توضح المخالفات والتعديات والانتهاكات التى قد يتعرض لها المعمار والعمران فى مصر . وبحدد الغرامات المالية والعقوبات التى قد تصل إلى حد الحبس وتنطبق أحكامه على كافة المدن والقرى والمحافظات والطرق وكل ما هو يمشى أو كائن حى أو حيوانات وطيور وحدائق ومحميات طبيعية . فلا يجوز طبقاً للقانون وضع أية اشغالات فى الفراغات العمرانية إلا بعد موافقة الجهاز على سبيل المثال وإن كان يرى أن قدرة الجهاز على إقناع الناس بأهمية الحفاظ على جماليات المكان تعنى نجاح مهمته القومية فى نشر الوعى بأهمية التنسيق الحضارى. كما يتوقف نجاحه على قدرته على التعاون مع مختلف الجهات الحكومية المعنية.

ويوضح مشروع القانون مهام واختصاصات الجهاز وأكد أن جهاز التنسيق الحضارى لن يعانى من المركزية الشديدة التى تعانى منها كافة الأجهزة الحكومية بل سيقوم على التعاون مع كل المحليات والمحافظات ولن يكون بديلاً عنهم. بل سيقدم خلاصة فكر الباحثين والعلماء المختصين فى التخطيط

العمراني والمعماري، لتساعد المحافظات المحليات على تنفيذه. على اعتبار أنها الجهات المعنية بإصدارتراخيص البناء أو الهدم أو الإزالة أو التنكيس لأية مخالفات وإن كان ينتقد أن مشروع القانون -- الذي لم يتم إقراره حتى اليوم داخل مجلس الشعب -- لم يتضمن تحديداً للهيكل الإدارى لفروع الجهاز فى المحافظات حتى تتضح الرؤية حول كيفية التعاون المشترك ويضرب مثالاً بمشروع تطوير المسار السياحى بالبر الغربى بمدينة الأقصر. كنموذج للتعاون بين جهاز التنسيق الحضارى وجهاز مدينة الأقصر وضوابط كل مشروعاته المستقبلية. كما يعطيه الحق فى العمل على إعادة تنسيق وتجميل المناطق المحيطة بالآثار أى العمل خارج حرم الأثر وعلاقة الأثر بالشارع والمناطق المجاورة له. كما خصص القانون باب خاص للمناطق ذات الطبيعة التاريخية والأثرية المتميزة مثل القاهرة التاريخية وعمارة القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

وفى حالة الخروج على القانون، يعطى لمفتشى الجهاز حق الضبطية القضائية علاوة على فرض غرامات وعقوبات قد تصل إلى الحبس.وسيكون له الحق فى إزالة التعديات.

وعن مصادر تمويل جهاز التنسيق الحضارى أكد أن مشروع القانون يخصص له رسم دمغة سيتم فرضها على تراخيص أعمال البناء قيمتها ١٪ من قيمة الترخيص. كنوع من المشاركة فى تمويل صندوق الجهاز. علاوة على أن الجهاز سيتعاون مع كل الجهات المعنية بالعمران فى مصر مثل وزارات: التنمية المحلية، الداخلية الإسكان والتعمير، والأوقاف والثقافة والكهرباء، والموارد المائية بل ووزارات التربية والتعليم والتعليم العالى والشباب والرياضة.

إلى جانب ذلك يعطى مشروع القانون للجهاز الحق فى تلقى الهبات والمعونات وعقد القروض لتمويل مشروعاته. كما ستكون قيمة الغرامات المفروضة على المخالفين جزء من تمويل صندوق الجهاز خاصة وأن ميزانيته قد تصل إلى ملايين الجنيهات..

وتوفيرا للجهد والوقت سيحتضن جهاز التنسيق الحضارى كل الاجتهادات والمشروعات والجهود الفردية أو الجماعية التى تمت قبل قيامه من قبل باحثين متخصصين سواء داخل الجامعات المصرية وأقسام العمارة أو مراكز الأبحاث العاملة فى ذلك المجال.

تمويل أجنبي

وهنا تثار نقطة مهمة فمن المعروف أن هناك عددا من مراكز الأبحاث العاملة فى حقل التخطيط العمرانى والتوثيق المعمارى تمت بتمويل أجنبى مثل (الاتحاد الأوروبى وفرنسا) أو بالتعاون مع بعض الجامعات الأجنبية المتخصصة فى نفس المجال . وذلك نظراً

عمارة رقم (٢٩)

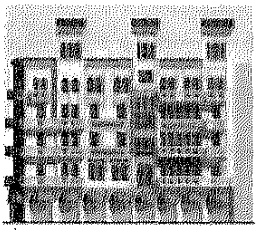

هل ينجح التنسيق الحضارى في الحفاظ على المبانى ذات القيمة التراثية ؟

لضخامة تكلفة تلك الدراسات. يؤكد سمير غريب أن أى تمويل أو مساعدة سيقبلها الجهاز طالما أنها خاضعة لقوانين واشتراطات أجهزة الرقابة الإدارية والجهاز المركزى للمحاسبات وتقوم على الشفافية . وبالتالى فإن الجهاز سيتعاون مع كل مراكز الدراسات والأبحاث سواء الأجنبية أو التى تقوم على تمويل أجنبى من جامعات من دول مثل فرنسا أو إيطاليا أو غيرها طالما ذلك فى صالح المهمة القومية للجهاز.

كما أكد أن الجهاز سيتعاون مع مركز التوثيق التراثي والحضارى والطبيعى التابع لمكتبة الإسكندرية والتى يشرف عليه الدكتور فتحى صالح لما يضمه من مادة وثائقية عن تخطيط المدن والشوارع فى مصر جميعها، مثل القاهرة ، بورسعيد، السويس ، وغيرها.

وبرغم كافة التصريحات التى أكدها رئيس الجهاز سمير غريب فإن القانون إذا ظل حبيس أدراج مجلس الدولة ولم تتحمس الحكومة لتقديمه خلال الدورة القادمة لمجلس الشعب فإنه لن يعدو سوى مجرد مشروع عملاق يعج بالأفكار الوردية الحالمة - التى تجعله يصل إلى حجم وزارة متخصصة فى مجال التنسيق الحضارى والعمرانى على الورق. ويتحول إلى مجرد صرح كبير بلا أيدى أو أرجل يتحرك بها ليصلح ما أفسده الزمن والتعديات وانتهاكات القوانين. ■

كتاب الهلال

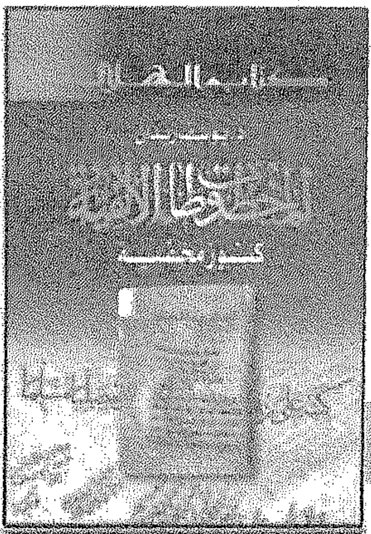

المخطوطات الألفية

كنوز مخفية

د. يوسف زيدان

يصدر ٥ اكتوبر ٢٠٠٤

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

روايات الهلال

الرواية

تأليف

د. نوال السعداوى

تصدر ١٥ اكتوبر ٢٠٠٤

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

التكوين

أمى هى سر نجاحى وتفوقى

د. انعام محمد على

رحلتي مع التكوين بدأت في مجتمع الصعيد، الذي يعامل الفتاة معاملة تختلف تماما عن الولد، وكانت وسيلتي لكي أحقق ذاتي، هي الاجتهاد والنجاح، لأن الفشل معناه الحرمان من التعليم والجلوس في البيت انتظارا للزوج الموعود!

وكان وراء نجاحي في مشوار الحياة أمي التي ربت خمسة من الأبناء وابنتين، شقوا طريقهم في الحياة، وهي تتابعهم، وظلت تفعل ذلك، حتي وهي في سرير مرضها، حتي آخر يوم في عمرها!

أنا من الصعيد.. نشأت فى مدينة المنيا، توفى والدى وعمرى لايزيد على « عامين، كان لى خمسة إخوة أكبر منى، وأخت وحيدة.

نشأت فى جو الأسرة الصعيدية بكل تقاليدها على الرغم من أن محافظة المنيا أقل قليلا من تشدد أهل الصعيد! وأمى التى تولت تربيتنا، كان حظها من التعليم قليلا، ولكنها كانت سيدة مستنيرة جدا، تؤمن بأن الفتاة ينبغى أن تحصل على قسط وافر من التعليم مثل الولد تماما.. كانت هذه الأم رقيقة وحنونا جداً، تمتلك قوة الشخصية والرأى السديد .والفضل الأساسى فى تكوينى يعود إلى أمى، فهى التى أصرت على تعليمى أنا وأختى الأصغر منى، مثلنا مثل إخوتنا الذكور، ليس تعليما مرحليا، ولكن كل مراحل التعليم.

كان أبى عمدة قرية أبو عزيز مركز بنى مزار، ويقال إنه كان من أثرياء القرية، وكنا نعيش فى سعة وبحبوحة فى سراى كبيرة، ولكنه فقد كل أملاكه فى بنوك الرهونات التى كانت منتشرة فى الأربعينات، حيث تم الحجز على كل أملاكه، وتوفى - ربما - بسبب ذلك.

أخذتنا الأم لكى نعيش فى المنيا، وكانت أختى التى تصغرنى فى السن، عمرها لا يزيد على أربعين يوما، وكنت أقل من السنتين، والذى تولى تربيتنا بعد وفاة أبى، هو جدى والد أمى، وكان من رجال القضاء، ويمتلك عقلا راجحا مستنيرا.

وشاء القدر لى ولأختى أن نواصل

إنعام مع والدتها وشقيقتها الصغرى إجلال

تكريم وجوائز مع أمينة السعيد ونجلاء فتحى وأحمد زكى وسعد لبيب وممدوح الليثى ، فى أحد مهرجانات المركز الكاثوليكى

تعليمنا، فى ظل هذا المناخ الصحى فى رعاية هذا الجد، وبفضل الأم التى كانت لا تفرق بين الولد والبنت، وربما لو عاش أبى، لكان قد رفض فكرة مواصلتنا للتعليم، وكان مصيرنا هو الزواج فى الصغر، كما كان يحدث فى الصعيد، فى ذلك الوقت.

كانت أمى تذكرنى دائما أنا وأختى، بأنه ليس أمامنا سوى الحصول على الشهادة والنجاح بشكل متصل ومواصلة التعليم، وبهذه الطريقة ربت لدينا الإرادة والإصرار.

التكوين

وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية التى مرت بنا بعد وفاة أبى المفاجئة، علمتنا أمى الصبر، وتحمل مشاق الحياة.

ورضيت بهذا الواقع، ووضعت نصب عينى أن التعليم شىء مهم جدا، وهو الذى سيكون خير دافع إلى تكوينى، ولكى أشق طريقى فى هذه الحياة الصعبة، بعد فقد والدى وتحمل أمى لهذه المسئولية الصعبة!

كلنا كنا مسئولين عن بعضنا البعض، فأخى الأكبر حينما تخرج وبدأ يعمل، كان يساهم بمرتبه كله لكى نعيش، وحينما تخرج أخى الثانى تحمل نفس العبء ونفس المسئوليات، وأصبح لكل واحد منا دور فى تحمل مسئولية الأسرة، وهذا بالطبع خلق لدينا تحمل المسئولية، وألا نكون عالة على أحد!

تعلمت فى مشوار الحياة ، ألا يتحمل أحد مسئوليتى، وليس من المفروض أن يتحمل أحد أعبائى، وبمعنى أدق يعولنى، بل ينبغى أن أكون أنا المسئولة عن نفسى، وهذا ما حدث بعد تخرجى فى الجامعة.

لقد زرعت الأم لدينا إحساسا جميلا من خلال تعاملها مع الآخرين، فقد تولت تعليم فتاتين أتتا معنا من قريتنا للعمل فى البيت، وأعطتنا الإحساس بأنهما ليستا أقل منا، فلا ينبغى الاستعلاء عليهما، وبالتالى خلقت لدينا الإحساس بالآخر.

فى بداية تعليمى التحقت بالمدرسة الأولية لمدة عامين، ثم بالمدرسة الابتدائية، وكما أشرت كان التعليم بالنسبة لى مسألة حياة أو موت، وذلك هو ما غرسته فينا الأم والجد.

وكان معلوما لدى أننى لو رسبت أنا أو أختى، فسوف يكون مصيرنا البيت، هذا فى حد ذاته كان سيفا مسلطا على رقبتى، وهو يعنى أنه لابد من النجاح، الذى يعد حتميا وأساسيا فى حياتى.

كنت أعتز بنفسى وأثق فى قدراتى، وأذكر أن مدرسا من أقربائى حضر إلى منزلنا للزيارة، وطلب منه أن يتعرف على مستواى التعليمى، وحزنت جدا لهذا التصرف، واعتبرت ذلك إهانة لى.. وفى المقابل نشهد هذه الأيام ظاهرة غريبة، وهى أن الطالب أو الطالبة، لا يتعرف على سطر واحد فى المنهج الدراسى، إلا من خلال مدرس لكل مادة.. بمعنى أنه كان وجود مدرس كما نشهده الآن، يعد إهانة للطالب أو الطالبة!

وإذا تحدثت عن اهتماماتى الثقافية فى مراحل تكوينى الأولى، أقول بأن مناخ البيت الذى نعيش فيه، كان يموج بالسياسة، من خلال إخوتى الخمسة، فبعضهم كان وفديا، وبعضهم كان من الإخوان المسلمين، والآخرون كانوا ناصريين.

أما أختى الأصغر منى، فكانت اهتماماتها أنثوية، حيث تعلمت التطريز والتريكو.

كنت أصغى لما يقوله إخوتى، فى محاولة للتعرف على انتماءاتهم السياسية، خاصة أنهم كانوا يعدون بعض مجلات الحائط فى البيت، وكانوا يتنافسون فى إظهار آرائهم، وكنت أقرأ كل كلمة يكتبونها، ولكن كان لدى ميل للأمور

الأنثوية مثل الفتيات اللاتي هن في سني!

تمنيت أن أصبح صحفية

التحقت بمدرسة المنيا الثانوية، وبدأت أتشكل وجدانيا، ووجدتني مسئولة عن الإذاعة المدرسية، وفي طابور الصباح كل يوم، كنت أقدم نشرة الأخبار، وبدأ يتكون داخلي ميل لأن أصبح مذيعة مستقبلا، أو أن أصبح صحفية.

وانصب اهتمامي على قراءة الكتب الموجودة داخل الفصل، وداخل مكتبة المدرسة، ومن بينها مؤلفات يوسف السباعي، وإحسان عبدالقدوس ومحمد عبدالحليم عبدالله، وطه حسين.

كنت مشهورة على مستوى المدرسة بأنني من أنبغ الطالبات، في مادتي الجغرافيا والتاريخ، بالإضافة إلى كتابة موضوعات الإنشاء بشكل جيد جداً، وكنت أحصل على الدرجات النهائية في تلك المواد، وعرفت بين زملائي بأن لدي ذاكرة فوتوغرافية، وأذكر أنه طلب مني وأنا بالصف الأول الثانوي، وفي مسابقة على مستوى المنطقة التعليمية في المنيا، كتابة موضوع عن كتاب «فلسفة الثورة» للرئيس جمال عبدالناصر من الذاكرة، وقد حصلت على المركز الأول، لأنني كتبت الكتاب، كما هو دون أن أبذل أي جهد، سوى كتابته، وكتبته كما هو، نفس الصفحة، ونفس السطر، وحتى ترقيم الصفحات، كأنه فوتوغرافيا سجلت داخل المخ، وقمت بنقلها على الصفحات، كما حفظتها ذاكرتي، ومنذ هذا اليوم وأنا أحب جمال عبدالناصر، بل أسجل هنا أنني ناصرية.

ومنذ الصغر وأنا من أشد المعجبات بالكاتب الكبير أحمد بهاء الدين رحمه الله، فأي مقال كان يكتبه، لابد من قراءته بعناية شديدة، وأحمد بهاء الدين، كان يعطيني السياسة في «برشامة صغيرة»، وببساطة شديدة جدا، وكنت أحس بأنه يربط في كتاباته الصحفية بين السياسة وبين المجتمع، وهذا سر إعجابي الشديد به، فقد نزل بالسياسة من برجها العاجي إلى رجل الشارع العادي.

ولما كبرت وقرأت لمحمد حسنين هيكل، أحسست أنه يكتب لمستوى معين من القراء.

الفتاة مسئولية في مجتمع الصعيد!

ولابد أن يخضع تكويني لظروفي التي أحياها. ولو عدت إلى منزلي الذي عشت فيه في بيئتنا الصعيدية، وأنا الأخت الصغرى لخمسة من الأولاد، شعرت ماذا يعني الولد، وماذا تعني البنت في هذه البيئة المحافظة، وساءلت نفسي، ولماذا هذه التفرقة؟!

أحسست بكل الفروق، وأحسست بالقهر الإنساني!

فحينما مات أبي تحول إخوتي الخمسة، إلى خمسة آباء، يودون تحجيمي والحد من حركتي، لإحساسهم بأن البنت مسئولية، وياليت يتم زواجها وتستتر، وياليتها لا تفهم شيئا ولا تبدو عليها امارات الذكاء والتفتح!

لكن أختي الصغرى لم تشعر بهذا الاحساس، لأنها كانت تلعب نفس الدور المرسوم لها، أما أنا فكنت متمردة على

هذا الدور، أو بمعنى آخر على القالب الذى ينبغى أن أوضع فيه أنا وأختى! تساءلت: ما هو الفرق بين عقليتى وعقلية أخى، ولماذا هذه الفروق، وهذا التمييز الذى أشهده فى التعامل، وفى وضع المرأة عموما داخل مجتمع الصعيد!

ولذلك فقد أحسست بقضية المرأة مبكرا داخل البيت المصرى.

أذكر وأنا فى المدرسة الابتدائية كان فى فصلى الدراسى خمس طالبات مسلمات، وثلاثون طالبة مسيحية، وكنت أرى أن الفتاة المسيحية زميلتى، تحصل على حريتها فى الذهاب إلى نادى المنيا، ويمكن أن تتحدث مع الأولاد بشكل عادى جدا، والبيت عندهم مختلط، على عكس ما يحدث فى منزلنا.

وقد طلبت ذات مرة أن أذهب إلى النادى ، فرفض إخوتى هذا الطلب.

فى الجامعة

لما حصلت على الثانوية العامة، ووقتها حققت أعلى درجة فى مادة التاريخ على مستوى الجمهورية، وطلب منى أخوتى الالتحاق بكلية البنات، حيث لا يوجد بها اختلاط مثل باقى الكليات الأخرى، وكيف أود ألا تكون دراستى الجامعية استمرارا لدراستى الثانوية، كنت أود الدخول فى مجتمع جديد، وأتعرف على حياة جديدة تماما.

لكن أخى أخذ منى أوراقى وتقدم بها إلى كلية البنات، فغضبت من إصراره هذا وأضربت عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام، إلى أن وافقوا على التحاقى بكلية الآداب جامعة عين شمس قسم التاريخ وكان من بين أساتذتى، عدد كبير من المشاهير فى ذلك الوقت، من بينهم د. عزت عبدالكريم ود. أحمد عبدالرحيم مصطفى وغيرهما.

ولأن أمى كانت لها الكلمة العليا فى البيت، فهى التى أمرت بالتحاقى بهذه الكلية.

من أطرف ما حدث بعد انتقالنا إلى القاهرة، أن جدى، والد أمى كان يأتى إلى القاهرة، ويجلس عند خالتى التى تكبر أمى، وذات مرة أرسل لنا خطابا من المنيا باسم أحد أخوتى، فتأثرت أمى بشدة، وأصرت على أن يكتب اسمها هى على الخطاب بعد ذلك.

كان اسم أمى «سنية مختار» وكانت تعتز بهذا الاسم، ولذا فلا ينبغى أن يكتب اسم على أخى على الخطاب، فضلا عن أنها كانت تحب أن يناديها الجميع باسمها، وليس باسم أحد من أبنائها. كما كان يحدث فى ذلك الوقت ، كانت أما ذات شخصية قوية تعتز بنفسها أيما إعزاز وللأسف الشديد فإن والدتى التى أثرت فى تكوينى وفى حياتى، مرضت لمدة ١٧ عاما بالروماتويد من بينها عشر سنوات على الفراش، وتوفيت وعمرها ٦٢ عاما، وكانت برغم مرضها الشديد تتابع كل واحد منا، حتى وهى على فراش المرض، وحتى آخر يوم من حياتها.

تدربت على الصحافة بدار الهلال

وفى الكلية وانطلاقا من عاداتنا، مورست علىّ التقاليد الصعيدية، بمعنى أنه

لو تم التقاط صورة فوتوغرافية مع زملاء لى، فلا يمكننى أن أذهب بهذه الصورة إلى البيت، وأيضا عملت سكرتيرة تحرير مجلة الكلية، وكنت كذلك لا أستطيع أن آخذ هذه المجلة المكتوب بداخلها اسمى إلى بيتنا، لأن معى زملاء يحررون هذه المجلة!

وأذكر أننى فى السنة النهائية بكلية الآداب، كانت هناك رحلة إجبارية إلى الإسكندرية، ولابد من المبيت أثناء السفر، ولما علمت أمى وإخوتى بذلك، رفضوا سفرى.

فى هذا الوقت كانت أسرتى كلها قد أتت إلى القاهرة فى عام ١٩٥٦، فى حين تخرجت عام ١٩٦١.

وفى السنة الرابعة، أذكر أننى تدربت فى دار الهلال فى مجلة الاثنين والدنيا، ولمدة ستة أشهر وكان ذلك فى عام ١٩٦٠، ووقتها كتبت عدة موضوعات لا يحضرنى عنوان أى منها، ووقتها لم تكن توضع الأسماء كما يحدث الآن.

رحلة الحياة

كان التليفزيون فى بداياته الأولى قد بدأ يكون كوادره وأعلن عن مسابقة لقبول مساعدات للإخراج من الجنسين، من مختلف التخصصات، ومن مختلف الكليات ولم يشترط كلية معينة، ضم امتحان هذه المسابقة ١٦٠٠ من خريجى الجامعات، ومن بينهم خريجو كلية الهندسة والطب، ونجح منهم ٦٣ من بينهم إحدى عشرة بنتا، واستطيع القول بأننا دخلنا للعمل فى التليفزيون فى ذلك الوقت دون أية وساطات، والامتحان الذى شاركت فيه لم

مع المشير طنطاوى اثناء حفل وزارة الدفاع بمناسبة عرض فيلم « الطريق الى إيلات »

تكن له علاقة بالفن، بل كان عبارة عن ترجمة لنص من الانجليزية إلى العربية، بالاضافة إلى المعلومات العامة، ثم أجريت لنا لقاءات وبعدها تم توزيعنا على مختلف الإدارات، وكان نصيبى إدارة التمثيليات والعمل بها مساعدة مخرج، بمعنى أن أول طريقى لبداية مشوارى جاء بالمصادفة، ولم أخطط له من قبل! وكان طموحى بعد التخرج أن أصبح إما صحفية أو مذيعة.

دخلت هذا المجال الجديد، على الرغم من أننى لا أعرف عنه شيئا، لكنه كان بحق شيئا مبهرا واكتشفت بأننى وجدت ما أهواه.. وقتها كان التليفزيون يتم بناؤه، وكانت إدارة التليفزيون فى أحد المبانى القريبة من شارع الشريفين.

بدايتى مع فن الإخراج

بدأت العمل بهمة ونشاط، وأول عمل لى مع المخرج محمود السباع، فى تمثيلية بعنوان «هروب» تذاع على الهواء مباشرة،

ويدون تسجيل، وكانت من بطولة عمر الحريرى وزهرة العلا وكان ذلك فى عام ١٩٦١.

بعد ذلك عملت مع الفنان محمود مرسى، ثم نور الدمرداش، ولأننا كنا نشكل الرعيل الأول من العاملين فى التليفزيون كان هناك اهتمام كبير من المسئولين، حيث انتدبوا إلينا خبراء من الـB.B.C لكى يقدموا إلينا الخبرة، وبعد فترة ليست بالقصيرة، أرسلونا فى دورات تدريبية فى الخارج وكانت بعثتى إلى ألمانيا.

وفى بداية عملى فى اليوم الأول بالاستوديو واجهت موقفا لا أنساه حتى يومنا هذا.. فقد كان بيدى «الاسكريبت» الذى كتبه المخرج محمود السباع ويتضمن كل ملاحظاته التى تنفذ وقت العمل، وبدأت اقرأ «الاسكريبت» باهتمام شديد إلا أن زميلا لى وقف إلى جانبى وهو يقول لى.. إنها أشياء صعبة، ولن تستطيعى فهمها!

كان لهذه الكلمات السريعة وقع شديد علىّ، بالفعل هناك كاميرات يضمها الاستوديو، وكشافات للإضاءة وديكور وغير ذلك، كل منها له وظيفة خاصة، فالكاميرا لها دورها والاضاءة لها وظيفتها.. وتعليمات المخرج تنفذ حرفيا.

هنا بدأ تشكيل العقل، وفكرت فى كيفية توظيف عقلى فنيا واستطيع القول بأنه منذ تلك اللحظة الحاسمة فى حياتى بدأ تكوينى الفنى.

وساءلت نفسى: هذا المجال الذى أعمل فيه الآن، والذى أصبح هو المستقبل بالنسبة لى، متصل بالسينما والمسرح، فحرصت على مشاهدة كل المسرحيات التى تعرض فى ذلك الوقت، وكان مسرح التليفزيون قد أنشىء، وتمكنت من متابعة الحركة المسرحية النشطة، وكذلك متابعة ومشاهدة الأفلام السينمائية بشكل منتظم.

وبدأت أبحث عن الكتب التى تتناول التصوير والمونتاج، والتى تتحدث عن الدراما، أقوم بجمعها وقراءتها، بمعنى أننى بدأت عملية تثقيف ذاتى، وتنمية حرفة المخرج وهى مهنتى التى أعمل بها.

ذلك كله جعلنى ألم إلى حد كبير بفنون المسرح وفى السينما بحرفية الكاميرا.

وبعد سنوات من العمل فى التليفزيون ومعايشة المناخ الذى نعيشه، توصلت إلى ضرورة خلق الالتزام لدى الفنان فضلا عن أن الفنان لابد وأن يقوم بعمل علاقة قوية بينه وبين المجتمع ويعايش همومه ومشاكله، فضلا عن أن الفن يعتبر وسيلة لوضع هذه المشكلات فى أجمل إطار، ويجعل المشاهد يشارك فى حلها.

بدأت أحس بأن لى دورا وبأن لدى وسيلة، لابد أن تستخدم استخداما جماهيريا، وبأن هذا الاستخدام الجماهيرى، لابد أن يؤثر على المشاهد، وهذا المشاهد لابد أن يكون له دور إيجابى فى تطهير مجتمعه.

وقد ترجمت ذلك بعد عملى لمدة عشر سنوات فى التليفزيون حيث التحقت بالمعهد العالى للإعلام، والذى يمنح خريجيه درجة

الماجستير.

كنت من أوائل الذين التحقوا بهذا المعهد، وحصلت على الماجستير عن رسالة عنوانها «الدراما التليفزيونية ودورها فى التطوير الاجتماعى» سنة١٩٧٢ بامتياز، وكان المشرف على الرسالة الدكتور إبراهيم إمام عميد المعهد، والإذاعى محمد فتحى.

هذه الرسالة شكلت عقلى وبدأت مرحلة جديدة فى مجال الإخراج.

محطات

فى رحلة التكوين كانت هناك محطات أود أن أتوقف عندها قليلا..

ففى سنة ١٩٦٥ كنت أول مخرجة لتمثيلية تليفزيونية بعنوان «نفوس حائرة».

ومن قبل كان الاخراج مقصورا على الرجال.. ولم تدخله المرأة على الإطلاق، لكن التليفزيون هو الذى فتح أبوابه، وكان هذا انعكاسا لمناخ الستينيات، والذى أكد على قدرات المرأة مثلها مثل الرجل تماما، والميثاق الذى أطلق مقولة فى أحد بنوده «فلتسقط بقايا الأغلال التى تغل حركة المرأة» وهذا القيد ترجم بشكل عملى، ليس فى المجال العام، ولكن فى المجال الخاص.

فى الوقت الذى لاقت فيه تمثيليه «نفوس حائرة» استحسانا صدر قرار رجعى من الدكتور عبدالقادر حاتم وزير الإعلام فى ذلك الوقت، بأن المرأة ممنوعة من إخراج الأعمال الدرامية، والسبب كما قال، إن الدراما عمل شاق على المرأة، وأن المرأة أرق من أن تتحمل مسئولية الأعمال الدرامية فضلا عن أن العمل الدرامى فى المقام الأول قيادة، وكأن المرأة من وجهة نظره لم تخلق للقيادة!

وهنا أتوقف لأقول، إنه فى هذا المجال المتطور، الذى تسوده كل الأفكار المستنيرة، والفكر الاشتراكى وغيره، يجىء الشخص المسئول عن الإعلام فى مصر، ليصدر مثل هذا القرار ضد المرأة.

عموما فقد استمر هذا القرار لمدة عام، وكان عدد مخرجات الدراما قد تضاعف، وكان من بين زميلاتى المخرجات علوية زكى، علية ياسين وشويكار زكريا ومجيدة نجم.

وحينما جاء محمد فائق وزيرا للإعلام كان أول قرار أصدره، أن تعود المرأة للإخراج.

كنت قد نقلت إلى برامج المرأة، وخلال هذه الفترة ارتبطت بزميلى محمد فاضل، الذى كان يعمل فى مراقبة التمثيليات، وخلال هذه الفترة وأنا أعمل فى برامج المرأة، استطعت أن أقدم تمثيليات مهمة من بينها «فى بيتنا مشكلة».

ثم بدأت أقدم أول عمل تعرف على الجمهور من خلاله ابتداء من نهاية عام ١٩٦٩ إلى عام ١٩٧٢ وهو «سيداتى آنساتى» لمدة نصف ساعة أسبوعيا.

بعد ذلك صدر قرار آخر من نور الدمرداش يمنع أى مخرج عمل تمثيليات من خارج مراقبة التمثيليات، فانطبق القرار على وعلى يحيى العلمى، فتوقفت عن إخراج أى تمثيلية، وتفرغت لدراسة الماجستير التى تحدثت عنها من قبل.

وفى محطة أخرى من حياتى أؤكد من جديد أننى حرصت على أن أنمى نفسى فى مجال العمل بكل الوسائل والطرق

إنعام وفاتن حمامة مع أسرة مسلسل « ضمير أبلة حكمت »

.. وبين فـــريق العـــمل في « الطريق إلى إيلات »

وبالجهد الذاتى، ولا أنكر هنا أن زواجى من نفس المجال فى الإخراج ساعدنى كـثـيـرا، فنحن الاثنين كـانت لدينا طموحات مشتركة، وبالتالى أصبحت لدينا حصيلة من القراءات المشتركة فى المجالين الفنى والأدبى، بالإضافة إلى المشاهدات المشتركة أيضا، بمعنى أننا - تقريبا - وخلال أربع وعشرين ساعة يوميا، نتحدث فى الفن والعمل الفنى كما أننى قرأت أثناء إعداد رسالة الماجستير عددا كبيرا من الكتب سواء فى فن الدراما أو فى الأدب، أو فى النظريات الإعلامية مثل: الرسالة والوسيلة والتأثير على سيكولوجية المشاهد فى علوم الإعلام، وكيفية تغطية الموضوع الذى تقدمه من كل جوانبه.

كما حرصت على تقديم الجانب التطبيقى، كما حدث فى الحلقات التليفزيونية «القاهرة والناس» والتى عرضت على مدى أربع سنوات، وعلى الرغم من أن اسمى لم يكن مكتوبا عليها، إلا أننى كنت أشترك فى اختيار الموضوعات، وفى ترشيح الممثلين ومناقشة الموضوعات.

وكان مخرجو السينما فى ذلك الوقت يتابعون أعمالى، خصوصا المخرج الكبير صلاح أبوسيف، الذى كان يعتبرنى تلميذة نجيبة، وكان يشجعنى باستمرار، وأيضا المخرج حسن الإمام، الذى كان يصلنى منه دائما أول تليفون بعد أول حلقة أقوم بإخراجها فى مسلسل أو تمثيلية وذلك فى فترة الثمانينات.

ولو توقفت عند أعمال مهمة لى فإننى أذكر أول مسلسل أخرجته وكان ذلك فى نهاية سنة ١٩٦٩ وحتى ١٩٧١ بعنوان «سيداتى آنساتى» وكان مسلسلا متصلا منفصلا، ثم توقفت لبعض الأسباب، ثم عدت لعمل مسلسل عام ١٩٧٦ .

كنت أصغر مديرة إدارة وأنا فى الثلاثينيات من عمرى، وكنت أقوم بإخراج أعمال درامية، وأنا خارج مراقبة التمثيليات، إلى جانب عملى الإدارى،

ودراستى التى حرصت على العناية بها.

فى عام ١٩٧٦ أخرجت تجربة جيدة جدا كانت بعنوان «لعبة كل الناس» كان يكتبها راجى عنايت، وكان يقدمها صلاح جاهين، وكانت تتناول نظرية فى علم النفس، صدرت فى نفس العام، قدمها راجى وحولتها إلى دراما، وكانت التمثيليات منفصلة متصلة، كل تمثيلية فيها لعبة نفسية.

وقدمت عددا كبيرا من الوجوه الجديدة من الممثلين والممثلات.

فى سنة ١٩٧٧ أخرجت مسلسلا للأطفال بعنوان «عودة السندباد» وكان أول توزيع موسيقى لعمار الشريعى، وكان حظ هذا المسلسل سيئا جدا، فمن المفروض بعد الانتهاء منه أن يوزع فى العالم العربى ولكن حالت دون ذلك الزيارة المفاجئة للرئيس السادات إلى إسرائيل والتى أعقبتها مباشرة المقاطعة السياسية لمصر من كل الدول العربية.

وبدأت منذ عام ١٩٧٨ ولأول مرة أقوم بعمل المسلسلات المتصلة وتعاملت مع الأديبة فتحية العسال، وقدمنا أربع مسلسلات «حصاد العمر» ١٩٧٩.. «هى والمستحيل» ١٩٨٠ «الباحثة» ١٩٨٢ «حتى لايختنق الحب».

وخلال هذه الفترة قمت بعمل مجموعة سهرات تليفزيونية أخذت عنها ١٢ جائزة من مهرجان محلى، عقده التليفزيون لإنتاجه، وكانت الجوائز فى عناصر الإخراج كلها، من ماكياج إلى ديكور، وملابس، وإضاءة وإخراج وتمثيل

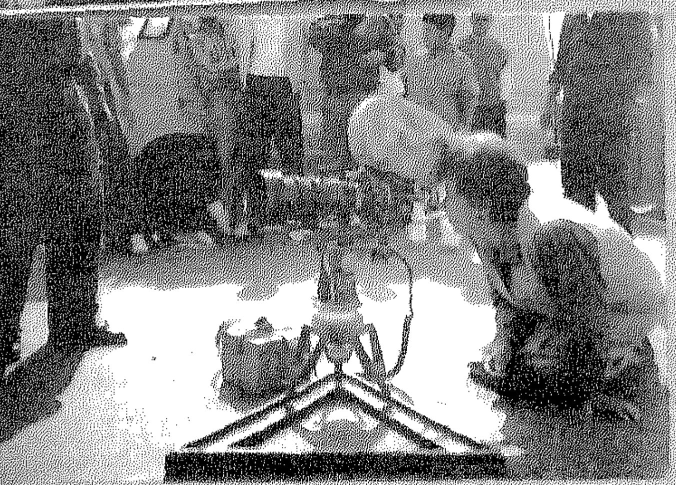

العمل الجاد والدوب يسكلل دائما بالنجاح والتقدير

يسعد مهرجان القاهرة العاشر للإذاعة والتليفزيون أن يمنح
شهادة تقدير وجائزة مالية قدرها عشرة جنيهات ذهبية
كأحسن مبدع
فى مجال الدراما التليفزيونية خلال العشر سنوات الماضية
مع خالص الأمنيات بدوام التوفيق

أما الجائزة التى حصلت عليها هذا العام ٢٠٠٤، فهى جائزة التميز عن مسلسل أم كلثوم، وكأفضل مسلسل عرض خلال عشر سنوات هى عمر المهرجان العربى لاتحاد الإذاعة والتليفزيون الذى كانت بدايته عام ١٩٩٤.

وتبقى من عمرى ٢٤ سنة من العمل المتواصل فيها ٢٠ تمثيلية سهرة وخمسة أفلام واثنا عشر مسلسلا من أبرزها «الحب وأشياء أخرى» «ضمير أبلة حكمت» «أم كلثوم» «قاسم أمين». ■

متى نشهد تعمير سيناء؟!

سيناء الحبيبة .. أرض الفيروز، ومهبط الديانات السماوية .. هذه المساحة الشاسعة من أرضنا الحبيبة، متى نرى الخطط الطموح والمشروعة التى تعمرها، لخيرنا، ولتكون مستقبل أبنائنا، ودرعنا الواقى على مر الزمان..

سؤال يلح علينا جميعا، ونتمنى أن نرى يد الإصلاح وقد امتد إلى كل ركن من أركانها.

خالد يحيى نويشي
المهندسين - الجيزة

الهلال: تناولنا أكثر من موضوع حول تعمير سيناء ومن بينها مقال بعنوان «التيه فى دروب سيناء» يحث المسئولين على الإسراع بتنفيذ المشروع القومى لتنمية سيناء، وألا ينبغى أن نتذكر سيناء، حينما تهل علينا ذكرى أكتوبر العزيزة لابد للمسئولين أن يهتموا فعلا بهذا المشروع، ونضم صوتنا إلى صوت كل الغيورين على مصرنا العزيزة.. وفعلا .. «مازالت سيناء تئن وتشكو من إهمال أبناء الوادى، وسيحاسب هؤلاء الأبناء يوما على تقصيرهم فى الاهتمام بها..

لاينبغى أبدا أن تظل مساحة تقرب من ثلث مساحة مصر بهذا الإهمال ونحن نعانى من مشكلات توفير رغيف الخبز الذى إذا توافر لأى مواطن ضمن حريته كاملة!.

وثائق أكتوبر ويوليه

يهل علينا شهر أكتوبر .. وعلى الفور نتذكر نصر أكتوبر الذى أعاد الكرامة للعرب وتحديدا فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣ وبلا شك هناك موضوع يشغل بالى وبال كل الباحثين .. أين هى وثائق ثورة يوليو ١٩٥٢ والتى مر عليها ٥٢ عاما، وأيضا وفى مناسبة نصر أكتوبر العظيم .. أين وثائق هذه الحرب لنتعرف على جوانب كثيرة يود شبابنا الاستزادة منها فى كل المجالات فى هذه الفترة المهمة من حياة مصر.

ابراهيم حماد
باحث بكلية الآداب - القاهرة - قسم تاريخ

الهلال: لقد وعد الاستاذ محمد حسنين هيكل أن يقدم هذه الوثائق إلى مكتبة الاسكندرية، وتكشف هذه الوثائق الكثير الذى نود أن نعرفه ويعرفه أبناء هذا الجيل.

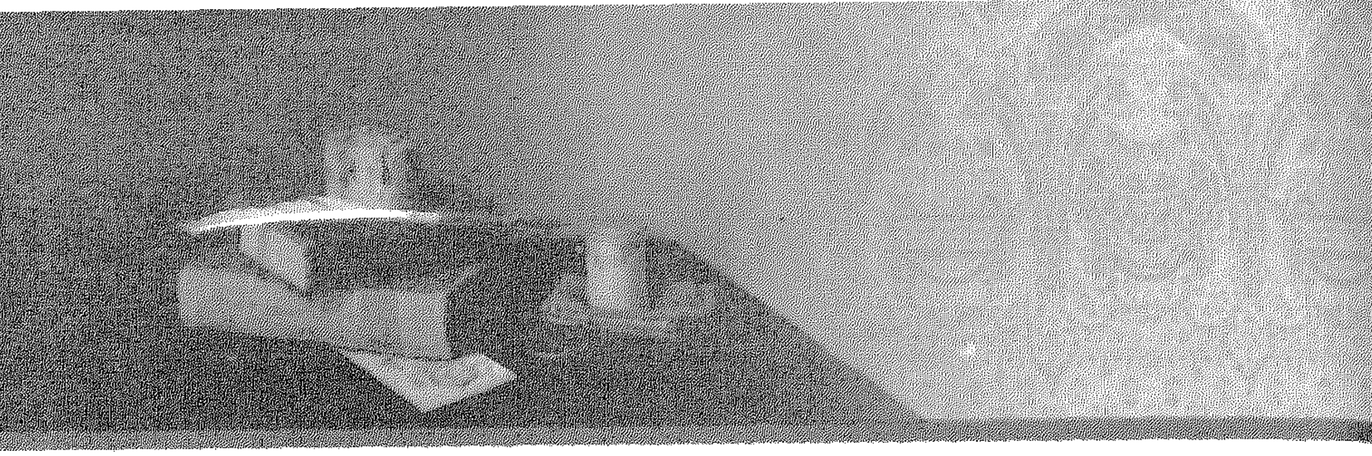

الجور العادل

قالت لاتسرف في مدحي   فحديثك يعزف أوتاري
وكلامك لايعرف حجبا   كرياح تهتك أستاري
وتدق طبولي تشحذني   وتقيم الحرب بمزماري
وتردد في جوفي لحنا   يسكرني ويزيد دواري
إطراؤك سيف يشطرني   فترفق واحقن إهداري
ومضات جنونك ترجفني   وحوارك يسهم في ضعفي
وشرودي يفضح أسراري   يثنيني عن أخذ قراري
قررت فلا تضعف عزمي   وكفاني تقلب أطواري
أنا لست نصيبك صدقني   أأعاند عبثاً أقداري
وعيونك تجتاح صمودي   وتهد قواعد أسواري
فطريقك لايلقى طريق   فاتركني أكمل مشواري

د. عبد العاطي محمد محجوب
المعادي

قصة قصيرة

الحافلة

وجدتني مدفوعا بين الحشود مترقباً خلو مقعد . في لمحات دار بخاطري ما سأعانيه . سخط في صمت . فجأة كافأني الله بمقعد شكرته عليه بعد شعوري بشيء منها أمان كان مفقوداً . وسط عيون . تنهشني في حسد، أمتزج في مسامعي جدال .. سيدة تأمر شاباً بالابتعاد عنها قائلة : إن لي من يكبرونك عمرا » !

ورجل لآخر : لقد هرست بحذائك قدمي

فيجيبه : الحافلة للشقاء ، فعليك بسيارة خاصة .

وتلك الآنسة الرقيقة تلقي بحقيبتها وحافظة أوراق أحاطتني بذراعيها وهي تنظر في عتاب إلى من لا يبالون ، وهذا الصبي يحملق بفضول مكتشفاً ما لم يدركه قرناؤه بعد . الفتاة ترمقني بابتسامة شكر مسبق ، دار الصراع في داخلي هل أتخلى عن مقعدي وأخلصها من القرود الشيقة ؟، ولكن ساكون بين هذه العظام النفرة فتنفذ إحداها ضلوعي تحطمها، آثرت السلامة .. وحين دغدغ أريجها مشاعري اختلست نظرة !

لازال يكمن في عينيها الجميلتين أمل ، وحين أوشكت على النهوض راعني صوت متهدج لرجل : أرجوكم ردوا إليّ حافظتي ، لا يهم رزق الأولاد . فقط أوراق الأطباء . لعنت ترددي .

لمعت دمعة .. بعد أن قرأت في عينيه أسى واعتذار

والحافلة خلف قافلة تتهادى بعذابات البشر

وقد امتزج عطر النساء بعرق الرجال !!

محمود مكي خليل
«النوبة»

استلهام روح أكتوبر ١٩٧٣

يجيء شهر أكتوبر فى كل عام .. ونتذكر انتصار العرب على إسرائيل فى حرب السادس من أكتوبر العظيم عام ١٩٧٣ .. ونتوقف دائما عند الدروس المستفادة من هذه الحرب التى أعادت إلينا الكرامة، خاصة بعد الهزيمة الغريبة فى الخامس من يونيو ١٩٦٧، ولم تغفل لنا عين ولم نهدأ إلا بعد أن حققنا النصر الكبير .. فى هذه الحرب تلاحمت القوة العربية، وشاركت الجيوش وشاركت الإرادة فى هذا النصر، وكان سلاح البترول له أثره الكبير فى أعقاب وقف القتال الذى لولاه لكانت لهذه الحرب شأن آخر، ولم تكن هذه هى إسرائيل المتغطرسة التى نراها الآن!.

لقد حفظت اسرائيل وأمريكا درس حرب أكتوبر، ووضعوا أيديهم على سر هذا التفوق وهذا الانتصار، وهو قوة العرب فى وحدتهم ووقوفهم صفا واحدا.

ومنذ ذلك اليوم والهدف الأساسى هو فرقة العرب وتمزقهم، ولذلك ينبغى أن نتعرف على ذلك ونتوقف عند هذه الفرقة التى نعيشها الآن وضرورة أن يعيد العرب كل العرب ترتيب البيت العربى من جديد، لابد من توحيد الصف العربى، ولابد من الوقوف ضد هذه الفرقة التى تغذيها قوى خفية .. ونعى الدرس جيدا، ومايحدث فى العراق وفلسطين وما يودون عمله في السودان، ومحاولاتهم ضد سوريا، كل هذا السيناريو حتى يفتتوا قوتنا التى تخيفهم، فأين نحن الآن من تلك الأيام الخالدة فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، يوم أصبح الجيش العربى ، هو سادس قوة على مستوى العالم فى الاستعداد وقوة الردع.

ولايمكن أبدا أن نستسلم لما يحاك للعرب من مؤامرات، ولابد أن نعود إلى وحدتنا .. ووحدة الصف ووحدة الهدف والمصير.

د.جمال على العطار

ماهذه الأحكام المتسرعة؟!

نتابع ما يكتبه د.ماهر شفيق فريد بالهلال دوما، ولم نعهد فيه التسرع فى إطلاق الأحكام وهو الأكاديمى المعروف لدينا، غير أنه فى الفترة الأخيرة راح يطلق أحكاما غريبة ومثيرة.

فبعد أن أطلق فى عدد يونيه الماضى حكمه المحزن حقا، بتراجع طه حسين والعقاد وهيكل والمازنى وزكى نجيب محمود وعبدالرحمن بدوى واسماعيل مظهر وعلى عبدالرازق ومنصور فهمى وخالد محمد خالد ومصطفى محمود على المستوى الفكرى، وتراجعهم أكبر كارثة حاقت بالفكر العربى، وهو يقصد تحولهم إلى الكتابة فى الفكر الإسلامى، وربما يقصد أيضا أنهم أسسوا لفكر الإرهاب الآن!!

وها هو فى عدد سبتمبر الماضى يعود ويتسرع بإطلاق حكمه بأن أدونيس (الذى سماه البعض المخرب) وأدور الخراط أعظم أدباء العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين، والعقد الأول من القرن الجديد، أى فى الستين عاما الماضية.

هل هذا معقول؟! رفقا بنا ورفقا بالثقافة العربية من هذه الأحكام!!

طارق عبدالوهاب
المنصورة

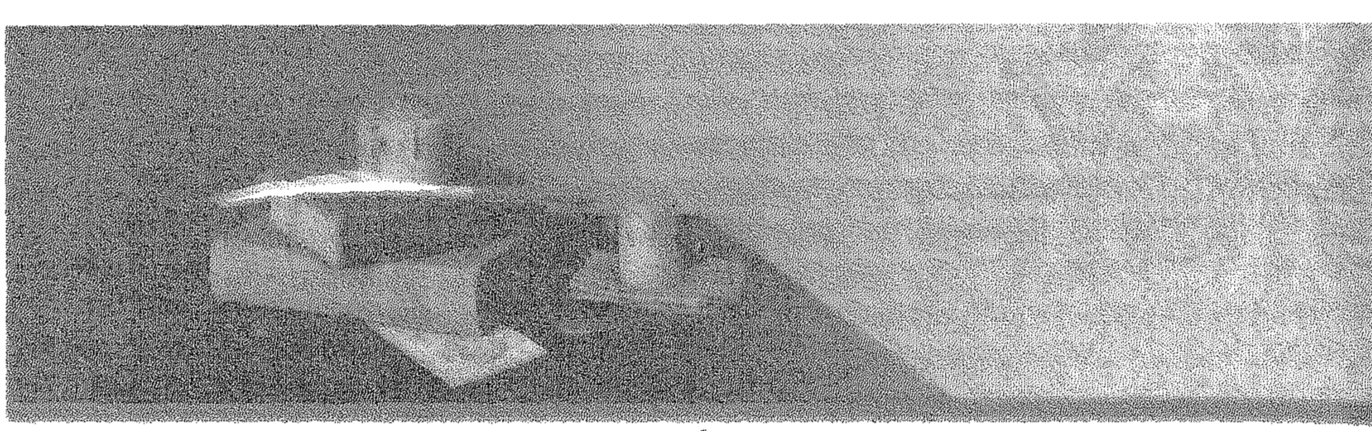

ترانيم الأرض

جلسنا فى رحاب الخوف
وتصحبنا مزامير الفراق
وتطعمنا الحياة ثمار صمت!
ورفرف فوقنا طير
ويحمل بين فكيه
حبوبا تصرع الدنيا
وتمضى !!
جرينا إذ بأنهار الأسى لاحت
فسرنا
إليها واغترفنا من
دماء النهر
كأسا للمنايا
جموع الناس حائرة
فأطفال رماها الموت أكلا
لجمع من كلاب..!!
وينمو غصن صبار
على الشطآن يبكى
فغضن الورد بالأشجار ولى
نظرنا للهلال فإذ به قد
مضى عنا..!
وأسراب النجوم
تلوح تصحبه!
تغنى
نشيدا للهوى الجانى!
ترانيم تبوح بها
عرائس هذه الأرض

زكريا عبدالمحسن علي
«أسيوط»

هكسلى وأزمة الحضارة الغربية

عرض الدكتور جلال أمين فى مقاله «اللعب بالعقول وعالم مابعد ١١ سبتمبر الماضى – لجانب من إبداع الدوس هكسلى (١٨٩٤-١٩٦٣)» الأديب الانجليزى، من خلال إلقاء الضوء على رائعته «عالم جديد رائع» وبذلك فتح بابا على أدب وفكر هكسلى الذى عبر عن أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، هذه الحضارة التى يقول عنها هكسلى بأنها قد دفعت الناس إلى التمرد على حياة الروح والاندفاع وراء المادة، وقصرت جهودهم على المتع والرغبات، وأعرضت بهم عن المثل العليا.

اشتهر هكسلى برواياته التى تبدى اشمئزازه وسخطه وتهكمه على العالم الغربى الحديث وحضارته ومنها «الحديقة العجيبة» سنة ١٩٢٣.

ومن خلال سطور «عالم جديد رائع» نادى هكسلى بالعودة إلى بساطة العيش وإلى الأمومة الصحيحة وإلى الأطفال ترعاهم أمهاتهم رعاية طبيعية، وإلى الريف الذى لم يلوث بالعلم والمادة، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وتقدم العلم المطرد يهددنا كل يوم؟ .. كيف يمكن للإنسان أن يعيش فى مجتمع أقل كمالا، ولكنه أكثر حرية، وظل هكسلى عدة سنوات يفكر فى الإجابة ، حتى استطاع فى سنة ١٩٦٢ أن يخرج قصة جديدة

عنوانها «الجزيرة» وهى صورة لعالم أكثر إنسانية لعالم آخر ومغاير ومختلف عن عالمه الجديد.

وهو فى الجزيرة يصور لونا من الحياة يحد من غلواء، عالم جديد ورائع لكنه ينتج روايته الجزيرة بعبارة اقتبسها من أرسطو تقول: «إن المدينة الفاضلة التى نتمنى لأنفسنا العيش فيها، ينبغى أن تكون محققة لآمالنا. بشرط أن نتجنب فيها المستحيل الذى لايطاق».

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - مركز طنطا

كتاب مفتوح

وصلتنا هذه الرسالة من الأديب والشاعر اللبنانى الكبير سليم الرافعى ننشرها كما جاءت.

الآخ المعزز المكرم الاستاذ وديع فلسطين

كان الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول: تموت العربية فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم، ونحن نقول: تموت الثقافة العربية فى كل مكان وتحيا فى «دار الهلال»، وسيقول التاريخ: آية ذلك أن مجلة الهلال ترفع اسم الأديب الكبير البحاثة المؤمن بعبقرية قومه .. إلى الصفحات الأولى فتكتب تحت هذا العنوان: الاستاذ وديع فلسطين كلاما مستمدا من أصالة الروح المصرية .. هذه الروح التى صعدت مع الأهرام إلى مقام لايبلغه الأقزام فقد اعترفت بجهود مثمرة، فى حقل الأدب العربى:

مشرقيا كان أم مغربيا أم مهجريا، صادرة من مواطن يرى مصر حين يمتد بصره إلى أركان العالم الأربعة، يجد (الكلمة) التى عبّر بها القرآن الكريم عن السيد المسيح .. ما أجدرنا أن نستعير من القرآن فنقول: إن كلمة مصر هى جسد المسيح .. هى معجزة محمد .. هى رسالة (دار الهلال) فلو أعارنى (الأرز) قمته أيضا لوقفت شامخ الرأس معانقا جماجم أولئك الفينقيين الذين استرسلوا مع الإبداع المصرى وأهدوا إلى البشرية هذه الحروف .. هذه الألوف من الأفكار .. تجسدت بها الأمم فى هيكل الحضارة العالمية.

فلتسمح لى دار الهلال لأستعير منبرها وأخاطب الدماء الحارة التى تجول فى شرايين الأمة المصرية الخالدة .. كيف استحضرت هذه الدماء مغامرة الإنسان العربى فترنمت الأفواه بلوعة الجرح المقدس: ينزف في متاهة تلك الصحراء المترامية .. أغلقت الأمة المصرية عليه موجة بعد موجة من نهر النيل العظيم فارتفعت مآذن مصر مثلما ارتفعت قامات النخيل فى آفاق الجزيرة العربية .. ويبدو لى أن الحقيقة ترتفع من مصر فلأوجه السؤال إلى التاريخ: هل الحقيقة هى قامة مصر؟

سليم الرافعى - طرابلس - لبنان

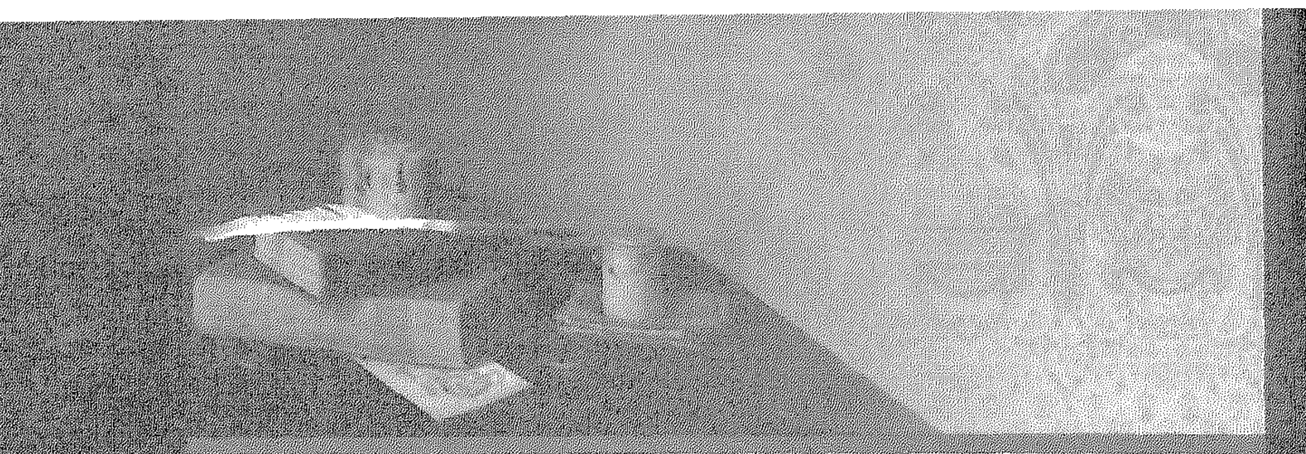

الكسائي

هو على بن حمزة بن عبدالله الأسدى الكوفى، نحوى ومقرىء، وكان أحد أئمة القراء السبعة.

قال يحيى بن زياد الفراء، إنما تعلم الكسائى النحو على الكبر، وكان سبب تعلمه أنه جاء يوما، وقد مشى حتى أعيي، فجلس إلى قوم فيهم فضل، وكان يجالسهم كثيرا. فقال: قد عييت . فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن!

فقال: كيف لحنت؟ فقالوا : إن كنت أردت «من التعب فقل أعييت»، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير فى الأمر، فقال «عييت» بالتخفيف، فأنف من هذه الكلمة، وقام من فوره وسأل من يعلم النحو، فأرشد إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ماعنده، ثم خرج إلى البصرة ولقى الخليل بن أحمد وجلس فى حلقته، وحرص على تعلم النحو حتى نبغ فيه .

سأله عبدالرحيم بن موسى: لم سميت الكسائى؟

قال لأنى أحرمت من كساء!

وقيل لأنه كان من قرية يقال لها كسايا، وقيل لأنه كان يتشح بكساء وكان يعلم الرشيد والمأمون من بعده.

له مؤلفات فى شتى العلوم، فألف كتاب معانى القرآن، وكتاب القراءات وكتاب النوادر الكبير وكتابا فى النحو وكتاب مقطوع القرآن وموصوله، وكتاب المصادر.

قال الشافعي رحمه الله «من أراد أن يتجر فى النحو فهو عيال على الكسائى»

وقال أبو بكر الأنبارى: اجتمعت في الكسائى أمور، كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم فى الغريب، وكان أوحد الناس فى القرآن، فكانوا يكثرون عليه، حتى لايضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم ويجلس على كرسى، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادىء.

كان عند المهدى مؤدب يؤدب الرشيد، فدعاه المهدى يوما وهو يستاك فقال له :

كيف تأمر من السواك؟

فقال: استك يا أمير المؤمنين

فقال المهدى: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم قال: التمسوا لنا من هو أفهم من هذا الرجل

فقالوا رجل يقال له على بن حمزة الكسائى من أهل الكوفة، قدم من البادية قريبا، فكتب بارجاعه من الكوفة

فساعة دخل عليه قال: يا على بن حمزة،، فقال لبيك يا أمير المؤمنين

فقال : كيف تأمر من السواك؟

فقال: سُك فاك يا أمير المؤمنين

فقال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم

وقال كثير من العلماء: إن الكسائى سيدخل الجنة لأن الله غفر له بما قرأه من قرآن، ورؤى فى المنام فقيل له مافعل الله بك: قال غفر لى بالقرآن

اختلف فى تاريخ موته فالصحيح الذى أرخه غير واحد من العلماء والحفاظ سنة تسع وثمانين ومائة هجرية وهو بصحبة هارون الرشيد، وبقرية رينويه من أعمال الرى، ومات معه بالمكان المذكور محمد بن محمد بن الحسن القاضى صاحب أبى حنيفة، فقال الرشيد دفنا الفقه والنحو بالرى.

أوجيني والخديو ودليسبس

صورة الغلاف المنشورة فى عدد سبتمبر الماضى توحى بوجود غرام بين الخديو والأمبراطورة وهذا غير وارد فى أى من المراجع عن حياتهما، بل إننى أشك كثيرا فى إمكانية حدوث ذلك، والعلاقات الغرامية لأهل القمة لها سياقها ومبرراتها، بل أكاد أقول إن لها قواعدها.

وأوجينى جاءت إلى مصر ليس من أجل سواد عيون الخديو، بل جاءت لكى تدعم فرديناند دليسبس، وكان دليسبس يحتاج إلى وجودها فى حفل افتتاح قناة السويس، إعلانا لمساندة فرنسا وأمبراطورها (زوج أوجينى) لمشروع القناة، خاصة أن انجلترا كانت ضد هذا المشروع ولم تنبهر الأمبراطورة كثيرا باحتفال الخديو بها لأنها عاشت فى البلاط الفرنسى الأصيل، الذى اشتهر بالأبهة والفخامة والاتيكيت المتحضر، وكان انبهارها بالدرجة الأولى بمشروع القناة، حيث أبحرت ولأول مرة فى التاريخ من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، وكذلك انبهرت بالتاريخ الفرعونى الذى رأت لأول مرة بعد أن قرأت عنه كثيرا فى طفولتها.

مهندس شريف سيد عفت
القاهرة - المهندسين

قطرة من ندى

قطرة الندى
تداعب النجوم فى أويقات السحر
وترسم البريق ضوءا
فى ثناياها الزهر
ترشق الدروب لآلأ بالجانبين
في ارتحالات السفر
تلامس الطيور .. ريشها ينضو الندى
فتستطير قطرة تناثرت على التراب
فشابهت هطل المطر
ترتمى بحضنها زرقة السماء
ينشد الأغانى سبطها

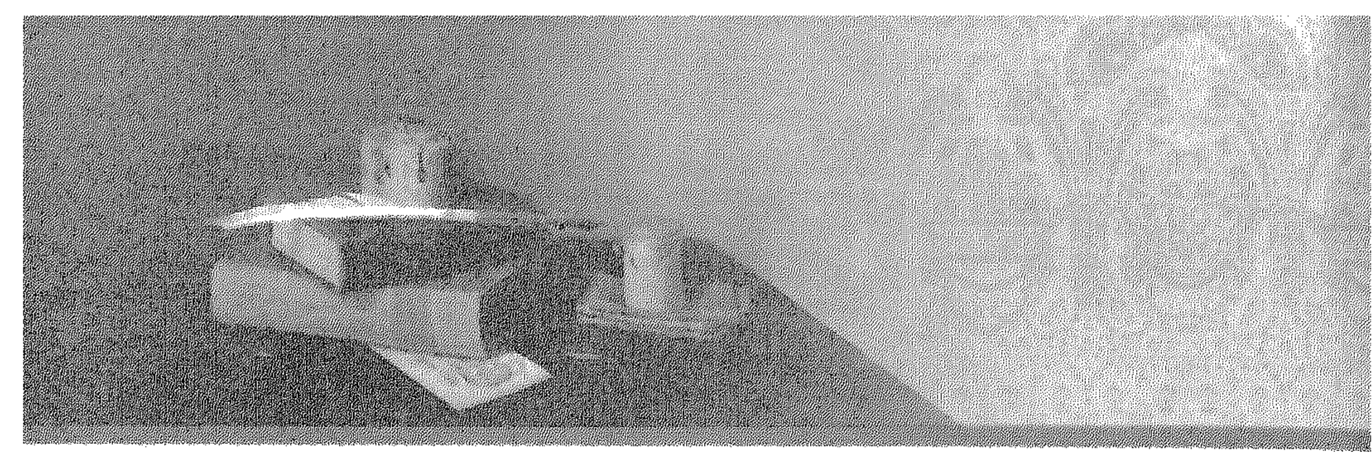

ضوء القمر
يداعب الليل الجفون .. ينيمها
يصحوا موقعا مع الندى الأمانى
فوق أوتار السهر
يلثمها الهواء وتذروها رياح
من زهرة لزهرة لفراشة سكر الأنغام
تحملها لعين الشمس
تروى سنابل ضوئها الذهبي
يحضنها ماء الزهر

إسلام عوض حامد
بلقاس - دقهلية

قارئ قديم

وردت إلى الهلال رسالة صغيرة موقعة باسم «قارئ قديم» يقول فيها: فى مقال (متحف محمود خليل وحرمه)، بعدد الهلال الصادر ف ى الشهر الماضى، نشرت صورة كتب تحتها «محمود خليل مع رئيس الوزراء على ماهر» بينما الصورة تضم من اليسار : محمود خليل ثم إسماعيل صدقى باشا ثم أحمد ماهر باشا ، فأرجو التنويه» .

والهلال إذ تشكر «كرم قارئها» وحسن متابعته لما ينشر على صفحاتها تؤكد صحة ما جاء فى إشارته من أن الصورة بالفعل لأحمد ماهر باشا .

ملاحظة!

وهذه رسالة أخرى من صديق الهلال د. جمال على العطار يقول فيها: «أنا من قارئى مجلة الهلال منذ سنوات وسنوات ، ومن المعجبين بها كثيرا .. ولكن لى ملاحظة بسيطة وهى الصمغ غير الجيد، الذى يتسبب فى تفكك المجلة وعدم انتظام أوراقها بعد القراءة..»

ونقول لقارئنا الجميل د. جمال العطار إننا معه نتمنى عودة الأوراق إلى تماسكها..»

– نعدك بتوصيل شكواك إلى مسئولى المطبعة فى قسم التجليد، ونتمنى معك أن نصل إلى حل يرضيك ويرضينا.

الكلمة الأخيرة

تحولات مالابارته

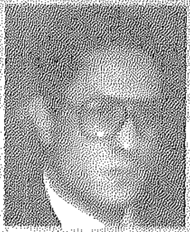

بقلم: محمد ناجى

فاجأنى الايطالى كورزيو مالابارته فى السبعينيات حين اشتريت روايته «الانهيار التام» من سور الأزبكية.

دفعت فيها قرشا وأنا لا أتوقع خيرا خلف غلافها الدعائى، غلاف يحترق نصفه الأسفل بلون أحمر صارخ، وتحت العنوان سطر يقول : «الرواية التى باعت (...) مليون نسخة فى عام» .. وفى المكان بين القوسين رقم لا أتذكره الآن .

فى التعريف بالكاتب أنه كان أحد أعمدة الإعلام الفاشى، مقربا من موسولينى ورئيسا لتحرير جريدته الرئيسية وعشيقا لابنته. وخلال الحرب العالمية الثانية تولى تغطية أخبارها فى الجبهة الشرقية، وهناك انقلبت أفكاره ليصبح معاديا للفاشية ونصيرا للشيوعيين .

أهلتنى كل هذه المعطيات للتعامل مع الرواية باعتبارها عملا دعائيا اكتسب أهمية إضافية من الحرب الباردة الدائرة بين القطبين الكبيرين المتصارعين بعد انتصارهما فى الحرب الثانية:

لكن التعامل مع الرواية أوصلنى إلى نتيجة مختلفة، لقد أدهشنى مالابارته حقا.

أغلب ظنى أنه لم يقصد كتابة رواية، وأن اهتمامه الأكبر انصب على تصوير القلق الذى عصف بأفكاره، وهو يرصد مشاهد صغيرة فى المناطق التى تابع سير المعارك فيها، متى رأى الخيول، العصافير ، الفئران ، ثم الذباب الذى اجتاح اوروبا كلها بعد ذلك .

حكى ببساطة عن أمراء الحرب ، الذين يقتلعون عيون أعدائهم حتى يسهل عليهم إحصاء القتلى، وأولئك الذين يسلخون صدور النساء ليجعلوا من جلودها كسوة لظهور كراسيهم ومساندها .

اعترف أن «الانهيار التام» كانت عملا مدهشا . وفاجأنى مالابارته وأدهشنى مرة أخرى حين قرأت له رواية «الجلد» فى ترجمة لصلاح عبدالصبور .

ترجمة «الجلد» الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة محيرة ومربكة، فيها فجوات فى السرد تجعلك تعتقد أن المترجم لم يقصد ترجمة الرواية كاملة، أو تجعلك تظن ان هناك مشاهد وأجزاء خضعت للحذف عند النشر بعد رحيل عبدالصبور .

وحين حدثت صديقا عارفا بلغة إيطاليا وآدابها عن الرواية أخبرنى أنها فى أصلها الإيطالى تزيد خمسة أو ستة أضعاف عن حجم الأوراق المترجمة والتى لا تتجاوز ستين صفحة .

المدهش فى الترجمة الميتسرة التى قرأتها للرواية ان مالابارته يفاجئنا بفصل جديد من حياته القلقة حين انضم إلى القوات الأمريكية التى دخلت روما لتضع بصمتها الخاصة على عملية تحرير إيطاليا من الفاشية.

المدهش أيضا أن الكاتب يرصد شيئا آخر غير ما أسماه الامريكيون «تحرير إيطاليا» إنه يرصد تلذذ ضباطهم بمشاهد الرعب والفقر والعهر فى بلاده. وفى مشهد بالغ الدلالة يتحدث مالابارته عن تزاحم الأمريكيين على بيت للفواحش يقدم عرضا فريدا لعذراء إيطالية تقلب قوادة عجوز مكامن عذريتها أمام «ضباط التحرير» لتختلط الحدود بين «تحرير إيطاليا» وانتهاكها .

مالابارته الذى بدأ فاشيا قياديا احترق بنار القلق والبحث عن الحقيقة، وانبعث من رماده أشبه بحجم إنسان حقيقى سجل شهادته عن حرب كونية رأى أنها «ككل حرب» هزيمة للإنسانية جمعاء، وأن الذين ماتوا فيها ماتوا بلا فائدة، لأن أوروبا لم تتحرر بعد . ■

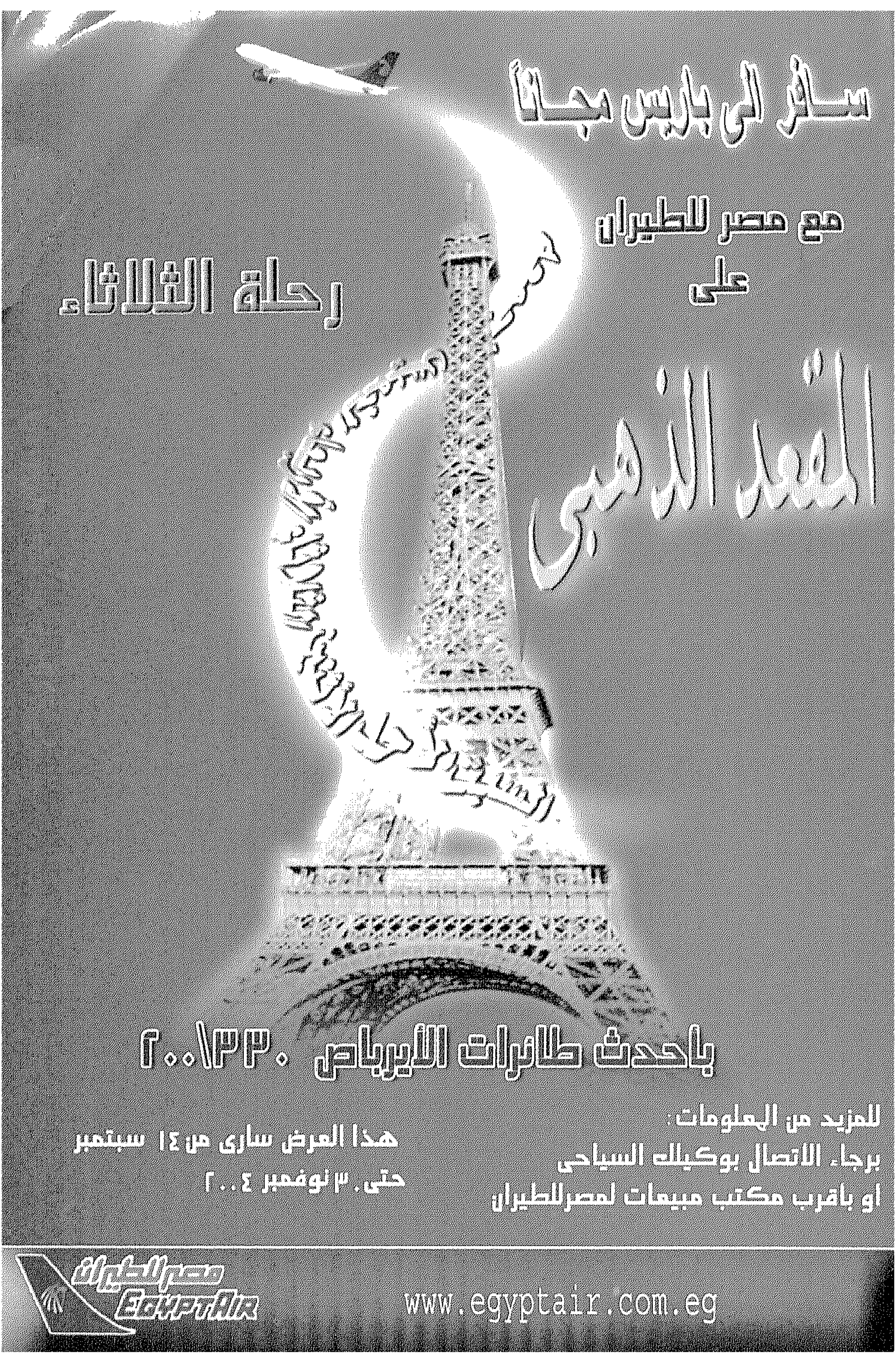
سافر الى باريس مجاناً
مع مصر للطيران
على
المقعد الذهبي
رحلة الثلاثاء
باحدث طائرات الايرباص ٢٠٠١٣٣٠
للمزيد من المعلومات:
برجاء الاتصال بوكيلك السياحي
او باقرب مكتب مبيعات لمصرللطيران
هذا العرض سارى من ١٤ سبتمبر
حتى ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٤
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت: ٦٨٢٣٧٩٢١ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس: ٢٠٢/٢٥٩٢٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوي محرم بك - الإسكندرية.

الهلال

نوفمبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

- الأخلاق بين الدين والعلم

(رمضان جزء خاص)

- مثقفات وراء القضبان
- صراع الحضارات أم صراع الأصوليات؟

حي بن يقظان وفلاسفة الإسلام

لوحة وفنان

اللوحة: بائع العرقسوس الفنان: لودفيج دويتش

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة رمضان ١٤٢٥ هـ - نوفمبر ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - امريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ - حى بن يقظان وفلاسفة الإسلام ....
.... د. الطاهر أحمد مكى
٢٠ - العرب والإنترنت والحرية ....
.... د. أحمد محمد صالح
٣٠ - البعد الغائب فى تدريس اللغة العربية ......
.... د. سعد دعبيس
٣٨ - فى أصول السياسة الخارجية الأمريكية ...
.... مصطفى الحسينى
٤٦ - صراع الحضارات أم صراع الأصوليات ؟ ...
.... مصطفى نبيل

- رمضان «جزء خاص»

٥٤ - الأخلاق بين الدين والعلم ....
.... د. جلال أمين
٦٢ - الدروس الدينية فى رمضان ....
.... د. محمد رجب البيومى
٧٠ - جوامع وخانقاوات ... عرفه عبده على
٨٢ - خطيب مسجد يهاجم الحجاج (رسالة أمريكا)
.... صلاح المراكبى
٩٤ - الدكتور إحسان عباس: الصديق الذى غاب
.... د. حسين نصار
٩٧ - عن المعاجم............ وديع فلسطين
١٠٢ - نعدو كغزال تتبعه كل كلاب الصيد...
.... صافى ناز كاظم
١٠٦ - النافذة الفرانكفورتية ....
.... د. يوسف زيدان

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
الرسم للفنان
محمد حجى

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

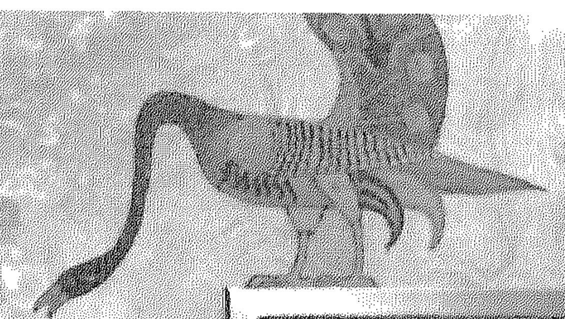

١١٢ – مثقفات وراء القضبان..........
.... د. نيفين عبدالمنعم مسعد
١٢٠ – إسكندرية نجيب محفوظ..............
.... د. صلاح خليل
١٣٠ – إسماعيل صدقى فى روايات الشرقاوى ...
.... مصطفى بيومى
١٣٤ – الموسيقى والطرب من عصر محمد على إلى
عصر إسماعيل ....
.... د. عبدالمنعم إبراهيم الجميعى
١٤٤ – لصوص الآثار... د. محمد إبراهيم بكر
١٥٢ – امرأة مرحة (قصة)... نعمات البحيرى
١٥٦ – رمسيس يونان رائد السيريالية فى مصر
.... د. صبرى منصور
١٦٤ – هلا عمى أبو محجوب! ....
.... محيى الدين اللباد
١٧٤ – «جولة المعارض».. دلالات مستقبل هش لفنوننا
التشكيلية .... د. محمد عرابى
١٨٢ – حبل غسيل مصلوب (شعر)..... محمد أبو زيد
١٨٤ – السينما فى معركة الأفكار...............
.... مصطفى درويش
١٩٢ – هجرة الطيور ... د. نبيل حنفى محمود
٢٠٣ – مساء الخير أيتها الأحزان! ... .
.... محمود قاسم
٢٠٨ – الدراما التليفزيونية والبطل...........
.... مرفت رجب

الأبواب الثابتة

– عزيزى القارئ ... ٦
– أقوال معاصرة ... ٤٥
– شخصية العدد......
د. مصطفى سويف
بقلم:د. فيصل عبدالقادر
يونس ٨٦
– التكوين .. إنعام محمد
على (٢) ٢١٢
– أنت والهلال.. عاطف
مصطفى ٢١٨
– الكلمة الأخيرة.. رحلة
فى مدارات التكوين..
السيد يسين........ ٢٢٦

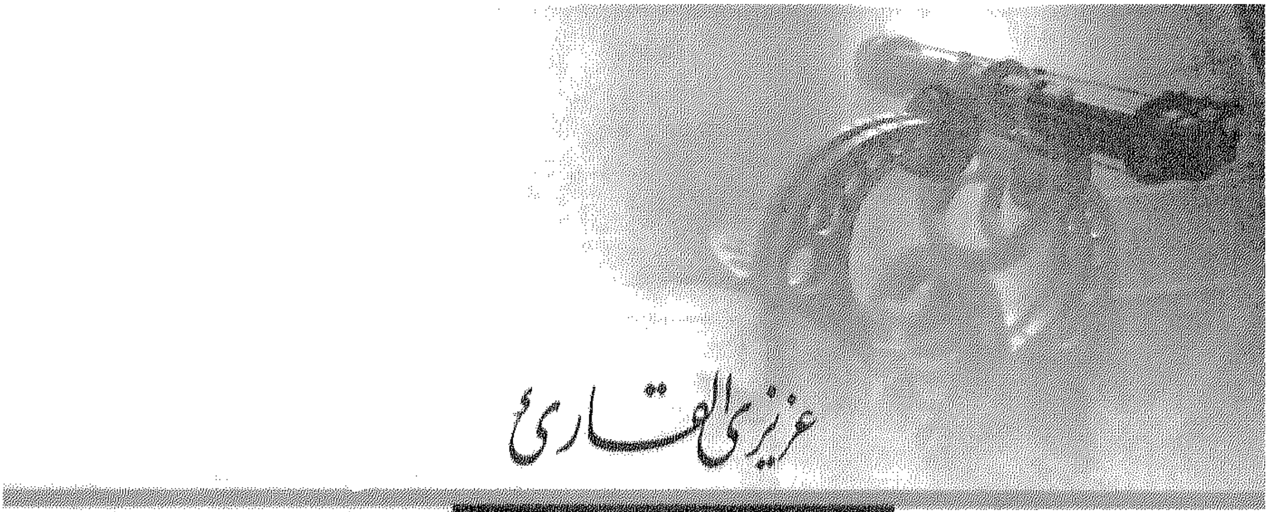

عزيزي القارئ

جائزة نوبل.. لمن؟!!

تعد جائزة نوبل، وهي أعلي الجوائز قدرا في العالم، هدفا لكل أديب ثابر واجتهد، وقدم من الأعمال الإبداعية ما يستحق الحصول علي هذه الجائزة.

وقد نالها أديبنا الكبير نجيب محفوظ عام ١٩٨٨، فيما كان يطمح في تحقيقها أدباء كبار من أمثال طه حسين والعقاد ويوسف إدريس ويحيى حقي وعبدالرحمن منيف وغيرهم من الأدباء العرب .. وكل ما نرجوه ألا يتوقف حصولها على أديب عربى واحد، بل ننتظر فى القريب أن يحققها أديب عربى آخر.

وفى أكتوبر من كل عام ينتظر المثقفون بكل شوق الفائز بالجائرة، ذلك الأديب القاص أو الشاعر، الذى سيصل إلى العالمية، وبمجرد أن يعلن سكرتير الأكاديمية السويدية اسمه، تتسابق وكالات الأنباء العالمية و«التيكرز» فى بث المعلومات الضافية. والأخبار عن ذلك الأديب الذى ربح ماديا وإعلاميا، وربما دونما التوقف عن أحقيته فى الحصول على هذه الجائزة «نوبل» وهل جاء الاختيار بعيدا عن الأهواء، أو الدعم من قبل بعض المنظمات، التى تحرص - وبشدة - على التدخل فى أمر جائزة نوبل لأغراض سياسية!.

وقد جاء فوز الأديبة النمساوية يلينيك (١٩٤٦) لتكون رقم عشرة بالنسبة للفائزات بجائزة نوبل من الأديبات على مستوى العالم كله، وجاء اختيارها على غير المتوقع.

فحينما ظهر سكرتير الأكاديمية السويدية أمام الميكروفون، وأعلن فوزها، خيم الوجوم - لأول مرة - على الحضور فى القاعة الكبيرة بالأكاديمية، ولم تسمع الصيحة المعتادة حينما ينادى على اسم الفائز «أخيرا تحقق الحلم»، ربما لأن أحدا لم يتوقع هذا الاختيار، خاصة وأنه جاء مخالفا للتيار السائد الخاص بالكتابة الواقعية، فضلا عن أنه وقع على كاتبة، تمثل مساحة أدبية صغيرة، كما أن أنتاجها الأدبى، لايعد من الأعمال الإبداعية الكبيرة المعروفة فى العالم. وهذا ما تناوله الكثيرون من النقاد عقب فوزها مباشرة، حيث تباينت ردود الأفعال. فمنها ما اتفق على جدارتها بالفوز، باعتبارها أحد الأصوات المهمة فى الأدب الناطق باللغة الألمانية، ومنها من تحدث عن

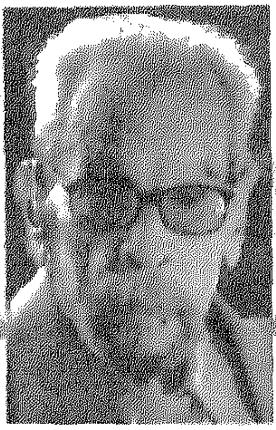

نجيب محفوظ

الفريدى يلينيك

أسلوبها، واصفا إياه بأنه أبعد مايكون عن الهارمونى، فهى تخلط فيه بين الغضب والحياء، واليأس والفكاهة، وتستجوب الحاضر المستغلق للمجتمع النمساوى، دون أن تتخلى عن التجريب اللغوى، وتضعه فى صف الضعفاء والمهزومين، والأرواح الجريحة.

كما تهاجم الفريدى يلينيك من خلال كتاباتها كل شىء: الاستسلام للأمر الواقع والرضوخ، وحب الأمهات الخانق، والإباحية، والعنف الذكورى تجاه الأنثى، والسياسة، ومعاداة السامية وقد نفت تخليد الذات فى روايتها البورنو «اللذة» قائلة: «أنا لا أعتبر نفسى مثل هؤلاء الروائيات اللاتى يدرن حول الأنا، والذات بشكل مرضى!

وقد كتبت سيرتها الذاتية فى صورة رواية اسمها «عازفة البيانو» عام ١٩٨٣، تحولت إلى فيلم عام ٢٠٠١، ونال قسطا كبيرا من الشهرة.

أما قصتها «الشهوة» سنة ١٩٨٩ فالتحليل الاجتماعى فيها، يتحول إلى نقد فى الصميم للحضارة التى نحياها، وتبرز العنف الجنسى ضد النساء، وتعده من منطلق الثقافة الغربية، وهذا الخلط الموجود فى هذه القصة، وضعته بشكل أخف فى قصة أخرى، كشفت فيها تسلط الرجال، وكيف يمارسون هذا التسلط ببرود وبدون عاطفة..!

«يلينيك » من الصعب تعريف أسلوب كتابتها، لأنها تتحول بسرعة من النثر إلى الشعر، والايقاعات تختلف عندها فى التناول وفى السرد، كما تتضمن القصة عندها مشاهد مسرحية، كتبت عددا من المسرحيات واستقبلت استقبالا جيدا. وأول قصة كتبتها عام ١٩٧٠.

أبوها من أصل تشيكى يهودى، وأمها من أسرة غنية من فيينا، وكانت دراسة «الفريدى» فى جامعة فيينا.

ومن أغرب الأشياء أنها هاجمت بلدها النمسا، وطالما شوهت صورتها، إلا أنها تعتبرها مملكتها وسجنها، الذى لاتستطيع الاستغناء عنه .. وبرغم تربعها على قلوب القراء فى لندن وفى الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا، إلا أنها لم تزر هذه البلاد!.

.. هذه الشخصية التى فازت بنوبل .. وبكل هذا التناقض والغرابة فى كل شىء .. ألا يجعلنا نتوقف عند الأسباب الحقيقية وراء حصولها على الجائزة؟!!

المحـــرر

حي بن يقظان

وفلاسفة الإسلام

بقلم
د. الطاهر أحمد مكي

أسهمت الحضارة العربية الإسلامية فى تطور الحضارة الإنسانية عامة، بإضافات ذات أهمية عظيمة، من بنات أفكارها، ولم تتأثر فيها بأحد، وفى مقدمتها «علم الأديان المقارن» ووضع أسسه العالم الموسوعى العظيم ابن حزم القرطبى (ت ١٠٦٤م) بكتابه الرائع «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، وقارن فيه بين الفرق والمذاهب الدينية المختلفة، فى شتى اتجاهاتها، بقدر ما سمحت له ظروف عصره من معارف وموضوعية، وهو أول كتاب فى بابه على مستوى الفكر العالمى كله.

والثانى «علم الاجتماع»، ووضع نواته المؤرخ العظيم عبدالرحمن بن خلدون (ت ١٤٠٦م) بكتابه «مقدمة فى علم التاريخ»، وهو من أسرة يمنية عربية أندلسية هاجرت إلى تونس حيث ولد، وعمل فى الأندلس والمغرب وتونس، وانتهى به المطاف فى القاهرة، أستاذا فى الأزهر، وكبير قضاة المالكية، وسفير السلطان المملوكى الناصر إلى «تيمور لنك»، وعرض فى هذه المقدمة لأول مرة نظريته فى التطور التاريخى التى تأخذ بعين الاعتبار طبيعة المناخ والبيئة الجغرافية والعوامل الأخلاقية والروحية وأثرها فى تكوين الفرد وسلوكه وإبداعه، ووضع نواة قوانين التقدم والتدهور، ويعد دون أدنى شك المؤسس الحقيقى لعلم

رسم من مخطوطة فريدة تتضمن الترجمة الفارسية لكتاب « منافع الحيوان »

الاجتماع، ويجمع النقاد فى الشرق والغرب على أنه أكبر فيلسوف مؤرخ أخرجه العالم الإسلامى، ومن بين أكبر فلاسفة التاريخ فى كل العصور.

والمعلم الثالث فى قائمة هذه الإبداعات الفارقة العظيمة: القصة الرمزية الفلسفية، والتقى عندها خلقا وإبداعا وتطويرا وتجويدا ثلاثة من الفلاسفة المسلمين: ابن سينا، والسهروردى، وابن طفيل، وهى قصة «حى بن يقظان»، وحملت الاسم نفسه عند ثلاثتهم.

ثلاثة فلاسفة

أما ابن سينا (ت ١٣٠٧م) ، وإليه ينصرف لقب الشيخ الرئيس إذا جاء مرسلا، فقد ولد فى بلخ من أعمال تركستان، وعاش حياته كلها فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، وتوفى فى همدان فى إيران، ولايزال قبره قائما فيها.

تجمعت فى شخص ابن سينا جملة علوم عربية، فكان طبيبا وفيلسوفا ولغويا وشاعرا، ودرس الهندسة والفلك وأصول الدين والفن، وأتيح له وهو فى السابعة عشرة من عمره أن يعالج نوح ابن منصور سلطان بخارى، وكان هذا يملك مكتبة نادرة، فانتهز ابن سينا الفرصة، وقرأ كل ما فيها، وكان قوى الذاكرة فوعى ما حوته، وحفظ أكثر ما قرأ، وبدأ التأليف ولما يبلغ الواحدة والعشرين من عمره، وتميز من بين مؤلفاته العلمية كتابان: «الشفاء» وهو دائرة معارف فلسفية، مؤسسة على كتب أرسطو وأفكاره كما عدلتها الأفلاطونية الحديثة، وكما فهمها علماء المسلمين، وعلى يده بلغت الدراسات الفلسفية غايتها، وأصبحت إلى حد ما شعبية بعد أن كانت مقصورة على طبقة محدودة من المثقفين، وقصيدته فى النفس التى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تدلل وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت علي كره إليك وربما
كرهت فراقك وهى ذات تفجّع

نالت شهرة فى العالم الإسلامى لم تنلها قصيدة أخرى ذات مضمون فلسفى، وكان الصبيان فى الكتاتيب يحفظونها إلى جوار القرآن الكريم، وأنا حفظتها صبيا مع رفاقى فى الكتاب دون أن نفهم - بداهة - شيئا من مضمونها، ومؤكد أن الفقيه لم يكن بأحسن حظا.

والكتاب الثانى «القانون»، وهو فى الطب، ويقدم لنا أدق صورة مرتبة عن الأفكار الطبية عند العرب واليونان، وكان أوفى مرجع من مراجع الطب القديم، وظل كذلك إلى عهد الموسوعات العصرية قبيل القرن التاسع عشر بقليل، واجتمعت له مزايا الإحاطة والتحرى والاستقصاء والتنسيق، ويقول عنه نويبرجر فى كتابه المطول عن تاريخ الطب: «كانوا ينظرون إلى كتاب القانون كأنه وحى معصوم ، ويزيدهم إكبارا له تنسيقه المنطقى الذى لايعاب، ومقدماته التى كانت تبدو لأبناء تلك العصور كأنها القضايا المسلمة والمقررات البديهية»، وهو من أقدم الكتب العربية التى عرفت طريقها إلى المطبعة، فقد طبع النص العربى مع الترجمة اللاتينية لأول مرة فى روما عام ١٥٩٣،

وكانت الترجمة اللاتينية التى قام بها جيرار الكريمونى عام ١١٨٧ رديئة، فأعيد النظر فيها، وتجشم العلماء كل مشقة لمراجعتها وتنقيحها، وفى الثلث الأخير من القرن الخامس عشر طبع خمس عشرة طبعة لاتينية، وأخرى عبرية، وظل ما بين القرن الثانى عشر والسابع عشر، أطول من أى كتاب آخر، أشهر مرجع فى الطب على امتداد العالم أجمع.

وإلى جانب هذين الكتابين الهامين له رسائل كثيرة فى التصوف والإلهيات، منها رسالة «حى بن يقظان» وهى التى تعنينا هنا.

وثانى الثلاثة السهروردى (ت١١٩١م) شهاب الدين يحيى بن حبش، وعرف بالمقتول تمييزا له عن آخرين حملوا هذا اللقب، درس الفقه فى مراغة، ثم انتقل إلى أصفهان، وكان متفلسفا صوفيا، وفى الأناضول تحت حكم الدولة السلجوقية أخذ يبشر بفلسفته «الإشراقية» التى يؤمن بها بين مريديه، وفى البدء كان يقتفى أثر ابن سينا الفلسفة، غير أنه سرعان ما تحول عنه إلى الأفلاطونية الحديثة.

كان السهروردى يتبع مذهب المشائين والرواقيين من اليونانيين، وشرح مذهب أرسطو وألف كتابا عظيما فى الفلسفة أسماه «حكمة الإشراق»، وفيه يفسر الضرورة والاختبار، والموجود والمعدوم، والهيولى والصورة، والجسم والروح، إلى غير ذلك، ويرى أن الحياة والبواعث ليست إلا موضوعاً منبعثا من الله، وأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وكان من أهل الكرامات وأصحاب الخوارق، ولكن إمعانه فى الفلسفة، ورأيه فى الحلول، وأن الله والعالم شىء واحد، وجهره بذلك فى حلب، ألب عليه الفقهاء والشعب، فتخلى عنه حاكمها بهاء الدين بن صلاح الدين، وأعدم وهو فى نحو السادسة والثلاثين من عمره.

إلى جانب كتابه «حكمة الإشراق»، وطبع فى إيران عام ١٣١٣ - ١٣١٥ هـ، له مؤلفات أخرى تتجاوز الثلاثين، فى الفلسفة والمنطق والتصوف وما وراء الطبيعة، بعضها باللغة الفارسية، وكلها عليها شروح كثيرة، مما يشى برواجها فى عصرها، ولم يطبع منها غير ما ذكرنا إلا كتاب «هيكل النور»، طبع فى القاهرة ١٣٣٥هـ .

وله قصة رمزية بعنوان «حى بن يقظان» كانت مجهولة حتى زمن قريب، ولما تزل مخطوطة.

ونأتى إلى آخر الثلاثة، وقصته الأكمل، والأجمل، وكانت وراء الشهرة العالمية التى تمتعت بها، وتركت بصماتها واضحة فى أكثر من أدب أوروبى. إنه «ابن طفيل».

كان دنيا من العلم فيما درس وفهم وعلم، وعالما من الخبرة والتجربة فيما تولى وشغل من وظائف، تصفه المصادر العربية المختلفة بأنه الوزير الفقيه المقرىء المحدث اللغوى النحوى الطبيب

المهندس، الشاعر الكاتب الخطيب المتصوف، واحد عصره وفريد دهره، من أهل الحذق في الطب، والنظر في الجراحة، متحققا بجميع أجزاء الفلسفة، حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا، مع اتساع في العلوم الإسلامية، كان - باختصار - إحدى حسنات الدهر في ذاته وأدواته، شغل الدنيا في عصرنا الحديق عربا ومستشرقين.

كان له مع الوزارة ترف ونفوذ، ومن الفقه وقار وتوقير واجتهاد، ومن تجويد القرآن جمال الصوت، ومن رواية الحديث قوة الذاكرة ، مع حساسية الشاعر ورقة خياله، ودقة المهندس وبراعة تصويره، وكل هذا يصبح في الطب دقة وضبطا، وفي التصوف شطحات ولوامع، ثم يعتزل الدنيا، ويتخذ داره على طريق، يسقى العطشان، ويطعم الجوعان، ويطمئن المجهد القلق، يأوى الطريد، ويخفف من أوجاع الحزانى ، وبعد أن أقبل على الدنيا وأقبلت عليه تبدل حاله، فأخذ على الشريعة إباحتها حرية التعامل، والتملك الخاص، وجمع المال والإدخار.

اسمه كاملا: أبو بكر محمد بن عبدالملك بن طفيل القيسى (٥٨١ هـ - ١١٨٥م)، فهو عربى من قبيلة قيس العربية الشهيرة، وكان لها مكانة وعصبية وقوة في الأندلس والمغرب على السواء، ولعبوا دورا فاعلا في تصارع القوى في العدوتين، ولد في برشانة، قرية في مقاطعة وادى آش، وبعضهم ينسبه إلى هذه الأخيرة فيقولون الوادى آشى، وبعض المؤرخين المتأخرين ينسبه إلى قرطبة أو إشبيلية بوصفهما حاضرتى الأندلس على التعاقب، وأشهر مدن فيه. توفى قبل ابن رشد بثلاثة عشر عاما في مراكش عاصمة الموحدين، وحضر الخليفة جنازته.

نشأة موسوعية

ومع أننا لا نملك شيئا عن مصادر ثقافته صبيا فمن المقبول أن نتصور أنه تلقى من الدرس ما كان يتلقاه أبناء الطبقة الوسطى على أيامه، وحفظ لنا ابن خلدون في مقدمته خطوطها الرئيسية: تعلم القراءة والكتابة ، واستظهر شيئا من القرآن، وبعضا من عيون الشعر ، وقليلا من الحكم والأمثال ، وهي مجالات يتوقف مدى اتساعها وعمقها على مستوى ذكاء كل طفل وتفرغه ، وما سوف يتوجه إليه بعد المرحلة الأولى، فمن توقف عندها قنع بما تعلم، ومن طلب المزيد بدأ مرحلة أخرى يدرس فيها الفقه وتفسير القرآن، وتمرس باللغة العربية نحوا وصرفا وعروضا وبلاغة وفقه لغة، ولأن ابن طفيل كان يعد نفسه لمعرفة شيء عن الهندسة المعمارية ، وممارسة الطب، درس الرياضة، ووظائف الأعضاء ومبادىء الكيمياء وخواص العقاقير والأعشاب ودورها في الوقاية والعلاج، والمنطق والطبيعة والمباحث الأخلاقية والنفسية عند فلاسفة المسلمين واليونان، أو ما اصطلح على تسميته بالعلوم القديمة إذ ذاك، وتجلى وعيه بهذه العلوم واضحا في مقدمة كتابة «حى بن يقظان» فقد عرض فيها للفارابى وابن سينا والغزالي وابن باجة، وأتى على خصائص فلسفتهم وتناقضاتها، وموقفهم من أرسطو، مما يشى بتعمقه في الفلسفة الإسلامية

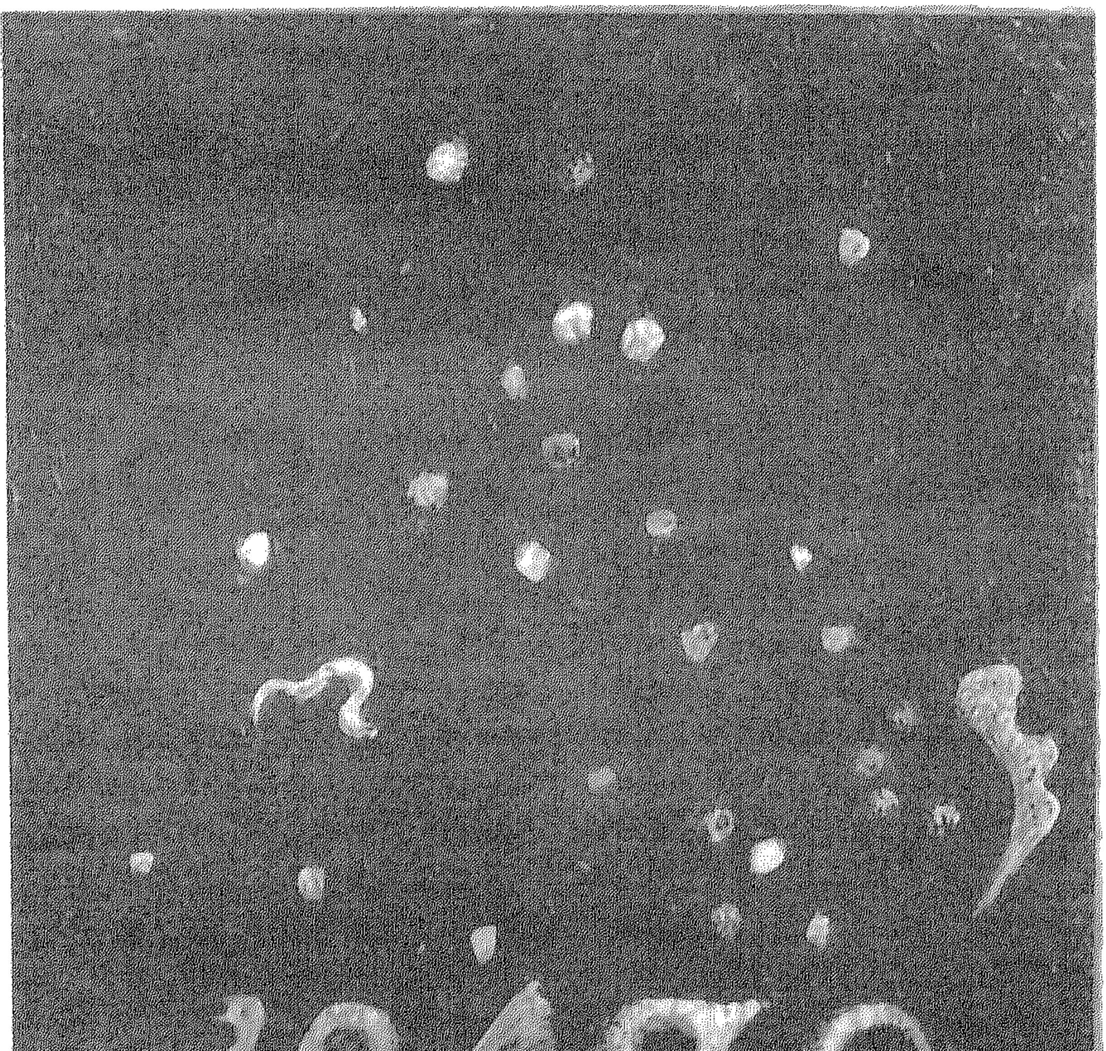

« وإياك أن تقبضهم زمامك، أو تسهل لهم قيادك »

وتفاصيلها.

كما يحدث دائما سوف يضيق الصبى النابه بقريته «برشانة» فيغادرها إلى «وادى آش»، وما يلبث أن يرى نفسه أكبر من هذه فيرحل عنها إلى غرناطة، ومن بعد هذه إلى عاصمتي العلم والأدب والفلسفة في الأندلس: قرطبة وإشبيلية. ولما اكتمل جسما وعقلا وخبرة رأى مكانه الجدير به مراكش، عاصمة الخلافة نفسها ، وفيها عاش بقية حياته كلها إلى أن لقى الله، فمشى الخليفة الموحدى فى جنازته تكريما للعلم، وإجلالا للموت!

كان ابن طفيل في العاشرة من عمره تقريبا حين بدأ محمد بن تومرت مهدى الموحدين حركته الإصلاحية، فأعجب بالدعوة وفكرها وانحاز اليها، لأن ابن تومرت توجه بدعوته إلى الطلاب خاصة، فى الجوامع والمدارس، معتمدا عليهم فى التبشير بأفكاره التى تنكر التقليد، والسير وراء المذاهب الفقهيه التقليدية، وتدعو إلى الاجتهاد، ومواجهة مشكلات العصر اعتمادا على القرآن والسنة مباشرة، ووجد هذا قبولا وإصغاء، فسقطت دولة المرابطين، وقامت على أنقاضهم دولة الموحدين، ووجد فيهم ابن طفيل فكرة ثائرة، واتجاها دينيا محافظا ومجددا فى الوقت نفسه، شديد العناية بطلبة العلم، حريص على احترامهم ، وتيسير سبل المعرفة لهم، ومعاونتهم على العيش.

تنقل ابن طفيل فى خدمة الموحدين، فكان كاتبا لواليهم فى غرناطة، ثم صاحب حظوة فى مجلس أبى يعقوب ابن عبدالمؤمن حاكم إشبيلية، وكان هذا يشغف بمجالس العلم، ويؤثر العلماء بصحبته، فلما تولى الخلافة اختار ابن طفيل طبيبا خاصا، وملازما له، وكان يندبه لبعض المهام الخاصة بالخلافة ويسفر بينه وبين العلماء من مختلف الأقطار ، ويدعوهم باسمه، وينبهه على أقدارهم، ويحثه على إكرامهم والتنويه بهم، وكان مجلسه حافلا بالحوار العلمى والدرس الفلسفى، وهو الذى أوعز إلى ابن طفيل أن يقوم بتلخيص جديد لشروح أرسطو ، يقرب أغراضها ، ويحرر ترجماتها مما يشوبها من غموض . غير أن ابن طفيل، وقد تقدمت به السن، رأى أن تلميذه ابن رشد أقدر للقيام بهذا العمل، فرشحه لهذه المهمة، فتولاها على خير وجه. وشهر بها، طيرت اسمه فى الآفاق، وأصبحت كلمة «الشارح الأكبر» إذا جاءت مرسلة تنصرف إليه.

يلتقى الباحثون المحدثون عند حقيقة أن ابن طفيل ألف فى الفلسفة والفلك والطب وأن تراثه ضاع، ولا نعرف منه غير «حى بن يقظان» ، وترد أحيانا فى بعض المخطوطات وفى فهارسها تحت عنوان : «أسرار الحكمة المشرقية» (بضم الميم اسم فاعل من أشرق)، غير أننى أثناء ترددى على مكتبة القرويين فى فاس - طيب الله ثراها وأكرم أهلها - فى الستعينيات من القرن الماضى، وجدتها تضم أرجوزة لابن طفيل فى الطب العام، مجهولة لا يرد لها ذكر عند أحد، فى ١٤٨ ورقة، تحتوى على سبعة آلاف وخمس مائة بيت، وتحمل رقم ٤٠/٣١٥٨.. ، وتعكس خصائص المؤلفات الطبية فى عصرها، من وصف التداوى بالأعشاب ومشتقات النبات ،

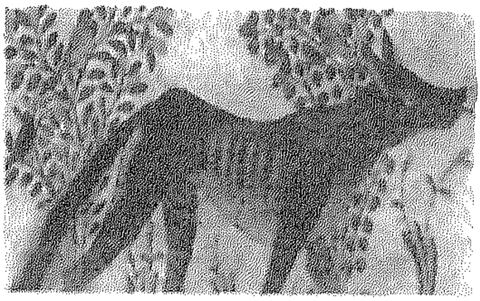

وفى تاريخ تطور الأدوية بين الصيدلة والكيمياء، وفى استقصاء أنواع المرض والداء.

أما وقد عرفنا بهؤلاء الفلاسفة الكبار، فلنعرض لرواياتهم ، هى التى تعنينا فى المقام الأول.

ثلاث قصص

قصة ابن سينا خلاصتها أن جماعة خرجوا يتنزهون فعن لهم شيخ بهى الطلعة، أوغل فى السن، وأخنت عليه السنون، ولم يهن منه عظم، ولا تضعضع له ركن، فنزعت إلى مخاطبته، وانبعثت من ذات نفسى إلى محاورته، وملت برفقائى إليه، فلما دنونا منه بدأنا هو بالتحية والسلام، وتنازعنا الحديث حتى أفضى بنا عن كنه أحواله، فقال: أما اسمى ونسبى فحى بن يقظان، وبلدى مدينة القدس، وحرفتى السياحة فى أقطار العالم حتى أحطت بها خبرا، ووجهى إلى أبى وهو حى، وقد تلقيت منه مفاتيح العلوم كلها، فهدانى الطريق السالكة إلى نواحى العالم، حتى رويت بسياحتى آفاق الأقاليم.

ويرمز ابن سينا بحى بن يقظان الى العقل، ويمضى فى روايته:

ومازلنا نطارحه المسائل فى العلوم، ونستفهمه غوامضها حتى خلصنا إلى علم الفراسة، وإنها لتدل منك «على عفو من الخلائق، ومنتفش من الطين، وموات من الطبائع، وإذا مستك يد الإصلاح أتقنتك، وإن خرطك العار فى سلك الذلة انخرطت، وحولك هؤلاء الذين لا يبرحون عنك، إنهم لرفقة سوء ولن تكاد تسهم عنهم، وسيفنونك او سيفتنونك أو تكتنفك عصمة وافرة».

يقصد ابن سينا بالفراسة علم المنطق، وسماه كذلك لأننا نعرف بواسطته الأمر المجهول الخفى من أحواله الظاهرة، ونعرف النتائج العويصة من مقدمات بديهية، وكذلك الفراسة، لأنها الاستدلال على الخفايا من السمات الظاهرة. وأما رفقة السوء التى تصحب المرء فهى الغضب والغرائز والشهوات وسائر الملكات البشرية، ويراها العقل رفقة سوء. ويضيف:

«وأما هذا الذى أمامك فباهت مهذار، يلفق الباطل تلفيقا، ويختلق الزور اختلاقا، ويأتيك بأنباء ما لم تزوده ، قد درأ حقها بالباطل، وضرب صدقها بالكذب، على أنه عينك وطليك، ومن سبيله أن يأتيك بخبر ما غرب عن جنابك ، وعزب عن مقامك، وإنك لمبتلى بانتقاد حق ذلك من باطله، والتقاط صدقه من زوره، واستخلاص صوابه من غواشى خطئه، إذ لابد لك منه، فربما أخذ التوفيق بيدك، ورفعك عن محيط الضلالة، وربما أوقفك التحير، وربما غرك شاهد الزور».

وهو فى هذه الفقرة يتحدث عن قوة التخيل، ورمز إليها بشاهد الزور، لأنها قادرة على تشبيه الشىء بالشىء زورا وبهتانا لإيقاع الإنسان فى الشر، وهذا التشبيه زور وباطل لاينشأ عن عقل وحكمة.

فقد يشبه الشىء بالشىء دون أن تكون بينهما علاقة قوية. ويمضى فى

السرد فيصور القوة الغضبية ويضعها عن يمين المخاطب، لأنها أقوى من غيرها، ويضع الشهوانية على يساره، ووصفها بما طبعت به من قذارة وشبق، وأنها ملتصقة بالانسان التصاقا وثيقا، لا يبرأ منها إلا بعزبة تأخذه إلى بلاد لم يطأها أمثاله من قبل، يعنى أنها لا منجاة منها إلا بمفارقة البدن بالموت.

يقول:

«وهذا الذى على يمينك أهوج إذا انزعج هائجه لم يقمعه النصح، ولم يطأطئه الرفق، لأنه نار فى حطب، أو سيل فى صبب، أو قرم مغتلم، أو سبع ثائر».

«وهذا الذى على يسارك قذر شره قرم شبق، لا يملأ بطنه إلا التراب، ولا يسد غرثه إلا الرغام، كأنه خنزير أُجيع ثم أُرسل فى الجلة، ولقد أُلصقت بهؤلاء يا مسكين إلصاقا، لا يبريك عنهم إلا غربة تأخذك إلى بلاد لم يطأها أمثالهم» وحتى «حين تلك الغربة، ولا محيص لك عنهم، فلتطلهم يدك، وليغلبهم سلطانك، وإياك أن تقبضهم زمامك، أو تسهل لهم قيادك، بل استظهر عليهم بحسن الإيالة، وسمهم سوم الاعتدال، فإنك إن متنت لهم سخرتهم ولم يسخروك، وركبتهم ولم يركبوك» يعنى أن على المرء أن يسلم قياد غرائزه وشهواته لعقله.

ولكنها لن تخضع لحكم العقل خضوعا تاما ما دامت الحياة، غاية الأمر أنه يمكن بالمجاهدة قمعها والتغلب عليها لا إماتتها.

ثم قال حى بن يقظان ردا على طلب السياحة: «إن حدود الأرض ثلاثة: حد يحوزه الخافقان، وقد أدرك كنهه، وترامت به الأخبار الجليلة المتواترة. وحدان غريبان: حد المغرب وحد المشرق، ولكل واحد منهما صقع، قد ضرب بينهما وبين عالم البشر بسور لن يعدوه إلا الخواص الذين منحوا قوة لم يمنحها البشر بالفطرة».

الصورة والهيولى

ويقصد بهذه الحدود المركبات المحسوسة فى عالمى الأرض والسماء، وهى التى يجمعها الخافقان، ويقصد بحد المغرب الهيولى، وهو عند قدامى الفلاسفة مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة، قابلة للتشكيل والتصوير فى شتى الصور، ومنها صنع الله أجزاء العالم المادية. والمشرق ويقصد به الصورة، ولكل واحد منهما كنه وحقيقة، وقد ضرب بين حقيقتهما وعالم البشر سور لا يستطيع أحد أن يتخطاه بالفطرة والطبع، وإنما يتخطاه بالجد والتعلم والاكتساب، وهو ما يشير قوله: «إن تخطى هذا السور لا يتأتى للبشر بالفطرة، وإنما يتأتى بالاغتسال فى عين فوارة إذا هدى إليها السائح فتطهر بها، وشرب من فورانها». ويعنى بهذه العين المنطق الذى يحكم العقل ويهديه إلى الصواب. ثم قال: «وهذه العين تمد نهرا على البرزخ، من اغتسل منها خف على الماء فلا يغرق، واستطاع أن يرتفع إلى الشواهق دون أن ينصب، حتى يتخلص إلى أحد الحدين».

ويعنى بالبرزخ أن يصير مددا للعقل بالمعارف المستعد لها، وهى ممدة للعقل بسبب استفادتها من الحس فى الأوليات والبديهيات، ومعنى خف على الماء بلغ فى علم المنطق درجة عالية، يطلع معها على

الحقائق من غير تعب.

ويمضى فيصف لنا الحد الغربى أو الهيولى إذا شئت فقال:

«إن بأقصى المغرب بحرا كبيرا حامئا، قد سمى فى الكتاب الإلهى عينا حامئة، وإن الشمس تغرب من تلقائها، وممد هذا البحر من إقليم غامر، فات التحديد رحبه، لا عمّار له، إلا غرباء يطرأون عليه، والظلمة معتكفة على أديمه، وإنما ينمحل المهاجرون إليه لمعة نور، مهما جنحت الشمس للوجوب، وأرضه سبخة كلما أهلت بعمار نبت لهم فابنتى بها آخرون، يعمرون فينهار، ويبنون فينهال، وقد أقام الشجار بين أهله، فأينما طائفة عزت استولت على ديار الآخرين وفرضت عليهم الجلاء تبتغى قرارا، فلا يستخلص إلا خسارا، وهذا ديدنهم».

«وقد تطرق هذا الإقليم كل حيوان ونبات، لكنها إذا استقرت به ورعته وشرب من مائة، غشيته غواش غريبة من صورها، فهذا إقليم خراب سبخ مشحون بالفتن والهيج والخصام والهرج، يستعير البهجة من مكان بعيد، وبين هذا الإقليم وإقليمكم أقاليم أخرى».

وهو يشير فى هذه الفقرة إلى الهيولى، فغروب الشمس فيها يعنى مصير الصورة إليها وملابستها إياها، وهيولى هذه الكائنات لا تستقر بها الصور، ولاتنبت فيها، ولا يستطيع أن يدخل هذا الإقليم إلا قوم مثقفون عمرت عقولهم بالفلسفة، تحصل لمحات من حين لآخر تضيء الحقائق كأنها الشمس المضيئة. ويمضى حى بن يقظان فى حديثه:

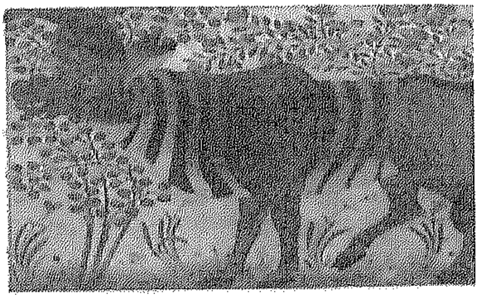

«لكن وراء هذا الإقليم، مما يلى محط أركان السماء، إقليم شبيه به فى أمور، منها: أنه صفصف غير آهل إلا من غرباء واغلين، ومنها أنه يسترق النور من شعب غريب، وإنه مرسى قواعد السموات ومرسى قواعد الأرض ومستقر لها، لكن العمارة فى هذا الاقليم مستقرة، لا مغاضبة بين واردها للمحاط، ولكل امة صقع محدود لا يظهر عليهم غيرهم غلابا، فأقرب معامرة منا بقعة سكانها أمة صغار الجثث، حثاث الحركة، ومدنها ثمان مدن، يتلوها مملكة أهلها أصغر جثثا من هؤلاء، وأقل حركة، يلهجون بالكتابة والنجوم والنيرنجات والطلسمات والصنائع الدقيقة، والأعمال العميقة مدنها تسع مدن».

يعنى ابن سينا بتعبير «إقليمكم النوع الإنسانى»، وبالأقاليم الأخرى الممالك المعدنية والنباتية والحيوانية، و«بالإقليم الشبيه» الأجرام السماوية، وأولها وأقربها إلينا القمر، وآخر الفلك التاسع، وفوقه إقليم آخر، وهو «علة العلل»، وهو الله. وذلك جريا على الفلسفة اليونانية التى كانت تعتقد أن هناك أفلاكا تسعة تتسلط على الأرض، وأن النجوم التى تسبح فيها أعقل من الإنسان وأرقى منه، وأن وراء هذا «علة العلل»، ويسمون هذه الأفلاك التسعة والعلة الأولى «العقول العشرة»، وبعد أن أتى على هذه الأفلاك وصفا، وهى: القمر وعطارد والزهرى والشمس والمريخ

« وإذا خرطك العار فى سلك الذلة انخرطت »

والمشــــــترى وزحل، عـرض للأبراج الاثنى عشر، وجعلها محطا، إذا كان مقدار سير كل منها بقدر لا يتعداه وأبعاد ما بينها ثابتة لا تتغـيـر، «لا الشمس ينبـغى لهـا أن تُدرك القـمـر، ولا الليل سـابق النهـار»، ثـم أشــار إلى الفلك التاسع، ويقولون عنه إنه لا يعرف مقداره لخلوه من الكواكب، «لم يدرك أفـقـه إلى هذا الزمان، لا مدن فيه ولا كور ولا يأوى إليه من يدركه البصر، ويعمره للروحيون من الملائكة، ولا ينزله البشـر، ومنه ينزل على من يليه الأمر والقدر، وليس وراءه من الأرض معمور.

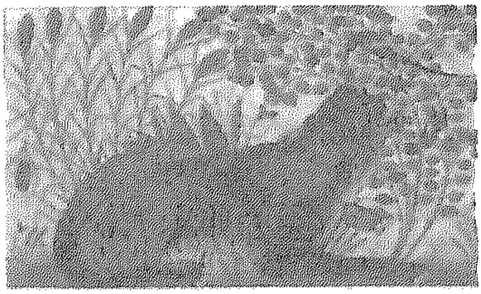

ثم يعود ابن سينا إلى عالم الأرض وسكانه، وقـــال: «إنه رتب على سكك خمس كسكك البريد، بها يختطف من يستهوى من سكان الأرض»، وهو يرمز بالسكك الخمس إلى الحواس الخمس، وباختطافها إلى غرق الإنسان فى ناحية من نواحيها، ومنها ينتقل إلى الجانب المقابل، فيصف لنا عن طريق الرمز أيضا القوى المعنوية: القوة المتخيلة، والقوة الحافظة، والقوة العاقلة، والقوة الغضبية والقوة الشهوانية والنفس الإنسانية والقوة الوهمية، وغيرها.

وفى النهاية وصف الشيخ الرئيس قوما من أهل الأرض بأنهم أمة بررة، لا تجيب داعية نهم أو قرم أو غلمة أو ظلم أو حسد أو كسل، قد متعوا بالنظر إلى وجـه الملك، وحلوا تحليـة اللطف فى الشـمـائل، والحس فى الأذهان، والرواء البـاهر والحـسن الرائع، ويعنى بذلك القوى العاقلة، وأطال الرمز فى ذلك، ثم يختمها:

«قـال الشيخ حى بن يقظان: لولا تعزبى إليه، بمخاطبتك منبها إياك، لكان لى به شاغل عنك، وإن شئت اتبعنى إليه والسلام».

قـد ابن سينا برسـالته الموجزة الرامزة أن يوضح قوة العقل وتميزه عما سواه من غرائز الإنسان وملكاته، وفضله فى هدايته إلى الأفضل والأكمل والأجمل، إذا استمعت إليه، ووعيت مما يشير به عليك، موضحا علاقة هذا العقل الأرضى بالعقول السماوية العليا، ثم علاقة هذه كلها بالعقل العاشر، وهو العلة الفاعلة أو بتعبير آخر غير فلسفى هو الله واجد الوجود.

وتبقى ملاحظة أخيرة، وأولية فى الوقت نفسه، لقد أراد ابن سينا أن يبث رسالة حى بن يقظان شيئا من أفكاره فى الكون والحياة والموت، بعيدا عن شغب العامة وغوغائيتهم، فحررها مرموزة لا يفهمها إلا صفوة المثقفين، ممن تعنيهم متعة الثقافة العالية. وزاد من صعوبة الرمز وانغلاقه فيها إلى حد ما، أنه لا ينحدر من أصول عربية، ولم يعش فى بيئة عربية خالصة، تساعده على أن يرمز دون غموض ملبس، ومع ذلك فإن الصبر على فهمهما يضيف إلى متعة القراءة متعة الاكتشاف.

ألا ندعو الآن إلى شىء من الغموض فى الأدب شعرا ونثرا؟!

...

وفى عدد قادم نعرض للفيلسوفين الآخرين. ■

العرب والإنترنت والحرية

بقلم

د. أحمد محمد صالح

هل الإنترنت تجعل العالم أكثر حرية ؟! البعض يجيبون نعم، وبقوة! مثل جون بيرى بارلو John Barlow من مؤسسة الحدود الإليكترونية، والتى أعلنت على العالم استقلال الفضاء التخيلى للإنترنت عام ١٩٩٦، وهو يؤكد على أن الإنترنت هى البيت الجديد لحرية العقل! وأن الفضاء الاجتماعى للإنترنت خالٍ من الاستبداد، ومن أى قواعد ملزمة، أو سبب حقيقى للخوف، أو لظهور تحيز وإجحاف بسبب الجنس أو العرق أو السلطة والقوة سواء كانت اقتصادية أو عسكرية، وأى فرد فى أى مكان فى فضاء الإنترنت يستطيع أن يعبر عن أفكاره ومشاعره الحقيقية كما يريد.

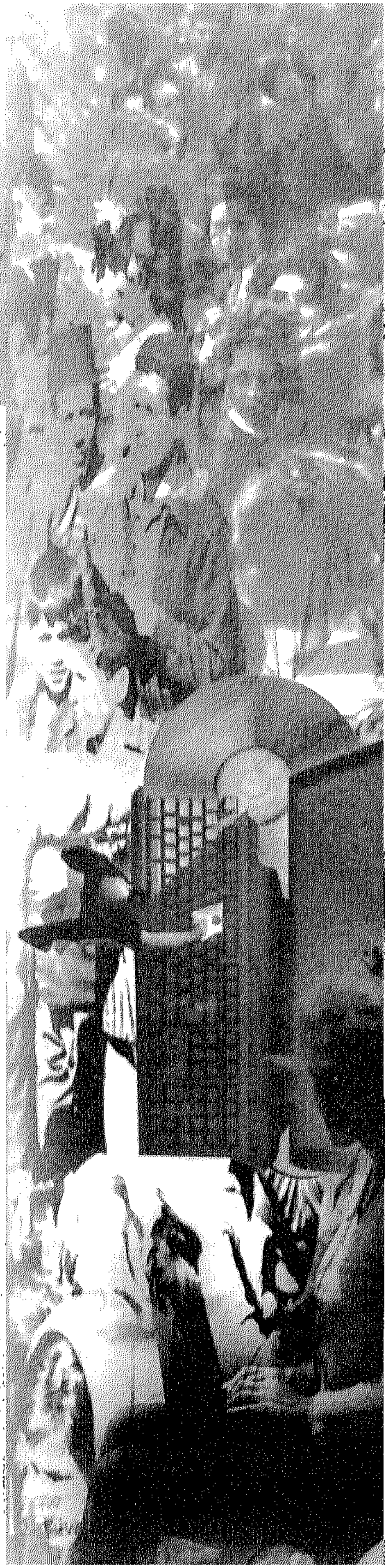

لكن هناك رأى معاكس يعبر عنه النقاد الاجتماعيون مثل هيربيرت شيلير Herbert Schiller أستاذ الاتصال المتقاعد في جامعة كاليفورنيا سان دياجو، في كتابه: عدم المساواة في الوصول إلى المعلومات، علاوة على محتوى المعلومات الفقير، لكي تزداد الأزمة الاجتماعية عمقا وانتشارا في الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى عدم القدرة على فهم المشاكل الوطنية مع فيضان متزايد من المواد التافهة والمثيرة، وغياب المعلومات الاجتماعية. وهناك أيضا روزاك Roszak, T، وهو من نقاد التكنولوجيا، أكد في أطروحته «عبادة المعلومات» الصادرة عن بيركيلي: جامعة كاليفورنيا ١٩٩٤ على الإمكانيات المتزايدة للحكومات لمراقبة الاتصالات وغزو خصوصيات الناس، وشن حرب عالية التقنية.

والاعتقاد أن الإنترنت ستخلق حتما نتائج محددة، سواء كانت نتائج جيدة أو سيئة، وهو ما يسمى تقنيا بمبدأ الحتمية determinist، كما ظهر ذلك في مقالة إيبرسول Ebersole، حتمية الميديا في فضاء الإنترنت والتي نشرت في أكتوبر ١٩٩٩ على الإنترنت، وهو ما عناه فينبيرج، Feenberg, A بالذرائعية وهي مذهب يقول إن فائدة الشيء هي التي تقرر قيمته، وذلك في كتابه «النظرية الحرجة للتقنية»، الصادر في نيويورك، مطبعة أكسفورد ١٩٩١، الذي قال فيه إن الاستجابة البديهية للحتمية التكنولوجية، تعرف بالذرائعية، وبكلمات أخرى نقول إن وجهة النظر التي تقول ان الإنترنت مثل أي تكنولوجيا مجرد أداة توظف طبقا للغرض المستهدف، من هذا المنظور، الإنترنت لا هي جيدة ولا هي سيئة، لكن محايدة جدا، وتأثيرها على المجتمع سيعتمد على كيفية نشرها وتوظيفها. وردًا على هذه المنظورات، ازعم انني من مؤيدي منظور كرانزبيرج Kranzberg, M. في مقالته عام ١٩٨٥: «عصر المعلومات: تطور أو ثورة»؟ والتي نشرت في كتاب تقنيات المعلومات والتحويل الاجتماعي في واشنطن دي سي: الأكاديمية الوطنية، وفيها يؤكد على أن التقنية لا هي سيئة، ولا هي جيدة، وأيضا ليست محايدة! وقبل النظر في هذه النقطة، دعونا نتفحص أولا كيفية تأثير تقنيات الاتصال والمعلومات على مؤسسات حقيقية ونختار الأمثلة من ثلاثة سياقات مختلفة: الأعمال التجارية، والمدارس، والمجتمعات.

التعليم والتقنية

العلاقة بين التقنية والإصلاح التربوي كانت موضوع الكثير من التأملات الفكرية والقليل من الدراسات العلمية، ومن أكثر الدراسات المعمّقة لهذه العلاقة، كانت دراسة ساندولز Sandholtz, J.H، ورينجستاف Ringstaff, C، ودوير Dwyer, D.C عام (١٩٩٧) والتي نشرت بنيويورك في مطبوعات Teachers College Press، تحت عنوان: التدريس بالتكنولوجيا، حيث أجرى المؤلفون دراسة لمدة عشر سنوات على نتائج استحداث الحاسبات في خمس مدارس أمريكية في السياقات الاجتماعية المتنوّعة. وبشكل مثير للانتباه، جاءت نتائجهم سلبية وموازية لنتائج زوبوف. فقد وجدوا أن عملية استحداث الحاسبات خلقت تغييراً ديناميا في العلاقات الاجتماعية، التي كانت ضرورية لاستغلال التقنية الجديدة بالكامل. والمعلمون الذين ما كانوا يستطيعون إقامة علاقات اجتماعية جديدة واجهوا إحباطا في استعمال الحاسبات وفي بعض الحالات هجروا استعمالها. والمعلمون الذين كانوا

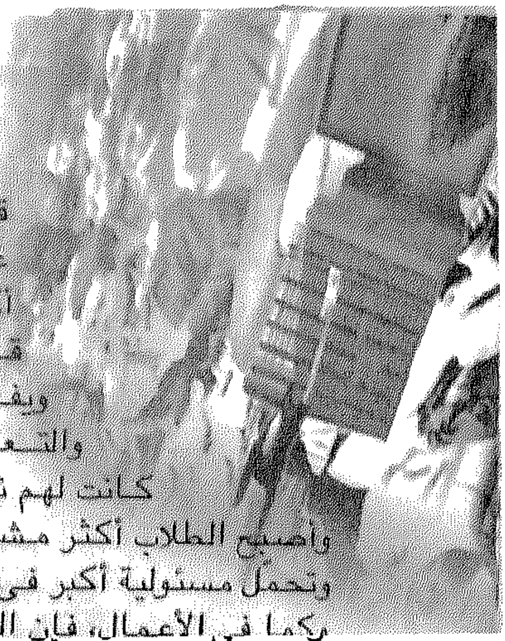

قادرين على خلق علاقات اجتماعية أكثر مرونة فى قاعات الدروس ويفعلون الأنشطة، والتعليم التعاونى، كانت لهم نتائج إيجابية. وأصبح الطلاب أكثر مشغولية وتحفيزا وتحمل مسئولية أكبر فى عملية تعليمهم. وكما فى الأعمال، فإن العنصر الرئيسى الذى يقرّر نجاح الإصلاح كان رؤية المنفذية، التى تمثل معتقدات المعلّمين، التى تطوّرت بمرور الوقت وتأثّرت بكمّية الدعم التى حصل عليها المعلمون من المدراء، ومدى وصول المعلمين وطلابهم إلى الحاسبات، ونتائجهم الأولية التى حصلوا عليها من تقديم الحاسبات فى قاعات دروسهم، بالإضافة إلى فلسفة المعلّم التربوية الدفينة.

وفى دراسة وارشاير، إم Wars-chauer, M . عام ١٩٩٩ عن التعليم الإلكترونى: اللغة، ثقافة، والقوّة فى التعليم العلى الخط. حيث درس التعليم المحسن عن طريق الإنترنت فى ثلاث كليّات وجامعات وجدت نتائج مشابهة. وبينت الدراسة بأنّ الطريقة التى قدّم بها المعلمون الحاسبات كانت معتمدة بشدّة على اعتقاداتهم حول التعليم وعمليات التعلم. والمدربون الذين آمنوا بالتعليم التعاونى المركز على الطالب استعملوا الحاسبات لتسهيل ذلك. والمدربون الذين آمنوا بالتعليم التعاونى المركز على الطالب استعملوا الحاسبات لتسهيل ذلك. والمدربون الذين فضّلوا حالة التعليم المتحكم من قبلهم حاول استعمال الحاسبات بطريقة ما تسهل ذلك. بكلمة أخرى، استعملوا المعلمون الحاسبات لمحاولة أداة أفضل لتطبيق رؤيتهم.

فالمعلمون الذين كانوا يديرون قاعة الدروس بطريقة أكثر مركزية وجدوا الإنترنت كانت أداة قويّة لتطبيق تلك، وهم سمحوا بأن تكون قاعة الدرس أكثر ديناميكية بالمقارنة بإمكانيات الاتصال غير المركزى الذى سمح به قبل الإنترنت. وفى هذه الأثناء، المعلّم الذى حاول استعمال الإنترنت على نحو مسيطر عليه جدا، واجه مقاومة من الطالب. والطلاب الذين كانوا يمارسون السلبية بدون الحاسبات والإنترنت كانوا أقل رغبة فى تلك السلبية فى قاعة الدروس المشبّكة على الإنترنت. فى هذه الحالة، بدلا من ترك استعمال الحاسبات، بدأ المعلّمون بإعادة النظر فى معتقداتهم حول التعليم وعمليات التعليم بحيث يسمحون للطلاب بسلطة وسيطرة أكثر.

الأعمال التجارية بين الأتمتة (التشغيل الآلى) والمعلوماتية

من الأبحاث الأكثر تفصيلا على تأثير الحوسبة على العلاقات الاجتماعية فى الأعمال التجارية أجرت من قبل سوشانا زوبوف Sushana Zuboff، الأستاذ فى كلية الأعمال فى هارفارد، وظهرت فى كتابه عام (١٩٨٨) الذى نشر فى نيويورك. تحت عنوان فى عصر الماكينة الذكية: مستقبل العمل والقوة، حيث درس ثمان شركات أمريكية بتعمّق على فترة خمس سنوات فى الثمانينات لتقييم تأثير الحوسبة التى أجريت على عملياتهم. لاحظ زوبوف مبدئيا أن العاملين توقّعوا أن الحاسبات سوف تساعدهم على أتمتة وميكنة مهامهم، لكن بينما تخفى الأتمتة أو التشغيل الآلى العديد من العمليات وتجملها فى المشروع العامّ، نجد تقنية معلومات بدلا من ذلك تنير مثل هذه العمليات. بكلمات أخرى، تحسّن تقنية المعلومات معدل الإنتاج ليس بإزالة وتبديد

المعلومات والسيطرة من قبل الأشخاص (كما فى الأتمتة)، لكن بالأحرى بتوسيع الحصول على المعلومات ونشرها وزيادة دائرة الأشخاص المسيطرين عليها. واستعمل زوبوف المصطلح informate (تبليغ ونشر أو توصيل المعلومات، أو التأهيل بالمعلومات أو اختصارا المعلوماتية) لوصف هذه العملية.

وأظهرت دراسة زوبوف بأنّ الشركات التى كانت قادرة على صناعة التغيير فى الأتمتة إلى المعلوماتية من خلال تعلم كيفية تجريد أكثر للسلطة والسيطرة عليها فى كافة أنحاء موقع العمل، كانت أفضل قدرة على استغلال ثورة المعلومات، سواء كان ذلك مقاسا بمعدل الإنتاج المتزايد، أو بمدى هدوء العمليات الإدارية، أو مدى رضى المستخدمين. والشركات التى لم تستطع القيام بالتغييرات اللازمة للتحول من الأتمتة إلى المعلوماتية واجهت الكثير من المشاكل.

وأكد عامل التشتت الإحصائى فى دراسة زوبوف على مقولة «إذا لم تترك الناس تنمو وتطوّر وتتّخذ قرارات أكثر، فإن ذلك ضياع لإمكانيات البشر، وإذا لم تستعمل معرفتك ومهارتك، فأنت تضيع الحياة». بل إن البعض مثل Huber, G.P هوبير، جى. بى. فى ورقته المنشورة عام (١٩٩٠) فى Academy of Management Review تحت عنوان نظرية تأثيرات تكنولوجيات المعلومات المتقدمة على التصميم التنظيمى، والتفكير واتّخاذ القرار، توقع بأنّ طبيعة تقنية المعلومات ذاتها ستسبّب قيام الشركات بتغييرات فى تصميمها التنظيمى. لكن نتائج زوبوف أوجدت دلائل مناقضة لوجهة النظر الحتمية هذه. فالشركات التى درست كل جوانب المعلوماتية، بعضها كان غير قادر على إجراء التعديلات الضرورية لاستغلال تقنية المعلومات بالكامل، وهكذا عانت من المشاكل. لكن تقنية المعلومات خلقت الشروط التى تأكّد أن أنواعاً معينة من التغييرات قد تكون مفيدة.

ونتائج دراسة زوبوف تكمّل نتائج كلنج Kling, R وزومويدزيناس Zmuid Zinas,M عام (١٩٩٤)، التى نشرت فى Revue International de Sociolongie، تحت عنوان التكنولوجى والايدولوجى والتحولات الاجتماعية: دراسة حالة الحوسبة فى تنظيم العمل. التى فحصت تطوير ٤٠ مجموعة عمل على مدى ثلاث سنوات، ووجدوا مثل زوبوف أن التحويلات فى الهيكل التنظيمى لم تكن موحدة ومتشابهة، لكنها اعتمدت على عوامل مثل الإيديولوجيات الإدارية الملائمة لتنظيم العمل، استراتيجيات تطبيق الغير التكنولوجى، التنظيم الاجتماعى للدعم التقنى والعمل القوّة المهنية للعامل ومجموعة العمل، ودرجة تكامل المستعمل ومجموعة العمل مع الحوسبة ، وظهر عنصر أساسى فى عملية التحويل هى مجموعة الاعتقادات والرؤى المرتبطة والتى توجّه فلسفات النتائج المطلوبة من منظمة العمل، ودور استعمال الحاسبات فى إنجاز تلك النتائج. ووجدوا أيضا أن تلك الرؤى فى موقع العمل ما كانت ساكنة، لكن أثّر عليها مجموعة من العوامل الاجتماعية والعوامل التكنولوجية.

الإنترنت والعرب

من الصعوبة الكبيرة دراسة تأثير الإنترنت على كامل المجتمع، لأن هناك العديد من المتغيرّات التى تشترك وتؤثر وتفعل التغيير الاجتماعى الحضارى. وطريقة واحدة تجعلنا نختبر هذه القضية

بأن نفحص الحالة في البلدان التى تحكم من قبل أنظمة استبدادية وسمحت بدخول الإنترنت، وهل نتج عن ذلك تغييرات سياسية واجتماعية؟ في القاهرة يوم ٧ يونيه ٢٠٠٤، أكدت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان أن أغلب الحكومات العربية لم تستثن الإنترنت من القيود الصارمة المفروضة على وسائل الإعلام المختلفة، وأن تضييق ساحة العمل السياسى أثر سلبا على العديد من مواقع الإنترنت ومستخدميه. وقالت «الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان» فى أول دراسة تنشرها، والتى تعد أول دراسة عربية عن الرقابة على الإنترنت فى العالم العربى، تحت عنوان «الإنترنت فى العالم العربى: مساحة جديدة من القمع؟» أنه ضمن أحد عشر دولة عربية تضمنتها الدراسة، لم تتح حرية نسبية لمستخدمى الإنترنت سوى فى ثلاث دول هى الأردن والإمارات العربية المتحدة وقطر، وأن ثماني دول ممن شملتها الدراسة تفرض قيودا أمنية شائعة بالعالم العربى، وكانت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، قد بدأت فى إعداد دراستها لتسليط الضوء على استخدام شبكة الإنترنت فى العالم العربى من حيث عدد المستخدمين وأسباب قلتهم، وأسباب تراجع اللغة العربية على الإنترنت، إلا أن المادة التى توفرت لديها من خلال ما نشر بوسائل الإعلام وبعض الدراسات الأجنبية التى أعدت عن الإنترنت فى المنطقة العربية وبعض اللقاءات الميدانية، قد جعلتها تعجل بإصدار تلك الدراسة، لتدق ناقوس الخطر وتؤكد انه على عكس المقولات الشائعة فإن الرقابة والمنع تعتبر ضمن السياسات المسئولة عن عدم انتشار الإنترنت فى العالم العربى بالإضافة إلى مشكلتى الأمية والفقر التى تعوق العديد من المستخدمين المحتملين عن النفاذ إلى شبكة المعلومات الدولية أو الإنترنت، وإن الحكومات العربية تتعلل دائما بحماية القيم الإسلامية والآداب العامة، إلا أن تلك الذريعة غالبا ما تستخدم كغطاء يتم تحته حجب المواقع التى تندد بممارسات تلك الحكومات سواء أكانت سياسية أو حقوقية، بل إن بعض الحكومات تحجب منتديات حوارية. وهى نتيجة منطقية لأن أغلب تلك الحكومات العربية معادية لحرية التعبير وحريات أخرى سياسية أو حقوقية. ونبهت الدراسة إلى أن بعض الدول تعتقل مواطنيها لمجرد تصفحهم لمواقع أحزاب أو قوى معارضة، بينما تنصب دول أخرى الفخاخ على الإنترنت لفئات اجتماعية بغرض الإيقاع بها، دون الأخذ فى الاعتبار مدى قانونية تلك الوسائل. وتفضح الدراسة زيف ادعاءات دولة مثل تونس تزعم أنها جديرة باستضافة اجتماع «المرحلة الثانية من قمة مجتمع المعلومات». وتطالب الشبكة العربية بألا يساهم المجتمع الدولى فى تدعيم أكذوبة حرية الرأى بتونس والتواطؤ فى زيادة معاناة المواطن التونسى من نظام حكم لا يقيم اعتباراً لقيم حقوق الإنسان أو حريات مواطنيه. وتقع الدراسة فى ٨٠ صفحة ويمكن الحصول على نسخ مطبوعة من مقر الشبكة إضافة إلى النسخة الإليكترونية المتوفرة على الإنترنت. والمتتبع للظروف والاعتبارات التى تحكم استخدام الإنترنت فى المنطقة العربية، سوف يجد نفسه بحاجة لإعادة التفكير مرة بعد أخرى إن كانت مقولة جون بيرى بارلو التى افتتحنا بها المقال، والتى أعلنت استقلال الفضاء التخيلى للإنترنت تصدق على مستخدمى

الإنترنت فى تلك البقعة من العالم أم لا! فعلى الرغم من النمو النسبى السريع لعدد مستخدمى الإنترنت فى المنطقة العربية، حيث يكاد عددهم يصل إلى حوالى ١٤ مليون مستخدم، وكذلك وصول تلك الخدمة لجميع بلدان المنطقة، إلا أن العديد من مستخدمى الإنترنت بالعالم العربى، قد بدأوا يطرحون بعض الأسئلة الهامة من نوع: هل تتمتع مراسلاتهم أو مشاركاتهم على الإنترنت بالحرية التى كانوا ينشدونها فعلا؟ هى يتيح لهم الإنترنت فعليا، مساحة من الحرية يفتقدونها بشكل واضح فى حياتهم، إزاء غياب الحريات الأساسية ضمن أغلب ربوع المنطقة؟ أى قانون سيطبق عليهم فى حال تجاوزهم الخطوط الحمراء التى تتحدد أساسا ضمن قواعد واعتبارات متغيرة باستمرار، وغير واضحة؟ ويرى العديد من المهتمين بحرية الرأى والتعبير أو الإنترنت قد أتاح فرصا واسعة أمام كم هائل من المواطنين فى مختلف بلدان العالم، ومن ضمنها البلاد العربية فى التعبير عن آرائها والإعلان عن أنفسهم، ولا سيما المجموعات التى لم يكن متاحا لها بالسابق التعبير عن نفسها وطرح أفكارها وهمومها لأسباب قد تكون سياسية «جماعات المعارضة السياسية يسارية وإسلامية أو جماعات حقوق الإنسان»، أو أسباب دينية «مثل الطوائف المختلفة» أو لأسباب ثقافية ودينية مجتمعة. وقد بدا واضحا أن تلك المجموعات قد استفادت فعليا من الإمكانيات الهائلة التى تتيحها شبكة الإنترنت لمستخدميها، لا سما المنتمين للرؤية الإسلامية، سواء كانوا منظمين ضمن مجموعات أم لا إلا أن تلك المجموعات وعلى اختلاف مرجعياتها قد أدركت سريعا، أن الحكومات قد دخلت بدورها حلبة الصراع وبدأت تبذل الجهد لتحكم حصارها على هذه الوسيلة الجديدة التى قد تسبب لهم بعض المشاكل نتيجة لتلك المساحة من الحرية البعيدة عن سيطرتها، فلجأت إلى الأساليب العادية التى تسم أغلب الحكومات العربية عند تعاملها مع مسألة حرية الرأى والتعبير وهو المصادر والرقابة، فضلا عن استخدامها للوسائل الجديدة والمتعلقة بهذا الوافد الجديد مثل تحكمها فى المنبع من خلال برامج الفلترة الإليكترونية، كما تلجأ بعض الدول إلى احتكار تقديم الخدمة مثل السعودية وتونس حتى شهور قريبة فضلا عن استخدام الحل الشائع والتقليدى، وهو تلفيق القضايا والزج بمن يتجاوز الخطوط الحمراء - غير المعروفة أصلا - داخل السجون بدعاوى واهية مثل الإساءة لسمعة الدولة، السب والقذف، أو لحماية الآداب والقيم العامة... إلخ. بل أن بعض الحكومات العربية قد اختصرت الطريق تماما بحرمان شعوبها أصلا من الاتصال بالإنترنت مثل حكومة الرئيس العراقى السابق صدام حسين، الذى برر منعه لاستعمال شبكة الإنترنت وحتى عام ٢٠٠٠ بزعمه أن شبكة الإنترنت «وسيلة دعاية أمريكية». ويبدو أن العديد من الحكومات العربية قد فاتها فى بداية استخدام الإنترنت أنه يمنح مساحة واسعة لكل مستخدميه، سواء كانوا مؤيدين لها أم لا، فراحت تطلق التصريحات الرنانة وتشجع الجهات الحكومية على استخدامه فضلا عن بعض الإعفاءات الجمركية على مستلزمات الكمبيوتر تشجيعا لمواطنيها على اقتنائه واستخدامه. إلا أن تلك السياسات التشجيعية سرعان ما بدأت تتراجع نظرا لأن شبكة الإنترنت، تمنح كل إمكانياتها لكل مستخدميها، دون أن تفرق بين حكومى ومعارض، ضابط أو ناشط

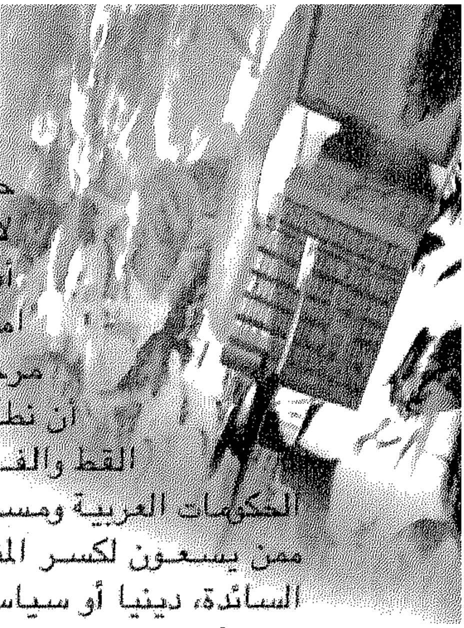

حقوقى، دينى أو لادينى، أسود أو أبيض، رجل أو امرأة... إلخ. لتبدأ مرحلة أخرى يمكننا أن نطلق عليها «لعبة القط والفأر»، بين أغلب الحكومات العربية ومستخدمى الإنترنت، ممن يسعون لكسر المنظومة القيمية السائدة، دينيا أو سياسيا أو ثقافيا، أو بمعنى آخر من يسيرون فى عكس اتجاه الحكومات. وكعادة العرب ارتدت الإنترنت عباءة دينية، والتى انتشرت فى منطقة الخليج العربى وامتدت لتطال العديد من البلدان العربية الأخرى، بل وبعض البلدان الإسلامية غير العربية مثل أفغانستان وباكستان والكثير من الجاليات العربية بأوربا وأمريكا الشمالية، ولذلك لم يكن الكثير ممن يطلع على إحصائيات حول المحتوى العربى على الإنترنت، ليقف كثيرا حول نسبة تلك المواقع بالنسبة للمواقع ذات المحتوى المختلف، والتى وصل تقدير البعض لها إلى ٦٥٪ من المواقع العربية، ويلاحظ أن الكثير من هذه المواقع قد نجت من الحجب والفلترة التى تلجأ لها العديد من الدول العربية، رغم ما يحمله الكثير من تلك المواقع من دعاوى الكراهية لفرق وجماعات إسلامية أخرى وهو أمر يعبر عن رضا تلك الدول عن مضمون تلك المواقع، أكثر منه إيمانا من تلك الدول بحرية الرأى والتعبير وتداول المعلومات وعلى الرغم من تراجع تلك الظاهرة بعض الشئ نظرا للتوسع الذى شاب كلا من عدد مستخدمى الإنترنت وكذلك عدد المواقع العربية على الشبكة، إلا أنها لم تختف تماما، وإن تحول البعض منها لاستخدام لغة أقل حدة فى مواجهة الآخر، وتحول البعض الآخر والأكثر تشددا، إلى الحرص واستخدام أكثر من اسم ومستضيف، لاسيما بعد حادثة الحادى عشر من سبتمبر. وبدء ملاحقة الكثير من تلك المواقع المتشددة سواء من الولايات المتحدة و الحكومات العربية. ويمكننا أن نلحظ تخفيف حدة التشدد تلك، فى مواقع عرفت بغلوها وتعصبها مثل موقع الساحة العربية، سوالف، بوابة الإسلام، اسلاموای، شبكة سحاب، وغيرها.

المعارضة العربية

ومثل الإنترنت فرصة جيدة أمام أحزاب وجماعات المعارضة العربية، حيث سمح للعديد منها بزيادة التواصل مع مؤيديها، فضلا عن كسب تعاطف وتأييد المزيد من المواطنين، نظرا لسيطرة الحكومات العربية على وسائل الإعلام التقليدية بشكل محكم، كان يصعب معه أن تخرج مقالة أو خبر أو تعليق يتضمن نقدا لسياسات تلك الحكومات، حتى وإن تم ذلك، ففى السجون العربية متسع للمزيد من الصحفيين وأصحاب الرأى. وكان من الملاحظ أنه مع زيادة القمع الذى تمارسه دولة ما ضد معارضيها، كانت أعداد المواقع المعارضة لها تزيد بدورها، خاصة وأن العديد من تلك المجموعات المعارضة وقد ضاقت بها أوطانها نظرا للقمع الشديد الذى تواجه به، قد لجأت للمنفى وراحت توظف كل الإمكانيات المتاحة لها بالبلدان التى لجأت إليها فى محاولة حشد مؤيديها وفضح ممارسات تلك الحكومات وكان الإنترنت وسيلة هامة ضمن وسائلها. ومع قصور التشريعات القائمة عن التعاطى مع المستجدات التى طرأت على وسائل النشر، فعبر الإنترنت، يمكنك أن تنشئ موقعا من خلال حجز مستضيف HOST من دولة وتقوم بنشر موضوعاتك وأنت فى دولة أخرى، ثم تقوم دولة ثالثة بالقبض عليك رغم أنك أثناء نشرك لتلك

الموضوعات، لم تكن دولة المستضيف أو الدولة التى قمت بالنشر فيها تعتبر ما نشرته هذا جريمة معاقب عليها. وتلك التعقيدات التقنية قد تلقى ظلالا من الشك تشوب عدالة المحاكمة لإحدى الجرائم التى قد تتم بواسطة الإنترنت.

ملخص الموضوع أن الحكومات الاستبدادية، من ضمنها الحكومات العربية سمحت للإنترنت فى بلدانهم، فتحت ظروف مسيطر عليها، وفى معظم هذه الدول، تصل الإنترنت لنسبة مئوية صغيرة فقط من السكان ولو أن ذلك قد يكون بسبب التنمية الاقتصادية المنخفضة، أو مجموعة القيود الحكومية. وفى بلد استبدادية واحدة هى سنغافورة كان اختراق الإنترنت عاليا جدا، وهى تزودنا بمثال أفضل لفهم التأثير المحتمل للإنترنت حيث تبين فى دراسة غارى رودان Garry Rodan (١٩٩٨) تحت عنوان الإنترنت والسيطرة السياسية فى سنغافورة صدرت عن مركز البحوث الآسيوى فى جامعة مردوخ Murdoch فى استراليا، أوضح رودان كيف سعت سنغافورة من خلال خطة إستراتيجية منذ عام ١٩٩٢ لتطوير البلاد وجعلها جزيرة ذكية، من خلال شبكة سريعة وطنية توصل البث التليفزيونى، والهواتف والصور، والدروس التفاعلية، والأماكن الإلكترونية من الأعمال التجارية وغيرها، وأصبحت سنغافورة فى ترتيب الدول فى مقياس العولمة من أول الدول، وأكثرها انفاتحا على العالم الخارجى، وشكل النمو السريع للإنترنت فرصا إقتصادية كبيرة لسنغافورة وفى نفس الوقت تهديدا سياسيا خطيرا، حيث فتحت الأبواب إلى مجموعة من وجهات النظر السياسية والاجتماعية لا تسمح بنشرها عادة أجهزة إعلام البلاد المسيطر عليها بشدة ولصد هذا التهديد بدأت الحكومة تعليمات صارمة فى وضع الإنترنت تحت السيطرة وأجبرت كل مزودى خدمة الإنترنت لمنع توفر محتوى مكروه (يتضمن ذلك المحتوى الذى يستطيع أن يثير سخطا ضد الحكومة أو يقوض الثقة العامة فى إقامة العدالة).

هذه الرقابة الصارمة، اندمجت مع جهود حكومة سنغافورة نفسها فى نشر وجهات نظرها على الإنترنت، وساعد ذلك على دعم مناخ الخوف والتخويف وخلق فرص جديدة لنشر الدعاية والمعلومات لصالح الحكومة. ونشرت جمعية «مراسلون بلا حدود» أن شركتى «ياهو» و«جوجيل»، اللتين يعتمد عليهما مئات الملايين من البشر للبحث عن الإنترنت، قد رضختا لطلبات الحكومة الصينية وتقومان بممارسة الرقابة على طلبات البحث عن المعلومات التى تردهما. وقالت الجمعية التى تضم مراسلين صحفيين أن الشركتين الأمريكيتين تقدمان تنازلات تمس حرية التعبير بصورة مباشرة ونددت جمعية «مراسلون بلا حدود» بهذا النفاق وطالبت بأن تتخلى شركتا «ياهو» و«جوجيل» عن سياساتهما غير المسئولة وأن تتعهدا باحترام حرية المعلومات حتى خارج الولايات المتحدة.

وجدير بالذكر أن قانون حرية الإنترنت العالمى The Global Internet Freedom Act الذى تطالب جمعية مراسلون بلا حدود بتطبيقه على الشركات الأمريكية الخاصة هو قانون أمريكى اقترحه النائب كريستوفر كوكس Chris-topher Cox على مجلس النواب الأمريكى الذى أقره فى يونيو ٢٠٠٣ وكان غرض هذا القانون هو مكافحة الرقابة التى تمارسها أنظمة قمعية.

الإنترنت ليست رصاصة سحرية

والحقيقة مازال الوقت مبكر جدا

للحكم على التأثير الطويل المدى للإنترنت فى الدول الاستبدادية ولو أنه من السهل ملاحظة النوادر الإيجابية فى الكيفية التى يستعمل بها الناس الإنترنت للمساعدة على التغلب على، أو على أقل تقدير نشر وإذاعة القمع الحكومى والمجتمعى. فالمعارضون السياسيون، والشواذ والسحاقيات فى الصين وفى الدول العربية يرتبطون ببعضهم البعض على الشبكة ويستعملون مستضيف HOST مقره فى أمريكا وأوروبا، لإثبات حقوقهم السياسية وحقوقهم فى حياة طبيعية، ووسائل الإعلام المستقلة فى صربيا تعلن على المجتمع الدولى من خلال الإنترنت فضائح القمع الحكومى ومحاولات إغلاقها. ونشطاء اجتماعيون من كل القطاعات يستعملون الإنترنت للاشتراك فى المعلومات وتنظيم الاحتجاجات والمظاهرات وينشرون أسبابهم.

إن الإنترنت وحدة بالتأكيد ليست رصاصة سحرية ستجرف وتزيح كل الظلم والقمع، لكنه يزود الجمهور بأداة مهمة يستطيع بها المساعدة على موازنة القوة من فوق.

نحو نظرية انتقادية لتكنولوجيا الإنترنت

فى تحليل الأمثلة السابقة من سياقات العمل، والتعليم والتربية ومن السياقات الاجتماعية والحضارية، يظهر نمط مشترك، أن الإنترنت لوحدها لا تحدث أى آلية، ولا يمكن تحديد نتائجها سواء السلبية أو الإيجابية مسبقا، حيث يعتمد تأثير الإنترنت على التحويلات والتغييرات الواسعة فى السياقات المؤسساتية والاجتماعية لكن كما لاحظ كرانزبيرج فى مقالته عام ١٩٨٥ كما ذكرنا فى أول المقال، بأن التقنيات الجديدة فى الحقيقة لا هى جيدة ولا هى سيئة، ولا تشير ضمنا إلى أنها محايدة وتصميم الإنترنت وتاريخها، انبثق من صناعة الاتصالات فى الولايات المتحدة، الذى حمل معه انحيازا أكيدا. بعض مظاهر هذا الانحياز قد يرى سلبيا لفرض الحرية الإنسانية، فالاستعمال الكامل للإنترنت يتطلب وصولا عادة إلى مصادر مثل (حاسبات، خطوط هاتف، اللغة الإنجليزية، إلخ) وهذا متوفر فقط لأقلية من الناس فى العالم. بهذا المعنى، الإنترنت تستطيع تصعيد ظاهرة عدم المساواة فى الحصول على المعلومات والقوة لكن فى معنى آخر، الإنترنت هى الوسيط الأكثر تحررا وإبداعا، فأولئك الذين يدخلون الإنترنت ويملكون اللغة وهجائية الكمبيوتر ومهارات الاتصال يستطيعوا استلام، وتبادل، ونشر كمية لم يسبق لها مثيل من المعلومات بدون امتلاك واستعمال قنوات الإعلام الجماهيرى الرئيسية بالضرورة، لذلك عندما تدخل بدايات الإنترنت مجتمع ما تساعد على إحداث تغييرات جوهرية فى الدينامية الاجتماعية وبينما تنتشر الإنترنت، يصبح الاتصال من تحت ممكنا ومتاحا من كل الأنواع ويعلن التحدى إلى أولئك الذين يريدون فرض السيطرة من فوق. وكما لاحظ زوبوف فى كتابه عام ١٩٨٨ الذى نشر فى نيويورك تحت عنوان فى عصر الماكينة الذكية لاحظ أن عمليات نشر وتوصيل المعلومات informating أكثر عمومية، لكن قوة عملية النشر والتوصيل المستمدة من الإنترنت تضع المعرفة والسلطة على خط اصطدام معا فعندما يكون الناس قادرين على نحو متزايد فى الوصول إلى المعلومات، والاتصال بسهولة

مع الآخرين فى مجتمعهم أو حول العالم، وينشرون وجهات نظرهم بشكل مستقل، يصبحوا عادة أقل رغبة فى أن يقبلوا سيطرة اعتباطية على حياتهم من فوق. لكن هذا نفسه لا يضمن حرية سياسية، فأولئك الذين فى السلطة يستطيعون أيضا استعمال الإنترنت أيضا لمراقبة ومهاجمة المواطنين أو المستخدمين، لكن الحرية تبدأ ليست فى الهيئات التشريعية، ومجالس إدارة شركات، أو الإدارات التربوية، لكن الحرية تبدأ فى الروح الإنسانية. وفى كل مرة يستعمل الناس الإنترنت للوصول إلى معلومة منعت عليهم من قبل، ويتصلون بشخص كان يصعب الوصول إليه سابقا، أو يتواصلون من أعماق قلوبهم فى المشاركة فى الرسائل ونشرها، حيث لم يكن ممكنا أن ينشروها قبل الإنترنت، أعتقد بأن كل ذلك يقوى ويدعم الروح الإنسانية على مقاومة السلطة من فوق.

الإنترنت لن تكون بساطا سحريا نركبه إلى الحرية. أو تكون المصعد إلى الحرية، ولكنها مصعد متعطل، لأنه يجب أن تستعمل السلالم خطوة خطوة. فدخول الإنترنت يستطيع بداية رج مؤسسات المجتمع بعنف ومساعدة الناس على أن يروا ويدركوا الإمكانيات التى لم يروها ويدروكها من قبل. ودخول الإنترنت أيضا يستطيع أن يساعد على تسهيل الإمكانيات الجديدة لمكافحة وعرقلة الحرية الإنسانية لكن الحصول وإحراز الحرية الإنسانية يجئ فقط من العمل الشاق لإنجاز التغيير الشخصى والمؤسساتى. وفى بعض الأحيان، ممثلى السلطة، سواء السياسيين أو كبار رجال أعمال، أو المدراء التربويين، يكون عندهم منظور مستقبلى فى الكيفية التى تستطيع بها الإنترنت نشر وتوصيل المعلومات لمجتمعاتهم ومؤسساتهم ويطلقون الإصلاحات التى تنقل القوة والسيطرة إلى الأشخاص فى القاعدة (الناس اللى تحت) فى أغلب الأحيان سيكون أولئك الناس اللى تحت - مواطنين، عمالا، طلابا، معلمين - هم الذين يخطفون ويمسكون الإمكانيات والقدرات التى تعطيهم إياها الإنترنت ولم يعهدوها من قبل لأنفسهم ويكافحون من أجل الحصول على القوة والسيطرة والحرية، وفى أغلب الأحيان ضد المقاومة من فوق.

والإنترنت، مثل التقنيات الأخرى، ستكون موضعا للنضال، والكفاح، كما هو مقترح من قبل النظرية الحرجة من التقنية وهو ما عناه فينبيرج بالذرائعية وهى مذهب يقول إن فائدة الشئ هو التى تقرر قيمته، وذلك فى كتابه النظرية الحرجة للتقنية الصادر فى نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٩١. وقال فيه إن الاستجابة البديهية للحتمية التكنولوجية تعرف بالذرائعية، وبكلمات آخرى نقول إن وجهة النظر التى تقول إن الإنترنت مثل أى تكنولوجى مجرد أداة توظف طبقا للغرض المستهدف من هذا المنظور، الإنترنت لا هى جيدة ولا هى سيئة، لكن محايدة جدا، وتأثيرها على المجتمع سيعتمد على كيفية نشرها وتوظيفها.

ونزعم فى النهاية أن تقنيات المعلومات الجديدة تزود الإنسان بوسائل قوية للمساعدة على جعل القرن الحادى والعشرين الأكثر حرية للإنسانية، سواء فى سياقات تربوية، أو مهنية أو اجتماعية حضارية. لكن لإنجاز مثل هذه الحرية تتطلب نضالا وكفاحا والتزاما، فى مدارسنا، ومواقع عملنا، ومجتمعنا. ■

البعد الغائب
فى تدريس اللغة العربية

بقلم
د. سعد دعبيس *

لعنا .. لا نكون مبالغين فى التصور .. حين ندعو إلى ضرورة إسهام الفنون المعاصرة فى تطوير حياتنا العلمية ، ونحن حين ندعو إلى ضرورة الارتباط الوثيق بين الفنون المعاصرة ، وتدريس اللغة العربية بالجامعات ، لا نريد أن نقحم على الثقافة العربية بعامة ، واللغة العربية بصفة خاصة ، دعائم ليست ضاربة بجذورها فى واقعنا الحياتى المعاصر ، نحن لا نريد القفز على ثقافة المجتمع العربى ، بل .. نريد صحوة ثقافية تجعلنا نعيد النظر فى كثير من المسلمات ، إن إلفنا لبعض المقولات النقدية ، أو الاتجاهات الأدبية ، ومرورنا عليها يوميا .. دون تأملها ، ودون إعادة النظر العميق إليها .. هذا الإلف اليومى للأشياء والمناظر ، والنظم والآراء ، يمكن أن يقود مسيرتنا الفكرية والأدبية .. إلى العقم .. إلى التجمد والتحنيط .. فى ثلاجة الصوت الواحد والرأى الواحد .. ثم .. السير .. نياماً .. فى متاحف التاريخ ؟

إن الفنون المعاصرة .. لا ينبغى أن تنفصل عن تدريس اللغة العربية بجامعاتنا العربية ، ذلك لأن هذه الفنون قد أصبحت - فعلا - نسيجا مؤثراً ، وفاعلاً إيجابيا فى لغتنا العربية المعاصرة ، منذ بدايات عصر البعث والإحياء .. على يد المسرحيات الشعرية «لشوقى» ، وروائع الشعر العربى المغناة من أمثال قصائد : «يا جارة الوادى» وسلام من صبا بردى أرق و«الصبا والجمال ملك يديك» و«من أى عهد فى القرى تتدفق» و«ريم على القاع بين البان والعلم» تلك الروائع التى التقى فى إبداعها : فن الشعر ، بفن

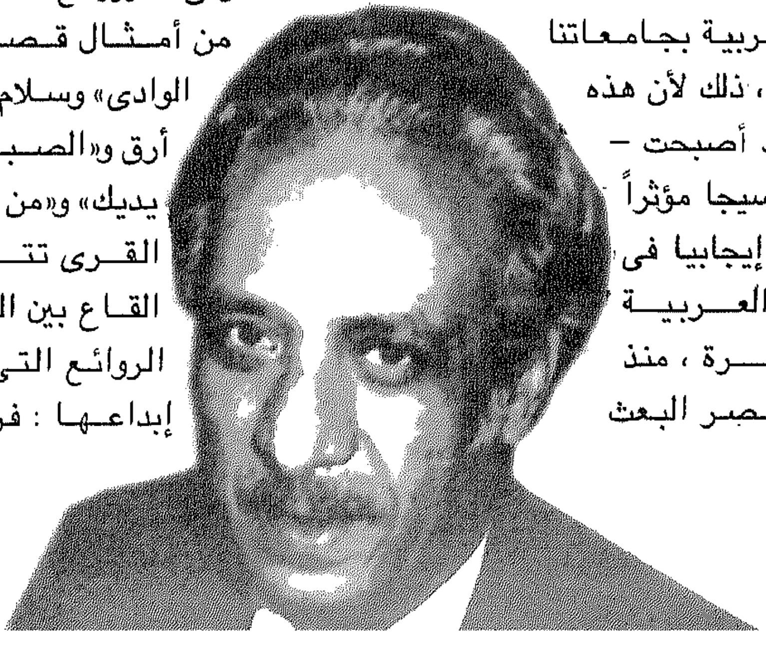

الموسيقى والغناء ، والتى تعانق فى ظلها شعر (شوقى) بمصر وشعر (الأخطل الصغير - بشارة الخورى) بلبنان ، والعبقرية الموسيقية والغنائية لمحمد عبد الوهاب ، وأم كلثوم ، وفيروز .. وغيرهم !

اللغة ملتقى الفنون

إننا ندعو - وبكل قوة - إلى أن تعود هذه الفنون المعاصرة .. مرة أخرى .. وبأسلوب جديد ومنهج جديد .. لتؤدى دورها .. فى تدريس اللغة العربية بالجامعات العربية .. ومما يؤسف له .. أن هذا الدور غائب» .. فى الواقع التدريسى الآن .. وغائب أيضا .. فى تفكير بعض المثقفين .. بل .. وفى أذهان كثير من الأكاديميين المتخصصين ! إنهم يظنون حين يسمعون عن قضية تدريس اللغة العربية بالجامعات ، أن المقصود بتلك العبارة تدريس علوم اللغة والنحو والصرف ، وبعض النصوص الأدبية بالإضافة إلى البلاغة والنقد الأدبى والعروض .. وهذا تصور خاطىء .. لأن اللغة العربية المرتبطة بمتغيرات العصر - فى اعتقادنا وتصورنا - بالإضافة إلى المواد السابقة - هى أيضا " ملتقى ثقافات عديدة ، وفنون معاصرة ، لها أهميتها فى تشكيل اللغة ، وبنائها الفكرى والتعبيرى والجمالى .. نعم هى ملتقى خصب .. وجميل ورائع .. أيضا لفنون الموسيقى والغناء والمسرح والسينما والقصة .. بل و(الأوبرا) .. أيضا .. ويحضرنا الآن فى هذا الصدد ، مثال من الشعر العربى المعاصر ، وهو (أوبرا الأرض العالية) للشاعر المصرى الدكتور / عبده بدوى ، وكانت أول (أوبرا) تصاغ فى شعر عربى رائع ، عن قضية الإنسان والأرض فى (كينيا) وقام بصياغتها الموسيقية ، الموسيقى المصرى سليمان جميل والموسيقى الإيطالى (فيتوريوباربيرى) ! ثم .. ما هو أخطر من ذلك .. أن الشعر العربى المعاصر .. على يد ذلك الشاعر (عبده بدوى) قد استطاع أن يعانق التأليف (السيمفونى) فى عمله الشعرى الرائد (محمد .. قصيد سيمفونى.. !) وقد صدر هذا العمل الإبداعى سنة ١٩٦٩م عن دار (المصراتى للطباعة والنشر ليبيا) وقدم له الشاعر بمقدمة أوضح فيها الدوافع النفسية والفنية التى حفزته إلى ذلك الإبداع المتميز فقال : «لا شك فى أن كل جديد فى الميادين الفنية يبهر ويهز ، فكل عمل

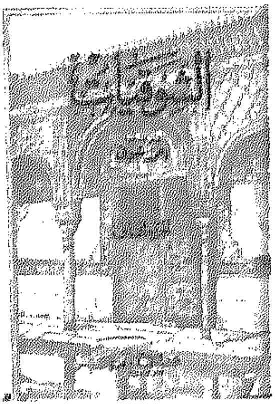

* الأستاذ بكلية التربية - جامعة عين شمس

فنى ما لم يكن إضافة ، فإنه يظل دائماً .. معانقاً للموت .. ولعله من هذه النقطة ، كان إحساسى دائماً بأن الشعر العربى قد طفح بالغنائيات ، فهو لأصالته فى النفس العربية ، ولامتداده على رقعة كبيرة فى الزمان والمكان يكاد يكون غابة مستقلة .. يكاد يكون عالما مستقلاً .. ! لهذا كنت أعتقد أن كل تطوير للقصيدة العربية القديمة ، يجب ألا يغفل هذه النفس العربية التى آتت كل هذه الثمار ، وفى الوقت نفسه يجب أن تكون امتداداً له ، وما أظلننى إلا وكنت وفيا لهذا الاتجاه ، حين تخيرت من عدة سنوات أن أقدم أول (أوبرا) باللغة العربية عن قضية الإنسان والأرض فى «كينيا» بعنوان «أوبرا الأرض العالية ..!» وبعد فترة من الزمن وجدتنى أحن إلى تقديم عمل جديد يسير فى هذا الاتجاه ، وحين تحدثت فى هذا طويلا مع الموسيقى (رفعت جرانه) استقر رأينا ، على أن نقدم قصيدا سميفونيا ، يدور حول حياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام، وقد أشار علىّ بأنه يوجد عند الفنان التشيكلى (سيف وانلى) عمل «فريد» بعنوان «الملك دواود» (King David) من أعمال الموسيقى الفرنسى (أرثر هونجير) ومن شعر (رينيه موراكس) .. وحقاً لقد بهرنى هذا العمل ، وقادنى إلى العديد من الخطوات ، وإن كنت لم أستطع أن أجرى الغناء على لسان النبى محمد عليه الصلاة والسلام - ثم يوضح الدكتور عبده بدوى بعد ذلك ، الحركات الخمس التى يتكون منها هذا القصيد السيمفونى وهى .. كما أوضحها .

الحركة الأولى : وتضم مقدمة تلخص الفرح الأكبر المنتظر للعالم ، كما تقدم الإحساس بتداعى الحضارات القديمة ، والانتظار لشىء جديد !

الحركة الثانية : تقدم الحياة فى مكة ، والتصدع الذى أصابها من الداخل ومن الخارج ، وكيف أنه بميلاد النبى يكون النذير ، لا بترميم المجتمع المتداعى ، ولكن بخلقه من جديد .. بميلاد جديد ..

الحركة الثالثة : تدور حول تلك الحياة التى عاشها النبى فى مكة ، وكيف تلقى رسالته ، ثم كيف يهاجر .. لا هربا ، ولكن لتكون رسالته فى متناول الحياة !

أما الحركة الخامسة والأخيرة: فتصور فتح مكة - وبعبارة أخرى - فتح الحياة وكيف أصبح الإسلام رسالة جديدة متكاملة ، تأخذ طريقها بعمق فى الرحلة المستمرة للزمان والمكان ، فبرحيل النبى .. لا يرحل الإسلام .. وإنما يأخذ طريقه إلى عدد من المعاقل ، لعل فى مقدمتها جميعا : قلب الإنسان .. وعقل الإنسان !

نحو الدرامية

ويمكن أن نشير هنا إلى أن ارتباط الشعر «بالدراما» ، وجد منذ نادى (أرسطو) فى كتابه «فن الشعر» بنظرية «المحاكاة» فالشعر عنده يقتصر فقط على

الشعر المسرحي ، والشعر الملحمى ، ومن الملاحظ لدى كثير من النقاد المعاصرين ، أن القصيدة العربية الحديثة تتجه اتجاهاً واضحاً نحو (الدرامية) سواء فى مضمونها النفسى والشعورى والفكرى ، أو فى بنائها الفنى .. ومن ثم يرى الدكتور / على عشرى زايد أن أبرز «التكنيكات» التى استعارتها القصيدة المعاصرة من المسرحية هى :

(أ) تعدد الأصوات والشخصيات .. حيث نرى الشاعر المعاصر .. أحيانا .. يميل إلى تجسيد بعض أبعاد رؤيته فى صور أشخاص تتصارع وتتحاور ، ومن خلال تصارعها ينمو بناء القصيدة وتبرز دراميتها .

(ب) الحوار .. وهو أيضا «تكنيك» مسرحى آخر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتكنيك تعدد الشخصيات فى القصيدة، حيث يفترض الحوار وجود أكثر من صوت ، أو أكثر من شخصية فى القصيدة ، ومن ثم فهو فى الغالب يستخدم «تكنيكا» إضافيا مع تعدد الأصوات أو الشخصيات ، ولكنه فى بعض القصائد يستخدم باعتباره تكنيكاً أساسياً ، ويتضاءل دور تعدد الشخصيات إلى جواره ..

(جـ) الكورس – أو – الجوقة – وهم جماعة المنشدين أو المغنين فى المسرحية الإغريقية القديمة ، وقد ظل «تأثير الجوقة فى القصيدة المسرحية المعاصرة ، تأثيراً واضحاً ، مع تطوير لوظيفة الكورس «إذ أصبح الشاعر نفسه – أحيانا – يقوم بدور (الكورس) كما يبدو فى إحدى قصائد «صلاح عبد الصبور» وهى قصيدة مذكرات الملك عجيب بن الخصيب» .

دور خطير

إن بعض الناس لا يدركون الدور الخطير الذى يمكن أن تؤديه الفنون المعاصرة فى تطوير حياتنا المادية والروحية والفكرية ، وكم نحن فى حاجة إلى إيقاظ وعى الناس بأهمية فن المسرح – مثلا – إذ لا تقتصر أهميته على إبداع تصور جديد للحياة فقط ، بل تتجاوز ذلك .. إلى تطوير حياة الناس ، وتهذيب مشاعرهم ، وتطهيرها من الانفعالات الضارة .. إن أهمية هذا الفن .. لتنمية الوعى الإنسانى ، وتربية الذوق الجمالى ، تنبثق من رسالته الخطيرة التى يؤديها للمجتمع .. تنبثق منذ أقدم الأزمنة من نظرية «التطهير» عند أرسطو ..

لقد كان الفيلسوف يرى أن الجوهر الرئيسى للدراما يتمثل فى نظرية (المحاكاة) أى :

محاكاة أفعال البشر ؛ لأن كلمة «دراما» عنده تعنى «الفعل» والفعل هو روح الإنسان – أو – لنقل : روح الإرادة الإنسانية ، لأن الحكاية – أو «الخرافة» التى هى سدى المسرحية ولحمتها . (وهى كذلك فى الملحمة) تمثل لنا الإنسان وهو يعمل ، والعمل هو : غاية الإرادة ، وبدونه

تصير الإرادة مجرد إمكانات لا وزن لها ، والعلم يدفع الإرادة إلى العمل ، والمحاكاة وهي موضوع الفنون جميعها، وسيلة من وسائل العلم !

وقد سما (أرسطو) بمفهوم «المحاكاة» في الشعر والفن إلى درجة عظيمة من التقدير الاحترام ، فالنون عنده - كما يقول الدكتور / محمد غنيمي هلال - تحاكي الطبيعة فتساعد على فهمها ، والفن شأنه شأن النظم التهذيبية والتربوية ، يكمل ما لم تكمله الطبيعة ، ويتمم ما عجزت الطبيعة عن إتمامه لأنه في محاكاته يكشف عما ينقصها ، والفن يجارى الطبيعة ، ويهدف إلى أغراض ، وله مناهج يقصد من ورائها إلى إكمال ما في الطبيعة بوسائلها ، فالطبيعة فيها الحصان لخدمة الإنسان والفن يصنع السرير والبيت وغيرهما ..

رسالة المسرح

لقد كان مفهوم (أرسطو) للمسرح من أوائل الإشارات الواعية التي دقت جرس الإنذار المبكر للخطورة التدميرية للمسرح التجاري المعاصر ، هذا ما يتجلى في تساميه برسالة المسرح التربوية والتهذيبية ، فلكل من المأساة والملهاة عنده غاية أخلاقية أوضحها في حديثه عن نظرية «التطهير» في المسرح، فالملهاة حين تحاكي الفعل الهزلي الناقص تطهر نفسية المشاهدين بالسرور والضحك ، وفيها نوع من التطهير ، هو : مداواة الشيء بضده ، وكذلك الشأن في المأساة التي تحقق لمشاهديها هدفاً نفسيا ، حين تثير الخوف والرحمة ، وما شاكلهما من انفعالات ، في نفوس المشاهدين ، فتؤدي إلى تطهيرها منها ، وفي هذا تكمن القيمة الأخلاقية للانفعالات التي تثيرها فنيا المسرحيات والشعر والفن بعامة ، وبهذا يكتسب المرء دربة وصلابة واعتدالا ، ويتزود بذلك للحياة الواقعية ، فيقوم عواطفه ، ويعتدل فيها، وينزع منها ما هو ضار بأمثال من رثينا لحالهم في المأساة ، فالمأساة تطهير» للرحمة والخوف ، وما يتصل بهما مباشرة من الانفعالات .. وهذه هي رسالة المأساة من الناحية الأخلاقية . وهذا هو رأى (أرسطو) في الرسالة التربوية والتعليمية والأخلاقية لفن المسرح !

إن الفن هو الوسيلة المثلى لإيجاد التوازن بين الإنسان والحياة ، بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه ، وإن أخطر وظيفة للفن - كما يرى «إرنست فيشر» في كتابه «ضرورة الفن» - أن الإنسان بالفن يسعى إلى الخروج من جزئية حياته الفردية إلى كلية يرجوها .. إلى كلية تقف فرديته بكل ضيقها .. حائلا دونها .. إنه يريد أن يتحدث عن شيء أكثر من مجرد «أنا» .. شيء خارجي .. ومع ذلك هو جوهري بالنسبة إليه ،إنه يريد أن يحوي العالم المحيط به ، ويجعله ملك يده ، وهو - عن طريق العلم والتكنولوجيا - يمد هذه «الأنا» المتطلعة المتشوفة لاحتواء العالم ، إلى أبعد مجرات

السماء ، وإلى أعمق أسرار الذرة ، كما يربط – عن طريق الفن – هذه «الأنا» الضيقة .. بالكيان المشترك للناس .. وبذلك يجعل «فرديته» اجتماعية .. فالفن وسيلة للاندماج فى الواقع .. وسيلة الفرد إلى الالتقاء بالعالم ، والتعبير عن رغبته فى التمرس بالتجارب التى يمر بها .. !

ليس الفن – إذن – كما يتوهم بعض الناس – مجرد ترفيه رومانسى حالم ، وهروب من واقع الحياة ومع أننا فى حاجة إلى الاستمتاع برؤيتنا ورؤية بعض الفنانين – أحياناً – لرومانسية الحياة وعذريتها . فإن وظيفة الفن دائماً : أن يحرك الإنسان فى مجموعه ، أن يمكن «الأنا» من الاتحاد بحياة الآخرين ، ويضع فى متناول يدها ، ما لم تكنه ، ويمكن أن تكونه .. !

ومن هذا المنطلق الذى يؤكد خطورة تأثير الفنون فى الواقع الاجتماعى ، يرى (إرنست فيشر) أن أخطر وظيفة لفن المسرح هى : تدريب الناس على تغيير الواقع ، ويستشهد على صحة ذلك الرأى يقول رائد المسرح الملحمى (برتولدبريخت) .

«إن مسرحنا يجب أن ينمى لدى الناس متعة الفن والإدراك ، ويجب أن يدربهم على الاغتباط بتغيير الواقع .. لا يكفى أن يسمع متفرجونا .. كيف تحرر (بروميثيوس) .. بل يجب أيضا .. أن يتدربوا على تحريره .. والاغتباط بهذا التحرير .. يجب أن نعلمهم فى مسرحنا .. كيف يشعرون بكل الفرحة والرضا اللذين يشعر بهما المكتشف والمخترع ، وبكل النصر الذى يستشعره الفائز على الطغيان .. !

ضد العربية !

إننا نستقبل الآن طلابا فى جامعاتنا العربية ، ربما يكون بعضهم قد تأثر بحملات دعائية تخريبية ضد الثقافة العربية ، واللغة العربية .. بل .. وضد الانتماء العربى والهوية العربية .. إنهم يتعرضون كل يوم .. عبر الأقمار الصناعية . و(الإنترنت) لحملات التغريب والتطبيع والعولمة ، تلك العوامل التى تعمل الآن على تحطيم مقومات الأمة العربية من داخلها ، مثلما تفعل الخلايا السرطانية بالجسم، وتتمثل هذه العوامل فى بعض برامج أجهزة الإعلام ، وهجوم بعض مسرحياتها غير المبرر على اللغة العربية والثقافة العربية ، ودعوة بعض الكتاب إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ودعوة فريق آخر إلى إحلال العامية محل الفصحى ، ثم تجىء هذه السيطرة المستعلية لمدارس اللغات الأجنبية ، وما نشأ عنها من نظرة دونية إلى المدارس الوطنية لدى بعض الطلاب وأولياء أمورهم ..!

كما تعرض هؤلاء الطلاب – أيضا – فى مناهج تعليمهم إلى تلك الانفصالية الحادة بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ، وما أدى إليه ذلك من فقر فى

محصولهم اللغوى العربى من مصطلحات العلوم التجريبية ، وبخاصة حين أبعدت اللغة العربية عن أن تكون لغة التدريس لهذه العلوم فى الجامعة ..!

ترى .. أى ظلم رهيب وقع على اللغة العربية الفصحى .. وأبنائها المعاصرين .. حين يجهلون أنها اللغة التى وحدت فى ثقافتها بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ، على نحو ما نجد فى ثقافة (ابن سينا) و(الكندى) و(الفارابى) حيث جمعوا فى ثقافتهم بين الشعر والفلسفة من جانب .. والطب من جانب آخر ، بل .. وأضاف أحد هؤلاء الثلاثة .. إبداعاً آخر فى مجال الموسيقى .. ولكن .. وما أقسى ثنائى المسافات والأبعاد بين رؤية هؤلاء الأعلام للثقافة .. ورؤيتنا نحن المعاصرين .. ها نحن أولاء نستقبل الآن طلابا جامعيين تعرض كثير «منهم لهذه الحملات التغريبية أو – التخريبية – وثبت لدى الكثير منهم ما يقرب من الإيمان بعقم اللغة العربية، وواجبنا الآن حين نتعامل مع هؤلاء الطلاب محاولين تقديم اللغة العربية إليهم ، أن نحاول تقديمها بمنهج جديد ، ورؤية جديدة .. ولنتساءل أولا : كيف نخترق هذا الحصار الرهيب الذى حوصرت به اللغة العربية المعاصرة فى قلب الطالب العربى ووجدانه .. كيف نزيح عن قلب هذا الطالب الجامعى وفكره .. هذه التصورات الظالمة ؟ كيف نقنعه بأن اللغة العربية هى : اللغة الموسيقية الشاعرة .. لغة الحق والحب .. والجمال .. لغة الحضارة التى أخرجت أوروبا ذات يوم من عصور الظلام إلى عصر التنوير – أو كما قال المؤرخ الفرنسى (جوستاف لوبون) : «الحضارة العربية التى مدنت أوروبا» .

الأمل فى الفنون المعاصرة

لابد – إذن – من استخدام أساليب حضارية جديدة تراعى متغيرات العصر .. إن القدر المشترك بيننا وبين هؤلاء الطلاب هو الفنون المعاصرة .. إنهم يحبون .. إلى حد ما – فنون : المسرح والموسيقى والغناء والسينما .. فلنتسلل إليهم – فى بداية تعاملنا معهم – من هذا القدر المشترك بيننا وبينهم ، من خلال ما يحبون ويألفون ، يجب ألا نفاجئهم بالتغيير الشامل ، بالجوانب الصعبة القاسية فى اللغة العربية – حسب تصورهم الخاطىء – ولنقدم لهم فى بداية عهدهم بالجامعة فى العام الأول ، ، مقرراً للثقافة العربية ، لجميع طلاب الجامعة – سواء طلاب الكليات الإنسانية أو الكليات التجريبية – بحيث يجمع هذا المقرر بين مختارات من روائع الأدب العربى ، ومختارات من الإشراقات الحضارية العربية ، واللحظات المضيئة فى تاريخ الأمة العربية ، ومختارات مبسطة من تاريخ العلوم عند العرب ، ومختارات من مسرحيات وروايات الخيال العلمى ..!

نعم .. فلنقدم لهم – مثلا – مختارات من روائع الشعر العربى «المغناة» ، لشوقى وحافظ إبراهيم ، ونزار قبانى ، وبشارة الخورى (الأخطل الصغير) ، ومحمود حسن اسماعيل وعلى محمود طه

.. وغيرهم .. مع تحليل فنى مبسط للجوانب التعبيرية واللغوية والفنية لهذه القصائد – بعد تقديمها أو تقديم مقاطع منها بصوت أم كلثوم ، ومحمد عبد الوهاب وفيروز وغيرهم .. بحيث يتعانق فى دراسة هذه القصائد : الشعر الجميل ، واللحن الموسيقى ، والصوت العذب ، والتحليل الفنى السهل البسيط والتدريب على إنشاد الشعر ، والتدريب على السلامة اللغوية ، وصحة النطق والأداء .. !

ولنقدم لهؤلاء الطلاب أيضا : نماذج من الشعر المسرحى ، لأعلام شعراء المسرح ، بحيث تقدم هذه المسرحيات ، أو مشاهد منها ، مؤداة أداء مسرحيا ، ثم يعقب ذلك أو يتخلله حوار حول خصائص الدراما» فى هذه المسرحيات ، وتدريب الطلاب على تمثيل بعض مواقفها ، وسلامة النطق والأداء ، وضبط النص ضبطا جيداً ، والتلخيص الكتابى لأحداثها ومواقفها ، وتقديم نقد موجز لها .. !

كما يمكن أن نعتمد على مختارات من المسرح التاريخى .. فى تقديم رؤية واعية منصفة .. وجذابة ومشوقة .. لتاريخنا العربى .. قديما وحديثا .. على نحو ما نجد .. فى بعض مسرحيات على أحمد باكثير ، وعبدالرحمن الشرقاوى .. وغيرهما !

أليس من العجيب .. حقا .. أن بحور الشعر العربى فى علم «العروض» وهو علم موسيقى الشعر لا يقدم لطلاب أقسام اللغة العربية فى جامعاتنا العربية .. من خلال ألحان موسيقية تساعد الطلاب على تقطيع أوزان هذه البحور ، وعلى أن يحفظوا – لا شعوريا – تفاعيل كل بحر من هذه البحور ؟؟ وما أيسر دراسة هذه البحور عن طريق ألحان الموسيقى .. وما أصعبها عن الطريق الذى يتبع الآن فى تدريسها .. إنه من العجيب حقا .. أن تقدم موسيقى الشعر بشكل تجريدى معقد .. بينما .. لدينا وسيلة سهلة وميسورة .. تصل إلى الدارس بأيسر السبل ، وتتفق مع طبيعة هذا العلم .. ألا .. وهى : الموسيقى !!

إننا حين نهمل فن الموسيقى فى تدريس ما يتصل بها من علوم اللغة العربية .. نهمل فنا ينفرد بتلك القوة السحرية غير المنظورة .. ونقول مرة أخرى .. مع ذلك الناقد (إرنست فيشر) :

«إن الفن هو أداة «سحرية» للسيطرة على دنيا واقعية .. لكنها .. لا تزال مجهولة .. وإن الفن لازم للإنسان حتى يفهم العالم ويغيره .. وهو لازم «أيضا بسبب هذا السحر الكامن فيه..»

وأخيراً .. آمل أن تثير هذه الدراسة .. حواراً جادا .. حول ما أثير فيها من قضايا .. ذلك لأنها قضايا وجودنا ومصيرنا .. وكينونتنا .. وحين يكون الأمر متعلقا بلغتنا الجميلة تكون القضية : نكون .. أولا .. نكون ..!!

وفى البدء .. دائما .. كان القلق .. وكان التساؤل .. وكان الحوار .. وكانت إنسانية الإنسان ! ■

الباب المفتوح

نظرية (حق) الولايات المتحدة فى الاستيلاء على العالم

بقلم
مصطفى الحسينى

قد لا تعى ذاكراتنا من أسماء وزراء الخارجية الأمريكيين أكثر من هؤلاء الذين تولوا ذلك المنصب بعد الحرب العالمية الثانية. ولعل أبرزهم وأكثرهم حضورا فى الذاكرة العامة اثنان: جون فوستر دالاس الذى احتل ذلك المركز على مدى ولايتى الرئيس دوايت أيزنهاور، بين ١٩٥٣ و ١٩٦٠ . وهنرى كيسنجر الذى تولى وزارة الخارجية بفضل الحرب العربية - الإسرائيلية فى ١٩٧٣ أو على حسابها، كما على حساب سلفه ويليام روجرز، حيث استطاع الإطاحة به مستخدما موقعه الذى اختاره له الرئيس ريتشارد نيكسون فور توليه الرئاسة فى مطلع ١٩٦٩ . فكان كيسنجر أول من جمع بين أكبر منصبين فى السياسة الخارجية والأمنية الأمريكية وآخرهم حتى الآن.

يبـــــقـى الأول – دالاس، فـى الذاكـرة العــامــة عنوانا على الحرب البـاردة التى تولى منصبـه وهى ناشبـة، بل بعـد أن تجـاوزت تلك الحـرب واحـدة من أشـد أحداثـها حدة وخطراً – الحصار الذى فرضه الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ على العــاصــمـة الألمانية المقسمة – برلين.

أمـا كـيسنجـر، فـيبـقى فى الذاكـرة العربية بسبب دوره فى تصفية ما كان قابلا للاستثمار لصالح العرب من نتائج حـرب ١٩٧٣. أمـا على النطاق الدولى الأوسع، فربما يبقى كيسنجـر – المتأثر بالمستشار النمسوى فى منتصف القرن التاسـع عشر كليمنس فـون ميـترنيخ – واحدا من أبرز من ينسب إليـهم النصـر الغربى فى الحرب الباردة.

فكمـا وضـع مـيـتـرنيخ نصب عـينه «إعــادة النظام القــديم» فى أوروبا، أى طى بسـاط الثورة الفرنسية وما أحدثته فى القـارة العـتـيـدة من ذبذبات جـعـل كـيـسنجـر هدفـه طى بسـاط الثـورة الشيوعية التى انتصرت فى روسيا فى ١٩١٧ واتسعت تأثيراتها فى الجغرافيا إلى أنحاء العالم وفى الزمان ماتجاوز – فى زمن كيسنجر – النصف قرن

وعلى خلاف ميترنيخ الذى فشل فى تحقيق هدفه و«فر من الميدان » لاجئا إلى بريطانيا قبل أن يعتزل السياسة بوسع كيسنجر أن يدعى قسطا من النجاح فى طى البساط الشيوعى .

***

رغـم المكانين البـــــارزين اللـذين يشغلهـمـا اسمى دالاس وكـيـسنجـر فى تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية (وفى تاريخ العـالم الراهن) فـإن كلا منهـمـا – فى مرحلته – كان يبنى على أساس قائم ومستقر ومتين لهذه السياسة تم أرسائه قـبل مـولد أى منهـمــا ولعل الذاكــرة المعاصرة فى شأن السيـاسة الخـارجية الأمـريكيـة لاتستـحضـر أسم جـون هـاى الذى أحتل المنصب نفسه لحوالى سنوات سبع حاسمة فـى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكيه امتدت من ١٨٩٨ حـتى وفـاته فى ١٩٠٥ .

فـى تلك السنوات الســبـع ترك هـاى «بصمـة تأسيس» واسعة وقوية فى تاريخ السيـاسة الخارجـيـة الأمريكية فى طور انتـقـال ذلك البلد من مـا يمكن تسـمـيتـه «مـرحلة التـأسـيس للقـوة»، إلى المرحلة «تأسـيس الإمـبـراطورية» التى مـازالت مـعنا حـتى اليـوم وقـد تبـقى إلى أجل

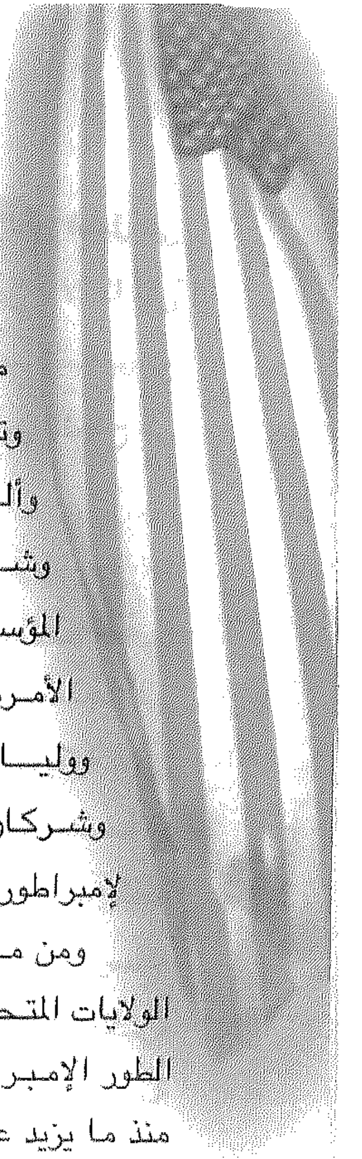

يصعب اليوم التنبؤ به.

بل يمكن القول أنه مثلما كان جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وألكسندر هاملتون وشركاؤهم هم «الآباء المؤسسون» للولايات المتحدة الأمريكية فإن تيودور روزفلت ووليام ماكنلى وجون هاى وشركاؤهم هم الآباء المؤسسون لإمبراطوريتها .

ومن مفارقات كتابة تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية أنه ينكر ذلك الطور الإمبراطورى الذى مازال جاريا منذ ما يزيد على قرن من الزمان، بل إنه يتعزز ويتوسع وضمن هذه المفارقة أن التاريخ الأمريكى يعتبر أن من فضائله أنه – على خلاف التاريخ الأوروبى – يخلو من الماضى الكلونيالى، ربما لأن ذلك التاريخ يثبت أن الإمبراطورية يمكن أن تقوم دون دنس الكلونيالية . ورغم أنه حتى بهذا المعنى فإن الولايات المتحدة مازالت «تملك» جزرا استولت عليها من إسبانيا، لم تضمها ولم تعترف لها بالاستقلال .

***

تصلح شخصية جون هاى وحياته مادة روائية منسوجة بأكثر من خيط مأساوى فقد عمل على قرب وثيق مع ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين انتهت حياة أثنين منهما بالاغتيال وتميز الثلاثة بجرعة استثنائية من بعض الخصال التى تلزم رجل السياسة، وفى حالتهم، كان أهمها الخفاء والمكر – ولعلهما متلازمان . ولم يكن شئ منهما ينقص هاى نفسه .

ولم تخل حياة هاى الخاصة من المأساة، إذ فقد ابنه الوحيد (بالإضافة إلى ابنة)، فى حادث عارض – وهو فى شرخ شبابه .

إلى ذلك كان جون هاى شاعرا وكاتبا روائيا ساخرا، وإن نشر هذا اللون الأخير تحت اسم مستعار .

بدأ حياته فى السياسة فى عمر مبكر فى وظيفة كانت فى حينه غير مرموقة وإن كانت بالغة الأهمية، كان أحد أثنين تشاركا وظيفة السكرتير الخاص للرئيس أبراهام لينكولن غنى عن الذكر أن ولاية ذلك الرئيس شهدت أصعب أدوار تاريخ الولايات المتحدة – الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ – ١٨٦٥) التى اندلعت بعد أسابيع من توليه الرئاسة وانتهت قبل ٥ أيام من

مصرعه .

غنى عن الذكر أنه لابد قد تعلم كثيرا من عمله على تلك الدرجة من القرب، مع لينكولن .

فى ١٨٩٨، تولى الرجل نفســـــه منصب وزير الخارجية للرئيس ويليام ماكنلى، ليشهد مصرعه بعد ذلك بسنوات ثلاث . وكان من عادة ماكنلى أن يغلف أخطر قراراته ب «الرضا الإلهى»، إذ كان يبدى عدم موافقته عليها عندما تقترح عليه، ثم «يستخير الرب» الذى دائما فى تلك الحالات - يلهمه صواب مالم يكن موافقا عليه وكانت مهمة هاى الحساسة هى وضع الصيغ الدبلوماسية لتلك «الاختيارات الربانية».

بعد اغتيال ماكنلى، أكمل نائبه تيودور روزفلت ولايته الثانية التى كانت فى مطلعها وبقى هاى فى منصبه حتى وفاته، بعد ما يقرب من سنة من ولاية روزفلت الثانية .

ويجوز القول أن تيودور روزفلت واحد من دائرة صغيرة «حبلت» بفكرة الإمبراطورية الأمريكية، وفى وقت كان الكثيرين من أبناء جيله فى الحياة السياسية والفكرية الأمريكية ينفرون منها أشد النفور وينكرونها أقوى النكر لكنه أضاف إلى ذلك أنه دفع بالأحداث فى اتجاهها فى وقت كان نائبا لوزير البحرية فى عهد سلفه ماكنلى، وأنه استكمل «فتح» ما قامت عليه من أراض وبلدان عندما تولى الرئاسة

***

فى ١٨٩٨، وجه وزير الخارجية الأمريكية فى عهد الرئيس ويليم ماكنلى لسلو من المذكرات الدبلوماسية إلى حكومات كل من بريطانيا وألمانيا وروسيا واليابان وفرنسا- على هذا الترتيب باعتبارها القوى الخارجية المشتبكة فى صراع على الصين، التى كانت عندئذ ضعيفة وممزقة.

كان ظاهر تلك المذكرات أنها صيغة لفض الاشتباك بين تلك الدول، إذ كان جوهرها يتلخص فى نقطتين:

١- تعتبر الصين بلدا مفتوحا أمام المصالح الأجنبية على قدم المساواة بين الدول الساعية إلى تأسيس مصالح أو الحصول على امتيازات .

٢ - أن أى امتياز تحصل عليه واحدة من الدول ينسحب على أوضاع بقية الدول ذات المصالح فى الصين .

بالطبع كانت الأطماع التى تنطوى عليها تلك السياسة مغلفة بالحديث عن

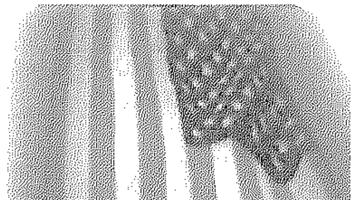

الحرص على سلامة الصين ووحدة أراضيها ووحدتها الإدارية. عرف مضمون تلك المذكرات باسم «سياسة الباب المفتوح» واقترنت باسم مبتدعها جون هاى .

***

أتى ذلك فى وقت كانت الولايات المتحدة قد أكتسبت ثقة كبيرة فى نفسها بعد أن تمكنت من إخراج أسبانيا من كوبا والحلول محلها، ثم طاردت الأساطيل الأسبانية من السواحل الكوبية فى أقصى غرب المحيط الهادئ إلى أقصى شرقه فى الفيليبين، مستولية على امتداد هذا الطريق الطويل على الجزر التى كانت تملكها أسبانيا فى ذلك الوقت كان النمو الكبير فى القدرات الإنتاجية الأمريكية، يدفع القوى والمصالح الاقتصادية فيها إلى التطلع إلى الأسواق الخارجية والضغط فى سبيل ذلك على حكومتها لانتهاج سياسة خارجية توسعية كان «الاتحاد الوطنى للصناعيين» يقود ذلك الضغط وينذر بأن التراخى فى ذلك سيدفع بالأقتصاد الأمريكى إلى الركود ثم الانهيار .

من قبل أن يوجه هاى مذكراته الدبيلوماسية المشار إليها، كان ذلك الأتحاد يدعو فى ١٨٩٧ إلى «أن نعد خططنا لتأمين حصتنا الكاملة من التجارة العظيمة التى تأتى من المرحلة الصناعية فى الشرق». أما بعد استيلاء الأسطول الأمريكى على الجزر التى تملكها أسبانيا فى المحيط الهادئ، من كوبا حتى الفيليبين، فقد أعاد اتحاد الصناعيين تفسير «حصتنا الكاملة» لتصبح «نصيب الأسد» وليعلن أن «العالم ملكنا تجاريا»، بل وأنه «سيكون بوسع الحيوية الأمريكية تحويل المحيط الهادئ إلى بحيرة أمريكية».

بالتوازى مع «الأتحاد الوطنى للصناعيين» كان هناك تيار قوى من ذوى الرؤية الإستراتيجية، يدفعون نحو آفاق أبعد .

كان هؤلاء منتشرون فى مختلف مناحى الحياة الفكرية والروحية الأمريكية : المسيحيون البروتستانتيون الذين تهفو أفئدتهم إلى تقديم الأقوام الجاهلية إلى المسيح. والمفكرون «المثاليون» الذين يعتبرون أن على أمريكا «واجب» نشر القيم المتفوقة للحرية المؤسسة على

السلام والديموقراطية والرخاء إلى بقية العالم،كما قال تيودور روزفلت من قبل أن ينتخب رئيسا لبلاده فى مطلع القرن العشرين ومفكرون يجمعون بين الرؤيوية والواقعية، كان أبعدهم تأثيرا اثنان، وإن كانا أقل أفراد سربهم شهرة :

أحدهما الكولونيل ألفرد ثاير ماهان، الذى وضع ما أصبح معروفا بأنه «نظرية القوة البحرية» خلاصة النظرية أن جغرافيا العالم وتوزيع الماء واليابسة عليها تجعل القوة البحرية عمادا لقوة الأمم وعظمتها وضمان استمرارها. وقد بلغ من بعد نظر ماهان أنه رأى منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر أن الإمبراطورية البريطانية دخلت دور الضعف والتراجع. ورأى فى الولايات المتحدة الأمريكية قوة مؤهلة للحلول محلها إن هى حزمت أمرها، وهو ما كان يحثها عليه.

أما الثانى فهو بروكس أدامز، حفيد الرئيس الأمريكى السادس، وكان صاحب نظريات فى تطور الحضارة عرضها فى كتابه «قانون التحضر والتحلل» خلاصتها أن مركز الحضارة والقوة فى العالم يتحرك دائما باتجاه الغرب وأنه فى تسعينات القرن التاسع عشر انتقل من لندن وباريس إلى نيويورك، وأن معنى هذا أن على الولايات المتحدة الأمريكية الإمساك باللحظة التاريخية بأن تتحرك غربا عبر المحيط الهادئ لتسيطر على آسيا وإلا فإن روسيا أو غيرها من الدول سيصبح المركز التالى للقوة والحضارة العالميتين .

كما كان من نظراته الثاقبة أنه لاشئ يوازن القارة الأمريكية التى تتميز بوضع جزيرة كبرى، سوى كتلة اليابسة الروسية الشاسعة وأن مستقبل الصراع الدولى سيدور بين هذين القطبين وركز أدامز على تفوق أمريكا الاقتصادى وانطلاقاً منه، دعا إلى سياسة إمبريالية جسورة تتضمن بين عناصرها احتواء روسيا وقد يلقى هذا النظر ضوء مختلفا على الصراع الروسى - الأمريكى، حيث يرده إلى ذلك العنصر الجغرافى / السياسى ويوضح أولويته على بالعنصر الأيديولوجى الذى صبغه منذ انتصار الثورة البلشفية فى ١٩١٧ وقد يساعد على تفسير استمرار الصراع الروسى - الأمريكى، وإن يكن على نحو أقل حدة وصخبا بسبب ضعف روسيا النسبى بعد انهيار المنظومة الشيوعية .

وكانت لأدامز نظرات ثاقبة أخرى

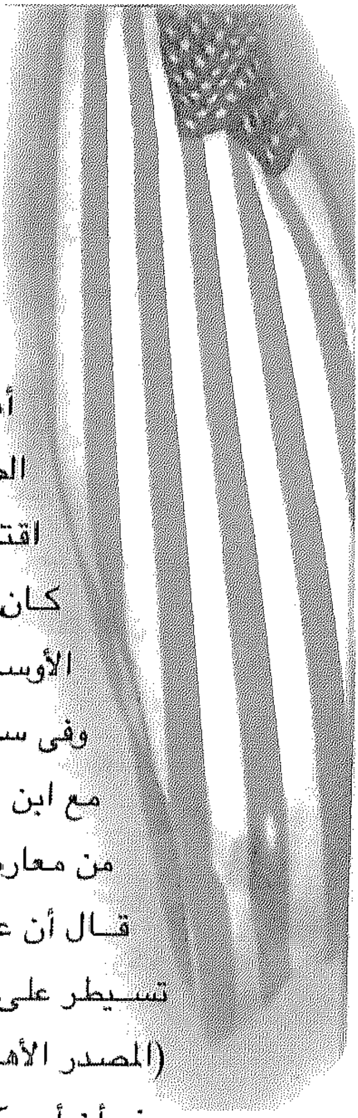

تتناول أسس القوة، حيث يردها إلى توفر مصادر الطاقة، ما جعله من أشد أنصار الدخول إلى حلبة الصراع الدولى الدائر حول اقتسام ثروة الصين، وهو ما كان يلقى معارضة قوية فى الأوساط السياسية الأمريكية وفى سجل مناقشاته أنه فى جدل مع ابن عمه هنرى أدامز الذى كان من معارضى الانغماس فى الصين، قال أن على الولايات المتحدة أن تسيطر على موارد الصين من الفحم (المصدر الأهم للطاقة الصناعية آنذاك) رغم أن أمريكا لم تكن بحاجة إليه، إنما لتحول دون استيلاء دولة أخرى عليه وقد نستطيع أن نرى استطراد ذلك النظر فى السياسة الخارجية الأمريكية حتى الآن، حيث تسعى إلى السيطرة على مصادر الطاقة كلها فى العالم بأكمله .

يبدو تأثير أفكار كل من ماهان وأدامز واضحا على تفكير كل من جون هاى مبتدع مبدأ «الباب المفتوح»، إضافة إلى قرارات الرئيس ماكنلى الذى أطلق المبدأ فى عهده وعلى أساسه انبنت سياساته وعلى تفكير الرئيس تيودور روزفلت الذى عمد أثناء رئاسته إلى تفسير «الباب المفتوح» على أنه توسيع لـ «مبدأ مونرو» الذى أغلق القارتين الأمريكيتين فى وجه الأطماع الأوروبية - توسعية باتجاه الغرب، أى نحو آسيا كما فى خلفية نقاط ويلسون الأربعة عشر، والتى اشتهر منها ما يتعلق بحق الأمم فى تقرير مصيرها، بينما كانت فى مجموعها وفى جوهرها دعوة إلى فتح أبواب الأمم أمام القيم الأمريكية التى تعبر عنها حرية التجارة والاستثمار .

أى أن سياسة «الباب المفتوح»، حتى عندما قدمها جون هاى، لم تكن سياسة تخص الصراع على الصين أو تقتصر عليه . إنما كانت ترمى إلى فتح أبواب العالم أمام المثل الأمريكية والنفوذ الأمريكى أو كما عبر عنها فى ١٩١٥ بصراحة وزير خارجية الرئيس ويلسون ويليام برايان: «أن تكون الأبواب مفتوحة فى كل البلدان الأضعف أمام غزو رأس المال الأمريكى والمشروعات الأمريكية». فهل أتى جورج وبوش بأى جديد، سوى فجاجة الأسلوب؟!..

أقــوال معاصرة

● «أى جـاهل يسـتطيع أن يكتب رواية، ولكنه سـيحتـاج إلى عبقرية ليبيعها»!

الروائية جي جولارد

● «النمسا أمة إجرامية!!».

الفريدي يلينيك
الأديبة النمساوية الفائزة بجائزة نوبل للآداب

● «الفكر لا ينمو فى غياب الحرية».

الناقد الأدبى السودانى طارق الطيب

● «الأدب العربى الحديث متميز، والتاريخ أضاف إلى هذا التميز».

المستشرقة الألمانية كلاوديا اوت

● «أود فقط أن أعيش كما يحلو لي .. واكتب »!

الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان

فرانسواز ساجان

● «المثقف العربى لعب دورا سلبيا فى مسألة المفهوم الخاطئ للعلمانية، باعتباره المسئول الأول عن توضيح المفاهيم الوافدة على الثقافة العربية».

الباحث الأفريقى سعيد جالو
جامبيا - غرب أفريقيا

● «النقد يضيف مساحات إلى العمل، يستفيد منها الكاتب والعمل نفسه»

الأديب علاء الأسوانى

علاء الأسواني

● «أسباب انتشار الجريمة فى أمريكا تعود إلى ترك مقاعد الدراسة من قبل أبناء الأحياء الشعبية».

المفكر الأمريكى بنيامين باربير

● التنوير الوقائى هو الذى سيحمينا من الغزوات الوقائية التى قد يفرضونها علينا غدا، أو بعد غد».

الكاتب هاشم صالح

بقلم

مصطفى نبيل

عند زيارتي الأخيرة للولايات المتحدة ، لفت نظري، هذا المزيج الغريب بين الخرافة والعقلانية، المنفعة والقداسة.

كتبت يومها قائلاً «هذا المجتمع الذي يخضع كل شيء للعقل وحساباته تنتشر فيه الخرافة والسحر والشعوذة، وصور اللامعقول المختلفة ، تجد كتب السحر جنباً إلي جنب مع دراسات علوم المستقبل. وتساءلت .. كيف يمكن أن تتوافق الخرافة مع المعرفة ؟!».

وتعيش اليوم السياسة الخارجية الأمريكية ثنائية مشابهة، الواقعية وادعاء المثالية، سياسة واقعية تقودها المنفعة ولكنها ذات غطاء من المثالية. وتجد فى تلك المسوح غطاء لمطامع السياسة، أليست تدافع عن الحرية وحقوق الإنسان، وتداخلت الحوافز الدينية بتلك الامبراطورية، وأخذت توظف الدافع الدينى من أجل تحقيق مصالح استراتيجية . وأصبحنا أمام خلطة متقنة بين المنفعة والقدسية ؟

ورغم أن أمريكا دولة علمانية إلا أن الدين يلعب دوراً كبيراً فى التأثير على الرأى العام، ويمكن بالتالى التأثير على القرار السياسى.

والمدهش حقاً .. ظاهرة انتشار الأصولية كتعبير عن رفض النظرة المادية التى يحكمها الدولار، ويأتى هذا الازدهار فى عالم يدور حول الكواكب ويغزو النجوم، ويمشى على القمر، فى حضارة جمعت بين العقلانية والعبقرية ممثلة فى ثورة العلم والتكنولوجيا، فضلاً عن ثورة الاتصالات والمعلومات، وتشهد اليوم تطوراً كبيراً فى الهندسة الوراثية والاستنساخ، وما يمثله ذلك من خطر عندما يحكمها التطرف الذى

أمراض الأصولية!؟

يؤدى إلى إشعال الحرائق، فمن يطفىء الحرائق التى تشعلها؟!

وتأتى الخرافة من تأويل النصوص المقدسة، وتتحول الرؤى والأحلام إلى فعل سياسى، عندما يصبح تأويل الرؤيا صانعاً للقرار السياسى وضابطاً لإيقاع وزارتى الدفاع والخارجية، ومنهجاً لعمل السفراء فى الدول الأجنبية، حتى وإن كانت الغاية هى تحريك «القطيع» فى الاتجاه الذى يحقق المنفعة.

فهل يسيطر اليوم الانسان على المكان ويفلت الزمان من بين يديه؟ وتعود إلى الوراء، ويصبح تفسير الأحلام والرؤى محركا للمجتمعات، ونعود إلى تفسير الأحلام لابن سيرين، كوسيلة للتعرف على اتجاه الأحداث؟! أم نأخذ بما قاله فرويد، الذى يؤكد ضرورة تفسير الأحلام على نحو ماتضطرب به النفوس من مشاغل ومصاعب، وهو الذى قال إن الشعوب البدائية كانت تهول من أمر الأحلام ولذا ظهر فن التأويل. ومن قبله قال أرسطو المعلم الأول «إن الأحلام ليست رسائل إلهية، ولا تكشف شيئاً، وهى لون من النشاط النفسى للنائم حسب الظروف التى كان عليها نومه».

هرمجدون

ورغم ذلك دخل «القطيع» سراديب التأويل، الا من خلال الرموز والخيال، إنما من خلال ماتحمله النفس من ضغائن وأحقاد. يقول القس أندريه زكى.. «إن استدعاء هذه النبوءات لايخدم سوى الجماعة التى استدعتها، وليس هذا جديداً بل له سوابق كثيرة فى التاريخ».

وإلا .. فما هذا التفسير المريض الذى يتنبأ من خلال الرؤى بالقضاء على نصف البشرية بالصواريخ والقنابل الذرية!، وهل هى نبوءة أم تحريض.؟ والقول .. بأن العالم سوف ينتهى فى معركة تدعى «هر مجدون» التى تؤدى إلى عودة المسيح عن المسيحيين، وظهور المسيح عند اليهود!

ولم أكن أعطى فى السابق هذا النوع من الأحاديث والكتابات أدنى اهتمام، واعتبره مجرد غطاء مزيف للمصالح والأطماع، وأنه لا يؤثر إلا على صغار العقول ، ولكن تبينت أنه تحول إلى ظاهرة خطيرة وأخذ فى الانتشار، وأنه يشكل بعداً مهماً فى تعبئة الرأى العام فى المجتمعات الغربية، وأنه المسكوت عنه فى تأييد ودعم الغرب للصهيونية وإسرائيل.

وكانت بداياته الأولى عندما قام الأمريكى سكوفيلد سنة ١٨٧٥ بالبحث عن دور النبوءة فى الكتاب المقدس، ومن خلال حديثه يصعب التمييز بين كلماته ونص

الكتاب المقدس، ويزعم أن التاريخ الإنسانى يمر عبر مراحل سبع، إحداها معركة «هر مجدون» التى ستنطلق فيها الأسلحة النووية، ويجرى فيها الدم أنهاراً.. وتصل النبوءة إلى المجىء الثانى للمسيح المنتظر، وهذا المجىء رهن بعودة اليهود إلى أرض الميعاد أى أرض فلسطين، وعندها سيعرف اليهود أن الله حق ويتحولون إلى الدين المسيحى»!.

وأخذ هذا التفسير فى الانتشار، وعندما سئل القس بيل جراهام سنة ١٩٧٠ أين تقع «هر مجدون»، أجاب .. «إنها تقع إلى الغرب من نهر الأردن بين الجليل والسامرة (الضفة الغربية) فى سهل بزرئيل، وهو الموقع الذى وقف فيه نابليون وأعلن .. «إن هذا المكان سيكون مسرحاً لأعظم معركة فى العالم» وتكمل رؤيا يوحنا ١٦:١٢ بالقول «وسيجف نهر الفرات، ويتم تدمير القدس ويعاد بناء الهيكل....».

وتحولت مسألة تجميع اليهود وتحويلهم إلى المسيحية ، واجباً دينياً، يتعين على المؤمنين البروتستانت القيام به تحقيقاً لخلاصهم.

ويذكر جورجى كنعان فى كتابه .. «هناك أكثر من ثمانين ألف قس فى أمريكا يبشرون بلاهوت «هر مجدون» يومياً عبر أكثر من ستمائة محطة بث سمعية ومرئية..».

يستشهدون بسفر دانيال من «العهد القديم» الذى دون بعد ثمانية قرون بعد عصر موسى وحتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.

جورج بوش (الجد)

وتتوالى الغرائب والعجائب.

وتصبح هذه الرؤى وتأويلها جزءاً من ثقافة عائلة جورج بوش، يأخذها الأبناء عن الآباء، وصدرت مؤخراً طبعة عربية من كتاب قديم ألفه چورچ بوش (الجد) (١٧٩٦م - ١٨٩٥م) ، عنوانه «محمد مؤسس إمبراطورية المسلمين» ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، والذى نشر فى الرياض..

وفى هذا الكتاب تفسير للعديد من السياسات الأمريكية الراهنة، ويمتلىء بالافتراءات على الإسلام ونبيه، وليس هذا الكتاب، أول هذا النوع من الكتب ولا آخرها.

ولكن مايلفت الانتباه اعتماده أيضاً على نبوءة دانيال ويوحنا ..

ويفسر بوش رؤيا يوحنا، الذى رأى رؤية منامية، أى بين النوم واليقظة، أن المقصود بالثعابين والعقارب هم الأتراك والأكراد والفرس، وأن المقصود بالجراد، هم العرب الذين يصفهم بوش بلفظ «السرسرية» أى اللصوص وقطاع الطرق، وحجته أن الجراد هو الذى يأتى على الأخضر!!

وتتركز الرؤيا على تمركز قوى الخير فى أرض الفرات حتى تكون قادرة على سحق الجراد والثعابين والعقارب!!

وعندها سيتخلى المسلمون عن دينهم بلاقتال «وبدون يد تنكسر»، أى سيهلكون دون أن يهلكهم أحد.!

فهل هذه الرؤيا هى التى دفعت جحافل الجيش الأمريكى إلى منطقة الفرات (العراق)، أم أن الاتجاه إلى العراق يفسر الرؤيا؟! وصاحب الرؤيا هو كاتب الإنجيل يوحنا، الذى ولد بعد ميلاد المسيح بثمانية وتسعين عاماً وتوفى عام ١١٧م.

القرن الصغير!

أما رؤيا دانيال، فتفسر «القرن الصغير»، بأنها المنطقة التى خرج منها الاسلام، وولد فيها النبى ﷺ أما امتداد هذا القرن نحو الجنوب والشرق وأرض المسرة (فلسطين)، فقد وقع ذلك بفعل الإسلام الذى امتد فى ذات الخطوط التى حددتها رؤيا دانيال، وأرض المسرة بها المعبد الذى هو «تاج الجمال وإكليل البهاء» لنبى إسرائيل فقرة ١٦ فى الاصحاح رقم ٢٠.

وعندما انتصر السرسرية (اللصوص) على القدس سنة ٦٣٧م، كسروا كنائس الشرق وشتتوها، وحالوا دون العبادة اليومية للرب، وقوضت دعائم حرم الرب وسوى بالأرض، وأصبح الحرم المقدس يداس بالأقدام طوال عهود طويلة.

وهكذا بدأ «المحمديون» تقدمهم فى الإمبراطورية البيزنطية واستمروا يلحقون بها التدمير، ولم يتوقفوا حتى أجهزوا تماماً على المسيحية الشرقية (!) ويجد بوش (الجد) فيما قاله المؤرخ البريطانى جيبون - صاحب كتاب قيام وانهيار الامبراطورية الرومانية - ما يؤكد تفسيره.. يقول .. «إنه عند الاستيلاء على القدس تم إعداد أرض معبد سليمان لوضع أساس المسجد بناء على أوامر عمر».

وقد أعطى الله القوة ليس لتدمير الدين الحق فقط ولكن لاستبداله بعقيدة أخرى، ويضيف بوش.. «يبدو أن النبوءة تحققت، وراح دين الإسلام يطيح بالأديان الأخرى ورموزها، وحلت المساجد محل الكنائس، وحل الشيوخ محل القسس، وكان السيف هو أداة تحقيق ذلك»!

وعندما يصل الآثمون إلى كمال إثمهم، كانت الكنيسة قد وصلت إلى ذروة الانحراف، وكان الإسلام هو العقاب. يقول جيبون.. «إن المسيحيين فى القرن السابع أصبحوا مثل الوثنيين، لقد غضب الرب عليهم فهوى بعصاه على رؤوسهم» ويضيف.. «إن النجاح الملحوظ الذى حققته القوة الإسلامية، يعود إلى رعاية الله، ذلك أن النتائج التى حققها الإسلام كانت فوق مستوى الإدراك البشرى.

وما حاق بالمسيحيين على يد محمد ﷺ شبيه بما جرى لليهود على يد نبوخذ نصر فكلا الأمرين بإرادة الله. «ويل لآشور، أنتم عصا سخطى على أمة منافقة أرسله» سفر أشعياء (٥:١٥)»

ويستشهد بكلمات الرحالة مادن.. «إن أكثر صفات المسلم لفتا للنظر هى جهله العميق وعجرفته، وكسله وخداعه، ذلك الخداع الذى يوجه سياسته ويحكم شراسته فى ميدان القتال!!

وستنتهى قوة الإسلام عندما يتصدع «الحجر»، وتتحول كل قوى الطغيان والضلال إلى هباء «بلا يد تنكسر»، ويتحول المسلمون إلى المسيحية».

«ولا يفوتنا أن نلاحظ - والكلام مازال لبوش - أن أجزاء الامبراطورية الرومانية التى لم تمسسها جحافل العرب، هى تلك الأجزاء التى يظهر بها ما تبقى من كنيسة الرب الحقة، لقد كان على العرب أن ينالوا من الرجال الذين لا يحملون خاتم الرب على جباههم».

الصهيونية الأصولية

ما هو المناخ الذى ساهم فى نسج هذا التراث.. وأدى إلى قيام الصهيونية فى الولايات المتحدة قبل ظهورها بين اليهود؟.. يذكر المؤرخون حول نشأة أمريكا، أن كوكبة من البشر يصلون إلى «أرض الميعاد» ويكونون أمة جديدة هى «شعب الله المختار»، وهم عصارة الفضائل فى الحضارة التى تركوها خلفهم، يقيمون المدينة الفاضلة على قمة التل الذى يتطلع إليه العالم، فى أرض اللبن والعسل.

ولد المهاجر من جديد، يحتضن أفكاراً جديدة، وطريقة حياة جديدة، وحكومة جديدة يطيعها، ومكانة جديدة يحتلها، وشعر المهاجرون تماثلا بينهم وبين العبرانيين، فكل منهم فر من الاستعباد، وملك انجلترا جيمس الأول هو فرعون مصر الذى فر منه بنو إسرائيل، كلاهما بحث عن ملاذ، فانجلترا لديهم هى مصر، وأمريكا هى أرض كنعان..

وهذه الحجج والمصطلحات هى ذاتها التى استخدمها الهولنديون عند نزوحهم إلى جنوب أفريقيا. وتطابقت المصطلحات الواردة فى التاريخ العبرى مع المصطلحات المستخدمة فى أمريكا، وهى ذاتها التى يكثر ترديدها وسط التيار الأصولى.

إن الأصولية المسيحية جزء من التاريخ الدينى والاجتماعى والسياسى الغربى، صاحبت انتعاش تيارات اليمين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وبلغت ذروتها فى القرن التاسع عشر، مما جعل انجلترا وبعدها الولايات المتحدة تتبنى الحركة الصهيونية. وهناك كتاب مهم بعنوان «الأصولية المسيحية فى نصف الكرة الغربى»، صدر فى يوليو ١٩٩٥ لمؤلفه اللبنانى جورجى كنعان، يرصد خلاله الكاتب ظاهرة تأثير حركة الإصلاح الدينى فى الفكر المسيحى، ويذهب إلى أن ذلك التأثير سابق على الدعوة الصهيونية ذاتها، وأن بذرتها الأولى جاءت مع مارتن لوثر الذى جعل الكتاب المقدس يضم بين دفتيه التوراة والإنجيل، وينقل عن مارتن لوثر قوله.. «إن ذلك الشعب (اليهودى) قد يكون مختاراً.. ولكنه عبء ثقيل علينا بل مصيبة كبيرة..!، لذلك ينبغى تجميعه وتحويله إلى أرض يهوذا، أرض الميعاد وذهابه بعيداً عن الأرض الألمانية...» ويضيف .. «إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون إليه فى رحلتهم، لا لشىء إلا لنتخلص منهم».

وبالفعل كان البروتستانت أكثر الطوائف المسيحية اهتماما بالعهد القديم، وتدعمت الصلة مع اليهود.

● ويتابع كتاب الأصولية المسيحية ما أطلق عليه «تهويد المسيحية»، مما جعل البعض يؤمنون بأن الله اختار الشعب، ووعده بالعودة إلى أرض الميعاد، وبقاء

الأرض المقدسة، ميراثا أبديا لبنى إسرائيل.

ويرصد جورجى كنعان البداية التى اختلطت فيها المصالح مع البحث عن غطاء مقدس..

● فحين وصل نابليون بحملته إلى مصر سنة ١٧٩٨، أصدر بيانا حث فيه يهود آسيا وأفريقيا على الالتفاف حول رايته من أجل إعادة إنشاء «مملكة القدس القديمة» وجاء فى هذا البيان.. «أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذى لم تستطع قوى القهر والطغيان أن تسلبهم إسمهم ووجودهم القومى، وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد!

انهضوا أيها المبعدون.. فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل.. يا ورثة فلسطين الشرعية، انهضوا، إن هذه هى اللحظة المناسبة للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم.. » (فرانز كوبلز نابليون واليهود ١٩٧٥) .

ويهدف نابليون إلى إقامة حائط مادى وبشرى بين مصر والشام، واعتراض طريق الإنجليز إلى الهند، بعد هزيمته المروعة عند أسوار عكا.

● وتقول فى هذا السياق الكاتبة الصهيونية بربارا توخمان.. «من الطبيعى أن تتكيف المفاهيم الدينية مع الواقع، .. فمثلا مفهوم عودة اليهودة إلى أرضهم كتحقيق لنبوءات الكتاب المقدس، تتحول إلى برنامج استعمارى يتلخص فى عودة اليهود الاستيطانية «إلى أرض فلسطين كمقدمة لفتح بوابات الشرق الذهبية أمام المطامع الاستعمارية».

وستتخذ الإمبريالية الغربية من مشاريع توطين اليهود ذريعة للتدخل فى مستقبل هذا الجزء من العالم.

«لنسلك أعط هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير «نهر الفرات» سفر التكوين ١٥:١٨»، ونسلك هنا تعنى نسل إبراهيم، كأن العرب ليسوا من نسل إبراهيم!.

وينقل جورجى كنعان تداعيات ربط التوراة بالإنجيل..

● يؤكد وايزمان أول رئيس لإسرائيل (١٨٦٤ - ١٩٥٢)، «إن من حقك أن تسأل: ما هى أسباب حماسة الإنجليز لمساعدة اليهود، وعملهم على تحقيق أمانى اليهود فى فلسطين؟» ويجيب قائلا.. «إن الإنجليز لا سيما أصحاب المدرسة القديمة، هم أشد الناس تأثرا بالتوراة، وتدين الانجليز، هو الذى ساعدنا على تحقيق آمالنا، لأن الإنجليزى يؤمن بما جاء فى التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين»!

● ويقول أول رئيس وزراء فى إسرائيل بن جوريون (١٨٨٦-١٩٧٣).. «إن كتاب المسيحية المقدس الذى يرجع تاريخه إلى ثلاث آلاف وخمسمائة سنة،هو صك اليهود المقدس للعودة إلى فلسطين».

● ويقول الكاتب الإسرائيلى يعقوب تالمون.. «إن حق اليهود فى فلسطين يفتقر إلى أى أساس، إذا تم استبعاد مسألة الإيمان بالوعد الإلهى، وفكرة «الشعب المختار» و«أرض الميعاد»، مما يؤدى إلى إظهار اليهود بمظهر الغزاة الإمبرياليين».

إذن نحن أمام ظاهرة دينية محركة

ومـوجـهـة ومؤثرة فى الفـعل السـيـاسـى!. وتتـعـدى فكرة أن الكتب المقـدسـة لاتلزم سـوى أصـحـابهـا، ولايتـحـمل عبء مـاجـاء فيـهـا سوى مـقـتنيـهـا، ويقـع وزر العـمل بهـا على مفسريها.

الرسالة المقدسة!

يتردد أن الشعب الأمريكى أكثر تدينا من الأوروبى، وهناك فصل قائم بين الدولة والكنيسة، ولكن مع قدوم القرن العشرين أصبحت السياسة توظف كدين!، ففى حين تمسكت أمريكا، بأن محاولة تغيير العالم، محاولة غير أخلاقية، ترى أمريكا القرن العشرين - القرن الأمريكى - أن الإحجام عن تغيير العالم غير أخلاقى، وأصبحت تتـمـسـك بالرسـالة المقـدسـة الأنجلوسـاكسـونيـة أى البروتسـتـانتـيـة الإنجليكانية (كما يذكر والتر مكدوجال فى كتاب أرض الميعاد والدول الصهيونية).

أمـا هذا التـقـاطع القـائم بين الهـوية الأمريكية والدين، فالإيمان بالرب وبالوطن إيمان لاينفـصل، وهـو الذى يميـز ويحـدد الهوية الأمريكية.

وفى الماضى لم تستطع البروتستانتية أن تتـوافق مع العلم، فـرفض مـارتن لوثر دوران الأرض حـول الشـمس، لأن التـوراة ذكرت أن يشـوع أمـر الشـمس لا الأرض أن تتوقف!.

وكان البروتسـتـانت فى القـرن التـاسـع عـشـر يشككون فى إيمان كـاثوليكيـة المهـاجـرين «الخـانعـة» وهكذا.. تتكرر الظاهرة، فالتعصب القائم على التفسيرات الخـاطئـة، لاسـقـف لتـداعـيـاتـه، ولا نهـايـة لانحـرافـه، يبـدأ التـعـصب ضـد الآخـر، وينتهى ضد المذهب الآخر فى ذات الدين، وهكذا..

ومن الوقائع ذات الدلالة..

- قيام جماعات بروتستانتية بإنشاء ثلاث مـسـتـوطنات فى فلسطين بين عـامى ١٨٥٢ و١٨٨١ أى قبل وعد بلفور..
- عـقـد الكثـيـر من المؤتمرات فى القـدس من أجل دعم إسـرائيل، لأولئك الذين يؤمنون بصدق التوراة.
- قـامت أخـيـرا مـشـكلة بين البروتستانت وإسرائيل، عندما عرض على الكنيـسـت الإسـرائيلى مـشـروع قـانون مكافـحـة التبـشـير الذى اعـتبر أن مـجـرد حـمل كتـاب «العـهـد الجـديد» أى الإنجيل نشاطا تبشيريا جزاؤه عقوبة السجن.
- قامت الكنيسة المشيخية الأمريكية أخـيـرا باتخـاذ قـرار بمقـاطعـة الشـركـات الأمـريكيـة التى تتـعـامل مع إسـرائيل، احتجاجا على ما يجرى فى فلسطين من عمليات القتل والتدمير خاصة الشركات التى تتعدى مساهمتها مليون دولار فى الدولة العبرية، مما سيكون له أكبر الأثر على الشركات التى تتعامل مع إسرائيل.

وكـثـيـرا مـا اخـتلطت الأسـاطيـر بالحـقـائق، ففـي ولاية أهايو وحـدهـا ١٢٠ وسيطا روحـيـا، ويصل عدد الذين يؤمنون بالقوة الخفية للشيطان إلى مليونى فرد، وجاء فى مجلة تايم أن ٤٠ ألفا يمارسون السحر، وهناك مائة جامعة تقدم منهجا تعليميا عن القوى الخفية، كما يوجد مائة ديانة خاصة بالسحر وعبادة الشيطان.

ومـازلنـا نذكـر الانتـحـار الجـمـاعي لـ٩١٣ إنسانا من اتباع جيم جونز، ومعهم ٢٦٠ طفلا، ونذكر أيضا اضرام النار عام ١٩٩٣ فى واكـو بعـد انتـحـار ٧٤ من أعـضـاء جـمـاعـة دافـيد فورش، (التنوع

الدينى فى أمريكا، الدكتور القس إكرام لمعى).

والمعروف أن المسيحية هى الديانة الأولى فى الولايات المتحدة، وأن المذهب الرئيسى هو البروتستانتية، وللطائفة المعمدانية تأثيرها الكبير على القرار السياسى الأمريكى.

وقد راج فى الصحافة الأمريكية ذاتها مصطلح «الأصولية» للدلالة على تيار يعتقد ملكيته للحقيقة، وفى عصمة «الكتاب المقدس» والأخذ بالمعنى الحرفى للنصوص، ومن أخطر التطورات ما موقع فى الثمانينات بالتحالف بين اليمين المسيحى واليمين الجديد فى الحزب الجمهورى، وبذلك وجد اليمين المسيحى طريقه إلى داخل الحزب الجمهورى متحالفا مع اليمين السياسى، والذى تشكلت منه المجموعة التى نظرت وقادت الحرب ضد العراق!!.

أولئك الذين يعتبرون الرسالة الدينية مقدسة، وقدرا محتوما، و«أصبحت تعبيرات مثل، شرف الواجب، والمهمة المقدسة، والحتمية الضرورية، مفردات لمطالب القوة الأمريكية»، كما يقول جورج كينان راسم السياسة الخارجية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

ويشكل المسيحيون الإنجيليون الذين يصل تعدادهم إلى أربعين مليونا قاعدة مؤيدة لإسرائيل، ويخضعون الشعب الأمريكى لعملية غسيل دماغ مستمرة عبر «الميديا» وعبر منابر الكنائس..

وظهرت القدرة الجبارة لآلة الإعلام..

ورغم فصل الدولة عن الكنيسة، تظل الكنائس مصدرا مهما للتأثير على روادها، وإلقاء نظرة على حركة النشر، يظهر مدى تنامى «الأصوليين» الجدد، وتبين أرقام مبيعات الناشرين أن الكتب والمطبوعات الدينية تمثل ثلثى إجمالى الكتب المنشورة فى الولايات المتحدة، ويوجد فى أمريكا مايزيد عن ألف دار نشر متخصصة فى الكتب المسيحية.

وتبث فى أمريكا اليوم أكثر من ١٣٠٠ محطة إذاعية، وعشرات من محطات البث التليفزيونى تمثل صوت المحافظين الجدد فى الإدارة الحالية، ويكاد الخطاب الدينى يسيطر على الخطاب العام .

وبدلا من الخطاب الذى يدعو إلى قبول الآخر والتسامح مع العقائد الأخرى ..

هذا فى الوقت الذى تطالب الصحف الأمريكية تغيير الخطاب الدينى فى الشرق، ويتجاهلون فكرة تغيير الخطاب الديني لديهم!.

وبعد ..

تساعد هذه الظواهر التى استعرضنا بعضها، على الأقل فى خلق مناخ سلبى، يساعد صاحب القرار السياسى، على شن الحرب، وقتل الأبرياء فالعرب والمسلمون فى العقل الأمريكى الذي صنعه الخطاب الدينى، خطرون وليسوا أهلا للثقة، وهمجيون بدائيون، مما يؤدى إلى فشل إنسان القرن الحادى والعشرين فى التضامن ومواجهة الأخطار المحدقة بالبشرية، مثل الفقر وتلوث البيئة وثقب الأوزون وغيرها .. وعجزه عن حل المشكلات السياسية بالحوار واستخدام العقل. ■

الأخلاق .. بين الدين والعلم
أو بين الماوردى وستيوارت ميل

بقلم
د. جلال أمين

عندما بدأت الأخبار تتواتر بأن جهودا تُبذل من أجل تغيير مناهج الدين فى المدارس المصرية، على نحو يسمح بإحلال مقرر فى «الأخلاق» محل مقرر فى «الدين»، ويسمح أيضا بأن يشترك الطلبة المسلمون والأقباط فى حضور نفس الدروس، وقراءة نفس الكتب، وأداء نفس الامتحانات، لا أخفى على القارىء أننى توجست شرا.

وقفزت إلى ذهنى قصة قديمة كنت قد قرأت عنها منذ زمن، وظلت تعود إلى ذهنى المرة بعد المرة، وتشيع فى نفسى شعورا بعدم الارتياح، إذ كان التفكير فيها يدفعنى دفعا إلى الاختلاف مع رأى بعض معارفى وأصدقائى ممن أحترم عقلياتهم ومواقفهم الفكرية فى كثير من الأمور غير هذا الأمر، بل وشعرت بأنها تدفعنى إلى اتخاذ موقف يختلف عن موقف أبى، الأستاذ أحمد أمين، الذى أجلّه كما يجلّه كثيرون أشد الإجلال، على الأقل يختلف عن موقفه فى مطلع شبابه، وإن كنت أميل إلى الاعتقاد بأنه فى الجزء الأخير من حياته عدل عنه، وربما مال قلبه إلى موقف أقرب بكثير إلى الموقف الذى يميل قلبى أنا إليه، وسوف أقوم الآن بشرحه للقارىء.

* * *

ليس من الصعب أن نتفق جميعا على أن ثمة علاقة وثيقة جدا بين الحسّ الأخلاقى وبين الشعور بالولاء، بمعنى أن وجود الشعور بالولاء شرط جوهرى من شروط وجود الحسّ الأخلاقى، بل لعله الشرط الضرورى والكافى، بحيث لا يتصور وجود الالتزام الأخلاقى بدون وجود نوع ما من الولاء، ولا يتصور وجود الولاء دون وجود التزام أخلاقى.

الذى أقصده بالولاء مزيج من الشعور بالانتماء لمجموعة من البشر، أسرة أو قبيلة أو طائفة أو حزب أو أمة.. إلخ،

والشعور بالمسئولية عن مصير هذه المجموعة من البشر أو رفاهيتها. إذا اجتمع هذان الشعوران: الانتماء والمسئولية، جاز القول بوجود شعور بالولاء، ومتى وجد هذا الشعور بالولاء لجماعة ما، وجد ما يمكن أن نسميه بالحسّ الأخلاقى، الذى يتمثل فى الشعور بالالتزام بالقيام بأعمال معينة والامتناع عن أعمال أخرى، لا خوفا من قانون ولا طمعا فى مكافأة، بل كمجرد استجابة لشعور «بالواجب».

إذا اتفقنا على هذا فإنه لا يغدو من الصعب أن نتبين كيف يوجد الحسّ الأخلاقى (أو هذا الشعور بالواجب) وكيف ينمو ويقوى، أو يضعف ويزول. إذ يصبح سؤالنا عن كيفية ظهور الحسّ الأخلاقى ونموه أو ضعفه، سؤالا عن كيفية ظهور الشعور بالولاء ونموه أو ضعفه. ومن السهل أن نتبين أن هذا الشعور بالولاء لابد أنه يبدأ فى الظهور لدى المرء منذ نعومة أظفاره إذ أن الشعور بالانتساب والمسئولية ينمو بتكرار التعرّض لتجارب مشتركة مع آخرين، سواء كانت تجارب الحياة اليومية أو التعرض لنفس مصادر الفرح أو الألم، أو لنفس الأخطاء أو التوقعات. يبدأ هذا الشعور بالانتساب والمسئولية فى البيت الواحد بين أفراد الأسرة الواحدة، ثم فى المدرسة بين الزملاء حيث تتكون الصداقات الأولى، وفى نفس الوقت ينمو الشعور بالولاء للوطن، حيث يشترك أفراد الدولة الواحدة فى تجارب ومشاعر تتعلق بما يحدث للوطن، والأخطار التى تهدده، أو الآمال التى يطمحون إلى تحقيقها له وأثناء ذلك كله، ومنذ بداية الوعى بما تمارسه الأسرة من شعائر وعادات تتعلق بدين بعينه، ينمو أيضا لدى الطفل شعور بالانتساب والمسئولية إزاء هذا الدين وأهله والمنتمين إليه، أى شعور بالولاء له ولهم، أو الحس الأخلاقى نحوهم.

نحن نعرف أيضا أن الحس الأخلاقى قد يوجد إزاء أفراد من غير أفراد الأسرة التى ينتسب إليها الشخص، ومن غير زملائه فى المدرسة، ومن المؤمنين بدين غير دينه، ويحملون جنسية غير جنسيته لمجرد اشتراكهم معه فى رابطة «الإنسانية». فهنا أيضا شعور بالانتساب والمسئولية، ومن ثم نوع من الولاء، وإن كان علينا أن نعترف بأنه الشعور بالولاء فى هذه الحالات يكون عادة أضعف من الشعور بالولاء نحو أفراد الأسرة التى ينتمى إليها المرء، أو نحو أصدقائه أو الذين يشاركونه دينه أو وطنه.

بل إننا نعرف أيضا أن «حسًّا أخلاقيا» قد ينشأ عند الكثير من نحو حيوان أو طائر، ينمو أيضا مع نمو الشعور بالانتساب والمسئولية مع طول المعاشرة، خاصة إذا أبدى هذا الحيوان أو الطائر ما قد يدل على تمييزه لصاحبه عن غيره، ومن ثم ما يدل على شعوره بدوره بهذا الانتساب والولاء.

بهذا نستطيع أن نفهم، فيما أظن، لماذا عبّر بعض المفكرين عن شكوك قوية فى صدق من يقول إنهم يشعرون بالمسئولية الأخلاقية، ليس نحو أسرتهم الصغيرة، ولا نحو أمتهم أو دين بعينه، بل نحو الإنسانية بصفة عامة. بل لقد قرأت لبعض المفكرين أن مثل هذا الزعم لا ينم

إلا عن نوع من النصب والاحتيال. ويقصدون بهذا أن من النادر جدا أن يشعر شخص ما شعورا قويا بالولاء أو الانتساب أو المسئولية نحو مجموعة غير محددة من الناس.

هذا الاتهام ينطوى فى نظرى على بعض الحقيقة، ولكنه غير صحيح على إطلاقه، فنحن نعرف مثلا أن أعداداً كبيرة من الناس، خاصة من شعوب الدول الثرية، يتبرعون لضحايا الكوارث الطبيعية أو الحروب التى تصيب شعوبا أخرى غير شعوبهم، وقد يتطوعون للعمل على إنقاذ أو مساعدة هذه الشعوب سيئة الحظ، دون انتظار لمكافأة أو خوف من عقاب، مدفوعين فقط بما يربطهم بهذه الشعوب من رابطة الإنسانية. بل نعرف أيضا أن حركات جديدة ظهرت للدفاع عن «حقوق» بعض الحيوانات أو الطيور المهددة بالانقراض، ولاشك أن أفراد هذه الحركات، أو حسنى النية منهم، مدفعون «بحس أخلاقى» لا يختلف كثيرا عن الحس الأخلاقى الذى يدفع آخرين إلى التعاطف مع غيرهم من الآدميين. هذا صحيح بلا شك. ولكن من المؤكد أيضا أن هذه الأمثلة على الحس الأخلاقى، أكثر ندرة من أمثلة التعاطف مع أفراد ينتمون إلى نفس «الجماعة» التى ينتمى المرء إليها، سواء كانت هذه الجماعة أسرة أو جماعة وطنية أو دينية، ومن ثم فشبهة «الاحتيال» فى تلك الحالات التى يضعف فيها الشعور بالانتساب والولاء، أكثر احتمالا.

* * *

إذا كان كل هذا صحيحا فكيف تكون تقوية الحس الأخلاقى، إذا أردنا أن نقوّيه، وكيف يكون نشر «مكارم الأخلاق» إذا ابتغينا نشرها؟

النتيجة المنطقية لما سبق ذكره هى أن تحقيق ذلك يكون بتقوية الشعور بالولاء أو الانتساب. إن أى شىء يقوى أواصر الأسرة يقوّى أيضا الحس الأخلاقى عند أفرادها، بعضهم إزاء بعض، وقل مثل ذلك عن رابطتى القومية والدين. وكذلك عن الرابطة الإنسانية بوجه عام، فكل شىء يقوى من شعورك بالانتساب إلى نفس ما ينتسب إليه شخص أو جماعة من غير وطنك أو ملّتك أو عقيدتك الدينية، يقوّى من حسّك الأخلاقى ومسئوليتك الأخلاقية نحو هذا الشخص «الغريب عنك»، أو نحو الجماعة المختلفة عن جماعتك، فيما عدا الاشتراك معك فى الرابطة الإنسانية.

ولحسن الحظ أن تقوية الشعور بالانتساب إلى دائرة ضيقة نسبيا من الناس، وبالولاء لها ، لا ينطوى بالضرورة على إضعاف الشعور بالولاء إزاء مجموعات أكبر من الناس، فتقوية الحس الأخلاقى عندى إزاء رابطة أفراد أسرتى لا ينطوى بالضرورة على إضعاف حسّى الأخلاقى نحو أمتى أو أهل دينى أو نحو الإنسانية بوجه عام. فالنفس الانسانية قادرة، فيما يظهر، على الجمع بين هذه المشاعر كلها دون أن يطغى واحد منها على غيرها. بل كثيراما تؤدى تقوية الحس الأخلاقى نحو مجموعة معينة من الناس إلى تقويته نحو مجموعات أخرى أضيق أو أوسع . ولكن يجب أن نعترف مع هذا بأن الأمر هنا يتوقف إلى حد كبير على الطريقة التى تجرى بها تقوية الحسّ

الأخلاقى. فهناك بالطبع من طرق تقوية الالتزام الأخلاقى نحو جماعة من الناس ما يتضمن إثارة العداوة أو البغضاء نحو غيرها، كإثارة الحمية الوطنية مثلا عن طريق هجاء الأعداء والتنديد بهم، أو إثارة الحماسة لنصرة المنتسبين لنفس عقيدتك الدينية بشجب أو التقليل من شأن عقائد أخرى. ومن الصعب فى هذه الحالات الكلام عن تقوية «الحس الأخلاقى» دون تحفظ، إذ قد يؤدى هذا المسلك إلى أن تضيّع بيدك اليسرى ما اكتسبته بيدك اليمنى.

كل هذا، فيما يبدو لى، صحيح ولاشك فيه، ولكن من المهم أيضا أن نلاحظ خطر الوقوع فى الخطأ بالسير إلى أبعد من اللازم فى الاتجاه المضاد. وهنا أصل إلى مربط الفرس فى هذا المقال. فهناك من يؤكدون على خطر تقوية الولاء لجماعة بعينها (كأمة أو جماعة دينية)، لما تحمله من احتمال اضعاف الشعور بالالتزام الأخلاقى نحو جماعات مغايرة (أمم أخرى أو أصحاب عقائد مختلفة). نعم هذا الخطر موجود ولكن الأمر يتوقف على الطريقة التى يتم بها تقوية الولاء. كما أنه لابد أن يكون من المؤسف للغاية، أن يؤدى الخوف من هذا الخطر إلى إضعاف الولاء الأصلى للمرء، أو حتى إلى إضعاف الحسّ الأخلاقى برمّته.

★★★

لنأت الآن إلى القصة الأساسية التى أثارت لدىّ هذه القضية برمّتها. ففى كتاب «حياتى» الذى يروى سيرة أحمد أمين الذاتية، (مكتبة النهضة المصرية، القاهر (١٩٥٠) - الطبعة السادسة ١٩٧٨) يحكى أبى قصة عن تدريس مادة الأخلاق فى مدرسة القضاء الشرعى فى أوائل القرن العشرين، أى منذ نحو قرن كامل بالضبط، وهى المدرسة التى تخرج منها أبى بعد دراسته فى الأزهر، ثم عمل بها مدرسا قبل أن ينتقل إلى التدريس بالجامعة المصرية. كان ناظر هذه المدرسة (عاطف بركات) رجلا فاضلا واسع المعرفة، ترك فى أبى أثرا عميقا، حتى أن أبى يصفه فى هذا الكتاب بأنه كان «أباه الروحى الثانى».

كان عاطف بركات مفتونا بالثقافة الغربية، وخاصة الإنجليزية، ولا يحمل احتراما كبيرا للثقافة التقليدية دون أن يسمح لنفسه دائماً بالإفصاح عن ذلك. فلما رأى علم الأخلاق يدرسه الشيخ حسن منصور من كتاب «أدب الدنيا والدين»، لأبى الحسن الماوردى، وهو كتاب يرجع إلى القرن الخامس الهجرى والعاشر الميلادى، لم يعجبه هذا وتولىّ تدريس هذه المادة بنفسه من الكتب الانجليزية، ككتاب ماكينزى فى علم الأخلاق، وكتاب جون ستيوارت ميل الشهير فى مذهب المنفعة. ثم عيّن أبى مدرسا مساعداً له فأصبح يدعوه إلى منزله لتحضير دروس علم الأخلاق معاً، وكان يحضّرها من الكتب الانجليزية دون غيرها. ويصف أبى هذا فى كتاب (حياتى) بقوله:

«كان يقرأ بالانجليزية ويمليني بالعربية، وأحيانا ينفرد هو بالترجمة ثم يسمعنى ما ترجم، وكنا نتناقش فى الدروس قبل إلقائها.. وقد أثّر فىّ أثرا كبيرا تحكيم العقل فى الدين، فقد كنت

إلى هذا العهد أحكّم العواطف لا العقل، ولا أسمح لنفسى بالجدل العقلى فى مثل هذه الموضوعات» .

لفت نظرى بشدة هذا الوصف من جانب أبى «للانقلاب الفكرى» الذى حدث له نتيجة الانتقال من «الماوردى» إلى «ستيوارت ميل». إذ كان لابد أن يذكرنى بوصف مماثل كنت قرأته فى كتاب ستيوارت ميل نفسه عن سيرة حياته، لما حدث له من انقلاب فكرى عندما سمع لأول مرة وقرأ أفكار جيريمى بنثام (Jeremy Bentham)، المفكر الإنجليزى الشهير وصاحب مذهب المنفعة فى الأخلاق. كان لابد أن ألاحظ أن السبب وراء هذا «الانقلاب الفكرى» واحد فى الحالين، وأن السبب فى عمق التأثير الذى يصاحب هذا الانقلاب واحد أيضا. ففى الحالين بدا لى أن الانقلاب هو من «الميتافيزيقا» إلى «العلم»، أو من «النقل» إلى العقل»، أو من الاحتكام إلى «القول المأثور» إلى الاحتكام لمقتضيات الملاحظة والتجربة والمنطق وحدها. وهناك فيما يبدو شيء جذّاب فى إعلان التمرد على الميتافيزيقا لصالح التجربة والملاحظة، ليس فقط فى العلوم المتعلقة بالطبيعة المادية بل وأيضا فى العلوم المتعلقة بالطبيعة البشرية وبالمجتمع، بل وبمبادىء الأخلاق نفسها. كان بنثام يبحث عن مبدأ يحكم المجتمع شبيه بمبدأ نيوتن الذى يحكم الطبيعة المادية، وقد وجده (أو ظن أنه وجده) فى مبدأ المنفعة أى أن معيار الحكم على أى سلوك أو سياسة أو قاعدة قانونية هو درجة نجاحها فى تحقيق «أكبر قدر من المنفعة» بعد طرح ما يمكن أن يترتب عليها من أضرار، أو بتعبير بنثام وأتباعه «أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس». وبمجرد أن عثر بنثام على هذا المبدأ ظن أنه عثر على الكنز الذى يبحث عنه فطار به فرحاً. وقد طار والد ستيوارت ميل به فرحا وهو جيمس ميل (James Mill) عندما سمعه من بنثام، ثم طار به الابن جون ستيوارت ميل (J.S.Mill) فرحا بدوره، بمجرد أن سمع به من أبيه، وها هو أبى يطير بدوره فرحا بمجرد أن سمع به من أستاذه عاطف بركات عندما قرأ على يديه كتاب ستيوارت ميل.

إنى أستطيع أن أتصور بوضوح درجة حماسة أبى لمبدأ المنفعة عندما سمع به لأول مرة، وهو لم يتجاوز العشرين بكثير، وكيف كان شعوره وهو يقارن بينه وبين كتاب الماوردى فى «أدب الدنيا والدين»، إذ وجد فى الأول علماً، ووجد الثانى كتابا فى الأدب. كما أنى أعرف من سيرة ميل الذاتية درجة حماسته عندما سمع بمبدأ المنفعة قبل أن يبلغ العشرين.. وأنا أعرف أيضا أن أبى ألّف بعد هذا ببضع سنوات كتابا اسمه «الأخلاق»، قرر لفترة ما للتدريس فى المدارس الثانوية والكتاب يتضمن شرحا لمبدأ بنثام، مع تعاطف واضح نحوه، ولكنه لا يذكر اسم الماوردى قط.

عندما قرأت هذه القصة فى كتاب حياتى عن عاطف بركات وتدريس الأخلاق، كان فى ذهنى بعض الشذرات القليلة مما كنت أسمع من أبى فى صباى عن عاطف بركات وستيوارت ميل وكتاب الأخلاق الذى ألفه أبى، وكان لدىّ قدر لا

يأس به من المعرفة بمبدأ المنفعة كما شرحه بنثام وميل، ولكنى لم أكن قد قرأت قط أى شىء للماوردى أو عن الماوردى، فلم تكن هذه طبيعة تعليمى بعكس تعليم أبى، الذى درس الماوردى والتراث أولا ثم تعرض لتأثير الثقافة الانجليزية، أما أنا فقد تعرضت منذ نعومة أظفارى، ومن مختلف الاتجاهات، لتأثير الثقافة الغربية، حتى من خلال ما تعلمناه بالعربية، مع إهمال كبير لمصادر الثقافة العربية، باستثناء ما كنا نقرأه فى بعض موضوعات المطالعة العربية والدين.

أثارت هذه القصة رغبة قوية لدىّ فى أن أقرأ كتاب الماوردى، «أدب الدنيا والدين»، فوجدته لحسن الحظ متوفرا فى عدة طبعات، وإذا بى أشغف بالكتاب أشد الشغف، وأجد فى قراءته متعة لم أجدها فى كتب شهيرة أخرى، عربية أو انجليزية، بل وتركت مقاطع كثيرة منه أثرا كبيراً فى نفسى. وعلى سبيل المثال سوف اقتطف للقارىء هنا قصة قصيرة وردت فيه، اخترتها دون جهد كبير فى الاختيار، فالكتاب ملىء بأمثالها. وردت القصة فى باب بعنوان «فى فضل العقل وذمّ الهوى»، وتقول:

«حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ بصبيان يلعبون، وفيهم عبدالله بن الزبير، فهربوا منه إلا عبد الله، فقال له عمر رضى الله عنه: مالك؟ لم لا تهرب مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أكن على ريبة فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقا فأوسّع لك» (ص ٢٤).

والقصص ذات المغزى الأخلاقى النبيل والأقوال المأثورة التى تترك أثرا قويا فى النفس والمقتطفات من الأشعار الجميلة، لا نهاية لها فى هذا الكتاب. فإذا كان الأمر كذلك، فما الذى يا ترى لم يعجب عاطف بركات فيه؟

الأرجح أنه رأى فيه شيئين لم يعجباه. رآه أولا كتاب أدب فى موضوع الأخلاق، وهو يريد للأخلاق أن تدرّس «كعلم»، فوجد فى طريقة بنثام وستيوارت ميل فى تناول الموضوع مبتغاه. والثانى أنه وجده كتابا يستلهم الثقافة الإسلامية والعربية ويشيع فيه احترام هذه الثقافة والولاء لها، وهو يريد لمقرر فى الأخلاق، أو فى علم الأخلاق، أن يتجاوز الولاء لثقافة بعينها، ويصلح بالتالى للدارسين من أى ملة ودين، وأيا كانت الثقافة التى ينتسبون إليها، بالضبط مثلما يظن حسنو النية من هؤلاء الذين يريدون الآن أن يستبدلوا بتدريس الدين فى المدارس المصرية والعربية مقررا عاما فى الأخلاق، يصلح لكل الأديان وكل الثقافات.

وأنا من جانبى أشعر بالتحفظ إزاء كلا السببين. أما عن تحويل الكلام عن الأخلاق من كلام فى الأدب والدين إلى كلام فى العلم، فأتحفظ عليه أولا فيما يتعلق بكتاب الماوردى بالذات، إذ أن فيه بالإضافة إلى ما فيه من أدب رفيع، الكثير جدا من التحليل، والنظرات الاجتماعية السديدة والنتائج المستخلصة من قراءات واسعة فى التاريخ ومن تأملات ثاقبة البصر فى أحوال المجتمعات والنفس البشرية. أفلا يندرج كل هذا تحت وصف «العلم»؟.

ولكن بصرف النظر عن تصنيف كتاب الماوردى بالذات، وهل هو كتاب أدب أم علم، هل يمكن حقا تحويل موضوع

«الأخلاق» إلى علم بحت، دون أن يفقد أهم وأجمل مافيه؟ ما الذى جنيناه بالضبط من كل ما فعله بنثام وتلميذه ستيوارت ميل فى شرح مبدأ المنفعة، والقول بأن معيار الأخلاق هو تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وأن المعيار فى النهاية يقوم على المقارنة بين مجموع اللذة الناتجة عن أى عمل ومجموع الألم، مع التمييز بين قوة اللذة وضعفها، طولها وقصرها.. إلخ، ولكن دون تمييز بين لذة وأخرى أو ألم وآخر من حيث تحقيقهما لأى هدف آخر أو اتفاقهما مع أى مبدأ أخلاقى آخر! نعم، فى هذا التحليل بلا شك شحذ للذهن وتمرين عقلى مفيد، ولكن ألا يؤدى تطبيق هذا المبدأ إلى التسوية بين عملين غير متساويين من زوايا أخرى غير المنفعة؟ فإذا عرّفنا المنفعة بأنها تحقيق ما نعتبره جائزا أو ما نرضى عنه، ألا يكون المبدأ فى الحقيقة مجرد ترديد لبديهية من البديهيات؟ بالاضافة إلى هذا، أو لم يستخدم هذا المبدأ، ولا يزال، لتبرير أى عمل «غير أخلاقى» باسم «تعظيم المنفعة»؟ بل ألا يمكن أن تكون ثمة علاقة وثيقة بين انتشار هذا المبدأ وما وصل إليه اليوم المجتمع الاستهلاكى، وإعلاء شأن ما يسمى بالتنمية الاقتصادية على كل ما عداها من اعتبارات إنسانية وأخلاقية؟

أما الظن بأن «تحرير» الأخلاق من الولاء لدين معين أو ثقافة بعينها ينطوى على خطوة «أرقى» أو أكثر سموًا، فأعتقد أنه يتضمن خطأ كبيرا. فإذا صح ماقلته فى بداية هذا المقال من ارتباط الأخلاق بالولاء والشعور بالانتساب، فإن الأرجح فى نظرى أن تحرير الأخلاق من الولاء والانتساب لدين بعينه أو ثقافة بعينها لابد أن يضعف الحس الأخلاقى بدلا من أن يقوّيه.

قديما قيل إن «المفتاح المزّيف يفتح جميع الأبواب»، وهذا القول يمكن أن ينطبق على موضوعنا الآن بمعنى أن الزعم بأن شخصا ما ينتمى إلى الإنسانية جمعاء دون أن يشعر بالولاء لأى ثقافة أو دين أو ملة بعينها قد لا يعنى أكثر من أنه شخص لايحمل أى انتماء أو ولاء من أى نوع. علاج التعصب ليس بإضعاف الولاء بل بإشاعة روح التعقل والحكمة فى حمل هذا الولاء وفى التعبير عنه، بحيث لايتحول الولاء إلى كراهية للغير. وتقوية الحس الأخلاقى تكون بترسيخ ولاء المرء لدينه وثقافته دون افتئات على حق أصحاب أى دين آخر أو ثقافة أخرى، فى التعبير عن ولائهم لدينهم أو ثقافتهم. وليس هذا بالمطلب المستحيل أو العسير، وقد عرفنا فى مصر مثل هذا المناخ من الولاء للعقيدة والثقافة والوطن المصحوب بالتعقل والتسامح، قبل أن تنتشر الموجة الحالية من التعصب البعيد عن التسامح.

كان لدى جيل بنثام فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، كما استمر لدى جيل ستيوارت ميل، ثقة كبيرة فى أن يؤدى انتشار حركة التنوير والتعليم والثقة الكاملة بالعقل والعلم إلى تحسن فى الأخلاق، ولكن الذى حدث فيما يبدو لى ولكثيرين غيرى، هو عكس ذلك. انتشر التنوير، بالمعنى الذى كانوا يريدونه، وانتشر التعليم وزاد الإيمان بالعقل والعلم، وشاع الأخذ بمبدأ بنثام فى المنفعة، ولكننا ننظر حولنا فنرى تدهورا فى الأخلاق بدلا من أن نرى ارتقاء بها. والسبب الأساسى، فى رأيى، هو ما طرأ من ضعف على الشعور بالولاء والانتماء، الولاء للأسرة وللوطن وللدين جميعا. ■

كتاب الهلال

التجانس اليهودى والشخصية اليهودية

بقلم: د. عبد الوهاب المسيرى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٥ نوفمبر ٢٠٠٤

روايات الهلال

مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان

تأليف
عبده جبير

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ نوفمبر ٢٠٠٤

الدروس الدينية
فى رمضان

الإمام المراغى
فارس الحلبة

بقلم
د. محمد رجب البيومى

عمل الإمام المراغى على أن تلقى الدروس الدينية ليس فى الأزهر وحده، بل وفى المساجد المختلفة

الشيخ محمد مصطفى المراغى

كانت المساجد منذ نشأة الإسلام مدارس عامة تلقى فيها المواعظ ويتلى فيها القرآن بقراءاته المتعددة تعليما وتثقيفا، وقد نشأت المذاهب الفقهية فى حلقات هذه المساجد، فسجلت مجدا علميا رائعا، قبل أن تنشأ المدارس لتقوم بدورها فى دراسة العلوم على نحو منضبط منظم، وفى مصر كانت مساجد عمرو بن العاص وابن طولون والأزهر وغيرها مدارس ذات جداول وأساتذة ومواد، كما عرف عصر المماليك بتولية كبار العلماء خطبة الجمعة بمرسوم سلطاني، وكان كبار الفقهاء يعدون الخطبة الأسبوعية والدرس الدينى موضع اعتزاز ومباهاة، حتى جاء العصر العثمانى فانطفأ بريق العلم، ورفعت الدولة يدها عن التعليم، فكانت المساجد لا تجد إلا المتطوعين ممن يحملون أمانة العلم لتؤدى للعامة والخاصة ابتغاء وجه الله.

حتى تبدل الحال في هذا العصر، فازدهرت الدروس الدينية بالمساجد ازدهارا حميدا، ورأينا كبار العلماء يتطوعون بإلقاء الدروس في شهر رمضان، ولهم جمهورهم الغفير في كل مسجد، وأذكر أن الشيخ محمد بخيت المطيعي المفتي الأسبق كان يلقي درس العصر في رمضان بالمسجد الحسيني، وكان الشيخ يوسف الدجوى يلقي درس العشاء بالجامع الأزهر، وكان الشيخ السمالوطي يلقي درسه قبيل الفجر في المسجد الزينبي وثلاثتهم أعضاء في جماعة كبار العلماء بالأزهر، وفي الناس من يتابع هذه الدروس الثلاثة يوميا فيتنقل من مسجد إلى مسجد حتى يحصل على أكثر ما يستطيع من العلم المتاح، لذلك كان رمضان لدى الناس شهر العلم كما هو شهر القرآن وكانت فرحة الصائمين بدروسه تعادل فرحتهم بصومه واعتقاد المثوبة في الاستماع مما يحفزهم على المواصلة دون انقطاع!

الملك في درس المراغي

ولكن هذه الدروس الدينية قد بلغت أوجها الرفيع في عهد الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي، حيث كانت دروسه مطمح الأنظار، إذ يحضرها جلالة الملك فاروق، ورئيس الوزراء، وكبار الصفوة من العلماء والمثقفين، ومن العامة أيضا، وكنت ترى السجاد مفروشا خارج المسجد إلى مدى فسيح، وقد ازدحم الناس في محيطه حين ضاق بهم المسجد وصوت الميكروفون يدوي بأداء الإمام، والإذاعات العربية في عواصمها المختلفة تنقل الحديث الديني كما تنقله إذاعة مصر، والجرائد اليومية تنشر ملخصا وافيا لما قيل، أما المجلات الدينية فتنشر النص بأكمله! وقد جمع كثير من هذه الدروس في كتاب قيم أصدرته دار الهلال وتعددت طبعاته مرات!

وكيلا يظن بي القارئ إسرافا فيما أدونه فإنني أنقل إليه ما كتبه الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي حول هذه الدروس بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٦هـ ص٦٤٢ حيث قال من مقال مستفيض ننقل منه ببعض التصرف!

«إن السنة الكريمة التي سنها حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق في الاستماع إلى الدروس الدينية تعتبر بحق حادثا جللا في العالم الإسلامي الحديث، وسيكون من آثارها المباشرة يقظة العاطفة الإسلامية في نفوس الأمم الآخذة بهذا الدين والرغبة في استجلاء روحه الصحيحة وأصوله العالمية القويمة، ولما كان هذا لا يمكن أن يكون إلا من طريق التناسب العقلي، والترابط العلمي بين الناس فسيثمر هذا الجهد انقلابا في وسائل الفهم وطريقة تجلية الأغراض

الإسلامية.

وقد قام الإمام المراغى بما اعتبر تجديدا باهرا فى حسن الأداء وجمال البيان، وجلال الموضوع إذ جال فى نواح شتى مما يهم النفوس من أسرار الدين، وأصوله العلمية وفيما له صلة بالعالم الانسانى ومراميه الأدبية، فبين فضيلته الأسباب الداعية إلى ما كان من انفصام وحدة المسلمين، ووقوع الشقاق بينهم، فعلى المسلمين أن يدركوا ما تعنيه هذه النزعة الشريفة، وإن هذه الدعوة إن لم تثمر ثمرتها اليوم فستحقق غدا».

ولعل القراء على ذكر من مقال لى سبق أن نشرته بمجلة الهلال، أرد فيه على كاتب فاضل ظن أن أحاديث المراغى كانت للدعاية الحزبية، فأثبت له نقيض ما قال، وقلت إن من حسن الحظ فى بيان الحقيقة، أن الأحاديث دونت بكاملها فى مجلة الأزهر فى حين إلقائها، وليس بها ما يشم منه رائحة التحزب، كما ليس من المعقول أن يحيل إمام المسلمين كتاب السماء، ومسجد الرحمن أداة لتوجيه حزبى، وهو من هو، والتفسير منتشر ذائع! وهو الوثيقة التى تمحق الاتهام.

ولعل مما ينطق بالحجة البيضاء فى هذا الصدد أن الإمام فى درسه الذى ألقاه فى رمضان سنة ١٣٦٣ مفسرا قول الله عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم..» سورة النساء: ٥٩، قد قال «إن معنى أولى الأمر أنهم أهل البيئة من العلماء والفقهاء والأمراء الذين يمثلون الأمة الإسلامية تمثيلا صحيحا بعيدا عن الهوى والغرض، وعن سائر المؤثرات، ويمثلون طوائفها المختلفة، فهم أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع، وأهل الدراية بمصالح الأمة وما يوافقها! هذا ما قاله الإمام على مسمع من جلالة الملك وحاشيته ووزرائه! فلم يقل إن ولى الأمر هو الملك أو رئيس الوزراء! بل جعل الطاعة لأعلام الأمة الذين يمثلون كيانها، وهم بعد أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع.

درس فى كل مسجد

لم يشأ الإمام المراغى أن تكون الدروس الدينية فى مسجد الأزهر وحده، بل رأى أن تلقى هذه الدروس فى المساجد المختلفة بالقاهرة والاسكندرية، ليكون لساكنى الأحياء الشهيرة حظهم من الاحتفاء، حين يجدون جلالة الملك ووجهاء الدولة يقصدون مسجدهم الذى يعتزون بإقامة الشعائر به، وكان صدى هذا التوجيه الشعبى النبيل، أن أهالى كل مسجد، قد أقاموا مظاهر الاحتفال الباهرة ليلة الدرس الدينى، فأضاءوا الثريات الكهربائية حتى أصبح الليل نهارا يأتلق بالشمس، ونصبوا الأبسطة والسجاجيد فى نواحى المسجد الأربع، وخيوط الكهرباء تمتد من الأعلى فتلقى

أثرا من الارتياح النفسي لدى كل ناظر، وقد حرص أكثر الحاضرين على أن يصحبوا أولادهم في أكمل زينة، ولا يوجد حرس ملكي يمنع من أراد الدخول إذا كان الفراغ متسعا، أما وقد ضاق المسجد الرحيب عن قاصديه، ففي الخارج متسع لمن يجلس مطمئنا فوق البسط والسجاجيد، وأستشهد الآن بالدروس الدينية التي ألقيت في رمضان سنة ١٣٥٦هـ حيث بدئ الدروس الأول مساء الخميس في الثامن من الشهر الكريم بمسجد البوصيري بمدينة الاسكندرية، وتلاه الدرس الثاني بمدينة القاهرة في مساء يوم الجمعة السادس عشر من رمضان بالمسجد الحسيني الشريف وجاء الدرس الثالث مساء يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان بمسجد أبي العلاء بالقاهرة ثم الدرس الرابع في مساء الخميس التاسع والعشرين من رمضان بمسجد السلطان الحنفي بالقاهرة، وهذا نمط من عام واحد تتابعت بعده الأعوام، لتكرر نماذج هذه الدروس في مساجد شتى، ولو تتبعناها بالتفصيل التشعب الحديث!

تنوع موضوعات الدرس

وإذا كان الإمام المراغي حريصا على الوحدة الاسلامية بين شتى الدول الاسلامية، فقد دعا إلى نبذ مسائل الخلاف المذهبي دعوة صريحة، وأعلن أن الأصول العامة هي مجال الاتفاق، وأما الفروع فأمرها سهل إذ لكل وجهة هو موليها، ولكن قوما ممن تضيق عقولهم عن استيعاب هذه البدهيات، قد جنحوا للخلاف وفسحت لهم الصحف الهابطة مجال اللجاج دون أن يعرف القائمون على تحريرها مناط الخلاف، وموضع الشقاق، لذلك تأثر طلاب الأزهر! إذ ضاقت صدورهم بما يروج من الأفك، واتجهت وفود من كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية إلى مقر المشيخة تعلن تأييدها المطلق لما يدعو إليه الشيخ الأكبر، وتستنكر أن يقوم مسلم بهذا العبث المريض، وقد نشرت مجلة الأزهر إذ ذاك كلمات كبار الأساتذة التي ألقيت في لقاء الأستاذ الإمام معلنة خالص الابتهاج بالبيان المشرق الذي استفاد منه كل سامع، وكان الرجل الكبير متواضعا كل التواضع حين قال ردا على ما سمع:

«أما الدروس الدينية فإني أعتقد أن إخلاصكم لي ومحبتكم إياي أكبرت من شأنها عندكم بأكثر مما تستحق، فهذه الدروس كانت شرحا لبعض الآيات الكريمة قصدت به أن يكون في المستوى الذي يفهمه الجمهور، لا في المستوى الذي يستفيد منه العلماء، فإذا قابله الجمهور بالحمد والاطمئنان والرغبة في الزيادة فإني أصدق ذلك، وأحمد الله عليه، وعلى أنهم أفادوا منه، أما إذا سمعت منكم أن

هذه الدروس كانت محل إفادة العلماء فهو ما أحمله على الظن وعلى محمل إخلاصكم ومحبتكم لى، وأحمد الله على ذلك أيضا»

وقال الإمام فى وفد آخر:

«أعتقد أننا فى بداية الطريق، وأقول لكم إن القيام بنشر دين الله لا يكفى فيه المجهود الفردى، وإنما يحتاج إلى تضافر جهود المسلمين، وأولى الرأى جميعا، وإنه ليسرنى منكم هذا الشعور الذى جعلنى أعتقد أن مهمة نشر الدين تحل المحل اللائق بها وأنها آخذة فى الازدياد».

لغة سهلة فصيحة

أما أثر هذه الدروس فيما جد بعدها من كتب التفسير الحديث، فواضح ملحوظ لأن قراءة ما كتبه الأساتذة محمد عبدالله دراز وسيد قطب ومحمد متولى الشعراوى والجبالى توحى بتأثير الإمام فى خطراته الاجتماعية، ونظراته الأسلوبية، وإذا كان هؤلاء قد توسعوا فى منحاهم الفكرى فذلك لا يغفل أثر البذرة فى نماء الشجرة، ومما يعلى قدر هذه الدروس أنها كانت بلسان عربى مبين لم تلوثه العامية التى يصطنعها بعض الواعظين فى التفسير بدعوى أنها تساعد على جلاء المعنى وتقريبه للقراء، والشيخ الشعراوى قد ألف هذا النمط فى درسه الإذاعى، ولكنه فيما طبع من أجزاء التفسير قد ارتقى بالأسلوب إلى مستوى عال رحمه الله.

أما إلقاء الإمام فكان كالجدول المنساب رقراقا هادئا، شفافا عما يحمل من اجتهاد وتحليل، وسأنقل للقارئ نموذجين من تفسيره، يوضح أولهما منحاه البيانى فى تقريب الصورة الأدبية إلى الأذهان دون اصطناع لمصطلحات البلاغة التى تضر هنا أكثر مما تنفع لقد وقف الأستاذ عند قوله تعالى: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» الحديد: ٢٠، فقال ببعض التصرف:

«فى الدنيا لعب ولهو يتفكه الناس بهما، وأكثر ما يكون الأول للصبيان، وأكثر ما يكون الثانى - وهو الزينة - للنساء ومن فى حكمهن من الرجال، وفيها تفاخر بالأنساب والمقدرة وغيرهما من الصفات، وفيها مباراة فى الإكثار من المال والولد والجيوش وكل هذه عرضة للتبدل والزوال، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو والملذات، وقد ضرب الله مثلا للدنيا فى سرعة تقضيها، وقلة جدواها وفى بهجتها عند إقبالها، وعبوسها عند إدبارها، فقال إنها كالنبات يستوى على سوقه ويخضر، ويعجب به الزراع، ثم يجف ويصفر ويصير هشيما وحطاما،

متكسرا، ففي الطور الأول جمال وسحر وفتنة للناظرين، وبهجة للنفس والعين، وأنس لا يقدر قدره، لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضي بسرعة ويحل الطور الثاني، وفيه يزول الجمال والسحر والفتنة ثم لا تبقى من الأعواد البديعة غير حطام لا تستريح له النفس، وتزروه الرياح، وقد قال سعيد بن جبير، الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة، أما إذا دعتك إلى رضوان الله فنعم المتاع».. ثم انتقل الأستاذ الإمام إلى ما بعد هذا النص، ليبرز ترابطه العضوى بما قبله فأتى بالجديد الطريف، ولا أستطيع أن أنقل هنا ما قال!

أما النموذج الثاني فأنقل بعضه للدلالة الاجتماعية التى يحرص على إيضاحها، فقد شرح قول الله عز وجل: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» الفرقان: ٦٧، فتوسع توسعا شافيا فى الرد على من يحرمون الطيبات، واستشهد بنصوص صريحة من محكم الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ثم قال: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وقد قال ابن عباس «كل ما شئت وأشرب ما شئت والبس ما شئت إذا أخطاك اثنان، السرف والمخيلة، والمخيلة هى الخيلاء والكبر، فقد نهى الله عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف، وفى الرجوع إلى الهدى المحمدى تبصرة ونور وضياء، عن ابن عباس قال: رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل، وقد لبس الإزار والرداء والجبة ولبس فروة مكفوفة بالسندس، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لينة، وكان بردان أخضران وكساء أحمر، وكان يحب فى الطعام الحلوى، وقد أكل الضأن والدجاج والجزور، وأكل الشواء والرطب والتمر، وشرب اللبن خالصا ومشوبا وشرب نقيع التمر، وكان لا يشرب إلا النظيف العذب، ويحب البارد الحلو.

هذا هدى القرآن والهدى المحمدى فى تناول الطيبات فمن تركها زهدا وعبادة فلا حق له، ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعشيرته فلا حق له، ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن».

قبس من روح الإمام

وبعض الذين تحدثوا عن هذه الدروس التوجيهية الهادفة، ذكروا أنها قبس من روح الإمام محمد عبده حيث كانت دروسه الرائعة فى تفسير كتاب الله بالرواق العباسى تجديدا صريحا فى تناول كتاب الله والبحث عن هديه الإصلاحي، وتحديد الرسالة الاسلامية فى إنقاذ البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، مع البعد عن المماحكات اللفظية، والاعتراضات الجدلية التى تغشى ضياء الوحى القرآنى لدى كثير من المفسرين فتحجبه عن العقول، وهذا حق لا شك فيه، والإمام المراغى تلميذ الإمام محمد عبده

وحامل راية الإصلاح الدينى من بعده، إذ بلغ بالأزهر مبلغا ارتفع به إلى مستوى الجامعات المعاصرة حين دعا إلى إنشاء الكليات، وتطوير مناهج التعليم الدينى، وهو رحمه الله يعترف بأثر الإمام محمد عبده وقوة تأثير دروسه الدينية، وأفكاره التوجيهية، يقول الإمام المراغى عن أستاذه الكبير ودروسه القرآنية الهادية «كانت دروس الشيخ كالغيث أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه، وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته نكدا، وكانت دروسه مثلا عاليا فى طريقة الإلقاء والتفهيم، وفى العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى أعماق القلوب، وكانت دائرة معارف يجد فيها اللغوى حاجته والفقيه رغبته والمتكلم بغيته، ويجد علماء الاجتماع بها تطبيق آى القرآن على معارفهم، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل، ومحركة للجامد، وكانت عاصفة قوية، هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت، أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدنيئة فأفلتت منها ولم تنتفع بها».

وبعد، فيطيب لى أن أشير إلى شئ له أهميته المعاصرة بمناسبة الحديث عن تفسير الإمام المراغى، حيث إن القنوات الفضائية والإذاعات اللاسلكية، قد زاد انتشارها وعظم خطرها، وهى تفسح مجالا واسعا للأحاديث الدينية والتفسير القرآنى فى طليعتها، وقد تختار من المتحدثين من يجيد القول، فيشبع السامع بما يفتح الله به عليه، ولكن كثيرا ممن يتصدرون للقول فى تفسير كتاب الله بهذه المنافذ القوية التأثير، البعيدة الصيت يضلون السبيل بما يسوقونه من أفكار تشتط حينا وتضعف حينا، وفيهم من يتطلب المثالة بعرض آراء واهية قال بها القدماء، وهى منقودة داحضة، وهذه الآراء ليس مكانها القنوات والإذاعات، لأنها تحتاج إلى تمحيص دقيق فى الصحف الدينية المتخصصة حتى تكشف الرغوة عن الصريح، وأنا أدعو هؤلاء وهم فى مجال الدعوة إلى سبيل الله أن يقرأوا ما كتبه الإمام المراغى ليحاولوا أن ينهجوا نهجه المستنير، فإن أحاديثه الساطعة تقدم المثال النادر لما يجب أن يطالع به جمهور السامعين، ومن الأسف أن بعض مقدمى هذه الأحاديث من موظفى الإذاعة يفرطون فى الثناء على ما يقال بدءا وخاتمة، حتى ليتوهم الغافل أنه سمع من الرأى ما لا معقب من بعده، وهى جهالة تندرج على جهالة، فتكون ظلمة فوق ظلمة فإذا جعلنا أحاديث المراغى ومن تبعه بإحسان كمحمود شلتوت وعبدالوهاب خلاف ومحمد عبدالله دراز أمثلة تحتذى فإننا نسير بالسفينة إلى الشاطئ المأمول فى سلامة واطمئنان! ■

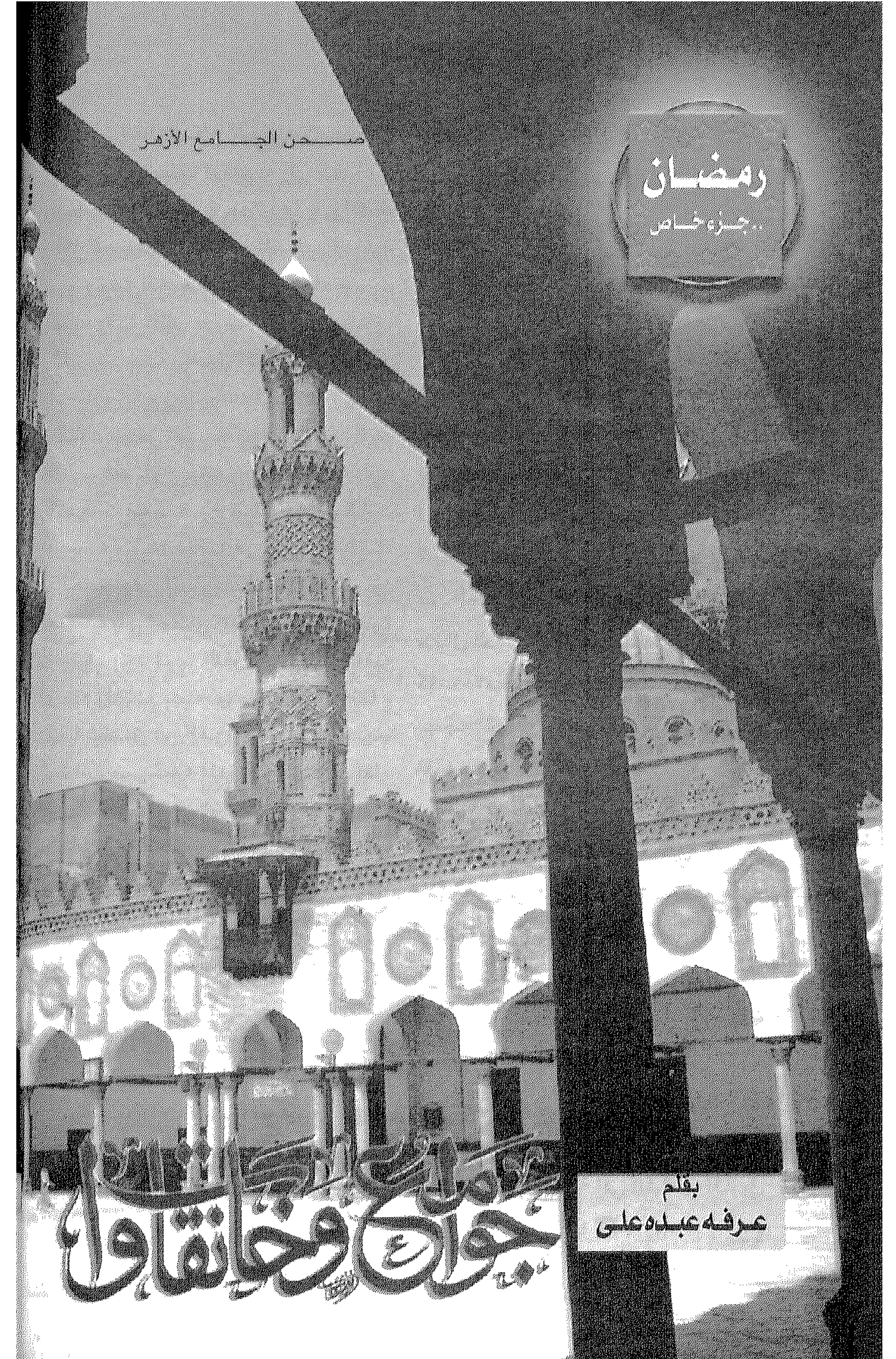
صحن الجامع الأزهر
رمضان
.. جزء خاص
بقلم
عرفه عبده على

حرص خلفاء وسلاطين مصر الإسلامية علي التقرب إلى الله - غفار الذنوب - بتشييد أروع المساجد وأجمل المدارس والتكايا والأسبلة، وافتتاحها في شهر رمضان المبارك، وتباروا فى الأوقاف عليها ..

وجامع عمرو بن العاص هو أول جامع شيد فى مصر وأفريقيا وارتبط فى ذاكرة التاريخ - وحتى يومنا هذا - بصلاة آخر جمعة فى شهر رمضان «الجمعة اليتيمة» وانتهى أحمد بن طولون من تشييد جامعه الشهير فى رمضان عام ٢٦٥هـ / ٨٧٨م، وافتتح الجامع الأزهر في أول جمعة من شهر رمضان عام ٣٦١هـ / ٩٧٢م.

جامع عمرو (تاج الجوامع)

الزائر لهذا المسجد الكبير لابد أن يداعب خياله ماضى مدينة الفسطاط وما كانت عليه من عمران وحضارة عظيمة فهي أول مدينة إسلامية أنشئت بمصر، وجامع عمرو هو أول جامع أنشئ بديار مصر، شيده القائد عمرو ابن العاص عام ٢١هـ/ ٦٤٢م واشتهر بالجامع العتيق وتاج الجوامع، وكان وقتئذ مشرفا على النيل ومساحته ٥٠ × ٣٠ ذراعا ولاصحن أو منارة له، كان شديد البساطة فى كل شئ وقد زادت مساحته الحالية الى ١٢٠,٥×١١٢,٥ متر، والجامع القديم لم يتبق منه سوى الاسم فقط وكان يواجه دار عمرو بن العاص.

وكان لحريق الفسطاط سنه ١١٦٨م خشية احتلال الصليبيين لها، اثر فى تخريب الجامع وهو فى أزهى عصوره، ثم توالت عليه العناية بالإصلاح والتجديد والتوسعة من ولاة مصر والخلفاء الفاطميين، وسلاطين الدولة الأيوبية، وقام محمد على بتجديده وأعاد صلاة الجمعة فيه، وكان أكبر مشروع لتجديد وتوسعه الجامع تم فى عهد الملك فؤاد عام ١٩٢٦ .

وقد نال الجامع قدرا كبيرا من اهتمام الأثريين وعلى رأسهم محمود باشا أحمد وكوربت بك ود.كريزويل ولم يقتصر الجامع على أداء الصلاة فحسب بل كانت به محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية، وكانت تعقد جلساتها فى الزيادة الغربية الموجود فى جزء منها الآن المحراب الجصى .

وكان به أيضا بيت المال وقد وصفه الرحالة ابن دسته بأنه كان يواجه المنبر، شبه قبة عليها أبواب من الحديد. كما قام الجامع بدور الجامعة، حيث كانت تعقد به حلقات للتدريس، بعضها لإرشاد الناس إلى ما ينفعهم في دنياهم، وبعضها حلقات لتدريس الفقه وعلوم القرآن والحديث والأدب وبلغت هذه الحلقات في نهاية القرن العاشر الميلادى ١١٠ حلقات يترأسها اشهر وأجل العلماء والفقهاء وكان الامام محمد بن إدريس الشافعى يلقى دروسه في الفقه بهذا الجامع عقب وصوله إلى مصر سنة ١٩٩ هـ وكان يطلق على حلقته «زاوية الامام» .

وحتى يومنا هذا يحرص كثير من سكان القاهرة على أداء الجمعة اليتيمة فى جامع عمرو، ومنذ الصباح الباكر فى آخر يوم جمعة من شهر رمضان كل عام لاتجد موضعا لقدم كما يحرصون أيضا على ختم القرآن وصلاة التراويح «بهذا الجامع، وصلاة الجمعة اليتيمة تقليد نشأ منذ عصر الدولة الفاطمية، حيث كان الخليفة يركب للاحتفال برؤية هلال شهر رمضان ، يؤدى صلاة الجمعة الأولى فى القصر، والثانية فى جامع الحاكم، والثالثة فى الجامع الأزهر، والرابعة فى جامع عمرو، وكان أهل القاهرة يقومون بعمل الزينات بطول شارع المعز (قصبة القاهرة) حتى جامع عمرو والذى قال عنه المؤرخ «ابن دقمان» إمام المساجد وقطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع ، موطن أولياء الله وحزبه ، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه ..»

ويقول العالم الراحل د. حسن عبد الوهاب عن خصوصية جامع عمرو بصلاة الجمعة اليتيمة :

«نشأ هذا التقليد منذ الدولة الفاطمية، فقد كان الخليفة الفاطمى يركب للاحتفال برؤية شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه، فإذا كانت الجمعة الثانية أداها فى جامع الحاكم، فإذا كانت الجمعة الثالثة أداها فى الجامع الأزهر، فإذا كانت الجمعة الرابعة صدرت الأوامر بأدائها فى جامع عمرو بن العاص، فيقوم أهالى القاهرة بعمل الزينات من باب القصر بالنحاسين إلى جامع ابن طولون ويقوم أهالى مصر القديمة بعمل الزينات حتى جامع عمرو، وبعد أداء الفريضة يعود الخليفة إلى القصر ولما أتم مراد بك إصلاح الجامع فى النصف الثانى من شهر رمضان سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٧م أقيمت فيه آخر جمعة من رمضان فاتخذت عادة حتى اليوم إحياء للعادة القديمة ».

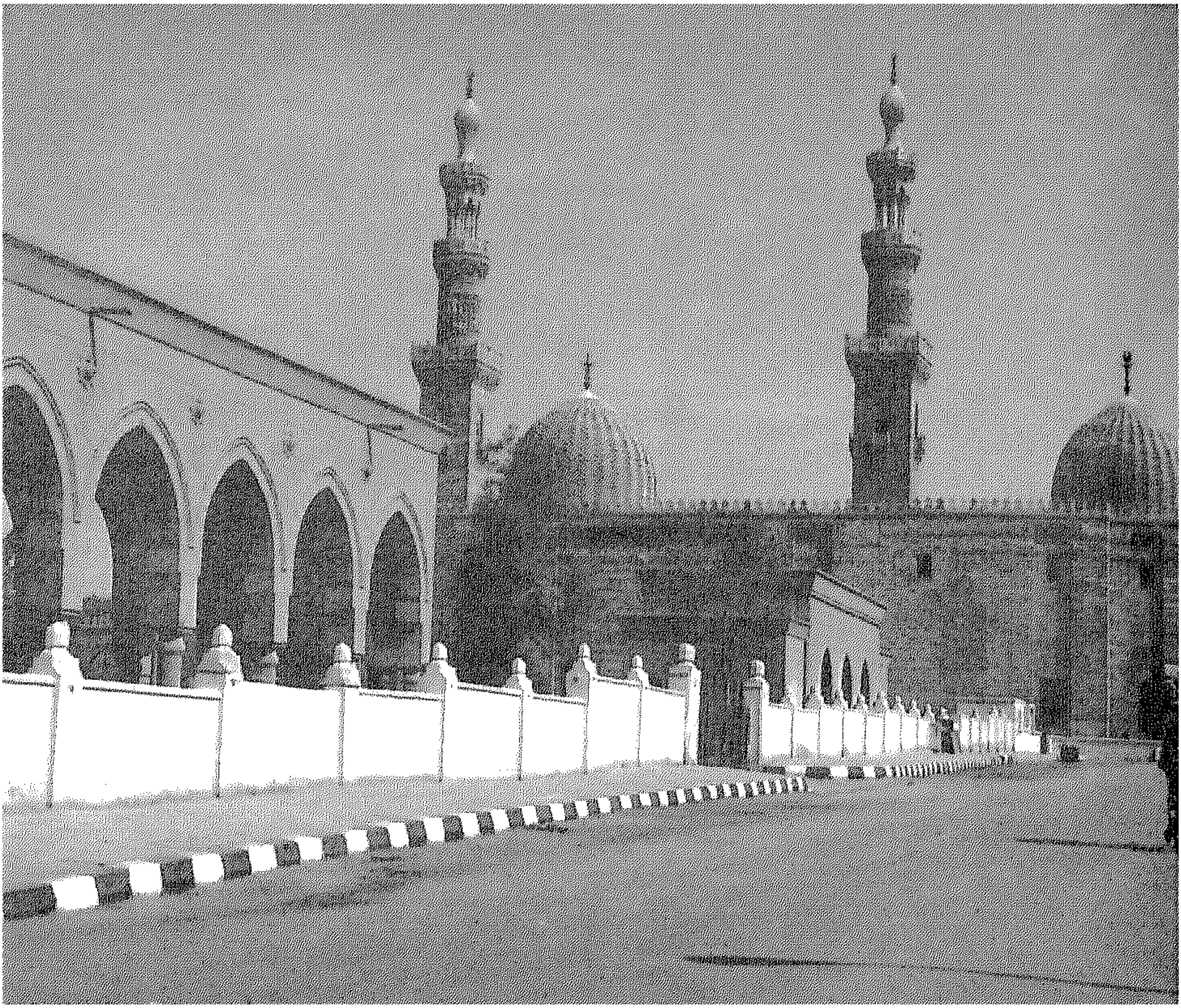

خانقاه السلطان فرج بن برقوق

ويضيف د. حسن عبد الوهاب «غير أنى أرى فى إقامة الصلاة فى هذا الجامع فى نهاية شهر رمضان معنى سامياً حبا الله به هذا القائد العظيم، فأحيا ذكرى وفاته سنوياً ، إذ يوافق آخر أسبوع من رمضان الأسبوع الذى توفى فيه عمرو، فقد توفى ليلة عيد الفطر».

جامع ابن طولون

ويعد من أعظم وأقدم الجوامع المحتفظة بتفاصيلها المعمارية الأصلية شيده الأمير «أبو العباس أحمد بن طولون» مؤسس الدولة الطولونية، ولد ببغداد فى شهر رمضان سنة ٢٢٠ هـ - ٨٣٥م، وجاء إلى مصر فى الأسبوع الأخير من شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م.

وكان حاكماً حازماً محباً للعلم كثير الصدقات شغوفاً بالعمارة وشهدت مصر خلال ولايته عهد رخاء وأمن واستقرار وبعد أن شيد مدينة القطائع وأصلح منار الإسكندرية ومقياس النيل وقناطر

المياه، ثم القصر والميدان والبيمارستان ودار الإمارة، شرع فى تشييد جامعه الكبير الذى انتهى منه فى شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ - ٨٧٨م. وكثيراً ما كان يتفقد أعمال البناء بنفسه ووجد أن العمال يؤدون أعمالهم وهم صائمون، فرق قلبه لحالهم وأمر أن ينتهى العمل قبيل صلاة العصر، وعقب الافتتاح مدت الأسمطة العامرة ووزعت الحلوى والعصائر عقب صلاة التراويح..

وإذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر الإسلامية فإن أحمد بن طولون هو صاحب أول تجربة لإنشاء كيان مصرى خالص داخل الكيان الإسلامى العام.

ويعد جامع ابن طولون من أكبر جوامع مصر الإسلامية مساحة إذ يغطى ما يقرب من ستة أفدنة ونصف، تأخذ شكلاً مربعاً يبلغ طول ضلعه حوالى ١٦٢ يشغل المسجد منها شكلاً مستطيلا تبلغ أطواله حوالى ١٣٨ × ١١٨م، على حين ترتفع الجدران من منسوب أرضية الأروقة الداخلية إلى قمة شرفاته العليا إلى نحو ١٣ متراً، وهو مصمم على النسق التقليدى : صحن أوسط مكشوف مربع الشكل ، يحيط به أربعة أروقة مسقوفة بالخشب أكبرها الرواق الشرقى .

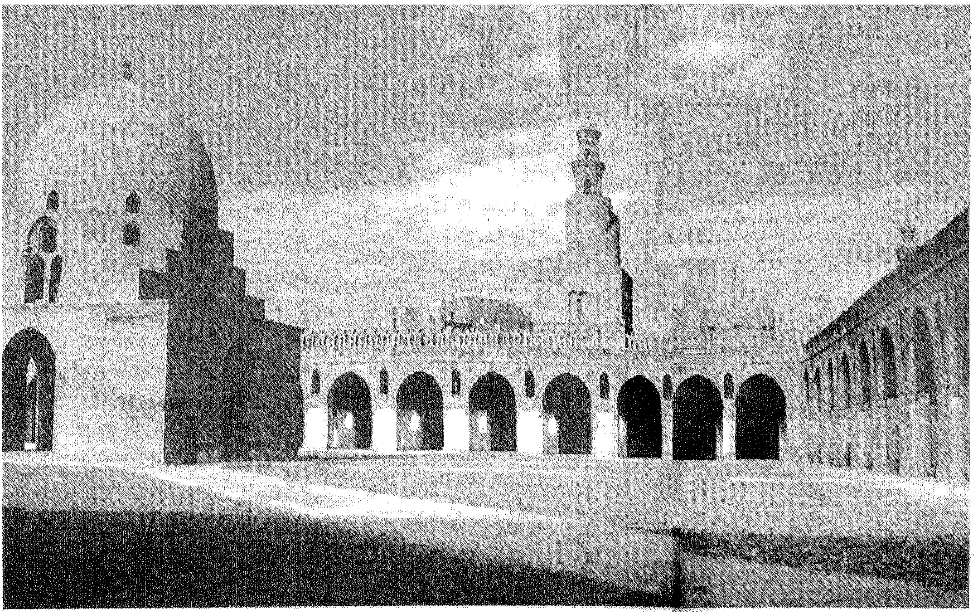

صحن جامع ابن طولون ومنارته الملوية الشهيرة

وقد زود الجامع بمنارة شيدت من الحجر فى الزيادة الغربية خارج المسجد تعتبر الوحيدة فى مصر ذات السلم الخارجى وهى تتألف من قاعدة مربعة التخطيط تعلوها منطقة أسطوانية فوقها مثمن علوى يحمل مثمنا آخر أصغر منه، يتوجه قبة صغيرة مضلعة تعرف فى المصطلح المعمارى المحلى باسم المبخرة ، يبلغ ارتفاع قمتها عن أرضية الجامع نحو أربعين مترا ويصعد إليها عن طريق سلم خارجى يرتقى فى عكس اتجاه عقارب الساعة، كما يربطها بسطح الجامع قنطرة حجرية ترتكز على عقدين على شكل حدوة الفرس ، ويزين باطنها كوابيل حجرية مفصصة الشكل من النوع المألوف فى المغرب الإسلامى وخاصة فى شمال أفريقيا والأندلس وذلك بالإضافة إلى جملة تأثيرات من أساليب عربية إسلامية مختلفة بعضها محلى وبعضها وافد من الغرب وآخر من الشرق .

والطريف أن هذه المنارة قد استرعت انتباه علماء الآثار الإسلامية الذين اختلفوا فى تحديد العصر الذى تنسب إليه، إذا أرجعها البعض إلى عصر بناء الجامع فى أيام أحمد بن طولون بينما رأى البعض الآخر أنها من العصر

الفاطمى ، على حين ذهب فريق ثالث بأنها من بناء السلطان المملوكى لاجين الذى عمر المسجد فى سنة ٦٩٦هـ – ١٢٩٦م، وهو الرأى الذى استقر عليه حاليا أغلب علماء الآثار الإسلامية .

كذلك أثارت هذه المنارة بشكلها الغريب انتباه الكتاب العرب فى العصور الوسطى، الذين اتخذوا من هذا الشكل مادة طيبة لمواصلة نسج الروايات والأساطير حول الجامع الطولونى فذكروا أن أحمد بن طولون، كان لا يعبث بشئ قط فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته ، فطلب المعمار على الجامع وقال: «تبنى المنارة التى للتأذين هكذا، فبنيت على تلك الصورة «كما ربطوا بينها وبين منارة المسجد الجامع فى سامراء المشهورة باسم الملوية رغم أن الأخيرة تتميز بقاعدة أ[illegible]طوانية وبدر[illegible] ست مرات صاعدا بانحدار قليل إلى أعلى ، على النقيض من المنارة الطولونية ذات السلم والقاعدة المربعة .

ويفهم أيضا من كتابات بعض المؤرخين أنه كان بأعلى هذه المنارة عشارى (مركب صغير) عثر عليه أحمد ابن طولون، ضمن الكنز الذى أصابه وشيد منه الجامع، يزعمون أنه كان يدور مع الشمس، بيد أن المقريزى يؤكد أنه كان يدور مع الريح .

ويشير الجبرتى إلى أن هذا العشارى قد ظل باقيا فى مكانه حتى سقط فى غضون سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م حيث استبدل بالهلال الحالى الذى يتوج قمة المنارة، رغم أننا نشاهده فى الرسوم التى امدتنا بها الحملة الفرنسية عن هذه المنارة .

ومن طريف ما يروى بصدد هذه المنارة أن أحفاد ابن طولون باعوا هذا المسجد إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بثلاثين ألف دينار مغربى، وبعد مدة شرعوا فى هدم المنارة بحجة أنها لم تكن ضمن الصفقة فأرسل إليهم الحاكم بأمر الله قائلاً : لقد بعتمونى هذا المسجد فكيف تهدمونه؟ فأجابوا : نحن لم نبع المئذنة فاعطاهم خمسة آلاف دينار ثمنا لها !

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر هو أحد مفاخر العمارة الإسلامية وأول جامع شيد بمدينة القاهرة وهو جامع وجامعة وكم للأزهر ولرجاله من مآثر ومواقف فى حياة وتاريخ عالمنا الإسلامى .

فتح القائد جوهر مصر فى ١٧ شعبان سنه ٣٥٨هـ / ٦ يوليو ٩٦٩م، وشيد القصر الفاطمى الشرقى الكبير

وأبدع فى زخرفته وأثاثه وأعده لنزول سيده الخليفة المعز لدين الله، كما أعد به سريراً من الذهب الخالص لجلوسه عليه، ودخل المعز لدين الله القاهرة فى السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ- ٩٧٣م فصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة .

وكان القائد جوهر قد شرع فى بناء الجامع الأزهر فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠م ليصلى فيه الخليفة وليكون مسجداً جامعاً للقاهرة، كما أعد ليكون معهداً لفئة معينة من الطلاب لتعليم الفقه الشيعى ونشره، وانتهى بناء الجامع وأقيمت أول جمعة فيه فى السابع من رمضان سنه ٣٦١هـ /٩٧٢م وعرف بجامع القاهرة والجامع الذى نراه اليوم ليس كله بالجامع الفاطمى الذى وضع أساسه القائد جوهر، وانما أضيفت إليه عدة منشأت وزيادات فى عصور مختلفة، وكانت أكبر عمارة وتجديد لهذا الجامع ما قام به الأمير العظيم «عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧هـ- ١٧٥٣م .

وعن وصف البناء الأصلى للجامع الفاطمى يقول د. حسن عبد الوهاب .

«كان مسقطه الأفقى وقت إنشائه مكوناً من ثلاثة إيوانات حول الصحن، الشرقى منها مكون من خمسة أروقة ويكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة والمشرف على الصحن منها قائم على أكتاف مبنية، أما الحد الغربى فلا أروقة به، ويتوسطه الباب العمومى الذى كانت تعلوه المنارة، ولعله كان بارزاً عن الوجهة.

وقد فتحت بأعلى الجدران فى الإيوان الشرقى شبابيك جصية مفرغة لها أشكال هندسية تتخللها مضاهيات مزخرفة، أحيطت بأفريز مكتوب عليه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن، ومازالت بقايا هذه الشبابيك تحدد الجامع القديم فى جدران إيوان القبلة الشرقية والبحرية والقبلية والغربية.

ويشطر الإيوان الشرقى مجاز يتجه مباشرة إلى المحراب، وارتفعت عقوده كما ارتفع سقفه عن مستوى ارتفاعات الإيوان، وقد حليت حافات عقوده بآيات من القرآن مكتوبة بالخط الكوفى .

كما حليت واجهات عقوده بزخارف نباتية مورقة .

وعقود هذا المجاز الباقية فى هذا الإيوان من عقوده القديمة بينما تغيرت باقى العقود غير مرة، وينتهى هذا المجاز إلى المحراب الفاطمى القديم».

ويشير مؤرخو مصر الإسلامية إلى مظاهر البهجة التى صاحبت افتتاح الجامع الأزهر، حيث ملئت الفسقية بالماء المحلى بالسكر والليمون ليشرب منه العامة، وعندما خرج الخليفة فى موكبه

المهيب من قصره الشرقى الكبير، مرتدياً أفخر ثيابه والفرسان فى أبهى زينتهم على خيول تزدان بسروج مذهبة وينثر الخليفة الدنانير الذهبية وقطع الفضة، فى طريقه إلى الجامع الأزهر ، حيث فرش للخليفة السجاد الأحمر الفاخر وشقق الحرير ، وعقب الإفطار مد سماط عظيم خارج الأزهر لجند الخليفة وعموم أهالى القاهرة، بالإضافة إلى السماط الذى أقيم بقاعة الذهب القصر الشرقى.

وتنافس الحكام والأمراء فى إيقاف الأوقاف على الأزهر، ليظل منارة للعلم وإحدى أهم الجامعات الإسلامية بمواكبته أيضا للعلوم الحديثة...

وكان رمضان شهر خير وبركة على طلابه، فتزيد «الجراية»... وتصرف «الكساوى» جبة وقميص وطاقية و«بابوج» يشبه الحذاء، كما تنعم أيضا أسر الطلاب بالخيرات من الكساوى والأطعمة والحلوى ومنها «المعمول بالسكر»!

ويتألق الأزهر - كجميع مساجد القاهرة - فى رمضان وتغمره الأنوار، حيث تزاد أعداد الشموع الكبيرة والقناديل، التى يشار إلى حسابها فى الوقفيات، وتنتشر جماعات «المجاورين» والمتعبدين فى أرجاء الجامع، بين قراءة القرآن وكتب الأحاديث الشريفة وتلاوة الأوراد حتى أذان الفجر...

وفى نهاية الشهر، كان يصرف للطلاب «المجاورين» التمر والمكسرات وكعك العيد.

الخانقاوات والتكايا

فى عهد السلطان الناصر صلاح الدين، وفى شهر رمضان، شيدت أول خانقاه فى تاريخ العمارة الإسلامية بمصر، فى منزل «سعيد السعدا» أحد خدام البلاط الفاطمى بشارع باب النصر بحى الجمالية، والخانقاه تعنى بيت الأستاذ، وتم تجديدها فى عصر سلاطين المماليك، وقد سكن فيها العالم المؤرخ «ابن خلدون» عندما وفد إلى مصر، حتى وافته المنية ودفن بمقابر باب النصر.

وكانت الخانقاوات تخصص للشيوخ المسافرين وطلاب العلم والمتصوفين، وكانوا عندما يحطون الرحال يسجلون أنفسهم عند شيخ الخانقاه ويحددون مواعيد إقامتهم وإذا كانوا سيدرسون فيها أو سيذهبون لأستاذ معين للتعلم وأخذ الإجازة منه..

ورمضان داخل الخانقاه كان دائما مختلفا وحدد هذا فى وثائق الوقت التى خصصها من بنى هذه الخانقاوات لزيادة مبالغ الصرف فيها.. وكانت الخانقاوات تتلألأ فى شهر رمضان وتزداد نسبة صرف الشموع المحددة

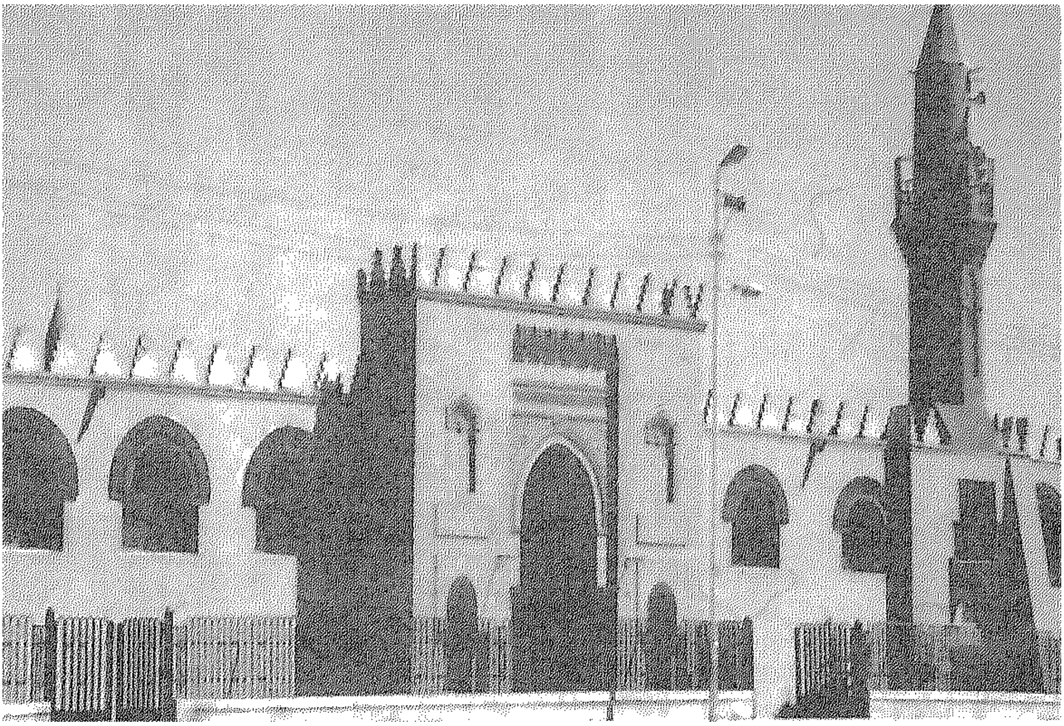

واجهة جامع عمرو بن العاص

لكل متصوف لتساعده على إقامة الليل وصلوات التهجد كما يصرف شمع أكثر لإنارة الخانقاه نفسها بعد صلاة التراويح .. وتزداد نسبة الطعام والحلوى فى رمضان والتى كان يوزع منها على أهالى المنطقة التى بها الخانقاه..

ومن أشهر الخانقاوات: خانقاه السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق - أول ملوك الجراكسة - وهذه الخانقاه هى أول المنشآت المعمارية فى دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م، وشيدت مكان خان الزكاة الذى أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون على جزء من أرض القصر الفاطمى الغربى.

أما خانقاه السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بشارع الجمالية، فقد تم بناؤها سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م، وكانت تحظى بعناية خاصة، حيث يعين لها أكبر الشيوخ وأكثرهم علماً، ومن أشهرهم الإمام المحدث «ابن حجر العسقلانى» الذى أملى فيها كتابه الشهير «فتح البارى بشرح صحيح البخارى.

وهناك أيضاً «خانقاه سنجر وسلار» المعروفة الآن بجامع أو خانقاه الجاولى بشارع مراسينا (عبدالحميد اللبان) بحى السيدة زينب، وأنشئت سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤م.

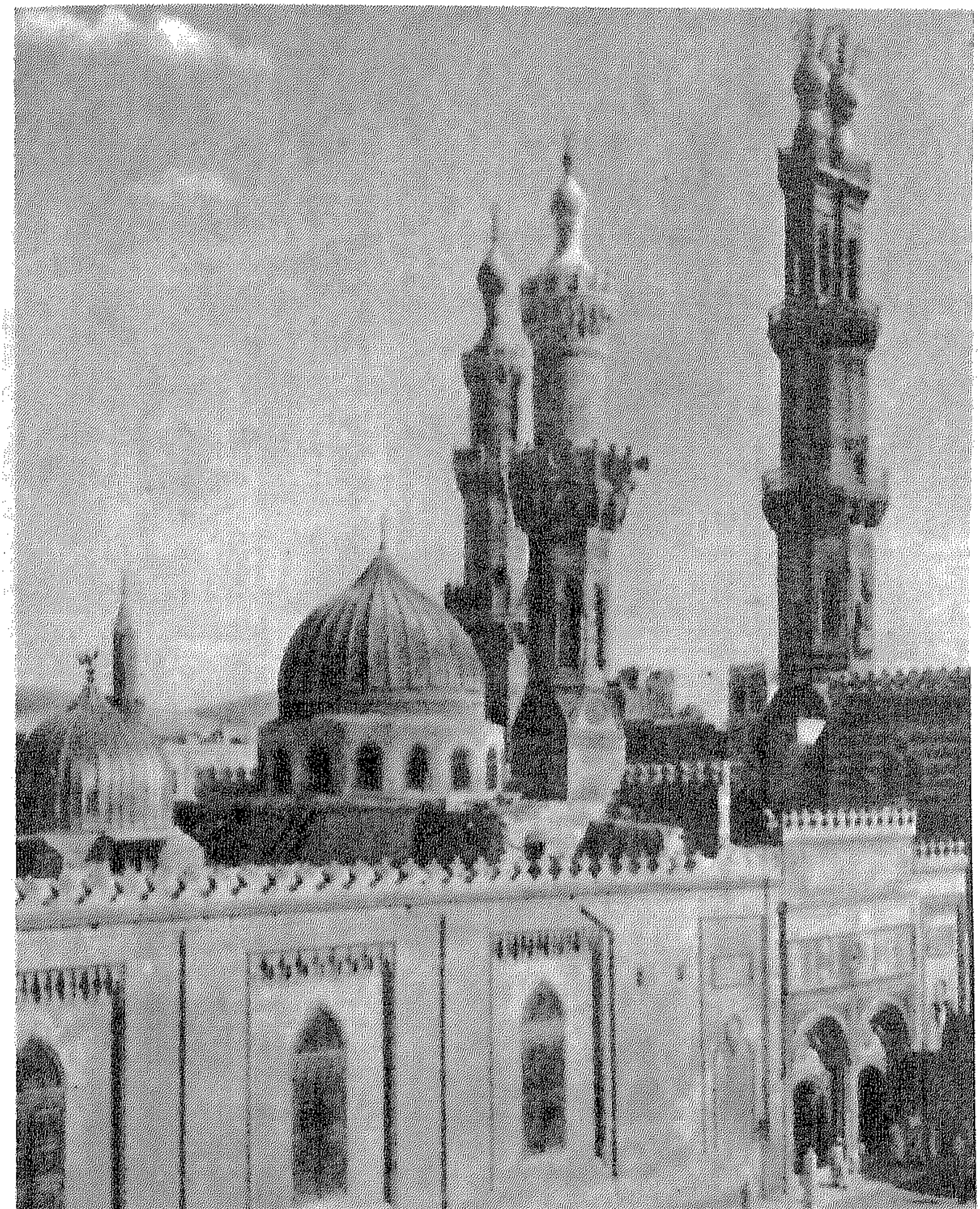

واجهة الجامع الأزهر عام ١٩٠٠

وخانقاه السلطان الغورى ضمن مجموعته الأثرية الشهيرة على رأس تقاطع شارع الغورية مع شارع الأزهر.

ثم خانقاه السلطان الملك الاشرف برسباى، وهى شمال منشآت السلطان قايتباى، ملحق بها حوش كبير وقبة أخيه الأمير يشبك ومصلى لإقامة الشعائر، وأنشئت سنة ٨٣٥هـ، وتميز واجهتها الرئيسية: تجاويف رأسية شغلت من أسفل بنوافذ مستطيلة تزدان بمشغولات برونزية، تعلوها نوافذ من شمسيات وقمريات من الجص المعشق بالزجاج الملون.

أما أجمل وأشهر الخانقاوات: خانقاه الملك الناصر فرج بن برقوق ضمن مجموعته الأثرية الضخمة فى الجزء البحرى من قرافة المماليك، وقد تم بناؤها سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م، وتتكون من أربعة طوابق تعانى من الإهمال الشديد، وكان لكل متصوف غرفة من الغرف المخصصة على الجانبين، وتصرف له الكساوى والأطعمة، ويتميز شهر رمضان بطقوس خاصة فى الخانقاوات، حيث تبدأ «مقرأة القرآن» و«مقرأة الحديث الشريف» عقب صلاة الفجر، ثم ما بين صلاتى العصر والمغرب،، وبعد صلاة التراويح فى الايوان الكبير للخانقاه، وتستمر المقرأة طوال أيام وليالى رمضان حتى السابع والعشرين منه: ليلة ختمة القرآن، وختمة الصحيحين البخارى ومسلم.

وفى العصر العثمانى تحولت الخانقاوات إلى تكايا وهى نفس المعنى ولكن باللغة التركية وانتشرت الطرق الصوفية العثمانية مثل البكتاشية والمولوية... وكانت البكتاشية طريقة عسكرية مخصصة لأفراد الفرقة الرئيسية فى الجيش المسماة بالانكشارية..

أما المولوية فكانت لأتباع سيدى جلال الدين الرومى وكانت من الفرق التى أدخلت الموسيقى التركية أثناء الذكر فهم يستخدمون الناى والعود والدف.. وكانت تكثر فيها حلقات الذكر في شهر رمضان وتزداد فيه مخصصات الطعام خاصة أيام الذكر ومنها الكباب والقرفة والقهوة..!!

وستظل العمارة الإسلامية فى مصر - بخصوصيتها المصرية المتميزة - من مساجد وخانقاوات وأسبلة وكتاتيب وحمامات وأسواق ووكالات وقلاع وأسوار وقصور واحواض لشرب الدواب وبيمارستانات: شواهد مجد قديم لحضارة عظيمة. ■

خطيب مسجد فى أمريكا يهاجم الحجاج بن يوسف !

الهجوم ينطلق من خلال مسلسل يسئ إلى المسلمين

بقلم
صلاح المراكبى

كانت مفاجأة لى عندما سمعت الخطيب يهاجم الحجاج بن يوسف!.. الخطبة باللغة الإنجليزية، والخطيب يقصد مسلسلا عربيا عرضته إحدى محطات التليفزيون العربية فى رمضان الماضى، وأعادته أخيراً!.
أغلب المصلين فى المسجد ليسوا عربا، وحتى العرب القليلون منهم لا يتابعون المسلسلات العربية.
لكننى تابعت خطبة الشيخ بعد أن عرفت أنه داعية جاء من العالم العربى يطوف الولايات المتحدة لفترة.. فهو قادم لتوّه يحمل هموم العالم العربى، كما تحمست لسماعه، لأننى بالفعل شاهدت المسلسل، ولى فيه كلام يتوافق مع ما قاله الشيخ، ويختلف .

الشيخ يقول: نبنى ويهدمون، ونصلح ويفسدون!. فما وجد هذا المسلسل فترة فى تاريخنا الذى نعتزّ به، إلاّ هذه الفترة، التى تمزقت فيها الأمة الإسلامية إلى دويلات، يحكم كل منها واحد يسمى نفسه أمير المؤمنين، ويحارب كل منهم الآخر بجيش يرفع راية الإسلام ، ويزعم أنه يعمل على رفع كلمة الله!؟ ثم يستعين واحد منهم برجل مغامر فاجر، هو الحجاج بن يوسف، فيستعين بالسيف والمال لقتال الآخرين، ويذبح الآلاف فى معارك وفي غير معارك!. ليعطى نموذجا للعالم اليوم بهذا المسلسل بأن الإسلام يقوم على هذين! وأن المجتمع الإسلامى تجب فيه الطاعة للحاكم بدون معارضة، وبكل ألوان القهر والإخضاع، وكل من مسّ للحاكم طرفا، أو سها عن التسبيح بحمده، والجلوس عند قدميه، فهو مارق لا شفاء من مرضه هذا إلا بالسيف!!

شعار مغلوط

المسلسل – يواصل الشيخ – حافل بالشعار الذى أطلقه المسلسل على لسان

الحجاج: «اقطعوا عنقه»!؟ فبدا كأنه شعار الإسلام فيما يتعامل به المسلمون فيما بينهم، فما بالنا بما يفعلونه بغيرهم من غير المسلمين؟!

ويصل الشيخ إلى ما يريد فيقول: منذ الحادى عشر من سبتمبر، ونحن نحاول أن نصحح الصورة، ونوضح براءة الإسلام مما حدث، لكننا نبنى ويهدمون، ونصحح ويفسدون!. ثم ماذا يريد أن يقول المسلسل؟ هل يريد أن يقول: إن هذا هو الإسلام؟ أم يريد أن يقول: إنه لا يصلح للعراق إلا طاغية مثل صدام حسين الذى استطاع أن يحقق الأمن لنفسه بارهاب الناس، أم يريد أن ينصح الأمريكان باستقدام حجاج جديد من الداخل أو الخارج؟!

● المسلسل كما شاهدته يتناول الفترة التاريخية التى تلت قيام الدولة الأموية، مركزا على فترة خلافة عبدالملك بن مروان الذى لم يكن تحت يده سوى الشام، أما الحجاز والعراق ففيهما عبدالله بن الزبير يتخذ مكة عاصمة له، ويولىّ أخاه مصعب بن الزبير على العراق، وتتناثر حول العراق فئات من الخوارج أزارقة وشيبانيون، وكلهم يجعل نفسه أميرا للمؤمنين!.

● «خليفة» المسلسل هنا هو عبدالملك بن مروان.. وهو فى قصره يدبر أمره لقتال هؤلاء جميعا، لتوحيد الدولة الإسلامية تحت حكم الأمويين.

● نتابع على الطريق إلى الشام شابا ترمى به الصحراء وتنحط به الوهاد، خارجا من الطائف، متجها إلى دمشق فيصلها.. ويقف على مشارف قصر بن مروان حتى يجده الحراس متمسحا بأسوار القصر ، فيثير انتباههم ودهشتهم باستعلائه وصعلكته عندما أمسكوا به ، حتى يفوز وهو يتحداهم بغروره ليصل وجها لوجه أمام الخليفة!. وينجح فى انضمامه جنديا فى الحرس، ثم جنديا فى الجيش، ثم مساعدا للقائد، ثم قائدا للجيش، يسير مع الخليفة لحرب العراق، فيتم له النصر!.

● يحقق الحجاج الخطوة الأولى من طموحه، بإيمانه الكامل بحق الأمويين فى توحيد الدولة الإسلامية، وباعتبار كل من خرج عليهم عدوا يجب القضاء عليه، وبأن الوسيلة إلى ذلك تقوم على السيف والمال، متميزا بجرأة لاحدّ لها، فيجد فيه ابن مروان ضالته، فيرسله بالجيش منفردا بالقيادة إلى الحجاز ليحارب عبدالله بن الزبير، فيحاصر مكة حتى يموت الناس، ويستسلم الكثيرون مُنْفضّين من حول ابن الزبير، حتى أبناؤه.. ويُقتل ، ويقطع رأسه، ليرسله الحجاج هدية وبشرى إلى الخليفة، بعد أن يصلب جسده!.

● لا أريد بالطبع أن أحكى قصة المسلسل، ولكن الذى حدث أن الحجاج عاد يحكم العراق بعد أن عادت إليه القلاقل، فأعمل سيفه بلا هوادة، واستقر له الأمر!.

● المسلسل تكلف بغير شك عشرات الملايين، وحفل بالاخراج الرائع والتصوير البارع لعدد كبير من المعارك، ومئات الخيول، وأعداد ضخمة من الجنود، وأماكن التصوير العديدة ما بين القصور

والمناطق الصحراوية الوعرة، والملابس، والقدرات العالية للممثلين الذين هم جميعا من الأردن ولبنان.

● أما الإبداع الأكبر فهو لكاتب المسلسل جمال أبو حمدان، فهو يمتلك ناصية اللغة الحوارية الفصحى ببراعة فائقة.. وهى فصحى تخلو مما اعتدناه فى المسلسلات الدرامية الفصحى من الخطابة والطنطنة والتفاصح، وحواره يتفاعل ببراعة مع الأحداث دون فواصل أو مطبات.. فى رأيى أن كاتب المسلسل هو بطله الأول، لكننى أدرك حزنه البالغ على الأخطاء التى بدت فى نطق أغلب الممثلين، وهى أخطاء لاتبدو للمشاهد العادى، أو قل: لا تبدو للمشاهد العربى بشكل عام، بعد أن أصبحت لغتنا العربية صعبة على مسامعنا، لكن هذه الأخطاء ، قد غطى عليها أداء الممثلين ونطقهم الرائع بشكل عام .

قام بدور الخليفة الممثل فايز قزق فتبادل الروعة فى أدائه مع عابد فهد الذى قام بدور الحجاج.. وكذلك غسان مسعود الذى قام بدور ابن الزبيز وبقية الممثلين ، خاصة نادرة عمران التى أدت دور أسماء بنت أبى بكر .

● المسلسل على أى حال رغم انتاجه الضخم، والإخراج المتميز على مستوى أكثر من عربى محلى للمخرج محمد عزيزية، لا أعتقد أنه يحظى بالنجاح الجماهيرى التجارى.. فلغته غير ميسرة للكثيرين، وتتداخل الأحداث فيه، بما تصعب على الكثيرين متابعته لمن لايعرفون التاريخ فى تلك الفترة بشكل مفصل.. لكنه على كل الأحوال خطوة كبيرة على الطريق الصحيح. رغم إيحاءاته التى أغضبت الشيخ، واعتماده على أحداث اختلف عليها المؤرخون أو اختلفوا على تفاصيلها وترتيبها.. فعبد الله بن الزبير لم يكن هكذا تماما، ولا الحجاج كان كذلك تماما.. ولكن عليك أن تسمع ما يقولونه: نحن لا نسجل تاريخا، لكننا نختار منه، ونركز على بعض جوانبه ورؤاه، ونصنع لبعض تفاصيله مزيدا من نفس تفاصيله، ونسلط الضوء ونزيحه.. إنها قراءة خاصة للتاريخ، فكل من كتبوا التاريخ رأوه على قدر ما استطاعوا، وعلى قدر ما رغبوا، وبالقدر الذى وصل إلينا ولم يصل إلينا كل شئ!! إذن.. على بركة الله ولا بأس !.

ولاية أونتاريو الكندية تسمح للمسلمين بتطبيق الشريعة الإسلامية!

كندا دولة علمانية، ليس فيها مشاكل عنصرية ولا اضطهاد للأقليات، لسبب بسيط وهو أن السكان الأصليين هم الأقل عددا، والمهاجرين من أنحاء العالم هم الأكثر، لكن عدد المسلمين لا يزيد على ٦٠٠ ألف نسمة من عدد السكان الاجمالى الذى يصل إلى ٣٠ مليونا .

ولاية أو نتاريو التى تقع فى الجنوب، وتلاصق حدود الولايات المتحدة - بينهما نهر - هى أكبر الولايات فى كندا - ٦٥٩ ألف كيلو متر مربع، أكبر من مصر - وهى الولاية التى يتركز فيها الاقتصاد الكندى: زراعة، وصناعة، ومعادن، وأخشاب، وغاز..

المهم أن قانونا صدر منذ فترة يعطى

الحق لكل أصحاب دين، أن يتحاكموا إلى شريعتهم، فى المسائل التى تتصل بمعاملاتهم وشئونهم الداخلية اليهود فعلوا ذلك وأصبحت مرجعياتهم فى ذلك رجال دينهم ، وكذلك المسيحيون . بالنسبة للمسلمين انحصرت قضاياهم فى: الزواج والطلاق والمواريث.. فيمكنهم تطبيق شريعتهم ولكن دون إجبار لمن تطبق عليه..

القانون الكندى يساوى فى الميراث بين الرجل والمرأة.. أما الإسلام فيعطى للرجل ضعف ما يعطى للمرأة. وعلى كل مسلم يريد أن يطبق هذا ، ألا يعطى البنت نصف ما يعطيه للولد، إلا إذا وافقت البنت على ذلك، فإذا رفضت وطلبت تطبيق القانون الكندى بالمساواة، فلها ذلك..

الذى حدث أن بعض الجمعيات الإسلامية النسائية تحفظت على تطبيق الشريعة الإسلامية، وبدأت تطرح القضية من القاعدة الأساسية حول اهتمامها بحقوق المرأة، والتى تراها مهدرة وضائعة، فكثير من العائلات التى هاجرت إلى كندا، وخاصة من الهند وباكستان، يتزوج الرجال منهم من فتيات صغيرات، غالبا ضعف أعمارهن، وهم يسيطرون عليهن بحيث لايخرجن من البيوت ولا يتعاملن مع المجتمع، ولا يعرفن حتى اللغة الانجليزية!.

حتى أولادهم ، يذهبون إلى مدارس لهم خاصة ينفصل فيها الأولاد عن البنات، وتتزوج البنات منهن فى سن ١٣، ١٤ سنة..

وتقول هذه الجمعيات ومنها جمعية ترأسها مصرية أن نساءً بهذا الوضع المتخلف، يجب أن يرتقى وضعهن إلى المستوى الإنسانى أولا، لتصبح لهن القدرة على أن يكون لهن شخصية ورأى واختيار فيما نريد أن نطبقه عليهن!.

هذا الموقف الذى تتخذه بعض الجمعيات يعارضه الرجال وخاصة سيد ممتاز على، وهو من أصل هندى، ومحامى إسلامى ومدنى، وهو الذى يقود فكرة تطبيق الشريعة، ويقول: إن المسلم لا يكون مسلما دون اتباع الشريعة الإسلامية.. وكل شئ نفعله محكوم بقوانين الدين، ويرى أن المرأة التى حددت لها الشريعة نصف ما يأخذه الرجل فى الميراث، ليس من حقها أن توافق أو ترفض ما قرره لها الله.

لهذا لم يحدث اتفاق بين المسلمين، كما أنه ليس من المتوقع أن توافق كندا على تنفيذ قطع يد السارق أو الأحكام الأخرى التى تتجاوز العلاقات العائلية..

حكومة أونتاريو قررت إعادة النظر فى قانون السماح لكل أصحاب دين باتخاذ ما يرون للعمل بشريعة دينهم ..

إلى جانب ما حدث بين المسلمين من خلاف فى الرأى، خاصة فيما ظهر من رغبة كثير من النساء بعدم التنازل فى الميراث وغيره مما يعطيه لهن القانون الكندى!. وبما تنادت به بعض نساء اليهود من رغبة فى أن يعطيهن القانون الكندى الفيدرالى الحق فى الحصول على الطلاق، الذى هو الآن من حق الرجال فقط.. يقول المحللون : إن التعديل الجديد سيحاول أن يوائم بين الأديان التى تعطى الرجال اليد العليا فى الحياة الزوجية، وبين القوانين الكندية.. ■

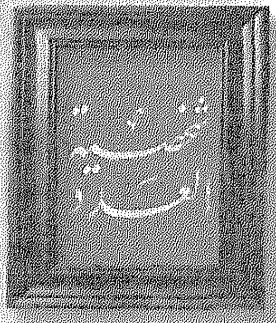

من هو.. مصطفى سويف؟

بقلم
د. فيصل عبدالقادر يونس *

المرة الأولى التى شاهدت فيها الدكتور مصطفى سويف كانت فى أواخر عام ١٩٦٩ كنت يومها طالبا فى قسم الفلسفة وعلم النفس بجامعة القاهرة، وكنت شغوفاً بفلسفة العلم وبالوضعية المنطقية على وجه التحديد وكنت قد التحقت بقسم الفلسفة طمعاً فى دراسة أكثر تعمقاً لفلسفة العلم. ولكن آمالى أصيبت باحباط كامل عندما تعرفت على ما يدرس من فلسفة فى القسم آنذاك، إذ لم أجد أستاذاً واحداً فى القسم يتبنى الاتجاهات الفلسفية الوضعية بل بالعكس الكثيرون كانوا يستبعدونها، ويقللون من قيمتها وكنت فى حالة من القلق والتبرم وعدم اليقين مما لم أخبره من قبل. وكان مصطفى سويف آنئذ مديراً مؤسساً لأكاديمية الفنون بالندب من الجامعة، وذات يوم أخبرتنا الأستاذة الشابة التى تدرس لنا «مدخل إلى علم النفس» أن سيزورنا اليوم استاذها مصطفى سويف، وسيحدثنا عن آفاق التخصص، والمشروع المزمع لفتح الدراسة في شعبة أكثر تخصصاً فى علم النفس ..

كانت كل فكرتى عن علم النفس فى هذا الوقت لاتتجاوز شذرات قرأتها عن فرويد والتحليل النفسى، وكان اعتقادى - بناءً على توجهى الوضعى المنطقى - أن هذا ليس علماً، إذ لا يخضع للتجريب، ولايمكن تكذيبه. دخل الأستاذ علينا فى ذلك الصباح، أنيقا مهيباً، وبدأ حديثه عن ماهية علم النفس المعاصر، وكيف يفكر العلماء النفسيين فى

* أستاذ علم النفس - جامعة القاهرة

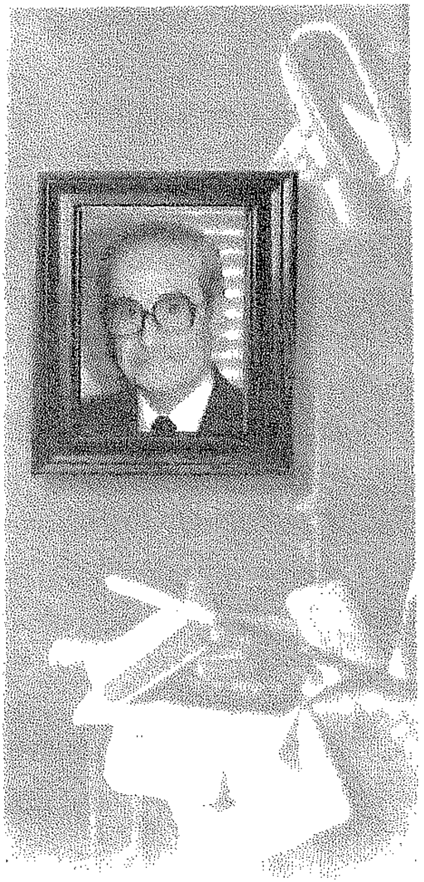

سلوك الكائن الحى، وكيف يصلون إلى نظرياتهم وكيف يستطيع دارس السلوك البشرى أن يستخدم المنهج العلمى بعناصره وشروطه ليصل إلى فهم أعمق لهذا السلوك وأن هناك شروطاً ينبغى أن تتوافر فى الدارس الجاد للتخصص أهم هذه الشروط وأولها التمكن من المنهج العلمى بعنصريه الرئيسيين: الملاحظة المنظمة والاستنتاج المنظم، ثم الدافعية المرتفعة التى تجعل محب العلم يستغنى به عما عداه .

وقعت عندها فى محبة علم النفس والأستاذ معاً، ومازلت. تخرجت من الجامعة فى صيف ١٩٧٢ وعملت فوراً مع الدكتور سويف كمعيد فى علم النفس الإكلينكى، وبدأت صحبة استمرت حتى اليوم، كان فيها المعلم والمرشد، والراعى، والأب، والصديق، وأهم من اهتم برأيه فى وفيما أعمل حتى اليوم ولا أظن أننى مبالغ فى كل هذا فجميع من عرفوه وتتلمذوا على يديه سواء ظلوا أم فارقوا، سواء اتفقوا أم اختلفوا، يشعرون تجاهه بدرجات متفاوتة من نفس المشاعر ويفخرون بأنه علمهم وبأنه رعاهم يوماً .

مصطفى سويف

أول ما يلفت الانتباه فى شخصيته هو الإخلاص الشديد لما يعتقد أنه الصواب وتكريس كل طاقاته له

أول ما يلفت الانتباه فى شخصيته هو الإخلاص الشديد لما يعتقد أنه الصواب وتكريس كل طاقاته له فى مقدمة واحد من أهم كتبه : التطرف كأسلوب للأستجابة بمقولة لاوتسى :

«عندما يسمع معلم من درجة عالية بالطريق فهو يحاول أن يسير على هداه»

وعندما يسمع معلم من درجة متوسطة بالطريق، فهو يسير عليه مرّة، ويتخلى عنه مرة .

«أما عندما يسمع معلم من درجة دنيئة بالطريق، فإنه يضحك عليه بغير صوت مسموع ».

هذا التوجه نحو الاقتناع ثم العمل ثم سد كل الثغرات التى قد تعوق التقدم فى العمل،هو ما ميز هذا العقل الجميل طوال رحلة حياته .

فى حوار معه فى سنة ١٩٨٧ أجريته لحساب الدورية البريطانية للإدمان، سألته: «فى شبابك الباكر كتبت الشعر والقصة القصيرة، ثم توقفت عن هذه الكتابة فجاة فلماذا؟» أجاب «وجهت فى مرحلة معينة من نموى العقلى بصراع بين ميولى الأدبية والمسيرة البحثية التى انتويت أن أختطها، وكنت إذ ذاك فى

التاسعة عشرة أو فى العشرين من عمرى وشعرت حينذاك أننى قد لا استطيع أن أتميز فى أى من المجالين. فى الوقت ذاته كنت خائفاً أشد الخوف من أننى قد أسئ الاختيار بينها، وكانت هذه أزمة حقيقية بالنسبة لى، مليئة بأنواع التردد والقلق انهيتها بقرار اتخذته بأن أكرس إنتاجى الإبداعى للبحث العلمى ولكى أحصن نفسى ضد الانتكاس إلى ما يشبه تشككى وترددى السابقين، جمعت كل ما أنتجت باسم الإبداع الأدبى وأحرقته، وكانت النتيجة أننى لم أنتكس أبداً بعد ذلك ».

وهو لم ينتكس أبدا بعد ذلك ظل لأكثر من ستين عاماً بعدها، وحياته ووجوده كله مكرس - بصرامة مذهلة - لإنتاج المعرفة وتعليمها، وإنشاء وإدارة صروح علمية ينصب نشاطها فى هذا الاتجاه، والدفاع عن قضايا العلم والتعليم، والمشاركة المكثفة - المرشدة بالعلم الرصين - فى هموم وقضايا المجتمع .

إذا أردنا أن نحيط بإنجازات مصطفى سويف واجهتنا صعوبتان أساسيتان: الأولى أنه إنتاج - رغم أنه كله يدور حول العلم - شديد التنوع، والثانية أنه ضخم جداً بحيث تستحيل الإحاطة به كله فى هذه العجالة .

فإذا بدأنا بمجال البحث العلمى الميدانى المتخصص وجدنا كما هائلاً من الدراسات والأبحاث بدءاً من رسالته للماجستير فى الإبداع الفنى (١٩٤٩) التى مثلت علامة فارقة فى بحوث الإبداع وظلت حتى اليوم مرجعاً أساسيا لدراسيه إلى بحوثه الحالية فى تعاطى المخدرات عند الشرائح المختلفة من المجتمع المصرى. فيما بين ذلك عشرات من الدراسات النفسية المنظمة فى مجالات عديدة أهمها الإبداع، والشخصية، والمرض النفسى، وتعاطى المخدرات .

أسس الإبداع

فى مجال الإبداع تلت دراسته الرائدة عن الإبداع فى الشعر مشروع بحثى متكامل ومتواصل، من خلاله وبإشرافه مع تلاميذه. أجابت الدراسات التى أجريت من خلال هذه المشروع على أسئلة من قبيل ما هى أسس الإبداع الفنى فى الفنون والآداب المختلفة مثل: الرواية والقصة القصيرة والفنون التشكيلية والمسرح؟ وما هو الفرق فى طبيعة عملية الإبداع بينها وبين بعضها البعض؟ ما هى العلاقة بين القدرة على الإبداع لدى الأفراد العاديين وبين سمات الشخصية؟ وكيف يؤثر السياق النفسى الاجتماعى على الإبداع؟ وهل هناك فروق بين الجنسين فى القدرات الإبداعية؟ وهل يرتبط الإبداع بالمرض العقلى فإذا ارتبط فما طبيعة العلاقة بينهما؟ وما طبيعة العلاقة بين الإبداع وتعاطى المخدرات؟ .. كل هذه أسئلة وجدت إجاباتها من خلال بحوث سويف وتلاميذه.

وفى مجال بحوث الشخصية كانت البذرة الأولى هى دراسته الرائدة أيضا فى رسالته للدكتوراة (١٩٥٤)«الأسس النفسية للتكامل الأجتماعى» وتقديمه مفاهيم التوتر النفسى، والتطرف وتلى ذلك سلسلة من الدراسات، له أولاً، ثم تحت إشرافه

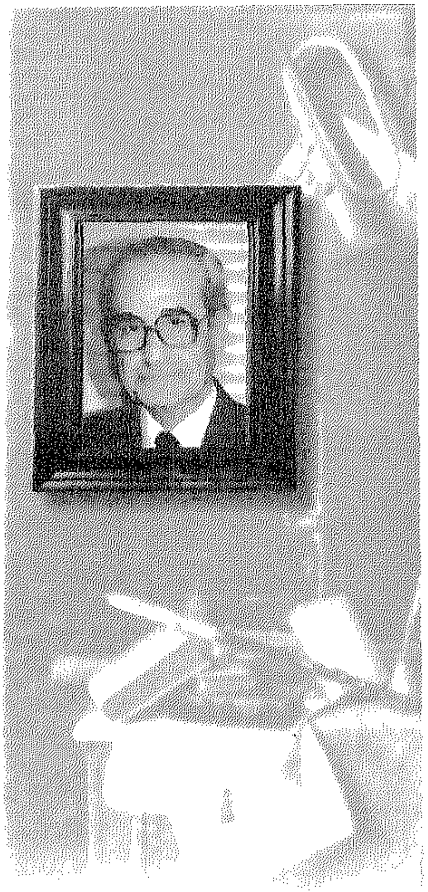

بدأت بسلسلة من الدراسات عن التطرف فى الاستجابة، وهل هو سمة فى الشخصية؟ وكيف يرتبط بمفاهيم مثل الانتماء إلى جماعات هامشية؟ وما علاقته بتصلب السلوك؟ ثم انتقل إلى الإشتراك مع استاذه في جامعة لندن، هانز أيزنك فى سلسلة من الدراسات الحاسمة فى تأسيس واحد من أهم أطر فهم الشخصية الإنسانية المعاصرة أو ما يسمى بنموذج الأبعاد الثلاثة للشخصية، والذى يفترض أبعاداً ثلاثة عريضة تنتظم فى إطارها الشخصية الإنسانية، الانبساط - الانطواء، والعصابية - الاتزان الوجدانى، والذهانية - السواء ونشرت هذه الدراسات فى كتاب معلمى فى منتصف الستينيات من القرن الماضى ثم انتقل إلى سلسلة من الدراسات التى تحاول النظر فيما إذا كان هذا الإطار لوصف الشخصية قابل لتفسير الشخصية فى مجتمعنا المصرى ثم قدم بعد ذلك سلسلة من الدراسات النظرية لعل أهمها ما قدم إطاراً اساسياً للشخصية القومية المصرية، ونموذج نظرى للياقة النفسية.

توظيف العلم

وفى مجال المرض النفسى ينشر مجموعة من الدراسات تؤصل - للمرة الأولى فى مصر - لما يسمى بعلم النفس المرضى التجريبى ExpERiMENTAL psycHopatHology فيدرس تأثير الأدوية على المرض النفسى، واختلال الذاكرة والذكاء والإدراك وقدرات الإبداع المختلفة عند المرضى النفسيين ويشرف على مجموعة ضخمة من الدراسات التى تناولت جوانب عديدة من الأعراض المرضية النفسية .

○ إسهاماته فى مجال بحوث المخدرات تمثل نموذجاً فريداً فى توظيف العلم لخدمة المجتمع

أما اسهاماته فى مجال بحوث المخدرات فتمثل نموذجاً فريداً في توظيف العلم لخدمة المجتمع، وفى بناء المدرسة العلمية، وفى إمكانيات العمل فى ظل ظروف معاكسة، وفى إنجاز بحوث على أعلى مستوى من الكفاءة العلمية في ظل أدنى الإمكانيات المادية وهى تمثل، فى رأيى عبقرية سويف العلمية والتنظيمية وتجلى سجاياه فى أبهى صورها: الإصرار، والمثابرة، وإتباع الطريق عندما يعلم، والقدرة على القيادة العلمية والمنهجية الصارمة.

بدأت بحوث تعاطى المخدرات فى مصر عندما شكل المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ١٩٥٧ لجنة لدراسة «مشكلة ظاهرة تعاطى الحشيش فى مصر» وكان سويف عضواً فاعلا فيها فاعلاً لدرجة أنه كتب بنفسه التقريرين الوحيدين اللذين

صدرا عن هذه اللجنة (١٩٦٠ . ١٩٦٤) وتناولا تكوين اداة البحث على شكل استمارة استبار، ثم إجراء بحث استطلاعي على عينة من مدينة القاهرة ثم فضت هذه اللجنة وأعيد تشكيل لجنة جديدة للبحث ١٩٦٥ برئاسته ليبدأ فى إجراء دراسة نفسية موسعة على ٨٥٠ من متعاطى الحشيش (ونفس العدد تقريباً من غير المتعاطين) وتطورت هذه اللجنة إلى ما يسمى «البرنامج الدائم لبحوث تعاطى المخدرات فى مصر» والذى ظل ينتج بحوثا نظامية على أعلى مستوى حتى الآن وتخرج منه العديد من الباحثين المتميزين يقودون الآن فى مجالات هامة من علم النفس فى مصر. أجريت بحوث تتصل بتأثيرات الحشيش على السلوك الاجتماعى وعلى الأداء المعرفى لمتعاطيه وأخرى عن ثقافة المخدرات وطرق تعاطيها، والعوامل التى تدفع إلى هذا التعاطى، وإلى الاستمرار فيه، وإلى العودة بعد انقطاع. وبحوث تهدف إلى دراسة انتشار تعاطى المخدرات بين الفئات المختلفة من الجمهور تلاميذ الثانوى، والجامعة، والعمال، والفلاحين تميزت هذه الدراسات بأنها مجراه على عينات فى غاية الضخامة وتمثل المجتمع تمثيلا دقيقاً وتتناول بالإضافة إلى تحديد مدى انتشار تعاطى المخدرات مئات من المتغيرات التى ترتبط بالتعاطى كالظروف الأسرية، والحالة الصحية الجسدية والنفسية، والميل إلى الوقوع فى مشكلات وتأثير وسائل الإعلام على التعاطى، وتأثير جماعات الأصدقاء، وظروف العمل، وغير ذلك كثير، مما وفر كماً من المعلومات والتصورات بشكل رئيسى فى أن يقود مصطفى سويف مجموعة من المستشارين العلميين، بتكليف من المجلس القومى للإدمان للتوصل إلى استراتيجية شاملة لمكافحة الإدمان فى مصر وهو ما خرجوا به عام ١٩٩٥ ولكن للأسف، كانوا يغزلون غزلاً رفيعاً بلا نساجين وقد تمخض ذلك المشروع العبقرى عن ثمار عظيمة إذ جسد، لأول مرة فى مصر، إمكانية أن يعمل فريق بحثى متكامل لفترة طويلة من الوقت (قرابة أربعين عاماً)، وبصورة نظامية مخططة وتراكمية، فى مشروع بحثى محورى والفضل الرئيسى - بل والوحيد - فى هذا يعود إلى مصطفى سويف، بقدرته الفذة على قيادة الرجال وحنكته الاجتماعية، وإصراره الهادئ والمستمر. وأدى البرنامج أيضاً إلى وضع مصر على الخريطة العالمية لبحوث المخدرات، ليس كطرف متواضع، بل نجماً باهر السطوع تنتظر الدوريات العلمية المحترمة البحوث الآتية منه، ويدعى رئيسه مصطفى سويف ليكون خبيراً أساسياً فى مجال المخدرات، ويقدم شهاداته العلمية فى الكونجرس الأمريكى وأكاديمية نيويورك للعلوم وغيرها من المنابر. كذلك كان هذا المشروع العملاق بمثابة مدرسة علمية مزدهرة تضم ذخيرة من الباحثين الشبان (بعضهم فارق الشباب!!) يتدارسون ويتعلمون المنهجية المنضبطة وينتجون العلم لمصلحة الوطن، ثم ينتشرون فى ربوع مصر، ينشرون المعرفة، ويواصلون العلم والتعلم .

حزمة من القيم

عندما احتفلنا فى كلية الآداب جامعة القاهرة منذ أسابيع بعيد مولده قلت فى

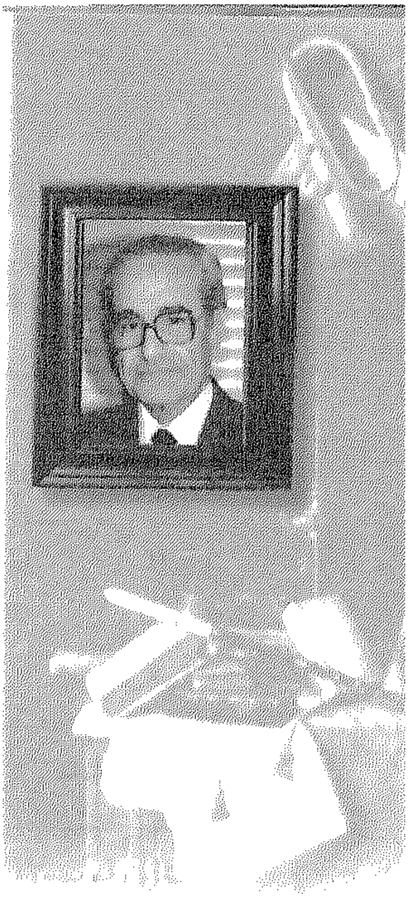

الجلسة الأفتتاحية ما معناه: إننا عندما نكرم مصطفى سويف فإننا نحتفى، إلى جانب الشخص بمجموعة من القيم التى تستوجب الإحترام والتقدير، أول القيم التى يمثلها سويف هى قيمة الالتزام الوطنى ظل سويف خادماً مخلصاً أميناً لهذا الوطن على مدى عمره يخدم قضاياه بعلمه وبتفكيره وبعمله اليومى، لايغادر إلا ليزيد من قدرته على مواصلة هذه الخدمة، رافضا كل الإغراءات بالخروج، من وظائف مرموقة، وميزانيات بحثية هائلة، ومقاوماً لكل عوامل الطرد الداخلى من نقص الموارد، وضعف الرواتب وعذابات البيروقراطيات الخانقة للعلم والعلماء الحقيقيين.

ثانى هذه القيم هى الالتزام بالمنهج يستعين سويف فى مقدمة واحد من أهم كتبه بمقولة بيكون «ونحن على يقين من طريقنا لا من موقفنا» المنهج العلمى المنضبط هو النبراس فى حياة سويف العلمية، ليس المنهج العلمى عنده مجرد خطوات تتبع فى تعاقب منتظم، وإنما هو بناء متكامل من التجريب والنظر معاً، من التجربة والنظرية والتجريب عنده هو الاتصال المنظم بما يوجد فى الواقع، هذا الاتصال لابد أن يوجهه النظر، والنظر عنده يتضمن تكوين الأفكار الأولية وبلورتها فى صورة فروض إلى أن تصل إلى نظرية أو نموذج وقد قدم سويف الكثير من النماذج النظرية بدءاً من تصوره عن العلاقة بين التطرف والهامشية الإجتماعية والنفور من الغموض والتصلب، إلى التصورات التى قدمها عن العلاقة بين مستويات الاستثارة فى المخ وبين كفاءة الأداء العقلى لدى متعاطى الحشيش، ونظريته فى الشخصية القومية، وغير ذلك كثير هذا الاهتمام الشديد بقيمة المنهج يتكشف فى بحوث مصطفى سويف الميدانية بصورة جلية حين تقرأ الأجزاء الإجرائية فيها، وكيف لايترك شاردة ولا واردة فيما يتعلق بتفاصيل أساليب القياس والضبط التجريبى، وتحوطات تفسير النتائج إلا ويناقشها مناقشة مستفيضة، بما يجعل هذه الأجزاء فى كتاباته مصدراً أساسياً لنا نحن المتخصصين للأستزادة من العلم فى أمور المنهج .

القيمة الثالثة التى تتمثل فى مصطفى سويف هى قيمة البناء. أنشأ قسم علم النفس بجامعة القاهرة (١٩٧٤) ليخرج علم النفس من مجرد شعبة صغيرة يضمها قسم الفلسفة (جامعة القاهرة) أو الاجتماع (جامعة عين شمس) إلى قسم متكامل التخصصات يستطيع أن يسهم بمتخصصين أكفاء فى حركة المجتمع إلى الأمام، وأنشأ أيضا تخصص الأخصائى النفسى فى وزارة

○ خرج بعلم النفس من مجرد شعبة صغيرة يضمها قسم الفلسفة إلى قسم متكامل التخصصات

الصحة، ليجعل من هذا التخصص الهام لمصلحة المريض النفسى وظيفة معترف بها فى مستشفيات الصحة النفسية، ويقود بصفته مستشارا لوزير الصحة لشئون الخدمة النفسية حركة مستمرة وهادئة، بين أنواء البيروقراطية والتعصب المهنى الضيق، نحو مزيد من الاعتراف بدور علم النفس فى الصحة النفسية، وأهمية التخصص فى مساعدة المريض النفسى وقد شارك مع الدكتور ثروت عكاشة فى أواخر الستينيات فى إنشاء أكاديمية الفنون لتنظيم المعاهد الفنية العليا القائمة آنذاك فى إطار قانونى تنظيمى واحد مماثل لتنظيم الجامعة ثم أدارها لفترة فى طفولتها الأولى وقد نمت هذه المؤسسة بفضل ما وضع لها من ضوابط، وما خطط لمستقبلها لتصبح مؤسسة رائدة فريدة فى نوعها وفوق هذا كله أنشأ البرنامج الدائم لبحوث تعاطى المخدرات الذى سبق ذكره .

أما القيمة الرابعة فهى قيمة التعليم ولا أقصد بالتعليم فقط التدريس النظامى فى الجامعة، وقد كان ويظل هو «الأستاذ» الذى لايبارى بل تمتد هذه الوظيفة إلى مجالات أرحب وأعمق ويتمثل هذا فى جانبين، الجانب الأول هو صناعة العلماء، أجيال تتلوها أجيال من الباحثين المتميزين فى علم النفس والطب النفسى المعاصر نشئوا علمياً على يد هذا الأستاذ الفذ يكسبهم علاقة تكاد تكون عاطفية بالمنهج العلمي، وحرص أخلاقى عليه (يرى سويف أن إتقان البحث واجب من أهم الواجبات الأخلاقية للعالم)، ويكسبهم دراية بالعلم العالمى المعاصر، ويكسبهم حباً للاستزادة الدائمة، ويكسبهم تواضع العلماء : تواضع الحفاظ على الكرامة الشخصية والإحساس الدائم بنقص العلم والمعرفة. وفوق هذا وذاك،يكسبهم حب العطاء الإنسانى والعلمى .

أما الجانب الثانى فهو تعليم المجتمع، منذ بداياته الأولى - فى الأربعينيات من القرن الماضى - حرص سويف على هذا الواجب المقدس أن يحيط المواطن العادى بالعلوم النفسية الحديثة، وما يمكن أن نقدمه للوطن من خدمات، وأن يدلى بدلوه فى مشاكل وهموم الوطن بصورة علمية واضحة وصفحات الهلال الغراء تشهد على هذا الإنجاز بصورة واضحة .

وهناك قيم أخرى كثيرة... الانضباط فى العمل، احترام الوقت، الأمانة العلمية، التجرد من التحيز والتعصب البغيض، احترام عقول الأخرين، نستطيع أن نكتب فيها بمزيد من التفصيل لو سمح المجال .

جماع القول أننا أمام ظاهرة وطنية قل أن تجود بها الأيام، وأننى أشعر بعظيم الفخر والسعادة وحسن الطالع أننى عاصرت مصطفى سويف، وتتلمذت على يديه، وشرفت بصحبته ورعايته، وقرأت ما كتب، ورأيت كيف يسلك، وأرجو أن يكون سعيداً بى بمثقال من كل ذلك .

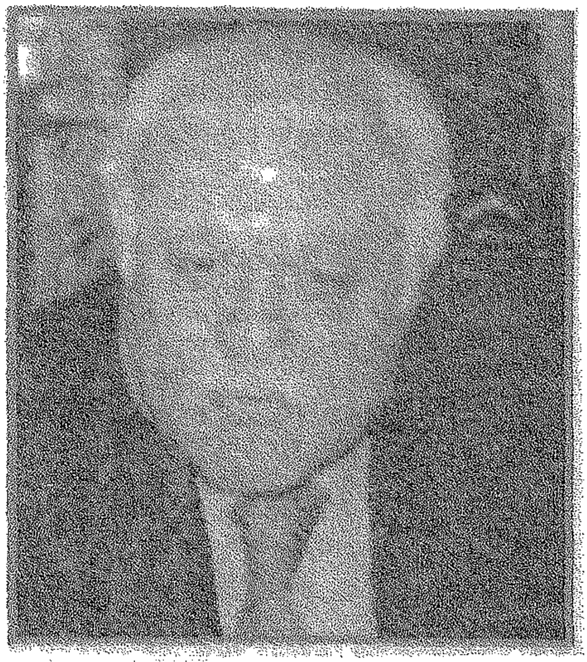

الصديق الذى غاب شخصه

الدكتور إحسان عباس

بقلم
د. حسين نصار

غريب أن يحتار شخص مثلى - قضى عمرا مديرا فى الكتابة للصحف والمجلات - فى وصف ما يريد كتابته لمجلة الهلال الغراء ، فهو يعرف معرفة يقينية أنه ليس بحثا علميا ، لأن :

- شخصا أعطى ما أعطاه إحسان عباس للحياة العلمية والثقافية لا يمكن أن يوفيه حقه من البحث الجاد بحث واحد : مقالا كان أو كتابا ، بل يقتضى العلم أن يقتصر كل بحث على مجال واحد من تلك المجالات التى أبدع فيها.

- وأن تلك المجالات لا تقتصر على واحد من أقطار العروبة بل تمتد وتتسع امتداد العالم العربى واتساعه فى أزهى عصوره ، ولا على واحد من العلوم أو الفنون التى أبدع فيها الفكر العربى، ولا على واحد من عصور العروبة الزاهرة .

ويعرف معرفة مؤكدة أنه ليس رثاء لفقيد، لأن ما منحناه من إنتاج وافر ثرى ضمن لاسمه البقاء الأبدى بين الأسماء التى تزهو بها العروبة. وإنما فقدنا وجهه البشوش، وبسمته الودود، وشخصه الحبيب؛ فقده الجيل الراهن وحده.

وإذن فلأسم ما أكتب بأنه كلمات، قد تكون بينى وبين إحسان، وقد تكون بينى وبين القراء. والمؤكد أنها عنه.

ذلك هو إحسان رشيد عبدالقادر عباس، الذى ولد فى قرية عين غزال، من قرى مدينة حيفا بفلسطين، فى ٢ يناير (كانون الثانى) سنة ١٩٢٠.

إحسان فى سطور

تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى حيفا وعكا، ثم التحق بالكلية العربية بالقدس، فحصل على دبلوم التربية سنة ١٩٤١، فعمل مدرسا فى المدرسة الثانوية بمدينة صفد من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦.

وفى تلك السنة جاء إلى مصر، والتحق بقسم اللغة وآدابها فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، فحصل على الليسانس فى ١٩٤٩، وواصل دراساته العليا فيها، فحصل على الماجستير سنة ١٩٥١، عن رسالة بعنوان «حياة الشعر العربى فى صقلية» تحت إشراف الأستاذ أحمد الشايب والدكتور شوقى ضيف. ثم حصل على الدكتوراه فى سنة ١٩٥٤ عن رسالة بعنوان «نزعة الزهد وأثرها فى الأدب العربى» تحت إشراف الأستاذ أحمد الشايب أيضا.

وفى مطلع سنة ١٩٥١ سافر إلى السودان، والتحق بالتدريس فى كلية غوردون بالخرطوم، التى سميت فيما بعد كلية الخرطوم ثم جامعة الخرطوم. وكان عمله فيها بتوصية من الأستاذ أحمد أمين.

وفى سنة ١٩٦١ انتقل إلى بيروت حيث عمل فى الجامعة الأمريكية. وترك بيروت إلى عمان فى ١٩٨٦ حيث عمل باحثا متفرغا فى الجامعة الأردنية.

ولبى دعاء ربه فى الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء ٢٩ يوليو ٢٠٠٢.

وفى أثناء وجوده بالخرطوم درس بفرع جامعة القاهرة هناك، وعندما كان بلبنان ألقى محاضرات فى عدة جامعات أمريكية وعربية، وشارك فى وضع خطط فيما أنشئ فيها من جامعات جديدة.

وحصل على:

جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب ١٩٨٠.

وسام المعارف اللبنانى ١٩٨١

جائزة جامعة كولومبيا (نيويورك) فى الترجمة ١٩٨٣

وسام القدس من منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٨.

جائزة سلطان العويس الثقافية للنقد العربى ١٩٩٢.

واختير عضوا فى:

جمعية النقد الأدبى

جمعية المستشرقين الألمان

المجمع العلمى الهندى

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

مجمع اللغة العربية بدمشق

مؤسسة آل البيت فى عمان

النادى العربى الأسبانى فى مدريد

روافد متعددة

وقد جمع إحسان عباس بين الإبداع الفنى والعلمى. فقد بدأ حياته شاعرا، استمر يقرض الشعر من ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٨، حيث اخر سنة النكبة الفلسطينية، كما قال: «كنت أنظر إلى هول الكارثة التى حلت بوطنى، فأجدها أعظم من أن يصورها الشعر. ومع ذلك

أرى أنه لا قيمة لشعر غارق فى الذاتية والأحزان الخاصة ، إذا أنا لم أحاول توجيه الشعر نحو تلك المشكلة العامة .

وفى أخريات حياته جمع ما قال من شعر فى هذه المدة القصيرة ، وأصدره فى ديوان سماه «أزهار برية» فى سنة ١٩٩٩ .

ويكشف ديوانه عن شاعر عمودى رومانسى ، متأثر بشعراء المهاجر العربية ومدرسة أبولو والرومانسيين الإنجليز والشعر الرعوى الاغريقي واللاتينى ، وبالأساطير الأوروبية والسامية . ومحاولات التجديد فى إطار الشعر العمودى .

وقد لفت هذا الشعر أنظار بعض الدارسين والنقاد . فأخضعته الباحثة لانا مامكج لدراسة بعنوان «شعر إحسان عباس : دراسة تحليلية» نالت عليها درجة الماجستير سنة ١٩٩٦ .

وكتب فى السيرة الذاتية كتاب «غربة الراعى» . وأكثر من كتابه البحوث والمقالات النقدية فى مجلات مصر ولبنان والأردن والسودان . وترجم فى فن القصة رواية «موبى ديك» لهرمان ملفل ، ترجمة أشاد بها كل من أطلع عليها .

أما الإبداع العلمى فحدث عنه ولا حرج ، فلن ترمى بالمبالغة مهما قلت . لقد كان مؤرخا وناقدا للآداب العربية خاصة ، والثقافة العربية عامة ، القديم والحديث ، ومحققا للتراث المخطوط .

ألف اثنين وعشرين كتاب أظلمها لو التقطت كتابا منها وخصصته بالذكر ، فكلها يستحق الاختيار ، فقد كان فيها الدارس الواعى ، المستقصى للمصادر ، المحيط بالمجال الثقافى العام والخاص ، الموضوعى التفكير ، صاحب العبارة المتزنة المقنعة .

وحقق – منفردا أو مشتركا – خمسين كتابا : منها ما لا يضم إلا مجلدا واحدا ، ومنها ما ضم ثمانية مجلدات . وكان رأسا فى التحقيق ، له بصماته التى تميزه عن غيره من الشرقيين والغربيين .

وترجم سبعة كتب تدل فى وضوح على سيطرته على اللغتين العربية والإنجليزية ، مما يجعل القارئ كأنه يطالع كتابا كتب أصلا باللغة العربية .

أما إحسان عباس الإنسان فقد أفاض تلاميذه – بحق – فى الثناء . وأكتفى باقتباس كلمات قلائل :

قال : د. هشام نشابة : «أستاذنا إحسان عباس ظل يعلم حتى آخر لحظة فى حياته ، يعلم الأدب والتاريخ والوطنية وحب الحياة ، لم تفارقه الابتسامة الحلوة والدعابة المليحة ، كما لم يفارقه الحزم والرأى السديد والفكرة المبدعة» .

وقال الروائى إلياس خورى : «كان أستاذا أولا . لقب الأستاذ يليق به ، لأنه جمع إلى التواضع شغفا بالمعرفة، وطاقة على العطاء جعلته أهلا لأن يكون أستاذا حتى لمن لم يتتلمذ على يديه .. الدارس والباحث فى الأدب العربى الحديث والتراثى ، الناقد والمحقق ، المترجم وكاتب السيرة الذاتية ... هذه الصفات كانت أسماء مستعارة لصفة واحدة التصقت بإحسان عباس : الأستاذ . لم يكن عباس أستاذى ، لكنى كنت تلميذه ، حتى لدى مخالفتى رأيه ، كنت أشعر أنى فى حضرة أستاذ كبير . والأساتذة لا يموتون حين يموتون» ■

عن المعاجم

بقلم
وديع فلسطين

هذا حديث أرسله كيفما اتفق عن المعاجم، ومنها معاجم تقتصر علي اللغة، ومعاجم بين لغتين أو أكثر، ومعاجم للمصطلحات ومعاجم في موضوعات متخصصة، وقد استعنت بها جميعا في مآرب الحياة كتابة وترجمة وتدقيقا للبيانات.

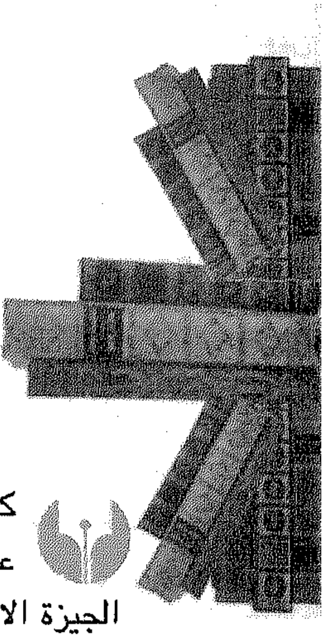

كان أول عهدى بالمعاجم عندما التحقت بمدرسة الجيزة الابتدائية الأميرية فى عام ١٩٣٠ وكان عمرى وقتها سبع سنين، وفى اليوم الأول من بداية الدراسة وزعت علينا المدرسة الكتب المقررة على السنة الأولى الابتدائية ومن جملتها معجم «مختار الصحاح» الذى أثقلنا حملة وأدهشنا بعد ذلك أننا لم نستخدمه طوال السنة الدراسية، بل طوال الدراسة الابتدائية ثم الثانوية بعد ذلك، ولا أعاننا مدرسو اللغة العربية على إدراك قيمة هذا الكتاب بعنوانه الملغز ولأن الدراسة فى جميع المراحل لم تستدع الرجوع إلى هذا المعجم، فقد بقى يحتل رفا فى المنزل لا يكاد يغادره.

ولكن الحاجة إلى معجم لم تظهر إلا بعدما قطعت شوطا فى تعلم اللغة الانجليزية التى كانت مقررة علينا منذ السنة الأولى فى المرحلة الابتدائية. فقد بدأت الكلمات الانجليزية غير المألوفة تظهر، ولا سيما فى الروايات المقررة علينا فى المرحلة الثانوية، وكان لابد من الاستعانة بمعجم انجليزى/ عربى لفهم معناها.

ولهذا فرحت فرحة غامرة عندما أهديت نسخة من معجم مدرسى لإلياس أنطون إلياس بقسميه الانجليزى/ العربى والعربى/ انجليزى، وهو معجم عملى بالنسبة لطالب ثانوى، ولكنه لا يصلح لطالب جامعى يتلقى جميع دروسه باللغة الانجليزية بما فيها الأدب الانجليزى والفلسفة والاقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع إلى جانب علوم الصحافة التى أتخصص فيها.

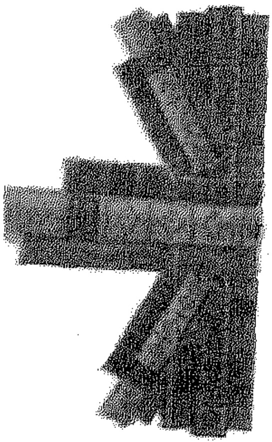

ومن حسن الحظ أن مكتبة الجامعة كانت مسعفة لى، لأننى وجدت فيها نسخا من «القاموس العصرى» لإلياس أنطون إلياس، وهو أول قاموس يصدر باللغتين، وإن كان سبقه قاموس لخليل سعادة (والد أنطون سعادة زعيم الحزب القومى السورى) ولكنه كان نافدا كما كان محدود المادة نسبيا.

واشتدت حاجتى إلى المعاجم عندما اشتغلت مترجما فى الصحف، ولكن الجريدة التى عملت فيها كانت توفر لنا نسخا من معاجم إلياس أنطون إلياس سواء باللغتين الانجليزية والعربية أو باللغتين الفرنسية والعربية التى كان يعدها شقيقه مترى إلياس. وكانت عملية صنع المعاجم مما أستهوله، فلابد أن أصحاب هذه المعاجم صنف خارق للطبيعة من البشر، لأنهم أحاطوا باللغة ومفرداتها واستخداماتها إحاطة تامة جعلت منهم رجالا يأتون بالمعجزات.

وذات صباح زارنى فى مكتبى بالجريدة صديقى سلامة موسى متأبطا مغلفا ضخما قائلا إنه هدية لك من إلياس أنطون إلياس، وكان يضم طبعة جديدة (هى الطبعة الرابعة) من القاموس العصرى! يا إلهى، هل وصل خبرى إلى هذا العالم الكبير فقرر أن يكرمنى بهذه الهدية، لقد أذهلتنى المفاجأة لأننى كنت أتصور أن إلياس أنطون إلياس قمة فى العلم لا يبلغها أحد، فكيف وصل اسمى إلى برجه العاجى وحرك فيه نخوة الأريحية فأهدانى هذا المعجم النفيس؟ لم تسعنى الدنيا وقتها، واحتفيت بالطبعة الجديدة من القاموس بمقال أشدت فيه بهذا العالم الكبير الذى وقف كل حياته على إخراج هذه المعاجم متوخيا الدقة المتناهية فيها حتى يتفادى أى خطأ مطبعى أو هجائى أو موضوعى.

ولما ظهر المقال، هاتفنى إلياس أنطون إلياس شاكرا، ثم دعانى إلى زيارته فى المطبعة التى كانت تحتل مبنى متواضعا فى أول شارع الخليج المصرى (بورسعيد حاليا) فى الفجالة. ولم أصدق نفسى وأنا أصافح هذا الرجل العظيم الذى كان له فضل الأستاذية على أجيال كثيرة استعانت بمعاجمه. وكان - على نقيض ما تصورت - شديد التواضع، أشعرنى وأنا فى العشرينات من عمرى بأننى صديق له، بل دعانى إلى زيارته فى بيته إمعانا منه

فى رفع الكلفة بيننا.

وانتهزت الفرصة فسألته عن البدايات، وكيف قرر أن يخوض ميدان المعاجم. فقال إنه كان فى مطالعاته يسجل كل لفظة تعرض له ويضع لها مقابلا باللغة العربية ولما اجتمعت لديه كراسة صغيرة من هذه الألفاظ، قرر نشرها وإهداءها إلى المتخصصين الذين وافوه بتعليقاتهم وتوجيهاتهم عليها، فأخذ يتوسع فى مادة هذه الكراسة شيئا فشيئا، مستدركا فى كل طبعة جديدة ما فاته فى الطبعات السابقة، ومضيفا إلى كل طبعة ألفاظا سقطت من اهتمامه سهوا حتى أن العلامة العراقى الأب أنستاس مارى الكرملى وصف القاموس بأنه «معجم حى لا معجم ميت». وأخبرنى إلياس أنطون إلياس بأن عمل القاموس كان شغله الشاغل على مدار الساعة، ولهذا كان يضع إلى جوار فراشه كراسة صغيرة وقلما حتى إذا ما تذكر لفظة وهو نائم، نهض وسجلها قبل أن تفلت منه.

وفاجأنى إلياس أنطون إلياس بأن عرض علىّ أن أعمل معه فى صناعة المعاجم، فقلت له: إننى أراجع قاموسك أربعين مرة فى اليوم، وربما أكثر من ذلك، فكيف تتصور أننى أصلح مساعدا لك؟!. فقال: سأدربك على هذا العمل، لأننى أقوم به بمفردى، وقد وصلت إلى أعتاب الشيخوخة التى أخشى أن تحول بينى وبين مواصلة العمل، فقلت له: يا أستاذى العزيز، إننى شاكر لك ثقتك الكريمة ولكننى أعرف حدودى وإمكاناتى، ولا أظن أننى أصلح لمثل هذا العمل، بل المؤكد أننى سأكون عالة عليك وعلى علمك عوضا عن أن أكون عونا لك، ثم وعدته بأن أفكر فى الموضوع، فجاءت وفاته فى عام ١٩٥٢ عن ثمانين عاما لتعفينى حتى من التفكير الذى وعدته به.

مشروع مجهض لمعجم انجليزي عربي

وبعد سنوات تلقيت رسالة من أستاذى فؤاد صروف، وكان يعمل وقتها نائبا لرئيس جامعة بيروت الأمريكية، قال فيها إن هناك مشروعا لإصدار أكبر معجم انجليزى/ عربى بتمويل مشترك من مؤسسة فورد الأمريكية وبعض دول الخليج، وسألنى عما إذا كنت أقبل أن أعمل مساعدا له فى هذا المشروع - إذا ما تجسم - وأن أنتقل للإقامة فى بيروت التى ستتخذ مقرا له، فرحبت بدعوته مادام عملى سيقتصر على مراجعة تجارب الطبعة فى حين يضطلع سواى من المتخصصين بالعمل المعجمى. ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح، لأن التمويل الخليجى امتنع، وانفض السامر.

أصدقائي من أصحاب المعاجم

وقد أكرمنى الله فعرفت عددا من صناع المعاجم على اختلاف توجهاتها، منهم الأمير مصطفى الشهابى صاحب المعاجم الزراعية والجراحية،

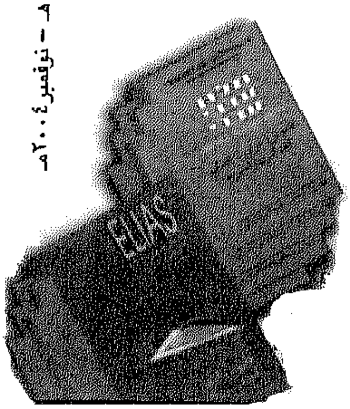

والدكتور مجدى وهبة وله عدة قواميس لغوية ومتخصصة، ومنير البعلبكى صاحب معجم «المورد» و«موسوعة المورد»، وإسماعيل مظهر صاحب «قاموس النهضة» بجزئيه، وأحمد شفيق الخطيب صاحب المعاجم العلمية الضخام، والدكتور جميل صليبا صاحب «المعجم الفلسفى» بجزئيه، والدكتور حسين مجيب المصرى صاحب معجمات اللغتين الفارسية والتركية، والدكتور حسنى سبح صاحب المعجم الطبى، والدكتور أحمد عمار صاحب معجم أمراض النساء، ومكرم عطية صاحب معجم البترول، والدكتور سهيل إدريس صاحب معجم المنهل، والدكتور رءوف سلامة موسى صاحب معاجم «المستقبل» والأمير يحيى الشهابى صاحب معجم مصطلحات الآثار.

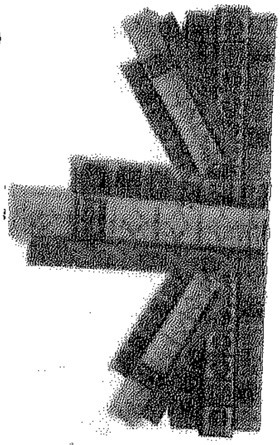

وهناك معاجم أسميها معاجم موضوعية لأنها لا تعنى بالألفاظ قدر عنايتها بموضوعات تخصصها، وقد عرفت من أصحابها محمد العدنانى صاحب معاجم الأخطاء الشائعة، والدكتور بدوى طبانة صاحب معجم البلاغة، وروكس بن زائد العزيزى صاحب «قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية» ويوسف أسعد داغر صاحب معجم «الأسماء المستعارة» و«معجم المسرحيات العربية والمعربة» و«قاموس الصحافة اللبنانية»، وكوركيس عواد صاحب معجم «المؤلفين العراقيين» ومحمود تيمور صاحب «معجم ألفاظ الحضارة».

ويلاحظ من هذا السرد، وقد قصرته على صناع المعاجم الذين عرفتهم، أن عمل المعاجم هو جهد فردى وليس جهدا جمعيا، فى حين أن المعاجم الأجنبية لا ينفرد بإعدادها شخص واحد، وإنما يتوافر على صنعها فريق من الباحثين المتخصصين الذين يحشدون جهودهم لإخراج عمل متقن يورث الثقة لدى كل من يستخدم المعجم. وهم لا يكتفون بذلك، وإنما يعيدون النظر كل فترة فى المعجم لكى يضيفوا إليه كل جديد، ولكى يصبح المعجم حيا يلبى احتياجات الطالبين وهو - مع الأسف - ما تفتقر إليه كثرة من المعاجم الخاصة بالمصطلحات التى تتخلف مع الوقت عن متابعة مستحدثات العلم ومسكوكات المصطلحات، وهو ما يشكو منه المترجمون الذين يفتحون القواميس فلا يجدون ضالتهم فيها.

وثمة ملاحظة أخرى، وهى أن معظم قواميس المصطلحات المتاحة تكاد تخلو من المختصرات التى تعاظم سكها بفضل الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات، وإذا كانت اللغة العربية قد تبنت بعض هذه المصطلحات المختصرة مستغنية عن مرادفها الطويل، مثل «اليونسكو» و«الفاو» و«اليونيسيف» و«الأونروا» و«الألكسو» و«الجات» و«الناتو» و«الإسكوا» و«الايجاد» وغيرها من التعبيرات، فإن كثرة كاثرة من

هذه المختصرات تستعصى على المترجمين ولا تسعفهم المعاجم لمعرفة مؤداها.

وقد حاولت من ناحيتى تجميع طائفة كبيرة من هذه المختصرات لفائدتى الشخصية، ولكننى أصطدم فى كل يوم بمختصرات جديدة لا سابق عهد لى بها، ولا يساعد السياق على معرفة مؤداها، وهى مشكلة أعتقد أن كثيرين من المشتغلين بالترجمة يواجهونها.

افتقار المعاجم إلى مسارد

ثم إن عددا من معاجم المصطلحات يقتصر على إيراد المصطلح باللغة الانجليزية وما يقابله باللغة العربية، فإن احتاج الباحث إلى معرفة المرادف الانجليزى لمصطلح عربى أعياه البحث، وهى مشكلة يمكن تذليلها بإعداد مسرد للألفاظ العربية يتم فيه رد المصطلح العربى إلى نصه الإفرنجى، ولكن بعض المعاجم فطنت إلى أهمية هذه المسارد، فألحقتها بها تسهيلا للقارئ وتعزيزا لفائدة المعجم أمام الباحثين. وقد وقعت مسارد فى معجم «يوسف حتى الطبى»، و«المعجم الطبى الموحد»، و«معجم الشهابى فى مصطلحات العلوم الزراعية»، و«معجم مجدى الأسيوطى للمصطلحات المصرفية والمالية»، و«القاموس الفريد فى المال والاقتصاد» لعبدالله محمد فريد، و«معجم مصطلحات الحاسب الالكترونى» الصادر عن مؤسسة الأهرام، و«معجم مصطلحات العلوم الإدارية» للدكتور أحمد زكى بدوى، و«معجم مصطلحات الأدب» للدكتور مجدى وهبة.

وكان الدكتور يوسف مراد رائد جماعة علم النفس التكاملى يحرص على تذييل كل كتاب يصدره أعضاء الجماعة بقائمة بمصطلحات علم النفس التى سكها هو بنفسه أو اجتهد أعضاء الجماعة فى سكها كيما يشيع استخدامها باعتبارها المصطلحات الموحدة المعتمدة فى علم النفس.

السهو والخطأ

ولأن المعاجم عمل فردى، فهو قد لا يسلم من السهو والخطأ، وعندما قرر ناشرو معجم «المنجد» إلحاق قسم فيه يضم تراجم للأعلام فى كل فرع من فروع المعرفة، عهدوا فى هذه المهمة إلى «فردناند توتل» الذى بذل جهدا مقدورا فى إعداد هذا القسم، ولكنه تورط فى أغاليط انبرى العلامة الأردنى الشيخ إبراهيم القطان لرصدها فى كتاب ضخم عنوانه «عثرات المنجد» كما نبه إليها محمد عبدالغنى حسن فى فصول نشرها، وبفضل هذه الاستدراكات صوب ناشرو «المنجد» البيانات الواردة فى هذا القسم فى الطبعات التالية.

***

وبعد، قد يكون هذا الموضوع جافا، ولكن لعل فيه بعض الفائدة. ومرادنا أن تخضع المعاجم لعملية مراجعة مستمرة لتواكب كل جديد فى ميادين المعرفة وتصبح بحق معاجم حية لا تموت. ■

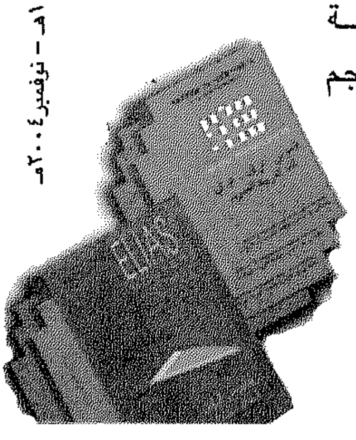

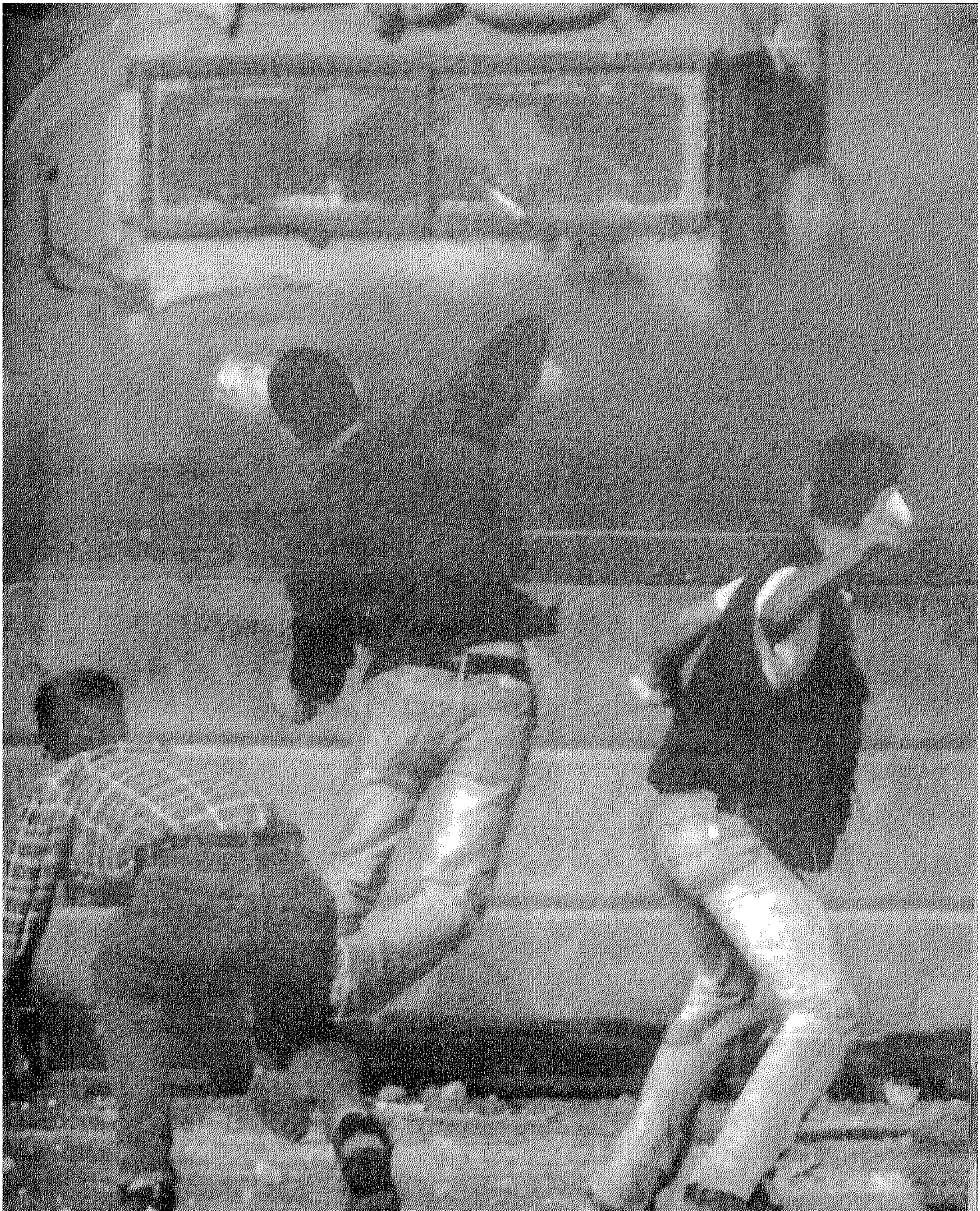

نعدو كغزال تتبعه كل كلاب الصيد

بقلم
صافي ناز كاظم

عام ١٩٧٠ قدم الشاعر الفلسطيني معين بسيسو نص مسرحية «ثورة الزنج» ، للعرض على المسرح القاهرى. وكان تعقيبى المباشر وقتها ، المعبر عن حماسى، أنها باكورة جليلة لمسرح السبعينات العربى . كان قد مضى على هزيمة ١٩٦٧ ثلاث سنوات ، وعلى ضياع الجزء الأول من الأرض المباركة ، فلسطين عام ١٩٤٨ ، ٢٢ سنة. كان معين بسيسو يطرح «حل المقاومة الشعبية» الذى لا بديل عنه ، وكان يرى بوضوح ضرورة استمرارها ويسميها «الثورة» ، كما كان يرى المؤامرات العالمية من أعدائها لعرقلتها ، وبرؤية الشعر حاول أن يصور كل مخاوفه وهواجسه وتوقعاته فى نصه «ثورة الزنج» ، وليجيب عن السؤال : كيف يمكن إنقاذ «المقاومة / الثورة» من الحدأة المتربصة التى تشتهى دائما نهش لحمها الحار لكى يجهض ميلاد التحرير كل مرة .

يصور معين بسيسو الطريقة الأرثوذكسية القديمة التى تتم عادة فى قمع «المقاومة / الثورة» ، ألا وهى أن يأخذ ضارب «المقاومة / الثورة» أولا لون جلدها ليزحف قبل أن يلحظه أحد، وتكون ناصية المعركة عندئذ بيده : فتأخذ أقواله شكلاً ثورياً لتنحرف بالثورة ، وتأخذ الإذاعات والأقلام والكتب وحلقات الدروشة التاريخية و«محاور» البحث ، شكل الاهتمام بثورات التاريخ وسجلاتها وتحورها وتدورها وتخفى وتظهر وتظلل وتبرز وتلعب فى التفصيلات والجزئيات لتشكل وتؤلف من جديد ما يمكن أن تطعن به «الثورات / المقاومة» المعاصرة ، تؤلف فى التاريخ ، وتبعثر فى الحقائق ، وتقلب الأسماء ، وتخلط الأبطال ، كل شئ يدخل دورة الغسيل والقص واللصق والصبغ ليتم تقديمه، تحت عناوين مثل «لكى لا ننسى»، بالحجم واللون المطلوب للتشويش والتدمير والإزالة ، مع استغلال «الثورات / المقاومة» الحية والقائمة بالفعل ، لكى يوظف صدقها وسخونتها كمؤثرات طبيعية تضفى على الباطل لمحات من الحق مع بقائها «كومبارس» مهمش تحت السيطرة ، تتحرك حين يراد لها وتتجمد ، حين ترغم بالقهر ، على التوقف .

ويصور معين بسيسو فى مسرحيته لعبة «صندوق الدنيا» يدعونا من خلالها

إلى مراقبة الحيل الخسيسة للتزوير والاحتيال :

«صندوق الدنيا والتاريخ على حبل غسيل ،

أوراق تغسل ،

أوراق تصبغ ،

والرأس المقطوع وأوراق النقد الزائفة،

على حبل غسيل.

ثم نسمع الصخب الحاد لآلة نقل الأخبار عبر الوكالات إلى أنحاء العالم مع هدير غسالة كهربائية - (هى الآن كاملة الآلية - فول أوتوماتيك) - ويدور التعامل بين الرجل المنوط بآلة الأخبار مع الرجل المنوط بإدارة الغسالة ، الأول يقطع ورق الأخبار والأحداث ويعطيها للثانى يلقيها فى الغسالة، يغسلها ثم يدلق فوقها سوائل الألوان ، ثم ينشرها إلى جانب أوراق أخرى على الحبل تمهيدا لكى تعيد آلة الأخبار بثها بصبغتها الجديدة ذات الأهداف المخططة لاغتيال الثورة والثوار ، والمقاومة والمقاومين ، ويقول معين بسيسو:

«.. من سوف يعاقب من يقتل بالحبر ،

من يقتل تاريخا ، من يقتل أبطالاً بالحبر ؟».

ويتواصل العمل فى حماس وزحمة ويستمر التعامل بين المتآمرين ، آلة الأخبار والغسالة :

«- لابد وأن نغسل هذا الوجه الآن ،

نغسله ، نصبغه ، ونعلقه فوق الحبل،

سنصور بعد قليل .

- تصور من ؟

- وجه فلسطين

....

- لا ....

لنؤلف ونصور وجهاً آخر ،

وجها نرفعه كالحجر ونضرب وجه فلسطين .....»

ويتجمد الحوار بين المتآمرين وهما فى حركة الاستمرار فى العمل ، وتدخل امرأة لا تنظر إليهما .. وفى مونولوج مكثف تلخص المرأة رمزها ، معاناتها ، تفتحها - رغم الألم - للأمل أبداً :

«- أنا فى واجهة متاجرهم تلك المانيكان ، مانيكان فلسطين ، تظهر حين يريدون وتغيب عن المسرح حين يريدون ، صدرى حائط ... ظهرى حائط ... وعليه يلصق هذا الإعلان وذاك الإعلان ، شريانى حبل غسيل ... ينصب لنعلق هذى الورقة أو تلك الورقة، أنا فى طبق القرن العشرين ، أؤكل بالشوكة والسكين .. لكن سوف يجيئون ، سوف يجيئون ..... ، وسيقطع هذا الحبل وتحطم هذى الغسالة، وتكسر هذى الآلة ....»

ويتصور معين بسيسو ثائرا من القرن الثالث للهجرة هو عبد الله بن محمد قائد ثورة الزنج سنة ٢٥٥ هجرية ، ويقدمه كضحية لكذب الوراقين .. (أجهزة الإعلام فى ذلك الوقت) - الذين لا يذكرونه إلا بكلمة «الخبيث» أو «الملعون» بينما الاحتمال القائم أنه كان محررا للرقيق وجامعا للأحرار من الفقراء والبائسين ضد المترفين الذين ساموهم ألوان الخسف والعنف ، ويقول على لسانه :

«المعتمد بأمر الله قتلنى مرة ،

وقتلت على أيدى وراقيه فى القرن

الثالث مرة »

وعلى لسان هذا الثائر ضحية التزوير التاريخي يقول معين بسيسو :

«انطلقوا الآن ،
كونوا ما شئتم ،
زنجا في القرن الثالث للهجرة
أو زنجا في القرن العشرين
إن عليكم أن تنطلقوا الآن
لا يستأذن عبد من قيصره
كي يشعل ثورة ..»

وحين تضمد زوجته وطفاء جراح أحد الثوار الغائرة وتقول :

«– الكفرة ،
هل جلدوه بسوط أو محراث ؟».

يكون الرد من معين بسيسو :

«حين يصير السوط هو المحراث ، يفتح أخدودا في الظهر أو الصدر ، فعلينا أن نلقي يا وطفاء ، ببذور الدم»...!

ونسمع في هذا النص المسرحي البديع ، الذي كان ممكنا عرضه على خشبة مسرحنا منذ أكثر من ثلاثين عاما ، ويتحاشاه المسرحيون اليوم ، نسمع :

«حين يكون هنالك رجل واحد
يملك كل الدنيا ،
لابد وأن تشهر سيفك ،
أو تبتلع السيف !»

ونسمع :

«أين سأمضي ؟
والسيف أمامي ،
والسيف ورائي ،
والثورة تعدو
كغزال تتبعه كل كلاب الصيد» !

ونسمع :

«هل قدر الثورة أن تلد الطفل الأول
للسكين ،
والطفل الثاني للسكين ،
وكمين بعد كمين
ينصب للطفل الثالث ؟»

وتكون النبوءة ، أو الأمل ، ينطقه معين بسيسو ، الشاعر الفلسطيني الموجوع ، على لسان بطلته « وطفاء فلسطين»:

«أنا وطفاء
....
....
هذا الطفل بأحشائي ،
سيقود خطاي ،
....
خبأت لهم قنبلتي في أحشائي
....
سوف يجيئون ، سوف يجيئون
ويهزون العالم كالشجرة
كي نلقف تلك الثمرة
الثورة ، الثورة ، الثورة ..»

وأتساءل أنا :

منذ متى جعلونا نتهيب أن ننطق تلك الكلمة : «الثورة» كأنها خزي أو عار أو تهمة ؟

ومازال سعي البعض دءوبا لكي نتهيب النطق بكلمات مثل «مقاومة» و«مظاهرات» و«احتجاج» .....الخ. ■

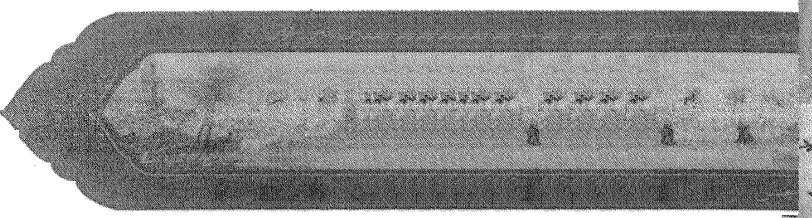

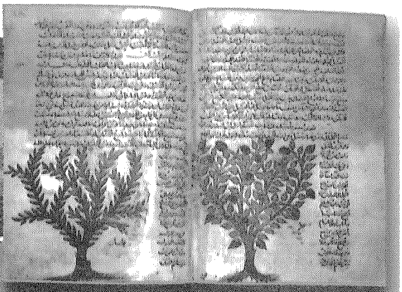

النافذة الفرانكفورتية

بقلم
د. يوسف زيدان

لم يحظ العرب من قبل بمثل هذه الفرصة لتقديم أنفسهم (بأنفسهم) للعالم الخارجي، ولم تتألق الثقافة العربية بكافة مكوناتها، مثلما تألقت فى معرض فرانكفورت الدولى الذى اختار (العرب) ضيف شرف لهذا العام، فأتاح لهم نافذة لم تتح من قبل.. وكنا قد تعودنا أن يتحدث الآخرون عنا، غير أن هذه المرة (الفريدة) كانت : العرب تتحدث عن نفسها .

وقع اختيار المعرض على (الثقافة العربية) هذا العام، فى إطار ماجرت عليه عادتهم (الفرانكفورتية) السنوية من اختيار واحدة من الثقافات العديدة (الحية) فى أنحاء العالم، سواء كانت هذه الثقافة يمثلها عدة دول أو دولة واحدة. وهنا إشارة لطيفة الى أن المسألة ليست سياسية (أعنى : فى المقام الأول) وإنما هى مسألة ثقافية فى الأساس. ولذا يبرم المعرض مع ممثلى هذه الثقافة المختارة (ضيف شرف) اتفاقية يتم بموجبها توفير وتأمين كل ما من شأنه إنجاح ضيف الشرف فى تقديم نفسه للعالم خلال أيام المعرض، شريطة ألا يتعدى الضيف طوره فيستغل المناسبة للدعاية السياسية.. وكانت قد سبقتنا الى معرض فرانكفورت ثقافات أخرى، بعضها تمثله دولة واحدة، مثل (الثقافة الروسية) ضيف شرف العام الماضى، وبعضها تمثله أكثر من دولة، كما كان الحال فى (ثقافة أمريكا اللاتينية) التى مثلتها الارجنتين والبرازيل والمكسيك، واعتذرت دول اخرى فى القارة الأمريكية الجنوبية، لسبب واضح بالغ البساطة: ليس لديهم مزيدا ليقدموه.

الثورات

هاجت ثائرة كثيرون، بسبب اختيارنا نحن العرب ضيفا شرفيا للمعرض هذا العام. احتقن البعض منهم قائلا ما ملخصه : لماذا لا يكون (المصريون) وحدهم هم ضيف الشرف؟! وكأنهم فى غمرة انفعالهم لم يلحظوا ان ثقافة مصر المعاصرة: ثقافية عربية ! .. وما علينا – بالطبع – من تلك الترهات التى تردد احيانا فى ديارنا، داعية فى كتابات ضحلة، باللغة العربية، الى قطع الصلة مع الثقافة العربية! لاحياء ما يدعونه هم (الثقافة الفرعونية) وهى تسمية دالة على جهل فاضح بماهية (الثقافة) .. المهم .. أن هؤلاء لم يلتفت أحد اليهم.

قوم آخرون ثاروا ، قالوا ما معناه: ليس فى الثقافة العربية شىء مشرف ، ومن ثم فلا داع للاحتفاء بها فى محفل دولىّ كهذا، والأفضل لنا أن نعتذر عن قبول هذه الدعوة! وهؤلاء لو كانوا تريثوا قليلا، لكانوا قد رأوا – على الرغم مما بهم من العشى الليلى والنهارى – ان الثقافة العربية فيها من الألق ما يستحق الظهور ويستوجب الاحترام.. وهو ما كان ماثلا بسطوع أمام مئات الآلاف من زائرى المعرض هذا العام.

وجماعة يفترض ابتداء أن يعترضوا، وقد اعترضوا! ففى صبيحة يوم الافتتاح الرسمى، سمعنا فى المعرض أن (اليهود) قاموا بتظاهرات فى برلين و فرانكفورت وميونخ – أكبر المدن الألمانية – للاعتراض على اختيار هؤلاء العرب (الدمويين) للاحتفاء بثقافتهم الميتة! العجيب فى الأمر، أن الجماعة اليهودية فى ألمانيا قامت بمظاهراتها السمجة أمام السفارة المصرية وقنصلياتها .. وكأن مصر هى العرب. وكأن ماقاموا به سيصرف أنظار الإعلام الغربى عن الالتفات الى ضيف شرف هذا العام.. ولكن شيئا من ذلك لم

يحدث، فلا أحد التفت لاعتراضهم، ولا وسيلة إعلام أوروبية الا وأفردت للعرب صفحات جرائدها أو ساعات بثها أو تقاريرها الإخبارية على الإنترنت .

الجامعة العربية

في مبتدأ الأمر، كانت إدارة المعرض قد خاطبت الجامعة العربية وأبرمت معها اتفاقية (ضيف الشرف) وفى الجامعة العربية مشكلات كثيرة، يكفينا منها البعض الذى نعرفه، ومالا نعرفه - بعد - لن يخرج عما نعرفه من حال ومقال الخشب المسندة المعروفة اصطلاحا بالأنظمة السياسية العربية. غير أن ذلك ينسحب فحسب على أمور السياسة، أما الكلام فى (الثقافة) فله شأن آخر، وله بساط آخر (سحرى) يطير به . فالثقافات العربية مثل سجادة ثرية التفاصيل والمنمنمات ، صنعتها قرون طوال من الابداع والتوهج الذى ظل ضوؤه يسطع حينا ويخفت حينا، لكنه لم ينطفئ يوما بالكلية.. والا لما كنا نتحدث اليوم اللغة ذاتها التي تحدثها على ابن طالب (الولى) ويزيد بن معاوية (الفاجر) وسيبويه وطه حسين وابن سينا وأحمد زويل ونجيب محفوظ وابن النفيس.. وغيرهم ، على اختلافهم زمنا وتفننا.

من المضحكات المبكيات أن اللجنة المنظمة لأجنحة ضيف الشرف، وهى اللجنة التابعة للجامعة العربية التى تمثل دول العرب التى يضرب المثل بثراء عدد منها، اشتكت من نقص (التمويل اللازم) للمشاركة العربية فى فرانكفورت ! فى اليوم الأخير للمعرض، كنا نشد الرحال عائدين الى أوطاننا ، وفى نشرة الأخبار (العربية) أذيع خبر عن منح أحد الحكام العرب هدية لأحد مواطنيه الذين فازوا بميدالية فى الأوليمبياد الأخير، يوازى مقدارها قرابة عشرة ملايين من جنيهات مصر! لفتة رائعة.. ولكن ، مابال هؤلاء المثقفين العرب الذين ملأوا نظر العالم وسمعه خلال أيام النافذة الفرانكفورتية: فكرا وشعرا وأدبا وفنا .. أما من رسالة اليهم - لا مكافأة - يرسلها حاكم عربى لتحية هذه الكتيبة الثقافية المتقدمة فى أوروبا، الجامعة أهم المنارات الثقافية العربية التى تمشى على قدمين : محمود درويش، أحمد كمال أبو المجد، أدونيس، محمد سليم العوا ، يوسف شاهين، الأبنودى، الغيطانى، أصلان.. وغيرهم عشرات، بل مئات المبدعين العرب الذى هم ملح هذه الأرض!

عمرو موسى

من باب إيتاء كل ذى حق حقه، لابد من الإشارة الى أن الأمين العام للجامعة العربية استطاع أن يتعامل مع (المسألة الفرانكفورتية) ببصيرة نافذة، اذ أدار دفة الأمر منذ اللحظة الأولى ، على ما يوجبه الرأى الصحيح، فقد قرر أن المشاركة

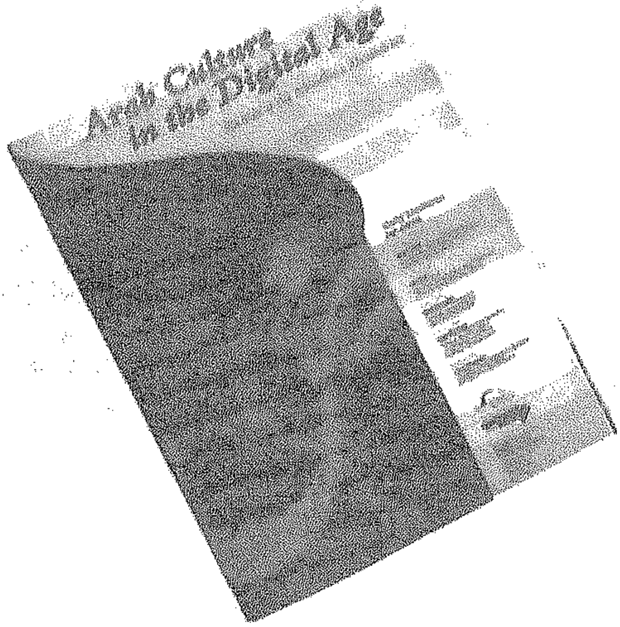

العربية (جماعية) وأن العرب لن يذهبوا الى فرانكفورت فرادى، ولن يذهبوا ممثلين لحكومات او أطياف سياسية.. وإنما هى مشاركة جماعية لما يجتمع عليه العرب: الثقافة (وهى فى الواقع: الأمر الوحيد الذى يجمع العرب) .

وفى غمرة الكلام عن نقص التمويل، فاز الرجل بجائزة ما، مالية فوهبها للمشاركة العربية فى معرض فرانكفورت، ولم يكن غرضه بذلك اخراج هؤلاء الذين ناءوا بحمل أموالهم، وناءت بهم الأموال (ناء فى اللغة ، تعنى : ذهب بعيدا!) .

وفى غمرة انهماكنا فى اعداد جناح مكتبة الاسكندرية بالمعرض، قبل الافتتاح بيومين، قيل لى أن عمرو موسى فى طريقه الينا .. وجاء ، ليس مجىء سياسى يزهو بمنصبه ويرفل فى ثياب السياسة الطاووسية! وانما جاء مجىء انسان عربى يحرص على نجاح المناسبة. وقف معى عند التفاصيل. وتفقد اقسام الجناح تفقد محب لا منتقد.

جناح المكتبة

حين كلفنى د. اسماعيل سراج الدين بإعداد جناح المكتبة بمعرض فرانكفورت، لم أسأله عن السبب فى اختيارى.. أعلم الاجابة مسبقا، كان سيقول ما معناه: لأنك أكثرنا انحيازا للثقافة العربية، ولأنك معتاد على تولى هذه المهام غير النمطية! وبالطبع، فقد شرفت بالاختيار وشرعت فى تجهيز عدة المعرض قبل افتتاحه (٥ أكتوبر ٢٠٠٤) بعدة أشهر. وكانت اللجنة المنظمة قد خصصت للمكتبة مساحة تزيد على خمسمائة متر، فرأيت ان اجعلها على أقسام: الأول للدول العربية لتقديم انتاجها الرقمى، فكان لكل دولة جهازى كمبيوتر فى (كابينة) خاصة تحمل اسمها ورايتها. وقد تقاعست بعض الدول عن تقديم مادة رقمية لعرضها فى المكان المخصص لها، فأعددت لها مادة من مصادر مختلفة أهمها شبكة الانترنت. البلد العربى الوحيد الذى تركت شاشتيه سواداوين، كان العراق!

فى القسم الثانى كان هناك ١٦ جهاز كمبيوتر عليها (مواقع) مكتبة الاسكندرية على شبكة الانترنت - وهى بالمناسبة عدة مواقع متطورة - وعليها ايضا برمجيات اصدرتها المكتبة خلال العامين الأخيرين فى مجال النشر الالكترونى والوسائط المتعددة. وتصدر هذا القسم من الجناح،

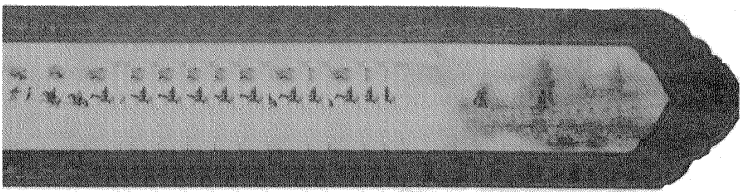

نسخة طبق الأصل من البردية الوحيدة الباقية من مكتبة الاسكندرية، وأمامها ستة آلاف (مطوية) تعريف بالمكتبة والجناح.. نفدت الآلاف الستة بعد يوم ونصف يوم!

فى القسم الثالث كانت قاعة المحاضرات اليومية التى تضم سبعين مقعدا ويحيط بنصف دائرتها شاشات عملاقة يعرض عليها طيلة اليوم برامج التوثيق الحضارى والآثار المصرية، على نحو مبهر بديع اجتذب المئات والآلاف من زائرى المعرض ، حتى تأتى الساعة الرابعة عصرا لتقام الندوة اليومية لجناح المكتبة، وقد سارت الندوات خلال الأيام الخمسة للمعرض، على النحو التالى: المحاضرة الأولى لكاتب هذه الأسطر والثانية لأستاذنا الدكتور فتحي صالح مدير مركز التوثيق الحضاري بمكتبة الإسكندرية، والثالثة للدكتور اسماعيل سراج الدين مدير المكتبة، والرابعة لجمال الفيطانى متحدثا عن (ألف ليلة وليلة) والأخيرة للدكتور جابر عصفور مديرا لحلقة نقاش مع نخبة من مبدعى الرواية العربية.

وهكذا تناغمت الأقسام الثلاثة لجناح المكتبة، وقد كانت الجدران الداخلية والخارجية للأقسام الثلاثة، مغطاة بجداريات (جرافيك) تعكس مفردات الثقافة العربية وتراثياتها ونوادر مخطوطاتها الموزعة فى أنحاء العالم، بالاضافة الى الأنشطة المختلفة للمكتبة ، ونموذج مصغر منها ، طالما وقف الزوار امامه مستفسرين عن للمكتبة الإسكندرية.

الأفق الفرانكفورتي

جاء جناح المكتبة على الطرف الأيمن من قاعة المبنى الرئيسى لمعرض فرانكفورت، وفى منتصف القاعة ذات المساحة الهائلة، كان (الناشرون العرب) يقدمون عشرة آلاف اصدار عربى فى المجالات كافة، مصنفة بحسب موضوعاتها، وعلى الطرف الأيسر من القاعة الرئيسية كان العرض البديع الذى قدمه د. فؤاد سزكين للآلات الفلكية العربية وكانت قاعة المحاضرات التى لم

تكف عن النشاط طيلة أيام المعرض.

وعلى جنبات الطريق الى القاعة الرئيسية، كان الألمان قد زينوا الجدران بلوحات وجداريات بديعة، للعلماء العرب، وللمدن العربية، ولمشاهير الكتاب المعاصرين، وعلى جنبات الأروقة الكثيرة للمبنى الرئيسى، كانت رسوم الأطفال العرب تزين الجدران، وكانت (المعلقات) العربية المعاصرة تجتذب المارين وتدعوهم للتلبث حينا، امام انتاج العرب: الفكرى، والفنى، والأدبى.. أطفالا، ورجالا ، ونساء (كانت هناك فعاليات كثيرة للمبدعات العربيات).

وفى الساحة الممتدة أمام المبنى الرئيسى للمعرض أقيمت عدة (خيام) عربية بالغة الحداثة، احتوت على تعريف بالجماعة العربية، ومسرحها، وفنها السينمائى، وتجليات الفن المعاصر فى الروح العربي المتأجج. وماكانت فعاليات (الحضور الثقافى العربى) فى فرانكفورت مقتصرة على معرض الكتاب.. فقد توزعت ايضا على دار الادب، والمتاحف والمسارح، بل وفى الشوارع التى امتلأت بلافتات ترحب بالعرب ضيفا للشرف .

فى طريق العودة من الفندق الى المطار، سألنى سائق التاكسى بلهجة عربية مغاربية: هل كنت مشاركا فى المشاركة العربية؟ أجبت بالايجاب، فقال : جميل هذا، ثم قال: لقد كنت منذ يومين اوصل احد زبائنى للفندق الذى اخذتك منه ، ولقد لمحت فى مدخله محمود درويش وادونيس، فهل اقاما معا فى الفندق نفسه؟ أجبت بالايجاب: فقال

جميل هذا. ■

مثقفات وراء القضبان

بقلم
د. نيفين عبد المنعم مسعد

د. لطيفة الزيات

كن أربعة وعشرين امرأة شملتهن قائمة التحفظ على معارضى كامب ديفيد فى عام ١٩٨١ ، أربعة وعشرين اسماً وطابعاً وحكاية ، دون بعضهن سيرته الذاتية وتجربته خلف القضبان فى روايات لم تعرف أبداً طريقها إلى النشر. هكذا فعلت أمينة رشيد وشاهندة مقلد. ونشر بعض آخر منهن أوراقه فى مقالات صحيفة لم يقدر لها أن تجمع فى كتاب. هكذا اختارت عواطف عبدالرحمن. وخرجت مذكرات البعض الثالث إلى النور تحكى عن الطريق إلى سجن النساء. هكذا كتبت لطيفة الزيات وفريدة النقاش ونوال السعداوى وصافيناز كاظم

وعندما أهدانى الأخ العزيز مصطفى نبيل مذكرات المثقفات الأربع لأكتب عنها، عن قطعة من تاريخ مصر السياسى، تراءى لى أكثر من بديل. أن أجمع بين النساء الأربع فى مقال، فبينهن تقاطعات وتشابكات، وأيضاً اختلافات شخصية وفكرية مثيرة، مهم تسجيلها. أن أتناولهن بحسب اتجاهاتهن السياسية، وهى واضحة يسهل تمييزها. أن أخصص لكل منهن مقالاً، لأنقل للقارىء المتعة الإنسانية بلا مدى التى واتتنى مع نهاية كل قصة من القصص الأربع، وربما أيضاً حالة التقمص التى تملكتنى بعد الفراغ من قراءتها حتى لا يفلت منى الإنسان فى كل شخص من الشخوص الأربعة وأنا أرصد ما بينها من أوجه شبه واختلاف. كما استبعدت البديل الثانى حتى لا أسقط فى تلك الثنائيات التى لا أفضلها كثيراً وأنا أميز فيهن بين اليسار والإسلام السياسى، وأشطر الوطن، وطنى إلى شطرين. وآثرت أن ألجأ إلى البديل الأخير، ففيه تفاصيل أكثر مما هو غير معلوم بالضرورة عن مثقفات لسن اعتياديات. ومن التفاصيل أحياناً ما قد لا تسكنه الشياطين. واخترت أن أبدأ بلطيفة.

(١) حملة تفتيش

اختارت لطيفة الزيات لقص سيرتها الذاتية عنوان «حملة تفتيش». وفى الاسم أحد مفاتيح هذه الشخصية النسائية الثرية التى نقرأ عنها، مفتاح اكتشاف الأنا بالتوحد مع الآخر. فلطيفة لا وجود لها إلا خارج حدودها، كإنسان وكامرأة تكتب وتناضل، وأحياناً تناضل بالكتابة. قد تتوحد لطيفة مع الآخر الفرد، كما توحدت مع زوجها الثانى الذى ألغى وجودها وحرفها عن طريقها إلى حيث لم تفكر يوماً أن تذهب، فإذا هى تفيق بعد ثلاثة عشر عاماً عاشتها معه، أو عاشتها فيه بمعنى أدق ا[illegible]د يديها ملوثتين بدمائها، وليس أفدح من جريمة وأد الذات، وهى قد تتوحد مع المجموع، كما فعلت عندما التقطت يد الصبى الصغير فى أول أيامها الدراسية فى روضة المنصورة، وانضمت إلى الدائرة التى صنعها أطفال فى مثل عمرها، لتكسر عزلتها وهى تتغنى بأعلى صوتها أغنية الكل مع الكل. وطبعاً هى تتوحد مع

* أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهر

الوطن، هذا الوطن الذى انتزع دموعها العزيزة على الشدائد والمحن، يوم عاد جنوده مكسورين فى ١٩٦٧، فبكت فى هستيريا كما لم تبك أبداً، وقذفت شاشة التليفزيون بولاعة سجائرها. كانت هى التى هُزمت، وهى الوطن.

العنوان الذى اختارته لطيفة لقص سيرتها إلى تلك اللحظة التى توحدت فيها سجينات القناطر مع أمينة رشيد زميلتهن فى العنبر والتى كانت تنتظرها إجراءات تأديبية لا يعلم كنهها أحد. كان التفتيش الذاتى لأمينة وهى على بوابة السجن فى طريقها إلى المدعى الاشتراكى، قد أسفر عن خطابين خبأتهما فى ملابسها، أحدهما للابن والثانى للزوج. وقررت السجينات ألا تخضع أمينة للتأديب، كما قررن ألا تسفر حملة التفتيش التى توقعنها لعنبرهن المشاغب عن شىء، وكان لهن ما أردن. تجمعت السجينات فى حوش السجن، السياسيات منهن والإسلاميات كما كان تصنيفهن الشائع، وكأنما الإسلاميات غير مسيسات. وأعلن إضراباً مفتوحاً ما لم تتم الاستجابة لمطالبهن، وكان مدهشاً لإدارة السجن أن الإسلاميات، ممن كان الرهان على ألا يشاركن فى الإضراب، كن فى طليعة المشاركات. كان الاختلاف فى الاتجاه، وفى الزى باليقين، وفى بعض السلوك، أما فى هذه اللحظة فإن الكل كان فى واحد. أخفت لطيفة مذكرات أمينة ومذكراتها فى علبة من الصفيح، وسكبت ماء الدلو على صحف الأمس المحروقة فى فوهة المرحاض، وجلست تتسامر مع زميلاتها وتتمشى فى حوش السجن، وورود زاهية ساخنة تبهج الأنظار تتسلل من وراء أردية المحجبات الداكنة وتشكل همزة وصل بينهن وبين باقى السجينات.

بيت دمياط القديم

تتداخل فى قص لطيفة سيرتها الذاتية الأيام والتواريخ، فتبدأ قصتها بمارس ١٩٧٣ ثم تقوم بحركة فلاش باك - بلغة أهل السينما - لتستدعى أيام طفولتها وصباها، وفى حكيها أيضاً يتداخل العام مع الخاص، فانفصالها عن زوجها الثانى فى ١٩٦٥ ظل يدميها إلى أن داهمها التاريخ الأتعس فى حياتها بعدها بعامين ليكون رمزاً للقطيعة بين مرحلتين من عمر الوطن، لكل مرحلة أبطالها وأحداثها وانفعالاتها.

قالت لطيفة إنها مع كل ما سكنته من بيوت فى المنصورة وأسيوط والقاهرة، لا تشعر بالانتماء قدر ما تشعر للبيت القديم فى دمياط وبيتها الخشبى فى صحراء سيدى بشر التى ما عادت صحراء. فى الأول فتحت عيونها على الدنيا، ففيه ولدت هى وإخوتها عبد الفتاح ومحمد وصفية، وقضت ست سنوات سمان من عمرها، وفى الثانى نضج وعيها السياسى وهى تحط به بعد هروب طويل مع زوجها ليقبض عليهما معاً، وتعيش تجربتها الأولى مع السجن : سجن الحضرة.

ولأنها أحبت بيت دمياط القديم فقد تفننت فى وصفه، بجناحيه اللذين يفصل بينهما حوش مرصوف بالبلاط الإيطالى الملون وحديقة، بمرايا جناح الضيوف البلجيكية تتجمع على صفحتها أضواء الشموع المثبتة فى النجف الكريستال لتعود وتنعكس على موائد الرخام وأرائك الأرابيسك وسجاجيد بلاد فارس. ومع ذلك فقد أحبت السطح أكثر مما أحبت داخل البيت وحديقته، حتى إذا ما استكان ثعبان على الدرج المؤدى إليه، غافلت جدتها

وتسلقت جدار البيت لتبلغ السطح تغنى وتضحك وتقفز وتنط الحبل، وتتحرر. أعطت أذنها لجدتها للمرة الكم لا تدرى، تسكب فيها ذكرياتها مع الجد وسفنه الشراعية التى تكسرت واحدة تلو الأخرى على كثبان رمال الميناء، وتسمع منها عن صبا والدها الذى لم يكن له فى نظرها - ككل أم - مثيل فى شقاوته ووسامته، تلقمه نساء البلدة المحنكات فطائر القشطة بالعسل ويشاكسه الرجال فى أوقات الفراغ يتعجلون فيه الذكر. تعرف عن الخير والشر يسجلهما الملكان المثبتان على كتفى بنى آدم، ويدهشها كيف يتم المرء كتابه والملكان لا يدخلان دورات المياه، وربما ظلت لطيفة أسيرة هذا الإنذار المبكر من الشر، حتى حلت الأم لاحقاً محل الجدة فى الحكى لها، فجسمت معنى الشر فى ثنائى ريا وسكينة وكررته وألحت عليه، حتى باتت شرور الدنيا كلها من فعلها. فعندما انفتح كوبرى عباس ليلقى بعشرات المتظاهرين إلى جوف النيل، كان البوليس هو ريا وسكينة، وعندما شق سكون سجن القناطر صراخ السجينات المتواريات خلف الأبواب المغلقة عادت تتذكر بقوة أنات ضحايا ريا وسكينة. هكذا كانت السلطة الظالمة هى الوجه الآخر لذلك الثنائى الشهير، فهل لازال بعد هو الرمز الأبرز للقهر؟ وهل لو قدر للطيفة أن توغل بعمرها إلى حيث نعيش كانت ستستدعى الأختين كلما حنقت على ظلم البشر؟

اكتظ البيت القديم بساكنيه، ويبدو أن إحساس لطيفة بالجماعة والبحث عن التوحد مع الآخر تخلق من رحم هذه اللمة مع أفراد أسرتها الممتدة. عمتها التى ماتت وهى تلد طفلتها الأولى. عمها الذى كانت تطارده عقدة النقص يعوضها بحذاء له كعب عال ليدانى زوجته طويلة القامة مرفوعة الرأس. جدتها. أبواها. إخوتها خصوصا عبدالفتاح ومحمد اللذين كان لهما أثر كبير فى تكوينها الأدبى والسياسى. لذلك عندما مات عبدالفتاح فى ١٩٧٣ أحست باليتم للمرة الثانية، واستدركت قائلة بل للمرة الأولى، لأن عبدالفتاح كان الأب والمعلم والأخ والصديق، وعندما قبض على محمد فى ١٩٨١، وقبل أيام من إلقاء القبض عليها، لازمته فى سيارة الشرطة تنقله إلى أين ليست تدرى، واطمأنت عليه وابتسمت وهو يمشط شعره ويمسح وجهه بمنديله المعطر قبل أن يدخل إلى سجن طرة، ليسقط صريع الذبحة الصدرية بعدها بأيام ثلاثة.

بيت أم التابعى فى المنصورة

فى بيت المنصورة الذى كان مملوكاً لأم الكاتب الصحفى محمد التابعى، تعلمت لطيفة شيئين: الأدب والسياسة. تعلقت بالأدب فى شخص الهمشرى، هذا الشاعر الذى كان يسكن سطح البيت، وكانت تتسلل إليه، والسطح دائما جاذبها، تجلس بلا حراك كالتمثال، ترقبه وهو يكتب أو يقرأ أو يشرد، يكلمها أو لا، يلتفت حتى لوجودها أو لا يلتفت، يعطيها قطعة من الحلوى أو يمتنع. كل هذا لا يهم، المهم أنها تجلس فى حضرة شاعر، وقد علمها أخواها أن للشعر قدسية لا تبارى. ودخلت فى السياسة من أوسع أبوابها، والأدق القول من أعنف أبوابها، عندما انتابها شعور عميق بالعجز المعجون بالأسى فى أحد أيام عام ١٩٣٤. كانت قد انتقلت إلى المنصورة قبل خمس سنوات بحكم طبيعة عمل الأب، وراحت ابنة الحادية عشرة من العمر تطل من شرفة منزلها بحثاً عن نسمة هواء، وإزجاء لفضولها فى الوقت نفسه، فقد كان

الصراع على أشده حينها بين الحركة الوطنية والملك وأحزاب الأقلية وقوات الاحتلال. وشاعت الأحداث أن تضع مدينة المنصورة فى بؤرتها، عندما أراد مصطفى النحاس زعيم الوفد والأغلبية أن يطوف بأقاليم مصر، ومنها المنصورة، وأبى إسماعيل صدقى رئيس الوزراء. تابعت لطيفة موكب النحاس يتحدى الحكومة والقصر، ويتقدم فى شوارع المنصورة محمولاً على أكتاف أفواج المتظاهرين مشيعاً بصيحات تعكس نصر إرادة الجماهير، عندما وضعت طلقات البنادق السوداء الكابية حداً للمشهد برمته، ويسقط على مرأى من لطيفة ومسمع أربعة عشر قتيلاً. تلفتت الصبية المذعورة تبحث عن مجير ولا مجير. ولولا كراهتها فى البكاء ضعفاً لبكت. فاق غدر الرصاص كل توقع. واختلط الدم المسال بطين الأرض فى شارع العباسى. ومن يومها تفتح وعى الصبية ، وكبرت قبل الأوان اختارت الصف الذى تقف فيه فى الصراع بين الاحتلال والناس، وتمنت لو تقول لا لكل مظالم الدنيا، وأهم منها ألا تفقد هذه القدرة بفعل منصب أو مال أو عمر.

بقدر ما تلقى حادثة شارع العباسى الضوء على بعض ملامح التحدى فى شخصية لطيفة الزيات فإنها تعوزنا إلى مزيد من استيضاح بعض ملابسات ارتباطها بزوجيها الأول والثانى. قيل فى تفسير انفصالها عن زوجها الأول المناضل الشيوعى العتيد إنه رفض طلبها الاعتذار إلى الملك للإفراج عنه. وقيل فى تحليل التاريخ السياسى لزوجها الثانى الكاتب المسرحى الشهير إنه بدأ متعاوناً مع المخابرات الإنجليزية قبل الثورة وانتهى مروجاً لفكرة الصلح مع إسرائيل. الأمران يتناقضان مع النفس النضالى الذى يلفح قارىء سيرة لطيفة، وإصرارها على قولة لا فى وجه كل ظالم، وانخراطها فى العمل السرى ضد الاحتلال وتأسيسها لجنة الدفاع عن الثقافة القومية لمقاومة التطبيع. هل يقهر حب المرأة التزامها السياسى؟.. تقدم زيجة لطيفة الثانية نصف إجابة على السؤال، ففيها تعاملت الأنثى مع الرجل الذى لفتها إلى أنوثتها فتأنقت وتألقت وتاهت، أما زيجتها الأولى فلا، فقد حملت معنى الاقتران السياسى أكثر منه العاطفى، وهذا ينقلنا إلى المحطة التالية فى حياتها.

من بيت لبيت فى القاهرة

فى القاهرة التى انتقلت إليها أسرة لطيفة من أسيوط بعد وفاة الأب، اقتربت من الحياة السياسية أكثر فأكثر، ما أصخب حياة القاهرة: صبحها ومساؤها. وعندما التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية ألقت بنفسها بالكامل فى أتون السياسة. دخلت لطيفة جامعة فؤاد الأول فى عام ١٩٤٢ على استحياء . كانت تستحى لأن تعليم المرأة كان الاستثناء، وهى لم تكن تعبأ بأن تكسر القاعدة، لكنها كانت تكره أن تُعامل كأنثى، وهذا سلوك يلازمنا نحن النساء، لا نتبرأ من أنوثتنا ولا نحب أن نعرف بها. كانت ترفض أن يحمل عنها زميل كتابها، أو يخلى لها آخر مقعده. لكنها ربما لم تعد تجد فى ذلك غضاضة فيما بعد، أو حتى ربما سألت هذا الزميل أو ذلك أن يسديها خدمة من نوع حمل الكتاب أو ترك المقعد، فقد أثبتت نفسها أولاً كمناضلة. تحكى لطيفة كيف كانت تلقى الخطب الرنانة هنا وهناك ، وتنظم الاجتماعات، وتقود المظاهرات، وتتصدى لرفض الإخوان المسلمين الدور السياسى للمرأة، وتجادل الزميل الوفدى

بعد الزميل لتجذبه إلى قلب الحركة الوطنية، وتخوض الانتخابات الحرة وتكون أول امرأة تدخل السكرتارية العامة للجنة الوطنية للطلبة والعمال.

فى هذا المناخ السياسى الثورى تفتحت مشاعرها، ربما الأدق تفتح عقلها لزميلها فى الحركة الشيوعية، وتقول لطيفة تعليقاً على ذلك اختارت الزواج من هذا الزميل بالتحديد كى لا يحرفها عن العمل السياسى الذى آمنت بضرورته، وقتها كانت تنظر إلى الزينة والحلى والمساحيق كمظهر للترف البورجوازى للسخرية، وذلك قبل أن تتورط حتى أذنيها فى هذا اللون من ألوان الترف مع زوجها الثانى، ولعل القارىء «لرواية الباب المفتوح» التى نشرتها لطيفة فى عام ١٩٦٠ يلمس هذه الروح الإنسانية فى حياتها ولكن بالعكس أو بالمقلوب. فليلى بطلة الباب المفتوح افتتنت بأستاذها الجامعى قبل أن يصدمها بازدواجية الرجل الشرقى ما بين أفكار يلوكها وقيم تحركه، عندها تقرر أن تغير مسارها فتذهب إلى صديق الأخ ذلك المناضل فى الحركة الوطنية لتبدأ معه حياة غير الحياة. أما لطيفة بطلة «حملة تفتيش» فإنها بدأت من حيث انتهت ليلى، لم تكن التجربة قد أنضجتها بعد، لكنها أسدت إلى ليلى بعض خبراتها وإرادتها أنفذ منها بصيرة، ولو على ورق . حمتها من تلك اللحظة القاسية التى عاشتها فى أحد أيام يونيو ١٩٦٥ عندما استدار لها زوجها الثانى ليواجهها من فوق مقعده المتحرك ليلقى إليها بجملته الصدمة: ولكنى صنعتك. كان يحاول أن يثنيها عن الطلاق والمأذون فى الغرفة المجاورة يرتب أوراقه. ذكية هى ليلى، لم تقطع الطريق إلى آخرها، نبهها الضوء الأحمر الذى أضاءته لها لطيفة قبل تعانق عقربى الساعة، لم تسمح لأحد أن يدعى أنه صنعها، حتى وإن كان حقاً قد فعل.

كقارئة أيضاً فتشت فى أوراق الزوج الثانى، وأوراقه المنشورة كثيرة. بحثت عن صورة المرأة فى أدبه فى الفترة نفسها التى ارتبط فيها بلطيفة (١٩٥٢ - ١٩٦٥)، وبدت لى مسرحيته الشهيرة «الفراشة» عملاً أكثر من دال. سميحة الفراشة هى النموذج النقيض للطيفة، شخصية محبة لذاتها إلى حد العبادة، لا تعبأ بأحد ولا تكترث بغير نزواتها، تافهة كأشد ما تكون التفاهة، كارهة للأدب، جامعة للمال، تفسد حياة رمزى زوجها فيعتزل الكتابة ويفشل فى دنيا الأعمال ويخرج من الدنيا كلها برصاصة تستقر فى رأسه. المسرحية كتبت عام ١٩٥٨، تقريباً فى نقطة وسط بين بداية علاقة الكاتب بلطيفة ونهايتها معه. والتناقش بين الشخصيتين أوضح من أن يشرح. والمدهش أن الزوجة الفراشة هى التى تحرف زوجها عن مساره وليس العكس، فهل هو نوع من الإسقاط غير الواعى؟ أم أن لطيفة كان مقدراً لها أن تلعب فى الحياة الدور الذى لعبه رمزى فى المسرحية فتموت إنسانياً وليس سريرياً بالضرورة؟

بيت سيدى بشر الخشبى

كان هذا البيت الذى ألقى فيه القبض على لطيفة وزوجها الأول بعد حرب فلسطين وتطبيق الأحكام العرفية. كان التهاب المشاعر الوطنية المصرية وسريانها ببطء لكن بقوة فى الجسد العربى سببا فى استئساد السلطة على المعارضة بأطيافها المختلفة، ولاشك أن حب لطيفة لهذا البيت كان أقوى من ذكريات السجن التى ارتبطت بمغادرتها له، ولذلك فإنك عندما تصل إلى هذا الجزء فى «حملة

تفـتـيش» لاتملك إلا أن تسـتنشق عبـيـر شـجـرة المشـمش التى تنغـرس فى حـديقة المنزل تحـفـهـا صـحـراء سَيدى بشـر التى مـاعـادت صـحـراء. تتغنى لطيـفـة كـثـيـرا بخشونة شجرة المشمش وزهرها الأبيض لا حد لرهـفاته ولا لنضـارته وإن كان عمره قصـيرا. ومن قبلها تغنت إنجى أفلاطون بتلك الشجرة العجوز تتوسط حوش سجن القناطر ورسمت لها ست عشرة لوحة طيلة سنوات سجنها الخمس (١٩٥٩ - ١٩٦٤) جزء من الحياة البوهيمية للكاتب، قدرته على التـواصل مع مـا ومن تنقطع به صلة غيره. وقد تأثرت لطيفة بشـجـرة المشمش إلى حد أنها جعلتها عنوانا لرواية لها فى عـام ١٩٦٢، اسـتلهـمت من نعـومـة زهر المشمش، الذى ينبثق من وعورة الأغصان الخشبية، فكرة الصراع الدائر بين إرادة الإنسـان وقـوة الحـيـاة، وأسـقطتـهـا على اصرارها وزوجـها الأول على المقاومة رغم المطاردة والحـبس والسـجن والقـهـر. ثم قررت أن تغير اسم روايتها إلى «الرحلة». انفصلت لطيفة عن زوجها فى عام ١٩٤٩، ولم تكتـمل أحـداث روايتـهـا التى بدأتهـا بعدها بأعوام ثلاثة.

تجربة الحياة داخل السجن

عندمـا بلغت هذا الحد من اسـتدعـاء سيرة لطيفة اكتشفت أننى لم أكتب إلا عن بيـوت: فى دمـيـاط، فى المنصـورة، فى القـاهرة، فى الاسكندرية، ولعله بدا لى أن حياة موحية بعدم استقرارها اللافت، أو أن صـاحـبتنا كانت شـديدة الارتباط بكل مكان انتقلت إليه وعـاشت فـيه، وإن كـان مدهشـا قولها إنهـا لم تشـعـر بـالغـربة عن مكان ولاشـعـرتهـا فى مكان. حنين ربما لكن لاغربة، وعلى أية حـال فإن هذا النهج فى الحكى قـد أسـقط تفـاصـيل لاترتبط بالضـرورة بـهـذا البـيت أو ذاك. والأدق القـول إن انعكاس البـيت عليـهـا كـان هامشيا، تحركت لطيفة خارج حدود المكان بل والزمـان أيضـا عندمـا ألقت أمـهـا فى وجهها خبر وفاة عبدالناصر، وهى تسحب منديلا بعد منديل تجفف به دموعها، لم تبك هى رغم بكاء من معها فى البيت، لم تبك فى لحظتهـا، لكن عندما وقـفت ترقب مشـهـد الجنازة الحزين احتبس صوتها وهى تقـول: ليس من حق فـرد أيا كـان آن ييتم شـعـبا، وبكت كثيرا وطويلا، ولم يكن المكان حـاضـرا إلا بالاسم فـقـط، فى اجتماعها ضمن خمسين كاتبا فى لجنة القـصـة بالمجلس الأعلى للآداب، وقـتـهـا انصـرف اهتـمـامـهـا إلى ترويج توفـيق الحكيم لفكرة الصلح مع إسـرائيل، واستشهاده بصلح الحديبية ليخلص إلى أن جـمـال عـبدالنـاصـر ليس خـيـرا من رسـول الله صلى الله عليه وسلم. وأحست بالإهانة عندما استرجعت قوله إن الرسول قبل الصلح على وطأته فوقع باسم محمد بن عـبدالله وليس مـحـمـدا رسـول الله. أهانـهـا الحكيم عندمـا تحـايل على أمـيـة النبى التى هى معجزته، لم تحب لطيفة من يستخف بذكائها.

ليست كل حملة التفتيش على لطيفة وإن كانت البيوت من أهم معالمها، والمؤكد أن الحديث عن تجربة سجن الحضرة فى عام ١٩٤٩ وتجربة سجن القناطر الخيرية فى عام ١٩٨١ سوف تسلمنا مـجددا إلى حديث يلعب فيه المكان دورا رئيسيا بين السـجنين خطوط اتصـال لأن البطلة هى هى. وانـفـصـال لأن الناس غـيـر الناس والظروف غير الظروف، ألقى القبض على لطيـفـة وعلى زوجـهـا فى أحـد أيام شـهـر مـارس ١٩٤٩، قـضـت ليلتـهـا الأولى فى مبنى مـحافظ الاسكندرية تأهبا للتحـقيق معـهـا فى اليوم التـالى، .انقبض صـدرهـا

وهى تمثل للتحقيق فى حضرة وكيل نيابة يغازلها بسؤال: مالها ومال السياسة وهى الحلوة؟ وضابطان أحدهما قاسى الملامح طويل القامة يتشفى فيها ويتلذذ بسماع أنات المثقفين «خريجى الجامعات» هل ينبغى أن نندهش حين نعلم أن هذا الضابط صار فيما بعد رئيسا لوزراء مصر أثناء حكم السادات؟ لكن كما التقت لطيفة فى محبسها الذى دام لشهور ثلاثة بمناذج غير سوية من البشر فإنها التقت بنماذج أخرى خيرة، وهكذا دائما ثنائية الخير والشر التى تفتحت عليها عيناها منذ زمن بعيد، كان هناك الجندى الريفى الشهم الذى استهجن سجن امرأة، وربت على كتفها فى مبنى محافظة الاسكندرية دون سابق معرفة، وحمل إليها ثلاثة أقراص طعمية ساخنة ورغيف بلدى طازج وكوب ماء مثلج، وكانت هناك سجانتها الطيبة علية التى هونت عليها قسوة أيامها، حتى إذا ما أخذ لطيفة الحنين إلى علية بعد إطلاق سراحها، حجت إلى سجن الحضرة، فهل حج سجين سابق إلى محبسه؟ وكانت هناك زميلتها التى أعانتها واستعانت بها، وصارتا وحدة لاتتجزأ وتشاركتا معا مرارا فى الغناء بالفرنسية «غدا يزدهر الربيع» كلما اسودت الدنيا فى عيونهما.

تكررت تجربة سجن لطيفة عند القبض عليها فى أحد أيام شهر سبتمبر ١٩٨١، دخلت سجن القناطر الخيرية ودخل أخوها سجن طرة، وكأنه قدر لها ألا تخوض أبدا تجربة السجن وحيدة، فقبل مايزيد على ثلاثين عاما خاضتها مع زوجها، فى الأربعينيات اتهمت بالانضمام إلى تنظيم شيوعى يسعى لقلب نظام الحكم، وفى الثمانينات كانت تهمتها نشاطها فى إطار لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، وليس ثمة فارق فى الهدف وإن اختلف السياق، لم تكن حارستها هى علية بل كان سجانتها امرأة شوهاء العينين مسموحة الصدر والأرادف، ذكرتها على الفور بالأختين ريا وسكينة، دائما ريا وسكينة، لكن بعض ملامح شخصية جندى المحافظة الطيب تبينتها فى الجندى المنتصب أمام سجن القناطر حين سألها عن عملها وأجابت باقتضاب أستاذة جامعية، فاندهش مرددا «ياخبر أسود» ولاشك أن لطيفة قارنت ولو فى اللاوعى بين تشفى رئيس وزراء مصر السابق فى الثقافة والمثقفين، وانتفاض الجندى البسيط لأنه مضطر لاقتياد أستاذه فى الجامعة إلى السجن، ولاشك أيضا أن وحشة لطيفة فى سجنها الأخير كانت أقل، وهى تنحشر فى عنبر واحد مع زميلات لها وصديقات، وتشعر بأبخرة الغضب تتجمع فى كل الصدور متجاوزة حدود الحساسية السياسية تجاه هذا التيار أو ذاك، تهيىء خشبة المسرح لأحداث نهار السادس من أكتوبر ١٩٨١.

رفاهية هى أن تقرأ عن السجن من خارجه، تحلل وتنقد وتنظر إلى مخاليق الله داخله نظرة طائر، ولكن عند نقطة معينة قد تختلط عليك الحدود فإذا أنت تكتب عن الداخل من الداخل، وإن كنت حينها فى مكان غير المكان، ولعلك تسحب أقرب مرآه تبثها أنفاسك لتثبت أنك هنا لا هناك، وفى كل الأحوال فإن انعدام اليقين المكانى يعنى أنك لم تخرج من التجربة دون رذاذ.. وللحديث بقية.

إسكندرية نجيب محفوظ

بقلم

د. صلاح خليل

على الرغم من أن القاهرة وحاراتها وأزقتها وأحياؤها الشعبية كانت البيئة الأساسية التى اتخذها نجيب محفوظ مسرحا لمعظم أعماله الإبداعية، إلا أن نجيب محفوظ - بما هو معروف عنه من إخلاصه لبيئته وصدقه فى التعبير عنها إلى جانب حساسيته المرهفة للزمن وتأثيراته الاجتماعية وولعه بالتاريخ والسياسة وقدرته الفائقة علي المزج بينهما لم يكن ليغفل الأسكندرية - مدينة التاريخ - ويسقطها من انتاجه الأدبى وربما قد غاب عن الكثيرين اهتمام نجيب محفوظ بالأسكندرية بل وحبه لهذه المدينة (انظر حواراته مع الأستاذ رجاء النقاش)(١). وقد ظهرت المدينة بوضوح شديد فى رائعته: السمان والخريف (١٩٦٢) وميرامار (١٩٦٧) والقارئ لهاتين الروايتين يستطيع أن يدرك بسهولة كم كان نجيب محفوظ مغرماً بهذه المدينة بل وكم هام بها عشقا.

* (١) رجاء النقاش: نجيب محفوظ [illegible] مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته ص [illegible]

والقراءة المتأنية لروايتي السمان والخريف وميرامار واختيار الكاتب الكبير للحقبة الزمنية لأحداث هاتين الروايتين بالذات ، تظهر بوضوح أن نجيب محفوظ قد وعى جيداً تاريخ الأسكندرية واستوعب تماماً كعادته. ملامح التغيير التى حدثت لهذه المدينة من أهم فترات التحول بها، وقد تناول نجيب محفوظ هذه التغيرات من خلال أحداث الروايتين بحرفية فنية وأسلوب أدبي شديد الارتقاء ارتفع إلى مستوى الشعر فى بعض أجزائه.

وقد ظهرت الأسكندرية بشوارعها وسموات خريفها وشتائها الملبدة بالغيوم ورائحة البحر أيضاً فى رواية الطريق (١٩٦٤) ولكن بشكل مختلف عن ظهورها فى روايتي السمان والخريف وميرامار فبطل الرواية السكندرى الذى هجر موطنه إلى القاهرة باحثاً عن أبيه لم يستطع أن يتخلص من ذكرياته وسيطر ماضيه على حاضره الجديد فى القاهرة، فنجده يستحضر ماضيه فى الاسكندرية ويكاد يعايشه خلال الرواية.

والهدف من هذا المقال هو تسجيل اهتمام نجيب محفوظ بمدينة الاسكندرية فى انتاجه الأدبى وابراز ملامح رؤيته لها وكيفية ظهورها فى الانتاج.

تعتبر الأسكندرية - تلك المدينة ذات العبق الثقافى والحضارى الشديد الخصوصية والتميز والضارب فى عمق التاريخ من أهم مدن مصر وأقدمها، وقد ظلت عاصمة لمصر لفترة طويلة من الزمن فقد بناها الأسكندر الأكبر وأصبحت - ولفترات طويلة - من أهم المراكز الثقافية والتجارية فى العالم القديم حيث ضمت اثنتين من عجائب الدنيا السبع وقد لعبت جامعة الأسكندرية القديمة وعلماؤها آنذاك دوراً رئيسياً فى الاضافة إلى التراث الحضارى الانسانى . وقد تراجعت أهمية الاسكندرية بعد الفتح العربى لمصر حتى أعاد لها محمد على - مؤسس مصر الحديثة - وعائلته بعضاً من أمجادها القديمة مع بداية القرن التاسع عشر وكان نتيجة لنزوح الأجانب إلى هذه المدينة واختلاطهم بسكانها وترسب الحضارات بها أن اكتسبت طابعاً شديد التنوع والخصوصية فى

شادية ويوسف شعبان فى « ميرامار »

نفس الوقت وصار لها أريجاً ثقافياً وحضاريا فريداً.

وقد كانت الاسكندرية مصدر وحى للعديد من الكتاب والفنانين والمبدعين - مصريين وأجانب - ولا تذكر الأسكندرية والأدب إلا ويذكر - على سبيل المثال - الكاتب البريطانى لورانس دوريل ورباعية الأسكندرية الشهيرة والشاعر السكندرى اليونانى - كفافى - المعروف بشاعر الأسكندرية (فى العصر الحديث) وغيرهم.

وصل شغف نجيب محفوظ بالمدينة حدا يصل إلى مناجاة المدينة على لسان أبطال رواياته ومخاطبتها بأسلوب يصل إلى حد المناجاة والغزل الرقيق - ولنتأمل كيف يناجى - عامر وجدى - أحد أبطال ميرامار - المدينة:

«الأسكندرية أخيراً .. قطر الندى .. نفثة السحاب البيضاء .. مهبط الشعاع المغسول بماء السماء وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع. » ميرامار ص ٧.

ثم على لسان عيسى الدباغ بطل السمان والخريف:

« .. ونظر إلى السماء المتوارية وراء ظلمات السحب وقال أن الخريف فى الاسكندرية روح من أرواح الجنة وهو مغسل لجميع الأحزان...» السمان والخريف ص ١٦٨.

ويصف نجيب محفوظ مشاعر صابر سيد سيد الرحيمى - بطل الطريق - وهو يغادر الاسكندرية ويودعها:

«وتعلق بصره بالمدينة والقطار يرج الأرض

مبتعداً . رآها مدينة الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب، وهواء بارد معبق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية . ودعها هى وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة».

الطريق ص . ٢٢.

تأمل اختيار نجيب محفوظ للكلمات والتعبيرات التى تصف احساسات بطل الرواية نحو مدينته:

تعلق بصره ....؛ ودعها هي وأمه وذكريات .....، ثم كيف يصف شوارع المدينة، ويبدو أن الخريف والشتاء من أهم مصادر سحر المدينة عن نجيب محفوظ كما سنرى . أن نجيب محفوظ يناجى الاسكندرية – على لسان أبطال رواياته بأسلوب يفيض عذوبة ورقة ويكاد يرتقى الأسلوب إلى مستوى الشعر الرفيع لفرط رقته.

الأسكندرية الأماكن

وقد احتلت بعض أماكن الاسكندرية الشهيرة جزءا هاماً من حفاوة الكاتب بالمدينة، ويصف الكاتب مشاعر عيسى الدباغ – الشخصية المحورية فى السمان والخريف – نحو شارع سعد زغلول بالاسكندرية فيقول:

«وسار على مهل فى شارع سعد زغلول – أحب شوارع الاسكندرية إلى نفسه – وبخاصة بعد الثورة – أنه شارعه الخاص على وجه ما – ويحب كثيراً أن يقطعه ولو مرة كل يوم – جيئة وذهاباً ليناجي فيض الذكريات». السمان والخريف .. ص ٨٥.

وكاتبنا هنا لا يخفي شغفه بالسياسة – والتى تكمن دائماً وراء أحداث الرواية بل وفى طياتها وعلى لسان أبطالها، وهو هنا لا ينسى أنه – شخصياً – كان وفديا أحب سعد زغلول وآمن به زعيماً للأمة وكذلك كان عيسى الدباغ بطل الرواية ، وهو كأنه يعبر هنا عن الحنين إلى الماضى (النوستالجيا) التى كان بطل الرواية يشاركه فيها، بل وعن تحديه للثورة – آنذاك – بقوله «وبخاصة بعد الثورة».

ثم يقول عن ميدان محطة الرمل فى نفس الرواية:

«وأحب ميدان الرمل .. فهو مسرح دائم لحاملات الأناقة والشعور الذهبية الملفعات برائحة المطر، وهنا [illegible] انطلقت أسراب الحسن تبهج الخاطر وتسكر اللب وتعزف بسيقانها أعذب الألحان». السمان والخريف ص١٠١.

وقد اختتم نجيب محفوظ رواية السمان والخريف بحوار رائع – ورد به ذكر ميدان وتمثال سعد زغلول – بين عيسى الدباغ وشاب غامض – شهد عيسى إجراءات التحقيق معه بصفته الرسمية والحزبية – عندما كان عيسى ذا سلطة وحيثية قبل الثورة – وربما كان هذا الشاب رمزاً للتغيير للمستقبل أيضاً فى حياة بطل الرواية ، ولم يخل الحوار من رموز سياسية كالعادة – عن اعتقال السلطات – قبل الثورة وبعدها للأحرار من ابناء الشعب، وعن ضرورة التغيير والتخلص من رموز الماضى – حتى لو كان سعد زغلول نفسه . وقد قام الكاتب فى هذا الجزء من الرواية بتوظيف ميدان سعد زغلول وتمثاله والأحداث التي صاحبت هذا الحوار للتعبير عن أن بطل الرواية قد بدأ فعلاً فى التخلص من الماضي ورموزه التى كان يتمسك بها وتنفيذ خطة للمستقبل وقد فعل الكاتب ذلك ببراعة منقطعة النظير ولنتأمل معاً بعض أجزاء الحوار – حيث استخدم الكاتب «تمثال سعد زغلول» الذى يطل على كورنيش الاسكندرية بحرفية تعجز الكلمات عن وصفها .

« .... ثم جلس على أريكة تحت تمثال سعد زغلول..........».

«ولم يكن قد نجا بعد من ذكريات الشاب الناشية في مخيلته ... ولكنه صمم على أن يرسم للمستقبل.........».

ويقتحم الشاب جلسته ويبدأ الحوار .... ويقول له الشاب – من ضمن ماقال – :

– « .... أليس هذا بخير من الجلوس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول؟

ثم : « ...... أنت تود أن تجلس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول».

ويتركه الشاب بعد أن يئس من الحديث معه. وبعد منولوج داخلى، يقول عيسى لنفسه:

«أستطيع أن ألحق به على شرط ألا أضيع ثانية فى التردد». ثم

«وانتفض قائماً فى نشوة حماس مفاجئة ، ومضى فى طريق الشاب بخطى واسعة، تاركاً وراء ظهره مجلسه الغارق فى الوحدة

والظلام....». السمان والخريف : ص ١٧٥ - ١٧٨.

ولم تخل أيضاً رواية ميرامار من وصف لأماكن معينة فى المدينة على لسان أبطالها ، فيقول نجيب محفوظ على لسان عامر وجدى الصحفى القديم وأحد أبطال الرواية.

«ما أحلى أيام الدفء فى البالما واليجعة» . ميرامار ص ٢٣.

ثم على لسان نفس الراوي:

«زرت بحنان اثنيوس ويسترودس وأنطونيادس، جلست وقتا فى بهو وندسور وسيسيل، ملتقى الباشوات والساسة الأجانب فى الزمن القديم وخير محل لالتقاط الأخبار ومتابعة الأحداث، فلم أر الا قلة من الأجانب شرقيين وغربيين...» . ميرامار ص٢٤.

فالكاتب هنا، كلاعب الشطرنج الماهر الذى يسجل أكثر من هدف فى حركة واحدة؛ أو كمن يضرب أكثر من عصفور بحجر واحد؛ فهو يسجل - فى سطور قليلة وبتعبيرات شديدة التركيز - التنوع الحضارى للمدينة (تأمل أسماء الأماكن والفنادق هنا)، ثم يسجل هنا أيضاً - وبلغة رمزية لاتكاد تخفى الحقائق - التطور السياسى فى البلاد، من انحسار الأجانب واختفاء الباشوات ، ثم يسجل مرة ثالثة - ذلك الحنين إلى الماضى القريب- (لاحظ عبارة : فى الزمن القديم) وربما أيضاً يعبر بذلك عن موقفه السياسى من الحاضر - الثورة ، ثم ألا نلمح هنا رؤية مستقبلية أو نبوءة - أثبتت الأيام صدقها بعزلة سياسية قادمة للوطن ... لمصر؟ - ولقد تزامنت فعلاً هذه العزلة السياسية مع تطور ثورة ١٩٥٢ خصوصاً مع دول المعسكر الغربى وظهرت واضحة فى الستينيات من القرن الماضى؟ (لاحظ توقيت أحداث الرواية).

ثم ما هو المقصود من الحنان هنا؟ هل هو خليط من حنين وحب إلى المكان؟ أم هو حنين إلى المكان والزمان؟ أم هو حنين إلى المكان والزمان وكل ما ينطق بهما من سياسة وأحلام وبشر وزعامات؟ إن الكاتب العبقرى هنا يستخدم تعبيرات قليلة ولكنها مشحونة بحشد من المعانى والأفكار على مستويات مختلفة، ومرة أخرى تكمن السياسة وراء تعبيراته وكلماته مهما أغرق فى الرمز.

ثم يصف كازينو البالما - على ترعة المحمودية بالأسكندرية - فيقول على لسان عامر وجدى:

«...هاجرنا إلى أطراف الاسكندرية المزدحمة بالنبات والأزهار ، التى تنعم أيام الصحو بالدفء والسلام، فأوينا إلى ركن من الجنة عامر بالبركات...». ميرامار ص ٣٢.

شخصية الأسكندرية

وقد سجل نجيب محفوظ - وببراعة منقطعة النظر إحدى خصائص الاسكندرية فى ذلك الزمان - وربما عبر التاريخ أيضاً - ألا وهى ازدواجية شخصية المدينة أو فلنقول الطابع المتعدد الجنسيات لشخصية المدينة.

ويجىء وصف الفنان الكبير لهذه الصورة المتكاملة لوجود الأجانب بالمدينة واستوطانهم لها وإقامتهم بها من خلال نسيج رواياته ومسير أحداثها والحوارات التى تدور بين أبطالها. فها هو عيسى الدباغ - بطل السمان والخريف - يختار لسكناه بالأسكندرية شقة مفروشة لأسرة يونانية ليقيم فيها فى حى الابراهيمية - وهو من أحياء الاسكندرية المشهورة التى سكنها اليونانيون والأرمن والأجانب على وجه العموم - فى تلك الحقبة من الزمن - قبل هجرتهم من المدينة إلى أوروبا وأمريكا بعد ١٩٥٢ ووصلت هذه الهجرة إلى ذروتها بعد حرب ١٩٥٦.

«وجدران الحجرات محلاة بصورة الأسرة اليونانية صاحبة الشقة - وكلما نظرت إلى الخارج رأيت الوجوه اليونانية فى الشرفات والنوافذ وعلى قارعة الطريق ، غريباً فى موطن غرباء - وتلك مزية الابراهيمية، والمقهى المرصع طواره بالأشجار وسوق الخضار بألوانه النضرة والحوانيت الأنيقة التى تحفل بالوجوه اليونانية وتتردى فى جنباتها - بعد زوال الموسم - لغتهم الأجنبية» . السمان والخريف ص ٧٥.

والصورة التى رسمها نجيب محفوظ، من أصدق الصور التى يمكن تسجيلها عن أحد أشهر أحياء الأسكندرية التى سكنها اليونانيون والأرمن وغيرهم من مواطنى الأسكندرية من الأجانب خلال تلك الحقبة من الزمن. وربما لايدرك ذلك إلا من عاش بهذا الحى فى تلك الفترة، (وجدير بالذكر أن كاتب هذه السطور قد

عاش فى طفولته وشبابه فى هذا الحى الجميل، حى الابراهيمية. وعاصر هجرة مواطنى الاسكندرية من الأجانب منه).

ثم يأتى وصف نجيب محفوظ لإحدى الفترات الهامة فى تاريخ الاسكندرية، حين بدأ سكان المدينة من الأجانب هجرتهم منها فى أواخر الخمسينيات، لأسباب سياسية معروفة، وقد رصد الكاتب العظيم هذه الفترة بدقة عالم التاريخ والاجتماع المدقق وحس الفنان المرهف الذى لاتفوته الملامح الأساسية وربما حتى التفاصيل الدقيقة، وقد جاء وصفه لهذه الحقبة الهامة من تاريخ المدينة ديناميكيا متحركا مليئاً بالحيوية والتشويق ومتسما بالصدق والعمق. ومرة أخرى - يجىء هذا الوصف - بطريقة غير مباشرة - من خلال أحداث الروايات وعلى ألسنة أبطالها.

يقول نجيب محفوظ على لسان عامر وجدى - أحد أبطال ميرامار - وهو فى طريقه للإقامة فى «بنسيون» ميرامار الذى تملكه ماريانا العجوز السكندرية اليونانية الأصل.

«ماريانا ، عزيزتى ماريانا، أرجو أن تكونى بمعقلك التاريخى كالظن والمأمول.. «ميرامار ص٨.

ترى هل توحى هذه الكلمات بشىء؟ وهل جاءت «بعقلك التاريخى» إعتباطا؟

ثم دعونا نتأمل هذا الحوار بين ماريانا وعامر وجدى الصحفى العجوز السكندرى المولد:

يقول عامر وجدى مخاطباً ماريانا:

- «سلامتك ولكن أين أهلك؟

وهى تتنهد

- هاجر النساء والرجال.

ولوت بوزها المجعد ثم واصلت:

- قلت أين أذهب؟ لقد ولدت هنا، لم أر أثينا أبداً فى حياتى ثم أن «البنسيونات» الصغيرة لن تؤمم بأى حال.

- مصر وطنك والاسكندرية ليس مثلها شىء.................

- آه يا مسيو عامر، تقول أن الاسكندرية ليس كمثلها شىء، كلا لم تعد كما كانت على أيامنا، الزبالة ترى الآن فى طرقاتها!

قلت باشفاق:

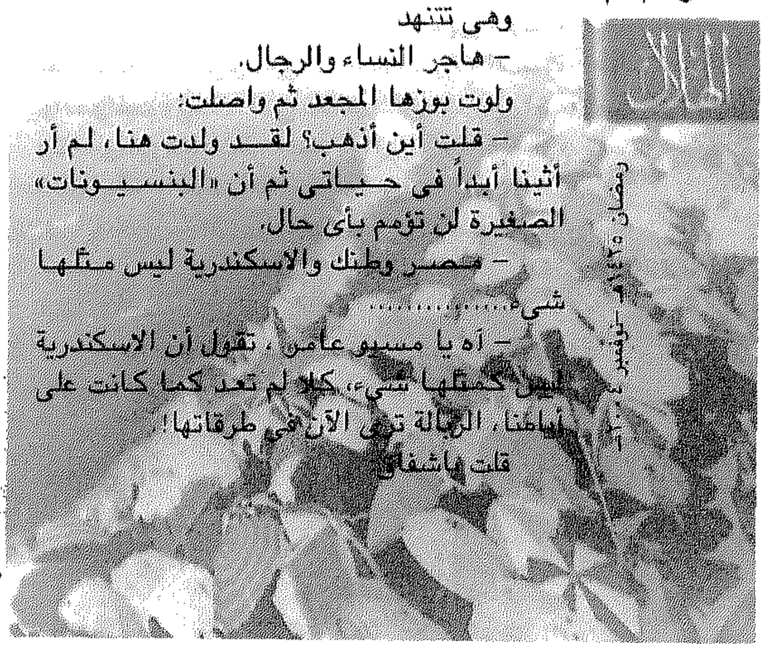

- عزيزتى ، كان لابد أن تعود إلى أهلها.

قالت بحدة:

- ولكننا نحن الذين خلقناها.

....

- مسيو عامر، قتلت الثورة الأولى زوجى الأول ، أما الثورة الثانية فجردتنى من مالى وأهلى ، لماذا؟» ميرامار ص ١٧و١٨.

ويبين الحوار السابق كيف سجل نجيب محفوظ فى حوار قصير مفعم بالواقعية والصدق، أحداث تلك الحقبة الهامة من تاريخ الاسكندرية والتى تزامنت أيضاً مع تطورات هامة جاءت بها ثورة ١٩٥٢ من تأميم للممتلكات الخاصة واتجاه واضح نحو الاشتراكية والحكم الشمولى مع محاولة طمس التارخ السابق للثورة والغاء الأحزاب ، ولن نستطرد هنا فى هذا الاتجاه وسوف نحاول بقدر الامكان فى هذه الدراسة التركيز فقط على كيف ظهرت الاسكندرية فى هاتين الروايتين، حيث أنه من المعروف أن الخط الروائى الأساسى لهاتين الروايتين هو سياسى بالدرجة الأولى وليس هذا موضوعنا هنا على أى حال.

ونعود إلى الاسكندرية وسكانها الأجانب، والذين كانوا قد استوطنوا المدينة وأقاموا بها المتاجر والبنوك والمدارس والنوادى والمستشفيات والمقاهى والملاهى والأسواق حتى إذا تجولت ببعض أحياءها يخيل إليك إنك فى أثينا أو حتى فى باريس، ثم جاءت ثورة ١٩٥٢ وحرب ١٩٥٦ وبدأوا فى النزوح منها فى هجرة عكسية إلى الغرب الذى جاءوا منه وإلى أمريكا وكندا واستراليا . ويلمس نجيب محفوظ شعور هؤلاء الأجانب بالانتماء إلى هذه المدينة بل بامتلاكها أيضاً. ومرة أخرى، نجد نجيب محفوظ لايستطيع فكاكاً من إلحاح السياسة الذى يسيطر عليه، فيغمز هنا ويلمز هناك عن التأميم وطرد الثورة للأجانب بل ويشير من بعيد لثورة ١٩١٩ والتى يكن لها إعزازا كبيراً. ولا ينسى نجيب محفوظ تسجيل كيف كان ينظر الأجانب من مستوطنى المدينة إلى ما حدث فيها من سلبيات نتيجة عودة المدينة إلى أهلها.

ومما هو جدير بالذكر أن تلك الأحداث التاريخية التى مرت بها المدينة قد تناولها روائيون آخرون، ولكن بأساليب مختلفة - تعتمد

بطبيعة الحال – على أسلوب الروائى وخلفيته الثقافية ووجهة نظره، وقد جاء وصف بعض هؤلاء الأدباء لهذه الأحداث بأسلوب تقريرى وأحياناً اخبارى واستغرق العديد من الصفحات ، بينما برع نجيب محفوظ فى تسجيل صورة حية للأحداث – بأبعادها المختلفة وبجميع ألوانها بأسلوب أدبى مرتفع من خلال النسيج الرقيق لروايته وعلى لسان أبطال هذه الروايات.

الإسكندرية : البحر - الخريف - الشتاء

يمثل البحر وجو الاسكندرية فى الخريف ونواتها فى الشتاء جزءا هامامن الصورة المتعددة الأبعاد التى يرسمها نجيب محفوظ للمدينة الساحلية العريقة ، وقد استخدم نجيب محفوظ فى وصف جو الاسكندرية عبارات رشيقة قوية لاتخلو من شاعرية وأسلوبا عذبا فريداً لم يسبقه اليه أحد، ويكاد جو اسكندرية نجيب محفوظ فى الخريف والشتاء يشارك أبطال رواياته إحاسيسهم بل وأدوارهم.

«ها هو البحر يترامى فى عظمة كونية حتى يغوص فى الأفق ولكنه يستمد من حلم أكتوبر حكمة ودماثة...». السمان الخريف ص٧٠.

«وفتح باب الشرفة فتدفق هواء قوى ولكنه لطيف مشبع برائحة البحر ودفء الشمس الساطعة فى كبد السماء . وراح يرنو إلى البحر الذى دبت فيه حركة مليئة بالاندفاع وانتشرت على سطحها خطوط الرغاوى كأفواه ضاحكة....» . السمان والخريف ص٨٨.

«ولم يعد يدهش لأيام الشتاء العاصفة حين يغلق البوغاز وتتطاير أمواج الغضب من البحر الغاضب فتجتاح الكورنيش وتكفهر السحب كقطع الليل، ويشتط البرق كالصواريخ وتنهل الأمطار ككائنات هاربة من غضب السماء». السمان والخريف ص٩٦.

«وها هو الجو يكفهر وتبتلع قوة الضياء وتتكدس السحب فيلوح الآدميون الملون كالأطياف . ياسكندرية الشتاء المتقلبة كامرأة – وهب الهواء عنيفاً كأنباء السوء فحبكت الأيدى البضة المتعاطف وأغلق باعة الصحف معارضهم وأمسى الاحتماء بزجاج «على كيفك»(٢) واحتساء الشاى الساخن نعمة النعم. وجعجع الرعد فشرد القلب وهطل المطر بقوة ورشاقة حتى وثق مابين السماء والأرض بأسلاك مكهربة وخلا الميدان وتكتل البشر تحت مظلات الأسمنت فبعث منظر تلاصقهم الدفء فارتاحت نفسه وطابت» . السمان والخريف ص١٠٢

نادية لطفى ومحمود مرسى فى «السمان والخريف

ويواصل الكاتب استكمال لوحاته الحية التى يرسمها بمهارة لجو الاسكندرية فى الخريف والشتاء فى رواية ميرامار فيقول على لسان عامر وجدى:

«وإنى لأعرفك ياسكندرية الشتاء، تخلين ميادينك وشوارعك مع المغيب فيمرح فيها الهواء والمطر والوحشة، وتعمر حجراتك بالمناجاة والسمر» ميرامار ص١٤.

«دنا الخريف من نهايته ولكن جو الاسكندرية يسير على هواه وقد أنعمت بركاته علينا بصباح مضىء دافى فابتهج ميدان الرمل تحت أشعة الشمس الهابطة من سماء صافية الزرقة». ميرامار ص ٧٢.

«غادرت البنسيون عقب أيام حبست فيها داخله لشدة البرد وثورة الرياح وانهلال المطر. كانت أياما فظيعة فانطوينا على أنفسنا فى الحجرات ولم يكف الجو عن مهاجمتنا فى قواقعنا، لطمت المياه النوافذ وزلزلت الجدران بصواعق الرعد وومض البرق كالنذر وصرخت الرياح كعزيف الجان . ولما غادرت البنسيون استقبلنى الوجه الآخر للإسكندرية، الذى انزاح غضبه وثاب إلى وداعته – تلقيت الشعاع الذهبى المضول بامتنان، نظرت إلى الأمواج التى تتتابع فى جراءة، على حين نقشت السماء بسحاب صغيرة متهافتة كالأنفاس المترددة». ميرامار

* (٢) أحد المقاهى الشهيرة بميدان محطة الرمل بالإسكندرية فى ذلك الوقت .

ص ٧٩.

ثم يبدو الجو وكأنه يشارك أبطال الرواية مشاعرهم – تأمل قول منصور باهى – أحد أبطال ميرامار مناجيا نفسه فى منولوج داخلى:

«الريح تسفح النوافذ بوابل المطر.... هدير الأمواج يقتحم أعماقى ....» ميرامار ص ١٨٢.

ثم : «عايشت العاصفة من وراء الزجاج. حتى نعمت بالصفاء . شيء حدثنى بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة فى قلبى .. وتخط طريقاً مازال غامض الهدف .. أو تضرب موعداً فى غمضة لم تفهم بعد» ميرامار ص ١٨٩.

ويبدو أن جو الاسكندرية يلح على الكاتب ، فيتحفنا بلوحة أخرى على لسان منصور باهى، وتجيء هذه المرة بأسلوب مباشر:

«يعجبنى جو الإسكندرية .. لافى صفاته واشعاعاته الذهبية الدافئة .. ولكن فى غضباته الموسمية .. عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم .. ويمتلء رواق السماء بلحظة صمت مريب .. ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفرا غ كنذير .. عند ذلك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل .. وتتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون .. ويدوى عزيفها فى الآفاق .. ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق .. ويجعجع الرعد حاملاً نشوات فاترة من عالم مجهول .. وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب .. وينهل المطر فى هوس فيضم الأرض والسماء فى عناق ندى .. عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد .. وعند ذاك فقط يجلو الصفاء ويطيب .. اذ انقشعت الظلمات وأسفرت عن وجه مغسول .. وخضرة يانعة، وطرقات متألقة ونسائم نقية .. وشعاع دافيء، وصحوة ناعمة .. «ميرامار ص١٨٩.

ألا تتفق معى أيها القارىء أن التعبيرات التى استخدمها نجيب محفوظ فى وصف العواصف والأمطار فى الخريف والشتاء بالإسكندرية ونوائها الشهيرة بصور جديدة بإيحاءات فنية غير مسبوقة كما أنها فى نفس الوقت تنقل جو المدينة حياً ينبض ويكاد ينطق بالصوت والصورة معاً؟ ألا يلعب قلم الكاتب هنا دور المصور السينمائى الماهر فى تسجيل لقطات تموج بالحياة والحركة؟

الإسكندرية فى رواية الطريق

ظهرت الإسكندرية فى رواية الطريق بشكل مختلف عن ظهورها فى كل من السمان والخريف وميرامار؛ فقد بدات رواية الطريق فى الإسكندرية ثم أكتملت أحداثها فى القاهرة، وكان بطلها صابر سيد سيد الرحيمى «اسكندرانيا» ترك مدينته ليبحث عن أبيه فى القاهرة، وعلى الرغم من أن معظم أحداث الرواية قد جرت فى القاهرة؛ فقد لعبت الإسكندرية وذكرياتها عند بطل الرواية دوراً فريداً فى خلفيتها ، فنجد رائحة البحر ولفحات هواء الخريف فى الإسكندرية تنبعث من هنا وتهب من هناك فى هذه الرواية، وكادت الإسكندرية وذكرياتها تشارك بطل الرواية غربته القاهرة تمنذ لحظة مغادرته للمدينة وحتى اتهامه بالقتل ودخوله السجن.

ويرجع ظهور الإسكندرية بهذه الكثافة فى الرواية على الرغم من أن أهم أحداثها دارت فى القاهرة أن بطل الرواية لم يستطع أن يتخلص من ذكرياته «السكندرية» وسيطر ماضيه فى الاسكندرية على حاضره الجديد فى القاهرة فى كل كبيرة وصغيرة ، فهو يستحضر هذا الماضى ويكاد يعايشه خلال الرواية، فى منامه ويقظته، فى لهوه وجده، فى مغامراته العاطفية ، وحتى اثناء ارتكابه لجريمته.

وتجدر الاشارة أيضاً أن هذه الرواية احتوت على العديد من العناصر المشتركة التى اهتم بها الكاتب فى كل من السمان والخريف وميرامار لابراز ملامح المدينة كما يراها، فقد ورد بالرواية ذكر العديد من الأماكن المهمة بالمدينة مثل شارع النبى دانيال وسعد زغلول والكورنيش، كما لمس ولو من بعيد شخصية المدينة المتعددة الجنسيات ولم يغفل الاشارة إلى خريف الإسكندرية وشتائها ورعدها وبرقها أيضاً.

«وفى طريقه إلى مسكنه بشارع النبى دانيال لقحه هواء منعش معبق بأنفاس الخريف وبدت السماء غامضة فى مولد المغيب «........» .... مسكن النبى دانيال الذى شهد فترة بهيجة ناعمة فى حياته.......» . الطريق ص٦.

ثم ..

«وجلس فى شرفة تطل على ملتقى النبى دانيال بسعد زغلول يدخن سيجارة فجذب بصره استعداد قائم فى شقة على الجانب الآخر من الطريق تسكنها أسرة أفرنجية ....» الطريق ص ٦.

ويعتبر شارع النبى دانيال من المعالم المهمة لمدينة الإسكندرية ويبقى هذا الشارع شاهداً على شخصية الإسكندرية المتعددة الجنسيات والأديان أيضاً بما يحتويه من المبانى ذات الطرز المعمارية المختلفة ودور العبادة لمختلف الأديان. والجدير بالذكر أن هذا الشارع أيضاً ورد فى رباعية الإسكندرية المشهورة للورانس دوريل. كذلك فقد ورد ذكر أحياء أخرى من الإسكندرية كالمنشية والأنفوشى فى أماكن متفرقة من الرواية.

«والمنشية كانت معبداً لأمة طيلة ربع قرن من الزمان»الطريق ص١٨.

ويربط صابر سيد سيد الرحيمى بين الزوجة اللعوب لصاحب الفندق القاهرى - بذكرياته مع فتاة كان قد التقى بها فى الإسكندرية منذ عقد من الزمان أو يزيد ، ويبدو وكأنه يريد التواصل مع مدينته واقحامها - حتى ولو بيقين ضعيف - فى تفاصيل حياته الجديدة ، وكأنه يريد أن يتمسك بجذوره وانتمائه للمدينة الأم:

«رباه إنها فتاة فى عز الشباب تشد عينيه بقوة ليست بلا سبب - إنها توقظ مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة فى الضباب . العطفة المبلطة الصاعدة من الأنفوشى المشبعة بهواء البحر ورطوبته المالحة وانفعالات الجنون الملفعة بالظلام .... السمرة الرائقة النقية، والعينان اللوزيتان الدعجاوان، وبريقهما المضىء المفعم بالنبض والاقتحام . أين هذا من القطة المهزولة ذات الثوب الباهت الواحد وأظافرها الجارحة؟ إنها تذكره بها بعنف تاركة له تخيل ماصنع الزمن فى عشر سنوات أو يزيد. والاسم ضائع كأبيه، ولكن رائحة البحر تملأ خياشيمه......» . الطريق ص٢٤.

ولاتزال مدينته تطارده حتى ما بين النوم واليقظة:

«وفتح النافذة فلم ير المنظر الذى فى غفلة توقعه، منظر عمارات النبى دانيال وسعد زغلول وزرقة البحر على مرمى البصر وهواء الإسكندرية العامر بالفتن». الطريق ص ٣٠.

وتكاد المدينة الساحرة وذكرياتها تستحوذ عليه فحتى في ذروة انشغاله بالبحث عن الأب المفقود نجد أنه يربط كل شىء حوله وأى شىء يحدث له بالإسكندرية وكأنها أصبحت مركزاً لعالمه الجديد حتى وإن غادرها إلى مدينة كبيرة كالقاهرة:

«تعب البصر من تفحص الوجوه. وشوارع القاهرة الزاخرة بتيارات البشر والسيارات كأمواج البحر فى الأيام العاصفة . وسحب الخريف القادمة من الإسكندرية يتبدد أكثرها قبل الوصول إلى سماء القاهرة ولكن ذكريات الإسكندرية مشتعلة أبداً فى القلب المنتظر» الطريق ص٥١.

ويصف نجيب محفوظ حنين صابر سيد سيد الرحيمى إلى الإسكندرية بتعبيرات فريدة يجمع فيها بين هواء الإسكندرية ورائحة السمك والمطر فى توليفة لاتخلو من براعة.

«وشرب بسرعة ودون أدنى اهتمام بالنقود : كأيام النبى دانيال . عندما قالت له الدنيا جميلة وأنت زهرتها . وهواء الإسكندرية المعربد بالفتن .... وتبسم بالنشوة رغم رائحة السمك .... وحن إلى الرقص فى الكنار الليلى ، والشوارع السنجابية المغسولة بماء المطر . والهواء المنبعث من الهدير الذى يغطى الأجساد بغلالة سمراء .....» ثم راح يدندن بالأغلبية الإسكندرانية «متبطل الشقاوة وتعال عندنا.....» الطريق ص ٥٥.

إن الإسكندرية هنا تبدو وكأنها تكمن فى داخل صابر سيد سيد الرحيمى وتعيش فى داخله وتسيطر عليه حتى إذا ثمل انطلقت المدينة وذكرياتها وألحانها وروائحها من معقلها.

ثم وبعد رشفات من الحب.

«وتسللت إلى أنفه رائحة خفيفة ولكنها مثيرة جمة الذكريات . وتوقع أن يسمع هدير البحر» الطريق ص٥٧ (لاحظ أن المشهد فى القاهرة).

إن البطل الاسكندرانى يفتقد حتى هدير البحر الذى تعود أن يسمعه بعد لحظات الحب فى مدينته التي هجرها بحثا عن أبيه ويبدو من

فرط سيطرة الإسكندرية عليه وكأن اكتمال نشوته أصبح مشروطا بإحساسه أنه فى مدينته ببحرها وهدير أمواجه.

ويتكرر نفس الإحساس مرة أخرى وبعد مشهد آخر من مشاهد الحب حيث يربط صابر الرحيمى الإسكندرية وذكرياتها (الماضى) بما يحدث له فى لحظات الحب فى منفاه (الحاضر):

.. كذكريات الكنار الليلى على أنغام البحر وتلك الليالى الظافرة فى كل شىء» الطريق ص ٧١.

ومرة أخرى تتداخل احساساته الحالية (فى الزمن الحاضر) مع ذكريات مدينته (الزمن الماضى) عندما يقارن بين مشاعره تجاه كل من إلهام وكريمة:

«وإلهام سماء صافية يجرى تحتها الأمان وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها أيضا سماء الأسكندرية المحبوبة، وكان يحتسى الشراب على صوت الرعد فى النبى دانيال ويدفى قلبه بالقبل . وهى تأبى أن تعترف بأنها فتاة عطفة القرشى، لماذا تخفين الأسرار؟ لأنك العذاب والشيطنة. وقد التحمت فى خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن.......» الطريق ص٨١.

ولازالت الإسكندرية وذكرياتها تطارده فى لحظة ارتكاب الجريمة:

«وارتفع الشخير كشخير أمك فى الليلة الأخيرة. والكفن كعود جاف. وبكاء السماء من زجاج الشرفة بالنبى دانيال» الطريق ص١٠١ ثم وبعدها

«ومرة ارتفع رأسه فوق الأفق مبنى القضاء العالى فرأى مظلة كبيرة من السحب ذات أرضية بيضاء صافية تنتشر عليها قطعان من السحاب الداكنة فاستيقظ قائلاً «هذه زفرة من الإسكندرية) وتحرك فى القلب الشجن» الطريق ص١١٠.

لقد غادر صابر الرحيمى الإسكندرية ولكن المدينة لم تغادره، وحنينه إلى الماضى القريب يطارده فى واقعه الجديد ويكاد يتداخل مع زمنه الحاضر وهو يعيش ويحب ويقتل فى القاهرة تصاحبه الإسكندرية بذكرياتها وهدير البحر ورائحة الماء المالح وسحابات الخريف وأمطار الشتاء بها.

الاسكندرية واسماء الروايات:

السمان والخريف - ميرامار

السمان والخريف:

ترصد رواية السمان والخريف فى عبقرية فريدة – مرحلة الانتقال من الملكية إلى مابعد ثورة ١٩٥٢ وما صحبها بما يسمى بحركة التطهير التى قامت بها الثورة للتخلص من بعض الموظفين الحزبيين الفاسدين من خلال تسجيل ماعاناه بطل الرواية – عيسى الدباغ – الحزبى الفاسد الذى تسببت حركة التطهير فى فقده لوظيفته وتدمير وضعه الاجتماعى ويختار عيسى الدباغ الاسكندرية منفى اختياريا بمحض إرادته ليلوذ بها بعيدا عن القاهرة وفضيحته المأساوية بها.

ماالعلاقة إذن هنا بين الإسكندرية وعيسى الدباغ والسمان والخريف؟

المعروف أن الإسكندرية هى نهاية رحلة الطيور المهاجرة – السمان – من بلاد الشمال فى الخريف حيث يصلها السمان منهكا بعد طول سفر ويصبح فريسة سهلة لصائد به على الساحل الزعفرانى ، إذن فالسمان الغريب يقصد المدينة الغريبة بعد طول سفر لائذا بها ويكون الهلاك مصيره على الساحل الغريب.

أليس هذا هو حال عيسى الدباغ – حيث لاذ بالمدينة بعد رحلة عمر مليئة بالطموح والأمل فى المناصب العليا – وها هو يتهاوى تحت ضربات القدر؟

بل قد يكون ذلك هو حال ريرى أيضاً والتى جاءت إلى المدينة هاربة من ماض تريد أن تدفنه؟

وعلى أية حال فلقد كان المؤلف رحيماً «بسمائه البشرى» فترك لهم بعض الأمل، وتنتهى الرواية دون هلاك مؤكد للسمان الأدمى (عيسى الدباغ وريرى).

«ترى البحر وقد سحره أكتوبر فأخلد إلى أحلام اليقظة وترى أيضاً أسراب السمان تتهاوى إلى مصير محتوم عقب رحلة شاقة مليئة بالبطولة الخيالية» السمان والخريف ص٧٦.

«ميرامار» (نضمتمتجتجنغم)تعبيرا يعود إلى اللغة الأسبانية وتعنى حرفياً انظر إلى البحر وتوجد أكثر من مدينة ساحلية في الأمريكتين بهذا الاسم وقد كان نجيب محفوظ موفقاً إلى حد كبير فى اختيار ميرامار كأسم لروايته وإذا كانت رواية ميرامار رواية سياسية بالدرجة الأولى حيث تضمن نقداً صريحاً للسلطة والثورة والاتحاد الاشتراكى فان اختيار كلمة ميرامار كاسم للرواية التى كانت مدينة الإسكندرية مسرحاً لها يعد اختيارا موحيا إلى حد كبير وميرامار هو اسم البنسيون الذى كان مسرحا لأحداث هذه الرواية وأحاديثها ، وربما استوحى الكاتب اسم الرواية من اسم بنسيون كان موجوداً بالفعل بالإسكندرية بأحد الشوارع المتفرعة من محطة الرمل فى اتجاه الكورنيش . وجدير بالذكر أنه كان يوجد أيضاً، على الكورنيش وبالقرب من نفس المكان بارا يسمى «قهوة وبار ميرامار».

إسكندرية نجيب محفوظ .. المكان والزمان والإنسان

تدور أحداث اسكندرية نجيب محفوظ فى الأحياء القريبة من الكورنيش فاسكندرية نجيب محفوظ هى اسكندرية محطة الرمل والشاطبى وكليوباترة والابراهيمية وسيدى جابر وليست اسكندرية الأحياء الشعبية بها: القبارى وكرموز وكوم الشقافة وغيط العنب وراغب باشا ومحرم بك وربما كانت هذه هى الاسكندرية التى عرفها محفوظ ولم يعرف غيرها، ولا يحسب هذا على الكاتب بل يحسب له بل ويزيد من مصداقيته.

اسكندرية نجيب محفوظ هى اسكندرية الغرباء الذين جاءوا إلى المدينة لالذين بها هاربين اليها.. إنها اسكندرية عيسى الدباغ وريرى وعامر وجدى وطلبة مرزوق وزهرة وسرحان البحيرى ومنصور باهى وبسيمة عمران وماريانا، كلهم غرباء عن المدينة، كل غريب بطريقته، فأما ملوث طريد، أو هارب من أيامه وقدره أو طامح إلى تغيير حياته وتبديلها، انها أيضاً إسكندرية الأجانب فى أواخر أيامهم أيضاً، وربما كان عامر وجدى وصابر الرحيمى هما الوحيدين الذين كانا ينتميان لأهل الإسكندرية، ولكن الأول ترك المدينة وعاش عمره كله بالقاهرة وعاد إلى المدينة ليقضى بها ماتبقى

سعاد حسنى ورشدى أباظة فى « الطريق »

له من العمر ، والثانى خرج من الاسكندرية خروجا مأساويا باحثاً عن أبيه.

إسكندرية نجيب محفوظ هى إسكندرية الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، عندما كانت المدينة تمر بفترة مهمة من تاريخها الموغل في الزمن، فترة كانت المدينة فيها تصارع التاريخ وتشهد تحولات مهمة من الملكية إلى الثورية، فترة انسلاخ من ثقافة مختلطة إلى ثقافة الشعب الواحد، فترة انتقال من عصر إلى عصر، فترة حرجة شهدت خروج المستوطنين من الأجانب فى هجرة عكسية إلى أوروبا وأمريكا وغيرها ، بعد أن عاشوا بها أكثر من قرن من الزمان وبنوها وأعمروها وشاركوا المصريين فيها حتى ضاقت بهم فرحلوا عنها بالأحزان والدموع، فترة شهدت حرب ١٩٥٦ وارهصات حرب ١٩٦٧.

اسكندرية نجيب محفوظ هى إسكندرية الخريف والشتاء وليست إسكندرية المصيف، انها اسكندرية العواصف والأمطار الرعد والبرق والنوات، انها اسكندرية التناقضات والأسرار والغربة والحنين إلى الماضى والتطلع إلى المستقبل أيضاً.

«والبحر يترامى تحت سطح أملس باسم الزرقة فأين العاصفة الهوجاء؟ والشمس تهوى إلى المغيب مرسبة شعاعاً ماسياً يلتحم بأهداب سحائب رقيقة فأين جبال الغيم؟ والهواء يلاعب سعف النخيل فى غابة السلسلة بمداعبات رقيقة فأين الرياح الهوج المزلزلة؟» ميرامار١٩٦.

إسماعيل صدقى

فى روايات عبدالرحمن الشرقاوى

بقلم
مصطفى بيومى

لعل إسماعيل صدقى هو أكثر رجال السياسة المصرية الذين يحظون بالكراهية والعداء فى العالم الروائى لعبدالرحمن الشرقاوى، فهو شبح مرعب لا يتعاطف معه أحد، وتنهال عليه الشتائم واللعنات والاتهامات، ويتسبب دائما فى الخراب والأزمات وإلحاق الأذى بمعظم طوائف الشعب.

ولأن أحداث «الأرض» تدور فى فترة حكم إسماعيل صدقى، فإنها تتحول إلى سجل حافل يعبر عن الرأى الشعبى فيه، وتكشف عن مدى العداء الذى تحمله له الطبقات الشعبية. والعداء لصدقى ليس سياسيا فحسب، بل شخصى أيضا، فهو مكروه كسياسته وأسطورة فى الشر والأذى لا مثيل لها.

الظهور الأول لإسماعيل صدقى سلبى منفر، فالراوى الصغير يعود إلى قريته محملا بكراهية موروثة عن أخوته الكبار وعن الجرائد التى تدور أحاديثها عن رجل اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الإنجليز «وكنت أراه يطلق فى القاهرة جنود الانجليز حمر الوجوه ليحموا له سلطانه على رقاب الناس».

وكانت المدرسة الخديوية الثانوية تخرج إلى الطريق كل صباح فتهتف بحياة الدستور والاستقلال والحرية بسقوط صدقى والانجليز «الأرض، ١٧ – ١٨».

لم يكن الراوى العائد من القاهرة هو وحده الذى يحمل موقفا سلبيا من صدقى، فأطفال القرية أيضا يملكون الموقف نفسه، لكنهم يضفون على عدوهم المجهول صفات أسطورية.

– هوه صدقى ده قد ايه؟ يعنى هو اللى يغلب ولا الواد عبدالهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا؟

فرد عليه آخرون أن صدقى هذا كائن عجيب يغلب مائة من عبدالهادى ولكن فى غير لعب العصا.. وأنه يأكل خبزا كله من القمح.. وهو لا يعرف خبز الذرة الذى يأكلونه فى القرية.. وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لامن الزير!.

سألنى ولد آخر إن كان صدقى يستطيع فى المرة الواحدة أن يأكل عشرين رغيفا من خبز القمح، ويشرب ملء جرة من ماء نقى كماء طلمبة المسجد! «نفسه – ١٨، ١٩».

ولا يقتصر التصور الخرافى لشخصية

مشهد من فيلم « الأرض »

عبد الرحمن الشرقاوي

إسماعيل صدقى على الصغار وحدهم، ذلك أن تخيل محمد أفندى لا يختلف كثيرا رئيس الوزراء الشيخ الذى يصب الموت على الآلاف وهو يجلس على مكتبه بهدوء يأكل «الساندوتيش» لفرط ما لديه من أعمال «نفسه – ١٣٨».

من المنطقى أن الكراهية الشعبية المتطرفة لإسماعيل صدقى نابعة من ممارساته السياسية السلبية، التى لا تروق للغالبية العظمى من المصريين وتنحصر جرائم صدقى السياسية فى محورين:

تزوير الانتخابات وإلغاء الدستور.

التنكيل بالمعارضة وإلحاق الضرر الاقتصادى بمعظم طبقات الشعب.

***

تجاوز تزوير إسماعيل صدقى للانتخابات كل الحدود، من الطريف أن أحد شباب القرية يربط عفويا بين قدم رجال الحكومة وعملية التزوير!، فهو يسأل «محمد أبو سويلم » عن هؤلاء الرجال الذين كتبوا اسمه فى ورقة أجاءوا يطالبونه مرة أخرى بأن يرسل أسماء الأموات لتوضع أصواتهم فى انتخابات جديدة يجريها حزب الشعب؟. «نفسه – ٧٣».

وقد كان التزوير مرتبطا بمساعدة رجال الإدارة والعمد والشيوخ وبعض الأعيان، فعمدة قرية «الأبيض» هو الذى ساعد الحكومة فى الانتخابات بعد أن قاطعتها الدنيا كلها وكان يكتب بنفسه الأسماء كما يريد «نفسه – ٨٠».

وكان للشيخ الشناوى دوره السلبى أيضا، فقد جمع الناس ذات يوم من الحقول ليعطوا أصواتهم لهذه الحكومة، وقال لهم إن بيدها الخير، إن قدومها قدوم سعد.. فكانت الحكومة نحسا على القرية. «نفسه – ١٤٥».

والشيخ يوسف واحد من الذين عاونوا صدقى على الانقلاب الدستورى وتزوير الانتخابات وعلى الرغم من تويته وعدوله

عن التأييد، فقد بقى موقفه القديم مجالا للمعايرة والتنديد به عند اللزم!. لقد ندم الشيخ على اشتراكه فى الانتخابات، وظل شهورا طوالا يشعر بالخجل، وعاد يقف مع القرية: وعندما امتنع عن دفع المال - كما امتنع أهل القرية وحجزت الحكومة على نصف ما يملك، أعلن سخطه على الحكومة ولم يعد يهمس به.

وتعود أن يجلس فى دكانه ويشتم حزب الشعب والعمدة والباشا والنائب والانجليز والحكومة جميعا.. وأخذ يعدد الفظائع والبشاعات التى ترتكبها الحكومة. «نفسه - ٩٩، ١٠٠».

وعلى الرغم من توبة الشيخ يوسف وشتائمه التى تنهال على صدقى وحكومته وحزبه، فإن موقفه القديم المؤيد يبقى عالقا فى الأذهان وعندما يسخر الشيخ من علاقة محمد أفندى مع العمدة، يرد محمد على تعريضه بنظرة امتهان وهو يقول: لا.. عمدة إيه بقى.. هو أنا كنت مشيت وراه فى الانتخابات ولا دفعت له اشتراك لجريدة الحكومة.

وأدرك الشيخ يوسف أن محمد أفندى يعرض بمواقفه فى أوائل عهد حكومة حزب الشعب. «نفسه - ٢٤٠، ٢٤١».

وعندما يتخلى الشيخ عن إجماع القرية، يستنكر علوانى قراءته لسير الأبطال الشعبيين، ويكمل محمد أفندى ضاحكا والا اقرأ جريدة حزب الشعب! «نفسه - ٣٨٣».

لكن الساحة لم تخل من معارضة حقيقية.

محمد أبو سويلم فصل من وظيفته كشيخ للخفراء، فقد طلب المأمور منه أن يسوق الرجال إلى صندوق الانتخابات ولكنه رفض ورآهم يجمعون أصوات الموتى فتشاجر!. «نفسه - ١٩».

وبسبب معارضته لصدقى وحكومته، نقل الشيخ حسونة وخصمت الحكومة من مرتبه جنيها: واعتبرته اشتراكا اختياريا لجريدة حزب الشعب. «نفسه - ٢٠٨».

ولا تقتصر المقاومة على الفلاحين الذين تعبر عنهم «الأرض» فأهالى المدن قاوموا الحكم الاستبدادى بزعامة حزب الوفد، المحامى الوفدى، النائب السابق للدائرة، يواجه المأمور فى مأتم العمدة شاتما صدقى وحكومته بلا رحمة. «نفسه - ٣٣١».

وطبيب العيون، عضو الشيوخ الوفدى السابق، يشن حملة عاتية ضد صدقى وحكومته وحزبه: ذلك أن شعب مصر يدرك أن حزب الشعب خدعه أريد بها تضليل الناس. «نفسه - ٣٧٣».

ولعل محاولة المأمور أن يحشد الناس للهتاف والترحيب بوزراء صدقى، وهى المحاولة التى انقلبت إلى مظاهرة معارضة، خير دليل على الموقف الشعبى العام المعادى لإسماعيل صدقى وحكومته.

***

لم يكن تزوير الانتخابات وإلغاء الدستور إلا أحد أوجه الطغيان الذى مارسه إسماعيل صدقى، ويتمثل الوجه الآخر فى التنكيل بالمعارضة وممارسة أبشع الانتهاكات ضد الحقوق السياسية التى حصل عليها الشعب بعد ثورة ١٩١٩ ودستور ١٩٢٣ لا يقتصر الأمر على نقل محمد أبو سويلم، ونقل الشيخ حسونة، وانتزاع الأرض من الفلاحين وسرقة مياه الرى منهم، فقد دفعت معظم الطبقات الأخرى ثمنا فادحا لطغيان صدقى واستبداده.

عذب الفلاحون عندما قاطعوا انتخابات حكومة حزب الشعب، وعندما امتنعوا عن دفع ضريبة الأرض. «نفسه - ١٠٨».

وتعرضت مرتبات الموظفين للتخفيض:

كل الموظفين ماهياتهم قلت! اللى كان بياخد خمستاشر جنيه بعدما يطفح الكوتة فى التعليم ويتخرج من المدارس العليا بقى ياخد اتناشر أول عن آخر. «نفسه - ١٠٤».

وكما يقول القاضى الشرعى فى المدينة، فإن حكومة حزب الشعب كالغول الهائج مع الموظفين، وهى تتمسك بتنفيذ القانون الذى يمنع الموظفين من الاشتغال بالسياسة. «نفسه - ٢٣٢».

وتلفق الحكومة الاتهامات لمعارضيها، فالشيخ حسونة يحكى عن مقال كتبه صحفى ضد الانجليز وصدقى وبرادع الانجليز: قامت الحكومة قافلة الجريدة وحابساه بتهمة العيب فى الذات الملكية ومحاولة اغتيال صدقى وقلب نظام الحكم كمان! شفت بقى؟. «نفسه - ٢٨٣».

وفى مأتم العمدة، يستمع شيخ البلد إلى القادمين للعزاء من المركز وهم يتكلمون عن صحف تصدر فى القاهرة ويغلقها صدقى، فتصدر فى اليوم التالى باسم جديد. «نفسه - ٣٢٦».

إن إسماعيل صدقى يقف عاريا بلا نصراء حقيقيين وبلا مزايا على الاطلاق عند عبدالرحمن الشرقاوى، بل إن ميزته الكبرى كرجل اقتصاد كفء قدير، تتحول إلى أحد عيوبه عند المحامى الوفدى، الذى يقول مستهزئا ساخرا إن صدقى باشا اقتصادى جبار ذو كفاءات، والانجليز فى حكمهم لمصر يعتمدون على أمثال هذه الكفاءات!

وأدرك شيخ البلد من ابتسامات السخرية ومن تجربته أنه لا صلاح للقطن ولا لأى شئ فى مصر ما دام صدقى يحكم البر ومعه رجال يركبون ظهور الناس.. ويهزون أرجلهم. «نفسه - ٣٢٨».

ما جدوى الكفاءة الاقتصادية التى يتمتع بها إسماعيل صدقى، وهى توظف لمساعدة الأقلية الضئيلة على حساب الغالبية العظمى؟!

***

على الرغم من أن طاغية آخر هو «توفيق نسيم» يقوم بدور شرير الحياة السياسية فى «الشوارع الخلفية»، وتندلع ضده المظاهرات وتنهال الشتائم التى تدينه وتتهمه فى وطنيته وإخلاصه، فإن إسماعيل صدقى لا يختفى من الأذهان.

من مميزات الدكتور طه حسين عند طالب المرحلة الثانوية سعد داود، أنه وقف مرة فى وجه صدقى وحكومته. «الشوارع - ٨٣».

ولا ينسى شوقى خليفة بطولة ويصا واصف، الذى حطم السلاسل الحديدية يوم عطل صدقى باشا الحياة الدستورية، ووضع البوليس والجيش على أبواب البرلمان سنة ١٩٣٠. «نفسه - ١٧٥».

ووطنية عبدالحى، التى تحظى بتقدير الطالب عطا الله، تعود إلى سنوات حكم صدقى: أنا لا أنسى بلاءك طوال الخمس سنوات الماضية من عهد صدقى سنة ١٩٣٠. «نفسه - ٢٠١».

وعبدالمعبود، متحدثا باسم عمال مصر، يستنكر وجود إسماعيل صدقى فى الجبهة الوطنية التى تشكلت عشية معاهدة ١٩٣٦: احنا بنشوف إن وجود صدقى فى الجبهة الوطنية هو والناس اللى دوخونا، وكانوا طول عمرهم مع الانجليز دا خطر كبير.. ياما عملوا جبهات وييجوا ساعة الزنقة ويعملوا عملة تهد كل اللى اتبنى وتأخر البلد. «نفسه - ٣٩٩».

مصر لا تغفر خطايا أعدائها، وخاصة إذا كانوا محسوبين عليها ومن أبنائها وإسماعيل صدقى خير نموذج للعداء الأصيل الذى لا يعرف التسامح والغفران! ■

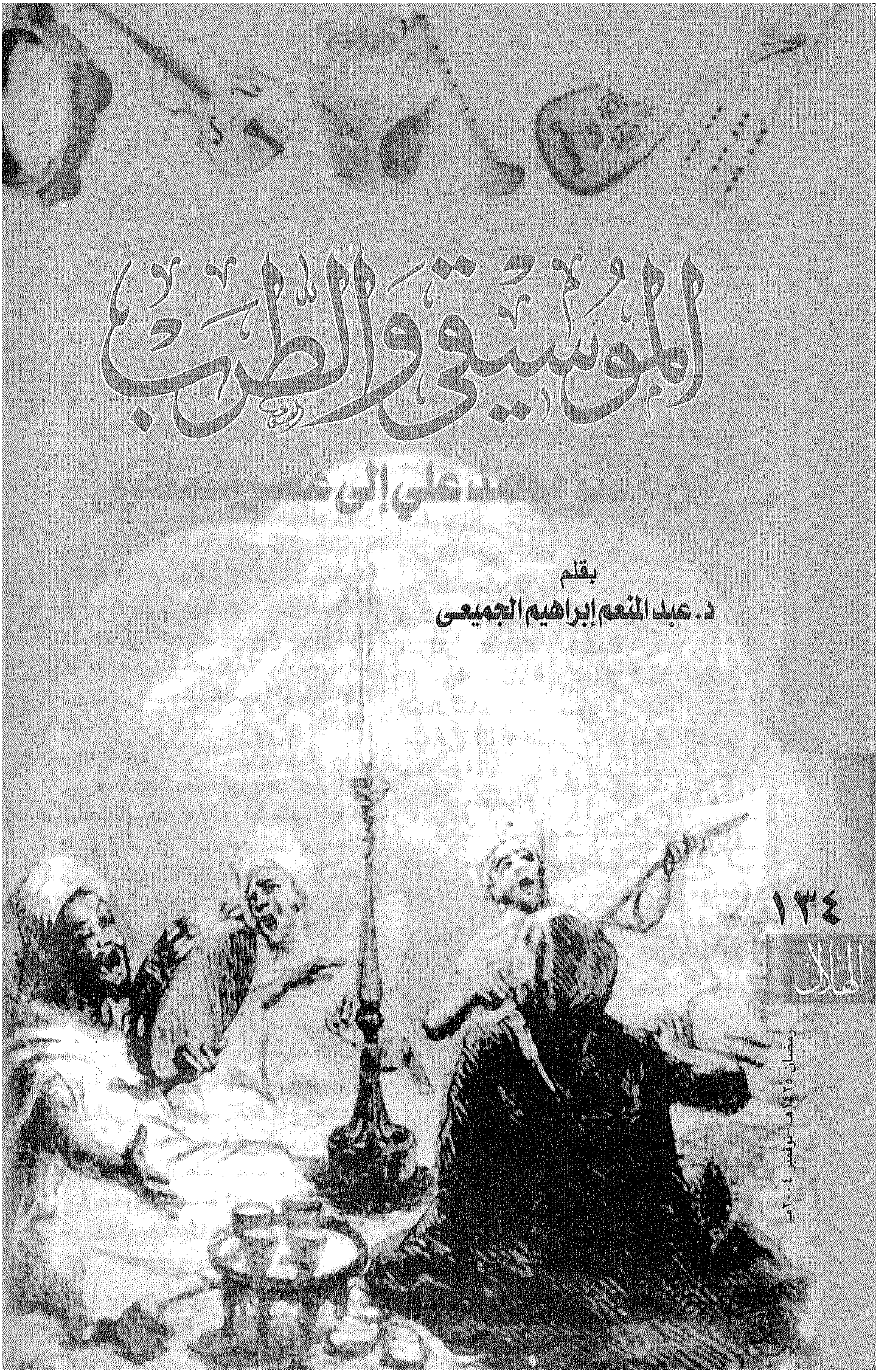

الموسيقى والطب
بقلم
د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى
١٣٤
الهلال
رمضان ١٤٢٥هـ - نوفمبر ٢٠٠٤م

قبيل عصر محمد على كانت صناعة الموسيقى والغناء قد ذوى غصنها لما أصابها من الاهمال حتى صارت فريسة الضياع واندثرت ألحانها لعدم تدوينها إلاّ فى القليل النادر الذى تناقله المغنون بالتواتر ، ولم يكن له من وعاء يحفظه غير الحناجر ، وانحطت منزلة الموسيقى حتى غدت ممارستها مقصورة على الطبقة الدنيا من الناس الذين راحوا ينشدون ويعزفون قانعين بشظف العيش، لدرجة أن وصل الأمر باعتبار مهنة الغناء ماجنة ، وشهادة الفنان باطلة ، وانحصر الغناء فى العوالم والراقصات (الغوازى) الذين كانت الدفوف النحاسية وصاجات الأيدى تصاحبهن فى أداء الأغانى المرتجلة الجماعية وسط ضجيج كبير ترفع خلاله العقيرة بالصوت.

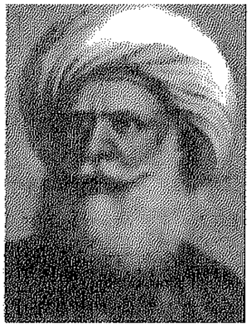

محمد علي

الخديو إسماعيل

ولما كان محمد على قد قرر تنظيم الجيش المصرى على مثال الجيوش الأوروبية ، فقد رأى إنشاء فرقة موسيقية عسكرية أحضر لها من فرنسا ما يلزم الجيش من آلات الموسيقى، واستعان بعازفين أوروبيين خاصة من الفرنسيين والألمان لتعليم المصريين الموسيقى العسكرية الغربية ، كما أمر بطبع مقامات فى فن الموسيقى على مطبعة الحجر ولم يكتف محمد على بذلك بل أنشأ فى قرية (جهاد أباد) مدرسة لتعليم الموسيقى تسع مائة وثلاثين طالبا ليكونوا موسيقيين فى فرق الجيش المختلفة والأسطول فنبغ منهم عدد ، تم تزويد الأسطول والجيش بهم ثم نقلت هذه المدرسة إلى (الخانقاه) بعد ذلك .

وإلى جانب ذلك فقد جعل محمد على لكل آلاى من الجيش معلما أوروبيا للموسيقى ، كما افتتح مدارس أخرى لتعليم الموسيقى منها مدرسة بأثر النبى ، ومدرسة أخرى بالقلعة زارها بعض الضيوف الأجانب ، وأعجبوا بطريقة التدريس فيها ، وبقدرة الطلاب المصريين على فهم الموسيقى الأوروبية ، وأداء بعض الألحان لأبرز الموسيقيين فى فرنسا وإيطاليا .

ومع أن كل هذه المحاولات قد وضعت النواة الأولى لدراسات عزف الموسيقى للجيش والأسطول المصرى ، فإنها لم تؤثر التأثير المطلوب فى نفوس الدارسين خاصة ، وأن قاعدة نقل الموسيقى الأوروبية بنغماتها وأناشيدها الغربية إلى بيئة شرقية جعل من الصعب عليهم استيعابها ، ومع ذلك فإن محمد على ظل عازما على إصلاح شأن الموسيقى والطرب فى مصر ، وتشجيع العاملين فى حقله ، فشمل بعنايته ملحن عصره «محمد القبانى» وجعله كبير الملحنين لديه ، كما أنعم على المغنية «ساكنة» بوسام تقديراً لفنها وخلال ذلك الوقت برز الشاعر شهاب الدين محمد بن إسماعيل والذى كان

له أثر كبير فى انتعاش الموسيقى المصرية بعد أن جمع عدداً كبيرا من الموشحات العربية القديمة بكلماتها ومقاماتها وإيقاعاتها فى كتاب أسماه «سفينة الملك ونفيسة الفلك» . رسم فيه لمعاصريه صورة فن التواشيح الأندلسية التى لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً ، ومن هذه التواشيح ظفروا بزاد كبير أعانهم على الخروج من عنق الزجاجة الذى عاشوا فيه طوال عصر انحطاط الغناء المصرى الذى استمر طوال العصر العثمانى تقريبا ، لقد كان تأليف هذا الكتاب إرهاصا لنهضة الغناء العربى فى مصر بعد رقدته الطويلة خلال تبعيتها المباشرة للدولة العثمانية ، وتقليد مطربيها مطربى استنبول .

وما أن انتهى عصر محمد على ، حتى تغير كل شيء وبدلا من أن تتحقق مقولته المأثورة «سيجنى أحفادى ثمار ما زرعت» وبدلا من أن يكون الميراث الذى خلفه ذخراً لمن يأتى بعده يستمد منه مادة للعمل والانطلاق ، فإن مرحلة الانغلاق التى تبناها حفيده عباس الأول الذى جاء بعده كانت السمة البارزة خلال عصره الذى امتد حوالى ست سنوات من عام ١٨٤٨ إلى عام ١٨٥٤ .

الموسيقى والطرب خلال عصرى عباس الأول وسعيد

بعد وفاة محمد على ١٨٤٩ م توقف مشروع النهضة وكانت أعماله تندثر خاصة أن خطة حفيده عباس الأول كانت تسفيه الجهود التى بذلها جده فألغى معظم المدارس ، وأهمل التعليم وتردى الحال بمصر إلى درجة سحيقة من السوء خاصة أنه قضى على مشروعات محمد على العمرانية ، وخلال تلك الفترة أصبحت صناعة الموسيقى والطرب ممتهنة ، وظلت صناعة من لا صناعة له ، خاصة أنها كانت من الأمور المرذولة التى يجب محاربتها بكل الطرق ، فأسدل الستار على ما تبقى منها ، وظلت أحوال الموسيقى مزيجا من فنون موسيقية فارسية ، وتركية ، ويونانية تتميز بتكرار طويل فى الأداء ، وفقر فى تعدد الأنغام .

وجاء عصر سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) أصغر أولاد محمد على سنا والذى كان عصريا ، ومثقفا ومحبا للترف ومع أن عصره حدثت فيه عدة تغييرات جذرية لصالح المصريين ، فإن أحوال الموسيقى والطرب ظلت على حالها ، واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى تولى إسماعيل أريكة الحكم ١٨٦٣ - ١٨٧٩ - فتبدلت الأمور وتغيرت الأحوال خاصة أن إسماعيل اهتم اهتماما بالغا بالموسيقى ، والغناء واتسم عصره بالمرح والحبور ، مما كان له أثره فى النهضة الفنية التى شهدتها مصر وقتذاك .

تطور الموسيقى والطرب فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م)

عمل إسماعيل على تجديد ما كاد يندثر من أعمال جده فحاول أن يرفع من شأن الفنون بصفة عامة والموسيقى بصفة خاصة ، فأنشأ مدرسة للموسيقى العسكرية بغرض

عبده الحامولي

يوسف المنيلاوي

عمل الخديو إسماعيل على تطوير « التخت الشرقى »
واستعمال الآلات الوترية فى الموسيقى العصرية الحديثة

التدرب على استعمال الآلات الموسيقية المختلفة وتخريج جنود متخصصين للعمل بفرق الموسيقى بالجيش .

وقد خرجت هذه المدرسة ٣١٥ طالبا فى مدة ثلاث سنوات .

ونظراً لأن إسماعيل كان طروبا فى ذاته محبا للحفلات والأفراح ، وكثير الحنين إلى النغمات الموسيقية العذبة التى تطرب النفوس فقد عنى بالموسيقى والغناء والتمثيل بصفة خاصة ، ومن أجل بناء موسيقى مصرية عصرية شجع إسماعيل الأخذ من الموسيقى العربية بالإضافة إلى الموسيقى التركية مما جعل الموسيقى المصرية تنشأ فى جو صرف من تعدد الأجناس الموسيقية وتشكل صياغة لغة جديدة لها بعد أن كانت تتخذ من الموسيقى العثمانية طابعا خاصا لها ، وورثت جزءاً من نظام مقاماتها العتيدة وإيقاعاتها المتسمة بالرتابة والتكرار الممل لدرجة أن التلحين المصرى كان متصلا بالتلحين التركى بشكل كبير .

ومن هنا كان من الطبيعى أن ينمو فن الطرب فى عهده فقد استحث إسماعيل المصريين على احياء موسيقاهم الشرقية وأخذ بيد أهل ذلك الفن الجميل وراح يغدق على محترفيه بالمزايا كما حاول أن يمزج روح النهضة والتجديد بالموسيقى المصرية التى كانت تتركز فى التواشيح ، والأساليب القديمة التى يتبعها المنشدون والمداحون الذين كانوا يضربون بالدفوف أثناء إنشادهم فأرسل إلى استانبول بعض مشاهير الموسيقى والطرب فى مصر أمثال محمد عثمان صاحب نهضة القالب الغنائى المعروف باسم الدور والمطربان عبده الحامولى والشيخ محمد الشنتورى ، ومحمد العقاد العازف بالقانون وأحمد الليثى العواد وإبراهيم سهلون فى الكمنجة ، وبزرى فى الناى وغيرهم بهدف دراسة الموسيقى التركية والتعمق فيها والتدريب عليها ، كما عمل الخديو إسماعيل على إدخال التخت الشرقى فى صورته الجديدة واستعمال الآلات الوترية فى الموسيقى العصرية الحديثة .

وإلى جانب ذلك فقد حاول إسماعيل إدخال الموسيقى الغربية إلى مصر حتى

يتعودها الناس ، ويشعر المصريون عند سماعها بطرب آذانهم وجوانحهم ، فانتهز فرصة افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ م وشيد دار الأوبرا على عجل للمشاركة فى هذه المناسبة بهدف جلب السرور والانشراح لضيوفه من ملوك أوروبا وملكاتها .

ومن اللافت للنظر أن أغلب الجوقات التى استحضرها إسماعيل للتمثيل فى هذه الدار كانت أوروبية ، كما كانت تمثل بلغات لايفهمها الشعب بل يفهمها الخديو وبعض أفراد حاشيته والمقربين منه ، وكان يغدق عليها الأموال الطائلة ، يضاف إلى ذلك أن إسماعيل كان يدعو بعض هذه الفرق إلى سراى عابدين لعزف الأنغام الراقصة بها إلى ما بعد منتصف الليل بحضور الأمراء ورجال المعية ، وذوى الحيثيات من الجاليات الأجنبية ، ولم يكتف إسماعيل بل استقدم بعض الفرق الموسيقية التى تضم عازفين من الأرمن ، والشوام ، وكان أبرز هؤلاء «أنطوان الشوا» الذى أدخل الكمان العربى ، واستطاع أن يعزف به الموسيقى العربية ، وخلال ذلك ظهر جيل من المطربين والملحنين والعازفين الجدد مقترنا بظهور جيل من الشعراء الذين لم يتأثروا بطريقة الشعر العثمانى ، وردوا الشعر المصرى إلى عصر الديباجة العربية الذهبية أيام العصر العباسى الأول ، وكان رائدهم فى هذا المضمار محمود سامى البارودى .

كما بزغ نجم الشيخ محمد عبدالرحيم المشهور بالمسلوب ، الذى يعد خير من أنشد الأذكار الصوفية ومن أوائل من قام بتأسيس مدرسة غنائية مصرية الطابع بعد أن كانت خليطا من الموسيقى الأندلسية والأنغام التركية واليونانية ، فحاول قدر إمكانه تخطى مستنقع الألحان البدائية التى كان يغرق فيها الغناء المصرى ، وأن يضع اللبنات الأولى لايجاد نغم ينبع من تراب مصر لشعب مصر ويتميز بالسحر والجمال ومن أوتار عودة انبعثت البدايات الأولى لفن الدور ، وإلى جانب ذلك فقد طور فى غناء الطقطوقة وعمد إلى تغيير ملامحها مما أحدث هزة فى الموسيقى المصرية ، وجعله يتمتع بمكانة المسلوب أصبح للشعب المصرى موسيقاه الآلية المصرية الصميمة التى استمع إليها وعزفتها الموسيقات العسكرية لأول مرة عن طريق ألحان الشيخ المسلوب الذى برع فى تلحين التواشيح ، ومن أبرز تواشيح الشيخ المسلوب الباقية توشيح «لما بدا يتثنى» الذى يعد مثالا فى دقة الصنعة وحلاوتها وسهولته : لدرجة أنه أثار وأدهش بدقة صناعته ملحنى عصره فنسبوا هذا الموشح إلى التراث القديم .

وقد تتلمذ على يد الشيخ المسلوب فحول الملحنين والمغنيين ، ويعد محمد سالم العجوز ويوسف المنيلاوى ومحمد عثمان وعبده الحامولى من أبرز تلاميذه ، ونتناول ما قدمه هؤلاء فى مسيرتهم الموسيقية والفنية .

● محمد سالم العجوز :

يعد من أبرز تلاميذ «المسلوب» فى فن الغناء فقد غنى الغناء القديم قبل محمد

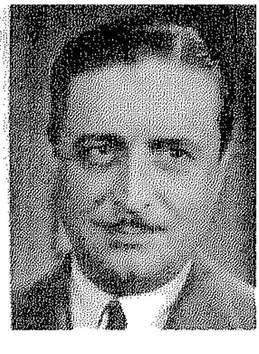
سليمان نجيب

منيرة المهدية

اسماعيل صبري

عثمان وعبده الحامولي وغنى معهما غناء عصرهما ، وكان يبزهما في كثير من الحفلات لأن صوته الفاتن، وتفننه في الغناء وألوانه كان يبهر أسماع الناس ويستلب مشاعرهم، ويخلب ألبابهم بغنائه وألحانه ، لدرجة أن أعاظم المطربين في عصره أمثال الشيخ المقدم والشلموني ، وخليل محرم، والسيدة ساكنة ، لم يستطيعوا مجاراته حتى ظهرت «ألمز» و«عبده الحامولي» و «الشيخ يوسف» و«الشيخ محمد الشنتوري» الذين سطعوا على ساحة الغناء ومن أبرز أغانيه :

صوت الحمام ع العود في الروض على الندمان

أظهر هوى واستميل الأغصان

يا سيدي ياللي ماشي

شوف للمتيم حال

الله يجازي الواشي

بيني وبينك حال

وقد تزعم محمد سالم أغاني التخت وقتا طويلا . وكان محمد سالم يجمع إلى جانب براعته في الغناء براعة في تمثيل ما يتغنى به ، وكان بهذه الحركات التمثيلية يبز عبده الحامولي ويتفوق عليه ، ويكسب منه الليالي بما يحدثه في نفوس الجماهير من التأثير القوي الذي كان يخرج بهم أحيانا عن جادة العقل ، وإلى جانب ذلك فإن محمد سالم يعد أول من ابتكر التغني بالقصائد والإبداع فيها وهذا هو النوع الوحيد الذي لم يلحقه فيه غيره من المطربين .

● الشيخ يوسف المنيلاوي

امتاز بين أقرانه برخامة الصوت وعذوبته ونقاء الحنجرة وصفائها ، ولما أحس ذلك من نفسه اشتهى الغناء وطلبه وتجشم فيه حملا ثقيلا ، فكان نصف غنائه إلهام ونصفه تعليم وكلا النصفين كان معجزة من معجزات الفن الغنائي ، ولقد بلغ من حذقه فيه أنه كان يصنع اللحن ويغنيه ، ولا عجب فقد كان صوته آية في العذوبة وصنعته غاية في التطريب ، يضاف إلى ذلك أنه كان أبرز من تغنى بالقصائد العربية فأبدع ، وكان فيها للمغنيين إماما يأخذون وبه يقتدون ومن أبرز القصائد التي لحنها :

لم يطل ليلي ولكني لم أنم .. وحامل الهوى تعب .. وأكذب نفسي عنك في كل مكان ما أرى وفتكات لحظك أم سيوف أبيك

وقد جرى ذكر الشيخ على ألسنة الناس لدرجة أنه كان يغالي في أجر الليالي التي يحييها في الأفراح ، ولما أبدى الخديو إسماعيل رغبته في إيفاد مجموعة من المغنيين يطربون في حضرة السلطان عبدالحمي دوقع الاختيار على الشيخ المنيلاوي ضمن وفد من المغنيين توجه إلى الاستانة منه عبده الحامولي ، ومحمد عثمان وغيره وقد بلغت سعادة السلطان منتهاها عندما سمع منه أبياتا مطلعها .

ته دلالا فأنت أهل لذاكا

وتحكم فالحسن قد أعطاكا

فطرب السلطان ووقع الشيخ في قلبه كل موقع وطلب أن يزيده ، كما بلغ من إعجاب السلطان بالشيخ المنيلاوي أن اختصه بشرف صلاة الجمعة معه في الجامع أيا صوفيا ، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الثالث وببعض الهدايا ، وقد توفي الشيخ المنيلاوي بالقاهرة في عام ١٩١١ م عن عمر يناهز ٦٨ عاما

● محمد عثمان ١٨٥٥ - ١٩٠٠ :

يعد محمد عثمان من رواد المدرسة المصرية الحديثة في التلحين فقد جدد في شكل الدور الغنائي ، وابتكر في تلوين الألحان أشياء جديدة ، ثم أدخل الآهات إلى الأجزاء الأخيرة من الدور ، واعتمد بشكل أساسي على المجموعة الغنائية في مساندة المطرب في غنائه بدلا من ترديد ما يقوله ،

وعاش القالب الموسيقى المسمى بالدور فترة طويلة كان فيها الجالس على عرش التخت لدرجة أن وصفه البعض بأنه وعبده الحامولى يمثلان فى دولة الغناء الركائز التى ارتفع عليها الغناء المصرى على أسس صحيحة ، فإذا كان عبده الحامولى يعد صاحب أجمل الأصوات فى عصره ، فإن محمد عثمان كان صاحب أجمل الألحان لدرجة أن عبده الحامولى كان يتلقف ألحانه ليغنيها ويكسبه بجمال صوته رونقا خاصا ، ومن أهم ألحان محمد عثمان «قده المياس زود وجدى » «نور العيون شرف وبان ..» .

ومن أشهر موشحاته : « ملا الكاسات وسقانى» ، « فتنا مطرب الحان» ، « أتانى زمانى » ، «هات أيها الساقى بالأقداح» .

ومما يذكر أن محمد عثمان صحب عبده الحامولى فى رحلته إلى الأستانة ، وكان ضمن معية الخديو إسماعيل هناك ، واستمر محمد عثمان فى عطائه الفنى يلحن الأدوار والموشحات وينطق المقامات العربية القديمة بلهجة غنائية جديدة حتى وافته المنية فى ١٩ ديسمبر ١٩٠٠ بالقاهرة .

● عبده الحامولى :

نهض عبده الحامولى بالقالب الموسيقى الغنائى المصرى وساير روح النهضة والتجديد فارتفعت مكانته ، وطبقت البلاد شهرته ، واشتهر بمجموعة أدواره المتقنة التى تزيد على العشرة أدوار والتى افتتن بها الناس افتتانا كبيرا ، فقد تمكن عبده الحامولى من تطوير الغناء العربى وإصلاح أساليب الموشحات القديمة ، وإدخال روح التجديد فيها .. واستخراج المقامات والايقاعات من مرقدها .

هذا إلى جانب عذوبة صوته الذى جعل الناس يتهافتون على سماعه ، ويحفون بعرشه الموسيقى المعروف بالتخت قائلين «كمان ياسى عبده» وظل يدخل الطرب والسرور فى نفوس الناس حوالى الثلاثين عاما وبعد أن وصلت شهرة عبده الحامولى إلى قصر عابدين استدعاه الخديو ، وقربه إليه وألحقه بمعيته ، وغمره بعطاياه وجعله مطربه الخاص ، واصطحبه معه فى رحلاته إلى الأستانة ليستمع إلى العازفين والمطربين الأتراك لاستلهام أنغامهم وإدخال ما يناسب الغناء العربى منها ، كما التقى عبده الحامولى بالفرق التركية التى كانت تفد إلى مصر ومعها مجموعة من كبار المغنيين فى الأستانة ، وكان يحضر معهم دائما أثناء اشتغالهم بالغناء ، ليتعلم منهم ويقتبس ما يراه ملائما للمزاج المصرى ، خاصة أن الموسيقى التركية وقتذاك كان لها الزعامة فى بلاد الشرق . وخلال ذلك سمع ألحانهم واقتبس من الموسيقى التركية نغمات لم يكن للمصريين بها علم من قبل وضم منها ما يلائم الروح المصرية مثل النهاوند ، والعجم ، والحجاز كار وغيرها ، فلحن من الحجاز كار بضعة أدوار وموشحات جاءت غنية بالذوق ، وزاخرة بالطرب ذات لون وطابع مصرى بحت مثل «كنت فين والحب فين» «ورايح فين يا مسلينى» «ومليك الحسن فى دولة جماله والله يصون دولة حسنك وأنت فريد فى الحسن» «ويا طالع السعد إفرح لى » «وجددى يا نفس حظك » «ويا قمر دارى العيون» وغيرها .

كما وضع الحامولى العديد من الأسس من أشكال الغناء المحلية التى كان يغنيها المنشدون الذين كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم أولاد الليالى والمداحون الضاربون بالدفوف، ثم دفعته سجيته إلى الطرب وحسن ذوقه فى الغناء إلى أن يتصرف فيها مع المحافظة على الأصل وأخذ يدخل على الموسيقى المصرية التحسين تلو التحسين حتى وصل بها إلى درجة متطورة وخلط ما أخذه من الأتراك بما ورثه من المصريين وبذلك ابتكر ألحانا جديدة وكان له من الأغانى الشعبية ما يردده الناس حتى الآن

فى المناسبات مثل «سالمة يا سلامة» «ويا ليلة بيضا» «وحوى يا وحوى» «ويا بتاع النعناع» «والحنة يا حنة يا قطر الندى» «واتمخطرى يا حلوة يا زينة يا ورده من جوه جنينه» «ويا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا - يا نخليتن على نخلتين والأربعة طرحوا سوا» .

ومن الأغانى التى كانت شائعة فى هذا العصر الموال التالى الذى غناه عبده الحامولى .

ليه حاجب الظرف يمنعنى وأنا مدعى
لرى روض المحاسن من دما دمعى كم
افتكر فى احتجابك واشتكى وانعى
سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح
قولى لى بحق المحبة ما سبب منعى

كل ذلك جعل البعض يطلق علي عبده الحامولى إمام المغنيين فى عصره وزعيم المجددين فى الموسيقى المصرية.

وإلى جانب ذلك فقد استطاع عبده الحامولى أن يقنع صفوة من الأدباء والمشاهير أن يكتبوا له كلمات الأغانى مثل إسماعيل صبرى باشا والشيخ عبدالرحمن قراعة مفتى الديار المصرية ومحمود سامى البارودى باشا والشيخ نجيب الحداد وأديب اسحق والشيخ على الليثى نديم الخديو إسماعيل والسيد على أبو النصر ، ومصطفى بك نجيب ، وسليمان بك نجيب ، كما ألفت له أيضا الأديبة عائشة التيمورية يضاف إلى ذلك أنه طلب من بعض الشعراء الذين يجيدون التركية ترجمة مجموعة من الأغانى التركية إلى العربية ليستهل بها وصلاته الغنائية وكان من أهم هذه الأغانى «لحن بلبل الأفراح غنى فى رياض السندس» ، والجدير بالذكر أن عبده الحامولى كان أول من لحن وغنى قصيدة أبى فراس الحمدانى (أراك عصى الدمع شيمتك الصبر) ثم تنافس فى غنائها بعد وفاته أحد عشر مطربا .

واستمر الحامولي ينهض بالفن ويطرب الناس بإحساسه المرهف وذوقه الرقيق ، وفنه الواسع وقدرته على التصرف فئ فنون النغم مما دفع كبار رجالات الدولة العثمانية إلى دعوته وزملائه أمثال يوسف المنيلاوى ومحمد عثمان ومحمد سليم والشنتورى والبغدادى ومحمد العقاد القانونجي وإبراهيم سحلون لاحياء بعض الحفلات بقصر يلدز السلطانى بالأستانة بمناسبة عيد الجلوس السلطانى ومما يروى أن السلطان عبدالحميد من فرط إعجابه بهذه المجموعة من المطربين المصريين أراد أن يحتجزهم بصفة نهائية فى بلاطه ولم يشفع لهم من هذه الغربة سوى إدعائهم بأن كلا منهم موكل إليه خدمة واحد من الأولياء الصالحين فى مصر ، فادعى الحامولى بأنه من خدام سيدى الحنفى وذكر محمد عثمان بأنه من خدام سيدنا الحسين وأدعى العقاد بأنه من خدام الإمام الشافعى أما المنيلاوى فقد ذكر أنه من خدام سيدى الطشطوشى

فقد اعتاد عبده الحامولى أن يصعد منارة الحسين من حين لآخر ليؤذن وينشد التسابيح ويؤدى الفروض والنوافل وإذا جاء رمضان اتخذه عبده الحامولى موسما للعبادات ويؤكد ذلك ما ذكره الأديب خليل مطران من أنه سمع عبده الحامولى يؤذن فى منارة الحسين .

ويقول خليل مطران : بدأ عبده انشاده بصوت ينحدر إلى المسامع وفيه كل الوقار من خشية الله وكل الرجاء فى فضل الله وفى مغفرة الله وكان يغالب العاطفة المتدفقة من قلبه ليتدرج فى إبرازها .. والجمهور فى أثر كل وقفة من وقفاته يملأ الجو تهليلا وتكبيرا ، وقد بقى فى ذاكرتى بيتان مما أنشده عبده فى تسابيحه وهما:

يا من تحل بذكره
عقد النوائب والشدائد
يا من لديه الملتقى

وإليه أمر النـــاس عائد

بيتان من عادى الشعر ، ومن أشق ما يكون فى التلحين ، ولكن ذلك المطرب العجيب ، تصرف فى إلقائهما والترنم بهما تصرفا لايقدر عليه إلا من أوتى عبقريته مع صدق إيمانه .. وقد عقب على هذين البيتين بكثير غيرهما .. وكلها فى معنى الاستغاثة فكل مقطع يقف عنده ترتفع فى أثره الآهات من الصدور ولها دوى كدوى البحر الزاخر .

ومكث عبده الحامولى ساعة أو نحوها فى هذا الانشاد الرائع والناس وقوف تحت المنارة وحول المسجد ، وفى النوافذ والشرفات والسطوح والقاهرة كلها صامتة مصغية إلى الصوت المنطلق من منارة الحسين .

ويعقب خليل مطران على ذلك قائلا : يا الله .. رجل فى أعلى المنارة لايبدو منه إلا شبح ضئيل ، وهو الذى من أجله تتوافد هذه الجماهير المتزاحمة من الناس على اختلاف مراتبهم كأنهم فقراء ينتظرون من محسن علوى تنزيل الأقوات وتوزيع الصدقات .. لسان تتصل به نياط آلاف من القلوب لتهز بحكم نبراته أشهى الاهتزازات ولتحلق على أجنحة مصعدة إلى السموات !

لقد اهتم الحامولى بتأكيد طابع بلده والدفاع عنها حتى لو كان ذلك لايوافق أولى الأمر فى الدولة العثمانية فقد أدى انتقاده بطريقة مستترة لسياسة السلطان عبدالحميد تجاه الثورة العرابية وإصداره منشورا بعزل أحمد عرابى أدى ذلك إلى إدخاله السجن لفترة بعد أن غنى «عشنا وشفنا سنين» تلك الأغنية التى كتبها الشاعر إسماعيل صبرى بإيعاز من محمود سامى البارودى والتى تقول :

عشنا وشفنا سنين
ومن عاش يشوف العجب
شربنا الضنى والأنين
جعلناه لروحنا طرب
غيرنا تملك وصال
واحنا حياتنا خيال
كده العدل يا منصفين

وقد شارك محمد عثمان عبده الحامولى فى جهوده للارتقاء والتجديد فى الموسيقى المصرية ، فترك من ألحانه دراسات قيمة لسير النغم وأسس متينة تقام عليها صروح الفن الشرقى ، فقد وضع خططا جديدة فى تلحين الأدوار التى هزت أفئدة الملوك والأمراء والعامة وترنح من سحرها وقار الشيوخ ورقصت لها قلوب الشباب وحينئذ عرف المصريون ما للفن الموسيقى من منزلة وما لرجاله من مكانة واعتبار وأخذت الطبقة العليا فى مصر تجد متعة فى سماع الموسيقى .

والجدير بالذكر أن أول مناسبة يستمع فيها الشعب المصرى إلى ألحان المسلوب وتلاميذه أمثال محمد سالم ويوسف المنيلاوى ومحمد عثمان وعبده الحامولى والتى كانت تطرب لها النفوس أيما طرب هى مناسبة الحفلات التى أقامها الخديو

سيد درويش

صالح عبد الحي

محمود البارودي

إسماعيل لانجاله الأربعة وسميت بأفراح الانجال والتى استمرت أربعين يوما وكانت شبيهة بليالى ألف ليلة وليلة وتبارى فيها رجال الموسيقى فى وضع المقطوعات الخاصة بمناسبة أفراح انجال الخديو إسماعيل الأربعة والتى بدأت فى ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوما كاملة .

لقد كانت أفراح الأنجال بمثابة بانوراما فنية سهرت فيها القاهرة أربعين ليلة نصبت خلالها تخوت الآلاتية التى ظلت تصدح وتشنف الآذان بأعذب الألحان وكان منها تخت عبده الحامولى الذى كان يبعث فى الحضور طربا وانتعاشا ويبدو أن أفراح أنجال الخديو انتقلت عدواها إلى طبقات الشعب حيث انتشر الغناء وتعددت ألوانه فى مصر خلال تلك الفترة، فيها يذكر أن الأفراح كانت فى كل حى وفى دجى كل ليل ، يشدو فيها ويغرد فحل فحيل من فحول الغناء ، وغريد من بلابل الموسيقى الشرقية ، فهذا سرادق عرس ، وذلك حفل موسم عيد وثمة منتد لهو وحانة أنس وطرب .. تسمع هنا عبدالحى حلمى وهناك يوسف المنيلاوى ومحمد سالم العجوز .. الخ هذا بالإضافة إلى حانات وملاهى وجه البركة وروض الفرج وحديقة الأزبكية وغيرها التى يسمع فيها بهية وتوحيدة ومنيرة المهدية وغيرها .

ومن أشهر هذه الأغانى دور «الله يصون دولة حسنك» الذى كتبه الشيخ عبدالرحمن قراعة ، وتقول كلماته :

الله يصون دولة حسنك
على الدوام من الزوال
ويصون فؤادى من نيلك
ماض الحسام من غير قتال
اشكى لمين غيرك حبك ؟
أنا العليل وأنت الطبيب
اسمح وداوينى بقربك
واصنع جميل إياك أطيب

وقد سجل هذا الدور على الأسطوانات أكثر من خمسة مطربين وغناه وسجله المطرب صالح عبدالحى فى الإذاعة ودور كنت فين والحب فين الذى ألفه الشيخ الدرويش وغناه عبده الحامولى وتقول كلماته :

كنت فين والحب فين
لم يفارق لحظة عين
يا فؤاد حسبك
ربنا يحاسبك
كم تبال فيك يا غزال
فى سيوف الحاجبين

وقد سجل هذا الدور بعد وفاة الحامولى أربعة مطربين كما أخذ منه المؤلف الغنائى عبدالوهاب محمد مطلعه وجعله فى الطقطوقة التى غنتها أم كلثوم من تلحين بليغ حمدى فى عام ١٩٦٠ ويقول فيها ! « إنت فين والحب فين» .

* * *

وخلاصة القول أنه بالرغم من تأثر مدرسة المسلوب ومحمد عثمان وعبده الحامولى إلى حد كبير بالأسلوب التركى فإنهم كانوا يحملون أفكارا جديدة لتكوين مدرسة هدفها تلقيح التراث المصرى بالمدرسة التركية . وقد أوجدت هذه المدرسة طابعا مصريا خاصا بها له نكهة أصيلة ومتميزة أسهمت فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى وبقى أثرها فى فن الغناء ممتدا خاصة أن الأشكال الموسيقية الشجية العذبة التى سطروها كانت تخضع الكلمة للحن .

وظل عبده الحامولى يغنى ويطرب ويسعد مستمعيه حتى وافاه الأجل فى ١٢ مايو ١٩٠١ فحمل لواء الغناء من بعده إبراهيم اللقانى الذى يعد من أوائل من كتب المقالات والأبحاث التى تتعلق بشئون الموسيقى هذا إلى جانب أنه شارك فى رثاء الزعيم الوطنى مصطفى كامل بتلحين دور يا كامل الروح والمحاسن . ■

المسلة المصرية على
نهر التيمز بلندن

لصوص الآثار

بقلم
د. محمد إبراهيم بكر

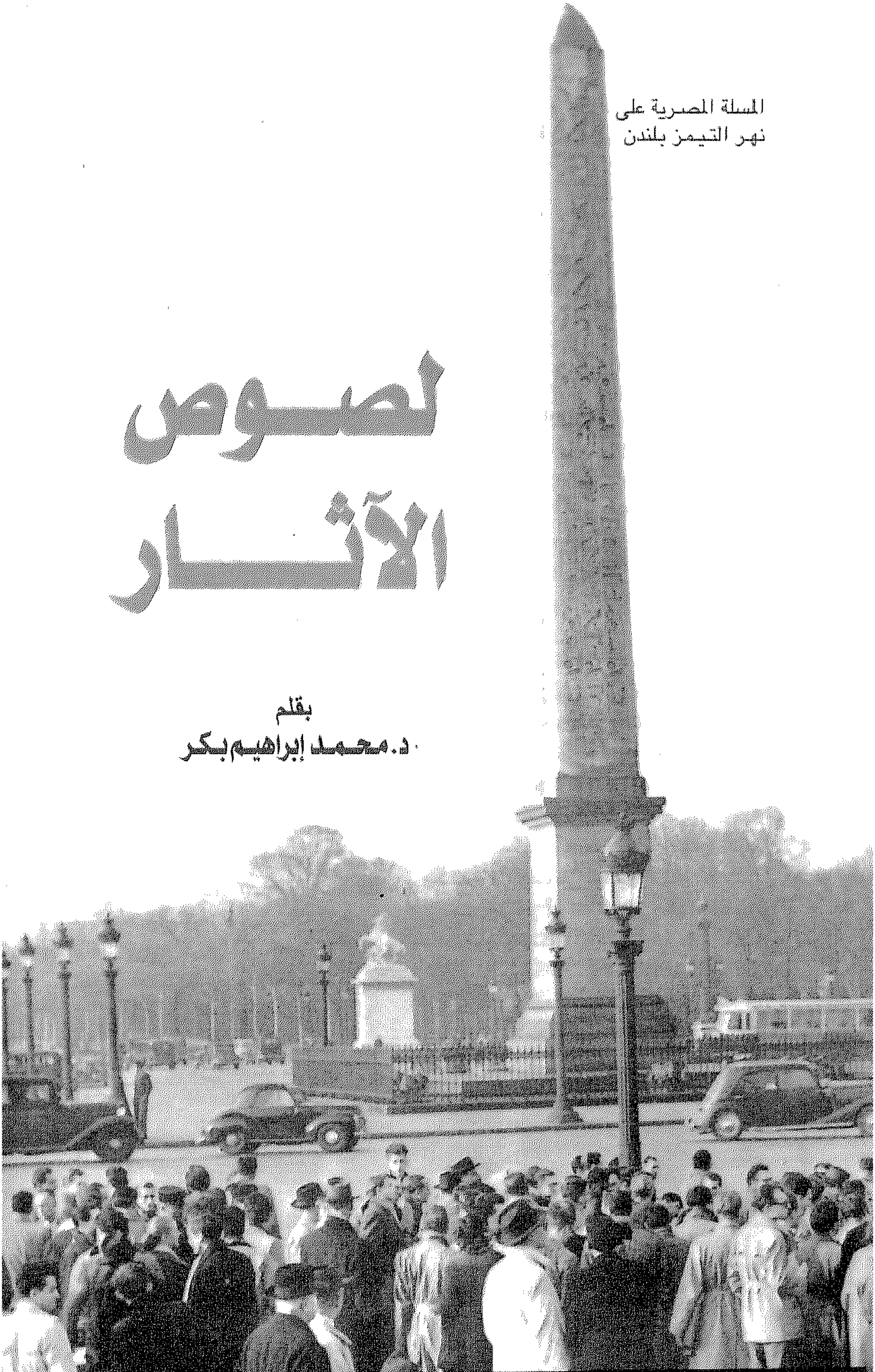

بعد اكتشاف سر اللغة المصرية أخذت الآثار المصرية تجتذب مزيدا من الباحثين الأوروبيين من فرنسا وألمانيا (بروسيا) وإيطاليا وروسيا القيصرية، واتبع ذلك الاهتمام محاولات الدول الصناعية في أوروبا وأمريكا الشمالية لتكوين مجموعات أثرية لعرضها بالمتاحف، فتألفت شبكة من عصابات دولية لسرقة آثار مصر تحت شعار جمع التحف والمحافظة عليها ودراستها، وهى فى الواقع بعيدة كل البعد عن الأهداف العلمية أو الفنية.

كان الغرض الأساسى هو الحصول على أكبر قدر من الآثار بمختلف أنواعها، وتهريبه من مصر وبيعه لمتاحف ولأغنياء العالم الذين تسابقوا لاقتنائها ولتكوين مجموعات أثرية خاصة بهم وعرضها فى قصورهم، وفى سبيل إشباع تلك الرغبة، وسعيا وراء المكاسب المادية الهائلة تسابقت العصابات لسرقة المزيد من الآثار المصرية وتهريبها، وساهم فى ذلك قناصل الدول الأوروبية فى القاهرة والإسكندرية، وكانوا فى الأصل يمثلون بلادهم كسفراء فى مصر بل إن آلاف المومياوات تم تهريبها إلى أوروبا عندما راجت فكرة تناول مسحوقها لإطالة العمر.

هدايا الملوك

كما ساعد بعض أفراد الأسرة المالكة حديثا فى خروج آثار مهمة على هيئة إهداءات إلى ملوك وأمراء أوروبا مثل إهداء محمد على باشا مسلة معبد الأقصر إلى لويس فيليب ملك فرنسا فى مقابل الساعة المقامة أمام مبنى جامع محمد على بالق' إهداء عباس باش ' ١٨٥٥ لولي عهد النمسا الأرشيدوق ماكسميليان مجموعة الآثار التى كان يضمها أول متحف مصرى، لمجرد أنها أعجبت الأمير، ونفس الوضع ينطبق على إهداء المسلة التى أقيمت على نهر التيمز بلندن. ومن قبل قام الملوك البطالمة - الذين خلفوا الإسكندر الأكبر فى حكم

مصر لمدة ثلاثمائة عام - بنقل عدد من المسلات من مواقعها الأصلية أمام معابد عين شمس وتانيس (صان الحجر) وطيبة (الأقصر) لتعاد إقامتها في الإسكندرية عاصمة ملكهم الجديدة.

وعندما ضمت مصر للإمبراطورية الرومانية نقل العديد من المسلات المصرية لتزين ميادين روما عاصمة الإمبراطورية، أما المسلة التي نصبت بالقرب من متنزه سنترال بارك في نيويورك فقد أقيمت عام ١٨٨١م.

ونتيجة للتكالب المنقطع النظير على سرقة وتهريب آثار مصر اتخمت المتاحف الأوروبية والأمريكية بكل أنواع الآثار ونقلت إليها عناصر معمارية كبيرة الحجم جدا، وكانت في الأصل تؤلف أجزاء من معابد ومقابر مصرية، وشملت تماثيل كبيرة وصغيرة ومومياوات وتوابيت ولوحات ونقوش ورسوم وأوراق بردى مسجلة عليها دقائق الحياة المصرية على مر العصور وأدوات الحياة اليومية، امتلأت بها أقسام كاملة في متحاف ومخازن اللوفر بباريس والبريطان بلندن وبرلين وميونخ وتوبنجن وهلدسهاين وليبزج بألمانيا وتورينو بإيطاليا وبوشكين وارميتاج بلينينجراد (بطرس برج) بروسيا، والجلبتوتيك بالدنمارك وليدن بهولندا ومتحف الفن الحديث في بوسطن ومتحفي بروكلن والمتروبوليتان بنيويورك وفرير جالارى بواشنطن والمتحف الملكي بأنتاريو كندا، ومتحف الفنون والصناعات التطبيقية بفيينا في النمسا.

وأيضا .. الآثار الإسلامية

ولم تكن سرقة الآثار المصرية مقصورة على الآثار الفرعونية فقط وإنما تعدتها إلى سرقة الآثار الإسلامية من مصر أيضا، ولعله من العجيب أن يتخيل المرء أن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة لايمتلك سوى جزء من قطعة من السجاد من العصر المملوكي، في حين أن متحف الفنون والصناعات التطبيقية بفيينا بالنمسا يمتلك مايزيد على مائة وخمسين سجادة كاملة من العصر المملوكي، ويمتلك ذات المتحف حشوات (قطع خشبية) من المنبر الخشبي لجامع أحمد ابن طولون الذي صنع في العصر المملوكي ووضعه السلطان حسام الدين لاجين في عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م ولو عدنا إلى الوثائق المصرية التي ترجع إلى زمن الدولة الحديثة المصرية لتأصيل حوادث سرقة الآثار فإن المرء يرى أن رجال الملك تحتمس الثالث بعد وفاة الملكة حتشبسوت الذي عاش فترة صباه في ظلها تحت ضغط من الملكة حتشبسوت كانوا يسعون للانتقام من الملكة في صورة سرقة آثارها عن طريق محاولة طمس أسمائها واستبدالها بأسماء ملكهم، ففي المقصورة (الجنوبية) الملحقة بمعبد الملكة حتشبسوت حاول رجال الملك تحتمس الثالث أن يزيلوا أسماء الملكة من على هذه المقصورة

انتقاما منها، ونسوا أن الكلام المكتوب يتحدث بصيغة المؤنث عن الملكة، وأزالوا اسمها وأضافوا اسم الملك دون أن يلاحظوا تغيير صيغة المؤنث، وظل ذلك شاهدا على حادثة السرقة، أما بخصوص إحدى مسلات الملكة حتشبسوت التى تقع حاليا فى وسط معبد الكرنك الشهير بمدينة الأقصر فقد صعب على رجال الملك تحتمس الثالث أن يطمسوا أسماء الملكة من على مسلتها الجرانيتية، فلجأوا إلى إخفاء اسمها وألقابها بواسطة بناء حائط مربع الشكل حول قاعدة المسلة ليمنع رؤيتها نهائيا.

أما رجال الملك رمسيس الثانى الذى عاش حتى بلغ التسعين فقد بالغوا كثيرا حين سعوا فى كل أنحاء مصر يزيلون أسماء الملوك السابقين من على الآثار ويحفرون اسم مليكهم مكانها لدرجة أن اسم الملك رمسيس الثانى كاد يقابلنا فى كل مكان تقريبا.

إخفاء المقابر

وعندما تخطت الدولة المصرية كل مراحل الشباب والقوة ووهنت قواها فى نهاية عصر الدولة الحديثة أخذت البرديات القضائية من زمن الرعامسة المتأخر تتحدث عن عصابات تألفت بغرض السطو على المقابر الملكية فى وادى الملوك بالبر الغربى لمدينة طيبة عاصمة مصر حينذاك، حيث سرت شائعات أيام الملك رمسيس التاسع من الأسرة العشرين عن سرقة مقابر الملوك فى وادي الملوك حيث تقع مدافن حوالى ٦٢ من المقابر حفرت على هيئة أنفاق داخل صخور جبل طيبة الغربية فى المنطقة المعروفة باسم «بيبان الملوك» أو «وادى الملوك»، وكان الملوك قد انصرفوا عن فكرة بناء المقابر الملكية على هيئة الأهرامات نظرا لتعرضها لكثير من محاولات السرقة فى فترات الضعف السياسى، حيث كانت الأهرام تشكل منارة لجذب اللصوص تحت إغراء ما بداخلها من كنوز، ففضلوا إخفاء مقابرهم بكل ماتحتوى عليه من كنوز داخل جبل طيبة الغربى، وأمروا ببناء معابدهم الجنائزية المخصصة لإقامة الصلوات على روح الملك فى المناسبات الدينية المختلفة بعيدا عن مطلع الهضبة القريبة من الوادى الأخضر، وليس بجوار المقبرة الملكية كما كان يحدث بالنسبة للأهرامات فى عصرى الدولة القديمة والوسطى، حتى لاينكشف سر إخفاء المقبرة الملكية فى جوف جبل طيبة فى وادى الملوك، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات فإنها كانت عاجزة عن مقاومة الطمع والجشع الذى يملأ قلوب ضعاف النفوس، ففى نهاية عصر الدولة الحديثة بدأت الوثائق المصرية تتحدث عن عصابات سرقة المقابر الملكية، وتبين أن عمال الجبانة الملكية وموظفيها قد أصبحوا لصوصا للمقابر، وهم الذين كانوا يقيمون بصفة دائمة فى المنطقة الغربية بالقرب من عملهم فى حفر وإنشاء المقابر الملكية على

مر العصور.

وقد استغل حاكم القسم الشرقى لطيبة - تبعا لما سجل فى البرديات - خصومته لحاكم القسم الغربى المسئول عن حراسة المقابر الملكية، وأرسل إلى رئيس الوزراء بلاغا يؤكد وقوع السرقات، وأن غريمه حاكم القسم الغربى مشترك شخصيا فى السرقات، وأمر رئيس الوزراء بعقد المحكمة الكبرى فى قاعة العدالة بطيبة وكانت تتألف من الوزير، (والمقصود رئيس الوزراء)، ثم من طرفى الاتهام والادعاء، وكاهنين كبيرين هما الكاهن الأكبر للمعبد الجنائزى لرمسيس الثالث فى البر الغربى واثنين من الموظفين ذوى الرتب العسكرية، ومع ذلك لم تثبت إدانة حاكم القسم الغربى، ولكن السرقات لم تنقطع، فبعد ثلاث سنوات سرقت مقابر أخرى فى وادى الملوك، وقبض على ستين متهما من عتاة اللصوص، وأدينوا وكان من بينهم بعض الكهنة مثل كاهن المعبود خنسو (إله القمر) وكاهن المعبود سبك (التمساح) وكاتب خزينة آمون وعدد من العاطلين الذين قاموا بسرقة خزينة معبد الملك رمسيس الثالث وهو من أغنى المعابد المصرية إلى جانب نهب مقابر بعض الملوك.

محاولة للإنقاذ

ولما فشلت محاولات رجال الأمن فى إنقاذ المقابر الملكية من مصيرها المحتوم شرع ملوك الأسرة الحادية والعشرين فى طيبة والمعروفة بأسرة كهنة آمون فى العمل على إنقاذ مومياوات الملوك الذين سرقت مقابرهم - ولعل هذه من أقدم عمليات إنقاذ الآثار التى نعرفها، فقاموا بتجميعها ووضعها فى توابيت متواضعة بعد كتابة أسماء أصحابها، وأقاموا لها حفرة عميقة فى موقع غير بعيد من وادى الملوك «يعرف حاليا باسم الدير البحري» خلف معابد الدير البحرى وكلها أسماء لمواقع فى جبل طيبة الغربى، وهى على ارتفاع خمسين مترا من مستوى الأرض الزراعية، حيث استقرت فى مكانها آمنة، وهم الملوك سقنن رع أحد أبطال التحرير، وأحمس طارد الهكسوس، وأمنحتب الأول وتحتمس الثانى والثالث الذين أسسوا الإمبراطورية المصرية، ثم رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى والثالث من أعظم ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وظلت المومياوات فى مقبرة الدير البحرى هذه فى أمان مايقرب من ثلاثة آلاف عام إلى أن توصل إلى سرها مصادفة أحفاد أولئك اللصوص القدماء فى العصر الحديث وكانوا أربعة رجال من عائلة عبدالرسول، تمكنوا من أن يكتشفوا سر هذه الخبيئة المهمة عام ١٨٧١م، وامتدت أيديهم إليها ينزعون منها ما يمكن بيعه بأثمان كبيرة فى السوق السوداء لتجارة الآثار التى كانت رائجة بالأقصر فى ذلك الحين.

واحتفظت عائلة عبدالرسول بسرها لنحو عشر سنوات، إلى أن علمت الحكومة

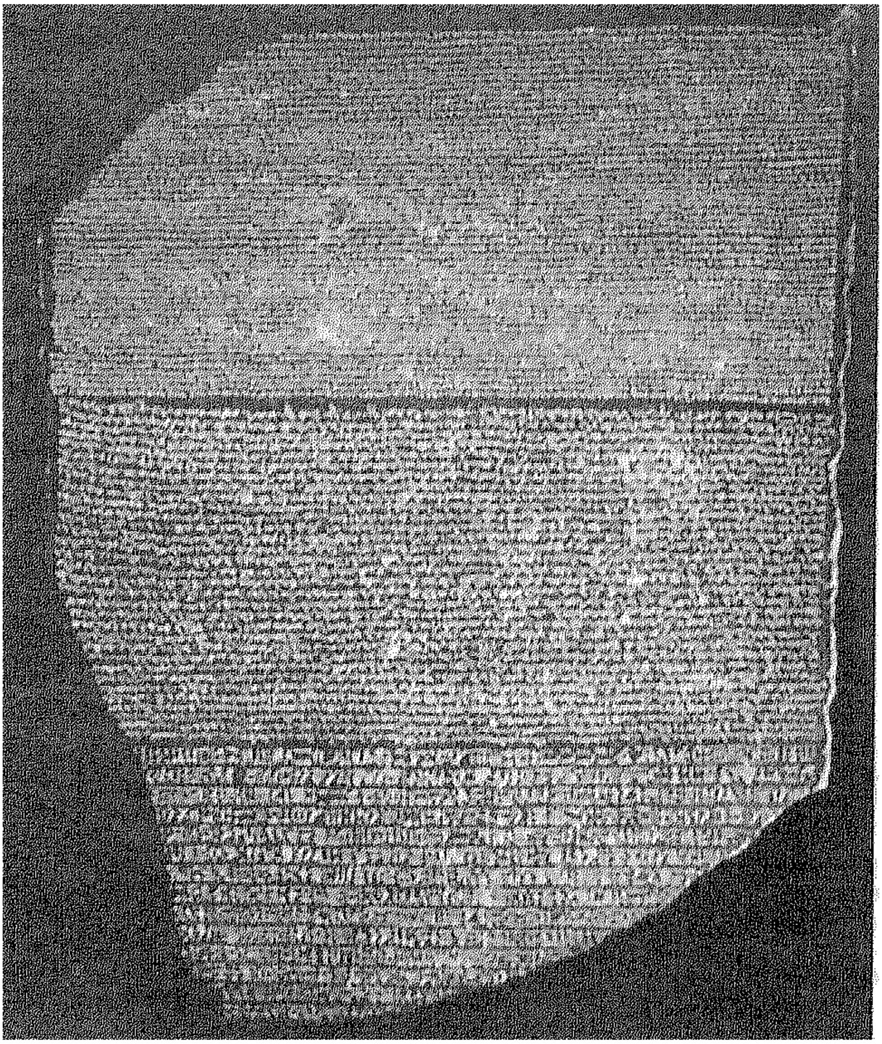

حجر رشيد ..كان اكتشافه فتحا في التعريف بالحضارة الفرعونية.. ولكننا لانملكه !

المصرية ممثلة فى وكيل مصلحة الآثار الألمانى الجنسية واسمه بروجش لأن مدير المصلحة الفرنسى كان غائبا فى إجازة بفرنسا، عندما نشب خلاف بين أفراد هذه العائلة، وهناك تم نقل المومياوات الملكية فى حرارة شهر يوليو ١٨٧١ بصعوبة شديدة من الحفرة العميقة «عرض فوهتها متران» التى تقع فى مكان صعب الوصول إليه وعلى عمق ٥٠ر١١ متر فى الصخر الطبيعى، خلف معابد الدير البحرى الخاصة بملوك الأسرتين الحادية عشرة والثامنة عشرة.

وفى موكب نيلى مهيب وصلت مومياوات عدد كبير من ملوك وملكات الدولة المصرية الحديثة مع بعض أفراد أسرهم إلى القاهرة لتستقر بالمتحف المصرى، وكان إذا مر الموكب بإحدى القرى على النيل خرج الناس يودعونه بالبكاء والنحيب كأنما هى جنازة لأعزاء لهم ماتوا حديثا.

وبالمتحف المصرى الآن حل العلماء المصريون محل الكهنة فى حفظ مومياوات

الملوك وحل الحديد والزجاج محل التوابيت الذهبية، وملىء التابوت بالغاز الخامل لحماية المومياوات من خطر البكتيريا طبقا لتكنولوجيا حديثة، وكان الملوك ينزعون إلى الأبدية، ولعلهم الآن أقرب ما يكونون إلى ذلك من أى وقت مضى.

لصوص جدد

يحز فى النفس أن اللصوص الجدد قد واصلوا نشاطهم المدمر غير عابئين بأى قيم، إلا المصلحة الشخصية والرغبة فى الإثراء السريع وبأى ثمن نظرا لزيادة الطلب للحصول على الآثار المصرية:

فريق منهم سعى بالرشوة لاعتلاء مناطق أثرية مشهورة والإقامة فيها بطريق البلطجة وشراء الذمم، كمناطق آثار الجيزة وسقارة وأخميم بسوهاج والبر الغربى للأقصر حيث وادى الملوك والملكات ومقابر كبار رجال الدولة المصرية والمعابد ذات الشهرة العالمية كالرمسيوم ومدينة هابو والدير البحرى، ومقابر الفنانين فى دير المدينة، وفى إسنا وإدفو وكوم امبو، ليتسنى لهم سرقة الآثار ونهب مايكشفون عنه خلسة، ولهم فى ذلك أساليب الثعالب فيقومون بحفر أنفاق داخل الأماكن التى اتخذوها سكنا لهم بالغش والخداع، ويقطعون ما يعثرون عليه من آثار إلى قطع صغيرة رغبة فى زيادة الربح، فيضيعون على العلماء فيما بعد فرصا نادرة للاستفادة العلمية منها لإثراء تاريخ مصر وحضارتها.

وفريق آخر يعمل على أن يبنى له مأوى بجوار المناطق الأثرية ليتمكن من أن يعبث ويحفر ويسرق كلما حانت الفرصة وإذا ضبط يلجأ إلى الرشوة، وعندما يصل الخبر إلى مسئولى الآثار يكون الاكتشاف قد تم تجريده من كل محتوياته عن طريق هؤلاء اللصوص ومساعديهم من أفراد عصابات المافيا من الحراس وبعض ضعاف النفوس من المسئولين عن الآثار.

والغريب أن هؤلاء اللصوص مهما زاد ثراؤهم فإنهم يبقون على أساليبهم الدنيئة فى شراء الضمائر وإفساد الذمم فى كل اتجاه، بل إنهم يعلمون أبناءهم نفس أساليبهم، وفى الماضى كانت البعثات العلمية الأجنبية تقوم بحفظ بعض ماتعثر عليه من آثار فى مخازن منعزلة فى المناطق النائية، ويتركونها منسية فى حراسة الخفراء فتصبح نهبا لبعض معدومى الضمير من المفروض عليهم حراستها، ويتم تبديدها وتهريبها حسب الطلب، بل إن بعضهم يخفون سجلاتها الأصلية لتضيع المسئولية تماما. أما اليوم فقد نقلت كل الآثار من معظم المخازن النائية وبنيت لها مخازن مركزية متحفية لتكون دائما تحت أعين لجان التفتيش.

انعدام التفتيش

ونظرا لاتساع رقعة الأراضى الأثرية القريبة من الأراضى المزروعة فكان يتم بالتدريج سرقة كل ماهو موجود فوق الأرض من آثار ثم تسويتها والتوسع

الزراعى عليها سنة تلو أخرى بعد رشوة الحارس ومن يسانده وتصل الآثار المسروقة إلى مندوبى تاجر الآثار الذى يمر بصفة دورية.

وكان المتبع فى الماضى عند تعيين الخريجين للعمل فى المناطق الأثرية أن يرسل الخريج إلى منطقة أثرية نائية بمرتب زهيد جدا، ويترك هناك وتنقطع صلته بمن يرعاه، وينعدم التفتيش عليه، فيقع فريسة سهلة لمافيا سرقة الآثار.

واليوم نسعى إلى تصحيح الأوضاع التى تسهم فى شيوع سرقة الآثار وتهريبها إلى الخارج، وبمساعدة اليونسكو عقدت اتفاقيات دولية تجرم سرقة الآثار وتهريبها خارج أوطانها، بل وتساعد فى استرجاع هذه الآثار طالما كانت مسجلة فى موطنها الأصلى .. وليس لأنها مجرد آثار تحمل الملامح و المواصفات المصرية فقط. واقترح تشديد العقوبات ضد سارق الآثار واعتبار السرقة جريمة مخلة بالشرف والأمانة.

تدابير حمائية

والأهم من كل ذلك أن نمنع تهريب الآثار من المنبع، بمعنى إبعاد الأهالى عن السكنى فوق أراضى الآثار تحت أى عذر وبأى ثمن، لنقطع الحبل السرى بينهم وبين مافيا تهريب الآثار. فلا معنى أن تكون مصر بلدا سياحيا ثم تسمح باعتلاء الأفاقين لمناطق آثرية بأكملها بالمبانى العشوائية، والاقتراب من أهم مناطق الآثار فى العالم فى الجيزة والأقصر مثلا بإقامة العمارات التى تخفى أهم ماتفاخر به مصر أمام العالم تحت دعاوى باطلة ظاهرها مصلحة المواطن وباطنها العذاب والخراب.

والتساهل مع عصابات اللصوص والسماح لهم بتجريد مصر من ثروتها الأثرية إلى الأبد هو الطامة الكبرى فيصبح الهرم الأكبر مجرد ميدان تحيط به المبانى من جميع الجهات .. ووداعا للسياحة، وهناك من يقول بأن المصريين القدماء تركوا لنا هذه الآثار كصدقة جارية، لنعيش على ريعها من السياحة منعمين إلى مشاء الله، فهل نحن فعلا جادون فى الحفاظ عليها؟ وإذا كنا نريد أن يزيد دخلنا من السياحة أضعافا مضاعفة ليعم الرخاء فلا مفر من حماية الآثار، وإبعاد الأخطار عنها، وأهم هذه الأخطار هو تصرفات بعض الأفراد فى الانخراط فى عصابات سرقة وتهريب الآثار، فهؤلاء اللصوص حين تزداد ثرواتهم يمعنون فى غيهم وفى شراء ضمائر ضعاف النفوس فيعم خطرهم.

ونحمد الله أن أيدى رجال الأمن والمخلصين من رجال الآثار قد استطاعت الوصول إلى بعض كبار اللصوص فى الآونة الأخيرة، وهذه علامة إيجابية فى سبيل مانسعى إليه جميعا للقضاء على ظاهرة سرقة الآثار وتهريبها للخارج أو الحد منها. وهذا أضعف الإيمان بحب الوطن.

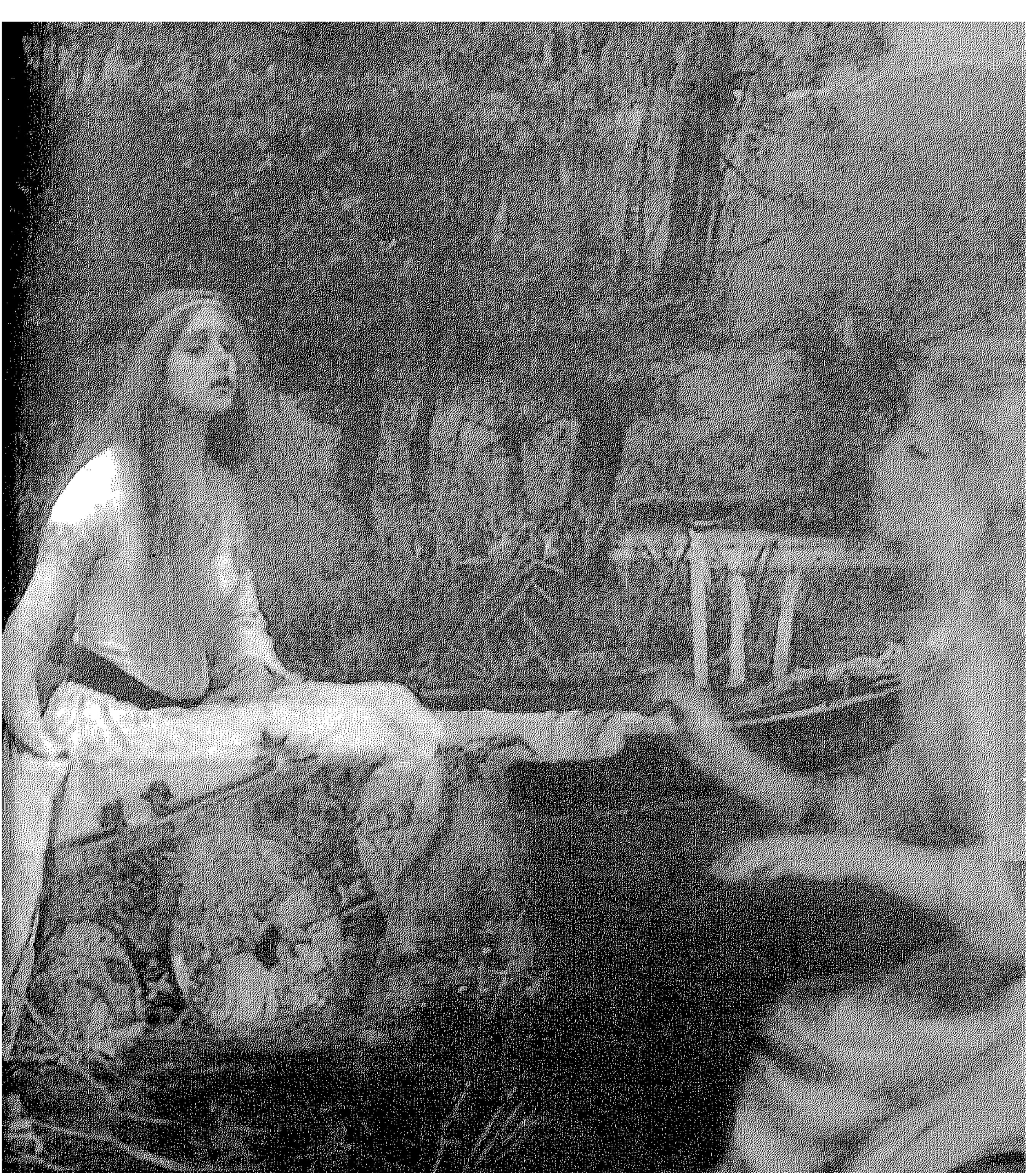

قصة قصيرة

امرأة مرحة

بقلم : نعمات البحيرى

حدثتني صديقتي النوبية في السابعة صباحا - نفس توقيت بائعي اللبن والجرائد وباصات المدارس - بأن أترك كل ما يشغلني وأذهب لرؤية ذلك الفيلم الأمريكي الجديد، سمعت عنه من صديقات كثيرات ولم تمنحني إحداهن فرصة هائلة للحماس بمثل ما فعلت صديقتي النوبية هذا الصباح ..

خرجت مبكرا وأنا أبدو لنفسي إمرأة شديدة المرح وفرحت لتلك الحالة التي صرت أبدو عليها رغم عوامل الضجر والملل وفقدان الرغبة في عمل أي شئ جديد. ملأتني هذه الحالة في صباح الأمس وصباحات كثيرة مرت .

أخبرتني جارتي التي تشاركني نفس الإحساس بالملل والضجر وفقدان الرغبة في عمل أي شئ جديد بأن أختها التي نزلت عليها ضيفة لثلاثة أيام ملأتها بالملل وضاقت بضيافتها سوف تنزل وسط البلد بسيارتهاهذا الصباح، وعلى الركوب معها لتجنب مشقة البحث عن تاكسي فارغ، يسمع سائقه موسيقى ناعمة ويقبل أن أنفرد وحدى بالسيارة حتى وسط البلد دون أن يزاحمني براكبين آخرين أو يفجر الكاسيت وأذنيي بصوت جهوري لمطرب لا أرغب في سماعه ..

غير أن المسألة لم تختلف كثيرا عما آلت إلليه الحال والأحوال مع أخت جارتي التي لم تحدثني عن أختها إلاّ بكثير من الشكاوى والمرارة أسلمت لها أذنين منزوعتين من حاسة السمع وشردت مع تفاصيل الصباح الغريب والذى لم أستشعر معه إلاّ بقدر هائل من الصفاء وأنا أرى تجلي الطبيعة بأشجارها الوارفة على جانبي الشارع، وبمشروعات صغيرة للحب بدأها طلاب فارين صباحا من مدارسهم وأفسدها عليهم الباعة المتجولون والمتسولون .

تجاوزت بالفعل مشكلة ثراء التفاهة التي صارت تعتري أغلب الناس حين ينفردون بآخرين لا يعرفونهم على نحو جيد . شكرت أخت جارتي التي أفاضت وأفرطت في استخدام أذنيّ كسلة لمهملات حياتها اليومية وترغب في التخلص منها بالحكي .. مجرد الحكي ولأى بشر تلقاه.

أمام مبنى الأوتيل الفخم أوقفني موظف الأمن الأنيق وهو يبتسم ابتسامة غير مبررة بالمقارنة بما تحمله يده الأخرى من سلاح ، وحين مررت من الحاجز الأمني المصنوع بدت لي متعة متاحة أن أصعد الأدوار السبعة بالمصعد الكهربائي فوقفت على الشريط الكاوتشوكي وراح يصعد بي دورا وآخر حتى أوقفني لتوى أمام شباك التذاكر . قطعت تذكرة وكتبت لي الموظفة الأنيقة الباقي على ظهر التذكرة . ولا أدرى لماذا راحت الموظفة تضحك حينما انحنيت وأخبرتها أنني لوحدى ويجب عليها أن تأخذ هذا في الاعتبار . تركتها لضحكاتها الهستيرية ومضيت أبحث عن مكان

للانتظار . حين دخلت الكافتيريا جاء موظف أنيق ببيونة حمراء يعتذر في أدب جم أن الوقت مبكر للغاية ولم وتبدأ الكافيتريا نشاطها بعد واكتشفت أنني قطعت تذكرة في فيلم آخر غير ذلك الذى أوصتنى برؤيته صديقتي النوبية .

جريت إلى الموظفة التى ظلت تضحك حين رآتني أمامها فأخبرتها أنني راغبة في دخول الفيلم الذى في القاعة الأخرى ، وحينئذ توقفت عن الضحك وأخبرتنى أنه على انتظار أى وافد يشترى منى التذكرة لم يمر وقت كثير حتى انهال الوافدون على هذا الفيلم تحديدا، فقد كان الفيلم من نوع الإثارة والآكشن .أخذت النقود من الموظفة وذهبت إلى شباك تذاكر القاعة الأخرى.

كان الجالس فى شباك التذاكر شابا نحيلا يشبه فى نحوله المفرط رقبة الأوزة، أعطيته النقود وطالبته فى رقة متناهية أن ينتقى لى مكاناً يليق بامرأة وحيدة .نظر الشاب إلىّ محدقاً وانفجر بالضحك وأعطانى التذكرة لم يشأ يتحدث قليلا إلى زميلته السمراء العجفاء والتى تشبه قردا أفريقيا حتى أفرطت هى الأخرى فى الضحك ..

على باب القاعة أخبرت «البلاسير» بضرورة انتقاء مكان ينأى كثيراً عن الناس فإذا بالرجل يضحك وتهتز البطارية التى فى يده، يضئ بها طريقه داخل القاعة. كان شابا نحيلا هو الآخر، غير أنه كان يشبه رقبة الزرافة جلست فى مكانى النائى تماما عن الصوت حيث أوحى لى المكان وأنا أشعر بدهشة بلا حدود من ذلك الموظف السفروت الذى يشبه رقبة الأوزة وله عينان تشبهان عينى الإنسان المغولى وراح يفرط فى الضحك ولا

أدرى لماذا. كذلك دهشت من ضحكات الموظفة السمراء العجفاء وضحكات البلاسير الذى تقدمنى وأنا أتوجس من المبلغ الصغير الذى دسسته فى يده ليمنحنى مكانا آمنا يليق بامرأة وحيدة ..

كانت الفقرة الإعلانية قد بدأت عن سجائر وبارفانات وسيراميك وأفلام أخرى قادمة فى هذه القاعة وفى قاعات أخرى، لأول وهلة ضقت بالمكان الذى أجلسنى فيه البلاسير فهو بعيد بشكل مبالغ فيه عن الناس، حتي أنني لم أسمع مجرد الهمس أو حتى الأنفاس شعرت بالرغبة فى الاقتراب من البشر ولتحرق هذه الوحدة التى أدمنتنى وأدمنتها مرغمة وطمانت نفسى أننى بعد انتهاء الإعلانات ومع بداية الفيلم سوف أنتقل بنفسى دون مساعدة البلاسير للجلوس وسط الناس وليحدث ما يحدث، فأنا الآن لست فى حاجة إلى صمت المقابر هذا، ولأربأ بنفسى من أشجار الأسى التى تثمر حولى

وأينما أذهب صمتا وجدباً وضجراً ..

توخيت الحذر في النظر يمينا ويسارا وصوبت عيني في اتجاه الشاشة التي لم تفصح سوى عن اعلانات السجائر والمياه الغازية والبارفانات وأدوات التجميل وتبييض البشرة وإطالة الرموش والشعر والأظافر والرقبة والسيقان والعمر. انتهت الفقرة الإعلانية وأضيئت أنوار الصالة وكان هول المفاجأة أكبر من أن أصدق ما حدث وما يحدث. وإمعانا في التأكد أدرت رأسي إلى الخلف وأمعنت النظر بحثا عن بشر غيري في الصالة ولم أجد .

في البدء توجست من أن أكون قد دخلت قاعة أخرى بطريق الخطأ غير تلك التي سيعرض بها الفيلم، فتحركت لتوي وتجاوزت الفراغ الموجع لأسأل «البلاسير» رقبة الزرافة الذي كان جالسا إلى جوار موظف شباك التذاكر «رقبة الأوزة» والموظفة السمراء العجفاء «وجه القرد»

يشاركهما الضحك والثرثرة وارتجال نكات ساخرة ..

أكد لي الموظف أنها القاعة حقا، وأن الفيلم سيعرض بعد قليل فعدت إلى مكاني وقد انتشرت في المكان موسيقى خفيفة..

كان فاصل موسيقيا ناعما للغاية، يقترب على نحو ما من فالس الدانوب الأزرق أو سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن. اقبل أن أصل إلى مقعدي الذي أشار إليه رقبة الزرافة، نظرت إلى الصالة التي تخلو تماما إلاّ مني، وتخيلت أن هناك آخرين في التواليت أو خرجوا لتوهم إلى الكافيتريا إلا أنني لم أجد أحداً . تذكرت جيدا أن ضحكات رقبة الأوزة ورقبة النعامة ووجه القرد لم تكن إلّا سخرية مني حين طلبت مكانا بعيداً لأنني وحدي

فكرت أكثر من مرة في مغادرة المكان، لكنني وفي لحظة تأملت القاعة بأضوائها المبهجة، وموسيقاها الناعمة، والستائر البرتقالية المسدلة، وأناقة المكان وتفاصيله استشعرت قدرا من الزهو، فقد أتاني إحساس بأن الحفل خاص بي وحدي راق لي التنقل بين مقاعد القاعة كلها وأنا أتسمع جيدا إلى الفاصل الموسيقي، ثم استشعرت بجسدي يرتعش مع نغمات الموسيقى وأنا أتحرك وأجوب الصالة رقصا وزهوا في كل الاتجاهات مع نغمات الموسيقى .

أغمضت عيني تماما ورحت أراقص شخصا وهميا لا أعرفه، كان يجذبني في اتجاهه بعيدا عن أصوات وضحكات رقبة الأوزة ووجه القرد ورقبة الزرافة حتى بدأ الفيلم. ■

رمسيس يونان

(١٩١٣ - ١٩٦٦)

رائد السيريالية فى مصر

بقلم
د. صبرى منصور

حظيت مصر خلال فترة الأربعينات والخمسينات من القرن الماضى بظهور كوكبة نادرة من الفنانين التشكيليين الذين أولوا للعامل الثقافى والفكرى فى تجربتهم الإبداعية أهمية قصوى ، فى وقت كان فيه المجتمع الثقافى مازال ينظر إلى الفنان التشكيلى على أنه مجرد صانع ماهر ، يعتمد فى عمله على موهبته التلقائية وأدائه الحرفى الماهر. وتلك الكوكبة الفريدة من الفنانين هى التى أسست الجماعات الفنية العديدة التى توالى ظهورها فى تلك الفترة، وصاغت بياناتها المنشورة التى تحمل فكر أصحابها الفنى وآراءهم فى الفن مصحوبة بتوجهاتهم السياسية والاجتماعية حين ربطوا ما بين الفن وحركة المجتمع ، موضحين دور الفن الذى يمكن أن يكون فاعلاً ومؤثراً فى تغيير وعى الناس إلى الأفضل ، ولقد جذبت تلك المجموعة الانتباه نحو الفن التشكيلى وقضاياه ، ومن يطلع على المجلات والمطبوعات الثقافية خلال تلك السنوات فسوف يدهش للمكانة الرفيعة التى احتلها الفن التشكيلى ضمن منظومة الثقافة المصرية.

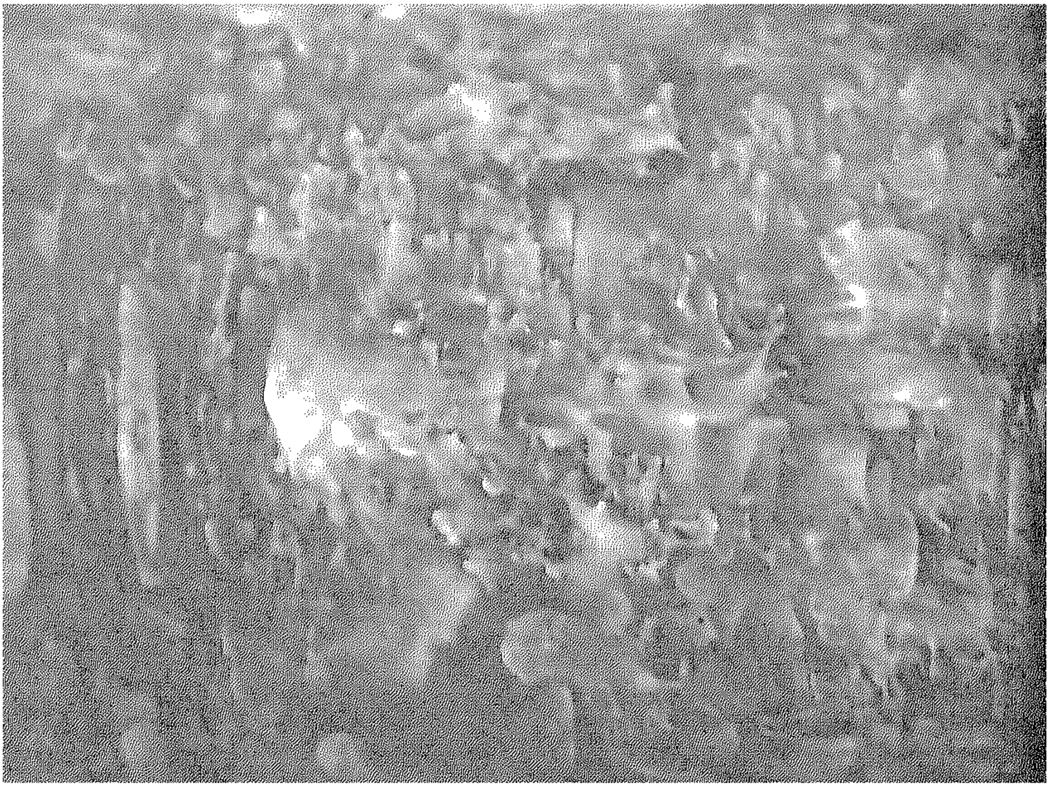

انتصر رمسيس يونان للسيريالية وأساسها النظرى القائم على مذهب فرويدفى العقل الباطن وتحليلاته للأحلام والأساطير

ومن أبرز هذه المجموعة كان المصور رمسيس يونان الذى جسد نموذجاً متميزا للفنان التشكيلى المثقف الذى يعمل عقله وفكره فى إبداعه ، ويختار توجهاته الفنية بعد فحص ودراسة واستيعاب لما يدور على الساحة الفنية المصرية والعالمية من اتجاهات وأساليب ، وهو يكشف فى سن مبكرة عن اهتماماته النظرية الثقافية عندما شارك فى جماعة الدعاية الفنية التى أسسها حبيب جورجى وحين أصدر مطبوعته «غاية الرسام العصرى» عام ١٩٣٨ وهو فى سن الخامسة والعشرين ، حيث يستعرض فيها - بفهم ووعى - أهم الاتجاهات العالمية وما استحدثته من أفكار وأساليب، ويتفهم دواعى ظهورها ومعالم تميزها ، كما يقارن بين الاتجاهات وبعضها موضحا أوجه التشابه والاختلاف ونواحى النقص والقصور . وهو يدعو فى مطبوعته إلى النظر فى رسالة الفنان العصرى فى عصر العلم الذى أتى باختراعات كان لها تأثيرها

ليس فقط في الوسط الذى نعيش فيه ، وإنما كان لها تأثير أيضا على نفوسنا ذاتها ، ويعرض للاتجاهات الحديثة التى استطاعت التعبير عن التغييرات الجديدة وخاصة التكعيبية والحوشية والتجريدية والسيريالية ، ويستشهد بآراء أعلامها أمثال المصور التكعيبى أوزانفان حين يقول «فيما مضى كان الرسام مستخدما فى وظائف عدة ، فكان خادما لرجل الدين ، وخادما للأمير ، وللقاضى ، وللقائد ، وللمربى ، وللصحفى ، وللقصاص .. أما الآن وقد اخترعت أدوات جديدة (الفوتوغرافيا والمطبعة) تؤدى عنه هذه الوظائف ، فإنه يجد نفسه ارتفع إلى مصاف الشعراء الأحرار» ويؤمن رمسيس يونان مع التكعيبيين بأن الرسم العصرى يجب أن يبتعد عن الحقائق ، ثم يعرج فى مطبوعته على نظريات السيكولوچيين أمثال فرويد وأبحاثهم التى تناولت النفس البشرية وحاجاتها وميولها ، إذ رأى أن محاولة فهم طبيعة الفن يجب أن تكون مسبوقة بدراسات للنفس الإنسانية ونزعاتها ، وأن الفن يجب أن يكون قادرا - كالأديان - على إيجاد الحلول لبعض المنازعات النفسية ، فهو بذلك يساعدنا على الوصول إلى حالة من السلم والهدوء النفسى .

وينتصر رمسيس يونان فى مطبوعته للمدرسة السيريالية وأساسها النظرى الذى يقوم على مذهب فرويد فى العقل الباطن وتحليلاته للأحلام والأساطير ، إذ كشف فرويد عن مستودع زاخر يجد فيه الرسام العصرى مادة غزيرة موحية . ثم يستعرض الطوائف التى تنتمى إلى السيريالية ما بين واحدة توجه جهودها إلى الجمع بين المتناقض والغريب من الأشياء ، ورأى فى ذلك تكلفا فيه من براعة العقل الواعى ومهارته أكثر مما فيه من خيالات العقل الباطن ونزواته ، وطائفة أخرى تمارس ما يسمى «بالرسم الأوتوماتيكى» الذى يحاول فيه الرسام - دون اعتماد على تصميم مسبق - أن يجرد نفسه من رقابة العقل الواعى لتنساب خيالات عقله الباطن عفوا وارتجالا ، وهناك طائفة ثالثة تحترم التصميم والإنشاء وتلتزم بمذهب الحقيقة النفسية ، وهى أكثر الطوائف تجسيدا لمعنى السيريالية التى هى فى صميمها دعوة لثورة اجتماعية أخلاقية قبل أن تكون مذهبا فنيا ، وهو ينهى مؤلفه برأى المثال والرسام السيريالى «هنرى مور» بأن «عناصر التصميم ضرورية لقيمة العمل الفنى ، ولكن فى رأيى أن العناصر الإنسانية النفسية لها أكبر الأهمية أيضا ، فإذا امتزجت العناصر المجردة والعناصر الإنسانية فى عمل فنى كان له دون شك معنى أعمق

ساهم يونان مع جماعة «الفن والحرية » في إثارة الحياة الثقافية بالأشكال الغريبة التي سادت أعمالهم.

وأكمل ».

وكل تلك الأفكار التى وردت فى مطبوعة رمسيس يونان عن الرسام العصرى كانت هى القاعدة التى انطلق منها سواء فى إبداعه الفنى أو فكره النظرى ، وظل مخلصا لها عاملا على انضاجها طيلة حياته الفنية، وهي التي دعته إلى تكوين جماعة «الفن والحرية» عام ١٩٣٩ مع جورج حنين وفؤاد كامل وكامل التلمسانى ، والتى أقامت أول معارضها «الصالون الحر» عام ١٩٤٠ حيث ضم صورا تعد ثورة على النظام والجمال والمنطق التقليدى الذى كان سائدا حينذاك فى المعارض الفنية.

تبنى السيريالية

وهكذا وجد رمسيس يونان ملاذه الفكرى وضالته الفنية فى الاتجاه السيريالى الذى كان وليدا فى أوربا - حوالى عام ١٩٣٨ - وأبدع وفق منطلقاته وتبعا لتوجهاته، وآمن بأنه الاتجاه الذى يمنح خياله حرية الانطلاق بلا حدود .

ولقد ساهم رمسيس يونان مع جماعة «الفن والحرية» فى إثارة الحياة الثقافية من خلال التعبيرات المستفزة - مثل عنوان منشورهم الذى صاحب معرضهم الأول عام ١٩٣٨ «يحيا الفن المنحط» - وكذلك بالأشكال الغريبة المشوهة التى سادت أعمالهم ، معتبرين ذلك نوعا من الثورة الحقيقية فى عالم الفن الحديث نقلوا لواءها من الغرب إلى القاهرة ، محدثين صدمة ثقافية لمجتمع

مـازال يخطو خطواته الأولى فى تقـبل الفن التـشـيكلى حـتى فى أشكاله التقليديه، وينظر بعين التوجس والريبة إلى تلك الأعمال التى ليس لديه أى معيار نقدى للحكم عليها وتقديرها .

ولقد جسد رمسيس يونان فى أعماله عـالما غـريبـا مليـئـا بالأشكال المأسـاوية المحطمـة ، وبأشـخـاص مـشـوهـين فى تكوينات غـيـر مـألوفـة ولاتنم عن مكان أوتشى بزمان ، فهى خارج إطار الواقع فاقدة لأى انتماء ، وتبرز أجواء أسطورية تنطلق من أعـمـاق اللاشـعـور والعـقل البـاطن ، ومن أشـهـر أعـمـال تلك الفـترة الأولى من إنتـاجـه الفنى لوحـتـا «على سطح الرمـال» و «شكل سلبى» على أن رمـسيس يونـان لم يشـغله التـعـبيـر عن المضمون السيريالى عن الاهتمام بعنصر التصميم والبناء ، وأعماله المبكرة تعكس وعيا بقيمة التصميم وقدرة على التشكيل بحس كـلاسيكى رصين . ولكنه ظل يدور فى فلك السيرياليين الأوربيين وطريقتهم فى الصياغة الفنية واختيار العناصر ، فهناك ملامح لاتخطئها العين تقترب من أعمال سلفادور دالى كما فى لوحته «على سطح الرمال» أو أعمال «ماكس ارنست» كما فى لوحته «دون كيشوت» .

اكتمال التجربة السريالية

ولقد قضى رمسيس يونان حوالى تـسـع سـنـوات (١٩٤٧ - ١٩٥٦) فـى فـرنسا ، وعـاد إلى مـصـر بعد العـدوان الثلاثى حيث أتيحت له فرصة مواصلة إبداعه الفنى بعد أن حـصل على منحـة التـفـرغ ، ومنذ عـودته وحـتى وفـاته اسـتطاع أن يبلور رؤيتـه الفنيـة وأن يقـدمها خـالصـة نقيـة ، عميقة واثقة ، مشحونة بالإحساس الصادق والخبرة الفنية التى صقلتها التجربة عبر السنين، وهو فيها لم يزل سيرياليا حتى النخاع ، يستمد صوره وأشكاله من أعماق الذات وأغـوار النفس ، ولاشك أنه كـان لديه قـدرة فـائقـة على الغـوص داخل مكامن بعـيدة يسـتـخـرج منها العناصـر التى لاشبيه لها ، وينظـمـها ويضـئيها بضوء سـحرى غـامض ، فـيضـفى على لوحـاته سـحرا أخـاذا يمسك بتلابيب الإحساس والشـعـور ، ويدفع المرء نحـو عـالم أسطورى ينتمى إلى أزمـان سـحيـقة . ويؤكد الفنان فى إبداعه الجديد أسلوبا مميزا ومستقلا عن أى سيريالى آخر ، ورغم أنه يهجر عالم التشخيص إلا أن عناصـره تظل توحى بأشكال وعناصـر مـبـهـمـة ، تلك الأشكال والعناصر التى تتوالد على سطح اللوحة خالقة تفاصيل تثـيـر الرؤية وتشحـذ الخـيـال ، وكل ذلك يأتى فى صياغـة تشكيلية محكمـة من خلال البناء الفنى المتماسك ، وكذلك من خـلال المهـارة الفـائقـة التى يعـالج بهـا أسطح اللوحات وحسـاسيته فى تخليق

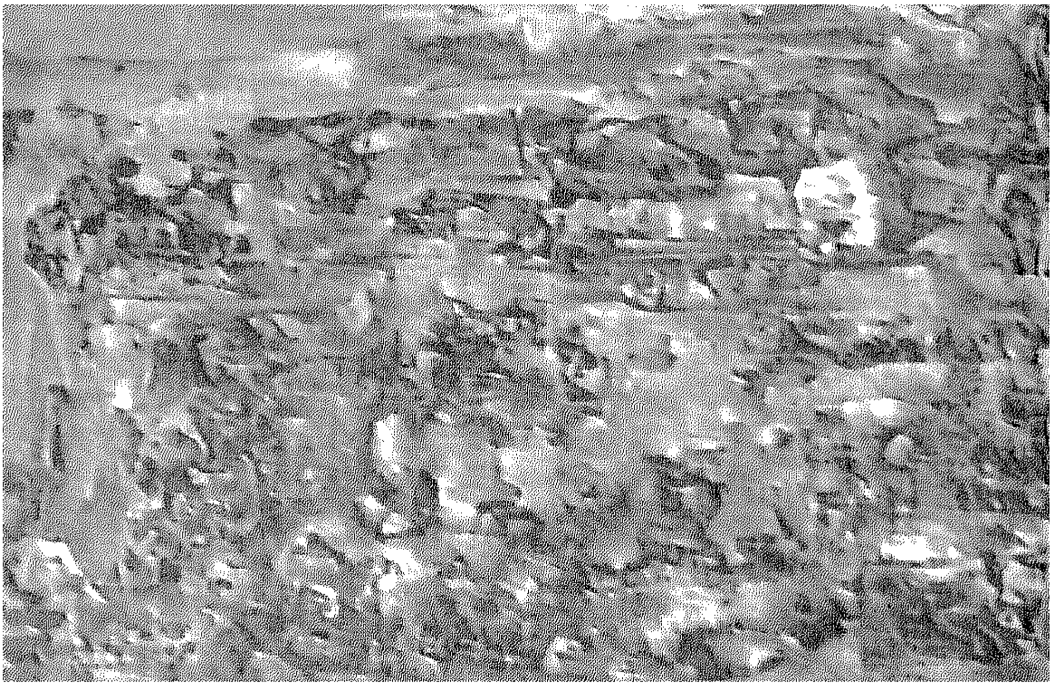

في أعماله ملامح لا تخطئها العين تقترب من أعمال سلفادور دالي أو ماكس أرنست

درجات لانهائية رغم سيطرة اللون الواحد سواء كان لونا بنيا أو رماديا ، وهو في النهاية يكشف في إبداعه الجديد النقاب عن مصور بارع لاتأخذه الأفكار والمضامين الأدبية بعيدا عن أصول فن التصوير كوسيط فني له معالجاته وتقنياته الخاصة .

الأفكار النظرية

ولقد عرف الناس رمسيس يونان من خلال كتاباته التى قدم فيها مدارس الفن الأوربى الحديث وعرض أفكارها وآراء أصحابها ، وخاصة المدرسة الحوشية والتكعيبية والسيريالية والتجريدية ، وكان لثقافته الموسوعية أثرها الواضح على كتاباته ، فهو ملم بمعالم الفكر الفلسفى والمسرحى والأدبى ، ودفعه ذلك إلى ترجمة بعض المؤلفات الطبيعية فى الغرب مثل ترجمة «كاليجولا» لالبير كامى و«الجحيم» لرامبو، كما شرع قبل وفاته فى ترجمة مؤلف شهير لأندريه مالرو «تشكل الآلهة» ، بالإضافة إلى مقالات عديدة تتصل بقضايا الفن والثقافة ، وهو فى كتاباته النظرية يقدم نموذجا جديرا بالاحترام حتى لو اختلفت معه فى وجهة نظره ، ويتحلى بنظرة نقدية موضوعية ويتمتع بأسلوب مفهوم ، وليس هناك أدل على موضوعية نظرته من كل ذلك التقدير الذى منحه لأعمال المصور محمود سعيد الذى كان أسلوبه تشخيصيا ذا صلة وثيقة بالواقع ، ولكنه واقع جديد أدرك

ملامحه رمسيس يونان بحساسيته النقدية ورأى فيه نموذجا للصورة الأسطورية فى الفن المصرى الحديث، كما يقول عن فنه أنه «ليس مجرد هندسة وأوزان وقوة وامتلاء ، وإنما هو فوق ذلك مذاق وعطر وسحر» كما كان يرى بأن الضوء عند محمود سعيد «ينبع من جوف الكون أو من أغوار النفس ليلهم وينفث في الروح، ويصوغ الكائنات رموزا تهمس بالسر الدفين». وهو في النهاية يضع محمود سعيد- بجرأة على التقييم لجيل الرواد - فى موقع الصدارة من هذا الجيل لأنه «كان صاحب شخصية فنية ، وأبرز وأشد استقلالا ، ويتعذر علينا أن نجد له شبيها» .

ومنذ أكثر من أربعين عاما تناول رمسيس يونان مشكلة النقد الفنى التشكيلى فى مصر حين رصد انصراف المثقفين عن العناية بالفن المعاصر وكأنه لايمت بصلة إلى عالم الثقافة ، وما أدى إليه ذلك الانصراف من تولى أصحاب الحظ الضئيل من الثقافة الحديث عن فنانينا ومعارضنا فى المجلات والصحف السيارة « فقد أصبح فى وسع هؤلاء الكتاب أن يقولوا ما يشاءون دون رقيب ، بفضل غفلة المثقفين عما يكتبون ، فإذا أضفنا إلى هذا القصور المبدئى ما قد تدفع به الأهواء أو الأغراض الشخصية فلنا أن نتصور بعض ما ينجم عن ذلك من عبث بالقيم الثقافية الحقة ، وتشويش الأذهان ، وخلط بين الغث والثمين من انتاجنا الفنى» وهو يطالب المثقفين - وخاصة الأدباء والشعراء منهم - بالالتفات إلى نشاطنا فى ميدان الفنون التشكيلية بحكم أن النقد الفنى فرع من فروع الأدب ، وعليهم أن يمهدوا لظهور الناقد الفنى المتخصص حتى لايظل النقد الفنى وقفا على الأدعياء والمتشدقين.

ويتناول رمسيس يونان إشكالية المحلية والعالمية فى الفن ، وهو يؤكد أن الفن فى هذا العصر أصبح دولى الطابع، وأنه على الرغم من بعض الاختلافات بين أساليب الفنانين فى أوطان عديدة فإن الذى يجمعهم هو اعتناقهم للغة واحدة هى لغة الفن الحديث . وهو يرى أنه قد حدث انقلاب خطير فى حياة الإنسان على مستوى العالم ، وهو التحول من حضارة الزراعة والحرف اليدوية إلى الحضارة الصناعية، وقد أثر هذا الانقلاب على حياة الإنسان ليس فقط من حيث أحوال المعيشة وإنما امتد هذا التأثير لنظرته إلى الوجود وعقائده وقيمه وموقفه من الكون والطبيعة ، ولم يكن عجيبا أن يعود الجيل الجديد من الفنانين إلى اعتناق الفن الحديث ،

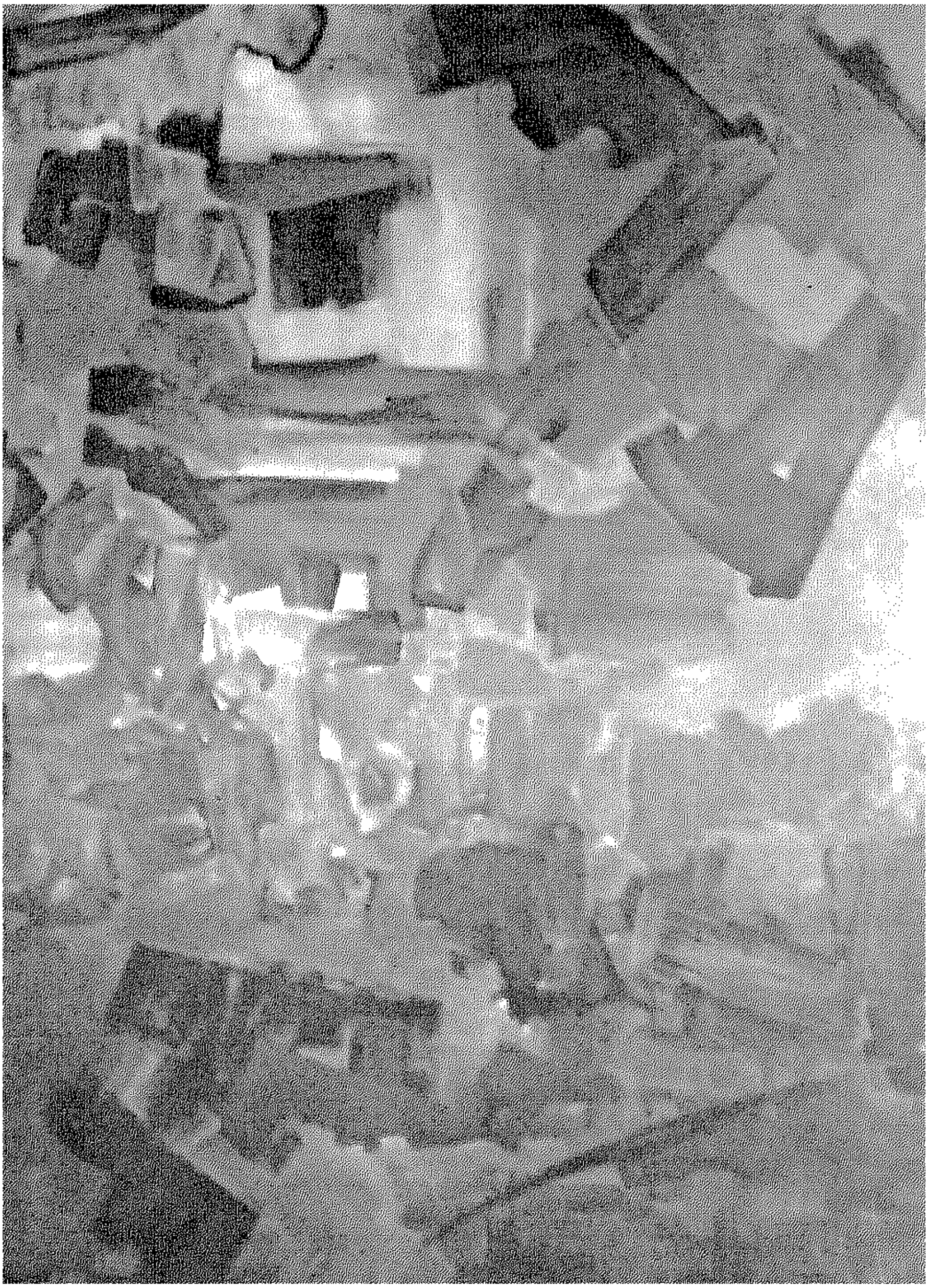

رغم أنه هجر عالم التشخيص فإن عناصره تظل توحي بأشكال مبهمة تثير الرؤية وتشحذ الخيال

كما لم يكن من العجيب أن تضمحل تلك الدعوات من أجل احياء تقاليد قومية فى الفن ، ووجهة النظر هذه والتى تبناها رمسيس يونان بالفعل فى إبداعه الفنى - الذى جاء منقطع الصلة بتراث بلاده وسياق تاريخها الفنى - مازالت فى حاجة إلى فحص وتمحيص وإعادة النظر فيما تستند إليه من أسانيد فكرية وثقافية وخاصة حين تدعو إلى فقدان الهوية والاستقلالية الفنية وتلغى إمكانية التميز والتفرد ، كما أنها تتعارض ويتناقض مع الموقف النقدى لرمسيس يونان نفسه حين أشاد باستقلالية محمود سعيد وقدرته على التميز عن الآخرين وامتداده بالجذور الفنية الراسخة للفن المصرى.

وعلى الرغم من هذا التناقض فى الموقف الفكرى لرمسيس يونان ، وعلى الرغم أيضا من أنه كان أكبر داعية للفن الأوربى الحديث فى مصر ، إلا أنه يظل فى رأينا نموذجا يقتدى به ، إذ كان مصوراً مبدعا مرهف الحس عميق الرؤية، ماهر الأداء ، فى نفس الوقت الذى كان فيه كاتبا ناقدا جادا عميق الثقافة مخلص العطاء ■

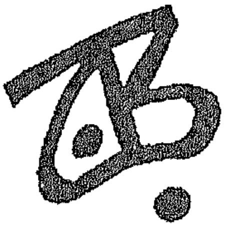

هلا عمّي أبو محجوب!

بقلم
محيي الدين اللباد

عندما التقيت عماد حجاج أول مرة (١٩٩٧) في عمان، لم أكن قد طالعت له رسماً منشورًا من قبل، بل ولم أكن قد سمعت اسمه بعد. كان شاباً في الثلاثين، متواضعًا وخجولاً، لماحًا وحساساً، يحتفل بافتتاح معرضه الأول للرسوم الكاريكاتورية بالأبيض والاسود.

وفي المرة الثانية بعد عامين (١٩٩٩)، زارني عماد في فندق «عمّون» بالعاصمة الأردنية حيث استضافني «مهرجان جرش». جلسنا معًا ساعة في بهو الفندق، أهداني خلالها سفره الثاني «المحجوب» (٦٠٨ صفحة بالألوان)، الذي جمع فيه حوالي ٦٠٠ من رسومه الصحفية من المرحلة التالية لمعرضه الأول، والتي أصبحت ملونة. وأهداني معه اسطوانة سي-دي حملت الرسوم نفسها.

بعد انصراف عماد، تبدلت معاملة أهل الفندق لي: وبعد ابتسامة «cheese» المصنوعة والتهذب الميكانيكي المعتاد من أهل الفنادق، صرت نزيلا له احترام خاص، بل وله -أيضًا- بعض إعجاب الموظفين. ولم لا، وأنا شخص يأتي إليه عماد حجاج زائرًا. وبقيت أستمتع بهذه المعاملة المميزة إلي أن غادرت.

بعد حوالي العامين، قابلت ناشطة أردنية في المجال الثقافي تقيم في عمان، التي تراها مجتمعاً مغلقًا يتسم بالركود. قالت لي «أن في البلد أشياء قليلة تساعدها علي احتمال العيش هناك، في مقدمتها مطالعة كاريكاتور عماد حجاج في الجريدة كل صباح».

إذن، فلنتعلم أيها القارئ الكريم -قبل أن نبدأ- عن أي نوع من النجوم المحبوبين سوف نتحدث.

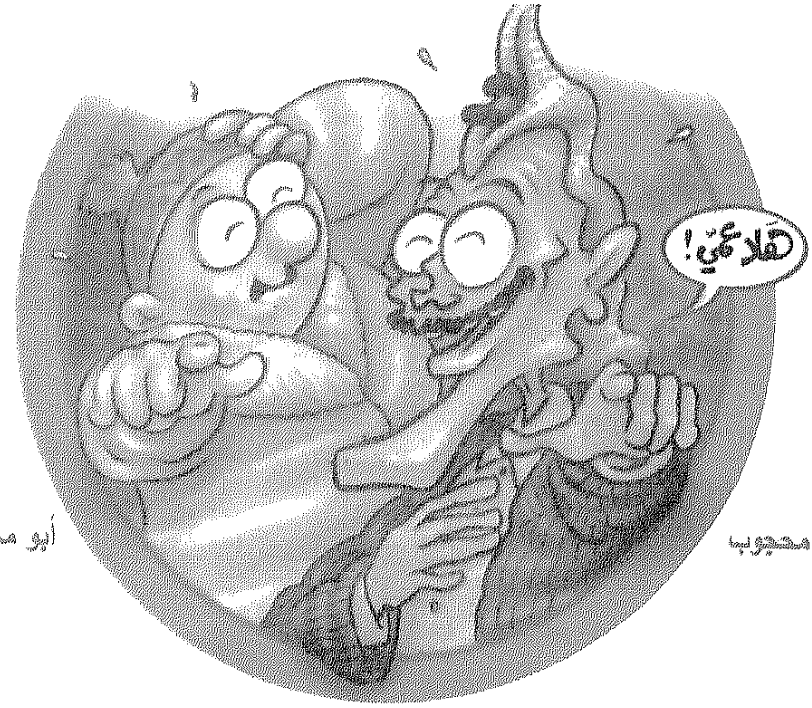

بدأ عماد (من مواليد رام الله ١٩٦٧) عمله كرسام كاريكاتور متدرجًا من الصحف الجامعية والمحلية، حتى احتل موقعًا في جريدة «القدس العربي» اللندنية (١٩٩١)، ثم أصبح رسام الكاريكاتير الأول لجريدة «الدستور» (١٩٩٢)، وبعدها «الرأى» (١٩٩٣-١٩٩٩)، وتعد كلتاهما الجريدة الأولى فى الأردن، أو الأولى مكرر. والآن تستقر مساحة عماد اليومية فى جريدة «الغد» أحدث صحف الأردن عمراً، إذ صدرت هذا العام.

كان كتاب معرضه الأول (١٩٩٧) يحمل عنوان «عالم ذهنى»، ولعله اختار هذا العنوان تفاخراً وزهواً بالانتساب إلى «الذهنية»، ومحاولة لفض اليد من «النكتة» العصبية الشعبوية عالية الصوت وما إلى ذلك. وفى الحقيقة ضم الكتاب بعض كاريكاتورات بلا تعليق تمثل هذا الاتجاه «الذهنى» النخبوى، الذى لا يتوجه إلا من يحملون شهادة جامعية على الأقل. وكانت رسومًا متميزة،

نرى فيها تفرداً، ولغة جرافيكية بليغة قادرة -بفضل التفوق فى أداء الرسم- على التواصل مع القارئ العربى.

ومع تلك الرسوم «الذهنية» الرمزية القليلة العدد نسبياً والتى كان أغلبها سياسيًا صرفًا، كانت هناك أغلبية من رسوم أخرى أقل احتفالاً بـ «الذهنية» ويسكون «البدون تعليق»، لكن كان فيها ما قد يكون أهم: معرفة وثيقة بالشارع الأردنى والفلسطينى/الأردنى، وبدخائل المجتمع بسيط الحال وطبقاته المرهقة. كان فى الرسوم معرفة واعية بالأزمات العديدة التى تطحن الناس وتتراكم متلاحقة فوق رؤوسهم، وبطرق مواجهتهم لها ونقدهم للأحوال الزفت، ووسائل تحايلهم على قسوة الحياة الخانقة باختراع بعض أشكالَ الترفيه الحمقاء، وحجج التلاصق الاجتماعى للاحتماء من البلاوى والمصائب المعلقة فوق الرؤوس على وشك الإسقاط، ومحاولة تناسى وجودها.

وكان فى رسوم عماد حجاج -تلك أيضًا- معرفة بصرية حميمة بتفاصيل حيوات ناسه فى الدار وفى الشارع، وفى دوائر العمل وفى ميكروباصات السيرفيس، وفى الطوابير أمام

أفران الخبز.

بعد معرضه (١٩٩٧) «عالم ذهنى»، انطلق عماد إلى آفاق جديدة أوسع وأنضج، وتفاقمت فكاهته وتركبت وازداد تفردها وصارت أقوى نفاذاً. وتوثقت علاقته مع قارئه وعرف كل منهما لغة الآخر وإشاراته ولزماته ومفاجآته. وارتقى عماد حجاج كثيراً بما عرضه فى معرضه الأول وكتابه الأول، وأصبحت رسومه وكأن موضوعاتها أصبحت اجتماعية، إلا أن السياسة كانت عمودها الأساسى وكان الرسام هو السياسى. وتحول عماد -منذ ١٩٩٧- إلى الكاريكاتور الملون، كما تحول إلى إنجاز رسومه بواسطة الكمبيوتر، بعد أن ملكت برامج الرسم والتصميم ومعالجة الصور لبه، ولم تعد هناك أى أصول ورقية لرسومه الكاريكاتورية. وأصبح الكاريكاتور عنده يبدأ وينتهى على شاشة الكمبيوتر، وينتقل إلى صفحة الجريدة عن طريق الشبكة. وعندما ترى أعمال عماد المنجزة بهذه التقنية، لا تشك لحظة أنها مرسومة على ورق خاص بالرسامين المحترفين، وبالحبر وبالألوان المائية. وتشعر باللمسة الطرية لشعر الفرشاة المبللة بالماء الملون على سطح الورق، الذى تتشرب أليافه العطشى الماء والألوان بشوق. بل وقد تجد أن هذه الرسوم الحديثة أكثر طزاجة وأقوى تعبيراً من تلك الأقدم.

كان ضمن ما تعرفنا عليه فى رسوم عماد، بدءاً من كتاب «عالم ذهنى» ١٩٩٧، سلسلة من رسوم الكاريكاتور يظهر فيها شخصان متلازمان، مثل أمناء شرطة الدورية، وزعيط ومعيط، ولوريل وهاردى، وغيرهم. كان أحدهما نحيفاً فقيراً يضع الحطة الأردنية الحمراء على رأسه، ويلبس بنطلوناً وجاكتة يبدو عليهما الإرهاق. له وجه نحيل ممصوص، وذقن عظمية طويلة، ورقبة نحيفة عجفاء. عيناه مكورتان ينفرج جفناهما عن بؤبؤين صغيرين بهما حول ناحية الداخل ولا يخلوان من مجون ونذالة. ويبدو هذا الشخص -مثله مثل «أبو زيد السروجى» بطل «مقامات الحريرى» الخمسين -جامعاً بين الحكمة والصعلكة، والطيبة واللؤم، وخفة الدم والاحتيال، والقدرة على كشف المستور والبلاهة فى آن. هذا هو «أبو محجوب» بطل الثنائى.

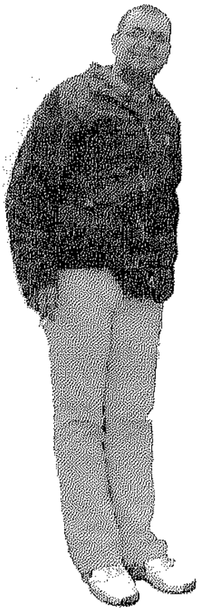

أما رفيقه «أبو محمد» فهو شامل التكور: جسمه مكور، وبطنه مكورة، وعجيزته مكورة، ووجهه مكور، وكذلك منخاره وعيناه الضفدعيتان المنتفختان المكورتان. شاربه هتلرى، ويضع طاقية من الصوف الاصطناعى ينزلها حتى أذنيه. ويلبس «أبو محمد» ملابس تبدو رياضية، وأحياناً يضع حذاء مطاطياً أبيض. أقرب إلى طفل سمين، يتحرك برشاقة وخفة، رغم أنه أقل كفاءة وقدرة من زميله «أبو محجوب».

وفى كتاب عماد الثانى، الذى عنونه «المحجوب» (١٩٩٩)، نستطيع أن نرى التطور والتركيب اللذين مر بهما «أبو محجوب» و«أبو محمد» على مدى يقارب العشر سنوات، حتى أصبحا كما نعرفهما اليوم فى شكلهما الحالى، وتركيبتهما المعروفة الآن.

وقد اختار عماد حجاج أن يجعل منهما شخصيتين ثابتتين، لكنهما أيضاً ليستا بثابتتين. فنرى «أبو محجوب» يبيع البطيخ فى الطريق، ومسؤولاً كبيراً على مكتب ضخم، وحارساً لبوابة

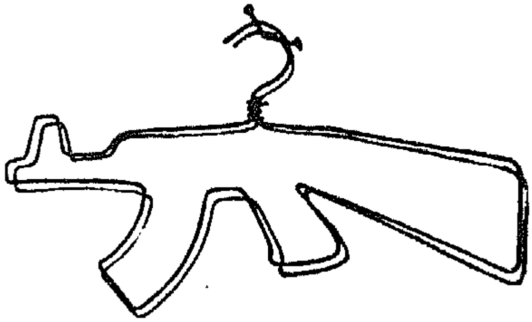

من معرض «عالم ذهنى» ١٩٩٧

مش معقول شو إنك شلبي و محبوب يا أبو محبوب...

ماكله هوا !
والله شكلو هالزبون شخص مهم !؟
.. هالا بس عشنو أول زبون من شهرين !

عمل (لعله الصحيفة التي يعمل بها عماد بالفعل)، وموظف استعلامات، وصاحب دكان تافه، وبائع فى محل، وموظف غلبان، ومغنى أفرنجي فى ملهى ليلى يلعب فيه «أبو محمد» وظيفة الشيف اللبنانى فى المطبخ. أما منزله فيكاد يكون ثابتًا وإن لا يوجد مانع من تغيير كل أثاث المنزل وكل غرفة فجأة. يظهر ابنه الكبير «محجوب» كطالب جامعة قد اخضوضر شاربه ولحيته، ثم يتخرج ويقعد متبطلاً بلا عمل. يشبه أبيه لكنه طويل القامة عريض الكتفين، وفى عينيه ذات الدرجة من الحول. وفى فترات أخرى لا يظهر هذا الابن ويكاد يختفى من الرسوم، ويظهر بدلا منه أبناء وبنات أصغر. أما «أم محجوب»، فإنها رغم شكلها الموحد، ليست على موقف واحد، وتتراوح بين الطاعة والاستكانة وبين التمرد والهجوم. وفى إحدى الرسوم تفاجئ «أم محجوب» زوجها بأنها حامل فى الشهر الثامن.

ويلتقى الثنائى «أبو محجوب» و«أبو محمد» كثيرًا فوق سطح المنزل، وفى غرفة المضيفة التى يجلسان فيها كثيرًا على الأرض ويأكلان من أطباق وضعت على جرائد مفروشة، أو يجلسان أمام المنزل، أو متجاورين فى ميكروباص السرفيس وفى حال تحسن الأحوال، يجلسان فى المقهى.

ومنذ سنوات مضت، أصبح الرفيقان (النحيف والمكور) علمان معروفان لكل مواطن أردنى يقرأ الصحف الأردنية. وينهض ذلك المواطن كل صباح ينتظر منهما مفاجأة تعلق على ما يشغل باله من أمور السياسة المتعلقة بالوطن الصغير أو الآخر الكبير، ومن أشكال الصراع بيننا وبين أمريكا وإسرائيل، ومن هموم الحياة المحلية فى الأردن: تصرفات الحكومة الجائرة إلى أزمة ماء الشرب وانقطاعه لآجال طويلة، إلى أزمات المعيشة والغلاء والفساد، وغيرها. وغالبًا ما تختلط القفشات التى تبدو صغيرة بالموضوعات المحلية، وبالعربية، ثم بالكونية. ولعل هذا ما فتن قراء عماد حجاج، حتى صاروا يعرفون لغة رسومه، وإشاراته، ورموزه، وخريطة تفكيره، ونوع مقالبه الفكاهية. وصار الرسام أيضًا يعرف أهل كاريكاتوره جيدًا، ويجيد اللغة البصرية واللفظية التى يوصل لهم بها رسالته اليومية بامتياز. فهو ملك فى لغته البصرية المرسومة، وملك كبير أيضًا فى فكاهته المكتوبة المنطوقة داخل الرسم. وبالإضافة إلى موهبته النادرة، تعود هذه الخبرات المميزة لرسام شاب إلى تجربة عماد العريضة فى الحياة كواحد من ملح الأرض وفلفلها، وكتلميذ ابتدائى فى مدارس وكالة غوث اللاجئين فى مخيم الوحدات بعمان. إذ جعلته تلك التجربة يعرف الكثير من تقاليد صنع أولاد البلد لفكاهتهم وعبثهم، ويستوعبه، ليصبح بدوره منتجًا ممتازًا لتلك الفكاهة وذلك العبث.

رسم عماد على الكمبيوتر رسومًا جميلة نقلت روح حياة الفقراء التعيسة الضاحكة، وبمفرداتها التى احتفظ بها الرسام على حالتها ولم يبدل منها لحساب تكوين اللوحة أو العلاقات الشكلية، بل نجده وقد هوى تلك المفردات البذيئة المظهر و«الكيتش» التى تزخر بها حياتنا وبيوتنا، وأبدع منها رسومًا حميمة جعلت القلوب تنفتح له.

عماد –فى الأساس– رسام موهوب يهوى الرسم ويحبه ويرقص له، لكنه استفاد كثيرًا –أيضًا– من دراسته فى كلية الفنون الجميلة جامعة اليرموك فى القبض على قواعد المنظور ومعرفة قواعد التشريح وهضمها. كما استفاد

• صِلة الرّحم السنوية •
عفواً يا إخوان.. إحنا أخدنا الحكي والأفطار.. ولسّه ما تعرّفنا؟
هاظ عطية إبن خالي.. واللي عاليمين سليم جوز أختك وفضحتنا يا سطل يا إبن السطل

• نوم وهموم •
.. ومن رزقك أفطرت.. ذهب الظمأ.. وابتلّت العروق.. وثبت الأجر..
لسه يابا... هلا أذان العصر!

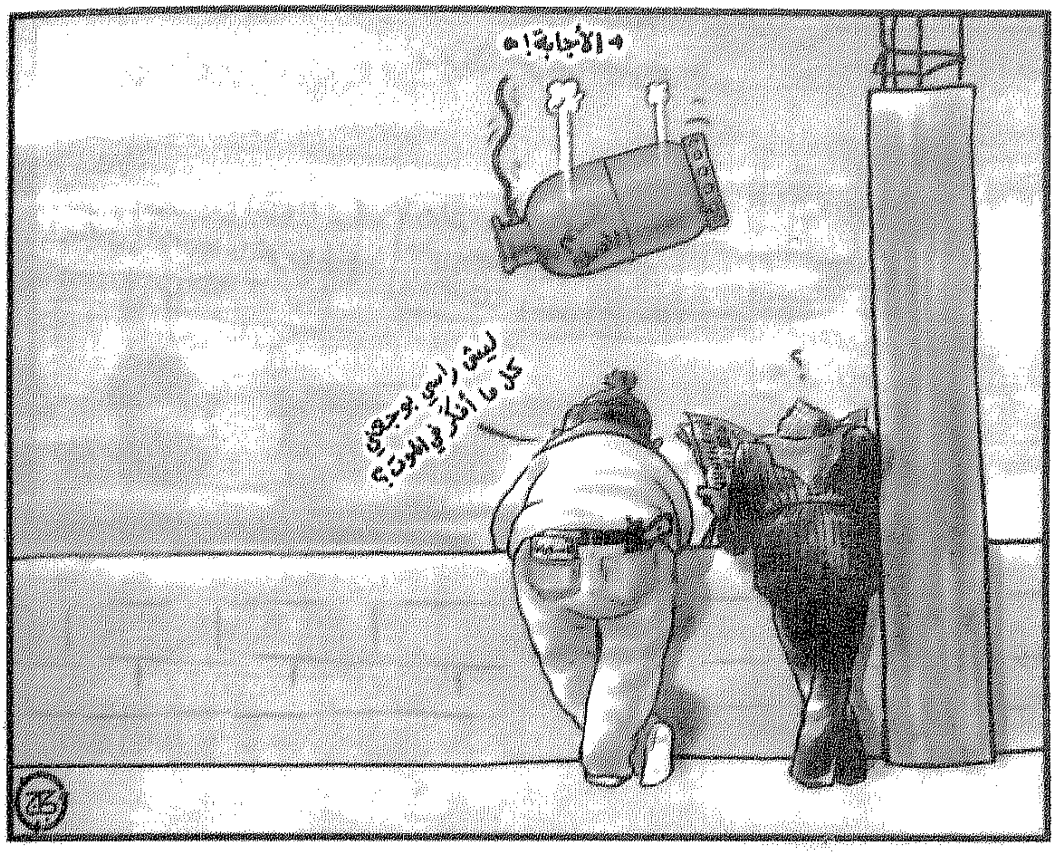

الأجابة!
ليش راسي يوجعني كل ما أفكر في الموت؟

خدمة الضمير الناطق!
أخي المواطن ..
الموقف القومي والثابت قد تغير
يرجى إعادة الطلب بدون غضب..
وإضافة الرقم (٥)!

• خبر عالصّفحه الأخيره ! •

ابو محجوب يزور دار ابو محمد

* وادي الرمم-من عماد حجاج

قام السيد أبو محجوب بزيارة ناجحة لدار أبو محمد الصحيح أول إمبارح، وأول ما وصل استقبلو أبو محمد ومرتو ومصطفى وسماعين وشوية من هالجيران.

وتباحثوا الأخوان أثناء القعدة في كل الشغلات والطوابق إللي بتهمهم. وأكدوا على إنو كل الناس خير وبركة وإنهم دايماً كانو أهل وحبايب من زمان زمان، وإنو رأح يظلو قرايب ونسايب برغم كل المستجدات في الساحتين إياهم (ساحة المدرسة، وساحة الكراج).

وفي آخر الزيارة ودّعوا أبو محجوب مباوسة، وشدو فيه عالغدا لكن الزلمه اعتذر، فأوصلوه لعند باب العمارة. وطبعاً كان في وداع السيد أبو محجوب في بيت الدرج أبو ربحي وأبو صطيف وأكمّن واحد من هالعاطلين عن العمل.

ويذكر طبعاً إنو هاذي الزيارة صارت كثير، وكل مرة نفس الحكي ونفس السلافة.

(البقية في حياة التفاصيل)

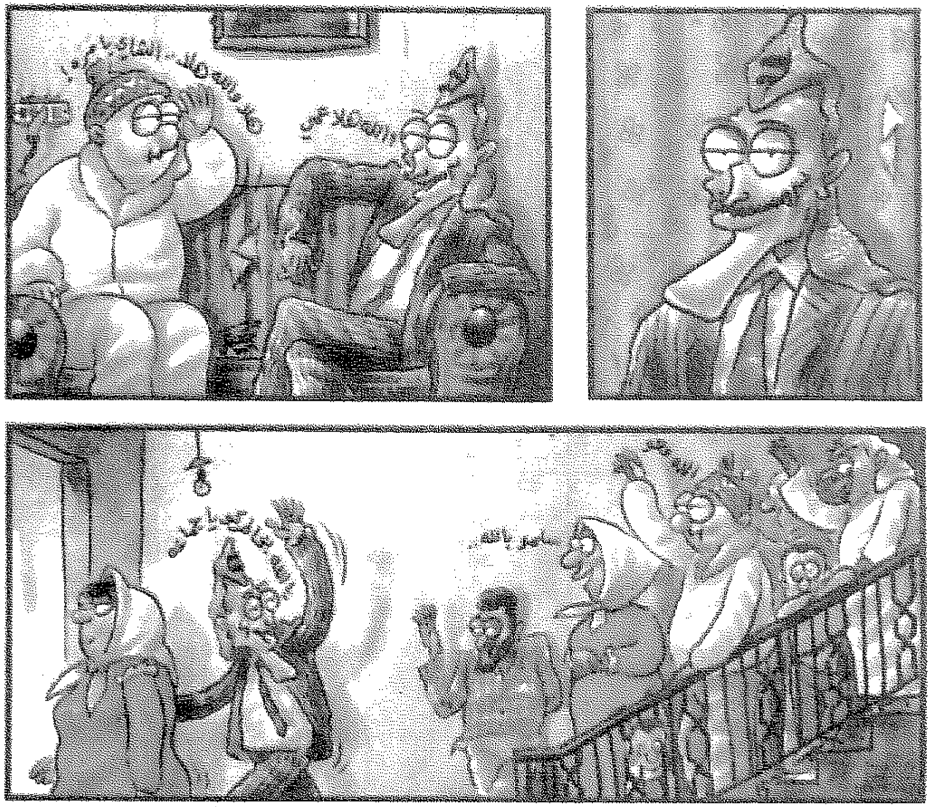

لقطات من الزيارة

عدسة وشعيرة

من عمله لفترة طويلة فى ميدان التصميم الجرافيكى الذى أعطاه خبرة عميقة فى تصميم رسومه الكاريكاتورية. وقد أصبح الآن قادراً على أن يرسم ما يريده وما يقرره وما يتطلبه كاريكاتوره، بيسر وبأستاذية، دون أن يشعر قارئه بالإرهاق الذى بذله فى إنجاز العمل. بل يتركه متفرغًا لاستقبال فكاهته ومزاحه «العنقودى» الذى تتوالى انفجاراته منذ أن تنفجر -فى وجه قارئه- المزحة الرئيسية.

لا يكتفى رسامنا بفكرة كاريكاتورية واحدة، بل يصاعد ويفاقم الحالة الفكاهية فضمن تفاصيل رسمه، ستجد الكثير من الهدايا -فوق البيعة- مرسومة ومكتوبة فى الحنايا: ستجد ضمن غرفة طعام الضيوف فى بيت «أبو محجوب» صورة على الحائط له مع «كارلوس». وفى رسم آخر ستجد صندوقًا مخصصاً لتلقى الاقتراحات معلقًا على حائط غرفة أخرى. وفى مشهد يحمل فيه «أبو محمد» علبة سمن، تجد عماد قد كتب عليها: «السم فى الدسم». وعلى ملصق صغير جداً على الحائط، لا علاقة له بموضوع الكاريكاتور، تجده قد كتب عليه: «أخى الحرامى: الأردن لنا جميعاً». وفى رسم آخر يمثل حالة انهيار عدد من الموظفين عند دخول إحدى زميلاتهم الفاتنات، ويقود الانهيار «أبو محجوب»، بينما يقف «أبو محمد» يلعب بيده فى أصابع يده الأخرى، وقد وجه الرسام إلى الكفين سهماً كتب عليه «أبو محمد التافه شلّح الدبلة»!

وفى العامين الأخيرين (٢٠٠٣و ٢٠٠٤)، تلاحقت على رؤوسنا المصائب والضربات المتلاحقة، وبدونا كمن حكم عليه بالإعدام وينتظر يوم التنفيذ. وهنا بدا أن عماد حجاج أدرك فداحة الكوارث، واطلع -مثل كثيرين- على خطة الأعداء المكشوفة كالشمس، فرفع الصوت فى رسومه لينبه، ولكى نسمعه نحن الذين نبدو فى إغفاءة طويلة.

ومن رسومه فى الفترة التى كانت أمريكا وحلفاؤها يجهزون -على الملأ- لضرب العراق، واحتلاله للسيطرة على نفطه وعلى منطقتنا، جمع عماد حجاج عدداً من الأعمال فى كتاب ثالث كبير القياس، عنونه «نفط على قماش»، فى تحوير ساخر للتعبير التقنى فى الفن التشكيلى «Oil on Canvas». وبدت فى هذه الرسوم أن الأولوية للتنبيه وللغضب وللأحزان، ولم يضم الكتاب سوى رسوماً قليلة من نوع «أبو محجوب» و«أبو محمد» (ليحذر عماد أن يجرفه الهول الحالى والقادم بعيداً عن هذين «الأبوين» خفيفى الدم، وليقبض عليهما بيد المودة والفخر والاعتزاز بهما فهما جزء هام من رصيده العظيم).

لقد ضبط عماد حجاج موجة كاريكاتوره -لأكثر من عشر سنوات- على دقات قلوب أهله فى الأردن وفى فلسطين، مما جعله -حتى عهد قريب- رساماً أردنياً/فلسطينياً. ثم اتسعت دائرته عندما توالى نشر كاريكاتوره فى جريدة «القدس العربى» اللندنية التى توزع فى أوروبا وتصل إلى عدد من البلدان العربية. وأظن أن الدائرة ستظل فى اتساع إلى أن تشمل العالم العربى، بل والعالم كله، لما تحتويه رسومه من قيم إنسانية مشتركة، ومن قضايا كبيرة يتداولها العالم أجمع، ومن فكاهة راقية واعية تكشف خيبة الإنسان الفرد وفشله المتكرر، وحيرته أمام الوجود المتشابك. وتتندر على تفاهة معاركه الصغيرة فى مجتمعه الصغير، الفقير والبائس، والمتراحم، والمتحاقد.

فى رسوم عماد حجاج الغارقة فى المحلية الرائعة، كل الصلاحية لتصبح عالمية، تلبى فضول العالم لمعرفة كيف نعيش وكيف نفكر وكيف نضحك ■

من كتاب «نفط على قماش» ٢٠٠٣

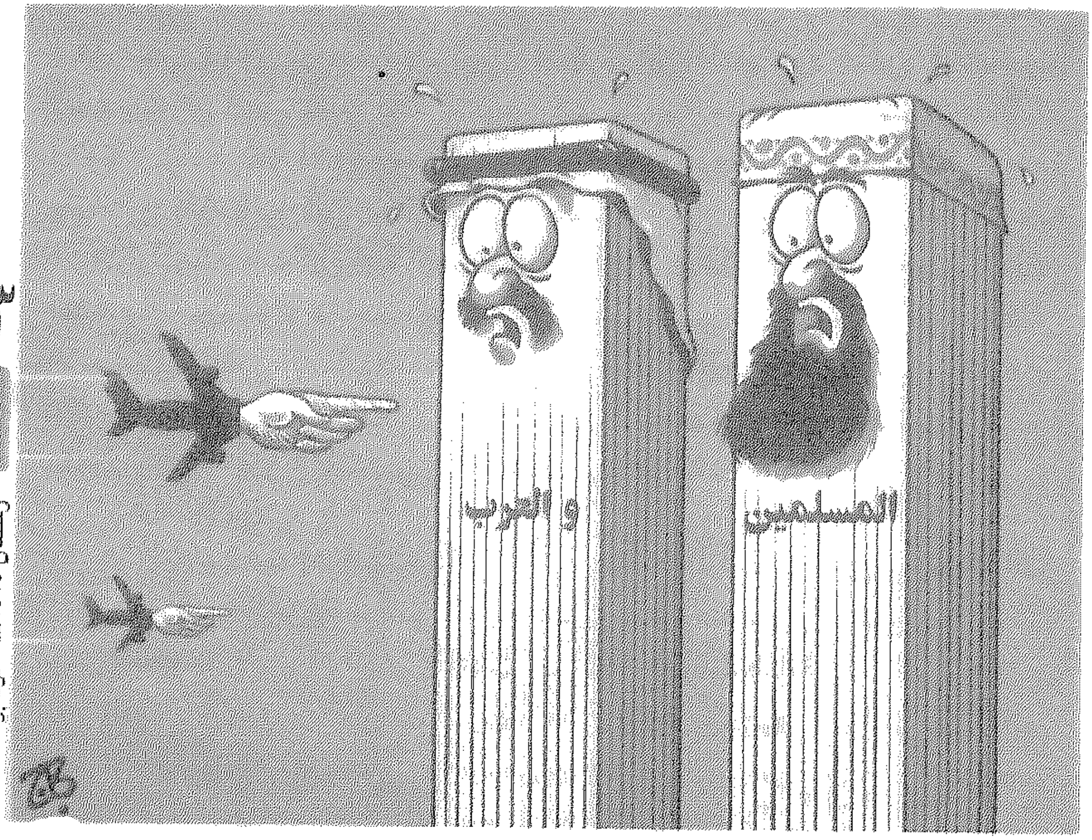

دلالات مستقبل هش لفنوننا التشكيلية

بقلم
د. محمد عرابى

غالبا لا تأتى الحقائق الملموسة للصورة متوافقة، أو محققة لحلم الحالمين بها، ولكنها تعبر دائما عن الإمكانات الفاعلة لمن يسهمون فى ابتكارها أو صياغاتها فقيمة الصورة وملامحها تتوقف علي العلاقة بين الطرح الذهنى أو النظرى «الفكرى» والوعى بامكانات وسبل التنفيذ، وقوة الإيمان بالطرح والأفكار، وها نحن الآن نواجه طرفين مختلفين لصورة الفن المصرى الحديث أو المعاصر بعد مضى ما يقرب من قرن على ومضته الأولى، الطرف الأول يتمثل فى أحد جوانبها الشبابية التى ساهم صالون الشباب فى تشكيلها ووضعها على سطح الصورة بطرحه - هذا العام- بانوراما نجوم الصالون معتمداً على وجهة نظر أحادية مهتزة دائما تمثلت في معايير ووجهات نظر لجان التحكيم، التى انتخبت النجوم فى شكل الحاصلين على الجوائز الكبرى والأولى فى مجالات الفنون المختلفة سواء كانت التقليدية متمثلة فى «فنون التصوير والنحت والقوالب الطباعية، والرسم .

أو كانت مما أضافها صالون الشباب بدفعه الدائم نحو مواكبة حركة الفن العالمية بدعوى إنسانية الفن والفكر وتخطيهما الحدود والحواجز المحلية بغض النظر عن الخبرة والوعى ببواعث تلك الرؤى والوسائط الغربية المستحدثة من فنون الفيديو والعروض الحية أو التجهيز فى الفراغ، أو غيرها من التى ظن الكثير أنها تحتاج إلى خبرات مختلفة عن الفنون التقليدية، فأعلت من شأن انصاف الخبرة وضعاف الموهبة، الأمر الذى ينفضح أمره بجلاء عندما يتخلى بعضهم عن ثوبه

عفت ناجى (تعويذة الفارس والفرس) ،الاسم من عندنا ، يتضح صراحة انتماءاتها الشعبية

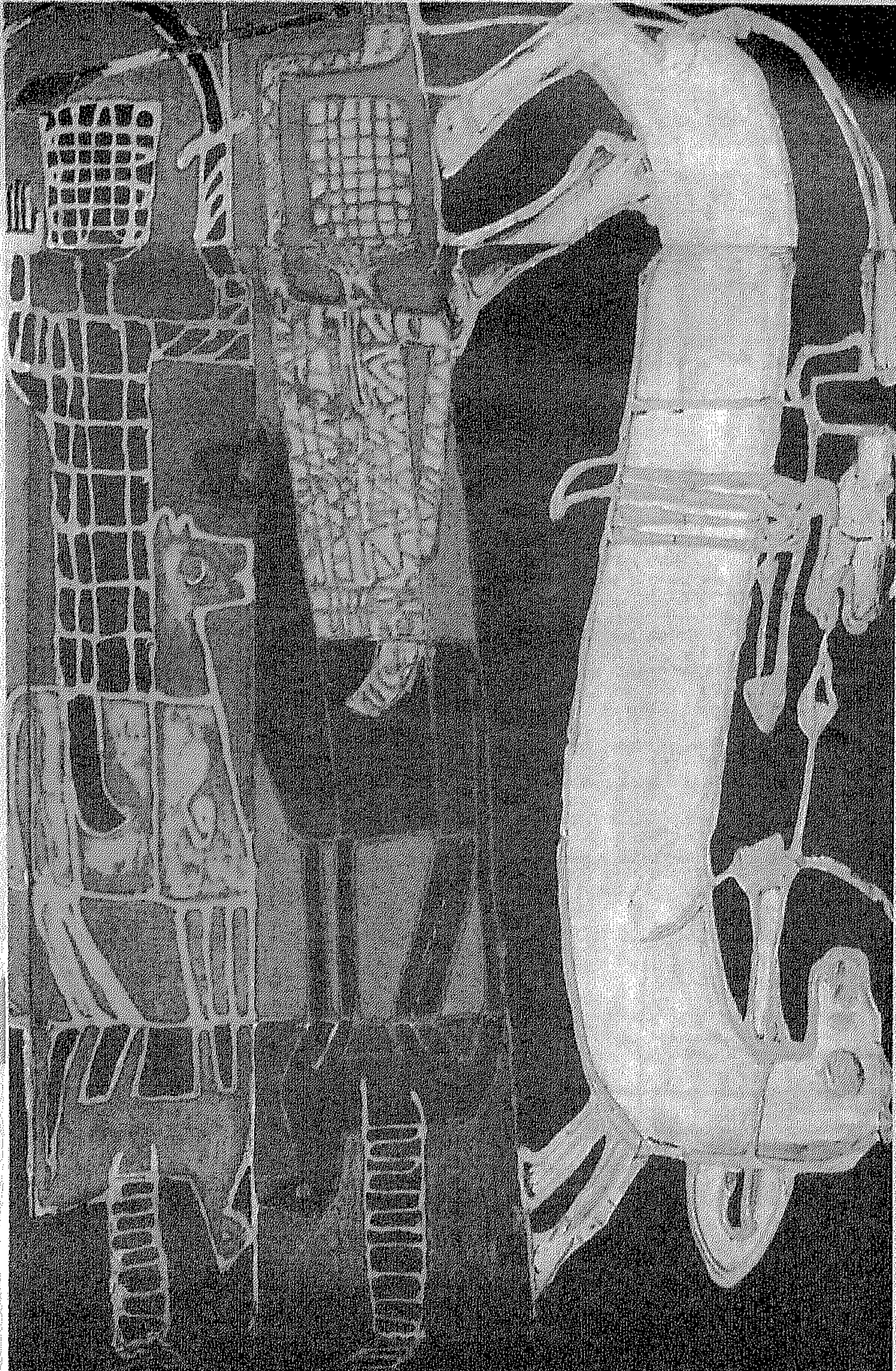

الهزلى أو يتمرد على تلك الاتجاهات، ويجرب حظه باستعلاء وجهل كبيرين مع فن الرسم والتلوين أو النحت وغيره فيظهر خاوياً عارياً مجرداً حتى من أى درجة من درجات الخبرة أو الموهبة .

[illegible]

فهذه الصورة التى رأيناها فى قاعات اخناتون، أو أتيليه القاهرة، أو حتى بالاسكندرية تشير إلى مستقبل باهت أجوف هش لفنوننا التشكيلية خاصة إذا كان هؤلاء هم النخبة الحقيقية التى تمثل قطاعاً عريضا من الفنانين الشبان، ولا أظن هذا فى الحقيقة، فيجب التخلى عن ارهاصات لجان التحكيم والتوجه لتصحيح الوضع بالبحث عن واقع حقيقى لفن الشباب وفقاً لمعايير حقيقية باستثناء بعض الفنانين العارضين أمثال الحفار أحمد عمر الذى اشتهر بالحفر على الخشب مالكا ادواته واعيا بذاته وبغاياته التعبيرية وغيره من الذين دخلو حلبة التسابق منذ جولاتها الأولى متسلحين بنضوج التكوين والوعى على المستوى الفنى والفكرى فلم يقعوا فريسة سهلة للتوجيه والإغراء والاستسهال .

وأما الطرف الثانى : فهو يمثل الخبرة والتراكم المعرفى عبر تطور ذاتى مهموم بالبحث والتقصى والحرية والالتزام بأصالة الفن وتفرده متمثلاً فى صورتين أولهما تنتمى طبيعياً لثقافة البحر الأبيض المتوسط متخذة من الإسكندرية بملامحها المكانية والحياتية نبعاً للإبداع الفنى، وتتمثل فى ثلاثة فنانين من مدرسة الإسكندرية فى فن التصوير، يرتبط كل منهم بالآخر بأواصر مكانية وزمانية وفكرية وطيدة الأركان، وهم الأخوين وانلى «سيف وأدهم» وثالثهم المصور» محمد القبانى الذى تتلمذ على يد سيف فتعلم عنه فن التصوير إلى حد أنه لقب «بتلميذ سيف وانلى» احتضنت المؤسسة الرسمية متمثلة فى قاعة «افق واحد» معرض الأخوين وعرضت جانباً مختفياً من أعمالهما، أو ربما لم ينل حظه من الضوء من قبل، ويتمثل فى أبسط صور تداعياتهم الإبداعية فى فن الرسم السريع سواء عن طريق الأبيض والأسود، أو اللون وكانت أعمال سيف هى الأكثر، واتصفت بدرجة عالية من الحرية ودفء التعبير أو الانطباع الفورى، وأما أدهم فجاءت أعماله فى هذا المعرض لتبرز جانباً مهماً من فنه الكاريكاتير، وعلى مستوى القاعات الخاصة عرضت قاعة «خان المغربى» بالزمالك معرض الفنان محمد القبانى الذى يشكل بدون شك لجمهور القاهرة مشهداً جديداً من فن المنظر الخلوى والطبيعة السكندرية، أيضا فبعيداعن الزحام والفوضى والحركة الصاخبة التى تتميز بها مدننا الكبرى تظهر الإسكندرية نقية هادئة مستقرة تتمتع مشاهدها بصفاء وفضاء واسع رحب، فهو يتجنب الزوايا الجانبية وخطوطها المنظورية المائلة التى تساعد على إثارة الإحساس بالحركة، ويفضل الزاوية المواجهة التى تسمح له بنوع من التبسيط الهندسى يعتمد على الخطوط الأفقية للتأكيد على الرسوخ والاستقرار .

المؤثرات البصرية

ويستعيض بالتقابل اللونى أو تباينات الساخن والبارد عن حذفه للفتاصيل العارضة وتبسيط المساحة، وذلك لإثراء مناظرة بقدر من المؤثرات البصرية لايجور على قيم الهدوء والصفاء والرحابة التى يسعى دائماً لتحقيقها فتظهر مناظره فى

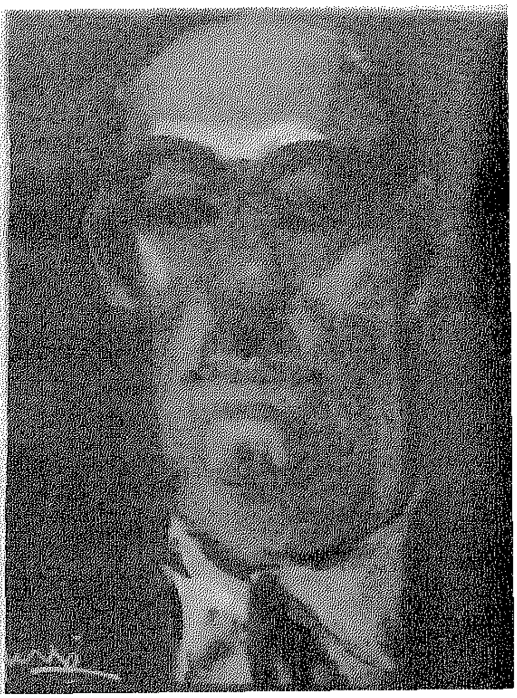

من أعمال الفنان سيف وانلى وتتسم بدفء الانطباع الفورى

من الأعمال الكاريكاتورية للفنان أدهم وانلي توضح قوة الخط وصراحته

صيغة حلم شاعرى يكون منتجعاً طبيعياً لإراحة النفس وتخليصها من أعبائها وهمومها الحياتية الضاغطة .

وأما الصورة الثانية من الطرف الثانى فتتمثل فى هامتين من هامات الفن المصرى الحديث وهما المصورة «عفت ناجى» ١٩٠٤ - ١٩٩٤ والمثال المعاصر صبحى جرجس مواليد ١٩٢٩، فهما يمثلان جيلين مختلفين، وفى نفس الوقت يتمتع كل منهما بذات متفتحة على كل ما هو إنسانى فى الفكر والثقافة يلقى بظلاله على تجربتيهما بصورة يغلب عليها وجدان مصرى خالص يمتلك أسباب حداثته بروح مفعمة بخبرة إنسانية لها أبعادها الخاصة .

ولكن عفت ناجى تبدو أكثر تصريحاً بارتباطها أو انتمائها للروح المصرية بصورتها النقية التى تتبلور فى فنونها الشعبية بأشكالها ورموزها وما تمتلكه من طاقة حيوية متحركة، وما تنطوى عليه من أسرار عميقة بعمق جذورها التاريخية، هذا ما يمكن أن ندركه عبر الإبحار فى أزمنة وأمكنة عفت ناجى بمعرضها الرصين المكون من خمس وثلاثين لوحة ملونة، وخمسة عشر لوحة منفذة بالأبيض والأسود فى صورة رسوم سريعة موضوعها السد العالى، الذى تنظمه قاعة الزمالك للفن فى عرض يستحق منا التأمل والدراسة .

التواصل مع الوجدان الشعبى

فعفت ناجى تمثل حلقة من حلقات مسيرة البحث والكشف عن الروح أوالشخصية المصرية التى وجدت ملاذها وحداثتها فى التواصل مع الوجدان الشعبى، فإذا كان راغب عياد ومحمود سعيد وغيرهما قد رسموا أو صوروا الإنسان المصرى ومظاهره الحياتية، نجد عفت ناجى تذهب للتواصل مع جماليات

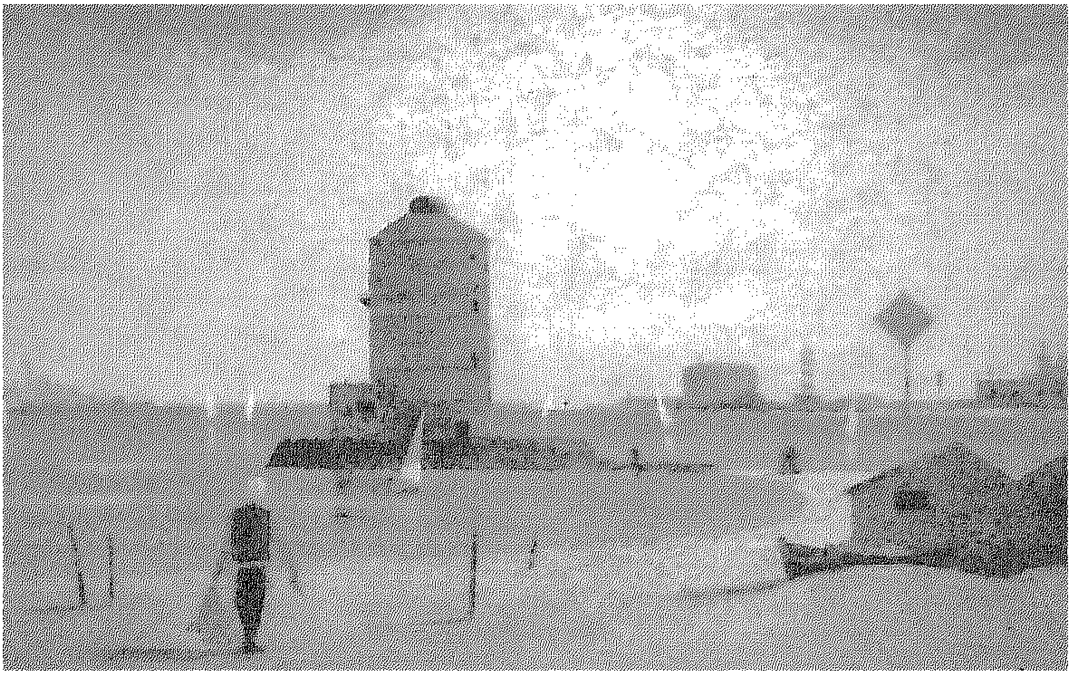

منظر من الاسكندرية للفنان محمد القباني يوضح اهتمامه بالزاوية المواجهة التي تجنبه مشكلات الخطوط المائلة

الإبداع الشعبى متذرعه بوعيها وخبراتها المعرفية الجديدة، فتبدع لنا إجابة فنية مصرية تمتلك أسباب حداثتها بأصالتها وجدتها، وفى هذا الصدد قال لها أخوها المصور محمد ناجى قبل رحيله ١٩٥٦م، «لقد تفوقت على.. بقيت أنا أسير أكاديميتى.، وأنطلقت أنت إلى آفاق الحداثة بعالمها الواسع اللا محدود»، وعندما نتذكر حالة الفن فى مصر والعالم فى الثلاثينات والأربعينيات والخمسنيات نجد عفت ناجى تقف متفردة برؤيتها الفنية التى تتجاوز فيها مغريات اللوحة التقليدية من براعة التلوين والتصميم والإبهار والتجسيم والضوء أو حتى أشكالها الحداثية التى جاءت بها حركة الفن الغربى فى طورها الحداثى، وهذا لايعنى انفصالها التام عن حركة الفن العالمية، بل يعنى هضمها التام لمكتسبات الحداثة الغربية فتتزاوج فى تكوينها الداخلى مع هضمها لتراثها الشعبى والحضارى وأبعاده الوجدانية والإبداعية، فربما تذكرنا خطوطها السوداء السميكة بخطوط «چورچ روو» وربما أيضاً تستدعى غرابة الشكل وجدته أعمال «بول كلى»، وهذا التناص لايعنى التشابه أو التأثر المباشر، فالتقارب يبدو فى غرابة الشكل وقوته التعبيرية وما يحمله من أبعاد انسانية عميقة، فهى تستمد أشكالها الغريبة من الرموز والأشكال والزخارف بكتب السحر والمخطوطات العربية القديمة، فترى عرائس «التلى» بمصادرها الآدمية أو الحيوانية التى نراها برداء رأس المرأة المصرية «الطرحة»، أو تلك الزخارف الخطية وغيرها التى تتضافر بفطرية فى نسيج تصويرى بالغ البساطة والعفوية والدقة فى نفس الوقت، حيث يلعب الخط السميك والبارز أحياناً دوراً مهماً فى صياغة الشكل فيظهر بلون قاتح متنوع الدرجة فيذكرنا أحياناً بنوع من التطريز والحليات النسجية

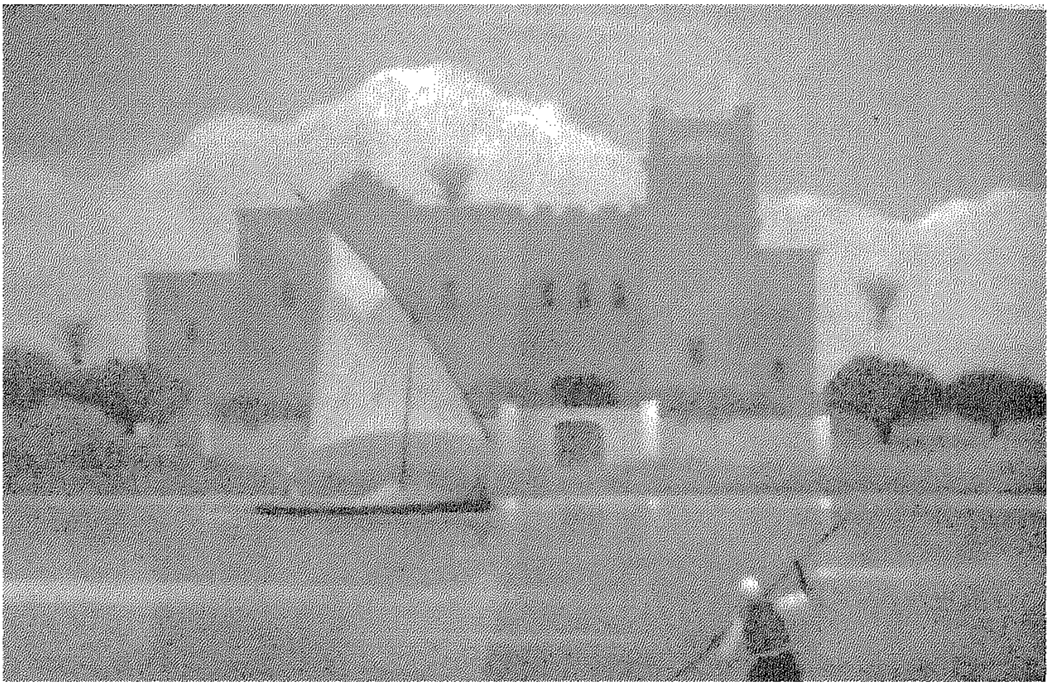

معظم لوحات الفنان محمد القبانى تصور البحر والصيادين ويسودها مظهر خيالى

المضافة بأزيائنا الشعبية .

وعلى الجانب الآخر نجد أتيليه القاهرة يقدم آخر ابداعات المثال الكبير «صبحى جرجس» فى النحت التى تتميز بمذاق ووجدان لايقف عند حدود تراثه الشعبى أو الحضارى فيكتسب مذاقاً أفريقياعصرياً تمتد جذوره من استشراف مستقبل البشرية فى لحظتها الراهنة التى تتحكم فيه قوى مادية ضد الإنسان ووجوده وتحضره إلى كهوف ما قبل التاريخ فيبدو أن صبحى جرجس لم يطمئن إلى قدرات أرواحنا، على إدراك مضمون أعماله ذات النزعة الإنسانية، فهو يستشعر خطرا أو طوفانا آت لدرجة أنه لايستطيع الاكتفاء بلغة الشكل فيرسل لنا إشارة تلغرافية باللغة الشفوية التى يفهمها الجميع ويكتب بخط يده محذراً انتبهو ATTen-tionتحذير لكل الأنحاء المسكونة تذكروا حرب العلمين، نماذج مصغرة لأعمال تنفذ بخامات أخرى تذكرنا بويلات الحروب».

استطاع المثال الكبير صاحب الخبرة والوعى بذاته فى العشرين عاما الأخيرة أن يطور لغة فنية خاصة منفردة بقانونها البنائى وإيقاعها الموسيقى، هذه اللغة قادرة على استيعاب أفكاره واحساسه فى آن واحد، حيث يخرج التفكير عنده من الدائرة الشفوية إلى دائرة الصورة أو الشكل المجسم بمادته النحاسية أو الحديدية، قوامها الأشكال المخروطية أو الدائرية أو الصندوقية أو الإسطوانية، التى يصيغ من خلالها أفكاره مختلطة بوجدانه فى اشكال آدمية يعاد تشكيل اعضائها بوعى وحساسية مكتملة الجوانب بالطاقات التعبيرية الكائنة خلف الشكل الآدمى، فلا يحفل بقشوره السطحية وبنائه الطبيعى كما يتخلى عن جماليات النحت واغراءاته

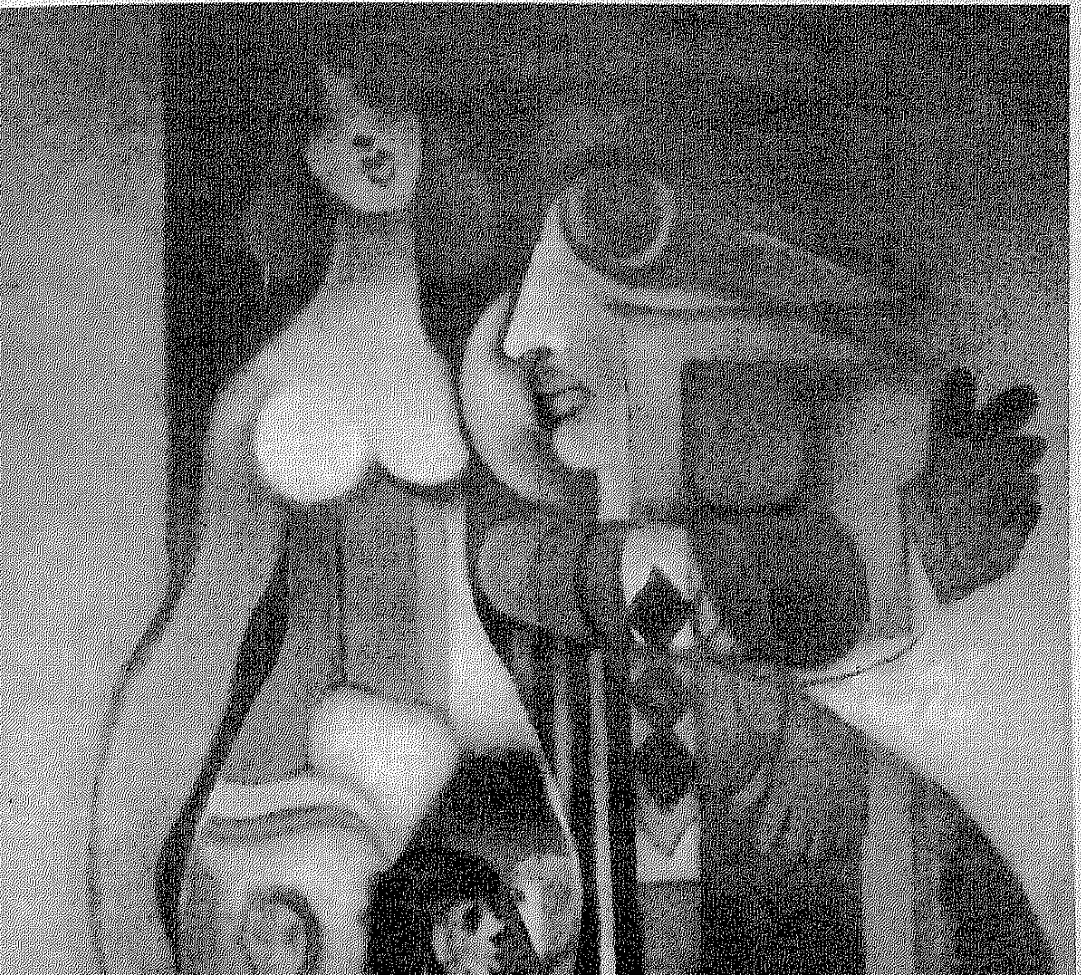

تكوين من أعمال الفنان عفت حسني

التى جاءت بها الحداثة الغربية وفرضت سطوتها على أجيال عديدة من المثالين، فتكشف لنا فى كثير من الأحيان تركيباته وأسطحها العريضة عن انتماءاته المصرية أو الإفريقية، وأحياناً تفصح لنا عفويته فى صياغة إنسانة ارتباطه بعصور ما قبل التاريخ أحياناً، وفى الغالب تبدو أعماله منفرده بجماليات خاصة تثير الدهشة والإعجاب الشديدين بجوانبها الابتكارية، وتحفز على اكتشاف ما تنطوى عليه من طاقات كامنة لايمكن فك طلاسمهاولايمكن الانفلات أيضا من سحرها الآسر .

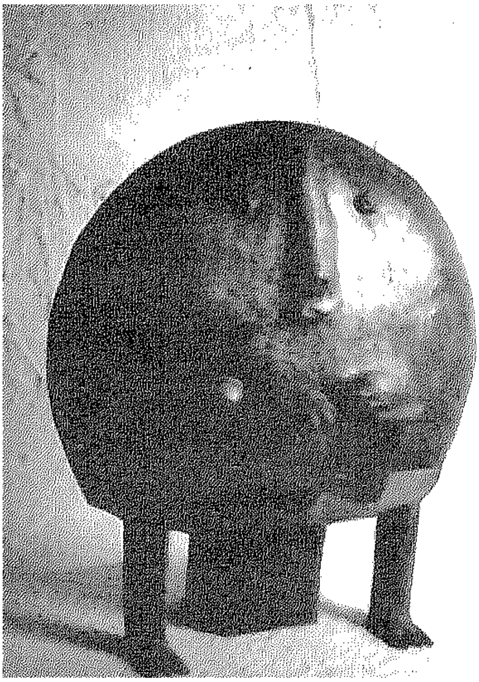

تكوين نحتي للمثال صبحى جرجس يعكس انتماءاته الافريقية

[illegible]

وفى قاعة بيكاسو بالزمالك تظهر حالة فنية أخرى متمثلة فى تجربة الفنان والرسام الصحفى عفت حسنى فى فن الرسم والتلوين يبدو فيها متأثراً بصورة إيجابية فى كثير من الأحيان بخبرته فى الرسوم التوضيحية، حيث احتشاد العناصر والتفاصيل والرموز فى بناء فنى يعتمد على التراكب والتداخل والشفافية والتجسيم والتسطيح فيلجأ إلى حيل كثيرة للتوفيق بين تلك التراكيب التى لايتيح لها منطق الرؤية البصرية من الوجود أو الظهور مجتمعة فتتماهى الأشكال أو تتلاشى أطرافها أو بعض أجزائها بصورة إنصهارية أو تتأكد حدودها وفقاً لما يتطلبه الشكل .

عفت حسنى يجمع بين خبرة أكاديمية تحتفى بالشكل واللون والدقة والاتساق بين أجزاء الشكل ورؤية خيالية تحتشد بالحواديت والرؤى الشعبية، وخاصة رموزها وشخوصها التى تنبثق من عوالمها لتعيش مع بعض الوجوه التى تألفها فى واقعنا المصرى كوجه «أم كلثوم» على سبيل المثال، أو وجه أحد أفراد أسرة محمد على فى زى ملكى يخرج من إطار الصورة الكلاسيكية بيضاوية الشكل شاهراً سيفه وعلى حده سمكة فيتشابه مع أسد أبو زيد الهلالى، وتظهر الأميرة فى عربتها الملكية أيضا، فى الحقيقة ترى الشكل متخماً بالرموز والأشكال بصورة، تحقق نوعاً من التناقض وأحياناً الانسجام، وتتوالد الأشكال وتتكاثر بصورة لانهائية، وفى معظم الأحيان يكون التوالد وفقاً لحاجة جمالية بغض النظر عن دلالات الشكل أو الرمز التقليدية فتكتسب صوره الخيالية درجات من الغموض والدلالات الجديدة وفقاً لرؤية كل منا الخاصة .. ■

حبل غسيل
مصلـوب
دمـه ينقط على المـارة

شعـــر
محمد أبو زيد

نعم، أحب الورد
لأنه يذكرني بالموت
وأكره الميادين الواسعة، وأخافها
مرة : تهت
ومرة: لم أجدني فى صفحة الوفيات
إلا بعد ثلاثة أيام
المرة التالية
أخذت حذرى
وطرت فوق الميدان بسرعة
خائفا
من أن تثقب دموعى
أدمغة المارة

أريد أن أبكى منذ ثلاثة أيام
ولم أجد وقتا لهذا
فى الماضى
كنت أصفف شعرى
من المنتصف

أما الآن
فسأقاطع الجرائد
والأجنحة
وسهرات القناة الأولى

أقول لكم
منذ ثلاثة أيام أريد أن أبكى
لكننى تحجرت
ولم أعد أميز بين التوائم
أمس
لم تفرق جارتى
بين التمثال القديم
فى مدخل الشقة
وبينى
لكنى حين رفعت عينى
اكتشفت كم هو رائع هذا الصمت
الذى يذكرنى بالورد

الورد جميل
جميل الورد
فلا تبتسموا ولاتغنوا
الأحزان معلقة على الحائط
كأوسمة قتلى الحرب
وصوت عقارب الساعة
لم يزل يوقظنى
الشاطئ بعيد
والسفينة مثقوبة
لم أكتشف هذا إلا الآن
أما صرختى فى المقهى
فلم تكن إلا لتأكيد فرحتى
بالغرق

السينما

في معركة الأفكار

بقلم
مصطفى درويش

ثلاثة أفلام أثارت أشد الخلاف، حيثما جرى عرضها فى أى مكان من دنيانا.

وهذه الأفلام التى أغاظت البعض، وأهاجت البعض الآخر، هى «باحب السيما»، «فهرنهايت» ٩/١١ و«السقوط».

وكان «باحب السيما» الوحيد من بين الأفلام الثلاثة الذى انفرد بعداء من قبل أفراد، ثم جماعات، وصل غليانه إلى درجة استعداء الدولة، ممثلة فى النيابة والقضاء، كل ذلك بغرض استصدار حكم بإلغاء الترخيص الصادر من الرقابة على المصنفات الفنية، لصالح الفيلم، الأمر الذى اتاح له فرصة العرض العام.

ليلى علوي

مايكل مور مع نائب أمريكا في فهرنهايت

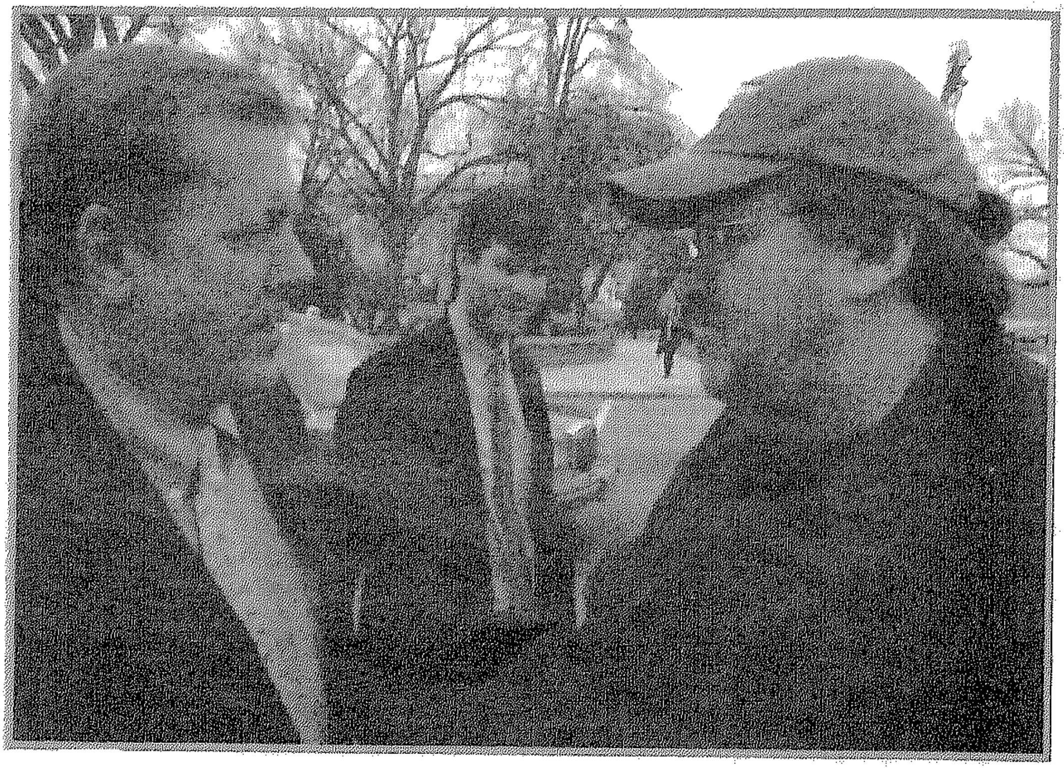

منة شلبي الإبنة مع ابن الجيران

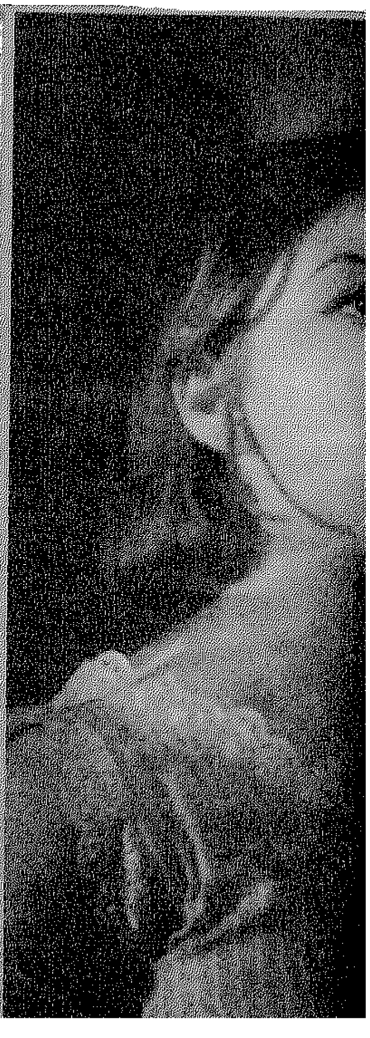

... واسرة مصرية من شبرا

أما لماذا لم يتعرض الفيلمان الآخران لمثل هذه المحنة التى تعرض لها «باحب السما» ، فذلك لأن احدهما «فهرينهايت» أمريكى الهوية، والآخر «السقوط» ألمانى لحما ودما.

قوة الحرية

ومعروف ، أنه فى كل من الولايات المتحدة وألمانيا المتحررة من نير النازية، قد تم استبعاد لغة التحريم والتجريم والتكفير، علي نحو ترسخت معه حرية التعبير، بحيث كادت ترتفع إلي منزلة المقدسات التى لايباح الشك فيها.

وابدأ بالفيلم المطلوب انزال العقاب عليه بحد سيف المنع الباتر، لأقول أن صاحبيه كاتب السيناريو «هانى فوزى»، والمخرج أسامة فوزى»، وهما ليسا شقيقين كما ذهب الظن بنفر من النقاد.

ويعرف عنهما انهما مقلان، على نحو غير مألوف فى سينما، يفضل صانعو أفلامها الكم على الكيف ، ويجنح بهم الاستسهال السقوط فى هاوية المحاكاة، والابتذال، فالأول رصيده من السيناريوهات التى جرى ترجمتها إلى لغة السينما، ينحصر فى أربعة أفلام، أولها «أرض الأحلام» «١٩٩٣»، ذلك الفيلم الذى ختمت به النجمة فاتن حمامة حياتها السينمائية فكان بحق مسك الختام.

أما الثانى، فرصيده من الأفلام ثلاثة لاتزيد «عفاريت الأسفلت» (١٩٩٦)، «جنة الشياطين» (٢٠٠٠) و«باحب السيما» فيلمه الأخير.

فيلم مميز

والأكيد أنه، كما كتب بحق أحد كبار النقاد، الأول من نوعه فى التركيز الكامل على حياة أسرة مسيحية من الطبقة الوسطى الفقيرة، فى أدق تفاصيلها، وبفضله اسقط حاجز الخوف عن المعالجة السينمائية لحياة الأسرة التى يعتنق أفرداها الدين المسيحى.

فالأب فى الفيلم ارثوذكسى متزمت «محمود حميدة» يمارس القمع ضد زوجته الانجيلية «ليلى علوى» وابنته الشابة «منة شلبى» وابنه الصغير المحب للسينما «يوسف عثمان».

الزوجة ممنوعة من الرسم، والابنة ممنوعة من حب ابن الجيران، والصغير ممنوع من مشاهدة الأفلام كل ذلك باسم السماء.

وأحداث الفيلم يحكيها الصغير عندما كبر بلسان الممثل «شريف منير».

وتنتهى بانتصار الجديد على القديم، بموت الأب، وبالتليفزيون يدق الأبواب.

سر الغضب

ولأن الفيلم صادق وأمين فى تناوله

لحياة أسرة مصرية تدين بالمسيحية، فما أن اتضح جنوح أولى الأمـــر فى وزارة الثقافة إلى الترخيص له بالعرض العام، حتى هبت ضده عاصفة مميتة، اتخذت شكل مقالات رافضة، وتعليقات حادة، واتهامات جارحة، انحدرت إلى درك المطالبة بمقاطعة الفيلم من قبل نفر من رجال الدين، واستعداء النيابة العامة، مع مطالبة القضاء باصدار حكم مستعجل بمنع عرضه، أى فى حقيقة الأمر، الحكم عليه بالإعدام وهذه القسوة فى مخاصمة «باحب السيما» غير متوافرة فى مخاصمة «فهرنهايت» ٩/١١ و«السقوط».

فالفيلمان جرى عرضهما بنجاح، تمثل فى تحقيق فهرنهايت إيرادات فى الولايات المتحدة وحدها، تجاوزت المائتى مليون دولار، كل ما هنالك، انهما آثارا جدلاً مفيداً على صفحات الجرائد والمجلات والشاشات الصغيرة، وغير ذلك من وسائط الإعلام الجماهيرية فمثلا المصداقية مدار الجدل المثار حول «فهرنهايت» لصاحبه المخرج التسجيلى «مايكيل مور»، والفائز بالسعفة الذهبية فى مهرجان «كان» الأخير، وهو فوز لعبت فيه السياسة دوراً حاسماً.

فيلم ومنشور

«فمور» معاد لآل بوش عداء شديداً وفيلم لا يعدو أن يكون منشوراً سياسياً وكم كان موفقاً توقيت عرضه سواء فى ذلك المهرجان أو فى مشارق الأرض ومغاربها، وبخاصة فى بلد العم سام فهو سابق على إجراء الانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة ببضعة أسابيع.

وبفضله أصبح «مور» نجما عالميا، ندا «لبوش»، يعمل له الرئيس الأمريكى ألف حساب.

ولأن الفيلم منشور، فقد كان فى وسع «مور» أن يستعمله فى حشد التأييد ضد سياسة «بوش» على نحو قد يحول بينه وبين البقاء أربع سنوات أخرى، رئيساً لأغنى وأقوى دولة فى عالمنا.

اتهام التحكيم

ومن بين الجدل الذى ثار حول الفيلم، طرح سؤال حول ما إذا كان جديراً بالفوز بجائزة مهرجان «كان» الكبرى، بوصفه أفضل من جميع الأفلام التى كانت منافسة له فى ذلك المهرجان.

ففوزه هذا شجبته كوكبة من نقاد السينما فى فرنسا، لأنه فى رأيهم لا ينهض فنيا إلى مستوى الأفلام المشاركة معه فى المسابقة وتتويجه بالسعفة الذهبية، مرده حسابات سياسية، واعتبارات مصلحية، كانت توجب على «كوينتين تارنتينو» ان يتنحى عن رئاسة لجنة تحكيم

برونو جانز مع منتج السقوط

الصورة

... والأصل

مهرجان «كان».

فهو أمريكى مفصح علنا عن عدائه لمنهج «بوش» فى إدارة شئون البلاد.

ومعه أعضاء فى اللجنة أمريكيون ثلاثة، يشاركونه العداء للرئيس.

وفضلا عن ذلك، فهو مخرج «اقتل بيل»، المشارك جزؤه الثانى فى المهرجان.

هذا إلى ثبوت وجود ملصق دعاية لفيلمه فى إحدى لقطات فيلم

يحيون جثة هتلر بعد حرقه

«مور» الذى توجه بالجائزة الكبرى.

وعلاوة على كل ما تقدم ، فالإخوان «واينشتاين» موزعا «فهرنهايت» ، مشاركان فى تمويل وتوزيع فيلمه «أقتل بيل».

ولقد انبرت «ايمانويل بيبيار» فاتنة السينما لمستنكرى تتويج «فهرنهايت» بالسعفة الذهبية، مدافعة عن قرار اللجنة بقولها.

غطرسة المثقفين

«أقسم أننى فى اليوم التالى لإعلان النتيجة كرهت الفرنسيين.

فبعد أن كالوا المديح لفيلم «مور» السابق اللعب مع كولومبين واصفينه بالفيلم العظيم، هاهم يحاولون تدمير فهرنهايت، من منطلق التعالى، داء المثقفين وأيا ما كان الأمر فى كل ما قيل، فالأكيد أن فهرنهايت نقطة تحول فى تاريخ السينما التسجيلية، وبالذات فى تاريخ استغلال الأفلام فى المعارك الانتخابية.

فهو منشور سينمائى، طلقة هدفها الحزب الجمهورى الحاكم ، بغرض ازاحة الرئيس «بوش» عن كرسيه فى البيت الأبيض، وإحلال مرشح الحزب الديمقراطى المعارض، محله فى كرسى رئاسة الولايات المتحدة.

ولم تبق سوى بضع ساعات، ونعرف ما إذا كان منشور «مور» أصاب الهدف «فازاح بوش، أم فشل فى ذلك فبقى رئيساً أربعة أعوام أخرى.

قبل السقوط

أما «السقوط» فالجدل المثار حوله مداره الملاعمة هل من المناسب استعادة اتعس أيام فى تاريخ ألمانيا النازية على شاشة ذاكرة الألمان، بعد أن كاد يغمرها النسيان.

والحق، أن الفيلم، وقد شاهدته فى ألمانيا عقب عرضه ببضعة أيام، يحرك المواجع، فأحداثه تدور وجودا وعدما حول حياة «أدولف هتلر» فى أيامها الاثنى عشر الأخيرة والجيش الروسى (الأحمر) يضيق الخناق عليه ، وهو أسير مخبئه الحصين ، تحت مبنى دار المستشارية فى عاصمة الرايخ الثالث «برلين».

والمخبأ كما صوره الفيلم ليس حفرة رثة، وإنما مبنى كبير، بممرات طويلة، وحجرات تسع الكثير، جرى تشييده تحت دار المستشارية ، حيث ظل «هتلر» يخدع الشعب الألمانى بسراب امبراطورية تدوم ألف عام، إلى أن جاءه الموت بالانتحار، مع عشيقته «إيفان براون» «٣٠ ابريل ١٩٤٥ بعد زواج لم يدم سوى يومين من عمر الزمان.

الحصار والانتحار

وسيناريو الفيلم مستوحى من كتاب للمؤرخ الألمانى «يواخيم فست»، فضلاً عن سيرة ذاتية بقلم «تراودى يونح» سكرتيرة

هتلر، بدءاً من عام ١٩٤٢، وألمانيا فى أوج الانتصار. وحتى يوم الانتحار، والجنود الروس، على بعد خطوات، والمخبأ تحت الحصار.

ولقد تقمص شخصية هتلر الممثل السويسرى «برونو جانز» وتقمصه لها فاق بكثير تقمص ممثلين عظام لها، أذكر من بينهم على سبيل المثال كلا من السير اليك جينس والسير انطونى هويكنز.

وعندى أن أداءه لدور هتلر فى أيامه الأخيرة يرشحه بجدارة للفوز بجائزة أوسكار.

بشاعة الطغاة

يبقى لى أن أقول إن بشاعة الحرب التى شنها «هتلر» كما صورها الفيلم، لم تتوقف عند تشويه الأجساد، وازهاق الأرواح، بل تجاوزت ذلك إلى تشويه الروح فى الجسد، وازهاق الحق فى الروح.

ولعل خير مثل على ذلك التردى والسقوط . اشتراك الدكتور جوبلز وزير إعلام ألمانيا الهتلرية مع زوجته ماجدا فى ازهاق أرواح أولادهم الستة بالسم الزعاف، وبعد وذلك قيامهما بالتخلص من حياتهما بالانتحار رميا بالرصاص.

وأثناء مشاهدة لقطات قتل الأولاد والانتحار، لم استغرب هذا التصرف الكريه من قبل وزير كان جوهر سياسته الإعلامية الخداع والتضليل.

ولا غرابة فى هذا ، افليس هو صاحب مقولة «كلما كبرت الكذبة، صدقها الناس»!!

يبقى لى أن أقول إن آثر لقطات الختام، حيث تنجح سكرتيرة هتلر تراودى يونج فى الهروب من المخبأ، مخترقة صفوف الجنود الروس الفرحين، وفى صحبتها صبى متفان فى حب الزعيم إلى حد حمل السلاح، مع صبية آخرين، دفاعاً عنه فى مخبئه، وحتى الموت برصاص وشظايا قنابل الجيش الروسى المحيط ببرلين، آثر ذلك، وبعد مغادرة قاعة لعرض الأفلام أفخم من أى قاعة فى عاصمتنا، رغم أنها فى مدينة صغيرة ، اشبه بما يسمى ريف عندنا.

لاحظت أن الألمان المرافقين ، كان يغلب عليهم الشعور بالاستياء.

وسرعان ما تبين لى، بعد استرجاع بعض ما قالوه تعليقاً على الفيلم، ان قطاعاً لايستهان به من الألمان العاديين، يريد ألا يذكره أحد بأيام من تاريخ ألمانيا حالكة السواد.

يريدها نسيا منسيا.

ولكن هل فى الامكان محو أحداث جسام مثل حدث سقوط ألمانيا الهتلرية، من ذاكرة الأيام؟!!

هجرة الطيور

مشاهدات.. أرصاد.. دلالات!!

بقلم
د. نبيل حنفي محمود

إتفق أن شاهدت في أحد الأيام الأولي من شهر أغسطس الماضي وعبر إحدي الفضائيات، فيلم «الطيور» الرائع لعبقري هوليود والسينما العالمية.. المخرج الراحل: ألفريد هيتشكوك (١٨٩٩ - ١٩٨٠)، لم تكن مشاهدتي تلك هي الأولي لذلك الفيلم الذي بلغ الاتقان في كل عناصره المنتهي، ولأن تاريخ إنتاج الفيلم يعود لسنة ١٩٦٣م، فقد شاهدته قبلا لأكثر من خمس مرات، لم تنتقص السابقة منهم شيئا من جمال اللاحقة وإستمتاعي بها، وذلك لأن تكرار المشاهدة يلفت إنتباه المشاهد إلي ما قد يكون أهمل ملاحظته أو تأمله جراء دهشة التلقي الأول، وقد كان هذا ما حدث معي بالضبط في متابعتي الأخيرة لفيلم «الطيور»، حيث جذب إنتباهي جملة وردت علي لسان أحد الممثلين عقب هجوم مجموعات من الطيور علي إحدي المدن الساحلية الأمريكية، قال الممثل بلسان أحد أبناء البلدة ومتعجبا من هجوم الطيور: «إن البلدة لا تقع علي طرق هجرة الطيور»،

هنا قفزت من ذاكرتي بعض الحقائق عن قدرة الحمام على الاهتداء لمكان عشه والتى حواها مقالى بعدد يونيو الماضى من «الهلال»، وساءلت نفسى: هل هناك أوجه شبه بين قدرة الحمام على العودة لعشه وهجرة الطيور الموسمية؟، إن المقال الحالى يطرح العديد من الحقائق التى جاءت من مشاهدات وأرصاد ودراسات حول هجرة الطيور، لعل تلك الحقائق تقدم إجابات أو تفسيرات لما قد تثيره تلك الهجرة فى عقل القارئ والمهتم من تساؤلات.

معلومات تاريخية وأفكار قديمة

جذبت هجرة الطيور اهتمام الناس وأثارت خيالهم منذ عهود سحيقة، حيث تضرب المشاهدات المسجلة عن هذه الهجرة عميقا فى تاريخ البشر، إذ تشير صور المقابر والمعابد إلى أن قدماء المصريين قد لاحظوا هجرة الطيور وسجلوها قبل أكثر من ثلاثة آلاف من السنوات قبل الميلاد، ولم تقف المعلومات التاريخية عن هجرة الطيور عند ما سجل فوق جدران المعابد والمقابر، وإنما جاوزت ذلك إلى الكتب السماوية نفسها. ففى الانجيل.. توجد عدة إشارات إلى الحركة الموسمية للطيور، كذلك فإن قصة إنقاذ طائر السلوى Quail المهاجر لبنى إسرائيل من مجاعة تيههم فى سيناء معروفة فى العهد القديم، وهى القصة التى أشار إليها القرآن الكريم فى ثلاث من سوره: (البقرة: ٥٧) - (الأعراف: ١٦٠) و(طه: ٨٠).

يعد عالم الطبيعيات والفيلسوف الأغريقى: أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) من أوائل الكتاب الذين ناقشت كتاباتهم هجرة الطيور، فقد لاحظ أرسطو أن الكراكى Cranes تهاجر من أعماق سيثيا Scythia (وهى منطقة تقع شمال البحر الأسود) إلى المستنقعات عند منابع النيل، وقد خلص أيضا إلى نفس الملاحظة مع البجع والأوز والأوز العراقى والحمام وكثير من الطيور التى تطير إلى المناطق الدافئة لقضاء فصل الشتاء بعيدا عن مواطنها الباردة، لقد صك أرسطو وتلاميذه من بعده بعض المعتقدات الخرافية حول بيات الطيور الشتوى، ومن هذه المعتقدات أن البيات الشتوى للعصافير يتم بالاختباء فى تجويف الأشجار أو وحل المستنقعات، ونسب أرسطو كذلك نفس النمط إلى طيور القلق Stork والحدأة والحمام، اعتمدت معتقدات أرسطو على روايات بعض الصيادين فى مياه الجزء الشمالى من الكرة الأرضية، من أن شباكهم تخرج ممتلئة بالأسماك والطيور، وقد رجحت تلك الروايات أن هذه الطيور غرقت أثناء البيات الشتوى.

لم تكن المعتقدات والخرافات قصرا على عصر أرسطو وحده، بل إنها امتدت إلى ما بعد انطلاق الثورة الصناعية، وها هى إحدى النظريات التى نشرت فى عام ١٧٠٣م وتحت عنوان: «رسالة عن الحل المقبول لهذا السؤال: من أين يجئ اللقلق

واليمام والكركي والعصافير.. ومتى يعلمون ويلاحظون الوقت المحدد لقدومهم؟»، وكانت إجابة السؤال التى اعتمدتها النظرية تقول بأن الطيور المهاجرة تطير إلى القمر حيث تقضى هناك فصل الشتاء!!، ومن المعتقدات الخيالية عن هجرة الطيور ما ينشأ عن خطأ فى تفسير ظاهرة حقيقية، وكمثال لذلك ما فسر به البعض مشاهدته لمضايقة الطائر الملكى الشرقى Eastern Kingbird للبومة ذات القرن الكبير Great Horned Owl، حيث يلتصق ذلك الطائر بكتف البومة وخارج نطاق إنبساط جناحها وأثناء انزلاقها نحو الأسطح الخشبية، لقد أمدت تلك الظاهرة الصحيحة البعض بتفسير لكيف أن البعض من فصائل الطيور الصغيرة – من ذوات السمعة السيئة فى الطيران – تقوم برحلات هجرة مماثلة لما تقوم به الطيور الكبيرة القادرة على الطيران لمسافات بعيدة، فكان التفسير الذى اعتقد به البعض وروجوا له.. أن الكبار من الطيور يحملون مرافقيهم الصغار فيما يسمى بركوب التطفل hitching ride!.

محفزات الهجرة

ينشأ مع الطيور منذ الصغر إحساس داخلى بوجوب توافق مكان العش مع وفرة الغذاء، بالإضافة إلى ضرورة تناغم هذا المكان مع أى عامل بيئى له تأثير على إنتاجية الطيور، لذلك يبدأ استعداد الطيور للهجرة فى فصل الربيع، يحدث ذلك إثر تغيرات تلم بمراكز الجهاز العصبى من الجزء السفلى hypothalamus من مخ الطائر، ويختص ذلك الجزء من المخ والذى يسمى أيضا الجزء «تحت المهادى» بالاحساس بالحرارة، حيث تتحكم مراكز الجهاز العصبى الموجودة فى ذلك الجزء من مخ الطائر فى الاحساس بالجوع والشبع، وذلك من خلال تعديل إفرازات كل من هرمون البرولاكتين Prolactin وهرمون الكورتيكوستيرون Corticos-terone والاستيرويدات الجنسية Ster-Sex oids، فتحفز تلك التغيرات الهرمونية الطائر على الافراط فى الأكل، مما يجعل ما يجتنيه الطائر من غذاء فى تلك الفترة أكثر بحوالى ٤٠٪ مما يزدرده فى الأيام العادية من طعام، ليقوم الطائر باختزان الغذاء الزائد على شكل طبقات سميكة من الدهن تحت الجلد وعضلات الطيران وفى التجويف البطنى، ويمثل الدهن المختزن فى جسم الطائر حوالى ١٥٪ من وزنه استعدادا لرحلات الهجرة القصيرة والمتوسطة، وأما فى رحلات الهجرة الطويلة.. فإن ما تمثله الدهون من وزن جسم الطائر يبلغ حوالى من ٣٠ – ٥٠٪، إن ذلك الدهن الذى إختزنه الطائر فى فترة الاستعداد للهجرة، يكون بمثابة الوقود لانقباضات عضلات الطيران، مما يسمح للطيور بالتحليق لفترات طويلة وبأدنى قدر من الاجهاد.

يبدأ الاستعداد للهجرة بنشاط زائد للطيور أثناء الليل، ويكون ذلك النشاط الزائد ملحوظا أكثر مع الطيور المستأنسة

منه مع الطيور المفترسة، يبدأ قلق الهجرة مع الأيام الطويلة من خلال تأثير الضوء على الجزء تحت المهادى فى مخ الطائر كما سبق القول، ويرتبط المنبه الضوئى للهجرة عند الطيور بالفترة التى يستغرقها النهار من زمن اليوم، وبالرغم من أن الاعتبارات الخارجية والداخلية لتأثير الضوء تعكس التوزيعات الجغرافية له أيضا، فإن الطيور التى تقضى الشتاء فى المناطق الحارة تتميز باستخلاص استجابة لفترة النهار الضوئية مماثلة لتلك التى تتوصل إليها الطيور التى تقضى الشتاء فى مناطق الشمال المعتدلة، ولنضرب مثلا هنا بالهجرة عبر الاستوائية للمراح Bobo link، وهو طائر أمريكى مهاجر يعرف بتغريده المرح، حيث تبدأ طيور المراح الاستعداد للهجرة مع تناقص طول النهار فى مواطنها بالمناطق الجنوبية المعتدلة، فتهاجر شمالا باتجاه خط الاستواء معتمدة على خبرتها فى تناقص طول النهار، وعندما تقطع خط الاستواء أثناء طيرانها، فإن خبرتها عن الزيادة المفاجئة فى طول النهار والمصاحبة لدخولها نصف الكرة الأرضية الشمالى، تقودها هذه الخبرة إلى موطنها فى العام السابق والذى يكون إلى الشمال من خط

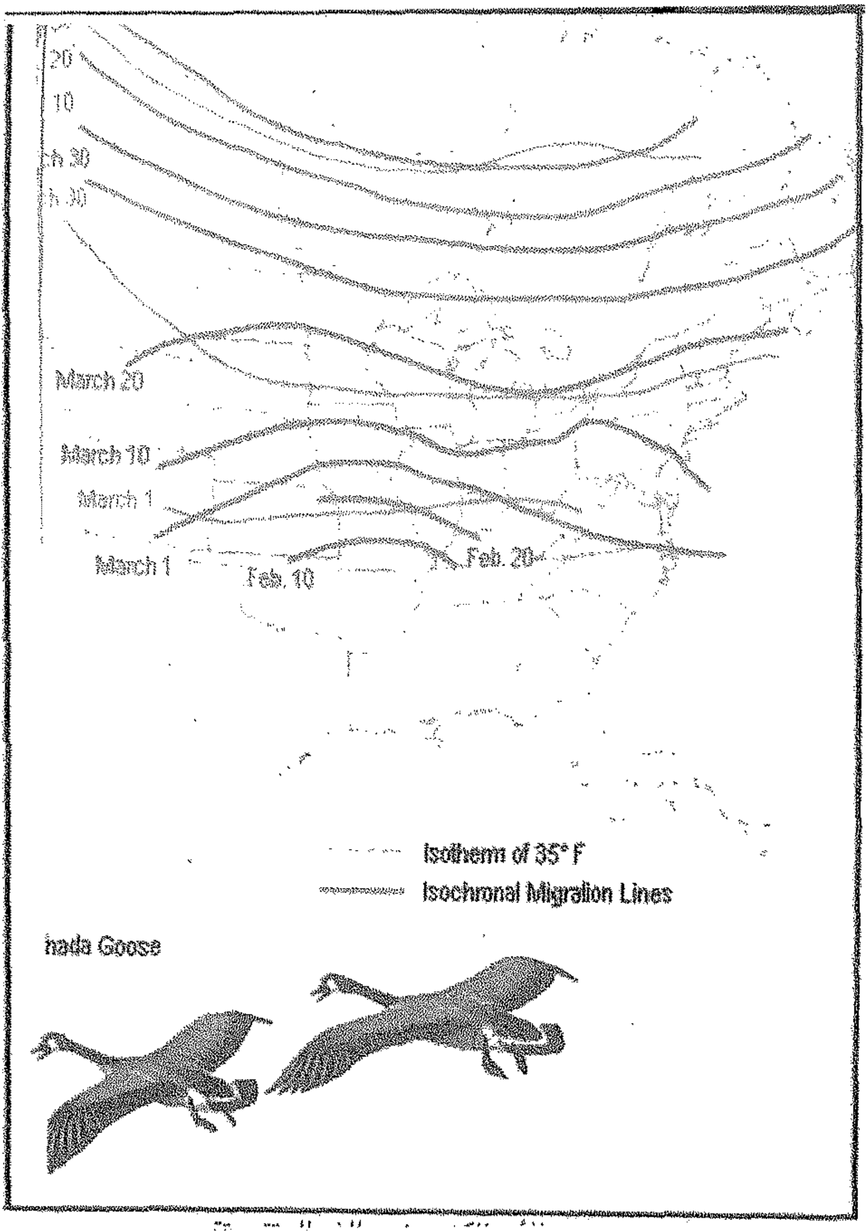

«شكل٢» هجرة الأوز الكندى نحو الشمال تتبع تقدم خط ثبوت درجة الحرارة ٣٥ فهرنهايت (١٦ م)

العرض رقم (٤٠).

إن محفزات الهجرة لدى الطيور ليست هى طول النهار وحده، وذلك لأن الطيور تستخلص تحكما مضبوطا فى هجرتها بالاستجابة لبقية المثيرات البيئية، وتعد درجة حرارة الجو واحدا من المثيرات البيئية الهامة، لذا... فإن هناك أنواعا من الطيور تتبع فى هجرتها نهجا يجعلها تبدو وكأنها مرتبطة بتغير درجات الحرارة، حيث تنتظر تلك الأنواع فى مواطنها

الشتائية حتى يوغل الربيع فى التقدم، لتتحرك بعد ذلك وبشكل مفاجئ إلى مواطن تكاثرها، ومن أمثلة ذلك طائر السمنة الرمادى الوجنة - Gray cheeked Thrush الذى يقضى الشتاء في شمال أمريكا الجنوبية، إن هذا الطائر لا يبدأ رحلته إلى الشمال إلا بعد أن تكون أنواع أخرى من الطيور قد قطعت مشوارا في طريق عودتها، ولا تبدأ طلائع هذا النوع من الطيور فى الظهور بالولايات المتحدة الأمريكية إلا قريبا من آخر شهر ابريل، ففى ٢٥ ابريل تظهر قرب مصب نهر المسيسبى، وفى ٣٠ ابريل تظهر طيور السمنة فى شمال فلوريدا، وبعد شهر من ذلك - وفى الأسبوع الأخير من شهر مايو يشاهد طائر السمنة فى شمال غرب ألاسكا ، وفى مثال آخر لارتباط هجرة الطيور بدرجة حرارة الجو، تبدو هجرة الأوز الكندى Canada Goose نحو الشمال كما لو كانت تتبع تقدم خط ثبوت درجة الحرارة ٣٥° ف (١٦°م) على الأرض ، وفى مثال آخر لتأثير درجة حرارة الجو على هجرة الطيور قدمه لنا ما حدث لهجرة السمان إلى شبه جزيرة سيناء فى العام الماضى، ففى تصريح لمدير إدارة البيئة بمحافظة شمال سيناء أدلى به لصحيفة الأهرام ونشر بعدد الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٢م، قال المسئول فى تصريحه: إنه من المتوقع أن يتأخر موسم الهجرة هذا العام خاصة بالنسبة للسمان الذى تتراوح أعداده المهاجرة بين ٣٠٠,٠٠٠ و٤٠٠,٠٠٠ طائر فى العام، وأضاف المسئول إلى ذلك أن موجة الحر الحالية - فى صيف ٢٠٠٣م - فى أوروبا ستؤدى إلى تشتت الطيور المهاجرة فى طريق هجرتها إلى سيناء، بجانب تأثرها بالمبانى العالية وأجهزة التكييف والعوامل الجوية الأخرى، وذكر المسئول أيضا: أن أعداد طائر السمان المهاجرة إلى سيناء قد انخفضت فى العام الماضى - ٢٠٠٢م - إلى حوالى ١٠٠,٠٠٠ طائر فقط.

يتبقى من محفزات الهجرة المعروفة لدى العلماء، ما يسببه الغطاء الأخضر للأرض من تغير فى الانبعاثات الضوئية التى تستقبلها الطيور، ويتضح أثر ذلك فى هبوط الطيور المغردة بجزيرة جان ماين فى المحيط القطبى الشمالى، فإن تلك الطيور إذا ما وصلت إلى الجزيرة مبكرة فى فصل الربيع، فإنها سوف تجد أرض تكاثرها مازالت مكسوة بالجليد، مما يجعل تطور غددها التناسلية يتوقف لحظيا، فتقلع الطيور من سطح الجزيرة، وتعود إليه عندما يصبح طول النهار منبها لتلك العودة.

صفات مميزة

تهتم الدراسات الحديثة لهجرة الطيور باستجلاء عدة حقائق تعد بمثابة الصفات المميزة لسلوك الطيور أثناء الهجرة، ويمكن القول بأن الصفات المميزة لهجرة الطيور تتمثل فيما يلى: مستوى الطيران - سرعة طيران الهجرة - معدل الهجرة - والعزل أثناء الهجرة، إن دراسة كل صفة من هذه الصفات يتطلب الكثير من الوقت والجهد

والامكانات، وهو ما يخلص اليه القارئ للنبذات التالية عن كل صفة من هذه الصفات المميزة.

مستوى أو ارتفاع الطيران:

بينما تعد العوامل المحددة للارتفاعات التى تهاجر عليها الطيور غير واضحة، فإن هناك من الأسباب ما يرجح أن يكون طيران هذه الطيور على اتفاعات عالية، حيث يسهم الطيران على ارتفاعات عالية فى: تحديد العلامات الأرضية المألوفة - تجاوز الضباب والسحاب - ارتقاء الموانع الطبيعية - وفى اكتساب مزية امتطاء الرياح.

إن تقدير ارتفاع طيران الطيور المعتمد على الرؤية المباشرة يعد قياسا لا يمكن الركون اليه، والدليل على ذلك أنه يمكن رصد الصقر الدورى الأوراسى Eurasian Sparrowhawk بواسطة العين المجردة حتى مسافة/ ارتفاع ٢٤٠ متراً، ولكنه يخرج عن نطاق الرصد البصرى عندما يبلغ مواقع تبعد أو ترتفع لمسافة ٨٤٠ متراً، وهناك العديد من التجارب التى أجريت وتوضح استحالة رصد الطيور حتى مع استخدام النظارات المعظمة التى تبلغ قدرتها ١٢ ضعف قدرة العين المجردة، إن الاستعانة بالرادار فقط هى التى تقدم رصدا أكثر دقة لمستويات هجرة الطيور، حيث تبين من الدراسات أن غالبية تحركات هجرة الطيور تحدث على ارتفاعات فيما بين كيلو متر وثلاثة كيلو مترات، ولكن ذلك لا يمنع وجود استثناءات كثيرة فى ذلك، ومنها ما شاهده وسجله راصدون عند ارتفاع ٤٢٠٠ متر لمجموعة من طيور اللقلق والكركى كانت تطير على ارتفاعات شاهقة، مما جعل مشاهدتها متعذرة بدون النظارات المكبرة، لقد وجدت جيفة عقاب Eagle عند ارتفاع ٧٨٠٠ متر فى أحد الجبال، ومن المحتمل أن هناك حوالى ثلاثين نوعا من الطيور تسلك وبانتظام مسارات مرتفعة لهجرتها، وعلى العكس من ذلك تماما طائر الفلروب Phala-rope وهو طائر شطآنى صغير، والذى يبدو أثناء هجرته طائرا عند ارتفاعات صغيرة وكأنه يمتطى قمم الأمواج!.

سرعة الهجرة:

تم رصد وتجميع المعلومات المتاحة عن سرعة الطيور فى فترة زمنية طويلة، إن القياسات الدقيقة لهذه السرعة تعد أمرا شاقا، حيث تتحكم عوامل عدة فى هذه السرعة مثل: اتجاه الرياح - التعرض لهجوم طائر مفترس - والطيران المنفرد أو من خلال أسراب، وبصفة عامة... فإن سرعة طيران الطيور تتراوح عادة فيما بين ٣٢ إلى ٥٠ كيلو مترا فى الساعة، وعادة ما تكون الطيور الكبيرة أسرع من الطيور الصغيرة، إذ أن السرعة المعتادة لطيران البط أو الأوز (وهى من الطيور الكبيرة) تكون فيما بين ٦٤ و٨٠ كيلو مترا فى الساعة، وفى حالة البلشون (مالك الحزين) Heron والقبرة ذات القرون Horned Lark والغداف (غراب أسود) Raven والدغناش (طائر مفترس)

Shrike وهـى من الطيـور متـوسطة الحـجم، فـإن سـرعـة هذه المجـمـوعـة من الطيور متوسطة الحجم قيمت باستخدام سيارة فوجد أنها تتراوح بين ٣٥ إلى ٤٥ كيلو متر فى الساعة، ولقد سجلت سرعة الهجرة للطيور الصغيرة فى شبه جزيرة سيناء فوجد أنها تقع بين ٣٠ و٣٥ كيلو مترا فى الساعة.

معدل الهجرة:

يختلف معدل الهجرة تماما عن القيم التى تبلغـها سـرعـة الطيور فى الطيـران القـسرى تحت ظروف المطاردة لمسـافـات قصيرة، ويعنى معدل الهجرة هنا المسافة التى تقطعها أسراب الطيور المهاجرة فى فترة زمنية معينة، ولنضرب مثلا هنا بما يتحقق من معدل للهجرة فى طيران عادى لمدة عشر ساعات فى اليوم وتحت ظروف جوية مستقرة، إن طيور البلشون والغراب والصقر وما يماثلها من طيور تقطع فى هذه الفتـرة مـا بين ١٦٠ إلى ٤٠٠ كيلو متـر، بينمـا يبلغ مـا تقطعـه طيـور البط والأوز فى نفس الفـتـرة حـوالى من ٦٤٠ إلى ٨٠٠ كـيلومـتـر، وقـد أتـاح الرادار للدارسين أدق المعلومات عن معدل هجرة أسـراب الطيـور، حيث أظهـرت نبضـات الرادار أن طيـور الشـاطئ التى تنهى هجـرتهـا عند شـاطئ نيـو إنجلند، كـانت تتـحرك وبانتظام حوالى ٧٢ كيلومترا فى الساعة ولعدة ساعات، كذلك أظهر صدى الطيور المغـرّدة أنهـا تنتـقل بمـعـدل ٤٨ كيلومترا فى الساعة .

يعتمد معدل الهجرة ليس فقط على الظروف البيئية المحيطة، ولكن أيضا على الحـالة الداخليـة للطيـور والتى تؤثر على نمط الطيـران، فمن ذلك أن الطيـور تحلق بسـرعات أكبـر عندمـا تكون متـجـهـة إلى أرض التناسـل!، وهو مـا أوضـحـتـه الدراسـات الرادارية على طول السـاحل الشـرقى للولايات المتـحـدة وفى إنجلتـرا، حيث تبين أن هـجرة الربيع تكون أسـرع من رحلة العـودة بعـدة كـيلو مـتـرات فى السـاعـة، إن السبب فى ذلك يرجع إلى أن إختزان الدهن يكون أكبر لدى الطيور فى الربيع منه فى رحلة العـودة، مما يعنى توفـر إحتـياطى كبيـر من الطاقـة لهجـرة الربيع، وهـو مـا يسـاعـد الطائر على الطيران لمسافات أبعد وبجهد أقل.

كشفت مراقبة الطيور المهاجرة التى تمر فـوق القوارب والمنارات أو تمرق أمام الوجه المضيئ للقمـر، أن تلك الطيور تطير لاتحدوها الرغبة فى الإسراع أو بذل مزيد من الجـهد لبلوغ سـرعات عالية، وأوضحت تلك المراقـبـة كـذلك أن هنـاك أنواع من الطيور تتبع فى هجرتها نهجا يجعلها تبدو وكأنها مرتبطة بظروف المناخ الجيد، حيث تنتظر تلك الأنواع فى مـوطنهـا الشـتـائى حتى يوغل الربيع فى التقـدم، ثم تتـحـرك وبشـكل مـفـاجـئ إلى مـواطن تكاثرهـا، وتكون هجـرة تلك الطيـور المتـأخـرة من السـرعة بمقدار يجعلها تتقـابل مع بعض الطيـور التى سـبـقـتـهـا فى الهـجـرة إلى الشمال بشهر أو أكثر، وهنا فإن أوز الثلج Snow Goose يقـدم مـثـالا مـدهشـا

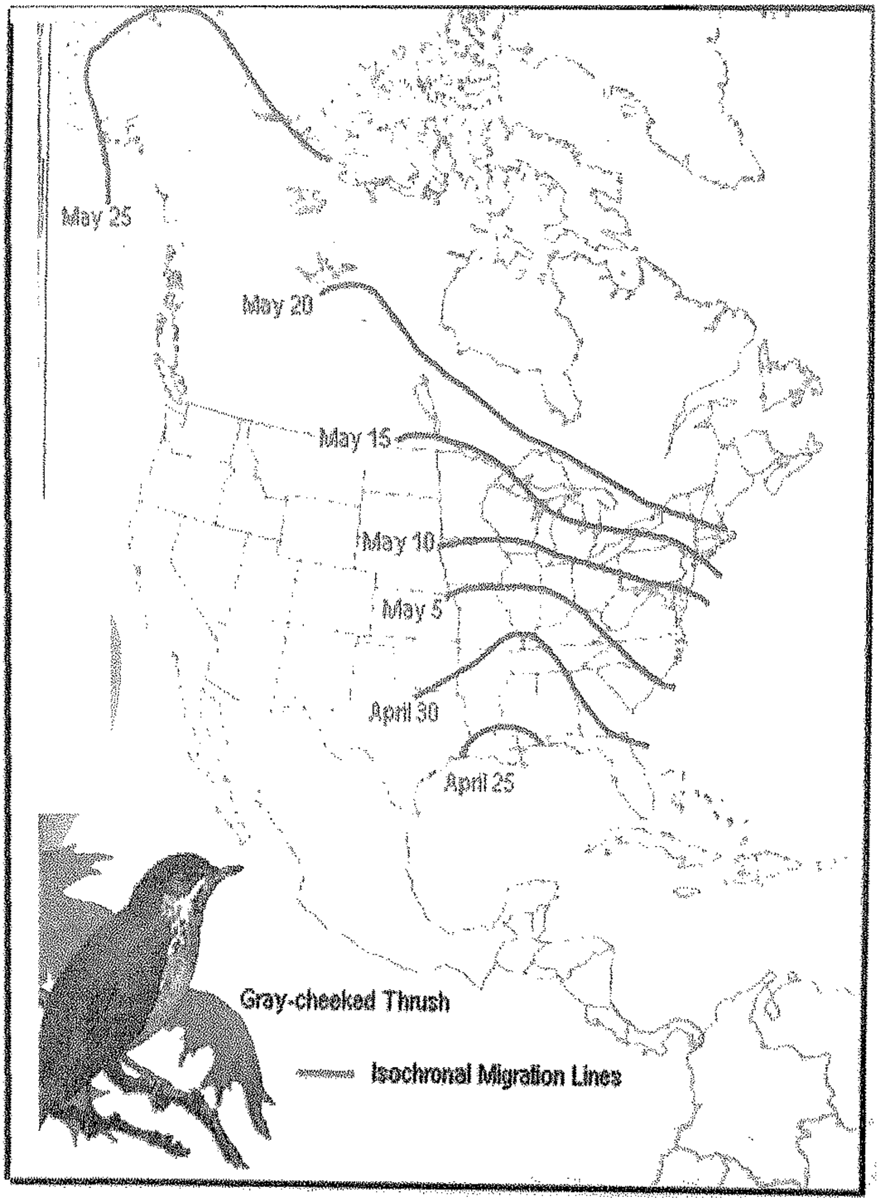

«شكل١» خطوط تساوى الزمن لهجرة طائر السمنة الرمــــادى الوجنـة من لويـزيانـا الى ألاسكا

للتــأخـر ولكن مع هـجـرة ربيع فائقة السـرعة، تقضـى غـالبية الطيـور من هـذا النـوع الشتـاء على الشـواطئ الكبيـرة فى لويـزيانـا والمطلة على خليج المكسيك، ويقـدر عـدد الطيـور من هـذا النـوع بحــوالى ٤٠٠,٠٠٠ طائر، وتقع مـواطن التناسل لهذه الطيور فى جزر بافن وساوثهامبتون فى الجزء الشمالى من خليج هدسون فى شـمـال شـرق كندا، فى تلك المواطن يسـود البـرد المفـرط فيـمـا عـدا أسـابيع قليلة من العـام، تمكث طيـور أوز الثلج بالمناطق الساحلية من لويزيانا حـتى نهـاية مـارس أو بداية أبريل، وعندمـا تبـدأ الطيـور المحليـة فى التناسل، ترحل طيور أوز الثلج مسرعة نحو الشـمـال وبدون توقف حـتى تصل إلى مـواطن تناسلهـا، إن هـذه الطيـور لا ترى فى جوار مناطق تناسلها قبل بداية شهر يونيو، حيث يمكن خلال الأسبوعين الأولين من ذلك الشهر رؤية الآلاف من تلك الطيور تنحـدر إلى سـهل التندرا فى المنطقـة القطبيـة، لينهمك كل زوجين فى الاهتمام بفقس صغارهما .

يمكن القـول بأن نمط الـهـجـرة لدى الأنواع المختلفة من الطيور لا يتقولب فى نمط واحد، ولنأخذ هنا مثلا ما يصنعه طائر البـركـة السـوداء المغـرّد Black Poll Warbler كنمط للهجرة متفرد، يقضى هذا الطائر فصل الشتاء فى شمال غرب أمريكا الجنوبية، ويبدأ هجرته فى رحلة العودة إلى الشمال فى شهر أبريل، وعندمـــا يصل هذا الطائر إلى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، فإن مجموعات من الطائر تنفصل وتطير باتجاه الغرب إلى وادى المسيسبّى... واتجاه الشمال إلى مانيتوبا ... وباتجاه الشمال الغربى

صوب نهر ماكينزى... وباتجاه الغرب أيضا نحو ألاسكا الغربية، تكشف متابعة تلك المجموعات من طائر البركة السوداء المغرّد أن معدل ما تقطعه من مسافة فى اليوم الواحد يتغير من ٥٦ إلى ٣٢٠ كيلو متر، وأوضحت دراسة أخرى أجريت على جميع أنواع الطيور المهاجرة إختلاف معدل ما تقطع من مسافات باختلاف أنواعها والأرض التى تطير فوقها، وأوضحت الدراسة أن جميع أنواع الطيور تعبر وادى المسيسبّى بسرعة متوسطة قدرت بحوالى ٣٧ كيلو مترا فى اليوم الواحد، وأن هناك ١٦ نوعا من الطيور قطعت المسافة من جنوب مينسوتا وحتى جنوب مانيتوبا بمعدل متوسط قدره ٦٤ كيلو مترا فى اليوم، وفى المسافة من جنوب مانيتوبا وحتى بحيرة أثاباسكا فان ١٢ نوعا من الطيور بلغ معدل ما تقطعه فى اليوم الواحد ١١٥ كيلومتر، بينما طارت خمسة أنواع أخرى من الطيور حتى بحيرة العبد الكبير بسرعة قدرت بحوالى ١٨٥ كيلومترا فى اليوم، كذلك فإن خمسة أنواع أخرى قطعت ٤٠ كيلو مترا فى اليوم لتصل فى النهاية إلى ألاسكا، إن هذا التدرج فى معدل الهجرة يماثل ما يطرأ من تغير فى خطوط ثبوت درجة الحرارة على الأرض، وهو تغير يتحرك على الأرض باتجاه من الشمال ونحو غرب البحيرات العظمى فى أمريكا الشمالية (أى فى عكس إتجاه دوران عقارب الساعة) .

عندما يبدأ الربيع فى أمريكا الشمالية... تمتلئ الأشجار والأدغال منذ الصباح بأنواع مختلفة من الطيور مثل شادى الخشب Wood Warbler والسمنة Thrushe والعصفور الدورى Sparrow وصائد الذباب Fly-chatcher وغيرها، وعندما تبدأ تلك المجموعات الهجرة... فإن طبيعة الأمور تكشف عن إحتمالين لهجرة تلك الأنواع المختلفة من الطيور، فى الاحتمال الأول... تترافق كل تلك الأنواع فى رحيلها ووصولها، وطبقا لهذا الأحتمال... فإن شادى الخشب يعد أكثر الطيور رحيلا فى صحبة مشتركة بين مجموعات الطيور فى أمريكا الشمالية، وتبدو أسراب الهجرة فى ضوء هذا الاحتمال مكونة من طيور كبار وأخرى صغار ومن أنواع مختلفة، ويبدو ذلك أمر يصعب تصديقه فى ظل الفروق فى سرعة الطيران وعادات التغذية وتوقيت النوم بين مجموعات الطيور، مما يجعل من طيران الأنواع المختلفة من الطيور معا أمرا غير قابل للحدوث فى معظم الأحيان، وللتدليل على صحة ذلك... فإن الأمر يعد غاية فى الصعوبة لأى من أنواع الطيور كى تحافظ على صحبة السمّامة Swift أثناء طيرانها السريع، لذلك يبدو الاحتمال الثانى هو الأقرب إلى الواقع، حيث يلاحظ أن أنواعا كثيرة من الطيور تحتفظ بتقاربها بشدة، إذ يطير الصقر الليلى Night hawk فى مجموعات منفردة تماما كما يصنع البوم الأمريكى Amer-ican crow وعصفور الأرز الأمريكى ذو

الجناح الأصفر Cedar Wax Wings والمراح، فإذا ما أمكن رصد هذه المجموعات فى نقطة ما على طريق هجرتها، فإن الراصد سوف يلاحظ أن أعداد الطيور - فى كل مجموعة تمثل نوعا واحدا - يرتفع وينخفض خلال الفترة الزمنية للرصد، فإذا ما إستمر الرصد لفترة زمنية أخرى ولتكن شهر مثلا، فإن نمط الهجرة ممثلا فى الأعداد المرصودة لكل نوع... سوف يتكرر فى فترة الرصد الأخرى، وبصورة تكاد أن تكون متطابقة!.

يحقق الانتظام فى سرب الحماية للطيور المهاجرة من هجمات الطيور الجارحة، بالاضافة إلى أن ذلك يسهل من عملية البحث عن الغذاء، فضلا عن أن الأسراب التى تتخذ غالبا شكل الحرف V مقلوبا أو الرقم ٨ يتحقق لها ميزة حفظ الطاقة، وذلك لأن هذا الشكل للسرب يسمح لطيوره أن تكتسب ميزات أيروديناميكية من الدوامات المتولدة خلف المقدمة، وهو ما أكدته الدراسات الرادارية من أن الطيران فى تشكيلات أكثر إحكاما يخفض من تأثير مقاومة الهواء.

عندما تبدأ الهجرة من موطن التناسل ، فإن صغار الطيور التى بدأت فى النمو ترحل فى أسراب معا باتجاه الجنوب وقبل تحرك الآباء، وقد تم رصد ذلك فعلا فى هجرة الصقور، حيث وجد أنه عندما تعبر الصقور أجواء ويسكونسن فى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن الصغار تكون أكثر عددا فى الأسراب خلال منتصف شهر سبتمبر، بينما تصل الصقور الكبيرة بعد حوالى شهر، ولكن هناك قليل من فصائل الطيور مثل الكروان الذهبى الأمريكى American Golden - Plover يرحل فيها الكبار صوب الجنوب قبل الصغار، وعلى النقيض من هذين النمطين... فإن طيور الأوز والبجع والكركى تظل فى رباط أسرى خلال هجرتها، إن النتائج التى تم التوصل إليها فى ترتيب هجرة صغار الطيور والوالدين... هى نفسها التى سجلت مع ترتيبات هجرة الذكور والإناث، إذ بينما تهاجر ذكور طيور أبى الحناء Robin والعصفور الدورى والدرّسة قبل الإناث، فإن هناك فصائل من الطيور مثل طيور الشاطئ والبط والأز والعقاب النسّارية Osprey تهاجر فيها الإناث والذكور معا، وأما فى حالة طيور البُركة (بطة برية) Mallard والبط الأمريكى الأسود، فإن إناثها تبادر بالطيران لتعقبها الذكور فيما بعد .

السلالات

تنتشر محطات رصد هجرة الطيور على طول الطرق المعروفة للهجرة وعبر دول العالم، والمعروف لدى كاتب المقال منها فى منطقتنا العربية ثلاث: إحداها فى شمال سيناء بمصر والثانية فى منطقة إيلات بإسرائيل والثالثة بمحافظة الاحساء فى المملكة العربية السعودية، ولعل ما تتكلفه عمليات الرصد والدراسة من نفقات يطرح أمام القارئ والمتابع السؤال التالى: ما هو العائد من الرصد المستمر طوال العام -

تقريبا – لهجرات الطيور فى مناطق كثيرة من العالم؟، وتبدو الاجابة واضحة تماما عندنا نحن معشر العرب والمسلمين، وهى تحديد بداية موسم الصيد للأنواع ذات المذاق المحبب من الطيور المهاجرة، وقد أضيف إلى تلك المهمة – مؤخرا – تحديد ما يصرح بصيده من طيور والحفاظ على رصيد المحميات الطبيعية من الطيور المهاجرة، ولكن الأمر فى دول العالم المتقدم له بالطبع شأن آخر.

شغل العلماء فى كثير من دول العالم بمشكلة طرحت نفسها على حلقات النقاش فى السنوات القليلة الماضية، حيث لاحظ العلماء أن أنفلونزا الدجاج – التى إجتاحت كثير من الدول الآسيوية – قد بدأت تنتقل إلى الطيور المهاجرة، وقد أثبتت ذلك العينات التى أخذت من هذه الطيور فى أماكن عديدة من دول العالم ومنها مصر، واتضح من تحليل هذه العينات أن الطيور المهاجرة قد جلبت معها نفس سلالة أنفلونزا الدجاج المسماة (إتش١ إن ١ – H1 N1) (الأهرام: ٢٤/٧/٢٠٠٣م – ص٢٦)، وتجيئ خطورة ذلك الاكتشاف من تحذير أطلقته مجموعة من علماء جامعة تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية فى ورقة علمية نشرت بمجلة الجمعية الطبية الملكية البريطانية، فقد لاحظ الفريق البحثى أن القرن العشرين المنصرم شهد سلسلة من أوبئة الانفلونزا إجتاحت العالم من أسبانيا إلى روسيا وإلى هونج كونج، مما دعا الفريق البحثى إلى التحذير من أن الأبحاث التى تجرى الآن لاكمال التتابع الجينى لسلالة فيروس الانفلونزا، سوف تفتح الباب على مصراعيه أمام المغرضين من العلماء (!) لتشييد فيروس أكثر دمارا وأشد ضراوة من السلالات الحالية، وقد حدث ذلك بالفعل وبعد شهور قليلة من تاريخ التحذير الذى أطلقته مجموعة العلماء على صفحات مجلة الجمعية الطبية الملكية البريطانية، حيث حملت إلينا الصفحة الأولى من عدد الجمعة ٨/١٠/٢٠٠٤م من صحيفة «الأهرام» نبأ نجاح فريق علمى أمريكى فى إضافة إثنين من الجينات المأخوذة من عينة لفيروس الانفلونزا الذى قتل الملايين من الأسبان فى عام ١٩١٨م إلى سلالة فيروسية معاصرة، فكانت النتيجة الباهرة أن قتلت الفيروسات الناتجة من التجربة حيوانات المعمل خلال أيام بعد حقنها فى أجساد تلك الحيوانات.

هكذا تحمل إلينا الأيام مزيدا من الهموم تلقيها علينا الطيور المهاجرة من علياء تحليقها، يوجهها ويحملها بما خفى وكان أعظم (غير المغرضين!) من علماء الغرب، ليعلو جبل الهموم الجاثم على صدورنا، وهو جبل تتشكل قاعدته من مفاعل ديمونة بمخزونه الرهيب، ويعتلى قمته سجن أبو غريب الذى يرفرف عليه العلم الأمريكى فى قلب بغداد! ■

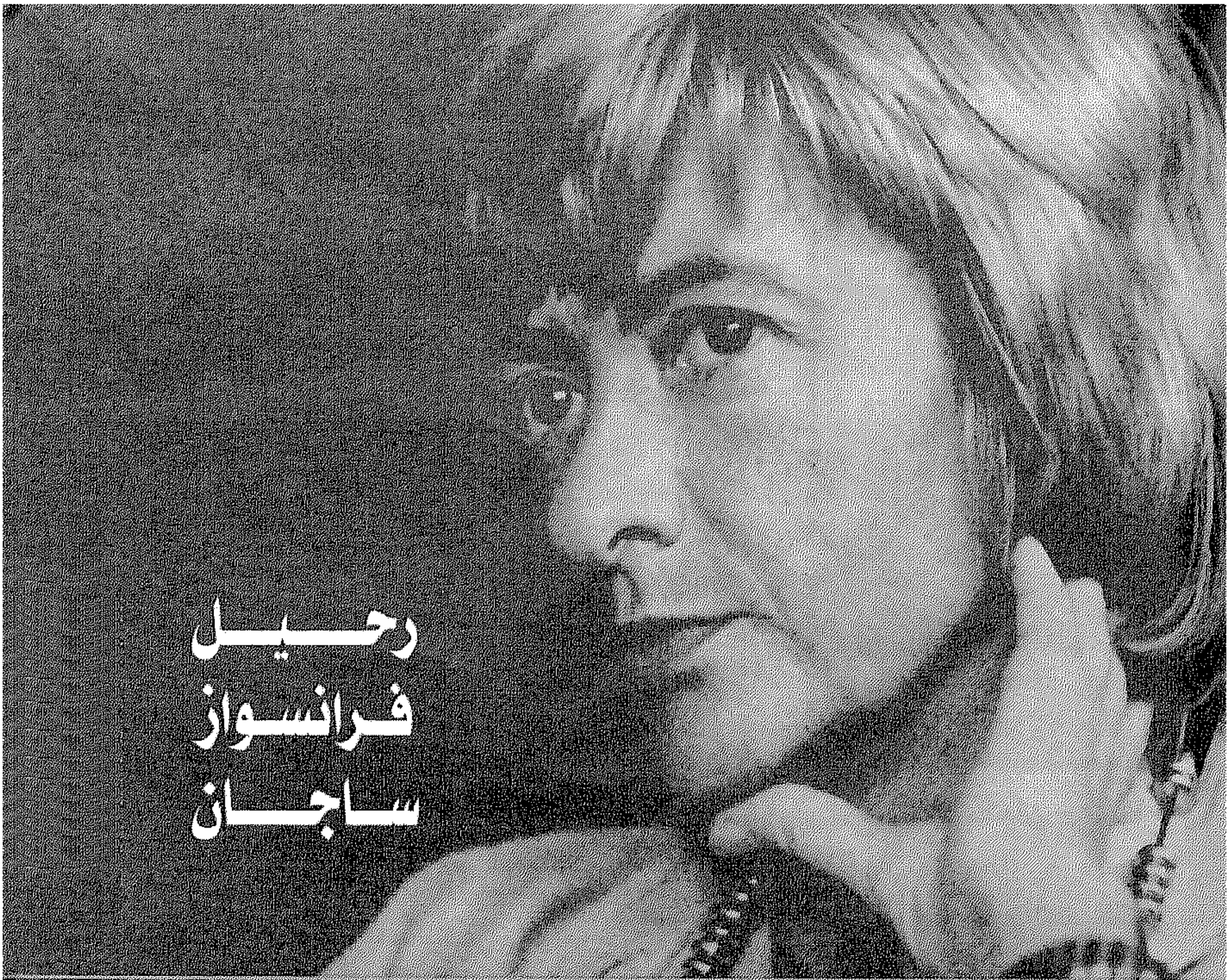

رحيل فرانسواز ساجان

مساء الخير.. أيتها الأحزان!

بقلم
محمود قاسم

٢٠٣

الهلال

هل يصبح التألق البالغ اللمعان بمثابة نقمة لبعض الأدباء ؟

لا أعتقد أن هناك كاتبا ، من أبناء القرن العشرين تألق ونال من التدليل الأدبى مثلما حدث مع الروائية والكاتبة المسرحية ، والمخرجة السينمائية فرانسواز ساجان، وفى نفس الوقت ، فإن كل هذه الأضواء التى ألقيت على شخصها وأدبها ، قد تحولت إلى ظلال معتمة ، وصارت أخبارها تعرف أكثر فى صفحات الحوادث ، وليس فى الأبواب الثقافية فى المجلات والصحف .

حين نقلت وكالات الأنباء خبر وفاة ساجان فى الأسبوع الأخير من سبتمبر الماضى ، تصور البعض أن الخبر قديم ، وأن ساجان قد رحلت عن العالم منذ فترة . حدث هذا أيضا قبل عقدين من الزمن حين رحل الكاتب الفرنسى جان آنوى صاحب مسرحية «المسافر بلا متاع».

لا يمكن الحديث عن ساجان دون أن نربط صعودها ، واختفاءها بظاهرة أدبية ، سادت اوروبا ، خاصة باريس ، فعندما اعتلت الوجودية عرش فرنسا بشكل شعبى ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان على هذا المذهب الفلسفى ، الذى صار سلوكا جماهيرياً، أن يجد مريديه من الأدباء والفنانين، والموسيقيين ، والمطربين ، وامتلأت مقاهى شوارع مونمارتر بهؤلاء الشباب الذين صاروا لسان حال بشر ينعمون بأجواء الحرية ، والتعبير الصادق عن الذات .

ومن هنا لمعت أسماء بعينها ، صارت عنوانا لهذه المرحلة ، جوليت جريكو (مطربة) ، وجيلبير بيكو وجاك بيرل ، وفى الأدب كانت فرانسواز ساجان فى قمة الهرم.

فتاة صغيرة ، دون التاسعة عشرة، تقدم روايتها الجديدة بتألق واضح هى «صباح الخير أيتها الأحزان» ١٩٥٤ التى التصقت باسمها حتى رحيلها ، فكل الدراسات ، والمقالات والحوارات التى وقعت بين أيدينا عن ساجان فى مختلف مراحلها الأدبية، تعلن أن اسم الأديبة

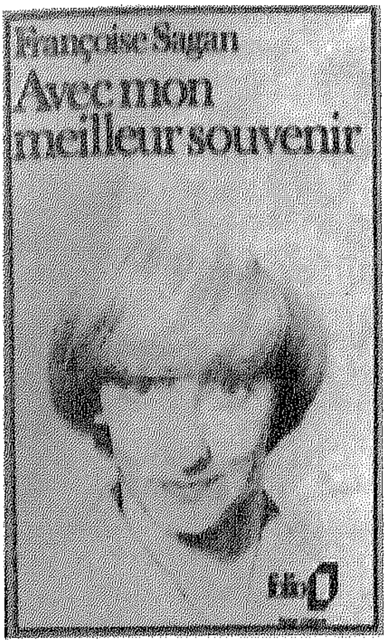

الحقيقى هو فرانسواز ساجان - صباح الخير أيتها الأحزان .

وبالفعل، فإن الكاتبة رغم العدد الكبير من رواياتها ، ومسرحياتها وكتبها ، فإنها ظلت أسيرة لشهرة هذه الرواية ، داخل بلادها وخارجها ، وهى الرواية التى تدور داخل مشاعر خفية للإبنة الشابة لرجل ميسور ، تفاجأ أن مساحة اهتمام الأب قد تقلصت كثيراً عقب زواجه من امرأة حسناء ، فدبت الغيرة فى قلبها.

موضوع بسيط ، سوف نرى أن كاتبنا إحسان عبد القدوس قد تأثر به كثيراً وهو يكتب روايته «لا أنام» بعد صدور رواية ساجان بعام على الأكثر ..

جاءت هذه الرواية على هوى الوجوديين ، ليس فقط لبساطتها فى الأسلوب ، بل لأن بطلة الرواية التى تحكى الوقائع على لسانها قد كشفت عن مكنون الغيرة فى قلبها ، لم تخف ما يعتمل فى داخلها من مشاعر، وهى الفتاة

الصغيرة التى لا تميل كثيراً إلى الآخرين ، إنها عقدة اليكترا العصرية ، التى سبق لأغلب كتاب الوجودية أن كتبوا عنها ، وعلى رأسهم سارتر فى مسرحيته «الذباب».

الغيرة .. إحساس

هذه الرواية سرعان ما تحولت إلى فيلم إنتاج أمريكى بعد صدورها بثلاثة أعوام فقط ، وكان من حسن الحظ هو اختيار المخرج اوتو برمنجر لبطلة جديدة ، جسدت شخصية الفتاة ، ليس فقط كما تخيلتها المؤلفة ، بل كما تخيلها ملايين القراء.

عالم بالغ البساطة ، يخلو من التعقيد وبعيد عن التجريب ، يمكن للقارئ أن ينتهى من قراءة الرواية فى فترة وجيزة فى مترو الأنفاق ، وهكذا جاءت بقية أعمال الكاتبة . لم تكن غزيرة ، لكنها كانت ناجحة ، ففى عام ١٩٥٦ نشرت روايتها «ابتسامة ما» ، وفى السنة التالية نشرت روايتها «فى شهر فى سنة» ، ثم جاءت «هل تحبين برامز؟»، عام ١٩٥٩ .. وكانت السينما تضع عينيها دائما على أعمالها أولاً بأول ، خاصة السينما الأمريكية . فقد أخرج أناتول ليتفال رواية «هل تحبين برامز» عام ١٩٦١ ، واستعان بثلاثة من كبار النجوم آنذاك هم انجريد برجمان، وانتونى بيركنز ، وايف مونتان ، وهى رواية تدور مجدداً حول مسألة الغيرة بين اثنين من العاشقين للمرأة نفسها التى تقترب من خريف العمر ، الأول رجل فى مثل سنها ، والثانى شاب يحب هذا النوع من النساء .

إنه عالم صغير للغاية ، محدود الأشخاص ، غالبا ما تكون العلاقات فيه واهية ، مثل تلك العلاقة التى انتهت بعد أسبوعين من بدايتها . مجرد قصة بسيطة ، تخلو من الحوادث المثيرة ، ارتبطت فيها فتاة برجل متزوج ، وسعيد فى حياته الزوجية ، وذلك فى رواية «ابتسامة ما» ..

تكررت العلاقات نفسها فى روايتها «قليل من الشمس فى الماء البارد» فنحن أمام رجل وامرأة كل منهما فى حالة تحول . الرجل «جيل» .. يعمل صحفياً ، يسافر إلى الريف بحثاً عن الراحة ، وهناك يلتقى بـ «ناتالى» صديقة الأسرة ، يندفع كل منهما نحو الآخر ، تحاول أن تخفف من إحساسه بالاضطراب ، ناتالى متزوجة ، اسوة بالكثير من بطلات روايات ساجان، ومع ذلك تتهاوى فى علاقتها .. تقول : لم أعد أدرى وضعى ، وأشعر كثيراً ، أن الأمور تشرد منى ، كأننى غير موجودة..

وايضا مثل بقية أبطال الكاتبة ، فإن «جيل» المضطرب ، هو أيضاً غيور بشدة ، لدرجة أن هذه الغيرة تضايق المرأة ، فيحاول الاعتذار لها . وعندما يعود جيل .. إلى باريس نكتشف أن هناك امرأة أخرى فى حياته ، لكن ناتالى سرعان ما تلحق به فى المدينة ، وتقرر الإقامة معه إلى حين طلاقها من زوجها ، تقول له : «أراك أحيانا رائعاً ، صادق المشاعر ، وافر الحيوية ، وأحيانا أخرى أجدك على النقيض من ذلك ، كما أجدك دائماً مسرفا فى استغلال وسامتك ..

إنها علاقة قصيرة ، أسوة بكافة العلاقات الأخرى فى روايات الكاتبة ، يبدو

كأنه عالم متشابه متكرر ، فالرجل يهجر المرأة التى تركت الريف من أجله، كما تركت زوجها ، لذا تقرر أن تختفى من حياته إلى الأبد ، حتى لو أحس بالندم ، حين يعرف أنها انتحرت من أجله ، وهو يردد: «قولى فقط أنك كنت تعرفين أننى أحبك وإن كانت الفرصة قد ضاقت الآن ، وفقدتك كما يفقد القليل من الشمس فى الماء البارد..

لقب الكاتبة روايتها

مع بداية السبعينات ، انتهى التألق فى حياة وأدب الكاتبة ، صارت مجرد رواية تقدم أعمالاً لا تلفت إليها الانظار، نظر إليها الجميع دوما على أنها صاحبة «صباح الخير أيتها الأحزان » ، رغم أنها لم تكف عن الكتابة الادبية ، ففى عام ١٩٨١ نشرت رواية «المرأة الشاحبة» ، وبعد عامين قدمت «فجر ساكن»، ثم روايتها «الحرب الملول» ١٩٨٥ ، و «المزيفون» ١٩٩١ ، و «أحزان مرة» ١٩٩٤ . و«المرأة المنسوخة» ١٩٩٦ .

كانت ساجان قد اتجهت للاخراج السينمائى عام ١٩٧٧ بفيلم «السرخسيات الزرقاء» وبعد عامين تولت رئاسة مهرجان كان السينمائى . ومن المعروف أنها نشرت العديد من المسرحيات منها «قصر فى السويد» عام ١٩٦٠ ، ثم «فستان فالنتين الرمادى» ١٩٦٥ و «المدخل المعاكس» .

وعندما انحسرت عنها الأضواء ، بدأت تؤلف كتبا غير إبداعية ، منها كتاب عن «سارة برنار» ١٩٨٧ ، وكتاب فى الفن التشكيلى بعنوان «منزل راكيل فيجا» ١٩٨٥ .

فى الثمانينات ، بدت فرانسواز ساجان كأنها فقدت الجيل الذى ساندها ، وأيدها ، وعلى رأسهم جان بول سارتر ، وسيمون دى بوفوار ، والأسماء الكبيرة من الوجوديين ، رواد مونمارتر، كما أنها أيضاً فقدت قارئها الذى بدا كأنه قد أحس بتشابه هذا العالم ، لذا جاءت روايتها «الكلب النائم» عام ١٩٨٥ أقرب إلى الرواية البوليسية ، حول چيريه الذى يعثر على حقيبة فقدت أثناء مطاردة أحد القتلة ، ويفكر فى أن يستغل النقود كى يغير بها ايقاع حياته ، وأن يعيش بها سعيداً مع امرأة تحبه لماله ، ومع آخرين يهتمون بهذه النقود .

تأثرت ساجان بمدارس أدبية عديدة ، ففى أحاديثها الصحفية قالت إنها مدينة كثيرا إلى بول الوار فى روايتها «صباح الخير أيتها الأحزان» و «قليل من الشمس فى الماء البارد» ، كما أنها تأثرت براسين فى روايتها «فى شهر فى سنة» ، أما بودلير فقد كان دائما فى الخلفية وهى تكتب رواية «السحب الرائعة».

وفى هذه الاحاديث ، اعترفت ساجان أنه فى كل قصص الحب هناك ثلاثة أشخاص «هناك شخص يعلن اعتزاله . إنه شكل من القسوة ، ولا أعرف إن كان هذا يطعن فى هذا التقليد ، وعلى العكس ، فأنا مرتبطة بتقليد ادبى خاص ، إنه نوعى المفضل، فأنا لا أبحث عن توصيل رسالة ، ولست موهوبة ، فالكثير من المواهب لا تظهر على أصحابها».

تدور أحداث «الحرب الملول» ١٩٨٥ خلال شهر مايو عام ١٩٤٢ ، اثناء

جولييت جريكو ، وساجان ايام شباب الوجودية

الاحتلال الالمانى لفرنسا ، حول ثلاث شخصيات : شارل سميرا رجل الصناعة ، وهو اعزب ، يستقبل صديقه القديم جيروم ، وصديقته اليس، جيروم شاب شاحب وحزين ينضم إلى المقاومة ، ويبدو أشبه بكافة الشباب الفرنسيين فى تلك المرحلة ، كل همه أن تتحرر باريس ، لكن نهايته تبدو غريبة ، فهو ينتحر هربا من الفتاة التى تحبه ، فقد وقعت آليس بين طرفى مقص، ففى أثناء احدى الرحلات إلى العاصمة ، اكتشف شارل أنه يحب الفتاة ويفرض عليها مشاعره . لكن شارل الذى لا يحتمل أن يكون هناك محتل عسكرى لوطنه ، لا يحتمل ايضا أن يكون هناك شريك لحبيبته، فيترك لهما الحياة.

النهاية المأساوية المرتبطة بنهاية قصة حب ، تتجدد فى هذه الرواية ، مثلما قرأنا فى «قليل من الشمس فى الماء البارد».

الكتابة .. طوفان أشباح

هناك مسافة شاسعة بين ساجان، ابنة الثامنة عشرة، التى كتبت روايتها الأولى دفعة واحدة ، وبين كاتبة عجوز فى آخر حياتها ، قامت بإعادة صياغة روايتها.. «المرأة الشاحبة» إحدى عشرة مرة وهى تردد «لم أكن واثقة» أن المرة الحادية عشرة ستكون أفضل من المرة الأولى» لذا فقد قالت «إن الادب أشبه بامرأة محفوفة بالمرض» .

وفى السنوات الأخيرة من حياتها ، نشرت ساجان أكثر من كتاب بمثابة ذكريات ، واستجماع لأجمل سنوات الحنين ، وقد تكلمت عن الكتابة ، مثلا، قائلة : «أكتب بشكل بالغ البساطة لأننى أحب ذلك ، الكتابة فضيلة ورذيلة معا ، فضيلة لأنها تشعر بالامتاع ، الكتابة مهنة بالغة الخصوصية وأنا لا أحب الناس الذين يتكلمون عن ما يفعلون، فهذا شئ يحطم قدمى ، ولم أشأ أن أفعل شيئاً آخر اعتقد أننا لا يمكن ابتكار ما نعرفه» .

«بين كل كتابين، لا استطيع أن ألمس ، لا الورق ، ولا القلم ، ولا أكتب بالمرة ، لأننى كائن كسول ، أحب ألا أعمل شيئاً ، أن أظل فوق فراشى ، أتأمل السحب تمر ، مثلما قال بودلير ، أو اقرأ روايات بوليسية ، أو اتنزه . وأقابل الأصدقاء ... هناك لحظة تأتى فيها الأفكار لمداعبة رأسى وأحس بطوفان الأفكار، وطوفان الاشباح ، هذا الأمر يلهمنى ، ثم تأتينى ضغوط خارجية ، وأحس أننى فى حاجة إلى المال ، وهنا فقط أبدأ فى الكتابة». ■

بقلم
مرفت رجب

الدراما التليفزيونية

والبطل

◆ مستحيل أن يكون قد خطر بباله أن تبعث فينا عودته ما بعثت من أشجان.. لا حين يقف مواجهاً البحر يرفع ذراعيه، يمدهما باستقامة الكتفين ثم يضمهما إلى صدره كأنما يحتضن كل أشواق الزمان، ولا حين يستجيب كيانه لدقات الدفوف فيخلع السترة ملقياً بروحه إلى رحاب تجليات بهجة العودة للأهل والأحباب، ولا حين تسرح عيناه، تغوص فيما فات من زمن، تستحضر ما يلزم لإحكام نسيج الصراع.

ها هو البطل يعود، ليملأ الشاشة سحراً وألقاً وفتنة، ولنظل على حيرتنا، أمن تلألأ من حوله من نجوم، أم من سرعة إيقاع مشاهد تعجل بتعقيد الخيوط، أم من ملاءمة ما يجرى لأحداث الزمان، أم تناقض صارخ بين ما عند د. مدحت العدل من حبكة مدهشة، وما عند غيره من ركاكة موجعة؟

هكذا يعود البطل «محمود عبدالعزيز» ليجعل من «محمود المصرى» لؤلؤة جديدة يضيفها إلى تاج أعماله المجيد، ومرة أخرى نحتار، هل نضعها إلى جانب «الكيت كات» أم «الكيف» أم «العار» أم «إعدام ميت» أم «البحر بيضحك ليه» أم «جرى الوحوش» أم «سيداتى آنساتى ساداتى» أم «السادة الرجال» أم «القبطان» أم «قانون إيكا» أم «الفقراء لا يدخلون الجنة» أم.. ، أم... أم... أم نضعها جنب أخت لها من نوع المسلسل التليفزيونى الخالد «رأفت الهجان»؟ فليضعها كل مشاهد حيث شاء، فعلى اختلاف المسوغات تصدق، وفى هذا قد يطول الكلام، لكننا هنا

مشغولين بما بعثه فينا محمود المصرى من أشجان وسأكتفى منها بثلاثة .

أولا: شجن الغياب

ولقد غاب محمود عبدالعزيز عن دائرة مسلسلات التليفزيون بعد أن أنجز الأجزاء الثلاثة من رائعته «رأفت الهجان» أواسط الثمانينات والآن وقد عاد إلينا فى «محمود المصرى» نستطيع أن نؤكد له أننا - رغم افتقادنا الدائم لعطائه الآسر - نحمد له ما يتخذ من قرارات فهو صاحب حق، ذلك أنه رفع نفسه من زمن إلى مكانة فى الفن رفيعة تتيح له أن يكون وحده صاحب القرار، أى الأدوار يختار ولأى مؤلف ومخرج، كذلك فإننا نحمد له أنه يقدر مكانته عندنا فلا يظهر علينا إلا فى أدوار تعزز هذه المكانة بصرف النظر عن الفروق الزمنية بين كل إضافة وأخرى. أما حجتى فى ذلك فلا تحتاج منى إلى أى تفصيل ولقد جرت بها ألسنة الناس كافة، بعدما رأوا على شاشاتنا من ابتلاءات جعلتنا نتحسر على ما فعله نجومنا بأنفسهم إذ ساقهم الإصرار على الظهور فى مسلسل فى رمضان إلى مهالك هوت بأرصدتهم فلم نعد نسمع من محبيهم سوى الآهات، وهى آهات وجع حقيقى، فما هكذا تمنينا أن تكون مصائر النجوم، وفى هذا أرجو أن أذكّر بما أوردته فى مقالين متتالين بعنوان «الترياق من السم الهارى» و«الهطل» تم نشرهما فى هذه المجلة الغراء قبل عام، وفيهما عرضت لظواهر حذرت من عواقبها، وهاهى مسلسلات رمضان أكتوبر ٢٠٠٤ تحقق كل ما حذرت منه وما أعظم الأسف.

ثانيا: شجن البعاد

ولما كان البعاد من البعد، فما أبعد الليلة عن البارحة.. والبارحة هنا هى الأيام التى ظهر فيها على شاشتنا مسلسل «رأفت الهجان»، ومعنى الكلام على هذا النحو أننا نتحدث عن أيام كانت فى أواسط الثمانينات، لا كان فيها قطاع للإنتاج ولا مدينة للإنتاج الإعلامى ولا شركة محشورة بين الاثنين اسمها «صوت القاهرة» دون أن يكون لها أى حس، إضافة إلى أنها من حيث مستوى ما يصدر عنها فهى لا تقوى على قهر بعوضة وإن كانت تتنافس مع القطاع والمدينة فى بث سموم يتضاءل فى ظلها شأن الحيات.

أيام «رأفت الهجان» كان المخرجون من طراز يحيى العلمى والصحن وفايز حجاب وعلوية زكى وعلية يس وإبراهيم الشقنقيرى وإقبال الشارونى هم أصحاب الحل والربط فى اختيار النصوص التى تقدم على الشاشة، ومن أجل ذلك فهم على طول الخط مشغولون بالقراءة، يتلقفون ما يكتبه كبار الكتاب، ويتنافسون فى الانتقاء من الكتابات الجديدة، وبفضل ذلك رأينا على الشاشة تمثيليات ومسلسلات كتبها، أو كُتبت عن أعمال لـ طه حسين ونجيب محفوظ وفتحى غانم وصالح مرسى فى تلك الأيام كان الواحد من هؤلاء المخرجين يأبى على نفسه أن يقدم عملين متتاليين لنفس المؤلف حتى وإن فصل بينهما عام بكامله، كذلك فإن كتاب ذلك الزمان، لم يكن الواحد منهم يرضى أن يتأبد ظهور

اسمه على أعمال تترى لتنحت من رصيد إعجاب قد يكون تكّون فى أول أو ثانى أعماله، وهكذا فإن الكتاب والمخرجين أيام «رأفت الهجان» كانوا من طينة مغايرة، معجونة بالفن والحذق والكرامة.. أما طينة أيامنا فهى من نصب وتلفيق ومهانة إضافة إلى خلوها من أى من صفات المبدعين الأوائل؛ أما عن النصب فهو الصفة الدامغة لمعظم ما عرضته شاشاتنا فى رمضان، أكتوبر ٢٠٠٤ لأنه عرض على أنه من صنف الحلقات الدرامية المسلسلة وهذا صنف من الدراما مختلف تماما عما شاهدنا من ثرثرة هى من حكى المصاطب وإن خلت من تشويقها، وربما يتوجب على الإعتذار لحكائى المصاطب لأنهم لا يستسهلون التلفيق ولا يرضون مهانة لموضوعات حكيهم، أما «إخواننا البعدا» فقد استأثروا بالمهانة تظل تلحقهم كلما وردت إليهم إشارة.

وإلا فبالله عليكم دلونى على مبرر واحد لهذا الانحياز الفاضح لعصبة الأغنياء فلقد أعيانى البحث عن مبرر، ذلك أننى وإن وجدت معظم المشاهد فى معظم حلقات المسلسلات تجرى فى قصور إلا أنها تفتقد لأى من أفكارنا عن أهل القصور.. أم أن المقصود مثلا أن نفهم أن هؤلاء الناس يفتقدون إلى الذوق سواء فى الكلام أو فى السلوك حتى أو فى اختيار أثاث قصورهم.. وانهم لا يجيدون إلا الحديث عن سيول الأموال يبعثرونها، وأظهر خصالهم هى خيبتهم القوية فى شأن تربية الأولاد الذين انفلت عيارهم قولا وفعلا بما يصّعب السيطرة على كوارثهم، أما عن «اللت والعجن» والمط واللجاجة والسخافة خاصة حين تصدر عن من كانوا محسوبين فى عداد النجوم فمن تفرج مثلى فقد عرف.

والله يسامحك يا محمود يا عبدالعزيز فقد أثرت فينا الشجون، ومع أول طلة لك فى محمود المصرى تأكدنا أنك وصحبك من نجوم هذا العمل قد جئتم إلينا من زمن دونه الضياع.. ذلك هو زمن ما قبل الكيانات العملاقة من نوع القطاع والمدينة والشركة، وهو الثالوث الذى حكم على الدراما التليفزيونية بالضياع.. لكننى بالطبع لم أكتب هذا المقال لأنضم إلى زمرة البكائين وما كنت لأفعل.. وإنما كتبته لأوجه الكلام هذه المرة إلى السيد رئيس وزراء مصر. وأما المناسبة فهى ما قال من كلام فى مناسبة الاحتفال بإصدار تقرير التنمية البشرية لمصر لعام ٢٠٠٤.. فقد أعجبنى كلام الرجل وصدقته والآن أسأله؛ ألاينوى أن يطبق ما قاله عن توجه حكومته لتحقيق اللامركزية فى مصر على أساس أن اللامركزية هى السبيل الوحيد لإنجاز التقدم.. وكذلك دعوته للناس جميعا للخروج من دوائر النقد ليدخلوا إلى دوائر العمل المشارك للحكومة فى انجاز مهمتها.. وفى هذا السياق نقول له إن استمرار «المركزية» فى كل ماله بالإعلام

شأن كفيل بوأد أى محاولة لتحقيق أى تحرك تنموى مأمول، ولا أظن ذلك يخاف عليه، لكننا هنا، وبدلا من مواصلة طرح الأسئلة عليه سنعمل بنصيحته التى صدقناها، وها نحن نخرج من دائرة النقد لدائرة العمل البناء فنقترح عليه وعلى حكومته أن يبادروا باتخاذ ما يرونه مناسبا من إجراءات تكفل تحقيق لا مركزية القرار فى الشأن الإعلامى ومنه شأن المسلسلات المذاعة على شاشة التليفزيون ليعود الأمر فيها إلى ما يراه مخرج العمل كما كان الحال على أيام «رأفت الهجان» وفى هذا فالمسألة لا تحتمل تطبيق فكرة التدرج، وإنما هى تحتاج إلى قرارات حاسمة حتى وإن أدى الأمر إلى حصر العدد فى مسلسل واحد على أن يكون من نوع «محمود المصرى» أما ترك القرار مركزياً فى يد الكيانات العملاقة من عينة ثالوث الشر السابق الإشارة إليه فمعناه الإبقاء على احتكار الرأى فى شأن مانرى على الشاشة، نتيجة لاحتكار الرأى فى شأن من يكتب للشاشة ومن يمثل ومن يقوم بالإخراج والنتيجة هى قصر الكتابة على حفنة من الأسماء أجهدتها الشهرة وقصر التمثيل على عدد يعجز أحيانا عن تبديل الملابس بتبديل الأدوار التى يلعبها كل منهم ويظهرون بها فى مسلسلات عديدة تذاع على التوالى بحيث لا يقوى على التمييز بين الشخوص فيها ولا حتى أبناء الملوك.. أما عن الإخراج فإن جهد مجدى أبو عميرة فى مسلسل محمود المصرى يؤكد أنه مازال للمجتهدين نصيب. يكفى هنا أن نشير إلى إيقاع اللقطات والمشاهد لأن هذا من صميم عمل المخرج كما أن من صميم عمله تنظيم حركة الممثلين وحركة الكاميرات وهو ما أداه مجدى أبو عميرة أداء قائد أوركسترا تضم أفضل العازفين .

وإذن فعندنا من المخرجين من يقدرون على الاختيار الحر المستقل، بعيداً عن المركزية والشللية التى أخذت فنانينا إلى مهاوى الضياع وهى أيضا التى جعلت رؤساء القطاعات رؤساء على الورق، أما رؤساء القنوات فهم كرؤسائهم، لايملكون سلطة تحريك نملة، ودعنا من الحديث فى البرامج والمسلسلات

وخلاصة القول الموجه إلى السيد رئيس الوزراء أنه فى الشأن الإعلامى لابد من التعجيل باتخاذ اجراءات كسر الاحتكار سواء فى ذلك احتكار اتخاذ القرار فى شأن ما يعرض وما يحجب، ومن يعمل ومن يتعطل ومن يترك ليموت من الجوع أو فى شأن صيغ الانتاج وفى هذا أعيد التأكيد على أن الرأى عندى هو ضرورة أن يكون المخرج هو صاحب القول الفصل ورئيس القناة هو المسئول عن شخصية القناة لأنه فى هذه الحالة لابد أن يكون قد تم انتخابه على أساس تصوره لشخصية القناة، وهو ما يكون خاضعا للتقييم والمساءلة أما إن بقى كلام السيد رئيس الوزراء مجرد كلام - لا قدر الله - فإن أحلامه وأحلامنا فى التنمية ستبقى مجرد أحلام.. ويأتى رمضان آخر على الناس يخرجون منه بحقيقة واحدة وهى أن الإعلانات تكسب.. هى الأحلى والأنجح، وهى التى تنسف أى خطط لأى رئيس وزراء يفوته مغزى عودة البطل. ■

التكوين (٢)

الفن عندى هو الفن الذى يطور المجتمع

إنعام محمد على

كانت المرحلة الأولى من «التكوين» عبارة عن تراكم خبرات ، فضلا عن التجريب فى قوالب مختلفة ، من قوالب التعبير التليفزيونية ، من خلال البرامج والأفلام التسجيلية ، ثم التركيز على قالب الدراما .

ومنذ بداياتى فى العمل بالإخراج ، لم يكن هدفى «الفن للفن» أو الفن لمجرد الاستمتاع أو التسلية ، لكن كان هدفى هو كيف يستخدم الفن فى تقديم القضايا التى تهم المجتمع ، وتقديمها فى أجمل صورة ممكنة ، والربط بين القضية العامة ، واهتمام الفرد العادى .

المرحلة التي بدأت بعـــد ذلك ،

كـانت مـواصلة لجـهـدى فى الإخراج ، بشكل أفضل ، وفيها ظهر زخم تراكم الخبرة ، فسبعة عشر عاما من العمل المتواصل ، حققت لدى خبرات متعددة ، سواء فى عملى ، أو من خلال مشاهداتى .

ساعدتنى الدراسة الأكاديمية والتى حرصت عليها ، والتى تعد بالنسبة لى الركيزة الأساسية ، التى انطلقت من خلال فن اختيار موضوعاتى ، وترجمتها فنيا فى أعمال ، مثل قضية محو الأمية ، وكان الموضوع الذى يدور عليه المسلسل الذى أخرجته عام ١٩٧٩ بعنوان «هى والمستحيل» وكان من تأليف فتحية العسال ، وكان – تقريبا – سيرة ذاتية للمؤلفة .. وقد ربطت فيه بين القضية العامة ، واهتمامات المشاهد الخاصة ، حيث إن الأمية فى المسلسل ، وقفت كعقبة كئود فى سبيل سعادة «زينب» بطلة المسلسل ، وتواصلها مع زوجها ، فانتهت العلاقة بالانهيار .

وهذا العمل لاقى نجاحا كبيرا فى هذه الفترة ، ومازال يلاقى هذا النجاح كلما تم عرضه .

اعتبرت أن تكوينى ينطلق من حرصى على تحقيق النجاح ، فى كل ما أقدمه من أعمال درامية ، وهو التحدى الحقيقى

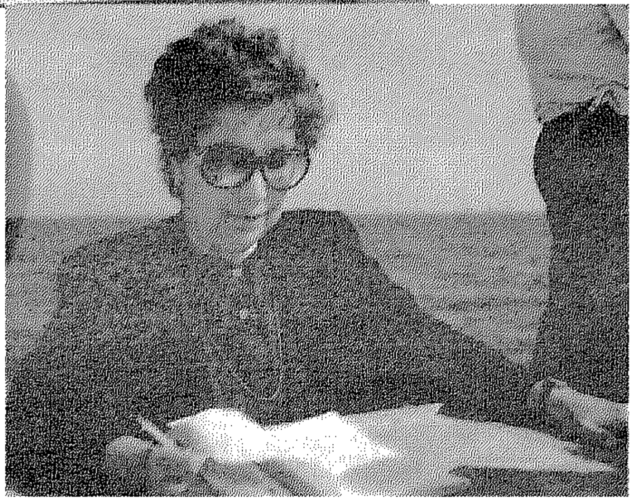

أثناء تصوير « إيلات » كانت تجلس لمراجعة المشاهد

مع جائزة حكايات الغريب

الذى يواجهنى فى الحياة ، وقد خططت له بعناية ، بل إننى استطيع القول بأننى وهبت حياتى كلها للعمل وتحقيق الذات ، فيما يفيد المجتمع من حولى .

كنت أقوم سنويا بإخراج مسلسل ، أو عدة سهرات ، ففي سنة ١٩٨٠ قدمت مسلسلا بعنوان «الباحثة» بعدما انتشرت فى المجتمع ظاهرة رجال الأعمال ، الذين

بدأوا يحترفون أعمال النصب والتزوير، وعقد الصفقات المريبة ، وبدأوا يهددون الوطن والمواطن بشكل مخيف ، وكان الموضوع يدور حول زوجة تفاجأ ، بأن زوجها يساهم فى مثل هذه الأعمال المشينة، وهى لا تعلم عن حياتها شيئا ، على الرغم من أن مصيرها فى النهاية مرتبط بهذا الزوج ، كان العمل يدعو كل زوجة بضرورة أن تعرف كل صغيرة أو كل كبيرة عن دخل زوجها !

الدراما فى هذه الفترة ، كانت قد بدأت ترصد ما يحدث من متغيرات فى المجتمع ، نتيجة لما حدث من تجاوزات كثيرة فى منتصف السبعينيات ، ومن آثار ما يعرف بالانفتاح أو «السداح مداح».

وأنا أؤمن دائما بأن الفن الجيد، الذى يقدم بشكل محكم ، وعلى مستوى عال من التقنية والصدق والابداع ، يجب أى رقابة، لأن الرقابة تقف أمام الأصوات العالية ، أو الأسلوب المباشر ، أو الأعمال الرديئة ، أما الفن المتقن ، المقنع الصادق فمن الممكن أن يخترق أية حواجز رقابية ، مهما كانت صرامتها وشدتها !

وذات مرة واجهتنى مشكلة رقابية فى مسلسل «دعوة للحب» وكان أول عمل تكتبه نادية رشاد فى عام ١٩٨٣ ..

كنا قد عانينا من مبادرة الرئيس السادات فى عام ١٩٧٧ بذهابه إلى القدس، وحتى مطلع الثمانينيات ، من مقاطعة عربية شاملة ، وبدأت بوادر الانفراج أثناء اجتياح اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ . هذا المسلسل رصد واقعية الاجتياح ، وبدايات الانفراج فى العلاقات العربية ، وتضمن دعوة للتجمع العربى مرة أخرى .

كانت القضية المحورية للعمل – بالطبع – هى القضية الفلسطينية ، ولأن مصر كانت مرتبطة فى ذلك الوقت ، بمعاهدة كامب ديفيد ، اعترضت الرقابة على بعض المشاهد المحورية .

وأذكر وقتها ، أننى وقفت أمام الرقابة، موقفا صارما ، وقلت بالحرف الواحد : «إذا ألغى أى مشهد من المشاهد التى جاءت فى تقرير الرقابة ، فإن ذلك يعد بمثابة تقطيع أجزاء من جسدى !»

لم أكتف بهذا القول ، ولكن أصابتنى حالة من الانهيار والبكاء المتواصل ، لدرجة أدهشت رئيس القناة الأولى فى التليفزيون، وكان من نتيجة هذا الموقف الحازم أن المسلسل عرض على الرقابة السياسية ، وجاء التقرير فى صالح العمل ، وإقرار عرضه كاملا .

الواقعية الصادقة !

تتواصل رحلة التكوين .. والتى هى

رحلة الإبداع عندى ، وحرصى على تقديم العمل الجيد ، الذى احتشد له ، وأقرأه وأختاره بعناية ، لا يشغلنى شئ عن هذا العمل ، وأدرس بعناية كل الوسائل الممكنة لنجاحه .

وكان من بين ما قدمته خلال رحلتى ، مسلسل «حب وأشياء أخرى» ويعد هذا أول تعاون بينى وبين الكاتب أسامة أنور عكاشة ، فى مجال المسلسلات ، فقد سبق لى أن أخرجت له تمثيلية سهرة بعنوان «حب بلا ضفاف» ، أخذ عنها جائزة السيناريو ، وأخذت جائزة الإخراج.

هذا العمل الدرامى يتناول المتغيرات التى حدثت فى هذا العصر ، حيث وضع الحب بين شقى رحى، أحدهما التفكير الرجعى حول العلاقة بين الرجل والمرأة ، والثانى حول التقييم المادى الذى ساد العصر ، وفى كل شئ ، بصرف النظر عن المشاعر والعواطف ، أو أى شئ معنوى .. وأعتبر أن هذا المسلسل الذى يتضمن قدرا كبيرا من الرومانسية، وأيضا الواقعية الصادقة ، من أفضل ما كتبه أسامة أنور عكاشة وقد عرض فى عام ١٩٨٦ .

تجربة الإخراج للسينما

محطة أخرى أتوقف عندها ، حينما أعود إلى سنة ١٩٨٤ ، عندما قدمت أول فيلم سينمائى لى بعنوان «آسفة أرفض الطلاق» قصة حسن محسب ، أذكر أننى قبل إخراجى لهذا الفيلم ، كنت قد قطعت شوطا كبيرا فى إخراج الدراما التليفزيونية ، وكنت أعد من مخرجى الصف الأول فى هذا المجال .

وأن أدخل تجربة الإخراج السينمائى لأول مرة ، فقد كنت أشعر بالقلق الشديد ، وأخشى ألا أصل إلي نفس المستوى الذى حققته فى مجال الڤيديو ، ولكن ممدوح الليثى الذى كان رئيسا للإنتاج السينمائى وقتها ، دفعنى إلى دخول هذا المجال .

وبالفعل أخرجت أول فيلم لى ، وكنت فى هذا الوقت أمر بظروف شخصية ، توحدت مع قضية الفيلم، وأذكر أن هذا الفيلم كان فيه اختلاط ، ليس بين المشاهد، بل بين المبدع ، وبين القضية العامة التى يطرحها الفيلم .

ودائما أؤكد أن الأعمال الفنية التى حرصت على تناولها منذ دخولى هذا الميدان ، تنبعَ من معايشة المبدع ، للمجتمع الذى يعيش فيه ، وتتداخل فيها ذاتية هذا المبدع ، تجاربه وخبراته واهتماماته .

التكوين والإبداع

ولهذا فلا يوجد هناك فن محايد، ولابد أن يحمل العمل الفنى وجهة نظر المبدع ، مؤلفا كان أو مخرجا وهذا ما حرصت عليه طوال مشوارى مع العملية الابداعية ، التى

اعتبرتها دوما جزءا من تكوينى.

لكننى أتوقف لأقول بأن لدى فى مجال الإبداع محطات مهمة أؤكد عليها :

الأولى : مسلسل «ضمير أبلة حكمت»، وهو ثانى مسلسل يكتبه أسامة أنور عكاشة ، وقد استطعت أن أقنع الفنانة الكبيرة فاتن حمامة، بأن تطل على المشاهد ، من خلال الشاشة الصغيرة ، وكانت هذه المسألة فى منتهى الصعوبة ، كانت قلقة ، لأن هذه الخطوة الجريئة منها، فى هذه المرحلة العمرية ، لو لم يقدر لها النجاح ، كان من الممكن أن تفقد جماهيريتها التى كونتها عبر سنين طويلة، واستمرت عملية الإقناع سنة كاملة قبل أن تدخل الاستوديو .

وبعد بناء الديكورات ، اعتذرت فاتن عن الاشتراك فى المسلسل ، وكان على أن أبذل جهدا كبيرا لإقناعها بالدخول فى التجربة ، وكان أول شهرين من عمر العمل، من أصعب الأوقات التى مرت أثناء إخراج هذا المسلسل ، حيث لم تكن معتادة على أسلوب الإخراج التليفزيونى ، الذى يستخدم أكثر من كاميرا ، على عكس الأسلوب السينمائى ، الذى يستخدم كاميرا واحدة .

وعلى ضوء هذا العمل أحببت العمل التليفزيونى ، وكررت التجربة .

المحطة الثانية : «الطريق إلى إيلات»

وهو فيلم حربى ، غير مسبوق على السينما المصرية ، فلم يحدث أن أنتجت السينما المصرية ، فيلما حربيا ، حول عملية حربية ، من الألف إلى الياء !

وكان من المستغرب أن يسند هذا العمل إلى امرأة ، وليس رجلا جند ، ومارس الحياة العسكرية .

.. فى بداية الأمر ، ترددت فى قبول إخراج هذا الفيلم ، وانتابتنى الدهشة مرة أخرى من إسناده لى !

وعندما وافقت على إخراج هذا الفيلم ، وأحسست بمسئولية تحويل عملية فدائية ناجحة إلى عمل فنى ، لابد أن تكون نتيجته على مستوى عال ، بقدر مستوى العملية الحقيقية ونجاحها .

هذا الإحساس طير النوم من عينى ، على مدى سنتين ، وهى مدة تصوير الفيلم ومونتاجه وقتها وضع اسمى فى القائمة السوداء لدى الإسرائيليين ! لكن الذى أسعدنى ، أنه عقب الانتهاء من الفيلم ، وقبل عرضه مباشرة أرسل وزير الدفاع – بشكل مفاجئ – عشرة لواءات ، يمثلون مختلف الأفرع فى الجيش لمشاهدة الفيلم، وإقرار صلاحيته للعرض ، من النواحى العسكرية .

كان هذا امتحانا قاسيا عانيت منه

طوال مدة عرض الفيلم ، وأحسست أن أنفاسى تكاد تزهق .. لكن أكبر سعادة تحققت لى ، حينما أضيئت أنوار صالة العرض ، ورأيت السعادة والراحة على الوجوه ، وقيل لى لا يوجد فى الفيلم خطأ عسكرى واحد .

المحطة الثالثة : أم كلثوم ، كانت فكرة المسلسل للكاتب محفوظ عبدالرحمن ، وعرض على إخراج هذا المسلسل ، ووافقت على الفور ، ولكن حينما بدأت التحضير والإعداد للعمل ، أدركت صعوبته ، ومدى المسئولية التى أتحملها ، وخصوصا عندما كنت أسأل عن العمل القادم ويكون ردى أم كلثوم .. حينئذ كنت أرى الدهشة تملأ الوجوه !

كان هاجسى هو كيف أجسد هذه الشخصية الماثلة فى أذهان ، ووجدان المشاهدين على الشاشة الصغيرة ، وهذا هو الذى جعلنى أستمر لمدة سنتين للتحضير للمسلسل ، حتى أستوفيته من كل الجوانب ، كما لو كنت بصدد التحضير لرسالة ماجستير أو دكتوراه .

كانت كل خطوات إنتاج هذا العمل شديدة الصعوبة وكان السؤال الذى يلاحقنى .. ومن ستجسد شخصية أم كلثوم ؟

وحتى الاستقرار على اختيار «صابرين» ، قوبل بمعارضة شديدة، من مدير الإنتاج وقتها ، ومن رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون ، ولكننى تمسكت باختياري ، ومع هذا التمسك ، كان القلق يصاحبنى ، لأننى تحملت أمام الجميع المسئولية كاملة .

هذا القلق لم يتركنى حتى نهاية عرض الحلقة الأخيرة من المسلسل ، والذى بلغ عدد حلقاته سبعا وثلاثين حلقة .

هذا العمل من أجمل الأعمال التي أسعدتنى ، وردود فعله جاءت مبكرة جدا ، بعد عرض الحلقتين الأوليين ، وهذا عكس أى مسلسل يعرض ، فعادة ردود الفعل تأتى بعد النصف الثانى من عرض الحلقات لكن مسلسل أم كلثوم كان فريدا فى كل ردود أفعاله بالنسبة لكل أعمالى التى قدمتها وصولا إلى آخر أعمالى ، مسلسل «قاسم أمين» ..

ويظل الإبداع هو الطريق لتحقيق الذات ، وتجئ الجوائز ، ويجئ التكريم ، وآخر ذلك كان جائزة الدولة التقديرية لهذا العام .

ولكن يبقى طموح الإنسان ، وهو جزء أساسى فى التكوين ، ليحقق المزيد من النجاح والتألق ، بشرط اختيار الفكرة الجيدة ، وإعمال العقل ، ليحقق الهدف المنشود من وراء العملية الإبداعية ، التى - ربما - تضع الحلول لبعض المشكلات والقضايا التى تواجهنا فى الحياة . ■

عبدالعزيز الربيعي .. المفترى عليه!

قرأت ما كتبه أستاذنا الجليل وديع فلسطين فى عدد أكتوبر الماضى، حول السرقة المزعومة التى افتراها الشيخ عبدالله بن خميس، ودهشت لهذا الزعم، فالأديب الكبير الشيخ عبدالعزيز الربيعى، لم يشتهر بالشعر من ناحية، وليس من عادته أن يسير فى ركب التهانى، كالشعراء الوصوليين، من ناحية ثانية. وإذا كان يريد أن يعبر عن شعوره نحو الشاعر عزيز أباظة، ففى مقدرته أن يكتب عنه بحثا ضافيا، فهو ليس فى حاجة إلى انتحال قصيدة تهنئة قالها شاعر مصرى، هو فى الوقت نفسه صديق حميم لعزيز أباظة.. فكيف يتخيل ذلك عاقل؟!

إن أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى حين تحدث عن أعلام الأدب فى السعودية فى كتابه القيم «كيف عرفت هؤلاء؟» اختار منهم الأساتذة الاعلام عبد القدوس الأنصارى، ومحمد سعيد العامودى، وعبدالعزيز الربيعى، وعبدالفتاح أبو مدين، وما كتبه عن الأستاذ الربيعى، يدل على ما للرجل الكبير من جهد بارز فى الأدب، ومن سمو رفيع فى المروءة العالية، التى يعز نظيرها الآن، وصاحب هذه الهمة العالية، لا ينحدر إلى مستوى أدعياء القريض.

وقد سكت ابن خميس حتى مات أباظة والصيرفي، ومضت أعوام كثيرة ثم جاء يذيع هذه الفرية لخصومة شخصية بينه وبين الربيعى، وقد عملا معا فى تحرير مجلة الجزيرة عند إنشائها.. وكانت مقالات الربيعى أكثر جرأة وأعلى همة من مقالات «بن خميس، ولولا عزوف الشيخ الربيعى عن النشر كما حدثني أحد اعلام الصحافة فى الرياض لذاعت آثاره الأدبية».

كما حدثنى هذا الصحفى الكبير

فرج مجاهد عبدالوهاب - عضو اتحاد كتاب مصر - شربين - الدقهلية

ليس الأحفاد كالأجداد

هذه الأيام سود ... كذب، فسق وكفر
أين أعراب فحول؟ ... فوق تلك البيد مروا
أنجبوا سعداً وعمرواً ... يوم ثار النقع كروا
هذبوا الدنيا وقالوا ... ديننا بدر وخير
شعرنا نهر غزير ... لشعوب الأرض عطر
أين أمجاد درسناها؟ ... وفرسان وفخر
إننا الآن غبار ... ضمه فى الليل قبر
لم نجد فى الشرق مأوى ... شجنا الغرب الأغر
حيثما سرنا ذبحنا ... خنجر البغى مصر
هل سيأتي بعد يأس؟ ... زمن كالضوء حر
دجلة فيه تصلي ... وتنادي وتصر
أن تضم الشام مصراً ... لتضيء الليل مصر

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

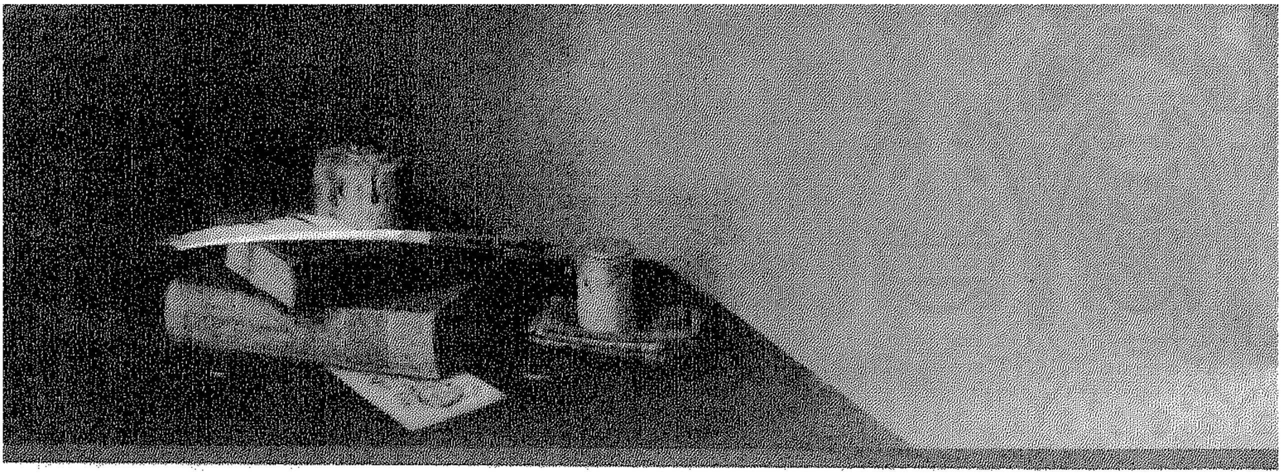

إنفتاح الشهية لعودة الاستعمار من جديد

قرأت مقال الدكتور مصطفى سويف المنشور فى أكتوبر الماضى، بعنوان «هل آن الأوان لعلاج الاهدار» ، ومفتاح الحل فى المقال هو «عاشرا» وهو الترتيب الذى أراد د. سويف أن يلخص به مضمون الرسالة التى استهدفها، حتى يحمل صاحب اتخاذ القرار فى هذا البلد، أنه يجب التنبيه إلى طبيعة المرحلة التاريخية التى نمر بها الآن، نحن فى مصر، فى الوطن العربى، فى الشرق الأوسط، وهى مرحلة تتسم أساسا بانفتاح شهية - قوى عالمية، متعددة إلى عودة الاستعمار!

ويستكمل فى نفس العدد مقال د. جلال أمين «الارهاب هذا الاختراع المدهش، أوضح اسلوب معاصر على استماتة المستعمرين القدامي والجدد، فى تسيير دفة حياتنا إلى ما يهدفون إليه استعماريا.

ومن خلال قراءتنا لما جاء بمقال د.جلال، من المفيد أن نلاحظ الشبه بين استخدامات فكرة «الارهاب»، واستخدامات نظرية المؤامرة، فكل منهما تعبير غامض غير محدد، يستخدم لوصف حالات متباينة أشد التباين، لتحقيق غرض واحد، وهو التخويف، وإن كان التخويف فى الحالة الأولى «الارهاب» من الموت والدمار، والتخويف فى الحالة الثانية «نظرية المؤامرة» من استهزاء الناس واحتقارهم.

هكذا يستكمل عدد واحد من أعداد الهلال، ما يراه عالم من علمائنا - مصطفى سويف - ظاهرة يجب الاحتراز منها، إلى اساليب تسويق هذه الظاهرة اجتماعيا - جلال أمين، حتى ننتبه إلى تلك المخططات الاستيطانية.

فلكم هيئة التحرير ولهلالنا وهلالكم خالص الامتنان

القارىء المستديم
د. سامى منير عامر - كلية التربية - جامعة الاسكندرية

أنت والهلال

نفثة مصدور

فوق سهامك يازمان فإننى ... ما عدت أحفل بالهوى الفتان
هجرت طيور الحب أعشاشى التى ... كانت تهدهد مهجتى وجنانى
ويلحنها الوثاب كانت مقلتى ... تصحو وتغفو تستدر حنانى
لا تطلب السلوى فؤادى إننى ... أحيا بذكر أحبتى، وأعانى
إن الليالى موحشات قفرة ... لفتتركينى ليلتى وزمانى
ولتهجرى الصمت النبيل بأضلعى ... ولتقذفى حمماً من البركان
فبصمتنا الملعون قتل أحبتى ... وبصمتنا المسفوك يحيا الجانى
وأنا هنا، فى قاعة فيحاء قد ... أستاف نسمات مع الخلان
هل بعد هذا تطلبون قصائدى ... والعىّ أحمد من قصيد هوان
ونسيتم الطفل المضرج بالدما ... وسؤاله المرور عن إخوانى
أحجارة ثكلى، وليت قلوبنا ... باتت تئن كأنه الصوان
أرض الكرامة أنبتت أحجارها ... أكرم بأرض نبتها يرعانى
لا تطلبوا منى اغتيال مشاعرى ... قتل المشاعر ليس فى إمكانى

أحمد محمد الدماطي
الشهداء - منوفية

العودة إلي الاهتمام بالرسائل الجامعية؟!

تنشر الهلال مقالات مهمة، بل هى فى الصميم، لا تبالى إلا بكلمة الحق التى كادت تكون غريبة فى زماننا المستكين!

وخير دليل على ذلك ما تحدث به الأديب الناقد الدكتور محمد رجب البيومى فى هلال أكتوبر الماضى حول الرسائل الجامعية الآن، فأكثرها يعدها فى صلبها هيكلا عظميا.. ويسائل الكاتب نفسه قائلا: «ما علاج هذا الداء الوبيل الذى استشرى فى كل الجامعات؟..

ويجيب عن ذلك بأنه يجب على طالب الدراسات العليا، مزاولة القراءة المتئدة لآثار الكبار من الباحثين، مع اتقاد صدره بجذوة البحث الدافعة إلى الكمال بحرارتها المشتعلة.

فإذا أراد باحث أن يستكمل الشق الآخر من عوامل تلك المأساة الأكاديمية التى أشار إليها أستاذنا، رأى أن المرجع فى ذلك الموضوع، هو حديث الراحل د. محمود الطناحى بهلال شهر يونيه ١٩٩٩ ص١٨، ص ١٩ إلى أساتذتنا المشرفين على مناقشة الرسائل العلمية، حين قال تحت عنوان: «الرسائل الجامعية وساعة ثم تنقضى»: «إنى أقول بحق وبصدق، إن عند كثير من الأساتذة الجامعيين علما، ولكنهم لا يخرجونه، ليس ضنا به، ولكنهم لا يبذلون جهدا فى قراءة الرسالة الجامعية، لأنهم يزنون الأمور بميزان العائد المادى!

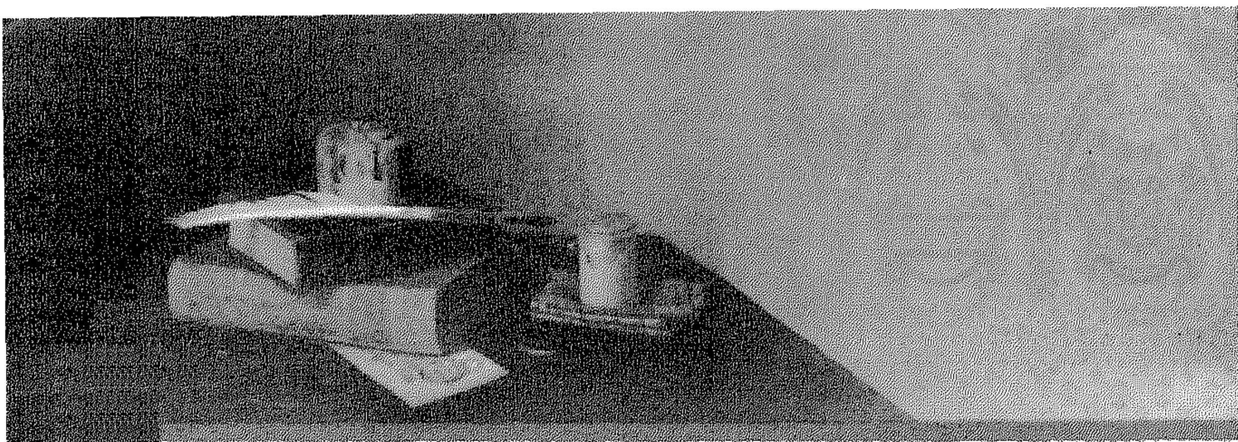

أ

أبو حيان التوحيدي

٣٢٠هـ/٩٣٢م - ٤١٤هـ - ١٠٢٣م

ولد فى مدينة شيراز أو فى مدينة نيسابور.. وتلقى أبو حيان علومه النحوية فى بغداد على يدى أبى سعيد السيرافى، وعلى بن عيسى الرمانى، أما علومه الفقهية فى المذهب الشافعى، فقد أخذها عن القاضى أبى حامد المروروذى، وسمع الحديث من أبى بكر بن عبدالله الشافعى، وأخذ التصوف عن جعفر الخلدى.

قال عنه ياقوت الحموى.. هو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء.

كان يتكسب من نسخ الكتب فى بغداد. وعاش حياة المغترب القلق، الذى عانى من تجارب الحياة، ومن ضياع الحق والجهل والإدعاء، والتكالب، ومن التعدد والخلط فى أحكام القضايا الواحدة، حتى ضاق عليه الفضاء على رحابته، وفقد الثقة فى كل شىء.

احتلت مؤلفاته التى لقيت بعد أن تنكر لها وأحرقها، مكانة متميزة فى التراث العربى، بما طرحه فيها من أفكار إنسانية متحررة، واضحة العبارة، بالقياس إلى أقطار ولغة عصرها.

وحرق التوحيدى لكتبه واقعة مؤلمة فى تاريخنا الأدبى، قام بها فى أواخر عمره، وهو يراجع حياته ويتأملها، بين المكسب والخسارة.. ويبدو أن مؤلفاته التى أحرقها تلك التى كتبها فى سنواته الأخيرة، أما ما سبقها فلم يكن بمقدوره جمعها من الرواة والنساخ، وهى التى بقيت شاهدة على فطنة صاحبها، وعمق رؤياه وخواطره وتأملاته، ترك أبو حيان التوحيدى أكثر من كتاب.. ترك المقايسات، والصداقة والصديق والامتاع والمؤانسة، كما ترك الاشارات الإلهية، وهو قمة كتبه وأرفعها جميعا باتفاق الدارسين الأكاديميين ونقاد الأدب، يقول التوحيدى فى مناجاة له بهذا الكتاب: «اللهم إنا نسألك ما نسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك، وحسن أفعالنا معك، وسوالف إحساناتنا قبلك، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض، وطمعا فى رحمتك الواسعة..

نعم.. وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار، وإن كانت أعمارنا مقصورة عن إدراك غايات حقائق التوحيد والمعرفة، فنسألك ألا ترد علينا هذه الثقة بك، فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك.

ياحافظ الأسرار، ويامسبل الأستار، وياواهب الأعمار، ويامنشىء الأخبار، ويامدارى الأشرار، ويامنقذ الأبرار من النار والعار.

عد علينا بصفحك عن زلاتنا، وأنعشنا عند تتابع جرعاتنا، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا، لأنك أولى بنا.

أنت والهلال

لنا الله

ويذهب هذا ويأتي سواه   وكل علينا ونحن الجناة
نولّى وجوها لغير الإله   ونبغى رضاهم وننسى رضاه

★

يعادوننا من قديم الزمان   ويأتوننا بالردى والهوان
وننسى ونطلبهم للأمان   حماة وهم أهل غدر غزاة

★

مطامعهم فى حمانا تدور   كدور الذئاب ودأب النسور
ألا فليكن من ثرانا طيور   ترى ما يكون ومن فى سماه

★

ألا إننا أصل كل الفروع   إذا ما نضيع فكل يضيع
لنا الدين شمس سيبقى السطوع   لنا رغم كل ونحيا الحياة

★

ستجمع كل القوي من جديد   ونحمى الحمى بيدٍ من حديد
سيبقى لنا المجد مجد الجدود   ونحيا كراما بعون الإله

حسن أبو الغيط - كفر المصيلحة - منوفية

أخطر دولة علي السلام العالمي!

حسب العقيدة اليهودية، تعتقد أن اشكناز بن جومر بن يافث بن نوح، قد سكنوا أرض القوقاز فى روسيا، لذلك فإن أرض القوقاز فى التوراة، تسمى أرض اشكناز، وأن يهود الخزر من سلالتهم.

وحدثت مذابح لليهود الخزر على أيدى قياصرة روسيا، ولكن اليهود هم أبرع الناس فى الكذب، من أجل أغراضهم السياسية، فقد ادعوا أن اليهود جميعا هم بنى إسرائيل، وأنهم تفرقوا فى الأرض كلها بعد السجن البابلى.

لذلك فإن الحركة اليهودية، تعمل على إعادتهم إلى أرض فلسطين، وأن اليهود الاشكناز يمثلون ٩٠٪ من عدد يهود العالم، وكانت ذريعة الحركة اليهودية هى ترحيل اليهود من روسيا، بحجة المذابح هناك وفى المانيا فى القرن الماضى.. ومنذ حدث ذلك وحتى اليوم، لاتزال الهجرة اليهودية إلى فلسطين مستمرة.

لقد تم اغتصاب فلسطين، ودفع أبناء هذا الوطن العربى، ثمن الأخطاء، لقد هرب اليهود من القتل والبطش فى دولهم وجاءوا إلى فلسطين، لكى يكون البطش والقتل على أيديهم ضد الفلسطينيين، أصحاب الوطن الذى اغتصبه اليهود!

لذا أقول هل يعترف العالم بالخطأ التاريخى فى اقامة دولة إسرائيل، كما اعترف استفتاء معهد جالوب فى نوفمبر عام ٢٠٠٢، بأن الدولة الصهيونية، أخطر دولة على السلام العالمى.

د. جمال على العطار - الاسكندرية - كامب شيزار

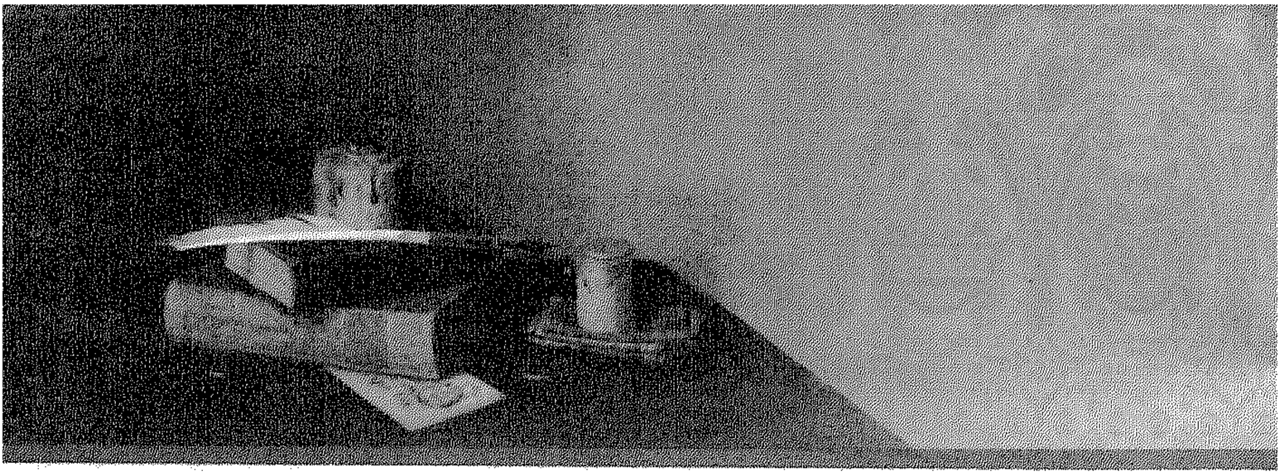

التدخين.. وكيف نتصدي لتلك الظاهرة؟!

مع بداية شهر الصوم الكريم، نرى مشهدا غريبا، يزداد كل يوم.. مقاهى ونوادى للشيشة يقبل عليها الشباب والفتيات والنساء، وتتزايد أعداد تلك المقاهى، بل يتم تطويرها وتجديدها والعناية بالديكورات الخاصة بها، وكأن اكتشافا قد حدث لكى يدمر شبابنا قوته، ويهلك أبدانه من جراء هذه العادة الدميمة التى استشرت فى الأونة الأخيرة.

حتى أننا نجد فى إعلانات الفنادق والنوادى والكازينوهات بمناسبة شهر رمضان، تقديم أفضل أنواع «الشيش» جمع شيشة.. ولا أحد يعلم مضارها إلا الله وحده.

مطلوب من الجميع التصدى لمثل هذه العادات التى تنال من شباب الأمة، وتضعف قوتها، وهذا التصدى يحتاج لحملات من التوعية، لا تستمر أسبوعاً وشهرا، ولكن ينبغى أن تتواصل الحملات، وتتضافر الجهود لدرء خطر يحمل إلينا فى المستقبل المزيد من أمراض السرطان وغيرها، وقانا الله منها وكفانا شرورها.

د. محمود الشريف - نقيب الأطباء

على شرف الوظيفة

دعوت وظيفتى.. قالت: لماذا ... فقلت: إلى غداء بعد جوع
فقالت: هل فقدت الصبر يأساً ... فعدت إلى السجود أو الركوع؟
فأى موظف لم يحن رأساً ... تشرحه المعاول فى الضلوع
فقلت: وظيفتى يكفيك حزنى ... عليك وأنت ساجية الدموع
فمن حكامك اليأس المدمى ... ومنهم فاقد العبد المطيع
ومنهم من يقضى العمر نوماً ... وإذ يصح ينكل بالجميع
ومن يعمل يجد فى كل يوم ... مذكرة مد مدمة الصقيع
ومن يعبث يفرغه النشامى ... يقولون: القضا للمستطيع
وفى زمن الوظائف ذا أتينا ... فكيف تغيب فى وقت الطلوع
قروش فى يدينا كل شهر ... حشائش لا تبل دم القطيع
مصالح ياحياتى كل شىء ... وللعمل الهجوع إلى الهجوع
وقد فرض التقهقر كل حكم ... يمد يد الشفاعة للشفيع
فما للمخلصين أخو انتماء ... لغير اليأس فى الزمن الوجيع
فيا وطنى وأنت منار إرثى ... وقد طغت الرياح على القلوع
أمد يدى إليك فضم قلبى ... إلى قلبيك فى الصدر الوسيع

عبد الرحيم المساخ - سوهاج

قصة قصيرة

وجود.. وميتافيزيقا

انهار من العرق الكثيرة تنزف من جبهته وساعديه الأسمرين اللذين التحما مع الشمس ليصيغان أغنية جريحة ويحطمان كئوس الانكسار.. تنزل حبات العرق بكثافتها الملهبة لتصبغ حلقة بأنواع شتى من الانقباضات العميقة.. يستحيل لونه ليصبح كل الألوان ثم لا لون.. إنه في خضم شديد مع أمواج البحر العاتية يدفن أيامه في محيطات أو هامه، ويوقظ كل الشياطين لتتأمل أنغاما لا صهيل لها.. ورغم الكوابيس التي اصطفت لتغرق في جحيم سرمدي، إلا أنه ينظر بقوة وبكل أركان الميتافيزيقا لخوف بعيد يطل بأشباح تشبه منطقة التوهان، عندما تسد طرق الانهيار.. ورياح عاتية تقذف بكل عذاباتها الآتية من دنيا رجعت لميلاد موتها.. يتنفس أنفاسا ثقبتها السنين الخرسانية والهواء الفولاذية.. يمسك قلبه بتعب متواصل ويصبغه بلون الدماء الخاشعة المنبثقة من شلالات الفطرة الانسانية وأدغال كون الحقب الانسانية.

ينصهر العذاب الملائكي ويبصق الديناصور حقده المشلول ويفتت عنفوان الخوف قوة الأيام المنسولة بخمر المساء الذي لا نهار له..

عيناه تأسران الجيمع ويظل هو البطل الوحيد لم يدخل بوتقة المنفى المستحيل.. واغادير الصباح تهتف بحياة توقفت، لتنتظر كل القادمين من رحلة الانتظار.. لا حطام في الدنيا سوى جراحات لاهية.. قال هذه الجملة لعقول تسكن دنيا قلبه.. ولم ينتظر ابتسامات مرهفه أخذت تقفز لفمه الذي خرس، لينطلق خلايا أحلامه وجزر أوهامه..

الشمس التي تسكن بيتا تحت السماء تلهب نفسها قبل أن تلهب الآخرين من كائنات بيولوجية وفسيولوجية.. تقترب أشعتها من أشعته الداخلية فشمس قلبه كانت تحطم نوافذ الظلمة التي تعمقت في كل أنوار جنونه.

وأتت تقبل من خريف الشتاء المتراقص على سطح الحقب الثلجية.. نورا يمسك «بجلاليب» الأرض.. يمزق نفسه.. حصار يطل من كل جهات المكان والزمان.. رهبة تركب قطار الحياة.. وتبتلع كل ميادين الجراح.. تنزل وتمسك بحياة أطعم جبنها لأطفال العذاب الذين امتشقوا الشيخوخة، وحذفوا الخواطر الممتدة من بواطن النفوس وطرق الجنون المتعقلة.

خيول تقف جاثمة على مستنقعات الحقد الذي يفجر عيوناً تسلقت أوجه المستحيل وقيدت أرجل المستقبل وحطمت جمالاً يزحف مع عتبات البعد المهلل..

المنفى الأبدي يطل من وراء كل الأزمنة ويصرخ مع كل أحلام الموتى.. يشق طريق الأنفاس الجامدة والتي ديست بعربات الجحيم الدامي..

يرنو بكتل بشرية وتتسع ضحكات الزمان لتحلق في اللانهائي وترسم بشموخ الأكوان فن الكائنات المؤقتة وتظل كل الأيام ممراً للملكوت..

صلاح جميل سعد
غزة فلسطين ش عمر المختار

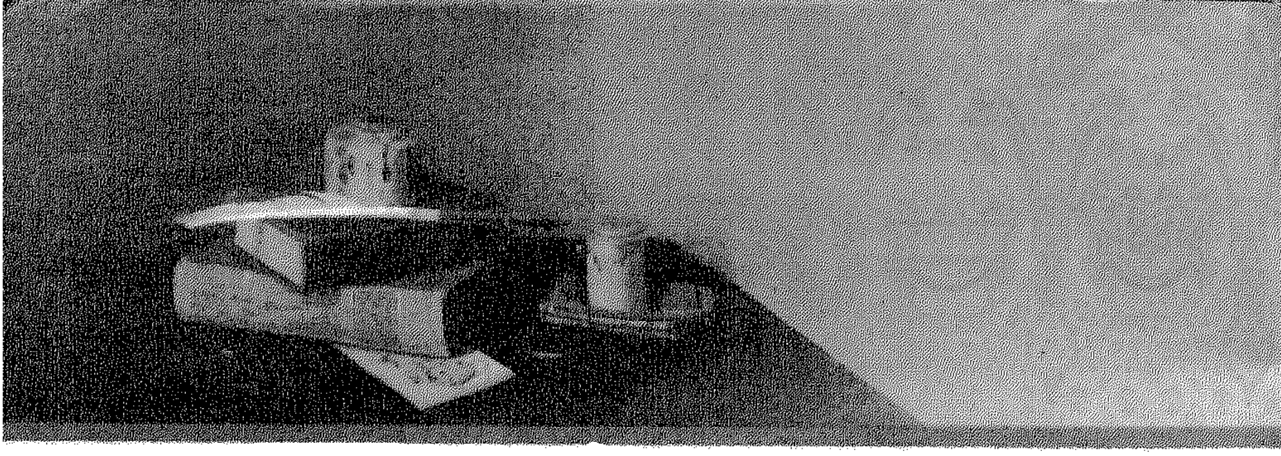

الشاعر محمد إقبال

يعد الشاعر محمد اقبال من أبرز الشعراء المسلمين فى الهند، فضلا عما قدمه من دراسات أدبية تبرز مكانته وأهميته..

قيل فيه هذا الشعر الذى يبين مكانته وصفاء نفسه

نجم مـــؤتلق وشـــهـــاب … وفـــتى اقليم البنجـــاب
دنيـــاه عطاء مـــتـــصل … علم فلســـفـــة وآداب
يصـــغى لحـــديث الأرواح … ويحـــاور فى صـــدق نجـــمه
والعـــقل يصـــير المصـــباح … يحـــمله فى ليل الامـــة
فـــاســـأل رابطة الاســـلام … عن هذا العـــملاق الشـــاعـــر
وابحث فى ســـيـــر الايام … عن ســـر مكنون ســـاحـــر
الشـــعـــر به وهج الكلمـــة … ســـيـــبـــدد أســـراب الظلمـــة
واللـــفظ بســـيـــط لكـــن … يحـــوى أســـرار الحكمـــة

ولد محمد اقبال فى اقليم البنجاب بالهند سنة ١٨٧٣ فى أسرة متوسطة الحال حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة ودرس أصول العربية والفارسية وبعد أن أنهى دراسته للفلسفة والاخلاق بجامعة لاهور سافر إلى انجلترا والتحق بجامعة كمبردج لدراسة الفلسفة ثم بجامعة ميونيخ ومنها حصل على الدكتوراة فى الفلسفة ثم عاد إلى انجلترا ودرس بها القانون ثم عاد إلى وطنه وعمل فترة بالمحاماة إلى جانب نظم الشعر واختير رئيسا لحزب مسلمى الهند، أصدر ديوان رسالة الخلود الذى تساوى فى قيمته الادبية مع «رسالة الغفران» للمعرى و«الفردوس المفقود» للشاعر الأنجليزى «ملتون» و«الكوميديا الالهية» للشاعر الايطالى «دانتى» وله دواوين أخرى وملاحم شعرية باللغة الاردية والفارسية وكان له دور كبير فى الدعوة إلى قيام دولة باكستان وتوفى سنة ١٩٣٨ بعد أن ترك تراثا انسانيا وفكريا وأدبيا هائلا.

وشكرا لكم

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

الثقافة فى اجازة!

ملاحظة أبديها عبر الهلال، تلفت الأنظار فى كل عام يهل علينا فيه شهر رمضان الكريم.. حيث تتقلص صفحات الثقافة، ويحصل الكتاب على أجازة طوال هذا الشهر، ولست أدرى ما هى الحكمة فى ذلك، وهل الثقافة تحصل على راحة واجازة فى هذا الوقت!!

إبراهيم عبدالفتاح - المنيا

الهلال: ربما سبب ذلك أن الصفحات الدينية تتضاعف خلال الشهر الكريم، ولكن ليس ذلك عذرا يمنع من أن يستمتع القراء بكل الوان الثقافة والفنون.

الكلمة الأخيرة

رحلات في مدارات التكوين

بقلم : السيد يسين

انفردت مجلة «الهلال» العريقة بتقليد فكرى يتمثل فى نشر فصول من السير الذاتية لمجموعة مرموقة من الأدباء المبدعين والمفكرين والعلماء تركز أساسا على العوامل المتعددة التى أسهمت فى تكوينهم ، ومن هنا جاء اسم هذا الباب «التكوين» الذى كان صاحب فكرته الصديق الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال .

طالعت كل ما كتب فى هذا الباب تقريبا لأجيال من الأدباء والمفكرين والعلماء هم جميعا يعدون أساتذة لجيلى . وفى الكتاب الذى نشرته الهلال باسم «التكوين» نجد فصولا شائقة كتبها شكرى عياد ، وطارق البشرى، وألفريد فرج ، ومصطفى سويف، وعبدالعظيم أنيس ، وأمينة السعيد ، وحافظ محمود ، ونعمات فؤاد، ومحمد سيد أحمد، ومحمد رجب البيومى ، وعائشة عبدالرحمن ، وسهير القلماوى، وأنور عبدالملك ، وحامد عمار ، وصلاح أبو سيف ، ولطيفة الزيات.

وهذه الباقة من المبدعين والمفكرين هم إلى حد كبير تلاميذ طه حسين وأحمد أمين وعباس محمود العقاد ، هذا الجيل العظيم من الرواد الذين صنعوا العقل المصرى الحديث .

وإذا تأملنا خريطة الفكر المصرى الحديث والمعاصر منذ رفاعة رافع الطهطاوى حتى الآن ، يسهل علينا أن نستنتج أن مفتاح فهمها يتمثل فى فكرة الجيل، وفكرة الجيل من الأفكار الأساسية فى علم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع الأدبى .فمن خلال تقسيم المبدعين والمفكرين إلى أجيال متلاحقة نستطيع أولا أن نقيم ما يسميه المؤرخون نظاما للتحقيب Periodization أى تقسيم المساحات الزمنية الطويلة من التاريخ إلى مراحل، ومن ناحية أخرى يمكن تحديد ما يجمع أعضاء كل جيل وما يفرق بينهم .

ويمكن القول إن مصر تكاد تنفرد بين كل البلاد العربية بأن شجرة الأنساب الفكرية فيها محددة وواضحة ومعلنة. بمعنى أنك تستطيع أن تحدد من هم تلاميذ أحمد لطفى السيد والشيخ محمد عبده على سبيل المثال ، ومن هم تلاميذ طه حسين وأحمد أمين والشيخ أمين الخولى ، ومن هم تلاميذ الجيل الذى أعقب هؤلاء .

ولو خضنا فى رحلات التكوين التى يضمها الكتاب لأدركنا تباينا واضحا فى منهج وأسلوب كل مبدع من المبدعين والمفكرين الذين كتبوا عن العوامل التى أثرت عليهم .

ويمكن – بشكل عام – أن نصنفهم إلى فئتين : فئة تتحفظ لم تشأ أن تكشف عن الوقائع الحقيقية التى حدثت فى حياتهم بما فيها من فشل ونجاح ، وفئة منطلقة لم تجد بأسا من الحديث الصريح حتى لو وصل إلى مرحلة النقد الذاتى .

وهكذا لم تجد أمينة السعيد ضيرا من أن تجعل عنوان ما كتبته «فشلى فى بداية حياتى دفعنى لاحتلال أرفع المناصب الصحفية» ، وعلى نفس النسق كتب الصديق محمد سيد أحمد «برغم تفوقى ظلت معرفتى للغة العربية قاصرة» !

وربما كان العنوان الذى اختاره ألفريد فرج وهو «كل فنان له أسراره وحياته الخاصة» ما يشير إلى منطق هؤلاء الذين آثروا أن يخفوا عامدين متعمدين محطات أساسية فى رحلة تكوينهم!

كتاب التكوين يحتاج إلى مساحة أرحب لمناقشته فى ضوء فن السيرة الذاتية ولكن ما حيلتنا وقد انتهت المساحة المقررة . ■

كتب الشهر

أحدث إصدارات دار الهلال

د. رشدى سعيد

الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى

د. زكى مبارك

ليلى المريضة فى العراق

د. رمسيس عوض

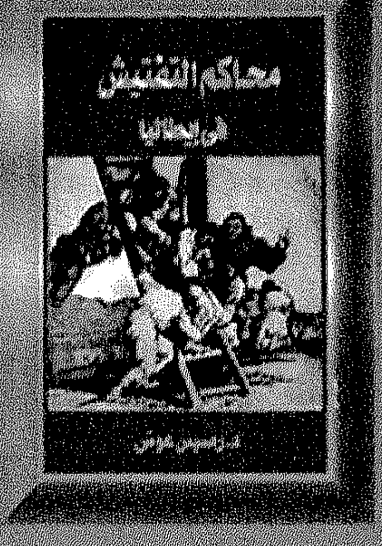

محاكم التفتيش

اسامه بن منقذ

الاعتبار

دار الهلال

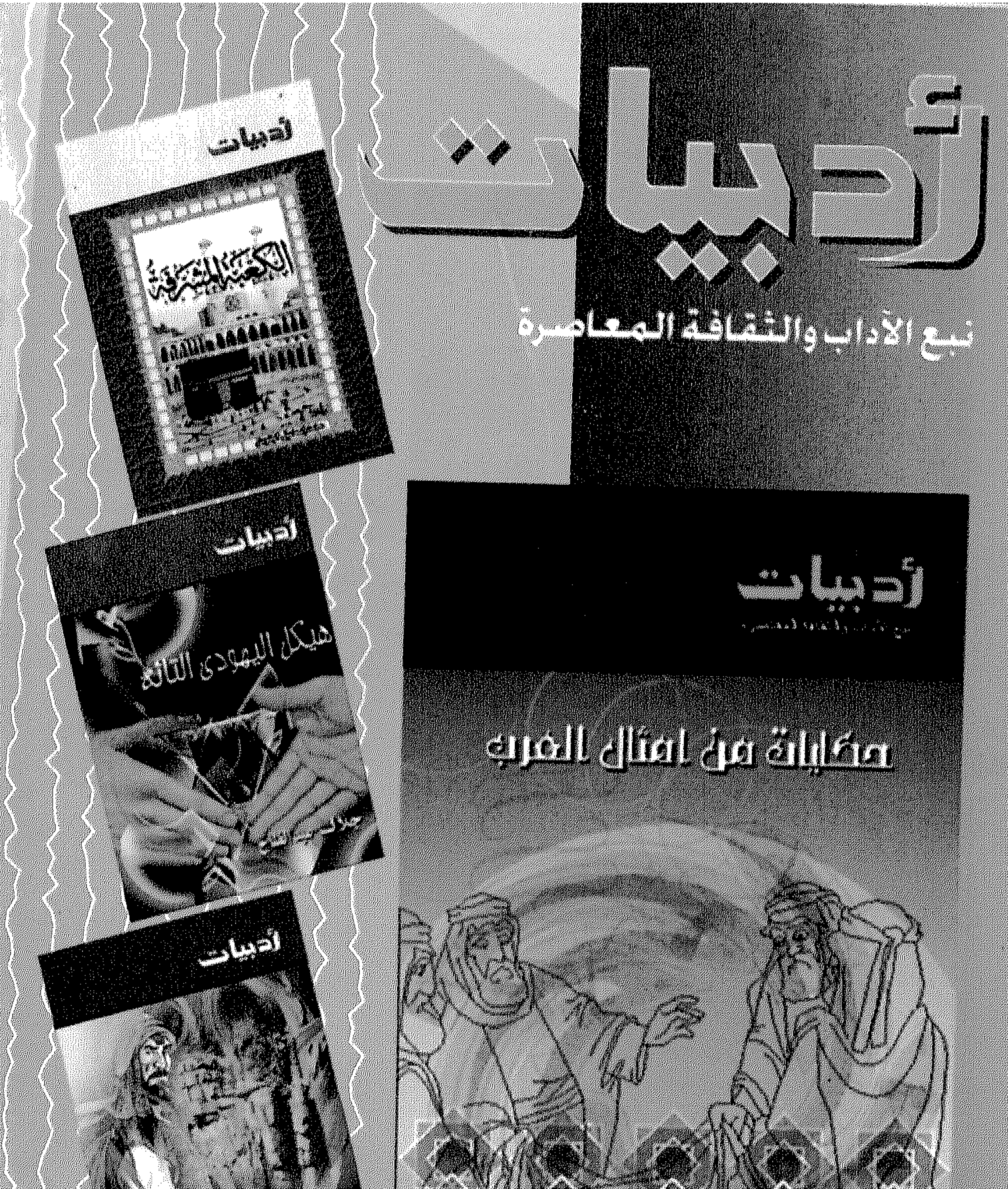

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .

الهلال

ديسمبر ٢٠٠٤ الثمن ٤ جنيهات

- العالم يفكر
- أين أماتنا الكبار؟
- ياسر عرفات

مشاهد وذكريات

إبراهيم باشا

جزء خاص

Per.
059.927

لوحة وفنان

اللوحة: عريف الكتاب - الفنان: وولترتشارلزهورسلى

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة شوال ١٤٢٥ هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ – الفقـر.. أبـرز مشـكلات حقـوق الإنسـان

.... د. أحمد زايد

١٤ – كيف ندرك قضايانا؟ .. د. مصطفى سويف

٢٢ – أين ذهبت آمـالنا الكبـار؟ ....

.... د. جلال أمين

٣٢ – العالم يفكر ..أفكار وتطورات خطيرة فى عقل العـالم .... جميل مطر

٤٠ – أولياء الأمور ومستقبل الأبناء ....

.... د. محمد رجب البيومى

«أوراق مصرية» .. جزء خاص:

٥٦ – كيف استقبل إبراهيم باشا فى قصر باكينجهام

.... محمد عودة

٦٠ – إبراهيم باشا الكبير... د. رءوف عباس

٧٠ – إبراهيم باشا.. فاتح عظيم فى ظلال التاريخ

.... د. عاصم الدسوقى

٨٠ – هل كان إبراهيم ابنا لمحمد علي بالتبني؟

.... د. عبدالمنعم إبراهيم الجميعى

٨٦ – أيام إبراهيم باشا الأخيرة ....

.... د. يونان لبيب رزق

١٠٠ – ياسر عرفات .. ومشاهد ثلاثة ....

.... مصطفى نبيل

١١٢ – الإسلام بين الشرق والغرب لـ «على عزت بيجوفيتش» .... محمد يوسف عدس

تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

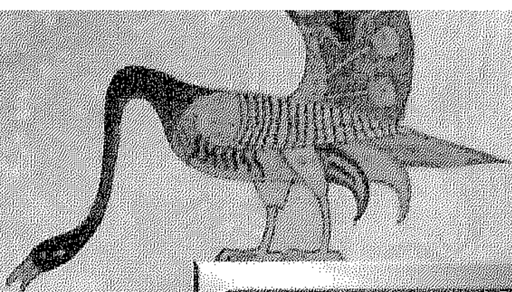

١٢٦ – مستوطنات الفضاء بين الحقيقة والخيال
.... **على عبدالله بركات**
١٣١ – قضية الكتاب .... **وديع فلسطين**
١٣٦ – من ينقذ الجمعية الجغرافية المصرية؟
.... **أمانى عبدالحميد**
١٤٦ – مثقفات وراء القضبان ....
.... **د. نيڤين عبدالمنعم مسعد**
١٥٤ – اليهود فى عالم نجيب محفوظ ....
.... **مصطفى بيومى**
١٦٠ – حى بن يقظان.. للسهروردى ....
.... **د. الطاهر أحمد مكى**
١٧٠ – روسيا والشيشان.. التراث الدامى وجذور العنف .... **محمود أحمد**
١٨٠ – ضياع الوعى بأهمية السينما ....
.... **مصطفى درويش**
١٨٦ – ساعة الورد والياسمين.. (شعر) ....
.... **محمد الفاتح**
١٩٠ – يكفى الحب ثلاث سنوات!.. **محمود قاسم**
١٩٤ – المتفرجة.. «أرائك حمراء فى مسلسلات التليفزيون» .... **مرفت رجب**
١٩٩ – التجريبى وثقافة الطبقة الجديدة ....
.... **مهدى الحسينى**
٢٠٦ – عند باب الواقفين.. (قصة) ....
.... **أمين بكير**

الأبواب الثابتة

– عزيزى القارئ ...٦
– أقوال معاصرة .. ٢١
– شخصية العدد «رشدى سعيد» .. بقلم مصطفى الحسينى.٤٨
– من ذخائر الكتب.. «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة – عرض د.حامد طاهر . ١٢٠
– لغويات ١٨٩
– التكوين . د. عطية عبدالسلام عاشور.. ٢١٠
– أنت والهلال . عاطف مصطفى .. ٢١٨
– الكلمة الأخيرة بقلم: صافى ناز كاظم .. ٢٢٦

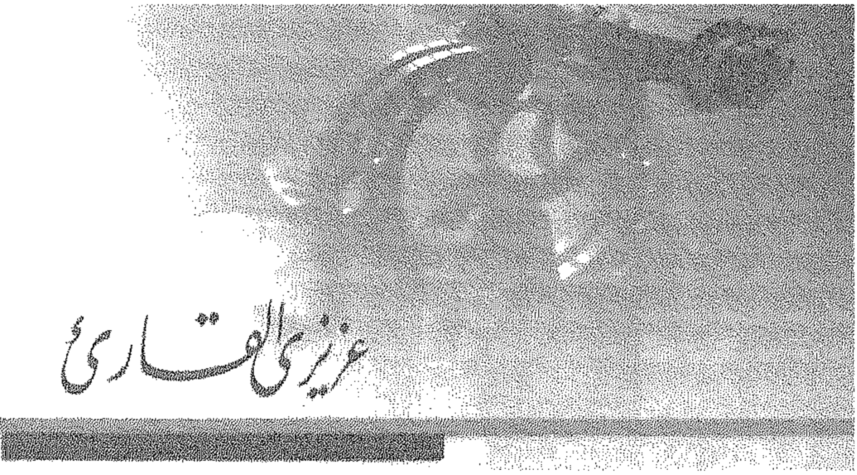

معاداة السامية أم معاداة الإسلام؟!

فى منتصف أكتوبر من هذا العام قام الرئيس الأمريكي بوش بالتوقيع على قانون بإنشاء إدارة جديدة بوزارة الخارجية مهمتها مراقبة الأنشطة المعادية للسامية ليس فى بلده فقط، كما لا بد وأن ينصرف إليه ذهن القارئ وإنما في كل بلاد العالم، وهذا هو وجه الغرابة في الموضوع ويقضى القانون بأن تقوم وزارة الخارجية بتقديم تقرير سنوى عن الإجراءات التى قامت بها جميع الدول فى هذا الشأن. واللافت للنظر أنه قام باعتماد القانون وهو على متن طائرته فى طريقة إلى ولاية فلوريدا التى تعد ثالث تجمع لليهود على مستوى العالم بعد إسرائيل ونيويورك، فبدا الأمر وكأنه جزء من حملته الانتخابية لكسب أصوات اليهود الأمريكيين خاصة وأنه لم يحصل إلا على نسبة ١٩ ٪ فقط من أصواتهم فى رئاسة الأولى .

ولقد أعاد هذا القانون إلى الأذهان قيام يهود العالم قبل إنشاء إسرائيل وبعد إنشائها بمطاردة كل من يكتب حرفاً أو يتفوه بكلمة يرون أنها تحض على كراهيتهم ليقيموا عليه الحد .ففى التاريخ البعيد نسبيا هناك الضجة التى أثارها يهود فرنسا فى سبعينات القرن التاسع عشر عند اتهام الضابط «اليهودى» دريفيوس بالخيانة فى الحرب ضد ألمانيا (١٨٧٠)، إذا اعتبرها اليهود معاداة للسامية لأن اتهام هذا الضابط جاء أصلا فى رأيهم بسبب يهوديته لا أكثر ولا أقل، وساعتها انبرى إميل زولا لدفع الاتهام عن الرجل. وفى التاريخ القريب وفى أربعينات القرن العشرين نجح اللوبى اليهودى في فرنسا فى إصدار قانون بعدم جواز التشكيك في موضوع تعذيب اليهود فى ألمانيا وإحراقهم زمن حكم هتلر المعروف بـ «الهولوكوست»، ولا يزال هذا القانون ساريا حتى الآن ويتعرض له أى إنسان كائنا ما كان وفى أى جهة فى العالم. وفى مطلع ثمانينات القرن العشرين حدث أن تقدم باحث فرنسى في السادسة والستين من العمر برسالة لدرجة الدكتوراه في جامعة ليون موضوعها دراسة النصوص الخاصة بهذا الهولوكوست وانتهى فى دراسة إلى عدم صدق الموضوع نظرا لتضارب النصوص تضارباً واضحا، وهنا أسرعت الدوائر الصهيونية بالاحتجاج استنادا إلي هذا القانون ولم تهدأ إلا بعد أن أرغمت الجامعة على سحب درجة الدكتوراة من الرجل بعد ستة أشهر من منحها، وقال الرجل مستغربا إنه لايسعى للعمل فى الجامعة وأن بحثة يدخل فى دائرة دراسة النصوص ومقابلة بعضها البعض. وأخيرا يأتى روجيه جارودى المفكر الفرنسى الذى نجحت تلك الدوائر في تقديمة للمحاكمة جزءا له على ما كتبه على «الأساطير الإسرائيلية» وأكثر من هذا فإن أى مسرح فى أوربا وربما فى العالم لايجرؤ هذه الأيام على إعادة عرض مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير التى صور فيها بشاعة شايلوك التاجر اليهودى في ابتزاز الآخرين .

إن إصدار هذا القانون الأمريكي ليس فقط جزءا من الحملة الانتخابية وإنما يجئ اتفاقا مع إيمان بوش بنبوءة توراتية غامضة تقول بعودة المسيح لنشر العدل بعد أن ساد الظلم زمنا طويلا، وأنه لكي يتحقق هذا لابد من إعادة هيكل سليمان للوجود، ومن هنا كان بوش ضالة شارون وكل منهما يستخدم الآخر لتحقيق هذا الإيمان الأعمى. وهنا يأتي قانون معاداة السامية خطوة أساسية في طريق هذا الخيال. ومثلما أصبح «الإرهاب» وسيلة بوش في حشد العالم تحت قدميه ليحقق أغراض الهيمنة والتوسع ويضغط على كل بلاد العالم للوقوف معه وإلا تعرضوا للحرب والغزو تحت هذا الشعار، يجئ قانون معاداة السامية ليستخدم لصالح النبوءة، ولتتسع آفاقه عندما تصبح معاداة السامية معاداة لإسرائيل وخاصة بعد أن أعلنت إسرائيل مؤخرا أنها دولة ليبرالية علمانية وواحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط .

وهذا يعنى فى التحليل الأخير أن إسرائيل اختزلت السامية في اليهود دينيا وفى إسرائيل تحديدا باعتبارها أعلى سلطة ليهود العالم، على حين أن السامية عند علماء الأجناس واللغات ليست عنصرا أو عرقا بشريا وإنما هى أسرة لغوية تضم عدة لغات معاصرة لها تضم الأكادية والآشورية والبابلية (العراق) والفينيقية (بلاد سوريا) والأمهرية (الحبشة) والعبرية والعربية (الجزيرة العربية) لكن من الذى يجرؤ على مناطحة هذا الاختزال ؟!

ومن عجب أن احدا لم يتحرك حتى الآن ليعترض على الحكومة الأمريكية فيما إذا كان من حقها إصدار قوانين تطبق على مستوى العالم !! ولسوف يدفع العالم ثمن هذا الصمت عندما يتم تحصين هذا القانون بعرضه على مجلس الأمن تفرض بمقتضاه عقوبات على الدولة التى يظهر بين رعاياها من ينتقد إسرائيل .. أو يتم اختطاف هذا الرعية إذا ما «شوهد» وهو يفكر ضد إسرائيل منتقدا عنصريتها واستبدادها بالفلسطينيين .

بقى أن نعرف أن هذا القانون في أصله كان اقتراحا من «توم لانتوس» النائب الديموقراطى عن كاليفورنيا اليهودى البولندى الأصل وكان قد تقدم فى تاريخ سابق بمشروع قانون لتخفيض المعونة العسكرية لمصر بحجة أن مصر لم تعد بحاجة إلى القوة العسكرية بعد أن تصالحت مع إسرائيل فى مارس ١٩٧٩، ولكنه لم ينجح فى تمرير المشروع !!

ويبدو واضحا أن وزير الخارجية كولن باول لم يكن موافقا على هذا القانون ذلك أنه بعد موافقة الكونجرس والسيناتور على المشروع وقبل أن يوقع بوش عليه صرح ريتشارد باوتشر المتحدث باسم الخارجية بأنه لاتوجد حاجة لإنشاء إدارة بالوزارة لإصدار تقرير منفصل عن معاداة السامية لأن الإدارة الخاصة بحقوق الإنسان والحريات الدينية التى تراقب ١٩٠ دولة تكفى وزيادة ولكن الرئيس الأمريكى الذى يبحث عن أصوات اليهود أصم أذنيه وأسلم نفسه لأغراضه الذاتية . ■

المحـــرر

الفقر والفقراء

فقر من أبرز مشكلات حقوق الإنسان

بقلم
د. أحمد زايد

تشتق كلمةِ إلفقر فى اللغة من الفعل «فقر» ويعنى عندما ينصرف إلى حالة الإنسان «كسر فقار الظهر» ، وكأن العوز والحاجة وقلة المال التى تشير إليها كلمة الفقر هى مؤشرات على ما يثقل كاهل الإنسان، وما يتراكم على ظهره - مجازياً - من هموم تؤدى إلى كسر فقار ظهره. ويبدو هذا المعني واضحاً في التعريفات الاقتصادية للفقر والتي تركز علي جوانبه المادية. فالفقر من هذا المنظور الاقتصادي هو عدم القدرة علي سد الحاجات الأساسية للإنسان، أي الحاجات الضرورية لتحقيق مستوي الحد الأدني من المعيشة. كما يعبر عن قياسات معينة لمستوي الغذاء والكساء والسكن والصحة والتعليم.

ويبدو أن استخدام مفهوم خط الفقر يوحى أيضاً بعملية عزل الفقراء تحت خط معين، بحيث يمثل عبوره عبور الحدود بين الفقر واللافقر. ويعنى خط الفقر ذلك الخط الذى يمكن رسمه للتفرقة بين الحدود الدنيا من الحياة وما دونها. فكل ما دون الحدود الدنيا يقع تحت خط الفقر، ويصنف على أنه من الفقراء، ومن يعبر الخط إلى الحدود الدنيا وما فوقها فإنه عابر إلى عالم ما بعد خط الفقر.

ولا يعنينا هنا التعريف الذى هو واضح جلى، بقدر ما يعنينا تأكيد الفكرة التى نود إبرازها وهى أن استخدام تعبيرات مثل «الحدود الدنيا للحياة» و«خط الفقر» تحمل فى طياتها أيديولوجيا الاستبعاد بشكل ضمني، وكأن للفقر عالمه الخاص، وللفقراء دنياهم الخاصة التى توجد «هناك» تحت خط معين أو عند حدود معينة.

ولكن القراءة فى إحصاءات الفقر على مستوى العالم تدل دلالة قاطعة على أن الفقراء يتزايدون يوماً بعد يوم وأن محاولات التدخل لإنقاذهم لا تحقق المرجو منها فى التو واللحظة أو فى الأجل البعيد. ففى قمّة كوبنهاجن التى عقدت برعاية الأمم المتحدة فى مارس عام ١٩٩٥ تم التأكيد على أن العولمة رغم أسهامها فى تحسين أحوال البشر، إلا أنها انتجت مزيداً من الفقر والبطالة والتفكك والعنف والتهميش الاجتماعى. وقدر المؤتمر عدد الفقراء فى العالم بأنهم يفوقون البليون نسمة. وأصبح التدخل لمحاربة الفقر هو أحد المبادىء الأساسية فى أجندة العمل فى عالمنا المعاصر، كما يتمثل فى جهود البنك الدولى والمنظمات الدولية والجهود الدولية لمعظم الدول والحكومات التى تنفذ سياسات للتخلص من الفقر أو على الأقل الحد منه. ولكن واقع الحال يختلف كثيراً إذ إن المؤشرات تدل على أن عدد الفقراء فى تزايد، وأن إحدى المشكلات التى تواجه عالمنا المعاصر هى مشكلة تزايد الفقر والتهميش الاجتماعى، فضلاً عن تزايد أعداد اللاجئين الذين لا مأوى لهم نتيجة للحروب والصراعات بين الدول وداخلها وبين الجماعات المتنافسة على السلطة.

خط الفقر

وفى ضوء ذلك فقد أستطيع أن أتقدم بتأويلى لمفهوم خط الفقر خطوة إلى الأمام. فإذا كان الفقراء يتزايدون رغم وجود سياسات واضحة ومعلنة حول القضاء على الفقر، فإن تحديد خط الفقر يرتبط بتحديد الخط الذى يقذف بالأفراد وراءه ليستقروا في عالم الفقر. أو فى أحسن الظروف هو خط يعبر عليه بعض الناس من خلال الجهود التى تبذلها الدول والحكومات والمنظمات الدولية لتخفيف الفقر أو محاربته، وفى نفس الوقت يعبر عليه البعض الآخر فى عالم الاستقرار والأمان إلى عالم الفقر والعوز وذلك بفضل آليات السوق وآليات الاقتصاد الحر التى

لا تعرف إلا تعظيم الربح والفائدة باستمرار.

وإذا كان تزايد معدلات الفقر في العالم حقيقة لا يمكن إنكارها رغم الجهود الكبيرة للتغلب عليه، فربما نكون بحاجة إلى تعريفات أكثر شمولاً للفقر، تعريفات لا تؤكد على فكرة الحدود الدنيا أو فكرة خط الفقر. بل تقدم نظرة أوسع. وقد ظهرت بالفعل تعريفات للفقر تتجاوز التعريف الاقتصادى الضيق. من ذلك مثلاً التفرقة بين الفقر المطلق والفقر النسبى. فالفقر بالمعنى الأول هو الفقر الذى تقيسه مقاييس الفقر. والفقراء بهذا المعنى هم أولئك الذين لا يصلون إلى الحد الأدنى من تلبية الحاجات الإنسانية الأساسية. أما الفقر بالمعنى الثانى فإنه فقر يخضع لاعتبارات الزمان والمكان، إنه فقر سياق يرتبط بسياق الظرف الاجتماعى الذى يوجه فيه البشر. ومن ثم فإن من يعتبر فقيراً داخل سياق اجتماعى معين قد لا يكون فقيراً داخل سياق آخر. ويتأسس معيار الفقر النسبى على أساس معيار الحرمان النسبى. فالشعور بالحرمان هو شعور نسبى يختلف من طرف إلى آخر ومن مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر. ومن ثم فإن قياس الفقر يجب أن يكون نسبياً هو الآخر.

توسيع النظرة للفقر

ويبدو أننا بحاجة إلى أن توسع النظرة للفقر عبر مدخل اجتماعى ثقافى يمكننا من أن نمس جوانب فى حياة الفقراء أبعد من مجرد أوضاعهم الاقتصادية. فالمدخل الاجتماعى الثقافى يقوم على المنظور الكلى للفقر بوصفه ظرفاً أو حالة اجتماعية ترتبط بعلاقات اجتماعية ونظم للإنتاج وأطر ثقافية - أيديولوجية. فالفقر هو محصلة لأداء نظام اجتماعى - اقتصادى، والفقراء يشكلون فئة اجتماعية تنتمى إلى بناء طبقى، وترتبط بوشائج وعلاقات مع بقية طبقات المجتمع. وإذا نظرنا إلى الفقر من هذا المنحى فإننا نستطيع أن نفتح أفقاً أوسع فى دراسة الفقر، وأن نأخذ قضايا هامة بعين النظر والاعتبار. ولنحاول فيما تبقى من هذا المقال أن نلقى نظرة على بعض هذه القضايا.

لعل أول ما يطرأ على الذهن - ونحن بصدد توسيع قضية الفقر على المستوى التحليلى - هو السؤال عن أصل الفقر، وكيف ينشأ؟ وهل الفقر سمة أصيلة أم مكتسبة؟ لا يمكن الزعم بأن الفقر سمة أصيلة لصيقة بالفقراء. فالفقر ينتج عن الظروف التى يوجد الناس فيها. ولذلك فإن الفقر هو نبت للمجتمع وللنظام الاقتصادى الذى يوجد فيه، والظروف التى تمر بها عملية التطور الاقتصادى الاجتماعى فى المجتمع. ويوجد الفقر فى معظم المجتمعات، ولكنه يتكاثر ويتعاظم

في المجتمعات النامية الواقعة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. فهذه المجتمعات تتعرض لظروف شاقة، وتتضاعف عليها ظروف الاستغلال الاقتصادى. فهى تخضع لآليات النظام الرأسمالى العالمى الذى يفرض عليها شروطه ويملى عليها قوانينه. وتقوم هذه القوانين على فكرة تعظيم الفائدة الاقتصادية، والعمل فى ضوء مبادىء الحرية الاقتصادية. ومن ثم تزداد فى هذه المجتمعات حدة الاستقطاب الطبقى. وفى ضوء نقص الموارد وفرص العمل، وضعف النمو الاقتصادى، والميل الثقافي نحو التوالد والتكاثر، يزداد الفقر باطراد، وتزداد المشكلات المصاحبة له مثل مشكلات الهجرة والتكدس السكانى، ونقص خدمات الإسكان، والتدهور الحضرى وغير ذلك من المشكلات.

ويؤدى تزايد الفقر على هذا النحو إلى الدخول فيما يسمى الدائرة المفرغة للفقر. فالفقر يترتب عليه تدهور فى أحوال الفقراء الصحية والتعليمية والسكنية، ويترتب على هذا أن يصبح الفقراء غير قادرين على الحصول على عمل وعلى تحسين أوضاعهم الصحية والتعليمية والسكنية، ومن ثم فإنهم يزدادون فقراً باستمرار رغم الجهود التى تبذل لتحسين أوضاعهم، فلا تستطيع هذه الجهود أن تكسر حلقة الفقر عند أى من مفاصلها. فهذه الجهود غالباً ما تتحطم بين مطرقة الفقر وسندان نقص الموارد المتاحة والتزايد المستمر للسكان. هنا يتحول الفقر إلى معضلة تنهك السياسات الحكومية التى تتجه فى الغالب نحو تخصيص جزء من الموارد لدعم السلع التى يستهلكها الفقراء.

نقص الموارد والهجرة

ويتوزع الفقر داخل المجتمع مكانياً وزمانياً على نحو يؤشر على قدر من عدم التساوق والانتظام. فقد أدى نقص الموارد فى المجتمعات الريفية، والتزايد المستمر فى معدلات الخصوبة فى هذه المجتمعات إلى تدفق موجات الهجرة إلى الحضر. ولم يكن كل المهاجرين من العمال المهرة الذين يعملون فى المصانع ، بل كان معظم هؤلاء من عمال الزراعة الذين يعانون من الأمية وسوء الصحة، وعدم تملك مهارات تتناسب مع أنشطة الحضر الاقتصادية. ولقد شكل هؤلاء عبئاً على المدينة، وشكلوا قطاعات سكانية هائلة فى داخلها، وانتشروا على أطرافها فى تجمعات سكنية عشوائية امتدت امتداداً سرطانيا على أطراف المدن وفي أحيائها القديمة. وترتب على ذلك أن تفاقمت ظاهرة الفقر الحضرى، وأصبحت تلازمها مظاهر أخرى للتردى الحضرى المتمثل فى انتشار السكن العشوائى بما يعانيه من ترد فى مستوى الخدمات الاجتماعية ونوعية السكن المتاح، وفى نمو الاقتصاد غير الرسمى الحضرى، وتشعب الأنشطة الاقتصادية التى لا تنتظم فى الاقتصاد الرسمى للدولة، هذا فضلاً عن تفشى الجريمة والعنف والتطرف الدينى وتعاطى المخدرات والبلطجة الحضرية. لقد أصبحت المدينة مدينة متضخمة فى

مستوى تحضرها ولكنها متدنية فى مستوى حضريتها. فهى مدينة تنمو ويتكاثر عدد سكانها وتشهد تحولاً مستمراً إلى الحياة الحضرية «هذه عملية التحضر» ولكنها تؤدى فى داخلها إلى سكان ينقصهم السلوك الحضرى (أو ما يعرف بالحضرية».

وعبر الزمان يتزايد الفقر أو يتناقص وفقاً لدرجة نجاح النظام الاقتصادى فى استيعاب الفقراء ودمجهم فى مستوى معيشى ملائم. ولكن واقع الحال لا يدل على ذلك. فالتاريخ يكشف أن الفقراء فى تزايد مطرد. وقد لا يرتبط التزايد عبر الزمن باطراد الزيادة السكانية فحسب، بل قد يرتبط أيضاً بطبيعة التغير فى النظام الاقتصادى للمجتمع. فقد تحول كثير من المجتمعات عبر العالم - ومنها مصر - من نظام ذى توجه اشتراكى إلى نظام ذى توجه ليبرالى. ولاشك أن عمل آليات السوق فى النظام الرأسمالى الليبرالى يؤدى إلى مزيد من الإفقار لقطاعات أكبر من السكان، الأمر الذى يفرض على الدولة أعباء أكبر لمواجهة الفقر والتغلب عليه، والتناقض الذى يثيره هذا الموقف أن التحول الذى أشرنا إليه من النظم الاشتراكية إلى النظم الليبرالية هو تحول يرتبط بتغير فى دور الدولة التى تتحول من دولة راعية إلى دولة مستقلة، أى من دولة تحتوى سكانها وتفرض عليهم رعايتها «التى لا تكون رعاية كاملة ولا مثالية فى بعض الأحيان» إلى دولة تترك للسكان رعاية أنفسهم فى ظل دور مستقل للدولة. ويظهر التناقض هنا فى أن الدولة المستقلة تفرض عليها ظروف تزايد الفقر التدخل لتعديل الأوضاع وتحقيق الاستقرار والتوازن. إن استقلال الدولة يتطلب قدراً من التوازن بين طبقات المجتمع، ومادام هذا التوازن مفتقدا فلا استقلال للدولة قط.

غياب الرجل

ولا تقتصر تضاريس خريطة الفقر على اعتبارات الزمان والمكان، ولكنها تمتد إلى الفروق على مستوى النوع وداخل النوع ذاته. فقد ترتب على هجرة الأزواج ظهور نوع جديد من الأسر تديره النساء، وفى هذا الظرف تتحمل المرأة الكثير من صور المشقة. وقد تضطر إلى العمل فى ظروف صعبة وقاسية من أجل رعاية الأطفال ووضع قروشها بجانب قروش الزوج - إن وجد - لكى تستمر الأسرة فى البقاء.. وعندما يكون المستوى الاجتماعي الاقتصادى لهذا النوع من الأسر منخفضاً فإن المشقة تزداد على المرأة بشكل أكبر وتواجه المرأة ظروف الفقر والعوز بمفردها.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كشفت الدراسات عن أن نسبة كبيرة من الأرامل والمطلقات يعشن فى ظروف فقيرة. ولقد أثارت هذه النتائج بالإضافة إلى نتائج

دراسات الهجرة، أثارت قضية الفقر عند المرأة وظهر فى داخل تراث علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية مبحث جديد يركز على ما يسمى المرأة المعيلة أى المرأة التى تعيش بمفردها مع أطفالها بدون الزوج، وهى التى تدير شئون الأسرة وتكون مسئولة مسئولية كاملة عنها بسبب الهجرة أو الوفاة أو الطلاق. وتشير الدراسات إلى تزايد أعداد النساء اللائى يعولن أسراً. وإذا كانت المجتمعات النامية بشكل عام تعانى مما يسمى «بفجوة النوع» أى تزايد الفروق بين النساء والرجال فى الحصول على فرص العمل والتعليم وتعلم القراءة والكتابة والصحة والمشاركة الاجتماعية والسياسية، فإذا كانت المجتمعات النامية تعانى من هذه الفجوة فإن زيادة الفقر بين النساء وزيادة المسئوليات الملقاة على عاتقهن بسبب المسئولية الأسرية فى حالة المرأة المعيلة يؤدى إلى زيادة فجوة النوع، وتصبح المرأة عاجزة عن أن تستخدم قدراتها وإمكاناتها استخداماً مفيداً، ويتحول وضعها فى الحياة إلى وضع هامشى بحت.

الفقر والتهميش الاجتماعي

وعلى ذكر الهامشية فلعلنا نختتم هذا المقال بالإشارة إلى دور الفقر فى التهميش الاجتماعي والسياسى. فلاشك أن الظروف الاقتصادية الصعبة التى يعيشها الفقراء تجعلهم ينشغلون بهموم حياتهم ومشكلاتهم اليومية، ويكون يومهم منذ مطلع نهاره حتى مغيب شمسه كفاحاً من أجل التغلب على مشكلات الحياة، كما أنه يكون مليئاً بما يطلق عليه «استراتيجيات التكيف مع الظروف الصعبة» وهى استراتيجيات يستخدم فيها كل ما هو متاح فى أيدى الفقراء من موارد مادية وثقافية من أجل تحقيق قدر من الاستمرار والاستقرار وفى إعادة إنتاجية الأسرة. ولاشك أن هذا الظرف يبعد الفقراء عن التيار الأساسى للحياة الاجتماعية فى المجتمع، ويضعهم هناك فى مكان هامشى لا يرتبط فقط بهامشية الموقع على أطراف المدينة وفى الأحياء المتخلفة منها ولكن أيضاً بالهامشية السياسية والثقافية والاجتماعية. وكلما تزايدت حدة الفقر شعر الفقراء بالانفصال والتهميش والعزلة، وكلما ازدادت لديهم الاستراتيجيات الثقافية القائمة على الحيلة والتحايل من أجل استمرار هذه الحياة. ولا نود أن خوض هنا فى الحديث عن ثقافة الفقراء كما أننا لا نود أن نؤكد على أن للفقراء ثقافة خاصة بهم، ولكن النقطة الأساسية التى نود التركيز عليها هى أن ثقافة الفقراء ترتبط ارتباطاً كبيراً بالظروف التى يعيشون فى كنفها وهى ثقافة تنبع من حياة «الظلف» التى يعيشونها وهى تأخذهم إلى عالم خاص بهم يعيشونه ويحافظون عليه، وقد يثورون على من يقتحم هذا العالم اقتحاماً يتهدد فيه الحد الأدنى من العيش الذى يحافظون عليه. وينتهى هذا الأمر إلى عزلة سياسية وإلى عدم القدرة على تطوير رأس مال اجتماعى، أى عدم القدرة على الدخول فى علاقات تتجاوز حدود المصلحة الفردية إلى عالم الجماعة. وهذا موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث العميقين.. ■

كيف ندرك قضايانا؟

بقلم

د. مصطفى سويف

الحديث عن النظرة التجزيئية والنظرة التجميعية أو التكاملية للأمور حديث بالغ الأهمية ، لأنه يتناول جذرا عميقا من جذور حياتنا الاجتماعية في سوائها واضطرابها ، واهتداءً بهذه الحقيقة دأبت في الآونة الأخيرة على الإشارة إلى هذا الجذر (في مقالاتي في هذه المجلة الرصينة) ، غير أني لم أتوقف عنده لأوفيه حقه ، ربما لأنني لم أكن قد مهدت الطريق أمامه بما فيه الكفاية ، وربما لأن بعض الموضوعات التي نفذت إلى معالجتها من خلاله (مثل موضوع «القوالب المفرغة» ، وموضوع «الإهدار») كانت شديدة الوطأة على عقلي ووجداني معا بحيث فرضت لنفسها الأولوية على ساحة الكتابة والمناقشة . على أي حال ، أعتقد أنه قد آن الأوان لكي ننظر في هذا الجذر نظرة مدققة ، لنعرف حقيقته ، ونتبين بعض العوامل التي تؤثر فيه بالنمو والنقصان ، ومن ثم نعرف كيف نرقى به ليحتل لدينا أعلى مراتب الوعي ، وليصبح المنارة التي تهدينا سواء السبيل ، نحو الفهم الناصع ، والتدبير الحصيف ، والفعل الرشيد.

الكل والجزء فى إدراكنا

الأصل فى عملية الإدراك لدينا أننا ندرك الأشياء مجملة فى بادىء الأمر ، ثم إذا بهذه الأشياء تتفتح أمامنا عن أجزائها ، ثم إذا بهذه الأجزاء تتكامل فى الكل الذى كان مجملا وأصبح الآن مفصلا ؛ وفى تكامل الأجزاء داخل الكل يكتسب كل جزء معناه ووزنه ، يصدق هذا على إدراكنا الأشياء المادية، وعلى موضوعات الفكر ، والأشخاص ، ومواقف الحياة ، مادام المدرك كيانا مركبا وليس بسيطا شديد البساطة .

وقد يستشف البعض من هذا الوصف أن مسيرة عملية الإدراك تمضى هكذا دائما ، فى يسر وسلاسة، من الكل إلى الأجزاء إلى الكل ، ولكن هذا غير صحيح ، والصحيح أنها تتعثر أحيانا ، والصحيح أيضا أن هذا التعثر يصل إلى مستوى التعطل أحيانا أخرى، وفى هذه الحالات تكون له آثاره السلبية على جميع جوانب الفكر لدينا (بدءا من إدراك المعنى وانتهاء بالتخطيط للمستقبل على ضوء ما أدركنا) ، وعلى أبعاد الفعل بما فى ذلك وجهته العامة ، ومقاصده وخطواته.

وتبدو احتمالات التعثر والتعطل أوضح ما تبدو عادة فى مجال الإدراك الاجتماعى ، إدراك الأفكار والآراء والكيانات الاجتماعية ، وكلما زاد الموضوع أو الكيان الاجتماعى الذى يواجهنا تركيبا أو تعقدا، زادت احتمالات وقوع التعثر والتعطل ، ومن ثم زادت احتمالات ظهور الفكر المشوه والفعل الشارد . وفى الفقرات التالية من هذا المقال سوف أعالج هذه المشكلة: سوف أبدأ بتوضيح ماذا أقصد بعلاقة الجزء بالكل فى مدركاتنا، ثم أنتقل إلى شرح ما يحدث فى إدراكنا المواقف الاجتماعية التى هى بطبيعتها مركبة ومعقدة، ولماذا نتعثر فى إدراك علاقة الجزء بالكل فى حالتها ، ثم أختم المقال بإشارات إلى الكيفية التى يمكننا بها رفع كفاءة هذه الوظيفة العقلية الهامة ، والإقلال من احتمالات التعثر فى تفعيلها.

الإدراك وإطار الدلالة

من المصطلحات الشائعة فى علم النفس الاجتماعى (وهو واحد من العلوم النفسية الحديثة) مصطلح «إطار الدلالة»، ويشار به أساسا إلى منظومة العوامل التى تدخل فى تحديد المعنى (أو القيمة أو الوزن) الذى نخلعه على أى مدرك من مدركاتنا .

ومن أبسط الأمثلة التى نضربها فى هذا الصدد المثال الآتى : تصور أنك أعطيت فى يدك (وأنت معصوب العينين) جسما معدنيا زنته عشرة جرامات ، وطلب إليك الحكم بمدى خفته أو ثقله ، وبعده أعطيت جسما آخر يزن عشرين جراما لتحكم أيضا على مدى خفته أو ثقله ، ثم جسما ثالثا يزن ٣٠ جراما .. وهكذا إلى أن أعطيت جسما زنته ستون جراما (مع تماثل هذه الأجسام جميعا فى الشكل) .

هذا فى الجزء الأول من التجربة . وفى الجزء الثانى أعطيت أجساما مماثلة للحكم أيضا على مدى خفتها أو ثقلها

ولكن فى هذا الجزء تبدأ الأوزان من ١٠٠ مائة جرام وتتسلسل إلى ٩٠، ثم ٨٠ ، ثم ٧٠ ، لتصل فى النهاية إلى ٦٠ جراما . إذا أجريت التجربة بشقيها على هذا النحو فالاحتمال الواضح أنك سوف تحكم حكمين مختلفين على الجسم الذى يزن ٦٠ ستين جراما ، إذ سيكون حكمك وهو يأتيك فى نهاية التسلسل الأول أنه ثقيل (وستشعر بذلك فعلا) ، وسيكون حكمك وهو يأتيك فى نهاية التسلسل الثانى أنه خفيف (وستشعر بذلك فعلا) ، وهذا يعنى أن إدراكك لمدى خفة أو ثقل هذا الجسم الواحد يتوقف على مكانه (أو ترتيبه) فى تسلسل إجرائه بالنسبة للأجسام الأخرى التى أحاطت به (أو سبقته مباشرة) . هذه تجربة بسيطة كان علماء النفس يجرونها فى معاملهم فى منتصف العشرينيات من القرن الماضى ، وكانوا يمثلون بها لحقيقة تواجهنا فى كثير من مواقف الحياة التى ندرك فيها ما يحيط بنا من أشياء مادية كالأحجام والأصوات والألوان ، وهى الحقيقة نفسها التى نعبر عنها أحيانا بقولنا إن إدراكنا الأشياء نسبى (يتوقف على السياق) . وقد طور العلماء المتخصصون فى سنوات الثلاثينيات والأربعينيات طراز التجربة السابقة مستحدثين بذلك نماذج متعددة لتمثيل الحقيقة نفسها ولكن مع موضوعات أخرى غير أوزان الأجسام ، وهو ما سمح باكتشاف أننا بصدد قانون نفسى عام يصدق على مدركاتنا جميعا ، المادية والمعنوية ، ولكننا لن نحكى هذه القصة مفصلة لأن المقام لايسمح بذلك ، ومن ثم نكتفى بهذه الإشارة الموجزة ، والشىء الذى يهمنا فى هذا الموضوع هو التنبيه إلى أهمية إطار الدلالة لكى نحسب حسابه فى فهم كل ما يمر بنا فى حياتنا الاجتماعية من أقوال ، وأحداث ، وأشخاص ومواقف .

صعوبات التطبيق

جدير بالذكر أن تطبيق هذه الصيغة فى حياتنا اليومية ، ومن خلال إدراكاتنا اللحظية، ليس بالأمر الهين دائما ، بل كثيرا ما تعترض سبيله صعوبات مختلفة . وربما كانت أهم هذه الصعوبات ثلاث ، هى : غياب الإطار أو عدم حضوره حضورا ماديا ملموسا فى معظم الأحيان ، ووقوع الأحداث متفرقة فى المكان والزمان ، وتعدد الأطر التى يمكن من خلالها فهم المفردة الإدراكية فى كثير من الحالات.

ولننظر فى هذه الصعوبات واحدة بعد الأخرى . فأما الصعوبة الأولى فأمرها يسير ، لأنها تشير بعكس ما وجدناه فى تجربة إدراك خفة أو ثقل الجسم المعدنى التى ذكرناها فى الفقرة السابقة حيث الأجسام الأخرى ذات الأوزان الأخف والأوزان الأثقل حاضرة فى المجال الإدراكى لمن تجرى عليهم التجربة . ومن ثم نفهم كيف أن غياب هذه الأجسام المغايرة يثير درجة معينة من الصعوبة .

أما الصعوبتان الثانية والثالثة فهما اللتان تستحقان التريث فى مناقشتهما . ونبدأ بأولى هاتين الصعوبتين : تفرق

الأحداث المدركة فى المكان والزمان؛ نأخذ هنا مثالا من أحداث واقعية ورد ذكرها فى مجلة المصور بتاريخ ١٧ سبتمبر الماضى . ففى تحقيق أجرى عن أسلوب الإدارة فى جهاز الإذاعة والتليفزيون ذكر الكاتب أسماء عدد من الرؤساء قام كل منهم بتعيين ابنه أو ابنته فى القسم الإدارى الذى يرأسه ، أى تحت رئاسته شخصيا . والسؤال الذى يعنينا هنا هو : كيف ندرك هذه الوقائع الثلاث أو الأربع التى ورد ذكرها فى هذا التحقيق؟ هناك عدة طرق يمكن اختزالها فى طريقين لإدراك هذه الوقائع؛ الطريق التجزيئى ، والطريق التجميعى أو التكاملى، أى الطريق الذى يكامل بين هذه الوقائع فى كل له معنى ، وربما زاد على ذلك بأن كامل بينها مجملة ووقائع أخرى قد لاتشبهها شكلا ولكنها تماثلها دلالة ، ومن ثم ينتهى بنا إلى إدراكها جميعا داخل إطار واحد للدلالة ، هو إطار «المحسوبية للأقرباء» ، وما ألاحظه فى كثير من الأحوال أن الكاتب (أو المتكلم) يسلك الطريق الأول أعنى الطريق التجزيئى . والسؤالان اللذان يجب ألا يغيبا عن أذهاننا فى مثل هذا الموقف هما : أين ينتهى بنا الطريق التجزيئى ؟ وإلى أين يتجه بنا الطريق التكاملى ؟

أين يأخذنا طريقا الإدراك ؟

نبدأ بالطريق التجزيئى ، وهذا يأخذنا إلى استهجان كل واقعة على حدة ، وربما إلى الإساءة إلى اسم مرتكبها . وسرعان ما يرد مرتكب الواقعة بأن الكاتب قصد التشهير به ، وأن المسألة تصفية حسابات ، وأنه ليس وحده الذى فعل ذلك ... الخ . وغالبا ما ينتهى الأمر الى تشتيت جهد الكاتب والقارىء معا فيما لايزيد على مستوى التنابز بالألقاب والأفعال الشخصية ، هذا عن الطريق التجزيئى ، أما الطريق التكاملى فيتجه بنا إلى بلورة قضية اجتماعية ، وذلك بالجمع بين الوقائع الثلاث أو الأربع المذكورة ، وفى هذه الحالة لا يكون الجمع فيما بين بعضها البعض من حيث التشابه الشكلى، ولكن من حيث واحدية إطار الدلالة الذى يحتويها وهو «إطار المحسوبية للأقرباء» ، وقد يرقى بنا هذا الإطار إلى إطار آخر أشمل منه وهو «إطار الفساد الإدارى». ومعنى ذلك أن طريق الإدراك التكاملى يتجه بنا إلى اكتشاف أحد أدوائنا الاجتماعية أو أحد الأبعاد الرئيسية للخلل الاجتماعى العميق الذى نعانى منه ، وهو فى الوقت نفسه ينأى عن التوقف عند الوقائع الفردية التى قد تستغرقنا فنعجز عن تجاوزها إلى ما تمثله هذه الوقائع كمفردات لتيارات فاسدة تنخر فى نسيج الحياة الاجتماعية بإسهام الكثيرين منا وعلى غفلة منا جميعا .

ولمزيد من التدقيق فى هذه النقطة الخاصة بمساوىء الطريق التجزيئى للإدراك وهى التى ينأى بنا عنها الطريق التكاملى يلزمنا الوقوف عند سؤال محدد : كيف تقع بالضبط مساوىء الطريق التجزيئى ؟ إنها تقع نتيجة لتدخل عوامل متعددة ، بعضها عن وعى والبعض الآخر عن غير وعى من الكاتب (أو المتحدث) ؛ من هذه العوامل أن يكون ذهن الكاتب

منشغلا أكثر مما يجب بشخص مرتكب هذه الواقعة أو تلك ، وهذا أمر جائز بالنسبة لنا جميعا ، أو أن يكون الكاتب على غير علم إلا بواقعة واحدة من هذا الطراز أو ذاك وهى الواقعة التى يتحدث عنها ؛ أو ألا تحضر فى ذاكرته (وقت الكتابة أو القول) وقائع أخرى مشابهة رغم معرفته السابقة بها ، .... إلى آخر هذه الأشكال من قصور المعرفة أو تشوهها ، وهى أشكال عديدة ، يمكن أن تترتب جميعا على ما أسميناه حدوث الوقائع متفرقة (أو متباعدة) فى الزمان أو فى المكان أو فيهما معا .

تعدد أطر الدلالة

أما عن هذه الصعوبة وهى تعدد الأطر المرشحة لأن يكون كل منها إطار دلالة ندرك من خلاله الموضوع الواحد الذى نحن بصدده فهذه أكثر الصعوبات الثلاث تركيبا أو تعقيدا ، ولكى يمكن تذليلها لابد للكاتب (أو المتحدث) من أن يواجه عددا من الأسئلة ويجيب عن كل منها إجابة واضحة وأمينة ، والسؤال الأول فى هذا الصدد يتعلق بهدف الكاتب من طرح هذا الموضوع . هل هو التشهير بفلان أو فلانة ؟ أم طرح قضية لها قدر من العمومية ؟ والسؤال الثانى هو : إذا كان الهدف طرح قضية عامة فإلى أى مدى يتخيل اتساع عموميتها ؟ ونظل عند المثال الذى نحن بصدده ، مثال التعيينات فى جهاز الإذاعة والتليفزيون ؛ هل المستهدف هو طرح القضية فى حدود الممارسات التى تجرى داخل هذا الجهاز فقط ؟ يمكن أن تقوم بذاتها كقضية ، على أساس أن المسألة هنا ليست مسألة جهاز واحد هكذا ولكنها مسألة جهاز بالغ الأهمية والحساسية بالنسبة للدولة والشعب على حد سواء ، هل هذا هو المستهدف؟، أم المستهدف هو الامتداد بدلالة هذه الأحداث على ما يجرى من ممارسات فى كثير من مؤسسات الدولة ؟، والسؤال الثالث هو إذا كان المقصود هو طرح الموضوع كقضية عامة تصدق على ممارسات متباينة فى مفرداتها وفى أشكالها وإن توحدت فى معناها فهل لهذا المعنى دلالة أعم بحيث نستطيع أن نربط بينها (عقليا) وممارسات أخرى قد تبدو للنظرة غير المتأنية شديدة الاختلاف عما نحن بصدده ؟ هذه الأسئلة الثلاثة تعتبر عينة كاشفة عن حقيقة الصعوبة التى نحن بصدددها ، وهى تعدد الأطر المرشحة لأن نقدم من خلالها الحدث الواحد (أو المجموعة الواحدة من الأحداث) ، ومع ذلك فهذا بند واحد من بنود هذه الصعوبة ، وهو بند الأطر الاحتوائية ، حيث الإطار الثالث والأخير يحتوى على الإطار الثانى ، وهذا بدوره يحتوى على الإطار الأول أو بعبارة أخرى حيث تعدد الأطر يعنى اتجاها إلى مزيد من التوسع فى التعميم . ولكن هناك بنودا أخرى أشد تعقيدا ، حيث ينطوى تعدد الأطر على نوع من التنازع أو التصارع فيما بينها ، نأخذ مثالا على ذلك من الأحداث الجارية على مشهد منا جميعا : هذا الحدث هو دخول الجيوش الأمريكية فى العراق فى أبريل سنة

٢٠٠٣ وما تلاه من أحداث تشارك فيها هذه القوات. هذا مثال جيد لتعدد أطر الدلالة وتصارعها ؛ إطار إدخال وإرساء النظام الديمقراطي في الحكم ، تقدمه وتدعمه الإدارة الأمريكية الحالية، وإطار إرساء الهيمنة الأمريكية المباشرة على منطقة الشرق الأوسط برمتها : في هذا المثال وأشباهه تواجه الكاتب مشكلة المفاضلة (وحسمها) بين الإطارين المتنازعين . وربما بدت مسألة المفاضلة في حالة هذا المثال مسألة يسهل حسمها ، ولكن هناك أمثلة أخرى ليست على هذا المستوى من سهولة الحسم ، خذ مثلا بعض الأحداث التي تجرى في مجال التعليم لدينا ، من هذا القبيل موضوع السنة السادسة الابتدائية : كانت موجودة أصلا ، ثم صدر قرار بإلغائها ، ثم صدر قرار بإعادتها . ماهو إطار الدلالة الذي تقدم هذه الأحداث الثلاثة بداخله ؟ هل هو إطار اختلاف الفلسفات التربوية ؟ أم هو إطار تضخم الإرادات الفردية لكثير من الوزراء ؟ أم هو الاستهانة بالأعراف والقوانين القائمة؟. وهناك أمثلة أخرى كثيرة يستطيع القارىء أن يستحضرها بذهنه على ضوء هذا الحديث . الشيء المهم أننا هنا بصدد مواجهة لمستوى مرتفع من مستويات الصعوبة الناجمة عن تعدد الأطر التي يمكن من خلالها إدراك بعض الموضوعات . والسؤال المهم هنا هو كيف نتغلب على هذا المستوى من صعوبة تعدد الأطر (حيث الأطر متنازعة فيما بينها) ؟ الطريق إلى الإجابة هنا يشبه الطريق الذي يسلكه العلماء في تعاملهم مع فروضهم العلمية ؛ يواجه العالم ظاهرة معينة تقوم في مجال تخصصه لم يتعرض لها من قبل ، فيحاول تفسيرها ، وفي محاولته هذه يضع فرضا معينا ، ثم يحاول أن يمتحن حق هذا الفرض بامتحانات معينة ، أهمها امتحانان ، الأول هو مدى اتساع هذا الفرض لأن يستوعب مجموع الحقائق المعروفة عن مجال الظاهرة التي يهتم بدراستها ، والامتحان الثاني هو أن يستخدم الفرض الذي وضعه في التنبؤ بوقوع أحداث بعينها ، فإذا صدق هذا التنبؤ ووقعت الأحداث فعلا جمع الامتحانين معا ليجيز لنفسه أن يقتنع بصحة الفرض الذي وضعه ويدعو الغير إلى الاقتناع به ، هذا هو الطريق، أعني هذا هو التوجه العام للطريق ، ولا أعني أن يأخذ الكاتب (أو المتحدث) نفسه بالتحرج ذاته وبالصرامة نفسها .. الخ اللذين يأخذ العالم بها نفسه وهو بصدد التحقق من صحة فروضه . المهم هو التزام هذا التوجه في خطوطه العامة ، وأهم هذه الخطوط هو الامتحان العقلي النقدي للإطار الذي يختاره ، والإبقاء (في ذهنه وفي عباراته التي يسوق بها رأيه) على درجة بعينها من احتمالات إدخال بعض التعديلات على هذا الرأي نتيجة لعثوره على بعض الوقائع أو الحقائق التي قد تتكشف أمامه فيما بعد نتيجة لاستمرار النظر أو مواصلة الحوار .

الطريق إلى رفع كفاءة الإدراك

وأخيرا وليس آخرا نأتي إلى هذا التساؤل : كيف الطريق إلى رفع كفاءة الإدراك ؟ نقطة البدء في الإجابة عن هذا

التساؤل تتمثل فى أن يكون واضحا لنا أن الإدراك وظيفة نفسية، (شأنها شأن الذاكرة ، والانتباه ، والقدرة على حل المشكلات..... الخ)، قابلة للتدريب ومن ثم التنمية والتعديل .

وننتقل الآن إلى الإجابة نفسها . وتحتشد فى إطار هذه الإجابة عدة نقاط، ورد ذكر بعضها متناثرة فى ثنايا المقال ، ولكن البعض الآخر لم يرد له ذكر . وفيما يلى نورد هذه النقاط جميعا آملين أن يساعد هذا الاحتشاد على إنفاذ الرسالة التى توخيناها من كتابة هذا المقال :

النقطة الأولى :

أن نحاول قدر استطاعتنا أن نتسلح بأعلى درجة من التنبه والوعى فى مواجهة أحداث الحياة الاجتماعية التى تدور حولنا .

النقطة الثانية :

أن نعرف أن تفعيل هذا الوعى إنما يبدأ بإلقاء السؤال تلو السؤال فى محاولة جادة لفهم حقيقة هذه الأحداث بغض النظر عن زخرف القول الذى يساق عادة للتبرير .

النقطة الثالثة :

أن نعى أن فهم الأحداث لايتحقق بالوقوف عند كل منها منفردا ، ولكنه يتحقق بالنظر فى الحدث باعتباره جزئية داخل إطار كاشف عن الدلالة ، ومن ثم يكون الهم الرئيسى لطالب الفهم أن يستكشف الإطار الملائم ، ويتبين معالم الدور الذى تقوم به هذه الجزئية فى هذا الإطار .

النقطة الرابعة :

أن نحسن التعامل مع ما نتصور أنه الإطار المناسب ، وذلك بأن نضعه فى مرتبة أعلى قليلا من مجرد التخمين، وأدنى قليلا من اليقين، وذلك حتى نمتحن صلاحيته لفهم ما نريد أن نفهم . فإذا اجتاز الامتحان أبقينا عليه، وإذا فشل أسقطناه من حسابنا .

النقطة الخامسة :

كثيرا ما تتزاحم على صفحة الذهن أطر متعددة لفهم الحدث الواحد ، فإذا تعذرت المفاضلة بينها على أساس مفهوم الصدق ومنطق الخبرة فمن الحكمة الاحتفاظ بها جميعا كأحكام معلقة ، أو كاحتمالات متعددة للتفسير، والمستقبل كفيل بالحسم ، شريطة أن نبقى على انفتاح الذهن ، وسعة الصدر، ومداومة التساؤل .

النقطة السادسة :

فى مثل زماننا هذا ، حيث ارتقت قدرة الإنسان على الخداع ، كأثر من الآثار الجانبية لنمو قدرات الإبداع ، تزداد قيمة شحنة الإدراك باعتباره الأداة الأولى فى حسم نتيجة الصراع من أجل البقاء ، لأن الإدراك الصائب شرط الفعل الرشيد ، والفعل الرشيد شرط البقاء والارتقاء . ■

أقـــوال معاصرة

أحمد نظيف

نجيب محفوظ

محمد جابر الأنصارى

- «نحن نتبع سياسة الشفافية التامة»

رئيس الوزراء الدكتور أحمد نظيف

- «أعتقد أننا نحتاج إلى البراءة كي نكتب»

الأديب البرازيلي باولو كويلو

- «العمل الأدبى قطرة ماء تضم المحيط»

الأديب العراقي فؤاد التكرلي

- «وجود الإنسان محتاج للحرية حاجته للعدالة»

الأديب العالمى نجيب محفوظ

- «آن للبشرية أن تكتشف أن الوداعة أم الفضائل، فهى ترياق ضد ممارسة العنف ضد كائن من كان ولأى سبب كان».

المفكر الإيطالي نور برتو بوبيو

- «لا يمكن تغيير الواقع إلا بعد فهمه»

الكاتب البحريني محمد جابر الأنصاري

- «إذا استمر شىء معين يكرر على أنه واضح، فالأحرى أن يكون هذا الشىء زائفاً فى شكل واضح».

المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي

- «الثقافة العربية السائدة تتحرك ضمن مستويين، أحدهما ذاتي يتمثل فى غياب الفكر النقدى، والآخر موضوعى متمثلا فى غياب الحريات الديمقراطية».

الشاعر اللبناني عيسي مخلوف

- «آخر شىء أرغب فيه هو التدليل لأننى فى الجيش سأكون فى الموقع الذى يكون فيه الرجال»

الأمير وليام نجل ولي عهد بريطانيا

- «والداى كانا مقتنعين تماما أننى لن أستطيع تناول الهامبورجر فى مطعم للبيض ولكن بإمكانى أن أصبح رئيسا للولايات المتحدة»

كونداليزا رايس المرشحة لوزارة الخارجية الأمريكية

- «الإمبراطورية حسب فهم اليمين فى إدارة بوش لا تتوسع بالحب»

جميل مطر كاتب مصري

ماذا حدث للمصريين

أين ذهبت آمالنا الكبار؟

بقلم
د. جلال أمين

منذ خمسين عاما شهد العالم صعودا مفاجئا لموجة عاتية ، شغلت الاقتصاديين والسياسيين وعلماء الاجتماع. ملئت بها صفحات الجرائد ودارت آلات المطابع لتنشر الكتب عنها ، وأسست من أجلها أقسام ومراكز للبحوث فى الجامعات _وتكرر الحديث عنها فى خطب الرؤساء والزعماء، وتبارت الأحزاب والنظم السياسية فى الزعم لنفسها بكفاءة أكبر فى تحقيقها. ليس هذا فحسب، بل قامت باسمها الثورات والانقلابات العسكرية، وسقطت بسببها العروش.

هذه الموجة العاتية هى موجة التنمية الاقتصادية. إذ استيقظنا فى صباح أحد الأيام لنقرأ أن التنمية الاقتصادية هى مشكلة العصر، وأنها أسمى طموحات العالم الثالث، وأن أكبر مسئولية من مسئوليات الدول المتقدمة هى مساعدة الدول المختلفة على تحقيق هذه التنمية الاقتصادية فى أقصر وقت ممكن.

اكـتـشـف كـتـاب التنمية الاقتصادية أن في بلاد العالم الثالث ثورة ليست كالثورات المعروفة التي تطيح بالعروش والحكومات، بل هي ثورة نفسية تجيش بها الأذهان والقلوب، سموها «ثورة التوقعات العالية» (Re- volu tion of Rising Expecta- tions) أو ثورة الآمال الكبار.. وهي تتلخص في أن شعوب العالم الثالث لم تعد، كما ظلت قرونا طويلة، تقنع بالعيش على مستوى الكفاف، بل أصبحت تتطلع الى مستوى أعلى من المعيشة: طعام أفضل، وملبس أليق، ومأوى مناسب، وتعليم حديث ، وخدمات صحية متوافرة عند الحاجة، ووسائل للترفيه عن النفس.. الخ، أي باختصار، مستوى من المعيشة يحفظ للإنسان آدميته وكرامته، مثلما توفر لشعوب أخرى سبقت في مضمار التقدم الاقتصادي.

قال هؤلاء الكتاب أيضا إن هذه الثورات في تطلعات الناس وآمالهم، هي الدافع الأساسي وراء هذا الانتشار الملحوظ لبرامج التنمية الاقتصادية الطموح، في بلد بعد آخر من بلاد العالم الثالث، وسماعنا عن خطة خمسية بعد أخرى للتنمية، وهذا الحماس المفاجيء للتصنيع، بل إنه الدافع الأساسي (هكذا قالوا) لقيام الانقلابات العسكرية في كثير من هذه البلاد، معلنة للناس تصميمها على تحقيق التنمية السريعة، واستقبال الناس لها بكل هذا الترحيب والتأييد.

أما القول بأن هذا هو التفسير الحقيقي لكثرة الانقلابات العسكرية في العالم الثالث في الخمسينات والستينات، فهو في رأيي محل نظر ولكن ليس هذا موضوعنا الآن. وأما انه كان هناك بالفعل شيء يمكن تسميته بثورة التوقعات العالية أو ثورة الآمال الكبار استمر طوال العقدين التاليين لانتهاء الحرب العالمية الثانية (٤٥ - ١٩٦٥) فهو في رأيي صحيح، وليس هناك أية صعوبة في تفسيره.

كان هناك أولا الاستقلال السياسي

الذى حصلت عليه دول العالم الثالث، الواحدة بعد الأخرى، فى أعقاب الحرب وخروج الدولتين الاستعماريتين الأساسيتين، بريطانيا وفرنسا، من الحرب، عاجزتين عن الاحتفاظ بمستعمراتهما، وتشجيع الولايات المتحدة على حدوث هذا الاستقلال. كان هناك ايضا ما بدا على الاتحاد السوفييتى من نجاح باهر فى تحقيق تقدم اقتصادى مذهل حول روسيا من دولة متخلفة الى دولة متقدمة خلال عقدين او ثلاثة، وارتباط هذا التقدم بخطط التنمية الخمسية والتركيز على التصنيع. ربما كان الأهم من هذا وذاك ما ارتبط به قيام الحرب الباردة من تنافس المعسكرين الرأسمالى والاشتراكي على كسب مواقع نفوذ فى دول العالم الثالث مما دفع كلا المعسكرين الى استخدام المعونات الاقتصادية كوسيلة من وسائل هذا التنافس، وبالتالى دفع هذه البلاد للاهتمام بالتنمية الاقتصادية،أضف إلى هذا زيادة درجة الاتصال وسرعة نقل المعلومات من بلد لآخر عن طريق وسائل الإعلام الحديثة، مما زاد من قدرة شعوب العالم الثالث على التعرف على مستويات المعيشة فى أجزاء أخران من العالم. كان هناك شيئان آخرن يحدثان فى العالم الغربي وساهما أيضا فى تغذية ثورة التوقعات العالية فى بلاد العالم الثالث. انتشار ما عرف «بدولة الرفاهية» (Welfare State)، أى مسئولية الدولة عن تمكين الجميع، بمن فيهم أفقر الناس ، من إشباع حاجاتهم الأساسية، والتقدم التكنولوجى السريع الذى قام على استغلال ما أحرز من تقدم علمي وتكنولوجى لدعم الأعمال الحزبية.

***

كان هذان العقدان التاليان لانتهاء الحرب (٤٥ – ١٩٦٥) عقدين مدهشين حقا بما شاع خلالهما من تفاؤل بمستقبل العالم بوجه عام والمستقبل الاقتصادى بوجه خاص. صحيح ان الحرب نفسها كانت قد آثارت فى نفوس عدد من المفكرين ، فى الشرق والغرب، خيبة أمل عظيمة، إذ كان فى قيام الحرب الثانية نفسها تخييب للأمل فى أن يكون الغرب قد تعلم من كارثة الحرب الأولى واختار ان يعيش فى سلام، وبدا إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما سقوطا أخلاقيا ما بعده سقوط للحضارة الغربية، وكانت الفظائع التى يرتكبها ستالين مع معارضيه قد بدأت تتردد اكثر فأكثر على الأسماع ، كما أشاعت فترة المكارثية فى الولايات المتحدة فى اوائل الخمسينات القلق من ان تكون الديمقراطية الغربية نفسها غير

محصنة تحصينا كافيا ضد الاتجاهات الفاشية. كل هذا صحيح، ولكن كانت الصورة العامة لهذين العقدين صورة تفاؤل بالمستقبل، وانحصر التشاؤم فى دائرة ضيقة من المفكرين والمثقفين دون ان يصبح تيارا عاما. والأرجح أن الانتعاش الاقتصادى الذى ساد فى هذين العقدين كان كفيلا بتبديد المخاوف وطمأنة الناس على المستقبل. لقد فجر هذا الانتعاش الاقتصادى بلا شك طاقات شرائح اجتماعية جديدة كانت تقبع فى قاع المجتمع أو قرب القاع، فرأت امكانيات اقتصادية جديدة تتاح لها ولأولادها فتفاءلت بالمستقبل، وانتشرت عدوى التفاؤل منها الى غيرها.

لم يقتصر الأمر على الدول المنتصرة فى الحرب، بل سرعان ما أعادت الدول المنهزمة بناء اقتصادها، فاذا بالدول الغربية ككل تحقق معدلا للنمو الاقتصادى غير مسبوق فى تاريخها. وأقبلت دول اوربا الغربية على إقامة تكتل اقتصادى بشر بدوره بمستقبل زاهر لها جميعا. بل وحتى الغيوم القليلة التى تلبدت فى سماء السياسة سرعان ما انقشعت. فالمكارثية فى امريكا لم تدم طويلا، وقام خروشتشوف فى الاتحاد السوفييتى فى ١٩٥٦ بإلقاء بيانه الشهير امام الحزب الشيوعى ليعلن فيه اعتذاره عن اخطاء ستالين، ويبشر

بم[illegible] جديد من التسامح السياسى. وسرعان ما عمت الأفراح بحصول دول بعد أخرى من دول العالم الثالث على استقلالها، وصعود ابطال وطنيين الى قمة السلطة ، وكانوا قد اشتركوا فى عملية إجلاء المستعمر او التخلص من عملائه ، من نهرو فى الهند إلى بن بللا فى الجرائر، إلى كاسترو فى كوبا.

★★★

كيف كان من الممكن ان تكون مصر استثناء من هذا كله؟ كانت الخمسينات وأوائل الستينات فى مصر، بلا شك، كما كانت فى غيرها، عصر التوقعات العالية أو الآمال الكبيرة.

كان التفاؤل قد بدأ بلا شك مع قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكانت أشياء قليلة جدا ، حدثت فى أيام معدودة ،. كافية لاشعال حماس الناس واطلاق قواهم المحبوسة وصعود آمالهم الى أقصى ذراها. كان مجرد عزل الملك، بعد ثلاثة أيام من قيام الثورة ، وإعلان قانون الاصلاح الزراعى بعد اقل من شهرين، ثم اعلان الجمهورية بعد اقل من ستة اشهر،

كافيا لاقناع الناس بأن المستقبل سيكون أفضل بكثير لهم ولأولادهم، ومن ثم لم يكن انتشار أغنية مطلعها «ع الدوار.. ع الدوار.. راديو بلدنا فيه أخبار» بموسيقاها الشعبية السريعة والمبهجة، شيئا غريبا بالمرة، فقد أطلقت الثورة مشاعر حبيسة تواقة الى الفرح والتفاؤل، وسرعان ما ظهر الملحنون والمغنون والأدباء والشعراء والسينمائيون والمسرحيون للتعبير عن هذا التفاؤل.

ولكن سنة ١٩٥٦ أعطت موجة التفاؤل هذه دفعة جديدة جبارة، بما بعثه تأميم قناة السويس من ثقة جديدة بالنفس، وتوالت بعدها أخبار أخرى سارة، من إعلان برنامج طموح للتصنيع، إلى تمصير البنوك والشركات، إلى وضع أول خطة خمسية للتنمية ، إلى البدء فى بناء السد العالى، إلى قوانين التأميم وإعادة توزيع الدخل ابتداء من سنة ١٩٦١ ، بينما كانت مصر فى وحدة سياسية مع سوريا فى ١٩٥٨، وتقوم ثورة فى العراق وشبه ثورة فى لبنان والاردن فى نفس السنة، وكان كل هذا يبشر بقرب إقامة الوحدة العربية الشاملة.

عندما انتهت فترة الخطة الخمسية الأولى فى منتصف الستينات ظهر أن معدل النمو قد حقق ارتفاعا ملحوظا (أكثر من ٦٪ سنويا بين ١٩٥٦ و ١٩٦٥) لم تشهد مصر مثله منذ الحرب العالمية الأولى، وان نصيب الصناعة فى الناتج القومى قد زاد بشدة عما كان فى بداية الخطة، فضلا عما حققته بإعادة توزيع الدخل من تضييق الفجوة بين الطبقات وما أدى إليه كل هذا من نمو كبير فى الطبقة الوسطى المصرية. كيف يمكن ان يحدث كل هذا دون ان ترتفع التوقعات الى الذرى، وتمتلىء النفوس بالآمال الكبار؟

***

ولكن غيوما ظهرت فى الافق فى ١٩٦٤ ، تبين مع مرور الوقت أنها لم تكن مجرد سحابة عابرة، بل بداية لسحاب كثيف استمر يلبد السماء خلال الأربعين سنة التالية وحتى اليوم باستثناءات قليلة لم تنجح قط فى إعادة موجة التفاؤل الى المصريين .

كانت الولايات المتحدة قد بدأت تكشف عن أنيابها لمصر، فتعبر لها بين الحين والآخر عن عدم رضاها عن سياسة مصر الخارجية، ومساعدتها للحركات الثورية فى افريقيا، وأخذت تقلل بشدة مما تعطيه لمصر من معونات اقتصادية. ثم حدثت فى ١٩٦٧ النكبة العسكرية الكبرى، وتوقفت المعونات الامريكية توقفا تاما، وانخفضت كذلك المساعدات الآتية من بقية العالم الرأسمالى والمنظمات الدولية ولم تزد

المساعدات السوفييتية لمصر بما يعوض هذا النقص. كانت نتيجة النكبة العسكرية والانخفاض الشديد فى المعونات ان السنوات العشر التالية (٦٥ - ١٩٧٥) كانت من اشد فترات الاقتصاد المصرى بؤسا ركود وبطالة وعجز فى الموازنة العامه وفى الميزان التجارى والالتجاء الى قروض باهظة التكلفة من الخارج والتخلى عن أى طموح فى التنمية او فى إعادة توزيع الدخل.

لم يكن من الممكن لأحد فى مصر فى أواخر الستينات أو أوائل السبعينات أن يتكلم عن عصر التوقعات العالية أو الآمال الكبيرة، فقد كان العكس هو الصحيح. ثم حدث شىء مدهش لمصر وغير متوقع فى منتصف السبعينات، سبب ارتفاعا مفاجئا فى الطموحات وصعودا غير مألوف فى الآمال. كان وراء هذا التحول المفاجىء ظاهرة تلخصها كلمة واحدة «الهجرة» . وأقصد بها بالطبع هجرة الملايين من المصريين الى البلاد العربية الغنية بالبترول على اثر ارتفاع اسعار البترول فى ٧٣/ ١٩٧٤ كانت الثروات التى تولدت عن الهجرة ، كبيرة ومفاجئة والمستفيدون من الثروة النفطية ينتمون إلى مختلف الطبقات بما فى ذلك أفقر المزارعين وأقل العمال مهارة. صحيح انه كان هناك كثيرون ممن أصابهم الضرر من الانفتاح الاقتصادى ومن التضخم الذى صاحب الانفتاح والهجرة، ولكن الموجة العامة فى مصر كانت موجة من التفاؤل .لم يكن هذا التفاؤل ذا جذور سياسية بالمرة، بل بالعكس بدت التطورات السياسية كئيبة للغاية ومنذرة بأسوأ العواقب، وإنما كانت أسباب التفاؤل اقتصادية بحتة، كما انها كانت تتعلق بتفاؤل بمستقبل مشروعات الأفراد الشخصية وأمالهم فى الإثراء الكبير والسريع، وليس بمشروع قومى للدولة ككل، ولا بآمال تتعلق بالوطن او بالامة العربية.

على كل حال، ما ان وصلنا إلى منتصف الثمانينات حتى كانت الامال كلها قد تبخرت ، والطموحات الكبيرة والصغيرة قد تلقت ضربات قاتلة، الفردى منها والقومى، السياسى منها والاقتصادى، المتعلق منها بمصر وحدها أو بالأمة العربية كلها او بقضية فلسطين على نحو الخصوص. منذ منتصف الثمانينات دخلت مصر إذن مرحلة من مراحل تدهور الطموحات وخيبة الآمال

وتشاؤم التوقعات، تزداد قسوتها يوما بعد يوم، واستمرت طوال العشرين عاما التالية ولاتزال مستمرة حتى اليوم، ومن ثم تبدو فترة السنوات العشر (١٩٧٥ - ١٩٨٥) التي ازدهرت فيها الامال الفردية في تحقيق طموحات شخصية بحتة، كمجرد فترة انقطاع قصيرة واستثنائية تخللت فترة تدهور طويلة، عمرها الان اربعة عقود كاملة (٦٥ - ٢٠٠٤).

***

سبق أن أشرت إلى أن فترة التفاؤل الرائعة التي مرت بها مصر طوال الخمسينات وأوائل الستينات «٥٢ - ١٩٦٣) لم تكن إلا جزءا من حالة تفاؤل عامة شملت العالم بأسره. وقد أشرت باختصار الى اسباب التفاؤل المصرية والى اسباب تفاؤل العالم ككل، فهل يجوز ان نتوقع ان يكون هذا التدهور الذي اصاب الحالة المصرية منذ منتصف الستينات، واستمر كل هذه الفترة الطويلة، استثناء مما يحدث في العالم؟ الحقيقة أن مصر هنا ايضا، في تدهورها الحالي، كما في ارتفاع طموحاتها السابق لم تكن استثناء على الاطلاق. إذن فلننظر الى ما حدث في العالم منذ منتصف الستينات.

كان العالم كله قد روع في اواخر سنة ١٩٦٣ بمقتل الرئيس الأمريكي كيندي، في ظروف لم يتم كشف القناع عنها حتى الان. وبعد ذلك بشهور قليلة سمعنا ايضا بسقوط خروشتشوف لأسباب لم يجدها الكثيرون حينئذ ، ولا تبدو حتى الآن مقنعة تماما. ولكن ايا كانت اسباب سقوط هذا وذاك، وسواء كانت هناك علاقة بينهما أو لم تكن، دخل العالم الغربي والعالم الشيوعي، كلاهما في فترة من التدهور الاقتصادي ابتداء من أواخر الستينات ، ولكنهما دخلا ايضا في مرحلة جديدة من العلاقات فيما بينهما عرفت بمرحلة(الوفاق) Detete وقد وصفها بعض الكتاب حينئذ بانها ليست مرحلة جديدة من توازن القوة بل من توازن الضعف. انحسر معدل النمو في العالم الغربي منذ أواخر الستينات ولم يعد حتى الان إلى ما كان عليه في العشرين سنة التالية للحرب. وبدأ يظهر بوضوح تضارب المصالح بين الولايات المتحدة من ناحية وأصدقائها في اوروبا الغربية واليابان، وبدا وكأن الجميع لم يعودوا يجدون في أسواقهم هم متسعاً كافيا لتصريف المزيد من السلع، وراحت الشركات العملاقة، او متعددة الجنسيات، كما أصبحت تسمى، تبحث لنفسها بهمة غير معهودة عن اسواق لمنتجاتها واستثماراتها في خارج العالم الصناعي. وانعكس تباطؤ الأداء

الاقتصادى فى الغرب فى انخفاض معدل النمو فى التجارة الدولية وانخفاض المعونات الاقتصادية المقدمة لدول العالم الثالث، وبدا العالم الثالث ، فى عيون الدول الصناعية، مرة أخرى، أقرب الى الفريسة التى يتعين التهامها منه الى ذلك الحيوان البرى الطليق الذى تركت له حرية الحركة والتجول كما يشاء فى فترة استثنائية من التاريخ هى فترة العشرين عاما التالية للحرب.

كان لابد للعالم الثالث، فى هذه الظروف، ان يتلقى الضربات، الواحدة بعد الاخرى. كان الشعار الذى رفع منذ أوائل السبعينات ، فى دولة بعد أخرى من دول العالم الثالث، هو شعار «الانفتاح الاقتصادى، أو التحرير الاقتصادى أوالتكيف أو التصحيح الهيكلى. ولكن أيا كانت هذه الأسماء البراقة، فقد كانت الحقيقة المرة أننا ندخل فى عهد جديد من الاستعمار، وأن ما كسبه العالم الثالث فى سنوات ما بعد الحرب، يجرى الآن فقده بسرعة .

لم تكن التطورات الموازية فى العالم الشيوعى تتيح أى فرصة للمساعدة والانقاذ، بل زاد الأمر سوءا ما أصاب الاتحاد السوفييتى من ضعف، بتدهور أدائه الاقتصادى هو الآخر، وتفاقم الفساد، والارتداد عن مسيرة الانفتاح السياسى وزيادة القيود المفروضة على

المعارض... ين. فقد العالم لثالث إذن حليفه القديم، أو على الأقل الدولة التى كانت تقدم له بعض المؤازرة فى ظل الحرب الباردة، ثم دخلت فى نوع من الوفاق مع الدول الاستعمارية القديمة. لم يكن من الغريب مثلا أن يحدث الهجوم الاسرائيلى على مصر وسوريا والأردن وتبتلع اسرائيل الضفة الغربية فى ١٩٦٧، بمؤازرة الولايات المتحدة بالطبع، ثم يحدث بعد ذلك بأقل من عام، هجوم الاتحاد السوفييتى على تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٨ لوأد حركة التحرر بقيادة دوبشيك، بينما تنظر الولايات المتحدة إلى الناحية الأخرى وكأنها لم تسمع بما حدث .

* * *

باعتلاء رونالد ريجان الحكم فى الولايات المتحدة فى مطلع الثمانينات، ووصول مارجريت تاتشر إلى الحكم فى انجلترا فى نفس الوقت، أصبحت الليبرالية الجديدة هى شعار القوى الصاعدة فى العالم، وتتردد أصداؤها فى العالم الثالث فى نغمة الانفتاح الاقتصادى والتصحيح الهيكلى، ولكن لم يعد أحد يتكلم عن عصر التوقعات العالية أو الآمال

الكبيرة. نعم، قدمت وعود متكررة وتردد التعبير عن الأمل فى ارتفاع معدلات النمو، ولكن كان هذا يقترن دائما بالاعتراف بأن وصول ثمرات هذا النمو إلى الغالبية من السكان لابد أن يتأخر قليلا أو كثيرا، وما على هؤلاء إلا التحلى بالصبر.

زاد هجوم الليبرالية الجديدة (أو الاستعمار الجديد إذا شئت) حدة وتوحشا، على بلاد العالم الثالث فى أعقاب السقوط النهائى للاتحاد السوفييتى والكتلة الشيوعية فى نهاية الثمانينات ، بينما بدأت الولايات المتحدة تعيد ترتيب علاقاتها بأوربا واليابان على نحو يضمن لها استتباب الأمر فى العالم الثالث لصالحها. ربما كانت هذه هى أفضل زاوية يمكن منها النظر إلى حروب التسعينات فى وسط أوربا وأفريقيا، وإلى هجوم صدام حسين على الكويت ثم فرض الحصار على العراق لمدة عشرة أعوام : الولايات المتحدة تعيد ترتيب العالم لصالحها بعد سقوط الاتحاد السوفييتى مستفيدة من تفوقها العسكرى الواضح ، وعلى الرغم من تدهور مركزها الاقتصادى فى العالم، مبتدئة بترويض أوربا، ذلك الحليف القديم والمنافس الحالى والخصم المحتمل، على أن تتلو ذلك إعادة ترتيب منطقة الشرق الأوسط، لصالحها أيضا وصالح حليفتها المستمرة اسرائيل، تاركة آسيا وأمريكا اللاتينية لمرحلة تالية .

* * *

بدأت مرحلة إعادة ترتيب الشرق الأوسط بأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، التى استخدمت لتبرير احتلال أفغانستان ثم العراق، والوجود العسكرى والسياسى الكثيف حول آبار البترول فى وسط آسيا. ونحن نشاهد الآن ، يوما بعد يوم ، ما يراد تنفيذه من إعادة ترتيب المنطقة العربية بأسرها، لفتح أسواق السلع والاستثمارات وتوسيعها أمام الشركات العملاقة، على الأخص الأمريكية، ولبيع ما يمكن بيعه من مشروعات القطاع العام لنفس الشركات، من الصناعة إلى السكة الحديد وسائر المرافق والبنوك .. إلخ، ولوضع حد لمشكلة فلسطين بإنهائها لصالح اسرائيل، ولو تطلب هذا تهجير معظم الفلسطينيين إلى العراق، وما يتطلبه هذا وذاك وغيره من تعديلات فى مناهج التعليم والثقافة والاعلام... إلخ.

* * *

فى ظل هذا كله تبدو الآمال الكبيرة والتوقعات العالية التى بدأنا بها منذ خمسين عاما، وكأنها قد محيت تماما من الوجود. نعم، ما زال «راديو بلدنا فيه أخبار»، بل إن أخباره الآن أكثر

بكثير مما كانت منذ خمسين عاما، ولكنها كلها أخبار تسد النفس وتسبب الكدر، إذ لا مستوى المعيشة يرتفع، بل إنه ، فيما يتعلق بالأغلبية آخذ في الانخفاض ، ولا العمالة المجزية تزيد بل البطالة آخذة في الزيادة، ولا الفجوات بين الدخول والثروات تضيق، ولا مصر تصبح دولة صناعية أكثر مما كانت ، بل يزيد اعتمادها على البترول والسياحة وتصدير العمالة إلى الخارج، ولا البلاد العربية تتوحد بل تتفرق.. إلخ.

* * *

كان لابد أن ينعكس هذا التدهور في مستوى الآمال والتوقعات فيما ينتجه الكتاب والفنانون المصريون من أعمال أدبية وفنية، كما كان لابد أن ينعكس في أسلوب الخطاب الديني السائد في مصر.

يظهر هذا أولا في التدهور الذي طرأ على حجم المواهب التي طفت على سطح الحياة في مصر وعلى حجم تأثيرها في الناس. ذلك أن الآمال العالية تشحذ الموهبة وتؤجج الهمة وتقوى الرغبة في التعبير عن النفس، بينما تضعف الهمة بفقدان الأمل وتنطفئ المواهب وتموت الرغبة في الإفصاح عما يدور بالنفس. من المستحيل مثلا ألا نلاحظ أن شخصيات موسيقية فذة كبليغ حمدي وكمال الطويل ومحمد الموجي، التي أطلقت موهبة عبدالحليم

حافظ من عقالها وأشعلت حماسنا وملأت نفوسنا غبطة في الخمسينات والستينات، خبا نورها في السبعينات والثمانينات ولم يظهر مثلها منذ ذلك الحين . والأمثلة المشابهة كثيرة في الأدب والشعر والمسرح والصحافة.. إلخ.

ولكن التغير يظهر أيضا في مضمون الأعمال الأدبية والفنية . من الصعب على المرء مثلا ألا يلاحظ أن العمل الأدبي المصري الذي حصل على أكبر قدر من الذيوع في بداية القرن الجديد كان عملا تشيع فيه درجة عالية جدا من التشاؤم. فرواية «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسواني ، التي ظهرت في سنة ٢٠٠٢ وطبعت منذ ذلك الحين ست أو سبع طبعات ، لا تحتوي على شخصية واحدة لم تخب آمالها ولم تصب بالإحباط، ولأسباب اجتماعية أكثر منها أسبابا شخصية .

لا يسع المرء أيضا إلا أن يلاحظ درجة الحزن التي تسود الخطاب الديني في مصر الآن، سواء في ذلك موجهو الخطاب أو متلقوه ، حيث يكاد الواعظ يبكي أو يصيح متشنجا من شدة الألم ، وكثيرا ما يجهش السامعون معه بالبكاء!. ■

العالم يفكر:

أفكار وتطورات خطيرة فى عقل العالم!

بقلم
جميل مطر

شدت الانتخابات والحملة التى سبقتها انتباه الناس فى أمريكا وركزته على قضايا العراق والإرهاب والسياسة الخارجية وشدت انتباه كثيرين فى الخارج . لعلها من الحملات الانتخابية النادرة التى أثارت هذا الاهتمام العالمى، ولعلها الأولى فى التاريخ السياسى الأمريكى المعاصر التى تركز على مسائل السياسة الخارجية، وتجر معها الرأى العام الأمريكى. أكد هذا التطور ظنا، كان مترددا بأن مجتمعات غير أمريكية وحركات اجتماعية وسياسية وأفراد صارات تشعر أكثر من أى وقت مضى بأنها لاتستطيع أن نتجاهل أمريكا أو صارت أقرب إلينا، بالخير أو بالشر، أكثر مما كنا نتصور.

ولم يكن تجديد بوش وفوز حزبه الجمهورى وتألق الأصولية الدينية وانتصار اليمين المتطرف وعزل الوسط السياسى النتائج الوحيدة المهمة فى هذه الانتخابات الأخيرة. كانت، هناك نتائج أخرى لاتقل أهمية وبعضها على قدر من الخطورة فقد كشف الجدل،

أرجع بوش كل الشر إلى مصدر واحد، وهو يعمل على مواجهة الشر موحدا وتصفية كل أتباعه.

رغم تفاهة كثير منه عن قصة يبدو أن اليمين المتطرف الحاكم في أمريكا يحاول عدم الاعتراف بها صراحة حتى يحين له وقت تجاوزها أو تحقيق الانتصار فيها، هذه القضية هي أن أمريكا تهددها أفكار وتطورت وتحولات اجتماعية أفرزتها عناصر التحول من الوضع الأمريكي المهيمن إلى وضع إمبراطوري أو العكس، أكثرها يتعلق بقضايا ناجمة عن الفراغ الذي خلفه انحسار الاشتراكية فانزواؤها كأيديولوجية احتجاجية عالمية الأبعاد والانتشار صارت المهمة الأكبر التي تقع على عاتق الطبقة السياسية الحاكمة في أمريكا تنفيذها هي العمل على ملء الفراغ الأيديولوجي المتفاقم في العالم ولو بحشوه فعلياً أو بالوهم بإرهاب وخوف وشر، صارت المهمة أيضا، وهي مكملة الأولى ملء الفراغ الأيديولوجي داخل أمريكا والناشئ عن أسباب كثيرة أهمها سلبيات العولمة.

بدأت هواجس لديهم ولدينا. استطاع بعض الأمريكيين التعبير عنها بسرعة أو بتردد لم يدم طويلاً أما عندنا في العالم العربي والإسلامي، فقد أخذ التعبير في أقصى صوره شكل القلق ولم يتبلور فكراً جديدا أو ممارسة، جاءتنا من أمريكا أفكار وممارسات تطرق بشدة أبواب العقل أو تخترق أسوار قصور السياسة والثقافة في أشكال متعددة منها الاحتلال العسكري والتبشير الأيديولوجي وحملات الإصلاح ومنها أيضا صدامات حضارية ودينية وثقافية دعا بعض المفكرين العرب، في وقت أكثر ملاءمة وأمنا وفي وقت كانت أعصاب الطرفين أقل توترا، إلى فتح باب النقاش

لتدخل منه وتنضج كافة الأفكار دعوا إلى تشجيع الاطلاع على كل ما تطرحه أمريكا على صعيد الفكر وفتح كافة الأبواب للنقاش للاستفادة من الجديد وتصحيح ما يشوبه من مبالغات أو تجاوزات ثقافية أو حضارية أو دينية وللأسف كان كثير من ردودنا في هذه المنطقة انفعالياً أو حساسا أو متعصبا. وكان للبعض عذر، فالأفكار الجديدة كان الكثير منها خطيراً كونه انبثق عن وضع استثنائي بكل المعايير، وهو حال الانكشاف الأمريكي على فراغ أيديولوجي هائل وعلى حزم من مضادات القيم، وعلى صحوة دينية في المجتمع كان مفيداً لو أن المفكرين العرب، والشرقيين عموما بل والأوروبيين أيضًا استبدلوا الصدمة التي أصابتهم بها الأفكار الأمريكية الجديدة بدرجة أكبر من الوعي واليقظة. لم ندرك في الوقت المناسب مدى خطورة بعض هذه الأفكار، أو أدركنا ولم نهتم بالقدر المناسب حتى خرج من بين أهل الغرب وخصوصا من الأمريكيين، من يكشف عن فداحة الخطر ويحذر من عواقب تجاهل التأثيرات المحتملة على البشرية وعلى السلام العالمي نتيجة الاستسلام لهذه الأفكار والسكوت عن هذه الممارسات .

صدر عدد حديث لمجلة السياسة الخارجية الأمريكية التي تنشرها مؤسسة كارنيجي، وعلى غلافها عنوان «الأفكار الأشد خطورة في العالم»، اختارت المجلة بعضا من ألمع المفكرين في الغرب، وبخاصة في أمريكا ، وطلبت من كل منهم الكتابة عن فكرة يراها واحدة من أخطر الأفكار في عالم اليوم اختارت المجلة روبرت رايت الأستاذ الزائر بجامعة برينستون ومؤلف كتاب «اللاصفر : منطق المصير الإنساني» ، فاختار فكرة «الحرب على الشر» التي تحولت إلى حرب عالمية تقودها أمريكا يقول رايت إن خطورة هذه الفكرة تكمن في أنها تعتمد على اسطورة من عصور الظلام تعتبر أن وراء كل الأعمال السيئة قوة كونية مظلمة ومنفردة. وهي الفكرة «الشيطانية» التي رفضتها جميع الأديان وحاربها الفيلسوف سانت أوجستين منذ مئات السنين ومات معتقداً أنه دفنها إلى الأبد إلى أن أعاد اكتشافها أو إحياءها الرئيس بوش ويقول روبرت رايت إن أخطر ما فعله بوش أنه أرجع كل «الشر» إلى مصدر واحد، وبعدها أصبح من السهولة بمكان وضع استراتيجيات وسياسات لمواجهة «الشر موحدا» وتصفية كل اتباعه في كل مكان على وجه الأرض، ومن هنا تحولت فكرة خطيرة إلى سياسة جهنمية تعتمد ثلاثة شعارات طرحت للتداول المتكرر وهي شعار إضربهم كلهم، وحاربهم كلهم، كلهم سيئون للغاية» ، وشعار «لايمحو الشر إلا سياسة الأرض المحروقة»، وشعار «الإسلام مكون رئيسي لمعظم

الشر فى هذا العالم » .

واختارت المجلة بول دافيس أستاذ الفلسفة بجامعة ماكوراى الأسترالية فكتب يقول إن تياراً واسعا من العلماء والفلاسفة صار يرفض مفهوم حرية الإرادة هؤلاء يعتقدون أن الإنسان ليس حراً فى الإدارة أو الاختيار وأن التقدم المذهل والمطرد فى الهندسة الوراثية والعلوم المتصلة بها يؤكد أن هذه الحرية إلى زوال خصوصاً مع تزايد الاقتناع بين العلماء بأن الجينات تشكل العقول تماماً كما تشكل الأجسام، وأن جينات المخ «الميمات» تنتقل كالفيروسات من عقول أخرى حسب قول العالمة البريطانية سوزان بلاكمور. يقول دافيس إن رفض فكرة حرية الإرادة أكثر الأفكار الجديدة خطورة لأنه يمكن استخدامها لتبرير جرائم وعمليات إبادة وقتل جماعى، ولأنها تخدم فكرة أخرى لاتقل خطورة وهى فكرة الشر المتأصل فى مصدر كونى واحد، فضلا عن أن الاقتناع بهاء أى الاقتناع بعدم وجود إرادة حرة سيؤدى إلى التسليم بأن الناس جاهزون لمن يشكل آراءهم ويفرض عليهم سلوكيات معينة. وحين نفقد نعمة الاقتناع بحرية الإرادة سنفقد معها الشعور بالذنب والمسئولية وتأنيب الضمير والثواب ولن يحاسب المجتمع مواطنين فقدوا معها الشعور بالذنب والمسئولية وتأنيب فيهم السلطة السياسية وتحركهم وتسيطر على عقولهم وسلوكياتهم .

أما المؤرخ البريطانى إيريك هوبسبوم أستاذ التاريخ الاجتماعى والاقتصادى بجامعة لندن فقد اختار «التبشير بالديمقراطية والسعى لنشرها فى كافة أنحاء العالم» باعتبارها فى رأية الفكرة الأشد خطورة، يقول هوبسبوم إن هناك افتراضا خاطئاً تقوم عليه عملية التبشير بالديمقراطية والسعى لنشرها خارج الولايات المتحدة، فالديمقراطية ليست كما يزعم المبشرون بها نظام يمكن أن ينجح فى أى مجتمع وأنه قادر على علاج كافة المشكلات وبخاصة المشكلات عابرة الحدود وأنه الأسلوب المناسب لتحقيق السلام فضلاً عن ذلك فإن الاقتراع العام لايضمن دائما سياسات أفضل أو تنفيذ السياسات التى تعهد بها المرشحون المناصب السياسة لقد كان الظن بين فلاسفة ودعاة العولمة أن الديمقراطية فى مبناها ومعناها لاتختلف عن بقية المؤسسات وللممارسات والأفكار النمطية التى أفرزتها مسيرة العولمة الديمقراطية فى نظرهم كالمطارات ومحطات البنزين، مؤسسة نمطية يمكن أن تتكرر بالصورة والمواصفات نفسها فى كافة المجتمعات. الخطورة فى فكرة التبشير بالديمقراطية ونشرها اقتناعاً بأنها نمط موحد، تكمن فى أن أمريكا تريد إعادة تشكيل العالم على صورتها فإن كانت ديمقراطيتها ناجحة فلتكن، هى النموذج . وينسى المبشرون أن هناك

تناقضا بين مصالح الدولة النموذج ، وهى فى هذه الحالة الولايات المتحدة، وبين الدفاع عن الحقوق الإنسانية العالمية ، فالدفاع عن هذه الحقوق تتحكم فيه وتعطله أحيانا كثيرة مصالح داخلية. لقد أثبت القرن العشرون فشل جميع المحاولات التى جرت لإعادة تشكيل العالم على صورة واحدة، فهتلر حاول وحاولت الشيوعية وحاولت الولايات المتحدة . ويقول هوبسبوم إن المبشرين بعالمية الديمقراطية يزرعون الوهم بأنها النظام الوحيد الذى لايدخل فى حرب، بينما لدينا نموذج الحرب فى العراق بقرار اتخذته دولتان ديمقراطيان. ولا يخفى رأيه فى أن تطبيق الديمقراطية فى بلاد بعينها قد يثير الفوضى والنزاعات الإثنية والطائفية، وأن الديمقراطية بالانتخاب ليست هى الضمان الفعال لحرية التعبير وحقوق الإنسان فالقرارات يتخذها فى النهاية عدد ضئيل من الأفراد .

عبور البشرية

أما فرانسيس فوكوياما أستاذ لاقتصاد السياسى بجامعة جونز هوبكنز وصاحب أطروحة نهاية التاريخ فكتب تحت عنوان «عبور البشرية » عن حركة يهدف الناشطون فيها إلى تحقيق ما هو أكثر أهمية فى نظرهم من حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية، يهدفون إلى تحرير الجنس البشرى من قيوده البيولوجية، يدعو هؤلاء إلى أن بنى البشر يجب أن يستخلصوا مصيرهم من «التطورية» العمياء التى تصنع بها ما تشاء وليس ما يشاءون هم. هذا النفر من الناشطين فى حركة تحرير الإنسانية ليسوا حالمين أو من مؤلفى روايات الخيال العلمى، هم فى مواقع متعددة على الشبكة الإلكترونية يعملون ويخططون لاختراع جديد يفلح فى تجميد أجسامهم لفترة طويلة يعودون فى نهايتها للعيش فى عمر آخر. الهدف فى النهاية هو استخدام إمكانات الثورة فى التكنولوجيا الحيوية لجعل البشر أقوى وأذكى وأقل عدوانية وأطول عمراً .إن كثيراً مما تنتجه هذه الأيام مصانع الأدوية وبحوث الطب الحيوى من عقاقير لتقوية العضلات وتغيير الأمزجة ومحو جوانب فى الذاكرة وعمليات فحص الجينات قبل الإنجاب والعلاج بها الهدف منه تحسين النوع، أى تحسين البشر. يحدث هذا بعيداً عن التكلفة الأخلاقية. يتحدث فوكوياما عن أكثر الأخطار فداحة نتيجة هذه الفكرة، فكرة العبور بالإنسانية إلى إنسانية أخرى، وهو خطر فقدان المساواة نهائياً..

ويختار الكاتب المعروف فريد زكريا الأمريكى من أصول جنوب آسيوية، كراهية أمريكا كأخطر فكرة تواجهه أمريكا والعالم إلى درجة أنه يعتقد أنها صارت تحتل مكاناً بين الأيديولوجيات، بل لعلها الأيديولوچية الوحيدة فى عصر مابعد الأيديولوچية. ويجزم زكريا أن

سياسات الرئيس بوش مسئولة عن الكراهية، وبوش نفسه مسئول لأنه لم يحاول التخفيف منها، فقد رفض أن يتعامل بتواضع مع بقية الدول، ولم يحسن استخدام المؤسسات الدولية والقانون الدولى ، ولم يكن يتمتع بحساسية كافية تجاه الفقر والضعفاء فى العالم ، ومع ذلك يرى زكريا أن هناك أسباباً أخرى دفعت إلى نشأة هذه الكراهية وفى صدراتها تراكم هذه القوة الأمريكية الهائلة. هذا التراكم غير المسبوق كان وحده كافياً لدفع الدول الأخرى إلى التجمع ضد هذه القوة الأعظم لهزيمتها ، والسوابق التاريخية شاهدة من هابسبرج إلى هتلر مروراً بنابليون وقيصر ألمانيا . الكراهية لأمريكا جعلت العالم أقل أمنا ورخاء، واستمرار غطرسة واشنطن مع عجزها عن مسايرة العالم لن يحقق غير الفوضى..

العار

وتكتب مارثا ناسبوم أستاذ القانون والأخلاق فى جامعة شيكاغو ومؤلفة كتاب «الاختباء من البشرية، التقزز والعار والقانون»، عن التعصب الدينى باعتباره فكرة خطيرة قديمة يعاد بعثها. تتحدث عن قتل المسلمين فى جوجارات بالهند عام ٢٠٠٢ على أيدى المتطرفين الهندوكيين، وعن عودة اللاسامية إلى أوروبا ، والصحوة الأصولية فى الإسلام، وتتحدث عن التحيز ضد الإسلام، الميل لمساواة الإسلام بالإرهاب وبخاصة فى الولايات المتحدة، تقول إن التعصب يولد تعصباً، كما أن التعبير عن الكراهية يغذى الشعور بعدم الإنصاف فيسمح للناس بأن ترى ممارستها العدوانية دفاعاً مشروعاً عن النفس.

وتقول ناسبوم أن فكرتين تدعمان التعصب الديني والاستهتار بالأديان وعدم احترامها: الأولى هى أن الدين بالنسبة لصاحبه هو الدين الوحيد الصحيح وغيره من الأديان زائف أو غير صحيح أخلاقيا، الثانية والأشد خطورة هى أن الدولة وبعض المواطنين يتجمعون لدفع الناس جميعاً للدخول في «الدين الصحيح». هذه الفكرة تجد رواجاً فى السنوات الأخيرة، حتى فى الديمقراطيات الغربية. قرار فرنسا منع ارتداء الرموز الدينية كالحجاب ومطالبات الهندوكيين المتطرفين بقية الطوائف فى الهند لتصبح جزءاً من الثقافة الهندوكية من الأمثلة الأحدث والأكثر إزعاجاً، ويلفت الانتباه أن إنسان هذا الجيل يلجأ إلى الدين قبل أن يلجأ لأى شىء آخر إذا تأزمت علاقاته العرقية أو الاجتماعية. فالناس يفضلون الدين وينسون ولو للحظات ضعفهم وعجزهم. ويلعب المسئولون دوراً خطيراً فى هذا الاتجاه، لاحظ مثلاً تأثير شخص مثل جون أشكروفت المدعى العام الأمريكى الذى يطلب من معاونيه أن ينشدوا طوال

اليوم أغاني دينية، وهو الذي قال عندما كان عضواً في مجلس الشيوخ، «أمريكا ثقافة بدون ملك متوج ولكن بالمسيح».

وكتبت أليس ريفلين الأستاذة بجامعة چورچ تاون في مؤسسة بروكنجز عن أن بناء سياسة الدولة ذات الاقتصاد المهيمن على أساس رفض القواعد المادية للتعقل والحذر في شئون النقد والعجز المالي فكرة بالغة الخطورة. إن العجز المستدام الهائل في الولايات المتحدة يهدد الرخاء الأمريكي ويهدد أيضاً الاقتصاد العالمي بأسره. إذ يمتص الاقتراض الواسع من جانب حكومة الولايات المتحدة جانباً غير قليل من مدخرات دول أخرى لتمويل أغلى اقتصاد في العالم. وقد تلجأ الولايات المتحدة قريبا إلى ممارسة ضغوط لرفع سعر الفائدة في كل أنحاء العالم لإبطاء النمو الاقتصادي، بل إن الولايات المتحدة قد تدفع العالم متعمدة إلى أزمة ستكون تكلفتها الإنسانية هائلة. المعروف أن الدول الصغرى لا تستطيع أن تتصرف تصرفات غير مسئولة في النواحي المالية، لأنها إن فعلت ذلك، فقدت على الفور قيمة عملتها ولن تستطيع الاقتراض. أمريكا ليست هكذا. فالمستثمرون الأجانب يسمحون لأمريكا بما لايسمحون به للدول الأصغر، ومازال الدين العام الأمريكي (أي سندات الخزانة الأمريكية) المكان الآمن لحفظ المدخرات. والمسئولون الأمريكيون يعرفون ذلك ، ولذلك يهتمون بالقواعد العادية. وحين تقع الواقعة سيكون الوقت متأخراً على أمريكا والعالم كله للإفلات من كارثة محققة. سيأتي يوم يطلب فيه المستثمرون الآسيويون فائدة أعلى كتعويض لهم على إبقاء أرصدتهم بالدولار، وقد تعجز الولايات المتحدة عن الاستجابة. وعندها قد تقع الكارثة. من الضروري أن نتأمل قليلاً في الأبعاد المحتملة لهذه الكارثة لو وقعت وكيف يمكن أن تنهار اقتصادات دول وشركات وتنتشر فوضى بلا حدود.

وكتبت سامانتا باور المحاضرة في جامعة هارفارد تناقش معضلة الأمم المتحدة. خاصة بعد أن أصبحت جدواها مثل عدم جدواها، حتى أن الولايات المتحدة هي عام واحد أهملتها بل واتخذت منها موقف العداء ثم عادت تتوصل إليها للمساعدة في فك أزمتها في العراق . وتقول باور إن الأمم المتحدة لم تتحمل يوماً مسئوليات كتلك التي ألقت بها عليها الدول في السنوات الأخيرة وفي مقدمتها حفظ السلام، في وقت تحاول فيه معظم دول العالم إبقاءها منظمة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، حتى انهارت مصداقيتها. إن كثيراً من أعضاء الأمم المتحدة القادرين على تغيير المنظمة لايريدون إصلاحها. ولا يريد أصحاب الفيتو في مجلس الأمن التخلي عن هذا الحق، والدول الصغيرة سعيدة

بأن صوت كل منها فى الجمعية العامة يتساوى مع صوت أعظم الدول، وفى داخل المنظمة، تقف البيروقراطية حائلاً دون إحداث تغييرات كبيرة.

من ناحية أخرى فإن أوضاعاً فى الأمم المتحدة لايمكن أن تستمر على ماهى عليه. كيف يمكن أن تستمر بريطانيا وفرنسا تحتلان مقعدين دائمين، يمثلان خمسى أعلى سلطة قانونية فى هذا العالم. عند النشأة كانت الدول الخمس دائمة العضوية تمثل ٤٠٪ من سكان العالم. الآن لاتمثل سوى ٢٩٪. الهند، أكبر دولة ديمقراطية، مستبعدة، كذلك قوى إقليمية كبرى كنيجيريا والبرازيل، والعالم الإسلامى. ومن المفارقات أن مجلس الأمن هو الذى يتخذ القرار فى التدخل لأغراض إنسانية، رغم أن اثنين من أعضائه هما من أشد المخالفين لحقوق الإنسان، وهما الصين وروسيا، أما أمريكا، العضو الدائم فى المجلس وأقوى أعضائه، فتعفى نفسها من عضوية الاتفاقيات الدولية حول حقوق الإنسان وترفض أن تنطبق عليها أو على رعاياها.

الأمم المتحدة، بوضعها الراهن، عاجزة عن مواجهة مشكلات القرن الحادى والعشرين، ومازالت عبارة داج همرشولد ترن فى آذان المهتمين بشئون المنظمة الدولية .. كان يقول: «لم تخلق الأمم المتحدة لتأخذ البشرية إلى الجنة وإنما لتنقذها من الجحيم».

إن الساحة الفكرية فى الغرب التى تعج بأطروحات وأفكار لاتقل خطورة لم تحظ منا فى هذه المنطقة بالاهتمام المناسب، فقد ركزنا خلال العامين الأخيرين على فكرة الإصلاح ومبادراته وانشغالنا بالتفكير فى صيغ التنديد به أو التشكيك فى جوانب منه وبالسعى للالتفاف حوله وابتكار أساليب خاصة جداً لتنفيذه، ولم تهتم بما هو أهم لأنه أبعد أثراً، لم نهتم برحلات العبور الأعظم الجارية فعلاً على مستوى العالم بأسره، عبور الأفكار والعلوم، والعبور الأيديولوچى عبر فراغات ساحقة وعبور الولايات المتحدة إلى وضع دولى وداخلى جديد، وعبور دول وثقافات فى العالم من حال إلى حال مختلف كلية، والأمثلة بارزة فى أوروبا والصين والهند، ومحاولة إسرائيل العبور إلى الوضع النهائى، وعبور الأديان جميعاً إلى عالم إنسانى غير مسبوق، وعبور الإنسانية إلى إنسانية أخرى حسب تعبير فوكوياما. انطلقت كافة رحلات العبور بالأفكار أو الممارسات أو بهما معا ومازلنا نتأمل فكرة الإصلاح، أو نحلم، خارج السياق والمضمون وخارج الوقت والإمكانات بمقعد دائم فى مجلس الأمن. ■

في المحيط التعليمي

أولياء الأمور ومستقبل الأبناء

بقلم

د. محمد رجب البيومي

من عادة الجمهور أن يتتبع كل ناعق ، فما يقوم صائح بدعوى براقة حتى يلتف حوله من تنبهر بقوله دون تمحيص وتصبح هذه الدعوى الكاذبة بشيوعها المستفيض كأنها حق لاشك فيه، ولو خلا كل إنسان إلى نفسه ، وفكر تفكيرا سليما فيما شاع واشتهر كأنه أمر مفروغ من صحته ، لبدا له الخطأ الملموس فيما سلم به الجمهور من أراجيف .

وتلك قضية صحيحة أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد» فقد أطلق بعض الحاقدين من أعداء الرسول فى مطلع الدعوة الإسلامية عليه صلى الله عليه وسلم أنه مجنون وما كاد يفوه بهذا اللغو حتى صادف هوى لدى المشركين، فأخذوا يرددون هذا الإفك الكاذب غير مفكرين فى حقيقة هذا الإنسان الذى خبروه أكثر من أربعين عاما فما عرفوا عنه غير العقل الصريح ! وإزاء هذه الشائعة الكاذبة ، وعظهم القرآن بأن يجلسوا إلى أنفسهم يخلو كل فرد إلى شعوره الخاص ، أو يجلس مع زميل واحد فيتدارسان هذه الفرية بعيدا عن تأثير العامة ، ويتساءلان : أيه جنة كما نزعم ، أعرفنا عنه شيئا من الهوس فى عمره المديد ! وإذ ذاك يفيء الواحد أو الاثنان بعيدين عن الجماعة إلى عقلهما فيحكمان بأنه غير مجنون ! وذلك معنى قوله عز وجل (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) وهذا الذى هتف به كتاب الله منذ خمسة عشر قرنا قرره الفيلسوف الفرنسى (جوستاف لوبون) فى كتابه (روح الجماعات) إذ جزم بتأثير الشائعات الكاذبة ، وأثرها فى ذيوع الأباطيل ودعا إلى الاستقلال فى الحكم بعيدا عن هذا التأثير .

من اجل الجامعة

أكتب هذه المقدمة تمهيدا لما أعنيه وألمسه من جنون أولياء الأمور بالتعليم الجامعى وغيره المنقذ الأول والأخير

لمستقبل الأبناء ، إذ هو فى رأيهم الضمان الأكيد لوظيفة ملحوظة ذات كادر جامعى ، وقد كان ذلك معقولا من قبل ، إذ كانت الدولة تقوم بتعيين جميع الخريجين عن طريق القوى العاملة بحيث لايهمل متخرج ، بل يأخذ مكانه دون انتظار ، كان هذا معقولا من قبل ، أما الآن فقد تخلت الدولة عن تعيين الطلاب وأصبحت الطرقات تتقاذفهم فى الرواح والغدو بحثا عن لقمة العيش الضرورية ، فتسد فى وجوههم الأبواب دون راحم ! ومع ذلك كله فأولياء الأمور لايهدأ لهم بال إلا إذا وجدوا أمكنة جامعة لأبنائهم، فإذا تعذر ذلك فى الجامعات المصرية فهم يبيعون العقار والأثاث والحلى ليلتحق الابن المسكين باحدى الكليات الأهلية مع ما تطلبه من أجر باهظ يتجاوز كل تصور ! وستكون النتيجة الأليمة بعد بذل الدم والعرق والأعصاب فى سبيل هذه الشهادة الجامعية أن يكر المتخرج راجعا إلى منزله دون وظيفة ما ، ويصبح عاطلا يأكل مما يأكل أخوته الصغار : فبالله ثم بالله فيم كان هذا الهوس بالتعليم الجامعى الرسمى ، ثم بالتعليم الجامعى الأهلى ، ولماذا أريقت هذه المصروفات فى الأعوام الأربعة والخمسة ، وكأنها تتدفق من معين لاينضب ! وماذا يفعل الأب لإبنه العاطل ، وقد سدت السبل فى وجهه ، بعد أن باع فى سبيل تعليمه الجامعى كل غال وثمين ، ولم يبق لديه شروى نقير !

مدارس الدهماء

وما يقال عن الكليات الجامعية الخاصة يقال عن المدارس الخاصة تماما ، فقد كانت هذه المدارس على تنوع أسمائها بين حضانة وإبتدائية وإعدادية وثانوية ، مثلا للتعليم النموذجى، إذ تختار أكفأ المدرسين ، وتفى بالمواد الدراسية عناية كاملة تظهر فى ارتفاع النتائج ، ونباهة التلاميذ وحسن التربية العامة فى النشاط المدرسى ، وكان التلميذ بها لايأخذ درسا خصوصيا لأن التدريس على أحسن مستوياته ، ورقابة الإدارة المدرسية كفيلة بإتمامه على أكمل وجوهه، لذلك كان العلية من أولياء الأمور يرتاحون إليه ، ويفضلونه على المدارس الحكومية ، ثم انقلب الحال إلى ضده تماما منذ عدة عقود ، فأصبحت المدرسة الخاصة موردا لكسب ذوى الخبرة فى اجتذاب الآباء وتغالت كثيرا فى ارتفاع أجورها لدرجة لاتكاد تحتمل ، ثم تكون النتيجة بعد هذا البلاء ، أن التلميذ بها لايستغنى عن الدرس الخصوصى فى كل ما له ، فهى إذن قد فقدت دورها المأمول فى إراحة أولياء الأمور من

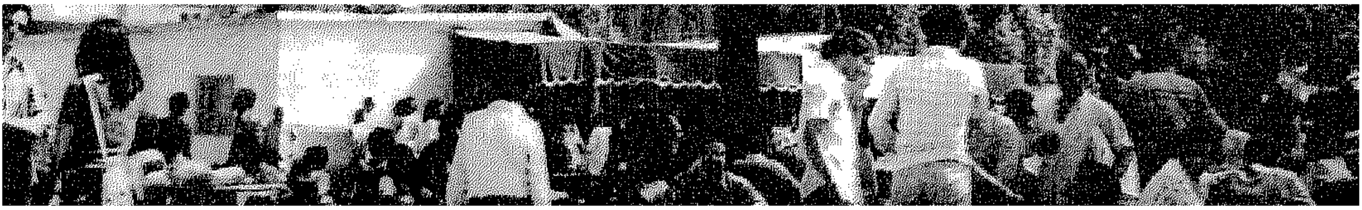

نفقات الدرس الخصوصى إذ بذلوا أضعافه فى الرسوم المقررة عن رضا واستسلام ! وكان فى ذلك الواقع الأليم ما يدعو إلى الانصراف عنها . ولكن الدعاية الكاذبة فى الصحف ، والفخفخة المريضة فى النفوس قد شدتا الكثيرين إليها ، وأصبح الالتحاق بها مصدرا للمباهاة والاستعلاء أقول ذلك عن تجربة قاسية ، كنت أحد شهودها ، ففى عمارة من عمارات القاهرة التى يسكنها الثرى ومتوسط الحال ، أراد موظف متواضع أن يلحق ولده بالمدرسة الحكومية ، وذلك هو الأمر الطبيعى الذى لاشذوذ فيه ولا انحراف ، ولكن جارة عزيزة ولدها من أبناء المدارس الخاصة كانت تزور زوجة هذا الموظف المتواضع ، فعلمت أن ولدها سينسبه إلى المدرسة الحكومية ، فأظهرت الاستياء وقالت لصديقتها إن مدارس الحكومة أصبحت ملجأ لأولاد البوابين والفراشين ، ولذلك فأولادها لايلتحقون إلا بالمدارس الخاصة ، حيث يحضر الأوتوبيس الأنيق لاصطحابهم فى الصباح ثم مجيئهم بعد الظهيرة ، وهذا أول ما ركزت عليه المتحدثة المغرورة ، وهم بعد ذلك لايختلطون بأولاد الشوارع ! وأخذت تشحن الزوجة بهذا الهراء حتى أوغرت صدرها . وما جاء الموظف المسكين حتى سمع ضجة عالية ، ورأى استنكارا واصرارا على أن يذهب إبنه إلى المدرسة الخاصة فليست بأقل من فلانة ، ولا هو بأقل من زوجها ، وأن مركزها سيهبط فى نظر الجيران إذا لم تحمله سيارة المدرسة رائحة غادية فى الصباح والظهيرة ! بهذا المنطق المغرور اقتنع الزوج ، أو أنه تحت الإلحاح وتجنب الصراع أظهر الاقتناع، واستدان لكى يلحق ابنه بالمدرسة المزعومة ! ثم فوجىء بوجوب إعطاء الدرس الخاص فى أكثر المواد ، وجاءت نتيجة امتحان الشهر الأول منذرة بفشل التلميذ إن لم يجتهد !! فبالله كيف يندفع أولياء الأمور إلى مدارس هى والتعليم العام فى مستوى واحد ، ثم يتكبدون ؟؟ أبهظ المصروفات ! أعلم أن بعض هذه المدارس يتباهى بنتائج المتفوقين فى شهادتى الاعدادية والثانوية بالجرائد اليومية ، وتنشر صور المتفوقين دعاية وترويجا ، ولكن هذه النتائج تماما وقع مثلها وأكثر منها فى المدارس الحكومية، وليس للمدارس الخاصة ولا للحكومية فضل ما فى هذا التقدم المظهرى ، إذ الفضل الأول والأخير فى الدرس الخصوصى فى المدرستين وبدونه لايأتى التقدم المنشود ! وقد قلت إنه تقدم مظهرى لاحقيقى ، لأعبر عن واقع مرير، هو أن الذى أخذ ٩٨٪ أو ٩٩٪ لم ينل

هذا المجموع لتفتح ذهنه واتساع أفقه ، وتهيئته للدراسة الجامعية فكل ذلك مفقود تماما ، ولكنه تأكد بالتلقين الموجز فى عدة سطور تحفظ حفظا دون انتباه ، إذا ألف المدرسون أن يصوغوا الحقائق العلمية فى برشام للحفظ الآلي فقط ، وألف المصححون أن يجدوا هذه الاجابة المبتورة ، وأن يعتبروها مجال الصواب، بل مجال التفوق النهائي وكسب الدرجة العالية ، وهكذا يظل التلميذ لدينا مدرسيا كالآلة الصماء إلا من عصم الله!

محو الأمية

وفى ظل هذه المتغيرات التى حاقت بالمدارس والجامعات كان الواجب الألزم على أولياء الأمور أن يغيرون نظراتهم الخاصة بمستقبل أبنائهم ، بحيث لايصبح التعليم الجامعي هو الهدف المرموق مادام المتخرجون لايجدون وسيلة للرزق من ورائه ، وتبدأ هذه النظرة الواقعية من المرحلة الثانية من مراحل التعليم ، لأن المرحلة الابتدائية ضرورة من الضرورات لا مفر منها ، إذ هى التى تمحو الأمية ، وتنير الطريق الصحيح للمواطن ، ولن تخلو هذه المرحلة من مرهقات يتحملها ولى الأمر مضطرا ، لأن الدرس الخصوصى قد انتقل إليها بجبروته ، وأصبح التلميذ لايفيد من المدرسة إذا اقتصر على دروسها . بل هو معرض للرسوب بالفصل إذا تكرر الرسوب ! وأظرف ما شهدناه من مدرسى هذه المرحلة أنهم صاروا مؤلفين كمدرسى المرحلة الاعدادية والثانوية تماما فكل مدرس يعد مذكرة مزركشة جميلة الغلاف تحوى المقرر وهى خلاصة للكتاب المدرسى ، وعلى كل تلميذ أن يشتريها لأنها مجال الشرح فى الفصل وفى الدرس الخارجي! وياالله من يرى الآباء حين يدفعون ثمن الكتاب المدرسى ، ثم يجرون على هذه المذكرات الساذجة التى جعلت للكسب فحسب ! ولابد أن تنتهى المرحلة الأولى بمصاعبها الضرورية ، وهنا يقف ولي الأمر وقفه أمام النتيجة التعليمية التى انتهى إليها ولده ، فإن وجد الدرجات مقنعة ، والاستعداد طيبا، سارع بالتحاقه إلى المدرسة الإعدادية ، وإن وجد الحظ العاثر قد تعقبه في سوء الدرجات ، وانحدار المستوى فلابد أن يقتصر على ما أخذ فى المرحلة الأولى، وأن تبحث له عن عمل حرفي يعينه فى طريق الحياة ! ولست مع الذين يجعلون المرحلة الاعدادية لازمة لا مفر منها ، كما هو المعترف به الآن ! لأن محو الأمية يتم بانتهاء المرحلة الابتدائية فى رأيى ..

معيار الكفاءة

وتمضى المرحلة الاعدادية كما مضت المرحلة الابتدائية ، وقد التحق بها

أصحاب النتائج المبشرة بالنجاح ! على أن يكون المنهج الدراسى بهذه المرحلة مليئا بأوجه النشاط المدرسى فى الجمعيات المختلفة بحيث يتعرف كل تلميذ على هوايته التى يجب مزاولتها ، وسيبتهج أولياء الأمور بمن يسيرون إلى الغاية فى همة ونشاط ، فيأخذون الدرجات المناسبة ، ويتحقق هذا الابتهاج عند تقدير المجموع فى الشهادة الاعدادية ! وهنا يكون هذا المجموع موضع الفصل فى مستقبل الطالب فإذا لم يكن متوسط ، أو فوق المتوسط ، فالاكفأ والأجدر أن يكتفى بهذا الحد من التعليم ، وأن يكون مستقبل التلميذ فى العمل الحر تاجرا أو صانعا أو مزارعا كأبيه ! وسيجد من توفيق الله ما سيضمن له حياة كريمة ، قد يفوق محصولها أجر الشهادة الجامعية المحدود .

وواجب على المجتمع أن يغير نظرته إلى حملة الشهادات المختلفة ، وأن يكون التقدير لا بالدرجة الجامعية بل بالكفاءة الشخصية فى مزاولة الأعمال الرائجة ! إذا كنا وجدنا للأسف من الآباء من يرفضون الزواج من غير الجامعى إذا كانت المخطوبة جامعية ويعتبرون ذلك انخفاضا لمستواها الاجتماعى ! وبهذه النظرة السطحية كثرت العنوسة الأليمة بين المتخرجات ، وفاتهن القطار ، فأخذن يتلهفن بعد الثلاثين أن من يجىء ! ولن يجىء إلا من فاته دور الشباب ، ومن يكون سدا للفراغ ! إن الشاب الناجح - وان لم يحمل غير الابتدائية أو الاعدادية - سيكون مصدرا لسعادة منزلية موفقة، وسيوفق فى الاهتام بتربية أولاده على نحو يكون تعويضا لما فاته من قبل ، وهو خير ألف مرة من موظف جامعى يحاسب زوجته الموظفة فيتعاملان كأنهما شركاء فى متجر ، لا شركاء فى عاطفة حميمة ، ويدور الخلاف لأدنى مناسبة ! وهذا ما نراه رأى العيان ، فلا مبالغة ولا افتعال !

وبعض الذين يخدعون أنفسهم ، يصيحون بك : إن المستوى الثقافى الذى أحرزته الزوجة الجامعية يمنع الانسجام بينها وبين غير الجامعى ممن لم يصل إلى مستواها الفكرى ، وأقول لهؤلاء : إنكم تضعون رءوسكم فى الرمال حين تتحدثون عن المستوى العالى للجامعة الحديثة ، فقد انحدر هذا المستوى منذ أعوام عدة ، وصار المتخرج لايعرف الضرورى البدائى من البدهيات ، وفى اختيارات التعيين لبعض الوظائف انكشف المستور وظهر الجهل الفاضح حين يسأل طالب الوظيفة عن عاصمة إقليم ، أو علم بارز من رجال أمته ، أو مؤلف رائع لبعض الكبار من الكتاب فلا

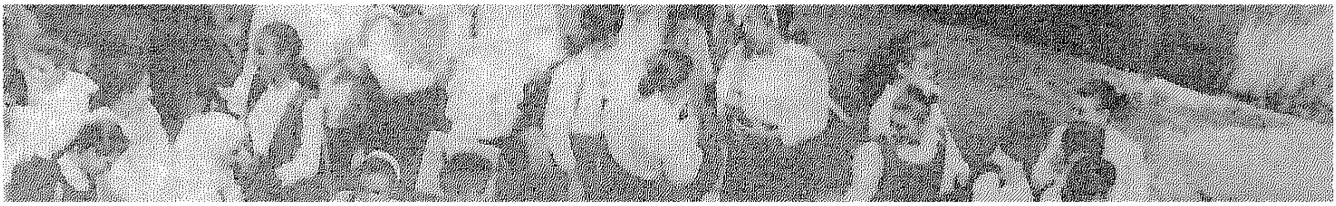

يجيب بشىء ، وإذن فقد أصبحت الثقافة العامة مشتركة بين الجامعى وغير الجامعى لأنها ثقافة التليفزيون والفيديو والمسلسلات الإذاعية وفيها القدر المشترك ليتبادل السمر ومنعطفات الأحاديث !

تعليم علمى وعملى

فإذا جئنا إلى المدرسة الثانوية وهى مربط الفرس فى هذا المجال فإننا ندعو إلى تغيير النظرة إلى رسالتها التوجيهية بحيث لاتكون مقصورة على الإعداد للالتحاق بالجامعة فقط ، وبحيث لايكون كل رجاء أولياء الأمور هو الكلية الجامعة المرموقة ، وعلينا أن ننتفع بخيرات الدولة المتقدمة فى هذا المجال ، فاليابان مثلا تعد المرحلة الثانوية كافية لانتهاء التعليم الضرورى لأن التدريس بها ينقسم إلى ناحيتين متلازمتين ، ناحية علمية ، وناحية عملية ، بحيث يبتغى الطالب دروسه فى الناحيتين على مستوى واحد ، فهو منذ السنة الأولى يلتحق بما يختار من المهن فيدرس التجارة أو الزراعة أو الحدادة أو ملتزمات الصيد والحياكة والنسيج ، وتكون السنوات المتوالية سلما تدريجيا لاتقان الحرفة التى اختارها ، مع ما يدرسها فى الناحية العلمية ، فإذا تخرج من الثانوية توجه تلقائيا إلى مزاولة ما أجاد من هذه الحرف ، وتلقنته المصانع والمعامل والمتاجر ليؤدى دوره بأجر مجزى لايجعله يفكر فى الكلية الجامعية التى لايتهيأ لها غير ذوى المواهب الراقية ، وسيجدون ما يمتعهم من البحث العلمى فى كليات متخصصة ليست متخمة بالأعداد الكثيرة ، ولم تتحول إلى مدرجات يسع الواحد منها عدة مئات ، ليسمع الطالب ولا يناقش ، وليكون الكتاب المفروض هو كل شىء ، وإن لم يفهم على وجهه الصحيح !

أموال التعليم الخاص

وأوجه الكلام هنا إلى أولياء الأمور فأقول إن الواحد منهم يضطر إلى الكليات الخاصة متفقا بالانتساب إلى التعليم الجامعى ، فيدفع فى العام الواحد أكثر من ثلاثين ألفا فى الكليات المتواضعة ، ويدفع لابنه مصروفه الشهرى بما لايقل عن ألف جنيه فى الشهر الواحد . فيزيد المجموع عن أربعين ألفا ، ثم تتوالى السنوات الأربع فيصل ما أنفقه إلى أكثر من مائة وستين ألفا ! والكارثة كل الكارثة بعد ذلك أنه لن يجد مكانا محترما يشغله ! فكيف لايكون هذا المبلغ المرهق حقا ، توضعا للكسب من متجر أو مصنع ، أو مزرعة فيغنى صاحبه ويتيح الفرصة، لعمال متعطلين لايجدون بابا للارتزاق ، وتنهض الحركة المعيشية حين يتيسر العمل الشريف لكل عاطل حزين بانتشار هذه المشروعات !

ولا أجد أقرب إلى الاقتناع ، وأدعى

للتصديق من المثل الواقعى الملموس الذى يؤكد القضية التى أدعو إليها ، وهو مثال كنت أحد شهوده بدءا أو خاتمة فقد كان بكلية اللغة العربية بالمنصورة طالب فى السنة الأولى رسب عامين متوالين فى ست مواد ، وتعين عليه أن يسحب أوراقه ليلتحق بكلية أخرى كما يتيح القانون وحين ذهب بأوراقه إلى الكلية المجاورة وهى كلية أصول الدين ، قابله صديقى الراحل العزيز الدكتور عبدالحميد الطنطاوى رحمه الله : وسأله عن مقصده فعرف ما ينتويه ! ونظر الدكتور إلى الطالب ، وهو يعرف مقدرته الضعيفة التى لاتساعد على انتظامه فى السلك الجامعى ، وإن تبدل الوضع من كلية إلى كلية ، فاصطحبه إلى مكتبه ، وقال له فى رفق الوالد ، وحنان الأستاذ المخلص ، يا فلان :

إن مواد الكلية التى تنوى الالتحاق بها ، لا تقل صعوبة عن مواد كلية اللغة العربية التى لم توفق فى استيعابها ، وليست الكلية هى طوق النجاة الوحيدة ، وأنت شاب قوى البنية ، موفور الصحة ! وأشير عليك أن تذهب للعمل فى الكويت أو العراق وكان ذلك قبل اعتداء صدام بعدة أعوام ، وطوائف الطلاب يرحلون فى المسامحة إلى العراق أو الكويت دون انقطاع ! فارحل سريعا ، ولا تحضر عند الدراسة ، بل استمر حتى توفر لك قدرا من المال ترجع به ليكون نواة لعمل تجارى أو زراعى ! وكان الطالب فى صميم شعوره يكره الدراسة ، ويبحث عن منفذ آخر ، فصادف الاقتراح قبوله ، وعجل بالتنفيذ ، وبعد ستة أعوام رجع ليفتح فى قريته محلا لبيع الدواجن المذبوحة ، وساعده الحظ الذى أخلفه من قبل ، فراجت تجارته ، واشترك فى مزرعة للدواجن مع بعض التجار المدربين فكان من العجب العاجب أن زملاءه الذين أكملوا الدراسة ، ولم يجدوا بابا للرزق أخذوا يسعون إليه كى يكونوا عمالا فى مزرعته ! وكان كريما سمحا فأجزل لهم الأجر ، وهم الآن يعملون لديه شاكرين عطفه وسماحته !! ولولا اقتراح الفقير العزيز ما أشرق نور الحياة فى وجه الطالب المسكين !

أفبعد ذلك ، نحصر آمالنا فى الكلية بالجامعة ، ونبيع العقار والحلى والأثاث لنلتحق بها ، ثم نخرج إلى الحياة عاطلين ، نتلمس الوظيفة الشحيحة كأنها الشىء الوحيد فى الحياة ، متجاهلين قول القائل :

وهم الذى حسب الوظائف راحة

هى راحة الأسرى إلى الأغلال

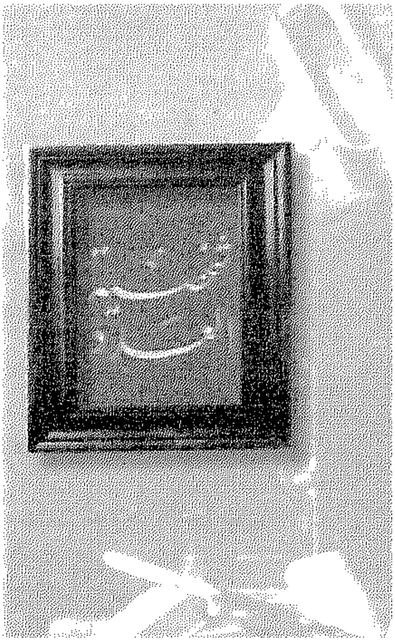

رشدى سعيد

الوطن والخيال

بقلم
مصطفى الحسينى

عندما أجاب الدكتور رشدى سعيد على سؤال كاتب هذا المقال عن سبب اختياره الجيولوجيا موضوعا لدراسته الجامعية ، كانت مفاجأة الجواب أنه قال «فى العام ١٩٣٧ ، عندما قبلت للدراسة فى كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) ، لم أكن أعرف شيئا عن الجيولوجيا ، حيث لم تكن ضمن برامج التعليم الثانوى فى مصر آنذاك، لكنه توجه إليها أخذا بنصيحة المفكر المصرى سلامة موسى، المعروف برؤيته الثاقبة لإحتياجات المجتمع المصرى ومقتضيات تقدمه .

«لكن ما أن دخلت إلى حقلها ، حتى وجدت فى التجربة متعة كبيرة . فتحت أمامى أفاقا واسعة لكل من الزمان والمكان.

وجدت كوكب الأرض بأكمله (إن لم يكن الكون كله) مفتوحا للدراسة والتأمل ، إضافة إلى الزمن السرمدى الذى عاشه الكوكب والكون .

أدى بى استغراقى فى دراسة أرض مصر إلى الوقوع فى غرامها، ما زاد وثوق أرتباطى بها وجعلتى أشعر بالأسى وأنا أرى أرضها لا تستخدم استخداما سليما لفائدة سكانها .

يمكن القول أن تلك الأرض أصبحت جزءاً من روحى .

فالجيولوجيا تشحنك بطاقات من الخيال تعينك على بناء صورة لما كانت عليه بقعة من الأرض قبل ملايين السنين ».

بعد ٦٧ سنة من ذلك «الكشف» يبدو أن «أسى العاشقين» ذاك هو أهم وأقوى ما شكل حياة رشدى سعيد .

وأن آفاق الخيال التى تفتحها صلابة ما تتعامل معه الجيولوجيا ، كانت هى المحفز

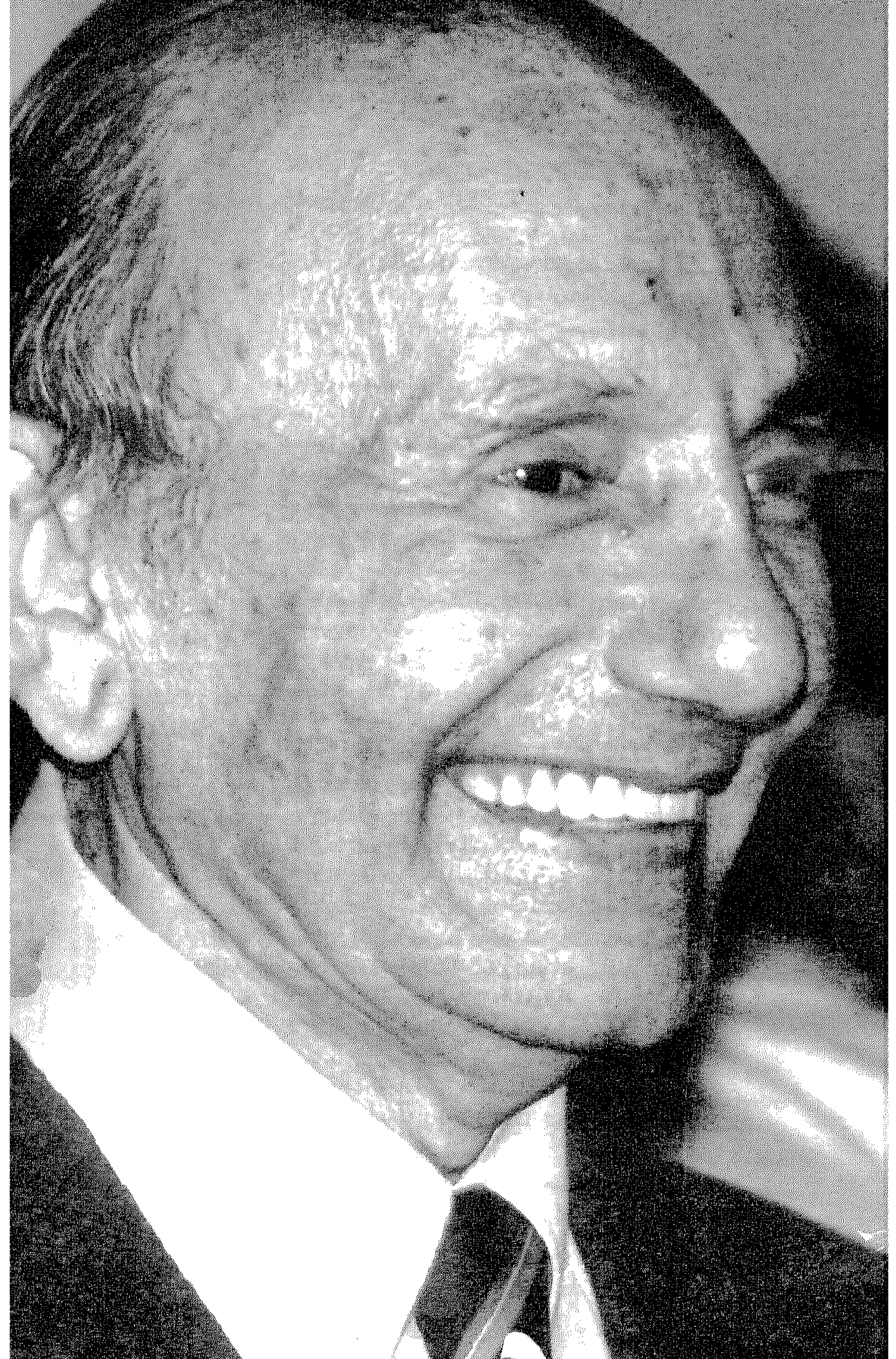

الأكبر لما حققه من تقدم في العلوم ، حيث لم يقتصر جهده على مادة تخصصه ، إنما تجاوزتها إلى الجغرافيا وإضافات مهمة في فهم التاريخ ، حيث لايخفى في مجمل عمله - العلمي والعام - أنه أدرك التاريخ ماضيا وحاضرا وتوجها إلى المستقبل .

** ** **

أمضى رشدى سعيد قسما كبيرا من شتاء هذا العام وربيعه (٢٠٠٤) في مصر ، تجاوز زمن عادته السنوية التى التزمها منذ أن ألغى فى ١٩٨٢ أمر باعتقاله ضمن مايزيد على ١٥٠٠ من الشخصيات العامة فى البلاد يمثلون ألوان الطيف السياسى والفكرى جميعا ، كان الرئيس المصرى آنذاك أنور السادات قد أصدر ذلك الأمر قبل حوالى شهر من مصرعه في أكتوبر ١٩٨١ .

نجا من الاعتقال بمصادفة وجوده عندئذ فى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث استقر به المقام ، «إذ أمطرنى أصدقائى وزملائى الأمريكيين بعروض الأعمال والوظائف الأستشارية» .

يمكنك أن تقول أننى «أختطفت وأغريت لأصبح مواطنا أمريكيا».

عندما سأل كاتب هذا المقال العالم الكبير عن مايظن كان السبب في إدخال اسمه إلى قائمة تلك الإعتقالات كان جوابه أنه لايستطيع جوابا وأن - فى حدود علمه - لا أحد عنده جواب .

لكنه يعتقد أنه كان يشغل تفكير السادات ، حتى بعد أن أعتزل السياسة فى ١٩٧٦ وقرر أن لاينغمس فيها مرة أخرى .

«كانت زوجتى تقول لى أننى أتوهم أشياء» .

كانت واثقة من أن رئيسا له سلطات مطلقة ، لايمكن أن يشغل تفكيره بشخص متواضع مثلى .

لكننى استعيد أنه بعد أن اعتزلت السياسة أرسل لى السادات من يدعونى إلى الانضمام إلى حزبه .

فلما رفضت ، أرسل لى رسولا آخر يدعونى إلى الانضمام إلى حزب المعارضة الذى كان السادات نفسه يخطط لإنشائه .

وعندما آشار إلى عدم رضاه عنى أثناء أحد اجتماعات حزبه ، أعتبر كثير من الموظفين ذلك أنه رسالة تعنى أننى «صيد مباح» .

أغلق الطريق إلى بيتي في «الخارجة».

وضع هاتفى تحت المراقبة . وأصبحت تحت رقابة محكمة»

** ** **

ربما طالت الإقامة فى مصر هذا العام بسبب من عارض صحى فاجأه فور وصوله ، مع ذلك فقد تحولت زيارته هذه السنة إلى مايمكن تسميته «موسم رشدى سعيد» ، كأنما أستفاقت عليه الخلايا الحية في البلاد فتزاحمت عليه ' أحاديث تجريها معه صحف المعارضة ، ندوات وجلسات استطلاع واسترشاد ومناقشات ترتبها

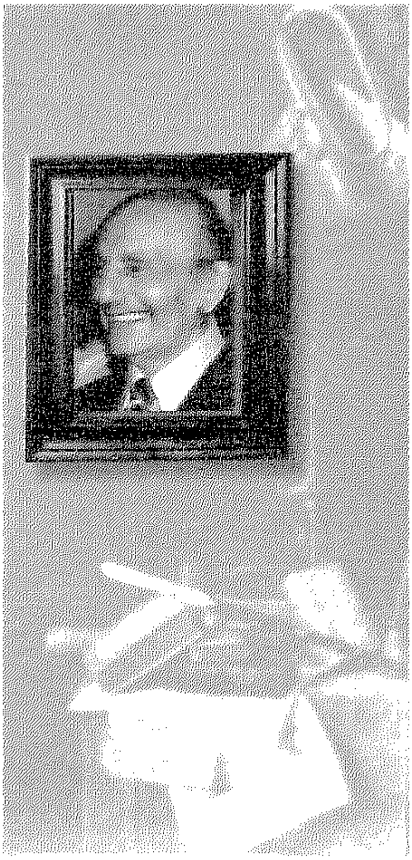

ما أن دخلت إلى حقل الجيولوجيا ، حتى وجدت فى التجربة متعة كبيرة . فتحت أمامى آفاقا واسعة لكل من الزمان والمكان.

هيئات منظمة وتبادر إليها مجموعات من الأفراد ، من اتجاهات متباينة ومن أجيال متفاوتة ، وأيما كان تنوع مايوجه إليه من أسئلة وبأى اتجاهات كان تشعبها ؛ بقى المدار واحدا : مستقبل مصر .

فى ندوة نظمها المجلس الأعلى للثقافة اقتصر برنامجها - تقريبا - على أن يجيب رشدى سعيد على أسئلة الحضور .

وكان «الحضور» ملفتا للانتباه - معظمه شيوخ يبدو أكثرهم طاعنين فى السن ، حتى أن المتحدث الذى كان يدرج فى عامه الرابع والثمانين ، بدا أكثرهم شبابا ، وكان - بالتاكيد - أكثرهم تدفقا بالحيوية .

كان هؤلاء الشيوخ ينهضون واحدا بعد الآخر ، يبدأ حديثه بتذكير المتحدث أنه كان من بين تلاميذه فى زمن مضى ، قبل أن ينتقل إلى طرح مايشغل باله من هموم حاضر البلاد ومستقبلها .

ولم يكد أى من الأسئلة يخلو من القلق حيال «مشروع توشكى» .

«توشكى» مشروع أعلنت عنه الحكومة المصرية منذ ثمانى سنوات ، لتحويل مساحات واسعة من الأراضى الصحراوية فى جنوب غرب البلاد إلى أراض للزراعة المروية ، بفتح قناة ضخمة تبدأ من «بحيرة ناصر» التى أثمرها بناء «السد العالى» فى ستينات القرن الماضى ، لتكون مستودع «التخزين القرنى» لمياه النيل ، لتصب فى «مفيض توشكى» ، الذى أعتبر منصرفا احتياطيا فى حال تعاقب فيضانات عالية للنهر ، تفوق قدرة البحيرة على التخزين .

قدمت الحكومة المشروع كأنه معقد أكبر أمالها فى تنمية الاقتصاد المصرى والخروج بقسم كبير من السكان من خانق وادى النيل المكتظ بهم إكتظاظا يدمر البيئة ويحبط الآمال .

تلميذا شيخا بعد تلميذ شيخ وسؤالا عن تشوكى بعد سؤال ، بدا أن المتحدث يتجنب الخوض فى الموضوع ، ولم يلبث أن تبين أن مرد ذلك قد يكون نوعا من السأم من الخوض فى مانفض يديه منه ، خصوصا ، أن تاريخ المشروع قد حسم الجدل حوله ؛ «بعد ثمانى سنوات وستة بلايين من الجنيهات من الإعلان عن المشروع ، لا نتائج» - كما يقول رشدى سعيد ، بعد أن يروى تاريخ مواجهته مع ذلك المشروع الذى أنبنى على أوهام ويبدد كثيرا من الطاقات والأموال .

«بدأت معرفتى عن (المشروع) عندما أعلن عنه رئيس الجمهورية أثناء زيارته لمفيض توشكى عندما فتح للاستخدام للمرة الأولى ليستقبل الفيضان المرتفع فى ١٩٩٦ .

فى حضور وزير الرى آنذاك ، إذ كان الوزير الأسبق أن أعلن فى خطاب له قرىء أمام مؤتمر نظمته محافظة أسوان للنظر فى التنمية الزراعية للأراضى المحيطة ببحيره ناصر ، أن مصر لا تملك نقطة ماء تفدمها لأى مشروع لاستصلاح الأراضى جنوب أسوان .

«فور سماعى إعلان الرئيس ، رجعت إلى سجلات مايدخل إلى خزان بحيرة ناصر من المياه على تعاقب السنين وكمية المياه التى استخدمتها مصر على مدى السنوات نفسها ، وجدت أن ما استقبلته من مياه يتساوى مع ما استخدمته .

فمن أين ستوفر مصر الخمسة بلايين متر مكعب من المياه التى سيحتاجها المشروع

سنويا ؟ كتبت مذكرة بما توصلت إليه وسلمتها إلى السفير المصرى بواشنطن لتوصيلها إلى السلطات المعنية . لم أتلقى أى جواب» .

** ** **

«مصر المستقبل : المياه • الطاقة • الصحراء» .

هو عنوان آخر كتاب نشر له باللغة العربية (كتاب الهلال - القاهرة - مارس ٢٠٠٤) .

عنوان أحد فصول الكتاب :

«نحو إعلان الدلتا ووادى النيل محمية طبيعية» .

مضمون الفصل أوسع وأشمل وأعمق مما قد يوحى به العنوان .

فما يعرضه لايقل عن رؤية لمستقبل مصر ، يؤدى تحقيقها إلى استخدام سليم وفعال لموارد البلد ، يطلق طاقاتها للتأسيس للرخاء وتوطيده .

ويقول رشدى سعيد :

«لا أستطيع أن أتصور لمصر مستقبلا على قدر معقول من الرخاء دون الأخذ ببرنامج للتصنيع الكثيف وتنفيذ خطة لإعادة توزيع تجمعات السكان بهدف تخفيض كثافتهم فى وادى النيل الضيق .

الفكرة وراء تلك الخطة هى أن تستفيد مصر من مجالها فى الصحراء ، لنقل قسم كبير من سكانها بعيدا عن وادى النيل .

هذا العنصر فى الخطة أساسى ومفتاح إلى مستقبل أفضل .

المراكز السكانية الجديدة يجب أن تبنى حول قاعدة صناعية تكون عمادا لاقتصادها .

تعتمد تلك الصناعات على مصادر الطاقة التى اكتشفت مؤخرا .

لايجوز ، تحت أى ظرف ، تصدير مصادر الطاقة تلك كما هو مخطط .

وبالطبع ، يتطلب تنفيذ مثل هذا البرنامج تغييرا كاملا للطريقة التى تحكم بها مصر .

يتطلب حكما يقوم على المشاركة ويخضع للمحاسبة ويخلو من الفساد ويقوده أناس أمناء وذوو رؤية .

** ** **

هل أن «أسى العاشقين» ذاك هو الذى دفع رشدى سعيد لأن يبنى لنفسه عددا من البيوت فى بقع متعددة من البلاد ؟

يروى رشدى سعيد أن أولها كان فى ١٩٥٥ فى «رأس البر» (عند مصب الفرع الشرقى لدلتا النيل) .

أحب المنطقة عندما ذهب إليها لزيارة والدته التى كانت تقضى الصيف هناك بعد أن نقلت العائلة مصيفها من الإسكندرية إليها لأنها كانت البلدة الوحيدة التى تمنع استخدام السيارات وما إليها .

«ذهبت إليها مباشرة من بلدة «وودز هول» الساحرة فى منطقة

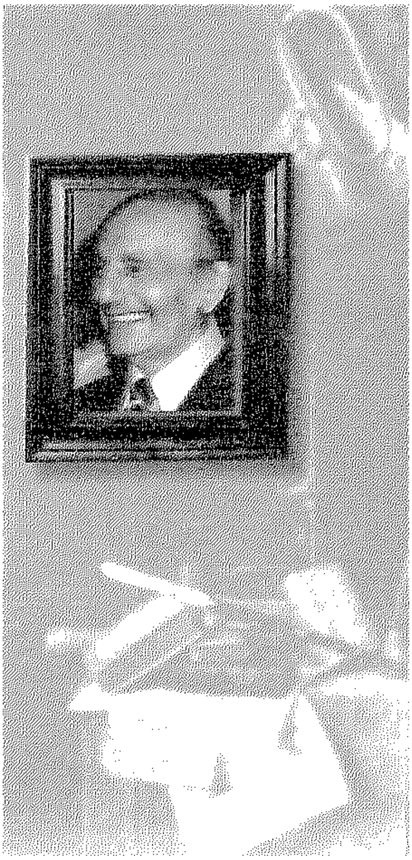

○ لا أتصور لمصر مستقبلا دون الأخذ ببرنامج للتصنيع الكثيف وتوزيع تجمعات السكان بهدف تخفيض كثافتهم فى وادى النيل الضيق.

«.كيب كود» بأقصى الشمال الشرقى للولايات المتحدة حيث قضيت الصيف كزميل باحث فى معهد جغرافيا المحيطات هناك .

وجدت عديداً من أوجه الشبه بين «وودز هول» و«رأس البر» ، فحلمت أن يكون لى بيتا فيها .

تحقق حلمى عندما عرضت للبيع قطع من أراضى البناء فى ١٩٥٤ .

أشتريت قطعة على شاطىء البحر وبنيت عليها ذلك البيت .

«كان بيتى الثانى فى (ضاحية) المعادى (جنوب القاهرة) .

وضع المعمارى الشهير حسن فتحى تصميما كان تنفيذه يفوق قدرتى المالية ، فكان علىَّ أن أبنى بطريقة أكثر تقليدية - أبقيت فقط على تصميم الأبواب والنوافذ على نسق النجارة العربية - المشربية ، كما زخرفت الجدران بقطع من الأحجار جمعتها من أماكن متعددة فى الصحارى المصرية .

كما زرعت فى الحديقة نباتات وأزهارا جمعتها أثناء أسفارى .

«بيتى الثالث الكبير كان فى الواحات الخارجة (وسط جنوب غرب صحراء مصر الغربية) .

وقعت فى غرام تلك الواحات أثناء زيارتى المتكررة للإشراف على مشروع فوسفات «أبو طرطور» .

أثناء تلك الزيارات تابعت أيضا نشاط «هيئة تعمير الصحارى» وكنت بالغ الإعجاب بإخلاص الفريق المسئول عن استصلاح أراضى الواحات وحماسهم .

أغرانى جو المكان وهدوءه ، فقررت أن أجعله مكان تقاعدى .

دخلت أول مزاد لبيع الأراضى هناك واشتريت مزرعة للنخيل مساحتها ٣٠ فدانا وبنيت بيتا على حافة الصحراء ، على النسق المعمارى لحسن فتحى .

«بعد ذلك تخلى السادات عن مشروع استصلاح أراضى الواحات وحل الهيئة المسئولة عنه وطارد روادها .

ثم أتخذ المتطرفون الإسلاميون الواحة ملجأ لهم بعد أن توقف العمل فى تعميرها ، وخصوصا بعد مصرع السادات .

أمتلأت المنطقة برجال أجهزة الأمن السياسى .

فقدت الواحات سحرها وهدوءها . قررت الرحيل» ..

«بنيت أيضا ثلاثة بيوت صغيرة للأستجمام ؛ أحدها على كورنيش النيل مقابل ضاحية المعادى .

والثانى على شاطىء البحر المتوسط على بعد ٦٧ كيلومتر غرب الإسكندرية .

أما الثالث فعلى بعد ٥٠ كيلومترا جنوب مرسى علم على شاطىء البحر الأحمر .

كان البيتان الصغيران الأخيران فى برية نائية عن أى عمران .

كان علىَّ - فى كل زيارة - أن أحمل حاجتى من الماء والطعام» .

* * *

هل قصد بأختيار مواقع بيوته أن يلم ما أستطاع من أطراف خريطة البلد ؟ الدلتا والوادى والبحرين - الأبيض المتوسط والأحمر - والصحراء ؟

حالة نهر النيل

ونهر النيل - مصدر الحياة - ملوث يدخله كل سنة مايزيد على ٥٠٠ مليون متر

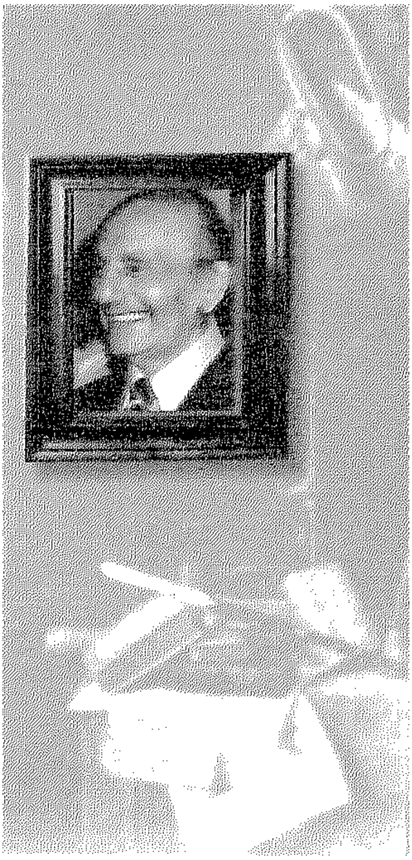

● وقعت فى غرام الواحات الخارجة أثناء زياراتى المتكررة للإشراف على مشروع فوسفات «أبوطرطور».

مكعب من عوادم المصانع الحاملة للسموم .

وعدة بلايين أخرى من الأمطار المكعبة من صرف الزراعة الحامل لبقايا المخصبات والمبيدات .

وملايين أخرى من الأمتار المكعبة من الصرف الصحى غير المعالج والكبير من المعادن الثقيلة التى تأتى مع هذه النفايات والتى تترسب فى الأرض التى نأكل مما ينبت عليها ، أو تصل هذه النفايات إلى البحيرات والبرك التى نصيد منها أسماكنا .

ولهذا أثره فى إفساد حياتنا وزيادة تعرضنا للأمراض الخبيثة والمزمنة التى تزايدت نسبتها فى السنوات الأخيرة .

وكمثال واحد لقدر التلوث الذى يحيط ببحيرات الشمال ، فإننى أذكر ما حدث لبحيرة المنزلة التى يصب فيها مصرف بحر البقر ، الذى يمتد لمسافة مائتى كيلومتر من جنوب القاهرة إليها ، مارا بمحافظات القليوبية والشرقية والدقهلية والإسماعيلية ، حاملا معه أكثر من ٨٤٥ مليون متر مكعب من مياه الصرف الصحى غير المعالج والمختلط بمخلفات وعوادم حوالى ٨٠ مصنعا فى منطقة القاهرة الكبرى .

وهذا التلوث يؤثر فى أسماك البحيرة التى إنخفض إنتاجها من ١٠٠ ألف طن عام ١٩٨٢ إلى أقل من ٤٠٠٠ طن عام ١٩٩٢ .

والتى تلوثت حتى وصلت نسة تركيز الزئبق فيها إلى ٢٨٠ جزءًا فى المليون ، فى الوقت الذى أوصت فيه منظمة الصحة العالمية بألا تزيد هذه النسبة على الجزء الواحد فى المليون .

كما وصلت نسبة تركيزات الرصاص فيها إلى ٧٣ جزءً فى المليون وهى نسبة عالية جدا .

وقد بلغ التلوث فى البحيرة درجة أن الكثير من الطيور التى كانت تصلها قد هجرتها .

وانخفض عدد طيور الغر من ٥١ ألف طائر فى سنة ١٩٨٠ إلى حوالى ٤٠٠ فقط فى سنة ١٩٩٠ .

د. رشدى سعيد
مصر المستقبل . المياه * الطاقة * الصحارى
«كتاب الهلال» - مارس / آذار ٢٠٠٤

رشدى سعيد ١٩٢٠

تلقى تعليمه فى جامعات القاهرة وزيوريخ وهارفارد .

● شغل مراكز :

باحث مشارك فى معهد جغرافيا المحيطات فى «وودز هول» بالولايات المتحدة (١٩٤٩ - ١٩٥٢) .

أستاذ مساعد للجيولوجيا بجامعة هارفارد (١٩٥٠ - ١٩٥١) .

محاضر ، أستاذ مساعد ، ثم أستاذ الجيولوجيا بجامعة القاهرة

(١٩٥١ - ١٩٦٨) .
رئيس مجلس إدارة هيئة المساحة الجيولوجية والتعدين بمصر (١٩٦٨ - ١٩٧٨) .
خبير استشارى دولى وأستاذ زائر بجامعة تكساس بالولايات المتحدة وجامعة برلين التكنولوجية (١٩٧٨ - ١٩٩٥) .

- أنتج حوالى ١٥٠ بحثا علميا نشرت فى أهم الدوريات العلمية .
- من بين أهم مؤلفاته وأشهرها الأوساط العلمية كتاب «جيولوجيا مصر» الذى نشرته فى ١٩٦٢ واحدة من أهم دور النشر العلمى فى أوروبا وأمريكا وأعتبر المرجع الحصرى فى موضوعه .

ترجم الكتاب إلى الروسية فى ١٩٦٥.
وأعاد المؤلف كتابته فى ١٩٩٠ .

- من مؤلفاته المهمة عملان شهيران عن نهر النيل ؛ أولهما عن تطور النهر وتاريخه الجيولوجى (١٩٨٢) ويتناول الثانى هيدروليكية النهر واستخدام مياهه فى الحاضر والمستقبل وقد نشرت الكتابين دور نشر مرموقة ، وترجم ثانيهما إلى العربية .
- إضافة إلى مؤلفاته العلمية ، كتب رشدى سعيد أكثر من ١٣٠ مقالا باللغة العربية نشرتها دوريات مصرية وعربية ، تناول فيها الشئون المصرية الجارية عارضا أفكارها ووجهات نظره حول الاستخدام السليم لموارد مصر .
- حصل كل من كتابيه «نهر النيل» و«الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى» على جائزة معرض القاهرة للكتاب ، فى موضوعيهما ، فى عامى ١٩٩٣ و١٩٩٥ على التوالى .

نشر سيرته الذاتية بمناسبة بلوغه الثمانين (٢٠٠٠) واستقبلت استقبالا جيدا من الصحافة ، كما كانت موضوع برنامجين تليفزيونين طويلين تكرر بثهما .
وستظهر السيرة باللغة الانكليزية فى نوفمبر / تشرين الثانى ٢٠٠٤ ، عن دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

- استحق رشدى سعيد الأوسمة والجوائز والميداليات العلمية التالية :
- انتخب عضوا بالمعهد العلمى الفرنسى فى مصر (١٩٦٧) * والأكاديمية المصرية للعلوم منذ ١٩٦٨ * ومنح ميدالية العلوم والآداب فى مصر (من الطبقة الأولى) فى ١٩٦٢ * انتخب عضوا شرفيا فى الجامعة الجيولوجية الأفريقية فى ١٩٨٢ . * وزميلا فخريا فى الجمعية الجيولوجية الأمريكية فى ١٩٨٩ . * وعضو شرف متقاعد فى الجمعية الأمريكية لجيولوجى النفط فى ١٩٩١ . * كما منحته الجمعية جائزة الرواد فى ٢٠٠٣ . * فى ١٩٩٤ انتخب زميلا فى أكاديمية العالم الثالث للعلوم . * ومنحته الجمعية الجغرافية الألمانية ميداليتها للعام ١٩٨٦ .

* منحته كل من جامعة تكساس بالولايات المتحدة وجامعة برلين التكنولوجية درجة الدكتوراه الفخرية فى عامى ١٩٨٢ و١٩٨٦ على التوالى .

* إلى ذلك انشغل رشدى سعيد بشئون بلده وحياتها العامة ، وانغمس - حينا فى معتركها السياسى ، فتولى مسئولية التعليم العالى فى «الاتحاد الاشتراكى العربى» - الحزب الحاكم ، فى أواسط ستينات القرن الماضى ، كما كان عضوا فى البرلمان (١٩٦٤ - ١٩٦٧) ، كما كان عضوا فى هيئة رئاسة الاتحاد البرلمانى الدولى . ■

أوراق مصرية
إبراهيم باشا

كيف استقبل إبراهيم باشا فى قصر باكينجهام؟

بقلم
محمد عودة

كانت الصناعة والتصنيع وإقامة الدولة الصناعية المصرية العصرية ، وأن تلحق بالحضارة الحديثة لتكون قاعدة لتصنيع الوطن العربى ، وحتى يصمد لتحديات العصر غير المتكافئة حوله. كان ذلك حلما تاريخيا ولد ببداية نهضة مصر منذ أكثر من مائتى عام.. وبدأ حين رفع إبراهيم باشا شعار «التعليم والتصنيع والتسليح» وأن تكون الأعمدة الثلاثة التي يقوم عليها البناء والبعث ، فهناك أمة عربية عريقة تمتد من جبال طوروس حتي منابع النيل وتنتظر من يخلصها ويعيد لها مكانتها، ونذر إبراهيم باشا حياته لتحقيق الرسالتين.

وحينما بدأ الزحف الطويل من القاهرة سئل إبراهيم عن مدى الزحف فقال .. حتى آخر بلد يتكلم العربية . وكان يوقع أوامره «سارى عسكر عربستان » أى قائد الجيوش العربية . وتدفقت جحافل الوفود والمتطوعين من المسلمين والنصارى والدروز ودخل عكا فاتحا ومحررا و هى المدينة التى ارتد نابليون مهزوما على أسوارها، وبددت حلمه العريض فى تحقيق القرن الفرنسى.

وكان الجيش أول جيش مصرى منذ قرون وكان جيش الفلاحين أساسا ، وقام بعد جدل شديد بينه وبين الاتراك والشراكسة فى حاشيته ، وقد أنذروه وحذروه ان تجنيد الفلاحين لابد وأن ينتهى ذات يوم قريب أو بعيد باستيلائهم على السلطة ، ورد محمد على «من حقهم !» وكانوا فلاحين مختلفين عن آبائهم

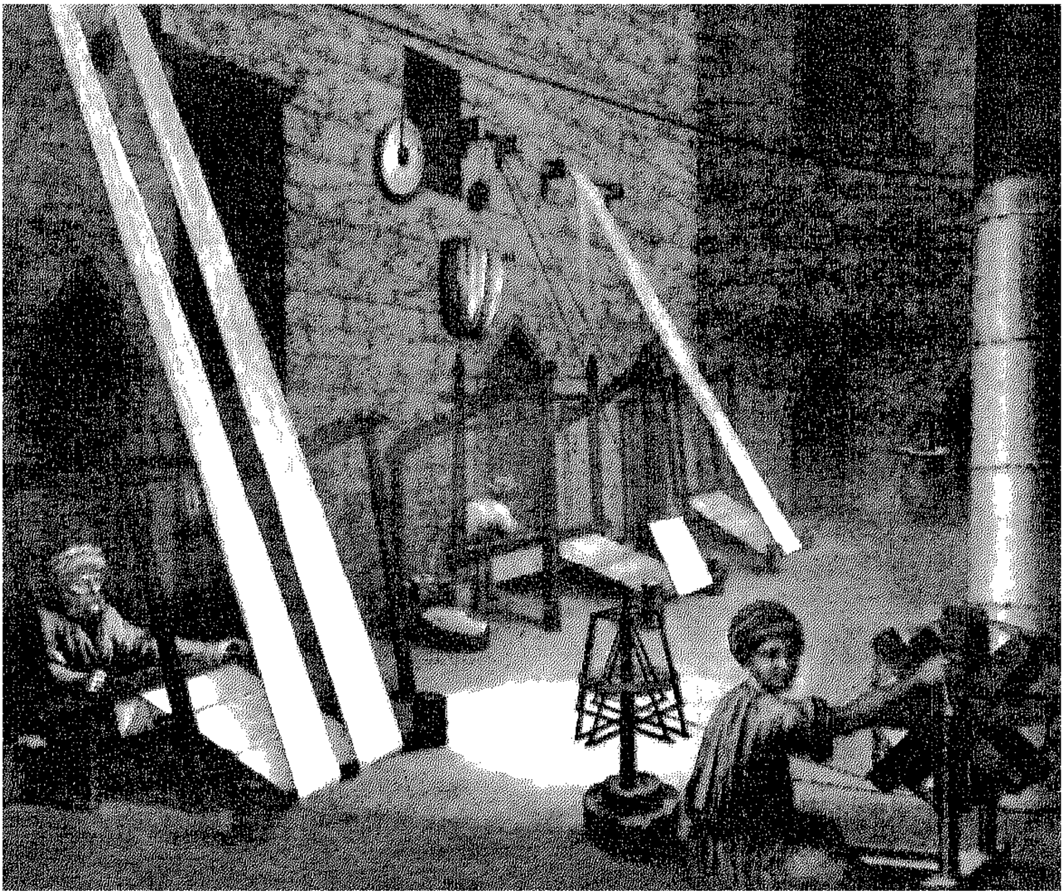

كان للصناعة حيز كبير من طموح إبراهيم باشا .فشجع صناعة النسيج الذى تهافتت السوق الأوروبية على استيراده

وأجدادهم. فد ألغى محمد على الإقطاع المملوكي ، الذى استغل واستبد قرونا طويلة وأقام رأسمالية دولة عصرية بأساليب انتاج حديثة ووزعت الأرض من جديد على القوى والفئات الجديدة المنتمية، وعلى الأعيان ومشايخ البلاد واحتفظت الدولة «الجديدة» بالقدر الكافى لتحقيق الأهداف . وتجددت المحاصيل التى استوردت وجربت من كل أرجاء العالم وابعدها. وأثبت القطن المصرى أنه أجود أقطان العالم ، وانتجت المصانع المصرية ارفع انواع النسيج وتهافتت المصانع الأوروبية على استيراده.. وأنتجت الأرض المصرية والزراعة الحديثة أجود أنواع الحبوب والفواكه والخضر للاستهلاك والتصدير.

جدل في الغرب

وانقسم الغرب إزاء النهضة المصرية انقساما حادا، انعكس فى البرلمان البريطانى ، فقد أيد الأحرار والإصلاحيون ما يحدث فى مصر، واعتبروه بداية لنهضة فى كل الشرق ولتبادل وتفاعل الحضارات وتعارف وتعايش الشعوب ، خاصة ذوى الحضارات العريقة وبذلك يعم السلام والرخاء.

ورفض الآخرون هذه الأوهام وأنذروا بأن استيعاب الشرق لأسباب القوة والتقدم الأوروبية هو اكبر خطر يهدد الأوروبيين عامة ، وأن قيام دولة عربية عصرية قوية سوف يهدد الطريق الحيوى إلى الهند

والطريق الآخر إلى جنوب أفريقيا، ولكن الخطر الأشد، هو تصنيع مصر وامتداده حولها وذلك سوف يغلق أسواق الشرق أمام تجارتنا وبضائعنا.

توحد أوروبا ضد مصر

واستطاعت بريطانيا العظمى ان تجمع اوروبا معها حول سياستها ، ولأول مرة وآخر مرة فى التاريخ الحديث توحدت كل دول أوروبا الكبرى حول هدف واحد هو إجهاض الخطر، الذى تمثله مصر ويهددها جميعا ، وضاعف المرارة أن انضمت فرنسا صديقة مصر وحليفها الى «أوروبا».

وكان رأى إبراهيم أن يرفض الانذار وأن يزحف العاصمة العثمانية ، وكانت تحت مرمى مدافعه وانحاز له الاصلاحيون العثمانيون ، ورحبوا بإعلان الدولة العربية التركية الجديدة. ولكن خانت محمد على فى القاهرة اعصابه ووطأة الإنذارات التى انهالت عليه وغدر فرنسا به و أصدر أمره إلى إبراهيم الذى كان يقدس أباه ولا يجرؤ على مخالفته وانسحب وهو يفيض مرارة وأسى عبر عنهما فى خطاب تاريخى ردا على أوامر أبيه!!

وقرر الحلف الأوروبى، بزعامة بالمرستون أن لابد من إبادة الجيش المصرى خلال انسحابه و، جندت كل القوى المرتزقة والعميلة لهذا الهدف ولأسر إبراهيم ليلقى مصير بطله نابليون.

وانسحبت القوات المصرية من أبواب اسطنبول حتى القاهرة ، بعد سلسلة من المعارك والبطولات والتضحيات الباسلة المريرة، وصنعت عبقرية إبراهيم ورئيس أركان الحرب سليمان باشا الفرنساوى ملحمة من ملاحم التاريخ.. كما وصفت يومئذ.

ولم ينل فشل المشروع العربى من إرادة الأب والإبن، وعكفا على الاصلاح الداخلى.. واختارا مشروعا يكفل أهم ما تحتاجه مصر من المياه والطاقة وهو مشروع القناطر الخيرية. وكان مشروعا أعده «السان سيمونيين» وهم فريق من الاشتراكيين الفرنسيين أتباع الفيلسوف الاشتراكى «الكونت هنرى دى سان سيمون» والذين قرروا الهجرة الى الشرق، حيث يستطيعون تحقيق مشاريعهم ومبادئهم التى لا فرصة لها فى أوروبا التى استولى عليها الرأسماليون والاستعماريون.

وتحقق المشروع وكان حدثا فى حياة القرن يومئذ ، وتجاوب صداه العالم كله ، وكان إضافة كبيرة لسجل انجازات الأب والابن.. واستلهمه المهندسون المصريون العظام فى عصر إسماعيل ثم المهندس اليونانى دانبتوس فى مشروع السد العالى فى القرن العشرين.

واشتد المرض على الاب وكان قرار الانسحاب ، وانهمك ابراهيم فى ممارسة الحكم والإصلاح وبنجاح أدهش القناصل ولكن اقلق «بالمرستون» الذى أرسل الى قنصله فى مصر يستفسر اذا ما كان ابراهيم ينوى القيام بمغامرة ثانية ويثأر لهزيمته ، وبالطبع لم يكن يعرف ان القنصل كان من أشد المعجبين بالوالى الجديد.

واشتدت وطأة الدوسنتاريا فجأة على إبراهيم ونصحه الأطباء بضرورة السفر الى أوروبا للعلاج. واختار ايطاليا وذهب متخفيا كأحد المرضى الشرقيين ولكن ما ان اكتشفت شخصيته حتى انتفضت ايطاليا شعبا وحكومة للحفاوة بنابليون الشرق حفاوة لم تسبق لزائر من الشرق والغرب وتعددت حفلات التكريم والاستقبال الرسمية والشعبية وتبارى المهندسون والفنيون والعمال الذين شاركوا فى النهضة المصرية فى الحفاوة

البالغة بالضيف العظيم وتحولت زيارة العلاج إلى مهرجان حفاوة وتقدير .

وفوجيء ابراهيم بدعوة من جلالة الملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا لزيارتها زيارة رسمية مع رئيس أركان حربه سليمان باشا الفرنساوى «الكولونيل سيف».

وخرجت باريس كلها للاحتفال بالبطل المصرى. وكما لم تعرف باريس منذ عصر نابليون وتبارت الصحف الكبرى فى التمجيد وقارنته بالاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر ونابليون وتسابق العسكريون والمهندسون والعمال المهرة ممن شاركوا بأعداد غير قليلة فى المشاريع الكبرى بالحفاوة الحارة ببطل الشرق.

وأبدى إبراهيم اهتماما استرعى مضيفه بزيارة المدن الصناعية والمنشآت الصناعية المدنية وأحواض بناء السفن وكتبت الفيجارو «يبدو ابراهيم متفائلا وشديد العزم على تجديد ما فقده ومحو آثار الهزيمة».

وفوجيء ابراهيم مفاجأة لم يتوقعها وهو يختتم زيارته لفرنسا، عندما بعثت جلالة الملكة فيكتوريا ، ملكة بريطانيا وامبراطورة الهند وما وراء البحار ، تدعوه دعوة رقيقة وملحة لزيارة بريطانيا والنزول ضيفا مكرما عليها.

وتقبل إبراهيم الدعوة التى لم ينتظرها والتى تصورها مجرد مجاملة او للتصالح من اجل المصالح على الطريقة البريطانية. ولكنه فوجيء بفيض من الحماس والحرارة والإعجاب وقد استقبله ورافقه زوج الملكة وعقد مجلس العموم واللوردات جلسة خاصة لاستقباله وتحيته وتسابق الجميع. فى الحفاوة والتكريم ، وحرص كل القادة العسكريين وأمراء البحر الذين حاربوه على المشاركة فى حفلات ومآدب تكريمه والتعبير عن احترامهم واعجابهم بقدرته وشجاعته.

وحينما سئل ابراهيم اذا ما كان هناك ما يريد رؤيته وزيارته خارج البرنامج اجاب يوركشاير ولنكشاير ثم احواض بناء السفن وحينما تباطأوا فى الاستجابة ذكرهم بها وكتبت الصحف هناك .. «لم يسبق ان لقى زائر شرقي الحفاوة والحرارة والحماس الذى قوبل به ابراهيم باشا اينما ذهب فى المدينتين وخاصة من المهندسين والفنيين والعمال المهرة الذين سبق وعملوا فى مصر» .

وكان برفقة إبراهيم ضابط بريطانى يجيد اللغة العربية قال له «آسف يا سيدى أن لغتى العربية لا تسعفنى بترجمة كل ما يعبر عنه اهل المدينة من سعادة واحترام لكم».

وكانت اخر حفلة وداع كبرى اقيمت لابراهيم باشا هى حفلة رئيس الوزراء اللورد بالمرستون خصمه اللدود والذى عبأ أوروبا بأجمعها لكى تقضى عليه وقال فى خطاب الترحيب: «إن العلاقة والصداقة بين مصر وبريطانيا قدر محتوم للبلدين وعلينا ان نعمل معا بإخلاص لتحقيق هذا الهدف النبيل» وابتسم ابراهيم ولكن لم يقف ليرد كالعادة . وعاد ابراهيم من الرحلة الاوروبية يفيض نشاطا وحيوية وانكب على إحياء شعاره «التعليم والتصنيع والتسليح» وانه قدر مصر وطوق النجاة.

وفوجئت البلاد بوفاة ابراهيم قبل أن يتم رسالته وخرج الشعب بأكمله وكأن أحدا لم يتخلف ، شخص واحد فقط ارتكب ذلك الاثم وهو وريث العرش عباس والذى رفض الاشتراك فى الجنازة وسرت الشائعة انه الجانى وقد دس السم لعمه بعد ان مل انتظار العرش وتكرر الإثم عندما رفض ان يشيع جنازة حبره محمد على والتى بدا وكأنه لم يتخلف عنها مصرى واحد. ■

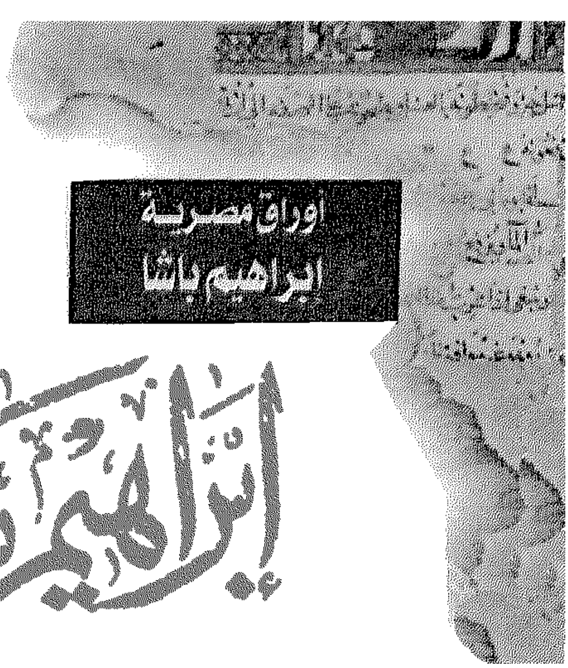

أوراق مصرية
إبراهيم باشا

إبراهيم باشا الكبير

بقلم
د. رءوف عباس

فى التاريخ شخصيات تلعب أدوارا هامة فى تاريخ بلادها، ولكنها لا تنال حقها من اهتمام المؤرخين، ربما لأن دورها جاء فى إطار مشروع يعود الفضل فيه لصاحبه، أو فى سياق سياسة كان لها دور معين فى تنفيذها، ولكن صاحب السياسة يخطف الأضواء وحده، فلا يحظى من شاركوا فى صنعها إلا ببصيص منها.

من هذه الشخصيات إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد على باشا، باعث النهضة المصرية الحديثة، فرغم دوره الأساسى فى بناء القوة العسكرية التى استند إليها مشروع والده، وفى قيادتها فى مختلف الميادين، والدور المحورى الذى لعبه فى بناء الكيان الإقليمى الذى سعى والده إلى إقامته، رغم ذلك كله لم ينل إبراهيم من اهتمام المؤرخين إلا قليلا قياسا بما ناله محمد على، ونظر إلى دوره الخطير على أنه دور ثانوى، لا يذكر إلا فى سياق أعمال والده، ولا نجد ترجمة مستفيضة له فى العربية أو غيرها من اللغات.

ولكن إبراهيم باشا كان شخصية فذة، جديرة بتسليط الأضواء عليها، لا يبرر ذلك ما أثير حوله من جدل فحسب، بل لما للدور الذى لعبه فى بناء «دولة محمد على» من أهمية فى تاريخنا القومى.

الشك فى نسبه

وأول ما يواجه من يقرأ تلك الشذرات التى تناثرت هنا وهناك من سيرة إبراهيم، ما أثير من شكوك حول نسبه، والزعم بأنه كان ابنا لأمينة زوج محمد على من زوجها الأول، وأن محمد على تبناه بعدما تزوج منها. ولعل تلك الشكوك التى جاءت من صنع عباس ابن أخيه طوسون ومن التفوا حوله من العناصر

التركية التى أضمرت الكراهية لإبراهيم بسبب صرامته فى التعامل مع من خدموا تحت قيادته، ومساواة الترك والمصريين في المعاملة. ولما كانت تسوية لندن ١٨٤١ التى صدر بموجبها الفرمان الذى جعل من مصر وملحقاتها إرثا تتعاقب على حكمه أسرة محمد على، وأن يكون الحكم للأكبر سنا، فإن ذلك جعل من إبراهيم الوريث الأول للسلطة يليه عباس، ومن ثم كان التشكيك فى نسب إبراهيم يصب في مصلحة عباس.

وقد استثمرت هذه الإشاعة فيما بعد عندما غير الخديو إسماعيل نظام الوراثة ليقتصر على من جاءوا من نسله، فحُرم بذلك سلالة أبناء محمد على الآخرين من اعتلاء مقعد الحكم، فراح هؤلاء يروجون للإشاعة القديمة من قبيل الطعن فى شرعية حكم إسماعيل بن ابراهيم وسلالته. وهكذا جاءت الإشاعة من صنع بطانة عباس بن طوسون، واستخدمت أداة فى الصراع على العرش بين مختلف فروع أسرة محمد على.

ويأتى إبراهيم (الذى حمل اسم جده إبراهيم أغا والد محمد على) على رأس من ولدتهم أمينة لمحمد على يليه أحمد طوسون الذى ولد عام ١٧٩٣ (وسمى باسم عم والده طوسون) وجاء إسماعيل كامل الذى ولد عام ١٧٩٥ فى الترتيب الثالث، وكان ختام (عنقود) أمينة، توحيدة التى ولدت عام ١٨٩٧، ونازلى التى ولدت عام ١٧٩٩. أما بقية أبناء محمد على الذكور (١٤ ولدا) والإناث (١١ بنتا) فقد استولدهم من جواريه، ومن الغريب أن معظم بنات المستولدات

قضين فى المهد فلم تبق منهن على قيد الحياة إلا زينب الرابعة (كان محمد على حريصا على اسم زينب فكرر إطلاقه على من تولد له من البنات كلما توفيت من تحمله)، كما مات فى المهد عشرة من الذكور أبناء المستولدات، فلم يبق على قيد الحياة منهم سوى محمد سعيد، وحسين، ومحمد عبدالحليم، ومحمد على (الصغير). ومن بين الذكور الذين توفوا فى المهد طفلان حملا اسم «اسكندر» وأربعة حملوا اسم عبدالحليم.

الابن البكر

وقد أورد محمد على دائما ذكر إبراهيم باعتباره ابنه البكر فى جميع مراسلاته مع السلطان التى يعود أقدمها إلى أكتوبر ١٨٠٦، عندما أرسل محمد على ولده إبراهيم إلى السلطان حاملا رسالة ولاء و«عبودية» وهدايا ثمينة (بعضها معروض الآن بمتحف طوب قابى سراى باستانبول)، وليبقى رهينة لدى السلطان حتى يدبر والده المبالغ المالية المطلوبة من والى مصر، فبقى إبراهيم هناك نحو العام، وكان لهذه الإقامة أثرها فى مشاعر الكراهية التى حملها طوال حياته للأتراك، ولم يكن من المنطقى أن يقبل السلطان ابنا بالتبنى كرهينة.

كذلك يتخذ دعاة التشكيك فى نسب إبراهيم من تعيين طوسون قائدا عاما على الحملة الموجهة إلى الجزيرة العربية عام ١٨٠٩ وحصول طوسون على رتبة الباشاوية وهو فى سن السادسة عشرة ثم تعيين إسماعيل قائدا لحملة السودان، يتخذون من ذلك سندا للقول بأن محمد على فضلهما على إبراهيم لكونهما من صلبه، ولم يتول إبراهيم قيادة حملة السودان إلا بعد مقتل إسماعيل، كما لم يتول قيادة حملة الجزيرة العربية إلا بعد وفاة طوسون بالطاعون عام ١٨١٦.

وإذا كان محمد على قد أبلغ السلطان بالاستجابة لطلبه وتوجيه حملة إلى الجزيرة العربية اختار لها طوسون، مما دعا السلطان إلى منحه رتبة «الباشا» (أى رتبة «اللواء»)، فقد كان هذا التصرف لمجرد كسب الوقت، فلم تتحرك الحملة فعلا إلا بعد عامين (١٨١١) عندما استطاع محمد على، بفضل جهود إبراهيم فى الصعيد، أن يقضى على المماليك فى مذبحة القلعة بعد أن اقتلع إبراهيم جذورهم فى الصعيد. وإذا كان محمد على قد عين طوسون قائدا، فقد كان حريصا على أن يكون بجواره بعض أهل الخبرة العسكرية. كذلك فعل مع إسماعيل فى حملة السودان. ويرجع ذلك إلى حاجته الشديدة إلى إبراهيم لمساعدته فى توطيد أركان حكمه فى مصر باعتبارها القاعدة الأساسية التى يقوم عليها مشروعه السياسى.

حاكم القاهرة

يؤكد ذلك الدور المهم الذى لعبه

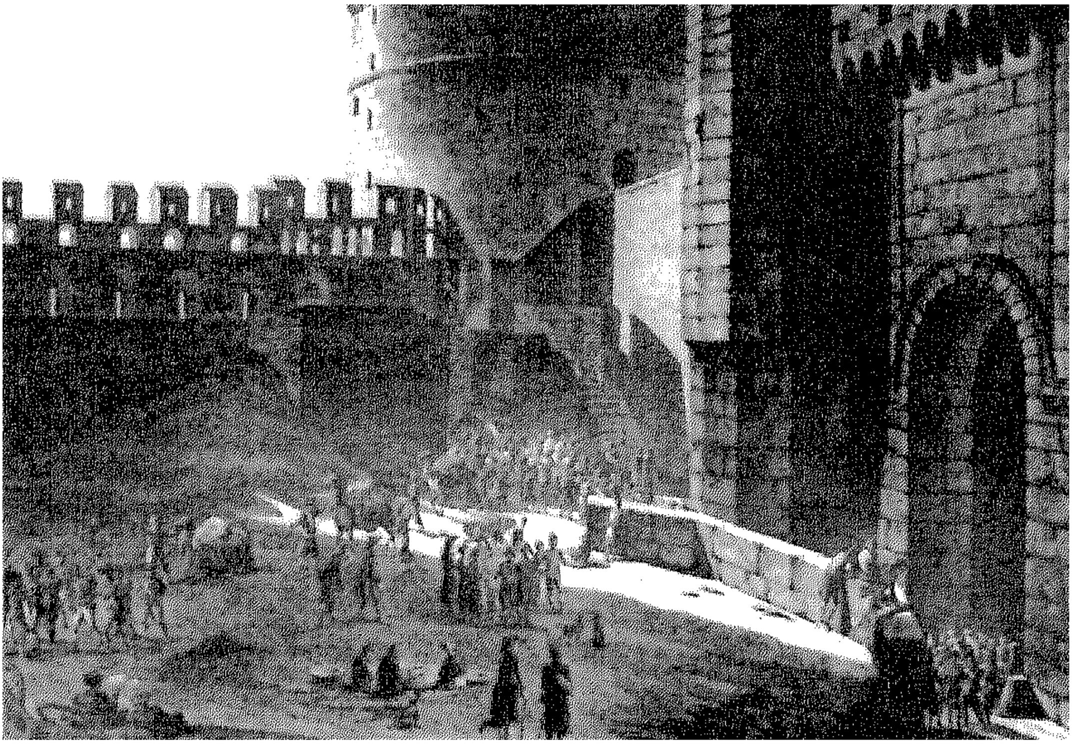

عين إبراهيم باشا حاكما للقلعة (فى أغسطس ١٨٠٥) حيث معسكرات الحامية العثمانية وتولى «دفترداري» مصر وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة

إبراهيم باشا منذ وصوله إلى مصر عام ١٨٠٥ حتى عام ١٨١٤ على أقل تقدير. فقد عينه والده حاكما للقلعة (فى أغسطس ١٨٠٥) حيث معسكرات الحامية العثمانية والمركز الرسمى لإدارة الولاية، وكان - عندئذ - فى السادسة عشرة من عمره، وخصص له مستشارين من ثقاة أهل الخبرة، وظل يشغل المنصب حتى أكتوبر عام ١٨٠٦، عندما أوفد إلى استانبول حيث قضى نحو العام رهينة فى قصر السلطان. وقبل عودته إلى مصر عام ١٨٠٧ استصدر والده فرمانا سلطانيا بتعيين إبراهيم فى وظيفة «دفتردار مصر» الذى يتولى إدارة كل ما اتصل بالشئون المالية

من أمور. وبهذه الصفة أسند محمد على إليه مهمتين. أولاهما، اجتثاث جذور المماليك فى البلاد عن طريق إلغاء نظام الالتزام الذى قضى أيضا على نفوذ التجار (رأس المال التجارى) فى الريف، وإصلاح نظام الحيازة الزراعية بإعادة مسح الأطيان وتوزيعها على القرى، وضبط «مكلفات الأطيان»، فى إطار خطة محمد على الرامية إلى إحكام قبضته على البلاد، وإزاحة فئة الوسطاء بين الإدارة والناس، وإعادة هيكلة العلاقة بين الحكومة والمنتجين كأفراد سواء فى قطاع الفلاحة أو الإنتاج الحرفى.. فكان دور إبراهيم - بذلك - دورا تأسيسيا لا غنى عنه، ولا يستطيع القيام به طوسون الذى عرف عنه

التهور والاندفاع أو إسماعيل الذى عرف عنه الاستهتار والطيش، فقد اكتسب إبراهيم بعض صفات أبيه، فكان يتسم بالدهاء، وقوة الحجة، لا يلجأ إلى العنف إلا عندما لا يجد للحيلة سبيلا، يؤكد ذلك ما يورده المؤرخ عبدالرحمن الجبرتى عند تناوله حوادث تلك السنوات.

أما المهمة الثانية التى أسندت إلى إبراهيم، فكانت تأمين الصعيد، ومطاردة المماليك جنوبا حتى بلاد النوبة، وفرض الأمن فى ربوع الصعيد، وخاصة تأمين الملاحة فى النيل. وهذه أيضا مهمة بالغة الأهمية لتوطيد دعائم الحكم، وضمان وصول الغلال وغيرها من المحاصل إلى القاهرة بانتظام، فى مرحلة دقيقة كان هم الباشا فيها جمع أكبر قدر ممكن من الموارد المالية التى استعان بها على تنفيذ مشروعه السياسى.

ويتضح من ذلك أن إبراهيم كان بمثابة الذراع اليمنى لأبيه فى أدق مراحل إرساء دعائم حكمه، وهى المرحلة التى اقتضت اتخاذ اجراءات حاسمة لوضع أسس تغيير البنية الأساسية لمصر التى بنى عليها محمد على مشروعه التنموى فى القطاع الزراعى وفى قطاع الانتاج الحرفى/الصناعى بما ترتب على ذلك كله من تغيرات اجتماعية وسياسية.

ميول عربية

ورغم المهام الخطيرة التى أسندت إلى إبراهيم وهو بعد فتى تتفتح أمامه مرحلة الشباب، حرص محمد على أن يزوده وإخوته بما يحتاجون من معارف، فخصص لكل منهم معلمين، كما جعل لهم مستشارين من أهل الخبرة الإدارية والعسكرية. وكان ذلك شأن إبراهيم. غير أن إبراهيم تميز على إخوته بالحرص على تعلم اللغة العربية، والحرص على الحديث بها، ويفسر ذلك العبارة التى نسبت إليه، والتى قال فيها: «جئت إلى مصر صغيرا، فأحببت شمسها ونيلها، وأصبح دمى عربيا»، ويعنى بذلك أنه قد تمصر لأن كلمة «العرب» كانت تطلق على المصريين تمييزا لهم عن «الترك». كما يفسر حرصه على أن يضم إلى حاشيته الأدباء والشعراء، مما يكشف عن تنوقه للأدب العربى وميله إليه.

ومما يروى من النوادر فى هذا الصدد مداعبته لأحد الشعراء الذى كان يكره تناول القلقاس، فدعاه إبراهيم إلى مجلسه، وتسامر الجميع حتى حل موعد الغداء، وانتقلوا إلى تناول الطعام، فلاحظ الشاعر أن كل الأصناف على المائدة صنعت من القلقاس، فأمسك عن تناول الطعام، وعندما سأله إبراهيم عن سر ذلك قال:

سألوك عن قلبي وكم قاسي
فقل قاسي وقل قاسي وقل قاسي

فضحك إبراهيم، وأمر بجلب ما يشتهيه الشاعر من أطباق إلى المائدة، مما يعكس رقة حاشيته وتنوقه للأدب.

إبراهيم باشا يتقدم جيشه استجابة لمطلب الباب العالي بالحملة على الحجاز بعد فشل حملة طوسون

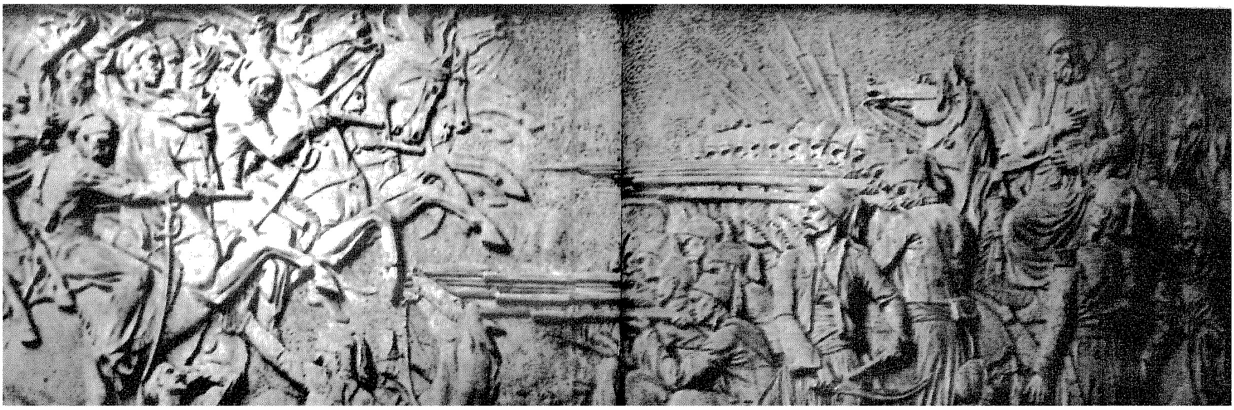

على الرغم من صعوبة العمل العسكرى عبر جبال طوروس، واختراق هضبة الأناضول شديدة الوعورة استطاع إبراهيم أن يصل بقواته إلى كوتاهية

هذا العشق للأدب العربى، والحرص على التحدث بالعربية، والحرص على مقاومة التمييز بين الترك والمصريين (أولاد العرب)، والحديث إلى الجنود بالعامية المصرية، كل ذلك جعل البعض ينسب إلى إبراهيم ميولا عربية «قومية» فى وقت لم تكن قد ظهرت فيه الفكرة العزبية. بل يشتط البعض فيزعم أن إبراهيم كان يسعى لإقناع والده بإقامة دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية. والحق أن إبراهيم كان يشارك والده نظرته «الإسلامية/ العثمانية»، التى جعلت الوالد يضع فى أولوياته السيطرة على مقاليد الأمور فى الدولة العثمانية، والعمل على إحياء قوتها بتعميم ما أدخله من إصلاح فى مصر والشام على قاعدة الدولة ذاتها، وبناء قوة عسكرية كبرى تحت قيادته لفرض هيبة الدولة على الساحة الدولية.. فإذا تعذر تحقيق ذلك فى إطار الأوضاع الدولية، كان البديل السعى للاستقلال عن الدولة، أو الحصول على الاستقلال الذاتى الكامل الذى لا يترك للسلطان إلا سلطة إسمية أو رمزية.

الزحف على الأناضول

حقا اختلف إبراهيم مع والده فى خطة الزحف على الأناضول عبر جبال طوروس، ولم يكن مبعث هذا الاختلاف حرصه على التوقف عند الحدود التى لا يجد بعدها من يتحدث بالعربية، كما ورد فى بعض الكتابات دون سند لذلك، لدعم فكرة تحمس إبراهيم «للعروبة»، ولكن كان مبعثه خشية تعريض قواته لمخاطر انقطاع خطوط الإمداد والتموين من مصر عبر الشام لصعوبة تضاريس الأناضول، وعدم وفرة الموارد الغذائية فى هضبة الأناضول مما قد يعرض جيشه للمجاعة، واقترح على والده خطة بديلة يتم بموجبها انزال القوات المنقولة بحرا للاستيلاء على موانىء غرب الأناضول وتأمينها ليسهل وصول الإمدادات من مصر إليها ثم الزحف السريع من تلك الموانىء إلى استانبول، وتنحية السلطان محمود الثانى بموجب فتوى أصدرها مفتى حلب، وتولية ابنه الطفل تحت وصاية محمد على. وكان إبراهيم يرى فى هذه الخطة ضمان سلامة قواته من ناحية، وسرعة الاستيلاء على استانبول قبل توصل الدول الأوربية الكبرى إلى قرار بشأن القيام بعمل مضاد، مما يجعلها أمام الأمر الواقع.

وجاء اعتراض محمد على مبنيا على خشيته من أن يؤدى تحويل بحر ايجه إلى مسرح للعمليات من تدخل بريطانيا – القوة البحرية العتيدة – ضده كما فعلت فى حرب اليونان. ونبه إبراهيم إلى أن ما تريده بريطانيا هو إضعاف قوات «المسلمين» حتى تسيطر على بلادهم،

ولذلك فضل اختراق الأناضول ليظل العمل «داخليا» في إطار الدولة العثمانية، بعيدا عن البحار الدولية، وهنا دار خلاف آخر بين إبراهيم ومحمد علي، إذ أصر إبراهيم على عدم انقاص المؤن اللازمة للجيش حتى لا يقع الجنود فريسة المجاعة.

ورغم صعوبة العمل العسكرى عبر جبال طوروس، واختراق هضبة الأناضول شديدة الوعورة استطاع إبراهيم أن يصل بقواته إلى كوتاهية التي لا تبعد عن استانبول سوى مائة كيلو متر. وعندما أمره والده بالتوقف عن الزحف استجابة لضغط الدول، حرص على إبرام اتفاقية الصلح التي أعطت محمد على حكم مصر وملحقاتها والشام مقابل الانسحاب من الأناضول. وجاء اختيار موقع ابرام الاتفاقية (كوتاهية) دليلا على حرص إبراهيم على تسجيل أن قواته بلغت مشارف استانبول، وأن المكاسب التي حققتها الاتفاقية لحكام مصر تمثل حقا كسبه بقوة السلاح.

قائد مميز

وتكشف مراسلات إبراهيم إلى والده عن شخصية القائد الحريص على جنوده، الذى لا يقبل أن يعرضهم للمخاطر، بينما كان والده لا يشاركه هذا الاهتمام، حتى أن محمد على لم يعد يخاطبه مباشرة، بل كان يراسله من خلال «الباشمعاون» تعبيرا عن ضيقه بإصرار إبراهيم على عدم خفض نفقات تموين الجنود، وتوجسه خيفة من إصرار إبراهيم على ترقية المصريين إلى رتب القيادة الوسطى، فقد ألح إبراهيم على أبيه للموافقة على ترقية الضباط المصريين (وكانوا في الأصل جنودا رقوا من تحت السلاح) إلى رتبة «البنباشى» (العقيد)، وأصر محمد على ألا يتجاوز المصريون رتبة «اليوزباشى» (النقيب)، بحجة أنهم لم يدرسوا بالمدارس العسكرية، وأن تقتصر الترقية إلى الرتب القيادية الوسطى والعالية على الضباط المماليك. وكان إبراهيم يرى أن الدراسة وحدها لا تكفى مبررا لترقية الضباط، وأن الخبرة القتالية والشجاعة والانضباط لابد أن يكون لها المقام الأول عند النظر في ترقية الضباط. ونعى على والده تشككه في ولاء المصريين مؤكدا له أن «إخلاص أولاد العرب لنا يفوق إخلاص الترك، فإذا كان هناك ٣٠٠ بين كل ألف من الأتراك يخلصون لنا، فإن هناك ٧٠٠ بين كل ألف من أولاد العرب من المخلصين..»

هذا الاهتمام الكبير بالجنود والتقدير التام للشجاعة والإقدام والانضباط يفسر ما تجمع عليه المصادر المعاصرة من «امتلاكه لقلوب الجنود»، فقد كان حريصا على مشاركتهم في جميع الأعمال، يتصرف كجندى عادى،

ينام على الأرض بينهم، وعلى الجليد فى بلاد الأناضول، ويتناول طعامهم. وأورثه ذلك كله مرض الروماتيزم ثم داء الصدر الذى أودى بحياته فى نهاية الأمر.

حازم متواضع

ورغم قلة المادة المتاحة عن صفاته الشخصية، تجمع المصادر على أنه كان وقورا متواضعا رقيق الحاشية، حازما، لا تشق له عصا الطاعة، لا يتوانى عن عقاب المخطىء، مثلما لا يتردد فى مكافأة من يحسن أداء واجبه.

ويشير نوبار باشا فى مذكراته إلى أن إبراهيم اختاره سكرتيرا خاصا له فى أواخر أيام حكمه للشام، لكونه من أقارب بوغوص بك صفى محمد على، حتى يطمئن والده من ناحيته، ويبدد الشكوك التى سببها خلافه معه حول التوسع فى الأناضول. وكان تقدير إبراهيم أن نوبار سينقل لبوغوص كل أخباره، فتصل إلى محمد على ، غير أن نوبار السكرتير الشاب أحب إبراهيم، ورافقه حتى وفاته. ويصفه بالشجاعة ورباطة الجأش وقت الشدة، وصفاء الذهن، والنظرة الثاقبة فى تقدير الرجال. وعندما صحبه فى رحلته إلى أوربا التى زار فيها فرنسا وانجلترا بحثا عن علاج لما يعانيه من أمراض (١٨٤٧) ينقل عنه نوبار ما جاء فى حديثه معه من أفكار تمنى على الله أن يقوم بتطبيقها عندما يعتلى كرسى الحكم، ولعل أهم ما فيها تحسين أحوال المعيشة للناس بتخفيف الأعباء الضريبية عنهم، وتحميل الأثرياء النصيب الأوفر منها، وتوفير الرعاية الطبية، وكذلك الاهتمام بالتعليم الأساسى الذى يهدف إلى تثقيف أبناء الشعب وليس مجرد إعدادهم لتولى وظائف الإدارة، وهو ما كان ينوى أن يسميه «مدارس الملة».

ولكن القدر لم يمهل إبراهيم لتحقيق ما فكر فيه من إصلاح، فلم يمكث فى الحكم سوى ستة شهور انتهت بوفاته فى ٢٠ نوفمبر ١٨٤٨، وخلفه عباس حلمى الأول ابن أخيه طوسون الذى ظل يكيد له منذ مطلع الأربعينات، ولعل ذلك يفسر مايذكره نوبار من أن عباس وغيره من أبناء وأحفاد محمد على فرحوا لموت إبراهيم، فلم يزرف أحدهم دمعة عليه، بينما كان والده هناك بالإسكندرية يعانى من مرض «خرف الشيخوخة» (الذى عرف فيما بعد بالزهايمر).

كان إبراهيم اليد القديرة التى نفذت مشروع محمد على لبناء قوة إقليمية قاعدتها مصر، كما كان آخر الذكور الأحياء من أبناء محمد على من زوجته أمينة (الحرة)، وكان الباقون من أبناء محمد على من أبناء الجوارى، كما كانوا ينتمون إلى جيل آخر لم يعانى مشاق البناء، واهتم بقطف الثمار دون عناء، ولعل ذلك يفسر ارتياحهم لغياب إبراهيم من الوجود (هذا إذا صح ما يذكره نوبار). ■

إبراهيم باشا

فاتح عظيم في ظلال التاريخ

بقلم
د. عاصم الدسوقى

عندما جاء محمد على، على رأس فرقة من الأرناؤوط إلى مصر للإسهام فى إخلاء الفرنسيين عن البلاد، لم يكن يخطر بباله أنه سيبقى فى مصر إلى الأبد، بعيدا عن بلده «قوله»، إذ كان قد جاء فى مهمة محددة سوف تنتهى يوما ما مهما طال به الزمن. فلما خرج الفرنسيون فى سبتمبر ١٨٠١ ووقعت البلاد فى فوضى الفراغ السياسى والصراع على السلطة كان عليه أن يبقى، ثم ساعدته الظروف كما هو معروف لكى يتولى حكم مصر (٩ يوليه ١٨٠٥)، وعندئذ استدعى أولاده للإقامة معه فى وضعه الجديد.

وهكذا جاء إبراهيم إلى مصر في سبتمبر ١٨٠٥ وكان في السادسة عشرة من عمره ويرفقته أخوه طوسون الأصغر منه، ورغم صغر سنهما وقلة خبرتهما إلا أن محمد على لم يكن أمامه سوى الاعتماد على أبنائه وأصفيائه في إدارة شئون الولاية، وبشكل قريب من مبدأ تقديم أهل الثقة على أهل الخبرة، خاصة وأنه تولى الحكم رغم أنف السلطان العثماني الذى اضطر للموافقة عليه وبرغم أنه كان يتشكك في كفاءة أبنائه وقدراتهم كما أفصح بذلك إلى باتريك كامبل قنصل بريطانيا في مصر .

دفتردار مصر

وما أن تخلص محمد على من خطر الحملة الإنجليزية في سبتمبر ١٨٠٧ التي جاءت للإطاحة به، حتى واجه مشكلة مالية حادة تمثلت في عجزه عن دفع رواتب العسكر، فأدرك مدى الحاجة لتنظيم الشئون المالية حتى يحتفظ بولاء الرجال، ومن هنا قام بتعيين ابنه إبراهيم في وظيفة «الدفتردار» في أواخر ديسمبر ١٨٠٧ وكان في الثامنة عشرة من عمره ويقيم في منزل خاص به بالأزبكية، فشرع في مهمة إجراء مسح الأراضى الزراعية، كما كلفه محمد على بحكم الصعيد، وربما إلى هذه الفترة تعود تسمية ولى العهد في مصر بأمير الصعيد .

كانت «الدفتردارية» أول مهمة تولاها إبراهيم وتدريجيا بدأ يكتسب الخبرات من وجوده بجوار والده في كل خطواته السياسية، فقد شهد واقعة عزل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف من منصبه وإبعاده إلى دمياط وكان عمر مكرم قد رفض المثول أمام محمد على بالقلعة فما كان من محمد على إلا أن ذهب إلى منزل ابنه إبراهيم بالأزبكية واستدعى القاضى والمشايخ لمواجهة عمر مكرم وإحراجه أمامهم.

ولما طلب السلطان العثماني من محمد على تجريد حملة على الجزيرة العربية نراه يكلف طوسون ابنه الأصغر ولا يكلف إبراهيم وهو الأكبر، فلما تعثرت أحوال الحملة طوال أكثر من خمس سنوات اضطر محمد على لتكليف إبراهيم بقيادة حملة لإنقاذ الموقف ضمت ضابطا فرنسيا (فيسيير) وطبيبا وجراحين وصيدلانيا من الإيطاليين ثم انطلق من بولاق (٥ سبتمبر ١٨١٦) متجها إلى قنا . وفي أسيوط نجح في تجنيد ألفين من الفلاحين اصطحبهم معه على ظهر الجمال التى قدمها عرب

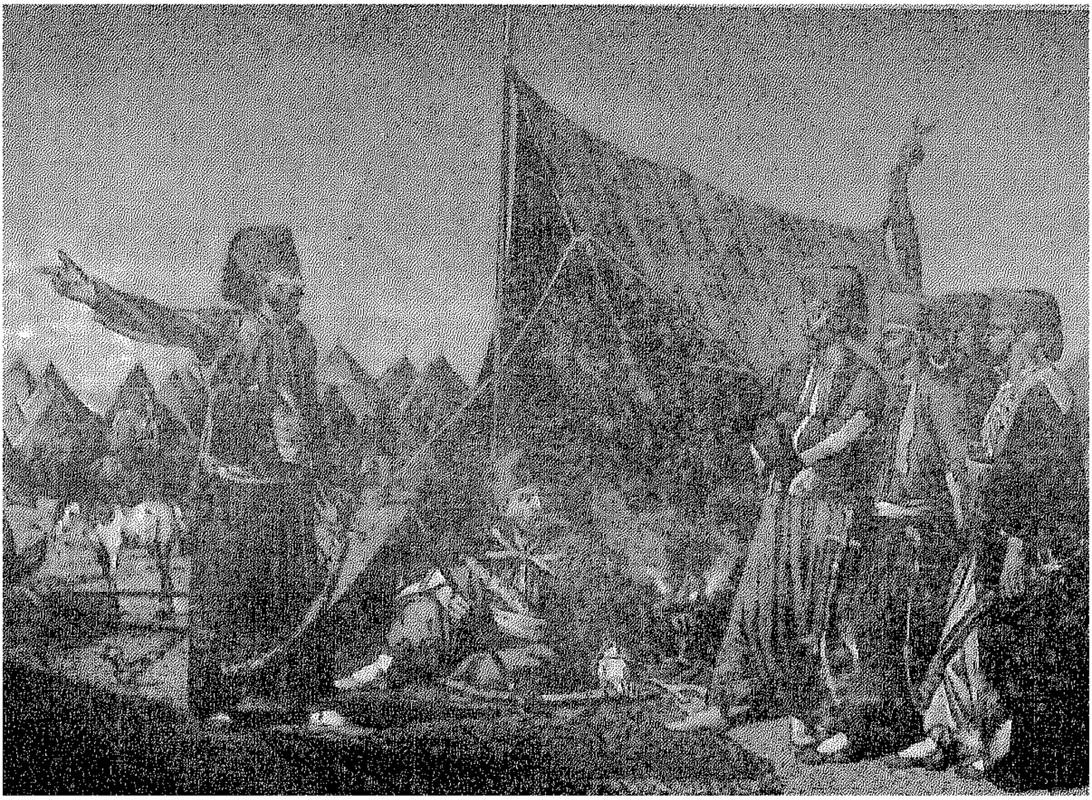

رغم أن إبراهيم باشا لم يخدم فى الجيش من قبل إلا أنه تمتع بقدرات فطرية فى القيادة العسكرية ، وهاهو وسط جنوده مندمجا فى حياتهم اليومية أثناء الطريق إلى « نصيبين »

العبابدة حتى القصير، ثم ركب البحر الأحمر إلى ينبع التى بلغها فى آخر سبتمبر ١٨١٦ ومن ينبع توجه إلى المدينة المنورة لأداء العمرة قبل أن يذهب للقتال وأنفق بعض الأموال لشراء ولاء بعض القبائل فى الطريق لكى يقفوا إلى جانبه .

ونجح إبراهيم لكنه لم يغادر المكان إلا بعد عام قضاه فى توطيد دعائم الانتصار ثم عاد إلى مصر فى ٩ ديسمبر ١٨١٩ حيث استقبله أهالى القاهرة بالأفراح والزينات التى ظلت قائمة كما يقول الجبرتى «طوال سبعة أيام مع إطلاق المدافع من القلعة طوال الوقت»، كما منحه السلطان باشوية جدة على حين أخذ والده مشيخة الحرم المكى مكافأة لهما .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح إبراهيم يلقب بالفاتح بطل الحجاز، حتى أنه لما تعثرت حملة «فتح» السودان أنفذه أبوه محمد على إلى هناك (٢٢ أكتوبر ١٨٢١) فاصطحب معه بعض الأطباء لمكافحة الأمراض التى تفشت بين الجند وقد انتعش الجنود لما رأوه بينهم باعثا

الفاتح العظيم إبراهيم باشا على ظهر جواده وسط جنوده يهاجم حصن عكا فى الشام

فيهم روح الأمل والشجاعة خاصة وأنه اعتاد أن يعيش بين العساكر كواحد منهم، ويقطع مسافات سيرا على قدميه لقضاء بعض المهام فتمثلته العساكر واحتملوا الشدائد. ولما سأله المهندس فردريك كايو أحد رجال الحملة عن المغزى من حملة السودان وذلك بعد وصوله بيومين (٢٤ أكتوبر ١٨٢١) أجابه إبراهيم بقوله «إننا سنكتشف النيل الأبيض بالمراكب المسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى بإمكانها أن تمضى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات حتى نصل إلى منابعه»، وكانت إجابته تلك مثار إعجاب الرجل الذى أدرك أن وراء إبراهيم سياسات لها مغزاها .

رجل المهام الصعبة

وهكذا لمع نجم إبراهيم فى سماء والده وأصبح ينظر إليه باعتباره رجل الأزمات، فلما احتاج السلطان العثمانى جهود محمد على للقضاء على ثورة اليونانيين فى شبه جزيرة المورة (١٨٢٤) تولى إبراهيم قيادة الأسطول، وحقق انتصارات ملحوظة (مايو ١٨٢٥) وسط إعجاب المراقبين الأجانب. وكان هذا معناه فى التحليل الأخير أن إبراهيم الذى لم

يخدم في الجيش ولم يذهب في بعثة تعليمية كان يتمتع بقدرات فطرية في القيادة العسكرية .

غير أن دعم القوى الأوربية الكبرى لثورة اليونان بهدف إضعاف الدولة العثمانية في ضوء التوازن الدولي الذي كانت صياغته قد تمت في ١٨١٥ في مؤتمر فيينا، أدى إلى هزيمة القوات المصرية - التركية المشتركة في نفارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) . وكان مبدأ التوازن الدولي في الأساس يستهدف الحيلولة دون ظهور قوة مماثلة لقوة نابليون بونابرت مرة أخرى .

نابليون مصر

وعندما قرر محمد على ضم بلاد سوريا إلى ولايته في مصر عهد إلى إبراهيم بأمر القيادة عسكريا ومدنيا وهناك نجح في تنويب الجليد بين العشائر والقبائل وعامة الناس، وأشعر الجميع بعدالته إذ نراه يشرك الأهالي في الحكم بمقتضى نظام المشورة، ويساوي بين الرعايا في الضرائب كبيرهم وصغيرهم مما أثار ضيق المشايخ وأرباب المال وأصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات (رؤساء الجند) وكان هؤلاء يتمنون عودة الإدارة العثمانية لأنهم كانوا يحققون في ظلها ثروات هائلة من ابتزاز التجار والحرفيين، كما اغتبط المسيحيون لنجاتهم من التعصب وشعورهم بحريتهم في ممارسة الطقوس الدينية، وكذا الفلاحون الذين لم يعودوا يجبرون على تقديم خدمة دون مقابل، واستخدم الشدة ضد الذين أرادوا تخريب سياساته، وبهذا نجح في توطيد دعائم الأمن في البلاد عن طريق القسوة والشدة، حتى لقد وصفه ميخائيل مشاقة في كتابه «مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان» بأنه «نابليون مصر»، ولكي يتضح هذا المعنى وجدنا أنه بمجرد مغادرة إبراهيم لسوريا في أعقاب تسوية لندن ١٨٤٠ وبعد تسع سنوات قضاها في الحكم هناك عاد القوم إلى حالة العصيان والتمرد، وعادت الرشوة والتبذير في إدارة الشئون المالية ونقصت الأموال في يد الناس، وعاد البدو للإغارة على السكان الآمنين، وظلت الفتنة الدينية بين الجميع.

غير أن ما عكر صفو حكم إبراهيم لبلاد الشام وجعل شرائح من السكان لايستهان بها تتمنى زوال حكمه، قيامه بتطبيق سياسة الاحتكار امتثالا لأوامر والده محمد على حيث تم احتكار جميع أصناف الحرير صناعة وتجارة، مما

لمع نجم إبراهيم .. وأصبح ينظر إليه باعتباره رجل الأزمات ، ويبدو فى اللوحة على فرسه مع سليمان الفرنساوى وبعض جنوده

أدى إلى ضيق المنتجين، كما تم إكراه الفلاحين على زراعة حاصلات لاقبل لهم بها فتركوا الأرض هربا إلى الأناضول، وأثار الجميع بفرض ضريبة الرأس دون تمييز، ونزع السلاح، والتجنيد الإجبارى.

ليبرالى بخلاف والده

والحقيقة أن إبراهيم باشا لم يكن يوافق أباه محمد على فى تطبيق سياسة الاحتكار، ليس فقط فى سوريا وإنما فى مصر أيضا، مما جعل البارون بوالكنت (القنصل الفرنسى فى مصر) يصف إبراهيم بأنه أقرب إلى المبادئ الحرة (الليبرالية)، عكس محمد على الذى اعتمد على الحكم المطلق.

وهنا لنا أن نتساءل عن مصادر هذا الموقف الرافض للاحتكار عند إبراهيم، خاصة وأن نصيبه من التعليم كان ضئيلا فقد جاء من البيت إلى كرسى الحكم والإدارة ولم يرسله أبوه فى بعثة تعليمية بالخارج فضلا عن أنه نشأ فى «قوله» تحت الحكم العثمانى الذى لم يكن ليبراليا بأى معنى من المعانى، هل كان إبراهيم بالفطرة يعتبر الاحتكار أمرا يتنافى وحرية الاختيار

عند الإنسان أم أن موقفه حددته مرجعية دينية تقول بقسمة الأرزاق ومن ثم الحلال والحرام، أم جاء بتأثير القناصل الأجانب الذى اقتربوا منه كثيرا.. أم أن رئاسته لمجلس المشورة منذ ١٨٢٩ وقبل أن يحكم سوريا قد أنار بصيرته على أحوال المصريين، خاصة وأن هذا المجلس كان يضم خبرات متنوعة من كبار موظفى الحكومة والعلماء والأعيان (١٥٦ عضوا) وامتدت مشورته على شئون الإدارة والتعليم والأشغال والشكاوى التى كان بعضها خاصا بتداعيات سياسة الاحتكار ؟!

نوازع عربية

وإذا كان محمد على قد وجد فى التوسع فى بلاد سوريا فرصة ذهبية لتوسيع دائرة حكمه وحماية ولايته فى مصر استراتيجيا وفى إطار الرابطة العثمانية، فإن إبراهيم رأى فى التوسع فرصة لتكوين دولة عربية تنتزع من السيطرة العثمانية.. دولة عربية حكامها ورعيتها وجنودها وضباطها من جنس واحد وأن يعيد للعرب وجودهم واستقلالهم أسوة بلغتهم وآدابهم كما ورد فى تقرير البارون بوالكنت. ومما يؤكد أن إبراهيم كان يدرك الفرق بين الترك والعرب أنه صرح أثناء حصاره قلعة عكا فى طريقه للشام، أنه سوف يتوقف عند الحد الفاصل بين اللغة العربية والتركية، أو ما معناه إلى مدى ما يتكلم الناس ويتفاهم وإياهم باللسان العربى على حد قول كادلفين وبارو فى كتابهما «حرب مصر ضد الباب العالى فى سوريا والأناضول ١٨٣١ - ١٨٣٣». وعندما أصبح حاكما عاما لسوريا نراه يعين أحد رجاله حاكما على سوريا بلقب «حكمدار عربستان»، أى بلاد العرب ولعلها كانت المرة الأولى التى يطلق فيها هذا الاسم على تلك المنطقة، وهو أمر له دلالته فى موضوع العروبة وإدراك التمايز بين ما هو عربى وما هو تركى .

ولما التقى البارون بوالكنت بإبراهيم بالقرب من طرسوس بالأناضول بعد عودته من كوتاهية (١٨٣٣)، وجده يجاهر علنا برغبته فى إحياء مجد العرب وإعطائهم حقوقهم وإسناد المناصب لهم فى الإدارة والجيش، وأنه سوف يجعل منهم شعبا مستقلا . كما سمعه يقول إن البلاد العربية تنضم تحت لواء أبيه الذى يحكم مصر والسودان وسوريا وجزيرة العرب التى يعمل على إتمام فتحها وأن عليه أن يضم العراق، وأنه يعتبر نفسه عربيا لأنه يستخدم اللغة العربية فى اتصاله مع أهل البلاد ولما سأله أحد

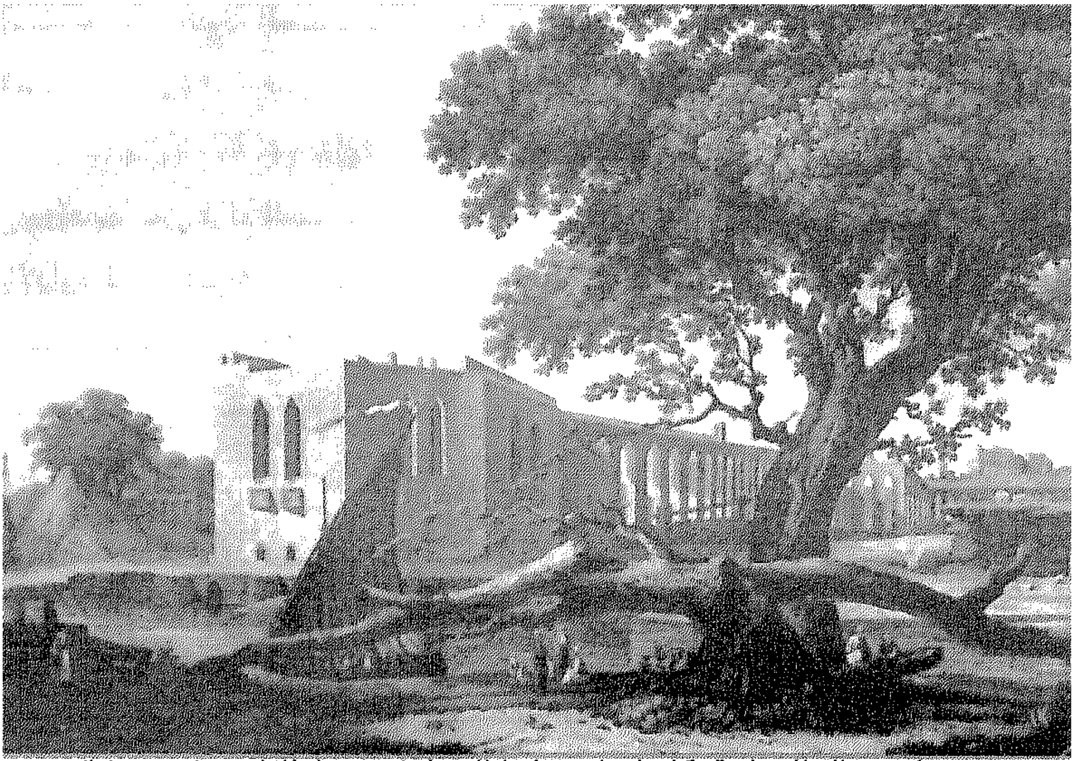

بعيدا عن عالم السياسة كان لإبراهيم باشا الفضل فى تجميل القاهرة واستقدم لذلك
خبراء الحدائق والبساتين الإنجليز وأقام لنفسه حديقة بجزيرة الروضة

العساكر لماذا يطعن فى الأتراك وهو واحد منهم، أجابه إبراهيم «أنه ليس تركيا وأنه جاء لمصر صبيا ومنذ ذلك الوقت يشعر بمصريته التى جعلت من دمه دما عربيا».

ومن تداعيات هذا الانتماء كان إبراهيم شديد الرغبة فى دخول الآستانة وإسقاط الحكم العثمانى «لإقامة حكومة صالحة من رجال أكفاء»، ولهذا استغرب كثيرا من مطالبة القوى العظمى لمحمد على بأن يتصالح مع السلطان ويسحب جيوشه من الأناضول، ووجه الغرابة أنه كان يعلم أن هذه القوى العظمى تقف ضد الدولة العثمانية وأن إسقاط الحكومة العثمانية لا بد وأن يخدم أغراض تلك القوى، لكن البارون بوالكنت حدثه حديثا طويلا عن فكرة التوازن الدولى بعد التخلص من نابليون بونابرت، مما يعنى أن انسحاب جيوش محمد على من الأناضول والإبقاء على حكومة الآستانة هو أمر فى صالح التوازن الدولى. لكن إبراهيم كان يتكلم عن اختلال معايير القوى العظمى فى التعامل مع المشكلات المتشابهة، فبينما وقفت أوربا مع ثورة اليونان ضد الدولة العثمانية (١٨٢٥)، فإنها لم تقف مع محمد على الذى يريد

القضاء على الدولة العثمانية عدوة الغرب...!!

تجميل القاهرة

وبعيدا عن عالم السياسة والحكم والإدارة كان لإبراهيم باشا فضل تجميل القاهرة فقد كان يحيط بالمدينة عدة تلال من الحصى والرمال يتراوح ارتفاعها بين خمسين إلى مائة قدم، وخطر لإبراهيم أن الأرض التى تحت هذه التلال لابد وأن تكون مشابهة للأرض التى تجاورها، وأن إزالة هذه التلال لن تؤدى إلى تحسين الحالة الصحية فى القاهرة فحسب، بل إنها ستؤدى إلى تجميل ضواحى المدينة، وعلى هذا ومن خلال رئاسته لمجلس المشورة وضع خواطره موضع التنفيذ فصارت أرض التلال تكسوها الخضرة والأشجار، وقامت عليها الحدائق وشقت فيها الطرقات وكانت مفتوحة للجميع للتنزه والتريض .

وفى هذا الإطار أقام لنفسه حديقة على جانب كبير من الجمال بجزيرة الروضة يمتلك فيها نحو مائة فدان وقد استقدم لها اثنين من خبراء البساتين الإنجليز وهما تريل Trail بمرتب ستمائة جنيه فى السنة وماكلوه Mc cullogh بمرتب ثلاثمائة جنيه، ووضع تحت تصرفهما ثلاثمائة غلام يتقاضى كل منهم ريالا واحدا فى الشهر ويتعلمون القراءة والكتابة يوميا لمدة ساعة، وجعل الحديقة متاحة للجمهور، كما استقدم من جمايكا اثنين من خبراء الزراعة لاستزراع قصب السكر فى حديقته وفى أرض الصعيد . ولما تم حفر ترعة المحمودية منح محمد على عددا من الأوربيين أراضى على جانبى الترعة قرب الإسكندرية فأقاموا فيها منازل صغيرة وحدائق ومزارع خاصة، وفعل إبراهيم الشئ نفسه حيث أقام منزلا ريفيا تحوطه حديقة واسعة .

وبعد انكسار محمد على بفعل تسوية لندن ١٨٤٠ وانسحابه من الشام عاد إبراهيم أيضا إلى مصر يتأمل فيما حدث ويستعيد أحاديث بوالكنت معه عن الممكن والمستحيل فى السياسة العالمية، وسرعان ما بدأت المصائب تحيط بالبلاد ففى ١٨٤٣ انتشر طاعون الماشية، وتبعه انخفاض مياه النيل، واجتاح الجراد الزراعة، وأصبحت البلاد على حافة الخراب، وارتبك دولاب الحكم واستولى الرعب على حكام الأقاليم خشية عقاب محمد على لهم، وفى هذا المنعطف اجتمع مجلس المشورة برئاسة إبراهيم وانتهى إلى تقرير عام عن الأحوال لكن

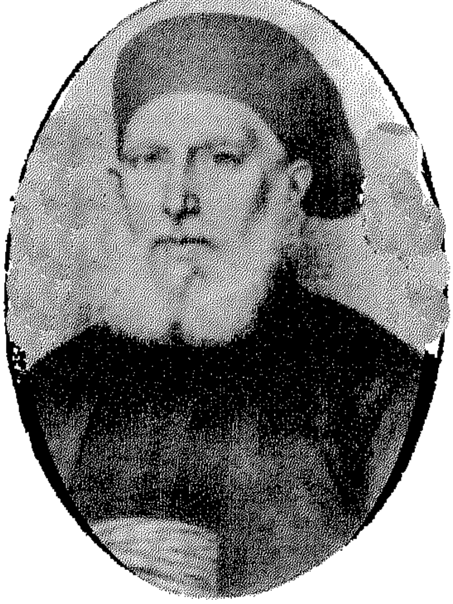

جهر إبراهيم برغبته فى إحياء مجد العرب

لم يجرؤ أحد من أعضاء المجلس على إبلاغ محمد على بحقيقة الأمر، فلما علم به غضب غضبا شديدا وكان يعتقد أن ابنه إبراهيم وراء هذا الموضــوع، وفى الوقت نفسه كان يخشى أن يخلعه ابنه من الحكم، ومن ثم قال لخاصته إنه يفكر فى التخلى عن الحكم والذهاب إلى مكة المكرمة ليقضى بقية أيامه هناك غير أن قناصل الدول الأوربية فى القاهرة تكفلوا بإزالة ما فى نفسه تجاه ابنه إبراهيم وعادت المياه إلى مجاريها.

ثم ما لبثت أن تجددت متاعب إبراهيم الصحية منذ إصابته بالدوزنتاريا أثناء حملة السودان فسافر إلى أوربا للعلاج (١٨٤٥) فعرض نفسه على أطباء فى نابولى وفرنسا وإنجلترا، ولما رجع إلى مصر علم أن والده سافر إلى استانبول (يونيه ١٨٤٦) ليمثل بنفسه أمام السلطان تنفيذا لفرمان تجديد ولايته على مصر فى ١٨٤١ ولما رجع محمد على إلى مصر شعر بأن المرض ينهش جسده فترك مقاليد الأمور لحفيده عباس ابن طوسون لأن حالة إبراهيم الصحية لم تكن لتساعده هو الآخر، فضلا عن أن أولاد إبراهيم كانوا آنذاك فى بعثة إلى فرنسا منذ ١٨٤٤ (البعثة الخامسة).

وفى يوليه ١٨٤٨ سافر إبراهيم مرة أخرى إلى نابولى للعلاج، وفى تلك الأثناء ذهب والده محمد على إلى نابولى للعلاج أيضا، وهناك سمع محمد على بخلع لويس فيليب ملك فرنسا عن العرش (١٨٤٨)، فتذكر خدمات لويس له أثناء أزمة ١٨٤٠ فعزم على العودة إلى مصر لتجريد حملة عسكرية بغية إرجاع صديقة لويس فيليب إلى العرش، فلما علم إبراهيم بخطة والده أسرع بالعودة إلى مصر ليتلقى فرمان ولايته على مصر (يوليه ١٨٤٨) فذهب إلى استانبول لتقديم فروض الولاء وبعد عودته بوقت قصير عاوده المرض ومات فى نوفمبر ١٨٤٨ تاركا تاريخه فى زوايا النسيان بفضل هيمنة محمد على وانفراده بالأمور. ■

إبراهيم باشا

أوراق مصرية
إبراهيم باشا

٨٠

الهلال

شوال ١٤٢٥هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

هل كان ابنا لمحمد على بالتبنى؟

بقلم

د. عبد المنعم إبراهيم الجميعى

يرى بعض الكتّاب والمؤرخين ومن أبرزهم القاضى الأمريكى «بيير كرابيتس» Pierre Crabites صاحب كتاب Ebrahim of Egypt الذى صدر فى لندن عام ١٩٣٥، والذى كان يعمل قاضيا بالمحاكم المختلطة فى مصر، أن إبراهيم باشا بطل معركة «نزيب Nezib» وصاحب الانتصارات الكبرى فى الجزيرة العربية وبلاد الشام لم يكن ابنا لمحمد على من صلبه، بل كان متبناه حيث إن محمد على كان قد تزوج من سيدة موسرة ذات ثروة كبيرة استعان بها على الاتجار فى الدخان وهذه السيدة المساة «أمنة هانم» كانت مطلقة رجل آخر قبل زواجها من محمد على، وأن إبراهيم باشا نجلها من زوجها الأول ولم ترزق به من محمد على.

وقال بعض آخر اعتمادا على إحدى الوثائق التركية إن إبراهيم باشا لم يكن ابنا لمحمد على بل هو نجل عمه طوسون بك الذى كان قد تبنى محمد على وهو فى سن الرابعة بعد وفاة والده حيث هاجرا معا من ألبانيا إلى قولة (ثغر صغير على حدود مقدونيا) وأنه بعد مقتل طوسون عم محمد على تكفل محمد على بابنه إبراهيم وتبناه وفاء لمعروف عمه معه.

وازدادت الشائعات ترددا والأمور تعقيدا حول حقيقة هذا الموضوع بعد قيام الباب العالى خلال نزاعه مع محمد على أثناء حروب الشام بإرسال مذكرة إلى الدول الكبرى يعدد فيها مساوىء محمد على وإبراهيم واصفا إبراهيم بأنه ابن محمد على المزعوم.

روايات تلى

واستنادا على ذلك ربط بعض المؤرخين بين هذا الأمر وتفضيل محمد على لإبنه طوسون على إبراهيم فى كثير

من الأمور بالرغم من أن إبراهيم هو الأكبر سنا، ومن ذلك أنه حبا طوسون بمنصب حاكم قلعة القاهرة فى عام ١٨٠٥، كما مُنح رتبة الباشوية قبل إبراهيم، يضاف إلى ذلك أن محمد على ضحى بإبراهيم فى عام ١٨٠٦ ليكون رهينة بالآستانة لدى السلطان حتى يسدد أربعة آلاف كيس كان الباب العالى قد فرضها عليه حتى يؤكد إخلاصه للآستانة وكان يمكنه أن يرسل طوسون بدلا منه.

يضاف إلى ذلك أن ميل محمد على الواضح لابنه طوسون وحبه الشديد جعله يفضله على إبراهيم حيث عقد له لواء الحملة على الحجاز فى عام ٨١١ دون أخيه الأكبر، وكان عمره وقتئذ ١٧ عاما ويصغر إبراهيم بأربع سنوات.

ومما زاد من شكوك بعض المؤرخين فى هذا الموضوع أن خطابات إبراهيم ومراسلاته إلى محمد على كانت تتميز بالكثر من الحياء الذى يندر أن يحدث من الابن لأبيه، فكان إبراهيم لايذكر اسمه فى مراسلاته إلى محمد على إلا مقترنا بكلمة عبدكم، كما أنه كان يفضل ألا ينسب لنفسه الفضل فى فعل قام به، بل كان ينسب كل الفضل إلى محمد على.

أدلة إثبات

وعلى الرغم من تعدد الروايات بأن إبراهيم لم يكن ابن محمد على بل كان ابن قرينته من بعل سابق فهناك العديد من الأدلة التى تدحض هذه الأقوال وتؤكد أن ابراهيم باشا كان ابنا من صلب محمد على وأقوى الأدلة على ذلك خطاب تم العثور عليه فى القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية كان محمد على قد أرسله إلى إبراهيم أثناء توجهه فى مهمة عسكرية بالسودان أوضح فيه مدى حبه له، وتقديره لجهوده وإخلاصه وتفانيه بقوله: «ولدى إنى أحبك حبا لايقل عن حبى لعينى وروحى، فإذا ما عرضتك إلى هذه المتاعب الجمة، وأقصيتك عن وطنك، فذلك لكى نستطيع أن ننال جميعا من المزايا، ما يرفع شأننا، ويعلى قدرنا».

وإلى جانب ذلك فقد ارسل «بات كامبل» Pat. cambell القنصل البريطانى العام فى مصر إلى وزارة الخارجية البريطانية رسالة لاتترك مجالا للشك فى بنوة إبراهيم فذكر أنه عندما رأى بعض المندوبين الفرنسيين يرددون أن إبراهيم لم يكن إلا ربيب محمد على فإنه سأل محمد على هل إبراهيم باشا ابنه حقا أم هو ابن زوجته التى أنجبته من زوج آخر؟ فأجابه الباشا أن زوجته الأولى رزقت منه بخمسة أبناء ولدوا كلهم فى «قولة» موطنه وموطن زوجته، وأن أكبر أبنائه انثى، وأن إبراهيم باشا

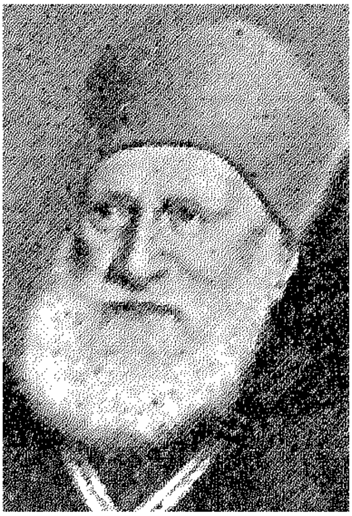

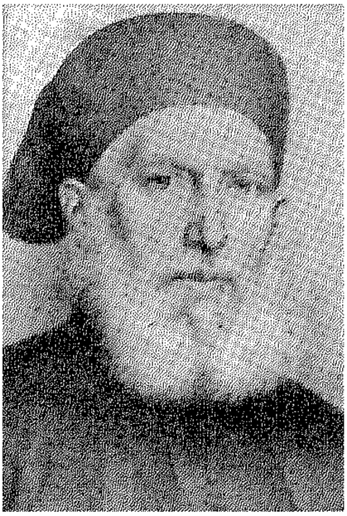

محمد على وإبراهيم . ملامح مشتركة تدحض الافتراءات !

ثانى هؤلاء الأبناء.

كما ذكرت الأميرة شويكار وهى من أسرة محمد على، ومن العارفين ببواطن أمورها، ذكرت فى كتابها المعنون «بلادى، تجديد مصر – محمد على» Mon Pays, La Renovatian de "L'Egypte Mohammed Ali أن متصرف قوله زوّج محمد على من قريبة له، ثرية كان يكفلها وقد رزق محمد على من زوجته هذه بخمسة أبناء ثلاثة ذكور وبنتين وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل ونازلى وتوحيدة. كل ذلك دفع أحد المؤرخين الثقاة وهو المؤرخ الإنجليزى «هنرى دودول» Henry Dodwell مؤلف كتاب مؤسس مصر الحديثة The Founder of Modern Egypt إلى دحض فرية أن إبراهيم لم يكن ابنا لمحمد على فقال «زعموا أن إبراهيم ابن زوجة محمد على الأولى من زوجها السابق وهذا زعم باطل».

يضاف إلى ذلك أن المؤرخ «عبدالرحمن الجبرتي» الذى كان يقيم بالقاهرة ويسجل الحوادث التى يشهدها بعينيه يوما فيوم فى كتابه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ويعتبره المؤرخون من أصدق من كتبوا عن عصر محمد على لم يشر من قريب أو بعيد أو يشكك فى بنوة ابراهيم أو فى علاقته بمحمد على، ولو كان هذا الادعاء حقيقيا ما تردد الجبرتى فى ذكره.

أمور واضحة

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين فى حقيقة هذا الأمر فإن هناك أمورا واضحة للعيان تثبت أن إبراهيم كان

ابنا لمحمد على ومنها أن ابراهيم كان شديد الشبه بمحمد على وقد أكد ذلك قنصل بريطانيا في الإسكندرية عام ١٨٣٠ بقوله «من الشائعات الرائجة أن إبراهيم ليس ابن الوالى بل متبناه أو مملوكه، ولكن ما من أحد رآهما إلا وجدهما مثيلين، وأهم ما يستلفت النظر قصر أذرعهما الشديد»

كما أكده الأمير عمر طوسون في كتابه «الجيش المصرى البرى والبحرى» بقوله «إن من يرى الإثنين يجد الشبه التام بينهما لاسيما في قصر الذراعين».

يضاف إلى ذلك أن الوثائق الرسمية التي تتعرض لسلسلة نسب محمد على تذكر أن أولاد محمد على المولودين من زوجته «أمنة هانم» هم على التوالى توحيدة وإبراهيم وأحمد طوسون وإسماعيل وخديجة!! ولو كان الباب العالى يعلم حق العلم أن إبراهيم ليس ابنا لمحمد على لما سمح له بتولى عرش مصر في سبتمبر ١٨٤٨م عندما اختلت قوى محمد على العقلية، ولما اعترف بتعيين إسماعيل واليا على مصر في عام ١٨٦٣م وهو ابن إبراهيم وأكبر أفراد الأسرة العلوية بعد سعيد باشا، ولما تم اعتبار أبناء وأحفاد إبراهيم ورثة شرعيين لهم حق خلافة محمد على الذى منح حكم مصر الوراثى في ظل فرمان ١٨٤١م، ولو كان أمر هذه الشائعات صحيحا فإن سلسلة خلافة حكم مصر من إسماعيل حتى فاروق الأول تصبح غير شرعية.

بواعث هذا الجدل

والحقيقة أن الذى أثار هذا الموضوع وأقام الضجة حوله هم فرع أسرة الأمير «عباس حليم» الذي ينحدر من صلب البرنس حليم بن محمد على الذى لم يرتق عرش مصر رغم أحقيته في ذلك بصفته أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا حسب فرمان ١٨٤١م، ولكن نظرا لقيام الخديو إسماعيل بتغيير هذا الفرمان والذى يقضى بأن يئول حكم مصر إلى الأكبر فالأكبر من ذرية محمد على فقد تبدل هذا النظام بعد صدور فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ فأصبحت وراثة العرش في ذرية إسماعيل، وبناء على ذلك تولى توفيق أريكة الخديوية بعد عزل أبيه، ومع ذلك فقد ظلت آمال البرنس حليم وأسرته في اعتلاء عرش مصر قائمة، ونتيجة لذلك اشتد الصراع بين فرعى الأسرة العلوية، وأثيرت مسألة التشكيك في نسب إبراهيم لمحمد على في محاولة للمطالبة بعرش الخديو عباس الثانى الذى كان يعيش منفيا في ألمانيا انتظارا للعودة لحكم مصر.

وعلى أى حال، وبالرغم من كل

تطابق فى الشكل والأبعاد الجسمانية يصل إلى حد التوأمة بين محمد على وإبراهيم، واتفاق في المشروع العسكرى والحوار مع سليمان الفرنساوى

ماقيل فقد كان إبراهيم باشا قائدا عسكريا يشار إليه بالبنان، جاهر علنا بأنه ينوى إحياء أمجاد العرب، وإعطاءهم حقوقهم، وإسناد المناصب إليهم، وأنه ليس تركيا وإنما جاء إلى مصر صبيا، وأن شمسها مصرته، وغيرت دمه وجعلته دما عربيا، كما كان يرفع جنده من المصريين إلى مرتبة الكرامة الإنسانية والوطنية ، وحاول ترقيتهم إلى مرتبة الضباط لولا اعتراض أبيه، ومنحهم الشعور بقوتهم واستنهض عزتهم التى أذلتها قرون العبودية، وتحدث عن عظمة مصر فى العديد من المناسبات فقد وقف أمام حصون عكا فى عام ١٨٣١ قائلا: «هدفى مزدوج: أولا صيانة شرف مصر الخالدة، واستعادة مجدها التليد». ■

أوراق مصرية
إبراهيم باشا

أيام إبراهيم باشا الأخيرة

بقلم
د. يونان لبيب رزق

كثير من الصور تستقر فى العقل الجمعى للشعوب تكون مهمة المؤرخين بعدها التصديق عليها ، بإضافة بعض التفاصيل أو إلقاء بعض الظلال ، غير أن الصورة تبقى على حالها ، خصوصا عندما يتعلق الأمر ببطل قومى ، فالشعوب دائما فى حاجة إلى مثل هذا البطل .

من هذه الصور صورة إبراهيم باشا بن محمد على ، الرجل الذى ارتبط اسمه بأغلب النجاحات العسكرية التى أحرزتها مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بدءا من السودان ومرورا بشبه الجزيرة العربية وانتهاء بالشام ، والذى لا يملكه أى مصرى حتى هذه اللحظة من الشعور إلا الفخار أن أحرزت بلاده كل هذه الانتصارات ، وبجيش من الفلاحين ، خاصة في الشام ، درة فتوحات الرجل ، والتى كسر فيها أنف الدولة العثمانية ، وكاد أن يحتل عاصمتها ، لولا تدخل القوى الأوربية فى طليعتها بريطانيا العظمى ..

لعل هذا الشعور هو الذى أدى فى النهاية إلى أن ينصب المصريون تمثال الرجل فى شارع من أهم شوارع القاهرة، والذى لم يجرؤ أى نظام على المساس به ، رغم تعاقب العهود واندثار العهد الملكى برمته.

ورشة نجارة من عصر إبراهيم باشا ◄

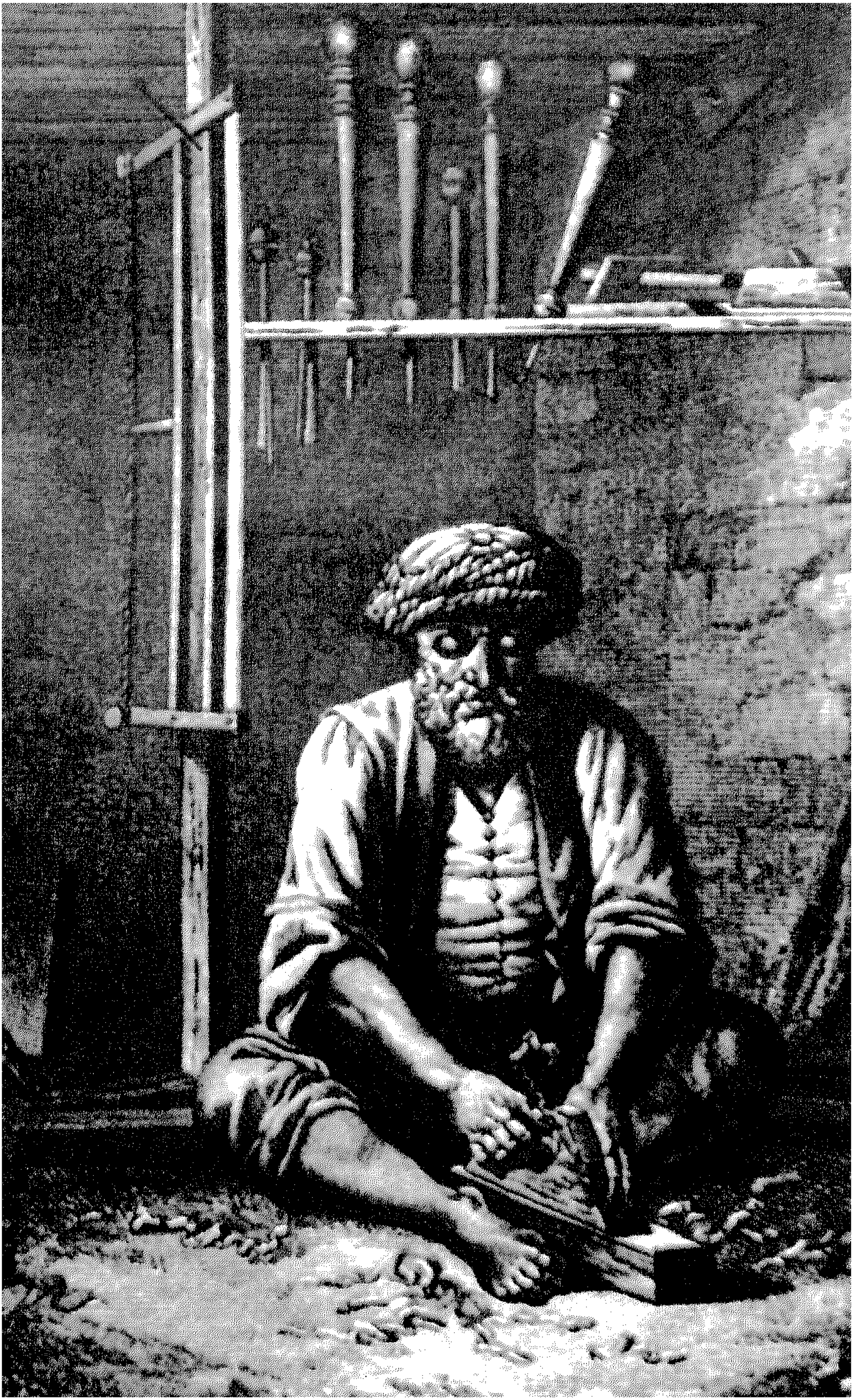

وهذا الاحتفال الذى أقامته «الجمعية الملكية للدراسات التاريخية» عام ١٩٤٨ بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاة الرجل والذى صدر فى كتاب نفيس تحت عنوان «ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ - ١٩٤٨» والذى ضم عددا من الأبحاث لكبار المؤرخين فى ذلك العصر ، شفيق غربال ، عبد الحميد البطريق ، محمد أحمد حسونة ، أحمد الحتة ، زكى رستم ، عبد الرحمن زكى ، والذى أبرز إنجازات الرجل فى شتى الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية .. هذا الاحتفال إذا ما دل على شئ فإنه يدل على التقدير الذى حظيت به هذه الشخصية الكبيرة ، التى بقيت فى الذاكرة حتى بعد مائة سنة من وفاته .

التقدير حيا وميتا

ومع التسليم ، وعلى ضوء المنجزات التاريخية لإبراهيم باشا ، أن الرجل يستحق الاحتفاء ، فإنه ينبغى ألا ننسى أنه بينما لم يحكم أبناء محمد على ، عباس وسعيد ، سوى خمسة عشر عاماً (١٨٤٨ - ١٨٦٣) فإن إسماعيل بن إبراهيم باشا وأبناءه وأحفاده حكموا الفترة الباقية من عصر الأسرة العلوية والتى ناهزت التسعين عاما بعد أن امتدت حتى ١٩٥٣ .. عام إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية بمعنى أن الرجل ظل يفرض نفسه على وعى المصريين حيا وميتا!

لكل الأسباب السابقة وقرت صورة إبراهيم باشا الكبير فى الوجدان الوطنى العام .. البطل القومى الذى لا يباريه بطل آخر ، فى التاريخ الحديث على الأقل ، وهو أمر طبيعى عند الشعوب المتعطشة لعبادة البطل!

غير أن مثل هذه الصورة تفتقر أحيانا إلى تغافل البعد الانسانى فى الشخصية محل التقدير ، بكل ما يحوط بها من مشاعر تتراوح بين الجرأة المتناهية والمخاوف اللانهائية ، وبكل ما يتصل بها من ظروف وعلاقات حتى مع أقرب الناس إلبه ، ثم الأحوال الشخصية ، من صحة ومرض وعلاقات مع المحيطين به من الحريم أو المماليك، هذا فضلا عن روح العصر التى كانت تبيح للحاكم الشرقى أن يزهق روح أى من رعاياه دون مراجعة أو مؤاخذة ، والتى تبدو لنا بعد مرور نحو نصف قرن أعمالا متخلفة أقرب إلى الوحشية !

وقد حدث فى أثناء مراجعتنا للترجمة العربية التى قام بها الباحث «جارو روبير طبقيان» لمذكرات نوبار باشا التى كان قد تم نشرها فى بيروت عام ١٩٨٣ بمقدمة لمريت غالى بك ، أننا عثرنا فى فصلها الخامس الذى تعامل مع الفترة القصيرة جداً التى تولى خلالها إبراهيم باشوية مصر بعد مرض أبيه العضال ، والتى لم تتجاوز الستة شهور ١٣ يونيو - ٢٠ نوفمبر ١٨٤٨ ، أننا وجدناها تقدم لوحة إنسانية مدهشة ، ليس لإبراهيم باشا فحسب ، وإنما للعصر كله ، ولطبيعة العلاقات السائدة بين كبار رجال الدولة بمن فيهم أسرة محمد على .

شاهد عيان

وأهمية مذكرات نوبار باشا فى هذا الجانب بالذات أنه الرجل الذى كان قد خصصه محمد على لصحبة إبراهيم ، فكان شاهد عيان لما يجرى من الداخل، وبغض النظر عن تعبيره عن مشاعره الشخصية فى بعض المواقع ، وهذا أمر طبيعى فى كتابة المذكرات ، إلا أنها اتصفت بقدر كبير من الموضوعية ودقة التصوير ..

ودعونا نقرأ هذا الفصل الذى قدم هذه اللوحة بما لها وبما عليها ، ودعونا لا ننزعج من بعض ما فيها أو نتصور أن فى هذا إقلالا لشخصية صاحب السيرة ، أو طعنا فى رمز من رموز الوطن ، فالمطلوب دائما التعامل مع الحقيقة التى تؤكد أن هناك دائما فى التاريخ الوجه والوجه الآخر !

محمد على تصيبه الشيخوخة ، غير قادر على الحكم الأمر الذى يدفع البعض إلى المطالبة بالوصاية على الحكم – ابراهيم يرفض الفكرة – يقرر الذهاب إلى القسطنطينية لطلب الولاية – زيارته للسفير البريطاني السير STRATFORD GANNING ستراتفورد كانينج – يحصل على الولاية فى ١٣ يونيه ١٨٤٨ – يعود إلى مصر – تفاقم المرض لدى إبراهيم أثناء السفر يسبب له موجات من ارتفاع الحرارة التى أرعبت كل من حوله – نوبار وحده ينجح فى تهدئة إبراهيم والترويح عنه بالحديث عن حملاته العسكرية الظافرة وعن انتصاراته الحربية – نوبار يمضى الليالى فى قمرة إبراهيم يهدئ من روعه حتى الوصول إلى الإسكندرية – بعد العودة إلى القاهرة إبراهيم يقيم فى القصر العالى ثم ينتقل للإقامة فى القلعة.

– محمد على يعيش معزولاً فى قصر شبرا – عباس الوريث المنتظر يخشى إبراهيم ويسافر للإقامة فى الحجاز – آخر أيام إبراهيم وساعة احتضاره بين أذرع نوبار فى اليوم الثانى والسبعين بعد عودته إلى القاهرة كما قالت التكهنات من قبل.

السلطة لا الوصاية

ما إن وصلنا إلى القاهرة فى إبريل ١٨٤٨ حتى بدأت المشاكل والصعاب .. لم يكن فى استطاعتنا إعلان محمد على مجنوناً ولم يكن أيضاً من الممكن الاعتراف بسلامة قواه العقلية . لذلك قررنا عدم تغيير أى شئ (ظاهريا) فى سير الأمور فقط كان على النظار ورؤساء الدواوين اللجوء إلى إبراهيم لتلقى الأوامر الرسمية أو عرض أفكارهم ومقترحاتهم عليه . طرحت أيضاً فكرة تكوين مجلس وصاية يرأسه إبراهيم إلا أن الأخير رفض هذا الأمر .

كان يريد من ناحية السلطة الفعلية وليس الوصاية ، ومن ناحية أخرى كان يخشى فكرة شفاء والده ويجعله يدفع ثمن كل خطوة من شأنها أن توليه رسمياً السلطة فى البلاد ، وكان محمد على سيعتبرها اغتصاباً للسلطة . بيد أن إبراهيم كان يفكر فعلاً بحكمة لأن تكوين مجلس وصاية كان يستلزم تأييد وموافقة الباب العالى كى يصبح شرعياً ويعترف به ممثلو القوى العظمى فى مصر . كما كان يمكنه أيضاً استغلال الموقف وتقلد السلطة دون النظر إلى مجلس وصاية أو غيره، لكن هذا أيضاً كان يستلزم تأييد وموافقة الباب العالى . لكن هل سيعطيه الباب العالى ما يريد أم أنه فى ظل الأوضاع الراهنة

ستقترن موافقته ببعض الشروط التى ستحط من شأنه أو يدس فى فرمانه بعض هذه الجمل المألوفة لدى الدبلوماسية التركية، وتستخدم بعد ذلك كذريعة للتدخل فى شئون مصر ؟ كان إبراهيم يرى الإجابة فقط فى ولاية تعطى له بشكل حاسم من قبل الباب العالى تؤهله للحكم فى نظر الشعب والقوى الكبرى .

لكن ومن زاوية أخرى كانت وفاة والده ستسمح له بتقلد الحكم تلقائياً دون انتظار القسطنطينية أو الذهاب للبحث عن الولاية التى تكفلها له فرمان ١٨٤١ فى حياة والده بعد المطالبة بها. وكان من الصعب القيام بمثل هذه الخطوة عن طريق المراسلات ' فهذه الطريقة لم تكن تناسب مزاج إبراهيم على الإطلاق فلم يكن يريد سوى أن يتم العمل دون معوقات من أى نوع...

إذن لم يكن أمامه أى مجال سوى الذهاب إلى القسطنطينية لطلب الولاية لكن كيف الذهاب إلى القسطنطينية والإفصاح عما يرمى إليه من وراء هذه الزيارة ؟ كان يجب العثور على حجة للسفر ... لو تلقى دعوة من السلطان سيكون الأمر مختلفاً تماماً لكنه لم يكن يجرؤ على إثارة مثل تلك المسألة حيث لم يكن له أى أمل فى الموافقة وكان يعرف تماماً أن الباب العالى يخشاه ويشحذ كل إمكانياته للتخلص منه وإبعاده عن الساحة.

حجة للسفر

وعندما كانت إرادته المهزوزة تتردد فى اختيار أى من الحلول السابقة ، كان إبراهيم يوما يهم بالخروج من عند شقيقته نازلى فى قصر محرم بك عندما وضع أمامى منديله ملوثاً بالدم. ولم يكن يريد أطباء لكن بطريقة أو بأخرى أرغمته على الذهاب للطبيب كلوت بك.

وجد الأخير أن الحالة عضال وبصفة شخصية وسرية صرح لى بأنه يعتقد أنها إصابة قوية فى الرئة . ظل هذا الحدث سراً، أما بالنسبة للنزيف ، فقد توقف بفضل الدواء الفعال الذى وصفه كلوت بك .

أثناء هذه الأحداث انتشر وباء الكوليرا فى الإسكندرية بشكل مفزع ومفاجئ فى الحال اتخذ إبراهيم قراره إذ وجد الحجة المثلى التى يبحث عنها للذهاب إلى الأستانة، فأصدر أوامره بتجهيز السفينة الحربية الوحيدة الباقية من الأسطول الذى كونه محمد على.

ولكى يصدق الجميع أن الغرض الوحيد من وراء سفره هو تفشى الوباء ، أرسل أولاً أبناءه مصطفى وأخاه الصغير محمد على على ظهر يخت شراعى وأمر قائدها بإلقاء الهلب بين جزيرة رودوس والإسكندرية دون الرسو فى أى ميناء أياً كانت الأسباب..

فى لحظة الصعود على متن السفينة دعا إبراهيم كياميل باشا لاصطحابه ، رفض كياميل باشا الذى يبدو أنه كان يحس بالغرض من وراء هذه الرحلة مما دعا إبراهيم إلى إبداء ضيقه الشديد لهذا الرفض . تركنا الإسكندرية فى الطريق إلى جزيرة رودوس : حسن بك طبيبه الخاص ، بيدان BEDAN بك وأنا كنا الثلاثى الوحيد المكلفين بصحبته.

عند وصولنا إلى رودوس كانت أول سفينة رآها إبراهيم فى الميناء هى اليخت الشراعى المصرى الذى يحمل أبناءه ، فقبض على قبطان اليخت الذى حاول أن يتأسف لعصيان أوامره مراراً معللاً ذلك بأنه رضخ لضغوط الأمراء الصغار إلا أنه تم تقييده على ظهر مدفع

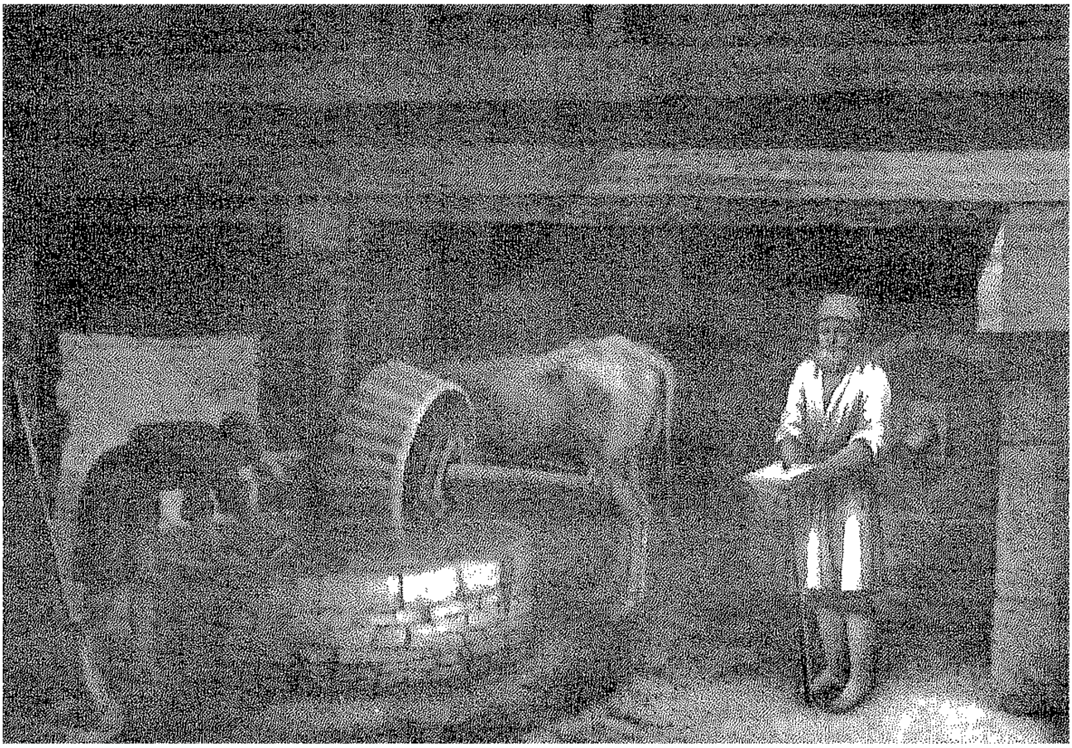

عصر الزيوت .. من الصناعات التى انتشرت عهد ابراهيم باشا

وتلقى ٣٠٠ جلدة.

بعد هذا الحادث تجرأ أحد المماليك وسها عليه أن يقدم له طاقم أسنانه الصناعية ، أيضاً تم تقييده على ظهر مدفع وتلقى نفس المعاملة الوحشية . كان المسكين قد أغمي عليه منذ مدة وكف عن الصياح عندما ذهبت إلى إبراهيم أرجو العفو عنه فكان رده «إذهب ، إذهب» كان إبراهيم فى حالة مخيفة جداً إلى درجة أننى خفت وظل المملوك بين الحياة والموت لمدة ثمانية أيام.

بعد هذه الأحداث عادت لإبراهيم حالات تقيؤ الدم من فمه ، فتم استدعاء طبيب مخضرم من رودوس أكد لنا أنه يعرف أن ثمة مكانا ما على شواطئ جزر الكارامان CARAMANIE لا يستطيع تحديد موقعه جغرافيا بالضبط حيث توجد عيون مياه كبريتية . وظناً من إبراهيم أن هذه المياه قد يكون تأثيرها عليه هو نفس تأثير المياه التى عولج بها فى مدينتى فرن VERNET ولوكسى LUCQUES فكان على أن أذهب للبحث عن هذه العيون الصحية ، لكن أين ؟ وكيف ؟ لا أعرف . أعطيت الأوامر بناء على هذا لقبطان السفينة بتجهيز القوارب ، لكن إبراهيم وجد أن القبطان قد أخذ كثيراً من الوقت لتنفيذ هذه الأوامر فقال لى : «اذهب لتستفسر عن سبب بطء التحضير» . رد على شاهين القبطان قائلاً : «بحق السماء إنكم ذاهبون إلى عرض البحر حيث ستمكثون لمدة من ثلاثين إلى أربعين ساعة وربما أكثر من يدرى للوصول إلى هدفكم؟ أليس من المفروض أن أعد للجميع المؤن اللازمة للرحلة وأطعم البحارة ».

حملت الرد إلى إبراهيم فقال لى : «ليس هذا ما فى الأمر، إن شاهين مملوك

أبي إنه يريد موتي، إسمع أنت ولا تنس هذه الكلمات عندما تسمع شخصاً يتحدث إليك أو يحاول اتخاذ تصرف ما معك توقع منه سوء النية في كلامه وتصرفاته . هكذا دائما تتحاشى الوقوع في الخطأ وتكون على صواب». على هذا أمر بإلغاء تجهيز القوارب وكان هذا الأمر قد بعث بالسرور في قلوب الجميع لأن الطقس كان سيئاً وكان تمسكه بالإبحار من أجل هذه المهمة ربما سيكون سببا في عدم بلوغ أي منا لهدفه.

انتظار وترقب

ظللنا في خليج بحر رودوس لفترة ربما كان ينتظر إبراهيم خلالها الأخبار من الإسكندرية في الوقت الذي رأينا فيه باخرة تابعة للبحرية التركية تقترب منا وعلى متنها كبير صرافي محمد على في القسطنطينية وبعد مداولات طويلة مع إبراهيم عاد من حيث أتى وفي صباح اليوم التالي أبحرنا صوب القسطنطينية . كانت المجيدية MEDJIDIEH يخت السلطان في انتظارنا على مدخل الدردنيل صعدنا على متن اليخت وفي مساء اليوم التالي وصلنا إلى القسطنطينية عبر مضيق البسفور حيث كان من المقرر أن نبقى فيه لفترة نمضيها في الحجر الصحي مما جعل إبراهيم يشعر بإهانة شديدة دفعت الأميرال الكبير إلى محاولة التفاهم مع إبراهيم .

فكان رد إبراهيم : «لو كنت أعلم أن هذه سوف تكون طريقتكم في التصرف لكنت قد جئت بسفينة الحرب وكنا سنرى ما يحدث». وعلى هذا تقرر أن يبقى تحت الملاحظة الطبية لمدة ٤٨ ساعة في قصر TCHERAGHAN تشيراغان الصغير . بعد انتهاء إجراءات الحجر ، توافد الوزراء وكبار رجال الدولة والنبلاء جميعهم للترحيب بإبراهيم وتقديم فروض الاحترام له.

لم تكن تصرفات إبراهيم هي نفسها التي كان يتحلى بها في بلاط فرنسا أو إنجلترا . كان يعامل زائريه برعونة ، ويرفض أن يتقيد معهم بأصول ولغة الدبلوماسية المتعارف عليها في الباب العالي التي تساير تقاليد البلاط السلطاني.

كانت مقابلته مع السير ستراتفورد كانينج STRATFORD GAN-NING الحاكم الفعلي للإمبراطورية الذي كان يرتعش أمامه وزراء الدولة العثمانية قد تخللت بعض مراحلها منعطفات صعبة وسيئة حيث كان كانينج مصراً على ألا يتجاوز عدد جنود الجيش المصري ما نصت عليه الأرقام في بنود فرمان ١٨٤١ ، فرد عليه إبراهيم · «لدى ستين ألف رجل مسلحين وأعتزم الإبقاء عليهم وإن رأيت أن هذا العدد لا يكفي لضمان أمن مصر وترابها سوف أزيد عددهم ».

بيد أن كانينج كان مصراً على موقفه مما دفعه لأن يقول لإبراهيم : «كم من القوات تحتفظ بها بريطانيا في مالطة ؟- وأضاف - مع الأخذ في الاعتبار أن مالطة ممتلك بريطاني والملكة هي حاكمتها ؟». فقال له إبراهيم : «كل هذا جيد لكنني أحمل في يدي مفاتيح مصر وسوف أعرف كيف أحتفظ بها». بيد أن هذه المحادثات التي ظلت على هذا المنوال انتهت بطريقة أفضل مما كنت أتوقع .

مصير الأغبياء

كنت أرى إبراهيم إلى حد ما يشعر بالقلق إلا أنه لم يبح لي بشئ ولم يتحدث معي عن أي من مخاوفه لكني سمعته يقول يوماً وكأنه يتحدث إلى نفسه : «سوف

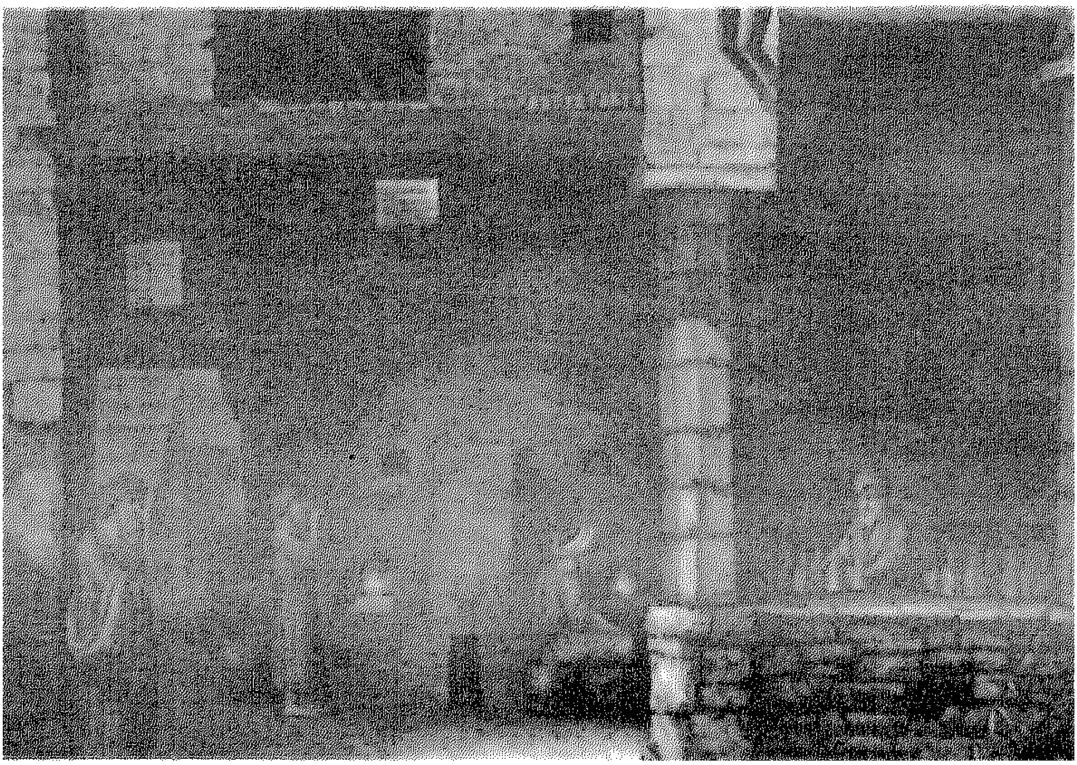

كان لصناعة الزجاج أهمية كبرى مع انطلاق النهضة الصناعية

ألقى مصير الأغبياء الذين لا يعرفون كيف يتبعون النصيحة الجيدة». وتذكرت عندما قال هذا نصيحة ملك فرنسا لويس فيليب التي حذرته من السفر إلى القسطنطينية .

كان هناك بالتأكيد أمر يشغل باله وإن كان قلقه هذا لا يظهر أمام أعين من حوله في أى مظهر من المظاهر الخارجية تبدو عليه أو على ملامحه . لكننى كنت قادراً على الشعور بقلقه هذا بالرغم من هيئته الهادئة . بالفعل كان قلقه بسبب أخبار عن تردد الباب العالى فى منحه الولاية التى كان يطالب بها فى حياة أبيه حيث طرحت عليه قبول منصب الحاكم العام فى مصر دون ولاية . رفض إبراهيم ، لكن ما العمل فى حالة إصرار الباب العالى على هذا الاقتراح ؟ ألم يكن هو من يملك كل مفاتيح هذه اللعبة ألم يكن هو تحت رحمة الوزراء الأتراك الذين فى إمكانهم الاعتراض على عودته إلى مصر ؟ وكان يقول : «لا حاجة لى فى أن أبرر رفضى هذا سوف أتدبر أمرى فى مصر» . فى حين أن الكل كان يعتبره خائنا للدولة (العثمانية) ومتمرداً سابقاً خارجاً على القانون ورجلاً خطيراً يمكنه أن يخلق المشاكل مجدداً لتركيا . كان إبراهيم يعلم كل هذه الأفكار وأصبح الموقف غامضاً للغاية...

لكن لحسن الطالع جاء عراف القصر ليخرج الجميع من هذا المأزق وهذه الحيرة، ليعلن أنه بعد استشارة الكواكب كان الرد أن إبراهيم سيتوفى قبل مرور ستة أشهر ، وكانت هذه النبوءة تتفق مع ما أعلنه أيضاً طبيب القصر النمساوى المكلف برعاية إبراهيم ، فبعد أن قام بفحصه تبين له أن إبراهيم كان يتقيأ الدم من فمه نتيجة إصابة خطيرة فى الرئة.

ومن ثم فقد تقرر منحه الولاية وفقا لبنود فرمان ١٨٤١ ، بل إنه أعفى من مشقة المرور بالمراسم التقليدية ومنح الولاية فى (١٣ يونيه ١٨٤٨) .تركنا القسطنطينية صباح اليوم التالى بعد حضور الوزراء وكبار رجال الدولة لوداع إبراهيم الذى ودعهم قائلاً: «أترون هذه الأعمدة ؟ لقد أصبحت أطلالاً بينما أنا وأبى زرعنا فى مصر عشرة ملايين شجرة أنتم على العكس خربتم ما حباه الله لكم».

الوالى المريض

تركنا اليخت السلطانى فى عرض الدردنيل لنصعد على متن السفينة الحربية المصرية التى أبحرت بنا باسطة كل أشرعتها صوب رودوس .

فى حوالى الساعة الرابعة من بعد الظهر كنت بمفردى على سطح السفينة عندما لحق بى أحد مماليك إبراهيم ليقول لى : إنه (أى إبراهيم) يبحث عن كالوست «وكيل أعماله فى القسطنطينية» ويكاد يفقد صوابه حيث يقول إن كالوست خدعه وغالطه فى صفقة الفراء، فقلت له (أى المملوك) إن كالوست ظل فى القسطنطينية بناء على أوامرك لكنه (أى إبراهيم) يرفض أن يصدق ويدعى أنه مختبئ فى مخازن السفينة وطلب منى إحضاره وإلقاءه فى البحر . بعد إبلاغى بهذه المعلومات تركنى المملوك وذهب من حيث أتى . أصبح هذا الخبر مصدر قلق لى من المؤكد أن إبراهيم كان يمر بحالة من حالات الحمى الشديدة . وعند امرئ مثله تكون مثل هذه الحالات مصدر خطورة كبيرة لأنه من الممكن بمنتهى السهولة والبرود أن يرتكب جريمة وهو فى وعيه . لكن عندما يفقد عقله فإنه يكون قادراً على عمل أى شئ.

كنت على دراية تامة بحالته النفسية ، كان خائفاً على حياته ويعانى من خشونة الصوت نتيجة التهاب حباله الصوتية من جراء القئ المستمر . ففى القسطنطينية أمضى لحظات كلها قلق لكنه لحسن الحظ استطاع الخروج من هذه المصيدة التى أوقع نفسه فيها وتمكن من الهروب من هذا الخطر بينما كان خطر آخر يلوح له فى الأفق وهو أكبر من الأول ويطارده منذ طفولته وهو خوفه إلى حد الرعب من والده. لأنه بالفعل إذا وصلنا إلى ميناء الإسكندرية ووجدنا محمد على قد شفى تماماً من مرضه ، فإن ذلك سيعنى أن إبراهيم سيلقى مصيراً مظلما ولن ينجيه لا قبطان بك ولا كل مماليكه . لم يكن إبراهيم يهذى فى هذا الشأن ولا فى إحساس الخوف والكراهية التى يشعر بهما تجاه والده وكان يعرف تماماً أنه فى حالة شفاء محمد على كان ضياعه أكيد ، لا ولاية ولا فرمان ولا أى شئ كان يمكن أن يشكل لمحمد على اعتباراً من أى وزن.

لكن على العكس إذ وجد أباه على نفس الحالة التى تركها عليه قبل السفر غير قادر على القيام بأعباء الحكم والقبض على السلطات التى كان يمارسها ؟ ألم يكن من الممكن أن يستغل لحظة من لحظات استقرار حالة أبيه الذهنية ليعرضه على الشعب والعلماء والجيش والضباط والجنرالات الذين شاركوا فى الحروب تحت قيادته هو إبراهيم ؟ لكن من كان سيقبل فكلهم كانوا تقريبا مماليك أبيه ورجاله المخلصين لن يجرؤ أحد على الانحياز ضده سراً أو علانية.

سواء كانت هذه المخاوف مبالغا فيها أم لا ، لها أساس أم لا ، كنت أحس أنها موجودة فى رأس إبراهيم وكانت دائمة الحضور أمام مخيلته المتعبة والمنهكة بسبب كل هذه الأحداث ، حاضرة ليس كأحلام ولكن كحقائق .

مخاوف نوبات الحمى

كان إبراهيم أثناء نوبات الحمى التى تنتابه يلقى بالاتهامات على كالوست

الغائب وكنت أخاف أنه في يوم آخر يقوم بالتحامل على شخص آخر أو أنا نفسي المقيم معه بصفة شبه دائمة ، وهذه المخاوف كانت تتصاعد خاصة عندما تذكرت تهديده لي في قصر النيل بإرغامي على التوبة . أتوب عن ماذا ؟ عن استقلال شخصيتي التي يبدو أنها في نظر إبراهيم تعتبر جريمة لا تغتفر . في الحقيقة إن اضطرابات إبراهيم النفسية كانت تؤثر على حيث أنني كنت شابا حين ذاك . كانت الرياح مواتية وكانت السفينة تقطع عشرة أميال بحرية في الساعة.

وفي اليوم التالي تم إخطاري بأن إبراهيم هاجمته نوبة أخرى من حالات الاضطراب النفسي وكان كالوسواس دائماً وكالعادة هو من يبحث عنه ويهدد بقتله . وصلنا إلى مرتفعات رودوس وكانت الرياح مستمرة في الهبوب في اتجاه أشرعتنا ولكنها كانت تميل للبرودة وكل ساعة كانت تمر لحسن الحظ كانت تقربنا من الإسكندرية وفي حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا أنا وحسن باشا وبيدان بك نتبادل الحديث على ممرات الدور الأول عندما رأينا شرين بك قائد السفينة قادما إلينا وهو رجل شجاع كنا نحبه جميعا قال لنا في نبرة هادئة وساكنة: «لقد كلفني ال SERASKER «القائد العام » أن أقول لكم إنكم أنتم الثلاثة خونة وأنك يا حسن باشا خنته مع عباس وأنت «متجها بنظرة لبيدان بك» خنته مع أرتين بك شاراكيان» وأنت مستديراً نحوي خنته مع والده ، لكن وقبل أن تصلوا إلى الإسكندرية ولكي يسلم من أي خيانة أخرى من جانبكم سيأمر بقطع رؤوسكم ويضعها بين أرجلكم ويلقي بكم في البحر «كنت أنظر إلى حسن باشا ، فرأيت خديه قد انكمشا ووجهه قد أصابه الشحوب المفاجئ ثم نظرت إلى بيدان بك فكان وجهه في بياض الكفن . قال حسن باشا في صوت مرتعش لشرين بك : «لكنك لن تنفذ هذا الأمر إذا أعطاك إياه».

فقال شرين بك دون أن يتخلى للحظة عن هدوئه : «حسنا ! إن عدم تنفيذي للأمر لن يقدم من أمركم أو يؤخر شيئاً كثيراً لأن مساعدي الرجل الثاني بعدي سوف يلقي بي كرابع لكم في الماء» . قال هذا وسار مبتعداً مثلما جاء محتفظاً بكل سمات الهدوء الذي في العالم.

إذا قلت إن مثل هذا الحديث كان له تأثير كبير عليّ سيكون نوعاً من المبالغة، والقول أيضاً بأنه لم يؤثر على إطلاقاً هو أيضاً غير صحيح ، لكن ما أعرفه هو أنه لم يضر بي بشكل يفوق الحدود ، ربما يكون الأمر بكل بساطه له علاقة بطبيعتي . لكن كي لا أغفل شيئاً في داخلي وأبوح بكل ما فيها، ربما هذا الشعور كان لأنني لم أر إبراهيم في الميدان بالشام ولم تكن لي نفس الدوافع للخوف كما كانت لدى بيدان بك وحسن باشا.

السيطرة على الغضب

كان الاثنان لا يكفان عن النظر إلي والتساؤل بنظراتهما عن مصيرهما، فقلت لهما : «احتفظا بهدوئكما وتصرفا كما لو أن شيئاً لم يحدث فسألاني: «ماذا سوف تفعل؟ .» فقلت: «لا أعرف».

وكنت بالفعل لا أدري ماذا سأفعل ولكن الوقت كان قد حان للصعود إلى سطح السفينة وكان قراري قد اتخذ إذ كان يتعين على أن أقوم بالترويح عن إبراهيم وأن أبعد عن تفكيره هذه المخاوف التي تنتابه . باختصار كان يجب على أن أمنع حالات الاضطراب والهذيان والسيطرة عليها وعلى ذهنه . كنت ألاحظ أن إبراهيم حتى وهو غاضب كان دائماً يحول عينيه عن نظراتي،

وكان ذلك فيما يبدو يعنى أننى صاحب نوع من السيطرة عليه.

دخلت الصالون الذى كان يشغله على سطح السفينة كما كنت معتاداً أن أفعل عدة مرات فى اليوم فوجدته يفترش الأرض على فراشه يلعب لعبة المنجلة (MANGALA) مع أحد مماليكه . كانت ملامح وجهه لا يبدو عليها أية علامات للاضطراب . انتهت المباراة فقال لى إبراهيم : «أهذا أنت تعال اجلس » . جلست على خشب الحجرة على ركبتى مثنيتين بجانب حافة السرير فى المكان نفسه الذى كنت معتاداً الجلوس فيه . وبعد تبادل بعض العبارات عن الطقس وعن سير السفينة التى كانت سرعتها تقربنا من الإسكندرية دون أية هوادة ، انتقلت بالحديث معه إلى القسطنطينية وإلى الطريقة التى عامل بها وجهاء الدولة (العثمانية).

كان إبراهيم يقاطعنى ليكمل هو بنفسه الكلمات القاسية التى قالها لهذا والترحيب بذاك بشكل غير لائق، وليؤكد لى صحة كل هذا وأنه فى الحقيقة تعامل معهم بشكل سيئ.

فقلت له : «نعم إننى لم أكف عن الإعجاب بك . لكن فى نهاية الأمر لقد كنا بين أيديهم ، اعترف يا سيدى أنك ارتكبت خطأ بالتخلى عن حذرك وأنه كانت هناك لحظات كنت تأسف فيها على عدم اتباع نصيحة لويس فيليب الذى حذرك من أى سفر إلى القسطنطينية لحسن الحظ إن كل شئ تم بشكل جيد وحصلت على ولاية مصر».

هنا قاطعنى قائلاً : «بهذا الصدد إنك الوحيد الذى لم يهنئنى عند عودتى من القصر حاملاً الفرمان الخاص بولايتى ! فما معنى هذا ؟».

فقلت له . «معناه أنه بالنسبة لى أن الولاية لم تغير شيئاً ولم تزد من عظمتك شيئاً كنت بالنسبة لى وأنت الآن وستظل إلى الأبد إبراهيم الذى اقتلع DE-RIYE الدرعية من الوهابيين، الذى زعزع عرش الدولة (العثمانية) فقل لى ماذا يمكن أن تضيف الولاية من بريق إلى اسمك وقوة سلطانك الذى فى رأيى كنت تمتلك زمامه دائماً ؟ ».

تبدد المخاوف

إن تذكيره بانتصاراته وبالخطر الحقيقى الذى تعرض له فى القسطنطينية والذى نجا منه بالحصول على ما كان يرمى إليه بكل قوة كانت سبباً قوياً فى تبديد أفكاره ومخاوفه، ورد على قائلاً . «نعم ! نعم ! لقد انتزعت منهم الولاية» . واستطردت قائلاً : «إن الولاية شئ جميل . أما اليوم فينبغى أن تشفى من المرض، إن ما لديك ليس شيئا يذكر وأنا واثق أن الطبيب لاليمان LALLEMAND سوف يشفيك فى خلال خمسة عشر يوما وهذا ما سوف أفعله ، ما إن نصل إلى القاهرة سوف أكتب إليه فى أول بريد أبعث به ليأتى إلى مصر من أجل العناية بك».

أعجبته الفكرة لكن قال لى: «لا .. لا يجب أن يكتب إليه للحضور بل يكتب إليه لتذكيره بالوعد الذى قطعه على نفسه للحضور من أجل زيارة مصر».

فهمت.. كان البخيل يريد فعلاً الحصول على عناية الطبيب لاليمان LALLEMAND ولكنه كان فى الوقت نفسه يريد التهرب من دفع الأتعاب

عموما كنت دائماً أجد السبيل للترويح عنه وبالطبع السبيل لطرح أمر والده المريض على فراش الحديث، كنت أذكره دائماً أن سن والده يصبح معه الشفاء من

أمراض المخ أمراً مستحيلا، وكررت له للمرة المائة ربما ما قاله له طبيبه الخاص فى نابولى بخصوص هذا الشأن، وإن كان يتذكره جيداً لكنه دائماً كان فى حاجة إلى سماعه يتكرر على أذنيه حتى يطمئن قلبه بقدر الإمكان . كنت أبقى بجانبه إلى ساعات متأخرة من الليل تارة نتحدث عن أشياء وتارة عن أشياء أخرى كنا نتشاور فى الطقس والرياح وحساب المسافة التى تم قطعها والباقية للوصول إلى الإسكندرية وكان عندما يسمعنى أتحدث عن المستقبل بهذه الثقة المطلقة كان يحس بالاطمئنان وكانت أفكاره السوداء تتلاشى تدريجيا .

تركت مجلسه فى حوالى الساعة الواحدة صباحاً سائلاً أحد مماليكه الذين أثق فيهم وفى إخلاصهم لى أن يقول لى مهما كان الثمن إذا لاحظ أى تغير حتى ولو كان بسيطا يستجد على سيده . مضت هذه الليلة فى هدوء ، وفى صباح اليوم التالى كانت الرياح دائما فى صفنا تهب على أشرعتنا ، وكنا نقترب أكثر فأكثر من الإسكندرية. دخلت إلى إبراهيم وقابلنى بنظرة كفيلة بأن تبعث فى نفسى الاطمئنان أمضيت معه كل فترة الصباح ، أدخل وأخرج بأية حجة أتبادل معه الحديث فى أى موضوع كنت أجد أنه يصلح للترفيه عنه . كان حسن باشا يراقب تحركاتى بنظرات يغلفها القلق والتساؤل وفى كل مرة كنت أقول له : «إن كل شئ على ما يرام » . وفى كل مرة كان الرجل المسكين يعود إلى حساباته حيث كان قد تفرغ للتنجيم وقراءة الطالع يسأل القدر عن مصير إبراهيم، وذلك بطريقة يقوم فيها بإلقاء بعض الأحجار الصغيرة على الورق بشكل عشوائى ثم يقوم بجمعها متبعا بعض القواعد المركبة بناء على أخرى تؤدى فى النهاية إلى الكشف عن المستقبل، وكانت حرفته هذه تقول إن إبراهيم سيموت وهو ينزف الدم وأنه لن يحكم سوى اثنين وسبعين يوماً.

فى المساء كنت قد اطمأننت تماماً كما أن الرياح كانت دائماً وأبداً وبشكل منتظم مستمرة فى الهبوب يوم ١٤ سبتمبر ١٨٤٨، رأينا فنار الإسكندرية . وبعد ساعة كان القبطان شرين بك قد ظهر على متن السفينة وكنت أتناقش معه . كل شئ كان هادئاً، كان الموظفون قد تجمعوا فى قصر رأس التين من أجل استقبال الوالى الجديد .

حملت هذه الأنباء إلى إبراهيم الذى كان لا يزال راقداً على فراشه ثم انصرفت إلى حجرتى ونمت نوما عميقاً وأنا بكامل ثيابى ، هذا وقد ظهرت على ردود أفعال الموقف الذى مررت به وأنه أصابنى بالإجهاد وبعض من الشعور بالاضطراب .

فى صباح اليوم الثانى سافرنا إلى القاهرة على متن سفينة بخارية ولحق بنا كبار الشخصيات فى سفينة أخرى. مكث إبراهيم فى قصر النيل لبعض من الوقت حيث كان يشغل غرفة صغيرة بسبب عودة حالة تقيؤ الدم إليه. كنت أريد الكتابة للطبيب لاليمان LALLEMAND ولكنه رفض .

وبعد بضعة أيام ترك قصر النيل متجهاً للإقامة فى القلعة حيث شغل قصر الحرملك الذى أصبح فيما بعد مقرا لنظارة الحربية ورجعت أنا من أجل العمل بجواره كممرض وحاجب وأمين سر وكل شئ، وكان أخى مساعداً لى . سارت الأمور كما كانت فى الأيام العادية ولكننى كنت ألاحظ قلق كبار الشخصيات وهم يستفسرون عن حقيقة حالة الوالى الصحية.

الفرحة بالمرض

وأمام كل خبر غير سار عن صحته كنت أرى على وجه السائل علامات السرور ترتسم فى الحال . كان إبراهيم مهاباً

يخشاه الجميع وكانت سمعته وما يعرف عنه من قسوة ووحشية وصلت إلى حد جعل معه مشاعر الفرحة بمرضه الأخير ترتسم على الوجوه بشكل واضح تماماً وكنا أنا وأخى نحس بالاشمئزاز وكان الشخص الوحيد الذى لم يتركه عباس للحظة واحدة هو قبطان بك CAPTAN مملوكه. وفى أثناء مرحلة المرض الأخيرة التى كانت تنال دون هوادة من إبراهيم استغل عباس بعض لحظات الهدنة التى أخذها الوالى الجديد من المرض ليطلب منه الإذن بالسفر إلى الحجاز.

كان عباس يخشى بوصفه خليفة إبراهيم المنتظر أيه مفاجآت غير سارة. وكان الحذر يحتم عليه أن يظل بعيداً عن متناول يدى عمه المريض . اضطر إبراهيم فيما بعد إلى الانسحاب فى جناح الحريم والمكوث به وقرر الكتابة إلى الطبيب لاليمان LALLEMAD لكن كانت مسألة أجر الطبيب تشغله دائماً فاكتفى بتذكيره بوعده بالقدوم إلى مصر لزيارتها

وكان الوحيدان اللذان يسمح لهما بالدخول إليه هما أنا وأخى وبونفور BONFORT وطبيبه الخاص ديامنتى DIAMANTI وقبطان بك CAPTAN.

وعندما كنا ندخل إلى الحرملك كانت تسبقنا تحذيرات الأغاوات بس .. بس (أى البسبسة) لتهرول الحريم الموجودة فى الطرقات إلى مقارهن . كانت شقيقته ناظلى هانم المعروفة بتاريخها الدامى والشهوانى تجلس دائماً إلى جواره على حافة الفراش بينما إبراهيم كعادته كان نائماً على الفراش المفروش على الأرض .

وكنا عند دخولنا تقوم ناظلى بالتخفى فى منتهى العناية وراء ستارة سوداء كبيرة يحملها اثنان من الأغاوات لتحول بيننا وبينها . ولكنهم نسوا أن المرايا التى تكسو كل حوائط الحجرة ، كانت تعكس صورة وجهها ذى الأنف المحدب الذى يشبه منقار الصقر ، وعندما كانت ترغب فى الخروج أثناء وجودنا كنا ننبطح على الأرض وأعيننا تنظر إليها بينما تمر هى وراء الستارة السوداء التى كان الأغاوات يحملونها مفرودة دائماً يتحركون معها كلما تقدمت خطوة إلى الخارج .

الصراع بين الحياة والموت

ثم جاء اليوم الذى أخبرنا فيه الطبيب إن النهاية قد أوشكت واستمرت سكرات الموت مدة ثلاث ساعات كانت هى الصراع الرهيب بين الحياة والموت .لم يغب هذا المشهد عن عينى للحظة أبداً لم يكن إبراهيم قادراً على أن ينطق كلمة واحدة أو حتى حرفاً واحداً كانت فقط شفتاه تتحركان وأستطيع القول إننى كنت أفهم ما يريد من خلال حركة شفتيه.

كلفتنى شقيقته ناظلى بعد حديث معى من خلال فتحة كالون باب الحريم أن أسأل إبراهيم إذا كان يريد أن يسمح لها بإحضار ابنه مصطفى، رفض فى البداية ثم فى الساعة الأخيرة من حياته وافق . حضر ستة أشخاص سكرات موت إبراهيم واللحظات الأخيرة من عمره ، أربعه مسيحيين واثنان من المسلمين إلى جانب فراشه كان يقف أخى وإلى جواره بونفور BONFORT ثم ابنه مصطفى ثم قبطان بك عند مؤخرة الفراش ثم الطبيب وأخيراً أنا عند حافة الفراش فى مواجهة أخى أقوم بين لحظة وأخرى بإسناد رأس المحتضر . تنقل إبراهيم بنظراته ببطء بيننا لكن عندما وصل بنظراته إلى ابنه أغمض عينيه وكأن الألم يعتصر قلبه لأنه سيتركه لمصير مجهول ، ثم توقف بنظره لثوان عند قبطان بك CAPTAN وكانت نظرته الأخيرة لى فى يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٤٨.

بناء على نصيحة الطبيب انسحبنا جميعا وتركناه لعناية الحريم وشقيقته . كانت الساعة الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل عندما خرجنا من عنده وفى الثانية صباحاً سمعنا صرخات مدوية ، أكانت صرخات ألم ؟ أشك، كانت صرخات الحريم اللاتى كن ينتظرن لحظة خلاصه من آلامه كما كنا نحن فى الخارج ننتظر . أرسلت كما كان من المنتظر أن أفعل فارساً إلى كياميل باشا لأخبره . سرعان ما انتشر الخبر كنت أظن أن كبار رجال الدولة سوف يهرعون ويتسابقون من أجل المجئ للعزاء ، لكن يبدو أنى أخطأت التقدير فلم يهرع أحد ولم يتسابق أحد للمجئ ، بل لم يزعج أحد نفسه . صحيح ما الضرورة حتى يزعجوا أنفسهم ويقطعون نومهم ؟ إن من كانوا يرهبونه لم يعد هنا . تذكرت فى هذه اللحظة حسن بك وحساباته الفلكية على متن السفينة التى جلبتنا من القسطنطينية، كانت حساباته هذه فى منتهى الدقة توفى إبراهيم فى تمام اليوم الثانى والسبعين بعد وصولنا إلى الإسكندرية.

فى الساعة السابعة صباحاً وصل كياميل باشا ثم شريف باشا وسامى باشا ودخلوا جميعا إلى الحجرة التى كنت أشغلها فى مواجهة السلم واكتظ الدور المسحور الكبير فى القصر بالكثير من الناس ، ولكن ما كل علامات الرضا هذه التى كانت تكسو الوجوه ؟ وما كل هذه الأحاديث التى انطلقت مرة واحدة وبصوت عال كما لو كنا فى ميدان عام حتى أن كياميل باشا قال لى : «إنك الوحيد الذى أرى عينيه قد احمرت أنت الوحيد الذى بكيت» .

لا ! فى الحقيقة لم أبك يجب أن أعترف ، بل كنت منهكا بدنياً ونفسياً لدرجة أننى لم أكن قادراً على الإفصاح عن أية أحاسيس . لكن هذه السعادة التى كانت تكسو وجوه هذا الجمع المتواجد فى الدور المسحور ، هذا المكان الهائل الاتساع الذى كاد ينهار تحت وطأة كل هذه الأقدام أثارت فى داخلى إحساساً غريباً لا وصف له.

فى الوقت الذى كان فيه كبار الموظفين يجلسون فى حجرتى فى منتهى الهدوء كما لو كانوا فى يوم عادى ينادون على عبيدهم ليجلبوا لهم الغليون ، جاء بعض الأشخاص يخبروننا أن النعش كان عند مدخل القصر كان فعلاً زحاماً رهيباً هرج ومرج صاخب ، أناس يهبطون وغيرهم يصعدون الدرجات فى فوضى تشبه من يصطحب موكب عروس سعيد ، لا أناس يستعدون للسير وراء جنازة . نزل الناس من القلعة كمن يتسابقون للوصول إلى خط النهاية بخطوات سريعة وعند المنعطف الأول والمؤدى إلى شارع الموسكى .

ركب العديد من كبار رجال الدولة خيولهم تاركين الموكب حتى أنهم لم يحاولوا ذلك فى الخفاء وتبعهم فى ذلك مساعدوهم وعند المنعطف الثانى المؤدى إلى مسجد السلطان حسن انصرف الموظفون من الموكب أما من بقى من الجنازة ومن وصلوا إلى مدافن الأسرة كانوا الفلاحين حاملى النعش على أكتافهم ووراءهم عربة تبكى بداخلها نساء الأسرة . حمل النعش بشكل سريع إلى المدافن كان مشهداً قاتماً وحزيناً تغلفه الوقاحة والانحطاط لأن هذه كانت نهاية الرجل الذى ارتجف أمامه السلطان محمود على عرشه ولم ينقذه سوى تحالف القوى العظمى الأوروبية ضد إبراهيم وأوقفته على مشارف القسطنطينية التى كان شعبها المبهور به يدعو له بخالص الأمنيات. ■

ياسر عرفات ومشاهد ثلاثة

بقلم
مصطفى نبيل

ليس هذا حديثا عن الماضى، بل هو حديث حول المستقبل، وليس حديثنا عن الزعيم الراحل ياسر عرفات، ولكنه عن فقيد الشعب الفلسطينى.

وهو ليس حديثا عن الأسطورة، ولكنه حديث عن الرمز، فالظروف التى صنعت «أبو عمار» تصنع العديد من أمثاله.

وحان الوقت للانتقال من سلطة الرمز إلى سلطة المؤسسة .

إنها بعض المشاهد والذكريات، تلقى الضوء على بعض الجوانب التى مازال يكتنفها بعض الغموض.

مشهد (١) خريف ١٩٥١:
معسكر تدريب جامعة فؤاد الأول

قابلت ياسر عرفات أول مرة فى معسكر تدريب بجامعة فؤاد الأول «القاهرة حاليا»، عندما كان يتولى تدريب الطلاب على ما يطلق عليه «التكتيك العنيف»، وهو المعسكر الذى تدفق عليه المتطوعون من الشباب.

وكان عرفات يملأ المعسكر بصوته العالى وإيقاعه السريع الممتلئ حماساً، يأمر ويحرض، وتدب الحيوية فى المعسكر عند وصوله، وأيامها كان طالباً فى كلية الهندسة، يقود الطابور الذى يتولى تدريبه، إلى أعمال خطيرة، يحرضهم على القفز من أماكن عالية، وعلى اقتحام حلقة من النيران، ولا يقبل التردد من أحد.

وكان ضمن مجموعة من الشباب الذين سبق لهم الاشتراك فى حرب فلسطين، تتولى تدريب كتائب الجامعة، ثم تصحبهم إلى الجبهة والاشتراك فى معارك القتال.

وعلى الرغم من أهمية هذا المعسكر، إلا أنه لم يلق العناية الكافية من المؤرخين الذين سجلوا تاريخ هذه الفترة، وقد أقيم هذا المعسكر، بعد إلغاء الزعيم مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦، فأطلقت طاقات الأمة التى أمسكت بهذه اللحظة التاريخية، ويرجع الفضل فى إقامة هذا المعسكر إلى مدير

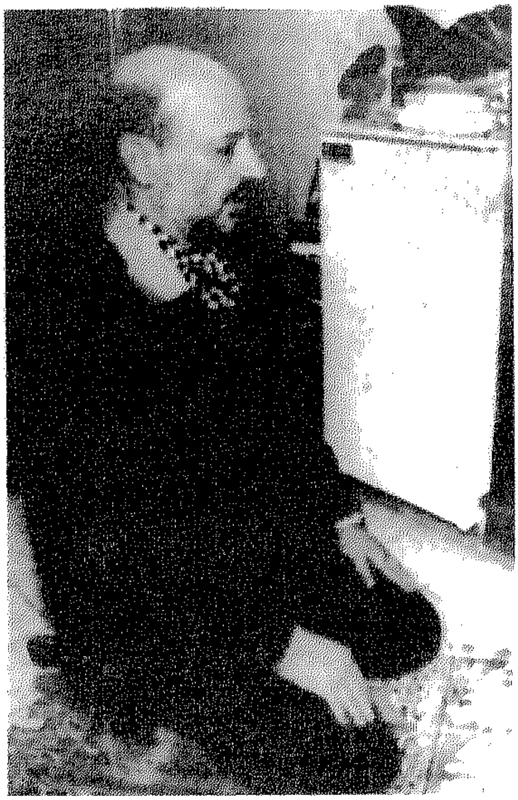

لم يهن إيمانه بالله وبعدالة قضيته يوما

عرفات مع الشاعر الفلسطينى توفيق زياد

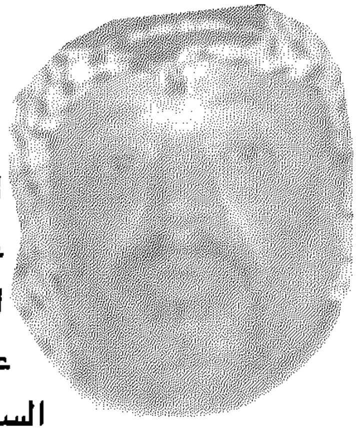

الجامعة الدكتور عبدالوهاب مورو،الذى اشترط ضرورة استقلاله عن كافة الأحزاب السياسية، وسرعان ما أقيم فى فضاء كلية العلوم، مكان قسم النبات الحالى، وقاده حسن روح طالب كلية الحقوق الذى فقد إحدى رئتيه ، عندما كان متطوعاً فى حرب فلسطين.

وكان يساهم مع ياسر عرفات فى التدريب عمر شاهين الطالب فى كلية الآداب، وأحمد المنيسى، وحسن الشافعى، وعبدالرحمن البنان، ويوسف على يوسف، وعلى صديق.. وغيرهم.

يختفى المدربون، ويشتركون فى القتال، ثم يعودون، ولم يعد عمر شاهين وأحمد المنيسى، بعد معركة التل الكبير فى ١٣ يناير ١٩٥٢، اللذان سقطا من أجل تحرير الوطن فى ذات المكان الذى وقف فيه الزعيم أحمد عرابى يقاوم جيش الاحتلال البريطانى.

تدفق على قتال المحتل الشباب من كل الاتجاهات. وهى فترة قصيرة ، غيرت تاريخ مصر، وتركت علامة بارزة فى تاريخ فلسطين، وهى لا تتجاوز أربعة أشهر، فبدأت فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ وانتهت بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢.

ارتفع خلالها الكفاح المسلح، وتلقت مصر كلها إلغاء المعاهدة بفرح بالغ وحماسة كبيرة، وأقيمت معسكرات التدريب، وتكونت كتائب الفدائيين، وتطوع عدد من الضباط الأحرار لتدريب الفدائيين، منهم عزيز المصرى وصالح حرب، والجيل اللاحق جمال عبدالناصر وكمال رفعت ووجيه أباظة وغيرهم.

***

من يومها لم تنقطع صلتى بياسر عرفات، الذى كثيراً ما التقيت به فى أوساط الطلبة العرب، واشترك كضابط احتياط فى مواجهة العدوان الثلاثى، وكان من أوائل الذين دخلوا بورسعيد عام ١٩٥٦.

ورأس خلال هذه الفترة اتحاد طلبة فلسطين، أول كيان يقوم على أساس انتخابات حرة، واشترك معه فى مجلس إدارة الاتحاد صلاح خلف «أبو إياد» وفاروق القدومى «أبو اللطف» وخليل الوزير «أبو جهاد»، وهى الخميرة التى تكونت فى أجواء الثورة فى القاهرة، وقاد جيل جديد العمل الوطنى الفلسطينى، وهى المجموعة التى شكلت حركة «فتح» فى دول الخليج بعد ذلك.

وكان يحرص على استقلاله ويتجنب خلال عمله الانضمام إلى أى حزب سياسى، ويردد: كل الثورات التى قامت فى فلسطين وئدت فى العواصم العربية، ويحرص على استقلال العمل الفلسطينى.ومن أوراقي القديمة يروى لى صلاح خلف «أبو إياد» ذكرياته عن هذه الفترة قائلا:

دائمـا كـان يحـمل سـلاحـه ، يرنو إلى المستقبل ، يحدوه الأمل أن يرفع شبل من أشبال فلسطين أو زهرة من زهراتها علم فلسطين على « القدس »

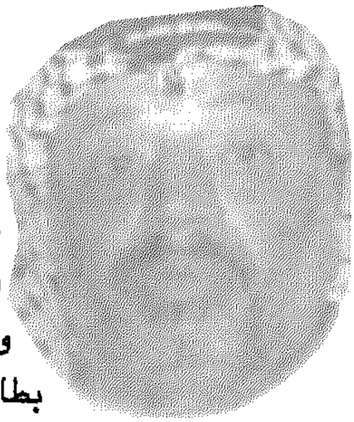

«أسرني ياسر عرفات خلال رئاسته لاتحاد طلبة فلسطين ، بطاقة ونشاط وحماسة كبيرة، وتمتعه بطاقة روحية تبث الحماس فى كل من حوله، كما جذبنى إليه ذكاء ونشاط لا يتوقف، وقد احتفظ بمكانته رئيسا للاتحاد حتى نهاية دراسته الجامعية سنة ١٩٥٦».

مشهد (٢) صيف ١٩٦٨ فى غور الأردن

كان لقائى مع ياسر عرفات فى الأردن عقب معركة الكرامة، وبعد إعلانه متحدثا رسميا لحركة فتح، تنقلنا معا فى الأغوار وهو يتفقد القواعد التى انتشرت بعد تدفق الشباب للانضمام إلى العمل الفدائى الفلسطينى.

لم يختلف ياسر عرفات سنة ١٩٦٨ عن ذلك الشباب الذى يمتلىء حماساً وحيوية فى معسكر الجامعة سنة ١٩٥١.

وبعد احتلال إسرائيل أراضى ثلاث دول عربية، تعلقت أنظار الجميع بالعمل الفدائى، حتى يسد الفراغ ويعيد الأمل، وحتى تسترد الجيوش العربية عافيتها.

استقبلنى ياسر عرفات بترحيب، وكتبت يومها فى المصور ٢٤ مايو ١٩٦٨، .. إن بقعة الضوء التى بدأت لابد أن تتسع، ومطلوب من الجميع أن يساهم فى اتساعها، ومازلت أذكر عددا من قادة المقاومة الذين صاحبوا عرفات فى جولاته، الرائد خالد وهانى الحسن، وثالثا قدمه باسم أبو الفهود أحد الخبراء العسكريين، وتبينت بعد نشر صورته أنه فهد الأحمد شقيق الشيخ جابر الأحمد أمير الكويت.

وحضرت تتويج الشاب صاحب الحيوية الدافقة، والذى عرفته فى معسكر الجامعة فى القاهرة، والذى اشترك فى حرب السويس عام ١٩٥٦، قائداً للكفاح المسلح، وهو أول من استخدم اسمه الحقيقى، فى حركة فتح التى دأبت على استخدام الأسماء الحركية.

وخلال هذا اللقاء التقطت له أول صورة بالألوان ، نشرت غلافاً للمصور.. وكان مزهوا بالصمود الذى تحقق فى معركة الكرامة، والتى اشترك فيها الفدائيون مع قوات الجيش الأردنى، وصدت هذه القوات تقدم جيش الاحتلال الإسرائيلى، وكانت كل من معركة الكرامة وقبلها معركة رأس العش، بداية الإفاقة وإعلان قبول التحدى.

وأصبحت معركة الكرامة، محطة مميزة، فقد وقعت هذه المعركة بعد تسعة شهور من هزيمة يونيو ١٩٦٧، بدأ الهجوم الإسرائيلى فى الصباح، واستمر طوال اليوم، بعدها برز اسم عرفات، وأطلق على قواته العمل الفدائى أو الثورة الفلسطينية أو الكفاح المسلح، وسيطرت فتح بعدها على منظمة التحرير الفلسطينية، ومن يومها أصبح «أبو عمار» الرمز الذى يصعب فصله عن

مع عبد الناصر فى الطريق إلى مؤتمر القمة العربى الخامس فى الرباط - ١٩٦٩

قضيته.

وفى أوراقى بعض خفايا ووقائع هذه المعركة، التى حرص رواتها على أن تظل خافية، وعلمت أيامها أن غازى عربيات رئيس المخابرات الأردنية ، أبلغ كلا من ياسر عرفات وصلاح خلف معلومات عن مصادر أمريكية ، تفيد أن القوات الإسرائيلية سوف تشن فى غضون بضعة أيام هجوماً على قواعد المقاومة فى غور الأردن.. وانتقل عرفات وخلف بعدها للقاء رئيس أركان الجيش الأردنى اللواء عامر خماش.. الذى أبلغهما أن الهجوم الإسرائيلى سيتم خلال الأيام الثلاثة المقبلة، واقترح سحب الفدائيين من غور الأردن.

وأصر عرفات على المواجهة، وعند الهجوم أمر اللواء مشهور حديثه القوات الأردنية بالتصدى للعدوان، خوفاً من أن تسيطر القوات الإسرائيلية على الكرامة ذات الموقع الاستراتيجى.

وكانت المعركة التى خرج من أتونها الكفاح المسلح قوياً، وظهر جيل جديد من القادة.

وعرفته أكثر بينما كنت أحاوره، وأصاحبه فى العديد من جولاته.

اختار «الحطة والعقال» رمزاً لأبناء الشعب الفلسطينى، ينام على الأرض بملابس الميدان عندما تنتهى جولته، ويأخذ منه التعب، سواء فى أحد الكهوف أو تحت إحدى الأشجار، أو فى خيمة فى أحد المعسكرات، لا ينام سوى ساعات قليلة، ويقضى يومه كله فى

حركة دائبة، يمتلك موهبة القيادة، فلسطين هى محور حياته، فليس له حياة أو اهتمامات خاصة، يأكل مع العناصر فى القواعد مما يأكلون، ويفترش الأرض مثلهم، يستمع إليهم ويرفع معنوياتهم، يدخل عليه الزوار فى مقره من الشخصيات المختلفة، وهو يستريح أو يأكل أو يعمل، يعطى كل واحد منهم اهتماماً خاصاً، يشرب مع عناصره الشاى فى معلبات من الصفيح، لا يكف عن العمل والحركة، يلتقط الأفكار الجديدة، ويحتفى بالمبادرات التى تطرحها قواعده، له نظرة ثاقبة للأفراد الذين يتعامل معهم، يستطيع أن يحدد العمل الذى يصلح له كل منهم، ويكلف كل واحد بما يتلاءم وطبعه، والعمل النضالى عنده متعدد الوجوه، فأدرك أهمية المعلومات والإعلام، يعمل هو ورفاقه على إقامة جهاز كفء يوفر له أدق المعلومات، وأدرك أهمية الإعلام وهو إعلامى من الطراز الأول، يدرك دور الإعلام فى كسب التأييد لقضيته، ينفر من السياسيين المحترفين، الذين يتقنون الكلام ويأنفون من العمل، يتعذر حمله على الالتزام بأى قاعدة، فهو حريص على أن يملك إمكانية المناورة، جعلته تجربته يتخلى بحس عميق عن الكثير من الأفكار السائدة فى الستينات، ولا يهمه صفات مثل اليمين أو اليسار، أو طبيعة النظام سواء كانت ملكية أو جمهورية، ولكنه يؤيد كل من يقدم المعونة للقضية الفلسطينية، لا يدغل فى النظريات أو الفلسفات، وليست له بقرات مقدسة، يقوده الواقع ويتعلم منه، ويستلهم من خلاله طريقة العمل ومنهجه، يمتلك موهبة القيادة، وأجمع رفاقه على اختياره قائداً لهم. لديه القدرة على التفكير العلمى، وكأى زعيم موهوب يعرف متى تحين اللحظة المناسبة، التى يستغلها إلى أقصى الحدود.

يبدو شخصية بسيطة، ولا يخدعك مظهره، فهو شخصية مركبة أكثر مما يبدو، لحديثه مستويات متعددة، مع كل حسب خلفيته وثقافته، أدهشنى عندما تحدث فى المجلس الوطنى الفلسطينى الذى عقد فى عمان بعد قبول مبادرة روجرز، وما أثارته من انقسام، وقدراته الكبيرة خلال اتصالاته مع القوى السياسية المختلفة خلال وجوده فى لبنان. كثيرا ما يكون مثل الزئبق الذى لا يقدر أحد على الإمساك به.

أبدى اهتماماً خاصاً بحكاية رويتها له، عن فتوات الحسينية، عندما يواجهون خطراً لا يقدرون عليه، فيلجأون إلى النزول إلى المعركة وهم عرايا مدهونين بالزيت فلا يتمكن أحد من الإمساك بهم، يضربون ويختفون!

يشعر كل من يلتقى به أن له مكانة خاصة، يثور وينفعل أحيانا ولكن سرعان ما يهدأ، عاطفى أحيانا وعقلانى

الرئيس مبارك فى لقائه برموز القضية الفلسطينية إبان أزمة الاجتياح الإسرائيلى للجنوب اللبنانى فى١٩٨٢

أغلب الأحيان.

وهذا بعض ما سجلته فى المصور عقب إحدى الجولات.. «إن حركة المقاومة الفلسطينية هى فى حقيقتها معكوس الحركة الصهيونية، استفادت من تجاربها، وتعلمت من أساليبها!».

وقلت «من أنات الهائمين، ومن نظرات اليأس فى العيون، ومن الدموع الحبيسة، ومن صرخات الذين داخل المأساة، من الظلام المنتشر، ومن أحلام طويلة بالديار والبيارات وشجر البرتقال والزيتون، ومن الاحساس العميق بأنه من الخير أن تحمل شمعة مضيئة فى الظلام بدلا من أن تسب الظلام، من أحاسيس اليأس الكبير لمع الأمل وتعلق به الجميع.

فبعد عدوان ٥ يونيو تصور العدو أن الشعب الفلسطينى سقط نهائيا فريسة اليأس، فإذا بحفنة من الرجال تمزق الأسطورة وتبدأ الكفاح المسلح». (المصور يناير ٦٨).

ولا يخفى على أحد ، أن آلة الإعلام الأمريكية الإسرائيلية، تجيد صناعة وأساليب اغتيال الشخصية، عن طريق اختلاق الأكاذيب ، وترويج الشائعات، ورسم صورة إعلامية مشوهة لمن يسعون إلى اغتياله!، وهذا بالضبط ما عملوه مع عرفات.. وطاش سعيهم، وطارد عرفات شارون حيا وميتا.

واهتز العالم عند رحيله، وتأكدت زعامته لشعبه وتقدير العالم لكفاحه، وظلت كلماته حول شعب الجبارين،

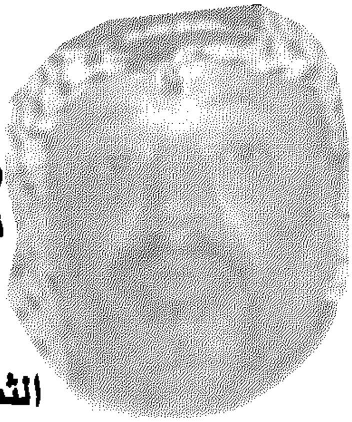

والجبل الذى لا يهزه الريح فى ضمير شعبه.

مشهد (٣)
بيــــــروت فى الثمانينات

لم يعد الأمر كما كان، الانتقال من الداخل إلى الخارج، بل أصبح الانتقال من الخارج إلى الداخل.

وبعد تراكم الأخطاء المتبادلة وبعد المنافسة بين التنظيمات الفدائية فى الأردن، وقع الصدام بين المقاومة والسلطات الأردنية وخرجت المقاومة من الأردن وتوجهت إلى لبنان، الجسم الذى تصورته الكثير من الأطراف العربية، الجسم الرخو، والذى أكدت الأحداث أنه أكثر الأجسام العربية صلابة.

ذهبت للقاء ياسر عرفات فى بيروت، وللحق كان الرجل كريماً، استقبلنى على الفور، وكثيراً ما شاهدت جوانب من اجتماعات مهمة.

قطعت السيارة حواجز التفتيش وسط البرد والرعد فى يوم مطير عاصف، توقفت أمام إحدى البنايات المتواضعة فى حى الفكهانى، وظهر فى الظلام مسلحون يتأكدون من هوياتنا.

رأيت «الاختيار» وقد زاد وزنه، ومازالت حيوية الشباب، يجمع بين ملامح الذكاء والصلابة والعناد.

كان هذا اللقاء قبل نحو عامين من اشتعال انتفاضة الحجارة، وكانت المقاومة فى حالة اشتباك مع الاحتلال الإسرائيلى فى الجنوب.

ورغم كل الظروف الصعبة، شاهدت جانبا من اجتماع مع خليل الوزير «أبو جهاد» مع رجاله العاملين فيما يطلق عليه «القطاع الغربى»، ولم أدرك فى حينها مدى خطورة وأهمية الحديث، الذى كان يدور حول العمل على إقامة البنية التحتية للمجتمع المدنى فى كل من الضفة والقطاع.

وها هى القيادة الفلسطينية رغم ما تعيشه من مشاكل وفى هذه الظروف الصعبة، يشغلها المستقبل.

وعدت أتذكر عندما قامت الانتفاضة تفاصيل الجلسة التى حضرتها فى بيروت.

استمعت إلى متابعة العمل لإقامة شبكة من الاتصالات والتنظيمات داخل المجتمع الأهلى الفلسطينى، وحتى لا يعتمد الأهالى على إسرائيل، يحددون أدواراً وبرامج للجمعيات والاتحادات والمحليات والعائلات فى المناطق المختلفة والبحث عن وسائل الدعم المختلفة، وتنشيط العمل بالشبيبة والمرأة.. وأمدتنى هذه الجلسة بمغزى الأحداث التى وقعت، وما خفى من جبل الثلج الذى ظهرت قمته فى الانتفاضة من ١٩٨٧ حتى ١٩٩٣.

يدور الحديث عن أن العمل الفلسطينى سينجح عندما يسكن قلوب وضمائر أبناء الشعب، وحتى يكون اكتشافا للذات واستردادا لقدرتها (كما

ياسر عرفات على غلاف مجلة «المصور» وهو في غور الأردن عقب معركة الكرامة ١٩٦٨، وبعد إعلانه متحدثا رسميا لحركة فتح

جاء على لسان عرفات)، وتوفير ما يحتاجه المجتمع الفلسطيني، والهدف هو إنشاء البنية التحتية وليس مجرد مقاومة الاحتلال.

وظهرت فكرة ضرورة قيام لجان شعبية محلية، تستوعب كل القوى، فلم تستوعب التنظيمات السياسية الجميع، والنقابات المهنية والعمالية وتفاعل أعضائها، ويفرض الواقع العملي قيام لجان تتسع للجميع في كل القرى والمدن.

وكلف «أبو جهاد» بتحويل الأموال لتحويل نشاط جمعيات خيرية ومؤسسات تعليمية، ومن أجل إقامة اللجان الشعبية.

ويذكر بعدها بسنوات المحلل الإسرائيلي زئيف شيف «إن منظمة التحرير حولت خلال الفترة ما بين ١٩٧٧ و١٩٨٥، ما قيمته نصف مليار دولار، وهي الأموال التي ساهمت في إقامة بنية تحتية في الضفة والقطاع».

وأعادت الانتفاضة، منظمة التحرير الفلسطينية إلى خريطة السياسة الدولية، والتي نكتشف خلال لقاء بيروت أنها نتيجة تخطيط محكم وعمل دءوب قام به أبوجهاد وصحبه، وتوزعت لجنة التنظيم ٧٧ ورجال القطاع الغربي يقيمون شبكة اتصال، وينسجون خيوط العمل حتى يصبح الداخل هو ساحة الصراع الحاسم.

لذا اغتالت أبوجهاد يد الغدر، واستخدمت «الإرهاب» في مواجهة عمل سلمي مشروع، وسبق هذا العمل ، بعد هزيمة يونيو، أن دخل ياسر عرفات تحت اسم مستعار هو الدكتور فوزي الحسيني، وتنقل بين القدس ورام الله، وأقام عددا من خلايا المتطوعين.

ثم انتقل إلى الأردن في مسيرة طويلة انتهت في رام الله.

قبض الريح

وبقي الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة عقدين من الزمان بعد الاحتلال في يونيو ١٩٦٧، ولم يطلق طلقة ولم يرم حجرا، منتظراً إنهاء الاحتلال، ولم يحصد سوى قبض الريح، مع المعاناة والمهانة والبؤس.

وتعلم الأهالي أن مسئولية مستقبلهم تقع عليهم وحدهم، وأن مصيرهم معلق بعزمهم وقدرتهم، وقامت الانتفاضة، وكأن جمرة لسعت الشعب الفلسطيني في كل مكان، وحققت الوحدة على أرض الواقع، وانتزعت الخوف من القلوب، وكشفت الوجه القبيح للصهيونية ، وقامت القيادة الموحدة والمتجددة، فإذا اعتقل أحد هذه القيادات ظهر بديله، وأقيمت قيادة محلية في ٤٢٠ قرية فلسطينية.

وبرز من جديد أنه لا فكاك من مواجهة القضية الفلسطينية، مما دفع شلومو أفنيري إلى القول: «إن إسرائيل

تتعلم أن القوة المادية لها حدود، وأنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولكن لا يمكن هزيمة يد غير مسلحة، ويكتشف الجندى الإسرائيلى، كيف تتحول قوة الضعيف إلى أداة تغيير الواقع، إنها حرب لا تنتهى بحجم السلاح ونوعيته».

الشهيد « أبو جهاد » . رفيق درب عرفات مع أسرته

وهزت الانتفاضة إسرائيل، وتأكد لدى العديد من الإسرائيليين، أنه لا مفر من العودة إلى خطوط البداية للصراع، وكسر أبو عمار بواسطة الانتفاضة الوضع الفلسطينى، وأخذ الفلسطينيون زمام المبادرة.

ومازالت إسرائيل أمام معضلة، فإما أن تعلن ضم الأراضى المحتلة، مما سيؤدى إلى قيام دولة غير يهودية بحكم الكثافة السكانية ومعدل المواليد لدى الفلسطينيين.

وأدت الانتفاضة إلى مدريد ثم أوسلو، ثم عودة منظمة التحرير إلى أرض فلسطين.

نعم.. أمسك عرفات بكل الخيوط، ولم يسمح لأحد سواه أن يتحدث باسم الشعب الفلسطينى، مدركا لعبة الاحتلال، فرق تسد، وبحثه الدائم عن طرف آخر يقبل ما ترفضه الحركة الوطنية الفلسطينية، ولديه اعتقاد عميق أنه ضمان حصول الشعب الفلسطينى على حقوقه.

نعم.. لا يجوز اختصار شعب فى شخص الزعيم، ولا يمكن تحجيم وطن فى مسيرة رجل، حتى لو كان ياسر عرفات الذى توحد مع آلام فلسطين وأصبح رمزاً لشعبه، أمضى سنوات ثلاث تحت حصار الاحتلال الإسرائيلى، بعد رفضه للإملاءات الإسرائيلية.

حقا.. عرفات مثل فلسطين قد يرحل ولكنه لن يموت ! ■

الإسلام
بين الشرق والغرب
لـ «علي عزت بيجوفيتش»

بقلم
محمد يوسف عدس

هذا كتاب فريد في طرازه ومذاقه ومنهجه فريد في ظروف تأليفه ونشره واستقبال القراء له ومؤلف هذا الكتاب كان رئيسا لجمهورية البوسنة والهرسك في أحلك فترة وأخطرها في تاريخ هذه البلاد، فقد تعرضت لعدوان عنصري وحرب إبادة لم تشهد أوروبا له نظير بعد الحرب العالمية الثانية. قاد شعبه في الحرب ببسالة نادرة وصمود مذهل حتى أبلغه شاطئ الحرية والسلام، ولم يمكث بعد ذلك طويلا لينعم بثمرات جهاده ويخلع على نفسه ألقاب البطولة والقداسة كما فعل غيره من الزعماء وإنما استقال من منصبه فلم يكمل ولايته الثانية وعاد ليكتب عن تجربته وفكره من جديد، اتسمت حياته السياسية ورئاسته بالزهد والتواضع ونزاهة اليد وطهارة القلب، لم ينتقم من خصومه ولا أعدائه الذين أودعوه السجن ولفقوا له التهم في عهد سابق، وكان بعضهم لايزال في وظيفته أثناء حكم عزت بيجوفيتش، كان مع زهده وتواضعه شجاعا قوي العزيمة قوي الحجة والمنطق دافع عن حق شعبه في الحياة والحرية أمام المحافل الدولية وصفه المراقبون أنه كان ندا شامخا لكل من حاوره أو فاوضه من زعماء العالم وقادة الدول .

في صحبة هذا الكاتب نجد أنفسنا أمام شخصية متعددة الجوانب والمواهب بالغة الثراء، شخصية متفردة في سيرتها وجهادها وسماتها الخلقية وكتابات هذا المؤلف كلها تعبر أصدق تعبير عن فكره الحر ومواقفه الشجاعة ومن ثم كانت كتاباته مصدر محنة وبلاء متصلين، وقد بدأت محنته مبكرا وهو لايزال شابا في العشرين من عمره عندما استولى الشيوعيون على السلطة في يوغسلافيا في نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، فقد شرع كتابهم يشنون حملة عدائية ضد الإسلام تمهيدا لإحلال العقيدة الشيوعية مكان الأديان في دولتهم ورأى عزت بيجوفيتش كيف يهاجم الإسلام عن جهل وسوء قصد فتصدى للدفاع عنه بقوة العارف الواثق الشجاع ومن ذلك الوقت فصاعدا أصبح علي عزت من سجناء الرأي في النظام الشيوعي ليس «كتاب الإسلام بين الشرق والغرب» كتابا بسيطا يمكن للقارئ أن يتناوله مسترخيا أو يقتحمه من أي موضع فيقرأ صفحة هنا وصفحة هناك ثم يظن أنه قد فهم شيئاً إنما على القارئ الجاد أن يحتشد له ويتهيأ للدخول في عالم فكري واضح الثراء متميز بمنهج تحليلي دقيق، فالمؤلف يضع كل فكره تحت مجهره الفاحص، وهو في ذلك دائب السعي للوصول إلى حقائق الأشياء وجوهرها والكتاب إلى جانب ذلك يتمتع بأسلوب أخاذ وقوة منطق تعكس ثقافة مؤلفه العميقة فمؤلف الكتاب متمكن من الثقافتين الإسلامية والغربية معا ولا ننسى أنه

أوروبى بالمولد والنشأة والتعليم، ساعدته قدراته اللغوية أن ينفذ إلى أعماق الفكر الغربى فى لغاته الأصلية الألمانية والإنجليزية والفرنسية إلى جانب لغته البوسنية .

علي عزت بيجوفيتش

مفكر إسلامي شامخ

الذين قرأوا لعلى عزت أدركوا أنهم أمام مفكر إسلامى من طراز جديد غير مألوف ولأن مثل هذا الطراز المتميز من المؤلفين يستفز بقوة فكره ونفاذ منطقه عقول القراء ويحرك وجداناتهم فقد رأينا أن قراءه ينتمون إلى ثلاث فئات . الأولى تمثل عشاق الفكر الإسلامى المستنير، هؤلاء وهم كثر استطاعوا أن يتوحدوا مع المؤلف وأن يستمتعوا بفكره المبدع ومنطقه الآخاذ وتمثل الفئة الثانية - وهم قلة لايزالون فى مرحلة انعدام الوزن بعد أن طرحوا عن أنفسهم الفكر المادى، هؤلاء تلقفوا الكتاب بسعادة غامرة ودهشة لأن الكتاب - كما ذكر أحدهم استطاع أن يجيب على جميع الأسئلة التى كانت حائرة فى عقله، وقال آخر أن قراءة هذا الكتاب وفرت على سنوات من الضياع والتيه .

أما الفئة الثالثة - الله وحده يعلم عددهم - فقد أفزعهم ظهور هذا الكتاب والدوى الذى ثار حوله فى العالم الإسلامى هؤلاء صنف من الناس يسعدهم أن يروا الفكر الإسلامى راكداً هامداً أو «فاترا» لا يحرك عقلا ولا يبعث همة ولا يؤدى إلى عمل فعال، ومن ثم رأينا هنرى كيسنجر يتهم الكتاب ظالما مفتريا بالأصولية بل أنه في تصريحاته عن حرب البوسنة يتخذ موقفا عدائيا من الشعب البوسنوى المسلم أما القادة الأوروبيون فقد اتخذوا مواقف عدائية مخزية من هذه القضية، وكان سلوك جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا السابق وفرانسوا ميتران رئيس جمهورية فرنسا السابق - أصدق تعبير وأقوى دليل على ما يكنه هؤلاء القادة من كراهية للإسلام والمسلمين فقد فرض الصرب على الشعب البشناقى المسلم حرب إبادة واستئصال، وساعدهم قادة الغرب فى حربهم بحظر التسلح على المسلمين حتى لا يجدوا وسيلة للدفاع الشرعي عن حياتهم ووجودهم ولايشك منصف أن من أكبر بواعث هؤلاء القادة على موقفهم فى البوسنة أنهم أيقنوا أن على عزت - رئيس جمهورية البوسنة وقائد المقاومة فيها - قد أصبح رمزا على صحوة إسلامية فى أوروبا لا يريدونها فأطلقوا يد الصرب تستأصل المسلمين فى أبشع حرب عنصرية شهدتها أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

هدف المؤلف من الكتاب

يقول على عزت بيجوفيتش إنه يحاول فى هذا الكتاب ترجمة الإسلام إلي اللغة التى يتحدث بها الجيل الجديد ويفهمها وهو يقصد بذلك تقديم الإسلام كعقيدة فكرية بديلة، وذلك من خلال المقارنات والمناقشات العميقة والمستفيضة للأفكار والعقائد التى تهيمن على الحضارة الغربية بشقيها الشيوعى والرأسمالى من جهة، وبصفة خاصة من خلال إبراز طبيعة وآثار الصراع بين النزعة المادية الجارفة والنزعة الدينية المجردة، على الإنسان ومجتمعه فى العالم الغربى .

ويظن بعض المعلقين أن الكتاب معنى بالقارئ الغربى متجه بخطابه إليه وهذا صحيح إلى حد ما ولكنه ليس صحيحا بإطلاق فهو معنى أيضا بأولئك الذين غرقوا فى دوامة الانبهار بالحضارة الغربية، وأولئك الذين يقفون منها موقف فرز وانتقاء لا موقف تبعية واستسلام.

ويرى معلقون آخرون - بحق - أن فى الكتاب دعوة إسلامية غير مباشرة تستحق الدراسة والتأمل .

ينقسم الكتاب إلى قسمين رئيسيين كل واحد منهما يشتمل على عدد من الفصول، يقع

القسم الأول تحت عنوان. نظرات حول الدين، ويقع القسم الثاني تحت عنوان الإسلام وحدة ثنائية القطب .

الدين المجرد

يشتمل القسم الأول – كما أشرنا على ستة فصول وهى على التوالى الخلق والتطور، الثقافة والحضارة، ظاهرة الفن، الأخلاق، الثقافة والتاريخ، الدراما والطوبيا .

فأين الدين من هذا كله؟ هنا تكمن عبقرية المؤلف وتبدو قدرته التحليلية الفائقة فهو يحفر وراء هذه الأفكار والظواهر المألوفة ليصل فى أعماقها إلى حقائق ونتائج غير مألوفة ولكنها تدهشك ببداهتها وبساطتها حتى لتعجب كيف غابت عن ذهنك هذه الحقائق البسيطة؟ وتنسى أنك سرت مع المؤلف فى رحلة طويلة من البحث عبر التاريخ وفى أعماق الإنسان والمجتمعات وفى الأساليب المتنوعة التى لجأ إليها الإنسان للتعبير عن صلته بالكون والحياة والمجهول لترى فى النهاية أن هناك وحدة مبدئية بين جذور الفن يؤكد الدين علي الخلود والحياة الأخرة وعلى المطلق ويؤكد الفن على الإنسان وفكرة الخلق، وهذه جميعا جوانب مختلفة لحقيقة جوانية واحدة عبر عنها الفن ربما بلغة قاصرة مغلفة بالغموض فتلك طبيعة الفن وقصاراه .

وهو فى هذا يتعارض مع العلم فالعلم معنى بالظواهر، معنى بالحقيقة الموضوعية المادية، بينما يرى الفن أن هذه الحقيقة الموضوعية مجرد وهم، وأن الحقيقة الوحيدة التى يعترف بها هى الإنسان بأشواقه الأبدية وهمومه المأساوية ومحاولته الدائبة استشراف العالم المجهول فى النفس الإنسانية لذلك يرى المؤلف أن الفن الحقيقى والإلحاد لايمكن أن يجتمعا معا لأن الإلحاد لايعترف إلا بالحقيقة المادية فحسب وينكر إنسانية الإنسان وفرديته والفن على عكس ذلك تماما وهو فى هذا يلتقى مع الدين

الحرية والمسئولية والخلق الإلهى :

حرية الاختيار عند على عزت هى جوهر الإنسان وسر وجوده على الأرض ومن ناحية أخرى هى مصدر مأساته الأبدية فعندما خلق الله الإنسان منحه الحرية والمسئولية فى نفس اللحظة، فالحرية والخلق يصدران من مشكاة واحدة، إنهما وجهان لحقيقة واحدة فالإنسان ليس منحدرا من أصل حيوان خال من الروح، وليس مجرد مادة حية تولد وتموت كما يزعم أصحاب المذاهب المادية، وإنما هو كائن حي حر وحريته هى الدليل القاطع على الألوهية والوحدانية فالله وحده دون سواه هو القادر على أن يخلق كائنا حرا ولا يمكن أن توجد الحرية إلا بفعل الخلق الإلهى، يتحدث على عزت عما يسميه «التمهيد السماوى» وهو سيناريو خلق آدم عليه السلام، حيث جمع الله ذرية آدم كلهم على هيئة يعلمها الله سبحانه، وسألهم ألست بربكم قالوا بلى فى هذا السيناريو الرائع يجمع الله حقائق الخلق والحرية والمسئولية فى لقطة واحدة مبهرة .

إلحاد اليائسين

وكما وصل على عزت فى سياق تحليله للفن إلى الجذور المشتركة بينه وبين الدين فقد فعل نفس الشئ مع فلسفات العدميين والعبثيين والوجوديين الذين انتهوا فى بحثهم إلى أن الحياة لا معنى لها ولا هدف مادام الإنسان يموت إلى الأبد وهى فلسفات تبدو لأول وهلة منقطعة الصلة عن الدين، ولكن المؤلف يكتشف فى أعماقها عناصر دينية فعلى عزت يرى أن العدمية تمرد على الحضارة ذات البعد الواحد التى أخرجت الإنسان من حسابها فلم يعد له مكان فيها فالقلق البدائى والنظر فيما وراء الموت والبحث المضنى عن طريق خارج هذه الضائقة المحيطة كلها هموم مشتركة بين العدمية والدين يقول على عزت أن العدمية ليست إنكارا للألوهية بقدر ما هى احتجاج على غيابها والعدمية عند «بكت» احتجاج على غياب الإنسان أو احتجاج على حقيقة أن الإنسان غير ممكن وغير متحقق هذا الموقف ينطوى على فكرة دينية لافكرة علمية عن

الإنسان وعن العالم، فالعلم يزعم أن الإنسان ممكن ومتحقق ولكننا في التحليل النهائي نجد أن ما هو متحقق في نظر العلم شئ لا إنسانية فيه «ثم يمضي قائلاً :« لأن المادية ترفض الغائية في العالم فإنها تتخلص بذلك من مخاطر العبثية والتفاهة فعالم المادية وإنسانها لهما غايات عملية ووظيفية لتكن وظيفة حيوانية لايهم ويعلق على عزت على عبارة سارتر التي يصف فيها الإنسان بأنه عاطفة تافهة فيقول «إنها عبارة دينية بمنطقها وبروحها معا ... إنها تتضمن أن الإنسان والعالم ليس بينهما تناغم أو تطابق وهذا الموقف المتطرف تجاه العالم المادى كان هو بداية جميع الأديان » ثم يمضي قائلاً . «إن التفاهة عند «سارتر» والعدمية عند «كامى» يفترضان البحث عن هدف ومعنى وهو بحث يختلف عن البحث الدينى فى أنه ينتهى عندهما بالفشل، فالعدمية خيبة أمل بسبب غياب الخير من العالم، فكل شئ تافة وعدم ما دام الإنسان يموت إلى الأبد، إن الفلسفة العدمية تعبر عن القلق، والقلق بجميع درجاته فيما عدا نتيجته هو قلق دينى. الإنسان غريب فى هذا العالم سواء عند العدمية أو فى نظر الدين، والفرق أن العدمية تعتبر الإنسان ضائعا بلا أمل وأما الدين فبه أمل فى الخلاص ».

ويؤكد على عزت أن أفكار «ألبير كامى» لا يمكن فهمها إلا إذا اعتبرنا صاحبها مؤمنا مخيب الرجاء، ويستشهد على ذلك بفقرة مقتبسة من «كامى» يقول فيها «فى عالم خبا فيه الوهم فجأة وانطفأ الضياء يشعر الإنسان بالاغتراب.

هل يمكن قيام أخلاق بلا إله؟

هنا تتجلى قدرة المؤلف التحليلية ومنطقه القوى، حيث ينكشف لنا بعد التحليل وجود عناصر دينية أصيلة فى نسيج الثقافة والفن والأخلاق، بل يرى على عزت أن هذه الموضوعات تدور فى حقيقتها على محور دينى ولا يمكن أن تنفصم عنه، ويرينا كيف أن محاولات بعض الفلاسفة إقامة أخلاق على مبادئ أخرى غير دينية كالمنفعة وغيرها قد باءت بالفشل ولذا يتساءل قائلا: هل يمكن وجود أخلاق بلا إله؟ خصوصا وأننا نصادف فى حياتنا اليومية ملحدين على أخلاق ورجال دين لاأخلاق لهم !! ويمضى المؤلف يطوف بنا فى أعماق الفكر الإنسانى وفى تجارب الأمم ماضيها وحاضرها، لنرى أن أشد الأنظمة إلحادا ومادية لم تتمكن من بناء مجتمع ملحد كامل الإلحاد ،ضرب على ذلك مثلا بالنظم الماركسية التى تقطع مبادؤها عند ماركس ولينين بأن الأخلاق والإنسانية والدين كلها أوهام يجب القضاء عليها، ومع ذلك لم يفلح الماركسيون فى الإلتزام بهذه المبادئ عند التطبيق العملى لأنها تصطدم بجوهر الحياة الإنسانية، وفى ذلك يقول على عزت لقد كان ماركس يستطيع وهو قابع فى مقعده بالمكتبة البريطانية أن يقول بأنه لاوجود للأخلاق ولكن الذين حاولوا تطبيق أفكار ماركس وأن يقيموا مجتمعا على أساسها لم يستطيعوا أن يعلنوا هذا الكلام بنفس السهولة فلكي يقيموا مجتمعا ويحافظوا على بقائه كان عليهم أن يطلبوا من الناس درجة من المثالية ربما أكثر مما طلب أى نبى من قومه باسم الدين ولهذا كان عليهم أن يتناسوا بعض المسلمات المادية الواضحة وهكذا يؤكد على عزت أن الإتحاد وضع موضع الممارسة وهو يحاول بناء مجتمع يضطر صاغرا إلى المحافظة على الأشكال القائمة للأخلاق الاجتماعية ولكنه فى نفس الوقت لايملك الوسيلة لحماية المبدأ الأخلاقى أو الدفاع عنه. إذا وضع موضع التساؤل أو الشك هنالك يبدو الإلحاد عاجزا تماما أمام هجوم دعاة المنفعة أو الأنانية أو للاأخلاقية فعندما يقولون . «إذا كنت سأحيا اليوم فقط وسأموت غدا لامحالة وبلا عودة إلى حياة أخرى فلم لاأعيش اليوم كما يحلو لى بدون قيد أو التزام ما استطعت إلى ذلك سبيلا؟ هنا لا نجد إجابة منطقية عند أصحاب المذاهب المادية والإلحادية وسنجد أن الذى يترسب فى وعى الناس هو المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب

وتضطر الدولة الملحدة أن تبقى عليها بدافع الضرورة المحضة».

وهكذا ننتهى إلى نتيجتين الأولى: أن الأخلاق كمبدأ لاتوجد بلا دين بينما الأخلاق العملية يمكن أن توجد فى غياب الدين ولكن يظل وجودها ضعيفا لانفصالها عن المصدر الذى منحها قوتها المبدئية، والنتيجة الثانية: أنه لايمكن بناء نظام أخلاقى على الإلحاد .. وفى كلتا الحالتين يظل النظام الأخلاقى الموروث مناقضا للأيديولوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها .

التمييز بين الثقافة والحضارة

يبدو من دراسة على عزت لموضوع الثقافة والحضارة أن هناك تصادما بينهما، وأن الحضارة الرأسمالية والحضارة الشيوعية كلاهما معاد للثقافة بطبيعتها وبدرجات مختلفة، ذلك لأن الثقافة فى جذورها الأولى صدرت من أصل دينى، وأن هذه الجذور تمتد من الماضى السحيق إلى ما يسميه على عزت بالتمهيد السماوى ويشير إلى ذلك السيناريو القرآنى الذى جمع الله فيه الأرواح التى قدر لها أن تولد - كما يقول الفلاسفة المسلمون «فى عالم الذر» وسألهم «ألست بربكم قالوا بلى..» هنالك علم الإنسان أنه مختلف عن بقية الكائنات وأنه صاحب مسئولية وأنه حر الاختيار

ويطور المؤلف موضوع الصدام بين الثقافة والحضارة بطرق مختلفة فالثقافة عنده هى تأثير الدين على الإنسان وتأثير الإنسان على الإنسان، بينما الحضارة هى تأثير العقل على الطبيعة تعنى الثقافة الفن الذى يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فهى فن يتعلق بالوظيفة والسيطرة وصناعة الأشياء تامة الكمال، الحضارة هى استمرارية التقدم التقنى وليس التقدم الروحى .. كما أن التطور الداروني هو استمرارية للتقدم البيولوجى وليس التقدم الإنسانى .

الثقافة شعور دائم الحضور بالاختيار وتعبير عن الحرية الإنسانية وخلافا لما تذهب إليه الحكمة الإسلامية بضرورة كبح الشهوات، يحكم الحضارة منطق آخر جعلها ترفع شعارا مضادا « إخلق شهوات جديدة دائما وأبدا » الحضارة تعلم أما الثقافة فتنور تحتاج الأولى إلى تعليم والثانية إلى التأمل .

تملك الثقافة الفن وتملك الحضارة العلم تقف الثقافة بمعنى من المعانى خارج إطار الزمن والتاريخ فهى معنية بموضوع واحد هو لم نحيا؟ أما الحضارة فهى إجابة على سؤال آخر دائم التغير وهو : كيف نحيا؟ وفى هذا المجال «يمكن تمثيل الحضارة بخط صاعد دائما يبدأ من اكتشاف الإنسان للنار مارا خلال طواحين الماء ثم عصر الحديد والكتابة،والآلة البخارية، حتى عصر الطاقة الذرية ورحلات الفضاء أما الثقافة فهى بحث دائب يعود إلى الوراء ويبدأ من جديد، الإنسان هو موضوع الثقافة بأخطائه التى لاتتغير وفضائله وشكوكه وضلالاته وكلما تعمقنا فى الوجود الداخلى للإنسان نرى معضلة دائمة تسعى إلى حل مستحيل ».

هذه هى مجمل المجالات التى ناقش فيها على عزت موضوع الاختلاف بين الثقافة والحضارة .

اخفاق الأيديولوجيات الكبرى

يرجع المؤلف اخفاق الأيديولوجيات الكبرى فى العالم إلى نظرتها إلى الإنسان والحياة نظرة أحادية الجانب شطرت العالم شطرين متصادمين بين مادية ملحدة وكاثوليكية مغرقة فى الأسرار «ينكر كل منهما الآخر ويدينه بلا أمل فى لقاء»: وهكذا وجدنا الحضارة القائمة على العلم المادى من جانب، والدين القائم على الغيبيات من جانب آخر مضاد. ولكن الإسلام - كما يعرضه على عزت - لا يخضع لهذه القسمة الجائرة. وتلك هى القضية الكبرى التى يعالجها على عزت فى كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» حيث خصص لها القسم الثانى من هذا

الكتاب.

ويمضى الكتاب فى رحلة طويلة من البحث فى أعماق الفلسفات الإنسانية والمذاهب الفكرية والآداب العالمية، وفى القانون وعلم الأخلاق يكشف لنا عن العناصر الدينية الكامنة فى هذه المجالات، تعبيرا عن الفطرة الإلهية التى أودعها الله فى قلب الإنسان.

ولكن الدين الذى يعنى به المؤلف فى القسم الأول من الكتاب هو ما يطلق عليه. «الدين المجرد» الذى يقتصر على الجانب الروحى الذى يربط الإنسان بالله. فبهذا المعنى فهم الغربيون الدين وحصروه فى نطاقه وهيمن على ثقافتهم ونظرتهم إلى العالم.

أما على عزت فإنه لا يضع الإسلام فى دائرة «الدين المجرد» لأن الإسلام بطبيعته أوسع نطاقا وأشمل مجالا، فالإسلام يحتضن الحياة الإنسانية كلها. الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية.

أما كيف استطاع الإسلام أن يمزج بين الروح والمادة، الأرضى والسماوى عن سائر الأديان الأخرى، هذه الخصوصية هى ما يطلق عليه المؤلف «الوحدة ثنائية القطب »

الوحدة ثنائية القطب

يخصص المؤلف لشرح هذه الفكرة القسم الثانى من الكتاب فى خمسة فصول تحت هذه العناوين. موسى وعيسى ومحمد، الإسلام والدين، الطبيعة الإسلامية للقانون، الأفكار والواقع، الطريق الثالث.. وينتهى بنظرة تأملية أخيرة بعنوان: التسليم لله.

هذه الثنائية تبدو أوضح وأبسط ما تكون فى أركان الإسلام الخمسة، فإذا نظرنا بشروط مادية وعلمية أهمها الوضوء الذى ينظف المسلم به أعضاءه، والالتزام باتجاه معين (نحو الكعبة)، واتباع حركات وأقوال معينة بترتيب معين، ومراعاة أوقات معينة ثابتة. بغير هذه الشروط لا تصح الصلاة. ونفس الأمر ينطبق على الصيام والزكاة والحج. بل أن الوضوء نفسه وهو عملية مادية يصفه الإسلام بأنه طهور وضياء، وتلك صفات روحية تخلع على هذا العمل المادى الذى يقرب الإنسان من الله. هذه الثنائية لايمكن أن تجدها إلا فى الإسلام، بل إن الأديان الكبرى عرفت ومارست نقيض ذلك فيما يسمى بـ «القذارة المقدسة» ذلك لأن العناية بالبدن وغسله كانت تعتبر عند الهندوس وعند الرهبان المسيحيين عملا من أعمال الدنيا يجب الابتعاد عنها وكان الرهبان والراهبات الكاثوليك يفخرون بأن أقدامهم لم تلمس الماء طوال حياتهم إلا إذا اضطروا لعبور مجرى ماء أو نهر.

أما الإسلام فإنه يستحيل تطبيقه تطبيقا صحيحا إلا بممارسات مادية وعلمية تصاحبه وتقربه من الحضارة، ولذلك يرى على عزت أن الإسلام لا يمكن تطبيقه فى مجتمع متخلف، ويعنى بذلك أنه فى اللحظة التى يتم فيها تطبيق الإسلام يكون المجتمع قد تخلى عن تخلفه ودخل فى مجال الحضارة.

وهو أمر مقصود لأن الله خلق الإنسان ليكون خليفة الله فى عمارة الأرض، ولا يفتأ القرآن يذكر الإنسان بتسخير الله الطبيعة والعالم بأسره للإنسان. ويعلى من قيمة العلم والعمل.

يقول على عزت: «إن إصرار القرآن على محاربة الشر والظلم ليس من التدين بمعناه الضيق (المجرد) فمبادىء اللاعنف واللا مقاومة أقرب إلى الدين المجرد.. وعندما أقر القرآن القتال بل أمر به لم يكن يقرر مبادىء دين مجرد أو أخلاق وإنما كان يضع قواعد سياسية واجتماعية».

ويعلق على تحريم الخمر فى الإسلام بقوله: «كان تحريم الخمر بالدرجة الأولى معالجة لشر اجتماعى وليس فى الدين المجرد شىء ضد الخمر.. ولكن الإسلام عندما حرم الخمر سلك مسلك

العلم لا مسلك الدين المجرد».

سر انحطاط المسلمين

يتساءل على عزت. ما الذى أدى إذن بالمسلمين إلى الانحطاط بالصورة التى نراها اليوم؟ ويجيب قائلا «لقد انشطرت وحدة الإسلام ثنائية القطب على يد إناس قصروا الإسلام على جانبه الدينى المجرد فأهدروا وحدته.. لقد اختزلوا الإسلام إلى دين مجرد، أو تأمل صوفى فتدهورت أحوال المسلمين، وذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم وعندما يهملون دورهم فى هذا العالم ويتوقفون عن التفاعل معه تصبح السلطة فى الدولة المسلمة عارية لا تخدم إلا نفسها، ويبدأ الدين الخامل يجر المجتمع نحو السلبية والتخلف، ويشكل الملوك والأمراء والعلماء الملحدون ورجال الكهنوت وفرق الدراويش والشعراء السكارى - يشكلون جميعا الوجه الخارجى للانشطار الداخلى الذى أصاب الإسلام».

هكذا يشخص على عزت مأساة المجتمعات المسلمة فى الوقت الراهن. مثل هذه النظرات الثاقبة فى المجتمعات وفى أعماق النفس الإنسانية تطالعك دائما وأنت تمضى فى تصفح كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب». يقول مثلا:

الفقر والجشع توأمان وإلا كيف نفسر وجود الفقر فى مجتمعات تطفح بالثراء؟ ولا يكون علاج الفقر بإصدار قوانين فقط لأنك بالقانون تعالج الجانب الظاهر وهو الفقر أما الجانب الباطنى الخفى فهو الجشع الذى يصيب الأغنياء وهو مرض لا تعالجه إلا التربية والتنشئة، فلا يمكن إصلاح العالم مابقيت النفوس مشحونة بالكراهية وحب الاستغلال والاستعباد.

القانون فى ظل الحكومات المستبدة

فى حديثه المستفيض عن القانون يكشف لنا على عزت عن سمات مميزة للحكومات المستبدة فى علاقتها بالقانون والمحاكم فلأنها لا تحترم الإنسان ولا تلتزم بالديمقراطية تميل إلى انتهاك القوانين وازدراء المحاكم والقضاء، وعندما تنجح هذه الحكومات فى تطويع المحاكم وتسخير القضاء لخدمة أغراضها التعسفية بالدرجة التى تريدها فإنها تتجاهل هذه المحاكم وتتجاوزها باستخدام المحاكمات المباشرة بواسطة الشرطة أو بأى سلطة تنفيذية أخرى وهنا تكثر السجون ومراكز الاعتقال.

وينبهنا على عزت إلى أن ظاهرة الإفراط فى إصدار القوانين فى مجتمع ما مؤشر دال على وجود شرخ خطير فى هذا المجتمع لم تعد تصلحه القوانين، لأن القوانين لا تصلح فساد الضمائر هنا يجب التوقف عن إصدار مزيد من القوانين والبدء فى تربية الناس تربية أخلاقية.

الوسطية

يلفت المؤلف نظرنا إلى حقيقة جوهرية مهمة وهى أن القرآن ليس كتابا كغيره من الكتب إنما هو كتاب حياة نموذجها المجسد هو حياة النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد استطاع الإسلام كما تمثله هذا النبى العظيم فى حياته أن يبرهن على أنه وحدة طبيعية فطرية اجتمع فيها: الحب مع القوة، المتسامى مع الواقعى، الروحى مع البشرى، الدين مع السياسة، وقد أثبت هذا المركب المتفجر بالحيوية أنه قادر على إطلاق طاقة هائلة فى حياة الشعوب التى احتضنته وعاشت به وله، فقد اكتشفت هذه الشعوب فى لحظة واحدة أن الإسلام يتطابق مع جوهر الحياة الفاضلة الخصبة بكل أبعادها. ويجب أن نفهم وسطية الإسلام من هذه الناحية، فالموقف الوسط للإسلام يعبر أصدق تعبير عن الفطرة الإنسانية ويلقى الضوء على معنى الآية القرآنية: «فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

هذه الوسطية الإسلامية عجز الغربيون عن فهمها ومن ثم كان الإسلام موضع هجوم من الجانبين المتعارضين: الدين الغربي والمادية الغربية. فالمسيحيون رأوا فى الإسلام اتجاها (يساريا) لاصقا بالطبيعة والواقع أكثر مما ينبغى، وعلى عكس ذلك رأى الماديون فى الإسلام اتجاها (يمينيا) باعتبار ما فيه من غيبيات، وهكذا رفضه الغربيون لسببين متناقضين. أما الحقيقة التى غابت عن كلا الطرفين فهى - كما يقول على عزت - أن الإسلام واحد ولكن شأنه كشأن الإنسان له روح وجسد، وإنما تبدو عناصره متعارضة باختلاف وجهة النظر إليه.

العداء الغربي للإسلام

وفى هذا المجال يلفت على عزت النظر إلى عداء الغرب الحالى للإسلام ليس مجرد امتداد للعداء التقليدى والصدام الحضارى الذى وصل إلى الصراع العسكرى بين الإسلام والغرب منذ الحملات الصليبية حتى حروب الاستقلال، وإنما يرجع هذا العداء بصفة خاصة إلى تجربة الغرب التاريخية مع الدين وإلى عجزه عن فهم طبيعة الإسلام المتميزة. وهو يطرح لذلك سببين جوهريين وراء هذا العجز وهما طبيعة العقل الأوروبى أحادى النظرة، وإلى قصور اللغات الأوروبية عن استيعاب المصطلحات الإسلامية. وضرب لذلك مثلا بمصطلحات. الصلاة والزكاة والصيام والوضوء والخلافة والأمة، حيث لا يوجد ما يقابلها فى المعنى باللغات الأوروبية. فالمصطلحات الإسلامية - كما يراها على عزت - كالإسلام نفسه تنطوى على وحدة ثنائية القطب.

ويرى المؤلف بحق أن الغرب إذا كان يريد فهم الإسلام فهما صحيحا عليه أن يعيد النظر فى مصطلحاته التى تتعلق بالإسلام.

المأزق والخروج منه

من أجل مستقبل أفضل للإنسان على هذه الأرض وفى سبيل تصحيح حركة الإنسان فى هذا العالم يدعو الإسلام إلى تربية إنسان متسق مع روحه وبدنه معا، وإلى بناء مجتمع تحافظ قوانينه ومؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على هذا الاتساق ولا تنتهكه.

وإذا كانت الحضارة الغربية قد أصابت العالم بحالة أشبه بالفصام العقلى فإن الإسلام هو السبيل إلى الخروج بالإنسانية من هذا المأزق، فقد كان الإسلام ولايزال هوالبحث الدائب المتصل عبر التاريخ فى حالة التوازن الجوانى والبرانى. وهذا هو هدف الإسلام وهو واجبه التاريخى المقدر له فى المستقبل.

وأخيرا.

فى كل قضية يعالجها «كتاب الإسلام بين الشرق والغرب» يجد القارىء فكرة مبدعة أو لفتة إنسانية أو لمحة عبقرية، ويشعر أن روحا إنسانية شديدة الإخلاص تسرى فى صفحات الكتاب، وأن مؤلفه عميق الفهم لروح عصره قوى الإيمان بدينه وبأهمية رسالته، لا فى هداية الفرد فحسب بل فى انقاذ البشرية بأسرها.

ولا أجد فى هذا المجال أصدق من شهادة «وودز ورث كارلسن» وهو مفكر أوروبى محايد لا ينتمى إلى دين المؤلف ولا عشيرته حيث يقول معلقا على كتاب الإسلام بين الشرق والغرب: «أن تحليله للأوضاع الإنسانية مذهل وقدرته التحليلية الكاسحة تعطى شعورا متعاظما بجمال الإسلام وعالميته». ■

كتاب

تأويل مشكل القرآن

لابن قتيبة

عرض وتحليل
د. حامد طاهر*

تعرض الإسلام، خلال القرن الثالث، لمرحلة اختبار قاسية، فقد تغلغلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين عن طريق الترجمات والشروح والتلخيصات العربية، وفتنت بسحرها كثير منهم، كما أتيح للحضارة الفارسية أن تكشف عن عقائدها المعتقة منذ آلاف السنين، هذا إلى جانب حرية التعبير التى أتاحت لكل من اليهود والمسيحيين أن يدافعوا عن أديانهم التى هجرها أتباعها، بسهولة وبسرعة مدهشتين، لكى يعتنقوا الدين الإسلامى.

نشهد فى هذا القرن جدلاً يمتد تقريباً - إلى كل القيم والمبادىء، وإذا كان كثير من الخلفاء العباسيين قد أتاحوا للشعوب والطوائف الأخرى حرية واسعة فى الاعتقاد والتعبير، فقد تعرض الإسلام نفسه لنتائج هذه الحرية. ومن المبدأ الذى يرى أنه بزعزعة الأساس ينهار البناء كله، أقبل خصوم الإسلام يتتبعون آيات القرآن الكريم، ويبحثون فيها عن موطن ضعف، أو نقاط هجوم.

* نائب رئيس جامعة القاهرة

يقول ابن قتيبة «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) (١) بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول(٢)، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة في اللحن، وفساد النظم، والاختلاف. وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور(٣) .

وهكذا بعد فترة طويلة من الستر، استعلن الهجوم على القرآن الكريم، المصدر الأول للدين الجديد، ووجد علماء الإسلام أنفسهم في موقف دقيق، فماذا فعلوا؟

لم يصادروا الخصوم، وكان بامكانهم أن يستخرجوا القرار في ذلك من السلطة الحاكمة بإحراق الكتب المعادية، أو حتى بكتم الآراء في الصدور!

ولم يخدعوا الجماهير بالخطب الإنشائية التي تتناول أشخاص الخصوم بالقدح والتشهير، غافلة أو قاصرة عن الرد على آرائهم التي تندفع شبهاتها إلى العقول دون منازع!

وإنما فعلوا ما كان ينتظر من أمثالهم، وهو التصدي لمسئوليتهم العلمية والتنويرية بكل شجاعة ، متبعين في ذلك خطى المنهج الإسلامي الذي يمكن إبراز

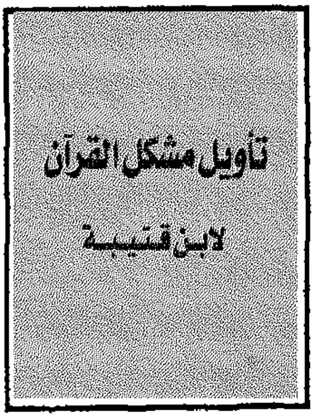

بعض عناصره فيما يلي:

(أ) سماع وجهة النظر المخالفة ، محاولة لفهمها في هدوء.

(ب) تبسيط المسألة موضوع الخلاف إلى أفكار رئيسية ، ثم تحليل هذه الأفكار إلى عناصرها الأولية.

(ج) الرد عليها بموضوعية خالصة، وعرضها بلغة واضحة ومحددة.

ومن الطبيعي أن يكون وراء ذلك كله : احتشاد هائل ، وثقافة واسعة، وحسن استخدام لأدوات البحث والمناظرة.

موقع إسلامي خالص

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى كتاب «تأويل مشكل القرآن» وجدنا ابن قتيبة يبدأ من موقع إسلامي خالص، يعترف بقدر القرآن الكريم، وعناية الله تعالى به ، إذ أنزله ناسخاً لما قبله من الكتب الدينية، وأودع إعجازه في نظمه وتأليفه، وجعله متلواً لا يمل على طول التلاوة ، ومسموعاً لاتمجه الآذان، وغضاً لايخلق على كثرة الرد، وعجيباً لاتنقضي عجائبه، ومفيداً لاتنقطع فوائده(٤) .

وتمتاز العبارة القرآنية بقدرتها على حمل الكثير من المعاني في العدد القليل من الألفاظ وذلك هو ماعناه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله. «أوتيت جوامع الكلم» أي الكلمات القليلة العدد الجامعة لصنوف الحكمة، ويمثل ابن قتيبة لذلك قائلاً: «فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه (خذ العفو وأمر

بالعرف وأعرض عن الجاهلين)(٥) .

كيف جمع له بهذا كل خلق عظيم: لأن في أخذ العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات .. وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن ممارسة السفيه، ومنازعة اللجوج»(٦) .

هذا مثال واحد من حوالي عشرة أمثلة أوردها ابن قتيبة في مفتتح كتابه، ليقف منها القارىء على أهمية التأمل في «العبارة القرآنية» ومحاولة تدبرها بعناية «فإنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات»(٧) .

أفضل لغة

ومما ذهب إليه ابن قتيبة في تفضيل لغة العرب على سائر اللغات(٨) ماتمتاز به من أن حروفها تبلغ ثمانية وعشرين حرفاً، على حين تقصر ألفاظ جميع الأمم عن هذا العدد.

وكذلك «الإعراب» الذي يذهب ابن قتيبة إلى أن الله تعالى، قد جعله وشياً لكلام العرب، وحلية لنظامها(٩) ، وفارقاً - في بعض الأحوال - بين الكلامين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين . فلوا أن قارئاً قرأ (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)(١٠) . وترك طريق الابتداء بإنا وأعمل القول فيها بالنصب - على مذهب من ينصب أن بالقول كما ينصبها بالظن - لقلب المعنى عن جهته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبي، عليه السلام، محزوناً لقولهم: إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون! وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن لاتجوز الصلاة به، ولا يجوز للمأمومين أن يتجاوزوا فيه»(١١) .

ومما اختص به اللغة العربية أيضاً أن التغيير في حركة الحرف الواحد قد يؤدي إلى تغير معنى الكلمة كله، بل وقلبه أحياناً إلى الضد «فيقولون: رجل لعنه - بضم اللام وتسكين العين - إذا كان يلعنه الناس . فإذا كان هو الذي يلعن الناس. فإذا كان هو الذي يلعن الناس قالوا· رجل لعنة ، فحركوا العين بالفتح، وقد جاء في القرآن (ويل لكل همزة لمزة)(١٢) .

ومن الدقة في أوصاف اللغة العربية مايكون أحياناً عن وضع حرف مكان حرف آخر ليؤدي معنى جديداً. كقولهم للنار إذا طفئت «هامدة» فإن سكن لهيبها وبقي من جمرها شيء قيل «خامدة»(١٣).

وقد يرتبط الشيء بعدة معان ، وهنا تلجأ اللغة العربية إلى اشتقاق أسماء من هذا الشيء بعدد المعاني المرتبطة· «كاشتقاقهم من البطن للخميص «مبطن» وللعظيم البطن إذا كان خلقه»، «بطين» فإذا كان من كثرة الأكل قيل «مبطان» وللمنهوم «بطن» وللعليل البطن «مبطون»(١٤) .

كتاب العرب

كذلك يرى ابن قتيبة أن العرب تميزوا بفن الشعر «الذي أقامه الله ، تعالى، لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله لعلومها مستودعاً، ولآدابها حائطاً، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديواناً لايرث على الدهر، ولا يبيد على مر الزمان، وحرسه بالوزن، والقوافي،،

وحسن النظم، وجودة التحبير، من الدرس والتغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئاً عسر ذلك عليه، ولم يخف له كما يخف في الكلام المنثور(١٥) .

وأخيراً فإن للعرب «المجازات في الكلام»، ومعناها : طرق القول ومآخذه ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض، والإفصاح والكناية، ، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز»(١٦) .

ويعقب ابن قتيبة على ذلك بأن القرآن الكريم قد نزل بكل هذه الطرق في التعبير ، ولهذا فإنه يرى عدم إمكانية ترجمته إلي لغة أخرى، لما سوف يفقده في أثناء الترجمة من المعاني الجانبية، والإيماءات التي ترتبط بطبيعة التعبير في اللغة العربية. يقول ابن قتيبة «لذلك لايقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلي شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب»(١٧) . ثم يقدم ابن قتيبة عدة أمثلة من آيات القرآن الكريم التي تحمل بوصفها الخاص معاني لايمكن التعبير عنها في وصف عربي آخر. فما بالك بلغة أجنبية؟!(١٨) .

ويمكن أن نعقب على ذلك بأن المقصود بذلك هي الترجمة الحرفية، أما ترجمة المعاني فهي أمر مطلوب، لتعميم فائدة القرآن الكريم بين سائر الأمم.

مطاعن الطاعنين

وفي باب (الحكاية عن الطاعنين) يحاول ابن قتيبة استقراء أوجه النقد التي وجهت إلى القرآن الكريم، مصنفاً إياها في موضوعات رئيسية، وعارضاً أقوال الخصوم - دون ذكر أسمائهم - بكثير من الوضوح، ثم مجيباً على كل قول منها بالتفصيل.

وقد اعتمد الطاعنون على مثل قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)(١٩) ، ثم طاروا فرحاً عندما وجدوا اختلاف الصحابة في بعض القراءات، واللحن الظاهر في بعض الآيات، وأخيراً مابدا لهم من تناقض بعض الحقائق التي تحدث عنها القرآن.

يقول ابن قتيبة : «وقد ذكرت الحجة عليهم في جميع ماذكروه، وغيره مما تركوا، وهو يشبه ماأنكروا، ليكون الكتاب جامعاً للقصد الذي قصدت له(٢٠) أي أن كتاب «تأويل مشكل القرآن» ليس مقصوراً على ما أثاره الطاعنون في القرآن، وإنما يشتمل على كل مايحتمل من التساؤل أو الغموض . وبهذا يخرج كتاب ابن قتيبة عن أن يكون مرتبطاً بدافع جزئي عارض، إلى مجال أوسع وأرحب وأرشد ارتباطاً بالدراسات القرآنية.

• فبالنسبة إلى دعوى اللحن في القرآن الكريم ، فإن ابن قتيبة يذكر اعتماد الطاعنين على حديث عائشة، رضي الله عنها، من أن بعض ما وقع من ذلك إنما يرجع إلى «غلط الكاتب» وعلى حديث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، الذي

يقول: أرى فيه لحناً، وستقيمه العرب بألسنتها.

لكن ابن قتيبة يسرع فيؤكد أن تلك المواضع المحتملة للحن من حيث الظاهر قد تكلم فيها النحويون، واعتلوا لكل حرف منها، واستشهدوا الشعر(٢١) .

فمثلاً احتج الطاعنون بوجود اللحن في آية (إن هذان لساحران)(٢٢) حيث القاعدة النحوية تقرر أن تكون : إن هذين لساحران، لكن ابن قتيبة يبين أن إلزام المثنى الألف - في جميع حالاته الإعرابية - إنما هو لغة بلحرث بن كعب، فهم يقولون : مررت برجلان، وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه.. الخ. كذلك، فإن القراء قد اختلفوا في قراءة هذا «الحرف»، فقرأ أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر (إن هذين لساحران) وذهبا إلى أنه غلط من الكاتب ، كما قالت عائشة(٢٣).

ويخلص ابن قتيبة من ذلك إلى أن مايظن أنه لحن في القرآن قد يمكن تفسيره نحوياً باعتباره لغة قبيلة من قبائل العرب، أو إلى خطأ من كاتب المصحف، وعلى آية حال، فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، برىء من أخطاء اللحن، سواء كانت في النطق، أو الكتابة . يقول ابن قتية:

وليست تخلو هذه «الحروف» من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الأعراب فيها، أو أن تكون غلطاً من الكاتب، كما ذكرت عائشة، رضي الله عنها. فإن كانت على مذاهب النحويين فليس ها هنا لحن بحمد الله. وإن كانت خطأ في الكتاب فليس على رسوله، صلى الله عليه وسلم، جناية الكاتب في الخط. ولو كان هذا عيباً يرجع إلى القرآن، لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف عن طريق التهجي»(٢٤).

مطاعن الخصوم

فإذا جئنا إلى دعوى التناقض، وجدنا ابن قتيبة يذكر مطاعن الخصوم ثم يرد عليها بالتفصيل . يقول : «وأما مانحلوا من التناقض في مثل قوله تعالى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)(٢٥) وهو يقول في موضع آخر (فوربك لنسألنهم أجمعين* عما كانوا يعملون)(٢٦).

فالجواب في ذلك : أن يوم القيامة يكون كما قال الله تعالى (.. مقداره خمسين ألف سنة ...)(٢٧) ففي مثل هذا اليوم يسئلون ، وفيه لايسألون، لأنهم حين يعرضون يوقفون على الذنوب ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة (انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)(٢٨) وانقطع الكلام وذهب الخصام، واسودت وجوه قوم، وابيضت وجوه آخرين، وعرف الفريقان بسيماهم، وتطايرت الصحف من الأيدي، فأخذت ذات اليمين إلى الجنة، وأخذ ذات الشمال إلى النار»(٢٩).

وعلى هذا المنوال من عرض الدعوى بأمانة والرد عليها من القرآن الكريم نفسه، وبالاعتماد على بعض الحجج العقلية - يستمر ابن قتيبة في تتبع أقوال الطاعنين في القرآن الكريم، متعرضا لثلاث مسائل كبرى هي:

- مسألة المتشابه(٣٠) .
- مسألة المجاز (٣١) .
- مسألة الحروف المقطعة في أوائل السور (٣٢) .

وقد قاده هذا بالطبع إلى أن يتعرض

لمباحث لغوية وبلاغية تبين إمكانية اللغة العربية فى التعبير عن المعنى الواحد بصور متعددة، واتساعها فى استخدام الألفاظ والعبارات التى تشتمل على أكثر من معنى. ولا شك فى أن هذه المباحث اللغوية والبلاغية مما يعين كثيراً على فهم القرآن الكريم، فضلاً عن أنها أداة أساسية ينبغى أن يجيدها من يتصدى لتفسيرها.

وإذا كان لنا من كلمة أخيرة عن كتاب «تأويل مشكل القرآن» فلابد من الإشارة إلى أنه يعتبر مصدراً أساسياً من مصادر الدراسات القرآنية، بالإضافة إلى كونه مصدراً مهماً فى مجال الدراسات اللغوية، والبلاغية، كذلك فإنه يعد وثيقة ممتازة فى مجال الدفاع العلمى عن الإسلام، والزود عن كتابه الكريم. ثم إنه يقدم لنا أسلوباً فى البحث الإسلامى الخالص يمتاز بالجدية، والموضوعية، والتمكن من المادة العلمية فضلاً عن تحديد القصد، ووضوح الهدف. ■

(١) سورة آل عمران ، آية ٧ .

(٢) تكشف عبارة ابن قتيبة هنا بوضوح عن ضعف الخصوم فى وسائل بحثهم، وفى نفس الوقت: خبث غرضهم من هذا البحث.

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٢.

(٤) مقدمة المحقق، ص ٨٦.

(٥) سورة الأعراف ، آية ١٩٩.

(٦) تأويل مشكل القرآن، ص ٤، ٥.

(٧) السابق، ص ٢١.

(٨) هذا الرأى موضع مناقشة، فمثلاً ينفى ابن حزم أن يكون للغة العربية فى حد ذاتها أى أفضلية على غيرها من اللغات، انظر الأحكام ١/٣٩، ٤٠.

(٩) فكرة تزيين الاعراب للكلام فكرة هائلة جداً. ومن واجب علماء النحو أن يلتفتوا إليها، ويطوروها.

(١٠) سورة يس، آية ٧٦.

(١١) تأويل مشكل القرآن، ص ١٤.

(١٢) سورة الهمزة، آية ١.

(١٣) السابق، ص ١٦.

(١٤) السابق، ص٢٠، ٢١ .

(١٥) السابق، ص ١٨.

(١٦) السابق، ص ٢٠، ٢١ .

(١٧) السابق، ص ٢١.

(١٨) من الجدير بالذكر أن الأستاذ السيد صقر قد رجح رأى ابن قتيبة، بل اعتقد صوابه، فيما يتعلق بعدم ترجمة القرآن إلي اللغات الأجنبية. انظر مقدمة المحقق، ص٨٠.

(١٩) سورة النساء، آية ٨٢.

(٢٠) تأويل مشكل القرآن ، ص٣٢.

(٢١) السابق، ص ٥٠.

(٢٢) سورة طه، آية ٦٣.

(٢٣) تأويل مشكل القرآن، ص٥٠، ٥١.

(٢٤) السابق، ص ٥٦، ٥٧.

(٢٥) سورة الرحمن، آية ٣٩.

(٢٦) سورة الحجر، آية ٩٢، ٩٣.

(٢٧) سورة المعارج، آية ٤.

(٢٨) سورة الرحمن، آية ٣٧.

(٢٩) تأويل مشكل القرآن، ص٦٥.

(٣٠) السابق، ص ٨٦، وما بعدها.

(٣١) السابق ، ص ١٠١، وما بعدها.

(٣٢) السابق ، ص ٢٩٩، وما بعدها.

محطات الفضاء بين الحقيقة والخيال

بقلم

علي عبد الله بركات *

فى عام ١٧٩٨م نشر توماس مالثوس (١٧٦٦- ١٧٣٤) أراءه عن الزيادة السكانية المطردة في مقابل نقص الغذاء والموارد الأخرى على سطح الأرض، وما سوف يترتب على ذلك من اشتعال الصراع من أجل البقاء بين بنى الإنسان.. صحيح أن هذه الأراء كانت - فيما يزعم البعض - محركا لدوافع الدول الكبرى للسيطرة على ثروات الدول الصغيرة، خاصة ان تشارلز داروين تأثر بها فى صياغة فرضية، الصراع من أجل البقاء، ضمن نظرية التطور التى صاغها فى القرن التاسع عشر.. لكن أصبحت مشكلة ازدحام الكوكب بسكانه - على جانب آخر - دافعا للعلماء للبحث الحثيث عن حلول علمية سلمية، لمشكلة تزايد السكان على كوكب الأرض ونضوب الثروات الطبيعية خاصة البترول الذى ترجح التقديرات نضوبه فى هذا القرن ..

فى حقيقة الأمر، فإن العلم يحقق فى كثير من الجوانب تعادلا لمشكلة الزيادة السكانية بما يتوصل إليه من اكتشافات فى مجالات الغذاء على وجه الخصوص والتحول لمصادر غير تقليدية للطاقة .. لكن الغذاء والطاقة ليسا كل شئ .. فهناك مشكلة ازدحام الكوكب بسكانه ومشكلة نقص المياه الصالحة للشرب، التى بدأت تلقى بظلالها الثقيلة على البشرية، والمشاكل البيئية التى تستعصى على الحلول، وما يترتب عليها من انتشار سريع للأوبئة والآفات ..

استعمار الكواكب الأخرى

لم يقف طموح العلم - إزاء هذه المشكلات - عند حد الأرض، بل جاوزه إلى الفضاء، حيث أخذت فكرة استعمار كواكب أخرى، تلقى بظلالها على الكتاب والمفكرين والعلماء، كحل ممكن لتجنب

* جيولوجى بهيئة المساحة الجيولوجية، ومتخصص فى مجال الجيولوجيا الكوكبية .

العناء الذى سوف تلاقيه البشريةمن جراء الزيادة المطردة فى تعداد السكان .. ولاشك فى أن أفكار الهجرة إلى الفضاء قديمة قدم الخيال العلمى لكنها.. أخذت طابعا نفعيا، وأضحت ضرورة يسعى الإنسان لتحقيقها.. فقد ظهر رواد العوالم صغيرة فى الفضاء فى رواية جول فيرن ١٨٧٨م ورواية «كيردلاسوتز» ١٨٩٧م وقصة كنسانتن تسيولكوفيسكى» ١٨٩٥م. أما الطابع النفعى للهجرة إلى الفضاء فقد ظهر جليا، فى قصة هـ .ج. ويلز «أول رجال على سطح القمر» التى نشرت فى عام ١٩٠١م، حيث جاء على لسان أبطالها :

«وأجبرنا أنفسنا على الزحف مرة أخرى. وكان عقلى مركزا كلية على الشراب والطعام .. ومررنا على أماكن مستوية تنبت فيها أشياء حمراء ذات لب.. تكسرت عندما اصطدمنا بها.. ولاحظت نوعية الأجزاء المكسورة لاشك أنها تبدو صالحة للأكل، كما أن رائحتها كانت طيبة مقبولة فاقتطعت قطعة وشممتها وقلت فى صوت خفيض

كافور مارأيك ؟

فقال: لاتفعل

فالقيت بها وزحفت بين هذه النباتات المغرية وسألت كافور لماذا لا؟

فقال سم !

فقلت : سوف أغامر

وحشوت فمى بها، وحاول أن يمنعنى ولكنه تأخر فقلت إنها طيبة!

وأخذ يرقبنى وأنا آكل وتغضن وجهه فى حيرة بين الرغبة وعدم الموافقة ثم استسلم لشهيته وبدأ يقضم منها بملء فمه وبقينا كذلك لفترة لا نفعل شيئاً سوى الأكل

كان طعم ما نأكله لا يختلف كثيرا عن طعم الفطر (عيش الغراب) وعندما كنا نبتلعه كان يدفئ حلقنا وبدأت دماؤنا تجرى أكثر دفئا وبعدها اشتعلت رؤوسنا بأفكار جديدة وقلت: إنه لشئ طيب ! شئ مدهش إنه مكان يصلح لحل الفائض السكانى عندنا فى كوكب الأرض»

إن الأسس العلمية والفنية لبناء مستوطنات العيش فى الفضاء ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى وتعتبر أفكار عالم الطبيعة، جيرالد أونيل من جامعة برنستون، أفكاراً قيمة فى هذا المجال، إذ تعتمد على نقطتين :

١ – على الإنسان أن يتطلع لبناء عوالم جديدة بدلا من تطلعه لاستعمار العوالم القديمة.

٢ – يجب أن تبنى هذه العوالم، من المناجم التى تستخرج من الفضاء ذاته، وتعتمد فى تشغيلها على الطاقة الشمسية ..

وقـــــد طـورت أفـكار أونـيل عن المستعمرة الفضائية، في مؤتمر عقد في أوائل عـام ١٩٧٥م بجامـعـة برنسـتون، تحت عنوان «صـنـاعـــة المرافق فـي الفضاء»

كوكب الزهرة

أمـــا «كـــارل سـاجـــان» (العـــالم الأمريكي المعروف، الذي رحل عن دنيانا من سنوات قليلة، والذي اشـــتــهـــر بمعارضته لبرامج التسلح النووي للدول الكبرى، خاصة بلاده، ودافع عن تطوير برامج أبحـاث الفـضـــاء بما يـخـدم الإنسانية، ويحقق مستقبلا أفضل لبني الإنسـان) - فـينظر إلى كوكب الزهرة، ويرى إمكانية تحويله إلى أرض جديدة، صالحة لاستقبال سكان الأرض. وكوكب الزهرة، ثاني كواكب المجموعة الشمسية قـربا من الشـمـس، بعـد عطارد ويدور الكوكب حـول الشـمـس في مـدة قـدرها حوالي ٢٢٥ يوما أرضـيـا . ويبعـد عن الشـمـس بمسـافـة قـدرها ٧٢ ٪ من المسافة التي بين الأرض والشمس ، لذا فإنه يستقبل حرارة، أعلى من الحرارة التي تتلقـاها الأرض من الشـمـس، مما يجعله حـارا بدرجة كبيرة عن الأرض وللكوكب غـلاف غـازي مـخـتلف عن الأرض، ولايصلح - بوضـعـه الحـالي - لاستمرار الحياة الأرضية بمتطلباتها المعروفة .

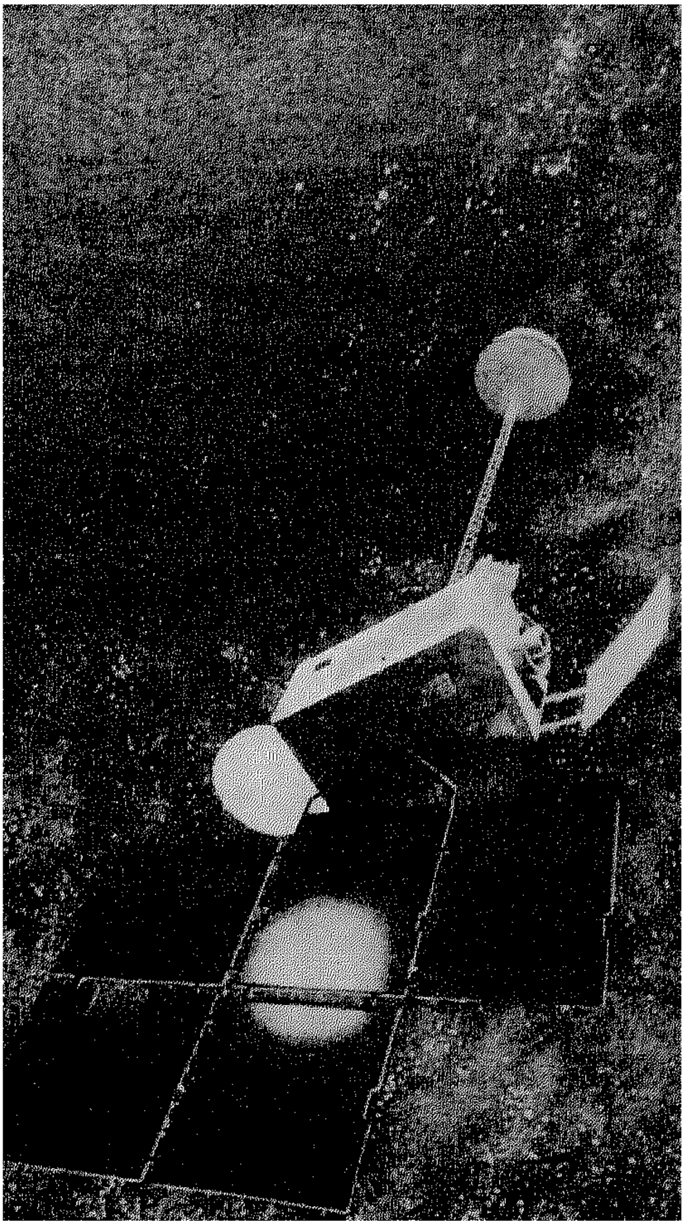

الطموح إلى استعمار الفضاء يقلل من الصراعات الدولية ويوفر الإنفاق الباهظ على برامج التسلح

في عـام ١٩٦١م، يسـتـجـمـع كـارل سـاجان خيوط العلم، ويقرأ المكتشفات العلمية الخاصة بتاريخ الأرض، والمراحل التي مرت بها، منذ نشأتها، وحتى الوقت الحـاضـر، وينسج على ضـوئها فـرضـيـة فريدة .. فالأرض ليست منذ نشأتها وهي على حـالـهـا هذا، بل كـانت منذ بلايين السنين ذات غلاف جوي يشـبـه ذلك الذي يوجد في كوكب الزهرة وقد كان ذلك الجو

خاليا من الأكسجين الذى يعد قوام الحياة الآن فقد كان يتكون من الميثان، والأمونيا وبخار الماء، وأول وثانى أكسيد الكربون ومن الطريف أن ذلك الجو، كان ملائما لتكون المواد العضوية (مثل الأحماض الأمينية) التى قامت عليها الحياة، ودخلها السر الأعظم، الذى أصبحت بمقتضاه حية! كيف لايعرف أحد على وجه اليقين .. ولو كان جو الأرض - آنذاك - على الحالة الحالية، لحال دون تجمع مثل تلك المواد، التى قامت عليها الحياة فالجو المؤكسد (الذى يحتوى على الأكسجين)، يحول دون تجمع المواد المختزلة (قطعة الحديد التى تستخلص باختزال خامات الحديد تتأكسد فى جو الأرض الحالى ثانية) وأول من قام من الحياة، هو الكائنات الأولية التى تستطيع العيش فى ظروف قاسية، مثل غياب غاز الأكسجين، ودرجات الحرارة العالية أو المنخفضة، ومن الطريف أن هذه الأنواع البدائية من الحياة، التى من أهم خصائصها التكاثر السريع، ومن ثم الانتشار الواسع فى زمن بسيط، هى التى غيرت جو الأرض تدريجيا إلى الجو الحالى الذى يوجد به الأكسجين الذى نتنفسه .

شبه الأرض

وفرضية «كارل ساجان» بسيطة جدا، وتتمثل فى شحن كمية من الفطريات الأرضية بوسيلة أو بأخرى ونشرها على سطح كوكب الزهرة، حيث تتكاثر وتنتشر وتبدأ فى أنشطتها الحيوية فتستخلص الكربون من جو الزهرة لتبنى به أجسامها وتحرر الأكسجين الذى سوف يتراكم مع الزمن فى جو الكوكب، وتتوالى عملياته الكيمائية، خاصة تكون السحب المائية، وما يترتب عليها من هطول الأمطار، التى سوف تسهم بشكل مباشر فى تلطيف درجة حرارة جو الكوكب، ليصل فى نهاية المطاف إلى كوكب قريب الشبه بالأرض، من حيث إمكانية استمرار الحياة عليه ..

إن أهم ما يميز طموحات استعمار الفضاء، هو استجماع الطاقات البشرية أمام هدف كبير، وهذا من شأنه - لو توافرت له الدعاية الجيدة - أن يقلل من الصراعات الدولية ويحصرها فى نطاق ضيق جدا، إذ تبدو أمام هذا التحدى أشبه بنزاعات محلية سرعان ما تتلاشى .. ومع التسليم بصعوبة تحقيق هذا الأمل فى الوقت الراهن، إلا أن تضافر جهود العلماء، قد يجعل منه أملا ممكنا، ولو على المدى البعيد، خاصة لو تخلت الدول الكبرى عن الإنفاق الباهظ على برامج التسلح، وحولت اهتمامها صوب الفضاء، كما ظل يدعو دوما «كارل ساجان» .. ■

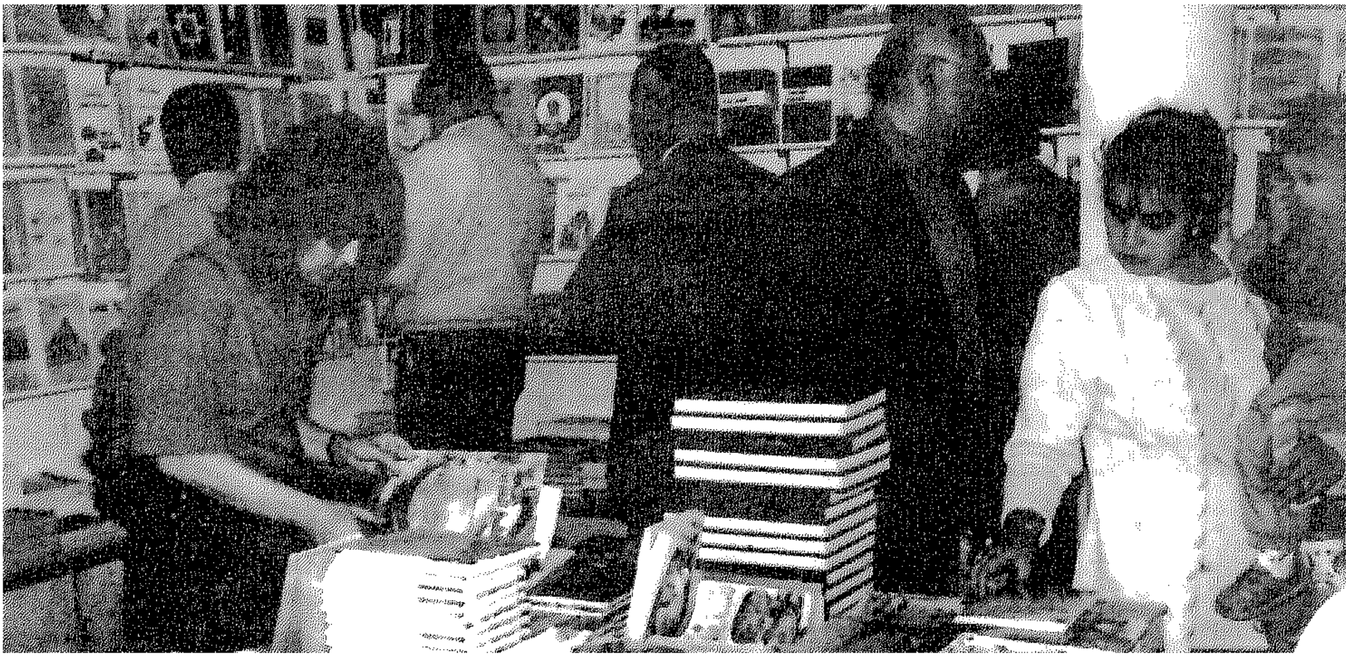

قضية الكتاب

بقلم
وديع فلسطين

من سنوات طلع علينا الشاعر السورى نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) بقصيدة ألقاها فى مهرجان للشعر صاح فيها فى وجه الأدباء الحاضرين قائلا :

وإذا أصبح المفكر بوقا   يستوى الفكر عندها والحذاء

وكنت وقتها أعيش فيما يشبه المنفى الإرادى، حيث ضقت ذرعا بما أسميه بالانكشاريات المتغالظة، لأننى لم أرتض لنفسى أن أكون بوقا من الأبواق فى جوقة من المنشدين، فاستلهمت من نزار قبانى مقالا عنوانه «الأدب والأحذية» نشرته فى مجلة «الأديب» اللبنانية، ولم يلبث هذا المقال أن توالد بتعليقات كثيرة منى ومن القراء، واستمرت سلسلته ست سنين كررت فيها على مسامع الأدباء هذا البيت المدوى:

وإذا أصبح المفكر بوقا   يستوى الفكر عندها والحذاء

وكان مرادى ، لا أن يحفظ الأدباء والمفكرون هذا البيت وحسب، بل أن يتمثلوه فى حياتهم ، لأن الفكر أسمى من أن ينحدر إلى درك الأبواق التى تجعجع وتلعلع بما يُملى عليها لا بما تمليه ضمائر الأحرار.

الأدب والأحذية

وأعود اليوم إلى تناول الصلة بين الأدب والأحذية من زاوية أخرى، لا لأن مكتبات كبيرة فى وسط القاهرة قد تحولت إلى محال لبيع الأحذية، ولا لأن عددا من مكتبات حى الفجالة قد أخلى الطريق لمحال بيع الأدوات الصحية، ولكن لأن دولتنا الموقرة ممثلة فى جماركها باتت تعامل الكتاب وكأنه سلعة من السلع مثل الحذاء والشبشب بل «الفسيخ»، فتفرض عليه رسوما جمركية ليس لها مثيل فى أى دولة متقدمة أو نامية أو متخلفة من دول العالم، بل إن منظمة اليونسكو تشترط على الدول من أعضائها معاملة الكتب وجميع الوسائل الثقافية معاملة خاصة فلا تخضعها لأى إجراءات جمركية.

ففى أسبوع واحد، تلقيت بالبريد طردين صغيرين من الكتب أهداهما إلى صديقان أحدهما فى السعودية والآخر فى لبنان، وعلى الفور شمر عتاة الجمركيين عن ساعد الجد، فها هم أمام «ضبطية» ثمينة، ولابد من اقتضاء رسوم جمركية عليها بغض النظر عن محتوياتها ، وكانت جملة الرسوم التى سددتها بملحقاتها وبقشيشاتها أيضا ٣٥ جنيها . وسجلت على استمارة البريد احتجاجا صارخا

نزار قبانى

على فرض رسوم جمركية على الكتب والمطبوعات مع أنها معفاة من الإجراءات الجمركية فى العالم كله ، ولكن لا حياة لمن تنادى، وقد سألت ساعى البريد عن مصير هذه الكتب فى حالة الامتناع عن تسديد الرسوم الجمركية ، فقال إنها تطرح فى مهملات البريد - أى زبالته - وهو المصير المحتوم لأوعية الفكر والثقافة فى عرف سدنة الجمارك.

وليس بعيدا عن الذاكرة ما حدث فى معرض القاهرة الدولى للكتاب منذ عامين عندما رفضت الجمارك الإفراج عن الكتب التى بعث بها ناشروها السوريون واللبنانيون والأردنيون لعرضها فى المعرض إلا بعد اقتضاء رسوم جمركية باهظة - سيتحملها القارىء المصرى فى آخر المطاف - وذهبت هباء جميع الاتصالات التى جرت مع جميع المسئولين للإفراج عن الكتب التى غابت تماما عن المعرض، وبقيت القاعات التى استأجرها الناشرون بدولاراتهم العزيزة قاعا صفصفا . وعند انتهاء المعرض، تنازل الجمركيون

وسمحوا للكتب بالعودة من حيث أتت بعد دفع غرامة قدرها ١٥٠ ألف جنيه، وكانت فضيحة تبارت الصحف فى نشرها ، ولكن لا حياة لمن تنادى.

رقابة مستمرة

وعندما حشدت مصر جيشا جرارا من الأدباء والمفكرين للسفر إلى فرنكفورت للمشاركة فى معرضها الدولى للكتاب - وهو معرض يكاد يقدس الكتاب - أشفقت على هذا الجيش الجرار من رسل الثقافة والفكر من أن يواجهوا بمن يعّيرهم لأن بلادهم تعامل الكتاب باعتباره سلعة من السلع تستوى فى قيمتها المادية مع الحذاء أو الشبشب ، ودع عنك الرقابة بأسمائها وتسمياتها المختلفة التى مازالت تفرض على الكتاب، ولا يسلم الأمر من دعاوى ترفع على المؤلفين حتى وإن استخدموا شبكة الإنترنت فى بث شعرهم ونثرهم.

إن قضية الكتاب قد تفاقمت فى الاتجاهين، فلا الكتاب المصرى يعبر الحدود إلى البلاد العربية كما كان يتدفق فى الماضى بسهولة ويسر، ولا الكتاب العربى المطبوع فى العواصم العربية يصل إلى مصر ، اللهم إن جاء محمولا مع رسول مسافر . كل هذا يحدث فى عصر الإنترنت والسموات المفتوحة الكفيلة بنشر اى كتاب مهما كان موضوعه على اوسع نطاق عالمى.

ويسبب هذه الحواجز الجمركية والرقابية ، انتشرت عمليات تزوير الكتب والمعاجم المصرية وترويجها فى الاسواق الخارجية، ومنها تتسلل الى مصر من الأبواب الخلفية - وما أكثرها - فحيث تقام المتاريس أمام الفكر، تكثر الأبواب الخلفية.

محمد منلور

وكم شكا أساتذة الجامعات من أن الكتب العلمية التى يحتاجون إليها لمتابعة أحدث المكتشفات فى ميادينهم يتم حجزها فى الجمارك وتفرض عليها رسوم باهظة تجعل الأساتذة أمام خيارين أحلاهما مر كالحنظل، فإما أن يدفعوا هذه الرسوم صاغرين ويتسلموا الكتب والمجلات العلمية فينتفعوا بعلمها وينفعوا طلابهم ، وإما أن يمتنعوا عن دفعها، فتستقر فى مصيرها المحتوم وهو الزبالة.

إلغاء جميع الرسوم

وتحل فى شهر يناير المقبل مناسبة معرض القاهرة الدولى للكتاب، وهى مناسبة تدعونا إلى المطالبة بإلحاح وإصرار بإلغاء جميع الرسوم الجمركية المفروضة على الكتب والمطبوعات والوسائل الثقافية حتى يطمئن العارضون القادمون من البلاد العربية والخارج إلى أنهم لن يصطدموا بعقبات جمركية تحول دون مشاركتهم الفعالة فى هذا المعرض. وقد عشنا زمانا كانت المطبوعات فيه تعامل معاملة خاصة، فتنساب من الخارج الى

الداخل او العكس دون اى معوقات من أى نوع كان، وكانت المجلات والصحف - مهما كان حجمها أو وزنها - ترسل بالبريد فى داخل مصر مقابل مليم واحد، وخارج مصر ولو إلى أستراليا مقابل مليمين اثنين. بل كنت أتلقى مجلات من الولايات المتحدة وعليها طابع بريد قيمته سنت واحد.

وثمة حقيقة لا ريب فيها ولا داعى للمكابرة فى إنكارها، وهى أن القارىء انقرض أو كاد بدليل أن الكتب الأدبية التى يقدر لها ان تطبع، لا يتجاوز المطبوع منها ألفا أو ألفين من النسخ، وهى لا تنفد إلا بعد سنوات وسنوات. فى عالم عربى يضم بين خليجه الثائر ومحيطه الهادر أكثر من ٢٠٠ مليون نسمة ، ويضم عشرات من الجامعات التى تخرج فى كل عام مئات الآلاف من الطلاب، وهى مأساة كانت كفيلة بأن تغير النظرة الجمركية إلى الكتاب . فتعمل على تشجيعه وتيسير الحصول عليه عوضا عن أن تكون عنصر «تطفيش» يقضى على الكتاب قضاء مبرما.

والغريب ان قضية الكتاب لا تجد من يدافع عنها من المسئولين عن الثقافة بحكم وظائفهم والتبعات الملقاة على عاتقهم. وآية ذلك ما حدث من سنوات فى لقاء بين رئيس الجمهورية ورجال الفكر عقد بعد افتتاح معرض الكتاب ، حيث أثار الأديب ثروت أباظة (١٩٢٧ - ٢٠٠٢) قضية الجمارك المفروضة على الكتاب وعلى جميع مستلزمات النشر، فطلب الرئيس من وزير الثقافة أن يجد حلا لهذه المشكلة وأمهله ثلاثة أشهر ، ومضت الأشهر الثلاثة وبعدها شهور وسنوات دون الاهتداء إلى حل حاسم لهذه القضية المستعصية على الرغم من بداهتها الواضحة.

سيد قطب

عاصمة النشر الأولى

وقبل تأميم دار المعارف - التى عوملت باعتبارها مؤسسة صحفية مع أنها دار نشر للكتب على مدى تاريخها الطويل - قال لى صاحبها شفيق مترى «ت ١٩٩٤» إن الدار كانت تصدر مطبوعاتها إلى البلاد العربية والخارج بما يصل إلى مليونى جنيه سنويا بالأسعار المخفضة للكتب فى ذلك الوقت وبالقيمة المرتفعة للجنيه المصرى . مما شجع الدار على فتح فرع رئيسى لها فى بيروت التى أصبحت اليوم عاصمة النشر الأولى. ولكن التأميم من ناحية والقيود الجمركية والبيروقراطية من ناحية ضربت صناعة النشر فى الصميم، ولم يعد ناشر يغامر أو يقامر بنشر الموسوعات أو الكتب الضخام لأن تكاليفها لن تسترد أبدا فى ظل الأوضاع الحالية.

وثمة ظاهرة جدت فى ميدان النشر، وهى مطالبة المؤلف بتسديد القسم

الأكبر من نفقات نشر كتابه، وإلا تعذر عليه أن يرى كتابه منشورا. ثم إن كتابه يكاد يظهر سرا ، لأن الناشرين جميعا كفوا عن الإعلان عن مطبوعاتهم بسبب ارتفاع نفقات الاعلان، سواء في الصحف أو التليفزيون كما انتهى عصر النقاد المحترفين الذين كانوا يهتمون بكل جديد يصدر ويضعونه في ميزان النقد الأدبي، وما «حديث الأربعاء» لطه حسين ١٨٨٩ - ١٩٧٣ إلا مجموعة من المقالات نشرها حول آثار الأدباء المعاصرين له. وابحث اليوم عن نقاد أصلاء من طبقة محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) أو سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦) أو لويس عوض (١٩١٥ - ١٩٩٠) او بنت الشاطيء (١٩١٣- ١٩٩٨) فسيعييك البحث، اللهم الا ان اعتبرت مقالات المجاملات فيما بين الأصدقاء وأبناء الجيل الواحد من قبيل المقالات النقدية . ولي في هذا تجربة شخصية، فالكتاب الذي أصدرته مؤخرا عن الأعلام الذين عرفتهم في رحلة الحياة - ومعظمهم من المصريين - استقبل بحفاوة نقاد لا أعرفهم في البلاد العربية بأكثر من حظوظه في مصر. وهو ما يؤكد ان الحركة النقدية انتقلت بدورها الى البلاد العربية ما دام الكتاب يعاني من صنوف العقبات الكأداء في مصر.

والذي يراجع المجلات القديمة مثل «الرسالة» و«الكتاب» و«الكاتب المصري» و«المقتطف» يقع فيها على باب ثابت هو باب الكتب الجديدة، وهو باب كان النقاد فيه يصولون ويجولون، ولا يخلو الأمر من معارك وأخذ ورد تتسع لها صفحات هذه المجلات خدمة للقاريء في المقام الأول ، وكان

لويس عوض

يسهم في هذا الباب نقاد من البلاد العربية لأن صدور كتاب جديد كان يعد حدثا أدبيا في العالم العربي كله، ومما يؤسف له ان السياسة بكل تداعياتها المزعجة قد انعكست بالسلب على الحياة الأدبية، وأصبح كل قطر عربي منكفئا على ذاته، وما التنازع الشرس على رياسة اتحاد الأدباء العرب وعلى مقره إلا من مظاهر هذا الشقاق عوضا عن الوفاق.

إن الكتاب العربي، برغم كل المهرجانات الشكلية، يعاني من أزمة خانقة لا سبيل إلى الخروج منها إلا بالتصدي بحزم لجميع المشكلات التي ابتدعناها واختلقناها لتعسير مهمة طباعة الكتب ونشرها وتوزيعها وترويجها، وأكاد أقول تتويجها. فالكتاب، وليس البث التليفزيوني ، هو الوعاء الأول للثقافة ، وهو الذي يعتد به في البحوث والدراسات الاكاديمية وفي متابعة ركب العلوم الحديثة وفي تنشئة الأجيال الجديدة التي يعول عليها في بناء الأمة. وهي قضية تستنفر همة جميع الأجهزة الحكومية المختصة، وإلا استفحلت ظاهرة الأمية السائدة حتى بين المثقفين وخريجي الجامعات. ■

من ينقذ
الجمعية الجغرافية المصرية؟!

تحقيق : أماني عبد الحميد
تصوير: سامح كامل

● أقدم صرح علمي أنشأه الخديو إسماعيل

● ١٣٠ عاما من التاريخ العلمي والكشوف الجغرافية

في الوقت الذي تشجع فيه كافة الجهات قيام الجمعيات الأهلية تقف اليوم الجمعية الجغرافية المصرية فى مهب الريح التى تهدد كيانها بالانهيار. ولايزال مجتمعنا يعج بحفنة من المنتفعين الذين مازالوا يبحثون عن موطىء قدم لهم ليتعيشوا منه ضاربين عرض الحائط بكل القيم والمبادىء والتاريخ العريق. والمشكلة تفجرت مع ظهور مجموعة من المدعين الذين يعبثون بأوراق التاريخ، وللأسف لم يجدوا من يقف أمامهم ويردعهم. ولم يجدوا سوى أرض (وقف خيرى) تديرها وزارة الأوقاف وتعود إيراداتها السنوية لتمول الجمعية الجغرافية المصرية منذ عام ١٩٣١ . وبه استطاعت الجمعية مواصلة مجهوداتها طوال تلك السنين. ولكنها لن تتمكن من ذلك بعد الاستيلاء على أراضى الوقف الخيرى من غير حق. والجمعية الجغرافية المصرية ومعها المجمع العلمى المصرى من المعالم البارزة كمنارات علمية شامخة فى فجر النهضة المصرية الحديثة التى تستحق الحفاظ عليها وحمايتها من كل عبث ومن أية أطماع.

◀ المحمل الشريف فى المتحف الملحق بالجمعية

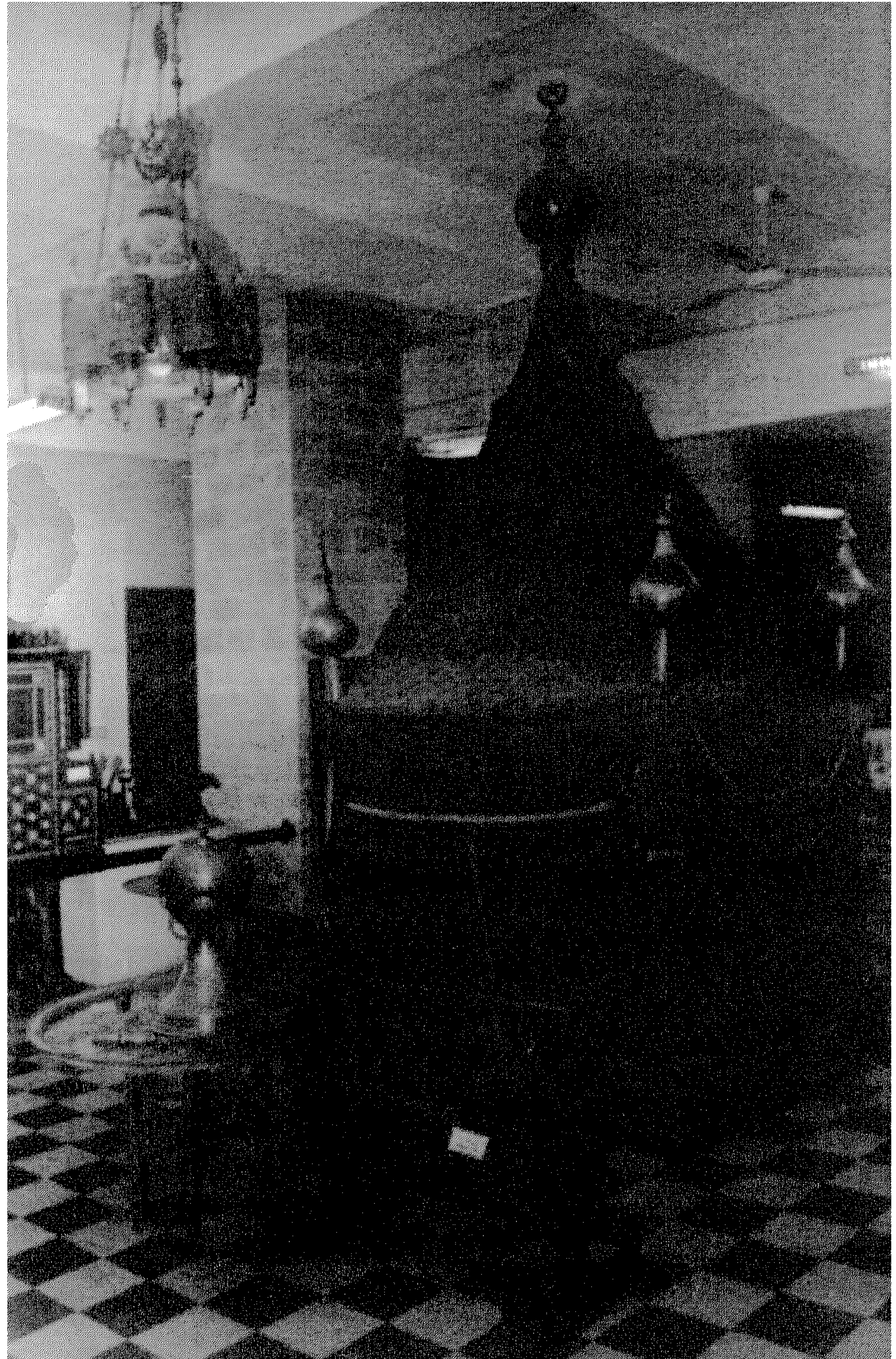

مبنى تاريخى قديم، قد لا يميزه العابر بشارع قصر العيني عن غيره، فى منطقة لا تزال تحمل مسوح ما تبقى من نجوم عمارة القاهرة الخديوية حلم الخديو إسماعيل.

مبنى الجمعية الجغرافية لا يزال تبدو عليه روح الصرامة والصَرْحَية، برغم أنه حبيس أسوار مجلسى الشعب والشورى - الحديدية والرخامية - وخلفه ترتفع قبتاهما حيث تغير أنظمة الحكم (خديوية، سلطانية ، ملكية، جمهورية..) وتعتمد الدولة القرارات وتصدر القوانين، وأمامه سارت الكثير من المسيرات الوطنية.

وعلى الرغم من صموده أكثر من ٨٠ عاما - هى عمر المبنى - و١٣٠ عاماً - عمر الجمعية - كصرح علمى لا مثيل له، إلا أنه اليوم أصبح يحتاج مسيرة جديدة من المفكرين والعلماء والغيورين على تاريخ البلاد ، حتى يقفوا أمامه لحمايته من هجمات من لا علم لهم ، قبل أن ينهار ويصبح مجرد رمز منسى لأهم جمعية علمية فى مصر.

لا تستطيع الدخول لزيارة الجمعية الجغرافية عبر أسوار مبنى مجلسى الشعب والشورى. فالمكان تلتف حوله مجموعة من ضباط ورجال الأمن، كما تستوقفك نقاط التفتيش والتحقق من شخصيتك.

ورغم التأكد من حسن السير والسلوك لا يجوز لك زيارة الجمعية الجغرافية المصرية إلا بعد الحصول على إذن كتابى من رئيس الجمعية. ومع ذلك لا يزور الجمعية سوى موظفيها وحفنة من الباحثين وأساتذة علوم الجغرافيا ، خاصة وأنها مكان غير معلوم لدى كثير من المصريين. وعندما تنال شرف الزيارة ستكتشف أنك دخلت مبنى يضم من الكنوز ما لا مثيل لها فى أى مكان آخر.

يضم المبنى مكتبة نادرة عبارة عن مجموعة من أهم المكتبات العلمية فى العالم ، من أهمها مكتبة مكونة من (٢٥٠٠) مجلد أهداها الخديو إسماعيل للجمعية كنواة لأول مكتبة متخصصة فى علوم الجغرافيا. ثم توالى على الجمعية عدد من المكتبات المهداة لرموز العلم والأمراء مثل مكتبة محمود باشا الفلكى وهى حوالى (٣٠٠ مجلد) ومكتبة الأمير حيدر فاضل (٧ آلاف مجلد)، ومكتبة الأمير محمد على توفيق ولى العهد (٧ آلاف مجلد) علاوة على الإهداءات الحديثة من المكتبات مثل مكتبة الدكتور سليمان حزين الرئيس السابق للجمعية. وجزء من مكتبة الرئيس الحالى الدكتور محمد صفى الدين أبو العز.

خرائط نادرة

وعلى الرغم من ثروة الكتب التى تمتلكها الجمعية إلا أنها تمتلك ثروات ونفائس أخرى مثل أصول الكتب القديمة التى تؤرخ للكشوف الجغرافية فى القارة الأفريقية وأعالى النيل حتى أطلس الحملة الفرنسية.

وتضم ذخائر الخرائط والمصورات القديمة والحديثة ومنها الخريطة التى تم رسمها فى عام ١٨٧٧ بناءً على رغبة الخديو إسماعيل لتشمل خلاصة الكشوف الجغرافية الواسعة والتى تمت

قاعة المحاضرات الرئيسية فى الجمعية

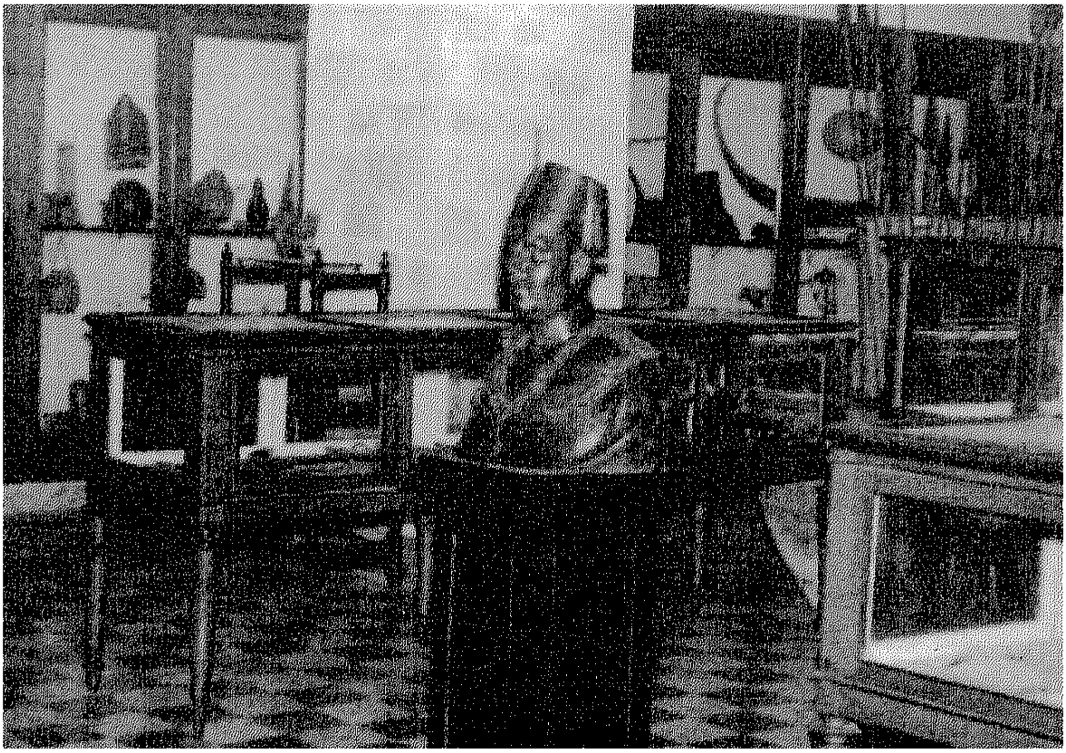

« قاعة إفريقيا » .. تضم مقتنيات من بلاد أعالى النيل

في عهده. وتبين الطرق التي سلكها المكتشفون. كما تضم الجمعية خرائط نادرة مثل خرائط دارفور التي رسمها بوردي باشا وخريطة للنيل رسمها جوردون باشا وأخرى رسمها محمود باشا الفلكي. ومجموعة أخرى تتألف في ٢٥٠ خريطة أهدتها إحدى الأميرات للجمعية. وإن كان عدد الخرائط التي تملكها الجمعية قد وصل اليوم إلى ما يزيد على ١٠ آلاف خريطة و٣٠٠ أطلس معظمها من الخرائط القديمة.. كما يذكر لنا الدكتور كمال لطفي رئيس قسم الخرائط بالجمعية.

وتحتفظ الجمعية بأطلس الأمير يوسف كمال الذي يضم خرائط نادرة وقديمة لقارة أفريقيا. كذلك أطلس أسفل الأرض للأمير عمر طوسون. وفي الدور الأرضي للمبنى لا تغفل عيناك قاعات متحف الجمعية الجغرافية حيث تضم مجموعة من النماذج والتحف التي أحضرتها البعثات الكشفية التي أوفدتها الجمعية إلى أعالي النيل، وعددا من الأسلحة والأدوات والصور المجلوبة خلال حملة إعادة فتح السودان، وتمثل الحياة اليومية والشعبية هناك. ففي عام ١٩٢٤ قررت الجمعية تكليف الأستاذ إي. س توماس أحد المتخصصين في الدراسات الأفريقية لدراسة المقتنيات وتنظيمها وتصنيفها ووضع فهرس علمي لها لتكوّن المتحف العلمي بها.

• أقدم جمعية علمية متخصصة في الشرق الأوسط

المتحف العلمي

المتحف مكون من عدة قاعات، هي قاعة القاهرة، وتمثل صوراً من الحياة الشعبية في مصر، مثل العادات والتقاليد وأدوات الزينة، الحليّ، أدوات السحر والتمائم، وفنون الخط العربي والكتابة والأعياد. وإن كان أجملها المحمل النبوي الشريف الذي يرجع إلى عصر الملك فؤاد الأول، حيث كانت مصر ترسله إلى الحجاز مع أستار الكعبة في موسم الحج، وهو من الحرير الثقيل والمكتوب عليه آية «الكرسي» بخيوط «الصرْمه» الذهبية والفضية البارزة. كما يضم «التختروان» وهو مصنوع من الخشب النادر وكان يستخدم في القرنين (١٧-١٨) في زف العروس ويحمله اثنان من الجمال ويتصدر موكب العروس حسب التقاليد آنذاك.

ويضم قاعة أخرى عن الحرف والصناعات وتشمل مجموعات من إنتاج الحرف والصناعات المصرية الأصيلة خاصة اليدوية مثل: الخط العربي، صناعة النحاس، الصناعات الحديدية، صناعة الزجاج، أدوات البناء والأحذية، ويضم قاعة أفريقيا وهي مهداة من الفريق مختار باشا رئيس هيئة أركان الجيش المصري، وعدد من الرحالة الذين شاركوا في كشوف الجمعية الجغرافية. ومنها مجموعات من الأسلحة كالسيوف والخناجر والدروع والأدوات المنزلية والطبول وأدوات الموسيقى التي كانت تستخدمها القبائل الأفريقية.

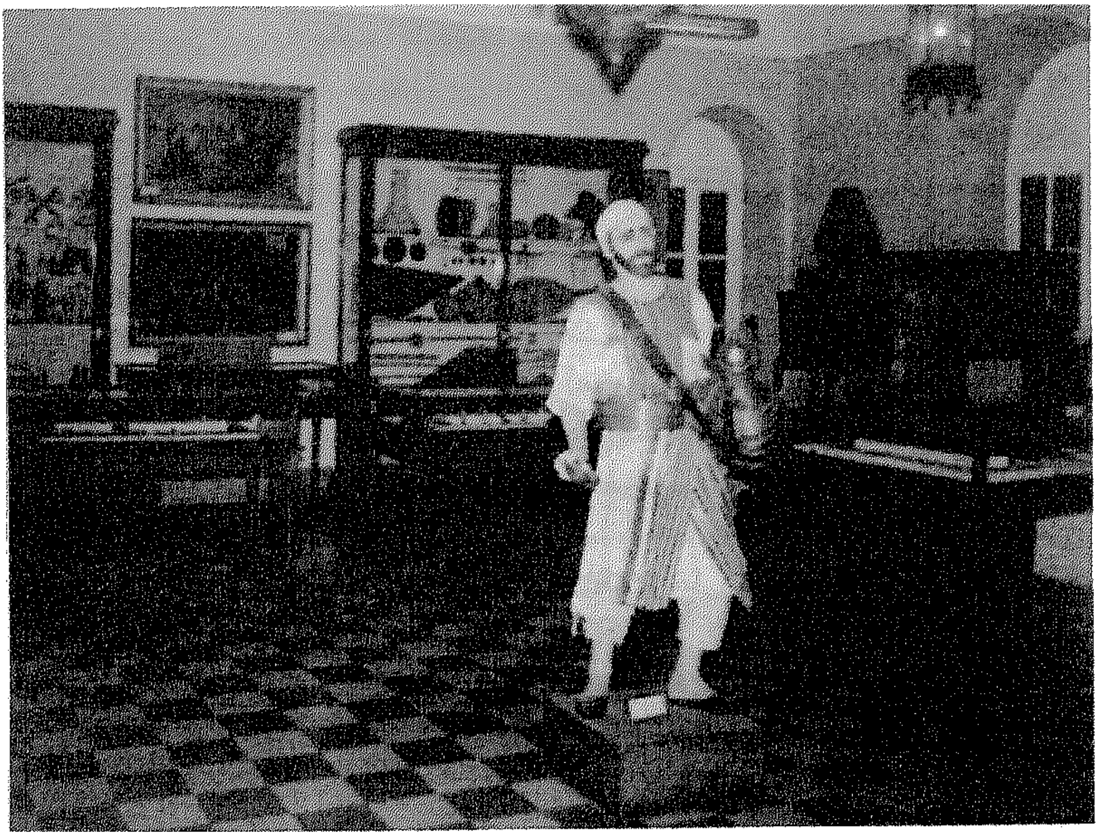

«قاعة القاهرة» . تضم مقتنيات عن عادات المصريين وتقاليدهم

وإن كان من أهم ما يضم المتحف قاعة قناة السويس التي تضم عدداً من المجسمات النادرة والصور والخرائط التي تلخص تاريخ القناة منذ بدء حفرها في عام ١٨٥٩ وحتى افتتاحها عام ١٨٦٩ لتربط بين الشرق والغرب ، وهي مجسمات أعدتها هيئة القناة في عام ١٩٣٠ لتشارك بها في معرض المستعمرات عام ١٩٣١. كما توجد عدة خرائط مجسمة لبعض المدن المهمة في منطقة قناة السويس كما كانت في عام ١٩٣٠ بمنازلها وشوارعها ومنشآتها قبل أن تدمرها حروب الاعتداء التي دمرت القناة أكثر من مرة ، مثل خرائط لمدينتي بور سعيد وبور فؤاد.

• خطر الانهيار يهددها بعد الاستيلاء على مخصصاتها المالية من الوقف الخيري

وإن كان من أهم ما تقوم به الجمعية هو النهوض بالدراسات الخاصة بأفريقيا والبلاد المجاورة، ونشرت نتائجها في مجلتها العلمية «المجلة الجغرافية العربية» مما أسهم في إلقاء الضوء على الجهود الكشفية والتي قام بها أعضاء الجمعية. ضمن رحلات علمية موسعة. منها رحلة الملك فؤاد إلى واحة سيوة وما حولها في عام ١٩٢٨، ورحلة أحمد حسنين باشا إلى الصحراء الغربية عام ١٩٢٢ واكتشاف واحات «أركنو» و«العوينات» ورحلات الأمير يوسف كمال الدين حسين في الصحراء الليبية والبعثة العلمية التي أوفدتها الجمعية عام ١٩٤٦ إلى شبه جزيرة سيناء.

لذا اكتسبت الجمعية الجغرافية مكانتها الدولية بفضل مجهودات أعضائها، فهي تحتل المرتبة التاسعة على مستوى العالم من حيث إنها جمعية جغرافية متخصصة منذ تاريخ تأسيسها. وهي الجمعية الأقدم على الإطلاق خارج أوروبا والأمريكتين.

مرسوم تأسيسي

بمرسوم عال من الخديو إسماعيل (١٩ مايو ١٨٧٥) تأسست الجمعية الجغرافية المصرية – أحد أعرق وأقدم الجمعيات العلمية في مصر – لتقوم بدور علمي على كل الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية. خاصة لتدعيم أركان الدولة المصرية الحديثة، إلى جانب إسهام علمائها الأعضاء في القيام بالرحلات والكشوف الجغرافية والدراسات الميدانية للصحارى المصرية والأفريقية ومناطق أعالي نهر النيل، وإن كان من أهم أدوارها السياسية الفعالة، تأكيد السيادة المصرية على منطقة «طابا» وذلك لما تمتلكه الجمعية من مجموعة من الوثائق والخرائط التاريخية كانت بمثابة الدليل الدامغ الذي أصدرت على أساسه المحكمة الدولية حكمها لصالح مصر.

أول من تولى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية – كما كان يطلق عليها – جورج شفاينفورت الرحالة الجغرافي الشهير. وأول مقر لها كان

مجرد قاعة داخل بيت محمد بك الدفتردار - زوج الأميرة زينب هانم إبنة محمد على باشا الكبير - ، وكان المنزل يمثل ما تبقى من قصر محمد بك الألفي. ثم تنقلت الجمعية إلى عدة مقار مثل داخل «المحكمة المختلطة» القديمة فى آخر حارة «العسيلي» فى ميدان الخازندار. وفي عام ١٩٢٥ انتقلت الجمعية إلى مقرها الحالي، وهو مبنى تاريخي يقع داخل أسوار عدد من الأبنية السياسية والحكومية فى قلب القاهرة، مثل مقار مجلسى الشعب والشورى وعدد من الوزارات والدواوين الحكومية.

وفى احتفال كبير داخل مبناها الجديد، احتفلت رسميا الجمعية الجغرافية فى يوم الجمعة الموافق ٣ أبريل عام ١٩٢٥، بالعيد الخمسيني لإنشائها، وحضرت وفود الجمعيات الجغرافية فى المؤتمر الجغرافي الدولي الثاني عشر، الذي احتضنته مصر لأول مرة وافتتحه الملك فؤاد الأول يوم الخميس ٢ أبريل ١٩٢٥ بدار الأوبرا المصرية القديمة. ويذكر أن اسم الجمعية تغير عدة مرات نظراً لتغير الوضع السياسي للدولة ، ففى البداية حملت لقب «الخديوية» نسبة لمنشئها الخديو «إسماعيل». ثم تغير لتحمل لقب «السلطانية» وذلك بمرسوم أصدره السلطان حسين كامل عام١٩١٥ بتعيين الأمير أحمد فؤاد رئيساً لها . ثم أصبحت تحمل لقب «الملكية» فى ١٩٢٢ عندما تغير النظام السياسي من النظام السلطاني إلى الملكي. وفي عام ١٩٥٢ ومع التحول إلى النظام الجمهوري أصبح اسمها «الجمعية الجغرافية المصرية».

وفى عام ١٩٦٤ صدر قانون الجمعيات الأهلية وعليه تم تعديل النظام الأساسي للجمعية، وجاء فى البند الثاني من لائحته أن غرض الجمعية يقع فى مجال البحث الجغرافي من خلال تنظيم محاضرات ونشر مؤلفات، وإصدار مجلات وتشجيع البحث الجغرافي، كذلك تنظيم رحلات علمية فى الوطن العربي والخارجي، وتنظيم مؤتمرات ومعارض والاشتراك فى كل ما تقوم به الجمعيات العلمية المماثلة فى جميع أنحاء العالم.

وقف خيري

وفى مرسوم إنشائها قرر الخديو إسماعيل باشا تقديم إعانة حكومية سنوية لها قدرها ٤٠٠ جنيه. ولكن المبلغ وصل إلى ٦٠٠ جنيه بقرار فى السلطان حسين كامل. ولكن الجمعية تعتمد كلياً على إيراد وقف خيرى أوقفه المرحوم (محمد راتب قوبان بن طبه الجركسى) وكان سردار الديار المصرية. وقبل وفاته أوقفه لزوجته كليرى هانم معتوقة الخديو إسماعيل. ومن بعد وفاته قامت أرملته بوقفه خيرياً لصالح الجمعية الجغرافية الملكية، وذلك بمقتضى حجة شرعية صادرة عن محكمة مصر الابتدائية الشرعية فى ١٧ نوفمبر ١٩٣١ واستمرت الجمعية تمارس نشاطها معتمدة على إيراد الوقف طوال السبعين عاما الماضية.

حق منهوب

ويحكي لنا الدكتور محمد صفى الدين أبو العز رئيس الجمعية الجغرافية

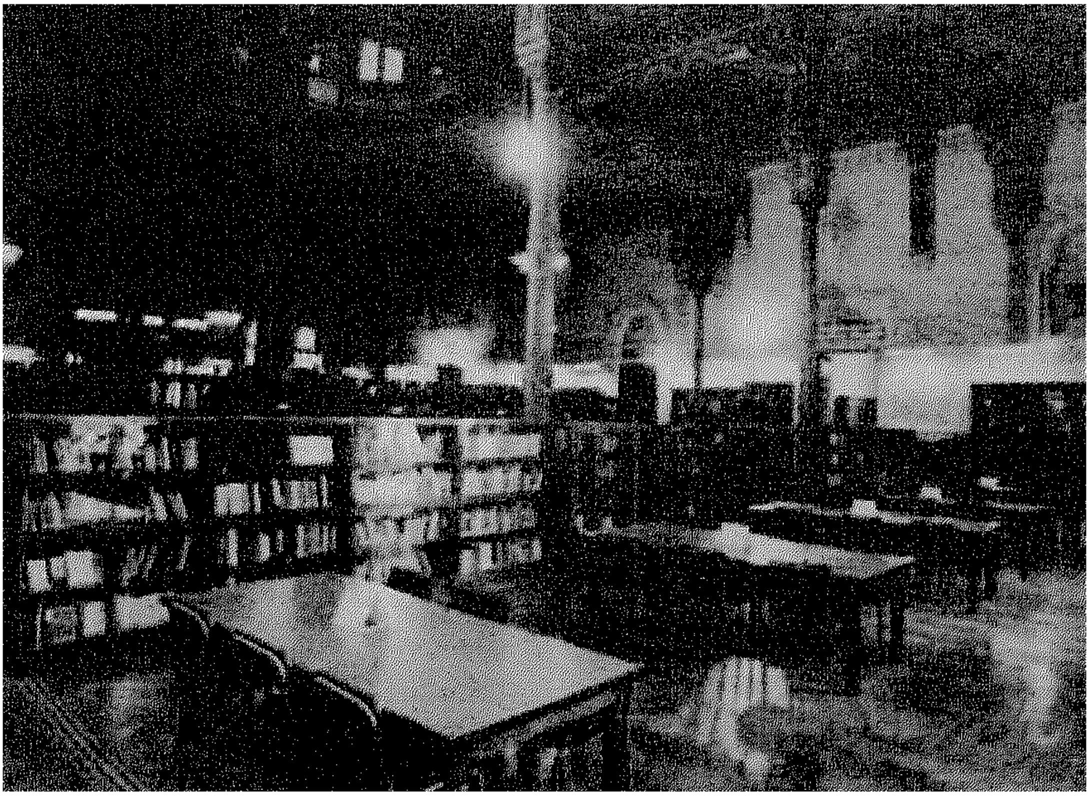

المكتبة .. وتضم أهم مكتبات الرحالة الجغرافيين المصريين

قاعة قناة السويس التى تضم خرائط المشروع ووثائقه

الحالى أن الوقف الخيرى عبارة عن (٥٣٨) فدانا زراعيا فى قرية «كتامة الغابة» مركز بسيون بمحافظة الغربية، كانت وزارة الأوقاف تقوم بإدارته على اعتبار أنه وقف خيرى وتحصل الجمعية على إيراده سنوياً الذى كان لا يتعدى سبعة آلاف جنيه سنوياً، ولكن بعد تعديل قانون إيجار الأرض الزراعية فى عام ١٩٩١ وصل الإيراد السنوى إلى ما يقرب من (١٦٠) ألف جنيه سنوياً. ولكن للأسف قام مجموعة من الأشخاص يدعون أنهم ورثة «راتب باشا» برفع الدعوى أمام محكمة الأمور المستعجلة بالقاهرة عام ٢٠٠٢، يطالبون فيها بأحقيتهم فى الأرض الزراعية. وبالفعل حكمت المحكمة فى القضية لصالحهم وقررت عزل وزير الأوقاف عن إدارة الوقف وتعيين حارس من بين الذين أقاموا الدعوى. وفى الاستئناف حكمت المحكمة برفض استئناف الحكم السابق نظراً لعدم قيام ممثلى وزارة الأوقاف بتقديم الأوراق المطلوبة والحجة الأصلية المختومة بخاتم المحكمة الشرعية - المحفوظ لدى وزارة الأوقاف - وبدون ذكر لإسم الجمعية الجغرافية المتضررة من الحكم.

ويؤكد الدكتور «صفى الدين» أن الجميعة لم يتم إعلامها بكل هذه التطورات إلا فى أوائل عام ٢٠٠٣. ومنذ ذلك الحين والجمعية تواجه أزمة مالية عاصفة، لأنه من دون إيراد الوقف الخيرى ستتوقف جميع أنشطتها العلمية، خاصة وأنها صرح كبير يضم كنوزاً علمية متحفية ووثائق وخرائط ومكتبة نادرة تمثل ثروة علمية لا تقدر بثمن.

قبل أن تضيع ثرواتنا العلمية

إن هذه الصروح العلمية الكبرى مثل الجمعية الجغرافية المصرية والجمعية المصرية التاريخية والمجمع العلمى المصرى يجب الحفاظ عليها وحمايتها ودعمها بكل الإمكانات المادية والعلمية لأنها الشاهد الوحيد على نهضتنا العلمية والفكرية فى عصرنا الحديث منذ بداياتها وحتى الآن وبدورنا أن نساعدها وندعمها لتقوم بدورها الدائم والمستمر على مدى الأيام ونحميها من كل عبث واعتداء تحت أى مسمى ومهما كان الأسلوب.

إلى متى تظل الأخطار تهدد صروحنا العلمية واحداً وراء الآخر دون أن نتدخل ونظل نشاهد صراعها من أجل البقاء؟!!. فلنتعظ مما حدث داخل الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والتى لم ينقذها من الانهيار سوى تدخل الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمى حاكم الشارقة وتبرعه بمبالغ مالية وبنائه لمبنى يليق بمكانتها العلمية. فهل ستنتظر الجمعية الجغرافية تبرع أو تدخل أحد العرب من خارج مصر لإنقاذها من براثن حفنة من المنتفعين؟ أم سيشفع لها تاريخها الطويل (١٣٠ عاماً) لدى المصريين للدفاع عنها وعن حقوقها؟ ■

• تضم ١٠ آلاف خريطة نادرة و٣٠٠ أطلس جغرافي قديم

مثقفات وراء القضبان

بقلم
د. نيفين عبدالمنعم مسعد

هذا هو المقال الثانى من سلسلة مقالات تتناول المثقفات وراء القضبان.
ففى العدد الماضى قدمنا الدكتورة لطيفة الزيات.
وفي هذا العدد نقدم الناقدة فريدة النقاش كما نتناول الناقدة صافى ناز كاظم والروائية د. نوال السعداوى

«المحرر»

تقدم لنا فريدة النقاش نموذجا آخر لمعاناة امرأة مثقفة.. كنبتة الصبار تتحدى قفر الطبيعة، تحدت فريدة محيطها الوفدى، فى منية سمنود دقهلية التى يفصلها عن مدينة النحاس «باشا» كوبرى يعبره مئات الشغيلة كل صباح ويأوون إلى قراهم مع الغروب، تكون فكرها اليسارى وتفتح وعيها بشكل مختلف، حاولت كصديقة وكقارئة.. أن أتبين اللحظة المفصلية التى قررت عندها فريدة أن تكون نفسها، وتعثرت .. لم أمسك بلحظة نمو النبات على حد تعبير بول سونيكا فى مسرحيته الطريق . ترى هل هى لحظة الميلاد فى أسرة «مستورة» كبيرة العدد تتخذ من التعليم وسيلتها للحراك الاجتماعى؟ هل هو الصالون الريفى الذى كان يرعاه الأب ويؤمه مثقفون من كل اتجاه؟ هل هو ديوان المتنبى الذى فتح أمام طفلة الحادية عشرة من العمر آفاق المعرفة؟ هل هى الثورة بزخمها ورجالها وشعاراتها تختلف معها وتتفق؟

ربما تكمن الإجابة بشكل جزئى فى هذه العوامل مجتمعة .. لكن يبقى السؤال ، لماذا فريدة وأختها أمينة بالتحديد هما اللتان اختارتا هذه الطريق وسارتا فيها حتى آخرها؟ ولماذا لم يخترها بهاء.. أو عطاء، أو باختصار

فريدة النقاش

نوال السعداوي

صافى ناز كاظم

أى من الأخوة الستة الذكور؟ بل كيف نأت فريدة عن تأثير رجاء الذى اقتربت منه كثيرا ولم يرض قط عن اشتغالها بالسياسة؟.. فى حكاية فريدة لم أجد مشهدا دراميا كمشهد شارع العباسى فى المنصورة الذى أنضج لطيفة الزيات قبل أوانها، ولا دورا مماثلا لدور أخوى لطيفة: عبد الفتاح ومحمد فى تشكيل فكرها السياسى.. أما تأثير الزوج المناضل فى مشوار فريدة فكان الأوضح من كل ما عداه. جذبتنى رسائلها إليه، تدعوه فيها «زوجى وزميلى»، وتداعبه لتكرار اعتقاله بعبارة «حسين الحبيب يارد السجون». تتقوى به وتبثه ضعفها وتحن إليه بصورة غامرة.. تبتكر لغة غير تقليدية لتطمئن عليه وتطمئنه عليها، فترسل له الأدوية مع صديق وتسمعه أشعار أحمد فؤاد نجم ، تسرى من زنزانتها إلى زنزانته.. وتكتشف به ومعه ذلك المعنى الجميل للحب الذى صاغته ابنتهما رشا فى بساطة مدهشة حين قالت «الحب هو أن ننظر معا» إلى الأمام وفى اتجاه واحد».

السجن : دمعتان ووردة

حكت لنا فريدة عن تجربتها الأولى فى السجن عندما أخذت مع من أخذوا من معارضى الصلح مع إسرائيل عام ١٩٧٩. وجعلت لحكايتها عنوان «السجن الوطن» . وعندما تكررت التجربة عام ١٩٨١ وشملتها حملة الاعتقالات التى طالت ألفا وخمسمائة من أبناء هذا الوطن، أعادت فريدة نشر كتابها مضافا إليه المزيد من التفاصيل تحت عنوان «السجن : دمعتان ووردة». العنوان مأخوذ من كلمات الشاعر اللبنانى محمد على شمس الدين، وسبق أن تغنى بها مارسيل خليفة.. والمعنى الذى يشير إليه هو أن فى السجن قهر وقيد وإذلال، وفيه أيضا مساحة لتأمل النفس والدنيا والناس ومع ذلك، فإننى أحببت العنوان الأول الذى اختارته فريدة لحكايتها «السجن الوطن». فى هذا العنوان تذوب الذات فى الوطن، ويتوحد الخاص والعام، وتتسع دائرة القاص لقارئه فى اللحظة التى يتيقن فيها هذا الأخير أنه إنما يقرأ عن نفسه. أما بقعة الضوء التى تتلألأ فى مشهد حالك السواد؛ فإنها تعبير آخر عن فكرة نصف الكوب،

وكل تجربة لها وعليها.

يذكرني عنوان «السجن الوطن» بما كتبته شيرين أبو النجا عن «مفهوم الوطن في فكر الكاتبة العربية»، عندما طوفت بنماذج شتى من روايات النساء، ووجدتها في الأخير تطرح مفهوما كليا للوطن، مفهوما يندمج فيه الخاص والعام ويشكلان معا منطقة جديدة، أو قل إنها منطقة قديمة لكن الضوء المسلط عليها جديد. أكثر من ذلك، أبدعت فريدة نفسها في نسج هذه الضفيرة المحكمة بين شخص المثقف وذات الوطن.. فعندما سألها الضابط «ألا تخافين على أطفالك»؟ «ردت» أخاف عليهم جدا، وأمنحهم حياتي ولكن.. عملي السياسي هو من أجلهم» وعندما نصحتها صديقتها المغربية - بأن تترك السياسة من أجل ولديها «رشا وجاسر»، علقت أن خطورة هذا المنطق تنبع من أنه يرتب للشباب «طريق الفردية وطريق الارتقاء الخصـــا بغض النظر عن الظروف العامة».. لم تسمح لأحد قط بأن يبتز مشاعرها كأم ليفرض عليها حيادا مستحيلا تجاه أحوال الوطن. لذلك فإنها في اللحظة التي يستبد بها القلق على أسرتها حتى تتخيل قلقها ينعكس على صفحة النيل وهي في محبسها. يستغرقها السؤال عن خريطة الوطن وكيف أصبحت بعد كل ما حدث . فهي أبدا لم تجرؤ على أن تجفو مدينتها، ولا هي ارتاحت إلى وصف أحمد عبدالمعطي حجازي القاهرة بأنها «بلا قلب»، فقد ظلت القاهرة في ضميرها تملك قلبا جياشا وهي على كل حال قد استخفت بسجن الفرد في زمن يحاصر فيه السجن الوطن والشعب والأمة. وهونت من الفارق بين المساجين الذين تغلق عليهم أبواب زنازينهم في الليل، وهؤلاء «الأحرار» الذين يتحفهم الإعلام بنماذج مبتكرة من التهريج السياسي كل مساء عند فريدة السجن «مجرد سور» يمكنها كما يمكن غيرها أن يتسلقه بقليل من اليوجا الروحية.

الحزب الوطن

عند نقطة معينة يكتشف القارىء لسيرة فريدة فضلا عن العارف بها أصلا، ألا حدود في حياتها بين الحزب والوطن، فهي مؤمنة برسالته إلى حد التشبع، واثقة من قدرته على الفعل والتأثير والتغيير إلى ما بعد اليقين، إن كان ثمة ما يجب اليقين. مستوعبة فيه بلا مدى. وربما يكون هذا مفهوما بما هو معلوم عن دورها التأسيسي لحزب التجمع، وفي جريدته، لكنه قد لا يكون مقنعا، وبالضرورة تقول فريدة في قص سيرتها : إن الناس ربطوا على التو بين وجودهم «أي أعضاء الحزب» داخل السجن وبين إلغاء الدعم على بعض السلع استجابة لشروط صندوق النقد الدولي، تقصد أحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧. وتقول: إنهم يمثلون رغم سوء الفهم والغموض والصورة المشوهة «أملا» يتشبث به الناس، شعلة صغيرة في الظلام الحالك وتقول «ليس حزب التجمع وحده الآن، بالعكس إن الناس جميعا ينظرون إلينا ويتجهون صوبنا يحدوهم أمل كبير أن يجدوا مرشدا وسبيلا وعلينا نحن الذين نعي الأمر على

حقيقته أن نرشدهم ونضعهم على الطريق.

تعكس هذه الاقتباسات انبهارا بالتجربة من داخلها، أما الواقع فشيء آخر يساورني شك في أن المواطنين البسطاء الذين أذاهم السادات في أقواتهم عام ١٩٧٧ كانوا واعين بتفاصيل الخريطة الحزبية في مصر فضلا عن الربط بين سجن بعض قيادات الأحزاب ودفاعها عن مصالحهم . فهل من دلالة لأن انتخابات ١٩٧٧ التي توصف بأنها الأكثر ديمقراطية لم يجتزها من التجمعيين الا اثنين فيما تحول الثالث لمساندة التطبيع؟.. وهل من مغزى لملاحظة فريدة نفسها حول انتفاض الجماهير بفعل القرارات الاقتصادية دون احتفال بالقضايا السياسية المباشرة بالقوة والشمول نفسيهما؟ في مواضع قليلة من سيرتها، تتضاءل حدود الفجوة بين رؤية فريدة والواقع، كما في قول لها أشبه بالفضفضة أو نقد الذات عن أنه يخيل إليها أحيانا أنهم «أي التجمعيون» يتحدثون إلى أنفسهم، أو أنهم ليسوا بعد قادة الشعب، وأن فريق حراستها المكون من ضابط حديث التخرج وأمين شرطة وجندي لا يعرفون عن حزب التجمع الا اسم زعيمه: خالد محيي الدين أزمة حزب التجمع هي جزء من أزمة عموم الأحزاب في مصر، تضعفها قيود النظام وانشقاقاتها ولذلك بدا لي شديد اليوتوبية انشغال فريدة بمصير سبعمائة داعرة صغيرة صادفتهن في محبسها، وأقلقها كيف يتعامل معهن المجتمع الاشتراكي وكم يكون عليه أن يكنس من آثام وآلام. وكأن في انشغالها رجع لصدى صيحة هاملت الشهيرة «يا أيها الزمن المعوج، لعلني جئت لأقومك».

في عنبر السياسيات

لم تسمح فريدة لصفتها كسجينة سياسية أن تصنع سورا عازلا بينها وبين باقي السجينات سواء في سجن القلعة أو في سجن القناطر الخيرية، ولا كان يمكنها أن تزيد من الطبقية التي يتضرر بعضهن بالفعل منها. ففي السجن طبقية اقتصادية، واستغلال الأضعف والأفقر لحساب صاحبات النفوذ والمال: السجانات وتاجرات المخدرات.. وفي السجن أيضا طبقية قيمية تعكسها النظرة الدونية التي تنظرها النشالات والمتسولات للداعرات وبنات الهوى.. وهي، أي فريدة، كانت بحكم تكوينها رافضة للطبقية بشقيها: الاقتصادي والقيمي ومن هنا، فإن قارئ سيرتها يخرج بحصيلة إنسانية رائعة لنماذج بشرية شديدة الايحاء. وأحيانا شديدة الإيلام. نادية المتسولة التي ضللت الجميع وهربت ذات ليلة حتى تنام منها للمساء مباشرة، قبض عليها بعد أيام قليلة، لكنها فازت بحلمها، ألا يظللها السجن ولا حوائطه . صفية النشالة التي قهرها السجن، ونفور النزيلات من شذوذها، وأمراض بلا عدد تستوطن أجساد المدمين أمثالها وتعجل بنهايتهم فريال موظفة المجمع التي شاركت فريدة زنزانتها وودعتها بالدموع، تعمل من التاسعة صباحا إلى العاشرة مساء لا تجد اللضى ، تحصرها معاناتها في مطالب آنية بسيطة: ثوب يسترها ومقعد

فى الأتوبيس وصحة تواصل بها العمل.. آن مارى الفرنسية الريفية التى كانت كل مهمتها أنها آوت أحمد فؤاد نجم بعد أن اقتنعت به، وتخلى عنها قنصل دولتها مستنكرا كيف تحمى رجلا لا ترضى عنه حكومته؟ نور صليب وأمل إسماعيل رمزا التشدد الدينى فى الاتجاهين، وإن أقسمت الأولى أن أعز صديقاتها محجبة، وحكت الثانية عن أن فى بلدتها دمياط المسلمون إخوان النصارى.

أما الأقرب إلى قلب فريدة وعقلها فكانت شاهندة مقلد وأمينة رشيد.. عاشت مع شاهندة تسعة شهور كاملة وأحبت فيها هذا الاستعداد الفذ للعطاء بغير مقابل. ووفدت إليها أمينة رشيد مع لطيفة الزيات ونوال السعداوى وصافى ناز كاظم فى سبتمبر ١٩٨١احترمت ككل بنات جيلها لطيفة وآلمها من نوال أنها لم تشر الى من تركتهن خلفها فى السجن بكلمة واحدة، وضحكت مع صافى ناز على ذلك الضابط الذى اعتقد فى كراماتها بعد أن دعت عليه –أمه فأصاب نجليه مكروه . لكنها أحبت أمينة وقد وجدت فيها قدرة بلا مدى على إشاعة الحب كضوء غامر.

السجن فى حكى فريدة نابض حى غنى مزدحم أكثر منه عند لطيفة . هل يرجع ذلك إلى أن حملة تفتيش لطيفة جزء من سيرتها فيما تؤرخ فريدة لنفسها من واقع تجربة السجن ومن داخلها؟ هل تملك فريدة قدرة أكبر على الإصغاء للآخر؟ هل غابت تفاصيل صغيرة عن ذهن لطيفة بحكم اتساع المدى الزمنى بين سجنها خصوصا قبل الثورة وبين تسجيله كتابة بعكس فريدة؟ لست أدرى لكنك مع فريدة تعيش حياة كاملة داخل السجن، تلاعبها الشطرنج بوحدات من لبابة الخبز. تشاركها غناء «يا مصر قومى وشدى الحيل» والغناء مثل البكاء يريح القلب تزرعان معا حبات الفول وترويانها بدموعكما بالمعنى الحرفى للدموع، وجديد النبات يحتاج إلى ملح الأرض. توقتان محاضراتكما وأعياد العمال والفلاحين تسخران من زحف الحشرات والجرذان وتجدان فيه حقا «كافكاويا مازوكيا» وتبعثان اليوم تلو اليوم برسائل إلى الأبناء.

المهنة : شهيد

لفتنى بشدة رد بسمة صلاح حسين ذات السنوات الأربع على سؤال أمها شاهندة مقلد ماذا تريد أن تمتهن فى المستقبل؟ فجاء الرد المقتضب «شهيد» كان والد بسمة قد استشهد برصاص الاقطاع فى عام ١٩٦٦ وهو يدافع عن فقراء الفلاحين ، ومن بعد صارت قرية كمشيش التى احتضنت صلاح حسين مناضلا «فشهيدا» محفورة باسمها ورسمها فى تاريخ مصر السياسى الحديث. وكان خال بسمة قد استشهد فى حرب الاستنزاف عام ١٩٧٠، فترسخ فى ذهن الصغيرة أن الشهادة مهنة، وأحبت أن تكونها، هزنى رد الصغيرة، ولفتنى إلى أننا ونحن نفتش فى أوراق المثقفين وسيرهم بحثا عن حكايات تروى، ننسى أنهم يتركون صغارا من ورائهم، ولا نهتم بأن نعرف ما آل إليه مصير هؤلاء الصغار، ولا

كيف أثرت عليهم تجارب الآباء.. والأمهات وفي سيرة فريدة تفاصيل تعطينا طرف الخيط.

تفتح وعي الصغيرة رشا على حملات المطاردة التي تعرض لها حسين وفريدة «مرارا تكرارا» عايشت دهم منزلها والعبث بحاجياتها وتكلمت لغة الغياب، كما تقول فريدة، تلك اللغة التي ينادي بها الأبناء أعماما وأخوالا وأصدقاء فيما الأب والأم غائبان أو مغيبان. وسمعت عن العقاب بالحرمان من الكتابة، وهو لون من العقاب لا يألفه الصغار لذلك لم يكن مدهشا منها أن تستوقف الضابط الذي جاء يقتحم منزلها وتسأله عن أمر التفتيش، ليدفعها جانبا ويهزأ من ابنة الرابعة عشرة التي لعلها لا تفك الخط لكنها تجادله، ويترك في أعماقها جرحا غائرا. ومع ذلك اختارت رشا حين نضجت أن تظل بعيدة عن السياسة وكذلك عن الحزب. وعندما ألقي القبض على محمد فائق في ١٩٧١ وصدر ضده الحكم بالسجن لمدة عشر سنوات، تساءل صغيره هشام لماذا لم يحكم عليه كغيره بالسجن المؤبد؟ هل يعني هذا أنه أقل بطولة من الآخرين؟.. ظل هشام دوره بعيدا عن عالم السياسة وإن قدر له أن يكابد اختطاف الاب مجددا في ١٩٨١ مع حملة اعتقالات سبتمبر. ربما يكون البعد عن السياسة آلية دفاعية يلجأ إليها الأبناء اتقاء لمصير شائك بالضرورة ولعل هذا المصير نفسه يستفز في الأبناء القدرة على التحدي ولو بتطوير آليات مختلفة. ومن هنا. فإن جاسر الذي طالما راسلته فريدة وهي في محبسها، وربطت في ذهنه بين تقييد الحريات والتفريط في الوطن، اختار أن يكون مجاله الدفاع عن حقوق الإنسان، لكنه مثل رشا ظل خارج الحزب.

النضال قد يكون امرأة

في محبسها الذي دام عاما توزعت شهوره بين سجنين، كانت تتسلى فريدة بقراءة الشعارات السياسية كتبها فتيان وفتيات بعد ما جربت الحبس في سجن الرحال بالقلعة، وكثيرا ما كانت تضيف إليها أشعار أحمد فؤاد نجم على الأرجح فثنائي . نجم / الشيخ امام له منزلة في حياتها وبالتالي في حكيها. وعندما قدر لها أن تعود إلى الزنزانة نفسها في عام ١٩٨١ غاظها محو شعاراتها وأشعارها من فوق الجدران، فإذا هي تعيد كتابتها من جديد لتؤكد أنها باقية، إصرار فريدة من إصرار حسين الزوج والزميل . وليس بعيدا عن الذهن ما قام به عندما صادرت المباحث مسودة كتابه عن انقلاب ١٩٧١ في السودان، فأعاد كتابته من الذاكرة إنصافا لعبد الخالق محجوب، وتأكيدا لموقفه منه.

لماذا إذن قست فريدة وهي المرأة المناضلة الثابتة على المبدأ، على بنات جنسها؟ لماذا اكتفت بقراءة المكتوب على جدران السجن لتخلص إلى أن الثقافة السياسية للشبان أعمق وأوسع؟ هل كل ما يختزنه سجين يسجله حتما فوق جدار؟ كقارئة شعرت بعدم اتساق بين تجربة

فريدة وبين قولها إن النساء أكثر تخلفا وجهلا وإن احساسا غائرا بالدونية يتفشى بينهن. استدعيت ردها الواثق على مأمور سجن الاستئناف فى عام ١٩٧٧ أيام حبس الزوج فى أحداث يناير، عندما تهكم عليها بسؤال: كيف حال الكادحين فى العالم الآن؟ فعاجلته بالقول: «الكادحون ينتصرون فى كل مكان» وتأملت بلاغتها فى وصف حيرة الضابط فى عام ١٩٧٩ ما بين اقتناعه الداخلى بدونية النساء وصلابة السجينات اللائى يمارسن حياتهن العادية وكأن لا شىء يهم ليقرر آخر الأمر أن يضع حدا لهذا التناقض فيغلق الباب على دهشته وغنائهن . فهل يعنى هذا أن فريدة وصويحباتها يمثلن استثناء على القاعدة ؟ وهل الاشتغال بالسياسة فى ذاته غير استثناء؟

عندما قدر لى أن أسمع من فريدة عن طفولتها وصباها، وعندما قرأت لاحقا سيرتها الذاتية بأحداثها وشخوصها الأقرب إلى الذهن مما كان الحال مع لطيفة، أدهشنى أكثر وأكثر حكم فريدة على المرأة المناضلة وذلك أن جزءا من التكوين النفسى وربما حتى السياسى لفريدة وليد إصرار الأم على تعليمهما هى وأمينة، وهما بالتحديد فتعليمهما هو الأصعب والأكثر تعبيرا عن روح التحدى. هل يحمل هذا التفسير ردا على السؤال الذى أثرته فى أول المقال عن سبب اختيار الأختين طريق الاختلاف؟ ربما . المهم أن ليس كل النضال سجنا خلف القضبان . وليست

لطيفة الزيات

كل الثقافة أشعارا ترصع جدران السجن. والمؤكد أن وعى الأم الريفية التى دافعت بإيمان عن حق ابنتيهما فى التعليم أنضج بما لا يقاس من وعى صاحبنا قطب اليسار الأشهر الذى نقل معركته مع السادات إلى العراك مع خصومه وسجله فى مقالاته عن مدرسة السادات السياسية وهو أرفع باليقين من وعى صاحبنا الآخر الذى نظر من أعلى للثقافة والفنون السوداء ليعود ويبث من تليفزيون لاجوس برنامجا اسبوعيا عن الدين الإسلامى فالوعى فطرة أو فيه شىء منها .

***

عندما تقرأ أكثر وأكثر عن عالم السجن ومن يكابده ربما تضطر إلى أن تعيد ترتيب منظومتك القيمية بشكل لا إرادى لتضع على رأسها قيمة العدالة، وإن كنت فى قرارة نفسك أكثر تشبثا بالمساواة أو بالديمقراطية . فليس أقسى من إهدار آدميتك ولو ليوم واحد ثم ردها إليك بدعوى عدم كفاية الأدلة ، وللحديث بقية. ■

لغويات

لا جرم

من التعابير المسكوكة، الضاربة فى القدم، ترد فى أدبنا العربى وكتاباتنا ، ونفهم معناها على وجه التقريب، وقد يستخدمها اثنان فى معنيين متناقضين، تعبير : لا جرم .

لفظ جرم مفردا له معان متعددة، أوضحها : أذنب ، اعتدى ، ارتكب إثما .

ومن معانيها أيضا : قطع ، وجنى ويقال : جرم أن يفعل ، أى حق له ، و«لا جرم أنك أحسنت» ، معناها : حقا إنك أحسنت ، وبهذا المعنى فسروا الآية القرآنية: ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون أعمالا﴾ ، (سورة هود الآية: ٥٢) ، أى حقا هم الأخسرون أعمالا.

ولا جرم تعنى التبرئة والنفى، بمنزلة لابد ولا محالة، ثم استخدمت بمعنى حقا، ولما كثر استعمالها تحولت إلى معنى القسم.

والكلمة عند سيبويه فعل ماض، تحول عن معنى الفعلية إلى الإسمية، ومنع من الصرف، وليس له صيغة مستقبل ولا أمر ولا مصدر ، وجعل مع لا قسما ، وتركت الميم بالفتح على حالها التى كانت عليها وهى فى معنى الفعل الماضى.

ويرى القراء أن الكلمة اسم منصوب بلا ، على معنى التبرئة، وليس للتبرئة خبر هنا، لأن القصد الحلف والقسم .

وهو تعليل لا يجد قبولا عند كل النحاة، ويعترض عليه بعضهم : كيف يحلف بها ، وليس فيها معنى معظم يقسم به؟ قيل : القسم عند العرب على ضربين: أحدهما يقع القسم فيه بمن يجل قدره، وتعلو منزلته ، وهو الذى تسبق إليه الأفهام ويستعمل فى أكثر الكلام .

والضرب الثانى أن يعتقد الحالف اليمين، ويحلف بالعظيم عندهم ، الكبير فى نفسه ، ثم يأتى ببدل منه ، فيقول مثلا : حلفا صادقا لأزورنك، فجعل حلفا صادقا مكتفى به عند المحلوف ، مع وضوح المعنى ، ومن هنا أقسموا بالحق : حقا لأسافرن غدا، جعلوه عوضا عن اليمين . وحملوا على الحق ألفاظا معناهم فيها كمعناه . ومثلها : لا جرم .

د.الطاهر أحمد مكى

حكايات حارتنا
ثرثرة فوق النيل
ميرامار
حكاية بلا بداية ولا نهاية
الحرافيش
حضرة المحترم
مصر القديمة

اليهود
فى عالم نجيب محفوظ

بقلم
مصطفى بيومى

فى رواية «قشتمر» ، يقول إسماعيل قدرى : فى مصر أربعة أديان ، الإسلام والمسيحية ، واليهودية والوفد. ويرد صديقه طاهر عبيد ساخرا : والدين الأخير أعظمها انتشاراً «قشتمر - ٢٩» .

للحوار بعده الساخر الكاشف عن مدى الأغلبية التى يتمتع بها حزب الوفد فى الشارع السياسى المصرى قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، لكن ما يعنينا هو الوجود المعترف به لليهودية ، ثالث الأديان السماوية انتشاراً فى مصر بعد الإسلام والمسيحية . مثل هذا الوجود الرسمى لا ينفى أن الموقع الذى يحتله اليهود فى عالم نجيب محفوظ يختلف جذريا عن الموقع الذى يحتله المسيحيون ، بل إن فكرة المقارنة غير قائمة أصلا . اليهود مختلفون وأقرب إلى الأعداء ، وكأنهم - على الرغم من مصريتهم - ليسوا جزءا من نسيج الحياة المصرية .

قبل حرب ١٩٤٨ وقيام دولة إسرائيل ، كان اليهود - المصريون منهم والوافدون - ينتسبون إلى إيقاع الحياة اليومية ، لكنهم - فى الوقت نفسه - يمثلون خصوصية تجعلهم بعيدين عن تقبل المجتمع لهم . وفى «زقاق المدق» تظهر هذه الخصوصية عبر شخصيات متباينة ، تعبر عن المواقف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تجاه اليهود : حميدة عاملة المشغل ، السيد سليم علوان صاحب الوكالة التجارية ، المعلم كرشة.

* * *

تقول حميدة لأمها بالتبنى : آه لو رأيت بنات المشغل ! آه لو رأيت اليهوديات العاملات ! كلهن يرفلن فى الثياب الجميلة.

وترد الأم باستياء : أفقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ، وهيهات أن يهدأ لك بال «زقاق - ٢٧».

فتيات المشغل مسلمات ومسيحيات ويهوديات ، لكن التركيز كله على «اليهوديات» دون «المصريات» ، مسلمات كن أم مسيحيات ! . اليهودية هى النموذج والمثل الأعلى والقدوة ، والفتاة المصرية غير اليهودية ، التى أجبرتها الظروف الاقتصادية القاسية على العمل ، تسعى إلى التقليد والمحاكاة : ومضين على أثر اليهوديات فى العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة ..

ولذلك تقول حميدة لأمها وهى تتنهد : حياة اليهوديات هى الحياة حقا ! «نفسه - ٤٠».

الحديث عن الفتيات اليهوديات يتم وكأنهن لسن مصريات ، فهن أقرب إلى جنس مختلف وحضارة مختلفة وعالم مختلف !

* * *

الممارسة السابقة على المستوى الاجتماعى النسائى تتكرر على الصعيد الاقتصادى عند سليم علوان : وقد جلس إلى مكتبه مركزا انتباهه ، كله فى كلام سمسار يهودى .. وقد علمته التجارب أن هذا الخواجا وأمثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، أو أنه - على حد تعبيره - شيطان مفيد . «نفسه - ٦٦».

قد يكون السمسار اليهودى «أجنبيا»، لكن يهوديته - دون جنسيته - هى التى تستوجب الحذر وتمثل التحدى ! . عالم السمسرة لا يقتصر على اليهود وحدهم بطبيعة الحال ، ففيه كثير من المسلمين والمسيحيين ، وسليم علوان ذو خبرة وليس غرا لكى يخدعه السماسرة ، لكن التاجر المحترف يحشد كل قواه لمواجهة السمسار اليهودى ، أو الشيطان المفيد!.

اليهود المصريون ، أو اليهود فى مصر ، مختلفون إذن عن «المصريين» من المسلمين والمسيحيين ، وغير مندمجين على المستويين الاجتماعى والاقتصادى ، وكان ذلك قبل حرب ١٩٤٨ وإعلان قيام إسرائيل .

* * *

الأمر نفسه نجده على الساحة السياسية ، ففى أحداث ثورة ١٩١٩

تحققت «عمليا» فكرة الوحدة والاندماج بين المسلمين والمسيحيين دون اليهود ، وفي «تاريخ» نضال المعلم كرشة ما يبرهن على ذلك : اشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، وقد نسب إليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من أبطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوار من ناحية وبين الأرض واليهود من ناحية أخرى . «نفسه - ١٤٧».

وعندما يتوقف كرشة عن «النضال» ويعتزل «السياسة» ، فإنه يكف عن كراهية الجميع : لم يعد يكره أحدا ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم . «نفسه - ١٤٨».

عداء الإنجليز مفهوم مبرر ، أما المعارك العنيفة ضد اليهود والأرمن فتعني أنهم «مختلفون» وليسوا «مصريين» !

علاقات «حميدة» و «كرشة» و «سليم علوان» مع اليهود ، تمثل نموذجا دالا لصورة اليهودي عند نجيب محفوظ ، في عموم عالمه، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً .·

***

في مخبأ «خان الخليلي» ، يدور حوار طويل مهم بين الهاربين من جحيم الغارات الألمانية العنيفة ، ويدافع أحدهم عن هتلر ، فيتساءل آخر : فكيف ضربت القاهرة في منتصف هذا الشهر ؟ . ويأتي التبرير والدفاع : ضربت السكاكيني وهو حي غالبية سكانه من اليهود ! . «خان - ٦٧».

وجود اليهود في «السكاكيني» يوشك أن ينفي انتماء الحي إلى القاهرة ! ، أما اليهود وجيرانهم من المسلمين والمسيحيين ، فلا يحسبون على المصريين ، ولا يُدان الألمان إذا أغاروا عليهم ! اليهود لا يمثلون غالبية سكان الحي كما يقول المتعصب للألمان والمدافع عنهم ، والذين يعاشرونهم من المسلمين والمسيحيين يتعرضون للعدوى ، ويتم التعامل معهم كأنهم يهود لا علاقة لهم بمصر والمصريين !.

تمثل المسلمة سعاد وهبي ، في أوائل الثلاثينات ، ظاهرة غير مألوفة في الجامعة المصرية ، لما تتسم به من انطلاق وتحرر ، ولذلك تتوالى الأخبار والشائعات والاتهامات :

- إنها من حي اليهود بالظاهر ، ولدت وترعرعت في جو من الحرية الجنسية المطلقة !

- وأسرتها منحلة ، الأب والأم والأخوات ..

- وهي إمرأة لا عذراء ، مجربة للسهر والسكر والعربدة ! . «المرايا .. ١٥٩».

«حي» اليهود و «اخلاق» اليهود ! . كل هذه الاتهامات القاسية من نصيب فتاة مسلمة «يقال» إنها من الظاهر ، فما هو الحال بالنسبة لليهوديات ؟!.

وتكتمل الصورة الاجتماعية لليهود في الحياة المصرية إذا تأملنا كيف يتعامل المصريون مع «فكرة» اليهودي ونمط الحياة اللصيق به والمميز له.

لماذا تعترض خديجة أحمد عبد الجواد

على زواج ابنها أحمد من سوسن حماد ؟! خليط من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية : ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة ، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كله يهود على الصفين : «السكرية – ٣١٨» .

مجرد معاشرة اليهود والاختلاط بهم «فعل» يستحق الإدانة ، ويستوجب الرفض والمعايرة !

وفي قصة «الشريدة» يصف الراوي حديث صديقه البارع بأنه قصة مستوفاة العناصر : ومثل هذا الحديث يستبد بمشاعري استبداد المال بقلب اليهودي الشحيح «همس – ٢٨».

ليس استبداد المال بقلب «الشحيح» ، لكنه الاستبداد بقلب «اليهودي الشحيح» تحديدا ، فاليهودي هو ذروة البخل ومضرب المثل في سلوك « إنساني» عام ينتشر بين أتباع جميع الأديان ، وليس بين اليهود وحدهم !

واليهود «شر» يضرب به المثل عند عتاة الأشرار من أمثال حسن كامل ، الذي «يتفلسف» ليبرر قبول هدية جارهم فريد أفندي : قبل النبي مرة هدية أهداها إليه يهودي ، فهل يكون فريد أفندي شرا من اليهود ؟! . «بداية – ١٤٤».

اليهود شر لا يحتاج إلى مناقشة ، ولا ينبغي أن يثير الخلاف !

***

ليس المعلم كرشة وحده من «يناضل» ببسالة ضد اليهود ، فالفتوة المتقاعد عشماوي مناضل سابق ضدهم : في شبابي كنت إذا اخترقت طريقا يختفي اليهود من جوانبه . «الحب تحت – ١٧٧».

اليهود الهاربون من عشماوي في شبابه ، هم الذين أسسوا دولة إسرائيل ، واحتلوا سيناء بعد حرب ١٩٦٧ ، وتسببوا في قتل وإصابة عديد من أبناء الحارة ، التي كان عشماوي نفسه حاميها ! . لقد تحول اليهود إلى دولة تحمل اسم «إسرائيل» ، واستمر الصراع والعداء ، وليس نادرا أن تستخدم كلمة «اليهود» كبديل لإسرائيل عند بعض شخوص نجيب محفوظ .

ولعل مفتاح التداخل بين «إسرائيل» و «اليهود» هو ما نجده في المناقشات الساخنة التي تشهدها الجامعة بعد هزيمة ١٩٦٧ ، حيث تتعدد الاجتهادات والتفسيرات والتبريرات : الدين .. الدين ، ما انتصرت إسرائيل إلا بالتوراة ، فالحرب يجب أن تكون بالقرآن . «الباقي – ٩٦».

إذا تم التعامل مع إسرائيل كدولة دينية تضم يهود العالم وتحكمها التوراة ، فلا فارق إذن بين «إسرائيل» و «اليهود» . لم تنتصر إسرائيل إلا بالدين وكتابها المقدس ، فلا انتصار لمصر إلا بالدين والقرآن !

***

عيد منصور «مسلم» ، وفي سلوكه وممارساته ما يفارق السائد والمألوف : أبوه تاجر عمارات عمل مع اليهود طويلا ، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم .

«المرايا- ٢١٠» . وجاء الابن على مثال أبيه الموصوف بأنه كان بخيلا ، دقيقا ، فظاً ، جامد المشاعر ، وفى حرب ١٩٤٨ يتخذ عيد موقفاً نشاذا : حتى خيل إلىّ أنه يكره وطنه لأسباب لا أدريها ، أو أن مصالحه التجارية أفسدت عليه الميول التى نعتبرها فطرية . «نفسه - ٣١٤».

هل يكره وطنه أم يحب مصالحه ؟! . المسألة - ببساطة - أن مصلحته هى وطنه ، ومواقفه جميعا تنبع من هذا القانون !

وضرغام الهندى واحد من الذين يؤرخ لهم نجيب محفوظ فى قصة «صباح الورد» : مسلم ورب أسرة مسلمة ، ولكنه أقرب إلى اليهود . مهنته المعروفة هى الإقراض بالربا ، ووصفه كثيرون من اهل شارعنا بالملعون» «صباح - ٨١».

وكما جاء عيد منصور على مثال أبيه، فإن سيد ضرغام يكرر حياة أبيه ، ويتخذ المواقف التى تتوافق مع مصلحته .

إنه يعتبر هزيمة مصر فى حرب ١٩٦٧ «عيدا» والانفتاح الاقتصادى عنده «عيد» آخر : ويدعو الله أن يبارك خطانا إذا اخترنا الارتماء فى حضن الاستعمار الأمريكى ! . «نفسه - ٨٦».

«عيد منصور» و«سيد ضرغام» ، وما أكثر وجوه الشبه بينهما ، يختاران المصلحة دائما . فإذا كانت المصلحة مع اليهود ، فإنهم أقرب إليهما من المسلمين والمسيحيين والوطن والوطنية جميعاً ! ■

يصدر قريبا :
عن مؤسسة دار الهلال
كتاب

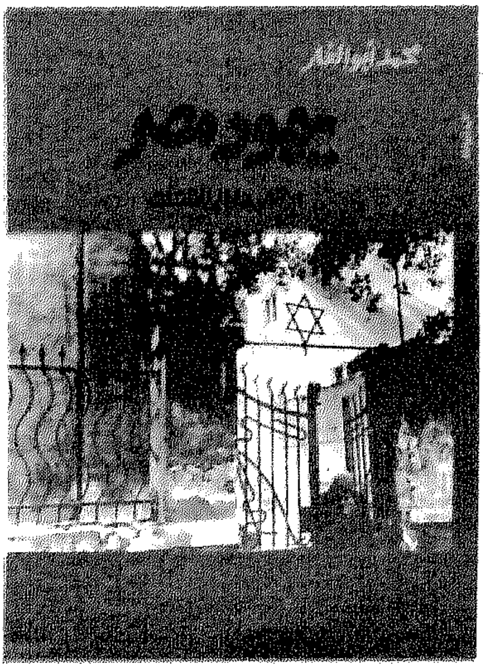

يهود مصر من
الازدهار إلى الشتات
تأليف
د. محمد أبو الغار
ترقب صدوره

حى بن يقظان للسهروردى

بقلم
د.الطاهر أحمد مكى

عرضنا فى العدد الماضى من «الهلال» لرسالة الشيخ الرئيس ابن سينا «حى بن يقظان»، وفى ظل إسهام الحضارة العربية الإسلامية فى تطور الحضارة الإنسانية بإسهامات غير مسبوقة، وفى إطار ما يعرف بالقصة الرمزية، التى التقى عندها إبداعا وتطويرا وتجويدا وبنفس العنوان كل من ابن سينا والسهروردى وابن طفيل.

وإذا كان ابن سينا قد أراد أن يبث «حى بن يقظان» شيئا من أفكاره فى الكون والحياة والموت، بعيدا عن غوغائية العوام، فحررها مرموزة لا يفهمها إلا الصفوة، فإننا فى هذا المقال نعرض لثانى هؤلاء الفلاسفة وكيف تناول قصته.

جاء السهروردى بعد ابن سينا، وعاصر ابن طفيل، واختلفا اتجاها ومذهبا. فالسهروردى صوفى يؤمن بمذهب «وحدة الوجود» والإشراق والولاية عنها يصدر وعندها يقف، أما ابن طفيل فعرض للكثير من جوانب الفلسفة، وربما مست أفكاره مذهب وحدة الوجود، ولكنه لم يكن متصوفا.

قصة السهروردى أقصر القصص الثلاث، فهى تبلغ ثلث قصة ابن سينا حجما، ويمكن تصور حجمها بالنسبة لقصة ابن طفيل إذا عرفنا أن حجم هذه يعدل حجم قصة ابن سينا سبع مرات. وإلى جانب هذا كانت الأقل شهرة وشيوعا فى العالمين الإسلامى والأوربى، لغموض عبارتها، فلا يدرك مراميها إلا من كان متمكنا من معرفة اتجاهات الصوفية الذين يؤمنون بوحدة الوجود والمكاشفة والإشراق وغيرها من مصطلحات كبار الصوفية المتفلسفين. ومثل هذه الكتابات الرمزية العالية لا يقبل عليها العجلون فهما أو قراءة، وهى

تحتمل بطبيعتها أكثر من فهم ومن تفسير، وواضح أن السهروردي لجأ إلى هذا وأوغل فيه هروبا من العامة، وكراهيتهم للمتصوفة المتفلسفون دعاة وحدة الوجود، أشد من كراهيتهم للفلاسفة، وربما لهذا السبب كان الوحيد بين الثلاثة الذى قتل وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، إلى جانب أن قصته ظلت مجهولة إلى وقت، رغم أن حاجي خليفة فى فهرسته للمؤلفات العربية أشار إليها، تحت عنوان: «الغربة الغربية»، وهى الجملة التى ختم بها المؤلف رسالته، ومعتمدا فيما أرجح على مخطوطتها التى فى الأستانة، ولعلها جاءت بغير عنوان فى الصفحة الأولى منها، وأما مخطوطتها الثانية التى توجد فى دير الإسكوريال قرب مدريد، فقد نسبت فى فهرسها خطأ إلى ابن سينا، وهو أمر استدركه المستشرقون المحدثون.

مقدمة مهمة

نشرت القصة لأول مرة فى اسطنبول عام ١٩٤٥، ثم أعاد «المعهد الفرنسي الإيراني» نشرها مع بقية مؤلفات السهروردى كاملة فى مجلدين، فى سلسلة «المكتبة الإيرانية» فى طهران عام ١٩٥٢، بإشراف المستشرق الفرنسي هنرى كوربان، بعد أن قدم لها باللغة الفرنسية، وهى الطبعة التى قامت الثقافة الجماهيرية فى القاهرة بنشرها مصورة عام ٢٠٠٠م، بعد أن حذفت المقدمة الفرنسية، مما أفقد الطبعة كثيرا من قيمتها العلمية، لأن المقدمة تضم تعريفا وافيا بأسماء المخطوطات التى اعتمد عليها المحقق، والأمكنة التى توجد فيها، وقيمتها، ومن ثم أصبحت الهوامش التى بأسفل الصفحات وتشير إلى الفروق بين المخطوطات المختلفة، مستخدمة الرموز فى تحديدها، لا تعنى شيئا بالنسبة إلى قارئ الطبعة المصرية، كما أنها حرمته من دراسة المستشرق الفرنسي وفيها ناقش كثيرا من القضايا الصوفية التى أثارت جدلا عميقا بين جمهرة المستشرقين.

أما طبعة أستاذنا أحمد أمين، وظهرت فى أوائل الستينيات، فقد اعتمد فيها على مصورة مخطوطة فريدة قدمها له الأستاذ محمود الخضيرى، ولم يشر إلى مصدرها، ولا أظنه عرف أو اطلع على ما نشر منها فى أسطنبول أو طهران. *

تأثر بابن سينا

جاء السهروردى فى إبداعه تاليا لابن سينا ومتأثرا به، اقتفى أثره فيلسوفا ثم سرعان ما استقل بفكره، وتحول عن الفلسفة إلى التصوف، ويعد رأس المدرسة الإشراقية، ومن كبار دعاة مذهب «وحدة الوجود»، وهو يعترف منذ البداية بأنه عرف قصة ابن سينا وتأثر بها، وأراد أن يكمل ما رآه نقصا فيها، يقول:

أما بعد، فإنى لما رأيت قصة حى بن يقظان ،صادفتها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والإشارات العميقة، متعرية من تلويحات تشير إلى الطور الأعظم الذى هو «الطامة الكبرى»، المخزونة فى الكتب الإلهية، المستودعة فى رموز الحكماء، المخفية فى قصة «سلامان وأبسال» التى رتبها صاحب قصة «حى بن يقظان» وهو السر الذى ترتب عليه مقامات أهل التصوف وأصحاب المكاشفات، وما أشير إليه فى رسالة حى بن يقظان إلا فى آخر الكتاب حيث قيل: «ولربما هاجر إليه أفراد من الناس».. إلى آخر الكلمات. فأردت أن أذكر منها شيئا فى طراز قصة سميتها أنا «قصة الغربة الغربية» لبعض إخواننا الكرام:

«لما سافرت مع أخى عاصم من ديار ما وراء النهر إلى بلاد المغرب لنصيد طائفة من طيور ساحل اللجة الخضراء، فوقعنا بغتة فى القرية الظالم أهلها، أعنى مدينة قيروان، فلما أحس قومها أننا قدمنا عليهم فجأة ونحن من أولاد الشيخ المشهور بالهادى ابن الخير اليمانى، أحاطوا بنا فأخذونا مقيدين بسلاسل وأغلال من حديد، وحبسونا فى قعر بئر لا نهاية لسمكها. وكان فوق البئر المغطاة التى عمرت بحضورنا قصر مشيد وعليها أبراج عدة، فقيل لنا: لا جناح عليكم إن صعدتم القصر متجردين إذا أمسيتم، أما عند الصباح فلابد من الهوى فى غيابة الجب».

رموز الرحلة

اختار السهروردى أن ينطلق لرحلته من بلاد ما وراء النهر، ورمز بها للعالم العلوى، وأن ينتهى بها فى القيروان من بلاد المغرب، ورمز به للهيولى (١) ، حيث

تسطع الشمس، ورمز بها لسطوع العقل، وأما اللجة الخضراء فيعنى بها عالم المحسوسات، وأما «الهادى» فهو الفيض الأول، أى العقل الفعال، وهو واسطة الهداية والخير، وتعنى الأغلال والقيود والحياة فى قاع البئر إلى الحياة المظلمة التى تتحكم فيها الشهوات، وتمضى القصة:

«فبينما نحن فى الصعود ليلا وفى الهبوط نهارا، إذ رأينا الهدهد دخل من الكوة سلما فى ليلة قمراء، وفى منقاره رقعة صدرت من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة، وقال لنا: إنى أحطت بوجه خلاصكما وجئتكما من سبأ بنبأ يقين، وهو ذا مشروح فى رقعة أبيكما. فلما قرأنا الرقعة فإذا فيها إنه من الهادى أبيكما، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. شوّقناكم فلم تشتاقوا، ودعوناكم فلم ترتحلوا، وأشرناكم فلم تفهموا».

واضح أن الهدهد هنا يرمز إلى وحى العقل وإلهامه الذى يبين الأشياء على حقيقتها، وقد أتى من الله أبينا برسالة فيها الحكمة وفيها النور الذى يكشف الظلام، ويرشد الإنسان، وفيها بين كل غامض، وكشف كل محجوب، وأن الله شوقهم إلى رضوانه واللجوء إليه، فغلبتهم الشهوات وخضعوا لها، ولم يستجيبوا لعقولهم. وفى تسمية أحد المسافرين عاصم إشارة إلى أن العقل يعصم المرء من الزلل، وإذا أراد النجاة لابد له أن يسفر بعيدا عن الشهوات وأن يتركها، وأن يعتصم بحبل الله عن طريق العقل. ومن ثم بدأ يرسم لهم طريق النجاة.

«إن أردت السفر مع أخيك فلا تنيا فى عزم السفر، واعتصما بحبلنا وهو جوهر الفلك القدسى المستولى على نواحى الكسوف، فإذا أتيت وادى النمل فانفض ذيلك، وقل: الحمد لله الذى أحيانى بعد ما أماتنى وإليه النشور، وأهلك أهلك، واقتل امرأتك إنها كانت من الغابرين، وأمض حيث تؤمر فإن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. واركب السفينة، وقل «بسم الله مجريها ومرساها... فركبنا السفينة وهى تجرى بنا فى «موج كالجبال» ونحن نروم الصعود على جبل طور سيناء حتى نزور صومعة أبينا. وحال بينى وبين ولدى الموج فكان من المغرقين».

لقد أوصينا بركوب السفينة لنتجرد من الشهوات، ونسير بها حتى توصلنا إلى بر السعادة، إلى طور سيناء حيث وصل أخونا موسى إذ رأى الله، ولكن السفينة جرت فى موج من الفتن، واستيلاء دواعيها وغلبة أهوائها، وكانت كالجبال الحاجبة النظر، المانعة السير، وهكذا حال

الموج، أو الفتن والأهواء إذا شئت، بين الإنسان وبين الوصول إلى الله، فكان من المغرقين فى بحر الهيولى الجثمانية.

فالأهل هنا ترمز إلى الشهوات، والشمس التى فوق رءوسنا تعنى الموت، والظل مفارقة الهيولى عند الصوفية، واقتل تعنى اترك.

ويمضى السهروردى فى قصته:

وعرفت أن قومى موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب؟، وعلمت أن القرية التى كانت تعمل الخبائث يجعل عاليها سافلها، ويمطر عليها حجارة من سجيل منضود، فلما وصلنا إلى موضع يتلاطم فيه الأمواج، ويتدحرج المياه، أخذت ظئرى التى أرضعتنى وألقيتها فى اليم. وكنا نسير فى جارية ذات ألواح ودسر، فخرقنا السفينة خيفة ملك وراءنا يأخذ كل سفينة غصبا. والفلك المشحون قد مر بنا على جزيرة يأجوج ومأجوج إلى الجانب الأيسر من الجودى، وكان معى من الجن من يعمل بين يدى، وفى حكمى عين القطر، فقلت للجن: انفخوا فيه حتى صار مثل النار، فجعلت سدا حتى انفصلت عنهم. وتحقق وعد ربى حقا، ورأيت فى الطريق جماجم عاد وثمود، وطفت فى تلك الديار وهى خاوية على عروشها، وأخذت الثقلين مع الأفلاك، وجعلتها مع الجن فى قارورة صنعتها أنا، مستديرة وعليها خطوط كأنها دواير، فقطعت الأنهار من كبد السماء. فلما انقطع الماء عن الرحى انهدم البناء فتخلص الهواء إلى الهواء، وألقيت فلك الأفلاك على السماوات حتى طحن الشمس والقمر والكواكب، فتخلصت من أربعة عشر تابوتا وعشرة قبور عنها ينبعث ظل الله، حتى يقبضنى إلى القدس «قبضا يسيرا بعد أن جعل الشمس عليه دليلا، ولقيت سبيل الله ففطنت أن هذا صراطى مستقيما، وأختى وأهلى قد أخذتها غاشية من عذاب الله بيانا، فباتت فى قطع من الليل مظلما، وبها حمى وكابوس يتطرق إلى صرع شديد».

فى بيان الرموز

بعض الألفاظ التى مرت فى الفقرة السابقة رموز تحتاج إلى فضل بيان:

أراد «بالملك» الموت، و«بالثقلين» النفس الأمارة والنفس اللوامة مع بواعثها، وربما أراد الوهم والخيال. وعنى «بالقارورة» الدماغ، لأنه معدن روح الإنسان، وبالخطوط العروق والتجويفات التى فيه، و«بكبد السماء» الرأس. وأراد بالقبور العشرة الحواس الظاهرة وهى خمس: البصر والشم

والذوق واللمس والسمع، والحواس الباطنة، وهي خمس أيضا: الشعور والوجدان والحس والحدس والإدراك.

وعنى بالتوابيت الأربعة عشرة مظاهر القوة العشرة وهي: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والمولدة والمصورة (أو المتخيلة) والنامية والغاضبة والشهوانية، إلى جانب الأخلاط الأربعة، وتعني في القديم أمزجة الإنسان، وهي: الصفراء والبلغم والدم والسوداء، ورمز بأختي وأهلي إلى هيولي الأجسام.

لقد ركب المسافر سفينة الحياة، تجرى في بحر متلاطم الأمواج، وهو وجود كل عارف، والتقى بجثث عاد وثمود، وعنى بهم الناس الذين هم صرعى شهواتهم، وقد وضع الفتن والشهوات ودواعي الشر، وعبر عنها بالجن، في قمقم حتى لا تخرج مرة أخرى وتحمله إلى الفساد: ففار تنور البدن باستيلاء العقل على الأخلاط الفاسدة، وفاض ماء الهيولي على نار الروح الحيوانية وصفا القلب، وعند ذلك وصل إلى صخرة النجاة، فماذا رأى فيها؟

رأيت سراجا فيه دهن وينبجس منه نور ينتشر في أقطار البيت، ويشتعل مشكاتها ويشعل سكانها من إشراق نور الشمس عليهم. فجعلت السراج في فم تنين ساكن في برج دولاب تحته بحر قلزم، وفوقه كواكب ما عرف مطارح أشعتها إلا بارئها والراسخون في العلم، ورأيت الأسد والثور قد غابا، والقوس والسرطان قد طويا في طي تدوار الأفلاك، وبقى الميزان مستويا إذا طلع النجم اليماني من وراء غيوم رقيقة متألقة، مما نسجته عناكب زوايا العالم العنصري في عالم الكون والفساد. وكان معنا غنم فتركناها في الصحراء، فأهلكتها الزلازل، ووقعت فيها نار صاعقة. ولما انقطعت المسافة وانقرض الطريق، وفار التنور من الشكل المخروط، فرأيت الأجرام العلوية اتصلت بها، وسمعت نغماتها ودستاتها، وتعلمت إنشاءها، وأصواتها تقرع سمعي كأنها صوت سلسلة تجر على صخرة صماء، فتكاد تنقطع أوتاري، وتنفصل مفاصلي من لذة ما أنال، ولا يزال الأمر يتكرر عليَّ حتى انقشع الغمام وتخرقت المشيمة.

في الفقرة السابقة عنى بإشراق الشمس العقل الفعال، وهو عند فلاسفة المسلمين نهاية سلسلة العقول الفلكية، وسموه العقل العاشر لأن هذا ترتيبه، وهو الذي يدير شئون الأرض، ويراه ابن سينا حلقة الوصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة. ويرمز الأسد إلى الغضب، والثور إلى الشهوة، والنجم اليماني إلى

سهيل، ويعنى به النفس الكلية، وهى مبدأ وحدة العالم وحركته تدبره كما تدبر النفس والجسم، وهو ما يقول فريق من أصحاب مذهب وحدة الوجود، وكان السهروردى أحد أعلامه، ورمز بالغنم إلى الخوف، وبالشكل المخروط إلى القلب، وبتخرقت المشيمة إلى ارتفاع الحجاب والكشف، أى رؤية الله، تقول رابعة العدوية تناجى ربها:

أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا

لما حطت السفينة رأى سراجا فيه دهن ينبعث نورا، وأسدا وثورا وغنما تركوها فى الصحراء فأهلكتها الزلازل، ووقعت فيها نار صاعقة، فلما انقطع الطريق وفار التنور، رأى الأجرام السماوية، وسمع نغماتها، وتعلم منها أشياء، فلم تم له ذلك:

طور سيناء فلك الأفلاك

خرجت من المغازات والكهوف حتى تقضيت من الحجرات متوجها إلى عين الحياة، فرأيت الصخرة العظيمة على قلة (قمة) جبل كالطور العظيم. فسألت عن الحيتان المجتمعة فى عين الحياة المتنعمة المتلذذة بظل الشاهق العظيم: إن هذا الطور ما هو؟

وما هذه الصخرة العظيمة؟. فاتخذ واحد من الحيتان سبيله فى البحر سربا فقال: «ذلك ما كنت تبغى، وهذا الجبل هو طور سيناء، والصخرة صومعة أبيك، فقلت: وما هؤلاء الحيتان؟ فقال أشباهك، أنتم بنو أب واحد، وقطع لهم شبيه واقعتك، فهم أخوانك. فلما سمعت وحققت عانقتهم، ففرحت بهم وفرحوا بى، وصعدت الجبل، ورأيت أبانا شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق من تجلّى نوره، فبقيت باهتا متحيرا منه، ومشيت إليه، فسلم علىّ، فسجدت له وكدت أنمحق فى نوره الساطع، فبكت زمانا وشكوت عنده من حبس قيروان.

قال لى: نعما تخلصت، إلا إنك لابد راجع إلى الحبس الغربى، وإن القيد بعد ما خلعته تاما، فلما سمعت كلامه طار عقلى، وتأوهت صارخا صراخ المشرف على الهلاك وتضرعت إليه. فقال: أما العود فضرورى الآن، ولكنى أبشرك بشيئين: أحدهما أنك إذا رجعت إلى الحبس يمكنك المجئ إلينا، والصعود إلى جنتنا هنا متى ما شئت. والثانى أنك تتخلص فى

الأخير إلى جنابنا تاركا البلاد الغربية بأسرها مطلقا. ففرحت بما قال. ثم قال لى: اعلم أن هذا جبل طور سيناء، وفوق هذا جبل طور سنين، مسكن والدى وجدك، وما أنا بالإضافة إليه إلا مثلك بالإضافة إلىّ، ولنا أجداد آخرون حتى ينتهى النسب إلى الملك الذى هو الجد الأعظم الذى لا جد له ولا أب، وكلنا عبيده، به نستضئ، ومنه نقتبس، وله البهاء الأعظم، وله الجلال الأرفع والنور الأقهر، وهو فوق الفوق، ونور النور، وفوق النور أزلا وأبدا، وهو المتجلى لكل شئ، وكل شئ هالك إلا وجهه. فأنا فى هذه القصة إذ تغير الحال على وسقطت من الهواء فى الهاوية، بين قوم ليسوا بمؤمنين، محبوسا فى ديار المغرب، وبقى معى من اللذة ما أطيق أن أشرحه، فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة، وكانت تلك الراحة أحلاما زايلة على سرعة».

قبل أن أعرض لمحتوى الفقرة كلا أزيح الستر عن رموزها، فقد عنى بالحيتان النفوس الجزئية، وبطور سيناء فلك الأفلاك، «وبأبيك» العقل الكلى، وبالشيخ الكبير النفس الكلية، وهى مبدأ وحدة العالم وحركته، تديره كما تدير النفس والجسم، كما يرى بعض أنصار مذهب «وحدة الوجود» ويراها بعضهم بمثابة الإله، ويضعها البعض الآخر فى مرتبة وسطى بين الإله وسائر الكائنات. وهى عند أفلاطون مصدر النظام والانسجام فى العالم. وأراد بمسكن جدى وجدك العالم العلوى، وبالسراج العقل الفعال، وبأختى هيولى الأجسام، وبالأسد الغضب، وبالثور الشهوة، وبالغنم الخوف، وبالشكل المخروطى القلب، وبالحيتان الشهوات والغرائز، وبالحوت الذى تسرب إلى البحر النفس الإنسانية التى تسربت إلى الجسد، ويتخرق المشيمة ارتفاع الحجاب الذى يترتب عليه المشاهدة أو المكاشفة، والأولى أخص من الثانية، لأن المكاشفة ظهور الشئ للقلب باستيلاء ذكره من غير بقاء الريب، أو حصول الأمر العقلى بالأفهام دفعة واحدة من غير فكر ولا طلب، أو بين النوم واليقظة، أو ارتفاع الغطاء حين تتضح جلية الجمال فى الأمور المتعلقة بالآخرة.

نهاية القصة

ومع هذه الفقرة نصل إلى قريب من نهاية القصة، لقد رأى سراجا ينبعث من زيته نور، وينتشر فى أقطار البيت، ورأى أسدا وثورا وغنما تركوها فى الصحراء فأهلكتها الزلازل، ووقعت فيها نار صاعقة فلما انقضى الطريق وفار التنور رأى

الأجرام العلوية، وسمع نغماتها، وتعلم منها أشياء، ولما تم له ذلك توجه إلى عين الحياة، ورأى الصخرة العظيمة على قمة الطور العظيم، ورأى حيتانا مجتمعة، اتخذ واحد منها سبيله فى البحر هربا، فسأل: ما هؤلاء الحيتان، فأجيب بأنهم إخوان، فلما سمع ذلك عانقهم، وفرح بهم، وفرحوا به.

ثم صعد إلى الجبل فرأى أباه شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق منه، وعلم أن هذا الجبل طور سيناء، وفوقه يسكن والده وحده، وكلنا عبيده، وبه نستعين ومنه نقتبس، وله البهاء الأعظم، والجلال الأرفع. وألمح إلى مسلك الإنسان فى الدنيا تطوقه الأهواء والشهوات والغرائز، فإذا استطاع أن يتغلب عليها وصل إلى بر الأمان. والحوت الذى اتخذ سبيله فى البحر سربا هو النفس الإنسانية تسربت إلى الجسد، واتكأ فى هذا الجانب من قصته على تأويل قصة موسى مع الخضر التى وردت فى سورة الكهف الآية ٦٠ وما بعدها، واتخذ منها فى صورة رمزية مركبا للتعبير عن أفكاره، وكان بلوغ الصخرة يعنى النجاة، والوصول إلى المعرفة الإلهية.

لقد كان سفرا صعبا، ولقى منه نصبا، لأنه رحلة الإنسان الطويلة إلى الحضرة الإلهية، ثم رأى الله، وهو المعبر عنه بالأب، كما رآه موسى، ووجد عنده قوما صالحين وصلوا إلى الله قبله فأنس بهم وصاحبهم. ومعه ندرك ما أراد السهروردى أن يقوله: إن أرقى مراحل الإنسان أن يتصل بالله، وطريقه إليه ليس سهلا، إنما يتطلب مجاهدة، وتغلبا على الطبائع والغرائز التى تقف فى طريقه، ويتطلب ذلك جهدا وصبرا وعونا من الله. وبعد أن يصل الإنسان إلى مرتبة الكشف يعود إلى محبسه ثانية، أى إلى بدنه وحسه وحياته فى الدنيا المعتادة، فهو لا يترك الحبس نهائيا، ولكنه يعود إليه من حين لآخر حتى يدركه الموت، فإذا مات اتصل بالرفيق الأعلى. وهذا ما عليه جمهور الفلاسفة من أن النفس كانت عالمة بكل شئ، فلما حلت فى الجسم الثقيل أخذت تتذكر بعض ما كانت تعرف، وسوف تعود إلى حالتها الأولى بعد الموت، وتتصل بالذات العلية ثم يختم السهروردى قصته:

فأنا فى هذه القصة إذ تغير الحال علىّ، وسقطت من الهواء فى الهاوية، بين قوم ليسوا بمؤمنين، محبوسا فى ديار المغرب، ويبقى معى من اللذة ما لا أطيق أن أشرحه، فانتحبت وابتهلت وتحسرت على المفارقة. وكانت تلك الراحة أحلاما زائلة على سرعة.

نجانا الله من أسر الطبيعة، وقيد الهيولى، وقل الحمد لله

سيريكم آياته فتعرفونها، وما ربك بغافل عما تعملون، وقل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون والصلاة على نبيه وآله أجمعين».

***

استدراك على الشيخ

لقد رأى السهروردى أن ابن سينا أسقط فى قصته «حى بن يقظان» جوانب كثيرة من أحوال الصوفية ومقاماتهم وأفكارهم كالإشراف والكشف ووحدة الوجود، فأبدع قصته هذه ليستدرك ما ترك الشيخ الرئيس، وحملها آراءه وآراء المتصوفة الذين على شاكلته، وكان هو شيخهم، وقمة تفكيرهم، ودفع ثمن هذه الأفكار على نحو ما دفعها سقراط قبله، فأعدموه وهو فى السادسة والثلاثين من عمره، وضنوا عليه بلقب شهيد، فدعوه «المقتول» تمييزا له عن آخرين يشاركونه اسمه، وتجسد قصته، حى بن يقظان، أو الغربة الغربية كما أسماها هو نفسه، الإنسان الذى أكمل عقله عن طريق الكشف والذوق بمعناهما الصوفى، وتوصل إلى معرفة ربه بعد عناء طويل ومجاهدة صادقة، وفيها يتجلى فكره كاملا، رغم أن القصة كثيرة الرموز، لا تكشف للقارئ عن أسرارها للمرة الأولى، وهى سمة كل إبداع عظيم، ولكن لذة الكشف فيها تمثل متعة عقلية مضيئة، تستحق ما يبذل فيها منه جهد، يصبح أقل عناء لمن يقرأ بقية إنتاج السهروردى عامة، وكتابه «حكمة الإشراق خاصة»، وفيها سوف تلتقى باستقلاله الفكرى واضحا ومتكاملا، يناقش نظريات أفلاطون وأرسطو، ويبين ما فى بعض آرائهم من تهافت وتناقض دون أن يغمط أيا منهما قدره، ويجعل دراستهم، مع آخرين، شرطا لمن يريد أن يكون عالما. يقول: إن الطالب إذا أراد أن يفهم الجانب العقلى الخالص للفلسفة العالية فإنه يتعين عليه أن يكون ملما بفلسفة أرسطو، وبالمنطق والرياضيات والتصوف، وينبغى أن يكون بريئا تماما من أدران الخطيئة والهوى، وعليه ثمة أن ينمى بالتدريج حاسته الباطنة، ومهمتها تأكيد وتصحيح ما يدركه العقل، على اعتبار أنه نظرية محضة. إن عقلا دون سند يسنده لا يجدر الوثوق به، إنه ينبغى أن يكون مزودا «بالذوق» – أى الإدراك الخفى لجوهر الأشياء – الذى يجذب المعرفة والطمأنينة للروح القلقة، ويستأصل التشكك إلى الأبد.

إذا استثنينا الألفاظ التى لا يعنى بها ظاهرها، وجاءت رموزا لمعان أبعد، فإن لغة السهروردى أدبية وسليمة، اتكأ فيها على كثير من آيات القرآن وقصصه، ووظفها توظيفا جيدا، استلها من سياقها فى سورها، وأعاد تركيبها فى قصته، وجعلها مركبا ذلولا لأفكاره البعيدة، التى تعلو على أفهام العامة وأنصاف المثقفين، صنع ذلك قاصدا على التأكيد، وإن لم ينجه هذا من النهاية الأليمة: الموت شنقا!

فى مقال قادم مع ابن طفيل فى قصته، وهى الأرقى والأعظم والأوسع حجما وانتشارا وأفكارا.

(١) كلمة يونانية الأصل، يراد بها المادة الأولى، وهو كل ما يقبل الصورة. ■

روسيا.. والشيشان

التراث الدامي وجذور العنف

بقلم

محمود أحمد

«أيها القوقاز طأطيء هامتك المجللة بالثلوج، واخضع ... فإن يرمولوف آتٍ»

بوشكين

١٧٠

المنار

شوال ١٤٢٥هـ - نيسمبر ٢٠٠٤م

فى روسيا - كما فى كل مكان فى العالم تقريبا - ينتشر حديث «الإرهاب» فلا يكاد يترك مساحة لحديث غيره، ولكن الحديث عن الإرهاب ربما يبدو فى موسكو كثيفا وثقيل الوطأة بأكثر مما هو عليه فى أى مكان آخر! يكاد المرء يصطدم به فى كل محفل وفى أى مكان يتوجه إليه فى العاصمة الروسية.

ويختلف الحديث عن الإرهاب فى روسيا عما هو سائد فى أماكن أخرى فى العالم هذه الأيام. فبينما يتحدثون فى الولايات المتحدة أو إيطاليا، مثلا، عن «الإرهاب الوارد من الخارج»، فإن الروس - وخاصة المسئولين منهم - يقولون إن الإرهاب الذى يعانون منه نابع من الداخل، وإن كان يستعير الأساليب والتطبيقات التى أصبحت شائعة كالوباء فى كل مكان. ودائما ما تشير أصابع الاتهام، فى كل حادثة إرهابية تقع فى روسيا، إلى أبناء إقليم الشيشان النائى.. القابع بعيدا فى أعالى القوقاز.

ويصر المسئولون الروس على رفض مناقشة أية فكرة أو دعوى تنطلق من اعتبار الشيشانيين أصحاب قضية أو النظر إليهم على أنهم دعاة تحرر وطنى. فبعد المآسى الفظيعة المتوالية التى شهدتها روسيا، وخاصة خلال شهرى أغسطس وسبتمبر الماضيين، لا يشير المسئولون الروس إليهم إلا على أنهم مجرمون وقتلة .. ويرفضون حتى وصفهم بأنهم «متمردون»!

جاءت زيارتنا لموسكو فى أعقاب المأساة المروعة التى كان مسرحها مدرسة ابتدائية فى «بيسلان»، حيث احتجزت مجموعة من المسلحين مئات الرهائن، معظمهم من الأطفال، داخل المدرسة ثم اقتحام القوات الحكومية للمكان مما أسفر عن سقوط ٣٣٦ قتيلا معظمهم من الأطفال أيضا. كانت أجواء المأساة لاتزال مخيمة على العاصمة الروسية، كما كان واضحا أن كبار المسئولين الروس يعانون من شعور بالصدمة عكسته تصريحاتهم العنيفة التى ذهبت إلى حد إعلان الجنرال يورى بالويفسكى رئيس أركان الجيش الروسى أن روسيا لن تتوانى عن ملاحقة «الإرهاب» حتى خارج الحدود وضربه فى أى مكان فى العالم.

أثناء وجودنا فى موسكو، أتيح لنا أن نتابع تطور هذا الخطاب الروسى

على مستويات متعددة: في تصريحات المسئولين، وعبر وسائل الإعلام، وأن نلمس صداه أيضا لدى الرأى العام الذى بدا مقتنعا وموافقا ضمنيا على هذا الخطاب.. خاصة وأن الذاكرة الجماعية لاتزال تعى الحوادث المؤلمة التى عانى منها الروس فى الشهور الأخيرة والتى كان أشدها وقعا حادث الانفجار فى محطة مترو الأنفاق فى موسكو، ثم إسقاط طائرتى ركاب فى وقت واحد بسبب ما وصف بأنه «عمل إرهابى» وأخيرا فى مأساة مدرسة بيسلان، وجاءت ذروة متابعتنا لهذا الخطاب عندما استمعنا إلى الرئيس الروسى «فلاديمير بوتين» نفسه، والذى أتى ليتحدث، كما كان مقررا، إلى «المؤتمر العالمي لوكالات الأنباء» الذى استضافته وكالة الأنباء الروسية «إيتار - تاس» بمناسبة عيدها المئوى.

دخل الرئيس بوتين إلى القاعة فى خطوات سريعة، ليتخذ مكانه على المنصة أمام حشد يضم رؤساء وكالات الأنباء العالمية والإقليمية والمحلية جاءوا من أكثر من تسعين دولة، وبدأ الرئيس الروسى، المتجهم عادة، وكأنه يبذل جهدا ليكتم غضبا عارما يعتمل فى داخله، وعندما تكلم، انفجر هذا الغضب فى عبارات حادة، بل وجارحة، تحمل اتهاما مبطنا لكل وسائل الإعلام «الميديا» بأنها تساعد «الإرهابيين المجرمين» - من حيث تدرى أو لا تدرى - فى تغطيتها للعمليات التخريبية التى يقومون بها، وذلك بنقل «رسالتهم» إلى الجماهير، وقال بوتين إنه يتعين على وسائل الإعلام أن تكف عن القيام بدور «المراقب» بل وتنضم إلى جانب محاربة الإرهاب وذلك بأن تحرص على ألا تؤدى تغطية الحوادث الإرهابية إلى تحقيق أهداف الإرهابيين، ومضى ليشرح ذلك قائلا: «إن الإرهابيين يهدفون إلى استخدام الإمكانيات الكبيرة التى تتوفر لوسائل الإعلام - والوسائل الديمقراطية الأخرى - لمضاعفة التأثير النفسى والإعلامى لعملياتهم على الرأى العام، وهنا، يجب على الإعلاميين أن يدركوا أهمية إيجاد أساليب أخرى فى التغطية بحيث يصبح الإعلام وسيلة فعالة فى الحرب على الإرهاب بدلا من أن يصبح عونا له».

ولكن هذا الخطاب الروسى الرسمى جوبه بانتقادات فى الداخل والخارج على السواء: فى الداخل، اتهم الرئيس بوتين بأنه يحذو حذو الولايات المتحدة فيما ينتهجه من سياسات لمحاربة الإرهاب، وخاصة بعد التهديدات التى صدرت عن المسئولين العسكريين الروس بملاحقة الإرهاب فى أى مكان من العالم، وفى الخارج، جاءت الانتقادات، صريحة أو ضمنية، من جانب الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى على السواء، حيث اتهم الرئيس الروسى بأنه يعود ببلاده

إلى عهود الدكتاتورية وأنه انتهز فرصة تصعيد الحملة على الإرهاب ليعمل على زيادة إحكام قبضته هو على البلاد وتركيز السلطة أكثر فأكثر فى يديه، وانصبت الانتقادات بشكل خاص، على الخطة التى طرحت على البرلمان الروسى «الدوما»، بعد أقل من ثلاثة أسابيع من مأساة «بيسلان» ، لكى يقر مجموعة من التشريعات - يصل عددها إلى ٤٠ تشريعا جديدا - تهدف إلى مكافحة الإرهاب.. ولكنها تؤدى فى الوقت نفسه بوضوح، إلى زيادة مركزية الحكم وتدعيم سلطات رئيس البلاد.

وانتهزت العواصم الغربية فرصة الإعلان عن الخطوات الجديدة التى يزمع الرئيس بوتين اتخاذها بدعوى تشديد الحرب على الإرهاب، لكى تكرر مواقفها المعلنة من أنه يتعين ايجاد سبيل مواز للبحث عن حل لمشاكل جمهوريات القوقاز وخاصة «شيشنيا» التى أعلن زعيمها «شامل باساييف» مسئوليته عن عملية «بيسلان». (كان «باساييف» قد أعلن أن كتيبة «شهداء رياض الصالحين» التى أسسها منذ عدة سنوات هى التى نفذت عملية مدرسة «بيسلان»، وأن المجموعة التى نفذت العملية كانت تتكون من ٣٢ شخصا منهم ١٤ شيشانيا و٩ أنجوشيين وثلاثة روس واثنان من العرب وآخران من الأوستيين وواحد من كل من تتارستان وجوزان - الواقعة فى سيبيريا - وكاباردبا)، وترددت تصريحات لمسئولين أمريكيين وأوروبيين تحث الحكومة الروسية على «التفاوض» مع الانفصاليين الشيشان خاصة، لإيجاد حلول سلمية وكسر حلقة العنف الذى يهدد بتصعيد المواجهات، ولم تخل تصريحات المسئولين الغربيين من الإعراب عن القلق - كالعادة - على أوضاع «حقوق الإنسان» فى شيشنيا وبلدان القوقاز الأخرى.

ولكن الرئيس بوتين رفض بشدة كل هذه الدعوات، مؤكدا أن حكومته لن تجرى حوارا مع الإرهابيين تحت أى ظرف، وفى أحد ردوده على الانتقادات والدعوات الغربية، تساءل ساخرا: «لماذا لا تذهبون للتفاوض مع بن لادن؟ لماذا لا تدعونه إلى بروكسل أو إلى البيت الأبيض، ولماذا لا تقدمون له تنازلات لكى يترككم تعيشون بسلام؟» وفى هذا السياق، يؤكد الرئيس الروسى، بإصرار لا يحيد عنه، «إن أحدا فى العالم لا يملك حقا أخلاقيا لكى يطلب منا بدء التفاوض مع الأوغاد» على حد تعبيره!

حقائق الجغرافيا .. والتاريخ

فى الأسابيع التالية لحادث «بيسلان» المروع، سلطت الأضواء على تلك المنطقة المضطربة فى أعالى القوقاز، والتى أصبحت أشبه بجرح لا يندمل فى الجسد الروسى، وعادت التحليلات والتعليقات إلى

صفحات الصحف وشاشات الفضائيات تحاول البحث فى جذور المشكلة وتعرض للحقائق الجغرافية والتاريخية التى أدت إلى الوضع الراهن المتفجر.

والواقع أن هناك مجموعة من الحقائق الأساسية التى ينبغى الإلمام بها حتى يمكن متابعة ما يجرى فى بلاد الشيشان وغيرها من بلدان القوقاز:

١ - إن شيشينيا تعتبر أهم بلدان القوقاز التى تضم أيضا - بصفة رئيسية - كلا من أنجوشيتيا، وأوسيتيا الشمالية، وداغستان. كما أن الشيشانيين يشكلون أكبر الأعراق فى المنطقة حيث يبلغ عددهم نحو مليون وثلاثمائة ألف نسمة، وفقا لما أوردته موسوعة «كولومبيا» التى تسجل أيضا أن مساحة شيشينيا تبلغ ١٥ ألفا و٨٠٠ كيلو متر مربع، وهى تجاور «أنجوشيتيا» التى تقع إلى الجنوب منها والتى تكون معها - قبل انهيار الاتحاد السوفييتى - جمهورية واحدة تحمل اسم «الجمهورية الشيشينية الأنجوشية».

٢ - على مدى التاريخ، وخاصة التاريخ الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر، كانت شيشينيا تحمل دائما لواء التمرد والعصيان على سلطة موسكو.. وكانت الامبراطورية الروسية قد استطاعت، بعد حملات صعبة وباهظة بدأت فى القرن الثامن عشر، أن تخضع المناطق القوقازية الجبلية التى تقع فى جنوبها رغم المقاومة الشرسة التى أبداها القوقازيون، وتسجل كتب التاريخ أن القائد الروسى «يرمولوف» الذى عهد إليه بمهمة اخضاع القوقاز، جاء إلى المنطقة عام ١٨١٦ وبدأ فى بناء سلسلة من القلاع كان أشهرها حصن «جروزنى» - وهى كلمة معناها «الرهيب» - على شاطىء نهر «سونجا». وتعهد «يرمولوف» للامبراطور الروسى بأن يخضع «هؤلاء الأوغاد» الذين يطمحون فى أن يكونوا «حلفاء» للامبراطور.. وأن يفرض عليهم قبول وضع «الرعايا».

٣ - إن هذه البلاد القوقازية، ذات الطبيعة الجبلية الوعرة، تحتل موقعا فريدا ومهما بين أوروبا وآسيا، وبين الأصقاع الباردة فى الشمال والمياه الدافئة فى الجنوب، الأمر الذى جعلها دائما محط أطماع الامبراطوريات، وهكذا خضعت عبر التاريخ لسيطرة امبراطورية الصفويين الفارسية حينا، وللإمبراطورية العثمانية أحيانا أخرى، واعتنق معظم سكانها الإسلام، وخاصة المذهب السنى الذى كان يدين به العثمانيون الذين سيطروا على المنطقة لفترات أطول، وعندما أخذت الدولة العثمانية تضعف ويتقلص نفوذها. انتهزت الامبراطورية الروسية الفرصة لبسط سيطرتها على القوقاز.. خاصة

وأن هذه السيطرة من شأنها أن تحقق للروس حلما دائما للوصول إلى المياه الدافئة عن طريق احتلال المناطق المطلة على البحر الأسود وبحر قزوين.

٤ - يسجل التاريخ ، أيضا، أن السيطرة الروسية جوبهت بانتفاضات وثورات من جانب الشيشانيين خاصة، والقوقازيين عامة، وكان أشهرها ثورة «الشيخ شامل» التى شملت بلاد الشيشان والأنجوش واستمرت نحو ٣٥ سنة وحملت طابعا دينيا - وطنيا ، ولكن الثورة انتهت بانتصار الروس، الذين كانت أسلحتهم وتكتيكاتهم الحربية أكثر تطورا فاستطاعوا القضاء على الثورة وأسر «الشيخ شامل» وكان ذلك فى عام ١٨٥٩، وقد نفى «الشيخ شامل» إلى تركيا، ومنها انتقل إلى «المدينة المنورة» حيث توفى عام ١٨٧١.

٥ - بعد القضاء على الثورة، بدأت حركة هجرة من جانب الشيشانيين باتجاه الجنوب والشرق، ولكن الروس لم يكتفوا بذلك، بل لجأوا إلى السلاح الشهير الناجع «فرق .. تسد» لإضعاف تماسك أهالى القوقاز. ويبدو أن الروس قد حققوا نجاحا ملحوظا فى «أوسيتيا» - التى تقطنها أغلبية مسيحية - على وجه الخصوص حيث تحالف الأوسيتيون مع المحتلين الروس وانخرط الكثير من أبنائهم فى الجيش الامبراطورى الروسى حيث برز من بينهم قادة

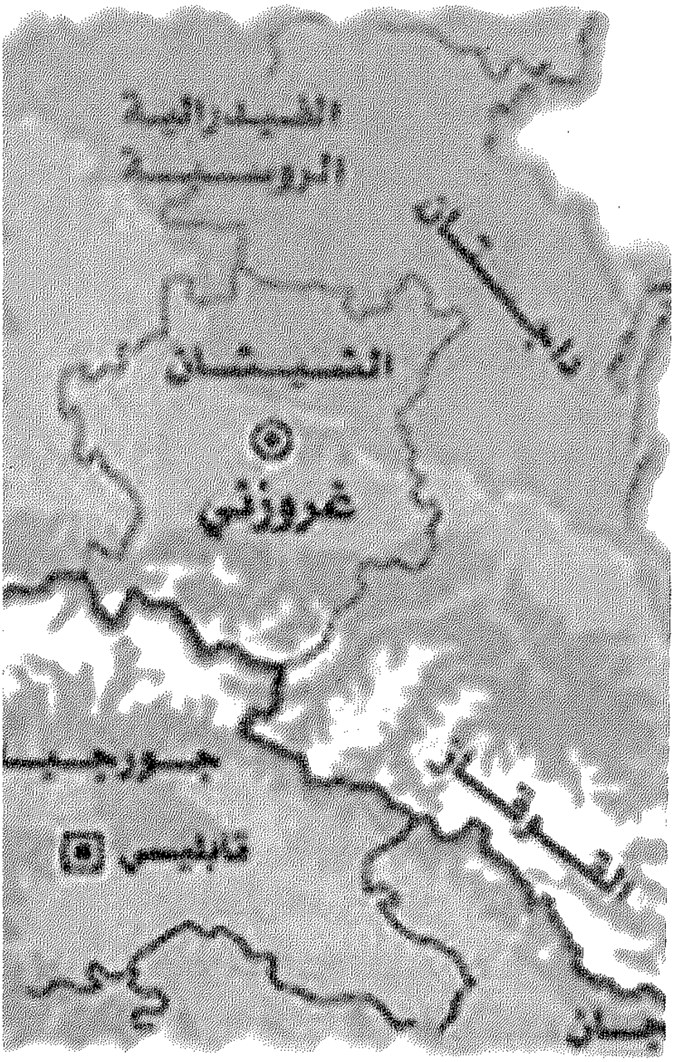

الصراع فى القوقاز تحكمه مصالح آنية .. وتغذيه خلافات عميقة الجذور

اشتهروا بالشجاعة فى الحروب فقربتهم الامبراطورة «كاترين الثانية» ومنحتهم امتيازات وألقابا وأملاكا، وكان من الطبيعى أن يخلق ذلك شكوكا وصلت إلى حد العداء بين الأوسيتيين وباقى أبناء القوقاز.

(فهل يمكن أن يفسر ذلك سبب اختيار مدرسة فى مدينة «بيسلان»، فى «أوسيتيا الشمالية»، لتكون هدفا للعملية الدامية فى شهر سبتمبر الماضى، والتى

لم يعرف أن منفذيها قد تقدموا بمطالب واضحة كما يحدث عادة فى مثل هذه العمليات؟!).

٦ - إن روسيا تعد من أكثر بلاد العالم تنوعا فى الأعراق، حيث تعيش على أرضها مجموعات بشرية تنتمى إلى نحو مائتى عرق، وإن كان الروس السلافيون يشكلون القسم الأعظم حيث يبلغ تعدادهم نحو مائة وثلاثين مليون نسمة.

ومن بين كل مناطق روسيا، يظل القوقاز - كما كان دائما - الأكثر تقلبا واضطرابا بسبب توالى النزاعات والحروب الدينية والعرقية، ويشكل الشيشان العرق الأكبر (مليون نسمة) يليهم جيرانهم الأنجوش (نحو سبعمائة ألف) الذين خاضوا حربا عرقية دموية مع «أوسيتيا الشمالية» التى تقطنها أغلبية من المسيحيين، وهى حرب انتهت بتغلب الأوسيتيين مما أجج العداء بينهم وبين العرقيات الأخرى التى تدين بالإسلام.. خاصة مع تنامى تيار التطرف الإسلامى بالمنطقة.. وقد أثار هذا الواقع المستجد مخاوف من عودة المواجهات واحتمال انفجار الحروب الدينية والعرقية فى أى وقت خاصة مع توزع الأعراق بشكل فسيفسائى فى المنطقة (فى جمهورية داغستان - مثلا - والتى تقع شمالى شيشينيا يتوزع السكان البالغ عددهم نحو مليون نسمة بين أكثر من مائة عرق ويتحدثون لغات شتى، ولكنهم يدينون جميعا بالإسلام).

٧ - فى أثناء حكم ستالين، وإبان الحرب العالمية الثانية، اتهم كثيرون من أبناء الجمهوريات القوقازية بالتعاون مع ألمانيا النازية رغم انخراط معظم أبناء هذه الجمهوريات فى الجيش الأحمر، وقد أغضب ذلك ستالين بشدة، وهو الذى ينحدر من أب جورجى وأم أوسيتية، فانتهج سياسة بالغة القسوة إزاء قوميات بعينها وعمد إلى نفى جماعات كبيرة من الشيشان والأنجوش والشركس وغيرهم إلى سيبيريا وكازاخستان وأتى بالروس وغيرهم من القوميات - وخاصة الأوسيتيين والجورجيين ليحلوا محل المهجرين، وكان من نتيجة ذلك أن أجيالا من هذه الشعوب المقتلعة نشأت على رغبة دفينة فى الانتقام مما جرى لها على أيدى الروس والأوسيتيين، وذلك على الرغم من أن «نيكيتا خروشوف» قد ألغى أوامر ستالين وأصدر قرارات فى عام ١٩٥٧ بإعادة المنفيين إلى بلادهم.

ولا شك أن هذا التعقيد والتشابك، التاريخى والجغرافى والدينى، يكمن فى أساس الوضع الراهن ويفرض على جميع الأطراف واقعا صعبا ربما يكون

روسيـــا وجذور العنف

أشد قسوة من وعورة جبال القوقاز نفسها.

مزيد من التعقيد

يضاف إلى كل تلك العناصر التى تجمعت وتراكمت على مدى التاريخ لتصنع هذا الواقع المعقد، عناصر جديدة ظهرت فى التاريخ الحديث أو فى العقود الأخيرة بالذات.. وبالطبع، يأتى «النفط» - الذى تأكدت احتمالاته الكبيرة فى بعض المناطق القوقازية، ولا سيما القريبة من حوض بحر «قزوين» - فى مقدمة هذه العناصر، وغنى عن القول إن النفط قد جذب إلى المنطقة نوعا جديدا من الصراع الدولى الذى أضيف إلى عوامل الصراع المحلى القديم . وتحيط بموضوع النفط ، بما يثيره من مطامع وتضارب مصالح أطراف عديدة، ملابسات ومؤثرات داخلية ودولية يطول الحديث عنها، وإن كان يكفي - فى هذا السياق - أخذها فى الاعتبار بما تضيفه من عناصر «التعقيد» للموقف فى القوقاز.

هذا الوضع المعقد يراه السياسى والمفكر رمضان عبداللطيبوف - الذى شغل حتى وقت قريب منصب نائب رئيس مجلس الوزراء الروسى والعضو الحالى فى مجلس الاتحاد الفيدرالى - السمة الأساسية التى تطغى على الموقف الراهن فى الشيشان، وقد كتب مؤخرا يقول إن ما حدث فى مدرسة «بيسلان» فى أوسيتيا الشمالية، وما يحدث من مآس فى

الشيشان وفى جمهوريات القوقاز عامة، لا يمكن فصله عن مجمل التراكمات التاريخية للمشكلات التى وقعت بين أعراق هذه المنطقة وشعوبها وأديانها وأيديولوجياتها وخياراتها، ولا يمكن فهم ما يجرى اليوم من أحداث متفجرة دون التأمل، ويعمق، فى الجوانب الجيوسياسية والاثنوسياسية لهذه الشعوب وموروثاتها الاجتماعية والدينية والتى تمتزج كلها بالطبع الحاد المعروف عن الذهنية القوقازية.

ولعبد اللطيبوف، فى هذا السياق ملاحظة جديرة بالاهتمام. فهو يرى أن «الإصلاحات الديمقراطية» التى طبقت فى السنوات الأخيرة ربما تكون قد خلقت، ولأول مرة ، الظروف المواتية لخروج «الطاقة القومية» لشعوب هذه المنطقة من القمقم الذى ظلت حبيسة فيه أجيالا متعاقبة، ويقول إنه من الواضح أن هذه الطاقة انطلقت لتعبر عن نفسها من خلال إحياء كل ما هو متوارث من أحقاد متبادلة.

على أن المراقبين يرصدون أمورا أخرى ذات مغزى فيما يتعلق بالموقف فى تلك المنطقة المضطربة، والسياسة الروسية المتصلبة إزاء شيشينيا خاصة وإزاء منطقة القوقاز عامة، فمراسل هيئة الإذاعة البريطانية فى موسكو «بول وبنولدن» على سبيل المثال يسجل فى تقرير له أذيع مؤخرا، أن الذى يدفع الروس إلى هذا التصلب هو الخوف من حدوث المزيد من الفوضى فى هذه المنطقة الحساسة بالنسبة لروسيا، ويقول إن لدى الروس شعورا بأنه لا يتعين عليهم تقديم مزيد من التنازلات فيما يتعلق بالأرض.. فضلا عن وجود اعتقاد سائد لدى المسئولين الروس بأن الشيشان منحوا فرصة للاستقلال من قبل ولم يستغلوها.

وبالإضافة إلى ذلك، يذهب المراقبون إلى أن الحكومة الروسية فى عهد بوتين قد بدأت جهدا منظما لوضع حد لحالة الفوضى التى أعقبت سقوط الاتحاد السوفييتى والتى سادت بشكل واضح إبان حكم سلفه بوريس يلتسين، ولأن الغرب عامة، والولايات المتحدة خاصة، لا يطمئنون بعد إلى انتهاء الأيدلوجية التى حكمت روسيا لأكثر من سبعة عقود وذهابها إلى غير رجعة، فإن هناك رغبة دفينة فى الغرب لإبقاء روسيا ضعيفة فى المدى المنظور على الأقل، وبالتالى فإن لدى الروس شكوكاً قوية فى وجود نشاط خفى تقوم به الأجهزة السرية الغربية لاستغلال المناطق الضعيفة فى الجسد الروسى الضخم، ومن بينها منطقة القوقاز وخاصة «شيشينيا» ويغذى هذه المخاوف والشكوك لدى الروس وجود اتصالات بين حركات «الاستقلال» فى شيشينيا وغيرها وبين جهات خارجية

عديدة ويجادل المسئولون الروس علنا بأنه إذا حدث وأن حصلت جمهورية الشيشان على استقلالها، فإن ذلك سيشجع المزيد من جمهوريات روسيا الاتحادية على المطالبة بالاستقلال هى الأخرى.

ضغوط .. وانتقادات

تثير معالجة الرئيس بوتين وحكومته للوضع فى الشيشان وفى القوقاز عامة، الكثير من الانتقادات، ليس فى الخارج فقط، وإنما فى الداخل أيضاً، ولكن بينما تتركز انتقادات الخارج، الآتية من الغرب عموماً ومن واشنطن خصوصاً، على أن معالجة الوضع على النحو الذى يتبعه الحكم فى روسيا من شأنها أن تثير القلق على حقوق الإنسان وأن «تضعف الديمقراطية الوليدة والهشة فى روسيا» كما صرح الرئيس الأمريكى جورج بوش، فإن انتقادات الداخل تكاد تتركز على السياسة التى يتبعها بوتين، من جانب المعارضين الروس، بأنها تحاول أن تغطى الحقائق بإطلاق الكثير من الأكاذيب كلما وقع حادث إرهابى، وهذا ما سجله الكاتب الروسى «بوريس كاجارليتسكى» بعد مرور عدة أسابيع على حادث «بيسلان».. فيما أذاعته السلطات فى الساعات الأولى للواقعة، سواء فيما يتعلق بعدد الرهائن أو بهوية المهاجمين الذين زعمت أنهم فى غالبتهم من العرب، بينما كشفت الوقائع فيما بعد أن اثنين من المنفذين كانوا مسجلين كمعتقلين فى أحد سجون روسيا .. وهى كذبة أخرى.

وينصح المنتقدون من الروس الحكومة بأن تغير من أسلوب معالجتها وتناولها للوضع فى الشيشان خاصة وفى القوقاز عامة، واعتماد سياسة جديدة ترمى إلى تخفيف حدة العداء القائم بين الأعراق والاثنيات والديانات الموجودة، وتعمل على ايجاد حلول نابعة من أبناء المنطقة أنفسهم مع الحرص على التقليل من تدخل السلطة المركزية فى موسكو، وهو رأى يؤيده بقوة رمضان عبداللطيبوف.

ما بين انتقادات الداخل وضغوط الخارج - وربما مؤامراته أيضاً، تبدو حكومة الرئيس بوتين وكأنها تسير على حبل مشدود وهى تواجه الوضع المعقد فى شيشينيا وفى القوقاز عامة، وربما نفسر هذه العصبية والتوتر والحدة التى تعكسها تصرفات السلطات الروسية كلما واجهت حادثاً إرهابياً فى أوسيتا الشمالية أو فى موسكو أو غيرها.

ولكن الوضع يظل مضطرباً. ولا يهدأ إلا لينفجر مع وقوع حادث جديد!! أما المستقبل فيبقى غامضاً، ويظل معلقاً على ما يمكن للحكم القائم فى موسكو أن يسمح بالأخذ به من حلول مطلوب أن تكون ناجحة وحاسمة.. لاتزال فى طى المجهول! ■

ضياع الوعى بأهمية السينما

بقلم
مصطفى درويش

لعلها المرة الأولى فى تاريخ السينما على أرض مصر، وربما فى تاريخها على أية أرض أخرى. أن يحرم جمهور السينما من مشاهدة الأفلام على شاشات كبيرة، لمدة قاربت شهرا من عمر الزمان، وذلك تنفيذا لقرار مفاجىء باغلاق ابواب جميع دور السينما بطول وعرض البلاد.

والأبواب لم تغلق بسبب حدث جلل، كهزيمة ساحقة ماحقة فى ساحة الوغى، أو كارثة طبيعية نشرت الخراب، وأودت بحياة آلاف العباد، أو موت رئيس محبوب، بينه وبين العقول والقلوب ، جذب ووصال.

أبطال « يوم الكرامة »

وإنما اغلقت لسبب آخر، منبت الصلة بمثل تلك الأحـــداث الجسام، ألا وهو ظهور هلال رمضان فى كبد السماء، مبشرا ببدء أيام وليالى الشهر الفضيل .

فلقد تصادف ، مع ظهور الهلال، أننى أخذت أبحث فى جريدة ذات جلال فى كل العهود، عن دار سينما يعرض على شاشتها أحد الأفلام التى كان لزاما على أن أشاهده.

وفيما أنا منهمك فى البحث لفتت نظرى إعلانات صغيرة ، مرصوصة جنبا إلى جنب فى الصفحة الثانية من تلك الجريدة ذات الجلال. والمخصص أسفلها لإعلانات دور السينما والملاهى الأخرى.

ولدهشتى كانت جميعها ، ودون استثناء لا تقول إلا شيئا واحدا. وهو أن دور السينما بالقاهرة والأسكندرية فى اجازة بمناسبة شهر رمضان المبارك.

شهر الحرمان

وهكذا، وجدتنى ، على غير المعتاد، محروما من مشاهدة الفيلم الذى كنت أزمع الكتابة عنه، ومحروما من متعة مشاهدة أى فيلم آخر. فى دور السينما . طوال شهر بالتمام وكم ترحمت. لحظة الدهشة، على عصر جميل، كانت الأفلام المعروضة . ايامه على شاشات دور السينما ، حديث الناس من الخليج إلى المحيط.

ومن الأكيد أنه نتيجة اغلاق أبواب دور السينما، لبث الجمهور فى مصر، على غير عادة، محروما من ممارسة حقه فى الاستمتاع بالأفلام التى يرغب فى مشاهدتها وبحكم اللزوم أسير مسلسلات وليدة فكر فقير، الأدوار الرئيسية فيها، يؤديها ممثلون وممثلات. شاخوا، فضاق بهم الناس إلى حد مقاطعة أفلامهم.

عملقة متأقزم

وكأن القدر أراد لهم نهاية أعمتهم عن سلوك الطريق الذى ينقذ سمعتهم، وسمعة تليفزيون ، قيل عنه فى يوم من الأيام انه ولد عملاقا . والآن لا حديث إلا عن تأقزمه، وعجزه عن معاصرة عصر ثورتى الاتصالات والمعلومات.

فإذا بهم، أى نجومنا، يكبر عليهم الاعتزال الكريم، فيغزون الشاشة الصغيرة، بكروش بارزة، ووجوه مشدودة، منفوخة، وباروكات قبيحة. متعددة الألوان، وصدور وأذرع عارية الا من حمالات، لا تستر شيئا .

والغريب أن هذه المسلسلات التى فرضت حصارا على الناس لا يستطيعون الفكاك منه، معظمها لمخرجين كان لهم شأن كبير فى عالم صناعة الأفلام، أهدروه بالقفز سريعا من سفينة السينما إلى بر أمان

مسلسلات ، أغلبها لا يقول الا تفاهات ، تحت اغراء ذهب تليفزيون. معز، مذل، لمن يشاء، بغير حساب.

ولأن قرار اغلاق ابواب جميع دور السينما مخالف لطبائع الأمور فقد تراجع عنه مصدروه. بعض الشيء، والشهر الفضيل على وشك الرحيل.

حب ولعب

ومع مجيء العيد السعيد فتحت دور السينما أبوابها لتستقبل ستة أفلام مصرية، من بينها ثلاثة القاسم المشترك الذي يجمعها في صعيد واحد. هو كلمة حب.

وهذه الأفلام «حالة حب» ، «كان يوم حبك» ، «وحبك نار».

أما الأفلام الثلاثة الأخرى، فأسماؤها الهازلة «قشطة بابا». «اشتاتا اشتوت» و«سيب وانا سيب» انما تدل على واقع سينمائي اشد هزلا، وهزالا!

هذا وطابع افلام العيد الرقص والغناء فتامر حسني يشارك هاني سلامة بطولة «حالة حب» و«خالد سليم» بطل «كان يوم حبك» دون شريك و«مصطفى قمر» يلعب دور روميو في «حبك نار» المأخوذة قصته بتصرف مخل من مسرحية شكسبير مع استبدال الاسكندرية بفيرونا.

و«مصطفى كامل» ، وهو الآخر مطرب قد اسند اليه المخرج «عاطف شكري» بطولة «قشطة يابا».

«ومدحت صالح» المطرب المعروف ، بطل «اشتاتا اشتوت» لصاحبه المخرج «عمر عبدالعزيز».

جيل جديد

وفيما عدا المخرج الأخير فمخرجو الأفلام الخمسة الأخرى، إما ليس لهم رصيد سابق من أفلام روائية طويلة، مثل «سعد هنداوي» صاحب «حالة حب» و«عاطف شكري» و«وائل شركس» صاحب «سيب وانا سيب» .

واما رصيدهم لا يعدو أن يكون فيلما يتيما، مثل «ايهاب لمعي» صاحب «كان يوم حبك» و«ايهاب راضي» صاحب «حبك نار».

«فلمعي» له فيلم سابق «نظرة عين» (٢٠٠٣) و«راضي» ليس له ، هو الاخر، سوى فيلم واحد اخرجه قبل خمسة اعوام «فتاة من فلسطين» عن قصة للأديب «أحمد المنسي قنديل».

والأفلام الستة غارقة في التهريج أو الافتعال او الاثنين معا. شأنها في ذلك شأن معظم الأفلام التي جرى عرضها أثناء السنة التي على وشك الرحيل.

أيام لها تاريخ

وعند احد هذه الأفلام، وهو «يوم الكرامة» . اقف قليلا، لأ قارن فشله بنجاح فيلمين اجنبيين، احدهما ألماني والآخر امريكي من انتاج مصنع

الأحلام.

أما لماذا المقارنة بين الافلام الثلاثة، فذلك لأن أيا منها يدور وجودا وعدما حول يوم له تاريخ فى حياة كل شعب من شعوب البلاد الثلاثة، مصر ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وليس من شك أنه من بين الأيام، التى لها تاريخ عندنا يوم ٢٦ من اكتوبر لعام ١٩٦٧، ذلك اليوم الذى تم فيه اغراق المدمرة الإسرائيلية «إيلات» فبفضله عادت روح الثقة لنا ، نحن المصريين، حتى إلى أكثر الناس تشاؤما وتشككا فى قدرتنا على تجاوز كابوس هزيمة ساحقة لن ينساها التاريخ.

و«يوم الكرامة» للمخرج «على عبدالخالق» صاحب فيلمى «اغنية على الممر» و«العار» مداره الاحداث التى مهدت ، والبطولات التى ادت إلى إغراق «إيلات» وادخلت يوم اختفائها فى قاع اليم فى عداد الأيام التى لها التاريخ.

وما شككت ، وانا اشاهده، فى دار سينما شبه خاليه من المتفرجين، ان حظه من النجاح لن يكون كبيرا ولكن لم يخطر ببالى قط، ان مثل هذا التقدير، قد يكون بعيدا عن الصواب بعد المسافة بين الأرض والسماء.

فلدهشتى لم يحقق الفيلم اى نجاح، بل كان. والحق يقال، واحدا من افشل افلام الصيف، اذ كان اقلها تحقيقا

نادية الجندى فى مسلسل «مشوار امرأة»

للايرادات.

لكل سؤال جواب

وما ان افقت من الدهشة، حتى اخذت اتساءل لماذا كل هذا الفشل غير المسبوق لعمل سينمائي جاد. يعرض لأحداث يوم كله أمجاد؟

ولم اصل إلى جواب إلا بعد مشاهدة فيلمين احدهما «معجزة برن» لصاحبه المخرج الالماني «سونكي فورتمان» ، والآخر «سيبسكويت» لصاحبه المخرج الأمريكي «جارى روس» الذي سبق له وان امتعنا بفيلمه الأول «بلسنتفيل».

فكلاهما مداره احداث وقائعها جرت بالفعل سواء في المانيا، وذلك بعد ان القت الحرب العالمية الثانية سلاحها بتسعة اعوام، او في الولايات المتحدة ، اثناء عقد الثلاثينات، والعاصفة المميتة، عاصفة النازية، تنذر بنار حامية، اندلعت السنتها في اواخر سنة ١٩٣٩.

عودة الروح

والفيلم الألماني يعرض ليوم انتصار الفريق القومي الألماني لكرة القدم في مباراته الفاصلة بمدينة «برن» السويسرية. مع الفريق القومي المجرى الدائم الانتصار، وخروجه بفضل معجزة دحره الفريق الأخير . متوجا بكأس العالم.

ويكشف من خلال تكوين ذلك الفريق وتدريبه ، ومن خلال صبي مولع بالكرة وعائلته الفقيرة، معاناة شعب لم يزل يعيش عار هزيمة سحقت وطنه سحقا، إلى ان جاء اليوم الموعود، يوم الانتصار على الغول المجرى فبفضله عادت للشعب الألماني روح الثقة بالنفس وإرادة إزالة آثار هزيمة كلها عار وشنار يقال إن المستشار الالماني الهر شرويدر بكى والفيلم يقترب من الختام.

اما الفيلم الامريكي، فيعرض لسيرة «سيبسكويت» كما كتبتها «لورا هيلينبراند» في مؤلف ضخم، ونال من النجاح والاستحسان الشيء الكثير.

قصة حصان ورئيس

و«سيبسكويت» من فصيل الخيل حصان تعلقت به قلوب الناس وافئدتهم بطول وعرض الولايات المتحدة ، حيث كان لا حديث في المجالس والاذاعات إلا عنه، والأمل في وصوله إلى الدور النهائي، وفوزه على الجياد الأخرى في سباق الخيل الأخير.

أما لماذا تعلقت به الأفئدة والقلوب، فذلك لأنه اولا حصان غلبان، مستواه لا ينهض إلى المستوى الرفيع المتوافر في الجياد الأخرى.

وكذلك حال ممتطيه الجوكي الذى نجح في ترويضه (يؤدى دوره توبى ماكجوير) ، فلقد كان، ويا للعجب، نصف ضرير وثانيا لان الشعب الأمريكي كان وقتذاك ، يعاني هو الآخر من آثار أزمة اقتصادية طاحنة اخذت بخناقه وحتى يتخلص منها. انتخب

توبى ماكجواير فى « الحصان سيبسكويت »

لرئاسة الجمهورية رجلا معاقا، مصابا بمرض شلل الاطفال.

ولو كتب للحصان المحبوب، والجوكى مروضه، وكلاهما شبه معاق، الانتصار فى السباق.

فلم لا ينتهى الأمر بالرئيس المشلول منتصرا، هو الآخر، فى المعركة الدائرة من أجل إعادة الروح إلى الاقتصاد، بانتشال المجتمع الامريكى من هاوية الكساد.

وعندما تحققت المعجزة يوم انتصار الحصان الغلبان فى السباق.

احيا انتصاره هذا امل الشعب الامريكى فى غد مفرد، تحت قيادة فرانكلين، د. روزفلت الرئيس المصاب بشلل الاطفال.

وهكذا دخل هذا اليوم فى عداد الأيام التى لها تاريخ.

سر الفشل

يبقى لى ان اقول : إن هذه المزاوجة بين الخاص والعام، مع الاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية فى زمن الحدث، افتقدها «يوم الكرامة» على نحو كان لابد ان يؤدى إلى فشله فشلا ذريعا.

وأرجح الظن ان هذا الافتقاد إنما يرجع إلى داء الاستسهال، ذلك الداء العضال الذى لن ينجح سينمائيونا فى التلخص منه، إلا بعد كثير من المشقة والعناء!! ■

ساعة الورد والياسمين

شعر
محمد الفاتح *

إلي الاستشهادية البطلة هنادي جرادات في الذكري السنوية الأولي لاصطفائها.

أي جزء من بلادي ..
أنت ياظل هنادي؟!
أنت وسع الكون
عطر الأرض
«هبة» الشعب
أسرار السماوات
مدار الروح من حول الخريطة
بردة التوحيد
لاروب المحاماة

أي جرح في فؤادي
أنت ياطهر بلادي ؟
ياغزال البحر
يا ألق العصافير
وياسرب الملائكة المطل من السحاب
ليقطف الليمون والنعناع
من سر الصلاة علي النبي
ومن تسابيح النوارس فوق هذا الأزرق الدموي

أي ثوب الحدادي
طرزته الريح وشماً في سماء القلب
شمساً لعيونك ياهنادي؟!
ياتفاريح بلادي
من يدافع عن صهيل الأرض؟!
من يمشي علي رمشي ؟!
ويسند ظهره لجحافل الإفرنج
أعينها علي بردي

فأبصر في مرايا الموت نعشي
حبة من قمح جدي ..
كسرة من خبز أمي
أقحوانا من دم الشهداء
حزنا من هوي الشعراء
وحشاً يحصد الورد وأطفال الحجارة
يزرع الموت سياجاً للحداثة
ينشر الرعب طقوساً للحضارة

أي فجر لجهادي
يبزغ الآن حياة لهنادي
بسمة الثلج
كنسمة الصبح
كزهَرة اللوز
كوردة الجرح تغفو علي صدر حيفا
حصاناً يطير علي شكل رمح
وطيف حمامة ..
علي شاطئ البحر
علي قمة الكرمل الليلكي
يُطَيِّرُ قرآنُها سربَ العصافير فوق الغمامة

لا شئ يمنعها الآن من فرحة الموت
لاعلم يكفي لفك رموز الشهادة
ولا الهندسة الوراثية
تدرك كيمياء العناصر
في العشق الإلهي
وسر انفجار الجسد
فناء وحباً لمالك الكون والكائنات،

الأحد الصمد ..
لفاتق الأرض من تحت أقدامنا مرتين .
ليعلو فينا علو الغزاة
ويدخل الفاتحون إلي القدس في كرتين
لاشئ يمنعها الآن أن ترجع للنهر، نهر الحياة
وتروي حقول البنفسج دمع الحنين
لفادي ..
لصالح ..
للعاشقين..
لاشئ يمنعها الآن أن تكتب باسميهما ساعة الورد والياسمين
كي ما تعانق روح الغريبين في زفة العمر
علي موج الزغاريد بنات جنين
لاشئ يمنعها الآن أن تحثو التراب بوجه الطغاة
وتسطع في الليل نجماً يبدد هذا الضياع
ويسقط بالنار زيف القناع..
لاشئ يمنعها الآن أن تفقأ عين الغريب
وتعطية درساً بفن الحروب ..
لاشئ يمنعها الآن أن تعلن في كبسة زر :
هنا يختتم الكلام ..
هنا ينتصر الحمام ..
هنا ينهض السيف الذي نام من ألف عام !

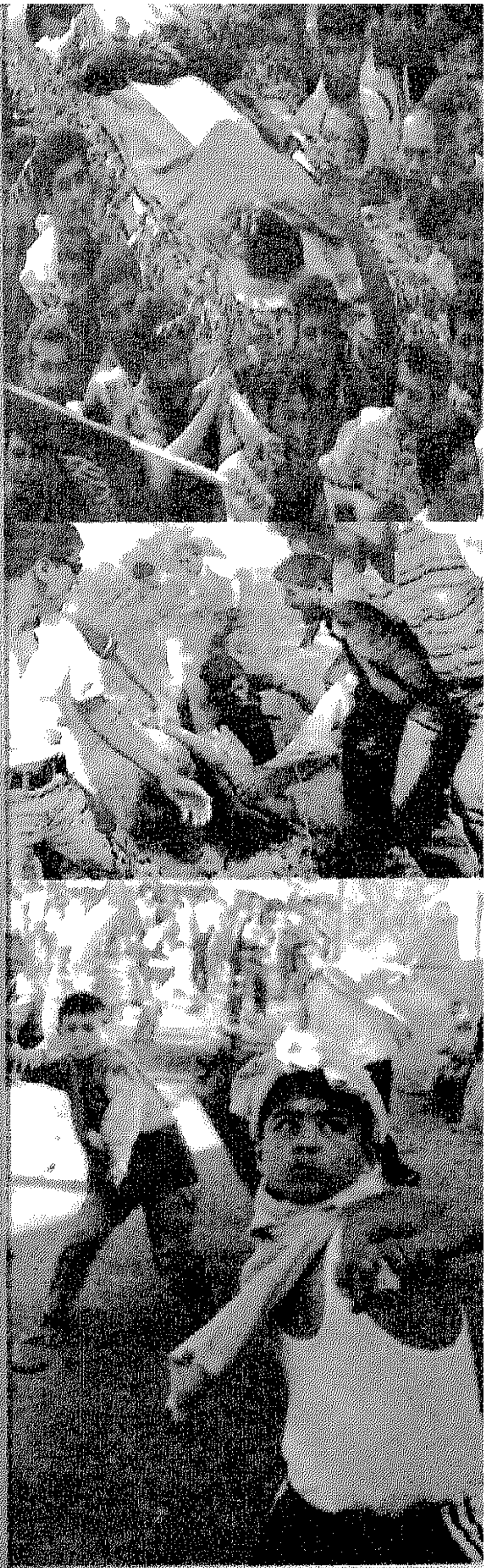

(*) هذه القصيدة كتبها محمد الفاتح قبل حوالي عام بعد أن نفذت الاستشهادية البطلة المحامية هنادي جرادات عمليتها الاستشهادية المدوية في مدينة حيفا بتاريخ ٤ / ٢٠٠٣/١٠م.

كتاب الهلال

مشيناها خطى

د. رءوف عباس

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٥ ديسمبر ٢٠٠٤

روايات الهلال

قمر على سمرقند

بقلم
محمد المنسى قنديل

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٥ ديسمبر ٢٠٠٤

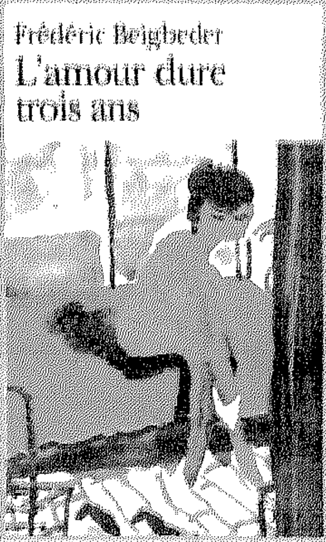

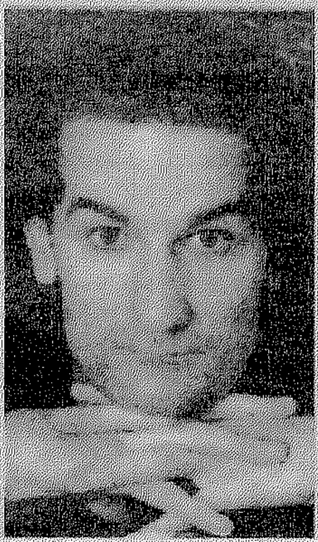

فردريك بيجبيديه وغلاف روايته

يكفى الحب ثلاث سنوات!

بقلم
محمود قاسم

هل لايزال فى العالم أدباء طليعيون..؟ ذلك هو السؤال الذى تطرحه أول قراءة لرواية فرنسية معاصرة مهمة، تحمل عنوانا لطيفا هو «يدوم الحب ثلاث سنوات» لكاتب لم نسمع عنه، واسمه ينطق بصعوبة هو فردريك بيجبيديه، كتب هذه الرواية عام ١٩٩٧، وهو فى الثانية والثلاثين من العمر.

ولد الكاتب فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٦٥ وبدأ حياته الأدبية ناقدا فى الصحف الفرنسية، وفى عام ١٩٩٠ نشر روايته الأولى «مذكرات شاب منزعج»، ثم نشر روايته «أجازات فى الغيبوبة» عام ١٩٩٤، وجاءت روايته «يدوم الحب ثلاث سنوات» عام ١٩٩٧ بمثابة تجربة ذاتية، كما يعترف هو بذلك لتحقق لإسمه دويا فى الأوساط الأدبية الفرنسية، وفى العديد من اللغات الأدبية مما دفع بالناشرين إلى الإلتفات إلى أعماله السابقة، وإعادة طبعها أكثر من مرة، وفى عام ١٩٩٩ قدم مجموعته القصصية «قصص قصيرة تحت تأثير المتعة».

هذا النجاح الذى استبد بالكاتب

دفعه إلى تكثيف نشاطه بقوة، وعرفت السنوات الأخيرة بغزارة إنتاجه، وصعوده المتلاحق، ففي عام ٢٠٠٠ نشر روايته «٩٩ فرنسا»، وفي عام ٢٠٠١، نشر كتابه «آخر اختراع قبل السيولة»، وفي عام ٢٠٠٣ فاز بجائزة أنتراليه عن رواية اختار لها عنوانا بالإنجليزية هو «نوافذ في العالم».

في روايته «يدوم الحب ثلاث سنوات» أكد الكاتب أنه واحدا من المنتمين إلى تيار الطليعة، أي أنه هو الذي وصف كتاباته، باعتباره ناقدا، وروائيا معا، ورغم هذا التصنيف، فإن الشكل التجريبي الذي اتخذه يجعله واحدا من هذه المدرسة التي تأسست في فرنسا منذ أوائل الخمسينات، أي منذ أكثر من نصف قرن، يختلف كثيرا عن الأشكال الأدبية التي كتبها جهابذة المدرسة الطليعية، ومنهم كلود سيمون، وجرييه وناتالي ساروت، ومرجريت دوراس، وروبير بينجه، أو حتى الجيل الوسط، أو الحديث من الذين انتهجوا هذه الكتابة ومنهم شانتال شوافل، وأريك رولان، لكن السؤال الذي يطرح نفسه، هل نحن أمام كاتب طليعي حقا؟.

الحياة بلا حدوتة

هل يمكن أن تضع تلك الغرابة التي تقابل بها الرؤية قارئها نفسها في إطار الروايات التجريبية، لاشك أن الكتّاب والنقاد الذين حاولوا الخروج عن الشكل المألوف للكتابة ، خاصة الحدوتة يكتشفون صعوبة ذلك، خاصة الأجيال التالية للطليعيين، ويبدو هذا واضحا في رواية «العاشق» لمرجريت دوراس عام ١٩٨٤، التي عادت إلى الشكل التقليدي للحكي، وموضوع غير جديد هو بمثابة رواية ذاتية.

وقد بدا ذلك بكل وضوح في رواية «يدوم الحب»، لو نظرنا إليها من الناحية التقليدية، فموضوعها لايتعدى قصتي حب مع امرأتين، إحداهما ذهبت بعد ثلاث سنوات من الزواج، والتالية جاءت، وصار على الروائي آن يمتحن نفسه ومشاعره تجاه هذا الحب الجديد.

سوف تكتشف وأنت تقرأ الصفحة الأخيرة من الرواية أنها أشبه بقصص الأفلام العربية ذوات النهاية السعيدة، وأنها قد لاتقدم الصورة نفسها التي تعرفها في الحياة، لكن لاشك أن الشكل الأدبي الذي اختاره الكاتب لروايته يجعلها واحدة من الأعمال التي تخرج بحدة واضحة بين التجريب، والتقليدية، لدرجة أن القارئ في بعض الفصول قد يتصور أنه أمام مقال أدبي، أو مايشبه الانطباعات، والحديث عن آراء ذاتية فلسفية، أكثر منه أمام رواية تقليدية أو تجريبية..

حاول الكاتب من خلال قصة تقليدية، يمر بها أي شاب أن يغزل روايته، وأن يستجمع جميع أفكاره ورؤيته وقراءاته عن الحب والزواج. فالراوية، وهو يعمل كاتبا بإحدى الصحف، يخصص ثلاث سنوات من حياته لكتابة انطباعاته حول نظرية اكتشف في النهاية عدم صحتها، وهي أن أي قصة حب تدوم ثلاث سنوات، وفي جميع الفصول يحاول أن يؤكد على ذلك، ويقوم بتنظير رؤيته حتى ولو على سبيل المثال، فهو يقول أنه في العام الأول من الحب، أو الزواج، يردد أحدهما: إذا تركتني سوف أقتل نفسي،

وفي العام الثاني يردد: إذا تركتني سوف أعاني لكنني سأتماسك، أما العام الثالث فيردد فيه: إذا تركتني، فسوف أشرب شمبانيا..

سنة محددة للطلاق

في هذا الفصل على سبيل المثال المعنون «تاريخ محدد للابتهاج» يرجع الكاتب إلى إحصائية حددتها الأمم المتحدة عن الزواج في اثنين وستين دولة منذ عام ١٩٧٤ وحتى ماقبل كتابة الرواية ، أي طوال عشرين عاما، بأن أغلب حالات الطلاق تتم في السنة الرابعة من الزواج، بما يعني أن الحب قد استمر في هذه الزيجات ثلاث سنوات، فالنساء هنا يتكلمن لغات متباينة، ويمارسن العديد من المهن، ولهن ملابس مختلفة، لكن المصير واحد.

يحاول الكاتب هنا أن يكتب ما يشبه المقال، يستند فيه إلى تحاليل علمية، وإحصائيات، ويخلص إلى مفهوم آخر يعضد وجهة نظره: ففي العام الأول يشتري الزوجان الأثاث، وفي العام الثاني يبدلونه، وفي العام الثالث يتشاركان فيه.

وقد ابتعد الكاتب في الكثير من فصول روايته الأولى عن الحكي، بقدر اقترابه من التحليل، واستخدام المعلومات والمرجعية، ولاشك أن المؤلف قد استعرض هذه المعرفة الغزيرة لديه، وأغلبها فرنسي، يحتاج من القارىء أن يكون فرنسيا، مثل رجوعه إلى ما كتبه أدباء فرنسيون معاصرون، يعتبر الكثيرون منهم سابقوه، أو أساتذة له، ولم يرجع إلا مرة واحدة لكاتب من جيله.

أقوال مأثورة

كما أن الكاتب حاول في هذه الفصول استخدام رؤيته هو عن الحب، بما يجعل آراءه أقوالا مأثورة، رغم أنها تعبر في المقام الأول عنه، مثل قوله أن الزواج ليس فقط نموذجا كمؤسسة التربية البرجوازية، ولكنه محاولة من غسيل الدماغ الجماعي للعقلية الإعلانية والسينمائية، والصحفية، وأيضا الأدبية، ولاشك أن صفحات الرواية تمتلىء بمثل هذه العبارات، خاصة الجزء المتعلق بزوجته الأولى «آن» .. التي لم تدم علاقتهما معا أكثر من ثلاث سنوات».

إلا أن الكاتب بدأ بالفعل في كتابة روايته عندما التقى بأليس، في جنازة جدته، هي امرأة متزوجة مثله، لكنها لن تفكر بسهولة في أن تنفصل عن زوجها، حتى وإن خانته، عندما يبدأ ظهور أليس، تبدأ أحداث الرواية ويبدأ المؤلف في الحكي، فبعد أن طبق جميع نظرياته على طليقته «آن»، فإنه يتوقف عن التنظير، ويبدأ ممارسة التجربة حيث تبدو المرأة الأولى بمثابة التجربة، أما الثانية فهي الممارسة الحياتية للحب، خاصة أن الراوية لن يحصل على أليس بسهولة، فهي امرأة خائفة، أكثر مما هي مقبلة على التجربة، وهي خائنة أكثر مما هي وفية، وهي متغيرة أكثر مما هي ثابتة، لذا فإن «آن» تفقد أهميتها بسهولة في حياة الراوية وتنتهي العلاقة بالطلاق .. كي تبدأ قصة أخرى غير مضمونة النهاية، من الطرفين معها، حتى السطر الأخير، والثانية الأخيرة، قبل بلوغ علاقته بأليس نهاية السنة الثالثة، فإن الرواية تنقسم بالفعل إلى ثلاثة أقسام، الأول منها المعنون «الغازات المتصلة» ينقسم بدوره إلى قسمين، الثاني يبدأ، كما أشرنا، بظهور

أليس، وفيه تبدأ الرواية الحقيقية، بعد ذلك التنظير القريب الذى ذكره الكاتب فى القسم الأول، فالرواية بشكل عام تبدأ بعد نهاية السنوات الثلاثة التى عاشها الزوج مع «آن» وصار عليه أن يقوم بالتنظير كما شاء، أى أن ذلك بعد نهاية الفعل.

فالكاتب لم يذكر لنا تفاصيل علاقته بزوجته، وإنما ألقى الأحكام المطلقة من ناحيته، وقام بفلسفة الأمور التى مر بها، إلى أن ألتقى بالمرأة الثانية التى دفعته علاقته بها أن يكون هناك «فعل» ما فى حياته، الطلاق، ومطاردتها والتعذب من أجلها، وكتابة العديد من الرسائل إليها، ثم امتثالها له، وقبولها أن تعيش معه، وأليس تظل هى نفس المرأة بالحمية نفسها، تكسر النظرية، وتجدد نفسها، وتستطيع أن تعيش عاشقة، ومعشوقة أطول من المدة التى حددها الكاتب للعشق، وأيضا تلك التى أعدتها إحصائيات الأمم المتحدة.

آلة لتوليد السعادة

يحاول المؤلف أن يستخدم جميع ثقافته لخدمة أفكاره حسب المرحلة الزمنية، أو العاطفية التى يمر بها، فلديه فكرة مسبقة، حسب تجربته مع زوجته الأولى أن الحب يدوم ثلاث سنوات، ثم هو يود أن يثبت صحة هذا المنظور، حين تقترب السنوات التى قضاها مع أليس من بلوغ الثالثة، فى علاقتها العاطفية به، حول الكاتب المرأتين فى حياته إلى أداة لإثبات صحة أو خطأ نظريته، هو رجل أحادى البعد، هو الذى يعيش التجربة، فالآخر، وهو المرأة،لايزيد عن كونه آلة لتوليد السعادة، حتى إذا توقف عن ذلك فقد إحساسه به، ولاشك أن قيامه بسرقة حبيبته الثانية من زوجها، يزيد من إحساسه بأهمية أن يحتفظ بها.

تبدو المرأة مخلوقا شبحيا دوما بالنسبة له، أداة للمتعة، حتى «ماتيلدا» عاملة المطعم التى تصبح حبيبة صديقه جان جورج، ونحن لانكاد نعرف شيئا عن شخصيات هؤلاء النسوة، إلا من خلال مايفتعله به، فالراوية حين يحس «أن» أليس قد خرجت من حياته، يحاول استعادة طليقته «آن»، التى تبدو حاسمة وهى تخبره أن كل شىء قد انتهى، وأن رجلا آخر فى حياتها قد ظهر.

لم تفعل آن شيئا تستحق عليه أن يهجرها زوجها، ويطلقها، عدا لقاءه العابر بأليس أثناء الجنازة، كما أن الرواية لم تتوقف عن الحياة الزوجية للاثنين، ولا نعرف تفاصيل الحياة العاطفية بين الكاتب وأليس سوى أنه قد مرت ثلاثة أعوام وأن هناك اختبارا..

يعني التجريب حسب هذه الرواية، أنه صار مرنا، افعل ماشئت وأنت تكتب، المهم أن تحطم الشكل التقليدى للحكي، لكن فردريك بيجيديه حكى على طريقته، استخدم العبارات التقليدية، وتقسيم الجمل المتعارف عليه، والحوار الذى تقرأه غالبا فى جميع الروايات من هذا النوع ..

اعتقد أنه بهذه الصورة، فإن التجريب لن يموت، وسيظل الأدباء يبحثون عن صيغتهم المتجددة، وأن الأغلبية منهم سيظلون مقيدين بالحكى التقليدى، والحواديت المألوفة مهما تجدد الزمن.. ■

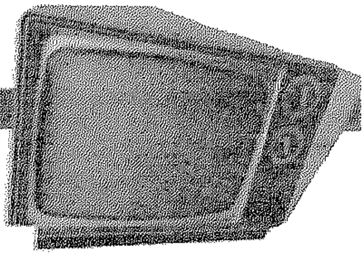

المتفرجة

بقلم
مرفت رجب

أرائك حمراء في مسلسلات التليفزيون

أثارت الأرائك المكسوة بقماش أحمر تزينه زهور ذهبية.. فى مسلسلات التليفزيون، رمضان ١٤٢٥ هـ نوفمبر ٢٠٠٤، فى نفسى البهجة من أول لقطة. يكفى أن اللون الغالب هو الأحمر وهو لونى المفضل، أما الزهور المذهبة فيقتصر انتشارها على المساند، جميل! لكن الجمال يزيد بفعل المحيط الواسع للمكان الذى احتلت الأريكة الحمراء منه مركز الصدارة، محاطة بالمقعدين المكملين لطاقم الاستقبال، يشرح قلب كل مشاهد، خاصة إن كان مثلى من مواليد برج الحمل، أو من مواليد البرجين الآخرين من الأبراج النارية وهما الأسد والقوس، وهى التى يقال إنها تجعل المواليد فيها يفضلون اللون الأحمر.

وإذا كان عدد الأبراج اثنى عشر برجا، فربما يضمن استخدام اللون الأحمر غطاء لطاقم الجلوس الرئيسى فى المسلسل كسب إعجاب ربع عدد المشاهدين فى أقل تقدير، ناهيك عن البقية الباقية من عموم البشر الطبيعيين الذين يبتهجون لرؤية اللون الأحمر، خاصة إذا اقترن بلون آخر يقوى من تأثيره، مثل اللون الذهبى المستخدم فى تلوين الزهور، تزين مساند الأرائك المستخدمة فى صالونات الاستقبال فى أربعة «على الأقل» من مسلسلات التليفزيون المذاعة فى شهر رمضان المشار إليه فى العنوان. وإذا ما اعترفت للقارىء الكريم بأننى لمّا علمت أن المذاع من الأعمال الدرامية فى رمضان يزيد على الثلاثين قدرت أن وقتى وطاقتى لا يمكن أن يسمحا لى بما يتجاوز الربع، فقصرت متابعتى على سبعة، ظهر الطاقم الأحمر فى أغلبها، وحتى

أساعدكم على التعرف عليه إن كان قد ظهر في مسلسلات أخرى فاتني تعقبه فيها، فهاأنذا أحدد أماكن ظهوره، في الصالون الرئيسي ببهو الاستقبال في مسلسل «لقاء على الهواء» وفي نفس الموضع في مسلسل عباس الأبيض... وفي مسلسل محمود المصرى في مشهد المواجهة بين سيلينا وأبيها جورج في الحلقة ٣٢ وفي مسلسل أصحاب المقام الرفيع ظهر في أحد صالونات بيت شريف الأخ الأكبر لزمرة أصحاب المقام الرفيع، مع ملاحظة تغيير طراز الأريكة والمقعدين المجاورين لها من مسلسل لآخر.. لكن هل نترك كل المسلسل ونتكلم في اختيار الأرائك وألوانها؟!

الأمور ليست أبداً كما تبدو

وقد وردت العبارة في الصفحة ٢٢٧ من رواية «طفل شقي اسمه عنتر» لمحمد توفيق.. وإذا كنا نتحدث عن مسلسلات رمضان، فإنني لشديد الأسف أن دوائر مسلسلات رمضان مازالت حتى الآن مغلقة على أصحابها، وبالتالي فهم منبتو الصلة عن عوالم الروائيين المصريين المعاصرين وبالتالي فهم لم يحاطوا علما بعد بأن اسم محمد توفيق يلمع في الصفوف الأولى، بعد أن صدرت له بالعربية رواية «ليلة في حياة عبدالتواب توتو» وقصة طويلة «حتى مطلع الفجر» ومجموعتان قصصيتان «الفراشات البيضاء» و«عجميست»، كما صدرت له بالإنجليزية مجموعة قصصية The Daythe Moon Fell وما لم تحط به علماً دوائر مسلسلات التليفزيون كذلك أن الكاتب المصرى القنبلة «محمد توفيق» له قصص ومقالات ظهرت في صحف ودوريات مصرية وعربية وعالمية، وهو كذلك عضو باتحاد الكتاب المصريين، ومجموعة كتاب جنيف، ونادى القلم الدولي. ونظرا للخصام المستحكم بين الإعلام والمنتج الثقافي الجيد فمازال اسم محمد توفيق بعيداً عن الدوائر المشار إليها أنفاً، وربما يكون هو أسعد الناس بذلك.. فالخصام بين الإعلام المصرى والإنتاج الرفيع خصام ملتبس، ينطبق عليه المثل الشعبي «لا باحبك ولا أقدر على بعدك» فكثيرا ما يطرأ على الأمور ما يستدعي ذر الرماد في العيون، باستضافة أحد المبدعين في برنامج أو حلقة نقاش، لكننا على مدى ربع القرن الفائت لم نشهد إلا إحكاما للفصل بين دوائر الإبداع الرفيع والمبدعين، وعزلهم عن جماهير المتلقين للرسالة الإعلامية إبقاءً على وضعهم كمهمشين، وأغلب ظني أن الكتاب من قامة «محمد توفيق» يفضلون البعد عن دوائر الإعلام حرصاً على سلامة إبداعاتهم في أجواء يشيع فيها الاقتباس غير المعلن، في ظل الإصرار على اللقب الثلاثي «قصة وسيناريو وحوار» وفي هذا الصدد فإنني أنصح كل من تسول له نفسه بعدم الاقتراب من ابداعات «محمد توفيق» على سبيل الاقتباس غير المشروع، ذلك

أنه بالرغم من تخرجه فى كلية الهندسة جامعة القاهرة بما قد يوهم بعدم معرفته بحقوق الملكية الفكرية، فقد يلزم التنويه بأنه حاصل على ماجستير القانون الدولى من جامعة باريس ودبلوم العلاقات الدولية من معهد الإدارة الفرنسى بما يعنى باختصار أن الرجل يجيد أساليب القصاص من أى محاولة اقتباس غير مشروع لأى من الطامحين إلى اللقب الثلاثى «قصة وسيناريو وحوار» أو المتشبثين به عنوة واقتداراً.

من منا يدرى حقيقة أى شىء؟

وفى الصفحة ٢٢٧ من رواية «محمد توفيق» «طفل شقى اسمه عنتر» نجد العبارتين مرتبتين على النحو التالى «من منا يدرى حقيقة أى شىء؟ الأمور ليست أبداً كما تبدو».

ما هى إذن الأمور التى فرضت هذه الأرائك على أربعة «على الأقل» من مسلسلات رمضان؟! هل، مثلا، تصادف أن العاملين فى فرق الإنتاج فى المسلسلات الأربعة ينتمون إلى الأبراج النارية التى تفضل اللون الأحمر؟! حتى لو صح هذا الفرض كان من الممكن قبوله لو كان اللون الأحمر مجرداً هو السائد، أو مصحوبا بألوان أخرى مناسبة.. أما أن يكون نفس نوع القماش فقد يرجح أن جهة التوريد واحدة!. وهل هناك اعتراض على أن تكون جهة توريد مستلزمات الإنتاج واحدة؟؟ أو على أن يكون المشرف على الإنتاج واحدا؟ وإذا كان مقبولا جعل المشرف على الإنتاج واحداً فى المسلسلات الأربعة فهناك فى أمر الأرائك الحمر احتمالان لا ثالث لهما، إما أن مهام وظيفته كمشرف على الإنتاج لا تنص على متابعة مثل هذه التفاصيل، أو أنه اختار وتابع وقرر أن يفرض علينا هذا اللون الأحمر بهذه الرسومات الذهبية ولم يخطر بباله أننا قد نمل أو قد نطرح السؤال لمصلحة من يا ترى هذا القرار من حضرته؟؟

ومع أننى أوافق كاتبنا «محمد توفيق» فيما ذهب إليه من أن الأمور ليست أبدا كما تبدو، إلا أن أغلب ظنى أن أحكام الاحتكار - كما يتضح من مثال الأرائك الحمر - لا تريد أن تفوت شيئاً، فكما قصرت الكتابة على أصحاب توكيلات «قصة وسيناريو وحوار» بأسماء محدودة لم تتغير لربع قرن، فهى كذلك تقصر التمثيل على دائرة محفوظة مؤبدة أبدية الأبنية والشوارع والحوارى - أقصد الحارة اليتيمة - فى مدينة الإنتاج الإعلامى فلماذا يخطر على بالنا إمكانية إفلات مستلزمات الإنتاج؟!!

من منا يدرى حقيقة أى شىء؟
الأمور ليست أبداً كما تبدو..

وبعدما عرضنا ما طرأ على الذهن من أفكار بفعل العبارتين المقتبستين فيما

له صلة بالأرائك الحمر يطرح السؤال نفسه، من أين يا ترى تأتى الأفكار؟ وما الذى يجعل الفكرة تطرأ على الذهن؟ يقول المولى عز وجل فى كتابه الكريم « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ...» سورة الإنسان، والمشج هو الخليط ، والمشج هى الكلمة المفردة للجمع «أمشاج» وعلينا أن نجتهد للإلمام بالأخلاط التى تنطوى عليها النطفة بما يجعل الإنسان الفرد مولوداً بصفات وخصائص متعددة متباينة، منها ما يناقض نفسه ومنها ما يتآلف ليعطى كل فرد سماته الأساسية المميزة له، وكذلك فى الفن، سواء فى ذلك منه الموسيقى أو الرسم أو كتابة القصص والروايات والمسلسلات. فالنغمات والألوان شأنها شأن الخصال فى الإنسان، إذا ما اجتمعت فى تآلف تعطى أثراً سلساً ناعماً، وإذا أدخل عليها المبدع ما هو مخالف من المكونات المناقضة، فلابد من أن يعلى ذلك من إدراكنا لمجموع التكوين بجميع أبعاده، المتآلف منها والمتناقض.

ومن أجل ذلك قبلنا من يحيى الفخرانى وهو يقوم بدور مدرس التاريخ فى مسلسل «عباس الأبيض» أن يثور حين يسمع اسم شجر الدر منطوقا على لسان صديقته الممثلة على أنه «شجرة الدر» ويرجع قبولنا لثورته هنا لأن شخصية مدرس التاريخ فى هذا المسلسل مقدمة لنا لتفهمنا أن الرجل ليس أى مدرس للتاريخ إنما هو من المدرسين العاشقين للتاريخ الفاهمين لقيمته ومغزاة فى حياة البشر، لذلك قبلنا منه هذا النوع من الثورة واقتنعنا بما ورد على لسانه بأن ما يرد فى الأعمال الفنية يخاطب الوجدان، وبالتالى يمكن أن يعتبر توثيقا للتاريخ.. وإذا كان الأمر كذلك.. أى إذا كانت الشخصية مبنية على هذا النحو بحيث لا تخلو حلقة من إشارة صريحة لإيمان يحيى الفخرانى «عباس الأبيض» بقيمة التاريخ، هل والأمر كذلك يمكن أن نقبل من نفس هذا الشخص احتجاجا على صديقه «مرسى» (وأقد أبدع فيه الممثل الكبير محمد كامل) حين يذكره بما حدث فى العراق وفلسطين وما يصيب الناس فيهما من أهوال، هل يمكن أن نقبل أن يكون رد هذا المدرس للتاريخ بأن هذه مشكلات تحلها أجيال وأجيال تأتى بعدنا «خلينى أنا فى مشكلتى اللى لازم أحلها» ومشكلة «عباس» الأهم هنا، هى الكتاب الذى وضعه فى التاريخ كما يجب أن يكون.

ولكننى بصراحة لم أكتب هذه السطور لأضع الخطوط تحت هذه التناقضات فى رسم الشخصيات، فالمسلسل غنى بكل أنواع التناقضات التى تسقطه بالرغم من إبداع بعض الممثلين فيه، بل إننى أذهب إلى القول بأن إبداع الممثلين جاء نقمة عليهم بدلا من كونه نعمة تضاف إلى رصيدهم.. فإذا أخذنا يحيى الفخرانى مثالاً.. فإننى ويمنتهى الصراحة أقول إننى فى غاية

الحزن لما رأيته، صحيح أنه أجاد في التمثيل بما أثار إعجاب الكثيرين فقد اتقن الانفعال كما اتقن الضحك والبكاء.. ولكنه ليس الأراجوز الذي نقنع منه بإتقان ما أتقن، إنما هو فنان كبير من حقنا عليه ألا يصدمنا بالاكتفاء بدور الأراجوز، مثير الضحك والبكاء. من حقنا أن نسأله، كيف قرأ النص، وكيف فهمه، وكيف قبل أن يقوم بهذا الدور؟ وكيف رضي بأن يكون المستخدم لفتح باب الجحيم؟ أم أنه وهو يقوم بدور مدرس التاريخ إياه يتصور أن الجحيم الذي يصطلي به، إخوة لنا في العراق على يد مجرمي الحرب في الإدارة الأمريكية هو جحيم من النوع المؤيد هو الآخر؟ ألم يخطر ببال حضرة مدرس التاريخ الهمام أن يوما سيأتي ويكون في الأمور أمور؟ ماذا عندئذ لو خرج من بين أبناء العراق من قرر أن يقتص من المصريين الذين سمحوا لنجمهم الكبير يحيى الفخراني أن يسخر من محنة أهل العراق كما فعل حين قبل أن تكون الحلقة الثانية من المسلسل مخصصة لحكايات عن التلاميذ الذين نسبوا كل الأفعال المجيدة لصدام بما في ذلك بناء حدائق بابل المعلقة وطرد الهكسوس من مصر.. ألم يخطر ببال الممثل الكبير أن الأيام دول، ألم يخطر بباله أن ما قاله في تلك الحلقة يعتبر سابقة خطيرة، ذلك أنها المرة الأولى التي يتم فيها التعرض لشعب شقيق بهذا الأسلوب وهذه اللهجة، كنا نفهم أن تكون تصفية الحسابات أو النفاق السياسي في مقالات أو برامج أو حتى كتب لكن ترك هذا الدور للأعمال الدرامية المذاعة على الملايين يشي باحتمالات خطيرة تستدعي الدعوة لاتخاذ ما يلزم من إجراءات للتعامل مع باب الجحيم الذي فتحه يحيى الفخراني وعلينا أن نحذر كل الحذر من يوم يتناول فيه الآخرون شعب مصر وحكامها على طريقة يحيى الفخراني في عباس الأبيض.. وعلى قاذفي الناس بالحجارة أن يحذروا دوماً من اليوم الذي يعيشون فيه في بيوت من زجاج.

ونحن إذا ما تذكرنا عبارة الكاتب محمد توفيق بأن الأمور ليست أبداً كما تبدو.. وإذا ما تذكرنا الأرائك الحمر في مسلسلات رمضان وسؤالنا، لمصلحة من أحمرت الأرائك فإننا بالمثل نسأل لمصلحة من وضعت هذه القنابل في مسلسل عباس الأبيض؟؟؟

وكذلك نسأل صاحبي نص المسلسل «سمير خفاجي ويوسف معاطي» من أين أتيا بالأفكار؟؟!!! ■

التجريبي

وثقافة الطبقة الجديدة

بقلم

مهدى الحسينى

لقد هيمنت الطبقة الجديدة على الحركة المسرحية المصرية نصاً وإخراجاً ومشاهدة، فهى طبقة ذات نفوذ قوى وواسعة الطيف، لها عشاق ومريدون وأنصار وممارسات ثقافية لثقافتنا الوطنية مصرية أو أفريقية أوعربية، أما ثقافتها وفنونها المزعومة فتقوم على النقل من الغرب والشمال دون عقل، أما ما تنتجه محليا فهو سطحى وزائف مثل الفيديو كليب .

ووفقا لسياسات قد اتبعت تم استدراج قطاعات غير قليلة من المثقفين والمبدعين إلى اتخاذ الموقف الثقافى للطبقة الجديدة، إما مخدوعين وإما متورطين وإما ممالئين، فعلى سبيل المثال عاتبنى المخرج الصديق القادم من بلاد العرب برقة ودماثة لأنى لم أحضر عرضه التجريبى، والحقيقة كان سبب تخلفى هو ازدحام العروض جداولها .. وهو سبب - فيما أظن - وجيه، غير أن هناك بعدين آخرين لم أذكرهما: الأول هو أن العروض العربية تأتى إلى المكان غير المناسب، وفى السياق غير الصحيح، فمكانها ومناسبتها هو مهرجان / ملتقى / حلقة/ لقاء/ يقام خصيصا للمسرح والمسرحيين العرب، حيث يتسع المجال ويتركز الاهتمام والحوار حول الواقع الثقافى والفنى فى المنطقة العربية

بأسرها، أما البعد الثاني فيتضح من سؤالي المباغت له عما إذا كان قد قدم عرضه في وطنه، فكانت إجابته: في العاصمة ولأيام معدودة، فسألته : هل قدمته في مسقط رأسك أو في مكان من ريفكم ونجوعكم وبواديكم؟ فكانت إجابته القلقة المباشرة: «سوف يصير ضرب نار» وكنت أتوقع إجابته تلك ، خاصة وأن التي صممت له الرقصات زوجته الأجنبية التي تزوجها أثناء بعثته الدراسية!!.

في الماضي كان الأجانب - حين يتوطنون عندنا - يتعربون ويتمصرون ويتقمصون عباءاتنا، أما اليوم فهم يفرضون ثقافتهم علينا ... فنتخلى عن ثقافتنا وكأنها عار يجب غسله والتخلص منه .

وبالمثل ، سألت ناقدة مصرية مبتدئة عن انطباعها عن عروض المهرجان، فأبدت إعجابها بأغلبها .. حبذا لو أخذنا بأساليبها! ، ورأت أيضا أن نأخذ بالنظريات والآراء النقدية المصاحبة لها، وحين سألتها لماذا لم تدعو أسرتها لمشاهدة هذه العروض، قالت بالحرف الواحد: «أنا لا أجرؤ... سوف يتبرأون مني» هذا مع ملاحظة أنها من أسرة متعلمة ومتماسكة ومنفتحة ، نال جميعهم قسطا من الثقافة العامة، ولا يعانون من ضوائق معيشية مستحكمة. والسؤال هنا: إلى أي ثقافة تنتمي هذه الشابة؟ وإلى أي ثقافة تنتمي أسرتها المستنيرة؟ وإلى أي ثقافة ينتمي المخرج العربي الصديق؟ وإلى أي ثقافة ينتمي أهله ونووه؟

ثقافة الـ «[illegible]»

في الحالين : حال المخرج العربي وحال الناقدة المصرية، إنهما ينتميان - بمنتهى حسن النية ودون أن يدريا - إلى ثقافة الطبقة الجديدة، وهكذا شهدت عروضا مصرية وعربية أخرى من نفس النوع ، تتزايد نسبتها عاما بعد عام مع مرور دورات المهرجان، لم أعثر في سحناتها على (جنسية) ما، لا هي مصرية، ولا عراقية ولا مغربية، فقط بعض حائل مشوه منقول عن عروض أجنبية من العالم الأول، ولنسمها - وفق القول الدائر الآن - عروضا (عولية) يصنعها هؤلاء «الديون» كما يسجلون على باسبورتات المبعدين أو المستضعفين . وأخيرا إذا ما افترضنا أن هذين الصديقين - المخرج والناقدة - يريدان التعبير عن رؤى تقدمية منفتحة مستنيرة ، فعلينا أن نقر بأن القاطرة قد انفصلت عن القطار.. فضاعا معاً وفقدا الطريق .

قراءة للمهرجان في نشرة «التجريبي»

سنحاول هنا سبر بعض أبعاد المهرجان من خلال مناقشة جانب مما نشر من محاورات وأفكار في هذه النشرة:

(أ) فيما يتعلق بمفهوم التجريب: بتركيز عال استطاع الناقد «حازم شحاتة» أن يضع يده على جوهر المسألة، فقط تنقصه بعض التأكيدات، إذ يقول: « .. فالتجريب مفهوم يقوم على فلسفة ترى أن المعرفة لاتأتي إلا من التجربة، فإذا أردنا أن نعرف شيئا عن العلاقة بين المؤلف والمخرج أو بين النص والعرض أو بين الخشبة والجمهور أو بين الممثل والاكسسوار ، قمنا ببعض التجارب وفق برنامج محدد يسمح في النهاية بالحصول على بعض النتائج، ومن هذه النتائج سنعرف شكل العلاقة أو تلك، وهي عملية تقوم بالضرورة على الملاحظة والقياس لاختيار الفروض المحددة التي أقيمت التجربة من أجلها.

لغة الجسد اهتمام أصيل للفن، لابد أن تنطق بالمشاعر والانفعالات الإنسانية عند تقديمها فى التجريبى

وهناك ملحوظتان:

(١) الجملة التى تقول: «... إن المعرفة تكون مطلوبة فقط عند الحاجة اليها» يمكن إعادة صياغتها فى العبارة التالية مع وضع خط تحت كل إضافة من عندى: «... إن المعرفة الجديدة لا تأتى إلا من التجربة شرط توفر الحاجة الماسة إليها، فإذا أردنا أن نعرف شيئا جديداً ..».

(٢) فى ظنى أن التأصيل أو التجريب أو أى فعل ثقافى أو إبداعى لا يصح النظر إليه إلا من خلال إطاره المجتمعى وظروفه العامة المحلية والإقليمية والعالمية، ومن خلال وظيفته العضوية وأثره داخل مسرحه وخارجه فى المكان والزمان المحددين، فليس هناك تجريب للتجريب، ولا يوجد هناك تجريب فى المطلق.

ويواصل الناقد المصرى شرحه: «... ولذا، فإن المحاولة والخطأ من الأسس المهمة التى تقوم عليها عملية التجريب، بل إن حق الخطأ هو حق أصيل للمبدع، لذلك مازلنا نحلم بأن يمنح المبدع العربى هو حق الخطأ».

ولنا ملحوظتان عن:

(١) «... حق الخطأ هو حق أصيل للمبدع» فنقول هذا إذا كان مبدعا بحق، وهذا رهن برأى النقد فيما أبدع وموقف الجمهور منه، فقد لاحظنا - بمناسبة التجريبى وغير التجريبى - ازدحام الساحة

بالمدعين والمغرضين والوكلاء والجهلة، فى ظل غياب حركة نقدية جادة وقادرة، وتعليم أكاديمى جيد، فضلا عن ضيق فرص التعبير - الابداعى والنقدى معا - الواعى الحر.

(٢) لابد من معايير نقدية أو دراماتورجية أخرى مرافقة لكل تجربة، وإلا سوف يقتصر الأمر على «حق الخطأ» فحسب.

ويقول الناقد : «.. ومن ثم. فإن لا معيار واحد للتجريب، إذ تختلف الأسئلة مع كل تجربة، فأسئلتنا فى القاهرة تختلف عن أسئلة مسرحية فى الرياض، وأسئلة اليوم - فى بغداد مثلا - تختلف عن أسئلة الأمس.. وهكذا، كنت أتمنى أن يضيف الناقد عواصم مثل لندن وباريس وبرلين وروما وطوكيو وموسكو وواشنطون، وكلها عواصم أدمنت استعمار بلادنا واستغلال شعوبنا وقهرها، بل ويرتكب جنودها (بعضهم من أبناء الطبقات الشعبية) جرائم يندى لها الجبين فى(فيتنام وفلسطين والعراق.. على سبيل المثال) فهل يكون التجريب والتقليد والنقد والثقافة والإبداع عندهم من أدران الفكر الاستعمارى؟ على الأقل فى تفسيره المغرض واستخدامه المنحرف؟ لقد قال لى ناقد أردنى إن قيادات التحالف عمدت إلى توزيع نص «ريتشارد الثالث» لشكسبير على ضباط وجنود مؤامرة غزو العراق، كى تستحوذ شخصية الملك عليهم فتنتزع ما تبقى فى قلوبهم من الرحمة، لذا نرجو مراجعة المفكر الفلسطينى «ادوارد سعيد» فى كتابه «الثقافة والامبريالية».

وأخيرا يقول الناقد : «.. إن للتجريب أسسا يقوم عليها وهى : (١) المعرفة، وهى الغاية من التجريب (٢) الاجراءات، وهى كيفيات التجربة (٣) القياس، وهو الأدوات النقدية للحكم على النتائج، وهنا أوافقه تماما، مع التأكيد على أن هذه الأفكار هى أوضح ما قرأته وسمعته عن المسرح التجريبى بعد مرور ١٧ عاما على دورته الأولى، وأما الآخرون فأغلبهم مازالوا يمسكون بأطراف كثيرة من كرة الخيط المتشابكة والى ما لا نهاية.

ب - اللغة على المسرح: لم يعد النص الأدبي هو المدخل الوحيد أو الأول إلى العرض المسرحى ، بل أصبحت الصيغة السينوغرافية الحية «الديناميكية» والمناسبة هى المدخل الرئيسى لعالم العرض، وأصبحت الكلمة أحد العناصر الضرورية الحاسمة لقيام عرض مسرحي يعتمد على فن الممثل والتمثيل المسرحي، هذا الفن الذى اتسع الوعى به فتجاوز الأداء الصوتي «الشعر» .. الى فنون التعبير الإنساني الأخرى. ومنذ السنوات الأولى للمهرجان بوجه خاص وجد ما يشبه المناظرة غير المعلنة بين أنصار ما يسمى بمسرح الكلمة وبين ما يسمى بمسرح الصورة.. ومازالت هذه المسألة مطروحة ، خاصة حين ننتج عرضا لا نكتفى فيه بالتوجه إلى جماهير المصريين والعرب، بل حين نسعى الى مخاطبة العالم.. إن لهذه القضية وجوها وجوانب عديدة، سأكتفى هنا بالتعرض لجانب واحد فقط. مبدئيا ليس المسرح أدبا وإنما فن. ليس أدبا يقرأ أو يسمع وأنما فن يرى ، وفى اللغة كلمات - وفقا لوجودها فى السياق - يمكن أن تكفينا بسماعها بينما هناك كلمات لا يمكن الاكتفاء بسماعها بل لابد من مشاهدتها، وتلك تحتاج بالضرورة الى طرح بصرى لها، ومن هنا يكون على الكاتب أن يبنى نصه المسرحي بحيث تكون الكلمة هى جوهر رؤيته البصرية، وهى التى تقود المشاهد فى العالم المرئى

منذ السنوات الأولى للمهرجان وجد ما يشبه المناظرة بين ما يسمى بمسرح «الكلمة» ومسرح «الصورة»

للكاتب، وهذه صعوبة حقيقية في التأليف للمسرح ولا يدركها كثيرون وإن أدركوها لا يستطيعون تحقيقها.

وفي ما يسمى بالندوة الرئيسية (المسرح في زمن ما بعد الحداثة) أثار الممثل الانجليزي «باري راندل» مسألة أهمية حضور الكلمة المسرحية بالنسبة له كممثل فقال : «إنني ممثل يعشق أن يهتز جسده مع الكلمات التي تنساب منه أثناء التمثيل. .. إنني اسمح لموسيقى النص أن تتغلغل داخل نفسي وتعلمني كيف أقود المشاهد.. أوزان الشعر مثل السجع والجناس الاستهلالي العميق . هذه اللغة البلاغية تحتاج الى أنفاس طويلة ورئات قوية. وثروة لغوية.. وذاكرة حادة.. رنين وتصادم بين الحروف المتحركة.. النصوص العظيمة (لاسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس وشكسبير وموليير) كتبت لتملأ المساحات والفراغات الشاسعة.. تقديم جدل الشخصية هو أقدم شكل من أشكال التمثيل وبالنسبة لي هو أنبل الأشكال على الاطلاق. ولكن الذي لا يمثل شيئا لي هو ذلك القطع أو البتر المفاجيء للايقاع كما

لو كان نوعا من السحق أو حشرجة محرك سيارة . إن المؤلفين الكلاسيكيين هم كاشفو الكلمات.. وتحتاج ابداعاتهم لقوى متماسكة وملموسة يعاد إنتاجها على ألسنة الممثلين.. إن الدعوات لمقابلة أوديب وكلايتمنسترا والملك لير (يقصد فى المسارح المسماة بالتجريبية) تعد أكذوبة صارخة فيظهر العمل تلو الآخر كالأرض الخراب، بلا كلمة، بل وتستخدم قائضا مثل شاشتي تلفاز تحلان محل الأفكار والفكاهة والكلمات، كما تقلل من أهمية الدوافع العاطفية الإنسانية التى هى موضوع دائم المعاصرة.. اذا ما حالفنى الحظ فى المستقبل. واستطعت احضار إنتاجى الخاص لكل من «انتيجون وأديب» الى مصر، فسوف ترون بأنفسكم ذلك التصوير المادى القوى للعواطف الإنسانية، ولسوف تستمعون الى ذلك التركيز العقلى الشديد وتشعرون بنبض القلب العميق ولسوف ترتجفون مع موسيقى التمثيل التى توصل المعنى فى التزام حيث نعيد الحياة الى هذه النصوص القديمة من خلال سطور جديدة لشاعر حى.. ليس للكلاسيكيات تاريخ صلاحية.. أما بعد الحداثة فلها تاريخ صلاحية.

جـ : عروض الجسد: الجسد اهتمام أصيل لفن النحت، غير أن النحات لا يجسده طازجا كما هو، بل يفجر فكره وأحاسيسه وخياله من خلال كتلته وفراغه ثم يتركه فى صورة ساكنة أبدية، لهذا لا ينوب فن المسرح - إزاء الجسد - فى مهمته تلك عن فن النحت، ففى المسرح إذا ما عرضنا جسما حيا - فإننا بالضرورة - نقدمه طازجا كما هو فلا يصح أن نقدمه فى صورته الحيوانية، بل علينا أن نؤنسنه فنبث فيه المشاعر والانفعالات والأفكار والأخيلة الإنسانية التى لا تكتمل دون البوح بلغة المسرح «روح الشعر».. و«جوهر الفلسفة». لذا فإن ما يسمى بعروض الجسد أو لغة الجسد، هو عودة بالفن الى الوراء، ورجوع الى مدرسة المسرح الفرنسى «انطوان» من المدرسة الطبيعية الذى قدم عرضا مسرحيا فوضع دكان الجزار على المسرح وعلق لحما طازجا عاريا.. الخ ، هذا الطابع الحسى لن يخاطب إلا الغرائز أى الحاجة الى الطعام والجنس، فيعود بنا الى حياة الإنسان الأول منكرين كل التطورات الإنسانية التى انجزها البشر عبر التاريخ. والبعض من هؤلاء الداعين الى سيادة «لغة الجسد » على المسرح يحاولون مغالطتنا بجنوحهم الى التجريد وهذا ينقل عروضهم الى تصنيف آخر.. هو فن الباليه .. وهو فن مختلف عن الفن المسرحى، غير أن غياب «التقسيم» فى خطط المهرجان جعل الأنواع تختلط، علما بأن الوزارة تقيم مهرجانا سنويا آخر للرقص المسرحى لتجد عروض الجسد مكانا لها فى سياقه.

د - الحداثة وما بعد الحداثة:

هذا كان عنوان المهرجان فى دورته الـ ١٦، وقد خصصت ندوة كبيرة بهذا الاسم، ولكن أية ندوة؟ إنها حوار غير متصل، فالكل يقولون ولا يتحاورون!! وسأكتفى هنا بإيراد نماذج من الآراء المتضاربة التى لم تزد الأمر إلا غموضا وضبابية.

يقول د. أحمد سخسوخ: «لا يوجد فى تاريخ الحركة الفنية والأدبية العالمية مصطلح أكثر غرابة وغربة، وأكثر فوضى وفوضوية، وأكثر غموضا واضطرابا وتشويها وتشوشا وضلالا من مصطلحى «حداثى و «ما بعد حداثى» لندرك كم من

الغموض يحيط بهذا المصطلح.

ويقول الهولندى «ايفون بون» عن ما بعد الحداثة : لم يتفق نقادها ومؤيدوها على تعريف لها، وما يتضح على أى حال هو أنها وصفت على نطاق واسع الانتشار من خلال «مالا نكون» فهى ليست معتقداً كونيا أو عالميا، أو انها تمثل ايديولوجية ، كما أنها ليست حقيقة مطلقة، إنها لا تشكل ثقة فى المسقبل ، ولا تعد باعتماد ما على علوم منضبطة أو الايمان فى التقدم الكونى».

أما الممثل الانجليزى «بارى راند» فيقول: «لكن هؤلاء الممثلين الذين تنقصهم الموسيقى، لا يثيرون كيدى، إنهم يظنون أن هذا النقص هو الأنسب، وأحيانا ينكرون الاهتمام بالمسرحيات القديمة، وهذا هو ما يلام عليه اتجاه ما بعد الحداثة . فمنذ أواخر الستينيات برز تركيز على ثقافة تتسم «بعدم التماسك» والتشظى ، تردد نغمة ما بعد الحداثة: إن العالم بلا معنى، مشتت ، متجزئ وبالتأكيد لا تعتقد ما بعد الحداثة أن شكسبير وسوفوكليس يمكن أن يحتويا على معان وبصائر تظل مستقرة وثابتة عبر القرون».

وقال الأردنى «زايد غرايبة» : إن النص المسرحى رسالة فكرية، وتجسيد هذا النص يهدف إلى إيصال هذا الفكر جاعلا السينوغرافيا عنصرا فاعلا لإيصال هذا الفكر، وبما أن تيار ما بعد الحداثة لا يؤمن بوحدة النص ولا الانسجام فى تسلسل العرض المسرحى ولا يقيم وزنا للمتلقى الا من خلال ذوبانه فى العرض».

اما «روبرت أدموند جونس» فيقول عن حال المسرح المعاصر بأنه «يتأرجح ويضمحل ويمكن أن ينسى، وأن المسرح النثرى أصبح مسرحا صحفى الطابع لأن الطبيعة الأسطورية غدت غائبة عنه، والآن نرى كيف المابعد حداثيين يعملون على هدم الكلمة التى هى أساس العمل المسرحى، يستبدلونها بالصورة، معتقدين أنه لا قداسة لخبرة أو حقيقة بعينها فى ظل قصر الحياة اذا ما قيست بالخلود، وقد تولد ذلك نتيجة للتسارع الكبير فى متغيرات العصر.. علاوة على عدم الثقة بثوابت القيم» .

اما المخرج المصرى «هانى مطاوع» فيقول : «يتميز أدب ما بعد الحداثة بأنه غير تقليدى وبأنه ضد السلطة وضد المعنى، ومن أهم سماته «الكولاج» والـ «بارودى» أى المحاكاة التهكمية، وإلغاء الفواصل بين الثقافة العليا وبين ثقافة الجماهير بخلط فنونهما معا».

ويقول العراقى «فاضل سودانى»: «لا تعنى دعوتى لكتابة النص البصرى. الى الغاء الكلمة، بل على العكس فإن الكلمة تصبح إحدى الوسائل البصرية المهمة لتحقيق النص البصرى».

وأخيرا يقول الإسبانى كارلوس فيرثا: «لا توجد مراجع حول مسرح ما بعد الحداثة، فلا يوجد أحد تقريبا اهتم بدراسته كظاهرة كونية، بل كتيار مبهم فى إطار مسار تاريخى حيث الليبرالية الجديدة، أى الرأسمالية الأكثر وحشية التى قامت بقيادة المجتمع الغربى، ووجدت فنانين خدومين ومفكرين حاولوا العثور على تبرير فكرى وجمالى.

وهكذا جاء الأوروبيون الى هنا، ليناقشوا أطروحة غربية نشأت عندهم لم يجسموها بعد ، أما نحن فمضيافون كرماء.. كرماء.. بلهاء.. ندق الماء فى الهون. ■

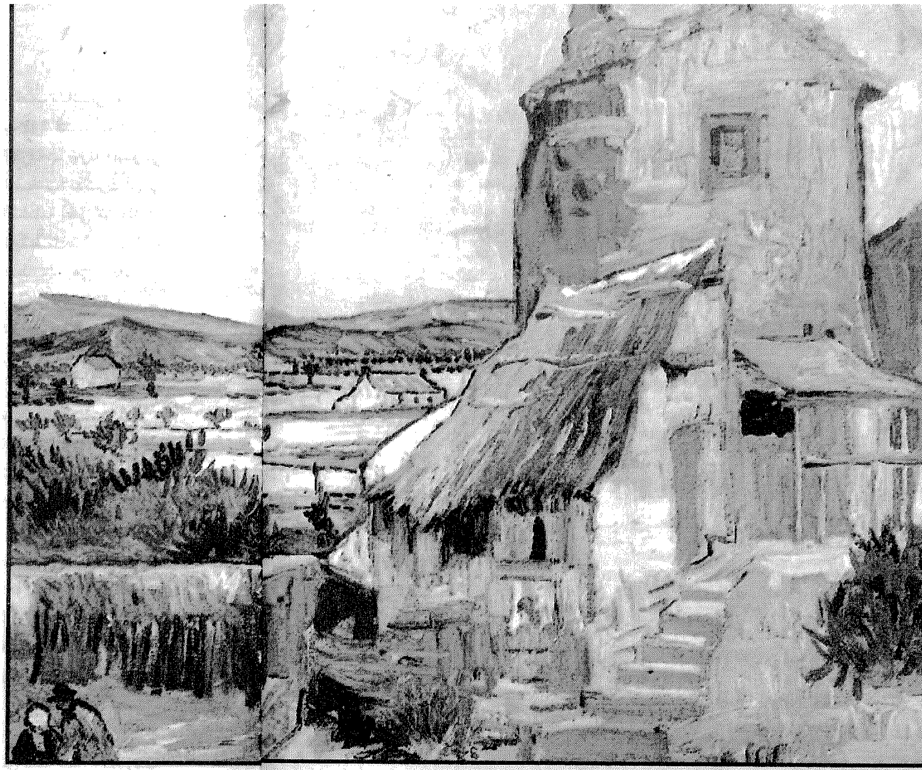

قصة قصيرة

عند باب الواقفين

بقلم : أمين بكير

الأفق موشى بالأرق، والمدى صولجان من النور والنار معاً فى ساعة القيلولة.. وصولجان الحزن بهتت عليه كفى المخضبة بالعرق، حزنى أعز على من الأرض ومن الناس فوق هذه الأرض التى تفصلنى عن أرضى بآلاف آلاف الأميال.. الناس فى هذه البقعة من الأرض يتسربلون بالبياض وقلوبهم غلف بكل سواد العالم علينا. أرادونى أن أعلن ما أعلنه البسطاء من أبناء القرى فى وطنى البعيد.. قلت بأن الرأى عندى فيهم أغلى من الماس.. هددونى بالحرمان من العطايا والمزايا والهبات. ابتسامتى عندى كانت أغلى من الماس. سمرونى عند باب الراحلين، ثم قالوا بأن هناك تشابها فى الأسماء بينى وبين أحد رموز الإرهاب.. فتنهدت، غضبوا.. فابتسمت.. وكانت الابتسامة عندى أغلى من الماس. ذكرونى فى ابتسامات رسموها فوق الوجوه بما كان فوق صدور العرائس عند بلاط الأمير.. على باب الواقفين للترحيل كان حق الاختيار، أو الاعتذار.. قالوا تكلم قلت:

- إنى أحب قمح بلادى، وترابها، ونيلها، وناسها.

قالوا:

- لك الحزن والاشتهاء وعليك وزر رفض التنازل عن كرامتك!!

قلت: لست من شعراء بهو المرايا.

أوصلونى إلى باب السجان، الحزن غادرنى، والنوم طار، وجلست اقلب كل الأشياء فى عقلى من جديد، ووجدتنى نسمة هواء تعرف خريطة الترحال وتركت أفكارى تمر فوق طنين التزاحم، ومن الهدى البعيد يأتى صدى الصوت، وابتسامة أمى تضىء لى زنزانتى

الانفرادية، ابتسامة أمي كانت أغلى من الماس، وإذا بالمصابيح خلفي وأمامي تعلن رقصتها للنار.. وصوت أمي ينساب من بين رفيق الصمت الموحوش:

- لا تنهار.

قلت:

- أنا لا أخشاهم

وصرت ظلا تطارده الأرض المحدودة بالجدران وباكلوة وبالقضبان، وصارت نفسي تتلون بين الندوم وبين الاعتذار، لكن وجهي ماتلون.. واشتد جيش النبالة داخل تجويف صدري، وأعلن البوق القيام، كان الغمام أظهر لي خلايا الزمان المريض. ناداني الشرطي ولم أتبعه، بل جعلته يتبعني إذ كان تماسكي أشد مما كنت بالأمس، وتقابلت عيناي بعيني قائد السجن، كانت سخريته لا تحتاج إلى تفسير منذ الوهلة الأولى، قال:

- من أنت

قلت:

- اسمي مدون في دفتر الأحوال عندك

قال وهو يرمقني باحتقار:

- أجب عن السؤال

قلت: أنا الظل الذي تطارده الظلال

قال وهو يجلس ويغلف كلماته بالسخرية:

- هل تريد أن تلعب دور البطولة معي. ستعرف عاقبة ذلك.

ضغط على زر الجرس، أتى السجان، أمره فجرني إلى الزنزانة من جديد وكأن في عودتي قد نزع عني زند الرصاص، وتأملت حالة فض الاشتباك في كل المواقف التي سلفت، تذكرت أني أحب نفسي، وأحب ناسي، وأحب بلادي، فجلست القرفصاء، ولما اعتراني الغضب، تذكرت أن لي ابتسامة أغلى من الماس. فابتسمت،ثم خلدت لنوم عميق.. وفي الصباح الباكر جدا استشعرت يد السجان على لحمي.. ووجدت قرنفلة في دماي تنبت، سكن البرق وجمرة الريح اشتدت خارج القضبان، الأصوات تتعالى، وكل الحزانى اصطفوا. استلوا أزهار دهشتي بموقفهم، انهم ليسوا من أهلي، انهم من أبناء هذا الوطن البعيد، كان هناك في كبد السماء عاصفة بدوية مراوغة، وإذا بجمرة الريح تصحوا بداخلي، ووجدتني حجرا، تتدحرج من قمة جبل، في رحلة صمت، وسقوط.. انتظرت حتى وصولي للأرض وإذا بالناس ذرافات تجري وتولول، التقطت مسامعي كلمة (زلزال) وكانت الشمس ديارا

تستقبل ضوء القمر، وتراب الاقدام يتكون سحابات، ووجدت سيلا من العربات يربض فوق صدر المفترق، العرق قد تفصد من ثنايا اللحم المرتج داخل الجلاليب البيضاء، وتخرج من سجون العهد أحشاء المدينة، صالت العيون، كل العيون ثاقبات، لا شيء سوى رائحة العرق واللهاث والجرى بلا هدف، أصوات مكبرات الصوت تشق هذا الحشد الرهيب، الجراح تفتتح صفحات من بكاء وعويل يطول، ويطول ولا ينتهى، شتان بين الجرح يفتح صفحة ويمر فى شجر الخلايا مُنزعا بصراخه، وعين المسافرين فى ركاب الهول تضيقان إلى حد الموت، مكبرات الصوت تعلن:

– لقد فتحنا كل السجون من أجل الإيواء.

وكنت أنا ضمن آلاف الذين كتبوا بذاكرة الصحارى غيمة مشت

من غيب إلى غيب، الذاكرة مسممة، وعلى المدى البعيد. كان هناك ما يمكن أن نراه بجلاء. طيور ترقص مع النيران المتصاعدة إلى عنان السماء، ثم تختقى وراء الأسوار القديمة، والحراس وكلاب مدربة يمشطون جحور قتلاهم.

وتظل أحلامنا نحن النازحين من السجن فى أعلى الجبل برغبة أصحاب البلاد نرى فى نهاية الطريق الممتد بوابة، البوابة على مصراعيها تنفتح، ويندلق البشر من كل صوب صارخين، ونتوارى عن أنظارهم فى شعاب الجبل ونطلب من الله التستر علينا حتى نمضى من هذا المكان بأمان وسلام. تسلل البيان المذاع إلى أوردتنا، وتركنا أحلامنا خلف ظهورنا، وبالرغم الرؤيا المراوغة مشينا.. وعند بوابة ضخمة عليها حراس كان الحلم بالنعاس ولو لدقائق معدودات، لكننا نفضنا هذا الوهم. فلقد كانت الطائرات تهبط. والطائرات تحلق، وكانوا يسوقون الغرباء بلا نداء ويقذفون بأجسادهم داخل تجويف الطائرة، ثم يأمروها بالاقلاع.. حذرونا من وزر تكرر السؤال وعندما لامس جسدى أرض وطنى الذى يقلع صوب بلادى البعيدة، نمت وعندما استيقظت، وجدتنى أهبط إلى أرض الوطن. عندها. عادت ابتسامتى من جديد.. وكانت الابتسامة عندى. أغلى من الماس. وانتظمت عند باب الواقفين، الداخلين لديارهم.■

ناظر مدرسة العباسية أكثر أهمية من مدير الجامعة

د. عطية عبد السلام عاشور

كانت دمياط في الربع الأول من القرن العشرين مدينة صغيرة تتنوع أنشطة أهلها بين الزراعة وصيد الأسماك والصناعات الصغيرة الحرفية مثل بناء المراكب وصناعة الأثاث، كما كانت إحدي موانئ التجارة مع الشام.

اشتغل جدي لأمي بهذه التجارة في حين كان أبي مزارعا، لذا كان بيتنا علي الطرف الجنوبي للمدينة، بينها وبين الحقول. مازلت أذكر ذلك البيت الذي أثثه جدي بموبيليا بلجيكية استوردها لتجهيز بناته، كما كانت أسقف الحجرات مزينة برسوم علي النمط البلجيكي أو الفرنسي، بينما تحيطه الحقول.

في ذلك البيت ولدت في ١٣ سبتمبر ١٩٢٤، كنت الولد الأول بعد أربع بنات يكبرنني بسنين عديدة، وجاء بعدي بثلاث سنوات شقيقي إحسان.

د. عطية عاشور وعدد من زملاء الدراسة، وفي الوسط د. على مصطفى مشرفة جالسا

البداية

بدأت تعليمى بالكُتّاب، كان المسئول عنه شيخ ينتمى للأزهر بشكل ما وربما كان يحصل على إعانة من الأزهر، تعلمنا فى الكتّاب اللغة العربية والقرآن والحساب بدءا من عمر خمسة أعوام، كنت سريعا جدا فى تعلم الحساب وقادرا على إجراء العمليات الحسابية بسرعة، حتى كان المعلم تقريبا يغار منى ويضربنى دون سبب.

فى سن السابعة التحقت بالمدرسة الابتدائية، كانت فى دمياط فى ذلك الوقت مدرسة ابتدائية وحيدة للبنين تتبع الحكومة ومدرسة للبنات تتبع إحدى طوائف الراهبات، وكانت دمياط تعتبر بلدا نائيا ونقل المدرسين إليها لون من العقاب، رغم ذلك أذكر أن المدرسين كانوا يؤدون عملهم بإخلاص وجدية كبيرة، كان المدرسون يدخلون الفصل على صوت الجرس ويخرجون على صوت الجرس ولم يكن هناك أى إهمال أو استهتار، كما كان المفتشون يقومون بالتفتيش بدقة على كراساتنا ويحاسبون المدرسين. تعلمنا اللغة العربية والحساب والتاريخ والجغرافيا «والأشياء والصحة» وهى ما يناظر مادة العلوم الآن، كما تعلمنا اللغة الإنجليزية التى كان يدرسها لنا مدرس إنجليزى والذى كان يرغب فى دراسة اللغة الفرنسية كان هناك أيضا مدرس فرنسى. الدراسة الابتدائية كانت فى ذلك الوقت أربع سنوات، وكان الحاصل على الابتدائية يمكن أن يدخل الكلية الحربية، فرغم أن التعليم لم يكن شاملا للكثير إلا أنه كان تعليما جيدا والمدرسون كانوا يهتمون فعلا بتعليمنا رغم أن بعضهم كان قاسيا جدا، فأذكر مدرسا كان يضربنا بقسوة شديدة، وكان رجلا ضخما يدرس لنا الحساب. فى سنين الدراسة الأربع كانت الرياضيات سهلة جدا بالنسبة لى فقد كانت أساسها تعلم الحساب وإجراء العمليات الحسابية وهو ما أتقنته بسهولة، وربما لا يكون هذا الآن مقياسا للمقدرة الرياضية لكنه وقتها

كان مقياسا للتفوق فى الحساب. لكى أذهب للمدرسة كنا نفتش عن شخص ذاهب إلى دمياط بالحمار ليأخذنى معه، أو كنت أمشى لمسافة طويلة على جانب ترعة الشرقاوية التى ردمت الآن، وكان قضيب القطار على ضفتها الأخرى. دمياط بلد ممطر جدا والأرض موحلة، فكانت والدتى تقف على سطح البيت لتراقبنى وأنا ذاهب للمدرسة الواقعة فى ناحية بعيدة من دمياط. رغم هذه المشقة كنا نحب الذهاب للمدرسة ونشعر بالاستفادة منها.

عندما وصلنا للابتدائية لم تكن هناك لجنة لامتحان الابتدائية فى دمياط، فكان علينا السفر للمنصورة والمبيت هناك ثلاث ليال، وكان التقليد الدمياطى أن يأخذ كل تلميذ معه خمسة وعشرين قرشا لمصاريفه وعند عودته يشترى دستة جاتوه من المنصورة.

تعليم البنات

حصلت على الابتدائية عام ١٩٣٥، لم يكن بدمياط مدرسة ثانوية، وأخواتى البنات أكملن تعليمهن الثانوى بالقاهرة. أختى الكبرى لم تكمل تعليمها بعد الابتدائية ثم تزوجت وسكنت بالقاهرة، لما حصلت الأخت الثانية على الابتدائية التحقت بمدرسة ثانوية بالقاهرة وأقامت عند الأخت الكبرى وكذلك الأخت الثالثة، لكن هذا الوضع لم يعد ممكنا فأختى الرابعة (وهى أيضا أكبر منى) التحقت بمدرسة داخلية لتكمل دراستها، لم تكن الحياة سهلة خلال تلك الفترة، فوالدتى كانت تضطر أحيانا لتركنا والسفر للقاهرة لمساعدة ابنتها.

طرح إذن السؤال عند حصولى على الابتدائية، وكان رأى والدى أن أعمل معه بالزراعة والتجارة. لكن والدتى والتى أدين لها بالكثير صممت أن أكمل دراستى، بل غيرت حياة الأسرة كلها لتحقيق هذا الهدف، فقد قررت أن ننتقل للمعيشة بالقاهرة. كان ذلك القرار صعبا، فنحن نعيش فى دمياط فى بيت ملكنا، والخبز يخبز فى نفس البيت، الخضروات والفاكهة تأتى من أرضنا المزروعة، فلا نحتاج لأى شئ بينما فى القاهرة سنحتاج لكل شئ. وكانت أملاك أمى وأموالها فى يد عمها الذى لم يكن يعطيها أى مستحقات إلا بصعوبة.

فى مدارس القاهرة

المهم أننا انتقلنا للقاهرة وسكنا فى العباسية والتحقت بمدرسة فؤاد الأول الثانوية الآن مدرسة العباسية الثانوية لأن أولاد خالى كانوا فيها، كانت العباسية الثانوية مدرسة كبيرة وتشتهر بأمرين: النظار الذين كانوا شخصيات هامة جدا، ففى ذلك الوقت كان ناظر مدرسة العباسية الثانوية، المسئول عن ألف ومائتى تلميذ، شخصية مرموقة ربما أكثر أهمية من رؤساء الجامعات الآن. الأمر الثانى الذى اشتهرت به العباسية الثانوية هو لاعبى الكرة، فى ذلك الوقت كان فرق المدارس الثانوية مشهورة مثل فرق النوادى الآن، واشتهر فى العباسية أبناء عائلة الجندى كلاعبى كرة. كانت الفترة مليئة أيضا بالأحداث السياسية بعد معاهدة ١٩٣٦، عرفنا السياسة وعمرنا حوالى ١٠ سنوات، فكنا نخرج فى مظاهرات، وأحيانا يطلق

علينا الرصاص أو نحبس فى مدرسة لنعنا من التظاهر.. إلخ، أخى الأصغر إحسان (وهو الآن أستاذ متفرغ بطب الزقازيق) كان أكثر شقاوة وأكثر مشاركة فى المظاهرات، وكان فى مدرسة الحسينية الابتدائية ثم الثانوية.

رغم هذه الأنشطة كانت المدرسة فى منتهى النظام، كنا ندرس إلى جانب المواد الأساسية المعروفة موادا مثل التربية الرياضية والرسم وكانت هى الأخرى تدرس بجدية شديدة إلى جانب المقررات الهامة مثل اللغة العربية والرياضيات واللغة الفرنسية (التى درسناها فى السنة الثالثة والرابعة)، كان هناك مدرسون إنجليز ومدرسون مصريون يدرسون اللغة الإنجليزية، وكان المدرسون المصريون على أعلى مستوى، فلم يكن من الممكن ألا يكونوا وبجانبهم المدرسين الإنجليز. رغم الإضرابات والنواحى السياسية كان النظام دقيقا، فالبواب لديه أوامر ألا يفتح الباب لو تأخرت أكثر من ربع ساعة، وثانى يوم يصل لعائلتك خطاب بأنك تخلفت عن الحصة. الصعوبات المالية كانت موجودة فكنا نطلب الإعفاء من المصروفات، وكان هناك درجات من الإعفاء: إعفاء من ربع المصروفات أو نصفها أو ثلاثة أرباع أو إعفاء كامل، لكنها كانت عيب فكان الناظر أو الوكيل يطلبنا خارج الفصل ليبلغنا بحصولنا على الإعفاء حتى لا يعرف زملاءنا، لأن الفقر كان وصمة.

أساتذة متميزون

حدثت نقلة أخرى كبيرة جدا وهى أن إسماعيل القبانى (وهو رائد التربية فى مصر وله جهد كبير فى تطوير التعليم بابتكار طرق مثل اختبارات الذكاء فى المدارس)، أصبح ناظرا لمدرسة فؤاد الأول، كما قلت كان التدريس على مستوى ممتاز جدا وكان المدرسون يحاسبون تمام المحاسبة والمفتشون يحضرون للتفتيش (مثل على الجارم الذى كان مفتشا للغة العربية). لكن إسماعيل القبانى كانت لديه فكرة إنشاء مدرسة نموذجية على مستوى أفضل، فبعد نجاحنا فى السنة الثانية الثانوية أنشأ مدرسة فاروق الأول وانتقى فيها التلاميذ المتميزين من فؤاد الأول ومن مدرسة القبة الثانوية، فى المدرسة النموذجية كان لدينا مدرسون متميزون فى كل المواد، ولهم ذكريات عندى لا تنسى، فمثلا كان عندنا مدرس لغة عربية إسمه الأستاذ عبدالباقى وجدت فيمابعد أن قدامى أعضاء مجمع اللغة العربية يعرفونه، إذ كان مدرسو الثانوى المتميزون معروفون

منح د. عاشور العديد من الأوسمة والبراءات وشهادات التقدير

على المكتب فى الاسكا

كما كان يدرس لنا بعض الأوقات كبار مفتشى المواد فى الوزارة.

الرياضيات كانت سهلة بالنسبة لى، والمدرسون كانوا بالإضافة لكفاءتهم قادرون على التباسط فى التعامل مع التلاميذ، مثلا كان يدرس لى فى إحدى السنوات الأستاذ/ عبدالرحمن فهمى، وكنت أهوى قراءة روايات شرلوك هولمز ولسهولة الرياضيات بالنسبة لى أحضر معى رواية شرلوك هولمز وأضعها في الدرج لأقرأها أثناء الحصة، ويمر على الأستاذ عبدالرحمن فهمى ويسألنى «قتله ولا لسه؟»، استمرت علاقتى بالأستاذ عبدالرحمن فهمى بعد ذلك، وألفنا كتب مشتركة وكنا لفترة نشترك معا فى لجنة وضع امتحانات الثانوية العامة. فى مدرسة فؤاد الأول بدأت أيضا زمالتى مع عبدالعظيم أنيس(١)، والتى استمرت بعد انتقالنا للمدرسة النموذجية والجامعة.. وحتى الآن.

كان النظام وقتها هو أنه بعد السنة الرابعة الثانوية يحصل الطالب على شهادة الثقافة العامة، والتى لا تؤهل لدخول الجامعة، ثم يحصل بعد السنة الخامسة على شهادة التوجيهية لو أراد الالتحاق بالجامعة، فى الدراسة الثانوية لم يكن هناك اختيار سوى فى السنة الأخيرة والتى كان بها شعبة رياضيات، كان من الممكن من شعبة الرياضيات الالتحاق بكلية الهندسة أو كلية العلوم. الحياة فى ذلك الوقت (بداية الحرب العالمية الثانية) كانت فى منتهى الصعوبة، فمجرد الحصول على الخبز كان أمرا صعبا، وكان لهذا الأمر تأثير على اهتمامنا بأمور الحياة الوقتية، فلم نكن نفكر كثيرا أو نخطط للمستقبل. حصلت على التوجيهية عام ١٩٤٠ وأصبح لابد أن أختار، لم يكن لدى تخطيط واضح للمستقبل لكن كانت رغبتى أن ألتحق بكلية العلوم لأدرس الرياضيات، وهنا يظهر ضغط الأسرة، أولاد خالتى مثلا كانوا أكبر منى وفى كلية الهندسة وكانوا ناجحين وأقارب آخرين فى كلية الطب. حتى أن جدتى التى لا تعرف شيئا عن الكليات كانت تقول لى: هاتعمل إيه فى كلية العلوم؟ تعمل مدرس؟، لكننى كنت مصمما على اختيارى، كان من الممكن جدا أن أنصاع للضغوط، لحسن الحظ كان والدى على الحياد، ولو أصرت والدتى لاختلف مصيرى، لكنها تركت لى الاختيار، لذلك فأنا أقول دائما أن هناك

د. عبد العظيم أنيس

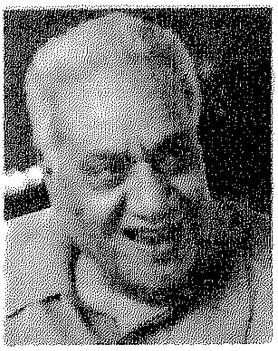

د. إبراهيم حلمى

سيدتان أثرتا فى حياتي: والدتى وزوجتي. أحد العوامل التي سهلت الأمر أيضا أن مصروفات كلية العلوم كانت ١٨ أو ٢٠ جنيه بينما كانت مصروفات الطب والهندسة والزراعة حوالى ٤٨ جنيه، لكن هذا العامل لم يكن رئيسيا.

في كلية العلوم

دخلت إذن إلى كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٠، وأمضيت بها أربع سنوات حتى حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات عام ١٩٤٤ وتخرج فى نفس دفعتى عبدالعظيم أنيس وفؤاد رجب(٢).

كانت الدراسة مثل اللعب، فكنا نقلب حتى الكيمياء إلى رياضيات. درسنا فى السنة أولى رياضيات بحتة ورياضيات تطبيقية وكيمياء وفيزياء، وكنت من أسوأ الناس فى الفيزياء العملية ولم أكن أحبها إطلاقا، فى الرياضة البحتة كان يدرس لنا الدكتور محمد مرسى أحمد(٣) الجبر والتفاضل والدكتور أمين ياسين الهندسة البحتة والهندسة التحليلية. كنا ندرس أيضا معمل رياضيات وكان المعمل يتكون من جزئين: الأول استخدام جداول اللوغاريتمات من ٧ أرقام (كنا تعلمنا فى الثانوى جداول اللوغاريتمات من ٤ أرقام)، وكنا ندرس حل المثلثات الكروية مثلا، هذه الموضوعات لم يعد لها أهمية الآن، والجزء الثاني حساب الاستكمال والهندسة الوصفية فنرسم المقاطع والمساقط، ولم أكن جيدا فى الرسم، كنا نستخدم آلات حاسبة يدوية، كما كان لدينا أيضا نماذج هندسية مجسمة، استمر هذا المعمل حتى السنة الثالثة. فى السنة الثانية حدثت أزمة فى التدريس: فالدكتور أمين ياسين (وكان حاصلا على الدكتوراه من جامعة ليدن) لم يجد وظيفة أستاذ مساعد بكلية العلوم، لأن الوظائف كان لابد أن تكون خالية حتى يعلن عنها، انتقل الدكتور أمين ياسين إلى كلية التجارة التى وفرت له وظيفة أستاذ مساعد، وانتدب للتدريس لنا من كلية الهندسة الدكتور نجيب باخوم والدكتور صادق بشارة، الدكتور صادق بشارة كان محاضرا متميزا وكان يتحدث طوال المحاضرة ويشعر الطالب أنه قد استوعب كل شئ لكنه لا يعطى فرصة للكتابة فتجد نفسك نسيت كل شئ بعد المحاضرة. كان د. صادق بشارة يدرس لنا فى السنة الثانية الهندسة التحليلية والهندسة الإسقاطية. فى السنة الثانية أيضا بدأت معرفتى بالدكتور على مصطفى مشرفة(٤) الذى درس لنا الرياضيات التطبيقية، فى السنة الثالثة درسنا الهندسة الفراغية والتحليل الرياضى، كما درسنا المتغيرات المركبة والمعادلات التفاضلية الجزئية، درسنا أيضا الفلك فى السنة الثالثة كتخصص جانبى، ودرسه لنا د. إبراهيم حلمى عبدالرحمن(٥) وكان له تأثير كبير

جدا علينا، إذ كان أصغر الأساتذة سنا وبالتالي أقربهم للطلاب وربطت بيننا بعد ذلك صداقة متينة.

كانت المناهج التي ندرسها هي نفس مناهج جامعة لندن وكانت امتحاناتنا لها ممتحن خارجي من جامعة لندن، بالتالي لم يكن لدينا صعوبة أن نقبل لدراسة الدكتوراه في إنجلترا بعد حصولنا على البكالوريوس مباشرة.

الحصول على الدكتوراه

عينت معيدا بكلية العلوم في ٣ أكتوبر ١٩٤٤، وعملت بالكلية لمدة عام وشهرين حتى سافرت في ديسمبر ١٩٤٥ إلى إنجلترا في بعثة الحصول على الدكتوراه. عرضت على بعثتين: بعثة لكلية العلوم وبعثة للتأمينات، كان الحاصل على بعثة التأمينات يصبح مدير شركة عند عودته، وبعثة التأمينات كانت لمدة ٧ سنوات، اخترت بعثة الجامعة، طلبني مدير عام البعثات وحاول أن يثنيني وينصحني بألا أندفع بصغر سني وأرفض فرصة لن تتاح لي مرة أخرى، فعندما أعود للجامعة قد يكون مرتبي ٢٥ جنيه في الشهر، بينما في التأمينات سأحصل على أضعاف ذلك، لكن اختياري كان واضحا لا علاقة له بالمال ولا بالمظهر.

سافرت لأدرس للدكتوراه مع أستاذ في أسكتلندا حدده لي الدكتور محمد مرسي أحمد (رئيس قسم الرياضيات آنذاك)، لكنني كنت أرغب في الدراسة بلندن، وكان من ضمن من درسوا لي الدكتور أحمد حماد(٦)، وقد حصل على الدكتوراه من جامعة لندن تحت إشراف «سيدني تشابمان» والذي كان من أعلام الرياضيات التطبيقية، فأعطاني الدكتور حماد خطابا لتشابمان ورتب لي أحد موظفي المكتب الثقافي موعدا لمقابلته، في تلك المقابلة حدد لي «تشابمان» فورا موضوعا للدكتوراه، وساعدني الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن على إقناع الكلية والبعثات بالتغيير وبأن أبقى في لندن وأدرس مع «تشابمان»، لم تنجح تلك الخطة تماما، إذ انتقل «تشابمان» إلى جامعة أكسفورد في نفس العام، لكنه رتب أن استمر في الدكتوراه مع أحد زملائه هو برايس والذي أنهيت الدكتوراه فعلا تحت إشرافه عام ١٩٤٨ في دراسة خاصية التوصيل الكهربائي والحث للأيونوسفير (أي الطبقات المتأنية من الغلاف الجوي للأرض)، وكانت هذه بداية تعاون علمي طويل استمر بعد ذلك مع «تشابمان» و«برايس».

عدت لجامعة فؤاد الأول في بداية عام ١٩٤٩ لكنني لم أنقطع عن النشاط العلمي، وفي عام ١٩٥٢ تقدمت لجائزة فؤاد الأول في العلوم والتي كانت أرفع جائزة علمية تمنحها الدولة في ذلك الوقت، وبالفعل حصلت عليها، كما سافرت في العديد من المهمات العلمية إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية متابعا للبحث في موضوع تخصصي وهو الدراسة الرياضية للمجال المغناطيسي للأرض ومجالات الحث. وكان «لتشابمان» و«برايس» أيضا الفضل في تشجيعي على التقدم للحصول على دكتوراه العلوم، وهي أعلى درجة علمية تمنحها الجامعات

البريطانية، وكان لحصولى عليها فى أغسطس ١٩٦٧ أثر كبير فى تخفيف الشعور بالألم والحزن بعد نكسة ١٩٦٧.

كان لـ «سيدنى تشابمان» دور آخر مهم فى مستقبلى العلمى، فقد دعانى عام ١٩٥٤ لحضور مؤتمر الاتحاد العلمى الدولى للطبيعة الأرضية ومقاييس الأرض والذى كان رئيسه. كانت تلك الدعوة بداية صلتى بهذا الاتحاد التى استمرت بعد ذلك حتى أصبحت نائبا لرئيسه (١٩٧١ - ١٩٧٥) ثم رئيسا له (١٩٧٥ - ١٩٧٩). ■

هوامش

(١) المفكر المعروف د. عبدالعظيم أنيس (١٩٢٤) هو الآن أستاذ الإحصاء الرياضى بكلية العلوم - جامعة عين شمس.

(٢) د. فؤاد رجب (١٩٢٣ - ١٩٩٨) والذى كان أستاذا للرياضيات بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

(٣) الدكتور محمد مرسى أحمد (١٩٠٨ - ١٩٨٩) كان أستاذا للرياضيات بكلية العلوم - جامعة القاهرة ثم رئيسا للجامعة ووزيرا للتعليم العالى.

(٤) الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ - ١٩٥٠) عالم الرياضيات والفيزياء المصرى النابغة وأول عميد مصرى لكلية العلوم.

(٥) د. إبراهيم حلمى عبدالرحمن درسا الرياضيات والفلك ثم اهتم بالاقتصاد، أسس معهد التخطيط القومى (١٩٥٧) وهيئة الطاقة الذرية (١٩٥٨).

(٦) د. أحمد حماد (١٩١١ - ١٩٨٥) كان أستاذا للرياضيات التطبيقية بكلية العلوم ورئيسا لهيئة الطاقة الذرية (١٩٥٩)

د. عطية عبد السلام عاشور فى سطور

أستاذ الرياضيات بكلية العلوم - جامعة القاهرة

- حصل على جائزة فؤاد الأول فى العلوم الرياضية والفيزيفية والهندسية عام ١٩٥٢ وكان عمره وقتها ٢٨ عاماً .
- حصل على درجة دكتوراه العلوم D.S.C من جامعة لندن عام ١٩٦٧ ، وهى أعلى درجة علمية تمنحها الجامعات البريطانية .
- كان رئيسا للاتحاد الدولى للطبيعة الأرضية ومقاييس الأرض ١٩٧٥ - ١٩٧٩ .
- كان رئيسا للمركز الدولى للرياضيات البحتة والتطبيقية بفرنسا من ١٩٩٢ - ١٩٩٦ .
- عضو مجمع اللغة العربية.
- حاصل على جائزة مبارك فى العلوم الأساسية .

رأي نقدي مهم للدكتور شكري عياد

تأتى الهلال من خلال أبحاثها ومقالاتها كى تكون الوهج الذى تطاير عنه تلك المواقع الهشة، بفضل حرارته الملتهبة.

وضمن تلك الأبحاث مقال د. صلاح خليل فى عدد نوفمبر ٢٠٠٤ بعنوان اسكندرية نجيب محفوظ، وقد جعلنا د. صلاح بأسلوبه المنساب السلس، نعيش هذه الفترات الزمنية المتقلبة فى شتاءات الأسكندرية، من خلال دراسته النقدية لأعمال نجيب محفوظ (السمان والخريف/ ميرامار/ الطريق) متنقلا بنا بين أحيائها العريقة قديما وحاضرا من مثل (محطة الرمل، الشاطئ، النبى دانيال، شارع سعد زغلول) وذلك من خلال أحداثها وشخصياتها الرئيسية كعامر وجدى (الوفدى القديم) فى ميرامار و(عيسى الدباغ) فى السمان والخريف وصابر الرحيمى (فى الطريق) كل هذا قد عرضه علينا د. صلاح خليل ذاكرا المراجع العربية وكنت أتمنى ألا ينسى أستاذنا الراحل الكبير د. شكرى عياد الذى اشتممت رائحة عطره النقدى فى تفسيركم للعلاقة بين الأكندرية وعيسى الدباغ والسمان والخريف.

يقول د. صلاح فى ص ١٢٨ من الهلال المعروف أن الأسكندرية فى نهاية رحلة الطيور المهاجرة – السمان – من بلاد الشمال في الخريف، حيث يصلها السمان منهكا بعد طول سفر، يصبح فريسة سهلة لصائديه على الساحل الزعفراني، فالسمان بعد طول سفر لائذا بها يكون الهلاك مصيره على الساحل الغريب!

أليس هذا هو حال عيسى الدباغ، حيث لاذ بالمدينة بعد رحلة عمر مملوءة بالطموح والأمل فى المناصب العليا؟ وهاهو ذا يتهاوى تحت ضربات القدر.

وهذا التفسير النقدى هو ما سبق أن أشار إليه أستاذنا شكرى عياد فى كتابه «على هامش النقد ط ١٩٩٣ ص ١١٢، ص١١٣».

د. سامي منير عامر
كلية التربية - جامعة الأسكندرية - قسم اللغة العربية

قصائد للعمر الحزين

ليل عليل

يمضى على دربنا ليل
بحوزته أحزان ماض
وأحزان لحاضرنا
بلابل الشرق
ينوى صوتها ألما..
فالليل يعصر فرحا فى حمى وطنى

يعلو الأنين بقلب
والهوى قابع.. محاصر.. بالردى!!
والفرح مكتئب
يا أرض «يعقوب»
ماذا تلتقين هنا؟!
ليل عليل.. طويل.. والنهار منى

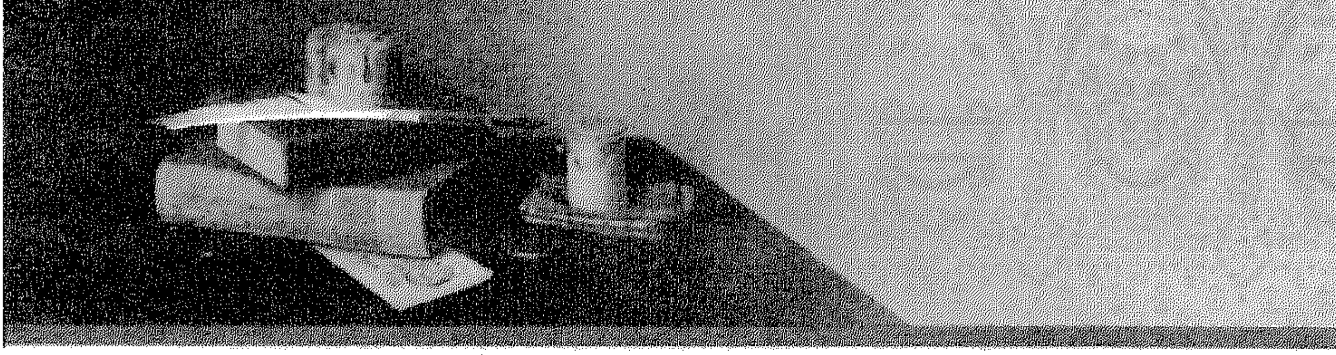

نداءات الضياع

حلم يرف على عين المنى
فتضمه لساح اللظى
رقطاء صادية لنفثة
كي تميت الحلم في هلع
هذي رياض الهوى
تشكو النوى،
لهفت مشتاقة.. لشموس،
للعلا عشقت

يعدو الضياع على الأحلام
يفزعها وتشهق الآه في
قلب يناجي الهدى
عل السكينة
تبدو في عذوبتها

زكريا عبدالمحسن
أسيوط - جزيرة الواسطى

د.سليمان حزين مؤسس قسم الجغرافيا

في ذكرى رحيله الخامسة في ٢٤ ديسمبر الجاري نتذكر واحدا من أساتذتنا الدكتور سليمان حزين جامعيا وجغرافيا ومفكرا من ألمع مفكري مصر والعالم العربي في القرن العشرين، فهو من الرواد الذين تركوا تأثيرا واضحا على الاتجاهات الثقافية المعاصرة، وكان عطاؤه وافرا سخيا فيما بين ميلاده في ٢٤ مايو ١٩٠٩ حتى وفاته في ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩.

كان من أوائل خريجي جامعة القاهرة عام ١٩٢٩، وقد أوفدته كلية الآداب جامعة القاهرة في بعثة دراسية وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٥ في مجال الجغرافيا الحضارية.

وبعد عودته عين مدرسا بكلية الآداب وتدرج في وظائفها أستاذا مساعدا في قسم الجغرافيا ومؤسسا لقسم الجغرافيا بجامعة الأسكندرية عام ١٩٣٨، ولخبرته الواسعة أسند إليه تأسيس جامعة أسيوط في الخمسينيات والجامعات العربية في بغداد وبني غازي في ليبيا والكويت وجامعة بيروت العربية.

كان مشاركا بفاعلية وقطبا في الحياة السياسية لثورة ٢٣ يوليو فكان مقررا للجنة تقرير الميثاق الوطني سنة ١٩٦٢ ووزيرا للثقافة عام ١٩٦٥ ومقررا عاما للمجلس القومي للتعليم والبحث العلمي في السبعينيات.

ومن أشهر كتبه «مستقبل الثقافة في مصر العربية».

عمرو عبدالمنعم حمودة

ديسمبر

ديسمبر
ليس الوقت الأفضل لتموت
رائحتك
ستفقد كل عفونتها
فى ديسمبر
وبعد مرور الوقت
ستخرج قلبك
وتقدمه فى علبة
تلقفها هى منك
وتلقيها للمارة
فى ديسمبر
قلبك لم ينبض
حين جلست
وكانت قدامك
قلبك لم ينبض
ساعتها كانت تسرع
وساعتك كانت تسرع
لكن للخلف

شريف الدمناوى

ابن الفارض - سلطان العاشقين

عمر بن الفارض والذى أطلق عليه سلطان العاشقين ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ لأسرة من الشام كانت تعيش بمدينة حماه بسوريا.

نشأ فى بيئة دينية، إذ كان والده من كبار رجال الدين، وبذلك أتيح له أن يدرس الفقه والحديث، ويحضر مجالس العلم والأدب، وتنقل فى سياحته الروحانية بين وادى المستضعفين فى جبل المقطم وأودية مكة التى قضى بها خمسة عشر عاماً، ثم عاد بعدها إلى مصر، وظل بها حتى مات سنة ٦٣٢هـ.

قال فيه أحد الشعراء:

أعظم شعراء الصوفية ... بالميميـة وبالتائيـة
وهب الشعر محبة لدينه ... ولعشق الذات الإلهيـة
والشاعر عايش فى حقيقة ... بتدوب فيها كل حقيقة
وشايفها بقلبه ووجدانه ... وبعين الوحدة الشعـورية

من بين أشعار ابن الفارض نختار هذين البيتين:

كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماك
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواك

محمد أمين عيسوى - الإسماعيلية

دور أدبي مهم للمرأة المصرية

يحاول الغرب أن يسئ إلينا باستمرار ويتهمنا بأننا لا نعطى الحرية الكاملة للمرأة.

وللرد عليهم نشير إلى تلك الصالونات الأدبية التي كانت تنتشر في مصر فى أوائل القرن العشرين، ومن أهمها بل أولها صالون نازلى فاضل والذى كان يحضره الإمام محمد عبده وسعد زغلول زعيم الأمة وقاسم أمين محرر المرأة ومحمد المويلحى وولى الدين يكن وغيرهم من الأدباء والمفكرين من بعده أيضا كان صالون مى زيادة والذى كان يحضره العقاد ومصطفى صادق الرافعى وغيرهما من أدباء ومثقفى هذا العصر.

هذه الصالونات كانت ملتقى للفكر والثقافة، وكانت مجالا مفتوحا لمناقشة قضايانا السياسية والاجتماعية وقد خدعنا الغرب عندما حاول أن يلصق بنا مثل هذه التهم وكل ما نرجوه من مجلة الهلال المجلة الرائدة فى الثقافة العربية والتى تأسست منذ عام ١٨٩٢ وتواصل دورها المهم فى مجال الثقافة العربية أن تتناول إلقاء الضوء على هذه الصالونات الأدبية الخاصة بالمرأة وكيف حظيت المرأة بحريتها وحقوقها فى هذا الوطن.

د. جمال العطار
كامب شيزار - الأسكندرية

على مدى ما يقرب من قرن من الزمان والهلال تتناول دور المرأة، وهذه الصالونات الأدبية التى تحدثت عنها نشرت الهلال فى أعدادها المقالات العديدة سواء الصالون الأدبى لمى زيادة والصالون الأدبى لنازلى فاضل، فضلا عن كتابات كثيرة لأدبائنا حول تلك الشخصيات النسائية ودورها فى الحركة الثقافية.

أجل أهوى

أجـل أهـوى ومـن أهـواه ... مـخلوق من الطـهـر
وسـحـر للتـقي عـينا ... ه، لن أنبـيك عن ثغـر
بـه تسـبيح ذكـر اللـ ... ـه بالأصـال والفـجـر
وقلـب مـخـبت أوا ... ه لا يفـتـر عن ذكـر
ووجـه صـبـحـه يحكى ... شـمـوس الكون إذ تسـرى
و«داليـتى» محـاسنهـا ... أعـز على من قـمـر
فـمـا أرضى بهـا بدلا ... فـمـا أحـلاه من قـدر
وندعـو ربنـا دومـا ... بجنـات مـع النـهـر
ويسـبغ من محـبـتنا ... لبـاسـا للتلقى النضـر
يفـيض على جـوانحنا ... بـالسـنة مـن الشـكـر

أحمد محمد الدماطي
الشهداء - المنوفية

شاعر من فلسطين

أنجبت فلسطين أدباء وشعراء يشار إليهم بالبنان، وفي ظل الظروف التى تمر بها فلسطين من نضال وكفاح لا ينبغى ألا ننسى بعض هؤلاء الشعراء الذين أنجبتهم هذه الأرض الطيبة ومن بينهم الشاعر سعيد العيسى الذى رحل عن عالمنا منذ أربعة عشر عاما.

ولد بقرية المجاسين القريبة من يافا.. وعمل بإذاعة فلسطين فى القدس عام ١٩٤٥ ثم عمل بإذاعة الشرق الأدنى (هيئة الإذاعة البريطانية فيما بعد).

له مجموعتان شعريتان بعنوان «نفحات، «همسات الأصيل» ومن أوائل قصائده تلك التى نشرتها جريدة فلسطين فى عام ١٩٣٦ ويقول فى مطلعها:

أيهذا الشعب صبرا
إن بعد الليل فجرا
لن يكون اليسر ما لم
تك قد عانيت عسرا

بعد خروجه من فلسطين مع الآلاف غيره فى أعقاب قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ عمل فى الإذاعة البريطانية.. وظل يكتب الشعر ويدافع عن القضية الفلسطينية من خلال لقاءاته الفكرية والأدبية فى الندوات والمؤتمرات خلال رحلاته إلى البلاد العربية.

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى - القاهرة - المعصرة

إلى أبى

ظلال كثيفة.. كأشباح موتى تحيط القبور
ودنيا مخيفة.. كصمت تحجر لا يستدير
ومن بين هذى وتلك استمعت..
لصوت أضاء
لقد كان صوت أبى فى المساء..
ينادى من الأرض ومن السماء
يقول سنبعث بعد الفناء
ونلقى الجزاء
فيا كل غيمة.. ويا كل ظلمة..
ويا كل ظل كثيف تحجره..
إلام الكرى؟!
وكم باع مستيقظ واشترى..
دعونى أرى.. لكل الورى..
أزيحوا عن الميتين الثرى..
وعن كل رمس
أنا اليوم لست كما كنت أمس
أنا الآن درس.. أنا الآن منطق..
أنا الآن برهان من لا يصدق..
بأن الحياة فناء وبعث..
بأن الحياة فناء وبعث

حسن عبدالخالق أبو الغيط
المصيلحة - شبين الكوم - منوفية

أ

أبو الحسن الماوردى

٣٦٤هـ - ٤٥٠هـ

هو أبو الحسن البصرى الماوردى ولد سنة ٣٦٤هـ بمدينة البصرة تتلمذ فى بداية حياته على أبى القاسم الصيحرى، ثم رحل إلى بغداد عاصمة الملك والخلافة فى ذلك الوقت.

كان الماوردى إماما فى الفقه والأصول والتفسير، بصيرا باللغة العربية والأدب، وكان من أعظم الكتاب، عرف عنه الميل إلى الهدوء فى أفكاره، بعيدا عن الهوى، ثم صار أقضى القضاة، وكان يفتى بمذهب الشافعى، ويميل إلى الاعتزال.

تتجلى شخصيته فى كتبه، وهو فى كتبه يبدو صاحب معرفة ثاقبة بأمور الدولة، وإطلاع واسع على تاريخ الحركات الفكرية والسياسية فى الإسلام، ويمكننا أن نتمثله ونحن نقرأ كتابه «الأحكام السلطانية»، فهو كتاب يدعوك إليه، ويجعلك كبقية كتبه تتحبب إليه، وهذا الكتاب مرجع فريد، و هو فيه لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ، وتفهم نصوص العلماء وفى الكتاب والسنة، وإنما شفع علمه بتجاربه، وما درسه بذاته ووقوفه على طبائع الناس، ومهارته فى حسن القضاء بينهم.

فتناول فى هذا الكتاب الخلافة وتقليدها، والوزارات وأنواعها، والولايات والقضاء وضروبه.

وحينما تقرأ كتابه «أدب الدنيا والدين» تشعر بأنه من أمتع ما كتبه علماء الأخلاق والتربية، وقد جعل مصادره الكتاب والسنة وأقوال الحكماء والبلغاء، وبه طائفة من الشعر البديع.

من أهم كتبه «المأوى الكبير» وهو مجموعة ضخمة من أحكام الفقه الشافعى فى أكثر من ٢٠ مجلدا و«أدب القاضى وأعلام النبوة» وفى اللغة له كتاب «الأمثال والحكم» الذى يضم ثلاثمائة حديث وثلاثمائة حكمة وثلاثمائة بيت من الشعر.

وله أيضا كتاب فى النحو، وكتاب فى قوانين الوزارة ونصيحة الملوك ويمكن القول بأن الماوردى الذى عاش مايقرب من ٨٦ عاما هو واضع أصول الفكر السياسى أو القانون الدستورى الإسلامى، هذا العلم الذى توسع فيه خلفاؤه، وفيه نجد تاريخ ابن خلدون ومقدمته.

حتى لا يكون البلاغ كاذبا

ارتمى على الأرض متظاهرا بالإغماء، كما اقترح عليه رجل غريب شهد الواقعة معه. غامت المرئيات فى عينيه.. تخشبت أطرافه.. تثلجت.. هرب الدم من عروقه، رعبا وفزعا وهلعا. خشى أن تأتى الشرطة ولا تنطلى عليهم الخدعة لابد أن يتقن الدور. لأول مرة يمثل.. يخادع.. كان مضطرا.. مجبرا.. لابد أن يغيب عن عالم الأحياء، يتماوت.. يتقن الدور، وإلا... لو اكتشفت الخدعة سيقاد إلى السجن، ضحية بلاغ كاذب وخداع السلطة المتمثلة فى الشرطة.

الرجل الغريب أصلع الرأس.. جلده فى لون البن المحروق، وشاربه كث. يبدو عليه أنه موظف يكفيه راتبه بالكاد. اقترح عليه التظاهر بالإغماء، بديلا للمغمى عليه الذى أبلغ عنه، لكنه أفاق سريعا وجرى كالحصان.

قال الموظف الغلبان:

– حين تأتى الشرطة، ستقبض عليك.

سأل، غير متيقن مما سمع

– تقبض على من؟

– على صاحب البلاغ الكاذب..

تريث قليلا ثم قال مشيرا بإصبعه إليه:

– سيادتك..

قال سيادته وقد غار قلبه من الخوف:

– ما العمل؟

– ترتمى على الأرض بدلا منه، وتتظاهر بالإغماء..

وضع يده على بطنه، صارخا متألما، وارتمى على الرصيف، فالتف الناس حوله.

مازال يسترجع المشورة الخائبة التى أرقدته على ظهره، تشخص إليه العيون.. يسمع الهمهمات والصيحات.. كيف يتراجع؟ ما كان قد كان يقف الموظف البسيط بجانبه ويحكى للناس ما حدث للمسكين.

سأل أحدهم:

– هل طلبت الإسعاف؟

– فى الطريق..

جس شاب نبضه.. وبشر الواقفين:

– خير يا جماعة.. النبض سليم..

مضت نصف ساعة، ولم تصل سيارة الإسعاف، وهو ممدد على أسفلت الرصيف الساخن، لا يبدى حراكا ولا ينطق حرفا. لا يتنفس هواء ولا تتحرك له عضلة!

حين جاءت سيارة الإسعاف بعد نحو ساعة، حملوه على النقالة جثة هامدة..

قال الموظف الأصلع:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. صاحبى أخذ الحكاية جد!

انبجست الدموع من عينى الموظف الكليلتين.

سأله رجل الإسعاف:

– أهو أخوك؟

– لا..

أولى المكان ظهره منصرفا، بينما تتحرك سيارة الإسعاف ولما بعدت السيارة عن ناظريه، تمتم محدثا نفسه: «مات بصحيح.. لا كان به شئ ولا عليه!».

حسنى سيد لبيب – الجيزة – إمبابة

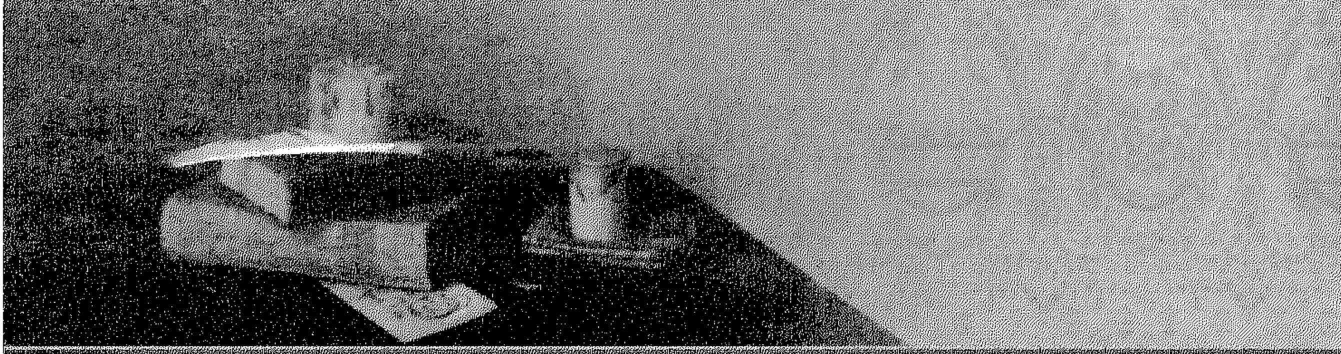

ضمان وصول الهلال للقارىء العزيز

أحرص باستمرار على قراءة الهلال، وانتظار صدورها مع بداية كل شهر، لكننى فى الأونة الأخيرة، لاحظت أنها تنفد بشكل سريع، وأظل أبحث عنها دون جدوى.. فكيف يمكن أن أحصل على الهلال دون معاناة وبشكل يسير.

محمد حمدى إبراهيم
القاهرة - مصر الجديدة

● **الهلال:** هذه ليست الرسالة الأولى التى تصلنا حول هذا الأمر، وحرصا منا على قارىء الهلال العزيز نقترح بأن يتم الحصول على نسختك عن طريق الاشتراك الشهرى والذى يضمن وصولها إليك شهريا وبانتظام وتجد فى هذا الكوبون كيفية الإشتراك فى الهلال.

اشتراك الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠٪ من قيمة الاشتراك فى مجلة الهلال ،لتقدمها لصديق فى مناسبة عزيزة أو في بداية عام جديد ، وذلك عن طريق إرسال هذا الكوبون مرفقاً به حواله بريدية غير حكومية داخل (ج . م . ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب مسجل لأدارة الأشتراكات.

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : ....التليفون..........................

القيمة بعد خصم ١٠٪

	داخل ج. م ع جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا - أوروبا آفريقية دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٤٨	٢٥	٣٥	٣٥	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٤	١٢	١٨	١٨	٢٣

الكلمة الأخيرة

محمد جلال كشك

في ٥ ديسمبر ١٩٩٣ لقي محمد جلال كشك ربه شهيد جدل تليفزيوني، مع نصر أبو زيد، حول الإمام الشافعي ، فاجأته أزمة قلبية أودت به فورا، رغم أنه كان ينتظر الموت بفعل إصابته بمرض السرطان، الذي جعله يكتب مقاله الجميل المؤثر بمجلة أكتوبر: «أنعى لكم نفسي!» .

وعلى الرغم من أن جيلي كان قد عرف محمد جلال كشك منذ خمسينات القرن الماضي، إلا أنني شخصيا لم أقرأ له ولم أعرفه قبل عام ١٩٨٢، وحين أبلغني الصديق الراحل الكاتب الصحفي جابر رزق، أن محمد جلال كشك يريد مني ترتيب حفل استماع للشيخ إمام عيسى، تم ذلك يوم الأربعاء ١٩٨٣/٧/١٣ عندما اصطحبت الشيخ إمام إلى منزل محمد جلال كشك، ٢ ب شارع بهجت علي بالزمالك، وتلك كانت مقابلتي الأولى له وجها لوجه.

كانت معلوماتي عنه غائمة، فلم أكن قد قرأت له سوى كتابه الرائع «الغزو الفكرى»، بين عامي ١٩٨١ - ١٩٨٢ وبسبب طبيعتي التي ترى أنه من غير اللائق سؤال الناس عن تاريخهم السابق على معرفتي بهم - مالم يتطوعوا هم بسرده - فقد ظلت معلوماتي عن خط سير حياة الأستاذ محمد جلال كشك السياسية والفكرية والصحفية غير مكتملة لدي، إلا في لمحات يذكرها في سياق كلامه أو كتابته . كان الأهم لدي هو تأكدي من انتمائه الأخير لخندق العروبة والإسلام وجهاده الدءوب القوي ضد مرض التغريب وجراثيمه وفيروساته، ونشأت بسبب، تقديري وإعجابي بجهاده ذلك صداقة ومودة بيني وبينه، كان هو دائما مؤسسها ومتابعها. كل الذي لم أتردد في سؤالي له هو: تاريخ ميلاده، وحين قال ٢٠ سبتمبر ١٩٢٩، قلت لنفسي: برج العذراء، ربنا يستر! خلال صداقتي معه، التي لم تزد على عشر سنوات، لم أقابله ربما أكثر من خمس أو ست مرات، لكنه كان يخابرني هاتفيا كل يوم تقريبا من أي مكان يكون به، من محال إقامته العديدة في لندن أو بيته في فرجينيا بأمريكا، أو بيته في المعادي، أو في الزمالك، وتكون المكالمة في فترة استراحته من عمله المتواصل أمام الكمبيوتر، ومن طرف واحد، معظمها تعليقاته على الأنباء وتعقيباته على ما كتبه فلان العلماني وعلان التغريبي، وتبدأ مكالمته بحماس: «شفتي يا ستي .. » وتنتهي بتفويت ساخر: «ياااااا الله..» ثم يضع السماعة من فوره قبل أن تخرج من فمي «مع السلامة»، فأظل أضحك. آخر مكالمة تلقيتها منه كانت عصرا من أمريكا، قبل ساعة واحدة من وفاته، ولم يكن قد أخبرني بأنه ذاهب لجدل تليفزيوني مع رمز من رموز خصومه وخصامه.

بلا تردد أحكم - نقديا - بأنه كان واحدا من أفضل وأقدر وأنشط كتاب ومفكري جيله وعصره . وستظل مجموعة مؤلفاته عن الغزو الفكري، مع رائعته « ..ودخلت الخيل الأزهر»، ثراء دائما لمكتبتنا العربية . رغم كل ما جمع من مال، أوصى أهله أن يوسدوا كتابه «... ودخلت الخيل الأزهر» يمينه عند تكفينه ليدفن معه في ثرى مصر، حتى يلقى الله به طالبا منه أجره الحق: رحمته ومغفرته سبحانه وتعالى. ■

مصر للطيران

بمناسبة الجدول الشتوى الجديد

تعلن مصر للطيران عن رحلاتها الآتية

اولا - فى الخليج و الشرق الأوسط

دمشق	يوميا
بيروت	يوميا
عمان	يوميا
دبى	يوميا
ابو ظبى	يوميا ماعدا الثلاثاء
البحرين	الأثنين و الأربعاء و الجمعة
صنعاء	الثلاثاء و الجمعة و الأحد

ثانيا - فى افريقيا

الخرطوم	يوميا
طرابلس	يوميا ما عدا الجمعة
بنى غازى	الاربعاء و الأحد
تونس	الأربعاء/ الجمعة/ الأحد
لاجوس	الأثنين/ الثلاثاء / الأربعاء / الخميس

ثالثا - اوروبا

باريس	يوميا
روما	يوميا ماعدا الأربعاء
فرانكفورت	يوميا ماعدا الأربعاء
اسطنبول	يوميا ماعدا الأربعاء و الجمعة

بالأضافة الى رحلاتنا المنتظمة على شبكة الخطوط العالميه

الى مدن اوروبا و أسيا و افريقيا و امريكا

مصر للطيران EGYPTAIR

www.egyptair.com.eg

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الاسحاقي بمنشية البكري وكمس مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع
٤ شارع بدوي محرم بك - الاسكندرية .